تفسير القرآن الكريم

المسمى

ضياء التأويل

في

معاني التنزيل

تأليف

العلامة أبي محمد عبد الله بن محمد بن عثمان

الملقب بفودي بن عثمان بن صالح

رحمه الله تعالى

الجزء الأول

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر

الحاج محمد علي أبجي

فاميزيرو سكتو

نبذة فى التعريف بالتفسير وبمؤلفه رضى الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

وبعد فيقول راجى عفو ربه المجيد أبو بكر محمود إنه قد طالعت كتاب الشيخ عبد الله ابن فودى ، ضياء التأويل فى معانى التنزيل ، بأمر من قبل مولانا القائم بالأمور الدينية والدنيوية فى بلادنا السيد الحاج أحمد بَرْدُون سكتو بن إبراهيم بن أمير المؤمنين أبى بكر بَىْ رَابَا بن أمير المؤمنين محمد بيلو بن الشيخ الأكبر عثمان بن فودى ، فوجدت أن الكتاب يحتوى على الصفات التى وصفه بها صاحبه فى أول مقدمته بل يزيد بمحاسن بها فضّلته على سائر كتب التفاسير التى وصلت إلينا . وإنه كتاب لم ينسج على منواله ولم يسبق صاحبه أحدٌ إلى وضع مثله ولم يلحقه فى شأوه لاحق .

نبذة من سيرة المؤلف

هو الأستاذ أبو محمد عبد الله بن محمد الملقب بفودى بن عثمان بن صالح بن هارون ابن محمد الملقب بغُردُ بن جَبُ بن محمد سَنْبُو بن أيوب بن ماسران بن بُوبَ بَابَ بن موسى جَكَلْ الذى وصل بقبيلته أهل تور إلى هذه البلاد وهم قوم من بلاد فوت تور غرب بلاد نيجيريا . وتلكَ القبيلة هى أصل الفلانيين فيما نسمع ولغتهم هى لغة الفلانيين ، سبقوا الفلانيين إلى بلاد هوسا أى نيجيريا اليوم بسبع سنين فيما نسمع وأصلهم من نصارى الروم أو من بنى إسرائيل . وصلت إليهم جيوش الصحابة فآمن ملكهم وتزوج بنته عقبة ابن عامر المجاهد الصحابى أمير الغرب ؛ فولدت قبيلة فلان المشهورة . وجدّ قبيلة المؤلف روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله . وأم روم نسمة بنت إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام . وأم المؤلف حواء بنت محمد بن عثمان بن حَمّ بن عال المتقدم ذكره فى عمود نسبه .

ولد المؤلف رضى الله عنه سنة ألف ومائة وتسعة وسبعين هجرية . وتوفى وهو ابن ست وستين سنة أول سنة خمس وأربعين ومائتين بعد ألف من الهجرة النبوية

على صاحبها أفضل السلام . وهو رحمه الله كما وصفه ابن أخيه محمد بيلو فى كتابه ، إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور ، بأنه هو وزير الشيخ عثمان الأكبر وركنه الأبهر وشقيقه الأقرب . وكان رحمه الله العالم العلامة النظارة الفهامة شيخ الشيوخ المصنف المفسر المحدث الراوية الحافظ المقرى المجود النحوى اللغوى البيانى المتفنن الآخذ من كل فن بأوفر نصيب الرائع من كل علم مرعاه الخصيب الخطيب الشهير آخر السادات الأعلام وخاتمة النظار ذا التحقيقات الشهيرة البديعة والأبحاث الأنيقة الغريبة المتفق على علمه وهديه من قل سماح الزمان بمثله ، ومن الأفراد السُنِّيَّة ، فى فنون الشرع له القدم الراسخ والرحب الواسع فى كل مشكل : سيف الله على ذوى البدعة ، معدن الصدق ومنبع العلم ، وزناد الفهم ، كان راوية فى تحقيق العلوم ، مفرط الاطلاع على المنقول والفنون جامع شتات العلوم ، فاضل وقته وأعجوبة أوانه .

أما تعلمه فإنه رحمه الله نشأ فى بيت علم وصلاح ، قرأ القرآن على أبيه ثم انتقل إلى أخيه الأكبر الشيخ عثمان وكان صنوه بينهما نحوٌ من اثنتى عشرة سنة . فتركه أبوهما فى يده وهو فى سن الثالثة عشرة . قال هو عن نفسه فى كتابه ، إيداع النسوخ : ومن شيوخى الذين أخذت العلم عنهم أمير المؤمنين شقيق عثمان بن محمد وأمنا حواء بنت محمد بن عثمان بن حم بن عال . وأمها رقية بنت العالم المشهور فى قبيلتنا بمحمد سعد بن لادان بن إدريس بن إسحاق ابن ماسران . وفضائل أمير المؤمنين هذا مشهورة سارت بها الركبان شرقا وغربا فلا نطول بذكرها . وقد تركنى أبى فى يده بعد قراءة القرآن وأنا ابن ثلاثة عشرة سنة . فقرأت عليه العشرينيات والوتريات والشعراء الستة وأخذت منه علم التوحيد من الكتب السنوسية وشروحها وغيرها وأخذت منه الإعراب من الآجرومية والملحة والقطر ونحوها وشروحها . وأخذت منه علم التصوف الذى للتخلق والذى للتحقق ما استغنيت به إن شاء الله عن غيره ، وأخذت منه من كتب الفقه مايعرف به فرض العين كالأخضرية والعشماوية ورسالة ابن أبى زيد وغيرها ، وأخذت منه تفسير القرآن من أول الفاتحة إلى آخر القرآن مرارًا لا أعرف قدرها ، وأخذت منه علم الحديث دراية كالقرافى ورواية كالبخارى ما مرتى على غيرها ، وأخذت منه علم الحساب القريب منه اليسر ، وحصل لى بحمد الله التبصر فى الدين من فيضان نوره ومن تواليفه المفيدة العربية والعجمية ، فما ألف كتاباً من أول تواليفه إلى الآن إلا كنت أول من نقله عنه غالبا . وصحبته احضر وسفرا ما فارقته منذ أنا يافع إلى أن حصل لى الآن قريب

من خمسين سنة والحمد لله على ذلك، اه وله شيوخ كثيرون غير من تقدم ذكره وقد ذكرهم فى كتابه إيداع النسوخ منهم الشيخ جبريل شيخ الشيخ عثمان القائل فيه الشيخ :

إن قيل فىّ بحسن الظن ما قيل ۰ فوجة أنا من أمواج جبريل

ولولا خوف التطويل لسقت جميع كتاب إيداع النسوخ هنا ليعلم الواقف عليه أنه كم لجة قطعها أهل هذا القطر المبارك وأنه إلى اليوم لم يدرك أول المتأخرين منهم آخر المتقدمين فسبحان من يودع ما شاء من حكمته فيمن شاء من خلقه .

للشيخ عبد الله كرامات كثيرة منها غزارة علمه الدالة عليها كثرة مؤلفاته التى لا يقل عددها عن مائة كتاب مع ما هو فيه من الأشغال الشاقة فى وقت الهرج وقلة الراحة . فهو قطب رحى جهاد الشيخ عثمان وقائد الجيوش وشيخ المدارس وإمام المساجد ووزير أمير المؤمنين ومدبر السياسة ومؤسسها ومقيم العدل وبانيه ومع ذلك هو الكاتب الناسخ ، والمؤلف المنشئ ، والشاعر الناثر ، والناظم المحلل . وفى كل فن له كتاب شامل . فله من الكتب فى التفسير وفنونه ضياء التأويل فى معانى التنزيل . والفرائد الجليلة نظمُ مافى الشوشاوى من علم التفسير . ومفتاح التفسير نظم مافى الإتقان والنقاية فى علم التفسير للإمام السيوطى ، وسلالة المفتاح وكفاية ضعفاء أهل السودان . وفى الفقه والشريعة خلاصة الأصول فى علم أصول الفقه وضياء الحكام وضياء السياسات وتقريب الضرورى من علوم الدين . وفى علم النحو كتابه البحر الذى فضله على ألفية السيوطى فى النحو وله ألفية أيضاً سماها الحصن الرصين فى الصرف . وفى المنطق له مفتاح التحقق وفى العروض والقوافى له فتح اللطيف وفى التوحيد وعلم الكلام نظم العقيدة الوسطى للسنوسى وشرحها ونظم النقاية للسيوطى وألف كتابا أيضا وسماه مفتاح الأصول . وغير ذلك فى مواضيع شتى ومقاصد مختلفة مابين منظوم ومبسوط وإنشاء وشرح أو تعليق كأنه هو المقصود بقول الشاعر :

ليس على الله بمستنكر ۰ أن يجمع العالم فى واحد

لله در أمير المؤمنين محمد بيلو حيث رثاه بقوله :

إن الرزية لارزية مثلها ۰ رزء غدا الإسلام منثلماً به
خطب جليل حل من فقد الذى ۰ فى العلم ليس له أخ من مشبه
وعفت مدارس للعلوم وأوحشت ۰ أركانها من فقد قاضى نحبه
تبكى فنون الشرع من فقدانه ۰ لاسيما التفسير جاد بسكبه

علم الحديث الفقه والفتوى به ... والنحو والتصريف لان يجنبه
علم البيان كذا اللغات بكت له ... والعلم مات لفقده فى صوبه
فالناس فوضى ما لداء جهالة ... راق له أو من يطب بطبه
بل أقفرت منه مساجد زانها ... بصلاته فيها يؤم بصحبه
ومنابر فيها غدا يعلو بها ... فى خطبة قد أوحشت من نصبه
فبكت عليه بكاءها بحنينها ... وبكت مسالكه لها من لحبه
وخلت منازل زانها بصلاته ... وصيامه وتلاوة من حزبه
ومطالعات فى العلوم بأسرها ... والعلم يفديه بأعلى صعبه
وبجمعه ونظامه لشتاتها ... ومؤلفات فى العلوم بكتْبه
وبكت كما تبكى العساكر إذ خلت ... من ضيغم بعراء أو فى شعبه
كم قادها للكتاب وبجده ... فى جده انتصرت به فى حزبه
تبت يدا الفقرا تولى خيرهم ... فالدهر بعد الخصب جاء بجدبه

هذا وإذا أردنا أن نأتى بجميع خصائص المؤلف فلن نستطيع لها حصراً بل المقصود بهذه العجالة تقديم ما يستصبح به من يريد أن يقرأ كتابه ويعرف أن القريحة التى أنتجته أمرها جليل . فربما ينظر فى الكتاب بعين الاستفادة والإفادة .

وبحمد الله قد حصلنا على نسخة قديمة موافقة لنسخة الأصل كتبت فى حياة المؤلف واستمرت محفوظة فى « قواند » بلد المؤلف ومأوى قبره . وقد أثبتنا ذلك بتقرير الشيخ إبراهيم بن أمير قواند محمد بشر حفيد المؤلف ووارث نوره طول الله عمره وأدام نفعه للمسلمين آمين . ؟

مقـــدمة المؤلف :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، ثم بيّن للناس ما نزّل إليهم ليدّبّروا آياته ويتذكروا بها تذكيراً ؛ وكشف معانى آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات هنّ رموز الخطاب تأويلا وتفسيراً ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم عليه وعليهم تسليما كثيراً .

وبعد : فهذا لما اشتدت إليه حاجة الراغبين ، وإلحاح الملحين : أن أكتب لهم تفسيراً يفهمون به كتاب الله مع الاعتماد فيه على أرجح الأقوال بإعراب ما يحتاج إلى الإعراب منه والتنبيه على القراءات المشهورة بتبدئة قراءة نافع رواية ورش عنه ، إذ هى قراءتنا فى هذه البلاد ، وبيان الأحكام الشرعية مع رعى مذهب مالك فيها : إذ هو مذهبنا فى الأحكام الشرعية الفرعية والتنبيه على ما يتعلق بالبلاغة ؛ فأجبتهم إلى ذلك راجياً من الله تيسيره وثوابه . وسميته : —

ضياء التأويل ، فى معانى التنزيل

واعلم أن علم التفسير علمٌ يعرف به فهم كتاب الله تعالى المنزل وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم النحو واللغة والتصريف وعلم المعانى والبيان والبديع وأصول الدين والفقه وأصول الفقه والقراءات وعلم أسباب النزول والناسخ والمنسوخ . قال البيضاوى : علم التفسير هو رأس العلوم الدينية ومبنى قواعد الشرع لا يليق لتعاطيه والتصدّى للتكلم فيه إلا مَن برع فى العلوم الدينية كلها أصولها وفروعها وفاق فى الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها . وقال أبو عبيد : التفسير والتأويل بمعنى واحد . وقال أبو العباس الأزدي : النظر فى القرآن من وجهين ، الأول : من حيث هو منقول وهى جهة التفسير وطريقة الرواية والنقل . والثانى : من حيث هو معقول وهى جهة التأويل وطريقة الدراية والعقل . قال الله تعالى ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون ﴾ ، فلا بدّ من معرفة اللسان العربىّ فى فهم القرآن العربىّ ، فيعرف الطالب الكلمة وشرحها وإعرابها ، ثم ينتقل إلى معرفة المعانى ظاهراً وباطناً فيوفى لكل منها حقه اه . قلت : فالتفسير هو القطع على الله بأنه عنى بهذا اللفظ هذا المعنى فلم يجز إلا بالنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والتأويل هو ترجيح أحد المحتملات بدون القطع فيه ، والله أعلم .

تفسير : بسم الله الرحمن الرحيم

واعلم أن البسملة آية من آيات القرآن إجماعاً فى سورة النمل ، وهل هى آية أول كل سورة من آيها ؟ وهو قول ابن المبارك وغيره . أو هى آية من الفاتحة فقط ؟ وهو قول الشافعى . أو لم تكن آية أول كل سورة بل كتبت أول السور للفصل بها ؟ وهو قول مالك . والباء فى (بسم) متعلقة بمحذوف تقديره : اقرأوا ، أو نقرأ ، ولم يقل : بالله . للتبرك بذكر اسمه . ولم تكتب الألف لكثرة الاستعمال ، وطولت الباء عوضاً عنها . و (الله) علمٌ على المعبود بحقّ و (الرحمن) صفة مبالغة معناها أنه انتهى إلى غاية الرحمة ، وهى صفة تختص بالله . وهى أبلغ من الرحيم (والرحيم) أبلغ من الراحم ؛ لأن راحماً يقال لمن رحم ولو مرة واحدة . والرحيم لمن كثر منه ذلك ، والرحمن النهاية فى الرحمة . قاله عبد الرحمن الثعالبى .

سورة فاتحة الكتاب

مكية — سبع آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ والفاتحة فى الأصل مصدرٌ كالعافية سمى به أول ما يفتتح به الشىء من باب إطلاق المصدر على المفعول ، لأنها يبدأ بكتابتها فى المصاحف وبقراءتها فى الصلاة ، ويقدّر فى أولها : قولوا ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ، جملة خبرية قصد بها الثناء على الله بمضمونها من أنه تعالى مالك لجميع الحمد من الخلق ومستحق لأن يحمدوه . والحمد : هو الثناء على الجميل الاختيارى من نعمة أو غيرها ، والمدح : هو الثناء على الجميل مطلقاً . تقول : حمدت زيداً على علمه ، ولا تقول : حمدته على حسنه ، بل مدحته . والشكر : مقابلة النعمة بالثناء قولا وعملا واعتقاداً ، فهو أعمّ منهما من وجه وأخص من وجه . ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ مالك جميع الخلق ، وغلب فى جمعه بالياء والنون أولو العلم على غيرهم وهو من العلامة لأنه علامة على موجده . والربّ فى الأصل بمعنى التربية وهو تبليغ الشىء إلى كماله شيئاً فشيئاً ثم وصف به للمبالغة كالعدل . وقيل : هو نعت من ربّه يربّه فهو ربٌّ ولا يطلق على غير الله إلا مقيداً ﴿ الرَّحْمَٰنِ ﴾ لجميع خلقه ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ للمؤمنين : نعت بعد نعت لا تأكيد ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ الجزاء ، وهو يوم القيامة وخصّ بالذكر لأنه لا ملك ظاهراً فيه لأحدٍ إلا لله تعالى ، وقرأ الكسائى وعاصم ، مالك يوم الدين ، فمعناه مالك الأمر كله فى يوم القيامة ، أى هو موصوف بذلك دائماً ، كغافر الذنب ، فصح وقوعه صفة للمعرفة ، وتخصيص اليوم بالإضافة لتعظيمه ، وتفرّد الله تعالى فيه بنفوذ الأمر وإجراء هذه الأوصاف على

الله تعالى: من كونه موجداً للعالمين ربّاً لهم، منعماً عليهم بالنعم كلها، ظاهرها وباطنها، عاجلها وآجلها، مالكا لأمرهم يوم الثواب والعقاب، للدلالة على أنه الحقيق بالحمد، لا يستحقه على الحقيقة سواه، فإنّ ترتب الحكم على الوصف، يشعر بعليته له، وللإشعار من طريق المفهوم، على أن من لم يتصف بتلك الصفات لا يستأهل لأن يُحمد، فضلا أن يُعبد، ليكون دليلا على ما بعده، وهو إياك نعبد، فالوصف الأول لبيان ماهو الموجب للحمد، وهو الإيجاد والتربية، والثانى والثالث للدلالة على أنه متفضلٌ لذلك، مختار فيه، لا لسوابق الأعمال. والرابع لتحقيق الاختصاص فإنه مما لا يقبل الشركة فيه بوجهٍ ما، وتضمن الوعد للحامدين. والوعيد للمعرضين، ولما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بهذه الصفات التى يتميز بها عن غيره، وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بقوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أى يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة من توحيد وغيره. ونطلب منك المعونة على العبادة وغيرها، والعبادةُ أقصى غاية الخضوع والتذلل ومنه: طريق معبد: أى مذلل، ولذلك لا تستعمل إلا فى الخضوع والتذلل لله تعالى، والمراد بالاستعانة هُنا طلب المعونة فى المهماتِ كلها، وفى أداءِ العباداتِ والضمير المستكن فى الفعل للموحدين. وقدّم المفعول للتعظيم، والاهتمام به والدلالة على الحصر، وكرر الضمير للتنصيص على أنه المستعان به لا غيرُ وقدمت العبادة على الاستعانة لتوافق رءوس الآى، وليعلم أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة، أو لما نسب المتكلم العبادة إلى نفسه أوهم أنه يصدر منه فعقبه بقوله: وإياك نستعينُ ليدل على أن العبادة لا تكون إلا بمعونةٍ منه. وقيل الواو للحال، أى نعبدك مستعينين بك ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ بيانٌ للمعونة المطلوبة والهداية دلالة بلطف، أى أرشدنا إليه، ويبدلُ منه بدلَ الكلّ ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ بالهداية والاستقامة، من النبيينَ والصديقينَ والشهداء والصالحين. وصراطهم: هو طريق الحق ملة الإسلام وقرأ قنبل عن ابن كثير: السراط «سراط الذين» بالسين، والباقون بالصاد، وهو لغة قريش، والثابت فى الإمام ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وهم اليهود ﴿ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ﴾ وهم النصارى. وغير بدلٌ من الذين على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال، أوصفة له مبينة أو مقيدة، واعترض البدلية بأن أصل «غير» الوصفية والإبدال بالوصف ضعيف، وأجيب بأن «غيراً» يستعمل استعمال الأسماء نحو غيرك يفعل كذا، فصح وقوعه بدلا واعترض الوصفية بأن «غيراً» لا تتعرف: فإذا قلت رأيت غيرك فكل شيء سوى المخاطب فهو غيره. وأجيب بأنه قد يتعرف بالإضافة كما هنا: لأنه أضيف إلى ماله ضدٌ واحدٌ وهو المنعم عليه: فيتعين تعين الحركة من غير السكون، وعن ابن كثير نصبه على الحال من الضمير المجرور والعامل «أنعمت» قاله البيضاوى، و «عليهم» فى محل الرفع لأنه نائب مناب الفاعل: و «لا» مزيدة لتأكيد مافى «غير» من معنى النفى: فكأنه قال لا المغضوب عليهم ولا الضالين، والضلال: العدول عن الطريق السوىّ عمداً. أو خطأ: وإنما أكد بلا للفرق بين الطريقتين

لتجنب كلٌّ منهما ، فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به ، واليهود فقدوا العمل والنصارى العلم ، ولذلك كان الغضب لليهود ، والضلال للنصارى ؛ لأن من علم وترك العمل استحق الغضب . بخلاف من لم يعلم ، والحاصل أن كلا من اليهود والنصارى ضالٌّ مغضوب عليه : لكن أخص أوصاف اليهود الغضب ، وأخص أوصاف النصارى الضلال ؛ وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم المغضوبُ عليهم اليهود ، والضالين النصارى ، والله أعلم .

سورة البقرة

مدنية : مائتان وست أو سبع وثمانون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ الٓمٓ ﴾ الله أعلم بمراده بذلك ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أى هذا القرآن ، والكتاب فى الأصل مصدر كتب : جمع ، سمى به المفعول مبالغة وأل فيه لاستغراق الصفات أى الكامل ، وفيه لفخامة بعد إشارة ورمز ﴿ لَا رَيْبَ ﴾ شك ﴿ فِيهِ ﴾ أنه من عند الله لوضوحه وسطوع برهانه . وجملة النفى خبرٌ مبتدؤه ذلك . والإشارة به للتعظيم ﴿ هُدًى ﴾ خبرٌ ثانٍ : هادٍ ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك : أى الصائرين إلى التقوى بامتثال الأوامر واجتناب النواهى ، لاتقائهم بذلك النار ، واعلم أن ما تقدّم أربع جملٍ تقرر اللاحقة منها السابقة . ولذا لم يدخل العاطف بينها على ما علم فى باب الوصل والفصل فـ « الٓمٓ » جملة على تقدير هذا الٓمٓ دلت على أن المتحدى به هو المؤلف من جنس ما يركبون منه كلامهم . و « ذلك الكتاب » جملة ثانية على جعل ذلك مبتدأ . والكتاب خبره . وهى مقررة لجهة التحدى . لأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال وقوله « لا ريب فيه » . جملة ثالثة . تشهد على كماله بنفى الريب عنه . وإثبات الحق واليقين له . وهو أعلى الكمال . وقوله « هدى للمتقين » جملة رابعة مؤكدة لكونه حقاً لا يحوم الشك حوله ، وإن شئت قلت فى الجمل تستتبع السابقة منها اللاحقة استتباع الدليل للمدلول ، وبيانه أنه لما نبه أولا على إعجاز المتحدى به - من حيث أنه من جنس كلامهم وقد عجزوا عن معارضته - استنتج منه أنه الكتاب البالغ حدّ الكمال . واستلزم ذلك أن لا يتشبث الريب بأطرافه وما كان كذلك فلا محالة أنه هدى للمتقين . وفى كل واحدة من الجمل نكتة ذات جزالة ؛ ففى الأولى الحذف والرمز إلى المقصود مع التعليل . وفى الثانية فخامة التعريف . وفى الثالثة تأخير الظرف حذراً من إيهام الباطل فى باقى الكتب . وفى الرابعة الحذف والتوصيف بالمصدر البالغة . وإيراده منكّراً للتعظيم وتخصيص الهدى بالمتقين باعتبار الغاية وتسمية المشارف للتقوى متقياً إيجازاً وتفخيماً ، قاله البيضاوى . ثم بين المتقين بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ بما غاب عنهم من البعث

والجنة والنار أو بالقلوب أو حال كونهم غائبين عن الناس . فالباء للتعدية أو للآلة أو للمصاحبة . وعدّى بالباء لتضمنه معنى الاعتراف . والإيمان شرعاً : تصديق ما علم ضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ ﴾ أي يعدّلون أركانها : من أقام العود إذا قوّمه . يعني يأتون بها بحقوقها الظاهرة من الفرائض والسنن والباطنة من الخشوع والإقبال بالقلب إلى الله والصلاة فعلة من صلى إذا دعا كالزكاة من زكى . وإنما سمي الفعل المخصوص بها لاشتماله على الدعاء ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ أعطيناهم والرزق اسم لكل ماينتفع به وأصله الحظ والنصيب . لكن المراد هنا الحلال لقرينة المدح ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ يخرجونه عن أيديهم في طاعة الله من سبل الخير من الفرض والنفل ، وتقديم المفعول للاهتمام به والمحافظة على رءوس الآي . وإدخال «من» التبعيضية عليه للكف عن الإسراف المنهي عنه ، وتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر لأنهما أمهات الأعمال النفسانية والمالية الداعية لسائر الطاعات وتجنب المعاصي . وعطفهما على الإيمان يدل على أن الإيمان ليس منهما ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ من القرآن ﴿ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ من التوراة والإنجيل وغيرهما . وقيل هذه الآية في مؤمني أهل الكتاب وما تقدم في مؤمني العرب . وكلهم من جملة المتقين ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ يعلمون والإيقان حصول العلم بلا شك ولا شبهة بعد أن لم يكن للاستدلال ، ولذا لا يوصف به علم البارى تعالى ولا العلوم الضرورية . والآخرة تأنيث الآخر ، صفة الدار بدليل (تلك الدار الآخرة) فغلبت كالدنيا ، ونافع يحذف الهمزة ويلقي حركتها على اللام ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ عَلَىٰ هُدًى ﴾ رشد وبصيرة ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ لا يبلغ كنهه غيره ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بالجنة ، والناجون من النار ، وأصل الفلاح : القطع ، فهم المقطوع لهم بخيري الدنيا والآخرة ، وكرر فيه اسم الإشارة تنبيها على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضي كل واحد من الأثرين ، وأن كلا منهما كاف في تميزهم بها عن غيرهم ، ووسّط العاطف لاختلاف مفهوم الجملتين ، وهم ضمير الفصل ، يؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه . قال البيضاوي : تأمل كيف نبه سبحانه على اختصاص المتقين ، بنيل ما لا يناله أحد من وجوه شتى : بناء الكلام على اسم الإشارة للتعليل مع الإيجاز ؛ وتكريره وتعريف الخبر وتوسط الفصل لإظهار قدرهم والترغيب في اقتفاء آثارهم : والله أعلم . وهنا انتهت آيات المؤمنين لقول مجاهد : أربع آيات من أول البقرة في المؤمنين : واثنتان في الكافرين وثلاث عشرة في المنافقين . ثم بعد ذلك دعا الكل إلى التوحيد وأثبت دليله : ثم أثبت الرسالة بدليلها كما يأتي ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي الذين علم الله أنهم يموتون كفاراً : كأبي جهل وأبي لهب ونحوهما والكفر إنكار ما علم بالضرورة مجيء الرسول به : وإنما عدّ نحو شد الزنار كفراً لأنه يدل على تكذيبه : لا أنه بنفسه كفر ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ وسواء بمعنى الاستواء نعت به : كأنه مصدر ، وهو مرفوع خبر إن وما بعده مرتفع به على الفاعلية ،

كأنه قيل إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه ، أو هو خبر لما بعده ، بمعنى : إنذارك وعدمه سيان . والإنذار : الإعلام مع التخويف ، وفى الهمزتين التحقيق وإبدال الثانية ألفاً لورش وتسهيلها ، وإدخال ألف بين المسهلة والأخرى ، وتركه ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ جملة مفسرة لإجمال ما قبلها فيما فيه الاستواء ؛ فلا محل لها ، أو حال مؤكدة ، أو بدل عنه أو خبر إن ، والجملة قبلها اعتراض بما هو علة الحكم ؛ وفائدة هذا الإنذار حصول الثواب للمبلغ ، مع إلزام الحجة المبلغ إليهم ، ولذا قال عليهم ولم يقل عليك ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ طبع عليها واستوثق ، فلا يدخلها خير وهو تعليل الحكم السابق وبيان لما يقتضيه . والمعنى : حكم على قلوبهم بالكفر فهى لا تعى خيراً ولا تفهمه ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ أى مواضعه ، فلا ينتفعون بما يستمعونه من الحق ، ووحد السمع لأنه مصدر وكرر « على » إيذاناً لشدة الختم باستقلال كل واحد منهما بالحكم . ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ غطاء فلا يبصرون الحق . والغشاوة : فعالة تبنى لما يشتمل على الشىء كالعصابة والعمامة . قال البيضاوى : لاختم ولا تغشية على الحقيقة ، وإنما المراد بهما إحداث هيئة فى نفوسهم تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصى واستقباح الإيمان والطاعات إلى آخر ما قال . وقال عبد الرحمن الثعالبي : الصحيح أن هذا الختم حقيقة لا مجاز : فقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا أذنب ذنباً نكتت نكتة سوداء فى قلبه » إلى آخر ما قال ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى قوى دائم فى الآخرة ، والعذاب كل مايشق على الإنسان ، ويمنعه مراده ، أصله المنع . قال البيضاوى فيه وعيد وبيان لما يستحقونه ، والعذاب كالنكال بناء ومعنى تقول : عذب عن الشىء ونكل عنه إذا أمسك ، ومنه الماء العذب لأنه يقمع العطش ، ثم اتسع فأطلق على كل ألم فادح ؛ وإن لم يكن نكالا أى عقاباً يردع الجانى عن المعاودة ، فهو أعم منهما . وقيل اشتقاقه من التعذيب الذى هو إزالة العذب كالتقذية والتمريض ، والعظيم نقيض الحقير ؛ والكبير نقيض الصغير ؛ فكما أن الحقير دون الصغير ، فالعظيم فوق الكبير . ومعنى التوصيف به أنه إذا قيس بسائر ما يجانسه قصر عنه وحقر بالإضافة إليه ، ومعنى التنكير فى الآية أن على أبصارهم غشاء ليس ما يتعارفه الناس : وهو التعامى عن الآيات ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله . اهـ ولما افتتح الله سبحانه هذه السورة بشرح حال الكتاب ، وساق بيان من آمن به ومن كفر به ظاهراً وباطناً ، ثلث بالقسم الثالث المذبذب بين القسمين وهم المنافقون الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وهم أخبث الكفرة ؛ ولذا طول فى بيان خبثهم وجهلهم واستهزائهم ، وتهكمهم بأفعالهم وسجل على عمههم وطغيانهم وضرب لهم الأمثال ، فقال ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أصله أناس حذفت همزته تخفيفاً وعوض عنها حرف التعريف واشتقاقه من الأنس والظهور . كما سمى الجن جناً لاجتنانهم ، وأل فيه للجنس أو للعهد : أى الذين كفروا وهو فى محل رفع خبر مبتدؤه ﴿ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ أى يوم القيامة لأنه آخر الأيام ومن موصوفة إذ لا عهد أى ناس يقولون أو موصولة على العهد أى الذى يقول مراداً

به ابن أبىّ وأصحابه ونظراؤهم ﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ روعى فيه معنى من وفى ضمير «يقول» لفظها ، ولم يقل وما آمنوا تأكيداً ومبالغة فى التكذيب لأن إخراج ذواتهم من عداد المؤمنين أبلغ من نفى الإيمان عنهم فى ماضى الزمان ولذا أكد النفى بالباء ﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بإظهار خلاف ما أبطنوه من الكفر ليدفعوا عنهم أحكامه الدنيوية . والخدع أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه من المكروه لتزله عما هو بصدده . وأصله الستر والإخفاء ، ومنه المخدع للخزانة والمفاعلة هنا من واحد كعاقبت اللص ، وذكر الله تحسين . لأن يخادعون بيان ليقول أو استئناف بذكر ما هو الغرض منه ، إلا أنه أخرج فى زنة فاعل البالغة إذ هو أبلغ من فعل جاء بلا مقابلة معارض ﴿ وَمَا يُخَادِعُونَ ﴾ بالألف لنافع وابن كثير وأبى عمرو . وقرأ الباقون وما يخدعون ﴿ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ﴾ لأن وبال خداعهم راجع إليهم فيفتضحون فى الدنيا بإطلاع الله نبيه على ما أبطنوه ويعاقبون فى الآخرة ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أن خداعهم لأنفسهم لتمادى غفلتهم والشعور : الإحساس كأن رجوع ضرر الخداع إليهم شىء ظاهر كالمحسوس لا يخفى إلا على من عدم الحواس ومشاعر الإنسان حواسه ومنه الشعار ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ شك ونفاق . فهو يمرض قلوبهم أى يضعفها تألماً على ما يفوتهم من الرياسة . وحسداً على ما يرون من ثبات أمر الرسول يوماً فيوماً ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ بما أنزله من القرآن لكفرهم به ، وبما يرون من إعلاء أمر النبى صلى الله عليه وسلم وإشادة ذكره ، ويحتمل أن يراد بالمرض : ما يداخل قلوبهم من الجبن حين شاهدوا شوكة المسلمين ، وإمداد الله لهم بالملائكة . وقذف الرعب فى قلوب الكفار ، ثم يزيد الله ذلك بما يزيد من نصرة المؤمنين على الأعداء والتبسط فى البلاد ، وقيل قوله فزادهم الله مرضا ، دعاء عليهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم . ﴿ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ بالتشديد لنافع وابن كثير وأبى عمرو ، وابن عامر ، أى نبىّ الله ، وبالتخفيف لعاصم وحمزة والكسائى ، أى فى قولهم آمنا ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أى لهؤلاء عطف على يكذبون أو يقول والقائل الله أو الرسول أو بعض المؤمنين ﴿ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بالكفر والتعويق عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وتهييج الحروب والفتن بمخادعة المسلمين ، وموالاة الكفار ، بإفشاء الأسرار إليهم ، وبإظهار المعاصى والإهانة بالدين ، فإن الإخلال بالشرائع والإعراض عنها ، مما يوجب الهرج ويخل بنظام العالم ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ بين الناس بالمداراة ، وليس ما نحن عليه بفساد ، هذا رد للناصح على سبيل المبالغة ، لأن إنما للحصر ، وإنما قالوا ذلك لأنهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما فى قلوبهم من المرض ، كما قال تعالى « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً » قال تعالى رداً عليهم ﴿ أَلَا ﴾ للتنبيه ﴿ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ أنهم مفسدون . وهذا من أبلغ الرد لاستئنافه وتصديره بحرفى التأكيد ، ألا المنبهة على تحقيق ما بعدها ، وإن المقررة للنسبة وتعريف الخبر ، وتوسط الفصل لرد ما فى قولهم . إنما نحن مصلحون . من التعريض للسلمين والاستدراك بلا يشعرون .

﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس﴾ من تمام النصح لهم ، وما مصدرية أو كافة ، واللام فى الناس للجنس : والمراد به الكاملون فى الإنسانية ، العاملون بقضية العقل ؛ أو للعهد ، والمراد به الرسول ومن معه ، والمعنى آمنوا إيماناً مقروناً بالإخلاص متمحضاً عن شوائب النفاق ، مماثلا لإيمانهم . ﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ أى الجهال وأصل السفه : الخفة والطيش ، وهو نقيض الحلم ، ولا يطلق على الجاهل الساكت ، وإنما يطلق على السليط ، وإنما سفهوهم لاعتقادهم فساد رأيهم ، وتحقير شأنهم ، بكون أكثرهم فقراء وموالى ، كبلال وصهيب ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ وهو أبلغ الرد . وإنما فصلت الآية بلا يعلمون ، والتى قبلها بلا يشعرون . لأنه أكثر طباقاً لذكر السفه ، ولأن الوقوف على أمر الدين والتمييز بين الحق والباطل ، مما يفتقر إلى نظر وتفكر ، وأما النفاق وما فيه من الفتن والفساد فإنما يدرك بأدنى تفطن وتأمل فيما يشاهد من أقوالهم وأفعالهم ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ هذه بيان لمعاملتهم مع المؤمنين والكفار ، وما تقدمت بيان لمذهبهم ، فلا تكرار ، وأصل «لقوا» لقيوا ، حذفت الضمة للاستثقال ، ثم الياء لالتقائها ساكنة مع الواو ، لحركت القاف بحركة تجانس الواو ، ولقيته : صادفته واستقبلته . ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ رؤسائهم يقال خلا بفلان وإليه : انفرد معه ، وإلى أبلغ لأن فيه دلالة الابتداء والانتهاء . وفى البخارى قال مجاهد : إلى شياطينهم أصحابهم من المنافقين والمشركين اه [من] القسطلانى . سموا شياطين لأنهم ماثلوهم فى تمردهم وهم المظهرون كفرهم وإضافتهم إليهم للمشاركة فى الكفر ، وهو استعارة ، والإضافة قرينة اه والشيطان : المتمرد من الجن والإنس والدواب ، ونونه عند سيبويه أصلية من شطن : بعد لبعده من رحمة الله أو زائدة من شاط : احترق . ﴿قالوا إنا معكم﴾ أى فى الدين خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية . والشياطين بالاسمية المؤكدة بإن . لأنهم قصدوا بالأولى دعوى إحداث الإيمان ، وبالثانية تحقيق شأنهم على ما كانوا عليه ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ بهم بإظهار الإيمان تأكيد لما قبله ، لأن المستهزئ بالشىء المستخف به . مصر على خلافه ، أو بدل منه لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر ، أو استئناف ؛ فكأن الشياطين قالوا لهم لم تقولون عندهم آمنا فأجابوا بذلك ، والاستهزاء الاستخفاف والسخرية . يقال هزئ واستهزأ ، بمعنى ، المعنى : إنا نجهل محمداً وأصحابه ، ونسخر بهم بإظهار الإسلام فرد الله عليهم بقوله ﴿الله يستهزئ بهم﴾ يجازيهم باستهزائهم عقاباً ، كما سمى جزاء السيئة سيئة ، أو يعاملهم معاملة المستهزئ : إما فى الدنيا من إجراء أحكام المسلمين عليهم واستدراجهم بالإمهال حتى يقعوا فى العذاب . وإما فى الآخرة : روى أنه يفتح لهم وهم فى النار باباً إلى الجنة فيسرعون نحوه ، فإذا وصلوا إليه سد عليهم الباب وردوا إلى النار ، وذلك قوله : فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴿ويمدهم﴾

يزيدهم من مدّ بمعنى أمهل ، فإنه يعدى باللام ، ويدل عليه قراءة ابن كثير «ويمدهم» من أمدّ . ومدّ وأمد بمعنى واحد، لكن أكثر استعمال المد فى الشر والإمداد فى الخير . وعن مجاهد : معناه يمهلهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ تجاوزهم الحد فى الكفر بضم الطاء وكسرها ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون تحيرا ، والعمه فى البصيرة : وهو التحير فى الأمر كالعمى فى البصر ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ اختاروها عليه واستبدلوها به ، أى استبدلوا الكفر بالإيمان الذى تمكن لهم لأن الباء تصحب المتروك ، أو استبدلوا الإيمان الفطرى بالضلالة التى اختاروها وأصل الشراء بذل الثمن لتحصيل ما يطلب من الأعيان ، فاستعير للإعراض عما تمكن منه محصلا به غيره من المعانى أو الأعيان ولذا رشحت الاستعارة بقوله ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ أى ما ربحوا فيها بل خسروا رأس مالهم ، لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لطرق التجارة ، فإن المقصود منها سلامة رأس المال والربح وهؤلاء ليس لهم ربح ولا رأس مال ، ولما حقق الله حالهم فى المعاملة والتحير والخسران ، عقبها بضرب المثل لها . زيادة فى التوضيح ، لأن المثل يؤثر فى القلوب مالا يؤثر وصف الشىء فى نفسه ، إذ يجعل الخفى كالجلىّ ؛ والغائب كالشاهد؛ فقال ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم فى نفاقهم والمثل فى الأصل النظير ، ثم قيل فى القول السائر فى عرف الناس ؛ يعرف به معنى الشىء مع غرابته : ثم استعير لكل حال أو صفة أو قصة لها شأن فيها غرابة ؛ والمعنى حالهم الغريبة الشأن ﴿كَمَثَلِ﴾ الفوج ﴿الَّذِي اسْتَوْقَدَ﴾ أوقد ﴿نَارًا﴾ فى ظلمة . والنار : جوهر لطيف محرق من نار ينور تحرك ونفر ؛ لأن فى النار حركة، وتنكيرها مؤذن بعظمها . ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾ النار ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ أى المستوقد فأبصر واستدفأ وأمن ما يخافه ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أطفأه ؛ وجمع الضمير مراعاة لمعنى الذى ؛ لأنه بمعنى الفوج : كما قدرناه أولا ، وأضاء يكون متعديا ولازما ، وعلى اللزوم ؛ فأضاءت أسند إلى ما ، والتأنيث ، لأن ما حوله أشياء وأماكن ، أو إلى ضمير النار ؛ وما موصولة بمعنى الأمكنة نصب على الظرفية . أو مزيدة «وحوله» ظرف ؛ وأصل الحول الدوران ؛ ولذا قيل للعام حول ، لأنه يدور . «ذهب الله» جواب لما . وقال «بنورهم» ولم يقل بنارهم ؛ لأنه المراد من إيقادها : أو استئناف أجيب به اعتراض سائل يقول ما بالهم شبهت حالهم بحال مستوقد انطفأت ناره والضمير للمنافقين ، والجواب محذوف أى طفئت وإسناد الإذهاب إلى الله إعلام بأن الإطفاء حصل بسبب خفىّ . أو أمر سماوى ؛ كريح أو مطر ، وعدى الفعل بالباء دون الهمزة مبالغة ؛ لما فى الباء من معنى الاستصحاب والاستمساك «وما يمسك فلا مرسل له» ولذا عدل عن الضوء إلى النور ، إذ لو قال ذهب الله بضوئهم لاحتمل بقاء النور ، والغرض إزالته بالكلية عنهم ، ولذا أكده بقوله ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ما حولهم متحيرين عن الطريق خائفين فكذلك المنافقون أمنوا من القتل وأكل الأموال بإظهار كلمة

الإيمان ، فإذا ماتوا جاءهم الخوف والعذاب ، وأصل الظلمة : المنع ، لأنها تمنع الرؤية وبالغ فى جمعها وتنكيرها و «ترك» فى الأصل بمعنى طرح ، وله مفعول واحد ، فضمن معنى صيّر ، فجرى مجرى أفعال القلوب وقيل ظلماتهم ظلمة الكفر ، وظلمة النفاق ، وظلمة يوم القيامة «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم» ثم أوضح عدم هدايتهم بقوله هم ﴿صُمٌّ﴾ عن الحق فلا يسمعونه سماع قبول ﴿بُكْمٌ﴾ خرس عن الخير فلا يقولونه ﴿عُمْيٌ﴾ عن طريق الهدى فلا يرونه ، وهو تشبيه بليغ فى الأصح لا استعارة ، لأن المشبه به مذكور ، وهم المنافقون ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ عن الضلالة التى اشتروها إلى الهدى الذى باعوه ، أى لا يطلبون الإقالة ، والفاء للدلالة على أن اتصافهم بالأحكام السابقة : سبب لتحيرهم واحتباسهم ولما شبه الله المنافقين فى التمثيل الأول بالمستوقد ناراً ، وإظهار الإيمان بالإضاءة وانقطاع الانتفاع بانطفاء النار ، شبه القرآن معهم بالصيب : لأن القلوب تحيا به إحياء الأرض بالمطر ؛ وما يعلق بالكفار به من الشبه بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد : بالرعد والبرق وما يصيبهم من الأفزاع من جهة المؤمنين بالصواعق : فقال عاطفاً على كاف كمثل الذى ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ أى أو مثل القرآن معهم كصيب : ويحتمل أن يقال أو مثل المنافقين كذوى صيب : أى أصحاب مطر أصله صَيْوِب من صاب يصوب : أى ينزل ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ السحاب ﴿فِيهِ﴾ أى السحاب ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ متكاثفة ظلمة الغمام وظلمة الليل وظلمة تتابع المطر ﴿وَرَعْدٌ﴾ هو الملك الموكل به . وقيل صوته ﴿وَبَرْقٌ﴾ لمعان سوطه الذى يزجر به : وهما فى الأصل مصدرا رعد وبرق : ولذا لم يجمعا وتنكير صيب : لأنه أريد به نوع من المطر شديد وتعريف السماء للدلالة على أن الغمام منطبق بآفاق السماء كلها : وقيل المراد بالسماء السحاب كما تقدم : واللام لتعريف الماهية ﴿يَجْعَلُونَ﴾ أى أصحاب الصيب ﴿أَصَابِعَهُمْ﴾ جمع إصبع مثلث الهمزة والباء : أى أناملهم ﴿فِى آذَانِهِمْ مِنَ﴾ أجل ﴿الصَّوَاعِقِ﴾ جمع صاعقة : شدة صوت الرعد مع النار : والصاعقة يطلق على كل هائل مسموع ، أو مشاهد ، لئلا يسمعوها ، ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ من سماعها ، وجملة يجعلون مستأنفة استئنافاً بيانياً ، كأن قائلا قال كيف حالهم مع شدة ذلك ؟ فقال يجعلون إلى آخره ، وأطلق الأصابع موضع الأنامل مبالغة : قال البيضاوى : الصاعقة قطعة رعد هائل معها نار ، لا تمر بشىء إلا أتت عليه . من الصعق وهو شدة الصوت وقد يطلق على كل هائل ، ويقال صعقته الصاعقة إذا أهلكته بالإحراق أو شدة الصوت ، وقرئ من الصواقع ، وهى فى الأصل إما صفة لقطعة الرعد أو للرعد ، والتاء للمبالغة أو مصدر كالعافية ، وحذر الموت نصب على العلة ، وكذلك هؤلاء ، يعنى الكفار أو المنافقين إذا نزل القرآن ، وفيه ذكر الكفر المشبه بالظلمات والوعيد عليه المشبه بالرعد ، والحجج البينة المشبهة بالبرق يسدون آذانهم لئلا يسمعوه فيميلوا إلى الإيمان ، وترك دينهم وهو عندهم موت ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ علماً وقدرة ، فلا

فلا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط ، أو جامعهم فى النار والجملة اعتراضية لا محل لها ﴿ يَكَادُ ﴾ يقرب ﴿ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ يأخذها بسرعة استئناف ثان ، كما تقدم ، وقرئ بكسر الطاء ﴿ كُلَّمَا ﴾ أى كل وقت ﴿ أَضَاءَ ﴾ البرق ﴿ لَهُمْ ﴾ ممشى أو مسلكا ﴿ مَشَوْا فِيهِ ﴾ أى فى ضوئه ﴿ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ ﴾ المسلك ﴿ قَامُوا ﴾ وقفوا تمثيل لإزعاج ما فى القرآن من الحجج قلوبهم وتصديقهم بما سمعوا فيه مما يحبون ، ووقوفهم عما يكرهون ، «وكلما» ظرف للتكرار عاملها جوابها ، وهو مستأنف ثالث كما تقدم . وأضاء متعد كما قدرنا أو لازم بمعنى كلما لمع لهم ، وكذا أظلم ، وإنما قال مع الإضاءة «كلما» ومع الإظلام «إذا» لأنهم حراص على المشى فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها ، ولا كذلك التوقف ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ ﴾ بقصيف الرعد ﴿ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ الظاهرة بوميض البرق ، كاذهب بالباطنة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى مشىء شاء ، ﴿ قَدِيرٌ ﴾ ومنه إذهاب ما ذكر «ولو» حرف شرط ، يدل على انتفائه لانتفاء الجواب ضرورة : انتفاء الملزوم عند انتفاء لازمه ، وفائدته التنبيه على أن تأثير الأسباب فى مسبباتها مشروط بمشيئته . واقع بقدرته ، والشيء مختص بالموجود ، لأنه فى الأصل مصدر شاء يطلق بمعنى شاء ، تارة اسم فاعل ، فيتناول البارى تعالى ، كما قال «قل أى شيء أكبر شهادة قل الله» وبمعنى مشىء اسم مفعول ، أى مشىء وجوده ، وما شاء الله وجوده فهو موجود فى الجملة ، وعليه قوله إن الله على كل شيء قدير ، وهذان التمثيلان كلاهما فى المنافقين ، والثانى أبلغ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر ، ولذا أخر وعطف بأو التى للتخيير ، إعلاما بأنهما سواء فى استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل فبأيهما مثلت فأنت مصيب ، وإن مثلت بهما جميعاً ، فكذلك ، والصحيح أنهما من جملة التمثيلات المركبة ، وهى أن تشبه كيفية منتزعة من مجموع تضامت أجزاؤه وتلاصقت ، حتى صارت شيئاً واحداً ، بأخرى مثلها ، كقوله تعالى مثل الذين حُملوا التوراة ... إلى ... أسفاراً . لا المفردة ، وهى تشبيه أفراد بأمثالها نحو «وما يستوى الأعمى والبصير ... الآية» ومن جعلهما فى اليهود ، قال مثلهم فى انتظارهم خروج محمد صلى الله عليه وسلم كالمستوقد ناراً ، فلما خرج كفروا به ، وهو كإذهاب النور . أو مثلهم كمن هو فى صيّب . ثم أصابه ما تقدم والله أعلم . ولما ذكر فرق المكلفين بأوصافهم أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات تنشيطاً للسامع بأمر العبادة وتفخيما لشأنها ، وجبر كلفتها بلذة المخاطبة فقال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ وحّدوه . وأخلصوا له العبادة ويا حرف لنداء البعيد وشبهه لعظمته كيا ألله ، أو غفلته كما هنا ، وهو مع المنادى جملة مفيدة ، لأنه نائب مناب فعل ، وأىّ : اسم مبهم جعل وصلة إلى نداء المعرّف باللام ، لئلا يجمع بين حرفى تعريف ، وأعطى حكم المنادى وأجرى عليه المقصود بالنداء ، وصفاً موضحاً له ، والتزم رفعه إشعاراً بأنه المقصود ، وأقحمت بينهما «ها» التنبيه تأكيداً ، وكلما نادى الله عباده له : فهو من الأمور العظام التى حقها أن يتفطنوا لها ويقبلوا

بقلوبهم عليها ، وأكثرهم عنها غافلون ، حقيق بأن ينادى له بالآوكد «والناس» يعم الموجودين وقت النزول لفظاً ومن سيوجد لما تواتر من دينه عليه السلام أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل لمن يجيء إلى قيام الساعة إلا من خصه الدليل . وإنما قال «ربكم» تنبيها على أن موجب العبادة الربوبية ، وهو أمر للكفار بالدخول فيها وللمؤمنين بالمداومة عليها ﴿ الَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ اخترعكم على غير مثال سبق صفة جرت عليه للتعظيم والتعليل والتقييد والتوضيح من جهة خطاب المشركين ﴿ وَ ﴾ خلق ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ تقدمكم بالذات والزمان منصوب معطوف على الضمير المنصوب فى خلقكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ بعبادته عقابه ، وهو حال من الضمير فى اعبدوا ، كأنه قال اعبدوا ربكم راجين أن تدخلوا فى المتقين الفائزين بالهدى والفلاح ، المستوجبين لجوار الله تعالى ، نبه على أن التقوى منتهى درجات السالكين : وهو التبرى عن كل شيء سوى الله إلى الله ، وأن العابد ينبغى أن لا يغتر بعبادته ، ويكون ذا خوف ورجاء ، والآية تدل على أن الطريق إلى معرفة الله تعالى ، والعلم بوحدانيته واستحقاقه للعبادة ، هو النظر فى صنعه ، والاستدلال بأفعاله . وأن العبد لا يستحق بعبادته عليه ثواباً ، فإنها لما وجبت عليه . شكراً لما عدده عليه من النعم ، كان كأجير أخذ الأجرة قبل العمل ، و «لعل» هنا على بابها من الترجى والتوقع ، كما قال سيبويه ورؤساء اللسان : لأنها فى حيز البشر ، أى إذا تأملتم حالكم مع عبادة ربكم ، رجوتم لأنفسكم التقوى ، ولا حاجة لما قال السيوطى هنا ولعل فى الأصل للترجى ، وفى كلامه تعالى للتحقيق ، ثم أومأ إلى إحسان آخر يجب شكرهم عليه . فقال ﴿ الَّذِى جَعَلَ ﴾ أى صير ﴿ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً ﴾ بساطاً بإبراز بعض جوانبها عن الماء مع ما فى طبعه من الإحاطة بها ، أى صيرها متوسطة بين الصلابة واللطافة حتى صارت مستعدة لأن يقعدوا ويناموا عليها ، كالفراش المبسوط ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ قبة مضروبة عليكم ، والسماء : اسم جنس يقع على الواحد والمتعدد : وقيل واحده سماءة ، والبناء مصدر سمى به المبنى ، وكل من فراشاً وبناء مفعول ثان لجعل إن كان بمعنى صيّر ، وحال إن كان بمعنى أوجد ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ عطف على جعل ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ أى من أنواع الثمرات وألوان النبات ﴿ رِزْقاً لَكُمْ ﴾ تأكلونه وتعلفون به دوابكم ، ومن الأولى للابتداء ، سواء أريد بالسماء السحاب ، لأن كل ما علاك سماء ، أو الفلك : فإن المطر يبتدئ من السماء إلى السحاب ، ومنه إلى الأرض على ما دلت عليه الظواهر : ومن الثانية للتبعيض . إذ لم يخرج كل الثمرات بالمطر ، أو للتبيين . ورزقاً مفعول به ، بمعنى المرزوق ولكم صفة رزقاً إن أريد به المرزوق ، ومفعول له إن أريد به المصدر ، كأنه قال رزقاً إياكم ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً ﴾ أمثالا تعبدونهم كعبادته تعالى ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه الخالق ولا يخلقون ولا يكون إلها إلا من يخلق ؛ وقوله «فلا تجعلوا» نهى معطوف على اعبدوا ، أو نفى منصوب بإضمار «أن» جوابا له . والفاء للسببية ؛ إذ المعنى من خصكم بهذه النعم فلا ينبغى أن يشرك به . ولما كان

مضمون الآيتين الأمر بعبادة الله والنهى عن الإشراك به والإشارة إلى دليل ذلك ذكر الحجة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم فقال ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ شك ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن أنه من عند الله ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ أى المنزل ومن للبيان : أى هى مثله فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم والإخبار عن الغيب . والسورة : قطعة من القرآن لها أول وآخر ؛ باسم خاص به من النبي صلى الله عليه وسلم أقلها ثلاث آيات وواوها أصلية منقولة من سور المدينة ؛ لأنها محيطة بطائفة من القرآن . أو من السورة التى هى الرتبة ؛ لأن السور كالمراتب ، يترقى فيها القارئ أو لها مراتب فى الطول والقصر ، أو فى الفضل وثواب القراءة ؛ أو واوها مبدلة من الهمزة من السؤرة البقية والقطعة من الشىء . وقوله «من مثله» صفة سورة أى كائنة من مثله ، ومن للتبعيض أو للتبيين وإضافة عبدنا للتنويه والتنبيه أنه مختص به . منقاد لحكمه ﴿ وَادْعُوا ﴾ لطلب العون والنصر على ذلك ﴿ شُهَدَاءَكُمْ ﴾ جمع شهيد : الحاضر أو القائم بالشهادة المراد آلهتهم التى يزعمون أنها تشهد لهم يوم القيامة أنهم على الحق ، أو من يشهد لهم أنهم أتوا مثل القرآن ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره لتعينكم متعلق بادعوا أو بشهداءكم ومعنى « دون » فى الأصل الانخفاض والقرب ؛ لأنه أخفض مكان من غيره . ومنه الشىء الدون ثم كثر استعماله للتفاوت فى الأحوال والرتب « زيد دون عمرو » لمعنى التجاوز والتخطى لحد إلى آخر ، والمعنى : وادعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنه من كلام البشر ، وجواب « إن » محذوف دل عليه ما قبله . ولما عجزوا عن ذلك قال تعالى ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ ما ذكر فيما مضى لعجزكم ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ ذلك أبداً فيما يستقبل لظهور إعجازه : اعتراض بين الشرط وجوابه وهو ﴿ فَاتَّقُوا ﴾ بالإيمان بالله وأنه ليس من كلام البشر ﴿ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا ﴾ بالفتح ما توقد به النار ، وقرئ بالضم مصدراً أى سبب وقودها ﴿ النَّاسُ ﴾ الكفار ﴿ وَالْحِجَارَةُ ﴾ كأصنامهم منها أو هى حجارة الكبريت فهى أشد توقداً وأبطأ خموداً وألصق بالبدن يعنى أنها مفرطة الحرارة تتقد بما ذكر لا كنار الدنيا تتقد بالحطب ونحوه ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ هيئت ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ يعذبون بها ، جملة مستأنفة أو حال لازمة . وفى الآية دليل على أنها مخلوقة ﴿ وَبَشِّرِ ﴾ أخبر ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ صدقوا بالله ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من الفروض والنوافل ﴿ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ﴾ حدائق ذات شجر ومساكن ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى تحت أشجارها وقصورها ﴿ الْأَنْهَارُ ﴾ أى المياه فيها والنهر الموضع المتسع الذى يجرى فيه الماء ، لأن الماء ينهره أى يحفره ، وإسناد الجرى إليه مجاز ، لكن فى الحديث « أنهار الجنة تجرى على سطح الأرض من غير أخدود » وجملة وبشر عطف على الجملة السابقة ، والمقصود عطف حال من آمن بالقرآن ووصف ثوابه على حال من كفر به . وكيفية عقابه على ما جرت به العادة الإلهية أن يشفع الترغيب بالترهيب تنشيطاً لاكتساب ما ينجى وتثبيطاً عن اقتراف ما يردى ، والبشارة : الخبر السار وإنما أمر الرسول عليه الصلاة

والسلام أو عالم كل عصر أو كل أحد يقدر على البشارة بأن يبشرهم ولم يخاطبهم بالبشارة كما خاطب الكفار إيذاناً بأنهم أحقاء بأن يبشروا وقرئ وبُشّر الذين آمنوا على البناء للمفعول عطفاً على أعدت. والصالحات: جمع صالحة من الصفات الغالبة التي تجرى مجرى الأسماء، كالحسنة: ما سوغه الشرع من الأعمال والتأنيث على تأويل الخصلة واللام فيها للجنس، وعطف العمل على الإيمان مرتباً للحكم عليها إشعاراً لأن السبب في استحقاق البشارة مجموع الأمرين. وفيه دليل على أنها خارجة عن مسمى الإيمان إذ الأصل أن الشيء لا يعطف على نفسه، والجنة المرة من الجن مصدر جنه إذا ستره سمى به الشجر، لالتفاف أغصانه للمبالغة، لأنه يستر ما تحته سترة واحدة: ثم البستان لما فيه من الأشجار المتكاثفة ثم سمى بها دار الثواب لما فيها من الجنان، وجمعها وتنكيرها لكثرتها كما ورد أنها ثمانية أو سبع، وفي كل واحدة منها مراتب متفاوتة على حسب تفاوت الأعمال والعمال؛ واللام في «لهم» يدل على استحقاقهم إياها للإيمان والعمل بجعل الشارع ومقتضى وعده فضلا، واللام في الأنهار للجنس أو للعهد، والمعهود الأنهار المذكورة في قوله تعالى «أنهار من ماء غير آسن... الآية» والنهر بالفتح والسكون: المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر: وفي الحديث: قال عليه السلام: «إن أمتي يوم القيامة ثلثا أهل الجنة؛ وفي الترمذي وابن ماجه «أهل الجنة عشرون ومائة صف: ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم» انتهى: وكفى بهذا بشارة ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ أطعموا ﴿مِنْهَا﴾ من تلك الجنات ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ﴾ أي من أي ثمرة ﴿رِزْقاً قَالُوا هَٰذَا الَّذِي﴾ أي مثل ما ﴿رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي قبله في الجنة لتشابه ثمارها أو في الدنيا: وجعل ثمر الجنة من جنس ثمر الدنيا لتميل النفس إليه أول ما يرى؛ فإن الطباع مائلة إلى المألوف ﴿وَأُتُوا بِهِ﴾ أي بالمرزوق في الجنة أو في الدارين ﴿مُتَشَابِهاً﴾ يشبه بعضه بعضاً. لوناً وخلقة ويخالفه طعماً. أو متشابها في النبل والجودة: فلا يكون فيه ما يفضله غيره، وجملة «كلما رزقوا» صفة ثانية لجنات أو مستأنفة لبيان أن ثمارها مثل ثمار الدنيا؛ و«كلما» نصب على الظرف و«رزقا» مفعول به، ومن الأولى والثانية للابتداء واقعتان موقع الحال؛ والمعنى كل حين رزقوا مرزوقا مبتدأ من الجنات من ثمراتها: قيد الرزق بكونه مبتدأ من الجنات وابتداؤه منها بابتدائه من ثمرة: فصاحب الحال الأولى رزقا وصاحب الحال الثانية ضميره المستكن في الحال: حكى عن الحسن أن أحدهم يؤتى بالصحفة فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الأولى: فيقول هذا الذي رزقنا من قبل: فيقول الملك: كل فاللون واحد والطعم مختلف ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ من الحور وغيرها ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ من الحيض وكل قذر وسوء الخلق: فالتطهير يستعمل في الأجسام والأخلاق والأفعال وقرئ: مطهرات، وهما لغتان فصيحتان: يقال: النساء فعلت وفعلن فالجمع على اللفظ والإفراد على تأويل الجماعة. ومطهرة أبلغ من طاهرة ومتطهرة: لأن المطهر هو الله. والزوج يقال للذكر والأنثى: وهو في الأصل لماله

قرين من جنسه ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ماكثون أبداً لايفنون ولايخرجون . والخلود فى الأصل الثبات المديد ، دام أو لم يدم ؛ ولذا قيل للأحجار خوالد . ولو كان وضعه للدوام لكان التقييد بالتأبيد فى قوله «خالدين فيها أبداً» لغواً لكن المراد به هنا الدوام لما يشهد له من الآيات والسنن . ولما تقدمت أنواع من التمثيل عقب ذلك ببيان حسنه وما هو الحق له والشرط فيه . وهو أن يكون على وفق الممثل له من الجهة التى تعلق بها التمثيل فى العظم والصغر والخسة والشرف دون الممثل ؛ فإن التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعنى الممثل له ، حتى يبرز فى صورة المحسوس . فقال رداً لقول اليهود ، لما ضرب الله المثل بالذباب فى قوله «وإن يسلبهم الذباب» والعنكبوت فى قوله «كمثل العنكبوت» ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أى لايترك ترك من يستحي ﴿أَن يَضْرِبَ﴾ يجعل ﴿مَثَلاً مَّا﴾ أىّ مثل كان ﴿بَعُوضَةً﴾ مفرد البعوض وهو صغار البق ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أكبر منها . والمعنى لايترك بيانه لما فيه من الحكم . ومثلا مفعول لأن يضرب . وأن بصلتها مخفوض المحل عند الخليل بإضمار من ، ومنصوب بإفضاء الفعل إليه بعد حذفها عند سيبويه . وما إبهامية نكرة تزيد النكرة قبلها إبهاماً كقولك أعطنى كتاباً ما ، أى أىّ كتاب كان . وبعوضة عطف بيان لـ «مثلا» ويحتمل أن «ما» زائدة لتأكيد الخسة . «وبعوضة» فعولة من البعض بمعنى القطع ، غلب على هذا النوع ، والحياء انقباض النفس عن القبيح مخافة الذم . وهو ضد الوقاحة التى هى الجرأة على القبائح من غير مبالاة ويخالف الخجل بأنه انحصار النفس عن الفعل مطلقاً . والمراد بالحياء عند الله لازمه الذى هو الترك . ومعنى «ما فوقها» إما مازاد عليها فى الجثة أى لايستحي ضرب المثل بالبعوض فضلا عما هو أكبر منه . أو فى المعنى الذى جعلت فيه مثلا وهو الصغر والحقارة كجناحها . فإنه عليه السلام ضرب به مثلا للدنيا ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ المثل ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابتُ الواقع موقعه الذى لايسوغ إنكاره ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ وأما حرف تفصيل يفصل به ما أجمل ويؤكد به ماصدر ويتضمن معنى الشرط . ولذلك يجاب بالفاء قال سيبويه : أما زيد فذاهب معناه مهما يكن من شىء فزيد ذاهب أى هو ذاهب لامحالة . انتهى . وفى تصدير الجملتين بأما مدح بليغ لأمر المؤمنين . وذم بليغ للكافرين على قولهم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ تميز ، أى : بهذا المثل ؟ و «ما» استفهام إنكار : مبتدأ و «ذا» بمعنى الذى بصلته : خبره ، ويحتمل أن تكون «ما» مع «ذا» اسما واحداً بمعنى : أى شىء ، منصوب المحل على المفعولية . والأحسن فى جوابه الرفع على الأول والنصب على الثانى ؛ ليطابق الجواب السؤال ؛ وإنما لم يقل : وأما الذين كفروا فلا يعلمون وعدل إلى فيقولون : لأن قولهم هذا يكون دليلا واضحاً على جهلهم ، إذ مرادهم : أى فائدة فيه ؟ قال تعالى فى جوابهم ﴿يُضِلُّ بِهِۦ﴾ أى بهذا المثل ﴿كَثِيرًا﴾ عن الحق لكفرهم به ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ من المؤمنين

لتصديقهم به ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعته فغلب الجهل على عقولهم وقابلوه بالإنكار ، وقد علموا أن الناس ما زالوا يضربون الأمثال بمثل ذلك ، يقولون : أعز من مخ البعوض ؛ وآكل من السوس . وأضعف من بعوضة ، وأجرأ من الذباب ، وجملة . «يضل به» جواب «ماذا» أى إضلال كثير وإهداء كثير : وضع الفعل موضع المصدر للإشعار بالحدوث والتجدد . وأصل الفسق : الخروج عن القصد ، والفاسق فى الشرع الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة : و «الفاسقين» منصوب بيضل : لا بالاستثناء لأنه مفرغ ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ ما عهده إليهم فى الكتب من الإيمان بمحمد أو عهده يوم الميثاق فى «ألست بربكم» والجملة صفة الفاسقين للذمّ ، وتقرير الفسق ، والنقض : فسخ التركيب ، وأصله فى طاقات الحبل ، واستعماله فى إبطال العهد من حيث أن العهد يستعار له الحبل لما فيه من ربط أحد المتعاهدين بالآخر ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ توكيده عليهم ، والميثاق : اسم لما يقع به الوثاقة وهى الإحكام . والمراد : ما وثق الله به عهده من الآيات والكتب . ويحتمل أن يكون بمعنى المصدر و «من» للابتداء ؛ فإن ابتداء النقض بعد الميثاق . قال عبد الرحمن الثعالبي : وكل عهد جائز بين المسلمين فنقضه لا يحل بهذه الآية ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم والرحم وغير ذلك . و «أن» بدل من ضمير به فى محل جر بدل نكرة من معرفة ؛ أو نصب بدل اشتمال من «ما» أو رفع بتقديره : هو أن يوصل ، والأمر : هو القول الطالب للفعل ، قيل مع العلوّ وقيل مع الاستعلاء ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصى والتعويق عن الإيمان ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المغبونون لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم بسبب استبدالهم النقض بالوفاء والقطع بالوصل ؛ والفساد بالصلاح ، وعقابها بثوابها . ولما وصفهم بالكفر وسوء المقال والفعال : خاطبهم على طريق الالتفات بالتوبيخ على الكفر ، مع علمهم بحالهم المقتضية خلاف ذلك ؛ فقال ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ﴾ قد ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ نطفة فى الأصلاب أو أجساماً لاحياة لها فى الأرحام ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ فى الأرحام بنفخ الروح فيكم والاستفهام للتعجب من كفرهم مع قيام البرهان أو للتوبيخ والمعنى أخبرونى على أى حال تكفرون ؟ وعطف فأحياكم بالفاء لاتصاله بما عطف عليه من غير تراخ بخلاف البواقى ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالبعث من القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تردون بعد الحشر فيجازيكم بأعمالكم وكيف محله نصب حال من الضمير فى تكفرون : أى معاندين تكفرون إنكار للحالة التى يقع عليها الكفر ؛ فهو أبلغ من أتكفرون ؛ فإن قيل : إن علموا أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم ثم يميتهم لم يعلموا أنه يحييهم ثم إليه يرجعون ؟ قلت : تمكنهم من العلم بهما بالدلائل منزل منزلة علمهم فى إزالة العذر . وقرأ يعقوب ترجعون بفتح التاء فى جميع القرآن ؛ ومعنى الرجوع هنا الصيرورة كقولهم الميت رجع إلى ربه ، وقولهم رجع أمرنا إلى فلان ؛ ولما بين

الله دلائل التوحيد والنبوة : والوعد على الإيمان والوعيد على الكفر كذلك : وأكد ذلك بعد النعم عليهم العامة والخاصة واستقباح صدور الكفر منهم معها : إذ عظام النعم يوجب عظم معصية المنعم، أشار إلى نعمة أخرى ، إذ نعمه لا تحصى فقال ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الأَرْضِ ﴾ أى الأرض وما فيها ﴿جَمِيعاً ﴾ حال من « ما » لتنتفعوا به فى دنياكم ودينكم بالنظر إلى ما فيه من العجائب الدالة على صانع قادر حكيم عليم . والتذكر بملاذها نعيم الآخرة ، وبمكارهها عذاب الآخرة . وهذه الآية بيان لنعمة أخرى ، وهى خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم ويتم به معاشهم والتى قبلها لخلقهم وما بعده ، ومعنى لكم أى لأجلكم ، واستدل به على أن أصل الأشياء بعد البعثة الإباحة إلا لدليل الحظر ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى ﴾ قصد بعد خلق الأرض ﴿ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ اسم جنس مفرده سماءة ﴿ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ الضمير يرجع إلى السماء لأنها فى معنى الجمع الآيلة إليه ، أى صيرها كما فى آية أخرى فقضاهن ﴿ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ مجملا ومفصلا ، أفلا تعتبرون أن القادر على خلق ما ذكر ابتداء وهو أعظم منكم ، قادر على إعادتكم وقيل معنى سوّاهن ، عدلهن ، مصونة من العوج ، وحينئذ فسبع سموات بدل أو تمييز كقولهم رُبه رجلا ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ كلهم ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ يخلفنى فى تنفيذ أحكامى فيها ، وهو آدم عليه السلام ونوابه من أبنائه من الأنبياء وورثتهم لأن كل نبى استخلفه الله فى عمارة الأرض وسياسة الناس ، والآية تعداد لنعمة ثالثة تعم الناس كلهم ، فإن خلق آدم وإكرامه ، وتفضيله على ملائكته بأن أمرهم بالسجود له إنعام يعم ذريته ، وإذ ظرف للماضى . منصوب باذكر مقدراً ، أو بما دلت عليه الآية المتقدمة مثل وبدأ خلقكم إذ قال ؛ فالجملة حينئذ معطوفة على «خلق لكم» داخلة فى حكم الصلة . والملائكة جمع ملأك على الأصل ، والتاء لتأنيث الجمع وهو مقلوب مألك من الألوكة وهى الرسالة ؛ لأنهم رسل الله إلى الناس ، وهم أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، و «جاعل» بمعنى مصير متعد إلى مفعولين وهما : فى الأرض، وخليفة . لأنه بمعنى الاستقبال معتمد على مسند إليه ، ويجوز أن يكون بمعنى خالق . والخليفة : من يخلف غيره وينوب منابه ، والهاء للمبالغة . وأخبر الملائكة ما ذكر ليسألوا عن حكمة الاستخلاف فيعرفوه قبل كون الخليفة لتعظيمه وإظهار فضله الراجح على ما فيه من المفاسد كما يأتى ولتعليم العباد المشاورة ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ بالمعاصى ﴿ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ يريقها بالقتل، عرفوا ذلك بإخبار من الله ، أو تلقٍّ من اللوح ، أو قياس على بنى الجانّ ، لأن الله لما خلق الأرض أسكن فيها الجن وأسكن فى السماء الملائكة ، فأفسدت الجن فى الأرض ، فبعث إليهم طائفة من الملائكة فطردتهم إلى جزائر البحار ورءوس الجبال وأقاموا مكانهم وأخبرهم الله أنه يريد أن يخلف آدم وبنيه فى الأرض ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ ﴾ ملتبسين ﴿ بِحَمْدِكَ ﴾ أى نقول : سبحان الله وبحمده ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ننزهك عما

لايليق بك : فاللام زائدة ، والجملة حال ، أى فنحن أحق بالاستخلاف . واعلم أن سؤالهم استكشاف عما خفى عليهم فى حكمته كسؤال المتعلم معلمه عما يختلج فى صدره ، وليس باعتراض على الله ولاطعن فى بنى آدم على وجه الغيبة فإنهم أعلى من أن يظنوا بذلك . والحاصل أنهم سألوا حكمة ترجيح بنى آدم على الملائكة المعصومين فى الاستخلاف ، ولذا أجابهم الله تعالى إجمالا بقوله ﴿ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾ من المصلحة فى استخلاف آدم ، وأن ذريته فيهم المطيع والعاصى فيظهر العدل بينهم والفضل وفيه بيان أن الحكمة تقتضى إيجاد ما يغلب خيره ، فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير ، فخلق الله آدم من الأرض بأن قبض منها قبضة من جميع ألوانها وعجنت بالمياه المختلفة ، وسوّاه ونفخ فيه الروح فصار حيا مستعداً لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات والموهومات . وألهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصها وأسماءها وأصول العلم وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها . كما قال تعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ﴾ بخلق العلم الضرورى له ﴿ ٱلْأَسْمَآءَ ﴾ أى أسماء المسميات بأن أراه الأجناس التى خلقها وعلمه أن هذا مثلا فرس، وهذا بعير، وهكذا ﴿ كُلَّهَا ﴾ حتى القصعة والقصيعة بكل اللغات و «آدم» اسم أعجمى فطلبُ الاشتقاق فيه تعسف ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ ﴾ أى المسميات ، وفيه تغليب العقلاء ﴿ عَلَى ٱلْمَلَآئِكَةِ ﴾ والعرض إظهارك الشىء عرضا لتعرف حاله ﴿ فَقَالَ ﴾ تبكيتاً لهم وتنبيها على عجزهم عن أمر الخلافة ، فإن التصرف والتدبير وإقامة العدل قبل تحقيق المعرفة محال ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ المسميات ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أنكم أحق بالاستخلاف لعصمتكم . واستخلافهم لايليق بالحكيم ، وهذا وإن لم يصرحوا به فهو لازم مقالهم ، وجواب الشرط دل عليه ما قبله ﴿ قَالُوا۟ ﴾ اعترافاً بالعجز والقصور وإعلاما بأن سؤالهم استفسار لااعتراض وقد بان لهم ماخفى عليهم من فضل الإنسان والحكمة فى استخلافه وإظهاراً لشكر نعمه بما أظهر لهم وكشف لهم ، ومراعاة للأدب بتفويض العلم كله إليه ﴿ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ تنزيها لك عن الاعتراض نصب على المصدرية بفعل واجب الحذف ولايكاد يستعمل إلا مضافا ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ إياه وليس فيه علم الأسماء ، وما : فى كل رفع بدل من موضع «لا علم» والعلم بمعنى المعلوم ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ﴾ تأكيد للكاف ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ غير المعلم ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فيما قضى ، الذى لايخرج شىء عن علمه وحكمته ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم ﴾ أى الملائكة ﴿ بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ أى المسميات فسمى كل شىء باسمه وذكر حكمته التى خلق لها «وأنباهم» بمعنى أعلمهم قرئ بقلب الهمزة وحذفها بكسر الهاء فيهما ولكن قراءتنا بالإسكان والتحقيق ﴿ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ ﴾ تعالى توبيخا لهم واستحضارا لقوله «أعلم مالا تعلمون» ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ما غاب فيهما مما كان وما يكون وفيه تعريض بمعاتبتهم على ترك الأولى وهو أن يتوقفوا عن السؤال إلى أن يبين لهم ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ تظهرون من قولكم «أتجعل فيها» إلى آخره ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ من أنكم أحق بالخلافة أو أنه تعالى

لا يخلق أفضل منكم ولا أعلم وهذه الآيات تدل على شرف الإنسان ، ومزية العلم وفضله على العبادة وأنه شرط فى الخلافة وأن العلم يصح أن ينال من الله من غير معلم آخر ، وأن اللغات توقيفية ، فإن الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو عموم ، وتعليمها تبيين معانيها وذلك يستدعى سبق وضع والأصل أن لا يكون من غير الله فيكون من الله وأن مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم ، لذكر الحكيم بعد العليم ، وأن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة ، وأن آدم عليه السلام أفضل من الملائكة ، لأنه أعلم منهم ، وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها . ذكر كل ذلك البيضاوى ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ كلهم ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ سجود تحية بالانحناء ، أو سجود عبادة لله إلى آدم تكرمة له كالصلاة إلى الكعبة اعترافاً بفضله ، واتفقت الأمة أن السجود لم يكن لآدم سجود عبادة بل إما كسلام الأعاجم بالانحناء أو وضعه قبلة كالسجود للكعبة وهو الأقوى وقد نسخ الله جميع ذلك . وقوله « وإذ قلنا » معطوف على إذ المتقدمة وخطابه تعالى للملائكة بالسجود متقرر قديم فى الأزل بشرط وجودهم وفهمهم وهكذا جميع أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته . والقصة بأسرها نعمة رابعة ، وأصل السجود التذلل وهو فى الشرع وضع الجبهة على قصد العبادة ، وقيل إنما أمروا بجعل آدم قبلة تفخيما لشأنه لكونه أنموذجا للموجودات كلها ونسخة لما فى العالم الروحانى والجسمانى وذريعة لهم إلى كمالاتهم ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ اسمه عزازيل ويكنى أبا الحارث وهو أبو الجن استثناء متصل إن كان من الملائكة ومنقطع إن لم يكن منهم ولم ينصرف لعجمته وتعريفه . قال الجاحظ : إن الجن والملائكة جنس واحد فمن طهر منهم فهو ملك ومن خبث منهم فهو شيطان ، ومن كان بين بين فهو جن . قاله النسفى فى مدارك التنزيل وقوله تعالى ﴿ أَبَىٰ ﴾ أى امتنع من السجود ﴿ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ عن أن يتخذه وصلة فى عبادة ربه ، محله نصب على الحال ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ فى علم الله أو برده الأمر لا بترك العمل به ، وفى الآية استقباح الاستكبار وأنه قد يفضى بصاحبه إلى الكفر . وفيها الحث على الائتمار بالأمر وترك الخوض فى سره وأن الأمر للوجوب . وأن الأعمال بالخواتم ولما كان آدم فى الجنة بلا مؤنس خلقت حواء من ضلعه الأيسر وهو نائم فاستيقظ فقال : من أنت ؟ فقالت : زوجتك ، أسكن إليك وتسكن إلى . قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ ﴾ تأكيد للضمير المستتر ، ليعطف عليه ﴿ وَزَوْجُكَ ﴾ حواء بالمد ﴿ الْجَنَّةَ ﴾ أى جنة الخلد وهى فى السماء السابعة ومعنى « اسكن » لازم الإقامة ، والأمر للإذن ﴿ وَكُلَا مِنْهَا ﴾ من ثمارها ﴿ رَغَدًا ﴾ أى أكلا واسعاً طيباً لا حجر فيه صفة مصدر محذوف ﴿ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ من أى مكان من الجنة لا تضييق عليكما : وسع عليهما إزاحة للعذر فى التناول من الشجرة المنهىّ عنها من بين أشجارها الفائتة للحصر . وقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ بالأكل منها وهى الحنطة أو الكرم أو التين أو غيرها ﴿ فَتَكُونَا ﴾ مجزوم عطفاً على « تقربا » أو منصوب جوابا للنهى أى تصيرا ﴿ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ العاصين الضارين أنفسهما لمخالفتى . وأصل الظلم : وضع الشىء فى غير محله ؛ وفى قوله « ولا تقربا » إلى آخره

مبالغات تعليق النهى بالقرب الذى هو من مقدمات التناول مبالغة فى تحريمه ووجوب الاجتناب عنه وتنبيهاً على أن القرب من الشىء يؤدى إلى الوقوع فيه وهو من قربه كسمعه وأما قرب منه : دنا ؛ فهو لازم ككرم . ولم يذكر فى القاموس قرب على وزن فعل بالفتح إلا قرب الإبل، ونحوها سارت ليلا لطلب الماء كنصر وكثيراً ما أرى فى شروح الحديث كالقسطلانى وغيره يقربه بضم الراء . ولا أدرى هل هو من تداخل اللغات أو له مادة كنصر والله أعلم . وفيه أن الوقوع فى المنهى يصيّر المرء ظالما ؛ لأن الفاء تفيد السببية ، سواء جعلته للعطف على النهى أو الجواب له ولما سكنا الجنة وأحباها حسدهما الشيطان لما طرد بسببهما فى قوله « اخرج منها فإنك رجيم » ثم وصل إليهما ابتلاء لهما ، والله أعلم كيف وصل ، قيل : إنما منع الدخول فى الجنة على وجه التكرمة لا على الوسوسة ، وقيل : قام بالباب متنكراً وناح نياحة أحزنتهما وهو أول من ناح ، فقالا : ما يبكيك ؟ قال: أبكى عليكما تموتان فتفارقان نعيم الجنة ، فاهتما لذلك ، ثم قال لآدم « يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد » وقاسمهما بالله أنه ناصح لهما فأكلا منها ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ إبليس أذهبهما وقرأ حمزة « فأزالهما » نحاهما ﴿عَنْهَا﴾ عن الجنة بغروره ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعم والكرامة ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ إلى الأرض أى أنتما بما اشتملتما عليه من ذريتكما أو هما وإبليس ﴿بَعْضُكُمْ﴾ بعض الذرية ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ من ظلم بعضكم بعضاً ، أو معنى العداوة التى بين المؤمنين وإبليس ، والجملة حال من ضمير . اهبطوا : استغنى فيها عن الواو بالضمير ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع قرار على وجهها أو فى القبور أو قرار ﴿وَمَتَاعٌ﴾ أى بلغة تتمتعون بها من نباتها وغيره ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وقت انقضاء آجالكم بالموت أو إلى يوم القيامة ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ﴾ فاعل تلقى أى أخذ ﴿مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ مفعول « تلقى » أى ألهمه إياها ، وفى قراءة لابن كثير بنصب « آدم » ورفع « كلمات » أى جاءته وهى « ربنا ظلمنا أنفسنا » الآية، فدعا بها ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قبل توبته وامرأته تابعة له ، وأصل التوب : الرجوع ، والمراد الرجوع عن الأحوال المذمومة إلى المحمودة بالاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على أن لا يعود إليه ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ كثير التوب على عباده الذى يقبل التوبة مرة بعد مرة وإن كثرت ، ولا يقال لغير الله التواب ﴿الرَّحِيمُ﴾ المبالغ فى الرحمة بهم ، وفى الجمع بين الوصفين : وعدٌ للتائب بالإحسان مع العفو ، واعلم أن أكل آدم وحواء من الشجرة لم يكن بقصد المخالفة لأمر الله واستحلال لها ، ولكنهما اغترّا بحلف إبليس وظنا أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً فنسيا العهد بغروره ، فأكلا ـ والمؤمن يخدع ـ ثم تاب الله عليهما ؛ وقد تولى القاضى عياض بيان ذلك فى الشفاء ، والله أعلم ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا﴾ من الجنة ﴿جَمِيعًا﴾ حال لفظاً تأكيد معنى ، وكرر الهبوط للتأكيد لشدة العناية بإنزالهم أو لاختلاف المقصود ؛ فالهبوط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا والثانى من السماء الدنيا إلى الأرض ، ؛ فأهبط آدم بسرنديب بالهند ، وحواء بجدة : وإبليس بالأبلة ؛ والحية بأصبهان ، أو ليعطف عليه ﴿فَإِمَّا﴾ فيه إدغام نون إن الشرطية فى ما المزيدة لتأكيد

إن ، ولذا حسن تأكيد الفعل بالنون وإن لم يكن فيه معنى الطلب ﴿ يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ فَمَنْ ﴾ شرط مرتفع محلا مبتدأ خبره ﴿ تَبِعَ هُدَايَ ﴾ فآمن بي وعمل بطاعتي ، وجواب الشرط الثاني ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ في المستقبل ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ في الآخرة أو على ما خلفوا ، والشرط الثاني مع جوابه جواب الشرط الأول ، وكرر لفظ الهدى ولم يضمر لأنه أراد بالثاني أعم من الأول وهو ما أتى به الرسل ، والثاني ما أتاه واقتضاه العقل ؛ فالخوف على المتوقع والحزن على الواقع نفى عنهم العقاب وأثبت لهم الثواب على آكد وجه وأبلغه ، ولما وعد المؤمنين أوعد الكافرين فقال عاطفاً على « فمن تبع » إلى آخره قسيما له وهو ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ لم يتبعوا هداي بل ﴿ كَفَرُوا ﴾ بآياتنا في قلوبهم ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ بألسنتهم ، والآية في الأصل : العلامة الظاهرة ، وفي العرف : طائفة من كلمات القرآن تميزت عن غيرها بفصل ، والمراد بها الآيات المنزلة أو ما يعمها ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ لامقر لهم سواها فصاروا أصحابها ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ماكثون فيها أبدا لا يفنون ولا يخرجون : فيه دليل على أن الكافر مخلد في النار وأن غيره لا يخلد فيها بمفهوم قوله « هم فيها خالدون » ولما ذكر الله دلائل التوحيد والنبوة والمعاد وعدد النعم العامة على جميع الناس تقريراً لها : خاطب أهل الكتاب والعلم خصوصاً بتذكير نعم خاصتهم ليذكروها ويوفوا بعهده في اتباع الحق ويكونوا أول من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه فقال ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أولاد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، وإسرائيل : لقب له معناه بالعبرانية : صفوة الله ، وقيل : عبد الله ، وذكر لقبه ليتذكروا معناه فيقتدوا به في العبودية وتصفية الأعمال لله ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ بتعليم ما لا يعلم غيركم وإدراك زمن النبي صلى الله عليه وسلم أو على آبائكم من الإنجاء من فرعون وفلق البحر وتظليل الغمام وغير ذلك بأن تشكروها بطاعتي ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ باجتناب النواهي وامتثال الأوامر ومنه الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم . يقال أوفيت بالشيء إذا بالغت في إتمامه ، أو هو ضد الغدر . والعهد : الاحتفاظ بالشيء حالا بعد حال ﴿ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ الذي عهدته إليكم من الثواب عليه بدخول الجنة والعهد يضاف إلى المعاهد والمعاهد ، ولعل الأول مضاف إلى الفاعل والثاني إلى المفعول ، والظاهر أن كليهما مضاف إلى المفعول ، والمعنى : أوفوا بما عاهدتموني من الإيمان والطاعة أوف بما عاهدتكم من حسن الإثابة ﴿ وَإِيَّايَ ﴾ ارهبوا إن كنتم راهبين شيئا ﴿ فَارْهَبُونِ ﴾ خافوني في ترك الوفاء وغيره دون غيري ، وناصب « إياي » محذوف دل عليه « فارهبون » لأنه قد أخذ مفعوله وهي الياء المحذوفة وهو آكد في إفادته التخصيص من « إياك نعبد » لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول والفاء الجزائية الدالة على تضمين الكلام معنى الشرط كما قررنا أولا ، والرهبة : خوف معه تحرز ، والآية متضمنة للوعد والوعيد دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد وأن المؤمن ينبغي أن لا يخاف أحداً إلا الله تعالى ، ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ ﴾ من القرآن حال كونه ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ من التوراة في التوحيد والنبوة

والقصص والمواعيد والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش ومعكم : نصب على الظرفية والعامل فيه الاستقرار ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ ﴾ حزب أو فريق ﴿ كَافِرٍ بِهِ ﴾ من أهل الكتاب لأن من خلفكم تبع لكم فإثمهم عليكم ، بل يجب أن تكونوا أول مؤمن به لمعرفتكم به ، والضمير فى « به » عائد على محمد صلى الله عليه وسلم وقيل على القرآن ، وقيل على التوراة لأن صفة محمد وكثيراً مما يقول فيها ، فمن كذبه كذب التوراة وأول ضد الآخر وزنه أفعل فاؤه وعينه واوان عند سيبويه ولم يتصرف منها فعل لاعتلال فائه وعينه وقال الكوفيون أصله « أوأل » من وأل : نجا ، أبدل الهمزة الثانية واواً مفتوحة وأدغم الأولى فيها ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا ﴾ تستبدلوا ﴿ بِآيَاتِي ﴾ التى فى كتابكم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم أو بالقرآن والإيمان بالجائى به ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ عوضا يسيرا من الدنيا أى لا تكتموها خوف فوات ما تنالونه من سفلتكم من الرياسة والمال أو من الرشا التى يحرفون الحق ويكتمونه بها وعبّر عنها بالثمن موافقة للفظ اشتروا ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ خافونى فى ذلك دون غيرى ، وإعرابه كما تقدم ، أى : فاتقونى بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن الدنيا . ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ما هو كالمبادئ لما فى الآية الثانية فصّلت بالرهبة التى هى مقدمة التقوى ، والخطاب بها لما عم العالم والمقلد : أمرهم بالسلوك ، والخطاب بالثانية لما خصّ أهل العلم : أمرهم بالتقوى التى هى منتهاه ، ثم عطف على ما تقدم قوله ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا ﴾ تخلطوا ﴿ الْحَقَّ ﴾ الذى أنزلته عليكم ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ الذى تغيرونه وتخترعونه وتكتبونه حتى لا يميز بينهما أو لا تجعلوا الحق ملتبسا بسبب خلط الباطل الذى تكتبونه فى خلاله أو تقولونه : فالباء للاستعانة أو السببية . قال أبو العالية : تقول اليهود : محمد نبىّ مبعوث . لكن إلى العرب لا إلينا ، فإقرارهم ببعثه حق ، وقولهم لا إلينا : باطل . انتهى ﴿ وَ ﴾ لا ﴿ تَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴾ نعت محمد فى التوراة بقولكم : لا نجد فى التوراة صفة محمد ، وتكتموا : مجزوم معطوف على تلبسوا ، أو منصوب جوابا للنهى بإضمار أن ، والواو للجمع . المعنى لا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وبين كتمان الحق ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه حق وأنكم لابسون كاتمون فإنه أقبح : فإن الجاهل قد يعذر . ولما أمرهم بأصول الإسلام . أمرهم بفروعه فقال عاطفا على ما تقدم : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أى صلاة المسلمين وزكاتهم ، فإن غيرهما كلا صلاة ولا زكاة ، والزكاة من زكا الزرع نما : لأن إخراجها يستجلب البركة فى المال أو من الزكاة : الطهارة ، لأنها تطهر المال وصاحبه من الخبث والبخل ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ محمد وأصحابه : لأن اليهود لا ركوع فى صلاتهم . أى : أسلموا واعملوا عمل الإسلام ، أو خص الركوع لأنه أثقل عليهم فى الجاهلية . ونزل فى أحبار المدينة وكانوا يأمرون سراً من نصحوه من أقربائهم وأصدقائهم باتباع محمد ولا يتبعونه ويأمرون بالصدقة ولا يتصدقون وإذا أتوا بالصدقات ليفرقوها خانوا فيها ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ المعروف : إيمان بمحمد وغيره ﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ تتركونها فلا تأمرونها به ﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾

توبيخ وتبكيت ، أى التوراة وفيها الوعيد على مخالفة القول العمل وعلى الخيانة وترك البر ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ سوء فعلكم فترجعون . فجملة النسيان محل الاستفهام الإنكارى أى التوبيخ على ترك العمل لا على الأمر به لأن الأمر بالحسن حسن وإن لم تعمل به ، لكن قلما نفعت موعظة من لم يعظ نفسه ، والبر : التوسع فى الخير بجمع جميع الطاعات ولذا قيل فى ثلاثة فى عبادة الله ، ومراعاة الأقارب ، ومعاملة الأجانب . والنسيان : السهو ، وأصله الترك ، إلا أن السهو يكون لما علمه الإنسان ولما لم يعلمه ، والنسيان ما عزب بعد حضوره وقيل بالعكس . وفى الآية : الأمر بشهود صلاة الجماعة . ولما أمرهم بما يشق عليهم من ترك الرياسة والإعراض عن المال ، عالجهم بقوله : ﴿وَٱسْتَعِينُوا﴾ على أموركم وحوائجكم ﴿بِالصَّبْرِ﴾ الحبس للنفس على ما تكره ومنه التوكل على الله فى انتظار النجح والفرج ﴿وَالصَّلَوٰةِ﴾ بأن تصلوها صابرين على ما يجب فيها من الإخلاص ودفع الوسواس ورعى الخشوع واستحضار علم القيام بين يدى الله . أفردها بالذكر تعظيما لشأنها ولجمعها أنواع العبادات النفسانية والمالية من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما والتوجه إلى الكعبة والعكوف للعبادة وإظهار الخشوع بالجوارح وإخلاص النية بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الحق وقراءة القرآن والتكلم بالشهادتين وكف النفس عن الأطيبين . وفى الحديث أنه عليه السلام كان إذا حزبه أمرٌ بادر إلى الصلاة . ويجوز أن يراد بها الدعاء ، وقيل : الخطاب لليهود لما عاقهم عن الإيمان الشره وحب الرياسة أمروا بالصبر وهو الصوم لأنه يكسر الشهوة ، والصلاة لأنها تورث الخشوع وتنفى الكبر ﴿وَإِنَّهَا﴾ الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ الساكنين إلى الطاعة فتهون عليهم لتوقع ما ادخر لهم . والخشوع : هيئة فى النفس يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع ، والخشوع يظهر فى الجوارح ، كما أن الخضوع وهو اللين والانقياد يكون فى القلب ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يوقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ﴾ بالبعث أو يتوقعون لقاءه ونيل ما عنده ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فى الآخرة فيجازيهم بأعمالهم ، فلذلك ارتاضوا بها وبغيرها حتى أن منهم من يستلذ بها . قال عليه السلام « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بالشكر عليها بطاعتى ، كرر نداءهم تأكيدا وتذكيراً التفضيل الذى هو أجل النعم خصوصا وربطه بالوعيد الشديد تخويفا لمن غفل عنها وأخلّ بحقوقها ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ﴾ أى آباءكم : عطف على «نعمتى» أى اذكروا نعمتى وتفضيلى إياكم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عالمى زمانكم ﴿وَٱتَّقُوا﴾ خافوا ﴿يَوْمًا﴾ أى ما فيه من الحساب والعذاب ﴿لَّا تَجْزِى﴾ أى لا تقضى فيه ﴿نَفْسٌ﴾ مؤمنة ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ كافرة ﴿شَيْـًٔا﴾ من الحقوق التى لزمتها أو شيئاً من الجزاء ، فيكون نصبه على المصدر وإيراده منكراً مع تنكير النفس للتعميم والإقناط الكلى ، والجملة صفة ليوما ، والعائد محذوف أى فيه ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾ بالياء للجمهور والتاء لابن كثير وأبى عمرو ﴿مِنْهَا﴾ من المؤمنة ﴿شَفَٰعَةٌ﴾ للكافرة أى ليس لها شفاعة

متقبل ، فما لنا من شافعين ، وهو رد لقول اليهود إن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ من الكافرة ﴿عَدْلٌ﴾ فداء يعدل المفدى ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لا يمنعون من عذاب الله تعالى ، والضمير لما دلت عليه النفس الثانية المنكرة الواقعة فى سياق النفى من النفوس الكثيرة وتذكيره بمعنى العباد والأناسى والنصرة أخص من المعونة لاختصاصها بدفع الضير والآية فى الكفار فلا دلالة فيها على نفى الشفاعة لأهل الكبائر كما قالت المعتزلة للأحاديث المتواترة التى تردهم ، ثم فصل ما أجمله فى قوله « اذكروا نعمتى » عاطفاً عليه عطف الخاص على العام قوله ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم﴾ آباءكم ، والخطاب به وبما بعده للموجودين فى زمن نبينا بما أنعم على آبائهم تذكيراً لهم بنعمة الله ليؤمنوا ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أهله وأتباعه وأصل آل : أهل ، أو أول ، وهو مختص بذوى الأقدار . وفرعون : لقب لكل من ملك من العمالقة بمصر ولعتوهم اشتق منه : تفرعن الرجل ، إذا عتى وتجبر ، وفرعون موسى : مصعب بن ريان أو ابنه وليد من بقايا عاد ، روى أنه من أهل اصطخر ، ورد مصر فاتفق له فيها الملك ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يولونكم ، من سامه خسفاً إذا ولاه ظلماً ، وأصل السوم الذهاب فى طلب الشىء كأنه قال يبغونكم ويذيقونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أشده وأقبحه ، والجملة حال من ضمير « نجيناكم » والسوء مصدر ساء يسوء ، ونصبه على المفعول الثانى ليسومونكم ، والأول « كم » ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ المولودين بيان لما قبله ، وأصل الذبح الشق ، والتشديد للتكثير ، وقرئ بالتخفيف ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ يستبقون ﴿نِسَاءَكُمْ﴾ لقول بعض الكهنة له : إن مولوداً يولد فى بنى إسرائيل يكون سبباً لذهاب ملكك . وفى الأعراف يقتلون تنويعاً وتفننا فأمر بقتلهم سنة وتركهم سنة ، فولد هارون فى سنة لا قتل فيها ، وموسى فى سنة القتل ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ العذاب من فرعون أو الإنجاء من الله ﴿بَلَاءٌ﴾ ابتلاء على الأول ، أو إنعام على الثانى ؛ لأن البلاء يراد بالشدة والنعمة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بتسليطهم أو بعث موسى ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة بلاء ، وفى الآية تنبيه على أن ما يصيب العبد من خير أو شر اختبار من الله تعالى ، فعليه الشكر على ما سر والصبر على ما ضر ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ فَرَقْنَا﴾ فلقنا ﴿بِكُمُ﴾ بسببكم حال ، وقرئ فرقنا بالتشديد للتكثير ﴿الْبَحْرَ﴾ بحر القلزم حتى صارت فيه مسالك اثنى عشر على عدد الأسباط فدخلتموه هاربين من عدوكم ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾ من الغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ قومه معه ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى انطباق البحر عليهم ﴿وَ﴾ اذكروا أيضاً ﴿إِذْ وَاعَدْنَا﴾ بألف للجمهور ودونها لأبى عمرو البصرى فى جميع القرآن ﴿مُوسَىٰ﴾ اسم أعجمى ، مفعول أول لواعدنا ؛ والثانى ﴿أَرْبَعِينَ﴾ أى تمامها وليس ظرفا ، إذ ليس معناه نعطيه فى أربعين ﴿لَيْلَةً﴾ نعطيه عند انقضائها التوراة لتعملوا بها : إذ الوعد كان بعد رجوع بنى إسرائيل مع موسى إلى مصر بعد هلاك فرعون وليس لهم كتاب ينتهون إليه فى الشريعة ، وعد الله موسى إعطاء التوراة وضرب لهم ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذى الحجة فذهب إلى الطور ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ الذى صاغه لكم السامرى إلهاً ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ بعد ذهابه إلى ميعادنا ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾

باتخاذه لوضعكم العبادة فى غير محلها ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم ﴾ محونا ذنوبكم حين تبتم ﴿ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ الاتخاذ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعمتنا عليكم ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ ﴾ التوراة ﴿ وَالْفُرْقَانَ ﴾ عطف تفسير أى الفارق بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، وقيل : المراد به معجزاته الفارقة بين الحق والباطل ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ به من الضلالة بالتدبر فيه والتفكر ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ الذين عبدوا العجل ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ إلهاً ﴿ فَتُوبُوا ﴾ ارجعوا ﴿ إِلَىٰ ﴾ عبادة ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ خالقكم لعبادته كأنهم قالوا : كيف نرجع ؟ قال ﴿ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ أى ليقتل البرىء من عبادة العجل منكم المجرم بعبادته ، وقيل : فاقتلوا أنفسكم بقطعها عن الشهوات كما قيل : من لم يعذب نفسه لا ينعمها ، ومن لم يقتلها لا يحييها ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ القتل ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ فوفقكم لفعل ذلك وأرسل عليكم سحابة سوداء لئلا يبصر بعضكم بعضاً فيرحمه ، إذ جعل الذين عبدوا العجل صفاً وأخذ الذين لم يعبدوه السلاح فقتلوهم حتى قتل منكم نحو سبعين ألفاً ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ قبل توبتكم ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ ﴾ المتفضل بقبول التوبة ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعفو الحوبة . والفاء الأولى من قوله « فتوبوا » للتسبب ، لأن الظلم سبب التوبة ، والثانية للتعقيب أى اعزموا على التوبة فاقتلوا ، والثالثة متعلقة بشرط محذوف أى إن فعلتم ذلك فقد تاب عليكم ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ ﴾ وقد خرجتم مع موسى وأنتم سبعون أو أقل لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل وسمعتم كلامه ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ لأجل قولك ، أو لن نقر لك أن الله كلمك ﴿ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ عياناً لا ساتر بيننا وبينه ، ونصبها على المصدر لأنها نوع من الرؤية أو على الحال من الفاعل أو المفعول وقرئ بفتح الهاء مصدر كغلبة أو جمع جاهر حال ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّٰعِقَةُ ﴾ الصيحة لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل فمتم ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ إلى ماحل بكم فكنتم ميتين يوما وليلة وموسى يدعو ويقول : أى رب كيف أرجع إلى بنى إسرائيل دونهم وهم خيارهم ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم ﴾ أحييناكم ﴿ مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ لتستوفوا آجالكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعمتنا بذلك الإحياء وقبول التوبة ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ سترناكم بالسحاب الرقيق من حر الشمس فى التيه ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ﴾ فى التيه ﴿ الْمَنَّ ﴾ الترنجبين أو شيئا يشبهه حلو الطعم ينزل عليهم مثل الثلج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لكل إنسان صاع ﴿ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ هو طير السمانى بتخفيف الميم والقصر ـ كحبارى ـ نوع من الطير أو السلوى طائر يشبه السمانى يبعث الله عليهم الجنوب فيحشر عليهم السلوى فيذبح الرجل منها ما يكفيه ، وكان كل إنسان يأخذ من النوعين كفايته إلى الغد إلا يوم الجمعة يأخذ ليومين لأنه لم يكن ينزل يوم السبت وينزل عليهم بالليل عمود نار يسيرون فى ضوئه ، وكانت ثيابهم لا تتسخ ولا تبلى ببركة موسى عليه السلام . وفى البخارى من حديث سعيد بن زيد رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » . قال القسطلانى « الكمأة » بفتح الكاف وسكون الميم والهمزة المفتوحة : شىء ينبت بنفسه من غير استنبات : أحمر ، وماؤها شفاء

للعين إذا رُبى بها الكحل والتوتية وغيرهما مما يكتحل به ، لا مفردة . وقال النووى : الصواب أن مجرد ماتها شفاء مطلقاً لأنها من الحلال الذى ليس فى اكتسابه شبهة فأصله من المن الذى أنزل على بنى إسرائيل ، والله أعلم ، وقال عبد الرحمن الثعالبى : المن صمغة حلوة ، هذا قول فرقة ، وقيل هو عسل ، وقيل هو الذى ينزل اليوم على الشجر . اه . وقلنا ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ولا تدخروا ، فظلموا بأن كفروا هذه النعم وادخروا فقطع عنهم ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ بذلك ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ لأن ضرره عليهم ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ لهم بعد خروجهم من التيه ﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ بيت المقدس أو ـ أريحاء ـ كزليخاء وكربلاء : قرية بالشام ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ من طعامها وثمارها ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً ﴾ واسعاً طيباً لا حجر فيه ، ونصبه على المصدر أو الحال من الواو أى أكلا واسعاً أو موسعين ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ ﴾ أى بابها ﴿ سُجَّداً ﴾ منحنين شكراً لله على الدخول والإخراج من التيه ﴿ وَقُولُوا ﴾ فى السجود مسألتنا ﴿ حِطَّةٌ ﴾ أن تحط عنا خطايانا ، أو أمرنا حطة أى أن نحط فى هذه القرية ونستقر بها ، وهى فعلة من الحط مرفوع خبر مبتدأ محذوف ، وقرئ بالنصب من الأصل بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة ، أو على أنه مفعول : قولوا ، أى هذه الكلمة . وقال القسطلانى : سجداً : حال من فاعل ادخلوا جمع ساجد ، أى متطامنين منحنين شكراً لله على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم إليهم وإنقاذهم من التيه . وعن ابن عباس فيما رواه ابن جرير : سجّداً ركعاً ، وعن بعضهم : المراد به الخضوع لتعذر حمله على حقيقته . وقولوا حطة : قيل أمروا أن يقولوها على هذه الكيفية بالرفع على الحكاية . اه . ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ بالياء لنافع ، وبالتاء لابن عامر مبنياً للمفعول فيهما ، ولغيرهما بالنون ﴿ خَطَايَاكُمْ ﴾ بسجودكم ودعائكم ﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بالطاعة ثواباً ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ منهم بالذى قيل لهم من التوبة والاستغفار ﴿ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ من طلب ما يشتهونه من أغراض الدنيا فقالوا : حبة فى شعرة ، يعنون حنطة حمراء ، ودخلوا يزحفون على أستاههم أى أوراكهم ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر مبالغة فى تقبيح أمرهم وإشعاراً بأن الإنزال عليهم لظلمهم ﴿ رِجْزاً ﴾ عذاباً طاعوناً مقتراً ﴿ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ بسبب فسقهم أى خروجهم عن الطاعة فهلك منهم فى ساعة سبعون ألفاً أو أربع وعشرون ألفاً ﴿ وَ ﴾ اذكروا ﴿ إِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى ﴾ طلب السقيا ﴿ لِقَوْمِهِ ﴾ وقد عطشوا فى التيه ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ ﴾ التى حملها آدم من الجنة وتوارثها الأنبياء إلى أن وصلت إليك واسمها نبعة طولها عشرة أذرع كطولك من عليق الجنة ﴿ الْحَجَرَ ﴾ فأل فيه للعهد على ما روى أنه حجر طورى حمله معه له أربعة أوجه تنبع من كل وجه ثلاث أعين تسيل كل عين فى جدول إلى سبط وكانوا ستمائة ألف وسعة العسكر اثنا عشر ميلا ، أو حجر أهبطه آدم من الجنة ووقع لشعيب فأعطاه موسى مع العصا ، أو هو الحجر الذى فر بثوبه لما وضعه عليه ليغتسل وبرأه الله به عما رماه بنو إسرائيل به من الأدرة فأشار إليه جبريل بحمله وهو خفيف مربع قدره ذراع

فى ذراع رخام أو كذان ، والرخام ـ كغراب ـ الأبيض الرخو من الحجارة . والكذان ـ بذال معجمة ـ قال فى القاموس : ككتان : حجارة رخوة كالمدر ، والكذكذة : حمرة شديدة ، وكذ : خشن . اه . وقيل : أل للجنس قال البيضاوى : وهذا أظهر فى الحجة . اه . فضربه ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ انشقت وسالت ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ بعدد الأسباط ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ سبط منهم ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾ موضع شربهم فلا يشركهم فيه غيرهم وقلنا لهم ﴿كُلُوا﴾ من المن والسلوى ﴿وَاشْرَبُوا﴾ من ماء العين ﴿مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لعاملها ، من عثى ـ بكسر المثلثة ـ أفسد . واعلم أن هذه القصص لبنى إسرائيل لما سيقت فى البقرة لتذكير النعم ناسبت فيها نسبة القول فى « وإذ قلنا ادخلوا » إلى الله تعالى ، وناسب ذكر « رغداً » و « فانفجرت » لأنه أبلغ من « انبجست » وتقديم « ادخلوا الباب سجداً » و « يغفر لكم » و « خطاياكم » لأنه جمع كثرة والواو فى « وسنزيد » الدالة على الجمع بينهما والفاء فى « فكلوا » لأنه يعلم تعقبه بالدخول بخلاف آيات الأعراف فإنها لما افتتحت بالتوبيخ فى « اجعل لنا » ناسب « وإذ قيل » وترك « رغداً » والسكنى تجامع الأكل ولذا قال « فكلوا » وناسب ترك الواو فى « سنزيد » ولما تقدم تبعض الهادين فى قوله « ومن قوم موسى أمة » ناسب تبعض الظالمين بقوله « منهم » وناسب « فأرسلنا » لأن الإرسال أشد من الإنزال ، وناسب « يظلمون » لأن الظلم يلزم منه الفسق ، والفسق لا يلزم منه الظلم فاعتبر مناسبات القرآن والله يفتح لمن يشاء ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ﴾ أى نوع منه ﴿وَاحِدٍ﴾ أى لا يتبدل وهو المن والسلوى وكانوا فلاحين فطلبوا ما يجانسهم بقوله ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وقل له أخرج لنا ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ شيئاً ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ وما موصول أو موصوف ﴿مِنْ﴾ للبيان ﴿بَقْلِهَا﴾ فى محل حال من الضمير المحذوف ، أى مما تنبته كائناً من بقلها ، ومن لبيان الجنس والمراد أصناف البقول التى يأكلها الناس ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ المعروف وهو الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾ حنطتها ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ المعروفين ﴿قَالَ﴾ لهم موسى منكراً عليهم ، أو الله تعالى على لسان نبيه ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أخس منزلة من البقول ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أشرف وهو المن والسلوى ، أى أتأخذونه بدله . والهمزة للإنكار ، فأبوا أن يرجعوا ، فدعا الله ، فقال تعالى : ﴿اهْبِطُوا﴾ انزلوا ﴿مِصْرًا﴾ من الأمصار بعد التيه ﴿فَإِنَّ لَكُمْ﴾ فى كل مصر نزلتم لا فى التيه ﴿مَا سَأَلْتُمْ﴾ من النبات ، وبلاد التيه هى ما بين المقدس إلى قنسرين وهى اثنا عشر فرسخاً فى ثمانية فراسخ ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ أى جعلت عليهم الذل والهوان وأحيطت بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليها أو ألصقت بهم من ضرب الطين على الحائط ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أثر الفقر من السكون والخزى فهى لازمة لهم وإن كانوا أغنياء خيفة أن تضاعف عليهم الجزية أو طبعاً لزوم الدرهم المضروب لسكته ﴿وَبَاءُوا﴾ استحقوا ورجعوا ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ بذمهم فى الدنيا وعقوبتهم فى الآخرة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الضرب والغضب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ مما عد عليهم من

فلق البحر وإظلال الغمام وإنزال المن والسلوى وانفجار العيون من الحجر وبالشك فى الآيات المنزلة فى الإنجيل والقرآن ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ كشعياء وزكريا ، ويحيى ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى ظلماً واتباعاً للهوى : حال من الضمير فى « يقتلون » أى مبطلين ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى كفرهم وقتل الأنبياء ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ حدود الله أى جرهم العصيان إلى الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ باللسان وهم المنافقون ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ دخلوا فى اليهودية وهم اليهود ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ أتباع عيسى ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ بغير همز لنافع ، وبهمز لغيره : طائفة من اليهود أو النصارى صبأوا : أى خرجوا من دينهم وعبدوا الملائكة ﴿مَنْ آمَنَ﴾ منهم ، شرط مبتدأ وخبره ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إيماناً خالصاً ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وجواب الشرط ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أى ثواب أعمالهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أو « من » شرط خبره جوابه ، والشرط وما اتصل به خبر « إن » أو بمعنى الذى ومحله نصب بدل من اسم إنّ والمعطوف عليه ، والخبر « فلهم » الجملة والعائد محذوف ، أى منهم ، والفاء لتضمن « من » معنى الشرط ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ روعى فى ضمير « آمن وعمل » لفظ من وفيما بعده معناها ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ عهدكم بالعمل بما فى التوراة ﴿وَ﴾ قد ﴿رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ الجبل اقتلعناه من أصله عليكم لما أبيتم قبولها : روى أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة وقرءوا ما فيها من التكاليف الشاقة أبوا قبولها فقطع جبريل عليه السلام جبلا على قدر عسكرهم وجعله على رءوسهم كالظلة قدر قامة الرجل فقيل لهم إن أبيتم رضختم بالجبل ، فوقعوا سجّداً وقالوا قبلنا ، وقلنا لكم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ بالدرس والتفكر والعمل به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ النار أو المعاصى ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن الطاعة ووفاء الميثاق ﴿مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الميثاق وقبول التوبة ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإمهال ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بالتوبة والإحسان ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الهالكين ، لكن أمهلكم برحمته فتاب بعض وكان من ذرية بعضكم من آمن ثم أنذرهم وذكرهم بما جرى لمن تقدمهم فقال : ﴿وَلَقَدْ﴾ اللام موطئة للقسم ﴿عَلِمْتُمُ﴾ عرفتم ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا﴾ تجاوزوا الحد ﴿مِنْكُمْ﴾ فى زمن داود عليه السلام ﴿فِي السَّبْتِ﴾ بصيد السمك وقد نهيناهم عنه وهم أهل أيلة . والسبت مصدر سبتت اليهود عظمت السبت بالتجرد للعبادة : وكانوا بعد النهى إذا كان يوم السبت لم يبق حوت فى البحر إلا حضر ساحلهم وأخرج خرطومه فإذا مضى تفرقت فحفروا حياضا وشرعوا إليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا﴾ صيروا ﴿قِرَدَةً﴾ جمع قرد وأصله التلبد واللصوق ، ومنه القراد وهذا أمر تحويل لأنهم لا قدرة لهم على التحول ﴿خَاسِئِينَ﴾ مبعدين فكانوها وهلكوا بعد ثلاثة أيام وأصل الخسوء الطرد والإبعاد يستعمل متعديا ولازماً : خسأته خسئاً ، وخسأ خسوءاً ، وخاسئين خبر ثان لكان أو حال أو نعت للقردة . وعن مجاهد : إنما مسخت قلوبهم دون

صورهم ، وهو خلاف الإجماع ، وفى القصة حجة لمالك فى منع الحيل فى الشرع مطلقاً وجوّزها بعض العلماء ما لم يكن فيها إبطال حق أو إحقاق باطل ، قالوا : وإنما لم تجز حيلة اليهود لأنها عين المنهى عنه ، والله أعلم ﴿ فَجَعَلْنَاهَا ﴾ العقوبة أو المسخة أو القردة ﴿ نَكَالًا ﴾ عبرة مانعة من ارتكاب مثل ماعملوا أصله من النكل وهو القيد ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم ، إذ ذكرت حالهم فى زبر الأولين واشتهرت قصتهم فى الآخرين أو لمعاصريهم ومن بعدهم أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها ، أو لأهل تلك القرية وما حولها ، أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر عنها ﴿ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ لكل متق سمعها ، خصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بها بخلاف غيرهم ﴿ وَ ﴾ اذكروا ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ وقد قتل لهم قتيل لا يدرون قاتله وسألوه أن يدعو الله أن يبينه لهم فدعاه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ فتضربوا القتيل ببعضها فيحيا فيخبركم عن قاتله ، وسميت « بقرة » لبقرها الأرض ، والهاء للوحدة لا للتأنيث . وأول هذه القصة قوله الآتى « وإذ قتلتم نفساً » وقدم هذا عليه لاستقلاله بنوع آخر من مساويهم وهو الاستهزاء والاستقصاء فى السؤال وترك المسارعة إلى الامتثال . وقوله « وإذ قال » معطوف على « نعمتى » المتقدم وكذا الظروف التى مضت والتى تأتى إلى قوله « وإذ ابتلى إبراهيم ربه » ﴿ قَالُوا ﴾ استبعاداً لما قاله واستخفافاً به ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أهل هزء أو مكان هزء أى مهزوءا بنا حيث تجيبنا بمثل ذلك ، وقرأ حمزة بإسكان الزاى ﴿ قَالَ أَعُوذُ ﴾ أمتنع ﴿ بِاللَّهِ ﴾ من ﴿ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ المستهزئين ، لأن الهزء فى مثل ذلك جهل ، وفيه تعريض لهم . ولما علموا أنه عزم ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ أى ماسنها إذ علموا ماهيتها وكان فيهم شيخ صالح له عجلة أتى بها إلى غيضة وقال : اللهم إنى أستودعكها لابنى حتى يكبر ، فمات ونشأ ابنه باراً لأمه لا يخالف أمرها فى شىء ، فأخبرته بالعجلة ، فأتى بها فأمرته ببيعها بثلاثة دنانير وكانت ثمن البقرة إذ ذاك ، فجاءه ملك فى زىّ آدمى فأعطاه ستة دنانير على أن لا يشاور أمه فأبى فأخبر أمه فأذنت فأعطاه اثنى عشر ديناراً على أن لا يشاور فأبى فأخبرها فقالت إن الذى يأتيك ملك فقل له : هل نبيع البقرة أم لا ؟ فقال لا تبيعوها إلا بملء مسكها ذهباً ، فلما تعنت بنو إسرائيل بسؤال وصف البقرة أخذ تعالى يصف لهم بقرة اليتيم وكانت منفردة بتلك الصفات ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى الله ﴿ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ ﴾ مسنة فرضت ـ بضم الراء وفتحها ـ طعنت فى السن : أى قطعتها إلى آخرها ﴿ وَلَا بِكْرٌ ﴾ صغيرة لم تلد ، مأخوذ من أول الشىء ومنه باكورة الفاكهة ، وحذفت الهاء منهما للاختصاص بالإناث كالحائض وارتفاعهما بإضمار مبتدأ وكذا ﴿ عَوَانٌ ﴾ نصف ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أى المذكور من الفارض والبكر ولذا لم يقل بين ذينك إرادة المذكور وحسن ذلك فى أسماء الإشارة لأن تثنيتها وجمعها وتأنيثها ليس بحقيقة . قاله الكواشى ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ به من ذبحها ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ شديدة الصفرة ، والفقوع : نصوع الصفرة ولذلك

يؤكد به فيقال : أصفر فاقع ، كما يقال : أسود حالك ﴿تَسُرُّ النَّٰظِرِينَ﴾ إليها لحسنها : أى تعجبهم فتلتذ قلوبهم بذلك . والسرور : لذة تحصل فى القلب عند حصول موجبها ، وجملة « تسر الناظرين » فى محل رفع خبر مبتدإ محذوف ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أسائمة أم عاملة ، كرر السؤال عن حالها وصفتها ليزدادوا بياناً ﴿إِنَّ الْبَقَرَ﴾ أى جنسه المنعوت بما ذكر ﴿تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ لكثرته فلم نهتد إلى المقصودة : اعتذار عن السؤال ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إليها . وفى استثنائهم فى هذا السؤال الأخير إنابة ما وانقياد ودليل ندم وحرص على موافقة الأمر . فى الحديث « لو لم يستثنوا لما بينت لهم إلى آخر الأبد » ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ غير مذللة بالعمل ، صيغة مبالغة ولذا لم تدخلها هاء ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ تقلبها للزراعة ، والجملة صفة « ذلول » داخلة فى النفى ، أو حال منه ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ الأرض المهيأة للزرع : أى ليست ساقية . قال البيضاوى : لاذلول صفة لبقرة بمعنى غير ذلول و « لا » الثانية مزيدة لتأكيد الأولى ، والفعلان صفتا « ذلول » كأنه قيل : لا ذلول مثيرة ولاساقية . اهـ . ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب وآثار العمل وهو خبر مبتدإ محذوف ، أو المعنى أخلص لونها ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا لون فيها يخالف لون جلدها فهى صفراء حتى فى قرونها وأظلافها وهى فى الأصل مصدر وشاه شية : خلط بلونه لونا آخر ﴿قَالُوا﴾ بعد تحقيقهم وصف البقرة ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ بحقيقة وصف البقرة : أى نطقت بالبيان التام ، فطلبوها فوجدوها عند الفتى البار بأمه فاشتروها بملء مسكها ذهبا كما تقدم ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ ذلك لغلاء ثمنها ، وفى الحديث « لو ذبحوا أىّ بقرة كانت لأجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم » ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ اسمه « عاميل » ﴿فَادَّٰرَأْتُمْ﴾ فيه إدغام التاء فى الأصل فى الدال : أى تخاصمتم وتدافعتم ﴿فِيهَا﴾ لأن كل واحد يدفع عن نفسه ويحيل على صاحبه ، والجمع فى « قتلتم » لوجود القتل فيهم ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ مظهر ﴿مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ من أمرها وهذا هو أول القصة أخر لأن الغرض الأهم إنما هو ذبح البقرة للكشف عن القاتل ثم ذكر القتل مبالغة فى توبيخهم ، وهو اعتراض بين المعطوف عليه والمعطوف . وهو ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ أى القتيل ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أىّ بعض كان ، وقيل بأصغريها ، وقيل : بفخذها الأيمن ، وقيل : بالأذن ، وقيل : بعجب ذنبها . وفى الكلام حذف ، أى : فضرب لحيي فقام وأوداجه تشخب دماً وقال قتلنى فلان وفلان لابنى عمه ، ثم مات ، لحرما الميراث وقتلا ، قال تعالى مخاطبا من حضر إحياءَ القتيل أو نزول الآية ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ دلائل قدرته ، ومحل الكاف نصب صفة مصدر محذوف ، أى لحيي إحياء مثل إحياء الموتى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ المراد منكم ، فتعلمون أن القادر على إحياء نفس واحدة قادر على إحياء نفوس كثيرة فتؤمنون . وقد استدل مالك رحمه الله بما تقدم من قول القتيل وقتل قاتله على صحة القول فى القسامة بقول المقتول : « دمى عند فلان »

لأن شرع من مضى من الأنبياء ـ بما أخبرنا نبينا عليه السلام عنهم ـ شرعٌ لنا إلا ما بيّن نسخه ، وهذا صريح مذهب مالك فى مسائله كلها ، واستفيد من القصة حسن تقديم القربة على الطلب ، وتعليم العباد ترك التشديد فى الأمور والمسارعة إلى امتثال أوامر الله من غير تفتيش ولا تكثير سؤال وأن من أراد إحياء قلبه بالمشاهدات فليمت نفسه بأنواع المجاهدات ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أيها اليهود : صلبت عن قبول الحق ، وقسوة القلب : نبوُّه عن الاعتبار ﴿مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إحياء القتيل وما قبله من الآيات استبعاد لذلك مع ما يقتضى لين القلوب ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ﴾ فى القسوة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ منها ، والمعنى أنها فى القساوة مثل الحجارة أو زائدة عليها أو أنها مثلها أو مثل أشد منها قسوة كالحديد لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وإنما لم يقل أقسى لما فى أشد من المبالغة والدلالة على اشتداد القسوتين واشتمال المفضل على زيادة وأو للتخيير أو للترديد بمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى منها ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَٰرُ﴾ من خشية الله ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ فيه إدغام التاء فى الأصل فى الشين ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ عيونا دون الأنهار من خشية الله ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ ينزل من علو إلى سفل ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ بمعنى الانقياد لأمره وقلوبكم لا تتأثر ولا تلين ولا تخشع ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء لنافع والجمهور ضما إلى ما بعده وبالياء التحتية لابن كثير وفيه التفات عن الخطاب ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ أى اليهود ﴿لَكُمْ﴾ لأجل دعوتكم أو يصدقوكم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ﴾ طائفة ﴿مِّنْهُمْ﴾ أحبارهم أو من أسلافهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ اللَّهِ﴾ فى التوراة ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ يغيرونه فى لفظه كنعت محمد وآية الرجم أو تأويله فيفسرون بما يشتهون ، وقيل هؤلاء من السبعين الذين سمعوا كلام الله مع موسى ثم قالوا : سمعنا الله يقول : إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ فهموه بعقولهم ولم يبق فيه ريبة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مفترون ، والهمزة للإنكار أى لا تطمعوا فلهم سابقة فى الكفر ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ منافقو اليهود ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ بأن محمداً نبي وهو المبشر به فى كتابنا ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا﴾ أى رؤساؤهم الذين لم ينافقوا لمن نافق إظهاراً للتصلب فى اليهودية ومنعا لهم من إبداء ما وجدوه فى كتابهم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ أى المؤمنين ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أى عرّفكم فى التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، والفتح إزالة الأغلاق ولازمه البيان ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ فى الآخرة ويقيموا عليكم الحجة فى ترك اتباعه مع علمكم بصدقه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنهم يحاجونكم إذا حدثتموهم فتنتهوا ، ثم استفهمّ فقال ﴿أَ﴾ جهلوا ﴿وَلَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستفهام للتقرير والواو الداخلة عليه للعطف على المحذوف أى يعلمون ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ مما فتح الله عليهم وتحريف الكلم وإسرار الكفر ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون كالإيمان الظاهر فيرعووا عن ذلك !

ولما خاطب علماء اليهود بالعناد والتحريف مع العلم أردفهم بعوامهم الذين قلدوهم على ذلك لأن على العالم أن يعمل بما علم وعلى الجاهل أن يطلب العلم فقال ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أى اليهود ﴿أُمِّيُّونَ﴾ عوام جاهلون لا يطمع فى إيمانهم لما غمرهم من الضلال والتقليد ، والأمىّ . هو الذى لا يكتب ولا يقرأ منسوب إلى الأم كأنه لم ينتقل عن حال ولدته أمه فيها ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ التوراة فيكونوا على بصيرة أو بيان للأمىّ أى لا يعلمون الكتب فيطالعون التوراة ﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿أَمَانِيَّ﴾ أكاذيب تلقوها من رؤسائهم فاعتمدوها جمع أمنية بمعنى الكذب ، ومنه قول عثمان رضى الله عنه : ما تمنيت منذ أسلمت . أو بمعنى التلاوة أى يقرءون التوراة ولا يعرفون معناها ، أو بمعنى التقدير أى ما يقدرونه تخرصاً أن آباءهم يشفعون لهم ونحو ذلك والاستثناء منقطع ، لأن الأمانى على الكل ليست من جنس العلم ﴿وَإِنْ﴾ ما ﴿هُمْ﴾ فى جحد نبوة النبى وغيره مما يكذبون ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ظنا ولا علم لهم ﴿فَوَيْلٌ﴾ شدة عذاب ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ المحرف بالتأويلات الزائفة ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ أى مختلقا من عندهم ، وذكر اليد لتحقيق مباشرتهم فى الكتب . زيادة تقبيح فعلهم ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أى إنه كذلك فى التوراة ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا﴾ عوضا ﴿قَلِيلًا﴾ من الدنيا وهم اليهود : غيروا صفة النبى فى التوراة وآية الرجم وغيرها وكتبوها على خلاف ما أنزل ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المختلق ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ بذلك من الرشا ورياستهم وذكر السدى أنهم كانوا يكتبون كتباً يبدلون فيها صفة النبى ويبيعونها من الأعراب ويبثونها فى أتباعهم أو ما يكسبون من المعاصى والويل كلمة يقولها كل واقع فى هلكة بمعنى الدعاء على النفس بالعذاب وهو مصدر فى الأصل ولم يستعمل له فعل ، لأن فاءه وعينه معتلان أو هو واد فى جهنم لو سيرت فيه الجبال لذابت من حره ، وأصل الكسب الفعل لجر نفع ، أو دفع ضرّ ولذا لا يوصف به تعالى ﴿وَقَالُوا﴾ لما وعدهم النبى النار ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ تصيبنا ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ سبعة أو أربعين مدة عبادة آبائهم العجل ثم تزول ، وأياماً نصب على الظرفية لا بالاستثناء ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ حذف فيه همزة الوصل استغناء بهمزة الاستفهام ، قرأ ابن كثير بإظهار الذال ، والباقون بالإدغام ﴿عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ ميثاقاً منه بذلك وإن اتخذتم ذلك ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ به والاستفهام للنفى أى لا ﴿أَمْ﴾ بل ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأم منقطعة ، ويجوز أن تكون معادلة بالهمزة بمعنى أى الأمرين كائن على سبيل التقرير ، لأن العلم واقع بكون أحدهما « وما » موصولة أو نكرة موصوفة أى : إن كان لكم عنده عهد فلا ينقض ولكنكم تكذبون ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب لإثبات ما بعد النفى أى بلى تمسكم النار وتخلدون فيها ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ شركا ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ بالجمع لنافع وبالإفراد للباقين استولت عليه وأحدقت به من كل جانب بأن مات مشركا ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ملازموها فى الآخرة كما لازموا أسبابها فى الدنيا ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ روعى

فيه معنى من ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهذه الآية تدل على أن التى قبلها فى الكفار لا فى العصاة ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فى التوراة وعلى لسان موسى وغيره من أنبيائهم ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ بالتاء لنافع وابن عامر وأبى عمرو وعاصم ويعقوب ، والياء للباقين ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ خبر بمعنى النهى وهو أبلغ لما فيه من إيهام أن المنهى مسارع إلى الانتهاء فهو يخبر عنه ، ويؤيده قراءة «لاتعبدوا» ﴿وَ﴾ تحسنون أو أحسنوا ﴿بِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ برا ودخل فيه جميع أنواع البر ﴿وَذِى الْقُرْبَىٰ﴾ القرابة عطف على الوالدين ووحد « ذى » إرادة للجنس ﴿وَالْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم : من لا أب له كنديم وندامى ، وهو قليل ﴿وَالْمَسَٰكِينِ﴾ جمع مسكين : مفعيل من السكون كأن الفقر أسكنه ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ﴾ قولا ﴿حُسْنًا﴾ بضم الحاء وسكون السين مصدر وصف به مبالغة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدق فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم والرفق بهم ، وقرأ حمزة والكسائى بفتحتين وفيه الأمر بمكارم الأخلاق ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ يريد بهما ما فرض عليهم فى ملتهم أى أخذنا عهدكم يابنى إسرائيل بجميع المذكور فقبلتم وأقبلتم عليه ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن الوفاء بالميثاق ، فيه التفات عن الغيبة والمراد آباؤهم . قال الثعالبى : خطاب لمعاصرى النبى صلى الله عليه وسلم أسند إليهم تولى أسلافهم إذ هم كلهم بتلك السبيل . اه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ ممن أسلم ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ عنه أى عادتكم الإعراض كآبائكم ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ وقلنا لكم ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ لايريق بعضكم دم بعض لأن من أراق دم غيره فكأنما أراق دمه ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ لا يخرج بعضكم بعضاً من داره بالإجلاء عن الوطن ودخل فيه من ضر جاره حتى ألجأه إلى الخروج ومن وجدتم أسيراً فاشتروه وأعتقوه . وارتفاع تسفكون وتخرجون على تقدير حذف أن وحذفها على ماتقدم فى « لا تعبدون » ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ قبلتم الميثاق واعترفتم بلزومه عليكم ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ على أنفسكم بهذا الإقرار وأنتم أيها الموجودون اليوم تشهدون على إقرار أسلافكم ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الناقضون ، استبعاد لما ارتكبوه بعد الميثاق والإقرار به والشهادة عليه « وأنتم » مبتدأ و « هؤلاء » خبره على معنى : أنتم بعد ذلك هؤلاء الناقضون كقولك أنت ذلك الرجل الذى فعل كذا ، نزّل تغير الصفة منزلة تغير الذات ، وقيل مبتدأ وخبر على تقدير مثل كقولهم أبو يوسف أبو حنيفة وقيل « هؤلاء » منادى حذف فيه حرف النداء وإن كان قليلا ، وجملة ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ بقتل بعضكم بعضاً حال أو خبر أنتم على القول الأخير ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَّٰهَرُونَ﴾ بإدغام التاء فى الأصل فى الظاء لنافع وابن عامر وأبى عمرو وابن كثير ، وفى قراءة لعاصم وحمزة والكسائى بالتخفيف على حذف التاء أى تتعاونون وهو حال من فاعل تخرجون أو من مفعوله أو كليهما ﴿عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ﴾ المعصية ﴿وَالْعُدْوَٰنِ﴾ الظلم ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ﴾ حال كونهم ﴿أُسَٰرَىٰ﴾ جمع أسير كقديم وقدامى

أو جمع أسرى كسكارى وسكرى ، وفى قراءة حمزة : أسرى جمع أسير كجريح وجرحى ﴿تُفَـٰدُوهُمْ﴾ لنافع وعاصم والكسائى والمفاعلة على بابها لأن الأسير يعطى المال، والآسر يعطى الإطلاق أو من واحد كعاقبت اللص ، يؤيده قراءة ابن كثير وأبى عمرو وابن عامر وحمزة تفدوهم ، المعنى تنقذوهم من الأسر بالمال أو غيره وهو مما عهد إليهم كما تقدم أو تطلقونهم بعد أن تأخذوا عنهم شيئاً ، وقال الثعالبى يقال فدى إذا أعطى مالا وأخذ رجلا ، وفادى إذا أعطى رجلا وأخذ رجلا فتفدوهم معناه بالمال ، وتفادوهم أى مفاداة الأسير بالأسير . اهـ . والصواب لا فرق بينهما والله أعلم ﴿وَهُوَ﴾ الشأن ﴿مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ متصل بقوله « وتخرجون » والجملة بينهما اعتراض أى كما حرم ترك الفداء وكانت قريظة حالفوا الأوس والنضير وبنو قينقاع الخزرج ، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه أى يعينهم فى القتل وتخريب الديار وإجلاء أهلها وإذا أسر أحد من الفريقين اجتمعوا وفدوه وإذا سئلوا لم تقاتلونهم وتفادونهم قالوا : أمرنا بالفداء وحرم علينا القتال بيننا ولكن نستحي أن تذل حلفاؤنا ، والحاصل أنهم أعرضوا عن كل الميثاق إلا الفداء ولذا وبخهم الله تعالى بقوله : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَـٰبِ﴾ التوراة أى ببعض ما فرض عليكم فيه وهو الفداء ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وهو ترك القتل والإخراج والمظاهرة ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾ هوان وذل وأصل الخزى : ذل يستحي منه ، ولذا يستعمل فى كل منهما ﴿فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ وقد أخذوا بقتل قريظة ونفى النضير وقينقاع إلى الشام وضرب الجزية على من بقى منهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ لأن عصيانهم أشد ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء لنافع وابن كثير وبالتاء للباقين ، وهو تأكيد للوعيد أى أن الله تعالى بالمرصاد لا يغفل عن أعمالهم ﴿أُولَـٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ بأن آثروها عليها ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ بنقص الجزية فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بدفع ذلك عنهم ، ثم أخبر تعالى أنه أعذر إليهم بإرسال الرسل فلم يستقيموا فقال ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ﴾ التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أتبعناهم رسولا فى إثر رسول كيوشع وشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعياء وأرمياء وعزير وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكرياء ويحيى ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَـٰتِ﴾ المعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿وَأَيَّدْنَـٰهُ﴾ قويناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بضم الدال فى جميع القرآن لغير ابن كثير فهو يسكنه من إضافة الموصوف إلى الصفة أى الروح المقدسة جبريل لطهارته يسير معه حيث سار ، وقيل روح القدس الإنجيل ، وقيل اسم الله الأعظم الذى يحيي به الموتى وأول الأقوال أصح لقول النبى صلى الله عليه وسلم لحسان : « اهج قريشاً وروح القدس معك » وفى رواية « وجبريل معك » والمعنى فعلنا جميع ماتقدم فلم يستقيموا ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ﴾ تحب ﴿أَنفُسُكُمُ﴾ من الحق ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبرتم عن اتباعه جواب « كلما » وهو محل الاستفهام والمراد به

التوبيخ وتوسطت الهمزة بين الفاء العاطفة على مقدر وما تعلقت به توبيخاً لهم وتعجيباً من شأنهم ، أى آتينا أنبياءكم ما آتيناهم وكلما . الخ. ﴿فَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ كموسى وعيسى ومحمد والفاء للسببية أى فكذبتم فريقاً ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لها فى النفوس فإن الأمر فظيع ومراعاة للفواصل أو للدلالة على أنهم لن ينتهوا فى إرادتهم إذ أرادوا قتل النبى صلى الله عليه وسلم نعصمه الله منهم . والذين قتلوا كيحيى وزكرياء وشعياء ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمع أغلف ، أى مغشاة بأغطية خلقية لا يصل إليها ما جئت به ولا تفهمه ، مستعار من الأغلف الذى لم يختن أو جمع غلاف أى الوعاء ، أصله ضم اللام خفف بتسكينها ، والمعنى حينئذ قلوبنا أوعية العلم فنحن مستغنون بما فيها عن غيره فأضرب تعالى عن دعواهم مثبتاً أن قلوبهم فى أصل فطرتها قابلة للإيمان لولا ما عرض لها من الكفر فقال ﴿بَلْ﴾ للإضراب عما قالوا ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أبعدهم الله عن رحمته وخذلهم عن القبول أو هم كفرة ملعونون فمن أين لهم دعوى العلم والاستغناء عنك ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ ما زائدة لتأكيد القلة أى إيمانهم قليل جداً ، وقليلا : صفة مصدر محذوف أى إيماناً ولا تكون ما نافية لأن لها صدر الكلام فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها ولا مصدرية لبقاء قليلا بلا ناصب ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة وهو القرآن وجواب لما محذوف أى كفروا به ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قبل مجيئه ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنصرون ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقولون : اللهم انصرنا عليهم بالنبى المبعوث آخر الزمان أو يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبياً يبعث من إخوتهم وقد قرب زمانه والسين حينئذ للمبالغة بالإشعار بأن الفاعل يسأل ذلك عن نفسه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ من الحق وهو بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ حسداً وخوفاً على الرياسة وجواب لما الثانية دليل على جواب الأولى ولا يمكن أن تكون هى مع جوابها جواب الأولى لوجود الفاء فيها ولما لا يجاب بالفاء عند أكثرهم . يروى أن يهود خيبر كانوا يقاتلون غطفان فإذا التقوا دعوا بهذا الدعاء : « اللهم إنا نسألك بحق محمد النبى الأمى الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان أن تنصرنا عليهم » فهزموا غطفان ؛ فلما بعث محمد كفروا به ووقع ليهود المدينة نحو هذا مع الأوس والخزرج ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى عليهم وأتى بالمظهر للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا﴾ باعوا ﴿بِهِ﴾ أى بسببه ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ أى حظها من الثواب وما نكرة بمعنى شيئاً تمييز لفاعل بئس وهو فعل غير متصرف موضوع للذم كنعم فى المدح والمخصوص بالذم ﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾ أى كفرهم ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن ﴿بَغْيًا﴾ مفعول له ليكفروا دون اشتروا للفصل أى طلباً لما ليس لهم وحسداً على ﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ﴾ بالتشديد لنافع وابن عامر والكوفيين ، والتخفيف لابن كثير وأبى عمرو ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ الوحى ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ الرسالة والكتاب ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم حسدوه لما لم يكن منهم وكان من العرب وكذا عيسى

لأنهم حسدوه وكفروا به بغياً والله قد تفضل عليه ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ﴾ بكفرهم بما أنزل والتنكير للتعظيم ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ استحقوه من قبل بتضييع التوراة والكفر بعيسى وبقولهم «عزير ابن الله» و«عبادة العجل»، و«بغضب» حال و«على غضب» صفة له أى انقلبوا مغضوباً عليهم ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ذو إهانة يراد به إذلالهم بخلاف عذاب العاصى فتأديب له وطهرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ القرآن وغيره ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ التوراة، قال تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ﴾ الواو للحال أى قالوا ذلك والحال أنهم يكفرون ﴿بِمَا وَرَاءَهُ﴾ سواه أو بعده من القرآن وغيره وهمزة «وراء» بدل من الياء لأنه فى الأصل مصدر واراه أى أخفاه. ثم جعل ظرفا يضاف إلى الفاعل فيراد به ما يتوارى به وهو خلفه وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو قدامه، ولذلك عد من الأضداد ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ حال ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال ثانية مؤكدة تتضمن رد مقالتهم، فإنهم لما كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ﴿لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ﴾ لهم ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ أى قتلتم ﴿أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالتوراة وقد نهيتم فيها عن قتلهم والخطاب للموجودين فى زمان نبينا بما فعل آباؤهم لرضاهم به. قيل قتلوا فى يوم واحد ثلاثمائة نبى فى بيت المقدس ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات كالعصا واليد وفلق البحر، ساق تعالى هذه الآيات لإبطال قولهم «نؤمن بما أنزل علينا» والتنبيه على أن طريقتهم مع الرسول هى طريقة أسلافهم مع موسى لا لتكرار القصة ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلها ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ بعد ذهابه إلى الطور أو بعد مجيء موسى ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ باتخاذه ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ على العمل بما فى التوراة ﴿وَ﴾ قد ﴿رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ الجبل حين امتنعتم من قبولها ليسقط عليكم وقلنا ﴿خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد ﴿وَٱسْمَعُوا﴾ ما تؤمرون به سماع قبول ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ قولك بالآذان ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك بالقلوب ﴿وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ خالط حبه قلوبهم كما يخالط الشراب، ورسخت صورته فى قلوبهم لفرط شغفهم به كما يتداخل الصبغ الثوب والشراب أعماق البدن وفى قلوبهم بيان لمكان الإشراب كقوله: «إنما يأكلون فى بطونهم ناراً» ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسببه وذلك لأنهم كانوا مجسمة أو حلولية ولم يروا جسما أعجب منه فتمكن فى قلوبهم ما سول لهم السامرى ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿بِئْسَمَا﴾ شيئاً ﴿يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ بالتوراة عبادة العجل ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بها كما زعمتم. المعنى: لستم بمؤمنين لأن الإيمان لا يأمر بعبادة العجل والمراد آباؤهم أى فكذلك أنتم لستم بمؤمنين بالتوراة وقد كذبتم محمداً والإيمان بها لا يأمركم بتكذيبه وإضافة الأمر إلى الإيمان استهزاء بهم ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ أى الجنة ﴿عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً﴾ خاصة بكم كما قلتم لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ونصبها على الحال من الدار ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ كما زعمتم ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فى قولكم لأن من يعلم أن الجنة مأواه يحن إليها ولا سبيل إليها إلا الموت ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ ما عاشوا ﴿بِمَا قَدَّمَتْ

أيديهم ﴾ من موجبات النار وهذا من أظهر المعجزات على صدق الرسول لأنه إخبار بغيب ولم يتمن أحد من اليهود الموت : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن اليهود لو تمنوا الموت لغص كلٌ بريقه ولما بقى على الأرض يهودي إلا مات ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فيجازيهم تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون بادعاء ما ليس لهم ونفيه عن غيرهم ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ ﴾ لام قسم ﴿ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ منطاولة ﴿ وَ ﴾ أحرص ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ المنكرين للبعث عليها لعلمهم بأن مصيرهم النار دون المشركين لإنكارهم له ﴿ يَوَدُّ ﴾ يتمنى ﴿ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ بيان لزيادة حرصهم وقوله « أحرص الناس » أفعل تفضيل أضيف إلى جملة هو بعضها ولذا لم يحتج إلى ذكر من نحو زيد أفضل الناس بخلاف أفضل من إخوته « ولو » مصدرية بمعنى أنْ وهى وصلتها فى تأويل مصدر مفعول يودّ ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ أى أحدهم ﴿ بِمُزَحْزِحِهِۦ ﴾ مبعده ﴿ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ النار ﴿ أَن يُعَمَّرَ ﴾ فاعل مزحزحه أى تعميره ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ بالياء للجمهور والتاء ليعقوب فيجازيهم وأصل « سنة » « سنوة » أو « سنهة » . ولما سأل ابن صوريا النبي صلى الله عليه وسلم أو عمر عمن يأتى بالوحى من الملائكة فقال « جبريل » فقال : هو عدونا يأتينا بالعذاب ولو كان ميكائيل لآمنا لأنه يأتى بالخصب والسلم نزل ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ فليمت غيظاً ﴿ فَإِنَّهُۥ ﴾ جبريل ﴿ نَزَّلَهُۥ ﴾ القرآن ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أى حفّظه إياك ، وخص القلب لأنه محل الحفظ ولم يقل على قلبي لأنه جاء على حكاية كلام الله ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بأمره وتيسيره حال من فاعل نزل ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قبله من الكتب ﴿ وَهُدًى ﴾ من الضلالة ﴿ وَبُشْرَىٰ ﴾ بالجنة ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أحوال من مفعول نزل . وجواب الشرط محذوف كما قدرنا أولا أو فإنه نزله على معنى : من عادى جبريل فقد كفر بما معه من الكتاب لنزوله عليك بكتاب مصدق للكتب المتقدمة فقام علة الجواب مقامه ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ ﴾ بكسر الجيم والراء بلا همزة بياء كقنديل لنافع وأبى عمرو وابن عامر وحفص « وجبريل » بفتح الجيم وكسر الراء بلا همزة بياء كشمويل قراءة ابن كثير وجبرءيل كسلسبيل قراءة حمزة والكسائى وجبرءل بجحمرش قراءة عاصم ، هذه القراءات الأربع هى المشهورة من لغاته ، وقد جاء أربع أخر فى الشواذ فلا نطوّل بذكرها ﴿ وَمِيكَىٰلَ ﴾ بثبوت الهمزة بلا ياء لنافع ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائى ميكائيل بهمزة وياء ولأبى عمرو وحفص ميكال بحذف الهمزة والياء معاً ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ أوقعه موقع لهم بياناً لحالهم ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ واضحات حال رد لقول ابن صوريا للنبي صلى الله عليه وسلم : ما جئتنا بشيء ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ المتمردون من الكفرة ؛ والفسق إذا استعمل فى نوع من المعاصى دل على أعظامه كأنه متجاوز عن حده ﴿ أَ ﴾ كفروا بها ﴿ وَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ ﴾ الله ﴿ عَهْدًا ﴾ على الإيمان بالنبي إن خرج أو النبي أن لا يعاونوا عليه المشركين ﴿ نَّبَذَهُۥ ﴾ طرحه ﴿ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ بنقضه وإنما قال فريق لأن بعضهم لم ينقض ، ونبذه جواب كلما وهو محل الاستفهام الإنكارى

وقرئ أو كلما بسكون الواو على أن التقدير إلا الذين فسقوا أو كلما عاهدوا ﴿ بَلْ ﴾ للانتقال ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ رد لما يتوهم أن الفريق هم الأقلون ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ التوراة أو القرآن ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ أى لم يعملوا بما فيها من الإيمان بالرسول وغيره ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما فيها من أنه نبيّ حق أو أنها كتاب الله ﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ عطف على نبذ ﴿ مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ ﴾ من الجن والإنس من كتب السحر والشعوذة التى كانت تقرؤها أى ما تلت وفى القاموس: الشعوذة خفة فى اليد وأخذ كالسحر يرى الشيء بغير ما عليه أصله فى رأى العين وإطلاق المضارع على الماضى لإفادة الدوام ﴿ عَلَىٰ ﴾ زمان ﴿ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ وكانت الشياطين تسترق السمع وتضم إليه أكاذيب وتلقيه إلى الكهنة فيدونونه فى كتب يعلمونها للناس وفشى ذلك وذاع فى زمن سليمان أن الجن تعلم الغيب فجمع سليمان الكتب ودفنها فلما مات دلت الشياطين الناس عليها فاستخرجوها فوجدوا فيها علم السحر فقالوا إنما ملككم بهذا فتعلموه ورفضوا كتب أنبيائهم تناه له الكفرة والفلاسفة عنهم حتى وصل ذلك إلى الحجاز وكانوا يعملون فى حوائجهم ومعايشهم فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق جاءت اليهود لعنهم الله بالسحر تزعم أنه مما نزل على سليمان حتى حل ذلك قوماً قبل البعث على أن تبرءوا من سليمان فقال تعالى تبرئة لسليمان ورداً على قول اليهود: انظروا إلى محمد يذكر سليمان فى الأنبياء وماكان إلا ساحراً ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ أى لم يعمل السحر لأنه كفر ومعتقده كافر والقائل به كافر ومعلمه كافر، قاله ابن العربى فى الأحكام ويدل عليه تعبير الله عن السحر بالكفر ومن كان نبياً كسليمان يكون معصوماً منه ﴿ وَلَٰكِنَّ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن عامر وحمزة والكسائى ﴿ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ باستعماله حال كونهم ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ إغواء وإضلالا قال الخازن فى لباب التأويل: السحر على قسمين: أحدهما يكفر به صاحبه وهو أن يعتقد التأثير فيه والثانى لا يكفر به ولكنه من أكبر الكبائر وهو من لم يعتقد ذلك. وقال البيضاوى: المراد بالسحر ما يستعان فى تحصيله بالتقرب إلى الشياطين مما لا يستقل به الإنسان إلى آخر ما قال. وما كان من خواص الأشجار وغيرها أو من آى القرآن فليس بكفر، لكن يحرم ما يضر الناس أو يغير عقولهم. وقال ابن العربى فى الأحكام من أنواع السحر ما يفرق بين المرء وزوجه ومنه ما يجمع بينهما ويسمى التولة وكلاهما كفر. اهـ. وفى القاموس: التولة ـ كهمزة ـ السحر أو شبهه وخرزة تحبب معها المرأة إلى زوجها كالتولة ـ كعنبة فيهما ﴿ وَ ﴾ يعلمونهم ﴿ مَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ أى ألهماه من السحر وما منصوب المحل عطف على السحر لتغاير الاعتبار أو به نوع أقوى منه أو على ماتتلو، وقرئ بكسر اللام الكائنين ﴿ بِبَابِلَ ﴾ بلد فى سواد العراق ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ بدل أو عطف بيان للملكين ومنع من الصرف للعلمية والعجمة وهما ملكان أنزلا لتعليم علم السحر ابتلاء من الله للناس وتمييزاً بينه وبين المعجزة، وعن ابن عباس هما

رجلان ساحران يعلمان السحر سيما ملكين باعتبار صلاحهما ويؤيده قراءة ملكين بالكسر. وأما ماينقل جهلة المفسرين من قصة هاروت وماروت مع الزهرة فأكاذيب اليهود لا نلتفت إلى ذكرها ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ من زائدة ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَا ﴾ له نصحاً ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ بلية من الله للناس ليمتحنهم بتعليمه فمن تعلمه كفر ومن تركه فهو مؤمن ﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ بتعلمه أو باعتقاد جوازه والعمل به فإن أبى إلا التعليم علماه. قال الكواشي فى ملخصه : السحر له وجود حقيقة عند أهل السنة والعمل به كفر قالوا وكذا تعلمه للعمل به ، وتعلمه لاجتنابه ليس بكفر ، وعن الشافعي أنه يخيل ويمرض ويقتل ويجب القصاص به على من قتل به . اه . وقال عبد الباقى شارح المختصر : يكفر المسلم بمباشرة سحر مفرق بين زوجين أو مشتمل على كفر وثبت عليه ذلك ببينة وإذا حكم بكفره فإن كان متجاهراً به قتل وما له فىء إلا أن يتوب وإن كان يخفيه فحكمه حكم الزنديق يقتل ولا تقبل توبته ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ بأن يبغض كلٌّ إلى الآخر ﴿ وَمَا هُمْ ﴾ أى السحرة ﴿ بِضَارِّينَ بِهِ ﴾ بالسحر ﴿ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بإرادته وفيه أن كل شىء لا يؤثر فى غيره بطبع أو قوة جعلها الله فيها بل المؤثر هو الله وحده عند الأسباب ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ فى الآخرة ﴿ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ وهو السحر ﴿ وَلَقَدْ ﴾ لام قسم ﴿ عَلِمُوا ﴾ أى اليهود ﴿ لَمَنِ ﴾ لام ابتداء معلقة لما قبلها ومن موصولة ﴿ اشْتَرَاهُ ﴾ اختاره واستبدله بكتاب الله ﴿ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ نصيب فى الجنة ﴿ وَلَبِئْسَ مَا ﴾ شيئاً ﴿ شَرَوْا ﴾ باعوا ﴿ بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ أى الشارين أى حظها من الآخرة أن تعلموه حيث أوجب لهم النار ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة ما يصيرون إليه من العذاب أو لو كانوا يتفكرون قبحه على التعيين ما تعلموه أو المعنى لو انتفعوا بعلمهم لامتنعوا من السحر ﴿ وَلَوْ ﴾ ثبت ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أى اليهود ﴿ آمَنُوا ﴾ بالنبي والقرآن ﴿ وَاتَّقَوْا ﴾ عقاب الله بترك معاصيه كنبذ كتاب الله واتباع السحرة وجواب « لو » محذوف أى لأثيبوا دل عليه ﴿ لَمَثُوبَةٌ ﴾ ثواب وهو مبتدأ واللام فيه للقسم ﴿ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ خبره مما شروا به أنفسهم ﴿ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أنه خير لما آثروه عليه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا ﴾ للنبي ﴿ رَاعِنَا ﴾ أمر من المراعاة . وكانت الصحابة يقولون له ذلك ومرادهم راقبنا وتأنَّ بنا فيما تلقننا حتى نفهمه فسمع اليهود الكلمة منهم وهى بلغتهم سبٌّ من الرعونة بمعنى الحمق فسُرّوا بذلك وقالوا : كنا نسبُّ محمداً سرًّا فالآن أعلنوه فكانوا يقولونه للنبي ثم يضحكون فنهى المؤمنون عنها ﴿ وَقُولُوا ﴾ بدلها ﴿ انظُرْنَا ﴾ أى انظر إلينا أو انتظرنا لأنها لا تقبل التلبيس ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ ما تؤمرون به سماع قبول لا كسماع اليهود أو اسمعوه بجدٍ حتى لا تعودوا إلى ما نهيتم عنه ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ بالتهاون بالرسول وسبّه ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم وهو النار . وفى الآية دليل على ترك ما فيه اللبس إلى غيره ، وأن سبَّ الرسول كفرٌ ﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ ﴾ من العرب عطف على أهل الكتاب ﴿ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ ﴾ زائدة ﴿ خَيْرٍ ﴾ وحى ﴿ مِّن

رَبِّكُمْ ﴾ حسداً لكم واعتقاداً أنهم أحق بالوحى منكم ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ ﴾ نبوته ﴿ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ نزلت تكذيباً لجمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين ويزعمون أنهم يودون لهم الخير ، والود : محبة الشيء مع تمنيه ، ولذلك يستعمل فى كل منهما و « من » فى « من أهل الكتاب » للتبيين و « أن ينزل » مفعول يود وزيادة « من » فى « من خير » للاستغراق و « من » فى « من ربكم » للابتداء وفى قوله : « والله يختص » إلى آخره : إشعار بأن النبوة فضل نيلها وفقدها معاً بمشيئته وما عرف فيه من حكمته ولما طعن الكفار والمشركون واليهود فى النسخ وقالوا إن محمداً يأمر أصحابه اليوم بأمر وينهى عنه غداً : نزل ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ و « ما » شرطية جازمة لننسخ منتصبة به و « من ءاية » فى محل نصب بيان « لما » أى ما نزل حكمها إما مع لفظها أو لا . وقرأ ابن عامر بضم النون من أنسخ أى نأمرك ، أو جبريل بنسخها ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ بضم النون بلا همزة لنافع والجمهور من النسيان أى ننسكها أى نمحها من قلبك ، ولابن كثير وأبى عمرو بفتح النون الأولى وإسكان الثانية وفتح السين ثم همزة ساكنة من النساء ، أى التأخير أى نؤخرها فلا ننزل حكمها ونرفع تلاوتها أو نؤخرها فى اللوح المحفوظ وجواب الشرط ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ أنفع للعباد فى السهولة أو كثرة الأجر ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ فى التكليف والثواب ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه النسخ والتبديل ، والاستفهام للتقرير أى يقدر على النسخ والإتيان بمثل المنسوخ وبما هو خير منه والآية دلت على جواز النسخ وهو رفع الحكم الشرعى بحكم شرعى آخر وعلى جواز تأخير الإنزال إذ الأصل اختصاص « أن » وما تضمن معناها بالأمور المحتملة وذلك لأن الأحكام شرعت والآيات نزلت لمصالح العباد فضلا من الله وهى تختلف باختلاف الأعصار والأشخاص كأسباب المعاش ، فإن النافع فى عصر قد يضر فى غيره والتغيير فى هذه الأحكام التى هى خطاب الله إنما هو من عوارض الأمور المتعلقة بالمعنى القائم بالذات القديم لا المعنى الذي هو الخطاب فافهم ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يفعل فيهما ما يشاء وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ ومنسوخ وهو كالدليل على قوله « أن الله على كل شيء قدير » ولذا ترك العاطف ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ غيره ﴿ مِن ﴾ زائدة ﴿ وَلِيٍّ ﴾ يحفظكم . محل الجار والمجرور رفع مبتدأ خبره « مالكم » ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يمنع عنكم عذابه إن أتاكم لأن الله هو الذى يملك أموركم ويجريها على ما يصلح لكم والفرق بين الولى والنصير : أن الولى قد يضعف عن النصرة ، والنصير قد يكون أجنبياً من المنصور فبينهما عموم من وجه . ونزل لما سأله أهل مكة أن يوسعها ويجعل الصفا ذهباً ﴿ أَمْ ﴾ بل ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ ﴾ محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ كَمَا سُئِلَ ﴾ الكاف منصوبة محلا صفة مصدر محذوف و « ما » مصدرية أى سؤالا مثل سؤال ﴿ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ من قولهم « أرنا الله جهرة » وغير ذلك وعلى هذا فأم منقطعة ويجوز أن تكون متصلة معادلة للهمزة فى « ألم تعلم » أى ألم تعلموا أنه مالك الأمور القادر

على الأشياء كلها بأمر ونهى كلما أراد أم تعلمون وتريدون الآية ومقصودها الإيصاء بترك اقتراح الآيات تعنتاً ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَٰنِ ﴾ أى يأخذه بدله بترك النظر والتفقه فى الآيات البينات وطلب غيرها تعنتاً ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أخطأ طريق الحق ، والسواء فى الأصل الوسط ، ومعنى الآية لا تقترحوا فتضلوا ويؤديكم الضلال إلى تبديل الكفر بالإيمان ولما كانت وقعة أحد قال بعض اليهود وهو فنحاص وأصحابه لحذيفة وعمار وغيرهما : ارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم فأبوا فنزل ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ ﴾ وهم أحبارهم ﴿ لَوْ ﴾ مصدرية ﴿ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا ﴾ مرتدين حال من ضمير المخاطبين ﴿ حَسَدًا ﴾ مفعول له كائناً ﴿ مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ أى حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة ويجوز أن يتعلق بكلمة « ود » أى تمنوا ذلك من عندأنفسهم لا من قبل الحق ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ﴾فى التوراة ﴿ الْحَقُّ ﴾ فى شأن النبى أنه صدق بالمعجزات والنعوت المذكورة فيها ﴿ فَاعْفُوا ﴾ عنهم أى اتركوهم ﴿ وَاصْفَحُوا ﴾ أعرضوا فلا تجازوهم ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ فيهم من القتال والسبى لبنى قريظة وإجلاء النضير ، والعفو : ترك عقوبة المذنب ، والصفح : ترك تثريبه ، وهذا منالمنسأ وليس من المنسوخ إذ الأمر غير مطلق ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يقدر على الانتقام منهم ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ عطف على فاعفوا كأنه أمرهم بالصبر واللجوء إلى الله بالعبادة والبر ﴿ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا ﴾ وما : شرطية جازمة لتقدموا منتصبة به ﴿ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ طاعة كصلاة وصدقة والجواب ﴿ تَجِدُوهُ ﴾ أى ثوابه ﴿ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا يضيع عنده عمل ﴿ وَقَالُوا ﴾ عطف على « ود » والضمير لأهل الكتاب ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا ﴾ جمع هائد ﴿ أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ جمع نصران وأو تفصيل لما أجمل فى قوله « وقالوا » قال ذلك يهود المدينة ونصارى نجران لما تناظروا بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم أى قال اليهود : لن يدخلها إلا اليهود ، وقال النصارى : لن يدخلها إلا النصارى فاختصر الكلام لما علم من العداوة بينهم ﴿ تِلْكَ ﴾ القولة المذكورة فى قوله « ما يود الذين كفروا » وقوله « ود كثير » الآية ، وقوله « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » ﴿ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ جمع أمنية أفعولة من اتمنى كالأضحوكة والأعجوبة شهواتهم الباطلة ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فيه ﴿ بَلَىٰ ﴾ يدخل الجنة غيرهم ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أى أخلص قصده وانقاد لأمره وخص الوجه لأنه أشرف الأعضاء فغيره أولى ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ بينه وبين ربه بالتوحيد وإخلاص العمل وبينه وبين الناس بحسن المعاملة ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ أى ثواب عمله الجنة ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فى الآخرة والجملة جواب « من » إن كانت شرطية وخبرها إن كانت موصولة ، والفاء فيها لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله بلى وحده ويحسن الوقف عليه ويجوز أن يكون « من أسلم » فاعل فعل مقدر مثل : بلى يدخلها من أسلم ، فلا يحسن الوقف حينئذ على بلى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾

معتد به وكفرت بعيسى ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ معتد به وكفرت بموسى ، قالوا ذلك لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاهم أحبار اليهود فتناظروا وتقاولوا ذلك ﴿وَهُمْ﴾ أى الفريقان ﴿ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ المنزل عليهم أى قالوا ذلك والحال أنهم أهل العلم والكتاب وفى كتاب اليهود تصديق عيسى وفى كتاب النصارى تصديق موسى ﴿كَذَٰلِكَ ﴾ كما قال هؤلاء ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى المشركون من العرب وغيرهم : توبيخ لأهل الكتاب على المكابرة والتشبه بالجهال ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ بيان لمعنى ذلك أى قالوا لكل ذى دين ليسوا على شىء ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين فيقسم لكل فريق ما يليق به فيدخل المحق الجنة والمبطل النار ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ موضع « مَنْ » رفع بالابتداء استفهام بمعنى النفى وأظلم خبره والمعنى أىُّ أحدٍ أظلم أىْ لا أحدَ أظلم ﴿ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ بالصلاة والتسبيح ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ بالهدم والتعطيل و « من » عامٌّ لكل من خرب مسجداً أو سعى فى تعطيل مكان معد للصلاة وإن نزل فى الروم لما غزوا بيت المقدس وخربوه وقتلوا أهله أو فى المشركين لما منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الوصول إلى البيت الحرام عام الحديبية وجمع المساجد لأن الحكم ورد عاماً وإن كان السبب خاصًّا ومفعول منع الأول « مساجد » والثانى « أن يذكر » والخراب اسم للتخريب كالسلام للتسليم وإن أريد بها المسجد الحرام فتخريبه منع الحجاج والمعتمرين والمصلين فيه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ المانعون عن الدخول وهم النصارى أو مشركو العرب ﴿ مَا كَانَ ﴾ أى ينبغى ﴿لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾ إلا مع خشيتهم فضلا أن يجترئوا على تخريبها أو منع المؤمنين منها أو ما كان لهم فى علم الله فيكون وعداً للمؤمنين بالنصر واستخلاص المساجد منهم وقد أنجز وعده وقيل خبر بمعنى الأمر أى أخيفوهم بالجهاد فلا يدخلها أحد آمناً ، وقيل معناه النهى عن تمكينهم من الدخول فى المسجد واختلف الأئمة فيه فمنعه مالك مطلقاً وجوّزه أبو حنيفة مطلقاً ، وفرق الشافعى فمنعه فى المسجد الحرام وأجازه فى غيره ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ هوان بالقتل والسبى والجزية ﴿ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ هو النار . ونزل لما طعن اليهود فى نسخ القبلة . هذا قول ابن عباس أو فى الصلاة النافلة على الراحلة حيثما توجهت وهو قول ابن عمر أو فى قوم عميت عليهم القبلة فى السفر فصلوا إلى أنحاء مختلفة فلما أصبحوا تبين لهم خطؤهم : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أى الأرض كلها لأنهما ناحيتاها فإن مُنعتم أن تصلوا فى المسجد الحرام أو الأقصى فقد جعلت لكم الأرض كلها مسجداً ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ ﴾ وجوهكم فى الصلاة بأمره ﴿ فَثَمَّ﴾ هنالك ﴿ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ قبلته التى رضيها أو ذاته بمعنى عالم مطلع بما يفعل فيه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ ﴾ يسع فضله كل شىء ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بتدبير خلقه يعلم كل مكان وعمل ومصلحة ، وفى الآية إيماء إلى أنه ليس لأحد ملك حقيقة إلا له وأنه مُنزَّهٌ عن الجهات كلها ﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ بواو للجمهور عطفاً على « وقالت اليهود » ودونها لابن عامر والضمير لليهود فى قولهم « عزير ابن الله » والنصارى فى قولهم « المسيح ابن الله » ومن زعم

أن الملائكة بنات الله ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيها له عنه لأنه يقتضى التشبيه والحاجة ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ملكا وخلقاً وعبيداً والملكية تنافى الولادة وهذا رد لما قالوه واستدلال على فساده وعبر بما تغليباً لما لا يعقل ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ مطيعون كل بما يراد منه وفيه تغليب العاقل وماكان على هذه الصفة لم يجانس مكونه فلايكون فيه ولده وتنوين كل عوض من المضاف إليه أى كل مافيهما ومنه عيسى وعزير والملائكة ويجوز أن يراد كل من جعلوه ولداً أو إلهاً مقرون بالعبودية فيكون إلزاماً بعد إقامة الحجة ، والآية مشعرة على فساد ما قالوا من ثلاثة أوجه واحتج بها الفقهاء على أن من ملك ولده عتق عليه لأنه تعالى نفى الولد بإثبات الملك ، وذلك يقتضى تنافيهما ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ موجدهما لا على مثال سبق والبديع هنا بمعنى المبدع كسميع بمعنى المسمع وفعله « أبدع » والإضافة حقيقية لأن الإبداع لهما ماض أو بدع كشرف فهو بديع بمعنى غاية فيما نعت به ، فالإضافة على هذا من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها أى بديع سمواته وأرضه وهو حجة رابعة وتقريرها أن الوالد عنصر الولد المنفعل بانفصال مادته عنه والله سبحانه مبدع الأشياء كلها فاعل على الإطلاق ومنزه عن الانفعال فلا يكون والداً ﴿ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا ﴾ أراد إيجاده وأصل القضاء إتمام الشىء قولا أو فعلا ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ ﴾ أى أحدث ﴿ فَيَكُونُ ﴾ أى فهو يكون أى يحدث بلا مهلة ولا توقف ، وفيه تقرير لمعنى الإبداع وإيماء إلى حجة خامسة فى نفى الولد وهى أن الولد إنما يكون بأطوار ومهلة ، وفعله تعالى يستغنى عن ذلك ، وقراءة نافع والجمهور بالرفع فى فيكون ولابن عامر بالنصب جواباً للأمر ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ من جهلة المشركين أو المتجاهلين من أهل الكتاب استكباراً واستهانة لما أتاهم من الآيات ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ ﴾ أنك رسوله ﴿ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ مما اقترحناه على صدقك ولولا إذا دخلت على مستقبل كانت تحضيضاً وعلى الماضى كانت توبيخاً ومعناها هنا هلا ﴿ كَذَلِكَ ﴾ كما قال هؤلاء ﴿ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من كفار الأمم الماضية لأنبيائهم « قالوا أرنا الله جهرة » ﴿ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ من التعنت وطلب الآيات ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فى الكفر والعناد : فيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ يعلمون أنها آيات فيؤمنون بها فاقتراح آية معها تعنت وفيه إشارة إلى أن هؤلاء ما طلبوها يقيناً بل طلبوها عتواً وعناداً ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ يا محمد مؤيداً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالهدى ﴿ بَشِيرًا ﴾ من أجاب إليه بالجنة ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ من لم يجب إليه بالنار فلا عليك إن أصروا وكابروا ﴿ وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ بفتح التاء وجزم الفعل لنافع نهى للنبى صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال الكفار تعظيما لعقوبتهم كأنها لفظاعتها لا تقدر أن تخبر عنها أو لأن السامع لا يصبر على استماع خبرها ولغير نافع بضم التاء ورفع آخر الفعل ولا نافية والواو استئنافية أو عاطفة جملة على جملة أى أرسلناك بشيراً ونذيراً وغير مسئول عن أصحاب الجحيم النار أى الكفار ما لهم لم يؤمنوا « إنما عليك البلاغ » ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى ﴾ وإن بالغت فى طلب رضاهم ﴿ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾

دينهم مبالغة فى إقناط الرسول عن إسلامهم . والملة : ما شرعه الله لعباده على لسان أنبيائه من أمللت الكتاب إذا أمليته ثم بالغ فى إقناطهم بأن يتبعهم بأمره أن يجيبهم بقوله ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ الذى أنا عليه وهو الإسلام ﴿ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ وما عداه مما تدعون إليه ضلال ﴿ وَلَئِنِ ﴾ لام قسم ﴿ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ آراءهم التى يدعونك إليها فرضاً والهوى : رأىٌ يتبع الشهوة ﴿ بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ الوحى من الله المعلوم صحته ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ ﴾ يحفظك ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يمنعك منه و « مالك » جواب « لئن » . ونزل فى الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب من الحبشة أو فى ابن سلام وأصحابه أو فى جميع المسلمين ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ مبتدأ ﴿ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾صلة الموصول ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ يقرءونه كما أنزل بمراعاة لفظه عن التحريف والتدبر فى معناه والعمل بمقتضاه والجملة حال ، و« حقّ » نصب على المصدر والخبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ بكتابهم دون المحرفين ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ ﴾ أى بالكتاب المؤتى بالتحريف والكفر بما يصدقه ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم . ولما صدر قصة بنى إسرائيل بالأمر بذكر النعم والقيام بحقوقها والحذر من إضاعتها والخوف من الساعة وأهوالها ، كرر ذلك وختم به الكلام معهم مبالغة فى النصح وإيذاناً بأنه فذلكة المقصود منها فقال ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ فداء ﴿ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يمنعون من عذاب الله ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذِ ٱبْتَلَىٰٓ ﴾ اختبر ﴿ إِبْرَٰهِۦمَ ﴾ ولهشام إبراهام ﴿ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ ﴾ بأوامر ونواه كلفه بها مثل مناسك الحج وقيل المضمضة والاستنشاق والسواك وقص الشارب وفرق الرأس وقلم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والاستنجاء والختان « أفعال الفطرة » وهذا الأخير سنة مؤكدة للرجال عند مالك وأبى حنيفة وفرض عند الشافعى ، ويستحب أن يؤخر الصبى إلى وقت يؤمر بالصلاة من السبع إلى العشر وتستحب الدعوة لطعام الختان وقيل الكلمات هى الخصال التى فى آية « التائبون » وآيات « قد أفلح المؤمنون » إلى قوله « هم الوارثون » وآية « إن المسلمين والمسلمات » فهى إذاً ثلاثون خصلة قاله ابن عباس ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أداهن تامات وقرئ برفع إبراهيم بمعنى دعا ربه بكلمات فأعطاه جميع مادعاه ﴿قَالَ ﴾ تعالى له ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ قدوة فى الدين وإمامته مؤبدة إذ لم يبعث بعده نبىّ إلا كان من ذريته مأموراً باتباعه ﴿ قَالَ وَ ﴾ اجعل أئمة ﴿ مِن ذُرِّيَّتِى ﴾ أولادى فعيلة أو فعولة من الذر التفريق قلبت راؤها الثانية ياء أو من الذرء أى الخلق قلبت همزتها ياء ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ﴾ بالإمامة ﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ منهم أى الكافرين والفاسقين دل على أنه يناله غير الظالم وأنه يكون من ذريته ظلمة لا تجوز إمامتهم لأنها أمانة من الله وعهد والظالم لا يصلح لها وأن الأنبياء معصومون وقرئ « الظالمون » والمعنى واحد إذ كل ما نالك فقد نلته ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ ﴾ الكعبة غلب عليها كالنجم على الثريا ﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ الحجاج يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه من كل جانب

أو موضع ثواب يثابون بحجة واعتمار وقرئ مثابات لأنه مثابة كل أحد ﴿ وَأَمْنًا ﴾ مأمناً لهم من الظلم والإغارات الواقعة فى غيره أو يأمن حاجه من عذاب الآخرة من حيث أن الحج يجبُّ ما قبله أو لا يؤاخذ الجانى الملتجئ إليه حتى يخرج وهو مذهب أبى حنيفة وأما مذهب مالك وغيره فالجانى على نفس أو عضو أو مال لا يؤخر قصاصه بدخول الحرم بل يخرج من المسجد الحرام ليقام عليه حد مافعل ولو محرماً بحج ولا ينتظر تحلله وأما إن جنى فيه فإنه يقتضى منه فيه إجماعا . حكاه ابن الجوزى . فهو أحق أن تقام فيه الحدود من غيره والله أعلم ﴿ وَٱتَّخِذُوا ﴾ أى الناس بفتح الخاء بلفظ الماضى عطف على جعلنا لنافع وابن عامر وقرأ الباقون بكسر الخاء أمر أى أيها الناس على تقدير وقلنا ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الحجر الذى قام عليه عند بناء البيت أو قام عليه ودعا الناس إلى الحج ﴿ مُصَلًّى ﴾ مكان صلاة بأن صلوا خلفه ركعتى الطواف كما بينه حديث عمر بن الخطاب فى الصحيح وفيه بيان أن ذلك الموضع هو المقام المراد فى الآية وأن المراد بالصلاة الشرعية لا مطلق الدعاء وأن وقتها بعد الطواف وأنهما واجبتان فمن تركهما فعليه دم ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ اسمان أعجميان أى أمرناهما ﴿ أَنْ ﴾ بأن ﴿ طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴾ ويجوز أن تكون أن مفسرة لتضمن العهد معنى القول أى من الأوثان والأنجاس وما لا يليق به أو أخلصاه ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾ حوله ﴿ وَالْعَاكِفِينَ ﴾ المقيمين عنده أو المعتكفين ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ جمع راكع وساجد المصلين أو الطائفين الغرباء والعاكفين الأهلون ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ﴾ المكان ﴿بَلَدًا﴾ مفعول ثان لاجعل ﴿ ءَامِنًا ﴾ ذا أمن كعيشة راضية أو آمناً أهله كقولك ليل نائم، وقد أجاب الله دعاءه بجعله حرما لا يسفك فيه دم إنسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ وقد فعل بنقل الطائف من الشام إليه وكان أقفر لا زرع به ولا ماء ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ بدل من أهله بدل تخصيص بالدعاء لهم بالرزق موافقة لقوله « لا ينال عهدى الظالمين » ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿وَ﴾ أرزق ﴿مَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن عامر فى الدنيا بالرزق ﴿قَلِيلًا﴾ مدة حياته ليتناول من لذات الدنيا إثباتاً للحجة عليه و « من » موصولة أو موصوفة محلها نصب بارزق ، أو شرطية محلها رفع بالابتداء ، والخبر « فأمتعه » ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ ﴾ ألجئه فى الآخرة ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ﴾ فلا يجد عنها محيصاً ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ المرجع هى ﴿وَ﴾ اذكر ﴿ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ ﴾ جمع قاعدة : الأسس ، ورفعها : البناء عليها لأنه ينقلها عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع ، ويحتمل أن يراد بالقواعد : الجُدُر أى ساقات البناء ، فإن كل ساق قاعدة لما يوضع فوقه ، ورفعها : بناؤها ، وقيل : المراد رفع مكانة البيت وإظهار شرفه بتعظيمه ودعاء الناس إلى حجه ، وفى إبهام القواعد وتبيينها بمن فى قوله ﴿مِنَ الْبَيْتِ﴾ تفخيم لشأنها ، ويحتمل أن يتعلق بيرفع ﴿ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ عطف على إبراهيم وهو يناوله الحجارة ، وقيل : يبنيان فى طرفيه ، وقيل : على التناوب يقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ بناءنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ﴾ لقول من دعاك ﴿الْعَلِيمُ﴾ بإرادته

وفعله ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ ﴾ منقادين مخلصين ﴿ لَكَ وَ ﴾ اجعل ﴿ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا ﴾ أولادنا ﴿ أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ ومن للتبعيض ، وأتى به لتقدم قوله « لا ينال عهدى الظالمين » وخص الذرية لأنهم إذا صلحوا صلح بهم الاتباع ﴿ وَأَرِنَا ﴾ علمنا ﴿ مَنَاسِكَنَا ﴾ شرائع عبادتنا أو حجنا ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ لمن تاب ، سألاه التوبة مع عصمتهما تواضعاً وتعليما لذريتهما ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ ﴾ فى الأمة المسلمة أو أهل البيت وهم قريش ﴿ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ من أنفسهم ، وقد أجاب الله دعاءه بمحمد صلى الله عليه وسلم إذ لم يبعث من ذريتهما غير محمد صلى الله عليه وسلم كما قال عليه السلام : أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمى ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ القرآن أو دلائل التوحيد والنبوة ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ما فيه من الأحكام ، أى السنة أو ما تكمل به النفوس من المعارف والأحكام ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يطهرهم من الشرك والمعاصى ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب الذى لا يُغلب على ما يريد ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى صنعه ﴿ وَمَنْ ﴾ استفهام إنكار بمعنى « لا » مبتدأ خبره ﴿ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ من يترك شريعته الغراء ﴿ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ جهل أنها مخلوقة لله تجب عليها عبادته ، أو استخف بها أى أذلها و « من » نصب على الاستثناء أو رفع بدل من الضمير فى « يرغب » نحو : هل جاءك أحد إلا زيد ، وهو المختار وسفهه بمعنى جهله متعد ، وقيل أصله سفه نفسه بالرفع فنصب على التمييز نحو : غبن رأيه ، وألم رأسه . أو أصله سفهَ فى نفسه فنصب بنزع الخافض ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ ﴾ اخترناه ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ بالرسالة والخلة ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الذين لهم الدرجات العلى بيان لما تقدم ، فإن من كان صفوةَ العباد مشهوداً له بالصلاح كان حقيقاً بالاتباع لا يرغب عنه إلا سفيه ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ﴾ انقد لله وأخلص له دينك وهو ظرف لاصطفيناه وتعليل له ، أو منصوب بإضمار اذكر كأنه قيل اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح المستحق للإمامة والتقدم ﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى فوضت أمورى له ، دليل على أنه نال ما نال بسبب المبادرة بالإذعان وإخلاص السرّ حين دعاه ربه ﴿ وَأَوْصَى ﴾ لنافع وابن عامر وقرأ الباقون وصى ﴿ بِهَا ﴾ بالملة أو كلمة أسلمت وهو أولى ﴿ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ﴾ الاربعة ، إسماعيل وإسحاق ومدين ومَدَان ، وقيل بنوه ثمانية وقيل أربعة وعشرون فلا نطوّل بذكرهم لقلة الفائدة مع كثرة الاختلاف فى أسمائهم ﴿ وَ ﴾ أوصى بها ﴿ يَعْقُوبُ ﴾ لقبه إسرائيل كما تقدم ، بنيه : وهم اثنى عشر المشهورون « يوسف وبنيامين ويهودا ولاوى وروبيل وشمعون » قال أى كل منهما ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ دين الإسلام ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ نهى عن ترك الإسلام وأمر بالثبات عليه إلى الموت ، والوصية : هى التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاح وقربة ، وأصلها الوصل ، يقال : وصاه إذا وصله ، وفصّاه إذا فصله ، كأن الموصى يصل فعله بفعل الوصى ، ولم يقل « موتوا وأنتم مسلمون » للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لا خير فيه . ولما قالت اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم « ألست تعلم أن

يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية ، نزل ﴿أم﴾ منقطعة ، بمعنى بل أ ﴿كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ حضوراً ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أى أمارته ﴿إذ﴾ بدل من إذ قبله ﴿قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى﴾ بعد موتى و « ما » استفهامية نصب بتعبدون يسأل بها عن كل شىء أراد تقريرهم على التوحيد والإسلام وأخذ الميثاق عليهم على الثبات عليهما لأنه لما دخل مصر رأى بعض الناس يعبدون غير الله فخاف على ولده فسألهم ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ عدّ إسماعيل فى الآباء تغليب : أو لأن العم بمنزلة الأب ﴿إِلَٰهاً وَاحِداً﴾ بدل من إلهك ، وفائدته التصريح بالتوحيد ونفى التوهم الناشئ من تكرار المضاف لتعذر العطف على المجرور والتأكيد ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ حال من فاعل نعبد أو مفعوله أو منهما ، المعنى : لم تحضروه وقت موته فكيف تنسبون إليه مالا يليق به ﴿تِلْكَ﴾ الأمة ، مبتدأ والإشارة إلى إبراهيم ويعقوب وبنيهما ، وأنث لتأنيث خبره ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ سلفت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من العمل أى جزاؤه استئناف أو حال من ضمير خلت ﴿وَلَكُم﴾ الخطاب لليهود ﴿مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما لا يسألون عن عملكم ، والجملة تأكيد لما قبلها ، والأمة فى الأصل : المقصود ، وسمى بها الجماعة لأن الطرق تؤمها ومعنى الآية أن انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم ، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم لا تؤاخذون بسيئاتهم ولا تثابون بحسناتهم كما قال عليه السلام : « لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم ! » ولما قالت اليهود للمسلمين : لا دين إلا ديننا فكونوا معنا وكفروا بعيسى والإنجيل ! وقالت النصارى للمسلمين كذلك وكفروا بموسى والتوراة ، نزل ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ وأو للتفصيل ، و « تهتدوا » جواب الأمر ﴿قُلْ بَلْ﴾ نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ حال من إبراهيم مائلا عن الباطل إلى الحق ، أو مستقيم الدين ، وفى القاموس : الحنف ـ محركة : الاستقامة والاعوجاج فى الرجل ، وقد حنف ـ كفرح وكرم ـ فهو أحنف ، وكضرب : مال ، إلى أن قال : والحنيف ـ كأمير ـ : الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه . اهـ . ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض لأهل الكتاب وغيرهم : فإنهم يدعون اتباعهم وهم مشركون ﴿قُولُوا﴾ خطاب للمؤمنين ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ من الصحف العشر ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ أولاد يعقوب جمع سبط : وهو الحافد ، وكانوا اثنى عشر كما تقدم : سمّوا بذلك لأن كل واحد منهم ولد جماعة ، وللفرق بينهم وأولاد إسمعيل ، فهم يسمّون بالقبائل ، والمذكورون بعد إبراهيم لما كانوا متعبدين بصحفه كانت منزلة إليهم أيضاً ، كما أن القرآن منزل إلينا ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ من التوراة ﴿وَعِيسَىٰ﴾ من الإنجيل أفردهما بحكم أبلغ وهو الإيتاء ، لأن أمرهما بالإضافة إلى موسى وعيسى مغاير لما سبقهما ، والنزاع وقع فيهما ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ من الكتب والآيات المذكورون منهم وغير المذكورين ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ منزلا عليهم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كاليهود والنصارى . و « أحد » لوقوعه فى سياق النفى عام ، فساغ أن يضاف إليه « بين » لأنّ « بين » لا يكون إلا لاثنين

فما زاد ، أو المعنى : بين أحد وآخر ، لحذف لدلالة « بين » عليه . المعنى : نؤمن بالله وجميع كتبه ورسله ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ مذعنون مخلصون . وعن الحسن علّموا أولادكم وأهاليكم وخدمكم أسماء الأنبياء الذين ذكروا فى القرآن ليؤمنوا بهم وبما جاءوا به لقوله « قولوا آمنا ... الآية » ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا ﴾ أى اليهود والنصارى ﴿ بِمِثْلِ ﴾ « مثل » زائدة ﴿ مَا ءَامَنتُم بِهِ ﴾ أى مثل إيمانكم ﴿ فَقَدِ ٱهْتَدَوْا ﴾ فالباء للتعدية أو للآلة ، أى إن تحروا الإيمان بطريق يهدى إلى الحق مثل طريقكم ، أو مزيدة للتأكيد : أى فإن آمنوا بالله إيماناً مثل إيمانكم به ، وقرئ « بما آمنتم به » ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا ﴾ عن الإيمان به ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ﴾ خلاف معكم ، أى ما هم إلا فى خلاف الحق وعداوتكم وليسوا من طلب الحق فى شىء ، والشقاق : المخالفة ؛ لأن كل واحد من المتخالفين فى شق غير شق الآخر ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ يا محمد شقاقهم ، تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتسكين للمؤمنين ووعدٌ لهم بالحفظ والنصر على من ناوأهم ، والفاء عاطفة لنظم معنى الكلام ومعنى السين : أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين لأنها للتنفيس ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لأقوالهم وأقوالكم ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بأحوالهم وأحوالكم : وعيد ووعد وقد كفاه الله إياهم بقتل قريظة كما يأتى فى الأحزاب ، ونفى النضير كما يأتى فى سورته ، وضرب الجزية على الباقين ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ أى دين الله أو تطهير الله وهو مصدر مؤكد لآمنا منصوب به على معنى : صبغنا الله صبغة . والمراد بها دينه الذى فطر الناس عليه لظهور أثره على صاحبه كالصبغ فى الثوب أو للمشاكلة تقديراً ، لأن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر وهو صبغتهم ويقولون : هو تطهير لهم ، أو منصوب على الإغراء : أى الزموا ، أو بدل من ملة إبراهيم ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ تمييز : لا صبغة أحسن من صبغته ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَـٰبِدُونَ ﴾ تعريض بهم أى لا نشرك به كشرككم وهو عطف على « آمنا » ، وذلك يقتضى دخول قوله « صبغة الله » فى مفعول « قولوا » ، ولمن ينصبها على الإغراء أو البدل أن يضمر « قولوا » معطوفاً على « الزموا » أو « اتبعوا ملة إبراهيم » حتى لا يلزم فك النظم . ولما قال اليهود للمسلمين : نحن أهل الكتاب الأول وقبلتنا أقدم ولم تكن الأنبياء من العرب ولو كان محمد نبياً لكان منا : نزل ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَتُحَآجُّونَنَا ﴾ تخاصموننا ﴿ فِى ﴾ شأن ﴿ ٱللَّهِ ﴾ واصطفائه نبياً من العرب دونكم وترون أنكم أحق بالنبوة ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ فلا اختصاص له بقوم دون قوم فله أن يصطفى من عباده من يشاء . يصيب برحمته من يشاء ﴿ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا ﴾ نُجازَى بها ﴿ وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ﴾ تجازون بها فلا يبعد أن يكون فى أعمالنا ما نستحق به الإكرام وهذا إلجام وتبكيت على كل مذهب ، أى فالإكرام إما بفضل الله فكلٌّ فيه سواءٌ أو بأعمال فلنا أعمالنا كما لكم أعمالكم ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ الدين والعمل دونكم فنحن أولى بالاصطفاء ، والهمزة للإنكار ، والجمل الثلاث أحوال ، والخالص كالصافى معنى ، إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد ما كان فيه ، مأخوذ من خلصت الشىء من الشىء أبنتُه عنه والصافى يقال لما لا شوب فيه والإخلاص

تصفية الأعمال من الشرك والرياء أو ترك العمل لأجل الناس ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ يَقُولُونَ ﴾ بالياء لنافع وابن كثير وأبى عمرو ، فأم منقطعة والهمزة للإنكار ، وبالتاء لابن عامر وحفص وحمزة والكسائى ، وعليه يحتمل أن تكون أم معادلة للهمزة فى « أتحاجوننا » بمعنى أى الأمرين تأتون أبالمحاجة أو بادعاء اليهودية أو النصرانية على الأنبياء ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ﴾ لهم ﴿ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ أى الله أعلم وقد برأ منهما إبراهيم بقوله « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً » والمذكورون معه تبع له ثم زادهم إنكاراً وتبكيتاً بقوله ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ ﴾ أخفى على الناس ﴿ شَهَادَةً عِنْدَهُ ﴾ كائنة ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى لا أحد أظلم منه وهم اليهود : كتموا شهادة الله فى التوراة لإبراهيم بالحنيفية ولمحمد بالرسالة ، ومن للابتداء كما فى قوله : « براءة من الله » ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد لهم ، وقرئ بالياء ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ تقدم مثله كرره للمبالغة فى التحذير لما استحكم فى الطباع من الافتخار بالآباء ، وقيل الخطاب فيما سبق لهم ، وهذا تحذير لنا من الاقتداء بهم ، وقيل : المراد بالأمة فى الأول الأنبياء ، وفى الثانى أسلاف اليهود والنصارى . والله أعلم ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ ﴾ الجهال الذين خفت أحلامهم بالتقليد والإعراض عن النظر ﴿ مِنَ النَّاسِ ﴾ اليهود والمشركين ﴿ مَا وَلَّاهُمْ ﴾ أى شىء صرف النبى والمؤمنين ﴿ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ على استقبالها فى الصلاة وهى بيت المقدس والإتيان بالسين الدالة على الاستقبال من الإخبار بالغيب ، وفائدة تقديم الإخبار به توطين النفس وإعداد الجواب ، والقبلة فى الأصل الحال التى عليها الإنسان من الاستقبال فصارت عرفاً للمكان المتوجه إليه للصلاة ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ أى الجهات كلها فيأمر بالتوجه إلى أى جهة شاء لا اعتراض عليه و « من الناس » فى محل نصب حال مبينة من السفهاء وجملة الاستفهام فى محل نصب بالقول ﴿ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ هدايته ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين الإسلام ، ومنهم أنتم ، دل على هذا ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أى كما هديناكم إليه وجعلنا قبلتكم أفضل القبل ﴿ جَعَلْنَاكُمْ ﴾ يا أمة محمد ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ خياراً عدولا مزكين بالعلم والعمل ، وأصل الوسط : المكان الذى يستوى إليه المسافة من الجوانب ثم استعير للحال المحمودة لوقوعها بين طرفى إفراط وتفريط ، ثم أطلق على المتصف بها مستوياً فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كسائر الأسماء التى يوصف بها يُسكَّن حيث صلح بين موضعه كوسط القوم وإلا حُرِّك كوسط القوس ، واستدل به على أن الإجماع حجة إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لبطلت به عدالتهم ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ يوم القيامة أن رسلهم بلغتهم ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ أنه بلغكم ، وهذه الشهادة وإن كانت لهم لكن لما كان الرسول كالرقيب على أمته عدى بعلى ، وقدمت الصلة للدلالة على اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ﴾ صيرنا ﴿ الْقِبْلَةَ ﴾ لك الآن

مفعول أول والثانى الجهة ﴿ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا ﴾ أوّلا وهى الكعبة ، وكان صلى الله عليه وسلم يصلى إليها فلما هاجر أمر باستقبال بيت المقدس تأليفاً لليهود فصلى إليه ستة أو سبعة عشر شهراً ثم حول فى رجب بعد الزوال قبل بدر بشهرين وقد صلى بأصحابه فى مسجد بنى سلمة ركعتين من الظهر فتحول فى الصلاة واستقبل الميزاب وتبادل الرجال والنساء صفوفهم فسمى المسجد مسجد القبلتين ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ علم ظهور ﴿ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ﴾ فيصدقه فى الصلاة إليها ﴿ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ يرجع إلى الكفر شكًّا فى الدين وظنًّا أن النبى صلى الله عليه وسلم فى حيرة من أمره وقد ارتد لذلك جماعة والمراد بالعلم : العلم الذى يتعلق به الجزاء ، وذلك لا يتعلق إلا بما يوجد من العامل ، أو المراد بالعلم تمييز التابع من الناكص أو المراد علم الرسول وأصحابه أضافه إليه تشريفاً ، وقرئ إلا ليعلم مجهولا ﴿ وَإِنْ ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أى وإنها ﴿ كَانَتْ ﴾ التولية إليها ﴿ لَكَبِيرَةً ﴾ شاقة على الناس ﴿ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ منهم إلى حكمة الأحكام الثابتين على الإيمان و «على» متعلق بـ « لكبيرة » ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ أى صلاتكم إلى بيت المقدس أو إيمانكم بالقبلة المنسوخة أو ثباتكم على الإيمان بل يثيبكم عليه لأن سبب نزولها السؤال عمن مات قبل التحويل و « إيمانكم » أى صلاة الأحياء والأموات منكم إلى بيت المقدس ، ثم علل ذلك بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ ﴾ المؤمنين ﴿ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ فى عدم إضاعة أعمالهم ، والرأفة شدة الرحمة ، وقدم الأبلغ للفاصلة ، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص « لرءوف » بالمد ، والباقون بالقصر ﴿ قَدْ ﴾ للتحقيق ﴿ نَرَى تَقَلُّبَ ﴾ تصرف ﴿ وَجْهِكَ فِي ﴾ جهة ﴿ السَّمَاءِ ﴾ متطلعاً للوحى ومتشوقاً للأمر باستقبال الكعبة وكان يقع فى روعه أن يحول إليها ويوده لأنها قبلة إبراهيم ولأنه أدعى إلى إسلام العرب وهو مع ذلك لم يسأله لكمال أدبه ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ ﴾ فلنعطينك أو نمكننك أو نحولنك ﴿ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ رضى الطبع وتحبها ، لأنه راض باستقبال بيت المقدس امتثالا لا طبعاً ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾ ذاتك استقبل فى الصلاة ﴿ شَطْرَ ﴾ نحو ﴿ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أى المحرم فيه القتال وتعرض الظلمة الجبابرة : أى الكعبة ، وأصل الشطر : ما انفصل عن الشىء مصدر شطر : انفصل ، ثم استعمل للجانب وإن لم ينفصل ، وفيه إشارة إلى أن المأمور باستقباله للبعيد جهتها فإن استقبال عينها حرج عليه بخلاف القريب منها ، واستقبالها شرط فى صحة الفرائض ، إلا فى صلاة المسايفة كما يأتى ، والراكب يخاف لصاً أو سبعاً إن نزل فيصلى على الدابة إلى القبلة أو غيرها ﴿ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ ﴾ خطاب للأمة ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ﴾ فى الصلاة أى ذواتكم مجاز لغوى ﴿ شَطْرَهُ ﴾ خص الرسول بالخطاب أولا تعظيما له وإيجاباً لرغبته ، ثم عمم تصريحاً بعموم الحكم وتأكيداً لأمر القبلة وتحضيضاً للأمة على المتابعة ، وحيثما يجوز أن يكون شرطاً وغير شرط أى أىّ مكان كنتم من بر أو بحر ، وعلى الشرط فجوابه «فولوا» ولما سمع اليهود ذلك وقالوا : هذا شىء يبتدعه محمد من تلقاء نفسه نزل ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ﴾ أى التولى إلى الكعبة ﴿ الْحَقُّ ﴾ الثابت ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ لما فى كتبهم من نعت النبى بأنه يتحول إليها ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ بالياء لنافع وابن كثير وأبى عمرو وعاصم ـ أى اليهود من إنكار أمر القبلة ـ وبالتاء للباقين، أيها المؤمنون من امتثال أمره . وعيد ووعد للفريقين ولما قالوا له : ائتنا بآية على صدق قولك، نزل ﴿ وَلَئِنْ ﴾ لام قسم ﴿ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ ﴾ على صدقك فى أمر القبلة ﴿ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ عناداً إذ لم يتركوها لشبهة تزيلها الحجة . جواب للقسم المضمر ساد مسد جواب الشرط ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ قطع لطمعه فى إسلامهم وطمعهم فى عوده إليها ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ أى اليهود قبلة النصارى وبالعكس لتصلب كل حزب بما هو فيه ، فإن اليهود تستقبل الصخرة لبيت المقدس والنصارى مطلع الشمس ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ التى يدعونك إليها كقولهم راجع بيت المقدس نؤمن بك ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ الوحى أى بعد ما بان لك الحق به ﴿ إِنَّكَ إِذًا ﴾ إن اتبعتهم فرضاً ﴿ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فيه تحذير من ترك الدليل واتباع الهوى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ ﴾ أى محمداً أو القرآن أو تحويل القبلة والأول أظهر لقوله ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ لنعته فى كتبهم ، قال ابن سلام : لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ومعرفتى بمحمد أشد . رواه البخارى ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ ﴾ نعت محمد أو أمر التحويل ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ تخصيص لمن عاند واستثناء لمن آمن ﴿ الْحَقُّ ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى هو ما ثبت من الله لا ما لم يثبت أو خبر مبتدإ محذوف أى هذا الذى أنت عليه الحق و « من ربك » حال أو خبر بعد خبر وقرئ بالنصب بدل من الأول أو مفعول « يعلمون » ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ الشاكين فيه أى من هذا النوع فهو أبلغ من لا تمتر ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ من الأمم المختلفة الأديان أو لكل منكم يا أمة محمد ﴿ وِجْهَةٌ ﴾ قبلة أصلها هيئة التوجه أو جهة من الجهات يصلى إليها جنوبية أو شمالية أو شرقية أو غربية ﴿ هُوَ ﴾ أى الكل ﴿ مُوَلِّيهَا ﴾ وجهه فى صلاته أو الضمير فى « هو » لله أى موليها إياه ، وقرأ ابن عامر مولاها أى تلك الجهة . والمعنى لكل فريق قبلة ذلك الفريق موليها وجهه أو الله موليها إياه ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ بادروا إلى الطاعات وقبولها من أمر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ يجمعكم يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم ، ويجعل صلاتكم كأنها إلى جهة واحدة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على الإماتة والإحياء والجمع ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ من أى مكان خرجت للسفر ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ إذا صليت ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ هذا الأمر ﴿ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لأبى عمرو، وتقدم مثله وكرره لبيان تساوى حكم السفر وغيره ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ كرره للتأكيد لأنه أول ناسخ وقع فى الإسلام ، أو لتعدد علل التحويل ، لأنه لتعظيم الرسول بابتغاء مرضاته ، ولجرى العادة الإلهية على أن يولى كل أهل ملة

وصاحب دعوة وجهة يستقبلها ولدفع حجج المخالفين فناسب أن يؤكد أمره بذكره مرة بعد أخرى والاستقبال يحصل بتيقنه لمن بمكة ومحراب النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وبالاجتهاد لمن بسائر الأقطار إن قدر عليه، وبالتقليد لمن لم يقدر: يقلد مسلماً عاقلا عارفاً بالقبلة، فإن عدمه صلى إلى حيث شاء، واختير أن يصلي أربع صلوات إلى أربع جهات، وإن تبين له الخطأ في القبلة أعاد في الوقت في مشهور مذهب مالك، وقيل: أبداً، وفاقاً لباقي الأئمة ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ أي اليهود أو المشركين، علة لقوله «فولوا» ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي مجادلة في التولي أي لتنتفي مجادلة اليهود لكم في قولهم يجحد ديننا ويتبع قبلتنا وقول المشركين يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته «وحجة» اسم كان «وللناس» خبرها، و «عليكم» حال: لأنه في الأصل صفة «حجة» فتقدمت عليها ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ استثناء من الناس، فإنهم يقولون ما تحول إليها إلا ميلا إلى دين آبائه، أي لئلا يكون لأحد من الناس مجادلة إلا المعاندين منهم ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ لا تخافوا جدالهم في التولي إليها، فإن مطاعنهم لا تضركم ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ فلا تخالفوا ما أمرتكم به ﴿وَلِأُتِمَّ﴾ عطف على «لئلا» أو على محذوف أي واخشوني لأحفظكم ولأتم ﴿نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بالهداية إلى معالم دينكم والموت على الإسلام ودخول الجنة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ فالكاف في محل نصب صفة لمصدر محذوف متعلق بأتم أي إتماماً كإتمامها بإرسالنا ﴿فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ القرآن ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يطهركم من الشرك قدم هنا باعتبار القصد على التعليم وأخره في دعوة إبراهيم باعتبار الفعل ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ما فيه من الأحكام ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ بالفكر والنظر، وقيل «كما» متعلق بقوله ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالصلاة والتسبيح ونحوه ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب، وفي الحديث عن الله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير من ملئه» ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ نعمتي بالطاعة ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ بالمعصية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا﴾ على الآخرة ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على الطاعة وعن المعصية وحظوظ النفس وعلى البلاء ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ خصها بالذكر لتكررها وعظمها ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالعون وإجابة الدعوة ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء دينه هم ﴿أَمْوَاتٌ بَلْ﴾ هم ﴿أَحْيَاءٌ﴾ أرواحهم في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، لحديث بذلك ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ما هم عليه أو كيف حياتهم أو ما حالهم وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يحس به وإنما هي أمر لا يدرك بالعقل بل بالوحي، والآية نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر، وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت دراكة، وتخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله وتعلق بالآية مالك والشافعي على أن الشهيد لا يغسل ولا يصلى عليه: لأن الميت هو الذي يفعل له ذلك والشهيد حي، وقال أبو حنيفة: يصلى عليه لأنه في حكم الميت ولا يغسل لأنه تطهر بالقتل ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾

للعدو ﴿ وَالْجُوعِ ﴾ بالقحط أو الصوم ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ ﴾ بالزكاة والهلاك ﴿ وَالْأَنْفُسِ ﴾ بالقتل والموت والأمراض والهرم والشيب ﴿ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ بالجوائح أى لنختبرنكم بما ذكر لنظهر لكم المطيع منكم من العاصي، أو لننظر أتصبرون أم لا ؟ وفي تنكير « شيء » إيذان بأن كل بلاء يصيب الإنسان - وإن جلّ - فوقه ما هو أعظم منه، وأعلمهم بوقوع البلايا قبل وقوعها ليوطنوا نفوسهم عليها ومحل « من الخوف » جرّ صفة بشيء ومحل « من الأموال » نصب صفة محذوف : أى نقص شيئاً من الأموال لأنه مصدر نقصت الشيء وهو متعد حذف مفعوله، أو جرّ صفة نقص، وقد يكون من لابتداء الغاية : أى ناشئ من الأموال بالخسران والهلاك أو بالزكاة والصدقات والثمرات بالجوائح، أو الثمرات الأولاد بموتهم، وعنه عليه السلام : « إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة : أقبضتم ثمرة قلب عبدى ؟ فيقولون : نعم . فيقول الله : ماذا قال عبدى ؟ - وهو أعلم - فيقولون : حمدك واسترجع، فيقول الله سبحانه : ابنوا لعبدى بيتاً في الجنة وسمّوه بيت الحمد » ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ على هذه البلايا بالجنة هم ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ بلاء ﴿ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ ﴾ ملكا وعبيداً يفعل بنا ما يشاء وهذا إقرار بالملك ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ في الآخرة فيجازينا وهذا تسليم وإذعان، وفي الحديث « من استرجع عند المصيبة أجره الله فيها وأخلف عليه خيراً » وفيه أيضاً كل ما أقلق المؤمن فهو مصيبة، وليس الصبر بالاسترجاع باللسان بل وبالقلب بأن يصوّر ما خلق لأجله وأنه راجع إلى ربه تعالى ويتذكر نعم الله عليه ليرى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استرده منه فيهون على نفسه، والمبشر به محذوف دل عليه قوله ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ ﴾ مغفرة ورأفة بعد رأفة ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ نعمة ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ إلى الصواب حيث أذعنوا لأمر الله تعالى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « نعم العدلان ونعمت العلاوة » أى الصلاة والرحمة ثم الاهتداء ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ ﴾ جبلان بمكة ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ أعلام دينه جمع شعيرة، والصفا في الأصل جمع صفاة : الصخرة الملساء، والمروة مفرد المرْو : الحجارة الصغار الرخوة و « أل » فيهما للغلبة ﴿ فَمَنْ ﴾ شرط في محل رفع بالابتداء ﴿ حَجَّ الْبَيْتَ ﴾ و « حج » في موضع جزم، والبيت : نصب على المفعول به لا على الظرف أى قصد ﴿ أَوِ اعْتَمَرَ ﴾ أى زار أى تلبس بالحج والعمرة، وأصلهما القصد والزيارة المتكررة مأخوذة من عمَرْتُ الموضع فغلبا شرعاً على الأعمال المخصوصة والجواب ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ ﴾ بإدغام التاء في الأصل في الطاء ﴿ بِهِمَا ﴾ بأن يسعى بينهما سبعاً بعد طواف البيت والإجماع على أن السعي بينهما مشروع في الحج والعمرة واختلف في الوجوب . فعن مالك والشافعي « أنه ركن لا يجزى تاركه إلا العود إليه » لحديث « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي » رواه أحمد، وحديث « إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا » . رواه البيهقي وغيره وصححه الدارقطني، وقال عليه السلام « ابدأ بما بدأ الله به » يعني الصفا . رواه مسلم وعن أحمد أنه سنة لقوله تعالى : « فلا جناح عليه » المفهم للتخيير، وهو ضعيف لأن نفي الجناح يدل على

الجواز الداخل فى معنى الوجوب فلا يدفعه ولأنه ذكر لسبب وهو أن الآية نزلت لما كره المسلمون الطواف بينهما لأن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بهما وعليهما صنمان يمسحونهما ، وعن أبى حنيفة : أنه واجب يجبر بالدم ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ ﴾ تطوعا ﴿ خَيْراً ﴾ أى فعل طاعة فرضاً كان أو نفلا أو زاد على ما فرض الله عليه من حج أو عمرة أو طواف و « خيراً » نصب على أنه صفة مصدر محذوف كما قدرنا أو بحذف الجار وإيصال الفعل إليه ، والأصل : بخير : أو بتعدية الفعل لتضمنه معنى فعل . وقرأ حمزة والكسائى ويعقوب بالتحتية وتشديد الطاء مجزوماً وفيه إدغام التاء فيها ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ ﴾ بقبول العمل والإثابة عليه يقبل اليسير ويعطى الكثير ﴿ عَلِيمٌ ﴾ به لا تخفى عليه أعمالكم ، وأصل التطوع : التبرع ، من طاع يطوع تبرع ، أى زاد على الواجب . ونزل فى اليهود الكاتمين للعلم ودخل فيه : كل من كتم علماً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ ﴾ الناس ﴿ مَآ أَنزَلْنَا ﴾ فى القرآن ﴿ مِنَ ﴾ الآيات ﴿ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ كآية الرجم والأحكام ﴿ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ ما يهدى إلى وجوب اتباعه والإيمان به كنعت محمد والإسلام ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أوضحناه فى التوراة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ يبعدهم من رحمته ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ الملائكة والمؤمنون أو كل شىء أى يدعون عليهم باللعنة ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾ عن الكتمان وسائر ما يجب أن يتاب عنه استثناء متصل من ضمير « يلعنهم » محله نصب ، أو منقطع لأن الذين كتموا لعنوا قبل التوبة ، أى لكن الذين رجعوا ﴿ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾ الأعمال بينهم وبين الله ﴿ وَبَيَّنُوا۟ ﴾ ما كتموا لتتم توبتهم أو بينوا توبتهم ليقتدى بهم أضرابهم ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ أقبل توبتهم ﴿ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ﴾ المبالغ فى قبول التوبة ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ المبالغ فى إفاضة الرحمة للمؤمنين ، وفى الآية أن من سئل عن علم وجب عليه التبليغ وكذا من لم يسئل إن لم يكن هناك من يبلغ غيره ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ حال أى من الكاتمين ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أى هم مستحقون ذلك فى الدنيا والآخرة ، و « الناس » قيل عام ، وقيل المؤمنون ، وفى الآية جواز لعن الكافر جملة ، وأما الكافر المعين فقيل : لا يجوز لعنه لأن حاله عند الوفاة لا تعلم ، وقد شرط الله فى هذه الآية فى إطلاق اللعنة الوفاة على الكفر ، والصحيح جواز لعنته بظاهر حاله لجواز قتاله وقتله وقد لعن النبى صلى الله عليه وسلم أقواماً بأعيانهم من الكفار ، وأما لعن المؤمن العاصى المعين فلا يجوز اتفاقا ، وأما لعن العاصى مطلقاً فيجوز إجماعاً ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أى اللعنة أو النار المدلول عليها باللعنة ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ طرفة عين ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ لا يمهلون لتوبة أو معذرة أو لا ينظر إليهم نظر الرحمة ، ونزل لما قالوا صف لنا ربك ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ ﴾ المستحق للعبادة منكم مبتدأ خبره ﴿ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ لا نظير له فى ذاته ولا فى صفاته ولا شريك له فى أفعاله ، وهذا تقرير للوحدانية ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ نفى لألوهية غيره وموضع هو رفع بدل من موضع لا إله . هو ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بدل من هو أوخبران آخران لإلهكم أو خبر مبتدإ محذوف وهو كالحجة على الوحدانية لأنه

لما كان مولى النعم كلها أصولها وفروعها وماسواه إمانعمة أومنعم عليه : لم يستحق العبادة أحدغيره . ولما سمعه المشركون طلبوا آية على ذلك فنزل ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهمامن العجائب جمع السموات وأفرد الأرض لأنها طبقات متفاصلة بالذات مختلفة بالحقيقة كل سماء ليست من جنس الأخرى بخلاف الأرضين فكلها من جنس التراب ، ولثقل جمع الأرض ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بالذهاب والمجيء والزيادة والنقصان والنور والظلمة ﴿وَالْفُلْكِ﴾ السفن ﴿الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ ولا ترسب موقورة ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من التجارات والحمل ، والقصد الاستدلال بالبحر وأحواله ، وتخصيص الفلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه ، ولذلك قدمه على ذكر المطر والسحاب لأن منشأهما البحر فى غالب الأمر وتأنيث الفلك لأنها بمعنى السفينة ، وقرئ بضمتين على الأصل أو الجمع وضمة الجمع غير ضمة الواحد عند المحققين ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ﴾ مطر «من» الأولى للابتداء والثانية لبيان الجنس والسماء تحتمل الفلك والسحاب وجهة العلو ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها ﴿وَبَثَّ﴾ عطف على «أنزل» أى فرق ونشر به ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ ما يدب عليها لأنهم ينمون بالخصب الكائن عنه ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ بالجمع للجمهور وبالإفراد لحمزة والكسائى تقليبها فى مهابها قبولا ودبوراً وجنوباً وشمالا وفى أحوالها حارّة وباردة وعاصفة ولينة وعقيما ولواقح . والريح أعظم جند الله تعالى تذكر وتؤنث ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾ الغيم المذلل للرياح بأمر الله يسير إلى حيث شاء الله ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بلا علاقة لا ينزل ولا ينقشع واشتقاقه من السحب لأن بعضه يجر بعضاً ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون ، وعنه عليه السلام «ويل لمن قرأ هذه الآية ولم يتفكر فيها» واعلم أن دلالة هذه الآيات على وجود الإله ووحدته من وجوه كثيرة يطول شرحها مفصلا ، ولكن الكلام المجمل أنها أمور ممكنة وُجد كل منها بوجه مخصوص من وجوه محتملة وأنحاء مختلفة ، إذ من الجائز مثلا أن لا تتحرك السموات أو بعضها كالأرض ، وأن تتحرك بعكس حركاتها ، فكلٌّ يدل على موجد مريد قادر حكيم متعال عن معارضة غيره ، وفى الآية الحث على النظر . ولما أوضح دليل الوحدانية والألوهية له تعالى ، عقب على من عبد غيره بقوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ مع هذا البرهان الواضح ﴿مَنْ﴾ موصولة أو موصوفة ﴿يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ غيره ﴿أَنْدَادًا﴾ أصناماً أو رؤساء يطيعونهم على خلاف طاعة الله ، أو أنداداً ما هو أعم منهما : أى كل ما يشغل عن الله ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ بالتعظيم والخضوع ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أى كحبهم له أو كحب المؤمنين له ، والجملة فى محل نصب صفة «أنداداً» أو رفع صفة «من» إن كانت نكرة ، والمحبة الميل ، ومحبة العبد لله إرادةَ طاعته والاعتناء بتحصيل مراضيه ، ومحبة الله للعبد : إرادة إكرامه واستعماله فى الطاعة وصونه عن المعاصى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من حب الكفار الأنداد لأنهم لا يعدلون عن الله بكل حال ، والكفار يعدلون عن أربابهم فى الشدائد

إلى الله ، ويعبدون الصنم زمناً ، ثم يرفضونه إلى غيره ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ بالفوقية لنافع وابن عامر : أى تبصر يا محمد ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ باتخاذ الأنداد ، وللباقين يرى بالتحتية والفاعل ضمير السامع أو الذين ظلموا ﴿ إِذْ يَرَوْنَ ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور ، وللمفعول لابن عامر : يبصرون ﴿ الْعَذَابَ ﴾ وإذ بمعنى إذا ﴿ أَنَّ الْقُوَّةَ ﴾ القدرة والغلبة ﴿ لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾ حال أى لا شىء منها للأنداد ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ لرأيت أمراً عظيما أو لندموا أشد الندم ، والمعنى : لو يعلم هؤلاء الذين ظلموا باتخاذ الأنداد أن القوة لله جميعاً إذا عاينوا العذاب يوم القيامة لندموا و«أن القوة» سادّ مسدّ مفعولى «يرى» على التحتية وجواب «لو» محذوف أى لندموا أو متعلق الجواب والمفعولان محذوفان : أى لو يرى الذين ظلموا أندادهم لا تنفع لعلموا أن القوة لله ، وعلى قراءة الفوقية فرأى بصرية يتعدى إلى واحد ، وهو الموصول و «أن القوة» بمعنى : لأن القوة ، والجواب محذوف كما قدرنا أولا ، والله أعلم ﴿ إِذْ ﴾ بدل من إذ قبله ﴿ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا ﴾ أى الرؤساء ﴿ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾ وهم الاتباع ، أنكروا إضلالهم ، وقرئ بالعكس ، أى تبرأ الاتباع من الرؤساء ﴿ وَ ﴾ قد ﴿ رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ حال أو عطف على تبرأ ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ عطف على «تبرأ» أو على «رأوا» الحال والأول أظهر ، والأسباب : الوُصَل التى كانت بينهم فى الدنيا من الأرحام والمودة ، وأصل السَّبب الحبل الذى يشد بالشىء فيجذ به أو الذى يرتقى به الشجر ، ثم سمى كل ماجر شيئاً سبباً له ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ﴾ أى المتبوعين ﴿ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾ اليوم ، و «لو» للتمنى و «نتبرأ» جوابه ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما أراهم شدة عذابه وتبرأ بعضهم من بعض ﴿ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ السيئة ﴿ حَسَرَاتٍ ﴾ ندامات حال إن كانت «رأى» بصرية ومفعول ثالث إن كانت علمية ﴿ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ بعد دخولها . ونزل فيمن حرم السوائب ونحوها ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ ﴾ من للتبعيض ، إذ ليس كل ما فيها يؤكل ﴿ حَلَالًا ﴾ مفعول كلوا أو صفة مصدر محذوف أو حال من «ما فى الأرض» وقيل نزلت فى قوم حرموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس ﴿ طَيِّباً ﴾ طاهراً عن كل شبهة صفة مؤكدة ، وكل حلال فيه شبهة فليس طيباً أو بمعنى مستلذاً . قال الثعالبي : الطيب عند مالك : الحلال ، فهو هنا تأكيد لاختلاف اللفظ وهو عند الشافعى المستلذ ، ولذا يمنع أكل الحيوان القذر . اه ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ طرق تزيينه ، أى لاتقتدوا به فى اتباع الهوى فتحرموا الحلال أو تحللوا الحرام ، قرأ نافع والجمهور بضم الخاء وسكون الطاء ولابن عامر والكسائى ورواية قنبل وحفص ضمهما وهما لغتان فى جمع خطوة وهى ما بين قدمى الخاطى ، وقرئ بضمتين وهمزة ، وبفتحتين على أنه جمع خطوة وهى المرة من الخطو ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ بيِّن العداوة وأبان متعد ولازم ثم بيَّن عداوته بقوله ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ ﴾ أى يوسوس ويزين لكم ﴿ بِالسُّوءِ ﴾ أى الإثم ، وأصله ما يسوء صاحبه ﴿ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ القبيح شرعاً واستعير الأمر لتزيينه وبعثه لهم على الشر

تسفيهاً لرأيهم ، والسوء والفحشاء : ما أنكره العقل واستقبحه الشرع والعطف لاختلاف الوصفين فإنه سوء لاغتمام العاقل به وفحشاء باستقباحه إياه . وقيل : السوء يعمّ القبائح ، والفحشاء أقبح القبائح من الكبائر . وقيل السوء ما لا حد فيه ، والفحشاء ما شرع فيه حدّ ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا ﴾ عطف على السوء ﴿ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من تحريم ما لم يحرم من الحرث والأنعام وغير ذلك وتحليل المحرمات وفيه دليل على المنع من اتباع الظن المجرد وأما اتباع المجتهد ما أدى إليه ظنه فستند إلى مدرك شرعى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ للناس الكفار ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ من التوحيد وتحليل الطيبات وإنما عدل عن الخطاب عنهم للنداء على ضلالهم كأنه التفت إلى العقلاء وقال لهم انظروا إلى هؤلاء الحمق ماذا يجيبون ﴿ قَالُوا ﴾ لا نتبع ما أنزل الله ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا ﴾ وجدنا ﴿ عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴾ من عبادة الأصنام وتحريم الحرث والأنعام على ما يأتى فإنهم خير منا وأعلم ، قال الله تعالى ﴿ أ ﴾ يتبعونهم ﴿ وَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً ﴾ من أمر الدين . الواو للحال أو العطف والهمزة للتوبيخ والتعجيب والرد عليهم فى تقليد الجهال ﴿ وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى حق . وفيه المنع من التقليد وأما تقليد الأنبياء والمجتهدين فى الأحكام فليس بتقليد بل اتباع لما أنزل الله . ثم ضرب لهم مثلا فقال ﴿وَمَثَلُ﴾ أى صفة داعى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى الهدى ﴿ كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ ﴾ يصوّت ﴿ بِمَا لَا يَسْمَعُ ﴾ من المواشى ﴿ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ أى إلا صوته ولا يفهم معناه أى هم فى سماع الموعظة وعدم تدبرها كالبهائم تسمع صوت راعيها ولا تفهمه وقيل هو تمثيلهم - فى اتباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتهم - بالبهائم التى تسمع الصوت ولا تفهم ماتحته وهذا يغنى عن الإضمار الذى فى الأول الذى هو من نوع الاحتباك . هم ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ رفع على الذم ﴿ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الموعظة ثم بين أن ماحرموا حلال فقال ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ﴾ حلالات أو مستلذات ﴿ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أى تحرزوا أكل حلاله ومفعول كلوا محذوف أى رزقكم فتكون « من » ابتدائية أو المفعول من طيبات ومن للتبعيض ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾ على ما أحل لكم قياماً بحق النعم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ إن صح أنكم تخصونه بالعبادة وتُقرّون أنه مولى النعم فالعبادة لا تتم إلا بالشكر ، فالمعلق بفعل العبادة هو الأمر بالشكر لا تمامه وهو عدم عند عدمه . ثم بين المحرم فقال ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ أى أكلها إذ الكلام فيه وكذا ما بعدها وهى ما لم يذك شرعا ، وألحق بها بالسنة ما أبين من حيّ وخص منها السمك بالحديث الصحيح « هو الحل ميتته » وأما الجراد فليس فيه حديث يعول عليه ، ولذا افتقر إلى الذكاة بما يموت به عند مالك لا الشافعى ، فالحرمة المضافة إلى العين ليس مجملا إذ العرف يقيدها بالتصرف فى الميتة مطلقاً إلا ما خصه الدليل كالتصرف فى جلد الميتة المدبوغ فى يابس وماء ، ولا يجوز التداوى بها أكلا وطلاء إن كانت عينها قائمة وإن تغيرت بإحراق ونحوه : قيل يجوز ، وقيل لا ﴿ وَالدَّمَ ﴾ أى المسفوح كما فى الأنعام : لا ما خالط اللحم فغير محرم على المشهور لقول عائشة « لو حرم غير المسفوح

لتتبع الناس ما فى العروق ، ولقد كنا نطبخ اللحم والبرمة تعلوها الصفرة » . اه . وهل خص الكبد والطحال من الدم . قاله الشافعى ، أولا قاله مالك وهو الصحيح : لأن الكبد والطحال ليسا دماً بل هما لحم يشهد لذلك العيان الذى لا يفتقر إلى برهان ﴿ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ خص اللحم لأنه معظم المقصود ، وغيره تبع له ؛ وأما الشحم فداخل فى اللحم لكن حبه طاهر كسائر الحيوان عند مالك، ونجسٌ عند غيره من الأئمة ﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ أى ذبح على اسم غيره . والإهلال : رفع الصوت ، وكانوا يرفعونه عند الذبح لآلهتهم ، وذلك المذبوح حرام ولو ذبحه كتابىّ . قال عبدالباقى فى شرحه على المختصر : لا يؤكل ذبح الكتابىّ لصنم ما يستحقه دون غيره فى زعمه لأنه مما أهل لغير الله بأن قال : باسم الصنم ، بدل : بسم الله ، فإن ذكر اسم الله عليه أيضاً : أكل تغليباً لاسم الله . اه . ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ أى ألجأته الضرورة إلى أكل شىء مما ذكر فأكله بأن خاف التلف أو شديد أذى - ولا يشترط أن يصبر حتى يشرف على الموت ، إذ الأكل حينئذ لا يفيد غالباً ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ طالب فساداً على المسلمين ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ متعدٍ عليهم أو غير باغ للذة ولا عادٍ قدر الحاجة ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ فى أكله ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث وسّع فى الضرورات ، وخرج الباغى : ويدخل فيه القطّاع والخوارج والمسافر فى قطع الرحم والغارة على المسلمين وما شاكله من كل عاص بسفره كالآبق والمكاس فلا يحلُّ لهم أكل شىء من ذلك ما لم يتوبوا ، وعند الشافعى وأحمد وهو الصحيح من مذهب مالك كما قال ابن العربى فى الأحكام قال فيه : فإن أراد الأكل فليتب وليأكل ، وعجباً لمن يبيح ذلك مع التمادى على المعصية فمن قاله فهو مخطئ قطعاً . اه . وقال ابن جزى فى القوانين : يرخص أكل الميتة للعاصى بسفره على المشهور ، وقيل : لا يباح مع التمادى على المعصية . اه . قلت : مذهب أبى حنيفة الترخيص له . ذكره الكواشى فى ملخصه . ويجوز للمضطر الأكل حتى يشبع ويتزود حتى يستغنى على مذهب مالك ، ومنع ذلك الشافعى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ من الدنيا ﴿ أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ لأنها مآلهم . ومعنى فى بطونهم : ملؤها ، يقال : أكل فى بطنه وفى بعض بطنه . ومحل « من الكتاب » نصب على الحال من العائد المحذوف وكذا « فى بطونهم » فى محل نصب حال مقدرة و « النار » مفعول « يأكلون » ولما كان ما يأكلون يؤديهم إلى النار فكأنهم أكلوها أو يصير ناراً فى بطونهم ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ غضباً عليهم ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أو لا يكلمهم كلاماً يسرهم ولكن بنحو « اخسئوا فيها ولا تكلمون » ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ لا يثنى عليهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم وهو النار ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ﴾ فى الدنيا ﴿ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ﴾ المعدّة لهم فى الآخرة لو لم يكتموا ثم أعجب ملازمتهم لما يوجب لهم النار فقال ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ أى ما أشد صبرهم وهو تعجب للمؤمنين من ارتكابهم موجباتها من غير مبالاة وإلا فأىّ صبر لهم و « ما » تامة مرفوعة بالابتداء وفاعل « أصبر »

هو الضمير العائد على « ما » أو استفهامية للتوبيخ وما بعدها الخبر ، أو موصولة وما بعدها صلة والخبر محذوف ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى ذكر من أكلهم النار وما بعده ﴿بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ فرفضوه بالتكذيب والكتمان أو فاختلفوا فيه حيث آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه بكتمه ، أو حيث قال بعضهم : سحر ، وبعض : شعر ، وبعض : كهانة ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ بذلك وهم اليهود أو المشركون ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق ، ولما كانت اليهود تصلى نحو المغرب وادعوا أنه البر ، والنصارى نحو المشرق وادعوا أنه البر ، نزل رداً عليهم ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ فى الصلاة ﴿قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ لأنه منسوخ ، وقرأ حمزة وحفص : « ليس البرَّ » بالنصب على أنه خبر ليس ، والاسم أن تولوا ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ﴾ بتخفيف « لكن » ورفع « البر » لنافع وابن عامر ولغيرهما بالتشديد ، ونصب البر أى ذو البر ، وقرئ « البار » ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ أو برّ من آمن بالله ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ أى الكتب ﴿وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ﴾ فى التطوع ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أى على حب المال كما قال عليه السلام لما سئل : أى الصدقة أفضل ؟ « أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر » وقيل الضمير لله أو للمصدر والجار والمجرور فى موضع الحال ﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ أى القرابة ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ يريد المحاويج منهم ولم يقيد لعدم الإلباس وقدم ذوى القربى لأن إيتاءهم أفضل لقوله عليه السلام : « صدقتك على المساكين صدقة وعلى ذى رحمك اثنتان صدقة وصلة » ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ جمع مسكين الذى أسكنه الفقر وأصله دائم السكون ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ المسافر أو الضيف ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ الذين ألجأتهم الحاجة إلى السؤال . وقال عليه السلام : « للسائل حق » ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ فى تخليصها عام فى إعانة المكاتبين وفك الأسرى وابتياع الرقاب للعتق قربة ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ المفروضة إذ ما قبله فى التطوع ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ عطف على « من آمن » ﴿إِذَا عَاهَدُوا﴾ الله أو الناس ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ نصب على المدح ولم يعطف لبيان فضل الصبر على سائر الأعمال ﴿فِي الْبَأْسَاءِ﴾ شدة الفقر لأن البأساء فى الأموال ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ فى الأبدان كالمريض ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ وقت شدة القتال فى سبيل الله ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ فى إيمانهم وادعاء البر واتباع الحق ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ الله ، وهذه الآية جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها ، إذ هى تنحصر فى ثلاثة أشياء : صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة للخلق ، وتهذيب النفس فى المعاملة مع الله . وقد أشير إلى الأول بقوله : « من آمن » إلى « والنبيين » وإلى الثانى بقوله : « وآتى المال » إلى « وفى الرقاب » وإلى الثالث بقوله : « وأقام الصلاة » إلى آخرها . ولذا قال عليه السلام : « من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان » ولما كان من العرب فى الجاهلية من لا يرضى أن يأخذ بعبد إلا حراً ولا بامرأة إلا رجلا ولا برجل حر إلا بمتعدد ، نزل رداً لهم إلى المساواة فى القصاص مع استيفاء الحق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ﴾ فرض ﴿عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ أى المماثلة

﴿ فِى الْقَتْلَى ﴾ وصفاً وفعلا ، إذ هى القصاص من قص أثره بأن يفعل بالجانى مثل ما فعل ، والمعنى فرض عليكم القصاص المستوى إن أردتم القصاص لأنه غير واجب تعييناً كما يقال : كتب عليكم الوضوء للنفل إذا أردتموه بشرط أن يكون القتل عمداً وعدواناً ، والقتلى : جمع قتيل ، ويحتمل أن يكون « فى » فيه للسبب ﴿ الْحُرُّ ﴾ يقتل ﴿ بِالْحُرِّ ﴾ ولو والداً مع ولده إذا بين قصد القتل بأن أضجعه وذبحه ، وأما إن رماه بالسلاح أدباً أو حنقاً لم يقتل به ، هذا قول مالك وخالفه سائر الفقهاء فقالوا : لا يقتل بابنه مطلقاً لأن عمر بن الخطاب قضى عليه بالدية مغلظة ولم ينكره باقى الصحابة فأخذ سائر الفقهاء المسألة مسجلة ومالك مفصلة ولا يقتل الحر بالعبد عند مالك والشافعى سواء كان عبده أو عبد غيره ، وقال الحنفى : يقتل بعبد غيره . وقال داود : يقتل بعبده وبعبد غيره ﴿ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ﴾ و بالحر إن شاء أولياء الحر وإن أحيوا العبد فسيده بالخيار فى تركه عبداً لهم أو فكه منهم بدية المقتول ﴿ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ﴾ وبينت السنة أن الذكر يقتل بها عند الأئمة الأربعة خلافاً للحسن البصرى كما تقتل به إجماعاً وأنه يعتبر المماثلة فى الدين فلا يقتل مسلم ولو عبداً بكافر ولو حراً لكن عليه التعزير كالحر إن قتل عبداً خلافاً للشافعى والحنبلى والتعزير ضربه مائة وحبسه سنة حراً كان أو عبداً وتقتل الجماعة بالواحد خلافاً لابن حنبل والظاهرية ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُ ﴾ من القاتلين بطريق الصلح ﴿ مِنْ ﴾ دم ﴿ أَخِيهِ ﴾ المقتول أو من جهته ﴿ شَىْءٌ ﴾ من العفو لأن « عفى » لازم وفائدته الإشعار بأن بعض العفو كالعفو التام فى إسقاط القصاص وكذا من بعض الورثة وفى ذكر لفظ الأخ تعطف داع إلى العفو وإيذان بأن القتل لا يقطع أخوة الإيمان ، وقيل « عفى » ترك و « شىء » مفعول به وهو ضعيف إذ لم يثبت عفى الشىء بمعنى تركه ، بل أعفاه ، ويسقط القتل بالعفو إلا فى قتل الغيلة فلا بد من قتل القاتل ، وإن عفا المقتول عمداً لزم ورثته خلافاً للشافعى وإن عفا المقتول خطأ عن الدية كان فى ثلثه إلا أن يجيزه الورثة و « من » مبتدأ شرطية أو موصولة والخبر ﴿ فَاتِّبَاعٌ ﴾ أى فعلى العافى إن أراد الاتباع اتباع القاتل ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بما يعرف وشرعا بأن يطالبه بالدية بلا عنف ولا يطلب أكثر منها وترتيب الاتباع على العفو يفيد أن الواجب أحدهما وهو أحد قولى الشافعى وهو رواية أشهب عن مالك والثانى الواجب القصاص والدية بدل عنه فلو عفا ولم يسمها فلا شىء ، ورجح ، وهو رواية ابن القاسم عن مالك وبه قال أبوحنيفة . ﴿ وَ ﴾ على القاتل ﴿ أَدَاءٌ ﴾ الدية ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى العافى وهو الوارث ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾ بلا مطل ولا بخس ، ودية القاتل عمداً من ماله حالة وتؤدى العاقلة عمد الصبى والمجنون ، وقال الشافعى عمد الصبى فى ماله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الحكم المذكور من جواز القصاص والعفو عنه على الدية أولا ﴿ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ عليكم ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ بكم حيث وسع عليكم فى ذلك ولم يحتم واحداً منهما كما حتم على اليهود القصاص وعلى النصارى الدية ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى ﴾ الحدود ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ بعد بيانها وعاد إلى ما كان فى الجاهلية كقتل الجانى بعد عفو بعض أو قتل غير القاتل ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم فى الآخرة

بالنار أو الدنيا بالقتل ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ بقاء عظيم ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ذوى العقول : لأن القاتل إذا علم أنه يُقتل ارتدع فأحيا نفسه ومن أراد قتله فشرع ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ القتل مخافة القود ، وفى هذه الآية كلام فى غاية البلاغة والفصاحة حيث جعل الشىء محل ضده لأن القصاص تفويت للحياة وقد جعل ظرفاً لها ، وفيه المطابقة ، ونص المقصود وغنى عن التقدير وكونه مطرداً وتعظيم لها بتنكير « حياة » وقلة الحروف فقد اختصت هذه الكلمة أعنى القصاص حياة بهذه الخصائص الست على ما قيل هو أوجز كلمة للعرب فى هذا المعنى وهو « القتل أنفى للقتل » وعرّف القصاص ونكّر الحياة ليدل أنّ فى هذا الجنس نوعاً من الحياة الدنيوية والأخروية عظيما لأنه يردع القاتل عن القتل فيحيي نفسه ومن أراد قتله ، وإذا قتله اقتص هو فقط فيسلم الباقون ويصير سبباً لحياتهم ويكون سبباً لحياة القاتل فى الآخرة بأن لا يؤخذ به ، و « حياة » مبتدأ ، و « لكم » و « فى القصاص » إما خبران له أو أحدهما خبر والآخر صلة له أو حال من الضمير المستكن فيه ونداء أولى الألباب لأنهم المتأملون فى حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس ، وهذه الحكمة هى التى راعى مالك والشافعى وأحمد وجمهور العلماء فى إثبات القصاص فى القتل بالمثقل كالمحدد ، وقال أبو حنيفة : لاقصاص إلا فى القتل بمحدد من حديد أو حجر أو خشب أو ما كان معروفاً بقتل الناس به كالمنجنيق والإلقاء فى النار وأما إن قتله بحجر غير محدد أو خشب غير محدد فلا قود وكذا من تعمد القتل بما لا يقتل غالباً كالسوط والقضيب واللطمة أوجب مالك فيه القود بخلاف باقى الأئمة ولذا قال : إن المكره والمباشر بقتل رجل يقتلان ، وكذا الممسك والمباشر ، واتفقوا أن من ضرب امرأة فسقط جنينها ميتاً فعليه الغرة عبداً أو أمة سواء كان الجنين ذكراً أو أنثى تكون الغرة لورثة الجنين على مواريثهم الشرعية ، وأما لو سقط حياً ثم مات لوجبت فيه الدية ، ومتى وجبت الغرة فعلى الجانى عند مالك وعلى العاقلة عند الحنفى والشافعى وعليه الكفارة عند الشافعى ولا كفارة عليه عند مالك وأبى حنيفة والله أعلم . ﴿ كُتِبَ ﴾ فرض ﴿ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أسبابه وأماراته من مرض مخوف أو سفر بعيد أو بلوغ غاية السن ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ مالا قليلا أو كثيراً ﴿ الْوَصِيَّةُ ﴾ مرفوع بكتب وكتب هو متعلق « إذا » إن كانت ظرفية ودال على جوابها إن كانت شرطية لا الوصية لتقدمه عليها وجواب « إن » محذوف أى فليوص ﴿ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بالعدل بأن لا يزيد على الثلث ولا يفضل الغنى ﴿ حَقًّا ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله ﴿ عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ الله ، وهذا منسوخ بآية الميراث وبحديث « لا وصية لوارث » رواه الترمذى ، ولم ينسخ مفهومها من عدم وجوب الوصية للأجانب بل هو مستحب يخرج من الثلث ، وأما ما يجب على المكلف بيانه كدين أو شىء يتوقع تلفه إن مات فيلزمه المبادرة إلى كتبه ووصيته ﴿ فَمَن بَدَّلَهُ ﴾ أى الإيصاء عن وجهه وهو موافق للشرع من شاهد أو وصىّ ﴿ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ ﴾ علمه ﴿ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ ﴾ أى الإيصاء المبدل

﴿ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ﴾ فيه إقامة الظاهر مقام المضمر لأنهم الذين خالفوا الشرع والميت برىء منه . قال ابن العربى فى الأحكام : وهذا يدل على أن الدَّين إذا أوصى به الميت خرج عن ذمته وبقى الولى مطلوباً به له الأجر فى قضائه وعليه الوزر فى تأخيره ، لكن ذلك إنما يصح إذا كان الميت لم يفرط فى أدائه ، وأما إذا قدر عليه وتركه ثم أوصى به فإنه لا يزيله عن ذمته تفريط الولى فيه . اه . ثم هدد المبدل بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقول الموصى ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بفعل الموصى فيجازى عليه ﴿ فَمَنْ ﴾ حضر الوصية و﴿ خَافَ ﴾ علم أو ظن ﴿ مِنْ مُوصٍ ﴾ مخففاً للجمهور ومثقلا لحمزة والكسائى ﴿ جَنَفًا ﴾ ميلا عن الحق خطأ ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ بأن تعمد ذلك بالزيادة على الثلث أو تخصيص غنى مثلا ﴿ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ﴾ بين الموصِى والموصَى له بأن نهاهم عن ذلك وحملهم على الشرع ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ فى ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ له والوصى بما قال أولا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ ﴾ فرض ﴿ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ الإمساك عن الأكل والشرب والجماع نهاراً مع النية إجماعاً ، فإن سبق الماء إلى حلقه فى المضمضة والاستنشاق أفطر خلافا لابن حنبل ، وأما الكحل فإن علم أنه لا يصل شىء منه إلى حلقه لم يفطر وإلا أفطر ، وقال أبو مصعب : لا يفطر به مطلقاً وفاقاً للشافعى وأبى حنيفة ، ومنعه ابن القاسم مطلقاً نهاراً وفاقا لابن حنبل ، وأما الإنزال بقبلة أو مباشرة ففيه القضاء إجماعا والكفارة وفاقا لابن حنبل ، خلافاً للشافعى والحنفى ، وأما الإنزال بنظر أو فكر فإن استدام فعليه القضاء والكفارة خلافاً لهما فى الكفارة ، وإن لم يستدم فالقضاء خاصة وأما المذى بمباشرة أو قبلة أو استدامة نظر أو فكر ففيه القضاء وفاقاً لابن حنبل وخلافاً لهما وإن لم يستدم النظر والفكر فلا شىء عليه ﴿ كَمَا كُتِبَ ﴾ أى كتاباً مثل ما كتب ﴿ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ من الأمم لكن التشبيه فى أصل الصوم لا فى كيفيته وفيه توكيد للحكم وتهوين على النفس ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعاصى فإنه يكسر الشهوة التى هى مبدؤها ﴿أَيَّامًا﴾ نصب بصوموا مقدراً دل عليه الصيام على الظرفية أو المفعول به اتساعا ﴿مَعْدُودَاتٍ ﴾ قلائل أو مؤقتات بعدد معلوم وهى رمضان كما سيأتى ، وقلله تسهيلا على المكلفين ، ولما كان شرط وجوبه الإسلام والبلوغ والعقل والطهارة من الحيض والنفاس والصحة والإقامة فلا يصح من كافر إجماعاً وفى وجوبه عليه خلاف ، ولا يجب على صبىّ وهل يندب له أم لا ؟ خلاف ، ولا مجنون ولا يصح منه ويجب عليه القضاء إن أفاق مطلقاً فى المشهور من مذهب مالك ، وقيل لا يجب عليه قضاء ما كثر من السنين ، وقال الشافعى وأبو حنيفة لا قضاء عليه مطلقاً ، ومن كانت حائضاً أو نفساء لم يصح منها إجماعا وعليها القضاء إجماعا ، وأشار لأحكام المريض والمسافر بقوله ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ حين شهوده ﴿ مَرِيضًا ﴾ مرضاً يضرّه الصوم ويعسر معه أو يخاف زيادة مرض ﴿ أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ مسافة قصر فأفطر ﴿ فَعِدَّةٌ ﴾ فعليه عدد ما أفطر ﴿ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ يصومها بدله فإن لم يفطر صح صومه خلافاً للظاهرية ، ومن كان لا يطيق الصوم بحال فالفطر واجب عليه ، وإن قدر بضرر ومشقة فيستحب له الفطر ولا يصوم إلا جاهل ، وفى قوله :

« على سفر » إيماء بأن من سافر أثناء اليوم لم يفطر . ودخل فى المريض الهرم العاجز عن الصوم يجوز له الفطر إجماعاً ولا قضاء ولا فدية عليه على المشهور ، والحامل إن خافت على نفسها أو على مافى بطنها أفطرت وقضت وعليها الفدية فى روايةابن وهب وفاقاً للشافعى ، وقال أشهب : يستحب لها ، وقال ابن الماجشون : إن خافت على نفسها لم تطعم لأنها مريضة وإن خافت على ولدها أطعمت وكذا المرضع إن احتاجت إلى الفطر لولدها أفطرت وقضت ، وفى وجوب الفدية عليها روايتان والفدية مُدٌّ من طعام لمسكين عن كل يوم ، وكذا من اشتد به الجوع أو العطش يفطر ويقضى ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ أى الصوم إن أفطروا ﴿ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ بإضافة فدية للبيان وجمع مساكين لنافع وابن عامر من رواية ذكوان ، وقرأ الباقون بالتنوين وتوحيد مساكين أى قدر ما يأكله المسكين فى اليوم وهو مُدٌّ من غالب قوت البلد لكل يوم وهذا منسوخ لأنهم كانوا مخيرين أول الإسلام بين الصوم والفدية ثم نسخ بتعيين الصوم بقوله « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً ﴾ بالزيادة على القدر المذكور ﴿ فَهُوَ ﴾ أى التطوع ﴿ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا ﴾ أيها المطيقون ، مبتدأ خبره ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من الإفطار والفدية ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه خير فافعلوه ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ مبتدأ وخبر أو خبرُ محذوفٍ ، أى تلك الأيام أو بدل من الصيام على حذف مضاف ، أى كتب عليكم الصيام ، صيام شهر رمضان وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان ، والتوراة لست مضين منه ، والإنجيل لثلاث عشرة منه ، والقرآن لأربع وعشرين » ذكره البيضاوى و « الشهر » من « الشهرة » و « رمضان » مصدر « رمض » احترق فأضيف إليه الشهر وجعل علماً ومنع من الصرف للعلمية والألف والنون ـ للارتماض فيه من حر الجوع والعطش أو ارتماض الذنوب فيه أو لوقوعه أيام رمض الحر حيث ما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة ، وإنزال القرآن فيه كان فى ليلة القدر منه أو أنزل فيه جملة إلى السماء الدنيا ثم نزل منجما إلى الأرض ﴿ هُدًى ﴾ حال هادياً من الضلالة ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ آيات ﴿ وَبَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات ﴿ مِنَ الْهُدَى ﴾ مما يهدى إلى الحق من الأحكام ﴿ وَ ﴾ من ﴿ الْفُرْقَانِ ﴾ مما يفرق بين الحق والباطل ﴿ فَمَنْ ﴾ شرط مبتدأ خبره ﴿ شَهِدَ ﴾ حضر ﴿ مِنْكُمُ الشَّهْرَ ﴾ منصوب على الظرف وكذا الهاء فى ﴿ فَلْيَصُمْهُ ﴾ الجواب أى ما شهد وليفطر ما سافر فيه وفى الفاء إشعار بأن إنزال القرآن فيه سببٌ لاختصاصه بوجوب الصوم فيه ، وإذا أخبر بخبر عن رؤية بلد فإن قرب فالحكم واحد ، وإن بعد فكذلك إذا رأى الهلال رؤية فاشية فيجب الصوم على سائر أهل الدنيا ، إلا أن أصحاب الشافعى صححوا فى البعيد أن لكل قوم رؤيتهم ، ويجوز أن تكون « من » موصولة « ومنكم » فى موضع نصب على الحال أى كائناً منكم ومفعول « شهد » بمعنى حضر محذوف أى البلد على التوسع ، وكذا الضمير فى « فليصمه » منصوب على التوسع لا على الظرفية ، لأن الفعل لا يتعدى بضمير الظرف إلا بالتوسع فيه بنصبه نصب المفعول به ، والله أعلم

﴿ وَمَنْ كَانَ ﴾ من شهد الشهر ﴿ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ كرره لئلا يتوهم نسخه بتعميم من شهد ، والصوم خير من الفطر فى السفر عند مالك وأبى حنيفة ، وقال الشافعى : الفطر أفضل ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ولذا أباح لكم الفطر فى المرض والسفر ولكون ذلك من معنى العلة أيضاً للأمر بالصوم عطف عليه ﴿وَلِتُكْمِلُوا﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لشعبة ﴿ الْعِدَّةَ ﴾ أى عدة صوم رمضان ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ ﴾ عند كمالها عند الخروج إلى صلاة العيد ﴿ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ أرشدكم لمعالم دينكم ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله ، والجمل علل لما سبق على سبيل اللف فقوله « ولتكملوا » علة الأمر بمراعاة العدة «ولتكبروا» علة الأمر بالقضاء وبيان كيفيته و « لعلكم تشكرون » علة الترخيص والتيسير . ومعنى التكبير : تعظيم الله بالحمد والثناء عليه .ولذا عدى بعلى ، وقيل تكبير يوم الفطر و «ما» يحتمل المصدر والخبر ، أى الذى هداكم إليه . ولما سأل جماعة من الأعراب رسول الله صلى الله عليه وسلم « أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه » نزل ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ منهم بعلمى فأخبرهم بذلك ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ أنلته ماسأل وهو تقرير للقرب ووعد بالإجابة ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾ دعائى بالطاعة كما أجيبهم إذا دعونى لمهماتهم أو الدعاء بمعنى الطاعة والإجابة بمعنى الثواب . قال عليه السلام « ما على الأرض رجل مسلم يدعو بدعوة إلا آتاه الله إياها أو كف عنه من الشر مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » . اه . وربما أخّر دعوة المؤمن ليسمع صوته فى التضرع ويكثر ثوابه وربما عجل إجابة من لا يحبه لأنه يبغض صوته ﴿ وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ يدوموا على الإيمان ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ يهتدون ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ ﴾ الإفضاء ﴿ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ بالجماع نزل نسخاً لما كان فى صدر الإسلام من تحريمه وتحريم الأكل والشرب بعد العشاء أو النوم ، والرفث كناية عن الجماع ؛ لأنه لا يكاد يخلو من رفث وهو الإفصاح بما يكنى عنه وعدى بإلى لتضمنه معنى الإفضاء وإيثاره هنا لتقبيح ما ارتكبوه ولذلك سماه خيانة إذ وقع من بعضهم ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ كناية عن تعانقهما أو احتياج كل منهما إلى صاحبه وستره ، استئناف يبين سبب الإحلال وهو قلة الصبر عنهن وصعوبة اجتنابهن لكثرة المخالطة ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ ﴾ تخونون ﴿ أَنْفُسَكُمْ ﴾ بالجماع ليلة الصيام ، وقع ذلك لعمر بن الخطاب حين سمر عند النبى صلى الله عليه وسلم ورجع فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت : قد نمت فظن أنها تعتلّ فأتاها ، فلما أصبح غدا إلى النبى صلى الله عليه وسلم واعتذر ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « لم تكن خليقاً بذلك يا عمر » ووقع أيضاً لغيره ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ قبل توبتكم ﴿ وَعَفَا عَنْكُمْ ﴾ عما ذنوبكم عنكم ﴿ فَالْآنَ ﴾ إذ أحل لكم ﴿ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ جامعوهن ، وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالقرآن ، وأما اتصال البشرة بالبشرة من غير جماع فى نهار رمضان فمكروه إن علم السلامة وإلا حرم ﴿ وَابْتَغُوا ﴾ اطلبوا ﴿ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أى أباحه من الجماع أو قدره من الولد وأثبته فى اللوح ،

والمعنى أن المباشر ينبغى أن يكون غرضه الولد لا مجرد الوطء وفيه نهى عن العزل فى الحرائر ، وقيل ابتغوا فى القرآن ما أبيح لكم فيه وأمرتم به ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ الليل كله ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ ﴾ يظهر ﴿ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ ﴾ وهو أول مايبدو من بياض النهار كالخيط الممدود ﴿ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ الصادق بيان للخيط الأبيض وبيان الأسود محذوف أى من الليل لدلالة هذا عليه ، وبذلك خرجا عن باب الاستعارة إلى باب التمثيل شبه ما يبدو من البياض وما يمتد معه من الغبش بخيطين أبيض وأسود فى الامتداد و « من » الأولى لابتداء الغاية والثانية للتبعيض لأن ما يبدو بعض الفجر أو للبيان ، وفى تجويز المباشرة إلى الصبح الدلالة على جواز الإصباح بالجنابة صائماً ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ ﴾ من الفجر بأن ينوى الصيام قبل الفجر ولابد من التعيين فلا تجزئ نية الصوم المطلق خلافاً لأبى حنيفة ، وتجزئ فى رمضان نية واحدة فى أوله خلافاً للشافعى وأحمد ﴿ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ أى دخوله بغروب الشمس ، والسنة تعجيل الفطر وتأخير السحور، بيان لآخر وقت الصوم وإخراج الليل ينفى صوم الوصال ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ ﴾ أى نساءكم ولو بالقبلة فى المساجد أو خارجها ﴿ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ ﴾ مقيمون بنية الاعتكاف ﴿ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ متعلق بعاكفون ، نهى لمن كان يخرج وهو معتكف فيجامع امرأته ويعود ، والاعتكاف هو اللبث فى المسجد بقصد القربة أقله عند مالك وأبى حنيفة يوم وليلة ؛ لأن الصوم عندهما شرط له بخلاف الشافعى ، ولذا قال : أقله لحظة . وقد جاء الشرع فى حديث عمر بتقديره يوماً وليلة فكان أقله ، وجاء فعل النبى صلى الله عليه وسلم بعشرة فكان المستحبُّ فيه ، وفى الآية دليل على أن الاعتكاف لا يكون إلا فى مسجد ولايختص بمسجد دون مسجد وأن الوطء يحرم فيه ويفسده لأن النهى يوجب الفساد إلا فيما استثناه الدليل ومن نذر اعتكاف شهرٍ بعينه لزمه متوالياً فإن أخلَّ بيوم قضى ما فاته . وقال أحمد : يلزمه الاستئناف ولو باشر امرأته فيما دون الفرج بطل اعتكافه ، أنزل أو لا عند مالك وأبى حنيفة خلافاً للشافعى وأحمد فى عدم الإنزال ولا يخرج من معتكفه إلا لحاجة الإنسان وغسل الجنابة ﴿ تِلْكَ ﴾ الأحكام المذكورة وجميع المحرمات ﴿ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ حدها لعباده ليقفوا عندها ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ أبلغ من لا تعتدوها المعبر به فى آية أخرى ، لأن هذه فى المناهى وتلك فى الأوامر ؛ لحديث «إن حمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه» ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما بين لكم ماذكر ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ محارمه ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ ﴾ أى لا تأخذوا ، وخص الأكل لأن مقصود الأموال شهوة البطن والفرج ، وشهوة البطن أقوى ، إذ هى المثيرة لشهوة الفرج ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ لا يأكل بعضكم مال بعض ، وبين نصب على الظرف أو الحال من الأموال ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ الحرام شرعاً كالسرقة والغصب والحرابة والغش فى البيوع ﴿ وَ ﴾ لا ﴿ تُدْلُوا ﴾ تلقوا ﴿ بِهَا ﴾ أى بحكومتها أو بالأموال رشوة ﴿ إِلَى الْحُكَّامِ ﴾ قضاة السوء ﴿ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا ﴾ طائفة ﴿ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾ متلبسين ﴿ بِالْإِثْمِ ﴾ بشهادة الزور واليمين الكاذبة ﴿ وَأَنْتُمْ

تَعْلَمُونَ ﴾ تحريم ذلك ، أى لا تدل بمال أخيك إلى الحاكم وأنت تعلم أنك أو الحاكم ظالم ، وهذه الآية من قواعد المعاملات وأساس المعاوضات وهى أربعة هذه الآية وقوله «أحل الله البيع وحرم الربا» وأحاديث منع الغرر ، واعتبار المقاصد والمصالح ، قاله ابن العربى فى الأحكام ﴿ يَسْئَلُونَكَ ﴾ يا محمد ﴿ عَنِ الْأَهِلَّةِ ﴾ جمع هلال لم تبدو دقيقة ثم تزيد حتى تمتلئ نوراً ثم تعود كما بدأت ولا تكون على حالة واحدة كالشمس ؟ والسائل هو معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ﴾ جمع ميقات ﴿لِلنَّاسِ﴾ يعلمون بها أوقات زرعهم ومتاجرهم وآجالهم فى تصرفاتهم وعدد نسائهم وصيامهم وإفطارهم ﴿وَالْحَجِّ﴾ عطف على الناس ، أى يُعلم بها وقته فلو استمرت على حالة واحدة لم يعرف ذلك ، والميقات مشتق من الوقت ، والفرق بين الوقت والمدة والزمان . أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها والزمان مدة مقسومة والوقت: الزمان المفروض لأمر ، قاله البيضاوى ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ ﴾ بضم الباء فى رواية ورش عن نافع وهو قراءة أبى عمرو وحفص وبكسرها للباقين لغتان ﴿ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ فى الإحرام بأن تنقبوا فيها نقباً تدخلون منه وتخرجون وتتركوا الباب وكانوا يفعلون ذلك ويزعمونه براً ، وقال ابن العربى فى الأحكام: كانوا إذا أهلوا بالعمرة لم يحُل بينهم وبين السماء شىء فإذا خرج الرجل من بيته فرجع لحاجته لا يدخل من باب الحجرة لأجل سقفها أن يحول بينه وبين السماء فيفتح الجدار من وراء البيت ثم يقوم بحجرته فيأمر بحاجته فتخرج إليه من بيته . اه . قال البيضاوى : ووجه اتصاله بما قبله أنهم سألوا عن الأمرين أو لما ذكر أنها مواقيت الحج وهذا أيضاً من أفعالهم فى الحج ذكره للاستطراد . اه . ﴿ وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ ﴾ أى ذو البر ﴿ مَنِ اتَّقَىٰ ﴾ الله بترك مخالفته ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ فى الإحرام كغيره ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى تغيير أحكامه والاعتراض على أفعاله ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تفوزون بالهدى والبر ﴿ وَقَاتِلُوا ﴾ جاهدوا ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لإعلاء دينه ﴿ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ من الكفار وهذه الآية أول ما نزل فى القتال على قول ، وقيل أمر أولا أن يقاتل من قاتله فقط ، ثم أمر بقتال المشركين كافة ، وقيل الذين يقاتلونكم هم جميع الكفار إذ كلهم على قصد قتال المسلمين ، وقيل الذين يقاتلونكم غير النساء والصبيان والشيوخ ، ويؤيد الأول ما روى أن المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية «عام ست فى ذى القعدة» وقد ساق الهدى للعمرة فصالحهم على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام وتجهز لعمرة القضاء وخاف المسلمون أن لا تفى قريش ويقاتلوهم وكره المسلمون قتالهم فى الحرم والإحرام والشهر الحرام فنزلت ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ بابتداء القتال أو بقتال المعاهد ، أو النساء والصبيان ، أو بالمثلة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ المتجاوزين ما حد لهم لا يرضى فعلهم ولا يريد لهم الخير وهذه الآية قيل منسوخة بآية «براءة» «وقاتلوا المشركين كافة» أو بقوله ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ وجدتموهم على وجه الغلبة فى حل أو حرم ، وأصل الثقف : الحذق فى إدراك الشىء علماً

كان أو عملا فهو يتضمن معنى الغلبة والتمكن ﴿ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ مكة وقد فُعل ذلك بمن لم يسلم منهم يوم الفتح ﴿ وَالْفِتْنَةُ ﴾ أى المحنة كالإخراج من الوطن أو المراد بها الشرك منهم ﴿ أَشَدُّ ﴾ أعظم ﴿ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ لهم فى الحرم أو الإحرام الذى استعظمتموه ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أى فى الحرم لا تفاتحوهم بهتك حرمة المسجد الحرام ﴿ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ فيه، وفى قراءة حمزة والكسائى بعدم الألف فى الأفعال الثلاثة والمعنى حتى يقتلوا بعضكم فيه لحينئذ هم الذين هتكوا حرمته ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ القتل والإخراج ﴿ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ ومذهب مالك والشافعى أن من قتل غيره خارج الحرم أو ارتد أو زنى أو كان كافراً ثم لجأ إلى الحرم يقتل فيه . وقال أبو حنيفة وأحمد : لم يقتل فيه بل يضيق عليه حتى يخرج . لكن قال ابن العربى فى الأحكام : فإن لجأ إليه كافر فلا سبيل إليه، وأما الزانى والقاتل فلابد من إقامة الحد عليه إلا أن يبتدئ الكافر بالقتال فيه فيقتل بنص القرآن . اهـ . ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا ﴾ عن الكفر والقتال ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لهم ما قد سلف ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ ﴾ توجد ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ أى شرك ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ ﴾ الطاعة والشرع ﴿ لِلَّهِ ﴾ وحده لا يعبد سواه وليس للشيطان فيه نصيب ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا ﴾ عن الشرك بالإسلام أو بأداء الجزية فلا تعتدوا عليهم بقتالهم على الملك ، دل على هذا ﴿ فَلَا عُدْوَانَ ﴾ اعتداء بقتل أو غيره ﴿ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ومن انتهى فليس بظالم فلا عدوان عليه وقوله « إلا على الظالمين » فى محل رفع خبر « لا » ، ودخل « إلا » ليفيد الحصر ، المعنى لا تظلموا إلا الظالمين سمى جزاؤهم ظلماً مشاكلة أو المعنى إن تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين وينعكس الأمر عليكم، والفاء الأولى للتعقيب والثانية للجزاء ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ ﴾ أى المحرم مقابل ﴿ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾ فكما قاتلوكم فيه قاتلوهم فى مثله ردٌّ لاستعظام المسلمين ذلك ثم احتج عليه فقال ﴿ وَالْحُرُمَاتُ ﴾ جمع حرمة ما يجب أن يحافظ عليه ﴿ قِصَاصٌ ﴾ أى يقتص بمثلها إذا انتهكت . قال ابن العربى فى الأحكام : قال العلماء : فى هذا دليل على أن لك أن تبيح دم من أباح دمك وتحل مالَ من استحل مالك وتأخذ عرض من أخذ عرضك ، ولكن فيه تفصيل ، فن أباح دمك فباح دمه بحكم الحاكم لا بيدك ، ومن أخذ مالك فخذ ماله إذا تمكنت منه وكان من جنس مالك طعاماً بطعام وذهباً بذهب وأمنت أن تعد سارقاً وإن كان من غير جنس مالك قيل : تأخذه بحكم الحاكم ، وقيل : تتحرى قيمته ، وتأخذ مقدار ذلك وهو الصحيح عندى ، وأما من أخذ عرضك فخذ عرضه ولا تتعد أبويه أو بنيه أو قبيلته ، لكن ليس لك أن تكذب عليه وإن كذب عليك ، فإن المعصية لا تقابل بالمعصية ، فلو قال لك : يا كافر ، فقل له : أنت الكافر ، وإن قال لك : يا زان ، فقصاصك أن تقول : يا كذاب ، وإن مطلك وهو غنىّ دون عذر ، فقل : يا ظالم ، أو خذ ماله كما أخذ مالك ، ومن جحدك وديعة وقد استودعك أخرى قيل : تصبر وتؤدى أمانته ، وقيل : يجوز أن تجحده كما جحدك . اهـ . ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ بالقتال فى الحرم

أو الإحرام أو الشهر الحرام ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ سمى مقابلته اعتداء لشبهها بالمقابل به فى الصورة وهذا فذلكة التقرير المتقدم ولكن اختلف الأئمة فى رعى المماثلة فى القصاص بما قتل به ، قال أبو حنيفة : لاقود إلا بحديدة محتجاً بحديث لم يصح ، وقال الشافعى: يقتص منه بكل ماقتل به إلا الخمر واللواط ، وقال علماؤنا المالكية : يقتل بكل ما قتل به إلا بالمعصية كالخمر واللواط وإلا بالسم والنار وما يدخل فى حد التعذيب فيقتل بالسيف . ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى الانتصار ولا تعتدوا إلى ما لا يحل ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالعون والنصر ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طاعته الجهاد وغيره ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ أى أنفسكم ، والباء زائدة ، أو المفعول محذوف أى لا تلقوا أنفسكم بأيديكم ﴿إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أى الهلاك بالإمساك عن النفقة فى الجهاد أو ترك الجهاد لأنه يقوى العدو عليكم لما فى الترمذى : أن بعض الأنصار لما قال: قد أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها نزلت هذه الآية . اه . وهو ردٌ عليهم وإعلام بأن ترك إنفاق الأموال فى سبيل الله وترك الجهاد بالإقامة لإصلاحها يؤدى إلى الهلاك فى الدنيا والآخرة ، وقيل التهلكة : الخروج إلى الجهاد بغير زاد توكلا أو اتكالا على أموال الناس وذلك لا يجوز ، لأن إعداد الزاد فرض قاله ابن العربى فى الأحكام ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ أعمالكم وأخلاقكم أو تفضلوا على المحاويج ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى يثيبهم ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وإتمامهما إتيانهما تامين بحقوقهما الواجبة والمستحبة ككون النفقة فى كل منها حلالا وإفراد كل منهما بسفر وتجريده عن عرض دنيوى وأجمعوا على وجوب الحج على كل مسلم حر بالغ عاقل مستطيع فى العمر مرة ، وأما العمرة فى سنة عند مالك وأبى حنيفة ؛ وفرض كالحج عند أحمد وأصح قولى الشافعى ؛ والحج إفراد : أن يحج ثم يعتمر بعد فراغه منه ، وهو الأفضل عند مالك والشافعى ، أو تمتع : أن يعتمر فى أشهر الحج ثم بعد الفراغ من أعمال العمرة يحرم بالحج من مكة فيحج فى ذلك العام ، وهو الأفضل عند أحمد ، أو قران: أن يحرم بحج وعمرة معاً أو بعمرة ثم يدخل عليها الحج قبل أن يطوف ، وهو الأفضل عند أبى حنيفة ، وأركان الحج التى لا يجبرها دم : الإحرام ووقوف عرفة وطواف الإفاضة والسعى بين الصفا والمروة بعده ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ منعتم عن إتمامهما بعدو أو فتنة لأنه المانع المبيح للمحرم التحلل عند مالك والشافعى وأحمد وعند أبى حنيفة لقوله تعالى « فإذا أمنتم » أو بكل مانع كرض وذهاب راحلة وذهاب نفقة أى إن صددتم عن الوصول إلى البيت ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ عليكم أو فالواجب ما استيسر أى تيسر ، أو فاهدوا ما استيسر ومحل « ما » رفع أو نصب ، ومفرد الهدى : الهدية ، وهو فى الأصل مصدر وهو ما يهدى إلى البيت تقربا وهو هنا عند الجمهور شاة ، إذهى الأيسر ، والأوسط بقرة والأعلى بدنة فيتحلل المحرم بذبح الهدى وحلق الرأس حيث أحصر عند مالك والشافعى وأحمد ، وقال أبو حنيفة : يبعث بهديه إلى الحرم ويقيم محرما ويواعد من يذبحه عنه يوماً فإذا ظن أنه ذبح حل ﴿وَلَا تَحْلِقُوا

رُءُوسَكُمْ ﴾ هذا الخطاب قيل لجميع المحرمين وقيل للمحصرين خاصة أى لا تتحللوا ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ ﴾ المذكور ﴿ مَحِلَّهُۥ ﴾ حيث يحل ذبحه وهو مكان الإحصار عند الأئمة الثلاثة فيذبح فيه بنية التحلل ويفرق على مساكينه ويحلق رأسه وبه يحصل التحلل وقال أبو حنيفة : محله الحرم بمِنَى يبعث به إليه كما تقدم وهذا الهدى ليس واجباً فى مشهور مذهب مالك، وأوجبه أشهب لما فاته من الحج بحصر العدو لقوله « فما استيسر من الهدى » وفاقاً لباقى الأئمة الثلاثة ، والحاصر لا يجوز قتاله كافراً أو مسلماً ، ويجوز إعطاء المسلم الجعل ، وإن كان الحاصر مرضاً ونحوه لم يحل إلا بفعل عمرة بلا تجديد نية ويقضى حجه فى العام القابل إن كان صَرُورَةً ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا ﴾ مرضا يحوجه إلى الحلق ﴿ أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ ﴾ كقمل وجراحة أو صداع فإنه يثبت على إحرامه من غير حلق حتى يذبح هديه فإن اضطر لحلق للضرورة فى الإحرام ﴿ فَفِدْيَةٌ ﴾ عليه ﴿ مِّن صِيَامٍ ﴾ لثلاثة أيام ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ بثلاثة آصع من غالب قوت البلد على ستة مساكين لكل منهم نصف صاع وهو مدان ﴿ أَوْ نُسُكٍ ﴾ أى ذبح شاة « وأو » للتخيير لأن الآية نزلت فى كعب بن عجرة لما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لعلك آذاك هوامك » ، فقال : نعم ، فقال : « احلق وصُمْ ثلاثة أيام أو تصدق بفرَق على ستة مساكين أو انسك شاة » والفرق ثلاثة آصع « ومن » لبيان جنس الفدية وهى ومجرورها فى محل رفع صفة فدية ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ ﴾ العدو أو الفتنة بأن ذهب أو لم يكن - وعن الحنفية : فإذا أمنتم الإحصار ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ ﴾ أى بالتقرب إلى الله بالعمرة فى أشهر الحج وهو غير مكىّ ، مضمومة ﴿ إِلَى ٱلْحَجِّ ﴾ بأن يحج فى عامه بعد العمرة، أو : فمن استمتع بمحظورات الإحرام بسبب فراغه من العمرة إلى وقت إحرامه للحج ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ عليه وهو شاة يذبحها تجب عليه عند مالك إذا رمى جمرة العقبة لأن حجه حينئذ يتمّ ويصح منه وصف التمتع، إذ لا يعلم قبله، هل يقطعه قاطع . وقال باقى الأئمة : يجب عليه إذا أحرم بالحج . ولو ذبحه قبل يوم النحر لم يجزئه عند مالك وأبى حنيفة، خلافاً للشافعى وأحمد فى قولهما : يجزئه ولكن الأفضل يوم النحر ، وسمى متمتعاً لتمتعه بإسقاط أحد السفرين أو بمحظورات الإحرام من وقت حله من العمرة إلى إنشائه الحج ، فألزمه الله الهدى كالقارن الذى يجمع الحج والعمرة فى سفر واحد ، وأما المكىّ فلا دم عليه كما يأتى ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ الهدى لفقده أو فقد ثمنه ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾ عليه ﴿ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ أى من إحرامه بالحج إلى يوم عرفة ، فيجب حينئذ أن يحرم قبل السابع من ذى الحجة . والأفضل قبل السادس لكراهة صيام يوم عرفة ، والفطر أتبع للسنة ، وإن فاتت قبل يوم النحر فيجوز صيامها فى أيام التشريق عند مالك وأحمد فى إحدى روايتيه ، والشافعى فى القديم ، خلافاً لأبى حنيفة والشافعى فى أظهر قوليه الجديد . ولا يجوز التمتع صيامها إن فقد الهدى إلا بعد الإحرام بالحج عند مالك والشافعى ، وأجاز أبو حنيفة وأحمد فى إحدى الروايتين عنه صومها إذا أحرم بالعمرة ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ إلى وطنكم مكة

أو غيرها فى مذهب مالك وأحمد وأصح قولى الشافعى . أو معنى « رجعتم » فرغتم من أعمال الحج وهو قول الشافعى الثانى ومذهب أبى حنيفة ، ولا تجزئ السبعة إن قنعت على الرجوع من منى عند الأكثر ، وفى الكلام التفات عن الغيبة ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ ﴾ فذلكة الحساب ، وفائدتها أن لا يتوهم أن الواو بمعنى أو ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ صفة مؤكدة تفيد المبالغة فى محافظة العدد أو فى كمال الشروط . إذ الكمال إنما هو فى الصفات والتمام فى الذوات ، والجملة تأكيد لما قبلها ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الإشارة عند الجمهور إلى ما تقدم من وجوب الهدى أو الصيام على من تمتع ، وعند الحنفى إلى التمتع ، إذ لا متعة ولا قران لحاضرى المسجد الحرام عنده : فمن فعل ذلك منهم فعليه دم جناية لا يأكل منه . قاله البيضاوى ﴿ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ بأن كانوا على مسافة القصر عند الشافعى ، أو وراء الميقات عند الحنفى : أو غير المكى عند مالك . قال ابن العربى فى الأحكام : والصحيح أن كل من تلزمه الجمعة فى المسجد الحرام فهو من حاضريه وإلا فلا ، ومن كان من أهله فلا دم عليه ولا صيام وإن تمتع ، والأهل : كناية عن النفس ، وألحق بالمتمتع فيما ذكر بالسنة : القارن ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه وخصوصاً فى الحج ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لمن خالفه ﴿ الْحَجُّ ﴾ أى وقته ﴿ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ فتأهبوا له فيها ، وهى شوال وذوالقعدة وعشر ليال من ذى الحجة عند الشافعى ، أو عشرة أيام منه عند مالك وأبى حنيفة ، أو إلى آخر أيام التشريق ، ونسب لمالك أيضاً ، وقيل كله ونسب لابن عمر رضى الله عنه . والخلاف مبنى على أن المراد بوقته هل هو وقت إحرامه أو وقت أعماله أو مالا يحسن فيه غيره من المناسك مطلقا لأن مالكا كره العمرة فى بقية ذى الحجة . ومن قال عشر منه قال لأن إحرامه يخرج بطلوع الفجر يوم النحر ويصح فى ليلة وقوف عرفة وهو الحج . ومن قال عشرة أيام قال : لأن الطواف للإفاضة والرمى فى العقبة ركنان يفعلان فى اليوم العاشر . ومن قال آخر أيام التشريق رأى أن الرمى للجمار يكون فيها وهو من أفعال الحج وشعائره . وفائدة الخلاف أنه إن أخر الطواف للإفاضة إلى آخره لم يكن عليه دم لأنه جاء به فى آخر أيام الحج . قاله ابن العربى فى الأحكام ، وسمى الشهران وبعض شهر : أشهراً ، مجازاً من إقامة البعض مقام الكل ، أو إطلاق الجمع على ما فوق الواحد ﴿ فَمَنْ فَرَضَ ﴾ على نفسه ﴿ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴾ بالإحرام به والتلبية ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ أى فلا جماع فيه . أو لا فحش من الكلام ، وأصله ذكر ما يتعلق بالنساء ﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾ خروج عن حدود الشرع بالسباب وارتكاب المعاصى كقتل الصيد ﴿ وَلَا جِدَالَ ﴾ خصام مع الرفقاء والخدم والمكارين ﴿ فِي الْحَجِّ ﴾ فى أيامه نفى الثلاثة على قصد النهى للمبالغة ، والدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون فهى مقبحة فى أنفسها ففى الحج أقبح ، والثلاثة بالفتح للجمهور ولابن كثير وأبى عمرو : رفع الأولين وفتح الثالث وأكثر المفسرين يقولون : المراد بالنفى هنا النهى . قال ابن العربى فى الأحكام : بل أراد فيها نفياً شرعياً ، وإن وجدت فعلى خلاف الشرع وهذه

الدقيقة هي التي فاتت العلماء حتى قالوا : إن الخبر يكون بمعنى النهي وما وجد ذلك قط ولا يوجد . فإنهما يختلفان حقيقة ويتضادان وصفاً . اهـ . ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ كصدقة وطاعة ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فيجازيكم به : حث على الخير عقب به النهي عن الشر . ليستبدل به ويستعمل مكانه ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ لمعادكم أو لسفركم ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ تقوى الله أو ما يتقى به سؤال الناس . لأن الآية كما قيل نزلت في أهل اليمن وكانوا يحجون بلا زاد ويقولون نحن متوكلون فيكونون كلاً على الناس . قال ابن العربي في الأحكام : أوجب الله التزود على من كان له مال فإن كان ذا حرفة ينفق في الطريق أو سائلا فلا خطاب عليه وإنما خاطب سبحانه أهل الأموال الذين كانوا يتركون أموالهم ويخرجون بغير زاد . اهـ . ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ذوى العقول فمن لم يتقه فلا عقل له ، إذ فائدة العقل تقوى الله . ولما تأثم المسلمون من التجارة في الحج نزل ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ في ﴿أَن تَبْتَغُوا﴾ تطلبوا ﴿فَضْلًا﴾ رزقاً ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بالربح في التجارة وكان « عكاظ ومجنة وذو المجاز » أسواقهم في الجاهلية يقيمونها في مواسم الحج وينالون معايشهم منها فلما جاء الإسلام تأثموه ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم﴾ دفعتم أنفسكم بكثرة مسرعين : من أفاض الماء صبه بكثرة ﴿مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ موضع معلوم الحدود ، ولم يبين الله وقت الإفاضة ، وبيّنه عليه السلام بفعله فإنه وقف حتى غربت الشمس ولا بد من الوقوف في جزء من الليل وهو الواجب عند مالك وقال الشافعي وأبو حنيفة : الواجب وقوف النهار . وقال ابن حنبل : يكفي ليلا أو نهاراً أي إن أفضتم بعد الوقوف بها ، وهي علم مرتجل تنوينه للمقابلة لا للصرف وقيل مصروف إذ ليس فيه علة إلا التعريف ، وتاؤه علامة للجمع لا للتأنيث ، ولا تقدر فيه التاء كسعاد لتاء الجمع ، سمي الموقف عرفة لأنه نعت لإبراهيم فلما أبصره عرفه أو لالتقاء آدم وحواء وتعارفهما به ، أو لأن الناس يتعارفون به ﴿فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ﴾ بعد المبيت بالمزدلفة بالتلبية والتهليل والدعاء ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ جبل في آخر المزدلفة يقال له : قُزَحُ ، وفي الحديث « أنه : صلى الله عليه وسلم وقف به يذكر ويدعو حتى أسفر جدا » رواه مسلم ، وقيل المشعر الحرام ما بين مَأْزِمَيْ عرفة ووادي « محسر » والأول أصح ، ووصف بالحرام لحرمته ومعنى عنده قربه لأنه أفضل وإلا فالمزدلفة كلها . وقف إلا وادي محسر ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ لمعالم دينكم ومناسك حجكم والكاف للتعليل وما مصدرية أو كافة ﴿وَإِن﴾ مخففة ﴿كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ قبل هداه ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الجاهلين بعبادته وذكره . ولما كانت قريش وحلفاؤها يقفون بالمزدلفة ترفعاً عن الوقوف مع الناس ، إذ الناس يقفون بعرفة ، فنهوا عن ذلك وأمروا بالوقوف معهم بقوله ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ يا قريش ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي من عرفات بأن تقفوا معهم بها وثم للترتيب في الذكر ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ﴾ من ذنوبكم في تغيير المناسك ، وغير ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لمن تاب وينعم عليه ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم﴾ أديتم ﴿مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ عبادات حجكم بأن رميتم جمرة العقبة ، وطفتم واستقررتم بمنى ، وهي جمع منسَك بفتح

السين وكسرها ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ بالتكبير والثناء عليه ﴿ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴾ كما كنتم تذكرونهم عند فراغ حجكم ، وكانوا فى الجاهلية إذا فرغوا من الحج وقفوا بين مسجد منى والجبل فيذكرون فضائل آبائهم ومحاسن أيامهم ﴿ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ من ذكركم إياهم ، ونصب أشد على الحال من ذكر المنصوب « باذكروا » إذ لو تأخر عنه لكان صفة له قاله السيوطى فى التكملة . وقال البيضاوى : إما مجرور معطوف على ذكر بجعل الذكر ذاكراً مجازاً والمعنى فاذكروا الله ذكراً كذكركم آباءكم ، أو كذكر أشد منه وأبلغ وإما منصوب بالعطف على آبائكم ، وذكراً بمعنى المذكور أو بمضمر دل عليه المعنى تقديره : أو كونوا أشد ذكراً لله منكم لآبائكم . اهـ . قلت وعلى مقتضاه « فذكراً » منصوب على التميز . وقال الكواشى : ومحل « أو أشد » جر عطف على ذكركم ، أو نصب على آبائكم ، وقوله ذكراً نصب تمييزاً وفيه نظر ، قالوا لأن أفعل يضاف إلى ما بعده إذا كان من جنس ماقبله كقولك : وجهك أحسن وجه . وإذا نصبت مابعده كان غير الذى قبله كقولك زيد أفرهُ فرسا فالفراهة للفرس لا لزيد والمذكور قبل أشد هنا هو الذكر ، والذكر لا يذكر والقياس الجر بالإضافة ، ووجه نصبه بجعل الذكر ذاكراً مجازاً إلى أن قال « أو أشد » نصب بمضمر تقديره : واذكروه ذكراً أشد من ذكركم لآبائكم . اهـ . ثم أومأ إلى اختلاف أغراض الداعين فقال ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا ﴾ نصيباً من الجاه والمال ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ فيؤتاه فيها ﴿ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ نصيب وهؤلاء هم الكفار ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ نعمة كالعافية والرزق الواسع والعلم النافع والعمل الصالح ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ هى الجنة والقرب من الله ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ باجتناب الحرام والشبهات وهؤلاء هم المؤمنون ، والقصد الحث على طلب خير الدارين كما وعد على الثواب عليه بقوله ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ ﴾ ثواب ﴿ مِنْ ﴾ أجل ﴿ مَا كَسَبُوا ﴾ عملوا من الحج والدعاء ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ يحاسب الخلق كلهم فى قدر نصف نهار من أيام الدنيا ، لحديث بذلك فبادروا الحساب بالطاعات ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ بالتكبير عند رمى الجمرات ، وذبح القرابين ، وأدبار الصلوات من ظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق عند مالك والشافعى . ومن صلاة الصبح يوم عرفة وينقطع العصر من يوم النحر عند أبى حنيفة ﴿ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ أى أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر وأيام الرمى والمعلومات أيام النحر فالأول معلوم غير معدود واليومان بعده معدودان معلومان والرابع معدود غير معلوم ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ ﴾ استعجل بالنفر من منى ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أى فى ثانى أيام التشريق فلم يمكث حتى يرمى فى الثالث واكتفى برمى جماره فى يومين ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ بالتعجيل ﴿ وَمَنْ تَأَخَّرَ ﴾ بها حتى بات ليلة الثالث ورمى جماره بعد الزوال وأجازه أبو حنيفة قبل الزوال ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ بذلك أى هم مخيرون فى ذلك ، وهو رد على أهل الجاهلية أى منهم من أثّم المتعجل ومنهم من أثّم المتأخر . ونفى الإثم ﴿ لِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ الله فى حجه لأنه الحاج على الحقيقة ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾

فى جميع أموركم ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فى الآخرة فيجازيكم بأعمالكم وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق . ونزل فى المنافقين ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ متعلق بالقول أى ما يقوله فى أمور الدنيا وأسباب المعاش ، أو يعجبك أى لفصاحته ، ولا يعجبك فى الآخرة لمخالفة قوله لاعتقاده ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ أنه موافق : لقوله : الله شاهد على ما فى قلبى من محبتك ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ أى شديد الخصومة لك ، ولأتباعك لعداوته لك ، والخصام بمعنى المخاصمة أو إضافة الألد إليه بمعنى فى أو الخصام جمع خصم أى أشد الخصوم خصومة . قال ابن الأثير : اللدد : الخصومة الشديدة . وقال التوربشتى : الأول ينبئ عن الشدة والثانى عن الكثرة . وقال شارح المشكاة : المعنى أنه شديد فى نفسه بليغ فى خصومته فلا تكرار . اه . قال السدى نزلت الآية فى الأخنس بن شريق الثقفى أظهر الإسلام وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالى رسول الله يحلف أنه مؤمن به ومحب له فيدنى مجلسه فأكذبه الله فى ذلك . اه . والأقوى أنه صفة لكل منافق ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ ﴾ انصرف منك أو إذا صار والياً وغلب ﴿ سَعَىٰ ﴾ مشى ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾ كما حكى أن الأخنس المذكور كان بينه وبين ثقيف عداوة فأحرق زروعهم وعقر مواشيهم ليلا ، وكما يفعله ولاة السوء لمن عادوه من القتل وإتلاف الأموال والذرارى ، وكما يفعله الظلمة من الظلم حتى يمنع الله المطر بشؤمهم فيهلك الحرث والنسل ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ لا يرضى به فاحذروا غضبه عليه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ فى فعلك ﴿ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ ﴾ حملته الأنفة وحمية الجاهلية على العمل ﴿ بِٱلْإِثْمِ ﴾ الذى أمر باتقائه أى الظلم ، ومحله نصب حال من العزة أو من الضمير أى ملتبسة ، أو ملتبساً بالإثم ﴿ فَحَسْبُهُۥ ﴾ كافيه ﴿ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ الفراش هى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْرِى ﴾ يبيع ﴿ نَفْسَهُ ﴾ يبذلها فى طاعة الله الجهاد أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى يقتل ﴿ ٱبْتِغَآءَ ﴾ طلب ﴿ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ رضاه ، ومن عام فى كل من بذل نفسه فى مرضاة الله ، وقيل نزلت فى أهل الرجيع « عاصم بن ثابت » وجماعته ، وقيل فى الزبير والمقداد ، لما قال عليه السلام «من ينزل خبيبا عن خشبته فله الجنة» . فقال : أنا وصاحبى المقداد وفعلا ذلك ، وقيل فى « صهيب بن سنان » لما آذاه المشركون بمكة هاجر إلى المدينة مع ماله فأدركوه فقال لهم : أنا شيخ كبير لا أنفعكم إن كنت معكم ولا أضركم إن كنت مع غيركم فخلونى وما أريد وخذوا مالى فأخذوا ماله وتركوه وعلى هذا فشرى بمعنى اشترى . قال الثعالبى : حكى قوم شرى بمعنى اشترى ، ويحتاج إلى هذا من تأول الآية فى صهيب لأنه اشترى نفسه بماله . اه ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ حيث أرشدهم لما فيه رضاه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ ﴾ بفتح السين لنافع وابن كثير والكسائى وكسرها للباقين : الإسلام والطاعة ولذا يطلق فى الصلح ﴿ كَآفَّةً ﴾ حال من السلم أى فى جميع شرائعه وكافة اسم للجملة أصلها من الكف أى الجمع لأنها تكف الأجزاء من التفرق ، والسلم تؤنث

كالحرب ، كقول الشاعر : السلم تأخذ منها ما رضيت به * والحرب يكفيك من أنفاسها جُرَعُ
والخطاب فى المنافقين الذين آمنوا ظاهراً أن يدخلوا فى الإسلام بكليتهم أو فى أهل الكتاب المسلمين حيث عظموا السبت وأبوا أكل الإبل وشرب ألبانها ، وفى المسلمين جميعاً فى أحكام الشرع كلها ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ طرق تزيينه بالتفريق ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ بين العداوة ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ ملتم عن الدخول فى جميعه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الحجج الظاهرة على أنه حق ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب قادر لا يعجزه شىء عن انتقامه منكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فى صنعه لا ينتقم إلا بالحق . روى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ هنا فغلط فقال فإن الله غفور رحيم ، فقال الأعرابى : ما هذا كلام الله لا يذكر الحكيم الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه ثم أخبر أنه عزيز حكيم فاستحسنه ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ استفهام بمعنى النفى ولذا جاء بعده إلا أى ماينتظر التاركون الدخول فيه ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ بأسه ، حذف للدلالة عليه بقوله «عزيز حكيم» أو عذابه حذف مضاف أى عذابه ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ جمع ظلة ﴿مِنَ الْغَمَامِ﴾ السحاب ، وهى مظنة الرحمة ، فإذا جاءهم العذاب منه كان أفظع ومن العلماء من لم يتأول مثل هذا ويقول اقرأوه كما جاء بلا كيف ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالرفع عطف على اسم الجلالة ، وقرئ بالجر عطفاً على ظلل ، أو الغمام لأنهم الواسطة فى إتيان أمره ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أى تم أمر هلاكهم ، وضع الماضى موضع المستقبل لدنوه وتيقن وقوعه ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ بالبناء للمفعول لنافع وابن كثير وأبى عمرو وعاصم والفاعل للباقين فى الآخرة ، فيجازى لأنه ملّك بعض العباد بعض الأمور فى الدنيا ، ثم ترجع إليه فى الآخرة : أى ترجع حيث كانت ﴿سَلْ﴾ يا محمد ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ تبكيتاً ﴿كَمْ آتَيْنَاهُمْ﴾ وكم خبرية أو استفهامية للتقرير معلقة «سل» عن المفعول الثانى وهى ثانى مفعولى «آتينا» ومحلها النصب أو الرفع بالابتداء على حذف العائد من الخبر وقوله ﴿مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ معجزة ظاهرة تميزكم ومن للفصل إذ الأحسن إذا فصل بين كم ومميزها أن يؤتى بمن أى كثيراً من الآيات ، أعطيناهم فبدلوها كفراً كما تقدم فى تذكيرهم النعم ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ ما أنعم به عليه من الآيات بالتأويل الزائف والتحريف لأنها سبب الهداية ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ كفرا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فيعاقبه أشد عقوبة لأنه ارتكب أشد جريمة ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أى حسنت فى أعينهم وأشربت فى قلوبهم فأحبوها وأعرضوا عن غيرها والمزين هو الله على الحقيقة والشيطان على المجاز ﴿وَ﴾ هم ﴿يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من لا حظّ لهم فيها لفقرهم «كعمار وبلال وصهيب» ، أى يستهزءون بهم على رفضهم الدنيا ويتعالون عليهم بالمال ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الدنيا وهم هؤلاء ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لأنهم فى جنة عالية وهم فى نار هاوية ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فى الدارين ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير فيوسع فى الدنيا استدراجا تارة وابتلاء أخرى ولعله يرزق المسخورين ملك أموال الساخرين ورقابهم . قال عبد الرحمن الثعالبى فى

الجواهر الحسان تفسيره : فإن تشوّفت نفسك أيها الأخ إلى هذه الفوقية ونيل هذه الدرجة العليّة فارفض دنياك الدنية وازهد فيها بالكلية لتسلم من كل آفة وبلية واقتد فى ذلك بخير البرية ، قال عياض فى شفائه : فانظر رحمك الله فى سيرة نبينا محمد عليه السلام وخُلقه فى المال تجده قد أوتى خزائن الأرض وجبيت إليه الأخماس وهادنه جماعة من الملوك فما استأثر بشىء من ذلك ولا أمسك درهما منه بل صرفه مصارفة وأغنى به غيره وقوّىَ به المسلمين ومات صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة فى نفقة عياله واقتصر من نفقته وملبسه على ماتدعوه ضرورته وزهد فيما سواه . اه . ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ متفقين على الحق فيما بين آدم وإدريس أو نوح أو بعد الطوفان أو متفقين على الجهالة فى الفترات فاختلفوا ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ﴾ إليهم ﴿ مُبَشِّرِينَ ﴾ من آمن بالجنة ﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾ من كفر بالنار ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ بمعنى الكتب ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بأنزل ﴿ لِيَحْكُمَ ﴾ به ﴿ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ من الدين وفاعل « يحكم » هو الله أو النبي أو الكتاب أو فيما التبس عليهم ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ ﴾ أى الدين أو الكتاب ﴿ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ ﴾ أى الكتاب عكسوا الأمر فجعلوا ما أنزل لزيل الاختلاف : سببا للاختلاف ﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ الحجج الظاهرة على التوحيد ومن متعلقة باختلف ولم تمنع إلا من ذلك كقولك ما قام إلا زيدٌ يوم الجمعة وما بعد «إلا» مقدم على الاستثناء فى المعنى ﴿ بَغْيًا ﴾ حسداً وحرصاً على الدنيا من الكافرين ﴿ بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ ﴾ بيان لما اختلفوا فيه ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ بإرادته ولطفه ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ هدايته ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لا يضل سالكه وهو طريق الحق . ونزل فى جهد أصاب المسلمين فى الأحزاب أو فى أحد أو فى الهجرة ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ خاطب بهذا النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعد ما ذكر اختلاف الأمم على الأنبياء بعد مجىء الآيات تشجيعاً لهم على الثبات مع مخالفتهم و « أم » منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار ﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ﴾ شبه ما أتى ﴿ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ﴾ من المؤمنين من المحن وهى الأمراض والآلام والمصائب فتصبروا كما صبروا ، والواو فى ولما للحال . والجملة بعدها نصب عليها و «لمّا» حرف جزم معناها النفى كـ « لم » ، وفيها توقع ولذا جعل مقابل قد ﴿ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ ﴾ شدة الفقر ﴿ وَالضَّرَّاءُ ﴾ المرض والجوع ، بيان لما تقدم على الاستئناف ﴿ وَزُلْزِلُوا ﴾ أزعجوا بأنواع البلاء ﴿ حَتَّىٰ يَقُولُ ﴾ بالرفع لنافع على حكاية حال ماضية والنصب للباقين على إضمار «أن» المعنى على الأول حتى قال ﴿ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ استبطاء للنصر لتناهى الشدة عليهم واستطالة المدة ﴿ مَتَىٰ ﴾ يأتى ﴿ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ الذى وعدناه فأجيبوا من قبل الله ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ إتيانه وفى الآية دليل على أن الوصول إلى الله والفوز بالكرامة عنده إنما يكون بعد رفض الهوى واللذات ومكابدة الشدائد والرياضات ، وأن النصر يأتى بعد اليأس والاستبعاد . قال الكواشى : « حتى » لاتنصب إلا فعلا مستقبلا ولا تنصبه إذا كان حالا

نحو شربت الإبل حتى يجيء البعير يجر بطنه فهى حال ماضية محكية و « حتى » التى يرفع الفعل بعدها ليست الجارة ولا العاطفة وإنما هى الداخلة على الجمل والتى تنصب الأفعال بعدها بمعنى إلى أن ، بمنى كما فى الآية المتقدمة هى الجارة وهى للغاية والفعل بعدها ماض معنى مستقبل لفظاً ، والتى تنصب الأفعال بعدها بمعنى كى هى العاطفة والفعل بعدها مستقبل لفظاً ومعنى نحو أسلمت حتى أدخل الجنة فالإسلام قد وجد والدخول لم يوجد . اهـ . ولما سأل عمرو بن الجموح الأنصارى وكان شيخاً ذا مال عن النفقة ومصرفها نزل ﴿ يَسْئَلُونَكَ ﴾ يا محمد ﴿ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ ه من صدقة التطوع وعلى مَن ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ بيان لـ « ما » شامل للقليل والكثير وفيه بيان المنفق الذى هو أحد شقى السؤال وأجاب عن المصرف الذى هو الشق الآخر بقوله ﴿ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ هم أولى به . قال ابن العربى فى الأحكام : ولا شك أن الحنوّ على القرابة أبلغ ، ومراعاة أدنى الرحم أوقع ، لما قال النبى صلى الله عليه وسلم لزينب امرأة عبد الله بن مسعود حين قالت أتجزئنى الصدقة على زوج وأيتام لى فى حجرى ؟ فقال لها : لك أجران : أجر الصدقة ، وأجر القرابة . وفى رواية : زوجك وولدك أحق من تصدقت عليهم ، وروى النسائى : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يد المعطى العليا أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك أدناك . اهـ ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ ﴾ إنفاق وغيره ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ فمجاز عليه ﴿ كُتِبَ ﴾ فرض ﴿ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ للكفار لإعلاء كلمة الله ، والبغاة والمحاربين للصالح ، والجهاد فرض على الكفاية عند الجمهور إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وقيل إذا حميت أطراف البلاد وسدت الثغور رجع نفلا . ويجب بتعيين الإمام وبفجأ العدو ولاستنقاذ أسرى المسلمين من أيدى الكفار ﴿ وَهُوَ ﴾ الواو للحال ﴿ كُرْهٌ ﴾ أى مكروه ﴿ لَّكُمْ ﴾ طبعاً لمشقته وقرئ بفتح الكاف ، وهما لغتان مصدر وصف به مبالغة ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ وهو جميع ما كلفتم به فإن الطبع يكرهه وهو مناط صلاحكم وسبب فلاحكم ﴿ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ وهو جميع ما نهيتم عنه فإن النفس تحبه وتهواه وهو هلاكها ولعل لكم فى القتال - وإن كرهتموه - خيراً لأن فيه إما الظفر والغنيمة أو الشهادة والأجر ، وفى تركه وإن أحببتموه شراً لأن فيه الذل والفقر وحرمان الأجر ، وذكر « عسى » لأن النفس إذا ارتاضت ينعكس الأمر عليها ، ومحل « أن » فى الموضعين رفع فاعل « عسى » ومحل « وهو » فيهما نصب صفة « شيئاً » أو حال منه ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ ما هو خير لكم ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فبادروا إلى ما يأمركم به وفيه دليل على أن الأحكام تتبع المصالح الراجحة وإن لم تعرف عينها ، ولما هاجر عليه السلام إلى المدينة فى ربيع الأول وأذن له فى القتال ودخل يتجهز له إلى صفر وخرج حتى بلغ ودان وهى غزوة الأبواء يريد قريشاً وبنى ضمرة فوادعته بنو ضمرة ثم رجع فبعث سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فلقى قريشاً بالحجاز فلم يكن قتال بل أفلت الكفار إلا أن سعداً رمى بسهم فكان أول سهم رمى فى سبيل الله وقبل

رجوع عبيدة بعث حمزة بن عبد المطلب فلقوا قريشاً وحجز بينهم مجدى بن عمرو الضمرى ثم خرج الرسول فى ربيع الأول لغزوة بواط ورجع ولم يلق كيداً ، ثم خرج فى جمادى الأولى إلى العشيرة وادع فيها بنى مدلج وبعد رجوعه أغار كرز على سرح المدينة فخرج الرسول بأصحابه واتبعه حتى بلغ بدراً ولم يدركه فرجع ثم بعث فى جمادى الآخرة « عبد الله بن جحش الأسدى » ابن عمته أميمة قبل بدر بشهرين مع ثمانية من المهاجرين وهم أبو حذيفة بن عتبة ، وسعد بن أبى وقاص ، وعكاشة بن محصن ، وعتبة بن غزوان ، وعامر بن ربيعة ، وواقد بن عبد الله ، وخالد بن البكير ، وسهيل بن بيضاء ، وكتب لابن جحش كتاباً وأمره على السرية ، وقال : سر على اسم الله ولا تنظر فى الكتاب حتى تسير يومين ثم تفتحه وتنظر ولا تكرهن أحداً من أصحابك على السير معك ؛ فلما فتحه بعد يومين إذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فسر على بركة الله بمن معك حتى تنزل نخلة فارصد بها عير قريش لعلك تأتينا بخبرهم » فقال : سمعاً وطاعة . فأطاع له جميع أصحابه فساروا حتى نزلوا ببطن نخلة بين مكة والطائف ، فمرت بهم عير لقريش أخذوا تجارات من الطائف وفى العير عمرو بن عبد الله الحضرمى والحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ونوفل بن عبد الله المخزوميان مستهل رجب والسرية تشك فى استهلاله وتظن أنها فى آخر يوم من جمادى الآخرة فرمى واقد بن عبد الله السهمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله فكان أول قتيل من المشركين وأسروا الحكم وعثمان فكانوا أول أسيرين فى الإسلام وأعجزهم نوفل هرباً وقدموا على رسول الله مع العير والأسيرين فسمعوا أن هلال رجب قد استهل يوم قتالهم فعيّرهم كفار قريش باستحلال الشهر الحرام وكتبوه إلى رسول الله تعييراً فقال عليه السلام للسرية ما أمرتكم بالقتال فى الشهر الحرام وأوقف أمر العير والأسيرين ، وأكثر الناس فى ذلك وسألوا رسول الله عن ذلك ؛ فنزل ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ المحرم : رجب ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل اشتمال ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أى وزر عظيم : مبتدأ وخبر ، وجاز الابتداء بالنكرة لوصفها بفيه ، والجمهور على أن هذا منسوخ بقوله « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » ونحوها وبغزوات النبى عليه السلام فى الأشهر الحرم ، ومن العلماء من قال لا يجوز أن يقاتلوا فيه إلا أن يقاتلونا ويروى عن عطاء والصحيح قول الجمهور ﴿وَصَدٌّ﴾ مبتدأ أى منع الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دين الإسلام ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ بالله ﴿وَ﴾ صدٌّ عن ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ مكة ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ وهم النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وخبر المبتدأ ﴿أَكْبَرُ﴾ أعظم وزراً ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ من القتال فيه الذى فعلته السرية خطأً وبناء على الظن ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ الشرك وإخراج المؤمنين منكم ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ لكم فيه ، ولما نزلت هذه الآية أخذ رسول الله العير فعزل منها الخمس فكان أول خمس فى الإسلام وأول غنيمة قسمت فقسم الباقى على أصحاب السرية وبعث أهل مكة فى فداء أسيريهم ففدوهما فأما « الحكم بن كيسان » فأسلم وأقام مع رسول الله بالمدينة حتى قتل يوم

بئر معونة شهيداً وأما « عثمان بن عبد الله » فرجع إلى مكة ومات بها كافراً وأخوه نوفل الذى هرب هو الذى سقط بفرسه يوم الأحزاب فحطما جميعاً وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى هذه القصة أبياتاً وهذه منها :

« تعدّون قتلًا فى الحرامِ جريمةً ٭ وأعظمُ منهُ لو يَرى الرشدَ راشدْ
صدودُكمُ عمّا يقولُ محمدٌ ٭ وكفرٌ بهِ واللهُ راءٍ وشاهدُ
سَقَيْنا مِنَ ابنِ الحَضرمِيِّ رِماحَنا ٭ بنخلةَ لما أوقدَ الحربَ واقد »

﴿ وَلَا يَزَالُونَ ﴾ أى الكفار ﴿ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ حَتَّىٰ ﴾ كى ﴿ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ ﴾ إلى الكفر إخبار عن دوام عداوة الكفار وحتى للتعليل ﴿ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ قدروا استبعاد لاستطاعتهم ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ ﴾ طوعاً بتصريح الكفر أو بلفظ يقتضيه أو بفعل يتضمنه بالقرائن ﴿ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ ﴾ بطلت ﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ الصالحة ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ بمجرد الارتداد فلا اعتداد بها ولا ثواب عليها ﴿ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ بموتهم على الكفر فالارتداد علة الحبوط والموت على الكفر علة الخلود فى النار فأعمال المرتد محبطة وإن رجع إلى الإسلام فلا يعتد بما فعل قبل عند مالك وأبى حنيفة خلافاً للشافعى وأحمد قالا : إن رجع إلى الإسلام يثاب على عمله ولا يعيده كالحج مثلا ويستتاب المرتد وإن لم يتب قتل وتبين زوجته عنه وماله فىء للمسلمين لا يرثه ورثته إلا أن يكون عبداً فماله لسيده والمرأة كالرجل خلافاً لأبى حنيفة القائل : إن الحرة تحبس حتى تسلم، والأمة يجبرها سيدها على الإسلام . ولما ظن السرية أنهم إن سلموا من الإثم فلا يحصل لهم أجر ، نزل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ فارقوا أوطانهم وعشائرهم ﴿ وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لإعلاء دينه ، كرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد كأنهما مستقلان فى تحقيق الرجاء ﴿ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ ثوابه ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ للمؤمنين : قال قتادة : « أثنى الله على الصحابة بالإيمان والهجرة والجهاد وهم خيار الأمة ثم جعلهم أهل رجاء فمن رجا طلب ومن خاف هرب » . اه . قال البيضاوى : « أثبت لهم الرجاء إشعاراً بأن العمل غير موجب ولا قاطع فى الدلالة لا سيما والعبرة بالخواتيم » . ولما كان الخمر أول الإسلام حلالا إذ نزل فيها « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً » فكانوا يشربونها وتقع مفاسد بسببها بينهم ، فجاء عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل فى نفر من الصحابة إلى رسول الله فقالوا : أفتنا فى الخمر فإنها مذهبة للعقل نزل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ القمار ما حكمهما ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ فِيهِمَا ﴾ فى تعاطيهما ﴿ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ عظيم ، وفى قراءة حمزة والكسائى بالمثلثة لما يحصل بهما من المخاصمة والمشاتمة والمقاتلة ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ باللذة والفرح فى الخمر وإصابة المال بلا كد فى الميسر ﴿ وَإِثْمُهُمَا ﴾ من المفاسد ﴿ أَكْبَرُ ﴾ أعظم ﴿ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ وقال الكواشى :

إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبله . اه . ولما نزلت شربها قوم وامتنع آخرون ، ثم دعا عبد الرحمن ابن عوف ناساً منهم فشربوا فسكروا فحضرت الصلاة فقدموا أحدهم فقرأ قل ياأيها الكافرون أعبد بحذف لا فنزل « لا تقربوا الصلوٰة وأنتم سكٰرى » فقل من يشربها ثم دعا عتبان بن مالك سعد بن أبى وقاص فى وليمة له فسكروا وافتخروا فأنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار فضربه أنصارى بلحى بعير فشجه فشكاه إلى رسول الله فنزلت آية المائدة لحرمها ؛ والخمر فى الأصل مصدر خمره ستره سمى به عصير العنب والتمر إذا اشتد وغلا لأنه يخمر العقل أى يستره ، وأجمع الأئمة الاربعة على تحريم الخمر ونجاستها وأن شرب قليلها وكثيرها يوجب الحد وأن من استحل شربها حكم بكفره وأن عصير العنب إذا اشتد وقذف زبده فهو خمر ، واتفق جمهورهم على أن كل شراب يسكر كثيره فقليله حرام وأنه يسمى خمراً وفى شربه الحد سواء كان من عنب أو زبيب أو حنطة أو شعير أو ذرة أو أرز أو عسل أو لبن أو نحو ذلك نيئاً كان أو مطبوخاً خلافاً لأبى حنيفة قال نقيع التمر والزبيب إذا اشتد كان حراماً قليله وكثيره لكن لا يسمى خمراً فإن أسكر ففى شربه الحد وهو نجس فإن طبخ حل ما غلب على ظن الشارب منه أنه لا يسكر وأما نبيذ الحنطة والأرز ونحوها فحلال عنده نقيعاً أو مطبوخاً وإنما يحرم المسكر منه فقط ويحد فيه واتفق الأئمة على أن حد العبد على النصف من حد الحر وأنه يكون بالسوط ؛ لكن روى عن الشافعى أنه يقام بالأيدى والنعال وعلى أن من غص بلقمة ولم يجد غير خمر ما يسيغها به يجوز له إساغتها به على كل حال ، وحد شارب الخمر الحر عند مالك وأبى حنيفة ثمانون وعند الشافعى وأحمد أربعون ولو أقر بشربها ولم يوجد منه ريحها حد عند الثلاثة خلافاً لأبى حنيفة ولو وجد منه ريحها ولم يقر حُدّ عند مالك فقط خلافاً للثلاثة ولا يجوز شربها لضرورة العطش والتداوى خلافاً لأبى حنيفة قال : يجوز للعطش لا للتداوى وللشافعى يجوز القليل للتداوى والعطش ويجتنب وقت الضرب الوجه والفرج والقلب والدماغ والخواصر بإجماع ، وأما الميسر فصدر سمى به القمار لأخذ مال الغير فيه يسراً ، وفى الجواهر الحسان قال ابن سيرين والحسن وابن عباس وابن المسيب وغيرهم : كل قمار ميسر من نرد وشطرنج ونحو ذلك حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب . اه . واللعب بالنرد ولو مرة حرام فى مذهب مالك ولو لم يكن فيه قمار أى دفع مال ومثله الطاب وكذا إدامة الشطرنج على المذهب ، انظر عبدالباقى : وصحح القرافى أن اللعب بالشطرنج مكروه وقال الخازن فى لباب التأويل : النرد والشطرنج من الميسر ومذهب أبى حنيفة حرمة اللعب به سواء كان برهان أو بغير رهان ومذهب الشافعى أنه مباح إن خلا عن الرهان والهذيان ونسيان الصلاة ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ قيل سأله أيضاً عمرو بن الجموح سأل أولا عن المنفق والمصرف ثم سأل ثانياً عن كيفية الإنفاق ﴿ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ وهو فى الأصل نقيض الجهد أى أنفقوا ما تيسر لكم بذله بلا جهد وقرأ أبو عمرو برفع الواو بتقدير هو العفو وهو الفاضل عن الحاجة والأهل ، ولا تنفقوا ما تحتاجون إليه وتضيقوا

على أنفسكم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما بين لكم ما ذكر ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي ﴾ أمر ﴿ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ فتأخذون بالأصلح لكم فيهما وتجتنبون ما يضركم كأن تتفكروا فى زوال الدنيا وبقاء الآخرة فتطلبوا الآخرة بترك الدنيا . قال فى فتح الرحمن : ترك هذا فى آخر السورة وفى الأنعام اختصاراً للعلم به مما هنا . اه . قال الغزالى : العاقل لا يغفل عن التفكر فى أمر الآخرة لحظة فيكون له فى كل ما يراه من ماء أو نار أو غيرهما عبرة فإن نظر إلى سواد ذكر ظلمة القبر أو صورة مروعة تذكر منكراً ونكيراً والزبانية وإن سمع صوتاً هائلا تذكر نفخة الصور وإن رأى شيئاً حسناً تذكر نعيم الجنة . اه . ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ ومن السائلين ابن رواحة عما يلقونه من الحرج فى شأنهم فإن واكلوهم تأثموا وإن عزلوا مالهم من أموالهم ضاع ، وإن حفظوه وصنعوا لهم طعاماً وحدهم فحرج ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ ﴾ مداخلتهم لإصلاحهم وإصلاح أموالهم ﴿ خَيْرٌ ﴾ من مجانبتهم أى يكون القصد فى المخالطة رفق اليتيم لا ارفق نفسه ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ ﴾ تخلطوا نفقتهم بنفقتكم لذلك ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ أى فهم إخوانكم فى الدين ومن شأن الأخ أن يخالط أخاه حث على المخالطة ، وقيل المراد بها المصاهرة ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ ﴾ لأموالهم بمخالطته ﴿ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ بها يعلم من قصد الخيانة وأكل مال اليتيم من قصد الإصلاح وفيه الوعيد والوعد ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ إعناتكم ﴿ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ بأن يكلفكم ما يشق عليكم من العنت وهى المشقة ولم يجوّز لكم مداخلتهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب على أمره يقدر على الإعنات ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى صنعه يحكم ما تقتضيه الحكمة وتتسع له الطاقة . قال ابن العربى فى الأحكام : لما أذن الله فى مخالطة الأيتام مع قصد الصلاح كان دليلا على جواز التصرف فى مال اليتيم يتصرف الولى فى البيع والقسمة وغير ذلك فينفذ فعله فى القليل والكثير على الإطلاق وإن لم يقدمه وال عليه إلى أن قال علماؤنا إذا بلغت اليتيمة وأقسط الولى فى الصداق جاز له أن يتزوجها ويكون هو الناكح والمنكح وبه قال أبو حنيفة وقال الشافعى لا يجوز حتى يقدم الولى من ينكحها إياه وأما شراؤه من مال يتيمه فقال مالك وأبو حنيفة يشترى فى مشهور الأقوال إذا كان نظراً لليتيم لأنه من باب الإصلاح المنصوص عليه وقال الشافعى : لا يجوز ؛ فإن قيل يلزم مالكا ترك أصله فى الذرائع والتهمة ! قلنا إنما يقول ذلك فيما يؤدى من الأفعال المباحة إلى محظور منصوص عليه وأما هنا فقد أذن الله فى صورة المخالطة ووكل الحاضنين إلى أماناتهم بقوله « والله يعلم المفسد من المصلح » وكل أمر مخوف وكّل الله المكلف فيه إلى أمانته لا يقال فيه إنه يؤدى إلى محظور به فيمنع منه . اه . ﴿ وَلَا تَنكِحُوا ﴾ تتزوجوا أيها المسلمون ﴿ ٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ أى الكافرات ﴿ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ ﴾ حرة إذ يجوز نكاحها للحر إن عدم الطول وخاف الفتنة كما يأتى ، ويجوز للعبد مطلقاً وسبب نزولها العيب على من تزوج أمة وترغيبه فى نكاح حرة مشركة ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ لجمالها ومالها وهذا مخصوص بغير الكتابيات بآية « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب » لكن كره مالك

الحربية وكرهها ابن عمر مطلقاً ﴿ وَلَا تُنكِحُوا ﴾ المؤمنات ﴿ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى الكفار مطلقاً إجماعاً ﴿ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ المشرك لماله وجماله ويجوز للعبد المسلم أن يتزوج حرة برضاها وإن غرها فلها الخيار وأشار إلى علة النهى بقوله ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ أى أهل الشرك ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ بدعائهم إلى العمل الموجب لها فلا تليق مناكحتهم ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو ﴾ على لسان رسله أو المراد أولياء الله لحذف المضاف ﴿ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ ﴾ أى العمل الموجب لهما ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ بإرادته فتجب إجابته بتزويج أوليائه ﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون إذا تدبروا أدلته وحججه فى أوامره ونواهيه وأحكامه . ولما كانت المرأة فى الجاهلية إذا حاضت لا تؤاكل ولا تشارب ولا تجالس كفعل اليهود والمجوس ، وسأل «ثابت بن الدحداح» ذلك فى نفر من الصحابة : نزل ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾ مصدر كالمجىء أو مكانه ماذا يفعل بالنساء فيه ولعله سبحانه إنما ذكر « يسئلونك » بغير واو ثلاثاً ثم بها ثلاثاً لأن السؤالات الأول كانت فى أوقات متفرقة والثلاثة الأخيرة كانت فى وقت واحد فلذلك ذكرها بحرف الجمع قاله البيضاوى ﴿ قُلْ هُوَ ﴾ أى الحيض ﴿ أَذًى ﴾ شىء مستقذر مؤذ من يقربه نفرة منه أو محله وللمرأة فى وقته ثمانية أسماء حائض وعارك وفارك وطامس ونافس وكابر وضاحك وطامث وإنما وصفه بأنه أذى ورتب عليه الحكم بالفاء إشعاراً بأنه العلة فى قوله ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ ﴾ أى وطأهن فقط هذا متفق على تحريمه إجماعاً ويحرم الاستمتاع بما بين السرة والركبة عند مشهور مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى ، وأجاز أحمد وبعض المالكية والشافعية الاستمتاع بما دون الفرج ﴿ فِي الْمَحِيضِ ﴾ أى وقته أو محله ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾ للجماع ﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ بسكون الطاء للجمهور وبتشديدها والهاء حمزة والكسائى وعاصم فى رواية ابن عباس ، وفيه إدغام التاء فى الأصل فى الطاء أى يغتسلن بعد انقطاعه غسل الجنابة عند مالك والشافعى وأحمد . وقال أبو حنيفة : إن انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده جاز وطؤها . وقوله «ولا تقربوهن» تأكيد للحكم وبيان لغايته ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ بالماء ﴿ فَأْتُوهُنَّ ﴾ للجماع ﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ بتجنبه فى الحيض وهو القبل ولا تعدوه إلى غيره ، و « من » لابتداء الغاية أو بمعنى فى ، واعلم أن الأئمة أجمعوا على سقوط الصلاة وقضائها عن الحائض والصوم وتقضيه وعلى حرمة الطواف بالبيت وأنه يحرم بالنفاس ما يحرم بالحيض واختلفوا فى أقلهما ولا حد له عند مالك بل الدفعة حيض وأقله عند الشافعى وأحمد يوم وليلة وعند أبى حنيفة ثلاثة أيام ، وأقل النفاس عند أبى حنيفة خمسة وعشرون يوما وأكثره عند الأكثر ستون ، وعند أبى حنيفة أربعون ، وأكثر الحيض عند مالك يختلف باختلاف النساء : خمسة عشر للمبتدأة وللمعتادة عادتها ، والحامل إن رأت الدم فهو حيض خلافاً لأبى حنيفة ؛ فإن لم تتغير عادتها فكالحائل وإلا فلها بعد ثلاثة أشهر نصف شهر ونحوه وبعد الستة عشرون ونحوه وأول سن الحيض عند الأربعة تسع سنين ولأبى حنيفة قول بأنه خمسة عشر سنة ولا حد

لأمده عند مالك والشافعى وقال أبو حنيفة : ستون ، وأحمد : خمسون ، وأقل الطهر بين الحيضتين نصف شهر عند الأكثر ، وقال أحمد ثلاثة عشر يوما ولا كفارة على من وطئ فى الحيض بل يتوب ويستغفر ، وقال أحمد : يتصدق بدينار وإذا انقطع دمها وعدمت الماء تتيمم للصلاة ولا يحل وطؤها به عند مالك وأبى حنيفة خلافاً للشافعى وأحمد وتقرأ الحائض القرآن عند مالك خلافاً لباقيهم والله أعلم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ من الأقذار والذنوب ﴿ نِسَآؤُكُمْ ﴾ أى فروجهن مواضع ﴿ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ أى محل زرعكم الولد وفيه مجاز واستعارة بالكناية فى تشبيه ما يلقى فى أرحامهن من النطف بالبذور وهن كالحارث وأفرد الخبر والمبتدأ جمع لأنه مصدر ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ ﴾ أى محله وهو القبل ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿شِئْتُمْ﴾ من قيام وقعود واضطجاع وإقبال وإدبار ، نزل رداً لقول اليهود : من أتى امرأته فى قبلها من جهة دبرها جاء الولد أحول وقيل «أنى» بمعنى حيث أى من أى شق شئتم بعد أن يكون المأتى واحداً وهو موضع الحرث ، وهذا من الكنايات اللطيفة ، وأجمع الأئمة على تحريم إتيانهن فى الأدبار ، وما يحكى عن مالك من أنه أحله : فكذبٌ عليه وقد سأله ابن وهب وغيره عن ذلك ، وقال : معاذ الله ألستم قوماً عرباً هل يكون الحرث إلا موضع الزرع . اهـ . فالقبل محل الحرث والدبر محل الفرث ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ﴾ العمل الصالح كالتسمية عند الجماع والدعاء الوارد فيه «اللهم جنّبنا الشيطان ، وجنّب الشيطان ما رزقتنا» ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ فى أمره ونهيه ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ بالبعث فيجازيكم بأعمالكم فأعدوا للقائه ما لا يخزيكم ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين اتقوه بالجنة ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ أى نصباً لها بأن تكثروا الحلف به أو مانعاً لأجل أيمانكم لـ ﴿ أَن ﴾ لا ﴿ تَبَرُّوا ﴾ أو بيان للأيمان وأن متعلق بعرضة على الأول وبه أو بالفعل على الثانى ، واللام فى «لأيمانكم» صلة لعرضة على الأول وصلة لها أو بمعنى العلة على الثانى والمراد بالأيمان عليه المحلوف عليه ، والعرضة : فعلة بمعنى مفعول : ما عرض للأمر أو دون الشيء والمعنى على الثانى «لا تجعلوا الله» حاجزاً لما حلفتم عليه من أنواع الخير ، لما روى أنها نزلت فى عبد الله بن رواحة حلف أن لا يكلم ختنه بشير بن النعمان ولا يصلح بينه وبين أخته ، فإذا قيل له فى ذلك ، قال : حلفت بالله أن لا أفعل ، والمعنى على الأول لا تجعلوه معرضاً لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به ﴿ وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ عطف على «تبروا» الذى هو بيان من «لأيمانكم» أو علة للنهى أى أنهاكم عنه إرادة بركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس وتكره اليمين على ترك ذلك ويسن فيه الحنث ويكفر بخلافها على فعل البر ونحوه فهى طاعة ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالكم واليمين بالله جائزة وبغيره مكروهة وقيل حرام والحلف بالأصنام للتعظيم كفر ولغيره حرام ، ومن حلف بالله فى مستقبل طاعة أو معصية أو مباح لحنث فعليه الكفارة أو على الماضى كوالله ما فعلت وقد فعل أو لقد فعلت ولم يفعل وهو عالم فهو الغموس يجب التوبة منه لا الكفارة عند مالك وأبى حنيفة وعليه الكفارة عند الشافعى ، وإن جهل فهو من لغو

اليمين وإليها الإشارة بقوله ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ ﴾ الكائن ﴿ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ أن يحلف على ما غلب عليه ظنه أو تيقنه فيظهر خلافه عند مالك وأبى حنيفة أو ما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف نحو « لا والله » و « بلى والله » عند الشافعى ، فلا إثم عليه ولا كفارة ﴿ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ أى قصدته من الأيمان إذا حنثتم ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لما كان من اللغو ﴿ حَلِيمٌ ﴾ بتأخير العقوبة عن مستحقها تربصاً للتوبة ، قال الحليمى : الحليم هو الذى لا يحبس أنضاله عن عباده لأجل ذنوبهم يرزق العاصى كما يرزق المطيع ويبقيه الآفات والبلايا وهو غافل لا يذكره فضلا أن يدعوه أو يشكره كما يقيها المطيع الذى يدعو ويسأل . اه . ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ ﴾ أى يحلفون أن يتباعدوا ﴿ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ أى حلفوا ألا يجامعوهن أكثر من أربعة أشهر قصداً للضرر فى حال الرضى أو الغضب ﴿ تَرَبُّصُ ﴾ انتظار ﴿ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ مبتدأ خبره « للذين » وأضيف التربص إلى الظرف على الاتساع أى للمولى حق التلبس فى هذه المدة ، فلا يطالب بفىء ولا طلاق إذ لا إيلاء إلا فى أكثر من أربعة أشهر عند الثلاثة ، خلافاً لأبى حنيفة فى أنها من الأربعة فما فوقها ولا فيما قصد به الصلاح كحى يبرأ من مرضه أو تفطم ولدها خلافاً لأبى حنيفة والشافعى وإذا حلف على منع الكلام أو الإنفاق ، فهو مول على الصحيح وكذا إن قال « إن شاء الله » عند ابن القاسم والصحيح خلافه ، قاله ابن العربى . ومن : متعلقة بـ « يولون » على معنى البعد أو يقال آلى من امرأته وعليها ﴿ فَإِن فَآءُو ﴾ رجعوا فيها أو بعدها عن اليمين إلى الوطئ والكفارة لا بمجرد رجعت إلا لعذر فيقال له كفر ، فإن كفر وإلا طلقت عليه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لما أتوه من ضرر المرأة بالحلف أو إثم حنثه إذا كفر بالفيئة التى هى كالتوبة ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا ﴾ أى نووا ﴿ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لطلاقهم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بغرضهم فيه أو فإن عزموا عليه بأن لم يفيئوا فليوقعوه ، أى : فليس لهم بعد المدة إلا الفيئة أو الطلاق فإن أبى طلق عليه الحاكم واحدة ، قال ابن العربى فى الأحكام : هذا دليل على أن مضى المدة لا يوقع الطلاق بل لا بد من مراعاة عزمه ، وقال أبو حنيفة : عزم الطلاق تعلم منه بترك الفىء . اه . يعنى يقول أبو حنيفة : إذا مضت المدة فقد بانت بطلقة ، ومدة الإيلاء للحر والعبد سواء عند الشافعى ، وينتصف بالرق عند مالك وأبى حنيفة لكن مالكا يقول برق الزوج وأبو حنيفة برق المرأة ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ ينتظرن ﴿ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ عن النكاح ﴿ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ تمضى من حين الطلاق جمع قَرْء بفتح القاف وهو الطهر عند مالك والشافعى وأحمد أو الحيض عند أبى حنيفة فإذا طلقها فى طهر كان بقية الطهر قرءا كاملا ولو لحظة فإذا دخلت فى الحيضة الثالثة تمت عدتها عندهم خلافاً للحنفى ، فإن طلقها فى الحيض لم تحل حتى تدخل فى الرابعة خلافا له وكل ما مر فى المدخول بهن فلا عدة لغيرهن لما يأتى وفى غير اليائسة والصغيرة فعدتهن ثلاثة أشهر وفى الحوامل فعدتهن أن يضعن حملهن كما فى سورة الطلاق وفى غير الإماء فعدتهن قرءان بالسنة والإجماع و « يتربصن » خبر بمعنى الأمر للتأكيد وإيجاب

المسارعة إلى امتثاله وبناؤه على المبتدأ يزيده فضل تأكيد ، وثلاثة قروء : نصب على الظرف أو المفعول به وأتى بجمع الكثرة دون القلة وهي الأقراء لأن الحكم لما عم المطلقات ذوات الأقراء تضمن معنى الكثرة فحسن بناؤها أو لأنها أشهر في الذي بمعنى الطهر فرقاً بينه وبين جمع الذي بمعنى الحيض وهو الأقراء كحديث « دعى الصلاة أيام أقرائك » ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ من الولد أو الحيض استعجالا في العدة أو إبطالا لحق الزوج في الرجعة وفيه دليل على أن قولها مقبول في ذلك ثم أكد الوعيد فيه وعظمه بقوله ﴿ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ أى ينبغي أن يمنعهن الإيمان عن ذلك ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ ﴾ الضمير للمطلقات الرجعيات فهو أخص من المرجع أى أزواجهن جمع « بعل » والتاء لتأنيث الجمع ﴿ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ بمراجعتهن ولو أبين ﴿ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أى زمن التربص وإن قال راجعتها فقالت انقضت عدتى لم يقبل ذلك منها بعد القول وقبل قبله ﴿ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ بإزالة الوحشة بينهما لا إضراراً للمرأة وقطعها عن الخلاص وهو تحريض على قصده لا شرط لجواز المراجعة وأحق لا تفضيل فيه إذ لا حق لغيرهم في نكاحهن في العدة وأصل « البعل » السيد والمالك سمى به الزوج لقيامه بأمر زوجته والآية نهى لأمر أهل الجاهلية كانوا يريدون بالمراجعة الإضرار فنهى الله المؤمنين عن ذلك وأمرهم بحسن العشرة بعد الرجعة ولذا أتبعه بقوله ﴿ وَلَهُنَّ ﴾ على الأزواج ﴿ مِثْلُ ٱلَّذِي ﴾ لهم ﴿ عَلَيْهِنَّ ﴾ من الحقوق ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ شرعا وعادة من حسن العشرة وترك الضرار وعلى الزوج النفقة من الطعام والإدام والكسوة وآلة التنظف على حسب حالها وماله وعادة البلد والصداق والحجاب وتعليم الواجبات والأمر بالطاعات ، وتسقط النفقة بالنشوز وهو منع الوطء والخروج بغير إذنه ولا يمنعها مزاورة ذوى محارمها إلا لعذر ، وعلى الزوجة الحفظ لماله والإحسان إلى أهله والالتزام لقبول أمره ، ولا تخرج إلا بإذنه ويشتركان في حسن العشرة وترك الضرار ، قال ابن عباس : أحب أن أتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ فضيلة في الحق من وجوب طاعتهن لهم لما ساقوه من المهر والإنفاق ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ في ملكه لا يعترض عليه في أموره ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما دبره لخلقه لا يأمر إلا بما هو صواب وحسن ﴿ ٱلطَّلَاقُ ﴾ أى التطليق الشرعى الذى يراجع بعده أو عدد الطلاق الرجعى ﴿ مَرَّتَانِ ﴾ أى اثنتان مرة بعد مرة دون الجمع دفعة واحدة فبدعىٌّ ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى عليكم بعد الرجعة أى ما عرف شرعاً من أداء الحقوق للنكاح وحسن الصحبة ﴿ أَوْ تَسْرِيحٌ ﴾ إرسالهن ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾ بأن يسكت عن الرجعة حتى تنقضى العدة أو بالطلقة الثالثة ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ ﴾ أيها الأزواج ﴿ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ من الصداق وغيره ﴿ شَيْئًا ﴾ إذا طلقتموهن إذ عرف الناس عند الشقاق أن يطلبوا ما خرج من أيديهم فحرم عليهم ثم استثنى الخلع من ذلك فقال ﴿ إِلَّا أَنْ يَخَافَا ﴾ أى الزوجان ﴿ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ ألا يفعلا ما حد لهما من الحقوق بأن تخاف المرأة أن تعصى الله في أمر زوجها بعدم طاعته لبغضها له ، ويخاف الزوج

أن يعتدى عليها إذا لم تعطه وفى قراءة حمزة يخافا بالبناء للمفعول فأن يقيما بدل اشتمال من الضمير فيه وقرئ بالفوقية فى الفعلين ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ أيها الحكام ﴿ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ نفسها من المال ليطلقها أى لا حرج على الزوج فى أخذه بشرطه ولا الزوجة فى بذله لأن الآية نزلت فى امرأة « ثابت بن قيس » وهى « جميلة بنت عبد الله بن أبىّ » أو « حبيبة بنت سهل الأنصارى » قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : إن ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ولكنى أكره الكفر فى الإسلام . قال البخارى : تعنى تبغضه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتردين عليه حديقته ؟ » قالت : نعم . قال له رسول الله : « أقبل الحديقة وطلقها تطليقة » ففعل ، وفى القوانين يشترط أن يكون خلع المرأة اختياراً منها وحباً فى فراق الزوج من غير إكراه ولا إضرار منه بها ، فإن فقد الشرط نفذ الطلاق ولم ينفذ الخلع . اه ، وقال ابن العربى فى الأحكام : قال علماؤنا إذا كانت الإساءة من قبل الزوج فرق بينهما ولا شىء له وإن كان من قبل المرأة التمسه عليها وإن كانت منهما فرق بينهما على بعض ما أصدقها ولا يستوعب له وعنده بعض الظلم . اه . ويجوز عند مالك والشافعى الخلع بأكثر من المسمى ، وقال أبو حنيفة : إن كان النشوز من قبلها أكثر أخذ أكثر من المسمى إن شاء وإن كان من قبله كره له أخذ شىء مطلقاً وكره أحد أكثر من المسمى مطلقاً ومفهوم الآية أن الخلع لا يجوز إلا فى وقت الخوف وبه قال داود الظاهرى . وذهب جهور العلماء إلى جوازه من غير نشوز إلا أنه يكره ﴿ تِلْكَ ﴾ الاحكام المذكورة من النكاح واليمين والإيلاء والطلاق وغير ذلك ﴿ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ ما منع من مجاوزه ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ تعقيب للنهى بالوعيد مبالغة فى التهديد ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ الزوج بعد الثنتين ﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ ﴾ بعد الثالثة للحر وبعد الثانية للعبد سواء طلقها واحدة بعد واحدة اتفاقاً أو جمع الثلاث فى كلمة واحدة عند الجمهور خلافاً للظاهرية ﴿ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ إجماعاً ويطأها عند الجمهور وطئاً مباحاً فى نكاح صحيح لازم ولا يحلها نكاح دون وطء خلافاً لابن المسيب ويكفى مغيب الحشفة دون إنزال ، خلافاً لقوم ، ولا وطء فى حيض ولا نكاح شبهة عند مالك خلافاً لهم ولا نكاح المحلل الذى يتزوجها ليحلها لزوجها اتفاقاً ونكاحه باطل مفسوخ خلافاً لأبى حنيفة ، والمعتبر نية المحلل لانية المرأة ولا المحلل له ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ الزوج الثانى ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ أى الزوجة والزوج الاول ﴿ أَنْ يَتَرَاجَعَا ﴾ إلى النكاح بعد انقضاء العدة ﴿ إِنْ ظَنَّا ﴾ غلب على ظنهما ﴿ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ الواجبة فى حق الزوجية . قال البيضاوى : وتفسير الظن بالعلم هنا غير سديد لأن عواقب الأمور غيب تظن ولا تعلم . اه . ﴿ وَتِلْكَ ﴾ أى الاحكام المذكورة ﴿ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ يتدبرون ما بين لهم ويعملون بمقتضى العلم . ولما طلق رجل امرأته فلما دنت عدتها راجعها ثم طلقها مضارة لها نزل ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ ﴾ قاربن ﴿ أَجَلَهُنَّ ﴾ أى انقضاء عدتهن ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾ إن أردتم ذلك

﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بأن تراجعوهن محافظين حدود الله فى القيام بحقوق النكاح ﴿ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بأن تتركوهن حتى تنقضى عدتهن من غير تطويل وهو إعادة للحكم فى بعض صوره للاهتمام به ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ﴾ بالرجعة ﴿ ضِرَارًا ﴾ مفعول له ﴿ لِتَعْتَدُوا ﴾ عليهن بالإلجاء إلى الافتداء أو التطليق وتطويل الحبس ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ بتعريضها إلى عذاب الله ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ مهزوءاً بها بمخالفتها ومن لم يعمل بها فقد اتخذها هزواً ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ التى أعظمها الإسلام ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةِ ﴾ ما فيه من الأحكام وهو السنة أفردهما بالذكر إظهاراً لشرفهما ﴿ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ بما أنزل عليكم بأن تشكروها بالعمل به ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه شىء، تأكيد وتهديد ثم خاطب الأزواج أو الأولياء بقوله ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ والطلاق ينفذ باللفظ والنية إجماعاً، وإن طلق بالنية دون اللفظ لم ينفذ فى المشهور وإن سبق لسانه إلى الطلاق ولم يرده لم ينفذ والطلاق فى الهزل نافذ كالجد ﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ انقضت عدتهن ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ خطاب للأولياء أى لا تمنعوهن ﴿ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ المطلقين لهن من إطلاق الشىء على اسم ما كان عليه مجازاً لغوياً لأن سبب نزولها أن « أخت معقل بن يسار » واسمها جميلة مصغراً أو ليلى أو فاطمة طلقها زوجها « البداح بن عاصم » أو هو « عبد الله بن رواحة » فأراد أن يراجعها فمنعها « معقل » وفيه دليل على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها وإنما ذلك لوليها خلافاً لأبى حنيفة فى الثيب الحرة وقيل الخطاب للأزواج المكلفين الذين يعضلون نساءهن بعد انقضاء العدة ظلماً يتوعدون لمن تزوجهن ولا يتركون أن يتزوجن من شئن من الأزواج ﴿ إِذَا تَرَاضَوْا ﴾ أى الأزواج والنساء ﴿ بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ شرعاً. قال ابن العربى فى الأحكام: بأن كان كفؤاً لها إذ لا حق للولى شرعاً فى صداق المالكة أمر نفسها والآية نزلت فيها فدل أن المعروف المراد هو الكفاءة إذ فيها حق عظيم للأولياء. اهـ. وقال البيضاوى: المعروف ما يعرفه الشرع وتستحسنه المروءة وهو حال من الضمير المرفوع أو صفة مصدر محذوف أى تراضياً كائناً بالمعروف وفيه دلالة على أن العضل عن التزوج من غير كفؤ غير منهى عنه. اهـ. ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ النهى عن العضل ﴿ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ لأنه المنتفع به ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ ترك العضل ﴿ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ أنفع ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ لكم ولهم من دنس الآثام لما يخشى على الزوجين من الريبة بسبب العلاقة بينهما ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ ما فيه المصلحة ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فاتبعوا أمره ﴿ وَالْوَالِدَاتُ ﴾ تعم المطلقات وغيرهن وقيل تختص بهن إذ الكلام فيهن ﴿ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ فى حكم الله لأن تربيتهن بلبنهن أصلح لهم لكمال الشفقة وهذا خبر معناه الأمر على الوجوب لبعض الوالدات وعلى الندب لبعضهن فيجب على الأم الإرضاع إن كانت تحت أب الولد أو رجعية ولا مانع من علو قدر أو مرض أو قلة لبن بغير أجر، ويستحب، ولا يجب على البائن بخلع

أو غيره أوعالية القدر إلا أن لا يقبل الولد غيرها فيجب عليها الإرضاع بأجرة من مال الأب ، فإن عدم فمن مال الصبي كما يأتي الآن ، وإن عدم أو مات ولا مال للصبي وجب عليها مجاناً ، هذا مذهب مالك خلافاً للأئمة الثلاثة أن الأم لا يجب عليها إرضاع ولدها مطلقة أو لا ، رجعية أو لا ، إن أمكن غيرها والله أعلم ﴿ حَوْلَيْنِ ﴾ عامين ﴿ كَامِلَيْنِ ﴾ صفة مؤكدة لأن الحول مما يتسامح فيه وهما أربعة وعشرون شهراً لكن هذا التحديد ليس متعيناً مع التراضي بل ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ هذا حد عند تنازع الزوجين في مدة الرضاع فمن دعا منهما إلى إكمال الحولين فذلك له وأخذ منه أن الرضاعة المحرمة الجارية مجرى النسب هي ما كان في الحولين إذ بانقضائهما تمت الرضاعة ولا عبرة لما بعدهما إلا أن ماقارب الشيء فله حكمه وأنه يجوز ان تنقص المدة كما ذكر ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ ﴾ وهو الأب ﴿ رِزْقُهُنَّ ﴾ إطعام الوالدات ﴿ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾ أجرة على الإرضاع إذا كن بوائن ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ شرعا بقدر طاقته مما رآه الحاكم وبه وسعه ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ طاقتها مفعول ثان لـ «تكلف» وهو تعليل لإيجاب المؤن وتقييدها بالمعروف ﴿ لَا تُضَارَّ ﴾ بفتح الراء للجمهور نهي وضمها لابن كثير وأبي عمرو خبر بمعنى النهي يدل على قوله « لا تكلف » وأصله على القراءتين تضارر بالكسر على البناء للفاعل أو الفتح على البناء للمفعول فوالدة فاعل أي لا تضر بولدها بإساءة غذائه وترك تعهده أو إرجاعه إلى الأب بعد ما ألفها أو المعنى : لا تضر زوجها بسبب ولدها بأن تطلب منه ما لم يلزمه من رزقها وكسوتها أو نائب عن الفاعل أي لا تضار ﴿ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ﴾ بسبب ولدها بمنعها شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها أو أخذه منها وقد رضيت بإرضاعه مجاناً أو بمثل أجر مثلها أو دونه أو بفوقه والحق على الأول للوالد وعلى الثاني للوالدة ﴿ وَلَا ﴾ يضار ﴿ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾ بسببه أن يكلف فوق طاقته وفيه الاحتمالان المتقدمان وإضافة الولد إلى كل منهما في الموضعين للاستعطاف ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ ﴾ أي وارث الأب وهو الصبي ، أي على وليه في ماله ﴿ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ الذي على الأب للوالدات من الرزق والكسوة أو المراد وارث الصبي وهو كل من يرثه عند عدم الأب وعلى هذا فمعنى قوله « مثل ذلك » عند مالك والشافعي : أن لا يضار ولا شيء عليه من الرزق والكسوة وقيل من كان من وارثه عصبة كالجد والأخ والعم وابنهما يجبر على نفقة الصبي كل على قدر سهمه منه وبه قال أحمد ، وقيل من كان منه ذا رحم محرم كما قال أبو حنيفة فيدخل عنده الخال والعم ويخرج أبناؤهما . والله أعلم ﴿ فَإِنْ أَرَادَا ﴾ الوالدان ﴿ فِصَالًا ﴾ فطاما له قبل الحولين صادراً ﴿ عَنْ تَرَاضٍ ﴾ اتفاق ﴿ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ ﴾ بينهما ليظهر مصلحة الصبي فيه واعتبر اتفاقهما لما للأب من الولاية والأم من الشفقة ولذا إذا اختلفا حُدَّ لهما بالحولين ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ في ذلك إذا لم يضر بالولد ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ ﴾ خطاب للآباء ﴿ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ ﴾ مراضع غير الوالدات إذا أبين الإرضاع أو تعذر بعلة انقطاع اللبن أو إرادة التزوج ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فيه ﴿ إِذَا سَلَّمْتُمْ ﴾ إليهن ﴿ مَا آتَيْتُمْ ﴾ بمد الهمزة للجمهور والقصر لابن كثير أردتم

إيتاءه لهن من الأجرة ، وقيل إذا سلمتم إلى الوالدات أجرة رضاعهن بقدر ما أرضعن ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بالجميل كطيب النفس بذلك مع السرور والقول الجميل ما أمكن حتى يؤمن من تفريطهن متعلق بسلمتم وليس شرطاً لجواز الاسترضاع بل تنبيه على ما هو الأولى والأصلح للطفل ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ مبالغة فى المحافظة على ما شرع فى أمر الأطفال والمراضع ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه شىء فيجازيكم على أعمالكم وهو حث وتهديد ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ ﴾ أى تستوفى آجالهم يقال : توفيت الشىء أخذته وافياً بمعنى يموتون وقرئ يتوفون بفتح الياء أى يستوفون آجالهم ﴿ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ ﴾ يتركون ﴿ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ ﴾ ينتظرن ﴿ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ بعدهم عن النكاح وما يدعو إليه من الزينة بالمصبوغ بالحمرة وغيرها مما يتزين به وكل ثوب رفيع وإن أبيض وبالحلى خاتماً أو خلخالا أو سواراً أو خرصاً ، والتطيب ولو فى الدهن والكحل إلا لضرورة فتكتحل ليلا وتمسحه نهاراً ، ولا تخرج إلا لضرورة تصرفها نهاراً فترجع وتبيت فى بيتها ﴿ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ من الليالى وهذا فى غير الحوامل فعدتهن أن يضعن حملهن بآية الطلاق وفى غير الإماء فعلى النصف من ذلك بالسنة وأم الولد إذا مات عنها السيد أو أعتقها استبرأت بحيضة عند مالك والشافعى وأحمد خلافاً لأبى حنيفة أن عدتها ثلاث حيض ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ انقضت مدة تربصهن ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أيها الأولياء والحكام ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ ﴾ من التزوج فما دونه من التزين وترك الاستحداد ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ شرعاً وإن فعلن ما ينكره الشرع فعلى الأولياء منعهن ، وإن لم يمنعوا فعليهم الجناح والمناكير كثيرة ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ عالم ببواطنه كظواهره والخبرة علم يتوصل إليه بالتفكر ومعناه فى صفة الله : العلم بكنه الشىء وحقيقته ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم ﴾ لوحتم ﴿ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾ المتوفى عنهن أزواجهن فى العدة قال النسفى فى مدارك التنزيل : والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شىء لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : جئتك لأسلم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم ولذلك قالوا : « وحسبك بالتسليم منى تقاضيا » اهـ . قال المفسرون : كقولك لها إنك لجميلة ومن يجد مثلك ، ورب راغب فيك ، أو أريد التزويج ، أو يهدى لها هدية ، والخطبة اسم للحالة ، لكن خصت بطلب النكاح ﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ ﴾ أضمرتم ﴿ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ قصد نكاحهن من غير تعريض ولا تصريح ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ بقلوبكم ولا تصبرون على السكوت لأن شهوة النفس والتمنى قل أن يخلو عنه أحد ، وفيه نوع توبيخ . أى فاذكروهن ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ نكاحاً بمعنى العقد وفيه مجاز المجاز لأن الوطء تجوز عنه أولا بالسر لكونه لا يقع غالباً إلا فى السر ثم تجوز به عن العقد لأنه مسبب عنه ، فعلاقة الأول الملازمة والثانى التسبب ﴿ إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ شرعاً بأن تعرضوا ولا تصرحوا ، والمستثنى منه محذوف : أى لا تواعدوهن مواعدة ، إلا مواعدة معروفة أو إلا مواعدة بقول معروف ، وفيه دليل حرمة تصريح خطبة المعتدة وجواز التعريض لها إن كانت معتدة

وفاة اتفاقاً ، وكذا فى معتدة الفراق البائن على الأظهر ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ ﴾ أى على عقدة مبالغة فى النهى أو المعنى لاتقطعوا عقدة النكاح لأن أصل العزم : القطع ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ ﴾ ما كتب من العدة ﴿ أَجَلَهُ ﴾ أن ينتهى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ من العزم على ما لا يجوز ﴿ فَاحْذَرُوهُ ﴾ أن يعاقبكم إذا عزمتم ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لمن يحذره ومنه من عزم ولم يفعل خشية من الله ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ ولحمزة والكسائى تماسوهن أى تجامعوهن ﴿ أَوْ ﴾ لم ﴿ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ أى مهراً ، وما : مصدرية ظرفية ، وفريضة : بمعنى مفروضة : مفعول به أى لا تبعة عليكم فى الطلاق زمن عدم المسيس والفرض بإثم ولا مهر . قال فى الجواهر الحسان : لما نهى الرسول عن التزوج للذواق وقضاء الشهوة وأمر قصد دوام الصحبة وقع فى نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد واقع جزءا من المكروه فنزلت الآية رافعة للجناح فى ذلك . اه . والمفهوم أنها لو كانت ممسوسة فعليه المسمى أو مهر المثل وإن لم تمسّ ، لكن سمى لها فلها نصف المسمى فطلقوهن ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ أعطوهن ما يتمتعن به لجبر إيحاش الطلاق ﴿ عَلَى الْمُوسِعِ ﴾ الغنى منكم ﴿ قَدْرُهُ ﴾ بتسكين الدال للجمهور ، وحركها حمزة والكسائى وحفص ﴿ وَعَلَى الْمُقْتِرِ ﴾ الضيق الرزق ﴿ قَدْرُهُ ﴾ أى على كل منهما ما يطيقه ويليق به ويفيد أنه لا نظر إلى قدر الزوجة ﴿ مَتَاعاً ﴾ تمتيعاً ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ شرعا صفة متاعا ﴿ حَقًّا ﴾ صفة ثانية : أى واجباً أو مصدر مؤكد ﴿ عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ المطيعين أو المحسنين إلى المطلقات وذكر فى الآية نكاح التفويض ومتعة المطلقات ، ونكاح التفويض هو السكوت عن تعيين الصداق حين العقد ويفوّض ذلك إلى الزوج أو الولى أو غيرهما ثم لا يدخل بها حتى يعين فإن فرضه أحدهما فرض الآخر لزمه فإن فرض لها صداق المثل أو أكثر لزمها بخلاف الأقل إلا أن ترضى به ، وإن لم ترض خير الزوج بين صداق المثل والطلاق ، وكل هذا إن كان التعيين قبل البناء وبعده يلزمها صداق المثل وإن ماتت قبل الدخول والفرض فلا صداق لها خلافاً لأبى حنيفة ولها الميراث اتفاقاً وأما المتعة فستحبة عند مالك وأوجبها أبو حنيفة والشافعى وأحمد فيمن طلقت قبل الفرض والمسيس ، فإن فرض لها مهراً أوجب نصف المهر المفروض ولا متعة لها ولا متعة للمدخول بها عند أبى حنيفة لأنها تستحق المهر كاملا وللشافعى وأحمد فيها قولان وأعلاها خادم وأوسطها درع وخمار وإزار وأقلها مادون ذلك والله أعلم ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ يجب لهن عليكم والنصف الباقى لكم ويجرى مجرى الهدلق فى التشطير كل ما نحله الزوج فى العقد للمرأة أو لأبيها أو وصيها ، إذ هو للزوجة وإن شاءت أخذته ممن أعطيه ﴿ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ ﴾ أى المطلقات الثيبات بأنفسهن فلا يأخذن شيئاً والواو فى الفعل لامه والنون ضمير المطلقات وهو مبنى ولذا لم ير أثر الناصب فيه بخلاف المعطوف عليه وهو ﴿ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ وهو الأب

فى ابنته البكر أو السيد فى أمته عند مالك وقيل هو الزوج قاله أبو حنيفة والشافعى وأحمد ويؤيد الأول كون الاستثناء من قوله فنصف ما فرضتم أى نصفه واجب عليكم « إلا أن يعفون » إن كن ثيبات أو يعفو أولياؤهن إن كن محجورات والثانى لا يصح إلا على تسمية الزيادة على الحق عفوا مشاكاة أو مجازاً وهو خلاف الأصل والله أعلم ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا ﴾ أيها الأزواج أو الأولياء، مبتدأ خبره ﴿ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ وقيل خطاب للأزواج فقط ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أن يتفضل بعضكم على بعض: حث على الإحسان ومكارم الأخلاق ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم به ﴿ حَافِظُوا ﴾ داوموا ﴿ عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ الخمس بأدائها فى أوقاتها بشرائطها فلا يلهينكم الاشتغال بأولادكم ونسائكم عنها ﴿ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾ بينها أو الفضلى منها خصوصاً: وهى صلاة الصبح عند ابن عباس وابن عمر وعليه مالك، والعصر عند علىّ وعليه أبو حنيفة والشافعى وأحمد، أو الظهر قاله زيد بن ثابت، أو المغرب قاله البراء، أو العشاء ونسب لبعض المتأخرين، والأصح أنها العصر للأحاديث الصحيحة فى ذلك ولكن ظاهر الآية أنها الصبح لقوله ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ فى الصلاة ﴿ قَانِتِينَ ﴾ داعين، قاله ابن المسيب: المراد به القنوت فى الصبح، وقيل مطيعين لقوله عليه السلام: « كل قنوت فى القرآن فهو طاعة » رواه أحمد وغيره. وقيل ساكتين خاشعين ذليلين لحديث زيد بن أرقم: كنا نتكلم فى الصلاة حتى نزلت فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام. رواه الشيخان. وحافظوا بمعنى احفظوا كعاقبت اللص، أو فاعل على بابها والحفظ بين العبد وربه « أى احفظ الصلاة يحفظك الله » أو بين العبد والصلاة « احفظها تحفظك » ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ من عدو أو سيل أو سبع ولم يمكنكم أن تصلوا قانتين موفين حقوق الصلاة من إتمام الركوع والسجود والخضوع ﴿ فَـ ﴾ صلوا ﴿ رِجَالًا ﴾ جمع راجل أى مشاة ﴿ أَوْ رُكْبَانًا ﴾ جمع راكب أى كيف أمكن مستقبلى القبلة وغيرها ويوماً بالركوع والسجود وهذا فى حال المسايفة والمقاتلة حين لم يمكن قسمهم وإلا فسيأتى فى محله عند قوله « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلوٰة » وفى هذه الآية دليل على وجوب الصلاة حال المشى والمسايفة وإمساك ملطخ بنجاسة وإليه ذهب مالك والشافعى وقال أبو حنيفة: لا تصلى فى تلك الحال إذا لم يمكن الوقوف بل تؤخر. قال عبد الرحمن الثعالبى فى الجواهر الحسان: رخص الله حال الخوف لعبيده الصلاة رجالا متصرفين على الأقدام وركباناً على الخيل والإبل ونحوهما إيماء بالرأس حيثما توجه، هذا قول جميع العلماء. وهذه هى صلاة الفذ الذى قد ضايقه الخوف على نفسه من عدو حال المسايفة أو من سبع يطلبه أو عدو يتبعه أو سيل يحمله وبالجملة فكل أمر يخاف منه على روحه فهو مبيح لما تضمنته هذه الآية، وأما صلاة الخوف بالإمام وانقسام الناس فسيأتى إن شاء الله فى سورة النساء اه. ورجالا نصب على الحال والعامل محذوف تقديره: فصلوا، وأو فى «أو ركباناً» للتقسيم أو الإباحة أو التخيير ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ ﴾ من الخوف ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ أى صلوا صلاة الأمن أو اشكروه عليه ذكراً

﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ قبل تعليمه من فرائضها وحقوقها أو من الشرائع أو كيفية الصلاة حالتى الخوف والأمن أو شكراً يوازيه و «كما» فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف أو حال من ضمير المصدر وهو بمعنى مثل و«ما» مصدرية أو موصولة ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً﴾ مبتدأ ﴿وَصِيَّةٌ﴾ بالرفع لنافع وابن كثير والكسائى وأبى بكر أى فعليهم وصية ، وهو خبر المبتدأ . وبالنصب لابن عامر وأبى عمرو وحفص أى فليوصوا وصية ، والجملة خبر المبتدأ ﴿لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً﴾ نصب بيوصوا إن أضمر وإلا فبوصية لأنها مصدر منوّن ولا يضر تأنيثها بالهاء لبنائها عليه والأصل وصية بمتاع ثم حذف حرف الجر اتساعاً فنصب على ما بعده وهذا إذا لم تجعل الوصية منصوبة على المصدر لأن المصدر المؤكد لا يعمل وإنما يجوز ذلك حال رفعها أو نصبها على المفعول ﴿إِلَى﴾ تمام ﴿الْحَوْلِ﴾ من موتهم صفة متاعا أى ما يتمتعن به من النفقة والسكنى ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ نعت لمتاعاً أو بدل منه أو حال من الأزواج أى غير مخرجات من مسكنهن والمعنى أنه يجب على الذين يتوفون أو يوصوا قبل أن يحتضروا لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولا بالسكنى والنفقة وكان ذلك أول الإسلام ثم نسخ بآية الميراث ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ بأنفسهن من منزل الأزواج ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يا أولياء الميت فى قطع النفقة عنهن وعدم منعهن الخروج ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ شرعاً من التزين للخطاب وهذا يدل على أنه لم يجب عليهن ملازمة مسكن الزوج فى تلك المدة بل خيّرن بين الملازمة وأخذ النفقة وبين الخروج وتركها وتلك المدة هى ما زاد على أربعة أشهر وعشراً من الحول وعلى هذا فلا منافاة بينها وبين آية العدة المتقدمة أصلا ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ ينتقم ممن خالفه ﴿حَكِيمٌ﴾ فى صنعه يرعى لكم المصالح فضلا منه . قال السيوطى فى التكملة والوصية المذكورة منسوخة بآية الميراث وتربص الحول بآية أربعة أشهر وعشراً السابقة المتأخرة فى النزول . اهـ . وقال الخازن فى لباب التأويل : دلت هذه الآية على أمرين أحدهما أن لها النفقة والسكنى من مال زوجها سنة والثانى أن عليها عدة سنة ثم إن الله نسخ هذين الحكمين أما الوصية بالنفقة والسكنى فنسخ بآية الميراث فجعل لها الربع أو الثمن عوضاً عن النفقة والسكنى ونسخ عدة الحول بأربعة أشهر وعشراً . اهـ . ومثله فى البيضاوى وغيره من المفسرين وفى إرشاد السارى شرح البخارى للقسطلانى قال وهذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة كما زعمه الجمهور حتى يكون ذلك منسوخاً بالأربعة أشهر وعشراً فما دلت إلا على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات أن يُمكَّن من السكنى فى بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولا كاملا إن اخترن ذلك ولذا قال : وصية لأزواجهم . اهـ وفى البخارى قال : يعنى عثمان ابن عفان لابن الزبير جعل الله لها يعنى للمعتدة تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية إن شاءت سكنت فى وصيتها وإن شاءت خرجت ، وهو قول الله تعالى : «غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم» فالعدة التى هى أربعة الأشهر والعشر كما هى واجبة عليها زعم أى ابن نجيح ذلك عن مجاهد . اهـ .

قال القسطلانى : وهذا يدل على أن مجاهد لا يرى نسخ هذه الآية . اه . والسكنى ثابتة للمعتدة عند مالك والشافعى خلافاً لأبى حنيفة ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ ﴾ يعطينه ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بقدر الإمكان ﴿حَقًّا﴾ نصب بفعله المقدر ﴿ عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ الله ، كرره ليعم الممسوسة أيضاً إذ الآية السابقة فى غيرها ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى كما بين لكم ما ذكر من أحكام الطلاق والعدد ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ تتدبرون ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ استفهام تعجيب وتشويق إلى استماع مابعده أى ألم ينته علمك ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ جمع ألف أربعة أو ثمانية أو عشرة أو ثلاثون أو أربعون أو سبعون ألفاً ، وقيل جمع آلف أى متآلفون كقاعد وقعود وهم أهل داوردان ﴿ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ مفعول له ، وهم قوم من بنى إسرائيل وقع الطاعون ببلادهم ففروا ، وأمروا بالجهاد ففروا ﴿ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ﴾ فماتوا موتة رجل واحد من غير علة بمشيئة الله كقوله « كن فيكون » وقيل ناداهم به ملك الجبال وأسند إلى الله لأنه الآمر تهويلا وتخويفاً ﴿ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾ بعد ثمانية أيام أو أكثر بدعاء نبيهم حزقيل بكسر المهملة والقاف وسكون الزاى فعاشوا دهراً عليهم أثر الموت لا يلبسون ثوباً إلا عاد كالكفن فى الرسم والرائحة واستمرت فى أسباطهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث أحياهم ليعتبروا وقص عليكم حالهم لتستبصروا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ وهم الكفار ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ والقصد من ذكر هؤلاء تشجيع المؤمنين على القتال ولذا عطف عليه ﴿ وَقَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى لإعلاء دينه إذا علمتم أن الموت لا بد منه فالأولى أن يكون فيه ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوال المتخلفين منكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالهم فيجازيهم ﴿ مَّن ﴾ اسم استفهام مبتدأ ﴿ ذَا ﴾ خبره ﴿ الَّذِى ﴾ صفة الخبر وصلة الذى هو ﴿ يُقْرِضُ اللَّهَ ﴾ بإنفاق ماله فى سبيل الله ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بأن ينفقه لله عن طيب قلب حلالا طيباً بالإخلاص ﴿ فَيُضَٰعِفَهُ ﴾ بالرفع على صورة المفاعلة لنافع وأبى عمرو وحمزة والكسائى وبالنصب لعاصم على جواب الاستفهام ولابن كثير «فيضعّفه» بالرفع والتشديد ولابن عامر بالنصب ﴿ لَهُۥ ﴾ جزاءه ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ من عشرة إلى أكثر من سبعمائة إلى ما لا يقدره إلا الله ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ ﴾ يمسك الرزق عمن يشاء ابتلاء ﴿وَيَبْسُطُ﴾ بالصاد لنافع والكسائى وأبى بكر وابن كثير فى غير رواية قنبل وبالسين لغيرهم أى يوسعه لمن يشاء امتحاناً فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فى الآخرة بالبعث فيجازيكم بأعمالكم ثم زاد الله الترغيب فى الجهاد بذكر قصة بنى إسرائيل هذه بقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ ﴾ الجماعة من الأشراف يجتمعون للتشاور ، اسم جمع لا واحد له ﴿ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ ﴾ من الأولى للتبعيض والثانية للابتداء أى بعد وفاته أى إلى قصتهم وخبرهم وذلك أن موسى لما مات خلفه على إقامة بنى إسرائيل « يوشع بن نون » ثم « كالب ابن نوفى » ثم « حزقيل » فعظمت الأحداث بعده فى بنى إسرائيل ونسوا عهد الله ثم جاءهم « إلياس » فأقامهم ثم « اليسع » فقبضه الله فأكثروا المعاصى بعده فأظهر لهم عدوا يقال لهم « البلسانا» قوم جالوت

من العمالقة فغلبوهم على أكثر أرضهم وأسروا من أبناء ملوك بنى إسرائيل أربعمائة وأربعين غلاماً وضربوا عليهم الجزية ولقوا منهم شدة فبعث الله فيهم « شمويل » فقالوا له : إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله وكان قوام بنى إسرائيل طاعة ملوكهم وطاعة الملوك لأنبيائهم والملك يسوس الجموع والنبى يسوسه فذلك قوله تعالى ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾ هو « شمويل » فى الأشهر ﴿ٱبْعَثْ﴾ أقم ﴿لَنَا مَلِكًا﴾ أميراً ﴿نُّقَٰتِلْ﴾ معه ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تنتظم به كلمتنا ونرجع إليه فى التدبير ﴿قَالَ﴾ النبى لهم ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ بالكسر لنافع وبالفتح لغيره أهل الأمر كما أرجو منكم وهو الجبن ﴿إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا﴾ ؟ خبر عسى فصل بينهما بالشرط والاستفهام لتقرير المتوقع به ﴿قَالُوا وَمَا لَنَآ﴾ أى غرض لنا ﴿أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ أى : أى غرض لنا فى تركه وقد عرض لنا ما يوجبه من إخراج الأوطان والإفراد عن الأولاد بسبيهم وقتلهم فعل بهم ذلك قوم جالوت من العمالقة كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين فأغاروا على بنى إسرائيل وفعلوا بهم ما مرّ ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾ عنه وجبنوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ لم يبلغوا عشرهم وهم الذين عبروا النهر مع طالوت كما سيأتى ثم هدد على تارك الجهاد بقوله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيجازيهم وعيد لهم فى ظلمهم على ترك الجهاد . وسأل النبى ربه إرسال ملك فأجابه إلى إرسال طالوت ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾ علم عبرانى كداود بن أنبار بن ضرار ﴿مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لأنه ليس من سبط المملكة أولاد يهودا ولا النبوة أولاد لاوى بل هو من أولاد بنيامين ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ يستعين بها على إقامة الملك ﴿قَالَ﴾ النبى لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ﴾ اختاره بالملك وهو أعلم بالمصالح منكم ، لا اعتراض على حكمه ﴿عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ سعة من قولك بسطت الشىء إذا كان مجموعا ففتحته ﴿فِى ٱلْعِلْمِ﴾ يتمكن به من معرفة الأمور السياسية وكان أعلم بنى إسرائيل يومئذ بالتوراة ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ ليكون أعظم خطراً فى القلوب وأقوى على مقاومة العدو ، وكان أتمهم خلقاً فى الجمال والقوة ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ لا اعتراض عليه ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهل الفضل ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ لما طلبوا منه حجة على أن الله اصطفى طالوت وملكه عليهم ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ الصندوق وكان فيه صور الأنبياء أنزله الله على آدم ، طوله ثلاثة أذرع فى عرض ذراعين ثم صار إلى شيث ثم بلغ إبراهيم ثم إسماعيل ثم يعقوب إلى أن وصل إلى موسى عليه السلام ثم تداوله أنبياء بنى إسرائيل إلى أن أخذته العمالقة منهم لما غلبوهم ، وكانوا يستفتحون به على عدوهم ويقدمونه عند القتال ويسكنون إليه كما قال تعالى ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ طمأنينة لقلوبكم ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أو فيه ما تسكنون إليه وهو التوراة أى لوحان منها ، وكان موسى إذا قاتل قدمه فتسكن نفوسهم بتيقن النصر ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ وهو رضاض الألواح ، وعصى موسى وثيابه ونعلاه

وعمامة هارون وسرواله وقفيز من المن الذى كان ينزل عليهم . وآلهما أبناؤهما أو أنفسهما أو أنبياء بنى إسرائيل ﴿ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ حال من فاعل يأتيكم ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ ﴾ على ملكه ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فحملته من أرض العمالقة أو من السماء على قول أنه رفع بعد موسى إلى السماء لما أكثروا المعاصى فأقبلت الملائكة مع التابوت بين السماء والأرض وبنو إسرائيل ينظارون إلى أن وضعته عند طالوت فأقروا بملكه وتسارعوا إلى الجهاد فاختاروا من شبابهم سبعين ألفاً ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ ﴾ خرج ﴿ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ ﴾ من بيت المقدس وجموعهم ثمانون ألفاً وكان وقت حر شديد وسلكوا مفاوز فعطشوا فسألوا الله الماء ﴿ قَالَ ﴾ لهم طالوت على لسان النبي الذى معه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم ﴾ مختبركم ﴿ بِنَهَرٍ ﴾ ليظهر المطيع منكم والعاصى فمن أطاع فى ترك الماء فهو يطيع فى غيره ، ومن غلبته شهوته فى الماء وعصى الأمر فهو بالعصيان فى باقى الشدائد أحرى وهو بين الأردن بضمتين بينهما الراء وشد النون وفلسطين بكسر الفاء وفتح اللام وسكون المهملة كلاهما من كور الشام ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ ﴾ من مائه ﴿ فَلَيْسَ مِنِّى ﴾ أى من أتباعى ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ ﴾ يذقه ﴿ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ ﴾ وعبر بالطعم مبالغة فى سد الذرائع لان أدنى الذوق يدخل فيه بخلاف أن لو قال ومن لم يشرب منه ثم استثنى من قوله فمن شرب منه ﴿ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً ﴾ بالفتح لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبالضم لابن عامر والكوفيين ﴿ بِيَدِهِۦ ﴾ فاكتفى بها ولم يزد عليها فإنه منى . قال ابن العربى فى الأحكام : علم من قوله من لم يطعمه أن الماء طعام فيجرى فيه الربا وهو الصحيح من المذهب . اه . قلت المشهور خلافه ﴿ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ ﴾ لما وافوه بكثرة ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ فاقتصروا على الغرفة روى أنها كفتهم لشربهم ودوابهم وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ـ عدة أهل بدر ـ روى أن القوم شربوا من الغرفة على قدر يقينهم وبعض المؤمنين لم يشرب شيئاً وأن من شرب فوق الغرفة لم يرو بل اشتد به العطش فصاروا يشربون شرب الهيم ومن اكتفى بها حسنت حاله ومن تركها أصلا كان أجلد وأحسن حالا ممن أخذها . وفى الجواهر الحسان : ولقد أحسن من شبه الدنيا بنهر طالوت فمن اغترف منها بيد الزهد وأقبل على ما يعنيه من أمر آخرته نجا ومن أكب عليها صدته عن التأهب لآخرته وقلت سلامته إلا أن يتداركه الله . اه . ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ وهم الذين اقتصروا على الغرفة ﴿ قَالُوا۟ ﴾ أى الذين شربوا ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ ﴾ جبار من العمالقة وهم أولاد عمليق بن عاد ﴿ وَجُنُودِهِۦ ﴾ لكثرتهم وقوتهم فجبنوا ولم يجاوزوا النهر ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ يوقنون ﴿ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ ﴾ بالبعث وهم الذين جاوزوه أو بالشهادة أى وطنوا أنفسهم عليها ﴿ كَم ﴾ خبرية بمعنى كثيراً أو استفهامية ﴿ مِّن فِئَةٍ ﴾ جماعة ﴿ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بإرادته وتيسيره ومن مبينة أو مزيدة ، والفئة الفرقة من الناس : من فأوت رأسه إذا شققته أو من فاء فوزنها فعة أو فلة ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ بالنصر والإثابة

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ أى ظهروا لقتالهم وتصافوا ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ ﴾ أصبب ﴿ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ بتقوية قلوبنا على الجهاد ﴿ وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ ﴾ وهذا التجاء إلى الله بالدعاء وفيه ترتيب بليغ أن سألوا أولا إفراغ الصبر فى قلوبهم الذى هو ملاك الأمر، ثم ثبات القوم فى مداحض الحرب المسبب منه ثم النصر على العدو المرتب عليهما غالباً ولذا أتى بالفاء فقال ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بإرادته ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ ﴾ وكان فى عسكر طالوت من أبناء « إيشى » وهم سبعة وداود صغيرهم فأوحى الله إلى نبيهم أن داود هو الذى يقتل جالوت فطلبه من أبيه لجاء وقد مرّ فى طريقه بثلاثة أحجار ودعاه كل واحد منهن أن يحمله وقالت له : إنك بنا تقتل جالوت لحملها وبارز جالوت وفى بيضته ثلثمائة رطل من الحديد فقتله بها كما قال تعالى « وقتل داود » ﴿ جَالُوتَ ﴾ فزوجه طالوت بنته ﴿ وَءَاتَٰهُ ﴾ أى داود ﴿ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ فى بنى إسرائيل ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ النبوة بعد موت شمويل وطالوت ولم يجتمعا لأحد قبله وهو من سبط المملكة أولاد يهودا بن يعقوب ﴿ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ كصنعة الدروع ومنطق الطير ﴿ وَلَوْلَا دِفَٰعُ ﴾ بالمد لنافع ولغيره بالقصر ﴿ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم ﴾ بدل بعض من الناس ﴿ بِبَعْضٍ ﴾ بنصر المؤمنين على الكفار وكف فسادهم بهم ﴿ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ بغلبة المشركين وتخريب المساجد ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴾ فدفع بعضهم ببعض وما من قرية ولا بلدة إلا يقدر الله فيها من يدفع الله به عنهم ﴿ تِلْكَ ﴾ القصص من أخبار الألوف وطالوت والتابوت وانهزام الجبابرة وقتل داود جالوت ﴿ ءَايَٰتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا ﴾ نقصها ﴿ عَلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالوجه المطابق الذى لا يشك فيه أهل الكتاب وأرباب التواريخ ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ لما أخبرت بها من غير تعرف واستماع والتأكيد بأن وغيرها ردّ لقول الكفار له لست مرسلا ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى الجماعة المذكور قصصها فى السورة أو المعلومة للرسول عليه السلام ﴿ الرُّسُلُ ﴾ صفة والخبر ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أو تلك مبتدأ والرسل خبره وأل للاستغراق بتخصيص كل بمنقبة ليست لغيره ثم فصل التفضيل بقوله ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ كموسى ومحمد ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ ﴾ أى محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ دَرَجَٰتٍ ﴾ بدرجات أو ذا درجات على غيره من وجوه متعددة عموم الدعوة إلى الكافة وختم النبوة به وتفضيل أمته على سائر الأمم والمعجزات المتكاثرة المرتقية إلى الألف وأكبرها القرآن لأنه المعجزة الباقية والفضائل العلمية والعملية الفائتة للحصر وقيل المراد ببعضهم جميع أولى العزم ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَٰتِ ﴾ كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ ﴾ قويناه ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ جبريل يسير معه حيث سار وخصصه بالذكر لإفراط اليهود فى تحقيره والنصارى فى تعظيمه ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ هدى الناس جميعاً ﴿ مَا اقْتَتَلَ ﴾ اختلف لأنه سببه ﴿ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم ﴾ بعد الرسل أى أممهم ﴿ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ ﴾ لاختلافهم وتضليل بعضهم بعضاً ﴿ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا ﴾ بمشيئته ذلك ثم بين الاختلاف فقال ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ ﴾ أى ثبت

على إيمانه ﴿ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ كالنصارى بعد المسيح ﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا ﴾ تأكيد ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ من توفيق من شاء وخذلان من شاء وفى الآية دليل على أن الأنبياء متفاوتة الأقدار يجوز تفضيل بعضهم على بعض لكن بقاطع وأن الحوادث بيد الله تابعة لمشيئته خيراً كانت أو شراً إيماناً أو كفراً ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا أَنفِقُوا ﴾ فى سبيل الله فى واجب أو غيره ﴿ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ لا تقدرون فيه على تدارك ما فرطتم فيه والخلاص من عذابه لأنه ﴿ لَّا بَيْعٌ ﴾ فداء ﴿ فِيهِ ﴾ فتحصلون به ما تنفقون أو تفتدون به من العذاب ﴿ وَلَا خُلَّةٌ ﴾ صداقة تنفع حتى تعينكم عليه أخلاؤكم ﴿ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾ بغير إذنه فتتكلوا على شفعاء تشفع لكم وهو يوم القيامة ، قرأ نافع وابن عامر والكوفيون: برفع الثلاثة ، وابن كثير وأبو عمرو بفتحها ﴿ وَالْكَـٰفِرُونَ ﴾ بالله أو بما فرض عليهم ﴿ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ ﴾ أنفسهم بتركهم التقديم ليوم حاجتهم لوضعهم أمر الله فى غير محله ﴿ ٱللَّهُ لَا إِلَـٰهَ ﴾ لا معبود بحق فى الوجود ﴿ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ ﴾ الدائم البقاء الذى يصح له أن يتصف بجميع صفات الألوهية والربوبية ﴿ الْقَيُّومُ ﴾ البالغ فى القيام بتدبير خلقه فيعول من قام بالأمر إذا حفظه ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ﴾ نعاس وهو فتور يتقدم النوم ﴿ وَلَا نَوْمٌ ﴾ حال يعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً وتقديم السنة عليه وإن كان قياس المبالغة عكسه لرعى ترتيب الوجود وجملة « لا تأخذه » نفى للتشبيه وتأكيد لكونه حيًّا قيوماً فإن من أخذه نعاس أو نوم كان معوق الحياة قاصر الحفظ والتدبير ولذا ترك العاطف فيها وفى الجمل التى بعدها ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ تقرير لقيوميته واحتجاج على تفرده بالألوهية ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ ﴾ أى لا أحد يشفع ﴿ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ بيان لكبريائه فى شأنه وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه يستقل بأن يدفع ما يريده شفاعة فضلا أن يعاوقه عناداً ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى الخلق ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أى أمر الدنيا والآخرة ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ أى معلومه لا يعلمون شيئاً من معلوماته ﴿ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ أن يعلمهم منها بإخبار الرسل دليل على تفرده بالعلم الذاتى الدال على وحدانيته ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ تصوير لعظمته قيل أحاط علمه بهما ومنه الكراسة لتضمنها العلم تسمية للعلم بمكانه وقيل معناه ملكه تسمية للشىء بمكانه الذى هو كرسى الملك وقيل الكرسى بعينه مشتمل عليهما لعظمته لحديث « ما السموات السبع فى الكرسى إلا كدراهم سبعة ألقيت فى ترس » وفضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على الحلقة وقيل تمثيل مجرد لا كرسى فى الحقيقة ولا قاعد والكرسى فى الأصل اسم لما يقعد عليه ولا يفضل عن مقعدة القاعد وكأنه منسوب إلى الكرس وهو الملبد ﴿ وَلَا يَئُودُهُ ﴾ لا يثقله ﴿ حِفْظُهُمَا ﴾ السموات والأرض مأخوذ من الأود وهو الاعوجاج والمصدر مضاف إلى المفعول ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ ﴾ فوق خلقه بالقهر وعلا عما لا يليق به من الصفات وعن الأنداد والأشباه ﴿ الْعَظِيمُ ﴾ الكبير المستحقر إليه كل ما سواه

وهذه الآية هى « آية الكرسى » أعظم آية فى القرآن وَرَدَ أنها تعدل ثلث القرآن ومن قرأها أول ليله لم يقربه شيطان . ونزل فيمن كان له أولاد من الأنصار تهوّدوا فأراد إكراههم على الإسلام ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ﴾ على الدخول فيه ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ ﴾ أى ظهر بالآيات البينات أن الإيمان رشد ، والكفر غىّ : وهو الضلال فى المعتقد والآية خاصة بأهل الكتاب أو عام منسوخ بقوله « جاهدوا الكفار » أو معنى الآية عز الإسلام وظهر عند كل عاقل فلا يحتاج إلى الإكراه ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّٰغُوتِ ﴾ الشيطان أو الأصنام وهو يطلق على المفرد والجمع : فلعوت ، من الطغيان ، قلبت عينه ولامه مبالغة ﴿ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ ﴾ بالتوحيد وتصديق الرسول ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ ﴾ تمسك ﴿ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ بالعقد المحكم مستعارة لتمسك الحق مؤنث الأوثق ﴿ لَا انفِصَامَ ﴾ لا انقطاع ﴿ لَهَا ﴾ حتى تؤدبه إلى الجنة ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ بالأقوال ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالنيات ﴿ اللَّهُ وَلِىُّ ﴾ ناصر ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ الذين ثبت فى علمه أنهم يؤمنون ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ ﴾ الجهل والهوى والشبه المؤدية إلى الكفر بما يهديهم ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ للإيمان والهداية جمعت الظلمات لاختلافها بكثرة أسبابها وأفرد النور لاتحاد الإيمان إذ سبيل الحق واحد وهذا ونحوه من الاستعارات الأصليات والجملة خبر بعد خبر أو حال من المستكن فى الخبر أو من الموصول أو منهما أو استئناف مبين للولايه ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هم الذين علم الله أنهم لا يؤمنون فهم أبداً مصممون على الكفر ﴿ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّٰغُوتُ ﴾ هو فى معنى الجمع أى الشياطين ﴿ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ ﴾ الفطرى ﴿ إِلَى الظُّلُمَٰتِ ﴾ الشكوك والشبه وقيل ذكر الإخراج لمقابلة قوله يخرجهم من الظلمات أو فى كل من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل بعثه من اليهود ثم كفر به ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ ثم سلى نبيه عليه السلام بقصة إبراهيم مع نمرود فقال ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَآجَّ ﴾ جادل ﴿ إِبْرَٰهِيمَ فِى رَبِّهِ ﴾ عارضه فى ربوبية ربه ، تعجيب لحماقته لـ ﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ أى حمله بطره بنعمة الله على ذلك وهو « نمرود - بضم النون - بن كنعان بن كوش بن حام بن نوح » أول من تجبر وادعى الربوبية وهو صاحب الصرح ببابل ﴿ إِذْ ﴾ بدل من حاج أو ظرف له قيل لما كسّر إبراهيم الأصنام قال له نمرود : من ربك الذى تدعو إليه ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ : رَبِّىَ ﴾ قرأ حمزة فقط بحذف الياء ﴿ الَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أى يخلق الحياة والموت فى الأجساد ﴿ قَالَ ﴾ هو ﴿ أَنَا ﴾ بالألف لنافع فقط ﴿ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ بالقتل والعفو عنه . ودعا برجلين فقتل أحدهما وترك الآخر فانقطع بذلك عند الخاصة ، فلما رآه غبيًّا يوهم العامة ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ له منتقلا إلى حجة أوضح من الأولى دفعاً للمشاغبة التى تلبس بها على العامة الضّعفة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا ﴾ أنت ﴿ مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ ﴾ تحير ودهش ثم قال ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴾ بالكفر إلى محجة الاحتجاج ﴿ أَوْ ﴾ رأيت ﴿ كَالَّذِى ﴾ أى مثل الذى ، لحذف رأيت لدلالة ألم تر وعليه تخصيصه بحرف التشبيه لأن المنكر

للإحياء كثير والجاهل بكيفيته أكثر من أن يحصى بخلاف مدعى الربوبية ، وقيل الكاف زائدة ﴿ مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ هي بيت المقدس أوغيرها راكباً على حمار ومعه سلة تين أو عنب وقدح عصير أولبن وهو «عزير بن شرخيا» أو غيره ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سقوفها بأن سقطت السقوف ثم سقطت الحيطان عليها لما خربها « بُخت نَصّر » بضم الباء وتشديد الصاد ﴿ قَالَ أَنَّىٰ ﴾ كيف ﴿ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ استعظاماً لقدرة الله تعالى ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ ﴾ وألبثه ﴿ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ أحياه ليريه كيفية ذلك ﴿ قَالَ ﴾ تعالى له ﴿ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ مكثت هنا ﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ لأنه نام أول النهار فقبض وأحيي عند الغروب فظن أنه يوم النوم ﴿ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ ﴾ التين أو العنب ، والعصير أو اللبن ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ لم يتغير مع طول الزمان ، وأفرد الضمير لأن الطعام والشراب كالجنس الواحد ، والهاء أصلية من سانهته عاملته سنة على من قدر لام سنة هاء وقيل للسكت سمع سانيتُ على جعل لام السنة واواً ، وقرأ حمزة والكسائى بحذفها ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ كيف هو ، فرآه ميتاً وعظامه بيض تلوح ، أو رآه حياً بلا علف ولا ماء ، والأول أدل على الحال وأوفق لما بعده . فعلنا ذلك لتعلم وتعتبر به ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً ﴾ على البعث ﴿ لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ ﴾: من حمارك أو عظام الموتى ﴿ كَيْفَ نُنشِرُهَا ﴾ نحييها بضم النون وبالراء لنافع وابن كثير وأبي عمرو وبضم النون والزاى لابن عامر والكوفيين أى نحركها ونرفعها وقرئ ننشرها من نشر كأنشر ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً ﴾ فنظر إليها وقد تركبت وكسيت لحماً ونفخ فيه الروح ونهق ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ﴾ ذلك بالمشاهدة ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ علم مشاهدة ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقرأ حمزة والكسائى « اعلم » أمر من الله له . روى أنه أتى قومه على حماره وقال أنا عزير فكذبوه فقرأ التوراة من الحفظ ولم يحفظها أحد قبله فعرفوه بذلك وقالوا هو ابن الله رجع وهو شاب وأولاده شيوخ فإذا حدثهم بحديث قالوا هذا حديث مائة سنة ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ سؤال عن كيفية الإحياء لا عن نفسه أى ليصير علم ذلك عياناً وأقول إذا سئلت هل رأيت إحياء الموتى ؟ نعم . إذ رُوى أنه لما قال لنمرود إحياء الله برد الروح قال له هل عاينته فلم يقدر أن يقول نعم وانتقل إلى حجة أخرى ﴿ قَالَ ﴾ تعالى له ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ بقدرتى على الإحياء سأله مع علمه بإيمانه بذلك ليجيبه بما سأل فيعلم السامعون غرضه ﴿ قَالَ بَلَىٰ ﴾ آمنت ﴿ وَلَٰكِن ﴾ سألتك ﴿ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ بالمعاينة المضمومة إلى الاستدلال فى العيان لطيف معنى ليس فى البرهان ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ ﴾ إنما خص الطير لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان والطير . مصدر سمى به أو جمع كصحب ﴿ فَصُرْهُنَّ ﴾ بضم الصاد للجمهور وكسرها لحمزة ، أملهن ﴿ إِلَيْكَ ﴾ وضمهن إليك لتتأملها وتعرف شياتها لئلا تلتبس عليك بعد الإحياء ﴿ ثُمَّ ﴾ قطعهن واخلط لحمهن وريشهن وجزئهن عدد جبال أرضك و ﴿ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ﴾ قيل كانت الجبال التى

بحضرته أربعة وقيل سبعة ، وقرأ أبو بكر بضم الزاى حيث وقع وهى لغة تميم ﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ ﴾ إليك ، قل : تعالين بإذن الله ﴿ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ سريعاً فى طيرانهن أو مشيهن على أرجلهن ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يعجزه شىء ﴿حَكِيمٌ﴾ فى صنعه فأخذ طاووساً وحمامة وغراباً وديكا وفعل بهن ماذكر وأمسك رءوسهن عنده ودعاهن فتطايرت الأجزاء إلى بعضها حتى تكاملت ثم أقبلت إلى رءوسها فانضممن إليها فطارت . فى الآية دليل على أن من أراد إحياء نفسه بالحياة الأبدية فليقتلها بالرياضات حتى تنكسر وتطاوعه سريعاً إلى داعية العقل أو الشرع ، وفى إيثار هذه الطيور إشارة للسالك إنما يصل إذا أمات حبّ الشهوات والزخارف التى هى صفة الطاووس ، وصولة الغضب والترفع التى هى صفة الديك ، وخسة النفس بالميل إلى الجيف التى هى الدنيا وكثرة الخيلاء التى هى صفة الغراب ، والمسارعة إلى الهوى التى هى صفة الحمام ، ولما برهن تعالى على قدرته على الإحياء حث على الإنفاق فى سبيله وأعلم أنه يثيب عليه أجراً عظيما وهو قادر عليه فقال ﴿ مَثَلُ ﴾ صفة نفقات ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ طاعته ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ أو مثلهم كمثل باذر حبة ﴿ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾ بأن تخرج ساقا يتشعب منها سبع شعب لكل واحدة سنبلة وهذا يقع فى الدخن والذرة كثيراً فى المواضع الطيبة وإن قل فى البر ونحوه وعبر بسنابل دون سنبلات ليدل على الكثرة فى المعنى لاشتمال كل سنبلة على مائة حبة كما قال ﴿فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ أو أكثر فكذلك نفقاتهم تضاعف إلى سبعمائة ضعف ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ﴾ أكثر من ذلك ﴿ لِمَن يَشَاءُ﴾ لا لكل منفق لتفاوت أحوال المنفقين والمنفقات بحسب قوة اليقين والإخلاص ، وبحسب الأوقات والصدقات ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ فضله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق المضاعفة بنيته . ونزل فى المنفقين فى طاعة الله كعثمان بن عفان فى غزوة تبوك بألف بعير بأقتابها وأحلاسها وألف دينار . وعبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا ﴾ على المنفق عليه بعد المنة بقوله قد أحسنت إليه وجبرت حاله فى كذا مثلا ﴿وَلَا أَذًى﴾ له بذكر ذلك إلى من لا يحب وقوفه عليه والتطاول عليه برؤية الفضل بسبب العطاء ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ ثواب إنفاقهم ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ لم يدخل الفاء هنا فى خبر الموصول إعلاماً بأن الأجر بفضل الله لا بالأعمال أو للإيهام بأنهم أهل لذلك وإن لم يفعلوا ، فكيف إذا فعلوا ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من فائت ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على مترقب ، وفى الآية تحذير عن القوادح فى الإنفاق ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام حسن ورد على السائل جميل ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ له فى الحاجة أو مغفرة من الله بسبب الرد الجميل ﴿ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ خبر عنهما وإنما صح الابتداء بالنكرة لاختصاصها بالصفة واكتفى بالأذى لدلالته على قرينه . وفى الحديث « الكلمة الطيبة صدقة ، وكفك عن الشر صدقة » ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ عن العباد وإنفاقهم . وإنما حث على الإنفاق لينالوا به الزلفى فلا ينبغى أن يبطل بالمن والأذى ﴿ حَلِيمٌ ﴾ بتأخير العقوبة عن المنان والمؤذى . وفى حديث مسلم عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنان بصدقته ، والمسبل إزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » . اه . وكفى بالآية والحديث وعيداً على ذلك ثم أكد ذلك أيضاً بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَٰتِكُمْ ﴾ أى أجورهن ﴿ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ ﴾ بأن يؤدى إلى عدم القبول إذ السيئة لا تبطل الحسنة إبطالا ﴿ كَالَّذِى ﴾ أى كإبطال نفقة الذى ؛ فالكاف فى محل نصب على المصدر أو التقدير : كالمنافق الذى ، فنصبها على الحال أى مماثلين الذى ﴿ يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ مرائياً لهم حال أو مفعول له ﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ لذلك لا يطلب بإنفاقه رضى الله ﴿ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ لا يرجو الثواب فيه ، شبه المن والأذى بفعل المنافق تحذيراً من ارتكابه وحثا على اجتنابه ﴿ فَمَثَلُهُ ﴾ أى المرائى وإنفاقه الذى لا ينتفع به ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾ حجر أملس ﴿ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ﴾ مطر شديد عظيم القطر ﴿ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾ صلباً أملس لا شىء عليه من التراب مثل ضربه الله لنفقة المنافق المرائى والمؤمن المنان المؤذى بما ذكر فكذلك تبطل أعمال هؤلاء ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ ﴾ وجدان ثواب ﴿ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ عملوه فى الدنيا لا يجدون له ثواباً فى الآخرة كما لا يوجد على الصفوان شىء من التراب ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ ﴾ جمع الضمير للذى ينفق باعتبار المعنى لأن المراد به الجنس أو الجمع كما فى قوله :

وَإِنَّ الَّذِى حَانَتْ بِفَلْجٍ دِمَاؤُهُمْ ۝ هم الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدِ

وفى آخر الآية تعريض بأن الرياء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار يجب على المسلم اجتنابها ، ثم عقب المرائين بضدهم فقال ﴿ وَمَثَلُ ﴾ نفقات ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ ﴾ طلب ﴿ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى تحقيقاً للثواب عليه بخلاف المنافقين الذين لا يرجونه لإنكارهم له ، و « من » ابتدائية ، أى تثبيتاً ناشئاً من عند أنفسهم أو تبعيضية أى تثبيتاً بعض أنفسهم على الإيمان فإن المال شقيق الروح فمن بذله لوجه الله ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه ثبتها كلها ، قاله البيضاوى . والمعنى مثل نمو نفقات هؤلاء عند الله ﴿ كَمَثَلِ ﴾ ثمرة ﴿ جَنَّةٍ ﴾ بستان ﴿ بِرَبْوَةٍ ﴾ بضم الراء للجمهور وفتحها لابن عامر وعاصم مكان مرتفع يسيراً كثيف التراب مستو لأن الشجر فيها أزكى وأحسن لأنه لا يعلوه الماء ولا يعلو عن الماء ، ومن نظم الخليل إمام النحو يمدح بستاناً على ربوة :

ترفعت عن ندى الأعماق وانخفضت ۝ عن المعاطش واستغنت بسقياها

﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ ﴾ أعطت ﴿ أُكُلَهَا ﴾ ثمرها بسكون الكاف لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبضمها لابن عامر والكوفيين ﴿ ضِعْفَيْنِ ﴾ مثل ما يثمر غيرها أو مثل ما يظن بها والضعف المثل وقيل أربعة أمثالها ونصبه على الحال أى مضاعفاً ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ مطر خفيف أى صغير القطر يكفيها لارتفاعها ، المعنى تثمر وتزكو كثر المطر أو قل فكذلك نفقات من ذكر تزكو عند الله كثرت أو قلت ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يرى أعمالكم على إكثار وإقلال ويعلم نياتكم فيها من رياء وإخلاص

فيجازيكم به وفيه تحذير عن الرياء والمن والأذى وترغيب فى الإخلاص ﴿ أَيَوَدُّ ﴾ يحب ﴿ أَحَدُكُمْ ﴾ الهمزة فيه للإنكار متصل بقوله « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » ﴿ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ﴾ بستان ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ خصهما بالذكر أولا لشرفهما وكثرة منافعهما ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ثم ذكر أن فيها كل الثمرات بقوله ﴿ لَهُ فِيهَا ﴾ رزق أو ثمرة ﴿ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ صفة لمبتدإ محذوف قائمة مقامه أو « من » زائدة على رأى الأخفش : يجوز زيادتها فى الإثبات ويجوز أن يكون المراد بالثمرات المنافع ﴿ وَ ﴾ قد ﴿ أَصَابَهُ الْكِبَرُ ﴾ نضعف عن الكسب ﴿ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ﴾ أولاد صغار لا يقدرون على شىء ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ ﴾ ريح شديدة تستدير فى الأرض ثم تسطع نحو السماء كعمود، عطف على أصابه الكبر ﴿ فِيهِ ﴾ فى الإعصار ﴿ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ ففقدها أحوج ما كان إليها وكذا المرائى والمانّ كل يعدم نفع صدقاته فى الآخرة أحوج ما كان إليها وعن ابن عباس مثال لمن عمل الطاعات ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أحرق أعماله . وقال البيضاوى : أشبههم به من جال بسره فى عالم الملكوت وترق بفكره إلى جنات الجبروت ثم نكص على عقبيه إلى عالم الزور والتفت إلى ما سوى الحق وجعل سعيه هباء منثوراً ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ فتعتبرون بها فتجتنبون مايورثكم الندم . وعن ابن عباس : تتفكرون فى زوال الدنيا وإقبال الآخرة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا ﴾ الفرض والنفل ﴿ مِن طَيِّبَاتِ ﴾ جياد ﴿ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ من المال من الذهب والفضة والنعم والعروض للتجارة وغيرها ﴿ وَمِنْ ﴾ طيبات ﴿ مَا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ من الحبوب والثمار والمعادن ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا ﴾ تقصدوا ﴿ الْخَبِيثَ ﴾ الردىء ﴿ مِنْهُ ﴾ أى من المذكور ﴿ تُنفِقُونَ ﴾ ـه فى الزكاة وغيرها حال من ضمير تيمموا ﴿ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ ﴾ أى الخبيث لو أعطيتموه فى حقوقكم ﴿ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ بالتساهل وغض البصر فكيف تؤدون منه حق الله : نزلت الآية فيمن كان يتصدق بشرار ثماره ورذيل أمواله ويترك الجيد لنفسه ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ عن نفقاتكم ﴿ حَمِيدٌ ﴾ محمود على كل حال. قال ابن العربى فى الأحكام والصحيح أن الآية عامة فى الفرض والتطوع إذ سبب نزولها فى التطوع اتفاقا فإن قيل قوله « ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » دليل على خصوصه بالديون التى لا تسامح باقتضاء الردىء فيها عن الجيد إلا بالإغماض قلنا هذا غفلة فإنها لو كانت نازلة فى الفرض لما قال « ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » لأن الردىء لايجوز أخذه فى الفرض بحال وإنما يؤخذ فى النفل . اهـ. ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ يخوفكم به إن تصدقتم يقول : إن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا فتمسكوا ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ بالبخل ومنع الزكاة والمعاصى ﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُم ﴾ على الإنفاق ﴿ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ ﴾ لذنوبكم ﴿ وَفَضْلًا ﴾ رزقا خلفا منه أفضل مما أنفقتم مع الثواب عليه فى الآخرة ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ فضله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالمنفق ونيته ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ ﴾ أى العلم النافع المؤدى إلى العمل والحكيم عند الله هو العالم العامل ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ مفعول أول أخر للاهتمام بالمفعول

الثانى ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ بناء للمفعول لأنه المقصود وقرئ بالكسر أى ومن يؤته الله الحكمة ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لمصيره إلى السعادة الأبدية ونيل خير الدارين ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ فيه إدغام التاء فى الأصل فى الذال: يتعظ ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أصحاب العقول السالمة من الأوهام والهوى: حث على العمل بما تضمنته الآى السابقة من إنفاق الطيب وترجى المغفرة والفضل وعدم الركون إلى المن والأذى وإيثار لفظ التذكر إيماء إلى جلاء تلك المقاصد ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ فى طاعة أو معصية ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ فيهما والنذر أن يوجب الإنسان على نفسه شيئاً ليس بواجب وأصله الخوف، ومن قال لله على كذا من طاعة تلزمه الوفاء به ولا يجزيه غيره وإن كان نذر لله معصية حرم أو مكروهاً كره أو مباحاً أبيح ولا شىء عليه إن لم يفعل فى الثلاثة فى مذهب مالك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ فيجازيكم عليه: وعد ووعيد ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ بمنع الزكاة والنذر والإنفاق فى المعاصى ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ مانعين لهم من عذابه ﴿إِن تُبْدُوا﴾ تظهروا ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ النوافل ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ نعم شيئاً إبداؤها بكسر النون والعين من غير إخفاء فى رواية ورش عن نافع وحفص عن عاصم وقراءة ابن كثير، وبفتح النون وكسر العين من غير إخفاء لابن عامر وحمزة والكسائى وبكسر النون وإخفاء كسر العين لأبى عمرو وقالون عن نافع وأبى بكر عن عاصم ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ تسروها ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من إبدائها وإيتائها الأغنياء أما صدقة الفرض فالأفضل إظهارها ليقتدى به ولئلا يتهم. وإيتاؤها الفقراء متعين ولا يحشرهم إليها بل يؤتيهم الزكاة بمواضعهم، وتصرف صدقة الفرض إلى المسلم الفقير وإن كان عاصياً بغير ترك أركان الإسلام: الصلاة والصيام فلا تعطى تاركها حتى يتوب، قاله ابن العربى فى الأحكام: ﴿وَنُكَفِّرْ﴾ بالنون مجزوماً بالعطف على محل «فهو» لنافع وحمزة والكسائى، وبالياء لابن عامر وحفص مرفوعاً، وللباقين بالنون مرفوعاً أيضاً على الاستئناف ﴿عَنكُم مِّن﴾ بعض ﴿سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإبداء والإخفاء ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بباطنه كظاهره ولا يخفى عليه شىء وفيه ترغيب فى إخفاء صدقة النفل ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ أى الناس خلق الاهتداء فيهم تسلية له كان يشق عليه عدم إسلام بعضهم فقيل له: إنما عليك البلاغ، وقد بلغت ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدايته إلى الدخول فيه ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ مال ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ لأن ثوابه لها فاتركوا المن والأذى عليه والتطاول به ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ أى ثوابه لا غيره من أغراض الدنيا، حال أو عطف على ماقبله وهو خبر بمعنى النهى ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه أضعافاً مضاعفة فارغبوا فيه وفى أن يكون على أحسن الوجوه ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ تنقصون منه شيئاً والجملتان تأكيد للأولى ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ خبر مبتدإ محذوف أى الصدقات ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى حبسوا أنفسهم على الجهاد، نزلت فى أهل الصفة من فقراء المهاجرين لا يحصرون بعدد بل يزيدون بمن يجىء إليهم وينقصون بمن يتزوج منهم أو يموت، أرصدوا أنفسهم لتعلم القرآن والخروج مع

السرايا يخرجون مع كل سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون ليلا ويرضخون النوى نهاراً المعاش، فمن كان عنده فضلة أتاهم إذا أمسى وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بأن يعشى كل رجل واحداً منهم فإذا فضل جماعة ذهب هو بهم يعشيهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا﴾ سفراً ﴿فِى الْأَرْضِ﴾ للتجارة والمعاش لشغلهم عنه بالجهاد أو لوجود المانع من مرض ونحوه ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم، بكسر السين لنافع وابن كثير وأبي عمرو والكسائي وبفتحها لغيرهم ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ لتعففهم عن السؤال وتركه ﴿تَعْرِفُهُم﴾ يا مخاطباً ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ من الضعف ورثاثة الحال ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ﴾ شيئاً فيلحفون ﴿إِلْحَافًا﴾ أي لا سؤال لهم أصلا فلا يقع منهم إلحاف وهو الإلحاح بأن يلازم المسئول حتى يعطيه، وفي الحديث «إن الله يحب الحيّ المتعفف ويبغض البذيء الملحف» قال ابن العربي في الأحكام: والملحف من يسأل الرجل بعد ما رده أو يسأل وعنده ما يغنيه اللهم إلا أن يعلم السائل أن من رده قادر على ما سأله إياه أو جاهل بحاله فيعيد عليه السؤال إعذاراً أو إنذاراً ثلاثاً لا يزيد عليه وذلك جائز والأفضل تركه، والله أعلم. اهـ. ونصبه على المصدر المبين لنوع من السؤال أو على الحال ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فمجازٍ عليه ترغيب في الإنفاق وخصوصاً على هؤلاء ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في الأوقات كلها لا يؤخرون من وقت إلى وقت بل متى تمكنوا أنفقوا وفي الأحوال كلها ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ خبر الذين ينفقون، والفاء للسببية ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا﴾ أي يأخذونه، وذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال، ولأن الربا الشائع في المطعومات: وهو الزيادة في المعاملة بالذهب والفضة والمطعومات المقتاة بها في القدر أو في الأجل فالأول: ربا الفضل، والثاني: ربا النساء. فدخل جميع وجوه الربا وهي بيع المقتاة أو النقد جنساً بجنس متفاضلا أو بغير جنس نسيئة، ومنه بيع الرطب بالتمر أو العنب بالزبيب وبيع المزابنة على أحد قولين وبيع وسلف، وسلف بزيادة: فهذه ستة ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ من قبورهم ﴿إِلَّا﴾ قياماً ﴿كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ﴾ يصرعه ﴿الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ﴾ الجنون بهم. متعلق بيتخبطه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي نزل بهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا﴾ في الجواز وهذا من عكس التشبيه مبالغة. قال تعالى رداً عليهم ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ يعني الصحيح لأن النبي صلى الله عليه وسلم خصص منه البيوع الفاسدة فمنها وهي كثيرة تأتي ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا﴾ هدم لقياسهم لأنه في مقابلة النص أن لو كان صحيحاً كيف وهو قياس مع الفارق فإن من أعطى درهمين بدرهم لا يقابل أحدُ درهميه بشيء ﴿فَمَن جَاءَهُ﴾ بلغه ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ وعظ ﴿مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ﴾ عن أكله ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ قبل النهي أي لا يسترد منه ﴿وَأَمْرُهُ﴾ في العفو عنه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يجازيه على انتهائه بالنية والعمل بما أمر الله به ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى أكله مشبهاً له بالبيع في الحل ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا﴾

ينقصه ويذهب بركته ، كتب ألف « الربا » فى جميع المواضع بالواو رجوعاً إلى الأصل ، إذ أصلها واو من ربا يربو ، زاد : وكتب الألف بعد الواو تشبيهاً بواو الجمع ﴿ وَيُرْبِى الصَّدَقَٰتِ ﴾ يزيدها ويضاعف بركتها وثوابها ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ بتحليل الربا ﴿ أَثِيمٍ ﴾ بأكله أى يعاقبه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بتحريم الربا ﴿ وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ ﴾ عطفهما على ما يفهمهما اشرفهما على سائر الأعمال الصالحة ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا ﴾ اتركوا ﴿ مَا بَقِىَ ﴾ مماشرطتم على الناس ﴿ مِنَ الرِّبَوٰا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإن من شأن المؤمن امتثال أمر الله ، نزلت لما طالب بعض الصحابة بعد النهى بربا كان له قبل ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ﴾ ما أمرتم به ﴿ فَأْذَنُوا ﴾ من الإذن وهو العلم ، أى اعلموا ﴿ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ لكم وقرأ حمزة وأبو بكر : فآذنوا من الإيذان بمعنى الإعلام : أى : فأعلموا بها غيركم وهو أبلغ وتنكير «حرب» للتعظيم ، ولما نزلت قالوا : لا يَدَىْ لنا بحربه ، واعلم أن هذه الآيات لتحريم الربا مع آية « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » ومن الباطل الغرر الذى منعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البيع عمت جميع البيوع الفاسدة من أنواع الربا الستة المتقدمة ، وبيوع الغرر وهى كثيرة منها : بيعتان فى بيعة وبيع الملامسة ، والمنابذة ، والحصاة ، والنشا ، والعربان ، وما ليس عندك ، والمضامين ، والملاقيح ، وحبل الحبلة ، وبيع الثمر قبل بدو الصلاح ، وبيع الطعام قبل قبضه ، وعسيب الفحل ، والكلب ، والسنور ، وكسب الحجام ، ومهر البغى ، وحلوان الكاهن ، وبيع المضغوط ، والولاء ، وتفريق الأم من ولدها ، وكراء الأرض بما يخرج منها ، والنجش ، وبيع الرجل على بيع أخيه ، وحاضر لباد ، وتلق السلع ، وما لا قيمة له شرعاً : كالخمر والميتة والدم والأصنام وغير ذلك ﴿ وَإِن تُبْتُمْ ﴾ رجعتم عنه ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ ﴾ أصول ﴿ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ ﴾ بزيادة على المديون ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ﴿ وَإِن كَانَ ﴾ وقع غريم ﴿ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ من غرمائكم ، وهذا عام فى كل دَين ولا يختص بدين الربا ﴿ فَنَظِرَةٌ ﴾ له أى عليكم تأخيره ﴿ إِلَىٰ مَيْسُرَةٍ ﴾ بضم السين لنافع وفتحها لغيره وقت يسر ولا يجوز أن تقولوا له إما أن تقضى وإما أن تربى فالغرماء ثلاثة مَلِئٌ يجب عليه الأداء ولا يحل له المطل ، ومعسر غيرعديم يستحب تأخيره ، وعديم يجب تأخيره إلى أن يوسر ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لعاصم أى تتصدقوا برءوس أموالكم على المعسر أو العديم بالإبراء ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه خير فافعلوه ، فى الحديث «من أنظر معسراً أو وضع عنه ، أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله» رواه مسلم . وجميع ماتقدم فى الربا وأما الغبن فإن كان مما يتغابن الناس بمثله فحلال إجماعا ، وإن خرج عن العادة وبلغ الثلث رد : قال ابن العربى : إن وقع عن علم المتعاقدين جاز وإلا خير الجاهل . اه . ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ ﴾ بالبناء للمفعول للجمهور تردون وللفاعل لأبى عمرو تصيرون ﴿ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ هو يوم القيامة أو يوم الموت

﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ ﴾ فيه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ جزاء ﴿ مَا كَسَبَتْ ﴾ عملت من خير وشر ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص حسنة أو زيادة سيئة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم ﴾ تعاملتم نسيئة ، داينته : عاملته معطياً أو آخذاً ﴿ بِدَيْنٍ ﴾ كسلم وقرض وغيره وفائدة ذكره أن لا يتوهم من التداين المجازاة والمعاطاة إذ يطلق عليهما وليعلم أنه الباعث على الكتب وليرجع الضمير إليه ، وما روى أن ابن عباس قال نزلت الآية فى السلم خاصة . قال ابن عطية : معناه أن سلم أهل المدينة كان سبب الآية . ثم هى تتناول جميع المداينات إجماعا ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ معلوم ﴿ فَٱكْتُبُوهُ ﴾ بجميع صفاته المبينة له المعرفة للحاكم ما يحكم به عند ارتفاع النزاع إليه لأنه لاستيثاق ودفع النزاع بذكر الشاهد وغيره المتعاملين عند الأجل ، والأمر عند الجمهور للندب لأنه إرشاد ﴿ وَلْيَكْتُب ﴾ كتاب الدين ﴿ بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ ﴾ غير المتعاملين ﴿ بِٱلْعَدْلِ ﴾ بالحق فى كتابته لا يميل لأحدهما لا يزيد فى المال والأجل ولا ينقص ، وهو فى الحقيقة أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه دين حتى يجيء مكتوبه موثوقاً به معدلا بالشرع وهو متعلق بـ «وليكتب» أو صفة «كاتب» ﴿ وَلَا يَأْبَ ﴾ لا يمتنع ﴿ كَاتِبٌ ﴾ من ﴿ أَن يَكْتُبَ ﴾ إذا دعى إليها ﴿ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ أى فضله بالكتابة فلا يبخل بها ، والكاف متعلقة بيأب أو بقوله ﴿ فَلْيَكْتُبْ ﴾ وحينئذ يكون النهى عن الامتناع منها مطلقة ثم الأمر بها مقيدة أمر ندب أو فرض على الكفاية ﴿ وَلْيُمْلِلِ ﴾ يملى على الكاتب ﴿ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ ﴾ الدين لأنه المشهود عليه ليقر فيعلم ما عليه ﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ المملى والكاتب ﴿ رَبَّهُۥ ﴾ فى إملائه وكتابته ﴿ وَلَا يَبْخَسْ ﴾ ينقص ﴿ مِنْهُ ﴾ من الحق ﴿ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا ﴾ مبذراً لماله لفساد عقله كالمجنون ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ عن الإملاء لصغر أو كبر ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ ﴾ لخرس أو جهل باللغة أو نحو ذلك ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ ﴾ متولى أمره من والد ووصى وقيم ومترجم ، وتصرف السفيه المحجور عليه دون وليه فاسد مفسوخ إجماعا ، وتصرف السفيه الذى لا حجر عليه أجازه ابن القاسم وأسقطه عامة العلماء . قال ابن العربى : والذى أراه إن تصرف بسداد نفذ وإلا بطل . اه . ﴿ بِٱلْعَدْلِ ﴾ بالحق ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ ﴾ أشهدوا على الدين ندباً على الصحيح ﴿ شَهِيدَيْنِ ﴾ شاهدين ﴿ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ أى بالغ المسلمين الأحرار خلافاً لأبى حنيفة فى سماع شهادة الكفار بعضهم على بعض ، ولشريح وابن سيرين فى إجازة شهادة العبيد ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا ﴾ الشاهدان ﴿ رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ ﴾ يشهدون فيما عدا الحدود والقصاص ولما جعل شهادتهما بدل شهادة رجل جاز الحلف معهما على الحق كما يحلف مع الشاهد وأنكره الحنفية ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ لدينه وعدالته مع عدم التهمة ولا يكتفى بظاهر الإسلام واكتفى به أبو حنيفة فى الأموال دون الحدود ولا تقبل شهادة العدو على عدوه ولا شهادة الولد للوالد ولا العكس للتهمة وتقبل شهادة أحدهما على الآخر وكذا يرد شهادة من جر بها نفعاً أو دفع بها ضراً . وتعدد النساء لأجل ﴿ أَن تَضِلَّ ﴾ بفتح الهمزة ونصب «تضل» للجمهور وحمزة بكسرها شرطية أى تنسى ﴿ إِحْدَىٰهُمَا ﴾ الشهادة لنقص عقلهن وضبطهن

﴿ فَتُذَكِّرَ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن كثير وأبى عمرو ﴿ إِحْدَاهُمَا ﴾ الذاكرة ﴿ الأُخْرَى ﴾ الناسية وجملة الإذكار محل العلة نزل الضلال منزلته لأنه سببه لأن التعدد لم يقع للضلال بل للإذكار. قال سيبويه: وهذا كما تقول أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه. اه. وهو من أبرع الفصاحة للاختصار إذ لو قال: أن أدعم لقيل لم تدعم الحائط وهو الصحيح فيزيد إذا مال فكان تقديم السبب أخص، وكرر إحداهما، ولم يقل فتذكرها الأخرى إرادة إيقاع التذكير على صريح ما أسند إليه الضلال إذ المعرفة المعادة عين الأولى. قال ابن العربى فى الأحكام: كرر لفظ إحداهما لأنه لو قال فتذكرها الأخرى لكان البيان من جهة واحدة أى لتذكر الذاكرة الناسية فلما كرر أفاد بتذكير الذاكرة الغافلة وبغفل الذاكرة وذلك غاية البيان. اه. وعلى جعل إن شرطية فتذكر بالرفع جوابه كقوله تعالى «ومن عاد فينتقم الله منه» ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا ﴾ زائدة ﴿ دُعُوا ﴾ إلى تحمل الشهادة وأدائها ومفعول «يأب» محذوف أى إقامة الشهادة أو تحمل الشهادة ﴿ وَلَا تَسْأَمُوا ﴾ تملوا من ﴿ أَنْ تَكْتُبُوهُ ﴾ أى ما شهدتم عليه من الحق لكثرة وقوع ذلك ﴿ صَغِيرًا ﴾ كان ﴿ أَوْ كَبِيرًا ﴾ قليلا أو كثيراً، قدم الصغير اهتماماً به ﴿ إِلَى أَجَلِهِ ﴾ وقت حلوله حال من الهاء فى تكتبوه ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ الكتب ﴿ أَقْسَطُ ﴾ أعدل ﴿ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ﴾ أى أعون على إقامتها لأنه يذكرها. وهذا دليل على أن الشاهد إذا رأى الكتاب ولم يذكر الشهادة لا يؤديها لما دخل عليه من الريبة فيها ولا يؤدى إلا ما يعلم لكنه إذا علم أن الخط خطه ونسى ما شهد فيه ففيه خلاف فى الأداء والنفع وعدمهما والله أعلم ﴿ وَأَدْنَىٰ ﴾ أقرب إلى ﴿ أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾ تشكوا فى قدر الحق والأجل. ولما كانت هذه الآية وهى أطول آية فى القرآن أولها يجوز البيع إلى الأجل ويجوز تعجيله بينه بقوله ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ ﴾ تقع ﴿ تِجَارَةً حَاضِرَةً ﴾ بالرفع للجمهور والنصب لعاصم فكان تامة أو ناقصة واسمها ضمير المتجر فيه ﴿ تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ﴾ تقبضونها ولا أجل فيها ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ فى ﴿ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ والمراد بها المتجر فيه ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ عليه فإنه أدفع للاختلاف أمر ندب على الصحيح كما تقدم سواء كان البيع ناجزاً أو نسيئة ﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ صاحب الحق ومن عليه بتحريف أو امتناع من الشهادة أو الكتابة أو لا يضرهما صاحب الحق بتكليفهما ما لا يليق فى الكتابة والشهادة ﴿ وَإِنْ تَفْعَلُوا ﴾ ما نهيتم عنه ﴿ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ ﴾ خروج عن الطاعة لاحق ﴿ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى أمره ونهيه ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ مصالح أموركم حال مقدرة أو جملة مستأنفة ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يلحقه سهو ولا قصور وكرر الجلالة لاستقلال الجمل الثلاث فالأولى حث على التقوى والثانية وعد بإنعامه والثالثة تعظيم لشأنه، ولأنه أدخل فى التعظيم من الكناية. ولما ذكر الله ندب الإشهاد والكتب لمصلحة حفظ الأموال والأديان عقب ذلك بحال الأعذار المانعة من الكتب وجعل بدله الرهن ونص على السفر لأنه الغالب من الأعذار فقال ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾

أى مسافرين وتداينتم ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ بعدم آلات الكتابة ﴿فَرِهَٰنٌ﴾ أى فالذى يستوثق به رهان ، أو فعليكم رهان جمع رهن ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : فرُهُنٌ بضم الراء والهاء جمع رهان ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ يقبضها المرتهن من الراهن ، وذكر السفر خرج مخرج الغالب لأن أكثر أوقاتهم كانت فى الجهاد ، إذ رهن عليه السلام درعه فى الحضر ، وكذا فقد الكاتب إذ لم يكتب ، فالرهن يجوز فى الحضر والسفر ، وجد الكاتب أم لا خلافاً لمجاهد فقط ، واشترط القبض فيه غير مالك من الأئمة ، وقال مالك إذا رهنه بالقول وأبى عن القبض لا يفسد بل يجبر عليه ، وإذا رجع إلى الراهن بطل ويختص به المرتهن دون الغرماء ، ويجوز رهن المشاع خلافاً لأبى حنيفة ، وإذا اختلفا فالقول للمرتهن إن شهد له الرهن ، خلافاً للشافعى وأبى حنيفة أنه للراهن ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أى إن كان الذى عليه الحق أميناً عند صاحب الحق ، ولم يرتهن منه لحسن ظنه به ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ﴾ المدين ﴿أَمَٰنَتَهُ﴾ دينه سماه أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به هذا يدل على أن الإشهاد لم يجب لجواز إسقاطه وفيه أيضاً حث على أن يكون المدين عند ظن الدائن ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فى أدائه الأمانة وجمع بين لفظ الجلالة والرب الدالين على الجلال والكمال ترغيباً وترهيباً لعظم شأن الأمانة . فى الحديث «الدين أمانة ، لا دين لمن لا أمانة له» ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ﴾ الإقرار بالأمانة وهو شهادة المرء على نفسه أو خطاب للشهود أى إذا دعيتم لإقامتها ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ﴾ والجملة خبر إن ، وخص القلب بالذكر لأنه محل الشهادة ولأنه إذا أثم تبعه غيره من الأعضاء لحديث «إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب» وقرئ قلبه بالنصب كحسن وجهه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وعيد على الكتمان ﴿لِّلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أى ما تقرر فيها بالعزم عليه من السوء ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ تسروه ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ يوم القيامة وأما الخواطر من غير عزم وهو الوسواس فلا مؤاخذة به وهل يؤاخذ بالعزم على السيئة إن منعه منها مانع قولان الصحيح الأول ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ المغفرة له ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه والفعلان بالجزم لنافع وابن كثير وأبى عمرو وحمزة والكسائى عطفاً على جواب الشرط ، والرفع لعاصم وابن عامر أى فهو ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه محاسبتكم وجزاؤكم ، فلما نزلت هذه الآية اشتدت على الصحابة فشكوها إلى رسول الله فقال : «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا» فلما قالوا ذلك وآمنوا به نزل ﴿ءَامَنَ﴾ صدق ﴿الرَّسُولُ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ شهادة لله ولرسوله بالإيمان ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف عليه ﴿كُلٌّ﴾ تنوينه عوض من المضاف إليه مبتدأ خبره ﴿ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لحمزة والكسائى ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ يقولون ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى ، وأحد فى معنى الجمع لوقوعه فى سياق النفى ولذا دخل عليه بين . وقال فى غاية الأمانى :

أى بين جمع منهم لأن أحداً اسم من يخاطب مفرداً كان أو جمعاً . ذكراً كان أو أنثى . اه . وجملة « كل » مستأنفة لبيان ما آمنوا به ويجوز أن يكون المؤمنون مبتدأ والتنوين فى « كل » عوض عن ضميرهم خاصة دون الرسول مبتدأ ثان وآمن خبره والله أعلم ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ما أمرنا به سماع قبول نسألك ﴿غُفْرَانَكَ﴾ يا ﴿رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع بالبعث . ولما أطاعوا نزل ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى ما تسعها قدرتها : بين الله لهم أن ما كلفهم فى قوله « وإن تبدوا ما فى أنفسكم » . الخ . هو ما فيه وسعهم فى تركه وفعله وهو العزم لا الوسواس وحينئذ فلا نسخ وقيل كانوا فى الأولى الخواطر ثم نسخ بهذه والله أعلم ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أى من الخير أى ثوابه ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من الشر أى وزره ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد ، ولا بما لم يكتسبه مما وسوست به نفسه ، وخص الخير بالكسب والشر بالاكتساب لأن الافتعال للاعتمال بما تشتهيه النفس إذ هى تنكمش فى الشر بخلاف الخير . قولوا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ بالعقاب ﴿إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ تركنا الصواب لا عن عمد كما آخذت به من قبلنا وقد رفع الله ذلك عن هذه الأمة كما ورد فى الحديث فسؤاله اعتراف بنعمة الله أى رفع عنهم الإثم فى ذلك . وأما أحكام العبادة وحقوق الناس ثابتة إذ يقضى النائم والناسى والمكره عن الصلاة إجماعاً ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ أمراً يثقل علينا حمله كعهد لا نستطيع القيام به فتعذبنا بنقضه ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أى بنى إسرائيل من قتل النفس فى التوراة ، وإخراج ربع المال فى الزكاة ، وخمسين صلاة فى اليوم والليلة ، وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض موضع النجاسة ، وغيرها من أحكام التوراة ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من التكاليف والبلايا ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ امح ذنوبنا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ فى الرحمة زيادة على المغفرة ﴿أَنتَ مَوْلَانَا﴾ سيدنا وناصرنا ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ بإقامة الحجة والغلبة فى قتالهم فإن من شأن المولى أن ينصر مواليه على الأعداء . وفى الحديث لما نزلت هذه الآية فقرأها صلى الله عليه وسلم قيل له عقب كل كلمة « قد فعلت » وفى الصحيح : « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » . اه .

فقد ختمت السورة المباركة التى هى سنام القرآن بما بدئت به من ذكر أولياء الله الذين آمنوا به وأطاعوه « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » .

[تم تفسير سورة البقرة]

سورة آل عمران

مدنية : مائتان أو إلا آية

نزل أولها إلى ثمانين آية لما قدم نصارى نجران على رسول الله عام تسع من الهجرة وقال بعضهم فى عيسى هو الله لأنه يحيى الموتى وبعضهم ولد الله إذ لم يكن له أب وبعضهم ثالث ثلاثة لما كان له مع أمه مريم ولذا افتتح الله السورة بتوحيده وبأنه الحىّ الذى لا يموت بخلاف عيسى وأمه فقال : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ الٓمٓ ﴾ الله أعلم بمراده بذلك ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ بفتح ميم « الم » لجمهور القراء وقرأ عاصم من رواية أبى بكر بسكونها والابتداء بما بعدها على الأصل ، وقرئ بكسرها ، والجملة بعدها ردّ لقولهم « إن الله هو المسيح » أو « ثالث ثلاثة » ﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ الذى لا يموت رد لقولهم ذلك بأنه ابنه ، إذ يجوّزون موته والابن يشبه الأب ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ الذى لا يزول سلطانه وقد زال سلطان عيسى عليه السلام ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ القرآن مُنجّماً لذكره فى مقابلة أنزل ملتبساً ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ بالصدق فى أخباره وفيه إيماء إلى أن من خالفه كذاب ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قبله من الكتب والرسل حال مؤكدة من المفعول و « بين » مستعار من المكان للزمان لما بينهما من التلبس وفيه تكذيب النصارى فى اتباع الإنجيل وعيسى لما خالفوا القرآن ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ جملة على موسى وعيسى عليهما السلام وأفردا بالذكر لعظم شأنهما ودخول « أل » عليهما دليل العربية ، واشتقاقهما من الوَرْى الإيقادِ والنَّجْلِ الاتساع أو عجميان فاشتقاقهما تعسف . أمال التوراة أبو عمرو وابن ذكوان والكسائى فى جميع القرآن إمالة محضة ونافع من رواية ورش وحمزة بين بين ومن رواية قالون بالفتح كقراءة الباقين ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ قبل القرآن حال كونهما ﴿ هُدًى ﴾ هاديين من الضلالة ﴿ لِّلنَّاسِ ﴾ من تبعهما المعنى هاتوا برهانكم منهما ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ أى القرآن أعاده ليرتب عليه ما بعده أو زبور داود أو الكتب الفارقة بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى وغيره وذكر بعد الثلاثة ليعم ما عداها ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الدالة على تفرده بالألوهية وصدق الرسل والكتب وهم نصارى نجران وغيرهم ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ يختص بهم ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ غالب على أمره فلا يمنعه شىء من إنجاز وعيده ووعده ﴿ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ لا يقدر على مثله منتقم ، والانتقام المبالغة فى النقمة ؛ عقوبة المجرم ، وفعلها نقم بالفتح والكسر زجر عن الإعراض عن الآيات ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أىّ شىء كان فى العالم كليًّا أو جزئيا ، إيماناً أو كفراً ومنه قولكم فى عيسى فالآية تقرير لقيوميته لأن القائم

بنفسه المقيم لغيره يلزم أن يكون عالما بكل شيء وعبر عن العالم بالسماء والأرض لأن الحس لا يتجاوزهما وقدم الأرض لأنها محل نزول الكتب ودار التكليف أو للترقي من الأدنى إلى الأعلى وهو كالدليل على كونه حياً ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ ﴾ كالكم عيسى وغيره فكيف يكون إلها ﴿ فِى ﴾ ظُلَمِ ﴿ الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ من ذكورة وأنوثة وبياض وسواد وغير ذلك تحقيق لكمال علمه وقيوميته كيفما تعلقت بهم إرادته على أشكال مختلفة وصور متباينة وفيه رد على النصارى فى دعوى ألوهية عيسى وولديته له ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إذ لا يعلم غيره جملة مايعلمه ولا يقدر على مثل مايفعله ﴿الْعَزِيزُ﴾ فى ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى صنعه ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ واضحات الدلالة حفظت عن الاحتمالات والتشبيهات لوضوح معناها ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أصله المعتمد عليه فى أصول الشرع وفروعه الذى يرد إليه غيره بالتأويل والقياس « أمهات » فأفرد على تأويل كل واحدة أو على أن الكل بمنزلة آية واحدة ﴿ وَأُخَرُ ﴾ جمع أخرى ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾ يشبه لفظها لفظ غيرها ويخالفه معنى أى محتملات لا يتضح مقصودها لإجمال أو مخالفة ظاهرة إلا بالفحص ليظهر بها فضل العلماء كأوائل السور وآية التشبيه وجعله كله محكما فى قوله « أحكمت آياته » ليس فيها عيب ومتشابها فى قوله « كتاباً متشابها » بمعنى يشبه بعضه بعضاً فى الحسن والصدق ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ ميل عن الحق إلى الباطل ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ دون المحكم ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ طلب فتنة الجهال وتشكيكهم فى دينهم بإيراد الشبهات واللبس ﴿ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ بما يشتهونه كقول النصارى نطق القرآن بأن عيسى روح منه فهو هو ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ ﴾ الذى يجب أن يحمل عليه ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ﴾ الثابتون فيه بقدم راسخ المتمكنون منه غاية التمكن فإنهم يحملونه على الحق الذى يجب حمله عليه عطف على اسم الجلالة أو مبتدأ خبره ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ أى بالمتشابه أنه من عند الله ولا نعلم معناه ﴿ كُلٌّ ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ الحكيم الذى لا يتناقض كلامه والوجه الأول أوجه لأن الإيمان بأن الكل من عند الله حاصل لعموم المؤمنين لا يختص به الراسخون وعليه فجملة يقولون حال من الراسخين أو الوجهان لم يختلفا لأن المتشابه منه ما استأثر الله بعلمه كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة ومنه مادل القاطع أن ظاهره غير مراد ولم يدل على ما هو المراد ويمكن أن يعلمه الخواص، والله أعلم ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ ﴾ بإدغام التاء فى الأصل فى الذال : يتعظ ﴿ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ العقول السليمة عطف على يقولون أو على «ما يعلم تأويله» فى الوجه الثانى . ويقولون أيضاً إذا رأوا من يتبعه ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لاتملها عن الحق بتأويله على ما لا يليق ونحوه ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ للعمل بالمحكم والتسليم المتشابه ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾ من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ تزلفنا إليك ونفوز بها عندك، أو توفيقا للثبات على الحق ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ لكل سؤل ، وفيه أن الهدى والضلال من الله تعالى وأنه متفضل بنعمه لا يجب عليه شىء . والهبة : العطية الخالية عن الأعواض والأغراض ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ فى يوم أو لحسابه أو

لجزائه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فى وقوعه ومافيه من الحشر والجزاء نبهوا به على أن معظم غرضهم مايتعلق بالآخرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ الوعد مصدر أى موعده بالبعث لأن الألوهية تنافيه ولذا التفت من الخطاب إلى لفظ الجلالة الدالة على الألوهية فى المعنى الأصلى قبل العلمية وهو إخبار منه تعالى أوحكاية من قول الداعين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بمحمد من نصارى نجران ويهود المدينة وكفار العرب وغيرهم المفتخرين بأموالهم وأولادهم ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عذابه ﴿شَيْئًا﴾ ومن بدلية وشيئاً مصدر أو مفعول به أى شيئاً من الإغناء أو شيئاً من الأشياء بدل طاعته أو من للابتداء ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ بفتح الواو ما توقد به أى حطبها وقرئ بالضم أى أهل وقودها . دأبهم فى تكذيب الحق ﴿كَدَأْبِ﴾ عادة ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ والكاف فى محل رفع خبر مبتدأ محذوف كما تقدم أو منصوب متصل بما قبله أى لن تغنى عنهم مثل عدم إغناء أولئك أو توقد بهم مثل توقدها بأولئك والدأب مصدر « دأبَ » فى العمل استمر فنقل إلى معنى الشأن والعادة ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الامم كعاد وثمود ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أهلكهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ والجملة مفسرة لما قبلها أو حال ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تهويل ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مشركى العرب أو يهود المدينة لأنه عليه السلام لما أمرهم بالإسلام مرجعه من بدر ، وقالوا له : لا يغرنك أن قتلت نفراً من قريش أغماراً لا يعرفون القتال ولو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، نزل ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة والكسائى بالقتل والأسر وضرب الجزية وقد وقع ذلك ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ بالوجهين فى الآخرة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ فتدخلونها ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الفراش هى ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ على أن جميع الكفار سيغلبون أى عبرة ، وذكر الفعل للفصل والخطاب للمشركين أو للمؤمنين أو لليهود أو للكل ﴿فِى فِئَتَيْنِ﴾ فرقتين ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ يوم بدر للقتال ﴿فِئَةٌ﴾ مؤمنة ﴿تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى طاعته وهم النبى وأصحابه وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا : أربعة وتسعون من المهاجرين والباقون من الأنصار . معهم فرسان للمقداد ومرثد وسبعون بعيراً ، وست أدرع ، وثمانية سيوف وأكثرهم رجالة ، ولواء المهاجرين مع علىّ ، ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة ، واستشهد منهم أربعة عشر ، ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار : ستة من الخزرج واثنان من الأوس ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ تقاتل فى سبيل الشيطان وفيه احتباك ﴿تَرَوْنَهُم﴾ بالتاء لنافع وبالياء لغيره والخطاب لليهود لأن منهم من حضر الوقعة ينظر لمن الكرة وبالياء يرونهم أى المسلمون ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ حال لأنه من رؤية العين أى مثلى المسلمين أى أكثر منهم وكانوا تسعمائة وخمسين مقاتلا رئيسهم « عتبة بن ربيعة بن عبد شمس » وكان فيهم مائة فرس . والمراد بمثليهم ثلاثة أمثالهم أو رأوهم مثليهم قبل التحام الحرب أو المشركون رأوا المؤمنين مثليهم بعد التحام الحرب للخوف ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ معاينة وقد نصر الله المؤمنين ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾ يقوى ﴿بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ نصره ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ والعبرة التجاوز من

الشيء إلى أشكاله ، والمعنى : أفلا تعتبرون بما ذكر فتؤمنون ثم بعد بدر فى رمضان بعث سرية عمير فقتل عصماء التي تؤذى النبي ثم فى شوال قتل سالم بن عمير أبا عفك ثم غزوة بنى قينقاع وطردهم إلى « أذرعات » ثم فى ذى الحجة غزوة السويق فى طلب أبى سفيان ، ثم فى المحرم غزوة بنى سليم بقرقرة الكدر ، ثم فى ربيع قتل كعب بن الأشرف وفيه غزا عليه السلام غطفان بذى أمر فكان قصة دعثور ثم فى ربيع الآخر سار إلى نجران لطلب قريش ثم بعث زيد بن حارثة إلى القردة فى جمادى الآخرة لجاء بتجارات قريش مع فرات بن حيان فتركه النبي فأسلم ، ثم غزوة أحد وستأتى والله أعلم ، ثم بين الله ما غطى البصائر عن الآخرة فقال ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ أى المشتهيات لأن الشهوة هى نزوع النفس إلى المشتهى ، سميت بها مبالغة كأنهم أحبوها حتى أحبوا شهواتها ، والمزين على الحقيقة هو الله ابتلاء ، وعلى المجاز هو الشيطان إغراء ، ثم بين المشتهيات بقوله ﴿ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ بدأ بهن لأنهن أعظم حبائل الشيطان للرجال ﴿ وَالْبَنِينَ ﴾ والبنات خص الذكور إذ حبهم أكثر ﴿ وَالْقَنَاطِيرِ ﴾ جمع قنطار المال الكثير بعضه على بعض ﴿ الْمُقَنْطَرَةِ ﴾ المجمعة أو المضاعفة فإن كان القناطير مثلا ثلاثة كان المقنطرة تسعة كألوف مؤلفة مأخوذة من الأول للتأكيد ﴿ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾ بدأ بهما لفضلهما وكونهما قيم جميع الأموال ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ﴾ الحسان الجياد من السومة العلامة وهى التى لها علامة من الغرة والتحجيل ونحو ذلك أو المرعية من السوم أى الرعى ﴿ وَالْأَنْعَامِ ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿ وَالْحَرْثِ ﴾ الزرع اسم لكل ما يحرث من حب وغيره ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يتمتع به ، ثم يفنى ﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ المرجع وهو الجنة فينبغى الرغبة فيه دون غيره وفيه التزهيد فى الدنيا بتسميتها أولا شهوة وآخراً متاعاً تنفيراً وتحريضاً على استبدال شهواتها الفانية لطلب اللذات الأبدية بأن يصرف ما آتاه الله منها فى صلاحه فى الآخرة ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ المذكور من مستلذات الدنيا استفهام تقرير ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ مبتدؤه ﴿ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ مقدرين الخلود فيها إذا دخلوها استئناف لبيان ماهو خير ، ويجوز أن تتعلق اللام بخير ويرتفع جنات على هو جنات قاله البيضاوى ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ من الحيض وغيره مما يستقذر ﴿ وَرِضْوَانٌ ﴾ بكسر أوله للجمهور وضمه لشعبة فى جميع القرآن إلا الموضع الثانى فى العقود لغتان أى رضى كثير ﴿ مِّنَ اللَّهِ ﴾ الذى هو فوق كل نعمة فأدنى نعم الله الدنيا وأوسطها الجنة وأعلاها رضوان الله ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ ﴾ عالم ﴿ بِالْعِبَادِ ﴾ يعلم من يؤثر شهوات الدنيا أو الجنات أو الرضوان فيجازى كلا على عمله فى الدنيا والآخرة ﴿ الَّذِينَ ﴾ نعت أو بدل من الذين قبله مجرور أو منصوب أو مرفوع على المدح ﴿ يَقُولُونَ ﴾ يا ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ إنجازاً لوعدك ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ بفضلك ، وترتيب الغفران على الإيمان وحده يدل أنه كاف فى الاستحقاق فضلا ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ صفة الذين يقولون أو مدح بعد مدح

أى على الطاعة والمصائب وعن المعصية وفيه التوسل بالنفس ﴿وَالصَّـٰدِقِينَ﴾ فى الإيمان : توسل بالقول ﴿ وَالْقَـٰنِتِينَ ﴾ المطيعين لله سرًّا وعلانية : توسل بالفعل ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ توسل بالمال ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ ﴾ الله بأن يقولوا : اللهم اغفر لنا : توسل بالدعاء ﴿بِالْأَسْحَارِ﴾ أواخر الليل : خصت بالذكر لأنها وقت الغفلة ولذة النوم وتوسط الواو بين الصفات للدلالة على كمالهم فى كل واحدة ونظام هذه الصفات على وفق أحوال السالك فإن أول أمره قطع المألوفات والصبر على مفارقتها ثم الصدق فى عدم العود إليها ثم الدوام على الطاعة بدل المعاصى ثم إنفاق المال الذى هو شقيق الروح وحبه رأس كل خطيئة ثم الاستغفار مما يعتريه من التقصير الذى هو من لوازم البشرية فاعتبر هذه الآية واعمل بها فقد كفت السالك ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ أى كمّل وبيّن لخلقه بالدلائل العقلية والآيات الناطقة ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى لا معبود بحق فى الوجود إلا هو وعبر عن بيان ذلك بالشهادة على طريقة الاستعارة التبعية ﴿ وَ ﴾ شهد بذلك ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ بالإقرار بما عاينوه من عظيم قدرته ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ من الأنبياء والمؤمنين بالاستدلال بالاعتقاد واللفظ ، والكل داخل تحت الدلالة فلا جمع بين الحقيقة والمجاز إذ شبه الكل فى البيان والكشف بشهادة الشاهد ﴿ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ الباء للتعدية مقيما بالعدل فى حكمه وقسمه حال من فاعل شهد مؤكدة والعامل فيها معنى الجملة أى تفرد واختص بالحال لعدم اللبس كجاء زيد وهند راكباً ولا يجوز : جاء زيد وعمرو راكباً للّبس والأقرب أن يكون حالا من هو لأنه أقرب وأدل على المقصود وهو دخوله تحت الشهادة بالتوحيد وأوفق بالاستعمال من أن الحال المؤكدة أكثر ماتكون بعد الجملة الاسمية وكذا جعله منصوباً على المدح من « هو » أوجه من جعله مدحاً من فاعل شهد ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ كرره للتأكيد اعتناءً بأعظم المقاصد الذى هو التوحيد وليبنى عليه قوله ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ فى ملكه ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فى صنعه فيعلم أنه الموصوف بهما لأن العزة وهى القهر والغلبة تلائم الوحدانية والحكمة تلائم القيام بالقسط وارتفاعهما على البدل من هو وفى الحديث « يجاء بصاحب شهد الله يوم القيامة فيقول الله تعالى : لعبدى عهد أدخلوه الجنة» رواه الطبرانى عن ابن مسعود وفيه دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله وفيه حث العباد على تكرير كلمة التوحيد والاشتغال بها ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ ﴾ المرضى المقبول ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ هو ﴿ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ الشرع الذى جاء به محمد المبنى على التوحيد لا غيره وهو من قصر المسند إليه على المسند والجملة مستأنفة مؤكدة لجملة شهد الله وقرأ الكسائى بفتح أن بدل من أنه إلى آخره بدل اشتمال إن فسر الإسلام بالشريعة أو بدل كل إن فسر بالإيمان وحديث « بُنى الإسلام على خمس » ، وحديث جبريل حيث جاء يعلم الناس دينهم . يفسر ذلك . والدين لغة الجزاء فنقل إلى جميع ما تعبّد الله به خلقه لأنه سبب الجزاء ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ اليهود والنصارى فى الدين الذى هو التوحيد وما تضمنه بقولهم عزير ابن الله وعيسى ابن الله وثالث ثلاثة وفى الإسلام أنه حق وبعضهم يقول مخصوص بالعرب واللام فى الإسلام للعهد وفى

الكتاب للجنس { إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ } بحقيقة الأمر أو تمكنوا من العلم بالآيات والحجج { بَغْياً } حسداً { بَيْنَهُمْ } وطلباً للرياسة لا لشبهة { وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } وعيد لمن كفر منهم { فَإِنْ حَاجُّوكَ } فى الدين جادلوك بعد ما أقمت الحجج تعنتاً كما فعل نصارى نجران { فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ } فى اتباع دينه القويم وأترك المحاجة إذ لا معنى لها بعد اتضاح الحق ، والوجه مجاز عن الذات { وَمَنِ اتَّبَعَنِ } كذلك عطف على التاء فى أسلمت وحسن للفصل أو مفعول معه { وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } قبل القرآن { وَالْأُمِّيِّينَ } مشركى العرب { ءَأَسْلَمْتُمْ } كما أسلمت لما وضحت لكم الحجج أم أنتم بعد على كفركم ؟ استفهام تعيير بالبلادة أو المعاندة كما تقول لمن أوضحت له المسألة أفهمت ؟ المعنى أسلموا { فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا } من الضلال ونفعوا أنفسهم بالنجاة فى الآخرة { وَإِن تَوَلَّوْا } عن الإسلام { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ } تبليغ الرسالة وقد بلغت فلا يضرونك { وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } فيجازيهم بأعمالهم : وعد ووعيد { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ } ولحمزة يقاتلون { الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ } وهم اليهود روى أنهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبياً أول النهار فى ساعة واحدة فنهاهم مائة وسبعون من عبادهم فقتلوهم فى ذلك اليوم { فَبَشِّرْهُم } أعلمهم { بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } مؤلم وذكر البشارة تهكم وفى الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإن أدى إلى قتل الآمر فى حق الله أو حق الآدمى والخطاب لمعاصرى النبي من اليهود لرضاهم بفعل آبائهم { أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ } بطلت { أَعْمَالُهُمْ } كصدقة وصلة رحم { فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } فلا اعتداد بها لعدم شرطها { وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ } مانعين من العذاب { أَلَمْ تَرَ } تنظر { إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً } حظاً { مِّنَ الْكِتَابِ } التوراة ، ومن للتبعيض أو للبيان أى نصيباً هو الكتاب والتنوين للتعظيم { يُدْعَوْنَ } حال { إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ } التوراة أو القرآن { لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ } لأن بعضهم آمنوا { وَهُم مُّعْرِضُونَ } عن قبول حكمه نزلت فى اليهود زنى منهم اثنان فتحاكموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم لحكم عليهما بالرجم فأبوا فجئ بالتوراة فوجد فيها فرجما فغضبوا أو لما زعموا أن إبراهيم يهودى فقال لهم النبي بيننا التوراة فأتوا به فأبوا وثم لاستبعاد التولى بعد العلم أنه كتاب الله { ذَٰلِكَ } التولى { بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ } سبعة أو أربعين افتراء منهم أى سبب إعراضهم تسهيلهم العذاب عليهم بهذا الافتراء { وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم } متعلق بقوله { مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ } من قولهم ذلك وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وأن الله وعد يعقوب ألا يعذب أولاده وغير ذلك من أكاذيبهم { فَكَيْفَ } يكون حالهم { إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ } فى يوم { لَّا رَيْبَ فِيهِ } استعظام لما يلحقهم وتكذيب لدعواهم بأبلغ وجه { وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ } من أهل الكتاب وغيرهم { مَّا كَسَبَتْ } جزاءه من خير وشر { وَهُمْ } الضمير لكل نفس لأنه بمعنى الناس { لَا يُظْلَمُونَ } بنقص حسنة أو زيادة سيئة . ونزل لما وعد

النبي صلى الله عليه وسلم أمته ملك فارس والروم بعد فتح مكة فقال المنافقون : هيهات ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ ﴾ يا ألله الميم عوض عن حرف النداء وهو من خصائص هذا الاسم كدخول « يا » عليه مع « لام التعريف » يا ﴿ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ جنس الملك : نداء ثان عند سيبويه لأن الميم تمنع الوصفية ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ ﴾ أى نصيباً منه ﴿ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾ فالملك الأول عام والآخران بعضان منه وقيل الملك هنا النبوة ونزعها نقلها من قوم إلى قوم ﴿ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما بالنصر والإدبار والتوفيق والخذلان ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ تؤتيه أولياءك على رغم أعدائك ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لم يذكر الشر اكتفاء أو لأن الآية فى ذكر ما أعد للمؤمنين أو للأدب أو لأنه لا يوجد شر لم يتضمن خيراً ثم استدل على ذلك بما يدل على باهر قدرته بقوله ﴿ تُولِجُ ﴾ تدخل ﴿ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ حتى يصير خمس عشرة ساعة ﴿ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ كذلك فما نقص من هذا زاد فى هذا تعاقباً بينهما ومن قدر على ذلك قدر على معاقبة إيتاء الملك ونزعه ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ الحيوان من النطفة أو المؤمن من الكافر والعالم من الجاهل ﴿ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ فى عكس ذلك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر الميت بالتخفيف ﴿ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ومَن هذا شأنه فإيتاء جزء من الملك ونزعه أيسر ما يكون عليه ، ولما بين أن الخير كله بيده قطع توهم النفع من الكفار بالنهى عن ولايتهم بقوله ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ﴾ يوالونهم لقرابة أو صداقة ﴿ مِنْ دُونِ ﴾ غير ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ متجاوزين عنهم لأن فى ولايتهم مندوحة عن موالاة الكفار لأن الحب فى الله والبغض فى الله أصل كبير فى الإيمان ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ الموالاة بملاطفتهم والميل إليهم ونقل الأخبار إليهم ﴿ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ ﴾ من دينه أو ولايته ﴿ فِي شَيْءٍ ﴾ مرضى أو يسمى ولاية لأن ولاية المتعادين محال ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ ﴾ أى تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه بأن يكون لهم عليكم سلطة : استثناء مفرغ من المفعول من أجله والعامل فيه لا يتخذ أى لا يتخذوهم أولياء لشيء إلا للتقية ﴿ تُقَاةً ﴾ مصدر تقيته والتاء فيهما بدل من الواو والأصل وقيته وقاة أى تخافوهم مخافة فلكم موالاتهم ظاهراً باللسان دون القلب والعمل وهذا قبل عزة الإسلام وقيل يجرى فى كل بلد ليس قويا فيها . قال ابن عباس : ليس التقية بالعمل إنما باللسان . قال البيضاوى : نهى عن موالاتهم ظاهراً وباطناً فى الأوقات كلها إلا وقت المخافة فإن إظهار الموالاة حينئذ جائز . اهـ . زاد فى لباب التأويل من غير أن يستحل دما حراماً أو يظهرهم على عورات المسلمين أو غير ذلك من المحرمات ثم هذه التقية رخصة فلو صبر على إظهار إيمانه حتى قتل كان له بذلك أجر عظيم وأنكر قوم التقية اليوم بعد عزة الإسلام والله أعلم ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ يخوفكم أن يغضب عليكم إن واليتموهم وهذا وعيد شديد ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ فيجازيكم فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه تهديد مشعر بتناهى المنهى عنه فى القبح ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾ من موالاتهم أو غيرها ﴿ أَوْ تُبْدُوهُ

يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ وعيد بليغ بيان لقوله ويحذركم الله نفسه أى لأنه يطلع عليكم ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه عقوبتكم للموالاة . اذكر ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ جزاء ﴿ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ مفعول ثان لتجد أو حال من ما ﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ غاية فى نهاية البعد أو يوم منصوب بيحذركم أو تود بعده وماعملت عطف على ماعملت أى تود كل نفس يوم تجد خيرها وشرها حاضرين أن لو كان بينها وبين ذلك اليوم أمد بعيد ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ كرره للتأكيد لئلا يغفلوا عنه ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ حيث حذرهم من سخطه ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ ﴾ أى تريدون طاعته ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ بمعنى يثيبكم ويرضى عنكم نزلت فى قوم ادعوا محبة الله أو فى قول اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه أو فى قول المشركين: ما نعبد الأصنام إلا حبا لله ليقربونا إليه وفيه أن من ادعى محبة الله وخالف سنة رسوله فهو كاذب بنص كتاب الله ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن تحبب إليه بطاعته واتباع نبيه ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ فيما يأمركم به فهى علامة المحبة ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ عن الطاعة فهم كاذبون لا يحبون الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أقام الظاهر موضع المضمر إشارة إلى العلة بالتولى أى كفراً ينفى المحبة وقصداً للعموم ثم أشار إلى أحبائه فقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ اختار ﴿ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وأولادهما الأنبياء ﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ « موسى وهارون ابنى عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب » أو «عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان» من نسل يهودا بن يعقوب وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة ، وقيل المراد بآلهما أنفسهما ﴿ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ بما خصهم من النبوة والرسالة وجميع الخصائص الروحانية والجسمانية ﴿ ذُرِّيَّةًۢ ﴾ حال أو بدل من الأولين ﴿ بَعْضُهَا مِنۢ ﴾ ولد ﴿ بَعْضٍ ﴾ منهم أو من بعض فى الدين ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ لقول امرأة عمران وبنتها ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ ﴾ أو إذ منصوب باذكر وهى « حنة بنت فاقود » لما أسنت ودعت الله الولد فأحست بالحمل فنذرت أن تجعل ولدها حبساً لبيت المقدس كما قالت ﴿ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ عتيقاً خالصاً من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لقولى ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بنيتى ، ومات عمران وهى حامل ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ الضمير لما فى بطنها أنث باعتبار الخبر أى ولدتها جارية وكانت ترجو أن يكون غلاماً إذ لم يكن يحرر إلا الغلمان ﴿ قَالَتْ ﴾ معتذرة ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ تحسر منها ليس بعائدة الخبر ولابلازمها ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ أى عالم ﴿ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ بسكون التاء ولابن عامر وأبى بكر ضمها اعتراض من كلامه تعالى على الأول تعظيما لما وضعت ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ لأنه يقصد للخدمة وهى لا تصلح لها لضعفها وعورتها وما يعتريها من الحيض ونحوه ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ أى العابدة بلغتهم تفاؤلا ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ أولادها ﴿ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ المطرود . فى الحديث « ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان

حين يولد فيستهل صارخاً إلا مريم وابنها » رواه الشيخان . ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً ﴾ أنشأها بخلق حسن فكانت تنبت فى اليوم كما ينبت المولود فى العام وأتت بها أمها الاحبار سدنة بيت المقدس بعد ما ترعرعت أو عقب الولادة فقالت دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنها بنت إمامهم لأن أولاد « ماثان » ملوك بنى إسرائيل من نسل داود عليه السلام فقال زكرياء : أنا أحق بها لأن خالتها « أيشاع بنت فاقود » عندى ؛ فقالوا : لا حتى نقترع فانطلقوا وهم تسعة وعشرون إلى نهر الاردن وألقوا أقلامهم فى الماء الجارى على أن من وقف قلمه ولم يجر بالماء وصعد فهو أولى بها ، فجرت الأقلام وثبت قلم زكرياء عالياً ، وأخذها وبنى لها غرفة فى المسجد بسلم لا يصعد إليها غيره وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب ، وكان يأتيها بأكلها وشربها ودهنها فيجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء كما قال تعالى : ﴿وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّاءُ﴾ بالرفع والمد مع تخفيف الفاء فاعل للجمهور وشددها حمزة والكسائى وعاصم مع قصر زكريا إلا ابن عياش مده منصوباً مفعولا : ضمها إليه ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾ الغرفة وهى أشرف المجالس وهو كل موضع مشرف عال ، وهو هنا فى مقدم المسجد لأنه أشرف موضع منه سمى بالمحراب لمحاربة الشيطان فيه ﴿ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً ، قَالَ يَا مَرْيَمُ﴾ قال السيوطى فى التحبير : ليس فى القرآن اسم امرأة إلا مريم يكرر اسمها فى نحو ثلاثين موضعاً تصريحاً لعبوديتها التى هى معناه : رداً على النصارى أنها لها ألوهية . اه. ﴿ أَنَّى لَكِ ﴾ من أين لك ﴿ هَذَا ﴾ الرزق فى غير أوانه والأبواب مغلقة عليك ، وهو دليل على جواز الكرامة للأولياء ﴿ قَالَتْ ﴾ وهى صغيرة ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ يأتينى به من الجنة قيل لم ترضع ثدياً قط ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ من كلامها أو من كلامه تعالى بغير تقدير لكثرته أو بغير استحقاق تفضلا به ﴿ هُنَالِكَ﴾ فى ذلك المكان أو الوقت لما رأى زكرياء ذلك وعلم أن القادر على الإتيان بالشىء فى غير حينه قادر على الإتيان بالولد على الكبر وكان قد أسن وانقرض أهل بيته ﴿ دَعَا زَكَرِيَّا ﴾ وابن أذن بن مسلم بن صدوق من أولاد سليمان بن داود عليهم السلام» ﴿رَبَّهُ﴾ لما دخل المحراب للصلاة فى جوف الليل ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴾ من عندك ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ ولداً صالحاً كما وهبتها « لحنة » والذرية تطلق على الواحد والجمع والذكر والأنثى وأنث طيبة لتأنيث لفظ الذرية ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ مجيبه ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أى من هو من جنسهم جبريل عليه السلام ، وقرأ حمزة والكسائى فناداه بالإمالة والتذكير ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾ أى المسجد ﴿أَنَّ﴾ أى بأن الله ولابن عامر وحمزة بالكسر بتقدير القول ﴿ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ ﴾ مثقلا للجمهور ومخففاً لحمزة والكسائى ﴿ بِيَحْيَى ﴾ اسم أعجمى أو عربى منع الصرف للتعريف ووزن الفعل ﴿مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ ﴾ كائنة ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى بعيسى أنه روح الله سمى كلمة لأنه خلق بكلمة كن وكان يحيى أول من آمن بعيسى ويحيى أكبر منه بستة أشهر ﴿ وَسَيِّداً ﴾ فى العلم والعبادة والورع والحلم لم يعمل سيئة قط ولا همّ بها ﴿ وَحَصُوراً ﴾ مبالغاً

فى منع نفسه عن الشهوات والملاهى . مر بصبيان وهو صبي فدعوه للعب فقال : ما للعب خلقت . وامتنع عن النساء مع القدرة على إتيانهن ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ﴾ وصف له بالنسب الفاخر بعد الثناء عليه بالحسب الزاهر ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ﴾ استبعاد من حيث العادة واستفهام عن كيفية حدوثه إذ كان له تسع وتسعون أو مائة وعشرون سنة ولامرأته ثمان وتسعون ﴿وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ لا تلد ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ على هذه الصفة إنشاء الولد من شيخ فان وعجوز عاقر ، وكذلك الله ، مبتدأ وخبر ، وجملة يفعل بيان لما قبله أو كذلك خبر مبتدأ محذوف أى الأمر كذلك والله إلى آخره بيان ، ولإظهار هذه القدرة العظيمة ألهمه الله السؤال ليجاب بها ، وإنما قال هنا يفعل وفى ما يأتى يخلق لأن زكرياء أعطى النادر ومريم الخارق . ولما تاقت نفسه إلى سرعة المبشر به ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّى ءَايَةً﴾ على حمل امرأتى لأستقبله بالشكر ﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾ عليه ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ تمنع من كلامهم بخلاف ذكر الله إسعافاً لطلبك ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ بلياليها سويا ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ إشارة بيد أو رأس وأصله التحرك والاستثناء منقطع وقيل متصل والمراد بالكلام ما دل على الضمير ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ فى تلك الأيام تأكيد لما قبله مبين للغرض منه ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِىِّ﴾ من الزوال إلى الليل ﴿وَالْإِبْكَٰرِ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى لأنهما أشرف الأوقات وأقرب إلى الإجابة ، أو عبر عن الكل بالطرفين ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أى جبريل ﴿يَٰمَرْيَمُ﴾ كلها شفاهاً ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰكِ﴾ أولا بالقبول ولم يقبل أنثى للسدانة قبلها وبالرزق من عنده إغناء عن الكسب ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من مسيس الرجال وأقذار النساء وقذف اليهود بإنطاق ابنها ﴿وَاصْطَفَىٰكِ﴾ ثانياً بإرسال الملائكة إليك وإعطاء الولد من غير أب ﴿عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَٰلَمِينَ﴾ أهل زمانك ﴿يَٰمَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ أطيعيه ﴿وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾ أى صلى مع المصلين أمرت بالصلاة مع الجماعة مبالغة فى المحافظة عليها أو المراد بالركوع الخشوع ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصة حنة وزكرياء ومريم ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ التى لا تعرف إلا بالوحى ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ التى يكتبون بها التوراة فى الماء تبركا ليظهر لهم ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ﴾ يربى ﴿مَرْيَمَ﴾ تقرير لكونه وحياً على سبيل التهكم بمنكريه ، إذ عدم سماعه لهذه الوقائع معلوم عندهم وأحرى العيان فلم يبق إلا الوحى ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ تنافساً فى كفالتها وإنما عرفته بالوحى ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بدل من إذ قالت الملائكة قبلها ، وما بينهما اعتراض ، أو بدل من إذ يختصمون ، أى وما كنت لديهم إذ قالت الملائكة ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أى ولد ﴿اسْمُهُ﴾ ذكر لتذكير الخبر الذى هو ﴿الْمَسِيحُ﴾ عبرانى معناه المبارك ﴿عِيسَى﴾ بيان له ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ خاطبها بنسبته إليها تنبيهاً على أنها تلده بلا أب إذ العادة النسبة إلى الآباء ﴿وَجِيهًا﴾ ذا جاه ﴿فِى الدُّنْيَا﴾ بالنبوة والطاعة ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالشفاعة والدرجات العلا ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ بالرفع إلى السماء وصحبة الملائكة ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ﴾

طفلا قبل وقت الكلام معجزة ﴿ وَكَهْلًا ﴾ كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حالة الطفولة والكهولة ، والمهد مصدر سمى به ما يمهد فيه والقرب أخص من الوجاهة والكهل من الثلاثين إلى الأربعين من اكتهل النبت وقارب اليبس ﴿ وَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴾ من جملتهم حال وكذا ماقبله وكلها أحوال مقدرة أى يبشرك به مقدراً اتصافه بهذه الصفات ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ بتزوج ولا غيره استبعاد عادى ﴿ قَالَ ﴾ الأمر ﴿ كَذَٰلِكِ ﴾ من خلق الولد منك بلا أب ﴿ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ أراد خلقه ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أى فهو يكون كما يريد أى كما يقدر الخلق مع الأسباب كذلك مع غيرها ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ﴾ بالياء لنافع وعاصم وللباقين بالنون ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ الخط وكان أحسن الناس خطاً فى زمانه ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ الحلال والحرام ﴿وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ خصا لفضلهما وجملة يعلمه وما بعدها مستأنفة لتطييب قلبها وإزاحة ما همها من خوف اللوم ، أو عطف على يبشرك بتقدير القول أى ويقول يعلمه أو على يخلق وهو أولى لعدم الفصل ﴿ وَرَسُولًا ﴾ منصوب بمضمر على إرادة القول أى ويقول أرسلت رسولا ﴿ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أو بالعطف على الأحوال المتقدمة مع جعله بمعنى الناطق أى وناطقاً ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ ﴾ على صدق ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ ﴾ بالكسر لنافع استئناف ولغيره بالفتح بدل من أنى قد جئتكم أو خبر مبتدإ محذوف أى هى أو بدل من « آية » وهو أولى لدلالته على أنه بقدرته تعالى ﴿ أَخْلُقُ ﴾ أصوّر وأقدر ﴿ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ﴾ مثل صورته المهيأة ، والكاف اسم مفعول والهيئة فى الأصل مصدر هاء الشىء يهىء هيئة وهيئاً إذا استقر على حال ما وتعديه بالتضعيف نحو « ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً » ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ ﴾ الضمير للكاف ﴿ فَيَكُونُ ﴾ حيًّا ﴿ طَٰٓئِرًۢا ﴾ بألف وهمزة لنافع هنا وفى المائدة وللباقين « طيراً » اسم جمع ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أى الإحياء بإرادته ومنه لا مِنّى فخلق الخفّاش : كرُمّان الذى يطير فى الليل على سؤالهم لأنه أكمل الطير خلقاً إذ يطير بلا ريش وله أسنان وأثداء تحيض فكان يطير وهم ينظرونه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ليتميز فعل المخلوق من فعل الخالق ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ ﴾ الذى ولد أعمى أو مع طمس العين ﴿ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾ وخُصّا لأنهما داءا إعياء وكان بعثه فى زمن الطب فأبرأ فى يوم خمسين ألفاً بالدعاء بشرط الإيمان لخرق عادة الأطباء وعلموا أن هذه القوة من الله كأمر السحرة مع موسى والفصحاء مع محمد صلى الله عليه وسلم ، وزاد عليهم بقوله ﴿ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ كرره لنفى توهم الإلهية فأحيا « عازراً » صديقاً له وابن العجوز وابنة العاشر فعاشوا وولد لهم وسام بن نوح ومات فى الحال ، والله أعلم . قال فى الجواهر : وفى قصص الإحياء أحاديث لا يوقف على صحتها . اه . ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾ مما لم أعاينه فكان يخبر الشخص بما أكل وما يأكل بعد ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بالآيات غير معاندين ﴿ وَمُصَدِّقًا ﴾ عطف على رسولا على الوجهين أو منصوباً بإضمار فعل دل عليه قد جئتكم أو على محل بآية ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ ﴾

قبلي ﴿ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ وهذا شأن جميع الرسل يصدق بعضهم بعضاً ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ فى التوراة كالشحوم ولحوم الإبل ومن الطير والسمك ما لا صيصة له وهى الشوك الذى يكون فى رجل الديك ونحوه والعمل يوم السبت وهذا يدل على أن شرعه كان ناسخاً لبعض شرع موسى وقيل أحل الجميع فبعض بمعنى كل ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ألهمنيها أن أنبئكم عليها وهى أن الله ربى ... إلى آخره وقوله فاتقوا الله اعتراض أوكرر « وجئتكم » تأكيداً أى جئتكم بآية بعد آية . وهى ما تقدم ولينبنى عليه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى تكذيبى ﴿وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من توحيد الله وطاعته ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ فكذبوه ولم يطيعوه ، واعلم أن الخطاب من قوله « إن الله يبشرك » إلى «إسرائيل» لمريم اتفاقاً ومن قوله «إنى قد جئتكم» إلى قوله «مستقيم» محتمل أن يكون خطاباً لها على معنى يكون من قوله لبنى إسرائيل كيت وكيت ويكون فى آخر الكلام محذوف دل عليه الظاهر تقديره : فجاء عيسى بنى إسرائيل فقال لهم ما تقدم ذكره ، ويحتمل أن يكون المحذوف مقدراً أول الكلام بعد قوله إلى بنى إسرائيل تقديره ، فجاءهم بعد الرسالة بأنى قد جئتكم وليس خطاباً لها ، والأول أظهر قاله عبد الرحمن الثعالبى فى الجواهر الحسان ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ علمه علماً لا شبهة فيه كما يدرك بالحواس وأرادوا قتله ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِي ﴾ أعوانى ذاهباً ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى نصر دينه بالدعاء إليه ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ أعوان دينه وهم أصفياء عيسى أول من آمن به وكانوا اثنى عشر رجلا : وحوارى الرجل خالصته : من الحور وهو البياض الخالص سموا بذلك لخلوص نيتهم أو لأنهم علوا بلبس البياض أو لأنهم قصّارون يبيضون الثياب ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ ﴾ لنا يا عيسى يوم القيامة ﴿ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ منقادون لما تريد من نصرك والذّب عنك ، واشهد لنا بالإسلام الذى هو دين الأنبياء جميعاً ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ ﴾ من الإنجيل ﴿ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ عيسى ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق ، أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم ، أو مع أمة محمد لأنهم شهداء على الأمم ﴿ وَمَكَرُوا ﴾ الذين أحس منهم الكفر من اليهود بأن وكّلوا من يقتل عيسى غيلة ﴿ وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ بهم بأن ألقى شبه عيسى على من قصد قتله فقتلوه ورفع عيسى بعد ما فرق حواريه فى الأرض ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ أى أعلمهم به وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب وهو المكر ولا يضاف إلى الله إلا المشاكلة ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ ﴾ ظرف لمكر الله أو خير الماكرين أو لمضمر مثل وقع ذلك أو اذكر ﴿ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ قابضك من الأرض ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ إلى السماء من توفيت المال استوفيته ، أو رافعك الآن وبعد النزول متوفيك بالموت فقدمه اهتماماً لئلا يتوهم أن الرفع مانع من الموت ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من دنس أخلاقهم وخبث جوارهم ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ ﴾ صدقوا بنبوّتك من النصارى والمسلمين ﴿ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بك وهم اليهود يعلونهم بالحجة والسيف ، ولم تقم لليهود راية بعد ذلك بل لم يزالوا

مقهورين تحت السيف والجزية حتى صار مثلا «أذل من اليهود» ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أنت ومن واتفك ومن خالفك ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين وأجازى كلا بموجب عمله ثم فصّل ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا ﴾ بالقتل والسبى ﴿ وَالْآخِرَةِ ﴾ بالنار ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ مانعين منه ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَنُوَفِّيهِمْ ﴾ بالنون للجمهور والياء لحفص ﴿ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ أى يعاقبهم ، تذييل حسن ، لأن تعذيب المحب محبوب . « روى : أن الله أرسل إلى عيسى سحابة فرفعته فتعلقت به أمه وبكت فقال لها : إن القيامة تجمعنا وكان ذلك ليلة القدر ببيت المقدس وله ثلاث وثلاثون سنة وعاشت أمه بعده ست سنين » وروى الشيخان حديث « أنه ينزل قرب الساعة ويحكم بشريعة نبينا ويقتل الدجال والخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ويمكث أربعين » وفى حديث مسلم « أنه يمكث سبع سنين » وفى حديث عند أبى داود الطيالسى « أربعين سنة ويتوفى ويصلى عليه » قال السيوطى : يحتمل أن المراد مجموع لبثه فى الأرض قبل الرفع وبعده . اهـ . قال ابن عطية : أجمعت الأمة أن عيسى فى السماء حىٌّ وأنه ينزل فى آخر الزمان إلى آخر ما قال ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من أمر عيسى ﴿ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ مِنَ الْآيَاتِ ﴾ حال من الهاء فى نتلوه وعامله ما فى ذلك من معنى الإشارة ﴿ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ القرآن المحكم ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ ﴾ شأنه الغريب ﴿ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ كشأنه فى خلقه من غير أب وأم وهو من تشبيه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأوقع فى النفس ﴿ خَلَقَهُ ﴾ قالبه ﴿ مِن تُرَابٍ ﴾ جملة مفسرة للتمثيل أى قدر جسده من تراب ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن ﴾ بشراً ﴿ فَيَكُونُ ﴾ أى فكان وكذلك عيسى قال له كن من غير أب فكان ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ خبر مبتدإ محذوف ، أى أمر عيسى أو « الحق » مبتدأ و « من ربك » خبره ، أى الحق المذكور من الله ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ الشاكين فيه والخطاب للنبى والمراد غيره ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ ﴾ فى عيسى وهم نصارى نجران لما وفدوا عليه من نجران : واد باليمن ، كان لهم فيه مائة وعشرون قرية مسيرة يوم للراكب المسرع فدعاهم إلى الإسلام فأبوا إلا عناداً فأمر بمباهلتهم ﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ من دلائله ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾ أى يدعو كل منا ومنكم نفسه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه فنجمعهم ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ نتضرع فى الدعاء بأن نقول بهلة الله أى لعنة الله على الكاذبين ، وهذا أصل الابتهال ثم استعمل فى كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعاناً وأصل البهلة بالضم والفتح الترك من قولهم بهلت الناقة تركتها بلا راع ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ تفسير للابتهال بأن تقول اللهم العن الكاذب فى شأن عيسى وقد دعا صلى الله عليه وسلم وفد نجران لذلك لما حاجوه فيه فقالوا حتى ننظر فى أمرنا ثم نأتيك صبيحة غد فخلوا فتشاوروا بينهم فقالوا لذى رأيهم وهو عاقب : ما ترى ؟ فقال : لقد عرفتم نبوته وأنه ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا فوادعوا

الرجل وانصرفوا يعنى صالحوه على تركىكم فأتوه وقد خرج ومعه الحسن آخذاً بيده ومحتضناً الحسين وفاطمة وراءه وعلىّ وراءها وقال لهم : إذا دعوت فأمنوا فقالوا له : يا أبا القاسم بدا لنا أن لا نباهلك فقال : أسلموا يكن لكم ما للمسلمين : فقالوا : أنت على دينك ونحن على ديننا : فقال : بينى وبينكم الحرب حينئذ : فقالوا : ما لنا بحرب العرب طاقة ، بل نصالحك على أن تؤدى إليك كل سنة ألفى حلة حمراء : ألفاً فى رجب ، وألفاً فى صفر ، وثلاثين درعاً من حديد ، وثلاثين بعيراً ، وثلاثين فرساً ، على أن لا تغزونا ولا تردنا عن ديننا : نصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وكتب بذلك كتاباً وسألوه أن يبعث معهم أميناً فبعث إليهم أبا عبيدة الجراح . قال الزهرى فهو أول جزية فى الإسلام . وعن ابن عباس أن النبى قال : « لو باهلوا لهلكوا من عند آخرهم » ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ المذكور ﴿ لَهُوَ الْقَصَصُ ﴾ الخبر ﴿ الْحَقُّ ﴾ الذى لا شك فيه ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ رد على نصارى نجران فى تثليثهم ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ردٌ عليهم لأن عيسى لم يكن كذلك ، أى لا أحد يساويه فى القدرة التامة والحكمة البالغة حتى يشاركه فى الألوهية ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أعرضوا عن الإيمان ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ وعيد لهم وفيه وضع الظاهر موضع المضمر ليدل على أن التولى عن التوحيد إفساد للدين المؤدى إلى فساد العالم ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ اليهود والنصارى عام فى نصارى نجران وغيرهم ﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ ﴾ أى كلام ﴿ سَوَاءٍ ﴾ مصدر بمعنى مستو أمرها لم يختلف فيها الرسل والكتب ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ لاتفاق القرآن والتوراة والإنجيل فيها وهى ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ كقول : عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ كما اتخذتم الأحبار والرهبان فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله لهم ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عن التوحيد ﴿ فَقُولُوا ﴾ أنتم لهم ﴿ اشْهَدُوا ﴾ اعترفوا ﴿ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ دونكم واعترفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل : تأمل رونق الكلام فى هذه المناظرة من أول السورة إلى هنا ، فقد تدرج فيها أحسن تدرج ذكر أولا أطوار عيسى وغيره المنافية للألوهية ، ثم ذكر حدوث مريم التى هى أصل عيسى وأحوالها المنافية للألوهية ، ثم أزاح شبههم بما هو أغرب حالا منه ، ثم لما أصروا على العناد دعاهم إلى المباهلة ولما أحجموا عنها أخذ معهم نوعاً آخر من الإرشاد وهو الدعاء إلى ما تطابق عليه الملل ولما أيس منهم أحسن المتاركة بقوله اشهدوا بأنا مسلمون . ونزل لما قال اليهود إبراهيم يهودى ونحن على دينه . وقالت النصارى كذلك ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ ﴾ تخاصمون ﴿ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ بزعمكم أنكم على دينه ﴿ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ بزمن طويل وبين إبراهيم وموسى ألف سنة وبينه وعيسى ألفا سنة وبعدهما حدثت اليهودية والنصرانية ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بطلان قولكم لأن المتقدم لا يكون على طريق المتأخر ﴿ هَا ﴾ للتنبيه ﴿ أَنْتُمْ ﴾ مبتدأ يا ﴿ هَٰؤُلَاءِ ﴾ والخبر ﴿ حَاجَجْتُمْ ﴾ أو الخبر هؤلاء وجملة « حاججتم » مستأنفة لبيان الأولى وصدرها

بالتنبيه لشدة غفلتهم والإشارة للتحقيق أى أنتم هؤلاء الحق وبيان حاقتكم أنكم جادلتم ﴿ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ من أمر موسى وعيسى مما نطق به التوراة والإنجيل وزعمتم أنكم على دينهما ﴿ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ إذ لا يلتبس بطلانه على أحد ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ شأن إبراهيم ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ بل جاهلون، فاتبعوا رسوله الناطق بالوحى ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ تصريح بما علم ضمناً، مبالغة فى بيان الحق ﴿ وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا ﴾ مائلا عن الباطل ﴿ مُّسْلِمًا ﴾ لله ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ تعريض بمن كان يدعى أنه على ملته لإشراكهم به عزيراً والمسيح، ورد لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أقربهم ﴿ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ فى زمانه ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم لموافقته له فى أكثر ما شرع له على الأصالة ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ من أمته فهم أولى أن يقولوا نحن على دينه لا أنتم أيها المشركون ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ينصرهم ويجازيهم الحسنى ويحفظهم. ونزل لما دعا قريظة والنضير معاذاً وحذيفة وعماراً إلى اليهودية بعد وقعة أحد ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ ودّ بمعنى تمنى يستعمل معها أن ولو وربما جمعا نحو ودّ أن لو فعل، ومصدره الودادة، والاسم منه الودّ، ويأتى ودّ بمعنى أحب، ومصدره مودة، والاسم الودّ، وقد يتداخلان فى المصدر والاسم ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ لأن إثم إضلالهم عليهم والمؤمنون لا يطيعونهم فيه فلا يضلون إلا أمثالهم ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ بذلك لغاية جهلهم ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ القرآن المشتمل على نعت محمد، أو التوراة والإنجيل الناطقة بنبوة محمد وصدقه ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ تعلمون أنه حق أو تشهدون نعته فى الكتابين ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه حق وتعلمون ما على كاتم الحق من الإثم ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ منهم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ﴿ ءَامِنُوا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أظهروا الإيمان بالقرآن لهم ﴿ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ ﴾ أوله ﴿ وَٱكْفُرُوٓا ﴾ به ﴿ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن دينهم إذ يقولون ما رجع هؤلاء عنه بعد دخولهم فيه وهم أولو العلم إلا لعلمهم بطلانه مكيدة شاوروها بينهم فأظهرها الله قبل عملهم ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا ﴾ لا تصدقوا أولا تظهروا إيمانكم ﴿ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ اللام زائدة، قال تعالى ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ الذى هو الإسلام وماعداه ضلال والجملة اعتراض - يدل أن كيدهم لا ينفع - بين تؤمنوا ومفعوله وهو ﴿ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ ﴾ من الكتاب والحكمة والفضائل والمستثنى منه أحد، قدم عليه المستثنى، المعنى: لا تقروا بأن أحداً يؤتى بذلك إلا لمن تبع دينكم ولا تظاهروا التصديق بذلك إلا لأتباعكم لا للمسلمين لئلا يزدادوا تصلباً ولا للمشركين لئلا يرغبوا فيه، ويجوز أن يتم الكلام عند قوله «إلا لمن تبع دينكم» وحينئذ فـ «أن يؤتى» يتعلق بمضمر أى دبرتم مادبرتم لأن لا يؤتى أحد أو تنكرون ويؤيده قراءة ابن كثير أن يؤتى بالاستفهام التوبيخى أى أن الحسد حملكم على ذلك، وقرئ على أنها النافية فيكون من كلام

الطائفة ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ عطف على أن يؤتى والضمير لأحد لأنه فى معنى الجمع : أى لا تؤمنوا أن أحداً يغلبكم بالحجة أو لا تقروا لغير أتباعكم ذلك ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يوم القيامة قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ فمن أين لكم أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ • يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ردّ لهم أبلغ من الأول ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ مال كثير ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ لأمانته «كعبد الله بن سلام» أودعه قرشى ألفاً ومائتى أوقية ذهباً فأداها إليه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ أو أقل ﴿لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ لخيانته ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ بالإلحاح والمخاصمة إلى الحكام «ككعب بن الأشرف» أو «فنحاص» استودعه قرشى آخر ديناراً فجحده يعنى منهم ذو أمانة ومنهم خائن فى أقل شىء ، وقيل المأمونون النصارى والخونة اليهود ، وقرأ نافع والجمهور بكسر هاء «يؤده» و«لا يؤده» مشبعاً الاقالون وهشاما اختلاسه ، وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر بإسكان الهاء ﴿ذَٰلِكَ﴾ ترك الأداء ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ العرب ﴿سَبِيلٌ﴾ أى إثم لاستحلالهم ظلم من خالف دينهم . بايعهم جماعة من العرب فلما أسلموا قال لهم اليهود تركتم دينكم وانقطع العهد بيننا وبينكم فليس لكم علينا حق وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم ، وقيل كانوا يقولون إن الأموال كلها لنا والعرب ظلمونا وغصبوها منا فلا سبيل علينا فى أخذها منهم بأى طريق كان فأكذبهم الله بقوله : ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بنسبة ذلك إليه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون . قال عليه السلام لما نزلت «كذب أعداء الله ما من شىء كان فى الجاهلية إلا هو تحت قدمى إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر» قال ابن العربى فى الأحكام : قال رجل لابن عباس : إنا نصيب فى الغزو من أهل الذمة الدجاجة والشاة ونقول ليس علينا بذلك بأس ؛ فقال له : هذا كما قال أهل الكتاب ليس علينا فى الأميين سبيل إنهم إن أدوا الجزية لم يحل لكم من أموالهم شىء إلا عن طيب أنفسهم . اهـ . وقال أيضاً فالأمانة عظيمة القدر فى الدين ومن عظم قدرها أنها تقف على جنبى الصراط لاتمكن من الجواز إلا من حفظها ولذا قيل : «لا تخن من خانك فى الأمانة ، ولا يجوز أن تغدر من غدرك» اهـ . ﴿بَلَىٰ﴾ عليهم فيهم سبيل ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ﴾ الذى عاهد الله عليه أو بعهد الله عليه من أداء الأمانة وغيره فالضمير لمن أو لله ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ الله بترك المعاصى - ومنها الخيانة - وعمل الطاعات ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة أنه بذلك يدخل فى المتقين وجملة الشرط وجوابه استئناف لتقرير ماقبلها وعموم المتقين ناب مناب الراجع من الجزاء إلى من وأشعر بأن التقوى يعم الوفاء وغيره من أداء الواجبات واجتناب المناهى . ونزل فى اليهود لما بدلوا نعت النبى وعهد الله إليهم فى التوراة وأخذوا على ذلك رشوة . أو فى رجل أقام سلعة فى السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يشترها به ، أو فى «أشعث بن قيس» ويهودى فى بئر وتوجه الحلف على اليهودى كما فى البخارى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ إليهم فى الإيمان بالنبى أو فى أداء الأمانة

﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾ من قولهم لنؤمنن به ولننصرنه ، أو حلفهم به كذباً ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الدنيا ﴿أُولَـٰئِكَ لَا خَلَـٰقَ﴾ نصيب ﴿لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم وفى الآية دليل على أن حكم الحاكم لا يحل الحرام باطناً ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿لَفَرِيقًا﴾ ككعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيىّ بن أخطب ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم﴾ يعطفونها ويفتلونها ﴿بِالْكِتَـٰبِ﴾ بقراءته عن المنزل إلى ما حرفوه كصفة النبي وآية الرجم أو بتغيير حركاته بما يغير معناه ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ أى المحرف ﴿مِنَ الْكِتَـٰبِ﴾ الذى أنزله الله ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَـٰبِ﴾ فى شىء ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ تأكيد لقوله «وما هو من الكتاب» وتشنيع عليهم بأنهم يقولون ذلك تصريحاً لا تعريضاً ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ ما ينبغى له ﴿أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَـٰبَ وَالْحُكْمَ﴾ الفهم للشريعة والحكم بين الناس ﴿وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّى مِن دُونِ اللَّهِ﴾ تكذيب لنصارى نجران فى قولهم إن عيسى أمرهم أن يتخذوه ربًّا وردٌّ على من قال من المسلمين يارسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ولا نسجد لك . فقال : «لا ينبغى أن يُسجد لأحد من دون الله ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله» ﴿وَلَـٰكِن﴾ يقول ﴿كُونُوا رَبَّـٰنِيِّينَ﴾ علماء عاملين معلمين منسوب إلى الرب بزيادة ألف ونون تفخيما ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بالتخفيف لنافع وابن كثير وأبى عمرو، والتشديد لابن عامر والكوفيين ﴿الْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ بسبب كونكم عالمين أومعلمين دارسين أومدرسين إذ قرئ تدرسون من التدريس فإن فائدته أن تعملوا ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ بالرفع لنافع وابن كثير وأبى عمرو والكسائى استئناف أى : الله ، والنصب للباقين عطفاً على يقول أويؤتى و«لا» تأكيد أى البشر ﴿أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَـٰئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ كما اتخذت الصابئة الملائكة ، واليهود عزيراً ، والنصارى عيسى ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ يدل على أن المخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأذنوا النبي فى السجود له ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ﴾ حين ﴿أَخَذَ اللَّهُ مِيثَـٰقَ النَّبِيِّينَ﴾ العهد منهم ومن أممهم حين أخرج بنى آدم من ظهره أو كل نبى فى زمنه أو الإضافة إلى الفاعل أى أخذ الله الميثاق الذى وثقه الأنبياء على أممهم ﴿لَمَا﴾ بفتح اللام للجمهور للابتداء أو لتوكيد القسم الذى فى أخذ الميثاق ، وكسرها حمزة لام جر للتعليل متعلقة بأخذ وما موصولة على الوجهين أو مصدرية على الثانى أى للذى ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾ بالنون والألف لنافع ولغيره «آتيتكم» بالتاء المضمومة ﴿مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾ به ﴿رَسُولٌ﴾ من الرسل أو محمد فقط ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من الكتاب والحكمة ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ جواب القسم إن أدركتموه ، والمعنى أن الله أخذ العهد على كل نبىّ أن يؤمن بمن يأتى بعده من الأنبياء وينصره إن أدركه وأن يأمر قومه بذلك أو أخذ الميثاق عليهم فى ذلك فى محمد فقط . وعن علىّ بن أبى طالب «ما بعث الله نبياً آدم فن

بعده إلا أخذ عليه العهد في أمر محمد وأخذ هو العهد على قومه ليؤمنن به ولينصرنه ، وقيل إنّ المراد أن الأنبياء كانوا يأخذون العهد على أممهم بأنه إذا بعث محمد أن يؤمنوا به وينصروه : قال في لباب التأويل وهذا قول كثير من المفسرين ﴿ قَالَ ﴾ تعالى للأنبياء وقال كل نبي لقومه ﴿ ءأَقْرَرْتُمْ ﴾ بذلك ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي عهدي الثقيل سمي به لثقل المحافظة عليه أو لأنه يوصر أي يشد ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ على أنفسكم وأتباعكم بذلك أو أدوا هذه الشهادة إلى أممكم أو إلى الرسول ﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عليكم وعليهم ومعنى نصب إذا باذكر أي اذكر ما ذكر للشكر ليعلم ما خصك الله به من الدرجات العلا وفيه توبيخ للمحرفين وتحذير عظيم بكونه من الشاهدين ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الميثاق المؤكد بالإقرار والشهادة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفار ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ بالتاء للجمهور وبالياء لأبي عمرو وحفص ، أي : المتولون عطف على الجملة المتقدمة والهمزة متوسطة بينهما للإنكار أو على محذوف تقديره أتتولون فغير دين الله تبغون وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإنكار ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ ﴾ انقاد ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا ﴾ حال أي طائعين ﴿ وَكَرْهًا ﴾ بالسيف ومعاينة ما يلجئ إليه كرفع الجبل ونحوه ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالتاء ولحفص فقط بالياء ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ منقادون أو مخلصون في عبادته ، والنزول يعدى بإلى كما في البقرة لأنه ينتهي إلى الرسل ويعلى كما هنا لأنه من فوق ، وقدم المنزل عليه عليه السلام على المنزل على سائر الرسل لأنه المعرف له والمعيار عليه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ تمييز ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ لمصيره إلى النار المؤبدة عليه وهذه الآية قطعت عمل كل عامل على غير ملة الإسلام ثم استفهم منكراً مبعداً فقال ﴿ كَيْفَ ﴾ أي لا ﴿يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا ﴾ عطف على كفروا أي وشهادتهم ﴿ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ ﴾ قد ﴿ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ الحجج الظاهرات على صدق النبي نزلت في رهط أسلموا ثم ارتدوا ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يدل على جواز لعنهم ومنع لعن المؤمن ، وتقدم تفصيل ذلك في البقرة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي اللعنة أو النار المدلول بها عليها ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ . إِلَّا﴾ لكن ﴿ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ ما أفسدوا أو دخلوا في الصلاح كالحارث بن سويد ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقيل الآية في اليهود كن في قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بعيسى ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ بموسى ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ﴾ بمحمد ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا غرغروا وماتوا كفاراً ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ﴾ مقدار ما يملؤها ﴿ ذَهَبًا ﴾ تغليظ في شأنهم وإبراز حالهم في حال الآيس من الرحمة ، ولما كان الموت على الكفر سبباً لامتناع قبول الفدية أدخل

الفاهنا للإشعار به، وذهبا نصب على التمييز وقرئ بالرفع على البدل من ملء ﴿وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ وسمى لأنه غاية الكثرة عرفاً ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ مانعين منه ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ أى ثوابه وهو الجنة أو حقيقة البر التى تكونون به أبراراً ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا﴾ تصدقوا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ من أموالكم أو أبدانكم فى إعانة المسلمين وأرواحكم فى سبيل الله إذ لا وصول إلى المطلوب إلا ببذل المحبوب، ولما نزلت تصدق أبو طلحة بحديقته بَيْرحاء لأنها أحب أمواله إليه، وزيد بن حارثة بفرسه، وعمر بن الخطاب بسهمه بخيبر، وكان ابن عمر يشترى أعدال السكر يتصدق به فقيل له: لِمَ لا تتصدق بثمنها؟ قال: لأن السكر أحب إلىّ وحكايات الصحابة فى أمثال ما ذكر لا تحصى ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ﴾ قليل أو كثير محبوب أو غيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازى عليه بحسبه. ولما كانت هذه الآية للإنفاق مستطردة لمناسبة افتداء الكافر حين لا ينفع: عاد إلى قبائح اليهود المنكرين للنسخ القائلين للنبي: تزعم أنك على ملة إبراهيم وكان لا يأكل لحوم الإبل ولا يشرب ألبانها فأكذبهم بقوله ﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾ أى المطعومات التى فيها النزاع إذ منها ما هو محرم من آدم كالميتة والدم ﴿كَانَ حِلًّا﴾ حلالا مصدر بمعنى الفاعل نعت به ولذا يستوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قبل إنزال التوراة ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾ يعقوب ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ بإذن الله للتداوى وهو لحوم الإبل وألبانها لما حصل له عرق النسا بالفتح والقصر مرجعه من حران مع أخيه العيص إلى بيت المقدس وكانت أحب الطعام إليه فنذر إن شفى أن لا يأكلها شكراً لله أو فعل ذلك تقرباً إلى الله بترك الترفه لحرم عليهم وفيه استحباب ترك الترفه وكان أبو حازم الزاهد إذا رأى الفواكه الحسنة أو شيئاً من محاسن الدنيا يقول موعدك الجنة إن شاء الله لكن لو حرم الرجل الحلال لم يحرم عليه فى شرعنا إلا زوجته فتحرم عليه على الصحيح ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ وذلك بعد إبراهيم ولم تكن على عهده حراماً كما زعموا فلما نزلت حرمت عليهم بظلمهم أشياء تأتى ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾ لتبين صدق قولكم: أمر أن يحاكمهم بكتابهم ويحاجهم به ليكون أبين فى كذبهم فى قولهم كل ما حرم علينا فهو محرم من زمن نوح وإبراهيم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه فبهتوا ولم يأتوا بها خوف زيادة الفضيحة قال تعالى ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ بعد ظهور ما ذكرنا ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الكاملون فى الظلم المتجاوزون الحق إلى الباطل حيث كذبوا كتابهم ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾ فى هذا كجميع ما أخبر به وكذبتم فى هذا كجميع ما أخبرتم ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ التى أنا عليها ﴿حَنِيفًا﴾ مائلا عن كل دين إلى الإسلام، ثم أوضح ملة إبراهيم بقوله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بهم وتكذيب لهم فى ادعائهم أنهم على ملته. ثم أشار إلى حل شبهة أخرى لليهود فى قولهم قبلتنا قبل قبلتكم وهى قبلة إبراهيم والأنبياء جميعاً فأكذبهم بقوله ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾ أى وضعه الله متعبداً ﴿لِلنَّاسِ﴾ فى الأرض ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ بالباء لغة فى مكة أو هى موضع البيت ومكة اسم القرية سميت

بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها ومكة لاجتلابها الناس ، بناه الملائكة قبل خلق آدم ووضع بعده الأقصى وبينهما أربعون سنة كما فى حديث الصحيحين وفى حديث : أنه وأول ماظهر على وجه الماء عند خلق السموات والأرض زبدة بيضاء فدحيت الأرض من تحته ، ثم بعد بناء الملائكة بناه آدم ثم بناه إبراهيم ثم جرهم ثم العمالقة ثم قريش» ، وعلم من قوله للناس أن الناس مشتركون فى مكة سواء العاكف فيه والبادى ﴿ مُبَارَكًا ﴾ حال من الذى أى ذا بركة بكثرة الخير لمن حجه واعتمره ومنه عزوف النفس عن الدنيا عند رؤيته وتضعيف ثواب الطاعات فيه ﴿ وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ لأنه قبلتهم ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ ﴾ منها ﴿ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ الحجر الذى قام عليه عند بناء البيت فأثر قدماه فيه بالغوص إلى الكعبين وبقى على تطاول الزمان وتداول الأيدى عليه ومنها أن الطير لا يعلوه وضوارى السباع تخالط الصيد فيه بلا إيذاء وقصم الجبابرة ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴾ لا يتعرض له بقتل أو ظلم وتقدم التفصيل فيه فى البقرة ، قال البيضاوى جملة ابتدائية أو شرطية معطوفة من جهة المعنى أى ومنها أمن من دخله إلى أن قال عليه السلام « من مات فى أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً » وعند أبى حنيفة : من لزمه القتل لم يتعرض له بل يلجأ إلى الخروج . اه . وفى غاية الأمانى ليس من الآيات بل بيان لشرفه والأمن إما فى الدنيا على ماذهب إليه ابن عباس وأبو حنيفة أو فى الآخرة أو مطلق فيتناولهما وهو الأحسن . اه . وفى لباب التأويل : ومن دخله كان آمناً من الذنوب التى اكتسبها قبل ذلك ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ واجب شكراً على نعمه بفتح الحاء للجمهور وبكسرها لحمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص لغتان فى مصدر حج بمعنى قصد الأولى لأهل الحجاز والثانية لأهل نجد أو الفتح المصدر والكسر الاسم أى قصده للزيارة على الوجه المخصوص ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ بدل من الناس مخصص له وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستطاعة بالزاد والراحلة وبه تعلق الشافعى لكن لا يصح إسناده وقال مالك إنها بالبدن على من قدر على المشى والكسب فى الطريق وقال أبو حنيفة بمجموع الأمرين . قال ابن العربى فى الأحكام : لو صح حديث الزاد والراحلة لحملناه على غالب الناس فى الأقطار البعيدة ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ بالله أو بما فرضه من الحج ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ الإنس والجن والملائكة ، وعن عبادة فيه وعيد شديد على من أنعم عليه بصحة الجسم وسعة الرزق والقدرة فترك الحج وقد أكد الله وجوب الحج بوجوه منها وضع كفر موضع لم يحج وإيراد وجوبه بصيغة الخبر وإبرازه فى صيغة الاسمية وبعلى المفيد وجوبه لله فى رقاب الناس وتعميم الحكم أولا ثم خصص وذكر الاستغناء المؤذن للمقت وتعميمه بقوله «عن العالمين» لأنه تكليف ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ﴾ القرآن ولم تبق لكم شبهة فضلا عن حجة ﴿ وَاللَّهُ شَهِيدٌ ﴾ الواو للحال مطلع ﴿ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم عليه والعاقل لا يرتكب ما لا نفع فيه فكيف بما فيه سخط القادر ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دينه ﴿ مَنْ ءَامَنَ ﴾ لم ترضوا

بضلالكم حتى تضموا إليه إضلال المسترشدين ﴿ تَبْغُونَهَا ﴾ تطلبون السبيل ﴿ عِوَجًا ﴾ مصدر بمعنى معوجة حال: أى مائلة عن الحق، أو توهمون الناس أن فيها اعوجاجاً ﴿ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ عالمون بأن الدين المرضى هو دين الإسلام كما فى كتبكم ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والتكذيب وإنما يؤخركم لوقتكم فيجازيكم، وتكرير الخطاب فى الآيتين والاستفهام مبالغة فى التقريع، ونفى العذر لهم، وإشعار بأن كل واحد من الأمرين مستقبح مستقل باستجلاب العذاب، ولما مر بعض اليهود وهو « شاس بن قيس » على الأوس والخزرج فغاظه تآلفهم فذكرهم بما كان بينهم فى الجاهلية من الحرب كيوم « بعاث » آخر حروبهم إذ دام الحرب بينهم مائة وعشرين سنة ثم انقطع بإسلامهم فلما ذكرهم ذلك تشاجروا وقالوا: السلاح. السلاح. وكادوا يقتتلون، فبلغ ذلك رسول الله فخرج إليهم مع من معه من المهاجرين والأنصار وقال: « أتدعون بدعاء الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام » فعرف القوم أنها من نزغات الشيطان فتابوا وتعانقوا فلم يكن يوم أقبح أولا وأحسن آخراً من ذلك اليوم فانصرفوا ورسول الله بينهم كالبدر بين الأنجم، نزل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ. وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾ استفهام تعجب وتوبيخ ﴿ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ يعظكم ويزيل شبهكم ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ ﴾ يتمسك بدينه وكتابه ﴿ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ حث لهم فى الالتجاء إلى الله وكتابه فى الوقائع ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ بأن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ موحدون، نهى عن مفارقة الإسلام ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ ﴾ دينه وكتابه ﴿ جَمِيعًا ﴾ استعارة تمثيلية على اعتبار تشبيه الحالة بالحالة، فالحبل مستعار للقرآن والاعتصام للوثوق به والاعتماد عليه، ترشيحاً للمجاز وإضافته إلى الله قرينة ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ نهى عن مفارقة الجماعة: لا تفعلوا شيئاً يوجب تفرقكم بعد الإسلام: كالتحاسد والتقاطع المؤدى إلى الفتنة وتشتيت الجماعة ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ اشكروها يا معشر الأوس والخزرج ﴿ إِذْ كُنْتُمْ ﴾ قبل الإسلام ﴿ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ ﴾ جمع ﴿ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ بالإسلام ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ ﴾ صرتم ﴿ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ متحابين مجتمعين على الأخوة فى الله قيل كان الأوس والخزرج أخوين لأبوين فوقع بين أولادهما العداوة حتى أطفأها الله بالإسلام ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا ﴾ طرف ﴿ حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا أن تموتوا كفاراً، وفيه أن قبور الكفار حفر من النار ﴿ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ بالإيمان ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إلى الصواب فتنالوا الثواب ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ الدينى والدنيوى كالإسلام والطاعة والإصلاح ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ شرعاً وهو ما وافق الكتاب والسنة ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ما خالفهما ﴿ وَأُولَٰئِكَ ﴾ الداعون الآمرون الناهون ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون، و « من » قيل للتبعيض لأن

ما ذكر فرض كفاية ولا يلزم كل الأمة ولا يليق بكل أحد كالجاهل ، وقيل زائدة ، أى : لتكونوا أمة فيجب على كل مكلف بحسب علمه بيده أو بلسانه أو بقلبه وعطفهما على الخير من عطف الخاص على العام خاطب الجميع ثم طلب فعل البعض ليدل أنه واجب على الكل أولا حتى لو تركوه أثموا جميعاً ويكون الأمر واجباً ومندوباً على حسب ما يؤمر به ، والنهى عن المنكر واجب كله لأن جميع ما أنكره الشرع حرام ويجب على العلماء تنبيه الولاة وعلى سائر الناس الرفع إلى الولاة والحكام بعد النهى عنه قولا وإن نالهم أذى بذلك فيستحب ولا يجب . قال عليه السلام : « من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله وخليفتى » ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا ﴾ بسبب العداوة والهوى ﴿ وَاخْتَلَفُوا ﴾ فى الدين فرقاً ، نهى الله فى الآية المتقدمة عن التفرق ثم نهى عن المشابهة بمن تفرق مبالغة ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَٰتُ ﴾ الموجبات للاتفاق على كلمة الحق وهم اليهود والنصارى والمراد نهى الاختلاف الناشئ عن الأهواء فيخرج عنه اختلاف المجتهدين ، وأخرج أبو داود حديث « إن أهل الكتاب افترقوا على اثنين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين : ثنتان وسبعون فى النار ، وواحدة فى الجنة وهى الجماعة » ﴿ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ أى يوم القيامة والبياض والسواد سيما أهل السعادة والشقاوة يومئذ على الحقيقة أو كنايتان عن السرور والحزن ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ وهم الكفار فيلقون فى النار فيقال لهم توبيخاً ﴿ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ يوم أخذ الميثاق ، أو المراد المرتدون ، أو أهل الكتاب ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ وهم المؤمنون ﴿ فَفِى رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ جنته ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ وإطلاق الرحمة على الجنة من إطلاق الملزوم على اللازم إشارة إلى أن دخول الجنة بفضل رحمته لا بالعمل ، وإنما وسط حديث السواد لتكون الفاتحة والخاتمة بحلية المؤمنين ، وجملة هم مستأنفة لبيان حالهم فى الرحمة ، أو حال لأن صدر الاسمية ضمير فلا حاجة إلى الواو ﴿ تِلْكَ ﴾ هذه الآيات ﴿ ءَايَٰتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ بأن يأخذهم بغير جرم ، أى : لم يرد شيئاً منه لأحد منهم نفاه بنفى لازمه إذ لو وقع كان مراداً له ودل أن ظلم العباد فيما بينهم مراد له ، وإن لم يرض به فمن استدل به على أنه لا يريد ظلماً للعباد بعضهم بعضاً فقد زلت به القدم؛ قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ إيجاداً وملكا فكيف يتصور منه ظلم ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فيجازيكم كلا بما فعل ﴿ كُنْتُمْ ﴾ يا أمة محمد فى علم الله وفى اللوح وفى الأمم الماضية ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ ﴾ أظهرت ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ والخطاب لأمته كافة أو للصحابة خاصة متعلق بأخرجت ، أى : أظهرت للناس حتى تميزت وعرفت ، أو بكنتم ، أى : كنتم للناس خير أمة تدخلونهم فى الإسلام كما فى البخارى عن أبى هريرة ، و « كان » ناقصة أو تامة و « خير » حال ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ استئناف لبيان الخيرية واللام للاستغراق أى كل

معروف وكل منكر مستمرون على ذلك وبه خرج الأمم ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ باتصافه بما يليق به ، أخره للدلالة على أن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر كان إيماناً بالله ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ لاندراجهم حينئذ فى زمرة خير أمة ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه والنجاشى وأصحابه ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَـٰسِقُونَ ﴾ المتمردون على الكفر ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ ﴾ أى اليهود يا معشر المسلمين بشىء ﴿ إِلَّا أَذًى ﴾ باللسان كالطعن فى دينكم ودنياكم برثاثة حالكم ﴿ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ منهزمين ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ عليكم بل لكم النصر عليهم وقد صدق ماقال الله وأخبر به فى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر ﴿ ضُرِبَتْ ﴾ ألزمت ﴿ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا ﴾ وجدوا شرقاً وغرباً فهى كالقبة عليهم على طريق الاستعارة بالكناية ، والضرب تخييل وتشبيه إحاطتها بهم بإحاطة القبة على من فيها بالفعل استعارة تبعية فلا عز لهم ولا اعتصام ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾ استثناء من أعم الأحوال ، أى : لا عز لهم فى حالة إلا فى حالة اعتصامهم بذمة الله وذمة المسلمين وإنما أعاد الحبل لتغاير الذمتين لأن حبل الله هو الإسلام وحبل المسلمين هو عقد الجزية ﴿ وَبَاءُو ﴾ رجعوا ﴿ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴾ خوف الفقر فهى محيطة بهم إحاطة البيت المضروب على الأهل ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ الحلال إلى الحرام فعلم أن الإصرار على المعاصى يؤدى إلى الكفر ﴿ لَيْسُوا ﴾ أهل الكتاب ﴿ سَوَاءً ﴾ مستوين أى لا مساواة بين الأقلين الذين أسلموا منهم وبين الأكثرين الفاسقين ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ مستقيمة أو عادلة ثابتة على الحق كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ اللَّهِ ءَانَاءَ الَّيْلِ ﴾ فى ساعاته ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ حال ، أى : يتلون القرآن فى تهجدهم ، عبر عنه بالتلاوة فى ساعات الليل مع السجود ليكون أبين وأبلغ فى المدح ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْـَٔاخِرِ ﴾ تعريض لمقابليهم لأن إيمانهم ليس بإيمان ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ ولا يداهنون ﴿ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ ﴾ كلها من فرط رغبتهم ﴿ وَأُولَـٰئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ مِنَ الصَّـٰلِحِينَ ﴾ الذين صلحت أحوالهم عند الله ومنهم من ليسوا كذلك وليسوا من الصالحين ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن تُكْفَرُوهُ ﴾ لن تحرموا ثوابه ولتضمنه معنى الحرمان عدى إلى مفعولين ، وقرأ حمزة والكسائى وحفص الفعلين بياء الغيبة والضمير لأهل الكتاب والباقون بالخطاب التفاتاً أو على سنن كنتم خير أمة ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ حث على الإخلاص وبشارة للمتقين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِىَ ﴾ تدفع ﴿ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ عذابه ﴿ شَيْـًٔا ﴾ من الإغناء أو من العذاب خص الأموال والأولاد لأن الإنسان تارة يدفع عن نفسه بالأموال وتارة بالأولاد ﴿ وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ لا يفارقونها ﴿ مَثَلُ ﴾ صفة إهلاك ﴿ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ فى عداوة النبى أو صدقة لطلب الثناء وحسن الذكر

﴿كَمَثَلِ﴾ إهلاك ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ حر أو برد شديد مصدر ، والشائع إطلاقه على الريح البارد كالصرصر ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ﴾ زرع ﴿قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ فلم ينتفعوا به فكذلك نفقاتهم ذاهبة لا ينتفعون بها ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بضياع نفقاتهم ﴿وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر الموجب لضياعها وإنما قيد الحرث بقوم ظلموا لأن الإهلاك عن سخط أشد وأبلغ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾ أصفياء تطلعونهم على سركم ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ أى غيركم من اليهود والمنافقين ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾ لا يقصرون لكم ﴿خَبَالًا﴾ نصب بنزع الخافض أو على التميز أى فساداً ﴿وَدُّوا﴾ تمنوا ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أى عنتكم وهى شدة الضرر ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾ العداوة لكم ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ بالوقيعة فيكم وإطلاع المشركين على سركم لأنهم لا يملكون أنفسهم بذلك لفرط بغضهم للمسلمين ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ من البغض ﴿أَكْبَرُ﴾ مما بدا ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ على عداوتهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذلك فلا توالوهم لأن الآية نزلت فى رجال من المسلمين يواصلون اليهود لصداقة بينهم ، أو جوار ، أو حلف ، أو رضاع : فنهوا عن ذلك لأنه تشبه بالمنافقين . قال ابن العربى فى الأحكام : لا خلاف بين العلماء أن المراد به النهى عن مصاحبة الكفار من أهل الكتاب وغيرهم حتى نهى عن التشبه بهم وقد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن التشبه بالأعاجم . اه . قال ابن عطية : ويدخل فى هذه الآية استكتاب أهل الذمة وتصريفهم فى البيع والشراء ونحو ذلك . اه . والجمل المذكورة من قوله « لا يألونكم » مستأنفات كل منها علة مستقلة للنهى ولذا ترك تعاطفها ويجوز أن يكون كل لاحقة علة للسابقة سوى قوله « قد بينا لكم الآيات » فإنه لا يصلح تعليلا لبدو البغضاء فيكون كلاماً مبتدأ ، قاله فى غاية الأمانى ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ﴾ المؤمنون « أنتم » مبتدأ ، و « أولاء » خبره ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ لقرابتهم منكم وصداقتهم ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ لمخالفتهم لكم فى الدين فلم توالونهم : بيان للخطأ فى موالاتهم وهو خبر ثان أو خبر « أولاء » والجملة خبر أنتم كقولك : أنت زيد تحبه ، أوحال والعامل فيها معنى الإشارة أو « أولاء » منادى بحذف يا ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ الواو للحال ﴿بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ بالكتب كلها ولا يؤمنون بكتابكم فلا جامع بينهم وبينكم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾ أطراف الأصابع ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ شدة الغضب لما يرون من ائتلافكم ويعبر عن شدة الغضب بعض الأنامل وإن لم يكن ثم عض مجازاً ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ أى ابقوا عليه إلى الموت فلن تروا ما يسركم وقل لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ للمنافقين من الحنق والبغضاء وما يكون منهم فى حال خلوتهم ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ﴾ تصبكم ﴿حَسَنَةٌ﴾ نعمة كنصر وغنيمة ورخاء وخصب ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تحزنهم ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ كهزيمة وجدب ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وجملة الشرط متصلة بالشرط قبلُ وما بينهما اعتراض ، والمعنى : أنهم متناهون فى عداوتكم فاجتنبوهم ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ على أذاهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله فى موالاتهم وغيرها ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بكسر الضاد وسكون الراء لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبضمها

وتشديد الراء للباقين ﴿ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ وكنتم فى كنف من الله وهذا تعليم من الله وإرشاد أن يستعان فى كيد العدو بالصبر والتقوى ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما ﴿ مُحِيطٌ ﴾ عالم فيجازيهم به ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ ﴾ من المدينة ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ من بيت عائشة وفيه منقبة لها تمشى على رجليك إلى أُحد أى اذكر ذلك الوقت ليظهر لك أن النصر مع الصبر ولما لم يصبروا أصابهم ما أصابهم « خرج النبى صلى الله عليه وسلم لأحد فى شوال سنة ثلاث من الهجرة بعد أن صلى الجمعة واستشار أصحابه فرأى أكثرهم الإقامة فى المدينة وفيهم ابن أبىّ المنافق ورأى آخرون الخروج فقالوا اخرج بنا إلى هؤلاء الكلاب لا يرون أنا جبنا عنهم ورأيه صلى الله عليه وسلم عدم الخروج فألحوا عليه فدخل منزله ولبس لامته فخرج إليهم. فقالوا: افعل يا رسول الله مابدا لك فقال: لا ينبغى لنبى أن يلبس لامته ثم يرجع حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. وكان من خرج معه ألفا أو إلا خمسين وكان المشركون نزلوا بأحد يوم الأربعاء وهم ثلاثة آلاف فأصبح صلى الله عليه وسلم بالشعب يوم السبت سابع شوال وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وسوى صفوفهم كما قال تعالى ﴿ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى تنزلهم ﴿ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ أى مراكز من الميمنة والميسرة والقلب والمقدمة والساقة فأجلس صلى الله عليه وسلم خمسين رامياً وأمّر عليهم « عبد الله بن جبير » بسفح الجبل وقال انضحوا عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من ورائنا ولا تبرحوا غلبنا أو نصرنا وكانت مع قريش مائتا فرس على ميمنتها « خالد بن الوليد » وعلى ميسرتها « عكرمة بن أبى جهل » . ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالكم ونياتكم ﴿ إِذْ ﴾ بدل من إذ قبله ﴿ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ ﴾ هم بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس جناحا العسكر ، والهمّ دون العزم فأول ما يمرّ بالقلب يسمى خاطراً فإن قوى فحديث نفس ووسوسة فإن قوى فهمّ فإن زاد فعزم ثم من بعده إما قول أو فعل ﴿ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ تجبنا عن القتال وترجعا لما رجع عبد الله بن أبىّ وأصحابه وقال علام نقتل أنفسنا وأولادنا فقال له أبو جابر وهو عمرو بن حرام الأنصارى السلمى: أنشدكم بالله فى نبيكم وأنفسكم، فقال ابن أبىّ: لو نعلم قتالا لاتبعناكم فثبتهما الله فلم ينصرفا ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ ناصرهما، وفى البخارى قال جابر: فينا نزلت وما سرنى أنها لم تنزل لقوله والله وليهما ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ليثقوا به دون غيره لينصرهم كما نصرهم ببدر ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ حين توكلتم عليه ﴿ بِبَدْرٍ ﴾ اسم ماء بين مكة والمدينة سمى باسم صاحبه رجل من جهينة ، وقع هناك أول قتال بين رسول الله وبين المشركين سابع عشر رمضان سنة ثنتين من الهجرة فأعز الله فيه الإسلام وحزبه ﴿ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ بقلة العَدد والعُدد ، ولم يقل أذلاء ليدل على قلتهم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعم النصر إذ قيل إنها نزلت لما هزموا فجعلوا يقولون أنى لنا هذا تذكيراً لهم أو المعنى لعلكم تنالون النعمة فتشكرون، فوضع الشكر موضع الإنعام لأنه سببه ﴿ إِذْ ﴾ ظرف لنصركم ﴿ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تعدهم تطمينا ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ ﴾ يعينكم ﴿ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴾

بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر إنكاراً أن لا يكفيهم ذلك وإنما جيء بلن إشعاراً بأنهم كانوا كالآيسين من النصر لضعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم ﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعد لن أى يكفيكم ذلك وفى الأنفال « بألف » لأنه أمدهم أولا به ثم صارت ثلاثة ثم صارت خمسة كما قال تعالى ﴿إِن تَصْبِرُوا﴾ على لقاء العدو ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله فى المخالفة ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ أى المشركون ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ من ساعتهم هذه أو نهوضهم المسرع إليكم من غير ريث ، وهو فى الأصل مصدر فارت القدر إذا غلت فاستعير للسرعة ثم أطلق للحال التى لاريث فيها ولا تراخى : وعدم الإمداد على الصبر والتقوى حثا عليهما وتقوية لقلوبهم ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ بفتح الواو للجمهور وبكسرها لأبى عمرو وابن كثير وعاصم ، أى : معلمين بالتسويم الذى هو إظهار السيما وقد صبروا وأنجز الله وعده بأن قاتلت معهم الملائكة على خيول بُلق ، عليهم عمائم صفر على قول عروة بن الزبير أو بيض على قول ابن عباس وعلى بن أبى طالب أرسلوها بين أكتافهم ، وجمع بأن الملائكة أعلمت بعمائم بيض إلا جبريل فإنه أعلم بعمامة صفراء ، أى : على مثل عمامة الزبير بن العوام والإشهار فى الحرب بالعلامة سنة ماضية قصداً للهيبة على الأعداء قال ابن عباس : نزلت الملائكة مسومين بالصوف فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يسوموا أنفسهم وخيولهم بالصوف وقال تسوّموا فإن الملائكة قد تسوّمت بالصوف الأبيض فى قلانسهم ومغافرهم ، وقيل بالصوف المصبوغ فى نواصى الخيل وأذنابها وفائدته إظهار الشجاع نفسه وعدم التباس الجماعة عند التحام الحرب ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ بكثرة العدد ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ الغالب الذى لا يغلب ﴿الْحَكِيمِ﴾ بنصر المؤمنين بإنزال الملائكة تارة وبدونه أخرى يؤتى النصر من يشاء وليس بكثرة الجند ﴿لِيَقْطَعَ﴾ متعلق بنصركم الله على أن « إذ تقول » ظرف له لا بدل من وإذ غدوت ، والمعنى نصركم يبدر ليهلك ﴿طَرَفًا﴾ طائفة ﴿مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر فقتل يبدر من ساداتهم سبعون وأسر سبعون ، وقيل معناه ليهدم ركنا من أركان الشرك ، وقيل متعلق بقوله « وما النصر إلا من عند الله » وهو أحسن لعمومه وجريانه على وجه البدل والظرف من « وإذ غدوت » ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ يذلهم بالهزيمة والغيظ وأصل الكبت الصرع على الوجه واليدين وفى القاموس كبته يكبته صرعه وأخزاه وصرفه وكسره ورد العدو بغيظه وأذله . اه ﴿فَيَنقَلِبُوا﴾ يرجعوا ﴿خَائِبِينَ﴾ لم ينالوا ما راموه ، ونزل لما هم النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعو على الكفار أو لما دعا عليهم أو لما كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد وقال كيف يفلح قوم خضبوا نبيهم بالدم كأنه استبعد فلاحهم ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ بل الأمر لله وإنما أنت منذر مأمور بالقتال وقد فعلت ما أمرت به اعتراض بين المعطوف عليه الذى هو « أو يكبتهم » والمعطوف وهو ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بالإسلام إن أسلموا ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ إن أصروا على الكفر ، والمعنى : أن الله مالك أمرهم فإما أن يهلكهم أو يكبتهم

أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا . وليس لك من أمرهم شيء . وفيه المقابلة بين القطع والكبت في العاجل والتوبة والتعذيب في الآجل ويحتمل أن يكون أو يتوب معطوفاً على الأمر أو شيء بإضمار أن ، أي : ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء ، أو ليس لكم من أمرهم شيء ، أو التوبة عليهم أو تعذيبهم وأن يكون أو بمعنى : إلا أن ، أي ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب عليهم فتسر به أو يعذبهم فتشتفي منهم ، وقيل «ليس لك ..» نزل في أهل «بئر معونة» الذين قتلهم «عامر بن الطفيل» سنة أربع من الهجرة فقنت عليه السلام شهراً يدعو على القاتلين باللعن . والله أعلم ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ تتميم لبيان علة التعذيب أي قد استحقوا التعذيب بظلمهم ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ تقرير لقوله ليس لك من الأمر شيء أي الأمر له لا لك لأن ما في السموات وما في الأرض ملكه ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ المغفرة له ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ لا علة لصنعه ملاك الأمر مشيئته ، والتقييد بالتوبة قول لا دليل عليه ومعارض لما تواتر من الأحاديث معنى ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لعباده تتميم بترجيح الرحمة على العذاب أي فلا تبادر بالدعاء عليهم . ولما أدخل الله قصة أحد في أثناء النهي عن موالاة الكفار إذ فيها أمور منها ذكر أثناءها ما كان من أخلاقهم فقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰٓا ﴾ وهو ما يفعلون في الجاهلية عند حلول الدين من زيادة المال وتأخير الأجل ، وتقدم في سورة البقرة بجميع أنواعه ﴿ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ مصدر في موضع الحال من الربا إذ ربما فعلوا ذلك مراراً فيصير الدين أضعافاً ، ومضاعفة بألف للجمهور ودونها لابن كثير وابن عامر والتقييد بأضعافاً مضاعفة زيادة توبيخ وإشارة إلى ما كانوا فيه من الطريقة التي لا يرضاها ذو مروءة من أكل أموال الناس فلا مفهوم له ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فيما نهاكم عنه بتركه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لكي تفلحوا ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ أن تعذبوا بها قال أبو حنيفة هذه أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكفار . قاله النسفي في مدارك التنزيل وقال البيضاوي في أنوار التنزيل : فيه تنبيه على أن النار بالذات معدة للكفار وبالعرض للعصاة ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وعد بعد وعيد ترغيباً وترهيباً ولعل وعسى في أمثال ذلك دليل على عزة التوصل إلى ما جعل خبراً له ﴿ وَسَارِعُوا ﴾ بلا واو لنافع وابن عامر وبها لغيرهما : بادروا وأقبلوا ﴿ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ بالإقبال إلى ما يوصل إليها من التوبة والطاعة والإخلاص ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ أي كعرضهما لو وصلت إحداهما بالأخرى ، وذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسعة لأنه دون الطول . وعن ابن عباس : لو بسطت السموات والأرض ووصلت كانت مقدار عرض الجنة ، وأما طولها فلا يحيط به إلا علام الغيوب . اه . وفي تنكير « مغفرة » و « جنة » تعظيم ، وفصل بينهما لأن المغفرة إزالة العقاب والجنة حصول الثواب ، ومذهب أهل السنة أنها فوق السموات تحت العرش ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الله الآتي وصفهم ، فيه دليل على أنها مخلوقة الآن ﴿ الَّذِينَ

يُنفِقُونَ ﴾ فى طاعة الله ﴿ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ اليسر والعسر : أى فى الأحوال كلها إذ الإنسان لا يخلو منهما ما قدروا عليه من قليل أو كثير ، وإنما بدأ فى العبادات بالإنفاق لأنه أشد على النفس لا سيما فى وقت العسر ﴿ وَالْكَاظِمِينَ ﴾ الجارعين ﴿ الْغَيْظَ ﴾ عند امتلاء نفوسهم به : أى الكافين عن إمضائه وإظهاره مع القدرة من كظمت القربة إذا ملأتها وشددت رأسها . وعن النبى صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً » وفى لباب التأويل : والكظم حبس الشىء عند امتلائه وكظم الغيظ : هو أن يمتلئ غيظاً فيرده فى جوفه ولا يظهره بقول ولا فعل ويصبر عليه ويسكت عنه . اه . ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ الذين يظلمونهم ومنهم المماليك لسوء آدابهم ، أى التاركين عقوبتهم بالجرائم مع القدرة ، وهو أخص من كظم الغيظ بلا عفو . وعن النبى صلى الله عليه وسلم « إن هؤلاء من أمتى قليلون إلا من عصم الله وقد كانوا كثيراً فى الأمم السابقة » ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ هؤلاء وغيرهم أى يثيبهم ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ عطف على المتقين ﴿ إِذَا فَعَلُوا ﴾ فعلة ﴿ فَاحِشَةً ﴾ بالغة فى القبح كالزنا ﴿ أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بأى ذنب كان ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ فى قلوبهم بصفات الجلال والجمال ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ رهبة ورغبة : أى لأجلها وأقلعوا عنها نادمين عازمين أن لا يعودوا إليها . وهذه شروط صحة التوبة ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ استفهام بمعنى النفى معترض بين المعطوفين للدلالة على سعة الرحمة وعموم المغفرة والحث على الاستغفار والردع عن اليأس والوعد بقبول التوبة ، وفى الحديث « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » والتوبة تجبّ ما قبلها ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا ﴾ لم يدوموا على الذنوب ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ حال أى عالمين به ﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ المتداركين لتقصيرهم ، وأولئك وما بعده مستأنف لبيان ما للمتقين المحسنين والتائبين من المحبة والغفران ، وكم ما بين المحسن والمتدارك والمحبوب والمغفور له . روى أن إبليس بكى لنزول هذه الآيات . ولما أخبر الله المؤمنين بما أعد لهم ذكرهم بأحوال من تقدم ليعتبروا بهم فقال ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ طرائق ووقائع الأمم المتقدمة بإمهالهم ثم أخذهم ، قيل نزلت فى هزيمة أحد ﴿ فَسِيرُوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ الرسل آخر أمرهم فى الهلاك فلا تحزنوا لغلبتهم فأنا أمهلهم لوقتهم ، وهذا حث على الاعتبار بما يُشاهد من أحوالهم وآثار هلاكهم . وقوله « فانظروا » نظر عين وفكر ، والأمر للندب ، وفيه زجر الكفار وتهديدهم ﴿ هَٰذَا ﴾ القرآن أو ما تقدم من سنن الماضين أو ما ذكر من أمر المتقين والتائبين ﴿ بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ عامة سوء عاقبة المكذبين وحُسن عاقبة غيرهم ﴿ وَهُدًى ﴾ من الضلالة : أى زيادة بصيرة ﴿ وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ خاصة والبيان إزالة الشبهة بعد حصولها . والهدى : طريق الرشد ، والموعظة : الزجر عما لا ينبغى فى الدين ؛ فالبيان جنس تحته النوعان بعده ، وهذه الآية هى أول ما نزل فى آل عمران

﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾ عن قتال الكفار بما أصابكم ، عطف على « فانظروا » وتسلية للمؤمنين ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ على ما أصابكم بأحد من قتل أو جرح أو فوات غنيمة ﴿ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ بالغلبة عليهم لأنكم على الحق وقتالكم لله وقتلاكم فى الجنة ، وهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم فى النار . وفيه بشارة لهم بالغلبة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ حقا متعلق بتهنوا ، أى لا تهنوا إن صح إيمانكم ، أو بالأعلون ، أى أنتم الأعلون إن كنتم مصدقين بهذه البشارة وجواب «إن» دل عليه ماقبله ، أى إن كنتم مصدقين أن الله ينصركم فلا تهنوا ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ ﴾ يصبكم بأحد ﴿ قَرْحٌ ﴾ بفتح القاف للجمهور وضمها لحمزة والكسائى وابن كثير . وعياش عن عاصم لغتان : أى جهد من جراح ونحوه ﴿ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ ﴾ الكفار ﴿ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾ ببدر ولم يضعفوا ولم يجبنوا وأنتم أولى بذلك ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا ﴾ نصرفها ﴿ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ يوماً لفرقة ويوماً للأخرى ، والمداولة نقل الشىء من واحد إلى آخر ، يقال : تداولته الأيدى ، إذا انتقل من واحد إلى آخر ، ويقال : الدنيا دُوَلٌ : أى تنقل من قوم إلى آخرين ثم منهم إلى غيرهم و «الأيام» يحتمل الوصف والخبر و « نداولها » يحتمل الخبر والحال ، والمراد بها أوقات النصر والغلبة للناس ليتعظوا ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ ﴾ علم ظهور الذى يتعلق به الجزاء وهو العلم بالشىء موجوداً ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أخلصوا فى إيمانهم من غيرهم ، والعلة محذوفة للدلالة على تعددها ، أى نداولها لكذا وكذا وليعلم ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ يكرمهم بالشهادة لأن قوماً من المسلمين فاتهم يوم بدر كانوا يتمنونها ، واختلفوا فى معنى الشهيد ، وهو : مَن قُتل فى سبيل الله فقيل لأنهم أحياء يحضرون دار السلام بأرواحهم ، أو لأن الله شهد لهم بالجنة أو لكونهم شهوداً عدولا لصدقهم بالثبات والصبر على الشدائد ، والله أعلم ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين اعتراض بين العلل للدلالة أن إدالتهم على المسلمين استدراج ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إن كانت الدولة عليهم أى يطهرهم من الذنوب بما يصيبهم عطف على « ويتخذ » واللام بمعنى كى ، والتمحيص التنقية ﴿ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ يهلكهم قليلا قليلا إن كانت عليهم ، والمحق نقص الشىء قليلا قليلا ، والربع فى الحالين للمؤمنين ، إذ المعنى إن قتلكم الكفار فشهادة وتطهير لكم ، وإن قتلتموهم فاستئصال ومحقٌ لهم ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾ ومن لم يجاهد علم ظهور و « لمّا » كـ « لم » فى نفى الماضى إلا أن فيه التوقع فيدل على أن الجهاد المنفى متوقع فى المستقبل ﴿ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ فى الشدائد ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ ﴾ الخطاب لمن ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج بهم إلى العدو لينالوا شرف الشهادة ﴿ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ ﴾ فيه حذف إحدى التاءين ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ﴾ تقولون : ليت لنا يوماً مثل يوم بدر ننال ما ناله شهداؤه ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ﴾ حين يقتل دونكم من قتل من إخوانكم وانهزمتم ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ أعينكم إلى الثابتين يقتلون : توبيخ على تمنى الموت والهزيمة بعده ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ نزل يوم أحد لما انهزم الكفار واتبعهم المسلمون حتى وصلوا

إلى الغنائم فأقبلوا عليها فجاءتهم خيل المشركين من ورائهم فانهزموا حتى وصل الكفار إلى النبي صلى الله عليه وسلم ورماه « عبد الله بن قمئة » وشجه فاعترضه « مصعب بن عمير » صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتله فصاح قتلت محمداً ، أو أشاع الشيطان ذلك لجمل المنافقون يقولون : لو كان نبيا ما قتل فارجعوا إلى دينكم الأول وإخوانكم ، أرسلوا إلى ابن أبيّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان ، فقال لهم «أنس ابن النضر » : إن قتل محمد فإن رب محمد حيٌّ لا يموت وما تصنعون بالحياة بعده فقاتل حتى قتل وجعل رسول الله يدعو : إليّ عباد الله ، أنا رسول الله ، فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه وكشفوا عنه المشركين وتفرق الباقون والقصر قصر قلب لمن اعتقد أن شأنه يخالف شأن الرسل وقصر إفراد لمن اعتقد منهم جمعه الوصفين الرسالة والتبرى من الموت ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ وصف رسول على الأول واستئناف على الثاني فسيخلو كما خلوا ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ كغيره ﴿ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ رجعتم إلى الكفر ، قدم الموت لأنه الذى لابد منه والقتل أحد أسبابه والجملة الأخيرة محل الاستفهام الإنكارى أى ما كان معبوداً فترجعوا وقد علمتم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ﴾ من الضرر أو من الأشياء وإنما يضر نفسه ﴿ وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ نعمته بالثبات كـ « أنس بن النضر » و « عبد الله بن جبير » وأصحابه وأضرابهم ، وقال « عبد الرحمن الثعالبي » هذا استمرار فى عتبهم وإقامة الحجة عليهم المعنى أن محمداً عليه الصلاة والسلام رسول كسائر الرسل قد بلّغ كما بلغوا ولزمكم أيها المؤمنون العمل بمضمون الرسالة وليست حياته وبقاؤه بين أظهركم شرطاً فى ذلك لأنه يموت كما ماتت الرسل قبله ، ثم توعد سبحانه المنقلب على عقبيه ، ثم وعد الشاكرين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه كـ « سعد بن الربيع » ووصيته يومئذ الأنصار و « أنس بن النضر » وغيرهما ويدخل فى الآية الشاكرون إلى يوم القيامة . اهـ . ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ لاينبغى ﴿ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بقضائه لا الإقدام يدنيه ولا الإحجام يقصيه تشجيع للمجاهدين على لقاء العدو ولما كان الموت قائماً بالنفس أخرجه مخرج فعل لها ﴿ كِتَاباً ﴾ مصدر مؤكد أى كتب الله ذلك كتاباً ﴿ مُؤَجَّلاً ﴾ مؤقتاً لا يتقدم بالإقدام ولا يتأخر بالإحجام ، فلم انهزمتم والهزيمة لا تدفع الموت ، والثبات لا يقطع الحياة ! فيه رد على المعتزلة فى قولهم بالأجلين ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ﴾ بعمله ﴿ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ ما قسم له ولا حظ له فى الآخرة : تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد عن امتثال أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ من ثوابها ﴿ وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ ﴾ الذين لم يشغلهم شىء عن الجهاد كـ « عبد الله ابن جبير » وأصحابه القائمين فى سفح الجبل حتى قتلوا . قال الخازن فى لباب التأويل : والآية وإن نزلت فى الجهاد خاصة لكنها عامة فى جميع الأعمال . اهـ . ﴿ وَكَأَيِّنْ ﴾ كم ﴿ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ ﴾ وقرأ الكوفيون وابن عامر · قاتل ﴿مَعَهُ﴾ خبر مبتدؤه ﴿ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ جموع كثيرة نسبة إلى الربة بكسر الراء وفتحها ،

أى : الجماعة أو الربيون العلماء، والعباد منسوبون إلى الرب، والكسر من تغيير النسب ، وأصل كائن أىّ دخل عليها كاف التشبيه والنون أصله التنوين كتبت نوناً على غير قياس ، وقرأ ابن كثير وكائن على وزن قاض، وفى قتل على القراءتين ضمير عائد على نبىّ ، والجملة بعده حالية ويحتمل أن يكون ربيون نائب الفاعل أو فاعلا ، وقواه فى غاية الأمانى بما روى عن الحسن أنه لم يقتل نبىّ فى الحرب ولأن الكلام فى تعيير من تزلزل يوم أحد ولم يثبت ثبات الربيين مع الأنبياء ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الوهن ضعف الرأى والبصيرة ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن مباشرة القتال بأجسامهم لأجل الجراح أو قتل الأنبياء وأصحابهم ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ ما خضعوا لعدوهم كما فعلتم حين قيل قتل النبى ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ على البلاء وينصرهم ويثيبهم ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ مع ثباتهم وقوتهم فى الدين وكونهم ربانيين ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا﴾ إيذاناً بأن ما أصابهم لسوء فعلهم وهضما لأنفسهم وقدم الاستغفار على طلب التثبيت لأنه أقرب إلى الإجابة لما فيه من الخضوع والاستكانة ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ بالمواظبة على الجهاد ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وإنما جعل قولهم خبراً باتفاقهم لأن «أن قالوا» أعرف لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ﴾ بسبب الاستغفار والالتجاء إليه ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ النصر والغنيمة وحسن الذكر ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ بالجنة بالتفضيل فوق الاستحقاق ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تزيين بما هو أفضل من كل ثواب حثا للمؤمنين أن يقولوا مثل هذا عند لقاء العدو ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المشركين أو المنافقين أو أهل الكتاب فيما يأمرونكم به والصحيح أن الخطاب للمؤمنين كافة أن يجانبوا جميع الكفار ولا يطيعوهم فى شىء إذ النزول على حكمهم يجر إلى موافقتهم ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أمركم الأول وهو الكفر ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ فى الدنيا بالتذلل للكفار والآخرة بدخول النار ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم فاستغنوا بنصره عن غيره ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ فأطيعوه دونهم ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ بسكون العين للجمهور وضمها لابن عامر والكسائى ، أى : الرعب منكم حتى تقهروهم ويظهر دين الإسلام على الأديان كلها ، وقد ألقى فى قلوبهم الرعب يوم أحد فتركوا القتال من غير سبب ونادى أبو سفيان يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت فقال رسول الله : «إن شاء الله» . فألقى الله الرعب فى قلب أبى سفيان ولم يجئ كما يأتى وقد عزموا أيضاً بعد ارتحالهم من أحد على العود واستئصال المسلمين فرعبوا وجبنوا ولم يرجعوا . قال الفخر الرازى : لا أحد يخالف دين الإسلام . إلا ألقى فى قلبه رعب عند القتال وعند المحاجة . اه . ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾ بسبب إشراكهم ﴿بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ حجة على عبادته وهو الأصنام ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى﴾ مأوى ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين هى وضع الظاهر موضع المضمر للتغليظ والتعليل ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ إياكم بالنصر بشرط التقوى والصبر فانهزم الكفار واتبعتموهم ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ﴾ تقتلونهم قتل استئصال ﴿بِإِذْنِهِ﴾

بإرادته من أحسه أبطل حسه ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ جبنتم وضعف رأيكم بالميل إلى الغنيمة ﴿ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ أمر النبي صلى الله عليه وسلم للرماة الخمسين بالمقام فى سفح الجبل فقال بعضهم : نذهب فقد نصر أصحابنا وقال أميرهم « عبد الله بن جبير » فى نفر دون العشرة : لا نخالف أمر النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَعَصَيْتُم ﴾ أمره فتركتم المركز لطلب الغنيمة ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم ﴾ الله ﴿ مَّا تُحِبُّونَ ﴾ من النصر ، وجواب إذا دل عليه ما قبله ، أى منعكم من نصره ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا ﴾ بترك المركز للغنيمة ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ فثبت به حتى قتل « كعبد الله بن جبير » وأصحابه ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ ﴾ عطف على جواب إذا المقدر أى ردكم بالهزيمة ﴿ عَنْهُمْ ﴾ عن الكفار ﴿ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ فيظهر المخلص من غيره . قال ابن مسعود : والله ما كنت أظن أن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى نزل « منكم من يريد الدنيا » .

وقال الثعالبي : تأمل رحمك الله ما يوجبه الركون إلى الدنيا وما ينشأ عنها من الضرر وإذا كان مثل هؤلاء السادة على رفعتهم وعظيم منزلتهم حصل لهم بسببها ما حصل من الفشل والهزيمة فكيف بأمثالنا . اه .

وخرج البغوى فى المسند المنتخب له عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تفتح الدنيا على قوم إلا ألقت بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . اه . وقال الثعالبي أيضاً : أعلم رحمك الله أن تيسر أسباب الدنيا لك مع إعراضك عن أمر الآخرة ليس من علامات الفلاح ، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت كلما طلبت شيئاً من أمر الآخرة وابتغيته يسر لك وإذا أردت شيئاً من أمر الدنيا وابتغيته عسر عليك فأنت على حال حسنة وإذا رأيت كلما طلبت شيئاً من أمر الآخرة عسر عليك ، وإذا أردت شيئاً من أمر الدنيا يسر لك فأنت على حال قبيحة » فتأمله راشداً ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ ما ارتكبتموه ﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالعفو أو فى الأحوال كلها بالنصر والأجر سواء أديل لهم أو عليهم ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾ تبعدون فى الأرض هاربين متعلق بصرفكم أو بليبتليكم أو بمقدر كاذكر أى اذكروا ذلك الوقت لتعلموا قبح فعلكم وفضل الله عليكم بالعفو ﴿ وَلَا تَلْوُۥنَ ﴾ لا تلتفتون لشدة خوفكم ﴿ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾ عبارة عن غاية انهزامهم وخوفهم العدو ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ أى جماعتكم المتأخرة مدح له بالشجاعة يقول : « إلىّ عباد الله أنا رسول الله من كر فله الجنة » قال البخارى فى صحيحه : أخراكم . تأنيث آخركم أى بكسر الخاء المعجمة قال فى الفتح والعمدة والتنقيح : فيه نظر لأن أخرى تأنيث آخر بفتح الخاء لا كسرها ، وزاد فى التنقيح أفعل تفضيل كفضلى وأفضل وتعقبه فى المصابيح فقال : نظار البخارى أدق من هذا وذلك أنه لو جعل أخرى هنا تأنيث آخر بفتح الخاء لم تدل على التأخر ، والمراد فى الآية الدلالة على التأخر كما فى « وقالت أولاهم لأخراهم » أى المتقدمة للمتأخرة واستعماله فى هذا المعنى موجود فى كلامهم بل هو الأصل . اه . ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ ﴾ الله : عطف على صرفكم أى جازاكم عن فشلكم وعصيانكم ﴿ غَمًّۢا ﴾ مضاعفا متصلا ﴿ بِغَمٍّ ﴾ من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل الرسول

أو لجازاكم غما بسبب غم أذقتموه رسول الله بعصيانكم ﴿ لِكَيْلَا ﴾ متعلق بعفا أو بأثابكم فلا زائدة أو غير زائدة والمعنى لكيلا ﴿تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ من الغنيمة أى لتتمرنوا على الصبر فى الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على فائت ولا لاحق وقيل فاعل أثابكم هو الرسول أى جازاكم بأن اغتم بما نزل عليه كما اغتممتم تسلية لكم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ من القتل والهزيمة ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بأعمالكم وبما قصدتم بها حث على الإخلاص ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً ﴾ أمنا وهما بمعنى أو يكون الأمن مع زوال الخوف والأمنة مع بقاء سبب الخوف ﴿ نُّعَاسًا ﴾ بدل منها أو هو المفعول وأمنة حال منه متقدمة وهذا أوجه لقوله فى الأنفال « إذ يغشيكم النعاس أمنة » أو مفعول له أو حال من المخاطبين بتقدير مضاف أى ذوى أمنة أو على أنه جمع آمن ، روى البخارى عن أبى طلحة قال أخذنى النعاس ونحن فى المصاف حتى وقع السيف من يدى مراراً . وعن ابن مسعود : النعاس فى القتال من الله وفى الصلاة من الشيطان ﴿ يَغْشَىٰ ﴾ بالياء للجمهور أى النعاس وبالتاء الأمنة للكسائى وحمزة والتذكير أحسن لقربه ولقوله فى الأنفال يغشيكم النعاس ﴿ طَائِفَةً مِّنكُمْ ﴾ وهم المؤمنون وكانوا يميدون تحت الحجف وتسقط السيوف منهم ﴿ وَطَائِفَةٌ ﴾ أخرى وهم المنافقون ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ أوقعتهم على الهم فلا رغبة لهم إلا نجاتها فقط ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ﴾ صفة أخرى لطائفة أو حال أو استئناف على وجه البيان لما قبله ﴿ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ نصب على المصدر أى ظنا غير ظن الحق به أى الذى يجب أن يظن به ﴿ ظَنَّ ﴾ الملة ﴿ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ بدل منه أى ظنا مختصاً بالجاهلية لا يظن ذلك الظن إلا أهل الشرك الجاهلون حيث اعتقدوا أن النبى لا ينصر ﴿يَقُولُونَ هَل ﴾ ما ﴿ لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ ﴾ الذى وعدناه ﴿مِن﴾ زائدة ﴿شَيْءٍ﴾ من النصر والظفر أو المعنى : منعنا تدبير أنفسنا فلم يبق لنا من الأمر شىء ، قاله ابن أبى لما أخبر بقتل الخزرج والجملة استئناف أو حال أو بدل من يظنون لأن السؤال لما كان صادراً عن الظن بناء على أنه طلب علم فيما يشك أو يظن جاز إبداله منه إذ الظن والعلم متعلق بما يقال فى جواب ذلك الاستفهام فلا يلزم كون الاستفهام ترجمة للخبر قاله فى غاية الأمانى ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ﴾ بالنصب للجمهور توكيد والرفع لأبى عمرو مبتدأ خبره ﴿ لِلَّهِ ﴾ القضاء له يفعل ما يشاء ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم ﴾ حال من فاعل يقولون وقل إن الأمر كله لله اعتراض أو استئناف وهو أوجه لقلة الاعتراض بين الحال وصاحبه ولفوائد الاستئناف ﴿ مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ خوفاً من السيف ﴿ يَقُولُونَ ﴾ بيان لما قبله ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ فى هذه المعركة قاله « معتب بن قشير » ، أى لو كان الاختيار إلينا لم نخرج فلم نقتل لكن أخرجنا كرهاً ، أو المعنى : لو كان لنا من أمر النصر شىء ما قتل هؤلاء ها هنا أو لو كنا على الحق ما قتلنا ها هنا ﴿ قُل ﴾ لهم ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ وفيكم من كتب الله عليه القتل ﴿ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ ﴾ قضى ﴿ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ ﴾ منكم ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ مصارعهم فيقتلون أولم ينجهم قعودهم لأن قضاءه تعالى كائن لامحالة ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ﴾ أى يختبر

﴿ مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾ من الإخلاص والنفاق عطف على علة محذوفة مع معللها أي فعل ما فعل بأحد لمصالح جمة « وليبتلي . . الخ » ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ﴾ يميز ﴿ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ لا يخفى عليه شيء وإنما يبتلي ليظهر للناس ، وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه غني عن الابتلاء وإنما فعل ذلك لإظهار حال المنافقين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا ﴾ انهزموا ﴿ مِنْكُمْ ﴾ عن القتال ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ جمع المسلمين وجمع الكافرين بأحد وهم غالب المسلمين فلم يثبت مع النبي إلا اثنا عشر رجلا من المهاجرين « أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير وابن عوف وسعد » والباقون من الأنصار ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي طلب منهم الزلل بوسوسته فأطاعوه ﴿ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ من الذنوب وهو مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم والذنوب تجر إلى الدنيا وصاحبها لم يستحق التأييد الإلهي قال الثعالبي في جواهره : واعلم رحمك الله أن أصل الوهن عن الجهاد هو حب الدنيا وكراهية بذل النفوس لله ألا ترى إلى حال الصحابة وقلتهم في صدر الإسلام كيف فتح الله بهم البلاد ودان لدينهم العباد لما بذلوا أنفسهم في الجهاد وحالنا اليوم كما ترى عدد أهل الإسلام كثير ونكايتهم في الكفار يسير . وروى أبو داود في سننه عن « ثوبان » قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك الأمم أن تتداعى عليكم » فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ قال « بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن » فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » . اهـ . فانظر رحمك الله فهل هذا الزمان إلا زماننا بعينه وتأمل ملوكنا إنما همهم جمع المال من حرام وحلال وإعراضهم عن أمر الجهاد فإنا لله وإنا إليه راجعون على مصاب الإسلام . اهـ . كلام عبد الرحمن الثعالبي رحمه الله . ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ للمؤمنين ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعجل على العصاة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالنفاق أو الشرك ﴿ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ في النسب أو المذهب أي لأجلهم ﴿ إِذَا ضَرَبُوا ﴾ سافروا ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ للتجارة أو غيرها فماتوا وكان حقه « إذ » لقوله قالوا لكنه جاء على حكاية الحال الماضية ﴿ أَوْ كَانُوا غُزًّى ﴾ جمع غاز فقتلوا ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ مفعول قالوا وهو يدل على أن إخوانهم لم يكونوا مخاطبين وكان الكفار والمنافقون لجهلهم إذا مات أحد منهم في سفر أو قتل قالوا : لو كان مقيما لسلم ، فنهى الله المؤمنين عن مثل ذلك الاعتقاد ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ ﴾ القول في عاقبة أمرهم ﴿ حَسْرَةً ﴾ غصة وغما ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ واللام للعاقبة متعلقة بقالوا أي لا تكونوا مثلهم لتكون الحسرة خاصة بهم ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ إبطال لذلك الوهم فلا يمنع عن الموت قعود فقد يحيي المسافر والمقاتل ويميت المقيم والقاعد ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ عالم بالتاء للجمهور : تهديد للمؤمنين على أن يماثلوا الكفار ؛ وبالياء لابن كثير وحمزة والكسائي : وعيد للكفار ﴿ وَلَئِنْ ﴾ لام قسم ﴿ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ ﴾ فيه بكسر الميم لنافع وحمزة والكسائي وضمها للباقين من مات يمات ويموت ﴿ لَمَغْفِرَةٌ ﴾ كائنة ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ لذنوبكم ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ منه لكم على ذلك ،

بين المعطوف عليه والمعطوف للتقرير والتقريع على ماتضمنه المعطوف ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ بمخالفة الأمر بترك المركز واختيار الخروج من المدينة أو بأخذ الفداء من أسارى بدر ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه النصر ومنعه ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ بأحد ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بإرادته وقضائه، سماه إذناً لأنه من لوازمه ﴿ وَلِيَعْلَمَ ﴾ الله علم ظهور ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ حقاً ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ أى: ليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ وهم عبد الله بن أبيّ وأصحابه ﴿ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أعداء الله هو من تمام الصلة عطف على « نافقوا » أو كلام مستقل عطف على « وما أصابكم» ﴿ أَوِ ادْفَعُوا ﴾ لاموالكم وأهليكم إن لم تقاتلوا نصرة لدين الله أو كثروا سواد المؤمنين فإنه مما يدفع والقائل لهم ذلك « أبو جابر عبد الله بن عمرو » لما انخذلوا بثلث العسكر ﴿ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا ﴾ لو نحسنه ﴿ لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ أو المعنى لو نعلم أن الذى تفعلون قتال لاتبعناكم لكنه ليس بقتال بل إلقاء نفس إلى التهلكة ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ بما أظهروه من خذلان المؤمنين وكانوا قبل أقرب إلى الإيمان من حيث الظاهر، أو يقدر مضاف، أى: لنصر أهل الكفر بقولهم وفعلهم ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم ﴾ تأكيد وتنفير ﴿ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ ولو علموا قتالا لم يتبعوكم ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ من النفاق لأنه يعلمه تفصيلا بعلم واجب وأنتم تعلمونه مجملا بأمارات ﴿ الَّذِينَ قَالُوا ﴾ بدل من الذين قبله أو مقطوع نصباً أو رفعاً على الذم ﴿ لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ لأجلهم ﴿ وَ ﴾ قد ﴿ قَعَدُوا ﴾ عن الجهاد ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا ﴾ أى شهداء أحد أو إخواننا فى القعود ﴿ مَا قُتِلُوا ﴾ كما لم نقتل، وقرأ هشام ما قتّلوا بتشديد التاء ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا ﴾ ادفعوا ﴿ عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أن القعود ينجى منه لأن أنفسكم أهم والموت هو المهروب منه وأسبابه كثيرة منها القتل ألقمهم الحجر مع شدة عنادهم بما لا يقدرون على إنكاره إذ يعلمون أن القعود كما يكون سبباً للنجاة، والقتال سبب الموت: قد يكون الأمر بالعكس، ونزل فى الشهداء ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لأجل دينه ﴿ أَمْوَاتًا بَلْ ﴾ هم ﴿ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ « أرواحهم فى حواصل طيور خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت » كما ورد فى الحديث ﴿ يُرْزَقُونَ ﴾ يأكلون ويشربون من الجنة تأكيد لكونهم أحياء ﴿ فَرِحِينَ ﴾ حال من ضمير يرزقون ﴿ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والقرب من الله والتمتع بنعيم الجنة ﴿ وَ ﴾ هم ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يفرحون بالبشارة ﴿ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ من إخوانهم المؤمنين ويبدل بدل اشتمال من « بالذين » ﴿ أَنْ ﴾ أى بأن ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ الذين لم يلحقوا بهم ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فى الآخرة المعنى يفرحون بأمنهم وفرحهم لما شاهدوا ما أعد الله لهم، وفى الآية دليل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس وأنه لا يفنى بخراب البدن ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه وفيها حث على الجهاد وترغيب فى الشهادة وبعث على ازدياد الطاعات

واللام ومدخولها جواب القسم الساد مسد جواب الشرط وهو فى موضع الفعل مبتدأ خبره ﴿ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ ﴾ بالتاء للجمهور والياء للغيبة لحفص والمعنى أن الجهاد لا يقدم الأجل ، وإن وقع موتكم فى سبيل الله فما تنالون من المغفرة والرحمة خير مما تجمعون من الدنيا ، وقدم القتل هنا لأنه الأشرف ثم قدم الموت فى قوله ﴿ وَلَئِنْ ﴾ لام قسم ﴿ مُتُّمْ ﴾ بالوجهين ﴿ أَوْ قُتِلْتُمْ ﴾ فى الجهاد وغيره ﴿ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ لا إلى غيره لأن المحشور موتاً أكثر ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ ﴾ « ما » زائدة للتأكيد ، والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة ﴿ مِنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ بعد ما خالفوك ولم تثربهم بل اغتممت لهم ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا ﴾ سيئ الخلق جافياً ﴿ غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ ﴾ قاسيه فأغلظت لهم ﴿ لَٱنفَضُّوا ﴾ تفرقوا ﴿ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ مخافة المؤاخذة أو اللوم ﴿ فَٱعْفُ ﴾ تجاوز ﴿ عَنْهُمْ ﴾ ما أتوه فيما يختص بك ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ذنبهم مما هو حق لله كالفرار من الزحف ﴿ وَشَاوِرْهُمْ ﴾ استخرج آراءهم ﴿ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ أى شأنك : أىّ أمر كان من الحرب وغيره مما له مجال الرأى فيه بخلاف الأحكام إذ لا رأى فيها بل فيما يصح المشاورة فيه تطييباً لقلوبهم وتمهيداً لسنة المشاورة وكان عليه السلام كثير المشاورة لهم وأوجبه بعض العلماء عليه وأما غيره فواجب عليه بلا خلاف قال فى الجواهر قال ابن عطية : « من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب » هذا ما لا خلاف فيه ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى الاستشارة ، ومشاورته عليه السلام إنما هى فى أمور الحرب والبعوث ونحوه من النوازل فأما فى حلال أو حرام أو حد فتلك قوانين الشرع « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » والشورى مبنية على اختلاف الآراء والمستشير ينظر فى ذلك الخلاف بالتقوى لا بالهوى ويتخير فإذا أرشده الله إلى ما شاء منه عزم عليه وأنفذه متوكلا على الله إذ هو غاية الاجتهاد المطلوب منه ، وصفة المستشار أن يكون عالماً متديناً . اهـ . وقال علىّ بن أبى طالب وقد خاطر من استغنى برأيه . اهـ . ومن فوائدها أن الإنسان يعزم على الأمر فيشاور فيه فيتبين له الصواب فى قول غيره فيعلم عجزه عن الإحاطة بالمصالح ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ ﴾ على إمضاء شىء بعد المشاورة ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ثق به لا بالمشاورة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ عليه علة للأمر فيهديهم إلى الأصلح ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ على عدوكم كيوم بدر ﴿ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ إذ لا نصر إلا من عنده ﴿ وَإِن يَخْذُلْكُمْ ﴾ كيوم أحد ﴿ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ بعد خذلانه غير الأسلوب استبعاداً للنصر ، أى : إذا جاوزتموه فلا ناصر لكم وفيه تنبيه على المقتضى للتوكل وتحريض على ما يستحق به النصر من الله وهو طاعته وتحذير عما يستجلب خذلانه وهو المعاصى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ لا على غيره ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ كلهم لعلمهم أن لا مؤثر سواه ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ ما صح ﴿ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ بالبناء للمفعول لنافع وابن عامر وحمزة والكسائى أى ينسب إلى الغلول ، وللفاعل للباقين أى يخون فى الغنيمة بأخذ شىء منها خفية : نزلت لما فقدت قطيفة حمراء يوم بدر فقال بعض الناس : لعل رسول الله أخذها لنفسه أو فى ظن الرماة به يوم أحد حين تركوا المركز للغنيمة

وقالوا : نخشى أن يقول رسول الله من أخذ شيئاً فهو له ولا يقسم الغنائم أو فى طلائع بعثهم وغنم بعدهم فقسم على من معه ولم يقسم للطلائع فسمى حرمان بعض المستحقين غلولا تغليظاً ومبالغة فى النهى وقيل ألحّ الأقوياء عليه فى القسم فنزل « وما كان لنبيّ أن يغلّ » بل يقسم بالسوية ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حاملا له على عنقه وأما فى الدنيا ، فقال فى القوانين : فإن جاء به تائباً قبل القسمة لم يؤدب ، وردّ للغنائم ، وإن تاب بعد افتراق الجيش أدب وتصدق به . اه . وقال ابن العربى فى الأحكام : الغلول خيانة فى المغنم كما أن الإسلال سرقة الخطف من حيث لا يشعر به كما يفعل سودان مكة اليوم قال علماؤنا تحريم الغلول دليل على اشتراك الغالين فى الغنيمة فلا يحل لأحد أن يستأثر بشىء منها دون الآخر فمن غصب منها شيئاً أدب ، فإن وطئ جارية أو سرق نصاباً ، فرأى عبد الملك من أصحابنا لا حد عليه لأن له فيه حقاً بل يؤدب وقيل يحد . اه ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ غلولا وغيره ولذا أورده عاما ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئاً بزيادة ولا نقصان ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ فأطاع ولم يغل ﴿كَمَنْ بَاءَ﴾ رجع ﴿بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ لمعصيته وغلوله ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع هى ، لا بل بينهما بون بعيد ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ﴾ أصحاب درجات أو لهم درجات ، أو متفاوتون كما تتفاوت الدرجات ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى مختلفو المنازل فلمن اتبع رضوان الله الثواب ولمن باء بسخطه العقاب والدرجة منزلة لوحظ فيها العلو كما لوحظ فى الدركة النزول ففيها تغليب ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه منه شىء فيجازى عليه ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أى : عربياً مثلهم يعرفون نسبه وصدقه وأمانته ليفهموا عنه ويشرفوا به لا ملكا ولا عجميا فلا نعمة أجل منه ، وقرئ من أنفسهم أى : أشرفهم لأن « عدنان ذروة ولد إسماعيل » و « مضر ذروة نزار بن معد بن عدنان » و « خندف (اسم لليلى امرأة الياس لكن شهر فى ولدها منه) ذروة مضر » و « مدركة ذروة خندف » و «هاشم ذروة قريش » و « محمد ذروة هاشم » فهو خيرٌ من خيار ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ القرآن على الاستمرار يراجعونه فى كل شبهة بعد ما كانوا جهالا ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من دنس الطباع بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومن سوء العقائد والأعمال ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنة التى سنها لهم على لسان نبيه ﴿وَإِنْ﴾ مخففة أى إن الشأن أو إنهم ﴿كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قبل بعثه ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ظاهر والجملة فى موضع الحال أو استئناف ﴿أَوَلَمَّا﴾ أى حين ﴿أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ بأحد بقتل سبعين منكم ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ﴾ أى والحال أنكم نلتم ﴿مِثْلَيْهَا﴾ ببدر بقتل سبعين منهم وأسر سبعين ﴿قُلْتُمْ﴾ متعجبين ﴿أَنَّى﴾ من أين لنا ﴿هَذَا﴾ الخذلان ونحن مسلمون ورسول الله فينا والجملة الأخيرة محل الاستفهام الإنكارى ولما ظرف مضاف إلى الجملة بعده وناصبه « قلتم » وأنى هذا مقول القول والواو عاطفة لما على مقدر نحو خالفتم الأمر أوَ لمّا أو على قوله «ولقد صدقكم الله» وما بعده من قصة أحد والهمزة متخللة

وإحاد لمن يتمنى لإخوانه بمثل ما أنعم به عليه ، وبشرى للمؤمنين بالفلاح ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ ﴾ ثواب لأعمالهم ﴿ مِنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ زيادة عليه وتنكيرهما للتعظيم استبشروا أولا بحال إخوانهم وثانياً بحال أنفسهم ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من جملة المستبشر به عطف على فضل ، وقرأ الكسائى بكسر إن استئناف معترض دال على أن ذلك أجر لهم على إيمانهم وأن عدم الإيمان سبب ضياع العمل ويؤيد أن « الذين لم يلحقوا بهم » هم المؤمنون كافة أى لا يضيع أجر المؤمنين كما لا يضيع أجر الشهداء ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ دعاءه بالخروج للقتال الغد من وقعة أحد صبيحة الأحد لما بلغه أن أبا سفيان وأصحابه لما بلغوا « الروحاء » وهو موضع بينه وبين المدينة نحو أربعين ميلا . ندموا وقالوا لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم بئس ما صنعتم وهموا بالرجوع وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يخرج معنا إلا من كان معنا بالأمس » فقال جابر وكان لم يشهد أحداً : يا رسول الله خلفنى أبى على سبع أخوات ! فأذن له فخرج فى آثارهم واستخلف على المدينة « ابن أم مكتوم » حتى بلغ « حمراء الأسد » وهى من المدينة على ثمانية أميال وألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا فعسكر عليه السلام بحمراء الأسد يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء وكانوا يوقدون تلك الليالى خمسمائة نار فذهب صوت عسكرهم وخوف نيرانهم فى كل وجه ثم رجع عليه السلام إلى المدينة وهذه هى غزوة «حمراء الأسد» وكان الصحابة تحاملوا الخروج وقروحهم تشخب دماء حتى لا يفوتهم الأجر كما قال تعالى ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾ باحد بفتح القاف للجمهور ولحمزة والكسائى وأبى بكر بضمها لغتان والموصول صفة للمؤمنين أو نصب على المدح أو مبتدأ خبره ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ ﴾ بالخروج ﴿ وَٱتَّقَوْا ﴾ مخالفة الرسول ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يعلم قدره غير الله ومن للبيان والمقصود من ذكر الوصفين المدح والتعليل لا التقييد لأن المستجيبين كلهم محسنون متقون ، قال فى فتوح الغيب : فالكلام فيه تجريد جرد من الذين استجابوا لله والرسول المحسن والمتقى . اه . وبعد « حمراء الأسد » سرية « أبى سلمة » إلى أرض « بنى أسد » ثم سرية « عبد الله بن أنيس » فقتل « سفيان بن خالد » الذى يجمع الجموع لرسول الله ثم بعث الرجيع ماء لهذيل عشرة أميرهم « عاصم بن ثابت » وفيه قصة « خبيب » ثم بعث سبعين أصحاب « بئر معونة » أميرهم « منذر بن عمرو » لتبليغ الدين فقتلوا جميعاً ثم غزوة «بنى النضير» ستأتى ، ثم غزوة « ذات الرقاع » ستأتى ، وفيها صلاة الخوف بنخلة ثم بدر الموعد وهى غزوة « بدر الصغرى » وإليها أشار بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ بدل من الذين قبله أو نعت ﴿ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ ركب « عبد القيس » أو « نعيم بن مسعود الأشجعى » ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ ﴾ « أبا سفيان » وأصحابه ، والمعرفة المكررة هنا لم تكن عين الأولى للقرينة ﴿ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ الجموع ليستأصلوكم وذلك أن «أبا سفيان» نادى عند انصرافه من أحد : يامحمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت فقال عليه السلام : « إن شاء الله » فلما كان القابل خرج « أبو سفيان » فى أهل مكة حتى نزل « بمجنة »

بناحية «مر الظهران» ثم ألقى الله الرعب فى قلبه وبدا له أن يرجع فر به ركب من «عبد قيس» يريدون المدينة للميرة فشرط لهم حمل بعير من زبيب على أن يثبطوا المسلمين، وقيل لقى «نعيم بن مسعود» وقد قدم معتمراً فسأله ذلك والتزم له عشراً من الإبل فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: أتوكم فى دياركم فلم يفلت منكم إلا الشريد أفتريدون أن تخرجوا إليهم وقد جمعوا لكم ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ ولا تخرجوا إليهم ففتر بعضهم. فقال عليه السلام: والذى نفسى بيده لأخرجن إليهم ولو وحدى فخرج فى سبعين راكباًوهم يقولون حسبنا الله فى شعبان واستعمل على المدينة «ابن رواحة» ﴿فَزَادَهُمْ﴾ هذا القول ﴿إِيمَانًا﴾ بالله ويقيناً بوعده ﴿وَقَالُوا﴾ إظهاراً لحمية الإسلام مع إخلاص النية وإعلام عدم الضعف ﴿حَسْبُنَا﴾ كافينا ﴿ٱللَّهُ﴾ وقالوا عطف على فزادهم والجملة بعد هذا القول نصب به، وحسب: بمعنى اسم الفاعل من أحسبه إذا كفاه، إذ لا يستفيد بالإضافة تعريفاً فى قولك هذا رجل حسبك ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ الموكول إليه هو تذييل. فى الحديث «إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل» ﴿فَٱنقَلَبُوا﴾ فرجعوا من بدر ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عافية وثبات على الإيمان وزيادة فيه ﴿وَفَضْلٍ﴾ ربح فى التجارة فإنهم لما أتوا بدراً وافوا بها سوقاً وكانت موضع سوق لهم فى الجاهلية يجتمعون إليها كل عام ثمانية أيام فأقاموا بها تلك الثمانية فباعوا فأصابوا بالدرهم درهمين وانقلبوا إلى المدينة سالمين كما قال تعالى ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ من عدو بقتل ولا جرح ﴿وَٱتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بطاعة رسوله فى الخروج الذى هو مناط الفوز بخير الدارين ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ على أهل طاعته حيث تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلب فى الدين وإظهار الجرأة على العدو وبالحفظ من كل سوء وإصابة النفع مع ضمان الأجر، وفيه تحسير للمتخلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ أى القائل «إن الناس» إلى آخره المثبط ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ خبر وما بعده بيان لشيطنته أو صفة وما بعده الخبر وهو ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ القاعدين عن الخروج مع رسول الله أو يخوفكم أولياءه الذين هم «أبو سفيان» وأصحابه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الضمير للناس الثانى على الأول وللأولياء على الثانى ﴿وَخَافُونِ﴾ فى ترك أمرى لجاهدوا مع رسولى ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضى إيثار خوف الله على خوف الناس. قال المحاسبى كلما عظمت هيبة الله فى صدور أوليائه لم يهابوا غيره حياء منه أن يخافوا معه سواه. اه. وما تقدم من أن هذه الآيات نزلت فى قصة «غزوة بدر الصغرى» وأن قصة ركب «عبد قيس» و«نعيم بن مسعود» معا كانتا فيها هو ما فى أكثر التفاسير ومن المفسرين من يجعلهما فى قصة «حمراء الأسد» كالتى قبلها وبين فى لباب التأويل بأن قصة ركب «عبد القيس» كانت فى غزوة «حمراء الأسد» وقصة «نعيم» كانت فى غزوة «بدر الصغرى» حيث قال فيه: إن «أبا سفيان» وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا على انصرافهم إلى أن قال: ومر ركب من عبد القيس، فقال لهم: أبو سفيان: أين تريدون؟ قالوا: المدينة لأجل الميرة، قال:

فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة وأحل لكم إبلكم زبيباً بمكاظ إذا وافيتموها قالوا نعم قال : إذا وافيتموه فأخبروه أنا سائرون إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم وانصرف أبو سفيان إلى مكة ومر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذى قال أبو سفيان ؛ فقال هو وأصحابه : حسبنا الله ونعم الوكيل . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة بعد ثالثة ، وقال مجاهد وعكرمة : نزلت هذه الآية فى غزوة بدر الصغرى ثم ذكر قصة خروج أبى سفيان وقصته مع نعيم ، والله أعلم . وقال فى الجواهر الحسان : فى قوله « الذين قال لهم الناس » الآية : وهذا القول قاله الركب من عبد القيس لرسول الله وأصحابه حين حملهم أبو سفيان ذلك فالناس الأول هم الركب والثانى عسكر قريش . هذا قول الجمهور وهو الصواب وقول من قال إن الآية نزلت فى خروج النبى صلى الله عليه وسلم إلى بدر الصغرى لميعاد أبى سفيان وأن الناس هنا « نعيم بن مسعود » قول ضعيف . اهـ وبعد بدر هذه غزوه عليه السلام بدومة الجندل جمعاً هناك يظلمون من يمر بهم ثم غزوة الخندق وسيأتى إن شاء الله ، والله أعلم ﴿ وَلَا يُحْزِنْكَ ﴾ بضم الياء وكسر الزاى لنافع وبفتحها وضم الزاى للباقين من حزنه لغة فى أحزنه ﴿ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ بنصره وهم أهل مكة أو المنافقون أو بجمع الجموع لمحاربتك أى لا تهتم بهم خوفاً أن يضروك ﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ ﴾ أى دينه أو أولياء الله ﴿ شَيْئًا ﴾ بفعلهم وإنما يضرون أنفسهم ، وشيئاً مفعول مطلق أى شيئاً من الضرر أو مفعول به أى من الأشياء : وبيّن عدم الضرر بقوله ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا ﴾ نصيباً ﴿ فِي الْآخِرَةِ ﴾ فى الجنة فلذلك خذلهم وفى ذكر الإرادة إشعار بأن كفرهم بلغ الغاية حتى أراد أرحم الراحمين ألا يكون لهم حظ من رحمته التى وسعت كل شىء وأن الشر والخير بإرادة الله ، وفيه رد على القدرية والمعتزلة ، والحظ إذا أطلق إنما يتبادر إلى الخير ﴿ وَلَهُمْ ﴾ بدل الثواب ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فى النار وذلك أبلغ ما ضرّ به الإنسان نفسه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ أى أخذوه بدله وهم جميع الكفار ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ وإنما ضروا أنفسهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم تكرير للتأكيد أو لتعميم الكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين أو ارتد من الأعراب أو تخصيص لأهل الكتاب الذين حرفوا واشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ بياء الغيبة للجمهور وبتاء الخطاب لحمزة ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي ﴾ أى إملاءنا ﴿ لَهُمْ ﴾ بتطويل الأعمار وتأخيرهم أو الذى نطيله لهم من العمر يقال أملى لفرسه إذا أرخى طيله ﴿ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ﴾ أن ومعمولاها سدت مسد المفعولين فى قراءة التحتانية ومسد الثانى فى الفوقانية ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي ﴾ نمهل ﴿ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ بكثرة المعاصى استئناف بما هو العلة للحكم قبلها وما : كافة ، واللام : لام الإرادة ، وعند المعتزلة لام العاقبة وفى الحديث المرفوع : « إذا رأيت الله يعطى على المعاصى فإن ذلك استدراج لخلقه » فالآية رد على الكفار فى قولهم : إن كوننا مولين أصحة دليل على رضى الله بحالتنا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ذو إهانة

فى الآخرة ﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ﴾ ليترك ، واللام لتأكيد النفى ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من اختلاط المخلص بغيره ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ بالتخفيف من ماز للجمهور والتشديد من التمييز لحمزة والكسائى أى يفصل ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ المنافق ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ المؤمن بالتكاليف الشاقة المبينة لذلك كبذل الأموال والأنفس فى سبيل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ فتعرفوا مافى القلوب من كفر وإيمان قبل التمييز ولا تتوهموا أن الرسول يطلع على ما فى القلوب كاطلاع الله فيخبر عن كفرها وإيمانها من غير وحى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى﴾ يختار ﴿مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيطلعه على غيبه بالوحى كما أطلع النبى على حال المنافقين ﴿فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بأنه عالم الغيب وأنه المخبر لرسله ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الجنة بإيمانكم واتقائكم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالتحتية للجمهور والفوقية لحمزة ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة هنا وفى الموضعين قبل بفتح السين والباقون بكسرها ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ عبر به دون أموالهم زيادة للذم بأن اللائق بهم أن يحسنوا كما أحسن الله إليهم ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أى بزكاته من المال ، أو بما امتنعوا من إنفاقه فى سبيل الله وعلى ذوى الأرحام ﴿هُوَ﴾ أى بخلهم ﴿خَيْرًا لَّهُم﴾ مفعول ثان والضمير للفصل والأول بخلهم مقدراً قبل الموصول على الفوقانية وقبل الضمير على التحتانية ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بيان لشرّيته ، أى : سيصير عذاب بخلهم لازما لهم كالطوق فى أعناقهم أو يطوقونه نفسه حقيقة لما روى البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه يقول : أنا مالك ، أنا كنزك» . ثم تلا هذه الآية . قلت ومعنى آتاه بمد الهمزة أعطاه ومُثل بضم الميم مبنياً للمفعول أى صُوِّر ، وشجاعا نصب على الحال أى حية أقرع أى لا شعر على رأسه لكثرة سمه وطول عمره وزبيبتان نقطتان سوداوان فوق عينيه وهو أخبث ما يكون منها يطوّقه بفتح الواو المشددة أى يجعل طوقا فى عنقه ولهزمتيه بكسر اللام جانبى فمه ، والله أعلم . قال ابن العربى فى أحكامه : قال علماؤنا : البخل منع الواجب والشح منع المستحب والصحيح المختار أن هذه الآية فى الزكاة الواجبة للوعيد . اهـ . قال فى الجواهر : وتعميمها فى جميع أنواع الواجب أحسن ، وقيل الآية فى البخل بالعلم وكتمانه ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى ما فيهما مما يتوارث ملكه له فما للبخلاء يبخلون بماله ولا ينفقونه فى سبيله أو أنه يرث منهم ما يمسكونه ولا ينفقونه فى سبيله بهلاكهم ويبقى عليهم الحسرة والعقوبة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء للجمهور والياء لأبى عمرو وابن كثير من المنع والإعطاء ﴿خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه : حث على الإنفاق قبل فواته ووعيد للبخلاء ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ وهم اليهود قالوه لما نزل : «من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً» وقالوا : لو كان غنياً ما استقرضنا . هذا قول الحسن وقتادة . قال الحسن : وقائل «إن الله فقير» هو

« حي بن أخطب » وقال عكرمة والسدى كتب النبى صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر رضى الله عنه إلى يهود بنى قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً فقال « فنحاص بن عازوراء » منهم : إن الله فقير حين سأل القرض ، يريد بذلك تكذيب القرآن فلطمه أبو بكر وقال لولا العهد الذى بيننا لضربت عنقك فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحد ما قاله فنزلت والمعنى أنه لم يخف عليه وأنه أعد لهم العقاب عليه ﴿ سَنَكْتُبُ ﴾ نأمر بكتب ﴿ مَا قَالُوا ﴾ فى صحف أعمالهم ليجازوا عليه إذ هو كفر بالله واستهزاء بالقرآن والرسول ، ولذلك نظامه مع قتل الأنبياء وقال ﴿ وَ ﴾ نكتب ﴿ قَتْلَهُمْ ﴾ بالنصب ﴿ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ وفيه تنبيه على أن قولهم ليس أول جريمة ارتكبوها وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذا القول ، وقرأ حمزة سيكتب بالياء وضمها وفتح التاء وقتلهم بالرفع والسين للتأكيد ولذا عطف عليه الماضى والعدول إلى المضارع مبالغة كأنه معدٌّ بين يدى الكاتب يطالعه حيناً لحيناً ﴿ وَنَقُولُ ﴾ بالنون ولحمزة بالياء أى الله لهم فى الآخرة على لسان الملائكة ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى العذاب المحرق وهو النار يحرق أحدهم فى اليوم سبعين ألف مرة ، أى : نقول لهم هذا القول عند الانتقام إيفاء لمسامعهم مرارته حيث لم تصغ إلى الحق ، والحريق : النار العظيمة وفيه مبالغات فى الوعيد ، والذوق إدراك الطعوم ويستعمل على الاتساع لإدراك سائر المحسوسات والحالات وذكره هنا لأن العذاب مرتب على قولهم الناشئ عن البخل بالمال وغالب حاجة الإنسان إليه لتحصيل المطاعم ومعظم بخله للخوف من فقدانه ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال ويقال لهم إذا ألقوا فيها ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ العذاب ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ من قولكم ، إن الله فقير ، وقتل الأنبياء وسائر المعاصى ، عبر بالأيدى عن الأنفس لأن أكثر أعمالها بهن ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ ﴾ أى بذى ظلم ﴿ لِلْعَبِيدِ ﴾ فيعذبهم بغير ذنب وظلام وزن نسبة أو مبالغة لكثرة المتعلق والجملة عطف على بما قدمت وسببيتها للعذاب من حيث إن نفى الظلم يستلزم العدل المقتضى إثابة المحسن ومعاقبة المسىء ﴿ الَّذِينَ قَالُوا ﴾ لمحمد ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا ﴾ أمرنا أو وصانا فى التوراة والموصول رفع أو نصب على الذم أو بدل من الذين أو من العبيد ﴿ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾ فلا نؤمن لك حتى تأتينا به ، وهو ما يتقرب به إلى الله من نعم وغيرها فإن قبل جاءت نار بيضاء من السماء فأحرقته وإلا بقى مكانه قالوا ذلك افتراء على الله وقيل عهد إليهم ذلك إلا فى المسيح ومحمد قال تعالى ﴿ قُلْ ﴾ لهم توبيخاً ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالمعجزات الموجبات للتصديق غير ما اقترحتموه ﴿ وَ ﴾ جاءوا ﴿ بِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ من القربان فقتلتموهم كزكرياء ويحيى فلو كان الموجب للتصديق هو الإتيان به لصدقتموهم فقد جاءوكم به وبمعجزات أخر ، والخطاب لمن فى زمن نبينا وإن كان الفعل لأجدادهم لرضاهم به ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى أنكم تؤمنون عند الإتيان به

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾المعجزات ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ كصحف إبراهيم ﴿ وَالْكِتَابِ ﴾ ولابن عامر بإثبات الباء فيهما ﴿ الْمُنِيرِ ﴾ الواضح هو التوراة والإنجيل تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن تكذيب الجهلة للأنبياء أمر قديم ليس مختصاً به ليصبر كما صبروا ، والزبُر جمع زبور وهي الصحف أو المواعظ والزواجر ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ لا محالة وعد ووعيد للصدق والمكذب فلا يحزنك تكذيبهم إياك فرجع الخلق إلى الله فيجازيهم ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ ﴾ جزاء أعمالكم خيراً أو شراً ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وما كان قبلها في الدنيا والقبر بعض جزاء ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ ﴾ بُعِّد ﴿ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ سعد ونجا ونال غاية مطلوبه ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي العيش فيها من لذاتها وزخارفها ﴿ إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ الباطل يتمتع به قليلا ثم يفنى شبهها بالمتاع الذي يدلس به على المشتري حتى يشتريه ، وهذا لمن آثرها على الآخرة ، وأما من طلب بها الآخرة فهي له متاع وبلاغ والغرور مصدر أو جمع غار وفي الحديث من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس مايحب أن يؤتى إليه . ولما أخبر الله تعالى أن الدنيا زائلة سريعاً أخبر المؤمنين أنهم يلقون شدائد ليصبروا وينالوا الجنة مؤكداً لجواب القسم بالنون بقوله ﴿ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ حذف منه نون الرفع والواو لام الفعل أو ضمير الجمع لالتقاء الساكنين وبقيت الضمة التي عليها أو قبلها لتدل عليها ولم تقلب ألفاً لأن حركتها عارضة : المعنى لتختبرن ﴿ فِي أَمْوَالِكُمْ ﴾ بالفرائض فيها والجوائح ﴿ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ بالعبادات كالجهاد وبالبلايا كالقتل والأسر والجراح والمخاوف والمصائب ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ اليهود والنصارى ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ من العرب ﴿ أَذًى كَثِيرًا ﴾من السب والطعن في الدين وإغراء الكفار عليكم أخبرهم الله بذلك عند قدومهم المدينة ليوطنوا أنفسهم على الصبر والاحتمال ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا ﴾ على ذلك ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ مخالفة أمر الله ﴿ فَإِنَّ ذَلِكَ ﴾ الصبر والتقوى ﴿ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ أي من معزوماتها التي يعزم عليها لوجوبها أو من صواب التدبير الذي لا شك أن الرشد فيه أو مما عزم الله عليه ، أي أمر به وبالغ فيه ، والعزم في الأصل : إثبات الرأي على الشيء نحو إمضائه وكان عليه السلام يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله له فيهم فكل من قام بحق ، أو أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فلا بد أن يؤذى فما له دواء إلا الصبر في الله والاستعانة به والرجوع إليه ؛ قاله القسطلاني ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ﴾أي اذكر وقت أخذه﴿ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ يريد به العلماء ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ بالتاء في الفعلين لنافع وابن عامر وحمزة وحفص ، وبالياء للباقين ، واللام جواب القسم الذي ناب عنه أخذ الميثاق والضمير للكتاب ﴿ فَنَبَذُوهُ ﴾ طرحوا الميثاق ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ فلم يعملوا به ﴿ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ متاعاً فانياً من الدنيا من سفلتهم برياستهم في العلم فكتموه خوف فواته عليهم ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ شراؤهم هذا ، قال في غاية الأماني :

والآية وإن نزلت فى أهل الكتاب فالحكم عام لقوله عليه السلام « من كتم علماً من أهله ألجمه الله بلجام من نار » . اه . وفى الجواهر أظهر الأقوال أن الآية نزلت فى اليهود ثم كل كاتم علماً من هذه الأمة يأخذ بحظه من هذه المذمة ، وفى مدارك التنزيل للنسفى : فى الآية دليل على أنه يجب على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة وتطييب لنفوسهم أو لجر منفعة أو دفع أذية . اه . ﴿ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ﴾ فعلوا من إضلال الناس وكتمان الحق وترك الجهاد قرأ الجمهور «يحسبن» بالغيبة والكوفيون بالخطاب ﴿ وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ من رعى المصالح والوفاء بالميثاق وإظهار الحق ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ ﴾ تأكيد بالتاء للجمهور والياء لابن كثير وأبى عمرو مع ضم الموحدة هنا لكن ابن كثير وأبو عمرو يضمون الموحدة هنا ﴿ بِمَفَازَةٍ ﴾ بمكان ينجون فيه ﴿ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ فى الآخرة بل هم فى مكان يعذبون فيه وهو جهنم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم فيها ومفعولا تحسب الأولى دل عليهما مفعول الثانية على قراءة التحتانية وعلى الفوقانية حذف الثانى فقط ، والآية نزلت كما فى البخارى ومسلم فى قوم يتخلفون عن الغزو ثم يعتذرون بأنهم رأوا المصلحة فى التخلف ويستحمدون به ، وروى أنه عليه السلام سأل اليهود عن شىء مما فى التوراة فأخبروه بخلاف ما كان فيها وأروه أنهم قد صدقوا وفرحوا بما فعلوا فنزلت ، وهذا أيضاً فى البخارى عن ابن عباس ، وقيل نزلت فى المنافقين فإنهم يفرحون بمنافقتهم ، ويستحمدون إلى المؤمنين بالإيمان الذى لم يفعلوه على الحقيقة ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يملك جميع مافيهما رد لقولهم إن الله فقير ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يقدر على تعذيب العاصى وإثابة المطيع ، وعيد ووعد ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ ﴾ من الارتفاع والاتساع وما فيها من الكواكب السيارة والثوابت وغيرها ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ من الانخفاض والكثافة والاتضاع وما فيها من البحار والجبال والأنهار والأشجار والنبات والحيوان والمعادن وغيرها ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ فى المجىء والذهاب والزيادة والنقصان ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ دلالات على صانع قديم عليم حكيم قدير ﴿ لِأُولِى الْأَلْبَابِ ﴾ لذوى العقول الصافية من الجهل والوهم والهوى ، وتقدم تفصيل الاستدلال فى البقرة وأطنب هناك لأن الكلام مع عبدة الأصنام ، وأوجز هنا لأن الكلام مع الأحبار ولذلك فصل تلك بيعقلون وهذه بأولى الألباب تعريضاً للأحبار ، قال الفخر : واعلم أن المقصود من هذا الكتاب جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق والاستغراق فى معرفة الحق فلما أطال الكلام فى تقرير الأحكام والجواب عن شبهات المبطلين عاد إلى إنارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والكبرياء والجلال وذكر الأدعية ولذا ختم آل عمران بهذه الآيات بنحو ما فى سورة البقرة . اه . وفى الحديث كما فى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من النوم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران وعنه عليه السلام « ويل لمن قرأها ولم يتفكر » ﴿الَّذِينَ﴾ نعت لما قبله أو بدل ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى

جُنُوبِهِمْ ﴾ مضطجعين أى يداومون على الفكر بألسنتهم وقلوبهم لأن الشخص لا يخلو من هذه الأحوال وقيل المراد يصلون على الهيئات الثلاث حسب طاقتهم لحديث عمران بن الحصين المروى فى البخارى والترمذى وغيرهما : « صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب » . قال مالك : « من قدر صلى قائماً بلا استناد فإن لم يقدر صلى معتمداً فإن لم يقدر صلى جالساً كذلك فإن لم يقدر صلى على جنبه الأيمن ثم الأيسر ثم على ظهره » . اهـ . ومن انتقل من هيئة إلى أخرى وهو قادر أعاد أبداً فإن لم يقدر على شىء نوى الصلاة بقلبه وفاقاً للشافعى وقيل تسقط عنه وفاقاً لأبى حنيفة وقيل مراد الآية القيام بأوامره والقعود عن زواجره والاجتناب عن مخالفته ذاكراً الله فى جميع ذلك ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ استدلالا واعتباراً وهو من أفضل العبادات ، قال عليه السلام : « لا عبادة كالتفكر » أى يتفكرون فيها وما أبدع فيها من عجائب المصنوعات ليدلهم على كمال قدرته . ودلائل التوحيد منحصرة فى الآفاق والأنفس ودلائل الآفاق أعظم . قال تعالى : لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس فإذا فكر الإنسان فى أصغر ورقة من الشجر وإن عرقاً واحداً يجد وسطه ممتداً يتشعب منه عروق كثيرة إلى الجانبين ثم يتشعب من كل عرق عروق دقيقة ولا يزال كذلك حتى لا يراه الحس فيعلم أن الخالق خلق فيها قوى جارية لغذائها من قعر الأرض يتوزع فى كل جزء من أجزائها بتقدير العليم الحكيم فإذا تأمل ذلك علم عجزه عن الوقوف على كيفية خلقها وما فيها من العجائب فالفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية ، قال القشيرى : ثمرة التفكر الوصول إلى العلم ثم فكر الزاهدين فى فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكر زهداً وفكر العابدين فى جميل الثواب وعظيم العقاب فيزدادون نشاطاً رغبة ورهبة وفكر العارفين فى آلاء الله فيزدادون محبة لله . اهـ . يقولون ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا ﴾ الخلق الذى نراه من السموات والأرض وما فيهما ﴿ بَاطِلًا ﴾ حال عبثاً بل دليلا على كمال قدرتك وحكمتك ومن جملتها أن يكون مبدأ لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه ودليلا يدله على معرفتك ويحثه على طاعتك لينال الحياة الأبدية فى جوارك ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ تنزيهاً لك عن العبث اعتراض ﴿ فَقِنَا ﴾ الفاء فصيحة تقتضى مقدراً يرتبط معها تقديره « ما خلقت هذا باطلا » بل للدلالة على معرفتك ومن عرفك أطاعك ونحن قد عرفناك وأطعناك فقنا ﴿ عَذَابَ النَّارِ ﴾ ودلت الفاء على أن علمهم بما لأجله خلقت السموات والأرض حملهم على الاستعاذة ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ ﴾ للخلود فيها ﴿ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ أهنته غاية الإهانة ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ الكافرين المخزيين فيه وضع الظاهر موضع المضمر إشعاراً بتخصيص الخزى بهم ودلالة على أن ظلمهم تسبب فى خزيهم ﴿ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ أَنصَارٍ ﴾ يمنعونهم من عذاب الله ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى ﴾ الناس ﴿ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ أى إليه وهو محمد أو القرآن ، وفى إيقاع الفعل على المسمع وحده وحذف المسموع لدلالة وصفه عليه مبالغة ليست فى إيقاعه على نفس المسموع ،

وفى تنكير المنادى وإطلاقه ثم تقييده تعظيم لشأنه وتفخيمه بـ ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ فامتثلنا ﴿فَآمَنَّا﴾ به ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كبائرنا فإنها ذات تبعة ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ صغائرنا فإنها قبيحة ولكن مكفرة باجتناب الكبائر ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ اقبض أرواحنا ﴿مَعَ﴾ جملة ﴿الْأَبْرَارِ﴾ الأنبياء والصالحين أى مخصوصين بصحبتهم أو معدودين فى زمرتهم، وفيه تنبيه على أنهم يحبون لقاء الله «ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» والأبرار جمع بَرّ أو بَارّ ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا﴾ أعطنا ﴿مَا وَعَدتَّنَا﴾ به ﴿عَلَىٰ﴾ ألسنة ﴿رُسُلِكَ﴾ من الرحمة والفضل، وسؤالهم ذلك وإن كان وعده تعالى لايخلف: سؤال أن يجعلهم من مستحقيه لأنهم لم يتيقنوا استحقاقهم له وتكرير «ربنا» مبالغة فى التضرع. وعن جعفر الصادق من أحزنه أمر فقال خمس مرات «ربنا» فاستعاذ منه أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد، وقرأ الآية ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ الموعد بالبعث والجزاء أو بإثابة المؤمن وإجابة الداعى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ دعاءهم وهو أخص من أجاب ويعدى بنفسه وباللام قاله البيضاوى. وفى غاية الأمانى: يقال: استجاب له وأجابه بمعنى، مع مافى السين من قوة المعنى ﴿أَنِّى﴾ أى بأنى ﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم﴾ بنى الكلام فى الجواب على ما بنوا عليه من الإطناب غاية ولفظاً ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيان لعامل لأنه بمعنى شخص. روى الحاكم عن أم سلمة أنها قالت: يارسول الله لم أسمع الله يذكر النساء فى الهجرة فنزلت ﴿بَعْضُكُم﴾ كائن ﴿مِّن بَعْضٍ﴾ فى الدين أو من أصل واحد الذكور من الإناث وبالعكس والجملة مؤكدة لما قبلها أى هم سواء فى المجازاة بالأعمال وترك تضييعها ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ إلى آخره تفصيل لأعمال العمال وما أعد لهم من الثواب على سبيل المدح والتعظيم أى هاجروا الشرك والأوطان والعشائر للدين ﴿وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ التى ولدوا فيها أو نشأوا فيها ﴿وَأُوذُوا﴾ بالشتم والضرب ونهب الأموال ﴿فِى سَبِيلِى﴾ بسبب دينى، أى: إيمانهم بالله وطاعته ﴿وَقَاتَلُوا﴾ الكفار ﴿وَقُتِلُوا﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن كثير وابن عامر وفى قراءة لحمزة والكسائى تقديم المقصور على الممدود ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أسترها بالمغفرة ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا﴾ مصدر من معنى «لأكفرن» مؤكد له ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فيه التفات عن التكلم إلى الاسم الجامع دلالة على الألوهية التى من شأنها التفضل والعطاء، أى: تفضلا من الله لا للأعمال ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ الجزاء تتميم لما تقدم وتوكيد له والإتيان بالمصدر مضافاً مبالغة. ولما قال بعض المسلمين: أعداء الله فيما نرى من الخير ونحن فى الجهد نزل ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تصرفهم ﴿فِى الْبِلَادِ﴾ فى التجارة والكسب خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته هو ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ فى جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة عما وعد المؤمنون. يتمتعون به فى الدنيا يسيراً ويفنى، وفى البخارى: «إن آخر من يدخل الجنة له بقدر الدنيا عشر مرات» وفيه «ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يدخل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع» ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾

﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ الفراش هي ﴿ لَـٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا ﴾ هو ما يعد للضيف ونصبه على الحال من جنات والعامل فيها الظرف وقيل إنه مصدر مؤكد والتقدير أنزلوها نزلا ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ مما يتقلب فيه الفجار لقلته وسرعة زواله ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه وأربعين من نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فأسلموا، وإنما دخلت اللام على الاسم للفصل بينه وبين إن بالظرف ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ أي القرآن ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ من التوراة والإنجيل ﴿ خَاشِعِينَ ﴾ حال من ضمير يؤمن مراعى فيه معنى من أي متواضعين ﴿ لِلَّهِ ﴾ لكمال علمهم بكبريائه ﴿ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ التي عندهم في التوراة من نعت النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ تعريض للمحرفين ﴿ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ ثواب أعمالهم ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ يؤتونه مرتين كما في القصص ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ لعلمه بالأعمال وما تستوجبه من الجزاء واستغنائه عن التأمل، والمراد: أن الأجر الموعود سريع الوصول لأن سرعة الحساب يستدعي سرعة الجزاء فهو كناية عن قرب إنجاز ما وعد لأنه من لوازمه وعن كمال علمه على إحاطته بمقادير الأجور ومراتب الاستحقاق وفي الحديث «يحاسب الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا» ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا ﴾ على الطاعات والمصائب وعن المعاصي ﴿ وَصَابِرُوا ﴾ غالبوا الكفار في الصبر على الجهاد فلا يكونوا أشد صبراً منكم، وأنفسكم في مخالفة الهوى، أفرده بالذكر لأنه أشق وأفضل ﴿ وَرَابِطُوا ﴾ أبدانكم وخيولكم في الثغور مترصدين للغزو أو أنفسكم على الطاعة كما قال عليه السلام «من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة». روى البخاري عنه عليه السلام قال: «رباط يوم خير من الدنيا وما فيها» وروى مسلم عنه قال «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات أجرى عليه رزقه وعمله» وروى أبو داود عنه «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط» وروى الترمذي «رباط يوم خير من ألف فيما سواه» قال في غاية الأماني: وفي ذكر الثلاثة إشارة إلى المراتب الثلاثة المعبر عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة كأنه قال: اصبروا على مشاق الطاعة ومجاهدة النفس في نقض المألوفات ومرابطة السر على جناب القدس لترصد الواردات. اه ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في جميع أحوالكم بالمحافظة عليها ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تفوزون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وفي مدارك التنزيل: «اصبروا في محنتي وصابروا في نعمتي ورابطوا أنفسكم في خدمتي لعلكم تفلحون تظفرون بقربتي». اه. رزقنا الله قربه ومجاورته في دار رضوانه بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

[تم تفسير سورة آل عمران]

سورة النساء

مدنية مائة وخمس أو ست أو سبع وسبعون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ خطاب يعم بنى آدم ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾ أى عقابه بأن تطيعوه ﴿ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ آدم ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ حواء بالمد أمكم ﴿ وَبَثَّ ﴾ فرق ونشر ﴿ مِنْهُمَا ﴾ من آدم وحواء ﴿ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ كثيرة بيان لكيفية تولدهم منهما ، روى أنها ولدت لآدم أربعين ولداً فى عشرين بطناً فى كل بطن ذكر وأنثى واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها إذ الحكمة تقتضى أن يكن أكثر وذكر الوصف حملا على الجمع ، وفى الآية تنبيه على الصانع ، وافتتاح وجود بنى آدم ، والحض على التواصل لحرمة النسب ، وترك التفاخر بالأنساب إذ ترجع إلى أصل واحد ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ رتب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التى من حقها أن تخشى والنعمة الباهرة التى توجب طاعة .وليها ﴿ الَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ ﴾ أى يسأل بعضكم بعضاً فيقول أسألك بالله وأصله تتساءلون فأدغمت التاء الثانية فى السين وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بطرحها ﴿ وَ ﴾ اتقوا ﴿ الْأَرْحَامَ ﴾ أن تقطعوها ولحمزة بالجر عطفاً على الضمير فى « به » وكانوا يتناشدون بالرحم وهى القرابات واتفقت الأمة على أن صلة ذوى الأرحام واجبة وأن قطعها محرم : قاله ابن العربى فى الأحكام . قال البيضاوى : وقد نبه سبحانه إذ قرن الأرحام باسمه على أن صلتها بمكان منه وعنه عليه السلام « الرحم متعلقة بالعرش تقول : من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله » . اهـ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ حافظاً لأعمالكم فيجازيكم بها أى لم يزل متصفاً بذلك . ولما كان رَعْىُ أمر اليتامى والعدل فى نكاح النساء وفى المواريث والوصايا وما يتصل بذلك من صلة الأرحام أتبعه بها فقال : ﴿ وَءَاتُوا الْيَتَٰمَىٰٓ ﴾ الصغار الأولى لا أب لهم ﴿ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ إذا بلغوا وهى جمع يتيم من اليتم وهو الانفراد ومنه الدرة اليتيمة فالاشتقاق يقتضى وقوعه على الصغار والكبار لكن العرف خصه بمن لم يبلغ والمراد بهم فى الآية : إما البالغون اتساعا لقرب عهدهم بالصغر حثاً على أن يدفع إليهم أموالهم أول بلوغهم ، قبل أن يزول عنهم هذا الاسم إن أونس منهم الرشد ولذلك أمرنا بابتلائهم صغاراً أو المراد غير البالغين والحكم مقيد فكأنه قال : وآتوهم إذا بلغوا ، ويؤيد الأول ماروى أن رجلا من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلما بلغ طلب المال منه فمنعه فنزلت فلما سمعها العم قال : أطعنا الله ورسوله ونعوذ بالله من الحوب الكبير ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ لا تتركوا الكسب الحلال وتأكلوا

أموال اليتيم أو لا تأخذوا الطيب من مال اليتيم وتعطوه الردىء مكانه كما تفعلون فى الجاهلية فتقولون : الدرهم بالدرهم والرأس بالرأس ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ ﴾ مضمومة ﴿إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ بغير ضرورة إذ يأتى « ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » ﴿إِنَّهُ﴾ أى أكلها ﴿ كَانَ حُوبًا ﴾ ذنبا ﴿كَبِيراً﴾ عظيما وقرئ حَوْباً بالفتح مصدر حاب أثم ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا ﴾ تعدلوا ﴿ فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ أى يتامى النساء إذا تزوجتم بهن ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ غيرهن : كانوا إذا كان عند الرجل يتيمة ذات مال وجمال يتزوجها ضنا بها ولا يعطيها صداق مثلها فنهوا أن ينكحوهن حتى يعدلوا أنهم يقسطون لهن فى الصداق وغيره : هذا سبب نزولها كما قال البخارى عن عائشة . وعن ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يكثر النساء ولا يقدر على القيام بحقوقهن فلما نزلت الآية الأولى تحرجوا عن ولاية اليتامى فنزلت هذه فكأنه قيل لهم : فخافوا أيضاً ألا تعدلوا بين النساء فانكحوا إلى آخرها ، عبر عنهن « بما » ذهاباً إلى الصفة أى النوع الذى استطابته أنفسكم عام خصه قوله « حرمت عليكم أمهاتكم » أو ما حل لكم على أنه مجمل بُيِّنَ به ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ حال من فاعل طاب أى أبيح لكم نكاح الطيبات لكم مفصلات على هذه الأعداد وهى غير منصرفة للعدل والوصف أى من اثنين اثنين وثلاثاً ثلاثا وأربعاً أربعا ولا تزيدوا على ذلك واجتمعت الأمة على أنه لا يجوز لأحد أن يزيد على أربع نسوة وأن ذلك من خصائص النبى عليه السلام ويجوز للحر أن يجمع بين أربع نسوة وكذا للعبد عند مالك خلافاً لأكثر العلماء قالوا : إن العبد لا ينكح أكثر من امرأتين ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ فيهن وبينهن فى النفقة والقسم ﴿ فَوَاحِدَةً ﴾ أى فانكحوا واحدة وذروا تلك الأعداد وقرئ بالرفع ، أى : فتكفيكم واحدة ﴿أَوْ﴾ اقتصروا على ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من السرارى من غير حصر إذ ليس لهن من الحقوق ما للزوجات فى القسم والوطء ﴿ ذَٰلِكَ﴾ أى تقليلهن أو التسرى ﴿أَدْنَىٰ﴾ أقرب إلى ﴿أَلَّا تَعُولُوا ﴾ تميلوا أو تجوروا يقال عال الميزان إذا مال وعال الحاكم : جار أو المعنى لا تجاوزوا ما فرض الله عليكم ومنه عول الفرائض إذا جاوزت سهامها ، وقال الشافعى : أن لا تكثر عيالكم ويؤيده قراءة أن لا تعيلوا والمراد بالعيال الأزواج وإن أريد الأولاد فلجواز العزل فى التسرى فتقل الأولاد عادة ﴿ وَآتُوا ﴾ أعطوا ﴿ النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ ﴾ جمع صدُقة : مهورهن والخطاب للأزواج أو الأولياء الآكلين مهور بناتهم ﴿نِحْلَةً﴾ عطية عن طيب نفس بلا توقع عوض وهى أخص من الهبة ، سمى الصداق نحلة إذ لا يجب فى مقابلته غير التمتع دون عوض مالى يقال نحله كذا أعطاه إياه ومن فسرها بالفريضة فنظر إلى مفهوم الآية لا موضوع اللفظ ونصبها على المصدر لأنها فى معنى الإيتاء ، أو الحال من الواو أو الصدقات ، أى : آتوهن صدقاتهن ناحلين أو منحولة ، وقيل المعنى نحلة من الله ، وقيل ديانة من قولهم : انتحل فلان كذا إذا دان به على أنه مفعول له أو حال من الصدقات : أى دينا من الله شرعه

﴿ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ ﴾ من الصداق ﴿نَفْسًا﴾ تميز محول عن الفاعل وضمير منه للصدقات حملا على المعنى لأنها بمعنى المال ومن لبيان الجنس لا للتبعيض إذ لو وهبته جميع صداقها جاز أى إن طابت أنفسهن لكم عن شيء من الصداق فوهبنه لكم غير مكرهات ﴿ فَكُلُوهُ ﴾ فخذوه ﴿ هَنِيئًا ﴾ طيباً لنيذاً ﴿ مَرِيئًا ﴾ سائغاً من غير غص محمود العاقبة لا ضرر فيه عليكم فى الآخرة ، نزل رداً على من كره ذلك ، وقيل هما بمعنى أقيما مقام مصدريهما أو وصف بهما المصدر أى أكلا هنيئاً مريئاً ، أو جعلنا حالا من ضميره وتقييد ذلك بطيب النفس يدل على ضيق المسلك ووجوب الاحتياط ولذا جعل بعضهم من التبعيض حثاً لها على عدم هبة الكل وإليه ذهب الليث فلم يجوّز التبرع إلا باليسير ، وروى عن مالك جوازه للثيب دون البكر والله أعلم ﴿وَلَا تُؤْتُوا﴾ أيها الأولياء ﴿ السُّفَهَاءَ ﴾ المبذرين من الرجال والنساء والصبيان ﴿ أَمْوَالَكُمُ ﴾ أى أموالهم التى فى أيديكم أضيفت إلى الأولياء لأنها فى تصرفهم وتحت ولايتهم وهذا يلائم الآيات المتقدمة والمتأخرة ، وقيل نهى لكل أحد أن يعمد إلى ما خوله الله من المال فيعطى امرأته وأولاده ثم ينظر إلى ما فى أيديهم وهو أوفق لقوله ﴿ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا ﴾ بحذف الألف لنافع وابن عامر جمع قيمة ما تقوّم به الأشياء وبإثباتها الباقين مصدر قام أى يقوم بمعاشكم وصلاح أولادكم فيضيعوها فى غير وجهها ﴿ وَارْزُقُوهُمْ ﴾ أطعموهم ﴿ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ وفى الدر المنثور للسيوطى عن ابن عباس معنى الآية لا تعمد إلى مالك وما خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنيك ثم تضطر إلى ما فى أيديهم ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذى تنفق عليهم فى كسوتهم ورزقهم ومؤنتهم ، وعن مجاهد : فى الآية نهى الرجال أن يعطوا النساء أموالهم وهن سفهاء كن أزواجا أو بنات أو أمهات وأمروا أن يرزقوهن فيه ويقولون لهن قولا معروفاً ، وعن ابن جبير : هم اليتامى ، وعن أبى هريرة : هم الخدم . اه . وفى مدارك التنزيل للنسفى وكان السلف يقولون المال سلاح المؤمن ولأن أترك مالا يحاسبنى الله عليه خير من أن أحتاج إلى الناس ، وعن سفيان الثورى وكانت له بضاعة يقلبها : لولاها لتمندل بى بنو العباس . اه . ومعنى قولا معروفاً جميلا لأنه يؤثر فى القلب وهو كل كلام تأنس إليه النفوس ويقتضيه الشرع كأن يقول مالى مالكم أو يعدهم بإعطائهم إذا رشدوا ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ اختبروهم قبل البلوغ فى ضبط المال وحسن التصرف فيه بأن يكل إليه مقدمات العقد ، وعند أبى حنيفة : بأن يدفع إليه ما يتصرف فيه ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ أى صاروا أهلا له بالاحتلام من الغلام والجارية واستكمال ثمانية عشرة سنة عند مالك وسبع عشرة للجارية وثمانى عشرة للغلام عند أبى حنيفة وخمسة عشر فيهما عند غيرهما وبالحيض والحمل للجارية ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ ﴾ أبصرتم ﴿ مِنْهُمْ رُشْدًا ﴾ حفظا للمال عند مالك وأبى حنيفة أو مع صلاح فى الدين عند غيرهما ، ويروى عن مالك ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ من غير تأخير عند البلوغ ، وإن : شرطية جواب إذا المتضمنة معنى الشرط ، والجملة غاية للابتلاء فكأنه قيل وابتلوا اليتامى

إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط الرشد منهم فالبلوغ والرشد معتبران معاً عند الأئمة إلا أن أبا حنيفة قال: إذا زادت على سن البلوغ سبع سنين دفع إليه المال وإن لم يؤنس منه رشد لأنه مظنته، وخالفه باقي الأئمة، والإيناس: الإبصار من غير شبهة استعير للتبين ونكر الرشد للاكتفاء بأدنى منه، وحتى ابتدائية وفيها معنى الغاية والفاء دلت على وجوب الدفع بعد الإيناس من غير توقف ولذلك أمر بالابتلاء قبل البلوغ. قال ابن عطية: والبلوغ لم تسقه الآية سياق الشرط الذى هو الرشد ولكنه حاله الغالب على بنى آدم أن تتم عقولهم فيه فهو الوقت الذى لا يعتبر شرط الرشد إلا فيه فقال: إذا بلغ ذلك الوقت فلينظر إلى الشرط وهو الرشد وفصاحة الكلام تدل عليه لأن التوقيت بالبلوغ جاء بإذا التى لا يكون حرف شرط إلا فى ضرورة الشعر، والرشد جاء بإن التى هى قاعدة حروف الشرط. اه. ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا ﴾ أيها الأولياء ﴿ إِسْرَافًا ﴾ بغير حق حال أو مفعول له ﴿ وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ أى مسرفين ومبادرين كبرهم أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم يقال كبر كعلم فى السن وكحسن فى القدر والعظم وكذا فى القول، ثم بين حال الأولياء وقسمهم قسمين فقال ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ عن أكل مال اليتيم ﴿ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ ﴾ منه ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بقدر أجرة عمله غير متأثل به مالا ولا واق به ماله والمعنى إن كان قيم اليتيم غنياً فليقنع بما رزقه الله إشفاقاً عليه وطلباً لأجر الآخرة وإن كان فقيراً فليأكل بقدر القوت أجرة له ولفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف مشعر بأن الولى له حق فى مال اليتيم لكن قيل فى مثل الركوب للدابة وشرب لبن المواشى وأكل ثمر النخل وخدمة الخادم لا كأخذ الدينار والدرهم إلا قرضاً والله أعلم ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾ أنهم قبضوها دفعاً للتهمة والخصومة ووجوب الضمان وظاهره يدل على أن القيم لا يصدق فى دعواه الدفع إلا بالبينة وعليه مالك والشافعى وأحمد خلافاً لأبى حنيفة والأمر للندب والإرشاد ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ حافظاً أو محاسباً للمتجاوز عما حد له: حث على مراعاة مال اليتيم. ونزل رداً لما كان عليه الجاهلية من عدم توريث النساء والصغار ﴿ لِلرِّجَالِ ﴾ الأولاد والأقرباء ﴿ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ المتوارثون بالقرابة ﴿ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ ﴾ أى المال ﴿ أَوْ كَثُرَ ﴾ بدل مما ترك بإعادة العامل ﴿ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ مقطوعا بتسليمه إليهم نصب على أنه مصدر مؤكد أو حال، إذ المعنى ثبت لهم مفروضاً نصيباً وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه، روى أن «أوس بن الصامت» الأنصارى خلف زوجته أم كجة وثلاث بنات فحاز ابنا عمه سويد وعرفجة ميراثه على سنة الجاهلية فشكت ذلك إلى رسول الله فنزلت فبعث إليهما لا تفرقا من مال أوس شيئاً فإن الله قد جعل للنساء نصيباً حتى يبين فنزلت «يوصيكم الله» فأعطاها الثمن والبنات الثلثين والباقى لهما وهو دليل على جواز تأخير البيان عن الخطاب ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ ﴾ للتركات ﴿ أُولُو الْقُرْبَىٰ ﴾ ممن لا يرث ﴿ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ

مِنْهُ) شيئاً قبل القسمة صدقة وتطييباً لقلوبهم وهو أمر ندب للبالغين من الورثة أو وجوب أول الإسلام ثم نسخ بآيات المواريث هذا مذهب جمهور الفقهاء الأئمة الأربعة وأصحابهم وعن ابن عباس محكمة ولكن تهاون الناس فيه . قال ابن العربي : لو وجب لكان استحقاقاً ومشاركة للوراث فى التركة فتكون إحدى الجهتين مجهولة والأخرى معلومة وذلك مناقض للحكمة ولتنازعوا فيه منازعة تؤدى إلى القطيعة ، والمقصود بذلك الصلة . اه . والضمير فى منه لما ترك أو للمقسوم الذى دل عليه القسمة (وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً) باستقلال ما أعطيتموهم والاعتذار إليهم إذا كان المال للصغار (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا) أى قاربوا أن يتركوا أو على ظاهره (مِنْ خَلْفِهِمْ) بعد موتهم (ذُرِّيَّةً ضِعَافاً) أولاداً صغاراً (خَافُوا عَلَيْهِمْ) الضياع : أمر للأوصياء بأن يخشوا الله فى أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذريتهم الضعاف بعد وفاتهم ، أو للحاضرين المريض عند الإيصاء أن يشفقوا على أولاد المريض فلا يتركوه أن يضرّ بهم بصرف المال عنهم أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصوّرين أنهم لو كانوا أولادهم لأشفقوا عليهم ، فعلى أن الأمر للأوصياء فهو متصل بقوله «وابتلوا اليتامى» وعلى الوجهين بعده متصل بقوله « وإذا حضر القسمة » وعلى الوجوه الثلاثة معناه وليخش الذين شأنهم لو شارفوا الموت وكانت لهم صغارٌ لخافوا ضياعهم وودُّوا لهم كافلا محسناً فليكونوا مع صغار الغير على ذلك النمط (فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ) فيما تقدم ذكره أمرهم بالخشية أولا لأنها الباعثة على الامتثال وثانياً التقوى لأنها نهاية مقامات السالك مراعاة للمبدأ والمنتهى ثم أمرهم أن يقولوا لليتامى مثل مايقولون لأولادهم بقوله (وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا) لليتامى يطيِّب قلوبهم كيابنى ، وتأدب بآداب الشرع وما يدل على محاسن الأخلاق ، أو للمريض بأن يتصدق بدون الثلث لأن الكلمة الطيبة صدقة (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ) من الأوصياء وغيرهم (ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ) ملئها (نَارًا) لأنه يجر إليها وفى الحديث «إن الله يبعثهم من قبورهم تتأجج أفواههم ناراً » . (وَسَيَصْلَوْنَ) بالبناء للفاعل للجمهور وللمفعول لابن عامر وابن عياش عن عاصم يدخلون (سَعِيرًا) ناراً شديدة يحرقون فيها من صلى النار قاسى حرها وصليته شويته وقرئ به مشدداً من صلبته ألقيته فيها (يُوصِيكُمُ اللَّهُ) يأمركم ويعهد إليكم ويفرض لكم وعليكم (فِي) شأن ميراث (أَوْلَادِكُمْ) العدل فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث فأمراقه بالتسوية فى أصل الميراث ، وفضَّل الذكر إذ عليه مؤونة النفقة والكلفة ، وبدأ بميراث الأولاد لأن تعلق القلب بهم أشد فأجمله ثم فصله بقوله (لِلذَّكَرِ) منهم حظ (مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ) إذا اجتمعتا معه فله نصف المال ولهما النصف فإن كان معه واحدة فلها الثلث وله الثلثان وإن انفرد حاز المال فإن كان معهم ذو سهم أخذه والباقى بينهم كذلك وهو عام فى الولد الأعلى والأسفل لكن الأعلى يحجب الأسفل فإن كان الأعلى ذكراً أسقط الأسفل أو أنثى أخذ الأسفل الباقى بعد حقها إن كان ذكراً

وإلا أعطيت العليا النصف والسفلى السدس تكملة الثلثين فإن كان الأعلى بنتين أخذتا الثلثين فلا ينال الأسفل الأنثى شيئاً إلا إن كان بإزائها ذكر أوأسفل منها فتأخذ معه ما بقى « للذكر مثل حظ الأنثيين » ﴿ فَإِنْ كُنَّ ﴾ أى الأولاد : أنث الضمير على تأويل المولودات أو لاعتبار الخبر وهو ﴿ نِسَاءً ﴾ خلصاً ليس معهن ذكر اثنتين أو ﴿ فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ﴾ بالغة ما بلغت خبر ثان أو صفة نساء أى زائدات على اثنتين ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ المتوفى منكم ، دل عليه المعنى واجتمعت الأمة على أن الثلثين للاثنتين ، وما روى عن ابن عباس من أن لهما النصف لا يعتبر لأن الثلثين للأختين بقوله : فلهما الثلثان مما ترك فالبنتان أولى ولأن البنت تستحق الثلث مع الذكر فمع الأنثى أولى ، ولأن النبى صلى الله عليه وسلم قضى بالثلثين لابنتى « سعد ابن الربيع » قال فى لباب التأويل وهذا نص واضح فى المسألة ولأنه قضى فى بنت وبنت ابن وأخت بالسدس لبنت الابن والنصف للبنت تكملة الثلثين وما بقى للأخت فإذا كان للبنت مع بنت الابن الثلثان فأحرى مع أختها، وفوق صلة لدفع توهم زيادة النصيب بزيادة العدد ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ﴾ المولودة ﴿ وَاحِدَةً ﴾ بالنصب ، وقرأ نافع بالرفع فكان تامة ﴿ فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ ومن هنا علم أن الذكر إذا انفرد له الكل إذ هو ضعف النصف ثم ثنى الله بميراث الوالدين بقوله ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ ﴾ أى الميت ﴿ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ﴾ بدل بتكرير العامل للتنصيص على استحقاق « كل واحد منهما السدس » والتفصيل بعد الإجمال تأكيد ﴿ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ ذكر أو أنثى والحق بالولد ولد الابن وبالأب الجد والأب يأخذ السدس مع الولد الذكر أو البنات بالفرض ومع البنت بالفرض ثم الباقى بالتعصيب ولفظ الولد عام فى الذكر والأنثى وولد الولد والأبوان لا يعم الأعلى من الآباء إذ لا عمومٌ فى التثنية ولقوله بعد : «فلأمه الثلث » والجدة لا ثلث لها بحال إجماعا ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ ﴾ فقط أو مع زوج ﴿ فَلِأُمِّهِ ﴾ بضم الهمزة للجمهور وبكسرها إتباعاً لحمزة والكسائى فى الموضعين ﴿ الثُّلُثُ ﴾ أى ثلث المال أو ما يبقى بعد الزوج والباقى للأب بالعصوبة ولما كان الوالدان يدليان بقرابة واحدة وهى الوالدية استويا مع وجود الولد ، وفضل الأب الأم مع عدمه بالذكورة والنصرة ووجوب المؤنة عليه ، وثبتت الأم على سهم لأجل القرابة : قاله ابن العربى فى الأحكام ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ ﴾ اثنان فصاعداً ذكور أو إناث ﴿ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾ والباقى للأب ولا شىء للإخوة مع الأب . والإرث من ذكر مما ذكر ﴿ مِنْ بَعْدِ ﴾ تنفيذ ﴿ وَصِيَّةٍ يُوصِى ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور والمفعول لابن كثير وابن عامر وأبى بكر إقامة للجار والمجرور مقام الفاعل فى قوله ﴿ بِهَا أَوْ ﴾ قضاء ﴿ دَيْنٍ ﴾ وأتى بأو دون الواو للدلالة على تساويهما فى الوجوب وتقديمهما على القسمة اجتمعا أو انفردا ، وقدمت الوصية على الدين وإن كانت مؤخرة عنه فى الوفاء اهتماماً بأدائها لأنها مظنة التفريط إذ لا قائم لها بخلاف الدين ﴿ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ فى الدنيا والآخرة فظان أن ابنه أنفع له فيعطيه الميراث فيكون

الأب أنفع وبالعكس وإنما العالم بذلك الله ففرض لكم الميراث ﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد أو مصدر « يوصيكم الله » لأنه فى معنى يفرض عليكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً ﴾ بالمصالح والمراتب ﴿ حَكِيماً ﴾ فيما قضى وقدر فاتبعوا ما حكم لكم ، وجملة آباؤكم إلى آخره معترضة بين ذكر الوارثين وأنصبائهم لتأكيد أمر القسمة وتنفيذ الوصية ، ثم ثلث بميراث الأزواج من الزوجات بقوله ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ﴾ من بطنهن أو من بنيهن أو بنى بنيهن وإن سفل ذكراً كان أو أنثى منكم أو من غيركم ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ ثم ربع بميراث الزوجات من الأزواج بقوله ﴿ وَلَهُنَّ ﴾ أى الزوجات تعددن أم لا ﴿ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ﴾ لاحق بكم ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ ﴾ منهن أو من غيرهن ﴿ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ وولد الابن كالولد فى ذلك إجماعاً ، روعى شرف الزوج كما روعى شرف الذكر على الأنثى ، وترك ذكر الواحدة إشارة إلى عدم الفرق ، ولا يستوى الذكر والأنثى إلا فى أولاد الأم والمعتق والمعتقة ، ثم خمس بميراث الإخوة والأخوات للأم بقوله ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ﴾ صفة رجل أى الميت والخبر ﴿ كَلَالَةً ﴾ أى قرابة غير ولادة أى لا والد له ولا ولد وهذا هو الصحيح أو لا ولد له لآية « قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد » ورد الاستدلال بأنها نزلت فى جابر ولا ولد له ولا والد حينئذ من الكلال وهو الإعياء لكلالها عن القرابة المهسة كأنها أرادت أن تصل فكلت أو من تكلل بالشىء أحاط به لأنها فى الجوانب إذ الإخوة الأعيان وأبناء الأعيان من أب وأم وأبناء الأخياف أمهم واحدة وآباؤهم شتى وأبناء العلات أبوهم واحد وأمهاتهم شتى والأخياف وأولاد العلات يحيطون بالميت كالإكليل يحيط بالرأس من جميع جوانبه وأعلاه وأسفله خاليان تطلق على الميت وعلى الوارث إطلاقاً للمصدر على العين أو بتقدير مضاف ، فالمعنى على الأول إن كان الميت يورث منه حال كونه كلالة ، وإن جعل يورث صفة فكلالة خبر كان كما قدرنا أولا ، وعلى الثانى ذا كلالة خبر كان أو حال ويجوز على الوجهين نصب كلالة على المفعول له ﴿ أَوِ امْرَأَةٌ ﴾ تورث كلالة ﴿ وَلَهُ ﴾ أى الموروث كلالة ﴿ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾ يعنى من أم إجماعاً لأن حكم سواهم من الإخوة يأتى آخر السورة ولقراءة ابن مسعود به ﴿ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ﴾ مما ترك ﴿ فَإِنْ كَانُوا ﴾ أى الإخوة والأخوات من الأم ﴿ أَكْثَرَ مِنْ ذَٰلِكَ ﴾ أى من واحد ﴿ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ﴾ يستوى فيه ذكرهم وأنثاهم لأنهم يرثون بقرابة الأم وهى لا ترث أكثر من الثلث ، ثم سدس آخر السورة بميراث الإخوة والأخوات للأبوين أو لأب ، ثم سبع آخر الأنفال بميراث أولى الأرحام العصبة وغيرهم فى قوله « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ... الآية » وبينه عليه السلام بقوله : « ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقته فلأولى عصبة ذكر » ثم فى زمان عمر بن الخطاب نزلت عارضة وهى ازدحام أرباب الفرائض عليها

مع زيادة فروضهم على مقدار المال مثاله: تركت زوجا وأما وأختاً فحكم بالعول وبين النبي عليه السلام أن الأخوات عصبة البنات إذا ترك بنتاً وأختاً فللبنت النصف وللأخت ما بقي بقضائه عليه السلام ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا ﴾ مالك حرّ مميز فتصح من مميز عقل القرابة، خلافا لأبي حنيفة ومن السفيه والكافر، ويجب تنفيذ الوصية بقربة واجبة كالزكاة والكفارات أو مندوبة كالصدقة والعتق، واختلف في غيرها كبيع شيء وإن أوصى لوارث أو أكثر من الثلث إن أنفذه سائر الورثة نفذ وإلا فلا، وإن أوصى بحرام كالنياحة حرم تنفيذه أو مكروه كره. والله أعلم. ﴿ أَوْ دَيْنٍ ﴾ كرر لئلا يتوهم اختصاصه بطائفة دون أخرى ﴿ غَيْرَ مُضَارٍّ ﴾ حال من ضمير يوصى أي غير مدخل الضرر على وارث أو غيره بأن يزيد على الثلث أو يقصد إضرار الورثة أو يقر بالدين لمن ليس له عليه ﴿ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد ليوصيكم أو منصوب بغير مضار على المفعول به ويؤيده أنه قرئ «غير مضار وصية» بالإضافة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمضار وغيره ﴿ حَلِيمٌ ﴾ بتأخير العقوبة عمن خالفه. وخصت السنة في توريث من ذكر من ليس فيه مانع من قتل أو رق أو اختلاف دين أو الموت معاً أو جهل السبق ﴿ تِلْكَ ﴾ الأحكام المذكورة من أمر اليتامى وما بعده ﴿ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ شرائعه التي حدها لعباده ليعملوا بها ولا يتعدوها ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما حكم به ﴿ نُدْخِلْهُ ﴾ بالنون لنافع وابن عامر وفيه التفات وبالياء للباقين ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال مقدرة والجمع باعتبار معنى من ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي كل فوز دونه ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في شأن المواريث وغيرها ولم يرض بقسمة الله ورسوله ﴿ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ﴾ باستحلالها ﴿ نُدْخِلْهُ ﴾ بالوجهين كما تقدم ﴿ نَارًا خَالِدًا فِيهَا ﴾ حال مقدرة كالأول والإفراد باعتبار لفظ من ﴿ وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ذو إهانة لاستهانته بأحكام الله، قال في لباب التأويل: فمن رد حكم الله ولم يرض بقسمته كفر بذلك فإذا كفر كان حكمه حكم الكفار في الخلود في النار إذا لم يتب قبل موته وإن مات وهو مصرّ على ذلك كان مخلداً في النار بكفره فلا دليل للمعتزلة بالآية على خلود العصاة في النار ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ ﴾ الزنا ﴿ مِنْ نِسَائِكُمْ ﴾ أي المؤمنات ﴿ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ﴾ أي من رجال المسلمين العدول كما مر في البيع حملا للمطلق على المقيد بالدليل واشترط الأربعة في الزنا خاصة دون القتل وغيره تغليظاً على المدعي فيه وستراً من الله على عباده ولذا اشترط أيضاً رؤيتهم ذلك كالمرود في المكحلة ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ عليهن بها ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ وامنعوهن من مخالطة الناس واجعلوها سجناً لهن ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ أي ملائكته أو يستوفي الموت أزواجهن ﴿ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ طريقاً إلى الخروج منها: أمروا بذلك أول الإسلام ثم جعل الله لهن سبيلا بجلد البكر مائة وتغريب الحر عاماً ورجم من أحصن، وفي الحديث لما بين الحد قال: «خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلا» رواه مسلم وأصحاب السنن عن «عبادة بن الصامت» ولا تغريب

فى المرأة خلافاً للشافعى وأحمد ولا فى العبد خلافاً للشافعى ولا يجمع بين الجلد والرجم خلافاً لأحمد وفى البيضاوى يحتمل أن يكون المراد التوصية بإمساكهن بعد أن يجلدن كيلا يجرى عليهن ما جرى بسبب الخروج ولم يذكر الحد استغناء بقوله « الزانية والزانى » اه . أى ويكون السبيل حينئذ النكاح المغنى عن السفاح ﴿وَاللَّذَانِ﴾ بتخفيف النون للجمهور وتشديدها لابن كثير ﴿يَأْتِيَانِهَا﴾ أى الفاحشة : الزنا أو اللواط ﴿مِنْكُمْ﴾ من الرجال والنساء ففيه تغليب أو من الرجال فقط ﴿فَآذُوهُمَا﴾ بالسب والضرب بالنعال ﴿فَإِنْ تَابَا﴾ منها ﴿وَأَصْلَحَا﴾ العمل ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ ولا تؤذوهما لأن التوبة تجب ما قبلها ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا﴾ على من تاب ﴿رَحِيمًا﴾ به علة للأمر بالإعراض ، وهذا منسوخ بالحد إن أريد بها الزنا وكذا إن أريد بها اللواط إذ يرجم فاعله والمفعول به فى مذهب مالك أحصنا أم لا ، حرين أو عبدين ، وقيل : العبد يجلد خسين . وقال أبو حنيفة : كل منهما يعزر ولا حد عليه ، وقال الشافعى : يرجم الفاعل لا المفعول به وإن كان محصنا بل يجلد ويغرب ، قال السيوطى فى التكملة : وإرادة اللواط أظهر بدليل تثنية الضمير . والأول قال : أراد الزانى والزانية ويرده تبيينهما بمن المتصلة بضمير الرجال واشتراكهما فى الأذى والتوبة والإعراض وهو مخصوص بالرجال لما تقدم فى النساء من الحبس . اه . قال البيضاوى : قيل هذه الآية سابقة على الأولى نزولا وكانت عقوبة الزناة الأذى ثم الحبس ثم الجلد وقيل الأولى فى المساحقات وهذه فى اللواطين ، والزانية والزانى فى الزناة ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ أى التى كتب على نفسه قبولها بفضله ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾ الذنب عمداً أو خطأ حال كونهم ملتبسين ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ سفاهة باختيارهم اللذة الفانية على الباقية وقد أجمع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على أن كل شىء عصى الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره وكل عاص جاهل إذ لم يستعمل العلم أو المعنى جاهلين عقوبة الذنب أو فيهم شوب الجهل فإن من عرف عظمة الله لا يجترئ على معصيته وليس المراد بالجهالة الجهل بكونه معصية لأنه يقتضى عدم قبول توبة المتعمد وهو فاسد إجماعاً ، والتوبة مبتدأ على حذف مضاف ، أى : قبول التوبة و «على الله» خبره و «للذين» حال من الضمير فى الظرف أو هو الخبر و «على الله» حال من محذوف تقديره إذا كانت وكان تامة وصاحب الحال ضمير الفاعل . قاله الكواشى . و «إنما» حاصرة أى ليست التوبة إلا لهذا الصنف وتصح وإن نقضها فى ثانى حال ولو مع الإقامة على ذنب آخر غير نوعه خلافاً للمعتزلة فى قولهم لا يكون تائباً من أقام على ذنب ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ﴾ زمن ﴿قَرِيبٍ﴾ قبل أن يغرغروا إذ بين القرب فى الآية الثانية وفى الحديث المشهور « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » وعن ابن عباس : ما لم يشاهد ملك الموت . وفى لباب التأويل : الغرغرة أن يجعل المشروب فى فم المريض فيردده فى الحلق ولا يصل إليه ولا يقدر على بلعه وذلك عند بلوغ الروح إلى الحلقوم . اه . وقيل القرب قبل أن يشرب فى قلوبهم حبه فيطبع عليها فيتعذر عليهم الرجوع ومن للتبعيض أى يتوبون فى أى جزء من الزمان القريب ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يقبل

توبتهم وعد بالوفاء بما وعد به وكتب على نفسه بقوله إنما التوبة على الله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بخلقه يعلم إخلاصهم فى التوبة ﴿حَكِيمًا﴾ فى صنعه بهم لا يعاقب التائب بل يعفو ويصفح عنه ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ الذنوب ﴿ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ وأخذ فى النزع أى سوق الروح للخروج من الجسد ﴿ قَالَ ﴾ عند مشاهدة ما هو فيه ﴿ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾ فلا ينفعه ذلك ولا يقبل منه ﴿ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ إذا تابوا فى الآخرة عند معاينة العذاب لا تقبل منهم وقد سوى الله بين من سوف التوبة من الفسقة والكفار إلى حضور الموت وبين من مات على الكفر فى نفى التوبة البالغة فى عدم الاعتداد بها فى تلك الحالة ﴿ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ هيأنا لهم من العتاد وهو العدة وقيل أصله أعددنا فأبدل الدال الأولى تاء ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ مؤلما تأكيد لعدم قبول توبتهم وبيان لعذاب أعده لهم وقال سعيد بن جبير : نزلت « إنما التوبة على الله » فى المؤمنين التائبين ، وقوله « وليست التوبة » فى المنافقين والكفار . اه ورد باقتضائه أن تبقى حالة الفاسق المصر غير مبينة ، قال ابن عطية : والعقيدة فى هذه الآية أن من تاب من قريب لا يعذب ومن لم يتب حتى حضره الموت فإن كان كافراً يخلد فى النار وإن كان مؤمناً فهو فى مشيئة الله يغلب الخوف عليه ويقوى الظن فى تعذيبه مع القطع من جهة السمع أن من هذا الصنف من يغفر الله له تفضلا منه بلا تعذيب . وقال عبد الرحمن الثعالبى فى الجواهر الحسان : فى قوله « أولئك » إن كانت الإشارة إلى « الذين يموتون وهم كفار » فقط فالعذاب عذاب خلود مؤبد وإن كانت إليهم وإلى من ينفذ عليه الوعيد ممن لم يتب إلا مع حضور الموت فهو فى جهة هؤلاء عذاب لا خلود معه . اه . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ ﴾ أى ذواتهن أو أموالهن ﴿ كَرْهًا ﴾ بالفتح للجمهور والضم لحمزة والكسائى فى كل مواضعه لغتان أو بالفتح الإكراه والإجبار وبالضم المشقة ، أى مكرهات أو كارهات و « أن ترثوا » فى موضع رفع على الفاعلية والنساء مفعول به إما على حذف مضاف إن كان الخطاب للأزواج أى أن ترثوا أموال النساء : كان الرجل فى الجاهلية يمسك المرأة ولا غرض له فيها لكى تموت فيرثها أو تفتدى بمالها إن لم تمت أو بلا حذف إن كان الخطاب للأولياء وأقرباء الميت كانوا يرثون فى الجاهلية نساء أقربائهم أى ذواتهن فإن شاءوا تزوجها أحدهم بلا صداق أو زوجوها وأخذوا صداقها أو عضلوها حتى تفتدى بما ورثته أو تموت فيرثوها فنهوا عن ذلك ﴿ وَلَا ﴾ أن ﴿ تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ جزم بلا الناهية أو نصب عطف على أن ترثوا ولا لتأكيد النفى وفى الكلام حذف أى لا تمنعوهن من النكاح إن كان الخطاب للأولياء أو من الطلاق إن كان للأزواج وهو الأقوى أى بإمساكهن ولا رغبة لكم فيهن ضرراً ﴿ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ من المهر كان الرجل إذا لم يكن له حاجة من المرأة حبسها مع سوء العشرة لتفتدى منه بمال فنهوا عن ذلك ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ بكسر الياء للجمهور وبفتحها لابن كثير وأبى بكر هنا وفى الأحزاب والطلاق ،

أى : هى بينة جلية أو بينت وهى الزنا والنشوز أو السلاطة وعدم التعفف وبغض الزوج فإذا فعلنها حل لكم أخذ مالهن بإضرار حتى يفتدين . قال ابن عطية : والزنا أصعب على الزوج من النشوز والأذى وكل فاحشة تحل أخذ المال . اه . فالاستثناء من أعم الأوقات أو أعم العلل أى لا تعضلوهن للافتداء فى كل وقت إلا وقت إتيان الفاحشة أو لا تفعلوا ذلك لكل علة إلا لعلة الفاحشة واللام فى «لتذهبوا» متعلق بتعضلوهن والباء للتعدية أو للمصاحبة والجار فى محل نصب على الحال متعلق بمحذوف أى لتقدير محذوف أى به ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإنصاف ، فى الفعل : المبيت والنفقة ، وفى القول : بالإجمال ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ لدمامتهن من غير فاحشة ولا نشوز فاصبروا عن الأذاية وقلة الإنصاف ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ فى أنفسكم ﴿وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ بأن يرزق منها أولاداً صالحين أو يبدل البغضاء محبة فقد تكره النفس ما هو أصلح ديناً وأكثر خيراً وقد تحب ما هو بخلافه وليكن نظركم إلى ما هو أصلح للدين وأدنى للخير ، وفى الحديث « تنكح المرأة لجمالها ومالها ودينها فعليك بذات الدين تربت يداك» وأيضاً فى الصبر عليها رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، و«عسى» فى الأصل للجزاء فأقيم مقامه والمعنى فإن كرهتموهن فاصبروا فعسى ... كما قدمنا ، وقيل فى معنى الآية : فإن كرهتموهن وفارقتموهن فربما جعل الله فى ذلك الفراق خيراً كثيرا بأن تخلص من الزوج الكاره لها وتتزوج خيراً منه ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾ تطليق زوج وتزوج أخرى ﴿وَ﴾ قد ﴿آتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ﴾ أى الزوجات ﴿قِنْطَارًا﴾ مالا كثيراً صداقاً فيه جواز تكثير الصداق ولكن المندوب تقليله لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقلله ويقول : « خير النكاح أيسره » ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ﴾ من القنطار ﴿شَيْئًا﴾ قل أو كثر ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا﴾ أى ظلماً ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ بيناً ونصبها على الحال أو المفعول له والاستفهام للتوبيخ أى أتأخذونه مباهتين آثمين فلا تفعلوا مثل هذا الفعل مع ظهور قبحه فى الشرع والعقل ، والبهتان فى الأصل الكذب الذى يبهت به المكذوب عليه ويتحير فيه فاتسع فيه واستعمل فى كل باطل ولذا فسر هنا بالظلم ، وكان الرجل إذا كره امرأته رماها ببهتان من الفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج الجديدة فنهوا عن ذلك ، والكلام فى «وآتيتم» خرج مخرج الغالب لحرمة الأخذ وإن لم يؤتها المسمى بل كان فى ذمته أو يده ، أو المراد بالإيتاء التزامه كما فى قوله تعالى : «إذا سلمتم ما آتيتم» ، والجمع بينه وبين الإثم مبالغة والعطف باعتبار الصفات ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ أى بأى وجه ، والاستفهام للإنكار ومحل «كيف» نصب حال إذ حكم «كيف» فى الإعراب حكم جوابها فاظهر فيه كان مقدراً فيها ، والجواب هنا منصوب حالا أى جائرين كما لو قيل لك كيف أخذت مال زيد فالجواب أخذته ظالماً أو عادلا ، قاله الكواشى ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ﴾ وصل ﴿إِلَى بَعْضٍ﴾ بالجماع المقرر للمهر وبسائر أنواع الامتزاج والاختلاط ، وأصل الإفضاء الوصول إلى الشىء بسعة من الفضاء : الموضع الواسع والخالى .

وفيه دليل على وجوب المهر بالخلوة الصحيحة خلافاً للشافعي فى تخصيصه بالجماع فقط ﴿ وَأَخَذْنَ مِنْكُم مِيثَٰقًا ﴾ عهداً ﴿ غَلِيظًا ﴾ شديداً وهو ما أمر الله به من إمساكهن بمعروف أو تسريحهن بإحسان . قال عليه السلام: « استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان فى أيديكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » قلت: عوان فى الحديث جمع عانية أى أسارى ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم ﴾ ما موصولة بمعنى من أو مصدرية على إرادة المفعول من المصدر ﴿مِنَ النِّسَآءِ﴾ بيان «ما نكح» على الوجهين ولو بالعقد فقط ولو فاسداً لم يتفق على فساده ، والنكاح الوطء فيشمل السرارى أو العقد فتقاس السرية على المنكوحة ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ من فعلكم ذلك فإنه معفو عنه استثناء منقطع أو متصل من المعنى اللازم للنهى فكأنه قيل تستحقون العقاب به إلا ما قد سلف ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى نكاحهن ﴿ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ شرعاً لم يرخصه الله لأمة من الأمم ﴿ وَمَقْتًا ﴾ عرفاً أى ممقوتاً عند ذوى المروآت وكانوا يسمونه نكاح المقت قبل النهى ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ ذلك فى المتعارف ومجرى العادات لأن زوجة الأب بمنزلة الأم فنكاحها من أقبح المعاصى ، وقيل نهى أن يطأ الرجل امرأة وطئها أبوه إلا ما قد سلف فى الجاهلية من الزنا بالنساء لا على وجه النكاح فلا يحرم لأن الزنا فاحشة ومقت . و « ساء » كبئس فى المبالغة فى الذم ثم أشار إلى النساء المحرمات وهن إحدى وعشرون بقوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ أن تنكحوهن وشملت الجدات من قبل الأب والأم لأن الجدة أم ﴿ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ وشملت بنات الاولاد وإن سفلن ﴿ وَأَخَوَٰتُكُمْ ﴾ من جهة الأب والأم ﴿ وَعَمَّٰتُكُمْ ﴾ أخوات آبائكم وأجدادكم ﴿ وَخَٰلَٰتُكُمْ ﴾ أخوات أمهاتكم وجداتكم ﴿ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ﴾ ويدخل فيهن بنات أولادهن ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ اللَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ ﴾ قبل استكمال الحولين ولو مصة عند مالك وأبى حنيفة وأحمد فى أحد قوليه بخلاف الشافعى فى اشتراط خمس رضعات متفرقات ﴿ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ الرَّضَٰعَةِ ﴾ ويلحق بذلك بالسنة البنات من الرضاعة وهن من أرضعتهن موطوءته والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت منها لحديث « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » رواه البخارى ومسلم: فنص الله الأم والأخت ليدل بذلك على جميع الأصول والفروع وهؤلاء أربع عشرة: سبع من النسب وسبع من الرضاع ثم أشار إلى سبع أخر للصهر وغيره فقال ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ﴾ جمع ربيبة وهى بنت الزوجة من غيره ولأنه يربها كما يرب ولده غالباً . فعيل بمعنى مفعول لحقه التاء لأنه صار اسماً ﴿ اللَّٰتِى فِى حُجُورِكُم ﴾ صفة موافقة للغالب فلا مفهوم لها ﴿ مِّن نِّسَآئِكُمُ اللَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ أى جامعتموهن فيحرم على الرجل بنات امرأته وبنات أولادها وإن سفلن من النسب والرضاع بعد الدخول بالزوجة ومن ابتدائية متعلق بالربائب حال منه ﴿ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فى نكاح بناتهن إذا فارقتموهن أو متن قبل الدخول صرح به دفعاً للإلباس وليخالف حكم أمهات نسائكم فيحرمن بالعقد على بناتهن دخل بهن أم لا ولا يجوز أن يكون الموصول

الثانى صفة للنساء'ن لأن عاملهما مختلف وفائدة قوله فى حجوركم تقوية العلة وتكميلها لا تقييد الحرمة ، والدخول كناية عن الوطء فتحرم به اتفاقاً وبمقدماته من المباشرة والقبلة خلافاً الزنى وكذا بالنظر إلى باطن الجسد بشهوة على المشهور من مذهب مالك ويعتبر فى النكاح الحلال أو الذى فيه شبهة أو اختلف فيه فإن كان زناً محضاً لم تقع به حرمة المصاهرة ويحرم بالوطء بملك اليمين والتلذذ به ما يحرم بالوطء بالنكاح ، فمن وطئ أو تلذذ بأمته حرمت على آبائه وأبنائه ، ويحرم من المملوكات بالنسب والرضاع والصهر ما يحرم من الحرائر بذلك كما بين بقوله ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ زوجاتهم سميت الزوجة حليلة لحلها أو لحلولها مع الزوج ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ احتراز عن المتبنين لا عن أبناء الولد ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ من نسب أو رضاع فى موضع رفع عطف على المحرمات بالنكاح أو بملك اليمين ويلحق بالأختين بالسنة الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ويجوز نكاح كل واحدة على الانفراد وملكهما معاً ويطأ واحدة ﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فى الجاهلية فمعفو عنه : استثناء منقطع أو متصل من لازم المعنى كما مر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لما سلف منكم قبل النهى ﴿رَّحِيمًا﴾ بكم فى ذلك ﴿وَ﴾ حرمت عليكم ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ أى ذوات الأزواج ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أن تنكحوهن قبل مفارقة أزواجهن حرائر مسلمات كن أو لا ، وقرأ الكسائى فى جميع القرآن غير هذا الحرف بكسر الصاد ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من الإماء بالسبى فلكم وطؤهن وإن كان لهن أزواج فى دار الحرب بعد الاستبراء لأن النكاح ارتفع بالسبى وقيده أبوحنيفة بما لم يسب معها زوجها ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد أى كتب الله تحريم هؤلاء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ كتاباً ، وقرئ كتب الله بالجمع والرفع أى هذه فرائض الله عليكم وكتب الله بلفظ الفعل ، لجميع هؤلاء مؤبدات التحريم إلا المحصنات وممنوعة الجمع وكذا الملاعنة فى المؤبدات والمنكوحة فى العدة خلافاً للشافعى والحنفى ، والمحرمات غير المؤبدات الكافرة غير الكتابية والخامسة والمعتدة والمبتوتة والأمة لواجد الطول والمحرمة للحج والمريضة واليتيمة بشروطها ﴿وَأُحِلَّ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور ، والمفعول لحفص وحمزة والكسائى ﴿لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أى سوى ما حرم عليكم من النساء بـ ﴿أَن تَبْتَغُوا۟﴾ تطلبوا النساء مفعول له أو بدل اشتمال من « ما وراء ذلكم » ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾ بصداق أو ثمن ، وهذا دليل على وجوب الصداق ولا بد من كونه بما يسمى مالا شرعاً ، ولم يقع فيه فى أقل من ربع دينار ، ولذا حد المالكية أقل الصداق به ، وقال الحنفية : أقله عشرة دراهم ، وأجازه الشافعى وأحمد بكل قليل وكثير بعموم إطلاق الأموال ، وبحديث « التمس ولو خاتماً من حديد » ورد بأنه قد يتزين من الحديد بما قيمته أكثر من ربع دينار . ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ أى حال كونكم متزوجين أو متعففين بذلك ، والإحصان ـ لغة ـ المنع ، ويكون بالعفة كما فى قوله « والذين يرمون المحصنات » والحرية « فعليهن نصف ما على المحصنات » والإسلام « فإذا أحصن » والزواج كما فى المحصنات وما هنا ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ زانين ، من السفح : وهو صب المنى .

لأنه الغرض من الزنى ، بخلاف النكاح فغرضه الولد ونحوه ، وذكره بعد الإحصان لتعين معناه المجمل ﴿ فَمَا ﴾ أى فمن ﴿ ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ ﴾ ممن تزوجتم بالوطء فالضمير لـ « ما وراء ذلكم » و « من » ابتدائية : أى فالذى تمتعتم به بجماع وخلوة ﴿ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن : خبر الموصول ، والضمير فى «به» راجع إلى لفظ « ما » وفى « فآتوهن » إلى معناه ، وفى « منهن » إلى « ما وراء ذلكم » و « من » للبيان أو للتبعيض ، وسمى المهر أجراً لأنه كعوض عن البضع ويدل على أن الصداق إن لم يسمَّ فى العقد وجب فى الدخول ﴿ فَرِيضَةً ﴾ حال من الأجور بمعنى مفروضة أو صفة مصدر محذوف أى إيتاء مفروضاً أو مصدر مؤكد أى التى فرضتم لهن فريضة ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم ﴾ أنتم وهن ﴿ بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ﴾ من حطها أو بعضها أو زيادة عليها أو تأخير أجلها ، وقيل : نزلت فى المتعة التى كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بالمصالح ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما شرع من الأحكام ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا ﴾ غنًى وأصله الفضل والزيادة ، يقال: طال طَولا بالفتح تفضل واتسع وطُولا بالضم : ضد قصُر ﴿ أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ الحرائر المؤمنات ، أى لم يكن عنده صداق حرة ولا يصبر عن النكاح ولا مفهوم المؤمنات لأنه جرى على الغالب وأن متعلق بطولا بتقدير على بدل منه محله نصب ، أو متعلق بمقدر أى طولا يبلغ به نكاح المحصنات ﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾ الإماء ينكح ﴿ مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ لا الكافرات أو الكتابيات خلافاً لأبى حنيفة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ فاكتفوا بظاهره فيهن وغيرهن وكلوا السرائر إليه فإنه العالم بتفاضلها ورب أمة تفضل الحرة : فيه ترغيب فى نكاح الصالحات من الإماء وأن الأولى النظر إلى الدين لا الحريبة ، ومنع لمن عدم الطول وخشى العنت عن الاستنكاف عن نكاح الإماء ، ورد للعرب فى تهجين ولد الأمة إذ غفلت أن أباها إسماعيل ابن أمة ولو كانت على بصيرة ما فعلت ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ أى أنتم وهن سواء فى الدين وأنتم جميعاً أولاد آدم فلا فخر إلا بالإيمان والتقوى فلا تستنكفوا عن نكاحهن ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ مواليهن ، عبر بالأهل لأن مولى القوم منهم ولا يجوز بغير إذنهم فإن وقع فنكاح العبد يجوز بإجازة السيد بخلاف الأمة إذ لا ينعقد ﴿ وَءَاتُوهُنَّ ﴾ أعطوهن ﴿ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن ، فيه دليل على وجوب المهر على العبد للأمة ثم يكون للسيد إن أراد . وقال الشافعى : لا يكون لها بل للسيد لأنه عوض منفعة كالإجارة قلنا : هذا العقد لها لا له فعوضه لها بخلاف منافع الرقبة بالمعروف شرعاً من غير مطال ولا نقص ولا إضرار ﴿ مُحْصَنَٰتٍ ﴾ عفائف : حال من المفعول ﴿ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ ﴾ زانيات جهراً ﴿ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ أخلاء يزنون بهن سراً . والزوانى فى الجاهلية قسمان : المسافحات المبتذلات اللواتى هن سوق الزنا ، ومتخذات الأخدان : هن المستترات اللواتى يصحبن واحداً واحداً يزنين خفية وكانوا يتنزهون من المسافحات دون المتخذات ، فنهى الله عن الجميع كما يأتى إن شاء الله فى سورة النور ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ ﴾

بالبناء للمفعول للجمهور أى زوّجن ، ولحمزة والكسائى وعاصم فى غير رواية حفص بالبناء الفاعل : تزوجن ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ ﴾ زنا ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ ﴾ الحرائر الأبكار إذا زنين ﴿ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ الحد فيجلدن خمسين ولا يُغرّبن ، خلافاً للشافعى ، ويقاس عليهن العبيد ، والسيد هو الذى يقيم الحد على رقيقه لا الإمام ، خلافاً لأبى حنيفة ولم يجعل الإحصان شرطاً لوجوب الحد بل لإفادة أنه لا رجم عليهن أصلا ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى نكاح الإماء عند عدم الطّول ﴿ لِمَنْ خَشِيَ ﴾ خاف ﴿ الْعَنَتَ ﴾ الزنا وأصله المشقة ، سُمّىَ به الزنا لأنه سببها بالحد فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة ﴿ مِنْكُمْ ﴾ وهذا شرط ثان لنكاح الحرّ الإماء بخلاف من لا يخافه من الأحرار فلا يحل له نكاحها ، وكذا من استطاع طَول حرة ، وعليه الشافعى ، واختلف قول مالك فيه : فروى ابن القاسم عنه : إذا تزوج أمة على حرة رُدّ نكاحه . وروى غيره عنه : إذا خشى العنت مع الحرة ولم يقدر على صداق أخرى جاز إلى أن ينتهى إلى الأربع ولا خيار للحرة ، وقيل : لها الخيار ، والآية عند مالك والشافعى سيقت مساق الرخص فلا يسترسل فيها . وجوّز أبو حنيفة نكاح الأمة مطلقاً ، ولا يحل نكاح الإماء الكافرات وإن عدم وخاف ﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا ﴾ عن نكاح الإماء متعففين ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لئلا يصير الولد رقيقاً ؛ ولقوله عليه السلام : « الحرائر صلاح البيت والإماء هلاكه » ، ولأنها خرّاجة ولاجة ممتهنة مبتذلة وذلك كله نقصان ومهانة ولهذا كان مكروهاً . وفى أبيات الشافعى :

إِذَا لَمْ تَكُنْ فِى مَنْزِلِ الْمَرْءِ حُرَّةٌ • تُدَبِّرُهُ ضَاعَتْ مَصَالِحُ دَارِهِ

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لمن لا يصبر ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بالتوسعة فى ذلك ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ شرائع دينكم ومصالح أموركم ومحاسن أعمالكم ، ليبين مفعول يريد واللام زائدة لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة . وقيل المفعول محذوف وليبين مفعول له أى يريد الحق لأجله ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ﴾ طرق أى شرائع ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ من الأنبياء وأهل الرشد لتسلكوا طرقهم ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ يرجع بكم عن معصيته التى كنتم عليها إلى طاعته ويغفر لكم ذنوبكم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بمصالحكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما دبره وشرع لكم ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ ﴾ أى يحب ﴿ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ كرره للتأكيد وليبنى عليه ﴿ وَيُرِيدُ ﴾ الفجرة ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ ﴾ من الزناة واليهود والنصارى والمجوس الذين يحلون الأخوات من الأب وبنات الأخ والأخت ﴿ أَنْ تَمِيلُوا ﴾ عن الحق ﴿ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ موصلا إلى الكفر بموافقتهم على استحلال الشهوات المحرمة ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ﴾ أحكام الشرع بالرخص عند الضرورات كنكاح الإماء والتسرى وعموم الجواز فى نكاح الحرائر مع أنهن حبائل الشيطان ليس على الإنسان أشق منهن فى دينه . وعن سعيد ابن المسيب : ما أيس شيطان من ابن آدم إلا أتاه من قِبل النساء ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ لا يصبر عن الشهوات ولا يتحمل مشاق الطاعات ، إشارة إلى علة التوسعة وأنها مقتضى الحكمة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ بالحرام فى الشرع كالربا والقمار والغصب والسرقة : أى لا تنتفعوا ، خص الأكل لأنه أهم المنافع وأكثرها ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ ﴾ تقع ﴿ تِجَارَةً ﴾ معاوضة ، استثناء منقطع لأن التجارة ليست من الباطل فى شىء ، أى لكن وقوع التجارة ﴿ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ غير منهى عنه ، و « كان » تامة . وقرأ الكوفيون بالنصب أى إلا أن تكون الأموال أموال تجارة صادرة عن تراض منكم بالشراء عن طيب نفس ، وهذا نص على إبطال بيع المكره لفوات الرضى منه وحل جميع أفعاله عليه ، وفى القوانين : إذا أكره الرجل على غرم فى مال لغير حق فباع فيه شيئاً من ماله لم يجز البيع وأخذ البائع ما باعه من المشترى دون ثمن ورجع المشترى بالثمن على الذى أكره البائع سواء دفع الثمن إلى المكرَه أو إلى المكرِه ، وإذا أكره المشترى البائع على البيع فهو كالغاصب فى جميع أحكامه . اه . و « عن تراض » صفة « تجارة » أى ما يدل على رضا المتبايعين بما تعاقدا عليه وقت الإيجاب والقبول خلافاً للشافعى فى تقييد الرضا بافتراقهما عن مجلس البيع والمشهور عند المالكية أن الفعل يدل على الرضى كالمعاطاة مطلقاً خلافاً لغيرهم مطلقاً ولبعض المالكية فى تخصيصه بالمحقرات ، وخص التجارة بالذكر لأنها أغلب أسباب المكاسب ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ بارتكاب ما يؤدى إلى هلاكها أيّا كان فى الدنيا أو فى الآخرة ، ووصيته إياكم بحفظ المال والنفس رحمة منه لكم كما أشار إليه بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ حيث بين لكم الأحكام وشرعها على وجه السهولة ولم يكلفكم ما لا تطيقون ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ الذى نهى عنه من قتل النفس أو أكل المال بالباطل وقتل النفس ، أو ما نهى من أول السورة أو من قوله « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً » لأن ما قبله قرر وعيده . قال ابن العربى فى أحكامه : والقول الأول أصح وما عداه محتمل . اه . ﴿ عُدْوَانًا ﴾ تجاوزاً عن الحق ﴿ وَظُلْمًا ﴾ بإتيان ما لا يستحقه أو العدوان التعدى على الغير ، والظلم ظلم النفس بتعريضها للعقاب ، وهما مصدران فى موضع الحال . قال أبو البقاء : نصباً على الحال أو على المفعول من أجله ﴿ فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ﴾ ندخله ﴿ نَارًا ﴾ عظيمة ، يقال : أصليته النار ، إذا أدخلته للاحتراق محمول على من استحلّ أو مات من غير توبة إن لم يغفر له لقوله « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ لا عسر فيه ولا صارف عنه لاستواء الممكنات فى قدرته من غير مزاحم ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ على لسان الرسل ، وهى ما ورد عليها وعيدٌ أو حدٌّ كالقتل والزنا والسرقة . وعن ابن عباس : هى إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع التى عدها النبى صلى الله عليه وسلم وهى : الشرك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله ، وقذف المحصنة ، وأكل مال اليتيم ، والربا ، والفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين . وقيل : صِغَر الذنوب وكِبَرها بالإضافة إلى ما فوقها وما تحتها : فأكبرها الشرك وأصغرها حديث النفس ، وبينهما وسائط يصدق عليها الأمران وقرئ « كبير » على إرادة الجنس ﴿ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ الصغائر بالطاعات قطعاً عند جماعة من

الفقهاء والمحدثين ، وظنا قويا عند الأصوليين ، وصحح القرطبي الأول لوعد الله الصدق ، وأما الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة ، لحديث مسلم « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا﴾ بفتح الميم لنافع وضمها لغيره إدخالا أو موضعه ﴿كَرِيمًا﴾ شريفاً هو دار السلام من كل مكروه. ولما أمر الله باجتناب الذنوب بيّن كيفية الخروج منها بالحث على مكارم الأخلاق فقال ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ من الأمور الدنيوية كالجاه والمال فلعل عدمه خيرٌ له ، ومنع التمنى لأنه يؤدى إلى التحاسد والتباغض وعدم الرضا بما قسم له ، وكذا فى الأمور الدينية كتمنى النساء الجهاد ونحوه ، لئلا يؤدى إلى عدم الرضا بما قسم له ، وهذا إذا لم يقصد المرء به التقرب إلى الله لحديث البخارى « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله علماً فهو يقضى به ويعلمه الناس » . اهـ .

والتمنى : إرادة شىء مستقبل ممكناً أو محالا مع الحرص من تمنى : قرأ ، إذ المتمنى يناجى نفسه بالتمنى ويقابله التلهف فى الماضى . قال ابن عطية : التمنى فى الدنيا تحكمٌ على الشريعة وتطرق إلى دفع حكم الله تعالى ، وأما التمنى فى الأعمال الصالحة فذلك هو الحسن . قال عليه السلام : « وددت أن أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا . . . الحديث » ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ ثواب ﴿مِمَّا اكْتَسَبُوا﴾ بسبب ما عملوا مما خصهم من الجهاد وغيره ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ من طاعة أزواجهن وحفظ فروجهن ، فاطلب الفضل بالعمل لا بالتمنى والحسد ، وهو بيان لما تقدم . المعنى : لا تتمنوا فى أمر خلاف ما حكم الله به لاختيار ترونه أنتم ، فإن الله قد جعل لكل أحد نصيباً من الفضل والأجر بحسب اكتسابه فيما شرع له . روى الإمام أحمد عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ، يغزو الرجال ولا نغزو ولنا نصف ما لهم من الميراث ، فنزلت . وفيه حضٌ على العمل وكسب الخير ﴿وَاسْأَلُوا﴾ بهمزة للجمهور وبدونها لابن كثير والكسائى ﴿اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الدينى والدنيوى يعطكم وذروا تمنى ما لغيركم . وفى الترمذى عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يُسأل » . وقال القشيرى عن شيخه أبى على : من علامات المعرفة أن لا تسأل حوائجك قلّت أو كثرت إلا من الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يعلم من يستحق القبض والبسط فيفضّل عن علم وبيان ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الرجال والنساء ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ ورثة يعطون ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ لهم من المال أو التقدير : لكل مال تركه هؤلاء جعلنا وراثاً يحوزونه «ومما ترك» بيان «كلّ» مع الفصل بالعامل أو لكل ميت جعلنا وراثاً مما ترك على أن «من» صلة «موالى» لأنه فى معنى الوراث . وفى «ترك» ضمير كل ، والوالدان والأقربون استئناف مفسر للموالى ، أو لكل قوم جعلناهم موالى نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، على أن جعلنا موالى صفة كل والراجع إليه محذوف كما قدرنا والجملة مبتدأ وخبر ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ﴾

بألف للجمهور ودونها للكوفيين ﴿ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ جمع يمين بمعنى القسم أو اليد أى الحلفاء الذين عاهدتموهم
فى الجاهلية على النصرة والإرث وهى موالى الموالاة ، أو هم الأزواج على أن العقد عقد النكاح ، والموصول
مبتدأ خبره ﴿ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ من الميراث وهو السدس على الأول وكان الأمر على ذلك فى ابتداء الإسلام
حتى نسخ بقوله « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض » وبحديث البخارى « ذهب الميراث ولكن يوصى له »
وفسر بعضهم النصيب بالتناصر والنصيحة . وذهب أبو حنيفة إلى أن رجلا لو أسلم على يد رجل وتعاقدا
على أن يتوارثا صح إن لم يكن له وارث آخر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ مطلعاً ومنه حالكم ،
تهديد فى منع نصيبهم ، ثم أشار إلى حكم تفضيل الرجال على النساء فى الحظوظ بقوله ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ ﴾
مسلطون وكلاء أمناء ﴿ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ فى إصلاحهن وأمرهن يؤدبونهن ويأخذون على أيديهن . يقال :
قام بالأمر : حفظه ورعاه . وفلان قوّام أهله : أى يقيم شأنهم ، وعلل ذلك بأمرين : موهبي وكسبي فقال
﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ بسبب تفضيل الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد
القوة فى الأعمال والطاعات ، ولذلك خصوا بالنبوة والأمانة والإمارة وإقامة الشعائر والشهادة فى
مجامع القضايا ووجوب الجهاد والجمعة والتعصيب وزيادة السهم فى الميراث والاستبداد بالفراق ﴿ وَبِمَآ
أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ فى نكاحهن كالمهر والنفقة . روى أن سعد بن الربيع أحد نقباء الأنصار
نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير فلطمها فانطلق بها أبوها إلى رسول الله وشكاه فأمر
بالقصاص فنزلت ، فقال : أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذى أراد الله خير ﴿ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ ﴾ منهن
﴿ قَـٰنِتَـٰتٌ ﴾ مطيعات لأزواجهن بعد طاعة الله ﴿ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾ ماغاب عن علم زوجها مما استرعته ،
أى ما يجب حفظه من الفروج والأموال والأسرار ، فلا تفعل فى غيبته ما يكره إن رآه فى حضوره ،
وفى إيقاع الحفظ على الغيب مبالغة فى الوصف بالحفظ . وعنه عليه السلام « خير النساء امرأة إن نظرت
إليها سرتك وإن أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها » وتلا الآية ﴿ بِمَا حَفِظَ ﴾
هن ﴿ ٱللَّهُ ﴾ حيث أوصى عليهن الأزواج أو بالأمر بحفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد ، فالحفظ
مسند إلى السبب الآمر ، والباء للمقابلة أو بحفظ الله إياهن عن الخيانة أو بالوعد على المحافظة والوعيد
على الخيانة ، على أن الحفظ مجاز عن سببه ، و «ما» مصدرية على الوجوه ﴿ وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾
عصيانهن لكم بأن ظهرت أماراته ، والنشوز ـ لغة : الارتفاع فإنها بالعصيان ترتفع عن رتبتها وعن
مطاوعة الزوج فتستخف بحقه ﴿ فَعِظُوهُنَّ ﴾ بما أعد الله للمطيعات من الثواب والناشزات من العقاب
كلعنة الملائكة كما فى الصحيح ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ فى المراقد إن لم يرجعن بالوعظ بأن تعتزلوا
إلى فراش آخر فإن ذلك شديد عليهن ، وكان عمر بن عبد العزيز إذا غاضب بعض نسائه يفترش فى حجرتها
فى ليلتها وتبيت هى فى بيتها ﴿ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ ضرباً خفيفاً لا كسر فيه ولا جراح ليس فى الوجه

ولا الأعضاء الرئيسية إن لم يرجعن بالهجران بشرط إن ظننتم إفادته ، فإن شككتم لم يجز وأحرى إن تحققتم عدمها . قال ابن العربي في أحكامه : فسّر النبي صلى الله عليه وسلم الضرب بقوله : « ضرباً غير مبرّح » يعني لا يظهر له أثر على البدن قال : فإن اتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وفيه دليل على أن الناشزة لا نفقة لها ولا كسوة . اهـ . قال عبد الباقي : ومثل المبرّح اللكزة . والناشزة : هي الخارجة عن الطاعة بمنع الوطء أو الاستمتاع أو بالخروج بلا إذن ، والأمر في الضرب للإباحة ولكن من الناس من لا يقيمه إلا الأدب فله أن يؤدب بشرطه والترك أفضل وفي الهجران كفاية والثلاثة مرتبة ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ في إحدى تلك الأحوال ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ بالتوبيخ والإيذاء واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن ؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له . ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا﴾ عليكم ومع ذلك يعفو عن سيئاتكم ﴿كَبِيرًا﴾ فاحذروه أن يعاقبكم إن ظلمتموهن ، وإذا ثبت أن الزوج هو الذي يضرها زجره الحاكم بما يكفه ، وإن ادعى كلٌّ من الزوجين ضرر صاحبه ولم يثبته أسكنهما الحاكم بين قوم صالحين إن لم يكونا بينهم وكلفهم تفقد أمرهما واستعلامه ، وإن أشكل الأمر بعث حكمين كما قال تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ علمتم أيها الحكام والولاة ﴿شِقَاقَ﴾ خلاف ﴿بَيْنِهِمَا﴾ بين الزوجين ، والإضافة مجاز تشبيهاً بالمفعول به اتساعاً في الظرف كسارق الليلة ، أو بالفاعل بجعل البين شاقاً نحو : نهارك صائم . وأضمر الزوجين وإن لم يجر ذكرهما لتقدم ما يدل عليهما ﴿فَابْعَثُوا﴾ إليهما وإن لم يرضيا ، خلافاً للشافعية والحنفية إن أشكل عليكم حالهما لتبيّن الأمر أو إصلاح ذات البين رجلا عدلا ﴿حَكَمًا﴾ أي صالحاً للحكومة بأن يكون مأموناً ﴿مِنْ أَهْلِهِ﴾ أقاربه ﴿وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ على وجه الاستحباب أو الوجوب إن أمكن : لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح ، فلو بُعثا من الأجانب جاز ، والأظهر لم يجز عندنا ، إذ تردد اللخمي في نقض الحكم إذا حكم القاضي لأجنبيين مع وجود الأهل . وقال خليل في التوضيح : ظاهر الآية أن كونهما من الأهلين مع الوجدان واجب شرطاً . اهـ . وندب كونهما مطلقاً جارين ؛ وتأكد الندب في الأجنبيين . ولا يُبعث الحكمان إلا مع شدة الخوف والشقاق . ومذهب مالك وجمهور العلماء أن الحكمين ينظران في كل شيء ويحملان على الظالم ويمضيان ما رأياه من بقاء أو فراق على مال أولا . قال ابن العربي : وقولُ الشافعية : لا يكون الحكمان إلا برضى الزوجين فيوكل الزوج حكمه في طلاق وقبول عوض عليه ، وتوكل هي حكمها في الاختلاع ـ خطأ صريح ؛ فإن الله قد خاطب غير الزوجين بإرسال الحكمين ، فكيف يكون بتوكيل الزوجين . ولا يصح للحكمين حكم إلا بما اجتمعا عليه ، وتوكيل كل من الزوجين لا يكون إلا بخلاف الآخر . وقوله تعالى : « حكما من أهله وحكما من أهلها » نص في أنهما نائبان لا وكيلان . اهـ . ﴿إِنْ يُرِيدَا﴾ أي الحكمان ﴿إِصْلَاحًا﴾ بين الزوجين بنية صادقة وقصدا خيراً ونصحا

﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ بين الزوجين بإيقاع الألفة بينهما . وقيل الضمير للحكمين : أى بين كلمتيهما فيحصل الغرض ، وقيل الضميران للزوجين ، أى إن تابا عن الضرار يبدل الله البغض بالمحبة والشقاق بالوفاق ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بالظواهر ﴿ خَبِيرًا ﴾ بالبواطن ، فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق . وفيه تحذير الحكمين عن السعى بالفساد ، كما أن الأول ترغيباً فى الإصلاح . ولما استوفى الله تعالى جملة من الأحكام عاد إلى التوحيد الذى هو ملاك الأمر فقال ﴿ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ ﴾ وحدوه ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ نصب على المصدر أى شيئاً من الإشراك خفياً أو جلياً ، أو على المفعول به أى شيئاً ما صنما أو غيره ﴿ وَ ﴾ أحسنوا ﴿ بِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ براً فى الأقوال والأعمال مع لين جانب ﴿ وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ القرابة فى النسب من قبل الأب والأم فالإحسان إليه صدقة وصلة رحم ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ فى الجوار أو النسب أو الدين . وفى البخارى عن عائشة : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت : إن لى جارين فإلى أيهما أهدى فقال : « إلى أقربهما باباً » ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ البعيد عنك فى الجوار أو النسب ، فأبعده من بينكما أربعون داراً . قاله الزهرى . وحق كل جار الإكرام وكف الأذى . وفى البخارى ومسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » وفى الحديث أيضاً « خير الجيران خيرهم لجاره » ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ الرفيق فى كل أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر فإنه صحبك وحصل بجنبك ، وقيل المرأة ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو الضيف ينزل بك يوماً وليلة وما وراء ذلك فصدقة ولا يحل له الثواء حتى يحرجك ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من الأرقاء بالرفق والعفو وإطعامهم مما طعم وإلباسهم مما لبس . قال عليه السلام فى مرض موته « الصلاةَ الصلاةَ وما ملكت أيمانكم » فجعل يكررها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا ﴾ متكبراً يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم ، يقال : خال الرجل واختال : تكبر وأعجب بنفسه ﴿ فَخُورًا ﴾ على الناس بحطام الدنيا ، وخص هذين الوصفين لمنعهما امتثال ما تقدم من الإحسان إلى من ذكر ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ بما منحوا مما وجب عليهم ﴿ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ أى الذين يظنون أنهم يطيعونهم ﴿ بِٱلْبُخْلِ ﴾ بضم الباء وسكون الخاء للجمهور ، ولحمزة والكسائى بفتحهما لغتان ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ من العلم والغنى بالتفاقر للناس : ليس عندنا ، ليس معنا ! وهو حرام لقوله تعالى « وأما بنعمة ربك فحدث » وهم اليهود وكل من اتصف بذلك ، والموصول بدل من قوله « من كان » أو نصب أو رفع على الذم ، أو مبتدأ خبره محذوف أو لهم وعيد شديد دل عليه قوله ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ بذلك وبغيره ﴿ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ ذا إهانة ، فيه وضع الظاهر موضع المضمر إشعاراً بأن من هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله مستحق أن يهان كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء . وفى الحديث « إياكم والشح فإنه أهلك من قبلكم » وفى الترمذى : « خصلتان لا يجتمعان فى المؤمن : البخل وسوء الخلق » ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ عطف على « الذين » قبله ﴿ يُنفِقُونَ

أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ مرائين لهم وهم المشركون والمنافقون ليقال إنه جواد . روى مسلم عن أبى هريرة «أول من يدخل النار مسلمٌ صرف ماله فى وجوه البرّ لا إخلاصاً بل ليقال ، فذلك حظه» ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ حتى يكون باعثاً له على الحذر مما يحبط العمل﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا ﴾ فى الدنيا يزين له القبائح أو فى الآخرة بأن يقرن به فى النار كهؤلاء ﴿ فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ هو فعيل بمعنى فاعل من المقارنة : الملازمة وكل إنسان يقارنه شيطان ، لكن الموفق عاصٍ له ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ أىْ أىُّ ضرر عليهم فى الإيمان والإنفاق فى سبيل الله ؟ استفهام إنكار وتوبيخ على الجهل بمكان المنفعة ، و «لو» مصدرية أى لاضرر فيه وإنما الضرر فيما هم عليه والعاقل يسارع إلى ما فيه احتمال نفع ، فكيف والمدعوّ إليه منبع كل سعادة ، ثم توعدهم بقوله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ فيجازيهم بما عملوا ، أو عليما بأنهم لا يؤمنون فلذا لا تجدى فيهم الآيات ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ ﴾ أحداً ﴿ مِثْقَالَ ﴾ وزن ﴿ ذَرَّةٍ ﴾ أصغر نملة بأن ينقصها من حسناته أو يزيدها فى سيئاته . وعن ابن عباس أنه أدخل يده فى التراب وأخرجها وقال : كل هذا ذرات . والمثقال : مفعال من الثقل ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٌ ﴾ بالرفع لنافع وابن كثير فكان تامة ، وبالنصب فناقصة أى إن تك الذرة أومثقال الذرة ، أنث الضمير لتأنيث الخبر أولإضافة المثقال إلى المؤنث ، وحذف النون تخفيفاً ﴿ يُضَاعِفْهَا ﴾ من عشرة إلى أكثر من سبعمائة ، ولابن كثير وابن عامر «يضعّفها» بالتشديد ، وهما بمعنى ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ ﴾ من عنده مع المضاعفة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يقدره أحد تفضلا منه ، ولمّا نبّه على عدله وفضله يوم القيامة أتبعه بشهادة الشهداء يومئذ فقال ﴿ فَكَيْفَ ﴾ حال الكفار أو صنيعهم أو كيف يصنعون ﴿ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ يشهد عليها بعملها وهو نبيها ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ أى أمتك ﴿ شَهِيدًا ﴾ أى على صدقهم لحصول علمك بعقائدهم بدلالة كتابك وشرعك على قواعدهم ، وكيف استفهام توبيخ فى محل رفع خبر مبتدأ محذوف والعامل فى « إذا » مضمون الجملة أى عظم الأمر ، أو العامل هو المبتدأ المقدر ، أو فى محل نصب بفعل محذوف هو العامل فى « إذا » ونصب «كيف » على التشبيه بالحال عند سيبويه أو بالظرف عند الأخفش . وجملة « وجئنا بك » فى موضع جر عطفاً على « جئنا » الأول . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه . وفىالبخارى عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى : « اقرأ علىّ القرآن » قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : « إنى أحب أن أسمعه من غيرى » فقرأت سورة النساء حتى بلغت « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » فقال « حسبك » فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان . وفيه أيضاً عن عقبة ابن عامر : قال عليه السلام « إنى بين يديكم فَرَطٌ وأنا عليكم شهيد وإن موعدكم الحوض وإنى لأنظر إليه من مقامى هذا وإنى لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » قال عقبة :

فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم المجىء ﴿ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ ﴾ أى أن ﴿ تُسَوَّىٰ ﴾ بإدغام ثانى التاءين فى السين مع فتح الأولى لنافع وابن عامر، وبضمها مع الشد مبنياً للمفعول لأبى عمرو وابن كثير وعاصم، وبحذف الثانية مع فتح الأولى مبنيا للفاعل لحمزة والكسائى إذ أصله تتسوى ﴿ بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾ بأن يكونوا تراباً مثلها لعظم هوله كما فى آية أخرى « يا ليتنى كنت ترابا » أو كناية عن الموت والدفن، أو بأن لم يبعثوا ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ عما عملوه، وفى وقت آخر يكتمون «والله ربنا ما كنا مشركين» أو يكتمون بالألسن فينطق الله أبدانهم « يوم تشهد عليهم جلودهم » والجملة عطف على « يود » و« يومئذ » متعلق بالفعلين، ويجوز عطفهما على « تسوى » داخلة تحت التمنى، أو حالا من الضمير ، والرسول هنا للجنس شرف بالذكر وهو مفرد معناه الجمع. ولما ذكر أهوال القيامة أردفها بالمحافظة على أشرف الوسائل فى ذلك اليوم وهو الصلاة فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ ﴾ نفسها أو مواضعها، ورد بأنه يقال فى اللغة لا تقربن كذا - بفتح الراء - أى لا تلتبس بالفعل، وإن كان معناه : لا تدن من الموضع فهو بضم الراء ﴿ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ ﴾ من الشرب لأن سبب نزولها صلاة جماعة فى حال السكر قبل تحريم الخمر، والمراد النهى عن شربها فى أوقات الصلاة، وقرئ « سَكارى » بالفتح ، وسكرَى كهلكى وحُبلى ، صفة للجماعة ﴿ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ ومن لم يدر ما يقول لشغل باله لا صلاة له، لكن من استشعر النية حال التكبير ثم ذهل فإنه يسامح فى الذهول بعدُ ﴿ وَلَا ﴾ تقربوا الصلاة أو مواضعها ﴿ جُنُبًا ﴾ ونصبه على الحال عطفاً على « وأنتم سكارى » لأن الجمل التى لها محل من الإعراب فى حكم المفردات، والجنب يطلق على المفرد والجمع ذكراً كان أو أنثى بإيلاج أو إنزال ﴿ إِلَّا عَابِرِي ﴾ مجتازى ﴿ سَبِيلٍ ﴾ أى إلا مسافرين فتيمموا وصلوا وأنتم جنب، لأن التيمم يبيح الصلاة ولا يرفع الحدث، وهو حال مقدرة للفعل المقيد بالحال كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة فى حال الجنابة إلا ومعكم حال أخرى تعذرون فيها وهى كونكم مسافرين، وفيه إيماء إلى أن سائر الأعذار مثل السفر، وذكره لأنه الغالب فلا ينافى هذا الحصر ما يذكر بعد من الموجبات، ويجوز أن يكون وصفاً للحال: أى جنباً غير عابرى سبيل ﴿ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ﴾ غاية النهى وفيه إشعار بوجوب النية فى الغسل، إذ لفظ « اغتسل » يقتضى الاكتساب ولا يكون إلا مع النية خلافاً للحنفية، وبأنه ينبغى للمصلى أن يكون مراعياً لطهارة الباطن مما يلوث كالحقد والحسد . ومن قدر مواضع الصلاة - أى المساجد - جوز للجنب عبورها من غير مكث وبه قال الشافعى، وجوز له الحنبلى الجلوس فيه. وقال أبو حنيفة: لا يجوز له المرور فى المسجد إلا إذا كان فيه الماء أو الطريق، ومنعه المالكية مطلقاً فى المشهور، وإذا احتلم فى المسجد يجوز له الخروج من غير تيمم وسقفه وصحنه كهو، بخلاف فنائه . وفائدة « عابرى سبيل » مع جعله مسافراً مع قوله « أو على سفر » إلى « فتيمموا » إعلامُ

عدم ارتفاع الحدث بالتيمم مع إباحة الصلاة ، وما يأتى لا يفيد إلا جواز التيمم عند عدم الماء فافهم ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ ﴾ مرضاً يضرّه الماء بأن خاف التلف بسببه وكذا إن خاف المرض أو زيادته بسببه عند المالكية خلافاً للشافعية فيهما لأن ذلك مظنون ﴿ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ أى مسافرين وأنتم جنب أو محدثون ولم تجدوا ماء ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾ كناية عن الحدث الخارج من السبيلين المعتاد لجرى عادة العرب بقضاء الحاجة فيه وهو المكان المنخفض ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ بألف للجمهور وبدونها لحمزة والكسائى وهما بمعنًى من اللمس وهو الجس باليد وكذا باقى البشرة إن قصد اللذة أو وجدها ، وينتقض الوضوء مطلقاً عند الشافعى ، ولا ينقض عند أبى حنيفة مطلقاً . وعن ابن عباس : اللمس هنا هو الجماع ، وينتقض بمس الذكر وإن بلا لذة على المشهور وفاقاً للشافعى ، ولا ينقض عند أبى حنيفة مطلقاً ، ومس الدبر لا ينقض خلافاً للشافعى ، وكذا مس ذكر الصبى والبهيمة ، وفى مس المرأة فرجها النقض مطلقاً وفاقاً للشافعى وعدمه مطلقاً وفاقاً لأبى حنيفة ، أو إن ألطفت وإلا فلا ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً ﴾ تطهرون به للصلاة بعد طلبه طلباً لا يشق عليه عند المالكية ومطلقاً عند الشافعية . ولا يلزمه الطلب عند الحنفية وهو راجع إلى ما عدا المرضى لأن الآية فيها تقسيم ، وهو أن المترخص بالتيمم إما محدث أو جنب وسببه إما مرض أو سفر غالباً ، والجنب لما سبق ذكره اقتصر على بيان حاله ، والمحدث لما لم يجر له ذِكرٌ ذَكرَ أسبابه واستغنى عن تفصيل أحواله بتفصيل حال الجنب وبيان العذر مجملا ، وكأنه قيل : وإن كنتم جنباً أو مرضى أو على سفر أو محدثين بالمجىء من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ﴿ فَتَيَمَّمُوا ﴾ اقصدوا بعد دخول الوقت ﴿ صَعِيدًا ﴾ وجه الأرض على أىّ حال كان من رمل أو حجر أو مدر أو تراب ، وتخصيصه بالتراب فقط مذهب الشافعية ولابد عندهم أن يعلق شىء من التراب باليدين ﴿ طَيِّبًا ﴾ أى طاهراً وفسره الشافعية بمُنبتاً كقوله «والبلد الطيب» فاضربوا به ضربتين ﴿ فَٱمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ تعليم لكيفية التيمم ولم يبين غاية المسح لأنه مبين فى الوضوء بقوله « إلى المرافق » وبفعل النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ ولذا رخص لكم وخفف عليكم ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بعينك أو بقلبك ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا﴾ حظاً ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ التوراة وهم اليهود ، عدى « رأى » بإلى لتضمينه معنى انتهى ﴿ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ ﴾ بالهدى مع ذلك العلم بإنكار نبوة محمد وأخذ الرشا وتحريف التوراة ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴾ الحق لتكونوا مثلهم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ﴾ منكم وقد أخبركم بعداوة هؤلاء فاحذروهم ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا ﴾ حافظاً لكم فلا توالوهم ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ مانعاً من كيدهم فتوكلوا عليه واكتفوا به عن غيره ، والباء فى الموضعين صلة تؤكد الإسناد لأن حروف الجر لإيصال معانى الأفعال إلى الأسماء ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا ﴾ بيانٌ للذين أوتوا نصيباً فإنه يحتملهم وغيرهم ، وما بينهما اعتراض أو بيان لأعدائكم أو صلة لـ « نصيراً » ، أى ينصركم من الذين هادوا بمعنى يحفظكم كقوله

« ونصرناه من القوم » ويجوز تعلقه بما بعده : أى من الذين هادوا قومٌ ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ يغيّرون ﴿الْكَلِمَ﴾ الذى أنزل الله فى التوراة ﴿عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ التى وضع عليها بتغيير اللفظ وقد فعلوا ذلك فى الأقل ، أو بتغيير التأويل بما يشتهونه وقد فعلوا هذا فى الأكثر وإليه ذهب الطبرى ، وهذا كله فى التوراة على قول الجمهور ، وقالت طائفة : هو كلم القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم بالتأويل ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للنبى إذا أمرهم بشىء ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك كفراً وطغياناً ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ حال بمعنى الدعاء عليه بالصمم أو الموت أو أنت غير مسمع جواباً ترضاه ، وله وجه مدح يورّى به أى غير مسمع مكروهاً من قولهم : أسمعه فلان : إذا سبه ، قالوه نفاقاً ﴿وَ﴾ يقولون له ﴿رَاعِنَا﴾ حتى نفهم كلامك وهى كلمة سب عندهم وقد نهى عن خطابه بها ﴿لَيًّا﴾ فتلاً وتحريفاً مفعول له أو حال ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ لصرف الكلام إلى ما يشبه السبّ يضمون ما يظهر الدعاء والتوقير إلى ما يضمرون من السبّ والتحقير نفاقاً ﴿وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ استهزاء به وسخرية يقصدون السب ويظهرون أنهم أرادوا الدعاء بمعنى الرعاية ، قال ابن عطية فى تفسيره : وهذا اللىّ باللسان إلى خلاف ما فى القلب موجود إلى الآن فى بنى إسرائيل ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بدل « وعصينا » ﴿وَاسْمَعْ﴾ فقط ﴿وَانظُرْنَا﴾ انظر إلينا بدل « راعنا » ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ مما قالوه ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أعدل منه ، وإنما وجب حذف الفعل أى : ثبت بعد « لو » لدلالة « أنّ » عليه ووقوعه موقعه ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ طردهم وأبعدهم عن هداه ورحمته ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ لأجله ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم كعبدالله بن سلام وأصحابه أو إلا إيمانا قليلا لا يعتبر به وهو الإيمان ببعض والكفر ببعض ، أو الإيمان باللسان دون القلب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ من القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ من التوراة ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ نمحو آثارها ونزيل محاسنها من العيون والأنوف والحواجب ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ فنصير على هيئة الأقفاء ، أو ننكسها إلى ورائها فى الدنيا أو فى الآخرة أو نسلب وجاهتها ونكسوها الصغار بالإجلاء ، ويقرب منه قول من قال إن المراد بالوجوه الرؤساء ، أو من قبل أن نعمى الأبصار عن الاعتبار ونصم الأسماع عن الإصغاء إلى الحق بالطبع ونردها عن الهداية إلى الضلالة ، وأصل الطمس : إزالة الأعلام والآثار ، يقال : ليل طامس وطريق طامس : يتعدى ويلزم ، وقد يطلق على معنى الطمس أى إزالة الصورة وعلى مطلق التغيير ، والفاء للسببية أو للتغليب بالتوعد بالطمس وتعكيس الحال ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ على لسانك أى نمسخهم قردة ﴿كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ منهم على لسان داود بأن مسخناهم قردة وخنازير ، والضمير لأصحاب الوجوه أو للذين على طريق الالتفات أو للوجوه إن أريد به الوجهاء ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قضاؤه ﴿مَفْعُولًا﴾ نافذاً كائنا فيقع ما وعدتم به لامحالة إن لم تؤمنوا ، وهذا وعيد متوقع فى بنى إسرائيل سيقع ، وقيل كان مشروطا بعدم إيمان جميعهم فلما أسلم بعضهم رفع كعبدالله ابن سلام لما سمع الآية أسلم مكانه ، ولما قدم جرائم اليهود والمشركين رغّب فى الإيمان فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ

لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الإشراك به ممن لم يتب لقوله « يُغفرْ لهم ما قد سلف » والمراد من الشرك : الكفر مطلقا لقوله ، ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ، وإنما عبر بالشرك لأنه حال المخاطبين من اليهود وعبدة الأوثان ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أى سوى الكفر من الذنوب صغيرة أوكبيرة ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ المغفرة له وإن لم يتب برحمته بأن يدخله الجنة بلا عذاب ومن يشاء عذبه من المؤمنين بذنوبه ثم يدخله الجنة . قال فى غاية الأمانى : هذا صريح أنه لا يغفر الشرك ويغفر ما دونه لمن يشاء ، وأيده سائر الآيات والأحاديث المتواترة معنى ، فن قيد الثانى بالتوبة فقد حرف الكلم اه . وقال فى الجواهر الحسان : هذه الآية هى الحاكمة ببيان ما تعارض من آيات الوعد والوعيد وتلخيص الكلام فيها أن يقال: الناس أربعة أصناف : كافر مات على كفره : فهذا مخلد فى النار بإجماع ، ومؤمن محسن لم يذنب قط ومات على ذلك ؛ فهذا فى الجنة بإجماع ، وتائب مات على توبته فهو عند جمهور أهل السنة فى الجنة ومن المتكلمين من قال : فى المشيئة . ومذنب مات قبل التوبة : موضع لخلاف الطوائف قال أهل السنة : فى المشيئة . والمعتزلة قالوا فى النار إن كان صاحب كبيرة . وقالت الخوارج : مخلد فى النار مطلقا ، إذ كل ذنب عندهم كبيرة . وقالت المرجئة : هو فى الجنة بإيمانه لا يضره الذنب ، فالآية نص فى موضع النزاع إذ قوله « لا يغفر أن أن يشرك به » مجمع عليه . وقوله « ويغفر ما دون ذلك » رد على المعتزلة والخوارج . وقوله « لمن يشاء » رد على المرجئة لبيانه أن غفران ما دون الشرك إنما هو لقوم دون قوم بخلاف ما زعموه من أنه مغفور لكل مؤمن اه . ملخصا . وفى نظم عقيدة السنوسى الكبرى لشيخ شيوخنا طاهر رحمه الله :

وَالْحَقُّ فِيهِ أَنَّهُمْ قِسْمَانِ : • مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرٌ ، فَالثَّانِي
مُخَلَّدٌ فِى النَّارِ بِالْإِجْمَاعِ • وَذَاكَ ضَرْبَانِ بِلَا نِزَاعِ
مَحْفُوظُ عُمْرِهِ مِنَ الْمَعَاصِي • فِى جَنَّةٍ وَالْخُلْفُ عَنْهُ قَاصِي
وَغَيْرُهُ قِسْمَانِ : ذُو الصَّغَائِرِ • لَا غَيْرُهَا ، وَصَاحِبُ الْكَبَائِرِ
إِنْ تَابَ فِى الْجَنَّةِ قُلْ هَٰذَانِ • وَالْغَيْرُ فِى مَشِيئَةِ الرَّحْمَٰنِ

ولما أخبر الله أنه لا يغفر الشرك قبحه بقوله ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ارتكب ما يستحقر دونه الآثام ، وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب . والفرية : أقبح الكذب وهو الاختلاق من الفَرْى وهو القطع ، لأنه اخترعه من عنده يطلق على القول والفعل والمراد به القدر المشترك ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ هم اليهود حيث قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وغير هذا من مختلقاتهم ، وفى معناهم كل من زكى نفسه وأثنى عليها أى ليس الأمر بتزكيتهم أنفسهم ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي﴾ يطهر ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ بالإيمان والطاعة : تنبيه على أن تزكيته هو المعتد بها دون تزكية غيره لأنه العالم بما ينطوى عليه الإنسان من حسن وقبح وقد ذمهم .

وأصل التزكية نفي ما يستقبح فعلا أو قولا ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ ﴾ لا ينقصون من أعمالهم أو لا يظلمون بالذم والعقاب بغير حق ﴿ فَتِيلًا ﴾ أقل قليل وهو الخيط الذي في شق النواة يضرب به المثل في الحقارة والقلة ، أو اسم لما يفتل من الوسخ بين الأصبعين ﴿ انْظُرْ ﴾ متعجباً ﴿ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ بذلك الزعم والتزكية ﴿ وَكَفَىٰ بِهِ ﴾ بذلك القول الافتراء ﴿ إِثْمًا مُبِينًا ﴾ بينا لا يخفى على أحد . ثم انتقل إلى تعجيبهم بنوع آخر من الأباطيل فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ صنمان لقريش ، وهم طائفة من اليهود منهم « حيي بن أخطب » و « كعب بن الأشرف » ، خرجوا بعد بدر إلى مكة وحالفوا قريشاً على محاربة النبي صلى الله عليه وسلم ، وحرضوهم على أخذ الثأر فقالت لهم قريش : أنتم أهل كتاب مثل محمد وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم حتى تسجدوا لهذين الصنمين لنا ، ففعلوا وقالوا : عبادة الأصنام أرضى عند الله مما يدعو إليه محمد ، والجبت في الأصل اسم صنم فاستعمل في كل ما عبد من دون الله ، وقيل أصله الجبس وهو الذي لا خير فيه فقلبت سينه تاء ، والطاغوت يطلق على كل باطل من معبود وغيره ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي لأجلهم أبي سفيان وأصحابه حين قالوا لهم أنحن أهدى سبيلا ونحن ولاة البيت نسقي الحاج ونقري الضيف ونفك العاني ، أم محمد وقد خالف دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم وجمع سراق الحاج من غفار ؟ ﴿ هَٰؤُلَاءِ ﴾ أي أنتم ﴿ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ أقوم طريقا ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ مانعاً من عذابه بشفاعة أو غيرها ، ونفي الأخص وهو النصير أخص من الناصر ونفيه لا ينفيه لإرادة أن الكامل في النصر إذا لم يقدر على نصرهم فغيره أحرى ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ ﴾ جحد لما زعموا أن الملك سيصير إليهم أي ليس لهم شيء منه ﴿ فَإِذًا ﴾ لو كانوا ملوكا ﴿ لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ أي ما يوازيه أي شيئاً تافهاً قدر النقرة في ظهر النواة لفرط بخلهم وهو إشارة إلى أنهم غير أحقاء بالملك وفيه مبالغة إغراق في بيان شحهم بخلهم بالنقير وهم ملوك فما ظنك بهم فقراء ، وفيه الاستتباع بذمهم بالبخل بعد ذمهم بتزكية أنفسهم كذباً ، والاتصاف بالرذيلة أبلغ ذما من الخلو عن الفضيلة وكل ذلك مناف للملك ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ﴾ أي النبي محمداً صلى الله عليه وسلم أو هو وأصحابه أو العرب أو الناس جميعاً لأن من حسد على النبوة فكأنما حسد الناس كلهم ، وهو إضراب عن الإضراب تدرجاً فإن الحسد أشنع من البخل إذ هو بخل واعتراض على الحكم وعدم الرضا بما قسم ، وهما أي الحسد والبخل شر الرذائل فكأن بينهما تلازماً وتجاذباً ﴿ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ من النبوة وكثرة النساء أو النصر المتواتر والعز المتظاهر يوماً فيوما أو جعل النبي الموعود منهم ، أي يتمنون زواله عن ذكر ويقولون في النبي لو كان نبياً لاشتغل عن النساء فرد عليهم الله بقوله ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ جده ، كموسى وداود وسليمان ﴿ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ النبوة ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ فلا يبعد أن يؤتي الله هؤلاء مثل

ما آتاهم ، والفاء فصيحة أى إن كان حسدهم على ما أوتى هؤلاء فقد عرفوا أن أسلافهم أوتوا مثل ذلك فلا بدع أن يخوّل الله محمداً ماخوّل غيره وهو أفضل الرسل . روى عنه عليه السلام أنه قال : «خيرنى الله بين أن أكون نبياً ملكا وأن أكون نبياً عبداً فاخترت أن أكون نبياً عبداً فأنا آكل كما يأكل العبيد وأجلس كما يجلس العبيد» . اهـ . قلت : معناه امتناعه عن صفات الملوك ورضاه بصفات العبيد والفقراء لجملة آكل . . . الخ مفسرة له والله أعلم ﴿فَمِنْهُم﴾ من اليهود ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ بمحمد أو بما ذكر من حديث آل إبراهيم ﴿وَمِنْهُم مَنْ صَدَّ﴾ أعرض ﴿عَنْهُ﴾ ولم يؤمن به ، وقيل معناه من آل إبراهيم من آمن به ، ومنهم من كفر ، ولم يكن فى ذلك توهين أمره ، فكذا لا يوهن كفر هؤلاء أمرك ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ ناراً موقدة عذاباً لمن لا يؤمن ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ ندخلهم ﴿نَارًا﴾ يحترقون فيها هذا كالبيان والتقرير لما مر ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾ احترقت ﴿جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ فى الصفة بأن تعاد إلى حالها الاول غير نضيجة فى الصورة أو بخلق جلود أخر مكانها ، إذ العذاب فى الحقيقة للنفس العاصية المدركة لا لآلة إدراكها فلامحذور ، وفى حديث ابن ماجه : تبدل جلودهم فى الساعة الواحدة مائة وعشرين مرة ، وروى الإمام أحمد مرفوعا : أن ما بين شحمة أذن الكافر وعاتقه مسيرة سبعمائة عام وغلظ جلده سبعون ذراعا اهـ . ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ على الدوام . ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ لا يعجزه شىء ﴿حَكِيمًا﴾ فى خلقه وفيما أعد من العذاب لمن خالفه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ فينانا لا جدب فيه وافيا ليس فيه شائبة حر ، دائماً لا تنسخه شمس وهو ظل الجنة ، وهو إشارة إلى النعمة الدائمة والظليل صفة مشتقة من الظل لتأكيده كشمس شامس وليل أليل . ولما قدم ذكر الكفار بالخيانة وتحريف الكلم أردفه بأمر المؤمنين كافة بأداء الأمانات فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ﴾ لله وللعباد أى ما ائتمنتم عليه من الحقوق ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ والخطاب فى الأمانات عام بقرينة الجمع وإن نزلت فى عثمان بن أبى طلحة بن عبد الدار فى أمر مفتاح الكعبة يوم الفتح لما أقبل عليه السلام حتى أناخ راحلته بفناء الكعبة ثم دعا عثمان بن أبى طلحة فقال ائتنى بالمفتاح فذهب إلى أمه سلافة فأبت أن تعطيه فقال : والله لتعطينه أو ليخرجن هذا السيف من صلبى فأعطته إياه فجاء به النبى صلى الله عليه وسلم ففتح الباب . رواه مسلم وبعضه فى البخارى . وفى التفاسير أن عثمان بن أبى طلحة لما أمره عليه السلام بإيتاء المفتاح أبى وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى علىّ يده فأخذ منه المفتاح فلما خرج عليه السلام من البيت سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له السقاية والسدانة فأنزل الله هذه الآية ، وأمر عليه السلام علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان ففعل فقال : هاكه خالدة تالدة فأسلم لذلك وأعطاه عند موته لأخيه شيبة فبقى فى ولده ، قال ابن ظفر : قولهم إنه قال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه إلى آخره وهمٌ لأنه أسلم قبل ذلك ولو قاله لكان مرتداً ، قال الكلبى : لما

طلب عليه السلام المفتاح وجاء به عثمان قال العباس ما قال فقال عثمان لرسول الله هاكه بالأمانة فنزلت ، قال ابن ظفر : وهذا أولى بالقبول . اه . انظر المواهب اللدنية للقسطلانى . قال ابن العربى فى أحكامه : أمهات الأمانات فى الأحكام خمسة : الوديعة ، واللقطة ، والرهن ، والإجارة ، والعارية . اه . وقال عبد الرحمن فى الجواهر : والآية تتناول الولاة فيما لديهم من الأمانات فى قسمة الأموال ورد الظلامات والعدل فى الحكومات وتتناول غيرهم فى حفظ الودائع والشهادات . والصلاة والزكاة والصيام وسائر العبادات أمانات الله . اه . ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ ﴾ الذين حكوكم أو جاءوا لحكمكم بأمركم ﴿ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ السوية وهذا عام فى الحكام والولاة وغيرهم من جميع المسلمين لحديث « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا ﴾ فيه إدغام ميم نعم فى « ما » النكرة الموصوفة وتقدم فى البقرة ما فيه من القراءات أى نعم شيئاً ﴿ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ تأدية الأمانة والحكم بالعدل ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا ﴾ لأقوالكم فى الأحكام ﴿ بَصِيرًا ﴾ بأحوالكم فى الميل إلى الحق أو الباطل وما تفعلون فى الأمانات ، ولما أمر الأمراء بالعدل عقبه بأمر طاعتهم عليه تنبيهاً على أن وجوب طاعتهم ما داموا على الحق فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ من الخلفاء الراشدين ومن سلك طريقهم فى العدل من الولاة والعلماء والقضاة وأمراء السرايا ، وقال أكثر التابعين : هم العلماء ، واختاره مالك ، قال ابن العربى فى أحكامه : والصحيح عندى أنهم الأمراء والعلماء ، أما الأمراء فلأن الحكم إليهم ، وأما العلماء فلأن سؤالهم متعين على الخلق ، وجوابهم لازم ، وامتثال فتواهم واجب ، لكن لما كان أمر الأمراء عاد إلى الجهال تعين العلماء وهو ما نظر إليه مالك ، فإن الأمر قد وقف على العلماء وزال عن الأمراء لجهلهم واعتدائهم ، والعادل منهم مفتقر إلى العالم كافتقار غيره . اه . وقال فى الجواهر : أولو الأمر الأمراء على قول الجمهور ، والأمر على هذا هو ضد النهى ومنه لفظة الأمير ، أو هم أهل العلم أتباع السنة اه . ويدخل فيهم تأمر الزوج على الزوجة ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ ﴾ اختلفتم أنتم وأولو الأمر ﴿ فِي شَيْءٍ ﴾ من أمر الدين ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى كتابه ﴿ وَالرَّسُولِ ﴾ مدة حياته وبعده إلى سنته أى اكشفوا عليه منهما ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ولا دليل فى هذا لمنكرى القياس ، إذ الرد إليهما قد يكون بالجامع وهو القياس ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الرد إليهما ﴿ خَيْرٌ ﴾ لكم من التنازع والقول بالرأى ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ مآلا وعاقبة ، فيه أن طاعة الأمراء لا تجب إلا إن وافقوا الشرع ، إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ونزل لما اختصم يهودى وبشر المنافق فدعا المنافق إلى كعب بن الأشرف ليحكم بينهما لعلمه أنه يحكم بالرشوة ، ودعا اليهودى إلى النبى صلى الله عليه وسلم لعلمه أنه لا يرتشى فأتياه فقضى لليهودى فلم يرض المنافق ، وأتيا عمر بن الخطاب فذكر له اليهودى ذلك فقال للمنافق : أكذلك ؟ فقال نعم ، فقال مكانكما حتى أخرج ، فدخل فأخذ سيفه ثم خرج فقتل المنافق وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض

بقضاء الله ورسوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّٰغُوتِ ﴾ الكثير الطغيان وهو كعب بن الأشرف ، وفى معناه كل من يحكم بالباطل ويؤثره لأجله ، سمى بذلك لفرط طغيانه أو لتشبيه بالشيطان أو لأن التحاكم إليه تحاكم إلى الشيطان من حيث أنه الحامل عليه كما قال ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ بالشيطان أو بالمشبه به فلا يوالوه ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ﴾ عن الحق ﴿ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾ مستمراً إلى الموت وإسناد البعد إلى الضلال مجاز مبالغة فى ضلال صاحبه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ فى القرآن من الحكم ﴿ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾ ليحكم بينكم ﴿ رَأَيْتَ الْمُنَٰفِقِينَ ﴾ رؤية عين لمن جاهره منهم ورؤية قلب بالقرائن لغيره ﴿ يَصُدُّونَ ﴾ يعرضون ﴿ عَنكَ ﴾ إلى غيرك ليغروه بالرشوة ﴿ صُدُودًا ﴾ والجملة فى محل الحال يدل على أنهم كانوا مستمرين على الإعراض ﴿ فَكَيْفَ ﴾ يصنعون ﴿ إِذَا أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ ﴾ بالدنيا كقتل المنافق أو فى الآخرة إذا عاقبهم الله ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الكفر والمعاصى كالتحاكم إلى غيرك وعدم الرضى بحكمك تهويل للعذاب الذى سينزل بهم ﴿ ثُمَّ جَاءُوكَ ﴾ حين يصابون للاعتذار عطف على يصدون ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ حال ﴿ إِنْ أَرَدْنَا ﴾ بالمحاكمة إلى غيرك ﴿ إِلَّا إِحْسَٰنًا ﴾ صلحاً ﴿ وَتَوْفِيقًا ﴾ بين الخصمين بالتقريب فى الحكم دون الحمل على غير الحق ، أى ما أردنا بذلك إلا الفصل بالوجه الأحسن أو إلا إحساناً إليك أى لا نشغلك بالمحاكمة ، وقيل جاء أولياء بشر المنافق يطالبون عمر بدمه وقالوا : ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا ويوفق بينه وبين خصمه ، فنزل وقال جبريل إن عمر فرق بين الحق والباطل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت الفاروق فأهدر دم المنافق ﴿ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من النفاق والعداوة وكذبهم فى عذرهم فلا يغنى عنهم الكتمان والحلف الكاذب من العقاب ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ بالصفح مجاملة لإظهارهم الإيمان ولئلا يقال إن محمداً يقتل أصحابه ﴿ وَعِظْهُمْ ﴾ خوّفهم الله بالزجر والإنكار لتكفهم عما هم عليه كما هو شأن الناصح ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِى ﴾ شأن ﴿ أَنفُسِهِمْ ﴾ أو خالياً بهم فإن النصح فى السر أنجع ﴿ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ مطابقاً للمقصود بالتأثير فيهم أو مؤثراً فى أنفسهم يستشعرون منه الخوف ويغتمون به كأن يقول حالكم فى النفاق معلوم وإن بدا منكم شىء آخر من المخالفة لم يبق إلا استئصالكم والجار على الأول متعلق بقل ، والبليغ من البلاغة . وعلى الثانى فالبليغ من البلوغ بمعنى الوصول والتأثير لكن فيه ضعف لأن معمول الصفة لا يتقدم الموصوف ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ فيما يأمر به ويحكم ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بسبب أمره المبعوث إليهم أن يطيعوه بيان على أن الذى لم يرض بحكمه كافر وإن أظهر الإسلام مستوجب للقتل لأن انحصار الفائدة فى طاعته يدل أن من أباه قد نازع الله فى أحكامه فكان قتله عين الصواب ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالنفاق والتحاكم إلى الطاغوت ﴿ جَاءُوكَ ﴾ تائبين ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ ﴾ بالتوبة والإخلاص ﴿ وَاسْتَغْفَرَ

لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾ بالشفاعة ، فيه التفات عن الخطاب تعظيما لشأنه بالرسالة التى يستحق بها الشفاعة فى كبائر الذنوب ﴿ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً ﴾ قابلا توبتهم ﴿ رَحِيماً ﴾ بهم ووجد بمعنى علم وإن فسر بصادف فتواباً حال ، ورحيما بدل منه أو حال من الضمير فيه وعن العتبي قال : كنت جالساً عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لجاء أعرابى فقال السلام عليك يارسول الله سمعت الله يقول ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ... الآية وقد جئتك مستغفراً من ذنوبى مستشفعاً بك إلى ربى فانصرف فغلبتنى عيناى فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال لى : يا عتبى ، الحق بالأعرابى فبشره أن الله قد غفر له . اه . من حلية النووى ﴿ فَلَا ﴾ زائدة أو ليس الأمر كما يقولون ﴿ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لايحسن إيمانهم ﴿ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ ﴾ اختلف واختلط ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ ومنه الشجر لتداخل أغصانه وفى لفظ التحكيم إشارة إلى أنه يجب أن يكونوا هم الطالبين منك الحكم الساعين إليك ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً ﴾ ضيقاً أو شكاً ﴿ مِمَّا قَضَيْتَ ﴾ به ﴿ وَيُسَلِّمُوا ﴾ ينقادوا لحكمك ﴿ تَسْلِيماً ﴾ انقياداً ظاهراً وباطناً من غير معارضة . روى البخارى ومسلم أنها نزلت فى الزبير ورجل من الأنصار اختصما فى شراج من الحرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك » فقال الأنصارى : بأن كان ابن عمتك ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « اسق يا زبير حتى يرجع الماء إلى الجدر . . . » الحديث — الجدر الحائط كالجدار جمعه جدر وجدران — كان فى الأولى أمره بما فيه رفق لصاحبه فلما أحفظه استوفى للزبير حقه قال ابن العربى فى الأحكام : كل من اتهم النبى صلى الله عليه وسلم فى الحكم فهو كافر وبعد النبى صلى الله عليه وسلم كل من لم يرض بحكم الحاكم العدل بعده فهو عاص . اه . وقال ابن عطاء الله فى التنوير : فى الآية دلالة على أن الإيمان الحقيقى لا يحصل إلا لمن حكّم الله ورسوله على نفسه قولا وفعلا ، أخذاً وتركا ، حبًا وبغضاً . اه . ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ على الذين أمروا بطاعة الرسول فى حكمه من المنافقين أو جميع المسلمين ﴿ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فى الجهاد أو فى التوبة كما كتبنا على بنى إسرائيل ، وأن مصدرية أو مفسرة لأن كتبنا فى معنى أمرنا ﴿ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ بالهجرة كأمر بنى إسرائيل بالخروج من مصر ، بضم نون أن والواو للجمهور ولعاصم وحمزة كسرهما ، ولأبى عمرو كسر النون ﴿ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ بالرفع على البدل للجمهور والنصب على الاستثناء لابن عامر ﴿ مِنْهُمْ ﴾ كأبى بكر وثابت بن قيس وابن مسعود وعمار بن ياسر قالوا لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذى عافانا فبلغه عليه السلام فقال « إن من أمتى لرجالا الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى » ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾ من طاعة الرسول والرضا بحكمه ﴿ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ﴾ فى الدارين ، فيه إشارة إلى أن أوامره من قبيل الوعظ الذى كالدواء المز من الطبيب ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ﴾ تحقيقاً لإيمانهم أو لثواب أعمالهم ونصبه على التمييز ﴿ وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً ﴾ هو الجنة عطف على الجزاء وزيادة إذاً للدلالة على أن

هذا الجزاء مرتب على السابق ، ويحتمل القسم أى إذاً والله لآتيناهم ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ لا اعوجاج فيه ، أخره عن إعطاء الأجر لأنه المقصود منه أو صراطاً يصلون به جناب القدس فيفتح عليهم أبواب الغيب ، قال عليه السلام « من عمل بما علم ورثه الله عِلم ما لم يعلم » ثم رغب فى الطاعة بالوعد عليها مرافقة أكرم الخلائق فقال ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ فيما أمرا به ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ ﴾ أفاضل أصحاب الانبياء لمبالغتهم فى الصدق والتصديق : صدقوا الرسل بألسنتهم وقلوبهم وصدق ظاهرهم بالمعاملة وباطنهم بالمراقبة ﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ القتلى فى سبيل الله ﴿ وَالصَّالِحِينَ ﴾ غير من ذكر ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً ﴾ رفقاء فى الجنة والرفيق كالصديق يطلق على الفرد والجمع والظاهر أنه جمع تمييز أو حال بأن يرافقهم ويستمتع برؤيتهم وزيارتهم والحضور معهم وإن كان مقرهم فى درجات عالية بالنسبة إلى غيرهم ، لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضاً وليس المراد كون الكل فى درجة واحدة ، روى أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شكوا إليه شدة حبهم إياه وخوفهم من فراقه فى الجنة لأنه يرفع إلى أعلى المنازل فنزلت ، وجاء فى الصحيح أن المرء مع من أحب ﴿ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ ﴾ أى كونهم مع من ذكر ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ تفضل به عليهم لأنهم نالوه بطاعتهم وفيه حث على الدخول فى زمرتهم ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيماً ﴾ بمن هو أهل لذلك وبثواب الآخرة فثقوا بما أخبركم به « ولا ينبئك مثل خبير » ولما ذكر فضل الشهداء أتبعه بأمر الجهاد المسبب للشهادة منبهاً على أن المقصود به إعلاء كلمة الله بإهلاك أعدائه بأسبابه وآلاته بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ من عدوكم أى احترزوا منه وتيقظوا له بالحزم واستعداد الآلات ﴿ فَانْفِرُوا ﴾ آخرجوا إلى الجهاد حال كونكم ﴿ ثُبَاتٍ ﴾ جماعات متفرقة كالسرايا سرية بعد سرية جمع ثبة من ثبيت فلانا تثبية إذا ذكرت متفرق محاسنه ﴿ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً ﴾ مجتمعين ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ﴾ وهو المنافق يتأخرن عن القتال جعله منهم من حيث الظاهر واللام الأولى للابتداء دخلت على اسم إن للفصل بالخبر والثانية جواب قسم محذوف والقسم بجوابه صلة من والراجع إليه ما استكن فى ليبطئن ، والتقدير وإن منكم لمن أقسم بالله ليبطئن ، من بطأ بمعنى تبطأ والتشديد للتكثير أو للتعدية أى يبطئ غيره ويدعوه إلى التخلف عن المغازى كما هو حال المنافقين ﴿ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ كقتل وهزيمة ﴿ قَالَ ﴾ المبطئ ﴿ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً ﴾ فيصيبنى ما أصابهم : يعد ذلك من نعم الله عليه ﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ كفتح وغنيمة ﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾ نادماً ، أكده تنبيهاً على فرط تحسرهم ﴿ كَأَنْ ﴾ مخففة واسمها محذوف أى كأنه ﴿ لَمْ يَكُنْ ﴾ بالياء للجمهور والتاء لابن كثير وحفص ﴿ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾ معرفة وصداقة وهذا راجع إلى قوله « قد أنعم الله علىّ » اعترض به بين القول ومقوله وهو ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ ﴾ فى هذه الغزوة التى غنموا فيها ﴿ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ آخذ حظاً وافراً من الغنيمة ، وفى قوله « كأن لم يكن » تهكم ،

لأن تشبيه حالهم بحال عديم المودة يشعر بثبوت المودة بينهم ومعلوم أن لا مودة تنبيها لضعفة المسلمين الذين يظنون المودة ، وفى قوله « فأفوز فوزاً عظيما » تنبيه على أن دخولهم فى المسلمين إنما هو لطلب المال وأنهم يعظمونه ، إذ غاية نظرهم وأملهم حطام الدنيا ، وفيه تنفير المؤمنين عن تعظيم الدنيا ، إذ هو حال الكفار ، ثم حث المؤمنين على الجهاد وترك المبالاة بالمنافقين المثبطين بقوله ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء دينه ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ يبيعون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ الفاء جواب شرط مقدر ، والمعنى إن تبطأ هؤلاء المؤثرون للحياة الدنيا فليقاتل لإعلاء كلمة الله الذين باعوا الحياة الدنيا واشتروا بها الآخرة ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كائنا من كان ﴿فَيُقْتَلْ﴾ يستشهد ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ يظفر بعدوه ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثواباً جزيلا ، وفيه ترغيب فى الجهاد وتكذيب قول المنافق : قد أنعم الله علىّ ، وقدم القتل على الغلبة تشجيعاً للمقاتل لنفور النفوس منه ، وإعلاماً بأن الغلبة لا تكون غالباً إلا ان وطأ نفسه على الشهادة ، سوّى الله الشهيد والغالب فى ثبوت الأجر لهما وإن كان الاول أعظم أجراً لحديث « أيما سرية أخفقت كمل لها الأجر ، وأيما سرية غنمت ذهب ثلثا أجرها » ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر ، أى أى صارف لكم حال كونكم ﴿لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استفهام توبيخ ، أى لا مانع لكم من القتال وقد ظهر دواعيه ﴿وَ﴾ فى تخليص ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ فى أيدى الكفار بالأسر والأذى ومنع الهجرة من عطف الأخص على الأعم ، لأن سبيل الله يعم جميع البر وتخليص ضعفاء المسلمين أعظمه وأخصه ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ بيان للمستضعفين على وجه الترقى من الاقوى لأنه إذا كان تخليص المستضعف من الرجال واجباً فما بعده أولى ، وذكر النساء والولدان للدلالة على فرط ظلمهم حيث عذبوا الأطفال الذين هم محل الرأفة والترحم وقيل الولدان العبيد والإماء والاول أوجه لما روى البخارى عن ابن عباس قال كنت أنا وأمى - اسمها لبابة - منهم ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ داعين يا ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ مكة ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ وصفت بوصف أهلها ، والظالم صفة لقرية ذكر لتذكير ما أسند إليه ، وأهلها رفع على الفاعلية وأل موصولة أى التى ظالم أهلها والظالم جار على القرية لفظاً وهو لما بعده معنى ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يلى أمورنا ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ يمنعنا عنهم ، وقد استجاب الله دعاءهم فيسر لبعضهم الخروج إلى المدينة وجعل لمن بقى منهم خير نصير وولىّ : بفتح مكة على نبيه ، فنصرهم وولى عليهم عتاب ابن أسيد وكان ابن ثمانية عشرة سنة فأنصف مظلومهم من ظالمهم ، قال ابن العربى فى الأحكام : أوجب الله فى هذه الآية القتال لإنقاذ الأسرى من يد العدوّ مع ما فى القتال من تلف النفس فبذل المال فى فدائهم أوجب لاسيما وقد قال عليه السلام : « فكوا العانى » وقال مالك : على الناس أن يفكوا الأسارى بجميع أموالهم . اه . وقال ابن جزىّ فى القوانين : يجب على الأسير الغنى فداء نفسه وعلى الإمام فداء الفقراء من بيت المال ، وإن لم يف فبجميع أموال المسلمين ، ومن فدى الأسير بأمره رجع عليه بالفدية

اتفاقاً، وإن فداه بغير علمه وأمره رجع أيضاً عليه، خلافاً للشافعى، ولا يجوز للسلم الأسير أن يجعل حرًّا مسلما رهناً فى موضعه، ويجوز للكافر أن يرهن كافراً من أقاربه أو من غيرهم وإن شرط أن يكون هذا المرهون عبداً إن لم يأت بالمال فله شرطه، وإن رهن ولده أو غيره ولم يأت بالفداء فإن كان لعذر من موته أو حبسه أو غير ذلك لم يسترق الرهن، وإن كان لغير عذر استرق. اه. ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ لإعلاء كلمته وابتغاء مرضاته : ترغيب للمؤمنين أن يكون قتالهم لإزالة أنجاس المشركين وإماطة الأذى عن سبيل الله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ فى طاعة الشيطان الموصل إلى النار، ولما ذكر مقصد الفريقين أمر أولياءه بقتالهم بقوله ﴿فَقَٰتِلُوا أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أنصار دينه تغلبوهم لقوتكم بالله تعالى ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ بالمؤمنين أى سعيه بالفساد على جهة الاحتيال ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ بالإضافة إلى كيد الله، إذ غاية كيد الشيطان الوسوسة والكذب، فلا تخافوا أولياءه، وهذا تشجيع للمؤمنين ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ عن قتال الكفار لما طلبوه بمكة لأذى الكفار لهم وهم جماعة من الصحابة منهم عبد الرحمن بن عوف والمقداد وقدامة بن مظعون الجمحى وسعد ابن أبى وقاص ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ مما أمرتم به ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ ﴾ الكفار أى عذابهم فى القتل ﴿ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ أى كخشيتهم عذاب الله. وإذا للفاجأة جواب لما وكخشية الله من إضافة المصدر إلى المفعول فى موضع المصدر أو الحال من فاعل «يخشون»، أى مشبهين بأهل خشية الله ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ من خشيتهم له، عطف على كخشية إن جعل حالا لا مصدراً، لأن أفعل التفضيل إذا نصب ما بعده لم يكن من جنسه بل هو معطوف على اسم الجلالة، أى : أو كخشية أشد خشية منه على الفرض اللهم إلا أن يجعل الخشية ذات خشية كقولهم جد جده، وقد مرّ فى البقرة مثله فى أشد ذكراً، والله أعلم ﴿ وَقَالُوا ﴾ جزعا من الموت ﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ فنموت على الفراش زيادة توبيخ حيث لم يكتفوا بما فى ضميرهم من الخوف حتى أظهروه ويحتمل أنهم قالوه فى أنفسهم، لحكاه الله عنهم ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ سريع الفناء ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ ﴾ الجنة ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ الله بترك مخالفته فلم تطلبون الإقامة على هذا القليل السريع الزوال ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالتاء للجمهور والياء لابن كثير وحمزة والكسائى لا تنقصون من أعمالكم وآجالكم ﴿فَتِيلًا﴾ أدنى شىء قدر قشرة النواة لجاهدوا ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا ﴾من الأمكنة ﴿يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ فلا خلاص منه ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ ﴾ حصون أو قصور ﴿ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ حصينة مرتفعة. وعن السدى فى بروج السماء، والبروج فى الأصل : بيوت على أطراف القصر من تبرجت المرأة : ظهرت، فإذا كان الموت أمراً محتوماً وقدراً مقدوراً فلا وجه لطلب التأخير عن القتال، إذ الإقدام فيه لا يُدنيه والإحجام لا يقصيه ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ ﴾ أى المبطئين، وما بينهما استطراد، أو اليهود بقرائن الألفاظ فى معنى أقوالهم ﴿ حَسَنَةٌ ﴾

خصب وغنيمه ﴿ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ لا ببركة اتباعك والإيمان بك ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ جدب وبلاء أو هزيمة كما حصل لليهود عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة من الجدب ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ يا محمد ، أى بسببك ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ كُلٌّ ﴾ من الحسنة والسيئة ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ من قِبله لا خالق سواه يبسط ويقبض بحسب إرادته ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ يوعظون به وهو القرآن ، ولو فهموه لعلموا أن الكلّ من الله ، وهو استفهام تعجب من فرط جهلهم ، ونفى مقاربة الفعل أشدّ من نفيه ﴿مَا أَصَابَكَ ﴾ أيها الإنسان ﴿ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ خير ﴿ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ أتتك فضلا منه ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ ﴾ بلية ﴿ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ حيث ارتكبت ما يوجبها من الذنوب ، وهذا لا ينافى قوله « كل من عند الله » فإن الكل منه إيجاداً وإيصالا إلا أن الحسنة امتنان والسيئة مجازاة وما يعفو الله أكثر ، وقيل الخطاب للنبيّ والمراد غيره ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ ﴾ يا محمد ﴿ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ حال مؤكدة ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ على رسالتك بخلق المعجزات ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ لأن الرسول مبلغ والآمر هو الله ﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ ﴾ عن طاعته فلا يهمنك ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ حافظاً لأعمالهم بل نذيراً وإلينا أمرهم فنجازيهم ، وحفيظا حال من الكاف ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أى المنافقون إذا جاءوك أمرنا ﴿ طَاعَةٌ ﴾ لك والأصل النصب ورفعها للدلالة على الثبوت ﴿ فَإِذَا بَرَزُوا ﴾ خرجوا ﴿ مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ بإدغام التاء فى الطاء لأبى عمرو وحمزة فقط دبرت ليلا وأضمرت رأياً ﴿ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ لك فى حضورك من الطاعة أى عصيانك ﴿ وَاللَّهُ ﴾ علام الغيوب ﴿ يَكْتُبُ ﴾ يأمر بكتب ﴿ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ فى صحائفهم ليجازوا عليه ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ بالصفح ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ثق به فإنه كافيك ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ مفوضاً إليه ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ وما فيه من المعانى البديعة من المواعظ والأوامر والنواهى مع الفصاحة وأخبار الغيب فى أحوال الأولين والمنافقين وما يأتى وعدم التناقض ، أفلا يتدبرون هذا فيستدلون به على رسالتك ، وأصل التدبر النظر فى دبر الشىء وعواقبه والفكر النظر فى مقدماته ثم استعمل فى كل تأمل ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ لفظاً بأن يوجد فيه موضع طعن يدركه أرباب البلاغة فيدركون فيه الغث والسمين والركيك والفصيح ، أومعنى بأن يوجد فيه نقل مخالف لما فى زبر الأولين مع احتوائه على أحوال المبدإ والمعاد وأحكام الشرائع أصولا وفروعا ، أو مخالف للعقل فى أحكامه لنقصان القوة البشرية ، وأما اختلاف الأحكام بالنسخ فلاختلاف الأحوال والمصالح ، وإنما امتنع التعارض فى القرآن لأنه كلام المحيط بكل شىء علماً . قال ابن عطية فإن عرضت لأحد شبهة وظن اختلافاً فيه فليتهم نظاره وليسأل من هو أعلم منه ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ ﴾ عن سرايا النبى مما حصل لهم ﴿ مِنَ الْأَمْنِ ﴾ بالنصر ﴿ أَوِ الْخَوْفِ ﴾ بالهزيمة ﴿أَذَاعُوا بِهِ ﴾ أفشوه ، نزل فى جماعة من المنافقين وضعفاء المؤمنين كانوا يفعلون ذلك فيضعف قلوب المؤمنين ويتأذى به النبى لأن المنافقين

يكشفون إلى ما يسيئه فإذا جاءهم خبر فتح ضعفوه وحقروا شأنه وأذاعوا ذلك التحقير ، وإذا سمعوا خبر خوف أو مصيبة عظموه وأذاعوا ذلك ، والباء زائدة ، أو ضمن أذاع معنى تحدث ، والآية عطف على ويقولون طاعة ، وقوله « أفلا يتدبرون . . . الآية » اعتراض لتحذير إضمار ما يخالف الظاهر والتنبيه أن فى تدبره ما يوجب طاعة المنزل عليه ، وفى الصحيح : أن عمر بن الخطاب جاء إلى المسجد فوجد قوماً يقولون : طلق رسول الله نساءه . قال : فقلت يا رسول الله أطلقت نساءك ؟ فقال : لا ، قال فقمت على باب المسجد فقلت : ألا إن رسول الله لم يطلق نساءه ، فأنزل الله « وإذا جاءهم أمر . . الآية » ، قال : وأنا الذى أستنبطه . اهـ . قال القسطلانى : ظاهر أقوال المفسرين أن سبب نزول الآية الإخبار عن السرايا والبعوث بالأمن والخوف ، وهو خلاف ما فى حديث مسلم . اهـ . ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أى الخبر ﴿إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ من أكابر الصحابة ، أى لو سكتوا عنه حتى يخبروا به ﴿لَعَلِمَهُ﴾ على أى وجه يذكره أو هل هو مما يذاع أو لا ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ يطلبون علمه وهم المذيعون ﴿مِنْهُمْ﴾ من الرسول وأولى الأمر وهم الذين يستنبطونه بأفكارهم الثاقبة ، وأصل الاستنباط إخراج النبط وهو الماء يخرج من البئر أول ما يحفر ، فمن على الأول ابتدائية ، وعلى الثانى بيانية أو تجريدية أو تبعيضية ، وفى الآية إنكار على من يتبادر إلى أخبار الأمور قبل تحققها وقد لا تصح ، فى الحديث « كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع » رواه مسلم ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ لكم بالقرآن ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ فيما يأمركم به من الفواحش ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منكم ونقمه الله بعلم من لدنه قبل القرآن والإسلام كزيد بن عمرو بن نفيل موحد الجاهلية ، أو المعنى : لاتبعتم الشيطان بالإصغاء إلى المثبطين فى ترك القتال ، إلا قليلا : هو الرسول وأولو الأمر . قال فى غاية الأمانى : وهذا أنسب بالمقام . وقيل : الاستثناء من فاعل « أذاعوا » ، أى أذاعوا به إلا قليلا منهم ، وما بينهما اعتراض . روى عن ابن عباس ﴿فَقَاتِلْ﴾ يا محمد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء دينه ونصر المستضعفين ، ثبطوا أو تركوا ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أى إلا فعل نفسك فلا يضرك مخالفتهم وتقاعدهم فتقدم إلى الجهاد وإن لم يساعدك أحد فإن الله ناصرك لا الجنود . والآية نزلت فى قصة بدر الصغرى فى لقاء أبى سفيان المتقدمة فى آل عمران ، فقال عليه السلام : والذى نفسى بيده لأخرجن ولو وحدى . قال العلماء : هذا الخطاب للنبى ولكل واحد من الأمة بالاقتداء فى خاصة نفسه . وقد خرج عليه السلام للقاء أبى سفيان وما معه إلا سبعون . وقد اقتدى به أبو بكر الصديق فى قتال أهل الردة فقال : لأخرجن إليهم ولو وحدى ولو خالفتنى يمينى لجاهدتهم بشمالى . قال عبدالرحمن الثعالبى : ولهذا ينبغى لكل مؤمن أن يعزم على الجهاد ولو وحده . اهـ . وقرئ « لا تُكلفْ » بالجزم ، و « لا نكلف » بالنون وكسر اللام مبنيًا للفاعل : أى لا نكلف أحداً إلا نفسه ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ رغبهم فى القتال بذكر الثواب والعقاب ولا تطلب تعنيفهم ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ﴾ حرب

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بإلقاء الرعب فى قلوبهم كما فعل بأبى سفيان ﴿ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا ﴾ من كل ذى بأس ﴿ وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴾ تعذيباً منهم وهذا كاللازم للأول وفيه تهديد لمن لم يتبعه ، ولما كان الجهاد من شفاعة المسلمين رغب فيه بقوله ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً ﴾ موافقة للشرع بأن راعى بها حق مسلم فى دفع الضر وجلب النفع فى حوائجه ابتغاء وجه الله ، ويدخل فيه الإصلاح بين المسلمين وشفعهم فى جهاد عدوهم والدعاء لهم فى ظهر الغيب ﴿ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ ﴾ من الأجر ﴿ مِنْهَا ﴾ بسببها ﴿ وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً ﴾ مخالفة للشرع كأن يريد بها محرماً كقبول الهدية عليها ، ويدخل فيها النميمة ونقل الحديث لإيقاع العداوة بين المسلمين وشفع الكفار فى قتال المؤمنين ﴿ يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ ﴾ نصيب من الوزر ﴿ مِنْهَا ﴾ بسببها أو من بعضها . والشفاعة من الشفع ، لأن الشافع يضم نفسه إلى ذى الحاجة ، والكفل فى الأصل : المثل ، من الكفالة وهو القيام بمثل ما على الغريم ، أو الكفل : الضعف من الشىء ، واشتقاقه من الكفل لمشقة الركوب عليه لارتفاعه ، ثم استعمل فى الحمل على كل شدة ، انظر الكواشى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾ مقتدراً فيجازى كل أحد بما عمل ، من أقات على الشىء : اقتدر . قال الزبير بن عبد المطلب :

وَذِى ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ ۞ وَكُنْتُ عَلَى إِسَاءَتِهِ مُقِيتَا

أو معناه حفيظاً من القوت لأنه يحفظ النفس . ثم أردف الشفاعة التى هى من حقوق المسلمين ما هو أفضل منها وهو السلام فقال ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ ﴾ كأن قيل لكم : السلام عليكم ﴿ فَحَيُّوا ﴾ المحيِّى ﴿ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ﴾ بأن تقولوا له : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ﴿ أَوْ رُدُّوهَا ﴾ أى مثلها بأن تقولوا كما قال ، أى الواجب أحدهما والأول أفضل . والتحية فى الأصل مصدر : حياك الله ، أى جعل لك حياة طويلة وهو تحية الجاهلية فلما جاء الإسلام أبدل بالسلام ، وهو المراد فى الآية لأنه أتم وأحسن ، لأن طول الحياة بلا سلامة عناء ، وإذا كان فى حياته سليما كان أتم . والابتداء بالسلام سنة على الكفاية متأكدة ، لأنه من شعار الإسلام فيتأكد إظهاره . وأما الرد على المسلِّم فقد أجمع العلماء على وجوبه : لأن تركه إهانة للمسلم ، وإذا رد واحد من الجماعة سقط الفرض عن الباقين وإن تركوه أثموا كلهم ، ويسلم الراكب على الماشى ، والماشى على القاعد ، والقليل على الكثير ، والصغير على الكبير ، كما فى صحيح البخارى ومسلم . وإذا تلاقى رجلان فالمبتدئ بالسلام هو الأفضل ، كما فى الترمذى وأبى داود . وعن أبى هريرة قال عليه السلام : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » اه أخرجه مسلم . ويبدأ بالسلام قبل الكلام وكل حاجة . وكان عليه السلام إذا مر على جماعة من الصبيان يسلم عليهم كما فى الصحيحين . وقوله « بأحسن منها » هو أن يزيد عليه « ورحمة الله » فإن قاله المسلم زاد « وبركاته » وهى النهاية ، فإن قالها المسلم رد عليه مثله كما فى الصحيح ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ محاسباً أو مقتدراً أو كافياً أو عالماً فيجازى عليه ، ومنه رد السلام ، وخصت السنة الكافر

والمبتدع والفاسق والمسلّم على قاضي الحاجة ومن فى الحمّام والآكل ، فلا يجب عليهم الرد ، بل يكره فى غير الأخير ، ويقال للكافر : عليك . وحكم النساء مع النساء فى السلام كالرجال مع الرجال ، ولا يسلم الرجل على الشابة الأجنبية بخلاف المتجالة ، والمصافحة جائزة أو مستحبة ، ويكره تقبيل اليد عند مالك والله أعلم ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ مبتدأ وخبر ، أو « الله » مبتدأ والخبر ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ وما بينهما اعتراض لتأكيد معنى الألوهية ، واللام جواب قسم محذوف تعليل لما قبله . وعدّى بإلى لتضمين معنى الحشر ، أى والله ليحشرنكم من قبوركم ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أى إلى محل قيام يوم القيامة ، أو إلى بمعنى فى : أى قيام الناس من القبور أو للحساب : مصدر قام قياماً وقيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى فى يوم القيامة حال منه ، أو فى الجمع صفة المصدر ﴿ وَمَنْ ﴾ أى لا أحد ﴿ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ قولا ، فلا يتطرق الكذب إلى خبره ﴿فَمَا لَكُمْ ﴾ مبتدأ وخبر ، أىّ أىّ شىء ظاهر لكم من أمارات الإيمان ﴿فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ يجوز تعلقه بما تعلق به الخبر ، أو بمحذوف هو حال من قوله ﴿ فِئَتَيْنِ ﴾ فريقين ، نصب على الحال كقولك : مالك قائماً أى فما لكم جماعتين تفترقون فى المنافقين . ومعنى الافتراق مستفاد من « فئتين » واختلف المفسرون فى هؤلاء المنافقين . وعن ابن عباس : هم قوم كانوا بمكة أظهروا الإيمان لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى كتب بعثوا بها إلى المدينة ليتمكن لهم التجارة ، فخرجوا إلى الشام فأعطاهم كفار قريش بضائع يقولون لهم أنتم لا تخافون أصحاب محمد لأنكم تخدعونهم بإظهار الإيمان ، فاتصل خبرهم بالمدينة فاختلف المسلمون فيهم ، فقالت فرقة : نخرج إليهم فإنهم منافقون ، وقالت فرقة : لا سبيل إليهم ، وقيل : فى قوم جاءوا إلى المدينة لأمر وأسلموا ثم استأذنوا رسول الله فى الخروج إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها فخرجوا وأقاموا بمكة فاختلف المسلمون فيهم . وقيل : فى ناس منهم قدموا وأسلموا ثم ندموا واستأذنوه عليه السلام فى الخروج إلى البدو لاجتواء المدينة فخرجوا كهيئة المتنزهين ، فلما بعدوا عن المدينة كتبوا إلى رسول الله : إنا على الذى فارقناك عليه ولكن اشتقنا إلى أرضنا فلحقوا بالكفار ثم خرجوا للتجارة فاختلف المسلمون فيهم ، ويؤيد هذه الأقوال ما يأتى من قوله « حتى يهاجروا » وقيل : فى ناس رجعوا مع ابن أبىّ عن رسول الله يوم أحد فاختلف الناس فيهم فقال فريق اقتلهم ، وقال فريق : لا ، وهذا مافى البخارى ومسلم ، وعلى هذا معنى « حتى يهاجروا » أى يرجعوا عما نهى الله عنه ، والله أعلم ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم ﴾ ردّهم إلى الكفر وبددهم ﴿ بِمَا كَسَبُوٓا ﴾ من أسبابه ، وأصل الركس : ردّ الشىء مقلوباً والجملة حالية تؤكد معنى الإنكار ، ولذا أتبعه بقوله ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ أى تعدوهم من جملة المهتدين ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ إلى الهدى ﴿ وَدُّوا ﴾ أى تمنى الراجعون إلى الكفر ﴿ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ كفراً ﴿كَمَا كَفَرُوا ﴾ والكاف صفة مصدر محذوف ، و « ما » مصدرية أى كفراً مثل كفرهم ﴿ فَتَكُونُونَ ﴾ أنتم وهم ﴿ سَوَآءً ﴾ فى الكفر فتكونون عطف على تكفرون ، وجملة «ودوا» استئناف لبيان بعد حالهم

عن الاهتداء ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ توالونهم وإن أظهروا الإيمان ﴿ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾ من الكفار ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فتحكوا بإيمانهم بهجرة صحيحة لله ورسوله لا لأغراض الدنيا ، أو حتى يهاجروا : أى يخرجوا من ديارهم إلى الجهاد ، أو يهجروا ما نهى الله عنه ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أعرضوا عن ذلك الإيمان وأقاموا على ما هم عليه ﴿ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ إذ لا فرق بينهم وبين سائر الكفار ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا ﴾ توالونه ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ تنتصرون به ، وفيه دليل على أن الزنديق إذا عثر عليه يقتل ولا تقبل توبته . وفى الآية مبالغات فى النهى عن موالاتهم بتكرار النهى وتنكير المفعول وتكرير « لا » ثم استثنى طائفة من هذا النوع فقال ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ ﴾ وينتهون ﴿ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ عهد بالأمان لهم ولمن وصل إليهم كما عاهد النبي صلى الله عليه وسلم هلال بن عويمر الأسلمى وقت خروجه إلى غزوة الفتح والاستثناء من قوله « فخذوهم واقتلوهم » لا من « لا تتخذوا منهم ولياً » لأن ولاية الكفار حرام بلا استثناء بخلاف ترك القتل لأن النبي عاهده أن لا يعينه ولا يعين عليه ، ومن وصل إليه ولجأ فله الجوار ﴿ أَوْ ﴾ الذين ﴿ جَاءُوكُمْ ﴾ وقد ﴿ حَصِرَتْ ﴾ ضاقت ﴿ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ ﴾ مع قومهم ﴿ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ﴾ معكم ، أى ممسكين عن قتالكم وقتالهم كبنى مدلج ، وهو عطف على الصلة أى إلا من رجع عنكم ووصل إلى المعاهدين ، أو من أتى الرسول وكف عن قتال الفريقين ، ويجوز عطفه على صفة « قوم » والمعنى : أو الذين يصلون إلى قوم حصرت صدورهم فإن المتصل بمن كفّ حكمه حكمه ، والأول أوجه كما فى البيضاوى وغاية الأمانى ، لأن المتصل بالكافّ عن القتال كافّ فلا وجه لإلحاقه به ، بخلاف المتصل بالمعاهد ، ولأن قوله « فإن اعتزلوكم » للكف لا للاتصال ، ولأن هؤلاء هم بنو مدلج سيدهم سراقة بن مالك جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاهده على أن لا يقاتله وأخبره أنه عاهد قريشاً أن لا يقاتلهم وسأله أن يعاهد قومه فإن أسلم قريش أسلموا فعاهدهم على ذلك ، ولأن كراهة قتال الفريقين صلة لحصرت صدورهم ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ بأن يقوّى قلوبهم ﴿ فَلَقَاتَلُوكُمْ ﴾ ولكنه لم يشأه فألقى فى قلوبهم الرعب ، وفيه إشارة إلى تذكير المسلمين المنّة فى كف بأس المعاهدين عنهم وتأكيد للكف عنهم بعد كفهم ، ولذا أمره بقوله ﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ ﴾ بعد ذلك الاعتزال ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ﴾ أى الصلح أى انقادوا ﴿ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ بالقتل وأخذ الأموال ، وهذا الحكم - من أن الكافر إذا اعتزل القتال لا سبيل عليه - كان أول الإسلام ثم نسخ على قول بعض المفسرين بقوله فى براءة «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وقال بعضهم : لا نسخ إذ هذه الآيات فى المعاهدين فكيف يقال بنسخها ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ ﴾ بإظهار الإيمان عندكم ﴿ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ﴾ بوفاقهم على الكفر إذا رجعوا إليهم وهم منافقو الأعراب : أسد وغطفان كانوا إذا أتوا إلى المدينة أظهروا الإيمان ليسهل لهم الميرة ، وإذا رجعوا إلى قومهم نقضوا العهد وبيّنوا

الكفر ، فإذا قيل لأحدهم : سمعنا أنك آمنت ! يقول : آمنت بهذا العقرب أو الخنفساء أو القرد ، وإذا رجعوا إلى المدينة ينكرون ذلك ويقولون : والله إنا على دينكم يريدون الأمن من الفريقين ﴿ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ ﴾ الكفر ﴿ أُرْكِسُوا فِيهَا ﴾ وقعوا أشد وقوع ﴿ فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ ﴾ لم يتركوا قتل وأخذ مال من وجدوا فرصته في البادية من المسلمين ﴿ وَ ﴾ لم ﴿ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ﴾ الصلح ﴿ وَ ﴾ لم ﴿ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ عنكم ﴿ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ في أي مكان تمكنتم منهم أبلغ من « حيث وجدتموهم » لأن الثقافة في الأصل الخفة والحذق ﴿ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ برهاناً بيناً على قتلهم وسبيهم لغدرهم وانكشاف حالهم ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا ﴾ بغير حق أي ما كان له ذلك في شرع الله . أو النفي بمعنى النهي ﴿ إِلَّا خَطَأً ﴾ فإنه على عرضته ، ونصبه على الحال أو المفعول له ، أي لا يقتله في شيء من الأحوال إلا حال الخطأ ، أو لا يقتله لكل علة إلا للخطأ ، أو على أنه صفة مصدر محذوف ، أي إلا قتلا خطأ ، أو الاستثناء منقطع : أي لكن إن قتله خطأ فجزاؤه مايذكر ، والخطأ : عدم القصد للفعل أو للشخص إن قصد رمى غيره كصيد أو شجر ، أو ضربه بما لا يقتل غالباً ، أو بكونه غير مكلف ، والآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي أخي أبي جهل لأمه لما قتل الحارث ابن زيد العامري وهو لا يعلم بإسلامه ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ نسمة ﴿مُؤْمِنَةٍ﴾ عليه ، أو فواجبه تحرير رقبة مؤمنة سليمة من العيوب صغيرة أو كبيرة بأن كانت الصغيرة لمسلمين أو لمسلم ، وكذا من وُلد بين المسلمين حكمه حكم المسلم في العتق والصلاة عليه وجميع الأحكام ، قاله ابن العربي في الأحكام ﴿ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ ﴾ مؤداة ﴿ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ أي ورثة المقتول يقتسمونها كسائر المواريث ، فإن لم يكن له ورثة فلبيت المال ﴿ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ﴾ يتصدقوا عليه بها بأن يعفوا عنها . وبينت السنة أنها مائة من الإبل ، ولا خلاف في هذا : عشرون بنت مخاض ، وكذا بنات لبون وبنو لبون وحقاق وجذاع ، وأنها على عاقلة القاتل إن ثبتت ببينة لا باعتراف ، موزعة عليهم ثلاث على سنين على حسب حالهم في المال فيؤدى كل ما لا يضرّ به بشرط كونه ذكراً بالغاً عاقلا موسراً موافقاً في الدين والدار ويبدأ بالأقرب فالأقرب ، فإن لم يفوا ، فمن بيت المال ، فإن تعذر فعلى الجاني ، فإن عدمت الإبل فقد قال مالك : على أهل الذهب ألف دينار ، وعلى أهل الورق اثنا عشر ألف درهم ، وقال أبو حنيفة : عشرة آلاف درهم . وقال الشافعي : بل قيمة الإبل بحساب الوقت . قال ابن العربي : لا مدخل في الدية لغير الإبل والذهب والفضة من ثياب أو بقر أو طعام خلافاً لأبي يوسف . اهـ . وما ذكره هو مشهور مذهب مالك ، وروى أن عمر جعل على أهل البقر مائتي بقرة ، وعلى أهل الشاء ألفي شاة ، وعلى أهل الحلل مائتي حلة . أخرجه أبو داود ﴿فَإِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ كحربيّ أسلم ولم يتمكن من الهجرة فقتل مسلماً ، أول من جميع ورثته في دار الحرب ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ على قاتله كفارة ، ولا دية تسلم إلى أهله

لحرابتهم كواقعة الحارث بن زيد . وقيل : إن قتل فى بلد المسلمين وقومه حربٌ ففيه الدية لبيت المال والكفارة . ذكره ابن عطية فى تفسيره ﴿وَإِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ عهد ، كأهل الذمة . قال مالك : يعنى وهو مؤمن حملا له على ما قبله . وقال الشافعى : هو الكافر له ولقومه العهد ﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ وهى نصف دية المسلم عند مالك وأحمد ، لحديث أبى داود عنه عليه السلام « دية المعاهد نصف دية الحر » وحديث النسائى « لأهل الذمة نصف عقل المسلمين » وهم اليهود والنصارى . وقال أبو حنيفة : مثل دية المسلم . وقال الشافعى : ثلث دية المسلم إن قتل كتابياً ، وخمس الثلث إن كان مجوسياً ثمانمائة درهم ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ على قاتله ، وإن قتل كافرٌ ذمّىّ مؤمناً خطأ فعليه الدية إجماعا : قال مالك : هو النصف . أنظر الأحكام لابن العربى . وأتى كلٌّ على نصفه ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الرقبة بأن فقدها وما يحصلها به ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ عليه كفارة ولا ينتقل إلى الإطعام إذ لم يذكره الله هنا ﴿تَوْبَةً﴾ نصب على المفعول له ، أى شرع ذلك توبة ، من تاب الله عليه : قبل توبته ، أو على المصدر : أى تاب عليكم توبة ، أو حال بحذف مضاف ، أى فعليه صيام شهرين ذا توبة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ صفتها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوال عباده ﴿حَكِيمًا﴾ فى شرع الأحكام على الوجه المذكور ، لم يوجب القصاص على الجانى خطأ ولم يهمل شأن المقتول رأساً ، وشرع الدية والتحرير رعاية لحق الله وحق عباده ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ لأجل إيمانه ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ فى النار ، وهذا مؤول بأن هذا جزاؤه إن جوزى ، أو بمن يستحله ؛ إذ روى أن الآية نزلت فى مقيس ابن ضبابة حين وجد أخاه مقتولا فى بنى النجار ولم يدر قاتله فألزمهم النبى صلى الله عليه وسلم بالدية فأعطيها مقيس ثم قتل به رجلا مؤمناً وارتد ولحق بالكفار ، واستثناه النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ممن أمّن من أهلها ، فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة ، لقوله « ويغفر ما دون ذلك » جمعاً بين الأدلة ، وعن ابن عباس أنها على ظاهرها وأنها ناسخة لغيرها من آيات المغفرة . وبينت آية البقرة أن قاتل العمد يقتل به وأن عليه الدية إن عُفى عنه ، وسبق قدرها ، ولا كفارة فيه عند مالك وأبى حنيفة ، خلافاً للشافعى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم فى الجهاد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ ولحمزة والكسائى بالمثلثة فى الموضعين : أى بالغوا فى الكشف والاحتياط حتى لا تقعوا فى مخرم كقتل من ترونه فى دار الحرب إذ ربما كان مسلماً ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ اللام للتبليغ و « من » موصولة أو موصوفة ، و « ألقى » بمعنى يلقى ، و « السلم » بلا ألف لنافع وابن عامر وحمزة : الانقياد والطاعة بكلمة الشهادة التى هى مناط حقن الدم ، وبألف للباقين بمعناه ، أو هو التحية : أى من حياكم بتحية الإسلام التى هى أمارة على إسلامه ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ وإنما قلت هذا تقية لنفسك ومالك فتقتلوه . روى البخارى عن ابن عباس : كان رجل فى غنيمة له فلحقه المسلمون فقال السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنمه فنزلت . وفى القسطلانى :

فالرجل هو عامر بن الأضبط والذى قتله محلم بن جثامة . اه . وفى البخارى ومسلم أن سرية أغارت على فدك فرأوا رجلا فى غنمه فشد عليه أسامة بالسيف فقال : لا إله إلا الله ، فقتله ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق عليه فقال «كيف بك إذا جاء يوم القيامة ولا إله إلا الله معه» قال : إنما قاله خوفاً من السيف ، قال : «فهلا شققت عن قلبه» قال أسامة : فلم يزل يكررها حتى تمنيت أن لو أسلمت ذلك اليوم . قال القسطلانى : واسم المقتول : مرداس بن نهيك ، ولا مانع من تعدد الأسباب ﴿ تَبْتَغُونَ ﴾ تطلبون بذلك ﴿ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ متاعها من الغنيمة فتمنعكم من التثبت والبحث عن حال من تقتلونه ﴿ فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ تغنيكم عن قتل مثله لماله ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ ﴾ تعصم دماؤكم وأموالكم بكلمتى الشهادة من غير بحث قلوبكم ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بالثبات فى الإيمان والاشتهار به والاستقامة ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ وافعلوا بالداخل فى الإسلام كما فعل بكم ولا تبادروا بالقتل ظناً بنفاقه ، فإبقاء ألف كافر أهون عند الله من قتل مسلم واحد ، وتكريره تأكيد لتعظيم الأمر وترتيب الحكم على ما ذكر من حالهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ عالما به وبالغرض منه فلا تتهافتوا فى القتل واحتاطوا فيه . وفى لباب التأويل : قال العلماء : إذا رأى الغزاة فى بلد أو قرية أو حىّ من العرب شعار الإسلام يجب عليهم أن يكفوا عنهم ولا يغيروا عليهم لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشاً أو سرية يقول لهم : «إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم مؤذناً فلا تقتلوا أحداً» أخرجه أبو داود والترمذى . اه . ولما كان الأمر بالتثبت يوقع فى وهم التقاعد عن الجهاد حث الله على المبادرة إليه بقوله ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ ﴾ عن الجهاد حال كونهم ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ ﴾ بالنصب على الاستثناء أو الحال لنافع وابن عامر والكسائى ، وبالرفع للباقين صفة للقاعدين إذلم يقصد بهم معينون أو بدلٌ منه وقرئ بالجر على أنه صفة للمؤمنين أو بدل منه ﴿ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ ذوى العاهات كالعمى والمرض والعرج ، وغيرهم هم الأصحاء القاعدون اكتفاء بغيرهم لأن الجهاد فرض كفاية ، لا يستوون هم ﴿ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ أى لا مساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد من غير علة . وفائدة ذكر عدم المساواة وإن كان معلوماً لتذكير ما بينهما من التفاوت ليرغب القاعدون فى الجهاد لنيل المراتب ، وأما أولو الضرر أى العذر فإنهم يساوون المجاهدين فى أصل الثواب لا فى المضاعفة ، لأنها تتعلق بالفعل ، ثم أوضح كيفية نفى الاستواء بقوله ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ نصب على نزع الخافض ، أى بدرجة أو على المصدر ؛ لأنه تضمن معنى التفضيل ووقع موضع المرة منه أو على الحال ، أى ذوى درجة ﴿ وَكُلًّا ﴾ من الفريقين مفعول أول لـ ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أى المثوبة أو المنزلة الحسنة مفعوله الثانى وهى الجنة ، ثم كرر التفضيل للحث على الجهاد بقوله ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ نصب على المصدر لتضمن «فضل» معنى أجر ﴿ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ ﴾ نصب على البدل من «أجرا» أو على المصدر كقولك : ضربته أسواطاً كأنه قيل : فضلهم تفضيلات

﴿ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ﴾ عطف على درجات ، أو منصوبان بفعلهما المقدر ، وإفراد الدرجة أولا وجمعه ثانياً إشارة إلى أن التنكير للتعظيم فهي فى المعنى درجات ، أو الأولى درجتهم عند الله ، والثانية مراتبهم فى الجنة أو الدرجة فى الدنيا من الغنيمة والذكر الجميل ، والدرجات فى الآخرة ، ولذلك أردفها بالمغفرة والرحمة ، أو الدرجة الجهاد الأصغر ، والدرجات الجهاد الأكبر جهاد النفس على ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم فى انصرافه من تبوك قال : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » قاله فى غاية الأمانى . وفى لباب التأويل والتكملة : تفضيلهم درجة على القاعدين لضرر ، ودرجات على القاعدين لغير ضرر . لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النية وأولو الضرر لهم نية فقط فنزلوا عن المجاهدين درجة . اه . وقال فى فتوح الغيب : والذى تقتضيه البلاغة أن المراد بالقاعدين هم غير أولى الضرر فى الموضعين معاً ، وإنما كرر « فضل الله المجاهدين » ليناط به من الزيادة ما لم ينط به أولا ، ويطابقه أن « غير أولى الضرر » نزل لما قال ابن أم مكتوم حين سمع « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » لو أستطيع الجهاد لجاهدت ، كما فى البخارى . ويلائم حديث أنس مرفوعاً « لقد خلفتم فى المدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم » قاله حين رجع من غزوة تبوك إلى المدينة ، والحديثان يؤذنان بالمساواة بين المجاهدين وأولى الضرر وعليه دلالة مفهوم الصفة ، والاستثناء فى « غير أولى الضرر » . اه ملخصاً .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ لأوليائه ما فرط منهم ﴿ رَحِيمًا ﴾ بهم بما وعد لهم . ونزل فيمن أسلم بمكة ولم يهاجر حين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم وخرج مع المشركين إلى بدر فقتل معهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ يحتمل الماضى والمضارع ، قال فى فتوح الغيب : وإذا حمل على الاستقبال يكون من باب حكاية الحال الماضية ، والملائكة : ملك الموت وأعوانه ﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ بترك الهجرة والخروج مع المشركين وتكثير سوادهم حتى قتلوا معهم يبدر منهم عمرو بن أمية والعاصى بن منبه والحارث بن زمعة وقيس بن الفاكه والوليد بن عتبة ، لأن الله لم يقبل الإسلام من أحد بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يهاجر إليه ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة . قاله فى لباب التأويل ﴿ قَالُوا ﴾ أى الملائكة لهم ﴿ فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ من أمر الدين فى فريق المسلمين أو المشركين ، والسؤال للتوبيخ ، يعنى لم تركتم الهجرة والجهاد والنصرة ؟ ﴿ قَالُوا ﴾ معتذرين ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ ﴾ عاجزين عن إقامة الدين كالجهاد ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أرض مكة ﴿ قَالُوا ﴾ لهم تكذيباً ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ من أرض الكفر إلى بلد آخر كما فعل غيركم تكذيباً لهم فى قولهم « كنا مستضعفين » كما دل عليه قوله ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ هى . وفى الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة دينه . ذكره البيضاوى . وفيها ذم من كثر سواد المشركين فى جيوشهم وإن لم يرد بقلبه موافقتهم ، وكذا كل جيش ليس لإعلاء الدين ، نبه عليه القسطلانى . قال ابن عطية : والذى يجرى مع الأصول أن من مات من هؤلاء مرتدا فهو كافر

ومأواه جهنم على جهة الخلود ، ومن مات منهم مؤمناً وأكره على الخروج أو مات بمكة فإنما هو عاص بترك الهجرة ومأواه جهنم على جهة العصيان دون الخلود . اهـ ثم استثنى سبحانه من كان استضعافه حقيقة فقال ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ استثناء منقطع لعدم دخولهم فى الموصول وضميره والإشارة ، قاله البيضاوى وغيره ، زاد القسطلانى : لأن المتوفين إما كفار أو عصاة بالتخلف وهم قادرون على الهجرة فلم يندرج فيهم المستضعفون فكان منقطعاً ﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾ الزمنى ومن إليهم ﴿وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ والظرف فى محل نصب حالا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ على الهجرة بعدم القوة والزاد ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ إلى أرض الهجرة بأنفسهم ولا بدليل ، وجملة « لا يستطيعون » صفة للمستضعفين إذ لا تعيين فيهم ، فأل فيهم ليس للتعريف ، أو حال عنهم ، أو عن الضمير المستكن فيهم ، واستطاعة الحيلة وجدان أسباب الهجرة وما تتوقف عليه ، وإنما أدخل الولدان فى حكم الرجال والنساء مع أنهم لا يستحقون الوعيد وإن استطاعوا لعدم التكليف مبالغة فى شأن الهجرة وإيهاماً بأن غير المكلف لو استطاع لوجب عليه وإيماء إلى أن لا محيص عنها بعد البلوغ وإن قوامهم يجب عليهم أن يهاجروا بهم إن أمكن ، أو لبيان أن الرجال والنساء الذين لا يستطيعون صاروا فى انتفاء الذنب كالولدان ولذا ذكروا معهم ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ ذكر « عسى » تضييق فى ترك الهجرة بأن من لم تجب عليه يحتاج إلى العفو على تركها وأنه مرجو ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا﴾ عن المضطر ﴿غَفُورًا﴾ ستاراً لزلاته . وعن الطبرى وابن أبى حاتم : لما نزل « إن الذين توفاهم الملائكة ... الآية » كتبها بعض المسلمين إلى من بقى بمكة من المسلمين وأنهم لا عذر لهم ، فخرجوا فلحقهم المشركون ففتنوهم فرجعوا فنزلت « ومن الناس من يقول آمنا بالله . . . الآية » فكتب إليهم فخرجوا فلحقوهم فنجا من نجا وقتل من قتل . وعن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جامع المشرك أوسكن معه فإنه مثله » رواه أبو داود ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا﴾ مهاجراً أو طريقاً واسعاً ، من الرغام : التراب ، أو متزحزحاً عما يكره ﴿كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ فى الرزق والبلاد ، المعنى : يجد متحولا كثيراً على رغم أنف قومه خلاف ما يقولون له ، ولو هاجر هؤلاء الذين بمكة لأرغموا أنوف قريش بحصولهم فى منعة منهم فتلك المنعة هى موضع المراغمة . قال ابن عطية : وتفسير السعة بسعة البلاد هو الذى تقتضيه الفصاحة ، إذ بذلك تكون السعة فى الرزق والصدر وغير ذلك من وجوه الفرج . وهذا المعنى ظاهر من قوله تعالى « ألم تكن أرضُ الله واسعة » . ا قال مالك بن أنس رحمه الله الآية تعطى أن كل مسلم ينبغى له أن يخرج من البلاد التى تغير فيها السنن ويعمل فيها بغير الحق . ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ فى الطريق قبل بلوغه إلى مهاجره ﴿فَقَدْ وَقَعَ﴾ ثبت ﴿أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ نزلت فى ضمرة بن جندب فى قول الأكثر . ويقال جندع بن ضمرة لما سمع قوله "لا يستطيعون حيلة . قال لأولاده احملونى على السرير . وكان شيخاً كبيراً لا يستمسك على

الراحلة . فلما بلغ التنعيم . أدركه الموت فضرب بيمينه على شماله . وقال اللهم هذه لرسولك وهذه لك أبايعك على ما بايعك عليه رسولك . فقال المسلمون لو وصل لكان أتم . وضحك المشركون فقالوا ما أدرك ماطلب . فأكذبهم الله . قال ابن عطية : ومن هذه الآية رأى بعض العلماء أن من مات من المسلمين وقد خرج غازياً فله سهمه من الغنيمة . اه . وفى لباب التأويل : ودخل فيه كل من قصد طاعة فعجز عن إتمامها فله ثواب تلك الطاعة كاملا . اه . وفى إيثار «قد» ولفظ الوقوع و«على» الدالين على اللزوم والتعبير بالأجر دون الثواب . وإبهامه وإتيان اسم الجلالة مبالغات لا تخفى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً ﴾ لما فرط منه ﴿ رَحِيماً ﴾ حيث جعل قاصد الفعل كفاعله ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ ﴾ سافرتم ﴿ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ الرباعية بإسقاط ركعتين ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ينالوكم بمكروه بيان للواقع إذ ذاك إذ أسفارهم غزوات وسرايا فلا مفهوم له . لأن النبى قصر من غير خوف وبين فى السنة أن المراد بالسفر الطويل وهو أربعة برد عند مالك والشافعى وأحمد ، وهو مرحلتان أى ثمانية وأربعون ميلا وعند الحنفية ستة برد ، وهو سنة عند مالك لمواظبة النبى عليه . ورخصة عند الشافعى لقوله « فليس عليكم جناح » ولحديث عائشة فى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قصر وأتم . وواجب عند الحنفى لحديث البخارى ومسلم عن عائشة : فرضت الصلاة ركعتين ركعتين . فأقرت صلاة السفر وزيد فى صلاة الحضر ، فإن أتم المسافر أعاد أبداً على الوجوب . وفى الوقت على السنة ، ولا يعيد على الرخصة ، وإن صلى مقيم خلف مسافر ، أتم بعد سلامه وهو مكروه ، وإن صلى مسافر خلف مقيم ـ وهو آكد كراهة ـ انتظره بعد ركعتين حتى يسلم بعده ، وقيل يتم ، وقيل تبطل صلاته ، وقال داود الظاهرى جواز القصر مخصوص بحال الخوف ، ويجوز فى كل سفر طويل أو قصير ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً ﴾ علة للتخفيف ﴿ وَإِذَا كُنْتَ ﴾ يا محمد حاضراً ﴿ فِيهِمْ ﴾ وأنتم تخافون العدو وكذا باقى الأئمة لأنهم نوابه ، لحضورهم كحضوره . فلا حجة فيه لنفى صلاة الخوف بحضرة غيره إذ أمته تأتم به فيما لم يثبت الخصوصية به ، ولأنها إذا جازت مع وجوده فبدونه أولى ﴿ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ فاجعلهم فرقتين ﴿ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ﴾ مصلين ولتتأخر طائفة تجاه العدو ﴿ وَلْيَأْخُذُوا ﴾ أى المصلون أمر ندب عند المالكية والحنبلية ، وقال الشافعية والحنفية أمر وجوب ﴿أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ معهم ﴿ فَإِذَا سَجَدُوا ﴾ أى المصلون ﴿ فَلْيَكُونُوا ﴾ أى غير المصلين ﴿ مِنْ وَرَائِكُمْ ﴾ يحرسونكم إلى أن تقضوا الركعة مع الإمام عند المالكية وتتموا لأنفسكم وينتظر الإمام قائماً وتذهب هذه الطائفة للحراسة ﴿ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ﴾ الركعة الثانية ﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ معهم ويسلم الإمام ويتموا لأنفسهم قضاء بالفاتحة وسورة . وعند الشافعية ينتظرهم الإمام قاعداً حتى يتموا صلاتهم ويسلم بهم هكذا فعل عليه السلام بذات الرقاع كما فى الصحيحين ، ويحتمل أن الإمام يصلى مرتين بكل طائفة مرة كما فعله

عليه السلام ببطن نخل . وقال أبو حنيفة يصلي بالأولى ركعة ثم تذهب إلى العدو وهي على صلاتها ، وتأتي الثانية فتصلي معه ركعة ويتم صلاته ويسلم ، ولا يسلمون بل يذهبون إلى وجه العدو ، وترجع الأولى إلى موضع الإمام فتقضي بقية صلاتها ، فتذهب ، ثم الثانية كذلك . ويدل عليه حديث النسائي . وكل هذا في الثنائية أصلا أو قصراً ، وإلا فيصلي بالأولى ركعتين ثم ينتظر الثانية قائماً أو جالساً . وكل هذا إن أمكن ترك القتال للبعض ، وإلا أخرت لآخر الوقت الاختياري ثم صلوها إيماء أفذاذاً مشاة وركباناً . كما تقدم في البقرة ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ ﴾ إذا قمتم إلى الصلاة ﴿ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ فيشدوا عليكم شدة واحدة فيأخذوكم لنيل الغرة . وهذا بيان ما لأجله أمروا بأخذ السلاح ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ﴾ فلا تحملوها إذا ثقلت عليكم بسبب مطر أو مرض . واستدل به من قال بوجوب أخذها أولا . والآية نزلت في عبدالرحمن بن عوف كان مريضاً فوضع سلاحه فالجيش فعنفه بعض الناس ، كما في البخاري ﴿ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ من العدو : احترزوا منه ما استطعتم كيلا يهجم عليكم العدو ؛ وإن وضعتم السلاح لعذر ، فإن الجيش ما جاءه قط مصيبة إلا من التفريط في الحذر ، قال القسطلاني : وهذا يدل على وجوب الحذر عن جميع المضار المظنونة . اهـ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ذا إهانة وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد الأمر بالحذر بتقوى قلوبهم وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس بضعفهم وغلبة عدوهم ، بل لأن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقظ والتدبر ، فيتوكلوا على الله تعالى ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ ﴾ فرغتم منها ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ أي في جميع الأحوال ، أو المعنى إذا أردتم الصلاة في شدة الخوف فصلوها كيفما أمكن قياماً مسايفين وقعوداً مترامين ، وعلى جنوبكم مثخنين ﴿ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ ﴾ سكنت قلوبكم من الخوف ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ بأركانها وشرائطها تامة ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا ﴾ مكتوباً أي مفروضاً أو محدوداً بأفعال وأقوال ﴿ مَوْقُوتًا ﴾ مقدراً وقتها فلا تؤخر عنه ، هذا يؤيد وجوب الأداء حال المسايفة خلافاً لأبي حنيفة كما تقدم . والمراد بالمؤمنين : البالغين ، فلا تجب على الصبيان لكن يؤمرون بها لسبع ويضربون عليها لعشر ، وأما الكفار فهي فريضة عليهم بشرطها : الإسلام ، إذ هم مكلفون بالفروع على المشهور ، ولما خفف على المؤمنين لأجل الجهاد أشد التخفيف حثهم على النهوض إليه ببرهان جلي فقال ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ﴾ لا تضعفوا في طلب الكفار لتقاتلوهم ﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ ﴾ تجدون ألم الجراح ﴿ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ أي هم مثلكم في ذلك ولم يجبنوا عن قتالكم فكيف تجبنون أنتم ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ﴾ من النصر والثواب عليه ﴿ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ فأنتم تزيدون عليهم لذلك فينبغي أن تكونوا أرغب منهم فيه . والآية نزلت في بدر الصغرى وقد تقدم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بأعمالكم وضمائركم ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما يأمر وينهى . ولما كان

الكلام فى شأن المنافقين وتخلفهم عن الجهاد والهجرة فدخل فيه كلام السفر استطراداً ، عاد إلى استيفاء أحوالهم بقصة طعمة بن أبيرق سرق درعاً لجاره قتادة بن النعمان فى جراب دقيق وأودعه عند زيد بن السمين اليهودى . وكان الدقيق ينتثر فى الطريق . فلما أصبحوا تتبعوا الدقيق فوجدوا الدرع عند اليهودى . فقال اليهودى أودعنيه طعمة . وشهد له ناس من اليهود ، فأنكر طعمة . فاحتكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبادر إخوة طعمة بشير وبشر ومبشر ، وقالوا : يا رسول الله إن لم تجادل لنا نفتضح مع اليهود . وأحب رسول الله أن يظاهر الحق لطعمة فنزل ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ عرفك فيه وأوحى به إليك وليس بمعنى العلم وإلا لطلب ثلاثة مفاعيل ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ ﴾ لأجلهم كطعمة ﴿ خَصِيمًا ﴾ مخاصماً عنهم ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾ مما هممت به من ظهور الحق لطعمة . لأن ذلك فى رفيع قدره موجب لاستغفاره إذ يقتضى استواء الخصمين عنده فى ظهوره أى استغفر الله عن ذلك الخاطر الذى لم يثبت ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ لمن يستغفره ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ يخونونها بالمعاصى كائناً من كانوا لأن وبال خيانتهم عليهم هم طعمة وقومه . خان نفسه بالسرقة ورمى اليهودى بها وقومه بالشهادة على براءته والخصام عنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا ﴾ مبالغاً فى الخيانة مصراً عليها ﴿ أَثِيمًا ﴾ منهمكا فيه فيعاقبه . وفى المبالغة إشارة إلى كثرة خيانة طعمة فلذا لما نزلت هرب إلى مكة مرتداً فنقض حائطاً بها ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فوجد تحته ميتاً ﴿ يَسْتَخْفُونَ ﴾ طعمة وقومه حياء ﴿ مِنَ النَّاسِ ﴾ ولذا يطلبون الجدال باطلا ﴿ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ بعلمه وهو أحق أن يستحى منه ﴿ إِذْ يُبَيِّتُونَ ﴾ يدبرون ليلا لأن ذلك الوقت أخفى . وللرأى أصفى ﴿ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ رمى البرىء بالخيانة وتبرئة الخائن بالحلف على ذلك ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ علماً لا يخفى عليه منه شىء ﴿ هَا ﴾ للتنبيه ﴿ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ ﴾ مبتدأ وخبر ، أى أنتم الموصوفون بالوصف العجيب ، ثم بينه بقوله ﴿ جَادَلْتُمْ ﴾ والخطاب للمتعصبين لأهل المعاصى ، الخائنين كقوم بنى أبيرق ﴿ عَنْهُمْ ﴾ عن بنى أبيرق طعمة وإخوته وقرئ «عنه» ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ إذا عذبهم ﴿ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ يتولى أمرهم ويذب عنهم ، أى لا أحد يفعل ذلك ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا ﴾ ذنباً يسوء به غيره ﴿ أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴾ بذنب قاصر عليه ، كالشرك ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾ منه أى يتب ﴿ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ متفضلا عليه ، وفيه حث لطعمة وقومه على التوبة والاستغفار ولا يلزم من هذا إسقاط حق الغير بالاستغفار ، إذ المراد به التوبة . ومن شروطها الاستحلال من حق الغير أو الأداء . وأيضاً لا يلزم أداء حق الغير من ماله وعمله فقط ، بل يمكن أن يؤديه الله من خزائن كرمه إن قبل توبته ورضى عنه ، دلت عليه الأحاديث الصحيحة دلالة ظاهرة ، قاله فى غاية الأمانى . ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ لا يتعداه وباله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بأحوال عباده

﴿ حَكِيمًا ﴾ فى صنعه لا يؤاخذ أحداً بفعل غيره ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً ﴾ صغيرة اسم للخطء بكسر الخاء أو بما لا عمد فيه ﴿ أَوْ إِثْمًا ﴾ كبيرة ، أو ما كان عن عمد ﴿ ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا ﴾ منه كما رمى طعمة زيداً ووحد الضمير للعطف بأو ﴿ فَقَدِ احْتَمَلَ ﴾ تحمل ﴿ بُهْتَانًا ﴾ برميه وتبرئة نفسه الخاطئة ﴿ وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ بيّناً بكسبه ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ ﴾ يا محمد ، بإعلام ما هم عليه بالوحى ﴿ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بالعصمة ﴿ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ﴾ من قوم طعمة بنى ظفر ﴿ أَنْ يُضِلُّوكَ ﴾ أى لا أثر همهم فى إضلالك عن القضاء بالحق لتلبيسهم عليك : ظاهرٌ أن التأثير فى الإضلال لم يقع ، كما قال ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ شَيْءٍ ﴾ أقل قليل ، لأن وبال إضلالهم عليهم ، والله يعصمك وما خطر ببالك كان اعتماداً على ظاهر الأمر ، لا ميلا فى الحكم . و «من شىء» فى موضع النصب على المصدر ، أى شيئاً من الضرر. ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ما فيه من الأحكام امتنان عليه وإشارة إلى أنه بعيد عما راموه من الإضلال ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ بالكسب والنظر كأحوال المعاد وسائر المغيبات التى أخبر بها ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ إذ لا فضل فوق النبوة والمعرفة « وقد آتيناك من لدنا علماً » قال فى لباب التأويل : ففى هذه الآية تنبيه من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على ما حباه من ألطافه وما شمله من فضله وإحسانه ليقوم بواجب حقه . اه ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ﴾ أى تناجى الناس ، ومنهم قوم طعمة ، وفيه تقبيح لما تساروا به فى إضلال النبى بالمجادلة ، أو من متناجيهم ، كقوله : « وإذ هم نجوى » ﴿ إِلَّا ﴾ نجوى ﴿ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ ﴾ عمل بر كقرض وإغاثة ملهوف وكل ما يستحسنه الشرع ، ولا ينكره العقل ﴿ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ فى ذات البين فيما اختلفوا وتنازعوا فيه ، ففى نجوى هذا خير ، والمعروف يعم الصدقة والإصلاح ، فذكرهما اهتمام بشأنهما لعظم غنائهما فى مصالح العباد ، وفى البخارى الأمر بالمعروف صدقة ، وفى الترمذى ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى . قال : إصلاح ذات البين ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم : ليس الكذاب من أصلح بين الناس ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ المذكور ﴿ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ لا غيره من أمور الدنيا كالرياء والترؤس ، لأن الأعمال بالنيات ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ ﴾ بالنون للجمهور ، وبالياء أى الله لأبى عمرو وحمزة ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ تنبيه على تحقير ما يفوت فى جنب هذا الأجر من أغراض الدنيا ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ ﴾ يخالفه كطعمة حين ارتد من الشق الجانب فإن كلا من المتخالفين فى شق غير شق الآخر ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ﴾ ظهر له الحق بالمعجزات ﴿ وَيَتَّبِعْ ﴾ طريقاً ﴿ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ غير ما هم عليه من اعتقاد وعمل بأن يكفر ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ﴾ نكله إلى ما اختاره من الضلال ﴿ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾ ندخله فيها فى الآخرة . من أصليته النار ، أدخلته فيها . وسكن هاء نصله أبو عمرو وحمزة وأبو بكر تخفيفاً ﴿ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ مرجعاً هى ، والآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ كرره اهتماماً كتكرير سائر الأحكام والقصص المهمة ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ عن الحق : وصف الضلال بالبعد مجاز مبالغة إذ لا ضلال فوق الشرك وإنما ختم هذه بالضلال مناسبة لقصة طعمة وقومه الضالين ، الساعين فى إضلال سيد المعصومين ، وختم المتقدمة بقوله فقد افترى إثماً عظيما لاتصالها بقصة أهل الكتاب المحرفين للكلم ، المفترين فى أشياء كثيرة ﴿ إِنْ يَدْعُونَ ﴾ ما يعبد المشركون ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى غير الله ﴿ إِلَّا إِنَاثًا ﴾ أصناماً مؤنثة كاللات والعزى ومناة ، ولذا يقولون لصنم كل حىّ أنثى بنى فلان ، ولأنها جمادات وهى تؤنث : استئناف لتحقير ما اتخذوه شريكا ، تدليلا على تناهى جهلهم وفرط حماقتهم ، وإناث جمع أنثى ، كرباب وربّى ، وقرئ أنثى على التوحيد ، وأنثاً على أنه جمع أنيث كخبث وخبيث ﴿ وَإِنْ يَدْعُونَ ﴾ ما يعبدون لعبادتها ﴿ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ خالياً عن الطاعة لطاعتهم له فى عبادتها ، لأنه الذى أغراهم عليها فأطاعوه ، وفى مدارك التنزيل للنسفى : مريداً مارداً ، أى عارياً من كل خير وظهر شره ، من قولهم شجرة مرداء إذا سقط ورقها ، وظهر شوكها وعيدانها . اه . والشيطان هو إبليس ﴿ لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ أبعده عن رحمته . صفة له ثانية ﴿ وَقَالَ ﴾ الشيطان ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ واجباً لى . أدعوهم إلى طاعتى ولى من كل ألف منهم تسعة وتسعون وتسعمائة . عطفٌ على الصفة السابقة ، وهو صفة أخرى له ، أى شيطاناً مريداً جامعاً بين لعنة الله ، وهذا القول الدال على فرط عداوته للناس ، برهن الله على أن الشرك ضلال بعيدٌ ، بكون آلهتهم جمادات مؤنثات تنافى الألوهية ، وبأنه طاعة شيطان وهى أقبح الضلال ، لأنه مريدٌ ملعون بالغ الغاية فى عداوتهم والسعى فى هلاكهم ، فوالاة هذا ضلال بعيد ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾ عن الحق بالوسوسة والتزيين للدنيا ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ الأمانى الباطلة كطول الحياة ، وأن لا بعث ولا عقاب ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ﴾ يقطعن ﴿ آذَانَ الْأَنْعَامِ ﴾ لتحريمها كما فعل بالبحائر ، قال ابن العربى فى الأحكام : وهى تعذيب للحيوان وتحريم بالطغيان ، والآذان جمال للأنعام ومنفعة : فلهذا نهى عن المقطوعة والمشقوقة فى الأضاحى ، إذا جاوز الثلث ، لكن ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يَسِم الغنم فى آذانها ويشعر أى يشق جلد الهدى ، وهذا مستثنى ، وقال أبو حنيفة : الإشعار بدعة ، كأنه لم يسمع هذه الشعيرة ، وهى فى الدين أشهر منه فى العلماء ، وكذا وسم الإبل والدواب بالنار فى أعناقها وأفخاذها مستثنى من تغيير خلق الله ، وأما الخصاء فصية فى الآدمى وفى البهائم مكروه ، وقيل جائز وعليه الأكثر . اه . ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ كالوصل للشعر والوشم والتنميص والتفليج لما فى البخارى ومسلم عن ابن مسعود لعن الله الواصلات والمستوصلات والواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله . وعن مجاهد وابن عباس خلق الله : دين الله . وفطرته التى فطر الناس عليها . قال البيضاوى : ويندرج فيه فقأ عين الحامى ، وخصاء العبد . والجمل الأربع حكاية عما ذكره الشيطان قطعاً ، أو أتاه فعلا ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

متجاوزاً عن ولايته ﴿ فَقَدْ خَسِرَ ﴾ فى الدارين ﴿ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴾ جلياً ، لا يحتاج إلى تأمل وروية .
إذ ضيع رأس ماله وبدل مكانه فى الجنة بمكانه فى النار المؤبدة عليه ﴿ يَعِدُهُمْ ﴾ ما لا ينجز كطول العمر
﴿ وَيُمَنِّيهِمْ ﴾ ما لا ينالون فى الدنيا ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ باطلا لا حقيقة له وهو إظهار النفع
فيما فيه الضرر ، وهذا الوعد إما بالخواطر الفاسدة ، أو بلسان أوليائه ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ
عَنْهَا مَحِيصًا﴾ معدلا ومهرباً ، من حاص إذا عدل ، وعنها، حال منه ، وليس صلة له لأنه اسم مكان . وإن
جعل مصدراً فلا يعمل أيضاً فيما قبله ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ولم يتبعوا أمر الشيطان
﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ وعده وعداً ، وحقه
حقا ، فالأول مؤكد لنفسه لأن مضمون الجملة الاسمية التى قبله وعد ، والثانى مؤكد لغيره ويجوز أن ينتصب
الموصول بفعل يفسره ما بعده ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ قولا جملة مؤكدة بليغة لدلالته على صدق
أخباره ، وألا أصدق منه ، وهذه المبالغات بإزاء مبالغات إبليس الكذاب ﴿ لَّيْسَ ﴾ ثواب الله المذكور
ينال ﴿ بِأَمَانِيِّكُمْ ﴾ الخطاب للمسلين ﴿ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ القائلين لن يدخل الجنة إلا من كان
هوداً أونصارى ، نزلت لما افتخر المسلمون وأهل الكتاب بأنبيائهم وكتبهم أوخطاب للمشركين المدعين كذبا أن
لهم الحسنى عند الله ، أو أن لاجنة ولا نار ، بل نيل الثواب منوط بالعمل الصالح ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾
إما فى الآخرة أو فى الدنيا بالبلاء والمحن ، كما ورد فى الحديث ﴿ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا ﴾ يحفظه
﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ يمنعه منه ﴿ وَمَن يَعْمَلْ ﴾ شيئاً ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ ﴾ بعضها إذ لا يعمل كلها أحد وليس مكلفاً
بها ﴿ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ فى موضع الحال بيان ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ لا يعتد بعمل دون الإيمان ﴿ فَأُولَٰئِكَ
يَدْخُلُونَ ﴾ بالبناء للفاعل الجمهور ، وللمفعول لأبى عمرو وابن كثير وأبى بكر ﴿ الْجَنَّةَ ﴾ لا غيرهم ردٌّ
لقول أهل الكتاب ، لما سمعوا الآية المتقدمة نحن وأنتم سواء ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أى الفريقان أو المؤمنون
﴿ نَقِيرًا ﴾ قدر نقرة النواة ، ومنها تنبت النخلة ، فعيل بمعنى مفعول ﴿وَمَنْ﴾ لا أحد ﴿ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ
أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ انقاد وأخلص له عمله ، عبر عن الذات بالوجه ، لأنه أشرف الأعضاء وعل السجود الذى
هو أقصى الخضوع ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ مخلص فى ذلك العمل . فسره الحديث بأن تعبد الله كأنك تراه
﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الموافقة لملة الإسلام ﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلا عن سائر الأديان كلها إلى الدين القيم حال
من إبراهيم أو المتبع ، وخص إبراهيم لأنه مقبول عند جميع الأمم العرب واليهود والنصارى . وشرعه
داخل فى شرع نبينا ، فيلزمهم اتباعه ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ صفيا خالص المحبة له ، ترغيب فى اتباعه .
ولم يختص بالخلة لحديث البخارى صاحبكم خليل الله من الخلة وهى أقصى غاية المحبة . كأنها دخلت فى أعماق
قلبه وخلاله ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ملكا فله أن يختار من يشاء ، وفيه إشارة إلى
احتياج الخليل إليه ، وعدم احتياجه هو إلى الخليل ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ إحاطة علم وقدرة

يجازى كلا بعمله ، ويختار من هو أهل للاختيار . ولما كان مبنى السورة على أحكام النساء واستطرد أحكام الجهاد وأحوال المنافقين فيما عاد إليها بقوله ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ يطلبون منك الفتوى فى ميراث النساء إذ كانوا لا يورثونهن فى الجاهلية وفى نكاح اليتامى منهن ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ يبين لكم حكمه فيهن والإفتاء تبيين المبهم ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ القرآن من آية الميراث ، وقوله فإن خفتم ألا تقسطوا الآية ، و «ما» عطف على اسم الله أو ضميره المستكن فى يفتيكم على حد أعجبنى زيد وكرمه ، فالأول توطئة ، والثانى المقصود بالذكر ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ صلة «يتلى» أو بدل من «فيهن» بدل بعض ﴿اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ﴾ فرض ﴿لَهُنَّ﴾ من الميراث والحقوق ، عبر عنه بكتب مبالغة فى الوجوب ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ فى نكاحهن إن كن جميلات لتأكلوا مالهن أو عن نكاحهن إن كن دميمات لتعضلوهن طمعاً فى ميراثهن والواو تحتمل الحال والعطف ، روى عن ابن عباس كانوا فى الجاهلية إذا كانت عند أحدهم يتيمة ألقى عليها ثوبه ، فإن كانت جميلة تزوجها وأكل مالها ، وإن كانت دميمة منعها عن الزواج حتى تموت فيرثها ، فنهوا عن ذلك ، وعن السدى كان لجابر بنت عم دميمة ولها مال ورثته من أبيها ، ورغب جابر عن نكاحها وإنكاحها . فسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنزلت . وكان عمر بن الخطاب يقول لولىّ اليتيمة إذا بلغت وكانت جميلة غنية : زوجها غيرك . وإن كانت فقيرة دميمة يقول تزوجها أنت ﴿وَ﴾ فى ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ الصغار ﴿مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ أن تعطوهم حقوقهم المتلوة فى قوله « يوصيكم الله فى أولادكم ... الآية » عطف على يتامى النساء ، وكذا قوله ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ إن لم يكن بدلا من «فيهن» ، والخطاب فى شأن يتامى النساء : للأولياء خاصة ؛ وفى المستضعفين : لهم وللورثة البالغين ؛ وفى «أن تقوموا» للأئمة القوّام . ومعنى بالقسط بالعدل فى الميراث والمهر ، والمتلوّ فيهم قوله ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ونحوه ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم عليه : ترغيب فيما أمروا به ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ﴾ مرفوع بفعل يفسره ﴿خَافَتْ﴾ توقعت ﴿مِنْ بَعْلِهَا﴾ زوجها ﴿نُشُوزًا﴾ تجافياً عنها ، وترفعاً عليها بتقليل نفقتها وترك مضاجعتها وخشونة القول ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها بوجهه بتقليل المجالسة والمحادثة والمؤانسة بسبب كبر سنها أو دمامتها ، أو طموح عينه إلى أجمل منها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصَّالَحَا﴾ بإدغام التاء فى الأصل فى الصاد للجمهور و «يُصلحا» من أصلح للكوفيين ﴿بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ فى القسم بأن تطيب له نفساً عنه ، والنفقة بأن تترك له شيئاً من ذلك ، طلباً لبقاء الصحبة ، فإن رضيت بذلك وإلا فعلى الزوج أن يوفيها حقها ، أو يفارقها . وفى البخارى عن عائشة رضى الله عنها هى المرأة تكون عند الرجل ليس بمستكثر منها ، يريد أن يفارقها ، فتقول : أجعلك من شأنى فى حلّ فنزلت . قال ابن العربى فى الأحكام رضوان الله على الصديقة المطهرة لقد وفت بما حلها ربها من العهد فى قوله «واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله» ﴿وَالصُّلْحُ﴾ الذى تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف للزوجين وغيرهما ﴿خَيْرٌ﴾ من الخصومة فى كل

شيء ، أو من الفرقة أو النشوز والإعراض أو خير من الخيور ، كما أن الخصومة شر من الشرور . وعلى كل تقدير فهو اعتراض يؤكد نفي الجناح ، بل مندوب فضلا عن الجواز . قال تعالى في بيان ما جبل عليه الإنسان ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ شدة البخل وأقبحه . وهو الحرص على منع الخير . أي جبلت عليه فكأنها حاضرته لا تغيب عنه ، فهي مطبوعة عليه . المعنى أن المرأة لا تكاد تسمح بنصيبها من زوجها ، والرجل لا يكاد يسمح عليها بنفسه إذا رغب عنها . فكل واحد يطلب راحته . فقوله « والصلح خير » ترغيب في المصالحة ، وما بعده تمهيد للعذر في المماكسة ، ثم حث على مخالفة الطباع وموافقة ما أحب الشرع بقوله ﴿ وَإِنْ تُحْسِنُوا ﴾ عشرة النساء . وإن كرهتموهن مراعاة لحق المصلحة ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ النشوز والإعراض ونقص الحق وكل أذى ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الإحسان والتقوى ﴿ خَبِيرًا ﴾ فيجازيكم به ، وإقامة العلم مقام الإثابة : من إقامة السبب مقام المسبب ، دلالة على أن الوفاق عند الله أحب من الفراق ، روى أبو داود وابن ماجه عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ ﴾ لأن العدل أن لا يقع ميل البتة في القسمة والنفقة والتعهد والنظر والإقبال والمحادثة والمفاكهة وهو متعذر في الحب والجماع ، إذ قد ينشط لواحدة ما لا ينشط للأخرى ، لكن إذا لم يكن ذلك بقصد منه فلا حرج ، والعدل الواجب على من له زوجتان فأكثر في المبيت سواء المريضة والنفساء والحائض وغيرها لقصد الأنس ، وكذا الحرة والأمة لمن حلت له على المشهور ، وقيل للحرة ثلثان وللأمة ثلث ولا يدخل في يوم واحدة على أخرى ، إلا زائراً أو لحاجة لا لميل . ولا يجمعهن في منزل إلا برضاهن ، بل يفرد لكل واحدة منزلا يأتيها فيه ولا يجب القسم بين أمهات الأولاد ولا الإماء ولا بينهن والزوجة ، ولكن يستحب حسن العشرة ، ويجب كف الأذى ﴿ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ على ذلك ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه ثم يقول يارب هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك . يعني القلب . أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي ولو كان ممكناً لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى به ، والمنهي إظهار ميل القلب بالقول أو الفعل ، وهو يقدر على تركه وهو كل الميل ، كما قال تعالى ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ ظاهراً أو باطناً إلى التي تحبونها في القسم والنفقة وحسن العشرة ، قال في الجواهر : كل الميل هو أن يفعل فعلا لما يقصده من التفضيل وهو يقدر أن لا يفعله وهو المنهي عنه ، وإن كان في أمر حقير اه . وفي البيضاوي : كل الميل بترك المستطاع فإن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله ﴿ فَتَذَرُوهَا ﴾ تتركوا المال عنها ﴿ كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ التي ليست ذات بعل ولا مطلقة فهي كالشيء المعلق ، لا هو في السماء ولا على الأرض وهي المسجونة التي غاب عنها بعلها ﴿ وَإِنْ تُصْلِحُوا ﴾ ما وقع من الخلاف والنشوز ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ في المستقبل عن ارتكاب مثله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا ﴾ لما مضى من ميلكم ﴿ رَحِيمًا ﴾ بكم في ذلك ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا ﴾ الزوجان بالطلاق أو الخلع ولم يصلحا ﴿ يُغْنِ

اللهُ كُلاًّ ﴾ عن صاحبه ببدل أو سلو ﴿ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ من فضله الواسع بغناه وقدرته ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ وَاسِعًا ﴾ لخلقه فى الفضل وتحليل النكاح أو مقتدراً فى أفعاله ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما دبره لهم . وربما كانت الفرقة أحسن عاقبة لهما . ولذا أباح التسريح بإحسان ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ برهان على سعة فضله . لأن من ملكهما لا تفنى خزائنه ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ ﴾ بمعنى الكتب السماوية ﴿ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ اليهود والنصارى ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ يا أهل القرآن فيه فى مواضع شتى ﴿ أَنِ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ أن مفسرة لأن التوصية بمعنى القول ، أو مصدرية : أى بأن ، والمعنى أن الأمر بالتقوى شرع قديم لم يخل عنه كتاب ولا أمة ﴿ وَ ﴾ قلنا لهم ولكم ﴿ إِن تَكْفُرُوا ﴾ بما وصيتم به ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فلا يتضرر بكفركم ، كما لا ينتفع بشكركم وتقواكم ، وإنما وصاكم لرحمته لا لحاجة . ثم قرر ذلك بقوله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا ﴾ عن الخلق وعبادتهم ﴿ حَمِيدًا ﴾ محموداً بذاته حُمد أو لم يحمد لكثرة نعمه ، والأكوان كلها حامدة بلسان الحال ، حيث أوجدها وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ كرره تأكيداً لما قبله ، وتمهيداً لما بعده ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ موكولا إليه ، راجع إلى قوله « يغن الله كلا من سعته » فإنه توكل بكفايتهما ، وما بينهما تقرير لذلك ، فقوله « ولله ما فى السموات وما فى الأرض » الأولى تقرير لسعته وتمهيد لقبول وصيته . وفى الثانية تقرير لعدم تضرره بكُفر من كفر ، وعدم انتفاعه بطاعة من أطاع ، وتمهيد لغناه . والثالثة تقرير لغناه ، وتمهيد لأن يتوكل عليه ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ يفنكم ﴿ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾ ويوجد قوماً آخرين أصلح منكم إن كان الخطاب للحاضرين أو خلقاً آخرين مكان الإنس إن كان الخطاب لجميع بنى آدم ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ﴾ الإعدام والإيجاد ﴿ قَدِيرًا ﴾ بليغ القدرة ، لا يعجزه مراده ، وهذا أيضاً تقرير لغناه وقدرته وتهديد لمن كفر به وخالف أمره ، ثم قبح العمل لغير الله فقال ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ﴾ بعمله ﴿ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ كالجهاد للغنيمة فقط ، فقد أخطأ ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ لمن أراده لا عند غيره فلِمَ يطلب أحدهما الأخس ، وهلا طلب الأعلى بإخلاصه له حيث كان مطلبه لا يوجد إلا عنده ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ عارفاً بالأغراض فيجازى كلاًّ بحسب قصده ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ ﴾ شديدى القيام ﴿ بِٱلْقِسْطِ ﴾ بالعدل . جادين فيه ، مواظبين على إقامته ﴿ شُهَدَآءَ ﴾ بالحق ﴿ لِلَّهِ ﴾ لوجه الله . خبر ثان أو حال ﴿ وَلَوْ ﴾ كانت الشهادة ﴿ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ فاشهدوا عليها بأن تقروا الحق الذى عليكم ولا تكتموه لأن الشهادة بيان الحق ، سواء كان عليه أو على غيره ﴿ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ ﴾ دليل على قبول شهادة الابن عليهما ولا يمنع برهما ، بل هو برهما ﴿ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ولا تحابوا أحداً ولا تخافوا فى الله لومة لائم ، قدم القسط هنا ، وأخره فى المائدة ، اهتماماً بالعدل فى النفس والوالدين والأقربين لأن ذلك مَظنّة العدول ﴿ إِن يَكُنْ ﴾ المشهود عليه ﴿ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ منكم وأعلم بمصالحهما وثنى الضمير لئلا يتوهم

اختصاص الأولوية بأحدهما ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى ﴾ فى شهادتكم بأن تحابوا الغنى لرضاه أو الفقير رحمة له ، ل ﴿ أَنْ ﴾ لا ﴿ تَعْدِلُوا ﴾ تميلوا عن الحق أو كراهة العدل بين الناس ، وإرادة العدول عن الحق ﴿ وَإِنْ تَلْوُوا ﴾ بسكون اللام للجمهور ألسنتكم بتحريف الشهادة أو تمطلوا حقاً فلن تنفذوه إلا بعد بطء ، ولابن عامر وحمزة بضمها من الولاية أى بأن وليتم الهوى فى الشهادة بالباطل أو من اللىّ ، حذفت الواو الأولى تخفيفاً فتوافق القراءة الأولى فى المعنى ﴿ أَوْ تُعْرِضُوا ﴾ عن أدائها جملة ، أو عن أحد الخصمين ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فيجازيكم به ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ﴾ داوموا على الإيمان ﴿ بِاللَّهِ ﴾ واستمروا عليه ﴿ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ محمد وهو القرآن ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ على الرسل بمعنى الكتب ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بالبناء للمفعول فى الفعلين ، أو المعنى آمنوا بقلوبكم كما آمنتم بألسنتكم إن كانت فى المنافقين أو آمنوا بالله وبمحمد كما آمنتم بموسى وعيسى إن كانت فى أهل الكتاب ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ عن الحق ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بموسى وهم اليهود ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ بعبادة العجل ﴿ ثُمَّ آمَنُوا ﴾ بعد عود موسى إليهم ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ بعيسى ﴿ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ﴾ بمحمد ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ ما أقاموا عليه ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ طريقاً إلى الحق ، وقيل المراد قوم تكرر منهم الارتداد ثم أصروا على الكفر . روى عن على بن أبى طالب أن من تكرر منه الارتداد لا تقبل توبته ، بل يقتل ، وعليه أحمد بن حنبل ، وذهب أكثر العلماء إلى قبول توبته مالم يغرغر ، لعموم قوله «قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » ، وقيل : الآية فى المنافقين المتلاعبين بالدين وخبر كان فى أمثال هذا محذوف . تعلق به اللام مثل لم يكن الله مريداً ليغفر لهم ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ ﴾ أخبرهم يامحمد ﴿ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ هو النار : استعارة تهكمية تدل على أن الآية المتقدمة فى المنافقين الذين آمنوا ظاهراً وكفروا باطناً مرة بعد أخرى ، ثم ازدادوا كفراً بالاستهزاء بالدين وإفساد الأمر على المؤمنين ﴿ الَّذِينَ ﴾ فى محل نصب أو رفع على الذم بمعنى أريد الذين ، أو هم الذين ﴿ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لما يتوهمون فيهم من القوة ويقولون إن أمر محمد لايتم ﴿ أَيَبْتَغُونَ ﴾ يطلبون بموالاتهم ﴿ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ ﴾ استفهام إنكار ، أى لا يجدونها عندهم ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ فى الدنيا والآخرة ، لا يُعز إلا من أعزه وقد كتب العزة لأوليائه بقوله «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ولا يؤبه بعزة غيرهم ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ ﴾ بالبناء للمفعول للجمهور والفاعل لعاصم أى الله ﴿ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ القرآن فى سورة الأنعام ﴿ أَنْ ﴾ مخففة أى أنه وهو نائب الفاعل ﴿ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ﴾ حالان من الآيات جىء بهما لتقييد النهى عن المجالسة فى قوله ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ ﴾ مع الكافرين والمستهزئين ﴿ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ وهذا تذكير بما أنزل بمكة من قوله «وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا » الآية ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا ﴾

إن قعدتم معهم ﴿ مِثْلُهُمْ ﴾ فى الإثم ، لا فى جميع الصفات ؛ إن لم ترضوا به . لأنكم قادرون على الإعراض والإنكار أو مثلهم فى الكفر إن رضيتم به . لأن الرضى بالكفر كفرٌ ، والرضا بالشيء استحسانه . قال فى لباب التأويل : دخل فى الآية كل محدث فى الدين ؛ ومن رضى بمنكر أو خالط أهله ، كان بمنزلتهم فى الإثم ، وإن لم يباشره . وقال فى الجواهر : فى الآية دليل قوىٌّ على وجوب تجنب أهل البدع والمعاصى وأن لا يجالسوا . اهـ . و «إذاً» ملغاة لوقوعها بين الاسم والخبر ، ولذا لم يذكر بعدها الفعل وإفراد مثلهم لأنه كالمصدر أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع ، وقرئ بالفتح على البناء لإضافته إلى مبنىّ ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ كما اجتمعوا فى الدنيا على الكفر والاستهزاء ﴿ الَّذِينَ ﴾ بدل من الذين قبله منصوب أو مرفوع أو مجرور صفة المنافقين ﴿ يَتَرَبَّصُونَ ﴾ ينتظرون ﴿ بِكُمْ ﴾ الدوائر أن تقع عليكم ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ ﴾ ظفر وغنيمة ﴿ مِنَ اللَّهِ قَالُوا ﴾ لكم ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ فى الدين والجهاد مظاهرين لكم فأعطونا سهمنا من الغنيمة ، كما شاركناكم فى القتال ﴿ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ﴾ من الظفر عليكم ﴿ قَالُوا ﴾ لهم ﴿ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ﴾ نغلبكم حين كان الظفر للمسلمين ، وكنا قادرين على قتلكم وأسركم ، وقد أبقينا عليكم ﴿ وَ ﴾ ألم ﴿ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أن يظفروا بكم بتخذيلهم ومراسلتكم بأخبارهم فلنا عليكم المنة فأشركونا فيما أصبتم ، وإنما سمى ظفر المسلمين فتحاً لتعظيم شأنه بفتح أبواب السماء له ، حتى ينزل النصر عليهم وسمى ما للكافرين نصيباً لتحقيره وقصره على الدنيا وكونه استدراجاً ولم يقل استحوذ تنبيهاً على أصله المرفوض . وهو سماعى ، وعن أبى زيد قياس مطرد ، يقال استجاب واستجوب ذكره فى غاية الأمانى ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ وبينهم ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ بأن يدخلكم الجنة ويدخلهم النار ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ فى الآخرة بالتوبيخ وغيره ، ولا فى الدنيا بالحجة أو استئصال دولة المسلمين ، قال ابن العربى : إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهوا عن المنكر ، ويتقاعدوا عن التوبة فيكون تسلط العدو من قبلهم ، أو لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا فى الشرع . فإن وجد فعلى خلاف الشرع . واحتج به العلماء على أن الكافر لا يملك العبد المسلم أو لا يرث المسلم ، ولا يقتل المسلم بالذمىّ ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ وتقدم فى البقرة ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ مع المؤمنين ﴿ قَامُوا كُسَالَى ﴾ متثاقلين : قرأ الكسائى بفتح الكاف . وفى الصحيحين : أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، وسبب كسلهم عدم رجاء الثواب لا يصلون إلا خوفاً من الناس ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ بصلاتهم ليقولوا إنهم مؤمنون ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﴾ لا يصلون ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ رياءً حيث يراهم الناس ولا يذكرون الله فى صلاتهم إلا بالتكبير والتسليم وفى الصحيح تلك صلاة المنافقين يجلس أحدهم حتى إذا اصفرت الشمس وكانت بين قرنى الشيطان قام ينقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلا ، قال ابن العربى : وقد بين الله صلاة المؤمنين بقوله « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » ومن خشع خضع . ولم ينقر صلاته

ولم يستعجل اهـ. ﴿ مُذَبْذَبِينَ ﴾ مترددين حال من واو يراءون أى يراءونهم غير ذاكرين مذبذبين أو منصوب على الذم ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ الكفر والإيمان من الذبذبة جعل الشىء مضطرباً ، وأصله الذب بمعنى الطرد ، وقرئ بكسر الذال بمعنى يذبذبون قلوبهم أو دينهم ﴿ لَا ﴾ منسوبين ﴿ إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ الكفار لإظهارهم الإيمان ﴿ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ المؤمنين لكفرهم ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ إلى الهدى . وروى مسلم عن ابن عمر عنه عليه السلام : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين غنمين ، تعير إلى هذه مرة ، وإلى هذه مرة » قلت : معنى العائرة بالعين المهملة المتحيرة المترددة . ومعنى تعير تتردد والله أعلم . ولما ذم الله المنافقين بالتذبذب نهى المؤمنين عن التخلق بأخلاقهم بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنه صنيع المنافقين فلا تتشبهوا بهم ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ بموالاتهم ﴿ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ برهاناً بيناً على نفاقكم . أو تسليطاً يسلط به عليكم عقابه ، لأنهم أعداء الله ، ومصادقة عدو الصديق معاداة للصديق . قال الشاعر :

تَوَدُّ عَــدُوِّى ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّنِى • صَدِيقُكَ لَيْسَ النَّوْكُ عَنْكَ بِعَازِبِ

ثم بين مقر المنافقين فقال ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ ﴾ المكان ﴿ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ وهو قعرها ، لأنهم أخبث الكفرة ، إذ ضموا إلى الكفر خداع المسلمين . وقرأ الكوفيون بسكون الراء لغة . وسميت طبقات النار دركات : لأنها متداركة بعضها فوق بعض ﴿ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ مانعاً من العذاب ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ من النفاق ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم فى حال النفاق ﴿ وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ ﴾ وثقوا به وتمسكوا بدينه ﴿ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ من الرياء عكس ما كانوا عليه ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيما يؤتونه ومن عدادهم فى الدارين ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فى الآخرة هو الجنة ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ ﴾ نعمه ﴿ وَآمَنتُمْ ﴾ به والاستفهام بمعنى النفى ، أى لا يعذبكم حينئذ ، وقدم الشكر لأن الناظر يدرك النعمة أولا فيعرف المنعم ، ثم يؤمن به ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا ﴾ لأعمال المؤمنين ، يقبل اليسير ويعطى الكثير ﴿ عَلِيمًا ﴾ بحق شكركم وإيمانكم ، وسمى الجزاء شكراً على سبيل الاستعارة والله أعلم ﴿ لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ من أحد وكذا السر به ولكن الجهر أفحش فيعاقب عليه ﴿ إِلَّا ﴾ جهر ﴿ مَن ظُلِمَ ﴾ فلا يؤاخذ بالإخبار عن ظلم ظالمه ، ولا يزيد عليه ومعنى الآية لا يجوز إظهار أحوال الناس المستورة إلا لمن ظلم . يقول سرق منى أو غصبنى أو يشتم بمثل ما شتم به «ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل» ولحديث «المستبان ما قالا فعلى البادئ منهما» رواه مسلم ، قال ابن عباس يرخص للمظلوم أن يدعو على ظالمه وإن صبر فهو خير له . قال الحسن البصرى : بأن يقول اللهم أعنى عليه ، اللهم استخرج لى حقى ، اللهم حل بينى وبين ما يريد ونحوه من الدعاء ، قال ابن العربى : كل هذا إذا كان مؤمناً ، وإذا كان كافراً فأرسل لسانك فيه ، وادع بالهلكة وبكل دعاء .

وإذا كان الرجل مجاهراً بالظلم دعى عليه جهراً ولم يكن له عرض محترم ولابدن محترم ولا مال محترم . اهـ.
وقال مجاهد نزلت فى الضيافة إذا نزل رجل على رجل فلم يقم بحقه : جاز أن يذكر ذلك عنه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ قول المظلوم ﴿عَلِيمًا﴾ بحال الظالم ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا﴾ مكان الجهر بالسوء ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أو أن تظهروا البر أو تسروه ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ﴾ كظلم أصابكم بمحوه عن قلوبكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ كثير التجاوز ﴿قَدِيرًا﴾ بليغ القدرة على الانتقام ومع ذلك يعفو ، فتخلقوا أنتم بأخلاقه إرشاد إلى الأفضل بعد تجويز الأدنى .
ولذلك جعل إبداء الخير وإخفاءه تمهيداً وأوقع العفو جزاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ بالكفر ببعض رسله ، إذ الكفر بالرسول كفر بالله ، أو بأن لهم ولداً ﴿وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بتكذيبهم ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ من الرسل ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ منهم ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الكفر والإيمان ﴿سَبِيلًا﴾ إلى الله ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الكاملون فى الكفر ، إذ لاعبرة بإيمانهم ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله ، أى حق كونهم كاملين فى الكفر ، حقاً أو صفة لمصدر الكافرين أى هم الذين كفروا كفراً حقاً . أى محققاً لاشك فيه ، لأن إنكار واحد من الرسل إنكار للكل . لاشتراكهم فى العلة وهى المعجزة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أى لهم ولكل كافر ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ لإهانتهم الرسل المكرمين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ كلهم ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ﴾ تقدم ما فى أحد ﴿مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ﴾ بالنون للجمهور والياء لحفص ﴿أُجُورَهُمْ﴾ ثواب أعمالهم وسوف لتأكيد الوعد لتأخر الموعود ، لأن المضارع يحتمل الحال والاستقبال ، فإذا دخل سوف أكد الاستقبال مثله : والمراد أنه كائن لامحالة وإن تأخر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ كثير الغفران لأوليائه بستر السيئات ﴿رَّحِيمًا﴾ بالغ الرحمة بأهل طاعته ، بقبول حسناتهم وتضعيفها . ولما قال له أحبار اليهود إن كنت صادقاً فأتنا بكتاب جملة بخط سماوى كموسى ، نزل ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ يا محمد ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ﴾ بالتشديد ولابن كثير بالتخفيف ﴿عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ جملة كما أنزل على موسى تعنتاً ﴿فَقَدْ سَأَلُوا﴾ أى آباؤهم ﴿مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ جواب شرط مقدر أى إن سألوك هذا فلا تضجر فإن آباءهم سألوا موسى أعظم مما سألك هؤلاء أو إن استكبرت ذلك ، فليس بأول جهالاتهم وجناياتهم فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ﴿فَقَالُوٓا أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً كما يرى بعضنا بعضاً ، نصب على المصدر ، أو الحال ، والفاء لتفصيل المجمل ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ نار جاءت من السماء فأهلكتهم ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ بتعنتهم بسؤال ما يستحيل فى تلك الحال التى كانوا عليها ، وذلك لا يقتضى امتناع الرؤية مطلقاً ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ المعجزات التسع الدالة على صدق موسى ووحدانية الله ، وهذه هى الجناية الثانية لهم ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ بعد توبتهم ولم نستأصلهم تفضلا ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ حجة ظاهرة على من خالفه أو تسلطا بينا عليهم حين أمرهم بقتل أنفسهم توبة من عبادة العجل فأطاعوه ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ بسبب أخذ الميثاق عليهم ليخافوا

فيقبلوا ولا ينقضوا ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ﴾ باب القرية ﴿سُجَّدًا﴾ سجود انحناء وتقدم ذلك فى البقرة وهو باب المسجد الأقصى حين فتحه يوشع بعد موسى ، وقول من قال من أهل التفسير وقلنا لهم ادخلوا الباب والجبل مظل عليهم سهو ، لأن نتق الجبل فوقهم كان فى زمن موسى قاله فى غاية الأمانى ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ على لسان داود أو على لسان موسى لأن شرع السبت كان فى زمنه ، ولكن كان الاعتداء والمسخ فى زمن داود عليه السلام ﴿لَا تَعَدُّوا﴾ بفتح العين وتشديد الدال لورش عن نافع أى تعتدوا وبإسكان العين والتخفيف للباقين مضارع عدا يعدو ، لا تجاوزوا الأمر ﴿فِي السَّبْتِ﴾ باصطياد الحيتان فيه ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ على هذه الأشياء : وميثاقهم قولهم سمعنا وأطعنا فنقضوه ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾ ما زائدة للتأكيد والباء سببية متعلقة بمحذوف أى لعناهم بسبب نقضهم ﴿مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التى أنزلت على موسى ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ استحقاق للقتل فى عقدهم ، كزكرياء ويحيى ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ محجوبة عن وعظك لا تعى ما تقول أو أوعية للعلم فلا حاجة لنا إلى علمك ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ بعيسى ثانياً ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه أو إلا إيماناً قليلا لا عبرة به ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ ثالثاً بمحمد ، وكرر الباء للفصل بينه وبين ما عطف عليه لأنه معطوف على فبما نقضهم ، وقوله بل طبع الله عليها بكفرهم مستطرد بنفى قولهم قلوبنا غلف ، والعطف على بكفرهم مرجوح لأن أحد الكفرين مستقل بالسببية للطبع ، قاله فى غاية الأمانى ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ نسبتها إلى الزنا بعد ما رأوا منها الكرامات ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ مفتخرين ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ نعت أو بيان ، أى بزعم النصارى ، قالوه استهزاء أو ذكره الله به تعظيما أى بمجموع ذلك عذبناهم . قال تعالى تكذيباً لهم فى قتله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ المقتول والمصلوب وهو صاحبهم بعيسى أى ألقى الله عليه شبهه ، فظنوه إياه ، وهو شمعون صاحب عيسى ، رضى أن يلقى عليه شبه عيسى ليقتل بسببه أو منافق ذهب ليقتل عيسى ، فرفع عيسى وألقى عليه شبهه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ فى عيسى ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من قتله ، حيث قال بعضهم لما رأوا المقتول الوجه وجه عيسى والجسد ليس بجسده ، فليس به ، وقال آخرون بل هو هو ، ولا يخرجون من هذا الشك إذ ليس له بيان إلا فى القرآن وهم لا يؤمنون به ﴿مَا لَهُمْ بِهِ﴾ بقتله ﴿مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ استثناء منقطع أى لكن يتبعون فيه الظن الذى تخيلوه ، قال البيضاوى : ويجوز أن يفسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذى تسكن إليه النفس جزماً كان أو غيره ، فيتصل الاستثناء ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ قتلا ﴿يَقِينًا﴾ كما زعموا أو حال مؤكدة لنفى القتل أى متيقنين ، أو عدم قتله متيقن قيد للنفى ، دل عليه قوله ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إلى محل كرامته ، وهذا الوجه الأخير أولى لأن الأول قد علم مما تقدم . ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب على ما أراد ﴿حَكِيمًا﴾ فى صنعه كرفع عيسى إليه ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أحد ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ بعيسى ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾

يؤمن بالكتابي حين يعاين ملائكة الموت فلا ينفعه إيمانه . وهذا كالوعيد لهم ، والتحريض على معاجلة الإيمان به قبل أن يضطروا إليه ، ولا ينفعهم ، وقيل الضميران معاً لعيسى . أى قبل موت عيسى لما ينزل قرب الساعة كما ورد فى الصحيحين . وإن نافية والخبر عنه محذوف قامت صفته مقامه ، أى وما أحد من أهل الكتاب ، و «ليؤمنن» جواب قسم محذوف ، والاستثناء من أعم الأوصاف ، والموصوف مبتدأ مقدم أو فاعل للظرف ، أى وإن أحد من أهل الكتاب ، أو وإن من أهل الكتاب أحد ، والقسم وجوابه هو الخبر ، قال الزجاج : حذف أحد مطلوب فى كل نفى يدخله استثناء ، نحو ماقام إلا زيد ، أى ماقام أحد ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ﴾ عيسى ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ بما فعلوه لما بعث إليهم ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ أى بسبب ظلم عظيم من الكبائر التى عدت قبل ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ هم اليهود ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ هى التى فى قوله «حرمنا عليهم كل ذى ظفر .. الآية» أى ما حرمناها عليهم إلا بسببه ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه صدًا ﴿كَثِيرًا﴾ أوناساً كثيراً ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ فى التوراة وهو حرام فى سائر الشرائع ، وفيه دلالة على أن النهى للتحريم عند عدم الصارف ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ بالرشوة على الأحكام ، وسائر الوجوه المحرمة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ﴾ دون من آمن بعد ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلما فى الآخرة عطف على «حرمنا» ، وتعليل الأحكام القديمة بالأفعال الحادثة فعل شرعى لا تعليل عقلى ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ﴾ الثابتون ﴿فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ كعبد الله بن سلام ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ منهم ومن المهاجرين والأنصار ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ خبر «الراسخون» ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ نصب على المدح ، وقرئ بالرفع عطفاً على «الراسخون» ، أو مبتدأ والخبر «أولئك» ، ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ رفعه على الوجهين ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قدم عليه الإيمان بالأنبياء والكتب وما يصدقه من اتباع الشرائع لأنه المقصود بالآية ، ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾ بالنون للجمهور ، والياء لحمزة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنة ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ جواب لسؤال أهل الكتاب المنزل عليهم كتاباً من السماء وما بينهما استطراد لبعض قبائحهم : دلالة على أن ذلك السؤال ليس بأول منكر ارتكبوه ، فأخبرهم الله أن أمر محمد فى الوحى كسائر الأنبياء بقوله ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا﴾ والكاف نصب بمصدر محذوف ، أى إيحاء مثل إيحائنا ، أو على أنه حال من ذلك المصدر المحذوف ، وما مصدرية لا تفتقر إلى عائد على الصحيح ، أو موصولة والعائد محذوف ﴿إِلَى نُوحٍ﴾ بدأ به لأنه أول الرسل إلى الكفار ، وأنه آدم الثانى ، ومعجزته كانت فى نفسه ، عاش ألفاً ونيفاً ولم يشب ، ولم يسقط له سن ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ المعنى أنكم يا معشر اليهود تقرون بنبوة نوح والأنبياء المذكورين بعده ، وما أنزل على أحد منهم كتابا جملة مثل ما أنزل على موسى ، فلما لم يكن ذلك قادحاً فى نبوتهم فلا يقدح فى نبوة محمد إذ أنزل عليه كما أنزل عليهم ، ولما ذكرهم جملة خص جماعة منهم بالذكر اثنى عشر لفضلهم ، وهم المشاهير ، فقال ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ ابنيه ﴿وَيَعْقُوبَ﴾

ابن إسحق ﴿ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ أولاده ﴿ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا ﴾ أباه ﴿ دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ بالفتح للجمهور : اسم للكتاب المؤتى . والضم لحمزة . بمعنى مزبوراً أى مكتوباً . وكتاب داود مائة وخمسون سورة . ليس فيها حكم ، بل كلها تسبيح وتقديس وتمجيد . وثناء على الله . وإنما لم يذكر موسى فيهم لإنزال التوراة عليه جملة . والمقصود ذكر من لم ينزل عليه كتاب جملة واحدة . قاله فى لباب التأويل . وقال فى فتوح الغيب : لم يذكره فيهم ليبرزه بقوله « وكلم الله موسى تكليما » اختصاصاً له بالتكليم دونهم . اه . ﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ رُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل هذه السورة فى الأنعام والأنبياء والصافات ﴿ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ نمط آخر لذكر الرسل أعم من الأول . روى عن أبى ذر مرفوعاً أن جملتهم مائة وعشرون ألفاً والرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر عدد أهل بدر ، وليس فى الآية ما ينافيه ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ ﴾ بلا واسطة ﴿ تَكْلِيمًا ﴾ هذا منتهى مراتب الوحى ، وأكده بالمصدر دفعاً للتجوز ، ثم ثلث ذكرهم على أسلوب يجمعهم فى وصف عام على جهة المدح سار فى غيرهم بقوله ﴿ رُسُلًا ﴾ بدل من « رسلا » قبله أو تأكيد أو نصب على المدح ، وهو أوجه ﴿ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ بالثواب والعقاب ، أرسلناهم ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ ﴾ تقال ﴿ بَعْدَ ﴾ إرسال ﴿ الرُّسُلِ ﴾ إليهم فيقولوا « ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » فبعثناهم لقطع عذرهم ، واستدل بهذا الأشعرى على أن لا تكليف قبل البعثة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ﴾ فى ملكه يفعل ما يريد ﴿ حَكِيمًا ﴾ فى صنعه كإرسال الرسل لعدم اهتداء العقل إلى أحوال المعاد . ولما نزل إنا أوحينا إليك الآية قالوا ما نشهد لك بهذا فنزل ﴿ لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ ﴾ استدراك من مفهوم الكلام السابق من تكذيبهم إياه أى يبين نبوتك وأن المنزل عليك كلامه ﴿ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ من القرآن المعجز أى بجعله معجزاً خارقاً فالباء آلة أو يشهد لك بأن المنزل عليك كلامه . فالباء صلة ﴿ أَنْزَلَهُ ﴾ ملتبساً ﴿ بِعِلْمِهِ ﴾ استئناف يؤكد شهادته أى عالما به كما إذا رأيت فعلا متقناً تقول فعله بعلم ، أو عالماً بأنك أهل لذلك ، أو أنزله ملتبساً بعلمه بمصالح العباد أى مشتملا على بيانها أو محفوظاً من الشيطان ، فالجار والمجرور حال من الفاعل على الأولين . ومن المفعول على التاليين ؛ والكل بيان لصفة الإنزال ، أى أنزله بعلم تام وحكمة بالغة ، وفيه حجة قوية لأهل السنة فى إثبات العلم على المعتزلة القائلين عالم بلا علم ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ لك أيضاً بما شهد الله علموا ذلك بإخباره وعلمت شهادة الملائكة بإخبار الله الصادق ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ على ذلك بما أقام من الحجج ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالله ورسله ﴿ وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دين الإسلام بكتمهم نعت محمد ، وهم اليهود ﴿ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ عن الحق لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالله ﴿ وَظَلَمُوا ﴾ نبيه بكتمان نعته وعباده بإضلالهم ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ إن ماتوا على ذلك ، أو لا يستر قبائح أفعالهم بل يفضحهم فى الدنيا ويعاقبهم بالقتل والسبى والجلاء ، وفى الآخرة بالنار ، وهو

قوله ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ من الطرق يوم القيامة ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ مقدرين الخلود فيها إذا دخلوها ﴿ أَبَدًا ﴾ وفى ذكر الهداية تهكم ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ لا يصعب عليه ولا يستعظمه ، وفى الحديث القدسى « خلقت هؤلاء للنار ولا أبالى » . ولما قرر أمر النبوّة وبين الطريق الموصل إلى العلم بها ، ووعيد من أنكرها ، خاطب الناس جميعاً بالإجابة فقال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ والجارّ والمجرور فى الموضعين حالٌ الأول من الفاعل والثانى من المفعول ﴿ فَآمِنُوا ﴾ به إيماناً ﴿ خَيْرًا لَكُمْ ﴾ مما أنتم فيه واقصدوا خيراً لكم أو يكن خيراً لكم عند الكوفيين ، وأنكر البصريون حذف كان مع اسمه إلا فيما لابد منه ، لأنه يؤدى إلى حذف الشرط وجوابه ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا ﴾ به بعد ظهور الحق بالدلائل وهذا النصح ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فهو غنىٌّ عنكم ولا يضره كفركم ولا ينفعه إيمانكم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بخلقه من يؤمن ومن يكفر ﴿ حَكِيمًا ﴾ فى صنعه بهم ، لا يسوّى بين المؤمن والكافر فى الأجر ، ولما أزاح الشبهة عن حال محمد أراد إزاحتها عن عيسى عليهما السلام فقال ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ الإنجيل أى النصارى ﴿ لَا تَغْلُوا ﴾ تتجاوزوا الحد ﴿ فِي دِينِكُمْ ﴾ وهو رفع عيسى فوق منزلته ﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا ﴾ القول ﴿ الْحَقَّ ﴾ من تنزيهه عن الشريك والولد والحلول والاتحاد فى بدن الإنسان فنزهوا الله عن ذلك ، ولما منعهم من الغلو فى دينهم أرشدهم إلى الحق فى أمر عيسى فقال ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ وعيسى عطف بيان من المسيح ، لأنه أشهر منه ﴿ وَكَلِمَتُهُ ﴾ كن فكان من غير واسطة وتسميته بالكلمة تسمية الشىء باسم سببه ﴿ أَلْقَاهَا ﴾ أوصلها ﴿ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ وحصلها فيها ﴿ وَرُوحٌ ﴾ يحيى الموتى والقلوب صدر ﴿ مِنْهُ ﴾ تعالى بخلقه كسائر الأرواح ، وإنما أضافه إليه تشريفاً وتكريماً ، وفى تنكير روح تعظيم أيضاً أى روح أىّ روح ، وإنما للحصر ، أى لا تجاوزوه على هذا ، فليس كما زعمتم ابن الله أو إله معه ، أو ثالث ثلاثة ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ وعيسى من جملتهم ﴿ وَلَا تَقُولُوا ﴾ الآلهة ﴿ ثَلَاثَةٌ ﴾ الله وعيسى وأمه ، أو الإله ثلاثة أقانيم : الأبُ والابن وروح القدس . أى مركب منها ، يريدون بالأب الذات ، وبالابن العلم ، وبالروح الحياة . وضلالتهم ظاهرة ، فلا حاجة إلى إيراد خرافاتهم هنا بين كلام الله ، وقد رددناها فى كتبنا الأصولية كنظمى لوسطى السنوسى وغيره ﴿ انْتَهُوا ﴾ عن ذلك التثليث ، وأتوا ﴿ خَيْرًا لَكُمْ ﴾ منه ، وهو التوحيد ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ لا شريك له ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهاً له عن ﴿ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ لأنه يشبه الوالد ، والله ليس كمثله شىء ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكاً ، والملكية تنافى البنوّة ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ شهيداً على ذلك ، وحافظاً يوكل إليه الأمور : تقرير لغناه ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ ﴾ لم يتكبر ولم يأنف عن ﴿ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ﴾ من نكفت الدمع نحيته بأصبعى كيلا يُرى أثره علىّ ، فإن عبوديته شرف يتباهى به ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ عند الله كجبريل

وميكائيل لا يستنكفون أن يكونوا عبيداً لله ، وهذا من أحسن الاستطراد : ذكر للرد على من زعم أنها آلهة ، كارد على النصارى المقصود خطابهم ، فلا دليل فيه على تفضيل الملائكة على الأنبياء ، أو يقال غايته تفضيل المقربين من الملائكة على المسيح ، ولا يستلزم فضل أحد الجنسين على الآخر . انظر البيضاوى . قال فى غاية الأمانى : تمسك بهذا من فضّل الملائكة على الأنبياء بأن هذا أسلوب الترقى وهذا مستقيم لو سيق الكلام لبيان الأفضلية بين الفريقين ، وليس كذلك ، بل إنما سيق لدفع شبهة النصارى فى إلهية المسيح بأنه موجود من غير أب مع كمال العلم والقدرة على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، ولا شك أن الملائكة فى باب التجرد والاطلاع على المغيبات والقدرة على الأعمال الخارقة لا سيما المقربين منهم أعلى شأناً فى ذلك من عيسى عليه السلام ، وناهيك ماجرى على المؤتفكات بريشة من جناح جبريل عليه السلام ، والقول بأنه رد على النصارى وعبدة الملائكة مع كون السياق يأباه لا يدفع شبهة الترقى ، وكذا القول بأن غايته كون المقربين أفضل من عيسى . اه . ﴿ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ ﴾ عطف على الاستنكاف لأنه أخص من الاستكبار : لأنه تكبرٌ مع الإعراض . قاله فى غاية الأمانى . وقال البيضاوى : الاستنكاف دون الاستكبار ولذا عطف عليه . وإنما يستعمل حيث لا استحقاق عليه بخلاف التكبر فإنه قد يكون باستحقاق ﴿ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ فى الآخرة ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ ثواب أعمالهم ، سماها أجوراً تنبيهاً على استحقاقهم ودلالة على لزوم ثبوتها ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴾ عن عبادته ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ هو النار ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ تفصيل للمجازاة العامة ، المدلول عليها من فحوى الكلام ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ حجة قاطعة هو النبى أى معجزاته الواضحات ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ هو القرآن ، المعنى : جاءكم دلائل العقل وشواهد النقل ولم يبق لكم عذر ولا علة ، وسمى القرآن نوراً لهدايته إلى كل خير ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ﴾ يعنى بالله فى أن يثبتهم على الإيمان ويصونهم عن زيغ الشيطان ، أو بالنور وهو القرآن بالعمل به ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ ﴾ تنجيهم من عذابه وهى الجنة ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ زيادة عليها كرؤية الله ، وفيه إطلاق الحال على المحل ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ ﴾ إلى الله ، أو إلى الموعود ﴿ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ هو الإسلام ، أخره اهتماماً بالمقصود ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ فى الكلالة ، والمستفتى هو جابر بن عبد الله . وفى الصحيحين أن جابر بن عبد الله فى حجة الوداع كان مريضاً فدخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يعقل فتوضأ وصب عليه من وضوئه فأفاق فقال يارسول الله لا يرثنى إلا الكلالة فكيف الميراث ؟ فنزلت . وفى الترمذى : وكان لى تسع أخوات ﴿ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ تقدم الكلام فى تفسيرها أول السورة ﴿ إِنِ امْرُؤٌ ﴾ مرفوع بفعل يفسره ﴿ هَلَكَ ﴾ مات ﴿ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ ولا والد إذ لو كان

الأب لما ورثت الأخت شيئاً إجماعاً ، والجملة صفة امرؤ أو حال من المستكن فى هلك ﴿ وَلَهُ أُخْتٌ ﴾ لأبوين أو لأب ، الواو للحال أو للعطف ﴿ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ فرضاً والباقى لبيت المال إن لم يكن عاصب ، وأخذها النصف مع البنت ، والثلث مع البنتين فأكثر تعصيب لا فرض ، والكلام هنا فى الفرض ﴿ وَهُوَ ﴾ المرء أى الأخ كذلك ﴿ يَرِثُهَا ﴾ أى أخته إن كان الأمر بالعكس : جميع ما تركت ﴿ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ﴾ فإن كان لها ولد ذكر فلا شىء له أو أنثى فله ما فضل عن نصيبها ، ولو كانت الأخت أو الأخ من أم ؛ ففرضه السدس كما تقدم أول السورة ﴿ فَإِنْ كَانَتَا ﴾ الأختان ﴿ اثْنَتَيْنِ ﴾ أى فصاعداً والضمير لمن يرث ثنى حملا على المعنى ﴿ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ الأخ ﴿ وَإِنْ كَانُوا ﴾ أى الورثة ﴿ إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ ﴾ منهم ﴿ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ شرائع دينكم ﴿ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ أى كراهة أن تضلوا أو لئلا تضلوا لحذف لا ، وهو قول الكوفيين ، وفيه أن الذى بينه من أول السورة إلى الخاتمة أحكام أصولا وفروعاً ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ كامل العلم بمصالح العباد فى المحيا والممات ، ومنها الميراث .

روى الشيخان عن البراء : أن هذه الآية آخر آية نزلت أى من الفرائض . رزقنا الله فهم ما فى القرآن والعمل به . والموت على الإيمان .

[تم تفسير سورة النساء]

سورة المائدة

مدنية مائة وعشرون أو وثنتان أو وثلاث آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ العهود المؤكدة التى بينكم وبين الله كالتكاليف ، وبين الناس كالأمانات والمعاملات . أى قوموا بموجبها ، والأمر للوجوب فى الواجبات والندب فى غيرها ، ولما كانت السورة مشتملة على أمهات الأحكام أصولا وفروعاً ، أجملها أولا براعة للاستهلال ، ثم فصلها بقوله ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾ الإبل والبقر والغنم وما شابهها ، كالظباء وبقر الوحش أكلا بعد الذبح . والبهيمة كل حىّ لا يميز ، وقيل ذوات الأربع ، وإضافتها إلى الأنعام للبيان ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ تحريمه فى « حرمت عليكم الميتة ... الآية » فالاستثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلا ، والتحريم لما عرض من الموت ونحوه ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ جمع حرام أى محرمون و« غير » حال من ضمير « لكم » و« وأنتم حرم » حال من فاعل « محلى » و« الصيد » يحتمل المصدر والمفعول ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ من تحليل وتحريم لا اعتراض عليه ، ولا يسأل عما يفعل ، وهذا تقوية لهذه

الأحكام الشرعية المخالفة لأحكام الجاهلية ، قال ابن عطية : هذه الآية مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذى بصر بالكلام ، وقد حكى النقاش أن أصحاب الكندى قالوا للكندى : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن ، فقال : نعم أعمل لكم مثل بعضه ، فاحتجب أياماً ثم خرج فقال : والله ما أقدر عليه ، ولا يطيق هذا أحد ، إنى فتحت المصحف فخرج أول المائدة ، فنظرت ، فإذا هو قد أمر بالوفاء ونهى عن النكث وحلل تحليلا عاما ، ثم استثنى استثناءً بعد استثناء ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته فى سطرين ولا يستطيع أحد أن يأتى بهذا ، إلا فى مجلدات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا﴾ لا تتهاونوا فى ﴿شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ مناسك الحج ، جمع شعيرة ، اسم ما جعل شعاراً غلب على معالم الحج : أعماله ومواقفه : لأنها علامات الحج والإضافة للتشريف ، أى لا تفعلوا ما لا يحل فيها . وعن ابن عباس كان المشركون يحجون ويُهدون ، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنهاهم الله عن ذلك ، وعنه فى معنى لا تحلوا شعائر الله هى أن تصيد وأنت مُحرِمٌ . وقيل شعائر الله شرائعه ، لا تحلوا شيئاً من فرائضه ونواهيه بالترك والفعل ﴿وَلَا﴾ تحلوا ﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ بالقتال فيه وتقدم . أو بالنسىء فيه وسيأتى ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ ما يهدى للكعبة من النعم بالتعرض له بالغصب وبالمنع من بلوغ محله ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ جمع قلادة ما يقلد به الهدى من شجر الحرم علامة أنها لله ، المراد ذوات القلائد من الهدايا من عطف الخاص على العام ، لأنها لتعريف الهدايا أو لا تحلوا نفس القلائد فضلا عن البُدْن المقلدة ﴿وَلَا آمِّينَ﴾ قاصدين ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ لزيارته وهم الحجاج والعمّار كافرين أو مسلمين لا تحلوا التعرض لهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا﴾ رزقاً ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بالتجارة ﴿وَرِضْوَانًا﴾ منه بقصده . روى أنها نزلت عام القضية فى حجاج اليمامة ، لما همّ المسلمون أن يتعرضوا لهم بسبب كون « حطم » الذى أغار على سرح المدينة غدراً فيهم ، فنهوا عن ذلك ، وعلى هذا فهو منسوخ بآية براءة ، وجملة «يبتغون» حال من المستكن فى « آمِّين » لا صفة له ، لأنه عامل ، والمختار أن اسم الفاعل الموصوف لا يعمل ، وفائدتها التنبيه على المانع ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ من الإحرام ﴿فَاصْطَادُوا﴾ أمر إباحة إن كان للمعاش ، ويندب للتوسعة على العيال ، ويجب لإحياء نفس عند الضرورة ، ويكره للهو ، ويحرم للتعذيب فقط ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يحملنكم ولا يكسبنكم ﴿شَنَآنُ﴾ بفتح النون للجمهور ، وسكونها لابن عامر وابن عياش ﴿قَوْمٍ﴾ شدة بغضهم وهو مصدر أضيف إلى المفعول أو الفاعل لأجل ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عام الحديبية عن العمرة مفعول له بتقدير اللام على فتح الهمزة قراءة الجمهور . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسرها : شرط أغنى عن جوابه ، لا يجرمنكم ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾ تتجاوزوا عليهم بالانتقام بالقتل وغيره ، مفعول ثان ليجرمنكم ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ﴾ فعل الخير كالعفو والإغضاء ﴿وَالتَّقْوَىٰ﴾ اتقاء المحارم ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا﴾ فيه حذف إحدى التاءين فى الأصل ﴿عَلَى الْإِثْمِ﴾ المعاصى ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ التعدى فى حدود الله كالظلم ، وعند ابن عباس : البر متابعة السنة ، والعدوان

البدعة . وفى مسلم : البرّ حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس . وفى البخارى : آنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . قيل : هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً ؟ قال : تمنعه من الظلم ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فانتقامه أشد ، ثم عد ما يتلى مما استثنى من بهيمة الأنعام بقوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ الميت حتف أنفه ، وكل ما لم يذك الذكاة الشرعية أى أكلها ﴿ وَٱلدَّمُ ﴾ المسفوح كما فى الأنعام كانوا يفصدون البعير ويأكلون دمه ﴿ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ تقدم فى البقرة ﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ ﴾ الميتة خنقاً بكحبل بقصد أولا ﴿ وَٱلْمَوْقُوذَةُ ﴾ المقتولة بضرب كخشب : كانوا يضربونها حتى تموت فيأكلوها ﴿ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ ﴾ الساقطة من مكان عال فماتت ﴿ وَٱلنَّطِيحَةُ ﴾ المقتولة بنطح أخرى لها ، والتاء لعدم ذكر الموصوف ﴿ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ أى ما بقى مما افترسه ذو ناب أو ظفر أو مخلب من الحيوان فمات ، وكانت العرب تأكل هذه المذكورات ولم تعتقدها ميتة بل الميتة عندهم ما مات حتف أنفه بالوجع ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ أدركتم الروح فيه من هذه الأشياء فذكيتموه الذكاة الشرعية بذبح المذبوح ونحر المنحور وعقر غير المقدور عليه من الوحش ، ولا تصح الذكاة عند مالك إلا بقطع الحلقوم والمرىء والودجين ، ولم يشترط الشافعى قطع الودجين ، ولو ذبح من القفا لم يؤكل عندنا ويؤكل عند الشافعى فالاستثناء متصل أو منقطع : أى لكن ما ذكيتم من غيرها فكلوه ، ولها أربعة أحوال : ما مات منها قبل الذكاة لم تؤكل إجماعاً ، وما أنفذت مقاتلها لم تؤكل باتفاق فى المذهب ، وإن لم تنفذ مقاتلها ورجيت ذكيت وأكلت إجماعاً ، وإن أيس من حياتها ولم تنفذ ذكيت وأكلت عند ابن القاسم وفاقاً للشافعى وأبى حنيفة ، وقيل لا تؤكل . والفرق بين الشك فتؤكل وبين اليأس فلا تؤكل ، والحلقوم : مجرى النفس . والمرىء ـ كأمير ـ مجرى الطعام : والودجان : عرقان بصفحتى العنق يقطعان عند الذبح ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ جمع نصاب وهى الأصنام أى على اسمها وتقدم ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا ﴾ تطلبوا إظهار القسم أى النصيب والحكم ﴿ بِٱلْأَزْلَٰمِ ﴾ جمع زلم بفتح الزاى وضمها مع فتح اللام ـ قدح صغير لا ريش له ولا نصل ، ويقال للسهم أول ما يقطع : قِطعٌ : إن نحت فبرى ، وإن قوّم فقدحٌ ، وإن ركب مع النصل فسهم : أى حرم عليكم طلب معرفة ما قسم لكم دون ما لم يقسم بالأزلام ، وهى ثلاثة : مكتوب على أحدها أمرنى ربى ، وعلى الآخر نهانى ربى . والثالث غفلٌ : يجعلونها فى جعبة يجيلونها ثم يخرجونها ، فإن خرج أمرنى فعلوا ، أو نهانى تركوا ، أو الثالث استأنفوا ، أو المراد استقسام الجزور بالأقداح السبعة على الأنصباء المعلومة فى الميسر ، وتقدم ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ الاستقسام أو جميع ما تقدم ﴿ فِسْقٌ ﴾ خروج عن الشرع لأنه توسل إلى علم الغيب من غير الله ، وهو معصية وضلال ، إن اعتقد أن ذلك طريق إليه ، وافتراء على الله إن أريد بربى الله ، وشرك إن أريد به الصنم وكذا لا يجوز طلب الغيب من الكهنة وأهل التنجيم ، وليست منه القرعة الشرعية ، لما فى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ﴿ ٱلْيَوْمَ ﴾ أى يوم

عرفة عام حجة الوداع ، إذ فيه نزل ، أو المراد : الآن ، لايوم بعينه ﴿ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ﴾ من إبطاله أو أن ترتدوا عنه إلى دينهم بتحليل هذه الخبائث لما رأوا من قوته ، أو يئسوا من أن يغلبوكم ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ بعد إظهار الله دينه ﴿ وَاخْشَوْنِ ﴾ أخلصوا الخشية لى ، وخافوا مخالفة أمرى ، ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ بدل من اليوم ، وفى البخارى : نزلت والنبى صلى الله عليه وسلم واقف على ناقته بعرفة يوم الجمعة ، ومعنى الإكمال : أن الحج آخر أركان الإسلام الخمسة ، اتفاقاً ، قاله فى غاية الأمانى . وقال البيضاوى : أكملت لكم دينكم بالنصر والإظهار على الأديان كلها ، أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد . وقال الخازن فى لباب التأويل : يعنى بالفرائض والسنن والحدود والأحكام والحلال والحرام ؛ فلم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام ولا شىء من الفرائض اهـ . وروى ابن جرير أن عمر بن الخطاب بكى لما نزلت ، فقال له عليه السلام : « ما يبكيك ؟ » فقال : كنا فى زيادة من ديننا أما إذ أكمل ، فإنه لا يكمل شىء إلا نقص ، فقال صدقت . وعاش عليه السلام بعدها واحداً وثمانين يوماً ، وتوفى يوم الاثنين بعد مازاغت الشمس لليلتين خلتا من ربيع الأول ، أو لاثنتى عشرة منه . قال الخازن : وهو الأصح ـ سنة إحدى عشرة من الهجرة ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ بإكمال الدين وبدخول مكة آمنين وتطهير البيت من الأصنام ومنع المشركين من دخول الحرم بعد العام وهدم الجاهلية ﴿ وَرَضِيتُ ﴾ اخترت ﴿ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ من بين الأديان ، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق ، كما فى الحديث . والكمال إزالة النقصان فى الصفات ، والتمام فى الذات ولذا عبر عن الأول فى الدين لأنه لا نقص فى ذاته من أول الإسلام ، لكن كمل بظهوره على الأديان كلها ، وهو من صفاته وبه تم ذات النعمة ، و « ديناً » حال من الإسلام أى رضيته لكم ، حين بلغ صفته اليوم وهو نهاية الكمال ، فالزموه ولا تفارقوه ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ متصل بالمحرمات قبل وما بينهما اعتراض يؤكد معنى التحريم وهو أن تناولها فسوق ، وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضى : أى فمن اضطر ﴿ فِي مَخْمَصَةٍ ﴾ مجاعة إلى أكل شىء من هذه المحرمات ﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ ﴾ مائل قاصد ﴿ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ له ﴿ رَحِيمٌ ﴾ به فى إباحة الفعل ، والمائل هو قاطع الطريق ، أو الباغى ، وتقدم مستوفى فى البقرة . ولما تلا عليهم ما حرم سألوا عما أحل لهم فنزل ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ يا محمد ﴿ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ﴾ من المطاعم ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ المستلذات . مما لم يدل نص ولا قياس على حرمته ﴿ وَ ﴾ صيد ﴿ مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ ﴾ الكواسب من الكلاب والسباع والطير أو جواب عما يجوز اتخاذه من الكلاب فلا حاجة إلى تقدير مضاف لأنه الذى سألوه ، وقوله « أحل لكم الطيبات » زيادة فى الجواب بالأهم ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ حال مؤكدة ، أى مكلبين آداب الصيد ، والمكلب مؤدب الجوارح من كلبت الكلب بالتشديد أرسلته على الصيد ، ويقال له الكلاب وشرطه أن يكون مسلماً مميزاً ويرى الصيد ويعينه وينوى اصطاده ويسمى الله عند الإرسال أو الرمى ، فإن ترك

التسمية فكحكم الذبح ، وتقدم . ويتبع الصيد بعد الإرسال أو الرمى ، فإن رجع ثم أدركه غير منفوذ المقاتل ذكاه ، وإن أنفذت لم يأكل إلا أن يتحقق أنمقاتله أنفذت بالصيد ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ ﴾ حال من ضمير مكلبين ، ﴿ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ من الحيل وطرق التأديب بإلهام وتجربة ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ وإن قتلنه وإن أكلت منه فى مذهب مالك ، لحديث أبى داود « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل وإن أكل » خلافاً للشافعى وغيره ، واحتجوا بحديث الصحيحين « فإن أكل فلا تأكل » ولا يحل صيد غير المعلمة ، وعلامة المعلمة أن تنتقل عن طبعها الأصلى فتصير منصرفة بحكم الصائد كالآلة تستشيل إن أشيلت وتنزجر إذا زجرت ، وتجىء إذا دعيت ، وأما ترك الأكل فاشترطه الشافعى مطلقاً ولم يشترطه مالك مطلقاً ، واشترطه الحنفى فى السباع دون الطير ، وفى الصحيحين أن صيد السهم إذا أرسل وذكر اسم الله عليه كصيد المعلم من الجوارح ، لكن إن كان مسموماً لا يؤكل ما لم تدرك ذكاته ، وإن أدركت أكل إن أمن السم ، ﴿ وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ على ما علمتم عند إرساله ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ احذروا مخالفته فيما أحل لكم، أو حرم عليكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ فيؤاخذكم بما جلّ ودقّ : تخويف لمن خالفه ﴿ ٱلْيَوْمَ ﴾ بدل من « اليوم أكملت لكم » والسؤال والجواب بينهما اعتراض ﴿ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ ﴾ كرر للتأكيد ولبيان أنه كما أكمل الدين فى ذلك الوقت وأتم النعمة فيه فكذلك إحلال الطيبات إنما تم فيه ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ ﴾ الذبائح وغيرها ، صرحائهم ودخلائهم كمتنصرة العرب من بنى تغلب وغيرهم ، خلافاً للشافعى فإنه لم يجوّز ذبائح المتنصرة ﴿ حِلٌّ لَكُمْ ﴾ أن تأكلوه لاحتراسهم عن النجاسات والقاذورات فى دينهم بخلاف المجوس وعبدة الأصنام فى الذبائح وغيرها . قال ابن العربى فى الأحكام : المجوس الذين لا تؤكل ذبائحهم لا يؤكل طعامهم ، إذ يستقذرون فى أوانيهم ، فغسل آنية المجوس عند إرادة الاستعمال فرض ، وغسل آنية أهل الكتاب فضل . اه . لكن قال فى لباب التأويل : وأجمعوا على أن المراد بطعام الذين أوتوا الكتاب ذبائحهم خاصة لأن سائر الطعام لا يختلف باختلاف من تولاه من كتابى أو غيره ، وإنما تختلف الذكاة اه . قلت : ولعل ابن العربى راعى تنجس طعام غير أهل الكتاب غالباً ، وصاحب اللباب راعى أصل الطعام والله أعلم . ﴿ وَطَعَامُكُمْ ﴾ أى إطعامكم إياهم ﴿ حِلٌّ لَهُمْ ﴾ وإن كانوا كافرين فلاجناح عليكم أن تطعموهم وتبيعوه منهم ، أوطعامكم حل لهم ، فليس كالنكاح ذكر للتميز بين النوعين ﴿ وَٱلْمُحْصَنَاتُ ﴾ الحرائر العفائف ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ ﴾ حث على الأولى أو تحريم لغيرهن وتقدم التفصيل فى الإماء ﴿ وَٱلْمُحْصَنَاتُ ﴾ الحرائر ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ وإن كن حربيات حل لكم أن تنكحوهن لكن تكره الحربيات . ولا يجوز نكاح إمائهم مطلقاً خلافاً لأبى حنيفة ، وفسر المحصنات بالعفائف ﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن ، المراد التزام الإيتاء كما فى المسلمات وإيثار الإيتاء مبالغة حثاً على الأولى ﴿ مُحْصِنِينَ ﴾ أعفة بالتزوج دفع لتوهم حل الأجر على معناه ، واستدل بظاهره الإمام أحمد ، فمنع عقد

الفاجر على العفيفة ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ غير مجاهرين بالزنا بهن، حال مؤكدة ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ منهن، تسرون بالزنا بهن، جمع خدن: الصديق يقع على الذكر والأنثى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ أى يرتد بإنكار شرائع الإسلام ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ الصالح، وتقدم فى البقرة ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إذا مات على ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أى أردتم القيام إليها من إقامة المسبب مقام السبب، أو اللازم عن الملزوم للإيجاز وأنتم محدثون: فالخطاب للمحدثين بقرينة الحال، وبتصريحه فى البدل للإجماع على عدم وجوب الوضوء على من لم يحدث، والوضوء لكل صلاة مستحب عند الجمهور، خلافاً لمن أوجبه لظاهر الآية لأنه خلاف الإجماع ولأنه عليه السلام صلى الخمس بوضوء واحد يوم الفتح، فقال له عمر: صنعت شيئاً لم تكن تصنعه، فقال عمداً فعلته، ومن قال الأمر فى هذه الآية الندب تخصيص لا دليل عليه، وكذا من ادعى النسخ، لأن المائدة نزلت بعد الفتح فى آخر ما نزل، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ والغسل إسالة الماء مع الدلك عند المالكية خلافاً للشافعية والوجه مابين منبت الشعر المعتاد إلى آخر الذقن طولا، وما بين الأذنين عرضاً ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أى معها جمع مرفق بالكسر والفتح، منصل الذراع والعضد، والجمهور على وجوب غسله احتياطاً واتباعاً للسنة أى فعل النبي صلى الله عليه وسلم فى إدخاله ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ الباء للتأكيد، أى امسحوا جميع رءوسكم، فسح جميعه واجب عند مالك، وأصح الروايات عن أحمد، والواجب عند الحنفى ربع الرأس، وعند الشافعى أقل ما يصدق عليه المسح، وبعض شعرة، ولكل أدلة فى الأحاديث والقياس ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنصب لنافع، وابن عامر، والكسائى وحفص، عطفاً على أيديكم والجر على الجوار للباقين ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ أى معهما عند الجمهور، كما بينته السنة، وهما العظمان الناتئان فى كل رجل، عند مفصل الساق والقدم، والفصل بين الأيدى والأرجل المغسولة بالرأس الممسوح يفيد وجوب الترتيب فى طهارة هذه الأعضاء عند الشافعى وعند مالك وغيره سنة ووجوب النية فيه ثابت بحديث «إنما الأعمال بالنيات» خلافا لأبى حنيفة، وفى وجوب الموالاة عند القدرة وعدم النسيان وسنيتها قولان عندنا، وهذه فرائض الوضوء. ومابقى سنن أوفضائل والإجماع على استحسان مسح الرأس باليدين جميعا، وعلى الإجزاء بواحدة، ولو بإصبع واحدة على المشهور. وقيل هذا لا يجزئ لأنه لعب إلا لضرر مرض ونحوه. فلا يختلف فى الإجزاء. وأوجب أبو حنيفة مسح الأذنين والظاهرية السواك قبله. وقوم التسمية ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ بالغوا فى الطهارة بغسل البدن كله. أصله تطهروا: أدغمت التاء: فاجتلبت الهمزة. وتعميم البدن واجب إجماعا. والدلك خلافا للشافعى وأحمد وأبى حنيفة كالفور مع الذكر والقدرة والنية خلافا لأبى حنيفة، وهذه الفرائض. وأوجب أبو حنيفة فيه المضمضة والاستنشاق والشافعى تخليل الشعر وحل عقاصه ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ مرضا يضره الماء ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ أى أحدث ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾

سبق مثله فى آية النساء ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ فى هذه الأحوال الحقيقة ، أو تقديراً باحتياجه لعطش محترم ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ طاهراً ، أو اقصدوه بنية إباحة الصلاة به عند جميع الأئمة ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ وقد سبق وكرر ليتصل الكلام فى بيان أنواع الطهارة ، فإن عدم الماء والصعيد سقطت الصلاة ، وقضاؤها عند مالك ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أدنى ضيق بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ من الذنوب بذلك كله ومن الأحداث بالوضوء والغسل لا التيمم ، إذ لا يرفع الحدث خلافاً لأبى حنيفة جعل التيمم بدل الوضوء إذ قل من يعدم التراب ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ ببيان شرائع الدين والتوسعة فى أسباب الطاعات ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمه ، وفيه إشارة إلى كون الإنسان كفوراً . وفى الآية سبعة أمور كلها مثنى ، طهارتان أصل وبدل ، والأصل مستوعب وغير مستوعب ، وغير المستوعب باعتبار الفعل غسلٌ ومسحٌ . وباعتبار المحل محدود وغير محدود ، وآلتهما مائع وجامد ، وموجبهما حدث أصغر وأكبر ، والمبيح للعدول إلى البدل مرض أو سفر ، والموعود عليهما تطهير الذنوب وإتمام النعمة ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام وغيره ، ليذكركم المنعم ، ويرغبكم فى شكره ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ ليلة العقبة أو بيعة الرضوان أو عند مبايعة الرسول وكان كل من أسلم يبايعه على السمع والطاعة فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ للنبى ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ حين بايعتموه فى كل ما تأمر به وتنهى عنه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى نقض الميثاق ونسيان النعمة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بخفيات الضمائر ، فغير ذلك أولى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ﴾ قائمين ﴿لِلَّهِ﴾ بحقوقه ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل القريب والبعيد ، والصديق والعدو ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ أى الكفار ﴿عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ فيهم فتعتدوا إلى ما لا يحل ، كمثلة وقذف وقتل نساء وصبيان : نهىٌ عن ترك العدل فى المشركين ، فما ظنك بالمسلمين ﴿اعْدِلُوا﴾ فى العدو والولى ﴿هُوَ﴾ أى العدل ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ والجور مقتضى الهوى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم به ، وعد ووعيد ، ولنا بينهما بقوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وعداً حسناً وهو ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هو الجنة ، وحذف ثانى مفعولى «وعد» استغناء ببيانه وهو «لهم مغفرة» وقيل الجملة فى موضع المفعول فإن الوعد ضرب من القول ، ثم أتبع الوعيد بقوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ فى الوعيد : وعد للمؤمنين وتطييب لقلوبهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾ هم قريش ، كما يأتى فى الفتح أو هم بنو النضير حين أمروا من يطرح رحى على النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره جبريل بذلك فقام وتركهم ، وعلى هذا القول الجمهور . قال عبد الرحمن الثعالبى : ويؤيده ما يأتى فى الآيات فى غدر يهود ، ونقضهم المواثيق . أو هم المشركون بنو محارب الذين ودُّوا أن يميلوا على المسلمين فى الصلاة ميلة واحدة بنخلة فى غزوة ذات الرقاع كما تقدم

أو المراد الأعرابى الذى وجد الرسول تحت الشجرة نائماً ، فسل سيفه عليه ، فكفه الله وسقط السيف من يده ، فأخذه الرسول ثم عفا عنه ، وهذا ما فى البخارى ومسلم والله أعلم ﴿ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ ليفتكوا بكم ﴿ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ وعصمكم مما أرادوا بكم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى أمره ونهيه ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فإنه الكافى لإيصال الخير ، ودفع الضير ، وأعاد المظهر لدلالته على النعوت الموجبة للتوكل عليه . ولما أمر بحفظ الميثاق ذكر نقض بنى إسرائيل ميثاقهم وما حل بهم تحذيراً للسامعين بقوله ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ويعملوا بما فى التوراة فنقضوه ﴿ وَبَعَثْنَا ﴾ فيه التفات عن الغيبة : أقمنا ﴿ مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ كفيلا شهيداً قائماً بأمر قومه من كل سبط نقيب ، يكون كفيلا على قومه بالوفاء بالعهد توثقة عليهم . روى أن بنى إسرائيل لما فرغوا من فرعون واستقروا بمصر ، أمرهم الله بالمسير إلى « أريحاء » قرية بالشام يسكنها الجبابرة الكنعانيون ، وقال إنى كتبتها لكم داراً وقراراً فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها ، فإنى ناصركم ، وأمر موسى أن يأخذ من كل سبط كفيلا عليهم بالوفاء بما أمروا ، فأخذ عليهم الميثاق ، واختار منهم النقباء ، وسار ، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون الأخبار ، ونهاهم أن يحدثوا قومهم فرأوا أجراماً عظيمة ، فرجعوا وحدثوا قومهم إلا كالب بن يوقنا ، من سبط يهوذا ، ويوشع بن نون من سبط افرائيم بن يوسف ﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ بالعون والنصر ، ثم ابتدأ الكلام مخاطباً لهم بإزالة العقاب وإيصال الثواب على خمسة شروط بقوله ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ ﴾ المفروضة ﴿ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ﴾ المفروضة عليكم ﴿ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي ﴾ جميعاً ، وأخره لإيمانهم بما تقدم من الصلاة والزكاة بخلاف جميع الرسل إعلاماً لهم بأن الإيمان لا يتم إلا بجميعهم ، واكتفى بهما ، لأنهما أما العبادات ﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ نصرتموهم من العزر ، وهو المنع والذب والردع ، ومنه التعزير ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بالإنفاق المندوب فى سبيله ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ كناية عن إزالة العقاب ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ كناية عن إيصال الثواب ﴿ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ الميثاق المعلق به الوعد العظيم ﴿ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أخطأ الطريق المستقيم من إضافة الصفة إلى الموصوف ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ ﴾ ما زائدة للتأكيد ﴿ مِيثَاقَهُمْ ﴾ بتكذيب الرسل بعد موسى وقتلهم ، ونبذ الكتاب وراء ظهورهم ﴿ لَعَنَّاهُمْ ﴾ أبعدناهم من رحمتنا ، وأهناهم بالمسخ وضرب الجزية ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ يابسة صلبة لا تلين ولا تنفعل بالآيات ، ولا تفارق الكفر ؛ والقسوة : اليبس والصلابة مجاز عن عدم تأثرها بالآيات ، وقرأ حمزة والكسائى قسية ، وهى أبلغ ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ بيان لقسوتها إذ لا قسوة أشد من تحريف كلام الله والافتراء عليه ﴿ وَنَسُوا ﴾ تركوا ﴿ حَظًّا ﴾ نصيباً ﴿ مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ فى التوراة من اتباع محمد ، أوحرفوا الكلم فنسوا بشؤم ذلك الذنب حظاً وافياً من العلم ، وعن ابن مسعود

أن المرء يفسى بعض العلوم بالمعصية وتلا الآية . وفى الجواهر نص على سوء فعلهم بأنفسهم أى قد كان لهم حظ عظيم فيما ذكروا به ، فنسوه وتركوه . اهـ . ومن تبعيضية والنسيان مجاز عن الترك أو من للابتداء ﴿ وَلَا تَزَالُ ﴾ فيما يأتى من الزمان خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ ﴾ خيانة ﴿ مِنْهُمْ ﴾ بنقض العهد وغيره لأن ذلك عادة آبائهم مصدر كالعافية أو وصف لمقدر كنفس وفرقة أو التاء للمبالغة كراوية ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ وهم من أسلم ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ تجاوز عن ذنبهم ﴿ وَاصْفَحْ ﴾ أعرض بترك المعاتبة على الخيانة فلا نسخ فى هذا بآية السيف ، لأنه فيما يتعلق به من خياناتهم ولإطباق الجمهور على ألا نسخ فى المائدة . ولقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ لحسن موقعه على ذلك التقدير ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾ متعلق بقوله ﴿ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ﴾ كما أخذنا على بنى إسرائيل اليهود ، ولم يقل ومن النصارى إشارة إلى أنهم ليسوا من النصارى إلا زعماً وادّعاءً ، وإعلاماً بأنهم الذين ابتدعوا هذا الاسم وسموا به أنفسهم لا أن الله سماهم به يعنى كتبنا عليهم فى الإنجيل أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ ونقضوا الميثاق ﴿ فَأَغْرَيْنَا ﴾ ألزمنا ، من غرى بالشىء لصق به ﴿ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ بتفرقهم : نسطورية ويعقوبية وملكانية ، كل فرقة تكفر الأخرى . أو بينهم واليهود ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ ﴾ فى الآخرة ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ فيجازيهم عليه ، وترتيب اللعن على نقض اليهود ، ووصفهم بالقسوة والخيانة والاكتفاء فى النصارى بالإغراء ونسيان الذكر ، دليل على غلوّ اليهود فى الكفر ، وأنهم أسوأ حالا من النصارى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ اليهود والنصارى خطاب للجنس بعد بيان حال كل فريق ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾ محمد ﴿ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ التوراة والإنجيل ، كآية الرجم وصفته عليه السلام ، وبشارة عيسى به ﴿ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ من ذلك ، فلا يبينه إذا لم يكن فيه مصلحة إلا افتضاحكم أو عن كثير منكم فلا يؤاخذه بجرمه ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ ﴾ هو النبى ﴿ وَكِتَابٌ ﴾ قرآن ﴿ مُبِينٌ ﴾ أو كلٌّ للقرآن قدم أشرف وصفيه ؛ والمبين من أبان لازماً ، ومتعدياً . ولم يعطفه لاستقلاله بالهداية ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ ﴾ وحد الضمير لأن المراد بهما واحد ، أو لأنهما كواحد فى الحكم ﴿ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ ﴾ بأن آمن به واتبع ما ارتضاه من الدين ﴿ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ طرق السلامة أو سبل الله ، لأن السلام من أسمائه ﴿ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ الكفر ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ الإيمان ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ بإرادته ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين الإسلام ، وجمع السبل تعظيما أو لإرادة الفروع ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ اتحد اللاهوت بالناسوت ، وهم اليعقوبية فرقة من النصارى ، والقائلون ثالث ثلاثة هم النسطورية والمدعون بالأقنومية هم الملكانية ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ ﴾ أن يدفع ﴿ مِنَ ﴾ عذاب ﴿ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أو من يمنع من قدرته وإرادته شيئاً ؟ ﴿ إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

أى لا أحد يملك ذلك ولو كان المسيح إلهاً لقدر على ذلك فهو مقهور قابل للفناء كسائر الممكنات ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ كيف شاء، ومن ذلك عيسى وأمه، وأنى يتوهم لشىء شأن الألوهية ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن ذلك خلق عيسى من غير أب إزاحة لما عرض لهم من الشبهة فى أمره، والمعنى أنه تعالى قادر على الإطلاق، يخلق من غير أصل كما خلق السموات والأرض ومن أصل كما بينهما، ومن أصل ليس من جنسه كآدم أو من جنسه ذكر وحده كحواء أو أنثى وحدها كعيسى أو منهما كسائر الناس ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ﴾ أى كل منهم ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ أى كأبنائه فى القرب والمنزلة وهو كأبينا فى الرحمة والشفقة ﴿وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ قال فى لباب التأويل: جملة الكلام أن اليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم فضلا على من سواهم بسبب أسلافهم الأفاضل حتى انتهوا فى تعظيم أنفسهم إلى أن قالوا هذه المقالة، فأكذبهم الله بقوله ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ بالمسخ والنار أياماً معدودة على زعمكم، ولا يعذب الأب ولده، ولا الحبيب حبيبه ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ﴾ جملة ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ من البشر، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ مؤمناً كان أو كافراً إن لم يتب ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كرره ليرتب عليه أمر المعاد، كما رتب على الأول أمر المبدأ ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع فيجازى كل أحد عن عمله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ شرائع الدين أو ما كنتم تكتمون، أو لازم بمعنى يبذل لكم البيان والجملة فى موضع الحال ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ﴾ انقطاع متعلق بجاء ﴿مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أحوج ما يكون لتعدوه أعظم نعمة إذ لم يكن بينه وبين عيسى رسول، ومدة ذلك ستمائة سنة، كما فى البخارى عن ابن عباس. وقيل خمسمائة وستون، وقيل كان بينهما أربعة أنبياء، ثلاثة من بنى إسرائيل، وواحد من العرب، خالد بن سنان العبسى وبين موسى وعيسى ألف نبىّ ﴿أَن تَقُولُوا﴾ لئلا تقولوا إذا عذبتم معتذرين ﴿مَا جَاءَنَا مِن﴾ زائدة ﴿بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ لا تعتذروا بذلك ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ فلا عذر لكم إذن ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على الإرسال تترى، وعلى فترة ﴿وَ﴾ اذكر لهم ما كان غيباً فى كتبهم ليتحققوا نبوتك وهو ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ﴾ أى منكم ﴿أَنبِيَاءَ﴾ إذ لم يبعث فى أمة ما بعث فى بنى إسرائيل من الأنبياء ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أى أحراراً تملكون أنفسكم بعد أن كنتم عبيداً فى أيدى القبط، وعن ابن عباس أصحاب خدم وحشم قال قتادة كانوا أول من ملك الخدم ولم يكن لمن قبلهم خدم ﴿وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ من المن والسلوى وفلق البحر وغير ذلك ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ المطهرة بالأنبياء، وهى أرض المحشر ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فرض عليكم دخولها وسكناها، أو كتبها فى اللوح أنها تكون لكم إن أطعتم، تشجيع لهم، وهى الشام كله من نهر الفرات إلى وادى العريش، الوادى الأيمن، وقيل هى الطور وما حوله، وقيل هى أريحاء.

وفلسطين وبعض الأردن ، وقيل هي دمشق ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ إلى مصر أو بمخالفة موسى ﴿فَتَنْقَلِبُوا﴾ جزم بالعطف أو نصب على الجواب ﴿خَاسِرِينَ﴾ خير الدارين ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾ من بقايا عاد طوالا ذوى قوة ، والجبار من يجبر الناس على ما يريد ، أو يقتل إذا غضب لكن ما يذكره المفسرون من وضع بنى إسرائيل فى عظمة هؤلاء الجبارين وأنه كان فيهم عوج بن عنق بنت آدم ، وأن طوله كذا وكذا فخالف لما فى الصحيح « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » ثم ذكروا أن عوجاً كان كافراً ولم يغرق بالطوفان ، وهذا كذب وافتراء لقوله تعالى « ثم أغرقنا بعد الباقين » وقوله حكاية عن نوح « لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » وقال « لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » ، وإذا كان ابن نوح غرق فكيف يبقى عوج ، وهو كافر . وهذا لا يسوغ فى عقل ولا شرع ، ثم فى وجود رجل يقال له عوج نظر ، والله أعلم . نبه على هذا القسطلانى وغيره من علماء السنة ، ﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بغير قتالنا ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ لها ، ولا طاقة لنا بحربهم ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ هما يوشع وكالب المتقدمان فى النقباء ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله كأنه قال من الكمل ، وقيل هما رجلان من الجبابرة أسلما وصارا إلى موسى ، فعلى هذا الواو لبنى إسرائيل والراجع إلى الموصول محذوف ، أى من الذين يخافهم بنو إسرائيل ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالهداية والوفاء بالعهد أو بالإسلام على الثانى ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ باب القرية بغتة ، ولا تخشوهم فإنهم أجساد بلا قلوب ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ قالا ذلك تيقناً بنصر الله وإنجاز وعده ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بوعده ولا مؤثر غيره ، فلما قالا ذلك كاد بنو إسرائيل أن يقتلوهما وقالوا فلنجعل لأنفسنا رئيساً ينصرف بنا إلى مصر ، فلما هموا بذلك ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً﴾ نفوا الدخول على أبلغ وجه بلن ، ثم قيدوه بزمن الأبد ، ثم أشاروا إلى مرادهم بالأبد وأنهم لم يريدوا به معناه بقولهم ﴿مَا دَامُوا فِيهَا﴾ بدل من أبداً بدل البعض ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ هم ، قالوا ذلك جهلا واستهانة بأمر الله ورسوله ، أو مرادهم وربك معك يعينك فأنت منصور من عند الله ، كما شاهدنا ذلك من حالك مع فرعون ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ عن القتال أو لا نرجع بل ننتظر خبرك معهم ، ولما سمع موسى قولهم وأيس منهم ، ولم يبق معه موافق يثق به غير هارون عليه السلام تبرأ إلى الله منهم ، وخر ساجداً ، وبعده هارون والرجلان معه ﴿قَالَ﴾ داعياً عليهم ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ﴾ فى نصر دينك أحداً ﴿إِلَّا نَفْسِي وَ﴾ إلا ﴿أَخِي﴾ يحتمل نصبه بالعطف على نفسى أو على ضمير «إنى» ورفعه على الضمير فى «أملك» وجره عند الكوفيين على الضمير فى «نفسى» ولم يذكر الرجلين إذ لا وثوق فى بعض الأحوال بغير معصوم ، أى لا أملك غيرهما فأجبرهم على الطاعة ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ وخلصنا من صحبتهم أو من شرهم ، أو بأن تحكم لنا بما نستحقه وعليهم بما يستحقون ﴿قَالَ﴾ تعالى له ﴿فَإِنَّهَا﴾ أى الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أن يدخلوها لعصيانهم ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ﴾

يتحيرون ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ فالتحريم مؤقت لا مؤبد ، فلا يخالف قوله « التى كتب الله لكم » ومما روى أن موسى أو يوشع بعده سار بمن بقى وفتحها وقيل لم يدخلها أحد ، قال لن ندخلها ، بل هلكوا فى التيه ، وإنما دخلها أولادهم ، ولما سمع موسى ذلك ندم على الدعاء عليهم ، رحمة : نخاطبه الله بقوله ﴿ فَلَا تَأْسَ ﴾ تحزن ﴿ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ روى أنهم لبثوا أربعين سنة فى ستة فراسخ ، يسيرون الليل جادين فإذا أصبحوا إذاهم فى الموضع الذى ابتدأوا منه ، ويسيرون النهار كذلك ، حتى انقرضوا كلهم إلا من لم يبلغ العشرين قبل ذلك . وكانوا ستمائة ألف ومات هارون ثم موسى بعد سنة فى التيه ، وكان رحمة لهما وعذاباً لأولئك ، وسأل موسى ربه عند موته أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر ، فأدناه كما فى الحديث ، ونبئ يوشع بعد الأربعين ، وأمر بقتال الجبارين ، فسار بمن بقى معه ، وقاتلهم ، وكان يوم الجمعة بعد العصر ، نخاف دخول السبت : فدعا الله ؛ فوقفت له الشمس ساعة حتى فرغ من قتالهم ، وروى أحمد فى مسنده حديث « إن الشمس لم تحبس على بشر إلا ليوشع ليالى سار إلى بيت المقدس » اه . ثم أمر الله نبيه أن يقص على حاسديه ما جرى بسبب الحسد ليتركوه ويؤمنوا ، فقال ﴿ وَاتْلُ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على قومك أو على أهل الكتاب ﴿ نَبَأَ ﴾ خبر ﴿ ابْنَيْ آدَمَ ﴾ هابيل وقابيل ، أوحى الله إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأم الآخر ، فسخط منه قابيل ، لأن توأمته كانت أجمل ، فقال لهما آدم : قرّبا قرباناً ، فمن أيكما قبل ، تزوجها . فقبل قربان هابيل ، كما قال ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ صفة مصدر محذوف ، أى تلاوة ملتبسة بالحق ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ﴾ ظرف للنبأ أو حال منه ، أو بدل على حذف مضاف ، أى نبأ ذلك الوقت ، والقربان اسم لما يتقرب به إلى الله كالحلوان لما يحلى أى يعطى ؛ وهو كبش لهابيل وقمح لقابيل ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ﴾ وهو هابيل بأن نزلت نار من السماء فأكلت قربانه ، وقيل رفعته ، وهو الذى أتى به إلى إبراهيم فى فدية ابنه ﴿ وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ﴾ وهو قابيل لأنه سخط حكم الله ، ولم يخلص النية فى قربانه : فغضب وأضمر الحسد فى نفسه إلى أن حج آدم ﴿ قَالَ ﴾ له ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ قال لِمَ ، قال لتقبل قربانك دونى ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وإنما ابتليت من قبل نفسك لا من قبلى ، وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغى أن يرى حرمانه من تقصيره ويجتهد فى تحصيل ما به صار المحسود محظوظاً ، لا فى طلب إزالة حظه ، فإن ذلك مما يضره ، ولا ينفعه ، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متق قاله البيضاوى ، وقال ابن عطية : إجماع أهل السنة فى معنى هذه الألفاظ ، إنما هو اتقاء الشرك ، فمن اتقاه وهو موحد فأعماله التى تصدق فيها نيته مقبولة ، وأما المتقى للشرك والمعاصى فله الدرجة العليا من القبول اه . قال فى الجواهر : قول ابن عطية فى معنى هذه الألفاظ يعنى حيث وقعت فى الشرع ، وأما فى هذه الآية فليس باتقاء شرك على ما سيأتى من قول هابيل « ما أنا بباسط يدى إليك ... الآية » اه ﴿ لَئِنْ ﴾ لام قسم ﴿ بَسَطْتَ ﴾ مددت ﴿ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ وإن كنت أقوى منك : أكد بالاسمية ، والباء مبالغة فى الخروج عن الاتصاف بهذه

الرذيلة ، إنما استسلم لأخيه فى القتل ، وترك الدفع عن نفسه ، خوفاً من الله ، لأن الدفع لم يبح حينئذ ، أو تحرياً لما هو الأفضل . قال عليه السلام «كن خير ابنى آدم مظلوماً ولا تكن ظالماً» ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فى قتلك ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ﴾ ترجع ﴿بِإِثْمِي﴾ بإثم قتلي ﴿وَإِثْمِكَ﴾ الذى ارتكبته من قبل فى عقوق أبيك ومخالفة أمر ربك ، والحسد لأخيك ، وهو تعليل ثان للامتناع عن قتله و «بإثمى وإثمك» فى موضع الحال ، أى ترجع ملتبساً بالإثمين ، حاملا لهما ، ولم يرد حصول المعصية والشقاء لأخيه ، بل قصده : إن كان لا محالة واقعا فأريد أن يكون لك ، لا لى ، فالمقصود بالذات أن لا يكون أصلا ، ويحتمل أن يكون المراد بإثمى الذى فرط منى ، فإن الظالم إذا لم يكن له حسنات ، يحمل يوم القيامة سيئات للمظلوم ، ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ لكفرك بإنكار ما شرع الله ؛ وهذا يدل أنه قبل ذلك لم يكن كافراً . قال ابن عطية : ولو كان كافراً لم يكن للتحرج فى قتله وجه . اه . ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ عند الله ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ سهلته له ووسعت ، من طاع له المرتع : اتسع ﴿فَقَتَلَهُ﴾ بحراء ، أو بالبصرة ، وله عشرون سنة ﴿فَأَصْبَحَ﴾ صار ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دينا ودنيا ، فبقى مدة عمره مطروداً محزونا ، ولم يدر كيف يصنع به ، لأنه أول ميت على وجه الأرض من بنى آدم ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا﴾ إليه ، سمى غرابا لفعله بأمر غريب لم يفعل قبله ﴿يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ بمنقاره ورجليه ، ويثيره على غراب ميت ، حتى واراه ﴿لِيُرِيَهُ﴾ الله أو الغراب ﴿كَيْفَ يُوَارِي﴾ يستر ﴿سَوْءَةَ﴾ جيفة ﴿أَخِيهِ﴾ والجملة ثانى مفعولى يرى ، وسماها سوءة ، لأنه مما يستقبح أن يرى ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا﴾ الألف بدل من ياء المتكلم ، أى : هلكى احضرى فهذا أوانك ، وبداؤها مجاز ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ﴾ أهتدى إلى مثل ما اهتدى إليه ، ثم أشار إلى وجه الشبه بقوله ﴿فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ ما يستحى من رؤيته منه من السوء ، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على قتله بتحيره واسوداد لونه ، وتبرئ أبويه منه ، ثم حفر له وواراه ، روى أن الأرض رجفت بقتله ، وتغيرت الأطعمة : فرجع آدم من الحج : فسأله عن أخيه ، فقال : ما كنت عليه وكيلا ، فقال : بل أنت قتلته ، اذهب طريداً : فأخذ أخته وهرب بها إلى عدن من أرض اليمن . فأتاه إبليس على صورة ناصح . فقال : إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يعبدها فانصب أنت ناراً تكون لك ولعقبك ، فبنى بيت النار ، فهو أول من عبد النار ، واتخذ أولاده آلات اللهو من الطبول والزمور ، والعيدان . وانهمكوا فى اللهو وشرب الخمر ، والفواحش حتى غرقوا بالطوفان فى زمن نوح ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ الذى فعله قابيل ، وما تولد منه من المفاسد ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قضينا وفرضنا عليهم و «أجل» فى الأصل مصدر أجل شراً : جناه ، ثم استعمل فى تعليل الجنايات و«من» ابتدائية ، متعلقة بكتبنا ، أى ابتداء الكتب من أجل ذلك ﴿أَنَّهُ﴾ أى الشأن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ بغير قتل نفس يوجب القصاص ﴿أَوْ﴾ بغير ﴿فَسَادٍ﴾ أتته ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من كفر أو زنى أو قطع طريق

﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ من حيث أنه هتك حرمة الدماء ، وسن القتل ، وجرأ الناس عليه . ومن حيث أن قتل الواحد وقتل الجميع سواء فى استجلاب غضب الله والعذاب العظيم . وفى ابن ماجه : قال عليه السلام « من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة ، لقى الله مكتوبا بين عينيه ،آيس من رحمة الله » وفى البخارى عن أبى قلابة : والله ما علمت نفسا حل قتلها فى الإسلام إلا من زنى بعد إحصان ، أو قتل نفسا بغير نفس ، أو حارب الله ورسوله ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ تسبب لبقاء حياتها ، بعفو أو منع عن القتل ، أو استنقاذ من غرق ، أو حرق ، أو نحوه . ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أى فكأنما فعل ذلك بالناس جميعا ، والمقصود تعظيم قتل النفس وإحيائها ، وتخصيص بنى إسرائيل بالذكر ، لأنه فى عد مثالبهم[1] وإعلاما للنبى بأنهم بعد أن كان هذا فى كتابهم قتلوا الأنبياء : تسلية له عن أذاهم . قوله : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ﴾ أى بنى إسرائيل ﴿رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الكتب والآيات ﴿فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ بالكفر والقتل ، ولا يبالون به ، وبهذا اتصلت القصة بما قبلها . ثم ذكر حكم المسرفين من بنى إسرائيل وغيرهم ، فقال ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بمخالفة أمرهما ومحاربة المسلمين ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بقطع الطريق ، أومفعول له ، ليحاربون ، أوحال . أى مفسدين ، نزلت فى قوم من أهل الكتاب ، نقضوا العهد ، وأفسدوا ، أو فى هلال بن عويمر الأسلمى الذى عاهد النبى أن لايعين عليه أحداً ، ولايتعرض لمن يصل إليه وله مثل ذلك ، فمر قوم من كنانة يريدون الإسلام بقومه ، فقطعوا عليهم الطريق ، فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، أو فى ثمانية نفر من عرينة وعكل ، قدموا المدينة سنة ست ، وأسلموا ، فاجتووا المدينة ، فأذن لهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا إلى إبل الصدقة ، فلما شربوا ألبانها وأبوالها وصحوا ، ارتدوا ، وقتلوا راعى النبى صلى الله عليه وسلم وسملوا عينيه واستاقوا الإبل : فبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى أثرهم الطلب ، فجىء بهم ، فقطع أيديهم ، وسمل أعينهم ، وتركوا فى الحرة حتى ماتوا على حالهم ، أورد هذا البخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم . فقيل الآية ناسخة لفعله عليه السلام بقصر حدهم على قوله ﴿ أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ﴾ أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى من الرسغ ﴿ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أرض النازلة إلى أخرى ولابدّ أن يكون بينهما يومان فأكثر فيحبسون هناك إلى أن تظهر توبتهم. وقال أبوحنيفة : معنى النفى : الحبس ، فيسجن فى بلده حتى تظهر توبته ، والنفى خاصٌّ بالحر ، و « أو » للتخيير ، فالإمام مخيّر فى قطاع الطريق بين هذه العقوبات بالنظر لا بالهوى على مذهب مالك وهو ظاهر الآية. وقال باقى الأئمة : «أو» للتفصيل والتنويع على ترتيب الأحوال ، فالقتل لمن قتل فقط ، والصلب لمن قتل وأخذ المال ، والقطع لمن أخذ المال ولم يقتل ، والنفى لمن أخاف فقط ، وهذا منهم تحكم ويجمع بين القتل والصلب ، فيقدم الصلب عند ابن القاسم ، ويؤخر عند أشهب . واتفق الأئمة على أن من قتل منهم يُقتل . ومعنى

(١) المثالب : جمع مثلب ـ بكسر اللام ـ وهو المكان ، أو « مثلب » بفتح اللام وهو المصدر من ثلب يثلب ، إذا عاب .

الصلب : أن يربط جميعه حيًّا بالخشبة إلا من أعلاه فقط كإبطيه ووجهه أوظهره إلى الخشبة غير منكوس ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الجزاء المذكور ﴿ لَهُمْ خِزْيٌ ﴾ ذل ﴿ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فى النار . والمحارب قاطع طريق أو آخذ مال على وجه يتعذر معه الغوث فى قفر أو مصر خلافاً لأبى حنيفة أو داخل دار ليلا أو نهاراً قاتل لأخذ المال . قال فى القوانين : وكذا كل من حمل السلاح على الناس بغير عداوة ولا ثائرة أى فتنة ، وحكم من أعان المحارب حكمه . اه . وأما من قطع الطريق لطلب إمرة أو لعداوة بينه وبين جماعة فليس بمحارب ، قاله عبد الباقى ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ من المحاربين والقطاع ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لهم ما أتوه ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهم ، عبر بذلك دون : فلا تحدوهم ؛ ليفيد أنه لا يسقط عنهم بالتوبة ، إن كانوا غير حربيين إلا حد الحرابة ، دون غيره مما هو لله أو لآدمى كزنى ، وقذف وقتل مكافئ ودية غير مكافئ ، وقيمة رقيق ، ومتاع ونحو ذلك . قال السيوطى فى التكملة : لا يسقط بتوبته إلا حدود الله دون حقوق الآدميين ، كذا ظهر لى ، ولم أر من تعرض له والله أعلم . اه . قلت : هذا منه عجيب ، فقد تعرض له كل الأئمة . إذ ما قاله هو قول الشافعى مطلقاً ، وقال مالك : إن كان بيده مال يعرف . أو قام ولىّ يطلب دمه ، فله أخذه والقصاص منه . وقال الليث : لا يطلب بشىء . قال ابن العربى : وهو ضعيف . اه . وأما إن تاب بعد القدرة عليه فلا تفيد توبته عنه بسقوط شىء عنه ، قال البيضاوى : وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة ، يدل على أنها بعد القدرة لا تسقط الحد ، وإن أسقطت العذاب ، وأن الآية فى قطاع المسلمين لأن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها ، وقال فى لباب التأويل : معظم أهل التفسير أن المراد بهذا الاستثناء المشرك المحارب ، إذا آمن قبل القدرة عليه ، سقط عنه جميع الحدود التى ذكرت فى هذه الآية وكذا بعد القدرة عليه بالإجماع . اه . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بترك مانهى عنه ﴿ وَابْتَغُوا ﴾ اطلبوا ﴿ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ القرب بامتثال ما أمر ، فعيلة اسم لما يتقرب به ، من وَسَلَ إليه بكذا : تقرب ، وقيل معناها المحبة ، أى تحببوا إليه بالطاعات ﴿ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ ﴾ لإعلاء دينه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تفوزون بالخلود فى جنته ، وخص الجهاد بالذكر وإن كان داخلا فى معنى الوسيلة ، تشريفاً له ، إذ هو قاعدة الإسلام ، قاله الثعالبى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ ﴾ ثبت ﴿ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من صنوف الأموال ناطقاً وصامتاً ﴿ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ ﴾ أى بالمذكور ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ﴾ جواب لو ، ولو بما فى حيزه خبر أن ، والجملة تمثيل للزوم العذاب لهم ، وأنهم لا سبيل لهم إلى الخلاص منه . وفى البخارى ومسلم عن أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً : لو كانت الدنيا كلها لك أكنت مفتدياً بها ؟ فيقول نعم . فيقول : قد أردت منك أيسر من هذا أن لا تشرك بى » ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تصريح بالمقصود به ، وكذا قوله ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ يتمنون ﴿ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ ﴾ إذا فارت بهم إلى

حاشيتها فيطمعون فى الخروج ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾ أكد بالاسمية والباء للرد على أبلغ وجه ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ أبداً لا يفارقهم ردّ لما يقوله الملحدة : من أن الكفار يعتادون فلا يحسون بالألم ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ ﴾ البالغان العاقلان ، و « أل » فيهما موصولة ، مبتدأ ، ولشبهه بالشرط دخلت الفاء فى خبره ، وهو ﴿ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ أى يمين كل منهما من الكوع ، وبينت السُّنة أن الذى تقطع فيه ربع دينار فصاعداً ، وأنه إن عاد قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم ، ثم اليد اليسرى ، ثم الرجل اليمنى ، وبعد ذلك يعزّر ويحبس ، لظهور توبته ، ونفقته وأجرة الحبس عليه إن كان له مال ، وإلا فمن بيت المال . وإن تعذر فعلى المسلمين . هذا مذهب مالك والشافعى . وقال أحمد وأبو حنيفة : تقطع يده اليمنى ، ثم اليسرى ، ولا يقطع فى ثالثة ولا رابعة . والسرقة : أخذ مال الغير خفية ، وإنما يوجب القطع فى إخراج ربع دينار فصاعداً من حرز مثله ، لم يضطر إليه بجوع ، قال ابن العربى فى الأحكام : والسارق من يأخذ المال من حرز مثله ، فإن شعر به هرب ، وأما من يدخل بالسلاح فإن شعر به حارب ، فهو محارب يحكم عليه بحكم المحارب . اه . وأما غُرم المسروق فإن كان قائماً رده باتفاق ، وإن استهلكه موسراً يوم القطع ضمن قيمة السرقة وإن كان عديماً لم يضمن ، وقيل يضمن فى اليسر والعسر ، وإن كان المسروق مما لا يجب فيه القطع غرمه باتفاق فى العسر واليسر ، وتثبت السرقة باعتراف أو شهادة ، فإن اعترف بغير ضرب ولا تهديد ، قطع حراً أو عبداً ، وبهما لم يقطع بمجرد إقراره ، وإن رجع عن الإقرار لم يسقط عنه الغرم ، وسقط عنه القطع ، وإن أقر السيد بسرقة عبده من شخص وحلف الشخص ، فالغرم بلا قطع ، وإن أقر العبد فقط ، وحلف الطالب فالقطع بلا غرم ، فإن أقر العبد وشهد عليه واحد ، وحلف معه المدعى فالقطع والغرم ﴿ جَزَاءً ﴾ نصب على المصدر ﴿ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا ﴾ عقوبة لهما ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ مفعول له ، وترك العاطف لأن المعنى أن القطع الذى للجزاء القصد به النكال ، وقدم السارق لأن السرقة أكثر ما يكون فى الرجال ، وقطع العضو الجانى منه ، دون الزانى ، محافظة على العورة ، أو بقاء النسل ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ غالب على أمره ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى كل ما شرع من الزواجر ﴿ فَمَنْ تَابَ ﴾ من السرقة ﴿ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ ﴾ ما أفسده بالرد أو الاستحلال ، والعزم ألا يعود إليها ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ يقبل توبته ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ للذنوب ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بقبول توبته وعدم تعذيبه فى الآخرة . أما القطع فلا يسقط بها عند الأكثرين ، وقال الشافعى : إن عفى عنه قبل الرفع إلى الإمام سقط القطع ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ الخطاب لكل أحد والاستفهام للتقرير ﴿ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه التعذيب والمغفرة . قدم التعذيب لأن الكلام فى موجب العقاب ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ ﴾ صنع ﴿ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ فى تقوية أسبابه ، وإعانة أعوانه ، ويظاهرونه إذا وجدوا فرصة ﴿ مِنَ ﴾ للبيان ﴿ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ بألسنتهم متعلق

بقالوا ﴿ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الواو للحال ، أو العطف ، وهم المنافقون ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ عطف على من الذين قالوا ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ خبر محذوف ، أى هم سماعون . والضمير للفريقين ، أو للذين يسارعون ، ويجوز أن يكون مبتدأ ، ومن الذين خبره أى ومن اليهود قوم سماعون ، واللام فى «للكذب» زائدة للتأكيد ، أو لتضمن السماع معنى القبول ، أى قابلون لما تفتريه الأحبار ، أو للعلة ، والمفعول محذوف ، أى سماعون كلامك ليكذبوا عليك فيه ، بقولهم سمعنا منه كذا وكذا لما لم يسمعوا ﴿ سَمَّاعُونَ ﴾ منك يعنى بنى قريظة وأمثالهم ﴿ لِقَوْمٍ ﴾ لأجل قوم ﴿ آخَرِينَ ﴾ من اليهود من أكابرهم ﴿ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ لتكبرهم وهم أهل خيبر ، زنى فيهم محصنان شريفان ، فكرهوا رجمهما ، فبعثوا قريظة ليسألوا النبى عن حكمهما الحكم بالرجم ، فأبوا ، لجىء بهما ، فرجما ، كما فى الصحيحين ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ ﴾ الذى فى التوراة كآية الرجم ﴿ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ التى وضعه الله عليها ، أى يبدلونه . وجملة « يحرفون » صفة أخرى لقوم ، أو صفة لسماعون ، أو حال من الضمير فيه ، أو استئناف لا موضع له ، أو فى موضع رفع . خبر لمحذوف ، أى هم يحرفون ، وكذلك ﴿ يَقُولُونَ ﴾ لمن أرسلوهم مع الزانيين ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا ﴾ المحرف ، أى الجلد ، أى أفتاكم به « محمد » ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ فاعملوا به ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ ﴾ بأن أفتاكم بالرجم ﴿ فَاحْذَرُوا ﴾ قبوله ، فهو باطل ، ثم قال تعالى لنبيه عليه السلام على جهة قطع الرجاء عنهم : ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ ﴾ إضلاله ﴿ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ فى دفعها ، هذا يدل على أن حزنه كان شفقة عليهم ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ من الكفر ، ولو أراده لكان ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ ذل بالفضيحة والجزية ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ بالتخليد فى النار ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ كرره للتأكيد ﴿ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ بسكون الحاء لنافع وابن عامر وعاصم وحمزة ، وبضمها لغيرهم ، لغتان . أى الحرام ، كالرشا فى الحكم ، من سحته : استأصله ، لأنه مسحوت البركة ، أو ساحت لها ، وكان الحاكم منهم إذا أتاه أحد برشوة ، جعلها فى كمه ، يريها إياه ، ويتكلم بحاجته ، فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه إن لم يأت بمثله أو أكثر . وعن أبى هريرة : لعن رسول الله ، الراشى والمرتشى فى الحكم . أخرجه الترمذى وأبو داود : قال الحسن البصرى : هو أن يرشيه ليحق له باطلا أو يبطل عنه حقاً ، وقال ابن مسعود : من شفع شفاعة فأهدى إليه ، فقبل فهو سحت ، فقيل له : إنما ذلك الأخذ على الحكم ، قال الأخذ على الحكم كفر ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ ﴾ لتحكم بينهم ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ تخيير للنبى وحكام أمته بعده وهذا التخيير قيل منسوخ بقوله « وأن احكم بينهم ... » الآية فيجب الحكم بينهم إذا ترافعوا إلينا ، على أصح قولى الشافعى ، قال ابن العربى : وهذا القول دعوى بلا دليل لعدم علم المتأخر . اهـ . وقال كثير من العلماء : الآية محكمة . قال مالك : الخيار ثابت ، ولا يحكم بينهم إذا اختار الحكم إلا فى المظالم ، فيحكم بينهم بما أنزل الله ، لا فى الزنى ونحوه ، فيردون فيه إلى أساقفتهم ، وقال ابن العربى : إنما أنفذ النبى الحكم بينهم

فى الرجم لبيان تبديلهم التوراة وكذبهم . اهـ . لكن إذا ترافعوا إلينا مع مسلم ، وجب إجماعاً ، وعند أبى حنيفة يجب مطلقاً ﴿ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ﴾ تحقير لشأنهم وبيان لعصمته ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ العادلين فى الحكم ، أى يثيبهم . وفى مسلم : قال عليه السلام « إن المقسطين عند الله على منابر من نور » ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ ﴾ تعجيب من طلبهم الحكم منه وهم لا يؤمنون به إعلاماً أنهم إنما تحاكموا إليه لغرض ﴿ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ ﴾ أى والحال أن الحكم منصوص فى كتابهم ، أى لا يحكمونك بصدق ، وقد خالفوا حكم التوراة التى يزعمون أنهم يصدقونها ﴿ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ بالرجم ، فإن تولوا عن حكم الله فيها ، فأحرى عن حكمك . بل لا يحكمونك إلا رغبة فى ميلك إلى أهوائهم ، وما هو أهون عليهم ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ ﴾ عن حكمك بالرجم الموافق لكتابهم ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ التحكيم استبعاد للتولى بعد الرضى بالحكم ، داخل تحت التعجيب ﴿ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ بكتابهم فضلا عن غيره ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى ﴾ إلى الحق ﴿ وَنُورٌ ﴾ كاشف للشبهات وما استبهم من الأحكام تعظيم للتوراة وتوبيخ لهم ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ ﴾ من بنى إسرائيل من لدن موسى إلى محمد ﴿ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ أى انقادوا لحكم الله ، لا هؤلاء الفساق ، أو مدحوا بالإسلام تعظيما لشأنه ، وتعريضاً لليهود بأنهم ليسوا على الإسلام ﴿ لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ تابوا من الكفر ، واللام متعلق بيحكم أو أنزلنا ﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ ﴾ الحكماء الزهاد منهم ﴿ وَالْأَحْبَارُ ﴾ الفقهاء السالكون طريقة أنبيائهم ، عطف على النبيون ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ الضمير للأنبياء ومن عطف عليهم ، استحفظهم الله الحكم بكتابه ، وحفظه من التحريف والتبديل ، والراجع إلى ما محذوف ومن للتبيين ﴿ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ أنه حق ، أو رقباء يحفظونه من التبديل ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ ﴾ فى إظهار ما عندكم ، خطاب لحكام اليهود ، ودخل فيه جميع الحكام ، نهوا أن يخشوا غير الله فى حكوماتهم ، ويداهنوا فيها ، خشية سلطان أو ظالم ، أو مراقبة كبير ﴿ وَاخْشَوْنِ ﴾ فى كتمانه ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا ﴾ تستبدلوا ﴿ بِآيَاتِي ﴾ أحكامى التى أنزلتها ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ من المال والجاه ، تنالونه على كتمان الحق لطلب رضى الناس ، والمعنى كما نهيتم عن تغيير الأحكام لأجل خوف الناس ، كذلك نهيتم عن ذلك ، لأجل الطمع فى المال والجاه ، فالكل متاع قليل ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ إهانة وإنكاراً ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ حقيقة لاستحلالهم الحرام المجمع عليه ، أو المراد بالكفر ، كفر دون كفر إن كان بغير استحلال ، فلادليل للخوارج بالآية فى التكفير بالمعاصى ؛ وأما تخصيصها باليهود لأنها نزلت فيهم فضعيف ، لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، قاله الفخر ﴿ وَكَتَبْنَا ﴾ فرضنا ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ بنى إسرائيل ﴿ فِيهَا ﴾ فى التوراة ﴿ أَنَّ النَّفْسَ ﴾ تقتل ﴿ بِالنَّفْسِ ﴾ إذ قتلتها بغير حق ﴿ وَالْعَيْنَ ﴾ تفقأ ﴿ بِالْعَيْنِ ﴾ لكن إن فقأ صحيح عين أعور ، فعليه الدية كاملة عند مالك ، وقال الشافعى وأبو حنيفة : نصف الدية . وفى العكس القصاص عندهما ، والتخيير عند

مالك فى القصاص والدية ﴿ وَالْأَنْفَ ﴾ تجدع ﴿ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ ﴾ بسكون الذال لنافع ، تقطع ﴿ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ ﴾ تقلع ﴿ بالسِّنِّ ﴾ وفى الزائدة الحكومة ، وقرأ الكسائى نقط بالرفع فى الأربعة : العين فما بعدها ﴿ وَالْجُرُوحَ ﴾ بالنصب لنافع وعاصم وحمزة ، وبالرفع للباقين ﴿ قِصَاصٌ ﴾ أى ذات قصاص يقتص فيها ، وكذا باقى الأعضاء إذا أمكن ، كاليد ، والرجل ، والذكر ، ونحو ذلك ، ومالا يمكن لخوف التلف أو عدم تحقيق المساواة ، ففيه الحكومة ، وهذا الحكم ـ وإن كتب عليهم ـ هومقرر فى شرعنا . وكل هذا فى العمد . وأما فى الخطأ فالدية فى مال الجانى ، إن كانت أقل من ثلث الكاملة ، وإلا فعلى العاقلة ، ومحلها كتب الفقه ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ ﴾ من المستحقين ﴿ بِهِ ﴾ بالقصاص بأن عفا عنه ، سمى صدقة ترغيباً فيه ﴿ فَهُوَ ﴾ أى التصدق بمعنى العفو ﴿ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ لذنوبه ، يعظم الله به أجره ، قال عليه السلام « مامن رجل يصاب بشىء فى جسده ، فتصدق به ، إلا رفع الله له به درجة ، وحط عنه به خطيئة » رواه الترمذى . وعن أنس : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع إليه شىء فيه قصاص إلا أمر فيه بالعفو » أخرجه أبو داود والنسائى . أو الضمير الجارح الجانى ، أى لا يؤاخذ به فى الآخرة ، ولا يخفى بعده ، أوالمعنى من جنى وجهل أمره ، فاعترف بذلك ، ومكن من نفسه ، فذلك الفعل كفارة لذنبه ، تعبيراً عن الاعتراف بالتصدق ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ فى القصاص وغيره ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ الكاملون فى الظلم ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ هم ، أى أتبعناهم ﴿ عَلَىٰ آثَارِهِمْ ﴾ أى النبيين الذين أسلموا ، أو مفعول قفينا الأول محذوف لدلالة الجار والمجرور عليه . والثانى ﴿ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ يقال قفيت زيداً بعمرو ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قبله ﴿ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴾ ليؤمنوا به ﴿ فِيهِ هُدًى ﴾ من الضلالة ﴿ وَنُورٌ ﴾ بيان للأحكام والجملة فى موضع الحال ، ﴿ وَمُصَدِّقًا ﴾ حال ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ لما فيها من الأحكام ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، وقلنا ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ من الأحكام ، وقرأ حمزة بكسر اللام ونصب يحكم عطف على معمول آتيناه ، أى ليؤمنوا وليحكم ، على أن اللام لام كى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ عن حكمه أو عن الإيمان ، إن كان مستهيناً به ، والآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام ، وأن اليهودية منسوخة بمبعث عيسى وأنه كان مستقلا بالشرع ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بأنزلنا أى بسبب إثبات الحق ، وبيان الصواب من الخطأ ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ الكتب فأل فى الأول للعهد ، وفى الثانى للجنس ﴿ وَمُهَيْمِنًا ﴾ شاهداً ﴿ عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ إليك ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهونه ، فمن صلة لـ « لا تتبع » لتضمنه معنى الانحراف ، أو حال من فاعله ، أى لا تتبع أهواءهم مائلا عما جاءك ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ ﴾ أيها الأمم ﴿ شِرْعَةً ﴾ شريعة وهى الطريق إلى الماء ، شبه بها الدين لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية ﴿ وَمِنْهَاجًا ﴾ طريقاً واضحاً من نهج إذا وضح ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ على شريعة

واحدة فى جميع الأعصار، من غير نسخ وتحويل ﴿وَلَـٰكِن﴾ فرقكم فرقاً ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ليختبركم ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة، لينظر المطيع منكم والعاصى ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ فابتدروا ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ المأمورات قبل الفوات بالوفاة ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ بالبعث ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، ويجزى كلا منكم بعمله، وعد ووعيد للبادرين والمقصرين ﴿وَأَنِ احْكُم﴾ عطف على الكتاب، أى أنزلنا إليك الكتاب والحكم، أو على الحق أى أنزلناه بالحق وبالحكم ﴿بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أى يضلوك ويصرفوك عنه، وأن بصلته بدل من «هم» بدل اشتمال أى احذر فتنتهم، أو مفعول له، أى احذرهم مخافة أن يفتنوك، روى أن أحبار اليهود قالوا اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فقالوا يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود، وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنتحاكم إليك، فتقضى لنا عليهم، ونحن نؤمن بك، فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية، والتى تقدمت فى رجم المحصن حين طلبوا أن يجلده، وهذه فى الدماء والديات، فلا تكرار ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الحكم المنزل وأرادوا غيره ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم﴾ بالعقوبة فى الدنيا ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ وهو التولى عن حكم الله، ويجازيهم على جميعها فى الآخرة، وفيه تنبيه على أن لهم ذنوباً كثيرة، هذا مع عظمه بإبهامه واحد منها، وخص إصابتهم ببعضها، إعلاماً بأنه كاف فى إهلاكهم وتدميرهم، قاله الفخر الرازى ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ ومنهم هؤلاء ﴿لَفَاسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله ﴿أَ﴾ يعدلون ﴿فَحُكْمَ﴾ الملة ﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾ التى هى متابعة الهوى، والمداهنة فى الحكم ﴿يَبْغُونَ﴾ بالياء للجمهور، والتاء لابن عامر: يطلبون، استفهام إنكار، وقيل نزلت فى بنى النضير، وكانوا أشرف من قريظة. فكان حكم الجاهلية بينهم: لا يقتل النضيرى بالقرظى، بل الدية. ودية القرظى نصف دية النضيرى: فتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحكم بالسواء؛ فقالوا نرجع إلى حكم آبائنا، وفيه توبيخ لهم حيث كانوا أهل علم ﴿وَمَنْ﴾ أى لا أحد ﴿أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ﴾ عند قوم ﴿يُوقِنُونَ﴾ به، خصوا بالذكر لأنهم الذين يتدبرون، واللام للبيان، كما فى قوله هيت لك. ولما نقض بنو قينقاع لحاصرهم النبى صلى الله عليه وسلم وتمكن منهم وأراد قتلهم، وقام عبد الله ابن أبىّ المنافق مخاصماً لهم يقول يا محمد أحسن فى موالىّ، فإنى امرؤ أخاف الدوائر، فوهبهم له رسول الله صلى الله عليه وسلم: نزل نهياً عن موالاة أعداء الدين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ تعاشرونهم معاشرة الأحباب، وتوالونهم موالاة المؤمنين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ على خلافكم ومضاداتكم لاتحادهم فى الكفر، علة للنهى ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ من جملتهم، قال النسفى: وهذا تغليظ من الله وتشديد فى وجوب مجانبة المخالف فى الدين. قال البيـ[illegible]: تشديد فى وجوب مجانبتهم، وقال فى فتح الرحمن: فإن قلت هذا يقتضى أن و[illegible] [illegible]ن كفراً: و[illegible] كذلك؟ قلت: إنما قال ذلك

مبالغة فى اجتناب المخالف فى الدين ، أو الآية فى المنافقين وهم كفار . اهـ . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بموالاة الكفار ، وكان عمر بن الخطاب يقول : ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً ، يريد الموالاة ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ نفاق كابن أبىّ ، أو ضعف اعتقاد كبعض العوام ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ فى موالاتهم . كما فعل ابن أبىّ فى بنى قينقاع ، لما برئ منهم حليفهم عبادة بن الصامت ، قال ابن أبىّ إنى لاأبرأ من حلفاو لاأدرى ما يكون من ريب الزمان ودوائره كما أخبره تعالى عنه بقوله ﴿يَقُولُونَ﴾ معتذرين عنها ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ يدور بها الدهر ، فتكون الدولة للكفار ، ولا يتم أمر محمد فيدور علينا الأمر ، قال تعالى ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ لرسوله على أعدائه كفتح مكة وخيبر ، وفدك ، وغيرها ، ويظهر أمر المسلمين ، ويظهر دينه على جميع الأديان ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ كهتك أستار المنافقين ، واستئصال اليهود بإخراجهم من بلادهم بلا كلفة ، وقد فعل كل ذلك بفضله ﴿فَيُصْبِحُوا﴾ أى المنافقون الموالون اليهود ﴿عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من أنه لايتم أمر محمد ، ودسهم الأخبار إلى الكفار ﴿نَادِمِينَ﴾ فضلا عما أظهروه مما أشعر على نفاقهم ﴿يَقُولُ﴾ بالرفع لغير أبى عمرو ، استئناف بلا واو لنافع وابن عامر وابن كثير ، وبه للباقين . وبالنصب لأبى عمرو عطفاً على يأتى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بعضهم لبعض وقت إظهار الله نفاق المنافقين تعجباً ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ غاية اجتهادهم فيها ، أو أغلظها : نصب على المصدر ، لأنه بمعنى أقسموا ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ فى الدين والنصر على الكفار . أو المعنى يقول الذين آمنوا اليهود أهؤلاء المنافقون الذين أقسموا بالله إنهم لمعكم فى النصر فى قولهم «وإن قوتلتم لننصرنكم» ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ الصالحة : بطلت ، من مقول الله ، أو المؤمنين ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ الدنيا بالفضيحة ، والآخرة بالعقاب ، وفى الكلام معنى التعجب : أى ما أحبط أعمالهم وما أخسرهم ! ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ﴾ بالفك لنافع ، وابن عامر ، والإدغام للباقين : يرجع ﴿مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ إلى الكفر لا يضر الله بذلك شيئاً : إخبار عن غيب قد وقع ، على وفق ما أخبر معجزة ، وعد الله هذه الأمة ، أن من ارتد منها فإنه يجىء بقوم يغنون عنه وينصرون الدين ، وقد ارتد آخر زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث فرق : بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار : وهو الأسود العنسى ، تنبأ باليمن ، وأخرج عمال رسول الله عن بلاد اليمن ، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل وسادات اليمن ، فأهلكه الله على يد فيروز الديلمى ، فأخبر رسول الله عليه السلام بقتله : وقتل من الغد : وأتى خبر قتله فى آخر ربيع الأول ، وبنو حنيفة قوم مسيلمة ، قتل أيام الصديق ، وبنو أسد قوم طليحة حين تنبأ : فبعث عليه السلام إليه خالد بن الوليد ، ففر إلى الشام ثم أسلم بعد . وسبع فرق فى عهد أبى بكر : وهم فزارة قوم عيينة بن حصن . وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل . وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة . وبعض تميم قوم سجاح المتنبئة . وكندة قوم أشعث . وبنو بكر ابن وائل قوم الحطم بن زيد : فكفى الله أمرهم على يدى أبى بكر . وفرقة فى خلافة عمر : وهم غسان قو.

جبلة بن الأيهم ؛ فكفى الله أمرهم ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ ﴾ بدلهم ﴿ بِقَوْمٍ ﴾ هم المهاجرون والأنصار أو أهل اليمن أو فارس ﴿ يُحِبُّهُمْ ﴾ بالهداية والتوفيق فى الدنيا ؛ وإعطاء حسن الجزاء بالآخرة . ﴿ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ بطاعته وترك معاصيه : قدم حبه إذ لولاهو لما صاروا محبين ، والضمير الراجع إلى «من» محذوف أى بقوم مكانهم ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ عاطفين عليهم متذللين لهم ﴿ أَعِزَّةٍ ﴾ شداد متغلبين ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ من «عزه» غلبه ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ صفة أخرى لقوم أو حال من الضمير فى أعزة ﴿ وَلَا يَخَافُونَ ﴾ عطف على يجاهدون ﴿ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ مرة من اللوم . وفيها وفى تنكير لائم : مبالغتان ، بخلاف المنافقين الخائفين فى الجهاد لوم أوليائهم من اليهود ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الأوصاف ﴿ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ كثير الفضل ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن هو أهله ؛ وعن أبي ذر « أوصانى النبي صلى الله عليه وسلم بسبع : بأن أنظر إلى من هو دونى لا إلى من هو فوق فى شأن الدنيا ، وبحب المساكين والدنو منهم ، وبأن أقول الحق وإن كان مرًّا ، وبأن أصل رحمى وإن أدبرت ، وبأن لا أخاف فى الله لومة لائم ، وبأن لا أسأل الناس شيئاً ، وبأن أستكثر من لاحول ولا قوة إلا بالله » اه . ولما ذكر من يجب معاداتهم ذكر من يجب موالاتهم حاصراً لهم بقوله ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا : الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ خاشعون أو مصلون صلاة التطوع ، قيل نزلت لما قال ابن سلام : يارسول الله إن قومنا هجرونا ، والموصول رفع أو نصب على المدح أو بدل من الموصول قبله ، وراكعون خاشعون مدح لهم بحسن الأعمال ظاهراً وباطناً ، أو حال من يؤتون الزكاة ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى من اتخذهم أولياءه فى العون والنصر ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ لنصره إياهم واعتضادهم بمن لايغلب ، أوقعه موقع فإنهم بياناً لكونهم من حزبه : أى أتباعه وأصله الطائفة المجتمعة لأمر حزبهم أى أهمهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا ﴾ مهزوءاً به ﴿ وَلَعِبًا ﴾ بإظهار الإيمان مع إسرار الكفر ، كرفاعة بن زيد وسويد بن الحارث . والغرض من الهزؤ تحقير المهزوء به ؛ ومن اللعب جلب الفرح ، وهو إيماء إلى علة النهى عن موالاتهم ﴿ مِنَ ﴾ للبيان ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ ﴾ المشركين بالنصب للجمهور ، عطفاً على الموصول الأول ، والجر لأبي عمرو والكسائى على الثانى لتضاعف كفرهم ﴿ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بترك موالاتهم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فالإيمان يأبى موالاة أعداء الدين ﴿ وَ ﴾ الذين ﴿ إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ بالأذان فيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب ﴿ اتَّخَذُوهَا ﴾ أى الصلاة أو المناداة ﴿ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ يتضاحكون بها يقولون ماهذا الصياح إلا كصياح العير ، ويقولون قاموا لا قاموا صلوا لا صلوا عند ركوع المؤمنين وسجودهم وهم يضحكون وكان رجل نصرانى بالمدينة . كلما سمع فى الأذان : أشهد أن محمداً رسول الله ؛ يقول حرق الكاذب . فدخل خادمه ذات ليلة بنار وهو وأهله نيام : فطارت منها شرارة فاحترق البيت : واحترق هو وأهله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾

الاتخاذ ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ولذا اتخذوا أفضل الأعمال محل مناجاة الرب هزواً . ونزل لما قال اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم بمن تؤمن من الرسل ؟ فقال بالله وما أنزل إلينا الآية : فلما ذكر عيسى قالوا لا نعلم ديناً شراً من دينكم ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ ﴾ تنكرون وتعيبون، نقم منه كذا أنكره وانتقم كافأه عليه ﴿ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا ﴾ إلا إيماننا ﴿ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ إلى الأنبياء تأكيداً للمدح بما يشبه الذم ﴿ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ عطف على « أن آمنا » المعنى ماتنكرون إلا إيماننا ومخالفتكم فى عدم قبوله المعبر عنه بالفسق اللازم منه ، وليس هذا مما ينكر ، وفيه المجاز المرسل ، ثم أجاب عن قولهم لا نعلم ديناً شراً من دينكم بقوله ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ أخبركم ﴿ بِشَرٍّ مِنْ ﴾ أهل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذى تنقمونه ﴿ مَثُوبَةً ﴾ تمييز لشر ، أى ثواباً بمعنى جزاء وفيه الاستعارة التهكية ، فى وضع المثوبة موضع العقوبة ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ هو ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ أبعده عن رحمته ﴿ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ بسبب الكفر والمعاصى بعد وضوح الآيات ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ ﴾ بالمسخ ﴿ وَ ﴾ من ﴿ عَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ الشيطان بطاعته . وراعى فى « منهم » معنى من وفيما قبلها لفظها وهم اليهود ، وقرأ حمزة بضم باء « عبد » وإضافته إلى مابعده اسم جمع لعبد ، ونصبه بالعطف على القردة ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الملعونون ﴿ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ تمييز لأن مأواهم النار ﴿ وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ طريق الحق ، وأصل السواء الوسط ، وذكر « شر » و« أضل » فى مقابلة قولهم لا نعلم ديناً شراً من دينكم ، واسم التفضيل فى أمثال هذا مجاز بناء على زعم الخصم ، وإلا فلا مشاركة بين المؤمنين واليهود فى الشر والضلال ، وفى إسناد الشر إلى المكان كناية عن ثبوته لهم كقولهم المجد بين برديه ﴿ وَ ﴾ منافقو اليهود ﴿ إِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا ﴾ إليكم ملتبسين ﴿ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾ من عندكم كما دخلوا لا يؤثر فيهم الوعظ ، والجملتان حالان من فاعل قالوا ، و« بالكفر » و « به » حالان من فاعل دخلوا وخرجوا ، وقد وإن دخلت لتقريب الماضى من الحال ليصح أن يقع حالا ، أفادت أيضاً لما فيها من التوقع أن أمارات النفاق كانت لائحة عليهم ، وكان الرسول يظنه ، ولذا قال ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ من الكفر ، وفيه وعيد لهم ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ ﴾ من اليهود ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ ﴾ الذنب القاصر عليهم كقولهم عزير ابن الله ، وتحريف الآيات ﴿ وَالْعُدْوَانِ ﴾ الظلم المتعدى إلى غيرهم ﴿ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ الحرام ، كالرشا . خصه بالذكر مبالغة فى التنفير ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ عملهم هذا ﴿ لَوْلَا ﴾ هلا ﴿ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾ منهم ﴿ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ ﴾ الكذب ﴿ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ تحضيض للعلماء والزهاد على النهى عن المنكر ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ ترك نهيهم ، فهو أبلغ من يعملون ، إذ الصنع عمل الإنسان بعد تدرب فيه وترو وتحر وإجادة ففيه زيادة توبيخ لهم ، لأن مرتكب المنكر له داعية التلذذ بمباشرته بخلاف تارك النهى عنه فكان جديراً بأبلغ الذم ، ولذا قال ابن عباس : هى أشد آية فى القرآن ، وقال الضحاك هى أخوف آية ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ﴾ قاله فنحاص بن

عازوراء منهم ، فرضي به قومه لعنة الله عليه وعليهم ، لما ضيق عليهم بتكذيبهم النبي ، بعد أن كانوا أكثر الناس مالا ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ مقبوضة عن إدرار الرزق علينا ، كنوا به عن البخل ، تعالى الله عن ذلك ، قال تعالى ﴿ غُلَّتْ ﴾ أمسكت ﴿ أَيْدِيهِمْ ﴾ عن فعل الخيرات دعاء عليهم بالبخل ، ولذا لا ترى أبخل من اليهود ، ولا أنكد عيشاً منهم حيث كانوا ، أو بحقيقة الغل في الدنيا بالأسر والرق . وفي الآخرة بالأغلال في أعناقهم إلى جهنم ﴿ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ إثبات لما نفوه من جوده على أبلغ وجه ، مبالغة في الوصف بالجود ، وثنى اليد لإفادة الكثرة ، إذ غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطي بيديه ﴿ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ استئناف لبيان بسط اليدين ، أو حال من مفهومه لأنه في معنى الجواد ، أي ينفق على وفق حكمته من توسيع وتضييق لا اعتراض عليه ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُم مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ﴾ من القرآن ﴿ طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ وهم قبل ذلك طاغون كافرون ، كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح للأصحاء ، والغذاء كَكِساء ، ما به نماء الجسم وقوامه ، ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ فكل فرقة منهم تخالف الأخرى ، لا تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ ﴾ لحرب النبي بإثارة الشر عليه ﴿ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ أي كلما أرادوها ردهم بإيقاع المنازعة بينهم ، أو كلما أرادوا حرب أحد غلبوا ، فإنهم لما خالفوا حكم التوراة سلط الله عليهم بختنصر ، ثم بعده فطروس أو فسطوس ، أو طنطوس الرومي ، ثم بعده المجوس من الفرس ، ثم المسلمين إلى يوم القيامة ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً ﴾ بإثارة الحرب والفتن وهتك المحارم ، وأخذ الرشا ، وتحريف الكتاب وتضليل العوام ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ منهم ومن غيرهم بمعنى يعاقبهم ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ آمَنُوا ﴾ بمحمد ﴿ وَٱتَّقَوْا ﴾ ما عددناه من معاصيهم ونحوه ﴿ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ لأن الإيمان يجب ما قبله ﴿ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ تفضلا بعد العفو عن جناياتهم ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ بتبيين ما فيهما والعمل بأحكامهما ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِن رَبِّهِمْ ﴾ من الكتب أو القرآن ﴿ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ بأن يوسع عليهم الرزق ، ويفيض من كل جهة أو يفيض عليهم بركات السماء والأرض ، أو يكثر ثمرات الأشجار ، وغلة الزروع أو يجتنوا الثمار فوقهم من رأس الأشجار ويلتقطوا ما تساقط على الأرض . بيان بأن ما كف عنهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ﴾ عادلة غير غالية ولا مقصرة تعمل بما ذكر وهم من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ ككعب بن الأشرف وأصحابه ﴿ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ من الإفراط في العداوة ، وتحريف الحق والإعراض عنه ، وفيه معنى التعجب : أي ما أسوأ عملهم ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ ﴾ في المستقبل جميع ﴿ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ﴾ ولا تكتم شيئاً منه ، خوفاً أن تنال بمكروه ، ولا تراقب أحداً ﴿ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ ﴾ بأن كتمت أدنى شيء من الوحي ﴿ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَاتِهِ ﴾ بالجمع لنافع وابن عامر وأبي بكر باعتبار الأحكام ، والإفراد للباقين ، أي لبطل كونك

رسولا ، كالمصلى إذا ترك ركناً لم يكن مصلياً . روى الشيخان عن عائشة « من قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبلغ شيئاً مما أنزل إليه فقد كذب والله يقول بلغ ما أنزل إليك » . اه . وما قيل المراد تبليغ ما يتعلق بمصالح العباد ، فإن من الأسرار الإلهية ما يحرم إفشاؤه : قول بلا دليل . مناقض للحديث وعموم ما دل عليه كلمة « ما » قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ عدة وضمان من الله بعصمته من الأعادى ، وإزاحة لمعاذيره فى عدم التبليغ : نزلت فى غزوة الرقاع ، أو حجة الوداع . فلا إشكال فى كسر رباعيته وشج رأسه يوم أحد قبل العصمة ، وقيل عصمته من القتل ، وكان يحرس حتى نزلت ، فقال انصرفوا عنى فقد عصمنى الله ، رواه الحاكم . قال ابن العربى : لعلمائنا فى الآية تأويلات أصحها أن العصمة عامة فى كل مكروه ، وأن الآية نزلت بعد أن شج وجهه وكسرت رباعيته ، وقيل أريد من القتل خاصة والأول أصح ، وقد أوتى بعض العصمة بمكة ، بقوله «إنا كفيناك المستهزئين» ثم كملت بالمدينة . اه . قال الثعالبى فى الجواهر الحسان : كما وجب على النبى التبليغ وجب على علماء أمته ، بقوله «بلغوا عنى» اه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ لا يرشدهم ولا يمكنهم مما يريدون بك ، تأكيد للعصمة ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ من الدين معتد به ﴿ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ من القرآن بأن تعملوا بما فيه ومنه الإيمان بى والإذعان لأحكامى ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ ككفرهم به كرره ليرتب عليه قوله ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ لا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبلغه إليهم فإن ضرره لا يتخطاهم . وفى المؤمنين مندوحة لك عنهم . والأسى شدة الحزن ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بألسنتهم ، وهم المنافقون ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ وهم اليهود : مبتدأ ﴿ وَالصَّابِئُونَ ﴾ فرقة منهم ﴿ وَالنَّصَارَىٰ ﴾ ويبدل من المبتدأ ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ منهم ﴿ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فى الآخرة خبر المبتدإ ، ودال على خبر إن ، ويحتمل ارتفاع الصابئون على الابتداء ، والخبر محذوف على ما اختاره سيبويه ، أى كذلك على حد « فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ » «قيار اسم جمل» . أو المذكور خبره ، ويقدر لـ «إن» خبر ، على ما اختار سيبويه فى نحو زيد وعمرو قائم ، ولم يذكر هنا «اهم أجرهم اكتفاء بآية البقرة لتقدمها نزولا ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ على الإيمان بالله ورسله ﴿ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ﴾ ليتبعوهم فى دينهم فأبوا ، وكرر أخذ الميثاق هنا ليرتب عليه سائر قبائحهم ، وليعلم أن نقض الميثاق منهم كان من وجوه شتى ﴿ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ ﴾ من العمل بالشرع كذبوه وناصبوه ﴿ فَرِيقًا ﴾ منهم ﴿ كَذَّبُوا وَفَرِيقًا ﴾ منهم ﴿ يَقْتُلُونَ ﴾ كزكرياء ويحيى ، والتعبير به دون قتلوا حكاية للحال الماضية للفاصلة وتصوير تلك الفعلة الفاحشة ﴿ وَحَسِبُوا ﴾ ظنوا ﴿ أَلَّا تَكُونَ ﴾ بالنصب للجمهور ، والرفع لأبى عمرو وحمزة والكسائى فأن مخففة ، أى أنه لا تكون ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ عذاب ولا بلاء لهم بتكذيب الرسل وقتلهم :

﴿ فَعَمُوا ﴾ بذلك عن الدين ودلائل الهدى ﴿ وَصَمُّوا ﴾ عن الوعظ ﴿ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ لما تابوا ﴿ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا ﴾ ثانياً ، والمراد بهؤلاء أعقاب أولئك ﴿ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ بدل من الضمير ، ومن البلاغة وأعلام الآداب إسناد التوبة التى هى من أشرف الأفعال إليه ، وإسناد العمى والصمم إليهم ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيهم به ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ أعاده ، لأن ماتقدم مقالة من عاصر النبي صلى الله عليه وسلم من وفد نجران ، وهذا لمن عاصر عيسى بدليل قوله ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ فإني عبد ولست بإله . ردّ على اليعاقبة منهم ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ فى العبادة غيره ﴿ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ منعه أن يدخلها ﴿ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ ﴾ صلة ﴿ أَنْصَارٍ ﴾ يمنعونهم من عذاب الله ، وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا على أنهم ظلموا بالإشراك فهو من تمام كلام عيسى ، نصحاً لهم . أو من كلام الله نبه به أنهم قالوا ذلك تعظيما لعيسى ، وهو قد عاداهم بذلك . فما ظنك بغيره ا وجمع الأنصار باعتبار زعمهم أو لمقابلة الجمع بالجمع ، أو بتقدير مضاف أى جنس الأنصار ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ﴾ آلهة ﴿ ثَلَاثَةٍ ﴾ أى أحدها ، والآخران عيسى وأمه ، وهم النسطورية فرقة من النصارى والذين يدعون الأقنومية والاتحاد هم الملكانية ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ أى ما فى الوجود مستحق للعبادة من حيث إنه مبدئ جميع الموجودات ﴿ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أى إلا إله موصوف بالوحدانية متعال عن قبول الشركة ، و«من» مزيدة للاستغراق ﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ من التثليث ويوحدوا ﴿ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى ثبتوا على الكفر ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من النصارى ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى نوع منه شديد الألم لايطاق وصفه ، ولذا نكره ، وضع الظاهر موضع المضمر تكرير للشهادة على كفرهم ، وتنبيهاً على أن العذاب على من لم يتب ، ولذا قال ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ ﴾ بالانتهاء عما قالوا ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ﴾ بالتوحيد والتنزيه عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقرير والتهديد ، استفهام توبيخ وتعجيب من إصرارهم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لمن تاب ﴿ رَحِيمٌ ﴾ به ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ قصر إفراد لنفى الألوهية ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ صفة لرسول ، أى ما هو إلا رسول مثل رسل قبله ، خصه الله بالآيات كما خصهم ، فأحيي الموتى على يده ، كما أحيي العصا وجعلها حية على يد موسى وهو أعجب ، وخلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب وأم وهو أغرب ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ مبالغة فى تصديق الرسل كالنساء المصدقات ، وفيه دلالة على أنها لم تكن نبية ، ولما ذكر كمالهما ، وبيّن أن الناس شركوهما فيه نبه على ما ينافى الربوبية عنهما ظاهراً فقال ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ أى يفتقران إليه كغيرهما من الحيوانات ومن كان كذلك لا يكون إلهاً لتركيبه وضعفه وما ينشأ منه من البول والغائط ﴿ انْظُرْ ﴾ متعجباً ﴿ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ﴾ على وحدانيتنا وبطلان قولهم ﴿ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ ﴾ كيف ﴿ يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون عن الحق مع قيام البرهان ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره كعيسى ﴿ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾

أى شيئاً من المضار والمنافع ديناً ودنيا ﴿ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوالكم ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوالكم والاستفهام للإنكار ، أى أتعبدون العاجز وتذرون القادر ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ اليهود والنصارى ﴿ لَا تَغْلُوا ﴾ لا تجاوزوا الحد ﴿ فِي دِينِكُمْ ﴾ غلواً ﴿ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ وصف مؤكد كأمس الدابر ، لأن الغلو لا يكون حقاً ، وباطلا فلا يوصف بالحقية قط ، ألا ترى إلى حديث « إياكم والغلو فى الدين » فغلو اليهود فى عيسى بوضعه بنسبته إلى غير الرشدة ، والنصارى بنسبته إلى الألوهية ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا ﴾ بغلوهم ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل بعث محمد وهم أسلافهم والأهواء جمع هوى : ماتدعو شهوة النفس إليه ، قال الشعبى ما ذكر الله الهوى فى القرآن إلا ذمه ، وقال أبوعبيدة : لايوضع الهوى إلا فى الشر . لا يقال فلان يهوى الخير ، إنما يقال يحب الخير ويريده . اه . ﴿ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ من الناس ﴿ وَضَلُّوا ﴾ بعد بعث النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ متعلق بضلوا ، لفظاً ، وبالثلاث معنى ، ثم نفر عن اتباعهم بكونهم ملعونين بقوله ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ ﴾ بأن دعا عليهم لما اعتدوا فى السبت ، فمسخوا قردة ، وهم أصحاب أيلة ﴿ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ لما كفروا نعمة المائدة ، دعا عليهم فمسخوا خنازير ، وكانوا خمسة آلاف رجل ﴿ ذَلِكَ ﴾ اللعن ﴿ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ثم فسر الاعتداء والعصيان بقوله ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ ﴾ لا ينهى بعضهم بعضاً ﴿ عَنْ ﴾ معاودة ﴿ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ فعلهم هذا ، وفى الترمذى قال عليه السلام لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ، وفى أبى داود : أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان يلقى الرجل أخاه على منكر فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع ، ثم يلقاه من الغد على حاله ، فلايمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : كلا لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ، ثم يلعنكم كما لعنهم اه . قلت : ومعنى لتأطرنه لتعطفنه ولتردنه إلى الحق ، والأطر العطف والله أعلم . وفى الجواهر الإجماع على أن النهى عن المنكر واجب ، لمن أطاقه بيده ، أو بلسانه ، وإن تعذر فبقلبه ، وألا يخالط أهل ذلك المنكر اه . ﴿ تَرَى ﴾ يا محمد ﴿ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من أهل مكة ، بغضاً لك ، أى ترقى بهم الحال فى الضلال حتى يوالون من باشر أشد المنكرات وهو الكفر فضلا عن النهى عنه ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ من العمل لمعادهم الموجب لهم ﴿ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ مخصوص بالذم على تقدير المضاف ، أى موجب سخط الله ﴿ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۝ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ إيماناً خالصاً بلا نفاق ﴿ وَالنَّبِيِّ ﴾ أى نبيهم ، وإن كانت الآية فى المنافقين ، فالمراد نبينا محمد ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ خارجون عن الإيمان فلا دين لهم أصلا ﴿ لَتَجِدَنَّ ﴾ يا محمد ﴿ أَشَدَّ النَّاسِ

عداوة للذين ءامنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ من أهل مكة لتضاعف كفرهم وجهلهم ، وانهماكهم فى اتباع الهوى ، وركونهم إلى التقليد ، ومعاداة الأنبياء ﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين ءامنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ للين جانبهم وقلة حرصهم على الدنيا ﴿ ذلك ﴾ قرب مودتهم للمؤمنين ﴿ بأن ﴾ بسبب أن ﴿ منهم قسيسين ﴾ علماء ﴿ ورهبانا ﴾ عباداً ﴿ وأنهم لا يستكبرون ﴾ عن اتباع الحق إذا فهموه ، كما يستكبر اليهود وأهل مكة ، نزلت فى النجاشى وأصحابه لما أسلموا على يد جعفر بن أبى طالب لما سمعوا القرآن وفى السبعين القادمين من الحبشة ، فقرأ عليه السلام عليهم سورة يس فبكوا وأسلموا ، وقالوا ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى ؛ وفيه دليل على أن مكارم الأخلاق كالتواضع والإقبال على العلم ، والعمل به والإعراض عن الشهوات محمودة ولو من كافر ، ولما أعتق عليه السلام بنت حاتم الطائى وأعطاها نفقة : قال أكرموها فإن أباها كان يقرى الضيف ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﴾ من القرآن ﴿ ترى أعينهم تفيض من الدمع ﴾ عطف على يستكبرون ، يقال فاض الماء إذا كثر وسال عن جوانب الحوض : أطلق على الامتلاء إطلاق المسبب على السبب . وهو من المجاز المرسل ، والإسناد أيضاً مجاز عقلى ، مثل جرى النهر ، والدمع فى الأصل مصدر جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها مبالغة ﴿ مما عرفوا من الحق ﴾ من الأولى للابتداء والثانية للتبيين ، وما موصولة أو مصدرية ﴿ يقولون ربنا ءامنا ﴾ بما سمعنا أو بنبيك محمد وكتابك ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ المقرين بتصديقهما أو مع أمة محمد الذين هم شهداء على جميع الأمم يوم القيامة ﴿ و ﴾ قالوا فى جواب من عيرهم بالإسلام من اليهود ﴿ ما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ﴾ القرآن ، أى لا مانع لنا من الإيمان مع وجود مقتضيه ، « ولا نؤمن » حال من الضمير ، والعامل ما فى اللام من معنى الفعل ، أى أى شىء حصل لنا غير مؤمنين بالله ، أى بوحدانيته ، والاستفهام للإنكار والاستبعاد ﴿ ونطمع ﴾ عطف على نؤمن ﴿ أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴾ المؤمنين الجنة . ويحتمل أن « نطمع » خبر محذوف والواو للحال ، أى ونحن نطمع والعامل فيها عامل الأولى مقيداً بها أو نؤمن . قال تعالى : ﴿ فأثابهم الله بما قالوا ﴾ بذلك القول الناشئ عن خلوص اعتقاد ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين ﴾ بالإيمان والإحسان فى جميع الأمور . والآيات الأربع روى أنها نزلت فى النجاشى وأصحابه كما تقدم ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ والتكذيب بالآيات وإن دخل فى الكفر إلا أنه أخرج فى مقابلة المصدقين بما جاءهم من الحق ، ونزل لما وعظ النبى صلى الله عليه وسلم وذكر الناس بأهوال القيامة فبكوا وهمّ قوم منهم أن يلازموا الصوم والقيام ولا يقربوا النساء والطيب واللحم والنوم على الفراش ﴿ يا أيها الذين ءامنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ لا تتركوها ترك الحرام كما فعل أهل الكتاب . وفى اللباب : أى لا تعتقدوا تحريمها ؛ فإن من اعتقد تحريم شىء أحله الله فقد كفر . أما ترك لذات الدنيا وشهواتها والانقطاع إلى الله والتفرغ لعبادته من غير

إضرار بالنفس ، ولا تفويت حق غير ، ففضيلة لامنع منها اه . ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ لاتتجاوزوا حدالاعتدال إلى السرف ، أو بتحريم الطيبات ، أو لا تظلموا مطلقاً ، وقال الحسن بن أبي الحسن : أي لا تشددوا فتحرموا حلالا ، ولاتترخصوا فتحلوا حراماً . اه . وفى الصحيحين أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوا أزواجه عن عمله سرا فكأنهم تقالوه ، وقالوا أين نحن منه ، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فقال بعضهم أنا لا أتزوج النساء وقال بعضهم أنا لا أنام على الفراش فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ما بال أقوام يقولون كذا وكذا والله إني لأخشاكم وأعلمكم بالله لكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » اه . وفى بعض الروايات : « ليس في ديني ترك اللحم والنساء ، وإن رهبانية أمتي الجهاد » اه . قيل للحسن : إن بعض الزهاد لا يأكل الفالوذج ، قال : لأنه لا يؤدي شكره ، فقال : أيشرب الماء البارد ؟ قالوا : نعم . قال إنه جاهل ، إن نعمة الله فيه أكثر من الفالوذج اه . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين أمره . قال ابن العربي : هذا إذا كان الدين قوياً . ولم يكن المال حراماً ؛ وأما إذا فسد الدين وعم الحرام فالتبتل وترك اللذات أولى . وإذا وجد الحلال فحال النبي صلى الله عليه وسلم أفضل . اه . ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ مفعول والجار والمجرور قبله حال متعلق به ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد للوصية بما أمر به ، لأن الإيمان به يوجب التقوى ، وفى الآية دليل على أن الله تكفل بالرزق ، فليترك العبد الحرص ، وليحسن في الطلب ، قال فى فتوح الغيب : المعنى : وليس المطلوب من المؤمنين الزهادة عن المستلذات وتحريم الطيبات ، وإنما المطلوب الإيمان والتقوى . اه . ولما نزل « يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم . . . الآية » قالوا يارسول الله كيف نصنع بأيماننا ؟ فنزل ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ﴾ الكائن ﴿فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وتقدم في البقرة ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ عليه . بالتشديد للجمهور . والتخفيف لحمزة والكسائي وابن عياش ، وقرأ ابن ذكوان « عاقدتم » بأن حلفتم عن قصد وحنثتم ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ أي اليمين إذا حنثتم فيه ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ طعاماً ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ﴾ منه ﴿أَهْلِيكُمْ﴾ فى القدر ، أي أقصده : لأن من الناس من يسرف في إطعام أهله ، ومنهم من يقتر عليهم ، فأمر الله بالعدل في الكفارة ، وهو مدٌّ لكل مسكين عند مالك والشافعي ، ونصف صاع برٍ ، وصاع من غيره عند أبي حنيفة . ومدُّ برٍّ ونصف صاع من غيره عند أحمد بن حنبل . وقيل معنى الأوسط فى النوع ، لاأعلاه ولا أدناه ، وقيل الأوسط الأفضل : أي من خير ماتطعمون أهليكم ، ومحل « من أوسط » نصب صفة مفعول محذوف ، كما قدرنا ، أو رفع على البدل من « إطعام » ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ عطف على « إطعام » بما يجوز الصلاة به عند مالك وأحمد . أو ما يسمى كسوة كقميص أو إزار أو رداء عند الشافعي ولا يجوز دفع ماذكر إلى مسكين واحد ، خلافاً لأبي حنيفة ، فلو عشّى المساكين وغداهم . أو أخرج

الدقيق أو الخبز أجزأه عندنا ، أو أعطى القيمة لم يجزه خلافاً لأبى حنيفة ﴿أَوْ تَحْرِيرُ﴾ عتق ﴿رَقَبَةٍ﴾ مؤمنة كما فى كفارة القتل والظهار . حملا للمطلق على المقيد . خلافاً لأبى حنيفة سليمة من العيوب خلافاً للظاهرية ، ولا يجوز عتق المرتد إجماعاً ، وأجزأ المكاتب عند أبى حنيفة خلافاً لغيره ، والحانث مخير فى الثلاث ، والإطعام أفضل فى مذهب مالك . وقال غيره : العتق أفضل ، ثم الكسوة ، ثم الإطعام . ولكن بدأ الله بالإطعام لأنه أعم وجوداً ، والمقصود منه التنبيه على أنه سبحانه يراعى التخفيف والتسهيل فى التكاليف ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ واحداً مما ذكر ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ كفارته . ولا يشترط التتابع خلافاً لأبى حنيفة لكن يستحب ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أن تنكثوها مالم تكن على فعل بر أو إصلاح بين الناس ، كما فى سورة البقرة وأن تبتذلوها فى كل أمر ، وأن لا تكفروها إذا حنثتم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما بين لكم ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ذلك . فإن مثل هذا التبيين يسهل لكم المخرج منه ـ ولما نزل « لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » والخمر مما يستطاب ـ بين الله عدم دخولها فى الحلالات بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ المسكر الذى يخامر العقل ﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ القمار وتقدما فى البقرة ﴿وَالْأَنصَابُ﴾ الحجارة التى تنصبها الكفار للعبادة ويذبحون عندها ﴿وَالْأَزْلَامُ﴾ القداح التى يتفاءلون بها ، أو يستقسمون بها الجزور ﴿رِجْسٌ﴾ خبيث مستقذر أفرد وإن كان خبراً عن أشياء لكونه فى الأصل مصدراً ﴿مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ بتزيينه بيان لرجاسته ، وهو عام فى كلها ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أى الرجس المعبر به عن هذه الأشياء أن تفعلوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تدركون الفلاح ، واعلم أن الله أكد تحريم الخمر والميسر فى هذه الآية بأمور : أن صدر الجملة بإنما ، وقرنهما بالأصنام والأزلام اللذين هما من أمارات أهل الأوثان ، وسماهما رجساً ، وجعلهما من عمل الشيطان . وأمر باجتنابهما . وجعله سبباً يرجى به الفلاح ، ثم قرر ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقال ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ إذا أتيتموهما لما يحصل فيهما من الشر والفتن . أفردهما بالذكر تنبيهاً على أنهما المقصود بالبيان ، إذ الكلام مع المؤمنين وهم لا يتعاطون الأنصاب والأزلام ، فذكرهما أولا للدلالة على أن الخمر والميسر مثلهما فى الشر ، لقوله عليه السلام : « شارب الخمر كعابد الوثن » وشارب الخمر تزيل عقله ، فيتكلم بالفحش وربما أفضى إلى المقاتلة فيسبب العداوة والبغضاء ، والميسر يسبب أن يقمر الرجل على أهله وماله ؛ فيقعد حزيناً سليباً ينظر إلى ماله فى يد غيره ، فيورث العداوة والبغضاء ، فهذه من مفاسدهما فى الدنيا ، وأشار إلى مفاسدهما فى الدين بقوله ﴿وَيَصُدَّكُمْ﴾ بالاشتغال بهما ﴿عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الذى يحيى به القلوب ﴿وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ التى هى عماد الدين ، خصهما بالذكر تعظيما لهما ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أبلغ من انتهوا : لأن العاقل إذا تأمل ماسبق من الأوصاف ؛ ارتدع لامحالة . كأنه قال : قد تلى عليكم مافيهما من المفاسد ،

فبعد هذا البيان هل أنتم منتهون أم لا ؟ إيذاناً بأن الأمر فى المنع والتحذير بلغ الغاية ، وأن الأعذار قد انقطعت ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما أمرا به ﴿وَاحْذَرُوا﴾ ما نهيا عنه أو مخالفتهما ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾وقد بلغ وجزاؤكم علينا ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ مما لم يحرم عليهم أو من الخمر والميسر قبل التحريم ، لأنها نزلت لما قال بعض اليهود أو غيرهم : قتل قوم والخمر فى بطونهم فما بالهم . لكن الحكم عام وإن خص السبب فالجناح مرتفع عن كل من طعم شيئاً إذا ما اتقى الله فيما حرم عليه كما قال ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ المحرمات ﴿وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى ثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحات ﴿ ثُمَّ اتَّقَوْا ﴾ ما تجدد حرمته كالخمر ﴿ وَآمَنُوا ﴾ بأنه حكم الله ﴿ ثُمَّ اتَّقَوْا ﴾ استمروا على اتقاء المعاصى ﴿ وَأَحْسَنُوا ﴾ أخلصوا فى ذلك كله لقوله عليه السلام : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه أو أحسنوا على الناس بما أمكنهم ، وقيل إشارة فى المواضع الثلاثة : إلى مراتب التقوى . الأول : اتقاء المحارم تقوى العوام ، والثانى : اتقاء الشبهات تقوى الخواص ، والثالث : اتقاء غير الله وهو ربط سره على الله ، تقوى خواص الخواص . فهى مراتب المبدأ والوسط والمنتهى ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يثيبهم على إحسانهم ، وهذا مدح على الإيمان والتقوى والإحسان ، لأن هذه المقامات من أشرف الدرجات ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ ﴾ ليختبرنكم ﴿ بِشَيْءٍ ﴾ يرسله لكم ، قلله وحقره باعتبار ما أباح لهم من النعم ﴿ مِنَ الصَّيْدِ ﴾ بمعنى المصيد ، ومن للتبعيض أو لبيان الجنس ، هى ومجرورها فى محل جر صفة شىء ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ ﴾ أى الصغار منه كالبيض والفرخ وما لا يقدر على الفرار ﴿ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ الكبار منه ، كما وقع للصحابة مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم محرمون فكانت الوحش والطير تغشاهم فى رحالهم ﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ ﴾ علم ظهور يتعلق به الثواب والعقاب ﴿ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ حال أى غائباً لم يره فيجتنب الصيد لقوة إيمانه ممن لا يخافه لضعف إيمانه ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ النهى عنه فاصطاده ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فى الدنيا بالأدب وفى الآخرة بالنار . والصحيح أن خطاب الآية عام لجميع الناس الحلال والمحرم ، وبين التكليف بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ ﴾ أى المصيد وهو كل حيوان متوحش ، مأكول لحمه أم لا . خلافاً للشافعى فى تخصيصه بالمأكول . فيجب الضمان عند غيره على قاتل سبع ونمر ونحوه . ماشياً أو طائراً فى الحرم أو غيره ، ولا تأمروا به ، ولا تشيروا إليه ، ولا تدلوا عليه ﴿ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ أى محرمون بحج أو عمرة جمع حرام داخل الحرم أو المحرم ، واستثنى الشارع خمس فواسق يقتلهن المحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور . والإجماع على قتل الحية ، ولا يجوز قتل : كالبعوض مما لا يشتد ضرره فإن أمر المحرم أو دلّ فقد أساء ، ولا كفارة عليه ، ولا يأكل لحم صيد صيدَ له ، خلافاً لأبى حنيفة ، ويجوز له ما صاد الحل لنفسه فى الحل ، وكل ما ذبحه المحرم من الصيد أو قتله ـ عمداً أو خطأ ـ فهو ميتة لا يجوز له ولا لغيره ، خلافاً للشافعى فى قوله : إن ذكاته ذكاة ويجوز له ذبح المواشى الإنسية كالأنعام

والطير الذى لا يطير كالدجاج ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ كأبى اليسر طعن حمار وحش فقتله ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ بالإضافة للجمهور، والتنوين للكوفيين: أى فعليه جزاء يماثل المقتول فى الصورة حال كونه من جنس النعم، وذكر العمد لبيان الواقع فلا مفهوم له، فيجب الجزاء عمداً أو خطأ عند جميع الأئمة، إلا الظاهرية قالوا: لا جزاء إلا فى العمد، وليترتب عليه حكم التأثيم بقوله: «ليذوق وبال أمره، ومن عاد فينتقم الله منه» ﴿يَحْكُمُ بِهِ﴾ أى بالماثل رجلان ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ من فقهاء المسلمين لهما فطنة يميزان بها أشبه الأشياء به، إذ لم يكن منصوصاً من الشارع، وقد حكم ابن عباس وعمر فى النعامة ببدنة، وابن عباس وأبو عبيدة فى بقر الوحش وحماره ببقرة، وابن عمر وابن عوف فى الظبى بشاة، وحكم بها ابن عباس وعمر فى الحمام لأنه يشبهها فى عب الماء، فاتبعهم الأئمة مالك والشافعى وأحمد فى اعتبار المماثلة بالخلقة والهيئة، وما لا مثل له فى النعم فالقيمة. واعتبر أبو حنيفة القيمة مطلقاً ﴿هَدْيًا﴾ حال من جزاء، أو من الماء فى به ﴿بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ أى يبلغ به الحرم والكعبة أم الحرم، والحرم كله منحر لهذا الهدى، لكن لا بد أن يجمع فيه بين الحل والحرم حتى يكون بالغاً للكعبة، لكن لا ينحر إلا فى الحرم، باتفاق الأئمة ينحره عندنا بمنى، إن أوقفه بعرفة، وإلا فبمكة ويتصدق به على المساكين حيث شاء، وخصه الشافعى بمساكين الحرم، ونصب بالغاً على أنه نعت لهدياً وإن أضيف، لأن إضافته لفظية لا تفيد تعريفاً ﴿أَوْ﴾ عليه ﴿كَفَّارَةُ طَعَامِ مَسَاكِينَ﴾ بالإضافة البيان لنافع وابن عامر، وبالتنوين للباقين، وإن وجد الهدى، فطعام بدل أو عطف بيان أى من غالب قوت البلد، مايساوى قيمة الجزاء، لكل مسكين مُدٌّ عند مالك والشافعى، ونصف صاع عند أبى حنيفة والقولان لأحمد. وأصل المسألة أن الصوم مقدر بطعام اليوم وهو المدُّ عند الأولين، ونصف صاع عند أبى حنيفة ﴿أَوْ﴾ عليه ﴿عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ أى مثل ذلك الطعام ﴿صِيَامًا﴾ يصومه عن كل مدٍّ يوماً، وإن وجده، وله أن يصوم حيث شاء، واتفقت الأئمة على كون الثلاث على التخيير، وأن الخيار لقاتل الصيد لا للحكمين، خلافاً لمحمد بن الحسن من الحنفية، وعلى أن موضع التقويم هو المكان الذى قتل فيه الصيد، لا مكة خلافاً للشعبى. وجب عليه ذلك ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ﴾ ثقل جزاء ﴿أَمْرِهِ﴾ الذى فعله من مخالفة أمر الله بهتك حرمة الإحرام، وأصل الوبل والوبال، الثقل، ومنه الطعام الوبيل ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ من الصيد قبل التحريم أو فى هذه المرة ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى مثل ذلك ﴿فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ بالكفارة والعقوبة، والجملة خبر مبتدإ محذوف، أى فهو ينتقم الله منه، لأن الجزاء إذا كان مضارعاً لا يدخله الفاء ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ ممن عصاه لايقدر على منعه أحدٌ إذا أراد ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس حلالا كنتم أو محرمين ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ المالح والعذب، أى مصيده سمكا أو غيره، خلافاً لأبى حنيفة من غير ذكاة، طالت حياته ببَرٍّ أم لا عند المالكية خلافاً لغيرهم، مات بسبب كالصيد أو لا، كالميت الطافى خلافاً لأبى حنيفة، والمراد بالبحر جميع المياه ﴿وَطَعَامُهُ﴾

مايقذفه ميتاً أو الضمير للصيد ، وطعامه أكله ﴿ مَتَاعًا ﴾ مفعول له أى تمتيعاً ﴿ لَكُمْ ﴾ تأكلونه ﴿ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ المسافرين منكم يتزودونه ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ﴾ مايعيش فيه ويفرخ فيه ، وإن كان يعيش فى الماء فى بعض الأوقات ، كالبط فإنه برئ لأنه يتوالد فى البر ، والبحر مرعى له ، قاله فى مدارك التنزيل ، يعنى حرم عليكم أن تصيدوه ﴿ مَادُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ فلو صاده حلال لنفسه فللمحرم أكله كما تقدم ، بينته السنة ، والجراد من صيد البر عند الجمهور لا يحل للمحرم صيده ، وكذلك طير الماء كله من صيد البر ، قاله فى لباب التأويل ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ مبالغة فى التحذير من مخالفته . ولما حرم صيد الحرم أشار إلى شرف الكعبة التى هى أصل هذه الحرمات بقوله ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ ﴾ سميت بها لتكعبها وارتفاعها ﴿ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ بدل أو عطف بيان على المدح لا الإيضاح ، أو مفعول ثان أى صيرها ﴿ قِيَامًا لِلنَّاسِ ﴾ سبب صلاحهم وانتعاشهم ، إذ يقوم به أمر دينهم بالحج إليه ، ودنياهم بأمن داخله ، وعدم التعرض له وجبى ثمرات كل شىء إليه ، وقرأ ابن عامر قيماً على أنه مصدر كقيام ، أعل كما أعل فعله ، ونصبه على المصدر أو الحال ، وقيم الشىء وقيامه ما به صلاحه واستقامته ﴿ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ بمعنى الأشهر الحرم ، وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب فهى قيام لهم بأمنهم القتال فيها ﴿ وَالْهَدْىَ ﴾ قياماً لهم بالتمتع للفقراء ، والثواب للمتقربين به ﴿ وَالْقَلَائِدَ ﴾ أى ذوات القلائد أفردها لأنها أشرف وأكثر ثواباً كما تقدم ، أو لأمن صاحب القلائد ، وهى حبل يفتله الرجل ويعلق عليه نعلين أو نعلا يقلده بعيره فكل من لقيه لم يرعه ، ويكون حاجزاً بينه وبين من يطلبه ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الجعل المذكور ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ لا يخلو فعله من حكمة ، فجعله ذلك لجلب المصالح ودفع المضار عنكم قبل وقوعها دليل على علمه بما فى الوجود وما هو كائن كما عممه بقوله ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تعميم بعد تخصيص ومبالغة بعد إطلاق ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لأعدائه ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لأوليائه . قدم صفة الجلال فى الوعد والوعيد لأنه فى مقام التكليف ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ الإبلاغ لكم ، وقد أدى ما عليه ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ من تصديق وتكذيب وفعل وعزيمة ، فيجازيكم به ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِى ﴾ فى الهدايا والصدقات ﴿ الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ من الأشخاص والأعمال والأموال ، فلا يستوى الحرام والحلال ، والردىء والجيد ، والكافر والمؤمن ، والصالح والطالح ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ لأن عاقبته عاقبة سوء ، والمحمود القليل خير من المذموم الكثير ترغيب فى صالح الأعمال والأحوال ، وحلال الأموال ، كما قال ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بترك الخبيث ﴿ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لكى تفوزوا . قال فى الجواهر الحسان : قوله لا يستوى الخبيث والطيب عام فى جميع الأمور فى المكاسب ، وعدد الناس والمعارف ، ونحو ذلك . اه . ونزل لما أكثر الأعراب سؤال النبى صلى الله عليه وسلم عما لم يأمرهم وما لا يعنيهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ الشرط وما عطف عليه صفة لأشياء ، أى إن تظهر لكم

تغمكم لما فيها من المشقة . روى الترمذى أنهم سألوه فى حجة الوداع أفى كل عام ؟ أى وجوب الحج . فسكت . ثم قالوا : أفى كل عام ؟ فقال : لوقلت نعم لوجبت ، دعونى ما تركتكم ، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم . فنزلت . وروى البخارى أن رجلا قال لرسول الله : من أبى ؟ فقال «أبوك فلان» فنزلت ، وعن ابن عباس قال رجل أين أبى ؟ فقال «فى النار» ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ﴾ أى فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾ المعنى إذا سألتم عن أشياء فى زمنه ، ينزل القرآن بإبدائها ، فربما ساءتكم لما فيها من المشقة ، فتتعرضوا للعقاب بالتقصير عنها ، فلا تسألوها ، وقد كره بعض السلف السؤال والجواب لما لم يقع ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ عن مسائلكم فلا تعودوا ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بعقوبة ما يفرط منكم ، ويعفو عن كثير ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ أى مثل مسائلكم أو مثل تلك الأشياء ﴿قَوْمٌ﴾ أنبياءهم فأجيبوا ببيان أحكامها وهم بنو إسرائيل وأصحاب المائدة ونحوهم ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ متعلق بسألها وليس صفة لقوم ، فإن ظرف الزمان لا يكون صفة لجثة ، ولا حالا منها ، ولا خبراً عنها ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا﴾ أى بسببها ﴿كَافِرِينَ﴾ بترك العمل بها ، ولما منع سؤال أشياء وهو من أمر الجاهلية ، أردفه بمنع ما كان من أخلاق الجاهلية فقال ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ﴾ ما شرع ﴿مِنْ﴾ زائدة ﴿بَحِيرَةٍ﴾ مشقوقة الأذن فعيلة بمعنى مفعولة ، ﴿وَلَا سَائِبَةٍ﴾ اسم فاعل ساب بمعنى جرى ومشى مسرعاً ، بمعنى مسيبة أى مهملة ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ فعيلة بمعنى فاعلة ﴿وَلَا حَامٍ﴾ اسم فاعل حمى : حفظ . قال القسطلانى : يجوز كون جعل بمعنى سمى ، فيتعدى لاثنين ، أحدهما محذوف ، أى ما سمى الله حيواناً بحيرة ، وهو قول أبى البقاء ، ومنع أبو حيان : كون «جعل» هنا بمعنى شرع ووضع أو أمر قال إذ لم يذكر النحويون لها هذا . وخرج الآية على التصيير ، وجعل المفعول الثانى محذوفاً ، أى ماصير الله بحيرة مشروعة . قال الثعالبى : كلام أبى حيان شهادة على نفى وعلى تقدير صحته ، فيحمل كلام غيره على أنه تفسير معنى لا تفسير إعراب . اه . قلت الأولى لا تفسير لغة . والله أعلم . روى البخارى عن سعيد بن المسيب قال : البحيرة التى يمنع درها للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس ، وقال غيره : من النساء . والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم ، لا يحمل عليها شىء . والوصيلة الناقة البكر ، تبكر فى أول نتاج الإبل بالأنثى ثم تثنى بعدها بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر . والحامى فحل الإبل ، يضرب الضراب المعدود يعنى حتى يولد له عشرة أولاد ، فإذا قضى ضرابه ودعوه : أى تركوه للطواغيت ، وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شىء ، وسموه الحامى . اه . قلت : هذا مافى البخارى ، وقد ذكروا فيها غير ذلك ، والله أعلم ﴿وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فى ذلك ونسبته إليه ، ويزعمون أنه شرع إبراهيم . روى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت عمرو بن لحى فى النار يجر قصبه ، وهو أول من سيب السوائب وغير دين إبراهيم عليه السلام . قلت قصبه بضم القاف وسكون الصاد المهملة بعدها موحدة ، يعنى

أمامه ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أن ذلك افتراء لأنهم قلدوا فيه آباءهم . وفيه أن منهم من يعرف بطلان ذلك ، ولكن منعه حب الرياسة وتقليد الآباء أن يعترف به ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾ أى إلى حكمه من تحليل ما حرمتم ﴿ قَالُوا حَسْبُنَا ﴾ كافينا ﴿ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ بيان لقصور عقلهم وانهما كهم فى التقليد ، وألا سند لهم سواه ﴿ أ ﴾ حسبهم ذلك ﴿ وَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى الحق والاستفهام للإنكار والواو للحال ، أى الاقتداء إنما يصح بمن عُلم أنه عالم مهتد ، وذلك لا يعرف إلا بالحجة لا بالتقليد ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ نصب على الإغراء والجار والمجرور قبله اسم بمعنى آلزموا إصلاحها وحفظها عن المعاصى ، والإصرار عليها بعد ما أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر ، ولم تقدروا عليه لفساد الزمان ، لما فى الترمذى عن أبى ثعلبة الخشنى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية قال : « تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوًى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك فإن من ورائكم أياماً ، الصبر فيهن على الحق كالقبض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ ﴾ مستأنف أو جزم على الجواب ﴿ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ بعد ما أديتم ما عليكم من الأمر والنهى ، قال الثعالبي : هذا ـ يعنى ما فى حديث أبى ثعلبة ـ هو التأويل الذى لانظر لأحدمعه ، لأنه مستوف للصلاح ، صادر عن النبى صلى الله عليه وسلم وجملة ما عليه أهل العلم فى ذلك أن الأمر بالمعروف متعين ، متى رُجى القبول أو رجى ردّ المظالم ، ولو بعنف ، مالم يخف الآمر ضرراً يلحقه فى خاصته ، أو فتنة يدخلها على المسلمين ، إما بشقّ عصًا ، وإما بضرر يلحق طائفة من الناس . فإذا خيف هذا ، فعليكم أنفسكم ، محكم واجب أن يوقف عنده ، اه . وفى لباب التأويل : قال أبو بكر الصديق أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم » وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله منه بعقاب » أخرجه الترمذى ، وقال حسن صحيح . وأخرجه أبو داود وزاد فيه : « وما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروا ولم يغيروا ، إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب » وقال قوم فى معنى الآية : عليكم أنفسكم إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر ، فلم يقبل منكم . قال ابن مسعود مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ما قبل منكم ، فإن ردّ عليكم فعليكم أنفسكم فإذا اختلفت قلوبكم وأهواؤكم ، وألبستم شيعاً يذيق بعضكم بأس بعض جاء تأويل هذه الآية ، وقال الطبرى : أصح التأويلات فى هذه الآية ما روى عن أبى بكر اه . ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وعد ووعيد للفريقين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هذه الآية إلى قوله تعالى : « يوم يجمع الله الرسل » أشكل ما فى القرآن إعراباً ومعنى وحكماً ، قاله مكى وغيره . قال ابن عطية : هذا كلام من لم يقع له الثلج فى تفسيرها اه . ثم إنا نبين أولا سبب نزولها ، ثم نشير إلى معناها ليستأنس به قبل

الدخول فى تفسير النص . ثم نبين الإعراب فى ضمن ذكر النص إن شاء الله . قال ابن عطية : لا خلاف أن سببها أنّ تميما الدارى وعدىّ بن بداء - وكانا نصرانيين - سافرا إلى المدينة يعنى من مكة يريدان الشام . بتجارتهما وقدم المدينة أيضاً ابن أبى مارية . قلت اسمه بزيل . بزاى مصغراً مولى عمرو بن العاص ، يريد الشام تاجراً ، قال الفخر - وهو مسلم - فخرجوا رفاقاً فأمرض ابن أبى مارية فى الطريق ، وأوصى إلى تميم وعدى ، أن يؤديا ما ترك إلى أوليائه من بنى سهم ، قال تميم وذكر القصة ، وكان معه جام فضة ، يريد به الملك ، فأخذته أنا وعدى ، فبعناه بألف وقسمنا ثمنه ، فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تأثمت من ذلك ، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ، وأديت خمسمائة فوثبوا إلى عدىّ فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف عمرو بن العاص ورجل آخر معه ، ونزعت من عدىّ خمسمائة ، قال ابن عطية : وقد اختلفت ألفاظ هذه القصة ، وما ذكرته هو عمود الأمر ، ولم تصح لعدى صحبة ولا إسلام ، وأما معنى الآية من أولها إلى آخرها : أن الله أخبر المؤمنين أن حكمه فى الشهادة على الموصى ، إذا حضره الموت : أن تكون شهادة عدلين : فإن كان فى سفر ولم يكن معه من المؤمنين أحدٌ فليشهد شاهدين ممن حضره من أهل الكفر ، فإذا قدما وأديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا ولا بدلا ، فيحكم بشهادتهما فإن عثر بعد ذلك أنهما كذبا أو خانا ، حلف رجلان من أولياء الموصى فىالسفر ، وغرم الشاهدان ماظهر عليهما ، هذا معنى الآية عند أكثر المفسرين المعتبرين ، ولكن اختلفوا ، هل نسخ شهادة آخرين من غيركم ، أى من الكفار بقوله : وأشهدوا ذوى عدلٍ ، وبما عليه الإجماع من أن شهادة الكافر لا تجوز أولا نسخ ، وكذا فى تحليف الشاهد : فالمراد بغيركم الأجانب من المؤمنين لا الكفار ، أو على ظاهره ، فشهادة الكفار جائزة غير منسوخة فى هذه الحالة ، وعليه أحمد بن حنبل وغيره قالوا : من كان بأرض غربة ، ولم يجد مسلماً يشهد على وصيته : فليشهد كافرين على أى دين كانا ، لأنه من الضرورات وهى تبيح المحظورات ، والشاهدان فى الآية هما الوصيان ، إذ الوصية إشهاد على النفس كالإقرار . والله أعلم . ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ مبتدأ أضيف إلى الظرف على الاتساع ، والمراد بالشهادة الإشهاد على الوصية ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أى أسبابه ظرف للشهادة ، أى شارفه الموت ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ بدل من إذا ، أو ظرف لحضر ، وخبر المبتدأ ﴿اثْنَانِ﴾ على تقدير مضاف ، أى شهادة اثنين ، خبر بمعنى الأمر ، أى ليشهد أحدكم اثنين ، وإذا كانت الشهادة بمعنى الحضور : فمعناه ليشهد أحدكم عند الموت إن أراد الوصية اثنان ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أى من أقاربكم ، أو من المسلمين ، وهما صفتان لاثنان ﴿أَوْ آخَرَانِ﴾ عطف على اثنان ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من الأجانب ، أومن غير ملتكم ، هذا شرطه ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم ﴿فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أى شارفتم أى فأشهدوا الأجانب أو غير المسلمين عند ضرورة السفر وحلول الموت فيه ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ توقفونهما صفة آخران ، وما بينهما اعتراض أو استئناف بيانى ، كأنه قيل كيف نعمل بالشاهدين ؟ فقال تحبسونهما

﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ أى صلاة العصر ، لأنه وقت اجتماع الناس ، وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار ، وقيل أى صلاة كانت ، لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أيها الورثة ، أى شككتم فيهما . ويقولان ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾ بالله ﴿ثَمَنًا﴾ عوضاً ، نأخذ بدله من المال ، بأن نحلف أو نشهد به كاذبين لأجله ، و«لانشترى» مُقسَمٌ عليه ، و «إن ارتبتم» اعتراض ، يفيد اختصاص القسم بحال الارتياب ، وهذا التحليف إذا كانا كافرين عند أحد ، ولا يحلف الشاهد المسلم اتفاقاً ، لأنه إن ارتيب لم تجز شهادته ، وإلا فلاحاجة إلى يمينه ، والأولى جعلهما وصيين وهما يقسمان إن اتهما ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المقسم له أو المشهود له ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ ذا قرابة منا ، والعرب أميل الناس إلى قراباتهم ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ التى أمرنا بإقامتها وإظهارها ، والإضافة للتعظيم ﴿إِنَّا إِذًا﴾ إن كتمناها ﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ بمخالفة قوله تعالى «كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين» ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ اطلع بعد حلف الوصيين ﴿عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أى فعلا ما يوجبه من خيانة وكذب فى اليمين : بأن وجد عندهما مثلا ما اتهما به ، وادعيا أنهما ابتاعاه من الميت ، أو أوصى لهما به ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ فى توجه اليمين عليهما ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ الوصية ، أى جُنى عليهم وهم الورثة ، ومعنى الاستحقاق هنا الغلبة ، كما تقول لظالم يظلمك ، قد استحق هذا مالى علىّ ظلماً ، فتشبه بالمستحق حقيقة ، حين غلك ماتملكه ، على الاستعارة ، ويبدل من آخران ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ بالميت أى الأقربان إليه ، وقرأ حمزة وأبو بكر : الأولين بتشديد الواو وكسر اللام ، جمع أول صفة أو بدل من الذين ، وقرأ حفص استحق على بناء الفاعل ، على أن الأوليان فاعل ، أى استحق الأوليان على سائر الورثة إقامتهما الشهادة فى مقابلة شهادة الجانبين ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ على خيانة الوصيين ويقولان ﴿لَشَهَادَتُنَا﴾ يميننا ﴿أَحَقُّ﴾ أصدق ﴿مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ يمينهما ، أو ما أخبرنا أولى بالقبول من خبرهم ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ فى هذه الشهادة ما هو الحق ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ استعظام وتقبيح للظلم ، وتخصيص الحلف فى الآية باثنين من أقرب الورثة لخصوص الواقعة ، وهما عمرو بن العاص . والمطلب بن أبى وداعة : فلو كان واحداً لحلف مكانهما واستحق ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور من رد اليمين على الورثة ﴿أَدْنَىٰ﴾ أقرب إلى ﴿أَنْ يَأْتُوا﴾ أى الشهود أو الأوصياء ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ فلا يخونوا فيها ﴿أَوْ﴾ أقرب إلى أن ﴿يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ على الورثة المدعين : فيحلفون على خيانتهم وكذبهم ، فيفتضحون ويغرمون : فلا يكذبوا : فربما تركوا الحلف كاذبين إذا خافوا هذا الحكم ، وجمع الضمير لأن هذا حكم يعم الشهود كلهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الخيانة والكذب ﴿وَاسْمَعُوا﴾ ما تؤمرون به سماع قبول ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعته ، إلى سبيل الخير ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ متعلق بيهدى أو نصب باذكر ونحوه وهو الأولى ، والأول ضعيف كما قال الثعالبى : إن براعة الآية أن يكون هذا الكلام مستأنفاً ، وخص الرسل بالذكر لأنهم قادة الخلق ،

وهم المكلمون أولا ، وهو يوم القيامة ﴿ فَيَقُولُ ﴾ لهم توبيخاً لقومهم ﴿ مَاذَا ﴾ أى الذى ﴿ أُجِبْتُمْ ﴾ به حين دعوتم إلى التوحيد والطاعة ﴿ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ كعلمك فيهم لأنك تعلم ما أضمروا وما أظهروا ونحن لا نعلم إلا ما أظهروا ، أو لا علم لنا إلا علمٌ أنت أعلم به منا ، وهذا قريب من الأول ، أو لا علم لنا بعاقبة أمرهم : فلا نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا مما أحدثوا . كقوله : « كنت أنت الرقيب عليهم » وفى حديث الحوض : « فيقال لى : لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول سحقاً » وقال فخر الدين : علموا أن الأدب فى ذلك الوقت السكوت وتفويض الأمر إلى علم الله وعدله فقالوا لا علم لنا ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ تعلم ما غاب من باطن الأمور ونحن لا نعلم إلا ما نشاهد ولا يخفى عليك ما عندنا من العلم ، وما قيل من أنه ذهب عنهم علم ذلك لشدة هول القيامة وفزعهم ثم بعد ذلك يشهدون فضعيف ، لقوله « لا يحزنهم الفزع الأكبر » « إنى لا يخاف لدىّ المرسلون » ونحو ذلك ، قاله فى لباب التأويل والجواهر الحسان . وقرأ حمزة وأبو بكر بكسر الغين ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ بدل من « يوم يجمع » أو نصب باذكر « وقال » بمعنى يقول ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ ﴾ باصطفائها على نساء العالمين ، والنعمة على الأصول نعمة على الفروع وذكر النعمة شكرها ﴿ إِذْ أَيَّدْتُكَ ﴾ قوّيتك ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ جبريل أو الكلام الذى به حياة القلوب لقوله ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ﴾ طفلا معجزة ﴿ وَكَهْلًا ﴾ تبليغاً أى فى الحالين على السواء ، وفيه دلالة على أنه رفع بعد الكهولة ، وهى ما فوق الثلاثين ، لأنه رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وفيه دلالة على أنه ينزل فى آخر الزمان ، لأنه حين رفع لم يكن كهلا ، وليس بشىء ، لأنه حين النزول يكون شيخاً ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ ﴾ الخط ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ صواب القول والفهم ، والاطلاع على أسرار العلوم ﴿ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ . وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي . فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي . وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ سبق تفسيره فى سورة آل عمران ، وكذا قراءة نافع « طائراً » ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ ﴾ حين هموا بقتلك ﴿ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ظرف لكففت ﴿ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا ﴾ الذى جئت به ﴿ إِلَّا سِحْرٌ ﴾ وقرأ حمزة والكسائى « ساحر » يريدون عيسى ﴿ مُبِينٌ . وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ أمرتهم على لسانك ، أو أوحيت إليهم إلهاماً ﴿ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ عيسى ، وأن مصدرية أو مفسرة ﴿ قَالُوا آمَنَّا ﴾ بهما بقلوبنا ﴿ وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ منقادون مخلصون لما أمر بظواهرنا أى بايعنا على ذلك . اذكر ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ أى يفعل إن سألته ، من إطلاق اللازم على الملزوم . وقرأ الكسائى بالفوقانية ، ونصب ما بعده ، أى هل تقدر أن تسأله ﴿ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ وهى الخوان إذا كان عليه الطعام . من ماد : تحرك أو أعطى ﴿ قَالَ ﴾ لهم عيسى ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى اقتراح الآيات ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ بكمال قدرته ، وصحة نبوتى ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ﴾ تبركا به واستغناء بذلك عن طلب

المعاش : لنتفرغ لطاعة الله ، تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بزيادة اليقين بقدرته ﴿وَنَعْلَمَ﴾ نزداد علماً ﴿أَنْ﴾ مخففة أي أنك ﴿قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في النبوة عياناً كما علمناه استدلالاً ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ بما عاينا لمن بعدنا الداعين لهذا الشرع بسببها . روى أن سؤالهم كان بعد أن أمرهم عيسى بصوم ثلاثين يوماً فأتموها فأرادوا أن تكون المائدة عيد ذلك الصوم ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لما رأى لهم غرضاً صحيحاً بعد أن لبس جبة شعر ورداء شعر يصلي ويبكي ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا﴾ أي يوم نزولها ﴿عِيدًا﴾ فرحاً وسروراً عائداً نعظم ذلك اليوم ونشرفه ﴿لِأَوَّلِنَا﴾ بدل من لنا بإعادة الجار ﴿وَآخِرِنَا﴾ ممن يأتي بعدنا ، روى أنها نزلت يوم الأحد ولذا اتخذه النصارى عيداً لهم ، وقيل يأكل منها أولنا وآخرنا ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ على قدرتك ونبوتي ﴿وَارْزُقْنَا﴾ إياها ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لأنك خالق الرزق ومعطيه بلا عوض وغيرك واسطة ، وأنت الرازق حقيقة ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ مستجيباً له ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ بالتشديد لنافع وابن عامر وعاصم والتخفيف لغيرهم ﴿عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ﴾ بعد نزولها ﴿مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ﴾ الضمير للمصدر أو العذاب ، إن أريد به ما يعذب به ، على حذف حرف الجر ﴿أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فنزلت الملائكة بمائدة حمراء منكوسة ، تطير بها بين غمامتين حتى أنزلوها بين أيديهم ، فبكى عيسى ثم قال : اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة لنا ، وصلى ركعتين وبكى ، ثم كشفها فإذا فيها كل نوع طعام من الخبز واللحم والبقول وغير ذلك ، وقالوا يا روح الله ، أمن طعام الدنيا أو الجنة ؟ فقال : ليس منهما ، ولكنه اخترعه الله بقدرته كلوا ما سألتم واشكروا يمدكم الله من فضله ، وكانوا أكثر من ألف ، فأكلوا حتى شبعوا ثم طارت ، وكانت تنزل عليهم كل يوم بكرة وعشياً يأكل منها الأغنياء والفقراء ، لا يأكله مريض إلا برئ ، ثم أوحى الله إلى عيسى أن اجعل مائدتي في الفقراء والمرضى ، دون الأغنياء والأصحاء ولا يدخروا لغد ، فخان بعضهم وادخر ، فرفعت عنهم . ومسخ الذين كفروا النعمة منهم قردة وخنازير : عذاب لم يعذب به غيرهم بعدهم ، قال ابن العربي في الأحكام : شاهدت المائدة يعني مرساها بطور سيناء مراراً وأكلت عليها ليلا ونهاراً وذكرت الله فيها سراً وجهاراً ، وكان ارتفاعها أشف من القامة بنحو الشبر ، وكانت صخرة لا تؤثر فيها المعاول ، وكان الناس يقولون مسخت صخرة إذ مسخ الله أربابها ، والذي عندي أن هذه كانت صخرة في الأصل قطعت من الأرض وجعلت محلا للمائدة النازلة من السماء ، وكل ما حولها مخفوف بقصور ، وقد نحتت في ذلك الحجر الصلب بيوت ومجالس منها وخاناتها من جوانبها وبيوت خدمتها قد صورت من الحجر ، كما تصور من الطين والخشب ، فإذا دخلت في قصر من قصورها ورددت الباب ، وجعلت من ورائه صخرة ، لتردهم لم يفتحه أهل الأرض للصوقه بالأرض . وإذا هبت الريح وحثت تحته التراب لم ينفتح إلا بعد صب الماء تحته والإكثار منه ، حتى تسيل بالتراب فينفرج الباب ، وقد مات بها قوم بهذه العلة ، وقد كنت أخلو بها كثيراً للدرس ، ولكني كنت في كل حين أكنس حول الباب مخافة

ماجرى لغيرى فيها . اه . واذكر ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ أى يقول يوم القيامة ، أو قاله بعد مارفعه ﴿يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى سوى الله على أنه صفة إلهين فتكون الآلهة ثلاثة أو يتعلق باتخذونى ، ومعنى «دون» المغايرة ، إذ من عبد الله مع غيره فكأنه عبد غيره فقط ، أو القصور بمعنى لم يعتقدوا أنهما مستقلان باستحقاق العبادة ، بل عبادتهما توصل إلى عبادة الله ، فهى قاصرة عنها كقول المشركين « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله » ﴿قَالَ﴾ عيسى ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لك عما لا يليق بك من الشريك وغيره ﴿مَا يَكُونُ﴾ ينبغى ﴿لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ خبر ليس و « لى » للتبيين أى لا أقول قولا لايحق إذ لا أستحق العبادة فكيف أدعو إليها ، ثم رأى أن المقام مقام تواضع وتأدب فسلم علم ذلك إلى الله ، هل وقع منه أم لا ، فقال ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ هذا غاية الأدب حين فوض الأمر إلى علمه ﴿تَعْلَمُ مَا﴾ أخفيه ﴿فِي نَفْسِي﴾ كما تعلم ما أعلنه ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أى معلومك ، عبر عنه بما فى نفسك مشاكلة ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ لاغيرك ، تقرير للجملتين لأن الحصر يشتمل على الإثبات والنفى ، فالإثبات تقرير لتعلم مافى نفسى ، والنفى تقرير لقوله ولا أعلم مافى نفسك ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ تصريح بنفى المستفهم عنه بعد تقديم ما يدل عليه ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أن مفسرة لمعنى القول على تأويله بالأمر ، كأنه قال ما أمرتهم إلا ما أمرتنى به ، فعدل إلى « ما قلت لهم » تأدباً أن يجعل ربه ونفسه آمرين ولموافقة قوله « أأنت قلت » ويجوز كون أن مصدرية بدلا من المجرور فى به ، ولايقدح فيه بقاء الموصول بلا عائد ، إذ ليس من شرط البدل انتقامة المعنى به مع طرح المبدل ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ رقيباً أمنعهم مما يقولون ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ قبضتنى بالرفع إلى السماء ، والتوفى أخذ الشىء وافياً ، والموت نوع منه ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ الحفيظ لأعمالهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع ومنه قولى لهم وقولهم بعدى ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ أى من أقام على الكفر منهم أو جميع الخلق ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أى لمن آمن منهم ، أو لجميعهم ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى صنعه ، فعزتك وحكمتك تقتضى ذلك فإن عذبت فعدل وإن غفرت ففضل ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ بنصب يوم على المفعول فيه لنافع والإشارة إلى قوله «أأنت قلت للناس» أى هذا القول لعيسى فى ذلك اليوم ، وبالرفع لغيره أى هذا اليوم يوم ينفع الصادقين صدقهم على أنه خبر . ويجوز ذلك على قراءة النصب بجعله مبنياً ، وإن أضيف إلى معرب ، وإن منعه بعضهم . قال ابن مالك فى الخلاصة : ومن بنى فلن يفندا ، ثم بين ذلك النفع بقوله ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعته ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بثوابه ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ • لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تكذيب للنصارى ، لأن عيسى وأمه من جملة ما فى

السموات والأرض ، وغلب ما لا يعقل لكون الكلام صادراً عن مقام الكبرياء والسخط على من اتخذ إلهاً دونه . فالعاقل كغيره فى انتفاء الألوهية عنه ، ولأن ما يتناول الأجناس كلها فهو أولى ، بإرادة العموم والله أعلم بأسرار كتابه .

[تم تفسير سورة المائدة]

سورة الأنعام

مكية _ إلا (وما قدروا الله ...) الآيات الثلاث
مائة وخمس أو ست وستون آية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، الْحَمْدُ) أى الوصف بالجميل ثابت (لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات للناظرين ، وأخبر عن حمده بالجملة الاسمية الدالة على انحصار المحامد فيه ، لينبه على ثبوت حمده على هذه النعم ، حُمد أو لم يحمد ، وبدأها بخلق السموات والأرض لأنها أصول النعم التى تعم الملائكة والثقلين وغيرهما ، وقدم السماء لعلوها وشرفها وجمعها دون الأرض لثقل جمعها وخفة جمع السماء (وَجَعَلَ) أنشأ (الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) كل ظلمة ونور ، وجمعها دونه لكثرة أسبابها أو أراد بالنور الجنس ، ولم يعكس ليكون فيه نوع طباق السموات والأرض . والفرق بين الخلق والجعل : ملاحظة التقدير والتسوية فى الأول ، والارتباط بين الشيئين فى الثانى كالظلمات والنور ينشآن من تكاثف الأجرام والنيرات ، وكل ذلك من دلائل وحدانيته (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) مع قيام هذا الدليل (بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) عنه أو يسوّون غيره فى العبادة به ممن لا يقدر على شىء ، والجملة عطف على الاسمية أو الفعلية ، والباء على الأول متعلقة بكفروا ، وصلة يعدلون محذوفة أى يعدلون عنه ، ليقع الإنكار على نفس الفعل ، وعلى الثانى متعلقة بيعدلون أى يسوون الأصنام بربهم ، وثم على الوجهين للاستبعاد . ولما كان المقصود فى السورة إثبات التوحيد والبعث قدم دليله من أصول العالم ، الآفاق ، ثم ثنى بالفصول آدم وأبنائه بقوله (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ) بخلق أبيكم آدم أصل البشر منه . وعن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع ألوان الأرض لجاء بنو آدم قدر الأرض . منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن ، والخبيث والطيب » أخرجه أبو داود والترمذى (ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا) لكم تموتون بعد انتهائه (وَأَجَلٌ مُسَمًّى) مضروب (عِنْدَهُ) لبعثكم تفرد به لا يعلمه غيره ، أو الأول النوم والثانى الموت ، وتنكير مسمى للتعظيم . ولذا قدم على الظرف بخلاف نحو

عندى ثوب جيد ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ ﴾ أيها الكفار ﴿ تَمْتَرُونَ ﴾ تشكون فى التوحيد والبعث بعد علمكم أنه ابتدأ خلقكم، ومن قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر، وثم للاستبعاد فوق الاستبعاد الأول لانضمام دليل الأنفس إلى دليل الآفاق مع اشتماله على المبدإ والمعاد؛ ولذلك قدم الضمير لتقوى الحكم، وخاطب الذين هم يعدلون توبيخاً لهم وتقبيحاً لما هم فيه من الامتراء بعد هذا البرهان الجلى. أو الآية الأولى دليل التوحيد والثانية دليل البعث ﴿ وَهُوَ اللَّهُ ﴾ المنفرد بالألوهية ﴿ فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الْأَرْضِ ﴾ فالجار متعلق بما دل عليه لفظ الجلالة من الصفات التى اشتهر بها، قال ابن عطية: كأنه قال وهو الله الخالق الرازق، المدبر للأمر، المحيط بما فى السموات وفى الأرض، كما تقول زيد السلطان فى المشرق والمغرب، أى الآمر الناهى الناقض المبرم الذى يعزل ويولى فيهما، فأقمت السلطان مقام هذه، وهذا مقتضى فصاحة اللفظ وجزالة المعنى ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ ما تسرون وتجهرون به بينكم من أحوال النفس، بيان لتفرده بالألوهية لأن الذى يكون السر والجهر عنده سواء هو الله لا شريك له فى ذلك، أو خبر بعد خبر ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ من سائر أعمال الجوارح، تعميم بعد تخصيص، وأشار إلى أنه كما تفرد بإيجاد السموات والأرض والظلمات والنور فيها، وخلق البشر من الطين، وحكم عليهم بالموت ثم بالبعث كذلك، تفرد بالتدبير والألوهية فى السموات والأرض، والعلم الشامل بأقوالهم سراً وجهراً، بل بجميع ما يأتون وما يذرون لا يعزب عنه مثقال ذرة، ثم غيَّر الأسلوب إلى الغيبة، تبعيداً لهم عن ساحة الحضور، والمكالمة لإنكارهم الدلائل الباهرة فقال ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ من القرآن ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ تاركين النظر فيها، غير ملتفتين. و «من» الأولى مزيدة للاستغراق، والثانية للتبعيض ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ﴾ القرآن ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ فى معرض جزاء شرط مقدر. أى إن كانوا معرضين عن الآيات الدالة على نبوتك فلا تعجب، لأنهم كذبوا بما هو أعظم الآيات وهو القرآن. أو هو كاللازم مما قبله، أى لما كانوا معرضين كذبوا، أو كالدليل عليه أى لما أعرضوا عن القرآن أعظم الآيات فكيف لا يعرضون عن غيره، ولذا رتب عليه بالفاء ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ ﴾ أى سيظهر لهم عند ظهور الإسلام، أو عند نزول العذاب بهم فى الدنيا والآخرة ﴿ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى عواقبه كناية عن عظم العذاب، لأن الواقعة إذا عظمت تواترت الأخبار بها مختلفة ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعتبروا بقلوبهم أو ألم ينظروا فى أسفارهم إلى الشام وغيرها ﴿ كَمْ ﴾ خبرية بمعنى كثيراً ﴿ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أمة من الأمم الماضية. والقرن الأمة المقترنة فى مدة من الزمان أو هو المدة نفسها، وهو على حذف مضاف، أى أهل قرن: واختلف فى قدرها. قال عياض: من عشر سنين إلى مائة وعشرين. اه. والصحيح المائة، لقوله عليه السلام فى عبد الله بن بشر المازنى: إنك تعيش قرناً، فعاش مائة سنة ﴿ مَكَّنَّاهُمْ ﴾ جعلنا لهم مكاناً ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ أو جعلناهم متمكنين فيها يتصرفون كيف شاءوا فى أعمار طويلة وأموال مزيدة ﴿ مَا لَمْ

نُمَكِّنْ لَكُمْ ﴾ فيه التفات عن الغيبة إيقاظاً لهم عن سنة الغفلة ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ ﴾ المطر أو السحاب أو المظلة ، أى حقيقة السماء . فإن مبدأ المطر منها ﴿ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا ﴾ متتابعاً ، جمعه مدارير ، من الدرة ، وهى سيلان اللبن ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ ﴾ تحت مساكنهم ، والمراد كثرة البساتين فعاشوا فى الخصب بين الأنهار والثمار ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ فلم تغن عنهم تلك الأسباب والقوى ﴿ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ يعمرون الأرض ويسكنونها ، فنحن قادرون على أن نفعل بكم مافعلنا بأولئك ، وربما كان بفناء الأشياخ وبقاء الأطفال . قال فى لباب التأويل : وفى هذه الآية مايوجب الاعتبار والموعظة بحال من مضى من الأمم السالفة ، فإنهم مع ماكانوا عليه من القوة وسعة الرزق وكثرة الأتباع أهلكناهم لما ظلموا ، فكيف حال من هو أضعف منهم . فيجب الانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة . اه . ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا ﴾ وحياً سماويًّا مكتوباً ﴿ فِي قِرْطَاسٍ ﴾ ما يكتب فيه من رق أو صحيفة ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أبلغ من عاينوه ، لأنه أنفى للشك ، وذكر اليد لدفع التجوز ، إذ يتجوز باللامس عن الفحص . نحو « وأنا لمسنا السماء » . نحو أبصرته بعينى . وسمعته بأذنى ﴿ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ ﴾ ما ﴿ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ عناداً ، وآثر المظهر ليدل على أن ذلك القول ناشئ عن كفرهم كما قالوا فى انشقاق القمر . فلا ينفع معهم شىء ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴾ على محمد ﴿ مَلَكٌ ﴾ يشهد له بالرسالة ﴿ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا ﴾ كما اقترحوه . فلم يؤمنوا ﴿ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ بهلاكهم ﴿ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ لا يمهلون لتوبة أو معذرة كعادة الله فيمن قبلهم . من إهلاكهم عند وجود مقترحهم إذا لم يؤمنوا ، أو معنى لقضى الأمر : لماتوا من هول رؤية الملك وعظم خلقته ، ووجه الأول صاحب غاية الأمانى ، والثانى صاحب الجواهر الحسان ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ ﴾ أى المنزل عليهم ﴿ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ ﴾ أى الملك ﴿ رَجُلًا ﴾ على صورته ليتمكنوا من رؤيته ، إذ لاقوة للبشر على رؤية الملك وهذا جواب ثان ﴿ وَ ﴾ لو أنزلناه وجعلناه رجلا ﴿ لَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ لخلطنا وشبهنا عليهم ﴿ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ على أنفسهم بأن يقولوا ما هذا إلا بشر مثلكم ، والعمدة فى تصديق الرسول المعجزة ، وهؤلاء لا يؤمنون بها ، فلا فائدة فيما سألوه ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وهو العذاب ، فكذا يحيق بمن استهزأ بك : تقوية للنبى بوعيد مكذبيه والمستهزئين به ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ من هلاكهم بالعذاب : لما قصر إدراكهم عن الدلائل العقلية ، أمرهم بالنظر فى الأمور الحسية ، لا سيما البصر ، فإن مدركه أجلى من كل بديهى ، وقال هنا « ثم » وفى آية أخرى « فانظروا » لأن السير هنا مقصود بذاته للتجارة وغيرها وهناك للنظر فقط ، إذ دل الفاء على سببية الأول للثانى ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ سؤال تبكيت ﴿ قُلْ لِلَّهِ ﴾ إذ هو متعين لايقدرون على إنكاره ، إذ لا يمكنهم أن يذكروا غيره

﴿ كَتَبَ ﴾ قضى والتزم ﴿ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ فضلا منه . ولذا أرسل الرسل وأمهل بعد التكذيب . وفيه تلطف فى دعائهم إلى الإيمان . وفى البخارى : إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتى سبقت غضبى ، فهو مكتوب عنده فوق العرش . وفى رواية مسلم : فهو موضوع عنده . زاد البخارى فى بعض الروايات « على العرش » ، واتفقا على قوله « إن رحمتى تغلب غضبى » وفى صحيحهما عن أبى هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » زاد البخارى «لو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من العذاب» ولمسلم : «إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة ، بين الجن والإنس والبهائم والهوام ، فبها يتراحمون . وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة » ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ فى القبور مبعوثين ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فيجازيكم على شرككم أو « إلى » بمعنى « فى » هو استئناف وقسم للوعيد على الشرك ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فى اليوم أو فى الجمع ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾. بإبطال فطرتها التى هى رأس مالهم بالغواية وعدم النظر فى الآفاق والأنفس والتعرض للعذاب الدائم ، مبتدأ خبره ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فعدم الإيمان سبب الخسران ، والمؤدى إليه إبطال الفطارة بالانهماك فى التقليد وإغفال النظر ﴿ وَلَهُ ﴾ عطف على « لله » ﴿ مَا سَكَنَ ﴾ حلّ ﴿ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ من السكنى ، أى ما اشتمل عليه أو من السكون ضد الحركة ، أى ما سكن فيهما ، واكتفى بأحد الضدين عن الآخر ، وآثر السكون لأنه أدخل فى كونه نعمة ، والمعنى : كل شىء فهو ربه وخالقه ومالكه ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لما يقال ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما يفعل . فكما لا يخرج شىء عن ملكه فكذلك لا يخفى على سمعه سرّ ولا يعزب عن علمه نزة : وعيد للشركين على أقوالهم وأفعالهم ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ ﴾ الذى له ما فى السموات والأرض ، وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ﴿ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ أى معبوداً ناصراً ، لأنه ردٌّ لمن دعاه إلى الشرك ، وهو إنكارٌ لاتخاذ غير الله ولياً ، لا لاتخاذ الولى ، فلذلك قُدم وأولىَ الهمزة ﴿ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ مبدعهما . بالجر نعت لله ، لأنه بمعنى الماضى أو بدل منه ، واختاره أبو البقاء ، كأنه رأى الفصل بين البدل والمبدل منه أسهل ، لأن البدل فى المشهور على نية تكرار العامل ، وقرئ بالرفع والنصب على المدح ، وأصل الفطر الشق والإبداع . وعن ابن عباس : ما كنت أعلم معنى الفاطر ، حتى اختصم إلىّ أعرابيان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها ، ولعله لم يكن لغة قريش ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ يَرزُق ولا يُرزق ، وإيثار الإطعام بشدة الحاجة إليه ، والمعنى : كيف أشرك بمن هو فاطر السموات والأرض : ما هو نازل عن رتبة الحيوان ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ لله من هذه الأمة ، إذ كل نبىّ سابق أمته فى الدّين لأنه الداعى إلى الله ، فلا يمكن تقديم غيره عليه ﴿ وَ ﴾ قيل لى

﴿ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ به: عطف على « أمرت » قدم الدليل العقلي على عدم جواز عبادة غيره، لأنه لا ينفع ولا يختاره ذو عقل على النقل، بكون الخلق والأمر له، لكون العقلي عمدة، ولعدم اعترافهم بصحة النقل ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ بعبادة غيره ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هو يوم القيامة، وهو مبالغة أخرى في قطع أطماعهم، وتعريض لهم بأنهم عصاة، مستوجبون للعذاب، والشرط معترض بين الفعل والمفعول، وجوابه محذوف دل عليه الجملة، وآثر لفظ الرب إيماء إلى أن من كان محسناً فعصيانه في غاية القبح ﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ بالبناء للمفعول للجمهور: أي العذاب، وللفاعل لحمزة والكسائي، وأبي بكر، والعائد محذوف، أي يصرفه عنه ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ فقد أنجاه، ومن أنجاه ﴿ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ تعالى: أراد له الخير، أي الثواب، وذكر الرحمة عن صرف العذاب لئلا يتوهم صرف العذاب فقط بلا حصول رحمة ﴿ وَذَلِكَ ﴾ الصرف مع الرحمة ﴿ الْفَوْزُ ﴾ الفلاح ﴿ الْمُبِينُ ﴾ الواضح ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ بلاء كمرض وفقر ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ كصحة وغنى ﴿ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه مسه به، ولا يقدر على رده عنك غيره فله إيصال الخير وإزالته، وقدم الشر على الخير، لأن دفع المفاسد أهم من جلب المصالح، فينبغي دوام التذكر بمعنى هذه الآية: من أن الأشياء كلها بيد الله، إن ضر فلا كاشف لضره، وإن أصاب بخير فكذلك. وعن ابن عباس: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً، فقال « يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذي، وقال حسن صحيح. وفي رواية غيره « احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا » ولما ذكر الله انفراده بتصرفه بما يريده من خير وشر، وقدرته على الأشياء، ذكر قهره بقوله ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ ﴾ القادر الذي لا يعجزه شيء، مستعلياً ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ قال أبو حيان: القهر الغلبة، والحمل على الشيء من غير اختيار المحمول عليه اهـ. وهو تصوير لعلو شأنه ونفاذ أمره فيهم، وتقرير للكلام السابق، فإن من تفرد بالعلو ونفاذ الأمر، إليه يرجع الأمر كله في الشر والخير ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ في أمره وتدبيره ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بالعباد وخفايا أحوالهم، فكما هو متصف بصفات الجلال، كذلك متفرد بنعوت الكمال، قال في لباب التأويل: وإنما قال فوق عباده، لأنه وصف نفسه بقهره إياهم، ومن صفة كل قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه، المعنى هو المذلل لهم، العالي عليهم بتذليله إياهم، فهو فوقهم بقهره إياهم وهم دونه اهـ. ونزل لما قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم من يشهد لك بالرسالة، فإنا قد سألنا أهل الكتاب فلم يعرفوك؟ ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ تمييز محول عن المبتدأ، والشيء

يقع على كل موجود ؛ وقيل على كل متعقل يمكن الإخبار عنه ، موجوداً كان أو معدوماً ، محالا أو ممكناً : فهو أبلغ فى العموم من أى شهيد أكبر ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أكبر شهادة إن لم يقولوه لا جواب غيره : ثم ابتدأ هو ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على صدق ، ويجوز أن يكون «الله شهيد» هو الجواب . لأنه تعالى إذا كان الشهيد . كان أكبر شىء شهادة ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾ أى وأبشركم به ، أيها الموجودون ﴿وَمَن بَلَغَ﴾ عطف على ضمير أنذركم أى بلغه القرآن من الثقلين إلى يوم القيامة ، واكتفى بالإنذار لكونه أهم ، وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم ، وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلغه ، وهو بيان لشهادة الله بنبوّة النبى ، بإيحاء القرآن المعجز إليه ، قال محمد بن كعب من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى صلى الله عليه وسلم وكلمه ، وقال أنس : لما نزلت هذه الآية ، كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم إلى الله ، وفى البخارى أنه قال « بلغوا عنى ولو آية » ففيه الأمر بإبلاغ ما جاء به إلى من بعده ، من قرآن وسنة ، وفى أبى داود تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ﴾ استفهام إنكار ، واستبعاد أن يكون آلهة مع من لم يصلح أن يكون معه إله آخر ﴿قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ بذلك ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أى : بل أشهد أن لا إله إلا هو ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ معه من الأصنام ، تصريح لما علم ضمناً وإيجاب للتوحيد ، وسلب لكل شريك ، وتبرؤ من كل معبود سوى الله ، قال العلماء : يستحب لمن أسلم أن يأتى بالشهادتين ويتبرأ من كل دين خالف الإسلام ، لقوله : « وإننى برىء مما تشركون » ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ أى محمداً بنعته فى كتابهم ردّ لقولهم : إن أهل الكتاب أنكروا معرفتك بعد أن بين أن شهادة الله كافية له ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ فى كمال العلم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ منهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به استئناف لبيان عدم إيمانهم ، أى ليس عدم الإيمان لعدم المعرفة ، بل لأنهم أفسدوا فطرة الله فيهم بما تقدم ﴿وَمَنْ﴾ لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه ، وأنه يشفع عند الله ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ القرآن وهم اليهود والنصارى والمشركون ، آثر « أو » وإن كانوا جامعين ذلك دلالة على أن كل واحد من الأمرين كاف فى أظلية المتصف به ؛ فكيف بمن جمع ﴿إِنَّهُ﴾ أى الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فكيف بالأظلم ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ للجزاء ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بالله توبيخاً ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم شركاء الله ، تشفع لكم ، لعلها لم تكن حاضرة حين هذا القول ، أو لعدم غنائها كأنها ليست بحاضرة ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن﴾ بالفوقية للجمهور ، والتحتية لحمزة والكسائى ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالنصب لنافع وأبى عمرو والكوفيين ، على أن الاسم « أن قالوا » والتأنيث للخبر ، وبالرفع للباقين على أنها الاسم ، أى معذرتهم أو ضلالهم أو كفرهم أو عاقبته ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ أى قولهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا﴾ بالجر للجمهور نعت . وبالنصب لحمزة والكسائى نداء ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يكذبون ويحلفون مع علمهم بأنه لا ينفع من فرط

الدهشة ، قال تعالى ﴿ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ بنفى الشريك عنهم ﴿ وَضَلَّ ﴾ غاب ﴿ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ على الله من الشركاء ، ويجعلونه عدّة لذلك اليوم ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ من المشركين ﴿ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ القرآن ، إذا قرأت . كأبى سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبى جهل ، وأضرابهم ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أغطية لا يصل إليها الحق ، جمع كنان : ما يستر الشىء ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ كراهة أن يفهموا القرآن ﴿ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ صمماً فلا يسمعونه لفقد آلته . روى أنهم قالوا للنضر بن الحارث : ما يقول محمد ؟ فقال : ما أدرى ما يقول ، إلا أنى أراه يحرك لسانه ، وقد علمت أنه يقول : أساطير الأولين . اه . وتقديم القلوب على الآذان لأنها مناط الفائدة ، قال فى لباب التأويل : وفى هذا دليل على أن الله تعالى يقلب القلوب : فيشرح بعضها للهدى والإيمان فتقبله ، ويجعل بعضها فى أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن به ، كما قال ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ لفرط عنادهم ﴿ حَتَّى ﴾ بلغ تكذيبهم إلى أنهم ﴿ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ ﴾ أى يجيئون المجادلة لا للإيمان : لم يرضوا بالتكذيب فقط ، حتى يجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، وحتى هى التى تقع بعدها الجمل ، لا عمل لها ، والجملة إذا وجوابه وهو : ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ ﴾ ما ﴿ هَذَا ﴾ القرآن ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أكاذيبهم وترهاتهم ، كالأضاحيك والأعاجيب : جمع أسطورة ، بضم الهمزة أو إسطارة بكسرها ، أو جمع إسطار ، جمع سطر ، بمعنى الخط ، أى ما سطروا من الأخبار والتواريخ مما لا تحقيق فيه ، ويجوز أن تكون حتى جارة ، وإذا جاءوك فى موضع الجر ، ويجادلونك جوابه ، ويقول تفسير له ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ ﴾ الناس ﴿ عَنْهُ ﴾ عن اتباع النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَنْأَوْنَ ﴾ يتباعدون ﴿ عَنْهُ ﴾ فلا يؤمنون به ، ولما قال النضر ما تقدم ، قال أبو سفيان : إنى لأرى بعض ما يقول حقاً ، فقال أبو جهل : كلا والله للموت أهون علينا من هذا ، وقيل نزلت فى أبى طالب : كان ينهى عن أذاه ولا يؤمن به ، وهو القائل للنبى صلى الله عليه وسلم :

وَاللهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتَّى أُوَارَى فِى التُّرَابِ دَفِينَا
وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

فى أبيات ... ﴿ وَإِنْ ﴾ ما ﴿ يُهْلِكُونَ ﴾ بالنأى عنه ﴿ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ لأن ضرره عليهم ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ بذلك : فيه مبالغة فى نفى العلم ، إذ فيه إشارة إلى أنهم دون البهائم ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ يا محمد الذين ينأون عنك ﴿ إِذْ وُقِفُوا ﴾ عرضوا ﴿ عَلَى النَّارِ ﴾ حين يعاينونها ، أو يطلعون عليها ، أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها ، جواب لو محذوف ، أى لرأيت هولا عظيما ونحوه ﴿ فَقَالُوا يَا ﴾ للتنبيه ﴿ لَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾ إلى الدنيا ﴿ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ برفع الفعلين لنافع وأبى عمرو وابن كثير استئنافاً ، ونصبهما حمزة وحفص فى جواب التمنى ورفع الأول عطفاً على نرد ، ونصب الثانى على الجواب لابن عامر ، ثم أضرب عن تمنيهم راداً عليهم فقال ﴿ بَلْ ﴾ للإضراب عن إرادة الإيمان المفهوم من التمنى ﴿ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾

يكتمون بقولهم : « والله ربنا ما كنا مشركين » بشهادة جوارحهم فتمنوا ذلك من غير عزم على الإيمان ﴿ وَلَوْ رُدُّوا ﴾ إلى الدنيا فرضاً ﴿ لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ من الشرك لكونهم فى علم الله من أصحاب النار ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى وعدهم الإيمان ﴿ وَقَالُوا ﴾ عطف على لعادوا ، أو نهوا ، أى ولو ردوا لكفروا ، وقالوا كما كانوا يقولون قبل معاينة العذاب وهو ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ هِيَ ﴾ أى الحياة ﴿ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ توكيد للسابق ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ قضائه وجزائه ، مجاز عن الحبس للسؤال ، والتوبيخ كما يوقف العبد الجانى بين يدى مولاه ، وهذا الوقوف أشد من الاول ، ولذا أخره ، أى لرأيت أمراً عظيما ﴿ قَالَ ﴾ لهم على لسان الملائكة موبخاً ﴿ أَلَيْسَ هَذَا ﴾ البعث والثواب والعقاب ﴿ بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ إنه لحق إقرار مؤكد بالقسم ، وآثروا لفظ الرب لعلهم بأن ما كلفوا به فى الدنيا كان تفضلا وتربية مع ما فيه من الاستعطاف ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ باشروه مباشرة الذائق ، وهى استعارة بليغة تفيد أنهم فى كل حال يجدون ألم العذاب وجدان الذائق فى شدة الإحساس ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ به فى الدنيا ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ البعث وما بعده إذ فاتهم النعيم واستوجبوا العذاب الأليم ﴿ حَتَّى ﴾ غاية للتكذيب ﴿ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ ﴾ القيامة من سوع بمعنى حضر ، سميت بها لسرعة مجيئها كأنها حاضرة ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة مصدر بغت الأمر ، وقع فجأة : نصب على الحال أو على المصدر لأنها نوع من المجيء ﴿ قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا ﴾ هى شدة التألم ونداؤها مجاز ، أى هذا أوانك فاحضرى ، وهى من حسر كه : كشفه : لأنها تكشف عن الحزن الكامن ﴿ عَلَى مَا فَرَّطْنَا ﴾ قصرنا ﴿ فِيهَا ﴾ فى الدنيا لسبق ذكرها لأنها محل التفريط فى الأعمال الصالحة ، أو فى الساعة أى فى شأنها ، والإعداد لها : والتفريط : التقصير من فرطت القوم سبقتهم ، لأنه لما فاته الأمر ، كأنه سبقه فلم يدركه ، قال عليه السلام « ما من أحد يموت إلا ندم » قالوا : وماندامته يارسول الله ؟ قال « إن كان محسناً : ندم ألا يكون ازداد ، وإن كان مسيئاً ندم ألا يكون نزع » . رواه الترمذى ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ ﴾ أثقالهم يعنى آثامهم ﴿ عَلَى ظُهُورِهِمْ ﴾ أى يقولون ذلك القول والحال أن ظهورهم مثقلة بالآثام . وأصل الوزر الثقل ، وذكر الظهر معه لكون الأثقال أكثر ما تحمل على الظهر ، بأن تأتيهم آثامهم عند البعث فى أقبح شىء صورة ، وأنتنه ريحاً : فتركبهم لحديث بذلك أخرجه الطبرى وغيره ﴿ أَلَا سَاءَ ﴾ بئس ﴿ مَا يَزِرُونَ ﴾ يحملونه حملهم ذلك ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ فى سرعة زوالها وقلة الطائل لها ﴿ إِلَّا لَعِبٌ ﴾ ما يجلب به السرور ﴿ وَلَهْوٌ ﴾ ما يدفع به الهم : أى ما الاشتغال بها إلا هذا : فهى منحصرة فى هاتين الرذيلتين : وقدم اللعب هنا لأن الكلام مع الكفار الذين كالأنعام : إذ هو ردّ عن قولهم « إن هى إلا حياتنا الدنيا » المتقدم ﴿ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾ ولابن عامر : ولدار الآخرة بالإضافة ﴿ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الدنيا باتقاء الشرك والمعاصى : لخلوص منافع الآخرة ودوامها : وذكر المتقين تنبيه على أنه ليس من أعمالهم لعب ولهو ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء لنافع وابن عامر وحفص : والياء لغيرهم فتؤمنون ﴿ قَدْ ﴾

للتحقيق ﴿ نَعْلَمُ إِنَّهُ ﴾ الشأن ﴿ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ ﴾ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ بالتخفيف لنافع والكسائى والتشديد لغيرهم لا ينسبونك إلى الكذب ولا يكذبونك فى السر لعلمهم أنك صادق ﴿ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ وضعه موضع المضمر دلالة على ظلمهم بالجحود مع التيقن ﴿ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ القرآن ﴿ يَجْحَدُونَ ﴾ كما قال له أبو جهل : ما نكذبك وإنك عندنا لصادق ، وإنما نكذب ما جئتنا به ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ الموعود فأنت أولى بذلك ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ مواعيده كقوله «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا » الآية ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ ﴾ ما فيه التسلية ﴿ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ « من » صلة عند الأخفش وتبعيضية عند غيره ، أو بعض أخبارهم فاعل جاء ، أو فاعله محذوف كما قدرنا ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ ﴾ عظم وشق ﴿ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ عن الإيمان بما جئت به ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا ﴾ سرباً ﴿ فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا ﴾ مصعداً ﴿ فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ تسبب تصديقهم فافعل . بيان لشدة حرصه على إيمانهم أى لا تستطيع ذلك فاصبر حتى يحكم الله ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ لكن لم يشأ ذلك فلم يؤمنوا ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ بذلك ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ﴾ دعاءك إلى الإيمان ﴿ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ وهم المؤمنون الذين فتح الله أسماع قلوبهم وأحياهم بالإيمان ﴿ وَالْمَوْتَىٰ ﴾ أى الكفار شبههم بهم فى عدم السماع ﴿ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ فى الآخرة فيسمعون حين لا ينفعهم ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ يردون فيجازيهم بأعمالهم ﴿ وَقَالُوا ﴾ عناداً وتعنتاً ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ مما اقترحوا ، كالناقة والعصا والمائدة ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن كثير ﴿ آيَةً ﴾ مما اقترحوا أو آية تضطرهم إلى الإيمان كنتق الجبل ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن نزولها بلاء عليهم لوجوب هلاكهم إن جحدوها أو لا يعلمون قدرته على ذلك لجهلهم بالله وبصفاته ﴿ وَمَا مِنْ ﴾ زائدة ﴿ دَابَّةٍ ﴾ تدب ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ ﴾ فى الهواء ﴿ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ تأكيد قطعاً لمجاز السرعة ونحوها أى ليس شىء من هذين الجنسين ﴿ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ فى حفظ أحوالها مقدرة أرزاقها وآجالها . والمقصود من الآية الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ، ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية ، وجمع الأمم مع كون المبتدأ مفرداً ، للحمل على المعنى لأن قوله من دابة ولا طائر دال على الاستغراق ، مغن أن يقال : وما من دواب ولا طيور . وفى لباب التأويل : قال العلماء جميع ما خلق الله لا يخرج عن هاتين الحالتين : إما أن يدب على الأرض أو يطير ، حتى ألحقوا حيوان الماء بالطائر ، وخص ما فى الأرض بالذكر دون ما فى السماء ، وإن كان ما فى السماء مخلوقا له ، لأن الاحتجاج بالمشاهد أظهر وأولى مما لا يشاهد . اهـ . وقيل فالمماثلة فى معرفة الله وتسبيحه والصلاة له وفهم بعضها عن بعض وتآلف الجنس بجنسه وطلب الرزق واتقاء المهالك ومعرفة الذكر الأنثى ، والخلق والموت والبعث والحساب ، حتى يقتص للجماء من القرناء ، وغير ذلك .

روى أنه انتطحت عنزان فقال عليه السلام : «أتعلمون فيما انتطحتا ؟ قالوا لا . قال : فإن الله يعلم وسيقضي بينهما» ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾ ما تركنا . التفريط : التقصير فى الشىء مع القدرة ﴿فِى الْكِتَابِ﴾ اللوح المحفوظ الضابط لأمور الملك والملكوت ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ فلم نكتبه : بيان لكمال قدرته وعلمه ، وجهلهم بأنه لو كان نزول الآية من مصالحهم لأنزلها . أو المراد بالكتاب القرآن ، وهو أظهر فى السياق إذ فيه تبيان كل شىء تفصيلا أو إجمالا ، عبارة أو إشارة ، ودلالة واقتضاء . قال البيضاوى . و «من» زائدة و «شىء» فى موضع المصدر ، لا المفعول به . فإن فرط لا يتعدّى بنفسه ، وقد عُدّى بفى إلى الكتاب اهـ . وقال أبو حيان : أصل فرّطنا أن يتعدى بفى ثم يضمن معنى أغفلنا ، فيتعدى إلى مفعول به وهو هنا كذلك فيكون «من شىء» فى موضع المفعول به . اهـ . ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعنى الأمم كلها ، ذكر الضمير تغليباً للعقلاء فيقضى بينهم حتى يقتص للجماء من القرناء ، ثم يقول لها كونى تراباً . وعن أبى هريرة : «يحشر كل ذى نفس لينصف المظلوم من الظالم حتى ينصف للجماء من القرناء» . وعن ابن عباس : حشرها : موتها . ويرده حديث مسلم عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لتؤدّنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ القرآن مع هذه الدلائل ﴿صُمٌّ﴾ عن سماعها سماع قبول ﴿وَبُكْمٌ﴾ عن النطق بالحق خابطون ﴿فِى الظُّلُمَاتِ﴾ مستغرقون فيها لأن أحوال الدواب والطيور مشاهدة فمن لم يستدل بها على وحدانيته . فهو غريق فى ظلمات الكفر والعناد والجهل والتقليد ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ﴾ إضلاله ﴿يُضْلِلْهُ﴾ عدلا منه ، لا يسأل عما يفعل ، وهو دليل واضح لنا على المعتزلة ﴿وَمَنْ يَشَأْ﴾ هدايته ﴿يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ دين الإسلام ، مستعلياً عليه ، متمكناً تمكن الراكب من مركوبه ، ولذا غيّر الأسلوب ليدل على غلبة رحمته ، ثم احتج على الكفار فقال ﴿قُلْ﴾ يا محمد لعابدى الأصنام ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أى أخبرونى : لما كان العلم والمشاهدة سببى الإخبار ، صح وضع كل منهما موضع طلب الإخبار والكاف حرف خطاب أكد به الضمير لا محل له من الإعراب ، إذ لا رافع ولا خافض ، ولو نصبه «أرى» لكان هو الفاعل فى المعنى فيكون تقديره أرأيتكم أنفسكم وليس الغرض أن يروا أنفسهم بل غيرهم ، بل الفعل معلق أو المفعول محذوف . تقديره أرأيتكم شركاءكم تنفعكم . وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء فى جميع أمثاله والكسائى يحذفها والباقون يحققون ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ فى الدنيا ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ المشتملة عليه ، من تدعون ؟ ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ تخصونه بالدعاء لخلاصكم . لا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الأصنام تنفعكم فادعوها ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ فى الشدائد لا غيره ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ إلى كشفه والفاء دلت على أن كشفه لا يتراخى عن الدعاء لكمال قدرته ، ووفور رأفته ﴿إِنْ شَاءَ﴾ كشفه وقيده بالمشيئة ليدل على أنه متفضل فى ذلك وأنه يرعى المصالح ولا يشاء ذلك فى الآخرة ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ معه من الأصنام فلا تدعونه أى تتركونه لما ركز فى العقول أنه القادر على

كشف الضراء دون غيره ، عبر عن الترك بأعظم وجوهه ، الذى هو مع الترك ذهول وإغفال لتشديد التوبيخ على عبادة من ينسى فى هذه الحالة لحقارته ، ثم سلى نبيه بقوله ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ رسلا ﴿ إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أى كائنة قبل زمانك ، ومن ابتدائية ، إذ لا يشترط معها تقدير الانتهاء ، نحو : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وقيل زائدة وليس بمرضىّ لأن الكلام موجب، قاله فى غاية الأمانى ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ أى فكفروا وكذبوا الرسل فأخذناهم ﴿ بِالْبَأْسَاءِ ﴾ الفقر والجوع ﴿ وَالضَّرَّاءِ ﴾ البلاء والمرض فى النفس والمال ، اسمان مؤنثان لا مذكر لهما ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ بدل عتوهم ويتوبون من ذنوبهم ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ بالتوبة ، و «لولا» حرف تحضيض لاوم على ترك التضرع مع قيام الموجب وعدم الصارف ﴿ وَلَـٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ لم تلن للإيمان ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من المعاصى فأصروا عليها ، استدراك بما يوجب شدة الانتقام منهم ، أى لامانع لهم إلا قساوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ من البأساء والضراء فلم يتعظوا ﴿ فَتَحْنَا ﴾ بالتخفيف للجمهور ، والتشديد لابن عامر ﴿ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من النعم : من الصحة والسعة والتمكن ، وهو كناية عن كثرة النعم على عادة الله ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ﴾ فرح بطر ، أى : ظنوا أن ذلك باستحقاقهم فلا يلتفتون إلى الشكر ﴿ أَخَذْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ آيسون من كل خير ، مطرقون حزناً . روى عن بعض العلماء : رحم الله عبداً تدبر هذه الآية . وروى عقبة بن عامر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا رأيت الله يعطى العباد ما يشاءون على معاصيهم فذلك استدراج» ثم تلا « فلما نسوا ... الآية» أسنده الطبرى ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى آخرهم بأن استؤصلوا ؛ لأن الدابر هو الذى يأتى فى دبرهم ، وإذا لم ينج هو فمن تقدمه أولى ، من دبره : اتبعه ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ على هلاكهم لأن هلاك الظالم لا نعمة فوقه . وفى الحديث « الكافر إذا مات يستريح منه البلاد والعباد » وإذا مات كافر أو ظالم أو فاسق فينبغى لكل مسلم أن يقول : الحمد لله رب العالمين ؛ لأنه مصيبة زالت ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبرونى ﴿ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ﴾ فأصمكم وأعماكم قدم السمع لأنه أشرف لأنه آلة تلقى الأوامر والنواهى من الرسل ﴿ وَخَتَمَ ﴾ طبع ﴿ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ بما يزيل عقلكم وفهمكم فلا تعرفون شيئاً ولا تفهمونه من أمور الدنيا ، وخص هذه الأعضاء الثلاثة ؛ لأنها أشرف أعضاء الإنسان ، فإذا تعطلت فسد أمره وبطلت مصالحه فى الدين والدنيا ، والمقصود من هذا الكلام ذكر ما يدل على وجود الصانع الحكيم المختار ؛ فالقادر على إيجاد هذه الأعضاء وأخذها هو المستحق للعبادة لا الأصنام ولذا قال ﴿ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ بما أخذه منكم بزعمكم ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ الدالة على وحدانيتنا وصدقك كيف نكررها ونبينها لهم بأساليب مختلفة تارة من جهة المقدمات العقلية ، وتارة من جهة الترغيب والترهيب ، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين والاستفهام

للتعجيب ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ يعرضون وينفرون عنها ، و « ثم » لاستبعاد الإعراض بعد هذه الآيات ، أى لا يعرض من له عقل عن مثلها ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً ﴾ بلا أمارة كقارون ﴿ أَوْ جَهْرَةً ﴾ بظهور الأمارات كقوم صالح، أو ليلا أو نهاراً، أو غير مؤقت ومؤقتاً ﴿ هَلْ يُهْلَكُ ﴾ هلاك سخط وتعذيب ﴿ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ بالكفر ، أى لا يهلك به إلا هم ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ ﴾ من آمن بالجنة ﴿ وَمُنْذِرِينَ ﴾ من كفر بالنار ، حال فيها معنى العلة ، أى للتبشير والإنذار لا لأن يأتوا للكفار بما اقترحوا من الآيات ﴿ فَمَنْ آمَنَ ﴾ بهم ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ عمله لله وندم على ما فعل قبلُ ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فى الآخرة بالعذاب ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لفوات الثواب ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أسند المس وهو اللمس باليد إلى العذاب كأنه الطالب لهم كناية عن سرعة نفاذ أمره واستغنى بتعريفه عن التوصيف ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ يخرجون عن الطاعة : تنبيه على العلة ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ التى منها يرزق فأعطيكم ما تريدون : جمع خزانة : مايحفظ فيها الأموال. جواب لقولهم : إن كنت رسولا وسّع علينا عيشنا بتفجير المياه وإذهاب الجبال ﴿ وَلَا ﴾ إنى ﴿ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ ما غاب عنى ولم يوح إلىّ ، جواب لقولهم : متى هذا الوعد ؟ لما كان يوعدهم العذاب . محله نصب عطفاً على « عندى خزائن الله » ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ جواب لقولهم « ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون » ونحوه : أى لم أقل لكم أقدر على ماتقدر الملائكة عليه أى لم أدّع لكم شيئاً من هذه الأشياء فتنكرون أمرى ، وإنما نفاها عن نفسه اعترافاً بالعبودية ولئلا يقترحوا عليه الآيات العظام ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ أى ليس لى من الصفات إلا اتباع الوحى: حصرٌ إضافى يراد به التبرّى من الدعاوى الباطلة مع إثبات ماهو نهاية كمالات البشر ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ الكافر والمؤمن والجاهل والعالم ومدعى المستحيل كالألوهية والملكية ومدعى المستقيم كالنبوّة . أى لا يستويان ، وتقديم الأعمى لأن الكلام مع المتصف بالعمى ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ فى ذلك فتؤمنون ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ ﴾ أى بما يوحى إليك وهو القرآن ﴿ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ هم العصاة المؤمنون لأنهم مظنة النفع ومن لا يعتقد الحشر ولا يخافه لا وجه لإنذاره . قاله فى غاية الأمانى . وقال فى لباب التأويل : قيل المراد بهم جميع الخلق فيدخل فيه كل مؤمن معترف بالحشر وكل كافر منكر له ، لأنه ليس أحد إلا وهو يخاف الحشر سواء اعتقد وقوعه أوكان يشك فيه ، لأن دعوة النبى صلى الله عليه وسلم وإنذاره عامة لجميع الخلق . اهـ . وقال البيضاوى : هم المؤمنون المفرطون فى العمل أوكل مجوّز للحشر مؤمناً كان أوكافراً مقرّاً به أو متردّداً فيه فإن الإنذار ينجع فيهم دون الفارغين الجازمين باستحالته ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى غيره ﴿ وَلِيٌّ ﴾ قريب ينصرهم ﴿ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ يشفع لهم وجملة النفى حال من ضمير « يحشروا » ، وهى محل الخوف ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الله بإقلاعهم عما هم فيه ، وعمل الطاعات . ولما

أمر الله نبيه بإنذار غير المتقين ليتقوا ، أمره بإكرام المتقين ، وتقريبهم بقوله ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ﴾ ولابن عامر بالغدوة بالضم ﴿وَالْعَشِيِّ﴾ أى بالدوام أو فى صلاتى الصبح والعصر ، التين ابتدأ بهما بمكة ، وعبر بالدعاء عن الصلاة لاشتمالها عليه أو المراد حقيقة الدعاء ﴿يُرِيدُونَ﴾ بعبادتهم ﴿وَجْهَهُ﴾ تعالى ، لا شيئاً من أغراض الدنيا وهم فقراء المسلمين ، وكان المشركون طعنوا فيهم ، وطلبوا أن يطردهم ليجالسوه ، وأراد النبى ذلك طمعاً فى إسلامهم ، روى مسلم عن سعد بن أبى وقاص : كنا ستة نفر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وابن مسعود ، ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فقال المشركون اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا فوقع فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع ، فأنزل الله « ولا تطرد الذين ... الآية » اه . قلت وأما ذكر سلمان فيهم فضعيف ، لأن إسلامه كان بالمدينة ، وسورة الأنعام مكية ، وتقييد الدعاء بالإخلاص ، للتنبيه على أنه ملاك الأمر ، وترتيبه على النهى إشعار بأنه يقتضى إكرامهم ، وينافى إبعادهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ إن كان باطنهم غير مرضى ، لأن الكفار يقولون له : ما تبعك يا محمد هؤلاء إلا لفقرهم واحتياجهم ؛ لأنه عليه السلام كان يواسيهم . فرد الله تعالى مقالتهم ، بأنه على تقدير صحة ما يقولون لست مؤاخذاً بذلك ، فإن حسابهم لا يتعداهم إليك ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أردف هذا ما تقدم الذى سيق الكلام له لاستيفاء معنى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ومن الثانية زائدة لتوكيد معنى الاستغراق ، والأولى ابتدائية ، والجار والمجرور حال من شىء ، قدم عليه لكونه نكرة ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ نصب لكونه جواب النفى ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جواب النهى ، والمعنى لا تطردهم فتدخل فى زمرة الظالمين والنبى صلى الله عليه وسلم لم يطردهم ولا هم بطردهم ، استخفافاً بهم ، بل لمصلحة وهى التلطف بإدخال الأشراف فى الإسلام ، لظنه أن ترجيح هذا الجانب أولى فأعلمه الله أن إدناء هؤلاء الفقراء أولى ، فلا دليل فى الآية لمن يريد القدح فى عصمة الأنبياء ، لأن هذا من باب ترك الأفضل ، لا من باب ترك الواجبات والله أعلم ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أى مثل الفتن ، الذى فتن به رؤساء قريش مع ضعفاء المؤمنين ﴿فَتَنَّا﴾ ابتلينا سائر الناس ﴿بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ الشريف بالوضيع والغنى بالفقير ، بأن قدمنا الوضعاء والفقراء بالسبق إلى الإيمان ﴿لِيَقُولُوا﴾ أى الشرفاء والأغنياء منكرين ﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾ الوضعاء والفقراء ﴿مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ بالهداية ، أى لو كان ما هم عليه هدى ، ما سبقونا إليه ، واللام للعاقبة أو للتعليل ، على تضمين فتنا : معنى خذلنا . فسبقُ الفقراء إلى الإسلام فتنة مانعة للأغنياء من الدخول فيه ، وفتنة الفقراء بالأغنياء ما يرون من سعة رزقهم ، وخصب عيشهم ، فيفتنهم ذلك عن الرضى بما رزقهم الله ، ولما كان مقال الكفار اعتراضاً على الله ، أجابهم بقوله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ له فيهديهم ، بلى . وقد اقتضت الحكمة بأن يكون الشاكر منعماً عليه بالإسلام ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ هم الذين يدعون ربهم ، وصفهم بالإيمان بالقرآن ، بعد وصفهم بالعبادة ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ﴾

قضى ﴿رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أمر بإكرامهم مكان طردهم لوصفهم بما يوجب ذلك من العلم والعمل ، وبتبشيرهم بأن الله قد أعد لهم وراء هذا الإكرام من رحمته ماتقر به أعينهم وعبر عن ذلك بالكتب مبالغة فى صدق الوعد ، وقيل هذا فى قوم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا أصبنا ذنوباً عظاماً ، فلم يرد عليهم شيئاً ، فانصرفوا فنزلت . قال ابن العربى : قال علماؤنا كتب معناه أوجب وعندى أنه كتب حقيقة ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله خلق القلم ، فقال له اكتب ، فكتب مايكون إلى يوم القيامة اه . قال الشعرانى : أجمع العارفون بالله على أنه إذا أوجب على نفسه شيئاً لا يدخل تحت حد الواجب على عباده فيه لأنه يفعل ما يريد ، بخلاف العبد فإنه تحت التحجير والتكليف ، فيأثم إذا ترك ما أوجبه على نفسه ، كالنذر مع القدرة عليه ، عقوبة له ، حيث زاحم الشارع فى التشريع ، وأوجب على نفسه شيئاً لم يوجبه الله عليه اه . ﴿أَنَّهُ﴾ أى الشأن بالفتح لنافع وابن عامر وعاصم بدلامن الرحمة : والكسر للباقين استئناف ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ منه بما يتعلق به من المضرة فى الدين ، حال أو المعنى فاعلا فعل الجهلة ، من غير روية ، إذ الحكيم لا يرتكب شيئاً إلا بعد تأمل ، ونظر فى العاقبة ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ بعد ذلك العمل السوء ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالتدارك والعزم على ألا يعود ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فتحه من فتح الأول إلا نافعاً ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما بينا ما ذكر ﴿نُفَصِّلُ﴾ نبين ﴿الْآيَاتِ﴾ القرآن ليظهر الحق فيعمل به ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ يا محمد ﴿سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ بتاء الخطاب ونصب السبيل [illegible] على معنى ولتستوضح سبيلهم يا محمد وتعامل كلا بما يليق به فصلنا ذلك التفصيل ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحفص عن عاصم بتاء التأنيث ورفع سبيل على معنى لتتضح سبيلهم ، والباقون بالياء والرفع على تذكير السبيل فإنه يذكر ويؤنث ، ويجوز عطف تستبين على علة مقدرة أى ليظهر الحق ولتستبين سبيل المجرمين كما قدرنا أولا ، وخص سبيل المجرمين لأنهم الذين أثاروا ما تقدم من الأقوال وهو أهم فى هذا الموضع لأنها آية رد عليهم ، وأيضاً فتبين سبيلهم يتضمن سبيل المؤمنين ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ بأدلة العقل والنقل ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أو ما تسمونه آلهة ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ فى عبادتها ، تأكيد لقطع أطماعهم وإشارة إلى موجب النهى وعلة الامتناع وهو أنه اتباع للأهواء ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ إن اتبعتها ، تعريض بأنهم ضلوا ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ لست إذاً معدوداً فى زمرتهم تعريض أيضاً ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بيان ﴿مِنْ رَبِّي﴾ تنبيه على مايجب اتباعه بعدمابين مالايجوز اتباعه ، والبينة دليل مبين للمطلوب نقلى وعقلى ﴿وَ﴾ قد ﴿كَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ بربى أو بالبينة لأنها فى معنى الدليل ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب بقولكم « فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » وقولكم « متى هذا الوعد » ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ فى ذلك وغيره ﴿إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ بالصاد المهملة لنافع وابن كثير وعاصم أى يتبعه أو يقوله ، وللباقين بالضاد المعجمة أى يقضى القضاء الحق ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ الحاكمين ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب أى

لو كان فى قدرتى ﴿ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ بأن أعجله لكم غضباً لربى وأستريح ولكنه عند الله ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ وسيجازيهم بظلمهم . وهو فى معنى الاستدراك أى لكن الأمر إليه وهو أعلم بكم ﴿ وَعِنْدَهُ ﴾ تعالى ﴿ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ خزائنه جمع مَفتح بفتح الميم وهو المخزن ليس لأحد وصول إليها . ويؤيده «وإن من شىء إلا عندنا خزائنه» أو الطرق الموصلة إلى علمه جمع مِفتح بكسر الميم بمعنى المفتاح . ويؤيده قراءة مفاتيح شبه الغيب بالأشياء المستوثق بها بالأقفال استعارة بالكناية وأثبت لها المفاتيح تخييلا . ومن عنده المفتاح يعرف كيف يفتح به هو الذى يتوصل إلى ما فى الخزانة والله تعالى هو المنفرد بالغيب ﴿ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ لا يتوصل إلى المغيبات أحد غيره ، وفيه رد على المنجم المخذول الذى يدعى علم الغيب ، والفلسفى المطرود الذى يزعم أن الله تعالى لا يعلم الجزئيات . وفى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مفاتح الغيب خمس : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت » . قال القسطلانى علم الساعة علم قيامها لا يعلم ذلك نبى مرسل ولا ملك مقرب ، ولا يعلم وقت إنزال الغيث من غير تقديم ولا تأخير وفى بلد لا يجاوزه إلا الله ، لكن إذا أمر به علمته ملائكته الموكلون به ومن شاء الله من خلقه ، وكذا مافى الأرحام من ذكر أو أنثى سعيد أو شقى ، وكذا كسب النفس فى دنياها وأخراها من خير وشر ، وبأى أرض تموت ، قال : وقولنا إذا أمر به علمته ملائكته الخ . مستفاد من قوله «فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول» والولى تابع للرسول يأخذ عنه اه . وقال ابن العربى فى الأحكام : فكل من قال ينزل الغيث غداً فهو كافر بأمارة أولا ، ومن قال يعلم مافى الرحم بلا أمارة فكافر ، فإن كان بأمارة كقوله إن كان الثدى الأيمن مسود الحلمة فهو ذكر ، وإن وجدت الجنب الأيسر أثقل فالولد أنثى ، وادعى ذلك تجربة لا واجباً لم يكفر ولم يفسق ومن ادعى علم الكسب فيما يستقبل فكافر ، وكذا من أخبر فيما يكون قبل كونه اه . وقيل مفاتح الغيب خزائن الأرض ، وقيل وقت نزول العذاب ، وقيل ما غاب من الثواب والعقاب ، وقيل انقضاء الآجال وأحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم والله أعلم . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ ﴾ من الغرائب ﴿ وَالْبَحْرِ ﴾ من العجائب إذ هو الذى أبدعها وأودعها فيهما ، وقيل البر القفار والبحر القرى التى على الأنهار ، وعلى كل فهو عطف للإخبار عن تعلق علمه بالمشاهدات على الإخبار عن اختصاص العلم بالمغيبات ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ قبل سقوطها مبالغة فى إحاطة علمه بالجزئيات ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ ﴾ عطف على ورقة بحسب المعنى ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ بدل من إلا يعلمها بدل الكل إن كان المراد بالكتاب علمه تعالى أو بدل الاشتمال إن أريد به اللوح المحفوظ ، وقرئت الثلاثة بالرفع عطفاً على محل من ورقة أو على الابتداء والخبر إلا فى كتاب ، والمعنى يعلم عدد ماسقط من أوراق الشجر ومابقى ، ومابطن فى الأرض من الحبوب قبل النبات وكل رطب ويابس ، أشار بهذه الأشياء إلى تفصيل بعض ما أجمله فى مفاتح الغيب ليدل بها على غيرها

فقدم البر والبحر لكثرة ما فيهما من العجائب والغرائب مما يعجز الوصف عن إدراكه، ثم ذكر ما هو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد كالورقة لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها إلا هو، ثم ذكر ما هو أصغر منها وهي الحبة، ثم ذكر ما يعم الجميع وهو الرطب واليابس ولا يخرج شيء من هذه الأشياء عن علمه فسبحان العليم الخبير ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي ينيمكم ﴿بِاللَّيْلِ﴾ استعير التوفى من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة فى زوال الإحساس والتمييز، إذ أصل التوفى قبض الشيء بتمامه ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ﴾ كسبتم ﴿بِالنَّهَارِ﴾ خص الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على الغالب المعتاد، وقدم التوفى لأنه أغرب وأدل على كمال القدرة ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ فى النهار برد أرواحكم بالإيقاظ، أطلق البعث عليه ترشيحاً للتوفى ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ هو أجل الحياة، أى ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له فى الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ بعد البعث ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم به وقيل الآية خطاب للكفار فقط لقوله بعدُ «ثم أنتم تشركون» ولذا بسط الكلام الذى أوجزه فى مفاتح الغيب ثم ضرب لهم المثل فى بعثهم وجزائهم على أعمالهم بتوفيهم بالليل وإلقائهم كالجيف على مضاجعهم ثم بعثهم لكسب الآثام إلى أجل ثم بعثهم بعد الموت ففيها إيضاح الآيات المنصوبة للنظر وضرب المثال للبعث ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ الغالب مستعلياً ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ بالتصرف فيهم كيف شاء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة تحصى أعمالكم وهم الكرام الكاتبون والحكمة فى ذلك أن الإنسان إذا علم أن له رقباء يضبطون حركاته وسكناته ويواجهونه بها على رءوس الأشهاد ينزجر عن القبائح بخلاف ما إذا كان الأمر مفوّضاً على علم مولاه فربما يعتمد على لطفه ولذا ترى أكثر الناس يستحيون من الناس ولا يستحيون من الله ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ﴾ ولحمزة توفاه ﴿رُسُلُنَا﴾ ملك الموت وأعوانه قيل هم أربعة عشر سبعة من ملائكة الرحمة يسلم إليهم روح المؤمن، وسبعة من ملائكة العذاب يسلم إليهم روح الكافر، والأرض بين يديه كالطست لا يرفع بصره عنها فإذا حان أجل واحد خط عليه خطة فيعلم بذلك ولا يعلمه قبل ذلك إلا علام الغيوب ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ بالتوانى والتأخير وقرئ بالتخفيف لا يتجاوزون عن ذلك الوقت ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ المتوفون ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه ﴿مَوْلَاهُمُ﴾ مالكهم الذى يتولى أمرهم ﴿الْحَقِّ﴾ الثابت العدل ليجازيهم أو المعنى سيدهم على الحقيقة لأن سائر الموالى مجازية ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ فيهم لا حكم لغيره فيه صدره بحرف التنبيه إيقاظاً للسامع ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ إذ لا يشغله حساب عن حساب ولا يحتاج إلى فكر وروية يحاسب الخلق كلهم فى قدر نصف نهار من أيام الدنيا، لحديث بذلك. أو مقدار حلب شاة ثم وبخ العادلين به الأوثان بقوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ كناية عن شدائدهما وأهوالهما أو ظلمات البر الصواعق فى الغيم والليل وظلمات البحر الأمواج فى الغيم والليل أو الخسف فى البر والغرق فى البحر ﴿تَدْعُونَهُ﴾ جملة حالية ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ معلنين الضراعة ومسرين تقولون ﴿لَئِنْ﴾ لام قسم ﴿أَنْجَيْتَنَا﴾ ولحمزة والكسائى

وعاصم أنجانا أى الله ﴿ مِنْ هَٰذِهِ ﴾ الظلمات والشدائد ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ المؤمنين ﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ ﴾ بالتخفيف للأكثر والتشديد للكوفيين ﴿ مِنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾ غم سواها ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ به لا توحدونه فضلا عن أن تشكروه ؛ قدم الضمير ليفيد التقوى فى الحكم وبرزت الجملة إسمية دالة على الاستمرار للزيادة فى التوبيخ حيث بدلوا بالشكر على تلك النعمة الشرك ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ ﴾ أى الذى عرفتموه قادراً ﴿ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ من السماء بالطوفان والريح والصيحة والحجارة كقوم نوح وهود وصالح ولوط ، وقيل : أومن سلاطينكم وقضاتكم أومن معاركم ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ من الأرض كالخسف والغرق أومن سفلتكم أو من نباتكم ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ ﴾ يخلطكم ﴿ شِيَعًا ﴾ فرقاً مختلفة الأهواء متحزبين فينشب القتال بينكم ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ بالقتال . قال صلى الله عليه وسلم لما نزلت : «هذا أهون أو أيسر» ولما نزل ماقبله : «أعوذ بوجهك» رواه البخارى ، وروى مسلم حديث : « سألت ربى ألا يجعل بأس أمتى بينهم فمنعنيها » وفى حديث : لما نزلت قال : أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد وهو من علامات القيامة وهو أيام الهرج لكن قد بدت مقدماتها والله أعلم ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ﴾ نبين لهم ﴿ الْآيَاتِ ﴾ على قدرتنا ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ أن ما هم عليه باطل ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ ﴾ بالقرآن أو العذاب ﴿ قَوْمُكَ ﴾ قريش ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ الصدق أو الواقع لا محالة ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ بمسلط عليكم حتى أجبركم على التصديق به إنما أنا منذر وأمركم إلى الله ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ ﴾ خبر ﴿ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ وقت يقع فيه ويستقر ، ومنه عذابكم ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك إذا وقع : تهديد لهم ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ بالتكذيب والاستهزاء ، والخوض : المشى فيما لم يحصل حقيقته كالخائض فى الماء الذى لايدرى باطنه ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ لا تجالسهم ﴿ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ ذكر الضمير لكون الآيات عبارة عن القرآن ﴿ وَإِمَّا ﴾ فيه إدغام نون إن الشرطية فى ما المزيدة ﴿ يُنسِيَنَّكَ ﴾ بسكون النون والتخفيف للجمهور ، وفتحها والتشديد لابن عامر ﴿ الشَّيْطَانُ ﴾ فقعدت معهم ، والإسناد مجاز لكونه بوسوسته ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ ﴾ تذكره ﴿ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى معهم فوضع الظاهر موضعه دلالة على أنهم ظلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والاستعظام . ولما نزلت قال المسلمون : إن قمنا كلما خاضوا لم نستطع أن نجلس فى المسجد وأن نطوف فنزل ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الله ﴿ مِنْ حِسَابِهِم ﴾ الخائضين ﴿ مِّن شَيْءٍ ﴾ إذا جالسوهم للضرورة ﴿ وَلَٰكِن ﴾ عليهم ﴿ ذِكْرَىٰ ﴾ تذكرة لهم ووعظ وإظهار الكراهة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الخوض وتنفعهم الذكرى ، أو يتركونه حياء من إساءة الإخوان . قال ابن عطية : إباحة الجلوس معهم إنما هى فى القدر الذى يحتاج إليه من التصرف بين المشركين فى عبادة ونحوها . وقيل : إن هذه الآية الأخيرة ليست إباحة بوجه وإنما معناها ليس نهيكم عن القعود لأجل أن عليكم شيئاً من حسابهم وإنما هو ذكرى لكم ، ويحتمل المعنى ذكرى لهم لعلهم إذا جانبتموهم يتقون بالإمساك عن الاستهزاء ، ويحتمل المعنى : ولكن

ذكروهم ذكرى ، وينبغى المؤمن أن يمتثل حكم هذه الآية مع أهل الخصومات . اهـ . ﴿ وَذَرِ ﴾ اترك ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا ﴾ أى جعلوا دينهم ما لا ينفعهم عاجلا وآجلا وهو عبادة الأصنام ، أو اتخذوا دينهم الذى كلفوه سخرية واستهزاء ، أو جعلوا عيدهم الذى جعل ميقات عباداتهم زمان لهو ولعب ، إذ قيل لكل قوم عيد اتخذوه لعباً ولهواً إلا المسلمين فإن عيدهم الصلاة والصدقة والتكبير ، والمعنى : أعرض عنهم لاتبال بأفعالهم وأقوالهم : تهديد لهم ، ومن حمله على الأمر بالكف عنهم جعله منسوخاً بآية السيف وليس بقوى ، بل المراد ترك مخالطتهم وموالاتهم لاترك الإنذار والتخويف ، ويدل عليه قوله ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ عظ ﴿ بِهِ ﴾ بالقرآن الناس مخافة ﴿ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ ﴾ تمنع من الخلاص وتسلم إلى الهلاك وترهن ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ عملت ، وأصل البسل : التحريم والمنع ومنه شجاع باسل لامتناعه من قرنه ، وهذا عليك بسل أى حرام ممنوع ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره ﴿ وَلِيٌّ ﴾ قريب يلى أمرها ، أو ناصر ينصرها بالقوة ﴿ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ يمنع عنها العذاب بالمسألة ، والجملة صفة نفس أو حال من فاعل كسبت ﴿ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ ﴾ تفد كل فداء ، نصب كل على أنه مفعول مطلق ، وقال أبو عبيدة «وإن تعدل» هو العدل ضد الجور ﴿ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ ماتفدى به ، وفى غاية الأمانى : الفعل مسند إلى الجار والمجرور ، ولا يجوز إسناده إلى ضمير المصدر ولا يسند إليه وإلى ضميره إلا إذا كان للنوع أو المرة ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ﴾ المتخذون دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا ﴿ أُبْسِلُوا ﴾ أسلموا للهلاك ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ بسبب كسبهم تلك الجرائم من العقائد الزائغة والأعمال القبيحة ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ ماء بالغ نهاية الحرارة وهو استئناف لتفصيل ذلك الإبسال أو حال من ضمير أبسلوا مبين لهيئته ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ باستمرارهم على الكفر ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا ﴾ نعبد ، أطلق الدعاء على العبادة لأنه أعم منها لأن من جعل شيئاً موضع دعائه فإياه يعبد وعليه يتكل ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا ﴾ بعبادته ﴿ وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ بتركها وهو الأصنام ﴿ وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا ﴾ إلى الشرك ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ إلى الإسلام فنكون ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ ﴾ ذهبت به وأضلته ، استفعال من هوى يهوى بالكسر إذا ذهب أو سقط من الأعلى إلى الأسفل أو بالفتح استدعت هواه وأمالته ، ومحل الكاف نصب على الحال من ضمير نرد ، أى مشبهين به أو على المصدر أى رداً مثل رد الذى استهوته ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ المهمه ﴿ حَيْرَانَ ﴾ متحيراً ضالا لا يدرى أين يذهب ، حال من الهاء ﴿ لَهُ ﴾ لهذا المستهوى ﴿ أَصْحَابٌ ﴾ رفقة ﴿ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ﴾ أى الطريق المستقيم ليهدوه إليه يقولون له ﴿ ائْتِنَا ﴾ رحمة عليه وتعطفاً وهو لا يجيبهم فهلك والاستفهام للإنكار أى لا نكون كهذا الرجل ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ ﴾ الذى هو الإسلام ﴿ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾ وما عداه ضلال . قال بعض العلماء : من نازع أحداً فرد عليه بالقرآن والحديث فهو كمن يدعو إلى الهدى . ومن نازع الزائغ بالجدل فهو كمن عدل عن الطريق الواضح فيخاف عليه أن يضل . اهـ . ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ ﴾ أى بأن نسلم ﴿ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

من جملة المقول عطف على « إن هدى الله » واللام لتعليل الأمر أو بمعنى الباء أو زائدة ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ﴾ عطف على لنسلم أى للإسلام ولإقامة الصلاة ﴿ وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ لا إلى غيره فيجازيكم على وفق أعمالكم ، وقول من قال إن الآية المتقدمة نزلت فى أبى بكر لما أمره ابنه عبدالرحمن بالرجوع إلى الأوثان ضعيف ، ولذا لم نذكر قصته ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ قائماً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أو خلقاً ملتبساً بالحق لا بالباطل واللعب ، بل ليتدبروا فى شأنهما ويستدلوا بذلك على كمال قدرة مبدعهما وعلى وحدانيته وتفرده بالألوهية ، وقيل : الباء بمعنى اللام ، أى لإظهار الحق ﴿ وَ ﴾ اذكر الخلق أو الإعادة ﴿ يَوْمَ ﴾ أى حين ﴿ يَقُولُ ﴾ لشيء من الأشياء ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أو المراد باليوم يوم القيامة يقول للخلق قوموا فيقوموا ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ الصدق الواقع لامحالة ، ويحتمل أن الظرف خبر مقدم و « قوله » مبتدأ مؤخر ، والحق صفته ، مثل قولك : القتال يوم الجمعة ، والجملة اسمية ، والمعنى قوله كائن حين يقول لكل شيء من الأشياء « كن فيكون » فهو برهان لخلق السموات والأرض بالحق لدخول كينونتهما تحت هذا العموم ، وقيل يوم منصوب بالعطف على السموات أو على الهاء فى « واتقوه » . وفى مدارك التنزيل المعنى أنه خلق السموات والأرض بالحق والحكمة ، وحين يقول لشيء من الأشياء كن فيكون قوله الحق والحكمة ، أى لا يكوّن شيئاً من السموات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة . اه . ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ ﴾ ظرف له أى لا ملك فى ذلك اليوم لا حقيقة ولا مجازاً إلا له تعالى . والصور قرن فيه أرواح الخلائق فإذا كان وقت البعث نفخ فيه إسرافيل فطار كل روح إلى جسده ، وهى النفخة الثانية ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ رفع على المدح خبر مبتدإ محذوف ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ فى صنعه فى الإفناء والإحياء ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بباطن الأشياء كالحساب والجزاء ، كالفذلكة للآية . ولما كان المشركون يعبدون الأصنام ومع ذلك يزعمون أنهم على ملة إبراهيم الذى هو أول من كسر الأصنام ، كذبهم بقوله ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ هو لقبه واسمه تارح ـ بحاء مهملة ـ ابن ناحور بن شاروخ بن عابر بن فالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح . وقيل آزر وتارح علمان له . وفى لباب التأويل : إن الصحيح أن آزر اسم لأبى إبراهيم لأن الله تعالى سماه به وما نقل عن النسابين والمؤرخين أن اسمه تارح ، ففيه نظر ، لأنهم إنما نقلوه من أصحاب الأخبار وأهل السير من أهل الكتاب ، ولا عبرة بنقلهم . وقد أخرج البخارى عن النبى « يلقى إبراهيم أباه آزر ـ الحديث » فسماه آزر أيضا ، ولم يقل تارح ، فثبت أن اسمه آزر لا تارح والله أعلم . ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ تعبدها ؟ استفهام توبيخ ، وأتى بصيغة الجمع مبالغة فى تجهيله حيث لم يرض بإله واحد آخر من دون الله ﴿ إِنِّى أَرَاكَ ﴾ رؤية قلب وبصر ﴿ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ ﴾ عن الحق ﴿ مُبِينٍ ﴾ بيّن ، لأن ما لا يسمع ولا يبصر بينه وبين الألوهية بون بعيد ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما أريناه إضلال أبيه وقومه ﴿ نُرِى إِبْرَاهِيمَ ﴾ ببصره وبصيرته ﴿ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لطائفها وبدائعها

والملكوت أعظم الملك إذ التاء فيه للمبالغة ، ليستدل بها على وحدانيتنا ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ بها حساً وعلماً ، وقولى فى «نرى» ببصره وبصيرته رعاية للقولين فى ذلك . روى أنه أقيم على صخرة فنكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسى وما فى السموات من العجائب حتى رأى مكانه فى الجنة وكشف له عن الأرض حتى نظر إلى أسفل الأرضين ورأى ما فيها من العجائب . وقال قتادة : ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم ، وملكوت الأرض : الجبال والشجر والبحار . وقيل الرؤية كانت بعين البصيرة لأن الملكوت عظيم الملك ، وذلك لا يعرف إلا بالعقل والله أعلم . وجملة «وكذلك» وما بعدها اعتراض وعطف على قال ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ أظلم ﴿عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أو « فلما » تفصيل لرؤيتنا الملكوت ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ قيل هو الزهرة أو المشترى ﴿قَالَ﴾ لقومه ، وكانوا نجامين يعبدون الأصنام والكواكب ، فأراد أن يوقظهم من غفلتهم ويرشدهم إلى طريق الاستدلال ويعرفهم أن النظر الصحيح يأبى أن يكون شىء منها إلهاً لظهور أمارة الحدوث منها ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على زعمكم ، لأن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصم ثم يكر عليه بالإفساد ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ غاب ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ ويلزم من عدم المحبة عدم العبادة بالأولى ، لأن الرب لا يجوز عليه التغير والانتقال لأنهما من شأن الحوادث ، فلم ينجع فيهم ذلك ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ طالعاً ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على زعمكم ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ يثبتنى على الهدى ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ تعريض لقومه بأنهم على ضلال ، وتنبيه على استعجاز النفس والاستعانة بالرب فى درك الحق ، فإنه لا يهتدى إليه إلا بتوفيقه ، وأن القمر لتغير حاله لا يصلح للألوهية ، فمن عبده فهو ضال ، فلم ينجع فيهم ذلك ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا﴾ ذكره لتذكير خبره وصيانة الرب عن التأنيث ﴿رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ﴾ من القمر والكواكب ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ وقويت عليهم الحجة ولم يرجعوا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بالله من الأصنام والأجرام المحدثة المحتاجة إلى محدث ، واستدل بالأفول دون البزوغ مع أن كلا منها أمارة للحدوث ، لأن الأول أظهر فى الدلالة عليه . وإذا كانت الكواكب النيرات الرفيعة لا تصلح للربوبية ، فالأصنام التى نحتوها من الخشب والأحجار أحرى . ولما أبطل شبهة قومه وأدى ما عليه من النصح على التدريج ، وصرح بالبراءة من شركائهم بين لهم من استحق الألوهية والربوبية بقوله ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ قصدت بعبادتى وأخلصتها ﴿لِلَّذِي فَطَرَ﴾ خلق ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الله ﴿حَنِيفًا﴾ مائلا إلى الدين القيم ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ به ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ خاصموه فى التوحيد وهددوه بالأصنام أن تصيبه بسوء إن تركها ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾ فى وحدانيته بتخفيف النون لنافع وابن عامر بحذف نون الرفع وبتشديدها لغيرهما ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ إليها ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ من الأصنام أن تصيبنى بسوء لعدم قدرتها على شىء ﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ من المكروه يصيبنى فيكون ، أى إلا وقت مشيئة الله ذلك فحينئذ أخافه وإنما قال

إبراهيم ذلك لاحتمال أنه قد يصيبه شيء من الله فينسبونه إلى الأصنام ، فنفى تلك الشبهة بأنه لو رأيتم شيئاً حصل فيّ فهو من ربي ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ وسع علمه كل شيء كأنه علة الاستثناء فلا يبعد أن يكون في علمه إصابة المكروه بي من جهتها ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أنها لا تقدر على شيء لأنها جماد فتميزوا بين القادر والعاجز ، توقيف وتنبيه وإظهار لهم لموضع التقصير منهم ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ بالله من الجماد الذي لا يضر ولا ينفع استبعاد ﴿ وَلَا تَخَافُونَ ﴾ أنتم من الله ﴿ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ في العبادة ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ ﴾ بعبادته ﴿ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ حجة النقل ولا برهان العقل أي أتنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ أنحن أم أنتم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ من الأحق به وهو نحن فاتبعوه ولم يقل أينا أنا وأنتم احترازاً من تزكية نفسه وهذا النوع يسمى الإنصاف ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ﴾ يخلطوا ﴿ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ أي بشرك كما فسر بذلك في حديث الصحيحين ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ من العذاب جواب لقوله فأي الفريقين أحق بالأمن من إبراهيم أو من الله تعالى وهو عام في إبراهيم وغيره من كل مؤمن وبذلك يتبين ارتباط الكلام بما قبله ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ إلى سبل الرشاد ﴿ وَتِلْكَ ﴾ الحجة التي احتج بها إبراهيم على وحدانية الله من أفول الكواكب وما بعده مبتدأ والخبر ﴿ حُجَّتُنَا ﴾ أي إنما علمه بهدايتنا لأنه استعان بنا حيث قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين أو بدل من تلك والخبر ﴿ آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ أرشدناه لها ﴿ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ متعلق بحجتنا على الوجهين ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ بالإضافة للجمهور والتنوين للكوفيين أي بالعلم والمعارف والحكم وعلى التنوين فنصب درجات على المصدر أو التمييز والدرجات أصلها في الأجسام ثم استعمل في المراتب المعنوية أي كما رفعنا درجات إبراهيم بالعمل وغيره على قومه . قال ابن العربي في الأحكام : قال مالك ليس العلم بكثرة الروايات وإنما هو نور يضعه الله في قلب من يشاء . وقال ابن مسعود إنما هو خشية الله ، وروى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « همة السفهاء الرواية وهمة العلماء الدراية » وقال مالك لابني أخته أبي بكر وإسماعيل : إن أحببتما أن ينفعكما الله بهذا الشأن فأقلا منه وتفقها فيه اه . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ في صنعه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق الرفع والوضع ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ عطف على آتينا ﴿ إِسْحَاقَ ﴾ ولداً من صلبه ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ ابن إسحق نافلة فإن الذرية الصالحة من النعم الجزيلة ﴿ كُلًّا ﴾ منهما مفعول ﴿ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل إبراهيم عده نعمة على إبراهيم . لأن شرف الآباء يسري إلى الأبناء ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴾ الضمير لنوح لقربه ولأن لوطاً ويونس ليسا من ذرية إبراهيم وقيل الضمير لإبراهيم والمذكورون من ذريته تغليباً ، قال في غاية الأماني : ولعل هذا هو الراجح لأن سوق الكلام له فإنه لما قرر حجة التوحيد وذب عنها أكرمه الله برفع الدرجات وجعل مشاهير الأنبياء من ذريته ﴿ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ ابنه ﴿ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ ﴾ بن يعقوب ﴿ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما جزيناه ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ جزاء مثل ما جزينا إبراهيم من الكرامات

برفع الدرجات وكثرة الأولاد الصلحاء والنبوة فيهم ﴿وَزَكَرِيَّاءَ وَيَحْيَىٰ﴾ ابنه ﴿وَعِيسَىٰ﴾ ابن مريم يفيد أن الذرية تتناول أولاد البنت ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ ابن أخي هرون أخي موسى ، وفي البيضاوي من أسباط هرون أخي موسى ﴿كُلٌّ﴾ منهم ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح وهو الإتيان بما ينبغي وترك ما لا ينبغي ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ ابن إبراهيم ﴿وَالْيَسَعَ﴾ اللام زائدة وقرأ حمزة والكسائي واللَّيسع بتشديد اللام وسكون الياء على أنه أعجمي دخلته اللام ﴿وَيُونُسَ﴾ بن متى ﴿وَلُوطًا﴾ هو ابن هاران أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا﴾ منهم ﴿فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالنبوة وفيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق إذ يدخل الملائكة في العالمين ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ عطف على كلا أو نوحاً ومن للتبعيض لأن بعضهم لم يكن له ولد وبعضهم كان في ولده كافر ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ عطف على فضلنا أو هدينا ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تكرير لبيان ما هدوا إليه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي هدوا إليه ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ دليل على أنه متفضل بالهداية ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ فرضاً مع فضلهم وعلو شأنهم ﴿لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما يحبط عمل غيرهم لأن الله غني عن العالمين وآثر «لو» للدلالة على استحالة وقوع الشرط لعلم الله بعدمه ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ بمعنى الكتب ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الحكمة أو فصل الأمر على ما يقتضيه الحق ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ ذكرها بعد إيتاء الكتاب دفعاً للتجوز فإن الكتاب يضاف إلى الأمة نحو لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ بهذه الثلاثة ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ أي أهل مكة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أرصدنا لها ﴿قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ هم الأنبياء المذكورون أو أصحاب الرسول عليه السلام أو الأنصار أو الفرس أو كل من آمن بها ومعنى التوكيل القيام بحقوقها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الأنبياء هم ﴿الَّذِينَ هَدَى﴾ هم ﴿اللَّهُ﴾ للكمالات البشرية الدينية والدنيوية ﴿فَبِهُدَاهُمُ﴾ أي طريقهم من التوحيد والكمالات ﴿اقْتَدِهْ﴾ لا بغيرها بهاء السكت وقفاً ووصلا للجمهور وبحذفها وصلا لحمزة والكسائي وبكسرها وإشباعها لابن عامر في رواية ابن ذكوان على أنها ضمير المصدر وبغير إشباع في رواية هشام واستدل به على أن نبينا متعبد بشرع من قبله في كل ما لم ينسخ ﴿قُلْ﴾ لأهل مكة ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ للقرآن ﴿أَجْرًا﴾ جعلا تعطونيه حتى تتهموني وفيه دليل على أن أخذ الأجر على تبليغ الدين لمن وجب عليه ذلك لا يجوز كما لم يجز لأحد من الأنبياء ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي هذا التبليغ أو القرآن المشتمل عليه ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ عظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ لجميع من يعقل من الثقلين ولما ذكر الأنبياء واتفاقهم على الهدى جهل من أنكر الرسالة فقال ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظموه حق عظمته من قدره كضربه أو ما عرفوه حق معرفته من قدره كقتله عرف مقداره ﴿إِذْ قَالُوا﴾ للنبي وقد خاصموه وقال مالك بن الصيف حبرهم : ألم تر في التوراة : إن الله لا يحب عالما سميناً . فقال رأيت ذلك وكان سميناً . فقال له النبي : أنت ذلك العالم . فضحك القوم فغضب وقال : ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ فعتبه قومه قالوا له ولا على موسى . فقال : أغضبني محمد . وقيل نزلت

فى فنحاص بن عازوراء حين قالت اليهود يا محمد: أنزل الله عليك كتاباً. فقال نعم. فقال فنحاص: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً قط. ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ﴾ بالتاء للجمهور والياء لابن كثير وأبى عمرو فى المواضع الثلاثة ﴿قَرَاطِيسَ﴾ أى أوراقاً متفرقة تكتبونه فى دفاتر مقطعة لتتمكنوا من إبداء ما أردتم وإخفاء ما أردتم ﴿تُبْدُونَهَا﴾ ما تحبون إبداءه منها ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ مما فيها كنعت محمد إلزام لليهود بما لا يقدرون على إنكاره مدرجاً فيه نهاية النعم فى جعل الكلام المنزل على موسى جملة على حسب أغراضهم فى أوراق متفرقة ﴿وَعُلِّمْتُمْ﴾ أيها اليهود فى القرآن ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ من التوراة بيانما التبس عليكم واختلفتم فيه وغير ذلك من المعارف والحكم ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أنزله إن لم يقولوه لا جواب غيره وفيه تنبيه على أنهم بهتوا بحيث لا يقدرون على مخالفة هذا الجواب ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ لا تتبعهم فيه ﴿يَلْعَبُونَ﴾ تهديد ووعيد فلا نسخ فيه بآية السيف على الأصح ولما أمره بالجواب فى الرد عليهم بإنزال التوراة أجاب فى إنزال القرآن بنفسه مسنداً له إلى ضمير الجمع الدال على عظم المنزل إجلالا للقرآن بقوله ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الفائدة والنفع ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قبله من الكتب ﴿وَلِتُنْذِرَ﴾ بالخطاب للجمهور والغيبة لأبى بكر عن عاصم عطف على معنى ما قبله أى أنزلناه للبركة والتصديق والإنذار ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ مكة لأنها قبلة سائر القرى، وهى مكان أول بيت وضع للناس، ولأن الأرض دحيت من تحتها، ولأن الناس يرجعون إليها فى المواسم، ولعظم شأنها بأن فيها بيت الله ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أهل الشرق والغرب من جميع الجوانب إلى انقطاع الأرض ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن، وفيه تعريض لليهود بأنهم لم يؤمنوا بالآخرة إيماناً معتبراً ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ خصها لأنها عماد الدين وعلم الإيمان فمن حافظ عليها لا يخل بغيرها فى الأغلب لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ومن ضيعها فهو لغيرها أضيع ﴿وَمَنْ﴾ أى لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ كمالك بن الصيف فى قوله: ما أنزل الله على بشر من شىء وكسيلمة والأسود العنسى فى ادعاء النبوة ولم ينبأ ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كعبدالله بن سعد بن أبى سرح وكان يكتب للنبى فنزل أول « قد أفلح » فسمعه إلى قوله « خلقاً آخر » فقال « فتبارك الله أحسن الخالقين » فقال له النبى صلى الله عليه وسلم اكتبها فكذلك نزلت فشك وقال: لئن كان محمد صادقاً: لقد أوحى إلى كما أوحى إليه فارتد ثم رجع إلى الإسلام وأكثر بلاد المغرب فتحت على يديه فى زمان عثمان ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ كالمستهزئين القائلين لو نشاء لقلنا مثل هذا وفى الجواهر الحسان هذه ألفاظ عامة فكل من واقع شيئاً مما يدخل تحت هذه الألفاظ فهو داخل فى الظلم الذى قد عظمه الله عز وجل اه. وفى لباب التأويل: قال العلماء دخل فى حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذباً فى ذلك الزمان وبعده، لأنه لا يمنع خصوص السبب عموم الحكم اه. ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ المذكورون أو جنسهم

حذف مفعول ترى لدلالة الظارف عليه أى ولو ترى الظالمين ﴿ فِى غَمَرَاتِ ﴾ سكرات ﴿ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ إليهم بالضرب والتعذيب يقولون لهم تعنيفاً وتشديداً فى الإزهاق ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ﴾ إلينا لنقبضها أى أخرجوها كرهاً من أجسادكم ، لان المؤمن يحب لقاء الله بخلاف الكافر ، وقيل معناه خلصوا أنفسكم من هذا العذاب إن قدرتم على ذلك فيكون هذا القول توبيخاً لهم ﴿ الْيَوْمَ ﴾ أى وقت الإماتة ﴿ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ إلى ما لا يتناهى ، أى العذاب المتضمن للشدة والإهانة وإضافته إلى الهون لعراقته وتمكنه فيه ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ بادعاء النبوة والإيحاء كذباً ﴿ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وجواب لو لرأيت أمراً فظيعاً أى شديد القبح ، ويقال لهم إذا بعثوا ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ للحساب والجزاء ﴿ فُرَادَى ﴾ جمع فريد أى منفردين عن الأموال والأولاد والأهل وسائر ما آثرتموه من الدنيا أو عن الأعوان والأوثان التى زعمتم أنها شفعاؤكم وما قدمنا من أن فرادى جمع فريد كأسير وأسارى هو ما فى مدارك التنزيل ، وفى أنوار التنزيل جمع فرد ، والألف للتأنيث ككسالى وكسلى ، وفى غاية الأمانى جمع فرد على خلاف القياس ، كأنه لما كان بمعنى الفردان على وزن السكران جمع جمعه . قلت وفى الإتقان عن الأخفش جمع أفراد . جمع فرد اه . وفى القاموس شىء فارد وفرد وفرِد كجبل وكتف وكندس وعنق وسحبان وحليم وقنو أى منفرد ، وقال قبل ذلك الفرد نصف الزوج والمتحدوالجمع فرادومن لانظير لهوالجمع أفراد وفرادى اه . ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى حفاة عراة غرلا وهو بدل من فرادى أى على الهيئة التى ولدتم عليها فى الانفراد أو حال ثانية إن جوز التعدد فيها أو حال من الضمير فى فرادى أى مشبهين ابتداء خلقكم ، أو صفة مصدر جئتمونا أى مجيئاً كخلقنا لكم أول مرة ﴿ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ ﴾ أعطيناكم من الأموال فاشتغلتم به عن الآخرة ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ فى الدنيا بغير اختياركم ولم تقدموا منه شيئاً ليوم تشتد فيه الحاجة . قال فى الجواهر : واعلم ياأخى أن هذه الآية الكريمة ونحوها وإن كان مساقها فى الكفار فللمؤمن فيها معتبر ومزدجر ﴿ وَ ﴾ يقال لهم توبيخاً ﴿ مَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ ﴾ الأصنام ﴿ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ ﴾ أى فى استحقاق عبادتكم ﴿ شُرَكَاءُ ﴾ لله ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ ﴾ ما ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ بالنصب لنافع والكسائى وحفص عن عاصم أى تقطع الاتصال بينكم ، وبالرفع للباقين أى تقطع وصلكم وتشتت جمعكم ﴿ وَضَلَّ ﴾ ذهب ﴿ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ فى الدنيا من شفاعتها ، ثم برهن على التوحيد بعد إبطال الإشراك بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ ﴾ خالقه أو شاقه عن النبات ﴿ وَالنَّوَى ﴾ عن النخل ، وفاعل هذا لكم هو المستحق لعبادتكم دون غيره ، وقيل المراد الشق الذى فى النواة والحنطة والأول أوجه ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ ﴾ ما ينمو من الحيوان والنبات ليطابق ما قبله ﴿ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ ما لا ينمو كالنطف والحب ، أو المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل ، وهذا أقعد معنى ثم الأول أوفق للمقام ﴿ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ ﴾ كالنطفة والبيضة والحب اليابس والنوى اليابس ﴿ مِنَ الْحَيِّ ﴾ من الحيوان والنبات

ذكره بلفظ الاسم حملا على فالق الحب، فإن قوله «يخرج الحى» واقع موقع البيان له ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الفالق المخرج ﴿اللَّهُ﴾ المستحق للعبادة ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن الإيمان مع قيام البرهان ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ خالقه ومظهره مصدر بمعنى الصبح، أو شاق عموده، وهو أول ما يبدو من النهار عن ظلمة الليل، أو عن بياض النهار، أو شاق ظلمة الإصباح وهو الغبش الذى يليه قاله البيضاوى. وفى لباب التأويل: فإن قلت ظاهر الآية يدل على أنه تعالى فلق الصبح، والظلمة هى التى تفلق بالصبح فما معنى ذلك؟ قلت: ذكر العلماء فيه وجوهاً: الأول أن يكون المراد فالق ظلمة الصبح الأول وهو الفجر الكاذب لأنه يضمحل بنور الصبح الثانى، الوجه الثانى أنه تعالى كما شق ظلمة الليل بنور الصباح فكذلك يشق نور الصبح بضياء النهار، الثالث ظلمة الصباح وهى الغبش الذى يليه، الرابع فالق الإصباح الذى هو عمود الفجر، الخامس الفلق بمعنى الخلق أى خالق الإصباح، وعلى هذا القول يزول الإشكال. اه. قلت: أنكر الطبرى فلق بمعنى خلق وقال لا يعرف فى كلام العرب فلق الله الشىء بمعنى خلق، لكن نقل الأزهرى عن الزجاج سماعه ويؤيده ما فى القاموس فالق الحب خالقه أو شاقه. والله أعلم ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ يسكن إليه ويطمأن للاستراحة، ولذا سميت المرأة سكناً، أو يسكن فيه، كقوله «لتسكنوا فيه» وانتصابه بفعل دل عليه «جاعل» لأنه فى معنى الماضى فلا يعمل ويدل عليه قراءة الكوفيين. وجعل الليل حملا على معنى المعطوف عليه أو بجاعل على أن المراد منه جعل مستمر فى جميع الأزمنة ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ بالنصب عطفاً على محل الليل ﴿حُسْبَانًا﴾ مصدر حسب كنصر، أو جمع حساب كشهبان وشهاب، أى حساباً للأوقات، أو الباء محذوفة وهو حال مقدر، أى يجريان بحساب، أى عدد الأيام والشهور والسنين. وقال مجاهد كما فى صحيح البخارى بحسبان كحسبان الرحا وهو الدولاب، أى العود الذى عليه دورانه ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الفلق والجعل ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ القهار الذى سخر الأشياء على ما أراد ﴿الْعَلِيمِ﴾ الكامل العلم أناط بكل شىء سخره ما يليق من المصالح ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ خلقها لكم ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فى الأسفار، أى فى ظلمات الليل، وأضافها للبر والبحر للملابسة، أو فى مشتبهات طرقها، وسماها ظلمات على الاستعارة، وهو من أفراد منافعها التى أجملت فى قوله «لكم» واللام الاولى للتخصيص والثانية للعلة ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ بينا ﴿الْآيَاتِ﴾ على الوحدانية فصلا فصلا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يتدبرون لأنهم الذين يفهمون الدلائل ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدم ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أى لكم استقرار فى أصلاب الآباء، أو فوق الأرض أو مكانه، واستيداع فى الأرحام، أو تحت الارض أو مكانه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر القاف، أى فمنكم مستقِرٌّ أى قارٌّ ومنكم مستودع على أن الاول اسم فاعل والثانى اسم مفعول لأن الاستقرار منا دون الاستيداع، هذا ما فى أنوار التنزيل وغاية الأمانى، أو مستقر فى الرحم ومستودع فى الصلب كما للسيوطى فى التكملة، وهذا هو قول الجمهور كما فى الجواهر وهو أكثر الروايات

عن ابن عباس وقرأ فى ذلك « ونقر فى الأرحام مانشاء » ومما يدل على ذلك - كما فى الجواهر : أن النطفة لا تبقى فى صلب الأب زماناً طويلا ، والجنين يبقى فى رحم الأم زماناً طويلا ، لحملُ الاستقرار على المكث فى الرحم أولى . وقال ابن عطية : والذى يقتضيه النظر أن ابن آدم مستودع فى ظهر أبيه وليس بمستقر فيه استقراراً مطلقاً لأنه ينتقل إلى الرحم ثم إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى المحشر ثم إلى الجنة أو النار فيستقر فى أحدهما استقراراً مطلقاً وليس فيها مستودعا لأنه لا نقلة له بعد ، وهو فى كل رتبة متوسطة بين هذين الطرفين مستقر بالاضافة إلى التى قبلها ومستودع بالإضافة إلى التى بعدها لأن لفظ الوديعة يقتضى نقله .اهـ . وقال الخازن فى لباب التأويل : والفرق بين المستقر والمستودع أن المستقر أقرب إلى الثبات من المستودع ، لأن المستقر من القرار ، والمستودع معرض لأن يرد ولهذا اختلفت عبارات المفسرين فى معنى هذين اللفظين . اهـ . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ مايقال ، لم ذكر مع النجوم « يعلمون » لأن أمرها ظاهر ، وذكر مع خلق بنى آدم « يفقهون » لأن إنشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق يحتاج إلى استعمال فطنة ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ بالماء ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من أصناف ما ينبت فالسبب واحد والمسببات مختلفة ، وهو من دليل كمال علمه وقدرته وتفرده بالإيجاد ، ولذا أسنده إلى ضمير المتكلم ملتفتاً إليه من أسلوب الغيبة ، وقيل المراد بالنبات غذاء كل شيء من الانعام والطير والوحش وبنى آدم إذ ينبتون به وينمون ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ ﴾ من النبات أو الماء شيئاً ﴿ خَضِرًا ﴾ غضا طرياً مع يبس الحبة المخرج منها ، والخضر والأخضر بمعنى وهو جميع الزروع والبقول الرطبة ، أو الخضر بمعنى الغض النضير والأخضر حقيقته فى اللون وفى النضارة مجاز ﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ ﴾ من الخضر ﴿ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ بعضه فوق بعض كما يشاهد فى سنابل الحنطة ونحوها ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ ﴾ خبر ويبدل منه ﴿ مِنْ طَلْعِهَا ﴾ أول مايخرج منها والمبتدأ ﴿ قِنْوَانٌ ﴾ أعذاق جمع قنو ، وهو من النخيل بمنزلة العنقود من الكرم ويسمى العذق والعرجون عوده الذى فيه ينتظم التمر ، ويحتمل أن يكون التقدير وأخرجنا من النخل نخلا من طلعها قنوان ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ قريبة من المتناول ، ومن النخل ما يثمر وهو قصير القامة حتى يكون أعذاقه على الأرض أو ملتفة قريب بعضها من بعض ، واقتصر على ذكر الدنو لدلالتها على المقابل وزيادة النعمة فيها بالقرب ﴿ وَ ﴾ أخرجنا به ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ بساتين ﴿ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ عطف على نبات كل شيء وقرئ بالرفع على الابتداء أى ولكم جنات لا على العطف على قنوان ، إذ العنب لايخرج من النخل ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ ﴾ عطف على نبات أيضاً أو حباً ، والأحسن النصب على الاختصاص لكونها أشرف الثمار ﴿ مُشْتَبِهًا ﴾ ورقهما ﴿ وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ ثمرهما ، حال منهما أو من الجميع ، أى بعض الثمار متشابه وبعضه غير متشابه فى الهيئة والقدر واللون والطعم ، يقال اشتبه وتشابه بمعنى . قال فى لباب التأويل : ذكر فى هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع ، وقدم الزرع إذ هو غذاء ، وثمار الأشجار فواكه غالباً ، وقدم فى الأشجار

النخلة لأن ثمرها يجرى مجرى الغذاء ، وفيها من المنافع والخواص ما ليس فى غيرها من الأشجار ، وعقب العنب لأنه من أشرف أنواع الفواكه ، ثم الزيتون لما فيه من البركة والمنافع الكثيرة ، ثم الرمان لما فيه من المنافع لأنه فاكهة ودواء. ثم قال تعالى ﴿ انظُرُوا ﴾ يا مخاطبين نظر اعتبار واستدلال ﴿ إِلَىٰ ثَمَرِهِ ﴾ بفتح الثاء والميم للجمهور وبضمهما لحمزة والكسائى ﴿ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ أول ما يبدو كيف يخرج من الشجر كثيفا يابسا رطباً لطيفاً لا لون له ولا طعم ضئيلا لا يكاد ينتفع به ﴿وَ﴾ إلى ﴿ يَنْعِهِ ﴾ نضجه إذا أدرك كيف يعود ضخما ذا لون وطعم ، مصدر مضاف إلى الفاعل أو جمع كتجر وتاجر ، ويعلم نضج بعضه باحمرار واصفرار وعليه يقف جواز بيعه ، وبه يطيب أكله وتبين عنه العاهة قاله فى الأحكام ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ ﴾ على قدرته تعالى على البعث وغيره ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بها بخلاف الكافرين ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ الملائكة لاجتنانهم ، أو الشياطين حيث أطاعوهم فى عبادة الأوثان ، أو فى قولهم : الله خالق الخير وكل نافع ، والشيطان خالق الشر وكل ضار ، كما هو رأى الثنوية . قال ابن عطية وغيره : الجن هو المفعول الأول لـ « جعل » و « شركاء » الثانى و « لِلَّهِ » متعلق بشركاء أو حال منه ، وجوّز بعضهم أن يكون الجن بدلا من شركاء ، ولله فى موضع المفعول الثانى وشركاء الأول ، ورده أبو حيان بأن البدل حينئذ لا يصح أن يحل محل المبدل منه ، إذ لو قلت : وجعلوا لله الجن لم يصح ، وشرط البدل أن يكون على نية تكرار العامل على الأشهر . قال الصفاقسى : وفيه نظر . وقال عبد الرحمن الثعالبى : وما قاله أبو حيان عندى ظاهر ، وفى نظر الصفاقسى نظر . اهـ . قلت قد بين وجه النظر صاحب غاية الأمانى بقوله : لا يشترط استقامة المعنى بذلك لأن المبدل منه ليس فى حكم التنحية من كل وجه اهـ . ﴿وَ﴾ قد ﴿خَلَقَهُمْ﴾ فكيف يكونون شركاءه ﴿وَخَرَّقُوا﴾ بالتشديد لنافع والتخفيف لغيره ، اختلقوا وافتروا ﴿لَهُ بَنِينَ﴾ بقول اليهود عزير ابن الله ، والنصارى المسيح ابن الله ﴿ وَبَنَاتٍ﴾ بقول مشركى العرب الملائكة بنات الله ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بلا دليل حال من الواو أو المصدر ، أى خرقاً بغير علم ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيها له ﴿ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ بأن له شريكا أو ولداً ، هو ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها أو إلى الظرف ، وهو تقرير لتعاليه عن تلك الصفات بإثبات ما يضادها ، هو أن السموات والأرض التى هى من مخلوقاته بديعة أى معدومة النظير فكيف يكون له ولد ، أو أنه عديم النظير فيهما ، وقيل معناه المبدع ، وقد سبق الكلام فيه فى البقرة ، ورفعه على الخبر والمبتدأ محذوف ، أو على الابتداء وخبره ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ من أين أو كيف يكون له ولد استبعاد لذلك ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾ زوجة يكون منها الولد وهم يعترفون بذلك ، وهذا توبيخ وتجهيل لمن أثبت له الولد مع اعترافه بأن لا صاحبة له ﴿ وَخَلَقَ

كُلَّ شَيْءٍ ﴾ والولد شيء لا محالة ، وماكان مخلوقا له لا يكون ولدا لأنه ملك وهو ينافى البنوة ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى كما تفرد بخلق الأشياء فكذلك تفرد بالعلم الكامل الشامل ؛ فانسدت أوجه الاحتياج إلى الولد ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الموصوف بهذه الصفات للألوهية ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أخبار مترادفة ، ويجوز أن يكون البعض بدلا أو صفة والبعض خبراً ، وأعاد وصف الخالقية لأنه أجلى البراهين ، ولذلك يردده كثيراً فى القرآن الكريم ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ وحدوه بالعبادة ، وهو مسبب عن تلك الصفات وإن كان مستحقاً ذلك لذاته ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ حفيظ ، حال من المفعول توكيد للأمر بالعبادة ، أى وهو مع تلك الصفات موصوف بكونه موكولا إليه جميع الأمور يتولاها فكلوها إليه وتوسلوا بعبادته ، وحفيظاً لأعمالكم يجازيكم عليها ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ أى لا تحيط به ، هذا تفسير الجمهور ، أو لا تراه ، وذلك مخصوص برؤية المؤمنين له فى الآخرة لقوله تعالى «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» وحديث الشيخين «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» والأبصار : جمع بصر وهو النور المودع فى الجارحة الذى به رؤية الأشياء ، ويطلق على الجارحة لأنها محله . والأول المراد لقوله ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ يحيط علمه بها لأن تفرده إنما هو فى إدراك البصر لا الجارحة ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ ﴾ الرفيق لأوليائه ، من لطف كنصر ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بهم ، وقيل من باب اللف ، أى لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف ، من لطف ككرم : دقّ ، وهو يدركها لأنه الخبير ؛ فيكون اللطيف مستعار من مقابل الكثيف لما لا يدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها ، قل لهم يا محمد ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ جمع بصيرة وهى للقلب كالبصر للعين ، والمراد الدلائل القاطعة جعلها بصائر دلالة على غاية جلائها ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ ﴾ ها بقلبه فآمن ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ أبصر لأن ثواب إبصاره له ﴿ وَمَنْ عَمِيَ ﴾ قلبه عن إدراكها ﴿ فَعَلَيْهَا ﴾ وبال ضلاله ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ لأعمالكم ، إنما أنا نذير والله هو الحفيظ عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها ، أو المراد لا أقدر أن أدفع عنكم ما يريده الله بكم ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما بينا ما ذكر ﴿ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ نرددها ونبينها ليعتبروا أو ليلزمهم الحجة ﴿ وَلِيَقُولُوا ﴾ أى الكفار فى عاقبة الأمر ﴿دَرَسْتَ﴾ لنافع والكوفيين أى كتب الماضين ، ولابن كثير وأبى عمرو «دارست» بألف ، أى أهل الكتاب وناظرتهم وجئت بهذا مما ذكر ، ولابن عامر «درست» بإسناد الفعل إلى الآيات ، أى ترددت فى سماعهم حتى بليت وصارت كأساطير الأولين ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُ ﴾ اللام على أصله من التعليل ، والضمير للآيات باعتبار المعنى لأنها القرآن أو للمصدر ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ لأن الجاهل بمعزل عن الفهم ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أى القرآن بالتدين به ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ اعتراض أكد به إيجاب الاتباع ، أو حال مؤكدة من ربك بمعنى منفرداً فى الألوهية

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ لا تلتفت إلى أقوالهم وآرائهم ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ صريح فى أن إشراكهم بمشيئته ﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ رقيباً فتجازيهم بأعمالهم ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ متولِّ أمرهم ، ولما كان المسلمون يطعنون آلهتهم وقالوا لتنتهن أو لنهجونّ إلهكم نزل ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾هم ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى الأصنام ، والسب ذكر مساوئ الشىء على سبيل النقص والتحقير ووصف الله به آلهتهم من أنها حصب جهنم ونحوه استدلال على عدم صلاحيتها للألوهية ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا ﴾ تجاوزا عن الحق ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بمن يليق به السب ، وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها فإنّ مايؤدى إلى الشرّ شرٌ . قال ابن العربى فى الأحكام تعلق علماؤنا بهذه الآية فى سد الذرائع وهى كل جائز فى الظاهر يمكن أن يوصل إلى المحظور اه . ودل هذا أن المحق يكف عن حقه إن أدى إلى ضرر دينى إن كان الحق جائزاً وأما إن كان واجباً فلا يتركه إلا لأعظم منه ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما زينا لهؤلاء ما هم عليه ﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ من الخير والشر فأتوه ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ ﴾ فى الآخرة ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ مجاز عن الحساب والمجازاة عليه ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَأَقْسَمُوا ﴾ أى كفار مكة ﴿ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ ﴾ مما اقترحوا ﴿ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ ومرادهم التعنت ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ينزلها كما يشاء وإنما أنا نذير ، وكان المؤمنون يتمنون مجىء الآى المقترحة لعلها تكون سبباً لإيمانهم فرد الله ذلك عليهم بقوله ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ استفهام إنكار أى ما يدريكم بإيمانهم إذا جاءت أى أنتم لا تدرون ﴿ أَنَّهَا ﴾ بالفتح للجمهور : أن الآية المقترحة ﴿ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لما سبق فى علمى فالنفى إنما توجه إلى ماهو الواقع إلى مدعاهم ، وقيل لا مزيدة وأن معمول لما قبلها أو بمعنى لعل . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بالكسر استئناف ، وقرأ ابن عامر وحمزة لا تؤمنون بتاء الخطاب فالإنكار فيما يشعركم للكافرين على حلفهم ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ ﴾ نحول قلوبهم عن الحق فلا يفهمونه عطف على لا يؤمنون داخل تحت الإنكار ، أى وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم ﴿ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ عن الحق فلا يرونه ولا يؤمنون ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ﴾ أى بما أنزل من الآيات ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ قبل الاقتراح ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ نتركهم ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ تجاوزهم عن الحق ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يترددون متحيرين عطف على لا يؤمنون ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ﴾ كما اقترحوا فى لولا أنزل علينا الملائكة ﴿ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ ﴾ كما قالوا فأتوا بآبائنا ﴿ وَحَشَرْنَا ﴾ جمعنا ﴿ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قِبَلًا ﴾ بكسر القاف وفتح الباء لنافع وابن عامر أى معاينة وبضمتين للباقين جمع قبيل ، كفيل بصحة ماتقول ، أو جماعة أى فوجاً فوجاً أمة بعد أمة يخبرون بصدقك وهو على هذه الوجوه حال من كل شىء وجاز ذلك لعمومه ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ فى كل حال لما سبق فى علم الله من كفرهم ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ إيمانهم

فيؤمنون استثناء من أعم الأحوال أى إلا حال مشيئته به وهو حجة واضحة على المعتزلة القائلين إن الله أراد الإيمان من جميع الكفار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أن لو أتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون أو ولكن أكثر المؤمنين يجهلون ذلك فيتمنون نزول الآية طمعا فى إيمانهم وإنما قال أكثرهم إذ منهم من اعتقد أن الآية لوجاءت لا يؤمن ولذا قال مكى: أكثرهم يجهلون أى فى مخالفتك وهم يعلمون أنك صادق. قال أبوسفيان للنبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح: والله ما شككت فى صدقك قط ولا أقاتلك إلا حسداً، فالحمد لله الذى نزع ذلك من قلبي ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جعلنا هؤلاء أعداءك ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ ويبدل منه ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ أو هو أول مفعولى جعلنا وعدوا الثانى ولكل متعلق به أو حال منه وهو تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وجعل للرسل عدو من مردة الفريقين لينالوا بذلك الأجر العظيم وليتسلى بهم العلماء إذا عاداهم الجهال ويتأسوا بالأنبياء. وبدأ بشياطين الإنس لأنهم أشد من شياطين الجن لأنك إذا تعوذت هربت شياطين الجن بخلاف شياطين الإنس. والحديث «قرناء السوء شر من شياطين الجن» وقيل المراد بشياطين الإنس الشياطين التى معهم وبشياطين الجن التى معهم، وأضيفوا إليهم لإغوائهم لأن إبليس يبعث فريقاً من شياطينه إلى الإنس وفريقاً إلى الجن يضلونهم ﴿يُوحِي﴾ يوسوس ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ والوحى الكلام الخفى، والمراد به وسوسة الشياطين أى يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس أو بعض الجن إلى بعض، وبعض الإنس إلى بعض ما يفتنون به المؤمنين والصالحين، وهذا على الوجه الأول، وعلى الثانى: فالمراد تقول شياطين الإنس لشياطين الجن أضللت صاحبي بكذا: فأضل أنت صاحبك بمثله، وتقول شياطين الجن لشياطين الإنس كذلك، فذلك وحى بعضهم إلى بعض ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ مموهه من الباطل وهو ما زينوه من الإغراء على المعاصى من زخرفه: زينه، والزخرف فى الأصل الذهب فكثر استعماله فى مموّهه لكثرته ﴿غُرُورًا﴾ خداعاً ليغروهم نصب على العلة أو الحال ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أى الإيحاء المذكور صريح فى أن وقوع الشر بمشيئته وهو رد أيضاً على المعتزلة ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ اترك الكفار وفريتهم من الكفر وغيره مما زين لهم، قيل منسوخ بآية السيف وتقدم مافيه من أمثاله ﴿وَلِتَصْغَىٰ﴾ عطف على غروراً أى ولتميل ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الزخرف ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ يكتسبوا ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ من الذنوب فيعاقبوا عليه، واللام فى الثلاث لام كى متعلقة بما تعلق به غروراً وهو يوحى كما قاله أكثر المفسرين لا لام العاقبة كما قال فى غاية الأمانى والله أعلم. ونزل لما طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل بينه وبينهم حكما قل لهم ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي﴾ أطلب ﴿حَكَمًا﴾ قاضياً بيني وبينكم، والهمزة للإنكار،

و «غير» مفعول أبتغى و «حكما» حال منه وعكسه لا يستقيم لأن غير معرفة بالإضافة لتعين الضد والحكم هو الحاكم مطلقاً ، وفى المثل فى بيته يؤتى الحكم وفى الحديث «يوشك أن ينزل ابن مريم حكما عدلا» وماقيل يختص بالحاكم العدل فلا سند له . قال فى غاية الأمانى يشير به إلى رد قول البيضاوى : وغير مفعول أبتغى وحكما حال منه ويحتمل عكسه ، وحكما أبلغ من حاكم ولذا لا يوصف به غير العادل اه . وفى لباب التأويل الحكم والحاكم واحد عند أهل اللغة غير أن بعض أهل المعانى قال : الحكم أكمل من الحاكم لأن الحاكم من شأنه أن يحكم والحكم أهل أن يتحاكم إليه وهو الذى لا يحكم إلا بالحق اه . وفى الجواهر الحسان : حكما أبلغ من حاكم إذ هى صيغة للعدل من الحكام والحاكم جار على الفعل فقد يقال للجائر اه . وفى القاموس الحاكم منفذ الحكم كالحكم محركا اه . والله أعلم . ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ ﴾ القرآن المعجز ﴿ مُفَصَّلًا ﴾ فيه الحق من الباطل أو مفصلا بالسور والآيات ، وهو دليل على صدق ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ ﴾ من علماء اليهود والنصارى ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر وحفص عن عاصم لموافقته ما فيه مافى كتبهم ﴿ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ عضد دلالة الإعجاز على صدق القرآن بعلم أهل الكتاب ذلك من كتبهم ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أنهم يعلمون ذلك والخطاب له ، والمراد غيره من الأمة أى لا يليق الامتراء فى هذا لكل أحد لوضوحه ﴿ وَتَمَّتْ ﴾ استقرت فى الأزل ﴿ كَلِمَٰتُ رَبِّكَ ﴾ بالجمع للجمهور والكوفيين بالإفراد أى جميع ما تكلم به فى كتبه ﴿ صِدْقًا ﴾ فى أخبار القرون وما هو كائن إلى قيام الساعة والوعيد والوعد ﴿ وَعَدْلًا ﴾ فى الأحكام الأوامر والنواهى والتخييرات ، ونصبهما على الحال أو التمييز أو المفعول له ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِ ﴾ بالتحريف أو بإتيان ما هو أصدق أو أعدل منها أو بنقص أو خلف ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لما يقال ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما يفعل ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الْأَرْضِ ﴾ الكفار أو الجهال أو أتباع الهوى ﴿ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دينه فإن الضال لا يأمر إلا بالضلال ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ الذى هو أكذب الحديث فى أن آباءهم على الحق ، وفى جواز الميتة بأن ما قتل الله أحق أن يؤكل ، وغير ذلك من آرائهم الفاسدة ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ يكذبون فى ذلك الظن أو يقدرون أنهم على شىء وأصل الخرص التقدير ، والتخمين ، ولما حصر حالهم فى الظن وهو محتمل للصدق حصر ظنهم فى الكذب فهو كالعلة للنهى عن إطاعتهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ أى عالم ﴿ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ومن موصولة أو موصوفة فى محل النصب بفعل دل عليه اسم التفضيل لأنه لا يعمل النصب فى الظاهر ، قاله البيضاوى وصاحب غاية الأمانى . قلت جعله السيوطى بمعنى اسم الفاعل فيعمله عليه والله أعلم . ﴿ فَكُلُوا ﴾ أى فلا تتبعوا الضالين المحلين للحرام بعد النص وكلوا ﴿ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أى ذبح

على اسمه فقط لا الميتة رد لقولهم ما قتل ربكم أولى أن تأكلوه مما قتلتم ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ وأوثر إن - وإن كان إيمانهم مقطوعا به - لما خالج قلوب بعضهم من شبهة الكفار وتهويل أكل غيره ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ أى ما عرض لكم وأى مانع لكم ﴿أَنْ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ خاصة وهذا القيد علم من الوصف نحو كل من مال الغنى ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ بالبناء للفاعل لنافع والكوفيين وللمفعول لغيرهم، أى فصل الله ﴿لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ بالبناء للفاعل لنافع وحفص وللمفعول للباقين مع ما يحرم، وجملة «قد فصل» حالية، وما فصل من المحرمات هو ما فى آخر هذه السورة من قوله «قل لا أجد ...» إلى آخر الآية، فإنه وإن كان متأخراً فى الوضع متقدم نزولا، وجمهور المفسرين قالوا هو ما فى آية «حرمت عليكم الميتة»، وأورد عليه فخر الدين الرازى إشكالا بأن سورة الأنعام مكية والمائدة من آخر ما نزل بالمدينة والمفصل يتقدم وجوباً. قال بل الأولى أن يقال هو قوله «قل لا أجد» الآية اه. وأجاب بعضهم عن الجمهور بأن الله لما علم أن المائدة تتقدم ترتيباً ساغ ذلك والله أعلم ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ منه فهو أيضاً حلال لكم، المعنى: لا مانع من أكل ما ذكر خاصة، وقد بين لكم المحرم أكله ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ﴾ بفتح الياء للجمهور وضمها للكوفيين هنا وفى يونس فى قوله «ليضلوا عن سبيلك» فيه إشارة إلى أن الضلال ليس خاصاً بالمشركين ﴿بِأَهْوَائِهِمْ﴾ بما تهواه أنفسهم من تحليل الحرام ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعتمدونه من الشارع فى ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين الحلال إلى الحرام فيجازيهم ﴿وَذَرُوا﴾ اتركوا ﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ علانيته وسره أو ما كان بالجوارح وبالقلوب أو المحرمات والشبهات، والإثم كل معصية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ ظاهراً أو باطناً ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ يكتسبون ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ من الذبائح، فإن ترك الذابح التسمية عمداً لم تؤكل وسهواً أكلت هذا مذهب مالك وأبى حنيفة، وقال أحمد إن تركها ناسياً أو عامداً حرم أكل الذبيحة. وقال الشافعى: ما ذبحه المسلم ولم يسم عمداً أو نسياناً فهو حلال، وفسر ما لم يذكر اسم الله عليه بما مات أو ذبح على اسم غير الله وتقدمت المسئلة ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى عدم التسمية عمداً أو إن الأكل مما ذكر ﴿لَفِسْقٌ﴾ خروج عن الطاعة ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ يوسوسون ﴿إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ من الكفار ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ فى تحليل الميتة ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فى استحلال ما حرم الله ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ إذ جعلتم لله شريكا فى تشريع الأحكام، وحسّن حذف الفاء فى الجواب كون الشرط ماضياً فى اللفظ. قال ابن العربى فى الأحكام: إنما يكون المؤمن بطاعة المشرك مشركا إذا أطاعه فى الاعتقاد الذى هو محل الكفر والإيمان، وأما إن أطاعه فى الفعل وعقده سليم مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاص فافهموا ذلك فى كل موضع اه. وأنزل فى حمزة وأبى جهل وأمثالهما ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا﴾ بالكفر والضلال

﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بالإيمان والعلم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ من اليقين وهو نور الإيمان والحكمة ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ حيث أراد من غير تعب بمعنى يبصر به الحق من غيره وهو المؤمن ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ﴾ مثل زائدة للدلالة على الحال والصفة أي كمن هو خابط ﴿فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ وهو الكافر؟ لا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما زين للمؤمنين الإيمان ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جعلنا فساق مكة أكابرها ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ وأكابر مفعول ثان لجعل والأول مجرميها قدم الثاني عليه، ويجوز أن يكون في كل قرية أكابر مفعوليه ومجرميها بدلا أو مضافاً إليه. بدليل قراءة أكبر مجرميها ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ بالصد عن الإيمان ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لأن وباله عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، وتخصيص الأكابر لأنهم أقوى على استتباع الناس، والمكر بهم ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ أكابر مكة كأبي جهل والوليد بن المغيرة ﴿آيَةٌ﴾ على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ من الرسالة والوحي إلينا، قال تعالى رداً عليهم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ بالجمع للجمهور، والإفراد لابن كثير وحفص، و«حيث» مفعول به لفعل دل عليه «أعلم» لأنه اسم تفضيل لا ينصب المفعول به، ولأن الفعل واقع على «حيث» لا فيه، هكذا قالوا في الوجهين، وفيه نظر عله كتب العربية، أي يعلم الموضع الصالح لوضعها فيه، فيضعها حيث شاء، ليس كثرة المال وكبر السن من أسبابها ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ من أكابرها كأبي جهل بقولهم ذلك ﴿صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ بسبب مكرهم ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ يعرفه طريق الحق ويوفقه للإيمان ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ بأن يقذف في قلبه نوراً فينفسح له ويقبله كما ورد في الحديث وعلامة ذلك الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا﴾ بالتشديد للجمهور، والتخفيف لابن كثير، ينبو عن قبول الحق ﴿حَرِجًا﴾ بالكسر لنافع وأبي بكر عن عاصم، شديد الضيق، وبالفتح للباقين، وصف بالمصدر ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ﴾ بتشديد الصاد وفتح العين للجمهور، وبإسكان الصاد وتخفيف العين لابن كثير، ولأبي بكر يصاعد ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ شبهه مبالغة في ضيق صدره بمن يزاول ما لا يقدر عليه كالصعود إلى السماء استبعاداً لذلك ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما يضيق صدره ويبعد قلبه عن الحق ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ﴾ العذاب أو الخذلان ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر للتعليل ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن أو الإسلام ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ الذي ارتضاه ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيه، حال مؤكدة، والعامل فيها معنى الإشارة ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ الدالة على حقيقة تلك الصراط ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أن الله حكيم عادل في العباد، أو يذكرون العهد الذي أخذ

عليهم فى عالم الذر وفى الكتب السماوية على لسان الأنبياء ﴿ لَهُمْ ﴾ للتذكرين ﴿ دَارُ السَّلَامِ ﴾ أى دار الله أضاف الجنة إلى اسمه تعظيما لها ، أو دار السلامة من كل مكروه ، أو دار تحيتهم فيها سلام ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ذخيرة عنده لا يعلم كنهها غيره ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ ﴾ ناصرهم ومتولى أمرهم فى إيصال ذلك الجزاء إليهم لا غيره تشريفاً لهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بسبب أعمالهم الصالحة ، فكما لم يشركوا أحداً معه فى تلك الأعمال فكذلك لا يشرك فى جزائهم أحداً ولا يطلعه على حقيقته ﴿ وَ ﴾ اذكر إذ نقول ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ بالنون للجمهور والياء لحفص أى الله الخلق ، والحشر الجمع بكره ﴿ جَمِيعًا ﴾ والضمير لمن يحشر أو للشياطين وأوليائهم الذين تقدم ذكرهم ، ثم نقول لهم توبيخاً وتقريعاً على سوء صنيعهم ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ ﴾ الشياطين ﴿ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ من إغوائهم أو بإغوائكم وجعلكم إياهم أتباعكم لحشروا معكم ، كقولهم استكثر الأمير من الجنود ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ ﴾ الذين أطاعوهم ﴿ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ تحسراً أو اعتذاراً ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ انتفع الإنس بتزيين الجن لهم الشهوات ، والجن بطاعة الإنس لهم ، أو الإنس بالتعوذ بهم والأمن فى المفاوز والمخاوف ، والجن بالتعظيم بذلك ، وقيل بعضنا يعض فى الإنس خاصة . قال فى لباب التأويل : لأن استمتاع الجن بالإنس وبالعكس أمر نادر لا يكاد يظهر ، وأما استمتاع الجن والإنس بعضهم ببعض فظاهر فوجب حمل الكلام عليه . اه . وإنما خاطب الجن وأجاب الإنس لأن خطاب الجن كان لتقريع الإنس بكونه مع شرفه صار تابعاً لهذا الشرير الخسيس .

فكان الجواب منهم لكونهم يحتاجون إلى نوع اعتذار ذكره فى غاية الأمانى ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ ﴾ حددت ﴿ لَنَا ﴾ وهو الموت أو البعث ، ثم ذهب الأجل بلا استعداد وبقى التحسر ﴿ قَالَ ﴾ تعالى لهم على لسان الملائكة ﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ ﴾ مأواكم ، وهذا الاعتذار لا يغنى شيئاً فالنار مقركم حال كونكم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ من الأوقات التى يخرجون فيها لشرب الحميم وعذاب الزمهرير فإن ذلك خارجها داخل حفرتها ، كما قال «ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم» أو إلا ما شاء قبل الدخول ورجحه الزجاج ، ونقل جمهور المفسرين عن ابن عباس أن الاستثناء فى المسلمين الذين يخرجون من النار ، فما بمعنى من أى قال للذين استمتع بعضهم ببعض النار مثواكم خالدين فيها إلا من شاء الله خروجه منكم وهم المؤمنون والله أعلم قال ابن عطية : والإجماع على التخليد الأبدى فى الكفار . اه . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ فى أفعاله متقن فى كل ما دبر ﴿ عَلِيمٌ ﴾ كامل العلم بأحوال الثقلين وأعمالهم ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ كما ولينا الجن والإنس ﴿ نُوَلِّي ﴾ من الولاية أو الاتباع ﴿ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾ فى الإغواء والوسوسة أو فى العذاب يوم القيامة . وفى الحديث : «يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» أو نسلط فى الدنيا بعض الظالمين على بعض ، وفى الحديث :

من أعان ظالماً سلطه الله عليه . وفى لباب التأويل : إن الرعية متى كانوا ظالمين سلط الله عليهم ظالماً مثلهم فلا يخلصون منه إلا أن يتركوا الظلم . اه . ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ المعشر جماعة أمرهم واحد ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ أى من مجموعكم الصادق بالإنس أو رسل الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسل فيبلغون قومهم . وعن الضحاك وغيره : بعث الله إلى الجن منهم كما بعث إلى الإنس نظرا إلى ظاهر الآية ، ورد بقوله وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا وفيه مافيه والله أعلم بأسرار كتابه ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ أن قد بلغنا وأقررنا بالجرم واستحقاق العذاب ، قال تعالى ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ ولم يؤمنوا ، أى قالوا ذلك والحال أنهم كانوا مغرورين بالحياة الدنيا والملذات السريعة الزوال حتى أعرضوا عن الآخرة ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ كرر الشهادة لأن الأولى حكاية حالهم والثانية ذم لهم وتحذير للسامعين من مثل حالهم ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى إرسال الرسل خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر ذلك ﴿ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ ﴾ تعليل للحكم واللام مقدرة وأن مصدرية أو مخففة من الثقيلة ، أى الأمر ذلك لانتفاء كون ربك أو لأن الشأن لم يكن ربك ﴿ مُهْلِكَ الْقُرَى ﴾ أهلها ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ بسبب ظلم فعلوه أو ملتبسين به ﴿ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ لم يرسل إليهم رسول يبين لهم ، هذا تفسير الجمهور . وقال الفراء : لم يكن ليهلكهم بظلم منه وهم غافلون . والأول أقوى ، وبظلم على الأول حال من القرى بتقدير الأهل أو ملتبسين بظلم فى حال غفلتهم ، وعلى الثانى من فاعل «مهلك» أى ملتبساً بظلم أو الباء للعلية كما تقدم ، وفيه دليل للشيخ الأشعرى أن لا تكليف قبل البعثة ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ من العاملين بطاعة الله أو بمعصيته ﴿ دَرَجَاتٌ ﴾ منازل ﴿ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ لأجل أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وأطلق الدرجات على النوعين للتغليب أو لتفاضلهما فى الارتفاع والانخفاض كتفاضل الدرج ، وهذا يكون فى الثواب والعقاب على قدر أعمالهم ، هذا قول جمهور المفسرين ، وقيل لكل درجات يختص بأهل الطاعة لأن لفظ الدرجة لا يليق إلا بهم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ بالياء للجمهور والتاء لابن عامر على تغليب الخطاب على الغيبة ، أى لا يخفى عليه عمل أو قدر ما يستحق به من ثواب أو عقاب ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ﴾ عن العباد وعبادتهم ﴿ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ البالغة ولذا أرسل الرسل وشرع الاحكام تكميلا للعباد بالمعارف والأعمال الصالحة ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ تقرير للغنى ، أى ليس له إليكم حاجة وإنما أبقاكم رحمة لتداركوا ما فرطتم ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ ﴾ من الخلق آثر «ما» على من قصداً إلى الوصف ، أى الطائع لأمره ﴿ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ أذهبهم جيلا بعد جيل ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ من ظهور هذا الدين على كل الأديان والبعث والجزاء ﴿ لَآتٍ ﴾ لا محالة ﴿ وَمَا أَنْتُمْ

﴿ بِمُعْجِزِينَ ﴾ طالبكم به بمعنى فائتين من أعجزه الشيء إذا فاته مأخوذ من عجز الشيء وهو مؤخره ﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ بالإفراد للجمهور والجمع لأبي بكر عن عاصم : تمكنكم واستطاعتكم ، مصدر مكن ككرم مكانة فهو مكين تمكن غاية ما يمكن ، أو على ناحيتكم وحالتكم التي أنتم عليها من الكفر والمعاصي ، وهي بمعنى المكان ، يقال مكان ومكانة والأمر على الوجهين للتهديد ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ على حالتي من المصابرة والثبات على الإسلام ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تعرفون ﴿ مَنْ ﴾ موصولة مفعول تعلمون ﴿ تَكُونُ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة والكسائي ﴿ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة أنحن أم أنتم ، ويحتمل أن تكون «مَن» استفهامية بمعنى أينا في محل رفع وفعل العلم معلق عنه ، وإضافة العاقبة إلى الدار لأنها تحصل فيها ، وفي الكلام مع الإنذار إنصاف في المقال حيث لم ينسب الخصم إلى الضلال صريحاً ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ الكافرون وغيرهم . وضعه موضع الكافرين لأنه أعم وأكثر فائدة ﴿ وَجَعَلُوا ﴾ مشركوا العرب ﴿ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ خلق ﴿ مِنَ الْحَرْثِ ﴾ الزرع ﴿ وَالْأَنْعَامِ ﴾ المواشي ﴿ نَصِيبًا ﴾ يصرفونه إلى الضيفان والمساكين ولشركائهم نصيباً يصرفونه إلى سدنتها ﴿ فَقَالُوا هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ﴾ بالفتح للجمهور والضم للكسائي لغتان ﴿ وَهَـٰذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾ فكانوا إذا سقط شيء من نصيبها في نصيب الله التقطوه وفي نصيبها شيء من نصيبه تركوه وقالوا الله غني عن هذا ، كما قال تعالى ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي لجهته ﴿ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ حكمهم هذا ، حيث أشركوا بالخالق جماداً من خلقه لا يقدر على شيء ثم رجحوه عليه ، وفي قوله «بزعمهم» تنبيه على أنهم اخترعوه لم يرد به شرع ولا يحسنه عقل ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ عطف على جعلوا ، أي وكما زين لهم ما ذكر جهلا ﴿ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ ﴾ بالوأد ﴿ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ من الشياطين بالرفع للجمهور فاعل زين ، ولابن كثير بنائه للمفعول ورفع قتل ونصب الأولاد به وجر شركائهم بإضافته ، وفيه الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول وهو جائز ، وإضافة القتل إلى الشركاء لأمرهم به ، وسمى الشياطين شركاء لأنهم أشركوها مع الله في طاعة ما أمرتهم ، وقيل المراد بها سدنة الأصنام وكانوا يزينون لهم ذلك ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ يهلكوهم بالإغواء ﴿ وَلِيَلْبِسُوا ﴾ يخلطوا ﴿ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ الذي كانوا به وهو الدين الحق ، أو دينهم الذي كانوا عليه قبل شركهم وهو دين إبراهيم ، واللام للتعليل إن كان التزيين من الشياطين ، وللعاقبة إن كان من السدنة ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ المشركون والشركاء جميع ما ذكر ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ من نسبته إلى الله ﴿ وَقَالُوا هَـٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ حرام فعل بمعنى مفعول كالذبح يستوي فيه الواحد والكثير والذكر والأنثى ﴿ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ ﴾ من خدمة الأصنام ومن أردنا من الرجال دون النساء ﴿ بِزَعْمِهِمْ ﴾

لا حجة لهم فيه ﴿ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ فلا تركب ، كالسوائب والبحائر والحوامى ﴿ وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ عند ذبحها ، بل يذكرون اسم أصنامهم أو لا يحجون عليها ولا يلبون على ظهورها ، والمعنى أنهم قسموا أموالهم إلى هذه الأقسام الثلاثة ونسبوا ذلك إلى الله ﴿ افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ عليه ، ثم أشار إلى نوع آخر من أباطيلهم بقوله ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ ﴾ المحرمة وهى السوائب والبحائر ﴿ خَالِصَةٌ ﴾ حلال ﴿ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾ إناثنا إن ولد حياً ، أنث خالصة وذكّر محرم ، حملا على لفظ «ما» على غير الغالب من تقديم رعى اللفظ ثم المعنى ، لأن ما فى معنى الأجنة ، أو التاء فى «خالصة» للمبالغة كراوية الشعر ، أو هو مصدر كالعافية وقع موقع الخالص ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً ﴾ بالنصب مع تذكير الفعل للجمهور ، والرفع وتأنيث الفعل لابن عامر وشعبة وابن كثير إلا أنه يذكر الفعل ﴿ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ الرجال والنساء فيه سواء ، والتذكير فى «فيه» لأن المراد بالميتة مايعم الذكر والأنثى فغلب الذكر ﴿ سَيَجْزِيهِمْ ﴾ الله ﴿ وَصْفَهُمْ ﴾ ذلك بالتحليل والتحريم أى جزاءه ، وأصل الوصف الكشف والإظهار . تقول وصفت زيداً بكذا : أظهرت ما فيه مدحاً أو ذماً ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ فى ذلك الجزاء ﴿ عَلِيمٌ ﴾ باستحقاقهم ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن كثير وابن عامر ﴿ أَوْلَادَهُمْ ﴾ بالوأد ، وهم قوم من ربيعة ومضر لخوف الفقر أو السباء . قال ابن عطية : جمهور العرب لايفعله . اه . وأعاده هنا وإن تقدم لبيان خسرانهم فى الدنيا بإزالة ما أنعم الله به عليهم ، وفى الآخرة بالعذاب ﴿ سَفَهًا ﴾ جهلا بأن الله الرازق والحافظ ، نصب على الحال أو المصدر أو العلة ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ حجة فى موضع الحال يؤكد معنى السفه ﴿ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ من البحائر ونحوها ﴿ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ إلى الحق والصواب قط ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ ﴾ خلق ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ من الكروم وغيرها عطف على القصة السابقة لإبطال ماتقدم من الأحكام التى اخترعوها ﴿ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ رفع قضبانها من الأرض ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ ما كان على الأرض قال النسفى يقال عرشت الكرم إذا جعلت له دعائم وسمكا تعطف عليه القضبان اه . وقال ابن العربى يعنى رفعت على الأعواد وصنت عن تدلى ثمرها ، والعرش كل ماارتفع فوق غيره ، وقال ابن عباس المعروشات ما انبسط على الأرض وانتشر مما يعرش مثل الكرم والقرع والبطيخ ، وغير معروشات ماقام على ساق كالنخل والزرع ، وقيل المعروشات ما غرسه الناس واهتموا بتعريشه ، وغير معروشات ما أنبته الله فى البرارى والجبال ﴿ وَ ﴾ أنشأ ﴿ النَّخْلَ وَالزَّرْعَ ﴾ وهذا يؤيد أن الجنات فى غيرهما ﴿ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ﴾ ما يؤكل منه فى اللون والطعم والريح والحجم وتذكير الضمير باعتبار المذكور ، ومختلفاً حال مقدرة لأنه لم يكن كذلك عند الإنشاء ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ

مُتَشَٰبِهًا﴾ ورقهما ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ طعمهما أو يتشابه بعضها فى اللون والطعم ولا يتشابه بعضها ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ أمر إباحة ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ قبل النضج ذكر لدفع توهم عدم جواز التناول منه بناء على كون المساكين شركاء فيه ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ﴾ وهو ما يعطيه المالك لمن حضر تبرعا لا الزكاة المفروضة إذ مقدارها لم يبين إلا بالمدينة والسورة مكية ، وقيل المراد زكاته والآية مدنية ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ بالكسر لنافع وابن كثير وحمزة والكسائى وبالفتح لغيرهم لغتان من العشر أو نصفه غلب الحصاد على الجذاذ كما غلب الثمر أولا على الحب والأمر بإيتاء الزكاة يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا تؤخر عن وقت الأداء وهو بعد التصفية أو ليعلم أن الوجوب بالإدراك لا بالتنقية ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا﴾ بإعطاء كله فلا يبقى لعيالكم شىء أو بالإنفاق فى المعاصى ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ لا يرتضى فعلهم ﴿وَ﴾ أنشأ ﴿مِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً﴾ صالحة للحمل عليها كالإبل الكبار قال الثعالبى والبقر عند من عادته أن يحمل عليها ﴿وَفَرْشًا﴾ لا تصلح له كالإبل الصغار والغنم سميت فرشاً لأنها كالفرش للأرض لدنوها منها أو لأنها تفرش وقت الذبح أو لأن الفرش يتخذ من صوفها ووبرها وشعرها ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ مما أحل لكم منه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فى التحليل والتحريم ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة من لدن آدم ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أصناف مختلفة أو متعددة بدل من حمولة وفرشاً أو مفعول كلوا ، وأزواج جمع زوج ضد الفرد وهو ما معه آخر من جنسه يزاوجه ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ﴾ زوجين ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى الكبش والنعجة بدل من ثمانية إن صح وقوع البدل عن المبدل وإلا فهو بدل من حمولة وفرشاً ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ﴾ بسكون العين لنافع والكوفيين وفتحها لغيرهم ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ التيس والعنز ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ من الضأن والمعز ﴿حَرَّمَ﴾ الله عليكم ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ منهما المقصود إنكار التحريم وإنما أورد فى صورة إنكار المفعول ليكون إنكاراً له بطريق الأولى إذ لا بد للفعل من شىء يتعلق به فإذا نفى جميع ما يتعلق به مفصلا لزم نفيه ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ ذكراً كان أو أنثى وأم متصلة عطف على المتصلة الأولى ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ بأمر معلوم يدل على أن الله حرم شيئاً من ذلك أو بعلم عن كيفية تحريم ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فى دعوى التحريم عليه ، المعنى من أين جاء التحريم فإن كان من قبل الذكورة فجميع الذكور حرام أو الأنوثة فجميع الإناث حرام أو اشتمال الرحم فالزوجان حرام ، فمن أين التخصيص والاستفهام للإنكار ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ﴾ بل أ ﴿كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ حضوراً ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ التحريم فاعتمدتم ذلك لا بل أنتم كاذبون فيه وهذا مقابل لقوله نبئونى بعلم : أضرب عن البرهان إلى العيان لأنه أبلغ فى التبكيت لأنهم حين لم يؤمنوا بالنبى لا طريق لهم إلى

معرفة أمثال ذلك إلا بالمشاهدة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بذلك ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تكذيب لهم بأبلغ وجه حيث حكم بأنه لا أظلم منهم وأتى بمن ليعمهم وكل مفتر على الله فكل من أدخل فى دين الله ما ليس منه فهو داخل فى هذا الوعيد ، وأدخل عليه الفاء إشعاراً بسببية ما تقدم وعلل فعل المفترى بأقبح علة وهو الإضلال بالجهل الذى كل عيب دونه ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ مثله أو غيره شيئاً ﴿مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ جماداً كان المطعوم أو حيواناً ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ﴾ بالياء للجمهور والتاء لابن كثير وحمزة وابن عامر ﴿مَيْتَةً﴾ بالنصب للجمهور ولابن عامر بالرفع على أن «كان» تامة ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ سائلا بخلاف ماخالط اللحم لجائز لأنه لايمكن الاحتراز منه قاله ابن العربى فى الأحكام ﴿أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ﴾ أى لحمه ﴿رِجْسٌ﴾ حرام ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ عطف على لحم ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ صفة جارية مجرى التعليل ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ إلى شىء مما حرم فأكله ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾ له ما أكل ﴿رَحِيمٌ﴾ به حيث أنعم عليه بحله والآية لا تنفى حرمة شىء آخر غير المذكورات إذ غاية الأمر أنه لم يجد من بدء الوحى إلى ذلك الوقت محرما سواها وقد حرم بعدها الخمر بآيتها وغيرها بالأحاديث. واختلف العلماء فى ذلك للاحتمالات ، فها أنا أبين لك ما ذكر علماؤنا: وهو أن جميع الجمادات نبات أو غيره حلال إلا النجاسات وما خالطته والمسكرات والمضرات كالسموم والطين مكروه وقيل حرام وجميع الحيوان من الفيل إلى النمل والدود لا يحرم إلا الآدمى والخنزير فهما محرمان إجماعا والسباع مكروهة وقيل يحرم العادية منها والطير كله مباح ذو مخلب وغيره وقيل ذو المخلب حرام وفاقا للشافعى وأبى حنيفة وأحمد ، والحشرات والهوام جائزة وقيل لا ، والله أعلم ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ اليهود ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ وهو مالم يفرق أصابعه كالإبل والنعام أراد به ماسوى البقر والغنم لقوله : ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ الثروب بضم المثلثة شحم يغشى الكرش والأمعاء وشحم الكلى كرر الفعل وأضاف الشحوم مبالغة فى التحريم ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ من الشحم فإنه باق على إباحته ﴿أَوِ﴾ حملته ﴿الْحَوَايَا﴾ الأمعاء جمع حاوية أو حاوياء أو حوية وقيل هو عطف على شحومهما وأو بمعنى الواو ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ منه وهو شحم الإلية والقوائم والرأس والعيون فإنه أحل لهم أو حرم قال فى فتوح الغيب: والحاصل أنك إذا عطفت أو الحوايا أوما اختلط بعظم على شحومهما دخلت الثلاث تحت حكم التحريم وإذا عطفتهما على المستثنى لم يحرم سوى الشحوم وأو على الأول للإباحة وعلى الثانى للتنويع اه ، واختلف فى تحريم تلك الشحوم على المسلمين من ذبائح اليهود : فمن مالك كراهيتها ﴿ذَلِكَ﴾ التحريم ﴿جَزَيْنَاهُمْ﴾ به ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم بما سبق فى سورة النساء ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فى أخبارنا

ومواعيدنا وفى اختصاص التحريم بهم بظلمهم ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ فيما جئت به ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة وفيه تلطف بدعائهم إلى الإيمان أو المراد لا تغتروا بإمهاله فإنه لا يهمل ويدل عليه ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ عذابه إذا جاء ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أو ذو رحمة واسعة على المطيعين وذو بأس شديد على المجرمين فأقام مقامه ولا يرد بأسه لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم مع الدلالة على أنه لا يمكن رده عنهم. ولما أبطل ما كانوا عليه ولزمتهم الحجة أخبر عنهم بما سيقولونه بقوله ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ نحن ﴿وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ فإشراكنا وتحريمنا بمشيئته فهو راض به صدقوا فى الأول وكذبوا فى الثانى إذ لا تلازم بين المشيئة والرضى عند الله قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما كذب هؤلاء ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ عذابنا ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ بأن الله راض بذلك ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ مجاراة للخصم للتبكيت أى لا علم عندكم ﴿إِنْ﴾ ما ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ فى ذلك ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الذى لا ينفع فى محل القطع ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون فيه وفيه دليل على منع اتباع الظن فى الأصول ﴿قُلْ﴾ إن لم تكن لكم حجة ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ غاية المقصد فى الأمر الذى يحتج له أو التى بلغت الغاية فى الوضوح على جميع خلقه حتى إبليس الذى هو الواسطة فى الوسوسة لجميع العصاة بالمعاصى. قال عبدالوهاب الشعرانى: بلغنا أنه قال يارب كيف تريد منى السجود لآدم ولم يسبق ذلك فى علمك؟ فقال له الحق جل وعلا متى علمت أنه لم يسبق فى علمى السجود أقبل الإباية أو بعدها؟ فقال بعدها فقال له الحق وبذلك أخذتك فتأمل يا أخى ما فى هذا المحل فإنه يكتب بنور الأحداق اه. ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾ هدايتكم ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالتوفيق للهداية والحمل عليها ولكن شاء هداية قوم وضلال آخرين ﴿قُلْ هَلُمَّ﴾ أحضروا ﴿شُهَدَاءَكُمُ﴾ وهو اسم فعل لا يتصرف عند أهل الحجاز وفعل يؤنث ويجمع عند تميم يكون متعديا كما فى الآية ولازما كقوله هلم إلينا ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ الذى حرمتموه استدعاء للشهود على ذلك ليظهر أن لا شاهد لهم على ذلك والمقصود تثبيت النبى صلى الله عليه وسلم. ولذا قال ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ فرضا ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ بل بين لهم فساده ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أن مكذب الآيات متبع للهوى لا غير والتعميم بعد التخصيص ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يشركون ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ مشتق من العلو أصله أن يخاطب به من كان فى سفل ثم اتسع فيه لما أبطل ما ابتدعوه من الأحكام بالقواطع دعاهم إلى الحق الواضح بقوله تعالوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ وما موصولة منصوبة بفعل التلاوة والجملة مفعول أتل لأنه فى معنى القول وعليكم يصح تعلقه بكل من الفعلين ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وأن مفسرة ولا تشركوا نهى ليصح

عطف الأمر عليه وشيئا يحتمل المصدر والمفعول به ﴿وَ﴾ أحسنوا ﴿ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ووضعه موضع النهى عن الإساءة إليهما للمبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة فى شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما ولذا ثنى بالوصية بالإحسان إليهما بعد الوصية بتوحيده لما لهما من حق التربية والشفقة والحفظ من المهالك فى حال الصغر ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ﴾ بالوأد ﴿ مِنْ ﴾ أجل ﴿ إِمْلَاقٍ ﴾ فقر تخافونه من الملق وهو المحق ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ منع لموجبية ما كانوا يفعلون لأجله واحتجاج عليه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ ﴾ الذنوب الكبائر كالزنا وقذف المحصن ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ علانيتها وسرها ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ كالقود وحد الردة ورجم المحصن ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور مفصلا ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ بحفظه والتوصية أمر بالشىء مع التأكيد ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تستعملون عقولكم وترشدون لأن المذكورات أمور ظاهرة بعد توجه العقل . قال كعب الأحبار : هذه الآيات يعنى قل تعالوا إلى آخرها هى مفتتح التوراة وقال ابن عباس هى المحكمات المذكورة فى آل عمران اجتمعت عليه شرائع الخلق ولم تنسخ قط ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي﴾ أى بالفعلة التى ﴿ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وهى ما فيه صلاحه كحفظه وتثميره ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ كال عقله وقواه كأن يحتلم رشيداً وهو مفرد أو جمع لا مفرد له وليس جمع شدة قاله فى غاية الأمانى رداً على قول البيضاوى جمع شدة كنعمة وأنعم ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل وترك البخس ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ طاقتها فى ذلك فإن أخطأ فى الكيل والوزن والله يعلم صحة نيته فلا مؤاخذة عليه .كما ورد فى حديث ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ ﴾ فى حكم أو شهادة أو غيرهما ﴿ فَاعْدِلُوا ﴾ بالصدق ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ المقول له أو عليه ﴿ ذَا قُرْبَىٰ﴾ قرابة ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع وما فى قوله «إن الله يأمر بالعدل» الآية ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ بالتشديد للجمهور تتعظون وبالسكون لحمزة والكسائى وحفص ﴿وَأَنَّ﴾ بالفتح والتشديد للجمهور وبالتخفيف لابن عامر على تقدير اللام وبالكسر مشدداً لحمزة والكسائى استئناف ﴿هَٰذَا﴾ الذى وصيتكم به من أول السورة من إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة ﴿صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ حال وقرأ ابن عامر صراطىَ بفتح الياء ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ المخالفة له وهى دواعى الشهوات ومسالك الهوى ﴿ فَتَفَرَّقَ﴾ فيه حذف إحدى التاءين تميل ﴿بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ دينه الذى هو اتباع الوحى واقتفاء البرهان ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الاتباع ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الضلال والتفرق عن الحق ، وأتى بلعل إيماء إلى أن سلوكها أمر خطر ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة ، عطف على « ذلكم » و « ثم » لترتيب الإخبار لا لترتيب الأزمنة ﴿ تَمَامًا ﴾ للنعمة ﴿ عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ بالقيام بها ، أى تماماً لكرامة كل محسن ، أو على الذى أحسنه موسى من العلم والمعارف ، أى

زيادة على ماعنده من العلم ، وقرئ برفع أحسن خبر محذوف أى على الذى هو أحسن ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه فى الدين ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ وتماماً ، وما بعده نصب على العلة أو الحال أو المصدر ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أى بنى إسرائيل ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث ﴿يُؤْمِنُونَ • وَهَٰذَا﴾القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير النفع لما فيه من التوسعات وأنواع الخيرات والبركة الزيادة ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ يا أمة محمد بالعمل بما فيه دعاء إلى الدين ﴿وَاتَّقُوا﴾ مخالفته ، أمر بالتقوى العامة فى جميع الأشياء ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لكى ترحموا واسم الإشارة عطف على «آتينا» داخل فى حيز «ثم» وإيثار الاسمية المصدرة بالإشارة الدالة على كمال التميز ووصفه بالإنزال الدال على العلو والبركة التى تشمل كل نفع إظهار لشرف القرآن على التوراة وغيرها ولذا ختم الآية بالرحمة التى هى صفته ، وختم الأولى بالإيمان الذى هو صفتهم . أنزلناه ﴿أَن تَقُولُوا﴾ كراهة أن تقولوا ، أو لئلا تقولوا ، بحذف المضاف عند البصريين ، وحرف النهى عند الكوفيين علة لأنزلناه ﴿إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ اليهود والنصارى ، وصح الحصر إذ لم يشتهر عند العرب كتاب غيرهما حينئذ ﴿وَإِن﴾ مخففة ، ولذا دخلت اللام الفارقة خبر كان أى وإنا ﴿كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ قراءتهم ﴿لَغَافِلِينَ﴾ لعدم معرفتنا لها إذ ليست بلغتنا ، والمعنى أنزلناه بلغتكم قطعاً لعذركم ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾عطف على الأول ﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَٰبُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾لجودة أذهاننا وسرعة إدراكنا ودقة نظرنا ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حجة واضحة لا تقبل الشبهة ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ لمن اتبعه : جعله نفس الهدى والرحمة مبالغة وهو حجة بالنظر إلى الخصم ، وهدى إلى المطلوب ، ورحمة إلى الطالب ، أو هدى لمن تأمل ، ورحمة لمن عمل به ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بعد أن عرف صحتها لا أظلم منه ﴿وَصَدَفَ﴾ أعرض أو صد ﴿عَنْهَا﴾ فضل وأضل ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أى أشده ، من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أى العذاب السيئ ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ بإعراضهم أو صدهم ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظر المكذبون للقرآن والرسول والاستفهام بمعنى النفى ولذا صح الاستثناء فى ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة والكسائى ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ ملائكة الموت أو العذاب ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ للحكم وفصل القضاء يوم القيامة و «ربك» على حذف مضاف ، أى أمره بالعذاب والآيات كلها يوم القيامة ، ولذا قابله بقوله ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ يريد أشراط الساعة . روى مسلم عن حذيفة بن أسد الغفارى قال : طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نتذاكر الساعة فقال : ما تذكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة . قال : إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدجال والدخان والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ويأجوج ومأجوج وثلاث خسوف

خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى المحشر ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ وهى طلوع الشمس من مغربها كما جاء فى حديث الصحيحين ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ لأن الأمر عيان حينئذ ، والإيمان المعتبر هو الإيمان بالغيب ، وجملة «لم تكن» صفة نفسا أو حال من الضمير المجرور ﴿أَوْ﴾ نفسا لم تكن ﴿ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ أى طاعة ، أى لا تنفعها توبتها كما فى الحديث . والمراد يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنة قبلها إيمانها بعد ، ولا نفساً لم تكسب فى إيمانها خيراً قبل ماتكسبه من الخير بعد . وفى حديث مسلم عن عمرو بن العاص مرفوعا : إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها . وفى حديث الحاكم : إن أول الآيات ظهور الدجال ثم نزول عيسى ثم خروج يأجوج ومأجوج ثم خروج الدابة ثم طلوع الشمس من مغربها وهو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوى ، وذلك أن الكفار يسلمون فى زمن عيسى ولو لم ينفعهم إيمانهم أيام عيسى لما صار الدين واحداً ، فاذا قبض عيسى ومن معه من المسلمين رجع أكثرهم إلى الكفر فعند ذلك تطلع الشمس من مغربها والله أعلم ﴿ قُلِ انْتَظِرُوا ﴾ أحد هذه الأشياء ﴿ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ ذلك فلنا فيه النيل ولكم الويل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ بقدوه ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض واقترقوا فيه وهم اليهود والنصارى . قال عليه السلام « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها فى الهاوية إلا واحدة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها فى الهاوية إلا واحدة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين كلها فى الهاوية إلا واحدة» وقرأ حمزة والكسائى «فارقوا» أى باينوا ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ فرقاً كل فرقة تشيع إماماً ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ أنت برىء منهم ، فلا تسأل عن أصحاب الجحيم ، أو لا تتعرض لهم وعليه فهو منسوخ بآية السيف وتقدم أمثاله ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ﴾ يتولى جزاءهم ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ كناية عن العقاب . تقول لمن جنى عليك مهدداً له : سأخبرك بما فعلت ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ أى لا إله إلا الله ، أو كل حسنة ﴿ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ أى جزاء عشر حسنات تفضلا منه تعالى ، وهذا أقل ما ورد ، وقد صح سبعمائة إلى أضعاف لا يعلمها إلا الله ، وذلك باعتبار الإخلاص والأمكنة والأوقات ، وقيل المراد بالعشرة الكثرة ، وإنما حذف التاء لأن الأمثال فى معنى الحسنات ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ إن لم يعف عنها ، وخلود الكافر جزاء بالمثل لأنه كان عازماً على الاستمرار أن لو عاش أبداً ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب ، وكل هذا وضع على المتعارف ، وإلا فالظلم من المالك الحقيقى مستحيل ، وإن زاد ونقص ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ بالوحى ويبدل من محله ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ مستقيما لا اعوجاج فيه ، أو مقوماً لأمور معاشى ومعادى ، وقرأ ابن عامر والكوفيين قيما على أنه مصدر نعت به وكان قياسه قوماً كعوض فأعل لإعلال فعله كالقيام ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ عطف بيان لديناً ﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلا عن الباطل ، حال من إبراهيم

﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ رد على المشركين الذين يزعمون أنهم على ملته ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ عباداتى كلها ، وأفرد الصلاة لزيادة شرفها ، أو قربانى فى الحج والعمرة ﴿ وَمَحْيَايَ ﴾ بسكون الياء الأخيرة لنافع وفتحها لغيره ، أى حياتى ﴿وَمَمَاتِي﴾ موتى ، أو مايقارن حياتى وما يقارن مماتى كالعلم والصدقة الجارية والولد الصالح ، مما نطق به الحديث ، أو الحياة والممات أنفسهما ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ فى ذلك ، أمر أن يعلن بأن مقصده فى جميع تصرفاته وأحواله طلب رضى ربه ، وأن جميع ذلك بيد الله ، وله التصرف فى جميع ذلك كيف شاء ، وينبغى لكل مؤمن التأسى به فى ذلك ، على كلا التأويلين ، وقوله ﴿ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ﴾ راجع إلى صلاتى وما بعدها على التأويل الأول ، وإلى قوله « لا شريك له » فقط على الثانى ، وهو تصريح بما علم ضمناً ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ من هذه الأمة ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا ﴾ إلهاً ، أى لا أطلب غيره ﴿ وَهُوَ رَبُّ ﴾ مالك ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ومنه ما تعبدونه ، وهو حال فى موضع العلة للإنكار والدليل له ، أى وكل ماهو سواه مربوب مثلى لا يصلح للربوبية ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ذنباً ﴿إِلَّا عَلَيْهَا﴾ لا يتخطاها ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ لاتحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثمة ﴿وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ جواب عن قولهم « اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم » ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾ يوم القيامة للجزاء ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يبين الحق من الباطل ويجازى المحق والمبطل ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ صفة أخرى دالة على عدم جواز الإشراك ، ولما كان صلى الله عليه وسلم آخر الرسل كانت أمته خلائف سائر الأمم أو يخلف بعضهم بعضاً أو هم خلفاء الله فى أرضه يتصرفون فيها ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ بالعلم والمال والشرف والرزق والقوة والجاه وجودة الأذهان وغير ذلك ﴿ دَرَجَاتٍ ﴾ متفاوتة ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أعطاكم من المال والجاه وغير ذلك ، ليظهر المطيع منكم والعاصى ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه إذا جاء وقته ، أو بمعنى شديد ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ للمؤمنين ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم ، وصف العقاب ولم يضفه إلى نفسه . ووصف ذاته بالمغفرة وضم إليها الوصف بالرحمة وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة تنبيها على أنه تعالى غفور بالذات معاقب بالعرض كثير الرحمة مبالغ فيها ، قليل العقوبة مسامح فيها ، وافتتح السورة بالحمد وختمها بالرحمة التى لا نعمة أجل منها فانتظم آخرها بأولها غاية الانتظام وهو اللائق بكلام الملك العلام .

اللهم اجعلنا من شملته رحمتك وغفرانك بجودك وإحسانك لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، وأنت أرحم الراحمين .

[تم تفسير سورة الأنعام]

فهرس

الجزء الأول

من

ضياء التأويل : فى معانى التنزيل

صفحة

٢ مقدمة الطبع

٣ مقدمة السيد أبو بكر محمود نائب قاضى قضاة نيجيريا الشمالية ونبذة عن حياة المؤلف

٧ مقدمة المؤلف رحمه الله تعالى

٨ تفسير سورة الفاتحة

١٠ « « البقرة

١١٥ « « آل عمران

١٦٢ « « النساء

٢٢٣ « « المائدة

٢٦٣ « « الأنعام

تفسير القرآن الكريم

المسمى

ضياء التأويل

في

معاني التنزيل

تأليف

العلامة أبي محمد عبد الله بن محمد بن عثمان

الملقب بفودي بن عثمان بن صالح

رحمه الله تعالى

الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر

الحاج محمد علي أبجي

غانيزير وسكتو

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعراف

مكية ـ إلا (واسألهم عن القرية ...) الثمان أو الخمس آيات
.اثنان وخمس أو ست آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . الٓمٓصٓ ﴾ الله أعلم بمراده به ، هذا ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد وجملة أنزل صفة كتاب ﴿ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ ضيق ﴿ مِّنْهُ ﴾ من تبليغه مخافة أن تكذب فيه أو شك فإن الشاك حرج الصدر ، أو قصور فى القيام بحقه ، ووجه النهى إليه للمبالغة ، والفاء تحتمل العطف والجواب فكأنه قال إذا أنزل إليك فلا يحرج صدرك منه ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ متعلق بأنزل أى للإنذار أو بلا يكن لأنه إذا أيقن أنه من عند الله جسر على الإنذار ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به عطف على تنذر لكونه مصدراً فى المعنى ، أو يقدر له فعل من جنسه ، أى وتذكر ذكرى ، ويحتمل الرفع عطفاً على كتاب ، أو خبر محذوف . وقل للمؤمنين جميعاً ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ القرآن والسنة ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا ﴾ تتخذوا ﴿ مِن دُونِهِۦ ﴾ أى الله ، أى غيره ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ تطيعونهم فى معصيته ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ بالخطاب والإدغام للجمهور وبالياء قبل التاء لابن عامر وبسكون الذال لحمزة والكسائى وحفص وما زائدة لتأكيد القلة أى لو تذكرتم حق التذكر لما تركتم ولاية الله أو دينه ، أو ما مصدرية ، والعامل فى « قليلا » الفعل المذكور ، إذ ليس المؤول بالمصدر فى حكمه من كل وجه ﴿ وَكَم ﴾ خبرية بمفعول ﴿ مِّن قَرْيَةٍ ﴾ أريد أهلها ﴿ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾ أردنا إهلاكها ﴿ فَجَآءَهَا بَأْسُنَا ﴾ عذابنا ﴿ بَيَٰتًا ﴾ ليلا ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ نائمون بالظهيرة عطف على « بياتاً » وإنما حذف الواو الحالية كراهة الجمع بين حرفى العطف وخص الوقتين لأنهما وقتا الدعة والاستراحة : فوقوع العذاب فيهما أفظع ، والقيلولة : استراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نوم ، أى مرة جاءها ليلا ومرة نهاراً ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ قولهم ﴿ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أى إلا الاعتراف ببطلان ما هم عليه تحسراً لعلمهم أن الوقت ليس قابلا للاستغاثة ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ الأمم عن إجابتهم الرسل وعملهم فيما بلغهم ﴿ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ عن

الإبلاغ، والمراد بهذا السؤال توبيخ الكفرة ، والمنفى فى «ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون» سؤال الاستعلام قاله البيضاوى . وفى غاية الأمانى : والقول بأن المنفى سؤال استعلام سهو ؛ لأن الاستعلام على علام الغيوب محال . اه . قلت لم يتبين لى جعله سهواً إذ لم يدع إثباته بل نفيه تأمل والمنفى كما يكون ممكناً يكون ممتنعاً لمعلومية امتناعه والله أعلم . قال فى الجواهر : فأما الأنبياء والمؤمنون فيعقب جوابهم رحمة وكرامة . وأما الكفار ومن نفذ عليه الوعيد فيعقب جوابهم عذاب وتوبيخ ، وعن مالك أن العلماء يسألون يوم القيامة كما تسأل الأنبياء يعنى عن تبليغ العلم . وعن النبى صلى الله عليه وسلم . « ما من عبد يخطو خطوة إلا يسأل عنها ماذا أراد بها» وعنه «يوقف العبد بين يدى الله فيسأله عن جاهه كما يسأله عن عمله» ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ لنخبرنهم عن علم بما فعلوه والضمير للرسل إليهم أو الرسل أو لهما معاً ، أو لنخبرنهم بمعلومنا منهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم فيخفى علينا شىء من أحوالهم تأكيد وتخصيص للعلم بالحضورى الذى لا يقبل شبهة ولا يحوم حوله ريب ﴿وَالْوَزْنُ﴾ للأعمال أى مقابلتها بالجزاء ، والجمهور على أن صحائف الأعمال توزن بميزان له لسان وكفتان كالسماء والأرض عظماً كما ورد كل ذلك فى الأحاديث الصحاح كائن ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أى يوم السؤال المذكور والوزن مبتدأ ويومئذ خبره ﴿الْحَقُّ﴾ العدل السوى صفة الوزن أو هو الخبر لأنه بمعنى كائن أو خبر محذوف ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ حسناته جمع موزون أو ما يوزن به جمع ميزان والأول أوجه وعلى الثانى ؛ لجمعه للتفخيم أو لكثرة الموزون فيه وهو الأصح أو متعدد تعدد الأمم أو الأشخاص كما هو معلوم فى كتبنا الأصولية ولشيخ شيوخنا طاهر بن إبراهيم فى نظم الكبرى فى السمعيات كلام بليغ رصين جزل نصيح ينبغى النظر فيه لمن أراد ذلك ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والثواب ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ بتصييرها إلى النار ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ بالتكذيب وغيره وضع موضع يكذبون للدلالة على أن تكذيب الآيات ظلم ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾ يابنى آدم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ جعلنا لكم مكاناً تسكنونه أو جعلناكم متمكنين تتصرفون فيها كيف شئتم ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ بالياء أسباباً تعيشون بها جمع معيشة وهى لفظة تعم المأكول الذى يعاش به والمحترف الذى يؤدى إليه ﴿قَلِيلًا مَّا﴾ لتأكيد القلة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ فيما أنعمت عليكم أى شكراً أو زماناً قليلا ثم نبه على أصل النعم عليهم بقوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أى أباكم آدم طيناً غير مصور ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أى صورناه فى أحسن تقويم صورة إنسان وأنتم فى ظهره ونزل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويره لأنه الأصل أو خلقناكم بمعنى قدرناكم فى علمنا ثم صورناكم فى ظهر آدم ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وثم على بابها على هذين التقديرين أو خلقناكم ثم صورناكم فى بطون أمهاتكم ثم أخبرناكم أنا قلنا للملائكة فثم لترتيب الإخبار بهذه الجمل لا لترتيب الجمل فى أنفسها والله أعلم ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ: قَالَ﴾ تعالى ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ لا مزيدة لتأكيد معنى الفعل لحذفها فى قوله مامنعك أن تسجد

لما خلقت بيدى ، وقيل الممتنع من الشىء مضطر إلى خلافه كأنه قيل ما اضطرك إلى عدم السجود وفى قوله إذ أمرتك دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والفور وسؤاله عن مانع السجود للتوبيخ ولإظهار معاندته بالفخر بأصله وحسده لآدم ولذا لم يقب منه ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ تعليل لخيريته ، وأخطأ من وجوه : لأنه لم يلاحظ الآمر بل المأمور وهو جهل وقاس مع النص وهو مردود وحسن وقبح بالعقل وهو فاسد ولو سلم له لم يتم ما رامه لنقضه بوجوه عديدة بل اقتضت الحكمة أزلا أن يكون معذباً بما افتخر به قدوة للأشقياء ولم يقب حتى يتدارك بالغفران والله المستعان ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ من الجنة وقيل من السموات ﴿ فَمَا يَكُونُ ﴾ لا يصح ﴿ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ فإنها مكان الخاشع المطيع وفيه تنبيه على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة وأن إبليس طرد لتكبره لا لمجرد عصيانه بترك السجود ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ ممن أهانه الله لتكبره . قال عليه السلام « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله » والهبوط الإنزال من فوق على سبيل القهر والهوان استكبر عدو الله فابتلاه الله بالصغار والذلة والهبوط من الجنة والخروج من السماء ﴿ قَالَ أَنظِرْنِى ﴾ أخرنى ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى الناس لئلا تعجل عقوبتى ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ وفى آية أخرى « إلى يوم الوقت المعلوم » أى وقت النفخة الأولى على الأصح الذى عليه الجمهور ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ أى بإغوائك لى والباء للقسم أو للسببية متعلقة بفعل القسم المحذوف أى بسبب إغوائك إياى بواسطة بنى آدم ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ جواب القسم ﴿ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى على الطريق الموصل إليك نصب على الظرف أو على حذف الجار أى لأجتهدن فى إغوائهم ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ أى من كل جهة فأمنعهم عن سلوكه كما هو شأن قطاع الطريق على السابلة وعدى الأولين بمن لأنه فيهما متوجه إليهم من تينك الجهتين والأخيرين بعن التى للتجاوز لأنه منحرف عنهم . وعن ابن عباس من بين أيديهم من قبل الآخرة بالتشكيك ومن خلفهم من جهة الدنيا بالترغيب وعن أيمانهم من قبل الحسنات بالتثبيط والتخليط وعن شمائلهم من جهة الشهوات بالتزيين ولا يستطيع أن يأتى من فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى وقيل فيما مضى من أعمارهم لا يتوبون عما فعلوا فيه وفيما بقى لا يتداركونه بالطاعات وفى أيمانهم أى أموالهم لا ينفقونها ولا يشكرون عليها وفى الفقر لا يصبرون والله أعلم . ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ لك على نعمك التى أنعمت عليهم ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا ﴾ بالهمز معيباً أو ممقوتاً من ذأمه إذا ذمه وحقره وقرئ مذوماً كسول من مسئول أو كـكول فى مكيل من ذامه يذيمه ذيما : عابه ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ مطروداً مبعداً عن الرحمة ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ من الناس واللام للابتداء وموطئة للقسم وهو ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى منك بذريتك ومن الناس وفيه تغليب الحاضر على الغائب وفى الجملة معنى جزاء من الشرطية أى من تبعك أعذبه ﴿ وَ ﴾ قلنا ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ وقرئ هذى

وهو الأصل إذ الهاء بدل الياء ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ تصيرا من جملتهم جزم على العطف أو نصب على الجواب ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ﴾ لأجلهما ﴿ الشَّيْطَانُ ﴾ فعل الوسوسة، وهو الصوت الخفي ﴿ لِيُبْدِيَ ﴾ ليظهر ﴿ لَهُمَا ﴾ علة للوسوسة. ولا ينافي قصد إضلالهما وإيقاعهما في المعصية ﴿ مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا ﴾ ليسيأهما بذلك وبغيره، أو اللام للعاقبة، وسوءاتهما عوراتهما. دليل على تقبيح كشف العورة ولو في الخلوة وعند الزوج من غير حاجة لأنه مخل للمروءة، وفي الصحيح عن عائشة « ما رأيت منه ولا رأى مني » تريد رسول الله ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا ﴾ كراهة ﴿ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ اللذين لا يفتران عن ذكره ولا يحتاجان إلى الأكل ولوازمه، وقرئ بكسر اللام، أي ذوي ملك لا يبلى ﴿ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ في الجنة ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ حلف لهما بالله ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ وأخرج على المفاعلة مبالغة، أو حلفا له بالقبول بعد ما حلف لهما بالنصح، أو أقسما عليه بالله إنه لمن الناصحين فأقسم لهما ﴿ فَدَلَّاهُمَا ﴾ حطهما إلى أكل الشجرة عن منزلتهما ﴿ بِغُرُورٍ ﴾ ما غرهما به من الوسوسة والقسم بالله ظناً منهما أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، والتدلية إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل. قال ابن عطية يشبه عندي أن تكون هذه استعارة من الرجل يدلي آخر في هوة بحبل رميم أو سبب ضعيف يغتر به فإذا تدلى به وتورك عليه انقطع به وهلك ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ﴾ أي أكلا منها ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ أي تطاير عنهما لباسهما فانكشفت عوراتهما من شؤم الذنب، سمي القبل والدبر سوأة لأن انكشافه يسوء صاحبه ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ أخذا يلزقان ﴿ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ ورقة فوق ورقة ليستترا به ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ عتاب على مخالفة النهي، وفيه دليل على أن مطلق النهي للتحريم إلا لصارف، وأشار إليها بما يدل للقريب أولا وللبعيد ثانياً لأنهما بعد وقوع ما وقع فرا من الشجرة فكانت بعيدة عنهما ﴿ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ توبيخ على الاغترار، وقوله ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ بمعصيتنا ﴿ وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ اعتراف وتوبة وطلب ستر ورحمة، وخوف على الخسران بسبب الذنب ﴿ قَالَ اهْبِطُوا ﴾ أي آدم وحواء بما اشتملتما عليه من ذريتكما ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ حال أي متعادين ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ تنقضي آجالكم ﴿ قَالَ فِيهَا ﴾ الأرض ﴿ تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ بالبعث، بالبناء للمفعول للجمهور، والفاعل لحمزة والكسائي وابن ذكوان ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ أي أسبابه، مجاز لغوي مرسل، أو خلقناه لكم ﴿ يُوَارِي ﴾ يستر ﴿ سَوْءَاتِكُمْ ﴾ التي قصد الشيطان إبداءها ﴿ وَرِيشًا ﴾ وقرئ رياشاً بالجمع ونسبه صاحب الجواهر لأبي عمرو وعاصم وفيه نظر، وهو فاخر اللباس، وهو ما يتجمل به منه أو المال ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ﴾ بالنصب لنافع وابن عامر والكسائي عطفاً على لباساً وهو العمل الصالح أو السمت الحسن والرفع لغيرهم. مبتدأ خبره جملة ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ وقيل لباس التقوى: لباس الحرب. وقيل:

خشية الله ، وقيل : لباس الورع كالصوف ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الإنزال أو تنويع اللباس ﴿ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ الدالة على كمال قدرته وفضله ورحمته ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ نعمته ويشكرون ، ويتورعون عن القبائح ، والتفت إلى الغيبة إشعاراً بذهولهم عن تصور ذلك الإحسان فضلا عن القيام بشكره ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ﴾ يضلنكم ﴿ الشَّيْطَانُ ﴾ عن طريق الحق فيمنعكم دخول الجنة ، أو عن ستر العورات كما يفعله غير الحُمْس فى الطواف ﴿ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ ﴾ بفتنته ﴿ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ فى الزلة الموجبة للخروج ، وإسناده إليه مجاز بعلاقة السببية وإنما استأنف الكلام ولم يعطف القصة لأنه شروع فى نوع آخر من الكلام وإسناد النهى إلى الشيطان مبالغة فى التحذير ، كما تقول : لا يدن منك الأسد ، والكاف فى موضع نصب ، أى مثل فتنة إخراج أبويكم تحذير بليغ بأن من فتن أباكم يفتنكم بالأولى إن لم تحذروه غاية الحذر ﴿ يَنْزِعُ ﴾ حال ﴿ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ ﴾ أى الشيطان ﴿ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ جنوده ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ غالباً ولا يقتضى امتناع رؤيتهم وتمثلهم لنا فقد رآهم جماعة من الصحابة . كما فى أحاديث رواها البخارى وغيره ، وإنه تعليل للنهى وتأكيد للتحذير ، وأصل القبيل الجماعة فوق ثلاثة إذا كانوا أشتاتاً ، وعطف على المرفوع المستتر لتأكيده بالمنفصل ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ ﴾ أعواناً وقرناء ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بتمكينهم من إضلالهم ، وهذا أبلغ فى التحذير من الأول ولذا لم يعطفه عليه وأتى بإن المؤكدة ، وصرح بأن من يوالى الشيطان ليس بمؤمن ، وأسند الجعل إلى نفسه دلالة على كونه حتما مقضياً ، والحاصل أن الآية هى مقصود القصة ونذلكة الحكاية ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا ﴾ فعلة ﴿ فَاحِشَةً ﴾ قبيحة كالشرك والطواف بالبيت عراة قائلين لا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها فنهوا عنها ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾ فاقتدينا بهم ﴿ وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ أيضاً فالأول من أعذارهم اقتداء بالجهال ، والثانى افتراء على ذى الجلال ، فأعرض عن رد الأول لظهور فساده ورد الثانى بقوله ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ التى ينفر عنها العقل المستقيم لأنه تعالى يختار لعباده محاسن الأعمال لا لأنها قبيح منه إذ لا يتصور منه لأنه المالك المطلق ، وليس فى الآية دليل على التقبيح العقلى ولا بطلان التقليد مطلقاً ، بل ما قام البرهان على خلافه . قال عبد الوهاب الشعرانى : واعلم أنه كما أن الله لا يأمر بالفحشاء كذلك لا يريدها لأن كونها فاحشة ليس هو عينها بل هو حكم الله فيها وحكم الله فى الأشياء غير مخلوق وما ليس بمخلوق لا يكون مراداً لأن الإرادة لا تتوجه على القديم ، فالزنا مثلا أراده الله من حيث إدخال الذكر فى فرج الزانية ، ولا يقال أراد ذلك من حيث كونه فاحشة وحراما لأنهما حكمان لله تعالى فافهم . وقال : وقد طلب منى كتابة هذا الكلام الشيخ ناصر الدين اللقانى المالكى وقال هذا كلام يكتب بنور الأحداق . اهـ . ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أنه قاله استفهام إنكار يتضمن النهى عن افترائه مثله ، وإيماء إلى أن القول بلا علم مذموم وإن لم يكن منسوباً إليه تعالى ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل المتجافى عن طرفى التفريط والإفراط أو بالتوحيد ﴿ وَأَقِيمُوا ﴾

معطوف على معنى « بالقسط » أى قال أقسطوا وأقيموا ﴿ وُجُوهَكُمْ ﴾ أى وجهوها إلى القبلة ﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ فى كل وقت صلاة . وقيل وجهوها إلى الله ، أى أخلصوا له النية فى سجودكم غير عادلين إلى غيره من المعبودات ، كما تقول « وجهت وجهى لله » أو صلوا فى كل مكان أدركتكم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم ﴿ وَادْعُوهُ ﴾ أى اعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أطلق الدعاء على العبادة لأنه مخها ، ولأن العابد حين الدعاء يتوجه إلى معبوده ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ ﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿ تَعُودُونَ ﴾ أحياء يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم فأخلصوا له العبادة والتشبيه لتقرير القدرة على الإعادة أو للبدء من التراب والعود إليه أو للبدء حفاة عراة غرلا والعود كذلك ، أو مؤمناً وكافراً والعود كذلك ، ويؤيده قوله ﴿ فَرِيقًا هَدَى ﴾ فوفقهم للإيمان الموصل إلى السعادة ﴿ وَ ﴾ خذل ﴿ فَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ بمقتضى القضاء السابق وإنما أسند الهداية إلى ذاته دون الإضلال إشارة إلى سبق رحمته وسعتها وأن الأدب إسناد الخير إليه وإن كان كلٌّ منه ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ غيره تعليل لزوم الضلالة وتحقيق لها ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فلا يلتفتون إلى مرشد . وفيه دليل على عدم العذر بالخطأ فى الكفر ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ ﴾ أى محلها وهو الثياب الساترة لعوراتكم من إطلاق الحال على المحل ﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أى ما يحل فيه وهو الصلاة والطواف من إطلاق المحل على الحال وفيه دليل على وجوب ستر العورة فى الصلاة وأقل الواجب للرجل ما بين سرة وركبة وقيل السوءتان والأفضل تغطية جميع الجسد والأمة كالرجل وأقل ما يجزئ الحرة ثوب يستر جميع جسدها ويجب ستر العورة عن عيون الناس إجماعا ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة للصلاة وأجمل ثياب للجمع والأعياد ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ ماشئتم من الحلال لحما ودسما وغير ذلك ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ بتحريم الحلال أو بالتعدى إلى الحرام أو بإفراط الطعام والشرب عليه بالزيادة على قدر الحاجة فنه مكروه وحرام أو بإظهار الخيلاء بأكل المستلذات على الفقراء المحاويج . وعن ابن عباس كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة : أى تكبر واستحقار الناس بذلك . وعن على بن الحسين جمع الله الطب فى نصف آية «كلوا واشربوا ولا تسرفوا» ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين حد الاعتدال وعن مجاهد لو أنفقت مثل أحد ذهبا فى طاعة الله لم يكن سرفا ولو أنفقت درهما فى معصية الله كان سرفا ﴿ قُلْ ﴾ إنكارا عليهم ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من النبات كالقطن والكتان ومن الحيوان كالأوبار والأشعار ومن المعادن كالدروع ﴿وَالطَّيِّبَاتِ﴾ المحللات ، هذا تفسير الجمهور . وقال الشافعى : المستلذات من الحلال ليخرج المستقذرات كالوزغ ونحوها فانه يقول هى من الخبائث الحرام ﴿مِنَ الرِّزْقِ﴾ المآكل والمشارب . قال البيضاوى وفيه دليل على أن الأصل فى المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة قال فى غاية الأمانى : والإباحة إنما علمت من هذا النص ولا دلالة فيه أن الأصل فيها الإباحة قبل الشرع . اه . وقال ابن العربى فى الأحكام وكل لذة وإن لم تكن محرمة فاستدامتها والاسترسال عليها مكروه : والزيادة على قدر الحاجة قبل

حرام وقيل مكروه وهو الأصح فإن قدر الشبع يختلف باختلاف الأبدان والبلدان والأزمان والطعمان انتهى ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالاستحقاق وإن شاركهم فيها غيرهم ﴿خَالِصَةً﴾ من الكدر أو خاصة بهم بالرفع لنافع خبر بعد خبر وبالنصب لغيره حال ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قبل الجنة ولذا لم يقل في الآخرة ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نبينها، ذلك التفصيل ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم المنتفعون بها زاد لفظ قوم إشارة إلى كمال من قام به العلم ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ ما تزايد قبحه من الأفعال والأقوال وقيل ما يتعلق بالفروج وعبر بصيغة الحصر توكيداً لإباحة ما تقدم والمعنى قل لهؤلاء المشركين الذين يتجردون من الثياب عراة ويحرمون الطيبات مما أحل الله إن الله لم يحرم ماتحرمونه بل أحله وإنما حرم الفواحش ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ خفي ﴿وَالْإِثْمَ﴾ كل ذنب، تعميم بعد تخصيص ﴿وَالْبَغْيَ﴾ الكبر أو الظلم على الناس في الأنفس والأموال والأعراض ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ متعلق بالبغي مؤكد له معنى للتنفير عنه ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾ بإشراكه ﴿سُلْطَانًا﴾ حجة بل اخترعتموه سفاهة ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من تحريم مالم يحرم وغيره، وعطف الثلاثة على الإثم تخصيص بعد تعميم لبيان زيادة قبحها على غيرها ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة مقدرة لأعمارهم أو لنزول العذاب بهم، وعيد لأهل مكة وأمثالهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ آخر المدة المقدرة ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليه، والمراد بالساعة أدنى ما يتصور من الزمان لا المتعارفة، والعطف على الشرط لا الجزاء لعدم استقامة المعنى، والسين للتأكيد، وقيل لشدة الهول لا يطلبون التقدم والتأخر ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ ويأتينكم مستقبل وضع موضع ماض ليفهم أن الإتيان باق إلى وقت الخطاب، وهو فعل شرط أوثر له لفظ إن التي للشك وإن كان محققا للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز غير واجب، وضمت ما إلى إن لتأكيد معنى الشرط جبرا لما فات من معنى إذا، ولذا أكد أيضا فعله بالنون، وجوابه ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ﴾ الشرك ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وإدخال الفاء في الجزاء الأول دون الثاني للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد، لأن الفاء تدل على سببية السابق ﴿فَمَنْ﴾ لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ تقوله مالم يقله ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي كذب ما قاله سوّى بين الأمرين في القباحة فالويل لمن قال في الدين قولا بغير علم ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ حظهم ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ ما كتب لهم من الأرزاق والآجال، وقيل الكتاب اللوح المحفوظ أي مما أثبت لهم فيه فلا يمنع كفرهم أن ينالهم هذا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ الملائكة ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يقبضون أرواحهم غاية لنيلهم، وحتى هذه هي التي يبتدأ بعدها الكلام ﴿قَالُوا﴾ لهم تبكيتا جواب إذا ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هذا يوم الحاجة إلى المعبود ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا فلم نرهم،

وهو إقرار منهم بعبادتها وهو كفر ، ولذا قال ﴿ وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ زيادة على توبيخهم ﴿قَالَ﴾ الله لهم يوم القيامة ﴿ ادْخُلُوا ﴾ كائنين. ﴿ فِي ﴾ جملة ﴿ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ﴾ متعلق بادخلوا ، وفيه إشارة إلى أن دخولهم فى زمرة من ذكر أشد عليهم من عذاب النار ، ولذا قدمه كما قال فى النفس المطمئنة « فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » لأن دخولها فى تلك الطائفة أشرف من دخول الجنة سرا ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ ﴾ النار ﴿ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ التى تقدمتها لضلالها بها ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا﴾ تلاحقوا ﴿ فِيهَا جَمِيعًا ﴾ الأتباع والقادة ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ ﴾ دخولا أو منزلا وهم الأتباع ﴿ لِأُولَاهُمْ ﴾ لأجلهم إذ الخطاب مع الله لا مع الأولى ﴿ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ بأن سنوا لنا الضلال والكفر والتكذيب فاقتدينا بهم ﴿ فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا ﴾ مضعفا على عذابنا ﴿ مِّنَ النَّارِ ﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا ﴿ قَالَ ﴾ تعالى ﴿ لِكُلٍّ ﴾ منكم ومنهم ﴿ ضِعْفٌ ﴾ عذاب مضعف ، أما القادة فللضلال والإضلال ، وأما الأتباع فللكفر والتقليد ولأنهم ضالون مضلون أيضا ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لعاصم فى رواية شعبة ما لكل فريق ﴿ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ فإنا وإياكم متساوون فى الضلال واستحقاق العذاب ، قال تعالى لهم ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ جميعا أو هو من قول المتقدمة أى بجرائمكم لا بجرائمنا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ عن الإيمان بها ﴿ لَا تُفَتَّحُ ﴾ بفتح الفاء مع تشديد التاء الثانية للجمهور ، وبسكون الفاء مع تخفيف التاء الثانية لأبى عمرو ، وبالياء فى الأول مع سكون الفاء لحمزة والكسائى ﴿ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ عند دعائهم أو لعروج أعمالهم أو أرواحهم بعد الموت بل يهبط بها إلى سجين ؛ بخلاف المؤمن فتفتح له ويصعد بروحه إلى السماء السابعة ، كما ورد فى حديث رواه الطبرى وغيره ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ﴾ يدخل ﴿ الْجَمَلُ فِي سَمِّ ﴾ ثقب ﴿ الْخِيَاطِ ﴾ الإبرة والخياط والمخيط مايخاط به ، وهو غير ممكن لوجوب أخذ كل جرم قدره من الفراغ فكذا دخولهم ، لعلم الله أنه لا يكون . وقول صاحب غاية الأمانى : تعليق بالمحال عادة ، فيه نظر ، وخص الجمل بالذكر لأنه أكبر سائر الحيوانات جسما عند العرب ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ الجزاء ﴿ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ الكافرين الكاملين فى الإجرام ، وإنما عبر عن الكفر بالإجرام تقبيحاً له وزجرا عن ارتكابه ، وإنما أعاد الكلام مؤكدا له بالتأكيدات البالغة لئلا يتوهم من الخلود المكث الطويل ، وليرتب عليه شديد العذاب الذى خلت عنه الآية السابقة من قوله ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ فراش فعال بمعنى مفعول ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ أغطية من النار جمع غاشية ، وتنوينه عوض من الياء المحذوفة ، ولم يجمع الأول لأنه مصدر فى الأصل ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ وهذا الحكم أخص من الأول : إذ لا يلزم من عدم دخول الجنة دخول النار ، عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى إشعارا بأنهم اتصفوا بجميع هذه الأوصاف الذميمة ، وذكر الجرم مع الحرمان من

الجنة والظلم والتعذيب بالنار تنبيها على أنه أعظم الإجرام ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ مبتدأ وقوله ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ طاقتها من العمل، اعتراض بينه وبين خبره وهو ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وعد بعد وعيد، وفائدة جملة الاعتراض الترغيب فى العمل الصالح الموصل إلى النعيم المقيم بأنه مع كونه موزنا لتلك السعادة سهل التناول، وقيل محل الجملة رفع بالخبرية والعائد محذوف أى لانكلف نفسا منهم ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ حقد كان بينهم فى الدنيا إتماما للنعمة، فإن من فى صدره غل لا يخلو عن حرج وإن كان فى كل نعمة، يعنى لا يكون بينهم إلا التوادد.

وعن على رضى الله عنه: إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم. وفى لباب التأويل: أزلنا الأحقاد التى كانت لبعضهم على بعض لا يحسد بعضهم بعضا على شىء خصه الله به، ومعنى نزع الغل تصفية الطباع وإسقاط الوساوس ومنعها أن ترد على القلب. اه. وفى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا أذن الله لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى إلى منزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا » اه. فبإزالة الحقد والحسد من قلوب أهل الجنة تكمل اللذات والسرور ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ﴾ تحت قصورهم ﴿ الْأَنْهَارُ ﴾ تونيرا لحظ الباصرة مع زيادة اللذة والسرور بذلك ﴿ وَقَالُوا ﴾ عند الاستقرار فى منازلهم ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا ﴾ لعمل هذا جزاؤه ﴿ وَمَا كُنَّا ﴾ بواو للجمهور وبحذفه لابن عامر ﴿ لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ حذف جواب لولا لدلالة ما قبله عليه، وفيه دليل على أن الهداية من الله، وقالوا لما رأوا إنجاز المواعيد ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ اعتراف بأن ما عرفوه علم اليقين صار لهم عين اليقين ﴿ وَنُودُوا ﴾ من الله أو من الملائكة بأمره ﴿ أَنْ ﴾ مخففة أى أنه، أو مفسرة فى المواضع الخمسة ﴿ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ ﴾ التى كانت الرسل وعدتكم بها، والإشارة بلفظ البعيد باعتبار ما كانوا يعدون فى الدنيا بالوصف أو تعظيم لها، والقول بأنه يقال لهم ذلك قبل الدخول يرده قوله « الحمد لله الذى هدانا لهذا » فإن هذا النداء بعد ذلك القول، قاله فى غاية الأمانى. قلت: يحتاج هذا لدليل إذ العطف بالواو لا يدل عليه، لكن فى مسلم عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا، فذلك قوله عز وجل ونودوا أن تلكم الجنة ﴿ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أعطيتموها بسبب أعمالكم، وهو حال من الجنة والعامل فيها معنى الإشارة أو خبر والجنة صفة تلكم، وعبر عن الإعطاء بالإيراث لأنه أقوى أسباب الملك لحصوله من غير اختيار وشعور، وقيل ورثوها من الكفار، لما ورد فى الحديث « لكل مؤمن موضع من النار يضاف إلى نصيب واحد من الكفار ولكل كافر موضع فى الجنة يضاف إلى حظ واحد من أهل الجنة » وهذا أوفق بالمقام لمحاورة الطائفتين فى

قوله ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ تقريراً وتبكيتاً ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا ﴾ من الثواب ﴿ حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ ﴾ من العذاب ﴿ حَقًّا ﴾ وأتى بلفظ الوعد فى العذاب مشاكلة ، ولم يضفه لعلم ذلك من الأول ، أو لأن ما وجدوه لم يكن كله مخصوصاً بهم كالبعث والحساب ﴿ قَالُوا نَعَمْ ﴾ إقرار بالوجدان ، والجمع إذا قابل الجمع وزع الفرد على الفرد ، فكل فريق من أهل الجنة ينادى من كان يعرفه فى الدنيا ويحصل المحاورة ، بأن يشرفوا عليهم فيخلق الله الإدراك فى الأسماع والأبصار فيصير البعيد كالقريب والله على كل شىء قدير ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ نادى منادٍ ، قيل هو إسرافيل بعد انقضاء المحاورة ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ بين الفريقين أسمعهم ﴿ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ وإخبار هذا تنفير للسامع عن الظلم . وقرأ ابن عامر وابن كثير وحمزة والكسائى هنا أنّ بالتشديد ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ ﴾ الناس ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دينه ﴿ وَيَبْغُونَهَا ﴾ يطلبون السبيل ﴿ عِوَجًا ﴾ عيباً وميلا عما هى عليه ، والعوج بكسر العين عيب المعانى وما لا انتصاب له ، وبالفتح عيب الأجسام المنتصبة كالحائط والرمح ﴿ وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ منكرون ولذا ارتكبوا الظلم بلا مبالاة ﴿ وَبَيْنَهُمَا ﴾ أى أصحاب الجنة والنار ﴿ حِجَابٌ ﴾ حاجز يمنع وصول أثر أحد الفريقين إلى الآخر هو سور الأعراف الذى بين الجنة والنار باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ ﴾ أعراف ذلك السور أى أعاليه جمع عُرف مستعار من عُرف الفرس والديك وعن ابن عباس : هى تل مرتفع بين الجنة والنار ﴿ رِجَالٌ ﴾ مؤمنون استوت حسناتهم وسيئاتهم كما فى الحديث ، وفيهم أقوال غير هذا لا نطوّل بها إذ لا قول لأحد مع قول النبى صلى الله عليه وسلم ، كما قال ابن عطية . ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا ﴾ من أهل الجنة والنار ﴿ بِسِيمَاهُمْ ﴾ بعلامتهم ، وهى بياض الوجوه للمؤمنين وسوادها للكافرين لرؤيتهم لهم إذ موضعهم عال ﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ يا أهل الجنة إما حين الدخول أو بعده ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا ﴾ أى أصحاب الأعراف الجنة ﴿ وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ فى دخولها . قال الحسن : لم يطمعهم إلا لكرامة يريدها بهم . وروى الحاكم عن حذيفة قال : بينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال قوموا ادخلوا الجنة فقد غفرت لكم ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ ﴾ أى أصحاب الأعراف ﴿ تِلْقَاءَ ﴾ جهة ﴿ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ فنظروا ما فيه من سواد الوجوه والعذاب ﴿ قَالُوا ﴾ نعوذ بالله ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا ﴾ فى النار ﴿ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ بالشرك والمعاصى ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا ﴾ من أصحاب النار من رؤساء الكفرة ﴿ يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ ﴾ من النار ﴿ جَمْعُكُمْ ﴾ المال أو كثرتكم ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى واستكباركم عن الحق أو على الخلق ويقولون لهم مشيرين إلى ضعفاء المسلمين ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ فإن صناديد الكفار كانوا يحلفون أن الفقراء لا يدخلون الجنة وليسوا بأهل لها ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ أى أن قد قيل لهم ادخلوا الجنة ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ وقرئ « أُدخِلوا » بالبناء للمفعول ودخلوها ، لجملة النفى حال ، أى مقولا لهم ذلك

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ بعد دخول أهل الأعراف الجنة واستقرار كل طائفة فى مستقرها وقد رأوا قراباتهم فى الجنة وعرفوهم ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ من الطعام، وفيه دليل على أن الجنة فوق النار ﴿ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى منعهما، استعارة تبعية إذ لا تكليف هناك ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾ من قول أصحاب الجنة أو من قول الله ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ خدعهم عاجل ما هم فيه من خفض العيش وشغلهم عن الآخرة حتى أتتهم المنية وهم على طمع طول العمر وحسن العيش وكثرة المال ونيل الشهوات ﴿ فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ ﴾ نتركهم فى العذاب المهين جياعاً عطاشاً ترك الناسى للشىء ﴿ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ بتركهم العمل له، أى نجازيهم بمثل مافعلوا ﴿ وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أى وكما جحدوا أنها من عند الله ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ ﴾ قرآن ﴿ فَصَّلْنَاهُ ﴾ بينا معانيه يفهمها من يخاطب به وهى العقائد والأحكام والأخبار والوعد والوعيد ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ حال أى عالمين بما فصل فيه، وفيه دليل على أن الله عالم بالعلم أو مشتملا على علم فيكون حالا من المفعول ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ حال من الهاء ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ به ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ ما ينتظرون ﴿ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ ما يكون أمر الكتاب إليه من وقوع ما نطق به من الوعد والوعيد والضمير للمكذبين المستكبرين وقصة أصحاب الأعراف كانت استطراداً للترغيب والترهيب ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ هو يوم القيامة ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ تركوا الإيمان به ندماً وتحسراً ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى تبين لنا أن ماجاءوا به كان حقا ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾ اليوم ﴿ أَوْ ﴾ هل ﴿ نُرَدُّ ﴾ إلى الدنيا: عطف فعلية على إسمية، وقرئ بالنصب عطفاً على « فيشفعوا » ، والمعنى على الرفع تمنى الشفاعة أو الرد، وعلى النصب تمنى الشفاعة بدون الرد أو مع الرد، ويجوز أن يكون أو بمعنى إلى كقولك: لألزمنك أو تعطينى حقى، فيكون التمنى فى الشفاعة المفضية إلى الرد ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ نوحد الله ونترك المعاصى، أى ليس لنا خلاص إلا أن يشفع لنا شفيع عند ربنا فيخلصنا أو نرد إلى الدنيا فنعمل غير الذى كنا نعمل. فيقال لهم: لا. قال تعالى ﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ إذ صاروا إلى الهلاك ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ بطل عنهم ما يكذبون به من المعبودات الباطلة. ولما بين حال الفريقين فى المعاد كر إلى ذكر المبدأ وكيفية وجود الكائنات على النمط الذى فطرت عليه إرشاداً للضالين، وتثبيتاً للمهتدين فقال ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أى أوقات، أو قدر ستة أيام إذ لم يكن ثم شمس وفيه دليل الاختيار وإرشاد العباد إلى التأنى فى الأمور إذ لو شاء لخلقهن فى لمحة ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ هو فى اللغة سرير الملك استواء يليق به على الوجه الذى عناه منزهاً عن الاستقرار والتمكن أو هو تمثيل لإجراء أحكامه على الموجودات بعد خلقها بحال ملك جلس على سرير ملكه بعد التمكن للنظر فى شأن من كان تحت حكمه. قال فى غاية الأمانى: والقول بأن العرش جسم محيط بسائر الأجسام مما لا دليل عليه شرعاً ،

وإن ثبت أن عرش الرحمن فوق السموات جسم نورانى عظيم ﴿ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ مخففاً للجمهور ومشدداً لحمزة والكسائى وأبى بكر عن عاصم . يغطى كلا منهما بالآخر ﴿ يَطْلُبُهُ ﴾ يطلب كل منهما الآخر طلباً ﴿ حَثِيثًا ﴾ سريعاً ، ويجوز أن يكون حالا من الفاعل أو المفعول ، أى حاثاً أو محثوثاً ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ ﴾ بالنصب للجمهور عطفاً على السموات والرفع لابن عامر مبتدأ وخبره ﴿ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ بالنصب حال على قراءة الجمهور والرفع خبر : مذللات ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ بقضائه وقدرته ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ ﴾ جميعاً ﴿ وَالْأَمْرُ ﴾ كله فإنه الموجد والمتصرف ﴿ تَبَارَكَ ﴾ تعاظم ﴿ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ وصف له بزيادة التفضل فى ترتيب الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والنجوم ، فالبركة النماء والزيادة وقوله « ألا له الخلق » إلى آخر الآية فذلكة لأولها ونتيجة له إذ بين أنه خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم بإبداع الأفلاك العلوية وتسخير النيرات فيها ، وخلق الأجرام السفلية ومنافعها دليلا على تفرده بالألوهية والربوبية فيها ثم أمر الخلق أن يدعوه متذللين مخلصين فقال ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا ﴾ حال : تذللا ، أى ذوى تضرع ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ سراً ، فالإخفاء فى الدعاء أقرب إلى الإخلاص وفيه نوع من الانكسار الملائم للضراعة وفى الحديث : يفضل دعاء السر على الجهر بسبعين ضعفاً . وقرأ أبو بكر بكسر الخاء ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ المتجاوزين الحد فى الدعاء بطلب ما لا يليق به كرتبة الأنبياء أو بتكلف الفصاحة فيه وهو التشدق ورفع الصوت ، وفى الحديث «سيكون قوم يعتدون فى الدعاء . وحسب المرء أن يقول : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل » ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ ببعث الرسل وشرع الأحكام ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا ﴾ من عقابه نظراً إلى قلة أعمالكم وعدم الإخلاص فيها وكبريائه ﴿ وَطَمَعًا ﴾ فى رحمته بالنظر إلى بحر كرمه وعموم عطائه ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ المطيعين ترجيح للطمع وتنبيه على ماتوسل به إلى الإجابة وتذكير قريب المخبر به عن الرحمة لإضافتها إلى الله أو لأنها بمعنى الرحم أو تشبيهاً له بفعيل الذى بمعنى المفعول ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لابن كثير وحمزة والكسائى ﴿ نُشُرًا ﴾ بضم النون والشين للجمهور ولابن عامر بالتسكين حيث وقع ولحمزة والكسائى بفتح النون حيث وقع مصدر ولعاصم بضم الموحدة بدل النون ومفرد الأولى نشور كرسول والأخيرة بشير أى متفرقة أو مبشرة ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى قدام مطره فإن الجنوب تدر السحاب والشمال تجمعه والصبا تثيره والدبور تفرقه ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ ﴾ حملت الرياح ورفعت ﴿ سَحَابًا ﴾ جمع سحابة على حد تمر وتمرة ﴿ ثِقَالًا ﴾ بالماء ﴿ سُقْنَاهُ ﴾ أى السحاب أفرد الضمير باعتبار اللفظ وفيه التفات عن الغيبة ﴿ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ لا نبات به أى لإحيائه أو إليه والبلد مرادف الأرض وخفف الميت ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ ﴾ بالبلد أو السحاب أو بالسوق أو بالريح فالباء للإلصاق فى الأول والظرفية فى الثانى والسببية فى الباقى ﴿ الْمَاءَ ﴾ وكذلك الضمير فى ﴿ فَأَخْرَجْنَا

﴿ بِهِ ﴾ أو بالماء ﴿ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ بعضاً من كل نوع وإنما لم يذكر الحبوب لأن الثمرات أبدع وشأنها أغرب أو لأن الحبوب من ثمرات الأرض أيضاً ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الإحياء والإخراج ﴿ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ ﴾ من قبورهم بالإحياء ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعلمون أن من قدر على ذلك قادر على هذا ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ ﴾ الأرض الكريمة التراب ﴿ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ ﴾ حسناً ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ بمشيئته وتيسيره عبر به عن كثرة النبات وحسنه ﴿ وَ ﴾ البلد ﴿ الَّذِي خَبُثَ ﴾ ترابه ﴿ لَا يَخْرُجُ ﴾ نباته ﴿ إِلَّا نَكِدًا ﴾ قليل الخير أو عسراً بمشقة. مثل ضربه الله لمن يسمع المواعظ وينتفع بها ومن لم يتأثر بها. وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى مثل غيث أصاب أرضاً منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ومنها طائفة أجادب أمسكت الماء فنفع الله الناس به فشربوا وسقوا وزرعوا ومنها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ فذلك مثل من فقه في دين الله فنفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع لذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» رواه البخاري ومسلم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل هذا التصريف الجلي ﴿ نُصَرِّفُ ﴾ نبين سائر ﴿ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ الله فيؤمنون. ولما ذكر الله قصة آدم وشرح أحوال أهل الجنة والنار ودلائل توحيده وقدرته أتبعه بقصص الأنبياء مع أممهم تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وإيضاحاً بصحة نبوته في إخباره ذلك مع كونه أمياً ولم يتمكن أحد من عداه أهل الكتاب من إنكار شيء من ذلك وبدأ بنوح لأنه أول مبعوث عُنب قومه. قال ابن العربي في الأحكام من قال إن إدريس كان قبله فقد وهم واتبع الإسرائيليات انتهى. فقال ﴿ لَقَدْ ﴾ جواب قسم محذوف ﴿ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم بينه وبين آدم ألف ومائتا سنة بعث ابن أربعين أو خمسين وعاش ألف سنة على الأصح ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ بالرفع للجمهور بدل من محل إله والجر للكسائي صفة له ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ إن عبدتم غيره ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ لعظم ما فيه والإسناد مجازي هو يوم القيامة أو الطوفان وفيه وعيد وبيان الداعي إلى عبادته ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي أشرافهم لأنهم يملأون العيون رعباً ولم يذكر الفاء كما في سائر السور إشارة هنا إلى أنهم لفرط جهلهم كأن كلامهم لم يعقب كلامه إذ ردوا نصحه من غير تأمل بقولهم ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ واضح ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ هو أعم من الضلال فنفيها أبلغ من نفيه كمن قيل له عندك تمر فقال ما عندي تمرة ﴿ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ استدراك بحسب المعنى كأنه قال ولكني على هدى لأني رسول من رب العالمين فالرسالة والضلالة متنافيان ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ﴾ استئناف لبيان كونه رسولاً، أبلغكم بالتشديد للجمهور والتخفيف لأبي عمرو في الموضعين وجمع الرسالات باعتبار الوقائع والأشخاص والعقائد والأحكام ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ أريد الخير لكم ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من صفاته وشدة بطشه واستئصاله لكم إن لم تؤمنوا. وعيد بليغ لهم

لكونهم آمنين لأن العذاب لم يحل بأحد قبلهم ﴿أ﴾ كذبتم ﴿وَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ وعظ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ تعرفونه بالأمانة لاعتقادهم أن الله لا يرسل بشراً ﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾ بأس الله لمن كفر وعصى ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ الله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ذكره بلفظ الترجي إشارة إلى أنه فضل من الله ولئلا يعتمد العاملون على عملهم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ صريحا فى دعوى الرسالة لأن قولهم « إنا لنراك فى ضلال مبين » غير صريح ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من الغرق بالطوفان ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وهم ثمانون نصفهم رجال ونصفهم نساء ، واشتهر فى كتب الحديث كالترمذى وغيره أن جميع الخلق الآن من ذرية نوح من أولاده الثلاثة سام وحام ويافث . وسيأتى إن شاء الله عند قوله تعالى « وجعلنا ذريته هم الباقين » ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالطوفان ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الحق عمى القلب وهو جار مجرى التعليل ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَى عَادٍ﴾ الأولى اسم حىّ من العرب أولاد عاد بن أوص بن إرم بن سام بن نوح ومحلهم باليمن بالأحقاف رمل بين عمان وحضرموت ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ هو ابن عبد الله بن رباح بن جلوز بن عاد فى الراجح فى نسبه كما قال السيوطى ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله ، لم يعطف قال كما فى قصة نوح لأنه جاء على طريق الاستئناف كأنه قيل ما قال لهم وكذلك جوابهم ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ دل على أن من الملأ من كان مؤمنا ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ جهالة وخفة عقل حيث فارقت دين قومك ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فى رسالتك والظن بمعنى العلم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ كما زعمتم ولم يتعرض لرد الكذب لأن منشأه السفاهة وحيث لا سفاهة لا كذب ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وتقديم الضمير المفيد للتقوى وإيثار الاسمية يدل على فرط عنادهم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ تنبيه على أنهم عرفوه بالأمرين ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ سبق تفسيره ؛ وفى إجابة الأنبياء عليهم السلام الكفرة عن كلماتهم الحمق بما أجابوا والإعراض عن مقابلتهم كمال نصح وهضم نفس وحسن مجادلة وهكذا ينبغى لكل ناصح ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أى فى مساكنهم ، أو فى الأرض بأن جعلكم ملوكا ، فإن شداد بن عاد ممن ملك معمور الأرض من رمل عالج إلى بحر عمان ، خوّفهم من عقاب الله ، ثم ذكرهم بإنعامه ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ قوة وطولا ، كان طويلهم مائة ذراع وقصيرهم ستين ، وقيل قوة فى المال كانوا غاية فى الثروة ، ولذا بنى شداد بن عاد قرية بلبن الذهب والفضة وأجرى فيها أنهارا من عسل ولبن وغير ذلك ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ تعميم بعد تخصيص ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكى يفضى بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدى إلى الفلاح ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ استبعدوا ذلك انهماكا فى التقليد ، ومعنى المجىء الإقدام على تبليغ الرسالة ، أو كان معتزلا عنهم كما هو دأب الصالحين ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب المدلول عليه بقوله « أفلا تتقون » ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيه ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ وجب

﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ أو نزل على أن المتوقع كالواقع ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ ﴾ عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب ﴿ وَغَضَبٌ ﴾ يؤدى إلى عذاب الأبد ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ ﴾ فى استحقاق عبادتها ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ آلهة وليس فيها معنى الألوهية إظهار لفرط غباوتهم ، وقد يستدل به على أن الاسم هو المسمى ﴿ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ برهان على استحقاقها العبادة ﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ العذاب ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ لعذابكم ونجاتى بتكذيبكم لى ، فأرسلت عليهم الريح العقيم فأهلكتهم ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾ أى هودا ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ من المؤمنين وهم ثلاثة آلاف ﴿ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ استأصلناهم ، ودابر القوم من يأتى آخرهم فإذا لم ينج فغيره أولى ، فقدم هود ومن معه مكة وعبدوا الله إلى أن قضوا نحبهم ، وعاش هود مائة وأربعا وثلاثين سنة ﴿ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ عطف على كذبوا ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَى ثَمُودَ ﴾ بترك الصرف مرادا به القبيلة وهم قبيلة أخرى من العرب مساكنهم الحجر إلى واد القرى بين الحجاز والشام سموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن إرم بن سام ابن نوح ﴿ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ هو ابن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ ﴾ معجزة ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ على صدق ﴿ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ استئناف لبيان البينة ﴿ لَكُمْ آيَةً ﴾ بيان لمن الآية ، وآية نصب على الحال والعامل فيها معنى الإشارة ، ويجوز أن يكون « ناقة الله » بدلا أو عطف بيان ولكم خبرا عاملا فى آية والإضافة للتشريف ، وكانوا سألوه أن يخرجها لهم من صخرة عينوها فلما خرجت منها ولدت سقبا يقربها فى العظم ، قيل مابين جنبى الناقة مساحة مائة واثنين وعشرين ذراعا ثم قامت وسقبها يتبعها ، فقال لهم صالح : لكم شرب يوم ولها شرب يوم وكانت ترد الماء غبا فإذا وضعت رأسها فى البئر شربت الماء بأسره فشق ذلك عليهم فأرادوا قتلها ، فقال لهم صالح ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾ العشب ليس عليكم رعيها إزاحة للعذر عن التعرض لها ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ فضلا عن الضرب والعقر . ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ نصب على الجواب ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ ﴾ فى الأرض ﴿ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ ﴾ أسكنكم ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أرض الحجر واللام للعهد ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ تسكنونها فى الصيف جمع سهل ضد الجبل ﴿ وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ تسكنونها فى الشتاء ، ونصبه على الحال المقدرة أو المفعول على أن التقدير بيوتا من الجبال ، أو تنحتون بمعنى تتخذون فالمنصوبان مفعولاه ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ قَالَ الْمَلَأُ ﴾ ولابن عامر وقال الملأ ﴿ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الايمان ﴿ مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ أى من قومه بدل مما قبله بإعادة الجار ، فتركوا مخاطبة صالح استهانة له وخاطبوا الضعفاء بقولهم ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ إليكم ﴿ قَالُوا ﴾ نعم ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ وإنما عدلوا إلى هذا وتركوا نعم لأن الإقرار بالرسالة لا يستلزم الإيمان لجواز الجحود ،

أو لأن الإيمان بما جاء به مستلزم له فكان أبلغ ، إذ فيه تنبيه أن إرساله مما لا يشك فيه عاقل ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ لم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون ، إذ هو اعتراف بالرسالة ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ عقرها قدار بن سالف بأمرهم بأن قتلها بالسيف فهرب سقبها إلى الجبل فأسرعوا خلفه فلم يلحقوه ندخل الصخرة التي خرجت أمه منها بعد أن رغى ثلاث رغاءات فقال لهم صالح سيأتيكم العذاب بعد ثلاث ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ تجاوزوا عنه وأبوا عن امتثال قول صالح « فذروها » ﴿ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ به من العذاب على قتلها ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ الزلزلة الشديدة من الأرض مع الصيحة من السماء بعد ثلاثة أيام ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ باركين على الركب ميتين ﴿ فَتَوَلَّىٰ ﴾ أعرض صالح ﴿ عَنْهُمْ ﴾ بعد عقر الناقة قبل نزول العذاب إذ روى أنه خرج من بينهم قبل العذاب وهو الذي يقتضيه الخطاب ، أو خاطبهم بعد هلاكهم على ظاهر السياق كما خاطب عليه الصلاة والسلام أهل قليب بدر والفائدة حث كل من سمع على القبول قبل أن يصيبه ما أصابهم ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ فذهب صالح بمن آمن معه إلى مكة يعبدون الله إلى أن مات بها وهو ابن ثمان وخمسين سنة وقبره عليه الصلاة والسلام في المسجد الحرام بين دار الندوة والحجر . وقد مر عليه السلام مع المسلمين ببلاد ثمود في غزوة تبوك فقال « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم » ثم قنع رأسه وأسرع السير . قال أبو موسى : ولقد ذرعت مبرك الناقة فوجدته ستين ذراعاً والله أعلم[1] ﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ لُوطًا ﴾ أو اذكر لوطاً وهو ابن هاران بن آزر بن أخي إبراهيم ، هاجر مع عمه إبراهيم إلى الشام فنزل إبراهيم أرض فلسطين ولوطاً أرض الأردن ، فأرسله إلى أهل سدوم يدعوهم إلى الله ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ بدل من اذكر المقدر أو أرسلناه وقت قوله لهم ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ أدبار الرجال واللام فيها للعهد كأنها علم بين الفواحش لا يذهب الذهن إلى غيرها ، والاستفهام للتوبيخ أي الفعلة الخسيسة التي في غاية القبح ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ الإنس والجن ، والباء للتعدية و« من » الأولى لتأكيد النفي والاستغراق والثانية للتبعيض والجملة استئناف مقررة للإنكار ، كأنه وبخهم أولا بإتيان الفاحشة ثم باختراعها فإنه أسوأ ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ بالإخبار لنافع وحفص استئناف ، وبالاستفهام للباقين بيان لقوله « أتأتون الفاحشة » ﴿ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً ﴾ من أتى المرأة غشيها ﴿ مِّن دُونِ النِّسَاءِ ﴾ فائدته قطع المعذرة ودفع توهم الضرورة ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ متجاوزون الحلال إلى الحرام ، إضراب عن الإنكار إلى بيان الحال التي أوجبت ارتكاب الفاحشة ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا

---

(١) مسألة في قصة ضروع الناقة وحساب قوم صالح أن قوم صالح اثنا عشر قبيلة وهم سبعون ألف رجل ، وكانت الناقة تكفيهم بجميعهم وعيالهم ، وضروعها أربعون في كل ضرع منها اثنا عشر ثديا من ثدى إلى ثدى اثنا عشر ذراعاً . اه .

أخرجوهم ﴾ لوطاً وأتباعه ، أى لم يتأملوا ماقاله ولم يلتفتوا إلى نصحه بل غاظهم ذلك وأمروا بإخراجه مع من آمن به ﴿ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ يبالغون فى الطهارة من الفواحش ، قالوه استهزاء وتهكما ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ المؤمنين ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ الباقين فى العذاب لأنها تسر الكفر استثناء من أهله ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ أى نوعاً منه عجيباً وهو حجارة من سجيل فأهلكتهم ، والغالب استعمال أمطر فى الشر ومطر فى الخير ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ والمراد نظر القلب وهو التدبر ، والخطاب عام فليعتبر كل أحد بإهلاكهم ﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَى ﴾ أهل ﴿ مَدْيَنَ ﴾ اسم قبيلة أو بلدة سميت باسم بانيها مدين بن إبراهيم أى إلى أولاده الساكنين فيها ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ بن ميكيل بن يسخن بن مدين وهو من أولاد ابنة لوط أيضاً إذ هى أم ميكيل ، وكان يقال له خطيب الأنبياء لفصاحته فى الدعاء إلى الله وحسن مراجعته قومه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ معجزة دالة على نبوتى ، وليست بمذكورة فى القرآن ولم أرها فى التفاسير ، وما يذكر له فى عصى موسى وفى ولادة الغنم لا يستقيم حمل ما فى الآية عليه لتأخرها عن هذه المقالة ﴿ فَأَوْفُوا ﴾ أتموا ﴿ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾ أى آلة الكيل لتقارنه مع الميزان على الإضمار أو مجاز من إطلاق الكيل على المكيال ، وحمل الميزان على المصدر بعيد غير مستعمل ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا ﴾ تنقصوا ﴿ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ تعميم بعد تخصيص وتصريح بما علم ضمناً ، وذكر الكيل والميزان لفرط احتياج الناس إلى المكيل والموزون وكانوا مكاسين لايدعون شيئاً لم يمكسوه ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ ببعث الرسل وشرع الشرائع ، أو بعد الإصلاح فيها إضافة إلى الفاعل مجازاً كمكر الليل ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أى العمل به ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ومعنى الخيرية الزيادة المطلقة إذ لا خير فيما كانوا عليه ، أو خير لكم فى الكسب والربح إذ لا بركة مع الخيانة ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بما أقول ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ طريق من طرق الحق كالمعارف والحدود والأحكام ﴿ تُوعِدُونَ ﴾ الناس ، وكانوا إذا رأوا أحداً قام إلى شىء منها منعوه ، وقيل يقطعون الطريق بأخذ الثياب والمكس ، وقيل يتفرقون على الطرقات ويترصدون لمن يقصد شعيباً للإيمان به يوعدونه بالقتل وسائر العذاب ، وهذا القول أوجه لقوله ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ بالله أو بالسبيل ، ومن مفعول تصدون ويقدر لتوعدون إذ لو كان الإعمال للأول لقيل تصدونهم ، والمضارعان فى موضع الحال من فاعل تقعدوا ﴿ وَتَبْغُونَهَا ﴾ تطلبون لسبيل الله ﴿ عِوَجًا ﴾ معوجة بإلقاء الشبه فيها ، أو تريدون اعوجاج الطريق عن الحق ﴿ وَاذْكُرُوا ﴾ بقلوبكم لعلكم تشكرون ﴿ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا ﴾ فى العدد والعُدد ﴿ فَكَثَّرَكُمْ ﴾ بالبركة فى النسل والمال ﴿ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ قبلكم بتكذيبهم رسلهم أى آخر أمرهم من الهلاك « وما قوم لوط منكم ببعيد » ﴿ وَإِن ﴾ اختلفتم فى رسالتى و ﴿ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا ﴾ به ﴿ فَاصْبِرُوا ﴾

تربصوا ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ بإنجاء المحق وإهلاك المبطل ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ أعدلهم فيستحيل في حقه الظلم ولا معقب لحكمه ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ عن الإيمان ولم يلتفتوا إلى نصحه بل قابلوه على دأب السفهاء بما يكره ، وهو أحد أمرين مؤكداً بالقسم لفرط الاهتمام به بقولهم ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ ديننا ، غلبوا في الخطاب الجمع على الواحد لأن شعيبا لم يكن في ملتهم قط وعلى نحوه أجاب ﴿ قَالَ أ ﴾ نعود فيها ﴿ وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ لها استفهام إنكار ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ و« قد افترينا » استئناف فيه معنى التعجب وأدخل عليه قد للتحقيق لا للتقريب من الحال ، وقيل قسم محذوف اللام ، وإن عدنا شرط حذف جوابه لدلالة ما تقدم عليه ، وإذ بمعنى أن مصدرية . والمعنى إن هممنا بالعود في المستقبل فنحن في الحال مفترون باعتقاد حقية ما أنتم عليه وبطلان ما نحن فيه ﴿ وَمَا يَكُونُ ﴾ ما يصح ﴿ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ ذلك فيخذلنا ، فيه حسم طمعهم في العود واستسلام لمشيئة الله ، فلم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ وسع علمه كل شيء ومنه حالي وحالكم ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر لأن الألوهية تلائم التوكل والتفويض ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ ﴾ احكم ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ من فتح : قضى وحكم ، أو أظهر أمرنا عليهم حتى يتميز المحق من المبطل ، من فتح المشكل إذا بينه ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ على المعنيين لعدم تصور الجور منك ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ قال بعضهم لبعض ﴿ لَئِنِ ﴾ لام قسم ﴿ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا ﴾ وتركتم دينكم ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ دينكم لأنكم على الحق وهو على الباطل ، ودنيا كم لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ الصيحة مع الزلزلة الشديدة التي يرجف الفؤاد لأجلها وهي عذاب من فوقهم ومن تحتهم ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ باركين على الركب ميتين ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا ﴾ مبتدأ خبره ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا ﴾ يقيموا ﴿ فِيهَا ﴾ في القرية التي كانوا يريدون إخراج شعيب منها من غني بالكسر إذا أقام بتنعم كناية عن استئصالهم ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ الكاملين في الخسران لذهاب الدين والدنيا عنهم رأساً لا من اتبع شعيباً كما زعموا ، استأنف مرتين وصدر الإسميتين بالموصول مبالغة في تشويه حالهم وتقبيح مآلهم ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ بعد هلاكهم ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ فلم تقبلوا ، اعتذار لعدم حزنه عليهم ، ولذا قال ﴿ فَكَيْفَ آسَىٰ ﴾ أحزن ﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ المعنى : بذلت وسعي في النصح والإشفاق فلم تصدقوني فكيف آسى عليكم ، ولما وصفهم بالكفر عدل عن الخطاب تبعيداً لهم وبياناً لسبب الهلاك ، وبعد هلاكهم سار شعيب ومن معه حتى سكنوا مكة إلى أن ماتوا بها كما فعل هود وصالح ، وفيه أنه ينبغي للمسلم أن يتنحى مواضع هلاك الكفار ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ ﴾ فكذبوه ﴿ إِلَّا أَخَذْنَا ﴾ عاقبنا ﴿ أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ

وَالضَّرَّاءِ ﴾ مصدران بمعنى البؤس والضر فى الأبدان والأموال ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ يتذللون فيؤمنون ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا ﴾ أعطيناهم ﴿ مَكَانَ السَّيِّئَةِ ﴾ مايسوء صاحبه طبعاً كالشدة والمرض ﴿ الْحَسَنَةَ ﴾ ما يستحسنه طبعاً كالغنى والصحة ﴿ حَتَّىٰ عَفَوْا ﴾ كثروا عدداً وعُدداً ، يقال عفا النبات والشعر إذا كثر ومنه إعفاء اللحى . قال مجاهد : حتى كثرت أموالهم وأولادهم ﴿ وَقَالُوا ﴾ كفراً للنعمة ﴿ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ﴾ كما مسنا ، وهذه عادة الدهر وليست بعقوبة من الله فكونوا على ما أنتم عليه ، قال تعالى ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بنزول العذاب ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ﴾ المكذبين ﴿ آمَنُوا ﴾ بالله ورسلهم ﴿ وَاتَّقَوْا ﴾ الكفر والمعاصى ﴿ لَفَتَحْنَا ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر ﴿ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ بالمطر ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ بالنبات ﴿ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا ﴾ الرسل ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والمعاصى ، وفائدة لفظ كان الدلالة على استمرارهم فى ذلك وتكامل جناياتهم ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ ﴾ المكذبون لنبينا محمد ﷺ مكة وما حولها . عطف على مقدر دل عليه أخذناهم دخله الاستفهام ، أى أبعد ما علموا حال أولئك وما نزل بهم أمنوا . تعجب من تماديهم فى الغفلة ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ عذابنا ﴿ بَيَاتًا ﴾ ليلا ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ غافلون عنه ، وبياتاً مصدر فى موضع الحال ، أى مبيتين أو وقت بيات ، أو بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم « وهم نائمون » حال من المستتر فيه إن كان حالا وإلا فمن المنصوب فى يأتيهم ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى ﴾ نهاراً ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ لاهين عن أمر الآخرة فهم كاللاعبين ، والضحى وقت ارتفاع النهار قدر رمح ، وهو فى الأصل ضوء الشمس سمى به الوقت المذكور لتكامل شعاع الشمس حينئذ . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر أو بسكون الواو عطفاً بأو ، والباقون بالواو العاطفة بعد همزة الاستفهام ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ استدراجه إياهم بالنعم وأخذهم بغتة ، وإنما عطف الثانى بالواو والأول والثالث بالفاء لأن المعنى أخذناهم بغتة لما صنعوا ماصنعوا أبعد ذلك أمن أهل هذه القرى من مجىء بأسنا بياتاً وأمنوا إتيانه ضحى ، فالمنكر أمنهم إتيان البأس فى هذين الوقتين من غير ترتيب . وأما الثالث فتكرير للأول على طريقة الجمع بعد التقسيم مبالغة فى التحذير ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الكاملون فى الخسران بالكفر وترك النظر ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ يتبين ﴿ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ ﴾ بالسكنى ﴿ مِنْ بَعْدِ ﴾ هلاك ﴿ أَهْلِهَا أَنْ ﴾ فاعل مخففة واسمها محذوف أى أن الشأن ﴿ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ كما أصبنا من قبلهم من المصرين وفيه الاتعاظ بحال من سلف من المهلكين ﴿ وَ ﴾ نحن ﴿ نَطْبَعُ ﴾ نختم ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ قلوب هؤلاء المصرين : كلام مستأنف على طريق الاعتراض ، وعطف على ما دل عليه الكلام السابق ، أى يغفلون عن الهداية ، ولا يستقيم عطفه على جواب لو لإفضائه إلى انتفاء الطبع الذى دل على وجوده قوله ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ الموعظة سماع تدبر ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ ﴾ التى مر ذكرها مبتدأ وخبر ، والقرى نعت ، والخبر ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ يا محمد

﴿ مِنْ أَنْبَائِهَا ﴾ أخبار أهلها من إصرارهم وما لحقهم من العذاب بعده ، و « نقص » على الأول حال و « من » للتبعيض أى نقص عليك بعض أنبائها مما فيه مصلحة دينية ودنيوية ولها أنباء غيرها لا نقصها عليك ، وفى تلك الأنباء تحذير للكفار وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ المعجزات الظاهرات إلزاماً للحجة وقطعاً للمعذرة ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ عند مجيئهم ﴿ بِمَا كَذَّبُوا ﴾ كفروا به ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل مجيئهم ، بل استمروا على الكفر لا تؤثر فيهم الآيات ، أو من قبل حين أخرجوا من ظهر آدم ، أو من قبل فى علم الله ، وزيد لفظ كان ولام الجحد مبالغة فى نفى الإيمان عنهم لمنافاته لحالهم فى التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الطبع ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ والتفت إلى الغيبة لأن الطبع صفة قهر يناسب لفظ الجلالة الدالة على الألوهية والقهر ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ ﴾ أى الناس ﴿ مِنْ عَهْدٍ ﴾ أى وفاء به : اعتراض بين قصة أصحاب القرى ، أى لأكثر الأمم المار ذكرهم ، والعهد ما أقروا به فى جواب « ألست بربكم » أو ما عاهدوا الله عليه عند الوقوع فى الشدة من قولهم لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴿ وَإِنْ ﴾ مخففة أى إن الشأن ﴿ وَجَدْنَا ﴾ علمنا ﴿ أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ خارجين عن الطاعة متمردين ، والوجدان معناه العلم لدخول اللام الفارقة المستلزمة المبتدأ والخبر . وعند الكوفيين أن إن للنفى واللام بمعنى إلا ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى الرسل المذكورين ﴿ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ معجزاتنا ، وإنما لم يدرج قصة موسى فى تلك القصص ولم يسقها على ذلك النمط لاشتمالها على وقائع كثيرة وغرائب عظيمة ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا ﴾ كفروا ﴿ بِهَا ﴾ مكان الإيمان الذى هو من حقها لوضوحها ولهذا المعنى وضع « ظلموا » موضع كفروا ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ بالكفر من إهلاكهم ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إليك وإلى قومك أى أرسلنى خالق الخلق ومالكهم وإنما وصفه برب العالمين ليدخل فرعون فيهم ، واختار لفظة الرب إشارة إلى أنه منعم يجب الإيمان به شكراً للنعمة ، فكذبه فرعون فقال ﴿ حَقِيقٌ عَلَيَّ ﴾ بتشديد الياء لنافع مبتدأ خبره ﴿ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ أى واجب علىّ أداء الرسالة على الوجه المطابق لنفس الأمر ، وبسكون الياء للباقين على أن « على » بمعنى الباء لإفادة التمكن كقولهم : رميت على القوس ، وجئت على حال حسنة : أو ضمن « حقيق » معنى حريص ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ معجزة واضحة ، عرض لدليل نبوّته على فرعون ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ ﴾ إلى الشام ﴿ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ لأرجع بهم إلى أوطان آبائهم ، لأنهم جاءوا مصر فى زمان يوسف ، وبين دخول يوسف مصر ودخول موسى أربعمائة سنة ، وفى جميع ما تقدم غاية التلطف فى الدعاء إلى الإيمان واللين الذى أمر به ﴿ قَالَ ﴾ فرعون له مستدعياً لخرق العادة الدال على صدق موسى ﴿ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ ﴾ على دعواك ﴿ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فيها ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ ﴾ حية عظيمة ﴿ مُبِينٌ ﴾ واضح لكل أحد لا يشك فى أنه ثعبان . روى أنه لما ألقاها صارت ثعباناً أشعر فاغراً فاه ،

بين لحييه ثمانون ذراعاً ، وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر ، ثم توجه نحو فرعون فوثب فرعون عن سريره وهرب وأحدث ، وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألف إنسان ونادى فرعون يا موسى بالذى أرسلك خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بنى إسرائيل فأخذه فإذا هو عصا مثل ما كان . روى أن بطن فرعون استطلق لذلك وكان قبل لا يحدث لأنه يستفرغ ما يأكله . قيل أحدث فى ذلك اليوم أربعمائة مرة ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أخرجها من جيبه أو من تحت إبطه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ ﴾ ذات شعاع يغلب شعاع الشمس ﴿ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ أى بياضها خارجاً عن العادة يجتمع عليه الناظرون خلاف ما كانت عليه من الأدمة لأن موسى كان آدم شديد الأدمة ، ولم يذكر هنا قصة ولادته وتبنى فرعون له وفراره منه بعد قتل القبطى لكونه مستوفى فى القصص ولم يتعلق بذكره هنا غرض ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فائق فى علم السحر . وفى الشعراء أنه من قول فرعون نفسه ، فكأنهم قالوه معه على سبيل التشاور ، أو من بعد قوله تبليغاً للعامة عنه كما هو شأن الملوك ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ تشيرون أن نفعل ، وعلى هذا فقوله «فماذا» من قول فرعون لهم أو الأمر على الحقيقة إن كان من جملة كلام الملإ له ، وجمعوا ضميره للتعظيم وهو الظاهر ، والأول أوضح وأوفق لقوله ﴿ قَالُوا ﴾ جواباً لقول فرعون « فماذا تأمرون » أو قالوا له ذلك لما اتفق رأيهم عليه بعد التشاور ﴿ أَرْجِهِ ﴾ بكسر الهاء بلا همز من أرجيت بالياء لنافع مع وصل كسر الهاء بالياء لورش عنه ﴿ وَأَخَاهُ ﴾ أخر أمرهما ، ولابن كثير بالهمزة ساكنا مع ضم الهاء الموصولة بالواو ، وكذا أبو عمرو إلا أنه لم يصل الضم ، ولهشام عن ابن عامر مالأبى عمرو ولابن ذكوان بالهمز وكسر الهاء دون وصل من أرجأت بالهمز ، ولعاصم وحمزة بسكون الهاء دون الهمزة ، وللكسائى بكسر الهاء مع الصلة كورش ﴿ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ جامعين للسحرة . وحكى النقاش أن فرعون لايجالس ولد غية وإنما كان جلساؤه أشرافا ، ولذا أشاروا بالإرجاء وترك العجلة بالقتل ، وقالوا إن قتلته دخلت على الناس شبهة ولكن أغلبه بالحجة ثم تفعل ما تريد ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ ﴾ وقرأ حمزة والكسائى سحار : هنا وفى يونس ، ويؤيدهما الاتفاق عليه فى الشعراء ﴿ عَلِيمٍ ﴾ يفضل موسى فى علم السحر فجمعوا ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ قيل كانوا سبعين ألفاً مع كل منهم حبل وعصى ، وفى التفاسير غير هذا من العدد وكل ذلك لاسند له ، والمعلوم أنهم جمع عظيم ﴿ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ إن لنا بالإخبار لنافع وابن كثير وعاصم فى رواية حفص جزماً بوجوب الأجر لعظم الأمر ، وبالاستفهام للباقين ليقوى باعثهم فيكون أدعى للنصح ، ويؤيده الجواب بقوله ﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ جواب عن الاستفهام ، أو تصديق لذلك الخبر على الأول ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ عطف على ما دل عليه « نعم » زادهم على ما تصوروه تحريضاً لهم ، أى لا أقتصر لكم على الأجر بل أزيدكم عليه المنزلة الرفيعة بأن أجعلكم من المقربين ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ﴾ عصاك ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ

﴿ الْمُلْقِينَ ﴾ ما معنا . خيروه كما هو دأب المتأملين فى المناظرة مراعاة للأدب وإظهاراً للجلادة ، لكن تغييرهم نظم الكلام بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل أو تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل يدل على أنهم كانوا راغبين فى البداءة بهم ، ولذا أجابهم إلى ذلك بقوله ﴿ قَالَ أَلْقُوا ﴾ تحقيراً لشأنهم وثقة بما عنده وتكرماً معهم وهو أمر للإذن بتقديم إلقائهم توسلا إلى إظهار الحق وليس بأمر منكر ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا ﴾ حبالهم وعصيهم ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ صرفوها عن حقيقة إدراكها بتخييل ما لا حقيقة له ﴿ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ خوفوهم حيث خيلوها حيات تسعى ﴿ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ روى أنهم ألقوا حبالا غلاظاً وخشباً طوالا وجعلوا فيها الزئبق فتوهم أنها تتحرك وأنها حيات عظام بعضها راكبة فوق بعض ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ فألقاها فإذا هى حية ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ ﴾ بحذف إحدى التاءين من الأصل تتناول وتبتلع ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ ما يقلبون ويصرفون بتمويههم من الإفك ، وهو الصرف وقلب الشيء عن وجهه ويجوز أن تكون « ما » مصدرية وهى مع الفعل بمعنى المفعول ، ووضع المضارع موضع الماضى استحضاراً لتلك الحالة الهائلة . روى أنها لما تلقفت حبالهم وعصيهم وابتلعتها أقبلت على الحاضرين فهربوا وازدحموا حتى هلك جمع عظيم ، ثم أخذها موسى فصارت عصى كما كانت ، فقال السحرة لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا . وقرأ حفص عن عاصم « تلقف » هنا وفى طه والشعراء بالتخفيف ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾ ظهر بعد ما كان خفياً ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من السحر ظاهر بطلانه بحيث لم تبق فيه شبهة ﴿ فَغُلِبُوا ﴾ فرعون وقومه ﴿ هُنَالِكَ ﴾ فى ذلك المكان أو الزمان ﴿ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ صاروا ، أو رجعوا إلى المدينة أذلاء مقهورين ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ مبالغة فى سرعة خرورهم وشدته ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لم يعطفه إيماء إلى شدة ملاصقته لسجودهم ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ أبدلوه من رب العالمين لئلا يتوهم أنهم أرادوا به فرعون ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ بالله أو بموسى . وفى الهمزتين ما علم فى « أأنذرتهم » وأمثاله ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا ﴾ الذى صنعتموه ﴿ لَمَكْرٌ ﴾ حيلة ﴿ مَكَرْتُمُوهُ ﴾ أنتم مع موسى ﴿ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ فى مصر قبل أن تخرجوا الميعاد ﴿ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ القبط وتخلو لبنى إسرائيل ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما ينالكم منى ، تهديد مجمل تفصيله ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ تقطيعاً ناشئاً ﴿ مِنْ خِلَافٍ ﴾ مخالفة من كل شق طرفاً ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلا لأمثالكم ، دلت لفظة « ثم » على أنه بعد القطع لم يصلبهم على الفور ، بل تركهم زمانا مطروحين على الأرض احتقاراً لشأنهم ، ولما أفاد هذا المعنى هنا ذكره فى سائر السور بالواو اختصاراً . روى أن فرعون أول من سن هذا التعذيب ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا ﴾ نحن وأنت ﴿ مُنْقَلِبُونَ ﴾ بالموت لا محالة فيحكم بيننا فلا نبالى بوعيدك لأنك إن فعلت ذلك يكون وصلة إلى لقاء ربنا ﴿ وَمَا تَنْقِمُ ﴾ ما تعيب وتنكر ﴿ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾ وهو خير الأعمال فلا ينكره إلا أحمق ،

إيماء إلى فرط حماقة فرعون حيث جعل الإيمان سببا للقتل ، ثم لجئوا إلى الله فقالوا ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ عند فعل ما توعده بنا لئلا نرجع كفارا ، أى أفض علينا صبرا يغمرنا ويطهرنا من الآثام من أفرغت الماء عليه غمرته به استعارة تبعية . وفى البخارى لم يعط أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين لقضائك ، قيل إنه فعل بهم ما أوعدهم به ، وقيل إنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى « أنتما ومن اتبعكما الغالبون » وعن ابن عباس لما آمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بنى إسرائيل فهال القبط ذلك ، فقال أشرافهم لفرعون ما أخبر الله بقوله ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ له ﴿أَتَذَرُ﴾ تترك ﴿ مُوسَى وَقَوْمَهُ ﴾ المتبعين له ﴿ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بدعاء الناس إلى مخالفتك وتغييرهم عليك ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ عطف على ليفسدوا ﴿ وَآلِهَتَكَ ﴾ كان من فرط عتوه جعل لقومه أصناما وأمرهم أن يعبدوها تقربا إليه على عادة عبدة الأصنام ، ولذا قال أنا ربكم الأعلى ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ ﴾ بالتخفيف لنافع وابن كثير والتشديد للباقين وهو أوفق بالمقام ﴿أَبْنَاءَهُمْ﴾ المولودين ﴿ وَنَسْتَحْيِي ﴾ نستبقى ﴿نِسَاءَهُمْ﴾ كفعلنا بهم من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر ، ولا يتوهم أنه المولود الذى حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ وهم مقهورون تحت أيدينا إلى الآن ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ لما شكوا إليه ما سمعوا من توعد فرعون بالقتل ، وقيل فعل بهم ذلك فشكوه ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾ على اذاهم تسكين لهم وتشجيع ثم سلاهم بقوله ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ فلا اعتبار بمقالة فرعون : تقرير للأمر بالاستعانة بالله والتثبت فى الأمر ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الله الجامعين بين الطاعات واجتناب المعاصى ، وفرعون وقومه ليسوا فى شىء من ذلك ، ولم يقل والعاقبة لنا دفعا لتزكية النفس وهضما لها ، وهذا من موسى وعد لهم بالنصر وهلاك العدو وتوريث ديارهم تخفيفا للإذاية عليهم . واللام فى الأرض تحتمل الجنس أو العهد أى أرض مصر . ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا ﴾ بالرسالة بقتل الأبناء والاستعباد ﴿ وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ بإعادة ذلك فنحن إذا أظهرنا الجزع فلنا فيه معذرة ، ويحتمل أنهم لما وعدهم موسى بزوال الشدة ظنوا أن ذلك يكون على الفور فلما رأوا أنه قد زادت الشدة عليهم قالوا ذلك استبطاء لزوالها . قال ابن عطية : وبالجملة فهو كلام يجرى مع المعهود من بنى إسرائيل من اضطرابهم وقلة يقينهم ، ولذا استعطف عليهم موسى بقوله ﴿ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ فيها ، أتشكرون ما من به عليكم من الإمارة بعد الرق والعبودية أم تكفرون فيجازيكم على حسب ما يوجد منكم ؟ وهو تصريح بما كنى عنه أولا لما رأى أنهم لم يتسلوا بذلك . قال ابن عطية وهو يدل على أنه يستدعى نفوسا نافرة كما هو عادتهم فى غير ما قصة ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾ بالقحوط لقلة الأمطار والمياه ، والسنة غلبت على عام القحط لكثرة ما يذكر عنه ويؤرخ به ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ بكثرة العاهات أو بقلة الثمار حتى روى أن النخلة من نخاهم

لاتحمل إلا ثمرة واحدة ، وقيل السنون للبوادى ونقص الثمرات لأهل الأمصار ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أن ذلك بسبب كفران النعم فيسارعوا إلى التوبة لأن الشدة ترقق القلوب ، ثم بين تعالى أن ذلك لم يزدهم إلا تمردا بقوله ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ ﴾ الخصب والغنى ﴿ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ﴾ أى نستحقها ولم يشكروا عليها ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ جدب وبلاء ﴿ يَطَّيَّرُوا ﴾ يتشاءموا ﴿ بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ من المؤمنين ، والعرب تسمى الشؤم طيرا أو طيرة لتشاؤمهم بنعيق الغراب ونحوه ، وهذا إغراق فى وصفهم بالغباوة والقساوة ، وهو أنهم بعد مشاهدة الآيات والانهماك فى الغى يدعون الاختصاص بالنعم وينسبون السيئة إلى من شكر النعم وأمر ونهى ، وإنما عرف الحسنة وذكرها مع أداة التحقيق لكثرة وقوعها وتعلق الإرادة بإحداثها بالذات ، ونكر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندورها وعدم القصد لها إلا بالتبع ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ ﴾ شؤمهم ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ بقدرته ومشيئته يأتيهم به لكفرهم ، أو سبب شؤمهم وهو أعمالهم عند الله مكتوب ، ولتماديهم فى الغفلة صدر الجملة بحرف التنبيه والحصر ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن ما يصيبهم من عند الله لأجل أعمالهم ، أولا يعلمون الأمور على وجهها ليؤديهم ذلك إلى العلم بأن الأمر كله لله ، والقيد بالأكثر يدل على أن قليلا منهم كانوا عالمين بذلك ولكن تابعوا الأكثر فى هواهم ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا ﴾ أصله ما الشرطيه زيد عليها ما للتأكيد ، ولاستثقال التكرار قلب الألف ها ، ومحلها الرفع على الابتداء أو النصب بفعل يفسره ﴿ تَأْتِنَا بِهِ ﴾ أى شىء تحضرنا به ﴿ مِنْ آيَةٍ ﴾ بيان لما ، وتسمية ما جاء به آية تهكم أو على زعمك ، ولذا قالوا ﴿ لِتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ تشبه علينا ، والضمير فى به وبها لمهما باعتبار اللفظ والمعنى ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إقناط لموسى وردع له عن الاشتغال بإظهار المعجزات ، فدعا عليهم موسى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ﴾ مصدر كالغفران ، وهو ماء طاف بهم وغشى أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل مع ظلمة شديدة لايقدرون على الخروج ، وامتلأت بيوت القبط فقط ووصل إلى حلوق الجالسين سبعة أيام ، فاستغاثوا بموسى على الإيمان فدعا لهم فارتفع عنهم فآمنوا شهرا ثم نقضوا ، ﴿ وَالْجَرَادَ ﴾ فأكل زرعهم وثمارهم وثيابهم وأبوابهم وسقوفهم كذلك ﴿ وَالْقُمَّلَ ﴾ كبار القراد ، أو أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها يتبع ما تركه الجراد من العروق ويدخل بين الأثواب والجلود يمصها كذلك ﴿ وَالضَّفَادِعَ ﴾ ملأت بيوتهم ومضاجعهم وأثوابهم وأطعمتهم كذلك ﴿ وَالدَّمَ ﴾ فى مياههم فصارت دماء كذلك ﴿ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴾ مبينات لايشك العاقل أنها من آيات الله ، أو فصل بعضها عن بعض حال توبتهم إذ بين العذاب والعذاب شهر كما قدمنا ، يريهم موسى الآيات ويدعوهم إلى الله يتوبون تارة وينقضون أخرى ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الإيمان بها بعد الكشف ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ مستمرين على الإجرام ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ﴾ العذاب المفصل ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ من كشف العذاب عنا إن آمنا ، أو بعهده عندك وهو النبوة ، أو بالذى عهده إليك إن دعوت

به يحبك من الأسرار والأسماء ، وعلى الوجهين الباء صلة وحال أى متوسلا بما عهده عندك ، أو الباء للقسم جوابه ﴿ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ روى أنه لما انكشف العذاب قال فرعون لموسى اذهب ببنى إسرائيل حيث شئت فخالفه بعض ملئه فرجع إلى قوله ونكث ، كما قال تعالى ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا ﴾ بدعاء موسى ﴿ عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ ينقضون العهد ويصرون على كفرهم ، والجملة جواب لما و « إذا » سدت مسد الفاء ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أى أنزلنا الانتقام بهم ، والفاء للتفسير فى قوله ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ البحر المالح ، واليم معرب معناه البحر الذى لا يدرك قعره وقيل لجته ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ مستمرين على الغفلة ، إشارة إلى أن ماحل بهم ليس ناشئا عن التكذيب وحده بل مع عدم التوبة ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ بذبح الأبناء والاستعباد ﴿ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ أى جميع جهاتها ، وأل فى الأرض للعهد ، أى أرض الشام ومصر ، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا فى نواحيها ، وقيل الأرض كلها مجازا لملكهم أكثرها الذى غيره باعتباره كلا شىء ، أو حقيقة فى زمان سليمان والأول أرجح لقوله ﴿ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ بالماء والشجر صفة للأرض ، وهى الشام إلى مصر فيها من سعة العيش ماليس فى غيرها ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى ﴾ بالنصر والتمكين فى الأرض ، وهى قوله « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا » إلى آخره ﴿ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على دينهم وأذى قومهم . قال ابن عطية رأيت للحسن البصرى انه احتج بقوله وتمت إلى آخرها على أنه ينبغى للمرء أن يصبر على أذى ملوك السوء فإن الله يدمرهم ، ورأيت لغيره أنه إذا قابل الناس البلاء بمثله وكلهم الله إليه وإذا قابلوه بالصبر أتاهم الله بالفرج . اهـ . ﴿ وَدَمَّرْنَا ﴾ خربنا ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ من القصور والبيوت وباقى العمارات ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ بكسر الراء للجمهور ، وضمها لابن عامر وأبى بكر من الجنان ، أو يرفعون من البنيان كصرح هامان . وهذا آخر قصة فرعون وقومه فليعتبر بها العاقل ، ثم ذكر الله ما أحدثه بنو إسرائيل بعد هذه النعم مع موسى تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وإيقاظا للمؤمنين حتى لا يغفلوا ويتبعوا سبيلهم فقال ﴿ وَجَاوَزْنَا ﴾ عبرنا ﴿ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ يوم عاشوراء بعد هلاك فرعون وقومه نصامه موسى شكراً لله ﴿ فَأَتَوْا ﴾ فمروا ﴿ عَلَى قَوْمٍ ﴾ من لخم أو من العمالقة ﴿ يَعْكُفُونَ ﴾ بضم الكاف للجمهور ، وكسرها لحمزة والكسائى يقيمون ﴿ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾ على عبادتها ، وكانت تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا ﴾ صنما نعبده ﴿ كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ يعبدونها ، ظنوا أن ذلك لا يضر الدين لجهلهم ولذا ردهم موسى بقوله ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ حيث قابلتم نعم الله عليكم بما قلتموه ، وقيل كان ذلك من بنى إسرائيل كفرا والأول أصح ، ويقوى الثانى قولهم فى العجل هذا إلهكم وإله موسى . قال الثعالبي فى الجواهر الحسان : الذى يجب أن يعتقد أن مثل هذه المقالات إنما صدرت من أشرارهم

وقريبي العهد بالكفر .اه. وفى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى غزوة حنين فر بشجرة يعظمها المشركون يقال لها ذات أنواط ، فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال سبحان الله هذا كما قال قوم موسى « اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة » والذى نفسى بيده لتركبن سنن من كان قبلكم ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ القوم ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مدمر ومهلك ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ يعنى أن الله يهدم دينهم ويكسر أصنامهم ﴿وَبَاطِلٌ﴾ مضمحل ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتها وإن قصدوا بها التقرب إلى الله وفى الكلام مبالغات بتأكيد اسم الإشارة بإنّ، والإخبار عما هم فيه بالتبار وعما فعلوا بالبطلان ، وتقديم الخبرين فى الجملتين الواقعتين خبرا لإنّ للتنبيه على أن الدمار لاحق لما هم فيه لا محالة ، وأن الإحباط الكلى لازب لعملهم تنفيرا وتحذيرا عما طلبوا ، ثم بعد التجهيل أنكر عليهم على سبيل التعجب بقوله ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ معبودا وأصله أبغى لكم ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فى زمانكم بما ذكره فى قوله ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَنجَيْنَاكُم﴾ ولابن عامر أنجاكم ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ يكلفونكم ويذيقونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أشده وهو ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أفلا تتعظون فتنتهون عما قلتم ﴿وَوَاعَدْنَا﴾ بألف ودونها وتقدم ﴿مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ نكلمه عند انتهائها بأن يصومها وهى ذو القعدة فصامها ، فلما تمت أنكر خلوف فمه فاستاك فأمره بعشرة أخرى ليكلمه بخلوف فيه كما قال تعالى ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ من ذى الحجة وهذا تفصيل لما أجمله فى البقرة بقوله وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾ وقت وعده بكلامه اياه ﴿أَرْبَعِينَ﴾ حال ﴿لَيْلَةً﴾ تمييز فكلمه تعالى يوم النحر وأنزل عليه التوراة فى الألواح ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ عند ذهابه إلى الجبل للمناجاة ﴿اخْلُفْنِي﴾ كن خليفتى ﴿فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ من أمرهم ما يجب أن يصلح أو كن مصلحا ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ بموافقتهم على المعاصى ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ﴾ أى حضر ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ أى للوقت الذى وعدناه بالكلام فيه ، واللام للاختصاص ،أى اختص مجيئه لميقاتنا ، وقيل يقدر مضاف أى لآخر ميقاتنا أو لانقضاء ميقاتنا ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ من غير واسطة كلاما مغايرا لهذه الحروف والأصوات قديما قائما بذاته خلق له إدراكه فسمعه من كل جهة ، وجواب لما قوله ﴿قَالَ﴾ لما سمع كلام ربه واشتاق إلى رؤيته ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ ذاتك ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ بأن تمكنى متمكنا من رؤيتك فى هذا الوقت ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ أى فى هذا الوقت على هذا الحال : لاتقدر على رؤيتى ، أى فالمانع الآن من جانبك فإنى غير محجوب ، وإنما الحجاب منك بكونك فانياً فى فان ، وأنا باق ووضعى باق ، فإن جاوزت قنطرة الفناء ووصلت إلى دار البقاء فزت بمطلوبك ، والتعبير بلن ترانى دون لن أرى يفيد إمكان الرؤية : فسؤال موسى للرؤية دليل على جوازها ، إذ سؤال المستحيل على الأنبياء محال ، و « لن » لا تفيد تأبيد النفى ، ثم أشار إلى عدم القدرة فى ذلك الوقت على الرؤية بقوله ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ الذى هو أقوى منك ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ﴾

ثبت ﴿ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ تثبت لرؤيتي وإلا فلا طاقة لك ، وفي تعليق الرؤية على استقرار الجبل دليل للجواز ، ضرورة أن المعلق على الممكن ممكن ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ ﴾ أظهر من نوره قدر نصف أنملة الخنصر كما في حديث صححه الحاكم ﴿ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ بالقصر للجمهور ، والمد لحمزة والكسائي ، أي مدكوكا مستوياً بالأرض ، قيل ساخ حتى وقع في البحر فهو يظهر فيه ، وقيل صار رملا سائلا ، وقيل هو الذي صار حجر الكحل المضيء لأنه احترق بالنور لا بالنار والله أعلم ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ مغشياً عليه لهول ما رأى ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ تنزيهاً لك ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ أن أطلب الرؤية في الدنيا أو بغير إذنك ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بأنها لا تطلب في الدنيا أو بغير الإذن . قال ابن عطية : ويحتمل عندي أن «تبت إليك» لفظ قاله لشدة هول المطلع ، ولم يعن التوبة من شيء معين ، ولكنه لفظ لائق بذلك المقام . اه .
﴿ قَالَ ﴾ تعالى له ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ أهل زمانك ﴿ بِرِسَالَتِي ﴾ بالإفراد لنافع وابن كثير وبالجمع للباقين ﴿ وَبِكَلَامِي ﴾ بتكليمي إياك ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾ من الرسالة والتقريب ﴿ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لأنعمي ، فيه تأديب وتقنيع ، وحمل على جادة السلامة لكل أحد في كل حالة ، فإن جميع النعم من عند الله بمقدار ، فليشكر كل ما أعطي وليقنع به . روى أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة ، وإعطاء التوراة كان يوم النحر ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ ﴾ التوراة وكانت من سدر الجنة أو زبرجد أو زمرد سبعة أو عشرة طول كل لوح اثنا عشر ذراعاً ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج إليه في الدين . روى أن التوراة وزن سبعين بعيراً يقرأ الجزء منها في سنة لم يحفظها إلا موسى ويوشع وعزير وعيسى ﴿ مَّوْعِظَةً ﴾ بدل من محل المجرور ﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الأحكام فالأول للاعتقاد والثاني للعمل ﴿ فَخُذْهَا ﴾ أي الألواح قبله قلنا مقدراً ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ بجد وعزيمة كما هو شأن أولي العزم ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ وهو الأحوط أو الأولى ، فالقصاص مثلا حسن والعفو أحسن منه ، والانتصار حسن والصبر أحسن منه ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ فرعون وأتباعه وهي مصر ، أو العمالقة وهي الشام لتعتبروا بهم ، وعد للمؤمنين ووعيد للفاسقين ، أو المراد سأورثكم دارهم ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ﴾ عن فهمها وتصديقها أو عن تدبرها ﴿ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ صلة يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل أو حال من فاعله أي يتكبرون غير محقين فإن المستحق للكبرياء هو الله ، والآيات هنا كل كتاب منزل ، أو الدلائل الدالة على الوحدانية ، وصرفهم عنها عقوبة على تكبرهم ، أو المراد صرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كاجتهاد فرعون في إبطال معجزات موسى ، وهو أيضاً وعد لبني إسرائيل بأن ينصروا على كل من قام لإبطال الدين ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ ﴾ منزلة أو معجزة ﴿ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ لعنادهم واختلال عقولهم بالانهماك في الهوى والتقليد ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ ﴾ الهدى الذي جاء من عند الله ﴿ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ لاستيلاء الشيطنة عليهم . وقرأ حمزة والكسائي «الرشد» بفتحتين ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ ﴾ الضلال

﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لأنهم عمى يقودهم الشيطان إليه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الصرف ومابعده ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أى لقائهم الدار الآخرة أو ما أعد الله فيها من إضافة المصدر إلى المفعول أو الظرف ﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ ما عملوه فى الدنيا من خير كصلة رحم وصدقة فلا ثواب له لعدم شرطه ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلا جزاء أعمالهم من التكذيب والمعاصى، ثم أشار إلى نوع آخر من قبائح بنى إسرائيل بعد قولهم: اجعل لنا إلٰها إلى آخره، فقال ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾ أى بعضهم ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ بعد ذهابه إلى الطور للمناجاة ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ الذى استعاروه من قوم فرعون بعلة عرس فبقى عندهم، وهو جمع حَلْى وثَدْى وثُدِىّ. وقرأ حمزة والكسائى بكسر الحاء إتباعا ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ بدل: لحماً ودماً بعد ما صاغه لهم السامرى وكان صائغاً ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ صوت يسمع: انقلب كذلك بوضع التراب الذى أخذه من حافر فرس جبريل فى فمه فإن أثر الحياة فيما يوضع فيه ومفعول «اتخذ» الثانى محذوف أى إلٰهاً ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ فكيف يتخذ إلٰهاً؟ تقريع على فرط غباوتهم ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ إلٰهاً ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ باتخاذه وهو لا ينفع ولا يضرّ، وترك عبادة الله الذى أنعم عليهم نعماً لا تحصى، أعاد «اتخذ» مقيداً بما يفيد زيادة التوبيخ أى ليس ذلك الاتخاذ أول منكر وقع منهم، بل دأبهم الاستمرار على وضع الأشياء فى غير موضعها ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أى ندموا أشد الندم على عبادته، لأن النادم المتحير يعض يده، وأصل التركيب سقط أفواههم فى أيديهم حتى كأنهم لم يتمالكوا، بل عضوا الأيدى من غير اختيار منهم، كناية إيمائية وهى التى توجد من زبدة الكلام لا من مفرداته ﴿وَرَأَوْا﴾ علموا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ بها أى ظهر لهم ضلالهم ظهور المحسوس وذلك بعد رجوع موسى ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوراة وقبول التوبة ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ما صدر منا. قرأ حمزة والكسائى الفعلين بالخطاب ونصب «ربنا» على النداء ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الكاملين فى الخسران ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ﴾ من المناجاة ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ وقد أعلمه الله أنه فتن قومه من بعده وأضلهم السامرى ﴿غَضْبَانَ﴾ على قومه لعبادتهم العجل ﴿أَسِفًا﴾ حزيناً بما فتنوا به. قال الواحدى: فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت أو فوقك حزنت، فهو غضبان من جهة قومه حزين من جهة الفتنة ﴿قَالَ بِئْسَمَا﴾ أى بئس خلافة ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾ ها ﴿مِن بَعْدِي﴾ خلافتكم هذه حيث أشركتم، والخطاب للعبدة، أو قمتم مقامى حيث لم تكفوا العبدة، والخطاب لهارون والمؤمنين معه، و «ما» نكرة موصوفة تفسر المستكن فى بئس، والمخصوص محذوف أى خلافتكم. قال البيضاوى: ومعنى من بعدى من بعد انطلاقى أو من بعد ما رأيتم منى من التوحيد والحمل عليه والكف عما ينافيه. اه. وقال فى غاية الأمانى: حملُ البعدية على بعدية الانطلاق يأباه لفظ الخلافة، وجعله من قبيل أبصرته بعينى لا يناسب المقام. اه. وفى لباب التأويل: بعد فراق إياكم، وهو يقوى ما فى البيضاوى، والله أعلم ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أتركتموه غير تام أى ما أمركم به من الانتظار أربعين يوماً، يقال عجل زيد عن أمره تركه غير

تام ، فكأن عجل ضمن معنى سبق ، أو حذف منه الجار ، أو أعجلتم أمر ربكم ، أو أعجلتم وعد ربكم الذى وعدنيه من الأربعين وقدرتم موتى وغيرتم بعدى كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم . روى أن موسى وعدهم بالرجوع فى أربعين يوماً فعدوا عشرين يوماً أربعين اعتداداً بالليالى لفرط بلادتهم . وفى لباب التأويل : معنى العجلة التقدم بالشىء قبل وقته ولذلك صارت مذمومة ، والسرعة غير مذمومة لأن معناها عمل الشىء فى أول وقته اه . وقيل معناه أعجلتم سخط ربكم . ثم ذكر الله ما أوجبه غضب موسى بقوله ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ التى كانت فيها التوراة غضباً لربه وحمية للدين ، وكان شهيراً بالشدة وهرون باللين ، ولذا ظن أنه قصر . روى أن التوراة كانت سبعة أسباع فى سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفع ستة أسباعها وكان فيها تفصيل كل شىء وبقى سبع كان فيه المواعظ والأحكام ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ أى بشعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ ظناً منه أنه قصر فى كفهم ، وكان هرون أكبر منه بثلاث سنين ، وكان ليناً ، ولذا كان أحب إلى بنى إسرائيل ﴿قَالَ يَابْنَ أُمَّ﴾ بفتح الميم لنافع وابن كثير وأبى عمر وعاصم فى غير رواية شعبة وكسرها للباقين ، أراد أبى وذكرها أعطف لقلبه وهما شقيقان ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ إزاحة لتوهم التقصير فى حقه والمعنى : بذلت وسعى فى كفهم حتى قهرونى وقاربوا قتلى . قال ابن العربى فى الأحكام : فيه دليل على أن من خشى القتل عند تغيير المنكر أن يسكت عنه ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾ تفرح ﴿بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ بإهانتك إياى ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بعبادة العجل أو التقصير فى الكف فلست منهم ﴿قَالَ﴾ موسى لما ظهر له براءة أخيه هرون ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ ما صنعت بأخى ، وما فرط منى فى إلقاء الألواح المسطور فيها كلامك ﴿وَلِأَخِي﴾ إن بدر منه نوع تقصير تعلمه ، أشركه فى الدعاء إرضاء له ودفعاً للشماتة ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ تقوية لطمع الداعى فى نجاح طلبه ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلها ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾ عذاب ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهو ما أمرهم به من قتل أنفسهم ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بخروجهم من ديارهم ، لأن ذل الغربة شديد ، وهذا على جعلهم التائبين وإن كانوا غير التائبين منهم فالمراد عذاب الآخرة ، وقيل المراد ما سينال أبناءهم بنى قريظة والنضير زمن نبينا صلى الله عليه وسلم : من القتل والجلاء والجزية إلى يوم القيامة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جزيناهم بغريتهم : هذا إلهكم وإله موسى ﴿نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ على الله بالإشراك وغيره . قال أبو قلابة : هى جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله . وقال سفيان ابن عيينة : هذا فى كل مبتدع ، وقال مالك بن أنس : مامن مبتدع إلا وهو يجد فوق رأسه ذلة ثم قرأ هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الكفر والمعاصى ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ إلى الله منها ﴿وَآمَنُوا﴾ أخلصوا الإيمان ومقتضاه من الأعمال الصالحة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ ستار لتلك المعاصى ﴿رَحِيمٌ﴾ وإن عظم الذنب كعبادة العجل يبدل سيئات من تاب حسنات ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ سكن ﴿عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ باعتذار أخيه وتوبة قومه ، وفى الكلام مبالغة

وبلاغة من حيث أنه جعل الغضب الحامل له على ما فعل كالآمر به والمغرى عليه حتى عبر عن سكونه بالسكوت ﴿ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ﴾ التي ألقاها ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا ﴾ أي ما نسخ فيها أي كتب فعلة بمعنى مفعول ﴿ هُدًى ﴾ بيان للحق ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ إرشاد إلى الصلاح والخير ﴿ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ يخافون ، دخلت لام التقوية على المفعول لضعف الفعل بالتأخر ، والمفعول محذوف واللام للتعليل أي يرهبون المعاصي لله لا لأمر آخر . قال فخر الدين : وظاهر قوله أخذ الالواح أنها لم تتكسر ولم يرفع من التوراة شيء . اهـ. ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ ﴾ أي من قومه ﴿ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾ ممن لم يعبدوا العجل بأمره تعالى ﴿ لِمِيقَاتِنَا ﴾ للوقت الذي وعدنا بإتيانهم فيه ليعتذروا من عبادة أصحابهم العجل فخرج بهم ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ الزلزلة الشديدة ، قال ابن عباس : لأنهم لم يزايلوا قومهم حين عبدوا العجل ، قال : وهم غير الذين سألوا الرؤية وأخذتهم الصاعقة . قلت : وللمفسرين في هذه القصة اضطراب واختلاف ، وخلاصة ماذكره في غاية الأماني : أن الله أمر موسى أن يأتيه إلى الطور في سبعين من قومه من كل سبط فرقة ليسمعوا كلامه موسى بالأوامر والنواهي فيكون ذلك أدعى لهم إلى الطاعة ، فاختار من كل سبط ستة نفر فزاد اثنان فتشاحوا في التخلف فقال موسى : من تخلف له أجر من حضر ، فآثر يوشع وكالب التخلف ، فخرج موسى متقدما قومه كما أخبر عنه «وما أعجلك عن قومك يا موسى» وقبل قدومهم وحضورهم كان سؤال رؤيته وماجرى له من الصاعقة واندكاك الجبل وإنابته فسأله الله بعد ذلك عن تقدمه على قومه يعني السبعين مع أنه كان مأمورا باستصحابهم فأجاب بأن موجب ذلك التقدم هو المسارعة إلى مرضاته ، فقال إنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى إلى قومه يعني ومعه ألواح التوارة غضبان أسفا ، وجرى له مع أخيه وقومه ما حكاه الله في كتابه ، ثم عاد إلى الطور معه السبعون ، فلما دنا من الجبل غشيته غمامة فدخل موسى بهم الغمامة وخروا سجدا فسمعوا كلام موسى بالأوامر والنواهي ، فلما انكشف الغمام قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا . وأما قوله « فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل» فثم لترتيب الإخبار للاتفاق على أن اتخاذ العجل كان قبل مجيء موسى بالتوراة ، ولأنه في سورة البقرة ذكر قضية العجل قبل أخذ الصاعقة والقرآن يفسر بعضه بعضا . اهـ. ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل خروجي بهم ليعاين بنو إسرائيل ذلك ولا يتهموني ﴿ وَإِيَّايَ ﴾ أو المراد لو شئت هلاكنا قبل خروجنا لفعلته لأنك قادر على ذلك ولما لم تفعله فنحن نرجو رحمتك ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ من طلب الرؤية عيانا أو عبادة العجل : استفهام استعطاف أي لا تعذبنا بذنب غيرنا ، أو الاستفهام على حقيقته لأنه يفعل ما يشاء في ملكه . قال في غاية الأماني : وتفسير ما فعل السفهاء بعبادة العجل ليس بشيء ، لأن التوبة عن عبادة العجل لم يكن لها ميقات بل التوبة عنها كان بقتل أنفسهم ، ولما تقدم من أن اختيار موسى السبعين كان قبل عبادة العجل ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي الفتنة

﴿ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك حتى طمعوا فى رؤيتك ، أو إلقاء حب العجل فيهم فنك العفو أيضا يرتجى ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ ﴾ إضلاله ﴿ وَتَهْدِي ﴾ بها ﴿ مَنْ تَشَاءُ ﴾ هدايته . قال الواحدى : وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التى لا يبقى لهم معها عذر ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا ﴾ متولى أمورنا لا غيرك ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا ﴾ ما فرط منا ﴿ وَارْحَمْنَا ﴾ تفضل علينا بعد العفو بنعمتك ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ تكتب بعد التوبة مكان السيئة الحسنة ، وفى الحديث « من هم بسيئة ولم يعملها كتب له حسنة » وإنما فصل الآية الأولى بأرحم الراحمين لأن غضبه كان لله ، وظهرت براءة أخيه ، بخلاف سؤال الرؤية من قومه فإنها جريمة عظيمة تناسب الغفران : وحكى أنهم لم يموتوا بالرجفة بل أشرفوا على الهلاك فدعا موسى فكشفها الله عنهم ، والله أعلم . ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ عيشة طيبة وموافقة طاعة ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ بدخول الجنة والفوز بلقائك ﴿ إِنَّا هُدْنَا ﴾ تبنا ﴿ إِلَيْكَ ﴾ من هاد يهود إذا تاب ، وهو كالعلة للسؤال السابق ، وأصل الهود الرجوع برفق ﴿ قَالَ ﴾ تعالى جوابا عن قوله إن هى إلا فتنتك ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ تعذيبه لا علة لصنعى وليس لأحد علىّ اعتراض ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ ﴾ عمت ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فى الدنيا لم تخل عنها ذرة ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ أثبتها فى الآخرة ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الكفر والمعاصى من بنى إسرائيل وغيرهم ، فخرج إبليس وأتباعه ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ خصها بالذكر لأنها كانت أشق عليهم ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا ﴾ كلها ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ فلا يكفرون بشىء منها ولا يفرقون بين أحد من رسله ، فخرج من بقى على اليهودية والنصرانية . وقيل ما تقدم لأمة موسى ، وهذا فى أمة محمد ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ ﴾ من الله ﴿ النَّبِيَّ ﴾ المخبر عن الله ، والموصول خبر مبتدإ محذوف ، أو مبتدأ خبره يأمرهم ، أو بدل من الموصول القريب بدل الكل لا البعض ، وقدم الرسول مع كونه أخص والقياس تأخيره تقديما لأشرف الوصفين ؛ ولكونه رسولا من الله نبيئا مخبرا لأمته ﴿ الْأُمِّيَّ ﴾ محمدا صلى الله عليه وسلم : منسوب إلى الأم أى من هو على جبلته لا يكتب ولا يقرأ ، صفة كمال منه ناف للريب عما أتى به فكمال علمه مع حاله إحدى من معجزاته ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ باسمه ونعته وجميع علاماته ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ يحتمل أن يكون هذا أيضا فى التوراة والإنجيل ، أو هو مدح له ابتداء منه تعالى ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ مما حرم عليهم كالشحوم ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ من الميتة والدم ولحم الخنزير والربا والرشوة ونحوها ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ ثقلهم وهو الإثم أو العهد بالعمل بأحكام التوراة . وقرأ ابن عامر آصارهم بالجمع ﴿ وَالْأَغْلَالَ ﴾ الشدائد ﴿ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ جمع غلّ وهو القيد شبهت بها التكاليف الشاقة فى شريعة موسى من بت القضاء بالقصاص ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وقطع موضع النجاسة فى الثوب والعضو ، وترك العمل فى السبت ، ولذا قال عليه السلام « بعثت بالحنيفية السهلة السمحاء » ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ﴾ منهم ﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ عظموه بالتقوية ﴿ وَنَصَرُوهُ ﴾ على أعدائه ، من عطف العام على

الخاص ، أو أريد بالتعزير لازمه وهو التوقير ﴿ وَٱتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ أى القرآن ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بكل بغية ، والمراد بالإنزال معه إنزاله مع نبوته ، أو الظرف متعلق باتبعوا أى القرآن مع اتباع النبي فى أقواله وأفعاله ، فيكون إشارة إلى اتباع الكتاب والسنة ، وهذه الآية معلمة بشرف هذه الأمة المتبعة لهذا النبي الكريم ، ويتفاوتون فى الشرف بحسب تفاوتهم فى الاتباع .قال الغزالى فى الإحياء : وإنما أمته صلى الله عليه وسلم من اتبعه ، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة ، فإنه مادعا إلاإلى الله واليوم الآخر ، وماصرف إلاعن الدنيا والحظوظ العاجلة اه . وقال الثعالبى فى الجواهر الحسان فى هذا المحل : إن أردت اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فابحث عن سيرته وخُلقه فى كتب الحديث والتفسير ، فإنه ملك من أقصى اليمن إلى أقصى الحجاز ثم توفى وعليه دين ودرعه مرهونة فى طعام أهله ، ولم يترك دينارا ولا درهما ، ولا شيد قصرا ولا غرس نخلا لنفسه ، يأكل على الأرض ويجلس على الأرض مع المساكين ، ويمشى فى الأسواق ، لا يضرب عبده ، ولا يمنع رفده ، ولا ضرب إلا فى سبيل الله ، قام لله حتى ورمت قدماه عليه وعلى آله صلاة دائمة . ﴿ قُلْ ﴾ خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ إشهار بأن شأنه مباين لسائر الأنبياء فإنه مبعوث إلى الناس كافة . وفى البخارى «بعثت إلى الأحمر والأسود» وكان كل نبى يبعث إلى قومه ﴿ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ صفة لله أو بدل ، أو مدح مرفوع أو منصوب ، أو مبتدأ خبره ﴿ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ بيان لما قبله على الوجوه الأول ، فإن مَن ملك العالم كان هو الإله لاغيره ﴿ يُحْىِ وَيُمِيتُ ﴾ زيادة تقرير لاختصاصه بالألوهية ﴿ فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِ ﴾ القرآن أو كتبه المنزلة ، وفى هذا الوصف ترغيب لهم فى الإيمان به فإنه مصدق بالكتب المنزلة على سائر الأنبياء ؛ وإنما التفت إلى الغيبة إشارة إلى أن المأمور باتباعه هو هذا الموصوف كائنا من كان إظهارا للنصفة ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ ﴾ فيما يأمركم به ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ علق رجاء الاهتداء على الإيمان به واتباعه تنبيها على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو بعد فى خطط الضلالة ، وإنما ختم الآية الأولى بالفلاح وهذه بالاهتداء لأن مضمون تلك أن المتصف بتلك الصفات مفلح ، ومضمون هذه الأمر بالاتباع للاهتداء الموصل إلى ذلك الفلاح .وقدمه فى الذكر لأنه المقصود بالذات ، ثم رجع إلى قصة بنى إسرائيل بعد الاستطراد فقال ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ ﴾ بنى إسرائيل ﴿ أُمَّةٌ ﴾ طائفة على الحق ﴿ يَهْدُونَ ﴾ الناس ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بكلمة الحق أو محقين ﴿ وَبِهِۦ ﴾ بالحق ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ بينهم فى الحكم ، والمراد بهم الثابتون على الإيمان من أهل زمان موسى ، أتبع ذكرهم ذكر أضدادهم على عادة القرآن ، أو هم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه ، والقول بأنهم قوم منهم وراء الصين مرّ بهم رسول الله ليلة المعراج فآمنوا به : ضعيف لايلتفت إليه ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ﴾ فرقنا بنى إسرائيل أو صيرناهم قطعاً متميزاً بعضهم عن بعض ﴿ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ ﴾ حال أو مفعول ثان لقطع لتضمنه معنى صيّر ،

والتأنيث للحمل على الأمة أو القطعة ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل منه ولذا جمع: أى قبائل، أو تميز وجمع لأنه بمعنى القبيلة لأن السبط ولد الولد، فلو قيل اثنتىعشرة سبطاً لفهم منه اثنا عشر فرداً وليس كذلك، فالأسباط والقبيلة كالمترادفين ﴿أُمَمًا﴾ بدل مما قبله: جماعات، أو كل قبيلة منهم كانت أمة عظيمة ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ فى التيه ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فضربه ﴿فَانبَجَسَتْ﴾ انفجرت ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ بعدد الأسباط ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ وقلنا لهم ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تقدم تفسير كلّ فىالبقرة ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بيت المقدس ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا﴾ أمرنا ﴿حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ منحنين ﴿تُغْفَرْ لَكُمْ﴾ بالتاء مبنياً للمفعول لنافع وابن عامر، وبالنون وكسر الفاء للباقين ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ بالجمع الصحيح مرفوعاً لنافع، وبالإفراد والرفع لابن عامر، وخطاياكم بجمع التكسير لأبى عمرو، والباقون بجمع مصحح منصوب ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالطاعة ثواباً ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ تقدم فى البقرة فراجعه إن شئت هناك ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ يا محمد سؤال توبيخ ليذكروا لك قبيح فعل أصولهم، وبظاهر أن لهم فى الطغيان سلفاً غير صالح ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ شأن أهلها مجاز بالحذف ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ كانت على شاطئه وهى أيلة من أعمال مصر بين مدين والطور، وقيل هى مدين وقيل هى طبرية من أعمال الشام، وفى الإخبار بهذه القصة معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم لأنه أمى ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ يتجاوزون حدود الله بالصيد ﴿فِي السَّبْتِ﴾ وقد أمروا بتركه فيه، ظرف لكانت أو حاضرة، أو بدل اشتمال من المضاف المحذوف ﴿إِذْ﴾ ظرف ليعدون ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ تعظيمهم أمر السبت، مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها بالتجرد للعبادة، وقيل اسم اليوم والإضافة لاختصاصهم بأحكام فيه ﴿شُرَّعًا﴾ ظاهرة على الماء رافعة رءوسها وهم ينظرون إليها، ويوم سبتهم بدل من بدل أو بعد بدل، وشرّعا جمع شارع من شرع علينا إذا دنا وأشرف ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ لا يعظمون السبت وهو سائر الأيام ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ ابتلاء من الله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أى مثل ذلك البلاء الشديد من تحريم العمل والصيد فى السبت وإظهار الحيتان فيه لا فىغيره ﴿نَبْلُوهُم﴾ ونحن أعلم بحالهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب خروجهم عن طاعة الله، أمرهم بتعظيم الجمعة فتركوه واختاروا السبت فابتلوا فيه بالتأويلات الباطلة وقيل كذلك متصل بماقبله أى لا تأتيهم مثل إتيانهم يوم السبت، والباء متعلق بيعدون. روى أن الشيطان وسوس إليهم: إن الله إنما نهاكم عن الصيد فى السبت لا الحيلة فيه فاتخذوا حياضاً تدخلها الحيتان يوم السبت ويصطادونها يوم الأحد. ثم تجرءوا على السبت وقالوا ما نرى السبت إلا قد حل لنا فاصطادوا وأكلوا وباعوا فيه، فافترقت القرية أثلاثاً ثلث صادوا معهم، وثلث أمسكوا ونهوا عن الصيد، وثلث

أمسكوا عن الصيد والنهي وإليهم أشار بقوله ﴿ وَإِذْ ﴾ عطف على إذ يعدون ﴿ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ ﴾ لم تصد ولم تنه لمن نهى ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فى الدنيا أو فى الآخرة، ومن ذلك الوعظ قولهم ارتدعوا فإن الله لا يمشى عليه الحيل، وإنما علموا أحد الأمرين من سنة الله فى المجرمين ﴿ قَالُوا ﴾ وعظنا ﴿ مَعْذِرَةً ﴾ نعتذر بها ﴿ إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ لئلا ننسب إلى تقصير فى ترك النهى. وقرأ حفص عن عاصم معذرة بالنصب مفعولا مطلقاً أو له ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الصيد إذ ما داموا أحياء يرجى منهم ﴿ فَلَمَّا نَسُوا ﴾ تركوا ﴿ مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ ولم يرجعوا ﴿ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾ المنكر كالصيد ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالاعتداء ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ شديد، كبيس لنافع، وكحذر لابن عامر وكرئيس للباقين، إلا أن شعبة له وجه كضيغم ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ بسبب فسقهم ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا ﴾ تكبروا ﴿ عَنْ ﴾ ترك ﴿ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ صاغرين، فكانوها وهلكوا بعد ثلاث، وظاهر الآيتين يقتضى أن الله عذبهم أولا بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمسخهم. ويجوز أن تكون الآية الثانية تفصيلا للأولى. قال ابن عباس: ما أدرى ما فعل بالفرقة الساكتة. وقال له عكرمة: لم تهلك لأنها كرهت مافعلوه وقالت: لم تعظون ... إلى آخره. وروى الحاكم عن ابن عباس أنه رجع إليه وأعجبه. وقال ابن زيد: نجت الناهية وهلكت الفرقتان، وهذه الآية أشد آية فى ترك النهى عن المنكر ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ ﴾ تفعل بمعنى أفعل أى أعلم ﴿ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ أى اليهود ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ بالذل وأخذ الجزية، فبعث الله عليهم بعد سليمان ملوك الروم وملوك فارس كبختنصر يذلونهم بتخريب الديار وقتل الرجال وسبى النساء والذرارى وضرب الجزية على من بقى منهم، وكانوا يؤدونها إلى المجوس إلى أن بعث نبينا صلى الله عليه وسلم فضربها عليهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ لمن عصاه ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ ﴾ لأهل طاعته ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهم ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ ﴾ فرقنا بنى إسرائيل بعد ذهاب ملكهم بعد سليمان ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ فى أقطارها بعد اجتماعهم بالشام فلا تجد قطراً إلا وفيه طائفة منهم، وذلك أيضاً من سخط الله عليهم لئلا يجتمعوا على كلمة فيحصل منهم ضرر وشوكة ﴿ أُمَمًا ﴾ مفعول ثان أو حال ﴿ مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ ﴾ وهم الذين لم يحرفوا وآمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ناس ﴿ دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى منحطون عن الصلاح وهم الكافرون والفاسقون ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ ﴾ بالنعم ﴿ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ النقم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن فسقهم، فإن تقلب الأحوال يورث الإنسان بصيرة وسلامة أخلاق ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ بسكون اللام بدل سوء: مصدر نعت به ولذا يقع على الواحد والجمع وهو شائع فى الشر، والخلف بفتح اللام فى الخير، والمراد به الذين كانوا فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾ أى التوراة عن آبائهم ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ ﴾ متاع ﴿ هَذَا ﴾ الشىء ﴿ الْأَدْنَى ﴾ من الدنو أو الدناءة والمراد به عيش الدنيا من حلال أو حرام فإنها أدنى شىء. ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ما فعلناه من أخذه، وجملة

« يأخذون » حال من فاعل « ورثوا » ، و « يقولون » يحتمل العطف والحال والفعل مسند إلى الجار والمجرور أو مصدر يأخذون ، وقولهم دعوى بلا دليل ﴿ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ أى هم مستمرون على الكبائر وهو استبعاد لما قالوا ، والجملة حال أى يرجون المغفرة وهم عائدون إلى ما فعلوا مصرون عليه ، وليس فى التوراة وعد المغفرة مع الإصرار ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ ﴾ استفهام تقرير ﴿ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ ﴾ الإضافة بمعنى فى ، أى فى التوراة ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ بيان للميثاق أو متعلق به أى بأن لا يقولوا على الله إلا الحق ، فخالفوا وقالوا الباطل ومنه سيغفر لنا ، والمراد توبيخهم على البت بالمغفرة مع عدم التوبة ، والدلالة على أنه افتراء على الله وخروج على ميثاق الكتاب ، وأهل السنة وإن جوزوا المغفرة لم يقطعوا بها ﴿ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ قطع لمعذرتهم : عطف على « ألم يؤخذ » معنى ، أى قد أخذ عليهم الميثاق ودرسوا ما فى الكتاب ، أو على « ورثوا » وما بينهما اعتراض ﴿ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الحرام مما يأخذ هؤلاء . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالخطاب لنافع وابن عامر وحفص عن عاصم ، وبالغيبة للباقين ، أى ولو عقلوا لعلموا أنها خير وآثروها على الأدنى ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لأبى بكر ﴿ بِالْكِتَابِ ﴾ منهم ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ، والموصول عطف على الموصول قبله ، أو مبتدأ خبره ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ أى أجرهم ، وضع الظاهر موضع المضمر إعلاماً بأن المصلحين هم المتمسكون بالكتاب وأن المانع من الإضاعة هو الإصلاح ، وأفرد إقامة الصلاة إنافة لها على سائر أنواع المتمسكات والله أعلم ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ رفعناه من أصله ﴿ فَوْقَهُمْ ﴾ وأصل النتق الجذب ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ سقيفة وهى كل ما أظلك ﴿وَظَنُّوا﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ ساقط عليهم لأن الجبل لا يثبت فى الجو ، ولوعد الله إياهم بوقوعه إن لم يقبلوا أحكام التوراة وكانوا أبوها لثقلها فقبلوا . وقلنا لهم ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ بجد واجتهاد ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ بالعمل به ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق ، فخروا ساجدين على حاجبهم الأيسر ينظرون بعينهم اليمنى فرقاً من سقوطه ، فلذا ترى اليهود يسجدون على الجانب الأيسر ويقولون هى السجدة التى كانت سبباً لرفع العذاب عنا . ولما ذكر نقض اليهود العهد الخاص بهم والميثاق المكتوب عليهم فى التوراة أردفه بالميثاق العام فى عالم الذر فقال ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ ﴾ حين ﴿ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ بدل اشتمال مما قبله بإعادة الجار . قاله السيوطى ، أو بدل بعض قاله البيضاوى ﴿ ذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ بالجمع لنافع وأبى عمرو وابن عامر وبالإفراد للباقين ، بأن أخرج بعضهم من صلب بعض من صلب آدم نسلا بعد نسل أحياه من ثقب المسام إذ تحت كل شعرة سم كنحو ما يتوالدون كالذر بنعمان يوم عرفة ، ونصب لهم دلائل على ربوبيته وركب فيهم عقلا ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ قال ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ أنت ربنا ، أى فأقروا بذلك بالنطق لا بكلام الحال والتزموه ، وأعلمهم أنه سيبعث الرسل إليهم مذكرة

لهذا العهد . وقيل هو من باب التمثيل أى تشبيه الحال بالحال ، وذلك أن الله لما ركب فيهم البصائر والعقول المميزة بين الحسن والقبيح ونصب لهم دلائل التوحيد وبثها فى الآفاق والأنفس بحيث لم يبق لهم معذرة فكأنه خاطبهم شفاهاً وأقروا له كفاحاً ، وهذا الإقرار هو الفطرة التى يولد عليها كل مولود ، وهذا القول الثانى هو قول أهل الكلام والنظر . والأول كما فى لباب التأويل هو المختار لأنه مذهب جمهور المفسرين من السلف وردت الأحاديث بذلك ، وما تقدم من أن العهد كان بنعمان كسحبان «واد وراء عرفة» وهو نعمان الأراك هو مما روى عن ابن عباس . وقيل كان بالهند ، وقيل فى الجنة . قال الشعرانى : وكل هذه محتملة ولا يضرنا الجهل بالمكان بعد صحة الاعتقاد بأخذ العهد ، وهل الذرات صورت بصور الإنسان أم لا لم يبلغنا دليل فى ذلك ، وهل ردهم إلى ظهر آدم أحياء أم قبض الأرواح ثم ردهم أمواتاً وهو الظاهر قياساً على ردهم إلى الأرض ورجعت الأرواح إلى حيث كانت كالذرات . وقد جاء فى الحديث أن كتاب العهد أودع فى باطن الحجر الأسود وأن للحجر الأسود عينين وفماً ولساناً . اه . ﴿ شَهِدْنَا ﴾ على أنفسنا بهذا الإقرار فهو من كلام الذرية ، وقيل من الملائكة قال الله لهم اشهدوا فقالوا شهدنا على إقرارهم . والإشهاد ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ لأن لا أو كراهة أن تقولوا بالتاء للجمهور والياء لأبى عمرو فى الموضعين ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا ﴾ التوحيد ﴿ غَافِلِينَ ﴾ لا نعرفه ولا عتاب على الغافل ؛ وإنما نسى بعضنا العهد لأن تلك البنية تغيرت أحوالها بمرور الزمان عليها فى أصلاب الآباء وأرحام الأمهات . وقال على بن أبى طالب : إنى لأتذكر العهد الذى عهد إلىّ ربى . وكذا كان يقول سهل بن عبد الله وزاد بأنه يعلم تلامذته من ذلك اليوم والله أعلم ﴿ أَوْ تَقُولُوا ﴾ عطف على أن تقولوا ﴿ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ قبلنا ﴿ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ولم يسعنا إلا الاقتداء بهم ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا ﴾ تعذبنا ﴿ بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ من آبائنا بتأسيس الكفر ، المعنى لا يمكنهم الاحتجاج بذلك مع إشهادهم على أنفسهم بالتوحيد والتذكير به على لسان صاحب المعجزة لأنه قائم مقام ذكره فى النفوس ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل هذا التفصيل البليغ لما تقدم من الميثاق وغيره ﴿ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ نبينها ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن التقليد واتباع الباطل . والضمائر إما لكافة الناس لاندراج بنى إسرائيل فيهم ، أو خاصة ببنى إسرائيل لأن سوق الكلام لهم ، والمقصود بالآيات إلزامهم الميثاق العام بعد إلزامهم بالميثاق المخصوص بهم والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية ومنعهم عن التقليد وحملهم على النظر والاستدلال ﴿ وَاتْلُ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على بنى إسرائيل ﴿ نَبَأَ ﴾ خبر ﴿ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ هو أحد علماء بنى إسرائيل ، أو أمية بن الصلت كان قد قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسل رسولا فى ذلك الزمان فلما بُعث محمد حسده وكفر به ، أو هو بلعم بن باعوراء من الكنعانيين أوتى علم بعض كتب الله كصحف إبراهيم ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ من الآيات بأن كفر بها وأعرض عنها . قيل سئل بلعم أن يدعو على موسى لما أقبل إلى قومه بالغزو وأهدى إلى بلعم مال فدعا فانقلب عليه واندلع لسانه على

صدره ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ فأدركه فصار قرينه ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ الضالين . وفي قصة بلعم روايات كثيرة لا يصح إسنادها ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ ﴾ إلى منازل العلماء ﴿ بِهَا ﴾ بأن نوفقه للعمل ﴿ وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ركن وسكن ومال إلى الدنيا وشهواتها ، والدنيا كلها هي الأرض إذ فيها المدن والضياع والمعادن والنبات الذي يعاش به ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ في الدعاء إليها بإيثارها ، واسترضاء قومه والإعراض عن مقتضى الآيات ، فوضعناه لإيثاره الفانى على الباقي ﴿ فَمَثَلُهُ ﴾ صفته وحاله الخسيسة ﴿ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ كحاله ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ ﴾ بالطرد والزجر ﴿ يَلْهَثْ ﴾ يدلع لسانه ﴿ أَوْ ﴾ إن ﴿ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ لضعف فؤاده وليس غيره من الحيوان كذلك . والشرطية في موضع الحال ، والمعنى لاهثاً في الحالتين ، وكذلك الضلال في المشبه لازمه بمقتضى مشيئة الله تعالى وعظ أو لم يوعظ ، هذا هو المراد بالتشبيه عند الجمهور ، وهو التشبيه في الوضع والخسة بقرينة الفاء المشعرة بترتب ما بعدها على ما قبلها من الميل إلى الدنيا واتباع الهوى . وقال السدي : التشبيه على ظاهره لأنه لما دعا على موسى خرج لسانه حتى وقع على صدره ، ويؤيد الأول قوله ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي كل من كذب بآيات الله هذا مثله فهو ضال في كل حال ﴿ فَاقْصُصِ ﴾ على اليهود ﴿ الْقَصَصَ ﴾ التي فيها الغيوب التي لا يعلمها إلا من وقف على الكتب الماضية ولست منهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في ذلك فيؤمنون ، أو لعلهم يتفكرون في قصة من انسلخ من الآيات فإنهم على وصفه فيؤديهم إلى الحذر من سوء العاقبة . قال عبد الحق الأشبيلي : اعلم رحمك الله أن لسوء الخاتمة أسباباً أعظمها الإكباب على الدنيا والإعراض عن الآخرى . ولما شبه من انسلخ من آيات الله لحطام الدنيا بحال الكلب أردفه بما وضع لإنشاء الذم مبالغة في التحذير فقال ﴿ سَاءَ ﴾ بئس ﴿ مَثَلًا الْقَوْمُ ﴾ أي مثل القوم ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ بعد قيام الحجة عليها وعلمهم بها ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ بالتكذيب ، عطف على كذبوا داخل في الصلة ، أي جمعوا بين التكذيب وظلم أنفسهم ، أو منقطع ، والمعنى لم يظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم لا يتخطاها وباله ، ولذا قدم المفعول ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وهو كالبيان لقوله « ولو شئنا لرفعناه بها » وأفرد الضمير في الأول وجمع في الثاني باعتبار اللفظ والمعنى ، إشارة إلى أن المؤمنين كواحد لاتحاد طريقهم ، وفي الاقتصار على الاهتداء إيماء إلى أنه وصف شريف لا يحتاج إلى أمر آخر ، وهذا كالف المعكس لقوله « وممن خلقنا أمة يهدون بالحق » ، وقوله ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾ خلقنا ﴿ لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ هم أهل الطمع والريب الذين حقت عليهم كلمة العذاب . قال في لباب التأويل : وفي الآية دليل لمذهب أهل السنة أن الله خلق أعمال العباد جميعها خيرها وشرها ؛ لأن الله تعالى بيّن بصريح اللفظ أنه خلق كثيراً من الجن والإنس للنار ، ولا مزيد على بيان الله ؛ لأن العاقل لا يختار لنفسه دخول النار ، وكلما عمل بما يوجب عليه دخول النار علم أن له من يضطره إلى ذلك العمل الموجب لدخول النار وهو الله . اهـ .

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ أى عقول من إطلاق المحل على الحال ﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الحق ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ دلائل قدرة الله بصر اعتبار فى الآفاق والأنفس ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ ﴿أُولَـٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ فى عالم الفقه، والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر أو فى أن مشاعرهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام لأنها تطلب منافعها وتهرب من مضارها غاية جهدها وهؤلاء يقدمون على النار معاندة بارتكاب مسالكها مع العلم ﴿أُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون فى الغفلة كالتأكيد للأولى ولذا لم يدخل العاطف، وإنما قدم البصر هنا والسمع فى سائر الآيات لكون الآية مسوقة للتشبيه بالأنعام وهى بفقد البصر أشد تضررا من فقد السمع لأن مدار تعيشها فى طلب الماء والكلإ على حاسة البصر: والآية تذييل لقصة اليهود وفيها تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم من الذين لا تنجع فيهم الآيات والنذر لكونهم مخلوقين للنار ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ التسعة والتسعون الوارد بها الحديث، والحسنى مؤنث الأحسن لأنها تدل على أحسن المعانى، وفيه أن الاسم غير المسمى لأن الأسماء جمع والله واحد، والاسم عبارة عن اللفظ الدال على الشىء المسمى به فهو غيره، والمراد بالأسماء هنا حينئذ الألفاظ، وقيل الصفات القائمة فإنها يطلق عليها الاسم يقال طار اسمه فى الآفاق والمراد وصفه الحسن ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ سموه بتلك الأسماء التى سمى بها نفسه أو سماه بها رسوله: ففيه دليل على أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية تسميته جواداً لا سخيا وعالما لا عاقلا ومن أسمائه ما ورد فى القرآن ومنها ما ورد فى الحديث وتواتر، وهذا هو الذى ينبغى أن يعتمد عليه، أو المراد فاسألوه بها وقولوا يا رحيم ارحمنا يا رزاق ارزقنا يا هادى اهدنا، وللدعاء شرائط: منها أن يعرف الداعى معانى الأسماء التى يدعو بها، ويستحضر فى قلبه عظمة المدعو سبحانه، ويخلص النية فى دعائه مع كثرة التعظيم، ويعزم المسألة مع اعتقاد الإجابة، ويعترف لله بالربوبية وعلى نفسه بالعبودية ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ من ألحد للجمهور ولحد لحمزة: اتركوا الذين يميلون عن الحق ﴿فِي أَسْمَائِهِ﴾ فى تسميته بما لا توقيف فيه، كقول أجلاف العرب له يا أبا المكارم، أو ما يوهم معنى فاسداً كقولهم يا أبيض الوجه، أو اشتقاق أسماء منها لآلهتهم كاللات من الله والعزى من العزيز ومناة من المنان: أى لا توافقوهم عليه ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ فى الآخرة جزاء ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وعيد وتهديد لمن ألحد فى أسمائه، ولما ذكر أنه خلق طائفة ضالين ملحدين عن الحق للنار ذكر أنه خلق أيضا للجنة أمة هادين بالحق عادلين فى الأمر بقوله ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم كما فى حديث عن ابن عباس، والتركيب يدل على قلتهم. وفى الصحيحين «لا يزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله» قال فى لباب التأويل: وفى الآية دليل على أنه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به ويهدى إليه اهـ. قلت هذا الحديث أوضح فى ذلك والله أعلم. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ القرآن من أهل مكة وغيرهم ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾

سنستدنيهم إلى الهلاك قليلا وأصل الاستدراج الاستصعاد أو الاستنزال درجة ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما يراد بهم ، وذلك بأن تتوافر النعم عليهم فيظنوا أنها لطف من الله بهم استحقوها لمعنى فيهم ، فيزدادوا بطراً وانهماكا فى الغىّ حتى يحق عليهم كلمة العذاب ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أمهلهم ليزدادوا إثما ﴿ إِنَّ كَيْدِي ﴾ أخذى ﴿ مَتِينٌ ﴾ شديد لا يطاق سماه كيدا لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان ، والمتين مأخوذ من المتن وهو الظهر لشدة أعظمه ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ فيعلموا ﴿ مَا بِصَاحِبِهِمْ ﴾ محمد ﴿ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ حالة ما من الجنون ، وعبر عنه بالصاحب لأن المصاحبة تظهر ما كمن من الأخلاق فلو كان به جنون لم يخف عليهم بعد طول الصحبة ، رد على من قال من الكفار إن صاحبكم بات يصوّت إلى الصباح ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ واضح الإنذار بحيث لا يخفى على ناظر ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ نظر استدلال ﴿ فِي مَلَكُوتِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ملكهما الأعظم ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ بيان لما أى من الأجناس التى لا يمكن حصرها فيستدلوا بذلك على قدرة صانعه ووحدانيته من جهات شتى ، والاستفهام فى الموضعين للتعجيب من حال المكذبين وتماديهم فى الغفلة ﴿ وَ ﴾ فى ﴿ أَنْ ﴾ أنه ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ ﴾ قرب ﴿ أَجَلُهُمْ ﴾ فيموتوا كفارا فيصيروا إلى النار ، أى أفلا ينظروا هذا فيبادروا إلى الإيمان ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ ﴾ القرآن ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية فى البيان ، كأنه إخبار عنهم بالطبع والتصميم على الكفر بعد إلزام الحجة والإرشاد إلى النقل ، أو الضمير فى بعده للنبى صلى الله عليه وسلم ، أو للأجل أى بعد الأجل إذ لاعمل بعد الموت ، ثم ذكر علة إعراضهم عن الإيمان على الحقيقة فقال ﴿ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ كالعلة لما تقدم ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ بالنون مع الرفع استئنافا للجمهور والياء لأبى عمرو وعاصم مع الرفع أيضا والجزم عطفا على محل ما بعد الفاء لحمزة والكسائى ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يترددون تحيرا ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ الوقت الذى يموت فيه جميع الخلائق وهى القيامة ، غلبت عليها لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو لأنها على طولها كساعة عند الله ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ متى ثبوتها ووقوعها ، وأيان فعلان من أى لأن معناه أىّ وقت ولا يستفهم به إلا شىء عظيم الشأن فى زمان مستقبل ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ استأثر به لم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ﴿ لَا يُجَلِّيهَا ﴾ لا يظهر أمرها ﴿ لِوَقْتِهَا ﴾ أى فيه ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ أو المعنى الخفاء مستمر على غيره إلى وقت وقوعها فاللام للتأنيث ﴿ ثَقُلَتْ ﴾ عظمت ﴿ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ على الملائكة والثقلين لهولها وكأنه إشارة إلى حكمة إخفائها ، وإنما ثقلت عليهم لأن فيها فناءهم وذلك ثقيل على القلوب ؛ إذ السماء تنشق ، والأرض تندك ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ لحديث الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » الحديث ، والحكمة فى ذلك استدامة الخوف والحذر

فى كل لحة ﴿ يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ ﴾ مبالغ فى السؤال والبحث ﴿ عَنْهَا ﴾ حتى علمتها أو فرح بالسؤال عنها والحال أنك تكره ذلك أو مكرم لهم بتعليم وقتها لقرابتهم والحال لو حصل لك علمها لم تكن تخص بها كما فى سائر الأحكام ، وعلى التقديرين الآخرين فمنها صلة يسئلونك ، يقال حفى به كرضى حفاوة وحفاية بالغ فى إكرامه وأظهر السرور والفرح وأكثر السؤال عن حاله فهو حاف وحفى كغنى انظر القاموس ، وعلى كل التقادير «كأنك» فى موضع الحال ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ كرره تأكيدا لكثرة سؤالهم عنها ، وليس فى يسئلونك تكرار لأن الاول غير مقيد بقيد الثانى ، أو لأن الأول عن وقت قيامها والثانى عن أحوالها فى ثقلها وشدائدها . وقال فى جواب الأول عند ربى وفى الثانى عند الله لأنه أعظم لمجيء فيه بالاسم الأعظم ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن علمها عنده ؛ أولا يعلمون السبب الذى لأجله أخفى علمها ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا ﴾ أجلبه ﴿ وَلَا ضَرًّا ﴾ أدفعه فإذا لم يكن لى علم بما يتعاقب على نفسى التى هى أقرب الأشياء إلى فكيف العلم بالساعة ، وهذا منه إظهار للعبودية والتبرى عن ادعاء علم الغيب وهو الواجب على كل مسلم ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ من ذلك فيلهمنى إياه ويوفقنى له ، استثناء منقطع أومتصل على التأويل وسبق أمثاله ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ ما غاب عنى قبل إطلاع الله ﴿ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ من الأشياء النافعة فى الدين والدنيا فقط ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ الضر والفقر والجوع لأنى أدفعه قبل حصوله بأسباب دافعة أى لما عرض مرض يمنعنى عن العبادة ونحوها ، وقدم استجلاب الخير على دفع الضر مع أن دفع المفاسد مقدم لأن النفوس القدسية مطمح نظرها الأمور الدينية ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ للكافرين بالنار ﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ بالجنة ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى لا يخالف حالى حال الناس إلا فى هذين الوصفين ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ آدم ، هذا قول الجمهور أو المراد بالنفس الجنس خطاب لمشركى مكة بما فيه الامتنان على الوجهين ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ حواء خلقت من ضلعه الأعوج وكل رجل امرأته منه أى من جنسه ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ ويألفها ويميل إليها فإن الشيء إلى جزئه أو جنسه يميل ، وذكر الضمير العائد إلى النفس ذهابا إلى المعنى إذ المراد آدم وليناسب قوله ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ جامعها لأن الغشيان كناية عن الوقاع وهو فعل الزوج ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ خف عليها حمله لم تتعب به كسائر الأحمال أو محمولا خفيفا وهو النطفة ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ ذهبت وجاءت لخفته أو استمرت به من غير إزلاق ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ صارت ذات ثقل لكبر الولد ﴿ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا ﴾ ولدا ﴿ صَالِحًا ﴾ ذا صلاح ودين أو سويا لا نقص فى خلقه ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لتلك النعمة ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا ﴾ ولدا ﴿ صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شِرْكًا ﴾ بكسر الشين والتنوين أى شريكا لنافع وأبى بكر ، ولغيرهما شركاء بضم الشين جمع ﴿ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ قال المفسرون بتسميته عبد الحارث والحارث اسم إبليس ، ولا ينبغى أن يكون عبداً إلا لله ، وليس بإشراك فى العبودية لعصمة آدم . وأيد ذلك السيوطى وغيره بحديث سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان

لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره» رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ، والترمذي وقال حسن غريب . اهـ . قال ابن العربي في الأحكام : هذا الحديث ونحوه مذكور في ضعيف الحديث في الترمذي وغيره وفي الإسرائيليات التي لا يعول عليها من له قلب ، فإن آدم وحواء وإن غرهما بالله الغرور فلا يلدغ مؤمن من جحر مرتين . والقول الأشبه بالحق هو أن المراد جنس الآدميين فإن من حالهم في الحمل إذا ثقل عليهم نذروا فيه كل نذر وإذا ولد لهم الولد جعلوا فيه لغير الله شركا إلا من عصمه الله . قال الثعالبي : ينزه آدم وحواء عن طاعتهما إبليس ، ولم أقف على صحة ما روى في هذه القصص ولو صح لوجب تأويله . اهـ . وفي غاية الأماني : والأولى في تفسير الآية تقدير مضاف أي جعل أولادهما له شركا ، وإنما أسند الجعل إليهما لعلاقة السببية ، والمعنى وفيا بموجب الشكر ولكن تسببا في إحداث الشركاء ، وعلى هذا يظهر وجه قراءة شركاء ممدودا ويتضح تفريعه ﴿ فَتَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي الأولاد ، وعلى الأول فالفاء فصيحة والضمير لأهل مكة أي ما يشركون به من الأصنام ، والجملة مسببة عطف على خلقكم وما بينهما اعتراض . قلت وعلى تقدير المضاف درج البيضاوي ﴿ أَيُشْرِكُونَ ﴾ به في العبادة ﴿ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ استبعاد لأن يكون مثله معبودا ، وإنما أتى بضمير العقلاء لزعمهم الألوهية فيها ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ الأصنام ﴿ لَهُمْ ﴾ للمشركين ﴿ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ بمنعها ممن أراد بهم سوءا من كسر أو غيره ، وفيه الترقي في العجز ، والاستفهام للتوبيخ ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ ﴾ أي الأصنام ﴿ إِلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ الاهتداء إلى اتباعكم ﴿ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ بالتخفيف لنافع والتشديد لغيره أي إلى مرادكم لا يجيبوكم كما يجيبكم الله لعدم الإدراك فيها فهي عن الهداية والألوهية أبعد ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ ﴾ لدى الحاجات والمخاوف ﴿ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ مستمرون على الصمت ، وإنما عدل إلى الاسمية لأن الدعاء لا يكون إلا في أوقات الحوائج بخلاف الصمت ، وقيل الخطاب للمؤمنين أي إن تدعوا الكفار إلى الهدى والإسلام لا يتبعوكم لأن الله أضلهم والله أعلم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ تعبدون ﴿ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ ﴾ مملوكة ﴿ أَمْثَالُكُمْ ﴾ مسخرون لعبادته «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» ﴿ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ فيما تدعونهم إليه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنها آلهة ، وفيه إشارة إلى الفارق ، أي وإن كانوا مثلكم في نفس العبودية لكنها دونكم في الإدراك وصدور الأفعال . ثم صرح بذلك فقال ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ﴾ إلى النصرة إذا دعوا ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ﴾ الخاصم عند الحضور ﴿ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ للتوقي عن المكائد ﴿ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ المشاورة بعد فقد الآلات فيوردون ما عندهم من الرأي : استفهام إنكار أي ليس لهم شيء من ذلك مما هو لكم فكيف تعبدونهم وأنتم أتم حالا منهم ، ولا يخفى عليك الترتيب على هذا النمط لم كان ؟ لأن المدعو للنصرة أول ما يحتاج إليه آلة المشي وهي الرجل ثم آلة الضرب وهي اليد ثم آلة التوقي عن المكائد وهي البصر ثم آلة المؤامرة إن فقدت الآلات والله أعلم

﴿ قُلِ ﴾ لهم يا محمد ﴿ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ إلى إهلاكى تهكم بهم ﴿ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ تمهلونى فإنى لا أبالى بكم لوثوق بولاية الله وحفظه ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ ﴾ الذى يتولى أمورى هو ﴿ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ﴾ المعجز فهو قادر على إعجاز من يخاصمنى ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ دائماً فكيف بالأنبياء والرسل فلا يضرهم من عاداهم وكادهم بشرّ ، وفى هذا مدح الصالحين بأن الله تولى حفظهم فلا يضرهم شىء ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ فكيف أبالى بهم فهو من تمام التعليل لعدم المبالاة ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ ﴾ أى الأصنام أو الكفار ﴿ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ يقابلونك كالناظر ﴿ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ يشبهون الناظر صورة ولا إبصار لهم ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ السهل من الأمور ولا تعسّر للناس فى أفعالهم وأخلاقهم ، خذ ما عفا ودع ما يشق ولا تبحث عن أخلاقهم وهو أدعى إلى الاتباع ، أو خذ العفو عن المذنبين ، أو الفضل من أموال الناس فى الصدقات ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ المعروف من الدين ولا تتركه لموافقة أحد ، واكتفى به عن ذكر النهى عن المنكر إذ هو داخل فيه ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ إن بدا منهم شىء يسوءك ولا تقابلهم بسفههم إن لم يكن فيه هتك حرمات الله ، فالآية جامعة لمكارم الأخلاق ، وجاء فى تفسيرها عن الله : أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك . قال عبد الرحمن الثعالبى فى جواهره : هذه الآية وصية من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم تعم أمته ، وأخذٌ بجميع مكارم الأخلاق . قال الجمهور معنى خذ العفو : اقبل من الناس فى أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما أتى عفواً دون تكلف ، إلى أن قال : ففى الآية كل خلق حسن ، لأن فى أخذ العفو صلة القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، وإعطاء المانعين . وفى الأمر بالمعروف تقوى الله وطاعته وصلة الرحم ، وصون الجوارح عن المحرمات . وفى الإعراض : الصبر والحلم ، وتنزيه النفس عن مخاطبة السفيه وغير ذلك من الأفعال المرضية . اهـ . ولما قدم عيينة بن حصن للوصول إلى عمر بن الخطاب قال لابن أخيه حر بن قيس بن حصن : استأذن لى على عمر ، وكان ابن أخيه من القراء الذين يدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته ، فاستأذن له فأذن له عمر ، فقال : هى يا ابن الخطاب : فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل . فغضب عمر حتى همّ به ، فقال له الحر : يا أمير المؤمنين إن الله قال لنبيه خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، وإن هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافاً عند كتاب الله ، أخرجه البخارى . وقوله هى بكسر الهاء وسكون الياء كلمة تهديد ، والجزل : العطاء الكثير ، ومعنى وقافاً عند كتاب الله : لا يتجاوز حكمه والعمل به . وعن عائشة : لما نزلت قال عليه السلام « كيف والغضب يعترى الإنسان » فنزل ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ أى ينخسنك نخس بمعنى صرفك عما أمرت به صارف بوسوسته ، وأصل النزغ الطعن ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ جواب الشرط وجواب الأمر محذوف أى يدفعه عنك ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ ﴾ للقول ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالفعل فيجازى عليه ، أو سميع

استعاذتك ، عليم ما فيه صلاح أمرك فيحملك عليه فيغنيك عن الانتقام ومشايعة الشيطان ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ أصابهم ﴿ طَائِفٌ ﴾ ولابن كثير وأبي عمرو والكسائي طيف ، أي شيء ألم بهم ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ المراد به الجنس ولذا جمع الضمير بعد ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ عقاب الله وثوابه أو ما أمر الله به ونهى عنه ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ بذلك التذكر مكائد الشيطان ومواقع الخطأ فيحترزون عنها ولا يتبعونه فيها . وعبر عن العلم الحاصل بعد التذكر بالإبصار مبالغة في تيقنهم به . والآية تعليل للأمر بالاستعاذه . وبأنه عادة قديمة لعباده المتقين وتأكيد لما قبلها ، وكذا قوله ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ ﴾ أي إخوان الشياطين من الكفار والفساق الذين لم يتقوا ﴿ يَمُدُّونَهُمْ ﴾ أي الشياطين ﴿ فِي الْغَيِّ ﴾ في الضلالة بالتزيين . قرأ نافع يمدونهم بضم الياء من أمده والباقون بفتحها من مده بمعنى واحد ، يقال : مد النهر الساقية ، وأمدها زادها ، بمعنى تعينهم الشياطين بالتزيين وهم يعينونها بالاتباع والامتثال ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ الإخوان والشياطين معاً : لا يكفون عنه بالتبصر كما تبصر المتقون ، ولا يمسك الشياطين عن إغوائهم حتى يوردوهم مورد الهلاك ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ ﴾ أي أهل مكة ﴿ بِآيَةٍ ﴾ مما اقترحوا ﴿ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ أنشأتها من قبل نفسك ، يقال اجتبى الكلام : اختلقه ، أو من الجباية إخراج الشيء من مظنته ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ وليس من شأني الاختراع واقتراح الآيات ﴿ هَٰذَا ﴾ القرآن ﴿ بَصَائِرُ ﴾ حجج ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ولما ذكر أن القرآن رحمة المؤمنين دلهم على طريق الوصول إليه وهو الاستماع إليه والإنصات بقوله ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ عن الكلام ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ نزلت في منع الكلام في الصلاة ، كانوا يتكلمون فيها ، وعبر عنها بالقرآن لاشتمالها عليه ، وقيل في قراءة القرآن مطلقاً لأن الآية تتضمن تعظيم القرآن ، فيجب الإنصات والاستماع على كل حال ، وقيل في الخطبة للجمعة وهو ضعيف ، لأن الآية مكية ولم تكن الخطبة إلا بالمدينة ، وقيل في القراءة في الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورجح المالكية والحنبلية القراءة خلف الإمام في السرية لا في الجهرية للآية وعمل أهل المدينة ، ورجح الشافعية قراءة الفاتحة مطلقاً ، والحنفية عدم القراءة خلف الإمام مطلقاً ولكل أدلة ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ ﴾ بجميع الأذكار من القراءة والدعاء والتسبيح والتقديس وغير ذلك ﴿ فِي نَفْسِكَ ﴾ سراً بملاحظة جلال الله وعظمته وهو ذكر القلب ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ تذللا ﴿ وَخِيفَةً ﴾ خوفاً منه ﴿ وَ ﴾ اذكر ربك أيضاً فوق السر ﴿ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أي قصداً بينهما وهذا هو ذكر اللسان وهذه مرتبة السر ، والمخافتة بأن تسمع نفسك ولا يسمعك غيرك فإنه أبعد من الرياء وأقرب إلى القبول وأدخل في الخشوع والإخلاص . وقال الفخر : المراد بقوله في نفسك كونه عارفاً بمعاني الأذكار التي يقولها بلسانه مستحضراً لصفات الجلال والعظمة . اهـ . وقال في لباب التأويل : وها هنا لطيفة وهي الإشعار بقرب العبد من الله وهو مقام الرجاء ، لأن لفظ الرب مشعر بالتربية والرحمة والفضل والإحسان ، فإذا ذكر العبد

إنعام الله عليه وإحسانه إليه فعند ذلك يقوى عنده مقام الرجاء، ثم أتبعه بقوله « تضرعاً وخيفة » وهذا مقام الخوف فإذا حصل الخوف والرجاء فى قلبه قوى إيمانه . والمستحب أن يكون الخوف أغلب عليه فى الصحة والقوة فإذا قارب الموت بعلاماته غلب الرجاء . دخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو فى الموت فقال : كيف تجدك ؟ قال أرجو الله وإنى أخاف ذنوبى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو منه وأمنه مما يخاف . أخرجه الترمذى اهـ ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أوائل النهار وأواخره لأنهما أشرف الأوقات ومظان الإجابات ، وقيل فى جميع الأوقات عبر عنها بذكر الطرفين ويدل عليه قوله ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ عن ذكر الله وعن كل ما أمرت به ، وينبغى أن لا يغفل الإنسان لحظة عن استحضار جلال الله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية ، لأن بين الروح والبدن علاقة ، فكل أثر حصل فى البدن يصعد منه نتائج إلى الروح . قال بعض الحكماء :

الرُّوحُ مِنْ عِنْدِ رَبِّ الْعَرْشِ مَبْدَؤُهُ ۞ وَتُرْبَةُ الْأَرْضِ أَصْلُ الْجِسْمِ وَالْبَدَنِ
قَدْ أَلَّفَ الْمَلِكُ الْجَبَّارُ بَيْنَهُمَا ۞ لِيَصْلُحَا لِقَبُولِ الْأَمْرِ وَالْمِحَنِ
فَالرُّوحُ فِى غُرْبَةٍ وَالْجِسْمُ فِى وَطَنٍ ۞ فَلْتَعْرِفَنَّ ذِمَامَ النَّازِحِ الْوَطَنِ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ مكانة ومنزلة لا مكاناً ومنزلا وهم الملائكة ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾ ينزهونه عما لا يليق به ﴿ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ أى يخصونه بالخضوع والعبادة فكونوا مثلهم . وفى التقديم إفادة الحصر والتعريض بمن يشرك فى عبادته ، وذكر التسبيح والسجود وإن دخلا فى العبادة ليخبر عن صفة عبادتهم وينبه على أعمال القلوب بالتسبيح الذى هو تنزيه الله بالقلب وعلى أعمال الجوارح بالسجود الذى هو أفضل ما يقرب بين العبد وربه ؛ ولذا أمرنا بالسجدة فى هذا المحل وهو أول سجدة فى القرآن . وسجود التلاوة سُنة عند مالك والشافعى ، وأوجبه أبو حنيفة بشرط الطهارة إجماعاً بلا إحرام ولا سلام عند الأئمة الأربعة . وفقنا الله لما يحبه ويرضاه .

[تم تفسير سورة الأعراف]

سورة الأنفال

مدنية ـ إلا (وإذ يمكر بك ...) الآيات السبع فمكية
خمس أو ست أو سبع وسبعون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لما اختلف المسلمون فى غنائم بدر فقال الشبان هى لنا لأنا باشرنا القتال، وقال الشيوخ كنا ردءا لكم تحت الرايات ولو انكشفتم لفئتم إلينا فلا تستأثروا بها: نزل ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ يا محمد ﴿ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ الغنائم لمن هى، جمع نفل بفتحتين وأصله الزيادة لأنها زيادة شرف لهذه الأمة، لأنها كانت محرمة على من قبلها ﴿ قُلِ ﴾ لهم ﴿ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ يجعلانها حيث شاءا فقسمها صلى الله عليه وسلم بينهم على السواء، رواه الحاكم فى المستدرك. وفى البخارى عن ابن عباس: سورة الأنفال نزلت فى بدر. وفى أبى داود والنسائى: لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا فتسارع فى ذلك شبان الرجال وبقى الشيوخ تحت الرايات. فلما كانت الغنائم جاءوا يطلبون الذى جعل لهم فقالت الشيوخ لا تستأثرون علينا فإنا كنا ردءاً لكم لو انكشفتم، فأنزل الله يسئلونك عن الأنفال ـ إلى قوله ـ إن كنتم مؤمنين. اهـ. وفى مسلم والترمذى وأبى داود عن سعد بن أبى وقاص « لما كان يوم بدر جئت بسيف فقلت يا رسول الله إن الله قد شفى صدرى من المشركين هب لى هذا السيف، فقال: هذا السيف ليس لى ولا لك، فقلت عسى أن يعطى من لا يبلى بلائى، فجاءنى الرسول فقال إنك سألتنى وليس لى وإنه قد صار لى فهو لك، فنزلت « يسئلونك عن الأنفال » الآية. اهـ وقال محمد بن إسحق: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فى العسكر فجمع فاختلف المسلمون فيه، فقال من جمعه: هو لنا، وقال الذين يقاتلون العدو: لولا نحن ما أصبتموه، وقال الذين يحرسون الرسول والرايات خفنا على رسول الله وقمنا دونه فما أنتم بأحق به منا، فنزلت هذه الآية. وقال عبادة بن الصامت: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله فقسمه بيننا على سواء، وكان فيه تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين كما قال تعالى ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أى حقيقة ما بينكم بالمودة وترك النزاع وتسليم أمر الغنائم إلى الله ورسوله، أو الحال التى بينكم بالمساواة فيما رزقكم الله. قال ابن عطية: وقع فى نفوس أهل بدر ما يقع فى نفوس البشر من إرادة الأثرة لا سيما من أبلى، فأنزل الله الآية فرضى المسلمون وسلموا فأصلح الله ذات بينهم ورد عليهم غنائمهم، وكان هذا الحكم لرفع الشغب، ثم نسخ

بقوله تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه » وهذا أولى الأقوال وأوضحها . اه .
﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ حقا فإن الإيمان يقتضى طاعة الأوامر واتقاء المعاصى وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان . ثم بين صفات المؤمنين بقوله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى الكاملون فى الإيمان ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ﴾ أى وعيده ﴿ وَجِلَتْ ﴾ خافت ﴿ قُلُوبُهُمْ ﴾ فرقا من جلاله واستعظاما لسطوته ، ولا ينافيه قوله « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » لأن ذلك باعتبار صفة جماله وسعة رحمته ، ولذا كان العبد واقفا بين الخوف والرجاء ، وقيل المراد إذا همّ الرجل منهم بمعصية فقيل له اتق الله انزجر عنها خوفا من عقابه . وفى لباب التأويل : إنما للحصر ، والمعنى ليس المؤمنون الذين يخالفون الله ورسوله إنما المؤمنون الصادقون فى إيمانهم الذين إلى آخره .اه ، وفى الجواهر «إنما» لفظ لا يفارقه المبالغة والتأكيد حيث وقع ويصلح مع ذلك للحصر بحسب القرينة ، فقوله هنا «إنما المؤمنون» ظاهرها المبالغة والتأكيد فقط ، أى الكاملون . اه. وقال الساحلى واعلم أن الإنسان مطلوب بطهارة نفسه ، وطرق التزكية وإن كثرت فطريق الذكر أسرع نفعا وأقرب مراما وعليه درج أكثر مشايخ التربية . والذكر ضد النسيان والمطلوب منه عمارة الباطن بالله فى كل زمان مع كل حال ، وذكر الأجور للعامة ذكر للثواب ، وذكر الحضور للخاصة لطهارة النفس من كل خلق ذميم .اه. قلت أنشد فى هذا المعنى بعضهم فقال :

الذِّكْرُ أَقْرَبُ بَابٍ أَنْتَ دَاخِلُهُ • لِلَّهِ فَاجْعَلْ لَهُ الْأَنْفَاسَ حُرَّاسَا

ومن كلام صاحب الحكم الفارقية إن تيقظت بقظة قلبية لم تر فى وقتك سعة غير ذكر ربك والإقبال على طاعته فما فى وقت العاقل فضلة فى غير ما خلق له من عبادة خالقه والاهتمام بمصالح آخرته . أعرف العبيد بجلال مولاه أخلاهم عما سواه وأكثرهم لهجا بذكره وتعظيما لأمره وشوقا إلى لقائه .اه. وإنما كنت أطول بهذا وأمثاله لكثرة غفلتنا ، لعل الله أن ينبهنا لأن مقصودنا بهذا التفسير إن شاء الله فهم ما قاله الله ورسوله وما قال أولياء الله للعمل به . من الله علينا بذلك بمنه وكرمه . ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ بزيادة المؤمن به . أو لاطمئنان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلة ، أو بالعمل بموجبها وهو قول من قال الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية بناء على أن العمل داخل فيه . قال فى غاية الأمانى : والحق أن نفس التصديق أيضا قابل للزيادة وأن مراتب اليقين متفاوتة ، ولذا يقولون علم اليقين فوقه عين اليقين ثم حق اليقين . قال مالك : الإيمان يزيد ولا ينقص لأن المؤمن إذا سمع حكما من أحكام الله فآمن به زاد إيمانا إلى سائر ما قد آمن به : إذ لكل حكم تصديق خاص ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ به يثقون لا بغيره فى مصالح الدنيا والآخرة من نصر أو رزق أو غيره بعد امتثال الأوامر ، لعلمهم أن لا مؤثر إلا قدرته ولا موجب إلا إرادته ، ففوضوا إليه الأمور لا يخشون ولا يرجون إلا إياه . ولما ذكر الوجل عند ذكر الله وزيادة الإيمان عند تلاوة القرآن والتوكل على الله والثلاثة من أمهات أعمال القلوب أشار

إلى أمهات أعمال الجوارح بقوله ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ يأتون بها بحقوقها ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أعطيناهم ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ فى طاعة الله فى الزكاة وفى الحج والجهاد والصدقة وغير ذلك من أنواع البر ﴿ أُولَـٰئِكَ ﴾ الذين ضموا مع الإيمان الخشية والإخلاص والتوكل والصلاة والصدقة ﴿ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إيمانا ﴿ حَقًّا ﴾ صدقا بلا ريب ، صفة مصدر محذوف أو مصدر مؤكد للجملة كقولك زيد قائم حقا . وبهذا استدل من منع الاستثناء فى الإيمان لكون المرء محققا إيمانه ، ولا يجوز أن يقول المتحرك أنا متحرك إن شاء الله وكذا القائم والقاعد ، ولأن إن شاء الله تشكيك . وقيل يجوز لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل وكون المرء آتيا بالأعمال المقبولة مشكوك فيه ، أو لأن إن شاء الله بهذا ليس للشك بل للأدب والتبرك ، وقيل لا خلاف فى المعانى ، فمن جوزه نظر إلى الخاتمة فهى غير معروفة فى الحال ، ومن منع نظر إلى الحال لا ريب له فى إيمانه ولا طريق له إلى العلم بالخاتمة والله أعلم . ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ ﴾ منازل فى الجنة ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فى جواره ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ عما فرط منهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ شريف لا آفة فيه ولا انقطاع فى الجنة ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ ﴾ للجهاد ﴿ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ ﴾ بالمدينة ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بأخرج ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ الخروج ، والجملة حال من كاف أخرجك و«كما» خبر مبتدإ محذوف أى كراهة بعضهم تسويتك فى الغنائم مثل إخراجك فى حال كراهتهم وقد كان خيرا لهم فكذلك هذا القسم خير لهم ، وذلك أن أبا سفيان أقبل من الشام فى عير فيه تجارة عظيمة معها أربعون راكبا ، فأخبر جبريل عليه السلام ذلك رسول الله ، فأخبر به المسلمين فخرج مع من خف من أصحابه ليغنمها ، وتقدم عددهم ، وثقل قوم فكرهوا الخروج ، وأسرع رسول الله لا يلوى على من تعذر ولا ينتظر من غاب ، وبلغ خروجه أهل مكة فخرجوا ليذبوا عن عيرهم وهم النفير ، وأخذ أبو سفيان بالعير طريق الساحل فنجت . وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قبل خروج قريش بثلاثة ليال رأت فى النوم ملكا نزل من السماء وأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها رميا فلم يبق بيت فى مكة إلا أصابه شىء منها ، فبلغ أبا جهل فتوعد بنى هاشم ، ثم جاء الخبر فخرج إلى بدر فقيل له ارجع قد نجت عيركم فأبى ووصل إلى بدر ، فشاور صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال إن الله وعدنى إحدى الطائفتين إما العير أو النفير ، فكره بعضهم لقاء النفير وقالوا له عليك بالعير فإنا لم نستعد للقتال وإنما خرجنا للعير ، قال إن العير مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل ، فقام أبو بكر فتكلم وأحسن وشجع ثم عمر فأحسن ثم مقداد بن عمرو فأحسن ثم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فأحسنا ، فقالوا كلهم : والله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا واحد ، فسر رسول الله بذلك فقال : سيروا على بركة الله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم وهم بوادى ذفران بكسر الفاء قرب وادى الصفراء . وقيل التشبيه راجع إلى قوله فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم أى فذلك خير لكم كما أن إخراج الرسول إلى الجهاد خير لكم ، أو إلى قوله لهم درجات أى وعده لهم بذلك حق كإخراجه وإنجاز الوعد بالنصر . وقيل راجع إلى ما بعده وهو قوله

﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ ﴾ لقاء العدو لإظهار الحق ، أى كما أخرجك بالحق وهم كارهون يجادلونك فى الحق بكراهة القتال لإيثارهم تلقى العير ﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ لهم بإعلامك ، وكان الأولى بهم الانقياد والتسليم حين علموا أنك لا تفعل إلا بأمر ربك وتبين لهم صدقك فى الوعد أنهم ينصرون أينما توجهوا على امتثال الأمر ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ إليه عيانا فى كراهتهم له لقلة عَددهم وعُددهم ، فبلغ كراهتهم لقاء العدو هذا المبلغ لذلك لا للجبن ، لأن كلام الرسول كان على المشاورة فرأوا أن ذلك إلقاء نفس إلى التهلكة فلما علموا منه العزم عليه رجعوا إلى ما أحب وأحسنوا الأقوال وفعلوا عند اللقاء ما يفعل الأبطال.

﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾ العير أو النفير مفعول ثان ليعدكم ويبدل منه ﴿ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ بدل اشتمال ﴿ وَتَوَدُّونَ ﴾ تريدون ﴿ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ ﴾ أى البأس والسلاح وهى العير واستعير لحد السلاح واحدة الشوك ﴿ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ لقلة عَددها وعُددها بخلاف النفير ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ يظهره بنصر المؤمنين ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ السابقة بظهور الإسلام أو الموحى بها فى هذه الحالة لمحاربة ذات الشوكة والإمداد بالملائكة وقتل الكفار وأسرهم ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ آخرهم بالاستئصال . قال البيضاوى : والمعنى أنكم تريدون أن تصيبوا مالا ولا تلقوا مكروها والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق وما يحصل لكم فوز الدارين اه ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ يثبت الإسلام ويعليه ﴿ وَيُبْطِلَ ﴾ يمحق ﴿ الْبَاطِلَ ﴾ الكفر ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ المشركون ذلك ، ولام ليحق متعلق بمقدر أى فعل ما فعل ، أو بيقطع فلا تكرار فى ليحق الحق ، لأن الأول لبيان المراد وما بينه وبين مرادهم من التفاوت ، والثانى لبيان الداعى إلى حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة ونصره عليها قاله البيضاوى . وفى لباب التأويل المراد بالأول تثبيت ما وعد فى هذه الواقعة من النصر ، والمراد بالثانى تقوية الدين وإظهار منار الشريعة . اه ﴿ إِذْ ﴾ بدل من إذ يعدكم الله أو متعلق بقوله ليحق الحق أو باذكر مقدرا ﴿ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ تطلبون منه الغوث بالنصر على الأعداء قائلين أغثنا يا غياث المستغيثين ، والنبى يقول اللهم أنجز لى ما وعدتنى مادا يديه مستقبل القبلة : اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي ﴾ أى بأنى ﴿ مُمِدُّكُمْ ﴾ معينكم ﴿ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ ﴾ بفتح الدال لنافع أى أن الله أردف بعضهم بعضا أو أردفهم المؤمنين وبكسرها للباقين أى متبعين المؤمنين أو بعضهم بعضا من أردفته إذا جئت بعده أو متبعين بعضهم بعضا أو أنفسهم المؤمنين من أردفته إياه فردفه ، أمدهم بألف أولا ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف كما فى آل عمران ، فما هناك تفصيل لهذا الإجمال لأن تلك السورة متأخرة نزولا . وقرئ بألف كأفلس وهى موافقة لما فى آل عمران ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ﴾ أى الإمداد ﴿ إِلَّا بُشْرَى ﴾ لكم بالنصر ، شبه الفعل السار بالخبر فأطلق عليه البشارة استعارة ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ إذا رأيتم مدد السماء وكثرة العدد ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ لا أثر للكثرة « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » ولا تيئسوا من النصر لفقد الكثرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾

غالب ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ينصر من يشاء بسابق حكمته . والصحيح أن الملائكة قاتلت يوم بدر وكانوا فيما سوى يوم بدر مددا وعونا ولم يقاتلوا ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ الله ﴿النُّعَاسَ﴾ بدل ثان من «إذ يعدكم» لإظهار نعمة ثالثة ، أو متعلق بالنصر أو بجعل أو بإضمار اذكر ، ويغشيكم بضم الياء وتخفيف الشين لنافع ، وبفتح الياء وإسكان الغين ورفع النعاس لابن كثير وأبي عمرو ، وبضم الياء وتشديد الشين للباقين ﴿أَمَنَةً﴾ أمنا حاصلا لكم ﴿مِنْهُ﴾ من الله وأمنة مفعول له ومنه صفة ولو على قراءة ابن كثير وأبي عمرو ، إذ المعنى تنعسون لأمنكم فالفاعل للمصدر والفعل واحد معنى ، ويجوز أن يكون الأمنة له فعل النعاس مجازاً ولأصحابه حقيقة ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ من الأحداث والجنابات ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ وسوسته إليكم بأنكم لو كنتم على الحق ما كنتم ظماء محدثين والمشركون على الماء ﴿ وَلِيَرْبِطَ ﴾ يحبس ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ بالوثوق بلطفه تعالى ونصره ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ أن تسوخ في الرمل أو حتى تثبت في المعركة ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ بدل ثالث أو متعلق بيثبت ، أي الذين أمد بهم المسلمين ﴿ أَنِّي ﴾ بأني ﴿ مَعَكُمْ ﴾ بالعون والنصر ﴿ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالإعانة والتبشير وتكثير السواد وقتل الأعداء ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ الخوف تفسير لقوله تعالى « إني معكم » ولا إعانة أقوى من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة ، ولا تثبيت أشد من ضرب الأعناق الذي لقنهم بقوله ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ أي المفصل بين الرأس والعنق ، وقيل المراد به الرأس لأنه مقتل يختل بأدنى ضرب ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ جمع بنانة الأصابع وقيل أطرافها ، وفائدة الضرب عليها إبطال اليد فإنها الجزء الأعظم في الحرب ، ويحتمل أن تكون هذه المخاطبة للمؤمنين ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ العذاب الواقع بالكفار ﴿ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ﴾ خالفوا ﴿ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ تقرير للتعليل أو وعيد بما أعد لهم في الآخرة بعد ما نزل بهم في الدنيا ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ الخطاب مع الكفرة التفاتاً محله الرفع أي الأمر ذلكم ، أو ذلكم واقع أو نصب بفعل دل عليه ﴿ فَذُوقُوهُ ﴾ أيها الكفار في الدنيا ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابَ النَّارِ ﴾ عطف على ذلكم أو نصب على المفعول معه . والمعنى ذوقوا ما عجل لكم مع ما أجل لكم في الآخرة . ووضع الظاهر فيه موضع المضمر للدلالة على أن الكفر سبب العذاب الآجل أو الجمع بينهما . وقرئ وإن على الاستئناف ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ حال كونهم ﴿ زَحْفًا ﴾ جمعاً كثيفاً كأنهم لكثرتهم يزحفون ، وهو مصدر زحف الصبي إذا دب على مقعده قليلا قليلا ، سمي به الجيش الكثير ، حال من المفعول أو من الفاعل أو منهما ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ منهزمين كانوا مثلكم أو أقل أو أكثر ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم لقائهم ﴿ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا ﴾ منعطفاً ﴿ لِقِتَالٍ ﴾ بأن يريهم الفرة مكيدة وهو يريد الكرة ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا ﴾ منضما ﴿ إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ جماعة حاضرة انفاقاً ، وكذا غائبة أو مدينة على الخلاف لما روى أن سرية فرّوا حتى بلغوا المدينة فقالوا يارسول الله

نحن الفرارون ! قال « لا بل أنتم الكرارون وأنا فئتكم » أى العطافون إلى الحرب بعد التولى . وانتصاب «متحرفاً» و «متحيزاً» على الحال ، و«إلا» لغو أو الاستثناء من المولين أى إلا رجلا متحرفاً أو متحيزاً ، ووزنه متفيعل لا متفعل ؛ وإلا لكان متحوزاً لأنه من حاز يحوز ﴿ فَقَدْ بَاءَ ﴾ رجع ﴿ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ المرجع هى ، هذا مخصوص بما إذا لم يزد الكفار على الضعف لقوله « الآن خفف الله عنكم » الآية الآتية . وإن بلغ المسلمون اثنى عشر ألفاً لم يحل الفرار ولو زاد الكفار على الضعف . والفرار حيث حرم كبيرة بظاهر القرآن والحديث وإجماع من يعتد به ، وحكم الآية باق إلى يوم القيامة ، والقول بأنه مخصوص بالحاضرين مع النبى صلى الله عليه وسلم مخالف للإجماع . ولما رجعوا من بدر يقول الرجل أنا قتلت فلاناً والآخر يقول قتلت فلاناً نزل ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ ببدر بقوتكم ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ بنصره إياكم وإلقاء الرعب فى قلوبهم . والفاء جواب شرط محذوف ، أى إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ يا محمد أعين الكفار ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ بالحصباء لأن كفاً من الحصى لا يملأ عيون الجيش الكثير برمية بشر ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ بإيصال ذلك إليهم ، فعل ذلك ليقهر الكافرين ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾ أى يعطيهم عطاء جزيلا بالقهر ، ولا عطاء أجزل من قهر العدو أو بنيل الغنيمة ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ يسمع استغاثتهم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ يعلم نياتهم وقصدهم إعلاء الدين ، ولذا أنعم عليهم بالنصر . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى « ولكن » بالتخفيف ورفع ما بعده فى الموضعين ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الإشارة إلى البلاء الحسن ، ومحله الرفع أى المقصود بالذات ذلكم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ ﴾ بتشديد الهاء لنافع وابن كثير وأبى عمرو ، وبالتخفيف للباقين عطف على ذلكم ، أى والمقصود بالعرض توهين ﴿ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ وقرأ حفص كيد مخفوضاً بالإضافة ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا ﴾ أى تطلبوا الفتح أيها الكفار ، أى القضاء . وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين . وقال أبو جهل غداة بدر : اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة أى أهلكه ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ القضاء بهلاك من هو كذلك وهو أبو جهل ومن قتل معه دون النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وقيل الخطاب للمؤمنين فى استغاثتهم . ويؤيد الأول قوله ﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا ﴾ يا أهل مكة عن الكفر والحرب فهو ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لتضمنه سلامة الدارين ﴿ وَإِنْ تَعُودُوا ﴾ لقتال النبى والإصرار على الكفر ﴿ نَعُدْ ﴾ بنصره عليكم ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ ﴾ جماعتكم ﴿ شَيْئًا ﴾ من الإغناء أو المضار ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ فئتكم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بفتح أن لنافع وابن عامر وحفص على تقدير اللام ، وبالكسر للباقين على الاستئناف ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى الجهاد ببذل المال والأنفس ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ عن الرسول ، فإن المراد من الآية الأمر بطاعته والنهى عن الإعراض عنه ، وذكر الله للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله فى طاعة الرسول . وقيل الضمير للجهاد أو الأمر الذى دل عليه

الطاعة ، وهو تقديم نهى عما فعلوه يوم أحد ﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ القرآن والمواعظ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر واتعاظ وهم المنافقون والكفار ، دليل على أنه لافائدة فى قول المؤمن سمعت وأطعت مالم يظهر الامتثال بفعله ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ ما يدب على الارض أو البهائم ﴿عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ﴾ عن الحق ﴿ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إياه ، عدهم من البهائم ثم جعلهم شرها لإبطالهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله من العقل ، ولم يذكر العمى لأن الكلام فى امتثال الأوامر ولا مدخل للبصر فى ذلك ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ سعادة كتبت أو انتفاعا بالآيات ﴿لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ إسماع تفهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ فرضا وقد علم أن لاخير فيهم ﴿ لَتَوَلَّوْا﴾ عنه ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ عن قبوله عنادا وجحودا . وكلمة لو هنا مثلها فى لو لم يخف الله لم يعصه ، وهو أن يكون نقيض الشر بترتب الجزاء أولى . فالمعنى أن التولى منهم حاصل على تقدير الإسماع فعلى تقدير عدمه أولى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أطيعوهما ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من أمر الدين لأنه سبب الحياة الأبدية أى وقت دعائه ، ووحد الضمير لما تقدم من أن ذكر الله فى أمثال هذا للتوطئة . وظاهر الآية وجوب الإجابة ولو فى الصلاة ، ويدل عليه ما فى البخارى أنه عليه الصلاة والسلام دعا أبا سعيد بن المعلى فأبطأ فجاء وقال : كنت أصلى قال : ألم تسمع قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم » وفى الترمذى عن أبى هريرة أنه عليه الصلاة والسلام دعا أبىّ بن كعب وهو فى الصلاة فخفف فجاء فقال له عليه الصلاة والسلام ما منعك يا أبىّ أن تجيبنى إذ دعوتك فقال : يا رسول الله كنت أصلى قال : أفلم تجد فيما أوحى إلىّ « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم » قال : بلى ولا أعود إن شاء الله . لكن القول بأن إجابته لاتبطل الصلاة إذا كان دعاؤه لأمر لايحتمل التأخير ليس بشيء لأن الكلام فى الصلاة والانصراف عنها عمدا مبطل إجماعا ، وكون الأمر مما لايحتمل التأخير ليس مخصوصا به لأن من رأى أعمى سيقع فى بئر يجب عليه قطع صلاته إجماعا ، والآية سيقت لبيان شرفه وأن شأنه يباين سائر الناس ، قاله فى غاية الأمانى . وقيل المراد بما يحييكم الجهاد لأنه سبب بقائكم فلو تركتموه لاستأصلكم الكفار ، أو الشهادة لقوله تعالى «بل أحياء عند ربهم» ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ فإن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء أخرجه مسلم والترمذى بيده الإسعاد والإشقاء ، فعليكم بالمسارعة إلى إجابة رسوله لعله يلطف بكم . وفى الآية تمثيل لغاية قربه من العبد ، وحث على إخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يحول بين العبد وقلبه بالموت أو غيره بأن يغير مقاصده إلى ما لا يرضى إن قضى شقاوته ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم . وكان عليه السلام كثيراً ما يقول فى دعائه : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك . ثم حذر الله المؤمنين فتنة لا تخص الظلمة بل تعم ، وهى فتنة إقرار المنكر بين أظهرهم ، أو فتنة الأموال والأولاد ، أو فتنة تفرق الكلمة بقوله ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً ﴾ إن أصابتكم ﴿ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ بل تعمهم وغيرهم ، واتقاؤها

بالهرب من موجبها ، من إقرار المنكر ، والمداهنة فى الأمر بالمعروف ، وافتراق الكلمة ، وظهور البدع والتكاسل فى الجهاد ، والتفاخر بالأموال والأولاد . روى أبو داود أنه عليه السلام قال : ما من رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون على أن يغيروا عليه ولم يغيروا إلا أصابهم الله منه بعقاب قبل أن يموتوا . وعن الزبير : لقد قرأنا هذه الآية زماناً وما نرى أنا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها . يعنى ما كان منهم يوم الجمل بسبب افتراق الكلمة ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ لمن خالفه ﴿ وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أرض مكة يستضعفكم قريش . والخطاب للمهاجرين ، وقيل لجملة الصحابة لأن العرب كلهم كانوا أذلاء فى أيدى فارس والروم ، إذ لم يكن فيهم ملك يطاع يجتمعون إليه فأعزهم الله برسوله ، أى اذكروا ذلك الوقت لتعرفوا قدر نعمة الله عليكم ﴿ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ يأخذكم الكفار بسرعة من كل وجه ﴿ فَآوَاكُمْ ﴾ جعل لكم مأوى وهى المدينة فاجتمعتم فيها فتحصنتم به من أعدائكم ﴿ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ ﴾ على الكفار يوم بدر ، أو بمظاهرة الأنصار وإمداد الملائكة ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ ﴾ الغنائم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعمه ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا ٱللَّهَ ﴾ بتعطيل فرائضه ﴿ وَٱلرَّسُولَ ﴾ بترك سننه . قال فى الجواهر : خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة بالنهى عن جميع الخيانات كلها قليلها وكثيرها . اه . ﴿ وَ ﴾ لا ﴿ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ ما ائتمنتم عليه من الدين وغيره فيما بينكم ، بجزوم داخل تحت النهى ، أو منصوب بتقدير إن بعد الواو على الجواب ، كما حصل لأبى لبابة وهو هرون بن المنذر وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوه الصلح على الخروج إلى الشام فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فقالوا أرسل إلينا أبا لبابة نشاوره فى ذلك وكان ناصحاً لهم لأن ماله وولده وعياله عندهم فبعثه رسول الله فأتاهم فقالوا له أننزل على حكم سعد ؟ فأشار لهم بيده إلى حلقه يعنى أنه الذبح فلا تفعلوا . قال أبو لبابة : والله مازالت قدماى عن مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله ، ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله ووصل إلى المدينة وشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علىّ ، فلما بلغ رسول الله ما فعل قال أما لو جاءنى لاستغفرت له ، أما إذ فعل ما فعل فإنى لا أطلقه حتى يتوب الله عليه ، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه ، فقيل له قد تيب عليك ، فقال : والله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله هو الذى يحلنى ، لجاء فحله بيده ثم قال : إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأنخلع من مالى ، فقال له رسول الله : يجزئك الثلث أن تصدق به ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنها أمانة ، أو تعلمون قبح الخيانة . ثم حذرهم سبب الخيانة وهو حب الأموال والأولاد فقال ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ لكم صادة لكم عن أمور الآخرة قد اختبرتم بهما فلا يحملكم حبهما على الخيانة كما وقع لأبى لبابة . وتقديم الأموال لعمومها

فى الناس ، أو لكونها شقيق الروح ﴿وأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجرٌ عَظيمٌ﴾ لمن آثر رضا الله عليهم وراعى حدوده فيهم ، فلا تفوتوا هذا الأجر بمراعاة الأموال والأولاد والخيانة لأجلهم . قال فى لباب التأويل : يجب على العاقل أن يحذر من المضار المتولدة من حب المال والولد لأن ذلك يحجب القلب عن مراعاة حق المولى. وذلك من أعظم الفتن ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ ﴾ فى الأمانة وغيرها ﴿ يَجعَل لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾ هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل ، أو نصراً يفرق بين الحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، أو مخرجاً من الشبهات ، أو نجاة عما تحذرون فى الدارين ﴿ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ يسترها ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ بالتجاوز والعفو ﴿ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ تنبيه على أن ما وعدهم على التقوى تفضلٌ منه وإحسان . ولما ذكر الله المؤمنين نعمه عليهم بقوله «واذكروا» الآية ذكر لنبيه نعمه عليه بما جرى عليه بمكة من قومه بقوله ﴿ وَ ﴾ اذكر يا محمد ﴿ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من قريش وقد اجتمعوا للمشاورة فى شأنك بدار الندوة ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ بالحبس والوثاق فى بيت ، كما أشار عليهم أبو البخترى منهم ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ كلهم قتل رجل واحد ، كما أشار عليهم أبو جهل ﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ من مكة هائماً على وجهك ، كما أشار عليهم هشام بن عمرو العامرى ﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾ بك ﴿ وَيَمْكُرُ اللهُ ﴾ بهم بتدبير أمرك بأن أوحى إليك ما دبروه وأمرك بالخروج فآواك إلى المدينة وأيدك بنصره ﴿ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ أعلمهم به ، وإطلاقه عليه على سبيل المشاكلة ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ القرآن ﴿ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ قاله أبو جهل كما فى البخارى ، أو نضر بن الحارث الذى أسر يبدر فأمر رسول الله الزبير فضرب عنقه ، وكان قبل يأتى الحيرة يتجر فيشترى كتب أخبار الأعاجم كرستم واسفنديار ، ويحدث بها أهل مكة ، ويزعم أنه أحسن قصصاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ نقلت إليه ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا ﴾ الذى يقرأه محمد ﴿ هُوَ الْحَقَّ ﴾ المنزل ﴿مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ معدة للعذاب كما أنزلها على قوم لوط وأصحاب الفيل ﴿ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مؤلم على إنكاره ، قاله أبو جهل كما فى الصحيحين . أو نضر بن الحارث استهزاء وإيهاماً أنه على بصيرة وجزم ببطلانه ، وفائدة ذكر السماء ـ وإن علم أن الأمطار لا تكون إلا منها ـ المبالغة فى العذاب لأنها تكون أشد فى التأثير إذا سقطت من أعلى الأماكن ، وهذا من عنادهم وتمردهم . روى أن معاوية قال لرجل من أهل اليمن من أقل عقلا من قوم ولوا عليهم امرأة يريد بلقيس ، فقال أقل عقل منهم قوم قالوا « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » ثم بين ما أوجب إمهالهم فى ذلك الوقت بقوله ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ بما سألوه ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ فى ذلك الوقت لأن العذاب إذا نزل عمّ ، ولم تعذب أمة إلا بعد خروج نبيها والمؤمنين منها يعنى موجب العذاب تكامل فيهم وسبب التأخير وجودك بين أظهرهم ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ حيث يقولون فى طوافهم غفرانك غفرانك ، أو المعنى لو كانوا يستغفرون ما عذبهم، وقيل

هم المؤمنون المستضعفون فيهم كما قال تعالى «لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً» وقيل «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم» إلى آخره: من حكاية قول المشركين لا يعذبنا الله ونحن نستغفره. والذى يزعم أنه رسوله فينا، فرد الله بقوله ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ بالسيف بعد خروجك والمستضعفين، أو وإن كنت فيهم واستغفروا وقد عذبهم ببدر وغيره ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يمنعون النبي والمسلمين ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أن يطوفوا به، وفيه إشارة إلى أنه من أعظم جناياتهم، لأنهم كانوا يعترفون بأنه لا يحل منع أحد من زيارة بيت الله ومع ذلك ارتكبوه ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ كما زعموا ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ من الشرك والمشرك نجس لا يصلح لولاية بيت الله أو المتقون هم أولياء الله لا غيرهم فالضميران حينئذ لله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن لا ولاية لهم عليه ولا من الله، ثم بين عدم استحقاقهم ولاية البيت بقوله ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ أى دعاؤهم ﴿عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً﴾ صفيرا ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تصفيقا بأن يضرب بإحدى يديه على الأخرى فيخرج بينهما صوت، أو المعنى جعلوا ذلك مكان صلاتهم التى أمروا بها. قال ابن عطية: المكاء والتصدية كان من فعل العرب قبل الإسلام على جهة التقرب به والتشرع فعُيّروا بأن شرعهم وصلاتهم لم تكن رهبة ولا رغبة وإنما كانت مكاء وتصدية من نوع اللعب ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ بالقتل والأسر، قيل لهم ذلك ببدر، أو يقال لهم فى الآخرة ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب استمراركم على الكفر ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ فى حرب النبي صلى الله عليه وسلم كالمطعمين منهم لما خرجوا لتلقى العير، وكانوا اثنى عشر رجلا يطعم كلٌّ عشر جزر على النوبة، وكأبى سفيان لما جمع الأحابيش فى وقعة أحد ﴿لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ﴾ فى عاقبة الأمر ﴿حَسْرَةً﴾ ندامة لفواتها وفوات ما قصدوه ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ فى الدنيا لأن العاقبة للمتقين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ فى الآخرة ﴿يُحْشَرُونَ﴾ يساقون ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلق بتكون أو يحشرون أو يغلبون، وهو بالتخفيف للجمهور، والتشديد لحمزة والكسائى: ليفصل ﴿اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ الكافر ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ المؤمن أو ما أنفق الكافر عما أنفق المؤمن بالخسارة والربح ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ يجمعه متراكبا بعضه فوق بعض لفرط ازدحامهم، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ليزداد به عذابه ﴿فَيَجْعَلَهُ﴾ كله ﴿فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ كل الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى فى شأنهم وحقهم ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عن الكفر وقتال النبي ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ﴾ سلف أى ذنب كان فإن الإسلام يَجُبُّ ما قبله على عمومه فى الحربى لأنه لم يلتزم شيئا من الأحكام، وأما الذمىّ فيسقط عنه ما عدا حقوق العباد ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ استمروا على الكفر أو عادوا إلى القتال ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى سنتنا فيهم بالإهلاك فكذلك نفعل بهم ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ إن لم ينتهوا ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ حتى لا يوجد شرك وضلال ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ لا يكون لغيره فيه نصيب، لكونه المستحق دون غيره ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ أيضا عن الكفر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم به ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن

الإيمان ، أو عن هذا النصح والبشارة بمغفرة ما قد سلف ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ﴾ ناصركم دائم النصر لكم ومتولى جميع أموركم ﴿ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ ﴾ هو ﴿ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ الناصر لكم الذى لايغلب ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ أخذتم من الكفار قهرا ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ جليل وحقير حتى الخيط والمخيط ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ يأمر فيه بما يشاء وهو قسمه على الخمسة المعطوفين ، والآية نزلت فى غنائم بدر بعد مارد أمرها إلى رسوله ففصل ذلك المجمل وقنن قانونا يمشى عليه مدى الدهر « فأن لله خمسه » خبر الموصول فى أنما ، والجملة قائمة مقام مفعولى العلم ﴿ وَلِلرَّسُولِ ﴾ جميع الخمس يصرفه فى مصالح المسلمين وبعده لحكم الخمس إلى الإمام يصرفه باجتهاده فى كفايته ومصالح المسلمين ، ومصالح الرضخ والنفل والسلب هذا مذهب مالك ، وحصر الخمس أبو حنيفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم فى اليتامى والمساكين وابن السبيل وسهم ذوى القربى ساقط عنده ، وعند مالك إن لم يكونوا فقراء . وقال الشافعى وأحمد يُخَمَّسُ الخمس فيستحقه النبي والأصناف الأربعة على ما كان يقسمه من أن لكل خمس الخمس . والأخماس الأربعة الباقية للغانمين ، وهذا محل إجماع ، كما قال ابن العربى يقسمها الأمير عليهم فى دار الحرب بأعيانها أو بأثمانها ، للراجل سهم وللفارس ثلاثة أسهم سهم له وللفرس اثنان ، وسهم الأمير كغيره ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ قرابة النبي من بنى هاشم والمطلب إن كانوا فقراء على قول مالك وأبى حنيفة كما تقدم ﴿ وَالْيَتَامَىٰ ﴾ أطفال المسلمين الذين هلكت آباؤهم وهم فقراء ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ذوى الحاجة من المسلمين ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ المنقطع فى سفره من المسلمين ، وظاهر الآية العموم فى المنقول وغيره ، لكن قال مالك فى الأرض يقسمها الإمام إن رأى ذلك صوابا ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بخيبر ، أو يتركها حبسا لمصالح المسلمين إن أداه إليه الاجتهاد ، كما فعل عمر بن الخطاب فى أرضى مصر والشام والعراق وهو مشهور مذهب مالك . ومحل استيفاء أحكام الغنيمة كتب الفقه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ فاعلموا ذلك واعملوا به ﴿ وَمَا ﴾ عطف على « بالله » ﴿ أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ محمد من الآيات والإمداد بالملائكة أو النصر الذى أنزله ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ أى يوم بدر الفارق بين الحق والباطل أو ما أنزل عليه فيه من أمر الغنيمة بتفويضها إليه ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ المسلمون والكفار بدل منه للتوضيح والبيان ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه نصركم مع قلتكم وكثرتهم ﴿إِذْ ﴾ بدل من يوم ﴿أَنْتُمْ ﴾ كائنون ﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ القربى من المدينة بينهما نحو ثلاث ليال ، وهى بضم العين للجمهور وكسرها لابن كثير وأبى عمرو : شفير الوادى ، وقرئ بفتحها ﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ البعدى منها ﴿وَالرَّكْبُ ﴾ العير كائنون بمكان ﴿ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ مما يلى البحر وإنما يطلق الركب على أصحاب الإبل فى السفر إذا كانوا فوق العشرة ، وأسفل منصوب على الظرف واقع موقع الخبر ، والجملة حال من الظرف قبله ، وفائدتها الدلالة على قوة العدو باستظهارهم بالركب لأنه قريب منهم فى ذلك الوقت ولنا ذكر مراكز الفريقين ، فإن العدوة الدنيا رخوة تسوخ فيها الأرجل ولا تمشى فيها إلا بتعب ولم يكن فيها ماء بخلاف

القصوى فى الجميع ، ليعلم أن النصر لم يكن إلا من الله لا بأسباب منهم ، فتجب عليهم المبادرة فى امتثال أوامره التى منها إيصال الخمس إلى مصارفه ، ليكون وصلة فى الانتصار فى سائر الوقائع ، ويكون لطفا بالسامعين إذا تليت عليهم إلى آخر الدهر ، ولذا أتبعه بقوله ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ ﴾ أنتم ، والنفير القتال ﴿ لَاخْتَلَفْتُمْ فِى الْمِيعَادِ ﴾ إذا نظرتم حالكم وحالهم أول الأمر ﴿ وَلَٰكِنْ ﴾ جمعكم بغير ميعاد ﴿ لِيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ فى علمه وهو نصر الإسلام ومحق الكفر على وجه يتحققون به أن الفتح ليس إلا صنعا لله خارقا للعادة فيزدادون إيمانا وشكرا ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ بدل من ليقضى ، أو متعلق بمفعولا أى يموت من يموت أو يكفر من يكفر بعد حجة ظاهرة وهى نصر المؤمنين مع قلتهم ﴿ وَيَحْيَىٰ ﴾ يعيش أو يؤمن ﴿ مَنْ حَىَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ فلا معذرة لأحد بعد بدر ولا حجة ، وحَيِىَ بالفك لنافع وابن كثير فى رواية البزى وأبى بكر وبالإدغام للباقين ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ بأقوالكم ونياتكم ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ مقدرا باذكر أو بدل ثان من يوم الفرقان ، أو متعلق بعليم ، وقليلا نصب على الحال من المفعول فأخبرت به أصحابك تشجيعا لهم فسروا بذلك ﴿ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ ﴾ جبنتم ﴿ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ ﴾ أمر القتال وتفرقت آراؤكم بين الإقدام والإحجام ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ من الفشل والتنازع ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ بمضمراتها كانت أو ستكون يعلم ما يغير أحوالها .

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ ﴾ أيها المؤمنون رؤية عين ﴿ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ نحو سبعين أو مائة لتقدموا عليهم وليطابق لما أخبركم به رسول الله فى رؤياه فكان تأويله انهزامهم ، والضميران فى يريكوهم مفعولا أرى لأنها بصرية لاتقتضى ثالثا ، وقليلا نصب على الحال ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ ﴾ حتى قال أبوجهل منهم : إن محمدا وأصحابه أكلة جزور ، ودأبهم أن الجزور طعمة مائة ، وكل هذا قبل التحام الحرب ، فلما التحم أراهم إياهم مثليهم كما فى آل عمران ، وكل هذا من عظائم آيات تلك الواقعة ، فإن البصر وإن كان يرى الكثير قليلا والقليل كثيرا لكن لا إلى هذا الحد ، ويتصور ذلك بصد الله الأبصار عن إبصار بعض دون بعض مع التساوى فى الشروط ﴿ لِيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ كرره لاختلاف الفعل المعلل ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فيصدرها كيف شاء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ جماعة كفار أو بغاة لقوله فقاتلوا التى تبغى أو قطاع طريق لقوله يحاربون الله ورسوله ، واللقاء اشتهر فى القتال ﴿ فَاثْبُتُوا ﴾ لقتالهم بأن توطنوا أنفسكم على قتالهم وعدم التولى ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ عند ذلك بقلوبكم وألسنتكم ومنه الدعاء بالنصر ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تظفرون بالنصر . روى البخارى عنه صلى الله عليه وسلم « لا تتمنوا لقاء العدو فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف »وكان يقول عند لقاء العدو« اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم» ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى الجهاد والثبات عند اللقاء ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ باختلاف الآراء ﴿ فَتَفْشَلُوا ﴾ تجبنوا ﴿ وَتَذْهَبَ ﴾ عنكم ﴿ رِيحُكُمْ ﴾ قوتكم ودولتكم

لأنها فى النفوذ كالريح فى الهبوب فاستعيرت لها ، وقيل ريحكم حقيقة لأن عادة الله جرت بالريح عند النصر وفى الحديث « نصرت بالصبا » وعن نعمان بن مقرن شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر ، أخرجه أبو داود ﴿وَٱصْبِرُوا﴾ عند لقاء العدو ، وكرره ليقيده بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ ﴾ بالحفظ والنصر ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ كفار قريش ليمنعوا عيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها ﴿ بَطَرًا ﴾ فخرا ، مصدر فى موضع الحال بالتأويل أو بتقدير الفعل ، ومعناها مقابلة النعمة بالكفران تكبرا ﴿وَرِئَاءَ ٱلنَّاسِ﴾ بإظهار الجبل ليراه الناس مع إبطان القبيح ، والفرق بينه وبين النفاق أن النفاق إظهار الإيمان مع إبطان الكفر ، والرياء إظهار الطاعة مع إبطان المعصية أى يراءون الناس بالشجاعة والسماحة ، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسول أبى سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم ، فقال أبو جهل لا والله حتى نقدم بدرا ونشرب بها الخمور وننحر الجزور وتعزف علينا القيان ونطعم من حضرنا من العرب فوافوها فسقوا المنايا وناحت عليهم النوائح ، فنهى المؤمنون أن يكونوا أمثالهم بأن يكونوا أهل تقوى وإخلاص إذ نهى الشىء أمر بضده ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ الناس ﴿ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ عطف على بطرا وجعل فعلا لإفادة الحدوث بخلاف البطر فإنه أمر مستمر بهم ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ علما فيجازى عليه ﴿ وَ ﴾ اذكروا أيضا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم ﴿ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ﴾ للكفار ﴿ ٱلشَّيْطَانُ ﴾ إبليس ﴿ أَعْمَالَهُمْ ﴾ فى معاداة النبى وغيرها بأن شجعهم على لقاء المسلمين لما خافوا الخروج إلى العير لما بينهم وبين بنى بكر بن كنانة ﴿وَقَالَ﴾ لهم ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ لأنكم على الحق وملة إبراهيم ﴿ وَإِنِّى جَارٌ لَكُمْ ﴾ مؤمنكم ومجير لكم من كنانة وكان أتاهم فى صورة سراقة بن مالك سيد كنانة مع جنوده ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ ﴾ التقت ﴿ ٱلْفِئَتَانِ ﴾ المسلمة والكافرة رأى الملائكة وكانت يده فى يد الحارث بن هشام أخى أبى جهل ﴿ نَكَصَ ﴾ رجع ﴿ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ هاربا ﴿ وَقَالَ ﴾ لهم لما قالوا له أتخذلنا يا سراقة على هذه الحالة ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِنْكُمْ﴾ من جواركم ﴿ إِنِّى أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ من الملائكة ﴿إِنِّى أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أن يهلكنى اليوم بأن يكون الوقت الموعود ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ من كلامه تعالى أى يحق لإبليس أن يفر من خوف عقابه ، ويجوز أن يكون من تتمة كلام إبليس إظهاراً للمعذرة ، ولما قدموا مكة قالوا هزم الناس سراقة فسمع ذلك فقال والله ماشعرت بمسيركم حتى بلغنى هزيمتكم فقالوا أما أتيتنا فى يوم كذا وكذا فحلف لهم وصدقه قومه فلما أسلموا علموا أن ذلك شيطان ويحتمل أن يكون ذلك التزيين بالوسوسة ولما لم ينفعهم أتباعه شبه بالرجوع القهقرى وهذا مروى عن الحسين والله أعلم ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ﴾ والمؤمنون ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ضعف اعتقاد وقيل هم المشركون أو المنافقون والعطف لتغاير الوصفين ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ المسلمين ﴿دِينُهُمْ﴾ إذ خرجوا مع قلتهم يقاتلون الجمع الكثير توهماً أنهم ينصرون بسبب دينهم ، قال تعالى فى جوابهم ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى

﴿ اللهِ ﴾ يثق به ويفوّض إليه أمره ويقطع النظر عن الأسباب يغلب ﴿ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب لايذل من استجار به وإن قل ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده الرأى ويعجز عن إدراكه ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ أى لو رأيت يامحمد حال الكفار ﴿ إِذْ ﴾ ظرف ترى ﴿ يَتَوَفَّى ﴾ بالياء للجمهور والتاء لابن عامر ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾ فاعل يتوفى أو الفاعل ضمير الله والملائكة مبتدأ خبره ﴿ يَضْرِبُونَ ﴾ حال على الأول ﴿ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ بمقامع من حديد ﴿ وَ ﴾ يقولون لهم ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ بشارة لهم بعذاب الآخرة ، وقيل كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا التهبت النار منها ، وجواب « لو » محذوف لتهويل الأمر أى لرأيت أمراً عظيما ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ التعذيب ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصى : من كلام الملائكة ، أو من كلام الله ﴿ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ ﴾ بذى ظلم ﴿ لِلْعَبِيدِ ﴾ فيعذبهم بغير ذنب ، أى عذابهم بسبب أمرين : بكفرهم وبأن الله لا يعذب أحداً بغير ذنب . دأب هؤلاء ﴿ كَدَأْبِ ﴾ كعادة ﴿ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى كعملهم الذى دأبوا أى داموا عليه ﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ تفسير لدأبهم ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللهُ ﴾ بالعقاب ﴿ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ كما أخذ هؤلاء ﴿ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ ﴾ لا يقاومه أحد ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لا يغلبه فى دفعه شىء ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ تعذيب الكفرة ﴿ بِأَنَّ ﴾ بسبب أن ﴿ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ أى لم يزلها عنهم ولا يبدلها بالنقمة ﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ يبدلوا نعمتهم كفراً ـ كتبديل كفار مكة إطعامهم من جوع وأمنهم من خوف وبعث النبى إليهم ، بالكفر والصد عن سبيل الله وقتال المؤمنين ﴿ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالهم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بعقائدهم : تعليل لما حل بهم من العذاب ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ قومه معه ، كرر للتأكيد والدلالة على كفران النعم بقوله « بآيات ربهم » وبيان ما أخذ به آل فرعون ، وقيل الأول للتشبيه فى الكفر والأخذ ، والثانى للتشبيه فى تغيير النعم بسبب تغيير ما بأنفسهم ﴿ وَكُلٌّ ﴾ من الفرق المكذبة ﴿ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصى ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أصروا على الكفر ورسخوا فيه ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لا يتوقع منهم إيمان لطبعهم على الكفر ، والفاء للعطف وتسبب ما قبلها ﴿ الَّذِينَ ﴾ بدل بعض من الذين كفروا ﴿ عَاهَدْتَ ﴾ أى أخذت العهد ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أن لا يعينوا المشركين عليك ﴿ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ﴾ عاهدتهم فيها ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ الله فى غدرهم ، وهم بنو قريظة وبنو النضير بإجماع المتأولين ، عاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم ألا يحاربوه ولا يعينوا عليه عدواً ، فأعانوا مشركى مكة بإرسال السلاح إليهم ، فسمعه رسول الله ، فسألهم فقالوا أخطأنا . فعاهدهم الثانية فأرسلوا كعب بن الأشرف إلى مكة ليعقد لهم الحلف معهم ، فعلم رسول الله بذلك فأرسل إليهم محمد بن مسلمة فى نفر فقتلوه ، وأنذر اليهود ، ثم أراد بنو النضير غدره بما تقدم فنقضوا فأجلاهم وأغضى عن بنى قريظة ، حتى كان يوم الخندق غزوة الأحزاب نقضوا العهد وحاربوا رسول الله فقتلهم

وأسرهم كما يأتى ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ ﴾ تأخذنهم أو تظفر بهم ﴿ فِى الْحَرْبِ ﴾ من ثقفه كسمعه أخذه أو ظفر به أو أدركه . آنظر القاموس ﴿ فَشَرِّدْ ﴾ فرق ﴿ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ من المحاربين أى نكل بهم نكالا يكون سبباً لتفرق الآخرين الذين لم يحضروا معهم حتى لا يناصبك أحد ، من شرد الجمل : ذهب ، والتشريد التفريق ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ أى مَن خلفهم ﴿ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يتعظون بهم ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ ﴾ عاهدوك هؤلاء وغيرهم إلى آخر الدهر ﴿ خِيَانَةً ﴾ فى العهد بأمارة تلوح لك ولم يظهر ما يوجب النقض ﴿ فَانبِذْ ﴾ عهدهم ﴿ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ أى مستوياً أنت وهم فى العلم بنقض العهد بأن تعلمهم به لئلا يتهموك بالغدر ، وهو حال من النابذ والمنبوذ إليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ فى نقض العهد وغيره . وفى الآية دليل على أنه إذا ظهر نقض العهد ممن هادنهم الإمام من المشركين بأمارات يجب عليه أن ينبذه على سواء بأن يعلمهم الحرب ، وأما إن ظهر ظهوراً مقطوعاً به فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد ، بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مكة لما نقضوا العهد : بقتل خزاعة ، وهم فى ذمة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يزعهم إلا جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران ، وذلك على أربع فراسخ من مكة . ونزل فيمن أفلت يوم بدر ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ بالخطاب للنبي للجمهور ، وبالغيبة لابن عامر وحمزة وحفص ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ الله أى فاتوه ، وعلى الثانية فالمفعول الثانى محذوف أى أنفسهم ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ بالكسر للجمهور والفتح لابن عامر على تقدير اللام ، وهو تأكيد لعدم سبقهم ﴿ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ لا يفوتون الله بل ينتقم منهم ، إما فى الدنيا بالقتل ، وإما فى الآخرة بالنار . وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فيمن فاتهم من المشركين ، وتهديد للمشركين بأنهم لا يعجزون ﴿ وَأَعِدُّوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ لَهُم ﴾ لقتال الكفار الناقضين للعهد وغيرهم ﴿ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ هى الرمى كما فى حديث مسلم ، والإعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة إليه ، والقوة تعم أنواع الأسلحة والحصون والمعاقل ، وإنما خصها النبي صلى الله عليه وسلم بالرمى لأنه أقواها ، ولأن أكثر حرب العرب كان بالرماح والسيوف فحثهم على تعاطى الرمى فهو كقوله «الحج عرفة» ، وفى البخارى قال عليه السلام يوم بدر « إذا أكثبوكم - قاربوكم - فارموهم » وفى مسلم عنه « ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه » وفيه عن عقبة بن عامر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا لقد عصى » وفى أبى داود عن عقبة أيضاً سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب فى عمله الخير ، والرامى به ، ومنبله ، فارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلىّ من أن تركبوا كل لهو باطل إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه وملاعبته أهله ورميه بقوسه - أى نبله - فإنهن من الحق ، ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة كفرها » وفى البخارى عن سلمة بن الأكوع قال : مرّ النبي صلى الله عليه وسلم على نفر من أسلم ينتضلون فقال « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً وأنا مع

بنى فلان » فأمسك أحد الفريقين فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مالكم لا ترمون ؟ » فقالوا : كيف نرمى وأنت معهم فقال «ارموا وأنا معكم كلكم» ﴿وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ فعال بمعنى مفعول اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله ، أو مصدر سمى به ، أو حبسها فى سبيل الله ، أو جمع ربيط كفصيل وفصال ، وعطفها على القوة من عطف الخاص على العام لفضلها ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ بما استطعتم أو بالإعداد ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ كفار مكة ، وهو استئناف تعليلا للأمر ، أو جملة حالية . وقرأ يعقوب ترهّبون بالتشديد ﴿ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ﴾ فى العداوة فارس والروم ، أو غيرهم وهم المنافقون واليهود ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ﴾ بأعيانهم ، أو لأنهم يقولون لا إله إلا الله بألسنتهم ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه ﴿ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ من أجره شيئاً ﴿ وَإِن جَنَحُوا ﴾ مالوا ﴿ لِلسَّلْمِ ﴾ بفتح السين للجمهور والكسر لأبى بكر : الصلح والاستسلام ﴿ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ واقبل منهم المهادنة إذا كانت فيها مصلحة ظاهرة للمسلمين فى ذلك الوقت ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ثق به ولا تخف من إبطانهم خداعا فيها وطلباً لغرة المؤمنين ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم وضمائرهم ، فإن يكن قصدهم المكر فإن مكر الله فوق مكرهم . والآية محكمة لأنها نزلت فى الحديبية لما صد المشركون رسول الله عن البيت ، وآية السيف لا تدل على الوجوب بل الإذن فى القتال بعد حرمته ، وليست مخصوصة بأهل الكتاب لاتصالها بقصتهم كما ظن ، لما تقدم أن قوله «ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا» نزل فيمن أفلت يوم بدر ، قاله فى غاية الأمانى . قلت : وما قاله هو الصواب ، لأن النسخ لا يثبت إلا بنص صريح عن الشارع ولم يثبت ، والتخصيص خلاف الأصل والجمع ممكن والله أعلم ، وتأنيث ضمير السلم فى « لها » لأنه بمعنى المسالمة والمهادنة ، أو لحملها على نقيضها . قال الشاعر :

السِّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ • وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ

﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ ﴾ بالصلح ليستعدوا لك أو ليغدروك ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ ﴾ كافيك ﴿ اللَّهُ ﴾ فلا تحتاج معه إلى تدبير آخر. وهذا تصريح بما أشار إليه بقوله «وتوكل على الله» ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ ﴾ يوم بدر وفى سائر الأيام ﴿ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأنصار على ما تظاهرت به أقوال المفسرين . قال ابن عطية : ولو ذهب ذاهب إلى عمومه فى المهاجرين والأنصار وجعل التأليف ما كان بين جميعهم من التحابى لساغ ذلك ﴿ وَأَلَّفَ ﴾ جمع ﴿ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ حتى صاروا كنفس واحدة بالتوادد بعد الإحن والضغائن والعصبية التى طبعوا عليها والتهالك على الانتقام فى أدنى شىء لا يكاد يأتلف فيهم قلبان ، وهو من معجزاته صلى الله عليه وسلم ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فى إصلاح ذات بينهم ﴿ مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ لتمكن العداوة فيهم دهراً طويلا وكثرة الدماء والثارات ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بقدرته البالغة ، لأنه المالك للقلوب يقلبها كيف شاء ﴿ إِنَّهُ عَزِيزٌ ﴾ تام الغلبة لا يستعصى عليه ما يريده ﴿حَكِيمٌ ﴾ متقن فى صنعه حيث جعلهم بعد التفرق يداً واحدة على نصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله . قال ابن عطية : سبب الألفة التشابه

فمن كان من أهل الخير ألف أشباهه وألفوه . وفى الموطأ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يقول الله يوم القيامة أين المتحابون لجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لاظل إلا ظلى» ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ﴾ كافيك ﴿اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إما فى محل نصب على المفعول معه ، أو الجر عطفاً على الكاف ، أو الرفع عطفاً على اسم الله ، نزلت فى أصحاب بدر ، وقيل أسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر بن الخطاب فنزلت ، وعليه فهى مكية ، والظاهر أن المراد جميع المهاجرين والأنصار ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ﴾ حث ﴿الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ للكفار الذى هو سبب إعلاء كلمة الله . والحرض : شدة المرض . والتحريض فى الأصل : إزالة الحرض ، والمراد المبالغة فى الحث بالتزيين والتسهيل ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ﴾ رجلا ﴿صَابِرُونَ﴾ على اللقاء ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ منهم ﴿وَإِنْ تَكُنْ﴾ بالتاء لنافع وابن كثير وابن عامر والياء للباقين ﴿مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لجهلهم بالله واليوم الآخر لايثبتون ثبات المؤمنين ، والشرط خبر بمعنى الأمر بمصابرة الواحد للعشرة ، والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا بعون الله وتأييده ، ثم نسخ لما كثروا بقوله ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفًا﴾ بالضم للجمهور والفتح لعاصم وحمزة: عن قتال عشرة أمثالكم ﴿فَإِنْ تَكُنْ﴾ بالتاء للجمهور والياء للكوفيين ﴿مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ منهم ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بإرادته ، وهو خبر أيضاً بمعنى الأمر ، أى لتقاتلوا مثليكم ، وتثبتوا لهم ، قال ابن شبرمة : وأرى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مثل ذلك ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بعونه . روى أن خالد بن الوليد قتل فى بعض الحروب مع الروم يوماً ألف بطل مبارزة ، ثم تقدم إليه بطريق منهم ، فقال له ياهذا هل أخبرك نبيكم أنك لا تموت : فقال أخبرنى أن كل نفس ذائقة الموت ، وأخبرنى بما أعد الله لمن يقتل فى سبيل الله من النعيم ، وكان غدائى اليوم خبز الشعير المبتل بالماء ، فأنا أستعجل الموت للفوز بالنعيم ، فأسلم البطريق مكانه . ونزل لما أسروا الكفار يوم بدر ، وقد أمروا بالقتل ، أو لما أخذوا الفداء منهم : ﴿مَا كَانَ﴾ ما ينبغى ﴿لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ﴾ بالياء للجمهور ، والتاء لأبى عمرو ﴿أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ﴾ يبالغ ويكثر فى قتل الكفار ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حتى يذل الكفر ويقل حزبه ، ويعز الإسلام ويستولى أهله : أصله من الثخانة الغلظ المناسب للكثرة ، وذكر الأرض للإشارة إلى أنه لا ينبغى أن يقعد حتى يأتيه العدو بل يمشى فى مناكب الأرض لإعلاء كلمة الله ، وقد غزا عليه السلام فى عشر سنين بنفسه سبعاً وعشرين غزوة وبعث نيفاً وخمسين سرية وقال «لولا أن أشق على أمتى ماقعدت خلف سرية» ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون بأسر الكفار ، أو بأخذ الفداء منهم ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ متاعها الذى لادوام له ، بل يعرض ثم يزول عن قريب ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ﴾ لكم ﴿الْآخِرَةَ﴾ ثوابها : بقتلهم وترك الأسر بعد الهزيمة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لايحتاج إلى معاون وإنما يأمركم بالجهاد لتنالوا ثوابه ﴿حَكِيمٌ﴾ فى كل ما يأمر به . ولا نسخ فى الآية بقوله « فإما منا بعد وإما فداء »

لاتفاقهما على أنه لابد من تقديم الإثخان ثم بعده أخذ الفداء . قاله الإمام فخر الدين . روى أنه عليه السلام أتى يوم بدر بسبعين أسيراً ، فاستشار فيهم ، فقال أبو بكر : إخواننا أمس استبقهم، لعل الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية ، تقوى بها أصحابك ، وقال عمر بن الخطاب اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر ، وإن الله أغناك عن الفداء ، فمال أكثر الصحابة إلى رأى أبي بكر فأخذوا الفداء : لكل أسير أربعون أوقية ، والأوقية أربعون درهما ، ثم وجد عمر النبي وأبا بكر يبكيان ، فسأل عن ذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء ، ولقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة ، لكن ليس فى الآية وجميع ماروى قدح فى عصمة الأنبياء بتقرير النبي صلى الله عليه وسلم على الأسر ، ولم يمنعه إذ هو مشروع له وحلال بعد الإثخان ، وقد حصل بقتل سبعين منهم ، وليس من شرطه قتل جميع الكفار ، ولا بأخذ الفداء ، لأنه كان حلالا له كالغنيمة قبل بدر ، فى أمر سرية ابن جحش ، وتقدم . والعتاب فى قوله تعالى « تريدون عرض الدنيا » فى المبادرة إلى الأسر أو الفداء ، وتركه فى ذلك الوقت أولى ، وبكاء النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر إنما كان شفقة على الصحابة ، فيما سينالهم بإيثار المال من قتل يقع فيهم ، والله أعلم . قال ابن عطية : هذه الآية تتضمن معاتبة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على استبقاء الرجال وقت الهزيمة رغبة فى أخذ المال . اه ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى حكم منه ﴿ سَبَقَ ﴾ بإحلال الغنائم ومنها الفداء وإحلال الأسر ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ ﴾ من الفداء ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لميلكم إلى الدنيا وترك جانب الآخرة ، قال صلى الله عليه وسلم : لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ ، لأنهما أشارا بالإثخان ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ ﴾ ومن جملته الفداء ، والفاء داخل على المسبب ، أى أبحت لكم الفداء ، فكلوا ﴿ حَلَالًا ﴾ لا عقاب معه ، حال من المجرور ، أوصفة مصدر ، ﴿ طَيِّباً ﴾ لاعتاب معه ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى مخالفته ، والإقدام على مالم يأذن ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ مافرط ﴿ رَحِيمٌ ﴾ ولذا أحل لكم الغنائم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى ﴾ ولأبى عمرو من الأسارى : ﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً ﴾ إيماناً وإخلاصا ﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ ﴾ من الفداء . نزلت فى العباس ابن عبد المطلب وغيره ، لما أسروا ببدر ففادى نفسه وابنى أخويه عقيل بن أبى طالب ، ونوفل بن الحارث ، فأسلم وأسلما ، وقالوا لننصحن لك على قومنا ، قال العباس : فأبدلنى الله خيراً من ذلك ، لى الآن عشرون عبداً أدناهم ليضرب فى عشرين ألفاً ، وأعطانى زمزم ، ما أحب أن لى بها جميع أموال أهل مكة ، وأنا أنتظر المغفرة من ربى ، يعنى الموعود بقوله ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَإِنْ يُرِيدُوا ﴾ أى الأسرى ﴿ خِيَانَتَكَ ﴾ بما أظهروا من الإسلام ﴿ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل بدر ، بالكفر والخروج لقتالك ، ﴿ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ ببدر ، قتلا وأسراً ، فليتوقعوا مثل ذلك إن عادوا ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بالضمائر ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يجازى كلاً بنيته ، ثم أشار إلى أحكام فى المهاجرين والأنصار ، بقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَهَاجَرُوا ﴾ ديارهم وقومهم فى الله ، ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ ﴾ بصرفها فى السلاح والكراع ، وإعانة الغزاة ﴿ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بمباشرة القتال : وهم المهاجرون الأولون ﴿ وَالَّذِينَ آوَوْا ﴾ النبى والمهاجرين إلى ديارهم ﴿ وَنَصَرُوا ﴾ هم على أعدائهم ، وهم الأنصار ، ﴿ أُولَـٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فى النصرة أو والإرث ، وكانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب ، حتى نسخ بقوله « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض » وإن كان المراد بالولاية النصرة فقط ، فلا نسخ ، وهو أولى ، وعليه أكثر المفسرين ، أى المؤمنون أولياء بعضهم فى النصر دون أقربائهم من الكفار ، وعلى التأويلين ، ففى الآية حض على الهجرة ، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ ﴾ بفتح الواو للجمهور وبكسرها لحمزة ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من الميراث ﴿ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾ وهذا منسوخ بآخر السورة ، إن أريد بالولاية الإرث ، وفيه ما تقدم ﴿ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ ﴾ أى طلب المؤمنون الذين لم يهاجروا منكم النصر ﴿ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على الكفار ﴿ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ عهد، فلا تنصروهم عليهم ، وتنقضوا عهدهم ، لأنه غدر وخيانة ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا تخفى عليه خافية ، وهؤلاء الذين لم يهاجروا هم المستضعفون ، وعن حذيفة بن اليمان : خرجت أنا وأبى والمشركون متوجهين إلى بدر ، فقالوا تريدون محمداً ؟ قلنا : ما نريد إلا المدينة ، فأخذوا علينا ألا نذهب إليه ، فلما جئنا رسول الله ذكرنا له ذلك . فقال لنا : اذهبوا إلى المدينة إيفاء لعهدهم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فى النصرة والإرث ، فلا إرث بينكم وبينهم ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ أى ما أمرتم من تولى المؤمنين ، وقطع الكفار ﴿ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى الْأَرْضِ ﴾ بقوة الكفر ﴿ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ بضعف الإسلام ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ وهم الأولون منهم ، وهم أصل الإسلام ، ولذا لما قسم المسلمين ثلاثة أقسام ميزهم بالسبق فى الهجرة ، وتبوّئ الدار ، وصرف الأموال وبذل الأنفس فى نصرة الدين ، وإعلاء كلمة الله ، فكمل إيمانهم ، ظاهراً وباطناً . قال ابن العربى فى الأحكام : وإذا كان الإيمان فى القلب حقاً ، ظهر ذلك فى استقامة الأعمال بامتثال الأمر واجتناب المنهى عنه . وإذا كان مجازاً قصرت الجوارح فى الأعمال إذ لم تبلغ قوته إليها . اهـ ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ كاملة ساترة لجميع ذنوبهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ لا تبعة به ولا منة فيه ، فكل شىء شرف وعظم فى بابه قيل له كريم ، والآية الأولى بيان لحكم ولاية المهاجرين والأنصار بعضهم بعضاً ، والثانية لمدحهم بقوله « هم المؤمنون » بلفظ يفيد الحصر ، وتأكيده بقوله حقاً ، المفيد بلوغهم حقيقة الإيمان ، وإخبار بما أعده لهم من مغفرة ورزق كريم ، وناهيك مافى تنكيرهما من المبالغة ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ ﴾ بعد السابقين إلى الإيمان والهجرة ﴿ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَـٰئِكَ مِنْكُمْ ﴾ معدودون أيها المهاجرون الأولون والأنصار فى الموالاة والإرث ، ولكن لكم المزية

وفى قوله «معكم» إعلام بأنهم تبع لا صدر ، وفى قوله «منكم» تسلية للمتخلف ، وترغيب للسابق فى رعاية جانبه ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ ﴾ ذوو القرابات ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ فى الإرث من الأجانب ، قال ابن العربى : أولو الأرحام عام فى كل قريب ، لكن بيّنه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله «ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقى فهى لأولى عصبة ذكر» ، واستدل بالآية أبو حنيفة على توريث ذوى الأرحام ، كالخال والعمة ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ القرآن أو اللوح ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ كامل العلم فى جميع الأشياء ؛ فاتبعوا أحكامه . رزقنا الله العمل بها .

[تم تفسير سورة الأنفال]

سورة براءة : وهى التوبة

مدنية أو إلا الآيتين آخرها ، مائة وثلاثون أو إلا آية

ولم تكتب فيها البسملة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر بذلك لأنها آخر سورة نزلت ، وعن علىّ أن البسملة أمان ، وهى نزلت لرفع الأمان بالسيف ، أو لأن الصحابة اختلفت : هل هى مع الأنفال سورة واحدة ، وهى سابعة السبع الطوال ، أو سورتان . فتركت بينهما فرجة ، ولم تكتب البسملة .

هذه ﴿ بَرَاءَةٌ ﴾ صدورها ﴿ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وانتهاؤها ﴿ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ عهداً مطلقاً أو دون أربعة أشهر ، أو فوقها . وأحسستم منهم نقض العهد ، وبراءة خبر مبتدأ محذوف . و«من» ابتدائية متعلقة بمحذوف كما قدرنا فى الجميع ، ويجوز أن تكون مبتدأ لتخصيصها بصفتها ، والخبر «إلى الذين» ، وإنما علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين ليسارعوا إلى نبذها ، لما علموا براءة الله عنها ، وذلك أنهم عاهدوا مشركى العرب فى الآفاق ، وكانوا ينقضون ، ولما نقضت قريش بإعانة بنى بكر على خزاعة سنة ثمان خرج إليهم النبى صلى الله عليه وسلم ففتح مكة فيها وانصرف من تبوك فى رمضان سنة تسع ، وأراد الحج ، وكره الاجتماع مع المشركين فى تلك السنة يطوفون عراة ، فأمر أبا بكر على الحج بالناس فنزلت أوائل براءة فى شوال ، وأنفذ أبا بكر ، ثم أتبعه بعلىّ بن أبى طالب يقرأ على الناس بأوائل براءة ، وبأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن له عهد عند رسول الله ، فأجله أربعة أشهر يسيح فيها ، ثم لا عهد ، وألا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ سيروا آمنين أيها

المشركون ﴿ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ أولها شوال بدليل ما يأتى ، قاله السيوطى ، وقال ابن العربى : والصحيح أن أولها من يوم النحر إلى آخر العشر من ربيع الآخر ، فبذلك كان النداء ، وإليه كان المنتهى . اه . وذكر الطبرى أن العرب قالت يومئذ : نحن نبرأ من عهدك ، ثم لام بعضهم بعضاً ، وقالوا ما تصنعون وقد أسلمت قريش كلهم ، ولم يسح أحد منهم ، بل دخلوا فى دين الله أفواجاً ، وإنما أمهل الناكثون أربعة أشهر ، ليرجع كل منهم إلى مأمنه ، ويقطع علائقه من الديون والمعاملات التى كانت بينهم وبين المسلمين قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ فائتى عذابه وإن أمهلكم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ مذلهم بالقتل والأسر فى الدنيا والعذاب السرمدى فى الآخرة ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ ﴾ أى إعلام منهما ، فعال من الإذن بمعنى الإفعال كالعطاء ، ورفعه كرفع براءة على الوجهين ﴿ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾ يوم النحر ، لأن فيه تمام معظم أفعال الحج ، ولأن الإعلام كان فيه ، ولما روى أنه عليه السلام وقف يوم النحر عند الجرات فى حجة الوداع فقال : هذا يوم الحج الأكبر ، أخرجه أبو داود وقيل يوم عرفة ووصف الحج بالأكبر ، لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ﴿ أَنَّ ﴾ أى بأن ﴿ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وعهودهم ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ برىء أيضاً ، مبتدأ محذوف الخبر ، أو عطف على المستكن فى برىء ، ولا تكرار ، لأن قوله « براءة من الله » إخبار بثبوت البراءة ، وهذه إخبار بوجوب الإعلان بذلك ، ولذا علقه بالناس ، ولم يخص بالمعاهدين قاله البيضاوى ، أو الأولى من العهد والثانية من الموالاة قاله فى اللباب . قال ويدل عليه تعدى برىء فى الأولى : بإلى . وفى الثانية : بمن ، والله أعلم ﴿ فَإِنْ تُبْتُمْ ﴾ من الكفر والغدر ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ عن الإيمان والوفاء ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ بل أنتم تحت قهره لاتفوتونه طلباً ، ولا تعجزونه هرباً فى الدنيا والآخرة . كرره مبالغة فى النصح وأردفه بقوله ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مؤلم فى الدنيا بالقتل والأسر ، وفى الآخرة بالنار ، على سبيل التهكم ، مبالغة فى التحذير بخلاف الأول ، اكتفى فيه بخزى الكافرين ثم استثنى من المشركين قوله ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى برىء من جميع عهود المشركين ، إلا من عهد الذين عاهدتم منهم ﴿ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا ﴾ من شروط العهد بالخيانة ﴿ وَلَمْ يُظَاهِرُوا ﴾ يعاونوا ﴿ عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ من أعدائكم كبنى خزاعة وبنى ضمرة ، وكان قد بقى من مدتهم تسعة أشهر ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى ﴾ انقضاء ﴿ مُدَّتِهِمْ ﴾ التى عاهدتم عليها ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ بإتمام العهود ، والحاصل أن العرب فى ذلك الوقت صنفان : ذو عهد وغيره ، فذو عهد أربعة أنواع : من له عهد مطلق ، أو دون أربعة أشهر ، أو فوقها وظهر منه غدر ، فأجل الثلاثة أربعة أشهر ، ومن لم يظهر منه نقض فعهده إلى مدته ، ومن لا عهد له البتة فأجل تأمينه خمسون يوماً من يوم الأذان إلى انقضاء المحرم ، وإليه أشار بقوله ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ ﴾ أى خرج ﴿ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ ﴾ بانسلاخ المحرم ، أو المراد أشهر العهد ، سميت حرماً لحرمة نقض العهد فيها

وهي الأربعة المتقدمة ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ في حل أو حرم ، في شهر حرام أو غيره ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ بالأسر ﴿ وَاحْصُرُوهُمْ ﴾ قيدوهم أو امنعوهم من الخروج إن تحصنوا بالحصون والقلاع ؛ حتى يضطروا إلى القتل أو الإسلام ﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ على كل طريق يسلكونه ، والمرصد الموضع الذي يقعد فيه للعدو ، ونصب « كلّ » على نزع الخافض أو على الظرف ﴿ فَإِنْ تَابُوا ﴾ عن الكفر بالإيمان ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ تصديقاً لتوبتهم ﴿ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ ولا تتعرضوا لهم ، دعوهم يتصرفوا في البلاد كيف شاءوا لاستواء المسلمين في الأحكام ، وفيه دليل على أن تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلى سبيله ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ تعليل للأمر ، أي فخلوهم بأن الله غفور رحيم ، غفر لهم ما سلف ، ووعد لهم الثواب ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الذين لا عهد لهم عندك و « أحد » مرفوع بفعل يفسره ﴿ اسْتَجَارَكَ ﴾ استأمنك بعد انسلاخ الأشهر الحرم ﴿ فَأَجِرْهُ ﴾ آمنه ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ القرآن ، ويتأمله ليكون باعثاً له على الإسلام ، وفيه دليل على أن كلامه يطلق على اللفظ كما يطلق على المعنى ﴿ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ موضع أمنه ، وهو دار قومه ، إن لم يسلم ، لينظر في أمره ، أو وفاء بالعهد ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الأمر بإجارتهم ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ دين الله ، فلابد لهم من سماع القرآن ، ليعلموا مالهم من الثواب إن آمنوا ، وما عليهم من العقاب إن أصروا على الكفر والآية محكمة ، وذلك سنة إلى يوم القيامة ﴿ كَيْفَ ﴾ أي لا ﴿ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ﴾ وهم كافرون بهما ، غادرون ، استفهام إنكار ، واستبعاد ، وعهد مرفوع على أنه اسم يكون ، وخبره كيف ، وإنما قدم لمعنى الاستفهام ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ الذين تقدم استثناؤهم من أهل العهد ، من خزاعة وبني ضمرة ، وكنانة ، الداخلين في عهد قريش ، ولم يقع منهم نكث ، وفائدة تقييد العهد بكونه عند المسجد الحرام : زيادة الحث على الوفاء به ، لكونه واقعاً في أشرف البقاع ، ومن قال هم قريش فقد وهم ، لأن قريشاً نقضوا العهد قبل الفتح نبه على ذلك غير واحد ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ ﴾ على العهد ﴿ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ على الوفاء به ، و « ما » شرطية أو مصدرية ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ كرره للتأكيد على حفظ العهد ﴿ كَيْفَ ﴾ يكون لهم عهد ، كرره لزيادة الاستبعاد ، مع التنبيه على العلة بقوله ﴿ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ يظفروا بكم ﴿ لَا يَرْقُبُوا ﴾ لا يلاحظوا ولا يراعوا ﴿ فِيكُمْ إِلًّا ﴾ قرابة أو حلفاً ﴿ وَلَا ذِمَّةً ﴾ عهداً ، بل يؤذونكم ما استطاعوا ، وجملة الشرط حال ﴿ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ بكلامهم الحسن ، استئناف لبيان حالهم ، المنافية لثباتهم على العهد ، المؤدية إلى عدم مراقبتهم عند الظفر ﴿ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ الوفاء به ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ناقضون للعهد ، خارجون بذلك عن طريق ذوي المروءات ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ القرآن ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ من الدنيا ، أي تركوا اتباعها للشهوات والهوى ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ دينه ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ ﴾ بئس ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ عملهم هذا ، وما دل عليه قوله ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾

المتجاوزون الحد فهو تفسير لعماهم ، لاتكرار ، أى كل من قدروا عليه من المؤمنين قتلوه ، فلم تبقون أنتم عليهم ، وهم لم يبقوا عليكم ، إذ ظفروا بكم ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ أى فهم إخوانكم ﴿فِى الدِّينِ﴾ والتساوى فى الأحكام ﴿ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الكلام حث على التأمل . فيما فصل من أحكام المشركين ، المعاهدين وغيرهم ، وعلى المحافظة عليها ، وكأنه قيل : من تأمل تفصيلها فهو الخليق بأن يسمى عالماً ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا ﴾ نقضوا ﴿ أَيْمَانَهُمْ ﴾ مواثيقهم ﴿ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ بتقبيح الأحكام وبقولهم دينكم لاشيء ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ رؤساءه ، فيه وضع الظاهر موضع المضمر ، إعلاماً ببلوغهم الغاية فى الكفر : فهم رؤساؤه ، فإذا قتلوا ارتدع الأتباع ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية من أئمة والباقون بتحقيقهما على ما علم من أصولهم ، وإظهار الياء لحن على ماقال البيضاوى ، قلت ليس بلحن ، فقد قرأ به بعض القراء ، يعنى هشاما ، وذهب إليه بعض النحويين ، قال الشاطبي :

وَأَئِمَّةٌ بِالْخُلْفِ قَدْ مُدَّ وَحْدَهُ . وَسَهِّلْ سَمَا وَصْفاً وَفِى النَّحْوِ أُبْدِلَا

إعلم ، أن فى لفظ أئمة أربع قراءات لنافع وابن كثير وأبي عمرو ، قراءتان التسهيل والبدل . ولهشام وجهان : تحقيق الهمزتين ، مع المد بينهما وتركه ، والكوفيين ، وابن ذكوان تحقيق الهمزتين من غير مد بينهما ، كأحد وجهى هشام . ﴿ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾ بفتح الهمزة للجمهور ، أى العهود ، ولابن عامر بكسرها ، مصدر آمنه : أعطاه الأمان أو بمعنى الإسلام ، وفيه دليل على أن الذمى ، إذا طعن فى دين الإسلام ظاهراً يقتل ، ولا يبقى له عهد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ عن الكفر ، ثم حض المسلمين على جهاد أهل الكفر ، وبين السبب فى ذلك فقال ﴿ أَلَا ﴾ للتحضيض ﴿ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا ﴾ نقضوا ﴿ أَيْمَانَهُمْ ﴾ عهودهم . ﴿ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾ من مكة ، لما تشاوروا فيه بدار الندوة ، أو من المدينة بالاستئصال ، بالأحزاب ﴿ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ بالقتال والمعاداة ، لأنه عليه الصلاة السلام بدأهم بالدعوة ، وإلزام الحجة بالكتاب والتحدى ، فعدلوا إلى القتال ، فما يمنعكم عن قتالهم ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ أيها المؤمنون فتتركون قتالهم مع أمر الله به ؟ ﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ فى ترك قتالهم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ لأن عقابه لايشبهه عقاب ، وأورد إيمانهم فى صورة المحتمل ، إنكاراً لتكاسلهم عن القتال بعد تحقق موجبه ، ولذا أعاد الأمر بعد بيان الموجب ، زيادة فى الترغيب والتشجيع بقوله ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ بقتلهم ﴿ وَيُخْزِهِمْ ﴾ يذلهم بالأسر والقهر ﴿ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ من خزاعة وأهل اليمن وسبأ الذين أسلموا وآذاهم الكفار ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ كربها ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ بالرجوع إلى الإسلام ، وقد وفى الله بما وعد ، والآية من المعجزات ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

لايفعل ولا يحكم إلا على وفق الحكمة ﴿ أَمْ ﴾ بمعنى همزة الإنكار ﴿ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا ﴾ خطاب للمؤمنين، حين كره بعضهم القتال ﴿ وَلَمَّا ﴾ لم ﴿ يَعْلَمِ ٱللَّهُ ﴾ علم ظهور ﴿ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾ بإخلاص أى لم يتميز المخلص منكم من غيره، نفى العلم وأراد لازمه. وهو المعلوم للمبالغة فإنه كالبرهان عليه من حيث أن تعلق العلم به مستلزم لوقوعه ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا ﴾ عطف على جاهدوا، داخل فى الصلة ﴿ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ بطانة وأولياء يفشون إليهم سرهم، ووليجة الرجل: خاصته، من الولوج: الدخول، كأنها لقوة اختصاصها داخلة فى قلبه، المعنى: لايترككم حتى يظهر المخلصون وهم الموصوفون بما ذكر من غيرهم، ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يعلم غرضكم وبواطن أعمالكم، إزالة لما يتوهم من كون نفى العلم على ظاهره ﴿ مَا كَانَ ﴾ ماصح ﴿ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللَّهِ ﴾ بالجمع للجمهور، والإفراد لابن كثير وأبى عمرو ويعقوب، ببنائها ودخولها والقعود فيها ﴿ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِٱلْكُفْرِ ﴾ بإظهاره: حال من الواو، والمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين متنافيين عمارة بيت الله وعبادة غيره ﴿ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ ﴾ بطلت ﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ لعدم شرطها ﴿ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ أبداً، فأين الثواب الذى يرجونه؟ ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ، وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ، وَآتَى ٱلزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ ﴾ أحداً ﴿ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أى فى أبواب الدين. ومن عمارتهم لها، تزيينها بالفرش، وتنويرها بالسرج، وإدامة العبادة والذكر، ودرس العلم فيها، وصيانتها عما لم تبن له: كحديث الدنيا. وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان فإن الله يقول: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر، أخرجه الترمذى، وقال حسن، وفى الصحيحين: عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم «من غدا إلى المسجد أو راح، أعد الله له فى الجنة نزلا كلما غدا أو راح» وفيهما أيضاً عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال سمعت: رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله، بنى الله له بيتاً فى الجنة» ﴿ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ ذكره بصيغة التوقع قطعاً لأطماع المشركين فى الاهتداء والانتفاع، بأعمالهم، وتوبيخاً لهم بالقطع بأنهم مهتدون، فإن كان هؤلاء المؤمنون مع كمالهم، دائرين بين عسى ولعل فما ظنك بأضدادهم، ومنعاً للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم ويتكلوا على أعمالهم ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ ﴾ التى فى بنى هاشم ﴿ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ سدانتها التى فى بنى عبد الدار، أى أجعلتم أهل ذلك ﴿ كَمَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ ﴾ أو أجعلتم ذلك كإيمان من آمن بالله ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ، وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ ﴾ أهل السقاية والعمارة والمؤمنون، ﴿ عِنْدَ ٱللَّهِ ﴾ فى الفضل، وبين عدم تساويهم بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ بالكفر والانهماك فى الضلال، فكيف يساوون من هداهم، نزلت رداً على من قال ذلك من قريش، روى أن العباس قال: إن سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد

كنا نعمر المسجد الحرام ، ونسق الحاج ، فأخبرهم الله أن الإيمان والجهاد ، خير مما هم عليه . ثم لما رد الله المساواة ، أشار إلى ما أعد المجاهدين مع إزالة ما يتوهم من لفظ عسى من الاحتمال ، بقوله ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ رتبة ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ من غيرهم ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ بالبغية ، لاغيرهم ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ عند الموت ، لقوله الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، يقولون سلام عليكم ، أو عند دخول الجنة لقوله « سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » وهو بيان لمعنى الفوز ﴿ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ دائم وتنكير المبشر به ، لإشعار أنه وراء التعيين والتعريف ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ وإنما قدم الرضوان على الخلود في النعيم ، لأنه المطلب الأعلى ، لقوله « ورضوان من الله أكبر » ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يحاط به ، ولم يخطر على قلب بشر ، يستحقر دونه ما استوجبوه لأجله ، أو نعيم الدنيا . ونزل فيمن ترك الهجرة لأجل أهله وتجارته ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴾ إذ الإيمان قبل فتح مكة لا يتم إلا بالهجرة ، ومفارقة الأقارب ، واستشكل بأن السورة نزلت بعد الفتح ، ولذا قال بعضهم : الأولى أن الله لما أنزل براءة وكان لبعض المؤمنين قرابة لم تسلم ، فقالوا كيف يقاطع الرجل أباه وأخاه وابنه ، فنزلت . وفي الجواهر : ظاهر هذه المخاطبة لجميع المؤمنين كافة . وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ لوضعهم الولاية في غير محلها ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ بالإفراد للجمهور ، والجمع لأبي بكر : أقرباؤكم ، وهي القبيلة ، من العشرة : بمعنى المخالطة ، ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ عدم نفاقها ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ لاتحبون مفارقتها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ أي آثر عندكم ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فقعدتم لأجل ماذكر عن الهجرة والجهاد ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ تهديدلهم ، ثم فسقهم بقوله ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعته. قال البيضاوي: وفي الآية تشديد عظيم قل من يتخلص عنه ، وفي لباب التأويل : وفي هذه الآية دليل على أنه إن وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا : وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا . اه ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ ﴾ للحرب ﴿ كَثِيرَةٍ ﴾ في الغزوات والسرايا ، وقد غزا صلى الله عليه وسلم بنفسه تسع عشرة غزوة ، وبعث سبعين أو ثمانين سرية ، وتقدم ترتيبها ، من ودان في صفر في السنة الثانية ، إلى الخندق في الخامسة في شوال وفي ذي القعدة غزوة بني قريظة ، ثم سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء . في المحرم سنة ست ، ثم غزوه عليه السلام بني لحيان في ربيع الأول ، ثم غزوة ذي القرد ، وهي الغابة فيه أيضاً ، ثم سرية عكاشة إلى غمر فيه ، ثم سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة فيه ، ثم سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم في ربيع الآخر ، ثم سريته إلى العيص في جمادى الأولى ، ثم سريته إلى الطرف في جمادى الآخرة

ثم سريته إلى جسمى فيها ، ثم سريته إلى وادى القرى ، ثم سرية سعيد بن زيد فى قصة العرنيين فيها ، وفيه خلاف ، ثم سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فى شعبان ، ثم سرية علىّ بن أبى طالب فيه إلى بنى سعد بن بكر ، بين فدك وخيبر ، ثم سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة فى رمضان ، ثم سرية عبد الله ابن عتيك فيه ، لقتل أبى رافع سلام بن أبى الحقيق ، ثم سرية عبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام بخيبر فى شوال ، ثم سرية عمرو بن أمية الضمرى لقتل أبى سفيان بمكة فلم ينله ، ثم قصة الحديبية فى ذى القعدة وفيها بيعة الرضوان ، وسيأتى إن شاء الله ، ثم خيبر فى المحرم سنة سبع ، ثم غزوة فتح وادى القرى فى جمادى الآخرة ، ثم سرية عمر بن الخطاب إلى تربة فى شعبان ، ثم سرية أبى بكر الصديق إلى بنى كلاب فى شعبان ، ثم سرية بشير بن سعد إلى بنى مرة فيه ، ثم سرية غالب بن عبدالله ناحية نجد فى رمضان ، ثم سرية بشر بن سعد إلى أرض غطفان فى شوال ، ثم عمرة القضاء فى ذى القعدة ، ثم سرية ابن العرجاء إلى بنى سليم فى ذى الحجة ، ثم سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى بنى ملوح فى صفر سنة ثمان ، ثم سريته أيضاً إلى فدك فيه ، ثم سرية شجاع بن وهب إلى بنى عامر فى ربيع الأول . ثم سرية كعب بن عمير إلى ذات أطلاح فيه أيضاً ثم سرية مؤتة فى جمادى الأولى ، وفيه قتل الأمراء الثلاثة : زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبى طالب ثم عبدالله ابن رواحة ، ثم سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل فى جمادى الآخرة ، ثم سرية أبى عبيدة بن الجراح فى رجب إلى سيف البحر ، ثم سرية أبى قتادة إلى أرض محارب بنجد فى شعبان ، ثم سريته إلى بطن إضم أول شهر رمضان ، ثم غزوة فتح مكة فى رمضان ، ثم سرية خالد بن الوليد إلى العزى ، ثم لعمرو بن العاص إلى سواع ، ثم لسعد بن زيد إلى مناة ، كلها فى آخر رمضان . ثم لخالد بن الوليد إلى بنى جزيمة فى شوال ، ثم غزوة حنين هذه فى شوال ، التى أشار إليها بقوله ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ أى ونصركم ، أو اذكر يوم حنين ـ واد بين الطائف ومكة ـ أى يوم قتالكم هوازن فيه فى شوال سنة ثمان ﴿ إِذْ ﴾ بدل من يوم ﴿ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ فقلتم لن نغلب اليوم من قلة وكانوا اثنى عشر ألفاً والكفار أربعة آلاف ، فسبق إليهم سرعان الناس اعتماداً على الكثرة ، فرشقوهم رشقاً ، فانهزموا إلى رسول الله . وقيل هزموا الكفار أولا فأقبلوا على الغنائم ، فرجعوا عليهم بالسهام فانهزموا ﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ ما مصدرية ، أى مع رحبها ، أى سعتها ، فلم تجدوا مكاناً تطمئنون إليه لشدة ما لحقكم من الخوف ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ منهزمين ، وثبت النبى صلى الله عليه وسلم وليس معه غير العباس عمه وابن عمه أبى سفيان بن الحارث آخذاً بركابه ، فالتفت إلى يمينه فقال : يال الأنصار ، فقالوا : لبيك يا رسول الله ، وكذا إلى يساره ، فأحاطوا به بعد الجولة ، وقال للعباس : ناد أين أصحاب الشجرة ، أين أصحاب سورة البقرة فرجعوا إليه عنقاً ومسرعين ، واحداً واحدا فنزل وصفهم ، فتضاربوا بالسيوف حتى اشتد الحرب ، فقال : الآن حمى الوطيس ، ثم أخذ كفاً من الحصباء نرى به وجوه الكفار فانهزموا وقتل كثير ، وسبى

ستة آلاف من عيالهم ، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى . قلت : أراد بالشجرة التى بايعوا تحتها يوم الحديبية بيعة الرضوان ، وأصحاب البقرة من صنر الله بهم أولها ، وهم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة والله أعلم ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ طمأنينته ﴿ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ وهى الوقار وقوة القلب ﴿ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين ثبتوا معه ، ومن تولى منهم فإنهم كروا بعد الفرار ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُودًا ﴾ من الملائكة ﴿ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ ولم تصح كيثهم ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ كن تابوا من هوازن بعد ذلك ، وجاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم بعد ماقسم الغنائم رجوعه من الطائف وكان انتظرهم نيفاً وعشرين يوماً لم يقسم الغنائم فلما جاءوه تائبين سألوا أن يرد إليهم أموالهم وعيالهم ، فقال لهم : قد كنت أستنظر بكم ، والآن اختاروا إحدى الطائفتين إما السبى وإما المال . فقالوا لانسوى بالسبى شيئاً . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر خطيباً فقال هؤلاء إخوانكم جاءوا تائبين وأنا خيرتهم بين السبى والمال فاختاروا السبى ، فن طابت نفسه فيكم فذاك ، ومن لم يطب فليكن على حظه حتى نعطيه من أول ما يفء الله علينا . فقالوا : قد رضينا يارسول الله . فقال : إنا لا نعرف من رضى منكم ومن لم يرض ، ارجعوا إلى رحالكم حتى يرجع إلينا عرفاؤكم . فجاء عرفاؤهم فقالوا قد رضوا . فرد السبى إليهم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ للتائبين ما قد سلف ﴿ رَحِيمٌ ﴾ برد ذراريهم . ثم سرية أبى عامر الأشعرى فى طلب الفارين من حنين إلى أوطاس . ثم سرية الطفيل بن عمرو الدوسى إلى ذى الكفين صنم فى شوال لحرقه . ثم غزوة الطائف . ثم بعث قيس بن سعد إلى ناحية من اليمن يقاتل قبيلة صداء فقدم زياد بن الحارث الصدائى فقال يا رسول الله اردُد الجيش فإنا لك بقوم ، فردهم فجاء بقومه فأسلموا . ثم بعث عيينة بن حصن إلى بنى تميم بالسقيا فى المحرم سنة تسع . ثم سرية قطبة بن عامر إلى خثعم . ثم سرية الضحاك فى ربيع الأول إلى القرطاء . ثم سرية علقمة بن مجزز إلى الحبشة فى ربيع الآخر . ثم سرية على بن أبى طالب إلى الفلس فى ربيع الآخر . ثم سرية عكاشة إلى الجناب . ثم غزوة تبوك ، خرج عليه السلام يوم الخميس فى رجب إلى الروم ، وهى آخر غزواته . ثم بعث أبا بكر الصديق للحج بعد رجوعه فى ذى القعدة . ثم بعث أبا موسى ومعاذاً إلى اليمن . ثم أرسل خالد بن الوليد فى ربيع الأول سنة عشر إلى نجران . ثم أرسل على بن أبى طالب إلى اليمن فى رمضان . ثم حج حجة الوداع . ثم سرية أسامة بن زيد إلى أبنا لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة وهى آخر سراياه صلى الله عليه وسلم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ ﴾ أى الكفار أهل الأصنام وغيرهم ﴿ نَجَسٌ ﴾ قذر لخبث باطنهم بالكفر ولأنهم يجنبون ويحدثون ولا يتطهرون ويلابسون النجاسات غالباً . لكن اتفق الفقهاء الأربعة على طهارة أبدانهم لأن السلف كانوا يؤاكلونهم ويشربون من أوانيهم ولم يعتبروا مفهوم حديث أبى هريرة إن المسلم لاينجس ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ فضلا عن الدخول فيه وكذا سائر المساجد قياساً عليه عند مالك . وقال

أبو حنيفة : المراد نهيهم عن الحج والعمرة لا عن الدخول فى المساجد مطلقاً ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ أى عام تسع من الهجرة التى كان الصديق أمير الحاج فيها ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ فقراً بانقطاع تجارات الكفار عنكم بمنعهم من الحرم ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ وقد أغناهم بالفتوح والجزية بعد إسلام أهل تبالة وجرش من اليمن وأغناهم بخصبه . ثم توجه إلى مكة الناس من كل فج عميق وقيد بالمشيئة تنبيهاً على أنه متفضل فى ذلك وأن الغنى يكون لبعض دون بعض وفى عام دون عام ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ كامل العلم بأحوالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فى الإعطاء والمنع « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض » ولما كل أمر العرب أمر الله نبيه بقتال أهل الكتاب ، ولذا خرج إلى غزوة تبوك بقوله ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لفساد عقائدهم وإلا لآمنوا بالنبى ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ كالخمر والخنزير ، أى هم مخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملا ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة : الدين الثابت الناسخ لغيره من الأديان وهو الإسلام ﴿مِنَ﴾ لبيان ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ اليهود والنصارى ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ الخراج المضروب عليهم كل عام ، وهو غاية القتال المأمور به ، فعلة من جزى الدين قضاه للاجتزاء بها عن قتالهم ﴿عَنْ يَدٍ﴾ حال ، أى منقادين أو بأيديهم لا يوكلون بها ، أو يداً بيد أى نقداً لانسيئة فيه ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أذلاء منقادون لحكم الإسلام ولا بد أن يأتى بها ماشياً ويهان فى أخذها . والآية وإن وردت فى أهل الكتاب لكن ألحق بهم مالك سائر الكفار سوى المرتد ، وأبو حنيفة سوى مشركى العرب ، وألحق الشافعى المجوس فقط . وأما قدرها عند مالك فأربعة دنانير على أهل الذهب وأربعون درهماً على أهل الفضة ، وعند الشافعى وأحمد أقلها دينار وعند أبى حنيفة ثمانية وأربعون درهماً وكل هذا فى العنوة ، وأما الصلح فعلى ما صولحوا عليه من قليل أو كثير . ثم بيّن عدم ديانة أهل الكتاب بقوله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ أى طائفة منهم ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ لحفظه التوراة ، وقرأ عاصم والكسائى عزير بالتنوين على أنه اسم عربى . وابن الله خبره والباقون غير منوّن لأنه عجمى . فالألف ثابت فى الرسم فلا يجعل وصفاً والخبر محذوف أى إلهنا ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى﴾ أى طائفة منهم ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ لأنه وُلد بلا أب ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ لا مستند لهم عليه بل هو مماثل للمهمل الذى يوجد فى الأفواه ولا يوجد مفهومه فى الأعيان ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ يشابهون به ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ من آبائهم تقليداً لهم . المعنى : أن الكفر قديم فيهم أو من المشركين فى قولهم الملائكة بنات الله ، أو من اليهود على أن الضمير للنصارى ﴿قَاتَلَهُمُ﴾ لعنهم ﴿اللَّهُ أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق مع قيام البرهان ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ علماء اليهود ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ عبّاد النصارى ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم فى تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ بأن جعلوه ابناً لله ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ فى التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا﴾ أى بأن يطيعوا ﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا

لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ولا إله صفة ثانية أو استئناف مقرر للتوحيد ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا ﴾ يخمدوا ﴿ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ شرعه وبراهينه ﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ بأقوالهم بالتكذيب فيه ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ ﴾ لا يرضى ﴿ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ يظهر كلمته على الدين كله ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ وإنما صح الاستثناء المفرغ والفعل موجب لأنه فى معنى النفى ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ محمداً ﴿ بِالْهُدَى ﴾ القرآن ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ الإسلام ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ ليعلى الدين ﴿ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ جميع الأديان المخالفة له ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ذلك، وهذه الآية كالبيان لقوله «ويأبى الله إلا أن يتم نوره» ولذا كرر «ولو كره» ووضع «المشركون» موضع «الكافرون» للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله، واللام فى الدين للجنس أى على سائر الأديان فينسخها أو على أهلها فيذلهم أو يسلموا كلهم وذلك لا يكون إلا فى زمان عيسى والله أعلم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ ﴾ يأخذون ﴿ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ كالرشى فى الحكم وثمن الجاه، فلا تتبعوهم على ذلك إذ المراد بيان نقائصهم بالحرص على الأموال وأكل الحرام مع كونهم علماء وعباد فى زعمهم ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ الناس ﴿ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ دينه ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ مبتدأ ﴿ يَكْنِزُونَ ﴾ يجمعون ﴿ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا ﴾ أى الكنوز ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ لا يؤدون منها حقه من الزكاة والخير ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ أعلمهم ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مؤلم هو الكى بها وفى البخارى قال معاوية ماهذه الآية إلا فى أهل الكتاب. قال أبو ذر: إنها لفينا وفيهم وفى الجواهر: والذى يظهر من ألفاظ الآية أن الله لما ذكر نقص الأحبار والرهبان الآكلين المال بالباطل ذكر بعد ذلك بقول عام نقص الكانزين المانعين حق المال اهـ. والتوعد فى الكنز إنما وقع على منع الحقوق منه على قول أكثر العلماء، وقيل الذم فيما فضل عن الحاجة وإن أديت حقوقه والكنز ما حفظ فى الأوعية، وإن لم يدفن ﴿ يَوْمَ يُحْمَى ﴾ توقد النار الحامية ﴿ عَلَيْهَا ﴾ على الكنوز ﴿ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ بأن تدخل النار فيوقد عليها حتى تبيض من شدة الحرارة يقال حميت الحديدة وأحميتها: أوقدت عليها لتحمى. والفاعل المحذوف فى الآية هو النار تقديره يوم تحمى النار عليها، جعل الإحماء للنار مبالغة ثم حذفت النار وأسند الفعل إلى الجار والمجرور تنبيها على المقصود فذهبت علامة التأنيث لذهاب الفاعل ﴿ فَتُكْوَى ﴾ تحرق ﴿ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ ويوسع جلدهم حتى توضع عليه كلها، وتخصيص هذه الأعضاء لأنها أشرف، لاشتمالها على الدماغ و القلب والكبد، التى هى رئيسها، ولأن إمساكهم وبخلهم بالأموال كان لطلب الوجاهة بالتنعم بها، ولأن السائل يقطبون له الوجوه أولا، وربما أعرضوا عنه وأعطوه جنوبهم، وربما ولوه ظهورهم، فيقال لهم ﴿ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ أى جزاءه، وفى الصحيحين عن الأحنف قال قدمت المدينة فبينا أنا فى حلقة فيها ملأ من قريش إذ جاء رجل خشن الثياب، خشن الجسد، فقام عليهم فقال: بشر الكانزين برضف، يحمى عليه فى نار جهنم، فيوضع على حلمة ثدى أحدهم، حتى يخرج من نغض كتفيه

« النغض غرسوف الكتف » ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه ، يتزلزل ، قال : فوضع القوم رءوسهم ، فأدبر . فاتبعته حتى جلس إلى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ماقلت لهم ، فقال : إن هؤلاء لايعقلون شيئاً ، وفى البخارى : ما قلت إلا شيئاً سمعته من نبيهم . اهـ ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ ﴾ للسنة القمرية التى يعتد بها المسلمون فى صيامهم وحجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ بمعنى أنه الذى قدر ذلك فى الأزل ، وعلى ذلك الوجه أبرزها فى اللوح ، وعند نصب بعدّة لأنها مصدر بمعنى العد ، أى مبلغ عددها عنده ﴿ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً ﴾ مفصلة على الفصول الأربعة ، الربيع والصيف والخريف والشتاء ، وهى : المحرم ، وصفر ، وربيع الأول ، وربيع الآخر ، وجمادى الأولى ، وجمادى الآخرة ، ورجب وشعبان ، ورمضان ، وشوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، كلها مذكرة إلا جمادى ، ولايضاف الشهر إليها إلا شهر ربيع ، وشهر رمضان وأيامها ثلاثة مائة وأربعة أو خمسة وخمسون يوماً ، والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس فى الفلك دورة تامة ، وهى ثلاث مائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم ، فتنقص القمرية عنها عشرة أو إحدى عشرة ، فبسبب ذلك النقصان تدور السنة الهلالية قبلها فيقع الصوم والحج تارة فى الشتاء ، وتارة فى الصيف ﴿ فِى كِتَابِ اللَّهِ ﴾ اللوح المحفوظ لأنه أصل الكتب ، أوالقرآن ، أو فى حكمه وهو صفة لاثنا عشر ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ متعلق بكتاب الله ، على جعله مصدرا ، أو بما فى معنى يوم من الثبوت ، والمعنى أن هذا الأمر ثابت منذ خلقهما إذ هو الوقت الذى ابتدأ منه سير القمر ، وكل هذا رد لما يقوله نسأة حرمة الشهر من العرب بجعلهم الشهور ثلاثة عشر ، وذلك أنهم كانوا يؤخرون فى بعض السنين حرمة المحرم إلى صفر . ويسمون ذلك الصفر المحرم . ثم يسمون ربيعا الأول صفراً ، وهكذا فى سائر الشهور . فتجىء السنة من ثلاثة عشر شهراً ، أولها المحرم المحلل ، ثم المحرم الذى هو فى الحقيقة صفر ، ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ جمع حرام ، نص على تفضيلها بتضعيف الحسنات والسيئات فيها أكثر من غيرها ، واحد فرد ، وثلاثة سرد ، والفرد رجب مضر ، ويقال له الأصب ، لأنه يصب فيه البركات ، والأصم لأنه تصم الآذان فيه عن سماع قعقعة السلاح . والثلاثة ذو القعدة وذو الحجة - بفتح القاف والحاء فى الأشهر - والمحرم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى تحريمها ﴿ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ المستقيم ، دين إبراهيم وإسماعيل ، والعرب ورثوه منهما ، وفيه إشارة إلى أن النسىء الآتى ليس من ذلك الدين فى شىء ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ بالمعاصى ، فإنها فيها أعظم وزراً ، قيل سوى رمضان ، فإنه سيد الشهور ، فالظلم فيه أقبح ، والجمهور ومنهم الأئمة الأربعة على أن حرمة القتال فيها مع المشركين منسوخة بقوله « واقتلوهم حيث وجدتموهم » أى فى الحل والحرم ، وإذا جاز فى الحرم ففى الأشهر الحرم أولى ، أو بقوله ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ جميعاً فى كل الشهور ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم حاصر الطائف فى شهر حرام ، وهو ذو القعدة ، كما ثبت فى الصحيحين أنه حاصرها أربعين

يوماً ﴿ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ أى مجتمعين على قتالكم . والمعنى : تعاونوا وتناصروا على قتالهم . ولا تتخاذلوا فتجبنوا عن قتالهم ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ بالعون والنصر . وهذا وعد لهم بالنصر يفيد تسكين القلب والجرأة على الإقدام ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ ﴾ بقلب الهمزة ياء ً وإدغامها فى الياء لورش عن نافع وبترك القلب للباقين ، أى تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر . كما تفعله الجاهلية . وكانوا إذا أحبوا المحاربة فى الشهر الحرام أحلوه وحرموا مكانه شهراً آخر حتى رفضوا خصوص الأشهر . واعتبروا مجرد العدد ﴿ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ لكفرهم بحكم الله فيه . قال فى غاية الأمانى : والنسيء فعيل بمعنى مفعول : من نسأت الشيء أخرته . اه . ﴿ يُضَلُّ ﴾ بفتح الياء وكسر الضاد للجمهور ، وبضم الياء وفتح الضاد مبنيا للمفعول لحمزة والكسائى وحفص ﴿ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ضلالا زائداً ﴿ يُحِلُّونَهُ ﴾ أى النسيء ﴿ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ﴾ أى يحلون النسيء من الأشهر الحرم عاماً ، ويحرمون مكانه شهراً آخر ، ثم يحرمونه عاماً فيتركونه على حرمته ، والجملتان تفسير للضلال أو حال ﴿ لِيُوَاطِئُوا ﴾ يوافقوا بتحليل شهر وتحريم آخر بدله ﴿ عِدَّةَ ﴾ عدد ﴿ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ من الأشهر فلا يزيدون على تحريم أربعة ولا ينقصون ولا ينظرون إلى أعيانها ، واللام متعلقة بيحرمونه أو بما دل عليه مجموع الفعلين . قال فى غاية الأمانى : وهذا يرد ما قيل إنهم كانوا يزيدون فى الأشهر . اه . قلت لا يرده لمن تأمل ، لأن زيادتهم كان فى شهور السنة لا فى الأربعة الحرم التى يطلبون أن لا يزيدوا عليها ولا ينقصوا ﴿ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ بمراعاة العدد من غير مراعاة للوقت ، وسبب ذلك أن العرب كانت تعتقد حرمة الأشهر الحرم ، وهى مما تمسكت به من ملة إبراهيم عليه السلام وكان غالب معايشهم من الصيد والغارة ، فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية . فكان بنو فقيم بن كنانة يؤخرون لهم حرمة شهر إلى آخر إذا كرهوا تأخير الحرب إلى الجلال وكانوا يستحلون المحرم ويحرمون مكانه صفر كما تقدم . وإذا احتاجوا إلى تأخير حرمة صفر أخروها إلى ربيع الأول ، فكانوا يصنعون هكذا يؤخرون شهراً بعد شهر ، حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها وكانوا يحجون فى كل شهر عامين ، فوافق حجة أبى بكر فى التاسع وحجة الوداع للنبى صلى الله عليه وسلم فى العاشر فى ذى الحجة : شهر الحج المشروع ، فخطب النبى صلى الله عليه وسلم فى العاشر بمنى وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان حتى عاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق السموات والأرض ، وهو قوله عليه الصلاة السلام : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض » الحديث أخرجه الشيخان . فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالمحافظة على ذلك الحساب لئلا يتبدل فى مستأنف الأيام وإنما جعل الله الاعتبار بسير القمر ، لأنه أمر ظاهر مشاهد بالبصر بخلاف سير الشمس فإنه محتاج إلى حساب فلم يحوجنا إلى ذلك ، وإنما علق الله على الشمس أحكام الصلاة والصيام حيث كان مشاهداً بالبصر لا يحتاج إلى حساب كطلوع الفجر والشمس وزوالها ، ومصير ظل كل شىء مثله

وغروبها ، ونحو ذلك . والله أعلم ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ﴾ فظنوه حسناً ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ وإن دعاهم إلى الإسلام ونصب لهم الأدلة لما سبق من الختم على قلوبهم وأنهم من أهل النار أزلا ، ولما رجع صلى الله عليه وسلم من الطائف وتجهز فى رجب لغزوة الروم غزوة تبوك ، وكان ذلك فى زمان عسرة من الناس ، وشدة من الحر ، مع أن النبي استقبل سفراً بعيداً وجمعاً عديداً . ولذا جلى للناس أمرهم ليتأهبوا فشق عليهم الخروج وتثاقلوا : نزل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ﴾ أى قال لكم رسول الله ﴿ انْفِرُوا ﴾ اخرجوا إلى الجهاد ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ بإدغام التاء فى الأصل فى المثلثة واجتلاب همزة الوصل ، أى تباطأتم وملتم ﴿ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أى القعود فى أرضكم ومساكنكم والاستفهام للتوبيخ ، ولا خلاف بين العلماء أن المراد بهذا العتاب من تخلف فى خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك فى عشرين ألفاً بين راكب وراجل سنة تسع وقت شدة القيظ وطيب الثمار والظلال ، وعدّى «اثاقلتم» بإلى لتضمنه معنى ملتم ﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ولذاتها ﴿ مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ بدل نعيمها ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي ﴾ جنب متاع ﴿ الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ حقير زائل ، وفى صحيح مسلم والترمذى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بماذا ترجع . قال فى لباب التأويل: وفى الآية دليل على وجوب الجهاد فى كل حال وفى كل وقت لهذا العتاب ، والوعيد فى قوله ﴿ إِلَّا تَنْفِرُوا ﴾ إلى الجهاد ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فى الدنيا بظهور الأعداء وشدة القحوط وفى الآخرة بالنار ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ مطيعين كأهل اليمن وأبناء فارس . المعنى : قد تكفل الله بنصر دينه ونبيه ، فإن سارعتم إلى الخروج حصلت النصرة بكم ووقع أجركم على الله ، وإن تثاقلتم وتخلفتم عنه حصلت النصرة بغيركم فلا تتوهموا أن نصر الدين وإعزازه لا يحصل إلا بكم ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ من الضرر أو من الأشياء لأنه غنى عن العالمين وإنما تضرون أنفسكم بترك الجهاد ، أو الضمير للرسول لأن الله ناصره على أعدائه ولا يخذله ، خرجتم أو تخلفتم ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد كما قال ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ ﴾ بالخروج معه إلى الكفار ﴿ فَـ ﴾ سينصره الله ولو سار وحده ، كما ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من مكة أى ألجأوه إلى الخروج لما أرادوا قتله أو حبسه أو نفيه بدار الندوة ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ حال أى أحد اثنين والآخر أبو بكر الصديق رضى الله عنه . المعنى : نصره الله فى مثل تلك الحالة فلا يخذله فى غيرها ﴿ إِذْ ﴾ بدل من إذ قبله بدل البعض إذ المراد به زمان متسع ﴿ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ أى الكهف فى أعلى جبل ثور ، وثور جبل غربى مكة من الجهة اليمنى ، مكثا فيه ثلاثاً بعد الخروج لينقطع الطلب ، فطلبهما الكفار فى ذلك الجبل ووصلوا إلى فم الغار حتى قال الصديق : لو نظروا تحت أقدامهم لرأونا . فقال صلى الله عليه وسلم «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ ﴾ أى أبى بكر إجماعاً بدل ثان ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ بنصره ، فأعمى الله الكفار ولم يروهما ، وبعث حمامتين فباضتا فى أسفل الغار والعنكبوت

فنسجت عليه ﴿ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ ﴾ طمأنينته ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أى على رسوله ، أو على صاحبه أبى بكر . قال البيضاوى : وهو الأظهر لأنه كان منزعجاً . وضعفه صاحب غاية الأمانى بقوله : وجعلُ الضمير لصاحبه تكلف وتشويش للنظم . قلت : يعنى لأن الأصل توافق الضمائر فى المرجع ، والضمير فى « وأيده » للنبى صلى الله عليه وسلم قطعاً ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ ملائكة فى الغار وفى مواطن قتاله ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى دعوة الشرك ﴿ السُّفْلَىٰ ﴾ المغلوبة ﴿ وَكَلِمَةُ اللهِ ﴾ كلمة الشهادة ﴿ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ الظاهرة الغالبة ، أى جعل ذلك بتخليص النبى صلى الله عليه وسلم من أيدى الكفار إلى المدينة وتأييده بالملائكة فى مواطن قتاله وحفظه ونصره له حيث حضر : وفى الآية تشريفه ووعده بالنصر ومدحه بالتوكل والسكينة وذكر هجرته من مكة إلى المدينة ، وفيها مدح أبى بكر بما لا يحصى . قال الشعبى : عاتب الله أهل الأرض جميعاً فى هذه الآية غير أبى بكر . وقال الحسن بن الفضل : من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله فهو كافر لإنكاره نص القرآن ؛ فهو جدير به : لأنه بذل نفسه وفارق أهله وماله ورياسته فى طاعة الله وطاعة رسوله ، ولازمه وعادى جميع الناس فيه ، وهاجر معه وحده ، فلما وصلا إلى الغار قال للرسول : والله لا تدخله حتى أدخل فيه فإن كان فيه شىء أصابنى دونك ، فدخله وكسحه ووجد فى جانبه ثقباً فشق إزاره وسدّ واحدة منها به وبقى ثقب ثان فألقمها رجليه، ثم دخل الرسول صلى الله عليه وسلم ووضع رأسه فى حجره ونام ، فلدغ أبو بكر ولم يتحرك لئلا يوقظه . فلما قام أخبره ، فتفل عليه فذهب ما يجده . وكان حين يمشى معه إلى الغار ليلا ، يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه . فقال له الرسول مالك ياأبا بكر ؟ فقال : أذكر الطلب فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك فإن أقتل فأنا رجل واحد من المسلمين وإن قتلت هلكت الأمة ... إلى آخر ما فعل فى الهجرة وغيرها رضى الله عنه ﴿ وَاللهُ عَزِيزٌ ﴾ لا يغلبه شىء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما دبر وشرع ﴿ انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً ﴾ أى على صفة يخف بها عليكم الجهاد ، أو يثقل بها عليكم من كونكم نشاطاً وغير نشاط ، أقوياء أو ضعفاء ، أغنياء أو فقراء ، شباباً أو شيوخاً ، ركباناً أو مشاة ، صحاحاً أو مراضاً . قال فى الجواهر : معنى الخفة والثقل ها هنا مستعار لمن يمكنه السفر بسهولة ومن يمكنه بصعوبة ، وأما من لا يمكنه كالأعمى ونحوهم ، فخارج عن هذا النهى ، والآية منسوخة على الصحيح بآية « ليس على الضعفاء » وغيرها ، وهى أول ما نزل من سورة براءة ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ بما أمكن لكم منهما كليهما أو أحدهما ﴿ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ وفى الصحيح من جهز غازياً فكأنما غزى بنفسه ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من القعود والتثاقل عنه ، والمعنى الجهاد خير حاصل لكم فلا تفوتوه بالتثاقل والقعود ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه خير بإخبار الله فبادروا إليه ، أو المراد إن كنتم تعلمون الخير ، علمتم أنه خير ، وهو توبيخ على التكاسل لأنهم عالمون بخيريته ، لاريب فيه ﴿ لَوْ كَانَ ﴾ مادعوتم إليه ﴿ عَرَضاً ﴾ نفعاً دنيويا ﴿ قَرِيباً ﴾ سهل المأخذ ﴿ وَسَفَراً قَاصِداً ﴾ متوسطا ﴿ لَاتَّبَعُوكَ ﴾ طلباً للغنيمة ﴿ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ المسافة التى

تقطع بمشقة نحو شهر ، ويستعظمون غزو الروم بنى الأصفر ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ ﴾ أى المنافقون الذين تخلفوا يحلفون ﴿ بِاللَّهِ ﴾ لكم إذا رجعتم إليهم معتذرين ﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا ﴾ الخروج ﴿ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ لكن لم نستطع لعدم العدة ، أو لسقم البدن ، وقوله « لخرجنا » ساد مسدّ جوابى القسم والشرط ﴿ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالحلف الكاذب ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى قولهم ذلك ، بل كانوا مستطيعين ، وفى الآية إخبار بالغيب ، وأن الأيمان الكاذبة تهلك صاحبها . ولما استأذنه عليه السلام بعض المنافقين فى القعود فأذن لهم ، لأن الله قال له « فأذن لمن شئت منهم » نبه الله على أن الأولى فى هذه الحالة ترك الإذن لهم ، وقدم العفو تطمينا لقلبه ، وتشريفاً فقال ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ أدام الله لك العفو : كلام يقال فى مقام التبجيل والتعظيم ، كما تقول لمن تعظم : أصلحك الله ، لم صنعت فى شأنى هذا ؟ ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ فى التخلف عنك ، وهلا تركتهم ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ فى العذر ﴿ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فيه ، وتقديم العفو وذكر الإذن الدال على علو مرتبته ، وكثرة عفوه ، وإيراد الإنكار على صورة الاستفهام : إجلال له صلى الله عليه وسلم ، وكان يجتهد فى أمر الحرب ، ويشاور أصحابه فيه وإذا صدر منه خلاف الأولى ، نبه عليه كما مر فى أخذ الفداء ، وإنما استعمل التبيُّن فى الصدق والعلم فى الكذب ، لأن الصدق واضح ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فى التخلف عن ﴿ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ أى ليس من دأب المؤمنين الاستئذان فى الجهاد ، بل يبادرون إليه ، فكيف بالاستئذان فى التقاعد عنه ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ أى بهم ، وضع المظهر مكان المضمر : شهادة لهم بالتقوى ، وعدة لهم بثوابه . ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ﴾ فى التخلف ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ لصريح بما علم ، وذكر الله واليوم الآخر فى الموضعين : إشارة إلى المبدإ والمعاد ، وأن الباعث على الجهاد هو العلم بأن الله يجازى عليه يوم القيامة ﴿ وَارْتَابَتْ ﴾ شكت ﴿ قُلُوبُهُمْ ﴾ فى الدين ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ يتحيرون بين الكفار والمؤمنين ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ ﴾ معك ﴿ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ تكذيب لهم فى دعوى عدم الاستطاعة ، أى لهم مكنة الخروج وأسباب الجهاد وليس المانع إلا عدم إرادة الخروج ، ولو أرادوه لتأهبوا بالزاد والآلة ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ ﴾ لم يرد خروجهم وهو استدراك من مفهوم الكلام تقديره ، لكن تثبطوا لأن الله كره انبعاثهم : نهوضهم للخروج ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ كسلهم وثقلهم أى حبسهم بالجبن والكسل ، وأصل الثبط : الشغل عن الأمر ﴿ وَقِيلَ ﴾ لهم ﴿ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ المرضى والنساء والصبيان ، تقبيح لحالهم ، والقائل الرسول لما استأذنوه ، أو بعضهم لبعض ، أو تمثيل لإلقاء الله تعالى فى قلوبهم كراهة الخروج ، أو وسوسة الشيطان، بقول القائل ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ ﴾ شيئاً ﴿ إِلَّا خَبَالًا ﴾ فساداً بتخذيل المؤمنين تسلية لهم ، أى إن الله إنما كره انبعاثهم لحكمة وهى الفساد الذى يحصل منهم لو خرجوا ﴿ وَلَأَوْضَعُوا ﴾ أى أسرعوا ﴿ خِلَالَكُمْ ﴾ بينكم بالمشى بالنميمة أو

الهزيمة والتخذيل من وضع البعير : أسرع ، وأوضعته أسرعته ، شبههم بالركائب ، وأوقع عليهم الإيضاع تخيلا ، والخلال جمع خلل ، وهو الفرجة بين شيئين ، وانتصب على الظرف لأوضعوا ﴿ يَبْغُونَكُمْ ﴾ يطلبون لكم ﴿ الْفِتْنَةَ ﴾ بإلقاء الخلاف والعداوة والرعب ، والجملة حال من ضمير أوضعوا ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ ما يقولون سماع قبول من ضعفاء المسلمين أو نمامون يسمعون حديثكم ، للنقل إليهم ، فيحصل به الفساد ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أي بهم ، وضع المظهر موضع المضمر للدلالة على أنهم بذلك الفعل مندرجون في سلك الظالمين ، يعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ ﴾ لك لتشتيت أمرك ، وتفريق أصحابك ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل غزوة تبوك ، أول ما قدمت المدينة ، ومن ذلك تخلف ابن أبيّ وأصحابه يوم أحد بعد ماخرجوا إلى الغزو معك ، وكل هذا تنبيه على قدم عداوتهم ورسوخها ﴿ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ﴾ أجالوا الفكر في كيدك ، وإبطال دينك بمكائد وحيل ، يطول شرحها ﴿ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ ﴾ النصر الإلهي ﴿ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ عز وجل : دينه ﴿ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ له ، لما في قلوبهم من المرض . فدخلوا فيه ظاهراً ، ثم شرع في تفصيل فضائحهم فقال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي ﴾ في القعود ﴿ وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ لاتوقعني في الفتنة ، أي العصيان والمخالفة : بأن تأذن لي وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف أذن له أو لم يؤذن ، أو لاتفتني بضياع مالي وعيالي إذ لا كافل لهم بعدي ، أو لاتفتني بنساء الروم ، لما روى أنه نزل في الجد بن قيس ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : هل لك في جلاد بني الأصفر ، فقال إني مغرم بالنساء : وأخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن فأفتتن ، قال تعالى ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ بالتخلف وإظهار النفاق ، وقرئ سقط وعذاب الآخرة أشق وأشد ، صدر الجملة بحرف التنبيه إشارة إلى كمال غباوتهم وجعلهم ساقطين في الفتنة ، كالفراش الساقط في النار بلا اختيار ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ لا محيص لهم عنها ، ولإحاطة أسبابها بهم ﴿ إِنْ تُصِبْكَ ﴾ في بعض غزواتك ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ كنصر وغنيمة ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾ لفرط عداوتهم وغاية حسدهم ، ليسوا مكتفين بالتخلف عنك ، بل يسوءهم ما يسرك ، ويسرهم ما يضرك ﴿ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾ شدة أو هزيمة كيوم أحد ﴿ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا ﴾ بالحزم حين تخلفنا يحمدون رأيهم في عدم الحضور معك ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل هذه المصيبة ﴿ وَيَتَوَلَّوْا ﴾ عن متحدثهم بذلك ومجتمعهم له ، أو عن الرسول ﴿ وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ بتخلفهم وبما أصابكم ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ إصابته في اللوح المحفوظ ، ولا راد لقضائه ﴿ هُوَ مَوْلَانَا ﴾ ناصرنا ومتولي أمورنا ، يفعل في عبيده ما يشاء أو مولانا ينصرنا ، كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ لا على غيره لعلمهم أن لا مؤثر سواه ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ ﴾ فيه حذف إحدى التاءين من الأصل ، أي تنتظرون أن يقع ﴿ بِنَا إِلَّا إِحْدَى ﴾ العاقبتين ﴿ الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ تثنية حسنى مؤنث أحسن : النصر أو الشهادة ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ ﴾ ننتظر ﴿ بِكُمْ ﴾ إحدى السوأتين ﴿ أَنْ

يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ ﴾ بقارعة من السماء ، كما فعل بعاد وثمود ، ﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ بأن ينصرنا ونقتلكم على الكفر ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ عاقبة أمرنا ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ عاقبة أمركم وهذا النوع من الكلام يقوله الواثق بحاله ، الجازم بأمره فى معرض التهديد ﴿ قُلْ أَنفِقُوا ﴾ فى سبيل الله ﴿ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ إنشاء ومعناه خبر ﴿ لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ ما أنفقتموه رد لجد بن قيس : أعينك بمالى ، والآية عامة بعده ، لأمثاله الذين يزعمون أن لهم أعمالا تدفع عنهم العذاب وإن لم يؤمنوا ونفى التقبل يحتمل أمرين : ألا يؤخذ منهم ، وألا يثابوا عليه ، وقوله ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ تعليل له على سبيل الاستئناف ، وما بعده بيان وتقرير له ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ ﴾ بالتأنيث للجمهور ، والتذكير لحمزة والكسائى ﴿ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ ﴾ فاعل ، وأن تقبل مفعول ﴿ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ بيان لفسقهم الذى علل به ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ جمع كسلان : متثاقلون ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ النفقة لأنهم يعدونها مغرماً ، ولا يرجون للصلاة والإنفاق ثواباً ، ولا يخافون على تركهما عقاباً ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ أى لا تستحسن نعمنا عليهم ، فهى استدراج وإنما أسند الفعل إلى الأموال والأولاد، مبالغة فى نهيه عنها ، فكأنها كانت كف إعجابها عنه ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم ﴾ أى أن يعذبهم ﴿ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بما يلقون بجمعها وحفظها من المتاعب ، وما يرون فيها من المصائب ﴿ وَتَزْهَقَ ﴾ تخرج ﴿ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ فيعذبهم فى الآخرة أشد العذاب . قال فخر الدين : كون كثرة الأموال والأولاد سبباً للعذاب حاصل من وجوه منها : أنه كلما كان حب الإنسان للشىء أشد وأقوى ، كان حزنه وتألم قلبه على فراقه أعظم وأصعب . ثم عند الموت يعظم حزنه . وتشتد حسرته ، لمفارقته المحبوب ، فالمشغوف بحب المال والولد ، لا يزال فى تعب فى كسبها ثم يحتاج إلى متاعب أشد فى حفظها لأن حفظ المال بعد حصوله أصعب من اكتسابه . ثم لا ينتفع إلا بالقليل ، فالتعب كثير والنفع قليل . فالدنيا حلوة خضرة . والحواس الخمس مائلة إليها . فإذا استغرقت فيها انصرف الإنسان بكليته إليها . فيحرم ذكر الله وتحصل فى قلبه قسوة وكلما كان المال والجاه أكثر كانت تلك القسوة أقوى ؛ فيسبب زوال حب الله وحب الآخرة من القلب فكأنه عند الموت ينتقل من بستان إلى سجن ومن مجالسة الأقرباء إلى الغربة والكربة . فيعظم تألمه ويقوى حزنه ، ثم عند الحشر أعظم . اه ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ أى مؤمنون ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ يخافون أن تفعلوا بهم كالمشركين ، فيحلفون تقية ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً ﴾ مكاناً يلجأون إليه من حصن أو قلعة أو رأس جبل ﴿ أَوْ مَغَارَاتٍ ﴾ كهوف فى أعراض الجبال ﴿ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ موضعاً يدخلونه فيندسون فيه ﴿ لَّوَلَّوْا ﴾ انقلبوا وأقبلوا ﴿ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ يسرعون فى دخوله والانصراف عنكم ، إسراعاً لا يرده شىء كالفرس الجموح ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ ﴾ وليعقوب ضم الميم ولابن كثير يلامزك : يعيبك ﴿ فِي ﴾ قسم ﴿ الصَّدَقَاتِ ﴾ كذى الخويصرة ، رأس الخوارج ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا

رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ وإذا للمفاجأة نابت مناب الفاء الجزائية ، وفيها إشارة إلى غاية شرههم وعدم إنصافهم ، وأنهم بمجرد عدم الإعطاء يفاجئهم السخط من غير تأمل ، فى أن عدم إعطائهم هل لمصلحة دينية أم لا ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ من الغنائم ونحوها ، وإن كان قليلا ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا ﴾ كافينا ﴿ اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ رزقه الواسع من غنيمة أخرى ، مايكفينا ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ فيوفر لنا ما فاتنا ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ إلى رضاه ، وإلى ثوابه ، لا إلى الغنائم والأموال . وجواب لو محذوف : أى لكان خيراً لهم ثم بين مصارف الصدقات تصويباً وتحقيقاً لما فعله الرسول عليه السلام فقال ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ﴾ أى الزكاة ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ الذين لهم ما ينفقون لكن لا يكفيهم لعيش عامهم ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ من لا شىء لهم وهم أحوج من الفقراء ، وقد أكثر الناس فى الفرق بينهما ، وما ذكرنا هو فرق المالكية . وقيل الفقير من لا مال له ولا كسب ، والمسكين من له مال أو كسب لا يكفيه . وقيل بالعكس ، وقيل الفقير هو الذى لا مال له ، إلا أنه لا يسأل لتعفف مفرط أو لبُلغة لا تكفى ، والمسكين من قارن فقره تذلل وسؤال ، وقيل هما بمعنى بشرط أن يكون كلٌّ منهما حراً مسلما ، غير هاشمى ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ أى الصدقات من جابٍ وقاسم وكاتب وحاشر ، ولهم قدر تعبهم ، بشرط أن يكون العامل عالماً بحكمها : من تدفع له ، ومن تؤخذ منه ، وقدر مايؤخذ وما تؤخذ فيه ؛ لئلا يأخذ غير حق أو يضيع حقاً أو يمنع مستحقاً ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ ليسلموا أو ليتمكن إسلامهم أو ليسلم أتباعهم أو ليذبوا عن المسلمين : أقسام ، والأخير لايعطى الآن ، بخلاف الأول عندنا لحكمه باق إن احتيج إليه بأن قوى الظن فى دخوله فى الإسلام بذلك ﴿ وَفِى ﴾ إعتاق ﴿ الرِّقَابِ ﴾ بأن تبتاع بها وتعتق وولاؤها للمسلمين : هذا مذهب مالك وأحمد . وقال الشافعية فى فك المكاتبين أو الأسارى : والعدول عن اللام إلى فى : للدلالة على أن الاستحقاق للجهة لا للرقاب أو للإيذان بأنهم أحق بها ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ أهل الدَّين إن استدانوا لأنفسهم فى غير معصية ، أو تابوا وليس لهم وفاء أو لإصلاح ذات البين ، بشرط إن أعطى الغارم مابيده من عين وفضل غيرها ﴿ وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى القائمين بالجهاد ممن لا فىء لهم ، ولو أغنياء ، وفى آلات الحرب والقراع ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ المنقطع عن ماله ، وإن كان غنياً فى بلده ﴿ فَرِيضَةً ﴾ مصدر مؤكد لما دلت عليه الآية ؛ لأن معنى « إنما الصدقات » للذكورين أن الله فرضها لهم فريضة ، أو حال من الضمير المستكن فى للفقراء ﴿ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يعلم موضع الاستحقاق ، فلذا حصر الصدقات فى الأصناف الثمانية ، فلا يجوز صرفها لغير هؤلاء ويجوز صرفها إلى صنف واحد ، وإن تمكن من غيره عند الأئمة الثلاثة ، خلافاً للشافعى فلا بد من تعميم الأصناف عنده إن أمكن وقسمها عليهم على السواء ومذهب مالك أن القسم على قدر الاجتهاد وبحسب الحاجة ، ويندب لمتولى تفرقتها إماماً أو مالكا : إيثار المضطر على غيره ، ويندب للمالك الاستنابة . وقد تجب للجهل أو خوف الرياء : فاللام فى « للفقراء » للملك

عند الشافعى ، ولشبهه هو الاختصاص عند غيره ، ووجب نية الزكاة عند الإخراج ، وتفرقها بموضع الوجوب أو قربه ، فلا تنقل إلا إلى أعدم ينقل إليه أكثرها ، ويدفع الأقل لأهل البلد إن أمكن وإلا بيعت واشترى مثلها هناك إن أمكن وإلا فرق الثمن عليه ، وإن نقلت لمدون أهل البلد فى الاحتياج أو دفعت باجتهاد لغير مستحق أو لجائر فى صرفها لم تجز . قال ابن حبيب : يجب على الإمام أن يأمر السعاة بتفريقها فى المواضع التى جبيت فيها ، ولا يحمل شىء منها إلى الإمام . اه . قلت : إلا ما تقدم بأن يكون عنده أعدم . وفى البخارى أنه صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له «أعلمهم بأن الله قد فرض عليهم زكاة أموالهم أن تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم» ولذا لم يجوّز الشافعى النقل مطلقاً والله أعلم ﴿وَمِنْهُمُ﴾ أى من المنافقين ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ بأنواع من الإذاية كتّبيه ونقل حديثه ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا نهوا عن ذلك لئلا يبلغه ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أى يسمع كل قيل ويقبله ، فإذا حلفنا له أنا لم نقل صدقنا ، أى فنحن لا نبالى بالوقوع فيه . وهذا تنقص بقلة الحزم ، ومن القائلين ذلك نبتل بن الحارث . وقال ابن عباس أرادوا أنه يسمع كل ما ينقل عنا ويصغى إليه ، وهذا كشك منه عليه السلام سموه بالجارحة مبالغة : كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع ﴿ قُلْ ﴾ هو ﴿ أُذُنُ ﴾ مستمع ﴿ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ لا مستمع شر : تصديق لهم بأنه أذن ، ولكن لا على الوجه الذى ذموه به ، بل من حيث أنه يسمع الخير ويقبله ، والخير هنا الصلاح ، لا أفعل تفضيل ، وقرأ نافع بسكون الذال والباقون بضمها فى الموضعين ، ثم بيّن وجه كونه خيراً لهم بقوله ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ يصدق به لما قام عنده من الأدلة ﴿ وَيُؤْمِنُ ﴾ يصدق ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيما أخبروا به لما علم من خلوصهم لا لغيرهم واللام زائدة للفرق بين إيمان التسليم وإيمان الأمان ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع للجمهور عطفاً على « أذن » والجر لحمزة عطفاً على « خير » ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ لمن أظهر الإيمان حيث يقبله ولا يكشف سره ، وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلا بحالكم ، بل رفقاً بكم وترحماً عليكم ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ردع المنافقين عن مثل تلك المقالة ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ، فيما بلغكم عنهم من أذى الرسول أنهم ما أتوه ﴿ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ بالاعتذار ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ بالطاعة ﴿ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ حقا ، تخطئة لهم فيما يأتونه وتكذيب لهم فى أيمانهم ، وتوحيد الضمير لتلازم الرضاءين أو خبر الله أو رسوله محذوف ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ ﴾ أى الشأن ﴿ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يشاققهما ويعاديهما ، من الحد لأن كلا من المتعاديين فى حد دون الحد الآخر : إنكار لعدم علمهم : فيفيد الإثبات والتقرير ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ جزاء ﴿ خَالِدًا فِيهَا ﴾ أى لحق أن له جهنم لحذف الخبر للعلم به ، وقيل «أن» تأكيد للأول ، و«له» هو الخبر ، ويجوز أن يكون عطفاً على جواب «من» محذوفاً تقديره ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك ، فإن له نار جهنم ﴿ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ ولا خزى فوق الخلود فى النار ﴿ يَحْذَرُ ﴾ يخاف ﴿ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ على المؤمنين ﴿ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي

قُلُوبِهِمْ ﴾ من النفاق وهم مع ذلك يستهزئون ، ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين ، فالنازل فيهم كالنازل عليهم ، وقيل إنه خبر بمعنى الأمر ، وقيل كانوا يقولونه بينهم استهزاء لقوله ﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا ﴾ أمر تهديد ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ﴾ مظهر ﴿ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ إخراجه من نفاقكم أو من إنزال السورة فيكم وإظهار مساويكم ﴿ وَلَئِنْ ﴾ لام قسم ﴿ سَأَلْتَهُمْ ﴾ عن استهزائهم بك وبالقرآن وهم سائرون معك إلى تبوك بقولهم : انظروا إلى هذا الذى يريد أن يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بنى الأصفر ، هيهات هيهات ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ معتذرين ، ومن القائلين : وديعة بن ثابت ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ فى الحديث لنقطع به الطريق ، ولم نقصد إهانة أمرك وأمر أصحابك ، ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ والاستهزاء برسول الله يستلزم الاستهزاء بالله وآياته ، وذلك تكذيب لهم فى الاعتذار وإلزام للحجة باستهزاء من لا يصلح الاستهزاء به ، ولذا قال ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾ عن هذا ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾ أظهرتم الكفر بالاستهزاء بالرسول والطعن فيه ﴿ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ بعد إظهاركم الإيمان به ﴿ إِنْ يُعْفَ ﴾ بالياء مبنياً للمفعول للجمهور أو النون مبنياً للفاعل لعاصم ﴿ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ ﴾ بتوبتها أو إخلاصها كمخشى بن حمير ﴿ تُعَذَّبْ ﴾ بالتاء للجمهور والنون لعاصم ﴿ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ مصرين على النفاق والاستهزاء أو مقدمين على إيذاء الرسول ، وقد جرت سنة الله فى خلقه بأن من يطعن فى رسوله أو فى شريعته وسنته أن يعجل له العذاب فى الدنيا ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ متشابهون فى النفاق والبعد عن الإيمان ، كأبعاض الشىء الواحد ، وهو تكذيب بهم فى حلفهم بالله إنهم لمنكم ، والدليل على ذلك مضادة حالهم لحال المؤمنين المبين بقوله ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ ﴾ شرعاً من الكفر والمعاصى ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ الإيمان والطاعة ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ عن الإنفاق فى الطاعة كناية عن الشح ﴿ نَسُوا اللَّهَ ﴾ تركوا طاعته وذكره ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ تركهم من لطفه وفضله ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الكاملون فى الخروج عن دائرة الخير ، ولما بين جرائمهم التى هى أسباب العذاب أشار إلى ما أعد لهم لئلا يظن أنهم كالشىء المنسى بقوله ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ جزاء وعقاباً ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أبعدهم عن رحمته ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ دائم لا ينقطع توكيد للخلود لئلا يظن به المكث الطويل ورد لما يزعمه الملحدة بأن الخلود فى النار لا يستلزم العذاب لأنه يصير معتاداً ، وأجلُّ النقم للمنافقين لعنة الله كما أن أجل النعم للمؤمنين رضوان الله ، أنتم أيها المنافقون ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى مثلهم ، أو فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم : خطاب المنافقين على طريق الالتفات ، توبيخاً لهم بذلك بعد علمهم بما حل بهم ، ثم بيّن وجه الشبه بقوله ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ فلم يغنهم شيئاً فأنتم أولى ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ ﴾ نصيبهم من الدنيا من الخلق بمعنى التقدير ، فإنه ما قدر لصاحبه ، أو هو الشىء الذى هو به خليق ، ذم لهم بقصر النظر على الفانى والذهول عن الباقى ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ ﴾

أيها المنافقون ﴿ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ ﴾ ذم للأولين تمهيداً لذم المخاطبين المشبهين بهم ، أى غفلتم عن أمر الآخرة كما غفلوا ﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ فى الباطل والطعن فى النبى ﴿ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ أى كخوضهم أو كالفوج الذى خاضوا فيه ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ لم يستحقوا عليها ثواباً فى الدارين ، أما فى الدنيا فلأنهم مرضوا وماتوا وذلوا ، وأما فى الآخرة فالخلود الدائم فى النار فأولى هؤلاء. ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الكاملون فى الخسران ، إذ لا خسران فوق خسارة الدارين ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ أى هؤلاء المنافقين ﴿ نَبَأُ ﴾ خبر ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من تكذيبهم وإهلاكهم ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أهلكوا بالطوفان ﴿ وَعَادٍ ﴾ قوم هود بريح صرصر ﴿ وَثَمُودَ ﴾ قوم صالح بالرجفة ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ نمرود وأتباعه بالبعوض ﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ قوم شعيب بالنار يوم الظلة ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ قرى قوم لوط التى انقلبت بهم فصار عاليها سافلها ، وأمطروا حجارة من سجيل ، أو جميع قرى المكذبين انقلبت أحوالها من الخير إلى الشر ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ المعجزات الواضحات فكذبوهم فأهلكوا ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ بأن يعذبهم بغير ذنب ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بارتكاب الذنب ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ عطف قصة على قصة جمعا بين الترغيب والترهيب ، على ماهو سنته تعالى فى كتابه ومقابلة بين الأضداد فى الجزاء ، وبضدها تتميز الأشياء . ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى سائر الأمور ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ لا محالة ، فإن السين مؤكدة للوقوع فى الإثبات مثل « لن » فى النفى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يعجزه شىء من إنجاز وعده ووعيده ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يضع شيئاً إلا فى محله ، ولذا رتب الثواب على الحسنات والعقاب على السيئات ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ وكل هذا تفصيل لما أجمله فى قوله « سيرحمهم الله » وفى البخارى : إن للمؤمن قبة من ياقوتة حمراء طولها ستون ميلا وله فى كل زاوية منها أهلون ﴿ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ إقامة ، والحديث إن عدناً دار الله التى لا يسكنها إلا النبيون والصديقون والشهداء ، ليس له أصل ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أعظم من ذلك كله . وفى البخارى ومسلم يقول الله لأهل الجنة : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ، أحلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبداً ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذى يستحقر دونه الدنيا وما فيها ، قال الإمام الفخر : وإنما كان الرضوان أكبر لأنه نعيم روحانى وهو أشرف من النعيم الجسمانى . اهـ . وقال ابن عطية : الرضوان مقام المقربين ، وجميع من فى الجنة راض بمنزله ، والمنازل مختلفة وفضل الله متسع ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ بالسيف ﴿ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ بالحجة وإقامة الحدود والتعنيف واكفهرار الوجه ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ فى الأفعال والأقوال بالانتهار والمقت ، ولا تحابهم ، وهو ضد ما أمر فى المؤمنين بقوله « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين. » ﴿ وَمَأْوَاهُمْ

جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ قتلوا أو ماتوا ﴿ يَحْلِفُونَ ﴾ أى المنافقون ﴿ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾ ما بلغك عنهم من السب . أقام صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ، فى عيب المتخلفين ، فقال الجلاس بن سويد : والله لئن كان ما يقوله محمد حقاً لإخواننا الذين تخلفوا وهم سادتنا لنحن شر من الحمير ، فقال له عامر بن قيس الأنصارى : والله إن محمداً لصادق ، وأنتم شر من الحمر . فبلغ ذلك رسول الله فاستحضر الجلاس ، فحلف بالله ماقال . فقال عامر : اللهم أنزل تصديق الصادق وتكذيب الكاذب فنزل ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ هو قول الجلاس : لئن كان ما يقول محمد حقاً ، لأنه تكذيب له ، وهو كفر وقيل : قول عبد الله بن أبىّ « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزمنها الأذل » لأنه إهانة لرسول الله ، وهو كفر ، وهو دليل على أن الكفر يكون بكل ما يناقض الإيمان من الأقوال والأفعال وإن كان الإيمان لايكون إلا بلا إله إلا الله ﴿ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ من قتل رسول الله . توافق عليه خمسة عشر منهم مرجعه من تبوك بأن يدفعوه عن ظهر راحلته إلى الوادى ، إذا تسنم العقبة بالليل فأخبر النبى بذلك ، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها ، فسمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل ، وقعقعة السلاح . فقال إليكم أعداء الله فهربوا : أو المراد إخراجه وإخراج المؤمنين من المدينة ، أو أن يتوجوا عبد الله بن أبىّ ، وإن لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا نَقَمُوا ﴾ ما عابوا وما كرهوا من أمر محمد شيئاً ﴿ إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ بالغنائم بعد شدة حاجتهم ، المعنى لم ينلهم منه إلا هذا الجميل ، وليس مما ينقم ، والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل أو العلل ﴿ فَإِنْ يَتُوبُوا ﴾ كالجلاس : تاب وحسنت توبته ﴿ يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا ﴾ بالإصرار على النفاق ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا ﴾ بالخزى والإذلال ﴿ وَالْآخِرَةِ ﴾ بالنار ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يحفظهم منه ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يمنعهم من العذاب ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ فيه إدغام التاء فى الأصل فى الصاد ﴿ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ بفعل ما يفعله أهل الصلاح من جميع أعمال البر ، وهو ثعلبة بن حاطب ، سأل النبى صلى الله عليه وسلم وقال ادع الله أن يرزقنى مالا ، فقال عليه السلام : يا ثعلبة قليل تؤدى شكره ، خير من كثير لاتطيقه ، فقال : والذى بعثك بالحق ، لئن رزقنى الله مالا ، لأعطين كل ذى حق حقه ، فدعا له ، فأتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود ، حتى ضاقت بها المدينة فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة ثم عن الجمعة . فسأل عنه رسول الله فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد فقال : ياويح ثعلبة فبعث مصدقين لأخذ الصدقات ، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة وأقرآه الكتاب الذى فيه الفرائض فقال ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية . فارجعا حتى أرى رأيى . فنزلت ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا ﴾ عن طاعة الله ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ عن أداء زكاته ، وفيه دليل على أن من أدى زكاة ماله فارقه اسم البخل شرعاً ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾

جعل الله عاقبة فعلهم ﴿ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ ثابتاً ﴿ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أى الله ، وهو يوم القيامة ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ من التصدق والصلاح ﴿ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ فيه فإن خلف الوعد متضمن الكذب . لجاء بعد ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم بزكاته فقال : إن الله منعنى أن أقبل منك . فجعل يحثو التراب على رأسه . ثم جاء بها إلى أبي بكر فلم يقبلها ، ثم إلى عمر فلم يقبلها . ثم إلى عثمان فلم يقبلها . ومات فى زمانه . ولم تقبل زكاته زجراً للباقين عن مثل فعله ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ أى المنافقون ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ ﴾ ما أسروه فى أنفسهم ﴿ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ ما تناجوا بينهم ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ ماغاب عن العيان ، ونزل كما فى الصحيحين : لما جاء رجل بعد نزول آية الصدقة فتصدق بشيء كثير : فقال المنافقون مراء ، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله غنىٌّ عن صدقة هذا ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ مبتدأ أو نصب على الذم ﴿ يَلْمِزُونَ ﴾ يعيبون ﴿ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ﴾ المتنفلين ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ ﴾ التى لم تجب ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ طاقتهم فيأتون به ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ والخبر على الأول ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ جازاهم على سخريتهم ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حث على الصدقة أتى عبد الرحمن بن عوف إليه بأربعة آلاف درهم ، وعاصم بمائة وسق من تمر ، وأبو عقيل بصاع من تمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انثره فى الصدقات فقال المنافقون ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وإن الله ورسوله لغنيان عن صاع أبي عقيل . لكنه أحب أن يذكر نفسه ، ليعطى من الصدقة ، فأكذبهم الله وأعلم أنهم تطوعوا به لله ، وأوعد المنافقين بقوله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فى الآخرة ، ولما ظهر نفاقهم للمؤمنين بهذه الآية جاءوا يعتذرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك ويقولون استغفر لنا . فنزل ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ لن يغفر الله لهم . لفظ أمر بمعنى الخبر ، أى إن شئت استغفر لهم ، وإن شئت فلا تستغفر لهم . تسوية فى عدم الإفادة . كما نص عليه بقوله ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ وإنما خيّر فى الاستغفار وتركه واختار الاستغفار مع عدم الفائدة ، كما قال عليه السلام : إنى خيرت فاخترت ، يعنى الاستغفار . رواه البخارى ، لأن عدم الفائدة وإن كان فى المستغفر له ، فلا يخلو من فوائد أخر ، من تطييب قلوب قراباتهم ، وإسلام بعضهم لذلك كما يأتى ، والمراد بالسبعين المبالغة فى كثرة الاستغفار ، وفى البخارى لو أعلم أنى لو زدت على السبعين غفر لزدت عليها . وقيل : المراد العدد المخصوص لحديث البخارى أيضاً وسأزيد على السبعين فبين له حسم المغفرة بآية « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم » قلت : والظاهر أنه لاتنافى بين الآيتين ، بل هما بمعنى كما بينه غير واحد من العلماء ، وأول الحديث الذى تقدم فى البخارى أن عمر بن الخطاب قال : لما مات عبد الله بن أبىّ . دُعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، فلما قام وثبت إليه ، وأخذت ثوبه ، فقلت : يارسول الله أتصلى على ابن أبىّ ، وقد قال يوم كذا كذا وكذا ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : أخر عنى ، فلما أكثرت عليه

قال : إنى خيرت فاخترت . ولو أعلم أنى إن زدت على سبعين يغفر له ، لزدت عليه . قال : فصلى عليه ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً ، حتى نزل «ولا تصل على أحد منهم ـ إلى قوله ـ وهم فاسقون» . اه . واعلم أن رسول الله قد علم أن لامفهوم للعدد ، ولم يرد منه الحصر . وإنما فعل مافعل تطييباً لقلب ابنه الصالح مع أن ظاهر إسلامه يقتضى الصلاة عليه ، وإن لم ينفعه عند الله كما قال عليه السلام : وما يغنى قميصى عنه من الله ، وإنى لأرجو أن يسلم بذلك ألف من قومه ، وقد روى أن ألفا من الخزرج المنافقين أسلموا لما رأوا ابن أبىّ يطلب من رسول الله أن يكفنه بثوبه ، ويتوقع اندفاع العذاب عنه بذلك ، ثم بين الله مانع المغفرة ، فقال ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ المتمردين فى كفرهم وهو كالدليل على الحكم السابق ، فإن مغفرة الكافر تحصل بالإقلاع عن الكفر ، والإرشاد إلى الحق ، والمنهمك فى كفره لايقلع ولا يهتدى ، قال البيضاوى : وهو تنبيه على عذر رسول الله فى استغفاره لهم قبل يأسه عن إيمانهم ، وقيل علم أنهم مطبوعون على الضلالة والممنوع هو الاستغفار بعد العلم . اه . قال السيوطى فى التوشيح استشكل فهم التخيير من الآية ، حتى أقدم جماعة من الأكابر على الطعن فى صحة الحديث ، يعنى حديث «إنى خيرت فاخترت» لأن مايفهم من الآية التسوية بين الاستغفار وتركه ، كما فهمه عمر رضى الله عنه . وكما يقتضيه سياق القصة : من قوله ذلك بأنهم كفروا بالله الآية . وأجيب بأن قوله «ذلك بأنهم ... إلى آخره» لم ينزل مع أول الآية ، بل تراخى نزوله ففهم صلى الله عليه وسلم من ذلك القدر النازل ماهو الظاهر من أن أو للتخيير ، وأن العدد له مفهوم . اه قلت : هذا الجواب عندى غير ظاهر ، وأين دليل تراخى آخر الآية ، وكيف يخفى على أفصح العرب وأعلمهم بأساليب الكلام أن مراد السبعين الكثرة . مع أن الظاهر عدم تفريق الآية الواحدة . قال الزمخشرى : لم يخف على رسول الله مراد الآية . لكنه قال سأزيد على السبعين إظهاراً لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليهم ، دعاء لهم إلى التراحم ، وتعقبه بعضهم بأنه يجب عليه إظهار ما علم من الله فى أمر الكفار ، وما يترتب عليه من العقاب للزجر . اه والله أعلم .

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ عن تبوك ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ ﴾ أى بعد ﴿ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أو الخلاف بمعنى المخالفة وحينئذ نصب على العلة أو الحال ، ولم يقل المتخلفون إشارة إلى أنهم جعلوا كالمعاذير الذين خلفوا لعدم الانتفاع بهم ، وهو توبيخ فى ضمنه وعيد مع التحقير بلفظ المخلفين بمعنى الذين أبعدهم الله من رضاه ﴿ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فى إعلاء دينه إيثاراً للدعة على الطاعة خلاف المؤمنين الذين أنساهم الإيمان والإيقان كل لذة فى مرضاة الله ، حتى بذلوا الأموال والمهج ، وكان بذل ذلك ألذ شىء عندهم وأشهى ﴿ وَقَالُوا ﴾ قال بعضهم لبعض تثبيطاً لما استنفرهم النبى إلى تبوك ﴿ لَا تَنْفِرُوا ﴾ لاتخرجوا إلى الجهاد ﴿ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ من حر الخروج إلى تبوك وقد آثروها بالمخالفة فالأولى أن يتقوها بترك التخلف ﴿ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ يعلمون ذلك ما تخلفوا

تجهيل لهم وتخطئة لآرائهم ؛ لأن من ترك مشقة ساعة ، وكان موقناً بأنه يقع بذلك فى مشقة الأبد ، لم يكن أحد أجهل منه ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا ﴾ أى فسيضحكون قليلا ﴿ وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ أى سيكون كثيراً ، وإنما أخرج فى صورة الأمر للدلالة على أن ذلك حتم واجب لا محالة - لأن الأمر للإيجاب ولا يحتمل الصدق والكذب - روى أن أهل النار يكون مدة بقاء الدنيا ، وقيل الضحك والبكاء كنايتان عن السرور والغم وعلى الوجهين أريد بالقلة العدم ؛ إذ لاضحك لهم رأساً ، قاله فى غاية الأمانى وفى أنوار التنزيل . قلت : وفيه نظر لأن المراد يضحكون فى الدنيا قليلا ويبكون فى الآخرة كثيرا كما فى التكملة . وفى لباب التأويل المعنى أنهم وإن فرحوا وضحكوا طول أعمارهم فى الدنيا فهو قليل بالنسبة إلى بكائهم فى الآخرة لأن الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفانى بالنسبة إلى الدائم الباقى قليل . وفى الجواهر « فليضحكوا قليلا » إشارة إلى مدة العمر فى الدنيا « وليبكوا كثيرا » إشارة إلى تأبيد الخلود فى النار إلى أن قال : وخرج ابن ماجه بسنده عن يزيد الرقاشى قال قال النبى صلى الله عليه وسلم « يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى تصير فى وجوههم كهيئة الجداول ، لو أرسلت فيه السفن لجرت » اه . وفى البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الأعمال الخبيثة ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ ﴾ ردك يا محمد ﴿ اللَّهُ ﴾ من تبوك ﴿ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ﴾ ممن تخلف بالمدينة من المنافقين ، ولم يقل : فإن رجعت إيماء إلى أنه لم يفعله إلا بإذن الله وأنه ملاحظ بعناية الله فى حركاته وسكناته ﴿ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ معك إلى غزوة أخرى ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ ﴾ أبدا ﴿ وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ وهذه الآية من أخبار الغيب قبل كونه لأن رسول الله لم يقاتل عدوا بعد تبوك ولم يخرج إلى الغزو ، وقيل إخبار فى معنى النهى للمبالغة فوسمهم بسمة النفاق مخرجين عن ديوان الغزاة أهل الوفاق ، وفيه دليل على أن الرجل إذا ظهر منه مكر وخداع يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته لأن الله منع المنافقين من الخروج مع رسوله إلى الجهاد لما علم من مكرهم وخداعهم إذ خرجوا إلى الغزوات ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى غزوة تبوك ، وكانت لبعد الشقة فيها وكثرة المشقة وشدة الحر وطيب الثمار محك الرجال ومسبار الإخلاص والنفاق ، والأولية إضافية ﴿ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ المتخلفين عن الغزو لعدم طاقتهم للجهاد كالمرضى والصبيان والنساء وهو أمر إهانة ، عصمنا الله من ذلك ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ من الذين عرفت نفاقهم ﴿ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ لدفن أو زيارة ، وتقدم أن الآية نزلت لما صلى النبى صلى الله عليه وسلم على ابن أبى فما صلى رسول الله بعدها على منافق ولا قام على قبره كما زاده الترمذى ، والمراد بالصلاة : الدعاء والاستغفار للميت ، وهو ممنوع فى حق الكافر كما بين العلة بقوله ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ كافرون . وفيه جواز الصلاة على المؤمنين وهى كغسلهم وكفنهم ودفنهم واجبة عند الجمهور .

وفائدة وصف المنافقين بالفسق بعد الكفر : الإعلام بأن الكافر قد يكون يؤدى الأمانة ولا يخدع وهو أولى من الكافر الكذاب الماكر الخداع ، فبين أنهم ماتوا على هذه الأوصاف ، وقوله «ولا تقم على قبره» كناية عن ترك الدعاء له بعد دفنه : لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم على قبور المسلمين يدعو الموتى ويقول «إن هذه القبور مملوءة ظلمة ، وإن الله ينورها بدعائي » هذه سنة دائرة عندنا غالبا أعنى السير إلى القبور والدعاء لأهلها ، وقوله « أبدا » ظرف منصوب بـ « لا تصل » و « منهم » صفة لأحد أو حال من الضمير فى مات ، أى ماتْ حال كونه منهم أى متصفاً بصفة النفاق كقولهم : أنت منى . أى على طريقتى . قال القسطلانى : وهذا النهى عام فى كل من عرف نفاقه وإن كان سبب النزول خاصاً بعبد الله بن أبىّ ، وقد ورد ما يدل لنزولها فى عدد معين فيهم ابن أبىّ وغيره ممن علم الله بموته على الكفر بخلاف غيرهم الذين تابوا . فعن حذيفة رضى الله عنه : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى مُسِرٌّ إليك سراً فلا تذكره لأحد ، إنى نهيت أن أصلى على فلان وفلان وفلان رهط ذوى عدد من المنافقين» فلذا كان عمر بن الخطاب إذا أراد أن يصلى على أحد استتبع حذيفة فإن مشى معه وإلا لم يصل عليه . اهـ . ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ كرر هذا للتأكيد فى التحذير لكونه من الأمور المهمة التى يجب أن تكون نصب العين ، فإن النفوس مجبولة على حب الأموال والأولاد ، وأبصارها طامحة إلى ذلك وهى مغتبطة عليها وما كان كذلك يجب التحذير منه مرة بعد أخرى ، وقيل هذه الآية فى فريق غير الأول ، وعبر بالفاء هناك وبالواو هنا ، لترتيب الأولى على « كارهون » وكونهم كارهين للإنفاق إنما هو لإعجابهم بالأموال ، ولم يذكر هنا فلا وجه للفاء . وأسقط « لا » هنا لأنها دخلت هناك لزيادة التأكيد ليدل على أن الفريق الأول أكثر إعجاباً بما ذكر أو ليدل على أن إسقاطها وذكرها بمعنى ، ولم يذكر هنا اللام بل أن إعلاماً بأنه لا تفاوت بين الأمرين إذ التعليل فى أحكام الله محال ، وحيثما ورد حرف التعليل فمعناه « أنْ » كقوله «وما أمروا إلا ليعبدوا الله» وأسقط الحياة هنا تنبيهاً على أن الحياة الدنيا خسيسة لا تستحق الذكر فى كل محل . والله أعلم ﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ أى طائفة من القرآن ﴿ أَنْ ﴾ بأن ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ أى دوموا على ذلك أيها المؤمنون ، ويجوز أن تكون « أن » مفسرة ﴿ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾ وقيل هذا الأمر وإن كان ظاهره العموم فهو مخصوص بالمنافقين أى : الواجب عليكم أيها المنافقون أن تؤمنوا بالله أولا ، وتجاهدوا مع رسوله ثانياً ، كى يفيدكم ذلك الجهاد فى الدارين ﴿ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ ﴾ ذوو الغنى وسعة المال ﴿ مِنْهُمْ ﴾ كالجد بن قيس ، خصهم بالذكر لأن الذم بهم ألزم ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ الذين لهم علة وعذر فى القعود كالزمنى والمرضى ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ جمع خالفة أى النساء اللاتى يخلفن فى البيوت أو للأخساء الذين لا خير فيهم . يقال : رجل خالفة أى : لا نفع فيه . حكى أن أعرابياً جاء أبا بكر وقال :

أنت الخليفة ؟ فقال : لا ، أنا الخالفة . وقد اشتهر فى النساء لقلة نفعهن ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ الخير : أومراد الله بالأمر بالجهاد ومافيه من السعادة وما فى التخلف من الشقاوة ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ فقهوا ماذكر ﴿ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾ فى الدنيا والآخرة جمع خيرة المستحسن من كل شىء من منافع الدارين : النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة والرضوان فى الآخرة وقيل الخيرات الحور لقوله « فيهن خيرات حسان » وهى جمع خَيْرة تخفيف خيِّرة ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بالمطالب ، ثم فسر الفلاح بقوله ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ولما ذكر الله رؤساء المنافقين وما كانوا عليه وما آل أمرهم إليه من الموت على الكفر وأردفه بذكر رسول الله والمؤمنين الخالصين وما يؤول أمرهم إليه من النعيم المقيم ذكر الأعراب بقوله ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ ﴾ جمع معذر المقصر فى العذر يوهم أن له عذراً ولا عذر له من عذر فى الأمر إذا قصر فيه مُوهماً أن له عذراً ولا عذر له وهم أسد وغطفان استأذنوا فى التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال ، أو رهط عامر بن الطفيل ، قالوا : إن غزونا معك أغارت طيّ على أهالينا ومواشينا أو من عذر بمعنى اعتذر أى مهّد العذر ، وفيه إدغام التاء فى الأصل فى الذال ﴿ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ سكان البوادى الذين لا معرفة لهم فى أمر الآخرة ولا رشد فى أمر الدنيا ، ولذا يبالغون فى إظهار العذر حتى يظن بهم الكذب ﴿ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾ فى القعود فأذن لهم على الحالين من كونهم معتذرين بالتصنع أو بالصحة ﴿ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى ادعاء الإيمان من منافقى الأعراب عن المجىء للاعتذار ، فمن ادعى الإيمان وتخلف عن الجهاد من غير إظهار عذر فقد تبين كذبه . وهؤلاء غير المعذرين ، وهم الذين تخلفوا من غير شبهة عذر جرأة على الله ، وقيل هم المعذرون فكذبهم بالاعتذار ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ﴾ من الأعراب أو من المعذرين ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بالنار ، ولما ذكر أصحاب الأعذار الباطلة عقبهم بأصحاب الأعذار الصحيحة عاذراً لهم بقوله ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ﴾ جمع ضعيف ، وهو الصحيح فى بدنه ، العاجز عن الغزو وتحمل مشاق السفر والجهاد كالشيوخ والنساء والصبيان ومن خلق فى أصل الخلقة ضعيفاً ﴿ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ ﴾ جمع مريض كالأعمى والأعرج والزمنى وكل موصوف بمرض يمنع التمكن من الجهاد ﴿ وَلَا عَلَى ﴾ الفقراء العاجزين عن أهبة الجهاد ﴿ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ﴾ فى الزاد والسلاح ومؤنة السفر لأن العاجز عن نفقة الغزو معذور ﴿ حَرَجٌ ﴾ إثم فى التخلف عن الغزو . قال الإمام فخر الدين : لكن لم يحزم عليهم فمن خرج من هؤلاء ليعين المجاهدين بحسب القدرة إما بحفظ متاعهم أو تكثير سوادهم فإن ذلك له طاعة مقبولة بشرط أن لا يجعل نفسه كلا عليهم ، ثم شرط لهم شرطاً فى نفى الإثم بالتخلف بقوله ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فى حال قعودهم بعدم الإرجاف والتثبيط مع طاعة الله بما أمكن سرا وعلانية وبما قدروا عليه قولا وفعلا يعود على الإسلام والمسلمين بالصلاح ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ بذلك

﴿ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ بالمؤاخذة ولا بالمعاتبة وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم بذلك النصح منخرطون في سلك المحسنين ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ للمسيء فضلا عن المحسن ﴿ رَحِيمٌ ﴾ لم يشق على المعذورين ﴿ وَلَا ﴾ جناح ﴿ عَلَى الَّذِينَ ﴾ لاقدرة لهم على السفر إلى المحل الذي ندبتهم إليه في التخلف عنك ﴿ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ عن الدواب أو الخفاف أو النعال إلى العدو معك وهم البكاءون وهم رهط أبي موسى الأشعري وقيل هم بنو مقرن ستة إخوة لأب وأم وعلى هذا جمهور المفسرين . وقيل هم سبعة نفر من الأنصار من بطون شتى وقال مجاهد : هم بنو مكرز من مزينة . قال ابن العربي في أحكامه : والقول بأن الآية نزلت في أبي موسى وأصحابه هو الصحيح . اه ﴿ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ حال من كاف « أتوك » بتقدير قد وجواب إذا ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ انصرفوا ﴿ وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾ تسيل بكثرة ﴿ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ « من » بيانية . كأنه قيل أعينهم يسيل دمعها ، وآثر ذلك الأسلوب مبالغة في سيلانها فكأن العين صارت دمعاً فياضاً فالجار والمجرور في محل النصب على التمييز ﴿ حَزَنًا ﴾ مفعول له أو مصدر لفعل دل عليه ما قبله ﴿ أَلَّا يَجِدُوا ﴾ لأجل أن لا يجدوا ﴿ مَا يُنْفِقُونَ ﴾ في الجهاد علة للعلة ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾ بالعقوبة والمعاتبة ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ في التخلف ﴿ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ واجدون للأهبة ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قبح ذلك . تقدم مثله ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ في التخلف ﴿ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ من الغزو ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾ بالمعاذير الكاذبة ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ لن نصدقكم : علة للنهي عن الاعتذار لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ أي بعضها مما تكتمون من الشر والفساد ، إشارة إلى آية « ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة » ونحوها . وهذا علة لانتفاء التصديق . لأن الله إذا أخبر بشيء لزم كذب ما ينافيه ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ أي يحله محل ما يرى ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ أي سيرى دعواكم أنكم تحبون الله ورسوله فيما يستقبل بالطاعة أو سيرى أتتوبون عن الكفر أم تثبتون عليه : حث على التوبة والإخلاص ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ ﴾ بالبعث ﴿ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ في وضع الظاهر موضع المضمر مع ذكر الغيب والشهادة وعيد شديد وردع لهم عن مخالفة الباطن الظاهر ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم عليه لأنه المطلع على ما في ضمائركم من الخيانة والكذب وإخلاف الوعد ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ ﴾ رجعتم ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ من تبوك أنهم معذورون في التخلف ، إخبار بما سيفعلونه في المستقبل. قيل هذا أول ما نزل في شأن المنافقين في غزوة تبوك ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ بترك المعاتبة ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ فلا توبخوهم . أو المعنى : لا تكلموهم ولا تجالسوهم ، طلبوا إعراض الصفح فأعطوا إعراض المقت . ثم ذكر علة أمر الإعراض عنهم بقوله ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ قذر لخبث باطنهم فلا ينفع فيهم التأنيب لأنهم أرجاس لا تقبل التطهير فمقاولتهم كمخالطة النجس فيتلوث المخالط حتى لا سبيل إلى تطهيره ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ من تمام التعليل ، وكأنه قال إنهم أرجاس من أهل النار ،

لا ينفع فيهم التوبيخ فى الدنيا والآخرة أو تعليل ثان ، المعنى : أن النار كفتهم عتاباً فلا تتكلفوا عتابهم ﴿جَزَاءً﴾ نصب على المصدر أو العلة لكونهم من أهل جهنم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من النفاق ، ولما أمروا بالإعراض عن المنافقين المتخلفين فأعرضوا عنهم فشرع المنافقون فى استجلاب رضاهم بالأيمان الكاذبة نزل ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ وتدوموا معهم على الود الذى كان بينكم ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أى عنهم والإتيان بالظاهر موضع المضمر لتعليل عدم الرضى ، والمعنى : إن رضاكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم لأن الأمر كله بيده عاجلا وآجلا ، وفيه إيماء إلى أن المؤمن لا يليق به مراضاة من كان فى سخط الله . قال البيضاوى : والمقصود من الآية النهى عن الرضى عنهم والاغترار بمعاذيرهم بعد الأمر بالإعراض عنهم . اه . وقال فى الجواهر : هذا الحكم يستمر فى كل مغموص عليه ببدعة ونحوها ﴿الْأَعْرَابُ﴾ أهل البدو المتبعون مساقط الغيث والكلأ ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر لجفائهم وغلظ طباعهم وبعدهم عن مجالسة العلماء وسماع القرآن والسنن والمواعظ لأن من بقى فى مواشيه وآثر مسقط رأسه لايخلو قلبه من الكفر والنفاق لأن خوفهم هناك أقل ممن فى المدن فألسنتهم مطلقة ، وفى الصحيح « الجفاء فى الفدادين أهل الوبر عند أصول أذناب الإبل » ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أولى وأحق ﴿أَنْ﴾ أى بأن ﴿لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ من الأحكام والشرائع الأصول والفروع ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ كامل العلم بكل شخص ﴿حَكِيمٌ﴾ فى كل مايصنع ، ولذا أطلعكم على مراتب المنافقين وأسرارهم لتعاملوا كل أحد على حسب حاله من أهل المدر والوبر ولما حكم على جنس الأعراب ما حكم ، والحكم عليه لا يستلزم الحكم على جميع أفراده فصل أفراده قسمين أشار إلى الأول بقوله ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ فى سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ لا مغنما أى : غرامة وخسراناً وهى ما يصرفه الرجل فيما لا يلزمه كرهاً لأنه لايرجو ثوابه بل ينفقه خوفاً أو رياء وهم بنو أسد وغطفان وتميم وعامر ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ ينتظر ﴿بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ دوائر الزمان أن تنقلب عليكم فيتخلص من الإنفاق جمع دائرة ما يحيط بالإنسان من كل جانب ويدور عليه أى يتربصون موت الرسول فيظهر المشركون ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ بفتح السين للجمهور وضمها لابن كثير وأبى عمرو أى يدور العذاب والهلاك عليهم لا عليكم : دعاء عليهم بنحو ما يتربصون وفيه من الدلالة على شدة غضب الله عليهم ما لا يكنه لأن من أمره بين الكاف والنون يطلب من نفسه إصابتهم بالسوء ، ويحتمل أنه إخبار عن وقوع مايتربصون عليهم ولا يرون فى محمد ودينه وأصحابه إلا ما يسوءهم والدائرة فى الأصل مصدر أو اسم فاعل من دار يدور سمى بها عاقبة الزمان ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون بأفواههم نفاقاً ﴿عَلِيمٌ﴾ بضمائرهم وما فيها من الكفر والغش وإرادة السوء للمؤمنين : ثم أشار إلى القسم الثانى من الأعراب بقوله ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ كجهينة ومزينة وأسلم وغفار وبنى مقرن . وفى الصحيحين أن الأقرع بن حابس التميمى قال للنبى صلى الله عليه وسلم

إنما تابعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وجهينة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أرأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة وجهينة خيراً من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان . قال : خابوا وخسروا . قال : نعم . أي هم خير منهم . وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها » وفي رواية قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله ﴿ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ ﴾ في سبيله ﴿ قُرُبَاتٍ ﴾ أي سبب قربة ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ وهي ثاني مفعولي « يتخذ » وعند الله صفتها أو ظرف ليتخذ ﴿ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ أي ووسيلة إلى دعواته لأنه عليه السلام كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم ، ولذلك سُن للمصدِّق أن يدعو المتصدق عند أخذ صدقته لكن ليس له أن يصلي عليه كما قال عليه السلام : اللهم صل على آل أبي أوفى لأنه منصبه فله أن يتفضل به على غيره . قاله البيضاوي ﴿أَلَا إِنَّهَا﴾ أي نفقتهم ﴿ قُرُبَةٌ لَهُمْ ﴾ بضم الراء لورش وسكونها لغيره : لغتان ، شهادة من الله بصحة معتقدهم وبشارة بتصديق رجائهم على الاستئناف مع حرف التنبيه ، و « إنّ » المحققة للنسبة ، وأفرد القربة إشارة إلى تلك القربات بمثابة القربة الواحدة التي لا تقبل التجزئة ردًا وقبولا بل كلها مقبولة ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ جنته دليل على القبول والرضى ، والسين لتحقيق الوعد ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لأهل طاعته ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهم حيث قبل منهم وأجزل في الثواب تفضلا تقرير لما سبق ، ولما بين جزاء المخلصين من مؤمني الأعراب الذين لا سابقة لهم في الإسلام ولا كمال في العرفان أشار إلى أكمل الفرق الذين حازوا قصب السبق في مضمار السعادة وبين منزلتهم عنده وما أعد لهم بقوله ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ وهم من صلى إلى القبلتين أو من شهد بدراً ، وقيل : الذين أسلموا قبل الهجرة من الطائفتين ، وقيل من سبق إلى الهجرة والنصرة مطلقا لإطلاق اللفظ . قال ابن العربي في الأحكام : هم على ثمان مراتب : الأولى : الخلفاء الأربعة وسعد وبلال وغيرهم ، الثانية : أصحاب دار الأرقم ، الثالثة : مهاجرة الحبشة كالزبير وغيره ، الرابعة : أصحاب العقبتين من الأنصار ، والخامسة : من أدرك النبي بقباء قبل أن يدخل المدينة ، السادسة : من صلى إلى القبلتين ، السابعة : أهل بدر ، الثامنة : أهل الحديبية وهم الرضوانية وبهم انقطعت الأولية . اهـ . وعلم من الآية أن السابق إلى كل خير أفضل من التالي ، وقيل السابقون هم جميع الصحابة ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ ﴾ إلى يوم القيامة ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾ في العمل والسابقون مبتدأ والخبر الأولون أو من المهاجرين أو قوله ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما نالوا من الكرامة في الدارين ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ ولابن كثير زيادة « من » هنا ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي لا يحاط به ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ﴾ يا أهل المدينة ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ كعصية ورعل وذكوان ولحيان ، قال في غاية الأماني : والقول بأن منهم أسلم وغفار سهو ظاهر ، لما روى البخاري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها» ودعا على عصية

لأنها عصت الله ورسوله . اه . وقال فى لباب التأويل : ذكر جماعة من المفسرين من المتأخرين : البغوى والواقدى وابن الجوزى : أنهم من أعراب مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم ؛ وكانت منازلهم حول المدينة واستشكل بأن النبي دعا لهؤلاء القبائل ومدحهم فإن صح نقل المفسرين فيحمل قوله «ومن حولكم من الأعراب منافقون» على القليل فإن لفظة من للتبعيض ويحمل دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على الأكثر والأغلب ، وبهذا يمكن الجمع بين قول المفسرين وقول النبي صلى الله عليه وسلم فيه . اه ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ منافقون أيضا ﴿ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ لجوا فيه أو مهروا به أو استمروا عليه ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ﴾ خطاب للنبي مع كمال فطنتك وصدق فراستك لتحاميهم مواقع التهم ، تقرير لتردهم فيه ﴿ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ لاطلاعنا على السرائر وذوات الصدور ﴿ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ بالفضيحة باطلاعك على نفاقهم وإخراجك إياهم عن زمرة المسلمين إذ روى عن ابن عباس أنه عليه السلام أخرج أناسا من جماعته وفضحهم وبالحدود وثانيا بضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الموت وبعذاب القبر ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ ﴾ فى الآخرة ﴿ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ هو النار نعوذ بالله منه ﴿ وَءَاخَرُونَ ﴾ عطف على منافقون : أى ومنهم قوم آخرون ، أو عطف على قصة أخرى وهذا أولى فآخرون مبتدأ ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ من التخلف نعته والخبر ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا ﴾ وهو جهادهم قبل ذلك واعترافهم بذنوبهم أو جميع أعمال برهم ﴿ وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ وهو تخلفهم وغير ذلك ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ نزلت فى أبى لبابة وجماعة من المتخلفين أوثقوا أنفسهم فى سوارى المسجد لما بلغهم ما نزل فى المخلفين وحلفوا أن لايحلهم إلا النبي صلى الله عليه وسلم ، لحلف لايحلهم ما لم يؤمر ، فحلهم لما نزلت ، والآية وإن نزلت فى قوم مخصوصين فعمومها معتبر فى جميع من كان كذلك ، لما فى البخارى عن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أتانى الليلة آتيان فابتعثانى فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر منهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء قالا لهم : اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا وقد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة ، فقالا : هذه جنة عدن وهؤلاء قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم» . اه قلت : وفى الآية من أنواع البلاغة الاحتباك ، أى خلطوا عملا صالحا بسيئ وآخر سيئا بصالح . ولما حل رسول الله المعترفين أتوه بأموالهم فقالوا تصدق بها عنا وطهرنا فقال : لا آخذ منها شيئا حتى أومر فأنزل الله ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ للتوبة أو للفرض أو النفل ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ من ذنوبهم فأخذ ثلث أموالهم وتصدق بها ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ ادع لهم ﴿ إِنَّ صَلَوَاتَكَ ﴾ بالجمع للجمهور لتعدد المدعو لهم وبالإفراد لحمزة والكسائى وحفص ﴿ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ رحمة وطمأنينة فى قبول توبتهم ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالهم واعترافهم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتهم وندامتهم ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ إذا صحت وتعديته بعن لتضمنه معنى التجاوز ، والاستفهام للتقرير : أى علموا ذلك ، والضمير للمتوب عليهم والقصد تقرير قبول

توبتهم والاعتداد بصدقاتهم أو لغيرهم والقصد ترغيبهم فى التوبة والصدقة وحثهم عليهما ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ يقبلها نص صريح أن الله هو الآخذ للصدقات والنبي وعامله واسطة . وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ماتصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال - ولا يقبل الله إلا الطيب - إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه» . اه . قلت الفلو بضم الفاء وفتحها : المهر أول مايولد للفرس ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ من شأنه قبول التوبة تأكيد وتبشير وتحضيض على الإخلاص فى التوبة لأنه لايخفى عليه خافية ﴿ وَقُلِ ﴾ لهم ﴿ اعْمَلُوا ﴾ أيها التائبون أو الناس ، ما يرضى الله أو ماشئتم ﴿ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ باطلاعه عليه ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ بإطلاع الله وبالأمارات ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ بإخبار الرسول والأمارات إخلاصا ونفاقا ﴿ وَسَتُرَدُّونَ ﴾ بالبعث أو الموت ﴿ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى الله ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم عليه : فيه ترغيب عظيم للمطيعين ووعيد عظيم للمذنبين وإنما أردف ذكر المنافقين بقوله « وسيرى الله عملكم ورسوله » وزاد هنا بعد ذكر التائبين « والمؤمنون » لأن الاطلاع على حال المنافقين خاص بالله أو رسوله بالوحى، وأما الاطلاع على أحوال المؤمنين فمعلوم عند المؤمنين بالأعمال الظاهرة والقرائن . والله أعلم ﴿ وَآخَرُونَ ﴾ من المتخلفين ﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ بالواو لنافع وحمزة والكسائى وبالهمزة لغيرهم ، مؤخرون عن التوبة أى لايعلم هل تقبل توبتهم أم لا لعظم جنايتهم بالتخلف وعدم الاعتذار ﴿ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾ فيهم بما يشاء ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ﴾ بأن يميتهم بلا توبة ﴿ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ بالغفران ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال الخلق ، ومن ذلك ما فى قلوب هؤلاء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يقضى عليهم من قبول التوبة وتأخيرها والمرجون هم الثلاثة الذين خلفوا كما يأتى : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وقصتهم فى البخارى وفى السير مشهورة فلا نطول بذكرها ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ بحذف الواو لنافع وابن عامر استئناف قصة للمنافقين مبتدأ محذوف الخبر أى منهم الذين أو خبر محذوف أى هم الذين ، وبالواو للباقين عطفا على « وآخرون اعترفوا » أو مرجون أو خبر محذوف أى ومنهم الذين ﴿ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ﴾ وهم اثنا عشر من منافقى بنى غنم بن عوف لما رأوا إخوانهم بنى عمرو بن عوف بنوا مسجد قباء وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يزوره فى كل سبت راكبا وماشيا ، حسدوهم وبنوا مسجدا بأمر سيدهم أبى عامر الراهب ليؤمهم فيه إذا قدم من الشام ، فلما أتموه أتوا رسول الله فقالوا إنا قد بنينا مسجدا لذى الحاجة والعلة والليلة المطيرة فصل فيه حتى نتخذه مصلى ، فقال لهم : إنا على جناح سفر يعنى إلى تبوك فإذا قدمنا إن شاء الله صلينا ، فلما قفل وأراد الصلاة فيه نزلت ﴿ ضِرَارًا ﴾ مضارة لأهل قباء بصرف من جاور مسجدهم إلى مسجدهم ﴿ وَكُفْرًا ﴾ لأنهم بنوه بأمر أبى عامر الراهب ليهدم الإسلام بإخراج النبي وأصحابه من المدينة ، أى : لتقوية الكفر الذى يضمرونه ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين يصلون بقباء لصلاة بعضهم فى مسجدهم ﴿ وَإِرْصَادًا ﴾ ترقبا ﴿ لِمَنْ حَارَبَ

اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى قبل بنائه وهو أبو عامر المذكور وكان قد ترهب فى الجاهلية وتنصر فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال له : ما جئت به ؟ قال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم . قال أبو عامر : فأنا عليها ، فقال له النبي : لست عليها ، فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : آمين ، وسماه الفاسق والكاذب . وكان يسمى الراهب . فلما كانت وقعة أحد أخرج النفاق فقال للنبي لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فخرج فى جماعة من المنافقين لحزب على النبي صلى الله عليه وسلم الأحزابُ ، فلما طردت أقام بمكة ينصر الكفار ، ولما فتحت مكة هرب إلى الطائف فلما أسلم أهل الطائف هرب إلى الشام وكتب إلى المنافقين من قومه أن ابنوا مسجدا مقاومة لمسجد قباء فسآتي بجيش من الروم أخرج به محمدا وأصحابه من المدينة فبنوه فمات بقنسرين (١) وحيدا طريدا لعنه الله ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ ﴾ ما ﴿ أَرَدْنَا ﴾ ببنائه ﴿ إِلَّا ﴾ الفعلة أو الإرادة ﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾ من الرفق بالمسكين فى المطر والحر والتوسعة على المسلمين ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى ذلك ، وكانوا سألوا النبي أن يصلى فيه كما تقدم فنزل عندقفوله من تبوك وقد نزل بمكان يسمى بذى أوان ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ لمحة طرف فضلا عن العبادة فيه ، فأرسل جماعة فهدموه وحرقوه وجعلوا مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والأقذار والقمامات ، وكان النبي لا يمر بالطريق التى هو فيها ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ ﴾ بنيت قواعده ﴿ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ بنى وضع أساسه على التقوى لم يدخله رياء ما وضع حجر منه على حجر إلا قصد التقوى بذلك وهو مسجدك الذى بنيته وأسسته لله وهو مسجد المدينة كما فى صحيح مسلم والترمذى : أنه عليه السلام حين سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى ، قال : هو مسجدى هذا . وبه قال مالك ، وقيل هو مسجد قباء الذى وضع من أول يوم حللت بدار الهجرة لأن الكلام فيه وفى مسجد الضرار . قال البيضاوى : وهو أوفق للقصة ، قال فى غاية الأمانى : ولا دلالة فى اللفظ على الوحدة بل كل منهما أسس على التقوى ، وإشارته صلى الله عليه وسلم إلى مسجد المدينة حين سئل لاشتهار مسجد قباء بذلك واللام للابتداء أو القسم والخبر ﴿ أَحَقُّ ﴾ منه ﴿ أَنْ ﴾ أى بأن ﴿ تَقُومَ ﴾ تصلى ﴿ فِيهِ ﴾ لو بنى ذلك لله كيف وقد بنى لأنواع من الكفر ، وقد قال فى الصحيحين «ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى» ﴿ فِيهِ رِجَالٌ ﴾ هم الصحابة على الأول أو الأنصار على الثانى ﴿ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ من المعاصى والخصال المذمومة طلبا لمرضاة الله أو من الأحداث والأخباث فلا ينامون على جنابة ويغسلون أدبارهم كما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم فى مسجد قباء فقال «إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذى تطهرون به ؟» قالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا . قال السيوطى : رواه ابن خزيمة فى صحيحه . وقال ابن العربى : هذا الحديث لم يصح . وفى حديث رواه البزار ، قالوا : نتبع الحجارة بالماء فقال : هو ذاك فعليكموه . قلت لكنه مستحب لا واجب لأن موضع الاستجمار معفو عنه للضرورة

---

(١) وقنسرين ، وقنسرون : بكسر النون فيهما ــ كورة بالشام . انظر القاموس .

لا لزوال حكم النجاسة لأنه لايزول إلا بالماء المطلق ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ أى يثيبهم، وفيه إدغام التاء فى الأصل فى الطاء ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ﴾ بالبناء للمفعول لنافع وابن عامر وللفاعل للباقين ﴿بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ﴾ قاعدة محكمة هى ﴿تَقْوَىٰ﴾ مخافة ﴿مِنَ ٱللَّهِ وَ﴾ رجاء ﴿رِضْوَٰنٍ﴾ منه بالطاعة ﴿خَيْرٌ أَمْ مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ﴾ قاعدة هى أضعف القواعد وأرخاها هى ﴿شَفَا﴾ طرف ﴿جُرُفٍ﴾ بضم الراء للجمهور وسكونها لابن عامر وحمزة وأبى بكر جانب جرف السيل ذهب بأصله وهو مشرف على السقوط ساعة فساعة ﴿هَارٍ﴾ متصدع على صدد السقوط: شبه ما بنوا عليه أمر دينهم بما ذكر فى البطلان وسرعة الانطماس ثم رشحه بانهياره بقوله ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾ سقط مع بانيه ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ تصويرا بأن المبطل بصدد السقوط فى نار جهنم كل ساعة بالموت، وهار: أصله هائر، اسم فاعل هار مطاوع هوّرت البناء نهار هدمته أو هو منقوص على القلب. والله أعلم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين خلقوا للنار، قال فى الجواهر الحسان: والشفا: الحاشية والشفير، وهار: معناه منهدم بال، وتأسيس البناء على التقوى: إنما هو بحسن النية فيه وقصد وجه الله وإظهار شرعه كما صنع فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم وفى مسجد قباء، والتأسيس على شفا جرف هار: إنما هو بفساد النية وقصد الرياء والتفريق بين المؤمنين، فهذه تشبيهات صحيحة بارعة. اهـ. وقال ابن العربى: هذا يدل على أن كل شىء ابتدئ بنية تقوى الله فهو الذى يبقى لا غيره. اهـ. ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ فهدم والبنيان مصدر أريد به المفعول ﴿رِيبَةً﴾ شكا وحزازة ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ زادوا بذلك بغضا للرسول ورسخ شكهم بحيث لا يزال رسمه عن قلوبهم، قال الثعالبى فى الجواهر: والريبة فى هذه الآية أمر يعم الغيظ والحنق واعتقاد صواب فعلهم ونحو هذا مما يؤدى كله إلى الارتياب فى الإسلام إلى أن قال وبالجملة إن الريبة هنا تعم معانى كثيرة يأخذ كل منافق منها قدره من النفاق ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ﴾ بالبناء للمفعول من التقطيع للجمهور، وللفاعل بفتح التاء لابن عامر وحفص وحمزة مضارع تقطع بحذف إحدى التاءين ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ تنفصل بأن يموتوا، استثناء من أعم الأزمنة، وقيل أن تقطع بالقتل أو فى القبر أو فى النار ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وأغراضهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أفعاله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ بأن يبذلوها فى طاعته كالجهاد ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ مثّل إثابة الله إياهم بالجنة على بذل الأموال والأنفس بالشراء اللازم من الطرفين، وقدم الأنفس إشارة إلى أنهم ببذلها أسمح منهم ببذل الأموال ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بيان للشراء أو خبر بمعنى الأمر ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ أعداء الله ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ فى طاعة الله تسليما للثمن ليتعين فإن المبيع قد تعيّن أو لأن هذا البيع لما كان فى المعنى سلما وجب تسليم رأس المال فيه، وقرأ حمزة والكسائى بتقديم المبنى للمفعول أى يقتل بعضهم ويقاتل الباقى وفيه مدح لهم بالشجاعة، وقراءة الجمهور أولى لعدم احتياجها إلى التأويل ولأن الرتبة العليا أن يقتل الإنسان الأعداء أولا ثم يقتل لجمع الفضيلتين على أن الواو لا يدل على الترتيب

وإسناد فعل البعض إلى الكل جائز ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ مصدران منصوبان بفعلهما المحذوف مؤكدان لما دل عليه الشراء فإنه فى معنى الوعد وكتب ذلك ﴿ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ كما هو المتعارف عند التجار إذا كان المبيع له قدر تكتب له الوثيقة ، وقد بالغ فى ذلك حين أنزله فى الكتب الثلاثة التى عليها مدار سائر الشرائع ، وفيه دليل على أن الأمر بالجهاد موجود فى جميع الشرائع ومكتوب على جميع أهل الملل ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى لا أحد أوفى منه ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا ﴾ فيه التفات عن الغيبة أى افرحوا فرحاً شديداً يظهر أثره فى بشرتكم ، والسين التأكيد ﴿ بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ ﴾ لأنه أوجب لكم غاية المطلوب كما قال ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ البيع ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذى لا فوز فوقه ولا مرغوب أحسن منه ، وهذه الآية نزلت فى بيعة العقبة الثالثة التى أناف فيها رجال الأنصار على السبعين فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : اشترط لربك ولنفسك ولأصحابك . فقال : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسى: أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم ، ولأصحابى : المواساة فى ذات أيديكم . فقالوا : هذا لك ، فما لنا ؟ قال : الجنة ، قالوا : نعم ربح البيع لا نقيل ولا نقال فيه . قال الثعالبى : ثم هذه البيعة عامة فى كل مؤمن جاهد إلى يوم القيامة . اهـ . وما من مسلم إلا ولله فى عنقه هذه البيعة وفى بها أو لم يف ، وقد علمت أن الشراء مجاز عن التفضل بالثواب لأن المشترى إنما يشترى ما لا يملك ، والأشياء كلها ملك لله ، ولذا قال الحسن : أنفسنا هو خلقها وأموالنا هو رزقنا إياها لكن جرى هذا مجرى التلطف فى الدعاء إلى الطاعة والجهاد . اهـ . قال الفخر : واعلم أن هذه الآية مشتملة على أنواع من التأكيدات . أولها : كون المشترى هو الله المقدس عن الكذب والحيلة وذلك من أدل الدلائل على تأكيد هذا العهد ، والثانى : التعبير عن إيصال الثواب بالبيع والشراء وذلك حق مؤكد ، والثالث : قوله « وعداً » ووعد الله حق ، والرابع : كلمة « على » التى للوجوب ، والخامس : كلمة « حقاً » التى هى تأكيد التحقيق ، والسادس : فى التوراة والإنجيل والقرآن الجارى مجرى إشهاد جميع الكتب الإلهية وجميع الأنبياء والمرسلين على هذه المبايعة ، والسابع : « ومن أوفى بعهده من الله » وهو غاية التأكيد ، والثامن « فاستبشروا » وهو مبالغة فى التأكيد ، والتاسع : « وذلك هو الفوز » ، والعاشر : « العظيم » . اهـ . ثم ذكر صفات من اشترى أنفسهم وأموالهم بقوله ﴿ التَّائِبُونَ ﴾ رفع على المدح بتقدير مبتدأ ، أى من الشرك والنفاق وكل معصية ﴿ الْعَابِدُونَ ﴾ المخلصون العبادة لله ، فرسان بالنهار ، رهبان بالليل ﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ على نعمه الدنيوية والأخروية فى السراء والضراء ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ فى الأرض للاعتبار بمصنوعاته ، أو الجائلون بأفكارهم فى قدرة الله ، أو المجاهدون ، أو طلاب العلم ، وقيل : الصائمون ؛ لحديث : « سياحة أمتى الصوم » . قال بعض العلماء : لما فسد الزمان صارت السياحة الخروج عن الخلق ﴿ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ فى صلواتهم لا كأهل الكتاب ﴿ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ما عرف من الشرع حسنه ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ ما أنكره الشرع وعطف أحدهما

على الآخر لكونهما في المعنى واحد كأنه قال الجامعون بين هذين الوصفين ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ أحكامه بالعمل بها من عطف العام على الخاص ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هؤلاء الموصوفين . وضع الظاهر موضع المضمر إشارة إلى أن الحامل على تلك الخصال هو الإيمان ، وحذف المبشر به إيماء إلى أنه من العظم بحيث لايحيط به الوصف أو العلم به ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ﴾ ذوى قرابة كالأب والأم ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ النار بأن ماتوا على الكفر . روى البخارى مرفوعاً أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية فقال : يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج بها لك عند الله . فقال أبو جهل وعبد الله : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فكانت آخر كلمة قالها إنه على ملة عبد المطلب . فقال رسول الله : أما إنى لأستغفرن لك مالم أنه عنه ، فنزلت الآية . قال حذاق أهل التفسير : لا يشكل على هذا كون أبى طالب مات بمكة والآية نزلت فى غزوة تبوك لأنه عليه السلام كان يستغفر له إلى وقت نزولها . قال الثعالبى : فالآية ناسخة لفعله إذ أفعاله فى حكم الشرع المستقر ، وكان المؤمنون يستغفرون لموتاهم ، فلذلك أدخلوا فى النهى ، وقيل نزلت فى زيارته لأمه لما فى مسلم أنه زارها وبكى ، وقال : استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى . وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم إذ هو طلب توفيقهم للإيمان وهو دعاء إبراهيم لأبيه كما قال ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ بقوله « لأستغفرن لك » رجاء أن يسلم ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ ﴾ بموته على الكفر ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ وترك الاستغفار له ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ ﴾ كثير التضرع والدعاء ﴿ حَلِيمٌ ﴾ صبور على الأذى ، يقابل من سبه أو أتاه بمكروه بالإحسان واللطف كما فعل مع أبيه حين قال له « لأرجمنك » قال « سلام عليك سأستغفر لك ربى » ومع شدة رأفته وشفقته على عباد الله تبرأ من أبيه لما مات على الكفر ، فاقتدوا به أنتم ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا ﴾ يقضى عليهم بالضلال ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ للإسلام بسبب فعلهم ما لا ينبغى كالاستغفار للشركين قبل البيان ﴿ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ﴾ من العمل فلا يتقوه فيستحقوا الإضلال ، وهو تسلية للرسول والمستغفرين لآبائهم قبل ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ومنه مستحق الإضلال والهداية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يحكم فيهما مايشاء ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ بالإيمان والكفر لا اعتراض عليه ﴿ وَمَا لَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ غيره ﴿ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يحفظكم منه ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يمنع عنكم ضرره فما أمر به تجب المبادرة إليه وما نهى عنه يجب الكف عنه ، وهو إشارة إلى أن فائدة القرابة هى الولاية والنصر ولا ولاية ولا نصر إلا منه ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ ﴾ أدام توبته ﴿ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ على ما يليق بمقامه ﴿ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ لقوله تعالى « وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون » فما من مؤمن إلا يحتاج إلى التوبة نبيا كان أو وليا إذ لها مراتب : أدناها التوبة من الشرك ، وأعلاها :

ربط السر على التوحيد ومطالعة جلال الله . فالذهول عن ذلك ولو لمحة طرف يوجب التوبة على الكمل كما يوجب لمرتكاب الكبيرة التوبة على العامة ، ثم بين سبب التوبة عليهم وهو تحمل المشاق فى مرضاة الله وضم ذكر النبي معهم تنبيها على عظم مراتبهم فى الدين بقوله ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ أى وقتها وهى حالهم فى غزوة تبوك وكانوا سبعين ألفاً بين راكب وماش ، والعُسرة الشدة والضيق كان الرجلان فى هذه الغزوة يقتسمان تمرة والعشرة يعتقبون البعير الواحد ، واشتد الحر حتى شربوا الفرث ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ ﴾ الشأن ﴿ تَزِيغُ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة وحفص : تميل ﴿ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ﴾ عن اتباعه إلى التخلف لما هم فيه من الشدة أو عن الثبات على الإيمان لظنون أساءوها بهذا السير بسبب الشدة . قال عمر بن الخطاب : «خرجنا إلى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ثم يجعل مابقى على كبده . فقال أبو بكر : يارسول الله اشتد بنا العطش فادع الله : فقال : أتحب ذلك؟ قال : نعم . فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سكبت السماء فملؤوا مامعهم فما جاوز الماء العسكر » رواه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين ووصل عليه السلام إلى تبوك وهو من أوائل بلد العدو فصالحه أهل أذرح وأيلة وغيرهما على الجزية ودخل أهل أقصى البلاد الحصون فتحصنوا وانصرف النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بالثبات ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَ﴾ تاب ﴿عَلَى الثَّلَاثَةِ﴾ عطف على النبي أو على ضمير عليهم ولذا كرر حرف الجر والثلاثة هم المرجون وكلهم من الأنصار ﴿ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ عن تبوك أو عن التوبة عليهم بقرينة ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ مع رحبها أى سعتها لشدة حيرتهم وقلقهم فلا يجدون مكانا يطمئنون إليه ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ قلوبهم للغم والوحشة بتأخر توبتهم فلا يسعها سرور ولا أنس لأن النبى نهى عن الكلام معهم وأمر نساءهم أن يعتزلنهم . قال ابن العربى فى الأحكام : وفيه دليل على أن للإمام أن يعاقب المذنب بتحريم كلامه على الناس أدباً له ومنع أهله عليه . اه ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أيقنوا ﴿ أَنْ ﴾ مخففة أى أنه ﴿لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ لا مفر من عذابه إلى أحد ﴿ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ استثناء من العام المحذوف ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ رجع عليهم بالقبول والرحمة كرة بعد أخرى أو أنزل توبتهم ﴿ لِيَتُوبُوا ﴾ ليستقيموا على توبتهم أو ليتوبوا فيما يستقبل كلما فرطت منهم زلة لأنهم علموا بالنصوص الصحيحة أن طريان الخطيئة يستدعى تجديد التوبة ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ على من تاب ولو عاد فى اليوم مائة مرة كما روى «ماأصر من استغفر ولو عاد فى اليوم مائة مرة» ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعد التوبة بجعل السيئات حسنات ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بترك معاصيه ومنها التخلف عن الغزوات ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فى الإيمان والعهود رسول الله وأصحابه أو فى توبتهم كالثلاثة ولا تكونوا مع المتخلفين ذوى الأيمان والأعذار الباطلة ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ إذا غزا : نهى عبر عنه بصيغة النفى للتأكيد ﴿وَلَا يَرْغَبُوا﴾ يحتمل النصب

والجزم ﴿ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ بأن يصونوها عما رضيه لنفسه من الشدائد نهى بلفظ الخبر لأن نفسه أعز نفس عند الله بل يجب على من آمن به أن يجعل نفسه وقاية لنفسه ويؤثر حياته كما فعل أبو طلحة وطلحة ابن عبيد الله يوم أحد ، وفى البخارى أن أبا خيثمة كان من المتخلفين وكانت له امرأة حسناء فدخل بستانه وهى معه ففرشت له وقربت له الماء البارد والرطب فلما نظر إلى ذلك قال : امرأة حسناء ورطب يانع وماء بارد ورسول الله فى حر الشمس والريح ! ما هذا مقام خير ، فوثب وترك ذلك ورحل ناقته وأخذ سيفه وتوجه يخب كالريح حتى لحق برسول الله وهو بتبوك فلما رآه من بعيد فى السراب قال : كن أبا خيثمة فكانه ، ففرح به رسول الله واستغفر له ﴿ذَٰلِكَ﴾ النهى عن التخلف ﴿ بِـ﴾ سبب ﴿ أَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ عطش ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ تعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ جوع ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا ﴾ مصدر بمعنى وطئا أو مكانا من أماكنهم بأقدامهم وحوافر خيولهم وأخفاف إبلهم ﴿ يَغِيظُ ﴾ يغضب ﴿ الْكُفَّارَ ﴾ وطؤه ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ﴾ لله ﴿ نَيْلًا ﴾ قتلا وأسراً ونهبا ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ ليجازوا عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى أجرهم وضع المظهر موضع المضمر إشارة إلى أن الجهاد مع الكفار إحسان وإن كان فيه إهلاك النفوس وتخريب الدور لأنه سبب إعلاء كلمة الله ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ فيه ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ ولو تمرة ﴿وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أصل الوادى منفذ السيل بين الجبال ، من ودى الماء : سال ثم شاع استعماله فى مطلق الأرض وهو المراد فى الآية . قاله فى غاية الأمانى ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ ذلك ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بأن يلحق عملهم الأدنى بالأعلى فى الجزاء مكافأة لسعيهم وتوفيرا لأجرهم . ولما وبخ الناس على التخلف وأرسل النبى سرية نفروا جميعا فنزل ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا ﴾ لنحو غزو وطلب علم ﴿ كَافَّةً ﴾ جميعا كما لا ينبغى أن يقيموا جميعا ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ ﴾ خرج ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة ﴿ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ جماعة ومكث الباقون ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا ﴾ أى الماكثون ﴿ فِي الدِّينِ ﴾ والتفقه فيه هو الجهاد الأكبر ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ من الغزو بتعليم ماتعلموه من الأحكام أى ليجعلوا همتهم بعد التفقه والعمل به إنذار قومهم وإرشادهم ، وتخصيص الإنذار لأنه أهم ، وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفايات وأن غرض المتعلم أن يستقيم ويقيم لا الترفع على الناس والتبسط فى البلاد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ عقاب الله بامتثال أمره ونهيه ، قال ابن عباس: فهذه مخصوصة بالسرايا والتى قبلها بالنهى عن تخلف أحد فيما إذا خرج النبى صلى الله عليه وسلم وقيل هذه ليست فى الجهاد بل فى طلب العلم فكانت القبيلة كلها تنفر من البادية وتأتى المدينة لتعلم الدين فأمروا أن تنفر من كل فرقة طائفة لئلا يبطل أمر المعاش كما كانوا يفعلون يأتون إلى النبى صلى الله عليه وسلم يسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون فيه من أمر الصلاة والزكاة وجميع ما يحتاجون إليه ثم يرجعون إلى قومهم ويدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة هذا هو السنة فضمائر الرفع فى نحو

«لينفقهوا» على التأويل الأول للطائفة المقيمة، وعلى الثانى للنافرة ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ الأقرب فالأقرب منهم داراً ونسباً لأن الأقرب بصدد الاطلاع على عورات المسلمين والمضرة منه أعظم كما أمر الرسول أولا بإنذار عشيرته فإن الأقرب أولى بالاستصلاح ولذا قاتل الرسول قومه أولا ثم انتقل منهم إلى قتال سائر العرب ثم إلى قتال أهل الكتاب قريظة والنضير وخيبر وفدك ثم إلى غزو الروم بالشام ولما كان فتح الشام فى زمن الصحابة انتقلوا إلى العراق ثم إلى سائر الأمصار لأنه إذا قاتل الأقرب تقوّى بما نال منهم على الأبعد ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدة وصبرا على القتال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالعون والنصر والحراسة . قال فى الجواهر: وفى الآية أمر كل فريق من المؤمنين أن يقاتل الجنس الذى يليه من الكفرة ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أى المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ لأصحابه استهزاء وإنكاراً ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لتصديقهم بها واطلاعهم على ما فيها من الاحكام والاسرار ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنزولها لأنه سبب كمالهم وارتفاع درجاتهم بالعرفان ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ كفر ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ كفراً بها مضموما إلى الكفر بغيرها والرجس المستقذر والكفر أقبح الأشياء سمى به تنفيرا ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أى استحكم ذلك فيهم حتى ماتوا عليه ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ بالياء للجمهور أى المنافقون والتاء لحمزة أيها المؤمنون ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يبتلون بالأمراض والشدائد أو بالافتضاح بإظهار نفاقهم وبما يرون من نزول النصر والتأييد على الرسول ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ من نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ولا يعترفون أن ذلك بسوء أفعالهم تعجيب من غفلتهم ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها ذكر فضائحهم أو الجهاد وقرأها النبى ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ يتغامزون بالحواجب إنكارا وسخرية وإرادة قيام يقولون ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ إذا قمتم فإنا لا نقدر على استماع هذا غيظا ، أو يغلب عليهم الضحك فيخافون سماعه ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ على كفرهم بعد التغامز والتقاول إذا لم يرهم أحد وإلا ثبتوا ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الهدى دعاء عليهم بالخذلان أو إخبار أى لما اختاروا الانصراف جازاهم الله بصرف قلوبهم عن الإيمان فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الحق تنبيه على علة الصرف وعدم القابلية ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أيها العرب أو الناس ﴿رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ عربى مثلكم تعرفون نسبه ولسانه وأمانته وصدقه ، أو من جنسكم ، وقرئ بفتح الفاء أى أشرفكم ، وفى حديث مسلم « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » ﴿عَزِيزٌ﴾ شديد ﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أى عنتكم أى مشقتكم ولقاؤكم المكروه كالقتل والأسر ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ على إيمانكم وصلاح شأنكم وإيصال الخير إليكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ جميعا ﴿رَءُوفٌ﴾ شديد الرحمة ﴿رَحِيمٌ﴾ يريد بهم الخير ، زيادة فى مدحه إذ لم تنحصر رأفته فى أقاربه ، وتقديم الأبلغ لرعاية الفواصل ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بك بعد

هذا الإبلاغ والإنذار ﴿ فَقُلْ ﴾ مواجها لهم أو فى نفسك،تسليا ﴿ حَسْبِيَ ﴾ كافٍ ﴿ اللَّهُ ﴾ من ضركم ومعرتكم ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ دليل على كفايته والاستغناء عن غيره ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فوضت أمرى لا أرجو سواه ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ الملك الذى لا يحاط به،أو الجسم العظيم فوق السموات ، وعلى الوجهين ، ذكره لتقوية داعية التوكل، والدلالة على أن مَن هذا شأنه جدير بأن لا يرجى سواه . روى الحاكم فى المستدرك عن أبيّ بن كعب قال: آخر آية نزلت « لقد جاءكم .. إلى آخر السورة » والله أعلم .

[تم تفسير سورة التوبة]

سورة يونس

مكية ـ إلا « فإن كنت فى شك » الآيتين أو الثلاث
أو « ومنهم من يؤمن به » الآية : مائة وتسع أو عشر آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • الر ﴾ الله أعلم بمراده بذلك . أمال ألفه الأكثر لكن ورش بيْن بيْن ، وفخمها ابن كثير وقالون وحفص ﴿ تِلْكَ ﴾ أى هذه الآيات التى تضمنتها السورة أو القرآن ﴿ ءَايَاتُ الْكِتَابِ ﴾ القرآن والإضافة بمعنى من ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ ذى الحكم أو المحكم ، وإنما آثر لفظ « تلك » وإن كانت فى حكم الحاضر قصداً إلى التعظيم أو لكونها فى حكم الغائب لعلو درجاتها ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ استفهام إنكار للتعجب ولام « للناس » للبيان لتدل على أنهم جعلوه أعجوبة لهم يوجهون نحوه إنكارهم و « عجباً » بالنصب لجميع السبعة خبر كان واسمه ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ أى إيحاؤنا ﴿ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ محمد ، وقرئ عجب بالرفع اسمها والخبر « أن أوحينا » وسبب نزول الآية كما قال ابن عباس : قول المشركين ، لما بعث الله محمداً : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ﴿ أَنْ ﴾ مفسرة ﴿ أَنْذِرِ ﴾ خوّف ﴿ النَّاسَ ﴾ الكافرين بالعذاب ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ وعمم الإنذار إذ ما من أحد إلا وفيه ماينذر منه وخصص البشارة إذ ليس للكفار مايبشرون به ﴿ أَنَّ ﴾ أى بأن ﴿ لَهُمْ قَدَمَ ﴾ سابقة ﴿ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ وهى ما قدموا من الأعمال الصالحة أو ماسبق لهم فى علم الله من السعادة ، أو شفيع صدق هو محمد ، أى لهم جزاء ذلك . سميت السابقة قدماً لأن السبق يكون بها وإضافتها للصدق لتحققها والتنبيه على أنهم نالوها بصدق القول والنية ، ومن استعمال القدم فى السابقة قول حسان رضى الله عنه : لنا القدمُ العليا إليك وخَلفنا • لِأولنا فى طاعةِ اللهِ تابعُ ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ لما جاءهم الرسول بالوحى ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ القرآن المشتمل على ذلك ﴿ لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

وقرأ ابن كثير والكوفيون لساحر ، والمشار إليه النبي ، وفيه اعتراف للرسول بخوارق للعادة أعجزتهم عن المعارضة ثم ابتدأ دعاءهم إلى التوحيد مؤكداً لإنكارهم بقوله ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ بحكمته ولو شاء لخلقهن فى لمحة ، قال ابن عطية : وتعليله بتعليم خلقه التمهل فى الأمور مما لا يوصل إلى علمه ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ استواء يليق به ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ أمر الكائنات على وفق ما اقتضته حكمته ومَن هذا شأنه لا يخفى عليه من يكون أهلا للرسالة ، فتعجبهم محل العجب ، والتدبير : النظر فى أدبار الأمور لتجىء محمودة العاقبة ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ ﴾ يشفع لأحد ﴿ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ تقرير لعظمته ، وردٌ على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله ، وفيه إثبات الشفاعة لمن أذن له ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الخالق المدبر المتصف بصفات الألوهية والربوبية ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ معبودكم لا غيره ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ وحدوه بالعبادة ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ بإدغام التاء فى الأصل فى الذال أدنى تذكر فإن هذا لا يحتاج إلى ترتيب مقدمات بل بمجرد التفكر والتذكر كاف فيه ، إنه المستحق لعبادتكم لا ما تعبدونه ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ بالموت أو النشور لا إلى غيره ، حث على عبادته وحده ، أى فاستعدوا للقائه ﴿ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن قوله إليه مرجعكم جميعاً وعد من الله ﴿ حَقًّا ﴾ مصدر آخر مؤكد لغيره هو ما تضمنه وعد الله ﴿ إِنَّهُ ﴾ بالكسر للسبعة استئنافاً ، وقرئ بالفتح على تقدير اللام ﴿ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾ بالإنشاء ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بالبعث ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل علة للإعادة وثمرتها ، أى : ليثيبهم بعدله ولا يضيع لهم شيئاً من عملهم ، أو بسبب عدلهم فى أمورهم وما تحت أيديهم ، لحديث البخارى : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » أو بإيمانهم لأنه منشأ كل عدل وهذا أوجه بقوله ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ ماء بالغ نهاية الحرارة إذا أدناه الكافر من فيه تساقطت فروة رأسه فيه يشوى الوجوه ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم بالنار ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أى بسبب كفرهم ، وغير النظم مبالغة وتنبيهاً على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة ، وأما العقاب فواقع بسوء أعمالهم ، وأنه يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه ولذا لم يعينه ، وأما عقاب الكفار فكأنه داء ساقه إليهم كفرهم ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً ﴾ بالياء بعد الضاد للجمهور نوراً قوياً أى ذات ضياء ، وهو مصدر كقيام أو جمع ضوء كسياط وبهمزتين بينهما ألف لابن كثير فى رواية قنبل فى جميع القرآن على القلب بتقديم اللام على العين ﴿ وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ وكل ذلك دليل على استحقاقه الانفراد بالعبودية ؛ لأنه خالق هذه النعم الجلية التى نيط أمر المعاش بها ، والقول بأن نور القمر مستفاد من الشمس ليس له أصل لغة وشرعاً ، قاله فى غاية الأمانى . وقال فى لباب التأويل : اختلف أصحاب الكلام فى الشعاع الفائض من الشمس هل هو جسم أو عرض والحق أنه عرض وهو كيفية مخصوصة ، فالنور اسم لأصل هذه الكيفية والضوء اسم لها إذا كملت ، فلهذا خص الشمس بالضياء لأنه أقوى وأكمل من النور الذى للقمر ، فلو استويا لم يعرف الليل من النهار ﴿ وَقَدَّرَهُ ﴾

أى القمر من حيث سيره ﴿ مَنَازِلَ ﴾ ذا منازل ثمانية وعشرين منزلا فى ثمان وعشرين ليلة من كل شهر ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وليلة إن كان تسعة وعشرين يوماً، وأفرد القمر بذلك لأن مناط الأحكام الشرعية إنما هو بالسنة القمرية والأشهر الهلالية، ولذا علله بقوله ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ للأوقات من الشهور والأيام فى تصرفاتكم ومعاملاتكم ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ إِلَّا ﴾ ملتبساً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ مقتضى الحكمة بمناط المعاش ودليل التوحيد لا عبثاً تعالى الله عن ذلك ﴿ نُفَصِّلُ ﴾ بالنون للجمهور، وبالياء لابن كثير وأبى عمرو وحفص مسنداً إلى ضمير الجلالة ﴿ الْآيَاتِ ﴾ دلائل على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته وتفرده بذلك ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون به ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ بالذهاب والمجىء، والزيادة والنقصان ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من أجزائها وأوضاعها وما فيها من أنواع الكائنات ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ خص التقوى بالذكر لأنه الباعث على التفكر فى شأنها، والاعتراف بوحدانية مبدعها ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ أى ثوابنا بالبعث أو لا يخافونه، قال ابن سيده والفراء: إن لفظة الرجاء إذا جاءت منفية فهى بمعنى الخوف. وقال ابن عطية: والذى أقول به: إن الرجاء فى كل موضع على بابه ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بزينتها بدل الآخرة لغفلتهم عنها ﴿ وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾ سكنوا إليها فبنوا القصور ونسوا القبور ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾ كالبهائم منهمكون فى المعاصى واللذات العاجلة وإنما وسط العاطف باعتبار تغاير الوصفين الثانى علة للأول أو هما فريقان: الأول من أنكر البعث والثانى من أقر به وشغله حب الفانى عن الإعداد للباقى ﴿ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ إلى طريق الجنان ثوابا لهم ﴿ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ بسببه بأن يجعل لهم نوراً يهتدون به إليها يوم القيامة ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ دَعْوَاهُمْ فِيهَا ﴾ طلبهم لما يشتهون فى الجنة أن يقولوا ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ أى يا الله فإذا ما طلبوه بين أيديهم ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول، أى ما تحييهم به الملائكة أو الله، أو الفاعل أى تحية بعضهم بعضاً ﴿ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ قال ابن القاسم عن مالك: أى هذا السلام الذى بين أظهركم ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ ﴾ أى خاتمة دعائهم وكلامهم فى كل موطن ﴿ أَنِ ﴾ مخففة من الثقيلة لا مفسرة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يقولون ذلك شكراً على ما أولاهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ ﴾ إذا استعجلوه ﴿ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ ﴾ أى كتعجيله الخير إذا سألوه ﴿ لَقُضِيَ ﴾ بالبناء للمفعول للجمهور والفاعل لابن عامر ويعقوب ﴿ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ بالرفع للأول والنصب للثانى بأن يهلكهم. قال البيضاوى: تقدير الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالا كاستعجالهم بالخير فحذف منه ما حذف لدلالة الباقى عليه. اهـ وإنما وضع الاستعجال موضع التعجيل للإشعار بأنه يجيبهم أسرع إجابة، كأن استعجالهم

نفس تعجيله ، والآية نزلت فى دعاء الرجل على نفسه أو ولده أو أهله أو ماله بما يكره أن يستجاب له نيه كقوله لأهله وولده عند الغضب : لعنكم الله ، لا بارك الله فيكم . وقيل فى قول الكفار « إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » ونحو « ائتنا بما تعدنا » . ويدل على صحة هذا القول قوله ﴿ فَنَذَرُ ﴾ نترك ﴿ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يترددون متحيرين ، والفاء عاطفة على فعل دلت عليه الشرطية كأنه قيل ولكن لا نعجل ولا نقضى فنذرهم إمهالا واستدراجاً ، ووضع الظاهر موضع المضمر دلالة على أن ذلك المستعجل لم يؤمن بلقاء الله ، فلذا اجترأ على تلك المقالة ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ﴾ الكافر وضعيف اليقين الغافل ﴿ الضُّرُّ ﴾ المرض والفقر ﴿ دَعَانَا ﴾ لإجابته ملقيا ﴿ لِجَنْبِهِ ﴾ أى مضطجعاً ﴿ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ أى فى أحواله كلها ، وفائدة الترديد تعميم الدعاء لجميع الأحوال أو لأصناف المضار ، واستعمل اللام مع أن الظاهر على إشارة إلى أنه لشدة المرض مستقر على تلك الهيئة لا يمكنه غيرها لما فى اللام من معنى الاختصاص ففيه زيادة مبالغة ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ ﴾ مضى على طريقه أو استمر على كفره أو مر على موقف الدعاء لا يرجع إليه ﴿ كَأَنْ ﴾ مخففة أى كأنه ﴿ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ﴾ ونسى ما كان عليه من الجهد والضيق والضر والفقر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما زين لهذا الدعاء عند الضر والإعراض عند الرخاء ﴿ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ المتجاوزين الحد فى الانهماك فى الشهوات والإعراض عن العبادات ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من تكذيب الآيات وتصريف الأموال فى غير مرضاة الله ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ ﴾ الأمم ﴿ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ بالكفر والمعاصى ﴿وَ﴾ قد ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الدلالات على صدقهم ﴿ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ عطف على ظلموا جحدا واستكبارا وخذلانا ، واللام لتأكيد النفى ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما أهلكنا أولئك ﴿ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الكافرين وضع المظهر موضع المضمر دلالة على كمال جرمهم وأنه سبب هلاكهم ، وزاد لفظ القوم ليدل على كل مجرم فيتناولهم تناولا ظاهرا ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ خَلَائِفَ ﴾ جمع خليفة ﴿ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ بعد القرون التى أهلكناهم استخلاف من يختبر ﴿ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ فيها وهل تعتبرون بهم فتصدقوا رسلنا أم تكذبون فنعاملكم على مقتضى أعمالكم ، و« كيف » معمول تعملون لأن النظر معلق بالاستفهام ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ القرآن ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ ظاهرات حال ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ كأهل مكة التفات إلى الغيبة تنفيرا لهم عن درجة الخطاب وإعلاما بأنهم خلف سوء سلكوا مسالك الهالكين من القرون الأولى ولم يكن لهم باعث على هذا إلا عدم اعتقاد الحشر ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا﴾ ليس فيه تسفيه أحلام آبائنا ولا سب آلهتنا ولا ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان آية العذاب آية الرحمة ، وموضع سب آلهتنا مدحها فالأول تغيير فى الذات ، وهذا تغيير فى الوضع ، وغرضهم السخرية والاستهزاء أو التجربة والامتحان حتى لو فعل ذلك علموا أنه كاذب فى قوله إنه من عند الله ﴿ قُلْ ﴾ لهم

﴿ مَا يَكُونُ ﴾ ينبغى ﴿ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ ﴾ قبل ﴿ نَفْسِى ﴾ أجاب عن الثانى لأنه الممكن له ، فالأول ليس من مقدوره أو لأنه يستلزمه ، وتلقاء : مصدر استعمل ظرفا : قاله البيضاوى . وفى القاموس: لقيه كرضيه لقا ولِقاء ولِقياً ولِقيانا بكسرهن ، ولقيا ولقيانا ولقى بضمهن كتلقاه والتقاه والاسم التلقاء ولا نظير له غير التبيان . اهـ . ومقتضاه أنه اسم مصدر . والله اعلم ﴿ إِنْ ﴾ ١٠ ﴿ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ ﴾ ما شأنى إلا اتباع الوحى من غير زيادة ولا نقصان ليس إلىّ التبديل والتغيير ﴿ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى ﴾ بالتبديل ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هو يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أنهم مستوجبون ذلك العذاب بطلب تبديل كلام الله ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾ زيادة تبرئ عما ينسبونه إليه من أنه كلامه بأن نفس تلاوته بمشيئة الله فضلا عن ذلك المتلو ﴿ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ﴾ بلا النافية عطف على ما قبله للجمهور ، أى : ولا أعلمكم به ولا أنزله رأساً فضمير المخاطبين مفعول « أدرى » الأول والثانى المجرور بالباء . وقرأ ابن كثير فى رواية قنبل بلام التأكيد ، أى لو شاء الله لأعلمكم به على لسان غيره فإنه كلامه ليس على البشر إلا تبليغه فأنا وغيرى سيان فيه فهو حق لا محيص عنه لو لم أرسل به لأرسل به غيرى ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ﴾ أربعين سنة ﴿ مِّن قَبْلِهِ ﴾ قبل إنزاله لا أحدثكم بشىء ، وهى أيام طلب الجاه والرياسة ومحل الهفوات وارتكاب ما لا يليق من الحركات ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بذلك أنه ليس من قبلى ﴿ فَمَنْ ﴾ أى لا أحد ﴿ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بنسبة القرآن إلى غيره أو بنسبة الشريك إليه ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ القرآن ﴿ إِنَّهُ ﴾ الشأن ﴿ لَا يُفْلِحُ ﴾ لا يسعد ﴿ الْمُجْرِمُونَ ﴾ المشركون ، آثر الظاهر على المضمر للدلالة على العلية ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُمْ ﴾ إن لم يعبدوه ﴿ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ إن عبدوه وهو الاصنام لأنها جماد ، والمعبود ينبغى أن يكون مثيباً ومعاقباً ، وهذا دليل على قبح فعلهم كما أن الأول دليل على بطلان قولهم ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عنها ﴿ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ أى : يعتقدون ذلك أو يقولونه ، أى إن كان بعث سيشفعون لنا ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ ﴾ أتخبرونه ﴿ بِمَا لَا يَعْلَمُ ﴾ وهو الشريك أو شفاعته لكم ﴿ فِى السَّمَاوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ ﴾ استفهام إنكار أى لو كان له شريك لعلمه إذ لا يخفى عليه شىء ، وذكر السموات والأرض تأكيد للنفى كما تقول العرب : ليس هذا فى السماء ولا فى الارض ، ولأن ما يعبدون إما سماوى وإما أرضى ولا شىء فيهما إلا وهو حادث مقهور مثلهم لا يليق أن يشرك به ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهاً له ﴿ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ معه أو عن إشراكهم بالياء للجمهور والتاء لحمزة والكسائى ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ على دين واحد وهو الإسلام ، من لدن آدم إلى قتل قابيل هابيل ، أو من زمن نوح بعد السفينة إلى أن اختلفوا ، أو المراد بالناس العرب من زمن إبراهيم إلى زمن عمرو بن لحى أو على دين واحد وهو الكفر فى فترة الرسل ﴿ فَاخْتَلَفُوا ﴾ بأن ثبت بعض وكفر بعض أو آمن بعض وثبت على الكفر بعض ، وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

سبقت من ربك ﴾ بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة أو بتأخير كل أمة إلى أجلها ﴿ لقضى بينهم ﴾ فى الدنيا أو عاجلا ﴿ فيما فيه يختلفون ﴾ من الدين بتعذيب الكافرين ، وقيل الكلمة هى قوله « سبقت رحمتى غضبى » ولولا ذلك لعجل لهم العقوبة ﴿ ويقولون ﴾ أهل مكة ﴿ لولا أنزل عليه ﴾ على محمد ﴿ ءاية من ربه ﴾ كما كان للأنبياء من الناقة والعصا واليد ، وعبر بالمضارع وإن كان القول منهم ماضياً واقعاً لأنهم مستمرون على ذلك ﴿ فقل إنما الغيب ﴾ ما غاب عن العباد أى أمره ﴿ لله ﴾ ومنه الآيات فلا يأتى بها إلا هو وإنما علىّ التبليغ ، فلو اقتضت حكمته إنزال ما سألتموه لأنزله ﴿ فانتظروا ﴾ العذاب إن لم تؤمنوا ﴿ إنى معكم من المنتظرين ﴾ العذاب النازل عليكم ، أو فانتظروا قضاء الله بيننا بإظهار الحق على المبطل ﴿ وإذا أذقنا الناس ﴾ المشركين الناكبين عن الشكر ككفار مكة ﴿ رحمة ﴾ صحة وسعة ﴿ من بعد ضراء مستهم ﴾ كقحط ومرض وضيق عيش ، وفى إسناد الإذاقة فى الرحمة دون الضر شأن لا يخفى ﴿ إذا لهم مكر فى ءاياتنا ﴾ احتيال فى دفعها بالاستهزاء والتكذيب كما فعل كفار مكة لما أنزل الله عليهم المطر وأخصبت بلادهم بعد القحط والجوع سبع سنين حتى هلك أكثرهم عادوا إلى العناد وإنكار الآيات . قال فى الجواهر : والآية فى الكفار وهى تتناول من العصاة من لا يؤدى شكر الله عند زوال المكروه عنه ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ الله أسرع مكرا ﴾ منكم قد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدكم ، ولما دلت المفاجأة على السرعة ظاهر وجه التفضيل ، والمكر إخفاء الكيد . وهو من الله إما الاستدراج أو الجزاء على المكر وأطلق عليه مشاكلة ﴿ إن رسلنا ﴾ الحفظة ﴿ يكتبون ما تمكرون ﴾ بالتاء للسبعة والياء ليعقوب ، أى : مكركم أو ما مكرتموه لتفتضحوا به يوم القيامة فلم يخف عليهم شىء منه فضلا عن أن يخفى علينا ، وفيه مع الوعيد إيماء إلى جهلهم بعلام الغيوب وشمول علمه ﴿ هو الذى يسيركم ﴾ ولابن عامر : ينشركم ﴿ فى البر ﴾ على الأقدام وظهر الدواب لطلب الحاجات ﴿ والبحر ﴾ فى الفلك للتجارة وغيرها ، أو المعنى : الهادى لكم إلى السير فيهما ، أو المهيئ لكم أسباب السير فيهما ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك ﴾ السفن ﴿ وجرين بهم ﴾ أى بكم ، وإنما التفت للنبية للمبالغة كأنه يذكر سوء فعلهم لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم ، وليس ما بعد حتى وحده وهو الكون فى الفلك غاية للتسيير ، بل الغاية الشرطية وما بعدها من الجمل المتعاطفة ﴿ بريح طيبة ﴾ لينة الهبوب لا تزعج الراكب ، والباء للسببية والأولى للملابسة ﴿ وفرحوا بها ﴾ بتلك الريح ﴿ جاءتها ﴾ جواب إذا ، والضمير للفلك أو الريح الطيبة بمعنى تلتها ﴿ ريح عاصف ﴾ شديد هبوبها ولذا لم يؤنث وأصل العصف السرعة ، يقال : ناقة عصوف إذا كانت سريعة المشى . قال فى اللباب والبيضاوى : قال عاصف لأنه أراد ذات عصف ، وزاد فى اللباب : أو لأن الريح قد يذكر ﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ من سائر الجهات ، والموج ما ارتفع وعلا من غوارب الماء فى البحر ، وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ سدت عليهم مسالك الخلاص وأهلكوا ﴿ دعوا الله

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ الدعاء ، لا يدعون أحداً سواه لتراجع الفطرة وزوال المعارض لأجل شدة الخوف وهو بدل من ظنوا بدل اشتمال لأن دعاءهم من لوازم ظنهم ، ويحتمل الاستئناف البيانى ، كأنه قيل : ماذا صنعوا بعد تلك الحالة ؟ فأجيب قالوا ﴿ لَئِنْ ﴾ لام قسم ﴿ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ ﴾ الأهوال ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ الموحدين ﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ ﴾ أجاب دعاءهم ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فاجأوا الإفساد فى جهات الأرض وأطرافها كأن لم يشاهدوا ذلك الأمر يوما ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ قيد به لأن الإفساد إخراج الشىء عن صلاحه وقد يكون بحق كتخريب ديار الكفار وقطع نخلهم وزروعهم ، والبغى هنا مجاوزة الحق إلى الباطل أو الشبهة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ ﴾ ظلمكم ﴿ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ لأن وباله عليها هو ﴿ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ تتمتعون فيها قليلا فيضمحل ويبقى عقابه . وفى الحديث « ما ذنب أسرع عقوبة من بغى » ولذا قالوا : البغى يصرع أهله ومن بغى عليه لينصرنه الله ، وقرأ حفص بنصب متاع على أنه مصدر مؤكد أى : تتمتعون متاع الحياة الدنيا ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ فى الآخرة ﴿ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فنجازيكم عليه ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ حالها فى سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها ﴿ كَمَاءٍ ﴾ أى كحال نبات ماء ، ولأجل حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ولى الكاف غير المشبه به على خلاف الأصل ﴿ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ ﴾ بسببه ﴿ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ اشتبك حتى خالط بعضه بعضاً ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ ﴾ من البر والشعير وغيرهما ﴿ وَالْأَنْعَامُ ﴾ من الكلأ أى من سائر أنواعه ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ بهجتها من النبات وألوان زهرها من أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من الزهور ﴿ وَازَّيَّنَتْ ﴾ أصله تزينت ، أبدلت التاء زايا وأدغمت فى الزاى شبهت بعروس أخذت من ألوان الثياب والزينة فتزينت بها ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ متمكنون من تحصيل ثمارها ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ قضاؤنا أو عذابنا من الجوائح أو ما أمرنا بإهلاكها به من برد أو صاعقة أو غيرهما ﴿ فَجَعَلْنَاهَا ﴾ أى زرعها ﴿ حَصِيدًا ﴾ مقطوعة كالزرع المحصود بالمناجل ﴿ كَأَنْ ﴾ مخففة أى كأنها ﴿ لَمْ تَغْنَ ﴾ تكن وتلبث أى بزرعها ، من غنى بالمكان كرضى إذا أقام ﴿ بِالْأَمْسِ ﴾ أى الزمن القريب . قال فى غاية الأمانى : المشبه به مضمون الجمل المذكورة ووجه الشبه منتزع منها كلها وهو عشر جمل ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فى معانيها ووقائعها لأنهم المنتفعون بها ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو ﴾ كل أحد مؤمناً أو كافراً ﴿ إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ ﴾ أى السلامة وهى الجنة بالدعاء إلى الإيمان ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين الإسلام ، وفيه دليل على أن الأمر يغاير الإرادة ، وأن الضال لم يرد الله هدايته ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ بالإيمان ﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾ الجنة ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ هى النظر إلى الله تعالى كما فى حديث مسلم وعليه جمهور المفسرين ، أو الحسنى جزاء مثل العمل والزيادة عشر أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله ، أو الزيادة رضوان الله ﴿ وَلَا يَرْهَقُ ﴾

لا يغشى ﴿وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ سواد فيه غبرة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ كآبة وهوان أى مايوجب ذلك من حزن وسوء حال مما يشين ظاهرهم أو باطنهم ﴿أُولَـٰئِكَ﴾ الموصوفون ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون لايموتون ولا يخرجون ﴿وَالَّذِينَ﴾ عطف على « للذين أحسنوا » أى وللذين ﴿كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الكفر والمعاصى ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ عطف على «الحسنى» بالعاطف الأول عند من يجوز العطف على معمولى عاملين مختلفين مثل فى الدار زيد والحجرة عمرو ، أو والذين مبتدأ على تقدير مضاف أى «وجزاء الذين كسبوا السيئات » والخبر « جزاء سيئة بمثلها » والمقصود التنبيه على تضعيف الحسنات تفضلا وجزاء السيئات بمثلها عدلا منه سبحانه . وفى البخارى ومسلم « من هم بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة وإن عملها كتبت عليه سيئة » ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ بعقاب الله إياهم ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ مانع من سخط الله وعذابه على أن من صلة «عاصم» أو من عند الله على أن الجار والمجرور حال قدمت ومن الثانية زائدة على الوجهين ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ ألبست ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعاً﴾ بفتح الطاء للجمهور ، جمع قطعة وإسكانها لابن كثير والكسائى ويعقوب مفرد بمعنى القطعة لأن كل وجه له قطعة ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ صفة « قطعا » على القراءتين ﴿مُظْلِماً﴾ كذلك أوحال من المستتر فى الجار والمجرور لفرط سواد وجوههم ﴿أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ إذلاحسنة لهم يجازون عليها وبه خرج صاحب الكبيرة لدخوله فى الذين أحسنوا فلا يتناولهم قسيمه فسقط احتجاج الوعيدية بهذه الآية ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أى الفريقين ﴿جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ اسم فعل أى: الزموا مكانكم حتى تسألوا أو حتى تنظروا ما يفعل بكم، تهديد المشركين ووعيد ﴿أَنْتُمْ﴾ تأكيد للضمير المستتر فى مكانكم لأنه ساد مسد الزموا، أو مكانكم منصوب بالزموا مقدرا ، وأنتم : تأكيد للضمير المستتر فى الفعل المقدر ليعطف عليه ﴿وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ أى الاصنام لتشاهدوا عجزها ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ ميزنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وبين المؤمنين كما فى آية « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » أو فرقنا وقطعنا الوصل التى كانت بين المشركين وشركائهم ، وعبر بالماضى لتحقق وقوعه ﴿وَقَالَ﴾ لهم ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾ فى زعمهم ﴿مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ « ما » نافية ، وقدم المفعول للفاصلة ، يقولون لهم ذلك مكان الشفاعة التى يرجونها زيادة فى النكاية كقوله : « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا » ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ تفريع على قولهم المقدر أى: فيقول المشركون : بل عبدناكم ، فتقول الاصنام كفى بالله شهيدا إن وقع ذلك فإنه العالم بكنه الأشياء ﴿إِنْ﴾ مخففة أى إنا ﴿كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ لم نأمر بذلك ولم نرض به ثم أشار إلى ما هو كالتتمة للآية المتقدمة فقال ﴿هُنَالِكَ﴾ فى ذلك المقام والزمان مستعار له إذ المراد فى ذلك اليوم ﴿تَبْلُوا﴾ من البلاء الاختبار أى تعرف ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ حقيقة ﴿مَا أَسْلَفَتْ﴾ أى عملت من حسن وقبيح وقبول ورد ولحمزة والكسائى بتاءين من التلو وهو التبعية أى تتبع عملها إما إلى الجنة أو إلى النار أو ماتعبده لما فى البخارى : «إذا كان يوم القيامة تتبع كل أمة ما كانت تعبد» الحديث

أو من التلاوة لقوله « ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك » ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى جزائه إياهم بما أسلفوا ﴿ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ الثابت الدائم أو متولى أمورهم على الحقيقة لاما اتخذوا مولى ﴿ وَضَلَّ ﴾ غاب وضاع وبطل ﴿ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ عليه من الشركاء أو من شفاعتهم ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ بالمطر ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ بالنبات أردفه بأنواع أخر من دلائل التوحيد على وجه لايقدرون على إنكار شيء منها ﴿ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ ﴾ بمعنى الأسماع ﴿ وَالْأَبْصَارَ ﴾ أى من مالكهما لكم بخلقهما وحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما بأدنى شيء ﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ كما تقدم فى الآيات ﴿ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ للعالم العلوى والسفلى تعميم بعد تخصيص ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ لايجدون جوابا غيره ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ بطشه وسطوته بإشراككم وقد اعترفتم بأنه الخالق لهذه الأشياء ﴿ فَذَٰلِكُمُ ﴾ الفعال لهذه الأشياء ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ الثابت المستحق لعبادتكم لا من تسمونه ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ استفهام تقرير أى ليس بعده غيره فمن أخطأ الحق وهو عبادة الله وقع فى الضلال إذ لا واسطة . قال ابن عطية : وعبارة القرآن فى سوق هذه المعانى تفوت كل تفسير براعة وإيجازا ووضوحا ، وحكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة فى هذه المسألة التى هى توحيد الله تعالى وكذلك الأمر فى نظائرها من مسائل الأصول التى الحق فيها فى طرف واحد لأن الكلام فيها إنما هو فى تقرير وجود ذات كيف هى وذلك بخلاف مسائل الفروع التى قال الله تعالى فيها « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » . اه . وقال مالك لما سئل عن اللعب بالشطرنج : هو من الضلال والباطل وينبغى لذى العقل أن تنهاه اللحية والشيب عن الباطل . اه . ﴿ فَأَنَّىٰ ﴾ كيف ﴿ تُصْرَفُونَ ﴾ عن الحق الإيمان مع قيام البرهان تعجيب لهم من حالهم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما صرف هؤلاء عن الإيمان أو كما أن بعد الحق الضلال أو كما حقت الربوبية لله تعالى ﴿ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ ﴾ بالجمع لنافع وابن عامر وبالإفراد لغيرهما هنا وفيما يأتى فى السورة ﴿ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ كفروا وخرجوا عن حد الاستصلاح وهى « لأملأن جهنم ... الآية » أو هى ﴿ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى قضاؤه عليهم ذلك فى الأزل ، وأنهم بدل من الكلمات ، أو تعليل لحقيتها ، وفيه دليل على أن حقية العذاب ولزومه للكفار إنما كان لأجل انتفاء الإيمان فدل على نجاة المؤمن وإن كان فاسقا . قاله فى غاية الأمانى ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أى ليس فيهم من هذا شأنه وهم وإن لم يقولوا بالإعادة كالمقرين لها لظهور أمرها ووضوح برهانها من الابتداء فعدم اعترافهم بها لجاج ولذا أمر الرسول بالنيابة عنهم فى الجواب بقوله ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ لأن لجاجهم لايدعهم أن يعترفوا بها ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ تصرفون عن عبادته مع قيام الدليل ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ بنصب الحجج للرسل وخلق الاهتداء للرسل إليهم وهذا تنزل معهم أى إن لم يقدروا على الابتداء والإعادة هل لهم أول شئون الإله وهو

الإرشاد إلى الصواب وهدى يتعدى إلى الثانى بإلى وباللام ، وإذا قالوا لا إذ لابدلهم من ذلك ﴿ قُلِ ﴾ لهم ﴿ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾ لا غيره ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ وهو الله ﴿ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ ﴾ بفتح الياء والهاء وتشديد الدال لورش وابن كثير وابن عامر مضارع اهتدى حركت الهاء بالفتح فرارا من ثقل الكسرة مع الياء لو كسر لالتقاء الساكنين حيث أدغمت التاء فى الدال للتشارك فى المخرج ولأبى بكر عن عاصم بكسر الياء والهاء وتشديد الدال على أن الهاء كسرت لالتقاء الساكنين والياء للإتباع ولحفص بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال من غير إتباع ولأبى عمرو وقالون عن نافع بفتح الياء واختلاس فتح الهاء والتشديد إشارة إلى عدم أصالتها ولحمزة والكسائى يهدى مضارع هدى أى لايهدى غيره ﴿ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾ أحق أن يتبع : استفهام تقرير وتوبيخ أى الأول أحق وفى قوله « إلا أن يهدى » تجوز لأنا نجدها لاتهتدى وإن هديت ويحتمل أن المراد لاتنتقل إلا أن تنقل أو المراد ما ذكره الله من تسبيح الجمادات هو اهتداء . قاله فى الجواهر الحسان ﴿ فَمَا لَكُمْ ﴾ أى شىء لكم فى عبادة هذه الأصنام كذا فسره الزجاج ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ هذا الحكم الفاسد من اتباع مالا يحق اتباعه تعجيب من حالهم كيف خفى عليهم هذا الأمر الجلى وهم يدعون أنهم عقلاء مراجح جمع مرجح كسكن بمعنى راجح ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ ﴾ فى عبادة الأصنام وأنها تشفع لهم ﴿ إِلَّا ظَنًّا ﴾ بتقليد الآباء وخيالات فارغة وأقيسة فاسدة كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة وقيد بالأكثر لأن بعضهم شاك متحير وبعضهم مستيقن معاند ، وقيل المراد بالأكثر الجميع ﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ من الإغناء أو من الأشياء منصوب على المصدر أو المفعول به والحق هو الثابت الذى لايتبدل بتبديل الشرائع كالتوحيد وسائر الأصول فإن الظن فيها لا يفيد بل لابد فيها من دليل قاطع وفيه دليل على أن تحصيل العلم فى الأصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز . قاله البيضاوى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ وعيد على اتباعهم للظن وإعراضهم عن البرهان . ولما صدر الله السورة ببيان صدق الرسول فيما جاء به ، وأن القرآن من عند الله ، وساق بعد ذلك دلائل توحيده وربوبيته على أرشق أسلوب وأحسن نظم رجع إلى ماكان بصدده من نفى الريب عن كون القرآن كلامه وزاد حسن الرجوع إليه كونه بعد المنع عن اتباع الظن ليكون بيانا لما يجب اتباعه بقوله ﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ ﴾ أى افتراء أى ماصح فى العقل كون مثله فى علو الشأن والإعجاز مفترى ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أى غيره إذ ليس فى وسع أحد رد لقول الكفار إن محمدا اختلقه ﴿ وَلَـٰكِن ﴾ كان أو أنزل ﴿ تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب خبر كان مقدرا أو علة لفعل محذوف كما قدرنا . وقرئ بالرفع أى هو تصديق الذى بين يديه ﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ تبيين ما كتب الله من الأحكام وغيرها فيه أو المراد بالكتاب اللوح المحفوظ فصل فيه ما كتب هناك وجعل نفس التصديق والتفصيل على كونه خبر كان مبالغة كرجل عدل ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾

خبر ثالث لكان داخل فى حكم الاستدراك أوحال من اسم كان ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴾ حال من ضمير فيه أو من الكتاب أو متعلق بتصديق أو تفصيل ولا ريب فيه اعتراض على الوجوه الثلاثة ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ اختلقه محمد ومعنى الهمزة الإنكار والاستبعاد لصدور هذا القول منهم والحال أنهم عاجزون عن إتيان مقدار أقصر سورة منه ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ فىالفصاحة والبلاغة وحسن النظم أية سورة كانت لاتفاوت بالطول والقصر وأقلها ثلاث آيات فإنكم مثلى فى العربية والفصاحة وأشد تمرنا فى النظم والعبارة ﴿ وَادْعُوا ﴾ للإعانة عليه ﴿ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ من شئتم أو قدرتم عليه فى الإتيان بمثله ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فى أنه افتراء. ولما لم يقدروا على ذلك قال تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا ﴾ أى سارعوا إلى التكذيب ﴿ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ من القرآن ولم يتدبروه أو مافيه من ذكر الجنة والنار والحشر والقيامة والثواب والعقاب أو من القصص وأخبار الأمم الخالية أنكروها لجهلهم وبل إضراب من عنادهم إلى ذكر أقبح منه وهو جهلهم ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ ما يئول إليه من صدق إخباره بالمغيبات ، وعبر بلما لأن التأويل كان متوقعا منتظرا فكانت المسارعة إلى التكذيب نوعا من الجهل ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ رسلهم ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الظَّٰلِمِينَ ﴾ بتكذيب الرسل أى آخر أمرهم من الهلاك فكذلك نهلك هؤلاء ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ من المكذبين ﴿ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ بالرسول أو بالقرآن فى نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند حفظا لرياسته أو من سيؤمن به ويتوب عن كفره لعلم الله ذلك منه ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ فى نفسه لفرط غباوة وقلة تدبره أو فيما يستقبل بل يموت على الكفر ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ المعاندين أو المصرين تهديد ووعيد ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ أى أصروا على تكذيبك بعد إلزام الحجة ﴿ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ أى لكل جزاء عمله أى تبرأ منهم فقد أعذرت ﴿ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ لا يؤاخذ أحد منا بجريمة الآخر كما لاينتفع بصالح عمله والقول بأن هذا منسوخ بآية السيف باطل كما قال فخر الدين إذ مدلوله اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمراتها وآية السيف لم ترفع شيئا من ذلك . قال البيضاوى : ولما فيه من إيهام الإعراض عنهم قيل إنه منسوخ بآية السيف ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ إذا قرأت القرآن بأسماعهم الظاهرة ولا يقبل لشدة بغضك ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ﴾ شبههم بهم فى عدم الانتفاع بما يتلى عليهم ﴿ وَلَوْ كَانُوا ﴾ مع الصمم ﴿ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ لايتدبرون ولا يتعقلون ماتقول إنكار لوقوع الإسماع مع اجتماع الصمم وعدم التعقل لأن الأصم إذا كان عاقلا ربما تفرس من دوى الصوت وأدرك المقصود من الإشارة وإذا انضم إلى فقد السمع سلب العقل استحال الإسماع ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴾ ويشاهد بأبصاره الظاهرة دلائل النبوة فى وجهك لو لم تكن فيه آيات مبينة . لكان منظره ينبئك بالخبر ومع ذلك لايهتدى لعمى القلوب وأفرد فى ينظر نظراً إلى اللفظ وجمع فى يستمعون نظراً إلى المعنى تفننا ﴿ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾

بالبصيرة إذ الأعمى المستبصر ربما تفطن ما لا يدركه البصير الأحمق ، شبههم بالعمى فى عدم الاهتداء بل أعظم « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » والآية كالتعليل للأمر بالتبرئ والإعراض عنهم ، وفيها تسلية النبى كأنه قال إنه لا تقدر أن توفق للإيمان من حكمت عليه أنه لا يؤمن ، ثم أعلم أن ما حكم به عليهم ليس ظلماً لهم بل عدل بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ بسلب حواسهم وعقولهم مما يستدلون به إلى تحصيل المعاد ﴿وَلَـٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتفويت منافع الحواس وصرفها إلى غير ما خلقت له ، وفى الآية دليل على أن للعبد كسباً وهو تعلق قدرته بالمقدور من غير فعل وهو مناط الثواب والعقاب وليس مسلوب الاختيار بالكلية كما زعمت الجبرية ، ولا فاعلا حقيقة كما زعمت القدرية ، وقيل : الآية وعيد لهم بأن ما حاق بهم فى الآخرة من العذاب باقتراف أسبابه ، وقرأ حمزة والكسائى بتخفيف «لكن» ورفع «الناس» ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ وقرأ حفص بالياء ﴿كَأَن﴾ أى كأنهم ﴿لَّمْ يَلْبَثُوا﴾ فى الدنيا أو فى القبور ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ لهول ما رأوا وجملة التشبيه حال من الضمير ، أى نحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة ، أو صفة ليوم ، والعائد محذوف ، أى لم يلبثوا قبله ، أو لمصدر محذوف أى حشراً كأن لم يلبثوا قبله ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً إذا بعثوا ثم ينقطع التعارف لشدة الأهوال ، والجملة حال مقدرة أو متعلق الظرف ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ بالبعث بإيثار الفانى على الباقى : استئناف فيه معنى التعجيب كأنه قيل ما أخسر من كذب بلقاء الله ، أو حال بتقدير القول أى يتعارفون بينهم قائلين ذلك ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ عارفين بطريق النجاة ، أو لم يدخلوا فى زمرة المهتدين وهو تأكيد لكونهم صماً عمياً ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ به من العذاب فى حياتك كيوم بدر ، وجواب الشرط محذوف أى فذاك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل إراءته ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فنريكه فى الآخرة ، جواب نتوفينك ، والمعنى : إنك ظافر بعدوك إما فى الدنيا أو فى الآخرة لا محالة فلا تحزن من تكذيبهم ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ مطلع ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ من تكذيبهم وكفرهم بعدك فيعذبهم أشد العذاب . وفى البخارى أنه صلى الله عليه وسلم قال « يؤتى بأناس من أمتى وأنا واقف على الحوض فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابى أصحابى ! فيقال : إنك لم تعلم ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال عيسى ابن مريم : وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم» ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿رَّسُولٌ﴾ بعث إليهم ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ إليهم فى الدنيا فكذبوه ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل بإهلاكهم وإنجاء الرسول ومن صدقه ، أو المعنى لكل أمة فى الآخرة رسول تنسب إليه فإذا جاء وشهد عليهم بالكفر والإيمان قضى بينهم بإنجاء المؤمن وإهلاك الكافر لقوله تعالى وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالقسط ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بتعذيبهم بغير جرم أو بنقص حسنات وزيادة سيئات ، بل يجازى كل على قدر عمله ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ﴾ بالعذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه خطاب للنبى والمؤمنين ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾ التى هى أقرب إلىّ

وأم ﴿ ضَرًّا ﴾ دفعه ﴿ وَلَا نَفْعًا ﴾ جلبه ، قدم الضر هنا وأخره فى الأعراف لأن الكلام هناك فى الساعة وعدم الأطلاع على وقتها ، فالأهم النفع وإعداد العمل الصالح لها ، والكلام هنا فى وقوع العذاب . ولا شك أن الأهم دفعه ، أى لا أملك هذا لنفسى فكيف أملك لكم حلول العذاب ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ استثناء منقطع ، أى لكن ما شاء الله من ذلك كائن أو متصل ، أى إلا ماشاء الله أن أملكه بإقدارى عليه ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ مدة معلومة لهلاكهم ، بيان لسبب تأخر العذاب وجواب عن استبطائهم ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ المضروب لإهلاكهم ﴿ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عنه ﴿ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ عليه لعدم التبديل فلا تستعجلوا فسيحين وقتكم وينجز وعدكم ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبرونى ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ ﴾ أى الله ﴿ بَيَاتًا ﴾ ليلا أى وقت بيات وهو النوم ، نصب على الظرف ﴿ أَوْ نَهَارًا ﴾ وقت اشتغالكم بأسباب المعاش ، لم يذكر الليل فى مقابلة النهار لأنه أراد الإشارة إلى أنه وقت نوم وغفلة ، ليدل على أنه الوقت الذى يفترض فيه غرة العدو ولذا قدمه ﴿ مَاذَا ﴾ أى شىء ﴿ يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى أىُّ فرد من أفراده يستعجلون مع أنه لا فائدة فى شىء منها لأن العذاب كله من المذاق يجب الفرار منه ، وعلى هذا « من » تبعيضية أو معنى الاستفهام التعجيب أى أى شىء هائل من العذاب يستعجلون فمن للبيان ، لأن ذلك الشىء هو العذاب نفسه والمراد تسفيه أحلامهم على كلا المعنيين بأن مايستعجلونه لا فائدة فى استعجاله ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغى أن يخافوا العذاب لا أن يستعجلوه ، وجملة الاستفهام جواب الشرط كقولك : إن أتيتك ماذا تعطينى أو متعلقة بـ « أرأيتم » لأنه بمعنى أخبرونى ، والجواب محذوف أى تندموا ، والشرط بجزائه مقرر لمضمون الاستخبار ، ولذا وسط بينه وبين متعلقه ، أو جملة الاستفهام اعتراض والجزاء هو قوله ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ حل بكم ﴿ آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ أى الله ، أو العذاب عند نزوله حين لا ينفعكم الإيمان ، والهمزة لإنكار التأخير ، وأصل الكلام على الوجه الثالث : إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً وتحقق آمنتم به ، ثم جىء بحرف التراخى بدل الواو استبعاداً لما فعلوه ، ثم زيد « إذا » الشرطية دلالة على استقلاله بالاستبعاد مع زيادة التجهيل لأن هذا الإيمان أدخل فى الإنكار من استعجال العذاب فكأن الشرط الأول تمهيداً لهذا وأكد بـ « ما » تحقيقاً لمعنى الوقوع ، وأدخل الهمزة على « ثم » لأنه مصب الإنكار ، والله أعلم بأسرار كتابه . ويقال لكم ﴿ آلْآنَ ﴾ تؤمنون ، بإلقاء حركة الهمزة إلى اللام وحذفها لنافع ، وهو الوقت الذى أنت فيه : ظرف غير متمكن وقع معرفة ، وليست اللام فيه للتعريف ﴿ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ تكذيباً واستهزاء ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ عطف على يقال المقدر قبل الآن ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ المؤلم على الدوام الذى تخلدون فيه ﴿ هَلْ ﴾ ما ﴿ تُجْزَوْنَ إِلَّا ﴾ جزاء ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ﴾ يستخبرونك إنكاراً وتكذيباً ﴿ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ أى ما وعدتنا به من العذاب والبعث ، وأحق مبتدأ والضمير فاعل مرتفع به ساد مسد الخبر أو خبر

مقدم والضمير مبتدأ مؤخر ، والجملة فى موضع النصب « ليستنبئونك » ﴿ قُلْ إِي ﴾ بكسر الهمزة كلمة تصديق بمعنى نعم قبل القسم لا تستعمل مفردة ﴿ وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ أكده بأنواع من التأكيد لقوة إنكار المخاطب به ، وقيل الضميران للقرآن أو لادعاء النبوة ، ولا يلائم المقام ويرده قوله ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ بفائتين العذاب ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ بالشرك والتعدى على الغير ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من الأموال ﴿ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ من العذاب يوم القيامة ، والفدية والفداء ما ينقذ به الشيء ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ ﴾ على ترك الإيمان ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ لأنهم بهتوا بما عاينوا مما لم يحتسبوه من شدة الأمر وهوله فلم يقدروا أن ينطقوا أو يبكوا كما يفعله المصاب ، وكثيراً ترى من له ولد عزيز عليه إذا مات يبقى كالجماد لا يسيل له دمع ولا يقدر على صراخ ، وقيل المراد : أظهروها لأن « أسر » من الأضداد ، وقيل أسروها من سفلتهم الذين أضلوهم حياء من تعييرهم وهو بعيد ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ بين المؤمنين والكافرين ، والظالمين والمظلومين ، ولا تكرار لأن الأول بين الأنبياء ومكذبيهم ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ شيئاً ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقرير لقدرته على الإثابة والعقاب ﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بالبعث والجزاء ﴿ حَقٌّ ﴾ كائن لا خلف فيه ، وصدر الجملتين بحرف التنبيه إيقاظاً عن سنة الغفلة ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ أى الناس ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك لانهماكهم فى الشهوات وعدم تفكرهم فى أمور الآخرة ﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ فى الدنيا وهو يقدر عليهما فى الأخرى ، ردٌّ لقولهم : وما يهلكنا إلا الدهر ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فى الآخرة فيجازيكم بأعمالكم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ أهل مكة وغيرهم ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى كتاب فيه مالكم وعليكم وهو القرآن ، والموعظة : النصح ، مصدر بمعنى الوعظ : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وترقيق القلوب بالوعد والوعيد ﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ باعتبار قبولها الوعظ والتدبر فيه أى شفاء من داء الجهل والهوى ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ به خصهما بهم لأنهم المنتفعون به ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ ﴾ الإسلام ﴿ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ القرآن فليفرحوا لا بغيرهما من متاع الدنيا ﴿ فَبِذَٰلِكَ ﴾ الفضل والرحمة ﴿ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ والباء فى « بفضل الله » متعلق بفعل يفسره « فليفرحوا » والتقديم للاختصاص أى لا بغيرهما والتكرير للتأكيد لأن اسم الإشارة بمنزلة الضمير وإيثاره لاشتماله على زيادة كمال التمييز فيفيد زيادة تقرير وتثبيت وحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه ، والفاء جواب شرط كأنه قيل : إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح ، وقيل الفضل والرحمة هما القرآن ، وتوسيط العاطف باعتبار الصفتين أى الكتاب الجامع بين هذين الوصفين ، قال فى غاية الأمانى : وهذا أوجه وألصق بالمقام ، وقال ابن عطية : لا وجه عندى لشيء من هذا التخصيص ، يعنى تخصيص الفضل بالإسلام والرحمة بالقرآن إلا أن يستند شيء منه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والذى يقتضيه اللفظ أن الفضل هو هداية الله تعالى إلى دينه والتوفيق إلى اتباع شرعه ، والرحمة هى عفوه وسكنى جنته التى جعلها جزاء على التشرع بالإسلام والإيمان . اهـ .

قلت هذا التخصيص مروى عن ابن عباس وغيره من الصحابة وهو مما لا مجال للرأى فيه فيكون مرفوعا حكما . والله أعلم ﴿ هُوَ ﴾ الضمير لذلك ﴿ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من الدنيا ، بالياء للجمهور والتاء لابن عامر ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم ﴾ أخبرونى ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى أنزل أسبابه أو خلق ﴿ لَكُمْ ﴾ لأجلكم امتنان ﴿ مِنْ رِزْقٍ ﴾ بيان « ما » متعلق بأرأيتم إن كانت موصولة ومفعول « أنزل » إن كانت استفهامية ﴿ فَجَعَلْتُم مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾ كالبحيرة والسائبة والميتة ﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ فى ذلك التحريم والتحليل أم لا ؟ أى : أخبرونى أىّ الأمرين كائن الإذن أم الافتراء ، فأم حينئذ فى قوله ﴿ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ تكذبون بنسبة ذلك إليه متصلة ، ويجوز أن تكون منفصلة بمعنى بل ، وهو أبلغ فى الوعيد والزجر ، ويدل عليه قوله ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إذا لقوه أيحسبون أنه لا يعاقبهم ؟ لا . وفى إبهام الوعيد تهديد عظيم والظرف منصوب بالظن﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بإمهالهم والإنعام عليهم مع الافتراء والعصيان ، أى بالعقل وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب والرزق ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ النعم . ولما طالت محاجة النبي صلى الله عليه وسلم مع الكفار سلاه على مايقاسيه معهم من المشاق بأنه ليس شىء منه إلا وعلمه محيط به يجازيه عليه بقوله ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ خطب من شئونك الدينية والدنيوية ، أو فى قصد من مقصودك ، لأن الشأن هو الأمر والحال العظيم فهو اسم بمعنى الخطب أو مصدر شأنت شأنه إذا قصدت قصده ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ ﴾ أى من الشأن بمعنى لأجله ﴿ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ أنزل عليك لأن تلاوة القرآن أعظم شئون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى داخلة فى « شأن » والتخصيص للتشريف أو الضمير للقرآن المفهوم من « تتلو » ، أى وما تتلو من القرآن من شىء منه لأن اسم القرآن يطلق على كل جزء منه ، أو الإضمار قبل الذكر للتفخيم ، أوالضمير لله ، و «من» ابتدائية عليهما و « من » فى « من قرآن » تبعيضية أو مزيدة لتأكيد النفى ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ ﴾ أنت وأمتك ﴿ مِنْ عَمَلٍ ﴾ أى عمل كان ، عمم الخطاب بعد أن خصص سيد القوم بما فيه فخامة إجلالا لمنصبه ورفعاً لجانبه ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ مطلعين على أحوالكم رقباء على أعمالكم الظاهرة والباطنة ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ ﴾ تخوضون وتندفعون وتنصبون ﴿ فِيهِ ﴾ أى العمل ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ بضم الزاى للجمهور وبكسرها للكسائى لايغيب ﴿ عَنْ ﴾ علم ﴿ رَبِّكَ ﴾ أى لايبعد عنه ﴿ مِنْ مِثْقَالِ ﴾ وزن ﴿ ذَرَّةٍ ﴾ أصغر نملة أو أقل قليل ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أى فى الجهات السفلية والعلوية ، وتقديم الأرض لأن الكلام فى حال أهلها والمقصود منه البرهان على إحاطة علمه بها ﴿ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ ﴾بالفتح فيهما للجمهور عطفا على لفظ « من مثقال » لأنهما غير منصرفين وبالرفع لحمزة على المحل لأنه فاعل ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ بيّن هو اللوح المحفوظ استثناء منقطع أى لا يعزب عنه شىء لكن كله فى كتاب أو متصل ، وحينئذ فقوله : « ولا أصغر ـ إلى آخره » كلام برأسه مقرر لما قبله « ولا » نافية ، و « أصغر » اسمها ،

و«فى كتاب» خبرها . قال عبدالرحمن الثعالبي : هذه الآية عظيمة الموقع لأهل المراقبة تثير من قلوبهم أسرارا ويغترفون من بحر فيضها أنوارا . اه . ولما كان مضمون الآية التنبيه والتحذير ومظنة إسراع الخوف إلى قلوب المخلصين إذ ما من أحد إلا وله نوع تقصير فى المراقبة أزال الخوف عن أوليائه بقوله ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بوصول مكروه وفوات محبوب . هم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الله بامتثال أمره ونهيه وتأدبوا بآداب رسوله صلى الله عليه وسلم ، والآية تعريف لهم وتمييز عما عداهم ، أو نصب أو رفع على المدح أو مبتدأ والخبر هو قوله ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ قال فى الجواهر : وفى الآية : إن كل من آمن واتقى الله فهو داخل فى أولياء الله وهذا هو الذى تقتضيه الشريعة فى الولى ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم سئل : من أولياء الله ؟ فقال : « الذين إذا رأيتهم ذكرت الله » . اه . قال ابن عطية : وذلك وصف لازم للمتقين ، وروى أنهم قوم تحابوا فى الله واجتمعوا فى ذاته لا لقرابة ولا للمال ، وروى الدارقطنى فى سننه أنه عليه الصلاة والسلام قال : « خيار عباد الله الذين إذا رءوا ذكر الله ، وشر عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة » . اه . ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ بالرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له كما تظاهرت به الأحاديث الصحيحة وبما بشر الله به المتقين فى كتابه وعلى لسان نبيه وبشرى الملائكة عند النزع ﴿ وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ بتلقى الملائكة لهم عند القبور وبالجنة ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ لا خلف فى مواعيده ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ هذه الجملة والتى قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه ، وليس من شرطه أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله ، أو الأولى اعتراض والثانية تذييل لها ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ فى الإشراك ونفى رسالتك وتهديدك ﴿ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ ﴾ استئناف للتعليل أى : الغلبة والقهر لله ﴿ جَمِيعًا ﴾ لا مؤثر فى الكائنات غيره ، وقد وعدك بالنصر والغلبة و ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لأقوالهم ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بضمائرهم وبمن له النصر والغلبة فيجازيهم وينصرك ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ من الملائكة والثقلين ، اقتصر على ذوى العقول لكون غيرهم داخلا بالطريق الأولى وفيه تغليب ، وأتى بحرف التنبيه وأكد الكلام بإنّ إشارة إلى شدة غفلة السامعين العابدين الأصنام التى تحت قبضته وقدرته ولذا قال ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أى غيره أصناما ﴿ شُرَكَآءَ ﴾ له على الحقيقة لأن من فى السموات والأرض مملوك له لا يصلح شركا فى الألوهية فمن سموه شريكا اسم بلا مسمى ، ويجوز أن تكون « ما » استفهامية مفعول يتبع و « شركاء » مفعول يدعون ، والمعنى : أى شىء يتبع هؤلاء الذين يدعون شركاء من دون الله إذا كان من فى السموات والأرض مملوكا له تعالى تقريرا لجهلهم ويجوز أن تكون « ما » موصولة معطوفة على « من » ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ فى ذلك ﴿ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ الذى لا يجدى فى الأصول والعقائد وهو ظنهم أنها آلهة تشفع لهم ﴿ وَإِنْ ﴾ ما ﴿ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ يكذبون فى دعواهم أو يقدرون فى أنفسهم مالا وجود له ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ ﴾ مظلما ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ وتكفوا

عن الأعمال فيزول التعب والكلال عنكم بالسكون إذ لولا الليل لحملكم الحرص على إدامة العمل ،وأصل السكون الثبوت بعد الحركة ﴿ وَ ﴾ جعل لكم ﴿ النَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ مضيئا تبصرون فيه لتتحركوا إلى طلب المعاش والحوائج وإسناد الإبصار إلى النهار مجاز لأنه مبصر فيه ، وفى هذه الألفاظ من الإيجاز والإحالة على ذهن السامع ما لا يخفى وفيها الاحتباك ودلالة هذه النعم على تفرده باستحقاق العبادة فى غاية الجلاء ، ولذا ختم الآية بقوله ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ ﴾ دلالات على وحدانيته تعالى ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر فإنه لايحتاج إلا إلى إلقاء سمع دون تكثير مقدمات وتدقيق أنظار . ثم أشار إلى نوع آخر من جهالاتهم بقوله ﴿قَالُوا﴾ اليهود والنصارى والمشركون الزاعمون أن الملائكة بنات الله ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ قال تعالى لهم ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيها له عن الولد إذ لا يتخذ الولد إلا المحتاج اليه والله تعالى ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن كل شىء، وكل شىء محتاج إليه ، والولد إنما يطلب ليكون ظهيرا فى حياة والده وقائما مقامه بعد وفاته ومن انتفى عنه الاحتياج من كل وجه ماذا يفعل بالولد ؟ ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ملكا وخلقا وهو ينافى الولد وفيه تقرير لغناه وإشارة إلى أنهم جاهلون متناقضون ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ حجة ﴿ بِهَٰذَا ﴾ الذى تقولونه ، التفت إليهم توبيخا وتكذيبا لهم على سبيل المخاطبة وبهذا متعلق بالظرف على أن « من سلطان » فاعل الظرف لاعتماده على النفى أو متعلق بسلطان لأن فيه معنى الفعل أو نعت له ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ توبيخ على نسبتهم إلى الله مالا علم لهم به وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة ، وأن العقائد لابد لها من قاطع ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ خاطبهم أولا ثم لما جهلهم أعرض عنهم وأمر المرسل إليهم بأن يخاطبهم بأن الذين ينسبون الولد أو الشريك أو ما لايليق به إليه ﴿ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ لاينجون فى الآخرة من النار ولا يفوزون بالجنة ﴿ مَتَٰعٌ ﴾ أى لهم متاع قليل ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ يتمتعون باقترائهم فيها إذ بذلك يقيمون رياستهم بين قومهم ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ بالموت فيلقون الشقاء المؤبد ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ ﴾ بعد الموت و « ثم » للتراخى الرتبى لأن الكافر بالموت ساقط فى العذاب إلا أن عذاب جهنم أشق ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ بسبب كفرهم . ولما استوفى الله دلائل حقية القرآن وتبين بذلك صدق من أرسل به وأردف ذلك بدلائل وحدانيته وأحوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد أمر رسوله بأن يتلو عليهم بعض قصص الأمم المكذبة رسلهم فأهلكهم الله ليكون تسلية للرسول ليتأسى بالرسل فيما يجرى من أذى الكفار وزجرا للكفار أن يصيبهم ما أصاب أولئك وبدأ بنوح لأنه أول نبىّ عذب قومه ولأنهم عبدة الأوثان مثل قريش فقال ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أى كفار مكة ﴿ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ خبره مع قومه ، ويبدل منه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى ﴾ شق عليكم قيامى بين أظهركم داعيا إلى الله لأنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله ، أو معنى « مقامى »

نفسى وكونى . قال الثعالبى : المقام وقوف الرجل لكلام أو خطبة ونحوه ، والمقام بضم الميم : إقامته ساكنا فى موضع أو بلد ولم يقرأ بضم الميم فيما علمت . اه . قلت ويؤيده مافى القاموس : قام قوما وقومة وقياما : انتصب ، وأقام بالمكان : دام . اه . وهذا يخالف من فسر مقامى بلبثى فيكم كالسيوطى . والله أعلم ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ وعظى إياكم ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالدلائل الدالة على وحدانيته وصدق نبوتى ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ به وثقت لا على غيره من الأسباب ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ اقصدوه واعزموا عليه من الإجماع بمعنى العزم ، وأمرهم : كيدهم ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ مفعول معه ، والواو بمعنى : مع ، وروى عن نافع آجمعوا بالوصل من الجمع فعليه يجوز نصب شركاءكم بالعطف على المفعول ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ مستورا بل أظهروه وجاهرونى به من غم الهلال تستر وغمه ستره ، أو المعنى : لا يكن حالكم عليكم غما إذا أهلكتمونى وتخلصتم عن ثقل مقامى وتذكيرى ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ﴾ أمضوا بى ما أردتموه وأنفذوا قضاءكم نحوى . قال البيضاوى : أدوا إلىّ ذلك الأمر الذى تريدون بى . اه ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ لا تمهلونى فإنى لست مباليكم ، وهذا الكلام من نوح عليه السلام على طريق التعجيز لهم توكلا على الله وثقة بنصره إياه ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن تذكيرى ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ ثواب عليه يوجب توليكم لثقله أو يفوتنى لتوليكم ﴿إِنْ﴾ ما ﴿أَجْرِىَ﴾ ثوابى على الدعوة والتذكير ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا تعلق له بكم يثيبنى به آمنتم أو توليتم ، وحاصل الكلام أن قيامى ليس إلىّ فاسعوا فى إزالته بكل ممكن فإن توليتم فإنى لم أطلب منكم شيئا بل ناصح لوجه الله ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لأمره المخلصين له فأنا ماض فيه غير تارك له قبلتم أو توليتم . قال فى غاية الأمانى : وفيه أن من أخذ الأجر على تعليم العلم وهداية الناس ليس من ورثة الأنبياء ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ استمروا على تكذيبه بعد إلزام الحجة ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ من الغرق ﴿فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ﴾ الأرض عن الهالكين ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بالطوفان ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول صلى الله عليه وسلم وتسلية له ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أى نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كل رسول إلى قومه كهود وصالح وابراهيم ولوط ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ المعجزات الواضحة المثبتة لدعواهم ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ أى ما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة كفرهم وخذلان الله إياهم وإنما زاد لفظ « كان » بلام الجحود إشارة إلى أن عدم إيمانهم لم يكن إلا جحدا واستكبارا ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ بسبب تعودهم تكذيب الحق قبل بعث الرسل إليهم . يعنى استوى الحالتان عندهم ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ بالانهماك فى الضلال واتباع المألوف فلا تقبل الإيمان كما طبعنا على قلوب أولئك ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ بعد هؤلاء الرسل ﴿مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ قومه ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ التسع ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمان بهما واتباعهما ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ معتادين الإجرام فلذلك تهاونوا برسالة ربهم واجترأوا على ردها ، وهذا تذييل للجملة السابقة ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهو

المعجزات ﴿ قَالُوا ﴾ من فرط تمردهم ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ظاهر أنه سحر أو فائق فى فنه واضح ﴿ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ﴾ إنه لسحر ، حذف المحكى بالقول لدلالة ما قبله عليه وابتأنف قوله ﴿ أَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾ وقد أفلح من أتى به وأبطل سحر السحرة والاستفهام فى الموضعين للإنكار ويجوز أن يكون معنى « أتقولون » أتعيبون الحق من قولهم : قال زيد فى عمرو أى عابه فيستغنى عن المفعول ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ ولو كان سحراً لاضمحل لأن السحر تمويه وتخييل ، وصاحب ذلك لا يفلح ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ لتصرفنا ومنه الالتفات ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ ﴾ أى الملك عبر بلازمه لأن شأن الملوك التكبر على الناس باستتباعهم ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ مصدقين ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ ﴾ ولحمزة والكسائى سحار ﴿ عَلِيمٍ ﴾ فائق فى علم السحر ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ ﴾ بعد ما قالوا له ، إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ، ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا ﴾ حبالهم وعصيهم ﴿ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ ﴾ هو ﴿ السِّحْرُ ﴾ لا المعجزات التى قال فرعون وقومه إنها لسحر وما موصولة مبتدأ و « السحر » بهمزة واحدة للجمهور خبر ، ولأبى عمرو : السحر على أن « ما » استفهامية مبتدأ خبره جئتم به ، والسحر بدل منها أو خبر مبتدأ محذوف أى أهو السحر ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ سيمحقه أو سيظهر بطلانه بإظهار المعجزة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ من كل مفسد ، دليل على أن السحر من الإفساد لإغوائه الناس فهو من أكبر الكبائر أو كفر ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ ﴾ يثبت ويظهر ﴿ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ آياته الدالة على حقيته أو بأوامره ونواهيه أو بمواعيده ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ إذ لا تأثير فى الكائنات إلا لقدرته ، واكتفى عن بقية قصة السحرة بما فى « طه والشعراء » وذكر هنا آخر شأن فرعون فقال ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ ﴾ مع كثرة معجزاته وقت مجيئه ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ ﴾ قليل من الأولاد ، وهذا تسلية للنبى فى إعراض قومه عن إيمانه ﴿ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ الضمير لموسى ، أى لم يؤمن من بنى إسرائيل بعد غلبة موسى إلا شبان من قومه أولاد يعقوب الذين أرسل إليهم ، هلك الآباء وبقى الأبناء ، وقيل الضمير لفرعون ، وقد آمن من قومه مؤمن من آل فرعون وامرأته « آسية » وخازنه وامرأته والماشطة وضعف كل من القولين . قال ابن عطية : ومما يضعف عود الضمير على موسى أنه لم يحفظ قط طائفة من بنى إسرائيل كفرت به فدل على أن الذرية من قوم فرعون . اه . وقال فى غاية الأمانى : هذا القول يعنى عود الضمير إلى فرعون ليس ببعيد لأن السحرة من قوم فرعون وقد آمنوا أجمعون وكانوا ألوفاً . اه . والله أعلم بمراد كتابه ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾ الضمير للقوم أى أشرافهم ، أى آمنوا بموسى حال كونهم مستعلين على الخوف ، استعار « على » للدلالة على فرط خوفهم ﴿ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾ يعذبهم فرعون وهو بدل منه أو مفعول خوف وإفراد الضمير للدلالة على أن الخوف من الملإ كان بسببه . وقال الفراء : سموا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط من آل فرعون وأمهاتهم من بنى إسرائيل فكان الرجل يتبع أمه

وأخواله فى الإيمان ، كما يقال لأولاد فارس الذين دخلوا إلى اليمن : الأبناء ؛ لأن أمهاتهم من جنس الآباء . اه .
﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ ﴾ لغالب متكبر ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ المتجاوزين الحد بادعاء الربوبية ، إيماء إلى أن خوفهم منه لا يقدح فى كمال إيمانهم ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ بأن لا فاعل إلا هو ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾ فإن الإيمان بالله يوجب التوكل ، لأن من شرائطه الإيمان بالقدر ، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين لأمره مخلصين فى الإيمان ، وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين ، فإن المعلق بالإيمان وجوب التوكل فإنه المقتضى له والمشروط بالإسلام حصوله فإنه لا يوجد مع التخليط ، ونظيره : إن دعاك زيد فأجبه إن قدرت ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ اعتمدنا ، والمؤمنون فى التوكل متفاوتون على قدر إيمانهم وعلمهم بمواعيد الله وضمانه ، فأعلاه أن يسكن القلب عن الاضطراب فيستريح من عذاب الحرص ويفك من أسر الطمع ويعتق من عبودية الدنيا وأبنائها ويحظى بالروح فى الدارين جميعاً رزقنا الله ذلك ، وسببه دوام المعرفة ، والاعتماد على الله ، وترك الحيل مع الممارسة حتى يألف ذلك إلفاً ويختاره ، فيصير التوكل والرضى والصبر له شعاراً ودثاراً ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى لا تظاهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق فيفتتنوا بنا ولا تجعلنا موضع فتنتهم بأن يعذبونا أو يصرفونا عن ديننا ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ من كيدهم وشؤم مجالستهم ، فإن الأخلاق السيئة تسرى إلى الطبع ، وفى تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعى ينبغى أن يتوكل أولا لتجاب دعوته ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا ﴾ اتخذا ﴿ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ ﴾ قال مجاهد : يعنى الاسكندرية ، ومصر هو ما بينها وبين اسوان ﴿ بُيُوتاً ﴾ للصلاة فيها ، يقال : تبوأت منزلا أى نزلته ، وبوأته الرحل أى هيأته له . قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ مساجد تصلون فيها لتأمنوا من الخوف ، وكان فرعون منعهم من الصلاة فى البيع ، أو اجعلوها متوجهة نحو القبلة ، قيل : هى الكعبة ، وقيل : بيت المقدس ، وقال ابن العربى فى قوله : « واجعلوا بيوتكم قبلة » أى اجعلوا بيت المقدس قبلة أمروا أن يستقبلوها حيثما كانوا ، وقيل : المراد صلوا فى بيوتكم دون بيعكم إذا كنتم خائفين ، والأول أظهر لأن الثانى دعوى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ أتموها فيها ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنجاة فى الدارين وإنما ثنى الضمير أولا لأن التبوء للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رءوس القوم بتشاور ثم جمع لأن جعل البيوت مساجد والصلاة مما ينبغى أن يفعله كل أحد ثم وحد لأن البشارة فى الأصل وظيفة صاحب الشريعة . قاله البيضاوى ، ولما عاند القبط دعا عليهم موسى وقدم تقرير النعم عليهم وكفرهم بها اعتذارا فى الدعاء عليهم، فقال تعالى حكاية عنه ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً ﴾ ما يتزين به من الملابس والمراكب والغلمان والفرش وجميع الأشياء الجميلة ﴿ وَأَمْوَالًا ﴾ أنواعا منها من الصامت والناطق ﴿ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا ﴾ آتيتهم ذلك ﴿ لِيُضِلُّوا ﴾ بفتح الياء للجمهور وضمها

للكوفيين فى عاقبته ﴿ عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ أى فعلت ذلك استدراجا، وتكرير ربنا للتأكيد واللام للعاقبة وقيل دعاء بلفظ الأمر وذلك لما علم أن الإيمان منهم كالمحال دعا بما لا يكون إلا هو فهو تصريح بمقتضى ما جرى به قضاء الله ، فاللام لام الدعاء وهى مكسورة تجزم المستقبل ويفتتح بها الكلام ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ امسخها وغير صورتها أو امحها وأهلكها ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ اطبع عليها واستوثق ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ أى حتى لا يكون للإيمان إليها سبيل عطف على « ليضلوا » وما بينهما اعتراض أو جواب للأمر والمعنى: اطبع على قلوبهم حتى لا يؤمنوا ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ المؤلم ، دعا عليهم وأمن هارون على دعائه جريا منهما على مقتضى قضاء الله وليس من الرضا بالكفر فى شىء إذ أعلمهما الله سابق قضائه فيهم كما قال نوح عليه السلام حين قال له ربه : « لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا» مع أن أبا منصور الماتريدى نص على أن الرضى بالكفر إنما يكون كفرا إذا رضى بكفر نفسه لا بكفر غيره ويؤيده أحاديث ، انظرها فى القسطلانى . ﴿ قَالَ ﴾ تعالى ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ إذ كل منهما دعا أو لأن تأمين هارون دعاء فسخت أموالهم حجارة ولم يؤمن فرعون لذلك حتى أدركه الغرق . روى عن ابن عباس أن الدراهم والدنانير والعساكر صارت حجارة . وعن السدى : وكذا النخل والثمار والدقيق والأطعمة . وقال مجاهد : أهلكها الله ودمرها. وهذا الطمس هو إحدى الآيات التسع التى أوتيها موسى عليه السلام على قول ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ على الرسالة والدعوة إلى الله ولا تعجلا إلى أن يأتيهم العذاب ﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِّ ﴾ بتشديد النون للجمهور ، وتخفيفها لابن عامر فى رواية ذكوان على أنه خبر ، أى: لستما تتبعان ﴿سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة وعدى ووعيدى بأنه لا خلف فيه وإن تأخر . روى أن بين هذا الدعاء والإجابة أربعين سنة . قال بعض العارفين : شرط الدعاء صدق الافتقار فى الابتداء وحسن الانتظار ، وترك الاستعجال والثقة بالله مع جميل الظن ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ حافظين لهم حتى بلغوا الشط ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ ﴾ لحقهم ﴿ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ حال أو مفعول له : باغين عادين أو للبغى والعدوان ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾ بفتح الراء : غمره الماء قبل الهلاك مصدر غرق ﴿ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ ﴾ بالفتح للجمهور أى بأنه ، وبالكسر لحمزة والكسائى على الاستئناف أو البدل من « آمنت » أو لتضمنه معنى القول ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ كرر ذلك ليقبل منه وما علم اللعين أن التوبة عند معاينة العذاب لا تنفع «فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا» ولذا أخذ جبريل من حال البحر فدس فى فيه مخافة أن تناله الرحمة كما فى حديث الترمذى وأحمد وغيرهما وحال البحر : طينه وإنما فعل ذلك غضبا لله وعلما منه أنه لا ينفعه الإيمان لا أنه كره إيمانه كما تقدم فى موسى ، ولذا قال تعالى فى جواب فرعون ﴿ آلْآنَ ﴾ أى : أتؤمن وقت الاضطرار ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ مدة عمرك ﴿ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ بالإضلال وذبح بنى إسرائيل « روى أن جبريل يوما أتاه برقعة فيها : ما قول الأمير فى

عبد لرجل نشأ فى ماله ونعمته لا يعمل له شيئا سوى أنه يقر بأنه عبده ثم ادعى بعد ذلك السيادة دونه وجحد النعمة فكتب على الرقعة : جزاؤه أن يغرق فى البحر » . كتبه الوليد بن مصعب فلما أدركه الغرق ناوله جبريل خطه فعرفه ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ نلقيك على نجوة وهى ما ارتفع من الأرض ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ بجسدك خاليا من الروح ليراك بنو إسرائيل فيزدادوا سرورا ولئلا يظن الجهلة أنك نجوت ويعلموا أنك لست بإله . روى أن الله أمر البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيرا كأنه ثور فعرفه بنو إسرائيل فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتا ، وقيل المراد بالبدن : الدرع وكان لابسا درعا من ذهب مرصعا بالجواهر يعرف به فلما رأوه فى درعه ذلك عرفوه ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ إلى يوم القيامة إذا سمع ما كنت فيه وما آل أمرك إليه ولمثل هذا حكى الله فى كتابه أحوال الأمم الهالكة للاعتبار بهم ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾ حيث يسمعون مثل هذه الوقائع ولا يتفكرون فى عظمة الله وكبريائه ولا يتركون مخالفة أوامره ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا ﴾ أنزلنا ﴿ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ منزل كرامة مرضيا صالحا لهم وهو الشام لكونه موطن الانبياء ومحل المحشر وقيل مصر لأنهم سكنوه بعد فرعون وأكرموا فيه بالنجاة بإغراق فرعون بموضع يسمى « سويس » على ثلاث مراحل من مصر . قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَـٰتِ ﴾ اللذيذات فيه ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا ﴾ فى أمر دينهم وصاروا شيعا أو فى أمر محمد بأن آمن بعض وكفر بعض ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ بالتوراة وأحكامها أو علم صدق محمد صلى الله عليه وسلم بنعوته فى التوراة ومعجزاته وهذا غاية فى ذمهم حيث جعلوا ما كان سببا للاتفاق وسيلة الاختلاف إذ لم يكن لبنى إسرائيل اختلاف على نبوة موسى حتى غرق فرعون وأنزلت التوراة فاختلفوا بعد موسى وكانوا قبل مبعث محمد مقرين به مجمعين على نبوته لما يجدونه مكتوبا عندهم فلما بعث اختلفوا فيه فآمن به قليل وكفر به كثير حسدا وإيثاراً لبقاء الرياسة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين بإنجاء المؤمنين وتعذيب الكافرين ﴿ فَإِن كُنتَ ﴾ يا محمد ﴿ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ من القصص فرضا مثل قوله لئن أشركت ليحبطن عملك يخاطب بالشىء والمراد به غيره ﴿ فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَـٰبَ ﴾ كالتوراة ﴿ مِن قَبْلِكَ ﴾ فإنه ثابت عندهم يخبرونك بصدقه . قال عليه الصلاة والسلام « لا أشك ولا أسأل » إذ المراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما فى الكتب المتقدمة وفيه دليل على أن من خالجته شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع إلى حلها بسؤال أهل العلم ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ واضحا لا مدخل للريبة فيه بالأدلة القاطعة ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ الشاكين فيه بالتزلزل عما أنت عليه من اليقين ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَـٰسِرِينَ ﴾ وكل هذا من باب التثبيت وقطع الأطماع عما يصم كما تقدم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ ﴾ وجبت ﴿ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ بأنهم يموتون على الكفر بالجمع لنافع وابن عامر والإفراد للباقين ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لاستحالة الكذب فى كلماته التى هى أحكامه الأزلية وعلمه وإرادته

﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ولا نفع للإيمان حينئذ ﴿ فَلَوْلَا ﴾ فهلا ﴿ كَانَتْ قَرْيَةٌ ﴾ أريد أهلها من القرى العاصية ﴿ ءَامَنَتْ ﴾ قبل نزول العذاب بها ﴿ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ بأن يقبله الله منها ويكشف العذاب عنها لوم على ترك الإيمان فى وقته والاشتغال به فى وقت لا يغنى كما فعل فرعون ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا ﴾ عند رؤية أمارة العذاب ولم يؤخروا إلى حلوله ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ ولم يصبهم ما أصابهم استثناء منقطع من القرية لأن المراد أهلها، ويجوز أن يكون متصلا لاشتمال لولا على معنى النفى كأنه قيل: ما آمنت قرية عند نزول العذاب فنفعها إيمانها إلا قوم يونس فهو خاص بهم والله يفعل ما يشاء، أو لإيمانهم قبل مباشرة العذاب أو لعلم الله صدق نياتهم فى التوبة بخلاف فرعون وأمثاله روى أنه بعث يونس بن متى إلى أهل نينوى من أرض الموصل فدعاهم إلى الله فكذبوه فوعدهم نزول العذاب إلى أجل معين فلما قرب خرج من بينهم فغامت السماء غيما أسود هائلا هبط على مدينتهم وتغشى سطوحها فخافوا ولبسوا المسوح وأخلصوا الإيمان والتوبة وبرزوا إلى الصحراء بدوابهم ومواشيهم ونسائهم وصبيانهم وفرقوا بين كل والدة وولدها لحن الأولاد إلى الأمهات فارتفعت الأصوات وعلا الضجيج وتضرعوا إلى الله فكشف عنهم العذاب وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ انقضاء آجالهم وستأتى قصة يونس فى رجوعه إليهم فى الصافات إن شاء الله ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه كما آمن قوم يونس حين شاء ذلك ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ ﴾ بما لم يشأه الله منهم ﴿ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ لا، وترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء وإيلاؤها حرف الاستفهام للإنكار وتقديم الضمير على الفعل للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه فضلا عن الحث والتحريض وفيه دلالة على شدة حرصه على إيمان الجميع ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ ﴾ بالله ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بإرادته وتوفيقه فلا تجهد نفسك فى هداها فإنه إلى الله ﴿ وَيَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ ﴾ العذاب أو سببه وهو الخذلان ﴿ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ لا يتدبرون آيات الله ﴿ قُلِ ﴾ لكفار مكة الذين يسألونك الآيات ﴿ انظُرُوا ﴾ تفكروا ﴿ مَاذَا ﴾ أى الذى ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من عجائب الصنع وبدائع الآيات والعبر الدالة على وحدانية الله تعالى ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ ﴾ جمع نذير أى الرسل المنذرون أو الإنذارات ﴿ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ فى علم الله، أى ما تنفعهم لسبق القضاء بعدم إيمانهم و «ما» نافية أو استفهامية فى موضع النصب ﴿ فَهَلْ ﴾ ما ﴿ يَنتَظِرُونَ ﴾ بتكذيبك ﴿ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم أى مثل وقائعهم من العذاب ﴿ قُلْ فَانتَظِرُوا ﴾ ذلك ﴿ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ أو فانتظروا هلاكى إنى منتظر هلاككم ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ﴾ عطف على مقدر، أى: نهلك المكذبين ثم ننجى ﴿ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ من العذاب، والمضارع لحكاية الحال الماضية ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الإنجاء ﴿ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِي ﴾ بفتح النون الثانية

وتشديد الجيم للجمهور ، وللكسائي وحفص بإسكانها وتخفيف الجيم ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ النبي وأصحابه حين نهلك المشركين ، و « حقاً علينا » اعتراض ونصبه بفعله المقدر ، وقيل بدل من كذلك ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ أهل مكة ﴿ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى ﴾ فى صحته فلا مجال للشك فيه ، وإنما ينبغى الشك فى عبادتكم الأصنام فإن أصررتم على ما أنتم عليه ﴿ فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أى غيره ﴿ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ يقبض أرواحكم الذى هو من صفات الألوهية ، فاعرضوا هذا على عقولكم لتعلموا أنه الدين . وخص التوفى بالذكر للتهديد ﴿ وَأُمِرْتُ ﴾ أى أمرنى الله ﴿ أَنْ ﴾ بأن ﴿ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بما أنزل إلىّ من الوحى موافقاً لمقتضى الرأى ﴿ وَ ﴾ قيل لى ﴿ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ عطف على أن أكون ، غير أن صلة « أن » هنا إنشاء ، والإنشاء والخبر فى ذلك سيان ، والمعنى أمرت بالإيمان والاستقامة والإخلاص ، والمراد بالوجه : الذات ﴿ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ مائلا إليه ، حال من الدين أو الوجه قاله فى أنوار التنزيل وغاية الأمانى ، وقال فى الجواهر : الوجه هنا بمعنى المنحى والقصد أى اجعل طريقك للدين . قلت يحتمل أن يكون حالا من فاعل أقم . والله أعلم ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ وَلَا تَدْعُ ﴾ لا تعبد ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ ﴾ إن عبدته ﴿ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ إن لم تعبده ﴿ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ ذلك فرضاً ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ وتقدم أن هذا الخطاب وأمثاله وإن كان للنبي فالمراد به غيره ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ﴾ يصبك ﴿ ٱللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ كفقر ومرض ﴿ فَلَا كَاشِفَ ﴾ رافع ﴿ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ لا دافع لما أرادك به ، رجح جانب الترغيب حين آثر فى الشر لفظ المس الدال على القلة والوصول إلى الظاهر فقط ولم يصرح بالإرادة وإن لم يكن إلا معها حتى كأنه واقع بالعرض ، وأشار بالاستثناء إلى أنه لا بقاء له إن لجأ إليه المصاب ، وفى الخير لفظ الإرادة المطلقة الشاملة للظاهر والباطن وجعل المخاطب مراداً والخير تابعاً ، وصرح بأنه لاراد لذلك المراد لانه واقع قطعاً ، وسماه فضلا إشعاراً بالرأفة والعناية ، وهذه نكت تعتبر فى الكلام البليغ باعتبار المقام ﴿ يُصِيبُ بِهِۦ ﴾ بالخير ﴿ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فتعرضوا لرحمته بالطاعة ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ الرسول أو القرآن ﴿ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ ولم يبق لكم عذر ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ بالإيمان والمتابعة ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ لأن نفعه لها ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ بالكفر ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ لأن وبال ضلاله عليها ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ فأجبركم على الهدى ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ جميعاً ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ على دعوتهم وأذاهم ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ﴾ لك فيهم بالنصر والغلبة ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ أعدلهم ، وقد صبر حتى حكم على المشركين بالقتال وأهل الكتاب بالجزية .

[تم تفسير سورة يونس]

سورة هود

مكية « إلا وأقم الصلاة .. الآية » « أو إلا فلعلك تارك .. الآية » «وأولئك يؤمنون به .. الآية » مائة وثنتان أو ثلاث عشرون آية

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • الٓر﴾ الله أعلم بمراده بذلك . هذا ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ نظمت نظماً محكماً ، عجيب اللفظ ، بديع المعنى ، لا يعتريه اختلال من جهة اللفظ والمعنى ، أو منعت من الفساد والنسخ بكتاب آخر ، من حكمت الدابة ، أو المراد آيات هذه السورة ليس فيها منسوخ لكونها فى التوحيد وصحة النبوة والمعاد وأحواله ، أو أحكمت بالحجج والدلائل ، أو جعلت حكيمة مشتملة على أمهات الحكم النظريا والعملية ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ بالفوائد من العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار ، كما تفصل القلائد بالفرائد ، كأنه شبه الألفاظ العذبة ومعانيها الشريفة من التوحيد والصفات والنبوة والدلائل الدالة عليها وما فيه من الحكم والعبر والقصص بالدرر ، ثم إيراد كل فى موضعه اللائق به بتفصيل لها ، فعلى هذا التراخى رتبي ، أو فصلت بجعلها سورة سورة وآية آية ، أو بتفريقه فى النزول منجما فالتراخى فى الإخبار قال فى الجواهر : أحكمت فى الأزل ثم فصل بتقطيعه تبيين أحكامه وأوامره على محمد فى أزمنة مختلفة ثم على بابها ، فالإحكام صفة ذاتية ، والتفصيل إنما هو بحسب من يفصل له . اه . وقيل : أحكمت بالأمر والنهى ثم فصلت بالوعد والوعيد أو بالثواب والعقاب ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ الله : صفة أخرى للكتاب أو خبر بعد خبر أو صلة لأحكمت أو فصلت وهو تقرير لإحكامها وتفصيلها على أكمل ما ينبغى باعتبار ما ظهر أمره وما خفى ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أى لأن لا تعبدوا فهو مفعول له أو « أن » مفسرة لأن فى التفصيل معنى القول أو كلام مبتدأ للإغراء على التوحيد كأنه قال : ترك عبادة غير الله أى ألزموه نحو: « فضرب الرقاب » أى اتركوها تركا ﴿ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ ﴾ من الله ﴿ نَذِيرٌ ﴾ بالعذاب إن كفرتم ﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ بالثواب إن آمنتم ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ من الشرك ، عطف على « أن لا تعبدوا » ﴿ ثُمَّ تُوبُوا ﴾ ارجعوا ﴿ إِلَيْهِ ﴾ بالطاعة أو استقيموا على التوبة وأخلصوها فالتراخى رتبي لأن الاستقامة والإخلاص أصعب شأناً ، والاستغفار طلب الغفر أى الستر للذنوب ، والتوبة : الرجوع عما كان فيه من شرك أو معصية إلى خلافه وهو الطاعة ، فلذا قدم على التوبة . وقال الفراء : ثم بمعنى الواو لأن الاستغفار والتوبة بمعنى . قلت : وفيه نظر ﴿ يُمَتِّعْكُم ﴾ فى الدنيا ﴿مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ بطيب عيش وسعة رزق ، أى يعطكم نعمة

واسعة متتابعة إلى أجل مسمى هو الموت آخر العمر . وقال فى الجواهر : فى قوله « وأن استغفروا » إلى هنا أى اطلبوا مغفرته بطلب دخولكم فى الإسلام ثم توبوا من الكفر يمتعكم متاعاً حسناً لطيب عيش المؤمن برجائه فى ثواب ربه وفرحه بالتقرب إليه بأداء مفترضاته والسرور بمواعيده ، والكافر ليس فى شىء من هذا . اه . ﴿ وَيُؤْتِ ﴾ فى الآخرة ﴿ كُلَّ ذِى فَضْلٍ ﴾ فى العمل الصالح ﴿ فَضْلَهُ ﴾ جزاء فضله لأن الدرجات على قدر الطاعات ، أو فضل الله الذى هو الثواب ، فالضمير للفضل أو لله ، والحاصل وعد المؤمن بالخير فى الدارين كقوله «فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم» ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ فيه حذف إحدى التاءين أى تعرضوا ﴿ فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ هو يوم القيامة ، وصف بالكبر لطوله ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ رجوعكم . وعيد ولذا أردفه بقوله ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه تعذيبكم أشد العذاب ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ ﴾ أى الكفار ﴿ يَثْنُونَ ﴾ يطوون ﴿ صُدُورَهُمْ ﴾ على عداوة الدين والجانى به فلا يظهرونها ، من ثنيت الثوب إذا طويته ﴿ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ أى من الله ولا يطلع رسوله على سرهم ، وكانوا يقولون إذا أرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم. وفى لباب التأويل : كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويحنى ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما فى قلبى ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ يتغطون بها ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ فى قلوبهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ بأفواههم فهما سيان فى علمه . وقال السيوطى : الآية نزلت كما فى البخارى عن ابن عباس فيمن كان يستحى أن يتخلى أو يجامع فيفضى إلى السماء ، وقيل فى المنافقين . اه . وفى الجواهر : قيل إن هذه الآية نزلت فى الكفار الذين كانوا إذا لقيهم النبى صلى الله عليه وسلم تطامنوا وثنوا صدورهم كالمستتر وردوا إليه ظهورهم وغشوا وجوههم بثيابهم تباعداً منه وكراهية للقائه ، يظنون أن ذلك يخفى عليه أو على الله ، وقيل هى استعارة للغل والحقد اللذين كانوا ينطوون عليهما ، فمعنى الآية ألا إنهم يسرون العداوة لتخفى فى ظنهم عن الله . اه . وضعّف بعضهم نزولها فى المنافقين بكون السورة مكية ، وكرر حرف التنبيه مبالغة فى النعى عليهم بالجهل المفرط ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ بضمائر القلوب التى ليست من جنس القول فكيف به ﴿ وَمَا مِنْ ﴾ زائدة ﴿ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى شىء يدب عليها ﴿ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ما يكون سبباً لبقائها إلى أجلها ، وأتى بعلى الدال على اللزوم لكونه متكفلا به ، تفضلا منه وتحقيقاً لوصوله ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ أماكن استقرارها من الأرض أو الجنة والنار ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ الأماكن التى كانت مستودعة فيها قبل الاستقرار من أصلاب وأرحام ، أو هو القبر ، وقيل المستقر مسكنها فى الدنيا أو الصلب والمستودع بعد الموت أو فى الرحم ﴿ كُلٌّ ﴾ مما ذكر ثابت ﴿ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ بين وهو اللوح المحفوظ وكأنه أريد بالآية بيان كونه عالماً بالمعلومات كلها وبما بعدها بيان كونه قادراً على الممكنات بأسرها تقريراً للتوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ وهو دليل على

كونه قادراً على كل شيء ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ ﴾ قبل خلقهما ﴿ عَلَى الْمَاءِ ﴾ أى لم يكن بينهما حائل لا أنه كان موضوعا على متن الماء . قاله البيضاوى واستدل به على أن الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم ، وقيل كان الماء على متن الريح . وفى صحيح البخارى قال عليه السلام « كان الله ولم يكن معه شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض وكتب فى الذكر كل شيء » الحديث . وفى صحيح مسلم عنه عليه السلام « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ متعلق بخلق ، أى خلقهما وما فيهما منافع لكم ومصالح ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ للقلب والجوارح ، أى : أيكم أكمل علماً وعملا فى الورع عن محارم الله والسرعة فى طاعته ، ولما كان البلوى طريق العلم علقه الاستفهام كما يعلق فعل القلب وآثر اسم التفضيل ، والخطاب عام حثاً على تحرى الأحسن من الأعمال فإنه نهاية الكمال كأنه قيل ليظهر أفضليتكم لافضلكم . ثم بين جهالة الكفار مع هذه الأدلة بقوله ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ ﴾ للكفار ﴿ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ ﴾ ما ﴿ هَٰذَا ﴾ البعث أو القرآن الناطق به أو الذى تقوله ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أى كالسحر فى الخديعة والبطلان ولحمزة والكسائى ساحر ، والمشار إليه النبي ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ الموعود الأخروى أو الدنيوى ﴿ إِلَىٰ ﴾ مجيء ﴿ أُمَّةٍ ﴾ أوقات ﴿ مَعْدُودَةٍ ﴾ أو إلى حين قريب ، ولذا وصفه بالعد والتأنيث باعتبار اللفظ ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ استهزاء أو تكذيباً ﴿ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ ما يمنعه من المجيء . قال تعالى ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا ﴾ مدفوعاً ﴿ عَنْهُمْ ﴾ يوم منصوب بخبر ليس مقدم عليه ، وهو دليل على جواز تقديم خبرها عليها ﴿وَحَاقَ﴾ أحاط أو نزل ﴿ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ من العذاب ، وآثر الماضى فى « حاق » تحقيقاً لوقوعه ومبالغة فى التهديد ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ المراد الجنس لما يأتى فى الاستثناء ﴿ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ غنى وصحة بحيث يجد لذة الرحمة ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴾ سلبنا تلك النعمة منه ﴿ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ ﴾ قنوط من رحمة الله تعالى قاطع رجاءه عن عود مثلها ﴿ كَفُورٌ ﴾ شديد الكفران به لا يتذكر النعمة الوافرة الواصلة إليه فى المدد المتطاولة وإنما ينظر إلى تلك الحالة التى هو فيها : أى هذه سجية الإنسان إلا من ردته الشرائع إلى الإيمان والصبر والعمل الصالح كما يأتى فى الاستثناء ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ ﴾ ما يسوء المرء فى الدنيا أى زالت المصائب التى ساءتنى ﴿ عَنِّي ﴾ ونسى ما كان فيه من البلاء وشكر النعمة وكأنه أسند زوالها إليه ونجا نجاة الأبد ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ ﴾ فرح بطر ﴿ فَخُورٌ ﴾ كثير الفخر بما هو فيه من الغنى والصحة وقد شغلاه عن القيام بالشكر ، ويقال فى هذا ما تقدم وفى إذاقة النعمة ولفظ المس تنبيه على أن ما يجده الإنسان فى الدنيا من النعم والمحن أنموذج نزر بالنسبة إلى ما يجده فى الآخرة وفيه أنه يقع فى الكفران والبطر بأدنى شيء دل عليه لفظ الإذاقة والمس وفى إسناد الإذاقة إليه تعالى دون مس الضراء إشارة إلى أن رحمته سابقة غضبه ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على الضراء إيمانا بالله واستسلاما لقضائه ﴿ وَعَمِلُوا

﴿الصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فى النعماء شكراً لآلائه سابقها ولاحقها ﴿أُولَـٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما فرط منهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بحسب تلك الأعمال الصالحات أقله الجنة والاستثناء من الإنسان لأن المراد به الجنس . فإذا كان محلى بأل أفاد الاستغراق فهو متصل ، ومن حمل الإنسان على الكافر لسبق ذكرهم جعله منقطعا . قال الثعالبى فى الجواهر الحسان : وهو قول ضعيف من جهة المعنى لأن صفة الكفر لا تطلق على جميع الناس كما تقتضيه لفظة الإنسان واستثنى الله من الماشين على سجية الإنسان هؤلاء الذين حلتهم الأديان على الصبر على المكاره والمثابرة على عبادة الله وليس شىء من ذلك فى سجية البشر وإنما حمل على ذلك خوف الله وحب الآخرة . اه ولما كان الكفار يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم : إن كنت صادقا أنك رسول الله وأنت فقير فهلا أنزل عليك ماتستعين به أنت وأصحابك ؟ وهلا أنزل عليك ملكا يصدقك؟ ويستهزءون بالقرآن ويضحكون منه ويتهاونون به ويضيق صدره بذلك ، نزل تهييجا له على أداء الرسالة وترك الالتفات إلى استهزائهم ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد ﴿تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ فلا تبلغهم إياه لتهاونهم به أو لمخالفته رأيهم مخافة الرد ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ أى عارض لك أحيانا ضيق صدر بأن تتلوه عليهم مخافة ﴿أَن يَقُولُوا لَوْلَا﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ ينفقه فى الاستمتاع كالملوك ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يصدقه وفى إيثار «ضائق» الدال على الحدوث على «ضيق» إشارة إلى أن ذلك يعتريه أحيانا لأنه أفسح الخلق صدرا فى تحمل المشاق وليس فى لفظ الترجى تجويز ترك التبليغ المنهى لأن الرسول معصوم بل مراده التهييج إلى التبليغ أو منع خوفه لأجل مايؤدى والله أعلم ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ ما عليك إلا الإنذار ، تسلية له وإزالة لما كان يعتريه ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فتوكل عليه فإنه عالم بحالهم وفاعل بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم ﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ القرآن فأم منقطعة والضمير « لما يوحى إليك » ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ فى الفصاحة والبلاغة ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ من عندكم على زعمكم أنه مفترى من عندى فإنكم عربيون فصحاء مثلى وقد مارستم الأشعار والخطب والقصص فأنتم أولى بالإتيان بمثله ، وهذا من إرخاء العنان على مثل دعوى الخصم تحداهم بها أولا ثم بسورة وهذا دأب المناظر الواثق بحاله لأن ذلك أقوى فى إلزام الخصم ﴿وَادْعُوا﴾ للمعاونة على ذلك ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أى غيره ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى أنه افتراه ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ بإتيان ما دعوتم إليه ، والخطاب للرسول والجمع للتعظيم أوله وللمؤمنين لوجوب اتباعه عليهم فيما لم يخص به أو للكفار أى لم يستجب لكم من دعوتموهم للإعانة ﴿فَاعْلَمُوا﴾ أيها الكفار أو أيها المؤمنون أى اثبتوا على العلم الذى أنتم عليه بزيادة اليقين ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ﴾ ملتبسا ﴿بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ خاصة لا سبيل لأحد إليه فإنه نظم معجز ﴿وَأَن﴾ مخففة أى أنه ﴿لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فاعلموا أيضا تفرده بالألوهية لأنه العالم القادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره ، وفيه تهديد وإقناط من أن يجيرهم من عذاب الله آلهتهم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ داخلون فى الإسلام إذ لم يبق لكم عذر ، أى :

فأسلموا ، وإن كان الضمير للسلمين فالمراد فهل أنتم ثابتون مخلصون إذ تحقق عندكم إعجازه مطلقا ؟ وفى مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ﴾ بعمله ﴿ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ مؤمنا كان أو كافرا كالمصرين على التكذيب بعد ظهور عجزهم إذ حاملهم على ذلك حب الدنيا وزينتها ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ جزاء ما عملوه من خير كصدقة ﴿ فِيهَا ﴾ فى الدنيا بالصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد ﴿ وَهُمْ فِيهَا ﴾ أى الدنيا ﴿ لَا يُبْخَسُونَ ﴾ لاينقصون شيئاً ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ فى مقابلة ما عملوا من خير ﴿ إِلَّا النَّارُ ﴾ لاستيفائهم ما يستحقون فى الدنيا فلم يبق لهم ما يكون وسيلة إلى الثواب وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا ﴾ من أفعال البر ﴿ فِيهَا ﴾ فى الآخرة لأنهم لم يريدوا بها وجه الله أو لم يكن لها أساس وهو الإيمان ﴿ وَبَاطِلٌ ﴾ فى نفسه ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ لأنه لم يكن على ماينبغى وكأن كل واحدة من الجملتين علة لما قبلها و« ما » إبهامية أو مصدرية والآية فى أهل الرياء وقيل فى المنافقين وقيل فى الكفار وبرهم . قاله البيضاوى وغيره ، وقال ابن العربى فى أحكامه بل الآية عامة فى كل من ينوى غير الله بعمله كان معه إيمان أو لم يكن . اه وفيها بيان لقوله عليه السلام «إنما الأعمال بالنيات» ولما ذكر الله من يريد الدنيا ذكر من يريد الله والدار الآخرة بقوله ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ﴾ بيان يدله على الحق والصواب وهو البرهان العقلى أو القرآن النقلى ﴿ مِنْ رَبِّهِ ﴾ حكم يعم كل مؤمن مخلص أو هو النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ يتبع ذلك البيان ذكره باعتبار المعنى أو يتلو من كان عليه ﴿ شَاهِدٌ ﴾ بصحته وصدقه ﴿ مِنْهُ ﴾ من الله وهو القرآن أوجبريل ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ قبل هذا الشاهد الذى هو القرآن ﴿ كِتَابُ مُوسَىٰ ﴾ التوراة شاهد له أيضا وقيل البينة القرآن ويتلوه من التلاوة والشاهد جبريل عليه السلام أو لسان الرسول . قال ابن عطية : والراجح عندى أن البينة القرآن والشاهد الإنجيل والضمير فى يتلوه للبينة وفى منه للرب وفى قبله للبينة أيضاً وغير هذا مما ذكر محتمل . اه ﴿ إِمَامًا ﴾ مؤتما به فى الدين ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ على المنزل عليهم لأنه وصلة إلى الفوز بخير الدارين وخبر من محذوف والاستفهام للإنكار أى كمن يريد الدنيا وزينتها ؟ لا . ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ أى من كان على بينة ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى بالقرآن فلهم الجنة ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ الفرق المجتمعة على مخالفة الأنبياء أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله ﴿ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ يردها لامحالة ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ شك منه من القرآن أوالموعد فإنه كائن لامحالة ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ الكفار ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لقلة نظرهم ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بأن نسب إليه ما ليس له أو نفى عنه ما أنزله ﴿ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ يوم القيامة فى جملة الخلق بأن يحبسوا فى الموقف وتعرض أعمالهم ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ ﴾ من الملائكة والنبيين أو من جوارحهم أو جميع من شهد المحشر لحديث «لا يخزى أحد يوم القيامة إلا ويعلم ذلك جميع من شهد المحشر» ويخص المؤمنون بحديث

البخارى « يدنو المؤمن من ربه يوم القيامة فيضع عليه كنفه ويقول : هل تعرف ذنب كذا ؟ هل تعرف ذنب كذا ؟ فيقرره بذنوبه وهو لاينكر منها شيئاً فيقول له سترتها عليك فى الدنيا وأغفرها لك اليوم » . وأما الكفار فينادون على رءوس الأشهاد ﴿هَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ تهويل عظيم بما يحيق بهم حينئذ بظلمهم بالكذب على الله ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ يطلبون السبيل ﴿عِوَجًا﴾ معوجة أو يصفونها بالانحراف عن الصواب أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أى والحال أنهم كافرون بالآخرة وتكرير «هم» لتأكيد كفرهم واختصاصهم به ﴿أُولَـٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ﴾ الله ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أن يعاقبهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أى غيره ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أنصار يمنعونهم من عذاب الله من تمام كلام الأشهاد وآثر أولئك الذى يشار به إلى البعيد إبعادا لهم بعدوصفهم بتلك الأوصاف القبيحة ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ بإضلالهم وهو استئناف وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب «يضعّف» بالتشديد ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ للحق لبغضهم له أى لا يستطيعون قبوله والعمل به من إطلاق السبب على المسبب لأن القول مسبب عن السمع ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ لتعاميهم عن آيات الله وكأنه العلة فى مضاعفة العذاب ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على الله من الشركاء وأنها تشفع لهم ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقا ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ لا أحد أكثر خسرانا منهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا﴾ أى خشعوا . قاله قتادة ، أواطمأنوا . قاله مجاهد ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وأنابوا . روى عن ابن عباس من الخبت الارض المطمئنة ﴿أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ الكفار والمؤمنين ﴿كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ﴾ هذا مثل الكافر ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ هذا مثل المؤمن ، ويجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى لتعاميه عن آيات الله وبالأصم لتصامه عن استماع كلام الله ، وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير لأن أمره بالضد فيكون من تشبيه مفرد بمفرد كل منهما مشبها باثنين باعتبار وصفين أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم ، والمؤمن بالجامع بين ضديهما والعاطف لعطف الصفة على الصفة وفيه اللف والطباق ، وأما القول بأن الكفار بعضهم مشبه بالأول وبعضهم بالثانى ، وكذلك المؤمنون بعضهم مشبه بالبصير وبعضهم بالسميع فمما لايلتفت إليه كما قال فى غاية الأمانى ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ تمثيلا أو صفة أو حالا ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بضرب الأمثال والتأمل فيها ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي﴾ بالكسر على إرادة القول لنافع وابن عامر وعاصم وحمزة وبالفتح لغيرهم أى بأنى ﴿لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بين الإنذار أو مبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص ﴿أَن﴾ بأن ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ بدل من « إنى لكم » أو مفعول « مبين » ويجوز أن تكون « أن » مفسرة متعلقة بـ « أرسلنا » أو بـ « نذير » ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عبدتم غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم

فى الدنيا والآخرة وهو فى الحقيقة صفة المعذب لكن يوصف به العذاب وزمانه على طريق المجاز كجد جده مبالغة ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ لا فضل لك علينا يخصك بوجوب الطاعة لأن بجرد التفاوت البشرى لاينتهى فى العادة إلى حيث يصير أوحد منهم واجب الطاعة على جميع العالم وهذا جهل منهم بخصوصية النبوة التى حقها مباشرة الأمة جميعها بالدعوة إلى الله بالمعجزة الدالة على صدقه ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أسافلنا جمع أرذل أو رذل خسيس لايبالى بما يقول وما يقال له ﴿بَادِيَ﴾ بالياء للجمهور من البدو الظهور وبالهمز لأبى عمرو من البدء أى من ظاهر الرأى من غير تعمق أو أول بدء ﴿الرَّأْيِ﴾ من غير تفكر فيك أو اتبعوك فى ظاهر رأيهم دون باطنه وعلى القراءتين نصبه على الظرف أى فى وقت حدوث رأيهم ولما كان نظرهم مقصورا على حطام الدنيا كان الزهاد العارفون بالله فى نظرهم أراذل إذ لا يعظمون إلا من له مال أوجاه ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ تستحقون به الاتباع منا ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ فى دعواك الرسالة ودعواهم بصدقك غلبوا المخاطب على الغائبين ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ حجة شاهدة بصحة دعواى ﴿مِنْ رَبِّي﴾ وهذا رد لتكذيبهم على أحسن وجه بأن المدعى إذا أقام برهانا على صدق دعواه خرج بذلك عن الكذب وأضافهم إلى نفسه إشارة إلى أنه ناصح لهم فى ذلك لاتصاله بهم رحما ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ نبوة لأنها فضل منه ورحمة ، وأخرها عن البينة لأن العلم بالبينة يستلزم العلم بالنبوة وبه يفحم الخصم ولذا وحد الضمير لها فى قوله ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ خفيت البينة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لأن خفاءها يستلزم خفاء النبوة أو خفيت النبوة عليكم بعد البينة وقرأ حمزة والكسائى وحفص بتشديد الميم والبناء للمفعول وفى تعبير الخفاء بالعمى استعارة تمثيلية ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أنكرهكم على الاهتداء بها وقبولها ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أى لانقدر على ذلك والذى نقدر عليه دعاؤكم إلى الله مع البيان لا إدخال الاهتداء فى قلوبكم ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغ الرسالة وإنما لم يذكر التبليغ فهو معلوم معنى ﴿مَالًا﴾ جعلا تعطونيه حتى تتهمونى بأنى أريد جر نفع ﴿إِنْ﴾ ما ﴿أَجْرِيَ﴾ ثوابى ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ الذى أرسلنى إليكم ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كما أمرتمونى ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ بالبعث فيجازيهم ويأخذ لهم عن ظلمهم وطردهم ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ عاقبة أمركم وأن هؤلاء خير منكم أو تجهلون عظمة الله فلا تخافون أولياءه ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي﴾ من يمنعنى ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ إجابة لسؤالكم أى لاناصر لى منه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بإدغام التاء الثانية فى الأصل فى الذال أن طردهم غير صواب أو أفلا تتعظون ، ثم أجاب عن قولهم «ومانرى لكم علينا من فضل» بقوله ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ رزقه وأمواله ﴿وَلَا﴾ إنى ﴿أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ حتى أعلم أن هؤلاء اتبعونى بادى الرأى أو حتى تكذبونى ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا ما أنت إلا بشر مثلنا ، بل أنا بشر مثلكم ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي﴾ تحتقر ﴿أَعْيُنُكُمْ﴾ لفقرهم وتقولون «هم أراذلنا» ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ كما تقولون فإن ما أعد الله لهم فى الآخرة خير مما آتاكم فى

الدنيا ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ قلوبهم من الإيمان الذى هو مناط الشرف وموجب الكرامة ﴿ إِنِّي إِذًا ﴾ إن قلت ذلك ﴿ لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ والازدراء افتعال من زريته إذا عبته وإسناده إلى العين لأن سببه رثة الحال وهى تدرك بالعين أو لأنهم احتقروهم بأدنى رؤية من غير روية ﴿ قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا ﴾ خاصمتنا ﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ طول عمرك أوأتيت بأنواعه ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ به من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فيه فإن مناظرتك لا تؤثرفينا ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ عاجلا أو آجلا إذ لا مؤثر سواه ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ فائتين عذابه بدفعه أو الهرب منه ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾ شرط ودليل جوابه وهما دليل الجواب لقوله ﴿ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ أغواكم أى إن كان الله يريد أن يغويكم فأردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحى وهو جواب لقولهم إن جداله لا ينفع وهو دليل على أن إرادة الله تتعلق بالإغواء وأن خلاف مراده محال ﴿هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ خالقكم والمتصرف فيكم على وفق إرادته ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم ، إشارة إلى المبدأ والمعاد بأوجز كلام مع تضمنه الوعيد ﴿ أَمْ ﴾ بل ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أى قوم نوح ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ أى ما أخبرهم به أو الضمير فى «يقولون» لأهل مكة وفى «افتراه» للقرآن ، أى اختلقه محمد ، اعترض به فى قصة نوح إشارة إلى أن نسبته إلى الافتراء بعد إتيانه بقصة نوح غاية فى العناد والمكابرة ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ عقوبة إثمى لا يتعدانى ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ من إجرامكم فى نسبة الافتراء إلىّ ، أو من افترائكم بنسبتكم إياى إلى الافتراء ، وإنما آثر ما فى النظم إشارة إلى كونهم مجرمين فى ذلك القول ، قاله فى غاية الأمانى . قلت يحتمل أنه من أنواع الاحتباك ، أى إن افتريته فعلىّ إجرامى وأنتم بريئون منه ، وإن افتريتم فعليكم إجرامكم وأنا برىء مما تجرمون . والله أعلم ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾ بعد ما بلغ وبالغ فى النصح ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ إقناطاً له من إيمانهم ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ من التكذيب والإيذاء ، فدعا عليهم بقوله « رب لا تذر ... » إلى آخره فأجاب الله دعاءه فقال ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ السفينة ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بحفظنا ، عبر عنه بآلته مجازا ، وجمع الأعين للمبالغة على الملاحظة وأن عنايته معه وافرة تقوية لجأشه ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ إليك بذلك الصنع كيف تصنعه أو بصفته ، وفى الخبر أنه لم يكن يعلم كيفيته فأوحى الله إليه أن اصنعه مثل جؤجؤ الطير ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا ﴾ فى شأنهم بالشفاعة لدفع العذاب عنهم ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ لا محالة سبق بذلك القدر فلا سبيل إلى كفه ، أو لا تخاطبنى فى شأنهم شاكيا سوء صنيعهم كما كنت تخاطبنى « رب إنى دعوت قومى » ، « رب إنهم عصونى » ، « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » وهذا أوجه لأن الوجه الأول فيه منافرة مع قوله « لا تذر » وقوله « إنى مغلوب فانتصر » قاله فى غاية الأمانى ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية فى برية لا ماء فيها ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ استهزءوا به بقولهم : صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً ! « وكلما » دلت على أن ذلك كان منهم على

التكرار والتوالى ﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ إذا نجونا وغرقتم وإذا احترقتم فى الآخرة، وقيل المراد بالسخرية الاستجهال ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ ﴾ مفعول العلم موصول، أى سوف يظهر لكم من الذى ﴿ يَأْتِيهِ عَذَابٌ ﴾ هو الغرق ﴿ يُخْزِيهِ ﴾ يعنى به إياهم ﴿ وَيَحِلُّ ﴾ ينزل ﴿ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ دائم وهو عذاب النار أو يحل حلول الدين على المدين، استعارة تبعية لعدم الانفكاك. روى أنه أكمل السفينة فى سنتين وكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعاً وارتفاعها ثلاثين ذراعاً. وعن الحسن: كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع ولها ثلاث طبقات لما جاء الماء جعل فى الأولى الوحش والسباع والهوام وفى الوسطى هو ومن معه من الأنعام والدواب وفى العليا الطير، وحمل الزاد وما يحتاج إليه كما قال تعالى ﴿ حَتَّى ﴾ غاية للصنع وما بينهما حال من فاعله كأنه قيل يصنعها والحال «أنه كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه» حتى ﴿ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ بإهلاكهم، والأمر واحد الأمور أو مصدر أى أمرنا للماء بالفوران فانبعث بقوة ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ للخباز الذى يخبز فيه، وهذا قول أكثر المفسرين من فار القدر إذا جاشت، أى نبع الماء فيه وارتفع كالقدر يفور، وابتداء الماء منه خرق للعادة علامة لنوح، وكان فى الكوفة فى موضع مسجدها، أو فى الهند أو فى الشام بعين وردة، أو التنور وجه الأرض ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا ﴾ فى السفينة ﴿ مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ﴾ ذكر وأنثى، أى من كل أنواعهما بإضافة كل على قراءة الجمهور فقوله ﴿ اثْنَيْنِ ﴾ مفعول احمل والمجرور قبل حال منه قدمت لكون ذى الحال نكرة. وقرأ حفص بالتنوين فى «كل» أى من كل جنس احمل زوجين ذكراً وأنثى، و «اثنين» صفة مؤكدة لأن الزوج أحد القرينين الذى لا يستغنى عن الآخر ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ عطف على اثنين أو زوجين باعتبار القراءتين المراد به زوجته وأولاده ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ منهم بالهلاك وهى زوجته واعلة وابنه كنعان لكونهما كافرين، بخلاف سام وحام ويافث، فحملهم وزوجاتهم الثلاث ﴿ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قيل كانوا ستة أو ثمانية أو عشرة أو ثمانين نصفهم رجال ونصفهم نساء. قال الطبرى: وصفهم الله بالقلة ولم يحد عدداً فلا ينبغى أن يجاوز فى ذلك حد الله إذ لم يرد ذلك فى كتاب الله ولا خبر صحيح عن رسول الله. اه. ﴿ وَقَالَ ﴾ نوح لمن حمل معه فى السفينة ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا ﴾ ادخلوا فيها، شبه الدخول بالركوب لجريان السفينة، قاله فى غاية الأمانى. وقال البيضاوى: أى صيروا فيها، وجعل ذلك ركوباً لأنها فى الماء كالمركوب فى الأرض ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ حال من الواو فى اركبوا، أى اركبوا مسمين الله أو قائلين «بسم الله» ﴿ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ بضم الميم للجمهور: إجراؤها وإرساؤها أو وقتهما أو مكانهما ظرفان المكان أو الوقت أو مصدران منصوبان بتقدير الوقت أو مرفوعان بالابتداء، والخبر «بسم الله» أو بالفاعلية للظرف قبل. روى أنه كان إذا أراد أن تجرى قال «بسم الله» فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال «بسم الله» فرست، وذلك تعليم من الله لعباده أن من أراد أمراً فليذكر اسم الله وقت شروعه فيه

ليكون سبباً للفلاح . وعن النبي صلى الله عليه وسلم « أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا البحر أن يقولوا بسم الله مجراها ومرساها . إن ربي لغفور رحيم . وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته ... إلى آخر الآية » وقرأ حمزة والكسائي وحفص « مجراها » بالفتح من جرى ، وقرئ في غير السبعة « مرساها » بالفتح أيضاً من رسا ، وكلاهما يحتمل الثلاثة ، وقرئ أيضاً مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل صفتين لله ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث لم يهلكنا بفرطاتنا ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ ﴾ متصل بمحذوف دل عليه « اركبوا » أي فركبوا فيها قائلين : بسم الله ، وهي تجري بهم ﴿ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ والموج : ما يعلو فوق الماء عند اضطرابه كل موجة منه شبهت بجبل في الارتفاع والعظم ، وكون السفينة في الموج تصادمها من كل جانب لا أنها داخلة في جوف الماء . وقوله « فالتقى الماء » لا يقتضي تطبيق ما بين السماء والأرض وبقاء السفينة كالسمكة ، إذ المشهور أن الماء علا شوامخ الجبال أربعين ذراعاً ، قاله في غاية الأماني ، وقال البيضاوي : وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجري في جوفه ليس بثابت ، والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعاً ، وإن صح فلعل ذلك قبل التطبيق ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ ﴾ كنعان ﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾ عن السفينة في مكان بعيد ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ بكسر الياء للجمهور للدلالة على ياء الإضافة المحذوفة ، وبفتحها لعاصم للدلالة على الألف المبدلة من الياء ﴿ ٱرْكَبْ مَعَنَا ﴾ وأدغم الباء في الميم أبو عمرو والكسائي لتقاربهما ﴿ وَلَا تَكُنْ مَعَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ خارج السفينة أو في الدين ﴿ قَالَ سَآوِي ﴾ ألتجئ ﴿ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَاءِ ﴾ من غرقه ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ﴾ يعصم ﴿ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ عذابه ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ أي إلا الراحم وهو الله تعالى ، وضع الظاهر موضع المضمر إشارة إلى أن رحمته هي المعتصم به لا الجبل ، وقيل : لا عاصم بمعنى لا ذا عصمة كعيشة راضية ، وقيل الاستثناء منقطع ، أي لكن من رحمه الله يعصمه ، والظرف منصوب بفعل دل عليه عاصم كما قدرنا لا به لأنه مبني لا يعمل ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ﴾ بين نوح وابنه أو بين الابن والجبل ﴿ ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ المهلكين بالماء ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ ﴾ الذي نبع منك ، فشربته دون ما نزل من السماء فصار أنهاراً وبحاراً ﴿ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ عن المطر فأمسكت ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَاءُ ﴾ نقص ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ تم أمر هلاك قوم نوح ﴿ وَٱسْتَوَتْ ﴾ وقفت السفينة ﴿ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ جبل بالجزيرة بقرب الموصل . روي أن الله أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسو على واحد منها فتطاولت كلها وتواضع الجودي لله وقال : إني لست أهلا أن تنزل عليّ فنزلت عليه « من تواضع لله رفعه الله » روي أنه ركب السفينة من عين وردة بالشام أول يوم من رجب واستوت على الجودي في ذي الحجة وأقامت عليه شهراً ، وقيل ركب السفينة عاشر رجب ونزل عنها عاشر المحرم فصام ذلك اليوم وصار سنة ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا ﴾ هلاكا ﴿ لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين . قال ابن عطية : تظاهرت الروايات وكتب التفسير بأن الغرق نال جميع أهل الأرض وعم الماء جميعها . اهـ . وفي هذه الآية من الفصاحة

والبلاغة وجزالة الألفاظ وحسن نظمها والدلالة على كنه الحال مع الإيجاز ما لا يحيط بعلمه إلا الله تعالى وقد أفردت لبلاغتها تصانيف ، فإنه تعالى أخبر عن سلطانه ما تعلقت به إرادته فوقع على وفقه من غير ريث من عود الماء المنفجر من الأرض إلى بطنها وانقطاع طوفان السماء ونقصان الماء الطاغى ، وقضاء أمر نوح بإنجاز ما وعده من إهلاك الكفار ونجاة المؤمنين ، واستواء السفينة على الجودى ، وإبقاء الظلمة فى الهلاك المعبر عنه بالبعد ، إذ يقال « بعداً » إذا كان حيث لا يرجى عوده ، واستعير للهلاك وخص بدعاء السوء ، ونادى الأرض والسماء كما ينادى العقلاء المنقادون لأمره العارفون وجوب طاعته ، الخائفون سطوة قهره تشبيهاً للمراد بالمأمور ، واستعار لنشف الماء : البلعَ الذى هو إعمال الجاذبة فى المطعوم استعارة تبعية والشبه بينهما الذهاب إلى مقر خفى ، وأضاف الماء إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيهاً للاتصال الصورى بالاتصال الملكى ، واستعار الإقلاع الذى هو ترك الفاعل الفعل لاحتباس المطر والجامع بينهما عدم ما كان ولم يصرح بالفاعل فى « غيض » و « قضى » ، وقيل كما لم يصرح بالمنادى فى « يا أرض » و « يا سماء » تعظيماً للفاعل وأنه متعين مستغن عن ذكره ، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره للعلم بأن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليه سوى الواحد القهار ، ثم ختم الكلام بالتعريض لمن سلك مسالكهم فى تكذيب الرسل لأنه نبه أن ذلك العذاب الهائل منشأه الظلم لا غير . والله أعلم ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ ﴾ أى دعاه وسأله ﴿ فَقَالَ ﴾ الفاء لتفصيل المجمل ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي ﴾ كنعان ﴿ مِنْ أَهْلِي ﴾ بعض أهلى ، والظاهر أنه كان من صلبه ، وقيل : كان ربيباً له فهو أيضاً من أهله ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ الذى لا خلف فيه وقد وعدتنى بإنجاء أهلى ، والظاهر أن نوحاً لم يكن عالماً بكفره ، لأنه منافق ولم يحمل مقاولته على العناد لأن غلبة الحب يغطى عين البصيرة ، فلذا عوتب عليه بأن مثله كيف يشتبه عليه حال المعاند ، وكيف يجعل مناط النجاة كونه من أهله ، مع عدم علمه بإيمانه ، وأولو العزم يعاتبون على النقير ، قاله فى غاية الأمانى . وقيل : كان عالماً بكفره ولم يعلم أن طلب نجاة ولده الكافر محظور عليه ﴿ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ لا حكم فوق حكمك وأعلمهم وأعدلهم ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ إذ لا ولاية بين المؤمن والكافر ﴿ إِنَّهُ ﴾ تعليل لذلك ، أى إن ابنك ﴿ عَمَلٌ ﴾ أى ذو عمل فاسد ﴿ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ جعله نفس العمل مبالغة فى ذمه وبدل الفاسد بغير الصالح تصريحاً بالمناقضة بين وصفيهما وانتفاء ما أوجب النجاة لمن نجا من أهله وقيل الضمير للسؤال ، أى : إن سؤالك إياى بنجاته عمل غير صالح ، لكن على هذا يفوت كون الصلاح هو مناط النجاة ، ويلزم منه أيضاً تخطئة نوح بعبارة موحشة ، وسنة الله مع أنبيائه فى ترك الأولى العتاب بألطف وجه ، قاله فى غاية الأمانى . وقرأ الكسائى ويعقوب « إنه عَمِل » بفعل ماض ونصب « غير » وهى تؤيد الاحتمال الأول ﴿ فَلَا تَسْأَلَنِّ ﴾ بفتح اللام وتشديد النون ، وكسرها لنافع وابن عامر وإثبات الياء لورش فقط فى الوصل وحذفها لغيره ، وابن كثير مثلهما إلا أنه فتح النون ، وأبو عمرو والكوفيون

سكنوا اللام وخففوا النون مكسورة ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ من إنجاء ابنك ، أى لا تعلم أصواب هو أم لا ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ بسؤالك ما لم تعلم ، وإنما سماه جهلا لأن استثناء من سبق عليه القول من أهله قد دل على الحال وأغنى عن السؤال لكن شغله حب الولد عنه حتى اشتبه الأمر عليه . قاله البيضاوى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ ﴾ ألجأ إليك ﴿ أَنْ أَسْأَلَكَ ﴾ بعد هذا السؤال فيما يستقبل ﴿ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ أى قد اتعظت وتأدبت ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ﴾ ما فرط منى من السؤال ﴿ وَتَرْحَمْنِي ﴾ بالتوبة والتفضل علىّ ﴿ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أعمالا ، وهنا لا يدل على صدور معصية من الأنبياء ، لأن نوحا وعده ربه بنجاة أهله معه فأخذ ظاهر حال ابنه فسأل إنجاءه ولم يشك فى وعد الله فعاتبه الله بسؤال ما ليس له به علم فخشع وسأل المغفرة والرحمة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ ﴾ من السفينة أو من الجبل إلى الأرض ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ بسلامة أو بتحية ﴿ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ ﴾ خيرات نامية ثابتة ﴿ عَلَيْكَ ﴾ مأخوذ من البركة وهى الصدر ، وجمع إشارة إلى وفور آلائه فى نسله حتى يصير آدما ثانيا ﴿ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ أى الذين معك فى السفينة على أن « من » بيانية أو ناشئة ممن معك وهم المؤمنون إلى آخر الدهر فمن ابتدائية وهو أوجه لأن الابتدائية بعد المنكر أكثر وليحسن التقابل بينهم وبين قوله ﴿ وَأُمَمٌ ﴾ بالرفع ممن معك أمم ﴿ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فى الآخرة هم الكفار من ذريته لأن الناشئ منهم فرقتان فرقة مؤمنة وأخرى كافرة ، ودخل فى ذلك السلام : كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، وفى ذلك المتاع والعذاب : كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة ﴿ تِلْكَ ﴾ الإشارة إلى قصة نوح أو الآيات المتضمنة لها ومحلها رفع بالابتداء والخبر ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أخبار ما غاب عنك ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ خبر ثان ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ ﴾ خبر ثالث ولمجيء الأخبار هكذا شأن فى رفع الإبهام ويجوز أن يكون « نوحيها » حالا « من أنباء الغيب » و « ما كنت تعلمها » من ضمير المؤنث أو من كاف الخطاب فى إليك ﴿ وَلَا قَوْمُكَ ﴾ ترق فى الكلام لأنهم مع كثرتهم وكثرة أسفارهم واختلاطهم إذا لم يعلموها فأنت أولى ﴿ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ الإيحاء أو هذا الوقت . قال فى لباب التأويل : فإن قلت إنّ قصة نوح كانت مشهورة معروفة فى العالم فكيف قال : « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » قلت يحتمل أن يكونوا يعلمونها مجملا فنزل القرآن بتفصيلها وبيانها ، وجواب آخر وهو أنه صلى الله عليه وسلم كان أميا لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت أمته فصح ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا . اه ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ على أذى التبليغ كما صبر نوح ﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فى الدنيا بالنصر والغلبة وفى الآخرة بالفوز برضوان الله ﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ ﴾ فى القبيلة عطف على « نوحا إلى قومه » وقوله ﴿ هُودًا ﴾ عطف بيان من « أخاهم » أو بدل ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وحدوه ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ

﴿ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ يستحق العبادة ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ على الله باتخاذ الأوثان شركاء وجعلها شفعاء ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على التوحيد ﴿ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ خلقني ومامن نبي إلا صرح لقومه بعدم الأجر على التبليغ لأن النصح إذا شابه وهم الطمع لايجدى ولا ينفع ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ لا تستعملون عقولكم فى هذا ليظهر لكم الحق فإنه لايتوقف إلا على توجه العقل لجلائه ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ بالتوبة عن الإشراك ﴿ ثُمَّ تُوبُوا ﴾ ارجعوا ﴿ إِلَيْهِ ﴾ بالطاعة ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ ﴾ المطر ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ وكانوا قد منعوه ثلاث سنين فأجدبت بلادهم بسبب كفرهم وكانت قبل مخصبة كثيرة الخير والنعم ﴿ مِدْرَارًا ﴾ كثيرة الدرور المتتابع صيغة مبالغة ، والمعنى : استغفروه يُفض عليكم نعمه لأن المطر سبب حصول جميع النعم لاسيما إذا كان وافراً ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ ﴾ مع ﴿ قُوَّتِكُمْ ﴾ بالأموال والأولاد لتقدروا على الانتفاع بتلك النعم على التمام والكمال وكانوا أصحاب زروع وبساتين مفتخرين بها فاستمالهم بأنهم إن آمنوا يزيدهم الله فى هذين المطلوبين وخص القوة لكونهم أقوى العوالم ، وقيل : يزدكم قوة الإيمان إلى قوة الأبدان وقيل حبس عنهم المطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم . روى أن الحسن بن على وفد على معاوية فلما خرج من عنده تبعه بعض حجابه وقال : إنى ذومال ولا يولد لى ، فقال : عليك بالاستغفار ، فلما بلغ معاوية قال : هلا سألته من أين يقول فلما وفد وفدة أخرى سأله الرجل فقال : ألم تسمع قول هود « ويزدكم قوة إلى قوتكم » ، وقول نوح « ويمددكم بأموال وبنين » بعد الأمر بالاستغفار فأكثر الرجل من الاستغفار فولد له عشرة بنين ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ مصرين على الإجرام ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ برهان على ذلك تكذيبا بآياته الدالة على نبوته وعنادا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا ﴾ عبادتهم ﴿ عَنْ قَوْلِكَ ﴾ لأجل قولك أو صادرين عن قولك ، حال من الضمير فى « تاركى » ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فى شيء وفى وقت من الأوقات إقناط له بعد تكذيبه ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ نَقُولُ ﴾ فى شأنك ﴿ إِلَّا اعْتَرَاكَ ﴾ أصابك ﴿ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ بخبل لسبك إياها ولذلك تهذى وتتكلم بكلام المجانين . قال فى غاية الأمانى : وهذا حال أكثر الجهال مع العلماء فى كل عصر ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ ﴾ علىّ ﴿ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ من شركائكم أشهد الله على براءته توكيدا لقوله لأنه جار مجرى القسم ولم يشهدهم بل أمرهم بالشهادة لأن الغرض عدم المبالاة بهم ثقة بالله ولتخالف الغرضين خالف بين اللفظين ﴿ فَكِيدُونِي ﴾ احتالوا فى هلاكى ﴿ جَمِيعًا ﴾ أنتم وأوثانكم ﴿ ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾ تمهلون ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ الذى بيده الضر والنفع : إشارة إلى الحامل له على الجرأة عليهم وعدم المبالاة بهم وبآلهتهم لأنهم مربوبون مثله ثم أشار إلى الوصف المناسب لذلك بقوله ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ نسمة تدب على الأرض ﴿ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أى إلا وهو مالكها قادر عليها يصرفها على ما يريد ، والأخذ بالنواصى تمثيل لذلك ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ طريق الحق والعدل لايضيع عنده معتصم به ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾

فيه حذف إحدى التاءين أى تعرضوا عن الإيمان بما أرسلت به إليكم ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ الجواب محذوف أى فإن تولوا لا أعاتب أو لا عذر لكم فقد أبلغتكم وأديت ما علىّ فلا تفريط منى ولا عذر لكم ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ استئناف بالوعيد لهم بأن الله يهلكهم ويستخلف آخرين فى ديارهم وأموالهم ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ ﴾ بتوليكم ﴿ شَيْئاً ﴾ من الضرر ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ ومن كان هذا شأنه لا يمكن أن يلحقه ضرر ولا يخفى عليه شىء من أعمالكم : وعيد ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ عذابنا أو أمرنا بالعذاب الموعود ﴿ نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ هداية ﴿ مِنَّا ﴾ قيل كانوا أربعة آلاف ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ شديد تكرير لبيان ما نجاهم منه أو الأول من عذاب الدنيا والثانى من عذاب الآخرة ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ أنث الإشارة باعتبار القبيلة أو لأن الإشارة إلى آثارهم من قبورهم وغيرها أى فسيحوا فى الأرض فانظروا إليها وآثر البعيد لبعد عهدهم أو لشدة كفرهم ثم وصف أحوالهم فقال ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ جمع لأن من عصى رسولا فقد عصى جميع الرسل لاشتراكهم فى أصل ما جاءوا به وهو التوحيد ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ معارض للحق من رؤسائهم الذين يصدرون عن أمرهم ورأيهم ، والجبار من يقتل على الغضب ، والعنيد الجائر المائل عن الحق من عند البعير عدل عن الطريق ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى جعلت اللعنة تابعة لهم فى الدارين تكبهم فى العذاب لاتباعهم الكفار وإعراضهم عن الرسل جزاء من جنس أعمالهم ﴿ أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا ﴾ جحدوا ﴿ رَبَّهُمْ ﴾ أو كفروا نعمته ﴿ أَلَا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ دعاء عليهم بالهلاك ، والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما حكى عنهم ؛ وسمى قومه عادا باسم جدهم «عاد بن عوص ابن إرم بن سام بن نوح » وكرر حرف التنبيه وأعاد الاسم تقبيحا لشأنهم وإعلاما بأنهم أحقاء بما نزل عليهم وزاد قوم هود بيانا لما فى الإجمال والتفصيل من الإيضاح بوسمهم بسمة لا شبهة فيه لإخراج عاد إرم وهم العمالبق ﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ ﴾ من القبيلة ﴿ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ بخلق أبيكم آدم منها ومواد النطف من التراب ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ جعلكم عمارا تسكنون ﴿ فِيهَا ﴾ أو استبقاكم فيها من العمر أو من العمرى وهى إعطاء الانتفاع بالدار مدة العمر أى أعمركم فيها دياركم ثم يرثها منكم بعد موتكم أو جعلكم معمرين لغيركم لأن من ورثه غيره فكأنه أعمره إياها ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ من الشرك ﴿ ثُمَّ تُوبُوا ﴾ ارجعوا ﴿ إِلَيْهِ ﴾ بالطاعة ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ ﴾ من خلقه بعلمه ﴿ مُجِيبٌ ﴾ لمن سأله ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا ﴾ نرجو أن تكون سيدا لنا لما نرى فيك من مخائل الرشد فنصدر عن رأيك ﴿ قَبْلَ هَذَا ﴾ الذى صدر منك فقد تبين لنا أن لا خير فيك لما سمعنا من فيك وانقطع رجاؤنا عنك أو كنا نرجو أن تدخل فى ديننا فقد انقطع رجاؤنا فيك ﴿ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الأوثان ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ من

التوحيد والتبرئ عن الأوثان ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موقع فى الريب من أرابه أو ذى ريبة على الإسناد المجازى من أراب فى الأمر ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ ﴾ بيان وبصيرة وحرف الشك باعتبار المخاطبين ﴿ مِنْ رَبِّى وَءَاتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ نبوة ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِى ﴾ يمنعنى ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ من عذابه ﴿ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ خالفت أمره ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِى ﴾ بأمركم بذلك ، أى استتباعكم إياى ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ بإبطال ما منحنى الله به والتعرض لعذابه ﴿ وَيَاقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ حال عامله الإشارة ، واللام للبيان فى لكم وهو أيضاً حال من آية تقدمت عليها لتنكيرها ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ عاجل لا يتراخى عن مسكم بها بسوء إلا يسيراً وهو ثلاثة أيام ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ ﴾ صالح ﴿ تَمَتَّعُوا ﴾ عيشوا ﴿ فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ ثم تهلكون ﴿ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أى فيه حذف الجار اتساعاً أو غير كذب مصدر كالمجلود ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ بإهلاكهم ﴿ نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ وهم أربعة آلاف أيضاً ﴿ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ ﴾ نجيناهم ﴿ مِنْ خِزْىِ يَوْمَئِذٍ ﴾ بفتح الميم لنافع والكسائى بناء لإضافته إلى مبنى وبكسرها للباقين إعراباً أى عذابه وهو الهلاك بالصيحة أو عذاب يوم القيامة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِىُّ ﴾ القادر على كل شىء ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب عليه ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ باركين على الركب ميتين ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا ﴾ لم يقيموا فى نعمة ﴿ فِيهَا ﴾ فى دارهم ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾ بالصرف فى الأول للجمهور ، وعدمه لحفص وحمزة ومنعه فى الثانى لهم ، وصرفه الكسائى فقط باعتبار الحى والقبيلة ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ ﴾ بالولد أو بهلاك قوم لوط ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ مصدر أى سلمنا عليك سلاماً ، ويجوز نصبه بقالوا على معنى ذكروا سلاماً ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ أى عليكم أو أمركم أو جوابى . وقرأ حمزة والكسائى سلم وهما لغتان كحرم وحرام ، لحياهم بأحسن من تحيتهم لدلالته على الاستمرار بقرينة المقام ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ ﴾ أى ما أبطأ مجيئه به أو ما تأخر عنه أو ما أبطأ المجىء به ، والجار مقدر فى « أن » عليهما ﴿ حَنِيذٍ ﴾ مشوى بحجارة محماة . وفى الجواهر : هو الذى يغطى بحجارة أو رمل محمى وحائل بينه وبين النار يغطى به . اه . وفى لباب التأويل : هو المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الأرض وهو من فعل أهل البادية ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ وإنما رأى الأيدى لحظة ، لأنه لا ينظر إلى وجوههم عند تقديم المأكل لئلا يحصل للضيف نوع خجل فيحصل له فتور فى الأكل ، وهذا شأن أرباب الفتوة مع الضيفان . قال الشاعر :

وناولته من رسل كوماء جلدة • وأغضيت عنه الطرف حتى تضلعا

﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ أنكر حالهم ، يقال نكره وأنكره واستنكره : شك فى معرفته ﴿ وَأَوْجَسَ ﴾ أضمر فى نفسه ﴿ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ خوفاً أن ينزلا به مكروهاً لامتناعهم من طعامه ، وكان ينزل ناحية من الناس مع بقره

ولم يعرف كونهم ملائكة ، أو عرف بترك الأكل أنهم ملائكة ، نخاف أن ينزلوا بعذاب قومه ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ أى بعذابهم ، جواب لمن علم أنهم مرسلون لأمر لكن لم يعلم ذلك الأمر بعينه ﴿ وَامْرَأَتُهُ ﴾ أى امرأة إبراهيم سارة ﴿ قَائِمَةٌ ﴾ وراء الستر تسمع محاورتهم ، أو قائمة على خدمتهم ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ استبشاراً بهلاكهم وإصابة رأيها فإنها كانت تقول لإبراهيم اضمم إليك لوطاً فإنى أعلم أن العذاب نازل بقومه ، وقيل ضحكت حاضت ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ ﴾ أى بعد ﴿ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ﴾ بالرفع للجمهور والنصب لابن عامر وحمزة وحفص مفعول لـ «وهبنا» الدال عليه البشارة ، ووجه البشارة إليها تارة وأخرى إلى إبراهيم بقوله « وبشروه بغلام عليم » لأن السرور بالولد مشترك ، وكما أنهما بشرا بالولد بشرا ضمناً بطول العمر حتى يريا المولود المبشر به ولداً ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ ﴾ كلمة تقال عند أمر عظيم ، والألف مبدلة من ياء الإضافة ﴿ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ لى تسع وتسعون سنة ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِي ﴾ زوجى وأصله القائم بالأمر ﴿ شَيْخًا ﴾ ابن مائة وعشرين ، ونصبه على الحال ، والعامل فيها معنى الإشارة أو التنبيه ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ الولد من هرمين ﴿ لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ من حيث العادة دون القدرة ولذا ﴿ قَالُوا ﴾ منكرين عليها ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ وإن كان فيه خرق العادة ، وقد نشأت وشبت فى رؤية الآيات ، ورأيت أمثال ذلك من المعجزات وعللوا الإنكار بقولهم ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ﴾ أى فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ فأنتم مخصوصون بالكرامات ، فمثل هذا ليس بالبدع منكم ، ولا حقيق بأن يستغرب منكم ، وقيل الرحمة : النبوة ، والبركة : الأسباط ، لأن الأنبياء منهم والكل من نسل إبراهيم ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ بيت إبراهيم ، نصب على الاختصاص ، أى لأنكم أهل بيت خليل الرحمن وذلك مدح لهم وأى مدح ، وهذا إخبار من الملائكة أو دعاء لهم بالخير والبركة ، وفيه دليل على أن أزواج الرجل من أهل بيته ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ ﴾ فاعل مايستوجب به الحمد ﴿ مَجِيدٌ ﴾ واسع العطاء كثير الخير والإحسان أو منيع لا يرام ، وهما فعيلان بمعنى المفعول وقعا تذييلا لما تقدم ، أى ليس ما يفعله محلا للتعجيب بل للتحميد والتمجيد فإنه مولى متفضل ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ الذى أوجس فى نفسه واطمأن بمعرفتهم ﴿ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ ﴾ بالولد بدل الروع أخذ ﴿ يُجَادِلُنَا ﴾ بمجادلة رسلنا ﴿ فِي ﴾ شأن ﴿ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ أو المعنى يسألنا تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون قال للملائكة أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن قالوا : لا ، قال فاثنا مؤمن قالوا : لا ، قال : فأربعون ، قالوا : لا ، قال : فأربعة عشر ، قالوا : لا ، قال : أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ، قالوا : لا ، قال : إن فيها لوطاً ، قالوا : نحن أعلم بمن فيها لننجيه . إلى آخره ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ ﴾ كثير الحلم غير عجول على الانتقام من المسىء له ﴿ أَوَّاهٌ ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس ﴿ مُنِيبٌ ﴾ إلى الله ، والمقصود بذكر هذه الصفات بيان الحامل له على المجادلة وهو رقة قلبه وفرط ترحمه ، ولذا لما أطال بجادلتهم قالوا له ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ الجدال وإن

كان ترحماً فليس هذا محله ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ قضاؤه المبرم الذى لا مرد له بإهلاكهم وهو أعلم بحالهم ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ لتعلق إرادة الله به ، فلا يصرف بدعاء ولا غيره . قال فى الجواهر : فهذا يقتضى أن الدعاء إنما هو أن يوفق الله الداعى إلى طلب المقدور له ، فأما الدعاء فى غيره فغير نافع . قلت : والكلام فى هذه المسألة متسع رحب ، ومن أحسن ما قيل فيها قول الغزالى فى الإحياء فإن قلت فما فائدة الدعاء والقضاء لا يرد ، فالجواب إن من القضاء رد البلاء بالدعاء فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة ، كما أن الترس سبب لرد السهم ، والماء سبب لخروج النبات . اهـ . وفى الترمذى قيل لرسول الله أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً . قال : هى من قدر الله . اهـ. وفى جواب الفاروق لأبى عبيدة حين هم بالرجوع من أجل الدخول على أرض بها الطاعون وهى الشام مقنع لذلك . والله أعلم . ولما خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط أتوه نصف النهار يعمل فى أرض له ، وقيل حاملا حطباً إلى داره فرآهم حسان الوجوه طيبى الروائح وخاف أن يقصدهم قومه بفاحشة ، وعلم أنه سيحتال إلى مدافعتهم لحزن لذلك كما أخبر عن ذلك تعالى بقوله ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾ حزن بسببهم لما تقدم ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ طاقة ، أى موضع الطاقة ، كناية عن عدم اهتدائه إلى ما يدفع به كيدهم عن أضيافه . قال الأزهرى : والأصل فيه أن البعير يذرع بيديه فى سيره ذرعاً على قدر سعة خطوه فإذا حمل عليه أكثر من طوقه ضاق ذرعه من ذلك وضعف ومد عنقه ، فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة ، وقال غيره : المعنى ضاق بهم قلباً وصدراً ولا يعرف أصله قاله فى لباب التأويل ويؤيده ما فى القاموس : ضاق بالأمر ذرعه وذراعه ، وضاق به ذرعاً : ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيها مخلصاً . اهـ ﴿ وَقَالَ ﴾ فى نفسه تحزناً أو قال مشافهة ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ شديد من عصبه إذا شده ومنه العصابة والعصب ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ ﴾ لما علموا بهم ﴿ يُهْرَعُونَ ﴾ يسرعون ﴿ إِلَيْهِ ﴾ من قولهم دم هرع أى سائل بيّن السيلان كأن بعضه يدفع بعضاً بالحمل على الجرى فكأنهم يدفع بعضهم بعضاً لطلب الفاحشة من أضيافه ﴿ وَمِنْ قَبْلُ ﴾ قبل مجيئهم ﴿ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ هى إتيان الرجال فى الأدبار ، فتمرنوا على فعل المنكرات ولا يستحيون ، فلذا هرعوا من غير مبالاة ﴿ قَالَ ﴾ لهم لوط ﴿ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن من قبل فلا يجيبهم لخبثهم لا لحرمة المسلمات على الكفار فإنه شرع طارئ ، فلما اشتد الأمر عليه سمح بذلك وقاية لأضيافه ، وقيل المراد بالبنات نساؤهم ، فإن كل نبى أبو أمته من حيث الشفقة ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ بمعنى الطاهر إذ لا طهر فيما ترومونه ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بترك الفواحش وإيثارهن عليهم ﴿ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ تفضحون من الخزى أو لاتخجلونى من الخزاية بمعنى الحياء ﴿ فِي ضَيْفِي ﴾ فى شأنهم فإن إخزاء ضيف الرجل إخزاؤه ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ يرعوى عن الجهل ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ

مِنْ حَقٍّ ﴾ حاجة لأن نكاح الإناث ليس بهم عندنا ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ من إتيان الرجال فعند ذلك ﴿ قَالَ ﴾ لوط ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ طاقة لو ثبتت لى بنفسى لدفعتكم ﴿ أَوْ ءَاوِي إِلَى رُكْنٍ ﴾ جمع منيع ﴿ شَدِيدٍ ﴾ ينصرنى لبطشت بكم شبه القوى الأيد بالركن من الجبل لشدته ويحتمل أن يكون لو للتمنى فلا يحتاج إلى الجواب وفى القاموس الركن الجانب الأقوى وما يتقوى به من ملك وجند وغيره . اه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم «رحم الله لوطاً كان يأوى إلى ركن شديد» أى لأن عناية الله كانت أشد ركن له ولما قالت الملائكة حين وجدت عليه إن ركنك لشديد وهذه المقاولة معهم كانت من وراء الباب وقد أغلقه خوفا منهم ، فلما طال الجدال تسوروا الجدار ولما رأت الملائكة ماأصاب لوطا من الكرب ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ بسوء بإضرارنا فدعنا وإياهم ففتح الباب وخلاهم فلما دخلوا نشر جبريل جناحه فضرب به وجوههم فطمس أعينهم كما قال تعالى : « فطمسنا أعينهم » فخرجوا وهم يقولون : النجاة . النجاة ، فإن فى بيت لوط قوما سحرة ﴿ فَأَسْرِ ﴾ بالوصل لنافع وابن كثير والقطع للباقين ﴿ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ ﴾ طائفة ﴿ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ من ورائه لئلا يصيبه ما أصابهم ولذلك لما التفتت امرأته حين سمعت هدة العذاب لحقها حجر فقتلها كما قال تعالى ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ بالنصب للجمهور استثناء من أهلك بناء على أنه نهى عن الإسراء بها فى جملة أهله أو من أحد على اللغة القليلة فى غير الموجب وبالرفع لأبى عمرو وابن كثير على البدل من أحد ﴿ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ أى ما يصيبها علة لعدم السرى بها أو لعدم نهيها عن الالتفات على الخلاف هل لم يخرج بها أو خرجت والتفتت فهلكت بحجر . ثم سألهم عن وقت هلاكهم فقالوا ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ أو هو علة للإسراء فقال : أريد أعجل من ذلك فقالوا ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ استبعد مجىء الصبح لغاية ضجره وشدة شوقه إلى الاستفسار ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ بالعذاب أو عذابنا والأول أولى لأصالته وجعل التعذيب مسببا عنه بقوله ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ جواب « لما » والضمير لقراهم وأسنده إلى ذاته وإن كان المباشر الملائكة لعظم الأمر وإن مثل ذلك الفعل إنما هو بإقداره . روى أن جبريل رفع مدائنهم الخمس وفيها أربعمائة ألف أو أربعة آلاف ألف بجناحه إلى السماء حتى سمع الملائكة نباح الكلاب وصياح الديكة ثم أسقطها مقلوبة إلى الأرض مكانها ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ على المدن أو على شذاذها خارجا عنها من مسافريها ﴿ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ طين طبخ بالنار أومن مثل الشىء المرسل من أجله أرسله أو مما كتب الله أن يعذبهم به من السجل ، وقيل أصله « من سجين » أى من جهنم فأبدل لامه نونا ﴿ مَنْضُودٍ ﴾ متتابع أو نضد فى السماء نضدا معدا للعذاب ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ معلمة للعذاب أو ببياض وحمرة أو بسيما تتميز به عن حجارة الأرض أو باسم من يرمى بها ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ فى خزائنه ظرف لها ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ الحجارة أو بلادهم ﴿ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أهل مكة ﴿ بِبَعِيدٍ ﴾ فكل ظالم بصدد أن يقع عليه حجر ، أو تلك القرى قريبة من ظالمى مكة يمرون عليها فى

سفرهم إلى الشام وتذكير البعيد على تأويل الحجر أو المكان ﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام أو أهل مدين على أنه بلد بناه فسمى باسمه ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وحدوه ﴿ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ أمرهم بالتوحيد أولا لأنه ملاك الأمر ثم نهاهم عما اعتادوه من البخس المنافى للعدل بقوله ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ بالكيل والوزن للغير ناقصا أو لأنفسهم زائدا على حقهم فهو نقص أيضا فى مال الغير وكلا الوجهين مذموم وهذه عادة الأنبياء فى تبليغ الدين يبدءون بالأهم فالأهم ولما كان التطفيف شائعا فيهم وهو خيانة للعباد نهاهم عن ذلك بعد أمرهم بالتوحيد ﴿ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ سعة ونعمة تغنيكم عن التطفيف وكانوا موسرين ، أو أراكم بنعمة حقها أن تتفضلوا على الناس شكرا عليها لا أن تنقصوا حقوقهم أو أراكم بخير وسعة فلا تزيلوها بما تفعلون: حذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحلول النقمة وعلى كل من التأويلات فهو علة للنهى ﴿ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ إن لم تؤمنوا ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ بكم يهلككم ، ووصف اليوم به مجاز لوقوعه فيه والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال ﴿ وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ أتموهما ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل والسوية صرح بالأمر بالاستيفاء بعد النهى عن ضده مبالغة وتنبيها على أنه لا يكفيهم الكف عن تعمد التطفيف بل يلزمهم السعى فى الإيفاء ولو بزيادة لا يتأتى دونها ، وقيده بالقسط دلالة على أن العدل هو المطلوب فليحقق . والزيادة فضل ، وقد يكون حراما كما فى الربا ، وقيل: بالقسط بتعديل المكيال وتقويم لسان الميزان ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ لا تنقصوهم من حقهم شيئاً بأى نوع كان تطفيفا أو غيره كنقص ثمن ما يشترونه فهذا تعميم بعد تخصيص فإنه أعم من أن يكون فى المقدار أو فى غيره وكذا قوله ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أمر دينكم ودنياكم وأخراكم بأنواع الفساد فهو أعم مما قبله لتناوله البخس وغيره كما أن البخس أعم مما قبله لتناوله المقدار وغيره كما قدمنا ، وقيل: البخس المكس كأخذ العشور من المعاملات . والعثو السرقة وقطع الطريق والغارة ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ ﴾ رزقه الباقى لكم بعد إيفاء الكيل والوزن ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ مما تستكثرون به على غير وجهه . هذا تفسير ابن عباس ، أو المعنى ما أبقاه لكم من الحلال خير لكم وأبرك فى الدنيا مما تجمعون من الحرام لأنه ممحوق البركة ، وقيل البقية الطاعة ، كقوله « والباقيات الصالحات خير » ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى بشرط أن تؤمنوا فإن خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالإيمان، وفيه تعظيم الإيمان بأن كل خير لا يعد نافعاً بدونه ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أحفظكم عن القبائح أو أحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها أو لا أحفظ عليكم نعمة الله مع البخس ، أى لا أضمن لكم ذلك ، وإنما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت حين أنذرت ﴿ قَالُوا ﴾ له ﴿ يَاشُعَيْبُ ﴾ جواباً عن أمره بالتوحيد وترك البخس على سبيل الاستهزاء ﴿ أَصَلَوَاتُكَ ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لحمزة والكسائى وحفص ﴿ تَأْمُرُكَ ﴾ بتكليف ﴿ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الأصنام ﴿ أَوْ ﴾ نترك ﴿ أَنْ

نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ من النقص والزيادة ، عطف على « ما » ، المعنى : هذا أمر باطل لا يدعو إليه داعي خير ، وإنما دعاك إليه وسواس من جنس ما واظبت عليه من الصلوات وكان كثير الصلاة ، والإتيان بالمضارع للدلالة على الاستمرار وقدر المضاف بعد «تأمرك» لأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره وقيل : المراد بصلواتك قراءتك أو دينك وتخصيص الصلاة لأنها أعظم شعائر الدين ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ ﴾ حيث تأمرنا بترك ما كان يعبد آباؤنا ﴿ الرَّشِيدُ ﴾ الخير حيث تأمر بترك البخس والتطفيف نشر لما تقدم قالوه تهكما به قصدوا وصفه بضد ذلك أى السفيه الغاوى ، أو المراد الحليم الرشيد فى زعمك ، أو معناه : أنت فينا قبل هذا حليم رشيد فلا تخالف قومك فى دينهم ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ حلالا ، وكان كثير المال الحلال ، أو المراد به النبوة والمعارف الإلهية ، وجواب الشرط محذوف تقديره « هل يسعنى مع هذه النعم أن أخالف ربى وأترك أمركم بالتوحيد وترك القبائح » وهو اعتذار عما أنكروا عليه من تغيير المألوف عن الآباء ، المعنى : كيف يليق بالحليم الرشيد أن يخالف أمر ربه وله عليه نعم كثيرة ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ ﴾ فأذهب ﴿ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ فأرتكبه وأستبد به ، ومن كان كذلك لا يظن به الجنون والكذب ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ ﴾ لكم بالعدل ما أفسدتم من أمر دينكم ودنياكم ﴿ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ مادمت أستطيع الإصلاح فلو وجدت الصلاح فيما أنتم عليه لما نهيتكم عنه ، وقد اقتضى رعى حق الله وحق نفسى وحق الناس أن آمركم بما أمرتكم به وأنهاكم عما نهيتكم عنه و« ما » مصدرية فى موضع الظرف ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي ﴾ قدرتى على ذلك وغيره من الطاعات ﴿ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ والتوفيق خلق قدرة الطاعة ، مصدر بمعنى المفعول أى وما كونى موفقاً فى إمضاء أوامره إلا بتأييد منه ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فوضت أمرى لا على غيره ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أرجع لا إلى غيره فلا أبالى به . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذكر شعيبا قال : ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ يكسبنكم أو يحملنكم ﴿ شِقَاقِي ﴾ خلاف وعداوتى : فاعل « يجرم » والضمير مفعول أول والثانى ﴿ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ من الغرق ﴿ أَوْ قَوْمَ هُودٍ ﴾ من الريح ﴿ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾ من الرجفة ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ زمانا أو مكانا فإن لم تعتبروا بمن قبلهم فاعتبروا بهم وكان مدين قريبة من قرى قوم لوط بينهما مسافة يومين ، وتذكير لفظ « بعيد » باعتبار لفظ القوم لأنه يذكر ويؤنث أو هو مسند إلى ضمير الإهلاك أو الزمان أو المكان ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ بالإيمان ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ بالدوام عليه ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ ﴾ بالمؤمنين ﴿ وَدُودٌ ﴾ محب لهم يلطفهم كما يفعل بليغ المودة بمن يوده وعدٌ على التوبة بعد الوعيد على الإصرار ويحتمل أن الودود بمعنى المفعول أى يوده عباده الصالحون لكثرة أفضاله وإحسانه إليهم ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ ﴾ نفهم ﴿ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ استهانة لكلامك أو لعدم إلقاء الذهن إليه لشدة نفرتنا عنه ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ

فِينَا ضَعِيفاً﴾ لا قوة لك تمتنع بها منا إن أردنا بك سوءا أو المعنى ذليلا لا عز لك تمنع نفسك به عنا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ عشيرتك الذين على ملتنا ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ لقتلناك بالأحجار أو بأصعب وجه ، والرهط من ثلاثة إلى عشرة أو سبعة ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ كريم عن الرجم فتمنعنا عزتك عنه وإنما رهطك هم الأعزة والحاصل أنهم بينوا له أنه لا حرمة له عندهم ولا عز له فى صدورهم وإنما لم يقتلوه لأجل رهطه الذين على ملتهم . قال البيضاوى وهذا دين السفيه المحجوج يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد . اه . ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ فتتركوا قتلى لأجلهم ولا تحفظونى لله ، والله أعز وأعظم ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ﴾ أى الله ﴿وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً﴾ منبوذا خلف ظهوركم لا تراقبونه منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ علما فيجازيكم ﴿وَيَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ بالإفراد للجمهور والجمع لأبى بكر أى حالتكم والمكانة بمعنى المكان كناية أو تمثيل عن الحال أو مصدر مكن بالضم مكانة فهو مكين إذا تمكن أى على جهتكم أو متمكنين ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتى ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾حذف الفاء هنا لكونه بتقدير سؤال لأنه فى مقام المحاجة معهم وأثبتت فى الأنعام والزمر تصريحا بأن ما هم عليه سبب الوعيد لأنه أمر أن يقول لهم ذلك الكلام الذى يعقبه ذلك الجزاء ﴿مَن﴾ موصولة مفعول العلم أو استفهامية معلقة للعلم كأنه قيل سوف تعلمون أينا ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ على زعمكم فيما يدعيه عطف على من يأتيه لأنه قسيم له بل لأنهم لما أوعدوه وكذبوه قال : سوف تعلمون من المعذب والكاذب منى ومنكم ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ انتظروا ما أقول لكم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ منتظر كالفقير بمعنى المفتقر أو راقب كالغريم بمعنى الغارم أو مراقب كالعشير بمعنى المعاشر ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بإهلاكهم ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ ولم أر من ذكر عددهم ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ صاح بهم جبريل ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ باركين على الركب ميتين ﴿كَأَن﴾ مخففة أى كأنهم ﴿لَّمْ يَغْنَوْا﴾ يقيموا فى نعمة وخفض عيش ﴿فِيهَا﴾ ولم يكن لهم تصرف وتردد فيها ﴿أَلَا بُعْداً﴾ هلاكا ﴿لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ أى بالصيحة إلا أن صيحة ثمود كانت من تحتهم وصيحة مدين كانت من فوقهم ، وعن ابن عباس : لم يهلك الله طائفتين بعذاب واحد إلا ثمود ومدين ، « والبعد » : بالضم ضد القرب واستعمل هنا بمعنى « البعد » بفتحين كالرشد من « بعد » بالكسر أى هلك ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ برهان ظاهر أى ما أتى به من المعجزات فهى آيات باعتبار الدلالة على صدقه وسلطان باعتبار تسلطه به على الخصم أو الآيات الأحكام والسلطان براهينها ، والآيات : التوراة ، والسلطان : المعجزات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أشراف قومه ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ الغوى وتركوا أمر موسى الهادى إلى الحق ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ سديد أو مصيب أو مرشد إذ هو ضلال محض ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ عبر بالماضى لتحقق وقوعه كما اتبعوه فى الدنيا فأوردهم

البحر ﴿ وَبِئْسَ الْوِرْدُ ﴾ المورد وهو الماء ﴿ الْمَوْرُودُ ﴾ الذى وردوه لأنه يراد لتبريد الأكباد المتعطشة والنار بالضد فهو استعارة تهكمية والآية كالدليل على قوله : « وما أمر فرعون برشيد » فمن هذه عاقبته لم يكن فى أمره رشد أو تفسير له على أن المراد بالرشد ما يكون مأمون العاقبة حميدها ، وقال ابن عطية وأبو البقاء : يجوز أن يكون «المورود» صفة لمكان الورد أى بئس مكان الورد المورود وهو النار ، والورد حينئذ مصدر بمعنى الورود ، وقيل : هو بمعنى الجمع الوارد ، أى : بئس القوم المورود بهم ﴿ وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ ﴾ الدنيا ﴿ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ لعنة إذ لم يخف قبح صنيعهم على أحد ﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ العون المعان به أو العطاء المعطى والمخصوص بالذم محذوف أى رفدهم وهو اللعنة فى الدارين ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور مبتدأ خبره ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ ﴾ المهلكة ﴿ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ يا محمد خبر بعد خبر ﴿ مِنْهَا ﴾ من تلك القرى ﴿ قَائِمٌ ﴾ باق هلك أهله دونه كالزرع القائم ﴿ وَحَصِيدٌ ﴾ عافى الأثر هلك بأهله كالزرع المحصود بالمناجل والجملة مستأنفة لاحال من ضمير نقصه كما قال أبو البقاء : إذ لا ضمير ولا واو وفيها الاستعارة التبعية ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بإهلاكهم من غير ذنب ﴿ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بارتكاب ما يوجب الإهلاك ﴿ فَمَا أَغْنَتْ ﴾ ما نفعتهم ولا قدرت أن تدفع ﴿ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِى يَدْعُونَ ﴾ يعبدون ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَىْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ عذابه ظرف أغنت ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ ﴾ بعبادتهم لها ﴿ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ إهلاك أو تخسير ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الأخذ ﴿ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ ﴾ أى أهلها وقرئ « إذ » لأن المعنى على المضى ﴿ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ﴾ بالذنوب أى فلا يغنى عنهم من أخذه شىء وإسناد الظلم إليها مجاز مبالغة فى استحقاق أهلها ذلك وإشعارا بأن كل ظالم بصدده لوجود العلة وهى الظلم ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ وجيع لاخلاص منه صفة بعد صفة مبالغة فى التهديد وزيادة فى التحذير . روى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ صلى الله عليه وسلم : «وكذلك أخذ ربك ....» الآية . وفى لباب التأويل : فى الآية والحديث دليل على أن كل من أقدم على ظلم فإنه يجب أن يتدراك ذلك بالتوبة ورد الحقوق إلى أهلها إن كان الظلم للغير لئلا يقع فى هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن أن هذه الآية حكمها مختص بظالمى الأمم الماضية بل هو عام فى كل ظالم ويعضده الحديث اه ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من القصص ﴿ لَآيَةً ﴾ لعبرة ﴿ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ يستدل بما نزل بهم فى الدنيا على عذاب الآخرة أو لمن ينزجر به لإيمانه لأن من أنكره لايخافه ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى اليوم المدلول عليه بالآخرة ﴿ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ﴾ والجن للحساب والجزاء وآثر الاسم لدلالته على أن ذلك الوصف لازم له وخص الناس لأنهم المقصود دون أصالة لشرفهم ﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ كثير شاهدوه يشهده جميع الخلائق أو مشهور فهو تعظيم له وتهويل بكونه لايغيب عنه ذو حياة ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ ﴾ اليوم ﴿ إِلَّا لِأَجَلٍ ﴾ أى لانتهاء زمان ﴿ مَعْدُودٍ ﴾ أى معلوم

أجزاؤه فى علمنا الشامل ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ ذلك الأجل أو اليوم أى هوله فلا يلزم كون الشىء ظرفا لنفسه ﴿ لَا تَكَلَّمُ ﴾ فيه حذف إحدى التاءين ﴿ نَفْسٌ ﴾ فى الشفاعة أو مطلقا ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ تعالى كقوله : « لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن » وبعد الإذن يتكلمون وعليه يحمل يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها . والله أعلم ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ الضمير للناس المجموعين أو للنفس فإنه عام ﴿ شَقِيٌّ ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد ﴿ وَسَعِيدٌ ﴾ وجبت له الجنة بموجب الوعد أى كتب كلٌّ من الأزل وفى الصحيحين «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ، ومقعده من الجنة » اه ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ﴾ فى علمه تعالى ﴿ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ صوت شديد لإخراج النفس ﴿ وَشَهِيقٌ ﴾ صوت ضعيف متردد فى الصدر لرد النفس كصوت الحمار أوله زفير وآخره شهيق شبهت أصواتهم بأصوات الحمير استقباحا ودلالة على شدة كربهم وغمهم وقرئ شقوا بالضم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ مدة دوامهما فى الدنيا وهو تأكيد للخلود على مايتعارفه العرب فى الآخرة إذ لابدلهم من مُظل ومُقلّ ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ استثناء من « خالدين » لأن بعضهم وهم فساق الموحدين يخرجون منها ، فهم وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم فـ « ما » بمعنى « من » أو « إلا » بمعنى « سوى » أى : سوى ما شاء ربك من الزيادة على مدتهما مما لا منتهى له ، والمعنى : خالدين فيها أبدا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ لا اعتراض عليه ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ﴾ بفتح السين للجمهور وبضمها حمزة والكسائى وحفص ﴿ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ﴾ سوى ﴿ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ كما تقدم ودل عليه فهم قوله ﴿ عَطَاءً ﴾ نصب على المصدر المؤكد أى أعطوا عطاء أو الحال من الجنة ﴿ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ مقطوع تصريح بأن الثواب لاينقطع وتنبيه على أن المراد من الاستثناء فى الثواب ليس الانقطاع ، ولأجله فرق بين الثواب والعقاب قاله البيضاوى ، وقال السيوطى : وما تقدم من التأويل يعنى جعل إلا بمعنى غير هو الذى ظهر وهو خال من التكلف . والله أعلم بمراده . قلت وفى قوله « يوم يأت لاتكلم نفس » إلى هنا ، جمع وتفريق وتقسيم جمع الخلق فى قوله « لاتكلم نفس » ، ثم فرقهم بقوله « شقى وسعيد » ، ثم قسم لكل ماله . والله أعلم ﴿ فَلَا تَكُ ﴾ بعد ما قصصنا عليك ﴿ فِي مِرْيَةٍ ﴾ شك ﴿ مِمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ﴾ من الأصنام أنها ضلال وأنا نعذبهم كما عذبنا من قبلهم ، وهذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ ﴾ أى كعبادتهم ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ وقد عذبناهم أو إلا كما كان يعبد آباؤهم لحذف « كان » لدلالة « قبل » عليه ، والجملة استئناف لتعليل النهى عن المرية ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ ﴾ مثلهم ﴿ نَصِيبَهُمْ ﴾ من العذاب أو من الرزق فيكون إشارة إلى سبب تأخير العذاب مع قيام موجبه ﴿ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ أى تاما وهو حال مؤكدة تقطع وهم التجوز إذ تقول وفيته حقه وتريد به وفاء بعضه ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ بالتصديق والتكذيب كالقرآن ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ بتأخير الجزاء

للخلائق إلى يوم القيامة ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ فى الدنيا بإنزال ما يستحقه المبطل ليتميز به عن المحق وكل هذا تسلية أيضاً ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أى المكذبين به ﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ موقع فى الريبة ﴿وَإِنْ﴾ بالتخفيف لنافع وابن كثير وأبى بكر ، والتشديد للباقين ﴿ كُلًّا ﴾ بالنصب على القراءتين بالإعمال مع التخفيف أى كل الخلائق والتنوين عوض عن المضاف إليه ﴿ لَمَّا ﴾ واللام موطئة و « ما » مزيدة لتفصل بين لام التوطئة ولام القسم فى ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى جزاءها . فاللام الثانية مؤكدة . وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة « لما » بالتشديد على أن أصله لمن ما فقلبت النون ميما للإدغام فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت أولاهن . والمعنى لمن الذين يوفيهم ، وقرئ « وإنْ كلٌّ لمَّا » بتشديد الميم بمعنى إلا وإن نافية ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ عالم ببواطنه كظواهره لا يخفى عليه شىء منها . ولما أطنب فى الوعد والوعيد وأحوال الأمم ، وأن الرسل بعد التبليغ لم يزغ أحد منهم عن سنن الصواب ومن آمن معهم أمر رسوله بالاستقامة بقوله ﴿ فَاسْتَقِمْ ﴾ فى العقائد والأعمال ﴿ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ من تبليغ الوحى وبيان الشرائع كما أنزلت والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط ولا إفراط مفوّت للحقوق ونحوها مع رعى جميع الآداب مع الله ولكون هذا فى غاية العسر . قال عليه السلام « شيبتنى سورة هود » ﴿ وَ ﴾ ليستقم ﴿ مَنْ تَابَ ﴾ آمن ﴿ مَعَكَ ﴾ عطف على المستكن فى استقم بلا تأكيد لوجود الفاصل ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ لا تتجاوزوا حدود الله : تصريح بما علم ضمناً ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم به ، تعليل للأمر والنهى وإشارة إلى كمال علمه بخطرات القلوب وهى كالمحسوس المشاهد عنده جلاء وظهوراً . قال البيضاوى : فى الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير انحراف بنحو قياس واستحسان ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا ﴾ لا تميلوا أدنى ميل ﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالكفر أو المعاصى بموادتهم ومداهنتهم بترك النهى مع القدرة والتزيى بزيهم وتعظيم ذكرهم والاستعانة بهم والرضى بأعمالهم . وفى القسطلانى : من استعان بظالم فكأنه رضى بفعله ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ قال فى غاية الأمانى : أى لا تميلوا أدنى ميل إلى من وجد منه أدنى ظلم فهذا غاية تحذير فإن قرين السوء أشد إغواء من الشيطان وإذا كان الركون الذى هو ميل يسير إلى من وجد منه أدنى ظلم مخلا بالاستقامة فكيف بالميل التام ثم الظلم الكامل ثم الانهماك فيه . اه . وأما معاملة الظلمة فقد قال فى القوانين : معاملتهم لا تجوز فإن كان الحرام قائماً بعينه عند الغاصب أو السارق أو نحوهما فلا يحل شراؤه ولا البيع به إن كان عيناً ولا أكله إن كان طعاماً ولا لباسه إن كان ثوباً ولا قبول شىء من ذلك هبة ولا أخذه فى دين ، ومن فعل شيئاً من ذلك فهو كالغاصب وإن كان الحرام قد فات من يده ولزم ذمته ، فإن لم يكن له مال حلال قط حرمت معاملته ، وإن كان الغالب على ماله الحرام فمعاملته حرام عند أصبغ ومكروه عند ابن القاسم . اه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره ﴿ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ يحفظونكم منه ﴿ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾ تمنعون من عذابه ، والواو للحال ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ عطف على « فاستقم » ﴿ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ الغداة والعشى . منصوب على الظرف لإضافته

إليه ، أى صل الصبح والظهر والعصر ، لأن مابعد طلوع الفجر إلى الزوال غداة ومنه إلى الغروب عشية ﴿ وَزُلَفاً ﴾ جمع زلفة أى طائفة ﴿ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ أى ساعات قريبة من النهار من أزلفه أقربه ، أى : صل المغرب والعشاء لقربهما من آخر النهار . روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «الصلوات الخمس كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » ولذا أتبعه بقوله ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ ﴾ كالصلوات الخمس ﴿ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ الذنوب الصغائر ، نزلت فيمن قبّل أجنبية فأخبره صلى الله عليه وسلم فقال: ألى هذا ؟ فقال : لجميع أمتى كلهم . رواه الشيخان ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الاستقامة وما بعده وقيل القرآن ﴿ ذِكْرَىٰ ﴾ تذكرة ووعظ ﴿ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ المتعظين ، وهذه الآية من الآيات الست التى تضمنت الصلوات الخمس والثانية قوله « أقم الصلاة لدلوك الشمس » الآية ، الثالثة قوله «فسبح بحمد ربك» إلى قوله « لعلك ترضى » ، الرابعة قوله « فسبح بحمد ربك حين تقوم إلى أدبار السجود » ، الخامسة قوله « فسبحان الله حين تمسون » إلى « تظهرون » ، السادسة « واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له » . انظر الأحكام ﴿ وَاصْبِرْ ﴾ يا محمد على أذى قومك وعلى الصلاة ، أو على مشاق ما أمرت به من الاستقامة والانتهاء عما يخل به ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بالصبر على الاستقامة ، وضع الظاهر موضع الضمير إشارة إلى علة الحكم وإلى أن الصلاة والصبر إحسان وإيماء إلى أنه لا يعتد بشىء من الأعمال بدون الإخلاص على ما فسر به الإحسان فى الحديث ﴿ فَلَوْلَا ﴾ فهلا ﴿ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ الأمم الماضية ﴿ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ ﴾ من الرأى والعقل أو أصحاب دين وفضل ، كما يقال : فلان من بقية القوم أى خيارهم ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الْأَرْضِ ﴾ المراد بحرف التحضيض اللوم على ترك الفعل فى الماضى إشارة إلى أن ما حل بتلك الأمم كان لأمرين الإخلال بما هو من أعظم أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واتباع الشهوات ، أى ما كان فيهم ذلك ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ نهوا فنجوا ومن للبيان والاستثناء منقطع ، وينهون خبر بعد خبر ، أو خبر ومن القرون حال قدمت ، أو ينهون صفة والاستثناء متصل ، والمعنى : لولا كان من القرون أولو الفضل صفتهم وشأنهم النهى عن الفساد إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، وإذا جعل ينهون خبراً فلا يستقيم الاتصال إلا إذا جعل استثناء من النفى اللازم للتحضيض فيكون الاستثناء من كل من الاسم والخبر كالاستثناء من الآخر فكأنه قيل ماكان من القرون أولو بقية إلا قليلا ، ولو أجرى الكلام على ظاهره فى الاتصال ، وقيل لم يكن فى القرون أولو بقية ينهون عن الفساد إلا قليلا يلزم أن يكون فيهم أولو بقية غير ناه ولا يخفى فساده ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالفساد أو ترك النهى ﴿ مَا أُتْرِفُوا ﴾ نعموا ﴿ فِيهِ ﴾ وهم المقابلون للقليل ، أى اتبعوا الشهوات وأغفلوا الطاعات وهو عطف على ما دل عليه الكلام ، أى إلا قليلا نهوا عن الفساد واتبع ... الخ . أو الواو للحال أى أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاء ما أترفوا فيه وهو عذاب الاستئصال ﴿ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

عطف على « أترفوا » أى اتبعوا الشهوات وكونهم مجرمين، أو استئناف علة لما قبله على جعل ما أترفوا فاعل اتبع مع تقدير المضاف، أى جزاء ما أترفوا كما قدمنا. والله أعلم، أو اعتراض يؤكد ظلمهم ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾ منه لها، أى بغير ذنب ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ مؤمنون، وقيل: المعنى لا يهلكهم بظلم أى بمجرد شرك، وأهلها مصلحون فيما بينهم من معاملة الناس وحقوق العباد، لا يضمون إلى شركهم فساداً وتباغياً، ولذا قيل: الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم أى لا يستأصلهم فى الدنيا، أما عذاب الآخرة فلازم لهم ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أهل دين واحد مسلمين كلهم ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ فى الدين، بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ أى لكن من رحم ربك فمن غلبه بالهداية فهم لا يختلفون ﴿ وَلِذَٰلِكَ ﴾ الاختلاف ﴿ خَلَقَهُمْ ﴾ أى الناس ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير، أو لذلك الرحم والتوفيق خلق من رحمه، أو المعنى: خلق أهل الاختلاف له وأهل الرحمة لها ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ إرادته أو هى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أى من عصاة الطائفتين لاستوائهما فى التكليف. قال فى اللباب: والآية صرحت بأن الله خلق خلقاً للجنة والرحمة فهداهم ووفقهم لأعمال أهل الجنة، وخلق أقواماً للنار فخذلهم ومنعهم من الهداية ﴿ وَكُلًّا ﴾ نصب بقوله ﴿ نَقُصُّ ﴾ وتنوينه عوض من المضاف إليه أى نقص ﴿ عَلَيْكَ ﴾ كل ما يحتاج إليه ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ ﴾ بدل من « كلا » أى ما نطمئن ﴿ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ قلبك على احتمال الأذى وأداء الرسالة تأسياً لمن قبلك ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ ﴾ الأنباء أو السورة أو الآيات ﴿ الْحَقُّ ﴾ بإيرادها على وجهها ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إلى آخر الدهر إشارة إلى الفائدة العامة، وخص المؤمنون لأنهم المنتفعون به فى الإيمان بخلاف الكفار ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ بالإفراد للجمهور ولأبى بكر بالجمع: حالتكم أو تمكنكم ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ كذلك ﴿ وَانْتَظِرُوا ﴾ الدوائر بنا ﴿ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ أن ينزل بكم ما نزل بالمكذبين أمثالكم ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى علم ما غاب فيهما يعلم وقت ذلك، والحكمة فى تأخيره ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ ﴾ لنا ولكم بالبناء للمفعول لنافع وحفص، وللفاعل للباقين ﴿ كُلُّهُ ﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ ثق به فإنه كافيك ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بالخطاب لنافع وابن عامر وحفص أى أنت وهم، ففيه تغليب الخطاب، والباقون بالغيبة إلا أبا بكر عن عاصم وإنما يؤخرهم لوقتهم.

[تم تفسير سورة هود]

سورة يوسف

مكية - مائة وإحدى عشرة آية

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ الٓر﴾ الله أعلم بمراده بذلك ﴿تِلْكَ﴾ أى هذه الآيات أو السورة، وإيثار « تلك » لقصد التعظيم ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن والإضافة بمعنى من، أى: من بعض الكتاب المعجز ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ الواضح الإعجاز أو المظهر للحق من الباطل، أو المبين لمن تدبر أنها من عند الله أو لليهود ما سألوه. إذ روى أن سبب نزول السورة أن علماءهم قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمداً ما سبب انتقال آل يعقوب من الشام إلى مصر، وسلوه عن قصة يوسف، فنزلت، وفيها تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما يفعله قومه به بما فعل إخوة يوسف بيوسف، وقيل: إن الصحابة قالوا للنبي: لو قصصتنا فنزلت ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب، وقرآناً حال موطئة، و « عربيا » هو الحال أو كل منهما حال لأن الأول مصدر بمعنى المفعول ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ تفهمون معانيه، علة لإنزاله بهذه الصفة، أى: أنزلناه مجموعاً أو مقروءاً بلغتكم كى تفهموه وتعلموا أنه من عند الله ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ الوحى ﴿عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ أى الاقتصاص، مصدر كالطلب من قص الأثر اتبعه، والقصص إتباع الخبر بعضه بعضاً، والقاص هو الذى يأتى بالخبر على وجهه، وسميت الحكاية قصة لأن القاص يذكرها شيئاً فشيئاً، والمقصوص محذوف وهو الوحى كما قدمنا لدلالة أوحينا عليه، ويجوز أن يكون بمعنى المقصوص مفعول نقصُّ، وكونه أحسن القصص لكونه مقصوصاً على أبدع طريقة وأغرب أسلوب مع سلاسة الألفاظ وعذوبة المعانى واشتمال على الحكم والعجائب من العبر وسير الملوك والمماليك والعلماء، ومكر النساء والصبر على أذى الأعداء وعفوهم بعد الاقتدار وغير ذلك من الفوائد، ولذا قال ابن عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح، وقيل المراد نبين لك أخبار الأمم الماضية أحسن البيان، لا قصة يوسف خاصة ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ بإيحائنا ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أى السورة لأنه فى الأصل اسم جنس يقع على الكل والبعض، ويجوز أن يكون مفعول «نقص» على جعل «أحسن القصص» مصدراً، ويكون مفعول « أوحينا » محذوفاً، لكن إعمال أوحينا فى هذا المتنازع أولى، لأن إيقاع الإيحاء على القرآن فيه من الفخامة ما ليس فى إيقاع الاقتصاص. والله أعلم ﴿وَإِن﴾ مخففة أى: وإنه ﴿كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ

الْغَافِلِينَ ﴾ عنه لم يقرع سمعك ولا خطر ببالك ، زيادة امتنان عليه وإشارة إلى فضيلة العلم ، وتعليل لكون القرآن موحى ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ منصوب بأذكر ، أو بدل اشتمال من «أحسن القصص» إن كان بمعنى المقصوص لا إن كان مصدراً ، لأن الاقتصاص على رسول الله لا يشتمل على زمان قول يوسف . قاله فى غاية الأمانى ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ يعقوب ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ بالكسر للجمهور فى جميع القرآن وهى ثمانية : يا أبت إنى ، يا أبت هذا ، يا أبت لِمَ تعبد ، يا أبت إنى قد جاءنى ، يا أبت لا تعبد ، يا أبت إنى أخاف ، يا أبت استأجره ، يا أبت افعل : دلالة على ياء الإضافة المحذوفة التى جعلت التاء عوضاً عنها ، وبالفتح لابن عامر دلالة على ألف محذوفة قلبت عن الياء ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ ﴾ فى المنام ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ وهى : الفرغ ، والوثاب ، وذو الكفتين ، والطارق ، وقابس ، والذيال ، وخرثان ، وعمودان ، والفليق ، والمصبح ، والضروح . وهى فى التأويل إخوته وكانوا أحدعشر رجلا يستضاء بهم كالنجوم ﴿ وَالشَّمْسَ ﴾ تأويل أمه « راحيل » أو خالته « ليا » لأن الشمس مؤنثة ﴿ وَالْقَمَرَ ﴾ تأويل أبيه لأنه مذكر ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ تكرير تأكيد أو جواب سؤال مقدر كأنه قيل كيف رأيتهم ، فالأول إخبار عن رؤيتهم والثانى عن رؤية سجودهم ، وجمع بالواو والنون للوصف بالسجود الذى هو من صفات العقلاء ، رآها يوسف نزلت من السماء فسجدت له ﴿ قَالَ ﴾ يعقوب لما علم من تأويل الرؤيا أن إخوته وأبويه سيخضعون له ، وخاف عليه الحسد من إخوته ، وقد علم ما وقع لهابيل مع قابيل ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ تصغير ابن تحبباً وإشفاقاً أو لأنه صغير السن عمره حينئذ اثنتى عشرة سنة ، بكسر الياء للجمهور والفتح لحفص ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ يحتالوا فى هلاكك حسداً لعلمهم بتأويلها من أنهم الكواكب والشمس أمك والقمر أبوك ورؤيا الأنبياء حق ، لم يقل فيكيدوك لتضمنه معنى الاحتيال ليكون آكد وأبلغ فى التخويف ولذلك أكد بالمصدر . قال فى غاية الأمانى : والرؤيا كالرؤية إلا أنها تختص بالمنام وليس لذلك سبب سوى تعلق مشيئة الله تعالى بخلق ذلك فى قلب النائم كما يخلق الرؤية فى حالة اليقظة ، والقول بأنها بانطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ ، فيتصور بما فيها مما يليق من المعانى الحاصلة هناك : ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة : قول بما لم يدل عليه دليل شرعى ولا عقلى ، ولا يليق أن يفسر به كلامه سبحانه وتعالى . اه . قلت : يعنى رد ما قال البيضاوى فى أنوار التنزيل ، وما قاله فى غاية الأمانى هو مذهب أهل السنة ، قال المازرى : مذهب أهل السنة فى حقيقة الرؤيا : أن الله تعالى يخلق فى قلب النائم اعتقادات كما يخلقها فى قلب اليقظان لكونها علما على أمور أخرى يخلقها فى ثانى الحال والكل خلق الله لكن يخلق مايسر بغير حضرة الشيطان فهو الرؤيا ويخلق مايضر بحضرته لينسب إليه وهو الحلم والرؤيا

اسم المحبوب ، والحلم : اسم للمكروه . اه ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ بين العداوة لما فعل فى آدم وحواء ولا يألو جهداً بأبنائهما فى إثارة الحسد حتى يحملهم على الكيد فلا يستبعد منهم . وإن كانوا أبناء أنبياء ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما رأيت ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يختارك أى كما أكرمك بهذه الرؤيا فى الصغر يكرمك بالرسالة فى الكبر وعلم ذلك بإعلام الله أو أخذه من الرؤيا لما روى البخارى أنها جزء من النبوة وكان يفسر الرؤيا وتقع على وفق تأويله ، والاجتباء افتعال من اجتبيت الشىء إذا جعلته لنفسك ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ تفسير الرؤيا لأنها أحاديث النفس فى المنام والتأويل من الأول وهو الرجوع والمراد به رد الشىء إلى غايته علما وفعلا ، وهى اسم جمع للحديث : قاله فى غاية الأمانى وأنوار التنزيل . قلت : بل إنه جمع له على غير لفظه وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا وقيل المراد بها معانى كتاب الله وسنن الأنبياء فهى أحاديث لأنها يحدث بها عن الله ورسله ألا ترى إلى قوله : «فبأى حديث بعده يؤمنون» «الله نزل أحسن الحديث» ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ بالنبوة أو بإيصال نعمة الدنيا بالآخرة ﴿ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ سائر أولاده ، ولعله استدل بنبوتهم بضوء الكواكب لأن منصب النبوة أعلى المناصب فلا تتم النعمة إلا بها ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا ﴾ بالنبوة ﴿ عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبلك أو قبل هذا الوقت ﴿ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ ولم يذكر نفسه هضما لها كما هو سنتهم ، وهو عطف بيان لأبويك ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ كامل العلم بخلقه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى صنعه بهم يختار من يشاء بحكمته ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي ﴾ خبر ﴿ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾ الأحد عشر « روبيل » كبيرهم ، « شمعون ، ولاوى ، ويهودا ، وربالون ، ويشجر ، أمهم « ليا » بنت خال يعقوب . ودان . وتفتالى . وجاد ، وآشير : أمهم سرية ولما توفيت ليا تزوج يعقوب أختها «راحيل» فولدت يوسف وبنيامين فهؤلاء الأسباط أولاد يعقوب ﴿ آيَاتٌ ﴾ بالجمع ، ولابن كثير بالإفراد عبرٌ وعلامات على كمال قدرة الله وصدق النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ لِلسَّائِلِينَ ﴾ عن خبرهم وهم اليهود لاشتماله على أنواع من العبر كرؤيا يوسف وما حقق الله فيها ، وحسد إخوته وما آل إليه أمرهم ، وصبر يوسف فى أمر الجب والبيع ، والسجن ، وما آل إليه أمره من النبوة والملك ، وحزن يعقوب وصبره على فقد الولد ، وما آل إليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك مما يعتبر به ﴿ إِذْ قَالُوا ﴾ أى بعض الإخوة لبعض ولم يكونوا أنبياء حينئذ فلا إشكال ﴿ لَيُوسُفُ ﴾ مبتدأ ﴿ وَأَخُوهُ ﴾ شقيقه « بنيامين » ﴿ أَحَبُّ ﴾ خبر ﴿ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا ﴾ خص الأخ بالإضافة لاختصاصه بالأخوة فى الطرفين ووحد أحب والمراد المثنى لأن « أفعل من » لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ والحال أنا جماعة أقوياء أحق بالمحبة من صغيرين لا كفاية فيهما والعصبة والعصابة من الرجال العشرة فصاعداً إلى الأربعين من العصب وهو الشد والإحاطة لأن الأمور تعصب بهم ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ ﴾ خطإ ﴿ مُبِينٍ ﴾ بين فى إيثار المفضول وترك التعديل فى المحبة ، فتشاوروا فى يوسف فقال بعضهم ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ بأرض بعيدة من العمران ولتنكيرها وإبهامها

نصبت نصب الظروف المبهمة ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ محبته بأن يقبل عليكم ولا يلتفت لغيركم لاينازعكم في محبته أحد ، جواب الأمر ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ بعد قتله أو طرحه ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ تائبين إلى الله عما جنيتم أو صالحين مع أبيكم يصلح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه ، أو صالحين في أمور دنياكم تنتظم لكم بعده بخلو وجه أبيكم ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ هو «يهودا» وقيل «روبيل» ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ فإن القتل عظيم يعسر النجاة من تبعته ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ بالجمع هنا وفيما يأتي لنافع ، وبالإفراد للباقين ، مظلم البئر أي قعره وغوره لغيوبته عن عين الناظر . وفي اللباب : أي أسفل الجب وظلمته ، والغيابة كل موضع يستر شيئاً عن النظر ، و « أل » في الجب للعهد وعينوه للعلة التي ذكروها وهي قولهم ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ المسافرين إذ عرفوا أنه يرد عليه كثير من المسافرين ، والالتقاط : أخذ الشيء من حيث لا يحتسب ليذهبوا به إلى ناحية بعيدة فتستريحوا منه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ لا محالة ما أردتم من التفريق فاكتفوا بذلك ، وفيه إشارة إلى ترك الفعل ، أو إن كنتم فاعلين ما أشرت به ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ أي لِمَ تخافنا عليه ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ لقائمون بمصالحه ، أكدوا الكلام لظهور مخائل الإنكار إرادة لإنزاله عن رأيه في حفظه منهم لما تنسم من حسدهم . والمشهور عن السبعة « تأمنا » بالإدغام بإشمام ، وعن نافع ترك الإشمام ومن الشواذ ترك الإدغام وتيمنا بكسر التاء ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا ﴾ إلى الصحراء ﴿ يَرْتَعْ ﴾ يتسع في أكل الفواكه ونحوها ﴿ وَيَلْعَبْ ﴾ بالسباق والانتضال وسائر أنواع اللعب بالياء في الفعلين وكسر العين في « يرتع » وسكون الباء في « يلعب » لنافع ، وبالياء فيهما وسكون العين للكوفيين ، وبالنون فيهما وإسكان العين لأبي عمرو وابن عامر ، وبالنون فيهما وكسر العين للبزي وكذا قنبل ، لكن روى عنه إشباع كسر العين أيضاً وذلك خمس قراءات ، ولا خلاف في سكون باء « يلعب » ووجه كسر العين من يرتع كونه مضارع «ارتعى» بمعنى «رعى» ، ووجه إسكانه كونه من رتع الحيوان : أكل ما شاء من غير مزاحم ، وهو جواب الأمر ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أن يناله مكروه غاية الاجتهاد حتى نرده إليك سالماً ﴿ قَالَ ﴾ معتذراً لهم بعذرين أحدهما قوله ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ أي ذهابكم به يؤلم قلبي لعدم اعتيادي فراقه ساعة ولا أصبر عنه ؛ والثاني قوله ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ كلب البر المراد به جنسه ، لأن أرضهم كانت كثيرة الذئاب ؛ أو لأنه رأى في المنام أن ذئباً شد على يوسف ، وأبدل الكسائي وورش والسوسي الهمزة ياء تخفيفا ﴿ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ بالاشتغال بالرتع واللعب ﴿ قَالُوا ﴾ استبعاداً لذلك لوجود المنافي ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ جماعة واللام موطئة للقسم وجوابه ﴿ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ عاجزون ضعفاء مستحقون أن يدعى عليهم بالخسارة ، والواو في «ونحن» للحال فأرسله معهم ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا ﴾ عزموا ﴿ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ وجواب « لما » محذوف لإيحاشه السامع أو لطوله أي فعلوا به ما فعلوا ، والجب معروف بجب يوسف على ثلاثة فراسخ من مقام

يعقوب ، فلما أرادوا إلقاءه فى البئر نزعوا عنه قيصه بعد ضربه وإهانته وإرادة قتله وأدلوه فلما وصل إلى نصف البئر ألقوه ليموت فسقط فى الماء ثم آوى إلى صخرة فنادوه فأجابهم لظن رحمتهم فأرادوا رضخه بصخرة فنعهم يهودا ، وكان يعقوب جعل قيص إبراهيم الذى ألبسه جبريل من ثياب الجنة حين ألقى فى النار فى تميمة وعلقها فى عنق يوسف لجاء جبريل لما ألقى فى الجب فشقها وأخرج القميص وألبسه إياه ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ فى الجب وحى حقيقة بالنبوة عند الأكثر وله سبع سنين أو سبعة عشر تطميناً لقلبه وإزالة للهمّ والغم والوحشة ثم بعد ذلك أمره بتبليغ الرسالة فى وقتها ، وقيل وحى إلهام من جبريل يبشره بالخروج ويخبره أنه ينبئهم بما فعلوه به ويجازيهم عليه كما قال تعالى ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم ﴾ بعد اليوم ﴿ بِأَمْرِهِمْ ﴾ بصنيعهم ﴿ هَٰذَا ﴾ أى أوحى إليه هذا القول ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنك يوسف لعلو شأنك وطول العهد ، أو لا يشعرون وقت الإيحاء به يظنون أنك فى وحشة وشدة ، قال فى لباب التأويل : والمقصود بهذا الإيحاء تقوية قلب يوسف وأنه سيخلص مما هو فيه ويصير مستولياً عليهم ويصيرون تحت أمره وقهره ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ قال لهم مالكم ؟ وأين يوسف ؟ قال ابن العربى : قال العلماء هذا يدل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله لاحتمال التصنع ومن الناس من يقدر على ذلك . اه . وعبر بالمضارع إيذاناً بالحدوث ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ نتسابق بالسهام ليتبين سهم أينا أبعد أو بالأقدام فى العدو ليتبين أينا أسرع وأخف أو إلى الصيد ، وافتعل يجىء بمعنى تفاعل كثيراً ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ ﴾ مصدق ﴿ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ عندك لاتهمتنا فى هذه القصة لمحبة يوسف فكيف وأنت سيئ الظن بنا ، عبروا بـ «لو» مكان «إن» إشارة إلى أن تصديقهم كالمستحيل عنده ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ ﴾ محله نصب على الظرفية أى فوقه وهو فى الأصل صفة دم قدم للاهتمام به ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ مصدر وصف به مبالغة أو ذى كذب أى مكذوب فيه من إطلاق المصدر على المفعول ويجوز نصب « على قيصه » على الحال لأن ابن مالك يجوّز تقديمه على المجرور. روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوا ثوبه بدمها وذهلوا عن شقه وقالوا إنه دمه فأخذه يعقوب وتأمله وقال : ما رأيت ذئباً أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قيصه ثم ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ زينت وسهلت ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أى صنعاً عظيما من السول وهو الاسترخاء ففعلتموه به لا ماتصفون من أكل الذئب ، وإنما علم ذلك بالوحى أو بسلامة القميص مع علم الحسد منهم ، وقيل إنهم أتوه بذئب وقالوا هذا أكله فقال يعقوب : أيها الذئب أأنت أكلت ولدى ؟ فأنطقه الله وقال : والله ما أكلته ولا رأيته ولا يحل لنا أكل لحوم الأنبياء فأطلقه وقال « بل سولت لكم أنفسكم أمراً » ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ لا جزع فيه وهو الذى لا شكوى فيه إلى الخلق ، كما قال « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » وهو خبر مبتدأ محذوف أى أمرى ، أو مبتدأ محذوف الخبر أى : فصبر جميل أمرى . أو أجمل ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾ المطلوب منه العون ﴿ عَلَىٰ

مَا تَصِفُونَ ﴾ تذكرون من أمر يوسف أى على احتماله وأتى بالموصول إشارة إلى عظم الأمر وتسليمه إلى الله والتوكل عليه ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ مسافرون من مدين إلى مصر ، فنزلوا قريباً من جب يوسف فى اليوم الثانى أو الثالث من طرحه فيه ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ الذى يرد الماء ليستقى منه واسم واردهم « مالك بن ذعر الخزاعى » ﴿ فَأَدْلَى ﴾ أرسل ﴿ دَلْوَهُ ﴾ فى البئر فتعلق بها يوسف فأخرجه ، فلما رآه ﴿ قَالَ يَا بُشْرَاىَ ﴾ بالإضافة إلى ياء المتكلم مفتوحة فى الوصل ساكنة فى الوقف للجمهور ، والكوفيين بدون ياء الإضافة ونداؤها مجاز أى أحضرى هذا أوانك ﴿ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾ وقيل : « بشرى » اسم رجل على قراءة الكوفيين فلما أخرج جاء إخوته وكانوا يترصدونه وقالوا : هو غلام لنا أبق فاشتروه منا ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ الضمير لإخوة يوسف أى أخفوا أمرهم جاعليه ﴿ بِضَاعَةً ﴾ متاعا للتجارة من البضع وهو القطع لأنه المال المقطوع للتجارة وهو حال من المفعول أو الضمير للوارد وأصحابه أى أخفوه من سائر الرفقة أو أخفوا أمره ، وقالوا لهم : هو بضاعة أى دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ إشارة إلى عظم ما ارتكبوه ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ باعوه وفى مرجع الضمير الوجهان أو اشتروه من إخوته ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ ناقص أو مبخوس لزيفه ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ تعد عدًّا ولا توزن ، قيل كانوا لا يزنون إلا مابلغ الأوقية ، قيل : كانت عشرين أو اثنين وعشرين ﴿ وَكَانُوا ﴾ أى إخوته أو الملتقطون ﴿ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ غير راغبين فإن كان الضمير للإخوة فظاهر أو للواجدين فلأن الملتقط للشىء لا يبالى به مبالاة من اشتراه لأنه لم يتعب فى تحصيله ويخاف أن يظهر له مستحق ينتزعه فجاءت به السيارة إلى مصر فباعه الذى اشتراه بعشرين ديناراً وزوجى نعل وثوبين أبيضين وقيل ترافع الناس فى ثمنه حتى بلغ وزنه ذهبا وفضة ومسكا وحريراً وكان وزنه أربعمائة رطل فابتاعه « قطفير » بذلك الثمن وكان عزيز سلطان مصر ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ ﴾ « قطفير » الذى على خزائن مصر ﴿ لِامْرَأَتِهِ ﴾ « زليخاء » أو « راعيل » ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ مقامه عندنا فى المطعم والملبس ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ بالقيام على أموالنا ومتاعنا ونستظهر به على مصالحنا ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ نتبناه وكان العزيز عقيما أو حصورا وتفرس فيه الرشد والكفاية ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما أنجيناه من القتل والجب ومكنا له الود والمحبة فى قلوب الناس حتى عطف عليه قلب العزيز ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر حتى بلغ ما بلغ حتى آمن به ملك مصر يومئذ وهو « ريان بن الوليد العمليق » كما يأتى ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ للأنبياء والأمم أو أحاديث الرؤيا عطف على مقدر متعلق بمكناه أى ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه أى كان القصد فى إنجائه وتمكينه أن يقيم العدل ويدبر أمور الناس ويعلم معانى كتب الله وأحكامه فينفذها أو تعبير المنامات المنبئة عن الحوادث الكائنة ليستعد لها ويشتغل بتدبيرها قبل أن تحل كما فعل لسنينه ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ لا يعجزه شىء أو على أمر يوسف أراد به إخوته شيئاً وأراد الله غيره وبلغ

يوسف مابلغ ويطل كيد إخوته فيه ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ولنا لا يفوضون أمرهم إليه أو لا يتأملون دقائق صنعه وخفايا لطفه ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ مبدأ اشتداد جسمه أو منتهاه ثمانى عشر أو عشرين أو ثلاثين أو أربعين مفرد كالآنك : أى الرصاص ، والأسرب : وهو القزدير وقيل جمع لا مفرد له وعن سيبويه مفرده شدة كنعمة وأنعم ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا﴾ حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أو حكما بين الناس بالملك لقوله «رب قد آتيتنى من الملك » أو نبوة فإنها سبب الحكم ﴿وَعِلْمًا﴾ مخصوصا به كتأويل الأحاديث أو فقها فى الدين ، وقيل : الحكمة حبس النفس عن هواها والعلم هو النظرى ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جزيناه بهذه النعم كلها ﴿نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾ لأنفسهم تنبيه على أن مانا له جزاء لإحسانه فى عمله وتقواه فى أول أمره ﴿وَرَٰوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ هى «زليخاء» ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ أى طلبت منه أن يواقعها بأنواع الحيل مفاعلة من راد يرود جاء وذهب لشىء ومنه الرائد مجاز عن إرادة مواقعته إياها بأسباب من الحيل وأتى بالموصول سترا عليها وإظهاراً لغاية نزاهة يوسف لأن الأمور أدلّ هنا على كمال تبرئته وطهارة ذيله لأنه إذا كان فى بيتها ، معدودا من الخدم وهى متمكنة منه غاية التمكن ولم تنل منه مارامته كان دليلا لكونه ثابت القدم فى التقوى ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَٰبَ﴾ البيت وكانت سبعة والتشديد للتكثير أو للمبالغة فى الإيثاق وفرشت الحرير ودعته ﴿وَقَالَتْ﴾ له ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أى هلم - بكسر الهاء لنافع وابن عامر وبفتحها للباقين وقرأ ابن كثير بضم التاء ويروى عن هشام والباقون بفتحها اسم فعل بمعنى أقبل أو تهيأت واللام للتبيين ولهشام هئت بجئت من هاء يهىء إذا تهيأ أى حسن هيئته وعلى هذا فاللام من صلته ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أعوذ بالله من ذلك ﴿إِنَّهُ﴾ أى الذى اشترانى أو إن الشأن ﴿رَبِّى﴾ سيدى ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ مقامى فلا أخونه فى أهله وقيل الضمير لله : أى كيف أعصى مولاى المحسن المتفضل ﴿إِنَّهُ﴾ أى الشأن وهذا يقوى كون الأول للشأن : للتوافق فى المرجع ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّـٰلِمُونَ﴾ الزناة فمن جازى الحسنة بالسيئة فهو ظالم ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ قصدت منه الجماع وعزمت ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ قصد ذلك ولم يعزم وكف هوى النفس عن مقتضى الميل على الفور كما هو شأن المتقين « ومن هم بسيئة ولم يفعلها كتبت له حسنة » إذ حديث النفس إن كان خطوره ليس اختياريا لا يصدق عليه اسم العزم ولا يؤاخذ به فى جميع الملل فإن كان معزوما عليه لكن من غير تصميم ولا فعل فهذا ما تجاوز الله عن هذه الأمة خاصة لحديث «تجاوز الله عن أمتى ماحدثت به نفسها مالم تتكلم أو تعمل» وحملنا الحديث على عدم التصميم وإن عمه فى مفهومه جمعا بينه وبين قوله فى شأن المقتول كان حريصا على قتل صاحبه فهو منطوق فيه ولا يعارضه المفهوم ﴿لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِ﴾ القاطع على حرمة الزنا وقبحه وسوء مغبته وجواب لولا لخالطها . وعن ابن عباس : مثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف منصوب المحل أى مثل ذلك التثبيت ثبتناه أو مرفوعه أى الأمر كذلك ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ﴾ الخيانة ﴿وَالْفَحْشَآءَ﴾ الزنا ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام لنافع والكوفيين أى المصطفين وبكسرها

للباقين أي في الطاعة وهذه شهادة من الله في خلوص يوسف من كل ذنب رادة ما يقول جهلة المفسرين فيه من أن الشيطان جمع بينه وبين المرأة حتى جلس منها مجلس الخاتن وغير ذلك مما لا يلتفت إليه. قال ابن العربي في أحكامه: ولقد أخبر الله سبحانه عن حال يوسف من حين بلوغه بأنه آتاه حكما وعلما، والحكم هو العمل بالعلم وكلام الله صادق وخبره صحيح ووصفه حق فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنا وتحريم خيانة السيد في أهله فما تعرض لامرأة العزيز بل أدبر عنها وفر منها حكمة خص بها وعمل بما علمه الله وهذا يطمس وجوه الجهلة من الناس والغفلة من العلماء في نسبتهم إلى الصديق مالا يليق كحل السراويل والهم بالفتك وحاشاه من ذلك فما لهؤلاء المفسرين لايكادون يفقهون حديثا يقولون فعل والله يقول هم. اه ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ ابتدراه يوسف للفرار وهي لترده إليها حذف الجار لتضمين الفعل معنى الابتدار فأمسكت قميصه وجذبته إليها ﴿وَقَدَّتْ﴾ شقت طولا ﴿قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ من ورائه لشدة الجذب فتمزق القميص من عند طوقه إلى أسفله ﴿وَأَلْفَيَا﴾ صادفا ﴿سَيِّدَهَا﴾ زوجها ﴿لَدَى الْبَابِ﴾ لأنه لما هرب يوسف إلى الأبواب انفتحت فوجدا زوجها على الباب جالسا على عادة الأكابر وسمي سيدها لملكه بضعها فنزهت نفسها ثم ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ زنا ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم بأن يضرب بالسياط إيهاما بأنها فرت منه تبرئة لساحتها عند زوجها وإغراء به انتقاما منه و «ما» نافية أو استفهامية بمعنى: أي شيء جزاؤه إلا السجن. قاله البيضاوي وغيره، وفي لباب التأويل: وإنما بدأت بذكر السجن على العذاب لأن المحب لايشتهي إيلام المحبوب وإنما أرادت أن يسجن ويمنع التصرف عندها يوما أو يومين ولم ترد السجن الطويل وهذه لطيفة فافهمها. اه ﴿قَالَ﴾ يوسف متبرئا عما لطخته به من وصمة الخيانة ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ طلبت الفاحشة مني فأبيت ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ ابن عمها روي أنه كان في المهد وكان مع زوجها عند الباب فقال ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ قدام ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ لأنه يدل على أنها قدته بالدفع عن نفسها ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ خلف ﴿فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لأنه يدل على أنه فر منها وعلى أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فقدته وقدم ما يدل على صدقها لأنها كانت مدعية تقدم حجتها والشرطية محكية على إرادة القول أو على أن فعل الشهادة من القول وتسميتها شهادة لأنها أدت مرادها ﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ زوجها ﴿قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ: إِنَّهُ﴾ أي قولك: «ما جزاء ...» إلى آخره، أو إن هذا الأمر ﴿مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ حيلكن والخطاب لها ولأمثالها ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ﴾ أيها النساء ﴿عَظِيمٌ﴾ لدقة مسلكه فهن ألطف كيداً وأشد تأثيرا في النفس لهن من الحيل في إتمام مرادهن ما لايقدر عليه الرجال، وفي الصحيح: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن»، وعن علي: «لا آمن على نفسي أن أبيت ليلة مع عجوز». ثم قال زوجها أو الشاهد ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الأمر ولا تذكره لئلا يشيع، واجعله

نسيا منسيا ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى ﴾ يا زليخا. ﴿ لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ﴾ القوم ﴿ ٱلْخَاطِئِينَ ﴾ الآثمين من خطئ بالكسر أذنب متعمدا والتذكير للتغليب مبالغة لأن صفة الرجال أكمل واشتهر الخبر وشاع منها ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ اسم لجمع امرأة وضم نونه لغة ﴿ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ظرف لقال: أشعن الحكاية فى مصر ،أو صفة نسوة وكن خمسا: زوجة الحاجب والساقى والخباز والسجان وصاحب الدواب ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ تريد مواقعة عبدها إياها قلن ذلك تقبيحا لشأنها ولذلك أضافوها إلى بعلها ليتضح الإنكار. والعزيز فى لسان العرب: الملك، وفى مصر: هو الوزير. والفتى لغة: هو الشاب، وفى العرف: هو العبد، وفى الحديث: «لا يقل أحدكم عبدى أو أمتى، كلكم عباد الله وإماؤه، وليقل فتاى وفتاتى وغلامى وجاريتى، ولا يقل العبد ربى ولا مولاى فإن مولاكم الله وليقل سيدى». رواه مسلم، قال القاضى عياض فى الإكمال شرح مسلم: بين فى الحديث العلة فى ذلك من اشتراك اللفظ بين المخلوق والخالق والربوبية لله حقيقة فيجب للعبد ألا يسامح بتسمية سيده بذلك وندائه بذلك بحال، وأصل الربوبية الملك وكل من ملك شيئاً فهو ربه، والربوبية أيضا القيام على الشىء لكن لا مالك ولا رب حقيقة إلا الله. فإن قيل: ما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى عن يوسف «اذكرنى عند ربك» وارجع إلى ربك «إنه ربى أحسن مثواى»، وقوله صلى الله عليه وسلم: «أن تلد الأمة ربتها» ،فاعلم أن المنهى من ذلك أن يتخذ عادة لا يذكر باسم سواه حتى يفشو ويستعمل استعمال مثله فى الخالق وربما أدخل اللبس على الضعفاء ويقع فى نفس المدعو به كبر وتعاظم وأما ما ذكر عن يوسف عليه السلام فيحتمل أنه كان استعمالهم فى ذلك الوقت فى حق المملوك والنهى إنما جاء فى شرعنا والفرق بين الرب والسيد أن لفظ السيد غير مستعمل فى حق الله استعمال الرب وليس فى قول العبد «سيدى» إشكال إذ قد يستعمله غير العبد وليس فيه ما يدخل لبسا ولا كبرا ولا تشبيها بالخالق كما فى لفظ الرب إلى أن قال: وفى الحديث إرشاد عنه صلى الله عليه وسلم لأمته أن تعرف مواقع الألفاظ المشتركة بالشىء المكروه والتجنب عنها وترك المبالغة فى الأوصاف واستعمال ألفاظ التواضع والعبودية وترك المبالغة فى الأوصاف وألفاظ التطاول والتجبرية والتعظيم والكبر. اه ملخصا وإنما ذكرت هذا التنبيه لبعض أهل الزمان فى التسامح بندائهم بالملك ونحوه من أسماء التكبر مع جعل ذلك عادة حتى أن من ناداهم بأسمائهم فكأنه ازدراهم والله الموفق ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ تمييزا أى دخل حبه شغاف قلبها أى غلافه ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ خطأ عن الرشد والصواب لأنها امرأة ملك فكيف رضيت العشق بغلامه ﴿ مُّبِينٍ ﴾ بيّن لحبها إياه ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ غيبتهن لها سمى مقالتهن مكرا على التشبيه لأن الاغتياب يكون خفية كما يكون المكر والخديعة كذلك وقيل لأنها كانت أسرت إليهن ذلك واستكتمتهن إياه فأفشينه وقيل لأنها علمت أنهن لم يقلن ذلك إلا لكونهن مفتونات بحبه فأردن بذلك انقطاعها ليخلو لهن وجه يوسف لكن السياق يرد هذا ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ تدعوهن إلى الاجتماع عندها قبل دعت

أربعين امرأة فيهن الخمس المذكورات ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ بتشديد الفوقية وبعد الكاف همزة للسبعة اسم مفعول ما يتكأ عليه من النمارق والطنافس لأجل شراب أو طعام أو حديث ، وقيل متكأ مجلس طعام لأنهم يتكئون إذا جلسوا للتناول ترفعاً ، وقرئ «متكا» بضم الميم وسكون الفوقية وتنوين الكاف من غير همز وهو الأترج أو كل شيء يقطع بالسكين كالأترج وغيره من الفواكه وتفسيره في قراءة الجمهور بالأترج كما في التكملة خطأ . قال أبو عبيدة : زعم قوم أن المتكأ هو الأترج وهذا النقل باطل في اللغة قال القسطلاني : قد علم مما مر أن المتك المخفف بمعنى الأترج والمشدد هو ما يتكأ عليه فلا تعارض بين النقلين . اه . والتوشيح مثل ذلك . والله أعلم ﴿وَءَاتَتْ﴾ أعطت ﴿كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ قصدت بذلك افتضاحهن لأنها تعلم أن جمال يوسف إذا ظهر سلب عقولهن فيقطعن أيديهن ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وكان يخاف مخالفتها فخرج عليهن ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أعظمنه لفائق جماله وكان يُرى تلألؤ وجهه على الجدران . قال الفخر : لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وإزار خضوع الأخيار وهيبة الملائكة بعدم الالتفات إلى المنكوح والمطعوم فوقع الرعب في قلوبهن . اه ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بالسكاكين ولم يشعرن بالألم لشغل قلبهن بيوسف قال قتادة : أبن أيديهن حتى ألقينها ، والأصح أنه كان قطعاً من غير إبانة . وقال وهب : مات جماعة منهن ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً لله أو معاذ الله كلمة للبراءة والتنزيه . قيل : حرف جر استعمل مصدراً . قال البيضاوي : أي تنزيهاً لله من صفات العجز تعجباً من قدرة الله على خلق مثله ، وأصله حاشا بالألف كما قرأه أبو عمرو في الدرج فحذفت ألفه الأخيرة تخفيفاً وهو حرف يفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء فوضع موضع التنزيه واللام للبيان كما في قولك سقياً لك ، وقيل فعل من الحشا الذي هو الناحية فاعله ضمير يوسف ، أي صار في ناحية الله عما يتوهم فيه ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ لأن هذا الجمال غير معهود من البشر لما حواه من الحسن الذي لا يكون عادة في النسمة البشرية ، وفي الصحيح أنه أعطى شطر الحسن ﴿إِنْ﴾ ما ﴿هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ على الله لأنه قد ركز في النفوس أن لا شيء أحسن من الملك ولأن الملك لما كان مطهراً من الشهوات وصفنه به ﴿قَالَتْ﴾ امرأة العزيز لما رأت ما حل بهن ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ أي فهذا هو العبد ﴿الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ في مراودته بيان لعذرها ، وأشارت بما وضع للبعيد رفعاً لشأنه وإعلاماً ببعد مقامه عن التصور ، ثم صرحت بما فعلت حين عرفت أنهن يعذرنها فقالت ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ امتنع طلباً للعصمة ، والاستعصام المبالغة في التحفظ ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الأذلاء وهو من صغر بالكسر يصغر صغراً وصغاراً فهو صاغر ، وأما الصغير فهو من صغُر بالضم صغراً ؛ قاله البيضاوي وغيره ، ولكن في القاموس : الصغر كعنب ، والصغارة بالفتح خلاف العظم أو الأول في الجرم ، والثانية في القدر ، صغر ككرم وفرح فهو صغير وصغار وصغران بضمها ،

وما صغرنى إلا سنة كنصر ، أى : ما صغر عنى . والصاغر الراضى بالذل ، وقد صغر ككرم صغرا كعنب وصغاراً وصغارة بفتحهما ؛ وصغراً وصغرانا بضمهما . اه . وفيه مخالفة لما قالوا . والله أعلم . فقالت النسوة ليوسف : أطع مولاتك ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ نظراً إلى العاقبة وإسناد الدعوة إليهن جميعاً لأنهن زيّنّ له مطاوعتها أو دعونه إلى أنفسهن ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ خداعهن ﴿ أَصْبُ ﴾ أمل ﴿ إِلَيْهِنَّ ﴾ من الصبوة وفى المثل « لكل جواد كبوة ، ولكل حليم صبوة ، ولكل صارم نبوة » ﴿ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ عظمة الله لأن من عرف الله لا يعصيه ، والقصد بهذا : الدعاء فلذا قال تعالى ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ﴾ دعاءه وهو الدخول فى السجن لنيل النجاة من كيدهن ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ بالعصمة : آثر مشقة السجن على اللذة المتضمنة للعصيان ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لدعاء الملتجئين إليه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم ﴿ ثُمَّ بَدَا ﴾ ظهر ﴿ لَهُم ﴾ للعزيز ومن فى داره من الخدم وامرأته حين قالت امرأته : قد فضحنى هذا العبد العبرانى عند الناس ، لأنه يخرج إليهم ويخبرهم بأنى قد راودته عن نفسه ويصف الأمر بحسب اختياره وأنا محجوبة ، فإما أن تأذن لى فأخرج وأعتذر إلى الناس وإما أن تحبسه ، فبدا لهم أن يسجنوه ﴿ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ ﴾ الدالة على براءة يوسف من قد القميص وكلام الطفل واستعصامه عن النساء اللاتى قطعن أيديهن ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ جملة دخلت عليها لام القسم تفسر فاعل « بدا » ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ إلى وقت ينقطع فيه كلام الناس : خدعت المرأة زوجها بحمله على سجنه زماناً لعله يختار رضاها ويترك اللجاج وليحسب الناس أنه المجرم ، فسجن ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ غلامان للملك أحدهما صاحب شرابه والآخر صاحب طعامه لاتهامهما بأنهما سماه ، وذلك أن أشراف مصر أرادوا قتل الملك فرشوا الغلامين بمال عظيم على أن يسماه فأجابا ، ثم إن الساقى ندم ورجع وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام وأحضره ، فقال الساقى للملك : لا تأكله فهو مسموم ، وقال الخباز : لا تشرب شرابه فهو مسموم . فقال للساقى : اشرب ما أتيت به فشربه ولم يضره ، وقال للخباز : كل طعامك فأبى ، فأطعم دابة فماتت فأمر بحبسهما فاتفق مع حبس يوسف لجمل يوسف ينشر علمه ويأمر وينهى ويعبر الرؤيا فرآهما مهمومين فسألهما ، فقالا : رأينا رؤيا قد غمتنا . فقال قصا علىّ ما رأيتما ، أو لم يريا شيئاً بل قالا لنختبرنه ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا ﴾ وهو الساقى ﴿ إِنِّي أَرَانِي ﴾ فى المنام ، وهو حكاية الماضى بالمستقبل ﴿ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ أى عنباً إطلاق للشىء على اسم ما يئول إليه ، أى رأيت كأنى أخذت من البستان ثلاث عناقيد لجنيتها فعصرتها فى كأس الملك أسقى الملك ﴿ وَقَالَ الْآخَرُ ﴾ صاحب الطعام ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ أى أحمل ثلاث سلال فيها خبز وسباع الطير تنهش منه ﴿ نَبِّئْنَا ﴾ خبرنا ﴿ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ تعبير ما رأينا ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ تأويل الرؤيا . كان أهل السجن يعرضون الرؤيا عليه فيحسن تأويلها . أو من المحسنين إلى أهل السجن وفى جميع أفعالك فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا وهذا الثانى أولى

لأنه كان إذا مرض أحد من أهل السجن قام عليه وسعى فى أمره ، وإذا ضاق على أحد وسع له ، وكان مع هذا يجتهد فى العبادة يصوم النهار ويقوم الليل كله للصلاة ، ورأى قوماً اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم فى الخروج فقال لهم : أبشروا واصبروا فإن لهذا آخراً وفيه الثواب . فقالوا : بارك الله فيك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت ؟ فقال « أنا يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم » فعلموا أنه كريم ابن كرماء فقال صاحب السجن : لو استطعت لخليت سبيلك ولكن اختر أى بيوت السجن شئت ، ثم قدم يوسف على جواب سؤال الفتيين إظهار المعجزة ، والدعوة إلى التوحيد ، لأن ذلك أهم ، وليعلما أن درجته فى العلم أعظم مما اعتقدا فيه لأن إخبار المغيبات على سبيل اليقين أعظم من تعبير الرؤيا المبنى عندهم على الظن ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ ﴾ فى منامكما ترزقانه أنتما ﴿ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ فى اليقظة بقدره ولونه ووقته ﴿ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ قبل أن يصل إليكما ، فيكون كتفسير المشكل ، وقيل : المراد إخبارهما بغيوب لا تعلق لها بالرؤيا بأن يعلمهما ما يحمل إليهما من الطعام كل وقت ويصف لهما ذلك ويقع الأمر على وفق وصفه ، وإنما ذكر هذا القدر من الثناء على نفسه ليتوصل منه إلى الدعوة إلى التوحيد مع أنه يناسب تأويل الرؤيا لأنه إخبار بالغيب ، وهذه طريقة الأخيار من الأنبياء والعلماء يقدمون الإرشاد والهداية بين يدى جواب الفتيا لينتبه السائل على أن الأولى به ما ذكر له لا ما يسأل عنه ، وفى حكاية الله ذلك إشارة إلى أن العالم إذا لم تعلم منزلته فى العلم يصف نفسه بما هو عليه فى نفس الأمر لئلا يضيع علمه لا لتزكية النفس المنهى عنه ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ وحياً وإلهاماً كأنهما قالا له من أين لك هذا العلم وفيما تقدم حث على إيمانهما ولذا قواه بقوله ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ ﴾ دين ﴿ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ ﴾ تأكيد ﴿ كَافِرُونَ ﴾ دليل على أن إخباره بالمغيبات تعليم من الله بالوحى لا بالكهانة والتنجيم الموجودين فى النفوس الخبيثة ، ومعنى الترك عدم التعرض له ، وليس من شرطه أن يكون قد دخل فيه ثم رجع عنه ، وذكره ليبين أنه وإن كان عند « العزيز » وهو كافر وجميع من معه كذلك : لم يكن على ملتهم بل كان على التوحيد والإيمان الصحيح ثم وصف نسبه الطاهر بعد ذكر حسبه تقوية لدعوة التوحيد ليثق السامع بخبره فقال ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ وهؤلاء مشهورون بالنبوة والرسالة ولذا بين نسبه منهم ليطيعا أمره ﴿ مَا كَانَ ﴾ ما صح ﴿ لَنَا ﴾ معشر الأنبياء ﴿ أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ لعصمتنا ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ وهذا حث على إرشادهما أيضاً ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ وهم الكفار ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ الله فيشركون ، ثم صرح بدعائهما إلى الإيمان فقال ﴿ يَا صَاحِبَيِ ﴾ يا ساكنى ﴿ السِّجْنِ ﴾ أو يا صاحبىَّ فيه فأضافهما إلى السجن على الاتساع كقولهم : يا سارق الليل ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ ﴾ متعددون ﴿ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ كل شىء فهو تحت حكمه وسلطانه ، خير : استفهام تقرير فهو مثلٌ ضربه لهم فى عبادة الله وعبادة الأصنام وكانوا يعبدونها ، ومعنى

﴿ متفرقون ﴾ شتى من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وغير ذلك ، وصغير وكبير ومتوسط متباينون فى الصفة بلا نفع ولا ضر أى أهم أعظم صفة فى استحقاق الإلٰهية أم الله الواحد القهار الذى لا مثل له ولا شبيه ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر ﴿ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أى سميتم بها أصناما سميتموها آلهة وأربابا وهى حجارة خالية عن المعنى كما إذا سمى الحجر ذهبا فلا حاصل له إلا ذكر الاسم ﴿ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ حجة وبرهان تدل على تحقيق مسمياتها فيها ﴿ إِنِ ﴾ ما ﴿ الْحُكْمُ ﴾ فى أمر العبادة ﴿ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ وحده ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ بيان لما حكم به ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ التوحيد ﴿ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ المستقيم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ وهم الكفار ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ مايصيرون إليه من العذاب فيشركون ، ولما فرغ يوسف عليه السلام من الدعاء إلى الله رجع إلى تعبير رؤياهما فقال ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا ﴾ أى الساق فيخرج بعد ثلاث ﴿ فَيَسْقِي رَبَّهُ ﴾ سيده ﴿ خَمْرًا ﴾ على عادته : هذا تأويل رؤياه والعناقيد الثلاثة هى الأيام الثلاثة التى يبقى فيها فى السجن ﴿ وَأَمَّا الْآخَرُ ﴾ وهو الخباز فيخرج بعد ثلاث ﴿ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ﴾ هذا تأويل رؤياه فالسلال الثلاث هى الليالى الثلاث فقال الخباز ما رأيت شيئا وإنما قلته امتحانا فقال ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ عنه أى ما قلته كائن لا محالة صدقتما أم كذبتما وهذا ما علمنى ربى فى عاقبة أمركما ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ ﴾ أيقن يوسف ﴿ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ﴾ وهو الساقى ﴿ اذْكُرْنِي ﴾ أى اذكر حالى ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ سيدك الملك كى يخلصنى فقل له إن فى السجن غلاما محبوسا ظلما ، فخرج ﴿ فَأَنْسَاهُ ﴾ أى الساقى ﴿ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ ﴾ يوسف عند ﴿ رَبِّهِ ﴾ أو أنسى الشيطان يوسف ذكر الله فى ذلك الوقت حتى استعان بغيره وإن جاز ذلك فلا يليق لمقامه ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ سبعا أو اثنى عشر والأول أشهر والثانى باعتبار أنه لبث قبل هذه الكلمة خمس سنين فالجملة اثنا عشر ، روى أنه لما قال الكلمة قال له جبريل يقول لك ربك أما تستحى منى إذ استغثت بالآدميين فوعزتى لألبثنك فى السجن بضع سنين ، قال يوسف وهو فى ذلك عنى راض ، قال نعم ، قال إذاً لا أبالى . ولما أراد الله إخراجه من السجن رأى ملك مصر فى المنام سبع بقرات سمان قد خرجن من البحر ثم خرج عقبهن سبع عجاف فابتلعن السمان ورأى سبع سنبلات خضر وسبعا أخر يابسات قد التوت على الخضر حتى علون عليهن ولم يبق من خضرتها شىء فجمع السحرة والكهان والمعبرين فسألهم عن الرؤيا كما قال تعالى ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾ الريان بن الوليد ﴿ إِنِّي أَرَىٰ ﴾ أى رأيت ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ ﴾ يبتلعهن ﴿ سَبْعٌ ﴾ من البقر ﴿ عِجَافٌ ﴾ جمع عجفاء ، وإنما جعل السمان صفة المميز دون العدد للدلالة على أن السمن هو المقصود والوصف مكمل ، وحذف المميز فى سبع عجاف للعلم به ، وجعل الوصف للعدد للدلالة على أن العجاف سبع فقط وأن السمان لا تنحصر فى السبع ، هذا طبق الواقع لقلة الشدة وكثرة الرخاء وجمع عجفاء على عجاف حملا على سمان وإلا فقياسه «عجف»

﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ انعقد حبها ﴿وَأُخَرَ﴾ أى سبع سنبلات ﴿يَابِسَاتٍ﴾ أى أدركت قد التوت على الخضر وعلت عليها وعلم كون اليابسات سبعاً بالسياق وحذف لتكرره كما حذف البقرات من العجاف ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ الأشراف، نادام لزيادة معرفتهم والوثوق بتأويلهم ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ عبروها، وآثر لفظ الإفتاء للإشكال ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ تحسنون عبارتها وهى الانتقال من الصور الخيالية إلى المعانى النفسانية التى هى مثالها، وخص التعبير بتفسير الرؤيا لأن المفسر عابر أى متجاوز من ظاهرها إلى باطنها ليستخرج معناها وهو أخص من التأويل لأنه يقال فيه وفى غيره: من عبرت النهر إذا جاوزته. قال البيضاوى: عبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها تعبيرا، واللام فى «للرؤيا» لتقوية العامل ﴿قَالُوا﴾ هذه ﴿أَضْغَاثُ﴾ أخلاط ﴿أَحْلَامٍ﴾ جمع ضغث: قبضة حشيش مختلط رطبه باليابس، استعير للرؤيا التى لا يعرف وجهها، والأحلام: جمع حلم: ما يراه النائم. قال الثعالبى: والضغث فى كلام العرب أقل من الحزمة وأكثر من القبضة من النبات والعشب ونحوه، وربما كان من جنس واحد، وربما كان من أخلاط النبات ... إلى أن قال: والأحلام والرؤيا مما أثبتته الشريعة، قال عليه السلام: «الرؤيا من الله وهى المبشرة والحلم المحزن من الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليتفل عن يساره ثلاث مرات وليقل: أعوذ بالله من شر ما رأيت فإنها لا تضره» وأما ما كان عن حديث النفس فلا يلتفت إليه. اه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ أى الأحلام المذكورة لأنها نكرة أعيدت معرفة أى ليس لها تأويل ولما قالوا هذا ومع ذلك لم يطمئن قلب الملك لأنه رأى الناقص قد استولى على الكامل حتى غلبه ومنع الله الكهنة والمعبرين عن تأويل هذه الرؤيا ليكون سببا لخلاص يوسف قال له ساقيه ما أخبره الله به بقوله ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ من الفتيين وهو الساقى ﴿وَادَّكَرَ﴾ أى تذكر حال يوسف أو قوله اذكرنى ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ حين والجملة اعتراض بين القول ومقوله وهو ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ﴾ والضمير للملك ومن معه من المعبرين أوله فقط والجمع للتعظيم ﴿بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى يوسف فأرسلوه فأتاه فقال يا ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ الكثير الصدق لأنه جرب أحواله وعرف صدقه لاسيما فى تأويل رؤياه وصاحبه ﴿أَفْتِنَا فِي﴾ رؤيا ﴿سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ واستغنى عن حال السنبلات بما قص من حال البقرات كما تقدم ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ الملك ومن عنده أو إلى أهل البلد إذ قيل إن السجن لم يكن فيه ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويلها أو فضلك وإنما عبر بلعل فيهما لعدم الجزم بالرجوع فربما اخترم دونهم وعدم الجزم بعلمهم فضله لأنهم سجنوه بعد ما رأوا الآيات الدالة على طهارته فمن لم يؤمن بذلك لا يبعد منه أن يجهل قدره بعد تأويل الرؤيا ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ أى ازرعوا ﴿سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ متتابعة أو على عادتكم المستمرة وانتصابه على الحال أى دائبين أو على المصدر بإضمار فعله دأب فى العمل لازمه واعتاده وقرأ حفص بفتح الهمزة وتعبير الأمر بلفظ الخبر أبلغ من صريحه وهذا تأويل السبع السمان ﴿فَمَا

حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ ﴾ اتركوه ﴿ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ لئلا يفسد بالسوس اعتراض منه قبل تمام الرؤيا نصحالهم كأنه قد وقع ما أخبر به فهو يأمرهم بما فيه صلاحهم ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ فادرسوه واتركوا الأكثر فى سنبله لأنه أبقى له مع طول الزمان للسنين الجدبة ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أى السبع المخصبات ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ مجدبات صعاب على الناس وهى تأويل السبع العجاف ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ من الحب المزروع فى السنين المخصبات أى تأكلونه فيهن فأسند الأكل إليهن مجازا تطبيقا بين المعبر والمعبر به ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ تحفظون وتدخرون لبذور الزراعة ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ السبع المجدبات ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ يمطرون من الغيث أو يغاثون من القحط : من الغوث ، يقال : استغثته :طلبت منه الغوث أو الغيث ، فأغاثنى من الغوث وغاثنى من الغيث . قال ذو الرمة لبعض العرب : كيف كان المطر عندكم ؟ فقال غثنا ما شئنا ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ بالغيبة للجمهور مايعصر كالعنب والزيتون لكثرة الثمار ، وقيل يحلبون الضروع وبالخطاب لحمزة والكسائى تغليبا للمستفتح على نمط تزرعون وتأكلون وهذه بشارة بشرهم بها بعد تأويل الرؤيا والظاهر أنه علم ذلك بالوحى لأن انتهاء الجدب بالخصب وإن علم عادة لكن لا على هذا الوجه الذى أخبر به من عمومه وبلوغه الغاية حتى يعصروا وفى تكرير «فيه» وتقديمه مايشد أعضاد كونه مستندا إلى الوحى ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾ لما جاءه الرسول وأخبره بتأويلها ﴿ ائْتُونِي بِهِ ﴾ بالذى عبرها لأشاهده وأشافهه ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴾ ليخرجه وأخبره أن الملك طلبه ﴿ قَالَ ﴾ قاصدا إظهار براءته للملك ولا يراه بعين النقص ولا يقدر الحاسد أن يتوسل إلى تقبيح أمره ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ﴾ أن يسأل ﴿ مَا بَالُ ﴾ حال ﴿النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ هل علمن منى سوءا ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ أى الله كامل العلم بكيدهن وإن كان بعيد الغور حين قلن : أطع مولاتك وقيل ربى : سيدى وغرضه نفى التهم خوفا من كيد الحاسدين مرة أخرى ، وفى الحديث : « لايلدغ المؤمن من جحر مرتين » ولم يذكر امرأة العزيز وإن كانت هى السبب الكلى كرما منه ومراعاة للأدب ، فرجع الرسول فأخبر الملك فجمعهن ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ شأنكن العظيم الذى يحق أن يخاطب صاحبه فيه بسؤاله عن سببه ﴿ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ جعل مراودتهن أمرا لا إنكار فيه يحتمل أراد به امرأة العزيز وخاطب به جميعهن للستر عليها أو جميعهن راوده ، يقال : راود فلان جاريته على نفسها وراودته هى على نفسه حاول كل منهم الوطء برفق وعدى فى يوسف بعن لأنه ضمن معنى خادع والمفاعلة من واحد كداويت المريض أو على بابها هى تطلب منه الفعل برفق وهو يطلب منها الترك برفق والمراد بقوله «ماخطبكن» أى هل وجدتن منه ميلا إليكن ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ تنزيها له وتعجبا من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ قط لا فيها دعوناه إليه ولا فى غيره ، زادوه على الجواب ثناء عليه لكنهن وإن أبرأن يوسف نصا لم ينصوا على إقرار مراودتهن عليه وإن نهمت ولذا قامت امرأة العزيز وحضرتها

نية صدق وتحقيق فأقرت على نفسها وأبرأته كما قال تعالى ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ أى وضح وظهر وكان قبلُ مستورا من حص شعره إذا استأصله حتى ظهرت بشرة رأسه وثبت واستقر من حصحص البعير : ألقى مباركه يستنيخ ، وقرئ على البناء للمفعول ﴿ أَنَا رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فى قوله « هى راودتنى عن نفسى » واعتراف الخصم بأن غريمه على الحق وهو على الباطل لا يكون أبلغ منه فى الثناء وأمنع للشغب ، ولم تكتف بتصديقه فى القصة المذكورة بل أدرجته فى زمرة المتصفين بالصدق على الدوام الملازمين له وهذا هو اللائم للكرام إن أكرموا لأنه لم يتعرض لذكرها بل أدرجها فى النساء ستراً وإكراما ثم ذكر غرضه فى طلب البراءة فقال ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ التأنى والتثبت ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ العزيز ﴿ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ ﴾ فى أهله ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ حال من الفاعل أو المفعول : أى غائبا عنه ، أو غائباً عنى ، أو ظرف أى بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة ، ويحتمل أن يكون القائل امرأة العزيز : أى ليعلم يوسف أنى لم أخنه بالغيب حين سئلت بل ذكرت ما هو الواقع ، والأول أوجه ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ لايفضى بكيدهم إلى ما توسلوا إليه : أى لايهديهم فأوقع الفعل على الكيد مبالغة وهو تتميم لما قبله ، بأنه لو كان خائنا لما خلص من هذه الورطة وتعريض لامرأة العزيز فى خيانتها زوجها بأن كيدها لم ينتج شيئا وتأكيد لأمانته ولذا لما خاف التزكية على نفسه تواضع لله فقال ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾ من الزلل ، أو لم يكن ما قلت تنزيهاً لها ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ ﴾ الجنس ﴿ لَأَمَّارَةٌۢ ﴾ كثيرة الأمر ﴿ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ هذه جبلتها سواء كانت نفس نبىّ أوْ غيره ولهذا استثنى بقوله ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ إلا وقت رحمة ربى ، أو إلا نفسا رحمها ربى فعصمها أو « ما » بمعنى « من » ، وقيل : الاستثناء منقطع والمعنى : لكن رحمة ربى هى التى تصرف السوء ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ ﴾ للذنوب بعد وقوعها ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ يرحم من يشاء بالعصمة ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ أجعله خالصا لى لايشاركنى فيه أحد لعظم أمانته وكمال ديانته ولأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء النفيسة لايشاركهم فيها أحد من الناس ، فجاء الرسول إلى يوسف وقال : أجب الملك ، فقام وودع أهل السجن ودعا لهم فقال : « اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعمّ عليهم الأخبار » ولذا كان أهل السجن أعلم الناس بالأخبار فى كل بلد ، ولما خرج كتب على باب السجن : « هذه منازل البلاء وقبور الأحياء » ، ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابا حسانا ولما بلغ باب الملك قال : حسبى ربى من خلقه ولما دخل ووصل إلى الملك قال : اللهم إنى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره ثم سلم عليه بالعربية ، فقال له الملك : ما هذا اللسان ؟ فقال : لسان عمى إسماعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال له : ما هذا اللسان أيضا ؟ قال : لسان آبائى ، ثم كلمه بما شاء ، وكان الملك يعرف سبعين لسانا فكلمه بها فأجابه بجميعها ، فتعجب منه وعظمه ، ولذا قال تعالى ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ ﴾ وشاهد منه الرشد والحكم ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ ﴾ ذو منزلة رفيعة متمكن

عما أردت لعفتك ونزاهتك ﴿أَمِينٌ﴾ حق أمين على أمرنا لما ظهر منك من البراءة وغيرها فماذا ترى أن نفعل ؟ قال : أجمع الطعام وأزرع زرعا كثيرا فى هذه السنين المخصبة وادخر الطعام بقصبه وسنبله فإنه أبقى له ويكون القصب والسنبل علفا للدواب ويأتيك الخلق ليمتاروا من سائر النواحى فيجتمع عندك من الكنوز والأموال ما لم يجتمع لأحد من قبلك . فقال الملك : ومن لى بهذا : أى من يجمع لى هذا ويكفينى هذا العمل ؟ ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿اجْعَلْنِي﴾ ولنى ﴿عَلَىٰ﴾ أمر ﴿خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أرضك مصر وغرضه فى ذلك الإحسان على الناس ورعاية المحاويج والفقراء فى أيام الشدة ولا يخالف حديث « لانولى على عملنا من أراده » لأن ذلك حيث لم يتعين ، ويوسف رأى ذلك فرضا متعينا عليه لحق الفقراء لا لحظ نفسه إذ لم يكن هنالك غيره ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ كامل الحفظ من الضياع لمن لايستحقها ﴿عَلِيمٌ﴾ كامل العلم بمصالح الخير ومصارف الأموال ووجوه المكاسب وهذا أيضاً منه تعريف بنفسه بمن لايعرفه إذ الملك قد علم أنه عالم بمصالح الدين فنبهه يوسف على أنه مع ذلك عالم بمصالح الدنيا مع أن يوسف عليه السلام رسول من الله فكل ما يفعله كان بأمره فلا يقاس عليه غيره ممن لم يكن فى مقامه . قال ابن العربى : سؤاله الولاية من الكافر سؤال له على تركها لتنتقل إليه فإن الله لوشاء لمكنه منها بالقتال والغلبة ولكن عامل بعض أنبيائه بالسياسة .اه وقال فى غاية الأمانى : وعن مجاهد : أن الملك أسلم على يده ثم ولامؤاخذة إن كان كافرا فإنما تولى منه يوسف لمصالح الكافة كما تتولى القضاة العادلة من الأمراء الظلمة والملوك الفسقه . اه . وفى البيضاوى : فيه جواز التولى من يد الكافر إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به . وعن مجاهد : أن الملك أسلم على يديه . اه وقيل : معنى « حفيظ عليم » كاتب حاسب ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كإنعامنا عليه بالخلاص من السجن ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿يَتَبَوَّأُ﴾ ينزل ﴿مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ بالياء ولابن كثير بالنون : أىّ مكان أراد أن يتخذه منزلا اتخذه من غير مانع ولا مزاحم وكان عاقبة التقوى أن أورثه الله أرضهم وديارهم بعد الضيق والحبس روى أن الملك توّجه وختمه ورداه بسيفه ووضع له سريرا إجلالا وعزل العزيز وولاه مكانه ومات العزيز بعد فزوجه امرأته فوجدها عذراء وولدت له ولدين أفرائيم وميشا وفوض له الأمر فدانت له الرقاب وأقام العدل بمصر ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل نأجرهم إما فى الآخرة أو فى الدارين على حسب ما اقتضته الحكمة وجرت به المشيئة ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ المعاصى ، والمعنى : أن المؤمن المتقى يؤجر على حسناته فى الدنيا والآخرة لكن بين الأجرين بون بعيد ولما استوزر الملك يوسف اجتهد فى تكثير الزراعات وضبط الطعام حتى دخلت السنون المجدبة وعم القحط مصر والشام ونواحيها وتوجه إليه الناس بعد أن أهلكوا فى السنة الأولى كل ما أعدوه فى السنين المخصبة فباعهم الطعام فى السنة الثانية بالنقود حتى لم يبق لهم دينار ولا درهم ثم فى الثالثة بالحلى والجواهر

ثم فى الرابعة بالدواب والمواشى ثم فى الخامسة بالعبيد والجوارى ثم فى السادسة بالضياع والعقار ثم فى السابعة بأولادهم ورقابهم ، فصار أهل مصر جميعاً ملكه، فقال للملك: ماترى؟ فقال الرأى رأيك. فأعتقهم ورد عليهم أموالهم . وكان قد أصاب كنعان ما أصاب سائر البلاد فأرسل يعقوب عليه السلام بنيه غير بنيامين إليه للميرة ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ إلا بنيامين ليمتاروا لما بلغهم أن عزيز مصر يعطى الطعام بثمنه ولا يعطى الوارد أكثر من حمل بعير ويسوى بين الناس ﴿ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ ﴾ بأول نظرة نظر إليهم لعدم تغير زيهم ولأنه فارقهم وهم رجال وكانت همته مصروفة إلى أن يقف على حالهم وحال أبيه المحزون ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ لبعد عهدهم به وظنهم هلاكه وتغيره إذ فارقوه فى سن الحداثة وتغير زيه لأنه فى زى الملوك على سرير، ورأوه من بعيد بين يديه الحجاب ولم يملأوا العين منه هيبة منه مع أنه كان متلثما أبداً سترا لجماله فكلموه بالعبرانى فأجاب بالقبطى بترجمان له كالمنكر عليهم : ماأقدمكم بلادى؟ قالوا : للميرة وبين يديه الصواع فأطنه بحصاة وقال صدقتم . ثم قال : من أين أنتم؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا نبى الله يعقوب فأطنه وقال : صدقتم ، ثم قال : أوله أولاد غيركم؟ قالوا : نعم كنا اثنى عشر فذهب أصغرنا وهلك فى البرية أكله الذئب وكان أحبنا إليه وبقى شقيقه فاحتبسه ليتسلى به عنه وأتينا بميره فأطنه ، وقال كذبتم إن الصواع يقول : لم يأكله الذئب فتغير لهم وقال: لعلكم عيون ، فقالوا : معاذ الله ، قال: من يشهد لكم؟ قالوا : إننا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد قال: فدعوا بعضكم رهناً وأتونى بأخيكم يأخذ رسالة من أبيكم لأعرف صدقكم كما قال تعالى ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أى وفى لهم الكيل وأعطاهم ما يحتاجون إليه فى سفرهم، عبّر عنه بالجهاز إعلاماً بفعله مع فرح لمن أحب، إذ أصله ما تزف به المرأة إلى زوجها ﴿ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم ﴾ نكره ليريهم أنه لا يعرفه ﴿ مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ أى بنيامين لأعلم صدقكم فيما قلتم ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ﴾ من غير بخس ﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ وكانوا عاينوا منه ذلك ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ لاتدخلوا بلادى وهو إما نهى أو نفى معطوف على الجزاء، وهذا نهاية التخويف والترغيب ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ سنجتهد فى طلبه منه برفق وحيلة حتى ننتزعه منه ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ ماأمرتنا به ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ ﴾ غلمانه الكيالين ، وقرأ حمزة والكسائى وحفص « لفتيانه » ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ﴾ التى أتوا بها ثمن الميرة وكانت دراهم أو نعالا وأدماً ﴿ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ أوعيتهم تفضلا عليهم بذلك ليجدوا ما يرجعون به ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ فيعلموا التفضل أو يعرفون حق ردها ﴿ إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ ﴾ وفرغوا أوعيتهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لذلك الإحسان وشكره لأنهم كرماء ، وأما التعليل بأنهم لا يستحلون إمساكها فضعيف ليس عليه دليل لسرورهم بردها فى قولهم « هذه بضاعتنا ردت إلينا إذ علموا أن يوسف أكرمهم بذلك ، ولأن قصده الاستئلاف وصلة الرحم ، ولما أرادوا الخروج اقترعوا فيما بينهم فأصابت القرعة شمعون فخلفوه عند يوسف وذهبوا ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ بعد هذا إن لم ترسل معنا

أخانا بنيامين إليه ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ بالنون للجمهور والياء لحمزة والكسائى أى: الأخ ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ البتة أن يناله مكروه حتى نرده إليك ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ ﴾ يوسف ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ وقد فعلتم به ما فعلتم وقد قلتم فيه « وإنا له لحافظون » كما تقولون الآن فكيف يحصل الأمان بقولكم ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا ﴾ تمييز ، فأتوكل عليه وأفوض أمرى إليه . ولحمزة والكسائى وحفص « حافظاً » تمييز أو حال كقوله دره فارساً ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فأرجو أن يمن بحفظه ولا يجمع علىّ مصيبتين ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ وكانوا قبل فتح المتاع أخبروه بأنه أكرمهم غاية الإكرام . وقرئ بكسر الراء المنتقل إليه من الدال المدغمة ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ « ما » استفهامية ، أى أى شيء نطلب من إكرام الملك أعظم من هذا ؟ أكرمنا وأحسن مثوانا وباع منا ورد الثمن علينا ، أو نافية أى لا نطلب وراء ذلك إحساناً ، أو ما نطلب بضاعة أخرى منك ﴿ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ وهى كافية لنا . وقرئ ما تبغى على الخطاب ، أى أىّ شيء نطلب بعد هذا من الإحسان أو من الدليل على صدقنا ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ نأتى بالميرة لهم وهى الطعام من غير البلد عطف على مقدر أى ردت إلينا فنستظهر بها ونمير أهلنا بالرجوع إلى الملك ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ عن المخاوف فى ذهابنا وإيابنا ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ لأخينا أى حمله باستصحاب أخينا ، لأن يوسف إنما حمل لهم عشرة أبعرة ولم يحمل الحادى عشر لغيبة صاحبه قاله فى الجواهر ﴿ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ سريع سهل على الملك لسخائه ، وكأنّ أباهم قال: من أين لكم العلم بأن الملك يسمح لكم بحمل بعير ؟ فقالوا : ذلك كيل يسير لا يضايقنا فيه لجوده وشدة عطفه على الغرباء الواردين من بعيد ، ويحتمل الإشارة إلى ما أتوا به من الطعام ، أى ذلك مكيل قليل لا يكفينا ولا بد من الرجوع ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ ﴾ إذ رأيت منكم ما رأيت ﴿ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا ﴾ عهداً ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ بان تحلفوا ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾ جواب القسم ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أى تموتوا أو تغلبوا فلا تطيقوا الإتيان به ، فأجابوه إلى ذلك . من أحيط به : هلك أو منع وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أى لتأتنى به على كل حالٍ إلا حال الإحاطة ، أو من أعم العلل ، أى لا تمتنعوا من الإتيان به لأمر إلا للإحاطة بكم على أن قوله « لتأتننى به » فى تأويل النفى كقولهم : أقسمت بالله إلا فعلت : أى ما أطلب إلا فعلك ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ عهدهم المؤكد باليمين ﴿ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ شهيد بمعنى أنه موكول إليه هذا العهد أو رقيب مطلع ، وأرسله معهم ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا ﴾ مصر ﴿ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ لئلا تصيبكم العين لأنهم كانوا ذوى جمال وأبهة وقوة وقامة مشتهرين فى مصر بسماع أنهم أولاد الأنبياء بالكرامة عند الملك وغيره فخاف عليهم أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانوا ولم يوصهم بذلك أول مرة لأنهم كانوا مجهولين حينئذ أو كان الداعى إليه خوفه على بنيامين ، ولا خلاف أن العين حقٌّ . وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن العين حق » وعن عائشة : كان يوصى العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين أخرجه أبو داود . قال ابن العربى : وهذا العين معنى يحدث بقدرة الله على جرى العادة فى المعين إذا أعجبته نظرة العائن فتلفظ به إما يؤدى إلى العدواء أو إلى الفناء بحسب ما يقدر الله ، ولذا نهى العائن عن التلفظ بالإعجاب لأنه إن لم يتكلم لم يضر عادة ، وكذا إذا برك أو غسل أطرافه واغتسل به المعين . اه . وفى الحديث « اللهم إنى أعوذ بكلمات الله التامة من كل هامة وعين لامة » ثم رجع يعقوب عليه السلام إلى علمه وفوض أمره إلى الله بقوله ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ قدره عليكم مجتمعين أو متفرقين لأن المقدور كائن وإنما ذلك شفقة ودفع لوسواس الشيطان لو فعلت كذا ربما لم يقع ﴿ إِنِ ﴾ ما ﴿ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ وحده ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ به وثقت لا على غيره ، من الاستحفاظ بالأخوة والعهد والميثاق والتفرق فإن تلك الوسائل عادة لا تنافى التوكل ، كلبس النبى صلى الله عليه وسلم لامتين يوم أحد ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ الكاملون فى الاتكال ، حث على ما آثره لنفسه ليقتدى به ، إذ العمل بالأسباب فى الظاهر مع خلو الباطن من التعلق بها لأجل التعلق بالله أجل من تركها للجمع بين الحكمة والتوحيد ، ولذا مدح الله يعقوب بذلك بقوله « وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وجمع بين حرفين فى عطف الجملة على الجملة لتقدم الصلة للاختصاص كأن الواو للعطف والفاء لإفادة السبب فإن فعل الأنبياء سبب لأن يقتدى بهم ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ من أبواب متفرقة ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ قضائه ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ إذ رجعوا إلى أبيهم بخبر أحزن من خبر يوسف ﴿ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ ﴾ من إرادة دفع العين عنهم شفقة ﴿ قَضَاهَا ﴾ ومثل هذا الفعل سد النبى صلى الله عليه وسلم كوة فى قبر بحجر وقال « إن هذا لا يغنى شيئاً ولكنه تطييب لنفس الحى » أثنى الله على يعقوب بما فعل بقوله ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ لتعليمنا إياه سر القدر وأنه لا يغنى عنه الحذر ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما علمه يعقوب من ذلك ، أو المشركون لا يعلمون إلهام الله لأوليائه ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ ﴾ ضم ﴿ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ فى الطعام والمنزل . إذ روى أنهم لما دخلوا عليه قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال : أصبتم فأضافهم على الموائد مثنى مثنى فبقى بنيامين وحيداً فبكى وقال : لو كان أخى يوسف لجلس معى على مائدتى . فقال يوسف : هذا يجلس معى على مائدتى ثم قال : لينزل كل اثنين بيتاً وهذا لا ثانى له فيكون معى فبات عنده فقال له : أتحب أن أكون أخاك ؟ قال : من يجد أخاً مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى حينئذ يوسف وقال : بل ولدنى يعقوب وراحيل ، وقام إليه وعانقه ﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾ يوسف لجلا له الأمر وأمره بكتمانه ، فقال بنيامين إنى لا أفارقك . فقال يوسف . هذا لا يمكننى إلا أن أشهرك بأمر فظيع ، أنادى عليك بالسرقة ، قال : فافعل ما شئت ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُوا ﴾ أى إخوتنا ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ فينا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا ، أراد يوسف

أن يصفو قلب أخيه كما صفى قلبه فيصفح عن الإخوة ، ويحتمل أن الضمير للفتية أى : لاتحزن بما يعملون من الحيلة فى إبقائك لأنه تواطأ مع أخيه على أن يبقيه عنده ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ ﴾ هى صاع من ذهب مرصع بالجواهر يشرب بها ، جعلها يوسف مكيالا أيام القحط لئلا يقع التبديل بغيرها ويبخس الناس ﴿ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ بنيامين فارتحلوا راجعين إلى بلادهم فأمهلهم يوسف حتى وصلوا منزلا وقيل : حتى خرجوا من العمارة ثم أرسل خلفهم من يستوقفهم ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ ناداهم مناد ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ ﴾ القافلة أو الإبل تحمل الميرة لا واحد لها من لفظها أو كل ما امتير عليه إبلا كانت أو حميراً أو بغالا ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ أطلق السرقة عليهم مجازاً لكون الصاع فى رحلهم بحسب الصورة ﴿ قَالُوا وَ ﴾ قد ﴿ أَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ ما الذى فقدتم ؟ والفقد غيبة الشىء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه ﴿ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ﴾ صاع ﴿ الْمَلِكِ ﴾ وهى السقاية المذكورة ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ ﴾أى من دل على سارقه ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام جعلا له ﴿وَأَنَا بِهِ﴾ بالحمل ﴿زَعِيمٌ﴾ كفيل أؤديه على من ردّه ، وفيه دليل على جواز الجعالة والكفالة وضمان الجعل قبل تمام العمل . قال ابن العربى : قائل هذا الكلام نائب عن يوسف فشرط حمل البعير على يوسف لمن جاء بالصاع وتحمل هو به عن يوسف ، فصار فيه ثلاث فوائد : الأولى الجعالة ، والثانية الكفالة ، والآية دليل على جوازهما ، والثالثة الضمان . وعلماؤنا على جوازه ولو مع جهالة المضمون عنه والمضمون له أو كليهما وهو الصحيح ، والآية دليل نص فى جهالة المضمون له وحمل جهالة المضمون عنه عليه . اه . ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ ﴾ قسم فيه معنى التعجب ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ ﴾ استشهدوا بعلمهم على براءتهم لاشتهارهم بأفعال الخير والطاعة . دخلوا مصر وأفواه رواحلهم مكعومة لئلا تتناول زرعاً فى مسيرهم ولأنهم ردوا البضاعة التى دسها الفتيان ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ يوماً من الدهر ما سرقنا قط ﴿ قَالُوا ﴾ المؤذن وأصحابه ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ السارق ﴿إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ فى قولكم « ما سرقنا قط » ووجد فيكم ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ ﴾ يسترق سنة فى شرع يعقوب ثم أكد بقوله ﴿ فَهُوَ ﴾ أى السارق ﴿ جَزَاؤُهُ ﴾ المسروق لا غير وهو تقرير للحكم وإلزام له ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الجزاء ﴿ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴾ بالسرقة ، فصرفوا إلى يوسف لتفتيش أوعيتهم ﴿ فَبَدَأَ ﴾ المؤذن أو يوسف ﴿ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾ ففتشها ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ لئلا يتهم وقال لا حاجة إلى تفتيش حمل هذا . فقال إخوته : لا بد منه لتطييب نفس الملك ولا يبقى ريب ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ والضمير للسقاية أو الصواع لأنه يذكر ويؤنث وفى « ثم » دلالة على أنهم لبثوا زماناً بعد تفتيش الأحمال ولم يبادروا إلى وعائه لإبعاد الظنون عن ارتكاب الحيلة فى شأنه . روى أنهم قالوا لبنيامين : يا بنى راحيل لا يزال البلاء ينالنا من جهتكم . فقال : بل بنو راحيل ينالهم البلاء منكم ، ذهبتم بأخى فأهلكتموه ، ووضع هذا الصواع فى رحلى واضع الدراهم فى رحالكم فأخذ بنيامين

ورد إلى يوسف قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكيد ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ علمناه الاحتيال فى أخذ أخيه ، استعير الكيد للتدبير لشبهه به صورة ﴿مَا كَانَ﴾ يوسف ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ رقيقاً عن السرقة ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ حكم ملك مصر لأن جزاءه عنده الضرب وتغريم مثلى المسروق لا الاسترقاق ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أن يجعل ذلك حكم الملك فالاستثناء من أعم الأحوال ويجوز أن يكون منقطعا أى لكن أخذه بمشيئة الله بإلهامه سؤالهم وجوابهم بسنة أبيهم ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ بالإضافة للجمهور والتنوين للكوفيين : أى بالعلم كيوسف ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ من المخلوقين ﴿عَلِيمٌ﴾ كامل العلم وهو الله تعالى إشارة إلى أن يوسف مع كونه راسخ القدم فى العلم لم يتوصل إلى تحصيل أخيه إلا بإعلام الله تعالى إياه بالوحى وقيل الكلام فى الخلق والمعنى على هذا : أن يوسف قد فاق إخوته وإن كانوا علماء ، والله أعلم . قال ابن عطاء الله فى التنوير : اعلم أن العلم حيثما تقرر فى القرآن والسنة فإنما المراد به العلم النافع الذى تقارنه الخشية . اهـ . وقال البجائى : إذا كملت للعبد ثلاث خصال تفجر العلم من قلبه وعلى لسانه وهى : الزهد والإخلاص والتقوى ، ولا تنال إلا بعد علاج القلب من الكبر والحسد والغضب والرياء والسمعة وحب المحمدة والجاه والشرف والطمع والحرص والمداهنة والحقد والعداوة فيتصف بالتواضع والإخلاص والصدق والحلم والورع والصبر والرضى والتوكل وقصر الأمل والخشية فيضىء القلب بنور الحق فيتلألأ الإيمان وتصح المعرفة ويتسع اليقين وتتجلى الأسرار وليس بين العبد والترقى عن سفل إلى علو إلا حب الدنيا . اهـ ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أى يوسف لأن عمته أخت يعقوب كانت حاضنته فأراد يعقوب انتزاعه منها وكانت شديدة الحب له فاحتالت عليه بأن شدت عليه منطقة ورثتها من أبيها تحت ثيابه ثم أظهرت أن المنطقة سرقت ففتشوا الناس ووجدت تحت ثياب يوسف فصارت أحق به لأن جزاء السرقة هو السارق فى شرعهم كما تقدم: هذا هو قول الجمهور ، وقيل: أخذ صنما لجده أبى أمه فكسره ، وقيل: أخذ دجاجة فى البيت فأعطى السائل ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ والضمير للكلمة التى فى قوله ﴿قَالَ﴾ فى نفسه ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ من يوسف وأخيه لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له وتسمية هذا سرقة مجاز ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ عالم ﴿بِمَا تَصِفُونَ﴾ تذكرون فى أمرنا ، أى : لا سرقت أنا ولا أخى ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ فى السن وفى القدر يحبه أكثر منا ويتسلى به عن ولده الهالك ويحزنه فراقه استعطاف له عليه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ بدلا منه ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا فأتمم إحسانك ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ نصب على المصدر حذف فعله وأضيف إلى المفعول أى نعوذ بالله من ﴿أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ لم يقل من سرق تحرزا من الكذب ﴿إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ إن أخذنا غيره ومراده على الحقيقة « إن الله أذن لى أخذ من وجدنا الصاع فى رحله لمصلحته ورضاه فلو أخذت غيره كنت ظالما » لأن الله أمره بذلك ليزيد بلاء يعقوب فيضاعف له الأجر كما أخفى عنه خبر يوسف

فى طول المدة مع قرب المسافة ثم إن رويبل ـ وكان أشد الإخوة ـ غضب وكان إذا غضب خرج شعره من ثيابه وقال : « أيها الملك لتردنّ علينا أخانا أو لنحاربنك فأصيح صيحة لايبقى بمصر امرأة حامل إلا وضعت ولدها» فقام إليه يوسف وجذبه بتلابيبه فصرعه وقال : أنتم يامعشر العبرانيين تزعمون أنه لا أحد أشد منكم فلما رأوا ما نزل به يئسوا من تخليص أخيهم ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا ﴾ يئسوا ﴿ مِنْهُ ﴾ من يوسف أن يجيبهم إلى ما سألوه أو من أخيهم أن يرد عليهم ، وقرأ البزى « استأيسوا » بألف موضع الياء وياء موضع الهمزة ﴿ خَلَصُوا ﴾ اعتزلوا وامتازوا عن الخلق ﴿ نَجِيًّا ﴾ متناجين مصدر ولذا لم يجمع ، وعن الاخفش أن الجمع أنجية ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ فى السن وهو « روبيل » أوفى الرأى وهو « يهوذا » أو شمعون ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا ﴾ عهدا وثيقا ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ فى أخيكم ﴿ وَمِنْ قَبْلُ ﴾ من قبل هذا ﴿ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ قصرتم فى شأنه و « ما » صلة أو مصدرية محلها النصب بالعطف على مفعول «تعلموا» وهو أن أباكم كأنه قيل : ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم الموثق وتفريطكم من قبل فى يوسف أو موصولة ، والمعنى : ومن قبل ما فرطتموه فى يوسف: أى : قدمتموه فى حقه من الخيانة ومحلها ماتقدم وقيل مصدرية محلها الرفع مبتدأ خبره «من قبل» ، والمعنى : وقع من قبل تفريطكم فيه . قال البيضاوى : وفيه نظر لأن قبل « إذا » كان خبرا أوصلة لايقطع عن الإضافة حتى لاينقص ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ﴾ لن أفارق ﴿ الْأَرْضَ ﴾ أرض مصر ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ بالرجوع إليه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بخلاص أخى ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ أعدلهم لايكون حكمه إلا بالحق فمن سواه يحتمل السهو والنسيان والغرض فى أحكامه ﴿ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ على ماشهدنا منه ظاهرا ، وقرئ « سُرِّق » أى نسب إلى السرقة . روى أن ابن سيرين : رأى يوسف فى منامه فقال له يوسف لم تقرأ يا ابن سيرين قوله تعالى « إن ابنك سرق » على بناء المفعول ، قال : لأنه لم يكن سارقا ، فقال له يوسف : افتح فاك ، ففتحه فبزق من ريقه فى فم ابن سيرين فألهمه الله تأويل الرؤيا ببركة ذلك الريق ﴿ وَمَا شَهِدْنَا ﴾ عليه ﴿ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ تيقنا من مشاهدة الصواع فى رحله ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ ﴾ لما غاب عنا ﴿ حَافِظِينَ ﴾ لاندرى هل سرق أم دس الصواع فى رحله ، أو ما كنا عالمين حين أخذ الميثاق أنه سيسرق ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ هى مصر أى أرسل إلى أهلها فاسألهم ، والقرية مجتمع الناس المتوطنين كبيرة كانت أو صغيرة ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ وهم قوم كنعان يشهد كل من أهل مصر والعير بذلك ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى قولنا ، تذييل بما فيه معنى القسم ، فرجعوا إليه وقالوا ذلك ﴿ قَالَ ﴾ لم يسرق ابنى ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ ﴾ زينت وسهلت لكم ﴿ أَمْرًا ﴾ ففعلتموه خيلت لكم أنه سرق وما سرق ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى أمرى ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ ﴾ يوسف وبنيامين وأخيهما الذى تخلف بمصر ﴿ جَمِيعًا ﴾ إذ علم أن رؤيا يوسف حق والبلاء إذا اشتد قوى الرجاء بسرعة كشفه ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بحالى وغيرها ﴿ الْحَكِيمُ ﴾

فيما يقضيه ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ تاركا خطابهم كراهة لما سمع منهم ملتجئاً إلى الله فيه ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَا﴾ بالألف بدل من ياء الإضافة أى : ياحزنى ﴿عَلَى يُوسُفَ﴾ والأسف أشد الحزن وبينه وبين يوسف شبه الاشتقاق وتأسف عليه دون أخيه لأن رزءه قاعدة المصائب ، والحادث يهيج القديم من الأحزان ، وكان متمم بن نويرة يبكى على أخيه مالك كلما رأى قبراً جديداً ، وقال فى ذلك :

يقولُ أتبكى كلَّ قبرٍ رأيتَهُ ﴿ لقبرٍ ثوى بين اللّوى والدكادكِ

فقلتُ له إنّ الأسى يبعثُ الأسى ﴿ فدعنى فهذا كلُّه قبرُ مالكِ

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ مُحق سوادهما وبدل بياضاً من بكائه ، لم ير شيئاً ست سنين لغلبة الدمع لا للعمى ﴿مِنَ الْحُزْنِ﴾ عليه ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾مغموم لا يظهر كربه لأحد ، من كظم فاه إذا ستره ، فعيل بمعنى المفعول والكظم محركا مخرج النفس أو بمعنى الفاعل من كظام الشىء اجترعه ، ومنه كظام البعير جرته ردّها إلى جوفه ، وروى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن يعقوب عليه السلام حزن حزن سبعين ثكلى وأعطى أجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله قط ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ لا ﴿تَفْتَؤُ﴾ أى لا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ دنف الجسم مذابه مشرفاً على الهلاك متغير العقل للحزن وهو فى الأصل مصدر حرض ، ولذا يستوى فيه الواحد وغيره وفى هذه الألفاظ من البدائع ائتلاف الألفاظ بالمعانى والألفاظ بالألفاظ ، ولما كان ذكر يوسف فى ذلك الوقت أغرب شىء أتى فى ذلك بأغرب ألفاظ القسم وهو التاء وأغرب ألفاظ الهلاك وهو الحرض ، فتجاور اللفظ الغريب بالغريب للمعنى الغريب ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ الموتى ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ هو عظيم الحزن الذى لا يصبر عنه صاحبه حتى يبثه إلى الناس ﴿وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ لا إليكم ولا إلى غيركم ، فخلونى وما أنا فيه ، فبحصر بثه على الله عد من الصابرين ، لأن دمع العين وحزن القلب لا يؤاخذ المرء به إذ لا يدخلان تحت التكليف ، ولذا لما دمع عين النبي عليه السلام على ولده إبراهيم لما رآه يموت قال « إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا » وفى رواية « فهذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أن رؤيا يوسف حق وهو حق أو ما لا تعلمون من عظيم رحمة الله وإجابته للمضطر إذا دعاه . وقال السدى : لما أخبره بنوه بسيرة ملك مصر وكمال حاله طمع أن يكون هو يوسف فعند ذلك قال ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ اطلبوا خبرهما من الحس ، حسه : طلب علمه بإحدى الحواس وغلب فى الخير والتجسس فى الشر ومنه الجاسوس ﴿وَلَا تَيْأَسُوا﴾ تقنطوا ﴿مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ فرجه ورحمته وأصله نسيم الريح ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ بالله وصفاته فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله فى شىء من الأحوال ، ورواية البزى بألف بعدها ياء مفتوحة فى الكلمتين ، فانطلقوا نحو مصر ليوسف ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا

يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ﴾ الجوع أو سوء الحال من جهات كثيرة ﴿ وجئنا ببضاعة ﴾ قطعة من المال المتجر فيه ﴿ مزجاة ﴾ مدفوعة يدفعها كل من رآها لردائها ، وكانت دراهم زيوفا أو صوفاً وأقطاً أو حبوب الصنوبر أو سويق المقل ﴿ فأوف ﴾ أتم ﴿ لنا الكيل ﴾ وإن كان الثمن رديئاً ﴿ وتصدق علينا ﴾ بالمسامحة عن ردائة بضاعتنا أو بإطلاق أخينا ، ولم يطلبوا نفس الصدقة لأنها محرمة على الأنبياء قبل نبينا عند الجمهور لأنها أوساخ الناس ﴿ إن الله يجزي المتصدقين ﴾ أحسن الجزاء ، ولم يقولوا يجزيك لأنهم لا يعلمون إسلامه ، والتصدق : التفضل مطلقاً وتخصيصه بالهبة لثواب الآخرة عرفي طارئ ، ولما سمع يوسف قولهم رق عليهم وأدركته الرحمة فرفع الحجاب بينه وبينهم ثم ﴿ قال ﴾ لهم تذكيراً بما فعلوا ليتوبوا إيماء لهم بأن ذلك أهم من كشف الضر الذي بهم ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف ﴾ من الضرب والبيع وغير ذلك ﴿ وأخيه ﴾ من هضمكم له بعد فراق أخيه ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ ما يئول إليه أمر يوسف ، وقيل إنما كشف الأمر يوسف لأجل كتاب وصل إليه : من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إذا وصل إليك كتابي فرد على ابني وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من أولادك . فلما قرأ يوسف الكتاب بادر إلى كشف الأمر ﴿ قالوا ﴾ بعد أن عرفوه لما ظهر لهم من شمائله مع رفعه التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب مثلها ثم تبسم فعرفوه بثناياه ﴿أإنك لأنت يوسف﴾ استفهام تقرير فيه تعجب وتخييل كأنهم لم يصدقوا بأنه هو ، مع كونهم موقنين بذلك ، ولذا أكدوه بإن واللام ، وقراءة ابن كثير بحذف همزة الاستفهام تؤيد أن الاستفهام ليس على أصله ﴿ قال أنا يوسف وهذا أخي ﴾ صرح باسمه وأضاف إليه أخاه ، ولم يكتف « بنعم » لإرادة نفي الريب والشبهة ﴿ قد من الله علينا ﴾ بالسلامة والاجتماع والكرامة ﴿ إنه من يتق ﴾ الله في الأوامر والنواهي كأنه يراه ﴿ ويصبر ﴾ على ما يناله من البلايا والأذى ﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر ليدل على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر لأن الإحسان أرفع المقامات ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله﴾ فضلك ﴿علينا﴾ بحسن الصورة والسيرة ومحاسن الأخلاق والملك وأحوجنا إليك ﴿وإن﴾ مخففة أي إنا ﴿ كنا لخاطئين ﴾ آثمين في أمرك ، من خطئ - بالكسر - إذا تعمد الذنب ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم ﴾ لا عتب ولا توبيخ ، من الثرب وهو الشحم الذي يغشى الكرش والتفعيل للإزالة أي إزالة الثرب ، فاستعير للتقريع الذي يذهب ماء الوجه و « اليوم » متعلق به أي : لا أثربكم اليوم الذي هو مظنة التثريب فكيف بسائر الأيام أو بقوله ﴿ يغفر الله لكم ﴾ لأنكم اعترفتم وتبتم ، وإنه لغفار لمن تاب ، وهذا تبشير لهم بعد نفي التثريب عنهم ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ يغفر الذنوب جميعاً . ولما فتح صلى الله عليه وسلم مكة قال لقريش : ماترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وقد قدرت فقال أقول كما قال أخي يوسف : لا تثريب عليكم اليوم . ومن كرم يوسف أنه لما عرف نفسه إخوته

كان يدعوهم إلى الطعام بكرة وعشياً فأرسلوا إليه نحن نستحى منك لما فرط منا . فقال : إن أهل مصر كانوا يستنكرون علىّ ما أنا فيه ويقولون عبد ثمنه عشرون ديناراً فلما عرفوا أنى أخوكم وأنى من نسل إبراهيم عظمت فى أعينهم ، ثم سألهم عن حال أبيه فقالوا : ذهب بصره لكثرة البكاء عليك ، فقال ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا ﴾ وهو قميص إبراهيم الذى لبسه حين ألقى فى النار كان فى عنق يوسف فى الجب تميمة وهو من الجنة ، أمره جبريل بإرساله وقال إن فيه ريحها ولا يلقى على مبتلى إلا عوفى . قال ابن عطية : وهذا يحتاج إلى سند والظاهر أنه قميص يوسف كسائر القمص وهو وحى من الله ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ ﴾ يصر ﴿ بَصِيرًا ﴾ فالإتيان مجاز عن الصيرورة ، أو يأت إلىّ بصيراً معافى ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ النساء والأولاد والموالى ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ خرجت من عريش مصر أى من عمرانها ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ لمن حضره من أحفاده وسائر أهله ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ أوصلته إليه الصبا بإذنه تعالى من مسيرة ثلاثة أيام أو أكثر ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ تنسبونى إلى الفند وهو نقصان عقل يحدث من هرم ، ولذا لا يقال عجوز مفندة لأن نقصان عقلها ذاتىّ ، وجواب «لولا» محذوف ، أى : لصدقتمونى ، وأصل الفند الكذب ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ ﴾ خطئك ﴿ الْقَدِيمِ ﴾ أى ذهابك عن الصواب قدما بالإفراط فى محبة يوسف ورجاء لقائه على بعد العهد ، وهذا هو التفنيد الذى خافه ﴿ فَلَمَّا أَنْ ﴾ زائدة ﴿ جَاءَ الْبَشِيرُ ﴾ يهوذا بالقميص بين يدى العير حافياً حاسراً ، وكان حامل قميص الدم ، فأحب أن يفرحه كما أحزنه ﴿ أَلْقَاهُ ﴾ طرح القميص ﴿ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ ﴾ رجع ﴿ بَصِيرًا ﴾ قوياً مسروراً فقال للبشير : على أى دين تركت يوسف ؟ قال : على الإسلام . قال : الحمد لله الآن كملت النعمة وقال : تركته ملك مصر قال : ما أصنع بالملك ﴿ قَالَ ﴾ لمن يفنده ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من حياة يوسف وإنى أجد ريحه وأن الله يجمع بيننا ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ وحق على الأنبياء إذا جاءهم تائب أن يطلبوا له المغفرة ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أخر ذلك إلى السحر على قول الجمهور ليكون أقرب إلى الإجابة ، وقيل إلى الجمعة تحرياً لوقت الإجابة ، أو إلى أن يستحل لهم من يوسف ويعلم أنه عفا عنهم لأن عفو المظلوم شرط المغفرة . روى أنه دعا مع يوسف وجميع بنيه فقال له جبريل : قد أجاب الله دعوتك فى ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة . قال البيضاوى : إن صح فدليل على نبوتهم وأن ما صدر عنهم كان قبل النبوة . اهـ . روى أن يوسف وجه مع إخوته إلى أبيه رواحل وأموالا ليتجهزوا إليه فتوجهوا إلى مصر ، وخرج يوسف والأكابر لتلقيهم فى أربعة آلاف من الجند ، وكان مع يعقوب اثنان وسبعون من أولاده يومئذ وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضع عشر رجلا سوى الذرارى والمرضى ، فلما نظر يعقوب إلى الخيل والناس قال لابنه « يهوذا » وكان متكئاً عليه : هذا فرعون مصر . قال : بل هو ابنك يوسف ﴿ فَلَمَّا

دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ وصلوا إليه فى مضربه ﴿ ءَاوَىٰ ﴾ ضم ﴿ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ أباه وأمه راحيل أو خالته ليا . قال فى الجواهر : والأول أظهر ، وقال فى اللباب : كونها خالته أصح . اهـ . أى رفعهما فوق سريره وتعانقابه بعد السلام وفعلا كما يفعل الوالد مع ولده وبكيا معه ، ثم قال يوسف لأبيه : بكيت علىّ حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ، قال : بلى ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بينى وبينك ﴿ وَقَالَ ﴾ لهم ﴿ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ من كل مكروه على أنفسكم وأهليكم ، وإنما قال ذلك لعله أن الناس يخافون الدخول على ملوك مصر ، فدخلوا وجلس يوسف على سريره ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ ﴾ أجلسهما معه ﴿ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ الكرسى ﴿ وَخَرُّوا ﴾ أى أبواه وإخوته ﴿ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ سجود انحناء وتواضع لا وضع جبهة لقصد العبادة ، وكان تحيتهم فى ذلك الزمان ، فلما جاء الإسلام أبطل ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ ﴾ التى رأيتها ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أيام الصبا ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ صدقاً ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ ﴾ إلىّ ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ لم يقل من الجب لئلا يكون تثريباً عليهم ﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ البادية خلاف الحضر لأن الشخص يبدو ويظهر فيه ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ﴾ أفسد ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ بإلقاء العداوة ﴿ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ من نزغ الدابة إذا نخسها ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ لطيف التدبير له يوجده برفق بحيث يدق عن الأفكار إذ ما من صعب إلا وينفذ فيه مشيئته ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الكامل العلم بأحوال الأشياء ومصالح العباد ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فى صنعه يوجد الأشياء على وفق ما اقتضته الحكمة فى كل عصر ، وهو دليل على كونه لطيفاً . وأقام عنده أبوه أربعاً وعشرين سنة أو سبع عشرة سنة ، وكانت مدة فراقه ثمانى عشرة أو أربعين سنة وحضره الموت فوصى يوسف أن يحمله ويدفنه عند أبيه فمضى بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد إلى مصر وأقام ثلاثاً وعشرين سنة وقد ولدت له زليخاء «منشا» جد «يوشع بن نون» و «رحمة» امرأة أيوب و «إفرائيم» ولما تم أمره وعلم أنه لا يدوم تاقت نفسه إلى الملك الدائم فقال ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ الكتب أو الرؤى ، ومن للتبعيض فى الموضعين إذ لم يؤت ملك مصر كله ولا كل التأويل ﴿ فَاطِرَ ﴾ خالق ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ ﴾ متولى مصالحى ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ من آبائى فى الرتبة والكرامة ، وليس فيه ما يدل على أنه تمنى الموت فوراً فعاش بعد ذلك أسبوعا أو أكثر ، ومات وله مائة وعشرون سنة فاختصم أهل مصر فى مدفنه كل طائفة تريد أن يكون قربهم لينالوا بركته ثم اتفقوا على أن يجعلوه فى تابوت من مرمر فدفنوه فى أعلى النيل لتعم البركة جانبيه فيمر عليه الماء ويكونوا فى ذلك سواء . وكان هناك إلى أن أخرجه موسى ودفنه عند آبائه فسبحان من لا انقضاء لملكه . قلت : فالنيل الذى جعلوه فوقه هو البحر اليوسفى الذى ينسب إليه لأن بنى إسرائيل لما تمكنوا فى مصر رجع الشرف إليهم فحسدتهم العمالقة أهل مصر فشكوه إلى الملك فدعا يوسف فقال له ردّ علىّ مملكتى فاجتمع رأى الناس على القسمة بالقرعة فاقترعوا فوقع الجانب

الغربى من مصر ليوسف عليه السلام وكانت عليه قفار ورمال وتلال ففرح العمالقة بذلك فأمر الله جبريل عليه السلام فشق ليوسف نهرا بجناحه طرفة فى عين من النيل من الجهة القبلية إلى آخره بحر القلزم فعمر القناطر وبنى المدائن فى جانبيه ثلثمائة وستين وملك بنو إسرائيل جانبيه واتخذوا المغارس والمساكن فكان جميع غربى مصر من الفيوم إلى آخر الصعيد من الجهة الغربية مختصا ببنى إسرائيل وكان لايرى شاطئ البحر اليوسفى لكثرة الجنان من سائر الجهات فلما أفسدوا بالمعاصى نزع الله تلك النعمة من أيديهم وسلط عليهم العمالقة والقبط والروم فغلبوهم واحتووا على الملك واستعملوهم خداما بنائين ونجارين وغير ذلك ولم يزالوا فى ذلك الضيق إلى أن بعث موسى فأخرجهم بإهلاك فرعون كما ذكر فى القرآن . والله أعلم . ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من أمر يوسف ﴿ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ من أخبار ما غاب عنك يا محمد ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبران لاسم الإشارة ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ لدى إخوة يوسف ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ فى كيده أى عزموا عليه ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به أى لم تحضرهم فتعرف قصتهم فتخبر بها وإنما حصل لك علمها من جهة الوحى لأنك نشأت أميا فى أمة أمية لم تسافر إلى غير بلدك ولم تلق العلماء بالكتب المتقدمة فإتيانك بهذه القصة الطويلة على حسن ترتيب وأفصح عبارة دليل على أنه وحى سماوى قدسى معجزة آخر الدهر ، وهذا غاية إلجام المنكرين عليه بالوحى لأن العلم بهذا إما بالسماع فلا يقولونه وإما بالمشاهدة والعيان ولا يظن به عاقل ، وجملة « وما كنت ... إلى آخره » كالدليل على الخبرين ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ على إيمانهم وبالغت فى إظهار الآيات عليهم ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ على القرآن أى تبليغه ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ تأخذه كما يفعله حملة الأخبار ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ هُوَ ﴾ أى القرآن ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ عظة من الله ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ كافة الخلق من غير تخصيص بطائفة فلا يتصور أخذ الأجر عليه ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ وكم ﴿ مِنْ آيَةٍ ﴾ دالة على وحدانية الله ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ لايتفكرون فيها ولا يعتبرون بها فإذا قصصت عليهم من أنباء الغيب فلم يؤمنوا فلا تحزن ولا تعجب ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ ﴾ حيث يقرون أنه الخالق الرازق ﴿ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ به بعبادة الأصنام ولذا كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لاشريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، يعنونها أو بالنظر إلى الأسباب ونحوها وهذا أبلغ فى الذم من الإعراض لأن المعرض لم يعتبر وهذا اعتبر فأداه إلى الإشراك ﴿ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ ﴾ عقوبة ﴿ غَاشِيَةٌ ﴾ تغشاهم ﴿ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ أى نوع منه كالصاعقة يحيط بهم ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ فجأة من غير سبق علامة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بوقت إتيانها قبله غير مستعدين لها فى حالهم حينئذ وما اعتذارهم ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ هَٰذِهِ ﴾ الدعوة إلى التوحيد والاستعداد للمعاد ﴿ سَبِيلِي ﴾ المؤدى إلى الجنة ﴿ أَدْعُو إِلَى ﴾ دين ﴿ اللَّهِ ﴾ استئناف لبيان السبيل ، أو حال من الياء ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ برهان واضح ويقين ، حال من فاعل « أدعو »

أى مستيقناً أو متعلق به ﴿ أنا ﴾ تأكيد للمستتر فى الجار والمجرور إن جعل حالا ، وإلا فللمستتر فى أدعو و « أنا » مبتدأ خبره « على بصيرة » ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِى ﴾ عطف على المستتر على الوجهين الأولين وعلى الثالث على « أنا » ﴿ وَسُبْحَـٰنَ اللَّهِ ﴾ أى وأنزه الله تنزيهاً عن الشركاء ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ من جملة سبيله أيضاً وفيه تعريض للخصم ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِى إِلَيْهِم ﴾ لا ملائكة ولا نساء ردٌّ لقولهم « لولا أنزل علينا الملائكة » ، وقرأ حفص بالنون وكسر الحاء ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ الأمصار لأنهم أعلم وأحلم بخلاف أهل البوادى لجفائهم وجهلهم . قال ابن عطية : والتبدى مكروه إلا فى الفتن وحين يفر بالدين ولا يعترض بيدو يعقوب لأنه إنما جعل بدواً بالإضافة إلى مصر ، وفى الصحيح : الغلظ والقسوة فى الفدادين أهل الوبر ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ أى المكذبون والمكبون على الدنيا ﴿ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى آخر أمرهم فيحذروا التكذيب والانهماك على الدنيا ﴿ وَلَدَارُ ﴾ الحال أو الساعة أو الحياة ﴿ الْآخِرَةِ ﴾ أى الجنة ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الله بترك الحطام الفانى ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء لنافع وابن عامر وعاصم ويعقوب ، وبالياء للباقين ﴿ حَتَّىٰ ﴾ غاية لما دل عليه الكلام ، أى : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا جاهدوا فى سبيل الله وتراخى عليهم النصر حتى ﴿ إِذَا اسْتَيْأَسَ ﴾ وللبزى : بألف بعد التاء مع فتح الياء بعدها ، أى يئس ﴿ الرُّسُلُ ﴾ عن النصر ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أيقن الرسل ﴿ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ بالتشديد تكذيباً لا إيمان بعده ، وقرأ الكوفيون بالتخفيف ، أى ظن الأمم أن الرسل أخلفوا ما وعدوا به من النصر ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُنجِى ﴾ بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم وسكون الياء مضارع « أنجى » للجمهور ، وبحذف الثانية وشد الجيم وفتح الياء ماض لابن عامر وعاصم ويعقوب ﴿ مَن نَّشَاءُ ﴾ النبى والمؤمنين ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ عذابنا ﴿ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ إذا نزل بهم غيَّر الأسلوب ليدل الإجرام على استحقاق حلول العذاب ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ ﴾ الرسل وأممهم ، أو يوسف وإخوته ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُولِى الْأَلْبَـٰبِ ﴾ أصحاب العقول السليمة من الأوهام ﴿ مَا كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ يختلق ﴿ وَلَـٰكِن ﴾ كان ﴿ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قبله من الكتب الإلٰهية ﴿ وَتَفْصِيلَ ﴾ تبيين ﴿ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ يحتاج إليه فى الدين لأنه القانون الذى يرجع إليه سائر الأدلة الشرعية فلا تستند الأحكام إلا إليه إما ابتداء أو بواسطة ﴿ وَهُدًى ﴾ من الضلال ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لأنه سبب النجاة فى الدارين ، والمصادر مبالغة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ به لأنهم المنتفعون بما فيه . أماتنا الله على الإيمان به بجاه من أنزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم .

[تم تفسير سورة يوسف]

سورة الرعد

مكية إلا « ولايزال الذين كفروا ... الآية » ، « ويقول الذين كفروا لست مرسلا ... الآية »
أو مدنية إلا « ولو أن قرآنا ... » الآيتين ـ ثلاث أو أربع أو خمس أو ست وأربعون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ الٓمٓر ﴾ الله أعلم بمراده بذلك ، يحتمل أنه اسم للسورة أو طائفة من الحروف للإيقاظ ، أو أنا الله أسمع وأرى ﴿ تِلْكَ ﴾ هذه الآيات ﴿ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ ﴾ القرآن ، والإضافة بمعنى « من » ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أى القرآن مبتدأ خبره ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ لا شك فيه أو عطف على الكتاب عطف العام على الخاص ، والجملة كالحجة على الأولى ، وهذا إن أريد بالكتاب بعضه وهو هذه السورة ، وأما إن أريد به كله فمن عطف الصفة على الأخرى ، والسنة والقياس من المنزل ضمناً ، فلا اعتراض فى الحصر المستفاد من تعريف الخبر ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لعدم النظر والتأمل أو للجحود استكباراً ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ مبتدأ وخبر لتقرير ماقبله كأنه قيل كيف لا يكون كلام من هذه أفعاله هو الحق ، ويجوز أن يكون الموصول صفة والخبر « يدبر الأمر » ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ فى محل النصب على الحال جمع « عماد » أو « عمود » وهو الأسطوانة ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ صفة لعمد أو استئناف للاستشهاد برؤيتهم السموات كذلك وهو صادق بأن لا عمد أصلا ، وهو دليل على وجود الصانع الحكيم والمرئى وإن كان السماء الدنيا إلا أنه يعلم منه سائرها بالطريق الأولى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ استواء يليق به ، أو هو كناية عن إجراء الأحكام فى الملك والملكوت بالتدبير والحفظ ، فإن الملك يجلس على سريره ثم يظهر أوامره ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ ذللهما لما أراد منهما كالحركة المستمرة على حد من السرعة ، وهو إشارة إلى معنى الاستواء ﴿ كُلٌّ ﴾ منهما ﴿ يَجْرِى ﴾ فى فلكه ﴿ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يتم فيه أدواره أو ينقطع فيه سيره « إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت » ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ يقضى أمر ملكه ﴿ يُفَصِّلُ ﴾ يبين ﴿ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ على قدرته ، وهما حالان من الضمير فى قوله « ثم استوى على العرش » على الوجه الأول لأن قوله « وسخر الشمس والقمر » من تتمته وخبران على الوجه الثانى ولم يعطف أحدهما على الآخر لاستقلال كل منهما بشأن ، إذ الأول عبارة عن أفعاله كالإماتة والإحياء والإيجاد والإعدام ، والثانى عن أقواله كالإيحاء وإنزال الكتب . والله أعلم ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ ﴾ بالبعث ﴿ تُوقِنُونَ ﴾ لأن هذه الأشياء أدلة قاطعة على أن موجدها له كمال القدرة على كل شىء ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ ﴾

دحاها وبسطها طولا وعرضا ليثبت عليها الأقدام ويتقلب عليها الحيوان ، قدم العلويات على السفليات فى الدلالة على كمال القدرة لأنها أدلّ ﴿ وَجَعَلَ ﴾ خلق ﴿ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثوابت شوامخ ﴿ وَأَنْهَارًا ﴾ جارية ، ضمها مع الجبال لأنها أسباب لتولدها ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ متعلق « بجعل » وقوله ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ من كل نوع مستأنف للبيان أو متعلق بما بعده أى جعل فيها زوجين أى صنفين اثنين من كل الثمرات كأسود وأبيض ، وحلو وحامض ، وصغير وكبير ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ يجعل الليل مكان النهار فيصير الجو مظلما بعد ما كان مضيئا ، وإنما عبر عنه بالغشيان مبالغة فى الاستتار وعدم بقاء آثاره كالشىء الملفوف فى لباس ساتر ، وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى « يغشى » مشددا ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ دلالات على وحدانيته تعالى ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فى المذكورات من قوله « مد الأرض » إلى آخر الآية ففى كل واحد منها دلالة على كمال القدرة والحكمة باعتبار الكمّ والكيفيات لمن تدبرها بعين الاعتبار ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ ﴾ بقاع مختلفة الطبائع ﴿ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ متلاصقات فمنها طيب وسبخ ، ومنبت وغير منبت ، وممسك للماء وغير ممسك له وقليل الريع وكثيره ، ورخو وصلب ، وصالح للزرع دون الشجر والعكس ، هذا الاختلاف مع اتحاد الماهية دليل على الصانع الحكيم وذكر التجاور لأن الاختلاف فيه أغرب ﴿ وَجَنَّاتٌ ﴾ بساتين تجن الأرض بأشجارها ﴿ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ ﴾ بالجر فيهما للجمهور أى فى الجنات أشجار وزرع وحده لأنه مصدر فى الأصل وبالرفع لابن كثير وأبى عمرو وحفص ويعقوب عطفا على جنات ﴿ صِنْوَانٌ ﴾ جمع صنو وهى النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها ﴿ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ منفردة و « غير » فى القراءة والإعراب كزرع ونخيل ﴿ تُسْقَىٰ ﴾ بالتاء للجمهور أى الجنات وما فيها ، والياء لابن عامر وعاصم ويعقوب أى المذكور ﴿ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ ﴾ بالنون للجمهور والياء لحمزة والكسائى مسندا إلى ضمير « الله » ، ﴿ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ بسكون الكاف لنافع وابن كثير وضمها للباقين أى المأكول فمن حلو وحامض وخص الأكل بالذكر دون الشكل واللون والرائحة لأنه العمدة فى المنافع ، أو المراد بالأكل الثمر على تقليب الزرع أى نفضل بعضها فى الثمر شكلا وقدرا ورائحة وطعما ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يتدبرون ، ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ ﴾ يا محمد من إنكارهم الإعادة ﴿ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ الآتى أى حقيق أن يتعجب منه لأن من قدر على إنشاء هذه الأصول والفروع المتقدمة فبالأولى أن يقدر على الإعادة أو إن تعجب من قدرة موجدها فازدد عجبا من قول منكر الإعادة مع اعترافه بما تقدم أو إن تعجب من اتخاذ المشركين مالا يضر ولا ينفع مع اعترافهم بأن الله هو الخالق الرازق فعجب قولهم أو إن تعجب من تكذيبهم إياك مع تسميتهم لك بالأمين الصادق فعجب قولهم منكرين للبعث ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ مقول قولهم أو بدل منه بالاستفهام فى الأول والإخبار فى الثانى لنافع والكسائى ، وعكسه لابن عامر والباقون بالاستفهام فيهما على ما علم لهم فى أصولهم ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ

كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ بقدرته على البعث أى الكاملون فى الكفر ﴿ وَأُولَـٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ ﴾ يوم القيامة وعيد أو فى الدنيا مقيدون بالضلال لا يرجى خلاصهم كما قيل :

كَيْفَ الرَّشَادُ وَقَدْ خُلِقْتَ فِى نَفَرٍ . لَهُمْ عَنِ الرُّشْدِ أَغْلَالٌ وَأَقْيَادُ

﴿وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها وتوسيط الفصل لتخصيص الخلود بالكفار ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ استهزاء ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ النقمة ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ العافية أو الإيمان بقولهم «اللهم إن كان هذا ... الآية» ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ عقوبات أمثالهم من المكذبين أفلا يعتبرون بهم ، جمع مَثُلَة كسَمُرة : نقمة تنزل بالإنسان فتحصل مثالا يرتدع غيره به كالنكال وفى القاموس . مثل لفلان مثلا ومثلة بالضم نكل وهى المثلة بضم الثاء وسكونها . اه وفى الجواهر : المثلات هى العقوبات المنكلات التى تجعل الإنسان مثلا يتمثل به ومنه التمثيل بالقتل ومنه المثلة بالعبيد . اه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ﴾ مع ﴿ظُلْمِهِمْ﴾ وإلا لم يترك على ظهرها دابة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه ، وفى الحديث «لولا عفو الله وتجاوزه لما هنأ لأحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد» ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا﴾ هلا ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴾ على محمد ﴿ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كالعصا واليد والناقة ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ مرسَل للإنذار كسائر الرسل وليس عليك إتيان ما اقترحوا من الآيات ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ نبىٌّ داع إلى الله مثلك بما يعطيه من الآيات لا بما يقترحون رد لهم بأبلغ وجه ، وقف ابن كثير على هاد بالياء والباقون بحذفها وعليه الرسم ثم أردف عدم إجابتهم إلى ما اقترحوا من الآيات كمال علمه وقدرته ليعلم أن عدمها لكونهم معاندين بقوله ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ من ذكر وأنثى وواحد ومتعدد سوىّ الخلق وغيره و « ما » مصدرية أو موصولة أى حملها أو ما تحمله ﴿ وَمَا تَغِيضُ ﴾ تنقص ﴿ الْأَرْحَامُ ﴾ من مدة الحمل ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ منها أو ما تنقص من دم الحيض وما تزداد ، وجاء ازداد وغاض متعديا ولازما فأقل مدة الحمل ستة أشهر وأكثرها خمس سنين عند مالك وأربع عند الشافعى وسنتان عند الحنفى وأعلى عدد الحمل لا حد له ، وقيل نهايته أربعة غالبا ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ بقدر وحد لا يتجاوزه ولا ينقص منه فى وقته وحاله وهيأ له أسبابا مسوقة إليه تقتضى ذلك ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ ما غاب وما شوهد ﴿الْكَبِيرُ﴾ العظيم ﴿الْمُتَعَالِ﴾ على خلقه بالقهر وعلا عن كل ما لا يليق بجلاله ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ ﴾ فى علمه تعالى ﴿ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ ﴾ فى نفسه ﴿ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ أسمعه غيره ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ ﴾ طالب استتار ﴿ بِاللَّيْلِ ﴾ بظلامه ﴿ وَسَارِبٌ ﴾ بارز ظاهر بذهابه فى سربه أى طريقه ﴿ بِالنَّهَارِ ﴾ يراه كل أحد من سرب سروبا إذا برز وهو عطف على « من » أو مستخف على أن « من » فى معنى الاثنين كأنه قال سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار وإنما لم يأت بـ « من » كما فى المعطوف عليه إشارة إلى كمال علمه بالخفايا وذلك هو النكتة فى زيادة « هو » ولذلك أيضا قدم أسرّ وأعمله فى صريح القول وأتى فى الجهر بالضمير مؤخرا والآية متصلة بما قبلها مقررة لكمال

عليه وشموله ﴿ لَهُ ﴾ لمن أسرّ أو جهر أو استخفى أو سرب أو لله ﴿ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ ملائكة تعتقبه فى حفظه جمع معقبة بمعنى معقب والتاء للمبالغة كراوية أو بمعنى جماعة والتشديد فى عقب للمبالغة أيضا وأصله عَقِبَهُ جاء على أثره ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ قدامه ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ ورائه أى من جميع جهاته كلها وخص الجهتين بالذكر لأن العدو أكثر ما يقصد منهما ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى بأمره من الجن وغيرهم مالم يجئ القدر فإذا جاء خلوا عنه فإذا صعدت ملائكة الليل عقبها ملائكة النهار وبالعكس. وأخرج الطبرى: أن عثمان سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن عدد الملائكة الموكلة بالآدمى فقال: لكل آدمى عشرة بالليل وعشرة بالنهار واحد عن يمينه وآخر عن شماله واثنان من بين يديه ومن خلفه واثنان على جبينه وواحد قابض على ناصيته إن تواضع رفعه وإن تكبر وضعه واثنان على شفتيه لايحفظان عليه إلا الصلاة على النبي والعاشر يحرسه من الحية أن تدخل فاه إذا نام. اه. وقيل المعنى يحفظونه من أجل أمر الله أو من بأس الله بالاستغفار لقوله «ويستغفرون لمن فى الأرض» ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ لا يسلبهم عافيته ونعمته ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ من الحالة الجميلة بالقبيحة فيحل عليهم نقمته ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ عذابا ﴿ فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ لاراد له من المعقبات ولا غيرها ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ حينئذ ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ غيره ﴿ مِنْ وَالٍ ﴾ ناصر يمنعه عنهم أومن يلى أمرهم فيدفع عنهم السوء ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ عند لمعانه من أذاه كالصواعق ﴿ وَطَمَعًا ﴾ فى الغيث أو خوفا لمن يضره المطر وطمعا لمن ينفعه وانتصابهما على العلة بتقدير المضاف أى إرادة خوف وطمع أو بالتأويل بالإخافة والإطماع أو على الحال من البرق، أو المخاطبين على إضمار ذوى أو إطلاق المصدر على المفعول أو الفاعل ﴿ وَيُنْشِئُ ﴾ يخلق ﴿ السَّحَابَ ﴾ الغيم المنسحب فى الهواء ﴿ الثِّقَالَ ﴾ بالمطر جمع ثقيلة وصف به السحاب لأنه اسم جنس فى معنى الجمع ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ ﴾ وهو ملك موكل بالسحاب يسوقه ملتبسا ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أى يقول « سبحان الله وبحمده» هذا ما عليه أكثر المفسرين، وقيل الرعد صوت اصطكاك أجرام السحاب أى يسبح سامعوه وعلى الأول فقوله ﴿وَ﴾ تسبح ﴿الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أى الله من عطف العام على الخاص لكمال علمهم بعظيم سلطانه وكل من كان أعلم كان أخشى، وعن ابن عباس إذا سبح الرعد لا يبقى ملك فى السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فعند ذلك ينزل المطر، وعن على رضى الله عنه: السحاب غربال الماء، وقال ابن عباس: من سمع صوت الرعد فقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شىء قدير فإن أصابته صاعقة فعلىّ ديته ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾ وهى نار تخرج من السحاب ﴿ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ فتحرق كأربد بن قيس بن ربيعة بعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم من يدعوه فقال مَن رسول الله وما الله أمن ذهب أم من فضة أو نحاس؟ فنزلت صاعقة فذهبت بقحف رأسه، نعوذ بالله من الجرأة على الله وقيل وفد مع عامر بن الطفيل على النبي صلى الله عليه وسلم قاصدين قتله فأخذ عامر يجادله بما تقدم ودار أربد

من خلفه ليضربه بالسيف فاخترط شبرا من سيفه فحبسه الله ولم يقدر على سله فاطلع الرسول عليه فقال : اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل على أربد صاعقة فأحرقته فولى عامر هاربا يقول : يا محمد دعوت ربك فقتل أربد لأملأنها عليك خيلا فأصابه طاعون تحت أذنه فدخل فى بيت امرأة سلولية وقد أخذه مثل النار يقول أغدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية فمات وكفى الله رسوله من شره ﴿ وَهُمْ ﴾ أى الكفار ﴿ يُجَادِلُونَ ﴾ يخاصمون النبى ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ حيث يكذبون رسوله فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس ومجازاتهم ، والجملة معطوفة على قوله : « ويقول الذين كفروا لولا أنزل . . . » المعطوف على « يستعجلونك » والعدول من الفعلية إلى الاسمية للدلالة على أنهم ما ازدادوا بالآيات إلا عنادا وقيل الواو للحال من مفعول « يصيب » أى يصيبهم فى حال جدالهم فى الله كقصة أربد وعامر المتقدمة ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ القوة أو الأخذ أو المكايدة لأعدائه من تمحل بفلان إذا كاده وعرضه الهلاك ﴿ لَهُۥ﴾ تعالى ﴿ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ أى كلمته وهى « لا إله إلا الله » أو أن الله هو الذى يحق أن يعبد ويدعى إلى عبادته دون غيره . أو له الدعوة المجابة يجيب من دعاه ويؤيده ما بعده واتصال الجملتين بما قبلهما ظاهر إن كان المراد قصة عامر وأربد إذ إهلاكهما من حيث لم يشعرا به محال من الله وإجابة لدعوة رسوله فكان دعاؤه دعوحق وإن كان عاما فى الذين يجادلون فى الله فكذلك لأنه وعيد للكفرة على مجادلة رسوله بحلول محاله بهم وتهديدهم بإجابة دعاء الرسول عليهم أو بيان لضلالتهم وفساد رأيهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أى والأصنام الذين يدعونهم الكفار ويعبدونهم لحذف الراجع أو المشركون الذين يدعون الأصنام لحذف المفعول لدلالة.قوله ﴿ مِن دُونِهِۦ﴾ أى غيره عليه ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ مما يطلبونه من دفع ضر أو جلب نفع لأنها جمادات ﴿إِلَّا﴾ استجابة ﴿ كَبَٰسِطِ ﴾ أى كاستجابة باسط ﴿ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ ﴾ على شفير البئر يدعوه ﴿ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾ بارتفاعه من البئر إليه ﴿ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ﴾ أى فيه أبدا فكذلك ماهم بمستجيبين لهم شبه الداعون للأصنام بمن بسط كفيه ناشرا أصابعه يريد اغتراف الماء فى أنهما لا يحصلان على طائل لأن الماء يتوصل إليه بالقبض لا بالبسط فالاستثناء من أعم الأحوال ووجه الشبه عقلى اعتبارى أو شبه حال آلهتهم حين التجائهم إليها فى دفع ما أهمهم فى عدم الشعور فضلا عن الاستطاعة للإجابة بماء بمرأى من عطشان أحوج ماهو إليه يناديه عبارة أو إشارة والمنادى لا إدراك له ولا حراك وعلى الوجهين فيه شائبة تهكم ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عبادتهم الأصنام أو حقيقة الدعاء ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ ضياع سواء دعوا الأصنام أو الله تعميم وتيئيس لهم من جميع الجهات ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ يحتمل أن يكون السجود على حقيقته فإنه يسجد له الملائكة والمؤمنون من الثقلين طوعاً حالتى الشدة والرخاء والكفرة كرهاً حالة الشدة والضرورة أو يراد به انقيادهم لإحداث ما أراده فيهم شاءوا أو كرهوا أو اعترافهم له بالعظمة والربوبية . قال فى اللباب : حقيقة السجود

وضع الجبهة على الأرض ، وقال فى غاية الأمانى : أصل السجود الانحناء والانخفاض وتخصيصه بوضع الجبهة عرف طارئ ﴿ وَ ﴾ تسجد له ﴿ ظِلَالُهُم ﴾ قال المفسرون ظل كل شيء يسجد لله ولا يبعد وقيل سجود الظلال ميلانها من جانب إلى جانب آخر وطولها وقصرها بسبب ارتفاع الشمس ونزولها ﴿ بِالْغُدُوِّ ﴾ البكر ﴿ وَالْآصَالِ ﴾ العشايا : ظرف ليسجد والمراد بهما الدوام أو حال من الظلال ، وتخصيص الوقتين لأن الظلال تعظم وتكثر فيهما ، والغدو جمع غداة كقنى وقناة وهى من أول النهار إلى الزوال ، والآصال جمع أصيل ما بين العصر والمغرب ، وانتصاب « طوعا وكرها » على الحال أو المفعول له ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خالقهما ومتولى أمورهما ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ إن لم يقولوه لاجواب غيره ثم ألزم الحجة عليهم بعد إقامة الدلائل القاطعة على تفرد الله بالملك والملكوت بقوله ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى غيره ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ أصناما تعبدونها ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ وتركتم مالكهما ؟ استفهام توبيخ والهمزة داخلة على الفاء العاطفة ، أى أبعد أن علمتم أنه رب السموات والأرض جعلتم مكانه أربابا تعبدونها ، وكان مقتضى ذلك العلم التوحيد فكيف عميت بصائركم ، وقوله « لا يملكون » دليل ثان على ضلالتهم وفساد رأيهم فى اتخاذ الأصنام أولياء رجاء أن يشفعوا لهم ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ الكافر والمؤمن أو الجاهل والعالم ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ﴾ بالتاء للجمهور ، والياء لحمزة والكسائى وشعبة ﴿ الظُّلُمَاتُ ﴾ الكفر ﴿ وَالنُّورُ ﴾ الإيمان . لا . جمع الظلمات لاشتمال الكفر على الشبهات والشكوك بخلاف النور فهو واضح أبلج ، وفائدة الاستفهام الإنكارى الحث على التأمل وألا يرضى السامع بدخوله فى زمرة العمى المستغرقين فى الظلمات ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ﴾ صفة شركاء ﴿ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ ﴾ أى خلق الشركاء بخلق الله ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ فاعتقدوا استحقاق عبادتهم لخلقهم : استفهام إنكار ، أى ليس الأمر كذلك ولا يستحق العبادة إلا الخالق ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ لا شريك له فيه فلا شريك له فى العبادة جعل الخلق موجبا لاستحقاق العبادة ثم نفاه عن غيره ليكون دليلا على قوله ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ ﴾ فى الألوهية ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ لعباده ، ولما شبه الله الكافر بالأعمى والمؤمن بالبصير ، والكفر بالظلمات ، والإيمان بالنور ضرب مثلا للحق والباطل فقال ﴿ أَنْزَلَ ﴾ تعالى ﴿ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ مطرا ، والسماء : السحاب إذ كل ما علاك سماء أو الفلك لأنه المبدأ الأول للماء ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ ﴾ أنهار جمع واد وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء بكثرة ، فاتسع فيه واستعمل للماء الجارى وتنكيرها لأن المطر يأتى على تناوب بين البقاع ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ بملئها أو بمقدارها الذى علم الله أنه نافع غير ضار أو بمقدارها فى الصغر والكبر ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا ﴾ غثاء أو وضرا ﴿ رَابِيًا ﴾ عاليا عليه وهو ما على وجهه من قذر ونحوه ﴿ وَمِمَّا تُوقِدُونَ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة والكسائى وحفص ، والضمير للناس ﴿ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾ من المعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد ﴿ ابْتِغَاءَ ﴾ طلب ﴿ حِلْيَةٍ ﴾ زينة ﴿ أَوْ مَتَاعٍ ﴾ ينتفع به كالأوانى وآلات

الحرب والحرث إذا أذيب ﴿ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ أى مثل زبد السيل وهو خبثه الذى ينفيه الكير ، و « من » للابتداء أو التبعيض ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ بمثلهما ويبرزهما فى صورة المحسوس إزاحة للشبهة مثل تمثيل الحق وأهله بالماء المنزل من السماء السائل فى أودية وانتفع الناس به أنواعاً من الانتفاع وبالفلز من صوغ الحلى واتخاذ الآلات والاوانى التى تبقى مدداً متطاولة ، والباطل فى سرعة زواله وانسلاخه عن المنفعة بالزبد الذى يرمى به الماء أو الفلز فينعدم فى الحال وينمحى أثره ، وبيّن ذلك بقوله ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ ﴾ من السيل وما أوقد عليه من الجواهر ﴿ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ بجفوءها أى مرمياً يرميه السيل والفلز : نصب على الحال وأصله الخفة ﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ من الماء والجواهر ﴿ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ زماناً ينتفع به أهله كالماء فى المنابع والآبار وما ينشأ منه من الثمار والحبوب المدخرة وكخالص المعادن ، وقيل شبه القرآن المنزل بالماء ، والقلوب بالاودية ، ووساوس الشياطين وهواجس النفوس بالزبد الذى يعلو الماء والحق الذى استفيد من القرآن واستنبط منه بالجواهر والذهب الخالص من الخبث والباطل الذى يتولد من تلك الوساوس بالجفاء ، وكما أن الأودية تتفاوت فى الصغر والكبر ، كذلك القلوب فى أخذ المعارف وإدراك لطائف التنزيل بحسب الفطرة والاستعداد ، وكذلك نسبة القلوب إلى الجواهر والمعادن بعضها كالذهب وبعضها كالنحاس وبعضها كالحديد ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ لإيضاح الشبهات ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ﴾ بالطاعة الاستجابة ﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾ واللام متعلقة بيضرب ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾ عطف على المجرور وهم الكفرة ، جعل ضرب المثل لشأن الفريقين ضرب المثل لهما ، وقيل « للذين استجابوا » خبر مبتدؤه « الحسنى » وهى الجنة « والذين لم يستجيبوا » مبتدأ خبره ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ من العذاب ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ وهو المناقشة فيه بأن يؤاخذوا بكل ما عملوه لا يغفر منه شىء ، وفى الحديث : « من نوقش فى الحساب هلك » ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ الفراش هى ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ فاستجاب وآمن كحمزة بن عبد المطلب وعمار بن ياسر ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾ عمى القلب لا يعلمه ولا يؤمن كأبى جهل ، والهمزة لإنكار أن تقع شبهة فى تشابههما بعد ما ضرب من المثل المشبه للأول بالماء والإبريز والثانى بالزبد والخبث ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ يتعظ فيؤمن ويراقب الله ﴿ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أصحاب العقول الخالصة الناظرين بها نظر الاستبصار . قال الغزالى : من آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة ليس من ذوى الألباب ولذا لا تنكشف له أسرار الكتاب ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ المأخوذ عليهم فى عالم الذر ، وفى كتبه المنزلة من الأحكام والحدود وكل عهد ، وأصل العهد حفظ الشىء ومراعاته حالا بعد حال ﴿ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله كالإيمان والفرائض وبين العباد ، وهو تعميم بعد تخصيص ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾

من الأرحام وموالاة المؤمنين والإيمان بجميع الأنبياء. والإحسان إلى كافة المؤمنين للأخوة الثابتة بقوله « إنما المؤمنون إخوة » ، وفى الحديث « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وفيه « إن من الصدقة أن تلقى أخاك المؤمن بوجه طلق » وفيه « لايدخل الجنة قاطع رحم » أخرجه الشيخان ، وفيه « ليس الواصل بالمكافئ : الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها» أخرجه البخارى ، وفيه « تعلموا من أنسابكم ماتصلون به أرحامكم » أخرجه الترمذى ، وهى بز الأهل والأقارب والإحسان إليهم وضده القاطع ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ وعيده عموما ﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ خصوصا فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، وعبر بالخشية فى الرب والخوف فى سوء الحساب لأن الخشية خوف شابه هيبة وتعظيم بخلاف الخوف ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ حبسوا أنفسهم على ما تكرهه النفس ويخالفه الهوى فى المواطن كلها ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ طلباً لمرضاته لا لطلب المدح ولا لخوف الذم ولا غيرهما والعطف فيه وفى الذى قبله من عطف الصفات ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ أدوها على وجه الكمال ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أى بعضه ﴿ سِرًّا ﴾ فى التطوع ﴿ وَعَلَانِيَةً ﴾ فى الواجب إيثاراً للأفضل ، وقيل سراً لمن لم يعرف بالمال وعلانية لمن عرف به ليقتدى به ولئلا يتهم بالبخل ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ يدفعونها بها كالجهل بالحلم والأذى بالصبر ، ولذا قيل : إنَّ العداوةَ تستحيلُ مودةً • بتداركِ الهفواتِ بالحسناتِ

وفى الحديث : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ، وعن الحسن : « إذا حرموا أعطوا ، وإذا ظلموا عفوا ، وإذا قطعوا وصلوا » ﴿ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ خبر « الذين يوفون » أو « الذين » صفة أولوا الألباب » والأول أوجه ، المعنى : لهم العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة . قال ابن المبارك : هذه ثمان خلال مشيرة إلى ثمانية أبواب الجنة . وقال أبو بكر الوراق : هذه ثمانية جسور فمن أراد القرب من الله عبرها ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بدل من عقبى الدار أو مبتدأ خبره ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ والعدن الإقامة مصدر « عدن » إذا أقام ، سميت «جنات عدن» لأنها دار إقامة لاارتحال عنها ﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ آمن ﴿ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ عطف على فاعل يدخلونها وجاز للفصل بالمفعول أو منصوب على المعية ، والمعنى أنهم يلحق بهم من صلح ممن ذكر وإن لم يبلغ فضلهم تعظيما لشأنهم ليقرب بعضهم ببعض زيادة فى الأنس ، والتقييد بالصلاح دلالة على أن مجد النسب لاينفع وإذا قارنه أدنى عمل صالح نفع . وفى الحديث « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» ﴿ وَالْمَلَـٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ من أبواب الجنة أو القصور للتهنئة وإيصال الهدايا أول دخولهم يقولون ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ بشارة بدوام السلامة . هذا الثواب ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ واحتملتم من المشاق أو متعلق بعليكم لأنه ظرف مستقر ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ عقباكم ، ولما ذكر الله أحوال السعداء وما أعد لهم من الكرامات أتبعه أحوال الأشقياء وما لهم من العقوبات فقال ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾ عليهم بالإيمان ﴿ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ بالإقرار والقبول ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ

اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من صلة الارحام وسائر الحقوق ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿أُولَـٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ البعد من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي العاقبة السيئة في الدار الآخرة وهي جهنم ثم بين ماأطماعم فقال ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه لمن يشاء على مقتضى الحكمة ﴿وَفَرِحُوا﴾ أي أهل مكة فرح بطر لافرح سرور بنعمة الله ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم فيها ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ في جنب حياة الآخرة ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ شيء قليل يتمتع به ويزول سريعا كرائحة الورد وزاد الراعي ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعد ماشاهدوا الخوارق كانشقاق القمر والقرآن المعجز ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ على محمد ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كالعصا واليد والناقة ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ إضلاله باقتراح الآيات فلا تغني عنه شيئا ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ إلى دينه ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ رجع إليه عن العناد في ما آتاني من الآيات ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بدل من «مَنْ» أوخبر مبتدأ محذوف أي هم الذين آمنوا ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ تسكن ﴿قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي وعده بعد الاضطراب من خشيته كقوله ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله أو القرآن الذي هو أقوى المعجزات وهذا الوجه يناسب قوله «لولا أنزل عليه آية» كما أن الاول يناسب الإنابة أو بأدلة التوحيد ثم نبه الكفار المستغرقين في قلق الشبهات بقوله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي قلوب المؤمنين لا بالآيات المقترحة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مبتدأ خبره ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ مصدر من الطيب على وزن فعلى كبشرى، أبدلت الواو من الياء لضم ماقبلها أو شجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها، وهذا هو الصحيح لتظاهر الاحاديث الصحاح على ذلك ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ مرجع وطيب عيش ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما أرسلنا الأنبياء قبلك ﴿أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أرسلوا إليهم فليس ببدع إرسالك إليها، وإنما كذبوك عنادا ﴿لِتَتْلُوَ﴾ تقرأ ﴿عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن الذي لايدع شبهة إذ لانبي بعدك يزيلها ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ أي والحال أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمه وخصوصا ما أنعم عليهم بإرسالك إليهم وإنزال القرآن الذي هو مناط منافع الدارين وقيل المراد قولهم لما قيل «اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن» ﴿قُلْ﴾ لهم يامحمد ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحق للعبادة سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في أموري كلها ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ مرجعي ومرجعكم. ونزل لما قالوا: إن كنت نبيا فسير عنا جبال مكة بقرآنك فإن الجبال قد سخرت لداود واجعل لنا فيها أنهارا وعيونا لنغرس ونزرع أو سخر لنا الريح كما سخرت لسليمان لنركبها إلى الشام ونتجر ثم نرجع في يومنا أو ابعث لنا آباءنا الموتى كالقصي يكلمونا أنك نبي فإن عيسى كان يحيي الموتى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ نقلت عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ﴾ شققت ﴿بِهِ الْأَرْضُ﴾ لتتفجر عنها الانهار أو قطعت بالسير السريع على الريح ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ بأن يحيوا والجواب لما آمنوا أو المعنى لو فعل هذا بقرآن أي مقروء من الكتب قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وعن الفراء أن الآية متصلة بما قبلها،

والمعنى وهم يكفرون بالرحمن « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال » فعلى هذا هى جملة حالية وجواب الشرط محذوف لدلالة السابق عليه وما بينهما اعتراض ﴿ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً ﴾ لا لغيره فلا يؤمن إلا من شاء إيمانه دون غيره وإن أوتوا ما اقترحوا ونزل لما أراد الصحابة إظهار ما اقترحوا طمعا فى إيمانهم ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ ﴾ يعلم ﴿ الَّذِينَ ءامَنُوا أَنْ ﴾ مخففة أى أنه ﴿ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ إلى الإيمان من غير آية أو اليأس على بابه أى : ألم ييأسوا عن إيمانهم مع مارأوا من أحوالهم علما منهم أن ... الخ ، وعلى الاول الجمهور واستعمل بمعنى العلم لأن الآيس عن الشىء عالم بأنه لايكون والاستفهام للتقرير أى علموا ذلك ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من أهل مكة ﴿ تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا ﴾ بصنعهم أى كفرهم وسوء أعمالهم ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ داهية تقرعهم بصنوف البلاء من القتل والأسر والجدب ، والقرع : الضرب الشديد ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ يا محمد بجيشك ﴿ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ ﴾ مكة ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ بالنصر عليهم بفتح مكة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ وقد حل بالحديبية حتى أتى فتح مكة أو المراد لايزال الكفار تصيبهم داهية مهلكة كما أصابت المستهزئين أو تحل قريبا من دارهم بالهجرة والنزول بالمدينة حتى يأتى ظهور أمرك أو القيامة أو فتح مكة ، قال فى غاية الأمانى : وهذا أوجه لأن السورة مكية . اه والمقصود من الآية تقوية النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بوعد النصر وقوله إن الله لا يخلف الميعاد : تذييل لتحقيق الوعد ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ كما استهزئ بك ، وهذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ فَأَمْلَيْتُ ﴾ أمهلت ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ تركتهم ملاوة من الزمان فى خفض العيش ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ بالعقوبة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أى هو واقع موقعه فكذلك أفعل بمن استهزأ بك ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ رقيب ﴿عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر وهو الله كمن ليس كذلك من الاصنام ؟ لا : دل على هذا ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ استئناف أو عطف على الخبر المقدر للمبتدأ أى فمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه وجعلوا له شركاء ويكون وضع الظاهر موضع المضمر للتنبيه على أنه المستحق للعبادة ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ له من هم ؟ أمر تعجيز إذ لاأسماء لها والقصد تحقيرها بأنها لاتستحق أن تذكر باسم أو المعنى صفوهم فانظروا هل لهم مايستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿تُنَبِّئُونَهُ﴾ تخبرون الله ﴿بِمَا﴾ بشريك ﴿لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ استفهام إنكار أى لا شريك له إذ لو كان لعلمه ـ تعالى عن ذلك ﴿أَمْ﴾ بل تسمونهم شركاء ﴿ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ من غير أن يكون تحته طائل بل بمجرد صوت من غير معنى كتسمية الزنجى كافورا وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب فإنه هدم قاعدة الإشراك بقوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ثم أبطله بأن من لا يجوز له شريك فقد أشركوا به شركاء لاأسماء لها فضلا عن المسمى ثم بالغ فى نفيها بأن نفى العلم بوجودها ليلزم منه نفى المعلوم على طريقة الكناية وسلك بذلك مسلك الإنكار توبيخاً لهم بأنهم يريدون أن ينبئوا عالم الخفيات بما لا يعلمه وذلك محال آخر ، ثم قال ليس مايقولونه كلاماً يلتفت إليه بل بمجرد صوت ثم أضرب عن ذلك كله وأشار إلى أصل ذلك الضلال

بقوله ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ كيدهم للإسلام بالشرك ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ طريق الهدى قرأ الكوفيون بضم الصاد والباقون بفتحها ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يوفقه لسلوك الرشاد ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ أشد منه لدوامه وشدته ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى عذابه ﴿ مِنْ وَاقٍ ﴾ مانع ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ صفتها التي هي مثل في الغرابة مبتدأ خبره محذوف أى فيما نقص عليكم أو خبره ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى مثل الجنة جنة تجرى وعلى الأول فتجرى حال من العائد المحذوف من الصلة ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ لا ينقطع ثمرها ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ دائم لا تنسخه شمس لعدمها فيها ﴿ تِلْكَ ﴾ الجنة الموصوفة ﴿ عُقْبَى ﴾ عاقبة ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الشرك ، أى مآل أمرهم ﴿ وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ لا غير : إطماع المؤمنين وإقناط للكافرين ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ كعبد الله بن سلام من مؤمنى اليهود وكثمانين من النصارى ، أربعين من نجران ، وثمانية من الشام ، واثنين وثلاثين من الحبشة ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ لموافقته ما عندهم ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ الذين تحزبوا عليك بالمعاداة من المشركين وأهل الكتاب ﴿ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾ كذكر الرحمن وما عدا القصص مما يخالف شريعتهم ﴿ قُلْ ﴾ للمنكرين منهم ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ ﴾ فيما أنزل إلىّ ﴿ أَنْ ﴾ أى بأن ﴿ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ وهو العمدة في كل دين فلا سبيل إلى إنكاره وكذا ما خالف شرائعكم في جزئيات الأحكام فليس ببدع في الشرائع ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ لا إلى غيره ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ مرجعي للجزاء لا إلى غيره ، وهذا هو القدر المتفق عليه بين الأنبياء ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ مثل هذا الإنزال المشتمل على أصول الديانة المجمع عليها ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ أى القرآن ﴿ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ بلغة العرب تحكم به بين الناس ، سمى عربياً لكونه مستفاداً منه تسمية الحال باسم المحل لأن الألفاظ أوعية المعانى أو الحكم بمعنى المحكم المتقن كالذكر الحكيم ، وسمى القرآن حكما لكونه سبباً للحكم ، أو لما حكم على جميع الخلق بالعمل بمقتضاه سمى حكما ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ التي يدعونك إليها كتقرير دينهم والصلاة إلى قبلتهم بعد ما حولت عنها ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ بالتوحيد ونسخ قبلتهم ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ وَلِيٍّ ﴾ ناصر ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴾ مانع لعذابه عنك ، وهذا ونظائره من باب حث السامع على الثبات في الدين والحسم لأطماع الكفار في اتباعهم . قرأ ابن كثير بالياء وقفاً . ونزل لما عيره الكفار بكثرة النساء وقالوا : إن هذا الرجل ليس له همة إلا النساء ولو كان رسول الله لترك الدنيا كلها ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ أولاداً ، وأنت مثلهم . واستبعاد ذلك من الرسول جهل لأنه إنما أرسل للتبليغ وليس من لوازمه مخالفة نوعه بل كونه مثلهم أدعى إلى المتابعة ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ منهم ﴿ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ لأنهم عبيد مربوبون ، رد لاقتراحهم الآيات منه ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ ﴾ وقت ومدة ﴿ كِتَابٌ ﴾ مكتوب فيه تحديده ، أو لكل وقت حكم يكتب فيه على العباد على وفق ما اقتضته الحكمة ﴿ يَمْحُو اللَّهُ ﴾

يفسخ منه ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ ردٌّ لإنكارهم النسخ ﴿ وَيُثَبِّتُ ﴾ بالتشديد لنافع وابن عامر وحمزة والكسائى ، والتخفيف للباقين : يثبت ما اقتضت حكمته إثباته من الأحكام وغيرها ، وقيل : يمحو سيئات التائبين ويثبت مكانها الحسنات ، وقيل : يمحو من ديوان الحفظة ما ليس من الطاعات والمعاصى لأنهم مأمورون بكتابة كل حركة وسكون ويثبت غيره مما يتعلق به الجزاء ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أصل كل كتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، أو علمه الشامل ، فإن اللوح من الكتاب أيضاً ، وهو معنى قول السيوطى فى التكملة : أصله الذى لا يتغير منه شىء. وهو ما كتبه فى الأزل ﴿ وَإِمَّا ﴾ فيه إدغام نون « إن » الشرطية فى « ما » المزيدة ﴿ نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب فى حياتك ، وجواب الشرط محذوف أى : فذلك ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل تعذيبهم ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ لا غير ، ويحتمل أن يكون هذا جواباً لإنّ مع ما عطف عليه أى إن أريناك بعض ما أوعدناهم أو توفيناك قبله فإنما عليك البلاغ فقط ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ المجازاة فلا تستعجل عذابهم ، ثم ذكر طلائعه بقوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ﴾ نقصد أرض الكفار ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بالفتح على النبى بما يدخل فى دينه من القبائل والبلاد المجاورة لهم أفلا تعتبرون بذلك وهذا على أن الآية مدنية ، وعلى أنها مكية فالمراد تنقيصها بتخريب العمران والموت ونقص الثمرات من مجاوريهم أى هلا اعتبروا بذلك ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ ﴾ فى خلقه بما يشاء ﴿ لَا مُعَقِّبَ ﴾ لا مغير أو لا مبطل أو لا راد ﴿لِحُكْمِهِ﴾ وهو فى موضع النصب على الحال ، وأصل التعقيب أن تعمل عملا ثم تعود فيه بالإبطال ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ فعما قليل يجازيهم بالعذاب السرمد ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم بأنبيائهم كما مكروا بك ﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ فلا يؤبه بمكر غيره لأنه القادر على ما أراده ، ومكر غيره تخيل باطل ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من الخير والشر وقد أعد لها جزاءه ، وهذا هو المكر كله لأنه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ ﴾ المراد به الجنس ﴿ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أى العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة ألهم أم للنبى والمؤمنين ، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى فإنه أخفى أمر العاقبة عنهم فوقعوا فى الضلال المؤدى إلى النار ، وقرأ الكوفيون وابن عامر « الكفار » وهى أوفق لقراءة ابن مسعود الكافرون ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لك ﴿ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ على صدقى بالمعجزات الدالة على رسالتى وهى شهادة لا تحتمل الريب ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ من علماء اليهود كعبد الله بن سلام وابن يامين والنصارى كسلمان ، أو الكتاب القرآن فيدخل فيه جميع المؤمنين لأنهم يشهدون برسالته بما علموا من إعجازه ، والله أعلم بأسرار كتابه .

[تم تفسير سورة الرعد]

سورة إبراهيم

مكية أو إلا « ألم تر إلى الذين بدلوا ... الآيتين »
إحدى أو اثنتان أو أربع أو خمس وخمسون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ الٓر ﴾ الله أعلم بمراده بذلك . هذا القرآن ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ ﴾ بدعائك إلى ما فيه من المعارف والأحكام ﴿ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ ﴾ من أنواع الضلال ﴿ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ الهدى ، استعارتان للضلال والهدى ﴿ بِإِذْنِ ﴾ بأمر ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ وبتوفيقه وتسهيله ، مستعار من الإذن الذى هو تسهيل الحجاب وهو صلة « لتخرج » أو حال من فاعله أو مفعوله ﴿ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ﴾ الغالب الذى لا يذل سالكه ﴿ ٱلْحَمِيدِ ﴾ المحمود المستحق لجميع المحامد الذى لا يخيب سائله و « إلى صراط » بدل من قوله إلى النور ، استعار النور أولا للهدى لظهوره ثم جعله جادة لا زيغ فيها موصلة ، ويحتمل الاستئناف كأنه قيل إلى أى نور فقيل إلى صراط الله ، وإضافته إليه لأنه مقصده أو المظهر له ﴿ ٱللَّهِ ﴾ بالرفع لنافع وابن عامر مبتدأ خبره الموصول بعد ، وبالجر للباقين بدل أو عطف بيان ، وما بعده صفة ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ملكا وخلقا وعبيداً ﴿ وَوَيْلٌ ﴾ هلاك وحزن ﴿ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ بالكتاب ولم يخرجوا به من الظلمات ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ يقعون فيه ، أو لهم هذه الكلمة عند ذلك فإن الواقع فى الهلاك ينادى بها ، والويل نقيض الوأل وهو النجاة ، وأصله النصب لأنه مصدر ، إلا أنه لم يشتق منه لكنه رفع لإفادة الثبات ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ نعت ﴿ يَسْتَحِبُّونَ ﴾ يختارون ﴿ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ ﴾ فإن المؤثر للشىء يطلب من نفسه حبه ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ الناس ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ دين الإسلام ﴿ وَيَبْغُونَهَا ﴾ يطلبون لها ﴿ عِوَجًا ﴾ عيباً أو زيغاً وميلا إلى أهوائهم ، ويحتمل أن الموصول مبتدأ خبره ﴿ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق ، أى ذى بعد لا نهاية لغوره ، أو وصف الضلال بالبعد مجاز لأنه حال الضال ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ ﴾ بلغة ﴿ قَوْمِهِۦ ﴾ الذين هو منهم وبعث فيهم ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ليفهمهم ما أتى به بيسر وسرعة ثم ينقلوه ويترجموه لغيرهم فإنهم أولى الناس إليه بأن يدعوهم وأحق بأن ينذرهم ، ولذا أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإنذار عشيرته أولا ، ولو أرسل بلغات مختلفة بحسب الأمم المبعوث إليهم لأدى إلى إضاعة فضل الاجتهاد فى تعلم الألفاظ ومعانيها والعلوم المتشعبة عنها لجزيل الثواب ، وقرئ « بلسْن » لغة فى اللسان ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ بالخذلان عن الإيمان ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ بالتوفيق له ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ فى ملكه ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فى صنعه لا يضل ولا يهدى

إلا الحكة . ولما بين أنه قد أرسل قبل رسول الله رسلا بالكتب السماوية ذكر قصة موسى منهم مع قومه لكثرة عنادهم وتعنتهم تسلية لرسول الله بقوله ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ التسع وقلنا له ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ ﴾ بنى إسرائيل ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ الكفر وشبه الضلال ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ الإيمان ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ وقائعه التى وقعت على الأمم الدارجة ، ومنه أيام العرب لحروبها ووقائعها ، وعن ابن عباس : أيام الله نعماؤه ، أى قل لهم قولا يتذكرون به نعم الله وفى إضافتها إليه تعظيم لشأنها والترهيب والترغيب بالوعيد والوعد بما حل على المكذبين من النقم وما أنعم على المصدقين من النعم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ التذكير ﴿ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ على الطاعة ﴿ شَكُورٍ ﴾ على النعم ، أو كثير الصبر على البلاء دائم الشكر على النعماء ويحتمل أنه كناية عن المؤمن لحكى مستوى القامة فى كناية الإنسان . ولما أمر الله موسى أن يذكر قومه أيام الله امتثل ذلك وذكرهم بما أخبره الله بقوله ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ ظرف للنعمة لأنها بمعنى الإنعام أى إنعامه عليكم ذلك الوقت ويجوز أن يكون بدل اشتمال ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ بالاستعباد ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ والجمل الثلاث أحوال من آل فرعون أو من ضمير المخاطبين ، زيد الواو هنا لأن المراد هنا بالعذاب غير المراد به فى البقرة والأعراف لأنه ثم مفسر بالذبح والقتل ، والذبح معطوف عليه هنا فهو هنا جنس من العذاب كالاستعباد ﴿ وَفِي ذَٰلِكُمْ ﴾ الإنجاء أو العذاب ﴿ بَلَاءٌ ﴾ إنعام أو ابتلاء والبلاء يطلق على الخير والشر لقوله « ونبلوكم بالشر والخير » ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ وكون عذابهم من ربكم من حيث إقداره إياهم عليه وإمهالهم فيه ، وكون استحياء النساء بلاء من حيث تركهن تحت أيديهم كالإماء ﴿ وَ ﴾ اذكروا أيضاً ﴿ إِذْ تَأَذَّنَ ﴾ أعلم ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ من كلام موسى أيضاً ، وتأذن بمعنى آذن كتوعد بمعنى أوعد غير أنه أبلغ لما فى التفعل من المبالغة أى أعلم إعلاما لا يبقى معه ريب ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ ﴾ يابنى إسرائيل ما أنعمت به عليكم من الإنجاء وغيره بالإيمان الخالص والعمل الصالح ﴿ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ لأضاعفن لكم ما أنعمت نعمة بعد نعمة ﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ ﴾ النعم بالكفر والمعاصى لأعذبنكم ، دل عليه ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ ولم يسند العذاب إلى ذاته كما أسند زيادة النعم إشارة إلى غلبة رحمته ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ لقومه ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ من الثقلين ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ ﴾ عن خلقه ﴿ حَمِيدٌ ﴾ محمود فى صنعه حمد أو لم يحمد ، وفى الحديث « حمد الله نفسه قبل حمد الحامدين » ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ استفهام تقرير من كلام موسى أو ابتداء كلام من الله مع هذه الأمة ولا يخفى مافيه حينئذ من حسن التخلص ﴿ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ ﴾ قوم هود ﴿ وَثَمُودَ ﴾ قوم صالح ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ لكثرتهم جملة وقعت اعتراضا لفائدة الترقى كأنه قيل : ألم يأتكم نبأ هؤلاء ومن لا يحصى عددهم فدع التفصيل فإنه لا مطمع فيه أو الذين من بعدهم عطف على قوم نوح فلا يعلمهم إلا الله اعتراض كأنه قيل : ألم يأتكم نبأ الجم الغفير . وعن ابن

عباس : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون ، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية يقول كذب النسابون قد نفى الله علمها عن العباد ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الحجج الواضحات على صدقهم ﴿ فَرَدُّوا ﴾ أى الأمم ﴿ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى إليها ليعضوا عليها من شدة الغيظ أو وضعوها عليها تعجبا مما جاءوا به واستهزاء عليه كمن غلبه الضحك أو إسكاتا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرا لهم بإطباق الأفواه أو أشاروا بها إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم إنا كفرنا تنبيها على أن لا جواب لهم سواه أو ردوها فى أفواه الأنبياء يمنعونهم من التكلم وعلى هذا يحتمل أن يكون تمثيلا للرد ﴿ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ على زعمكم ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ موقع فى الريبة أو ذى ريبة وهى قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الشىء . ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ استفهام إنكار أى لا شك فى توحيده للدلائل الظاهرة عليه أدخلت همزة الإنكار على الظرف لأن الكلام فى المشكوك فيه لا فى الشك أى إنما ندعوكم إلى الله وهو لا يحتمل الشك لكثرة الأدلة ، أشار إلى بعضها بقوله ﴿ فَاطِرِ ﴾ خالق ﴿ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وهو صفة أو بدل وشك مرتفع بالظرف ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ إلى طاعته لم يسندوا الدعوة إلى أنفسهم كما أسندها إليهم الكفار إشارة إلى أن الداعى فى الحقيقة هو الله « والله يدعو إلى دار السلام » ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ « من » زائدة فإن الإسلام يغفر به ما قبله أو تبعيضية لإخراج حقوق العباد والأول المعتمد ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ ﴾ بلا عذاب ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أجل الموت ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ لا فضل لكم علينا فكيف تكونون رسلا دوننا ﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا ﴾ بدعواكم الباطلة ﴿ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الأصنام ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ برهان قاطع يدل على فضلكم واستحقاقكم لهذه المزية أو على صحة ادعائكم النبوة وهذا ديدن المعاند لا يرضى بالمعجزة ويشرع فى الاقتراح تعنتا ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ كما قلتم نحن وأنتم سواء فى البشرية ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ بالنبوة فهى فضل لا مكتسبة فكوننا بشرا لا ينافى رسالتنا ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا ﴾ ما صح لنا ﴿ أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بإرادته أو بأمره لأنا عبيد مربوبون ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فى دفع شرور أعدائهم عنهم ، عمموا الأمر للإشعار بما يوجب التوكل وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليا وهو أبلغ من على الله توكلنا ﴿ وَمَا لَنَا ﴾ أى عذر لنا ﴿ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى لا مانع لنا من ذلك أو ما يحصل لنا فى عدم التوكل ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ التى عرفناه بها وعرفنا أن الأمور كلها بيده ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ على أذاكم بالقول أو بالفعل تأكيد للتوكل وعدم مبالاة بما يجرى عليهم من الكفار ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ أى ليزدادوا فيه فالتوكل الأول استحداثه ، وهذا الثانى إدامته ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ ﴾ لتصيرن ﴿ فِي مِلَّتِنَا ﴾ منعوا الخلو من أحد الأمرين إما الإخراج أو العود إلى ملتهم والرسل لم يكونوا على ملتهم يوما إجماعا

فالعود أريد به الصيرورة من إطلاق المقيد على المطلق أو غلبوا الأمة على الرسل ، وآثروا «في» الذي للظرفية على «إلى» للدلالة على الاستقرار فيها ، وإخراج الرسل عن أرضهم سيرة الله في رسله ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أي الرسل ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ بالكفر : مقول القول ، لأن الإيحاء نوع منه ، وهذا بشارة بذلك أي فلا تخافوهم ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ﴾ أرضهم ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ بعد هلاكهم وفي الحديث «من آذى جاره ورثه الله داره» ﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر وإيراث الأرض ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي مقامه بين يدي للحساب ، أو قيامي عليه وحفظي لأعماله ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ بالعذاب . قال ربيع بن خثيم : من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ، ومن طال أمله ساء عمله ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ استنصر الرسل بالله على قومهم . من الفتاحة وهي الحكم ، وقيل الكفرة ، وقيل الضمير للفريقين : كل فريق سأل النصر على عدوه ففتح الله لهم ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ﴾ عات متكبر على الله ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق ولم يفلح فأفلح المؤمنون ورسلهم ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي بين يديه أو وراء حياته . قال الأخفش : يقال هذا الأمر وراءك : أي سيأتيك والأكثر يفسره بالأمام . قال في الجواهر : وليس الأمر كما ذكروا بل الوراء على بابه أي هو ما يأتي بعد في الزمان وذلك أن التقدير في هذه الحوادث بالأمام والوراء إنما هو بالزمان وما تقدم فهو أمام وهو بين اليد كما تقول في التوراة والإنجيل : إنهما بين يدي القرآن ، والقرآن وراءهما ، وعلى هذا فما تأخر في الزمان وراء المتقدم .اهـ قلت : وما قاله نفيس واضح لكل من أنصف : أي سيدخل النار ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ فيها ﴿مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ هو ما يسيل من جوف أهل النار مختلطا بالقيح والدم ، وهو عطف بيان أبهمه أولا ثم بينه تعظيما لشدته ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يتكلف جرعه مرة بعد مرة لشدة عطشه ومرارته وحرارته ونتنه وهو حال من الضمير في يسقى أو صفة لماء ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ يزدرده لبشاعته ولا ينحدر في الحلق إلا بشدة إذ يغص به ليطول عذابه ، وفي الحديث : «يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا دنا منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره» . رواه الترمذي . ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ﴾ أي أسبابه المقتضية له من أنواع العذاب ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ قيل يأتيه تحت كل شعرة ألم مستقل ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ بعد ذلك العذاب ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ قوي متصل دائم لا يوصف كحبس الأنفاس عليهم أي يستقبله في كل وقت عذاب أشد مما هو عليه وكفى الخلود في النار ﴿مَثَلُ﴾ صفة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ مبتدأ خبره كرماد ويبدل منه ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الصالحة كصلة رحم وصدقة في عدم الانتفاع بها أو التقدير مثل أعمال الذين كفروا أو مثل مبتدأ محذوف الخبر أي فيما يتلى عليكم وأعمالهم حينئذ مستأنف لبيان مثلهم ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ﴾ بالجمع لنافع والإفراد لغيره ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ شديد هبوب الريح لجعلته هباء منثورا لا يقدر عليه ، والعصف اشتداد الريح وصف به زمانه للمبالغة أو المراد أعمالهم للأصنام ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ أي الكفار يوم القيامة

﴿ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ عملوا فى الدنيا ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ أى لايجدون له ثوابا لعدم شرطه وهو فذلك التمثيل ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ ﴾ الهلاك ﴿ الْبَعِيدُ ﴾ الذى لايرجى خلاص من فيه أو ذلك الضلال منهم هو غاية البعد عن الحق ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ متعلق بخلق أى بالحكمة التى يحق أن تخلق عليها بأن تكون دليلا على قدرته على الإعادة وغيرها ، وقرأ حمزة والكسائى خالق السموات ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بدلكم لأن من قدر على خلق السموات والأرض قادر على إعدامكم وإتيان أمثالكم ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ بعسير ولا متعذر وأصل العزة القوة والشدة ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ أى الخلائق من قبورهم ، والتعبير فيه وفيما بعده بالماضى لتحقق وقوعه ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ للحساب والمجازاة أى خرجوا من قبورهم إلى الله ليحاسبهم ويجازيهم على قدر أعمالهم والبراز الفضاء وتبرز حصل فيه ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ الاتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ المتبوعين ، رسمت الهمزة بالواو لأن قياس تخفيفها بالتسهيل كالواو والألف بعدها تشبيها بواو الجمع ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ جمع تابع كغيب وغائب أو مصدر نعت به للبالغة ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ ﴾ دافعون اليوم ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ومن الأولى للتبيين والثانية للتبعيض قدم البيان على المبين للاهتمام ويجوز كون الثانية للتبعيض والأولى بيان حال أى هل أنتم مغنون عنا بعض شىء حال كونه بعض عذاب الله أو الأولى مفعولا والثانية مصدرا أى فهل أنتم مغنون عنا بعض العذاب بعض إغناء ﴿ قَالُوا ﴾ أى الرؤساء ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ للإيمان ﴿ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ لدعوناكم إلى الهدى لكن ضللنا فأضللنا كم مااخترنا لكم إلا مااخترنا لأنفسنا فلا عتب ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ أى جزعنا وصبرنا مستويان علينا لفوات وقت الاعتذار ، والجزع أبلغ من الحزن لأنه يصرف الإنسان عما هو بصدده ويقطعه عنه . قاله فى اللباب ﴿مَا لَنَا مِنْ ﴾ زائدة ﴿مَحِيصٍ ﴾ ملجأ ومهرب عما نحن فيه من العذاب من حاص إذا تأخر ويجوز أن يكون كلام الفريقين جميعا ، والمحيص إما مكان أو مصدر . روى أنهم يجزعون يكون خمسمائة عام فلا ينفعهم ثم يصبرون كذلك ثم يقولون سواء علينا ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ ﴾ إبليس ﴿ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أحكم وفرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار واجتمعوا عليه فيها يلومونه ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ الذى لاخلف فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة بالجزاء بعد البعث فصدقكم ﴿ وَوَعَدْتُكُمْ ﴾ وعد الباطل أنه غير كائن ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ جعل تبين خلف وعده كالإخلاف منه لكونه سببه ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ قوة وقدرة أقهركم على متابعتى جبرا ﴿ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ إلا دعائى إياكم إلى الكفر والمعاصى بتسويلى فالاستثناء منقطع لأن تسويله ليس من جنس السلطان أى لكن دعوتكم ﴿ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أى أسرعتم فى إجابتى لأنه وافق رأيكم ﴿ فَلَا تَلُومُونِي ﴾ بوسوستى فمن علم أنه عدو لايلام على مثل ذلك ﴿ وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فى إجابتى وترك إجابة ربكم ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ بمغيثكم من العذاب أصله من الصراخ الصوت وهمزة أصرخ للسلب أى ما أنا بمزيل صراخكم ﴿ وَمَا أَنْتُمْ

﴿ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ بفتح الياء للجمهور وكسرها لحمزة على أن الإضافة إلى ياء ساكنة كياء غلامي فلما سقط النون بالإضافة اجتمع الساكنان لحركت الثانية ليمكن الإدغام ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ ﴾ بإشراككم إياي مع الله ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ في الدنيا بمعنى تبرأت منه واستنكرته «ما» مصدرية قال تعالى ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم، وحكاية مثل هذا إيقاظ للسامعين ليتدبروا العواقب. ولما بين حال الأشقياء شرع في بيان ما أعد للسعداء من النعيم العظيم الدائم المقرون بالتعظيم فقال ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أدخلهم الملائكة ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا ﴾ من الله ومن الملائكة وفيما بينهم ﴿ سَلَامٌ ﴾ عليكم طبتم فادخلوها خالدين. ولما بين أحوال الأشقياء وأحوال السعداء أردفها بضرب المثل كشفا عن حقيقتها وإبرازا للمعقول في صورة المحسوس فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تنظر ﴿ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي كيف وضعه، والاستفهام للتقرير وفائدته الإيقاظ له أو المعنى ألم تعلمه ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ تفسير لقوله «ضرب الله مثلا» ويجوز أن تكون «كلمة» بدلا من «مثلا» و «كشجرة» صفتها أو خبر مبتدإ محذوف، أي: هي كشجرة وأن تكون أول مفعولي «ضرب» والثاني «مثلا» على تضمينه معنى التصيير أي كيف صير كلمة طيبة مثلا والشجرة الطيبة هي: النخلة، كما في الصحيحين، والكلمة الطيبة هي «لا إله إلا الله» كما عليه جمهور المفسرين ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ في الأرض راسخ فيها بعروقه آمن من الزوال كثبوت الكلمة في قلوب المؤمنين ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ غصنها أو أعلاها ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾ وارتفاع الأغصان يدل على ثبات الأصل وبعدها عن عفونات الأرض فثمارها نقية طاهرة عن جميع الشوائب كارتفاع فروع الكلمة من الأعمال الصالحات تصعد إلى السماء ولا تحجب حتى تنتهي إلى الله «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» ﴿ تُؤْتِي ﴾ تعطي ﴿ أُكُلَهَا ﴾ ثمرها ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾ كل وقت لأن ثمر النخل تؤكل ليلا ونهاراً، صيفا وشتاء، إما تمرا أو رطبا أو بسرا أو طلعا أو جمارا وكذلك عمل المؤمن ينال بركته وثوابه كل وقت ولذا اختلفوا في المراد بالحين هنا، فقال مجاهد وعكرمة: «السنة» لأن النخلة تثمر كل سنة مرة، وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن: «ستة أشهر» يعني من وقت طلعها إلى حين صرامها، وقيل أربعة أشهر من حين ظهور حملها إلى إدراكها وقيل شهران من وقت أكلها إلى صرامها وهو قول سعيد بن المسيب، وقال الربيع: كل وقت من بدء خروجها من الجمار إلى التمر ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ بإرادته ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ يبينها ﴿ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فيؤمنون لأن في ضربها تصوير المعقول في صورة المحسوس تقريبا للمعاني على الأفهام ووجه تشبيه الكلمة بالنخلة واضح مما قدمنا ووجه تمثيلها بالشجرة على الإطلاق أن الشجرة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال وكذا الإيمان لا يتم إلا بتصديق القلب وقول اللسان وعمل الجوارح ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هي كلمة الكفر ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هي الحنظل كما في الترمذي ﴿ اجْتُثَّتْ ﴾

استؤصلت جثتها بالكلية ﴿ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ ﴾ لأن عروقها قريبة ﴿ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ ثبات لكون عروقها على وجه الأرض تنجعف بأدنى ريح وفرعها لم يصعد إلى السماء، كذلك كلمة الكفر لاثبات لها ولا فرع ولا بركة ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ كلمة التوحيد ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فلا يتزلزلون إذا فتنوا فى دينهم كأصحاب الاخدود ﴿ وَفِي الآخِرَةِ ﴾ أى فى القبر لما يسألهم الملكان عن ربهم ودينهم ونبيهم فيجيبون بالصواب كما فى حديث الشيخين ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ بالكفر والمعصية فلا يهتدون للجواب بالصواب بل يقولون لاندرى كما فى الحديث ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ من تثبيت بعض وإضلال آخرين من غير اعتراض عليه وفيه تنبيه للمؤمن أن لايتكل على ما هو عليه ولا يأمن مكر الله ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تعلم ﴿ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ أى شكرها ﴿ كُفْرًا ﴾ هم كفار قريش من الله عليهم بمحمد فلم يقبلوا نعمته وآثروا الكفر عليها ﴿ وَأَحَلُّوا ﴾ أنزلوا ﴿ قَوْمَهُمْ ﴾ الذين اتبعوهم على دينهم بإضلالهم إياهم ﴿ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ الهلاك ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ عطف بيان منها أو بدل ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها حال منها أو من القوم أى داخلين فيها مقاسين حرها ﴿ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ المقر هى، جعلها نفس القرار مبالغة وسأل ابن عباس عمر بن الخطاب عن هؤلاء فقال : هم الأفجران بنو مخزوم وبنو أمية أخوالى وأعمامك فأما أخوالى بنو مخزوم فاستأصلهم الله يوم بدر وأما أعمامك بنو أمية فأملى الله لهم إلى حين، والمراد الغالب فى البطنين لكن عموم الآية شامل لجميع الكفار ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ شركاء ﴿ لِيُضِلُّوا ﴾ بضم الياء لنافع وابن عامر والكوفيين وبفتحها للباقين ﴿ عَن سَبِيلِهِ ﴾ التوحيد دين الإسلام ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ تَمَتَّعُوا ﴾ بدنياكم وهواكم ـ عبادة الأوثان ـ قليلا أمر تهديد وفى الإتيان به إيذان بأنهم منهمكون فى الشهوات كأنهم مأمورون بها لتفضيهم إلى المهدد به إيذانا بأن الأمرين كائنان لا محالة ولذا علله بقوله ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ ﴾ مرجعكم ﴿ إِلَى النَّارِ ﴾ فاستوفوا العاجل قبل فواته ثم أمر المؤمنين المتلذذين بالطاعات بها كاستلذاذ الكفار بالشهوات فقال ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أضافهم إلى نفسه تشريفا لهم جمع عبد، وهذا الجمع فى العرف للتكرمة بخلاف العبيد ومقول « قل » محذوف دل عليه جوابه، أى : قل لعبادى الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا ﴿ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ ويجوز أن تكون اللام محذوفة لدلالة قل عليه ليصح تعلق القول بها ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ نصبا على المصدر أى إنفاق سر وعلانية أو على الحال أى مسرين ومعلنين أو ذى سر وعلانية أو على الظرف أى فى سر وعلانية والأحب إعلان الواجب وإخفاء التطوع ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ ﴾ فداء ﴿ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ مخالة أى صداقة تنفع : هو يوم القيامة لاينفع فيه إلا الإنفاق لوجه الله، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالفتح فيهما على النفى العام. ولما بين أحوال السعداء والأشقياء ورغب ورهب عاد إلى دلائل التوحيد على عادة القرآن وبدأ بأظهرها فقال ﴿ اللَّهُ ﴾ مبتدأ والخبر ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ تعيشون

به وهو يشتمل المطعوم والملبوس مفعول لأخرج و « من الثمرات » بيان له قدم عليه للاهتمام أو حال منه ويحتمل عكس ذلك ويجوز أن يراد به المصدر فينتصب بالعلة أو المصدر لأن أخرج فى معنى رزق ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ بمشيئته إلى حيث توجهتم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ بإقرار مائها لاتغور أو بتصرفكم فيها أو بتعليمكم كيفية الانتفاع بها ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ فى سيرهما لايفتران وإنارتهما وإصلاح ما يصلحان من المكونات ولولاهما لم يتصور تعيش الحيوان عادة وبهما تعرف الشهور والسنون بتسخير الله وإنعامه بذلك ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ ﴾ لتسكنوا فيه ﴿ وَالنَّهَارَ ﴾ لتبتغوا فيه من فضله ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ بلسان المقال أو الحال بعض جميعه ، يعنى: من كل شىء سألتموه شيئاً على حسب مصالحكم إذ لايعطى للإنسان جميع ما يطلبه و « من » تبعيضية على رأى سيبويه ، ومفعول « آتى » الثانى محذوف أى شيئا وعلى رأى الأخفش زائدة فى المفعول الثانى وما موصولة أو موصوفة أو مصدرية بمعنى المفعول أو نافية ، أى آتاكم من كل شىء غير سائليه على قراءة تنوين كل ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ بمعنى إنعامه﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تطيقوا عدها وحفظها فى أنواعها فضلا عن أفرادها فضلا عن شكرها ، ولذا قال عليه السلام « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » لأنها غير متناهية ، وفيه دليل على أن الفرد يفيد الاستغراق بالإضافة ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ ﴾ كثير الظلم بوضع الكفران موضع الشكر وظلوم للنعمة بإغفال الشكر ولنفسه بتعريضها للحرمان ﴿ كَفَّارٌ ﴾ شديد الكفران يجمع ويمنع إن أنعم عليه ، والمراد بالإنسان الجنس لقوله « وقليل من عبادى الشكور » لكن إن كان الظلم والكفر من جاحد نعلى معنى يليق به أو من عاص فعلى معنى آخر يليق به ، ولما كان سياق الآيات فى تذكير كفار مكة - الذين جعلوا لله أندادا - نعم الله ليشكروها بالإيمان أردفه بقصة إبراهيم الذى يدعون أنهم على ملته ليتبين كذبهم فقال ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ﴾ مكة ﴿ آمِنًا ﴾ ذا أمن وقد أجاب الله دعاءه لجعله حرما لايسفك فيه دم إنسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه و « أل » إشارة إلى مافى الذهن ونكر فى البقرة لأن المسئول هناك جعله بلداً من البلاد ثم جعله آمنا ، والمسئول هنا الأمن فقط بعد أن كان بلدا . والله أعلم ﴿ وَاجْنُبْنِي ﴾ بعدنى ﴿ وَبَنِيَّ ﴾ عن ﴿ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ عن عبادتها أى اجعلنى وإياهم منها على جانب بعيد يقال جنبه وأجنبه وجنّبه بالتشديد فالأولان لنجد والثالث للحجاز ، والأصنام ماكان مصورا صورة إنسان من حجر أو صفر أو نحو ذلك والأوثان ماكان غير مصور والمراد بنوه الموجودون حالة الدعاء : أولاده وأولاد أولاده ولا شك أن إبراهيم قد أجيب فيهم وليس المراد جميع نسله إذ عبادة قريش للأصنام لايخفى ولقوله «لا ينال عهدى الظالمين» وقوله «ومن كفر فأمتعه قليلا» وما حكى عن سفيان بن عيينة أن أحدا من أولاد إسماعيل لم يعبد الأصنام محمول على أولاد صلبه ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ ﴾ أى الأصنام ﴿ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا

مِنَ النَّاسِ ﴾ بعبادتهم لها ، أسند الإضلال إليهن باعتبار السببية أى فلذلك سألت منك العصمة واستعذت بك من إضلالهن ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي ﴾ على دينى التوحيد ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ بعضى لا ينفك عنى فى أمر الدين متصل بى ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ بالتوبة أو تقدر أن تغفر له حتى الشرك إلا أن الوعيد فرق بينه وبين غيره ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ أى بعضها أو ذرية من ذريتى لحذف المفعول وهى إسماعيل ومن ولد منه فإن إسكانه متضمن إسكانهم أو إسماعيل مع أمه هاجر لما غارت عليها سارة فركب ابراهيم البراق معهما فجاء فى يوم واحد من الشام إلى مكة وهى يومئذ فلاة لا ماء ولا أنيس فيها فتركهما هناك بوحى من الله ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم ركب منصرفا فاتبعته أم إسماعيل وقالت أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى لا أنيس فيه ولا ماء؟ وهو لا يلتفت إليها فقالت آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذاً لا يضيعنا فرجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا تراه استقبل بوجهه البيت ثم قال « ربنا إنى أسكنت من ذريتى » ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ هو مكة ﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ الذى كان قبل الطوفان أى الذى حرمت التعرض له والتهاون به إذ لم يزل معظما تهابه الجبابرة وأراد بالبيت مكانه إذ لم يكن هناك بناء إلا بعد ما نشأ إسماعيل أى أسكنتهم به إيثاراً لشرف الجوار ثم صرح بالغرض الأصلى وهو تعميره بأنواع العبادات بقوله ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ اللام لام كى متعلقة بأسكنت أو لام الأمر والمراد به الدعاء لهم بإقامة الصلاة كأنه طلب منهم الإقامة وسأل من الله أن يوفقهم لها ثم بعد تقديم الوسيلة دعا بقوله ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي ﴾ تميل وتحن ﴿إِلَيْهِمْ﴾ شوقاً و « من » للتبعيض قال ابن عباس لو قال أفئدة الناس لازدحمت إليه فارس والروم والناس كلهم . وروى هشام عن ابن عامر أفئيدة بياء بعد الهمزة يقال هوى إليه يهوى أسرع فهو دعاء للمؤمنين أن يرزقوا حج البيت ودعاء لسكان مكة من ذريته أن يرتفقوا بمن يأتى إليهم لجمع فى دعائه من أمر الدين والدنيا ماظهر بيانه وعمت بركته ﴿وَارْزُقْهُمْ﴾ مع سكناهم واديا لانبات فيه ﴿ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ بأن تجلب إليهم من سائر البلاد أو يرزقونها فيها كما رزقها سكان القرى ذوات الماء والزرع وقد أجاب الله دعاءه لجعله حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شىء وبنقل الطائف إليه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ تلك النعم إذا جاءت من حيث لا تحتسب وذلك أدعى إلى الشكر وفيه دليل على أن طلب منافع الدنيا إنما هو ليستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ نستر ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ علما لا تفاوت فيه فأنت أعلم بمصالحنا وأرحم بنا فلا حاجة لنا إلى الطلب إلا إظهار العبودية والتلذذ بالتذلل بالافتقار إليك وقيل ما نخفى من الوجد بفراق إسماعيل وأمه بواد غير ذى زرع وما نعلن من البكاء أو ما نخفى من الحزن فى القلب وما نعلن من مقاولتى لأم إسماعيل حين قالت : إلى من تكلنا ؟ قال إلى الله ، قالت : إذاً لا يضيعنا ، وتكرير النداء للمبالغة فى التضرع واللجأ إلى الله ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ يحتمل أن يكون من تتمة كلام

إبراهيم أو من كلام الله تصديقا لإبراهيم وهو تأويل الأكثر . ولما كل إبراهيم أدعيته ذهب إلى الشام ثم إن أم إسماعيل لما رجعت إلى مكانها الذى تركها فيه عند دوحة عند زمزم فى أعلى المسجد جعلت ترضع إسماعيل وتشرب من ماء السقاء حتى إذا نفد عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى فانطلقت كراهية أن تنظر إليه يموت فوجدت الصفا أقرب جبل إليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها فسعت سعى المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات . قال عليه السلام : فلذلك سعى الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعته أيضا فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث - والأسم : الغوث ، بالضم والفتح شاذ - فإذا بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بقدر ماتغرف . قال عليه السلام : لولم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا فشربت وأرضعت ولدها فقال الملك : لاتخافوا الضيعة فإن ها هنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله فكانت كذلك حتى مرت بها رفقة من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا طائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى ما فيه ماء فأقبلوا إلى ذلك المكان فإذا هم بأم اسماعيل عند الماء فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك قالت : نعم لكن لاحق لكم فى الماء . قالوا : نعم فنزلوا فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كانوا أهل أبيات وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوج امرأة منهم وماتت أم اسماعيل فجاء ابراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته .. الحديث بطوله . أخرجه البخارى وغيره ثم ألهم الله اسماعيل بالعربية البينة فكان أفصح من يعرب وجرهم ابنى قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وكان قحطان أول من تكلم بالعربية عند تبلبل الألسنة. والله أعلم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى﴾ مع ﴿الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ﴾ ولد وله تسع وتسعون سنة ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ ولد وله مائة وثنتا عشرة سنة وعلى الكبر فى موضع الحال قيد الهبة بحال الكبر استعظاما للنعمة وإظهاراً لما فيه من الآية ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ لمجيبه من قولك سمع الملك كلامى وهو من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل ، أضيف إلى مفعوله أو فاعله على إسناد السماع إلى دعاء الله على المجاز وفيه إشعار بأنه دعا ربه وسأل منه الولد بقوله : «رب هب لى من الصالحين» فأجابه ووهب له سؤاله حين وقع اليأس منه ليكون من أجل النعم وأجلاها ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ بأركانها فى أوقاتها أو مواظبا عليها ﴿ وَ ﴾ اجعل ﴿ مِنْ ذُرِّيَّتِى ﴾ من يقيمها وأتى بـ «من» لإعلام الله تعالى له أن منهم كفارا ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ المذكور أو عبادتى أو بعث محمد صلى الله عليه وسلم الذى دعاه بقوله «ربنا وابعث فيهم رسولا ... الآية» ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ ﴾ هذا قبل أن يتبين له عداوتهما لله ، وقيل أراد آدم وحواء ، وقيل أسلمت

أمه وقرئ والدى مفردا وولدى ، وقدم مغفرة نفسه ليكون أقرب إجابة لمن دعا له بعد ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كلهم ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ﴾ يثبت ﴿الْحِسَابُ ﴾ شبه ثبوته بقيام الشخص على رجليه كما فى قولهم قامت الحرب على ساق أو المعنى يوم يقوم الناس إليه ، فأسند الفعل إليه مجازا ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ تنبيه على اطلاعه على أحوالهم ووعد بأنه يعاقبهم على قليله وكثيره ونهى عن الاغترار بإمهاله وتسلية المظلوم وتهديد للظالم ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ بلا عذاب ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ فلا تقر فى أماكنها لهول ما ترى . شخص بصر الرجل : بقيت عيناه مفتوحتين لا يطرفهما لشدة الدهشة والحيرة ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعى مقبلين بأبصارهم حال ﴿ مُقْنِعِي ﴾ رافعى ﴿ رُءُوسِهِمْ ﴾ إلى السماء أصله من القنوع وهو السؤال لأن السائل يرفع رأسه أو يده لدى السؤال ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ بصرهم ومن صفة أهل الموقف أنهم رافعون رءوسهم إلى السماء قد شغلهم ما بين أيديهم ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ ﴾ قلوبهم ﴿ هَوَاءٌ ﴾ خالية من العقل لفزعهم ، ولذا يقال للأحمق وللجبان قلبه هواء أى لا رأى فيه قال زهير . من الظلمان جؤجؤه هواء . ﴿وَأَنْذِرِ﴾ خوف ﴿ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ مفعول ثان لأنذر يوم القيامة أويوم الموت فإنه أول أيام عذابهم ﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصى ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا ﴾ أخر العذاب عنا وردنا إلى الدنيا وأمهلنا ﴿ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ مقدار ما نؤمن بك ﴿ نُجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ إلى التوحيد ﴿ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ فى أوامرهم ونواهيهم جزم على الجواب للأمر ، وقيل يقولون ذلك عند الموت فيقال لهم توبيخا ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ ﴾ حلفتم ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ فى الدنيا ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ عنها إلى الآخرة بقسمكم لا يبعث الله من يموت أو شبه حالهم بحال من أيقن بالخلود حيث شيدوا البنيان وطال بهم الزمان بنوا مشيدا وأملوا بعيدا ﴿ وَسَكَنْتُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصى من الأمم السابقة ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ بما شاهدتم فى منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم فلم تنزجروا وفاعل تبين هو مضمون كيف فعلنا لتجرده عن الاستفهام ﴿ وَضَرَبْنَا ﴾ بينا ﴿ لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ فى القرآن فلم تعتبروا أو بينا لكم أنكم مثلهم فى استحقاق العذاب بالكفر أو بينا لكم صفاتهم التى فعلوا وما فعل بهم التى هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا ﴾ لإبطال الحق وتقرير الباطل ﴿ مَكْرَهُمْ ﴾ المستفرغ فيه جهدهم ﴿ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ علمه وجزاؤه وضمير الجمع للذين ظلموا أنفسهم أو لكفار قريش ومكرهم ذكر فى آية « وإذ يمكر بك الذين كفروا » ﴿وَإِنْ﴾ ما ﴿ كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ وإن عظم ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ المعنى لا يعبأ به ولا يضر إلا أنفسهم ، والمراد بالجبال هنا قيل حقيقتها وقيل شرائع الإسلام المشبهة بها فى القرار والثبات واللام لام الجحود ، وقرأ الكسائى بفتح اللام ورفع الفعل فإن هى المخففة واللام هى الفارقة ، والمراد تعظيم مكرهم بكونه يرم إزالة ما هو كالجبال من شريعته ومعجزاته

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ بالنصر الذى وعدهم فى مواضع شتى كقوله إنا لننصر رسلنا كتب الله لأغلبن . وقدم المفعول الثانى اهتماما ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لايعجزه شىء ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ من أعدائه لأوليائه ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ نصب يوم على البدل من يوم يأتيهم العذاب أو باذكر مقدراً أو ظرف للانتقام وهو يوم القيامة ويحتمل أن يكون التبديل فى الذات ويدل له حديث الصحيحين : « يحشر الناس على أرض بيضاء نقية » وفى مسلم سئل النبى صلى الله عليه وسلم « أين الناس يومئذ ؟ قال : على الصراط » وعن على : « تبدل الأرض أرضاً من فضة والسماء سماء من ذهب » وفى الصحيحين : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة نزلا لأهل الجنة » وعلى هذا التأويل جمهور المفسرين ، ويحتمل أن يكون التبديل فى الصفات . روى عن ابن عباس : تبدل أوصاف الأرض بتسيير جبالها وتفوير بحارها فتستوى لا ترى فيها عوجا ولا أمتاً ، وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها . قال فى غاية الأمانى : هذا التأويل هو الظاهر لآية « يومئذ تحدث أخبارها » وهو أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل عليها ، ولما قال أهل اللغة : إن التبدل تغيير الصفات مع بقاء الجوهر والإبدال تنحية الجوهر وإحداث آخر ، وأجاب الأولون عن الآية بأن يكون الإخبار قبل التبديل . والله أعلم ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ خرجوا من القبور ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ فلا مستغاث لأحد إلى غيره ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ ﴾ مشدودين بجمعين مع شياطينهم أو قرن بعضهم مع بعض بحسب مشاركتهم فى العقائد والأعمال أو مع ما اكتسبوا أو قرنت أيديهم وأرجلهم ﴿ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ القيود أو الأغلال متعلق بمقرنين أو حال من ضميره ﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾ قمصهم ﴿ مِّن قَطِرَانٍ ﴾ هناء الإبل وهو ما يتحلب من الأبهل أو العرعر فيطبخ فيهنأ به الإبل الجرب فيحرق الجرب بحدته وهو أسود منتن تشتعل فيه النار بسرعة ، يطلى به جلود أهل النار حتى يكون طلاؤه لهم كالقمص ليجتمع عليهم لذع القطران ووحشة لونه ونتن ريحه مع إسراع النار فى جلودهم . وفى غاية الأمانى : الأبهل شجر كبير له شوك وأولاد يطبخ ويلطخ به جلود الإبل الجرب . اه . وقرأ يعقوب من قطرٍ آنٍ على أنها كلمتان القطر : النحاس ، والآنى المنتهى فى الحرارة ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ذكر الوجوه لأنها أشرف الأعضاء ، وسرابيلهم استئناف ، وتغشى وجوههم عطف عليه لإفادة الاستمرارين وليس حالا ، إذ جعل المضارع المثبت حالا مع الواو لا يرضاه البلغاء ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ ﴾ متعلق ببرزوا ﴿ كُلَّ نَفْسٍ ﴾ مؤمنة وكافرة ﴿ مَّا كَسَبَتْ ﴾ من خير وشر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ إذ لا يشغله حساب عن حساب ﴿ هَٰذَا ﴾ القرآن أو ما فى هذه السورة من العظة والتذكير ، أو ما وصفه من قوله « فلا تحسبن الله » ﴿ بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ كفاية لهم فى الموعظة أو أنزل لتبليغهم ، وهذا كالفذلكة لما فى السورة لتكون الخاتمة على منوال الفاتحة وفيه من براعة التمام ما لا يخفى ﴿ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ عطف على محذوف أى لينصحوا به ولينذروا به ﴿ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ ﴾ بما فيه من الحجج ﴿أَنَّمَا هُوَ﴾ أى الله ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾

لأنهم إذا أنذروا وخافوا دعاهم ذلك إلى النظر الموصل إلى التوحيد لأن الخشية أصل الخير كله ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ ﴾ بإدغام التاء فى الأصل فى الذال يتعظ ﴿ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ العقول الخالصة إن عرض لهم ذهول فيتذكروا ويرتدعوا عما يرديهم ويتدرعوا بما يحظيهم . واعلم أن الله تعالى ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد التى هى الغاية . والحكمة فى إنزال الكتب : تكميل الرسل للناس واستكمال القوة النظرية التى منتهى كمالها التوحيد واستصلاح القوة العملية الذى هو التدرع بلباس التقوى ، جعلنا الله من الفائزين بها ، وحشرنا فى زمرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وآله الطيبين .

[تم تفسير سورة إبراهيم]

١

سورة الحجر

مكية ـ تسع وتسعون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الر ﴾ الله أعلم بمراده بذلك ﴿ تِلْكَ ﴾ هذه الآيات ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ القرآن والإضافة بمعنى « من » ﴿ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ مظهر للحق من الباطل ، عطف بزيادة صفة وتنكيره للتفخيم أى آيات الجامع بكونه كتاباً كاملا وقرآناً يبين الرشد من الغى بياناً غريباً ﴿ رُبَمَا ﴾ بالتخفيف لنافع وعاصم والتشديد للباقين لغتان والأولى أفصح لأهل الحجاز ﴿ يَوَدُّ ﴾ يتمنى ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين ، أو حين ظهور الإسلام ، أو حين حلول الموت ، أو حين إخراج الموحدين من النار ﴿ لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ قبل ذلك وما كافة تكف رب عن الجر فتجوّز دخوله على الفعل وحقه أن يدخل الماضى لكن المترقب فى كلامه تعالى كالماضى المحقق وقيل « ما » نكرة موصوفة و « رب » للتقليل أو التكثير ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ اترك الكفار يا محمد بعد ما بلغت وأنذرت ﴿ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ بلذات دنياهم ﴿ وَيُلْهِهِمُ ﴾ يشغلهم ﴿ الْأَمَلُ ﴾ أى يوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال عن الاستعداد للمعاد ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم إذا عاينوا جزاءه . والمقصود إقناط الرسول من ارعوائهم وإيذانه بأنهم من أهل الخذلان وأن نصحهم اشتغال بما لا طائل تحته وفيه إلزام للحجة وتحذير عن إيثار التنعم وما يؤدى إليه طول الأمل . قال فى لباب التأويل : وفى الآية دليل على أن إيثار التلذذ والتنعم فى الدنيا

يؤدى إلى طول الأمل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين . اه . ومثله فى غاية الأمانى ، وفى الحديث « شرار أمتى الذين ولدوا فى النعيم وغذوا به : همتهم ألوان الطعام وألوان الثياب يتشدقون فى الكلام » اه . وفى « ذرهم يأكلوا » وعيد وتهديد وفى « فسوف يعلمون » وعيد ثان ، قيل : الأول فى الدنيا والثانى فى الآخرة ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ أريد أهلها ﴿ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ ﴾ أجل مقدر كتب فى اللوح المحفوظ ﴿ مَعْلُومٌ ﴾ محدود لهلاكها فلا تستبطئن هلاكهم فإنه واقع لا محالة ولكن له وقت معلوم كما جرى للأمم المكذبة ، والمستثنى جملة واقعة صفة لقرية ، والأصل أن لا يدخلها الواو كقوله فى الشعراء « إلا لها منذرون » لكن أدخلت عليه تأكيداً للصوقها بالموصوف لدلالة الواو على الجمع والمعية لأن الوصف هنا ألصق بالموصوف مما فى الشعراء أى لأنه لازم عقلى وذلك عادى جرت به سنة الله ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ المكتوب ﴿ وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عنه ، ذكر الضمير لاعتبار المعنى ﴿ وَقَالُوا ﴾ أى كفار مكة للنبى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ القرآن فى زعمه ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى تقول قول المجانين تدعى أن الله أنزل عليك الذكر : استبعاد لذلك منهم ﴿ لَوْ مَا ﴾ هلا ﴿ تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ ﴾ ليشهدوا أنك نبى أو لإهلاكنا ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى قولك إنك نبى وإن هذا القرآن من عند الله ، وأصل « لو » للشرط فإذا ركبت مع « ما » أو « لا » تأتى لامتناع الشىء لوجود غيره فى الأسماء وللتحضيض فى الأفعال قال تعالى ﴿ مَا تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ بالبناء للفاعل وفيه حذف إحدى التاءين للجمهور وبالبناء للمفعول لشعبة وبالنون مسنداً إلى الله لحمزة والكسائى وحفص ونصب الملائكة ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ بالعذاب أو الوحى أو بالحكمة ولا حكمة فى إرسال الملائكة إليهم لما تقدم فى قوله «ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا .. الآية» ﴿ وَمَا كَانُوا إِذًا ﴾ حين نزول الملائكة بالعذاب ﴿ مُنْظَرِينَ ﴾ مؤخرين ، أو المعنى : لو نزلوا عياناً لزال إمهالهم ثم أجاب عن إنكارهم إنزال الذكر عليه بقوله ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ تأكيد لاسم إن أو فصل ﴿ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ القرآن ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من التبديل والتحريف والزيادة والنقص بأن جعلناه معجزاً مبايناً لكلام البشر بحيث لا يخفى تغيير نظامه على أهل الدين وبصونه عن المعارضة فلم يقدر أحد أن يعارضه وبجعل العلماء الراسخين يذبون عنه إلى آخر الدهر فلم يقدر الملحدة على إفساد معناه فلا يتطرق إليه خلل ، وقيل الضمير فى « له » للنبى والأول أوجه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ رسلا ﴿ مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ﴾ فرق ﴿ الْأَوَّلِينَ ﴾ من شايعه اتبعه ، أو من شاع الأمر ظهر واشتهر ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ كاستهزاء قومك بك ، وهذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم و « ما » نفى للحال لا يدخل إلا مضارعاً بمعنى الحال أو ماضياً قريبا منه وهذا على حكاية الحال الماضية ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل إدخالنا التكذيب فى قلوب أولئك الأولين ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ ندخله ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ كفار مكة ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ بالنبى أو القرآن ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم أنبياءهم وهؤلاء مثلهم

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾ على هؤلاء المقترحين ﴿ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ ﴾ فى الباب ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ يصعدون إلى السماء نهاراً لا لبس فيه ويرون عجائبها أو يصعد الملائكة وهم يشاهدونهم ﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ ﴾ بتشديد الكاف للجمهور وبالتخفيف لابن كثير أى سدت بالسحر ﴿ أَبْصَارُنَا ﴾ من سكرت النهر سددته ، أو من السكر وأريد به لازمه وهو اختلال العقل والتحير ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ سحرنا محمد وما نراه لا حقيقة له بل يخيل إلينا بنوع من السحر والمعنى أنهم معاندون لا تنفعهم كل آية ، ولذا أردفه بدلائل الوحدانية الظاهرة فى الآفاق التى فيها غنية عن طلب غيرها بقوله ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ اثنى عشر مختلفة الهيئات والخواص وهى الحمل محركة ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت . وهى منازل الكواكب السبعة السيارة : الزحل ، والمريخ كسكين ، والمشترى ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر . وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين منزلا لكل برج منزلان وثلث منزل تقطعها الشمس فى كل سنة مرة والقمر فى ثمانية وعشرين يوماً ، وأصل البرج فى اللغة الظهور ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ بالكواكب البهية الأشكال نزهة ﴿ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ لكل من يتأتى منه النظر أو المعتبرين المستدلين بها على قدرة مبدعها وتوحيد صانعها ﴿ وَحَفِظْنَاهَا ﴾ بالشهب ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ مرجوم ، صفة ذم لامفهوم له ، فلا يقدر أن يصعد إليها ويطلع على أحوالها أو يتصرف فى أمرها أو يسوس أهلها ﴿ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ ﴾ اختلسه وخطفه بدل من كل شيطان أو نصب على الاستثناء المنقطع ، أى لكن من استرق السمع ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ كوكب يضىء مثل شعلة النار يحرقه أو يثقبه أو يخبله ، ومعنى « مبين » ظاهر يراه كل ذى بصر ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ بسطناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثوابت لئلا تتحرك بأهلها ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ مقدر بمقدار معين تقتضيه حكمته أو مستحسن مناسب من قولهم كلام موزون أى مايوزن ويقدر ، أو له وزن أى قدر فى أبواب النعمة ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ بالياء ، تعيشون بها أى أسباب العيش من سائر الأنواع من المطاعم والملابس ﴿ وَ ﴾ جعلنا لكم ﴿ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ من العيال والعبيد والدواب والأنعام ، وإنما يرزقهم الله ، تزعمون أنكم ترزقونهم وأنتم مخطئون فى ذلك فإن الله هو الرزاق ﴿ وَإِنْ ﴾ ما ﴿ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ مفاتح خزائنه أو نحن قادرون عليه شبه اقتداره على الإيجاد بحال من يكون تحت يده خزانة لا مانع له من إخراج ما فيها وشبه المقدورات بالمخزونات وقيل المراد فى العرش تمثال جميع الخلق ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ أى ماننزل المطر الذى هو سبب الأرزاق من السماء ، أو ما ننزل الموجودات من سماء القدرة إلا على حسب المصالح أو حسب الأوقات والأشخاص على مقتضى الحكمة ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ حوامل للخير أو للسحاب ، جمع لاقحة أو ملاقح تلقح الشجر والسحاب فتمتلئ ماء جمع ملقحه ، حذفت الميم تخفيفا ، وفى القاموس : ألقحت الرياح الشجر فهى

لواقح وملاقح ، وقال الجوهرى : لايقال ملاقح أو هو من النوادر قال فى لباب التأويل : والأظهر إلقاحها السحاب ﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ السحاب ﴿ مَاءً ﴾ مطرا ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ جعلناه لكم سقيا يقال سقيته : أعطيته مايشرب من يدى إلى فيه وأسقيته جعلت له سقيا فالأول لاتعب فيه لمن يشرب ولذا يعبر به لما فى الآخرة نحو « وسقاهم ربهم شرابا طهورا » بخلاف الثانى فلذا يعبر به لما فى الدنيا ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ أى ليست خزائنه بأيديكم أى لستم قادرين على إخراجه ولا حفظه فى الغدران والعيون والآبار لأن طبيعة الماء تقتضى الغور فوقوفه لابد له من سبب مخصص أثبت لنفسه الاقتدار على كل ممكن بطريق التمثيل بالخزانة المملوءة مايحتاج إليه الناس ثم نفى عنهم الاقتدار على ممكن خاص هو الماء الذى لا يصبرون عنه على وجه تضمن إثباته لغيرهم وليس الغير إلا القادر تعالى شأنه ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ كل حيوان ونام ﴿وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ الباقون نرث جميع الخلق ، كرر الضمير فى إنا لنحن للدلالة على الحصر ، وأكده بإن واللام لكون الكلام مع من يقول : «ما هى إلا حياتنا الدنيا» ولما بين كمال قدرته وهو دليل على علمه أردفه ببيان كمال علمه فقال : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ ﴾ من تقدم منكم ولادة وموتا من لدن آدم ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ المتأخرين إلى يوم القيامة أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد أو من تقدم فى الإسلام أو الجهاد أو كل طاعة ومن تأخر . قال ابن العربى : وفيه دليل على فضل أول الوقت والصف الأول لكن ماجاور الإمام لايكون لكل أحد وإنما هو لمن قال عليه السلام : « ليلنى منكم أولوا الأحلام والنهى » فما يلى الإمام ينبغى أن يكون لمن هذا صفته فإن نزله غيره أخر عنه ويتقدم هو إليه لأنه حقه بأمر صاحب الشريعة كالمحراب هو موضع الإمام تقدم أو تأخر . اهـ . وقال ابن حجر : قد صح أن الخلفاء الأربعة وباقى العشرة كانوا أبدا أمام رسول الله فى القتال وخلفه فى الصلاة فى الصف الأول ليس أحد من المهاجرين والأنصار يقوم مقام واحد منهم غاب أو شهد . اهـ . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ لا محالة للجزاء ، وتوسيط الضمير للدلالة على أنه القادر والمتولى لحشرهم لاغير ، وتصدير الجملة بإن لتحقق الوعد والتنبيه على أن ماسبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ باهر الحكمة متقن فى أفعاله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ وسع علمه كل شىء . ويجوز أن يكون الوصفان نشراً لقوله « إنا لنحن نحيى » ولقوله «ولقد علمنا المستقدمين» . ولما ذكر جملا من الآيات المبثوثة فى الآفاق أشار إلى آيات الأنفس حثاً على الشكر للنعمة بها بقوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ آدم أو الجنس ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ طين يابس أجوف ممزوج بالرمل قبل الطبخ يسمع له صلصلة أى صوت إذا نقر فإذا طبخ كان فخارا ﴿ مِنْ حَمَإٍ ﴾ طين أسود متغير من طول مجاورة الماء ، صفة لصلصال أى كائن من حمإ أو بدل بإعادة الجار ﴿ مَسْنُونٍ ﴾ مصور صورة إنسان من سنة الوجه أى صفحته أو مصبوب كالجواهر المذابة تصب فى القوالب كأنه

أفرغ الحمأ فصور منها صورة الإنسان ، أو منتن من سن الماء إذا تغير ﴿وَالْجَانَّ﴾ أبا الجن وهو إبليس وقيل الجان أبو الجن وإبليس أبو الشياطين والأول أصح لأن الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم فى الاجتنان أى الاستتار وقيل أريد به الجنس كما أريد به الإنس وانتصابه بفعل يفسره ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أى قبل آدم أو قبل الإنس ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ الحر الشديد النافذ فى المسام أصل السموم حر النهار كما أن الحرور حر الليل ، وإضافة النار إليه مبالغة كما فى رجل سوء ، قاله فى غاية الأمانى ، وقال السيوطى فى التكملة : هى نار لادخان لها تنفذ فى المسام ، وفى اللباب : يعنى من ريح حارة تدخل مسام الإنسان من لطفها وقوة حرارتها فتقتله إلى أن قال : كان إبليس نوعا من الملائكة يسمى الجان خلقوا من نار السموم وخلقت الجن من مارج من نار وخلقت الملائكة من النور ومساق الآية للدلالة على كمال قدرة الله وبيان بدء خلق الثقلين تنبيها على المقدمة الثانية التى يتوقف عليها إمكان الحشر وهى قبول المواد للجمع والإحياء بغاية الأجساد أن تعود ترابا كما كانت حالة البدء ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰئِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ صورته وأكملت خلقه ﴿وَنَفَخْتُ﴾ أجريت ﴿فِيهِ مِنْ رُوحِى﴾ فصار حيا وإضافة الروح إليه تشريف لآدم إضافة مزية لاجزئية وخصوصية لاجنسية ﴿فَقَعُوا﴾ اسقطوا ﴿لَهُ سَاجِدِينَ﴾ سجود تحية بالانحناء وهو أمر إيجاب ذكر بلفظ الوقوع وهو سقوط الشىء من غير اختيار حثا على المبادرة إلى المأمور به بعد وجود الشرط ﴿فَسَجَدَ الْمَلَٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ عطف على مقدر أى ثم بعد تلك المقالة خلقه ونفخ فيه الروح فسجد الملائكة وأكد بتأكيدين لئلا يتوهم خروج بعض المقربين ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ هو أبو الجن كان بين الملائكة ﴿أَبَىٰ﴾ امتنع من ﴿أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّٰجِدِينَ﴾ فالاستثناء إن جعل منقطعا اتصل به « أبى » أى لكن إبليس أبى وإن جعل متصلا كان استئنافا على أنه جواب سائل ما الباعث له على ذلك فقيل أبى وجمعه مع استكبر فى « البقرة » والاقتصار هنا على الإباء وفى « ص » على الاستكبار تفنن يسمى بالاقتدار فى أنواع البديع لأن تلك الأفعال كلها صادرة منه دالة على كفره وتمرده ﴿قَالَ يَٰإِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ أى مانع منعك ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّٰجِدِينَ﴾ فـ « لا » زائدة أو أى غرض لك فى عدمه ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾ اللام لتأكيد النفى أى لايصح لى فى حالى أن أسجد ﴿لِبَشَرٍ﴾ جثمانى وأنا روحانى ﴿خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ وهو أخس العناصر ، وخلقتنى من نار وهى أشرفها لايليق بى أن أكون مكرما له فغفل عن قوله من روحى وتقدم الكلام فى ذلك فى سورة الأعراف ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنة أو السماء أو الملائكة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود ، وأصل الرجم القتل بالحجارة ويلزمه البعد فاستعمل فيه وهذا وعيد دل على أن شبهته واهية لاتستحق الجواب أو يتضمن الجواب ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ الجزاء على الأعمال فإنه منتهى أمد اللعن ويرى بعده ما ينسى اللعن عنده أو لأنه أبعد غاية يضربها الناس ومعناها أبدا ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى﴾ الفاء

جواب شرط دل عليه الكلام أى إذا كنت مطرودا فأمهلنى ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى الناس وهو نهاية دار التكليف أراد أن يجد فسحة فى الإغواء ونجاة من الموت إذ لاموت بعد البعث فأجابه إلى الأول دون الثانى ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وقت النفخة الأولى ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أى بإغوائك لى والباء للقسم وجوابه ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ المعاصى أو المراد بالأرض الدنيا حتى يستحبوها على الآخرة ويطمئنوا إليها ، وإنما عدى الفعل بـ «فى» دلالة على أنها مستقر التزيين يمكن فيها تمكن المظروف من الظرف ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأحملنهم على الغواية ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام لنافع والكوفيين من أخلصته اخترته ، وبكسرها للباقين أى أخلصوا نفوسهم وأعمالهم لله فلا يعمل فيهم كيدى ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ أى حق على أن أراعيه أو يؤدى إلى الوصول إلىّ آثر على لكونه أدل من إلى على التمكن ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا اعوجاج فيه وهو ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ المؤمنين المخلصين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ قوة أو المراد بعبادى الجنس ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ الكافرين استثناء منقطع على الأول متصل على الثانى والأوجه انقطاعه على الوجهين إذ لاسلطان له على الغاوى أيضا لقوله « وما كان لى عليكم من سلطان » ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ الغاوين ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وهم من اتبعك معك تأكيد للضمير لا حال لأنه علم للتأكيد والموعد مكان أو مصدر بتقدير مضاف أى مكان وعدهم ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ يدخلون منها لكثرتهم أو طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى المتابعة وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية لأن أهلها سبع فرق ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ من الأتباع ﴿جُزْءٌ﴾ وقرأ أبو بكر بضم الزاى ﴿مَقْسُومٌ﴾ فأعلاها للموحدين العصاة والثانى للنصارى والثالث لليهود والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ المخلصين من عبادى ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ تجرى فيها أى لكل واحد جنات وعيون متعددة أو لكل واحد جنة واحدة وعين والأول أوجه ، وقراءة ابن كثير وحمزة والكسائى وأبى بكر وابن ذكوان بكسر العين فى جميع القرآن ويقال لهم ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أى سالمين من كل مخوف أو مع سلام أى سلموا وادخلوا أو مسلما عليكم من رب رحيم ﴿آمِنِينَ﴾ من كل آفة وزوال ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ حقد أصله الخيانة ﴿إِخْوَانًا﴾ حال من هم والعامل معنى الإضافة كما فى ملة ابراهيم أى لا يتحاسدون على درجات الجنة ومراتب القرب لأن كلا راض بما هو فيه ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ حال منه أيضا أى لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسرة بهم ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب استئناف أو حال أخرى أو حال من ضمير متقابلين ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أبدا إذ تمام النعمة بالخلود ﴿نَبِّئْ﴾ خبر يا محمد ﴿عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ﴾ للمؤمنين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ للعصاة ﴿هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ المؤلم فذلكة لما سبق من الوعد والوعيد ترغيبا للمتقين وترهيبا للغاوين وأسند الغفران والرحمة إلى ذاته صريحا دون العذاب إيماء

إلى وفور رحمته ولذا أكده بأن وأنا وأل ، وفيه تسكين روع الخائفين ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهم ملائكة اثنا عشر أو عشرة أو ثلاثة منهم جبريل ، أى : أخبرهم بحديث الضيف فإن فيه تذكرة للفريقين وعطفه على « نبئ عبادى » ليكون كالبرهان على الوصفين وبدأ بذكر الضيف لأنهم المنشأ وأدرج فى القصة ذكر القنوط على طريق السؤال والجواب تحذيرا منه فإن نسمة من رحمته تزيل جبالا من الذنوب ولذلك كان القنوط كفرا لأنه تكذيب لقوله أو سلب للقدرة منه ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أى وقت دخولهم عليه ﴿ فَقَالُوا ﴾ سلمنا ﴿ سَلَاماً ﴾ أو نسلم عليك سلاما ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم لما عرض عليهم الأكل فلم يأكلوا ﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ خائفون ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ لاتخف ﴿ إِنَّا ﴾ رسل ربك ﴿ نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ إذا بلغ ، استئناف جار مجرى التعليل أى بشروه بالولد ليسكن خوفه والغلام هو إسحاق وحيث ذكره الله فى القرآن مع البشارة وصفه بالعليم وحيث ذكر إسماعيل وصفه بالحليم ولعل ذلك لتفاوت الأخلاق وكان الغالب على كل منهما تلك الصفة ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى ﴾ بالولد ﴿عَلَى أَنْ مَسَّنِىَ الْكِبَرُ﴾ حال أى مع مسه إياى استفهام تعجب أو إنكار بمقتضى العادة وكذا قوله ﴿ فَبِمَ﴾ فبأى شىء ﴿ تُبَشِّرُونِ ﴾ بكسر النون مخففا لنافع على حذف نون الجمع لاجتماعه بنون الوقاية مع حذف الياء لدلالة الكسر عليها وبكسر النون مشددا لابن كثير على إدغامه فى نون الوقاية وبفتح النون للباقين على حذف نون الوقاية والمفعول معا ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ بالصدق الثابت فى نفس الأمر وهو قول الله ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ الآيسين من ذلك والنهى عن الشىء لايستلزم صدوره ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ﴾ بفتح النون للجمهور والكسر لأبى عمرو والكسائى وقرئ بالضم ﴿مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ الكافرون الذين لايعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ شأنكم الذى أرسلتم لأجله سوى البشارة ﴿ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ولعله علم أن كمال المقصود ليس البشارة لأنهم كانوا عددا والواحد يكفى فى البشارة ولأنهم بشروه بعد ماخاف لإزالة الوجل ولو كانت تمام المقصود لابتدءوه بها ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ كافرين أى قوم لوط لإهلاكهم ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ المؤمنين به إن كان استثناء من قوم كان منقطعا إذ القوم موصوفون بالإجرام وإن كان من الضمير فى مجرمين كان متصلا ، والمعنى : أرسلنا إلى قوم أجرم كلهم إلا آل لوط منهم لنهلك أولئك وننجى أولاء . ويدل عليه ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لحمزة والكسائى مما يعذب به القوم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ والجملة استئناف إذا اتصل الاستثناء ومتصل بآل لوط جار مجرى خبر لـ « لكن » إذا انقطع وعلى هذا جاز أن يكون قوله ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ استثناء من آل لوط أو من ضميرهم وعلى الأول لايكون إلا من ضميرهم لاختلاف الحكمين . قال ابن العربى فى الأحكام : الاستثناء الثانى يرجع إلى مايليه لا إلى الكلام الأول لأنه تناقض أى أرسلنا إلى إهلاك قوم مجرمين إلا آل لوط فليسوا منهم إلا امرأته فإنها خارجة عن آله فيترتب على هذه المسألة من الفقه أن قول المقر :

له عندى عشرة إلا ثلاثة إلا واحداً يلزمه ثمانية وقول المطلق أنت طالق ثلاثا إلا اثنتين إلا واحدة فتلزمه اثنتان . اه ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الباقين فى العذاب لكفرها ، من غبر إذا بقى وهو من الأضداد . وقرأ شعبة قدرنا بالتخفيف وإنما علق والتعليق من خواص أفعال القلوب لتضمنه معنى العلم أو فيه معنى القول وأصله جعل الشىء على مقدار غيره وإسناد الملائكة التقدير إلى أنفسهم لقربهم من الله كما يقول خواص الملك يسندون فعله إليهم ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ﴾ أى لوطا ﴿الْمُرْسَلُونَ . قَالَ﴾ لهم ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ لا أعرفكم ولا أعرف لأى غرض دخلتم علىّ فعند ذلك ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا﴾ أى قومك ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يشكون وهو العذاب الذى كنت توعدهم به . وعبر بالموصول لتحقق العذاب وتحقق صدقه ، وفى لفظ الامتراء تذكير ما كان يكابد منهم من التكذيب والجحود وبل لإضراب الإنكار ، أى ما جئناك بما تنكرنا لأجله بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ باليقين من عذابهم ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به ، وعبر فى العذاب بجاء وفى الحق بأتى لأن جاء موضوع للأعيان المشاهدة ، وأتى للأزمان والمعانى . والله أعلم . وكل هذا تأكيد وتنفيس للكرب عن لوط وإلا فإنه لم يشك فى قولهم بعد علمه بأنهم مرسلون ﴿فَأَسْرِ﴾ بهمز وصل لنافع وابن كثير والقطع للباقين ، وقرئ فسر ﴿بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ﴾ طائفة ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ والقطع بسكون الطاء ظلمة آخر الليل ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ امش خلفهم تسرع بهم وتطلع على حالهم وهو إرشاد إلى ما هو أدخل فى الحزم بأن يقدم أهله أمامه ليكون فارغ القلب ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم أو كناية عن السرعة لأن الملتفت لا بد له من أدنى وقفة ، وفيه إشارة إلى أن من أراد السفر الحقيقى أى إلى الله فهو أولى بقطع العلائق وهدم العوائق والإقبال بالكلية على الله ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ وهو الشام أو مصر ، وإنما عدى « امضوا » إلى « حيث » تعديته إلى الظرف المبهم لإبهامه فى الأمكنة وكذلك الضمير المحذوف فى « تؤمرون » ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أوحينا مقضياً ولذا عدى بإلى وفائدة تعبيره بالقضاء أن يعلم أنه كائن لا محالة ﴿ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ تفسيره ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ محله النصب على البدل منه أبهمه ثم فسره تعظيما للأمر وتفخيما له وقرئ بالكسر على الاستئناف ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أى يتم استئصالهم فى الصباح ، حال من هؤلاء أو من الضمير فى مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فإن دابر هؤلاء فى معنى مدبريهم ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ وهم قوم لوط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ حال أى بأضياف لوط لما رأوهم أجمل الخلق طمعاً فى فعل الفاحشة ﴿قَالَ﴾ لوط ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ والضيف فى الأصل مصدر ولذا يستوى فيه الواحد والجمع فى الغالب وقد يجمع على أضياف وضيوف وضيفان ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ بفضيحة ضيفى فالإساءة إلى الضيف إساءة إلى المضيف وإنزال عار به ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ باجتناب الفاحشة ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ لا تذلونى من الخزى وهو الذل أو من الخزاية وهى الحياء أى لا تخجلونى ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أن تجير منهم أحداً أو عن

إضافتهم ﴿ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ نساء أمتى تكفيكم فى قضاء الشهوات ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ فتزوجوهن أو إن كنتم فاعلين ما أقول لكم ولا أظنكم تفعلون ، شك فى قبولهم النصح قال تعالى ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى وحياتك ، أو الخطاب للوط ، قالت الملائكة له ذلك وهو بفتح العين لغة فى العمر بضمها ولا يستعمل إلا باللام فى القسم ، وهو مبتدأ محذوف الخبر أى لعمرك قسمى ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ قوم لوط أو قريش والجملة حينئذ اعتراض ﴿ لَفِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ شدة غوايتهم وغفلتهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون لا يفرقون بين الخطأ والصواب وكيف يسمعون نصحك كف للوط أو النبى صلى الله عليه وسلم عن إرادة نصحهم لعدم القابلية . قال ابن عباس : ما أقسم الله بحياة أحد سوى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن العربى : لا يجوز لمخلوق أن يحلف بغير الله فإن فعل أثم فقط ولا يلزم به كفارة ، وقال ابن حنبل : من أقسم بالنبى لزمته كفارة إن حنث إذ لا يتم الإيمان إلا به . اهـ . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ صيحة جبريل فهلكوا ، والتعبير بالأخذ إشارة إلى كمال التمكن ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ داخلين فى وقت شروق الصبح أو الشمس ، فقوله « مصبحين » باعتبار الابتداء ، و « مشرقين » باعتبار الانتهاء ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا ﴾ قراهم ﴿ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ طين طبخ بالنار ، وتقدم مزيد بيانه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ دلالات على وحدانية الله ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ للناظرين المتفرسين الذين يعرفون الشىء بسمته ، وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب . قال فى لباب التأويل : والفراسة على نوعين أحدهما ما دل عليه ظاهر الحديث وهو ما يوقعه الله فى قلوب أوليائه فيعلمون بذلك أحوال الناس بنوع من الكرامات ، والثانى يحصل بالتجارب حتى يتعرف بذلك أحوال الناس أيضاً . اهـ . قلت : ومن الثانى أو الأول ما حكى أن الشافعى ومحمد بن الحسن كانا جالسين بفناء الكعبة فدخل رجل على باب المسجد فقال أحدهما أراه نجاراً وقال الآخر : بل حداداً ، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال : كنت نجاراً قبل وأنا الآن حداد ، قال ابن العربى : زعمت الصوفية أنها كرامة وقال غيرهم : بل هى استدلال بالعلامة ومن العلامة ما لا يبدو إلا للآحاد ثم قال ابن العربى ومع كونها من معالم المؤمنين فلا يترتب عليها حكم ولا يؤخذ به متوسم ولا متفرس لأن مدارك الأحكام معلومة شرعاً مدركة قطعاً وليست الفراسة منها ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ أى قرى قوم لوط ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ ثابت يسلكه قريش وغيرهم إلى الشام ويرون آثارها أفلا يعتبرون ذلك ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالله ورسوله ﴿ وَإِن ﴾ مخففة أى إنه ﴿ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ الغيضة قرب مدين وهى الشجر المتكاثف ، وكانت عامة شجرهم المقل أى شجر الدوم ، وهم قوم شعيب بعث إليهم وإلى أهل مدين ﴿ لَظَالِمِينَ ﴾ بتكذيب شعيب ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ بأن أهلكناهم بشدة الحر ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ أى قرى قوم لوط والأيكة ، أو مدين والأيكة ، دل على مدين ذكر الأيكة ﴿ لَبِإِمَامٍ ﴾ طريق

﴿ مُبِينٍ ﴾ واضح أفلا يعتبر بهم أهل مكة ، والإمام فى الأصل مصدر معناه ما يؤتم به يطلق على الطريق لأن المارة تأتم به ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ ﴾ واد بين المدينة والشام وهم ثمود ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ بتكذيبهم صالحاً لأنه تكذيب لباقى الرسل لاشتراكهم فى المجىء بالتوحيد . وعن جابر قال : مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين لئلا يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ثم زجر راحلته حتى خلفها . قال ابن العربى فى الأحكام : لا تجوز الصلاة فيها لأنها دار سخط ولا التيمم بها ولا الوضوء من مائها فكل ذلك مستثنى من حديث «جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» . اهـ . ﴿ وَءاتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ﴾ كالناقة وما نصب لهم صالح من الأدلة ﴿ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ لا يتفكرون فيها ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ﴾ لطول أعمارهم وكثرة أموالهم ﴿ ءامِنِينَ ﴾ من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الأعداء ، أو من العذاب لظنهم أنها تنجى من عذاب الله ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ وقت الصباح ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من نحت الجبال وبناء القصور الوثيقة واستكثار الأموال والعدد ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا ﴾ خلقاً ملتبساً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ لا يلائم الفساد ولذا أهلكنا المفسدين فهو كالدليل على استحقاقهم الهلاك لأن خلقها بالحق يقتضى إزالة الباطل ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ فينتقم الله لك ممن كذبك ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ أعرض عنهم إعراضاً لا تعجل بالانتقام منهم والصفوح الحليم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ ﴾ كامل القدرة على الخلق فهو قادر على استئصالهم ولكن الحكمة اقتضت الإمهال فأمرك وأمرهم بيده ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بحقائق الأشياء كلها يعلم ما فى الصفح من الحكمة فكلْ إليه أمرهم حتى يحكم فيهم ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَاكَ سَبْعاً ﴾ أى سبع آيات ﴿ مِنَ الْمَثَانِى ﴾ هى الفاتحة كما فى الصحيحين ، من التثنية وهى التكرير لأنها تكرر فى الصلاة وغيرها أو من الثناء بما فيها من الثناء على الله واحدها مثناة أو مثنية صفة للآية و « من » للبيان ، وقيل هى السبع الطوال والسابعة الأنفال والتوبة فهما فى حكم سورة أو الحواميم والأول الصحيح ﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ من عطف العام على الخاص ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً ﴾ أصنافاً ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من الكفار كلام جار مجرى التعليل كأنه يقول إذا أوتيت القرآن العظيم الذى يستحقر دونه كل نعمة فعليك به واستغن عن غيره واستغن بالعلم عن الشهوات . وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه : من أوتى القرآن فرأى أن أحداً أوتى أفضل مما أوتى فقد صغر عظيماً وعظم صغيراً ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ على عدم إيمانهم أو مشاركتهم فى الدنيا أو لا تحزن على فقر أمتك فتتمنى لهم الدنيا ، وفى الصحيحين « انظروا إلى من هو أسفل منكم ـ أى فى الدنيا ـ ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» قال عوف بن عبد الله بن عتبة : كنت أصحب الأغنياء فأرى دابة خيراً من دابتى وثوباً خيراً من ثوبى فلما سمعت الحديث صحبت الفقراء فاسترحت ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ ﴾ ألن جانبك ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الفقراء لا للكفار الأغنياء

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ ﴾ من عذاب الله أن ينزل عليكم ﴿ الْمُبِينُ ﴾ البين الإنذار ﴿ كَمَا أَنزَلْنَا ﴾ صفة مصدر محذوف يدل عليه ، ولقد آتيناك فإنه بمعنى أنزلنا عليك القرآن كما أنزلنا ، أو مفعول النذير أقيم مقامه أى أنذركم مثل العذاب الذى أنزلنا ﴿ عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ اليهود والنصارى ، بين الاقتسام بقوله ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أجزاء حيث قالوا لما يوافق كتبهم منه إنه حق ، ولما يخالف إنه باطل أو القرآن ما يقرءونه من كتبهم المنزلة حيث آمنوا ببعض وكفروا ببعض بالتحريف والتبديل ، وقيل : المقتسمين الذين تقاسموا على صالح : لنبيتنه الآية ، وعضين جمع عضة أصلها عضو من عضا الشاة إذا جعلها أعضاء وقيل فعلة من عضهته إذا بهته وإنما جمع جمع السلامة جبراً لما حذف منه والموصول بصلته صفة للمقتسمين على الأول أو مبتدأ خبره ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ على الوجهين سؤال توبيخ ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿ فَاصْدَعْ ﴾ اجهر وامض يا محمد ﴿ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا أو أبنه إبانة لايلتئم آخر الدهر كصدع الزجاجة لايقبل الألتئام أى فرق بين الحق والباطل و «ما» مصدرية أو موصولة والعائد محذوف أى بما تؤمر به من الشرائع واستعير كسر الزجاجة للتبليغ لما فيهما من التأثير فى القلوب ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ فلاتلتفت إلى مايقولون فى استهزائهم ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ بك بإهلاك كل منهم بآفة وهم الوليد بن المغيرة ، والعاصى بن وائل ، وعدى ابن قيس ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، أشار جبريل إليهم فقال للنبى صلى الله عليه وسلم قد كفيتهم فماتوا جميعا قبل الهجرة ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ صفة أو مبتدأ ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفاء فى خبره وهو ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم فى الدارين ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من الاستهزاء والتكذيب بقولهم « يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » فانتظمت الخاتمة مع الفاتحة ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أى فافزع إلى الله بالتسبيح والتحميد يكفك أو نزهه عما يقولون حامدا له على أن هداك للحق ﴿ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ المصلين ، وفى الحديث كان عليه السلام إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ الموت ، أى فاعبده مادمت حيا ولا تتخل عن العبادة لحظة ، وفى الآية دليل على أن التسبيح والعبادة سبب النجاة من ضيق الصدر والكرب ... رزقنا الله حسن الخاتمة .

[تم تفسير سورة الحجر]

سورة النحل

مكية : إلا « ولئن عاقبتم ... إلى آخرها »
مائة وثمان وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أى الساعة أو ما وعد الكفار من العذاب لما روى، أنه نزل لما استبطأوا العذاب فقيل لهم « أتى أمر الله » بالماضى لكونه واجب الوقوع لا محالة ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ تطلبوه قبل حينه فلا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه وفيه إيقاظ لما بعده من دلائل التوحيد متمكنا فى نفس حاضرة ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ تنزيها له ﴿ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به غيره أو عن إشراكهم وجل عن أن يحوم حوله شريك يدفع ما أراد بهم ، وقرأ حمزة والكسائى بتاء الخطاب ، ولما كان السبيل إلى علم دنو القيامة الوحى بيّنه بقوله ﴿ يُنَزِّلُ ﴾ من التنزيل للجمهور ، ومن الإنزال لابن كثير وأبى عمرو ﴿ الْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ كجبريل ﴿ بِالرُّوحِ ﴾ الوحى الذى يحيى به القلوب الميتة بالجهل فيقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد وفيه الاستعارة المكنية ﴿ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ بأمره أو من أجله ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ وهم الأنبياء ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ ﴾ أى بأن أنذروا أى أعلموا الكافرين بالعذاب مع التخويف فأن مصدرية بدل من الروح أو مفسرة لأن التنزيل فيه معنى القول أو مخففة بتقدير ضمير الشأن أى بأن الشأن أنذروا ﴿ أَنَّهُۥ ﴾ أى الشأن ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاتَّقُونِ ﴾ أى أن الشأن انحصار الألوهية فى فخافونى ، والتفت إلى ضمير المتكلم لأنه أعرف وأبعد عن اللبس ومقام التوحيد يلائمه والآية تدل على أن نزول الوحى بواسطة الملائكة وأن حاصله التنبيه على التوحيد الذى هو منتهى كمال القوة العلمية والأمر بالتقوى الذى هو أقصى كمالات القوة العملية وأن النبوة عطائية بالمشيئة والآيات التى بعدها كالدليل عليها وهى ﴿ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى محقا على أن لا شريك له ولو كان لقدر على خلقهما « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » ﴿ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به من الأصنام التى لا تقدر على خلقهما بل تفتقر فى وجودها وبقائها إليهما وفيه دليل على أنه تعالى ليس من قبيل الأجرام ، وقرأ حمزة والكسائى بالخطاب كما تقدم ﴿ خَلَقَ الْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ منىّ مهين لاحسّ به ولا حراك إلى أن صيره قويا شديدا ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ شديد الخصومة ﴿ مُّبِينٌ ﴾ موضح لحججه بعد ما كان جمادا وهو دليل على قدرة موجده وعظيم نعمه أو خصيم لربه ينكر قدرته على البعث قائلا « من يحيى العظام وهى رميم » وفيه تقبيح مافعلوا من جحد نعمة الله مع ظهورها عليهم ﴿ وَالْأَنْعَٰمَ ﴾ الإبل والبقر والغنم ، ونصبه بفعل يفسره

﴿ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ في جملة الناس ﴿ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ ما يدفأ به لدفع البرد كالأكسية والأردية والبرانس من أشعارها وأصوافها وأوبارها ﴿ وَمَنَافِعُ ﴾ أخر من النسل والألبان والركوب ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ قدم الظرف للفاصلة لا للحصر فلا يقدح الأكل من الطيور وأنواع الصيد أو لأن أكلها هو المعتاد في المعاش وغيرها للتفكه أو التداوي والضرورة غالباً ، ويحتمل أن قوله «والأنعام» عطف على الإنسان و «خلقها لكم » بيان لما خلق لأجله وما بعده تفصيل له ، ويحتمل تمام الكلام عند قوله «لكم» وابتدأ «فيها دفء» ولكن الأولى أن يكون الوقف عند قوله خلقها والابتداء بقوله « لكم فيها دفء » لمناسبة قوله « ولكم فيها جمال» وقدم اللباس على الأكل لأن منفعته من الأنعام عند العرب أعظم من الأكل إذ لا يجدونه إلا منها ويجدون المآكل غيرها وامتن هنا بالدفء كما امتن بالظل في قوله « سرابيل تقيكم الحر » اكتفاء في كل محل بما ذكر فيه . والله أعلم ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ زينة ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ تردونها إلى مراحها بالعشي ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ تخرجونها إلى المرعى بالغداة فإن الأفنية تتزين بها في الوقتين ويجل أهلها في أعين الناظرين إليها ، وتقديم الإراحة لأن الجمال فيها أظهر فإنها تقبل ملأى البطون حافلة الضروع . وفي اللباب : أكثر ما يكون هذا الجمال أيام الربيع إذا سقط الغيث ونبت العشب والكلأ وخرجت العرب للنجعة وحينئذ يتم أغراض أصحاب المواشي في التجمل بها لأن الرعاة حين يسرحونها وحين يريحونها تسمع لها رغاء وخواراً وثغاء تتجاوب بعضها بعضاً فعند ذلك يفرح أربابها ويتجمل بها الأفنية ويعظم وقعها عند الناس . اه . قال ابن العربي : وهذا الجمال أمر يدركه البصر فيلقيه إلى القلب ملائماً فيتعلق بالنفس من غير معرفة بوجه ذلك وكل ما كثر من إبل أو بقر أو غنم أو خيل أو بغال يكون له جمال لكن الحمير ليس فيها زينة ولكن المنفعة بها مضمونة . اه . ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ جمع ثقل بفتح القاف متاعكم ﴿ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ ﴾ بغيرها ولو مجردين عن الأثقال فضلا عن حملها على ظهوركم ﴿ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴾ بمشقتها ، وقرئ بالفتح وهو لغة فيه ، وقيل المفتوح مصدر شق عليه الأمر وأصله الصدع والمكسور بمعنى النصف كأنه ذهب نصف قوته بالتعب ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ﴾ كثير الرأفة ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم حيث خلقها لكم ﴿وَ﴾ خلق ﴿الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ مفعول له عطف على محل « لتركبوها » أو مصدر بتقدير فعله أي ولتتزينوا بها زينة وإنما غير الأسلوب لأن الركوب مقصود والزينة تحصل بالعرض، واحتج بالآية مالك وأبو حنيفة على تحريم الخيل لقول ابن عباس حين تلاها هذه للركوب ولأن منفعة الأكل أعظم من الركوب فلو جاز أكلها لكانت المنة به أولى ، وذهب الشافعي وأحمد إلى إباحتها لأن التعليل بالركوب والزينة لتعريف النعم فلا ينافي أكل الخيل لثبوت إباحته في حديث الصحيحين « نحرنا على عهد رسول الله فرساً وأكلناه» وحديثهما أيضاً «نهى الرسول عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في الخيل» ولما كانت الآية تقتضي أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الأكل مسكوتاً عنه دار الأمر فيه على

الإباحة والتحريم فوردت السنّة بإباحة الخيل والنهى عن البغال والحمير فأخذنا به ، والبغال والحمير محرمة فى مشهور مذهب مالك وفاقاً لسائر الأئمة ، وقيل مغلظة الكراهة ، قال الثعالبى : يجب على من ملكه الله شيئاً من هذه الحيوانات أن يرفق به ويشكر الله على هذه النعمة . وفى الموطأ مرفوعاً « إن الله رفيق يحب الرفق ويرضاه ويعين عليه ما لا يعين على العنف فإذا ركبتم هذه الدواب العجم فأنزلوها منازلها فإن كانت الأرض جدبة فانجوا عليها بنقيها وعليكم بسير الليل فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار وإياكم والتعريس على الطريق فإنها طرق الدواب ومأوى الحيات» الحديث ، وفيه أمن المسافر فى الخصب أن يمشى رويداً ويكثر النزول لترعى دوابه إذ لا ضرورة فى السرعة ، فأما الأرض الجدبة فالسنة أن يسرع السير ليخرج عنها وبدابته شىء من الشحم والقوة والنّقى الشحم والودك ، ولا يجوز أن يحماها ما يضرها ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من الأشياء النافعة والعجيبة ، والمقصود بيان كمال الاقتدار ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ بيان مستقيم الطريق الموصل إلى الحق رحمة وفضلا ، والتعبير بـ « على » إعلام بأنه واقع لا محالة بموجب الوعد ، يقال سبيل قصد وقاصد أى مستقيم ﴿ وَمِنْهَا ﴾ من جنس السبيل سبيل ﴿ جَائِرٌ ﴾ حائد عن الاستقامة لا يصل إلى الحق ، غير الأسلوب وإن كان الإضلال بمشيئته لأنه ذكره بالعرض ليمتاز عن سبيل الحق ولأنه لم يتحمل بيان طريق الضلال ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إلى قصد السبيل ﴿ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ استدل أولا على وحدانيته بخلق السموات والأرض لأنها الأصول ثم بخلق الإنسان وسائر الحيوان ثم بأحوال النبات إزاحة للشبهة عن أشرف المطالب ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ ﴾ تشربونه و « لكم » صلة « أنزل » أو خبر « شراب » و « من » تبعيضية متعلقة به ﴿ وَمِنْهُ ﴾ من ذلك الماء ﴿ شَجَرٌ ﴾ ما له ساق من نبات الارض ينبت بسببه ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ترعون مواشيكم بالرعى من أسام الماشية فسامت هى رعاها أصله من السومة وهى العلامة لأنها تؤثر فى الأرض بالرعى بعلامات ومن الشجر ما يبقى شتاء وربيعاً وهو العظام ومنه ما يبقى أصله فى الشتاء وينبت فى الربيع ومنه ما لا يبقى له شىء كالبقول ، ويجب على صاحب المواشى رعيها أو علفها فإن أجدبت الأرض تعين علفها أو بيعها أو ذبحها إن كانت مما يؤكل ﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ ﴾ بذلك الماء ﴿ الزَّرْعَ ﴾ قرأ أبو بكر بالنون على التعظيم التفاتاً من الغيبة ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أى بعض كلها لأن ما فى الإمكان لم يقع كله بالفعل لا فى الدنيا ولا فى الجنة وتقديم ما يسام فيه على ما يؤكل منه لكونه أهم عند العرب المخاطبين لأن جل عيشهم ألبان الأنعام وملبسهم أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ومن ذلك تقديم الزرع والتصريح بالأجناس الثلاثة وترتيبها فذكر الثمار تفصيلا وإجمالا كما فعل فى الحيوان لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ المذكور ﴿ لَآيَةً ﴾ علامة دالة على القدرة والوحدانية ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فى صنعه فيؤمنون فمن تأمل أن الحبة تقع فى الأرض وتصل إليها

نداوة تنفذ فيها فينشق أعلاها ويخرج منها ساق الشجر وينشق أسفلها فيخرج منه عروقها ثم ينمو ويخرج منه الاوراق والأزهار والثمار والحبوب مشتملا على أجسام مختلفة الاشكال والطبائع مع اتحاد المواد علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار مقدس عن منازعة الأضداد والأنداد ولعل فصل الآية به لذلك ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ ﴾ بالنصب للجمهور عطف على ما قبله ، وبالرفع لابن عامر مبتدأ ﴿ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ ﴾ بالوجهين ﴿ مُسَخَّرَاتٌ ﴾ بالنصب حال وبالرفع خبر ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ بإرادته كيف شاء لينفعكم بها وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين الذين يعتقدون أن هذه النجوم لها التصرف فى العالم السفلى إذ أخبر الله أنها مسخرات فى نفسها تحت قهره ليس لها تصرف فى نفسها فضلا عن غيرها بل هو الذى سخرها لمنافع عباده ولذا ختم الآية بقوله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم جمع الآية وذكر العقل لأن ما ذكر يدل على أنواع من الدلالة ظاهرة لذوى العقول السليمة لا تحتاج إلى فكر كأحوال النبات ﴿ وَ ﴾ سخر لكم ﴿ مَا ذَرَأَ ﴾ خلق ﴿ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ من حيوان ونبات وغير ذلك ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ وأصنافه حتى لا يشتبه بعضها ببعض ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أن اختلافها ليس إلا بصنع صانع حكيم ، ولما كان اللون فى غاية الظهور ختم الآية بالتذكير الذى هو التفات النفس إلى الحاصل عندها بلا تكلف ، ولما ذكر بدائع العالم العلوى والسفلى خص عجائب البحر وكثرتها فقال ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ ﴾ لركوبه والغوص فيه والصيد فيه ﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ غضا هو السمك وصفه بالطراوة لأنه أرطب اللحوم يسرع إليه الفساد فيسارع إلى أكله ويكون عذبا طريا ولو فى ماء زعاق وتمسك به مالك على أن من حلف لا يأكل اللحم يحنث بأكل السمك خلافا لباقى الأئمة قالوا لأن مبنى الأيمان على العرف ، فمن قال لعبده اشتر اللحم فجاء بالسمك لم يعد ممتثلا لأنه لا يفهم عند الإطلاق ألا ترى أن الله سمى الكافر دابة ولا يحنث الحالف لا يركب دابة بركوبه إجماعا ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ كاللؤلؤ والمرجان ، جعل اللبس لهم وإن كان اللابس نساءهم لأن غرض التزين عائد إليهم ، تمسك بهذا الشافعى على أن من حلف أن لا يلبس حليا فلبس لؤلؤا حنث خلافا لأبى حنيفة. قال ابن العربى من المالكية : لم أر لعلمائنا فيه نصا فإن لم تكن له نية حنث وقال اللؤلؤ والمرجان لا يحرم لبسه للرجال والنساء ، وإنما المحرم على الرجال الذهب والفضة ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ ﴾ السفن ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ جوارى ﴿ فِيهِ ﴾ تمخر الماء أى تشقه بحيزومها مقبلة ومدبرة بريح واحدة . وعن الفراء : المخر صوت الفلك عند جريها وإنما غير الأسلوب وزاد لفظ الرؤية إشارة إلى أنها مع كونها نعما آيات على قدرته باهرة ﴿ وَلِتَبْتَغُوا ﴾ عطف على لتأكلوا تطلبوا ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ سعة رزقه بركوبها للتجارة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله على ذلك ، ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر لأنه أقوى فى باب الإنعام حيث جعل مظنة الهلاك سببا للانتفاع وتحصيل المعاش على أهون الوجوه لأنها تقطع المسافة البعيدة فى لمحة الطرف ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ

رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثوابت كراهة ﴿أَنْ تَمِيدَ﴾ تضطرب ﴿ بِكُمْ ﴾ لأنها خلقت على وجه الماء فلم تستقر فأرسى الجبال فيها فاستقرت ﴿ وَ ﴾ جعل لكم فيها ﴿ أَنْهَارًا ﴾ كالنيل عطف على رواسى بحسب المعنى لأن الإلقاء يلزمه الجعل ووصلها بالجبال لأن معظم عيون الأنهار وأصولها تكون من الجبال ﴿ وَسُبُلًا ﴾ طرقا مختلفة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إلى مقاصدكم أو إلى معرفة الله ﴿ وَعَلَامَاتٍ ﴾ تستدلون بها على الطرق كالجبال والأشجار والأحجار بالنهار ﴿ وَبِالنَّجْمِ ﴾ بمعنى النجوم كالجدى والفرقدين والثريا وبنات نعش ﴿ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ إلى الطرق فى البرارى والبحار وإلى القبلة بالليل ، ولعل الضمير لقريش الذين لهم رحلة الشتاء والصيف وغيرهما ولذا أخرج الكلام عن سنن الخطاب إذ الشكر فى ذلك عليهم أوجب وتقديم النجم وإقحام الضمير للاختصاص كأنه قيل : وبالنجم خصوصاً يهتدون لاشتهارهم بالاهتداء بها فى مسايرهم ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ ﴾ وهو الله ﴿ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ وهو الأصنام حتى تشركونها معه فى العبادة . وهذا إنكار بعد إقامة الأدلة المتكاثرة على كمال قدرته وتفرده بخلق ما عدد أن يسوى بينه وبين ما لا يقدر على خلق شىء ، وأجرى الأصنام مجرى أولى العلم لتسميتهم لها آلهة ومن حق الإله أن يعلم أو للمشاكلة أو للمبالغة ، فكأنه قيل : إن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم فكيف بمن لا علم عنده ولا إدراك ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعرفوا فساد ذلك فتؤمنوا فإنه لجلائه كالحاصل للعقل الذى يحضر عنده بأدنى تذكر والتفات . ولما عدد النعم العظام من أنواع شتى أشار إجمالا إلى سائرها فقال ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تضبطوا عددها فضلا أن تطيقوا شكرها وهذا تنبيه على أن نعمه لا تنحصر وأن حق عبادته غير مقدور ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ ﴾ حيث يتجاوز عن تقصيركم فى أداء شكرها ﴿ رَحِيمٌ ﴾ لا يقطعها لتفريطكم ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ من عقائدكم وأعمالكم ، فيه وعيد وحث على الإخلاص ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ بالتاء للجمهور ، والياء لعاصم : تعبدون ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ فلا يشاركون الله فى شىء ، ثم أكد ذلك بأن أثبت لهم صفات تنافى الألوهية فقال ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ يصورون من الحجارة وغيرها وهذا من الترقى فى البرهان ﴿ أَمْوَاتٌ ﴾ لا روح فيهم خبر ثان ﴿ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ لم تعترهم حياة قط وأحرى أن تكون لهم الحياة الذاتية ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أى الخلق ، وكل هذا تهكم بالمشركين : أى لا شعور لها بوقت بعثهم فكيف تقدر على الشفاعة وإيصال الثواب والعقاب لأن البعث من لوازم التكليف حتى لا يضيع أجر المحسنين فكيف تعبد إذ لا يكون إلها إلا الخالق الحى بذاته العالم بالغيب ، وقيل المعنى : لا تدرى الأصنام متى تبعث ، وفيه دليل على أنها تجعل فيها الحياة وتبعث يوم القيامة حتى تتبرأ من عابديها والله أعلم ﴿ إِلَٰهُكُمْ ﴾ المستحق للعبادة منكم ﴿ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ لا نظير له فى ذاته ولا فى صفاته وهو الله ، وهذا تكرير للمدعى بعد إقامة البرهان تقريراً ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ ﴾ جاحدة للوحدانية بعد وضوحها ﴿ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الإيمان بها اتباعا للأسلاف وركونا إلى المألوف : أى

عدم إيمانهم بالآخرة هو الذى اقتضى إصرارهم على الجحود بعد وضوح الحق لأن المؤمن يكون طالباً للدليل متأملا فيما يسمع فينتفع به. والكافر بالعكس ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيجازيهم بذلك، وأن وما بعدها فى موضع رفع بجرم لأنه مصدر أو فعل، ومذهب سيبويه أن لا نفى لما تقدم من الكلام، و « جرم » معناه وجب أو حق ومع ذلك «لا» ملازمة لجرم لاتنفك هذه من هذه، ولنا عمل فيه ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أى جنسهم فضلا عن الذين استكبروا عن التوحيد. وفى الجواهر: عام فى الكافرين والمؤمنين يأخذ كل أحد بقسطه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لكفار مكة والقائل بعضهم على التهكم أو الوافدون عليهم أو المسلمون ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ ماذا منصوب بأنزل، المعنى: أى شىء أنزل أو مرفوع بالابتداء، أى أى شىء أنزله ﴿قَالُوا﴾ إضلالا للناس ﴿أَسَاطِيرُ﴾ أكاذيب ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ أى ما تدعون نزوله أساطير الاولين، على النصب، وعلى الرفع، فالمنزل أساطير الاولين ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ ذنوبهم ﴿كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لم يكفر منها شىء. فاللام للعاقبة أو الأمر أو لام كى ﴿وَمِنْ﴾ بعض ﴿أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ بتسبب الضلال ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من المفعول أى يضلونهم غير عالمين بأنهم ضلال، أو يريدون إضلالهم. وفائدتها الدلالة على أن جهلهم لايعذرهم، بل كان عليهم البحث حتى يظهر لهم الحق من المبطل، وفيه أن كيدهم لايضر أولى الألباب بل إنما يقلدهم البلداء. وفيه ذم لهم، أو حال من الفاعل أى غير عالمين بما يستحقون من العذاب، وقال الواحدى لفظة «من» ليست للتبعيض إذ لاينقص الاتباع من وزرهم بل للجنس أى ليحملوا من جنس أوزار الاتباع. اه. قلت ويؤيده حديث مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئاً» قال فى لباب التأويل: معنى الآية والحديث أن الرئيس والكبير إذا سن سنة حسنة أو قبيحة فتبعه عليها جماعة فعملوا بها فان الله يعظم ثوابه أو عقابه حتى يكون ذلك الثواب أو العقاب مساويا لكل ما يستحقه كل من الأتباع. اه ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ يحملونه حملهم هذا ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قريش رسلهم قيل هو نمرود بن كنعان بنى ببابل صرحا طوله خمسة آلاف ذراع أو قدر فرسخين ليصعد منه إلى السماء ليقاتل أهلها ﴿فَأَتَى اللَّهُ﴾ قصد ﴿بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أصوله وهى الأساطين التى تقيم البناء أو الأساس ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ وهم تحته إذ لابقاء للسقف بعد ذهاب القواعد ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من جهة لاتخطر بالهم، وقيل هذا عام فى جميع الماكرين للرسل، وهو تمثيل لإفساد ما أبرموا من المكر بالرسل. وهو أولى والأول أظهر. وفى المثل: «من حفر لأخيه قليبا وقع فيه قليبا» ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يذلهم بعذاب النار ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم على لسان الملائكة توبيخا ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ وللبزى شركاى بغير همز أى بزعمكم ﴿الَّذِينَ

كُنتُمْ تُشَاقُّونِ ﴾ بكسر النون لنافع للوقاية حذف منها الياء اكتفاء بالكسرة أى تخالفوننى فى شأنهم بمخالفة المؤمنين وبفتحها للباقين نون رفع أى تخالفون المؤمنين ﴿ فِيهِمْ ﴾ فى شأنهم ﴿ قَالَ ﴾ أى يقول ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ من الأنبياء والملائكة والمؤمنين جميعا ﴿ إِنَّ الْخِزْىَ ﴾ الذلة ﴿ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ ﴾ العذاب ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يقولونه شماتة بهم أخبر الله ذلك لطفا بالسامعين ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة ﴿ الْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ ﴾ بالكفر أو بتعريضها للعذاب المخلد ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ﴾ انقادوا واستسلموا عند الموت قائلين ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ﴾ فألقوا عطف على قوله «قال الذين أوتوا العلم» فيقول لهم أولو العلم ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم به ويقال لهم ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ﴾ مأوى ﴿ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ جهنم ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الشرك والكذب والزور هم أصحاب محمد والقائل هم الوافدون لاستكشاف خبر رسول الله من القبائل أيام الموسم فإذا سألوا الكفار قالوا أساطير الأولين فارجع ولا تلقه فيقول الوافد أنا شر وافدإن رجعت إلى قومى دون أن ألقاه فيدخل مكة فيرى أصحاب رسول الله فيسألهم ﴿ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾ أى أنزل خيرا وفى نصب الجواب دليل على أنهم لم يتلعثموا فيه بل أطبقه على السؤال معترفين بالإنزال على خلاف الكفرة حين عدلوا بالجواب عن السؤال وقالوا هو أساطير الأولين ليس من الإنزال فى شىء ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ حياة طيبة ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ ﴾ أى ثوابهم فيها ﴿ خَيْرٌ ﴾ مما فى الدنيا ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ الجنة وقوله للذين أحسنوا وما بعده يجوز أن يكون بدلا من خيرا كأنهم أجملوا فى الجواب ثم فصلوا إيضاحا للمسترشدين . ويحتمل أن يكون كلاما مبتدأ ثناء على القائلين فى جوابهم وأنه من حسناتهم معدوداً من جملتها وهذا الوجه أحسن طباقا لأن هذا الوعد فى مقابلة الوعيد لقوله « ليحملوا أوزارهم » والله أعلم ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ خبر مبتدإ محذوف أى هى ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح فى نعم وأن يكون مبتدأ والخبر ﴿ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ خبر آخر وعلى الوجهين الأولين هما حالان من فاعل نعم ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ من الملاذ وتقديم الظرف للدلالة على أن الإنسان لا ينال جميع ما يشاء إلا فى الجنة ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ مثل هذا الجزاء ﴿ الَّذِينَ ﴾ نعت ﴿ تَتَوَفَّاهُمُ ﴾ بالتاء والياء كما مر ﴿ الْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ طاهرين من الكفر والمعاصى لأنه فى مقابلة ظالمى أنفسهم أو فرحين ببشارة الملائكة فإن المؤمن يبشر إذا احتضر : من طابت نفسه أو بالتوجه إلى حضرة القدس ﴿ يَقُولُونَ ﴾ لهم عند الموت ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ﴾ لا يلحقكم بعد مكروه ويقال لهم فى الآخرة أى الآن فإن قبر المؤمن روضة من رياض الجنة . ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فإنها معدة لكم على أعمالكم ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ ما ينتظر الكفار ﴿ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة والكسائى ﴿ الْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ لقبض أرواحهم ﴿ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ للعذاب المستأصل أو القيامة المشتملة عليه ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما فعل هؤلاء ﴿ فَعَلَ الَّذِينَ

من قبلهم﴾ من الامم كذبوا رسلهم فأهلكوا ﴿وما ظلمهم الله﴾ بتدميرهم بغير ذنب ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بالكفر والمعاصي المؤدية إلى ذلك ﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾ أي جزاؤها ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ العذاب أي أحاط بهم والحيق لا يستعمل إلا في الشر، وفيه تسلية للرسول بأن من يتربص له الدوائر عليه دائرة السوء. ﴿وقال الذين أشركوا﴾ أتى بالموصول موضع الضمير إشارة إلى أن قولهم صادر عن الكفر لانه يستلزم رفع التكليف وهو ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾ قالوا ذلك إنكاراً لبعث الرسل أي لا فائدة فيه لأن ما شاء الله يجب وما لم يشأ يمتنع والشرك وتحريم البحائر ونحوها لوكان قبيحا لما شاء الله صدورها عنهم وهذا جهل منهم بأن أمره يغاير مشيئته ولا يسأل عما يفعل ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ فأشركوا بالله وحرموا ما أحله وردوا رسله فأهلكوا ﴿فهل﴾ فما ﴿على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ الإبلاغ البين وليس عليهم هداية لكنهم واسطة ليتبين من شاء الله له الخير باتباعهم ومن شاء له الشر بالإعراض عنهم، ثم بين أن بعث الرسول إلى الامم سنة إلهية قديمة فقال ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا﴾ كما بعثناك في هؤلاء ﴿أن﴾ بأن ﴿اعبدوا الله﴾ وحدوه ﴿واجتنبوا الطاغوت﴾ الاوثان أن تعبدوها وهذا برهان قاطع على فساد دعوى الجبرية ولو كانت مشيئة الله رافعة للوم على الشرك والمعاصي لما أرسل الرسل ﴿فمنهم من هدى الله﴾ إلى طريق الجنة فاتبع الرسل ﴿ومنهم من حقت﴾ وجبت ﴿عليه الضلالة﴾ في علم الله فكذبهم فهلك، وفيه دلالة على أن إرادة الله ضلالهم لا يكون عذرا لهم ﴿فسيروا في الأرض﴾ يا كفار مكة ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ رسلهم كعاد وثمود وغيرهم من الهلاك لعلكم تعتبرون فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴿إن تحرص﴾ يا محمد ﴿على هداهم﴾ وقد أضلهم الله لا تقدر على ذلك ﴿فإن الله لا يهدي﴾ بالبناء للمفعول وللفاعل للكوفيين ﴿من يضل﴾ يريد إضلاله ﴿وما لهم من ناصرين﴾ مانعين من عذاب الله ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ أي غاية اجتهادهم فيها ﴿لا يبعث الله من يموت﴾ جواب القسم والقسم وجوابه عطف على «وقال الذين أشركوا» إيذاناً بأنهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث مقسمين عليه زيادة في البت على فساده فرد الله عليهم أبلغ رد بقوله ﴿بلى﴾ يبعثهم ﴿وعدا﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو ما دل عليه «بلى» فإن يبعث موعد من الله تعالى ﴿عليه﴾ صفة للوعد أي عليه إنجازه لمقتضى الحكمة ﴿حقا﴾ صفة أخرى للوعد أي محققاً أو هو والوعد منصوبان بفعلهما المقدر، أي وعد ذلك وعداً وحقه حقا ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أنهم يبعثون لعدم علمهم بأنه من مواجب الحكمة التي جرت عادته بمراعاتها وقصورهم على المألوف فيتوهمون امتناعه ﴿ليبين﴾ متعلق بيبعثهم المقدر ﴿لهم الذي يختلفون﴾ مع المؤمنين ﴿فيه﴾ من أمر الدين بتعذيبهم وإثابة المؤمنين ﴿وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ في إنكار البعث بيان للسبب الداعي إلى البعث من حيث الحكمة وهو التمييز بين الحق والباطل والمحق والمبطل والثواب والعقاب ﴿إنما قولنا لشيء

إذا أردناه ﴾ أردنا إيجاده و « قولنا » مبتدأ خبره ﴿ أنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ بالرفع للجمهور أى فهو يكون . وبالنصب لابن عامر والكسائى هنا وفى يس عطفاً على « نقول » تمثيل لسرعة تكون مراده بعد تعلق الإرادة بوجود المأمور به من المأمور المطيع لأوامر الأمير المطاع تقريرا للبعث لدخوله فى عموم شىء ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللهِ ﴾ فى شأنه فرارا بدينه وهم رسول الله وأصحابه ومن اقتدى بهم ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ بأذى المشركين ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيَا ﴾ مباءة أى دارا ﴿ حَسَنَةً ﴾ هى المدينة أو تبوئة حسنة بنيل بقعة حسنة وكل أمر مستحسن ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ ﴾ أى الجنة ﴿ أَكْبَرُ ﴾ أعظم مما يعجل لهم فى الدنيا وكان عمر بن الخطاب إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء يقول خذ هذا بارك الله لك فيه وما أذخر الله لك فى الآخرة خير من هذا وأفضل ﴿ لَوْ كَانُوا ﴾ أى الكفار أو المتخلفون عن الهجرة ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ ما للمهاجرين من خير الدارين لوافقوهم أو لو علم المهاجرون ما لهم لزادوا فى اجتهادهم وصبرهم . قال عبد الرحمن فى الجواهر « والذين هاجروا فى الله » هم الذين هاجروا إلى أرض الحبشة هذا قول الجمهور وهو الصحيح فى سبب الآية لأن هجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية والآية تتناول كل من هاجر أولا وآخرا . اه هم ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على أذى المشركين والهجرة لإظهار الدين أو هو رفع أو نصب على المدح ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فيرزقهم من حيث لا يحتسبون . قال فى اللباب : وفى قوله « هاجروا فى الله » دليل على أن الهجرة إذا لم تكن لله خالصة لم يكن لها موقع وكانت بمنزلة الانتقال من بلد إلى آخر ويدل عليه حديث « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » أخرجه الشيخان فى صحيحيهما . وقال فى اللباب أيضاً فى قوله « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » ذكر الله الصبر والتوكل وهما مبدأ السلوك إلى الله تعالى ومنتهاه أما الصبر فهو قهر النفس وحبسها على أعمال البر وسائر الطاعات واحتمال الأذى من الخلق والصبر عن الشهوات المباحات وأحرى المحرمات والصبر على المصائب . وأما التوكل فالانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه إلى الحق بالكلية ؛ فالأول مبدأ السلوك والثانى هو آخر الطريق ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَى إِلَيْهِمْ ﴾ ولحفص نوحى بالنون وكسر الحاء أى لا ملائكة رد لقولهم أبعث الله بشرا رسولا ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ العلماء بالتوراة والإنجيل ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فإنهم يعلمونه وأنتم إلى تصديقهم أقرب من تصديق المؤمنين بمحمد ، وفيه وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ متعلق بمحذوف أى أرسلناهم بالحجج الواضحة ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ الكتب المنزلة عليهم ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ القرآن ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ فيه من الحلال والحرام والوعد والوعيد ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيتنبهوا للحقائق وقد بين عليه السلام فى أحاديثه ما أجمل فى القرآن ولم يترك للأمة شبهة والحمد لله على ذلك ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا ﴾ المكرات ﴿ السَّيِّئَاتِ ﴾ احتالوا لهلاك الأنبياء أو لمحمد بدار الندوة على ما تقدم وراموا صد أصحابه

عن الإيمان ﴿ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾ كقارون ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ بغتة من جانب السماء ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى من جهة لا تخطر ببالهم كما فعل بقوم لوط وعاد ، وقد أهلك قريش ببدر ولم يكونوا يقدرون ذلك ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ فى أسفارهم للتجارة ﴿ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ بفائتين العذاب ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ تنقص شيئاً فشيئاً حتى يهلك الجميع ، حال من الفاعل أو المفعول. روى أن عمر بن الخطاب قال على المنبر : ما تقولون فى قوله تعالى « على تخوف » فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال هذه لغتنا التخوف التنقص ، فقال هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ قال نعم قال شاعرنا أبو كثير يصف ناقته : تخوف الرحل منها تامكا قرِداً • كما تخوف عود النبعة السفن

قال عمر : عليكم بديوانكم لا تضلوه . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم . اه . قلت : التامك هو السنام ، والقرد هو الذى تمّر شعره ، والنبعة واحد النبع شجر السهام ، والقسى ينبت فى قلة الجبل والنابت منه فى السفح الشريان ، وفى الحضيض الشوحط ، والسفن محركة حجر ينحت به ويلين به السهام أو كل ما ينحت به . والله أعلم . وقد جاء إلى عمر أيضاً رجل فقال : إن أبى يتخوفنى مالى فقال عمر : الله أكبر أو يأخذهم على تخوف منه . ومنه قول النابغة :

تَخَوَّفهم حتى أذل سَرَاتهم • بطَعْن ضرار بَعْدَ نَبح الصَّفائح

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ بالياء للجمهور والتاء لحمزة والكسائى ﴿ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ له ظل كشجر وجبل و «ما» موصولة و «من» بيانية ﴿ يَتَفَيَّأُ ﴾ يتميل ﴿ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ﴾ جمع شمال أو عن جانبيهما أول النهار وآخره ، أفرد اليمين وجمع الشمائل اعتباراً للفظ والمعنى ولم يعكس لأن قوة اليمين جابرة نقصان الجمع لفظاً ، والفىء هو الظل الراجع بعد الزوال يتفيأ ظلاله من استعمال المقيد فى المطلق ، وقرأ أبو عمرو بالتاء ﴿ سُجَّدًا لِلَّهِ ﴾ حال من الظلال ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ خاضعون لما يراد منهم ، حال من ضمير ظلاله المجرور ، أو هما حالان منه وفى توحيده وجمعه فيهما اعتباراً للفظ والمعنى أيضاً وفيه ترتيب حسن على الأول فإنه لما أوقع السجود حالا عن الظلال جعل الدخور الذى هو انقياد قهرى وصفاً لأصحابها وفى جعلهما حالين من الظلال فوات ذلك الحسن والعامل فى الحال الثانية يتفيأ أيضاً كما فى ملة إبراهيم حنيفاً ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ بيان لما فى السموات والأرض جميعاً فله خلق يدبون فى السموات كدبيب الأناس وسائر الحيوان فى الأرض ، أو هو بيان لما فى الأرض وحده أى نسمة تدب عليها بمعنى يخضع له كل بما يراد منه ، وغلب فى الإتيان بما مالا يعقل لكثرته ، والدبيب هو الحركة الجسمانية ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ عطف على المبين عطف الخاص على العام تفضيلا ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادته حال من الملائكة ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ ﴾ استئناف لبيان نفى الاستكبار أى يخافون أن يرسل عذابه ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ أو حال

من ربهم أى يخافونه عالياً عليهم بالقهر ، ويحتمل كون يخافون حالا من ضمير يستكبرون ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ به من الطاعة والتدبير وفيه دليل على أنهم مكلفون مداورون بين الخوف والرجاء معصومون لا يعصون الله ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ تأكيد قاله الزجاج وقال غيره التقدير لا تتخذوا اثنين إلهين إذ الإثنان لا يمكن كون كل واحد منهما إلهاً لأن الاثنينية تنافى الألوهية فهى مصب النهى تنبيهاً على أن الوحدة من لوازم الألوهية ولذا قال ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ فالمقصود نفى التعدد والنهى عنه لا خصوصية الاثنين . المعنى : لا شريك له رأساً وفى ذلك إثبات الألوهية والوحدانية معاً له تعالى ولذا قال ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ خافونى دون غيرى وفيه التفات عن الغيبة إلى التكلم مبالغة فى الترهيب وتصريحاً بالمقصود كأنه قال فأنا ذلك الإله الواحد فارهبونى إياى لا غيرى ، ولما ثبت بالبرهان أن لا شريك له فى الألوهية وجب كون جميع المخلوقات مماليك له وهو ما أشار إليه بقوله ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ملكا وخلقاً وعبادة ﴿ وَلَهُ الدِّينُ ﴾ الطاعة لا لغيره ﴿ وَاصِبًا ﴾ دائما حال من الدين والعامل فيه معنى الظرف من وصب يصب وصوبا دام وثبت كأوصب إذ تقرر أنه الإله وحده لا يرهب غيره قال ابن قتيبة : لا يطاع أحد إلا انقطعت طاعته فى حياته أو بموته إلا الحق سبحانه فإن طاعته دائمة أبداً ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ بعد ما بين لكم أنه المتوحد فى الألوهية والحقيق بالتقوى لا ضار ولا نافع سواه ، استفهام إنكار فيه تعجب وتوبيخ ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ لا يأتى بها غيره و « ما » شرطية أو موصولة فنعمة الإسلام وصحة الأبدان وسعة الأرزاق والأموال والأولاد وغير ذلك منه فيجب أن لا يشكر غيره كما وجب أن لا يخاف غيره ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ﴾ أصابكم الفقر والمرض ﴿ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ ترفعون أصواتكم بالاستغاثة والدعاء لا إلى غيره ، وأصل الجؤار رفع الصوت الشديد ومنه جؤار البعير ، والمعنى أن كل نعم حصلت لكم ودامت لكم فهى منه وإذا عرض لكم ضر فى بعض الأوقات فلا تفزعون إلا إليه إذ قد علمتم أنه لا قادر على كشفه إلا هو ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ وهم الكفار لأن قوله « وما بكم من نعمة » شامل للمؤمن والكافر ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ من النعمة فكان الواجب عليهم شكرها كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة وإنكار كونها من الله إذ ينسبون كشف الضر إلى أصنامهم ، أو اللام للعاقبة أو الأمر للتهديد كما فى قوله ﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ باجتماعكم على عبادة الأصنام أو باللذات التى جعلها الله لكم أمر تهديد ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة ذلك ﴿ وَيَجْعَلُونَ ﴾ أى المشركون ﴿ لِمَا ﴾ أى الأصنام ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بل جاهلون بها لاعتقادهم أنها تضر وتنفع وهى لا تضر ولا تنفع ، والعائد محذوف ، أو يجعلون لأشياء لا علم لها جمادات ، وضمير العقلاء لادعائهم ذلك فيها ﴿ نَصِيبًا ﴾ مفعول يجعلون ﴿ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ من الضروع والزروع تقرباً إليها وتقدم فى سورة الأنعام ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ ﴾ سؤال توبيخ وفيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب تهويلا ﴿ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ من أنها

تستحق الألوهية والتقرب ، أو تفترون على الله من أنه أمركم بذلك ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ﴾ بقولهم الملائكة بنات الله لاستتارهم كالنساء وتأنيث لفظهم ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهاً له عما زعموا تحديد لقبائحهم ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أى البنون والجملة فى محل رفع أو نصب ليجعل المعنى يجعلون له البنات التى يكرهونها وهو منزه عن الولد ويجعلون لهم الأبناء التى يختارونها ويختصون بالأسنى وفيه غاية الوعيد حيث ارتضوا للخالق ما لم يرتضوا لأنفسهم وعلى وجه النصب فالظرف أيضاً مستقر لا لغو فلم يجتمع ضميرا الفاعل والمفعول فى غير فعل القلب ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ﴾ أى أخبر بولادتها ، عبر عنه بالبشارة وإن كرهوه لأن الولد مطلقاً نعمة من الله ﴿ ظَلَّ ﴾ صار ﴿ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ متغير تغير مغتم بسبب الكآبة والحياء من الناس ، وعبر بظل لأنه من الظلول فإنه وقت اجتماع الناس وحينئذ يقع الخجل قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ممتلئ غماً وهو كاظمه لا يظهره أو مملوء غضباً من المرأة والأول أنسب لقوله ﴿ يَتَوَارَىٰ ﴾ يختفى ﴿ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ قومه حياء ﴿ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ لأنه عار عليه عرفاً فيختفى خوفاً من التعيير متردداً عما يفعل به ﴿ أَيُمْسِكُهُ ﴾ يتركه بلا وأد ﴿ عَلَىٰ هُونٍ ﴾ ذل ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ بأن يئده ، وجملة أيمسكه فى موضع الحال من فاعل يتوارى ، والمعنى : يستتر من الناس متردداً بين أن يتركه ويرضى بالذل وبين أن يدفنه فى التراب وتذكير الضمير للفظ ما ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ حكمهم هذا حيث نسبوا لخالقهم البنات اللاتى هى عندهم بهذا المحل ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ ﴾ صفة ﴿ السَّوْءِ ﴾ النقص وهى الاحتياج إلى الولد والاستعانة وإلى كل قليل وكثير ، وضع الموصول موضع الضمير إشارة إلى أن صدور ذلك منهم منشأه عدم الإيمان بالآخرة ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ الصفة العليا وهى الغنى المطلق الذى هى معنى لا إله إلا الله فهو منزه عن صفات المخلوقين ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على كل شىء فلا احتياج له إلى ولد يستظهر به ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى صنعه المنفرد بالحكمة ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾ بكفرهم ومعاصيهم ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ أى على الأرض ، دل عليها ذكر الناس ﴿ مِن دَابَّةٍ ﴾ نسمة تدب عليها بشؤم المعاصى . وعن ابن عباس من دابة من مشرك وعليه فذكر الدابة للتحقير ﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ لحكمة اقتضت ذلك إما ليتوب بعضهم أو يولد من يتوب أو ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ المحتوم ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عنه ﴿ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ عليه عطف على الشرطية وإضافة الظلم إلى الناس باعتبار وقوعه بينهم فلا يلزم العموم لخروج الأنبياء عليهم السلام ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ لأنفسهم من البنات والشريك فى الرياسة وإهانة الرسل وإعطاء أراذل الأموال فى الصدقات ووجوه البر ﴿ وَتَصِفُ ﴾ تقول ﴿ أَلْسِنَتُهُمُ ﴾ مع ذلك ﴿ الْكَذِبَ ﴾ وهو ﴿ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ بدل من الكذب أو بأن لهم الحسنى عند الله فى مقابلة ذلك القبيح كقوله «ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى» قال تعالى ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ حقا ﴿ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرِطُونَ ﴾ بكسر الراء لنافع من أفرط فى المعصية بالغ فيها وبفتحها

لباقي السبعة اسم مفعول من أفرطه قدمه أى مقدمون إلى النار أو من أفرطه تركه وراء ظهره أى متروكون فيها وهذا أبلغ وأليق بالمقام رد لكلامهم وإثبات ضده ﴿ تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ رسلا كما أرسلناك ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ السيئة فرأوها حسنة فكذبوا الرسل وأصروا على ذلك إلى أن ماتوا عليه ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ﴾ متولى أمورهم ﴿ الْيَوْمَ ﴾ أى فى الدنيا عبر باليوم عن زمانها أى إنما كانوا مخذولين فى الدنيا لكون الشيطان وليًا لهم ، وفيه تسلية لرسول الله ووعيد للمشركين ، أو المراد يوم يعذبون بالنار لا ناصر لهم إلا الشيطان وفيه تهكم ونفى للناصر على أبلغ وجه ، أو اليوم الزمان الحاضر ، والمعنى زين للأمم قبلك وفرغ من أمرهم فهو الآن ولى هؤلاء الذين يكذبونك وفيه مزيد التسلى والتشفى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يوم القيامة ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ من أمر الدين وأحوال المبدأ والمعاد أصولا وفروعا ، أو من التوحيد والقدر وأحوال المعاد وأحكام الأفعال ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ به ، معطوفان على محل «لتبين» ولم يظهر اللام لأنهما فعلا المنزل بخلاف التبيين وتخصيصهما بالمؤمنين بمعنى أنهم قبلوه والتزموا العمل بموجبه وعم التبيين للناس لأنه الكشف عن موضع اللبس بحيث لا يخفى على أحد سواء قبله أو لا ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ بالنبات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يبسها وهذا رجوع إلى بيان دلائل التوحيد الذى بدأ به بعد أن حكى أنواعاً من الكفر والضلالات ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ دالة على التوحيد والبعث ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر لأن من لم يتدبر بعد السماع فكأنه لم يسمع ومن لم يسمع بقلبه لم ينتفع بالآيات ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ دليلا يعبر به من الجهل إلى العلم بوجود صانع حكيم ﴿ نَسْقِيكُمْ ﴾ بفتح النون لنافع وابن عامر وأبى بكر ويعقوب وبضمها للباقين فى الموضعين ، بيان للعبرة ﴿ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ أى الأنعام ، ذكر الضمير ووحده هنا للفظ وأنثه فى سورة المؤمنين للمعنى فإن الأنعام اسم جمع ، ولذا عده سيبويه فى المفردات كثوب أخلاق ، ومن قال إنه جمع نعم جعل الضمير للبعض لأن اللبن لبعضها دون جميعها ﴿مِنْ﴾ للابتداء متعلقة بنسقيكم ﴿بَيْنِ فَرْثٍ﴾ ثفل الكرش ﴿وَدَمٍ لَبَنًا﴾ متوسطاً بينهما أسفل البطن محل الفرث وأعلاه محل الدم والقلب والكبد ذات اليمين وذات الشمال مستعليان ينبوعا الدم وعن ابن عباس إذا استقر المأكول فى الكرش وطبخته كان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً والكبد مسلطة عليها تقسمها بتقدير الله سبحانه فيجرى الدم فى العروق واللبن فى الضروع ويبقى الثفل فينزل إلى الأمعاء إلى وقت خروجه ، قال فى اللباب فإذا خرج لا يسمى فرثاً ، قال البيضاوى : إن صح ما روى عن ابن عباس فالمراد أن وسطه يكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم الذى يغذى البدن لأنهما لا يتكونان فى الكرش بل الكبد يجذب صفاة الطعام المهضم فى الكرش ويبقى ثفله وهو الفرث ثم يمسكها ريثما يهضمها ثانيا فيحدث أخلاطاً أربعة منها مائية فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين وتدفعها إلى الكلية

والمرارة والطحال ثم يوزع الباقي على الأعضاء بحسبها فيجرى إلى كل حقه على مايليق به بتقدير العليم الحكيم ثم إن كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها فيندفع الزائد أولا إلى الرحم لأجل الجنين فإذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع فيبيض بمجاورة لحومها البيض فيصير لبنا .اهـ. ومن الأولى تبعيضية لأن اللبن بعض ما فى بطونها ﴿ خَالِصًا ﴾ صافيا لا يشوبه شىء من رائحة الفرث ولون الدم ﴿ سَائِغًا ﴾ سهل المرور فى الحلق ﴿ لِلشَّارِبِينَ ﴾ لا يغص به أحد وكل هذا دليل على كمال القدرة وامتنان بالنعم قال عليه السلام « من سقاه الله لبنا فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه » وقال « ليس شىء يجزى مكان الطعام والشراب غير اللبن » رواه أبوداود والترمذى وابن ماجه ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ ﴾ أى وإن لكم عبرة أيضاً فيما نسقيكم من ثمراتهما أى من عصيرهما ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ خمرا يسكر سميت بالمصدر وهذا قبل تحريمها أومن ثمرات متعلقة بتتخذون ومنه تكرير الظرف تأكيدا أو خبر لمحذوف صفته تتخذون أى ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه وتذكير الضمير على الوجهين الأولين المضاف المحذوف الذى هو العصير أو لأن الثمرات بمعنى الثمر ﴿ وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ كالتمر والزبيب والدبس والخل فإن كانت الآية قبل تحريم الخمر فدالة على أنها ليست رزقا حسنا فتكره وإلا لجامعة بين العتاب والمنة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ على قدرته تعالى ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يتدبرون فى المصنوعات ثم شرع فى نوع آخر من الدلائل فقال ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ وحى إلهام أى يقذف فى قلوبها ﴿ أَنِ ﴾ مفسرة أو مصدرية ﴿ اتَّخِذِي ﴾ وتأنيث الضمير على المعنى لأن النحل مذكر اسم جمع كالناس ﴿ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ مسدسة تأوين إليها ﴿ وَمِنَ الشَّجَرِ ﴾ بيوتا ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ أى الناس يبنون لك من الأماكن أى بعض الجبال والشجر وما يعرشون لأنها لاتبنى فى الكل ولا فى كل مكان منها والبيت ما يبيت فيه الحيوان ويأوى إليه إنسانا كان أو غيره ومنه بيت العنكبوت فلا احتياج إلى التشبيه ببيت الإنسان ولكون بيوتها مسدسة تتصل حتى تصير كالقطعة الواحدة وذلك أن الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينهما فرج إلا الشكل المسدس فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه القطعة الواحدة قاله ابن العربى فى الأحكام ولا خفاء لما فى بيوتها من حسن الصنعة وصحة القسمة التى لا يقوى عليها حذاق المهندسين بآلات وأنظار دقيقة ولعل ذكره التعبير عن الإلهام بالوحى للتنبيه على ذلك وإن لم يوح إليها لم تأو إلى الأماكن ﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ التى تشتهيها من حلو أو مر إرشاد لها إلى عمل بعد اتخاذ المنزل والمراد بعض كل الثمرات وفيه طباق بين من ولفظ كل وبين كلى وكل شبه الاشتقاق وفيه الازدواج ومن النحل وحشى يسكن الجبال والشجر ويأوى إلى الكهوف ومنه أهلى يبنى له الناس أماكن ولها أمير كبير نافذ الحكم فيهم يكون أكبرهم جثة يسمى يعسوب النحل أى مليكهم حكاه الجوهرى ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ طرقه فى طلب الرعى أو فى عمل العسل أو فى الرجوع من الرعى لاتلتبس عليك

﴿ ذُلُلًا ﴾ جمع ذلول حال من السبل أى مسخرة لك فلا تعسر عليك وإن توعرت أو لاتضل عن العود منها وإن بعدت وقيل من الضمير فى أسلكى أى منقادة لما يراد منك ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا ﴾ من أفواهها تمجه كاللعاب ﴿شَرَابٌ﴾ هو العسل ولا زكاة فيه مع كونه طعاما مقتاتا ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ إلى أبيض وأسود وأحمر وأصفر وغير ذلك بحسب ما تأكل من الثمار والأزهار وبحسب اختلاف سن النحل والفصول، وإنما عدل من الخطاب إلى الغيبة لفراغ التعليم المقتضى له والشروع فى المقصود الذى كان ذلك الإلهام والتعليم لأجله وهو الأمتنان على الإنسان بإيصال ذلك النفع البالغ إليه، والشفاء القاطع للمرض مع كون الدواء من ألذ الأشياء كما قال تعالى ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ إما بنفسه كما فى الأمراض البلغمية أو مع غيره فى سائر الأمراض إذ قل ما يكون معجون إلا والعسل جزء منه مع أن التنكير فيه مشعر بالتبعيض أى نوع منه ويجوز أن يكون للتعظيم والصحيح أنه شفاء لكل الأمراض بدون ضميمة شىء لكن بنيته أى يجرى على نية كل أحد فمن قويت نيته وصح يقينه انتفع به على كل حال كما روى عن ابن عمر أنه كان لايشتكى شيئاً إلا جعل عليه عسلا حتى الدمل إذا خرج عليه طلاه بعسل .وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعجبه الحلوى والعسل وكان يقول إن كان فى شىء من أدويتكم خير ففى شرطة محجم وشربة عسل ولذعة نار، وقد أمر بالعسل من استطلق بطنه رواه الشيخان ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾فى بدائع صنع الله فيعلمون أن اختصاص النحل بهذه العلوم الدقيقة التى لا يطلع عليها إلا حذاق علم الهندسة لابد له من خالق قادر حكيم يلهمها ذلك ولغموض مافى هذه الصنعة ختم الفاصلة بالتفكر الذى يقتضى إعمال الروية وترتيب المبادئ ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ﴾ولم تكونوا شيئا ﴿ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ بانقضاء آجال مختلفة ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ أى أخسه من الهرم الذى يشابه الطفولية فى نقصان القوة والعقل وفساد الحواس لكنه خص بالرذالة إذ لا رجاء فى العود . روى عن على رضى الله عنه أنه خمس وسبعون وعن قتادة خمس وتسعون والحق أنه يختلف باختلاف الأشخاص وتفاوت القوى والعقول ورب ابن خمسين وهو فى أرذل العمر ورب ابن تسعين ليس فيه ومراتب الإنسان فى عمره أربعة سن النشوء من أول العمر إلى ثلاث وثلاثين فالوقوف إلى أربعين وهو غاية كمال العقل فالكهولة إلى الستين وفيه الشروع فى النقصان نقصا خفيفا لايظهر فالشيخوخة والانحطاط إلى آخر العمر ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ كالصبى الذى لاعقل له وهو كناية عن غاية النسيان لتكون قدرته على نقل الإنسان من العلم إلى الجهل دليلا على قدرة نقله من الموت إلى الحياة للبعث قال عكرمة من قرأ القرآن لم يصر إلى أرذل العمر ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بالأشياء كمقادير الأعمار ﴿ قَدِيرٌ ﴾ على ما يريد يميت الشاب النشيط ويبقى الهرم الفانى وفيه تنبيه على أن تفاوت آجال الإنسان ليس إلا بتقدير قادر حكيم ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ ﴾ فمنكم غنى وفقير ومالك ومملوك وكذا فى الخلق والعقل والصحة والسقم والحسن والقبح والعلم والجهل فهم متفاوتون فى كل ذلك على

مقتضى الحكمة ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا ﴾ أى الموالى ﴿ بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أى بجاعلى ما رزقناهم من الأموال وغيرها شركة بينهم وبين مماليكهم ﴿ فَهُمْ ﴾ أى المماليك والموالى ﴿ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ شركاء المعنى ليس لهم شركاء من مماليكهم فى أموالهم فكيف يجعلون بعض مماليك الله شركاء له وجملة فهم لازمة للجملة المنفية أو مقررة لها ويحتمل أن المراد لومهم على عدم مساواة العبيد فى الرزق ولذا قال عليه السلام « إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم أطعموهم مما تطعمون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون » أخرجه البخارى أو المراد لايحسبن الموالى أنهم رادون على مماليكهم من الرزق شيئا لأن الله هو الرازق حقيقة ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ يكفرون حيث يجعلون له شركاء أو حيث لاينفقون على أمثالهم مع أنهم عباد مربوبون أو حيث لايرضون بالمساواة مع عبيدهم وإمائهم فى الرزق وقرأ أبو بكر بجحدون بالخطاب ثم أشار إلى نوع آخر من دلائل الأنفس مع كونها نعما جزيلة فقال ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ جنسكم الآدميين ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ زوجات بخلق حواء من ضلع آدم وسائر النساء من نطف الرجال والنساء لتأنسوا بها وليكون أولادكم مثلكم ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ جمع حافد المسرع فى الخدمة يعنى البنات لأنهن تخدمن فى البيوت أتم خدمة أو أولاد الأولاد وقيل الأختان على البنات وقيل الربائب أو البنون أنفسهم والعطف لتغاير الوصفين وأضاف البنين للأزواج لانفصال الولد صورة وروحا منهن ولأجل ذلك يتبع الولد أمه فى الرق والحرية وصار مثلها فى المالية لأنه انفصل من الأب نطفة لا قيمة له ولا مالية فيه ولا منفعة وإنما اكتسب ذلك منها كما لو أكل رجل تمرا فى أرض رجل فسقطت منه نواة فى الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنها ملك لصاحب الأرض دون الآكل بإجماع الأمة لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها قاله ابن العربى فى الأحكام ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ من أنواع الثمار والحبوب والحيوان ومن للتبعيض فإن المرزوق فى الدنيا بعض الطيبات ولا يحصل كلها إلا فى الجنة ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ باعتقاد منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها أو أن من الطيبات مايحرم عليهم كالبحائر ﴿ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ بإشراكهم وتحريمهم ما أحل الله وإضافة نعمته إلى الأصنام وتقديم الصلة للحصر لأن من جعل الموهوم متيقنا وأنكر المتيقن لا أكفر منه ، أو للمحافظة على الفواصل ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره ﴿ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ ﴾ بالمطر ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ بالنبات ﴿ شَيْئًا ﴾ بدل من رزقا إن كان بمعنى المرزوق أو منصوب به لأن رزقا اسم مصدر يعمل عمله ، ومن السموات والأرض صلة الرزق إن كان مصدرا بمعنى لايرزق من السموات مطرا ولا من الأرض نباتا وصفة إن كان اسما لما يرزق ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لايقدرون على شىء نفى للإمكان بعد نفى الفعل ترقيا وجمع الضمير وأفرده باعتبار لفظ « ما » ومعناه وقيل ضمير الجمع راجع إلى الكفار أى هؤلاء مع كونهم أحياء لايقدرون على ذلك فكيف بالجمادات ولا حاجة إلى تقدير

الراجع إلى الرزق لأن المعنى نفى الاستطاعة رأسا ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ لاتجعلوا له أشباها تشركوهم به لأن من أشرك به شيئاً فقد شبهه به فنى النهى عن ضرب المثل نهى عن التشبيه به ذاتا ووصفا وفى لفظ الأمثال لمن لا مثل له نعى عظيم على القائل وتسجيل على غباوته ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فساد ما تقولون وعظم جرمكم فيما تفعلون ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك ولو علمتموه لما جرأتم عليه فهو تعليل للنهى أو أنه يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونها فدعوا رأيكم مع نصه أو أنه يعلم كيف تضرب الامثال وأنتم لا تعلمون ثم علمهم كيف يضرب فضرب مثلا لنفسه ولمن عبد من دونه فقال ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ ويبدل منه ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ صفة تميزه من الحر فإنه عبد الله ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ لعدم ملكه أخرج به المكاتب والمأذون ﴿وَمَنْ﴾ نكرة موصوفة أى حرا ﴿رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ أى يتصرف فيه كيف شاء والأول مثل الأصنام والثانى مثله تعالى ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ العبيد العجزة والحر المتصرف ؟ لا . وفى الآية إشارة إلى أن المملوك لا يملك وتقييد الرزق بالحسن لإخراج الحرام إذ لا مدح فى إنفاقه ويحتمل أن يراد به الكثرة ليتسع مجال الإنفاق وجمع الضمير فى «يستوون» للمعنى لأن المراد بعبدا و«من» الجنس ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كل الحمد لانه المتفرد بالإيجاد فلا استحقاق لغيره ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ المشركون ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ مايصيرون إليه من العذاب فيشركون به ويضيفون نعمه إلى غيره ويعبدونه لأجلها وقيد الأكثر لإخراج الأقل فإنهم يقولون جحودا ثم ضرب مثلا لذلك أوضح من الأول فقال ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ ويبدل منه ﴿رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ ولد أخرس ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ لانه لا يفهم ولا يُفهم ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ ثقل وعيال ﴿عَلَى مَوْلَاهُ﴾ ولى أمره حاصله أنه عديم النفع مع الضرر الظاهر ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ﴾ يصرفه فى طلب حاجة أو كفاية ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ بنجح لان مناط الخير القول أو الفعل وهو عار منهما وهذا مثل الصنم الذى هو جماد لا يضر ولا ينفع ولا يسمع ولا ينطق ولا يعقل وهو كل على ما يعبده بكلفة الحمل والنقل والخدمة ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ﴾ الأبكم المذكور ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ ومن لازمه النطق والعلم والقدرة أى فهم منطيق ذوكفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على النفع ومنعهم من الضر ﴿وَهُوَ﴾ فى نفسه ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سعى أو استقامته فى الاعتقاد والعمل وإنما قدم الأمر بالعدل على الاستقامة تشريفا وهذا مثل لله بما يفيضه على عباده من إنعامه وآثار رحمته وقيل الآية مثل للكافر والمؤمن وعليه فقيل على العموم فى كل كافر ومؤمن وقيل على الخصوص فالذى يأمر بالعدل هو رسول الله والأبكم أبو جهل ، أو فى عثمان بن عفان ومولى له يأمره عثمان بالإسلام ويأمر عثمان بالإمساك عن الإنفاق فى سبيل الله ، أو فى أبىّ بن خلف وحمزة والله أعلم ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ علم ما غاب فيهما بيان لكمال علمه بعد إبطال الشبهة وقيل غيبهما القيامة فإن علمها غائب عن أهلها ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ قيامها فى السرعة والسهولة ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ رجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها

﴿ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ منه لأنه بلفظ كن فيكون وأو للتخيير أو الإضراب بمعنى بل ، والعرب إذا استهانوا فعل شيء يضربون له بذلك مثلا ، وهو بيان لكمال قدرته وتساوى الممكنات بالنسبة إليها ولذا قال ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ برهاناً على ذلك لاندراجه فى الكلية ثم دل على قدرته فقال ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ قرأ حمزة والكسائى بكسر الهمزة إذا وصل بما قبله للإتباع وزاد حمزة كسر الميم للاتساع والهاء زائدة ﴿ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ من الأشياء والجملة حال ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ﴾ آلات الإدراك ﴿ السَّمْعَ ﴾ بمعنى الأسماع ﴿ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ القلوب تدركون بالأولين جزئيات الأشياء ثم تتنبهون بقلوبكم بمشاركات ومباينات بينها بتكرار الإحساس حتى يحصل لكم العلوم البديهية وتتمكنوا من تحصيل العلوم الكسبية بالنظر فيها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ مولى تلك النعم بالإيمان والطاعة ثم ذكر دلائل الآفاق بعد دلائل الأنفس بقوله ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بالخطاب ﴿ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية له ﴿ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ﴾ أى الهواء بين السماء والأرض وجو الشيء داخله . قال كعب الأحبار : إن الطير ترتفع فى الجو اثنى عشر ميلا ولا ترتفع فوق ذلك ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ بقدرته إذ لا دعامة هناك ولا علاقة والجسد بثقله يقتضى السقوط ، وفى هذا حث على الاستدلال بذلك على أن لها ممسكا أمسكها فى حال قبض أجنحتها وبسطها واصطفافها ووقوفها فى الهواء وهو الله ، ولذا قال ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ دالات على علم الصانع وقدرته من وجوه شتى : خلق الطير على الحالة التى يمكن لها الطيران ، وخلق الجو على الوجه الذى يمكن الطيران فيه ، وإمساك الطير فى الهواء على خلاف مقتضى الطبع ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون بها استدلالا على وحدة الصانع وقدرته ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً ﴾ موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر والخشب ، فعل بمعنى مفعول ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً ﴾ هى القباب المتخذة من الأدم ويجوز أن يتناول الخيام المتخذة من الوبر والصوف والشعر فإنها من حيث إنها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ تجدونها خفيفة يخف عليكم حملها ونقلها ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ سفركم بفتح العين لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبسكونها للباقين ﴿ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ فى وضعها أو ضربها وقت الحضر أو النزول فاليوم لمطلق الزمان بمعنى الوقت ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا ﴾ أى الضأن ﴿ وَأَوْبَارِهَا ﴾ أى الإبل ﴿ وَأَشْعَارِهَا ﴾ أى المعز ﴿ أَثَاثاً ﴾ متاعاً باللبس والفرش فى الأكسية والبسط ﴿ وَمَتَاعاً ﴾ بالتجربة وقيل الأثاث متاع البيت الكثير من أث أى كثر وقيل جميع المال ، ومتاعاً ما يتمتع به فى البيت خاصة ، عطف على سكناً باعتبار الصفة أو من عطف الخاص على العام ، ولم يذكر القطن والكتان لأنه لم يكن فى بلاد العرب المخاطبين به وإنما خوطبوا بما عرفوا فما قام مقامه يدخل فى الاستعمال والنعمة مدخله ، وقيل ترك ذكر القطن والكتان والحرير إعراضاً عن السرف إذ ملبس الصالحين هو الصوف غالباً ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

تبلى فيه أو إلى حين انقضاء أعماركم ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ﴾ من الشجر والغمام وغير ذلك ﴿ ظِلَالًا ﴾ جمع ظل تتقون به من حر الشمس ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ من الكهوف والسروب جمع كن ما يستكن فيه أى يستتر من حر أو برد ، والمسافر إما غنى فيستكن بالخيام ونحوها أو فقير فيستكن بكل ما يقيه من الكهوف أو السروب أو غير ذلك ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ ﴾ ثياباً من الصوف والكتان والقطن وغيرها ﴿ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ أى والبرد خص الأول بالذكر لأنه أكثر عندهم أو اكتفاء بأحد الضدين لأن دافع أحدهما دافع للآخر ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ أى حربكم أى الطعن والضرب فيها كالدروع والجواشن ، والسربال يعم كل ما يلبس ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كتمام هذه النعم التى تقدمت ﴿ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ ﴾ فى الدين والدنيا ﴿ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ تنقادون لحكمه إذا نظرتم فيها ، والكلب ينقاد لمن يطعمه كسرة يابسة فكيف يكون أكثر شكراً منكم ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أعرضوا عن الإسلام ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ الإبلاغ البين . وقد بلغت وتمهد عذرك فذكر السبب ليدل على المسبب ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ أى يقرون أنها من عنده ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ بإشراكهم غيره فى العبادة وقولهم إنما نرزق ببركة الأصنام وشفاعتها أو يعرفون نعمته عليهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم أنكروها ، ومعنى « ثم » استبعاد الإنكار بعد المعرفة ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ الجاحدون عناداً وذكر الأكثر إما لأن بعضهم لم يعرفوا الحق لنقصان العقل أو التفريط فى النظر ، وإما لأنه يقام مقام الكل كما فى قوله «بل أكثرهم لا يعلمون» ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ هو نبيها يشهد لها وعليها بالإيمان والكفر وهو يوم القيامة ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فى الاعتذار إذ لا حجة لهم ، وقيل فى الكلام أصلا ، وقيل فى الرجوع إلى الدنيا ، والمعنى أنهم بعد شهادة الأنبياء يقعون فيما هو أعظم منها وهو عدم الإذن فى الكلام لأن الواقع فى البلية قد يتنفس بعض تنفس إذا أذن له فى إبداء العذر وإن كان موقناً بأنه لا يجدى به نفعاً ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ لا يطلب منهم العتبى وهو الرضا أى لا يطلب منهم الرجوع إلى ما يرضى الله ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ ﴾ النار ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ العذاب ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ لا يمهلون عنه إذا رأوه ، والفاء فى مثل هذا فصيحة ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ﴾ من الشياطين وغيرها ﴿ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو ﴾ نعبد ﴿ مِن دُونِكَ ﴾ اعتراف بأنهم كانوا خاطئين فى ذلك أو التماس بأن يشطر عذابهم ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ ﴾ أى أجابوهم بقولهم ﴿ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى قولكم عبدتمونا سيكفرون بعبادتهم إن أريد بهم الشياطين والأصنام وإن كان القوم من الملائكة وعيسى وعزير فالمعنى عبدتم الشياطين دوننا بل كانوا يعبدون الجن ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ﴾ استسلموا لحكمه بعد الاستكبار فى الدنيا ﴿ وَضَلَّ ﴾ غاب ﴿ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم وتنصرهم أى بطل عنهم ذلك حين كذبوهم وتبرءوا منهم ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دينه

بمنع الإسلام والحمل على الكفر ﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ الذى استحقوه بكفرهم ﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ بكونهم مفسدين بصدهم ﴿وَ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ هو نبيهم ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمد ﴿ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ أمتك المؤمن والكافر ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ تِبْيَانًا ﴾ بياناً ﴿ لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج إليه من أمر الشريعة ومرجع السنة والإجماع والقياس إليه ﴿وَهُدًى ﴾ للضالين إلى الصواب ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لجميع الخلق وحرمان المحروم من تفريطه ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ بالجنة ﴿ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ الموحدين المنقادين لأحكامه العاملين بما فيه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ استئناف فى غاية الجزالة فإنه لما بيّن أن الكتاب تبيان لكل شىء كأنه سئل عن كيفيته فبين ذلك على الإجمال فقال «إن الله يأمر بالعدل» بالتوسط فى الأمور اعتقاداً كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك ، وعملا كالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب ، وخلقاً كالجود المتوسط بين البخل والتبذير ، والشجاعة المتوسطة بين الجبن والتهور ﴿ وَالْإِحْسَانِ ﴾ أى الإخلاص فى تلك الأمور أصولا وفروعاً على ما أشار إليه صلى الله عليه وسلم بقوله « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » ودخل فيها الشفقة على خلق الله ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ القرابة حقه ما يحتاج إليه من صلة وغيرها ، تخصيص بعد تعميم للمبالغة . قال فى لباب التأويل : أصل العدل المساواة فى كل شىء ، والإحسان أن تقابل الخير بأكثر منه والشر بالعفو عنه ، وصلة الرحم أن تعطيهم من فضل ما رزقك الله وإن لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودد ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ﴾ الكبيرة ﴿ الْفَحْشَاءِ ﴾ التى تفاحش قبحها أى تجاوز عن الحد لاشتمالها على ذنوب شتى كالزنا وجميع المعاصى الشهوانية ﴿ وَالْمُنكَرِ ﴾ كل ما ينكره الشرع صغيراً كان أو كبيراً من المعاصى الغضبيه ﴿ وَالْبَغْيِ ﴾ الظلم للناس وجميع المعاصى الوهمية أوخصه بالذكر وإن كان داخلا فى المنكر لعظم أمره اهتماماً به كما بدأ بالفحشاء كذلك . قال البيضاوى : ولا يوجد من الإنسان شىء إلا وهو مندرج فى هذه الأقسام صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث يعنى القوة الشهوانية والغضبية والوهمية ولذا قال ابن مسعود هى أجمع آية فى القرآن للخير والشر ولو لم يكن فى القرآن غيرها لصدق عليه أنه تبيان لكل شىء ولعل إيرادها عقب قوله «ونزلنا عليك الكتاب» للتنبيه عليه . اه . وقال ابن عطية : العدل فعل كل مفروض والإحسان فعل كل مندوب وإيتاء ذى القربى لفظ يقتضى صلة الرحم ويعم جميع إسداء الخير إلى القرابة ، والفحشاء الزنا ويتناول سائر المعاصى ، والمنكر أعم منه لأنه يعم جميع المعاصى والرذائل على اختلاف أنواعها والبغى هو الظلم ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ بالأمر والنهى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فإن قبح الإفراط والتفريط يدرك بأوائل العقول ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ رسوله فى بيعته وكل من دخل فى الإسلام فقد بايع رسول الله ، وقيل هو النذر وقيل اليمين وقيل الحلف وقيل كل أمر يجب الوفاء به ﴿ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ ﴾ أيمان البيعة أو مطلق الأيمان ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ توثيقها بذكر الله وعقد القلب عليها فخرج لغو اليمين ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾

أى شاهداً أو رقيباً بالوفاء حيث حلفتم به ، والجملة حال ، فكما أن الكفيل يطالب بأداء الدين فكذلك الحالف مطالب بالبر لئلا يكون استخفافا باسمه تعالى ، قاله فى غاية الأمانى . قال فى اللباب لما ذكر الله فى الآية المتقدمة المأمورات والمنهيات على الإجمال ذكر فى هذه بعضها على التفصيل فبدأ بالأمر بالوفاء بالعهد لأنه أوكد الحقوق انتهى . قال القتيبى العهد يمين يجب الوفاء به إذا كان فيه صلاح أما إذا لم يكن فيه صلاح فلا . اه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ فى نقض الأيمان والعهود تهديد لهم ثم ضرب الله سبحانه وتعالى لنقض العهد مثلا فقال ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ ﴾ أفسدت ﴿ غَزْلَهَا ﴾ ما غزلته مصدر بمعنى المفعول ﴿ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ إحكام له وإبرام متعلق بنقضت ﴿ أَنْكَاثًا ﴾ طاقات جمع نكث وهو ما ينكث وهو حال من غزلها أو مفعول ثان لنقضت بمعنى صيرت أو مصدر جمع مبالغة وكانت فى مكة امرأة حمقاء تفعل ذلك تغزل طول يومها ثم تنقضه وفى تشبيه الناقض بحالها تحذير وإشارة إلى أن ذلك ليس من فعل العقلاء وأن فاعله داخل فى أعداد النساء الحمق ﴿ تَتَّخِذُونَ ﴾ حال من ضمير تكونوا أى لا تكونوا مثلها فى اتخاذكم ﴿ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا ﴾ فسادا وخديعة ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ ثانى مفعولى تتخذون وأصله مايدخل فى الشىء وليس منه وإنما كانت الأيمان المنقوضة دخلا لوقوع الفتنة بينهم بنقضها ﴿ أَنْ ﴾ أى لأن ﴿ تَكُونَ أُمَّةٌ ﴾ جماعة ﴿ هِيَ أَرْبَى ﴾ أكثر عددا أو قوة ﴿ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ المعنى لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم أولا تنبذوهم لقوة غيرهم وكانوا فى الجاهلية يعقدون الحلف مع طائفة فإذا رأوا أعداء تلك الطائفة أكثر وشوكتهم أوفر نقضوا العهد وحالفوا أولئك ، فنهى المؤمنون عن فعل ذلك و «أن تكون» علة لاتخاذهم دخلا وكان إما تامة و «هى أربى» فى موضع رفع صفة أو ناقصة والجملة خبرها ولا يجوز كون الضمير فصلا لأن الاسم الأول نكرة ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ﴾ بما أمر به من الوفاء بالعهد لينظر المطيع منكم والعاصى أو بكون أمة أربى لينظر أتفون أم لا ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فى الدنيا من أمر العهد وغيره بأن يعذب الناكث ويثيب الوافى وفيه وعد لمن حفظ العهد ووعيد لمن غدر ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أهل دين واحد ﴿ وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بالخذلان ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ بالتوفيق ﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ ﴾ يوم القيامة سؤال تبكيت ﴿ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ باختياركم وإن كان واقعاً بمشيئته تعالى فتجازوا عليه وفيه إشارة إلى ما هو الحق من التوسط بين الجبر والقدر ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ كرره تأكيدا وإظهاراً لعظم فساده ومبالغة فى التحذير من ارتكابه ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ ﴾ أى أقدامكم عن محجة الإسلام ﴿ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ استقامتها عليها مجاز عن تبدل الرشد بالغى والصيرورة من الصواب إلى الخطأ أفرد القدم إشارة إلى أن زلل قدم واحدة عظيم فكيف بأقدام كثيرة ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ ﴾ العذاب فى الدنيا بالقتل والأسر إشارة إلى أن نقض العهد يؤدى إلى ذلك ﴿ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى بصدكم عن الوفاء بالعهد أو بصدكم غيركم عنه لأنه يستن بكم ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فى الآخرة ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا ﴾

ولا تستبدلوا ﴿ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ فى مبايعة رسوله وغير ذلك ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ من الدنيا بأن تنقضوه لأجله وفيه منع الرشوة ﴿ إِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من الثواب والنعيم الدائم ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من المتاع الفانى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فلا تنقضوا . ﴿ مَا عِنْدَكُمْ ﴾ من الدنيا ﴿ يَنْفَدُ ﴾ يفنى ويزول ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من النصر والثواب وخزائن رحمته ﴿ بَاقٍ ﴾ دائم لا يزول برهان على أن ما عند الله خير إذ لا نسبة للفانى مع الباقى ﴿ وَلَيَجْزِيَنَّ ﴾ بالياء لنافع وأبى عمرو وحمزة والكسائى وابن عامر وبالنون لغيرهم ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على الوفاء بالعهود وأذى الكفار ومشاق التكاليف ﴿ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بأرجح أعمالهم كالواجبات والمندوبات أو بجزاء أحسن من أعمالهم وفى الحديث «من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه» فآثروا ما يبقى على ما يفنى، أو أحسن بمعنى حسن ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ بينه بالنوعين دفعا للتخصيص ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ إذ لا اعتداد بعمل دون الإيمان ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ فى الجنة أو فى الدنيا بالقناعة أو الرزق الحلال فإن كان المؤمن غنيا فظاهر وإن كان فقيرا كان طيب عيشة بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقع الأجر العظيم فى الآخرة بخلاف الكافر فإنه إن كان معسرا فظاهر وإن كان موسرا لم يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الطاعات ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾ أى أردت قراءته من إطلاق المسبب على السبب ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ أى قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كذا روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقول قبل القراءة أى فاسأل الله تعالى أن يعيذك من وساوسه لئلا يوسوسك فى القراءة والجمهور على أنه للاستحباب وتعقيبه لذكر العمل الصالح والوعد إيذان بأن الاستعاذة عند القراءة من هذا القبيل وإن قال أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فلا بأس به وحديث ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الزيادة لم يصح ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ ﴾ تسلط وولاية ﴿ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فإنهم لا يطيعون أمره ولا يقبلون وساوسه إلا حال غفلة ثم يستعيذون فيتنبهون ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ بطاعته عبر بعمل وسوسته فيهم بالسلطان للمشاكلة والازدواج ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ ﴾ بالله ﴿ مُشْرِكُونَ ﴾ والأول أعم من المشرك أو العطف باعتبار تغاير الصفة والضمير فى به للشيطان أى بسببه ولما كان النسخ بابا عظيما من أبواب وسوسة الشيطان بكونه يوهم التناقض والله منزه عنه ذكره بعد الأمر بالاستعاذة فقال ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾ بنسخها وإنزال غيرها لمصلحة العباد ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن كثير وأبى عمرو أى من مصالح العباد فلعل ما يكون مصلحة بالأمس مفسدة باليوم والجملة اعتراض بين الشرط وجزائه وهو ﴿ قَالُوا ﴾ أى الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ كذاب تقوله من عندك تأمر بشىء ثم يبدو لك فتنهى عنه ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ حكمة الأحكام ولا يميزون الخطأ من الصواب ولذا لم

يعرفوا فائدة النسخ ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ جبريل جواب لقولهم إنما أنت مفتر وإسناد الإنزال إليه ليدل على التقدس المنافى للافتراء ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ بالأمر الثابت منه ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بنزل أو ملتبسا بالحكمة وفيه دلالة على أن النسخ حق ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ لإيمانهم به إذ علموا ما فيه من الحكمة وازدادوا طمأنينة ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ المنقادين لحكمه وهما معطوفان على محل ليثبت أى تثبيتاً وهداية وبشارة وفيه تعريض بحصول أضداد ذلك لغيرهم ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ ﴾ القرآن ﴿ بَشَرٌ ﴾ وهو قين نصرانى وفى تعيينه واسمه اضطراب تركته لذلك قال تعالى ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ ﴾ بضم الياء للجمهور وفتحها لحمزة والكسائى يميلون ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أنه يعلمه ﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾ لا يفصح فى كلامه ﴿ وَهَٰذَا ﴾ القرآن ﴿ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ ذو بيان وفصاحة فكيف يعلمه أعجمى؟ قال فى اللباب: والأعجمى هو الذى لا يفصح فى كلامه والعجمى المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحا بالعربية. اه وفى هذا دليل على أن قولهم جهل وعناد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ القرآن بقولهم هذا من قول البشر ﴿ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم فى الآخرة هددهم على كفرهم بالقرآن بعد ما أماط شبهتهم ورد طعنهم فيه ثم غلظ الأمر عليهم فقال ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ لأنهم لايخافون عقابا يردعهم عنه ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ الكاملون فى الكذب لأن تكذيب آيات الله من أعظم الأكاذيب، أوهم الذين عادتهم الكذب لاتحجبهم عنه مروءة ولادين أوالكاذبون فى قولهم إنما أنت مفتر وهورد له وقلب عليهم والتأكيد بالتكرار وإنّ وغيرهما المقابلة ذلك القول ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾ من مبتدأ أو شرطية والخبر أو الجواب فله وعيد شديد ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ على التلفظ بالكفر فتلفظ به ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ كعمار بن ياسر أخذه الكفار وأخذوا أباه ياسرا وأمه سمية فعذبوهم ليرجعوا عن الإسلام فأبى ياسر وسمية فقتلا فهما أول قتيلين قتلا فى الإسلام وأما عمار فأعطاهم ما أرادوه بلسانه مكرها فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمارا كفر فقال «كلا إن عمارا ملىء إيمانا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه» فأتى عمار إلى رسول الله يبكى فقال: ماوراءك ياعمار فقال شر فأخبره فقال كيف وجدت قلبك قال مطمئنا بالإيمان فقال «إن عادوا لك فعد لهم بما قلت» فنزلت، وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب وعلى جواز التكلم بلفظ الكفر لمن أكره رخصة والصبر لإعزاز الدين أفضل لما صح أن مسيلمة أخذ رجلين من المسلمين فقال لأحدهما ما تقول فى محمد قال رسول الله قال فأنا قال أنت أيضاً فخلى سبيله وقال للآخر ماتقول فى محمد قال رسول الله قال ماتقول فىّ؟ قال لم أسمع فأعاد عليه فأعاد مقالته فقتله فبلغ ذلك رسول الله فقال «أما الأول فقد أخذ برخصة الله وأما الآخر فقد صدع بالحق هنيئا له» قاله فى غاية الأمانى. وقال فى لباب التأويل: أجمعوا على أن من أكره على الكفر لايجوز له التلفظ به تصريحا بل يأتى بالمعاريض وبما يوهم أنه كفر فلو أكره على التصريح يباح له ذلك بشرط طمأنينة القلب ولو صبر حتى قتل كان أفضل كما

فعل ياسر وسمية ﴿ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ له أى فتحه ووسعه بمعنى طابت به نفسه ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ إذ لا أعظم من جرمه ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الكفر بعد الإيمان أو ذلك الشرح أو ذلك الوعيد عليه ﴿ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ اختاروها ﴿ عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ فى علمه الذين ذرأهم للنار ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ فأبت عن إدراك الحق والتأمل فيه ﴿ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ الكاملون فى الغفلة عما يراد بهم حيث آثروا الفانى على الباقى ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ حقا ﴿ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الكاملون فى الخسران لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ عذبوا وتلفظوا بالكفر كعمار أو بالولاية والنصرة، وثم لتباعد حال هؤلاء عن حال أولئك . وقرأ ابن عامر فتنوا بالبناء للفاعل أى كفروا أو عذبوا المؤمنين كالحضرمى أكره مولاه جبرا حتى ارتد ثم أسلما وهاجرا وسهيل هو ابن بيضاء عذب ابنه أبا جندل ثم أسلم بعد ﴿ ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ﴾ على الجهاد وما أصابهم من المشاق وعلى الطاعة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أى الفتنة ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ بهم وخبر إن الأولى دل عليه خبر الثانية وقيل الجار والمجرور خبر الأولى كأنه قيل إن ربك لهم لا عليهم والثانية مع خبرها بيان لكونه لهم ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ ﴾ تحاج ﴿ عَن نَّفْسِهَا ﴾ فى طلب الاعتذار لا يهمها غيرها وهو يوم القيامة ويوم منصوب برحيم أو باذكر ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ جزاء ﴿ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ شيئاً من جزائهم ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ لكل قوم أنعم عليهم فكفروا النعمة فأنزل بهم نقمته لأن النفوس تنزجر بعذاب الدنيا أكثر مما تنزجر بعذاب الآخرة ولذا شرعت الحدود ﴿ قَرْيَةً ﴾ بدل من مثلا وهى مكة والمراد أهلها وقيل مفروضة والأول الصحيح لأن ضرب المثل إنما يكون بأمر بديع فى البشاعة جرى فى الأزمنة الماضية زجرا للسامع من ارتكاب موجبه ﴿ كَانَتْ آمِنَةً ﴾ من الغارات لا تهاج ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ لا تحتاج إلى الانتقال عنها لضيق أو خوف ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ واسعاً ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من كل جانب من جوانبها كقوله تجبى إليه ثمرات كل شىء وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ بتكذيب النبى صلى الله عليه وسلم وهى جمع نعمة أو نعم كبؤس وأبؤس ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ ﴾ فقحطوا سبع سنين حتى أكلوا جيف الكلاب ﴿ وَالْخَوْفِ ﴾ من سرايا النبى، والجوع والخوف آفتان باطنتان لا شىء أشد على النفس من إحداهما فكيف إذا اجتمعا ، شبه أولا ما يدرك الإنسان من ألم الجوع والضر بما يدركه من الطعم المر البشيع ثم شبه ذلك الألم والضر باللباس من حيث الاشتمال وحذف المشبه وذكر المشبه به وهو اللباس فالأولى استعارة مكنية والثانية تصريحية ، وأوقع الإذاقة على اللباس دون الكسوة لأنه يفيد زيادة التأثير والتأثر فكان التجريد فى هذا المقام أبلغ من الترشيح وإنما لم نقل إنه ترشيح ، مع أن ألم الجوع المشبه أمر معقول والمدرك بالذوق لا بد أن يكون محسوساً فالإذاقة حينئذ

ترشيح لا تجريد فهو من توابع الطعم المز البشيع لأن الإذاقة كثر استعمالها فى البلايا والشدائد بمعنى الإصابة فجرت مجرى الحقيقة فيها فبذلك الاعتبار كانت تجريداً قال الشاعر :

وَمَنْ يَذُقِ الدُّنْيَا فَإِنِّى طَعِمْتُهَا ٭ وَسِيقَ إِلَىَّ عَذْبُهَا وَعَذَابُهَا

إنما قلنا المشبه باللباس هو الألم من حيث الاشتمال لأن جعله شحوب اللون ورثاثة الهيئة اللازمين للجوع يذهب حلاوة الإذاقة ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ من الكفر والإخلال بالشكر ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الجوع والخوف وواقعة بدر فقلع شأفتهم ﴿ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ حال التباسهم بظلم الكفران ﴿ فَكُلُوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ بطاعته إذ استبان لكم ما حل بمن كفر بها لئلا يحل بكم ما حل بهم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ثم عدد المحرمات بقوله ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وما عداها حل لكم مما تحرمون والحصر بـ«إنما» بالنسبة إلى ما يحرمون من البحائر ونحوها فلا يمنع حرمة الحمر الأهلية وغيرها مما دل عليه الدليل ولذا أتبعه بقوله ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ أى للشيء الذى تصفه ألسنتكم بالحل والحرمة من غير سند ﴿ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ لما لم يحله ولم يحرمه و«الكذب» مفعول «تقولوا» وهذا حلال بدل منه أو «ما» مصدرية واللام للتعليل أى لا تقولوا لأجل وصف ألسنتكم الكذب وفيه مبالغة فى وصف كلامهم بالكذب حتى كأن حقيقة الكذب مجهولة وألسنتهم تصفها وتعرفها وكل هذا تأكيد للنهى عن التحريم والتحليل بالأهواء ﴿ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ بنسبة ذلك إليه ، تعليل خال عن الغرض ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ وإن حصل لهم ما حصل لهم فعاقبته وخيمة ثم بين نفى الفلاح بقوله ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ ما يفترون لأجله أو ما هم فيه قليل ينقطع عن قريب ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فى الآخرة فانتفى الفلاح ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا ﴾ أى اليهود ﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ فى قوله فى سورة الأنعام «وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر» إلى آخرها ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ متعلق بقصصنا أو بحرمنا ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بالتحريم ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بارتكاب المعاصى الموجبة لذلك وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم فى التحريم وأنه كما يكون للمضرة يكون للعقوبة ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ ﴾ الشرك وغيره ﴿ بِجَهَالَةٍ ﴾ غير متدبرين العاقبة لغلبة الشهوة ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ عملهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أى الجهالة أو التوبة ﴿ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يغفر ما سبق ويثيب على التوبة ثم عقب تزييف مذاهب المشركين من الشرك والتحليل والتحريم بخصال إبراهيم لأنه جادل المشركين وأبطل مذاهبهم بقوله ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ إماما قدوة جامعا لخصال الخير ﴿ قَانِتًا ﴾ مطيعا ﴿ لِلَّهِ ﴾ قائما بأوامره ﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلا عن الباطل إلى الدين القيم ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ

﴿ الْمُشْرِكِينَ ﴾ صرح به من وإن علم «حنيفاً» تكذيباً لقريش الزاعمين أنهم على ملته ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ﴾ آثر جمع القلة إيماء إلى أنه لم يخل بالشكر ، لو قلت فكيف وهى من الكثرة بحيث لا تحصى ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ اصطفاه بالنبوة ﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين الإسلام والدعوة إلى الله ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ هى الثناء الحسن فى كل أهل الأديان وأولاد طيبة وعمر طويل فى السعة والطاعة وامرأة حسنة وهى سارة كانت أجمل النساء وأتقاها ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الذين لهم الدرجات العلى ، ولما وصف خليله بهذه الصفات العلية أمر حبيبه باتباعه فيها فقال ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ دينه ، وذلك أيضاً من أجل ما أوتيه إبراهيم ، ولا يخفى ما فيه من تنويه بشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ حَنِيفًا ﴾ أى اتبعه فى التوحيد والدعوة إليه بالرفق وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى والمجادلة مع كل واحد بحسب فهمه ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ بل كان قدوة الموحدين ، كرر رداً على زعم اليهود والنصارى أنهم على دينه ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ ﴾ فرض تعظيمه والتخلى فيه للعبادة ﴿ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ على نبيهم وهم اليهود ، أمرهم موسى أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة فأبى أكثرهم وقالوا نريد يوم السبت لأن الله فرغ فيه من الخلق فألزمهم الله السبت وشدد الأمر عليهم ، ثم أخل بالتعظيم بعضهم فاصطاد فيه فسخوا على ما تقدم ، وقيل معناه إنما جعل وبال السبت الذى هو المسخ على الذين اختلفوا فيه فأحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى وذكرهم هنا لتهديد المشركين كذكر القرية التى كفرت بأنعم الله لاشتراكهما فى انقلاب النعمة نقمة بالكفر والعصيان ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمره بأن يثيب الطائع ويعذب العاصى بانتهاك حرمته ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ دينه ﴿ بِالْحِكْمَةِ ﴾ القرآن أو الدليل الموضح للحق ﴿ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ الخطابات المتقنة والعبر النافعة بالرفق ، والأولى لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق ، والثانية لدعوة عوامهم ، وهو متصل باتباع ملة إبراهيم وموضح كيفية الاتباع ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي ﴾ أى بالمجادلة التى ﴿ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ كالدعاء إلى الله بآياته بالحجج الواضحة برفق ولين وإيثار الوجه الأيسر ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ عالم ﴿ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ فيجازيهم إنما عليك البلاغ والدعوة . ولما أمره بالدعوة وبين طرقها أمره هو وجميع من اتبعه بالعدل مع الأعادى فقال ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ أى جازيتم الكفار على مافعلوا بكم من المثلة ، لأنها نزلت لما قتل حمزة ومثل به وقال عليه السلام : لأمثلن بسبعين منهم مكانك ﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ فإن أحكام الدنيا على القصاص والمماثلة فإذا جازيتهم بمثل فعلهم فقد أخذت بثأرك ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ ﴾ عن الانتقام ﴿ لَهُوَ ﴾ أى الصبر ﴿ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ فقال عليه السلام « بل أصبر » وكفر عن يمينه ونهى عن المثلة فهى محرمة إجماعا فى سائر الحيوانات بأسرها فى الأقطار كلها ، قاله فى غاية الأمانى . قال البيضاوى : وفيه دليل على أن للمقتص أن يماثل الجانى وليس له أن يجاوزه وحث على العفو تعريضاً . اهـ . وفى لباب

التأويل : المعنى : إن صنع بكم سوء من قتل أو مثلة ونحوه فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه . اهـ . قال مجاهد : نزلت فيمن ظلم ظلامة فلا يحل له أن يتناول من ظالمه أكثر مما نال منه الظالم ﴿ وَاصْبِرْ ﴾ فى المواطن كلها وليس تصريحا بما علم ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ بإرشاده وتوفيقه ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ على الكافرين فإن الله وعدك بالنصر والعاقبة أو لاتحزن عليهم إن لم يؤمنوا لحرصك على إيمانهم أو لاتحزن على المؤمنين بما حل بهم يوم أحد ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ بفتح الضاد للجمهور وكسرها لابن كثير لغتان أو المفتوح مخفف ضيق ﴿ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ من مكرهم أى لا تهتم به فأنا ناصرك عليهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الكفر والمعاصى بالنصر علة للنهى عن الحزن وضيق الصدر ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ بالطاعة مخلصون فى تقواهم أو محسنون بالترحم على خلق الله وفيه إشارة إلى أن من صبر وتجاوز محسن متفضل وفيه ربط آخر السورة بأولها لأن قوله « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » فى المعنى أمر بالصبر لمجىء الفرج والله أعلم .

[تم تفسير سورة النحل]

سورة الإسراء

مكية إلا « ولن كادوا ليفتنونك » الآيات الثمان
مائة وعشر آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ سُبْحَانَ ﴾ تنزيه ﴿ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم أجمعت الأمة أنه المراد به ﴿ لَيْلًا ﴾ نصب على الظرف ، والإسراء سير الليل وفائدة ذكره الإشارة بتنكيره إلى تقليل المدة و «سبحان» علم للتسبيح أى التنزيه البليغ من السبح وهو الإبعاد والإتيان به علماً دالاً على الحقيقة الحاضرة فى الذهن للدلالة على أن ما يرد بعده من الأمور البديعة ، فالله منزه عن العجز عن إيجادها ونصبه بفعل واجب الترك وما فى تعظيم الزمان من تنكير ليلا أىْ أىّ ليل له شأن دنا فيه الحبيب من محبوبه وما فى الباء من معنى الاتصال وإضافة العبد إلى ضمير الله الدال على أنه العبد الحقيق إشارة إلى استحقاقه تلك الرتبة السنية التى لم ينلها أحد من المرسلين : ولذا قال له « إن فضله كان عليك كبيراً » ﴿ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ مكة ليلة السابع والعشرين من ربيع الأول بعد بعثته بعام أو ونصف أو بخمس سنين أو قبل الهجرة بسنة ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ بيت المقدس لبعده منه ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ ببركات

الدين والدنيا لأنه مهبط الوحي ومتعبد الأنبياء ومحفوف بالأنهار والأشجار وغالب أنواع الثمار ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ عجائب قدرتنا كذهابه فى جزء من الليل مسيرة شهر ومشاهدته بيت المقدس وتمثيل الأنبياء له ووقوفه على مقاماتهم ، والتفات الكلام من الغيبة إلى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات كتعظيم المكانين بالحرام والبركة لما حوله والتعظيم بالإضافة والجمع فى الآيات . وقرئ ليريه بالياء ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوال محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ العالم بأفعاله ، فأنعم عليه بالإسراء المشتمل على اجتماعه بالأنبياء وعروجه إلى السماء ورؤية عجائب الملكوت ومناجاته له تعالى فإنه صلى الله عليه وسلم قال « أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة التى يربط بها الأنبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنا جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن قال جبريل أصبت الفطرة قال ثم عرج بى إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل قد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى فرحبا بى ودعوا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل قيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد فقيل وقد أرسل إليه قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل قيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد أرسل إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم فإذا هو مستند إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى فإذا أوراقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع يصفها من حسنها قال فأوحى إلىّ ما أوحى وفرض علىّ فى كل يوم وليلة خمسين صلاة فرجعت حتى انتهيت إلى موسى فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة فى كل يوم وليلة قال ارجع إلى ربك فسله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم قال فرجعت إلى ربى فقلت أى رب خفف عن أمتى فحط عنى خمسا فرجعت إلى موسى فقال ما فعلت قلت حط عنى خمسا قال إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع

إلى ربك فسله التخفيف لأمتك قال فلم أزل أرجع بين ربى وموسى ويحط عنى خمسا خمسا حتى قال يا محمد هى خمس صلوات فى كل يوم وليلة لكل صلاة عشرة فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة وإن عملها كتبت عشرا ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب فإن عملها كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك فقلت قد رجعت إلى ربى حتى استحييت» رواه الشيخان واللفظ لمسلم . وروى الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رأيت ربى عز وجل» قال فى غاية الأمانى قد اشتهر وكاد أن يتواتر أنه عرج به واختلف فى كيفية ذلك فذهب جمع إلى أنه كان مناماً ورؤيا نوم والذى عليه المحققون أنه أسرى بجسده ولذا وقع الارتياب فى ذلك . اه . ولما كان معراج موسى إلى الطور ومعراجه عليه السلام إلى سدرة المنتهى أتبعه بذكر موسى ووصف كتابه تمهيدا لذكر القرآن فقال ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ لَا تَتَّخِذُوا ﴾ أى على أن لا تتخذوا ﴿ مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴾ تفوضون إليه أمركم وقرأ أبو عمرو يتخذوا بالياء ﴿ ذُرِّيَّةَ ﴾ نصب على الاختصاص أو النداء ﴿ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ فى السفينة وفيه تذكيرهم بما أنعم على آبائهم ليشكروا ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ كثير الشكر لنا حامدا فى جميع أحواله تعليل للنهى كأنه قيل أنتم أولاد ذلك العبد الشكور فاقتدوا به ﴿ وَقَضَيْنَا ﴾ بمعنى أوحينا ولذا عدى بإلى ﴿ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ التوراة وقيل فى اللوح قال ابن عطية المعنى عندى أنه مما قضاه فى أم الكتاب على بنى إسرائيل وأخبرهم به فى التوراة على لسان موسى فلما أراد هنا إعلامنا بالأمرين جميعاً فى إيجاز جعل قضينا دالة على النفوذ فى أم الكتاب وقرن بها إلى دالة على إنزال الخبر بذلك إلى بنى إسرائيل فى التوراة ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ جواب قسم محذوف أو لقضينا على إجرائه مجرى القسم ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أرض الشام أو بيت المقدس بالمعاصى ﴿ مَرَّتَيْنِ ﴾ إفسادتين أولاهما مخالفة أحكام التوراة وقتل شعياء وثانيتهما قتل زكرياء ويحيى وقصده فى عيسى عليهم السلام ﴿ وَلَتَعْلُنَّ ﴾ لتستكبرن عن طاعة الله أو لتظلمن الناس ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ مفرطا وذلك سبب للدمار كما قيل الملك يدوم مع الكفر ولا يدوم مع الظلم ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ أولى مرتى الفساد أى وعد عقابها عبر عنه بالوعد دلالة على لزوم وقوعه ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أصحاب قوة وبطش فى الحرب وهم بختنصر وجنوده عامل لهراسف الفارسى ببابل وقيل هم جالوت الجزرى وجنوده ملك الجزيرة وفيهم وفى كيفية الواقعة اختلاف شديد ﴿ فَجَاسُوا ﴾ ترددوا لطلبكم ﴿ خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ وسطها للقتل والغارة كناية عن التمكن التام الدال على أنواع العذاب ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ أى لا بد أن يفعل وقد أفسدوا الأولى بما تقدم فبعث الله عليهم بختنصر وجنوده أو جالوت وجنوده فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم وحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس روى أنهم قتلوا ألوفاً من علمائهم وسبوا منهم سبعين ألفاً وكان أرمياء

قد وعظهم وأخبرهم ذلك فلم يرفعوا له رأساً بل حبسوه ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ ﴾ الدولة والغلبة ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ بعد مائة سنة بأن ألقى الله فى قلب بهمن بن إسفنديار بن كستاسف بن لهراسف شفقة عليهم لما ورث الملك من جده فرد أسرى بنى إسرائيل إلى الشام وملك دانيال عليهم فاستولوا على من كان فى الشام من أتباع بختنصر فعادت الدولة إليهم فيها أو بأن سلط داود على جالوت فقتله ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ عشيرة مما كنتم والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وهو مفرد وقيل جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب إلى العدو وقلنا لكم ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ لأن ثوابه لها ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ ﴾ بالفساد ﴿ فَلَهَا ﴾ أساءتم لا يتجاوزها ذكرها باللام ازدواجاً ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ﴾ المرة ﴿ الْآخِرَةِ ﴾ عقوبتها آثر الآخرة على الأخرى فى مقابلة أولاهما إشارة إلى ألا عقوبة بعدها إن استقاموا والعطف بالفاء للدلالة على أن مجىء وعد الآخرة لم يتراخ عن كثرتهم وأنهم بطروا سريعاً ونسوا ما كان حل بهم ففاجأهم عذاب الله ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ يحزنوكم بالقتل والسبى حزناً يظهر فى وجوهكم واللام متعلقة بمثناهم حذف لدلالة الأول عليه. وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر بالياء وفتح الهمزة على التوحيد والضمير فيه للوعد أو البعث أو الله ويعضده قراءة الكسائى بالنون ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ بيت المقدس فيخربوه ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ ﴾ وخربوه ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ يهلكوا ﴿ مَا عَلَوْا ﴾ غلبوا عليه ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ إهلاكا وقد أفسدوا الثانية بقتل يحيى وقصدهم قتل عيسى فبعث عليهم بختنصر أو خردوس ملك بابل من ملوك الطوائف فقتل منهم ألوفاً وسبى ذرياتهم وخرب بيت المقدس ودخل مذبح قرابينهم فوجد دما يغلى فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل فقال ما صدقتمونى فقتل عليه ألوفا منهم ثم قال إن لم تصدقونى لم أترك منكم أحداً فقالوا دم يحيى فقال يا يحيى قد علم ربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ بإذن الله فسكن الدم لأنهم لما قتلوا يحيى جعلوا على دمه ترابا فغلاه فاجتمعوا يجعلون عليه التراب وهو يعلوه حتى علا على السور. فتركوه يغلى والله أعلم وقلنا فى الكتاب ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ﴾ بعد المرة الثانية إن تبتم ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ ﴾ إلى الفساد ﴿ عُدْنَا ﴾ إلى العقوبة وقد عادوا بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وقصد قتله فعاد الله تعالى بتسليطه عليهم فقتل قريظة بعد نفى النضير وضرب الجزية عليهم إلى يوم نزول عيسى فيقتلهم هذا لهم فى الدنيا ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ محبساً وسجناً لا يقدرون على الخروج منها أبداً وقيل بساطاً كما يبسط الحصير وعلى الأول هو فعيل بمعنى فاعل أى حاصرا أو مفعول ولذا لم يؤنث ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي ﴾ أى للطريقة التى ﴿ هِيَ أَقْوَمُ ﴾ أعدل وأصوب ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وَ ﴾ يخبرهم ﴿ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وهو النار ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ ﴾ على نفسه وأهله إذا ضجر وغضب أو يدعو الله بما يحسبه خيراً وهو شر ﴿ دُعَاءَهُ ﴾ كدعائه له ﴿ بِالْخَيْرِ ﴾ وهو ليس فى شىء من الطريقة التى هى أقوم ولذا أتبعه ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾

فى أموره ولذا يدعو بالشر دعاءه بالخير اعدم النظر فى العاقبة ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ دالّتين على قدرتنا وهذا بيان لما يهدى إليه القرآن من دلائل التوحيد والقدرة والمراد نيّرا الليل والنهار وهما القمر والشمس ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ القمر بنقص نوره أو الليل والنهار آيتان بدلالتهما بتعاقبهما على الدوام على مدبرهما وبكون المصالح الدنيوية لا تتم إلا بهما والإضافة للبيان كإضافة العدد إلى المعدود ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ مبصرا فيها بالضوء ﴿ لِتَبْتَغُوا ﴾ فيه ﴿ فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ بالكسب ﴿ وَلِتَعْلَمُوا ﴾ بهما ﴿ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ للأوقات ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴾ تحتاجون إليه فى أمر الدين والدنيا ﴿ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ بيناه تبييناً شافياً ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ ﴾ عمله وما قدر له كأنه طار إليه من عش الغيب ووكر القدر، لما كانوا يتيمنون ويتشاءمون بسنوح الطائر وبروحه استعير لما هو سبب الخير والشر من قدر الله تعالى وعمل العبد ﴿ فِي عُنُقِهِ ﴾ جعلناه لازماً له لزوم القلادة والغل وخص العنق لأنه محل الزين بالقلائد والأطواق ومناط الشين بالأغلال ولأن اللزوم فيه أشد. وقال مجاهد ما من مولود يولد إلا وفى عنقه ورقة مكتوب فيها شقى أو سعيد. وفى الجواهر لما كانت العرب تعتقد أن الطيرة قاضية بما يلقى الإنسان من خير وشر أخبرهم تعالى أنه سبق به القضاء وألزم كل إنسان عمله وحظه فى عنقه ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا ﴾ مكتوباً فيه عمله وهو مفعول أو حال من مفعول محذوف وهو ضمير الطائر فى « نخرج ﴿ يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ صفتان لكتاب أو « يلقاه » صفته و « منشورا » حال من مفعوله، وقرأ ابن عامر يلقّاه بالتشديد وبناء المفعول، والمعنى أن الإنسان إذا مات طويت صحيفة عمله وجعلت فى عنقه معه فى قبره فإذا بعث نشر له ويقال له ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ ﴾ فيقرأه ولو لم يكن قارئاً قبل ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ ﴾ أى كفى نفسك والباء مزيدة ﴿ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ محاسباً تمييز وعلى صلته من حسب عليه كذا، وذكر على تأويل النفس بالشخص ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ لأن ثواب اهتدائه لها ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أى لا ينفع اهتداؤه غيره ولا يردى ضلاله سواه ﴿ وَلَا تَزِرُ ﴾ لا تحمل نفس ﴿ وَازِرَةٌ ﴾ آثمة ﴿ وِزْرَ ﴾ نفس ﴿ أُخْرَى ﴾ وأما قوله « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » فالمراد أثقال ضلالهم وإضلالهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ﴾ أحداً ﴿ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ يبين له ما يجب عليه، وفيه دليل على أن ما وجب إنما وجب بالسمع لا بالعقل ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ منعميها يعنى رؤساءها، بالإيمان والطاعة على لسان رسلنا فخالفوا ذلك الأمر ﴿ فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ خرجوا عن الأمر وقد ردّ بعض المفسرين تقدير الإيمان والطاعة فى أمرنا، وقالوا إنه حذف ما لا دليل عليه وهو غير جائز بل التقدير أمرنا مترفيها بالفسق ففسقوا بمعنى مكناهم منه بالوصول إلى الشهوات فكأنهم أمروا به وقولهم مردود بما قال أبو حيان فى البحر: دلالة النقيض على النقيض كدلالة النظير على النظير فكما تقول: أمرته فقام أمرته فقرأ، كذلك تقول أمرته فلم يحسن، وليس المعنى أمرته بعدم الإحسان فلم يحسن بل أمرته بالإحسان فلم يحسن

وهذه الآية من هذا القبيل . اهـ . ومنهم من فسر أمرنا بأكثرنا ، يقال أمرهم الله إذا أكثرهم ، ومنه الحديث «خير المال مهرة مأمورة» أى كثيرة النسل والنتاج ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾ بالعذاب ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريبها ﴿ وَكَمْ ﴾ أى كثيراً وهو مفعول ﴿ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ ﴾ بيان وتمييز لكم ، من القرون الأمم ﴿ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ كعاد وثمود ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ عالماً ببواطنها وظواهرها فيعاقب عليها وتقديم الخبير لتقدم متعلقه ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ﴾ بعمله ﴿ الْعَاجِلَةَ ﴾ أى الدنيا مقصوراً عليها همه ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ التعجيل له بدل من له بإعادة الجار ، وقيد المعجل والمعجل له بالمشيئة والإرادة لأنه لا يجد كل متمن ما يتمناه ولا كل واحد جميع ما يهواه وليعلم أن الأمر بالمشيئة ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ ﴾ فى الآخرة ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا ﴾ يدخلها ﴿ مَذْمُومًا ﴾ ملوماً ﴿ مَدْحُورًا ﴾ مطروداً عن رحمة الله ، من دحرته إذا دفعته بالإهانة ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ عمل لها العمل اللائق بها وهو الإتيان بما أمر والانتهاء عما نهى لا التقرب بما يخترعون بآرائهم ، وفائدة اللام اعتبار الإخلاص والنية ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ حال إيماناً صحيحاً ، إذ لا ينفع العمل إلا مع إيمان راسخ وعلم مصيب ونية خالصة ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ عند الله أى مقبولا مثاباً عليه ﴿ كُلًّا ﴾ من الفريقين العاصى والطائع والتنوين عوض عن المضاف إليه أى كل أحد ﴿ نُمِدُّ ﴾ بالعطاء مرة بعد أخرى ﴿ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ﴾ بدل من كلا ﴿ مِنْ ﴾ متعلق بنمد ﴿ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ فى الدنيا ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ ﴾ فيها ﴿ مَحْظُورًا ﴾ ممنوعا عن أحد مؤمن أو كافر تفضلا ثم يختلف الحال فى الآخرة ، من الحظار وهو الحجاب ﴿ انْظُرْ ﴾ يا مخاطباً بالبصيرة ﴿ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ فى الرزق والجاه ، وانتصاب كيف بفضلنا على الحال ، قاله البيضاوى ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ ﴾ أعظم ﴿ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ من الدنيا فينبغى الاعتناء بها دونها لأن التفاوت فى الآخرة بالجنة ودرجاتها والنار ودركاتها . روى أن أشراف قريش اجتمعوا يوماً بباب عمر بن الخطاب ومعهم بلال وصهيب ، فخرج الإذن لبلال وصهيب ولم يؤذن لهم ، فشق ذلك عليهم ، فقال سهيل بن عمرو منهم : يا قوم إنما أتينا من قبل أنفسنا ، دعى هؤلاء إلى الإسلام ودعينا فأسرعوا وأبطأنا وإذا كان هذا حالنا فى باب عمر فكيف حالنا فى الآخرة فإن حسدتموهم على باب عمر فأنتم إلى ما أعد الله لهم من المراتب بالحسد أولى ﴿ لَا تَجْعَلْ ﴾ الخطاب لكل أحد ﴿ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ أى لا تعتقد له شريكا فى الألوهية وخواصها لما تقدم أن من سعى سعياً للآخرة وهو مؤمن كان مشكورا ، بيّن حقيقة الإيمان وفصل طرائق السعى بما يذكر فى الآيات ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا ﴾ يذمك ربك على ذلك ﴿ مَخْذُولًا ﴾ لا ناصر لك من الشركاء أى جامعا على نفسك الذم من الله والملائكة والمؤمنين والخذلان من الله والمفهوم أن المؤمن يكون ممدوحاً منصوراً والمنصوبان خبراء تقعد ، لكونه بمعنى صار وآثر لفظ القعود إشارة إلى سقوط الرتبة وأن لا يليق له الرياسة بل الخمول والقهر خجلا ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ ﴾

أمر أو حكم حكما مبتوتا لا يقبل المحو والتبديل ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ والعبادة فعل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا لمن له نهاية الإنعام وأن مصدرية بتقدير الباء والكلام نفي ، أو مفسرة ولا ناهية ﴿ وَ ﴾ بأن تحسنوا أو وأحسنوا ﴿ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ بأن تبروهما لأنهما السبب الظاهر للوجود والتعيش ولا تتعلق الباء بإحساناً لأن صلته لا تتقدم عليه قاله البيضاوي ورده في غاية الأماني فقال والأولى جعله متعلقاً بإحساناً ، وعدم جواز عمل المصدر في الصلة المتقدمة ممنوع ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا ﴾ فاعل ﴿ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ وقرأ حمزة والكسائي يبلغان مسنداً إلى ضمير الوالدين فأحدهما بدل البعض وكلاهما بدل الكل لا توكيد لأن أحدهما صارف عنه إذ لو أريد تأكيد التثنية لقيل كلاهما فقط ومعنى عندك أن يكونا في كنفك وكفالتك ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ بكسر الفاء منونا لالتقاء الساكنين والتنكير لنافع وحفص ، ومخففا لأبي عمرو وحمزة والكسائي وأبي بكر على أصل التقاء الساكنين ، وبفتحها مخففاً لابن كثير وابن عامر أي لا تتضجر ولا تستثقل من مؤنتهما ما تستثقل من غيرهما ولا تستقذر منهما ما تستقذر من غيرهما اسم صوت أصله إذا سقط على المرء رماد أو نحوه ينفخ فيه ليزيله بقوله أف ثم توسعوا بذكره عند كل مكروه أو اسم فعل وهو أتضجر أي بمعنى معنى ذلك الفعل وفي التكملة مصدر بمعنى نتنا وقبحا ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ تزجرهما إذا فعلا ما لا يعجبك ﴿ وَقُلْ لَهُمَا ﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿ قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ جميلا ولا تنادهما بأسمائهما مواجهة ولا تقل لهما إلا قول العبد الذليل المذنب للسيد الفظ الغليظ ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾ أي ألن لهما جانبك الذليل استعارة بالكناية استعير للذل جانب جعلا لما ليس بمرئي مرئيا ثم للجانب جناح لأنه أبلغ في بيان لصق الجنب بالأرض المعنى تواضع لهما غاية التواضع شبه هيئة الإنسان عند تذلله لوالديه بهيئة الطائر إذا خفض جناحه عند رؤية طائر يخافه أو خفضه على أفراخه شفقة عليها فذكر الخفض ترشيح ﴿ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ لأجل رحمتك إياهما حيث افتقرا إلى من كان أفقر إليهما بالأمس ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا ﴾ أي ادع ربك أن يرحمهما رحمته الباقية ولا تقتصر على رحمتك الفانية وارحمهما وإن كانا كافرين بقضاء حوائجهما وطاعتهما في غير المعصية ﴿ كَمَا ﴾ رحماني حين ﴿ رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ حين كنت أحوج خلق الله إليهما وفي الحديث أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أبواي بلغا من الكبر حتى إني ألي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيت حقهما ؟ قال لا فإنهما كانا يفعلان معك وهما يريدان بقاءك وأنت تفعل وتريد موتهما . وفي الصحيحين : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه في الجهاد ، قال أحيٌّ والداك ؟ قال نعم قال ففيهما فجاهد . وفيهما أيضاً جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من أحق الناس بحسن صحابتي قال أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك أدناك وفي مسلم لن يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه وفي الصحيحين أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال سألت رسول الله أي العمل أحب إلى الله ؟ قال الصلاة على وقتها قلت ثم أي

قال بر الوالدين قلت ثم أى قال الجهاد فى سبيل ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ منكم من إضمار البر والعقوق وعدٌ لمن أضمر البر ووعيد لمن خالف وحث على الإخلاص بأن يكون ما تفعله لهما خالصا لوجهه تعالى لا خوفاً من ملامة الناس ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أى إن دمتم الصلاح فوقعت إساءة لا ينفك البشر عنها فى حقهما ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ الرجّاعين إلى طاعته ﴿غَفُورًا﴾ لما صدر منهم فى حق الوالدين من بادرة وهم لا يضمرون عقوقا وضع الظاهر موضع المضمر ليعم كل جان تائب لأن الأواب هو التائب فكأنه يأتى التوبة من كل الجهات إذ الأوب هو الجانب ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى﴾ القرابة مطلقاً ﴿حَقَّهُ﴾ المال وغيره من البر والصلة والزيارة وحسن المعاشرة وهذا تعميم بعد التخصيص وقيل المراد بذى القربى قرابة الرسول عليه السلام والجهور على أن الآية وصية للناس كلهم بصلة قرابتهم وسد خلاتهم والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ بالإنفاق فى الباطل أو على وجه السرف فى مباح كالعمارة ولا سرف فى طاعة الله ولو أنفق الإنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا ولو أنفق درهما فى الباطل كان مبذرا، قاله فى اللباب ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أى على طريقتهم يطيعونهم فى الإسراف والصرف فى المعاصى أو أمثالهم فى الشر وفيه غاية الذم شبه قران الصحابة بقران القرابة كانوا فى الجاهلية يصرفون الأموال فى غير طاعة الله كالميسر رياء وفخرا فأمرهم بالإنفاق فى طاعته وبين لهم المصارف ونهاهم عما كانوا عليه ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ شديد الكفر لنعمه فكذلك أخوه المبذر وهو علة للنهى عن التبذير ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ المذكورين من ذى القربى وما بعده حياء منهم ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أى لفقد ما ترحمهم به من رزق ربك حال كونك راجيا أن تفتح عليك أو لطلب رزق تنتظره يأتيك فتعطيهم فعلى الأول وضع الابتغاء موضع الفقد إقامة المسبب مقام السبب وفيه لطيفة بإشارة أن ذلك الإعراض لهم مآلا وإن كان عنهم حالا ويجوز كون الإعراض كناية عن عدم النفع والابتغاء مجازاً عن عدم الاستطاعة والمعنى إن لم تقدر على نفعهم لعدم الاستطاعة ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ ذا يسر ولين مثل يفتح الله رزقك الله أو بأن تعدهم بالإعطاء عند مجئ الرزق وفى الحديث «الكلمة الطيبة صدقة» ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ أى لا تمسكها عن الإنفاق كل المسك ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ فى الإنفاق ﴿كُلَّ الْبَسْطِ﴾ نهى عن الإفراط والتفريط وهما الشح والإسراف ليلزم منه الاقتصاد المحمود وهو الجود فالغل والبسط كنايتان عنهما روى أنه عليه السلام كان عليه ثوب لم يكن له غيره فاستكسته امرأة فكساها إياه فقعد وحده فى البيت عريان فأذن بلال فلم يقدر على الخروج وانتظره الناس فنزلت وهذا لاينافى ما تقدم من أنه لاسرف فى الخير لأن ذلك حث لا يترتب عليه مفسدة ولا شك أن قعوده فى البيت لعدم المقدرة على الخروج فيه فوات مصالح له ولغيره لا تحصى ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ عند الله وعند الناس راجعٌ للأول ﴿مَحْسُورًا﴾

منقطعاً لاشيء عندك راجع للثاني أو منقطعاً عن الناس من حسره السفر ثم إن الله تعالى سلى نبيه بعد أن عتبه بالسخاء بقوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ يضيقه لمن يشاء فالكل بمشيئته تابعاً لحكمته فما ينالك من الضيق حتى لا تلجأ إلى كل البسط ليس لهوان عليك بل لمصلحتك وفيه إيماء له إلى أن الله تعالى مع سعة رزقه يبسط ويقدر فاستنوا به أنتم أيضاً ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ عالماً ببواطنهم وظواهرهم فرزقهم على حسب مصالحهم وهو يعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ، والآية تمهيد لقوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ بالوأد ﴿ خَشْيَةَ ﴾ مخافة ﴿ إِمْلَاقٍ ﴾ إذ قد ضمن لكم الرزق بقوله ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ فلا وجه للقتل ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا ﴾ إثماً ﴿ كَبِيرًا ﴾ عظيماً والخطأ كالإثم لفظاً ومعنى قراءة الجمهور مصدر خطئ الصواب ولابن كثير بالمد كقيام ولابن ذكوان بالقصر كفرح ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ﴾ أبلغ من لا تفعلوه بادعوا أنفاس الرجال وأنفاس النساء أى لا تقربوه بالعزم والإتيان بالمقدمات فضلا أن تباشروه ﴿ إِنَّهُ كَانَ ﴾ فعله ﴿ فَاحِشَةً ﴾ ظاهرة القبح زائدته لاشتماله على أنواع من المعاصى ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ طريقاً هو وهو الغصب على الأبضاع المؤدى إلى قطع الأنساب وتهييج الفتن وخراب البلاد ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ قتلها بإيمان أو أمان ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الذى بينه عليه السلام بقوله « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بأحد ثلاثة : كفر بعد إيمان وزنا بعد إحصان وقتل مؤمن معصوم » يعنى اختياراً فلا يشكل بقتل الصائل دفعاً ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ ﴾ لوارثه ﴿ سُلْطَانًا ﴾ تسلطا على القاتل بالقصاص ﴿ فَلَا يُسْرِفْ ﴾ بالياء ولحمزة والكسائى بالتاء لا يتجاوز ما أذن له ﴿ فِي الْقَتْلِ ﴾ بأن يقتل غير قاتله أو بالمثلة أو بقتل جماعة بواحد أو بعد أخذ الدية أو العفو ولو من بعض ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ علة للنهى والضمير لولى المقتول بإيجاب القصاص له وأمر الولاة بمعونته أو للمقتول نصر فى الدنيا بثبوت القصاص بقتله وفى الآخرة بالثواب ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ فضلا عن أكله ﴿ إِلَّا بِالَّتِي ﴾ أى بالطريقة التى ﴿ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ من حسن النظار فيه بأن يحفظه ويثمره ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ فيلى ماله ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ إذا عاهدتم الله أو الناس ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ عنه مطلوباً من المعاهد الوفاء به كسائر الحقوق أو الناكث يسأل عن حال العهد ويعاقب عليه ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ ﴾ أتموه ﴿ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ للناس ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾ بضم القاف للجمهور وكسرها لحمزة والكسائى وحفص الميزان ﴿الْمُسْتَقِيمِ ﴾ السوى وكان أبو الفضل الجوهرى الواعظ يقول : إن فى هيئة اليد بالميزان عظة يعنى لأن الأصابع تجىء منها حينئذ صورة ألف ولامين وهاء فكأن الميزان يقول لله الله قال ابن عطية وهذا وعظ جميل ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ مآلا من آل الأمر إلى كذا رجع ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ لا تتبع ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ قولا كان أو فعلا لا ترم أحدا بما ليس لك به علم ولا تقل رأيت ولم تر ولا سمعت ولم تسمع ولا علمت ولم تعلم ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾ القلب ﴿كُلُّ أُولَٰئِكَ ﴾ الأعضاء ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ ماذا

فعل به أى كل هذه الأعضاء و (أولاء) يشار به إلى العقلاء وغيرهم على السواء قال جرير ، والعيش بعد أولئك الأيام ، وفى كان وعنه ومسئولا ضمير عائد إلى كل وعنه نائب فاعل لمسئولا منع تقديم الفاعل ونائبه لخوف اللبس بالمبتدإ ولا لبس هنا ، قاله فى غاية الأمانى . وفى الترمذى عن شكل بن حميد قلت يا نبى الله علمنى تعويذا أتعوذ به قال فأخذ بيدى ثم قال « قل اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر لسانى وشر قلبى وشر منيى» قال الخنطها . وقال صاحب الكلم الفارقية : لاتدع جدول سمعك يجرى فيه أجاج الباطل فيذهب باطنك بنار الحرص على العاجل تجرى المسموعات إلى وعاء القلب فإن كانت شريفة شرفته أو خبيثة خبثته وكذلك البصر منفذ من منافذ القلب فالحواس الخمس كالجداول تؤدى ما فيها إلى القلب . اه .

﴿ وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ ذا مرح بالكبر والخيلاء والمرح الفرح الشديد أو الاختيال ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ ﴾ لا تثقبها حتى تبلغ آخرها بكبرك وشدة وطئك ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ بتطاولك تعليل للنهى وتهكم بالمختال ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الخصال الخمس والعشرين من قوله ولا تجعل مع الله إلها آخر وعن ابن عباس أنها المكتوبة فى ألواح موسى ﴿ كَانَ ﴾ المنهى عنه ﴿ سَيِّئَةً ﴾ بفتح الهمزة وبالتاء منونة لنافع وأبى عمرو منصوبا خبر كان وبضم الهمزة وبالهاء والتذكير للكوفيين وابن عامر ولفظ كل للشمول والسيئ فى المنهى فعله وفى المأمور تركه وسيئه اسم كان والخبر ﴿ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ وعلى الأول خبر آخر أو بدل أو حال من المستكن فى كان ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المتقدم من الأحكام ﴿ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ المواعظ التى هى معرفة الحق لذاته والخير للعمل به من الحكمة بدل من ما أوحى أو حال من العائد المحذوف ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ كرره للتنبيه على عظم شأن التوحيد وأنه المبدأ والمنتهى ورتب عليه أولا ما يترتب على تركه من الذم والخذلان وثانياً ما يثمره فى الآخرة بقوله ﴿ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ ﴾ كما يلقى الحطب ﴿ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ يلومك كل أحد مبعدا من رحمة الله ولما نهى عن الشرك أردفه بما هو قريبه وهو نسبة الولد إليه تعالى عن ذلك بقوله ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ ﴾ أخلصكم بأفضل الأولاد ﴿ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ﴾ بنات لنفسه هذا خلاف ما عليه العقول والهمزة للإنكار ولذا قال ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ بإضافة الأولاد إليه وهى خاصة بعض الأجسام ثم بتفضيل أنفسكم عليه حيث تجعلون له ما تكرهون ثم بجعل الملائكة الذين هم من أشرف الخلق أدونهم ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ بينا ﴿ فِى هَٰذَا الْقُرْآنِ ﴾ أى كررنا القول بعبارات مختلفة على إبطال الولد فى هذه الآيات المشتملة على إبطاله فالإشارة إلى البعض أو إلى الكل صرفنا القول فى مواضع فى هذا القرآن ﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ يتعظوا فإن للتكرار تأثيراً بليغاً وقرأ حمزة والكسائى ليذكروا من الذكر ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ التكرار ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴾ عن الحق وعدم

طمأنينته إليه ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لَوْ كَانَ مَعَهُ ﴾ أى الله ﴿ آلِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا ﴾ طلبوا ﴿ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ ﴾ أى إلى مغالبة الله الملك ﴿ سَبِيلًا ﴾ طريقاً إلى مالك الملك ولذا عبر بذى العرش كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ، وقرأ ابن كثير وحفص «كما يقولون» بياء الغيبة ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهاً له ﴿ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ من الشركاء ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ تعالياً متباعداً غاية البعد عما يقولون فإنه فى أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود والبقاء لذاته واتخاذ الولد من أدنى مراتب الوجود فإنه من خواص ما يمتنع بقاؤه ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ بالياء ولأبى عمرو وحمزة والكسائى وحفص بتاء التأنيث ﴿ لَهُ ﴾ ينزهه ﴿ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ أى تدل على وجوده بحدوثها وإمكانها وعلى وحدانيته بأوصافها ونظامها شبه الدلالة بالنطق وعبر عنه بالتسبيح استعارة بالكناية والإسناد إلى من لا يصح النطق منه قرينة وتخييل ومن جواز استعمال المشترك فى معنييه حمل التسبيح فى المعطوف على الحقيقة لأن «من» أريد به الملائكة والثقلان ﴿ وَإِنْ ﴾ ما ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من الخلق ﴿ إِلَّا يُسَبِّحُ ﴾ ملتبساً ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ أى يقول سبحان الله وبحمده حالا أو مقالا ﴿ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ لأنه ليس بلغتكم أو لإخلالكم بالنظر الصحيح ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا ﴾ حين لم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم ﴿ غَفُورًا ﴾ لمن تاب منكم ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ عن أعين الناس لا يرونه أو ساتراً لك عنهم فلا يرونك نزل فيمن أراد الفتك به صلى الله عليه وسلم أو حجاباً يحجبهم عن فهم ما تقرؤه عليهم بيان لكونهم مطبوعين على الضلالة ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أغطية تمنعهم ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ فهم القرآن أو كراهة أن يفقهوه ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ثقلا يمنعهم السماع ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ﴾ منفرداً عن آلهتهم ﴿ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ عنه ، مصدر بمعنى ولى أو جمع نافر هرباً من استماع التوحيد أو نافرين عنه ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾ بسببه من الهزء ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ قراءتك ، ظرف لأعلم مبالغة فى الوعيد بأنه أحاط بما فعلوه وبوقته لم يفته شيء ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ ﴾ أى ونحن أعلم بتناجيهم أيضاً حين هم ذوو نجوى يتناجون به ، مصدر ، ويحتمل أن يكون جمع نجى ﴿إِذْ﴾ بدل من إذ قبله ﴿ يَقُولُ الظَّالِمُونَ ﴾ فى تناجيهم وضع الظاهر موضع المضمر دلالة على أن تناجيهم من باب الظلم ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ مخدوعاً مغلوباً على عقله قال تعالى ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ مثلوك بالساحر تارة وبالمسحور أخرى ، وبالكاهن والشاعر والمجنون ﴿ فَضَلُّوا ﴾ بذلك عن الهدى ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ إليه لانحصاره فى الطريق الذى أنت عليه وهم عنه ناكبون ﴿ وَقَالُوا ﴾ عطف على «فضلوا» وهو باب آخر من أبواب الضلال منكرين للبعث ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ هو كل ما دق وكسر فتفتت أجزاؤه ﴿ أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ إنكار للبعث واستبعاد له والعامل فى إذا ما دل عليه مبعوثون لا نفسه لتصدر الاستفهام ، وخلقاً إما حال بمعنى مخلوق أو مصدر ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ

خلقا مما يكبر في صدوركم ﴾ يعظم عن قبول الحياة فضلا عن العظام والرفات فلا بد من إيجاد الروح فيكم لأن نسبة قدرته إلى كل الممكنات سواء، وقيل فيما يكبر عن قبول الحياة هو الموت عندهم وقد ورد في الحديث أنه يؤتى به على صورة كبش فيذبحه يحيى بن زكريا بين الجنة والنار ﴿ فسيقولون من يعيدنا ﴾ إلى الحياة ﴿ قل الذي فطركم ﴾ خلقكم ﴿ أول مرة ﴾ من العدم وأنتم معترفون بذلك وقد كنتم تراباً وهو أبعد من الحياة، فالقادر على البدء قادر على الإعادة بل هي أهون ﴿ فسينغضون إليك رءوسهم ﴾ يحركونها نحوك تعجباً واستهزاء ﴿ ويقولون ﴾ استهزاء ﴿ متى هو ﴾ أي البعث ﴿ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ كل آت قريب فاذا عذركم بعد الوقوع، نصب «قريباً» على الخبر لكان أو الظرف أي يكون في زمان قريب و «أن يكون» اسم «عسى» أو خبره والاسم مضمر ﴿ يوم يدعوكم ﴾ يناديكم من القبور على لسان إسرافيل، أسنده إلى نفسه إجلالا له، وقيل الدعاء والاستجابة استعارتان للبعث والانبعاث تنبيهاً على سرعة وقوعهما وسهولة أمرهما مع الدلالة على أنهم مطلوبون للحساب. قال في الجواهر: يوم يدعوكم بدل من قوله قريباً ويظهر أن يكون المعنى هو يوم جواباً لقولهم متى هو. اه. وقال في غاية الأماني: لم يبين لهم الوقت لأنه منفرد بعلمه من الخمس التي لا يعلمها غيره ﴿ فتستجيبون بحمده ﴾ بأمره وقيل وله الحمد، وقيل منقادين معترفين بقدرته على البعث ووحدانيته حيث لا ينفعكم، وقيل إن الخلائق ينفضون التراب عن رءوسهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك ﴿ وتظنون إن ﴾ ما ﴿ لبثتم ﴾ في الدنيا ﴿ إلا قليلا ﴾ لهول ما ترون أي تستحقرون المكث في الدنيا وفي القبور بنسبة مدة القيامة والخلود في الآخرة ﴿ وقل لعبادي ﴾ المؤمنين أضافهم إلى نفسه تشريفاً لهم ﴿ يقولوا ﴾ للكفار الكلمة أو الحجة ﴿ التي هي أحسن ﴾ لخلوها عن الجدال والخشونة ﴿ إن الشيطان ينزغ ﴾ يفسد ﴿ بينهم ﴾ بالحمل على المخاشنة وتهييج المراء والشر فيفضي بهم إلى العناد وازدياد الفساد ﴿ إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ﴾ بين العداوة، وقيل أمر الله المؤمنين فيما بينهم بحسن الآداب وخفض الجناح وإلانة القول واتقاء نزغات الشيطان، وقوله ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ تفسير للتي هي أحسن على الأول وما بينهما اعتراض، أي قولوا لهم هذه الكلمة ونحوها ولا تقولوا لهم أنتم أهل النار لإثارة الفتن مع عدم علم العاقبة ﴿ إن يشأ يرحمكم ﴾ بالتوبة والإيمان ﴿ أو إن يشأ ﴾ تعذيبكم ﴿ يعذبكم ﴾ بالموت على الكفر ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلا ﴾ فتجبرهم على الإيمان، وهذا قبل الأمر بالقتال، وقيل لا تنافي بين هذا وأمر القتال ﴿ وربك أعلم بمن في السموات والأرض ﴾ وأحوالهم ليختار منهم لنبوته وولايته من يشاء، وهو رد لاستبعاد قريش أن يكون يتيم آل أبي طالب نبياً والعراة الجوّع أصحابه ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ بالفضائل الروحانية العلمية والعملية لا بالأموال والأتباع كتخصيص موسى بالكلام وإبراهيم بالخلة ومحمد بالإسراء وغيره مما لا يوازيه به غيره منهم ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ تنبيه على وجه فضله وأنه إنما

هو بالكتاب والمعارف لا بالملك والمماليك وإيماء إلى أن محمداً أفضل الأنبياء بأن ذلك فى الزبور كما قال « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » وهو خاتم الرسل وأمته خير الأمم ﴿ قُلِ ﴾ لهم ﴿ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ آلهة ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ كالملائكة وعيسى وعزير ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ له إلى غيركم كالمرض والفقر والقحط ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ هم آلهة ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ يطلبون ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ القربة بالطاعة ﴿ أَيُّهُمْ ﴾ بدل من واو يبتغون أى يبتغيها الذى هو ﴿ أَقْرَبُ ﴾ إليه فكيف بغيره ، وقيل فى « يبتغون » معنى الحرص أى يطلبون الوسيلة إلى ربهم بالطاعة يحرصون على الأقربية ، فالابتغاء إلى الوسيلة الحرص على الأقربية أو المعنى ينظرون إليهم وإليه أيهم أقرب فيتوسلون به . وعن ابن مسعود : نزلت فى نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم أولئك الجن ولم يعلم الإنس فتمسكوا بعبادتهم فعيرهم الله بذلك ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ كغيرهم فكيف يكونون آلهة ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ حقيقاً بأن يحذره كل أحد حتى الأنبياء والملائكة ﴿ وَإِنْ ﴾ ما ﴿ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ أريد أهلها ﴿ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ بالموت والاستئصال والخراب ﴿ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ بالقتل والسبى ، وقيل الصالحة بالموت والطالحة بالعذاب . وقال عبد الله ابن مسعود : إذا ظهر الزنا والربا فى قرية أذن الله فى هلاكها ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَابِ ﴾ اللوح المحفوظ ﴿ مَسْطُورًا ﴾ مكتوباً فيه . وفى الحديث : قال عليه السلام : أول ما خلق الله القلم فقال اكتب ما هو كائن إلى الأبد . أخرجه الترمذى ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِٱلْآيَاتِ ﴾ التى اقترحها أهل مكة أى ما تركناها ﴿ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ إلا لتكذيب الأولين الذين هم أمثالهم فى الطبع كعاد وثمود فأهلكناهم ولو أرسلناها إلى هؤلاء لكذبوها فاستحقوا الإهلاك وقد حكمنا بإمهالهم لإتمام أمر محمد ولأن فيهم من يؤمن أو يلد من يؤمن ، ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فقال ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ ﴾ آية ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ مضيئة واضحة من أبصر إذا أضاء ، أو جاعلة إياهم بصراء من أبصرته جعلته ذا بصيرة ، وإنما أفردها بالذكر لكونها قريبة من ديارهم يشاهدها صادرهم وواردهم ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ كفروا بها فأهلكوا ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَاتِ ﴾ المعجزة ﴿ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ للعباد من عذاب الاستئصال أو عذاب الآخرة لأنها طلائعه ليؤمنوا ومن الآيات الكسوف والرعد والزلزلة وقوس قزح ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قُلْنَا لَكَ ﴾ أوحينا إليك ﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ﴾ فهم فى قبضته فلا تخف أحداً فهو يعصمك منهم ، أو معنى أحاط بهم أهلكهم يعنى كفار قريش فى قوله « سيهزم الجمع » « ستغلبون » فهو بشارة بنصره وشفاء صدره والتعبير بالماضى لتحقق وقوعه ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِى أَرَيْنَاكَ ﴾ عياناً ليلة الإسراء ﴿ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ أهل مكة إذ كذبوا وارتد بعض ضعفاء الإيمان لما أخبرهم بها وهذا ما عليه أكثر المفسرين من أن المراد ما رأى عليه السلام ليلة المعراج من العجائب كما قال ابن عباس هى رؤيا عين

أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به إلى بيت المقدس أخرجه البخارى وقد تعلق بذكر الرؤيا من قال إنها فى المنام وليس له فيه دليل لعدم اختصاص الرؤيا بالمنام فهى هنا بمعنى الرؤية وقيل هى رؤيا رآها عام الحديبية أنه دخل مكة آمنا وفيه أن الآية مكية إلا أن يقال رآها بمكة وحكاها حينئذ وقيل غير ذلك وعطف على الرؤيا قوله ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ المبعدة عن رحمة الله لأنها فى أصل الجحيم ﴿فِى الْقُرْآنِ﴾ وهى الزقوم أى جعلنا ذكرها فى القرآن فى سورة الصافات وغيرها فتنة لهم إذ قالوا النار تحرق الشجر فكيف تنبته ولم يعلموا أن من قدر أن يحفظ وبر السمندل من أن تأكله النار وأحشاء النعامة من أذى الجمر تبتلعه قادر أن يخلق فى النار شجرة ويحتمل تعلق فى القرآن بالملعونة ولعنها فيه وصفها بأنها فى أصل الجحيم ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بأنواع التخويف ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تخويفنا ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ عتوا مجاوزا للحد ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أى من طين نصب بنزع الخافض أو حال من الراجع إلى الموصول أى خلقته وهو طين إيماء إلى العلة واستطرد هنا قصة إبليس مع آدم إشارة إلى أن هؤلاء من أتباعه لاتنفع فيهم الآيات والنذر ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ﴾ أخبرنى أو أتأملت ﴿هَٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ﴾ فضلت ﴿عَلَيَّ﴾ بالأمر بالسجود له وأنا خير منه خلقتنى من نار وكاف أرأيتك لتأكيد الخطاب لا محل له من الإعراب وهذا مفعول أول والذى صفته والمفعول الثانى محذوف لدلالة الصفة عليه والمعنى أخبرنى عن هذا الذى كرمته على لم كرمته على والحال يقتضى عكس ذلك ثم ابتدأ الكلام منتقماً منه بقوله ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ واللام موطئة للقسم وجوابه ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ لأستأصلن ﴿ذُرِّيَّتَهُ﴾ بالإغواء ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم ممن عصمته والاحتناك قلع الشىء من أصله من احتنك الجراد الارض إذا جرد ما عليها أكلا أو مأخوذ من الحنك من قولهم احتنك الدابة سخرها بحبل فى حنكها الأسفل وتفرس ذلك مما رآه ركب فى الإنسان من القوة الوهمية والشهوانية والغضبية فظن ذلك منهم فصدق عليهم ظنه ﴿قَالَ﴾ تعالى له ﴿اذْهَبْ﴾ امض لما قصدته وهو طرد وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه منظراً إلى وقت النفخة الأولى ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ أنت وهم ﴿جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ وافراً كاملا تبيين له بما جره إليه سوء اختياره ونصب جزاء على المصدر أو على الحال الموطئة أو المؤكدة ﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ استخف واخدع ﴿مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ بدعائك بالغناء والمزامير وجميع آلات الملاهى لأنها أصوات مختصة بالمعاصى فهى مضافة إلى الشيطان قاله مجاهد وكذا بكل داع إلى المعصية واستفزز من الفز وهو خفة العقل ونقصان الرأى ﴿وَأَجْلِبْ﴾ صح وهول ﴿عَلَيْهِمْ﴾ والجلبة الصياح الهائل ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قرأ حفص بكسر الجيم على أنه وصف والخيل اسم جمع وكذا الرجل

كركب وصحب وهم الركب والمشاة إلى المعصية أو هم جنوده من الشياطين وفى الحديث أن إبليس يبسط عرشه على الماء ثم يفرق سراياه للفساد فأقربهم عنده من فرق بين المرء وزوجه وقيل تمثيل له لتمكينه من الإغواء وتوفير أسباب ما هو بصدده بمغوار صات على قوم فاستفزهم من أماكنهم وأجلب عليهم بجنده حتى استأصلهم ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ ﴾ بالربا والغصب والزنا أو بنحو البحائر وعبد يغوث وعبد العزى ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ بأن لا بعث ولا جزاء ولو كان فالأصنام تشفع وبتسويف التوبة والاتكال على كرامة الآباء ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ باطلا لا حقيقة له من الغرة وهى الغفلة ، والغرور : تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب اعتراض لبيان مواعيده لئلا يغتروا بها ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ المؤمنين المخلصين دل على التخليص إضافة التشريف ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ تسلط وقوة على إغوائهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ حافظاً لهم منك فعليه يتكلون فى دفع وساوسك وإغوائك ثم رجع إلى دلائل التوحيد بإفاضة النعم على غير الشاكرين بقوله ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى ﴾ يسوق ﴿ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ ﴾ السفن يسيرها بإرسال الريح ﴿ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ تعالى بالتجارة والربح وتحصيل ما تحتاجون إليه مما ليس عندكم ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ فى تسخيرها لكم لتيسير المعاش فى البحر الذى هو مظنة الهلاك ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ ﴾ الشدة ﴿ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ من خوف الغرق عند تلاطم الأمواج ﴿ ضَلَّ ﴾ ذهب عن خواطركم كل ﴿ مَن تَدْعُونَ ﴾ تعبدون من الآلهة فلا تدعون ﴿ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ وحده فإنه لا يزال فى ذلك الوقت فى خاطركم لعلمكم بأنه القادر على الإنجاء ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ ﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ عن التوحيد وتخصيصه بالدعاء ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ جحودا للنعم كالتعليل للإعراض ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ تقرير وفيه معنى الإنكار والفاء عاطفة على مقدر أى أنجوتم من الغرق فأمنتم ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أى الأرض بأن يجعلكم تحتها مقلوبة عليكم كقارون وهو عذاب من جنس الغرق فلا وجه لأمنكم مع استواء القدرة على النوعين من العذاب وإنما ذكر الجانب للدلالة على أن الجوانب والجهات كلها مستوية بالنسبة إلى قدرته وذكر البر فى مقابلة البحر فقوله بكم حال أى أن يخسف جانب البر وأنتم عليه وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالنون فى نخسف وفى الأربعة بعده ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ يرميكم بالحصباء كقوم لوط من جانب الفوق ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ حافظاً يقوم بنصركم ومنه الوكيل فى أسمائه تعالى ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ ﴾ فى البحر ﴿ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ بأن يخلق لكم دواعى الركوب ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ ﴾ ريحاً شديدة لا تمر بشىء إلا قصفته فتكسر فلككم ﴿ فَيُغْرِقَكُم ﴾ وليعقوب بالتاء ﴿ بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ بكفركم ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ تابعاً نصيراً يطالبنا بما فعلنا بكم ثم حث

الإنسان على الشكر بعد ماتقدم من حفظه له فقال ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ فضلناهم بالعلم والنطق واعتدال الخلق والحواس والقوى بحيث صار نسخة العالم وبالاهتداء إلى أسباب المعاش والمعاد والتسلط على ما فى الأرض والتمكن من الصناعات وانسياق الأسباب والمسببات العلوية والسفلية إلى ما يعود عليهم بالمنافع إلى غير ذلك فهم أفضل الخلق لأن الجمهور على تفضيل رسل البشر على رسل الملائكة وتفضيل رسل الملائكة وخواصهم على عامة المؤمنين وعامة المؤمنين على عامة الملائكة والله أعلم ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ على الدواب ﴿وَالْبَحْرِ﴾ على السفن ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ المستلذات مما يحصل بفعلهم وبغير فعلهم كالحلواء والتمر والسمن واللحم وغير ذلك ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ كالبهائم والوحوش بالغلبة والاستعلاء أو بالشرف والكرامة ﴿تَفْضِيلاً﴾ فمن بمعنى ما أو على بابها ويشمل الملائكة على ما قدمنا من التفضيل والتكريم فى الأمور الخلقية الذاتية كالعقل والنطق وحسن الصورة والتفضيل فى الأخلاق المكتسبة كالعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة قاله فى اللباب ولما بين كرامة النوع على الإطلاق فى الدنيا أشار إلى التفاوت فى الدرجات فى الآخرة بقوله ﴿يَوْمَ﴾ منصوب باذكر أو بدل من يوم يدعوكم ﴿نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ نبيهم فيقال يا أمة فلان أو بكتاب أعمالهم فيقال يا صاحب الخير ياصاحب الشر أو بكتابهم المنزل عليهم كيا أهل القرآن يا أهل التوراة أو بمقدمهم نبيا أو غير نبي وهو يوم القيامة ﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ منهم ﴿كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وهم السعداء أولو البصائر فى الدنيا ﴿فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ فرحاً وسروراً بما فيه من الإيمان والأعمال الصالحة ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ لاينقصون من أعمالهم ﴿فَتِيلاً﴾ قدر قشرة النواة وجمع اسم الإشارة والضمير لأن من فى معنى الجمع ولم يذكر من أوتى كتابه بشماله دلالة على أنه إذا أطلع على ما فيه غشيهم من الخجل والحيرة ما يحبسهم عن القراءة فلا يقدرون على إقامة حروفه فقراءتهم كلا قراءة مع إشعارهم بقوله ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَى﴾ عن الحق ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ عن طريق النجاة وقراءة الكتاب وإقامة الحجة ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ منه فى الدنيا لزوال الاستعداد وفوات المحل والأعمى مستعار من فاقد الحاسة وقيل الثانى للتفضيل من عمى بقلبه، ونزل فى ثقيف لما وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا نبايعك على أن تحرم وادينا وأن لا ننحنى فى الصلاة وأن تمتعنا باللات سنة فقال لهم لا خير فى دين لا ركوع فيه ولا سجود وأما اللات فإنى غير ممتعكم بها فألحوا عليه فى تحريم الوادى وقالوا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا مالم تعط أحدا فإن سألوا فقل الله أمر بذلك ﴿وَإِنْ﴾ مخففة ﴿كَادُوا﴾ قاربوا ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ يوقعونك فى الفتنة باستنزالك ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ من الأحكام ﴿وَإِذاً﴾ لو فعلت ذلك ﴿لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾

بريئاً عن خلق وقيل الآية نزلت فى قريش حين اجتمعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا له أنت سيدنا وابن سيدنا أقبل على بعض أمرنا ونقبل على بعض أمرك قال ابن عطية فهى حينئذ فى معنى قوله « ودوا لو تدهن فيدهنون » ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ على الحق بالعصمة ﴿لَقَدْ كِدْتَ﴾ قاربت ﴿تَرْكَنُ﴾ تميل ﴿إِلَيْهِمْ شَيْئًا﴾ ركونا ﴿قَلِيلًا﴾ لشدة كيدهم وغاية اهتمامك بإيمانهم والمعنى أنك على صدد الركون إلى اتباع مرادهم لولا العصمة التى منعتك أن تقرب من الركون فضلا عن أن تركن إليهم وهو صريح أنه عليه السلام ماهم بإجابتهم مع قوة الدعاء إليها ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه وكان عليه السلام يقول بعد ذلك اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ﴿إِذًا﴾ لو ركنت ﴿لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ﴾ عذاب ﴿الْحَيَاةِ وَضِعْفَ﴾ عذاب ﴿الْمَمَاتِ﴾ أى مثلى ما يعذب به غيرك فى الدنيا والآخرة والإضافة بمعنى فى لأن أصل الكلام عذابا ضعفاً فى الحياة وعذاباً ضعفاً فى الممات بمعنى مضاعفاً ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ثم أضيفت كما يضاف موصوفها ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ مانعاً منه ﴿وَإِنْ﴾ مخففة ﴿كَادُوا﴾ أى كفار مكة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ يزعجونك بمعاداتهم ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ﴾ ولابن عامر وحمزة والكسائى وحفص خلافك وهما بمعنى ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثم يهلكون كما هلكوا ببدر بعد الهجرة بسنة وقيل الآية نزلت فى اليهود حسدوا مقام النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالوا إن كنت نبياً فالحق بالشام فإنها أرض الأنبياء حتى نؤمن بك ، قال فى غاية الأمانى : هذا ليس له أصل ولا نقله أحد . ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أى كسنتنا فيهم من إهلاك من أخرجهم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ تبديلا وفيه دليل على أن إضافة السنة إلى الرسل مجاز لوقوعها لهم ، ولما قرر الله التوحيد والإلهيات أتبعها بالفروع وبدأ بالصلاة فقال ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أى من وقت زوالها وأصل الدلك الانتقال ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ ظلمته غسق وأغسق أظلم أى الظهر والعصر والمغرب والعشاء ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ صلاة الصبح سميت قرآناً مصدر قرأ لطول القراءة فيها من إطلاق الجزء على الكل ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار أى تجتمع عندها ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ﴾ أى اترك الهجود أى النوم بعض الليل للصلاة ﴿بِهِ﴾ بالقرآن ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ فريضة زائدة على الصلوات الخمس لك خاصة دون أمتك ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ﴾ يقيمك ﴿رَبُّكَ﴾ فى الآخرة ﴿مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ يحمدك فيه الأولون والآخرون وهو مقام الشفاعة فى فصل القضاء وتمييز الفريقين يرغب إليه الأولون والآخرون ويحمدونه على ذلك : نطقت به الأحاديث الصحيحة فى الصحيحين وغيرهما ، نصب « مقاماً » على الظرفية بمقدر أى فيقيمك أو على تضمين يبعث معنى أقام ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي﴾ فى جميع أمورى الدنيوية والأخروية

﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ أى إدخالا مرضياً عندك ﴿ وَأَخْرِجْنِى ﴾ منها ﴿ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ على أداء الحقوق ، وقيل إدخال القبر والإخراج منه ، وقيل إدخال مكة ظاهراً على أهلها وإخراجه منها آمناً ، وقيل إدخاله الغار آمناً وإخراجه منه سالماً . والحق كما فى غاية الأمانى التعميم فى كل مايلابسه من أمر الدنيا والآخرة ، والصدق يستعمل فى الأفعال كما يستعمل فى الأقوال ويراد به الإخلاص ﴿ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ قوة تنصرنى بها على أعدائك ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾ الإسلام ﴿ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ ﴾ هلك الكفر واضمحل ﴿ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ مضمحلا زائلا ، وقد دخل صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح فوجد حول البيت ثلثمائة وستين صنما لجمل يطعنها بعود فى يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل حتى سقطت كلها رواه الشيخان ، وقوله «إن الباطل» كلام مستقل دال على حكم كلى جار مجرى المثل فإن كل باطل وإن كان له دولة وصولة يرتحل سريعاً ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ لما فى الصدور من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ به و «من» للبيان قدمت على المبين للاهتمام أو للتبعيض ، أى ننزل أبعاضه الشافية على حسب تجدد الداء شيئاً فشيئاً ، وكذا يشتفى ببركاته من الأمراض كالفاتحة وآيات الشفاء . وقرأ البصرى ننزل بالتخفيف ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين ﴿ إِلَّا خَسَارًا ﴾ لكفرهم ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَانِ ﴾ بالصحة والسعة والأمن وتوفير الأسباب ﴿ أَعْرَضَ ﴾ عن ذكر الله والقيام بالشكر ﴿ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ ثنى عطفه عن الشكر متبختراً ولابن ذكوان ناء بتقديم الألف على القلب أو على أن معناه نهض ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ الفقر والشدة ﴿ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ قنوطاً من رحمة الله ﴿ قُلْ ﴾ للكفار ﴿ كُلٌّ ﴾ منا ومنكم أو قل كل أحد ﴿ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ طريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلال ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ طريقاً فيثيبه ، وفسرت المشاكلة بالدين والطبيعة والعادة ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ ﴾ أى اليهود ﴿ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ الذى يحيى به بدن الإنسان ويدبره ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ لا طريق لأحد إلى معرفته ، ولذا أردفه بقوله ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ بالنسبة إلى علمه تعالى والروح من الكثير الذى ما أوتيتم علمه ، ووجه اتصال الكلام بما تقدم هو أن القرآن الذى هو شفاء لا يتدبرونه ولا يسألون عنه ويسألونك بما لا ضرورة تدعوهم إليه وهو الروح ، ولما كان سؤالهم تعنتاً أجابهم بجواب مجمل وهو كونه من أمر ربه والله أعلم . ثم حث على استدامة الشكر بإنزال القرآن بعد ما بين أنه شفاء ورحمة بقوله ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أى القرآن بأن نمحوه من الصدور والمصاحف ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ كفيلا يضمن رده عليك ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ استثناء متصل أى إلا رحمته فإنها تقدر على الرد بعد الذهاب أو منقطع ، والمعنى : لكن رحمتنا أدركتك فتركته غير مذهوب به وكل ذلك

امتنان بإبقائه بعد المنة فى تنزيله حثاً على الشكر ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ حيث أنزله عليك وأبقاه وأعطاك المقام المحمود وغير ذلك من الفضائل، وصف فضله عليه بالكبر تارة وبالعظم أخرى ملاحظة للكم والكيف دلالة على كمال عنايته من كل وجه ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ فى الفصاحة والبلاغة وكمال المعانى وهو استئناف لبيان ذلك الفضل الكبير ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ معيناً نزل رداً لقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا، وقوله لا يأتون جواب القسم المحذوف ولولا اللام الموطئة لجاز أن يكون جواباً للشرط لكونه ماضياً ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بيّنا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ صفة لمحذوف أى مثلا من جنس كل مثل أى من كل معنى هو كالمثل فى غرابته ووقوعه موقعاً فى الأنفس كمباحث المبدإ والمعاد وأخبار الأنبياء مع الأمم، كرر كل ذلك بأساليب مختلفة ليتعظوا ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ جحوداً للحق وكفراً لهذه النعم وجاز الاستثناء المفرغ فى الإثبات وإن لم يصح «ضرب إلا زيداً» لأن «أبى» نفى معنى ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على أبى ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ عيناً ينبع منها الماء، قالوا ذلك لعدم الاعتداد بما فى القرآن من الإعجاز والمعانى وقصر النظر على الفانى من الماء والثمار كسائر البهائم، وقائله عبد الله بن أبى أمية أو أبو جهل أو نضر بن الحارث، والينبوع يفعول من نبع الماء بناء للمبالغة، أى عيناً كثيرة الماء، وقرأ الكوفيون تفجر مخففاً ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ بستان ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا﴾ وسطها ﴿تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قطعاً بتحريك السين لنافع وابن عامر وعاصم والباقون بالإسكان فعلى الأول جمع وعلى الثانى اسم جمع قطعا من كسفت الثوب قطعته يريدون قوله إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ مقابلة وعياناً فنراهم أو شاهداً على صحته ضامناً لدركه وهو حال من الله وحال الملائكة محذوفة لدلالتها عليها ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ ذهب هذا أصله ويطلق على الزينة والتمويه ﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾ تصعد ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ بسلم ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ لو رقيت فيها ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا﴾ فيه تصديقك ﴿نَقْرَؤُهُ قُلْ﴾ ولابن عامر وابن كثير قال أى الرسول ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تعجب من اقتراح الآيات أو تنزيهاً له عن أن يشاركه أحد فى القدرة ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ كسائر الناس ﴿رَسُولًا﴾ كسائر الرسل ولم يكونوا يأتون بآية إلا بإذن الله ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ الوحى ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أى قولهم منكرين ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ولم يبعث ملكا ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ﴾ بدل البشر ﴿مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ كما يمشى الناس ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ مستوطنين احتراز من الملائكة

المرسلين لأمراقه والسباحين لسماع الذكر ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ من جنسهم ليسهل الأخذ منهم ، ولذلك كان جبريل يتمثل رجلا فى أكثر الأحيان ، وأما الإنس فعامتهم عماة عن إدراك الملك لعدم التجانس ، و «ملكا» يحتمل أن يكون حالا من «رسولا» وأن يكون موصوفا به وكذا بشراً والأول أوفق لأن مصب الغرض إنكار كون الرسول بشراً واعتقاد كونه ملكا ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ على صدقى بإظهار المعجزة على وفق دعواى أو على أنى بلغت وأنكم عاندتم ، وشهيداً نصب على الحال أو التمييز ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ عالماً ببواطنهم وظواهرهم فيجازيهم ، وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفار ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ يهدونهم ﴿ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ماشين أو مسحوبين ﴿ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ لأنهم لم يعفروها بالسجود لربهم تواضعاً . قيل لرسول الله كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : « إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم » أخرجه الشيخان ، وفى الترمذى : يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف ركباناً ومشاة وعلى وجوههم . الحديث ﴿ عُمْيًا ﴾ لا يبصرون ﴿ وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ لا ينطقون ولا يسمعون ثم تعاد إليهم هذه الحواس لقوله تعالى «ورأى المجرمون النار ... سمعوا لها تغيظاً ... دعوا هنالك ثبوراً» ، وقيل معنى الآية لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ولا ينطقون ما يقبل منهم لأنهم فى الدنيا لم يستبصروا بالآيات وتلاهوا عن استماع الحق وأبوا أن ينطقوا بالصدق ﴿ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ سكن لهبها بأكل جلودهم ولحومهم ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ تلهباً واشتعالا بإعادتها فإنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جزاهم الله بأن لا يزالوا على الإعادة والإفناء . قال فى الجواهر : أى كلما فرغت من إحراقهم سكن اللهيب القائم عليهم قدر ما يعادون ثم يثور فتلك زيادة السعير قاله ابن عباس . اه . وقال ابن عطية : الزيادة فى حيزهم وأما جهنم فعلى حالها من الشدة ، وخبت النار معناه سكن اللهيب والجمر على حاله ، وخمدت معناه سكن الجمر وضعف ، وهمدت معناه طفئت جملة . اه . ﴿ ذَلِكَ ﴾ الإفناء والإعادة ﴿ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا ﴾ منكرين للبعث ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ فأجابهم الله رداً عليهم بقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعلموا ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ مع عظمهما ﴿ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أى الأناسى فى الصغر فإنهم ليسوا أشد خلقاً منها ولا الإعادة أصعب عليه من الابتداء ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا ﴾ للموت والبعث ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ « وجعل » عطف على « أولم يروا » لأن العطف على الصلة يمنعه الفصل بالخبر ولا يحسن معنى عطفه على ما بعد أن المصدرية والمعنى قائلون بالموت لا محالة وهم لم يخلقوا عبثا فلا بد من الجزاء وذلك لا يمكن إلا

بالإعادة فخيم الإنكار ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ جحوداً للبعث أتى بالمظهر دلالة على أنهم ظالمون في الإنكار بعد وضوح الحق ولما كان سياق الآيات استطراد عن سؤالهم تفجير الينبوع لهم من الأرض ونحوه توسعة للرزق عليهم بين الله أنهم أشحة بقوله ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ ﴾ فاعل فعل محذوف يفسره ﴿ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ من الرزق والمطر ﴿ إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ ﴾ لبخلتم ﴿ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ خوف نفادها بالإنفاق فتفتقروا ، المعنى أن هؤلاء الذين طلبوا أن تفجر لهم من الأرض ينبوعاً أرادوا به توسعة الرزق عليهم فهم من الشح بحيث لو ملكوا خزائن رزق الله التي لا تمسكها يد الفناء لبخلوا بها ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً ﴾ بخيلا لأن بناء أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج إليه وملاحظة العوض فيما يبذله ثم أجاب الله عن قولهم لن نؤمن لك إلى قوله كتاباً نقرؤه بقوله ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات ولم يؤمن به فرعون وكذلك هؤلاء لا يؤمنون بمجيء الآيات والتسع هي : العصا مع اليد . والطوفان . والجراد . والقمل . والضفادع . والدم . والطمس . والسنون . ونقص من الثمرات . وقيل سأل بعض اليهود رسول الله عنها فقال هي أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تمشوا ببريء إلى سلطان يقتله ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا المحصنات ولا تفروا يوم الزحف . وعليكم خاصة معشر يهود أن لا تعدوا في السبت . قال في غاية الأماني : تفسير الآية بها لا يناسب لنبوّ المقام عنها ﴿ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ﴾ أي قلنا لموسى اسأل بني إسرائيل من فرعون وقت مجيئه كقوله إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل وقيل الخطاب لرسول الله أي سلهم عما جرى بين موسى وفرعون إذ جاءهم أو عن الآيات ليظهر للمشركين صدقك ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً ﴾ مخدوعا مغلوباً على عقلك حيث تتكلم بما لا يعقل والظن بمعنى العلم عبر به على طريقة الملوك في أن ظنهم لا يكذب كما أن عسى ولعل عندهم لازم الوقوع ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ بفتح التاء والكسائي بضمها ﴿ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ ﴾ الآيات ﴿ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ عبراً ولكنك تعاند ، وانتصاب « بصائر » على الحال ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ هالكا أو مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر من قولهم ماثبرك عن هذا أي ماصرفك وشتان مابين الظنين فإن ظن موسى مستند إلى أمارة وظن فرعون كذب محض ﴿ فَأَرَادَ ﴾ فرعون ﴿ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ ﴾ يزعج موسى وبني إسرائيل ﴿ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً ﴾ في الماء الذي كان يفتخر به أو لما كان عالياً يقصد الصعود إلى السماء ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ التي أراد فرعون إخراجكم منها ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ﴾ الحياة أو الساعة أو الدار ﴿ الْآخِرَةِ ﴾ أي قيام الساعة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ جميعاً أنتم وهم من هاهنا وهاهنا واللفيف الجماعات

من قبائل شتى وأصل اللف الخلط أى جئنا بكم مختلطين ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ ﴾ أى القرآن بالحق المقتضى لإنزاله ﴿ وَبِالْحَقِّ ﴾ المشتمل عليه ﴿ نَزَلَ ﴾ كما أنزل لم يعتره تبديل ولذا ذكره بعد لدفع توهم تطرق التبديل إليه بعد الإنزال وقبل الوصول إليه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ من آمن بالجنة ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ من كفر بالنار فلا عليك بعدهما ﴿ وَقُرْآنًا ﴾ منصوب بفعل يفسره ﴿ فَرَقْنَاهُ ﴾ نزلناه مفرقاً فى عشرين سنة أو وثلاث أو بيناه وشرحناه أو فرقنا الحق فيه من الباطل ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ مهل وتثبت ليفهموه فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾ شيئاً بعد شىء على حسب المصالح ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ ﴾ بالقرآن ﴿ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ تهديد لهم لأن إيمانكم لا يزيده كمالا وعدمه لا يورثه نقصاً ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ ﴾ كعشرين رجلا بعثهم النجاشى إلى رسول الله ليعلموا أمره فوجدوه بمكة فقرأ عليهم القرآن فآمنوا فاعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش وقالوا خيبكم الله أرسلكم صاحبكم لتعلموا خبر الرجل فما استقر بكم المجلس حتى فارقتم دينكم، فقالوا ليس لنا مع جاهل كلام كما ذكره محمد بن إسحق، وأما التمثيل بعبدالله بن سلام ونحوه ممن أسلم بالمدينة وهذه السورة مكية وتأويل بعضهم ذلك بأنه إخبار بما سيقع فتكلف لا يحتاج إليه ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ يسقطون على وجوههم شكراً لله على بعثه الموعود المنعوت فى كتبهم ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا ﴾ تنزيهاً له عن خلف الوعد ﴿ إِن ﴾ مخففة ﴿ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا ﴾ ببعث الرسول وإنزال القرآن عليه ﴿ لَمَفْعُولًا ﴾ واقعاً لا محالة ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ كرره لاختلاف الحال أو السبب فإن الأول للشكر عند إنجاز الوعد والثانى لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم ﴿ يَبْكُونَ ﴾ باكين من خشية الله، وذكر الذقن مع أن السجود بالجبهة والأنف دلالة على تمكينهما حتى يلصق الذقن بالأرض ﴿ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ القرآن ﴿ خُشُوعًا ﴾ تواضعاً لله كما يزيدهم علماً ويقيناً بالله تعالى. ولما كان صلى الله عليه وسلم يقول يا ألله يا رحمن، وقال المشركون ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر معه نزل ﴿ قُلِ ﴾ لهم ﴿ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ﴾ أى سموه بأيهما فهما سواء فى الإفضاء إلى المقصود ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُوا ﴾ فهو حسن دل عليه ﴿ فَلَهُ ﴾ أى لمسماهما ﴿ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ وهذان منها، وأو للتخيير والتنوين عوض عن المضاف إليه وأى شرطية و«ما» زائدة لتأكيد إبهام أى والضمير فى «له» للمسمى والجواب محذوف كما قدرنا ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ بقراءتك فيها كما رواه البخارى عن ابن عباس، وقيل نزل فى الدعاء رواه البخارى أيضاً عن عائشة قيل له ذلك لئلا يؤذيه المشركون ﴿ وَلَا تُخَافِتْ ﴾ تسر ﴿ بِهَا ﴾ لينتفع أصحابك ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ قراءة بين القراءتين دون الجهر وفوق المخافتة، أو بالإجهار ليلا والإخفات نهاراً ﴿ وَقُلِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ الألوهية ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ ﴾ ينصره ﴿ مِّنَ ﴾ أجل ﴿ الذُّلِّ ﴾ أى لم يذل فيحتاج إلى ناصر ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ عظمه عظمة تامة عن اتخاذ الولد والشريك والذل وكل ما لا يليق به ، وترتيب الحمد على ذلك الدلالة على أنه المستحق لجميع المحامد لكمال ذاته وتفرده فى صفاته . قال عليه السلام « آية العز الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً » إلى آخر السورة رواه أحمد فى مسنده والله أعلم : وإنما بنى الحمد على نفى الأوصاف الثلاثة لكون الحمد كناية عن الوصف بكمال الجود ، ومانعه إما من هو دون المعطى وهو الولد لأنه مبخلة أو مثله وهو الشريك أو فوقه وهو الولى ، فنفى الكل على طريقة الترقى فانحصر الجود فيه تعالى كبرياؤه .

[تم تفسير سورة الإسراء]

قال المسوّد لهذا التفسير قد يسر الله إكمال الجزء الأول(١) من ضياء التأويل فى معانى التنزيل
بحمد الله يوم الأحد فى رمضان لاثنتين بقيتا منه سنة شكرى أو يشكر يسر الله
الجزء الثانى كما يسر الجزء الأول بمنه وكرمه آمين ، وآخر دعوانا
أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) قول كاتب المسودة « الجزء الأول » هو فى الواقع نصف التفسير ، وقد جعلنا التفسير أربعة أجزاء فصادف هذا نهاية الثانى فتنبه . اه مصححه .

فهرس

الجزء الثاني

من

ضياء التأويل : فى معانى التنزيل

صفحة

٢	تفسير سورة الأعراف
٤٦	« « الأنفال
٦٥	« « التوبة
١٠٤	« « يونس
١٢٨	« « هود
١٥٤	« « يوسف
١٨٣	« « الرعد
١٩٥	« « إبراهيم
٢٠٧	« « الحجر
٢١٨	« « النحل
٢٤٤	« « الإسراء

تفسير القرآن الكريم

المسمى

ضياء التأويل

في

معاني التنزيل

تأليف

العلامة أبي محمد عبد الله بن محمد بن عثمان

الملقب بفودي بن عثمان بن صالح

رحمه الله تعالى

الجزء الثالث

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر

الحاج محمد علي ابجي

غامنزيرو سكتو

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكهف

مكية الا « واصبر نفسك ... » الآية
مائة وعشر آيات أو وخمس عشرة آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلْحَمْدُ ﴾ وهو الوصف بالجميل ثابت ﴿ لِلَّهِ ﴾ والمراد به الإعلام به للإيمان به والثناء به ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ محمد ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ القرآن ، رتب استحقاق الحمد على إنزاله تنبيهاً على أنه أعظم نعمائه لأنه الهادى إلى ما فيه كمال العباد وصلاح للمعاش والمعاد ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ ﴾ أى فيه ﴿ عِوَجَا ﴾ اختلافاً فى اللفظ وتنافياً فى المعانى ، والجملة حال من الكتاب والعوج بكسر العين فى المعانى وبفتحها فى الأعيان ﴿ قَيِّمًا ﴾ مستقيما لا زيغ فيه إلى الباطل ولا تفريط ولا إفراط ، أو قيما بمصالح العباد فيكون وصفاً له بالتكميل ... ـفه بالكمال ، أو على الكتب السابقة يشهد بصحتها وهى حال ثانية مؤكدة على الأول أو معمول لجعل مقدراً ومن حمله على التقدم والتأخر فقد عدل عن الظاهر بغير نكتة . وفى إثبات الاستقامة بعد نفى العوج مبالغة تؤذن أنه فى غاية الاستقامة بدون نقص ما لأنه قد يوصف الشىء بالاستقامة فإذا اعتبر وجد فيه عوج ما ، ويجوز أن يكون قيما بمعنى قائم بأمر الله من النذارة والبشارة كما أشار إليه بقوله ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ ليخوف الكتاب الكافرين ﴿ بَأْسًا ﴾ عذاباً ﴿ شَدِيدًا ﴾ حذف المفعول الأول لدلالة القرينة عليه واقتصاراً على الغرض المسوق إليه وهو إنذار البأس ليرتدع المؤمن والكافر بدليل إعادة الإنذار بعد التبشير مذكوراً معه المنذر ﴿ مِّن لَّدُنْهُ ﴾ بضم الدال وسكون النون وضم الهاء للجمهور وبإسكان الدال وكسر النون والهاء بعده لأبى بكر مع وصل الهاء بياء وابن كثير يصلها بالواو والباقون لا يصلون على أصولهم فى القراءة أى من عند الله وهو فى محل النصب حال أو صفة تهول للعذاب ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ هى الجنة ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ ﴾ فى الأجر ﴿ أَبَدًا ﴾ بلا انقطاع ﴿ وَيُنذِرَ ﴾ من جملة الكافرين ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ خصهم بالإنذار بعد التعميم استعظاماً لكفرهم ولم يذكر المنذر به اكتفاء بما تقدم ﴿ مَّا لَهُم بِهِ ﴾ بهذا المقول

﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ بل يقولونه بالجهل المفرط والتقليد لما سمعوا من أوائلهم من غير علم بالمعنى الذى أرادوا به فإنهم كانوا يطلقون الأب والابن بمعنى المؤثر والأثر أو ما لهم بالله من علم إذ لو علموه لما جوزوا نسبة الاتخاذ إليه ﴿ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ الذين يقولونه بمعنى التبنى ﴿ كَبُرَتْ ﴾ عظمت بمعنى بئس ﴿ كَلِمَةً ﴾ تمييز مفسر للضمير المبهم وقوله ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ صفة تفيد استعظام اجترائهم مع تعجيبا كأنه قيل ما أكبرها كلمة لأن ما يكون فيه شين يتعاظم الإنسان أن يتفوه به إذا وسوس إليه الشيطان والمخصوص بالذم محذوف أى مقالتهم المذكورة لما فيها من التشبيه والتشريك وإيهام الحاجة ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ يَقُولُونَ ﴾ فى ذلك ﴿ إِلَّا ﴾ مقولا ﴿ كَذِبًا ﴾ تصريح بما علم ضمنا وإشارة إلى أن عدم العلم لا يخرج الكلام والمتكلم عن الكذب إذا كان غير مطابق للواقع ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ ﴾ مهلك ﴿ نَفْسَكَ ﴾ من البخاع وهو عرق فى صلب الحيوان متصل بعنقه فإذا وقع الذبح إليه كان غاية ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ بعدهم أى بعد توليهم عنك شبه توليهم عن الإيمان بارتحال أحبة الإنسان عن منازلهم فهو يتلهف عليهم ويقتل نفسه وجداً فكأنهم من فرط إدبارهم عن الإيمان قد بعدوا فهو فى آثارهم يحزن عليهم ﴿ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ﴾ القرآن ﴿ أَسَفًا ﴾ حزناً شديداً . وهو مصدر فى موضع الحال من فاعل « باخع » أو مفعول له أى متأسفاً عليهم أو للتأسف عليهم بحرصك على إيمانهم ولعل هنا للإشفاق وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ثم خبر بعظيم ما بسط عليهم مع ذلك الكفر تسكيناً لنبيه ومن تبعه بقوله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ ﴾ من الحيوان والنبات والمعادن والأنهار وغير ذلك ﴿ زِينَةً لَهَا ﴾ ولأهلها وهو مفعول ثان لجعل بمعنى صير أو حال أو مفعول له إن كان بمعنى خلق ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ لنختبر الناس ناظرين إلى ذلك ﴿ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ فى تعاطيه وهو من زهد فيه ولم يغتر به وقنع منه بما يزجى به أيامه وصرفه على ما ينبغى إيثاراً لهم . قال ابن عطية عن أبيه : أحسن العمل أخذ بحق وإنفاق فى حق وأداء الفرائض واجتناب المحارم والإكثار من المندوب إليه . اه . وفى الحديث : الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . الحديث ، ثم زهد الله فيها بقوله ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا ﴾ من الزينة ﴿ صَعِيدًا ﴾ تراباً مستوياً بالأرض ﴿ جُرُزًا ﴾ يابساً أملس لا نبات فيه . وقد أحسن من قال يناجى ربه :

فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ ⋆ وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ
وليتَ الذى بينى وبينك عامر ⋆ وبينى وبين العالمين خرابُ
إذا صح منك الود فالكلُّ هينٌ ⋆ وكلُّ الذى فوق التراب ترابُ

ولما ذكر أمهات العجائب من أول السورة من تزيين الأرض بما خلق فوقها من الأنواع النباتية الخضر وإعدامها كأن لم تغن بالأمس تمهيداً لقصة أصحاب الكهف التى هى من أعاجيب الدهر ذكرها بقوله ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ الخطاب لنبى والمقصود السائل المتعجب إذ هو صلى الله عليه وسلم يعلم من قدرة الله

ما لا يتعاظم عليه غيره ﴿ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ ﴾ الغار الواسع فى الجبل ﴿ وَالرَّقِيمِ ﴾ اللوح المرقوم أى المكتوب فيه أسماؤهم وأنسابهم وجعل على باب الكهف وهو رصاصى أو حجرى أو جعل على باب المدينة حين سد ملكهم باب كهفهم بالبناء ليموتوا فيه جوعاً وعطشاً فيكون قبراً لهم والله أعلم ﴿ كَانُوا ﴾ فى قصتهم فى إبقائهم أحياء مدة مديدة ﴿ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ من جملتها من خلق ما على الأرض من الأجناس والأنواع المتباينة تعجب الناظرين من مادة واحدة ثم ردها إليها ﴿ عَجَبًا ﴾ خبر كان وما قبله حال أى كانوا عجباً دون باقى الآيات أو أعجبها ليس الأمر كذلك و «أم» للإضراب الدال على أن ذلك أعجب الآيات إحياء أشخاص بعد الموت مدة متطاولة ، وقيل الرقيم الوادى الذى فيه الكهف ، وقيل اسم قريتهم ، وقيل اسم مكانهم وهو مكان بقرب فلسطين ، وقيل اسم كلبهم ، وقيل أصحاب الرقيم قوم آخرون ثلاثة خرجوا يرتادون لأهلهم فأخذتهم السماء فأووا إلى كهف فانحطت صخرة وسدت بابه فدعوا الله كل بعمله الخالص لله ففرج الله عنهم وقد ذكرت قصتهم فى البخارى وغيره ، وسبب نزول السورة أن قريشاً أرسلوا إلى يهود المدينة يسألونهم عن رسول الله فقالوا سلوه عن ثلاثة أشياء : عن رجل ملك مشارق الأرض ومغاربها وعن طائفة فارقوا قومهم وفروا بدينهم ووصفوا لهم أصحاب الكهف وعن الروح فإن أخبركم عن الاثنين وسكت عن الروح فهو نبيٌّ فسألوه فنزلت ﴿ إِذْ ﴾ منصوب باذكر أو بعجباً ﴿ أَوَى الْفِتْيَةُ ﴾ جمع فتى : هو الشاب الكامل ﴿ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ خائفين على إيمانهم من قومهم الكفار وكانوا من أشراف الروم وكان ملكهم دقيانوس يأمر بعبادة الأصنام ويقتل من خالفه عليها ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ ﴾ من عندك ﴿ رَحْمَةً ﴾ توجب لنا المغفرة والرزق والأمن من العدو ﴿ وَهَيِّئْ ﴾ أصلح ﴿ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ شأننا الذى نحن بصدده من مفارقة الكفار ﴿ رَشَدًا ﴾ هداية إلى الطريق المؤدى إليه أو اجعل أمرنا كله رشدا وأصل التهيئة إحداث هيئة الشيء قال فى الجواهر وينبغى لكل مؤمن أن يجعل دعاءه فى أمر دنياه هذه الآية الكريمة فقط فإنها كافية . اه . ﴿ فَضَرَبْنَا ﴾ الحجاب ﴿ عَلَى آذَانِهِمْ ﴾ يمنع السماع أى أنمناهم إنامة لا تنبههم الأصوات فيها فحذف المفعول كما حذف فى قولهم بنى على امرأته أى القبة ﴿ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ ﴾ ظرفان لضربنا ﴿ عَدَدًا ﴾ أى ذوات عدد ووصف سنين به يحتمل التكثير لأن القليل يعرف بدون العد والتقليل لأن الكثير عند الله قليل وإن يوماً عند ربك كألف سنة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أيقظناهم ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ علم مشاهدة ﴿ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ ﴾ الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم منهم ومن غيرهم ﴿ أَحْصَى ﴾ فعل ماض بمعنى ضبط ﴿ لِمَا لَبِثُوا ﴾ للبثهم متعلق بما بعده ﴿ أَمَدًا ﴾ غاية المعنى أيقظناهم ليتعلق علمنا به تعلقاً حالياً كما كان متعلقاً به تعلقاً استقبالياً أو مجاز عن لازمه وهو التمييز وأى لتضمنه معنى الاستفهام علق عنه العلم فهو مبتدأ وأحصى فعل ماض خبره وما فى لما لبثوا مصدرية وأمدا معمول به لأحصى والمعنى أيهم ضبط أمد أوقات لبثهم فإنهم لما استيقظوا اختلفوا فى ذلك اختلاف الحزبين من غيرهم وقيل أحصى أفعل تفضيل وفيه ضعف وتكلف بتعاويل مالا طائل تحته ولذا أضربنا عنه ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ ﴾

حديثهم ملتبساً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالصدق الثابت فى الواقع إيماء إلى أن ما ينقله أهل الكتاب من قصتهم لم يسلم من كذب بزيادة ونقصان ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ جمع فتى كصبي وصبية أى شبان ﴿ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ مدح لهم لأن الشباب فى العادة مظنة الجهل وإنما نالوا علم الدين من حوارى عيسى إن كانت الواقعة بعده ومن دين الأمم الماضية إن كانت قبله على اختلاف التواريخ ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ بالتثبت والعمل الصالح والزهد عن الدنيا والانقطاع إلى الله وقيل بكلام الكلب ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ قويناها بالصبر على هجر الوطن والأهل والمال والجرأة على إظهار الحق والرد على ملكهم الجبار دقيانوس ﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ بين يديه وقد أمرهم بالسجود للأصنام وكان يقتل من خالفه ﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ ﴾ غيره ﴿ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا ﴾ قولا ﴿ شَطَطًا ﴾ أى ذا إفراط فى الكفر وبعد عن الحق مفرط فى الظلم من شط الدار بعد ثم أنكروا على قومهم فقالوا ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ مبتدأ ﴿ قَوْمُنَا ﴾ عطف بيان ﴿ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ خبر وهو إخبار فى معنى الإنكار ﴿ لَوْلَا ﴾ هلا ﴿ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ برهان ظاهر فإن الدين لا يؤخذ إلا به وفيه دليل على أن مالادليل عليه من الديانة مردود وأن التقليد فيه غير جائز قاله البيضاوى ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بنسبة الشريك إليه ثم قال بعض الفتية لبعض قيل هو كبيرهم تمليخا ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ ماموصولة أو مصدرية عطف على الضمير المنصوب أى ومعبودهم أو عبادتهم ﴿ إِلَّا اللَّهَ ﴾ غيره لأنهم يعبدون الله ويشركون معه الأصنام وقيل ما نافية على أنه إخبار من الله عن الفتية بالتوحيد معترض بين إذ وجوابه لتحقيق اعتزالهم ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ ﴾ وأل للعهد الذهنى أو للجنس: ألجأوا إليه ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ يبسط ﴿ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ فى الدارين ﴿ وَيُهَيِّئْ ﴾ ييسر ﴿ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ ﴾ الدينى والدنيوى ﴿ مِرْفَقًا ﴾ بفتح الميم وكسر الفاء لنافع وابن عامر مصدر كرجع وبكسر الميم وفتح الفاء للباقين آلة أى ما ترتفقون به من غداء وعشاء قالوا ذلك ثقة بالله قال ابن العربى وفيه دليل على العزلة فى الجبال عن الخلق إذا خاف فتنة وجواز الفرار من الظالم وهو سنة الأنبياء والأولياء ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ ﴾ إن حضرت مكانهم: الخطاب للنبى أو لكل أحد ﴿ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّاوَرُ ﴾ بالتشديد لنافع وابن كثير وأبى عمرو وأصله تتزاور فأدغمت التاء فى الزاى وبالتخفيف بحذفها للكوفيين وكتحمر لابن عامر أى تميل ﴿ عَنْ كَهْفِهِمْ ﴾ لا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم إما لأن الكهف كان جنوبيا ينظر بابه إلى بنات نعش أو لأن الله تعالى زورها عنهم ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ جهته ﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ﴾ أى تقطعهم وتتركهم ﴿ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ فلا تصيبهم البتة والمراد بمين الكهف وشماله ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ ﴾ متسع ﴿ مِنْهُ ﴾ من الكهف أى وسطه ينالهم برد الريح ونسيمها ولا يؤذيهم حرها لأن الله حجبها عنهم بقدرته لا لكون الباب إلى جهة توجب ذلك ويؤيده قوله ﴿ ذَلِكَ ﴾ المذكور من حديثهم واختصاصهم بتلك الكرامة ﴿ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ الدالة على قدرته ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ ﴾ بالتوفيق كأصحاب الكهف ﴿ فَهُوَ

﴿ الْمُهْتَدِى ﴾ إلى الصواب والفلاح ثناء عليهم وتنبيه على أن الآيات كثيرة ولكن المنتفع بها من وفقه الله فهو ثناء عليه تعالى أيضاً ﴿ وَمَنْ يُضْلِلْ ﴾ يخذله ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا ﴾ يلى أمره وينصره ﴿ مُرْشِدًا ﴾ له إلى طريق الصواب ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾ لو رأيتهم ﴿ أَيْقَاظًا ﴾ أى منتبهين لأن أعينهم مفتحة جمع يقظ بكسر القاف ولكثرة تقلبهم ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ والحال أنهم نيام جمع راقد ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ فى رقدتهم ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ كى لا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم على طول الزمان قيل كان التقليب بأمر الله وفعل ملائكته مرتين كل سنة وقيل مرة ليلة عاشوراء والله أعلم . ﴿ وَكَلْبُهُمْ ﴾ الذى مروا به وقت فرارهم فتبعهم فطردوه فكلمهم فقال أنا أحب أحباء الله وقيل مروا براع معه كلب فتبعهم ﴿ بَاسِطٌ ﴾ فى كل وقت ﴿ ذِرَاعَيْهِ ﴾ يديه حكاية حال ماضية ولذا أعمل اسم الفاعل ﴿ بِالْوَصِيدِ ﴾ فناء الكهف أو الباب أو العتبة يقلب إذا قلبوا وهو مثلهم فى النوم واليقظة وفى هذا دليل على أن من أحب أهل الخير نال من بركتهم وهذا كلب أحب أهل الخير وصحبهم فذكره الله معهم فى تنزيله ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ فنظرت إليهم ﴿ لَوَلَّيْتَ ﴾ لفررت ﴿ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ نصب على المصدر لأنه نوع من التولية أو على العلة أو على الحال ﴿ وَلَمُلِّئْتَ ﴾ بتشديد اللام لنافع وابن كثير وبالتخفيف للباقين ﴿ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ بسكون العين للجمهور وضمها لابن عامر والكسائى ويعقوب خوفاً يملأ صدرك لما ألبسهم الله من الهيبة مع عظم أجرامهم وطول شعورهم وأظفارهم وانفتاح عيونهم ووحشة مكانهم . روى أن معاوية لما غزا الروم مر على الكهف فقال لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم وعلمنا خبرهم فقال له ابن عباس قد منع الله من ذلك من هو خير منك فقال لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا فقال لا أنتهى حتى أعلم حالهم فبعث جماعة فلما دخلوا الغار هبت عليهم ريح فأحرقتهم : قد منع الله بالرعب من دخول أحد عليهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أى كما أنمناهم تلك النومة التى تشبه الموت ﴿ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ تلك البعثة التى تشبه إحياء الموتى وكما أنمناهم أحياء كذلك بعثناهم من غير نقص بعد طول المدة ، والبعث التحريك عن سكون أى أيقظناهم ﴿ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ ليسأل بعضهم بعضا عن حالهم ومدة لبثهم فإذا علموها ازدادوا شكراً على تلك الكرامة التى خصوا بها ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ وهو مكسلمينا ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ بناء على غالب الظن لأن العرف أن أقصى ما ينام الإنسان يوم كامل ، وعن الحسن : دخلوا الكهف عند طلوع الشمس وبعثوا عند غروبها فظنوا أنه يوم الدخول . اه . فبنى الكلام على الظن فلا كذب ، ولما نظروا إلى طول أظفارهم وشعورهم وبناء منهدم على باب كهفهم أحالوا العلم إلى الله ﴿ قَالُوا ﴾ متوقفين فى ذلك ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ ويجوز أن يكون الأول قول بعضهم وهذا إنكار لآخرين ثم لما التبس الأمر عليهم أخذوا فيما بينهم فيما يهمهم وقالوا ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ ﴾ قيل هو تمليخا كبيرهم ﴿ بِوَرِقِكُمْ ﴾ بكسر الراء للجمهور وبسكونها لأبى عمرو وحمزة وأبى بكر بفضتكم التى تزودتموها دليل على أن التزود سنة المتوكلين لاينافى التوكل ﴿ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ يقال إنها

المسماة الآن طرسوس بفتح الراء واسمها قبل الإسلام أفسوس ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ أى أطعمة المدينة أحل وأطيب أو أكثر وأرخص ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾ وفى الآية صحة الوكالة وجوازها متفق عليه لعذر ولغير عذر جائز عند الأكثر خلافاً لأبى حنيفة ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ فى الشراء حتى لا يغبن، أو فى التخفى حتى لا يعرف ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ لا يفعلن ما يؤدى إلى الإشعار، سماه إشعاراً لكونه سبباً له ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ جمع الضمير باعتبار معنى أحد ﴿ إِنْ يَظْهَرُوا ﴾ يطلعوا أو يغلبوا ﴿ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ يقتلوكم بالرجم ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ يصيروكم فيها وقيل كانوا على دينهم فآمنوا ﴿ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا ﴾ إن عدتم فى ملتهم ﴿ أَبَدًا ﴾ فى الدارين. روى أن تمليخا لما خرج من الكهف أنكر البناء المهدوم إذ لم يعرفه بالأمس ثم مشى فجعل ينكر الطريق والمعالم ويتحير وهو فى ذلك لم يتضح له الأمر حتى بلغ باب المدينة فرأى على بابها أمارة الإسلام ولم يميز بشراً من أهلها فازدادت حيرته وظن أنه فسد عقله ثم وصل إلى سوق الطعام فاشترى ودفع دراهم معه كأخفاف الربع فعجب لها البائع ودفعها إلى آخر ثم إلى آخر يتعاطاها الناس وقالوا هذه دراهم عهد فلان الملك من أين وجدت هذا الكنز فقال لهم ما أعرف شيئاً إلا أن الدراهم دراهم خرجت بها أنا وأصحابى بالأمس من هذه المدينة، فقال الناس هذا مجنون فذهبوا به إلى الملك كرهاً يظنه دقيانوس فلما وجد الملك غيره تأنس به وكان الملك صالحاً يسمى تبدوسيس فقال له أين وجدت هذا الكنز فقال إنما خرجت به أنا وأصحابى أمس من هذه القرية. قال أين أصحابك؟ قال إنا لما فررنا من الملك أوينا إلى الكهف الذى فى جبل أنجلوس فلما سمع الملك ذلك وكان أصحابه فى ذلك الوقت اختلفوا فى البعث هل تبعث الأرواح فقط أو مع الأجساد فجعل يدعو الله أن يبين له ذلك فتذكر ما كان معلوماً عندهم فقال لجلسائه إن هؤلاء هم الفتية الذين أرخ أمرهم على عهد دقيانوس وكتب له لوح النحاس بباب المدينة ففرحوا بذلك ثم سار الملك بمن معه إليهم فلما انتهوا إلى الكهف قال لهم تمليخا قفوا هنا حتى أدخل عليهم وأعلمهم فلما أعلمهم فرحوا بذلك، قيل خرجوا فتلقوا الملك ثم رجعوا إلى كهفهم، وأكثر الروايات أنهم دعوا الله أن يميتهم حين حدثهم تمليخا ما حدثهم لئلا يتغيروا بالعجب فماتوا فلما أبطأ خروجهم دخل الملك مع الناس إليهم فوجدوهم موتى فرعبوا وتنازعوا بحسب ما يأتى. قال فى الجواهر بعد إيراد ما ذكرنا: وفى هذه القصص من الاختلاف ما تضيق به الصحف فاختصرته وذكرت المهم واعتمدت الأصح والله المعين برحمته ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ كما أنمناهم وبعثناهم ﴿ أَعْثَرْنَا ﴾ أطلعنا ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ غيرهم ﴿ لِيَعْلَمُوا ﴾ أى المعثرون ﴿ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بالبعث وغيره ﴿ حَقٌّ ﴾ بطريق أن القادر على إقامتهم المدة الطويلة وإبقائهم على حالهم بلا غذاء قادر على إحياء الموتى ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ فى إمكانها ووقوعها من عطف الخاص على العام توكيداً لوقوعها لأن حال الفتية فى النوم والبعث دليل على جواز الموت والبعث ﴿ إِذْ ﴾ معمول لأعثرنا أو ليعلموا

﴿ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ أمر دينهم فى البعث يقول بعضهم تبعث الأرواح مجردة وبعضهم يقول تبعث مع أجسادها . أى أعثرنا عليهم حين يتنازعون ليرتفع الخلاف ويتبين أنهما يبعثان معاً أو ليعلموا ماذكر حين يتنازعون فى أمر الفتية حين أماتهم الله ثانياً هل ماتوا أو ناموا نومهم أول مرة أو فى قول بعضهم نبنى عليهم بنياناً يسكنه الناس ويتخذونه قرية لئلا يتطرق إليهم الناس وقول بعضهم بل نبنى عليهم مسجداً يصلى فيه للتبرك كما قال تعالى ﴿ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِمْ ﴾ أى حولهم ﴿ بُنْيَانًا ﴾ يسترهم كما بنى على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحجرة الشريفة ﴿ رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ فى حالهم هل ناموا نومهم أو ماتوا هو من كلام بعض المتنازعين أو اعتراض من كلام الله لرد كلامهم وإحالة العلم إليه تعالى ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ ﴾ وهم الملك وحاشيته ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ يصلى الناس فيه تبركا بمكانهم وفعل ذلك على باب الكهف ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ أى الخائضون فى عددهم زمن النبى صلى الله عليه وسلم وهو إخبار بما سيقع بين أهل الكتاب والمؤمنين فى عدتهم : هم رجال ﴿ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ ﴾ أى بعضهم هم رجال ﴿ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ وقد حضر عند النبى صلى الله عليه وسلم نصارى نجران منهم السيد والعاقب النجرانيان فتذاكروا مع اليهود عدد أصحاب الكهف فقال اليهود هم ثلاثة ووافقهم السيد من نصارى نجران وكان يعقوبيا وقالت النصارى ووافقهم العاقب منهم هم خمسة وكان العاقب نسطوريا ﴿ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ﴾ رميا بالخبر الخفى الذى لا مطلع لهم عليه أو ظنا بالغيب من قولهم رجم بالظن إذا ظن ، ولم يذكر الثانى بالسين اكتفاء بعطفه على ما هى فيه وقوله رجما راجع إلى القولين معاً ونصبه على المفعول له أى لظنهم ذلك ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أى المؤمنون بإخبار الرسول لهم عن جبريل عليه السلام هم ﴿ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الجملة من مبتدأ وخبره صفة سبعة بزيادة الواو تأكيدا ودلالة على لصق الصفة بالموصوف كما فى قولهم جاءنى رجل ومعه آخر وهو كقولك مررت بزيد وبيده سيف لأن الصفة والحال متقاربان وجدوى هذه المبالغة الإعلام بأن هذه العدة هى الصواب مع وصف الأولين بالرجم دونه ، ولذا أتبعه بقوله ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قال ابن عباس أنا من القليل فذكرهم سبعة : تمليخا . ومكسلمينا . ومشلينا . ومرنوش . ودبرنوش . وشاذنوش . والسابع الراعى : كشططيوش . وكلبهم قطمير . وفى هذه الأسماء اختلاف كثير لا ينضبط والله أعلم . ﴿ فَلَا تُمَارِ ﴾ لا تجادل أهل الكتاب ﴿ فِيهِمْ ﴾ فى أمر الفتية ﴿ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ لا تعمق فيه بأن تقص عليهم ما فى القرآن من غير تجهيل لهم ولا راد عليهم ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ ﴾ لا تسأل ﴿ فِيهِم ﴾ فى أصحاب الكهف ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ من أهل الكتاب ﴿ أَحَدًا ﴾ عن قصة أصحاب الكهف سؤال مسترشد إذ لا علم لهم بها وفيما أوحى إليك غنية ولا سؤال متعنت يريد تفضيح المسئول عنه لأنه يخل بمكارم الأخلاق ، وفى التبيان : المراء فى العلم منهى عنه لا تؤمن فتنته ولا تفهم حكمته . ولما سأل النبىَّ صلى الله عليه وسلم أهلُ مكة عن خبر أهل الكهف فقال أخبركم به غداً ولم يقل إن شاء الله : نزل ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ

أى لأجل شىء عزمته ﴿ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ أى فيما يستقبل من الزمان ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى إلا ملتبسا بمشيئة الله بأن تقول إن شاء الله أو إلا وقت مشيئة الله ذلك بأن يأذن لك أن تقول ذلك والاستثناء من النهى وهو نهى تأديب من الله لنبيه عليه السلام ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ ﴾ أى مشيئته متعلقا بها أى قل إن شاء الله ﴿ إِذَا نَسِيتَ ﴾ التعلق بها ويكون ذكرها بعد النسيان كذكرها مع القول لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما نزل «إن شاء الله» قال الحسن وغيره يستثنى إذا ذكر ما دام فى المجلس وعن ابن عباس ولو بعد سنة ما لم يحنث ولذا جوز تأخير الاستثناء عنه وعامة الفقهاء على خلافه لأنه لو صح ذلك لم يتقرر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم صدق ولا كذب . روى أن أمير المؤمنين المنصور لما بلغه أن أبا حنيفة خالف ابن عباس فى ذلك دعاه وسأله عن ذلك فقال يا أمير المؤمنين ضرر ذلك عائد إليك فإنك تأخذ البيعة بالأيمان أفترضى أن يخرجوا من عندك ويقولوا استثنينا فاستحسن منه ذلك وقيل معنى «واذكر ربك» أى بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء أو اذكر ربك وعقابه إذا تركت ما أمرك به أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى ﴿ وَقُلْ ﴾ لكفار مكة ﴿ عَسَىٰ ﴾ أرجو ﴿ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا ﴾ من خبر أهل الكهف فى الدلالة على نبوتى ﴿ رَشَدًا ﴾ هداية وقد فعل الله تعالى ذلك بقصص الأنبياء المتباعد عنه أيامهم والإخبار بالغيوب والحوادث النازلة فى الأعصار المستقبلة إلى قيام الساعة أو المعنى قل عند نسيان شىء لعل ربى أن يهدينى إلى ما هو خير من هذا المنسى لقوله ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها ثم بين الله ما أجمل فى قوله سنين عددا بقوله ﴿ وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ ﴾ بالتنوين للجمهور ﴿ سِنِينَ ﴾ عطف بيان لثلاثمائة ولحمزة والكسائى بالإضافة على وضع الجمع موضع الواحد رجوعا إلى الأصل إذ الأصل فى تمييز مائة الجمع كثلاثة وأربعة وإنما يفرد للتخفيف وهذه السنون الثلاثمائة عند أهل الكتاب شمسية وتزيد القمرية عليها عند العرب تسع سنين وقد ذكرت فى قوله ﴿ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ أى تسع سنين فالثلثمائة الشمسية ثلثمائة وتسع قمرية وقيل بيان باختلاف أهل الكتاب فى مدة أصحاب الكهف كاختلافهم فى عددهم فقال بعضهم ثلثمائة وقال بعضهم ثلثمائة وتسع والله أعلم . ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ ممن اختلفوا فيه وهو ما أخبرك به وهذا التذييل كالتذييل بقوله « قل ربى أعلم بعدتهم» ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى علمه وأمر أصحاب الكهف نزر منه ﴿ أَبْصِرْ بِهِ ﴾ أى بالله صيغة تعجب ﴿ وَأَسْمِعْ ﴾ به كذلك بمعنى ما أبصره وما أسمعه : أريد بهما تعجيب المخاطبين بأن الله لا يخفى عليه شىء مما يدرك بالبصر والسمع والهاء يعود إلى الله تعالى ومحله الرفع على الفاعلية عند سيبويه والباء مزيدة أصله أبصر أى صار ذا بصر فنقل إلى صيغة الأمر بمعنى الإنشاء فبرز الضمير لعدم قابلية الصيغة له أو النصب على المفعولية عند الأخفش والفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد والباء مزيدة إن كانت الهمزة للتعدية ومعدية إن كانت للصيرورة ﴿ مَا لَهُمْ ﴾ الضمير لأهل السموات والأرض ﴿ مِنْ دُونِهِ

مِنْ وَلِيٍّ ﴾ ناصر ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ لأنه غنى عن الشريك وقرأ ابن عامر لا تشرك بالخطاب على صيغة النهى والجمهور على النفى وهو أبلغ ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ المشتمل على بيان كل مشكل كقصة أصحاب الكهف فإن تلاوته أقرب الوسائل إليه وأشرف العبادات لديه فلازمه ولازم أصحابه ولا تسمع لمن قال ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ لأحد يقدر على تبديلها لكون القرآن معجزاً بخلاف سائر الكتب ولذا وقع فيها التحريف ﴿ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ملجأ تميل إليه إن هممت بالتبديل الذى يدعونك إليه ، والملتحد الجانب الذى يمال إليه ومنه اللحد ، ويستحب لتالى القرآن منفردا أن يختمه فى الصلاة ويستحب الختم أول الليل أو أول النهار . وفى الترمذى عن سعد ابن أبى وقاص : إذا وافق ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح فإن وافق أول النهار صلت عليه حتى يمسى أو كما قال ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ ثبتها ﴿ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ فى مجامع أوقاتهم أو فى طرفى النهار أى صلاة الصبح والعصر أو أريد الدعاء فى هذين الوقتين فإنهما أشرف الأوقات وقرأ ابن عامر هنا وفى الأنعام بالغدوة بضم الغين وسكون الدال والواو المفتوحة بدل الألف ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ بعبادتهم ﴿ وَجْهَهُ ﴾ رضاه وطاعته لاشيئا من أغراض الدنيا وهم فقراء المؤمنين ﴿ وَلَا تَعْدُ ﴾ لا تتجاوز ﴿ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ عبر بهما عن صاحبهما أى لا يتجاوزهم نظارك إلى غيرهم لرثاثة زيهم وطراوة زى الأغنياء وعدى بعن لتضمينه معنى تنبو ، وفى إقحام العين وإسناد الفعل مضمناً معنى فعل آخر ليؤدى معنى الفعلين مبالغة لا تخفى ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ حال من الكاف ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ أى القرآن أى من جعلنا قلبه غافلا عنه من أغفلته إذا صيرته غافلا كأمية بن خلف وأمثاله ممن يقول للنبى صلى الله عليه وسلم إن أردت مجالستنا فأخرج هؤلاء العبيد والصعاليك من عندك ، يريدون بلالا وعمارا وأضرابهما من المماليك والفقراء . وفيه تنبيه على أن الداعى له إلى هذا القول غفلة قلبه عن المعقولات وانهماكه فى المحسوسات حتى خفى عليه أن الشرف بتحلية القلب لا بزينة الجسد وأنه لو أطاعه كان مثله فى الغباوة ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ ماسولته النفس من الشرك وغيره ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ إسرافاً وتقدماً على الحق ﴿ وَقُلِ ﴾ له ولأصحابه هذا القرآن ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ والجار والمجرور حال مؤكدة أو خبر ، والحق : مبتدأ : أى الحق هو ما يأتى عن الله لا مايقتضيه الهوى ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ تهديد لهم أى فمن شاء فليدخل فى زمرة الفائزين بهذه السعادة ومن شاء فليكن فى الهالكين وإبراز الكلام فى صورة التخيير إزاحة للعلل ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ الكاملين فى الظلم الكافرين ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ فسطاطها وهو ما يحيط بالخيم والبيوت شبه به ما يحيط بهم من النار . وفى الزرقانى شرح الموطأ : السرادق هو الذى يحيط بالخيمة وله باب يدخل منه إليها وإنما يعمله الملوك والأكابر . اه . وقيل سرادقها دخانها ، وقيل حائط من النار يطيف بهم لا يمكنهم من الخروج ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا ﴾ من

العطش ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ النحاس المذاب أو دردىّ الزيت وهو ما يبقى فى أسفله إذا طبخ ، وقيل القيح والصديد ﴿ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ إذا قرب إليها للشرب وهو صفة ثانية لماء أو حال من المهل ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ ﴾ المهل ﴿ وَسَاءَتْ ﴾ النار ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ ما يتكأ عليه كالوسادة وهو تمييز محول من الفاعل أى قبح مرتفقها وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد ، ذكر لمشاكلة قوله الآتى فى الجنة وحسنت مرتفقا ، وإلا فأى ارتفاق فى النار ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ الجملة خبر إن الذين وفيها إقامة الظاهر مقام المضمر بياناً بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم المستحقون باسم من أحسن عملا ، واستغنت الجملة عن العائد لأنها عين المبتدأ معنى أو الراجع محذوف أى منهم أو الخبر هو قوله ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ إقامة وما بينهما اعتراض وعلى الأول فهو استئناف لبيان الأجر أو خبر آخر ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ من الأولى للابتداء أو مزيدة أو تبعيضية والثانية بيان ، والأساور جمع أسورة وتنكيرها لتعظيم حسنها عن الإحاطة به ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا ﴾ لأن الخضرة أحسن الألوان وأكثرها طراوة ، قاله البيضاوى ﴿ مِنْ سُنْدُسٍ ﴾ مارق من الديباج ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ ما غلظ منه ، وفى آية الرحمن « بطائنها من إستبرق » والأول الظاهر أو جمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، قاله البيضاوى ، وقيل الإستبرق الحرير المنسوج بالذهب ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ جمع أريكة هو السرير فى الحجلة وهى بيت يزين بالثياب والستور للعروس ، وقيل كل ما يتكأ عليه من وسادة أو منصة ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ ﴾ الجزاء الجنة ونعيمها ﴿ وَحَسُنَتْ ﴾ الأرائك ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ متكأ أى منزلا ﴿ وَاضْرِبْ ﴾ اجعل ﴿ لَهُمْ ﴾ للمفتخرين بزخارف الدنيا القائلين لك لا نجالسك حتى تطرد الفقراء ﴿ مَثَلًا ﴾ أى مثل حالهم وحال هؤلاء الفقراء بحال ﴿ رَجُلَيْنِ ﴾ أى مثل رجلين وهو بدل وهو وما بعده تفسير المثل ورجلين إما مقدرين أو موجودين وهما أخوان من بنى إسرائيل أحدهما كافر واسمه فرطوس والآخر مؤمن اسمه تمليخا أو يهوذا ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطراها فكان كلما أنفق الكافر فى الدور والبساتين والنساء وسائر ما يتمتع به أنفق المؤمن مثله فى سبيل الله وأبواب البر راجياً من الله ثوابه ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا ﴾ الكافر ﴿ جَنَّتَيْنِ ﴾ بساتين ﴿ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ من الكروم ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ أى جعلنا النخل محيطة بهما مؤزراً بها كرومها ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا ﴾ وسطهما ﴿ زَرْعًا ﴾ يقتات به ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه متواصل العمارة على الشكل الحسن والترتيب الأنيق ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ﴾ كلتا مفرد لفظاً مثنى معنى مضاف أبداً واعتبار اللفظ فيه أكثر ولذا قال ﴿ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ بإفراد الضمير أى ثمرها ، وهو بإسكان الكاف لنافع وابن كثير وأبى عمرو والباقون بضمها ، وكلتا مبتدأ وآتت خبره ﴿ وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ لم تنقصه كما يعهد فى البساتين تتم عاما وتنقص عاماً غالباً ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴾ يجرى بينهما ليدوم شربهما فإنه ملاك الأمر ومادة

الحسن فى الكروم والبساتين ﴿وَكَانَ لَهُ﴾ مع الجنتين ﴿ثُمُرٌ﴾ بضم الثاء والميم للجمهور: أنواع من المال، ولأبى عمرو بإسكان الميم تخفيف. ولعاصم بفتحهما جمع ثمرة ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يراجعه فى الكلام ويفاخره آخذاً بيده يريه شيئاً فشيئاً مفتخراً ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ عشيرة يطلق على الرجال خاصة الذين ينفرون معه من الحشم والأعوان والأبناء الذكور، ولم يقل أخيه فى الموضعين لأن المؤمن ليس أخاً للكافر وإن اتحد معه نسباً ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ بصاحبه يطوف به فيها ويريه آثارها ولم يقل جنتيه إرادة للروضة لاتصالها حتى كأنهما جنة واحدة أو اكتفاء بالواحدة أو ما هو جنته من دنياه تنبيهاً على أنه لاجنة له غيرها ولا حظ له فى الجنة التى وعد المتقون ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالكفر والعجب وغرورها بالفانى وعرضها للعذاب الدائم ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ﴾ أن تفنى ﴿هَٰذِهِ﴾ الجنة ﴿أَبَدًا﴾ لكمال غفلته وعدم تأمله فى القرون الخالية والقصور الخاوية ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ كائنة ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ فى الآخرة على زعمك ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهُمَا﴾ بضمير التثنيه لنافع وابن كثير وابن عامر أى من الجنتين وللباقين بضمير الواحدة أى من الجنة ﴿مُنْقَلَبًا﴾ مرجعاً وإنما أقسم على ذلك لاعتقاده أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه لكونه أهلا لذلك وهو معه أينما يلقاه ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يجاوبه ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ لأنه أصل مادتك أو مادة أبيك آدم ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ منى ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ﴾ عدلك وصيرك ﴿رَجُلًا﴾ وكفره لشكه فى قيام الساعة ﴿لَٰكِنَّا﴾ أصله لكن أنا، نقلت حركة الهمزة إلى النون وحذفت الهمزة ثم أدغمت النون فى مثلها، ولا يجوز أن تكون لكن المشددة العاملة نصباً إذ لا يقع بعدها هو لأنه ضمير مرفوع بل أنا مبتدأ وقوله «هو» ضمير الشأن يفسره الجملة بعده والمعنى أنا أقول ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أو ضمير الشأن مبتدأ ثان وهو وخبره الذى هو جملة خبر أنا أو هو ضمير لله واسم الجلالة بعده بدل منه و «ربى» خبره والجملة خبر أنا، وأثبت ابن عامر الألف فى الوصل وحذفها الباقون، والاستدراك من «أكفرت» كأنه قال أنت كافر بالله لكنى مؤمن به ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا. وَلَوْلَا﴾ هلا ﴿إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ عند إعجابك بها هذا ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أو ما شاء الله كائن فعلى الأول ما موصولة خبر مبتدإ محذوف وعلى الثانى شرطية أى أىّ شىء شاء فهو كائن ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ اعترافاً بالعجز على نفسك والقدرة لله وإن ماتيسر لك من عمارتها وتدابيرها فبمعونته وإقداره وفى الحديث: من أعطى خيراً من أهل أو مال فأعجبه فقال عند ذلك ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم ير فيه مكروهاً، وفى رواية لم يضره. قال مالك: ينبغى لكل من دخل منزله أن يقول ذلك ذكره ابن العربى فى الأحكام. وفى سنن أبى داود والترمذى والنسائى عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قال إذا خرج من بيته بسم الله توكلت على الله ولاحول ولاقوة إلا بالله يقال له هديت وكفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان». وقال لأبى هريرة «أكثر من قول لاحول ولا قوة إلا بالله فإنه من كنز الجنة»

أخرجه الترمذى ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا ﴾ ضمير فصل بين المفعولين أو تأكيد للمفعول الأول فوضعها نصب ﴿ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ وقرئ « أقل » بالرفع على أنه خبر « أنا » والجملة مفعول ثان لترن ، وفى قوله وولداً دليل لمن فسر النفر بالأولاد ﴿ فَعَسَى رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ دنياك جواب الشرط أى فى الدنيا أو فى الآخرة ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ على جنتك لكفرك ﴿ حُسْبَانًا ﴾ جمع حسبانة أى صواعق ﴿ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى جائحة سماوية كالصاعقة والريح ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أرضاً ملساء لا نبات بها لاستئصاله لا يثبت عليها قدم ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ بمعنى غائر ، مصدر وصف به مبالغة كالزلق عطف على « يرسل » دون « تصبح » لأن غور الماء لايتسبب عن الصواعق ويصبح إما فعل ناقص والمنصوب بعده خبر ، وإما بمعنى الدخول فى الصباح فإن طروق العذاب بالليل أشد ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ ﴾ للماء الغائر ﴿ طَلَبًا ﴾ حيلة تدركه بها أو جعل طلبه غير مقدور لأن طلب المحال كالمحال لا يصدر عن عاقل ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ بأوجه الضبط السابقة مع جنته بالهلاك والإحاطة كناية عن الهلاك رأساً لمن أحاط به عدوه بأن أرسل الله ناراً من السماء فأهلكتها وغار ماؤها ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ ظهراً لبطن ندماً وتحسراً وتقليبها كناية عن الندم لأن النادم يفعل ذلك ولتضمنه معنى الندم عدى بعلى فى قوله ﴿ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ فى عمارة جنته ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ ساقطة ﴿ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ دعائمها الكروم بأن سقطت عروشها على الأرض ثم سقطت الكروم فوقها لأنه إذا رآها كذلك تزداد حسرته ، واختصاص الكروم لأنها أصل الجنة والنخيل الحافة بها كالتوشيح لها ﴿ وَيَقُولُ ﴾ فى نفسه أو جهارا وهو عطف على يقلب أو حال من ضميره ﴿ يَا ﴾ للتنبيه ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ كأنه تذكر موعظة صاحبه فقال هذا أسفاً على الدنيا لا توبة ولو كان توبة لم تقبل لأنها كانت بعد ظهور الآية قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَلَمْ تَكُن ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة والكسائى ﴿ لَّهُ فِئَةٌ ﴾ جماعة ﴿ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ عند هلاكها بدفع الهلاك أو الإتيان بمثله وآثر لفظ الفئة لأن أكثر الانتصار بالشبان الأقوياء فى الشدائد ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ بنفسه وقوته عن انتقام الله تعالى منه ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أى فى ذلك المقام وتلك الحالة التى حل فيها غضب الله أو يوم القيامة ولا يخفى بعده ﴿ الْوَلَايَةُ ﴾ بفتح الواو للجمهور النصرة وبكسرها لحمزة والكسائى الملك ﴿ لِلَّهِ ﴾ لانصرة ولا ملك لأحد غيره فيها وهو تقرير لقوله « ولم تكن له فئة ينصرونه » وهو تنبيه أيضاً على أن قوله « ياليتنى لم أشرك » كان على اضطرار فلا فائدة فيه ﴿ الْحَقِّ ﴾ بالجر للجمهور صفة الجلالة والرفع لأبى عمرو والكسائى صفة الولاية ، والأولى أولى لما فى هذه من الفصل بين الموصوف والصفة ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ لأوليائه من ثواب غيره لو كان يثيب ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ بضم القاف للجمهور وسكونها لعاصم وحمزة لغتان بمعنى العاقبة أى عاقبة للمؤمنين ونصبها على التمييز . ولما ضرب المثل الأول للمفترين بالدنيا أتبعه بما هو أظهر لأن ذلك كان على طريق الحكاية دون المشاهدة وهذه أمور مشاهدة لهم على التوالى بقوله ﴿ وَاضْرِبْ ﴾

صيّر ﴿ لَهُم ﴾ للمغترين بالدنيا وزخارفها ﴿ مَثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ فى زهرتها وسرعة زوالها وهو مفعول أول والثانى ﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ ﴾ التف وتكاثف بسبب نزول الماء ﴿ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ بأن خالط بعضه بعضاً من كثرته أو امتزج الماء بالنبات فروى وحسن، وفى العبارة قلب للمبالغة، والأصل فاختلط بالنبات، فعكس مبالغة فى كثرته ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ صار النبات ﴿ هَشِيمًا ﴾ يابساً مهشوماً أى مكسوراً متفرقاً أجزاؤه ﴿ تَذْرُوهُ ﴾ تثيره وتفرقه ﴿ الرِّيَاحُ ﴾ فتذهب به كأن لم تغن بالأمس، والمعنى شبه الدنيا بنبات حسن فيبس فتكسر ففرقته الرياح ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الإنشاء والإفناء ﴿ مُّقْتَدِرًا ﴾ قادراً وذلك من آثار تلك القدرة ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ المحقرة فلا تتبعوها نفوسكم لأنها تفنى عن قريب، خصهما بالذكر لأنهما مناط الغرور: وجعلت له مالا ممدوداً وبنين شهوداً ﴿ وَ ﴾ أعمال الخير ﴿ الْبَاقِيَاتُ ﴾ التى تبقى لصاحبها ثمرتها أبد الآباد ﴿ الصَّالِحَاتُ ﴾ فيندرج فيها ما فسرت به من الصلوات الخمس وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وزاد بعضهم: ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم؛ والكلام الطيب ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ من المال والبنين ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ مايؤمله الإنسان ويرجوه عند الله تعالى لعدم الخيبة فيها بخلاف أمل الدنيا. ولما نفّر عن الاغترار بالدنيا وزخارفها بما تقدم أتبعه بأهوال القيامة تأكيداً لذلك فقال ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ﴾ بالنون وكسر الياء ونصب الجبال لنافع والكوفيين وبالتاء مبنياً للمفعول للباقين نذهب بها عن وجه الأرض فتصير هباء منثوراً، ويجوز عطف «يوم» على «عند ربك» أى الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ ظاهرة ليس عليها شىء من جبل ولا غيره ﴿ وَ ﴾ قد ﴿ حَشَرْنَاهُمْ ﴾ المؤمنين والكافرين جمعناهم إلى الموقف، وآثر الماضى بعد نسير وترى لتحقيق الحشر ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ ﴾ لم نترك ﴿ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ومنه سمى نقض العهد غدراً لكونه تركا للوفاء ومنه الغدير لما غادره السيل وقرئ بالياء ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ كما تعرض الجنود على الملوك صفًّا صفًّا، حال أى مصطفين كل أمة صف لا يحجب أحدٌ أحداً. وفى الصحيح «يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفاً يسمعهم الداعى وينفذهم البصر» الحديث. وفى حديث آخر: «أهل الجنة يوم القيامة مائة وعشرون صفاً أنتم منهم ثمانون صفا» يقال لهم ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى فرادى حفاة عراة غرلا لا مال ولا ولد، أو أحياء، ويقال لمنكرى البعث ﴿ بَلْ ﴾ للانتقال إلى ما هو أعظم من التعزز بالأموال وهو إنكار البعث ﴿ زَعَمْتُمْ أَن ﴾ مخففة أى أنه ﴿ لَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ للبعث ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ أى كتاب كل أحد صحيفة عمله فى يمينه للمؤمن وفى شماله للكافر أو فى الميزان، وقيل هو كناية عن وضع الحساب ﴿ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ ﴾ الكافرين ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين ﴿ مِمَّا فِيهِ ﴾ من الذنوب ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عند معاينتهم ما فيه من الذنوب ﴿ يَا ﴾ للتنبيه ﴿ وَيْلَتَنَا ﴾ هلكتنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه ﴿ مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ ﴾

استئناف للتعجب من شأنه ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ فى موضع الحال من الكتاب منه ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ من ذنوبنا ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أحاط بها وعدها وأثبتها وقدم الصغيرة لأنها محل المسامحة فكانت مظنة عدم الإحصاء ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ مكتوباً فى الصحف ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ليكتب عليه ما لم يفعله أو يعاقبه بغير جرم أو ينقص عليه من ثوابه، ولما شنع على الافتخار بالدنيا والاغترار بها وبين أحوالها، وكان سبب ذلك حب الشهوات وتسويل الشيطان نفرهم عن الشيطان بتذكير ما بينه وبينهم من العداوة القديمة فقال ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ استئناف يجرى مجرى العلة كأنه قيل: لِمَ لَمْ يسجد؟ قيل كان جنياً مطبوعا على الفساد، والاستثناء على الصحيح منقطع لأنه ليس من نوع الملائكة بل هو أبو الجن فله ذرية ذكرت معه بعد، والملائكة لا ذرية لهم، وقيل متصل والجن نوع من الملائكة ومعنى الذرية الأتباع ﴿فَفَسَقَ﴾ أى خرج بسبب كونه جنياً ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ طاعته بترك السجود ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ﴾ أولاده أو أتباعه، والهاء فى الموضعين لإبليس ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ تطيعونهم بعد ما وجد منه، والهمزة للإنكار والتعجب ﴿مِنْ دُونِي﴾ بدلا منى ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أى أعداء، حال تؤكد التوبيخ فإن موالاته بدلا من موالاته تعالى منكر يتعجب منه وظلم عظيم ولذا قال ﴿بِئْسَ﴾ هو أى البدل ﴿لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ من موالاة الله تعالى طاعة إبليس وذريته ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ﴾ أى إبليس وذريته ﴿خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أى لم يحضروا خلق شىء من المخلوقات فضلا عن الإعانة فى التأثير فكيف يستحقون العبادة فنفى إحضارهم ليدل على نفى الاعتضاد بهم كما صرح به فى قوله ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ﴾ وهم الشياطين ﴿عَضُدًا﴾ أى أعوانا فى الخلق فكيف تطيعونهم وضع المضلين موضع الضمير ذما لهم واستبعاداً للاعتضاد بهم وقيل الضمير فى أشهدتهم وما بعده للمشركين أى ما خصصتهم بعلم ما فيهما فيلتفت إلى قولهم أو للناس جميعاً، قال فى الجواهر: فتتضمن الآية الرد على طوائف من المنجمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء وغيرهم من كل من يتخرص فى الأشياء. اه.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ بالياء للجمهور والنون لحمزة ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ الأوثان أو إبليس وذريته ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شركاء لى وشفعاء لكم ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ للإغاثة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لم يغيثوهم بل تبرأوا منهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بين الكفار وآلهتهم ﴿مَوْبِقًا﴾ مكان هلاك يشتركون فيه واسم واد من أودية جهنم وبينهم ظرف أو هو بمعنى وصلهم مفعول به أى صيرنا تواصلهم فى الدنيا هلا كا يوم القيامة فالموبق مكان أو مصدر من وبق بالفتح هلك ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ من مكان بعيد لها تغيظ وزفير ﴿فَظَنُّوا﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ مخالطوها الآن لشدة خوفهم قال فى الجواهر أطلق الناس أن الظن هنا بمعنى اليقين قال ابن عطية والعبارة بالظن لا تجىء أبداً فى موضع فى يقين تام قد ناله الحس بل أعظم درجاته أن تجىء فى موضع محقق لكنه لم يقع ذلك المظنون بعد وأما ما يقع ويحس فلا يكاد يوجد

فى كلام العرب العبارة عنه بالظن وتأمل هذه الآية وتأمل كلام العرب . اه . قلت انظر هذا مع ضابط ذكره السيوطى فى الإتقان بأن كل ظن محمود إن أتى بعد إنّ المشددة فى القرآن فهو بمعنى اليقين ، وأما المذموم وما بعده المخففة فظن هل يخص الأول بغير التام فيوافق ما لابن عطية أولا فيخالف لم أر من تعرض له والله أعلم ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ مكان ينصرفون إليه ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ بينا ﴿ فِى هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ ﴾ مثلا ﴿ مِنْ ﴾ جنس ﴿ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يحتاجون إليه وتقديم القرآن على الناس فى هذه السورة خاصة دون سائرها للاهتمام لأن السورة مصدرة به ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَىْءٍ ﴾ يتأتى منه الجدل ﴿ جَدَلًا ﴾ خصومة بالباطل أو المعنى وكان جدل الإنسان أكثر شىء فيه فيكون تمييزاً منقولا من اسم كان المحذوف ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ ﴾ كفار مكة ﴿ أَنْ يُؤْمِنُوا ﴾ مفعول ثان ﴿ إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ﴾ وهو الرسول الداعى أو القرآن المبين ﴿ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ﴾ أى ومن الاستغفار من الذنوب ﴿ إِلَّا ﴾ طلب أو انتظار ﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فاعل أى سنتنا فيهم وهى الاستئصال فى الدنيا إذ لم يبق لهم عذر ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ فى الآخرة ﴿ قُبُلًا ﴾ معاينة ، وقرأ الكوفيون بضمتين لغة فيه ، أو جمع قبيل بمعنى أنواع ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ ﴾ المؤمنين ﴿ وَمُنْذِرِينَ ﴾ مخوّفين الكافرين ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ عناداً باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات وبقولهم أبعث الله بشرا رسولا ونحوه ﴿ لِيُدْحِضُوا ﴾ ليزيلوا ويبطلوا ﴿ بِهِ ﴾ بجدالهم ﴿ الْحَقَّ ﴾ عن مقره وهو القرآن من إدحاض القدم وهو إزلاقها ﴿ وَاتَّخَذُوا آيَاتِى ﴾ القرآن ﴿ وَمَا أُنْذِرُوا ﴾ وإنذارهم أو الذى أنذروا به من النار ﴿ هُزُوًا ﴾ بضم الزاى استهزاء وحمزة بالسكون لغة ، أو ما يستهزأ به ، وأبدل حفص الهمز واواً وصلا ووقفا وحمزة وقفاً فقط ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ ولم يتذكر بها ؟ لا أحد أظلم منه : لأنه كفر بعد ظهور الحق ﴿ وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ما عمل من الكفر والمعاصى ولم يتفكر فى عاقبتها وكان عليه أن يبادر إلى قبولها لأنه يذهب بالذنوب : قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أغطية تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ كراهة أن يفهموا القرآن المراد بالآيات ولذا ذكر الضمير وأفرده للمعنى ﴿ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ثقلا يمنع سماعه ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا ﴾ أى بالجعل المذكور ﴿ أَبَدًا ﴾ لا تحقيقا ولا تقليداً لسد طرق الإدراك عليهم ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ﴾ البليغ المغفرة ﴿ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ الواسعة ولذا أمهلهم مع إفراطهم فى عداوة رسوله ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿ لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴾ فيها : استشهادٌ على ما تقدم ﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ ﴾ لإهلاكهم لابد من مجيئه فالتأخير لذلك الموعد إمهال لا إهمال : هو يوم القيامة أو يوم بدر ﴿ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴾ منجى أى موضع نجاة أو نجاة من وأل نجا وإن قيل وأل إليه فمعناه التجأ ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى ﴾ أى أهلها كقرى عاد وثمود وأصحاب الأيكة : أشار إليها لأنهم

شاهدوها وهى مبتدأ والخبر ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ كذبوا الرسل كقريش ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ لإهلاكهم مصدر أضيف إلى المفعول أو لوقت إهلاكهم اسم زمان وقرأ أبو بكر بفتح اللام والميم مصدر هلك أو اسم زمان وحفص بكسر اللام مصدر أو اسم زمان كرجع ﴿مَّوْعِدًا﴾ وقتا معلوما لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون فليعتبروا بهم ولا يغتروا بتأخر العذاب عنهم . ولما امتحن اليهود النبى صلى الله عليه وسلم بسؤال قصة أصحاب الكهف وبينها أتم بيان واستطرد بعدها ما استطرد أورد قصة موسى مع الخضر وإن لم يسألوا عنها استظهاراً لصدق دعواه النبوة ودلالة على جهل الذين امتحنوه حين لم يسألوا عن قصة نبيهم هذه وهى من أعظم وقائعه وهم لا يعرفونها فقال ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ﴾ وقت ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ بن عمران ﴿لِفَتَاهُ﴾ يوشع بن نون من سبط يوسف بن يعقوب كان يتبع موسى ويأخذ منه العلم وهو ابن أخته وكان يخدم موسى ولذلك سماه فتاه حتى قيل إنه عبده ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ لا أزال أسير حذف الخبر الذى هو أسير لدلالة حالة السفر عليه ولقوله ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ﴾ لأن الغاية تستدعى ما هى غاية له ويجوز أن يكون فعلا تاماً أى لا أزول عما أنا عليه من السير حتى أبلغ ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ ملتقى بحر الروم وبحر فارس مما يلى المشرق أى المكان الجامع لذلك وعد لقاء الخضر فيه وقيل بحر طنجة وقيل افريقيا من بلاد الغرب ، وتفسير البحرين بموسى والخضر باطل ، قاله فى غاية الأمانى ﴿أَوْ أَمْضِيَ﴾ أسير ﴿حُقُبًا﴾ زماناً طويلا نحو ثمانين سنة أتيقن معه فوات مجمع البحرين أو لأحد شيئين أو بمعنى إلا وسبب السير أن موسى عليه السلام خطب فى بنى إسرائيل خطبة بليغة بعد هلاك القبط ودخوله مصر فقيل له هل تعلم أحدا أعلم منك قال لا فأوحى الله إليه بلى عبدنا الخضر وقيل بل قال موسى لربه إن كان فى عبادك أعلم منى فادللنى عليه فأوحى إليه إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . وكان الخضر موجودا فى أيام افريدون وبقى إلى أيام موسى . قال كيف لى به قال تأخذ حوتاً فى مكتل فحيث فقدته فهو هناك فأخذه وانطلق مع فتاه يوشع يمشيان ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ بين البحرين ظرف أضيف إليه على الاتساع ، أو البين بمعنى الوصل وكانت فى ذلك المحل صخرة فوضع موسى رأسه فنام وفى رواية فوضعا رءوسهما فناما وكان فى أصل الصخرة عين الحياة فأصاب الحوت منها شىء فاضطرب وانسل من المكتل وسقط فى البحر فأمسك الله جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ويوشع ينظر فلما استيقظ موسى نسى أن يخبره بالحوت كما قال تعالى ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسى موسى تعرف حاله ويوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه فى البحر والناسى فتاه وإسناده إلى موسى لأدنى ملابسة وقيل نسيا تفقد أمره وما يكون منه أمارة على الظفر بالمطلوب ﴿فَاتَّخَذَ﴾ الحوت أى جعل ﴿سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ طاقا وهو الشق الطويل لا نفاذ له وذلك أن الله أمسك عن الحوت جرى الماء فانجاب عنه فبقى كالكوة لم يلتئم وجمد ما تحته منه ، وسربا مفعول ثان لاتخذ وفى البحر حال منه أو من السبيل ويجوز تعلقه باتخذ ﴿فَلَمَّا

جاوزا ﴾ مجمع البحرين بالسير إلى وقت الغداء أى الظهر من ثانى يوم ﴿قال لفتاه آتنا غداءنا﴾ هو ما يؤكل أول النهار ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ تعبا وحصوله بعد فقد الحوت ولم ينصب قبله وقيل لم يعى موسى فى سفر غيره ويؤيده التقييد باسم الإشارة والحكمة فى ذلك أن السفر الأول فى طلب العلم وهذا الذى كان بعد مجاوزة الموعد كان خالياً عن الفائدة ﴿ قال أرأيت ﴾ ما دهانى أو بمعنى تنبه ﴿ إذ أوينا إلى الصخرة ﴾ التى رقدت عندها ﴿ فإنى نسيت الحوت ﴾ فقدته أو نسيت ذكر ما رأيت منه ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان ﴾ بوسواسه وقرأ حفص بضم الهاء مراعاة للأصل المرفوض ﴿ أن أذكره﴾ بدل من الضمير بدل اشتمال أى أنسانى ذكره ﴿ واتخذ ﴾ الحوت ﴿ سبيله فى البحر ﴾ من كلام فتاه ﴿ عجبا ﴾ هو كونه كالسرب مفعول ثان أى اتخاذاً عجبا أو مفعول مطلق أى نعجب موسى وفتاه عجبا لما روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان البحر للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا الحديث واعتذر فتاه عن نسيانه بشغل الشيطان له بوساوسه وإن كانت الحالة عجيبة لا ينسى مثلها ويحتمل أنه نسى ذلك لاستغراقه فى الاستبصار وانجذابه إلى جناب القدس بمشاهدة الآيات الباهرة لكن نسبه إلى الشيطان هضما لنفسه ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ ذلك ﴾ أى فقدنا الحوت ﴿ ما ﴾ الذى ﴿ كنا نبغ ﴾ نطلبه فإنه علامة لنا على وجود من نطلبه ﴿ فارتدا ﴾ رجعا فى الطريق الذى جاءا منه ﴿ على آثارهما ﴾ يقصانها ﴿ قصصا ﴾ من قصصت الأثر اتبعته فأتيا الصخرة ﴿ فوجدا عبدا من عبادنا ﴾ مسجى عليه بثوب فسلم عليه موسى فقال أنى بأرضك السلام قال أنا موسى قال موسى بنى إسرائيل قال نعم وهذا العبد عند الجمهور هو الخضر كما صرح به فى صحيح البخارى وغيره لقب به لأنه جلس فوق فروة الأرض فاخضرت نباتاً واسمه بلياء بن ملكان وقيل العبد هو اليسع وقيل إلياس ، والجمهور على بقاء الخضر إلى أن يخرج الدجال وهو الرجل الذى يقتله الدجال واجتماعه مع النبى صلى الله عليه وسلم وتعزيته لأهل بيته مروى من طرق صحاح قاله فى الجواهر وأنكر بقاءه بعد الهجرة البخارى وطائفة من أهل الحديث منهم أبو بكر بن العربى والله أعلم ﴿ آتيناه رحمة من عندنا ﴾ نبوة فى قول وولاية فى آخر وعليه أكثر العلماء ﴿ وعلمناه ﴾ خصصناه بعلم ﴿ من لدنا ﴾ مما يختص بنا ﴿ علما ﴾ معلوما مفعول ثان أى من المغيبات مما لا يمكن الوصول إليه بالاكتساب ﴿ قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن ﴾ على شرط أن تعلمنى ، وهو فى موضع الحال من الكاف. وهو دليل على أن المتعلم يتبع من يعلمه ولو كان فوقه فى الرتبة ﴿ مما علمت ﴾ أى لا ما تطلب برأيك ﴿رشدا﴾ بضم الراء وسكون الشين للجمهور وبفتحهما لأبى عمرو : علماً ذا رشد أى صواب ، سأله ذلك لأن الزيادة فى العلم مطلوبة . وفيه أعظم دليل على أنه ينبغى لكل أحد أن يطلب زيادة علم حيثما كان ممن هو فوقه أو مثله أو دونه مع التواضع وانظر ما راعى موسى فى ذلك مع الخضر بأن استأذنه أولا واستجهل نفسه ورضى أن يكون تابعاً له وسأله أن يرشده بما أنعم الله عليه على غاية التواضع والأدب ﴿ قال إنك لن

تستطيع معى صبرا ﴾ لأنى أرتكب ما لا يوافق شرعك ، ولذا أكد نفى الاستطاعة بوجوه حتى كأنه مما لا يصح ولا يستقيم وعلل ذلك واعتذر عنه بقوله ﴿ وكيف تصبر ﴾ وأنت نبىّ ﴿ على ما لم تحط به خبرا ﴾ أى على أمور ظاهرها مناكير وباطنها لم يحط به خبرك . وفى الصحيح أن الخضر قال لموسى ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . وقوله خبراً تمييز أو مصدر بمعنى لم تحط أى لم تخبر بحقيقته ﴿ قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ﴾ معك غير منكر عليك ﴿ ولا أعصى لك أمرا ﴾ تأمرنى به عطف على صابرا أى وغير عاص فهو فى تأويل مفرد أو على ستجدنى مفعولا للقول وقيد بالمشيئة لأنه لم يكن على ثقة من نفسه فيما التزم ، وهذه عادة الأنبياء والأولياء أن لا يثقوا من أنفسهم طرفة عين ولأن الصبر عندهم على ما يخالف الحق بظاهره وإن كان حسناً جميلا باطناً فى غاية الصعوبة ﴿ قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى ﴾ بفتح اللام وتشديد النون لنافع وابن عامر ، وبالسكون والتخفيف لغيرهما ﴿ عن شىء ﴾ تنكره منى واصبر ﴿ حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ أى أذكره لك بعلته فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم من العالم لأنه أدرى بحال المتعلم من نفسه كالطبيب من المريض ، ولذلك قال عليه السلام « دعونى ما تركتكم فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم » ﴿فانطلقا﴾ يمشيان على ساحل البحر يطلبان السفينة فرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول أى أجر ﴿ حتى إذا ركبا فى السفينة ﴾ وبلغت بهم اللج ﴿ خرقها ﴾ الخضر بأن اقتلع لوحا أو لوحين منها من جهة البحر بفأس ﴿ قال ﴾ له موسى ﴿ أخرقتها ﴾ استفهام إنكار ﴿ لتغرق أهلها ﴾ ولحمزة والكسائى بفتح التحتية والراء ورفع « أهلها » ﴿ لقد جئت شيئاً ﴾ منكراً ﴿ إمرا ﴾ عظيما من أمر بكسر الميم عظم وكبر قاله فى غاية الأمانى . وفى القاموس أمر كفرح أمرا وأمرة كثر وتم فهو أمر والأمر اشتد إلى أن قال : وأمرٌ إمرٌ منكر عجيب . اه . وروى أن الماء لم يدخل السفينة ﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ تذكير لما ذكره قبل معتذراً إليه ﴿ قال لا تؤاخذنى بما نسيت ﴾ أى غفلت عن التسليم لك وترك الإنكار عليك فالنسيان مغتفر ، اعتذار بالنسيان أخرجه مخرج النهى عن المؤاخذة مع قيام المانع لها ﴿ ولا ترهقنى ﴾ تكلفنى ﴿ من أمرى عسرا ﴾ مشقة فى صحبتى إياك بتكليف ما لا يطاق أى عاملنى فيها بالعفو واليسر وهو مفعول ثان لترهق . وفى الحديث السابق قال النبى عليه السلام : كانت الأولى من موسى نسياناً قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر : ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ﴿ فانطلقا ﴾ بعد خروجهما من السفينة يمشيان على الساحل ﴿ حتى إذا لقيا غلاما ﴾ اسمه حيسور أو جيسور لم يبلغ الحنث يلعب مع الصبيان أحسنهم وجها ﴿ فقتله ﴾ عقب اللقى من غير تروٍ ولا استكشاف حال وجواب إذا ﴿ قال ﴾ له موسى ﴿ أقتلت نفسا زاكية ﴾ لنافع وأبى عمرو وابن كثير وللباقين تشديد الياء بلا ألف أى طاهرة لم تبلغ حد

التكليف حتى تقتل أحداً ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أى لم تقتل نفساً حتى تقتل قصاصاً ، وعن اليزيدى : الزاكية التى أذنبت وغفرت والزكية التى لم تذنب قط . قال ابن عطية : قيل هـذا الغلام لم يبلغ الحلم ولذا قال موسى زاكية . وقالت فرقة : كان بالغاً ، وقوله بغير نفس يقتضى أنه لوكان عن قتل نفس لم يكن بقتله بأس وهذا يقتضى كبر الغلام فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفس ولا بغير نفس . اهـ ، وأجاب عنه فى الجواهر بأن هذا إذا كان شرعهم كشرعنا وقد يكون شرعهم أن النفس بالنفس عموماً فى البالغ وغيره وفى العمد والخطأ فلا يلزم من الآية ما ذكر . اهـ . ولما كان القتل أقبح من خرق السفينة فصل الآية بقوله ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرًا ﴾ بضم الكاف لنافع وابن عامر فى رواية ابن ذكوان وعاصم فى رواية أبى بكر والباقون بالإسكان ، وهما لغتان أى منكراً . قال ابن عطية : ونصف القرآن بعدد الحروف انتهى إلى النون من قوله نكرا ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ زاد لك على ما قبله لعدم العذر هنا مكافحة بالعتاب على قلة الثبات مع تقدم الوصية ووقوع المخالفة عن قريب ولذا ﴿ قَالَ ﴾ له موسى ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَىْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أى بعد هذه المرة ﴿ فَلَا تُصَاحِبْنِى ﴾ أى لا تتركنى أتبعك ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّى ﴾ بالتخفيف لنافع والتشديد لغيره أى من قبلى ﴿ عُذْرًا ﴾ فى مفارقتك لى لما خالفتك ثلاث مرات وهو مفعول به كقولك بلغت الغرض أى وجدته ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ هى أنطاكية وقيل أيلة وقيل أرمينية ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ طلبا منهم الطعام ضيافة ﴿ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ قال ابن عطية : وهذه عبرة مصرّحة بهوان الدنيا على الله ، يقال ضافه نزل به ضيفاً من ضاف السهم إذا مال وضيفه أنزله . وعن أبى هريرة أطعمتهما امرأة من البربر بعد أن ردهما الرجال فدعيا لنسائهم ولعنا رجالهم . وعن قتادة : شر القرى التى لا تضيف الضيف ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا ﴾ ارتفاعه مائة ذراع ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ أى يقرب أن يسقط لميلانه انفعل من القض وهو الكسر أو افعل من النقض استعارة تبعية ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ الخضر بيده ﴿ قَالَ ﴾ له موسى ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ ﴾ افتعل من تخذ كاتبع من تبع وليس من الأخذ ولابن كثير وأبى عمرو لتخذت وأظهر ابن كثير وحفص الذال وأدغمه الباقون ﴿ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ جعلا حيث لم يضيفونا مع حاجتنا إلى الطعام ، وفيه تعريض بأن فعله فضول لما فى « لو » من النفى كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك نفسه حتى أنكر عليه ذلك ولذا ﴿ قَالَ ﴾ له الخضر ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ إشارة إلى الفراق الموعود بقوله « فلا تصاحبنى » أو إلى وقته أو إلى الاعتراض الثالث والبين الوصل أى هذا وقت فراق الوصل أو هذا الاعتراض سبب فراقنا أو البين ظرف بمعنى الوسط أضيف إليه المصدر اتساعاً وفيه إضافة بين إلى غير متعدد سوغه تكريره بالعطف بالواو ﴿ سَأُنَبِّئُكَ ﴾ قبل فراقى لك ﴿ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ لكونه منكراً من حيث الظاهر سأنبئك بخبره الباطن فى هذه الوقائع الثلاث ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾ لمحاويج عشرة إخوة خمسة زمنى وخمسة ﴿ يَعْمَلُونَ فِى

الْبَحْرِ ﴾ بالسفينة مؤاجرة لها طلباً للكسب وهو دليل على أن المسكين يطلق على من يملك شيئاً إذا لم يكفه وقيل سموا مساكين لعجزهم عن دفع الملك ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أجعلها ذات عيب ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ ﴾ أى بعد هذا الزمان إذا رجعوا أو أمامهم الآن ﴿ مَلِكٌ ﴾ كافر اسمه هدد بن بدد كلاهما بوزن صرد أو اسمه جُلندى بن كركر الأزدى والأول هو الذى جاء فى البخارى ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ صالحة ﴿ غَصْبًا ﴾ نصبه على المصدر المبين لنوع الأخذ فأردت إذا مرت به أن يدعها لعيبها فإذا جاوزوه أصلحوها فانتفعوا بها ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ ﴾ وتقدم اسمه ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ اسم أبيه كازير واسم أمه سهوى ، والغلام كما فى حديث مسلم طبع كافراً ولو عاش لأرهقهما كفراً لحبهما له يتبعانه فى ذلك كما قال ﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا ﴾ يغشيهما ﴿ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ إذ حب الولد كثيراً ما يدخل الأبوين فيما هو فيه إلا من عصمه الله ومن ذلك أن يجنى الغلام فيخافا عليه القصاص فيحلفا أنه لم يفعل رقة عليه ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا ﴾ بالتشديد لنافع وأبى عمرو وبالتخفيف للباقين ﴿ رَبُّهُمَا ﴾ ولداً ﴿ خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً ﴾ أى صلاحا وتقى ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ بسكون الحاء للجمهور وبضمها لابن عامر أى رحمة وهى البر بوالديه وانتصابه على التمييز بأفعل التفضيل وكذا زكاة روى أن الله أبدلهما جارية تزوجت نبياً فولدت نبياً فهدى الله به أمة . وما حكى النقاش من أنها ولدت هى وذريتها سبعين نبياً وذكره المهدوى عن ابن عباس بعيد إذ لا تعرف كثرة الأنبياء إلا فى بنى إسرائيل وهذه المرأة لم تكن فيهم قاله عبد الرحمن فى الجواهر الحسان ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ ﴾ اسمهما صريم وأصرم ﴿ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ ﴾ مال مدفون من ذهب وفضة كما فى حديث الترمذى ﴿ لَهُمَا ﴾ ثم أشار إلى ﴿ حفظهما بقوله ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ لحفظا بصلاحه فى أنفسهما ومالهما ، قيل اسمه كاشح ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ أى الحلم وكمال الرشد وهو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين . قيل : جرى كلام بين حسين بن على رضى الله عنه وبين بعض الخوارج فقال الحسين بم حفظ الكنز للغلامين قال بصلاح أبيهما قال أبى وجدى خير منه ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ مفعول له أو مصدر منصوب بأراد لأنه فى معنى رحمهما ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ ﴾ أى ما ذكر من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار ﴿ عَنْ أَمْرِي ﴾ باختيارى بل بأمر إلهام من الله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الحكم الخفية ﴿ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أصله تستطيع لحذف التاء تخفيفاً فى هذا وما قبله جمع بين اللغتين واختص هذا المحل به دون الأول لأنه آخر القصة فيدل الاختصار على الاقتصار وهذا من غامض كلامه تعالى كما نوعت العبارة فى فأردت ، فأردنا ، فأراد ربك : رعياً فى كل مقام من المقامات الثلاث ما يليق به ، فإن خرق السفينة لما كان عيباً واقعاً بمباشرة الخضر أسنده إلى نفسه وإبدال الغلام بما هو خير منه كان بقتله وإيجاد الله فأسند الإرادة إليهما ، وبلوغ الغلامين وحفظ الكنز لهما لم يكن له فى ذلك مدخل فأسند إليه تعالى ، ويحتمل أن ذلك باعتبار حال العارف فى النظر إلى الوسائط وارتفاعها وهذا أولى والله أعلم .

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ ﴾ أى اليهود أو كفار مكة امتحاناً ﴿ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ ﴾ هو اسكندر الرومى ولم يكن نبياً على الأصح بل هو ملك عادل صالح أو ولى . قال فى غاية الأمانى وليس هذا ذا القرنين قاتل دارا لأن ذلك كان كافراً فلسفياً تلميذاً لأرسطاليس. اه . قلت هذا هو اليونانى من أولاد يونان بن يافث بن نوح وقد بين أهل الأخبار أنهما اثنان أحدهما كان على عهد إبراهيم عليه السلام والآخر كان قريباً من عهد عيسى عليه السلام والله أعلم وإنما لقب ذا القرنين لأنه ملك فارس والروم أو المشرق والمغرب أو كان فى رأسه قرنان أى ضفيرتان من الشعر ﴿ قُلْ سَأَتْلُوا ﴾ سأقص ﴿ عَلَيْكُمْ مِنْهُ ﴾ من حاله ﴿ ذِكْرًا ﴾ خبرا يذكر الى آخر الدهر ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ ﴾ أمره أى جعلناه متمكنا يتصرف ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ كيف شاء بلا مانع مع تسهيل المشى فيها ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج اليه وتوجه إليه ﴿ سَبَبًا ﴾ وصلة توصله إليه من العلم والقدرة والآلة ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ سلك طريقا نحو الغرب ولابن عامر والكوفيين فأتبع من الاتباع بقطع الهمزة معدى إلى مفعول كقوله « فأتبعه شهاب » ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أى موضع غروبها ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أى ذات حمأة وهى الطين الأسود وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر حامية من حمى كرضى أى حارة والعين جامعة للوصفين وغروب الشمس فى العين فى رأى العين وإلا فهى أعظم من الدنيا قاله الجلال فى المكمل قال البيضاوى ولعله بلغ ساحل البحر المحيط فرآها كذلك إذ لم يكن فى مطمح بصره غير الماء ولذا قال وجدها تغرب ولم يقل كانت تغرب انتهى لكن ظاهر الآية وحديث أبى ذر عن رسول الله قال : تغرب فى عين حامية خلاف ذلك . وسأل معاوية كعبا كيف تجد فى التوراة أين تغرب الشمس قال نجد فى التوراة أنها تغرب فى ماء وطين ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا ﴾ أى العين ﴿ قَوْمًا ﴾ كافرين لباسهم جلود الوحش وطعامهم مالفظه البحر ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ نداؤه إن كان بلا واسطة وهو الظاهر فهو نبىّ وإلا فالهام أو على لسان نبى وهو الأصح ﴿ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ ﴾ القوم بالقتل على كفرهم ﴿ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ بالإرشاد بالرفق وتعليم الشرائع خيره بين القتل أو الدعوة إلى الإسلام فاختار الدعوة كما قال ﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ باستمراره على الكفر بعد الدعوة ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ بالقتل والأسر أو الجزية ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴾ عذاب النار الذى لم يعهد مثله ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ وهو ما يقتضيه الإيمان ﴿ فَلَهُ ﴾ فى الدارين ﴿ جَزَاءً ﴾ فعلته ﴿ الْحُسْنَى ﴾ والإضافة للبيان والحسنى الجنة وقرأ حفص وحمزة والكسائى بنصب جزاء وتنوينه على التمييز بجهة النسبة أو على الحال أو المصدر بفعله المقدر ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أى نأمره بما يسهل عليه ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ نحو الشرق وفى لفظ ثم إشارة إلى أنه إنما توجه نحو الشرق بعد تمهيد جانب الغرب وضبط أحواله ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ موضع طلوعها أولا من معمورة الأرض ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ ﴾ هم الزنج وهم وراء الصين ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا ﴾ أى الشمس ﴿ سِتْرًا ﴾ من لباس ولا بناء لأن أرضهم لا تحمل بناء وهم عراة لهم سروب يغيبون فيها عند طلوع الشمس

فإذا ارتفعت خرجوا إلى معاشهم يرعون كالبهائم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى أمر ذى القرنين كما وصفنا فى رفعة الشأن أو أمره فيهم كأمره فى أهل المغرب من التخيير والاختيار ويجوز أن يكون صفة قوم أى على قوم مثل أولئك فى الكفر والحكم ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ أى عند ذى القرنين من الآلات والجند وغيرهما ﴿ خُبْرًا ﴾ علما تعلق بظواهره وخفاياه والمراد أن كثرة ذلك بلغت مبلغا لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير فهو على التأويل الأول فى كذلك زيادة تعظيم وعلى الثانى تعظيم للأسباب الموصلة له إلى ذلك المكان الشاسع الذى لم يصل إليه أحد قبله وعلى الثالث تتميم يؤكد أنه سن بهم ما سن بأولئك الذين عند مغرب الشمس وكان ذو القرنين يدوس الأرض بالجيوش الثقال مع السيرة الحميدة والحزم المستيقظ والتأييد المتواصل بتقوى الله عز وجل فما لقى أمة ولا مر بمدينة إلا ذلت له ودخلت فى طاعته وكل من عارضه أو توقف عن أمره جعله عظة وعبرة لغيره وله فى هذا المعنى أخبار كثيرة وغرائب شهيرة محل ذكرها كتب التواريخ ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا من الجنوب إلى الشمال ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ بضم السين لنافع وابن عامر وحمزة والكسائى وأبى بكر والباقون بفتحها لغتان هما جبلان بمنقطع بلاد الترك سد الاسكندر ما بينهما كما يأتى ومن ورائهما يأجوج ومأجوج ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ﴾ أى أمامهما ﴿ قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أى لا يفهمونه إلا بعد بطء. ولحمزة والكسائى ضم الياء وكسر القاف لفرط جهلهم وغرابة لغتهم وتلعثمهم ﴿ قَالُوا ﴾ أى بمترجم له ﴿ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ بترك الهمز للجمهور وبالهمز لعاصم إسمان أعجميان لقبيلتين من ولد يافث بن نوح فلم ينصرفا وقيل يأجوج الذكران ومأجوج الإناث روى أنه لا يموت أحدهم حتى يولد له ألف نفس وأخبارهم تضيق بها الصحف . قال فى الجواهر : والذى يصح من ذلك كثرة عددهم على الجملة انتهى ، وكثر فى كتب الأخبار أنهم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز وطوله عشرون ومائة ذراع فى السماء وصنف منهم عرضه وطوله كذلك وهؤلاء لا يقوم لهم حجر ولا حديد وصنف منهم أمثال الناس يفترش أحدهم أذنه ويلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش إلا أكلوه ومن مات منهم أكلوه كما قال ﴿ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع عند خروجهم إلينا ، وكانوا يخرجون فى الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ولا يابسا إلا حملوه ويأكلون الناس والحيات والعقارب ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ جعلا نخرجه من أموالنا وقرأ حمزة والكسائى خراجا وكلاهما واحدا كالنول والنوال وقيل الخرج الجعل الذى تبرعت به والخراج ما لزمك على الأرض أو غيرها ﴿ عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ بضم السين لنافع وابن عامر وأبى بكر وبفتحها لغيرهم : حاجزا فلا يصلون إلينا ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي ﴾ من المال واليسار والملك قرأ ابن كثير بنونين من غير إدغام ﴿ خَيْرٌ ﴾ من خرجكم الذى تجعلونه لى فلا حاجة بى إليه وأجعل لكم السد تبرعا قال ابن العربى : إذا فرض على الوالى أن يقوم بحماية الخلق وحفظ بيضتهم وسد فرجهم وإصلاح

نفرهم بأموال الفيء فإن فنيت وأطلعت الحوادث أمورا بذلوا أنفسهم فى ذلك قبل أموالهم فإن لم تغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير وتصرف بأحسن تدبير وهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال قال إنما أحتاج إليكم إذ رأى أن الأموال لا تغنى دونهم وضابط الأمر فيه أنه لا يحل أخذ مال أحد إلا لضرورة تعرض فيؤخذ جهراً لا سراً بالعدل لا بالاستئثار وبرأى الجماعة لا بالاستبداد بالرأى انتهى ومثله قول محمد بن عبد الكريم المغيلى: فإن وقع بالناس مصيبة تفتقر لمال ولا شيء في بيت المال وجبت الإعانة عليهم بحسب أحوالهم من غير أن يستمر ذلك عليهم وذلك كسقوط حصن لهم بمكان خوف لا كمصيبة نزلت بسلطان من قام عليه لينتزع منه ما بيده انتهى ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ من أبدانكم من الصناع والآلات ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ حاجزاً حصيناً وهو أكبر من السد ﴿آتُونِي﴾ بقطع الهمزة وقرأ شعبة، بوصلها ﴿زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ قطعه على قدر الحجارة التى يبنى بها فبنى بها وجعل بينها الحطب والفحم، وهذا لا ينافى رد الخراج لأن الإيتاء بمعنى المناولة أو بمعنى الإتيان كقوله «آتنا غداءنا» ويقويه قراءة شعبة فأتوه بالزبر والحطب لجعل بعضها على بعض فلم يزل يجعل الحديد على الحطب والحطب على الحديد ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ﴾ ما ذكر ﴿بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ بفتح الصاد والدال لنافع وحمزة والكسائى وحفص وبضم الصاد وسكون الدال لأبى بكر وبضمهما للباقين، أى حافتى الجبلين بتنضيد ما ذكر ووضع المنافخ والنار حول ذلك ﴿قَالَ﴾ للعملة ﴿انْفُخُوا﴾ النار فى الحديد أو فى الأكوار فنفخوا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ﴾ أى المنفوخ فيه ﴿نَارًا﴾ كالنار ﴿قَالَ آتُونِي﴾ بقطع الهمزة للجمهور وبوصلها لحمزة وبالوجهين لشعبة ﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ نحاساً مذاباً لأنه يقطر، تنازع فيه الفعلان وحذف من الأول لإعمال الثانى ولو أعمل الأول لأضمر فى الثانى فأفرغ النحاس المذاب على الحديد المحمى فدخل بين زبره موضع الفحم والحطب فصار شيئاً واحداً. روى أنه حفر للأساس حتى بلغ الماء وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم كما تقدم فاختلط والتصق وصار جبلا صلداً لا يقدرون عليه، طول ما بين السدين مائة فرسخ وعرض الردم خمسون ذراعا وارتفاعه مائتا ذراع وهو كالبرد المحبر طريقة حمراء وطريقة سوداء. والله أعلم ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ أى يأجوج ومأجوج ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ يعلو ظهره لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ خرقاً من أسفله لصلابته وسمكه وقرأ حمزة فما اسطاعوا بالإدغام فى الأول جامعاً بين الساكنين على غير حده ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿هَٰذَا﴾ السد أى الإقدار عليه ﴿رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ نعمة على عباده لأنه مانع من خروجهم أى ليس لى عليكم منة فيه لأنه من ربى لأمتى ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أى وقت وعده بخروجهم القريب من البعث ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ مدكوكا مبسوطا من دككت الشيء سويته بالأرض، وقرأ الكوفيون دكاء بالمد أى أرضاً مستوية ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بخروجهم وغيره ﴿حَقًّا﴾ كائناً لا محالة وهذا آخر حكاية قول ذى القرنين وفيه مع ما بعده حسن التخلص، قال تعالى ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ أى يأجوج ومأجوج

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم خروجهم ﴿ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ يختلط به لكثرتهم مزدحمين فى البلاد حتى يهلكهم الله ، أو تركنا بعض الخلق يومئذ يختلطون إنسهم وجنهم حيارى ويؤيده ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ لقيام الساعة ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ ﴾ أى الخلائق فى مكان واحد يوم القيامة ﴿ جَمْعًا ﴾ للحساب والجزاء ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ ﴾ أبرزناها وأظهرناها وقربناها ﴿ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ يشاهدونها : وبرزت الجحيم لمن يرى ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ﴾ بدل من الكافرين والأعين كناية عن البصائر ﴿ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾ القرآن أو الآيات فى الآفاق والأنفس المؤدية إلى ذكرى بكل جميل من التوحيد والتعظيم ، والغطاء التغافل والإعراض عن التأمل فيها ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ لا يقدرون أن يسمعوا من النبي ما يتلى عليهم بغضاً له فلا يؤمنون به وهذا أبلغ من قوله صمٌّ لأن الأصم إذا صيح به قد يستطيع السمع وهؤلاء قد سلب عنهم الأقتدار ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي ﴾ ملائكتى وعيسى وعزيرا ﴿ مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ معبودين والفاء عاطفة على « كانت » والمعنى أبعد ذلك التعامى والتصامم اعتقدوا أن ولاية من ذكر نافعهم فوضع الظاهر موضع الضمير دلالة على أن منشأ ذلك الحسبان هو الكفر ، و « أولياء » مفعول ثان ليتخذوا والمفعول الثانى لحسب محذوف هو الكفر ، أى ظنوا أن الاتخاذ المذكور نافعهم أو لا أعاقبهم عليه كلا ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ ﴾ هؤلاء وغيرهم ﴿ نُزُلًا ﴾ أى هى معدة لهم كالنزل المعد للضيف وفيه تهكم بهم ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ تميز جمع لموافقة المميز وللدلالة على الأنواع وأن كل نوع كاف فى زيادة خسرانهم وبينهم بقوله ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ بطل عملهم كالرهبانية وصلة الرحم ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ خسروا دنياهم وأخراهم ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ عملا يجازون عليه باتفاقهم على أنواع العبادات مع فوات شرائطها ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ دلائل توحيده من القرآن وغيره ، مستأنف جار مجرى العلة ﴿ وَلِقَائِهِ ﴾ أى وبالبعث والحساب والثواب والعقاب ﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ بكفرهم فلا يثابون عليها ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ ميزاناً لعملهم إذ ليس لسيئاتهم مقابل بخلاف الموحد أو هو كناية عن الازدراء بهم أى لا نجعل لهم قدراً ، يقال ليس لفلان عند الملك وزن أى مقدار . وعن أبى هريرة : إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة فاقرأوا إن شئتم « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » . والحاصل أن وزن أعمال المؤمنين متفق عليه واختلف فى الكافرين بسبب اختلاف النصوص « وأما من ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون وأما من خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون » وغيرها مع هذه « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » ، وجمع بأن عدم الوزن عدم القدر أى سواء وزن أعمالهم وتركه . قال شيخ شيوخنا طاهر ابن إبراهيم فى نظم الكبرى :

ووزنُ أعمال أولى الإيمانِ ◦ بلا نزاع وأولى الكفرانِ

تَعارضُ النصوصِ فيهم اقتضا ◦ الخلفَ لكن وجهُ جمعِها أضا

يا إنما المنفى نفعُه فنَمْ ◦ بلا نعيم أى سواء والعدَمْ

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى الأمر الذى ذكرته من حبوط أعمالهم وغيره ﴿ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ جملة مبينة لما قبلها ﴿ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ مهزوءاً بهما ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ ﴾ فى علم الله ﴿ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ ﴾ هو أوسط الجنة وأعلاها ، والإضافة إليه للبيان وأصله البستان الذى يجمع الكرم والنخل ﴿ نُزُلًا ﴾ منزلا . روى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة » ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال مقدرة ﴿ لَا يَبْغُونَ ﴾ لا يطلبون ﴿ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ تحولا إلى غيرها لانقطاع الأمانى فلا مطلب بعدها إذ لا يجدون أطيب منها ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ ﴾ ماؤه ﴿ مِدَادًا ﴾ يكتب به ، أصله ما يمد به الشىء كالحبر للدواة والسليط للسراج ﴿ لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ الدالة على حكمه وعجائبه باق يكتب به ﴿ لَنَفِدَ الْبَحْرُ ﴾ لأنه متناه ﴿ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ ﴾ بالتأنيث للجمهور والتذكير لحمزة والكسائى أى تفرغ ﴿ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ لأنها غير متناهية ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ أى البحر ﴿ مَدَدًا ﴾ زيادة وعوناً فيه لنفد ولم تفرغ هى ونصبه على التمييز ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ لا أدعى الإحاطة على كلماته حتى آتيكم بجميع ما تسألون ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أن المكفوفة بما باقية على مصدريتها ، المعنى : إنما تميزت عنكم بكونى يوحى إلىّ ، وحدانية الإله ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ يأمل حسن لقائه بالبعث والجزاء ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ يرتضيه الله ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ﴾ أى فيها بأن يرائى أو يطلب منه أجراً ﴿ أَحَدًا ﴾ روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا جمع الله الناس يوم القيامة نادى مناد من كان أشرك فى عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء » وروى أن جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأعمل العمل لله فإذا اطلع عليه سرنى . فقال : إن الله لا يقبل ما شورك فيه . فنزلت الآية تصديقاً له ، وقوله « قل إنما أنا بشر » إلى آخره ردّ لطعن الكفار له لما أبطأ فى جواب السؤال الذى هو سبب نزول السورة فانتظم آخرها بأولها والله أعلم . قال الثعالبى فى الجواهر الحسان : ومما جربته من خواص هذه السورة أن من أراد أن يستيقظ أى وقت شاء فليقرأ عند نومه من قوله «أفحسب الذين» إلى آخر السورة فإنه يستيقظ بإذن الله فى الوقت الذى نواه ولتكن قراءته عند آخر ما يغلبه النعاس بحيث لا يتجدد له عقب القراءة خواطر هذا مما لا شك فيه وهو من عجائب القرآن المقطوع بها والله الموفق بفضله .

[تم تفسير سورة الكهف]

سورة مريم

مكية أو إلا سجدتها فمدنية أو إلا «فخلف من بعدهم خلف .. الآيتين»
وهى ثمان أو تسع وتسعون آية

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٭ كٓهيعٓصٓ﴾ الله أعلم بمراده بذلك. أمال نافع ألف ها ويا بين بين وبشبع المد فى الكاف والصاد اتفاقاً ولا بمد الهاء والياء اتفاقاً وفى العين الوجهان والمد أفضل ، وأظهر نافع وابن كثير وعاصم دال صاد عند الذال والباقون يدغمون. هذا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ﴾ وذكر خبر محذوف أى هذا المتلو أو مبتدأ أى حذف خبره فيما يتلى عليك ذكر رحمة ربك ، وعبده مفعول رحمة أو لذكر على أن الرحمة فاعلة على الاتساع كقولك ذكرنى جود زيد ﴿زَكَرِيَّآءَ﴾ بيان له أو بدل ، وقرأ حمزة والكسائى وحفص بالقصر ﴿إِذْ﴾ متعلق برحمة ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً﴾ مشتملا على دعاء ﴿خَفِيًّا﴾ سراً فى محرابه جوف الليل لأنه أسرع للإجابة وأبعد عن الرياء وأولى بالإخلاص أو لئلا يلام على طلب الولد فى إبان الكبر أو لأن ضعف الهرم أخفى صوته ، والنداء ممدوداً مطلق الصوت والمقيد بالارتفاع هو المقصور فلا ينافى الإخفاء ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ أى ضعف وأحرى غيره ، وخصه لأنه عمود البدن فإذا وهن كان على غيره أوهن وأفرده لإرادة الجنس وجملة «قال» تفسير للنداء ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ﴾ أى شعره ﴿شَيْبًا﴾ تمييز محول من الفاعل أى انتشر الشيب فى شعره كما ينتشر شعاع النار فى الحطب ، شبه الانتشار بالاشتعال بجامع الفشو والظهور وأخرج فى صورة الاستعارة مبالغة ، والقرينة إسناد الاشتعال إلى الرأس أو شبه الشيب بالنار والجامع الانبساط فالاستعارة على كل حال مكنية والاشتعال تخييل ، وإنما أطنب لأن مقام إظهار العجز يقتضيه ولولا ذلك لكفى أن يقول رب شخت وإنى أريد أن أدعوك ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ﴾ أى بدعائى إياك ﴿رَبِّ شَقِيًّا﴾ أى خائباً فيما مضى فلا تخيبنى فيما يأتى فطلب الولد من مثلى وإن لم يكن معتاداً فإجابتك لى بجودك معتادة عندى. وقف سائل على كريم فقال له من أنت؟ فقال أنا الذى أحسنت إليه وقت كذا فقال مرحباً بمن توسل إلينا بنا ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ﴾ الذين يلون الأمر ﴿مِن وَرَآءِى﴾ بعد موتى يعنى بنى عمه وكانوا شرار بنى إسرائيل فخاف أن لا يحسنوا خلافته فى أمته ويبدلوا عليهم دينهم كما شهده فى أكثر بنى إسرائيل. وعن ابن كثير المد والقصر بفتح الياء فى «من ورائى» وهو متعلق بمعنى الموالى أو بمحذوف أى فعل الموالى لا بـ «خفت» لفساد المعنى. ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى﴾ وهى أشياع بنت فاقود أخت حنة أم مريم أو أشياع بنت عمران أخت مريم ،

فعليه يحيي ابن خالة عيسى وعلى الأول ابن خالة أمه ويدل على الثانى حديث «فإذا أنا بابنى الخالة» والله أعلم ﴿ عَاقِرًا ﴾ لا تلد فيما مضى ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ﴾ من كمال قدرتك التى تخترع بها الأشياء وإن لم يكن حصول الولد من العاقر والشيخ متعارفا ﴿ وَلِيًّا ﴾ ولدا من صلبي ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ ﴾ برفعهما للجمهور صفتان لوليا وبجزمهما لأبى عمرو والكسائى على جواب الأمر أى إن وهبته لى يرثنى ويرث ﴿ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ابن إسحاق النبوة والعلم لأن الأنبياء لا يورثون المال ومن للتبعيض لأن آله ليسوا كلهم أنبياء ولا علماء وقيل يعقوب هذا هو ابن ماثان أخو عمران من نسل سليمان عليهم السلام ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ مرضيا عندك قولا وعملا أو راضيا بقضائك قال تعالى فى إجابة طلبه الابن الحاصل به رحمته ﴿ يَا زَكَرِيَّاهُ ﴾ هو ابن برخيا. أو آذن وتقدم للنسب فى آل عمران ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ﴾ يرث كما سألت ﴿ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾ لأنه يحيي به الدين تولى تسميته تشريفا له وهذه البشارة على لسان الملائكة كما تقدم فى فنادته الملائكة إلى أن الله يبشرك ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أى مسمى بيحيي أو شبيها كقوله هل تعلم له سميا لأن المتماثلين يتشاركان فى الاسم ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى ﴾ كيف ﴿ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ جساوة وتحولا فى المفاصل من عتى يبس أى بلغ نهاية السن مائة وعشرين سنة وبلغت امرأته ثمانى وتسعين سنة وأصل عتيا عتوو كسر التاء تخفيفا وقلبت الواو الأولى ياء لمناسبة الكسرة والثانية ياء لتدغم فيها الياء. وقرأ حمزة والكسائى وحفص بكسر العين على الاتباع ﴿ قَالَ ﴾ الله أو الملك المبلغ الأمر ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ من خلق غلام منكما ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ وإن كان مستبعدا عادة ويجوز أن يكون الكاف فى كذلك فى محل نصب مفعول قال الثانى وهو مع مفعوله مفعول الأول وقوله «هو على هين» مفسر لما أشير إليه بذلك والخطاب لزكريا لقوله ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ قبل خلقك وفيه دليل على أن المعدوم ليس بشىء. وقرأ حمزة والكسائى خلقناك ولإظهار الله هذه القدرة العظيمة ألهمه السؤال ليجاب بما يدل عليها ولما تاقت نفسه إلى سرعة المبشر به ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾ علامة على حمل امرأتى ليتيسر على القيام بشكرك ﴿ قَالَ آيَتُكَ ﴾ عليه ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ﴾ أى تمنع من كلامهم بخلاف ذكر الله تعالى ﴿ ثَلَاثَ لَيَالٍ ﴾ مع أيامها كما فى آل عمران ثلاثة أيام ﴿ سَوِيًّا ﴾ صحيحا. لا آفة بك من مرض أو بكم وهو حال من فاعل تكلم ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾ أى المسجد وكانوا ينتظرون فتحه ليصلوا فيه بأمره على العادة فاعتقل لسانه عن الكلام معهم وإذا أراد ذكر الله انطلق لسانه ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أى أشار لقوله «إلا رمزا» وعن ابن عباس كتب على الأرض قال ابن عطية وكلاهما وحى ﴿ أَن سَبِّحُوا ﴾ صلوا أو نزهوا الله ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أوائل النهار وأواخره على العادة فعلم بمنعه من كلامهم حملها بيحيي وأن مفسرة لأن الوحى فيه معنى القول أو مصدرية. وبعد ولادته وبلوغه حد الفهم قال تعالى له ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ بجد واستظهار بالتوفيق ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ ﴾ النبوة

وفهم أحكام التوراة ﴿ صَبِيًّا ﴾ ابن ثلاث سنين قيل دعاه أترابه إلى اللعب فقال ما للعب خلقنا . وعن ابن عباس : من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتى الحكم صبيا ﴿ وَحَنَانًا ﴾ رحمة للناس ﴿ مِنْ لَدُنَّا ﴾ من عندنا وبركة يتبركون به ﴿ وَزَكَوٰةً ﴾ صدقة عليهم يزكون به أو طهرة لهم يطهرون به من الذنوب أو جعلناه طاهرا ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ شديد التقى . روى أنه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها وطعامه العشب وللدمع فى خده مجار ثابتة ﴿ وَبَرًّا ﴾ شديد البر ﴿ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ بالإحسان إليهما ﴿ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا ﴾ متكبرا يجبر الناس على ما أراده ﴿ عَصِيًّا ﴾ عاصيا لربه نفى صريحا ما علم ضمنا مبالغة فى وصفه وآثر عصيا على عاصيا مع كونه أوفق مراعاة لرءوس الآى ﴿ وَسَلَٰمٌ ﴾ منا ﴿ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ من أن يناله الشيطان بما ينال به بعض بنى آدم ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ من شدائد الموت وعذاب القبر ﴿ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ من أهوال القيامة وعذاب النار أى هو آمن فى هذه الأيام المخوفة التى يرى فيها الانسان ما لم يره قبلها وهو ثناء عليه وإخبار بأن خاتمته على وفق فطارته التى يولد عليها . ثم أتبع قصته بقصة مريم لأنها أغرب ترقيا فقال ﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَٰبِ ﴾ القرآن ﴿ مَرْيَمَ ﴾ ابنة عمران أى خبرها ﴿ إِذِ ﴾ حين ﴿ انتَبَذَتْ ﴾ اعتزلت بدل من مريم بدل اشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها أو بدل الكل لأن المراد بمريم قصتها وبالظرف الأمر الواقع فيه وهما واحد وإذ بمعنى أن المصدرية ﴿ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ فى مكان نحو الشرق من دارها أو من بيت المقدس ولذا اتخذ النصارى المشرق قبلة ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ أرسلت سترا تستتر به لتفلى رأسها أو ثيابها أو تغتسل من حيضها وهى الحيضة الثانية منها وكانت تتحول إلى بيت خالتها إذا حاضت وتعود إلى المسجد إذا طهرت ، وقيل اعتزلت لتعبد الله . قال ابن عطية : وهذا أحسن ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ جبريل ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ تام الخلق إذ لو بدا لها فى صورته لم تقدر على رؤيته وسماع كلامه ﴿ قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ ﴾ آثرت اسم الرحمن إذ له موقع لا يخفى ﴿ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ فتنتهى عنى بتعوذى لأن التقوى هى الملاك فى مثل ذلك المقام لبعدها عن الناس أو أعوذ منك إن كنت تقيا فكيف إذا لم تكن كذلك ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ الذى استعذت به ﴿ لِأَهَبَ لَكِ ﴾ بالياء لورش وقالون بخلاف عنه وأبى عمرو وبالهمزة للباقين ﴿ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ بالنبوة أو طاهرا من الذنوب أو ناميا على الخير والصلاح ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ بتزوج ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ زانية فعول إذ لو كان فعيلا لقيل بغية ﴿ قَالَ ﴾ الأمر ﴿ كَذَٰلِكِ ﴾ من خلق غلام منك من غير أب ﴿ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ أى لأنه على هين وفى إيثار الاسمية دلالة على لزوم الهون إزالة للاستبعاد ولكون ما ذكر فى معنى العلة عطف عليه ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ على قدرتنا ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ لمن آمن به ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ به فى علمى كائنا لامحالة فهو من تتمة العلة فنفخ جبريل فى جيب درعها نفخا من بعيد فوصل الريح إليها فأحست بالحمل فى بطنها مصورا ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ ولها ثلاث عشرة أو عشر سنين أو عشرون ﴿ فَانتَبَذَتْ ﴾ تنحت ﴿ بِهِۦ ﴾ وهو فى

بطنها والجاز والجرور فى موضع الحال ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيدا من أهلها فرارا منهم وحياء ﴿فَأَجَاءَهَا﴾ ألجأها ﴿الْمَخَاضُ﴾ وجع تحرك الولد فى البطن للولادة. ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة وهو مابين العرق إلى الغصن وكانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا خضرة فيها وكان الوقت شتاء. والتعريف للجنس أو للعهد إذ لم يكن هناك غيرها فاخضرت وأثمرت رطبا لما اعتمدت عليها وولدت. والحمل والتصوير والولادة فى ساعة وقيل غير ذلك، ولعله تعالى ألهمها اللجأ إليها ليريها من آياته ما يسكن روعها ويطعمها الرطب الذى هو طعامها خرسة النفساء الموافقة لها وشأن النخل أن لا يثمر بدون التلقيح فإذا رأوا ذلك ارتدعوا عن اتهامها وأيقنوا بأن شأنها فى الولادة من غير زوج شأن النخلة من غير تلقيح فى غير أوان الثمر ﴿قَالَتْ يَا﴾ للتنبيه ﴿لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ الأمر حياء من الناس لا كراهة لحكم الله. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر مت بضم الميم من مات يموت ﴿وَكُنْتُ نِسْيًا﴾ بكسر النون للجمهور ما من شأنه أن ينسى لحقارته وبفتحها لحمزة وحفص لغتان أو المفتوح مصدر سمى به ﴿مَنْسِيًّا﴾ متروكا لا يعرف ولا يخطر بالبال تمنت الموت خوفا من أن تفتتن فى دينها بسبب تعيير قومها وتمنى الموت على هذا مباح وعلى هذا الحد تمناه عمر رضى الله عنه قال الثعالبى رحمه الله ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ بكسر الميم حرف جر لنافع وحمزة والكسائى وحفص وفى نادى ضمير جبريل أو عيسى وبفتحها للباقين موصول فاعل نادى أى من كان أسفل منها لأنها كانت فوق جبل وجبريل أسفل منها أو من تحت ثيابها وهو عيسى وقيل الضمير للنخلة فى تحتها ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ فأن مفسرة أو مصدرية أى لا تحزنى أو بأن لا تحزنى ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ نهر ماء كان انقطع هكذا روى مرفوعا وقيل سيدا من السرو وهو عيسى عليه السلام، وعلى الاول فمعنى جعله تحتها تحت أمرها إن أمرته أن يجرى جرى وإن أمرته بالإمساك أمسك ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أى أميليه إليك والباء صلة للتأكيد أو افعلى الهز به أو هزى الثمرة بهزه وهذا الجذع كان فى بيت لحم اسم مكان معروف، قال ابن العربى فى أحكامه: دخلت بيت لحم سنة خمس وثمانين وأربعمائة فرأيت فى متعبد النصارى غارا عليه جذع يابس كان رهبانهم يذكرون أنه جذع مريم بإجماع منهم فلما كان فى المحرم سنة اثنين وتسعين دخلت بيت لحم قبل استيلاء الروم عليه بستة أشهر فرأيت الغار فى المتعبد خاليا من الجذع فسألت الرهبان عنه فقالوا نخر وتفتت ﴿تَسَّاقَطْ﴾ أصله تتساقط ادغمت التاء الثانية فى السين ولحمزة حذفها ولحفص تساقط مضارع ساقط وليعقوب بالياء. وقرئ تتساقط وتسقط ويسقط فالتاء للنخلة والياء للجذع ﴿عَلَيْكِ رُطَبًا﴾ تمييز فى بعض القراءات ومفعول فى بعضها ﴿جَنِيًّا﴾ صفته ﴿فَكُلِي﴾ من الرطب، وقيل ما للنفساء خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل، وقيل إذا عسر الولادة لم يكن لذات الطلق خير من الرطب ﴿وَاشْرَبِي﴾ من السرى أو من عصير الرطب ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ بالولد أو بما تيسر لك من الأكل والشرب تمييز محول من الفاعل أى لتقر عينك به من القر وهو البرد لأن دمعة السرور باردة ودمعة

الحزن حارة ولذا يقال قرة العين للمحبوب وسخنتها للمكروه ﴿ فَإِمَّا ﴾ فيه إدغام نون إن الشرطية فى ما المزيدة ﴿ تَرَيِنَّ ﴾ حذفت منه لام الفعل وعينه وألقيت حركتها على الراء وكسرت ياء الضمير لالتقاء الساكنين ﴿ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ فسألك عن ولدك ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ صمتاً وإمساكا عن الكلام فى شأنه وغيره من الأناس بدليل ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ بعد أن أخبرتكم بنذرى وإنما أكلم الملائكة وأناجى ربى ، وقيل أخبرتهم بنذرها بالإشارة وأمرها بذلك لكراهة المجادلة والاكتفاء بكلام عيسى فإنه قاطع فى قطع الطاعن ، وقيل صوماً على بابه والكلام حرام عندهم على الصائم ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا ﴾ حال كونها ﴿ تَحْمِلُهُ ﴾ بعد ما طهرت من النفاس فرأوه ﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ منكراً عظيما بديعاً وأصل الفرى القطع كأنها اخترعته من عندها حيث أتت بولد من غير أب ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ أرادوا أخا موسى لأنها كانت من نسله على قول السدى كقولهم يا أخا العرب أى واحداً منهم وبينهما ألف سنة وقيل كان فى زمانها رجل صالح يسمى هارون شبهوها به حقيقة لما علوا قبل من صلاحها أو تهكما أو رجل طالح شتموها به ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ﴾ زانياً ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ زانية فمن أين سرى إليك تقرير بأن ما جاءت به فرىّ ، وتنبيه على أن الفواحش من أولاد الصالحين أفحش ﴿ فَأَشَارَتْ ﴾ لهم ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أن كلموه ليجيبكم ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ ﴾ وجد ﴿ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أو كان زائدة والظرف صلة « مَن » و « صبياً » حال من المستكن فيه ، فلما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع واتكأ على يساره فقال له زكرياء وهو فيهم انطق بحجتك إن كنت أمرت ﴿ قَالَ ﴾ مشيراً بسبابته اليمنى ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ أقر على نفسى بالعبودية له ، كان هذا أول كلامه تكذيباً لمن يدعى فيه الألوهية ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ الإنجيل أى قضاه وينفذه بحكمته ، والتعبير بالماضى لتحقق وقوعه ، وقيل استنبأه فى ذلك الوقت طفلا لظاهر قوله ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ فى ذلك الوقت أو فيما يأتى والأكثرون على الأول ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ﴾ نفاعا للناس ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ حيثما توجهت بأمور الدنيا والدين ﴿ وَأَوْصَانِي ﴾ أمرنى ﴿ بِالصَّلَاةِ ﴾ المفروضة أو الدعاء ﴿ وَالزَّكَاةِ ﴾ للمال أو تطهير النفس عن الرذائل ، وإيثار الإيصاء على الأمر للدلالة على اللزوم حتما ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ دوام حياتى ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ عطف على مباركا ، وتوسيط الأمر بالصلاة والزكاة للاهتمام أو منصوب بجعلنى مقدراً ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا ﴾ متكبراً متعاظما على الناس ﴿ شَقِيًّا ﴾ عنده من فرط تكبره يذنب ولا يتوب ﴿ وَالسَّلَامُ ﴾ من الله ﴿ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ يقال فيه ما تقدم فى يحيى ، واللام للجنس تعريضاً باللعن على أعدائه كقوله « والسلام على من اتبع الهدى » تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى ، فلما كلمهم بهذا الكلام وعلموا براءة أمه مريم سكت ولم يتكلم بعد ذلك حتى بلغ المدة التى يتكلم فيها الصبيان ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المقر بالعبودية الموصوف بصفات الكمال هو ﴿ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ لا ما يصفه النصارى بالألوهية ولا ما يصفه اليهود بولد الزنا

﴿ قَوْلُ الْحَقِّ ﴾ بالرفع لنافع وابن كثير وأبى عمرو أى كلة الله وهو خبر بعد خبر أو بدل أو خبر مبتدإ محذوف أى قول ابن مريم قول الحق ، وبالنصب للباقين مصدر مؤكد أى قلت لكم فى شأنه قول الصدق ﴿ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يشكون من المرية أو يجادلون أى اليهود والنصارى من المراء فى قول اليهود ساحر والنصارى ابن الله ، كذبوا ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ﴾ استئناف لتكذيب النصارى ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهاً له عن ذلك ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا ﴾ أراد أن يحدثه ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ بالرفع للجمهور كما تقدم بتقدير هو ، وبالنصب لابن عامر بتقدير أن على الجواب ، ومن ذلك خلق عيسى ابن مريم بغير أب ، وهذا تبكيت للنصارى بأن من إذا أراد شيئاً أوجده بكن كان منزهاً عن شبه الخلق والحاجة إلى الولد ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ بفتح « أن » لنافع وأبى عمرو وابن كثير بتقدير اللام أو عطفاً على الصلاة ، وبكسرها لابن عامر والكوفيين على الاستئناف أو تقدير القول بدليل « ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله » ﴿ هَٰذَا ﴾ المذكور ﴿ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ لا زيغ فيه مؤد إلى الجنة وما خالفه زائغ مؤد إلى النار ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ ﴾ لبنى إسرائيل ﴿ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ فى تكذيبه وتصديقه أو الذين تحزبوا بعد رفعه وهم النصارى أهو ابن الله أو إله معه أو ثالث ثلاثة فكفروا بذلك ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ شدة عذاب ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بما ذكر وغيره ﴿ مِنْ مَشْهَدِ ﴾ أى شهود ﴿ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هوله ومشهد مصدر أو زمان أو مكان من الشهود فالإضافة بمعنى فى على الاتساع أو مكان الشهود فيه وهو الموقف فالإضافة للملابسة أو وقت الشهود : فالإضافة بمعنى من أو من الشهادة مصدر أو زمان أو مكان والمعنى من شهادة الأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم عليهم بالمعاصى أو من وقت الشهادة أو من مكانها والإضافة على التفصيل المتقدم ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ بهم صيغتا تعجب بمعنى ما أسمعهم وأبصرهم ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ فى الآخرة حين لا ينفعهم السمع والبصر لكونهم فى الدنيا صما وعميا والمعنى شأنهم حقيق بأن يتعجب منه المتعجبون ، وقيل لا تعجب بل خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أن يسمعهم مواعيد ذلك اليوم ويبصرهم والجار والمجرور على الأول فى موضع الرفع وعلى الثانى فى موضع النصب ﴿ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ ﴾ الكاملون فى الظلم ﴿ الْيَوْمَ ﴾ أى فى الدنيا ﴿ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى بين به صموا عن سماع الحق وعموا عن إبصاره أوقع الظالمين موقع هم إشعاراً بأنهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين ينفعهم ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ للمسىء على إساءته والمحسن على عدم زيادة إحسانه هو يوم القيامة أو يوم الموت ﴿ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وذبح الموت ، وإذ بدل من اليوم أو ظرف للحسرة ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ عنه فى الدنيا ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ به حال من الضمير فى الظرف فى قوله « فى ضلال » و « أنذرهم » اعتراض يؤكد ما هم فيه من الضلال أو متعلق بأنذرهم أى أنذرهم غافلين غير مؤمنين حالان فيهما معنى التعليل ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ تأكيد ﴿ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ فى ذلك اليوم

لا ملك ولا مُلك فيها لأحد منهم ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ فيه للجزاء ثم كذب المشركين من اليهود والنصارى وأهل مكة المنتسبين إلى قدوة الموحدين إبراهيم عليه السلام بقوله ﴿ وَاذْكُرْ ﴾ لهم ﴿ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فاتل عليهم خبره ليتبين كذبهم فى الاقتداء به ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً ﴾ كثير التصديق لآيات الله وكتبه ورسله ﴿ نَبِيًّا ﴾ مخبراً عن الله ، من باب الترقى لأن النبوة أعلى فذكر له الصديقية تمهيداً لها ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ بدل من إبراهيم ، وما بينهما اعتراض أو متعلق بكان أى كان جامعاً بين الوصفين وقت دعوة أبيه أو بصديقاً وهو دليل على كمال صدقه فى نصحه ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ آزر ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ تاء تأنيث لحقت المنادى عوضاً عن المضاف إليه وقف عليها ابن كثير وابن عامر بالهاء ونافع والباقون بالتاء مراعاة للرسم ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ ﴾ فيسمع ذكرك ﴿ وَلَا يُبْصِرُ ﴾ فيرى خضوعك ﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾ فى جلب نفع ودفع ضر، لم يصرح لأبيه بخطئه مع كونه موقناً به مراعاة للأدب بل سأله سؤال منبه على تماديه فى الغى مشيراً إلى أن المعبود لو كان سميعاً بصيراً نافعاً ضاراً إلا أنه مخلوق لا يستحق العبادة لأن العبادة غاية الخضوع فلا يستحقها إلا من له غاية الكبرياء والعلو فكيف بجماد لا شعور له بعبادة من يعبده فضلا عن الثواب أو دفع العقاب ، ثم دعاه إلى الحق برفق فقال ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ مستقيما ، لم يسمه جاهلا ولا وصف نفسه بالعلم الفائق بل إن عنده شيئاً من العلم وذلك علم الدلالة على الطريق السوى ، وكأنه قال هب أنى وإياك فى مسير إلى مقصد ولى علم بطريقه فلا تستنكف عن اتباع الدليل فإنه أمر متعارف لم يزل دأب الملوك فى قطع الفيافى والمفاوز يقتدون بالأدانى ولا يرون أن ذلك يعود عليهم بنقص ، ثم ثبطه عن عبادة غير الله بأنه يضر لأنه عبادة الشيطان بقوله ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ ثم استهجنه بقوله ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ﴾ كثير العصيان فلا تتخذ عدو الله صديقاً فينتقم منك ولذا عقبه بقوله ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ إن لم تتب ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ ناصراً وقريناً فى النار ، وعدم جزمه العذاب وذكره بالمس الدال على القلة مع تنكيره تأدبٌ منه لأبيه أو لخفاء العاقبة ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ قابل استعطافه فى الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد فناداه باسمه ولم يقل يا ابنى وأخره وقدم الخبر على المبتدأ وصدره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة على ضرب من التعجب كأنها مما لا يرغب عنها عاقل فهو أم رأى عنده . قال فى غاية الأمانى : والأولى جعل « أراغب » مبتدأ و « أنت » فاعل سد مسد الخبر لئلا يقع الفصل بين أراغب ومعموله بالأجنبي . اهـ . ثم هدده بقوله ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ ﴾ عن مقالك فيها أو الرغبة عنها ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ لأبعدنك بلسانى بالشتم والذم أو بالحجارة حتى تموت أو تبعد منى ، فاحذرنى ﴿ وَاهْجُرْنِي ﴾ معطوف على محذوف كما قدرنا ﴿ مَلِيّاً ﴾ دهراً طويلا بالذهاب عنى ، من الملاوة ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ منى لا أصيبك بمكروه ولا أقول لك بعد ما يؤذيك ، توديع ومقابلة للسيئة بالحسنة

والجهل بالحلم لا بمعنى التحية ، وهذا قول الجمهور لأنهم لا يرون ابتداء الكافر بالسلام فهى مسالمة بالحسنى « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ سأطلب أن يوفقك للتوبة وقد وفى بوعده فى قوله « واغفر لأبى » وهذا قبل أن يتبين له أنه عدو لله كما فى براءة ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ بليغاً فى البر والإلطاف فيجيب دعائى ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ بالهجرة بدينى ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾ أعبده وحده ﴿ عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ خائباً ضائع السعى مثلكم فى دعاء آلهتكم ، وفى إيشار عسى إشارة إلى أن العبادة أمارة النجاة لا جزم معها وفيه هضم النفس مع التعريض ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ ﴾ بأن ذهب من أرض كوثى من العراق إلى الأرض المقدسة مع امرأته سارة وابن أخيه لوط ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ﴾ من امرأته سارة بعد إسماعيل من هاجر التى أخدمها الملك الجبار لسارة فى سفرته تلك بالهجرة كما فى الحديث الصحيح الطويل فأعطتها لإبراهيم فولدت له إسماعيل ثم وهب إسحق ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ بعده ابن إسحق وخصهما بالذكر لأنهما شجرتا الأنبياء أو لأنه أراد أن يذكر إسمعيل بفضله على الانفراد ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ أبدله الله لما هاجر من الكفار أولاداً صالحين يتأنس بهم ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ ﴾ للثلاثة إبراهيم وابنيه ﴿ مِنْ رَحْمَتِنَا ﴾ النبوة والأولاد والأموال ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ ثناء حسناً فإن اللسان مظهره ﴿ عَلِيًّا ﴾ رفيعاً فى جميع أهل الأديان وبيته معظم فى جميع الأمم ومامن محق ومبطل إلا وهو يدعى أنه من حزبه ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا ﴾ بكسر اللام للجمهور عمله من الشرك والرياء وبفتحها للكوفيين أخلصه الله من الدنس واختاره ﴿ وَكَانَ رَسُولًا ﴾ إلى الخلق ﴿ نَبِيًّا ﴾ بشيراً ونذيراً أى أرسله الله إلى الخلق فأنبأهم عنه ولذا قدم رسولا مع أنه أخص وأعلى قاله البيضاوى ، ويحتمل أن يكون « نبياً » حالا ﴿ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ بقول « ياموسى إنى أنا الله » ﴿ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ ﴾ اسم جبل ﴿ الْأَيْمَنِ ﴾ الكثير البركة لسماعه الوحى من جهته أو الذى يلى يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ ﴾ رتبة وشرفاً ﴿ نَجِيًّا ﴾ مناجى بأن أسمعه الله تعالى كلامه فشبه بمن قربه الملك لمناجاته ، وقيل رفع فوق السموات ولا يثبت ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا ﴾ من أجلها أو بعضها ﴿ أَخَاهُ هَارُونَ ﴾ بدل أو بيان أخاه أى مؤازرته إجابة لدعوته « واجعل لى وزيراً من أهلى » وهو مفعول أو بدل على تقدير أن يكون « من » للتبعيض ﴿ نَبِيًّا ﴾ حال منه هى المقصودة بالهبة وكان هرون أسن من موسى بسنتين ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ ابن إبراهيم ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ لم يعد شيئاً إلا وفى به وناهيك أنه وعد الصبر على الذبح فوفى به وانتظر من وعده ثلاثة أيام أو حولا حتى رجع إليه فى مكانه : وصف له بما غلب عليه وفاق به وإن كان جميع الأنبياء مشتركون فى صدق الوعد ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ إلى قومه الذين أمهم من جرهم بن قحطان قبيلة من اليمن ، وفيه دليل على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب كتاب وشريعة مستقلة ، وقدم الرسول لأن الإنباء عن الله موقوف

على الرسالة منه أو ليوافق رؤوس الآى ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ ﴾ أمته لأنهم أهل دينه أو أهل بيته خاصة ﴿ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ اشتغالا بالأهم وهو أن يقبل الرجل على نفسه ومن هو أقرب الناس إليه بالتكميل لقوله تعالى «وأنذر عشيرتك الأقربين» فإنهم أولى بالبر والإحسان ولأنهم إذا صلحوا اقتدى بهم غيرهم ولقوله قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴿ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ لإتيانه بما يرضيه من الاستقامة فى الأقوال والأفعال ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ﴾ وهو سبط شيث وجد أبى نوح عليهما السلام واسمه أخنوخ وإدريس لقب له ثبت له لكثرة درسه ولا يمنعه كونه عجميا لجواز أن يكون من توافق اللغتين. روى أن الله أنزل عليه ثلاثين صحيفة وهو أول من خط بالقلم وخاط الثياب وكانوا يلبسون الجلود قبله وأول من نظر فى علم النجوم والحساب وأول من اتخذ السلاح ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ه وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ بالنبوة والزلفى أو بالحس وهو حى فى السماء الرابعة أو السادسة أو السابعة وأما مايلفقه القصاص من أنه آخى ملك الموت وأماته وأدخله الجنة فهو فيها فكذب مختلق لأن أول من يدخل الجنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمته قاله فى غاية الأمانى ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ المذكورون من زكريا إلى إدريس: مبتدأ ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ بأنواع النعم الدينية والدنيوية صفة للمبتدأ أو خبر له ﴿ مِنَ النَّبِيِّينَ ﴾ بيان الموصول وهو فى معنى الصفة وما بعده إلى جملة الشرط صفة للنبيين وقوله ﴿ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾ بدل بإعادة الجار أو من تبعيضية لأن ذريته أعم من الأنبياء والكل داخلون فى المنعم عليهم لأنهم أعم من الأنبياء وأخص من الذرية، أى إدريس عليه السلام ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ أى ومن ذرية من حملنا مع نوح فى السفينة يعنى إبراهيم ابن ابنه سام ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى الباقون إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿ وَ ﴾ من ذرية ﴿ إِسْرَائِيلَ ﴾ وهو يعقوب أى موسى وهرون وزكرياء ويحيي وعيسى، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية لأن مريم من ذرية إسرائيل فأولاد فاطمة ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإنما ذكر أنسابهم دلالة على أنهم حازوا فضيلة الحسب والنسب وقدم الحسب لأن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ أى من جملتهم زيادة مدح لهم كما تقول زيد من أولاد الأمراء وهو من الصالحين أى هم من جملة من هديناهم إلى الحق واجتبيناهم بالنبوة والكرامة وخبر أولئك على الأول ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ حال مقدرة لأن الخرور قبل السجود ﴿ وَبُكِيًّا ﴾ جمع ساجد وباك أى فكونوا مثلهم وعلى الثانى لجملة إذا تتلى استئناف لبيان اجتبائهم وخشيتهم من الله مع علو درجتهم بالحسب الفاخر والنسب الزاهر. وفى الحديث «إذا تلوتم القرآن فابكوا فإن لم تجدوا البكاء فتباكوا» وقرأ عمر سورة مريم فسجد ثم قال هذا السجود فأين البكى. أى البكاء أو الباكون، وأصل بكى بكوى قلبت الواو ياء والضمة كسرة وقرأ حمزة والكسائى بكسر الباء إتباعا ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ عقب سوء يقال خلف صدق بالفتح وخلف سوء بالسكون والمراد بنو إسرائيل من اليهود والنصارى أو أعم فيشمل المشركين من بنى إسماعيل

وغيرهم ﴿أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ﴾ بتركها أو بتأخيرها عن وقتها أو بنقص شيء من أبعاضها كالخشوع ﴿وَٱتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ من المعاصي وغيرها وعن علي رضي الله عنه بنوا المشيد وركبوا المنظور ولبسوا المشهور ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي شرا أو جزاء غيّ وقيل واد في جهنم يفعون فيه تستعيذ منه أوديتها ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور والمفعول لابن كثير وأبي عمرو ﴿الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقصون ﴿شَيْئًا﴾ أدنى شيء من ثوابهم فإن كان الاستثناء متصلا فإنه يدل على أن ماقبله في الكفر وإن كان منقطعا فهو بمعنى لكن ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ إقامة بدل من الجنة وعدن علم للعدن بمعنى الإقامة كأمس وسحر للوقتين، قال في غاية الأماني: ولولا ذلك لم يقع جنات المضاف إليه بدلا من الجنة لأن النكرة لا تبدل من المعرفة ولم يوصف بالموصول في قوله ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُ﴾ أي وعدها إياهم ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال أي غائبين عنها أو غائبة عنهم ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ﴾ الذي هو الجنة بمعنى الموعود ﴿مَأْتِيًّا﴾ يأتيها أهلها أو الوعد كان آتيا فكل شيء أتيته فقد أتاك وأصله مأتوي نقلبت الواو ياء والضمة كسرة ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ ما حقه أن يلغى من فضول الكلام والباطل كاليمين الكاذبة ﴿إِلَّا﴾ لكن يسمعون ﴿سَلَامًا﴾ من الملائكة عليهم أو من بعضهم على بعض أو يسمعون قولا يسلمون فيه من العيب فالاستثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلا أي إلا سلاما إن كان يعد لغوا كقوله: ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفَهم • بهنّ فلولٌ من قِراعِ الكتائبِ

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ التوسط بين الزهادة والرغابة إذ ليس في الجنة ليل ولا نهار يعرف به البكرة والعشي بل ضوء ونور أبدا، وقيل يعرفون وقت النهار برفع الحجب والليل بإرخائها وقيل المراد بهما دوام الرزق كقولك أنا عند فلان صباحا ومساء تريد اتصال الصحبة ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ﴾ نعطي وننزل ﴿مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ متقيا من الشرك لقوله «ويغفر مادون ذلك» وحديث «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» عبر عن الإدخال بالإيراث لأن الإرث ملك لازم لا يمكن رده وقيل لأنهم يرثون من الكفار منازلهم المعدة لهم لو آمنوا. ولما تأخر الوحي أياما وقال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فقال إني مشوق إليك لكني عبد مأمور لا أنزل إلا بأمر، نزل تصديقا له ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ وقتا بعد وقت لأن التنزل النزول على مهل ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ على ما يقتضيه حكمته ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من الأزمان والأماكن ﴿وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ فلا ننتقل إلى مكان ولا ننزل في زمان دون آخر إلا بأمره ومشيئته ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ناسيا لك أي تاركا لك بتأخر الوحي عنك: ردّ لقول المشركين إن ربه ودعه وقيل قوله وما نتنزل حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة، والمعنى وما نتنزل الجنة إلا بأمر الله ولطفه وهو مالك الأمور كلها السالفة والمترقبة والحاضرة مما وجدناه وما نجده من لطفه وفضله وما كان ناسيا لأعمال عباده وما وعد لهم من الثواب عليها، هو ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيان لامتناع النسيان عليه وهو خبر محذوف أو بدل من

ربك، وفى إيثار الرب على سائر الأسماء الحسنى إشارة إلى أن ذلك التأخر تربية للنبي وتكميل له وتحته فوائد ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ آصبر عليها وعلى أذى تسمعه من الكفار تسلية له عليه السلام وعدى باللام تشبيها للعبادة لشدتها بالقرن كما يقال اصبر لقرنك أو اصبر على الشدائد لأجل العبادة أى لتتمكن من الإتيان بها ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ شبيها يستحق العبادة أو مسمى بذلك الاسم فإن المشركين وإن سموا الصنم إلها لم يسموه الله قط وذلك لظهور أحديته وكأن ذلك الاسم آنعكس إليه أشعة التوحيد فكلت أعين المشركين عن الحوم حوله وهذا تقرير للأمر إذا صح أن لا أحد مثله ولا يستحق العبادة غيره وجب التسليم لأمره والاشتغال بعبادته والاصطبار على مشاقها ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَانُ ﴾ المنكر للبعث واللام للعهد وهو العاصى بن وائل أو الجنس لوقوع الفعل بينهم كما يقال بنو زيد قتلوا عمرا وقيل هو أبيّ بن خلف أخذ عظماً باليا ففتها وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم أترى ربك يحيي هذا ﴿ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ من القبر كما يقول محمد، والاستفهام بمعنى النفى وما زائدة للتأكيد وكذا اللام وقدم الظرف وأولى حرف الإنكار لأن المنكر كون ما بعد الموت وقت الحياة وانتصابه بفعل دل عليه أخرج لا به لأن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها ورواية ابن ذكوان بهمزة واحدة مكسورة على الخبر ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ﴾ بسكون الذال وضم الكاف من الذكر لنافع وابن عامر وعاصم وبالتشديد للباقين أصله يتذكر أبدلت التاء ذالا وأدغمت فى الذال ﴿ ٱلْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ ويذكر عطف على يقول ولو تذكر لاستدل بالابتداء على الإعادة ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ المنكرين للبعث أقسم بنفسه على تحقيق البعث بعد إقامة البرهان توكيداً لوقوعه وأضافه إلى نبيه تشريفا له وفى إيثار الرب إشارة إلى أن فى الحشر إيصالا له إلى كمال المتوقع وهو المقام المحمود ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ ﴾ عطف أو مفعول معه وهو أبلغ لما فى الحديث أنهم يحشرون مقرنين فى الأصفاد مع الشياطين مشاة على وجوههم يقرن كل مع شيطانه فى سلسلة، والضمائر للكفار أو للأناسى عموما لأنهم إذا حشروا وفيهم الكفرة مقرنين فقد حشروا جميعا كذلك فى الاسم والأول أظهر ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ من خارجها ﴿جِثِيًّا﴾ على الركب لهول المطلع وهذا فى الكفار أو الناس جميعا ليرى السعداء ما نجاهم الله منه وأهل الموقف جاثون لقوله تعالى «وترى كل أمة جاثية» والجثو: جلوس الخائف الذليل كالأسير وقرأ حمزة والكسائى بكسر الجيم وأصله جثوو أو جثوى من جثى يجثو ويجثى لغتان ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ ﴾ لنأخذن ونخرجن ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ فرقة متفقة على المذهب منهم ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ جرأة وفجورا فنطرحهم فيها على الترتيب أعتاهم فأعتاهم كرئيسهم إلى أن يحاط بهم وأيهم مبنى على الضم عند سيبويه لأن حقه أن يبنى كسائر الموصولات لكنه أعرب للزوم الإضافة فإذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى حقه منصوب المحل بننزعن وعند الخليل مرفوع بالابتداء على أنه استفهامىّ وخبره أشد والجملة محكية أى من كل شيعة الذين يقال فيهم أيهم أشد وعن يونس معلق عنها لننزعن لتضمنه معنى التمييز

لأن النزع سبب التميز اللازم للعلم لأنه سبب عنه فأجرى مجراه والظاهر ماذهب إليه سيبويه ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا ﴾ أحق بجهنم الأشد وغيره منهم ﴿ صِلِيًّا ﴾ دخولا واحتراقا فنبدأ بهم وأصله صلوى من صلى بكسر اللام وفتحها وقرأ حمزة والكسائى وحفص بكسر الصاد ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ ﴾ ما منكم أحد ﴿ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ داخل جهنم بمروره على الصراط أو حاضرها إذ الورود لغة يكون بمعنى الحضور كما فى قوله تعالى ولما ورد ماء مدين إذ لم يدخل الماء. فإن كان الضمير للكفار فظاهر وإن كان عاما ففائدة ذكره بعد قوله لنحضرنهم المبالغة فى الإنذار ولذا غير الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب لأن المكافحة بالوعيد أشد زجراً ثم بالغ فى التوكيد بقوله ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا ﴾ واجبا أوجبه على نفسه ﴿ مَقْضِيًّا ﴾ حكم فى الأزل لا يمكن تبديله والأصح الذى عليه أكثر أهل السنة أن الناس جميعا يدخلون النار ثم يخرج الله منها المؤمنين من غير ضرر بل تكون عليهم برداً وسلاما كما قال ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الشرك والكفر منها بتشديد ننجى للجمهور وتخفيفه للكسائى أى ننجيهم منها فيساقون إلى الجنة ﴿ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ ﴾ بالكفر ﴿ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ على الركب كما كانوا حولها إذ تنهار بهم على هيئاتهم ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ أى المؤمنين والكافرين ﴿ آيَاتُنَا ﴾ من القرآن ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات حال مؤكدة لأن آيات الله لاتكون إلا بينات ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وقد رجلوا شعورهم ودهنوا رؤسهم ولبسوا أفخر ثيابهم ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى لأجلهم أو معهم مواجهة وقد كانت فيهم قشافة وفى عيشهم خشونة وفى ثيابهم رثاثة ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ نحن وأنتم ﴿ خَيْرٌ مَقَامًا ﴾ منزلا ومسكنا بالفتح للجمهور من قام، وبالضم لابن كثير، من أقام : أى موضع قيام أو إقامة ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ بمعنى النادى وهو مجتمع القوم يتحدثون فيه يعنون نحن فنكون خيرا منكم والمعنى أنهم إذا سمعوا الآيات وعجزوا عن معارضتها أخذوا فيما لامساس له بالمقام وهو الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا والاستدلال على أن زيادة حظهم فيها يدل على فضلهم وحسن حالهم عندالله تعالى فرد عليهم ذلك مع التهديد بقوله ﴿ وَكَمْ ﴾ أى كثيرا ﴿ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أمة من الأمم الماضية وكم مفعول أهلكنا ومن بيان لإبهامها وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم كقرن الشىء وهو أعلاه ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا ﴾ مالا أو ماجد من متاع البيت صفة لكم وأثاثا تميز عن النسبة ﴿ وَرِئْيًا ﴾ بالهمز للجمهور منظرا حسنا فعل بمعنى المفعول كالنبح وبإبدالها ياء مع الإدغام لقالون وابن ذكوان بمعنى الأول أو هو من رويت من الماء استعير لحسن المنظر والتنعم فكما أهلكناهم للكفر نهلك هؤلاء ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ ﴾ بقصر نظره على الفانى واعتزازه به وهو شرط جوابه ﴿ فَلْيَمْدُدْ ﴾ بمعنى الخبر أى يمد ﴿ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ فى العمر ﴿ مَدًّا ﴾ يستدرجه لئلا يبقى له يوم القيامة عذر حين يقال « أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير » وإنما أخرج الخبر فى صورة الأمر الدال على الوجوب مبالغة فى المد وقطع العذر ، ويحتمل أن يكون دعاء كقوله تعالى « ربنا ليضلوا

عن سبيلك » ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ غاية لمد العمر أو لقولهم « أى الفريقين خير » أى يستمر بهم ذلك القول والافتخار إلى أن يروا مايوعدون ﴿ إِمَّا الْعَذَابَ ﴾ فى الدنيا بالقتل والأسر ﴿ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾ المشتملة على جهنم فيدخلونها بدل مما يوعدون لتفصيل الموعود به والإتيان اعتراض على الثانى للإيقاظ وتوكيد للوعيد وحتى هى تحكى الجمل بعدها ولذلك وقعت الشرطية بعدها وجوابها قوله ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً ﴾ هم أم المؤمنون ، وجندهم الشياطين ، وجنود المؤمنين عليهم الملائكة ، أى سيعلمون ذلك عند غلبة المسلمين أو عند انكشاف الغطاء فى القيامة حين يوقنون أن الأمر على عكس ما يقدرونه وأنهم شر مكاناً وأضعف ناصراً . وذكر الجند دل على أن المراد بالندى الجماعة . ولما بين الله تعالى أن إمهال الكافر وتمتيعه بالدنيا ليس لفضله ، بيّن أن ضد ذلك فى المؤمن ليس لنقصه بل لخير أراد به عوضه بقوله ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا ﴾ بالإيمان ﴿ هُدًى ﴾ بما ينزل عليهم من الآيات فيزدادون إيقاناً مع إيقانهم عطف على قوله « فليمدد » لأنه خبر فى المعنى كأنه قيل من كان فى الضلالة يزيده الله ضلالة ويزيد مقابله هدى ، والأولى عطفه على من كان ليكون ذكر المقابل محكياً بالقول أصالة ﴿ وَ ﴾ الأعمال ﴿ الْبَاقِيَاتُ ﴾ لصاحبها ﴿ الصَّالِحَاتُ ﴾ وهى الإيمان وسائر الطاعات كالصلوات الخمس وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً ﴾ مما متع به الكفرة ﴿ وَخَيْرٌ مَرَدّاً ﴾ ما يرد إليه ويرجع أو مرداً نفعاً مصدر رد نفع ، يقال هذا الأمر أرد له أى أنفع قاله فى غاية الأمانى . واسم التفضيل أريد به مطلق الزيادة أو الخيرية لمقابلة قولهم « أى الفريقين خير مقاما » ولما قص الله أخبار الكفار فى عقائدهم وما يؤولون إليه أتبعها بخبر هذا الكافر مخصصاً له لكونه أعجب لوروده على وجه الاستهزاء بقوله ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾ وهو العاصى بن وائل السهمى ﴿ وَقَالَ ﴾ لخباب بن الأرت وكان قيناً فى الجاهلية وله على العاصى دين لجاء يتقاضاه . فقال : لاأعطيك حتى تكفر بمحمد فقال : لا أكفر به حتى يميتك الله ويبعثك ، فقال : إنى لمبعوث دعنى حتى أحيي فسأوتى مالا وولداً فأقضيك كما حكى عنه سبحانه بقوله ﴿ لَأُوتَيَنَّ ﴾ على تقدير البعث ﴿ مَالاً وَوَلَداً ﴾ فأقضيك ، وقرأ حمزة والكسائى بضم الواو وسكون اللام ، وعبر بالرؤية عن الإخبار لأن مشاهدة الأشياء أقوى طرق الإحاطة بها علماً إذ المعنى أخبر بقصة هذا الكافر بعد حديث أولئك ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ المخصوص بعلام الغيوب ، استغنى بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل فحذفت أى أعلمه وأنه يؤتى ما قاله ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾ بذلك فإنه لايتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين ، وقيل العهد كلمة الشهادة والعمل الصالح فإن وعد الله بالثواب عليهما كالعهد عليه ﴿ كَلَّا ﴾ ردع له وتنبيه على أنه مخطئ فيما يعتقده ﴿ سَنَكْتُبُ ﴾ نأمر بكتب أو السين للتأكيد أى كتبنا أو سنظهر له أنا كتبنا قوله فإن نفس الكتب لا يتأخر عن القول ﴿ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً ﴾ نزيده بذلك عذاباً فوق عذاب كفره ﴿ وَنَرِثُهُ ﴾ بموته ﴿ مَا يَقُولُ ﴾ من المال والولد ﴿ وَيَأْتِينَا ﴾

يوم القيامة ﴿ فَرْدًا ﴾ لا مال له ولا ولد ليس له شيء كان له في الدنيا فضلا عن أن يؤتى ثم زائداً ﴿ وَاتَّخَذُوا ﴾ أي الكفار ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الأوثان ﴿ آلِهَةً ﴾ يعبدونهم ﴿ لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ ليتعززوا بهم بأن يكونوا لهم وصلة إلى الله وشفعاء عنده إن صح البعث لكنهم مشركون ﴿ كَلَّا ﴾ ردع وتكذيب لمقالتهم أي لا مانع من عذابهم ﴿ سَيَكْفُرُونَ ﴾ أي الآلهة ﴿ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أي ينفونها بقولهم ما كانوا إيانا يعبدون أو المشركون ينكرون عبادتهم « والله ربنا ما كنا مشركين » ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أي ضد العز أي ذلا تعكيساً لرجائهم أو أعواناً عليهم في العذاب توقد بهم النار عليهم ، وهذا على التأويل الأول وعلى الثاني فالمعنى يكونون كافرين بهم بعد أن كانوا يعبدونهم ، وتوحيد « ضد » لوحدة المعنى الذي به مضادتهم فإنهم بذلك كالشيء الواحد نظير قوله عليه السلام في المؤمنين « وهم يد على من سواهم » ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ ﴾ سلطناهم ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ بما تقدم في « واستفزز من استطعت منهم .. الآية » ﴿ تَؤُزُّهُمْ ﴾ تهيجهم وتزعجهم إلى المعاصي ﴿ أَزًّا ﴾ تحريكا وتشييلا ، من أز النار أوقدها أو أز الشيء حركه شديداً ، وقيل تأزهم تدفعهم بتسويلات وتحبيب الشهوات بعد وضوح الآيات ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ بالهلاك لتستريح ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ ﴾ الأيام والليالي والأنفاس ﴿ عَدًّا ﴾ إلى وقت عذابهم فمن قريب تنقضي ، اذكر ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ ﴾ بإيمانهم ﴿ إِلَى الرَّحْمَٰنِ ﴾ الذي غمرهم بالبر والإحسان ﴿ وَفْدًا ﴾ جمع وافد وهو الوارد على الملوك بالرسالة المنتظر لعطاياهم ، أي وافدين عليه منتظرين لكرامته وإنعامه ، قال أكثر المفسرين معناه ركباناً إذ الركوب عادة الوفود ، قال ابن عطية : وظاهر هذه الوفادة أنها بعد انقضاء الحساب وهي النهوض إلى الجنة وكذا سوق المجرمين إنما هو لدخول النار . اهـ . قال في الجواهر : روى أنهم يركبون على النوق وعلى تماثيل من أعمالهم الصالحة . وروى أن كل أحد يركب ما أحب فمنهم من يركب الإبل ومنهم من يركب الخيل ، وقد ورد في الضحايا أنها مطاياكم إلى الجنة . وأكثر هذه الأحاديث فيه ضعف من جهة الإسناد . اهـ . ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الكفار والعصاة كما تساق البهائم ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ جمع وارد بمعنى ماش عطشان لأن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش أو كالدواب التي ترد الماء ﴿ لَا يَمْلِكُونَ ﴾ أي الناس الشامل للفريقين أو المجرمون الشامل للكفار والعصاة ﴿ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ بالإيمان والعمل الصالح أو إذنا من عهد إليه بكذا أذن له فيه ومحل من رفع على البدل من الضمير أو نصب على تقدير مضاف أي إلا شفاعة من اتخذ أو على الاستثناء وهو متصل إن كان ضمير يملكون للناس أو للمجرمين على إرادة الكفار والعصاة أو للمتقين على معنى إلا من كان له منهم عمل صالح يستحق به الشفاعة ، ويجوز حينئذ أن يراد به نبينا صلى الله عليه وسلم ويراد بالشفاعة الكبرى الخاصة به أو منقطع إن أريد المجرمون بالكفار فقط والله أعلم ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي المجرمون أو الناس لأنه لما كان مقولا لأبيهم جاز أن ينسب إليهم والمراد القائلون الملائكة بنات الله ﴿ اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ بفتح الواو واللام للجمهور

ثم ثنى بالإسناد إلى الموصوف بتلك الصفات فأفاد التفخيم من وجهين . ثم أشار إلى وجه إحداث الكائنات وتدبير أمرها بأن قصد العرش فأجرى منه الأحكام والتقادير وأنزل منه الأحباب على ترتيب ومقادير حسبما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته ليدل بذلك على كمال قدرته وإرادته فقال ﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴾ رفع على المدح والجملة بعده خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف ﴿ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ كناية عن نفاذ التصرف وإجراء تدبير الكائنات على وفق ما اقتضته حكمته ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الأجزاء الداخلة فيها والموجودات الخارجة عنها ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾ أى فى الأرض من الموجودات التى لا يحيط بها إلا علمه الشامل ، والثرى هو التراب الندىّ لأن ما فوق الأرض يعتريه اليبس أحياناً فيثرى بالماء ، والمراد بما تحته الأرضون السبع وما فيها لأنها تحته . ولما كانت القدرة تابعة للإرادة وهى لا تنفك عن العلم أشار إلى ثبوته بأكمل طريق فقال ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ ﴾ فى ذكر أو دعاء فالله غنىّ عن الجهر لاستواء الحالات عنده ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ منه وهو ما حدثت به النفس وما خطر ولم تحدث به وفيه إيماء إلى أن إخفاء الذكر والدعاء أفضل إلا فى إرادة الاقتداء به ، ثم ذيل الكلام بما يدل على استواء ما به الذكر من أسمائه مع الدلالة على تفرده بالصفات المتقدمة بقوله ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ ومنها التسعة والتسعين الوارد بها الحديث فبأى اسم ذكرته فهو ذكر جميل ، والحسنى تأنيث الأحسن لدلالة الأسماء على معان هى أشرف المعانى وأفضلها ، وهذه الآيات من أول السورة إلى هنا هى سبب إسلام عمر بن الخطاب على ما يذكر أهل السير ، والسورة من أوائل ما نزل ولذا ذكر الله فيها قصة موسى ليأتم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تحمل أعباء النبوة والرسالة والصبر على الشدائد فقال ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ الاستفهام بمعنى النفى إن كان أول ما تلى عليه من قصة موسى وإن كان قد سبق ذكرها فهو للتقرير أى قد أتاك لتأتم به . روى أن موسى لما قضى الأجل استأذن شعيباً فى زيارة أمه وأخيه بمصر فأذن له فتوجه بأهله وماله من مدين إلى مصر وكان له منها آبنان وكان لا يسير إلا بالليل مخافة أن ترى امرأته ، وقيل مخافة ملوك الشام وامرأته متم فى شهرها لا يدرى ليلا تضع أم نهاراً فلما وصل إلى الوادى طوى وفيه الطور فى ليلة شاتية ذات مطر وثلج مظلمة وكانت ليلة الجمعة أخذ زوجته الطلق وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده فطفق يقدح الزند فصلد وهو فى هذه الحالة ﴿ إِذْ رَأَىٰ نَارًا ﴾ من بعيد ظرف للحديث لأنه حدث أو مفعول لاذكر ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا ﴾ هنا قرأ حمزة بضم الهاء ﴿ إِنِّي آنَسْتُ ﴾ أبصرت ﴿ نَارًا ﴾ إبصاراً لا شبهة فيه وآنس يستعمل فى مظان الوحشة ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ شعلة فى رأس فتيلة أو عود ولما كان إبصار مستيقنا بنى الإخبار على البت والتحقيق والإتيان بالقبس متوقعاً فربما يحول دونه مانع لم يجزم به ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ أى هادياً يدلنى على الطريق وكان أخطأها لظلمة الليل كما قدمنا أو هادياً يدلنى على أبواب الدين فإن أفكار الأبرار مائلة إليها فى كل مايعن لهم ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ أى النار وجدها

بيضاء تتقد فى شجرة خضراء ومعنى الاستعلاء الإشراف عليها فى مكان قريب وسمع تسبيح الملائكة حولها ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ روى أنه لما دنا منها بعدت منه فخاف ورجع فدنت منه فازداد رعبا فألقيت عليه السكينة ثم نودى ياموسى ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ بكسر الهمزة للجمهور على تأويل نودى بقيل وفتحها لابن كثير وأبى عمرو بتقدير الباء وأنا تأكيد لضمير المتكلم لتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة التى وسوسها إبليس املك تسمع كلام شيطان فقال له موسى عرفت أنه كلام الله بسماعه من جميع الجهات وجميع الأعضاء . قال البيضاوى إشارة إلى أنه تلقى من ربه كلماته تلقيا روحانيا ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ تواضعا وأدبا واحتراما للبقعة كما تحترم المساجد وسائر الأماكن الشريفة كما علله بقوله ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ المطهر أو المبارك ﴿طُوٗى﴾ بدل أو عطف بيان بترك الصرف لنافع وابن كثير وأبى عمرو والصرف للباقين باعتبار البقعة مع العلمية واعتبار المكان وقيل نعليك المال والولد وقيل الدارين وذلك نهاية مقامات العارفين ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ من قومك بالنبوة وقرأ حمزة «وأنا» مشددا بإدخال أن على الضمير و«اخترناك» بالنون ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ للذى يوحى إليك من الأحكام أو للوحى . واللام تحتمل التعلق بكل من الفعلين ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ بدل مما يوحى أكد الكلام وجمع فيه بين العقائد والفروع اهتماما وتكميلا للقوى النظرية والعملية ودلالة على أن الوحى مقصور على تقرير التوحيد والأمر بالعبادة ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أفردها بالذكر لأنها أفضل الأعمال بعد التوحيد والعلة التى أناط بها وهى ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ فيها الذى هو المقصود من شرع العبادة والذكر هو اللسانى المقرون بذكر القلب وقيل لأذكرك بالثناء عليك أو لأنى ذكرتها فى الكتب المنزلة أو لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتى إذا فاتتك نوما أونسيانا ، لحديث «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها» ثم قرأ الآية ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ جار مجرى التعليل للأمر بأنها وقت المجازاة ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ أريد إخفاءها ليكونوا على حذر منها أو أبالغ فى إخفائها عن الناس فلا أخبر بالإتيان إجمالا كما لم أخبر بذلك مفصلا أو أكاد أخفيها عن نفسى مبالغة فى إخفائها حتى بنى على أمر مستحيل ولكن هذا بعيد وقرئ أخفيها بفتح الهمزة أى أظهرها ﴿لِتُجۡزَىٰ﴾ متعلق بآتية أو بأخفى ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ من خير وشر وفى إيثار تسعى إشارة إلى الجد والمسارعة فى العمل ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ يصرفنك ﴿عَنۡهَا﴾ عن تصديق الساعة أو عن الإتيان بالصلاة ﴿مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا﴾ بالساعة أو بالصلاة نهى للكافر أن يصد موسى عنها والمراد نهى موسى عن الانصداد عنها إطلاقا للسبب على المسبب أو العكس لأن عدم تصلبه يورث صد الكافر ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فى الصد عنها لأن عدم إيمانه لم يستند إلى برهان بل بمجرد هوى ﴿فَتَرۡدَىٰ﴾ فتهلك إن انصددت عنها من ردى بالكسر هلك من الردى مقصورا ﴿وَمَا تِلۡكَ﴾ مبتدأ وخبر ﴿بِيَمِينِكَ﴾ حال أى كائنة بيمينك والعامل فيه معنى الإشارة ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ نداء استئناس والاستفهام

للاستيقاظ والتقرير ليرتب عليها المعجزة وقد أوقفه على علم أنها عصى كما تقول لرجل وفى يده شيء تريد أن تغيره له ما بيدك ليقر بلسانه ما فى قلبه ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾ وقرئ عصى على لغة هذيل وهى التى أخذها من بيت عصى الأنبياء عليهم السلام الذى كان عند شعيب حين اتفقا على الرعى وكانت عصى آدم هبط بها من الجنة وكانت من العير الذى فيه ورق الريحان أى الجسم المستطيل قاله فى الجواهر الحسان ﴿ أَتَوَكَّأُ ﴾ أعتمد ﴿ عَلَيْهَا ﴾ عند الوثوب والمشى وإذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع ﴿ وَأَهُشُّ ﴾ أخبط ورق الشجر ﴿ بِهَا ﴾ ليسقط ﴿ عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ فتأكله بأن يضع المحجن فى أصل الغصن ويحركه فيسقط من الشجر ما يسقط وأصل الهش الخفة واللين ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ ﴾ جمع مأربة مثلث الراء : حوائج ﴿أُخْرَىٰ﴾ كحمل الزاد والسقاء وطرد السباع والهوام زاد فى الجواب بيان حاجته بها إذ الاصل أن يقول عصى فأطنب لاقتضاء المقام ذلك لأن الكلام يطال مع الأحبة فكيف به والمخاطب رب العزة . قال البيضاوى : وكأنه عليه السلام فهم أن المقصود من السؤال أن يتذكر حقيقتها وما يرى من منافعها حتى إذا رآها بعد ذلك على خلاف تلك الحقيقة ووجد منها خصائص أخرى خارقة للعادة مثل أن تشتعل شعبتاها بالليل كالشمع وتصيرا دلوا عند الاستقاء وتطول طول البئر وتحارب عنه إذا ظهر عدو وينبع الماء بركزها وينضب بنزعها وتورق وتثمر إذا اشتهى ثمرة فركزها : علم أن ذلك آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله فيها لأجله وليست من خواصها فذكر حقيقتها ومنافعها مفصلا ومجملا على أنها من جنس العصى تنفع منافع أمثالها ليطابق جوابه الغرض الذى فهمه . اهـ . وقال فى غاية الأمانى : والحق أنه لم يقع منه إطناب ، فإنه لم يسأل عن ماهية العصى وحقيقتها بل عما فيها من الأوصاف فإذا ذكرها مستوفاة ثم أوجد الله فيها من الصفات ما يضمحل تلك الصفات بالنظر إليها ازداد طمأنينة بانضمام عين اليقين إلى علم اليقين فهو لم يستوف الصفات تفصيلا بل أجمل بقوله «ولى فيها مآرب أخرى» سالكا طريقة الأدب فى تلك الحضرة التى يحق الخضوع لها . اهـ . ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ على بطنها سريعاً تبتلع الشجر والحجر ، قيل لما ألقاها انقلبت حية صفراء بغلظ العصى ثم تورمت وغلظت ولذا سماها تارة بالجان وهى الرقيق من الحيات باعتبار المبتدإ وسماها أخرى ثعبانا وهى العظيمة باعتبار المنتهى وتارة باسم الجنس الشامل لهما وهو الحية وقيل لأنها كانت فى ضخامة الثعبان وجلادة الجان ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ منها لأنه لما رآها تبتلع كل ماتلقى خافها وولى مدبرا ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا﴾ أى هيئتها وحالتها ﴿ الْأُولَىٰ ﴾ وأصلها الفعلة من السير ثم اتسع فيها فنقلت إلى المذهب والصفة يقال من طابت سريرته حمدت سيرته وانتصابه على نزع الخافض أو على بدل الاشتمال من الضمير أو على المصدر أى سننشئها عصا كما كانت تسير سيرتها الأولى أى تنتفع بها كما كنت تنتفع بها سابقا فاستقبلها موسى وهى فاغرة فاها وأدخل يده فى فيها وأخذ بلحييها فعادت عصا وتبين أن موضع الإدخال موضع مسكها بين شعبتيها وأرى ذلك السيد موسى لئلا يجزع إذا انقلبت حية لدى فرعون

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ ﴾ اليمنى بمعنى الكف ﴿ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ جنبك الأيسر تحت العضد إلى الإبط مستعار من جناح الطائر ويقال لكل ناحيتين جناحان كجناحى العسكر ﴿ تَخْرُجْ ﴾ خلاف ما كانت عليه من الأدمة ﴿ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ عيب وقبح كنى به عن البرص لأن الطباع تعافه وتنفر عنه أى تضىء كشعاع الشمس تغشى البصر ﴿ آيَةً أُخْرَى ﴾ معجزة ثانية وهى حال من ضمير تخرج كبيضاء أو من ضميرها أو مفعول بنحو خذ أو بدل من الأولى ومن غير سوء صفة بيضاء أو حال من ضميرها ﴿ لِنُرِيَكَ ﴾ بها إذا فعلت ذلك لإظهارها ﴿ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ الآية ﴿ الْكُبْرَى ﴾ أى العظمى على رسالتك والكبرى مفعول نريك ومن آياتنا حال منها أو صفة آياتنا وإذا أراد عودها إلى حالتها الأولى ضمها إلى جناحه كما تقدم وأخرجها وكل ما تقدم لموسى نبوة ، ثم أشار إلى رسالته بقوله ﴿ اذْهَبْ ﴾ رسولا ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ ومن معه بهاتين الآيتين وادعه إلى العبادة ﴿ إِنَّهُ طَغَى ﴾ جاوز الحد فى كفره وتكبره إلى ادعاء الإلهية ﴿ قَالَ ﴾ موسى لما أمره الله بخطب عظيم ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ وسعه لتحمل الرسالة والصبر على مشاقها ﴿ وَيَسِّرْ ﴾ سهل ﴿ لِي أَمْرِي ﴾ لأبلغها بتسهيل الأسباب إلى المطلوب ورفع الموانع وفائدة لى فى الموضعين إبهام المشروح والميسر أولا ثم رفعه بذكر الصدر والأمر تأكيد أو مبالغة فى الإيضاح ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾ حدثت من احتراقه بجمرة وضعها وهو صغير بفيه حين جربه فرعون و« من لسانى » صفة عقدة أو صلة واحلل ﴿ يَفْقَهُوا ﴾ يفهموا ﴿ قَوْلِي ﴾ عند تبليغ الرسالة فإنما يحسن التبليغ من البليغ ويفقهوا جواب الأمر والمراد باللسان القوة النطقية ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا ﴾ معينا عليها ﴿ مِنْ أَهْلِي هَارُونَ ﴾ والوزير إما من الوزر وهو الثقل لكونه يقوم بأعباء الإمارة أو من الوزر وهو الملجأ لأن الأمير يلجأ إليه فى الآراء والتدبيرات أو من الأزر وهو القوة قلبت همزته واوا لكونه بمعنى الموازرة فقيس عليه ، وهرون مفعول أول قدم عليه الثانى عناية بشأن الوزارة فإنها المطلوب أو وزيرا ولى مفعولان وهرون عطف بيان أو بدل من وزيرا ﴿ أَخِي ﴾ بدل على الوجهين من هرون أو عطف بيان آخر من وزيرا ﴿ اشْدُدْ بِهِ ﴾ قو به ﴿ أَزْرِي ﴾ ظهرى ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ أى الرسالة والفعلان بصيغتى الأمر للجمهور والمضارع المجزوم جوابا للأمر لابن عامر ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ ﴾ تسبيحا ﴿ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ ﴾ ذكرا ﴿ كَثِيرًا ﴾ فإن التعاون يهيج الرغبات ويؤدى إلى تكاثر الخير وتزايده بجلب النشاط ولذا شرعت الجمع والجماعات ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ عالما فأنعمت بالرسالة علىّ وإن هرون نعم المعين فإنه أكبر سنا منى وأفصح لسانا وأحلم جنانا فأرسله معى ردءا ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ﴾ مسئولك فعل بمعنى مفعول كالخبز بمعنى المخبوز والأكل بمعنى المأكول ﴿ يَا مُوسَى ﴾ منا عليك ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ قبل هذه المرة وهى ﴿ إِذْ ﴾ للتعليل أو ظرف لمننا ، ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ ﴾ مناما أو إلهاما ، ومن زاد : أو على لسان نبى فى زمانها فقد أبعد إذ لم يكن بعصر زمن فرعون من يدعى النبوة ، : ه عاء فى غاية الأمانى ﴿ مَا يُوحَى ﴾ فى أمرك أى ما لا يعلم إلا بالوحى

لما ولدتك وخافت أن يقتلك فرعون فى جملة من يولد على ما تقدم ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ ﴾ و « أن » بدل مما يوحى مصدرية بمعنى بأن اقذفيه أو تفسيرية أى لأن الوحى بمعنى القول أى ألقيه ﴿ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ ﴾ وهو فى التابوت ﴿ فِى الْيَمِّ ﴾ بحر النيل ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ أى شاطئه والأمر بمعنى الخبر والضمائر كلها لموسى مراعاة للنظم إذ جعل بعضها فى التابوت ينافره ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِى وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾ وهو فرعون جواب الأمر ولا تكرار فى « عدو » لاختلاف النسبة فالأول باعتبار الواقع والثانى باعتبار المتوقع فاتخذت تابوتاً وقيّرته ثم وضعت قطناً فيه ثم وضعت موسى فيه فألقته فى اليم وكان يشرع منه نهر كبير فى دار فرعون ، فبينا فرعون جالس مع امرأته آسية بنت مزاحم على البركة إذا بتابوت يجىء به الماء فالتقطه غلامه وجاء به إليه ففتح فإذا صبىّ من أصبح الناس وجها فأحبه فرعون وآسية حبا شديداً كما قال تعالى ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى ﴾ لتحب من الناس ما رآك أحد إلا أحبك و « منى » متعلق بمحبة نعت له أى جعلت حبك فى قلوب الناس أو متعلق بألقيت أى بأن أحببتك ومن أحببته أحبه الخلق ولا ينافيه قوله «عدوٌّ لى وعدوٌّ له» لأن تلك المداوة شرعية وهذه المحبة طبعية ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ تربى ﴿ عَلَى عَيْنِى﴾ رعايتى وحفظى لك ، عطف على علة مضمرة مثل ليتعطف عليك وفيه استعارة تمثيلية بجعل عنايته بحفظه أمراً لصانع أن يتخذه بحضرته ومرآه وفى إيثار لفظ «على» إشارة إلى كمال العناية كأنه فوق عينيه لا يمكن تجاوز النظر ولا زيغ البصر عنه ﴿ إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ ﴾ مريم لتتعرف خبرك وقد أحضروا المراضع وأنت لم تقبل ثدى واحدة منها ، و «إذ» ظرف لتصنع أو بدل من «إذ أوحينا» على أن المراد بها وقت واسع وهو أولى لما فيه من تعداد النعم فى مقام الامتنان ولا يستقيم تعلقه بألقيت لكونه محبوباً قبله ومحفوظاً : قاله فى غاية الأمانى معترضاً على البيضاوى . قلت : ويستقيم عندى بكون إلقاء المحبة بعد حصوله عند فرعون ورؤية الناس له إذ لم يعلم بولادته قبل ذلك غير أمه وأخته على أن المراد محبة الناس ويؤيده ما فى المكنز للمحلى ، وألقيت بعد أن أخذك عليك محبة منى . والله أعلم فتأمل ﴿ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ﴾ فأجيبت فجاءت بأمه فقبل ثديها ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ ﴾ تصديقاً لقولنا « إنا رادوه إليك » ﴿ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ بلقائك ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ هى بفراقك أو أنت بفراقها ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ هو القبطى الذى استغاثه عليه الإسرائيلى بمصر فاغتممت لقتله من جهة فرعون ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ الذى اعتراك بقتله خوفاً من الله وفرعون بأن غفرنا لك وألهمناك الهجرة إلى مدين ﴿ وَفَتَنَّاكَ ﴾ ابتليناك ﴿ فُتُونًا ﴾ ابتلاء أو أنواعا من الابتلاء مصدر أو جمع فتنة أى خلصناك مرة بعد أخرى وهو إجمال لما ناله فى سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الآلاف والمشى راجلا على حذر وفقد الزاد وعدم علم الطريق إلى غير ذلك ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ ﴾ عشراً ﴿ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ وهو على ثمانى مراحل من مصر بعد مجيئك إليها عند شعيب النبى وتزوجك بابنته صفوراء ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ ﴾ قدرته لإرسالك أى على زمان يستنبأ فيه الأنبياء وهو أربعون سنة ﴿ يَا مُوسَى ﴾

كرره عقيب ما هو غاية الحكاية للتنبيه على ذلك ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ ﴾ اخترتك ﴿ لِنَفْسِى ﴾ مثله بمن استخلصه الملك لنفسه يكل إليه أموره . وفى الجواهر: معناه جعلتك محلا للصنيعة ومقر الإجمال والإحسان . اه . ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾ إلى الناس ﴿ بِـَٔايَٰتِى ﴾ بمعجزاتى التى أيدتكما بها أو بأحكامى التى أرسلتما بها ﴿ وَلَا تَنِيَا ﴾ لا تفترا ولا تقصرا ﴿ فِى ذِكْرِى ﴾ بتسبيح وغيره : لاتنسيانى ساعة فإن تمشى الأمور ليس إلا بذكرى ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ خصه بالذكر بعد ما قدم إرسالهما مطلقا لأنه القدوة والرعايا تبع له ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ بادعائه الربوبية ، قيل أوحى إلى هرون أن يتلقى موسى فتلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحى الله إليه ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ مثل «هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى » فإنه دعوة فى صورة عرض ومشورة : وعداه بعدم زوال ملكه إن أطاع والمراد لاتغلظا له أولا فإنه أدعى إلى الانقياد كما قيل للرسول صلى الله عليه وسلم «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك» قال ابن العربى فى أحكامه وفى الآية دليل على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باللين لمن معه قوة ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ ﴾ فإنه مخلوق عاجز عن إحداث ذرة فأنى له دعوى الألوهية ﴿ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ أن يفضيه الإنكار إلى الهلاك والأول مقام الخاصة ولذا قدمه على مقام العامة والجملة فى محل النصب على الحال إما من الفاعل أى راجيين منه أحد الأمرين أو المفعول أى مرجوا منه ذلك والترجى بالنسبة إليهما لعلمه تعالى بأنه لايرجع وقيل الترجى من الله وهو واجب الوقوع وقد تذكر فرعون وخشى ولكن عاند بأمر هامان وقد ثبت عليه الحجة وانقطع عنه المعذرة وذلك المقصود إذ لم يقل لعله يرجع أو يؤمن والله أعلم . وفى الإسرائيليات أن موسى أقام بباب فرعون سنة لايجد من يبلغ كلامه حتى لقيه حين خرج لجرى له ما قص الله علينا من خبره وذلك تسلية لمن جاء بعد موسى من المؤمنين فى سيرتهم مع الظالمين قاله ابن العربى ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ ﴾ يعجل ﴿ عَلَيْنَآ ﴾ بالقتل أو العقوبة ولا يصبر إلى تمام الدعوة ولم يكن خوفهما من ضرره بل أن ينسبا إلى التقصير ﴿ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ يزداد تكبرا فيقول فيك مالا يليق بجلالك فإن النجس يزداد نتنا بالتحريك وإطلاق «يطغى» من حسن الأدب ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ﴾ ذلك ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ ﴾ بالحفظ والنصر ﴿ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ مايجرى بينكما وبينه من قول وفعل فأحدث فى كل حال مايصرف شره عنكما ويوجب نصرتى لكما والأولى أن لايقدر للفعلين مفعول والمعنى إننى حافظكما سامع بصير وإذا كان الحافظ سامعا وبصيرا استقل بالحفظ على أكمل وجه وهو تتميم للكلام الأول ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ إلى الشام موطن آبائهم ومستقر أسلافهم ﴿ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ أى خل عنهم من استعمالك إياهم فى الأعمال الشاقة كالحفر والبناء وحمل الثقيل وتعقيب الإتيان بذلك دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان ، قاله البيضاوى . ولا ينافى إرسالهما لدعوة فرعون أصالة لأن ابتداءهما بقضية بنى إسرائيل من قبيل القول اللين والتدرج من الأهون إلى الأشد ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ ﴾ حجة ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ على صدقنا

بالرسالة جملة مقررة لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة جارية مجرى التعليل والتفسير لـ «إنا رسولا ربك» لأن دعوى الرسالة إنما تثبت بالحجة ، وإنما وحد الآية وكان معه العصا واليد لأن القصد بيان الحجة لا إظهار كمية البراهين ﴿ وَالسَّلَامُ ﴾ أى سلامة الدارين من العذاب ﴿ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ أو السلام بمعنى التحية جريا على العرف فى التسليم عند الفراغ من القول وفيه تعريض على أن العذاب على من لم يتبع وبه صرح فى قوله ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ ٱلْعَذَابَ ﴾ فى الدارين ﴿ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ ﴾ ما جئنا به ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أعرض عنه ولعل تغيير النظم وتصريح الوعيد والتأكيد فيه لأن التهديد فى أول الأمر أهم وأنجع ومع ذلك سلكا مسلكا لطيفا بديعا فى الدعوة امتثالا لما تقدم حيث عمما الأمر فى الطرفين الهداية والضلالة لئلا يقع مواجهة منهما له بما يكره وذلك سنة رسولنا فى الوعظ أن لا يواجه أحدا بما يكره وإنما ذكرا العذاب مسنداً إلى الوحى دون السلام لأنه المقصود أصالة وأكدا أمره بأنه لا مدخل لهما فيه وإنما علماه بالوحى وأن لهما ربًّا أوحاه إليهما ولذا لما أتياه وقالا له ذلك ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾ خاطبه وحده لأنه الأصل وهرون وزيره ولا دلالة عليه بالتربية ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ من أنواع الخلق ﴿ خَلْقَهُۥ ﴾ أى صورته وشكله الذى هو عليه فتميز به عن غيره ، والخلق بمعنى التقدير أو أعطى خليقته كل شىء يحتاجون إليه ، فقدم المفعول الثانى لأنه أدل على الاقتدار أو أعطى كل شىء نظيره فى الخلق فصار زوجاً ليدل على أن الله هو الفرد الذى لا نظير له ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ بيّن طريق الرشاد أو هدى كل حيوان كيف يتوصل إلى بقائه وكماله من المطعم والمشرب والمنكح ومنافع الدين ، وهذا الجواب فى غاية البلاغة لاختصاره وتبيينه الموجودات بأسرها على مراتبها ودلالته على أن الغنى القادر بالذات المنعم على الإطلاق هو الله تعالى وأن جميع ما عداه مفتقر إليه منعم عليه فى ذاته وصفاته وأفعاله ولذا بهت الذى كفر لما سمعه ولم ير إلا صرف الكلام عنه إلى سؤال غيره بقوله ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ فما حال الأمم الماضية التى كذبوا ولم يعذبوا أو ما حالهم بعد موتهم إذ اعتقاده أن لاعذاب إلا عذاب الدنيا أو ما حالهم فى عبادتهم الأوثان ولم تبعث ولم يوجد أمرك عندها ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ عِلْمُهَا ﴾ أى علم حالها محفوظ ﴿ عِندَ رَبِّى ﴾ سيجازيهم بذلك يوم القيامة ﴿ فِى كِتَابٍ ﴾ هو اللوح المحفوظ كتب وأثبت لكن أنا عبد مثلك لا أعلم إلا ما أخبرنى به ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى ﴾ لايخطئ الشىء فى مكانه ولا يغيب عنه ﴿ وَلَا يَنسَى ﴾ شيئاً ، ردٌّ لاستبعاد فرعون لإحاطة علم الله بأحوال الأمم الدارجة وتفاصيل الجزئيات المتعلقة بها قياساً على نفسه الخبيثة ، هو ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ﴾ فى جملة الخلق ﴿ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ بالكسر والألف اسم لما يمهد كالبساط والفراش لفظا ومعنى لنافع وابن كثير وأبى عمرو وابن عامر أو جمع كنمل ونمال والباقون بالقصر وعليه رسم المصحف ، والموصول مرفوع صفة لربى أو خبر لمحذوف والأحسن نصبه على المدح ﴿ وَسَلَكَ ﴾ سهل ﴿ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ بين الجبال

والأودية والبرارى من أرض إلى أرض تكثيراً للمنافع من سلكت الشيء فى الشيء أدخلته فيه ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ مطراً ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ التفت إلى التكلم لأن موسى حاك كلام ربه تعالى بدليل قوله « جعل لكم » دون لنا ، وفيه وراء الافتنان الإشارة بنون العظمة إلى أنه السلطان المطاع الذى لا يخرج عن إرادته وقدرته شيء ولذا أخرج بماء واحد ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ أصنافاً ﴿ مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ صفة أزواجاً أى مختلفة الألوان والطعوم والمنافع والأشكال والروائح ، جمع شتيت كمريض ومرضى من شتّ الأمر تفرق ﴿ كُلُوا ﴾ منها ﴿ وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ فيها جمع نعم هى الإبل والبقر والغنم ، يقال رعت الأنعام ورعيتها ، والأمر للإباحة وتذكير النعمة والجملة حال من ضمير أخرجنا أى مبيحين لكم الأكل ورعى الأنعام ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ لعبراً ﴿ لِأُولِى النُّهَىٰ ﴾ لذوى العقول الناهية عن اتباع الباطل جمع نهية سمى به العقل لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح والركون إلى ما لا دليل عليه ﴿ مِنْهَا ﴾ من الأرض ﴿ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ لأنها أصل آدم ومواد أبدانكم لما فى الخبر : أنه تعالى إذا أراد خلق إنسان من نطفة أمر الملك بأن يأخذها فى كفه ويعجنها بتربة قبره ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ بعد الموت بالدفن أو تفرق الأجزاء ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ ﴾ بعد البعث ﴿ تَارَةً ﴾ مرة ﴿ أُخْرَىٰ ﴾ كما أخرجناكم عند ابتداء خلقكم عدد الله عليهم ما على الأرض من مرافقهم بحيث جعلها لهم فراشاً يتقلبون عليها وسلك لهم فيها سبلا يترددون فيها لنظم مصالحهم وأخرج لهم منها أصناف النبات أقواتاً لهم وعلوفات دوابهم وهى أمهم التى منها تولدوا وهى كفاتهم أحياء وأمواتا . ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تمسحوا بالأرض فإنها بكم برة مشيراً إلى معنى الآية وكان صلى الله عليه وسلم يدخل على المريض فيأخذ من ريقه ويخلطه بالتراب ويمسح به المريض ويقول : تربة أرضنا بريقة بعضنا تشفى سقيمنا ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ﴾ أى فرعون ﴿ آيَاتِنَا كُلَّهَا ﴾ تأكيد لشمول الأنواع أو لشمول الأفراد على أن المراد آيات معهودة وهى التسع المختصة بموسى ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ بها كلها وزعم أنها سحر ﴿ وَأَبَىٰ ﴾ عن قبول شيء منها أوكذب موسى وأبى عن قبول الحق ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ مصر ويكون لك الملك فيها ﴿ بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ كلام يتلألأ من جبينه أن فرائصه ارتعدت خوفاً منه لإيقانه أنه الرسول الذى لو أشار إلى الجبال لسارت عن مقرها وإلا فما قدر ساحر واحد حتى يخرج ملكا مثله من أرضه بعد ذلك التمكن والعدد والعُدد لكنه عادة كل شقى لا تراه يتشبث عند الإلحام إلا بما يكون هازماً لدليله ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ﴾ يعارضه ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ وعداً أو مكانه للاجتماع فيه ، وفيه نوع استخدام لأن قوله ﴿ لَا نُخْلِفُهُ ﴾ يلائم الوعد لا المكان والزمان وقوله موعدكم يلائمهما لا الوعد فتأمل ﴿ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا ﴾ نصب بنزع الخافض ﴿ سِوًى ﴾ بكسر أوله لنافع وابن كثير وأبى عمرو والكسائى وبضمه للباقين أى وسطاً يستوى إليه مسافة الجائى من الطرفين ويحتمل نصب « مكاناً » بفعل دل عليه المصدر على جعل « موعداً » مصدراً لأنه

موصوف أو هو بدل من «موعدا» على تقدير مكان مضاف إليه أو ثانى مفعولى اجعل ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون وهذا الجواب يلائم كون موعد زماناً أى يوما معلوما ويوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه فى ذلك اليوم، ويحتمل أن يكون التقدير وعدكم وعد يوم الزينة وهو يوم عاشوراء أو يوم النيروز عندهم، وإنما عينه ليظهر الحق ويزهق الباطل على رءوس الاشهاد ويشيع ذلك فى جميع البلاد ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ يجمع أهل مصر ﴿ضُحًى﴾ وقت النظر فيما يقع عطف على يوم الزينة على تقدير مضاف أى وقت حشر الناس فيه ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أدبر ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ ما يكيد به موسى من السحرة وآلاتهم من جميع بلاده ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ بهم الموعد ﴿قَالَ لَهُمْ﴾ للسحرة ﴿مُوسَىٰ﴾ وهم كثيرون وتقدم ما فى عدهم معهم حبال وعصى ﴿وَيْلَكُمْ﴾ ألزمكم الله الويل ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة آية الله إلى السحر أو بإشراك أحد معه ﴿فَيُسْحِتَكُمْ﴾ بفتح الياء والحاء للجمهور وبضم الياء وكسر الحاء لحمزة والكسائى وحفص: يهلككم ويستأصلكم ﴿بِعَذَابٍ﴾ والسحت لغة الحجاز والإسحات لنجد وتميم ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خسر ﴿مَنِ افْتَرَىٰ﴾ كذباً على الله كما خاب فرعون حين افترى واحتال ليبقى ملكه فلم ينفعه ﴿فَتَنَازَعُوا﴾ أى السحرة ﴿أَمْرَهُمْ﴾ فى موسى وأخيه ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أى تشاوروا فيه، من النزع لا من النزاع ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ بأن موسى إن غلبنا اتبعناه حين قال بعضهم ما هذا بكلام ساحر ﴿قَالُوا﴾ تفسير للنجوى أى السحرة أو فرعون وقومه ﴿إِنْ هَٰذَانِ﴾ بالألف مع تشديد «إنّ» للجمهور على لغة من يقدر الإعراب على ألف المثنى مطلقاً وهم كنانة وبنو الحارث بن كعب ولأبى عمرو هذين وهو ظاهر ولابن كثير وحفص «إنْ هذان» على تخفيف إن، واللام فارقة ﴿لَسَاحِرَانِ﴾ أظهروا بعد النجوى هذا الكلام تشجيعاً لأنفسهم أو إيهاماً للناس أنهم تحققوا كذب موسى وأخيه وإن كان الضمير لفرعون وقومه فكأنهم تشاوروا فى إظهار هذا حذراً من أن يغلبا السحرة فيتبعهما الناس ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ مؤنث أمثل بمعنى أشرف أى بأشرافكم بميلهم إليهما لما سمعوا من قولهما «أن أرسل معنا بنى إسرائيل» أو بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب كقوله إنى أخاف أن يبدل دينكم ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ من أجمع أحكم للجمهور ومن جمع لأبى عمرو أى لمّ ويؤيده «فجمع كيده» ﴿كَيْدَكُمْ﴾ من السحر أحكموه بالاتفاق عليه ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ حال أى مصطفين لأنه أهيب فى صدور الرائين، وقيل مصلى علمٌ لمكان معروف عندهم ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ أى علا وغلب والسين للتأكيد وهو اعتراض ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ﴾ اختر ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ عصاك أولا ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ عصاه، خيروه كما هو شأن الأقران عند المبارزة والأعلام المهرة لدى المناظرة إما لعدم المبالاة أو لإظهار حسن الأدب و«أن» و«ما» نصب مفعول اختر أو رفع خبر محذوف أى الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا أولا ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ قابلهم بمثل ما بدأوه به بياناً لعدم المبالاة

بسحرهم وإسعافاً إلى ما أوهموا من الميل إلى البدء بذكر لفظ الأول فى شقهم وتغيير النظم إلى وجه أبلغ وليبرزوا أقصى ما معهم ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فألقوا ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ﴾ وهى على ماقيل وقر ثلثمائة بعير ، وأصل عصى عصوو قلبت الواوان ياءين وكسرت العين والصاد ﴿ يُخَيَّلُ ﴾ بالياء للجمهور والتاء لابن عامر من رواية ابن ذكوان ﴿ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا ﴾ حيات ﴿ تَسْعَىٰ ﴾ على بطونها وإذا للمفاجأة وهى أيضاً على الأصح ظرف زمان تستدعى متعلقاً ينصبها وهو فعل المفاجأة وجملة تضاف إليها وهى ابتدائية ، والمعنى فألقوا ففاجأ موسى تخيله وقت تخييل سعيها أنها وأن مع مافى حيزها قائم مقام فاعل يخيل على قراءة الجمهور وعلى التأنيث مسند إلى ضمير الحبال والعصى وأنها تسعى بدل اشتمال . قال البيضاوى : وذلك أنهم ملأوها بالزئبق يعنى سليطهم فلما حميت عليها الشمس اضطربت فخيل إليه أنها تتحرك ﴿ فَأَوْجَسَ ﴾ أحس وأضمر ﴿ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ أى خاف من جهته أن سحرهم من جنس معجزته أن يلبس أمره على الناس أو خاف من جهة الطبع ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ عليهم بالغلبة تعليل للنهى مؤكد بالاستئناف وحرف التحقيق وتعريف الخبر وتكرير الضمير ولفظ العلو وصيغة التفضيل ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ من العصى : أبهمها تعظيما لشأنها ﴿ تَلْقَفْ ﴾ تبتلع ﴿ مَا صَنَعُوا ﴾ من الحبال والعصى وتلقف بالتشديد والجزم للجمهور أصله تتلقف حذف منه إحدى التاءين ، وبالرفع لابن ذكوان على الاستئناف أو الحال المقدرة وبالتخفيف لحفص مضارع لقف وأصل اللقف الخفة وأخذ الشىء بالسرعة ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ أى جنسه ولذا وحده ، وقرأ حمزة والكسائى كيد سحر أى ذى سحر أو الإضافة للبيان كعلم فقه والتنكير لتنكير المضاف لأنه فى نفسه معروف كأنه قيل كيدٌ سحريٌّ ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ ﴾ أى هذا الجنس ولذا وحد أيضاً ﴿ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ بسحره أو أى مكان سلك فألقى موسى عصاه فتلقفت كل ما صنعوا ﴿ فَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ شكراً لله على أن هداهم لتحققهم أن مارأوا ليس بسحر وأنه من آيات الله . وعن عكرمة : رأوا فى سجودهم الجنة ومنازلهم فيها ﴿ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ قدم هرون للفاصلة أو لكبر سنه أو لأن فرعون ربى موسى فى صغره فلو قدموه ربما أوهم أن المراد فرعون وهرون ذكر على الاستتباع ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ ءَامَنتُمْ ﴾ بالاستفهام للجمهور وبالخبر لقنبل وحفص ﴿ لَهُ ﴾ لموسى واللام لتضمين الفعل معنى الإذعان أو الاتباع ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أنا فى الإيمان به ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ لعظيمكم وأستاذكم ، لأن أكثر السحرة من بنى إسرائيل ﴿ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ وأنتم تواطأتم معه على ما فعلتم ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ﴾ حال بمعنى مختلفة أى الأيدى اليمنى والأرجل اليسرى فمن ابتدائية لأن القطع الواقع على موضع الخلاف ملابس له فكأنه ابتدأ منه ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ عليها شبه استعلاء المصلوب باستقرار المظروف فى الظرف بجامع التمكن واللزوم فاستعاره له ، قيل هو أول من صلب واختار النخل لكونه أطول الأشجار فالمصلوب عليه

أظهر ولمره وحاله أشهر ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا ﴾ يعنى نفسه ورب موسى أو وموسى لقوله « آمنتم له » ﴿ أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَىٰ ﴾ أدوم على مخالفته ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ لن نختارك ﴿ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا ﴾ موسى به ، ويحتمل أن يكون الضمير لما ﴿ مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ المعجزات الواضحة على صدق موسى ، والجمع إما باعتبارأحوالالعصى أو لأنهم لما سجدوا انكشف لهم عالم الملكوت فرأوا أموراً خارقة ﴿ وَالَّذِى فَطَرَنَا ﴾ خلقنا قسم أوعطف على « ما » ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ حاكم به أى اصنع ما قلته أو مدة قضائك وأيام حكمك فما موصولة أو مصدرية ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴾ النصب على الاتساع أى فيها وتجزى عليه فى الآخرة تعليل لما قبله وتمهيد لما بعده ﴿ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ من الكفر والمعاصى ، وصفوه هنا بربهم إعلاما بأنه الذى أوصلهم إلى ذلك الكمال وأكرمهم بأجزل النوال ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ تعلماً وعملا لمعارضة موسى وإنما قالوا « أكرهتنا » لأنهم لما رأوا العصا تحرس موسى وهو نائم قالوا لفرعون إن هذا ليس بساحر فإن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى عليهم ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ ﴾ منك ثواباً إذا أطيع ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ منك عذاباً إذا عصى ، قال تعالى ﴿ إِنَّهُ ﴾ الشأن ﴿ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ﴾ بأن يموت كافراً ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فيستريح ﴿ وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ حياة نافعة ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ ﴾ الفرائض والنوافل ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ ﴾ المنازل ﴿ الْعُلَىٰ ﴾ الرفيعة جمع عليا مؤنث أعلى ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ إقامة بيان أو بدل من الدرجات لدلالته على الإقامة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حالا والعامل فيهما معنى الإشارة أو الاستقرار ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ تطهر من الذنوب ، وقوله « من يأت » إلى هنا ابتداء كلام من الله تعالى بعد تمام كلام السحرة ترهيباً وترغيباً أو من كلامهم عدوا ذلك من موسى أو تناقلوه من أسلافهم من كلام الأنبياء ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ ﴾ بعد ما عالج فرعون وأراه الآيات ولم يزد إلا طغياناً ﴿ أَنْ أَسْرِ ﴾ بهمز وصل وكسر النون لنافع وابن كثير وبهمز قطع للباقين ، من سرى وأسرى لغتان أى سر ﴿ بِعِبَادِى ﴾ بنى إسرائيل ليلا من مصر ﴿ فَاضْرِبْ ﴾ اجعل ﴿ لَهُمْ ﴾ بالضرب بعصاك ﴿ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ ﴾ من ضرب له فى ماله سهماً أو من ضرب اللبن اتخذها من الطين ﴿ يَبَسًا ﴾ أى يابساً مصدر وصف به مبالغة ، ولذا يوصف به المؤنث كشاة يبس للتى جف لبنها ﴿ لَّا تَخَافُ ﴾ بالرفع للجمهور نفىٌ وبالجزم لحمزة نهىٌ ﴿ دَرَكًا ﴾ من فرعون وجنوده أى لحوقاً ﴿ وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ غرقاً من بحر أمامك ، فامتثل موسى ما أمر به فخرج بهم أول الليل فأخبر فرعون بذلك فقص آثارهم ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ ﴾ أدركهم وقت الشروق ملتبساً ﴿ بِجُنُودِهِ ﴾ يقال اتبع القوم إذا أدركهم بعد سبقهم ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ ﴾ البحر ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ مما لا يمكن الإحاطة بكنهه والضمير لجنوده لأنه ألقى إلى الساحل ، أولهم وله ، وفيه مبالغة ووجازة أى غشيهم ما سمعت قصته ولا يعرف كنهه إلا الله ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ ﴾ عن سبيل الرشاد بدعائهم إلى عبادته ﴿ وَمَا هَدَىٰ ﴾ ثم تهكم به فى قوله « وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » أو

أضلهم فى البحر وما نجى بقوله لما رآه منفلقاً أدخلوا فإنه قد انفلق خشية منى ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ خطاب لهم بعد غرق فرعون على إضمار قلنا وقيل لأعقابهم زمن نبينا والأول أوجه لأنه فى أثناء قصة موسى وتعداد النعم عليهم ﴿قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ بالنون للجمهور ولحمزة والكسائى بالتاء فيه وفى الفعلين بعد واعدنا ورزقنا ﴿مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون وقومه ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ لمناجاة موسى وإنزال التوراة لتعملوا بها ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ فى التيه كما تقدم ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لذائذه أو حلالاته ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ بكفران النعمة ﴿فَيَحِلَّ﴾ بكسر الحاء للجمهور أى يجب من حلّ الدّين وجب أداؤه وبضمها للكسائى أى ينزل ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ سقط فى النار وهلك، من الهوىّ وهو السقوط من مكان عال، وقيل هوى وقع فى الهاوية ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَآمَنَ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فرضاً ونفلا ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ استقام على الهدى المذكور واستمر عليه إلى موته، ولما واعد الله موسى بعد غرق فرعون أن يكلمه على الطور ويؤتيه كتاباً فيه تبيان كل شىء وأمره باختيار سبعين من نقباء بنى إسرائيل ليسمعوا كلام الله فاختارهم وخلف هرون على بقية بنى إسرائيل وتعجل شوقاً إلى الموعد فسبق القوم: سأله تعالى عن سبب العجلة وسبب التقدم على النقباء بقوله ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ﴾ لمجىء ميعاد أخذ التوراة ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ ولما كان السؤال للإنكار على العجلة التى هى نقيصة فى نفسها يتضمن الإنكار على السبب الباعث عليه أجاب أولا بأن ليس هناك ما يسمى عجلة بقوله ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ﴾ بالقرب منى يأتون ﴿عَلَىٰ أَثَرِي﴾ ما تقدمتهم إلا بخطى يسيرة كما هو شأن الوفود يكون رئيسهم أمامهم، وأجاب ثانيا عن سببها بقوله ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أى زيادة على رضاك فإن المسارعة إلى امتثال أمرك يوجب رضاك، اعتذار بحسب ظنه وتخلف المظنون بما أخبره تعالى بقوله ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ الذين خلفتهم مع هرون اختبرناهم بما صنعه السامرى أو ألقيناهم فى فتنة بعبادة العجل ﴿مِنْ بَعْدِكَ﴾ أى بعد فراقك لهم ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته، واسم السامرى: موسى بن ظفر، منسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل يقال لهم السامرة يخالفونهم فى بعض الأمور، وقيل كان علجاً من كرمان منافقاً أظهر الإسلام وهو من قوم يعبدون البقر، وتقدم خالص القصة فى الأعراف على ما فى غاية الأمانى لكن فيه شىء وهو كون قومك فى قوله « وما أعجلك عن قومك » هم السبعين والمراد بهم فى « فتنا قومك » هم الذين خلفوا مع هرون، ومقتضى قوله فى غاية الأمانى أنهم لم يؤمروا بالمسير الى الموعد، والظاهر من الكلام أن « قومك » فى الموضعين بمعنى واحد لأن المعرفة إذا تكرر هو عين الأول ولأن قوله فأخلفتم موعدى يقتضى أنه واعدهم بجانب الطور وكذا قوله فى هرون ما منعك أن لا تتبعن أفعصيت أمرى وهذا يقتضى أن موسى خلف هرون على بنى إسرائيل ليسير بهم إلى الموعد وتقدمهم موسى ويؤيده ما فى

الجواهر فى قوله وما أعجلك رأى موسى على جهة الاجتهاد أن يتقدم وحده مبادراً لأمر الله واستخلف على بنى إسرائيل هرون وقال لهم سيروا إلى جانب الطور إلى آخر ما قال وكذا قوله عند قول هرون فاتبعونى أى إلى الطور الذى واعدكم الله تعالى إليه لكن سنبدى للكل احتمالات إن شاء الله والله أعلم بما كان .

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ ﴾ بعد أخذ التوراة فى الألواح ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ ﴾ من جهتهم ﴿ أَسِفًا ﴾ شديد الحزن بما فعلوا ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ أى صدقاً يعطيكم التوراة فيها تبيان كل شىء هدى ونورا ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ مدة مفارقتى إياكم إنكار لذلك أو طال عليكم زمان العافية وتوالى النعم بعد أن كنتم فى أسر فرعون ﴿ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ ﴾ يجب ﴿ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ بعبادتكم العجل ﴿ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾ وتركتم المجىء بعدى ، هذا ما فى المكمل . وفى غاية الأمانى وأنوار التنزيل : أى وعدكم إياى بالثبات على الإيمان بالله والقيام على ما أمرتكم به ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ بفتح الميم لنافع وعاصم وضمها لحمزة والكسائى وكسرها للباقين لغات فى الأصل فى مصدر ملك الشىء ـ أى بقدرتنا أو بأمرنا ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا ﴾ بضم الحاء وكسر الميم مشدداً لنافع وابن كثير وابن عامر وحفص وبفتح الحاء والميم مخففاً للباقين ﴿ أَوْزَارًا ﴾ أثقالا ﴿ مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ أى حلى قوم فرعون استعارها منهم بنو إسرائيل بعلة عرس فبقيت عندهم لم يردوها عند خروجهم مع موسى ليلا لخوف أن يعلم خروجهم وسموها أوزاراً لأن مال المستأمن حرام ولأن الغنائم لم تحل إلا لهذه الأمة ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ طرحناها فى النار بأمر السامرى ﴿ فَكَذَٰلِكَ ﴾ كما ألقينا ﴿ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ ما معه من حليهم ومن التراب الذى أخذه من أثر حافر فرس جبريل على الوجه الآتى بأن أمرهم لحفروا حفرة فقذفوا الحلى فألقى هو تلك التربة وأوهمهم أنه إنما ألقى الحلى ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ ﴾ من تلك الحلى المذابة ﴿ عِجْلًا ﴾ أى صورته ﴿ جَسَدًا ﴾ لحماً ودماً ﴿ لَهُ خُوَارٌ ﴾ أى صوت كخوار البقر أى انقلب كذلك بسبب التراب الذى هو أثر الحياة فيما يوضع فيه ﴿ فَقَالُوا ﴾ أى السامرى وأتباعه ممن افتتن به أول ما رأوه ﴿ هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ موسى ربه هنا وذهب يطلبه بالطور أو نسى السامرى ما كان عليه من الإسلام وتركه والفاء فصيحة على الوجهين . قال تعالى بياناً لغباوتهم وكفرهم باعتقاد الحلول فى جسم حيوان يضرب بجهله المثل ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنْ ﴾ أنه ﴿ لَا يَرْجِعُ ﴾ لا يرد ﴿ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ جواباً فضلا أن ينشئه ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا ﴾ أى دفعه ﴿ وَلَا نَفْعًا ﴾ أى جلبه فكيف يتخذ إلها ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل أن يرجع موسى أو قبل قول السامرى هذا الحكم عذراً لهم ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي ﴾ فى عبادته ﴿ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ بالثبات على الدين أو فاتبعونى إلى الطور الذى واعدكم الله به وأطيعوا أمرى فى ذلك ﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ ﴾ لن نزال ﴿ عَلَيْهِ ﴾ على عبادته ﴿ عَاكِفِينَ ﴾ مقيمين ﴿ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ ولما رجع موسى ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ بعبادته ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ لا زائدة : فى نصرة الدين والغضب لله ومقاتلتهم على كفرهم

وقد علمت أنى لو كنت فيهم ومنعتهم فأبوا لقاتلتهم أو المعنى ما منعك أن تلحقنى فتفارقهم فيكون فراقك لهم زجراً ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ بالإقامة بين الكفار أو إذ قلت لك أصلح ولا تتبع سبيل المفسدين أو بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه ﴿ قَالَ ﴾ هرون ﴿ يَبْنَؤُمَّ ﴾ بفتح الميم لنافع وابن كثير وأبى عمرو وحفص وبكسرها للباقين أراد أمى وذكرها أعطف لقلبه لأنهما من أب وأم عند الجمهور ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى﴾ وكان أخذها بشماله ﴿وَلَا بِرَأْسِى﴾ شعره وكان أخذه بيمينه غضبا لله ﴿إِنِّى خَشِيتُ﴾ لو قاتلتهم بيعضهم أو آتبعتك ببعضهم ﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ وكان معه ممن لم يعبد العجل اثنا عشر ألفا ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ تنتظر ﴿ قَوْلِى﴾ فيما رأيته فى ذلك فإن الإصلاح فى حفظ الدهماء ومداراتهم إلى أن ترجع إليهم لم يقتل بعضهم بعضا فنجتمع على الرأى وتدارك الأمر أرجع عندى قال موسى رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين . أو ولم ترقب عطف على فرقت أى خشيت أن تقول لى لم ترقب قولى : أى أخلفنى فى قومى وأصلح أى بالرفق ثم أقبل على السامرى ﴿ قَالَ ﴾ منكراً عليه ﴿ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِىُّ ﴾ ما غرضك فيما صنعت ، مصدر خطب الشىء طلبه ولا يطلق إلا على أمر عظيم يقع لأجله التخاطب أى ما حملك على هذا ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ بالياء للجمهور والتاء لحمزة والكسائى والمخاطب بنو إسرائيل أى علمت ما لم يعلموه وهو أن الرسول الذى جاءك روحانى لا يمس أثره شيئاً إلا حي ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً ﴾ مرة أريد بها المقبوض ﴿مِنْ﴾ تراب ﴿ أَثَرِ ﴾ حافر فرس ﴿ الرَّسُولِ ﴾ جبريل حين أرسل إليك ليذهب بك إلى الطور أو حين أرسل لإغراق فرعون ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ ألقيتها فى صورة العجل المصاغ ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ ﴾ زينت ﴿ لِى نَفْسِى ﴾ وألقى فيها أن آخذ قبضة من تراب ما ذكر وألقيها على ما لا روح له يصير له روح ، ورأيت قومك طلبوا منك أن تجعل لهم إلهاً فحدثتنى نفسى أن يكون ذلك العجل إلههم ﴿ قَالَ ﴾ له موسى وكان لا يقتل بنى إسرائيل إلا فى حد أو بوحى ولم يوح إليه فى السامرى فعاقبه باجتهاد نفسه بأن أبعده من الناس وأمرهم باجتنابه واجتناب من اتبعه ولا يؤاكلوهم ولا يحادثوهم كما أخبر تعالى بقوله ﴿ فَاذْهَبْ ﴾ من بيننا طريدا ﴿ فَإِنَّ لَكَ ﴾ عقوبة على ما فعلت ﴿ فِى الْحَيَوٰةِ ﴾ أى مدة حياتك ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ لمن رأيته ﴿لَا مِسَاسَ﴾ أى لا تقربنى فكان يهيم فى البرية وإذا مس أحداً أو مسه أحد حُمّا جميعا ، قال البغوى : حتى إن بقاياهم اليوم يقولون ذلك ، وإذا مس واحد من غيرهم أحدا منهم حما جميعا فى الوقت . اهـ . ﴿ وَإِنَّ لَكَ ﴾ يا سامرى ﴿ مَوْعِدًا ﴾ لعذابك ﴿ لَنْ تُخْلَفَهُ ﴾ بالبناء للمفعول للجمهور وللفاعل لابن كثير وأبى عمرو أى بل تبعث إليه ﴿ وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ ﴾ أصله ظللت بلامين أولاهما مكسورة حذفت تخفيفا أى دمت ﴿ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ أى مقيما تعبده ﴿ لَنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ بالنار ﴿ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ ﴾ نذرينه ذرى الرماد ﴿ فِى الْيَمِّ ﴾ هو البحر ﴿ نَسْفًا ﴾ لا يصادف منه شىء وهذه عقوبة أخرى له ليشاهد معبوده رمادا أذل من التراب فيظهر غباوة المفتتنين به لمن له أدنى بصيرة ، وفعل موسى بعد ذبحه ما ذكر

قال مكي : روى أن موسى كان مع السبعين فى المناجاة حين وقع أمر العجل وأعلم الله موسى ذلك فكتمه منهم حتى رجعوا . اه . وقال ابن عطية : هذه رواية ضعيفة والجمهور على خلافها وإنما تعجل موسى وحده فوقع أمر العجل ثم جاء موسى وصنع ما صنع بالعجل ثم خرج بعد ذلك بالسبعين إلى الطور فكان لموسى نهضتان والله أعلم . اه . حكى كل ذلك عبد الرحمن الثعالبي فى جواهره ﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ ﴾ المستحق لعبادتكم ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ تمييز محول من الفاعل أى وسع علمه كل شىء فكيف يمثل بعجل يصاغ ويحرق وهو وإن كان حياً يضرب به المثل فى الغباوة ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما قصصنا عليك يا محمد هذه القصة ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ من الامم على أبلغ نظام تكثيراً لمعجزاتك وتأكيداً للحجة على من عاندك وزيادة استبصار لمن آمن بك وتابعك ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ ﴾ أعطيناك ﴿ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ قرآنا فيه ذكر الوقائع الماضية أو فيه شرفك وفيه الإشارة إلى أن التفكر فيه يورث السعادة ، والتنكير فيه للتعظيم . ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ فلم يؤمن به ﴿ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴾ حملا ثقيلا أى عقوبة سميت وزراً لانها جزاؤه ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ﴾ أى فى عذاب الوزر ﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾ تمييز مفسر للضمير فى ساء والمخصوص بالذم محذوف أى وزرهم واللام للبيان ويبدل من يوم القيامة ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ القرن النفخة الثانية ، وقرأ أبو عمرو بالنون على بناء الفاعل ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الكافرين ﴿ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ عيونهم مع سواد وجوههم والزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب لانه صفة أعدائهم الروم غالباً ولذا يقول فى الذم أصهب السبال أزرق العين أو عمى زرقا عمياً لان حدقة من ذهب نور عينه تزرق كلون الرماد ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ يتساررون لما يملأ صدورهم من الرعب ، والخفت : خفض الصوت وإخفاؤه ﴿ إِن ﴾ ما ﴿ لَّبِثْتُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ إِلَّا عَشْرًا ﴾ من الليالى بأيامها استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا لزوالها للخلود مدة الآخرة أو أرادوا لبثهم فى القبور ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ فيه أى ليس كما قالوا ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ ﴾ أعدلهم ﴿ طَرِيقَةً ﴾ رأيا فيه أو عملا ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ يستقلون لبثهم فى الدنيا جدا لما يعاينونه فى الآخرة من أهوالها ، وفضله عليهم لكونه أعلم بشدة الأمر ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾ كيف تكون يوم القيامة والسائل رجل من ثقيف ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ يجعلها كالرمل ثم تفرقها الرياح وتطيرها ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ مقارها أو الأرض لدلالة الجبال عليها ﴿ قَاعًا ﴾ منبسطا يعلوه الماء أو خالياً ﴿ صَفْصَفًا ﴾ مستوياً ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا ﴾ انخفاضاً ﴿ وَلَآ أَمْتًا ﴾ ارتفاعاً إن تؤمل فيها بالقياس الهندسى وثلاثة الأوصاف أحوال مترتبة فالاولان باعتبار الإحساس والثالث باعتبار القياس ، ولذا ذكر العوج بالكسر الذى يكون فى المعانى ، والأمت هو النتوء اليسير أى لو قاسه من يقيس بالهندسة لم يجد عوجاً فى أجزائها ولا أدنى ارتفاع ،كأنه قال : لا يعقل فضلا عن الإحساس ، وقيل : لا ترى استئناف لبيان الحالين ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم إذ نسفت الجبال ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ أى الناس بعد القيام من القبور ﴿ ٱلدَّاعِىَ ﴾ إلى المحشر

وهو إسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس ويضع الصور فى فيه فيقول : هلموا إلى عرض الرحمن فيقبلون إلى صوته من كل أوب أى جهة ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ لاتباعه أى لا يقدرون أن لا يتبعوه واستهاله باللام لأن الفعل كما يختص بالفاعل كذلك بالمفعول ، فى لاضرب لزيد يحتملهما ، أو فيه قلب للمبالغة أى لا عوج لهم عن دعائه ﴿وَخَشَعَتِ﴾ سكنت ﴿الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أى ذوى الأصوات أو مستعار للخفض ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ صوت وطء الأقدام فى نقلها إلى المحشر ، والهمس : الصوت الخفى كصوت أخفاف الإبل فى مشيها ، وقال مجاهد : هو تخافت الكلام وقيل تحريك الشفاه من غير نطق كأنهم بكم من شدة الخوف ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ أحداً ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾ رفع بتقدير المضاف على البدل ، أى إلا شفاعة من أذن له الرحمن ، أو نصب على المفعول أى لا تنفع أحداً إلا من أذن الرحمن أن يشفع له ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أى رضى قوله « لا إله إلا الله » أورضى قوله فى الشفاعة لمكانته عنده أو رضى لأجله قول الشافع فى شأنه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما تقدمهم من الاحوال ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما يستقبلونه منها من أمور الدنيا والآخرة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ أى بمعلومه أو بذاته أو بمجموع ما ذكر ﴿عِلْمًا﴾ فإنهم وإن علموا منه شيئاً لا يحيطون بتفصيله ولا بخفايا بواطن ماعلموه مفصلا ﴿وَعَنَتِ﴾ خضعت وذلت ﴿الْوُجُوهُ﴾ وجوه الخلق أو المجرمين ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ الله خضوع العناة أى الأسارى بين يدى الملك القهار ومنه العانى للأسير ، وفى الحديث : « اتقوا الله فى النساء فإنهن عوان فى أيديكم » ، والإسناد إلى الوجوه لأنها أشرف الأعضاء وأريد بها الذوات والظاهر العموم ، وقيل الوجوه عظماء الكفرة ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خسر ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أى شركا . قال فى الجواهر : والظلم يعم الشرك والمعاصى وخيبة كل حامل بقدر ما حمل من الظلم ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعض الطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ الإيمان شرط فى صحة الطاعة ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ بالرفع للجمهور نفى ، وبالجزم لابن كثير نهى ﴿ظُلْمًا﴾ نقصا من ثوابه ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ وضعا عن درجاته أو الاول فى زيادة السيئات والثانى فى نقص الحسنات ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطف على « كذلك نقص عليك » أى مثل إنزال ما ذكر من آيات الوعد والوعيد ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أى القرآن كله وهو عود إلى ما بدأ به السورة من وصف القرآن بالصفات الكمالية فإن حديث موسى كان متصلا بقوله « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » فانتظام الكلام أحسن انتظام ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا﴾ كررنا القول ﴿فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أى والحال أنا قدكررنا فيه آيات الوعيد ، و « من » بيانية ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الشرك والمعاصى والفضول أى يبلغون به التقوى التى هى نهاية مقامات العارفين ﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ القرآن ﴿لَهُمْ ذِكْرًا﴾ عظة وانزجاراً فى الجملة بهلاك من تقدمهم من الأمم فيعتبرون ، و « أو » للتنويع والأمر دائر على التخلية والتحلية . قاله فى غاية الأمانى . أو معنى « ذكراً » شرفاً ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أن لا يكون كتابه بالغاً فى الكمال ،

وفيه طلب تعظيم كلامه والتوجه إليه بشراشره وأنه تعالى هو الحقيق بأن يرجى وعده ويخشى وعيده إذ هو الملك النافذ أمره ونهيه والحق الثابت فى ذاته وصفاته وأن المحق هو من امتثله والمبطل من لم يتعظ بوعظه، وهو تمهيد للنهى عن العجلة بقوله ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ ﴾ بقراءته ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ أى يفرغ جبريل من إبلاغه فإن ذلك يخل بتعظيمه لأن ما يوحى إليك تناله لا محالة ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ بدل العجلة لم يأمره بطلب الزيادة قط إلا فى هذه الآية إظهاراً لشرف العلم قاله فى غاية الأمانى. فكلما نزل عليه شىء من القرآن زاد به علمه، قال مالك: طلب العلم حسن لمن رزق خيره ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى فالزمه. اهـ. ولما قال تعالى «وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون» أراد أن يبين أن عدم تقواهم ليس لنقص فى التبليغ ولا فيما بلغتهم ولكن عادتهم العصيان والنسيان مشيراً إليه بعطف قصة آدم عليه بقوله ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ ﴾ أوصيناه أن لا يأكل من الشجرة ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى قبل هؤلاء الذين قيل فيهم لعلهم يتقون أو قبل هذا الزمان أو قبل أكله منها ﴿ فَنَسِيَ ﴾ العهد عن قريب واغتر بقول العدو ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ حزماً وصبراً عما نهيناه عنه أو لم نجد له فيما أتى به عزماً بل كان ذلك خطأ منه لا قصداً للمخالفة. قال ابن العربى فى الأحكام: يجب تنزيه الأنبياء عما نسبه إليهم الجهال ولكن البارى سبحانه بحكمه النافذ وقضائه السابق أسلم آدم إلى الأكل من الشجرة متعمداً للأكل ناسياً للعهد فقال فى تعمده «وعصى آدم» وقال فى بيان عذره «نسى»، فمتعلق العمد غير متعلق النسيان وجاز للمولى أن يقول فى عبده لحقه «عصى» تثريباً ويعفو عنه بفضله فيقول «نسى» تقريباً ولا يجوز لأحد منا أن يطلق ذلك على آدم أو يذكره إلا فى تلاوة القرآن أو قول النبى صلى الله عليه وسلم. اهـ. ولم نجد إن كان من وجد الشىء علمه فله وعزما مفعولاه، وإن كان من الوجود نقيض العدم فله حال من عزما، ثم أشار إلى ما بين نسيانه العهد وعدم عزمه بقوله ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ تقدم الكلام فيه، اذكر ذلك ليتبين نسيانه وعدم عزمه ﴿ أَبَىٰ ﴾ استكباراً أى أظهر الإباء، استئناف لبيان مانع السجود ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ تتعب بالحرث والزرع والحصد والطحن والخبز وغير ذلك واقتصر على شقاه لأن الرجل يشق على زوجته، والنهى تأكيد للأمر بالثبات على العهد السابق ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ لوجود المآكل والملابس من غير سعى ومباشرة أسباب ﴿ وَأَنَّكَ ﴾ بالكسر لنافع وأبى بكر عطفاً على «إن لك»، وبالفتح للباقين عطفاً على اسم «إن» ﴿ لَا تَظْمَأُ فِيهَا ﴾ لا تعطش ﴿ وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ لا يحصل لك حر شمس لانتفائها فى الجنة وعطف على «أن لا تجوع» مع عدم جواز دخول «إن» على «أن» لأن الواو نائب عنه والمستكره دخوله صورة ولأن الواو وإن ناب عنه من حيث إنه عامل لم ينب عنه فى كونه حرف تحقيق فلا يمتنع دخوله، على أن امتناع دخول «إن»

عليه تأمل نبه على ذلك فى أنوار التنزيل وغاية الأمانى ، وإنما ذكر نقائض مطالبه منفية ولم يأت بتلك المطالب صريحاً ليذكره بأسباب الشقاء الذى حذره ولم يذكر الظمأ مع الجوع الذى هو قرينه لأن الشبع والكسوة أصلان والأخيران متممان مع أن الشبع اكتساء منى ﴿ فَوَسْوَسَ ﴾ أنهى الوسوسة ﴿ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ﴾ أى التى يخلد من أكلها ﴿ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴾ لا يفنى وهو لازم الخلود أضافها إلى الخلد لأنها سببه بزعمه ، و«قال» بيان لوسوسته ولذا لم يعطف عليه ﴿ فَأَكَلَا ﴾ أى آدم وحواء ﴿ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ أخذا يلزقان ﴿ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ ليستترا به ، قيل هو ورق التين ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ ﴾ بأكل الشجرة ﴿ فَغَوَىٰ ﴾ أخطأ طريق الرشاد حيث اغتر بقول العدو ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ قربه من الجباية وهى الجمع ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ قبل توبته ﴿ وَهَدَىٰ ﴾ أى هداه إلى المداومة على التوبة والاستقامة وعدم الوقوع فى زلة بعدها . قال فى غاية الأمانى : وما صدر من آدم وإن كان على سبيل النسيان عبر عنه بالعصيان والغواية إما لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين وإما ليكون لطفاً بالسامعين وإيقاظاً لهم بأن صفيه الذى أسجد الملائكة له إذا بدا منه صغيرة على وجه النسيان جرى عليه هذا فانظروا أنتم أيها المصرون على الذنوب واعتبروا ﴿ قَالَ اهْبِطَا ﴾ آدم وحواء بما اشتملتما عليه من ذريتكما ﴿ مِنْهَا ﴾ من الجنة ﴿ جَمِيعًا بَعْضُكُمْ ﴾ أى بعض الذرية ﴿ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ من ظلم بعضهم بعضاً فى أمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب ، يريد بهذا أولادهما لأنهما أصل البشر فخوطبا مخاطبتهم ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ كتاب ورسول ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ ﴾ فى الدنيا ﴿ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ فى الآخرة ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ أى كتابى الذى هو الهدى لأنه سبب ذكره والداعى إلى عبادته ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ بالتنوين مصدر وصف به بمعنى ضيقة فى الدنيا والبرزخ والآخرة ، أما فى الدنيا فلكون همه قاصراً على الدنيا متهالكا على ازديادها خائفاً على انتقاصها فهو أبداً فى ضيق ذلك بخلاف المؤمن على أنه تعالى قد يضيق بشؤم الكفر ويوسع ببركة الإيمان ، وأما فى الآخرة ففى النار ، وأما فى البرزخ فقد فسر فى الحديث بعذاب القبر يلتئم عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فلا يزال يعذب بحيات تسعة وتسعين لكل حية تسعة أرؤس يخدشنه إلى يوم القيامة . قال فى الجواهر : فإن صح الحديث فلا نظر لأحد معه وإن لم يصح فالصواب حمل الآية على عمومها . والله أعلم . اه . ﴿ وَنَحْشُرُهُ ﴾ أى المعرض عن القرآن ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ البصر لا يبصر شيئاً أى لا حجة له ويؤيد الأول قوله ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ فى الدنيا وعند البعث ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل ذلك فعلت ثم فسره فقال ﴿ أَتَتْكَ آيَاتُنَا ﴾ واضحة ﴿ فَنَسِيتَهَا ﴾ تركتها وعميت عنها لم تؤمن بها ولم تنظر إليها ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ مثل تركك إياها ﴿ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴾ تترك فى النار والعمى أى جزاؤك من جنس عملك ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ مثل جزاء هذا السائل ﴿ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ بالانهماك فى الشهوات والإعراض عن

تدبر الآيات ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ بل كذبها وخالفها ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ ﴾ من عذاب الدنيا وعذاب القبر ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ أدوم . قال البيضاوى : ولعله إذا دخل النار زال عماه ليرى محله وحاله . اه . ولم يرضه صاحب غاية الأمانى ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ ﴾ أى ألم يبين القرآن الذى هو معنى الآيات ﴿ لَهُمْ ﴾ لكفار مكة ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ ﴾ مفعول يهد معنى علق عنه لكونه فى معنى الإعلام أو فاعله ما دل عليه كم أهلكنا أى كثيراً إهلاكنا ف « كم » مفعول أهلكنا وأخذ الإهلاك منه مع خلوه عن حرف مصدرى لرعاية المعنى لا مانع له ﴿ يَمْشُونَ ﴾ حال من ضمير لهم ﴿ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ فى سفرهم إلى الشام وغيره ويشاهدون آثار هلاكهم فيعتبروا ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ لعبر ﴿ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ لذوى العقول الناهية عن التغافل والتعامى ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ بتأخير العذاب عنهم إلى الآخرة ﴿ لَكَانَ ﴾ العذاب ﴿ لِزَامًا ﴾ لازماً ملازماً لهم فى الدنيا لايفارقهم طرفة عين لتكامل أسبابه ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ لأعمارهم عطف على كلمة والفصل للدلالة على استقلال كل منها لنفى لزوم العذاب ويجوز عطفه على المستكن فى كان لوجود الفاصل أى لكان العذاب وأجل مسمى لازمين معاً ولم ينفرد الأجل عن العذاب العاجل ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ فى الله وفى القرآن وفيك ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ نزه ربك عما لا يليق به أوصل ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ حال متلبساً به أى على هدايته أوصل وأنت حامد ربك الذى أوصلك إلى هذا الكمال ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ صلاة الصبح ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ صلاة العصر ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ ﴾ ساعاته جمع إِنًى كمِعًى أو إنو كقنو ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أى صل المغرب والعشاء وقيام الليل ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ عطف على محل من آناء المنصوب أى صل الظهر لأن وقتها يدخل بزوال الشمس فهو طرف النصف الأول وطرف النصف الثانى وجمعهما لعدم الإلباس كقوله ظهراهما مثل ظهور الترسين . أو لإرادة جنس النهار أو أجزاء الطرفين ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ بما تعطى من الثواب بالبناء للفاعل للجمهور وللمفعول للكسائى وأبى بكر أى لعل الله يعطيك ما يرضيك أو تكون مرضياً عنده وتمام رضاه بقبول شفاعته « ولعلك » متعلق بـ « سبح » أى سبح فى هذه الأوقات طمعاً أن تنال عند الله الرضى . قال ابن العربى فى أحكامه : هذه الآية تماثل قوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » اه ثم أمر سبحانه نبيه بالاحتقار لما فى أيدى الكفرة من الدنيا إذ ذلك صائر بهم إلى الخزى فقال : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ ﴾ نظر ﴿ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا ﴾ أصنافا ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ خلاف ما عليه الزاهدون ﴿ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ زينتها وبهجتها والمنهى فيه مد النظر إليه واستغراقه فيه إعجاباً به واستحسانا وتمنياً أن يكون له مثله كما قالت نظارة قارون : « ياليت لنا مثل ما أوتى قارون » و « قال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير » وأما مطلق النظر ثم كفه من غير مد وتطويل فغير منهى عنه ، قاله فى غاية الأمانى ، وأزواجاً مفعول متعنا ويجوز أن يكون حالا من الضمير المجرور فى به أى لاتمدن عينيك

إلى الممتع به وهو أصناف بعضهم أو ناسا منهم على أن « من » تبعيضية و « زهرة » مفعول ثان لمتعنا لتضمنه معنى أعطينا والباء على هذا سببية أى لا تمدن عينيك إلى المال الذى أعطينا بسببه أصنافا من الكفرة زهرة الحياة الدنيا أو بدل من أزواجا بتقدير مضاف ، والأحسن نصبه على الذم لإضافته إلى الحياة الدنيا المذمومة فمن اكتمل بنور الهدى يرى تحقيرها والازدراء بها من أقرب القرب . قال فى غاية الأمانى : قدشدد العلماء وأهل التقوى فى ترك النظر إلى أبنية الظلمة ومراكبهم وشاراتهم فإنه إغراء لهم على طلب الزيادة والتعمق فيها . اهـ . وفى الجواهر أن عروة بن الزبير كان إذا رأى شيئاً من السلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله فدخله وهو يقرأ « ولا تمدن عينيك » الآية إلى قوله « وأبقى » ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ لنعذبهم به فى الآخرة أو لنبلوهم به فيطغوا ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ ﴾ فى الجنة ﴿ خَيْرٌ ﴾ مما أوتوه فى الدنيا ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ أدوم ، ولذا لما قيل لسلمان الفارسى بعد فتح العراق : مالك لا تلبس الجيد من الثياب؟ فقال : وما للعبد والثوب الحسن فإذا عتق فله عند الله ثياب لا تبلى أبداً . وآثار السلف فى أمثال هذا لا تحصى رحمهم الله ورزقنا الاقتداء بهم ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ ﴾ أى أهل بيتك أو أمتك فإنك راع وكل راع مسئول عن رعيته وفى أمرهم بها إعانة له أيضاً فإن الجماعة يشد بعضهم بعضا ويزداد الإنسان بها نشاطاً بخلاف الانفراد فإنه يورث الفتور ، ويشاركهم فى الثواب فإن الدال على الخير كفاعله ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴾ تحمل المشاق فى المداومة ﴿ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ﴾ لنفسك ولا أهلك فإن ذلك علينا ففرغ بالك لأمر الآخرة ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ ومن وجب عليك القيام بأمره ، روى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية . وتقدم أن عروة بن الزبير كان إذا رأى ما عند الملوك دخل بيته وقرأ الآية ثم ينادى : الصلاة رحمكم الله ﴿ وَالْعَاقِبَةُ ﴾ المحمودة ﴿ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ لذوى التقوى إشارة إلى أن ما كان فيه أهل الدنيا سريع الزوال لا عاقبة له ﴿ وَقَالُوا ﴾ أى المشركون لك إنكاراً لما جئت به من الآيات وتعنتاً بطلب غيرها ﴿ لَوْلَا ﴾ هلا ﴿ يَأْتِينَا ﴾ محمد ﴿ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ على عادتهم فى عدم الاعتداد بما جاء به أى مما اقترحناه ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ ﴾ بالتأنيث لنافع وأبى عمرو وحفص ، وبالتذكير لغيرهم ﴿ بَيِّنَةُ ﴾ أى بيان ﴿ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية والمراد بـ « بينة » : ذلك القرآن ، لاشتماله على زبدة ما فيها من العقائد والأحكام الكلية وأنباء الأمم الماضية وإهلاكهم بتكذيبهم رسلهم فهو برهان على صدق تلك الكتب ؛ فإن كانوا يقرون بصدقها فإقرارهم بصدقه ودلالته على نبوتك أولى وأوجب ، وقيل المراد ببينتها نعته ونعت أمته فيها . والله أعلم ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ قبل محمد أو القرآن ﴿ لَقَالُوا ﴾ يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ المرسل بها ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ ﴾ فى الدنيا بالقتل والسبى ﴿ وَنَخْزَىٰ ﴾ فى الآخرة بدخول النار ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ كُلٌّ ﴾ منا ومنكم ﴿ مُتَرَبِّصٌ ﴾ ما يئول إليه الأمر ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ بنا دوائر الزمان

﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ عن قريب ﴿ مَنْ أَصْحَـٰبُ الصِّرَاطِ السَّوِىِّ ﴾ المستقيم ﴿ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ من الضلالة . أنحن أم أنتم و « من » فى الموضعين ، استفهامية علق عنها العلم ، وفيه ختم السورة بما بدئت به كأنه يقول: « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » مع هؤلاء المعاندين دعهم فى الضلال فستعلمون من أصحاب الصراط السوىّ ومن اهتدى .

[تم تفسير سورة طه]

سورة الأنبياء

مكية ـ مائة وإحدى أو اثنتا عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ، اقْتَرَبَ ﴾ قرب ﴿ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ بالإضافة إلى مامضى أو عند الله لقوله وزاه قريباً أو لأن كل ما هو آت قريب وإنما البعيد ما انقرض واللام صلة اقترب أى اقترب منهم فإن الاختصاص وابتداء الغاية متقاربان أو توكيد للإضافة ، والأصل اقترب حساب الناس أى لهم ثم اقترب للناس الحساب للإجمال والتفصيل ثم اقترب للناس حسابهم بإقامة الضمير مقام « أل » والناس هم الكفار بدليل قوله ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾ مستغرقون فيها عنه ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ عن التأهب له بالإيمان وهما خبران للضمير ويجوز أن يكون الظرف حالا من المستكن فى معرضون . قاله فى أنوال التنزيل وضعفه فى غاية الأمانى ، وفى الجواهر قوله « وهم فى غفلة معرضون » يريد الكفار ويأخذ عصاة المؤمنين من هذه الألفاظ قسطهم ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ ﴾ قرآن يوقظهم عن سنة الغفلة والجهالة ﴿ مِّن رَّبِّهِم ﴾ المربى لهم بإنزال ذلك الذكر صفة ذكر ﴿ مُّحْدَثٍ ﴾ إنزاله آية بعد آية وسورة إثر سورة لا محدث فى نفسه بل هو قديم فى الوجود محدث فى الإتيان كما تقول حدث عندنا ضيف ومعلوم أنه كان موجوداً قبل أن يأتينا فالمحدث هو اللفظ لا المعنى القائم بذاته تعالى ﴿ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ يستهزءون بقولهم : لو نشاء لقلنا مثل هذا! ﴿ لَاهِيَةً ﴾ غافلة ﴿ قُلُوبُهُمْ ﴾ عن تدبر معناه أى جامعين بين اللعب والتلهى وهما حالان مترادفان أو متداخلان وينبغى لك أيها المؤمن أن تخالفهم بإشعار قلبك مهابة ربك فإليه مآلك وبالتأهب

للقدوم عليه فقد آن ارتحالك وأنت فى سكرات غفلاتك ناساً كر الأقضية والأقدار محدقة بأسوار الأعمار تهدمها بمعاول الليل والنهار ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ فى استنباط ما يهدم به أمر محمد ويظهر فساده للناس عامة أى بالغوا فى إخفائها إذ التناجى لايكون إلا خفياً فإيقاع الإسرار عليه مبالغة فى إخفائه بحيث لا يعلم أنهم يتناجون ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ فيما أسروا به بدل من « واو » أسروا للإيماء بأنهم ظالمون فيما أسروا به أو فاعل له والواو لعلامة الجمع وهى لغة أو مبتدأ والجملة المتقدمة خبره أو منصوب على الذم ﴿ هَلْ هَٰذَا ﴾ أى محمد ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ فما يأتى به سحر ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ ﴾ تتبعونه ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ تعلمون أنه سحر ، وقوله « هل هذا ... الخ » . فى موضع النصب بدلا من النجوى أو مفعولا لقول مقرر وكان ظاهر السياق أن يقال هل هذا إلا ساحر أو سحر ثم يرتب عليه الإنكار والعدول عنه لبيان أنهم استدلوا بكونه بشرا على كذبه فى ادعاء الرسالة وقد جاء بخوارق فلزم كونها عندهم سحرا فوضع منزل السحر موضعه ليكون أبلغ ﴿ قُلْ ﴾ ولحمزة والكسائى وحفص قال أى ذلك البشر فى جوابهم ﴿ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ ﴾ كائناً ﴿ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ فضلا عما أسروا به ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لما أسروه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ به فلا يخفى عليه شىء وهو برهان على علمه بذلك القول ﴿ بَلْ ﴾ للانتقال من غرض إلى آخر فى المواضع الثلاثة ﴿ قَالُوا ﴾ فيما أتى به من القرآن هو ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ أخلاط رآها فى النوم خيلت إليه وخلطت عليه ﴿ بَلِ افْتَرَاهُ ﴾ اختلقه من تلقاء نفسه ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ فما أتى به شعر يخيل إلى السامع معانى لا حقيقة لها ويرغبه فيها فهذا إخبار منه تعالى عن مقالتهم من غير تدرج وترق فالمراد أنهم خابطون متحيرون فتارة يقولون كذا وتارة كذا ، ويحتمل ملاحظة التدرج فيها . فإضرابهم عن كونه سحر إلى أنه تخاليط الأحلام ، ثم إلى أنه افتراء منه ، ثم إلى أنه شعر لأن قولهم «إنه سحر» أقرب إليه من كونه تخاليط الأحلام ، وهو من كونه مختلقاً ، وهو من كونه شعراً لكونه كلاما مختلا لا حقيقة له ، فأين هذا من كلام أنيق النظم مشحون بالحقائق النظرية والدقائق العلمية والحكم الأدبية وأخبار المغيبات المطابقة وأخبار المبدأ والمعاد وصلاح العالم عن الفساد ، وإنما أخر الافتراء عن الشعر فى سورة الطور عكس ما هنا لأن الكلام هنا فى الذكر المتجدد النزول فكأنهم قالوا : قائله كذاب بل شاعر شأنه الإتيان بالأكاذيب وما لا حقيقة له بخلافه هناك فإن الكلام فى رسالته وكونه شاعراً أقرب من كونه مفترياً لاشتهاره عندهم بالأمانة والصدق ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ ﴾ إتياناً ﴿ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ كإبراء الأكمه والأبرص واليد والعصا ، وصحة التشبيه من حيث إن الإرسال يتضمن الإتيان بالمعجزة وفيه معرفتهم بإتيان الرسل الأمم المتقدمة ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ أهل قرية ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ بتكذيب ما أتاها من الآيات وهى صفة قرية ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ لو جئتهم بها استفهام إنكار واستبعاد دلالة على أنهم أعتى من السابقين وأن عدم الإجابة إلى ما اقترحوه إنما هو للإبقاء عليهم . ثم أجاب عن قولهم هل هذا إلا بشر

مثلكم بقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَى ﴾ ولحفص نوحى بالنون وكسر الحاء ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ لا ملائكة ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ أهل الكتاب عن حال الرسل المتقدمة لتزول عنكم الشبهة لأنكم تثقون بهم وتشاورونهم فى شأن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فإنهم يعلمونه وأنتم إلى تصديقهم أقرب من تصديق المؤمنين بمحمد فكونه بشراً لو نافى الرسالة لكانوا أول مكذب له بذلك وأمر بسؤالهم وإن كانوا كفاراً لأن إخبار الجم الغفير يوجب العلم وإن كانوا كفاراً قاله البيضاوى.

ثم رد قولهم « ما لهذا الرسول يأكل الطعام » استطراداً بقوله ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ ﴾ أى الرسل ﴿ جَسَدًا ﴾ بمعنى أجساداً : أفرد لإرادة الجنس أو لأنه مصدر فى الأصل أى مصدر جَسِدَ به الدم لصق ثم استعمل فى كل جسم ذى لون ولذا لا يطلق على الماء والهواء. أو أفرد على حذف مضاف أو تأويل الضمير بكل أحد ﴿ لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ صفة جسداً وهى المقصودة بالنفى أى بل يأكلونه ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ فى الدنيا وهو تأكيد وتقرير لما تقدم لأن الكفار لما اعتقدوا أن الرسل لا تكون إلا ملائكة وهم لا يموتون فى اعتقادهم ، رد عليهم بذلك ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ ﴾ بإنجائهم ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ ﴾ المصدقين لهم ومن فى إبقائه حكمة كمن سيؤمن هو أو أحد من ذريته ، ولذا حميت العرب عن عذاب الاستئصال ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ فى الكفر والمعاصى بتكذيب الرسل ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾ يا معشر قريش ﴿ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ شرفكم وصيتكم لأنه بلسانكم منزل على نبي منكم فأنتم حملته وإليكم المرجع فى حل معاقده ، أو تذكرة وموعظة لكم ، أو فيه ما يحصل به الذكر الحسن والثناء الجميل لكم من مكارم الأخلاق التى كنتم تسابقون إليها ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فتؤمنون به ﴿ وَكَمْ ﴾ كثيراً ﴿ قَصَمْنَا ﴾ أهلكنا ، وأصل القصم : الكسر مع الإبانة كناية عن الاستئصال لعدم بقاء الالتئام بعده ﴿ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ أهلها ﴿ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ كافرة ، وصفت بوصف أهلها لما أقيمت مقامه مبالغة ، وما روى عن ابن عباس : أنها قرية ببلاد اليمن اسمها حضور كصبور أرسل الله إليهم نبياً فقتلوه فبعث عليهم بختنصر فقتلهم عن آخرهم فمعناه أنها من جملة تلك القرى ﴿ وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا ﴾ بعد أهلها المهلكين ﴿ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ مكانهم وسطه فى أثناء القصة إظهاراً لعظمته وكمال اقتداره ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا ﴾ شاهدوه ﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ دوابهم يهربون مسرعين ، والركض ضرب المركوب بالرجل أو مشبهين بالراكضين بجامع السرعة. فقالت لهم الملائكة أو المؤمنون منهم ، أو لا قول بل هو كلام الحال أى هم أحقاء أن يقال فيهم ﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ ﴾ نعمتم ﴿ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ شيئاً من دنياكم على العادة أو عما جرى أو يسألكم خدمكم ما تأمرون به أو من يستعين بكم مشاورة فى الأمور المهمة أو المحاويج المستمطرون نوالكم ، كل ذلك على سبيل التهكم فوضع بختنصر السيف فيهم يقتل حتى سمعوا منادياً من السماء : « يالثارات الأنبياء » فندموا و ﴿ قَالُوا يَا ﴾ للتنبيه ﴿ وَيْلَنَا ﴾ هلاكنا ﴿ إِنَّا كُنَّا

ظَالِمِينَ ﴾ بالكفر وقتل الأنبياء، قالوا ذلك حين رأوا العذاب ولم يروا وجه النجاة، ولذا لم ينفعهم ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ ﴾ الكلمات ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ يدعون بها ويرددونها و « تلك » مرفوع اسم زال ودعواهم منصوب خبرها ولا يجوز العكس فى قاعدة النحاة لأنه مثل أكرم موسى عيسى ﴿ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا ﴾ أى كالزرع المحصود بالمناجل ولذا لم يجمع بأن قتلوا بالسيوف ﴿ خَامِدِينَ ﴾ ميتين كخمود النار إذا طفئت وهو مع حصيداً بمنزلة المفعول الثانى كقولك جعلته حلواً حامضاً أى مزا إذ المعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود أو صفة له أو حال من ضميره ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ كما يفعله الجبابرة من رفع السقوف وبناء القصور وفرش الحرير وسائر الزخارف من غير فائدة معتبرة بل رفعنا هذا السقف المرفوع وفرشنا هذا المهاد الموضوع وبثثنا بينهما ضروب البدائع دلالة على القدرة ونفع العباد فى المعاش والمعاد لينالوا بذلك تحصيل الكمال ولا يغتروا بزخارفها السريعة الزوال ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ ما يتلهى به ويلعب ﴿ لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ من عندنا مما يليق بحضرتنا من المجردات التى لا تظهر لكم لا من الأجسام المرفوعة والأجرام المبسوطة كعادتكم فى اتخاذها لهواً والمعنى صدور اللهو منا مستحيل إذ سوق الكلام رد على من يطعن فى الرسالة فإنكارها يلزم خلق السموات والأرض للعبث لأن خلقهما لمعرفته تعالى وجزاء من قام بها ومن لم يقم ولا يتم ذلك إلا بإرسال الرسل، وقيل اللهو المرأة أو الولد ردّ على مدعى ذلك على الله من النصارى فى المسيح وأمه. تعالى الله عن قولهم وقوله: « لاتخذناه من لدنا » أى من الحور العين والملائكة. قال فى غاية الأمانى: وحمل اللهو على الولد والمرأة ليس بذاك لأن نفى الولد سيجىء صريحاً ﴿ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ذلك لكنا لم نفعله لاستحالته علينا فلم نرده وهو تكرير مبالغة فى الاستحالة، و «إن» شرطية يدل على جوابه الجواب المتقدم، وقيل نافية والجملة كالنتيجة للشرطية ﴿ بَلْ ﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه لذاته تعالى عنه أى دع ذلك الذى قالوه فإنه كذب وباطل ﴿ نَقْذِفُ ﴾ أى نرمى رمياً بعيداً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ الذى من جملته الإيمان والجد ﴿ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ الذى من عداده الكفر واللهو ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ يذهبه بكسر دماغه ويقلع أثره استعار لذلك القذف وهو الرمى البعيد المستلزم لصلابة المرمى، والدمغ الذى هو الوصول إلى الدماغ الموجب للهلاك تصويراً لإبطاله ومحقه كأنه جرم صلب قذف به على جرم رخو أجوف، ثم رشحه بقوله ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ هالك لأن الزهوق ذهاب الروح ﴿ وَلَكُمُ ﴾ يا كفار مكة ﴿ الْوَيْلُ ﴾ العذاب الشديد ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ الله به مما لا يجوز عليه، و « ما » مصدرية أو موصولة أو موصوفة ﴿ وَلَهُ ﴾ تعالى ﴿ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكا ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ أى من الملائكة مبتدأ خبره ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ تعالى ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ لا يعيون وقيل « من عنده » معطوف على « من فى السموات » وأفرده للتعظيم أو لأنه أعم منه، على أن المراد بمن عنده: الملائكة الكروبيون أفردهم بالذكر إظهاراً لشرفهم، ولفظ عند تصوير لقربهم وتمثيل بمن

يكون عند الملوك ذا منزلة قريبة وآثر الاستحسار على الحسور إظهاراً لكمال قيامهم بأعباء العبادة التى هى حقيق أن يستحسر منها لأن الاستحسار أبلغ من الحسور ﴿ يُسَبِّحُونَ ﴾ الله ويعظمونه ﴿ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى دائماً ﴿ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ عنه فهو منهم كالنفس منا لا يشغلنا عنه شاغل وهو حال من الواو فى « يسبحون » وهو استئناف أو حال من ضمير قبله وهو على كل حال تقرير وتوكيد لما سبق من نفى اللهو لأن من هذا شأنه منزه عن مثل ذلك وتمهيد لما بعده وهو ﴿ أَمِ ﴾ بمعنى « بل » للانتقال وهمزة الإنكار ﴿ ٱتَّخَذُوا آلِهَةً ﴾ وفى هذا الإضراب الترقى لأن اتخاذ الشريك أدخل فى الإنكار من إنكار النبوة والقدح فيها وقدم عليه كونه مالك السموات والأرض ومن فيهما يستحق العبادة منهم وأن المقربين عنده قائمون بها حق القيام ليشير به إلى وجه الإنكار ﴿ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ كحجر وذهب وفضة صفة آلهة و « من » ابتدائية لأن الأصنام متخذة من جنس الأرض وفائدة هذه الصفة التحقير دون التخصيص ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ أى يحيون الموتى من قبورهم ، والمشركون وإن لم يصرحوا باقتدار آلهتهم على ذلك لكنه لازم ادعاء الإلهية لها لاقتضائها الاقتدار على كل الممكنات وفيه تجهيلهم وتهكم بهم وللمبالغة فى ذلك زيد الضمير الموهم لاختصاص الإنشار بهم ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ﴾ فى السموات والأرض ﴿ آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أى غيره و « إلا » وصف لآلهة حمل على غير كما حمل عليه غير فى الاستثناء ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ بالعدم عقلا أو بخروجهما عن نظامهما المشاهد للتمانع والتغالب بينهم على وفق العادة عند تعدد الحاكم من التمانع فى الشىء ، لأن الآلهة إن توافقت فى المراد تطاردت عليه القُدَر ، وإن تخالفت فيه تعاوقت عنه . ومن أراد تفصيل هذا فلينظره فى كتبنا الأصولية كنظم شيخ شيوخنا طاهر بن إبراهيم لكبرى السنوسى فقد أجاد فيه جزاه الله خيراً ﴿ فَسُبْحَٰنَ اللَّهِ ﴾ تنزيه ﴿ رَبِّ ﴾ خالق ﴿ الْعَرْشِ ﴾ المحيط بجميع الأجسام الذى هو محل التدابير ومنشأ التقادير ، والفاء فصيحة أى إذا دلت السموات والأرض على عدم جواز وجود الشريك لله فتنزه مالك العرش ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ به من الشريك ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ لعظمته وتفرده بالإلهية وعلم الخفيات ووجوه الحكم ، والملوك يتطرق على آرائهم الخطأ والزلل ولذلك يسئلون عن تدبير الملك «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» ولذا قال ﴿ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ عن أفعالهم لأنهم عبيد مأمورون خطاءون ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ﴾ أى سواه تعالى ﴿ آلِهَةً ﴾ فيه استفهام توبيخ ، أنكر أولا الآلهة الأرضية لظهور فسادها ثم الآلهة مطلقاً وبنى عليه نفى الحجة بقوله ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على ذلك من العقل أو النقل ولا سبيل إليه وما لا دليل عليه لا ثبوت له ، قال البيضاوى : كرره استعظاماً لكفرهم وإظهاراً لجهلهم أو ضما لإنكار ما يكون لهم سنداً من النقل إلى إنكار ما يكون لهم دليلا من العقل على معنى أوجدوا آلهة ينشرون الموتى فاتخذوهم آلهة لما وجدوا فيهم من خواص الألوهية ؟ أو وجدوا فى الكتب الإلهية الأمر بإشراكهم فاتخذوهم متابعة للأمر ؟ ويعضد ذلك أنه رتب على الأول ما يدل على فساده عقلا وعلى الثانى ما يدل على

فساده نقلا ﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ أمتى ، وهو القرآن أضافه إليهم لتعبدهم بأحكامه ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ من الأمم وهو التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله وليس فى واحد منها أن مع الله إلٰها بل فى كلها الأمر بالتوحيد والنهى عن الإشراك واكتفى هنا بالسمعى لتقدم العقلى وقدمه لكونه الأصل فى العقائد ولأن دليل السمع لا يكفى فى التوحيد على قول المحققين من أهل علم الكلام ، وقول البيضاوى هنا والتوحيد لما كان يتوقف على صحته بعثة الرسل وإنزال الكتب صح الاستدلال فيه بالنقل خلاف قول المحققين وانظره فى نظم طاهر بن إبراهيم للكبرى ففيه غنية فى المسألة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ كتوحيد الله لا يميزونه من الباطل ، وهو إضراب عن إقامة البرهان لهم لكونهم فاقدى التمييز بين الحق والباطل فأى فائدة فى ذلك ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن النظر الموصل إليه أو عن التوحيد واتباع الرسل من أجل ذلك . وقال فى الجواهر : المعنى فهم معرضون ولذا لا يعلمون الحق ، ثم ذكر ما فى ذكر من قبله إزاحة للشبهة بقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰ إِلَيْهِ﴾ بالياء وفتح الحاء ولحفص وحمزة والكسائى بالنون وكسر الحاء ﴿أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ أى وحدونى وقيل هذا تعميم بعد تخصيص على كون المراد بمن قبلى الكتب الثلاثة فقط . ثم أتبع نفى الشريك نفى الولد ردا على خزاعة القائلين : الملائكة بنات الله بقوله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا﴾ من الملائكة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيها له عن ذلك ﴿بَلْ﴾ هم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ عنده والعبودية تنافى الولادة وفيه تنبيه على مدحض القوم ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ لا يقولون شيئاً حتى يقوله كما هو ديدن العبيد المؤدبين وإنما نفى السبق عنهم ليكون أول مايقرع السمع عدم السبق منهم مطلقا فيكون أشد وأقوى فى مدحهم وفيه تعريض على ذم القائلين على الله مالم يقله ، وأنيب اللام عن الإضافة اختصارا وتجافياً عن تكرير الضمير إذ الأصل لا يسبق قولهم قوله ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ لا غير فلا قول ولا فعل لهم إلا بأمره كما هو شأن المقربين مع الملوك ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مما عملوا وما هم عاملون به وغير ذلك لا يخفى عليه خافية ، والجملة كالعلة لما قبله والتمهيد لما بعده فإنهم لإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم ويراقبون أحوالهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ مع قرب مكانتهم ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أن يشفع له وأذن لهم فى ذلك مهابة منه ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ عظمته ومهابته ﴿مُشْفِقُونَ﴾ مرتعدون خائفون غاية الخوف من الشفق وهو السَّتر الرقيق . قاله فى غاية الأمانى ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ من الملائكة أو الخلائق ﴿إِنِّي إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِ﴾ أى الله أى غيره فعلى الأول هو فرض كقوله لئن أشركت وعلى الثانى هو إبليس دعا إلى عبادة نفسه وأمر بطاعته . قال فى الجواهر : هذا ضعيف لم يرو قط أن إبليس ادعى ربوبية ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ وهذا ينفى كونه ولدا وهل يلقى أحد ولده فى النار ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما نجزيه ﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ المشركين ﴿أَوَلَمْ﴾ بواو للجمهور وتركها لابن كثير ﴿يَرَ﴾ يعلم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى جماعة السموات وجماعة الأرض ولذا قال ﴿كَانَتَا﴾ ولم يقل كن

﴿ رَتْقًا ﴾ سدا بمعنى مرتوقتين أى ملصوقا إحداهما بالأخرى أو كانت السماء متلاصقة لا فرج بينها وكذا الأرضون ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ بجعل الفضاء بينهما أو بجعل السموات سبعاً والأرض سبعاً أو كانت السماء رتقاء بعدم المطر ففتقت بالمطر ، والأرض لا تنبت فأنبتت ، فيكون المراد بالسموات سماء الدنيا وجمعها باعتبار الآفاق أو السموات بأسرها على أن لها مدخلا فى الإمطار أو رتقهما بالظلمة وفتقهما بالضوء. فالرؤية على التأويلين الأولين قلبية وعلى الآخرين بصرية وذلك أولى ، إذ الحجة والاعتبار وتعديد النعم بمحسوس أولى وعلى الأولين فالكفار وإن لم يعلموا ما ذكر فهم متمكنون من العلم نظراً واستفساراً من العلماء وأعلام القرآن الذين علموا إعجازه وتأويل الفتق بإمطار السماء يناسب قوله ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴾ النازل من السماء والنابع من الأرض ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ نبات وغيره لأن الماء سبب حياته فهو لفرط احتياجه إليه كأنه مخلوق منه أو جعل بمعنى صير أى صيرنا كل شىء حى من الماء أى متصلا به لا يحيى دونه كقوله عليه السلام ما أنا من دد ولا الدد منى أى لا اتصال بيننا أو المعنى خلقنا كل حى من نطفة أبيه كقوله «والله خلق كل دابة من ماء» ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بتوحيدى بعد ظهور هذه الآيات ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثوابت وهذا تنزل معهم باتباع الأظهر الأخفى فإن هذا محسوس وذلك معقول على بعض التأويلات ﴿ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أى لأن لا ، حذف لا لأمن اللبس أو كراهة أن تميد بهم تتحرك وتضطرب من ماد به مال ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ فى الجبال أو الأرض ﴿ فِجَاجًا ﴾ مسالك ﴿ سُبُلًا ﴾ نافذة واسعة بدل من فجاجا يدل ضمناً على أنه خلقها كذلك للسابلة أو فجاجاً حال قدمت عليه وإن كانت فى الأصل وصفاً له كقوله سبلا فجاجاً للدلالة على أنه حين خلقها على تلك الصفة فيكون بياناً لما أبهم هناك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ إلى مقاصدهم فى الأسفار ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا ﴾ للأرض كالسقف للبيت ﴿ مَحْفُوظًا ﴾ عن الوقوع والفساد إلى وقت معلوم وعن استراق السمع بالشهب ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا ﴾ المودعة فيها من عظم الجرم ورفعها بلا عمد وتزيينها بالشمس والقمر والنجوم وطلوعها وغروبها على الحساب القويم والترتيب العجيب ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ لا يتفكرون فى شىء منها ليؤديهم إلى الإيمان بوحدة الصانع وقدرته وحكمته ، ثم فصل بعض تلك الآيات بقوله ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ ﴾ تنوينه عوض من المضاف إليه من الشمس والقمر وتابعه وهو النجوم ﴿ فِي فَلَكٍ ﴾ أى جسم مستدير كالطاحونة فى السماء ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ أى يسيرون بسرعة كالسابح فى الماء ، وللتشبيه به أتى بضمير جمع من يعقل وهو خبر «كل» والجمع باعتبار كثرة المطالع ، أو مع اعتبار التابع وهو النجوم ، أو حال والخبر « فى فلك » وهو صريح فى أن الحركة للكوكب دون الفلك كما يزعمه أهل الهيئة والفلك لغة كل مستدير ، والمراد به هنا السماء الذى تجرى فيه الكواكب ، أو موج مكفوف دون السماء تجرى فيه ، أو طاحونة كهيئة فلكة المغزل ، والحاصل أنه مدار النجوم الذى يضمها ، ونزل لما قال الكفار : إن محمداً سيموت ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ أى البقاء فى الدنيا

﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ فيها ؟ لا . والجملة الأخيرة محل الاستفهام الإنكارى ، والفاء لتعلق الشرط بما قبله ، ثم برهن على ذلك بقوله ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ أى مرارة مفارقتها لجسدها فى الدنيا ﴿ وَنَبْلُوكُم ﴾ نختبركم ﴿ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ ﴾ كفقر وغنى وسقم وصحة لنرى صبركم على البلاء وشكركم على النعماء ﴿ فِتْنَةً ﴾ ابتلاء مصدر من غير لفظ فعله أو مفعول له ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فنجازيكم على حسب الصبر والشكر ، وفيه إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب وهو تقرير لما سبق ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن ﴾ ما ﴿ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ مهزوءاً به يقولون ﴿ أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ بسوء أى يعيبها ، واسم الإشارة للتحقير ﴿ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ ﴾ بما يجب أن يذكر به من الوحدانية أو بذكر اسمه الرحمن أو بالقرآن الذى أنزله الرحمن إليك ﴿ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ والمعنى وهم بهذه الصفة فهم الأحقاء أن يتخذوا هزؤا وتكرير الضمير للتأكيد والتخصيص ولحيلولة الصلة بينه وبين الخبر ﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ أى أنه لكثرة عجله وقلة تثبته كأنه خلق منه كقولهم : خلق زيد من كرم ، والآية نزلت فى النضر بن الحارث المستعجل للعذاب ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي ﴾ مواعيدى بالعذاب التى تستعجلون بها فى الدنيا كوقعة بدر أو فى الآخرة وهو عذاب النار ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ فيها ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ للنبى وأصحابه ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴾ أى وقت وعد هذا العذاب ، أو الوعد بالقيامة ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى وقوعه فى الدنيا أو فى القيامة ، قال تعالى ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ ﴾ لا يدفعون ﴿ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ لا يمنعون منها فى القيامة ، وجواب « لو » ما قالوا ذلك الاستعجال ، و « حين » مفعول « يعلم » : أى لو يعلمون الوقت الذى يستعجلون منه ، أو ليس له مفعول : أى لو كانوا من أهل العلم ، فـ « حين » منصوب بفعل مضمر ، أى : يعلمون ذلك حين ، وإنما وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على ما أوجب لهم ذلك ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم ﴾ القيامة أو العدة ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة : مصدر أو حال ، وقرئ بفتح الغين ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ تحيرهم ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ أى الساعة أو النار لأن الوعد بمعنى النار ، والحين بمعنى الساعة ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ يمهلون إذ ذاك ، وفيه تذكير بإمهالهم فى الدنيا وتفسيح الوقت عليهم وأنه لا إنظار بعد ذلك الإمهال الطويل ومن لم يتذكر قبل الموت لم ينفعه التذكير . قال عليه السلام : أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد . ولما ذكر الله الأجوبة الدامغة لطعنهم فى نبوة نبيه وأدرج فيها معانى من أسباب المقاصد سلاه بأن له فيما ناله من الأذى أسوة بأجلة الرسل بقوله ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ فاصبر كما صبروا ﴿ فَحَاقَ ﴾ نزل وأحاط ﴿ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وهو العذاب فكذلك يحيق بمن استهزأ بك وهو وعدٌ له بالنصر فى العاقبة ﴿ قُلْ ﴾ للمستهزئين ﴿ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ يحفظكم ﴿ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ﴾ من عذابه إن نزل بكم . وفى إيثار الرحمن إشارة إلى أن لا كالئ لهم إلا رحمته الغالبة ، وإيماء إلى أنه وإن عظمت نعماؤه

ما أعظم غناءه على ما يقال : نعوذ بالله من غضب الحليم ، والسؤال سؤال تقريع ولذا أضرب عنه بقوله ﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ لا يخطرونه ببالهم فضلا عن أن يخافوا من بأسه ويعرفوا الكالئ ويصلحوا للسؤال عنه ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ﴾ إضراب عن إعراضهم إلى ما هو أشد وأدخل فى الإنكار و « أم » فيها معنى الهمزة ، أى : ألهم آلهة تمنعهم مما يسوءهم غيرنا ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أى الآلهة ﴿ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فكيف ينصرونهم ، استئناف لإبطال ما اعتقدوه ﴿ وَلَا هُمْ ﴾ أى الآلهة ﴿ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أى لا يصحبهم نصر منا : أو الكفار : أى لا يجارون من عذابنا . يقال صحبك الله أى حفظك وأجارك ﴿ بَلْ ﴾ إضراب عما توهموا إلى بيان الداعى إلى كلامهم وهو ﴿ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ﴾ بضروب النعم استدراجا ﴿ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ فظنوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه فاغتروا بذلك ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ لا يعلمون ﴿ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ ﴾ أى سنقصد أرضهم ، واللام للعهد ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بالفتح على النبى صلى الله عليه وسلم فالآية معجزة مستقلة إذ قد وقع ذلك كما أخبر لأن السورة مكية ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ لا يكون ذلك بل النبى وأصحابه ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ من الله لا من قبل نفسى ، فذلك لما مر من أدلة النبوة والتوحيد ومن الوعد والوعيد أى أن جميع ما تلوته عليكم وحى من الله ، كما يقول أحد خواص الملك لمن ينصحه : إن هذا كلام الملك ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ ﴾ ولابن عامر تسمع بالخطاب من الإسماع ﴿ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴾ أى هم لتركهم العمل بما سمعوه من الإنذار كالصم والتقييد بالإنذار لأن الكلام فيه أو للمبالغة فى تصامهم أى هو المانع للسماع لا القصور فى الإنذار إذ الأصل لا يسمعون ما ينذرون فعدل إلى هذه العبارة لهذا المعنى ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ ﴾ مرة نفح والمعنى أدنى شىء ﴿ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ الذى ينذرون به ﴿ لَيَقُولُنَّ يَا ﴾ للتنبيه ﴿ وَيْلَنَا ﴾ هلاكنا ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ بالإشراك وتكذيب الرسول ، والنفحة المرة من نفح الطيب إذا فاح وفيه مبالغات : ذكر المس الذى هو اتصال ما ، والنفح ، وبناء المرة ، والتنكير الدال على القلة ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ﴾ أى ذوات العدل يوزن بها صحف الأعمال كما فى الأحاديث الصحاح ، وقيل تمثيل للحساب السوى والجزاء على حسب الأعمال بالعدل ، وإفراد « القسط » لأنه مصدر وصف به للمبالغة ، وتقدم الكلام فى الموازين فى سورة الأعراف ﴿ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أى فيه أو لجزائه أو لأجل أهله أو اللام للتوقيت كقوله « لدلوك الشمس » قال القرطبى فى تذكرته : قال العلماء إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال لأن الوزن للجزاء فينبغى أن يكون بعد المحاسبة . اه . قال القابسى : والصحيح أن الحوض قبل الميزان . اه . وهل الحوض قبل الصراط أو بعده أو هما حوضان ؟ أقوال . والله أعلم ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ من أعمالها أو من الظلم ﴿ وَإِنْ كَانَ ﴾ وجد ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ برفع المثقال لنافع على أن « كان » تامة وبنصبه للباقين على ناقصة أى إن كان العمل زنة حبة ﴿ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ أحضرنا موزونها ﴿ وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾

محصين فى كل شىء لكمال علمنا وشموله وإنما وضع الميزان إظهاراً للعدل، وأنث ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة . ثم شرع تعالى فى تفصيل الرسل الذين استهزئ بهم إكمالا للتسلية بعد الإحاطة بأحوالهم وبدأ بذكر موسى عليه السلام لكثرة آياته وأمته بقوله ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ ﴾ أى الكتاب الجامع لكونه فارقاً بين الحق والباطل ﴿ وَضِيَاءً ﴾ يستضاء به فى ظلمات الجهالة على الأحكام الدينية ﴿ وَذِكْرًا ﴾ موعظة يُتعظ به ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ الله أو ذكراً لما يحتاجون إليه من الشرائع والثلاثة بمعنى التوراة والعطف لتغاير الصفات، وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر، ثم بيّن المتقين بقوله ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ صفة للمتقين مرفوع أو منصوب على المدح ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ حال من الفاعل أو المفعول ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ﴾ أى أهوالها ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون غاية الخوف وفى تقديم الضمير تعريض بغيرهم ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ كثير خيره ﴿ أَنزَلْنَاهُ ﴾ على محمد ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ والاستفهام للتوبيخ، ولما فرغ من قصة موسى ولم يستوفها لتقدمها فى السورة السابقة مستوفاة أشار إلى قصة إبراهيم لكون قصته أغرب القصص لبلوغه أقصى مراتب المتوكلين فقال ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ وهو الاهتداء لوجوه الصلاح وأسرار النبوة والحجة على قومه، وإضافته إليه ليدل على أنه رشد مثله وأن له شأناً ﴿مِن قَبْلُ﴾ قبل موسى وهارون أو محمد أو قبل بلوغه حيث قال « إنى وجهت وجهى ... الآية » ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ بأنه أهل لذلك لما جبل عليه من الذكاء وبديع الأسرار وقوة اليقين وكمال التسليم وجميع محاسن الأوصاف ومكارم الخصال ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ أى اذكر من أوقاته هذا الوقت فإنه يسليك عما تلقاه من قومك ﴿ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ ﴾ أى الصور التى لا روح فيها يريد الأصنام، والتمثال اسم للشىء الموضوع مشبهاً بخلق من خلق الله، والمراد تحقير شأنها والتوبيخ على إجلالها ﴿ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ مقيمون على عبادتها وهى لا تنفع ولا تضر، واللام للاختصاص لا للتعدية لأن عكف يتعدى بعلى أى أنتم فاعلون العكوف لها . قال فى غاية الأمانى : والأحسن تضمين العكوف معنى العبادة لقوله ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ فاقتدينا بهم ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ ﴾ بعبادتها منخرطين ﴿ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ بيّن لايخفى على عاقل لعدم استناد الفريقين إلى دليل ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا ﴾ بما تقول ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالجد ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ فيه كأنهم لاستبعاد تضليل آبائهم ظنوا أن ما قاله على وجه الملاعبة وإنما آثروا الاسمية فى معادلة الهمزة ميلا إلى ترجيحه وأنه الذى يليق بحاله . قال فى غاية الأمانى : وعندى أن « أم » منقطعة إضراباً عن كون ما جاء به فيه شائبة حق ولذلك قابلهم بمثل ما بدءوه حيث قال ﴿ قَالَ بَل ﴾ إضراب عن كونه لاعباً بإقامة البرهان على ما ادعاه بقوله ﴿ رَّبُّكُمْ ﴾ المستحق لعبادتكم ﴿رَبُّ﴾ مالك ﴿ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ خلقهن على غير مثال سبق ويحتمل الضمير للتماثيل وهو أدخل فى تضليلهم ورجوعه للسموات والأرض أقرب ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ التوحيد ﴿مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ الموقنين المبرهنين

عليه فإن الشاهد من تحقق الشيء وحققه ﴿ وَتَاللَّهِ ﴾ قسم فيه تعجب ﴿ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ أعملن الحيل في كسرها وإيثار التاء التي هي للتثبت والكيد الدال على الاحتيال الإشعار بأن التعرض لها أمر خطير لا سيما مع نمرود ﴿ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا ﴾ عنها ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ إلى عيدكم ولعله قال ذلك سراً فسمعه بعضهم روى أنهم خرجوا معه إلى عيدهم فدخلوا بيت الأصنام وسجدوا لها ووضعوا أطعمتهم عندها للتبرك فإذا رجعوا أكلوا ، فقال لهم إبراهيم : إني سقيم فتركوه فدخل بيت الأصنام وهي سبعون صنما فأخذ الفأس ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا ﴾ بضم الجيم للجمهور وكسرها للكسائي فتاتاً بالكسر والفتح ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ﴾ علق الفأس في عنقه ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ ﴾ إلى الكبير ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ فيسألونه عن كاسرها فيبكتهم بذلك أو إلى إبراهيم لعلمه أنهم لا يرجعون إلا إليه لتفرده بعداوة آلهتهم فيحاجهم بقوله بل فعله كبيرهم ﴿ قَالُوا ﴾ حين رجعوا ورأوا ما فُعل ﴿ مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فيه لجرأته وهتك ما كان يجب توقيره أو بتوريط نفسه للهلاك ﴿ قَالُوا ﴾ أي بعضهم ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ بما لا ينبغي فعله ، ويذكرهم ثاني مفعولي سمع أو صفة لفتى يصحح تعلق السمع به ﴿ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ نائب عن فاعل يقال لأن المراد به الاسم لا المسمى ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ ﴾ أي ظاهراً بمرأى منهم بحيث تتمكن صورته في أعينهم تمكن الراكب على المركوب ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ عليه بفعله أو قوله أو يحضرون عقوبتنا له ﴿ قَالُوا ﴾ حين أحضروه ﴿ ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ الاستفهام للتقرير أو هو على أصله ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ غضباً أن تعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ ﴾ عن فاعله ﴿ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ ومعنى الإضراب أن السؤال لا وجه له إذ لا يصلح لهذا الفعل غيري لكن أسند الفعل إلى الكبير تقريراً لنفيه مع الاستهزاء والتبكيت على أسلوب تعريضي كما لو قال لك من لا يحسن الخط فيما كتبته بخط رشيق أأنت كتبت هذا فقلت بل كتبته أنت ! وهذا النوع من الكلام من ألطف المعاريض وفيه إشارة لهم إلى أن الصنم الكبير إذا لم يرض بالإشراك فكيف يرضى به خالق الكائنات ولنا أسند الفعل إلى الكبير فرضاً للباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق وهو جائز وقيل إنه في المعنى متعلق بقوله إن كانوا ينطقون أي إن كان ينطق فهو فعله فلا كذب فيه لكن في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : قوله «إني سقيم» وقوله «بل فعله كبيرهم هذا» وقوله للملك هي أختي وكانت مقالاته هذه في ذات الله ... الحديث» قال العلماء : معنى الحديث لم يقل ما ظاهره كذب إلا فيها لأنها معاريض . والله أعلم ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴾ عقولهم بالتفكر ﴿ فَقَالُوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ بهذا السؤال أو بعبادة من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع لا من ظلمتموه بقولكم «إنه لمن الظالمين» ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أي ردوا إلى كفرهم بعد ما استقاموا بالمراجعة شبه عودهم إلى الباطل بما صير أسفله أعلاه قائلين والله ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالهم

ونحن قد علمنا أنها لا قدرة لها ومع ذلك اتخذناها أربابا وقيل النكس عبارة عن غاية إطراقهم رءوسهم خجلا وقولهم « لقد علمت » كلة حيرة تسكلوها مع كونها حجة عليهم ﴿ قَالَ ﴾ لهم إبراهيم لما ثبتت هذه الحجة عليهم ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أى غيره ﴿ مَالَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا ﴾ من رزق وغيره ﴿ وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ إذا لم تعبدوه تعليل بما ينافى الألوهية ثم حقرهم وحقرها بقوله ﴿ أُفٍّ ﴾ بكسر الفاء منونا للتنكير المفيد للتعظيم لنافع وحفص وبفتحها بناء لابن كثير وابن عامر وبالكسر غير منون للباقين لأن أصل بنائه السكون والكسر أصل فى تحريك الساكن اسم صوت إذا صوت به علم أن المصوت متضجر ﴿لَكُمْ﴾ أى أتضجر لكفركم واللام للسببية وقيل صوت بمعنى مصدر أى نتنا وقبحا ، واللام لبيان المتأفف له ﴿ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ قبح صنيعكم لأنها لا تستحق العبادة وإنما يستحقها الله تعالى ﴿ قَالُوا ﴾ أخذا فى المضادة لما عجزوا عن المحاجة ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ أى إبراهيم إذ لا يتصور عذاب فوق النار قاله أولا رجل من أكراد فارس أى باديتها فتتابعوا عليه ﴿ وَٱنْصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ ﴾ بالانتقام لها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ نصرتها فأخذ ملكهم نمرود إبراهيم وحبسه شهرا يجمعون له الحطب فى حظيرة بنوها وأضرموا النار فى جميعه فاشتعلت سبعة أيام تحرق الطاير المار عليها فى الجو ولم يعلموا كيف يلقون إبراهيم فيها فجاءهم إبليس فى صورة شيخ فعلمهم عمل المنجنيق فعملوه وجعلوا إبراهيم فيه فصاح من فى السموات والأرض غير الثقلين صيحة واحدة ربنا خليلك إبراهيم يلقى فى النار وليس فى أرضك أحد يعبدك غيره ثم رموه فى النار فتلقاه جبريل عليهما السلام فقال ألك حاجة ؟ فقال أما إليك فلا . قال : سل ربك . فقال: حسبى من سؤالى علمه بحالى ، قال تعالى ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فلم تحرق منه غير وثاقه وذهبت حرارتها وبقيت إضاءتها وبقوله « سلاما » سلم من الموت ببردها وكانت معجزة لإبراهيم وجعل الله تلك الحظيرة روضة وبعث الله جبريل بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص لأنهم جردوه أولا وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدثه وأقام إبراهيم فيها سبعة أيام حكى أنه قال ما كنت أياما أنعم منى من الأيام التى كنت فى النار ثم أشرف نمرود من صرح له فرآه جالسا والملك قاعد إلى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه يا إبراهيم كبيرٌ إلهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين ما أرى هل تستطيع أن تخرج منها ؟ قال : نعم ، قال : هل يضرك الجلوس هناك ؟ قال : لا ، قال : فاخرج منها فإنا لا نتعرض لك فقام إبراهيم يمشى فيها إلى أن خرج فقال نمرود إنى مقرب إلى إلهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فذبح أربعة آلاف بقرة للساكين فقال له إبراهيم : لا يقبل منك حتى تفارق دينك ، فقال : إنى لا أستطيع ترك ملتى . قال تعالى ﴿ وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا ﴾ مكرا فى إضراره وإذلاله ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ فى مرادهم أخسر من كل خاسر إذ عاد سعيهم برهانا على أن إبراهيم على الحق وهم على الباطل فهاجر إبراهيم عنهم فاستحقوا العذاب فأرسل الله عليهم البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم

﴿ ونجيناه ولوطا ﴾ ابن أخيه هاران حين آمن به خرجا من العراق مع سارة زوجة إبراهيم وابنة عمه هاران الأكبر ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ بكثرة الأنهار والأشجار وهي الشام ومن بركاته العامة بعث أكثر الأنبياء فيه وانتشار شرائعهم في العالمين التي هي سبب خير الدارين . روى أنه عليه السلام نزل بفلسطين ولوط بالمؤتفكات وبينهما يوم ﴿ ووهبنا له ﴾ لإبراهيم وكان سأل ولداً كما ذكر في الصافات ﴿ إسحق ويعقوب ﴾ ولد إسحق ﴿ نافلة ﴾ عطية فهي حال منهما أو زيادة على ماسأل فتختص بيعقوب ﴿ وكلا ﴾ يعني الأربعة إبراهيم وولديه ولوطاً ﴿ جعلنا صالحين ﴾ كاملين في الصلاح أنبياء ﴿ وجعلناهم أئمة ﴾ يقتدى بهم في الخيرات ﴿ يهدون ﴾ الناس إلى الحق ﴿ بأمرنا ﴾ لهم بذلك وإرسالنا إياهم حتى صاروا مكملين بعد الكمال إذ لا يصلح للقدوة إلا من اهتدت نفسه وعمل بما علم ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ العمل بالشرائع ليحثوا الناس عليها بانضمام العمل إلى العلم ﴿ وإقام الصلوة وإيتاء الزكوة ﴾ أي أوحينا إليهم أن تفعل وتقام وتؤتى منهم ومن أتباعهم وحذف هاء إقامة تخفيف وعطفها على السابق من عطف الخاص على العام للتفضيل ﴿ وكانوا لنا ﴾ لا غير ﴿ عابدين ﴾ ذكره تنبيهاً على شرف العبادة كوصفهم بالصلاح ﴿ ولوطا ﴾ منصوب بما فسره ﴿ آتيناه حكما ﴾ فصلا بين الخصوم أو حكمة ونبوة ﴿ وعلما ﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء ﴿ ونجيناه من القرية التي كانت تعمل ﴾ أي أهلها الأعمال ﴿ الخبائث ﴾ من الكفر واللواط ورمى المارة بالبنادق والتضارط في النادي وعدم النهي عن المنكر وهي قرية سدوم ﴿ إنهم كانوا قوم سوء ﴾ مصدر ساءه نقيض سرّه وفي إضافتهم إليه مبالغة كرجل صدق ﴿ فاسقين ﴾ وهو كالتعليل لإنجائه منهم ﴿ وأدخلناه في رحمتنا ﴾ في أهل رحمتنا أو في الجنة ﴿ إنه من الصالحين ﴾ ولذا صلح للكرامة ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ نوحا ﴾ وما بعده بدل منه وهو ﴿ إذ نادى ﴾ ربه بقوله « رب لا تذر ... إلى آخره » ﴿ من قبل ﴾ من قبل المذكورين ﴿ فاستجبنا له ﴾ دعاءه ﴿ فنجيناه وأهله ﴾ الذين في سفينته ﴿ من الكرب العظيم ﴾ الغرق بالطوفان وما كان فيه من تكذيب قومه ﴿ ونصرناه ﴾ منعناه أو جعلناه منتصرا ﴿ من القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ الدالة على رسالته أن لا يصلوا إليه بسوء وقيل « من » بمعنى « على » ﴿ إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾ وفي جميع ما تقدم وعيد الكفار بالهلاك ووعد للمؤمنين بالنجاة ضمناً ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ داود وسليمن ﴾ أي قصتهما ويبدل منهما ﴿ إذ يحكمان في الحرث ﴾ زرع أو كرم تدلت عناقيده ﴿ إذ نفشت فيه غنم القوم ﴾ رعته ليلا بلا راع بأن انفلتت ، وأصل النفش التفرق ومنه نفش القطن ﴿ وكنا لحكمهم ﴾ حكم المتحاكمين والحاكمين أو من إطلاق التثنية على الجمع أي الحكم الذي حكماه على الانفراد لأن اجتماع حكمين على حكم واحد لا يجوز ﴿ شاهدين ﴾ حاضرين علماء ﴿ ففهمناها ﴾ أي الحكومة ﴿ سليمن ﴾ إذ حكم داود بالغنم لصاحب الحرث فقال سليمان : غير هذا أرفق تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأصوافها والحرث

إلى أرباب الغنم يقومون عليه حتى يعود ثم يترادان وأمضى داود حكمه إذ حكمه أولا كان بالاجتهاد والحمل على أنهما حكما بالوحي والثاني ناسخ بعيد لأن سليمان كان حينئذ صغيراً ابن إحدى عشرة سنة لم يوح إليه. وفي لفظ « ففهمناها » إشارة إلى أن ذلك كان اجتهاداً ورجوع المجتهد إلى قول غيره لظهور الدليل له متعين ﴿ وَكُلًّا ﴾ منهما ﴿ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا ﴾ نبوة ﴿ وَعِلْمًا ﴾ بأمور الدين مدح لهما بعد أن قدم أن الحق ما قاله سليمان دلالة على أن المجتهد وإن أخطأ ممدوح لبذله الوسع. ومن اجتهد وأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد لكن ما حكما به غير معلوم عندنا إذ لا نص فيه تواتراً فتعين أن نبين حكم شرعنا في مثل ذلك فأبو حنيفة لا يوجب الضمان فيما أتلفت البهائم إلا إذا كان صاحبها معها عملا بحديث صحيح «العجماء جبار». أي هدر؛ وفرق مالك والشافعي وأحمد فأوجبوا الضمان فيما أتلفت ليلا مطلقاً عملا بقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ناقة براء: على أهل الأموال حفظها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظها بالليل. وهذا الحديث خاص بالنهار فيخص به ذلك العام في نفي الضمان، فعلى القول بالضمان يضمن قيمة الزرع على رجاء أن يتم وأن لا يتم: قاله مطرف، أو قيمته لو حل بيعه: قاله ابن القاسم وتلك القيمة على أربابها وإن زادت على قيمة المواشي ولو لم يقض حتى نبت أو انجبر وعاد إلى حاله فإن كانت فيه قبل ذلك منفعة رعي أو غيره ضمن صاحبها تلك المنفعة وإن لم تكن فيه منفعة فلا ضمان. وقال أصبغ: يضمن لأن التلف تحقق والجبر ليس من جهته وفي كتاب ابن سحنون أن الحديث يعني حديث ناقة البراء إنما جاء في أمثال المدينة التي هي حيطان محدقة وأما البلاد التي هي زروع متصلة غير محظرة فيضمن أرباب النعم فيها ما أفسدته ليلا أو نهارا. اهـ. قال ابن العربي في الأحكام: النفشة لا تخلو إما أن تكون في بقعة زرع فلا يدخلها إلا ماشية تحتاج في الزرع وما أفسدته فالضمان على أهلها ليلا أو نهاراً وأما في بقعة سرح فعلى صاحب الزرع حفظه ولا شيء على أرباب المواشي. قال مالك: كان الزرع محظراً أم لا وقد قسم مالك المواشي إلى ضواري وهي المعتادة لإفساد الزرع فتغرب أو تباع في بلد لا زرع فيه وإن كره ذلك ربها وإلى حريسة وهي التي يستطاع الاحتراز عنها فلا يؤمر صاحبها بالإخراج، وأما نحو الدجاج والنحل والحمام فلا يمنع اتخاذها إن لم يضر، وأما الانتفاع بما يضر أحداً فلا سبيل إليه. اهـ. وإنما أطلنا في هذه المسألة لمس الحاجة إليها وقلة المطلعين عندنا على كتبها، رزقنا الله العمل بما قال العلماء ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ إذا سبح حال أو استئناف ﴿ وَٱلطَّيْرَ ﴾ عطف على الجبال أو مفعول معه كل يسبح معه إذا وجد فترة لينشط له ﴿ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ مثل ذلك لا مثاله فليس ببدع منا وإن كان عجباً عندكم ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ ﴾ عمل درع لأنها تلبس وهو أول من صنعها. وعن قتادة: كانت قبله صفائح الحديد فأول من سردها وضم الحلق بعضها إلى بعض داود عليه السلام فجمعت الخفة والتحصين ﴿ لَكُمْ ﴾ متعلق بعلم أو صفة للبوس ﴿ لِيُحْصِنَكُم ﴾ بالتحتية للجمهور مسنداً إلى ضمير داود أو اللبوس، وبالنون لأبي بكر والضمير لله،

وبالفوقانية لابن عامر وحفص والضمير للصنعة أو اللبوس على تأويل الدرع وهو بدل اشتمال بإعادة الجار ﴿ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ حربكم مع أعدائكم ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ أى تشكرون لأن أصل «هل» الدخول على الفعل فالعدول عنه لإبراز ما يتجدد فى صورة الثابت فكان أدل على طلب الشكر لأنه أمر أخرج على صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع أى اشكروا نعمى بتصديق الرسل والعبادة ﴿ وَ ﴾ سخرنا ﴿ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ﴾ وزيادة اللام هنا دون الأول لأن الخارق هنا عائد نفعه إلى سليمان وفى الأول أمر يظهر فى الجبال والطير مع داود بالإضافة إليه ﴿ عَاصِفَةً ﴾ وفى آية أخرى رخاء أى شديدة الهبوب وخفيفته بحسب إرادته أو عاصفة فى العمل غدوها شهر ورواحها شهر ورخاء فى نفسها لا تزعزعه فهى آية إلى آية ومعجزة مع معجزة ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِ ﴾ كيف يشاء حال ثانية ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ هى الشام رواحاً بعد ما سار به منه بكرة لأنه كان مقيما بها ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَالِمِينَ ﴾ من ذلك علمه بأن سليمان أهل لما يعطى يدعوه إلى الخضوع ففعله على مقتضى علمه وحكمته ﴿ وَ ﴾ سخرنا ﴿ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ فى البحار يخرجون نفائسها من الجواهر، و «من» موصوفة عطف على الريح أو مبتدأ خبره ما قبله ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أى سوى الغوص من البناء واختراع الصنائع البديعة لقوله « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات » ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا على ما هو مقتضى جبلتهم لأنهم إذا فرغوا من عمل قبل الليل أفسدوه إن لم يشغلوا بغيره ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ أَيُّوبَ ﴾ رجلا من الروم وهو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص ابن إسحق بن إبراهيم ، وقيل من بنى إسرائيل وأمه من ذرية لوط بن هاران ، وكان الله قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا يطعم المساكين ويكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيفان ويبلغ أبناء السبيل شاكراً لأنعم الله مؤدياً لحق الله ثم ابتلى بفقد أولاده وأمواله وبمرض بدنه وضيق عيشه حتى هجر جميع الناس له إلا زوجته « رحمة بنت إفرائيم بن يوسف » أو هى « ماخير بنت ميشاء بن يوسف » سنين ثلاثاً أو سبعاً أو ثمانى عشرة ويبدل من أيوب ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾ حين خاف أن يمنعه المرض من ذكر الله ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ ﴾ بضم الضاد ما يلحق الجسم من سوء الحال، وأما بالفتح فيشمل كل ضرر ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ بمن فارحمنى، وصف ربه بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها وهو مس الضر واكتفى بذلك عن التصريح بالمطلوب لطفا فى السؤال قال عليه السلام «إن لله ملكا موكلا بمن يقول يا أرحم الراحمين فمن قالها ثلاثا قال له الملك إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فسل» رواه الحاكم فى المستدرك ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ نداءه ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ﴾ بالشفاء من مرضه ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ ﴾ أولاده الذكور والإناث بأن أحيوا له وكل من الصنفين ثلاث أو سبع ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ من زوجته وزيد فى شبابها وكان له أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين أفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى

فاض ﴿ رَحْمَةً ﴾ مفعول له ﴿ مِنْ عِندِنَا ﴾ صفة لأيوب ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾ موعظة ﴿ لِلْعَابِدِينَ ﴾ بعده ليصبروا كما صبر فينالوا به الأجر وحسن العاقبة ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ هو إلياس أو يوشع أو زكريا أي ذا نصيب أو كفالة ﴿ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ على طاعة الله وعن معاصيه ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ من النبوة ﴿ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لها أو كاملين فى الصلاح وسمى ذا الكفل لأنه تكفل بصيام جميع نهاره وقيام جميع ليله وأن يقضى بين الناس ولا يغضب فوفى بذلك وقيل لم يكن نبياً ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ ذَا النُّونِ ﴾ هو يونس بن متى ويبدل منه ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا ﴾ لقومه أى غضبان عليهم لما سئم من طول دعوتهم وتمادى إصرارهم مهاجرا عنهم قبل أن يؤمر ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أى نقضى عليه بالعقوبة أو لن نضيق عليه بذلك أو لن نعمل فيه قدرتنا فهو حينئذ تمثيل لحاله بحال من ظن ذلك بجامع استقلاله فى الذهاب وعدم انتظاره لأمرنا والثلاثة كضرب ونصر وزاد الثالث كفرح ﴿ فَنَادَىٰ ﴾ بعد ما التقمه الحوت ﴿ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت وقيل ابتلع ذلك الحوت حوت آخر ﴿ أَن ﴾ أى بأن ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ لنفسى بالمبادرة إلى المهجرة ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم : «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له» ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ بعد الاعتراف ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ الذى كان فيه ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما أنجيناه ﴿ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من الشدائد والكرب إذا اعترفوا واستغاثوا بنا مخلصين ، وقرأ ابن عامر وأبو بكر نجى بنون مضمومة وجيم مشددة على أن أصله تنجى مضارع أنجى أدغمت النون فى الجيم لتجانسهما فى الانفتاح والاستعلاء والجهر وعليه الرسم ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ زَكَرِيَّا ﴾ ويبدل منه ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾ بقوله ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ وحيدا بلا ولد يرثنى ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ فلا أبالى إن لم أرزق ولدا ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ نداءه ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ ﴾ ولداً ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ بأن جعلناها ممن تحمل بعد أن كانت عاقراً قاعدا ، وتقديم يحيى وإن كان متأخراً عن إصلاحها لأنه المقصود ، وقيل أصلحناها بتحسين خلقها وكانت حردة . قال فى الجواهر : وعموم اللفظة يتناول جميع الإصلاح وتقدم أن اسمها « ايشاع » ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ الأنبياء المذكورين ﴿ كَانُوا يُسَارِعُونَ ﴾ يبادرون ﴿ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ الطاعات ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا ﴾ فى رحمتنا ﴿ وَرَهَبًا ﴾ من عذابنا أى ذوى رغب أو راغبين فى الثواب راجين الإجابة أو فى الطاعات وخائفين العقاب أو المعصية ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ دائمى الخشوع فى عباداتهم مع الخضوع والأول فعل القلب والثانى فعل الجوارح والمعنى أنهم نالوا من الله ما نالوا بسبب هذه الخصال قال سهل بن عبد الله من خشع قلبه لم يقربه شيطان . قال فى غاية الأمانى ويجوز أن تكون هذه الأوصاف لزكرياء ويحيى ووالدته لتقدم سائر الأنبياء مع أوصافها ﴿ وَ ﴾ اذكر مريم ﴿ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ حفظته من الحرام والحلال وفى ذكرها فى سلك هؤلاء الكمل ، وإيثار لفظ الإحصان الدال على كمال التحفظ : تعظيم شأنها ﴿ فَنَفَخْنَا ﴾ عيسى ﴿ فِيهَا ﴾ فى بطنها

بمعنى أحييناه فى جوفها وقيل فعلنا النفخ فيها ﴿ مِن رُّوحِنَا ﴾ أى من الروح الذى هو من أسرارنا أو من جهة روح القدس وهو جبريل بأن نفخ فى جيب درعها فحملت بعيسى ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ﴾ أى قصتهما ولذا وحد ﴿ ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ الإنس والجن والملائكة حيث ولدته من غير أب للدلالة على كمال قدرة الصانع تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ ﴾ أى ملة الإسلام ﴿ أُمَّتُكُمْ ﴾ ملتكم أيها المخاطبون التى يجب عليكم أن تكونوا عليها أشار إليها وإن لم يتقدم ذكرها لكونها مصورة فى الأذهان ولكمال تميزها لم يوصف اسم الإشارة ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ غير مختلفة بين الأنبياء ولا مشاركة لغيرها فى صحة الاتباع وهى حال لازمة ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴾ لا إله لكم غيرى ﴿ فَاعْبُدُونِ ﴾ وحدونى وهذا الكلام يحتمل الخطاب لمعاصرى نبينا ثم التفت عنهم وأخبر بتقطعهم فوعد وأوعد ويحتمل اتصاله بقصة مريم وابنها فيكون خطابا لمن بعده ثم التفت عنهم بقوله ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم ﴾ أى فيه أو عدى تقطع لأنه بمعنى قطع ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أى تفرقوا فى الدين وجعلوا أمره قطعا وهم طوائف اليهود والنصارى والتفت إلى الغيبة إبعاداً لهم كأنه ينعى عليهم صنيعهم إلى مخاطب آخر يقول انظروا إلى هؤلاء أى دين أفسدوه وأى ضلال ارتكبوه بعد ذلك الإرشاد وهذا أبلغ من قوله فتقطعوا بالفاء فى سورة المؤمنين لمجىء الواو للمقارنة ولذا أمر هنا بالعبادة وهناك بالتقوى إشارة إلى بعد هؤلاء عن تلك الرتبة . قاله فى غاية الأمانى ﴿ كُلٌّ ﴾ من الفرق ﴿ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ فنجازيه بحسب أعماله ﴿ فَمَن يَعْمَلْ ﴾ شيئاً ﴿ مِنَ الصَّالِحَاتِ ﴾ بعضها بعد ذلك التفرق ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ بالله ورسله إذ لا اعتداد بعمل دون الإيمان ﴿ فَلَا كُفْرَانَ ﴾ تضييع ﴿ لِسَعْيِهِ ﴾ والكفران استعارة لمنع الثواب كما استعير الشكر لإعطائه ونفى الجنس للمبالغة ﴿ وَإِنَّا لَهُ ﴾ لسعيه ﴿ كَاتِبُونَ ﴾ به فى صحيفة عمله فنجازيه عليه لا يضيع بوجه ما والفاء فى «فمن يعمل» لإشعار التعقيب بعد التفرق والواو فيه فى السورة السابقة لكونه هناك ابتداء الكلام ، والله أعلم ﴿ وَحَرَامٌ ﴾ بفتح الحاء مع الألف للجمهور وبكسر الحاء وسكون الراء بلا ألف لحمزة والكسائى وأبى بكر وهما لغتان أى ممتنع ﴿ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ أريد أهلها ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ بالفعل أو حكمنا بإهلاكها ﴿ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ رجوعهم إلى الحياة أو التوبة و«لا» صلة أو عدم رجوعهم أى بعثهم للجزاء وهو مبتدأ خبره حرام أو فاعل له ساد مسد خبره أو خبر محذوف أى حرام قبول أعمالهم لأنهم لا يرجعون أى لا يتوبون ، دل على المحذوف ما تقدم فى قوله فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه أى يتقبل عملهم ، وقيل حرام بمعنى عزم موجب عليهم أنهم لا يرجعون ﴿ حَتَّىٰ ﴾ غاية للامتناع ﴿ إِذَا فُتِحَتْ ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر ﴿ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ بترك الهمز للجمهور وبه لعاصم أى سدهما و « حتى » متصلة بـ « حرام » أو بما دل الكلام عليه أو بـ «لا يرجعون» أى يستمر الامتناع أو الهلاك أو عدم الرجوع إلى قيام الساعة وظهور أماراتها وحتى هذه هى التى تحكى الجمل بعدها أو المحكى هنا الجملة الشرطية والجواب محذوف لدلالة ما تقدم عليه أى فإنهم فى ذلك الوقت

يرجعون ، وقيل الجواب فإذا هى شاخصة وهو أولى (وَهُمْ) أى يأجوج ومأجوج أو الناس فى ذلك اليوم (مِنْ كُلِّ حَدَبٍ) مرتفع من الأرض (يَنْسِلُونَ) يسرعون وذكر الحدب لأن الإسراع فيه أظهر ، قيل إن يأجوج ومأجوج تسعة أعشار بنى آدم (وَاقْتَرَبَ) حينئذ (الْوَعْدُ الْحَقُّ) أى يوم القيامة لأن خروجهم بعد عيسى عليه السلام كما قدمنا (فَإِذَا هِيَ) أى القصة (شَاخِصَةٌ) مرتفعة (أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) فى ذلك اليوم لشدة الخوف ، والجملة جزاء الشرط و « إذا » الفجائية وإن كانت تقوم مقام الفاء إلا أنهما إذا تظاهرتا على ربط الجزاء بشرطه كان الاتصال آكد يقولون (يَا وَيْلَنَا) هلاكنا (قَدْ كُنَّا) فى الدنيا (فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا) اليوم لم نعلم أنه الحق (بَلْ) إضراب إلى ما هو أقبح وهو (كُنَّا ظَالِمِينَ) أنفسنا بتكذيب الرسل (إِنَّكُمْ) أيها المشركون (وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أى غيره من الأوثان (حَصَبُ جَهَنَّمَ) وقودها لأنها تحصب به أى ترمى ، وقيل هو الحطب ، وقيل لا يسمى الحطب حصباً حتى يسجر به (أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) داخلون فيها ، استئناف أو بدل من حصب جهنم واللام عوض من على للاختصاص أى لا لغيرها وللدلالة على أن ورودهم لأجلها (لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ) الأوثان (آلِهَةً) كما زعمتم (مَا وَرَدُوهَا) لأن المعذب لا يكون إلها (وَكُلٌّ) من العابدين والمعبودين (فِيهَا خَالِدُونَ) لاخلاص لهم عنها (لَهُمْ) للعابدين (فِيهَا زَفِيرٌ) تنفس شديد كالمخنوق أو هو صوتهم وعويلهم شبه بصوت الحمير فإن أوله زفير (وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ) شيئاً لشدة غليانها ولجعلهم فى توابيت لئلا يرى بعضهم بعضاً ولا يسمع صوته . قال فى غاية الأمانى : وهذا بعد اليأس منهم لقوله « ونادوا يامالك » وقولهم « أجزعنا أم صبرنا » ونحوه (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا) الخصلة أو السعادة أو البشرى بالجنة (الْحُسْنَىٰ) تأنيث الأحسن كعزير وعيسى والملائكة (أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) رد لقول ابن الزبعرى حين سمع « إنكم وما تعبدون ... الآية » فقال عُبِدَ عزير والمسيح والملائكة فهم فى النار . فقال له عليه السلام : ما أجهلك بلغة قومك فإن « ما » لغير ذوى العقول . فنزلت تصديقاً له (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا) صوتها الخفىّ يسمع من مسيرة سبعين عاماً . قال فى الجواهر : وذلك بعد دخولهم الجنة لأن الحديث يقتضى أنها فى الموقف تزفر زفرة لا يبقى نبىّ ولا ملك إلا جثا على ركبتيه قال البخارى : الحسيس والحس واحد وهو الصوت الخفى (وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ) من النعيم (خَالِدُونَ) أى مستغرقون فى النعيم مع الخلود الذى هو رأس النعم وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام به (لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) حين النفخة الأخيرة أو الأمر بالعبد إلى النار أو إطباقها على الكفار أو ذبح الموت (وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) بالتبشير والإكرام عند الخروج من القبور أو على أبواب الجنة للتهنئة يقولون لهم (هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) على لسان الرسل (يَوْمَ) منصوب باذكر مقدراً قبله أو بلا يحزنهم أو بتتلقاهم (نَطْوِي السَّمَاءَ) لأنها مظلة لبنى آدم فإذا انتقلوا قوضت عنهم ، والطىّ ضد النشر ، وقرئ بالياء

والتاء مبنيا للمجهول طياً ﴿ كَطَيِّ السِّجِلِّ ﴾ الصحيفة ﴿ لِلْكِتَابِ ﴾ لأجل مايكتب أو كتب فيه ، والكتاب بمعنى المكتوب وقيل السجل ملك يطوى كتب الأعمال إذا رفعت إليه والأول قول الأكثر ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص الكتبْ بالجمع ، وفي الحديث « توضع السجلات في كفة ولا إله إلا الله في كفة » ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ ﴾ عن عدم ﴿ نُعِيدُهُ ﴾ بعد إعدامه ف « الكاف » متعلقة بنعيد وضميره عائد إلى أول وما مصدرية والجملة منقطعة عما تقدم أي نعيد أول كل مخلوق ونوجده بعد العدم كما أوجدناه سابقاً كذلك فالمعاد هو الأول وإن جعلت « ما » موصولة أي نعيده مثل الذي بدأناه فالمعاد هو المثل والمطلوب هو العين . قاله في غاية الأماني ، وفي الجواهر : يحتمل معنيين أحدهما أن يكون خبراً عن البعث أي كما اخترعنا الخلق أولا على غير مثال كذلك ننشئهم تارة أخرى فنبعثهم من القبور والثاني أن يكون خبراً عن كل شخص يبعث يوم القيامة على هيئته التي خرج بها من الدنيا ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده » ﴿ وَعْدًا ﴾ منصوب بوعدنا مقدراً قبله وهو مؤكد لنعيده أو منصوب به لأنه عدة بالإعادة ﴿ عَلَيْنَا ﴾ إنجازه بسبب الإخبار عن ذلك وتعلق العلم بوقوعه فوقوع ما علم الله وقوعه واجب ولذا أكده بقوله ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ذلك لا محالة أو قادرين على الفعل ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ ﴾ كتاب داود عليه السلام ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ أي التوراة أو المراد بالزبور جنس الكتب المنزلة ، وبالذكر اللوح المحفوظ وعلى الأول فذكر كتاب داود للإشارة بأنه وإن كان غير مشتمل على الأحكام بل هو تحميد وتمجيد لم يخل عن هذا الحكم ، وقرأ حمزة بضم الزاي وهما لغتان أو جمع « زبر » ﴿ أَنَّ الْأَرْضَ ﴾ أرض الجنة أو الأرض المقدسة أو جميع أرض الكفار ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ عام في كل صالح لقوله « وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء » أو الصالحون من بني إسرائيل لقوله « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها » أو أمة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله « ليستخلفنهم في الأرض » ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا ﴾ القرآن أو الذي ذكر فيه من الأخبار والمواعظ والمواعيد ﴿ لَبَلَاغًا ﴾ كفاية في دخول الجنة أو سبب بلوغ إلى البغية اسم بمعنى الكفاية أو التبليغ ﴿ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ عاملين به همهم العبادة دون العادة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ يا محمد ﴿ إِلَّا رَحْمَةً ﴾ أي الرحمة ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ الإنس والجن والملائكة ومن خالفك لا يلوم إلا نفسه مع كون الكفار نجوا به من عذاب الاستئصال في الدنيا . روى أنه عليه السلام قال لجبريل عليه السلام : هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال : إي والله إني لم أزل وجلا حتى أثنى الله عليّ في سورة التكوير . وفي إتيان هذه الآية هنا من براعة التمام ما لا يخفى ، إذ قد ختم سورة الأنبياء بخاتمهم لكون الختام مسكا ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي ما يوحى إليّ في أمر الإله إلا وحدانيته أو المقصود الأصلي بالوحي مقصور على الوحدانية ففي « إنما » قصر الصفة على الموصوف وفي « أنما » العكس ، والثاني

ليس كلياً بل من المقام لقوله « وظن داود أنما فتناه » قاله فى غاية الأمانى ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ منقادون لما يوحى إلىّ من وحدانية الإله ، والاستفهام بمعنى الأمر . واستدل بهذا على إثبات صحة التوحيد بالسمع ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ عن التوحيد ﴿ فَقُلْ آذَنتُكُمْ ﴾ أعلمتكم ما أمرت به ومنه أن الغلبة والعاقبة للمتقين لا محالة وقد شاع استعمال الإيذان بمعنى الإنذار وقيل أعلمتم بالحرب ﴿ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ حال من الفاعل أو المفعول أى مستوين فى الإعلام به أو فى العلم بما أعلمتكم به أو فى المعاداة ، أو المعنى أعلمتكم أنى على سواء أى عدل واستقامة رأى بالبرهان النير ﴿ وَإِنْ ﴾ ما ﴿ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ من العذاب أو غلبة المسلمين أو القيامة لكنه كائن لا محالة لكن العالم لوقته هو الله ﴿ إِنَّهُ ﴾ تعالى ﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ والفعل منكم ومن غيركم ومن ذلك طعنكم فى الإسلام ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أنتم وغيركم من الإحن والأحقاد للمسلمين وغير ذلك فيجازيكم عليه ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ﴾ أى تأخير جزائكم ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ ابتلاء وامتحان ﴿ لَّكُمْ ﴾ لينظر كيف تعملون أو استدراج وزيادة فى افتتانكم ﴿وَمَتَاعٌ﴾ تمتيع ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ إلى وقت اقتضته مشيئته أو إلى انقضاء آجالكم . وهذا مقابل للأول المترجى بلعل وليس الثانى محلا للترجى قاله الجلال المحلى فى المكمل ، يعنى لأنه محقق ﴿ قُل رَّبِّ احْكُم ﴾ اقض بينى وبين مكذبىّ ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ العدل أو الوعد الثابت الذى لا خلف فيه وهو نصرى عليهم ، المعنى اسأله إنجاز ما وعدك وقد فعله يوم بدر رافعاً يديه قائلا : أنشدك وعدك حتى سقط رداؤه . وقرأ حفص «قال» إخباراً عن فعله وقد أنجز الله له ذلك فى بدر وغيره ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ به من الولد وبى من السحر وبالقرآن من الشعر وبالإسلام من أن رايته تخفق أياماً ثم تسكن فتكون الشوكة لكم ، تصفون هذا لاهية قلوبكم بالأمانى والغفلة فاتصلت الخاتمة بالفاتحة .

قال المسوّد لهذا التفسير : والحمد لله الذى يسر لنا البلوغ إلى سورة الحج فى آخر الأيام المعدودات أيام العج والثج .

[تم تفسير سورة الأنبياء]

سورة الحج

مكية إلا « ومن الناس من يعبد الله .. الآيتين » أو إلا « هذان خصمان » إلى « صراط الحميد .. » الست آيات فمدنيات وهي أربع أو خمس أو ست أو سبع أو ثمان وسبعون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ أى عقابه بالإيمان بالبعث والجزاء وبطاعته فى جميع ما أمر ونهى ، وعلل أمرهم بالتقوى بفظاعة أمور الساعة ليصورها ويعلموا أنه لا يؤمنهم منها إلا التدرع بالتقوى بقوله ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ ﴾ تحريكها للأشياء على الإسناد المجازى أو تحريك الأشياء فيها على الاتساع ، وقيل المراد الحركة الشديدة للأرض قبيل طلوع الشمس من مغربها أو بعيده وإضافتها إلى الساعة لأنها من أشراطها ﴿ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ هائل ينبغى اللجأ فى المخرج منها إلى التقوى الذى هو المنجا فى الشدائد ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ الزلزلة أى أهوالها والظرف منتصب بقوله ﴿ تَذْهَلُ ﴾ تدهش بسببها ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ بالفعل أى التى ألقمت الرضيع ثديها ﴿ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ بمعنى تنساه ، والمقصود الدلالة على أن هولها بحيث إذا دهشت التى ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه وذهلت عنه و « ما » موصولة أو مصدرية ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ ﴾ أى حبلى ﴿ حَمْلَهَا ﴾ جنينها فى غير أوان الولادة ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ ﴾ ظاهراً من شدة الخوف ﴿ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ ﴾ حقيقة من الشراب وقرأ حمزة والكسائى سكرى كعطشى ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ فلذلك ذهب عقلهم وطار لبهم . قال فى الجواهر : اختلف المفسرون فى الزلزلة المذكورة هل هى فى الدنيا أو فى القيامة ؟ فقال الجمهور هى فى الدنيا والضمير فى ترونها للزلزلة ، وقوى قولهم أن الرضاع والحمل إنما هو فى الدنيا ، وقالت فرقة هى فى يوم القيامة والضمير عندهم للساعة . وخرج البخارى وغيره عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله جل ثناؤه يوم القيامة يا آدم فيقول « لبيك ربنا وسعديك » فيقول : أخرج بعث النار . قال : يارب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعاً وتسعين إلى النار وواحداً إلى الجنة فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد « وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » الحديث ، وهو نص صريح أنها فى يوم القيامة وانظر قوله « يوما يجعل الولدان شيبا » ، وقوله :

« وإذا العشار عطلت » تجده موافقاً للحديث . اه . ملخصاً . قلت : وحديث أبي سعيد هذا أخرجه البخاري في كتاب التفسير . وأخرج أيضاً في كتاب الرقاق حديث أبي هريرة وفيه : أخرج من كل مائة تسعة وتسعين وهو يدل على أن نصيب أهل الجنة من الألف عشرة وحديث أبي سعيد يدل على أنه واحد . قال القسطلاني : والحكم للزائد أو يحمل حديث أبي سعيد على جميع ذرية آدم فيكون من كل ألف واحد وحديث أبي هريرة على من عدا يأجوج ومأجوج فيكون من كل ألف عشرة . اه . ونزل في النضر بن الحارث وأضرابه ممن يقول القرآن أساطير الأولين والملائكة بنات الله ولا بعث بعد الموت ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ ﴾ في جداله وجميع أحواله ﴿ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴾ متمرد متجرد للفساد وأصله العرى ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ قضى على الشيطان ﴿ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ تبعه ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ﴾ لأنه جُبل على الإضلال و « أنه » الأولى في موضع رفع نائب فاعل « كتب » وضميره للشيطان و « أنه » الثانية خبر لـ « من » أو جواب له على تقدير : فشأنه أنه يضله ، والمعنى : كتب عليه إضلال من تولاه ﴿ وَيَهْدِيهِ ﴾ يدعوه ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ بالحمل على ما يؤدي إليه : استعارة تهكمية ، ثم استدل على منكري البعث بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ ﴾ من إمكانه وكونه مقدوراً لنا فانظروا في بدء خلقكم فإنه يزيح ريبكم ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم ﴾ أي أصلكم آدم ﴿ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ ﴾ خلقنا ذريته ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ منيّ من النطف وهو الصب ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ قطعة من الدم جامدة ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ قطعة لحم قدر ما يمضغ فعلة بمعنى المفعول ﴿ مُّخَلَّقَةٍ ﴾ مسواة لا نقص فيها ولا عيب ﴿ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ مسواة وعلى ذلك التفاوت بين أفراد الناس طولا وقصراً تماما ونقصاً ، وقيل تامة وساقطة يقذفها الرحم دماً وعلقة المرأة تنقضي بالسقط وتصير به أم ولد ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ بهذا التدريج كمال قدرتنا لتستدلوا بالقدرة في ابتداء الخلق على إعادته لأن ما قابل التغير أولا يقبله آخراً وحذف مفعول « نبين » إيماء إلى أنه مما لا يحيط به عقل ﴿ وَنُقِرُّ ﴾ مستأنف أو عطف على « فإنا خلقناكم » والعدول إلى المضارع لتصوير الحال والدلالة على زيادة الاختصاص ﴿ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ ﴾ أن نقره ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وقت الوضع وأدناه بعد ستة أشهر والأغلب تسعة وأقصاه أربع سنين أو خمس عند المالكية ، وسنتان عند الحنفية وأربع عند الشافعية ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿ طِفْلًا ﴾ أطفالا : حال ، يستوي فيه الذكر والأنثى والفرد والجمع لأنه في الأصل مصدر ﴿ ثُمَّ ﴾ نعمركم ﴿ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ أي الكمال والقوة وتقدم الكلام فيه في سورتي الأنعام ويوسف ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ﴾ يموت عند بلوغ الأشد وقبله ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ أخسه من الهرم والخرف ، استوفى الأقسام بعد الإخراج كما استوفى الأقسام قبله وكلاهما دليل على إمكان البعث وقدم الأولى إما نظراً إلى الوجود أو لأنها أدل على البعث وطوى هنا ذكر الشيخوخة في أرذل العمر إذ لا يمكن بدون تجاوزها اكتفاء بذكرها في سورة المؤمن إذ ليس مقصوداً كلياً كما أن

الإخراج طفلا لما لم يمكن إلا بعد المضغة طوى ذكرها هناك اكتفاء بذكرها هنا كما هو شأن الكلام البليغ المعجز فى إشاراته ورموزه ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ فيعود إلى ما كان عليه حال الطفولية من سخافة العقل وضعف البنية فينسى ما علمه وينكر من عرفه يشير بهذا إلى أن الله قادر على الأشياء وأضدادها على السواء ، فتارة يرقى الإنسان فى مدارج الارتقاء إلى أوج الكمال وتارة ينزله إلى حضيض النقصان ودرك الوهاد . ولما استوفى أدلة الأنفس التى هى أقرب أخذ فى أدلة الآفاق بقوله ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ يابسة لا نبات بها من همدت النار : إذا صارت رمادا ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت وارتفعت وزادت ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ﴾ زائدة ﴿كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن من بهج بالضم والإسناد إلى الأرض إسناد إلى المحل وهذه الدلالة الثالثة على البعث قد كررها الله فى كتابه لظهورها وكونها مشاهدة ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من بدء خلق الإنسان إلى آخره على النمط المذكور وإحياء الأرض كذلك دليل ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت الدائم أى بسبب أنه الثابت فى نفسه الذى به تتحقق الأشياء ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ وإلا لما أحيى النطفة والأرض الميتة ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن قدرته إلى كل الأشياء على السواء. فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على إحياء كلها ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لأن الصادق قد أخبر بوقوعها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ بمقتضى وعده لتمييز الطائع والعاصى والمحق والمبطل ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ مع هذه الأدلة ﴿مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فطرى ، كرره للتأكيد مع زيادة قوله ﴿وَلَا هُدًى﴾ بالاستدلال ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ له نور ناله بالوحى كالنضر بن الحارث وأبى جهل وأضرابهما ، وقيل : الآية الأولى فى المقلدين لقوله « ويتبع » وهذه فى المقلدين ، والمراد بالعلم : العلم الضرورى ، وبالهدى : النظر والاستدلال الموصل إلى العلم ، وبالكتاب المنير : الوحى كما قدمنا ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ حال أى لاوى عنقه تكبرا وهو كناية عن التكبر والإعراض عن الحق استخفافاً به ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياء للجمهور وفتحها لأبى عمرو وابن كثير ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه وهو علة للجدال ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قتل وأسر كما حل بالنضر يوم بدر ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ الإحراق بالنار العظيمة ويقال له ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخزى والعذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أى قدمته من إطلاق الجزء على الكل لأن أكثر الأفعال بهما والتفت إليه ليكون التوبيخ كفاحاً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾ بذى ظلم ﴿لِلْعَبِيدِ﴾ فيعذبهم بغير ذنب وإنما هو مجاز لهم على أعمالهم أو الظلام للمبالغة باعتبار كثرة العبيد ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ طرف بمعنى شك فى دينه شبه بالحال على حرف جبل فى عدم الثبات أو طرف جيش وقت المحاربة فإن أحس بظفر قر وإلا فر كما بينه بقوله ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ صحة وسلامة فى نفسه وماله ﴿اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ محنة وسقم فى نفسه أو ماله ﴿انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أى رجع إلى الكفر ، والآية نزلت فى الأعراب يقدمون المدينة

فإن صح القادم منهم وكثر ماله وأولاده اطمأن وقال : هذا دين خير وإلا انقلب وتشاءم به وقد جاء بعضهم فأسلم وبايع النبي على الإسلام فأصابته مصائب فتشاءم فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أقلني فأبى . وقال : إن الإسلام لا يقال ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا﴾ افتقدها ﴿وَالآخِرَةَ﴾ لحبوط عمله ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ البين الذي ليس فوقه خسران ﴿يَدْعُوا﴾ يعبد ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الصنم ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ إن لم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ إن عبده أعاد الموصول مبالغة لدلالته على كل من الانتفاءين استقلالا ، والعطف من قبيل عطف الصفات ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدعاء ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عن الحق والبعد وصف الضال وصف به فعله مبالغة وهو مستعار من ضلال من أبعد في التيه ضلالا ﴿يَدْعُوا لَمَنْ﴾ اللام زائدة ﴿ضَرُّهُ﴾ بعبادته بإيجاب القتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ الذي يتوقع من الشفاعة على زعم الكفار ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ الناصر ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ الصاحب هو ، ثم عقب ذكر الشاك بالخسران بذكر المؤمن الثابت بالثواب في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الفروض والنوافل ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من إكرام من يطيعه وإهانة من يعصيه لا مانع لقضائه ولا يسئل عما يفعل ثم رجع إلى ذم من يعبد الله على حرف بقوله ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ أي محمداً نبيه أشار إليه بالضمير دلالة على أنه العلم المرفوع وأن الكلام معه وله وفيه وأن غيره وإن ذكر فبالتبع المعنى أن الله ناصر رسوله ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي سقف بيته يشده فيه وفي عنقه ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي ليختنق به من قطع إذا اختنق فإن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه أو المعنى فليمدد بحبل إلى السماء المظلة فليقطع الوحي النازل عليه ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ بالتأمل ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ فعله ذلك سماه كيدا لأنه منتهى ما يقدر عليه في منع نصر النبي صلى الله عليه وسلم ﴿مَا يَغِيظُ﴾ أي غيظه أو الذي يغيظه من نصر الله وقيل نزلت في قوم مسلمين استبطأوا نصر الله ومن المفسرين من قال الضمير في ينصره راجع إلى « من » أي من ظن أن الله لا ينصره بالرزق إن أسلم فليفعل ما ذكر وكل ما مر مثل سائر تقول العرب لمن ظن خلاف ما وقع دونك الحبل فاختنق غيظاً ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل إنزالنا الآيات السابقة في إثبات البعث وغيره ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي القرآن الباقي ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ظاهرات حال ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ هداه بالقرآن معطوف على هاء أنزلناه ثم بين المؤمنين وفرق الكفار جميعاً بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بإدخال المؤمنين الجنة وغيرهم النار ودخلت «إن» على كل واحد من طرفي الجملة لمزيد التأكيد ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من عملهم وغيره ﴿شَهِيدٌ﴾ حاضر عالم به علم مشاهدة لا يفوته ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي : ألم تعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يتسخر له أو يدل بذاته على عظمته و «من» يعم أولي العلم وغيرهم ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ خصها بالذكر لأنها أشرف

الأجرام العلوية والسفلية بعد أولى العلم ، واستبعاد السجود منها فإذا انقادت فما سواها أولى ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ وهم المؤمنون بالزيادة على ذلك السجود بوضع الجبهة فى سجود الصلاة عطف على ماتقدم إن جوزنا استعمال المشترك فى كل واحد من معنييه وإلا فبتدأ حذف خبره لدلالة خبر قسيمه عليه أى حق له الثواب أو فاعل مضمر أى ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة أو كرر كثير مبالغة فى تكثير من حق عليه العذاب فى قوله ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ وهم الكافرون لأنهم أبوا السجود المتوقف على الإيمان ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ ﴾ بالشقاء ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ بالسعادة إشارة إلى علة الطاعة والإباء من الفريقين ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ من الإهانة والإكرام ﴿ هَٰذَانِ ﴾ الفوجان أهل الإيمان وأهل الكفران ودخل فيهم أصحاب المبارزة ﴿ خَصْمَانِ ﴾ مذكانا إلى يوم القيامة بالعداوة والجدال والحرب وخصم مصدر يوصف به الجمع والواحد ولذا جمع فى قوله ﴿ اخْتَصَمُوا ﴾ حملا على المعنى ﴿ فِي رَبِّهِمْ ﴾ فى دينه . وما روى عن ابن عباس من أن الإشارة راجعة إلى الأديان الستة لا ينافى مافى البخارى عن أبى ذر أنه كان يقسم أنها نزلت فى الذين بارزوا يوم بدر حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث رضى الله عنهم مع عتبة ابن ربيعة وشيبة أخيه والوليد بن عتبة إذ ورد أن أول ما يقضى به بين الناس يوم القيامة الدماء . ومن المعلوم أن أول مبارزة وقعت فى الإسلام مبارزة علىّ وصاحبيه للكفار فلا جرم أن تكون أول خصومة يوم القيامة مع ما فى صحيح مسلم نحن الآخرون من أهل الدنيا الأولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق، وعن علىّ رضى الله عنه أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة ثم بين فصل الخصومة بقوله ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ أى قدرت على مقادير جثثهم نيران تحيط بهم إحاطة الثياب كما كانوا يلبسون فى الدنيا ثياب الخيلاء ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ الماء البالغ نهاية الحرارة ، حال من الضمير فى لهم أو خبر ثان ﴿ يُصْهَرُ ﴾ يذاب ﴿ بِهِ ﴾ بذلك الحميم ﴿ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾ من شحوم وغيرها ﴿ وَ ﴾ تشوى به ﴿ الْجُلُودُ ﴾ لهم فتساقط ثم تعاد كما كانت ، وفى تقديم ما فى بطونهم على الجلود إيماء إلى أنها من فرط حرارتها تؤثر فى الباطن قبل تأثيرها بالظاهر لأن ذلك أشرف وأشد تأثراً وهذا أبلغ من قوله « وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم » لأن الصب على الرءوس أخش من السقى والإذابة أبلغ من التقطيع وما فى البطون أعم من الأمعاء ﴿ وَلَهُمْ مَقَامِعُ ﴾ سياط مختصة بهم ﴿ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ لضرب رءوسهم ، وفى الخبر لو وضع مقمع منها فى الأرض ثم اجتمع عليه الثقلان ما أقلوه من الأرض ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ أى من النار ﴿ مِنْ غَمٍّ ﴾ عظيم يلحقهم بها بدل من الهاء بإعادة الجار ﴿ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ ردوا إلى دركاتها بالمقامع قبل يرفعهم لهب النار إلى أعلاها فيضربون بالمقامع فيهوون فيها يهوون بالضرب فيها سبعين خريفاً ﴿ وَ ﴾ يقال لهم ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى البالغ نهاية الإحراق ، يقال لهم ذلك إسماعا لهم مايكرهون زيادة فى العذاب من كل جهة ، أعاذنا الله منه بفضل رحمته ، وقال فى المؤمنين

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ قسيم لقوله تعالى: «فالذين كفروا قطعت لهم» غير الأسلوب وصدر الجملة باسمه المقدس تنويها بشأن المؤمنين وإشارة لحلهم بأن المباشر لإدخالهم الجنة هو بذاته من غير واسطة ملك ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ حال مقدرة ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ صفة مفعول محذوف أى حليا من أساور جمع أسورة جمع سوار ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب لنافع وعاصم عطفاً على محل من أساور وبالجر للباقين على اللفظ أى منهما بأن يرصع اللؤلؤ بالذهب لأن المرصع أجمل ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ هو المحرم لبسه على الرجال فى الدنيا: غير الأسلوب دلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة أو للفواصل ﴿وَهُدُوٓا﴾ فى الجنة ﴿إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهو «الحمد لله الذى صدقنا وعده» ونحوه، أو فى الدنيا، والطيب من القول كلمة الشهادة أو القرآن وهذا أوجه لفظا ومعنى لقوله ﴿وَهُدُوٓا إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أى دين الله المحمود المستحق لذاته الحمد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طاعته ﴿وَ﴾ عن ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ كما فعل الكفار بالنبى صلى الله عليه وسلم عام الحديبية والتعبير بـ «يصدون» للدلالة على أنهم يديمون الصد ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ﴾ منسكا ومتعبدا ﴿لِلنَّاسِ سَوَآءً﴾ بالرفع للجمهور مصدر بمعنى مستو خبر مقدم والمبتدأ ﴿ٱلْعَـٰكِفُ﴾ المقيم ﴿فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ الطارئ، والجملة حال من الهاء وبالنصب لحفص على أنه المفعول الثانى لـ «جعلناه» وعلى قراءة الجمهور فالمفعول الثانى «للناس» وخبر «إن» محذوف، أى نذقهم من عذاب أليم لدلالة خبر «من» عليه فى قوله ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ عدول عن الحق، والباء زائدة، أو المفعول محذوف، أى: من يرد فيه تعدياً بإلحاد ﴿بِظُلْمٍ﴾ بدل من إلحاد أو صلة أى ملحداً بسبب الظلم بأن ارتكب فيه منهياً ولو شتم خادم وكان ابن عمر إذا أراد أن يعاتب خادمه خرج به إلى الحل. قال ابن عطية: والإلحاد الميل وهو يشمل جميع المعاصى من الكفر إلى الصغائر فلعظم حرمة المكان توعد الله تعالى على نية فعل السيئة فيه ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب بذلك إلا فى مكة هذا قول ابن مسعود وجماعة من الصحابة وغيرهم. اهـ وقال ابن العربى فى الأحكام: الإلحاد هو الميل فى اللغة إلا أنه قد صار فى عرف الشرع ميلا مذموماً، ولنا بيّن الله أن الميل بالظلم هو المراد هنا. اهـ. ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم أى بعضه، اختلف المفسرون فى معنى استواء العاكف والبادى فى المسجد الحرام، قيل فى تعظيم حرمته وقضاء المناسك فيه، وقيل المراد بالمسجد جميع الحرم أى هما سواء فى تعظيم مكة أو فى النزول بدورها ليس أحدهما أحق بالمنزل فيها من الآخر غير أنه لا يزعج من سبق إلى منزل وهذا هو قول ابن عباس، وقال به مالك وأبو حنيفة فدور مكة التى وقع الفتح عليها ليست ملكا لأربابها بل من احتاج سكن ومن استغنى أسكن فلا يجوز بيعها ولا إجارتها، وقال الشافعى: هى ملكهم فيجوز بيعها وإجارتها، قال: والموصوف بالسواء هو المسجد لما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى داراً من صفوان بن أمية وجعلها سجناً، والخلاف مبنى على أن مكة

هل افتتحت عنوة أو صلحاً ، وتفسير حديث الإلحاد باحتكار الطعام فيه يحمل على أنه سبب النزول ولا يمنع العموم . والله أعلم . ولما كان المشركون الملحدون الظالمون من كفار مكة يزعمون أنهم على ملة إبراهيم أمر الله نبيه أن يذكر ما أمر به إبراهيم ليظهر لهم أنهم ليسوا على شىء من دينه فقال (وَ) اذكر (إِذْ بَوَّأْنَا) بيّنا (لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) ليبنيه وكان قد رُفع زمن الطوفان فتقدمته ريح إلى محل البيت فهبت فيه حتى كشفت أساس آدم فى البيت ، قيل نصب له ظل على قدر البيت فقدره به ، وقيل خطه له جبريل ، قال فى غاية الأمانى : يقال بوأه اتخذ له مباءة والمباءة المنزل من باء رجع لأنه يرجع إليه . اه . وزيد اللام لتضمين بوأ معنى هيأ (أَنْ لَا) أى أمرناه بأن لا (تُشْرِكْ بِي شَيْئاً) فأن مصدرية أو تفسير للتبوئة لأن الغرض منها العبادة أى قلنا لا تشرك بى شيئاً (وَطَهِّرْ بَيْتِيَ) من الأوثان والأقذار (لِلطَّائِفِينَ) بشرط الطهارة خلافاً لأبى حنيفة (وَالْقَائِمِينَ) للصلاة (وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) جمع راكع وساجد أى طهره لهؤلاء العابدين ، وعبر عن الصلاة بأركانها من القيام والركوع والسجود للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك كيف وقد اجتمعت ، ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت أمره الله أن ينادى الناس بالحج بقوله (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ) أى نادهم (بِالْحَجِّ) بدعوته والأمر به فنادى على جبل أبى قبيس : يا أيها الناس إن ربكم بنى بيتاً وأوجب عليكم الحج إليه فأجيبوا ربكم . والتفت بوجهه يميناً وشمالا وشرقاً وغرباً فأسمعه الله كل من سبق فى علمه أن يحج فأجابه من أصلاب الرجال وأرحام النساء « لبيك اللهم لبيك » وقيل هذا الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، والحق أن الآية مكية والسياق إنما هو لقصة إبراهيم عليه السلام ، قاله فى غاية الأمانى . وجواب الأمر (يَأْتُوكَ رِجَالًا) مشاة على أرجلهم جمع راجل (وَ) ركباناً (عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) أى بعير مهزول يطلق على الذكر والأنثى ، وصفه بالحال التى ينتهى عليها إلى مكة ، وقيل الضامر يشمل كل ما اتصف بذلك . قال ابن عطية : وهذا هو الأظهر . اه . وفى تقديم « رجالا » تفضيل المشاة فى الحج على الركبان لكن مذهب مالك تفضيل الركوب لأنه فعله عليه السلام ولا يفعل إلا ما هو الأفضل وأجيب بأنه عليه السلام إنما ركب لئلا يمشى فيقتدى به جميع الأمة فيما لا يقدرون عليه وكان بالمؤمنين رحيما فلا دلالة على أفضليته حينئذ لغيره . والله أعلم (يَأْتِينَ) أى الضوامر حملا على المعنى صفة لضامر (مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) طريق بعيد . قال ابن العربى تكرمة لها بقصدها الحج مع أربابها كما قال فى خيل الجهاد والعاديات ضبحاً تكرمة حين سعت فى سبيل الله (لِيَشْهَدُوا) أى يحضروا (مَنَافِعَ لَهُمْ) فى الدنيا بالتجارة أو الأخرى بالمغفرة والأجور أو فيهما وهو الصحيح أقوال (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ) عند النحر والذبح وعبر به دلالة على أن المقصود من شرع الأعمال هو ذكر الله تعالى (فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ) يوم النحر واليومان بعده وهذا قول مالك الذى رواه عنه ابن القاسم ، أو عشر ذى الحجة وهو قول الشافعى إذ كلها أيام العبادات والطواف (عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ

بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ الإبل والبقر والغنم التى تنحر فى يوم العيد وما بعده من الهدايا والضحايا علق الفعل بالمرزوق وبينه بالبهيمة تحريضاً على التقرب وتنبيهاً على مقتضى الذكر بأن الرزق محض فضل منه تعالى مع اشتمال الكلام على الإجمال والتفصيل فى البهيمة التى فصلها الأنعام وفى ذكر الايام دليل على أن الذبح فى الليل لا يجوز وهو مذهب مالك وفى وصفها بالمعلوم حث على علمها وحسابها لأجل وقت الحج فى آخرها ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ إذا كانت مستحبة اتفاقاً أمر إباحة رداً لأمر الجاهلية فى التحرج من أكلها ﴿ وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ ﴾ الذى ظهر عليه البؤس ﴿ الْفَقِيرَ ﴾ الشديد الفقر وصف كاشف له كأن الإعسار كسر فقاره والأمر فيه للوجوب. واستحب العلماء أن يأكل الإنسان من هديه وأضحيته ويتصدق بالأكثر وأما إذا كانت واجبة كنذر لمساكين مطلقاً أو نذر لم يعين أو الفدية أو جزاء صيد بعد المحل أو هدى تطوع عطب قبل محله فلا يجوز له أكلها ويجوز أكل غيرها من الواجبات كهدى القران والتمتع وما عطب قبل محله إذ عليه بدله خلافاً للشافعى ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ أى يزيلوا أوساخهم وشعثهم كطول الظفر بقص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال وغسل واستعمال طيب ولبس الثياب ﴿ وَلْيُوفُوا ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لشعبة ﴿ نُذُورَهُمْ ﴾ ما ينذرون من البر فى حجهم للتقرب إلى الله فإنه كثير الوقوع فى طريق الحجاز وتلك الأماكن الشريفة وقيل مواجب الحج ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا ﴾ طواف الإفاضة الذى به تمام التحلل وقيل طواف الوداع ﴿ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ أى القديم لأنه أول بيت وضع، أو المعتق من تسلط الجبابرة عليه أو الشريف والعرب تسمى كل حسن عتيقاً ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ خبر محذوف أى الأمر ذلك وهو وأمثاله يطلق للفصل بين كلامين ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ ﴾ هى ما لا يحل انتهاكه من جميع الأحكام أو ما يتعلق بالحج ﴿ فَهُوَ ﴾ أى تعظيمها ﴿ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ فى الآخرة أريد به زيادة مطلقة من غير مفضل عليه ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ ﴾ أكلا بعد الذبح كلها رفع لقاعدة أهل الأوثان من تحريم البحائر والسوائب ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ تحريمه فى « حرمت عليكم الميتة » المعنى: لا تحرموا منها إلا ما حرمه الله ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ « من » للبيان، أى الذى هو الأوثان وفيه مبالغة فى التنفير عن عبادتها أى اجتنبوها كما اجتنبتم الأنجاس التى بينت، وقيل « من » لابتداء الغاية فكأنه تعالى نهاهم عن الرجس عموماً ثم عين لهم مبدأه الذى منه يلحقهم إذ عبادة الأوثان جامعة لكل رجس وفساد، والرجس لغة: القذر والعمل القبيح ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ الكذب بإشراك الأوثان بالله فى التلبية، أو شهادة الزور فى التحليل والتحريم وغير ذلك وهو تعميم بعد تخصيص ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ مائلين عن الباطل مخلصين ﴿ لِلَّهِ ﴾ الدين ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ تصريح بما علم تأكيداً لما قبله وهما حالان من الواو ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ ﴾ سقط ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر ﴿ فَتَخْطَفُهُ ﴾ بفتح الخاء وتشديد الطاء مضارع تخطف لنافع، وبإسكان الخاء وتخفيف الطاء للباقين ﴿ الطَّيْرُ ﴾ أى تأخذه بسرعة لأن طير أهوائه

المردية توزع أفكاره ﴿ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ ﴾ أى تسقطه ﴿ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ بعيد لأن ريح شيطانه يطوح به فى الضلالة فلا يرجى خلاصه ، و « أو » للتخيير أو للتنويع لأن من المشركين من لا خلاص له أصلا ومنهم من يمكن خلاصه بالتوبة لكن على بُعد ، ويجوز أن يكون من التشبيهات المركبة فيكون المعنى : ومن يشرك بالله فقد هلكت نفسه هلا كا يشبه أحد الهلاكين ، قاله البيضاوى . وفى غاية الأمانى : شبه حال المشرك وصوره بحال من يسقط من السماء إلى الأرض فاختطفه الطير من كل جانب فتفرق مزعا فى حواصلها أو شبه الإيمان فى علو شأنه بأوج السماء وتاركه بالساقط من ذلك الأوج إلى الكفر الذى لا حضيض بعده . اه . قلت : الأول من تشبيه المركب ، والثانى من المفرد . والله أعلم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يقدر قبله الأمر مبتدأ ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ جمع شعيرة كل أمر أشعر به أى معالم دينه من الفرائض والسنن والآداب ، وأكثر استعماله فى مناسك الحج ، أو المراد الهدايا لأنها من أعظم شعائر الحج وهذا أوفق لما بعده وتعظيمها أن تختار حساناً سماناً غالية الأثمان عظائم الأجرام . وفى الحديث : « سمنوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم » ﴿ فَإِنَّهَا ﴾ أى تعظيمها ﴿ مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ منهم أى من أفعال ذوى تقواها أسند التقوى إليها لأنها منشؤها وهو من الإسناد إلى المحل ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ كركوبها والحمل عليها ما لا يضرها وعلى تأويل عموم الشعائر فالمنافع كأنوار الطاعات وزيادة اليقين وثمرات الإسلام ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وقت نحرها أو الموت ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا ﴾ مكان حل نحرها أو محلها انتهاؤها بالطواف للوداع من حل الأجل انتهى ﴿ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ أى عنده بالطواف وهذا قول مالك أى جميع شعائر الحج تنتهى إلى طواف البيت . قال ابن العربى فى الأحكام : وقول الشافعى المراد به الحرم جميعه عموم لا يفيد شيئاً لأن الله صرح بذكر البيت فلا معنى لإلغائه وحمل الشافعى على ذلك تخصيص الشعائر بالبدن تخصيص لا وجه له مع عمومها . اه . قلت : ويؤيده ما يأتى أن البدن من تلك الشعائر ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أى جماعة مؤمنة سلفت قبلكم ﴿ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ بفتح السين للجمهور مصدر وبكسرها لحمزة والكسائى اسم مكان وأصله الغسل ثم أطلق على العبادة لبنائها على النظافة ثم غلبت على أعمال الحج أى عبادة وقرباناً أو موضعه ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ عند ذبحها علة الجعل دال على أن المقصود من شرع المناسك ذكره تعالى بأوصاف الكمال مع دلالته على اختصاص الهدى بالنعم ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ فبعد علمكم بوحدانيته ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ أخلصوا فى العبادة وذبح النسائك لا تشوبوا ذلك بالإشراك والذبح بأسماء الأوثان ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ المطيعين المتواضعين أو المخلصين ، فالإخبات صفتهم من الخبت وهو المكان المطمئن ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ ﴾ خافت ﴿ قُلُوبُهُمْ ﴾ هيبة منه لإشراق أشعة الجلال عليها ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من البلايا والنوائب ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ ﴾ فى أوقاتها ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ فى وجوه البر والعطف باعتبار الصفات ﴿ وَالْبُدْنَ ﴾ جمع بدنة وهى ما أشعر

من الإبل لعظم بدنها والبقر تقوم مقامها إلحاقاً من حيث المعنى لا تناولا بحسب العرف وانتصابه بفعل يفسره ﴿ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ وهذا نص فى أنها بعض الشعائر أى أعلام دينه الى شرعها ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ فى الدنيا والدين بما تقدم . قال ابن العربى : فأما الأجر فهو خير مطلق وأما غيره فهو خير إذا قوّى صاحبه على طاعة الله ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾عند نحرها وذبحها أىّ اسم كان من أسمائه الحسنى والمندوب أن يقول : الله أكبر لا إله إلا الله ، الله أكبر اللهم منك وإليك ﴿صَوَافَّ﴾ أى مصففة واقفة على أرجلها هذا هو الأفضل فى نحر الإبل بخلاف ذبح البقر والغنم ، وقرئ صوافن بنون جمع صافنة أى قائمة على ثلاث معقولة اليد اليسرى ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ سقطت على الارض بعد نحرها ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ إن شئتم إلا ما استثنى ﴿ وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ ﴾ الراضى الذى يقنع بما يعطى ولا يسأل ، أو هو السائل من قنع بفتح النون قنوعا فهو قانع ، طمع وسأل ، ضد قنع بكسر النون قناعة فهو قنوع متعفف ﴿ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ المتعرض للعطاء من غير سؤال أو السائل ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل ذلك التسخير ﴿ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ ﴾ بأن تسخر وتركب والا لم تطق ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعمتى عليكم ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ ﴾ أى رضاه وقبوله ﴿ لُحُومُهَا ﴾ المتصدق بها ﴿ وَلَا دِمَاؤُهَا ﴾ المهراقة أى لا يرفعان إليه ﴿ وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ﴾ بأن تقصدوا بذلك التقرب إليه وتعظيم أمره بالامتثال والإخلاص﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾كرره تذكيراً لنعمه وتعليلا بقوله ﴿ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ ﴾ بتوحيده وذكره باللسان والقلب عند الإحلال والذبح ﴿ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ إليه من المناسك وجميع مصالح الدين والدنيا أو على هدايته إياكم إلى ذلك و « ما » موصولة أو مصدرية ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ المخلصين إذ الإخلاص هو ملاك الامر ولذا ختم أمر المناسك به المستطرد به بعد قوله « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله » لتهجين فعلهم لازدياد قبح الصد بازدياد عظم ما صد عنه فرجع إلى بيان عون المؤمنين عليهم بقوله﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ ﴾ يبالغ فى دفع غوائل المشركين ﴿ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو يدفع ، وقراءة الجمهور أبلغ لأن المفاعلة مبالغة فى المغالبة . قال الأخفش : يقال دافع الله عنك ودفع عنك . اه . وقال ابن عطية : والأحسن يدافع لأنه يفهم أن الله يدفع للمؤمنين من يدفعهم ويؤذيهم ، إذ روى أن الآية نزلت لما كثر أذى الكفار للمؤمنين بمكة فأراد المؤمنون قتالهم ليدفعوا عن أنفسهم فأخبرهم الله أنه الدافع عنهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ ﴾ فى أمانته ﴿ كَفُورٍ ﴾ لنعمه وهم المشركون علة للدفع عن المؤمنين وإيثار بناء المبالغة فى الوصفين لأن حق الأمانة والشكر عزيز ومعنى « لا يحب » لا يرتضى فعلهم ولا ينصرهم فاشتد أذى المشركين وكان المؤمنون يأتون إلى النبى صلى الله عليه وسلم بين مضروب ومشجوج فيأمرهم بالصبر ثم أمرهم بالهجرة فهاجر بعضهم إلى الحبشة وبعضهم إلى المدينة وبقى معه بعضهم يؤذى حتى هاجر عليه السلام إلى المدينة فنزل عليه قوله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ بالبناء للمفعول فى « أذن » لنافع وأبى عمرو وعاصم مسند إلى الجار والمجرور ، وللفاعل للباقين

وأما عمى البصر فليس بضار فى أمر الدين فضرره غير معتبر ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ الموعود لعمى قلوبهم ﴿ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ لامتناع الخلف فى خبره فهو يصيبهم ولو بعد حين لأنه صبور لا يعجل بالعقوبة ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ من أيام الآخرة بالعذاب ﴿ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لابن كثير وحمزة والكسائى فى الدنيا أو يوم واحد من عذابه كألف سنة لشدته فلم يستعجلونه أو بيان لعدم تناهى صبره وتأنيه أى فلذا يستقصر مدتهم وهم يستطيلونها ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ كما أمهلتكم ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ مثلكم ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ بالعذاب وكرر هذا لجلب معنى آخر وهو الإملاء ثم التعذيب لئلا يفرح هؤلاء بتأخر العذاب عنهم ، وعطف بالواو وما تقدم بالفاء لأنه مع الجملتين بعده لبيان أن المتوعد به يحيق بهم لا محالة وإن تأخر ، وعطف ماتقدم بالفاء لكونه بدلا عن قوله فكيف كان نكير والتعقيب ﴿ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ أى إلى حكمى مرجع الجميع فأجازيهم ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ بين الإنذار أوضح لكم ما أنذركم به وأنا بشير للمؤمنين إذ النداء للمشركين ثم فصل ذلك بقوله ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ من الذنوب ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ هو الجنة ، ذكر هذا التبشير ليغيظ به الكفار ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا ﴾ بالرد والإبطال ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ بألف للجمهور : مسابقين مفاعلة بمعنى فعل أو بمعنى المغالبة من عاجزه فعجزه أى سابقه فسبقه ، ولابن كثير وأبى عمرو بلا ألف مشددا على أنه حال مقدرة وعليه الرسم أى ينسبون من اتبع النبى إلى العجز أو يثبطونهم عن الإيمان أو مقدرين عجزنا عنهم بإنكارهم البعث والجزاء ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ النار الموقدة أو اسم دركة منها ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ﴾ هو من اختص من الله بالأمر والنهى مع أمره بالتبليغ ﴿ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ من اختص بذلك : أمر بالتبليغ أم لا فهو أعم من الرسول فكل رسول من بنى آدم نبىّ ولا عكس ﴿ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ﴾ أى قرأ أو حدث نفسه ما يهواه ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ قراءته ما ليس من القرآن مما يرضاه المرسل إليهم أو فى حديثه ما يرضى قومه أو ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام « إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » قيل حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت . وقيل وعليه أكثر المفسرين : قرأ النبى صلى الله عليه وسلم سورة النجم بمجلس من قريش قالوا فألقى الشيطان على لسانه من غير علمه بعد «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى ، ففرح المشركون بذلك فسجدوا معه آخر السورة ثم أخبره جبريل بذلك لحزن فسلى بهذه الآية ليطمئن . قال البيضاوى بعد الحكاية : وهو مردود عند المحققين . اه . وقد تولى عياض فى الشفا بالرد عنه بما كفانا عنه وشفى وحاصل ماقال : إن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند متصل وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم وقد اجتمعت الأمة على عصمته عليه السلام عن مثل هذا . اه . ونحوه لابن عطية قال : وإنما الأمر على

تقدير صحته أن الشيطان نطق ما ذكر بلفظ أسمعه الكفار . اه . قال عياض وقد أعاذنا الله من صحته إلى أن قال : قيل معنى الآية هو ما يقع للنبي صلى الله عليه وسلم من السهو إذا قرأ فينتبه لذلك ويرجع عنه . اه . وقال ابن العربي في الأحكام أنا من أدنى المؤمنين منزلة وأقلهم معرفة لا يخفى عليّ ولا عليكم أن هذا كفر لايجوز وروده من الله وكيف يخفى على النبي قوله . ونص الآية دليل على براءة النبي عما نسب إليه فالنبي لما كانت قراءته مقطعة يسكت في مقاطع الآى سكوتاً محصلا تتبع الشيطان سكتاته فقرأ ذلك فظن المشركون أنه من النبي وعلم الذين أوتوا العلم أن القرآن حق فرفضوا غيره وأما قول أهل التفسير أخبره جبريل بما ألقاه الشيطان على لسانه لحزن فسلى بهذه الآية لحكاية باطلة والنبي أعز على الله أن ينال الشيطان منه شيئاً وإن قل تأثيره ولو شاء ربك ما روى هذه الحكايات أحد ولكنه فعال لما يريد . اه . قال في غاية الأماني : خلط الشيطان ما ذكر بقراءته عليه السلام فظن المشركون أنه هو القارئ وفرحوا بأنه مدح آلهتهم فبين الله أن ذلك من إلقاء الشيطان هذا هو الحق الذي يجب اعتقاده وما عداه مما ذكره المفسرون من أنه تلاه بنفسه سهوا ثم جاءه جبريل وأخبره به إلى غير ذلك من الخرافات فكذب بحت لايحل لمسلم أن يتلفظ به على أنه لو صحت الرواية أنه صلى الله عليه وسلم هو التالى لكانت الإشارة والمدح للملائكة على ما يقتضيه السياق لقوله : إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . اه . وقال القسطلانى بعد ما أورد الحكاية أطنب القاضي عياض في الشفاء في إبطالها فشفى وكفى إذ سد هذا الباب هو الصواب وأربح للثواب وإن كانت كثرة الطرق تدل على أن لها أصلا إلى أن قال : وإذا سلمنا أن لها أصلا وجب تأويلها وأحسن ما قيل في ذلك أن الشيطان نطق بتلك الكلمات أثناء قراءة النبي صلى الله عليه وسلم عند سكتة من السكتات حاكيا نغمته فسمعها القريب منه فظنها من قوله . اه ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يبطله ويزيله بعصمته عن الركون إليه أو بتبيين أنه من قراءة الشيطان ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يثبتها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس أو كامل العلم يميز الحق من الباطل ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله ثم بين علة تمكينه الشيطان من إلقاء ما ألقى بقوله ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ محنة ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق لظنهم أنه من النبي صلى الله عليه وسلم فيقدحون بذلك في رسالته ويزعمون أنه من كلامه ندم على ما ذكر من مدح آلهتهم فغيره ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ المشركين عن قبول الحق ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني الفريقين وضع الظاهر موضع ضميرهم قضاء عليهم بالظلم ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق وعن الرسول والمؤمنين ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ﴾ أى القرآن ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فيرفضوا غيره مما ألقى الشيطان ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ بالقرآن أو بنسخ الباطل ﴿فَتُخْبِتَ﴾ تطمئن ﴿لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقياد والخشية ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ في كل ما أشكل ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بتأويل ما تشابه وتخليص الحق عما ألقاه الشيطان ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

﴿فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ من القرآن أو الرسول أو مما ألقى الشيطان يقولون ما باله ذكر آلهتنا بخير ثم ارتد عنه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ لموتهم أو القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ يوم بدر لقتل أولاد النساء فيه فيصرن عقماً فإسناد العقم إلى اليوم مجاز لغوى أو المعنى يوم لا خير فيه كالريح العقيم التى لا خير فيها فهو استعارة تبعية شبه ما فى اليوم من مانع الخير بالعقم أو هو يوم القيامة إذ لا ليل بعده وهذا أوفق لقوله ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة أو يوم زوال الشك عنهم ﴿لِلَّهِ﴾ وحده، وما تضمنه من الاستقرار ناصب الظرف ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بين المؤمنين والكافرين بما بين بعد ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فضلا من الله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ شديد بسبب أعمالهم فلذا دخلت الفاء فى خبرهم بخلاف خبر المؤمنين فإنه تفضل من الله ولذا قال فى الكفار لهم ولم يقل فى عذاب ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى طاعته ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ فى الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ فى الجنة وسوى بين من قتل فى الجهاد ومن مات حتف أنفه فى الوعد لاستوائهما فى القصد وأصل العمل. قال فى الجواهر: ظاهر الشريعة أن المقتول أفضل لمزية ما أصابه فى ذات الله وإن كانا معا شهيدين حكما، والرزق يحتمل أن يريد به رزق الشهداء عند ربهم - فى البرزخ ويحتمل أن يريد بعد يوم القيامة فى الجنة. اه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ بأنه رازق حقيقة وغيره سبب ظاهر أو لدوام رزقه ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم﴾ بدل من ليرزقنهم ﴿مُّدْخَلًا﴾ بفتح الميم لنافع وضمها للباقين موضعاً أو إدخالا ﴿يَرْضَوْنَهُ﴾ فى الجنة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ كامل العلم بالأحوال والنيات ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة الأمر ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى قصصنا عليك ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ أى جازى من ظلمه ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ ولم يزد على حقه فى الاقتصاص سمى الفعل ابتداء عقاباً للازدواج والمشاكلة أو لأنه سببه ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ أى ظلم ثانياً بالمعاودة إلى العقوبة ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ ثانياً لا محالة ولا يمنعه عدم عفوه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾ عن المؤمنين ﴿غَفُورٌ﴾ للمنتصر اتباعه هواه فى الانتقام وإعراضه عما ندب الله إليه بقوله « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » وفيه تعريض بالحث على العفو والمغفرة لأن الله مع كمال قدرته وتعالى شأنه يعفو ويغفر فغيره أولى بذلك وفيه دلالة على أن المحق منصور من الله فى كلتا الحالتين عفا أو عاقب وإن المبطل مخذول دائماً مسلوك فى قرن من كان فى مرية حتى تأتيه الساعة أو عذاب يوم عقيم. والآية قيل نزلت فى قوم من المؤمنين لقيهم الكفار فى شهر حرام فبدءوهم بالقتال وانتصروا فنصرهم الله على الكفار وقد علمت أن سبب النزول لا يمنع العموم ﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ قادر على ما يشاء بدليل أنه ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ﴾ أى يدخل كلا منهما فى الآخر بأن يزيد به ما نقص منه أو بتحصيل ظلمة الليل فى مكان ضوء النهار بتغييب الشمس وعكس ذلك بإطلاعها فلا يزال أحدهما مغلوبا والآخر غالباً وذلك من آثار قدرته التى بها النصر ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ قول المعاقب

والمعاقب ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى أفعالهما فلا يهملهما ويعلم من يستحق النصر ومن يستحق الخذلان ، وهو من تتمة الدليل لأن القادر لا بد له من الوصفين ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصف بكمال القدرة والعلم ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت الألوهية إذ لا يصلح لها إلا القادر العالم الموجود بذاته ﴿وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ﴾ بالتاء لنافع وابن كثير وابن عامر وأبي بكر وبالياء للباقين تعبدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ وهو الأصنام ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أي باطل الألوهية والمعدوم في حد ذاته لعدم اتصافه بتلك الصفات اتفاقاً فلا يوصف بالألوهية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ عن صفات النقص وعلى الأشياء بقدرته ﴿الْكَبِيرُ﴾ عن الشريك والذي يصغر كل شيء سواه . ولما دل على كمال قدرته بإيلاج الليل في النهار وعكسه وبين إحاطة علمه أتبعه بأنواع من الدلائل الدالة على ذلك مع كونها نعماً جساماً فقال مقررا ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بالنبات في صباح ليلة المطر في بعض البلاد وبعده في بعضها من غير تراخ ولذا آثر الفاء لأن الاخضرار يبتدئ في كلها عقب نزول المطر وإن كان تمامه في مدة ولذلك آثر المضارع على الماضي ورفعه عطفاً على «أنزل» لكونه مسبباً عنه . قاله في غاية الأماني ، وروى عن عكرمة أن الاخضرار في صباح ليلة المطر لا يكون إلا بمكة وتهامة . قال ابن عطية : وقد شاهدت هذا في السوس الأقصى أنزل المطر ليلا بعد قحط وأصبحت تلك الأرض الرملة التي تسفيها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف دقيق . اهـ . وقال عبدالرحمن في الجواهر : قد شاهدت ذلك بسواكن بالمشرق وهي في حكم مكة إلا أن البحر قد حال بينهما وذلك أن التعدية من جدة إلى سواكن مقدار يومين في البحر أو أقل بالريح المعتدلة ، وكان ذلك في أول الخريف ، وقد أجرى الله العادة أن أمطار تلك البلاد تكون بالخريف فقط هذا هو الغالب ولما شاهدت ذلك تذكرت هذه الآية الكريمة فسبحان الله ما أعظم قدرته . اهـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بعباده في إخراج النبات بالماء أو بوصول علمه ولطفه إلى كل ما جل ودق ﴿خَبِيرٌ﴾ بما في قلوبهم عند تأخير المطر أو بالتدابير الظاهرة والباطنة ، ويجوز رجوع اللطيف إلى الإنزال والخبير إلى إصباح الأرض مخضرة والله أعلم ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكا ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ بذاته عن كل شيء ﴿الْحَمِيدُ﴾ بصفاته وأفعاله حمد أو لم يحمد ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ من البهائم وغيرها مذللة لمنافعكم ﴿وَالْفُلْكَ﴾ السفن عطف على «ما» أو اسم «أن» ، وقرئ بالرفع على الابتداء ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ للركوب والحمل ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بإذنه حال أو استئناف لبيان وجه التسخير ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ﴾ من ﴿أَن﴾ أو لئلا ﴿تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ بإرادته عند قيام الساعة ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ في التسخير والإمساك وبث أدلة وجوده وتوحيده في الآفاق وفتح أبواب المنافع لهم ودفع أنواع المضار ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ بالإنشاء بعد أن كنتم جماداً : تراباً ونطفة وعلقة ومضغة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند حلول الأجل ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في الآخرة للجزاء ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ لجحود لنعم الله مع ظهورها ، ختم الآية بالكفران لأن آيات الأنفس

أقرب (أظهر في كونها نعماً وأتمن وأوجز ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ بفتح السين للجمهور وكسرها حمزة والكسائي شرعاً وديناً ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ عاملون به ﴿ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ ﴾ أرباب الملل أى لا تنازعهم ﴿ فِي الْأَمْرِ ﴾ الذى أنت عليه والشرع الذى شرع لك لأن شأنه أظهر من أن يمكن فيه النزاع ولأن أكثرهم جهال وأهل عناد، قيل نزلت في كفار خزاعة حين قالوا للمؤمنين في الميتة : ما قتل الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم ، ولم تعطف هذه الآية كما عطفت نظيرتها لأن تلك في بيان الشعائر والنسائك لم تزل يتقرب بها إلى الله كسائر العبادات فعطفت بخلاف هذه فسوق الكلام فيها لتعداد الآيات الدالة على التوحيد ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ إلى توحيده ودينه ﴿ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى ﴾ طريق إلى الحق ﴿ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ سوى ﴿ وَإِن جَادَلُوكَ ﴾ في الدين بعد ظهور الحق عنادا ﴿ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليها ، وعيد فيه رفق من معنى : وأعرض عن الجاهلين ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أيها المؤمنون والكافرون بالثواب والعقاب وأعاد كلمة الجلالة لدلالتها على الألوهية المناسبة للحكم والقضاء ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ الاستفهام فيه للتقرير ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ لا يخفى عليه شيء وهو من تتمة الحكم أى أنت تعلم أن الأمر كذلك وإن جهلوه ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ﴾ هو اللوح المحفوظ كتب فيه مقادير الأشياء قبل حدوثها فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الإحاطة به وإثباته في اللوح أو الحكم بينكم ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ سهل لأن علمه بجميع المعلومات مقتضى ذاته فلا يعزب عنه مثقال ذرة ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ أى المشركون ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ برهاناً يدل على جواز عبادته ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ من ضرورة العقل أو استدلاله بل بتقليد أو اتباع هوى ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ بالإشراك ﴿ مِن نَّصِيرٍ ﴾ إذا نزل بهم العذاب أو ليس لهم نصير في تقرير مذهبهم ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ من القرآن ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات الدلالة على العقائد الحقية والأحكام الإلهية : حال ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ﴾ الإنكار لما لظهور آثاره على صفحاتهم من الكراهة والعبوس غيظاً لأباطيل أخذوها تقليداً ، وآثر الظاهر دلالة على أن ذلك الإنكار ناشئ عن كفرهم ﴿ يَكَادُونَ ﴾ من شدة الغيظ ﴿ يَسْطُونَ ﴾ يثبون ويبطشون ﴿ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ والجملة حال أو استئناف ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ﴾ من غيظكم على التالين أو بأكره عليكم من القرآن المتلو عليكم هو ﴿ النَّارُ ﴾ ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر ﴿ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بأن مصيرهم إليها ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ النار ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ أى جعل لكم حال مستغربة إذ جعل لله شبه في استحقاق العبادة ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ المثل استماع تأمل وهو ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ تعبدون ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره وهم الأصنام ﴿ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ لن يقدروا على خلقه ، وهو اسم جنس واحده ذبابة يقع على المذكر والمؤنث مشتق من الذب لأنه يُذب

وجمعه أذِبَّة وذُبّان ، أى : لايقدرون على خلقه مع صغره و « لن » بما فيها من تأكيد النفى تدل على منافاة ما بين المنفى والمنفى عنه ﴿ وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ لخلقه وتعاونوا ، والشرط وجوابه المقدر فى موضع الحال جىء بها للمبالغة أى لا يقدرون على خلقه مجتمعين له فكيف إذا كانوا منفردين ، ثم ذكر ما هو أدل على عجزهم بقوله ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ ﴾ يختطف منهم ﴿ شَيْئًا ﴾ مما عليهم من الطيب والزعفران وكانوا يطلون أصنامهم بذلك ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ﴾ لا يستخلصوه ويستردوه ﴿مِنْهُ﴾ لعجزهم فكيف يعبدون شركاء لله القادر على كل شىء وهذا غاية لتجهيلهم ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ ﴾ العابد ﴿ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ المعبود أو الذباب والصنم ، وعلى كلا الوجهين فالجماد أضعف من الحيوان بدرجات ، ولما أجراها مجرى العقلاء أثبت لها الطلب مع الخيبة تبكيا ﴿ مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ ﴾ ما عظموه ﴿ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ عظمته أو ما عرفوه حق معرفته حين أشركوا به ما لم يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ ذو قوة وغلبة لا يغالبه شىء وما يشركون به أذل من أذل الحيوانات مقهور به . ولما هدم قواعد الشرك وأحكم دعائم التوحيد شرع فى إثبات الرسالة بقوله ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحى ﴿وَ﴾ يصطفى رسلا ﴿ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ يدعون سائرهم إلى الحق ويبلغون إليهم ما نزل عليهم يتوسل بالاقتداء بهم إلى عبادة الله لا بالأصنام . وفيه رد قولهم « أأنزل عليه الذكر من بيننا » وقولهم « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالهم ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بأحوالهم يعلم من يتخذه رسلا كجبريل وميكائيل وإبراهيم ومحمد وغيرهم صلوات الله عليهم ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من الأمور واقعها ومترقبها ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ كلها لا يسأل عن الاصطفاء وغيره ، ثم حث على الشرائع بعد إثبات الرسالة لأنها كالنتائج لها وبدأ بالصلاة لأنها عماد الدين بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا ﴾ أى صلوا ، عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما أعظم أركانها لاحتوائهما على غاية الخضوع والخشوع اللذين عليهما مدار العبادة ﴿ وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ بسائر ما تعبدكم به وأخلصوه له ﴿ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ ﴾ كله كصلة الرحم ومكارم الأخلاق . قال عبد الرحمن فى الجواهر : وهذه الآية الكريمة عامة فى أنواع الخيرات ومن أعظمها الرأفة والشفقة على خلق الله ومواساة الفقراء وأهل الحاجات . وقد روى أبو داود والترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عرى كساه الله من خضر الجنة وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة وأيما مسلم سقى مسلما على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم » . اهـ . وروى ابن أبى شيبة فى مسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أيما أهل عرصة ظل فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله » ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تفوزون بالبقاء فى الجنة أى افعلوا هذه كلها وأنتم ترجون الفلاح غير متيقنين له بأعمالكم ﴿ وَجَٰهِدُوا ﴾ أعداء الله ﴿ فِى ٱللَّهِ ﴾ لإقامة دينه ﴿ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ أى جهاداً فيه حقاً خالصاً لوجهه فعكس وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة وأضيف

الجهاد إلى الضمير اتساعاً و إعلاماً أنه مختص بالله يفعل لأجله ونصب « حق » على المصدر ﴿ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ ﴾ اختاركم لدينه ولنصرته ، وفيه تنبيه على المقتضى للجهاد والداعى إليه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أى ضيق بتكليف ما يشتد القيام به بأن سهله عند الضرورات كالقصر والتيمم وأكل الميتة والفطر للمرض والسفر وكفتح باب التوبة وشرع الكفارات فى الذنوب والأرش والديات فى حقوق العباد وكتحليل الغنائم للاستعانة بالجهاد ، أى فكما لطف بكم غاية اللطف جاهدوا فيه حق جهاده ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ نصب على الإغراء أو نزع الخافض لأن قريشاً المخاطبين من ذريته أو لأنه أب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أب لأمته جميعاً لكونه سبباً لحياتهم الأبدية وإبراهيم بيان ﴿ هُوَ ﴾ أى الله ﴿ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أى بهذا الاسم الشريف ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ فى الكتب المنزلة قبل القرآن ﴿ وَفِى هَٰذَا ﴾ القرآن وقيل الضمير لإبراهيم فى قوله «ومن ذريتنا أمة مسلمة لك» لكن يؤيد الأول قوله ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ بأنه بلغكم فيدل على قبول شهادته لنفسه اعتماداً على عصمته أو بطاعة من أطاع وعصيان من عصى ﴿ وَتَكُونُوا ﴾ أنتم ﴿ شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أن رسلهم بلغتهم صريح يدل على أن الاجتباء والتسمية كانا لهذا الغرض لأنهما بمثابة التزكية ﴿ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ داوموا عليها ﴿ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ شكراً لتلك النعمة التى لم تشاركـكم فيها أمة ﴿ وَٱعْتَصِمُوا بِٱللَّهِ ﴾ ثقوا به فى جميع أموركم لا تطلبوا النصر إلا منه ﴿ هُوَ مَوْلَاكُمْ ﴾ ناصركم ومتولى أموركم ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾ هو ﴿ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ أى الناصر لكم هو إذ لا مثل له فى الولاية والنصر بل لا ناصر ولا مولى سواه فالاعتصام به نهاية التقوى التى بدئت به السورة فانتظمت الخاتمة مع الفاتحة ولمولانا الحمد والثناء والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وأصحابه الأتقياء .

[تم تفسير سورة الحج]

سورة المؤمنون

مكية ـ وهي مائة وثماني أو تسع عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ قَدْ ﴾ للتحقيق ﴿ أَفْلَحَ ﴾ فاز ﴿ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ بأمانيهم فقد تثبت المتوقع كما أن لما تنفيه وكان المؤمنون يتوقعون نوع بشارة منه تعالى فصدر السورة بما دل على ثبوت متوقعهم على أبلغ وجه بأن أدخل قد على المضارع البارز في صورة الماضي الدال على التحقيق فكأنه قال قد تحقق أن المؤمنين من أهل الفلاح بالأماني ، ويجوز أن يكون جواب قسم محذوف فيزداد تأكيداً على تأكيد ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ بالإقبال عليها وقصر الابصار في مواضع السجود لأن الخشوع فعل قلب يظهر أثره في الجوارح لحديث « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » ومنه أن لا يحدث نفسه بأمر لا يتعلق بالصلاة وأن يتدبر مايجرى على لسانه من القراءة والذكر وأن لا يلتفت ، لحديث « لا يزال الله مقبلا على العبد ما لم يلتفت فإذا التفت أعرض عنه » قال في الجواهر: قد نص بعض أئمتنا على وجوب الخشوع في الصلاة . قال الغزالي : كل ما يشغلك عن معاني قراءتك فهو وسواس . ثم أتبع وصفهم بالخشوع وصفهم بالإعراض عن اللغو جمعاً لهم بين فعل ما ينبغي وترك ما لا يعني بقوله ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ ﴾ ما لا يعنيهم من قول أو فعل ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ وهذا كالتتمة للصلاة فلذا فصل بينها وبين الزكاة التي هي أخت الصلاة ، وفيه مبالغات بجعل الجملة اسمية وبناء الحكم على الضمير والتعبير عنه بالاسم وتقديم الصلة عليه وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على بعدهم عنه رأساً مباشرة وتسبباً وميلا وحضوراً فإن أصله أن يكون في عرض غير عرضه وكذلك قوله ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ ﴾ الواجبة أو كل عمل صالح ﴿ فَاعِلُونَ ﴾ مؤدون عبر عن المزكى بالفاعل تحاشياً عن التكرار والزكاة تقع على المعنى والعين والمراد الأول لأن الفاعل يفعل الحدث لا المحل الذي هو موقعه أو الثاني على تقدير مضاف وإنما وصفهم بأدائها بعد الوصف بالخشوع ليدل على أنهم بلغوا الغاية في القيام على الطاعات البدنية والمالية والتجنب عن المحرمات وسائر ما توجب المروءة اجتنابه ثم أفرد مايتعلق بالفروج بالذكر لأنه أشهى الملاهي إلى النفس وأعظمها خطراً بقوله ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ على أزواجهم لا يبذلونها ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ ﴾ أي زوجاتهم ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أي السراري و« على» صلة لـ « حافظون» من حفظت المال على اليتيم واحفظ علىّ عنان فرسي أي حافظون فروجهم على الازواج لا يتعدونهن ولا يبذلونها إلا عليهن فهو تأكيد ويجوز أن يكون على بمعنى « من» أي

حافظون من المستمتعات إلا من أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أى الحافظين ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ فى إتيانهن وفيه إشارة إلى أنه مباح لا ثواب فيه ولا عقاب وهذا مالم يقصد به التعفف عن الحرام وإن قصد به فندب يثاب عليه وربما وجب فى بعض الأحوال لما فى البخارى « أنهم قالوا : يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له أجر . قال : نعم أرأيتم لو وضعها فى الحرام أكان عليه وزر » الحديث . والاستمتاع بالمملوك خاص بالرجال فلا يجوز للمرأة الاستمتاع بفرج مملوكها ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ المستثنى وماوراءه هو الزنى واللواط وإتيان البهيمة والاستمناء باليد ، وجوز هذا الأخير أحمد بن حنبل وعامة العلماء على تحريمه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ المتجاوزون إلى مالا يحل لهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لابن كثير : ما يؤتمنون فيه من حقوق الله كالعبادات أوجبها عليهم وحقوق العباد كالودائع والصنائع ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ فيما بينهم وفيما بينهم وبين الله ﴿رَاعُونَ﴾ حافظون لا يخونون ولا يغدرون ، ولم يجمع العهد لأنه اسم للحاصل بالمصدر بخلاف الأمانة فإن المراد منه الشىء المؤتمن عليه . قال فى الجواهر : والعهد يجمع كل ما تحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعلا وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك ورعاية ذلك حفظه والقيام به والأمانة أعم من العهد إذ كل عهد فهو أمانة ولا عكس . اه . ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لحمزة والكسائى ﴿يُحَافِظُونَ﴾ يقيمونها فى أوقاتها برعى أركانها وأبعاضها وهيئاتها على الدوام ولذا أتى بالفعل الدال على التجدد ولا تكرار لأن الأول فى بيان خشوعهم فيها وهذا فى محافظتهم عليها وقدم الخشوع لأنه الأصل فى العبادات وفى تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة تعظيم لشأنها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الجامعون لهذه الصفات ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ لا غيرهم لحقارة ما ورثوه ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ هو جنة أعلى الجنان بيان لما يرثونه : أبهم أولا ثم فسر إظهاراً للفخامة ، والفردوس فى اللغة البستان الواسع الجامع لأصناف الثمار . روى أن الله بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الأذفر وغرس فيها من جيد الفواكه والرياحين ، وفى الصحيحين « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة منه يتفجر الأنهار » ، واستعير الوراثة لاستحقاقهم دلالة على أنه أمر لازم كالميراث لا يقبل الرد ، وقيل لأنهم ورثوا منازل الكفار فى الجنة لو آمنوا لما فى الحديث « ما من أحد إلا وكتب له مقعد فى الجنة ومقعد فى النار » ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا موت ولا انتقال ، اللهم اجعلنا من أهل الفردوس ، وأنث الضمير لأنه اسم للجنة أو لطبقتها العليا .

ولما أمر الله بالعبادات بمدح المتصفين بها استدل على استحقاقه بها بدلائل وحدانيته وقدرته بقوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ آدم أو نسله ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ خلاصة فعالة بمعنى المفعول من سللت الشىء من الشىء استخرجته منه وهو خلاصة سلت ﴿مِنْ طِينٍ﴾ ومن فى الموضعين للابتداء أو الثانية للبيان ، وفى البغوى قال عكرمة : السلالة هو الماء يسيل من الظهر والعرب تسمى النطفة سلالة والولد سليلا وسلالة لأنهما

مسلولان منه . قال الكلبي : من نطفة سلت من طين والطين آدم وقيل المراد بالإنسان آدم سل من كل تربة . اهـ . ونكر الطين لكونه طيناً مجهول الأجزاء من وجه جميع الأرض وهى القبضة التى قبضها ملك الموت ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ ﴾ أى الإنسان نسل آدم ﴿ نُطْفَةً ﴾ منياً ﴿ فِى قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ هو الرحم وفيه نوع استخدام وقيل جعلنا السلالة نطفة والتذكير باعتبار المسلول أو الماء ، والقرار فى اللغة المستقر من الأرض استعير لمحل النطفة ووصف بمكين مبالغة فى وصف الرحم بالحصانة ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ﴾ قلبنا ﴿ النُّطْفَةَ ﴾ البيضاء ﴿ عَلَقَةً ﴾ حمراء وهى الدم الجامد ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ لحمة قدرما يمضغ ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ﴾ بأن صلبناها ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ ﴾ بالجمع فى الموضعين للجمهور والإفراد لابن عامر وأبى بكر ﴿ لَحْمًا ﴾ ساتراً لها كالكسوة مما بقى من المضغة أو مما أنبتنا عليها مما يصل إليها واختلاف العواطف لتفاوت الاستحالات ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ هو صورة بدنه ونفخ الروح فيه وهو خلق مباين للخلق الأول بأن صار حيوانا بعد أن كان جماداً أو ناطقاً بعد أن كان أبكم وسميعاً بعد أن كان أصم وبصيراً بعد أن كان أكمه وأودع فيه من القوى الظاهرة والباطنة وأنواع الإدراكات التى لا يقدر على درك شىء منها إلا علمه الشامل ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ ﴾ تعالى شأنه فى قدرته وحكمته ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ المقدرين تقديراً ، لحذف المميز لدلالة الخالقين عليه ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ لا محالة ولذا ذكر النعت الذى للثبوت دون اسم الفاعل وقد قرئ به ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ للحساب والجزاء ولم يذكر الإحياء فى القبر لخفاء شأنه فلا يحسن ذكره فى معرض الاستدلال على كال الاقتدار لأن الغرض حاصل بالإحياء الأول والإماتة والإعادة ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ أى سموات لتطارقها أى جعل بعضها فوق بعض أو لأنها طرق الملائكة فى الصعود والهبوط والكواكب فى سيرها ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ ﴾ أى خلقها أو المخلوق تحتها ﴿ غَافِلِينَ ﴾ بل نحفظها عن تطرق الخلل أو نحفظ من تحتها أن تسقط عليهم فتهلكهم أو نحفظهم بإنزال الارزاق لهم منها ويؤيده قوله ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ كفايتهم أو بمقدار اقتضته الحكمة وهو ماء المطر وماء الأنهار الخمسة التى أنزلت من الجنة نهر سيحون للهند وجيحون لبلخ ودجلة والفرات للعراق والنيل لمصر أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحى جبريل فاستودعها الجبال وأجراها فى الأرض وجعل فيها معايش الناس وذلك قوله ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ ﴾ جعلناه مستقرا ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ فى أعماقها تجرى منه العيون ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ فيموتون مع دوابهم عطشاً لأن الذهاب به أهون فى العرف من الإنزال وفى تنكير ذهاب إشارة إلى كثرة طرقه وتعدد أسبابه ومبالغة فى الإيعاد به ، وفى الحديث : فإذا كان خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله تعالى جبريل ورفع من الأرض القرآن والعلم كله والحجر من ركن البيت وهذه الأنهار الخمسة يعنى المتقدمة إلى السماء فإذا رفعت هذه الأشياء فقد أهل الأرض خير

الدنيا والآخرة . اهـ . وفى صحيح مسلم : سيحون وجيحون والفرات والنيل كلٌّ من أنهار الجنة ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾ بالماء ﴿جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ هما أكثر فواكه العرب ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ فى الجنات ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفكهون بها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ صيفا وشتاء تغذيا وجمع الفواكه هنا والإتيان بالعاطف بخلاف ما فى الزخرف لأن تلك صفة الجنة والنوع الواحد من ثمرها يوجد فيه طعم سائر الأنواع فأشار هناك بالإفراد إلى أن نوعاً منه فيه غنية عن سائر الأنواع بخلاف مافى الدنيا وترك العاطف هناك لأن ما يؤكل فى الجنة أبداً بعض ثمرها لدوامها وعدم الانقطاع فلا يوجد معنى آخر يعطف عليه. قاله فى غاية الأمانى ﴿وَ﴾ أنشأنا ﴿شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِينَاءَ﴾ بكسر السين لنافع وابن كثير وأبى عمرو وفتحها للباقين غير مصروف للعلمية والتأنيث للبقعة اسم جبل نودى منه موسى ويقال له «طور سينين» والشجرة هى الزيتون أفردها بالذكر لشرفها قيل هى أول شجرة نبتت بعد الطوفان وهى الشجرة المباركة ﴿تَنْبُتُ﴾ من الثلاثى للجمهور ومن الرباعى لابن كثير وأبى عمرو ﴿بِالدُّهْنِ﴾ الباء معدية على الأول كذهبت بزيد وزائدة على الثانى ﴿وَصِبْغٍ﴾ عطف على الدهن أى إدام يصبغ اللقمة بغمسها فيه وهو الزيت ﴿لِلْآكِلِينَ﴾ أى تنبت بالشىء الجامع بين كونه دهناً وإداماً ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظة تعتبرون بها وتستدلون على كمال علم الصانع وقدرته وهو رابع الأدلة عليهما فالأول خلق الإنسان والثانى خلق السموات والارض والثالث الامطار والنبات وهذا الرابع الحيوانات والاستدلال بها من أربعة أوجه أشار إلى الأول بقوله ﴿نُسْقِيكُمْ﴾ بفتح النون لنافع وابن عامر وأبى بكر ويعقوب وضمها للباقين ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من الألبان أو من العلف الذى يتكون منه اللبن فـ «من» ابتدائية أو تبعيضية لأن اللبن جزء العلف لجمعه فى الضروع وتخليصه من بين الفرث والدم خالصاً دليل على كمال علمه وقدرته وإلى الثانى بقوله ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ فى الأصواف والأوبار والأشعار، وإلى الثالث بقوله ﴿وَمِنْهَا﴾ أى من أعيانها ﴿تَأْكُلُونَ﴾ فتنتفعون بها بعد موتها كما تنتفعون بها حية أو تجعلونها سببا لمعاشكم بالبيع والإجارة، وإلى الرابع بقوله ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أى الإبل قيل والبقر أو الإبل خاصة لأنها غالب مال العرب المخاطبين يسمونها سفائن البر ولذا قرنت بالفلك فى قوله ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ السفن ﴿تُحْمَلُونَ﴾ فى البر والبحر . ولما بين أدلة التوحيد والعلم والقدرة بما تقدم شرع فى بيان أحوال الأمم المكذبة بيانا لكفران الناس ما عدد عليهم من النعم وما حاق بهم لذلك وبدأ بقصة نوح وقومه لأنه أول رسول عذب قومه فقال ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحدوه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ استئناف لبيان علة الاختصاص بالعبادة وقرأ الكسائى غيره بالجر على اللفظ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ تخافون عقوبته بعبادتكم غيره أن يزيل عنكم نعمه ويهلككم والاستفهام للحث والطلب ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ لأتباعهم ﴿مَا هَٰذَا

إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ ﴾ يتشرف ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ ويسودكم فلذا يدعى الرسالة ليكون متبوعا وأنتم أتباعه ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ إرسال الرسول بترك عبادة غيره ﴿ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ بذلك لا بشراً ! آنظر إلى هؤلاء الحمق اعتقدوا أن البشرية تنافى الرسالة وهم قد رضوا للحجر بالألوهية ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ التوحيد ﴿ فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ قالوه عناداً أو جهلا لتطاول الفترة ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ حالة جنون لا يدرى ما يقول ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ ﴾ انتظروه وتحملوا عنه ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ إلى حين موته أو حين يفيق من جنونه ويرجع عن دعواه ﴿ قَالَ ﴾ نوح بعدما أيس من إيمانهم ﴿ رَبِّ انْصُرْنِي ﴾ عليهم بإهلاكهم ﴿ بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ بسبب تكذيبهم إياى فإن فى إهلاكهم نصرتى والباء بدلية أى أبدلنى من غم تكذيبهم سلوة النصرة أو « ما » موصولة والباء للآلة أى بالذى كذبونى فيه وهو العذاب الموعود بقوله « إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » فأجاب تعالى دعاءه بقوله ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ السفينة ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منا وحفظنا لك أن تخطئ فيه أو يفسده عليك مفسد ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ أمرنا وتعليمنا كيف تصنع ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ بإهلاكهم أو الأمر بركوب السفينة ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ بالماء وكان ذلك علامة لنوح وتقدم معنى التنور والأقوال فى محله ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا ﴾ أى أدخل فى السفينة ﴿ مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ﴾ صنفى الذكر والأنثى ﴿ اثْنَيْنِ ﴾ ذكراً وأنثى وهو مفعول اسلك و«من» متعلق به ، وقرأ حفص « من كلٍّ » بالتنوين أى من كل جنس ، وزوجين مفعول ، واثنين صفة للتأكيد كأمس الدابر ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ أى زوجته وأولاده إذ لم ينج غيرهم لقوله « وجعلنا ذريته هم الباقين » ولا ينافيه « أمم ممن معك » ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ من الله بإهلاكه ﴿ مِنْهُمْ ﴾ وهو زوجته وولده كنعان بخلاف سام وحام ويافث فحملهم وزوجاتهم ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ كفروا بدفع العذاب عنهم ﴿ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ لا محالة لظلمهم وسبق القول عليهم بذلك ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ ﴾ اعتدلت ﴿ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فإن النجاة من العدو كل نعمة دونه وفيه إشارة إلى علة النهى عن الخطاب فى حقهم لأن مَن هلاكه نعمة يحمد عليها كيف يليق السعى فى خلاصه ﴿ وَقُلْ ﴾ عند نزولك من الفلك أو فيه ﴿ رَبِّ أَنْزِلْنِي ﴾ فى الأرض أو فى السفينة ﴿ مُنْزَلًا ﴾ بضم الميم وفتح الزاى للجمهور مصدراً أو اسم مكان وبفتح الميم وكسر الزاى لأبى بكر مكان النزول ﴿ مُبَارَكًا ﴾ ذلك الإنزال أو المكان فيه مزيد خير الدارين ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ ثناء أخذ من لفظ الدعاء وأمره أن يشفع به الدعاء توسلا به إلى الإجابة وأفرده لأنه سيد القوم فما أمر به نهم مأمورون به ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ فى شأن نوح وقومه ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ دلالات على قدرة الله تعالى ان تأمل وتدبر لأن إظهار تلك المياه وإذهابها لا يقدر عليه إلا القادر على كل شىء ووقوعها على وفق قول نوح معجزة تصدقه وإهلاك الكفار وإبقاء الأرض لأهل الطاعة من أعظم دلائل الحكمة ﴿ وَإِنْ ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها ضمير

الشأن ﴿ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ قوم نوح بإرساله إليهم ووعظه أو بعذاب شديد أو مختبرين عبادنا لننظر من يتذكر ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ﴾ قوماً ﴿ آخَرِينَ ﴾ هم عاد قوم هود فى قول الأكثر فهم خلفاء من بعد قوم نوح . وقال الطبرى : هم ثمود قوم صالح لذكر الصيحة فى عذابهم ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ هود أو صالح إليهم وإنما جعلهم موضع الإرسال بقوله فيهم لإلزام الحجة لأنه منهم ليس لأنه أجنبياً حتى يأنفوا عن اتباعه ونشأ فيهم وبين أظهرهم يعرفون أمانته ﴿ أَنِ ﴾ تفسيرية أو مصدرية أى بأن ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ سخط الله وعقابه فتؤمنوا : حذرهم بهذا حين رآهم معرضين عن عبادة الله مشتغلين بعبادة الأوثان ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾ بالمصير إليها والجزاء فيها ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ ﴾ نعمناهم ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بكثرة الأموال والأولاد وهذه صفات ذم ثلاث : الكفر بالله ، وباليوم الآخر ، والانهماك فى شهوات الدنيا : وصفهم بها تنفيراً عنها وعطف قولهم على قول الرسول هنا بالواو لعدم اتصال كلامهم بكلامه بخلاف قول قوم نوح ، وحيث استؤنف فعلى تقدير سؤال كأنه قيل ماقالوا فى جوابه فقيل كيت وكيت . ومعنى عدم اتصال كلامهم بكلامه أنهم هنا لم يخاطبوه بل قال بعضهم لبعض كلاماً فأشير إلى الفرق بين قوله الحق وقولهم الباطل فلا مساغ للاستئناف ﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فى الصفة لا مزية له ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ مِنْهُ ، بيان لوجه المماثلة والعائد إلى الموصول الثانى منصوب محذوف وتقدير المجرور وحذفه مع الجار ضعيف ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ ﴾ فيما يأمركم به ، فيه قسم وشرط والجواب لأولهما وهو مغن عن جواب الثانى فى ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا ﴾ إن أطعتموه ﴿ لَّخَاسِرُونَ ﴾ حيث أذللتم أنفسكم لمن لا يستحق و « إذاً » جزاء الشرط وجواب لمن قال من قومه نتبعه ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا ﴾ مجردة عن اللحوم والأعصاب ﴿ أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ من الأحداث أو من العدم ، حسّن تكرار أنكم طول الفصل ومخرجون خبرٌ عن الأول والظرف لغو يتعلق به ، أو « أنكم مخرجون » مبتدأ والظرف خبره والجملة خبر عن أنكم على معنى أيعدكم أنكم إخراجكم كائن إذا متم . أو أنكم مخرجون مرفوع بفعل هو الجزاء للشرط والشرطية خبر أنكم كأنه قيل أيعدكم أنكم إذا متم وقع إخراجكم ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ﴾ اسم فعل ماض بمعنى مصدر أو اسم صوت بنى لكونه بمعنى الماضى أى بَعُدَ بَعُدَ يعنون بعُد التصديق أو الصحة ﴿ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الإخراج من القبور ، واللام زائدة أو للبيان كأنهم لما صوّتوا بكلمة الاستبعاد ، قيل فما الذى له هذا الاستبعاد قالوا : لما توعدون والفاعل ضمير البعد أى وقع البعد لما توعدون وعلى زيادة اللام فما توعدون فاعله أى بَعُد ذلك الموعود أىّ بُعْدٍ ولذلك أكدوه وهو مبتدأ على كونه بمعنى المصدر والجار والمجرور خبره لأن المصدر يتعدى باللام ﴿ إِنْ هِيَ ﴾ الضمير لمعهود ذهنى عدل عنه حذرا عن التكرار أى ما الحياة ﴿ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ بحياة أبنائنا أى يموت بعضنا ويولد بعض ، أو

فيه تقديم وتأخير ، أى نحيا ونموت لا حالة ثمقل سواهما ، قدم الموت لأنه مظنة الريب ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ كما يزعم هود أو صالح ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أى ما هذا الرسول ﴿ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ فيما يدعيه من إرساله وفيما يعدنا من البعث ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فى ذلك يوما ﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي ﴾ عليهم وانتقم لى منهم ﴿ بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ بسبب تكذيبهم إياى أو بدله ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ من الزمان وما صلة لتوكيد معنى القلة أو نكرة موصوفة ﴿ لَيُصْبِحُنَّ ﴾ يصيرن ﴿ نَادِمِينَ ﴾ على التكذيب إذا عاينوا العذاب حين لا ينفعهم الندم ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾صيحة جبريل عليه السلام فهلكوا ولا دلالة للصيحة على أن القوم قوم صالح لجواز أن يكون مع الريح صيحة جبريل تغليظاً للعذاب ، وقيل أراد بالصيحة الهلاك كقول الشاعر : صاح الزمانُ بآل برمكَ صيحةً • خرّوا لشدّتها على الأذقانِ

حال كون الصيحة كائنة ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالوجه الثابت الذى لا دافع له أو بالعدل من الله أو بالوعد الصدق ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ حيل السيل شبههم به فى البلاء وتفرق الأصل والخروج عن حد الانتفاع ، وهو كقول العرب : سال به الوادى ﴿ فَبُعْدًا ﴾ من الرحمة ﴿ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ دعاء عليهم للإهانة والاستخفاف وهو من المصادر التى يجب حذف ناصبها واللام لبيان من دعى عليه بالبعد ويحتمل الإخبار ووضع الظاهر موضع ضميرهم للتعليل ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ أمماً فى أزمنة شتى كقوم صالح ولوط وشعيب ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ على كثرة القرون ﴿ وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عن الوقت المقدر و «من» زائدة للاستغراق وذكّر الضمير بعد تأنيثه رعاية للمعنى﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ﴾ بلا تنوين للجمهور وبه لابن كثير وأبى عمرو على أن الألف للإلحاق أى متتابعين بين كل اثنين زمان طويل والتاء بدل من الواو لأنه من المواترة وهى المتابعة بين الأشياء ﴿ كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً ﴾ بتحقيق الهمزتين وتسهيل الثانية بينها وبين الواو على أصول القراء المعروفة ﴿ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ أضاف الرسل مع الإرسال إلى المرسل للتشريف ومع المجىء إلى المرسَل إليهم للملابسة لأن الإرسال الذى هو مبدأ الأمر منه والمجىء الذى هو منتهاه إليهم ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ﴾ فى الإهلاك ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ لم يبق منهم إلا حكايات يسمر بها وهو اسم جمع للحديث أو جمع أحدوثة وهى ما يتحدث بها تلهياً ﴿ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ . ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ ﴾ برهان ﴿ مُبِينٍ ﴾ وهو العصىّ أفردها لكونها أعظم معجزاته أو هو الآيات والعطف باعتبار الصفات ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أشراف قومه خصهم بالذكر لأن الرعايا أتباع ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الإيمان بها وبالله ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ متكبرين أو ذوى عز وشرف ، من علوت الرجل غلبته فى العلو أو من علِىَ بالكسر وعلى الوجهين فهو جار مجرى علة الاستكبار وعلى التفسير الاول هو من علا فى الارض تكبر أى كانوا قوماً دأبهم التكبر أو المعنى قاهرين بنى إسرائيل بالظلم ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ ﴾ ثنى البشر لأنه يطلق للواحد كما يطلق للجمع ﴿ مِثْلِنَا ﴾ لم يثن المثل لأنه فى

حكم المصدر ولكراهة توالى التثنيتين ﴿ وَقَوْمُهُمَا ﴾ يعنى بنى إسرائيل ﴿ لَنَا عَابِدُونَ ﴾ مطيعون خاضعون ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ بالغرق فى بحر القلزم ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة بعد إهلاكهم ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ أى قومه بنى إسرائيل لا فرعون وقومه لأن التوراة نزلت بعد هلاكهم ﴿ يَهْتَدُونَ ﴾ به من الضلالة ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ عيسى ﴿ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ دالة على كمال القدرة والعلم أفرد الآية لإرادة ما تعلق بهما من ولادته بغير فحل فالآية أمر واحد مضاف إليهما أو المراد جعلنا ابن مريم آية من الكلام فى المهد وغير ذلك وأمه آية من ولادته من غير مسيس لحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رُبْوَةٍ ﴾ بضم الراء للجمهور وفتحها لابن عامر وعاصم . أرض مرتفعة هى بيت المقدس قاله قتادة لأنها أرفع أجزاء الأرض وأقربها إلى السماء بثمانية عشر ميلا ، وقيل دمشق وعليه الأكثر قال ابن العربى : وهو الذى رأيت الناس يعينون تواترا فى سفح الجبل غربى دمشق موضع مرتفع تنشق منه أنهار عظيمة ، وقيل مصر لأن قراها على الربى ، وقيل رملة فلسطين . أقوال . قال فى غاية الأمانى : والوجه هو الأول ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ تمكن يستقر عليها ساكنوها لاستوائها وكثرة ثمارها ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ ماء جار أو ظاهر تراه العيون ، فعيل بمعنى فاعل من مَعَن الماء سال بعيداً لقوته ، ومنه أمعنت فى السير ، وأصله الإبعاد فى الشىء ، أو بمعنى مفعول . من عانه أدركه بعينه لظهوره وهو تنبيه على كمال نعمه عليهما بهذا اللفظ المختص ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ المعنى أن كل رسول خوطب بهذا فى زمانه فيدخل تحته عيسى دخولا أولويا ويكون ابتداء كلام ذكر تنبيهاً على أن تهيئة أسباب النعم لم تكن له خاصة وأن إباحة الطيبات للأنبياء شرع قديم وإيراده على هذا الوجه ليعتقد السامع أن أمرا نودى به جميع الرسل حقيق بأن يؤخذ به ، والطيبات : الحلالات أو ما تستلذه النفس منها من المآكل والفواكه ،وهى ثلاثة أقسام : حلال وصاف وقوام ، فالحلال : الذى لا يعصى الله فيه. والصافى : الذى لا ينسى الله فيه ، والقوام : ما يمسك النفس ويحفظ العقل . قال فى غاية الأمانى : وفيه إبطال الرهبانية التى ابتدعها النصارى وبعض جهلة المتصوفة فى زماننا . اه . ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ من فرض ونفل فإنه المقصود من ذلك والنافع عند ربكم ، وفيه إشارة إلى أن العمل الصالح لا يحصل إلا بعد أكل الحلال الطيب ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ فأجازيكم عليه وهو تحذير من مخالفة ما أمرهم به ﴿ وَ ﴾ اعلموا ﴿ أَنَّ هَذِهِ ﴾ أى ملة الإسلام ﴿ أُمَّتُكُمْ ﴾ دينكم أيها المخاطبون أى يجب أن تكونوا عليها ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ حال لازمة أى متحدة فى العقائد وأصول الشرائع أو جماعتكم جماعة متفقة على الإيمان والتوحيد فى العبادة « وأن » بفتح الهمزة وتشديد النون لنافع وابن كثير وأبى عمرو معمول لمحذوف كما قدرنا أو معطوف على ما تعملون ، وقرأ ابن عامر بالتخفيف ، والكوفيون بالكسر على الاستئناف ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ فى مخالفة أمرى وشق العصا ومخالفة الكلمة وقد بينت لكم أن الدين واحد أى كما أمر الرسل وأتباعهم

بالاتفاق على أكل الحلال وعمل الصالحات فكذا أمروا بالاتفاق على الدين الواحد واتقاء معصية الله ﴿فَتَقَطَّعُوا﴾ فعل متعد بمعنى قطعوا ﴿أَمْرَهُمْ﴾ دينهم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وجعلوه أديانا مختلفة أو تفرقوا وتحزبوا بعد تلك الوصية لخالفوها وتوزعوا الدين ﴿زُبُرًا﴾ قطعاً جمع زبرة أو جمع زبور وهو الكتاب أى كل أخذ بكتاب وكفر بالآخر فهو حال من أمرهم أو من الواو أو مفعول ثان لتقطعوا على تضمينه معنى الجعل ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ من المتحزبين ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الدين ﴿فَرِحُونَ﴾ مسرورن معجبون لاعتقادهم أنهم على الحق وغيرهم على الباطل ثم أتبع المفترقين بالوعيد بقوله ﴿فَذَرْهُمْ﴾ اترك كفار مكة لأنهم من بعضهم ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ ضلالتهم شبهها بالماء الذى يغمر القامة لأنهم مغمورون فيها لاعبون ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ أى حين موتهم أو قتلهم أو عذابهم كأنه قال : دعهم فى هذا الجهل الذى لا جهل فوقه دلالة على اليأس وعدم نجع القول فيهم،وفيه إدماج التسلية فى بيان الغاية وهى قتلهم أو موتهم ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ﴾ نعطيهم ونجعله مدداً لهم ﴿مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ فى الدنيا وهو بيان لما والخبر ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ﴾ به ﴿فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والراجع محذوف كما قدرنا ، أى : نسارع لهم به فيما فيه خيرهم وإكرامهم ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أن ذلك استدراج لهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ﴾ خوفهم منه ﴿مُشْفِقُونَ﴾ حذرون هم أضداد السابقين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنصوبة والمنزلة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بتصديق مدلولها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ معه غيره شركا جليا ولا خفيا فإن كلا منهما يحبط العمل ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ﴾ يعطون ﴿مَا آتَوْا﴾ أعطوا من الصدقة والأعمال الصالحة قليلا كان أو كثيرا ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفة أن لا تقبل منها إعظاماً لجناب الله تعالى ﴿أَنَّهُمْ﴾ يقدر قبله لام الجر ﴿إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ وهو يعلم ما فى ضمائرهم وما خفى عليهم ومنه الخاتمة ولا يخفى ما فى ترتيب هذه الصفات من الحسن لأن الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للامتثال والثانية على الإيمان والثالثة على الإخلاص فى الطاعات والرابعة على الصدق وهو إتيان الأعمال مع الوجل والخوف نفياً للعجب وإقراراً بالتقصير وذلك نهاية مقامات الصديقين ، رزقنا الله تعالى الوصول إليها . ولذلك قال ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ﴾ يبادرون ﴿فِي الْخَيْرَاتِ﴾ الباقية لشدة الرغبة فيها وفيه تعريض بمن تقدم ذكرهم بأن همتهم فى المسارعة فى الفانى ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ لأجلها ﴿سَابِقُونَ﴾ فاعلون السبق أو سابقون الناس إليها أو إلى ثوابها أى الجنة واللام لتقوية الاسم لتقدم معموله وقيل المعنى سبقت لهم السعادة فى علم الله فى الأزل فهم لها متسابقون ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ طاقتها اعتراض للترغيب بأنه أمر سهل لا حرج فيه فمن تقاعد عنه فهو المقصر فمن لم يستطع أن يصلى قائماً فليصل جالساً ومن لم يستطع أن يصوم فليفطر ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ وهو اللوح المحفوظ الذى سطر فيه الأعمال أو كتاب الحفظة ﴿يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ لا يوجد فيه ما يخالف الواقع ﴿وَهُمْ﴾ أى النفوس العاملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئا بنقص ثواب أو زيادة عقاب ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ غطاء جهل وغفلة غامر لها وهو إضراب عن

الإضراب الأول ترقياً فى وصفهم بالغفلة فإن عدم الشعور قد يكون لعدم التوجه وأما المستور بالغطاء فلا يمكن الوصول إليه ولو توجه وبذل الوسع ﴿ مِنْ هَٰذَا ﴾ الذى وصف به المؤمنون أو من هذا القرآن أو من كتاب الحفظة ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ ﴾ خبيثة ﴿ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ منحطة عما وصف به المؤمنون ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ لا محالة لاعتيادهم عليها وانهماكهم فيها لا يرعوون ﴿ حَتَّىٰ ﴾ ابتدائية ﴿ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ ﴾ منعميهم الرؤساء والأغنياء ﴿ بِالْعَذَابِ ﴾ القتل كيوم بدر والجوع فى دعائه عليه السلام عليهم: « اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » فقحطوا حتى أكلوا الجيف ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ يصرخون بالاستغاثة يقال لهم ﴿ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ ﴾ لا تمنعون علة للنهى ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي ﴾ من القرآن ﴿ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴾ ترجعون قهقرى كالخائف من الشىء إشارة إلى غاية إعراضهم وعلة منع النصر ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ ﴾ عن الإيمان ﴿ بِهِ ﴾ أى بالبيت الحرام زعما منهم أنهم ولاته لا يؤاخذون بشىء ولا يظهر عليهم أحد فهم فى أمن بخلاف سائر الناس وشهرة البيت واستكبارهم به أغنى عن سبق ذكره أو الضمير للتكذيب أو الآيات وذكر لأنه فى معنى الكتاب والجار متعلق بقوله ﴿ سَامِرًا ﴾ وهو حال أى جماعة يتحدثون بالليل حول البيت بعيب القرآن والجانى به بقولهم سحر، شعر، ساحر، شاعر، أساطير الأولين، والسامر: اسم جمع كالباقر والجامل أو مصدر كالعافية يقال هم سمار وسامر ويكره السمر فيما لا يعنى بعد العشاء لأن الصلاة قد كفرت خطايا المصلى لينام على سلامة ولا يختم صحيفته باللغو وأما السمر بغير هذا فلا حرج به إن تعلقت به حاجة ولا يؤدى إلى تضييع صلاة الصبح ﴿ تَهْجُرُونَ ﴾ بضم التاء لنافع من أهجر إذا أتى بالهجر أى الفحش وبفتحها للباقين أى تتركون القرآن أو تقولون فيه غير الحق، قال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ القرآن الدال على صدق النبى صلى الله عليه وسلم بإعجازه ووضوح مدلوله، المعنى تدبروه مدة متطاولة ﴿ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ من الكتاب والرسول فقد تواتر عندهم مجىء الرسل وإنزال الكتب إلى سائر الأمم أو جاءهم من الأمن من عذاب الله مالم يأت آباءهم الأولين الذين أسلموا كإسماعيل ومضر وربيعة وقيس والحارث بن كعب والأسد بن خزيمة وتميم بن مر وإلياس وتبع فكل هؤلاء مسلمون على ما أخبرت به الأحاديث ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ﴾ بالصدق والأمانة وحسن الخلق وشرف النسب مما هو من صفات الأنبياء ﴿ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ لفقد شىء من تلك الكمالات ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ فلا يبالى بكلامه كلا إنهم قد علموا أنه من أرجح الناس عقلا وأثبتهم رأيا ومن وقف على خطبة أبى طالب عند نكاح خديجة علم ماكان فيه من صفات الكمال من أول نشأته ولم ينكر ذلك أحد منهم والاستفهام فى الكل للتقرير وفيه بيان وجوه الإنكار بحسب النوع والشخص ﴿ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ القرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الإسلام الذى لا يخفى صحته وحسنه على عاقل ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ لأنه يخالف شهواتهم وأهواءهم فلذلك

أنكروه وقيدوه بالأكثر لأن منهم من ترك الإيمان لخوف اللوم كأبى طالب أو لقلة الفطنة كغالب الأتباع لا لكراهة الحق وإنما أعاد المظهر لئلا يتوهم عود الضمير إلى الجانى ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ﴾ الذى جاء به محمد وهو القرآن أو الحق هو الله ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ من الشرك والمعاصى بأن يجيبهم بما يهوونه ـ تعالى الله عن ذلك ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أى لفسد النظام لأن الأهواء مختلفة والدواعى متباينة أو لانقلب الحق باطلا ولا بقاء للعالم مع الباطل ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ بالقرآن الذى فيه ذكرهم وشرفهم أو تذكيرهم وعظتهم ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ جهلا منهم وعنادا ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ أجراً على ماجئتهم به ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ أجره وثوابه أو رزقه ﴿خَيْرٌ﴾ لسعته ودوامه والخرج بالقصر فى الأول والمد فى الثانى للجمهور وبقصرهما لابن عامر وبمدهما لحمزة والكسائى لغتان فى الأجر أو الخرج الجعل والخراج الضريبة على الأرض غالباً وأم قسيم لقوله أم يقولون به جنة وما بينهما اعتراض برهاناً على أنه منزه عن الجنون بل ما جاءهم به هو الحق الأبلج . قال البسيلى فى تفسيره : يؤخذ منه عدم حرمة أخذ الأجرة على التعليم لأن ظاهر الآية أن ذلك مرجوح غير محرم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أفضل من أعطى أجرا تقرير لخيرية خراجه ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ دين الإسلام تشهد العقول السليمة على استقامته لا عوج فيه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ﴾ السوىّ ﴿لَنَاكِبُونَ﴾عنه فإن خوف الآخرة أقوى البواعث على طلب الحق وسلوك طريقه ومن لم يؤمن بها لا يتبعه ولذا نأخذهم بالضراء لعلهم يتضرعون ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ أى جوع أصابهم بمكة سبع سنين حتى أكلوا « العهلز » طعام يجعل من الدم والوبر ﴿لَلَجُّوا﴾ تمادوا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ إفراطهم فى الكفر والاستكبار عن الحق ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون متحيرين عن الهدى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ القتل يوم بدر ، وقيل الجوع ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ ما تواضعوا ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ استفعال من الكون أى ما انتقلوا من كونهم الأول إلى آخر أو افتعال من السكون أشبعت فتحته ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ ليس من عادتهم التضرع إلى الله فى الدعاء وهو استشهاد على ما قبله ﴿حَتَّى﴾ابتدائية ﴿إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو الجوع فإنه أشد من القتل والأسر وقيل هو عذاب جهنم أو القتل يوم بدر . قال عبد الرحمن فى الجواهر : فالآية توعد بعذاب غير معين وهذا هو الصواب ، والمجاعة إنما كانت بعد وقعة بدر . اه . وقال فى غاية الأمانى : تفسيره بالقتل يوم بدر أولى من تفسيره بالجوع لأن القحط وقع ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ووقعت يعنى وقعة بدر بعده بالمدينة . اه . قلت وفيما قاله نظر لأن السورة مكية إجماعاً بلا استثناء شىء منها ، وجعله من الإخبار بما سيقع يأباه السياق . والله أعلم ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير أو من زواله من أبلس أيس ، ولما بين أن الكفار لا يتضرعون له بين أن سبب ذلك عدم استعمال الحواس التى هى من أجلّ النعم عليهم بقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ﴾ خلق ﴿لَكُمُ السَّمْعَ﴾

لتسمعوا به ما يقرأ من الآيات ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾ لتبصروا بها ما نصب من الآيات ﴿ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ لتتفكروا وتستدلوا بها ، وخص هذه الحواس لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها . وقدم السمع والأبصار لأنها آلات الإدراك وبها تدرك المعجزات ﴿قَلِيلًا﴾ تأكيد للقلة ﴿مَا تَشْكُرُونَ﴾ فى استعمالها فيما خلقت لأجله والإذعان لمانحها ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ ﴾ خلقكم وبثكم بالتناسل ﴿فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي ﴾ بنفخ الروح فى المضغة ﴿وَيُمِيتُ﴾ فنعمة الحياة وإن عظمت فالمقصود منها الانتقال بالموت والبعث إلى دار الثواب ونعمتها أعظم ﴿ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ بالسواد والبياض والزيادة والنقصان أى يختص به لا يقدر عليه غيره ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ألا تستعملون عقولكم فى النظر والتدبر بهذه النعم الدالة على قدرة منعمها على كل شىء وعلى رحمته فتطيعوه ﴿ بَلْ ﴾ إعراض عن خطابهم وبيان لجهلهم وجهل أسلافهم الذين اقتدوا بهم بقوله ﴿ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ آباؤهم ومن دان بدينهم فى نفى البعث لشبهة وهى ﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ؟لا ، ولم يتأملوا أنهم كانوا قبل ذلك أيضاً تراباً فخلقوا ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا ﴾ البعث بعد الموت ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل وجودنا وجىء محمد ؛ يريدون أن ما قاله قول قيل قبله بدهر وقد ظهر لمن تقدمنا بطلانه ولو كان حقاً لوقع ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ﴾ أكاذيب ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ التى كتبوها . جمع أسطورة ولا يستعمل هذا البناء إلا فيما يتلهى به كالأعاجيب والأضاحيك ثم سألهم تعالى عن أشياء لا يمكنهم إلا الإقرار بها ويلزم من إقرارهم الإقرار بتفرده بالألوهية وقدرته على البعث بقوله ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾ من الخلق ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ خالقها ومالكها أو إن كنتم من أهل العلم استهانة بهم وتكرير لفرط جهلهم حتى جهلوا مثل هذا الجلى الواضح ولذا جهلوا التوحيد وأنكروا البعث ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ لأنه لا يتوقف على فكر ولا يمكن للعاقل إنكاره ﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعلمون أن القادر على الخلق ابتداء قادر على الإعادة بعد الموت ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فإنه أعظم من ذلك ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ بلام الجر للجمهور وبغيره لأبى بكر وأبى عمرو هنا وفيما بعده على ما يقتضيه لفظ السؤال والأول طابق معنى السؤال إذ معنى « من رب » كذا لمن هو ﴿ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ عقابه فلا تشركوا به بعض مخلوقاته ولا تنكروا قدرته على بعض مقدوراته ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى غاية الملك والتاء للمبالغة أو خزائنه ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ ﴾ يغيث من يشاء ويحرسه وينصره ﴿ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ لا يغاث منه أحد وتعديته بعلى لتضمين معنى النصرة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ حيث زعمتم أن ما يقوله أساطير الأولين ، أعاده زيادة فى التوبيخ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ تخدعون وتصرفون عن الحق مع ظهوره فيخيل لكم أنه باطل . تأمل فى مساق هذه الآيات الثلاث من الأسلوب البديع لأن الله تعالى ذكر الأرض أولا لأنها أقرب إليهم ومنها نشأتهم ثم ترقى إلى السموات

والعرش العظيم التي الأرض بالنسبة إليها كلاشيء، ثم إلى من بيده ملكوت كل شيء، أتى بأعم العام وكلمة الإحاطة، ولفظ الملكوت الدال على سعة الملك وغاية الاختصاص. وذكر اليد تصويراً لعظمته وأن الكائنات تحت قدرته كامنة في يد قادر يقلبها كيف شاء، وراعى في الفواصل أيضاً ذلك حيث ذكر بعد الأرض التذكر الذي هو أيسر النظر ثم الاتقاء الدال على الوعيد ثم التعجيب من خدع عقولهم وتخيل الباطل حقاً والحق باطلا بعد الإقرار والاعتراف بهذه المقدمات القواطع. وكما أن هذه الآيات تقرير للسابق من إبطال شبه منكري البعث كذلك هي تمهيد للاحق من إزاحة أوهام أهل الشرك رافضي التوحيد في قوله ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ البرهان الدال على التوحيد والبعث ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في نفيهما ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ﴾ قط لتقدسه عن المماثلة والمجانسة ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ يشاركه في الألوهية ولو كان معه إله ﴿ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ وانفرد به ومنع الآخر من الاستيلاء عليه ووقع بينهم التحارب والتغالب كما هو حال ملوك الدنيا ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ولا يكون بيده ملكوت كل شيء. فالتالي باطل والمقدم مثله وقوله «لذهب» إلى هنا جواب محاجتهم وجزاء شرط محذوف دل عليه ما قبله كما قدرنا لما علمت من أن إذاً لا يدخل إلا على كلام هو جواب وجزاء ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ من الولد والشريك لما سبق من الدليل على فساده ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ بالرفع خبر محذوف لنافع وحمزة والكسائي وشعبة وبالجر صفة للباقين أي ما غاب وما شوهد، وهو برهان آخر على بطلان الشريك لأن من يدعون له الألوهية جماد لا إدراك له ولذا قال ﴿ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ معه ﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا ﴾ فيه إدغام نون إن الشرطية في ما المزيدة ﴿ تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب في الدنيا والآخرة أي إن كان لابد أن تريني، لأن ما والنون للتأكيد ﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فأهلك بإهلاكهم لأن شؤم الظلمة قد يحيق بمن معهم كقوله « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾ بأن ننجز ذلك الوعد ولكن لكل أمر وقت مقدر اقتضته الحكمة. ولذا أخرناهم علماً بأن بعضهم أو بعض أعقابهم يؤمنون، أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم ولذا أراه ذلك بعد الهجرة ببدر وهو رد لإنكارهم ذلك واستعجالهم له استهزاء ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي ﴾ بالخصلة التي ﴿ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ من الصفح والإعراض عنهم لكن بحيث لا يؤدي إلى وهن في الدين ﴿ السَّيِّئَةَ ﴾ كأذاهم إياك أو ادفع السيئة بالحسنة التي هي أحسن من غيرها من الحسنات فإنها متفاوتة واللائق بك إيثار أكمل الأخلاق وهي الصفح والإحسان بعده وبذل الوسع فيه ومن عوّد نفسه بهذا هان عليه الصفح عن السيئات وإتباعها الحسنات ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ أي بما يصفونك به أو بوصفهم إياك على خلاف حالك فكل إلينا أمرهم، وفيه وعيد شديد لهم. ولما كانت سورات الغضب التي هي من همزات الشياطين .انعة للانصاف بما ذكر أمر الله نبيه بالاستعاذة منها بقوله ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ ﴾ أعتصم ﴿ بِكَ

مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ وساوسهم وأصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض ، شبه حثهم الناس على المعاصى بهمز الراضة الدواب على المشى تشبيهاً للمعقول بالمحسوس بجامع الحث لزيادة الإيضاح ، وجمع الهمزات إما للمرات أو لتنوع الوسواس أو لتعدد المضاف إليه ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ يحوموا حولى فى أمورى كلها فضلا عن الوسوسة لأنهم إنما يحضرون بسوء ﴿ حَتَّى ﴾ ابتدائية غاية لقوله « ادفع » دالة على كون الآية غير منسوخة ، والمداراة مرغب فيها ما لم يؤد إلى ثلم فى دين أو إزراء بمروءة . أو لقوله « يصفون » على معنى : إن طعنهم فيك مستمرٌ إلى موتهم ، وعلى الوجهين فما بينهما اعتراض يؤكد شأن الصفح مستعيناً بالله على الشيطان أن يستزلك عن الحلم . أو لقوله « وإنهم لكاذبون » وما بعده اعتراض يؤكد كذبهم ﴿ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ ورأى مقعده من النار ومقعده من الجنة لو آمن ﴿ قَالَ ﴾ تحسراً ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ إلى الدنيا والجمع للتعظيم أو لخطاب الملائكة ، وربِّ جرٌ على إضمار حرف القسم . وعنه عليه السلام : إذا عاين المؤمن الملائكة يقولون نرجعك إلى الدنيا يقول إلى دار الهموم والأحزان بل قدوما إلى الله تعالى وأما الكافر فيقول « رب ارجعون » ﴿ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ أى فى الإيمان الذى تركته أو فى المال الذى خلفته ، أو صالحاً يكون فيما ضيعت من عمرى أو فى مقابلته ، قال تعالى ﴿ كَلَّا ﴾ ردع واستبعاد عن طلب الرجوع أى لا رجوع ﴿ إِنَّهَا ﴾ أى « رب ارجعون » ﴿ كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ لا محالة لتسلط الحسرة عليه ولا فائدة له فيها ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ ﴾ حاجز عن الرجوع ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ إقناط كلى إذ لا رجوع بعد البعث ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ القرن نفخة البعث أو جمع صورة ويؤيده القراءة بفتح الواو ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ تنفعهم لزوال التعاطف والتراحم لفرط الحيرة بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، أو يفتخرون بها كما يفعلون فى الدنيا ﴿ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عنها لاشتغال كل بنفسه لعظم الأمر فى ذلك الوقت ، ولا يناقض قوله فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون لأن ما هنا عند النفخة وذلك بعد دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أو تساؤل الكفار فى النار معناه التلاوم كما فى قوله « إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين .. الآيات » ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بالحسنات أو موزونات عقائده وأعماله أى من كانت له عقائد وأعمال صالحة يكون لها وزن عند الله وقدر ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بالنجاة والدرجات ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بالسيئات أو من لم يكن له وزن وهم الكفار لقوله « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » عبر عنه بالخفة لوقوعه فى مقابلة الثقل الذى هو ضده فيحسن الطباق وتقدم هذا الخلاف وجهه ﴿ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ حيث أوردوها مورد هلاك الأبد وفوتوا حظوظها ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ بدل من الصلة لا محل له من الإعراب أو خبر آخر لأولئك ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ تحرقها واللفح كالنفح إلا أنه أشد تأثيراً وهما وهج النار ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ عابسون من شدة الاحتراق تتقلص شفاههم وتبدو أسنانهم . وفى الترمذى :

تتقلص شفة الكافر العليا حتى تبلغ وسط رأسه والسفلى حتى تبلغ سرته ويقال لهم ﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ تخوّفون بها ﴿ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ تأنيب وتذكير لهم بما استحقوا هذا العذاب لاجله جمعاً بين عذاب النار وعذاب الندامة ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ ولحزة والكسائى شقاوتنا بفتح أوله وألف مصدران بمعنى أى صارت أحوالنا مؤدية إلى سوء العاقبة ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ عن الحق ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ من النار ﴿ فَإِنْ عُدْنَا ﴾ إلى ما كنا فيه من المخالفة ﴿ فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ لانفسنا ﴿ قَالَ ﴾ لهم بلسان مالك بعدمدة قدر الدنيا مرتين ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا ﴾ ابعدوا وانزجروا أذلاء واسكتوا ، من خسأ الكلب نحسئ ﴿ وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ فى رفع العذاب عنكم فينقطع رجاؤهم ، قيل إن أهل النار يقولون ألف سنة ربنا أبصرنا وسمعنا فيجابون حق القول منى فيقولون ألفاً أخرى ربنا أمتنا اثنتين فيجابون ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده فيقولون ألفاً يا مالك ليقض علينا ربك فيجابون إنكم ماكثون فيقولون ألفاً « ربنا أخرنا » فيجابون أولم تكونوا أقسمتم من قبل فيقولون ألفاً « ربنا أخرجنا نعمل صالحاً » فيجابون « أولم نعمركم » فيقولون ألفاً « رب ارجعونى » فيجابون « كلا » فيقولون ألفاً « أخرجنا منها » فيجابون « اخسئوا فيها » ثم لا يكون لهم الا زفير وشهيق وعواء ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى الشأن ﴿ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي ﴾ هم المؤمنون أو الصحابة أو أهل الصفة ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا ﴾ بضم السين لنافع وحمزة والكسائى وكسرها للباقين مصدران بمعنى الهزء وياء النسب للمبالغة وقيل المضموم بمعنى التسخير الانقياد والاستعباد نزلت فى كفار قريش فى استهزائهم بفقراء المسلمين كعمار وبلال وصهيب . قال فى الجواهر : لكنها عامة فيمن جرى بجرامهم قديماً وبقية الدهر ﴿ حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي ﴾ فتركتموه لاشتغالكم بالاستهزاء بهم فهم سبب الإنساء فنسب إليهم ﴿ وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ لاتخافونى فى أوليائى ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ ﴾ بالنعيم المقيم ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على استهزائكم وأذاكم إيام ، وفى هذا الإكرام زيادة خسء لاولئك الاضداد ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ بفتح الهمزة للجمهور مفعول ثانى لـ « جزيتهم » وكسرها لحزة والكسائى استئناف ﴿ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ بمراداتهم مخصوصين به ﴿ قَالَ ﴾ بصيغة الماضى للجمهور أى الله أو الملك المأمور بسؤالهم وبالأمر لابن كثير ، وحمزة والكسائى أمر للملك أو لبعض أهل النار ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أحياء وأمواتاً فى الدنيا وفى القبور ﴿ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ تمييز لـ « كم » ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ شكوا فى ذلك واستقصروه لعظم ماهم فيه من العذاب ولأن أيام السرور قصار والمنقضى باعتبار ما لا ينقضى كالعدم ﴿ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴾ الملائكة المحصين أعمار العباد أى هم الذين يتمكنون من عد أيامها فنحن مشغولون عن تذكرها وإحصائها ﴿ قَالَ ﴾ بالماضى ولحمزة والكسائى بالأمر ﴿ إِن ﴾ أى ما ﴿ لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ تصديق لهم فى مقالهم وتوبيخ على غفلتهم التى كانوا عليها بقوله ﴿ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ مقدار لبثكم من الطول كان قليلا بالنسبة إلى لبثكم فى النار ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ ﴾ تقرير فيه توبيخ

على تغافلهم وظنهم الفاسد ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ حال أى عابثين أو مفعول له أى للعبث بل لنتعبدكم ونجازيكم على أعمالكم وهو كالدليل على البعث ﴿وَأَنَّكُمْ﴾ عطف على « أنما » أو على « عبثاً » إن جعل مفعولا له أى للعبث ولتركـكم غير مرجوعين ﴿إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ بالبناء للمفعول للجمهور والفاعل لحمزة والكسائى وقوله « أفحسبتم .. إلى آخر السورة » رقية لكل بلاء . قال عليه السلام: « لو أن رجلا موقناً قرأها على جبل لزال » ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ عن العبث وغيره مما لا يليق به ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ الثابت الملك الذى لا يزول ملكه ، ومن عداه مملوك بالذات مالك بالعرض من وجه دون وجه ، وفى حال دون حال ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ الذى هو مظاهر الأحكام ومعدن البركات ، أو لأنه عرش أكرم الأكرمين وصف بوصفه مجازاً حكمياً كما يقال بيت كريم إذا كان ساكنوه كرماء ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ﴾ شريكا له فى الألوهية يعبده ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صفة ثانية لإله لازمة له كاشفة لحقيقته لأن الباطل لا برهان له ، جىء بها للتأكيد وبيان أن ما لا دليل عليه باطل فضلا عما دل الدليل على خلافه أو اعتراض بين الشرط وجوابه وهو ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فيجازيه مقدار ما يستحقه ﴿إِنَّهُ﴾ أى الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ومفهومه أن المؤمنين مفلحون كما نطق به أول السورة فانتظمت الفاتحة مع الخاتمة . ثم أمر رسوله بالاستغفار والاسترحام بقوله ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾ لى وللمؤمنين ، وفى الرحمة زيادة على المغفرة ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أمره بذلك لتقتدى به أمته فى الدعاء بهذا ، وقد أخرج الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعنا دوياً كدوى النحل فمكثنا ساعة فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم القبلة فرفع يديه وقال « اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وأرضنا » ثم قال: لقد أنزلت علىّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ « قد أفلح المؤمنون ... » .

[تم تفسير سورة المؤمنون]

سورة النور

مدنية - وهي ثنتان أو أربع وستون آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . سُورَةٌ﴾ أى هذه سورة أو فيما أوحينا إليك سورة ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ صفتها ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ مخففاً للجمهور ألزمناكم ما فيها من الأحكام ، أصل الفرض القطع ، ومشدداً لابن كثير وأبي عمرو للمبالغة والتأكيد أو بمعنى فصّلناها فرائض فرضاً فرضاً لأن فيها فرائض شتى ، ففيه براعة الاستهلال أو لكثرة المفروض فيها ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة لا تتوقف على فكر وتأمل من الأمثال والمواعظ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون وتتقون المحارم ، وقرئ بتخفيف الذال .

واعلم أن الله سبحانه ذكر فى أول هذه السورة إلى قوله «الله نور السموات» عشرة أحكام : الحكم فى الزنا ، وفى نكاح الزوانى ، وفى القذف ، وفى اللعان ، وفى قصة الإفك ، وفى الاستئذان ، وفى النظر وأحكام العورات ، وفى إنكاح الأيامى ، وفى المكاتبة ، وفى الإكراه على الزنا ، فأولها قوله ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ غير المحصنين لرجمهما بالسنة و « أل » فيهما موصولة وهما مرفوعان على الابتداء والخبر محذوف عند الخليل وسيبويه تقديره فيما فرضنا أو أنزلنا أى حكمهما الجلد أو الخبر هو قوله ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ ودخلته الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط والجلدة الضربة يقال جلده : ضرب جلده ، وفيه إشارة إلى التخفيف ، ويزاد على الجلد تغريب عام بالسُّنة إلى بلد آخر يسجن فيه خلافاً لأبي حنيفة لكن ذلك فى الحُر فقط لا فى الحرة خلافاً للشافعى . وأما الرقيق عبداً أو أمة فعلى النصف وهو خمسون جلدة بلا تغريب خلافاً للشافعى وجلدهما بشرط كون كلٍّ بالغاً عاقلا مسلماً طائعاً بلا شبهة عالماً بتحريم الزنى ولو كانت المرأة صبية فلا حد على صبي ولا مجنون باتفاق ولا على كافر زنى بكافرة خلافاً للشافعى لكن يؤدبان إن أظهراه وإن استكره مسلمة قتل لنقض العهد ، وفى المكره قولان ، ولا على من ظن أجنبية زوجته أو أمته خلافاً لأبي حنيفة ، وفى من ادعى الجهل بتحريم الزنى وهو ممن يظن به قولان لابن القاسم وأصبغ ، وفى من زنى بحربية الحد عند ابن القاسم خلافاً لابن الماجشون ، ويحد واطئ الميتة فى المشهور . وإنما قدم الزانية لأن بواعث الزنى تبدو أولا منها ولأنها المحل ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ بسكون الهمزة للجمهور وفتحها لابن كثير لغتان فى شدة الرحمة ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أى حكمه فى نصره ورفع شأنه بأن لا تتركوا شيئاً من حدهما ولا تخففوه دون ما شرع ، وصفته أن يكون بسوط بين سوطين وضرب

بين ضربين ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ تحريض على ماقبل الشرط لميل الطبع إلى المساهلة وهو دليل الجواب ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا ﴾ حدهما زيادة فى التنكيل ﴿ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ إغلاظاً وتوبيخاً لأن الحكمة فى شرع الحد الزجر عن المعاودة والنفوس الأبية تنزجر بالتشهير أكثر من الضرب والتعذيب لا سيما بين قومه وأهل حرفته ولذا قيد بالمؤمنين ، والطائفة الجماعة التى يمكن أن تكون حافة حول الشىء لأنه من الطواف ، ولا خلاف أنها كلما كثرت فهو أليق بامتثال الأمر واختلف فى أقل مايجزئ وحكى من ثلاثة إلى أربعين ، ومشهور مذهب مالك لا بد من اثنين . قال ابن العربى : والصحيح سقوط العدد واعتبار الجماعة التى يقع بها التشديد والتشهير من غير حد . وقد تقدم أن الجلد فى غير المحصن وشروط الإحصان : الحرية والبلوغ والعقل والتزوج تزوجاً صحيحاً والدخول بالزوجة وهذه الخمسة مجمع عليها ، واختلف فى الإسلام فشرطه مالك وأبو حنيفة فلا يحد الذمى عندهما مطلقاً خلافاً للشافعى وأحمد ثم أشار إلى الحكم الثانى بقوله ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ ﴾ لا يطأ ﴿ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ أو المعنى لا يعقد إلا عليها ﴿ وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ أى المناسب لكل منهما ما ذكر لأن الغالب أن المائل إلى الزنى لا يرغب فى الصوالح ، والزانية لا يرغب فيها الصلحاء ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأخيار أو المراد الكراهة وعلى التحريم الإمام أحمد وغيره على الكراهة ، وقيل التحريم خاص بمن نزلت عليهم الآية وهم فقراء المهاجرين حين هموا بتزوج بغايا المشركين ، وقيل عام ونسخ بقوله : « وأنكحوا الأيامى منكم » قال ابن العربى : هذا ليس بنسخ بل تخصيص عام وبيان لمحتمل قال : والنكاح إما أن يراد الوطء به أى لا يكون زنا إلا بزانية وإما أن يراد به العقد فإن كان قبل الاستبراء فهو زنى عند مالك لكن لا يحد لاختلاف العلماء فيه إذ الشافعى والحنفى يقولان : لا حرمة للماء الفاسد وإن كان بعد الاستبراء فذلك جائز إجماعا ... انظر الاحكام . ثم أشار إلى الحكم الثالث بقوله ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ ﴾ يعيرون بالزنا أو بنفى النسب صريحاً اتفاقاً أو تعريضاً عند مالك خلافاً للشافعى وأبى حنيفة فى أنه يوجب التعزير فقط كقذف غير المحصن ﴿ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ العفائف عن الزنى وكذا المحصنون عن الزنى ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ بأنهم رأوا ذكر الزانى فى فرج الزانية كالمرود فى المكحلة ﴿ فَاجْلِدُوهُمْ ﴾ أى كل واحد منهم ﴿ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ بشرط كونه مكلفاً والمقذوف مسلم حر (فى نفى النسب) وبالغ عاقل عفيف ذو آلة (فى الزنا) ولا فرق بين الذكر والأنثى كما قدمنا ، وتخصيص المحصنات لنزول الآيات فيهن ولأن قذف النساء أغلب ، ولكن ضربه أخف من ضرب الزنا ولا يكرر الثمانون إن كرر القذف لواحد أو جماعة قبل الحد أو فى أثنائه ونصفه على الرقيق ذكر أو أنثى القاذف لغيره ولو حراً . وأشد الضرب التعزير ثم حد الزنا ثم شرب الخمر ثم القذف . قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً ﴾ فى شىء زيادة فى عقوبتهم حيث لم يستروا على المؤمنين عوراتهم المأمور بسترها فى قوله عليه السلام « من ستر على مسلم

ستر الله عليه يوم القيامة ، ﴿ أَبَدًا ﴾ ما لم يتوبوا خلافاً للحنفية ﴿ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الكاملون فى الفسق لإتيانهم كبيرة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ عن القذف ﴿ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ عملهم ومنه الاستسلام للحد أو الاستحلال من المقذوف ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لما فرط منهم ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بقبول التوبة فيما ينتهى فسقهم اتفاقاً وتقبل شهادتهم عند مالك والشافعى والحنبلى خلافاً للحنفى القائل : لاتقبل رجوعا بالاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ولا يسقط الجلد بها إجماعاً وهل تسقط شهادة القاذف بنفس القذف ؟ قاله ابن الماجشون ، أو حتى يجلد فإن منع من جلده مانع عفو أو غيره لم ترد شهادته . قال ابن القاسم : وشهادته تجوز بعد التوبة فى كل شىء إلا فى مثل ما حُد فيه على المشهور من مذهب مالك إلا كافراً حُد ثم أسلم وحسنت حاله فتقبل شهادته فى كل شىء . وللقاضى أن يحكم بها ولو فيما حُد فيه . ثم أشار إلى الحكم الرابع بقوله ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ برؤية الزنى أو بنفى الحمل ، والمراد بالأزواج التى فى العصمة اتفاقاً أو فى العدة من الطلاق الرجعى أو البائن خلافاً لأبى حنيفة وبعد العدة فى نفى الحمل قبل الوضع فإن سكت حتى وضعته حُد ولم يلاعن خلافاً لأبى حنيفة ، وقال الشافعى : يلاعن إن سكت لعذر ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ ﴾ عليه ﴿ إِلَّا أَنفُسُهُمْ ﴾ بدل من شهداء أو صفة لهم على أن « إلا » بمعنى غير نزلت فى هلال بن أمية لما رمى امرأته بشريك بن سحماء فتلاعنا ثم جاء أيضاً عويمر العجلانى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنه رأى رجلا مع امرأته فتلاعنا ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ ﴾ أى فالواجب شهادة أحدهم أو فعليهم شهادة أحدهم أو مبتدأ والخبر يدفع عنه حد القذف ، وقوله ﴿ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ ﴾ بالنصب للجمهور على المصدر والرفع لحمزة والكسائى وحفص على أنه خبر شهادة ﴿ بِاللَّهِ ﴾ متعلق بشهادات أو بشهادة ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فيما رمى به زوجته من الزنا أو نفى الحمل بأن يقول « أشهد بالله لرأيتها تزنى » أو « ما هذا الولد منى وإنى فى ذلك لمن الصادقين » ﴿ وَ ﴾ الشهادة ﴿ الْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فى ذلك هذا تمام لعان الرجل وحكمه سقوط الحد عنه وحصول الفرقة بينهما إلى الأبد وانتفاء الولد عنه ووجوب حد الزنى على المرأة إلا أن تلاعن كما أشار إليه بقوله ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ أى حد الزنى الذى ثبت بشهادته ﴿ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فيما رماها به ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى ذلك ، ونصب الخامسة حفص عطفاً على أربع ، وقرأ نافع « أنْ لعنة الله » و « أن غضِب اللهُ » بتخفيف النون ورفع التاء وكسر الضاد من « غضب » ورفع اسم الجلالة والباقون بتشديد النون ونصب التاء وفتح الضاد وجر الجلالة . قال فى الجواهر : فإن منع جهلهما من ترتيب هذه الألفاظ وأتيا بما فى معناها أجزأ ذلك . اه . وقولنا فيما تقدم برؤية الزنى احتراز عما لو ادعى عليها الزنى دون رؤية ولا نفى حمل لأن فى ذلك قولين فى مذهب مالك مشهورين فى الحد أو اللعان وعلى الثانى باقى الأئمة . والله أعلم ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بالستر أو الإمهال ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ ﴾ بقبوله التوبة فى ذلك

وغيره ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما حكم فى ذلك وغيره والجواب محذوف أى لفضحكم أو عاجلكم بالعقوبة ثم أشار إلى قصة الإفك بقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ أسوإ الكذب على عائشة أم المؤمنين بقذفها ﴿ عُصْبَةٌ ﴾ جماعة وهى من العشرة إلى الأربعين ﴿ مِنكُمْ ﴾ أيها المؤمنون وهم حسان بن ثابت وعبد الله بن أبىّ ومسطح بن أثاثة وزيد بن رفاعة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ ﴾ أى الإفك خطاب لكل من ساءه ذلك من الرسول وأبى بكر وعائشة وصفوان وأكثر الصحابة ﴿ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ لاكتسابكم به الثواب العظيم، وأحرى عائشة لظهور كرامتها عند الله بذلك بإنزال ثمانى عشرة آية فى براءتها وتعظيم شأنها وتهويل الوعيد لمن تكلم فى أمثالها بسوء والثناء على من ظن بهم خيراً ونزول تلك الآيات بالحكم ومحاسن الأخلاق فإنها قالت: كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة بعد ما أنزل الحجاب ففرغ منها ورجع ودنا من المدينة وآذن بالرحيل ليلة فمشيت وقضيت شأنى وأقبلت إلى الرحل فإذا عقدى انقطع «تعنى القلادة» فرجعت ألتمسه وحملوا هودجى على بعيرى يحسبوننى فيه وكانت النساء خفافاً إنما يأكلن العلقة أى القليل وكنت جارية حديثة السن قيل سنها حينئذ خمس عشرة سنة ووجدت عقدى وجئت بعد ما ساروا فجلست بالمنزل الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون إلىّ فغلبتنى عيناى فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمى قد عرّس من وراء الجيش فأدلج فأصبح فى منزلى فرأى سواد إنسان نائم أى شخصه فعرفنى حين رآنى وكان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى أى بقوله «إنا لله وإنا إليه راجعون» فخمرت وجهى والله ما كلمنى بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته ووطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة فهلك من هلك فىّ. اهـ قولها، رواه الشيخان. قال تعالى: ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ أى عليه جزاء له بقدر ما خاض فيه وأفاض ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ ﴾ أى تحمل معظمه فبدأ بالخوض فيه وأشاعه عداوة لرسول الله وهو عبد الله بن أبىّ المنافق ﴿ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فى الآخرة وهو النار ﴿ لَّوْلَا ﴾ هلا ﴿ إِذْ ﴾ حين ﴿ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ أى بإخوانهم وأخواتهم ﴿ خَيْرًا ﴾ جعل المؤمنين كنفس واحدة ﴿ وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ كذب بين جازمين بذلك حملا على الصلاح. وعدل إلى الغيبة مبالغة فى التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضى ظن الخير بالمؤمنين والكف عن الطعن فيهم وذب الطاعنين عنهم كما يذبونهم عن أنفسهم، كما فعل أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه لما قالت له امرأته: أسمعت ما قيل؟ قال: نعم وذلك الكذب أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة والله أفضل منك. وقيل هى التى أجابته بمثل ذلك لما سألها، وإنما جاز الفصل بين لولا وفعله بالظرف لأنه أهم ﴿ لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ كما هو الحكم فى مثله ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ ﴾ فى شرعه ﴿ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ فيه ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ بأنواع النعم ﴿ وَرَحْمَتُهُ

فى الدُّنْيَا ﴾ بالإمهال للتوبة ﴿ وَالْآخِرَةِ ﴾ بالعفو والغفران ﴿ لَمَسَّكُمْ ﴾ عاجلا ﴿ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ أيها العصبة ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يستحقر دونه الجلد واللوم ﴿ إِذْ ﴾ ظرف لمسكم أو أفضتم ﴿ تَلَقَّوْنَهُ ﴾ بحذف إحدى التاءين ﴿ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ بالسؤال وأخذ بعضكم من بعض ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ فى إفشائه ﴿ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ فى القلوب ﴿ وَ ﴾ مع ذلك ﴿ تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا ﴾ لا إثم فيه ﴿ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ فى الإثم لرميكم حبيبة حبيبه بما هى عنه بريئة وقدحكم بذلك فى عرضه وخفضكم رفيع جنابه ، وقد رتب مس العذاب على آثام ثلاثة : تلقى الإفك بالألسنة ، والتحدث به من غير تحقق ، واستحقار ذلك وعده هينا ﴿ وَلَوْلَا ﴾ هلا ﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ ظرف لقوله ﴿ قُلْتُمْ ﴾ أى لولا قلتم وقت سماعكم هذا ﴿ مَا يَكُونُ ﴾ ما ينبغى ﴿ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ المعنى كان الواجب عليكم أول ما سمعتموه أن تعرضوا عنه وتقولوا ما ينبغى لنا أن نتكلم بهذا القول أو نوعه فإن قذف آحاد الناس محرم شرعا فضلا عن تعرض الصديقة بنت الصديق حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم على التحقيق ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ تعجب ممن يقول ذلك لشناعته ، أى تنزيها لله من أن تكون حرمة نبيه فاجرة تقرير لما قبله وتمهيد لقوله ﴿ هَٰذَا بُهْتَانٌ ﴾ كذب ﴿ عَظِيمٌ ﴾ لعظم المبهوت عليه فإن عظم الذنوب وحقارتها باعتبار متعلقاتها ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ ﴾ ينهاكم ﴿ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فإن الإيمان يمنع منه وفيه تهييج وتقريع ﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ الدالة على الحكم والآداب ومحاسن الأخلاق ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ كامل العلم بالأحوال كلها ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى تدبيره ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾ تنتشر باللسان وهم المنافقون ومن شايعهم ﴿ فِى الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا ﴾ بالحد للقذف ﴿ وَالْآخِرَةِ ﴾ بالنار لحق الله ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ انتفاء الفاحشة عن المؤمنين كعائشة وصفوان ﴿ وَأَنْتُمْ ﴾ أيها العصبة ﴿ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وجودها فيهم بل ظننتم وقلتم ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ لعاجلكم بالعقوبة ، كرره مع حذف الجواب لكونه معلوما دلالة على عظم الجريرة وفى إيثار الرءوف الرحيم ما يدل على أن هذا الذنب لا يتوسل إلى محوه إلا بمحض رأفته .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ طرق تزيينه بإشاعة الفاحشة وهو بسكون الطاء لنافع وأبى عمرو والبزى وحمزة وأبى بكر وبضمها لابن عامر والكسائى وحفص وقنبل وهى لغة الحجاز والأولى لتميم ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ ﴾ الضمير له ﴿ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ ما أفرط قبحه ﴿ وَالْمُنْكَرِ ﴾ شرعا باتباعها من عطف العام على الخاص وهو علة للنهى عن اتباعه ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بالتوفيق للتوبة وشرع الحد المكفر للذنوب ﴿ مَا زَكَىٰ ﴾ ماطهر من دنسه ﴿ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ أيها العصبة بما قلتم من الإفك ، أو الخطاب عام لهم ولغيرهم إشارة إلى أن عدم الدخول فيه كان بتوفيق الله ﴿ أَبَدًا ﴾ آخر الدهر . قال فى الجواهر : أما يردع العاقلَ عن الاشتغال بغيره ويوجب له الاهتمام بإصلاح نفسه قبل هجوم منيته وحلول رمسه حديث «إن الملائكة مع ابن آدم فإذا ذكر أخاه المسلم

بخير قالت : ولك مثله وإذا ذكره بشرٍ قالت أربع على نفسك واحمدالله الذى ستر عورتك » اه . وفى أبى داود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من امرئ يخذل امرأ مسلماً فى موضع تنتهك فيه حرمته إلا خذله الله ... » الحديث ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ بقبول توبته ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لمقالهم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتهم ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ أى لا يحلف افتعال من الألية الحلف ﴿ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ فى الدين ﴿ وَٱلسَّعَةِ ﴾ فى المال ﴿ أَن ﴾ لا ﴿ يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ منهم لأن فعلوا مالا ينبغى ﴿ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ صفات لموصوف واحد وهو مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب وأمه هى بنت أبى رهم ابن المطلب وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق رضى الله عنه لأن الآية نزلت فيه لما حلف ألا ينفق على مسطح وهو ابن خالته مسكين مهاجرى بدرى لما خاض فى الإفك بعد أن كان ينفق عليه وفى ناس من الصحابة أقسموا أن لا يتصدقوا على من تكلم بشىء من الإفك ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ ﴾ يتجاوزوا عما فرط منهم ﴿ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ﴾ يعرضوا عنهم بترك ذلك لأنه يورث الوحشة بين المؤمنين ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ بإحسانكم إلى من أساء إليكم ، ولما تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى بكر قال : بلى أحب أن يغفر الله لى ، وأعاد النفقة على مسطح وكفر عن يمينه ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ مع كمال قدرته فتخلقوا بأخلاقه ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ للمؤمنين فارحموهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ﴾ بالزنا ﴿ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ العفائف أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ﴾ عن الفواحش بأن لا يقع فى قلوبهن فعلها ولذا قال حسان بن ثابت فى مدح عائشة رضى الله عنها :

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ • وَتُصْبِحُ غَرْثَىٰ مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

﴿ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ بالله ورسوله فرماهن استباحة لعرضهن وطعنا فى الرسول والمؤمنين كابن أبىّ المنافق ﴿ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ بالحد والإبعاد ﴿ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ عند الله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يقادر قدره ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف لعظيم أو لمعنى الاستقرار فى لهم ﴿ تَشْهَدُ ﴾ بالفوقانية للجمهور والتحتانية لحمزة والكسائى ﴿ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ زيادة تهويل للعذاب ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ﴾ جزاءهم اللائق بهم ﴿ ٱلْحَقَّ ﴾ الثابت المستحق ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ الثابت ذاته وعدله ﴿ ٱلْمُبِينُ ﴾ الظاهر عدله ومَن هذا شأنه ينتقم من الظالم للمظلوم فينتقم من ابن أبىّ للمحصنات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم . لم يذكر فى قذفهن توبة ومن ذكر فى قذفهن التوبة أول السورة غيرهن. قاله ابن عباس حين سئل فقال : كل من أذنب فتاب قبلت توبته إلا قذفة عائشة . قال فى غاية الأمانى : ولعله أراد التغليظ كقوله فى قاتل المسلم عمداً إنه يخلد فى النار . اه . ولو نقبت وعيدات القرآن لم تجد أغلظ مما نزل فى إفك عائشة فقد بالغ الله فى إيعاد قذفتها بما لم يوعد به أهل الشرك حيث أجمل وفصل وجمع بين أنواع العذاب وامن الدارين والعذاب الذى لا يحاط به فى الآخرة وبما زاد فى قوله ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ ﴾ من النساء

ومن الكلمات ﴿ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ من الناس ﴿ وَالْخَبِيثُونَ ﴾ من الناس ﴿ لِلْخَبِيثَاتِ ﴾ مما ذكر ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ ﴾ من النساء والكلمات ﴿ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ من الناس ﴿ وَالطَّيِّبُونَ ﴾ منهم ﴿ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ مما ذكر أى اللائق للخبيث مثله وللطيب مثله فعائشة زوجة سيد الطيبين فالأولى أن تكون طيبة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الطيبون والطيبات من الناس ومنهم عائشة وصفوان ﴿ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أى الخبيثون والخبيثات من الناس فيهم من قذفهم ومن أن يقولوا مثل قولهم ﴿ لَهُمْ ﴾ للطيبين والطيبات من الناس ﴿ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فى الجنة وفيه تعريض بضد ذلك لمقابليهم . وقد افتخرت عائشة بأشياء منها أنها خلقت طيبة ووعدت مغفرة ورزقاً كريماً . ولما كان منشأ حديث الإفك وجود الخلوة فى موضع التهمة أردف الحديث بما يلائمه وهو الحكم السادس بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ وبيت الإنسان هو الذى لا أحد معه فيه أو البيت الذى فيه زوجته أو أمته ، وما عدا هذا فهو غير بيته . قاله فى الجواهر ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ بالاستئذان والإذن استفعال من الأنس ضد الوحشة ، والمعنى : حتى يؤذن لكم ، وضع الاستئناس موضعه لأنه يردف الإذن ، وفى الجواهر : تستأنسوا تطلبوا أن تعلموا مايؤنسكم ويؤنس أهل البيت منكم بالاستئذان على من فيه أو بأن يتنحنح ويشعر بنفسه بأى وجه أمكنه ويتأنى قدر مايتحفظ منه ﴿ وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ فى ذلك الاستئذان بأن يقول من جاء : « السلام عليكم أأدخل » ثلاثاً كما ورد فى حديث فإن أذن له وإلا رجع سواء كان الباب مغلقاً أو مفتوحاً لأن الشرع أغلقه وهو عام فى المحارم والأجانب ، لما روى : أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «يارسول الله إن أمى ليس لها خادم غيرى أستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : أتحب أن تراها عريانة ؟ قال : لا . قال : فاستأذن» ولا يجوز للداخل أن يملأ عينيه من قاعة البيوت ولا يزيد من أذن على «أأدخل» لا يقول أأدخل بسلام لأنه زيادة على ما شرع . انظر الأحكام لابن العربى ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من الدخول بغير استئذان بغتة وتحية الجاهلية فإنهم كانوا يدخلون بلا إذن ويقولون حييتم صباحا وحييتم مساء فربما رأوا مالا يحبون ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بإدغام التاء الثانية فى الذال خيريته : وأنه أصلح لكم فتعملون به وهو متعلق بمحذوف أى أنزل عليكم أو قيل لكم هذا لعلكم تذكرون ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا ﴾ يأذن لكم ﴿ فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ حتى يأتى من يأذن فإن المنع من الدخول ليس منحصراً ضرره فى وقوع البصر على العورات بل وعلى مايخفيه الناس مما لا يريد صاحب البيت اطلاع أحد عليه ولأنه يشبه الغصب والتغلب واستثنى ما إذا عرض حرق أو غرق أو كان فيه منكر ونحوها ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ﴾ بعد الاستئذان ﴿ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ﴾ ولا تلحوا ﴿هُوَ﴾ أى الرجوع ﴿ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ أطهر لكم وأنفع لدينكم ودنياكم من القعود على الباب وترك المروءة لأنه يؤذى صاحب البيت ويجلب الوحشة والخجل ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الدخول بإذن وغير إذن ﴿ عَلِيمٌ ﴾ فيجازيكم عليه وعد ووعيد ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ من الربط والخانات والخانقات

المسبَّلة أي الموقوفة في سبيل الله ﴿ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ﴾ تمتع ومنفعة كالاستكنان من الحر والبرد وإيواء الأمتعة والجلوس للمعاملة ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ وعيد لمن دخل لفساد كتطلع للعورات وسيأتي أنهم إذا دخلوا بيوتهم يسلمون على أنفسهم . ثم ذكر الحكم السابع بقوله ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ عما لا يحل لهم نظره ومنه النظر إلى زينة الدنيا من متع بها ، و « من » للتبعيض لأن أول نظرة إلى الأجانب ونظر المحارم لا يحرم . وعن الأخفش : زائدة ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ عما لا يحل لهم فعله بها وعن أعين الناس بسترها ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ ﴾ أطهر ﴿ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ بالأبصار والفروج فيجازيهم عليه ، وتقديم الغض لأنه الذي يؤدي إلى الزنى ، ولما كان ما في خائنة الأعين خافيا فصل الآية بالخبير الدال على العلم ببواطن الأشياء . وبالصنع الذي فيه مزيد اعتمال ليعلم بالعفو عما وقع فلتة . قال في الجواهر : النواظر صوارم مشهورة فأغمدها في غمد الغض والحياء من نظر المولى لا ترسل بريد النظر فيجلب لقلبك ردىء الفكر ، غض البصر يورث القلوب نوراً وإطلاقه يقدح فيه ناراً . اه .
ثم خص المؤمنات بالأمر وإن دخلن في المؤمنين تأكيداً بقوله ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ عما لا يحل لهن النظر إليه من الرجال . وعن أم سلمة : كنت أنا وعائشة مع النبي صلى الله عليه وسلم فاستأذن ابن أم مكتوم فقال : احتجبا . فقلنا أوليس أعمى ؟ فقال : أفعمياوان أنتما ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ بالتحفظ عن الزنى والتستر ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ كالحلي والثياب والأصباغ فضلا عن مواضعها لمن لا يحل أن تبدى له ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ عند مزاولة الأشياء كالثياب فإن في سترها حرجاً وقيل المراد بالزينة : مواضعها ، وماظهر منها : الوجه والكفان عندعامةالعلماء فليسا بعورة إلاعندالشافعي في أرجح قوليه أن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إليها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة واستثنى الوجه والكفين في الصلاة فقط . قال ابن عطية : ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة أن تجتهد في الإخفاء لكل ماهو زينة ، ووقع الاستثناء في كل ماعلها فما ظهر بضرورة حركة فيما لا بد منه أو إصلاح شأن فما ظهر على هذا الوجه فهو المعفو عنه . اه ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ ﴾ مقانعهن ﴿ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ أطواقهن ليسترن الرءوس والأعناق والصدور . قال ابن عطية : سبب الآية أن النساء كن في ذلك الزمان إذا غطين رءوسهن بالأخمرة سدلنها من وراء الظاهر فيبقى النحر والعنق والآذان لاستر على ذلك فأمر الله بليّ الخمار على الجيوب وهيئة ذلك بستر جميع ما ذكرناه . وقالت عائشة رضي الله عنها رحم الله المهاجرات الأول لما نزلت هذه الآية عمدن إلى أكثف المروط فشققنها أخمرة وضربن بها على الجيوب . اه ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ الخفية وهي ما عدا الوجه والكفين عند الصلاة وعند الأجانب كرره لبيان من يحل له الإبداء ومن لا يحل له ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ جمع بعل أي زوج ، وفي معناه السيد في أمته التي لم يزوجها فيجوز له نظر جميع بدنهن حتى الفرج بكره ، وإذا زوج الرجل أمته حرم عليه

النظر إلى عورتها كالأمة الأجنبية . قاله البغوي ﴿ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ ﴾ والأب والابن أحق الأقارب بالاطلاع على الزينة الباطنة من الشعر والسوار والقلادة ﴿ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ لأنهم بمنزلة الأبناء لكن كره مالك أن يسافر الرجل وحده مع زوجة أبيه أو ابنه ﴿ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ لكثرة مداخلتهم بهن واحتياجهن إلى مداخلتهم وقلة توقع الفتنة من قبلهم لما في الطبائع من النفرة عن مماسة القرابة القريبة ولذا يستحب أن لا يتزوج بقرابة قريبة تحل له فلهؤلاء النظر فيما يبدو غالباً كالساعدين والساقين ، ولم يذكر الأعمام والأخوال لأنهم في معنى الأبوين ﴿ أَوْ نِسَآئِهِنَّ ﴾ أي المؤمنات دلت عليه الإضافة فبعضهن ينظرن إلى بعض فيما عدا ما بين السرة والركبة. وأما الكافرات فلا يجوز للمسلمات التكشف لهن على المشهور ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ من الإماء والعبيد الأوغاد عند مالك والشافعي خلافاً لأبي حنيفة في قوله إن العبد كالأجنبي والصحيح أن العبد له أن ينظر من سيدته ما ينظر منها المحرم وأما العبد الذي له منظر فلا على قول مالك وهو الأحوط ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ ﴾ في فضول الطعام ﴿ غَيْرِ ﴾ بالجر للجمهور صفة والنصب لابن عامر وأبي بكر حال ﴿ أُوْلِي الْإِرْبَةِ ﴾ أصحاب الحاجة إلى النساء ﴿ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ كالشيخ الهم[1] ، وفي المجبوب والخصي خلاف ﴿ أَوِ الطِّفْلِ ﴾ بمعنى الأطفال ﴿ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَآءِ ﴾ لم يطلعوا عليها أي لم يعرفوا ما العورة لعدم التمييز وإذا صار مميزاً حرم اتفاقاً ، قاله في غاية الأماني ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ من خلخال يتقعقع لأن الغرض رفع الفتنة وصوت الحلي يثير الميل إليهن ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ عما وقع لكم من النظر الممنوع وغيره إذ لا يخلو أحد من نوع تقصير لأن الاستقامة متعسرة أو متعذرة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ بقبول التوبة منه ، وفي الآية تغليب الذكور على الإناث . ثم ذكر الحكم الثامن بقوله ﴿ وَأَنكِحُوا ﴾ أيها الأولياء والسادات ، أمر وجوب عند الطلب وظهور الحاجة وإلا فندب أو مباح ﴿ الْأَيَامَىٰ ﴾ مقلوب (أيائم) جمع (أيم) وهي من لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً ومن لا زوجة له وهذا في الأحرار والحرائر ﴿ مِنكُمْ ﴾ وعقب هذا الأمر بنهي ما عسى أن يقتضي الزنى لأنه الحافظ له وفيه دليل على وجوب تزويج المولية والمملوك عند طلبهما ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ للنكاح أو المؤمنين ﴿ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ﴾ وذكر الصلاح للترغيب في تحصين من همته التحصن وليس بشرط ، وفيه دليل على أن العبد لا يلي النكاح والعبد لا يتزوج بغير إذن مولاه ﴿ إِن يَكُونُوا ﴾ أي الأحرار ﴿ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ ﴾ بالتزوج ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ رد لما عسى أن يمنع من النكاح من فقر الخاطب أو المخطوبة بأن في فضله تعالى ما يغني والمال غاد ورائح وليس الوعد على اللزوم بل مشروط بمشيئته تعالى ويشير إليه قوله من فضله ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ فضله بيده الخير كله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يصلح له الغنى « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض » وفي الحديث : الناكح يريد العفاف معان ، والآية دليل على تزوج الفقير لأن رزقه ورزق عياله

(١) الهم وزناً ومعنى . بكسرهما : الشيخ الفاني . مختار القاموس .

على الله وقد زوج النبي صلى الله عليه وسلم الواهبة نفسها بعض أصحابه وليس له شيء من المال ولا ينافيه الآية التالية لأنها فيمن لم يجد الصداق وهذه في من وجده لكنه فقير . والله أعلم ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ عن الزنى ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أسبابه من الصداق والنفقة . روى البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ﴾ يوسع عليهم ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ فيجدوا ما يتزوجون به ، ثم ذكر الحكم التاسع بقوله ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ بمعنى المكاتبة لأنه مما يكتب لتأجيله أو بمعنى الجمع لأن العوض فيه ينجم بنجوم يضم بعضها إلى بعض أو بمعنى الإيجاب لأن السيد كتب على نفسه عتقه إذا أدى المال ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد والإماء والموصول بصلته مبتدأ خبره ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ أمر ندب ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي أمانة وقدرة على الكسب لأداء الكتابة وصيغتها مثلا كاتبتك على ألفين في شهرين كل شهر ألف فإذا أديتها فأنت حر فيقول قبلت وحينئذ أحرز نفسه وماله لا يباع ولا ينتزع ماله ويجوز بيع كتابته خلافاً للشافعي والشرط ترغيب في كتابة من يرى فيه آثار الخير والصلاح وهو شرط الأمر فلا يلزم من عدمه عدم الجواز وعدم اشتراط التنجيم أصح في مذهب مالك فيجوز أن تقع حالة ﴿وَآتُوهُم﴾ أمر للسادة أو لجميع المسلمين ﴿مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ ما يستعينون به في أداء ماالتزموه لكم ، وفي معنى الإيتاء حط شيء مما التزموه والأمر للندب وأوجبه الشافعي ، والأحب أيضاً أن يكون المحطوط آخر جزء من النجوم ليحصل به الاستعانة على العتق أو المراد بمال الله مال الزكاة على أن الأمر لجميع المسلمين ، ويجوز للمكاتب بيع واشتراء ومكاتبة لرقيقه وإقرار دين في رقبته بلا إذن السيد ، لا عتق وهبة وصدقة وتزويج بغير إذن ، ثم ذكر الحكم العاشر بقوله ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ﴾ إماءكم ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ الزنى ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تعففاً عنه وهذه الإرادة محل الإكراه فلا مفهوم للشرط ، وكانوا في الجاهلية يزنون الجواري ليكتسبن لهم بالزنى ، وكان لعبد الله بن أبي المنافق ست جوار يكرههن على الزنى ويضرب عليهن الضرائب فشكا بعضهن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿لِّتَبْتَغُوا﴾ بالإكراه ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ علة للنهي لا للنهي ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ لهن ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهن ومعنى مغفرتهن وإن كان المكره لا يؤاخذ : إسقاط العقوبة والإثم وأنهن بصدد العقاب لولا المغفرة . والله أعلم ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ بفتح الياء للجمهور وكسرها لابن عامر وحمزة والكسائي وحفص ، في هذه السورة بيّن فيها ماذكر أو بينه ﴿وَمَثَلًا﴾ خبراً عجيباً وهو خبر عائشة ﴿مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ من جنس أخبارهم العجيبة كخبر يوسف ومريم ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ في قوله « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » و« لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون .. إلى آخره » و« لولا إذ سمعتموه قلتم .. إلى آخره » و« يعظكم الله أن تعودوا .. إلى آخره » وتخصيصها بالمتقين لأنهم

المنتفعون بها. ولما فرغ من الأحكام الفرعية رجع إلى الأحكام الأصلية دلائل التوحيد بكونه فى غاية الظهور وأن الكفر فى غاية الظلمة والخفاء بقوله ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ النور كيفية تدركها الباصرة وهى محال على الله فوجب التأويل إما بتقدير مضاف أى ذو نورهما أى هو خالقه وإما بتجوز بمعنى منورهما بالكواكب ، أو السموات بالملائكة والأرض بالأنبياء والمؤمنين بهدايتهم بهداه أو مدبرهما يقولون لمدبر الحى نوره أو موجدهما فإن النور ظاهر بذاته مظهر لغيره وأصل الظهور هو الوجود فالله موجود بذاته موجد لغيره . قال ابن عباس : معناه هادى أهل السموات والأرض ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ أى صفته العجيبة وفى إضافته إلى الله دليل على أن إطلاقه عليه قبل لم يكن على ظاهره ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ أى كصفتها وهى الكوّة فى الجدار غير النافذة أو الأنبوبة فى القنديل ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ سراج ضخم ثاقب أو الفتيلة المشتعلة ﴿ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾ أى قنديل من زجاج لأن كونه فى مكان ضيق غير نافذ كالمشكاة أجمع لنوره والقنديل أعون شىء على الإضاءة ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا ﴾ والنور فيها ﴿ كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ بضم الدال وتشديد الياء منسوب إلى الدر اللؤلؤ فى صفائه لنافع وابن عامر وابن كثير وعاصم ، وبضم الدال والهمز لحمزة وشعبة وبكسر الدال والهمز لأبى عمرو والكسائى فعّول كسبوح وفعّيل كسكيت من الدرء بمعنى الدفع لدفعه الظلام ﴿ يُوقَدُ ﴾ بالتذكير مضارع أوقد مبنياً للمفعول لنافع وابن عامر وابن كثير وحفص أى المصباح وبالتأنيث أى الزجاجة لأبى بكر وحمزة والكسائى وبالماضى على تفعل لأبى عمرو أى ذلك المصباح ﴿ مِن ﴾ زيت ﴿ شَجَرَةٍ ﴾ وهى الزيتون أى ابتدأ ثقوب المصباح من زيتها بأن رويت زبالته من زيتها وهو أضوأ وأصفى من جميع الأدهان لا يحتاج فى استخراجه إلى عصار كل أحد يستخرجه وشجرته تورق من أعلاها إلى أسفلها ، ذكر كل ذلك البغوى ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ بتكاثر نفعها وخروجها فى الأرض المباركة وهى بيت المقدس وقيل بارك فيها سبعون نبياً ثم بينها بعد الإبهام بقوله ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بدل من شجرة تفخيما لشأنها ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ ﴾ حتى تكون فى مضحاة لا يصيبها ظل فتضرها الشمس كغالب الشرقيات ﴿ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ حتى تكون فى مفيأة لا تصيبها الشمس فيضرها البرد كغالب الغربيات بل هى شامية بينهما لا يتمكن منها حرٌّ ولا برد فزيتها أضوأ وأصفى . وفى الحديث « لا خير فى شجرة ولا نبات فى مفيأة ولا خير فيهما فى مضحاة » وقيل لا شرقية فقط ولا غربية فقط بل شرقية غربية تصيبها الشمس بالغداة والعشى ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ ﴾ بنفسه لصفائه وفرط تلألؤ وميضه ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ هو ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ أى متضاعف فإن نور المصباح زاد فى إنارته صفاء الزيت وزهرة القنديل وضبط المشكاة لأشعته ولم يبق مما يزيد النور بالإضاءة بقية ، واعلم أن الله شبه هداه الذى هو جميع شرعه بالنور فى الإضاءة وظهور الأدلة ثم بالغ فى المشبه به بما لا مزيد عليه دلالة على المبالغة فى المشبه ، فكما أن هذا غاية فى المحسوس فكذلك ذاك غاية فى المعقول ليس أجلى منه معقول وإيلاء الكاف المشكاة لاشتمالها على النور ، وقيل .

نور الله المشبه هو محمد صلى الله عليه وسلم فالمشكاة صدره والمصباح معرفته والزجاجة قلبه والشجرة المباركة وحيه ، والزيت حججه وبراهينه ، وكون الشجرة لاشرقية ولا غربية : عدم اختصاص دينه بقوم دون قوم ومكان دون مكان . وقيل : الشجرة إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، والمصباح المتوقد منها محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل النور كل مؤمن فالمشكاة صدره والمصباح إيمانه وعلمه والزجاجة قلبه والشجرة القرآن وزيتها الحجج والحكم التي فيه ليس فيه إفراط ولا تفريط وقيل غير ذلك . والله أعلم ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ ﴾ الذى ذكر على الاحتمالات ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فالأسباب بدون مشيئته لاغية إذ بها تمامها ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ بإبراز المعقولات فى صور المحسوسات توضيحاً وبياناً ليعتبروا فيؤمنوا ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ سيان عنده المحسوس والمعقول وإنما يصور المعقولات فى صور المحسوسات ليسهل فهمها على الناس وفيه وعدٌ ووعيد لمن تدبرها ولمن لم يكترث بها ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ متعلق بما قبله أى كمشكاة فى بعض بيوت الله وهى المساجد أو بـ « يوقد » تقييد للمثل به بما يزيده مبالغة لأن قناديل المساجد أعظم ومصابيحها أضوأ لاسيما إذا أريد المساجد الثلاثة : المسجد الحرام ، والأقصى ، ومسجد المدينة ، وتنكير بيوت للتعظيم ، وقيل متعلق بما بعده وهو يسبح له رجال فى بيوت والتكرير للمبالغة والتوكيد كقولك : زيد فى الدار جالس فيها ﴿ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ تعظم أو تبنى كقوله « وإذ يرفع إبراهيم القواعد » ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ يشمل كل ذكر حتى المذاكرة فى العلم إذا أريد بها إظهار الصواب ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ بكسر الموحدة للجمهور وفتحها لابن عامر وعاصم أى ينزه أو يصلى ﴿ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ ﴾ أى بأوقاته وهو مصدر بمعنى الغدوات ﴿ وَالْآصَالِ ﴾ جمع أُصُل جمع أصيل ، وقوله « يسبح » صفة مدح ثانية لبيوت أى يقدسونه أو يصلون له فى هذه الأوقات الشريفة وعلى قراءة فتح الباء مسند إلى أحد الظروف الثلاثة والأول أولى ﴿ رِجَالٌ ﴾ فاعل « يسبح » على كسر الباء وعلى فتحها فاعل فعل محذوف دل عليه يسبح جواب سؤال مقدر كأنه قيل : من يسبحه ؟ فقيل : يسبحه رجال ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ فى الجلب من البلاد للربح ﴿ وَلَا بَيْعٌ ﴾ وشراء فى بلادهم ﴿ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ والتجارة تشمل البيع والشراء للربح وإنما أفرد البيع لأنه أدخل فى الإلهاء أو أطلق التجارة على الشراء إطلاق الجنس على النوع بقرينة ذكر البيع ، والآية نزلت فى المهاجرين فإنهم كانوا تجاراً ولكن لا تشغلهم أمور الدنيا عن أمور الآخرة كالصلاة وذكر الله ﴿ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ﴾ حذف هاء إقامة تخفيف ﴿ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ المفروضة وغيرها ﴿ يَخَافُونَ ﴾ حال ﴿ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ ﴾ تضطرب ﴿ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ من الخوف : القلوب بين النجاة والهلاك ، والأبصار بين ناحيتى اليمين والشمال وهو يوم القيامة ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ متعلق بيسبح أو لا تلهيهم أو يخافون ﴿ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أى جزاء أحسن أعمالهم بأن يجزى على الأدنى كما يجزى على الأعلى أو أحسن بمعنى حسن ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فوق جزاء الأعمال ما لم يخطر ببالهم تفضلا ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

حِسَابٍ ﴾ أى يوسع كأنه لا يحسب ما ينفق تقرير للزيادة وتنبيه على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة الإحسان . ولما بين حال المؤمن ونتيجة سعيه فى الدنيا وفى الآخرة من النعيم المقيم أردفه بذكر حال الكافر فى عمله الذى لا شرط له من الإيمان والإخلاص بأنه على ضد حال المؤمن بقوله ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ ﴾ الصالحة لاغية لا منفعة فيها مخيبة فى العاقبة فهى ﴿ كَسَرَابٍ ﴾ هو ما يلمع وقت الظهيرة فى المفاوز من شدة الحر ، من سرب إذا جرى كأنه ماء يجرى ﴿ بِقِيعَةٍ ﴾ جمع قاع وهو المستوى المنبسط من الأرض ﴿ يَحْسَبُهُ ﴾ يظنه ﴿ الظَّمْآنُ ﴾ العطشان ﴿ مَاءً ﴾ فيسارع إليه ويحتمل الجهد والمشقة وتخصيصه لتشبيه الكافر به فى شدة الخيبة عند مسيس الحاجة ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ ﴾ أى ما توهمه ماء أو موضعه ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ من الأشياء لاضمحلاله أو بماطنه ، وكذلك الكافر يحسب أن عمله كصدقة تنفعه حتى إذا مات ووفد على ربه لم يجد عمله أى لم ينفعه ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ ﴾ أى عقابه أو زبانيته ﴿ عِنْدَهُ ﴾ عند ذلك الموضع الذى كان يظنه ماء أو وجد الله عند عمله محاسباً إياه ، والضمير للظمآن المراد بالكافر ولذا رتب عليه قوله ﴿ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ مجازاة أو وجده قد جازاه عليه فى الدنيا ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أى المجازاة ﴿ أَوْ الذين كفروا أعمالهم الصالحة أيضاً فى كونها خالية عن نور الإيمان ﴿ كَظُلُمَاتٍ ﴾ فأو للتخيير أى شبهها بالسراب فى عدم النفع أو بالظلمات فى عدم النور أو أعمالهم السيئة فإنها كظلمات ﴿ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ عميق منسوب إلى اللج وهو معظم الماء ﴿ يَغْشَاهُ ﴾ أى البحر ﴿ مَوْجٌ ﴾ ما يرتفع عند اضطراب البحر ﴿ مِنْ فَوْقِهِ ﴾ أى الموج ﴿ مَوْجٌ ﴾ أعظم منه وأعلى ﴿ مِنْ فَوْقِهِ ﴾ من فوق الموج الثانى ﴿ سَحَابٌ ﴾ أى غمام غطى أنوار النجوم والجملة صفة أخرى للبحر . هذه ﴿ ظُلُمَاتٌ ﴾ أربع ﴿ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ ظلمة البحر وظلمة الموج الأول وظلمة الموج الثانى وظلمة السحاب ، قرأ ابن كثير بإضافة سحاب وجر ظلمات فى رواية البزى وبالتنوين وجر ظلمات على أنه بدل من الأولى فى رواية قنبل ﴿ إِذَا أَخْرَجَ ﴾ الناظر الواقع فى البحر فالضمير له وإن لم يجر له ذكر لدلالة المعنى عليه ﴿ يَدَهُ ﴾ فى هذه الظلمات وهى أقرب ما يرى إليه ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ لم يقرب من رؤيتها فضلا عن أن يراها ، وهذا المثال الثانى بيان لحالهم فى الدنيا فى أعمالهم فى تشبيه ضلالهم بمثل هذه الظلمات المجتمعة من هذه الأشياء. وذهب بعض الناس إلى أن فى هذا المثال أجزاء تقابل أجزاء من الممثل به ، فالظلمات : الأعمال الفاسدة ، والبحر اللجى : قلب الكافر ، والموج : ضلاله ، والسحاب : شهوته . والله أعلم ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا ﴾ من لم يقدر له الهداية ولم يوفقه لأسبابها ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ أى من لم يهده الله لم يهتد ، ولما بيّن هدايته المؤمنين بقوله « يسبح له فيها بالغدو والآصال » بخلاف الكفار استطرد بذكر تسبيح أهل السموات والأرض تعميما وإظهاراً للدفامة بقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تعلم ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ ﴾ ينزه ﴿ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ومن التسبيح صلاة والاستفهام للتقرير وعلمه بذلك من قوله « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » وذكر « مَن » تغليب لذوى

المعقول ﴿ وَالطَّيْرُ ﴾ جمع طائر اسم جمع لما يطير بين السماء والأرض خصها بالذكر لما فيها من الدليل الباهر على القدرة ولذا وصفها بقوله ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ حال أى باسطات أجنحتهن فإذا كانت تسبح فى تلك الحالة وهى مظنة الاشتغال فما ظنك بغيرها وفيه الدلالة على كال قدرة الصانع لأن وقوف الأجرام السفلية فى الجوّ دليل ظاهر على ذلك ﴿ كُلٌّ ﴾ من المذكورات ﴿ قَدْ عَلِمَ ﴾ الله ﴿ صَلَاتَهُ ﴾ دعاءه ﴿ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ تنزيهه وتقديسه اختياراً أو طبعاً ولكن لا تفقهون تسبيحهم أوكل واحد قد علم صلاة نفسه لله تعالى وتقديسه أو علم صلاة الله وتسبيح الله اللذين أمر بهما وهدى إليهما ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ لا يعزب عنه شىء تذييل يؤكد علمه بحالهم على الأول وتكيل على مابعده لأنه دل على العلم البالغ بعد ما قدم مايدل على القدرة الكاملة وفيه تغليب العاقل ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لأنه خالقهما وما فيهما من الذوات والصفات والأفعال أو المراد خزائن المطر والرزق والنبات ويناسبه الآية التالية ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ المرجع للجميع للجزاء ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ يسوقه برفق قزعا وهذا دليل آخر على كال صنعه تعالى ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ يضم بعضه إلى بعض فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة وبهذا المعنى صح بينه أى بين أجزائه ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ مركوماً بعضه فوق بعض، والركام أيضاً السحاب المرتكم ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ القطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ مخارجه وفتوقه جمع خلل كجبل وجبال ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ السحاب أو السماء المظلة والمفعول محذوف أى بَرَداً ﴿ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا ﴾ فى السماء، بدل من السماء بإعادة الجار ﴿ مِنْ بَرَدٍ ﴾ أى بعضه من الأولى والثانية للابتداء والثالثة للتبعيض أو الثانية للتبعيض والثالثة للبيان. وقال ابن عباس: «أخبر الله أن فى السماء جبالا من برد كما فى الأرض جبال من حجر» ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ بالبرد ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ عقوبة له ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ﴾ سلامته، وقيل الضمير للودق أى يسقى به من يشاء سقيه ويصرفه عمن يشاء حرمانه والأول أولى ﴿ يَكَادُ ﴾ يقرب ﴿ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ لمعانه والضمير للسحاب ﴿ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ الناظرة له أى يخطفها من فرط الإضاءة وذلك أقوى دليل على كال القدرة لأنه توليد الضد من الضد ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ بأتى بكل منهما بدل الآخر أو يخالف بينهما بالطول والقصر أوالنور والظلمة أو يغير أحوال من فيهما ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ التقليب ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ دلالة على وجود الصانع القادر العالم المنزه عن الحاجة ﴿ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أصحاب البصائر. ولما استدل على الوحدانية والقدرة والعلم بأحوال السموات والأرض أولا وبأحوال الآثار العلوية ثانياً استدل عليها ثالثاً بأحوال الحيوانات المختلفة الأنواع والأشكال والأحوال مع اتحاد الأصل بقوله ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ ﴾ أى حيوان وحمزة والكسائى خالق كل دابة بالإضافة ﴿ مِنْ مَاءٍ ﴾ هو جزء مادته لأن أول ماخلق الله جوهرة نظر إليها بالهيبة فذابت ماء، فمن ذلك الماء تكوّن كل شىء وقيل «من ماء» صفة دابة وليس صفة خلق، والمراد بالماء حينئذ النطفة والمفهوم أولوى أى وأولى غيرها لأن الماء الذى به الحياة إذا

كان المتولد منه يحتاج إلى الصانع فالغير من باب أولى ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ ﴾ كالحيات سمى الزحف مشياً على الاستعارة أو المشاكلة ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنس والطير ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾ كالبهائم والأنعام والوحش ويندرج فيه ماله أكثر من أربع كالعناكب فإن اعتمادها إذا مشت على أربع، وتذكير الضمير لتغليب العقلاء، والتعبير بـ «من» ليوافق التفصيل الجملة وراعى فى الترتيب الأبدع فالأبدع فى تعريف القدرة ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ مما ذكر وغيره كيف شاء بسيطاً ومركباً على اختلاف الصور والأعضاء والهيئات والحركات والطبائع والقوى والأفعال مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيفعل ما يشاء ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيَّنَاتٍ ﴾ بفتح الياء لنافع وابن كثير وأبى عمرو وأبى بكر وكسرها للباقين وهى المذكورات من قوله «الله نور السموات والأرض» إلى هنا أو كل آية أنزلت ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ هدايته بالتوفيق للنظر فيها والتدبر لمعانيها ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ دين الإسلام الموصل إلى درك الحق والفوز بالجنة. ولما بين أدلة التوحيد أتبعها بذم قوم اعترفوا به بألسنتهم وأبت قلوبهم مع هذه الأدلة بقوله ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أى المنافقون ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ بتوحيده ﴿ وَبِالرَّسُولِ ﴾ محمد ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ الله ورسوله فيما حكما ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ ﴾ يعرض ﴿ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ عنه ويأبى التحاكم إليه كما فعل بشر المنافق حين خاصم يهودياً فدعى اليهودى إلى رسول الله ودعا المنافق إلى كعب بن الأشرف كما تقدم، وكما فعل المغيرة بن وائل كان بينه وبين على بن أبى طالب رضى الله عنه خصومة فى ماء وأرض فقال المغيرة: لا أتحاكم إلى محمد فإنه يبغضنى فأخاف أن يحيف على وكان يظهر أنه مؤمن به، وثم للاستبعاد بعد ذلك القول ﴿ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ المعهودين الموافق ما فى قلوبهم ألسنتهم لإتيانهم بما يضاد الإيمان ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ المبلغ عنه ﴿ لِيَحْكُمَ ﴾ الرسول ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ فإنه الحاكم ظاهراً والمدعو إليه وذكر الله تعالى لتعظيمه وللدلالة على أن حكمه صلى الله عليه وسلم فى الحقيقة حكم الله ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ عن المجيء إليه إذا علموا أن الحق عليهم لعلمهم أنك لا تحكم لهم وهو شرح للتولى ومبالغة فيه دلالة على فرط كفرهم فى الإعراض ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ ﴾ لعلمهم أنه يحكم لهم ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ طائعين مسرعين ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ كفر أو ميل إلى الظلم ﴿ أَمِ ارْتَابُوا ﴾ أى شكوا فى نبوتك بأن رأوا منك تهمة فزالت ثقتهم ويقينهم بك ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ فى الحكم أى يظلموا فيه لا ﴿ بَلْ ﴾ إضراب عن القسمين الأخيرين لتحقيق القسم الأول ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ بالإعراض عنه لمرض فى قلوبهم لا غيرهم، ويحتمل أنه إضراب عن نفس التقسيم والمعنى دع التقسيم واحكم بأنهم الجامعون لتلك الأوصاف الكاملون فى الظلم ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى القول اللائق بهم ﴿ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ سواء كان الحق عليهم أو لهم ﴿ وَأُولَٰئِكَ ﴾ حينئذ ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الناجون لا غيرهم ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ ﴾ فيما يأمران به كائناً من كان أى وقت كان دفع لتوهم اختصاص الفلاح بمن كان فى عصره ﴿ وَيَخْشَ ٱللَّهَ ﴾ أى عقابه على ماصدر منه من الذنوب ﴿ وَيَتَّقِهِ ﴾ بكسر الهاء للجمهور وسكونها لأبي عمرو وأبي بكر وخلاد عن حمزة أى يتقه فيما بقى من عمره لكن قالون لم يصل الهاء وحفص سكن القاف ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ بالجنة ﴿ وَأَقْسَمُوا ﴾ أى المنافقون ﴿ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ الكاذبة بعدذلك التولى والإعراض كما هو دأبهم فى النفاق وجهد منصوب بفعله كضرب الرقاب ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ ﴾ بالخروج من ديارهم وأموالهم أو إلى الجهاد ﴿ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ جواب لاقسموا على الحكاية ﴿ قُل ﴾ لهم ﴿ لَّا تُقْسِمُوا ﴾ على الكذب فإن ذلك تحمل إثم فوق آخر ﴿ طَاعَةٌ ﴾ للنبي ﴿ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ خير من هذه الأيمان الكاذبة أو المطلوب منكم طاعة معروفة كطاعة المؤمنين لا اليمين على الطاعة النفاقية المنكرة ، أو طاعتكم معروفة بأنها بالقول دون الفعل فلا حاجة إلى الأيمان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ لا يخفى عليه سرائركم فيجازيكم عليها ﴿ قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ﴾ واتركوا النفاق ، لم يقل وأطيعونى إشارة إلى أن كونه رسولا هو المقتضى للإطاعة وهو أمر بتبليغ ما خاطبهم الله به على الحكاية مبالغة فى تبكيتهم ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ عن طاعته ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ من التبليغ فلا ضير عليه لأنه أدى ما عليه ﴿ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ من الامتثال فعليكم غضب الله وسخطه بإعراضكم ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ إلى الحق وتحرزوا نفوسكم ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أى التبليغ البين وقد بلغ ثم أتى بتتميم قوله وإن تطيعوه تهتدوا بياناً لما لهم إن أطاعوه فى العاجل والآجل ترغيباً فقال ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولمن معه ومن للبيان أو للتبعيض أى وأقسم لهم ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم ﴾ ليجعلنهم خلفاء متصرفين ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بدل كفار العرب والعجم يتصرفون فيها بالشريعة تصرف الملوك فى ممالكهم واللام جواب قسم مضمر كما قدرنا أو الوعد نزل منزلة القسم وفيه إعلام بأن الإيمان والعمل الصالح أصلان فى الاستخلاف نزلت لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالصبر على أذى الكفار سنين ثم أمروا بالهجرة ثم بالقتال فكانوا كل وقت على خوف لا يضعون السلاح فوعدهم الله الاستخلاف والأمن . قال فى الجواهر : فالآية عامة لأمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يملكهم الله البلاد كما هو الواقع فى كل عصر فسبحانه ما أصدق وعده . اهـ . ﴿ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور ، والمفعول لأبي بكر ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من بنى إسرائيل بدلا عن الجبابرة الفراعنة بمصر والعمالقة بالشام ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ وهو الإسلام بأن يظهره على جميع الأديان ويوسع لهم فى البلاد فيملكوها ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن كثير وأبي بكر ﴿ مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ ﴾ من كفار قريش بمكة وكفار غسان بالمدينة وغيرهم ﴿ أَمْنًا ﴾ وقد أنجز الله وعده لهم وفتح لهم بلاد الشرق والغرب وأثنى عليهم بقوله ﴿ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ حال من الذين لتقييد الوعد بثباتهم على التوحيد أو استئناف لبيان

مقتضى الاستخلاف والأمن وفى وقوع ما ذكر دليل على صحة النبوة بالإخبار عن الغيب على ما هو به وخلافة الخلفاء الراشدين إذ لم يجتمع الموعود والموعود عليه لغيرهم بالإجماع . قاله البيضاوى . قلت : لحديث «الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا ...» الحديث والله أعلم ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ارتد أو كفر هذه النعمة ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الإنعام عليهم بما ذكر ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون فى الفسق حيث كفروا تلك النعم العظام أو حيث ارتدوا بعد وضوح الحق وأول من كفر به قتلة عثمان رضى الله عنه فصاروا يقتلون بعد أن كانوا إخوانا ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فى جميع ما أمركم به ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أى رجاء الرحمة ، والآية عطف على أطيعوا الله والفاصل ليس بأجنبى بل هو وعد على المأمور به تأكيداً وكررت طاعة الرسول مبالغة فى إيجابها وليرتب عليه الرحمة ثانياً كما رتب عليه الهدى أولا ثم أكد الوعد المتقدم بقوله ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالفوقية للجمهور والتحتية لابن عامر وحمزة والفاعل الرسول وهو المخاطب فى الأولى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾ لنا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بأن يفوتونا ﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾ مرجعهم ﴿النَّارُ﴾ عطف على مقدر كأنه قيل بل مقهورون فى الدنيا بالاستئصال مجزيون فى الآخرة بعذاب النار أو فى محل النصب على الحال كأنه قيل كيف هذا الحسبان والحال أن النار معدة لهم ﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع هى . ولما فرغ من الإلهيات والوعد والوعيد عليها رجع إلى تتميم الأحكام التى صدرت السورة بها فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب للرجال والنساء ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد والإماء ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ من الأحرار وعرفوا أمر النساء وعبر عن الرجولية بالحلم لأنه أقوى دلائلها ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ فى اليوم والليلة فى ثلاثة أوقات منصوب على الظرفية ﴿مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع والغالب فيه التجرد عن ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ للقيلولة ﴿مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾ بيان للحين ﴿وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ لأنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ بالرفع للجمهور خبر مقدر ومضاف وقام المضاف إليه مقامه أى هى أوقات ثلاث وبالنصب لحمزة والكسائى وأبى بكر بتقدير أوقات بعده منصوب بدلا من ثلاث مرات أو على محل من قبل صلاة الفجر قام المضاف إليه مقامه ، وتسميتها بالعورات لكونها مظنة لها وكل عيب وخلل عورة والآية نزلت فى دخول غلام أسماء بنت مرثد عليها فى وقت كرهته فشكت إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وقد أرسل عليه السلام مدلج بن عمر غلاما للأنصار ليدعو عمر بن الخطاب فدخل عليه من غير استئذان وهو على حالة كره الدخول عليه فيها فقال وددت أن الله نهى أبناءنا وخدمنا عن الدخول فى هذه الساعة علينا إلا بإذن ثم انطلق معه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فوجده وقد أنزلت عليه الآية : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أى المماليك والصبيان ﴿جُنَاحٌ﴾ فى الدخول بغير استئذان ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أى بعد الأوقات الثلاث ، والجملة صفة عورات على رفع ثلاث أى هن

عورات مخصوصة بالاستئذان ليس وراءهن جناح واستئناف يؤكد الأمر بالاستئذان فى تلك الأوقات على النصب ، هم ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ للخدمة : استئناف لبيان العذر المرخص فى ترك الاستئذان وهو المخالطة وكثرة المداخلة إذ الاستئذان حينئذ فى كل الأوقات يوجب الحرج ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾ طائف ﴿ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ جملة مؤكدة لما قبلها ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما بين ما ذكر ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ فى سائر الأحكام ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ كامل العلم بأحوالكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يشرع لكم ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ ﴾ أيها الأحرار ﴿ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ﴾ فى جميع الأوقات ﴿ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الأحرار الكبار ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ كرره مبالغة فى شأن الاستئذان وتوكيداً له وأضاف الآيات إليه زيادة فى التوكيد لأن الاستئذان مما يتساهل فيه ، وعن ابن عباس ثلاث آيات تهاونها الناس آيات الإذن و « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » و « إذا حضر القسمة أولو القربى » ﴿ وَالْقَوَاعِدُ ﴾ العجائز جمع قاعد ﴿ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ عن الحيض والحمل أو عن الدخول والخروج لعدم الاستطاعة ﴿ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ لعدم رغبتهن فيه وعدم رغبة الرجال فيهن لاستقذارهن لخرجت القاعد التى فيها مستمتع ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ الظاهرة من الجلباب والرداء والقناع فوق الخمار ولا تضع الإزار والقميص والخمار لأنه كشف للعورة ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ ﴾ مظهرات ﴿ بِزِينَةٍ ﴾ خفية كقلادة وسوار وخلخال وأصل التبرج التكلف فى إظهار ما يخفى للعين ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ ﴾ بأن لا يضعنها ﴿ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ لإبعاد التهمة ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالهن للرجال ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمقصودهن تحذير لهن عن التجاوز فى الأقوال والأفعال وقدم مايتعلق بالقول اهتماماً لحديث « وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » قال فى غاية الأمانى : لا سيما النساء فإن الغالب عليهن كثرة اللغو والخوض فى مالا يعنى . ولما تحرج ذوو العاهات من مؤاكلة الأصحاء والأصحاء من مؤاكلتهم نزل ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ فى مؤاكلة البصير وكذا البصير فى مؤاكلته ﴿ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾ كذلك ﴿ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ أى لاحرج على كل فى مؤاكلة مقابله : نفى لما تحرجوا عنه يقول الأعمى أخاف أن يكون يستقذرنى أو آخذ الجيد وأترك له الدنىء وقول الأعرج أضرهم فى جلوسى إذ ربما أخذت مكان رجلين وربما أفسدت لهم الطعام عند جلوسى ، وقول المريض ربما استقذرنى إذ لايخلو المريض من رائحة كريهة وكذا مقابلوهم يقولون نخاف أن نظلمهم فالأعمى لا يبصر الجيد والأعرج لا يتمكن من الجلوس إلا بعد عسر فربما أكل غيره لقمتين قبل أن يجلس والمريض لا يستوفى الأكل فنفى الله الحرج عن الجهتين وعلى على بابه على الأولى وبمعنى فى على الثانية . والله أعلم ﴿ وَلَا ﴾ حرج ﴿ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ ذكرها دلالة على عدم الفرق فى الحل بينها وبين المذكورات بعدها ودخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيته لقوله عليه السلام « أنت ومالك لأبيك » والجامع بين المعطوف والمعطوف

عليه كون كل منهما منفياً عنه الحرج ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ أى خزنتموه لغيركم وكالة أو حفظاً وهى ما بيد الوكيل والأمين والقيم وبيوت المماليك ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ من صدقكم فى مودته يطلق على الواحد والجمع كالخليط والمعنى يجوز الأكل من بيوت من ذكر وإن لم يحضروا إذا علم رضاهم به بقول أو قرينة حالية أو عادية ولذلك خصص هؤلاء لأنه يعتاد التبسط بينهم ولأن الوكالة العادية كاللفظية . قال الحضيرى : ولذا يجوز لكل من الأخوين أن يتصرف فى مال أخيه وينوب منابه من غير تصريح بالوكالة فهى وكالة صحيحة وكتصرف الزوج فى مال زوجته طول إقامتها عنده فهى وكالة عادية . اهـ . وذلك معلوم من دأب السلف . حكى أن الحسن دخل داره يوماً فرأى جمعاً من أصحابه قد أخرجوا من تحت سريره سلالا فيها أطايب الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون فاستنار وجهه وقال : هكذا وجدناهم . يريد كبراء الصحابة من البدريين . وقد روى أن الشافعى كان يذهب إلى بيت الزعفرانى ويقيم عنده فى بيت الكتب أياماً وكان دأب الزعفرانى أن يكتب صبيحة كل يوم ما يريد ويناول الجارية الورقة فوجد يوماً فى الطعام ما لم يكتبه فسأل عن ذلك فأخبرته الجارية أن الضيف أخذ منها الورقة وزاد فيها ذلك الطعام فقال : إن كنت صادقة فأنت حرة لوجه الله فأتت بالورقة فوجد الأمر كما أخبرته عليها ملحق بخط الشافعى ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا ﴾ مجتمعين ﴿ أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ مفترقين جمع شت ، ردّ لمن يتحرج أن يأكل وحده وإذا لم يجد من يؤاكله ترك الأكل ، وهم بنو ليث من كنانة ، ومن لا يأكل إلا مع الضيف من الأنصار ، ومن يتحرج من الاجتماع على الأكل لتفاوت نهمة الناس ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا ﴾ لكم لا أهل بها أو بيوتاً من هذه البيوت وغيرها ولذا نكرها ﴿ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى قولوا : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإن الملائكة ترد عليكم أو على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة فإن المؤمنين كنفس واحدة ﴿ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ مشروعة بإذنه وانتصابه على المصدر كقعدت جلوساً ﴿ مُبَارَكَةً ﴾ ترجى بها زيادة الخير والثواب ﴿ طَيِّبَةً ﴾ تطيب بها نفس المستمع وتوجب له الأنس ، وعن ابن عباس : إذا دخلت المسجد وليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ يفصل لكم معالم دينكم ، كرره ثالثاً لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختتمة به وجعل الفاصلة فى الأولين العلم والحكمة المقتضيين لتبيين الأحكام وهنا بما هو المقصود من ذلك البيان وهو قوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الخير فى الأمور . وفى البخارى « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » قال ابن عطية : والنسخ لا يتصور فى شىء من هذه الآيات بل كلها محكمة ، أما قوله « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » ففى التعدى ونحوه . وأما هذه الآيات ففى إباحة طعام هذه الأصناف التى يسرها استباحة طعامها على هذه الصفة ، وأما آية الإذن فعلة إيجاب الاستئذان خوف

الكشفة فإذا استأذن المرء ودخل المنزل بالوجه المباح صح له بعد ذلك أكل الطعام بهذه الإباحة وليس يكون فى الآية نسخ فتأمله . اهـ ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الكاملون فى الإيمان ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ ﴾ الرسول ﴿ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ وصف الأمر به مجاز مبالغة ، والمراد ما يكون الاجتماع لأجله كالجمعة والعيد والحروب والمشاورة فى الأمور المهمة . روى أنها نزلت فى حفر الخندق حول المدينة فكان المؤمنون يستأذنون والمنافقون يذهبون بلا إذن ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ لعروض عذرهم ﴿ حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ لأن التسلل ديدن المنافقين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ والذاهب بغير إذن ليس كذلك ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ أى المهم منه وفيه تضييق للأمر ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ بمن علمت صدق عذره وامنع من شئت ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ﴾ بعد الإذن فإن الاستئذان ترك الأفضل وتقديم لأمر الدنيا على أمر الدين ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لفرطات العباد ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتيسير عليهم وإرسال من يستغفر لهم ثم أكد أمر الاستئذان بقوله ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ إذا دعاكم ﴿ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ فى جواز الإعراض والمساهلة فى الإجابة والرجوع بغير إذنه فإجابته واجبة والرجوع بغير إذنه إذا دعا محرم أو لاتجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضاً بأن تقولوا « يامحمد» بل قولوا «يانبي الله ، يارسول الله» فى لين وتواضع وخفض صوت أو لا تجعلوا دعاءه لكم واستغفاره لكم كدعاء بعضكم بعضاً فإنه مستجاب حتماً أو لاتجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم بعضاً فلا تبالوا بسخطه ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ يخرجون من الجماعة قليلا قليلا خفية من غير استئذان ﴿ لِوَاذًا ﴾ ملاوذة مستترين بغيرهم مصدر لاوذ إذا تستر بغيره أدخل « قد » على العلم تحقيقاً وتوكيداً لثبوته ليكون ذريعة إلى تحقق الوعيد ، وانتصاب « لواذاً » على الحال أو على المصدرية لفعله المحذوف ، الأصل يتسللون تسللا ويلاوذون لواذاً لحذف مصدر الأول وفعل الثانى اكتفاء ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ واحد الأوامر أو الأمور والضمير لله فإن الأمر له حقيقة أو للرسول فإنه المقصود بالذكر وعدى بعن لتضمن معنى الإعراض أو معنى عن بعد ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ بلاء فى الدنيا بالقتل والأسر ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى الآخرة وفيه دليل على أن الأمر للوجوب عند عدم الصارف ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أيها المكلفون من المخالفة والموافقة والنفاق والإخلاص وأكد علمه بعد تأكيداً للوعيد ﴿ وَ ﴾ يعلم ﴿ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ فيه التفات عن الخطاب ﴿ فَيُنَبِّئُهُم ﴾ فيه ﴿ بِمَا عَمِلُوا ﴾ من الخير والشر ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه خافية . افتتح السورة بالأحكام وختمها ببيان إحاطة علمه بكل شيء ترغيباً عليها وترهيباً وعداً ووعيداً فانتظم أولها بآخرها ولله الحمد .

[تم تفسير سورة النور]

سورة الفرقان

مكية إلا « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر » إلى « رحيما » فمدنى وهى سبع وسبعون آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . تَبَارَكَ﴾ تعالى أو تكاثر خير ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ مصدر فرق سمى به القرآن لأنه فرق بين الحق والباطل ، وصف من نزله بالبركة لأن خيره لا يحصى إذ هو أصل الشريعة ولا يوصف بـ « تبارك » غيره تعالى ولا يتصرف فيه ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿لِيَكُونَ﴾ الفرقان أو محمد أو الله ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ الإنس والجن ﴿نَذِيرًا﴾ مخوفاً من عذاب الله تعليل للصلة من تتمتها ﴿الَّذِي﴾ بدل من الموصول أو مدح مرفوع أو منصوب ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كزعم النصارى وخزاعة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ كزعم أهل الضلال ، أثبت الملك لنفسه ونفى ما يقوم مقامه وما يقاومه فيه ثم نبه على ما يدل عليه بقوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من شأنه أن يخلق ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ سوّاه تسوية أو هيأه تهيئة لما أراد منه من الخصائص والأفعال أو قدره للبقاء إلى أجل مسمى . ولما بيّن تفرده بالألوهية أخذ فى بيان طرق من ضل عن السبيل واتخذ شريكا تحذيرا عنها بقوله ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ أى الكفار ﴿مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ هى الأصنام ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ مخلوقون وإيثار المضارع لاستحضار تلك الحالة أو يخلقهم عبدتهم بمعنى ينحتونهم ويصوّرونهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ لا يستطيعون ﴿لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ أى دفعه ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ أى جزه ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ إماتة لأحد ﴿وَلَا حَيَاةً﴾ إحياء لأحد ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ بعثاً للأموات ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية ، وقد روعى الأقرب فالأقرب فى الترتيب ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا﴾ القرآن ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ كذب ﴿افْتَرَاهُ﴾ اخترعه محمد قصداً وآثر المظهر إشارة إلى أن الباعث على هذا القول هو الكفر ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ من أهل الكتاب يلقون إليه أخبار الأمم وهو يعبر عنها بعباراته . قال تعالى ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا﴾ عظيما وهو الكفر بجعل الكلام المعجز إفكاً ﴿وَزُورًا﴾ بنسبة ما هو برىء عنه إليه وأتى وجاء يطلقان بمعنى فعل فيعديان تعديته ﴿وَقَالُوا﴾ أيضاً هو ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أكاذيبهم ﴿اكْتَتَبَهَا﴾ كتبها أو طلب كتبها له لأنه أمىّ من ذلك القوم ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ﴾ تقرأ وتلقى ﴿عَلَيْهِ﴾ ليحفظها ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ غدوة وعشيا . قال تعالى رداً عليهم ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ الغيب ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مشتملا على المغيبات التى لا يعلمها غيره فكيف يكون هذا أساطير الأولين أو مختلقاً ﴿إِنَّهُ

كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ولذا أنزله إليك وأخر العقوبة عن مكذبيه ﴿ وَقَالُوا ﴾ أيضاً استهزاء وإهانة ﴿ مَالِهَٰذَا الرَّسُولِ ﴾ أى هذا الذى يزعم أنه رسول ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ لطلب المعاش كسائر الناس ، أى ما له لم يخالف حاله حال الناس وهذا لقصور نظرهم على المحسوسات ولم يعلموا أن تميز الرسل ليس بأمور جسمانية بل بأحوال روحانية ﴿لَوْلَا ﴾ هلا ﴿أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ يصدقه ويتعاونان على الإنذار﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ من السماء يستغنى به عن السعى فى الأسواق والتردد فى طلب المعاش ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ ﴾ بستان ﴿ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ من ثمارها ، ويأكل بالياء للجمهور والنون لحمزة والكسائى أى ليكون له مزية علينا بها وهذا منهم تنزل أى إن لم يلق إليه كنز فلا أقل من أن يكون له بستان كما للدهاقين : جمع دهقان : رئيس الإقليم أو رئيس فلاحى العجم ، ومياسير التجار ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ ﴾ أى الكفار للمؤمنين وضعه موضع الضمير تسجيلا عليهم بأنهم ظالمون فى مقالتهم ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ ما تتبعون ﴿ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ سحر حتى غلب على عقله قال تعالى ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ بالمسحور والمحتاج إلى ما ينفقه وإلى ملك يقوم معه بالامر ومعنى الامثال أقوالهم الغريبة لفرط بعدها عن حالك ﴿ فَضَلُّوا ﴾ بها عن الهدى إلى خواص الرسول فهم يخبطون فيها خبط عشواء ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ إلى الهدى أو إلى شيء يستقرون عليه فى القدح فى نبوتك لحيرتهم ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ ﴾ فى الدنيا ﴿ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ مما قالوه من الكنز والبستان ولكن أخره إلى الآخرة لأنها خير وأبقى ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ بدل من خيرا ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ ﴾ بالجزم عطفاً على محل الجزاء للجمهور والرفع لابن كثير وابن عامر وأبى بكر استئنافاً أو عطفاً على جعل لأن الشرط ماض فيجوز فى جزائه وفى المعطوف عليه الرفع والجزم ﴿ قُصُورًا ﴾ جمع قصر : المنزل أو كل بيت من حجر يختص به صاحبه ﴿ بَلْ ﴾ عطف على ما حكى عنهم من قولهم « مال هذا الرسول » إضراب إلى ما هو أعظم فإن ذلك تكذيب للرسول وهذا تكذيب له تعالى أو متصل بقوله « تبارك الذى إن شاء » إنكاراً منهم لذلك على أبلغ وجه بأن من كذب بالساعة كيف يصدق هذا الخبر ﴿ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ القيامة لقصور نظرهم على حطام الدنيا فظنوا أن الكرامة بالمال ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ النار الشديدة الاستعار ﴿ إِذَا رَأَتْهُم ﴾ حقيقة أو كانت بمرأى منهم ، والأول أولى ﴿ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ روى أنها تتراءى لهم من مسيرة مائة عام ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾ غلياناً كالغضبان إذا غلى صدره من الغضب ﴿ وَزَفِيرًا ﴾ صوتاً شديداً وسماع التغيظ رؤيته وعلمه ولما كانت الحياة لا يشترط فيها بنية دون بنية عندنا أمكن أن يخلق الله فى النار الحياة فترى وتتغيظ ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ﴾ فى مكان ومنها بيان تقدم فصار حالا ﴿ ضَيِّقًا ﴾ بزيادة العذاب . وعن ابن عباس : يضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح ليشتد عليهم الكرب ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ فى السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم أو يقرن كل إنسان مع شيطانه فى سلسلة وفى أرجلهم الأصفاد ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ﴾ فى

ذلك المكان ﴿ ثُبُورًا ﴾ أى يتمنون الهلاك وينادونه فيقولون : تعال يا ثبوراه . أى فهذا حينك فيقال لهم ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ لعدم انقطاع عذابكم وكثرة أنواعه فكل وقت وقت ثبور آخر ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الوعيد وصفة النار ﴿ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ ﴾ ها ﴿ الْمُتَّقُونَ ﴾ للشرك وكل شر والاستفهام للتوبيخ والتفضيل على وجه التهكم كما يقول من يضرب عبده لمخالفته أمره : هذا أطيب أم ذلك ﴿ كَانَتْ لَهُمْ ﴾ فى علمه تعالى أو فى اللوح ﴿ جَزَاءً ﴾ ثواباً ﴿ وَمَصِيرًا ﴾ مرجعاً والتعبير بالماضى لجعل المترقب كالواقع وذكر المصير مع الجزاء لأن لذة النعيم لا تكمل إلا إذا انضم إليها طيب المنزل ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ كل على قدر مرتبته وفيه دليل على أن كل المراد لا يحصل إلا فى الجنة ﴿ خَالِدِينَ ﴾ حال من فاعل « يشاءون » لازمة ﴿ كَانَ ﴾ وعدم ما ذكر ﴿ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ يسأله من وعد به : « ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك » أو يسأله لهم الملائكة : « ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم » أو هو حقيق بأن يسأل ويطلب ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ بالنون للجمهور والياء لابن كثير وحفص والضمير للكفار لأن ذكر المتقين استطراد لإظهار مقام الفريقين على وجه التقابل ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره من كل معبود سواه ومنه الملائكة وعيسى وعزير وما يعم العاقل وغيره أو أريد به الوصف أى المعبود أو غلب غير العاقل للكثرة ﴿ فَيَقُولُ ﴾ تعالى ، بالتحتية للجمهور على تلوين الخطاب وبالنون لابن عامر أى يقول للمعبودين العقلاء أو غيرهم ينطقه الله أو يتكلم بلسان الحال ﴿ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ ﴾ بأمركم إياهم بعبادتكم ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ الحق بأنفسهم بإعراضهم عن النظر الصحيح وعن المرشد النصيح : سؤال توبيخ للعبدة إذا أجاب المعبودون بما أجابوا ليزداد بذلك حسرتهم وفضيحتهم ، وتقديم المسند إليه لكون الفعل واقعاً بلا ريب وإنما السؤال فى الفاعل ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيهاً لك عما لا يليق بك إبعاد له عن الأنداد أو تعجب من نسبة الإضلال إليهم لأنهم إما ملائكة وأنبياء فهم معصومون أو جمادات لاحياة لها ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي ﴾ ما يصح ﴿ لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ ﴾ أى غيرك ﴿ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ مفعول أول و« من » زائدة لتأكيد النفى وما قبله الثانى أى ما يليق بنا أن نتولى أحداً دونك فكيف نأمر أحداً بأن يتولانا دونك ﴿ وَلَٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ﴾ بأنواع النعم وطول العمر فاستغرقوا فى الشهوات ﴿ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ ﴾ حتى غفلوا عن ذكرك أو التذكر بآلائك أو التدبر فى آياتك والإيمان بها ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ هالكين مصدر وصف به ولذا يستوى فيه الواحد والجمع أو جمع بائر كعائذ وعود . قال تعالى ملتفتاً إلى العبدة كفاحاً بالتوبيخ ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ ﴾ أى كذب المعبودون العابدين ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ بالفوقية للجمهور والتحتية لابن كثير أى بقولهم إنهم آلهة أو هؤلاء أضلونا ، ويجوز أن يكون الجار والمجرور بدل اشتمال من الضمير لأن كذبته وكذبت به واحد معنى ﴿ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ بالتحتية للجمهور والفوقية لحفص أى لا هم ولا أنتم ﴿ صَرْفًا ﴾ للعذاب عنكم

﴿ وَلَا نَصْرًا ﴾ منعا لكم منه ﴿ وَمَنْ يَظْلِمْ ﴾ بشرك أو بغيره ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أيها المشركون أو المكلفون ﴿ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ شديداً فى الآخرة والشرط إن عم الكفر والفسق فهو مقيد فى اقتضاء الجزاء بعدم التوبة والعفو ثم أجاب عن شبهتهم «مال هذا الرسول يأكل الطعام» بقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أحداً ﴿ إِلَّا أَنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ فأنت مثلهم فى ذلك وقد قيل لهم كما قيل لك والجملة بعد إلا صفة محذوف أى إلا رسلا يأكلون لدلالة المرسلين عليه وأقيمت الصفة مقامه كقوله وما منا إلا له مقام معلوم أى أحد. وفيه دليل أن المشى فى الأسواق من عادات الصالحين، لكن قال ابن العربى فى الأحكام : ولما كثر الباطل فى الأسواق وظهرت فيها المناكير كره علماؤنا دخولها لأرباب الفضل المقتدى بهم فى الدين تنزيها لهم عن البقاع التى يعصى الله تعالى فيها . اه . ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ بلية : ابتلى الغنى بالفقير والصحيح بالمريض والشريف بالوضيع والرسول بالمرسل إليه . يقول الثانى فى كلٍّ : مالى لا أكون كالأول ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ على ماتلقون ممن ابتليتم بهم : استفهام بمعنى الأمر بالصبر بعد بيان موجبه أو علة للجعل أى لنعلم أيكم يصبر ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ بمن يصبر وبمن لا يصبر أو بمن يصلح للرسالة والاصطفاء أو بالصواب فيما يبتلى به وبغيره ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ ﴾ لا يخافون أو يأملون ﴿ لِقَاءَنَا ﴾ بالبعث أو جزاءنا عن الأعمال الصالحات لكفرهم ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾ فيكونوا رسلا إلينا أو فتخبرنا بصدق محمد ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ فيأمرنا وينهانا بلا واسطة ولا حجاب ، قال تعالى ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي ﴾ شأن ﴿ أَنْفُسِهِمْ ﴾ حتى أرادوا لها مالا يتفق إلا للأفراد من الأنبياء وأكبر من ذلك ﴿ وَعَتَوْا ﴾ تجاوزوا الحد ﴿ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ مفرطاً ، واللام جواب قسم محذوف وفيه تعجب كأنه قيل : ما أشد استكبارهم وما أكبر عتوهم حيث أعرضوا عن المعجزات وطلبوا لأنفسهم الخبيثة ما سدت دونه مطامع النفوس القدسية ، وعتوٌّ بالواو على أصله بخلاف عتيّ بالإبدال فى مريم ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ ﴾ ملائكة الموت أو العذاب يوم الموت أو يوم القيامة نصب باذكر أو بما دل عليه ﴿ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ لكل مجرم أو لهم فوضع موضع الضمير بيانا بأن جرمهم هو المانع للبشرى بخلاف المؤمنين فلهم البشرى بالجنة ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أى الكفرة إذا رأوا الملائكة عند الموت أو القيامة ﴿ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ على عادتهم فى الدنيا عند النوائب والنوازل يقولون ذلك فى مقام الاستعاذة أى عوذاً معاذاً يستعيذون من الملائكة وحجراً فى الأصل المنع وهو من المصادر التى هجر ذكر ناصبها ، ومحجوراً : للمبالغة كليل أليل أو القائلون الكلمة هم الملائكة حين يأخذونهم من القبور أو على النار ومعناها حينئذ حرام محرم عليكم أى الغفران أو الجنة أو البشرى ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ عمدنا أو قصدنا ﴿ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ﴾ من الخير كصدقة وصلة رحم وقرى ضيف وإغاثة ملهوف فى الدنيا ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ هو ما يرى فى الكوى التى عليها الشمس كالغبار المفرق أى مثله فى عدم النفع به إذ لا

ثواب فيه لعدم شرطه ويجازون عليه فى الدنيا ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة ﴿ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ﴾ مكاناً يستقر فيه للمجاورة والمحادثة مع الأصحاب ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ مكاناً للاسترواح والتمتع بالأزواج شبه بالمقيل فى الاستراحة فيه إذ لا ليل ولا نهار فى الجنة أو إشارة إلى أنهم يصلون إلى الجنة نصف النهار إذ روى أن الحساب يفرغ فى نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار وفى أحسن رمز إلى مايتزين به مقيلهم من حسن الصور وغير ذلك ويحتمل أن يراد بالمقيل الزمان إشارة إلى أن مكان استقرارهم أطيب الأمكنة وزمانهم أطيب الأزمنة والتفضيل إما أن يراد به الزيادة المطلقة أو بالإضافة إلى المترفين فى الدنيا ﴿ وَيَوْمَ ﴾ منصوب باذكر ﴿ تَشَقَّقُ ﴾ بالتشديد لنافع وابن كثير وابن عامر وبالتخفيف بحذف إحدى التاءين للباقين ﴿ السَّمَاءُ ﴾ أى كل سماء ﴿ بِالْغَمَامِ ﴾ بسبب طلوعه منها وهو المذكور فى قوله فى ظلل من الغمام قيل هو غمام فوق السموات ثقله مثل ثقلها فإذا كان يوم القيامة ألقاه الله على السموات فتنشق منه ، أو الباء بمعنى مع أى معه وهو غيم أبيض ، أو بمعنى عن ﴿ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ ﴾ فى ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد ﴿ تَنْزِيلًا ﴾ ولابن كثير ننزل مضارع أنزل ونصب الملائكة ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ الثابت ﴿ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ لا يشركه فيه أحد ويومئذ معمول الملك لا الحق لأنه متأخر وهو خبر أو صفة والخبر يومئذ أو للرحمن ﴿ وَكَانَ ﴾ اليوم ﴿ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ شديداً شاقاً عليهم بخلاف المؤمنين ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ ﴾ أى كل ظالم ﴿ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ كناية عن فرط الندامة وفى اليدين إشارة إليه والآية نزلت فى عقبة بن أبى معيط نطق بالشهادتين إرضاء للنبى ليأكل طعامه ثم رجع رضًى لصديقه أبىّ بن خلف ﴿ يَقُولُ ﴾ فى القيامة ﴿ يَا ﴾ للتنبيه ﴿ لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ ﴾ محمد ﴿ سَبِيلًا ﴾ إلى الهدى . قال السهيلى لم يصرح باسم عقبة وأبىّ ليعم الوعيد كل من فعل مثل فعلهما . اه . وقال مجاهد : الظالم اسم جنس عام ومقصد الآية تعظيم القيامة بأنها يوم تندم فيه الظلمة وتتمنى أنها لم تطع أخلاءها فى الدنيا . اه . لكن قال فخر الدين : العموم لنفس اللفظ إذ الألف واللام فى المفرد لا يفيد العموم إلا بقرينة وهى هنا ترتيب الحكم على الوصف المشعر بعليته فيعم الحكم لعموم علته . اه . ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ ﴾ ألفه عوض عن ياء الإضافة أى هلكتى ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا ﴾ أى أبياً إن أريد العهد فى الظالم وإن أريد الجنس فكل من اتخذ خليلا فى الشر ، وفلانا كناية عن أعلام الذكور كما أن هنا كناية عن الأجناس ﴿ خَلِيلًا ۝ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ القرآن أو ذكر الله أو موعظة الرسول أو كلمة الشهادة ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ وتمكنت منه ولم يبق لى عذر ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ ﴾ يعنى الخليل المضل أو إبليس أو كل شيطان من جن وإنس ﴿ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ بأن يتركه ويتبرأ منه عند البلاء ، وفيه تنبيه على تجنب قرين السوء والأحاديث والحكم فى ذلك لا تحصى ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ ﴾ محمد بثاً إلى الله تعالى فى الدنيا أو فى القيامة ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي ﴾ قريشاً ﴿ اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ متروكا لا يلتفت إليه أو مهجوراً فيه أى جعلوا فيه لغواً لئلا يسمعوه أو جعلوه هذياناً بقولهم

سحر شعر والأول أولى لحديث النبي صلى الله عليه وسلم من تعلم القرآن وعلق مصحفه لم يتعاهده جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول يارب عبدك هذا اتخذنى مهجوراً اقض بينى وبينه وفى شكايته عليه السلام تخويف قومه لأن الانبياء إذا شكوا إلى الله قومهم عجل لهم العذاب ولذا سلاه تعالى بقوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما جعلنا لك عدواً من مشركى قومك ﴿ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ ﴾ قبلك ﴿ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ المشركين فاصبر كما صبروا ولفظ العدو يحتمل الواحد والجمع . قاله البيضاوى ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا ﴾ لك إلى طريق قهرهم ﴿ وَنَصِيرًا ﴾ لك عليهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ منكرين إنزال القرآن مفرقاً ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ﴾ بتؤدة لكن ﴿ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ كالكتب الثلاثة وهذا اعتراض لا طائل تحته لأن الإعجاز لا يختلف بتفريقه مع أن للتفريق فوائد أشار إليها بقوله ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى كذلك أنزلناه مفرقاً أو كما أنزل أردناه ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ بضبطه وحفظه فيزداد قلبك بكل نجم منه قوة وثباتاً إذ يعجزون عن معارضته مع أن الشرائع مقارنة لآياته فلو نزلت جملة لثقلت عليهم مع ما علم الله فيها من الناسخ والمنسوخ فيأتى الناسخ بعد ما عمل بالأول ونيل ثوابه ولا يمكن مع وقوعهما دفعة وفى تنجيمه الظهور التام مع ترداد جبريل إليك فى جميع أحوالك لتتوالى لديك الأفراح كل وقت كما يفعله الملوك مع الخواص المقربين يواصلونهم بالرسائل والكتب ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ ﴾ قرأناه عليك شيئاً بعد شىء بتمهل فى ثلاث وعشرين سنة ﴿ تَرْتِيلًا ﴾ تفصيلا متناسباً من رتل الأسنان فلجها أو أمرنا بترتيله فى القراءة لفهمه ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ سؤال عجيب كالمثل فى إبطال أمرك ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ الدافع له فى جوابه مما ينزل عليك وذلك أيضاً من فوائد التفريق ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ بياناً وكشفاً عن المقصود من الفسر وهو الكشف وصيغة التفعيل للمبالغة ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ ﴾ مقلوبين ﴿ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ أو مسحوبين إليها والموصول رفع أو نصب على الذم أو مبتدأ خبره ﴿ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ ممن يظنون به ذلك حتى قدحوا فى رسالته أى لو علموا حالهم لعلموا أنهم شرٌّ مكاناً ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أخطأ طريقاً من غيرهم وفى وصف السبيل بالضلال على طريق المجاز الحكمى مبالغة فى ضلال سالكه . ولما أثبت الله تعالى التوحيد والرسالة وأبطل شبهات المنكرين وسلى نبيه بقوله « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا » فصل بعض أحوال مشاهيرهم وقدم موسى هنا لأن أمته ومشقته مع الجهال أوفر فقال ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴾ معيناً على تبليغ الرسالة وإعلاء الكلمة ولا تنافى بين النبوة والوزارة ﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى القبط فرعون وقومه فذهبا إليهم بالرسالة فكذبوهما ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ أهلكناهم إهلاكاً ، ولما كان الغرض التسلية وأنه سينزل بالمشركين ما نزل بأولئك اختصر الكلام بذكر طرفى القصة وكذلك سلك فى القصص بعدها ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴾ بتكذيب نوح إذ تكذيب واحد منهم تكذيب لسائرهم لاشتراكهم فيما جاءوا به من التوحيد ،

أو لما كذبوا بعث الرسل ﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ جواب « لما » ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ﴾ بعدهم ﴿ آيَةً ﴾ عبرة إلى يوم القيامة ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ فى الآخرة ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ لكل ظالم ، أو لهم ، وإيثار المظهر للدلالة على علية الحكم ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ مؤلماً سوى ما يحل بهم فى الدنيا ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ عَادًا ﴾ قوم هود أو عطف على هم فى « جعلناهم » ﴿ وَثَمُودَ ﴾ قوم صالح فهؤلاء الاعلام فى الظلم ﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾ اسم بئر لقوم شعيب خسفوا فيه أو اسم قرية باليمامة فيها بقايا ثمود بعث فيهم نبى فقتلوه فاستؤصلوا ، وقيل : هم قوم حنظلة ـ وتقنمت قصتهم ـ وقيل أصحاب الأخدود . والرس : الأخدود ، وقيل الرس : أرض بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار فصاح بهم جبريل . والله أعلم ﴿ وَقُرُونًا ﴾ أقواماً ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ كَثِيرًا ﴾ لا يعلمها إلا الله تعالى ﴿ وَ ﴾ أنذرنا ﴿ كُلًّا ﴾ أى كل قرن ﴿ ضَرَبْنَا لَهُ ﴾ بيّنا له ﴿ الْأَمْثَالَ ﴾ القصص الغريبة مما جرى على الأمم المكذبة للرسل إنذاراً وتحذيراً ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا ﴾ لما أصروا على الكفر ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ من التبار وهو الكسر ومنه التبر لفتات الذهب والفضة ، و « كلا » الأول منصوب بما دل عليه ضربنا : أى أنذرنا ، والثانى بـ « تبرنا » لفراغ الفعل له ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا ﴾ أى مرّ كفار قريش فى سفرهم إلى الشام ﴿ عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ الحجارة مصدر ساء وهى عظمى قرى قوم لوط أهلك الله أهلها لفعلهم الفاحشة ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ الاستفهام للإنكار الداخل على النفى فيفيد الإثبات أى قد رأوها ﴿ بَلْ كَانُوا ﴾ كفرة ﴿ لَا يَرْجُونَ ﴾ لا يخافون ﴿ نُشُورًا ﴾ فلذا يمرون بها كما تمر ركابهم ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ ﴾ ما ﴿ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ مهزوءاً به يقولون ﴿ أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ فى دعواه محتقرين له بالرسالة ﴿ إِنْ ﴾ مخففة أى إنه ﴿ كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾ يصرفنا ﴿ عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ لفرط اجتهاده فى الدعاء إلى التوحيد ﴿ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ لصرفنا عنها . قال تعالى ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ عياناً فى الآخرة ﴿ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أخطأ طريقاً أهم أم المؤمنون ، كالجواب لقولهم « إن كاد ليضلنا » لأن من يضل غيره لابدّ أن يكون ضالا فى نفسه ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ أخبرنى ﴿ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ بأن أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ولا يتبصر محجة ، قدّم المفعول الثانى لأنه أهم وجملة « من » مفعول أول لـ « أرأيت » ، والثانى ﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ حافظاً تحفظه عن اتباع هواه بل أنت مبلغ ولا إكراه فى الدين ، والاستفهام الأول للتقرير والتعجيب والثانى للإنكار ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تفهم ﴿ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ ما تقول لهم ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أخطأ طريقاً منها لأنها تنقاد لمن يتعهدها وهم لا يطيعون مولاهم المنعم عليهم ولأنها إن لم تعتقد حقا لم تعتقد باطلا وجهالتها لا تضر بأحد بخلاف هؤلاء . ثم أشار إلى صنعه البديع الدال على كمال قدرته وعلمه الذى لو تفكروا فيه لما أنكروا ما أنكروا بقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ ﴾ صنع ﴿ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ﴾ بسط ﴿ الظِّلَّ ﴾ لمنافع العباد ، وهو ظل السماء على الأرض من وقت الإسفار إلى طلوع الشمس وهو

أطيب الأوقات ولذا وصف به الجنة فى قوله « وظل ممدود » ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ ثابتاً من السكنى أو غير متقلص من السكون بأن لا يزول بطلوع الشمس أو أصل الكلام ألم تر إلى الظل كيف مده ربك فعدل إلى المنزل إشارة إلى أن هذا المعقول كالمرئى بوضوح برهانه ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ ﴾ الظل ﴿ دَلِيلًا ﴾ فإنه لا يظهر للحس حتى تطلع : فلولا الشمس ماعرف الظل ، أو جعلنا الشمس متبوعا يتبعه الظل يزيد به وينقص ويمتد ويقلص ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ ﴾ أى رفعنا الظل الممدود ﴿ إِلَيْنَا ﴾ بإيقاع شعاع الشمس موقعه ولما عبر عن إحداثه بالمد بمعنى النشر عبر عن إزالته بالقبض الذى بمعنى الكف مطابقة ﴿ قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ على التدريج شيئاً فشيئاً لما فى ذلك من مصالح العباد إلى أن تتناهى غاية نقصانه أو قبضاً سهلا عند قيام الساعة بقبض أسبابه من الأجرام المظلة والمظل عليها ويؤيده لفظ « إلينا » والظل ضوء مخلوط بظلمة وهو كيفية زائدة على الأجسام وألوانها ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ ساتراً كاللباس ﴿ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ راحة للأبدان وقطعاً للشواغل والسبت الراحة والقطع ومنه قول عمر لمعاوية : لاتسأل عن شيخ نومه سبات وليله هبات . والمراد بالسبات : الموت ، ومنه المسبوت للميت ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ ذا نشور أى انتشار ينتشر فيه الناس للمعاش أو أحياء وهو إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لابن كثير ﴿ نُشُرًا ﴾ بضمتين لنافع وابن كثير وأبى عمرو ، جمع نشور كصبور على الأصل أى متفرقة قدام المطر ولابن عامر بسكون الشين تخفيفاً أو جمع ناشر ولحمزة والكسائى بسكونها وفتح النون مصدر ولعاصم بسكونها وضم الموحدة بدل النون جمع بشير أى مبشرات ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ مطره لأنه سبب بقاء العالم ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ بليغاً فى الطهارة أو متطهراً به من الأحداث والأخباث فعول من طهر اسم آله كالوقود والسحور لأن المأخوذ من اللازم لا يكون متعدياً وقول الفقهاء بمعنى المطهر تسامح . قاله فى غاية الأمانى . والطهور هو المطلق الذى لم يتغير لونه وطعمه وريحه بما يفارقه غالباً عما ليس بقراره ولا متولد منه والمتغير بمخالطة أجنبى لا يطهر اتفاقاً لا بالمجاورة فطهور اتفاقاً ، وكذا بالملاصقة من غير مخالطة على المشهور ، وما وجد فى الفلاة منتناً لا يدرى لِمَ ذلك فلا بأس به ووقوع النجاسة فى راكده سالب للطهورية مطلقاً عند أبى حنيفة قليلا كان الماء أو كثيراً وعند مالك إذا غيّره والشافعى كأبى حنيفة فيما دون القلتين وكمالك إذا بلغ القلتين والجارى كالراكد . وقال أبو حنيفة لا ينجس الجارى إذا لم ير للنجاسة فيه أثر . وفى الآية إشارة إلى أن ظواهرهم لما كانت ينبغى تطهيرها بالماء فبواطنهم أولى بالتطهير من قاذورات الرذائل لأنها محل الأسرار ﴿ لِنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ بالتخفيف يستوى فيه المذكر والمؤنث أى بالنبات ﴿ وَنُسْقِيَهُ ﴾ أى الماء المنزل ﴿ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا ﴾ إبلا وبقرا وغنما لأهل البوادى ﴿ وَأَنَاسِىَّ ﴾ جمع إنسى أو إنسان أصله أناسين أبدلت النون ياء ﴿ كَثِيرًا ﴾ أهل البوادى الذين يعيشون بالحيا ولذلك نكر الأنعام والأناسىّ

لأن أهل المدن والقرى يقيمون بقرب الأنهار والمنابع فهم فى أكثر الأوقات فى غنية من المطر ، وقدم الأهم فالأهم وصف الماء أولا بالطهورية لأن المقصود الأصلى من إنزاله تطهيرهم لمناجاة ربهم ثم إحياء الأرض بالنبات لأنه سبب معاشهم ومعاش أنعامهم فقدم الأنعام لذلك فهى أولى به ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ ﴾ أى الماء أو القرآن ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ فى البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة والأوصاف المتفاوتة من وابل وطل وغيرهما . وعن ابن عباس : « ما من عام أمطر من عام ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء » أو صرفناه فى الأنهار والمنافع ﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ بإدغام التاء فى الذال للجمهور وبسكون الذال وضم الكاف لحمزة والكسائى يتفكروا نعمة الله بشكره ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ جحوداً للنعمة حيث قالوا مطرنا بنوء كذا ومن لا يرى الأمطار إلا من الأنواء كان كافراً بخلاف من يرى أنها من خلق الله والأنواء أمارات بجعله تعالى . قاله البيضاوى . ولما سلى نبيه بجعل الكفار أضل من الأنعام وأنه أنعم عليهم نعماً فأبوا إلا جحودها . أشار إلى عموم رسالته تعظيما لأجره فقال ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ يخوّف أهلها ولكن بعثناك إلى أهل القرى كلها نذيراً ليعظم أجرك وتفضل بذلك على سائر الرسل فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد فى الدعوة وإظهار الحق ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ السفهاء فى هواهم ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ ﴾ بالقرآن ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ فإن الجهاد بالحجة أكبر من الجهاد بالسيف لا سيما مع السفهاء ، ولذا قال الشافعى : لا شىء أشد من إلجام الجاهل . وقيل معناه : كبيراً عند الله موقعه ، ثم رجع إلى نوع آخر من أدلة التوحيد فقال ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أرسلهما متجاورين متلاقيين ﴿ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ قاطع للعطش لشدة عذوبته ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ شديد الملوحة ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ حاجزاً لا يختلط أحدهما بالآخر من قدرته تعالى غير محسوس ﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ حداً محدوداً وستراً ممنوعاً به اختلاطهما ، وذلك كدجلة تدخل فى بحر الفرس فتشقه فتجرى فى خلاله فراسخ لا يتغير طعمهما ، وقيل المراد بالبحر العذب النهر العظيم إذ ليس فى الدنيا بحر عذب وذلك كالنيل والبحر المالح ، والبرزخ ما يحول بينهما من الأرض فتكون القدرة فى الفصل واختلاف الصفة . قال ابن عطية : والذى أقول به فى معنى هذه الآية أن المقصد بها التنبيه على قدرة الله تعالى فى أن بث فى الأرض مياهاً عذبة كثيرة جعلها خلال الأجاج وجعل الأجاج خلالها كما هو مرئى تجد البحر قد اكتنفته المياه العذبة فى ضفته وتجد الماء العذب فى الجزائر ونحوها قد اكتنفه الماء الأجاج وكل باق على حاله وطعمه ، فالبحرين المراد بهما جميع الماء العذب والأجاج ، والبرزخ والحجر هو ما بين الماءين من الأرض . اه . ثم شرع فى آيات الأنفس بعد آيات الآفاق فقال ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ﴾ آدم عليه السلام خلقه من تراب خلق من الماء فهو أصله ومادته الأولى أو من طين خمر بالماء ، أو أولاده والماء النطفة ﴿ فَجَعَلَهُ ﴾ قسمين ﴿ نَسَبًا ﴾ ذا نسب ينسب إليه أى ذكراً يقال فلان بن فلان ﴿ وَصِهْرًا ﴾ أى ذات صهر أى أنثى يصاهر بها وهو

كقوله « لجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » قال قطرب : ما كان من قبل زوج البنت أصهار وما كان من قبل المرأة أحماء ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ كامل القدرة يخلق من الماء تارة ذكراً وتارة أنثى وتارة يجمع بين النوعين بأن يخلق من النطفة الواحدة توأمين . قال فى الجواهر : والنسب أن يجتمع إنسان مع آخر فى أب أو فى أم والصهر هو تواشيج المناكحة فقرابة الزوجة هم الأختان وقرابة الزوج هم الأحماء ، والأصهار يقع عاما لذلك كله . اه ولما شرح دلائل التوحيد عاد إلى تهجين عبادة الأوثان بقوله ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ بعد ظهور دلائل وحدة الصانع ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ ﴾ بعبادته ﴿ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ بتركها وهو الأصنام ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ ﴾ أبو جهل وغيره ﴿ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ معيناً للشيطان بطاعته فعيل بمعنى المفاعل كالكليم بمعنى المكالم أو مهيناً لاعبرة به كأنه ملقى وراء الظهر ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ بالجنة ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ من النار قدم المبشر رعاية للفاصلة ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على تبليغ ما أرسلت به ﴿ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا ﴾ فعل ﴿ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ بأن يتقرب إليه بالإيمان والطاعة نصوّر ذلك بصورة الأجر من حيث أنه مقصود فعله واستثناه منه قلعاً لشبهة الطمع وإظهاراً لغاية الشفقة حيث جعل تعرضهم للثواب وتخلصهم عن العقاب نفعاً عائداً إليه وفيه إشعار بأن له فى إيمانهم ثواباً جزيلا لأنه الدال المرشد كما قال عليه السلام لعلىّ بن أبى طالب يوم خيبر حين أعطاه الراية : «ادعهم إلى الإيمان أولا ، لأن يهدى الله رجلا على يديك خير لك من الدنيا وما فيها » وقيل الاستثناء منقطع أى لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا فليفعل ﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾ فى استكفاء شرورهم والإغناء عن أجورهم ﴿ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين يموتون فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكل عليهم :

لكن بربك عزّك • فيستقر ويثبت

ومتى اعتززت بمن يموت فإنّ عزك ميت

﴿ وَسَبِّحْ ﴾ نزهه عن النقصان وجميع ما لا يليق به مما يصفه به هؤلاء من الشريك ملتبساً ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ ثنائه بأوصاف الكمال بأن تقول : سبحان الله والحمد لله ﴿ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ عالماً فلا عليك إن آمنوا أو كفروا وتعلق بـ « خبيرا » بذنوب ، هو ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ سبق الكلام عليه ولعل ذكره زيادة تقرير لكونه حقيقاً بأن يتوكل عليه من حيث أنه خالق الكل والمتصرف فيه ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ والموصول خبر محذوف كما قدرنا أو نصب على الاختصاص أو مبتدأ خبره ﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴾ أو هو بدل من ضمير « استوى » ﴿ فَاسْأَلْ ﴾ أيها الإنسان ﴿ بِهِ ﴾ بالرحمن ﴿ خَبِيرًا ﴾ يخبرك بصفاته والباء صلة السؤال يقال سأل عن فلان وبفلان . قاله الأخفش أو صلة « خبيرا » أو تجريدية أى اسأل بسؤاله خبيراً على معنى أنك إن سألته وجدته خبيراً أى خبير نحو لقيت بزيد أسداً أى أنه الأسد شجاعة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ لكفار مكة ﴿ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا

الرَّحْمَٰنُ ﴾ سؤال عن مسماه فإنهم ما كانوا يطلقونه على الله فظنوا أنه أراد به غيره أو سؤال عن معناه وفيه إشارة إلى فرط جهلهم حيث جهلوا الرحمن الذى شملتهم رحمته حتى قالوا ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ بالفوقية للجمهور والتحتية لحمزة والكسائى والآمر محمد أى أنسجد له من غير أن نعلم ما هو وكيف شأنه ﴿ وَزَادَهُمْ ﴾ الأمر بالسجود للرحمٰن ﴿ نُفُورًا ﴾ عن الإيمان ثم ذكر ما لو تفكروا فيه لما نفروا عن السجود للمنعم به بقوله ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ قصوراً ظاهرة لعلوها لأنها للكواكب السيارة كالمنازل لسكانها من التبرج الظهور كما قدمنا فى سورة الحجر وقدمنا هناك أسماء البروج والكواكب السيارة وذكرها هنا فى مقام الامتنان وتقرير صفة الرحمن إذ كل الفوائد الدنيوية عليها إذ عليها مدار الفصول التى نيطت بها أسباب المعاش وهى مقسومة على الطبائع الأربع فالحمل والأسد والقوس نارية . والثور والسنبلة والجدى ترابية . والجوزاء والميزان والدلو هوائية . والسرطان والعقرب والحوت مائية . والله أعلم ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا ﴾ أيضاً ﴿ سِرَاجًا ﴾ هو الشمس لكمال ضوئها استعار لها اسم السراج ﴿ وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ وقرأ حمزة والكسائى سرجا بالجمع على إرادة السيارة ، وخص القمر منها بالذكر لنوع فضيلته ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ اسم بمعنى الاختلاف أى ذوى اختلاف يخلف أحدهما الآخر فى القيام مقامه والعمل فيه بما فات فى الآخر ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لحمزة : يتفكر فى قدرة الصانع أو يذكر ما فاته من أحدهما من خير فيفعله فى الآخر ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ لنعم ربه عليه فيهما فإن مدار الأمر على اختلافهما فلا نعمة أشمل وأكمل منه . ثم بين صفات أهل التذكر والشكر المقابلة لصفات الذين إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمٰن بقوله ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ ﴾ جمع عابد مبتدأ ، وما بعده صفات له إلى « أولئك يجزون » غير المعترض فيه ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ هينين أو مشياً هيناً مصدر وصف به والمعنى يمشون بسكينة وتواضع ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ ﴾ بما يكرهونه ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ أى قولا سداداً يدل على المتاركة من غير إثم ولا لغو سواء كان لفظ السلام أو غيره ولا نسخ فيه بآية القتال إذ متاركة السفهاء والإغضاء عنهم من الآداب المستحسنة هذا وصفهم بالنهار ثم أشار إلى وصفهم بالليل بقوله ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ جمع ساجد وقائم أى يقضون ليلهم فى الصلاة وعبادة الرحمن وتأخير القيام للفاصلة ويحتمل القيام للمصدر وصف به مبالغة ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ مع تلك العبادة خوفاً من الله ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أى لازماً ومنه الغريم لملازمته : وصفهم ببلوغ الغاية فى العبادة ثم بلوغها فى الوجل والابتهال إليه إعلاماً أنهم غير متكلين عليها لا يرونها شيئاً نظراً إلى غناه وكبريائه ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ ﴾ بئست ﴿ مُسْتَقَرًّا ﴾ موضع استقرار ﴿ وَمُقَامًا ﴾ موضع إقامة وفى ساءت ضمير مبهم يفسره مستقراً وذكر مع تأنيث المفسر لأنه فى معنى المنزل والمخصوص محذوف أى هى وهذا الضمير الذى ربط خبر « إن » باسمها وقوله « إن عذابها » و « إنها ساءت » تعليلان متداخلان أو مترادفان ابتداء كلام من الله أو حكاية لقولهم ثم أشار إلى

وصفهم فى الإنفاق بقوله ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا ﴾ على عيالهم وغيره ﴿ لَمْ يُسْرِفُوا ﴾ لم يتجاوزوا حد الاعتدال والكرم ﴿ وَلَمْ يُقْتِرُوا ﴾ بضم الياء وكسر التاء من الإقتار لنافع وابن عامر وبفتحها وضم التاء للكوفيين وكسر التاء لابن كثير وأبى عمرو من القتر التضييق فى الرزق وقيل الإسراف الإنفاق فى المعصية وإن قل والإقتار منع الواجب ويدل عليه ما قيل : لا إسراف فى الخير كما لا خير فى الإسراف ، وقد أنفق الصديق جميع ماله فى سبيل الله وكذا عثمان رضى الله عنهما ﴿ وَكَانَ ﴾ إنفاقهم لغيرهم ولأنفسهم ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ الإسراف والإقتار ﴿ قَوَامًا ﴾ وسطاً واعتدالا من قام الأمر اعتدل وهكذا كان حاله عليه السلام وحال الصحابة لا يأكلون إلا سد جوعتهم ولا يلبسون إلا ستراً لعورتهم وقد دخل على بن أبى طالب رضى الله عنه السوق فاشترى قيصاً بخمسة دراهم فرأى فى كمه طولا فقال للبائع اقطع من كمه فقال أنت مجنون فقال له علىّ بارك الله فيك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يكمل إيمان المرء حتى يقال فيه إنه مجنون ، وبين وقواما خبران معاً أو الأول لغو والثانى الخبر أو الأول الخبر والثانى حال مؤكدة هذه صفاتهم فى المأمورات ثم أشار إلى صفاتهم فى ترك المنهيات وبدأ بأعظمها الشرك بقوله ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ قتلها ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ صفة للمصدر المحذوف أو متعلق يقتلون ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ نفى عنهم أمهات المعاصى بعد ما أثبت لهم أصول الطاعات تعريضاً بأعدائهم المشركين ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ أى ما ذكر من الثلاثة ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ جزاء الإثم أو عقوبته على أن الأثام جزاء الإثم أو مرادفه ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ ﴾ للشرك والذنوب ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ ﴾ بجزم الفعلين وتخفيف يضاعف بدل من يلق لنافع وأبى عمرو وحفص وحمزة والكسائى وبرفعهما لابن عامر وأبى بكر إلا أن ابن عامر يشدد الأول على الاستئناف وبتشديده وجزمهما لابن كثير ﴿ مُهَانًا ﴾ حال لاستكباره عن اتباع الحق ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ منهم ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ المذكورة ﴿ حَسَنَاتٍ ﴾ بأن يمحو سوابق سيئاتهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق حسناتهم أو يجعل أعدادها فى صحيفة الحسنات بعد محوها من ديوان السيئات ، قال فى غاية الأمانى : وهذا أصح : روى مرفوعاً ﴿ وَكَانَ اللَّهُ ﴾ أى لم يزل ﴿ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ولذا بدل السيئات بالحسنات ﴿ وَمَن تَابَ ﴾ عن المعاصى من المؤمنين ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ من الطاعات ﴿ فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ أى يرجع إليه رجوعاً فيجازيه خيراً والأول فى الكافرين التائبين أو هذه تعميم بعد تخصيص ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ الباطل المموه أى لا يحضرون مجالسه تنزها عن مخالطة أهل الإثم وصيانة عن الانسلاك فى سلكهم لأن فى ذلك تكثير سوادهم وإغراء على ما هم فيه فشهود الباطل شركة فيه أولا يشهدون شهادة الزور والأول أعم ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ ﴾ ما ينبغى أن يلغى من الكلام وغيره ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه ومن ذلك الإغضاء عن السفهاء فى شتمهم والكناية عما يستهجن التصريح به ﴿ وَالَّذِينَ

إذا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ بالوعظ أو القراءة ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا ﴾ لم يقيموا عليها غير واعين لها ﴿ وَعُمْيَانًا ﴾ غير متبصرين فيها بل أكبوا عليها سامعين ناظرين منتفعين . وفى الجواهر: لم يكن خرورهم بهذه الصفة بل يكونون سجداً وبكيا . وقال ابن العربى : إذا قرأوا القرآن قرأوه بقلوبهم قراءة فهم وتثبيت والمرور عليه بغير فهم صمم وعمى ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا ﴾ بالجمع لنافع وابن كثير وأبى عمرو وابن عامر وحفص وبالإفراد للباقين ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ لنا بأن نراهم مطيعين لك حائزين الفضائل فإن المؤمن إذا شاركه أهله فى الطاعة سُرَّ به قلبه وقرت به عينه لما يرى من مساعدتهم له فى الدين وتوقع لحوقهم به فى الجنة و « من » ابتدائية أو بيانية ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ فى الخير والدين لا فى الرياسة وذلك بأن يكون الإمام متقياً فيكون قدوة المتقين وتوحيده لدلالته على الجنس أو لأنه مصدر فى الأصل أو لأن المراد : واجعل كل واحد منا ، أو جمع آمّ كصائم وصيام ، أى مقتدين بهم ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ﴾ أعلى مواضع الجنة اسم جنس أريد به الجمع ، وقيل هى من أسماء الجنة ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ بصبرهم على الطاعات وعن الشهوات ﴿ وَيُلَقَّوْنَ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لحمزة والكسائى وأبى بكر مع فتح الياء ﴿ فِيهَا ﴾ فى الغرفة ﴿ تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ من الملائكة أو من بعضهم لبعض أو تبقية دائمة وسلاماً من كل آفة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ لا يموتون ولا يخرجون ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ مقابل « ساءت مستقرا ومقاما» ومثله إعراباً ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ ﴾ يبالى أو يصنع ﴿ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ إيمانكم أو عبادتكم أو دعاؤكم إياه فى الشدائد فيكشفها و « ما » نافية أو استفهامية فى موضع المصدر أى أىّ اعتداد يعتد بكم ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ الرسول والقرآن ، والسورة مصدرة بتكذيبهم فانتظم الخاتمة مع الفاتحة ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ ﴾ العذاب ﴿ لِزَامًا ﴾ عذابا ملازما لكم فى الآخرة بعد ما يحل بكم فى الدنيا فقتل منهم يوم بدر سبعون ، وجواب « لولا » دل عليه ما قبلها ، وأضمر العذاب من غير ذكر للتهويل والتنبيه على أنه مما لا يكتنهه الوصف .

[تم تفسير سورة الفرقان]

سورة الشعراء

مكية إلا «والشعراء .. إلى آخره» فمدني وهي مائتان وسبع وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ❊ طسٓمٓ ﴾ الله أعلم بمراده بذلك أو حروف مبسوطة للإيقاظ ، أمال الطاء نافع بين بين على ما فى البيضاوى والبغوى وغاية الأمانى والمشهور عنه الفتح وهو روايتنا ، وحمزة والكسائى وأبو بكر محضة ، وأظهر السين عند الميم حمزة فقط ﴿ تِلْكَ ﴾ هذه الآيات ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ القرآن والإضافة بمعنى من ﴿ الْمُبِينِ ﴾ الواضح إعجازه أو المظهر الحق من الباطل وأبان يلزم ويتعدى ﴿ لَعَلَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ﴾ قاتلها غما ولعل للإشفاق أى أشفق على نفسك أن تقتلها من أجل ﴿ أَلَّا يَكُونُوا ﴾ أهل مكة ﴿ مُؤْمِنِينَ ﴾ أو خيفة أن لايؤمنوا ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً ﴾ دلالة ملجئة لهم إلى الإيمان أو بلية قاهرة عليه ﴿ فَظَلَّتْ ﴾ بمعنى المضارع أى فتظل أى تدوم ﴿ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ فيؤمنون ولما وصفت الأعناق بالخضوع الذى هو لأربابها جمعت الصفة منهم جمع العقلاء أو الأعناق رؤساؤهم أو جماعاتهم ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ ﴾ وحى يذكرهم ﴿ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ ﴾ إنزاله لتجديد التذكير صفة كاشفة ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ مستمرين على ما كانوا عليه ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ بالذكر بعد إعراضهم وأمعنوا فى التكذيب حتى أداهم إلى الاستهزاء به المخبر به عنهم ضمناً فى قوله ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ ﴾ عواقب ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ إذا مسهم عذاب الله فى الدنيا كيوم بدر أو فى الآخرة وإقحام الأنباء للدلالة على عظم ما ينزل بهم لأن الواقعة إذا عظمت شاعت فى البلدان وسارت بأخبارها الركبان وعبر فى الأنعام بسوف وهنا بالسين وكلتا السورتين مكية لأن آية الأنعام سابقة نزولا والتراخى بسوف أكثر من السين . والله أعلم . ثم أشار إلى أدلة ما كذبوه بقوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ ينظروا ﴿ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ إلى بدائع ما فيها ﴿ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا ﴾ أى كثيراً ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ نوع ﴿ كَرِيمٍ ﴾ حسن أو محمود كثير النفع صفة مشبهة وما من نبت إلا وله فائدة إما وحده أو مع غيره و «كم» لكثرة الأزواج وكل لإحاطتها أى أنبتنا فيها أفراداً كثيرة من كل نوع شريف ، مرضيّ الصفات ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الإنبات أو فى كل واحد من الأصناف ﴿ لَآيَةً ﴾ دلالة على كمال قدرته تعالى ورحمته ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فى علم الله وقضائه ولذا لاتنفعهم الآيات مع وضوحها لكونهم مخلوقين للنار «وكان» قال سيبويه زائدة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب القادر على الانتقام من

الكفرة ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ حيث أمهلهم مع التكذيب أو الرحيم للمؤمنين . ولما بين إعراض كفار مكة وتكذيبهم واستهزاءهم بالرسول وبما جاء به أتبع ذلك بقصص الأنبياء مع قومهم تسلية لرسوله وبدأ بموسى لأن أمته أوفر الأمم بعد هذه الأمة فقال ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى ﴾ أى اذكر لقومك يا محمد ذلك الوقت وما وقع بعده وهو ﴿ أَنِ ﴾ أى بأن ﴿ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ بالكفر والمعاصى واستعباد بنى إسرائيل وذبح أبنائهم ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ معه بدل من الأول أو بيان له وفيه دلالة على اشتهار فرعون وقومه بالظلم والطغيان لأن البدل مقصود بالنسبة ودلالة البيان على المعنى المراد من الكلام أوفى ﴿ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ الله بطاعته فيوحدوه استفهام إنكار فيه تعجب من تمادى القوم فى الظلم غير ناظرين فى عواقب الأمور والجملة مستأنفة تفيد أن عدم التقوى هو الذى حرضهم على الظلم ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ بعد أداء الرسالة ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ من تكذيبهم لى ﴿ وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي ﴾ بأداء الرسالة للعقدة التى فيه ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى ﴾ أخى ﴿ هَارُونَ ﴾ معى رتب ضم أخيه إليه على الأمور الثلاثة خوف التكذيب وضيق القلب انفعالا عنه وازدياد عقدة اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطق لأنها إذا اجتمعت مست الحاجة إلى معين حتى لا تختل الدعوة وليس توقفاً فى تلقى الأمر بل طلب معونة على امتثاله وتمهيد عذر ليكون ذهابه إلى الخصم على يقظة وتوفر عدة أسباب ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ بقتل القبطى منهم﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ بهقصاصاً قبل تبليغ الدعوةوليس لى على دفعهم قدرة ووسط سؤاله إرسال هرون بين العلل لئلا يتوهم من ظاهر كلامه التعلل وهذه الرابعة استدفاع للبلية المتوقعة كما أن ما تقدم استظهار واستمداد فى أمر الدعوة ﴿ قَالَ ﴾ تعالى إجابة له إلى الطلبتين بوعده للدفع اللازم ردعه عن الخوف وضم أخيه إليه فى الإرسال ﴿ كَلَّا ﴾ أى ارتدع عن خوف قتلهم وعطف على ارتدع قوله ﴿فَاذْهَبَا﴾ أنت وأخوك ففيه تغليب الحاضر على الغائب فى الخطاب ﴿ بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ ما تقولون وما يقال لكم أجرى مجرى الجماعة أو المراد أنتما ومن أرسلتما إليهم والمعية معية حفظ ونصر وعبر عن السماع بالاستماع مبالغة فى الوعد بالإعانة وهو خبر ثان أو هو الخبر ومعكم غير مستقر ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ ﴾ خصه بالذكر بعد قوله أن ائت القوم الظالمين دلالة على أنه قدوتهم والقوم تبع ﴿ فَقُولَا إِنَّا ﴾ أى إن كلا منا ﴿ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إليك وأفرد الرسول لاتحاد المرسل به فكأنهما واحد أو لأنه مصدر وصف به لأنه مشترك بين المرسل والرسالة كقوله ◦ ألا أبلغ أبا عمرو رسولا ◦ وقوله : لقد كذب الواشون مافهت عندهم ◦ بسر ولا أرسلتهم برسول ﴿أَنْ﴾ بأن ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا﴾ إلى الشام ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى خلهم وأن مفسرة لتضمن الإرسال معنى القول وبدأ بهذا وإن كان الغرض الأصلى دعوتهم إلى الله لأنه أسهل عليهم فبدأ به على وجه اللين فى القول . ﴿ قَالَ﴾ فرعون لموسى بعد ما أتياه وقالا له ذلك ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا ﴾ فى منازلنا ﴿ وَلِيدًا ﴾ طفلا قريباً من الولادة بعد فطامه

﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ ثلاثين تلبس ملابسنا وتركب مراكبنا ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ أى قتل القبطى . وبخه به بعد منّه معظماً إياه لكونه من خواصه قيل كان خبازا له واسمه فاتون ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ بالله إذ فعلت ما حرمه من قتله أو من الجاحدين لنعمتى عليك بالتربية وعدم الاستعباد وغرضه بهذه المقدمات الرذائل تبعيد موسى عن المراتب العلية عموماً وأحرى عن الرسالة ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ فَعَلْتُهَا إِذًا ﴾ حينئذ ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ الجاهلين وآتانى الله بعد ذلك العلم والرسالة أو من الذاهلين عمايئول إليه الوكز أى أردت بالضرب التأديب فأدى إلى القتل ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ إلى مدين ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا ﴾ على الناس لأن الأنبياء حكام على الناس وهو يتضمن العلم أو حكمة وهى علم الشريعة ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فبطل ما تشبثت به . روى أنه لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج بعد قتل القبطى ولبث فى مدين عشر سنين ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله ثلاثين فأغرق فرعون ثم لبث بعد فرعون خمسين والله أعلم . ولما رد ماأراد به فرعون من قدح فى نبوته أولا من القتل كرّ على ما عده من النعمة عليه ينبه على أنه فى الحقيقة نقمة لكونه مسبباً عنها بقوله ﴿ وَتِلْكَ ﴾ التربية مبتدأ والخبر ﴿ نِعْمَةٌ ﴾ فى الظاهر ﴿ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ وصف للخبر وهى فى الحقيقة ﴿ أَنْ عَبَّدْتَ ﴾ أى هى تعبيدك ﴿ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ عطف بيان لتلك أى اتخذتهم عبيداً وتذبح أبناءهم فإنه السبب فى حصولى فى تربيتك وبذا تجعلنى مسيئاً فى مقابلة إحسانك وأين الإحسان بل أنت المسىء إذ لو لم تفعل ما فعلت من قتل الأبناء كنت مربى فى أهلى وإنما أفرد الخطاب فى « تمنها » وجمعه فى الأولين لأن المنة كانت منه وحده والفرار والخوف منه ومن قومه وقال الفراء إن هذا الكلام إقرار واعتراف من موسى أنه عبد بنى إسرائيل ولم يعبده وأراد مكافأة إحسانه بإرشاده إلى طريق الصواب . ومن المفسرين من قدر أول الكلام همزة الاستفهام للإنكار ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لموسى لما سمع جواب ما طعن به ورأى أن موسى لم يرعو بذلك شارعاً فى الاعتراض على دعواه مبتدئاً بالاستفسار عن حقيقة المرسل بقوله ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ الذى تزعم أنك رسوله أى أىّ شىء هو ؟ قال ذلك تعنتاً لا استرشاداً ، ولما لم يكن سبيل للخلق إلى معرفة حقيقته تعالى وإنما يعرفونه بصفاته أجاب موسى عليه السلام ببعضها ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى خالق ذلك ولا بد أن تكون ممكنة وخالقها واجب الوجود مخالف لها فيكون خالق جميع العالمين مستحق العبادة منهم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ ذوى إيقان أى محققين لأحوال الأشياء بالأدلة ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُ ﴾ من الأشراف الذين يحيطون به وهم خمسمائة ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ جوابه الذى لم يطابق السؤال سألته عن حقيقته وأجاب بأفعاله ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وأتى بهذا وإن كان داخلا فيما قبله لعدم إمكان الشك فى افتقاره إلى مصور حكيم وهو أوضح وأقرب للناظر عند التأمل ولأنه يغيظ فرعون ولذا ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ يتكلم بكلام لا يقوله

عاقل ، وأضافه إليهم لأن تسميته رسولا على وجه التهكم ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من راعى مصالح ذلك بإتيان الشمس من المشرق حتى يبلغها إلى المغرب على وجه نافع لتنتظم به أمور الكائنات ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ إن كان لكم عقل علمتم أن لا جواب لكم فوق ذلك ، لأنهم أولا ثم لما خاشنوه خاشنهم وعارضهم بمثل مقالهم ولذا عدل فرعون عن المحاجة إلى التهديد ﴿ قَالَ ﴾ لموسى ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ الذين عرفت حالهم و « ال » للعهد لأن موسى يعرف حال سجنه ، وكان يلقى من سجنه فى هوة بعيدة العمق لا يرى شيئاً ولا يسمع صوتاً حتى يموت ولذلك جعل أبلغ من لأسجننك . وهذا دليل على أنه علم أن موسى محق نخاف أن لو أمر بسجنه أن تصيبه آفة وإلا فما وجه التوقف إذ لم يكن على فرعون مصيبة أشد من أن يدعى إلى عبادة غيره وهو يقول « أنا ربكم الأعلى » ﴿ قَالَ ﴾ له موسى ﴿ أَوَلَوْ ﴾ أى أتفعل ذلك ولو ﴿ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾ برهان بيّن على رسالتى وهو المعجزة والواو للحال ويليها الهمزة بعد حذف الفعل كما قررنا ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيه ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ ﴾ حية عظيمة قدر ميل ﴿ مُبِينٌ ﴾ واضح لا يشتبه على أحد أنه ثعبان فأقبل إلى فرعون فاستغاث بموسى فأخذه فعاد عصى فقال هل من آية غير هذا قال نعم ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أخرجها من جيبه فرآها على هيئتها ثم أدخلها فى جيبه فأخرجها ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ ﴾ ذات شعاع يغشى البصر ويسد الأفق ﴿ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ فيه دلالة على أن بياضها خارق للعادة يجمع النظار على النظر إليه ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ ﴾ أى مستقرين حوله ، نصب على الحال محلا ولفظه نصب بنزع الخافض قاله فى غاية الأمانى وهو معنى قول البيضاوى هو ظرف وقع موقع الحال ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ ماهر فى سحره ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ طار عقله من الرعب لما بهره من سلطان المعجزة حتى حطه عن دعوى الألوهية إلى الاسترشاد بآراء ملئه لعلهم يرشدون إلى الخلاص مما دهمهم ومع ذلك نفرهم عن موسى بأنه يخرجهم عن ملكهم فى أرضهم ليقوموا بأى وجه فى دفعهم عن أنفسهم ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أخر أمرهما ، وما فيه من القراءات والوجوه تقدم فى الأعراف ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ مدائن ملكك قيل هى ألف مدينة مسيرة شهر وثلث طولا وشهر عرضاً من أسوان إلى العريش ومن أيلة إلى برقة ﴿حَاشِرِينَ﴾ أى شرطاً جامعين للسحرة ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ يفضل موسى فى علم السحر ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ أى لما وقت به من ساعات يوم معلوم يوم الزينة وقت الضحى ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴾ القائل فرعون أو من هو من قبله و « هل » للاستبطاء فى الاجتماع والمراد الحث عليه ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ فى دينهم ﴿إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ إن غلبوا ومقصودهم الاستمرار على دينهم فلا يتبعوا موسى ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ موسى على سحره ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ جواب الشرط لأن قولهم « أئن لنا لأجراً » دال عليه ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا﴾ حينئذ ﴿لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾

عطف على جزاء الشرط فإذا جواب وجزاء على أصله : التزم لهم الأجر والقربة عنده زيادة عليه ترغيباً ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَى ﴾ بعد ما قالوا له « إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين » ﴿ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ لم يرد أمرهم بالسحر بل التوسل إلى الحق وآثر «ما» تحقيراً لما يلقون ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ لفرط اعتقادهم فى أنفسهم وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر ، واليمين بغير الله وصفاته وأفعاله ورد النهى عنه لانه من شعار الجاهلية وإن قصد بكالعزى التعظيم فكفر وإلا لحرام ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ تبتلع بحذف إحدى التاءين ، ولحفص بالتخفيف ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ يقلبونه ويخيلون به للناس و « ما » موصولة أو مصدرية تسمية للمأفوك به إفكا مبالغة ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ● رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ لعلمهم بأن ماشاهدوه من العصا لا يتأتى بالسحر وكأنهم أخذوا وطرحوا على وجوههم ، وفيه أن منتهى السحر تخييل وجملة «قالوا» حال بتقدير قد ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُ ﴾ لموسى ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ ﴾ أنا ﴿ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ فعلمكم شيئاً منه وغلبكم بآخر ، أراد بهذا القول التلبيس على الحاضرين وإلا فالسحرة المتفرقون فى النواحى متى تمكنوا من رؤية موسى والمجالسة معه فضلا عن التعلم . والهمزة الثالثة مقلوبة ألفاً لكل القراء ، والثانية محققة لحمزة والكسائى وأبى بكر مسهلة للباقين على أصولهم ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما ينالكم : وعيدٌ لهم ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ﴾ اليد اليمنى والرجل اليسرى من كل ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لتكونوا زماناً عبرة للناظرين وهو بيان للوعيد ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ ﴾ لاضرر علينا فى ذلك ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا ﴾ بعد موتنا بأى وجه كان بالقطع والصلب وغير ذلك ﴿ مُنقَلِبُونَ ﴾ راجعون فى الآخرة والموت لا محالة فيه والشهادة أشرف أحواله فما توعدنا به مرغوب فيه عندنا لا مرهوب فكنوا عن الموت بالانقلاب إلى ربهم الكريم ولا ترى أحسن منها كناية ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ ﴾ نرجو ﴿ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من زمرة فرعون ومن أهل المشهد فإن المسارعة إلى الإيمان بالرسول بعد دلالة المعجزة من أقوى وسائل تقريب العبد إلى الله تعالى ، والجملة فى المعنى تعليل ثان لنفى الضير أو تعليل للعلة المتقدمة ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ ﴾ بعد ثلاثين سنة أقامها بينهم يدعوهم بآيات الله إلى الحق فلم يزيدوا إلا عتوًّا ﴿ أَنِ اسْرِ ﴾ بكسر النون ووصل الهمزة لنافع وابن كثير من سرى ، وبفتحها وقطع الهمزة من أسرى لغتان ﴿ بِعِبَادِي ﴾ بنى إسرائيل أى سر بهم ليلا إلى البحر فسيأتيك أمرى عنده ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده فيلجون وراءكم إلى البحر ، والجملة علة للأمر بالسرى ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ للعساكر حين أخبر بخروجهم قيل: كان له ألف مدينة كما قدمنا واثنا عشر ألف قرية ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ ﴾ طائفة ﴿ قَلِيلُونَ ﴾ متقطعون ومنه الثياب الشراذم أى البالية المتقطعة لأنهم أسباط شتى وبالغ فى تقليلهم وتضعيفهم بلفظ الشرذمة

ووصفهم بالقلة وإيثار جمع القلة الدال على القلة أيضاً مع أنهم كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً نظراً إلى ماله من الجنود ما لا يحصى . وقد خرج بألف ألف حصان أسود سوى الإناث من الخيل ومقدمة جيشه سبعمائة ألف رجل . وله من خواص غلمانه ثمانمائة غلام كل على فرس عتيق لكل فرس طوق من ذهب ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ فاعلون ما يغيظنا من خروجهم بغير إذن وتركهم طاعتنا اعتذار فى اتباعهم ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ﴾ مجتمعون كثيرون ﴿ حَذِرُونَ ﴾ بالصفة المشبهة لنافع وابن كثير وأبى عمرو وباسم الفاعل للباقين فالأول للثبات والثانى للتجدد أى متحذرون عن إفساد بلادنا ومستعدون فى الأمور والمعنيان معاً يلائمان المقام ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ ﴾ أى فرعون وجنوده من مصر ليلحقوا موسى وقومه ﴿مِنْ جَنَّاتٍ﴾ كانت على جانبى النيل من أسوان إلى الرشيد قرب الإسكندرية ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار تجرى فى الدور من النيل ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أموال من الذهب والفضة وغيرهما ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ منزل حسن ومجلس على للأمراء والوزراء تحفه أتباعهم وقيل هو الفيوم ـ بالفاء: بلد بمصر ﴿ كَذَٰلِكَ﴾ نصب على المصدر أى أخرجناهم مثل ذلك الإخراج أو رفع خبر محذوف أى الأمر كذلك أى كما وصفنا . ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ بعد إغراق فرعون وقومه أى ملكناهم ملكا لازما لا يرد كالميراث ﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ ﴾ لحقوهم ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ وقت شروق الشمس ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أى رأى كل منهما الآخر ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ يدركنا جمع فرعون ولا طاقة لنا به ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿كَلَّا﴾ أى لن يدركونا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بنصره ﴿سَيَهْدِينِ﴾ طريق النجاة . روى أن مؤمناً من آل فرعون كان بين يدى موسى فقال له أين أمرت ؟ قال: بالبحر ولعلى أومر بما أصنع عنده ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ حين بلغ البحر ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ بحر القلزم وذلك المكان يسمى سويسا معروف عند أهل مصر لا يختلفون فيه وتفسيره بنيل مصر فاسد ، قاله فى غاية الأمانى ﴿فَانْفَلَقَ﴾ انشق اثنى عشر فرقاً ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ الجبل الضخم بينهما مسالك سلكوها فلم يبتل سرج الراكب ولا لبده من طاد الشىء إذا ذهب إلى جانب السماء صعودا ، قاله فى غاية الأمانى وفى القاموس . طاد ثبت والانطياد الذهاب فى الهواء صعدا . وبناء منطاد مرتفع ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ قربنا ﴿ثَمَّ﴾ هناك ﴿الْآخَرِينَ﴾ فرعون وقومه وكان جبريل عليه السلام يسوق بنى إسرائيل على صورة فارس ويذهب إلى قوم فرعون يزعهم ـ أى يكفهم من باب وضع ـ حتى سلكوا مسالكهم ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ بإخراجهم من البحر على هيئته المذكورة ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ فرعون وقومه بإطباق البحر عليهم لما تم دخولهم البحر وخروج بنى إسرائيل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أية آية : أى لعبرة لمن بعده ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالله بسبب هذه الآية : أى ما تنبه عليها أكثرهم إذ لم يؤمن بها أحد ممن بقى فى مصر من القبط وأما بنو إسرائيل فكما أخبرنا الله عنهم من قولهم اجعل لنا إلها وقولهم أرنا الله جهرة واتخاذهم العجل إلها أو ما آمن بموسى من القبط إلا قليل ولذا أغرقوا ، إذ روى أنه لم يؤمن إلا آسية امرأة فرعون وحزقيل مؤمن من آل فرعون

ومريم بنت ناموسى التى دلت على عظام يوسف عليه السلام ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فانتقم من الكافرين وأنجى المؤمنين ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أى كفار مكة ﴿نَبَأَ﴾ خبر ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ قصته وحديثه مع قومه ويبدل منه ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ سألهم ليعلمهم أن ما يعبدونه لا يصلح للعبادة ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ أطنبوا بالتصريح بالفعل إذ حق الجواب أصناماً افتخاراً بذلك وليعطفوا عليه ﴿فَنَظَلُّ﴾ ندوم ﴿لَهَا عَاكِفِينَ﴾ أى نقيم نهاراً على عبادتها إشهاراً لتلك العبادة أو من إطلاق المقيد على المطلق فيكون بمعنى ندوم ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أى دعاكم ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ ودخل إذ على المضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾ إن عبدتموهم جزاء ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ كم إن لم تعبدوهم ﴿قَالُوا بَلْ﴾ إضراب عن أن يكون لهم سمع أو يتوقع منهم ضر أو نفع أعرضوا عن ظاهر الجواب تحاشياً عن الاعتراف بعدم شىء من صفات الألوهية فيها إلى التقليد بقولهم ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ مثل فعلنا ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ لأن التقدم لا يدل على الصحة ولا ينقلب به الباطل حقا ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ أى أعداء لكم أضاف عداوتها إلى نفسه تصويراً للمسألة فى نفسه مبالغة فى إظهار النصح وأنه لا يرضى لهم إلا ما يرضى لنفسه ولأنه من باب التعريض وهو أكثر جدوى من التصريح وأدعى إلى القبول حكى أن رجلا واجه الشافعى بمكروه فقال الشافعى لو كنت مكانك لاحتجت إلى التأديب . ورأى على بن سند وكان من المجاورين بمكة ناسا يتحدثون فى الحجر فقال هذا ليس بيتى ولا بيتكم ، ومعنى العداوة ما أشار إليه بقوله ويكونون عليهم ضداً وأفرده لإطلاقه على الجمع كالصديق والظهير أو لأنه فى الأصل مصدر ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فإنى أعبده استثناء منصل لأنهم كانوا يشركون ويزعمون أنها شفعاء إذ لا يقول أحد بأن الجماد صانع العالم ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى أمور المعاش والمعاد من ابتداء الهداية وهو امتصاص الجنين دم الحيض إلى انتهائها وهو السلوك فى طريق الجنة والفوز برضوان الله ولذا آثر الاسمية مع كون الخبر مضارعا والفاء سببية إن جعل الموصول مبتدأ والعطف إن جعل صفة رب العالمين فاختلف النظم لتقدم الخلق واستمرار الهداية ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ تكرير الموصول للدلالة على أن كل واحد من الصلات مستقلة باقتضاء الحكم ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ من مرضى وتناسب عطفه على ما قبله ظاهر لأن المرض من روادف الطعام والشراب فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام ومن الشراب ولم ينسب المرض إلى الله لأن المقام فى عد النعم فلا يلائم إسناد الأمراض إليه وفى إيثار إذا على كلما إشارة إلى أن مرض الموت محتوم لاشفاء منه ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي﴾ عده فى النعم لأنه وسيلة لقائه لربه تعالى الذى هو أحب إليه من كل شىء وخلاص من أنواع المحن والبليات فالدنيا سجن المؤمن ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ فى الآخرة ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ﴾ أرجو ﴿أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾ كمرك الأولى والأفضل فإنه خطيئة فى أمثاله فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ . الجزاء وأتى بضمير الفصل فى الأفعال الثلاثة الأول دون الاخيرين لأن الأسباب العادية لها مدخل

فيها فرفع تأثيرها بالضمير بخلاف الإحياء والغفران لا يتصور فيهما سوى قدرته وفضله ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾ كالا فى العلم والعمل أستعد به لخلافة الحق ورياسة الخلق بالحكم بينهم أو وعظاً أنفع به الناس ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ أى وفقنى للكمال فى العمل لأنتظم به فى عداد الكاملين فى الصلاح الذين لا يشوب صلاحهم مخالفة . أو احشرنى فى زمرتهم ولقد أجابه الله تعالى فقال: وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ أى ثناء حسناً من إطلاق آلة الشىء عليه مجازاً لغوياً ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ وقد أجيب فى ذلك إذ لا ترى أحداً من الملل إلا وهو ينتسب إليه وطلب الصيت ليقتدى بسيرته السامعون لمحاسن أخلاقه وكريم صفاته أو معنى لسان صدق داع إلى دينه صادق فى أقواله وهو رسول الله من إطلاق الجزء على الكل مجازاً لغوياً أيضاً ﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ فى الآخرة وقد مر معنى الوراثة ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ بأن تتوب عليه فتغفر له ، وذلك وفاء لوعده: سأستغفر لك ربى قبل أن يتبين له أنه عدو لله كما تقدم فى سورة براءة ﴿ وَلَا تُخْزِنِي ﴾ لا تهنى ولا تذلنى من الخزى وهو الهوان والذل أو لا تفضحنى من الخزاية : الخجل والحياء ﴿ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ بمعاتبة أو نقص رتبة والضمير للناس لأنهم معلومون أو للضالين ، ثم استطرد بأمور اليوم بتخلص أحسن فقال ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أحداً ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ من الكفر وجميع الرذائل قد أنفق ماله فى مرضاة الله وأرشد بنيه إلى الحق وحضهم على الخير وقصد بهم أن يكونوا مطيعين لله شفعاء له يوم القيامة فينفعان من هذا شأنه فى ذلك اليوم وقيل الاستثناء منقطع أى لكن من أتى الله بقلب سليم فإنه ينفعه ذلك .

﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾ قربت ﴿ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهم فى عرصة القيامة بحيث يرونها تعجيلا لسرورهم ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ ﴾ أظهرت ﴿ لِلْغَاوِينَ ﴾ الكافرين والعاصين تعجيلا لحزنهم وتحسرهم وفى اختلاف الفعلين ترجيح جانب الوعد إذ لم يصف النار بالقرب حتى تؤذى المؤمنين بنتن ريحها لأنه يسرى مائة عام ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ فإن هذا وقت نفع العبادة : سؤال توبيخ عن شفاعة آلهتهم التى يزعمونها ﴿ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ بدفعه عن أنفسهم استفهام إنكار تقريعاً لهم ﴿ فَكُبْكِبُوا ﴾ ألقى الآلهة ﴿ فِيهَا ﴾ معكوسين ﴿هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ عبدتهم والكب إلقاء الشىء معكوساً والكبكبة تكرير كب : جعل التكرير فى اللفظ دليلا على تكرير المعنى وتكثيره فإن من ألقى فيها انكب مرة بعد أخرى هكذا إلى أن يصل إلى قعرها فإنما طبقتها السفلى للشركين ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ ﴾ من اتبعه من الجن والإنس ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ تأكيد للجنود أو للضمير وما عطف عليه ﴿ قَالُوا ﴾ أى الغاوون ﴿ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ مع معبوداتهم أو يخاصم الأتباع الرؤساء ﴿ تَاللَّهِ إِنْ ﴾ إن الشأن ﴿ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ واضح بعبادة غير الله ﴿ إِذْ ﴾ حيث ﴿ نُسَوِّيكُمْ ﴾ أيها الآلهة أو الرؤساء فى الطاعة ﴿ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ والخطاب للتحسر والندامة ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا ﴾ عن الهدى ﴿ إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ الكاملون فى الإجرام

وهم الشياطين أو أولونا الذين اقتدينا بهم ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء والعلماء والأتقياء والأصدقاء ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ رءوف، من الاحتمام وهو كالاهتمام لفظاً ومعنى إلا أنه أبلغ منه أو من الحامة وهى خاصة الإنسان وجمع الشفيع دون الصديق لكثرة الشفعاء وقلة الأصدقاء كما قيل :

صَادُ الصَّدِيقِ وَكَافُ الْكِيمِيَاءِ مَعًا ۞ لَا يُوجَدَانِ فَدَعْ عَنْ نَفْسِكَ الطَّمَعَا

أو لأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء أو لإطلاق الصديق على الجمع كالظهير ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ رجعة إلى الدنيا ولو للتمنى وضع موضع ليت لتلاقيهما فى معنى التقدير أو للشرط حذف جوابه ﴿ فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ جواب التمنى أو عطف على كرة أى لو أن لنا كرة وكوننا مؤمنين ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من قصة إبراهيم ﴿ لَآيَةً ﴾ يتفكر بها العاقل ويتبصر فإنها جاءت على أنظم ترتيب يتفطن المتأمل فيها أصول العلوم الدينية ودلائلها وحسن دعوة القوم وكمال الإشفاق عليهم بتصوير الأمر فى نفسه وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أكثر قومه ﴿ مُؤْمِنِينَ ﴾ به ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب القادر على تعجيل الانتقام ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بإرسال الرسل والإمهال للتوبة أو الرحيم للمؤمنين ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ القوم من أسماء الجموع خاص بالرجال ولكن غلبوا هنا، وتأنيث الفعل باعتبار معنى الجمعية ويقال فى تصغيره قويم بالتذكير خلافاً للبيضاوى فى قوله القوم مؤنثة ولذا تصغر على قويمة ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ بتكذيبهم له لاشتراك جميع الرسل فى التوحيد ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الله ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ على تبليغ ما أرسلت به ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من توحيدالله وطاعته ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على تبليغه ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ حتى أتهم ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ كرره تأكيداً وتنبيهاً على أن كل واحد من أمانته وترك الطمع يدل على وجوب طاعته فكيف إذا اجتمعا ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾ لقولك ﴿ وَاتَّبَعَكَ ﴾ وقرأ يعقوب وأتباعك جمع تابع مبتدأ خبره ﴿ الْأَرْذَلُونَ ﴾ الأقلون جاهاً ومالاً جمع الأرذل وهم الفقراء وهذا من سخافة عقولهم وقصورهم على الدنيا يعنون إنما اتبعوك لتوقع مال أو رفعة فلذلك ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي ﴾ أى علم لى ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ لأجله حتى أقول إنما آمنوا لغرض دنيوى ؟ ما على إلا اعتبار الظاهر والله يتولى السرائر كما قال ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ﴾ فهو المطلع على الضمائر فيجازيهم ﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ لعلمتم ذلك أو ما عبتموهم، ولما كان قولهم « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » يستدعى طردهم فى وهمهم أجاب عنه بقوله ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وإيثار الظاهر موضع المضمر للإيماء إلى أن وصف الإيمان ينافى الطرد ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ بيّن الإنذار ماعلىّ من إيمانكم وعدمه ولا إيمانهم لله أو لغرض ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ ﴾ عما تقول لنا

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ بالحجارة أو الكلام القبيح وهذا دأب الجاهل المحجوج ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ فيما أرسلتني به إظهار بما يدعو عليهم لأجله وهو تكذيب الحق لا تخويفهم له وأذاهم وفي إضافته إلى نفسه إعلام للشفقة عليهم ﴿فَافْتَحْ﴾ أحكم ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ بإظهار الحق وإذهاب الباطل ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من قصدهم أو شؤم عملهم ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء من الناس والحيوان والطير ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي بعد إنجائهم ﴿الْبَاقِينَ﴾ من قومه الكفار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أية آية شاعت وتواترت ولا قصة أشهر من الطوفان ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بل أقلهم وهم ثمانون ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۞ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب لا في الدين ﴿هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ مكان مرتفع أو بكل طريق، ومنه قول المسيب يصف الظعن بالموادج: في الآل يرفعها ويخفضها ۞ ريعٌ يلوح كأنه سَحْلُ ﴿آيَةً﴾ بناء علماً للمارة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بمن يمر بكم أو قصوراً تفتخرون بها، قيل: كانوا يبنون أعلاماً طوالاً على الطريق عبثاً وافتخاراً بذلك لا لطلب الاهتداء ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ مباني وقصوراً عالية أو مآخذ الماء من تحت الأرض ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي ترجون الخلود في الدنيا لا تموتون ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ بضرب سوط أو قتل بسيف ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ متسلطين من غير رأفة ولا قصد أدب ولا نظر في العاقبة، والجبار من يقتل إذا غضب ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك هذه الأشياء ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به، وقد بالغ في التبليغ فأنكر عليهم عدم تقواهم بحسب الفطرة ومقتضى العقل وذكر أنه رسول الله صادق أمين وأمرهم بالتقوى صريحاً وبين أن فعله ليس لغرض دنيوي وذكر لهم ما هم فيه من القبائح وأمرهم ثانياً بتقوى الله وطاعته ثم أمرهم بالتقوى ثالثاً مرتباً له على إمداد الله إياهم بما يعرفونه من النعم تعليلا وتنبيهاً على الوعد عليه بدوام الإمداد والوعيد على تركه بالانقطاع بقوله ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ﴾ أنعم عليكم ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم فصل بعض تلك النعم كما فصل بعض مساويهم بقوله ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ثم أخبرهم أنهم إن لم يمتثلوا يلحقهم عذاباً لا يوصف بقوله ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة لأنه كما قدر على الإنعام قادر على الانتقام. ولما كانوا ممن طبع على قلوبهم ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ مستوٍ عندنا ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أصلا أي لا نرعوي لوعظك، غير الأسلوب في النفي لأنه أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ الذي نحن عليه من الدين أو الذي جئتنا به ﴿إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ بضم الخاء واللام لنافع وابن عامر وعاصم وحمزة أي عادتهم وبفتحها وسكون اللام للباقين أي كذبهم واختلاقهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نحن عليه لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بالعذاب ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بسبب التكذيب بالريح الصرصر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ وأية

آية بينة فى موضعها ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ • كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ • إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ • إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ • وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ • أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ﴾ من الخير ﴿ آمِنِينَ ﴾ إنكار لبقائهم على ذلك الحال مع أوصافهم وتذكير للنعمة قبل فوات أوان الشكر ثم فسره بقوله ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ ﴾ أفرد النخل لفضله على سائر أشجار الجنات أو لأن المراد بها غيرها من الأشجار أو أراد وصف طلعه بقوله ﴿ طَلْعُهَا ﴾ وهو ما يطلع منها على مثال نصل السيف ثم ينشق فيخرج منه ثمره وهو الجمار الذى جاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بجمار ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ هَضِيمٌ ﴾ لطيف لين للطف الثمر أو لأن النخل أنثى وطلع إناثها ألطف أو متدلٍّ منكسر من كثرة الحمل ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ بالقصر صفة مشبهة لنافع وابن كثير وأبى عمرو أى بطرين من فره كفرح أشر ونارهين بالمد للباقين اسم فاعل من فره ككرم حذق أى أصحاب نشاط لأن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ كرره للتأكيد وليعطف عليه ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ استعيرت الإطاعة للامتثال لما بينهما من الشبه وأطلقت على الأمر وهى للآمر لما بينهما من التلبس وهو مجاز مرسل وعلى الأول بمجاز الاستعارة ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالمعاصى مستمرون على الفساد وصف موضح لإسرافهم ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ لا يوجد منهم إصلاح قط كسائر المفسدين الذين يخلطون الإفساد بالإصلاح ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ الذين سحروا كثيراً حتى غلب على عقلهم ﴿ مَا أَنْتَ ﴾ أيضاً لو سلمنا عدم كونك مسحوراً ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ تأكيد للبشرية وأنى لك رتبة الرسالة ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ ﴾ على دعواك ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى رسالتك ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ ﴾ بعد ما أخرجها الله من الصخرة بدعائه كما اقترحوا : اختصر القصص لأن الغرض تسلية رسوله وهو قد علمها فى مواضع أخر فاكتفى بطرفها ﴿ لَهَا شِرْبٌ ﴾ نصيب من الماء كالسقى والقيت للحظ من القوت والسقى ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ فاقتصروا على شربكم ولا تزاحموها فى شربها ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ كضرب وعقر ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ لعظم العذاب فيه مجاز حكمى حتى كأن شدة العذاب سرت إلى الوقت وهو أبلغ من تعظيم العذاب ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أى عقرها بعضهم برضى جميعهم إذ روى أنهم لم يعقروها حتى داروا على المخدرات فرضين كلهن بذلك ولذا أسند العقر إلى كلهم ﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ على عقرها خوفاً من حلول العذاب لا توبة ندموا بعد فوات الوقت ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الموعود به وهو صيحة جبريل فهلكوا ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ • وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ • كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ • إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ • إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ • وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ • أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ الناس فالجار والمجرور حال من

الذكران . والمراد بالعالمين الناس لأن المأتى الذكران منهم خاصة فالجمع بالياء والنون على أصله أى أتأتونهم من أولاد بنى آدم مع كثرة الإناث فيهم كأنهن قد أعوزنكم أومتعلق بتأتون فالمأتى كل من يتأتى منه الإتيان من سائر الحيوانات والجمع بالواو والنون للتغليب وخروج غير الإنسان بالقرينة العقلية أو أتأتونهم من بين من عداكم من العالمين لا يشاركـكم فيه غيركم ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ﴾ لاستمتاعكم ﴿رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ أى أقبالهن فمن لبيان « ما » إن أريد به جنس الإناث أوللتبعيض إن أريد به العضو المباح منهن فيكون تعريضا بأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم أيضا ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ عن حد الشهوة على سائر الناس بل وعلى الحيوانات أو مفرطون فى المعاصى ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ﴾ عما تدعيه وعن إنكارك علينا وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من بلدتنا على عنف وسوء حال: هددوه به لأن الإخراج من الوطن من أشد العذاب ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ المبغضين غاية البغض لا أتوقف عن الإنكار عليه بالإيعاد بالخروج وهذا أبلغ من أن يقول إنى لعملكم قال لدلالته على أنه داخل فى زمرتهم مشهور فيهم وفيه شبه جناس الاشتقاق ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أى من شؤمه وعذابه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا﴾ امرأته مستثناة من الاهل ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ أى مقدرة فى الباقين فى العذاب لأنها كانت مائلة إلى القوم راضية بفعلهم ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أهلكناهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ حجارة من جملة الإهلاك الذى هو قلب القرى لشدة الغضب أو على شذاذهم ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ مطرهم واللام للجنس ليصح وقوع ما أضيف إليه فاعل ساء والمخصوص محذوف كما قدرنا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وفتح الهاء لنافع وابن كثير وابن عامر اسم قرية وبإثباتها وسكون اللام وكسر الهاء للباقين غيضة شجر ملتف قرب مدين تسكنها طائفة من أهل مدين حين ضاقت بهم البلد لكونهم أرباب أموال وبنوا بين تلك الأشجار وهى شجر الدوم ﴿الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ لم يقل أخوهم لكثرة ذكره فى القصص فحذف هنا إشارة إلى أن القصص قد تمت وقد رمز إلى ذلك بحذف التاء أيضا فى كذب وهو من غوامض أسرار القرآن واختصاراته وأما من يقول لأنه ليس منهم فذلك وهم لحديث «إنما كان يبعث كل نبى إلى قومه وبعثت إلى الأحمر والأسود» نبه على هذا حذاق أهل التفسير ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أتموه إذا كلتم للناس ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين حقوق الناس بالتطفيف. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ الميزان ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ السوى قرأ حمزة والكسائى وحفص بكسر قاف القسطاس ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لا تنقصوهم شيئاً من حقوقهم غصبا وسرقة وغير ذلك ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ لا تفسدوا فيها بالقتل والغارة ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ﴾

الخليقة ﴿ الأَوَّلِينَ ﴾ المتقدمين من الامم . وهو مصدر بمعنى المفعول من جبله الله خلقه . ذكره توكيدا لاستحقاقه للتقوى لأنه خلق أصولهم الآباء وسيميتهم كما أماتهم ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أدخل الواو بين الوصفين للدلالة على منافاة كل منهما الرسالة استقلالا بخلاف قصة ثمود مع صالح فتكذيب قوم شعيب أبلغ وأقوى من أولئك ﴿ وَإِن ﴾ أى إنه ﴿ نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فى دعواك ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ بسكون السين للجمهور وفتحها لحفص : قطعة ﴿ مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ هذا غاية إنكار منهم كقول قريش فأمطر علينا حجارة من السماء وجواب لما أشعر به الأمر بالتقوى من التهديد ﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وبعذابه المنزل عليكم بما أوجبه لكم عليه فى وقته المقدر له لا محالة ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ هى سحابة أظلتهم بعد حر شديد أصابهم سبعة أيام فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ هذا آخر القصص السبع المذكورة على سبيل الاختصار تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتهديداً للمكذبين به وتكرير ما كرر فيها لإزاحة الاعذار بإشاعة الإخبار للوعظ والإنذار للصم البكم والعمى الذين لا يعقلون ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ جبريل ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ وهذا تقرير للقصص الماضية وتنبيه على إعجاز القرآن الموضح لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الإخبار عنها ممن لا يعلمها لا يكون إلا وحياً من الله وتخصيص القلب لأنه وعاء العلوم ومدرك المعقولات قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص نزل مخففاً والباقون مشدداً مسنداً إلى ضمير الله والروح الأمين منصوباً ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ داخلا فى زمرتهم ﴿ بِلِسَانٍ ﴾ متعلق بنزل أو بالمنذرين ﴿ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ واضح لئلا يقولوا أعجمى وعربى ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى ذكر القرآن أو معناه ﴿ لَفِي زُبُرِ ﴾ كتب ﴿ الْأَوَّلِينَ ﴾ كالتوراة والإنجيل ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً ﴾ أى لكفار مكة على صحة القرآن ، ونبوة محمد ﴿ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ بنعته فى كتبهم كعبد الله بن سلام وأصحابه ممن آمنوا فإنهم يخبرون بذلك بعد إيمانهم إن كانت الآية مدنية وقبل إيمانهم يخبرون قريشاً بنعته إن كانت مكية ويكن بالتحتانية للجمهور ونصب آية وبالفوقانية ورفع آية لابن عامر ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ ﴾ أى القرآن ﴿ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ جمع أعجمى بياء النسب لحذفت تخفيفاً ولذا جمع جمع السلامة لا جمع أعجم إذ لا يجمع جمع السلامة قاله بعض المعربين ، وقال فى غاية الأمانى والحق أن اللفظ منقول فلامانع . اه . وفى مدارك التنزيل والأعجم والأعجمى من كان فى لسانه عجمة وإن كان من العرب والعجمى المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحا والأعجمى منسوب إلى صفته أى العجمة كالأحرى للأحمر ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ أنفة من اتباعه مع عدم فهم ما يقول ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل إدخالنا التكذيب به بقراءة الأعجم ﴿ سَلَكْنَاهُ ﴾ أى أدخلنا التكذيب الذى دل عليه ما كانوا به مؤمنين ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

كفار مكة بقراءة النبي العربي الأفصح ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن ويحتمل أن الضمير في سلكناه للقرآن أي أدخلناه في قلوبهم فعرفوا معانيه وإعجازه. ومع ذلك لا يؤمنون به عناداً ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ حين لا ينفع الإيمان ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ في الدنيا أو في الآخرة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه ﴿فَيَقُولُوا﴾ تأسفا ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ طرفة عين فنؤمن؟ فيقال لهم لا، والفاء للترتيب الرتبي فإن مفاجأة العذاب أشد من رؤيته ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ رد لقولهم «أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» والهمزة للإنكار والفاء لترتيبه على الكلام السابق أي كيف يستعجل بمثل هذا العذاب عاقل؟ ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ مرتب على الاستهزاء والاستعجال تعجيباً من حالهم متعلق بمنظرون أي أخبرني ﴿إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿مَا﴾ استفهامية بمعنى أي شيء ﴿أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ في دفع العذاب أو تخفيفه أي لم يغن ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ من الأنبياء والرسل ﴿ذِكْرَىٰ﴾ عظة لهم وهو منصوب على المصدر بمعنى تذكرة لأن ذكر وأنذر متقاربان أو مفعول له أي لأجل الوعظ أو حال من ضمير «منذرون» أي ذوي تذكرة أو مرفوع خبر محذوف أي هذه ذكرى والجملة اعتراضية أو صفة لمنذرون بتقدير مضاف أو بجعلهم نفس الذكرى مبالغة أو متعلق بمقدر، والمعنى ما أهلكنا من قرية إلا بعد إلزام الحجة ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لمن يفعل مثل فعلهم. قال في غاية الأماني: وهذا أليق بالمقام لدلالته على وعيد المستهزئين وأنهم أحقاء أن يجعلوا عبرة لمن بعدهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إذ لم نهلك غير الظالمين ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ كما يزعم الكفار أنه من إلقائها إلى الكهان ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ﴾ لا يصلح لهم إنزاله لسفالة مقامهم ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لا يقدرون على ذلك ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾ لكلام الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ محجوبون بالشهب والقرآن مشتمل على حقائق ومغيبات لا يمكن تلقيها إلا من الملائكة ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ الخطاب للنبي والمراد غيره ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ إن فعلت ذلك وفيه تهييج لزيادة الإخلاص ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وهم بنو هاشم وبنو المطلب الأقرب منهم فالأقرب فإن الاهتمام بشأنهم أهم وقد أنذرهم جهاراً، رواه البخاري ومسلم ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ أي ألن جانبك ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مستعار من خفض الطائر جناحه إذا أراد أن ينحط و«من» بيانية أو تبعيضية ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي عشيرتك والمؤمنون ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من عملكم لم يقل منكم إشارة إلى أن المجانبة عارضة ﴿فَتَوَكَّلْ﴾ بالفاء لنافع وابن عامر عطفاً على جزاء الشرط وبالواو للباقين أي فوض جميع أمرك ﴿عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ الغالب لأعدائه الناصر لأوليائه وأتى بالوصفين لأنهما تونسان المتوكل ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى الصلاة في التهجد ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ في أركان الصلاة قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً ﴿فِي السَّاجِدِينَ﴾ المصلين أو ترددك في تصفح أحوال المتهجدين. كما روى أنه عليه السلام لما نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة على بيوت أصحابه

لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعتهم فوجدها كبيوت الزنابير لهم دندنة [1] بذكر الله والتلاوة وهم بين مصل وتال وذاكر ، والموصول وما بعده علة لاستحقاقه قهر أعدائه ونصر أوليائه وفيه أنه ينبغى للإمام أن يتفقد أصحابه فى أمور الدين أشد من أمور الدنيا وأن لزوم الطاعة هو سبب الفتح والنصر على الأعداء ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالك ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما تنويه . ولما بيّن أن القرآن لا ينبغى أن تنزله الشياطين أكد ذلك بأن بيّن أن محمداً عليه السلام لا يصلح نزول الشياطين عليه لوجهين : الأول أنها لا تنزل إلا على شرير كذاب كما قال ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ بحذف إحدى التاءين وكذا فى ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ كثير الكذب والعصيان كالكهنة والمتنبئة مثل شق وسطيح ومسيلمة وطليحة ، وأما النبى المعصوم فلا مناسبة بينه وبين الشياطين ، والثانى إلقاء الكذابين أو الشياطين السمع إليهم كما قال ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴾ أى الشياطين فيتلقون منهم ظنوناً يضمون إليها أكاذيب أو يلقون ماسمعوه من الشياطين إلى الناس أو فاعل يلقون الشياطين بمعنى يستمعون إلى الملائكة أو يلقون المسموع إلى أوليائهم ومحل « يلقون » نصب على الحال أو جر صفة « أفاك » أو استئناف كأنه قيل : لم تنزل الشياطين على كل أفاك ؟ فقيل : يلقون السمع ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ فيما يخبرون لا يطابق إذ يضم إلى ماسمع أكثر من مائة كذبة فقيد الأكثرية إن كان فى الشياطين لإخراج من يصدق فى الكلمة المخطوفة أو قبل حجبها وإن كان فى الأفاك فالأكثرية باعتبار أقوالهم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أخبر عن مغيبات لا تحصى وقد طابق كلها ، ثم أبطل كونه شاعراً بقوله ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ الضالون وأتباع محمد علماء صديقون فكيف يكون شاعراً كما تزعمون ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الكلام وفنونه ﴿ يَهِيمُونَ ﴾ يمضون ويخلطون الباطل فيجاوزون الحد مدحاً وهجاء لأن أكثر مقدماتهم خيالات لا حقيقة لها وأغلب كلماتهم فى التشبيب بالحرام وتمزيق الأعراض والقدح فى الأنساب والوعد الكاذب والافتخار الباطل ومدح من لا يستحقه والإطراء فيه وإليه أشار بقوله ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ فعلنا ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فكأنه لما كان إعجاز القرآن من جهة المعنى واللفظ وقدحوا فى المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين وفى اللفظ بأنه شعر ، تكلم فى القسمين وبيّن منافاة القرآن لهما ومضادة حال الرسول لحال أربابهما بما تقدم . وقد سمع سليمان بن عبد الملك قول الفرزدق يذكر الحر :

فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ ٭ وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الْخِتَامِ

قال يا فرزدق وجب عليك الحد فقال يا أمير المؤمنين قد رد الله عنى بقوله «وأنهم يقولون ما لا يفعلون» فتركه ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من الشعراء كحسان وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك الأنصاريين وكعب بن زهير المهاجرى ﴿ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ذكراً يغمر ما وقع فى أشعارهم من الغلو على دأب الشعراء مع أن أكثر أشعارهم فى التوحيد والثناء على الله والحث على طاعته ومدح الرسول ومن

(١) الدندنة : صوت الذباب والزنابير وهينمة الكلام . اه قاموس .

معه ، ولو قالوا هجواً أرادوا به الانتصار على من هجاهم كما قال تعالى ﴿ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ بهجو الكفار لهم فى جملة المؤمنين فهؤلاء ليسوا مذمومين . روى البخارى ومسلم والترمذى عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح عن رسول الله ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى بظلم من الشعراء وغيرهم ﴿ أَيَّ مُنْقَلَبٍ ﴾ مرجع ﴿ يَنْقَلِبُونَ ﴾ يرجعون بعد الموت وفيه غاية الوعيد فى « سيعلم » وإطلاق الظالم للتعميم وفى الإبهام والتهويل فى « أى منقلب » وقد تلاها أبو بكر لعمر رضى الله عنهما حين عهد إليه بعد يأسه من الحياة فقال لعثمان بن عفان : اكتب هذا ما عهد ابن أبى قحافة إلى المؤمنين فى الحال التى يؤمن فيها الكافر : أنى أستخلف عليكم عمر بن الخطاب فإن عدل فذاك ظنى به والخير أردت للمسلمين وإن لم يعدل فسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

[تم تفسير سورة الشعراء]

سورة النمل

مكية - وهى ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ طس ﴾ الله أعلم بمراده بذلك ﴿ تِلْكَ ﴾ أى هذه الآيات الآتية فى هذه السورة ﴿ آيَاتُ الْقُرْآنِ ﴾ آيات منه ﴿ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ لكل ما هو كائن وهو اللوح أو هو القرآن المبين لما فيه من الحكم والأحكام عطف بزيادة صفة وعلى أنه اللوح ، أخر هنا باعتبار تعلق علمنا به وقدم فى الحجر باعتبار الوجود ﴿ هُدًى ﴾ أى هادية من الضلال ﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ به بالجنة وهما حالان من « الآيات » والعامل فيهما معنى الإشارة أو بدلان منها أو خبران آخران أو خبران لمحذوف ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ يأتون بها على وجهها ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ أى الذين يعملون الصالحات كلها فاكتفى بأمهات الأعمال البدنية والمالية ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ يعلمونها بالاستدلال وهو تأكيد لما وصفوا به لأن إيقان الآخرة يستلزم الخوف المستلزم لتحمل مشاق التكليف ولذا كرر فيها الضمير كأنه قيل بالآخرة موقنون لا بغيرها وهم الموقنون لا غيرهم أو هو من تتمة الصلة ، وغير النظم للدلالة

على كمال يقينهم والواو عاطفة لاحالية ، قاله فى غاية الأمانى : لأن ما بعدها يعنى يكون حينئذ فضلة بلا فائدة ، ثم أتبع ما للمؤمنين من البشرى ما للكافرين من سوء العذاب فقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ القبيحة بتركيب الشهوة حتى رأوها حسنة ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون فيها لا يدركون ما فيها من الضر ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ أى أشده فى الدنيا القتل والأسر وضرب الجزية ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ أشد الناس خسراناً لفوات الثواب ودوام العقاب ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ ﴾ تؤتاه وبلقى عليك بشدة ﴿ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى حكيم وأى عليم ، وذكر عليم بعد حكيم تعميم بعد تخصيص لأن العلم داخل فى الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على إتقان الفعل إشارة إلى اشتمال القرآن على الحكم كالعقائد والشرائع وعلى العلوم كالقصص وأخبار المغيبات كما أشار إليها بقوله ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ ﴾ نصب باذكر أومتعلق بعليم ﴿ إِنِّي آنَسْتُ ﴾ أبصرت من بعيد ﴿ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ عن حال الطريق وكان ضلها والجمع باعتبار لفظ الأهل والسين للدلالة على بعد المسافة أو الوعد بالإتيان وإن أبطأ ﴿ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ بالإضافة للجمهور للبيان لأنه يكون قبساً وغيره وبتركها للكوفيين على أن القبس بدلا منه أو وصف له لأنه بمعنى المقبوس أى شعلة نار فى رأس فتيلة أو عود ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ تستدفئون من البرد من صَلِي بالنار بكسر اللام وفتحها والطاء بدل من تاء الافتعال قاله فى المكمل لكن فى القاموس صلى النار كرضى وبها قاسى حرها وأصلاه النار وصلاه إياها وفيها وعليها أدخله إياها وشواه فيها . اه . ويحتمل أنه من صليت اللحم شويته والصلا النار العظيمة ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا ﴾ أى المكان القريب منها ﴿ نُودِيَ أَنْ ﴾ أى بأن ﴿ بُورِكَ ﴾ أى بارك الله ﴿ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ أى فى مكان فيه النار وهم موسى والملائكة الحاضرون ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى من سكن حولها فى الأرض المقدسة . والظاهر أنه عام فى جميع الشام إذ جميع أرضه موسوم بالبركات لكونه مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتاً وخصوصاً تلك البقعة التى كلم الله فيها موسى ، وفى الحديث : « الشام كنز الله فى أرضه » ، وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأن موسى قد قضى له أمر عظيم ينتشر بركته فى أقطار الشام ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ من تمام النداء تعجيب للأمر ونفى تشبيه يتوهم من سماع الكلام بالصوت والحروف أى تنزيه الله عما لا يليق به وإيذان بأن كل الأمور أثر رب العالمين ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وضمير إنه للشأن وأنا الله جملة مفسرة له أو للمتكلم وأنا خبره والله بيان له وما بعده صفتان ممهدتان لما أراد أن يظهره فى قوله ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ عطف على بورك وأظهر حرف التفسير فى القصص وحذفه هنا والكل سائغ تقول كتبت إليه أن حج وأن اعتمر ، وإن شئت قلت أن حج واعتمر . فألقاها فصارت حية ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ ﴾ تتحرك ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ حية سريعة ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ هاربا ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ لم يكر قال تعالى له ﴿ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ ﴾ من غيرى ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ

الْمُرْسَلُونَ﴾ من حية أو غيرها من فرط الاستغراق فى خوف ولأنهم مكرمون مقربون وأنت منهم ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ نفسه منهم بترك الاولى فإنه خائف أولا ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ تدارك ما فرط منه بالإنابة وفيه تعريض لطيف لموسى فى قتل القبطى من غير إذن وإن كان كافرا حربيا وقيل الاستثناء منقطع أى لكن من ظلم نفسه ثم بدل حسناً أى أتاه بعد سوء تاب منه ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أقبل توبته وأغفر له ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ طوق القميص أو القميص نفسه لأنه من لوازمه لأنه يجاب أى يقطع ﴿تَخْرُجْ﴾ خلاف لونها من الادمة ﴿بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ آفة كبرص لها شعاع يغشى البصر آية ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ تقدمت فى سورة الإسراء مرسلا بها ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أى مضيئة واضحة بمعنى تجعلهم بصراء وصفت بوصفهم على المجاز الحكمى إطلاقا لاسم الفاعل على اسم المفعول أو جعلت كأنها تبصرهم أى تهديهم لأن الأعمى لا اهتداء له فضلا عن الهداية على الاستعارة المكنية ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر لا اشتباه فيه ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ أنكروها مع العلم ضمن معنى التكذيب فعدى بالباء ﴿وَ﴾ قد ﴿اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ تيقنوا أنها من عند الله ، الواو للحال والاستيقان أبلغ من الإيقان ﴿ظُلْمًا﴾ لأنفسهم ﴿وَعُلُوًّا﴾ تكبرا عن الإيمان منصوبان على العلة من جحدوا ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ التى علمتها من الإغراق فى الدنيا والإحراق فى الآخرة والإتيان بالظاهر لبيان العلة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ ابنه ﴿عِلْمًا﴾ أى طائفة من العلم . وهى علم الشرائع . ومنطق الطير . أو علماً أى علم وإنما أردف قصتهما قصة موسى لأن موسى ابتلى فصبر وأنعما فشكرا ليقتدى بموسى وبهما فى السراء والضراء ﴿وَقَالَا﴾ شكراً لله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا﴾ بالنبوة وتسخير الجن والشياطين ﴿عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وعطف قالا بالواو إشعارا بأن ماقالاه بعض ما أتياه فى الشكر كأنه قال فعملا بذلك العلم قلباً وجوارح وقالا ففيه استيعاب لأنواع الشكر على ألطف وجه وقيد بالكثير لأن قليلا فضل عليهما وهم خواص الأنبياء وفى الآية دلالة على فضل العلم وأهله وأن ملك الدنيا بأسره على أكمل الوجوه كما كان لداود وسليمان دون العلم وأن من أوتى علماً ينبغى أن يتواضع ويعلم أنه وإن فضل على بعض فقد فضل عليه البعض ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ النبوة والعلم وسياسة الناس به أى قام مقامه فى ذلك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر لأن الأنبياء لا يورثون مالا ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ناداهم إظهارا لنعمة الله ودعاء لهم إلى تصديق المعجزة التى هى ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ أى فهم أصواته كما تفهمون كلام الناس من غير سبق وضع وتعلم بل بإعلام الله تعالى كما وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كلام الضب والظبى والبعير والحجر ﴿وَأُوتِينَا﴾ والضمير له ولأبيه أو له فقط على عادة الملوك فى حال السياسة ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يؤتاه الأنبياء والملوك وهو كناية عن الكثرة كما تقول فلان يعلم كل شىء ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ الذى لا يخفى على أحد وقد أعطى

سليمان ما أعطى داود من النبوة والعلم والملك . وزيد له تسخير الريح والشياطين فكان ملكه أعظم لكن داود أشد تعبداً وسليمان أشد شكراً لنعم الله . وقد ملك مشارق الأرض ومغاربها سبعمائة سنة أو أقل ملك جميع أهل الدنيا من الجن والإنس والدواب والطير والسباع وأعطى على ذلك منطق كل شيء . وفى زمانه صنعت الصنائع العجيبة وكان مجاهداً وبنى بيت المقدس فعزم على الخروج وأرسل إلى الجنود ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ ﴾ من كل أوب ﴿ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ ﴾ وبدأ بالجن لأن تسخيره أعجب فسار بهم ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يكفون ويحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا وفيه أنهم مع كثرتهم كانوا مسوسين مضبوطين لا يتأذى أحد منهم أو بهم وكان معسكره مائة فرسخ فى مائة فرسخ . خمسة وعشرون للجن ومثله للإنس ومثله للطير ومثله للوحش لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقى الريح ذلك إلى مسامعه ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ ﴾ بالطائف أو بالشام نمل صغار وكبار أمثال الذباب ، والمشهور الأول وهى من ذوات الجناح وتعدية أتى بعلى إما لأن دخولهم كان من الجانب الأعلى وإما لأنهم قطعوا الوادى من قولهم أتى على الشيء بلغ نهايته كأنهم أرادوا أن ينزلوا فى أخريات الوادى ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ اسمها فاختة أو غير ذلك وهى ملكتها وقد رأت جند سليمان متوجهين إلى الوادى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ ولم يقل ادخلن لتنزيلهن منزلة العقلاء بالنداء ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ يكسرنكم ﴿ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنهم يحطمونكم ولو شعروا لم يفعلوا كأنها علمت عصمة الأنبياء من الظلم والإيذاء و « لا يحطمنكم » أى لا تقفوا حيث يحطمونكم وهو جواب للأمر ودخول النون لكونه نهياً فى المعنى أو بدل من الأمر لأنه فى المعنى نهى لأن « ادخلوا مساكنكم » فى معنى لا تكونوا حيث كنتم . وفى هذه الآية من إيجاز القصر وهو قلة الألفاظ مع كثرة المعنى لا لحذف ما تحار فيه العقول وفيها أحد عشر معنى من أنواع الكلام : النداء والكناية والتنبيه والتسمية والأمر والقصة والتحذير والتخصيص والتعميم والإشارة والعذر . فراعت النملة خمس حقوق : حق الله ورسوله وجنده وحقها ورعاياها ، وقد نظمت كل هذا فى المفتاح وسلالته بقولى مثلا لآيات القصر :

كَآيَةِ الْعَدْلِ مَعَ الْإِحْسَانِ • وَآيَةِ النَّمْلِ عَلَى مَعَانِ
نَادَتْ بِيَا كَنَّتْ بِأَيْ نَبَّهَتْ • بِهَا وَسَمَّتْ بِاسْمِ نَمْلٍ أَمَرَتْ
وَبِادْخُلُوا قَصَّتْ بِمَسْكَنِي حَذَّرَتْ • حَطْمَ سُلَيْمَانِ تَخَصَّتْ عَمَّمَتْ
جُنُودَهُ ثُمَّ بِهِمْ أَشَارَتِ • بِنَفْيِ عِلْمٍ عَذَرَتْ فَرَاعَتِ
حَقَّ الْإِلَهِ وَالرَّسُولِ وَلَهَا • وَجُنْدِهِ وَنَافِعًا عِيَالَهَا

﴿ فَتَبَسَّمَ ﴾ سليمان ابتداء ﴿ ضَاحِكًا ﴾ انتهاء ﴿ مِنْ قَوْلِهَا ﴾ وقد سمعه من ثلاثة أميال حملته إليه الريح فحبس جنده حين أشرف على واديهم حتى دخلوا بيوتهم وكان جنده ركباناً ومشاة فى هذا المسير قبل

تسخير الريح له أو كانت فى جنوده مع الريح ركبان ومشاة على الأرض تطوى لهم أو خافت نزوله فى الوادى ، وضحكه لأجل السرور بنعمة الله عليه فى إسماعه وتفهيمه ﴿ وَ ﴾ لذا ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ بفتح الياء لورش والبزى وسكونها للباقين : ألهمنى ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ ﴾ بها ﴿ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ فإن النعمة عليهما نعمة عليه كالعكس سيما النعم الدينية ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ﴾ بقية عمرى تماماً للشكر واستدامة للنعمة ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ ﴾ جنتك ﴿ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ الأنبياء والأولياء وفيه إشارة إلى أن دخول الجنة بفضل رحمة الله كما ورد فى الحديث ﴿ وَتَفَقَّدَ ﴾ تعرف ﴿ الطَّيْرَ ﴾ ليرى الهدهد الذى يرى الماء تحت الأرض ويدل عليه بنقره فيها فيستخرجه الشياطين لاحتياج سليمان إليه للصلاة فلم يره فتعجب ، وقال فى الجواهر : ظاهر الآية أنه تفقد جميع الطير بحسب ما تقتضيه العناية بالمملكة والاهتمام بكل جزء منها . اهـ . ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾ أى أعرض لى ما منعنى رؤيته من ساتر أو تقصير فى الشكر فسلبت نعمته ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ فلم أره لغيبته ، ويحتمل أم الانقطاع كأنه لما لاح له أنه غائب أضرب عن ذلك التعجب وأخذ يقول أهو غائب ؟ يريد تحقيق ما لاح له ولذا قال ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ سياسة لئلا يجترئ على فعل مثله آخر من جنسه ، وتعذيبه : نتف ريشه وإلقاؤه فى الشمس أو طلاؤه القطران وتشميسه أو جعله مع ضده فى قفص ﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ ليعتبر به أبناء جنسه ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي ﴾ بنون شديدة مكسورة للجمهور أو مفتوحة يليها مكسورة لابن كثير ﴿ بِسُلْطَانٍ ﴾ برهان ﴿ مُبِينٍ ﴾ واضح يبين عذره ، والحلف فى الحقيقة على أحد الأولين بتقدير عدم الثالث الذى فى معنى الاستثناء ، وهذا دليل على وجوب تفقد الرعية صغيرها وكبيرها ، ولذا قال عمر بن الخطاب : لو أن سخلة بشاطئ الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر . قال ابن العربى : فما ظنك بوال ذهب على يديه البلدان ﴿ فَمَكُثَ ﴾ بضم الكاف للجمهور وفتحها لعاصم ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أى زماناً قليلا دل على سرعة عوده خوفاً من سليمان لحضرته واضعاً برفع رأسه وإرخاء ذنبه وجناحيه فدنا منه فأخذ برأسه ومده إليه فقال : يانبي الله اذكر وقوفك بين يدى الله . فارتعد سليمان وعفا عنه وسأله عما لقى فى غيبته ﴿ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ اطلعت على ما لم تطلع عليه ، ألهم الله الهدهد هذا الكلام ليوقظ به سليمان لئلا يظن أنه ليس أحد أعلم منه وليعلم أن فى أدنى خلق الله من أحاط بما لم يحط به ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ ﴾ بالصرف للجمهور وتركه لابن كثير وأبى عمرو قبيلة باليمن سميت باسم جد لهم باعتباره صرف ومنع باعتبار القبيلة أو البلدة وهى لعبد شمس بن يشجب ابن يعرب بن قحطان ﴿ بِنَبَإٍ ﴾ بخبر ﴿ يَقِينٍ ﴾ حقيق ، ونبأ مع سبأ من الجناس الملاحق المزدوج . وفى الحديث : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما سبأ أهو رجل أم جبل أم واد ؟ فقال : رجل ولد عشرة أولاد من العرب فتيامن منهم ستة وتشاءم أربعة ، فأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعر وحمير وكندة ومذحج وأنمار ، وأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وغسان وعاملة . فقال الرجل : وما أنمار ؟ فقال :

الذين هم خثعم وبجيلة ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ أى سبأ أو أهلها وهى بلقيس - بكسر الباء - بنت شراحيل بن مالك بن ريان وكان الملك فى آبائها أربعين جداً ولم يكن لأبيها ولد ذكر فولوها الملك . وفى الحديث : لن يفلح قوم تولى عليهم امرأة ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من أسباب الملك الآلات والعُدد والعَدد ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ ﴾ سرير ﴿ عَظِيمٌ ﴾ طوله ثمانون ذراعا فى ثمانين وسمكه كذلك مضروب من الذهب والفضة مكلل بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر والزمرد وقوائمه كلها مما ذكر عليه سبعة أبيات وعلى كل بيت باب مغلق ، ولم يبال سليمان بهذا كله حتى قال ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ القبيحة ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ طريق الحق ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ❁ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ بالتشديد للجمهور مفعول « يهتدون » زيدت لا وأدغم فيها نون أن بإسقاط إلى أو بدل من « أعمالهم » أى زين لهم أعمالهم عدم السجود أو مفعول له أى فصدهم لئلا يسجدوا ، وبالتخفيف للكسائى على أن « ألا » حرف تنبيه ويا للنداء والمنادى محذوف أى ألا يا قوم اسجدوا لله ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ والخبء الخفى مصدر بمعنى المخبوء فى غيره كالنبات المخرج من الأرض والمطر من السماء وغير ذلك من الأشياء المستورة فى غامض عليه وجملة التنبيه والنداء على التخفيف مستأنفة من الله أو من سليمان ووصفه بما يوجب اختصاصه باستحقاق السجود من التفرد بكمال القدرة والعلم للحث على السجود له والرد على من يسجد لغيره ﴿ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ ﴾ فى قلوبهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ بألسنتهم بالغيبة فيهما للجمهور والخطاب لحفص والكسائى ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ الذى هو أول الأجرام وأعظمها والمحيط بجملتها الذى يستحقر دونه عرش بلقيس ، كلام مستأنف للدلالة على تفرده بالألوهية ﴿ قَالَ ﴾ سليمان للهدهد وقد قبل عذره ، وهكذا ينبغى لكل والٍ قبول عذر رعيته ﴿ سَنَنظُرُ ﴾ بالتأمل فيما أخبرتنا به ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ عدل عن أم كذبت للمبالغة ورعاية الفواصل أى من هذا النوع ، ثم دلهم على الماء فاستخرجه الشياطين وارتووا وتوضأوا وصلوا ثم كتب سليمان كتاباً صورته « من عبدالله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ . بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فلا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين » ثم طبعه بالمسك وختمه بخاتمه ثم قال للهدهد ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ ﴾ بكسر الهاء للجمهور وإسكانه لعاصم وأبى عمرو وحمزة ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ إلى بلقيس وقومها ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ ﴾ انصرف ﴿ عَنْهُمْ ﴾ وقف قريباً منهم ليكونوا بمسمع منك ﴿ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ ما يرجع بعضهم إلى بعض من القول أى ما يستقر عليه آراؤهم بعد التشاور ، فأخذه وأتاها وحولها ملؤها فدخل من كوة صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لعبادتها إياها وألقى الكتاب فى حجرها ، فلما رأته أرعدت وخضعت خوفاً ثم وقفت على ما فيه ثم ﴿ قَالَتْ ﴾ لأشراف قومها ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ لتصديره باسم الله ووجازته مع وفائه بالمقصود وغرابة شأنه

فى الدخول وختمه وكونه من ملك الإنس والجن فكأنهم قالوا من هو وما هو فقالت ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ ﴾ أى مضمونه ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ أن مفسرة أو مصدرية وهو بصلته خبر محذوف أى المقصود أن لا تعلوا وهذا كلام فى غاية الوجازة مع كمال الدلالة على المقصود لاشتماله على البسملة الدالة على ذات الصانع وصفاته صريحاً والتزاماً والنهى عن الترفع الذى هو أم الرذائل والأمر بالإسلام الجامع لأمهات الفضائل لا يقال أمرهم بالانقياد قبل المعجزة إذ إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة من أعظم المعجزات وأيضاً لا يجب إظهار المعجزة إلا إذا طولب به وقوله إنه من سليمان بيان لعنوان الكتاب فلم يتقدم على اسم الله فى الكتاب والله أعلم ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي ﴾ بقلب ثانية الهمزين واوا أو تحقيقها أى أشيروا علىّ ﴿ فِي أَمْرِي ﴾ ماتستصوبون فيه من جواب الكتاب والفتوى والفتيا جواب الواقعة من الفتاء حداثة السن ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا ﴾ قاضيته ﴿ حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ تحضرون كما هو شأن الملوك العقلاء لا يعزمون على شىء إلا بعد المشاورة مع ذوى الآراء قيل كان أهل مشورتها الذين لا تقطع أمراً إلا إذا حضروا كلهم ثلثمائة ملك تحت يد كل واحد منهم عشرة آلاف ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ ﴾ بالأجساد والآلات والعدد ﴿ وَأُولُو بَأْسٍ ﴾ شجاعة فى الحرب ﴿ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ ﴾ موكول ﴿ إِلَيْكِ ﴾ بعد هذا ﴿ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ من المقاتلة والصلح نطعك ونتبع رأيك ﴿ قَالَتْ ﴾ لم تشعر أنها ترى الصلح أصلح لأن الحرب سجال لاتدرى عاقبتها ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً ﴾ بالغلبة ﴿ أَفْسَدُوهَا ﴾ بتخريب عمارتها وأموالها ﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ بالقتل والأسر إلى غير ذلك من أنواع الإهانة ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ تأكيد لما وصفت من حالهم وتقدير بأن ذلك من عاداتهم المستمرة أو تصديق لها من الله أو المراد مرسلو الكتاب ثم بينت لهم ما ترى تقديمه فى المصالحة بقولها ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ﴾ سنية تليق بالملوك مع رسلى أدفع بها أولا عن ملكى ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ من أحواله وأخباره فأبنى على ذلك من الحرب والصلح ما كان أوفق فإن كان ملكا قبل الهدية فلا نتبعه أو نبياً لم يقبلها لأنه قال ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين ، وهذا لاتنفع فيه فدية لأن قبولها رشوة وهى بيع حق بالمال فأرسلت منذر بن عمرو مع خدم ذكور وإناث ألفا على السوية وخمسمائة لبنة من الذهب وتاجاً مكللا بالجواهر ومسكا وعنبرا وحقة فيها درة عذراء وجذعة معوجة الثقب ومع الرسول كتاب فى وفد أهل الرأى فأخبر جبريل سليمان ذلك وأسرع الهدهد إليه أيضاً بالخبر فأمر الجن فضربوا اللبن من الذهب والفضة وفرش بها ميداناً من موضعه إلى تسع فراسخ وأمر الشياطين فأتوه بأحسن دواب البر والبحر فربطت حول الميدان عن يمينها وشمالها على فرش الذهب والفضة وأمر بأولاد الجن يميناً وشمالا منها يقرءون الزبور واصطفت خلق كثير من الجن والإنس فراسخ وجلس على كرسيه ثم استعرض الرسل ﴿ فَلَمَّا جَاءَ ﴾ الرسول بالهدية ومعه أتباعه ﴿ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ وقرأ حمزة بنون واحدة مدغماً : إنكار عليهم

ظنهم أنه يريد المال ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ ﴾ من الدين والنبوة والملك الذى لا مزيد عليه ﴿ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ﴾ من الدنيا ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ ﴾ أى بما يهدى إليكم أو بما تهدون ﴿ تَفْرَحُونَ ﴾ مفتخرين بها على الملوك أو تفرحون بها إذا وردت عليكم وهو من إضافة المصدر إلى المفعول أو الفاعل لأنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا وقال للرسول أو للهدهد مع كتاب آخر ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ بما أتيت به من الهدية أو بالكتاب ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ ﴾ طاقة ﴿ لَهُمْ بِهَا ﴾ ردّ لقولهم نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا ﴾ من بلدهم سبأ ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ إن لم يأتونى مسلمين تصديق لقولها إن الملوك الخ .. وفى قصة سير جنود سليمان وسيرته معها ومع النملة ومع الهدهد وكتابه إلى بلقيس وكلامها مع قومها ومحاورتهم معها وإرسالها ومارد سليمان إليها علوم سياسات الرعايا كلها مما لو تأمله العاقل كفته إن شاء الله . روى أنها لما رجع إليها الرسول بالهدية جعلت سريرها داخل سبعة أبواب داخل قصرها وقصرها داخل سبعة قصور وأغلقت الأبواب وجعلت عليها حرساً وتجهزت السير إلى سليمان لتنظر ما يأمرها به فارتحلت فى اثنى عشر ألف قَيْل مع كل قيل ألوف كثيرة إلى أن قربت منه على فرسخ شعر بها ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ أراد أن يريهم ماخصه الله تعالى به من المعجزات الظاهرة والعجائب الباهرة لا لإرادة أخذه قبل إسلامها إذ حلّ الغنائم مخصوص برسول الله وأمته ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ القوى الشديد الداهية اسمه ذكوان أو صخر ، من العفر وهو التراب لأنه يعفر أقرانه والتاء فيه للإلحاق بقنديل وكان كجبل عظيم يضع قدمه عند منتهى طرفه ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ الذى تجلس فيه للقضاء وهو من الغداة إلى نصف النهار ذلك مسيرة شهرين لأنه فى الشام والعرش فى اليمن ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ ﴾ على حمله ﴿ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ على ما فيه من الجواهر وغيرها لا أختزل منه شيئاً قال سليمان أريد أسرع من ذلك ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ المنزل كالتوراة وغيرها أو اللوح المحفوظ وهو آصف بن برخياء وزيره أو صديقه أو جبريل أو الخضر أو سليمان نفسه عبر بذلك للدلالة على شرف العلم والكرامة بسببه والخطاب حينئذ للعفريت فى قوله ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ إذا نظرت به إلى شىء . ما وآتيك صالح للفعل والاسم روى أنه قال له انظر إلى السماء . فنظر إليها ثم رد بطرفه فوجده موضوعاً بين يديه فى نظره إلى السماء . دعا آصف بالاسم الأعظم أن يأتى الله به فحصل بأن جرى تحت الأرض حتى ارتفع عند كرسى سليمان فى لمحة ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾ حاصلا بين يديه ﴿ قَالَ هَذَا ﴾ أى الإتيان به فى لمحة من مسيرة شهرين ﴿ مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ تلقيا للنعمة بالشكر على عادة المخلصين من عباد الله أى تفضل به على من غير استحقاق ﴿ لِيَبْلُوَنِي ﴾ ليختبرنى ﴿ أَأَشْكُرُ ﴾ بأن أراه فضلا من الله بلا حول منى ولا قوة وأقوم بحقه بدل من الياء وقد انسلخ عنه الاستفهام ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ بأن أقصر فى أداء موجبه ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأجلها لينال دوام النعمة ومزيدها وثواب الآخرة ﴿ وَمَنْ

كَفَرَ ﴾ النعمة ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ عن شكره ﴿ كَرِيمٌ ﴾ لا يعاجله بالعقوبة ولا يقطع عنه بره وأفضاله ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ بتغيير هيئته وشكله بأن تجعلوا أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره ﴿ نَنْظُرْ ﴾ جواب الأمر ﴿ أَتَهْتَدِي ﴾ إلى معرفته أو إلى الإيمان ﴿ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى معرفة ما يغير عليهم . قصد بذلك اختبار عقلها فنيروه بما تقدم ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ ﴾ لها ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أى أمثل هذا عرشك تشبيهاً عليها زيادة فى امتحان عقلها والقائل سليمان أو أحد خواصه ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أى فعرفته وشبهت عليهم كما شبهوا عليها إذ لم يقل أهذا عرشك ولو قيل هذا لقالت نعم ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ ﴾ بكمال قدرة الله وصحة نبوتك ﴿ مِنْ قَبْلِهَا ﴾ أى هذه الحالة فهو من تتمة كلامها لما ظنت أنه أراد إظهار معجزة لها أو من كلام سليمان وقومه عطفوه على جوابها كأنهم قالوا : أصابت فى الجواب وأوتينا العلم من قبلها وغرضهم فيه التحدث بما أنعم الله عليهم من التقدم فى الإسلام شكراً لله تعالى ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ قبلها ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ عن عبادة الله مع هذا العقل ﴿ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره ابتداء كلام منه تعالى أو صدها الله أو سليمان عما كانت تعبد من دون الله على نزع الخافض ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ استئناف جار مجرى التعليل على الوجهين أى لأنها نشأت بين أظهر الكفار وخروج الإنسان مما عليه قومه عسير لا يحصل إلا بتوفيق من الله ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ أى القصر المرتفع ، من الصراحة الظهور ، وهذا الصرح صحنه من زجاج أبيض شفاف تحته ماء جار فيه سمك وغيره من حيوان البحر اصطنعه سليمان لما قيل له إن ساقيها ورجليها كقدمى حمار ووضع سريره فى صدره فجلس عليه ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ من الماء ﴿ وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ﴾ لتخوضه فرأى ساقيها وقدميها حساناً لاشعر عليها أو أراد أن يريها عظم ملكه وأمراً غريباً لم تره فى ملكها لتحقر ملكها أو لبس عليها كما لبست هى عليه فى الجوارى على هيئة الغلمان والغلمان على هيئة الجوارى فاهتدى هو ولم تهتد هى فظهر له الفضل من كل وجه ﴿ قَالَ ﴾ لها ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ ﴾ مملس ﴿ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ أى زجاج أبيض ودعاها إلى الإسلام ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ بعبادة غيرك أو بظنى فى سليمان رسولك أنه أراد قتلى بالغرق ﴿ وَأَسْلَمْتُ ﴾ كائنة ﴿ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فى ما أمر به ، آثرت لفظ الجلالة الدالة على الألوهية الموجبة لعبادته ، قيل إن سليمان زوجها من ذى تبع ملك همدان ، وقيل تزوجها هو وأقرها على ملكها وكان يزورها كل شهر مرة ويقيم عندها ثلاثة أيام وانقضى ملكها بانقضاء ملك سليمان فسبحان من لا انقضاء لدوام ملكه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ ﴾ من القبيلة ﴿ صَالِحًا أَنِ ﴾ بأن ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وحدوه ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ فى الدين فريق مؤمنون من حين إرساله وفريق كافرون أى فاجأوا الاختصام والتفرق كما هو شأن أمم الرسل فى أول البعثة ، والواو لمجموع الفريقين أو المراد بالاختصام ما فى الأعراف « قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا » إلى آخره ﴿ قَالَ ﴾ للمكذبين ﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ العذاب

بقولكم « يا صالح ائتنا بما تعدنا » ﴿ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ قبل الرحمة بالتوبة ﴿ لَوْلَا ﴾ هلا ﴿ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ ﴾ قبل نزول العذاب ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فلا تعذبون ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا ﴾ أصله تطيرنا أدغمت التاء فى الطاء واجتلبت همزة وصل أى تشاءمنا ﴿ بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ لتتابع الشدائد علينا مع الافتراق منذ اخترعتم هذا الدين فقحطنا وجعنا بشؤمكم ﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ ﴾ شؤمكم المقدر عليكم ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أتاكم به ليس لأحد فيه تأثير ، سمى ما يصيب الإنسان من خير أو شر طائراً لسرعة نزوله إذ لا أسرع من القضاء المحتوم إذا أتى وقته ثم أضرب عن الطائر إلى الداعى إليه بقوله ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ تختبرون بإعقاب الضراء بعد السراء أو بوسوسة الشيطان إليكم التطير ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ مدينة ثمود وهى الحجر ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ رجال ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بأنواع المعاصى ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ أى شأنهم الإفساد الخالص عن شوب الصلاح ﴿ قَالُوا ﴾ بيان لإفسادهم أى قال بعضهم لبعض ﴿ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ ﴾ أى احلفوا أمر مقول أو خبر وقع بدلا أو حالا بإضمار قد ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ ﴾ بالنون للجمهور والتاء وضم التاء الثانية لحمزة والكسائى ﴿ وَأَهْلَهُ ﴾ لنباغتن صالحاً وأهله ليلا بالقتل انتهازاً للفرصة ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ ﴾ بالنون للجمهور والتاء لحمزة والكسائى مع ضم اللام الثانية ﴿ لِوَلِيِّهِ ﴾ ولىّ دمه ﴿ مَا شَهِدْنَا ﴾ ما حضرنا ﴿ مُهْلَكَ أَهْلِهِ ﴾ بضم الميم مصدر أهلك أو اسم مكان منه للجمهور وبفتح الميم واللام لعاصم فى رواية شعبة مصدر هلك أو اسم مكان منه وكسر اللام فى رواية حفص عليهما على غير قياس أى نقسم على عدم حضورنا ذلك فضلا عن المباشرة ﴿ وَإِنَّا ﴾ والحال إنا ﴿ لَصَادِقُونَ ﴾ فى الحلف بأنا لم نشاهد هلاك أهله وحدهم ، يحتالون بذلك فى اجتناب الكذب ، ويحتمل أن يكون داخلا فى المقسم عليه فلا يحتاج إلى التكلف أى نحلف « إنا لصادقون » ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا ﴾ فيما دبروه ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ بأن جعلناه سبباً لهلاكهم عاجلا ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بأن وبال ما دبروه عائد إليهم وذلك أنهم دخلوا دار صالح بالليل وكانت داره ممتلئة ملائكة فأهلكوهم بالحجارة أو وقفوا تحت صخرة فى سفح جبل ينتظر بعضهم بعضاً فلما اجتمعوا طبقت عليهم الصخرة ولم يدر أحد أين ذهبوا كما هلك قومهم كما قال تعالى ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ ﴾ أهلكناهم ﴿ وَ ﴾ أهلكنا ﴿ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بصيحة جبريل لقومهم وحجارة الملائكة أو الصخرة للتسعة وكان إن جعلت ناقصة فخبرها « كيف » و « إنا دمرناهم » استئناف ، وإن كانت تامة فـ « كيف » حال ، وقرأ الكوفيون « أنا » بالفتح على أنها خبر محذوف أو بدل من اسم كان أو خبر له و « كيف » حال ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ خالية أو ساقطة ونصبه على الحال والعامل فيها معنى الإشارة ﴿ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ بظلمهم أى كفرهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ لعبرة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ حقائق الأشياء فيتعظون ﴿ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بصالح ﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الشرك والمعاصى ولذا خصوا بالنجاة ﴿ وَلُوطًا ﴾ منصوب باذكر مقدراً أو بأرسلنا لدلالة « ولقد أرسلنا » عليه ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ بدلٌ على الأول وظرف على الثانى

﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ اللواط ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ يبصر بعضكم بعضاً انهما كا فى المعصية لانهم كانوا يعلنون بها فهو أفحش ولذا يقال إذا بليت فاستتر ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ بيان للفاحشة وتعليلها بالشهوة إشارة إلى أنه من فعل البهائم ، والعقلاء يطلبون النسل ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ عاقبة فعلكم أو مستمرون على فعل القبيح كمن يجهل قبحه أو تستمرون على السفه لا تميزون بين القبيح والحسن والتاء فيه لكون الموصوف به فى معنى المخاطب ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴾ أى إلا قولهم ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ معه ﴿ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ عن أفعالنا ويستقذرونها ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا ﴾ جعلناها بتقديرنا ﴿ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ الباقين فى العذاب ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ هو حجارة السجيل أهلكتهم ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ مطرهم ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على هلاك كفار الأمم الخالية ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ هم . لما قص الله عليه ما أنعم على إخوانه من الرسل من الاصطفاء بالرسالة وإهلاك أعدائهم أمره بأن يحمده على تلك النعمة شكراً له تعالى إشارة إلى أن ما وصل إليهم وصل إليه وبأن يسلم عليهم لحسن اصطبارهم على شدائد أذى الجهال وقيامهم بأعباء التبليغ وجعل ذلك تمهيداً للتخلص من قصص الأنبياء إلى قصته مع المشركين إيماء إلى أن العاقبة له تقوية لجأشه فى إقامة البراهين على وحدانيته تعالى بقوله ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ ﴾ لمن يعبده ﴿ أَمْ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ به بالتاء للجمهور يا أهل مكة وبالياء لأبى عمرو وعاصم وبعضهم قدر مضافاً فى الموضعين أى توحيد الله خير أم عبادة ما تشركون وما موصولة أو مصدرية ويجوز تقدير المضاف فى الأول فقط أى توحيد الله خير أم شرككم ؟ وهو إلزام وتهكم وتنبيه على الخطأ المفرط إذ معلوم ضرورة أن لا خير فيما أشركوا به حتى يوازن بينه وبين من هو مبدأ كل خير ﴿أَمْ﴾ بل أ ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ التى هى أصول العالم ومبادئ المنافع وهو تفصيل لذلك الخير وأم منقطعة ويجوز اتصالها بتقدير الآلهة خير أم من خلق السموات والأرض وذكرهما تمهيد لقوله ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاص الفعل بذاته لا يمكن إسناده إلى غيره ﴿ بِهِ حَدَائِقَ ﴾ جمع حديقة وهو البستان الذى له حائط من الإحداق وهو الإحاطة ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ حسن من بهج بالضم أو سرور من بهج بالكسر لأن صاحبها يسر بالنظر إليها وأفرد ذات على إرادة الجماعة كقولك النساء ذهبت قاله فى غاية الأمانى قلت بل إفراد الوصف أفضل لا لإرادة الجماعة بل لكون حدائق جمع كثرة لغير عاقل فإفراد وصفه أفضل كما علم فى النحو ثم أكد اختصاصه بذلك الإنبات بقوله ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ أى الحدائق فضلا عما فيها من المنافع وأصناف الفواكه المختلفة لوناً وطعماً وشكلا ورائحة ولما أثبت الاختصاص به على الوجه الأبلغ قال ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى أغيره يقدر عليه ويجعل شريكا له مع انفراده بالخلق والتكوين أى ليس ذلك ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ عن الحق الذى هو التوحيد أو عادلون به من لا يستحق ﴿ أَمْ مَنْ جَعَلَ

الأَرْضَ ﴾ بعد ما خلقها ﴿ قَرَارًا ﴾ مكاناً يستقر فيه الحيوان لا يميد به وهو بدل من « أم من خلق » ترق إلى ما هو أعظم من إنبات الحدائق بل لولاه لا يتم الإنبات ﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا ﴾ بينها ﴿ أَنْهَارًا ﴾ جارية ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثابتة كالأوتاد تتكون فيها المعادن وينبع من حضيضها المنابع فيكثر المنافع ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ العذب والملح ﴿ حَاجِزًا ﴾ لا يختلط أحدهما بالآخر وتقدم بيان ذلك فى الفرقان ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الحق التوحيد فيشركون به ﴿ أَمْ ﴾ بل بعد ما ذكر ﴿ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ ﴾ الذى اشتد به الضر ﴿ إِذَا دَعَاهُ ﴾ وقت الاضطرار ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ عنه وعن غيره أى المضار التى تسوءه ، وهذا ترق أيضاً عما تقدم لكونه لاصقاً بهم دون واسطة وأل فى المضطر للجنس لا للاستغراق فلا يلزم منه إجابة كل مضطر ، قاله البيضاوى . قلت : ويحتمل عدم الإجابة لبعضهم لعدم الشرط . أخرج الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه » ورواه الترمذى أيضاً ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ الإضافة بمعنى فى بأن ورثكم سكناها ممن قبلكم تنتفعون بها على أى وجه شئتم مباشرة وأمراً ونهياً وهذا أتم وأجلى وقعاً ولذا قال ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ الذى خصكم بهذه النعم العامة والخاصة ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ بالفوقيه والتشديد لنافع وابن كثير وابن عامر وشعبة ، وبالتحتية لأبى عمرو ، وبالفوقية وتخفيف الذال لحمزة والكسائى وحفص و « ما » زائدة لتقليل القليل وجعل الفاصلة التذكر الذى لا يحتاج إلا إلى الالتفات النفسى لما ذكرنا من كون النعمة الأخيرة ألصق وأتم وأجلى ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ ﴾ يرشدكم إلى مقاصدكم ﴿ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ بالنجوم ليلا وبعلامات الأرض نهاراً إذا سافرتم وهى ظلمات الليالى أضافها إلى البر والبحر للملابسة أو المراد مشتبهات الطرق ، يقال طريقة ظلماء أى لا منار لها ﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى قدام المطر وهذا من متممات أمر الخلافة لاشتماله على إجابة المضطر وكشف السوء وجلب المنافع الكثيرة ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ ﴾ القادر الخالق ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به من المخلوق العاجز . ثم أضرب عما ذكر إلى ذكر نعمتى الإيجاد والإعادة بقوله ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد الموت وإن لم يعترفوا بالإعادة لقيام البراهين عليها ﴿ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ بأسباب سماوية وأرضية إجمالاً وفذلكة لما تقدم إشارة إلى إتمام الحجج ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ يفعل شيئاً من ذلك ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على ما يخالف ما ذكرنا ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى إشراككم فإن كمال القدرة من لوازم الإلهية ، تسجيل عليهم بالكذب وأن ما يقولون مختلق ومن هوى النفس . ولما بيّن اختصاصه بالقدرة التامة أتبعه ما هو كلازمه من التفرد بعلم الغيب فقال مجيباً سؤالهم عن وقت قيام الساعة ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من الملائكة والناس ﴿ الْغَيْبَ ﴾ ما غاب عنهم ولم يطلعهم الله عليه ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ اللَّهُ ﴾ يعلمه ، استثناء منقطع

رفع على لغة تميم أو متصل على تأويل من تعلق علمه بها واطلع عليها فإنه عام فيه تعالى وفى أولى العلم من خلقه ومن موصول أو موصوف ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ الضمير لمن أو للكفرة ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ متى ينشرون الذى هو أهم الأمور عندهم تأكيد لنفى علم الغيب عنهم و « أيان » مركبة من أى وآن قاله فى أنوار التنزيل وقال فى غاية الأمانى : فيعال من آن يئين . اهـ . قلت : لايستفهم به إلا عن ماكان عظيم الشأن من الزمان المستقبل . ولما نفى عنهم علم الغيب أضرب عنه إلى بيان أن القيامة التى لا محالة أنها كائنة للحجج على ذلك لا يعلمونها فكيف يعلمون الغيب بقوله ﴿ بَلِ ادَّارَكَ ﴾ بتشديد الدال ومده ووصل الهمزة قبله للجمهور أصلها تدارك أبدلت التاء دالا وأدغمت فى الدال واجتلبت همزة الوصل ومعناه تتابع وتلاحق حتى استحكم ولابن كثير وأبى عمرو أدرك بوزن أكرم أى لحق ﴿ عِلْمُهُمْ فِى الْآخِرَةِ ﴾ أى بها أى هل علموا حقيقة أنها واقعة حتى يسألوك عن وقت مجيئها أى ليس الأمر كذلك ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْهَا ﴾ كمن تحير فى أمر لا يجد عليه دليلا ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ لا يدركون شيئاً من دلائلها والإضرابات الثلاث لبيان أحوالهم : وصفهم أولا بعدم الشعور بوقت البعث ، ثم ترقى إلى أنهم لا يقرون بالآخرة رأساً ثم إلى أنهم خابطون فى شأنها خبط عشواء ثم إلى ما هو أسوأ حالا وهو عمى البصيرة ، والأصل عميون استثقلت الضمة على الياء فنقلت إلى الميم بعد حذف كسرتها ثم بين عماهم بقوله ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أيضاً فى إنكار البعث وضعه موضع المضمر إشارة إلى أن منشأ ذلك العمى الكفر لا غيره ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ من القبور ، والعامل فى « إذا » معنى الإخراج الذى دل عليه « مخرجون » لا هو ، لأن الاستفهام وإن واللام كل منها مانع من العمل فكيف بها مجتمعة ، قرأ نافع «إذاكنا» بهمزة واحدة مكسورة وابن عامر والكسائى « إننا لمخرجون » بنونين على الخبر والباقون بالهمزتين فى الموضعين ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا ﴾ البعث ﴿ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل محمد وتقديم « هذا » على « نحن » لأن المقصود بالذكر هو البعث وحيث أخر فالمقصود به المبعوث إليهم ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أكاذيبهم التى لاحقيقة لها ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ بإنكاره وهى هلاكهم بالعذاب . تهديد لهم ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ على تكذيبهم وإعراضهم ﴿ وَلَا تَكُنْ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ من مكرهم فإن الله يعصمك من الناس تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقرأ ابن كثير بكسر الضاد ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴾ العذاب الموعود ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيه ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ ﴾ قرب ﴿ لَكُمْ ﴾ ولحقكم واللام للتأكيد أو لتضمين ردف معنى دنا ﴿ بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ حلوله فحصل لهم القتل ببدر وباقى العذاب يأتيهم بعد الموت ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ بتأخير العذاب ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ الكفار ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ بتأخيره لإنكارهم وقوعه ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ تخفيه ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ بألسنتهم من عداوتك وأنواع المكر فيجازيهم عليه . تسلية للرسول وتقوية لجأشه

بعد أن قدم قوله ولا تكن فى ضيق مما يمكرون ثم أتى بدليل إحاطة علمه بما تكن صدورهم بقوله ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ شىء فى غاية الخفاء ﴿فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ بيّن هو اللوح المحفوظ أو مكنون علمه ومنه ما تكن صدورهم وما يعلنون والتاء فى غائبة للمبالغة كالراوية أو للنقل من الوصفية إلى الاسمية كالذبيحة والوجه الاول ثم أشار إلى أعظم معجزات القرآن بقوله ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ الذى ينكر الكفار ما فيه ويقولون فيه أساطير الاولين ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ مما جاء فى الكتب السماوية ﴿أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كالتشبيه والتنزيه وأحوال الجنة والنار وعزير والمسيح أى يبين ذلك على الوجه الرافع للاختلاف بينهم لو أخذوا به وأسلموا والتقييد بالاكثر لأن بعضه باطل فى بادئ الرأى فلا حاجة إلى بيان بطلانه ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لانهم المنتفعون به ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ بين من آمن ومن كفر ﴿بِحُكْمِهِ﴾ أى عدله أو حكمته ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب فلا يرد قضاؤه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يحكم به وبالامور كلها كما هى ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ بعد ما تبين أنك رسول بالكتاب المعجز ولا تبال بمعاداتهم بمعنى ثق به ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ علة للتوكل فإن صاحب الحق مؤيد حقيق بالوثوق بحفظ الله ونصره ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ مستأنف للتسلية أى بلغت الرسالة فلا عليك فإنهم مختوم على قلوبهم أو علة ثانية للأمر بالتوكل أى قد أيس من اتباعهم إياك فلم يبق إلا استكفاء شرهم والاستبصار عليهم شبهوا بالموتى لعدم انتفاعهم بما يتلى عليهم كما شبهوا بالصم فى قوله ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فإن استماعهم فى هذه الحالة أبعد، وقرأ ابن كثير ولا يسمع الصم ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِى الْعُمْىِ﴾ وحمزة تهدى العمى ﴿عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ﴾ ما ﴿تُسْمِعُ﴾ سماع قبول ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ فإنه يسمع سماع تدبر وينظر نظر اعتبار ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون بتوحيد الله ولما بين دلائل التوحيد والمبدأ والمعاد ونبوة المخبر الصادق شرع فى بيان أحوال القيامة بآيات الساعة فقال ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ دنا الوعد بوقوع الساعة أو حق العذاب أن ينزل بالكفار ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾ أى دابة عظيمة المنظر والشأن وقد ذكروا فى وصفها أشياء والذى صح فى الحديث أنها دابة طولها ستون ذراعاً ذات قوائم أربع فيها ألوان الحيوانات ينصدع جبل الصفا فتخرج منه ضحى وهو المراد بقوله ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أى مكة وفى رواية أرض الطائف وقيل تخرج ثلاث مرات وفى الثالثة معها عصا موسى وخاتم سليمان لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب تضرب بالعصا فى وجه المؤمن تكتب فيه مؤمن وتطبع الخاتم فى وجه الكافر يكتب فيه كافر ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ بالعربية يافلان يافلان أو تكلمهم بحقيقة ما وعدناهم به من البعث وما بعده أو كلامها هو قوله ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ بالكسر للجمهور استئناف جار مجرى العلة والفتح للكوفيين بتقدير الباء ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ التى فى القرآن ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ فلذلك أخرجناها لهم ليعلموا قدرتنا على كل شىء فيوقنون حيث لا يفيدهم إذ بخروجها ينقطع الأمر والنهى ولا يؤمن كافر فإن كان من كلامها فعلى حذف مضاف أى آيات ربنا ولكونها من

خواص خلقه أضافت الآيات إلى نفسها كما يفعله خواص الملك (وَ) اذكر (يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا) جماعة (مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا) وهم الرؤساء المتبوعون ومن الأولى للتبعيض والثانية لبيان الفوج (فَهُمْ يُوزَعُونَ) يكفون ليلحق بهم آخرهم عبارة عن كثرة عددهم وتباعد أطرافهم (حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا) إلى المحشر (قَالَ) تعالى لهم (أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي) أنبائى مفاجأة (وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا) الواو للحال أى أكذبتم بها من غير تدبر فيها ونظر يحيط علمكم بكنهها ليظهر لكم أنها جديرة بالتكذيب أو التصديق أو للعطف أى أجمعتم بين التكذيب بها وعدم إلقاء الأذهان لتحققها (أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أدغم أم فى ما الاستفهامية وذا بمعنى شىء أو الذى أى أم أى شىء كنتم تعملون والظاهر أم صدقتم عدل إلى المنزل دلالة على انتفاء الشق الثانى وأنه إنما جىء به للتبكيت كأنه قيل أهو ماعهد من التكذيب أم حدث أمر آخر ولذا أدخل أم على ما الاستفهامية الدالة على الشك والتردد وضعاً ، قاله فى غاية الأمانى وفى الجواهر سؤالهم على التوبيخ ثم قال أم ماذا كنتم تعملون على معنى استيفاء الحجج أى إن كان لكم عمل أو حجة فأتوا بها . اهـ . (وَوَقَعَ الْقَوْلُ) حق العذاب (عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا) بسبب ظلمهم (فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ) بالاعتذار لشغلهم بالعذاب وعدم الحجة لهم وهذا حين وقوع العذاب فلا ينافى «والله ربنا ما كنا مشركين» لأن ذلك قبل العذاب (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا) خلقنا (اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ) كغيرهم بالنوم والاستراحة (وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) بمعنى يبصر فيه مجاز حكمى لأن الإبصار لمن فى النهار ليتصرفوا فيه (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ) دلالات على قدرته تعالى (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) بدلالتها على التوحيد والحشر وبعث الرسل إذ من قدر على ترتيب الليل والنهار وإبدال النور من الظلمة وبالعكس قادر على ما تقدم وأما الكفار فكفرهم مانع من استدلالهم بها (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) القرن الذى بيد إسرافيل هذا تفسير جمهور الأمة أو الصور جمع صورة أو تمثيل لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش إذا نفخ فى البوق (فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) عبر بالماضى لتحقق وقوعه أى خافوا الخوف المفضى إلى الموت كما فى آية أخرى فصعق قاله فى المكمل قلت وذلك بناء على أن نفخة الفزع هى نفخة الصعق وبعدها نفخة القيام وهما نفختان لقوله ثم نفخ فيه أخرى وصحح ابن عطية أنها ثلاث كما ورد فى حديث أبى هريرة نفخة الفزع ثم نفخة الصعق ثم نفخة القيام ، قال ابن عطية وأخرى يقال فى الثالثة ومنه « ومناة الثالثة الأخرى » (إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) أى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وعن ابن عباس هم الشهداء إذ هم أحياء عند ربهم يرزقون وقيل الحور والخزنة وحملة العرش ، قال البيضاوى ولعل المراد مايعم ذلك ، قلت وكل هذا بناء على التأويل الأول وأما على الثانى فالمعنى إلا من شاء الله أن لايفزع بأن يثبت قلبه فلا يختص بمن ذكر ، نبه عليه فى غاية الأمانى (وَكُلٌّ) أى كلهم بعد إحيائهم يوم القيامة (أَتَوْهُ) بصيغة اسم الفاعل للجمهور والفعل لحمزة وحفص أى حاضرون الموقف أو الله بالانقياد والرجوع إليه (دَاخِرِينَ) صاغرين أذلاء (وَتَرَى الْجِبَالَ) تبصرها

وقت النفخة ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ ثابتة فى مكانها ﴿ وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ فى السرعة تشبيه مؤكد أى كرور المطر إذا ضربته الريح أى تسير سيره حتى تقع على الأرض فتستوى بها مبسوطة كالعهن ثم تصير هباء منثورا ﴿ صُنْعَ اللَّهِ ﴾ أى مصنوعه من إطلاق المصدر على المفعول وهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله من قبيل المؤكد لنفسه أضيف إلى فاعله بعد حذف عامله أى صنع الله ذلك صنعاً ﴿ الَّذِى أَتْقَنَ ﴾ أحكم ﴿ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ صنعه على ماينبغى ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ بالخطاب للجمهور والغيبة لابن كثير وأبى عمرو وهشام أى عالم بظواهر الأفعال وبواطنها فيجازى عليها كما فصل ذلك الجمل بقوله ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ من كل الأعمال أو لا إله إلا الله ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ إذ أقل ما يقابلها عشر أمثالها إلى سبعمائة إلى ما شاء الله وقد ثبت له الشريف بالخسيس والباقى بالفانى أو المعنى خير ثوابا منها أى بسببها على الثانى وليس حينئذ للتفضيل إذ لا خير من « لا إله إلا الله » ﴿ وَهُمْ ﴾ أى الجائون بها ﴿ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ خوف عذاب الآخرة بالإضافة للجمهور وفتح الميم لنافع وكسرها لغيره وبالتنوين وفتح الميم للكوفيين ﴿ آمِنُونَ ﴾ من الخلود فى النار أو الهول العظيم لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ الشرك ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ ﴾ بأن وليها إذ يلقون فيها منكوسين ليكون أول مايصل إلى النار أشرف الأعضاء التى استكبروا أن يعفروها بالسجود لله وفى الكب معنى اللزوم والازدحام ولذلك سميت الجماعة كبة ويجوز أن يراد بالوجوه أنفسهم وذكروا الوجوه لأنها موضع الشرف فغيرها أولى ويقال لهم تبكيتاً ﴿ هَلْ ﴾ أى ما ﴿ تُجْزَوْنَ إِلَّا ﴾ جزاء ﴿ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أو هذا التفات والمراد الإعلام أن الله ليس بظلام ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ ﴾ مكة ﴿ الَّذِى حَرَّمَهَا ﴾ جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم إنسان : تنبيه على النعم التى على قريش فى رفع الله عن بلدهم العذاب والفتن الشائعة فى جميع بلاد العرب وإشارة إلى أن الرسول قد أدى ما عليه فلم يبق له شأن إلا الاستغراق فى العبودية التى هى أشرف صفات العبد واسم الإشارة القريب للتعظيم وإنما وصف ذاته تعالى دون البلدة لأن إجراء الوصف عليه يدل على عظم الوصف وعظم ما تعلق به الوصف ولا كذلك لو وصفت البلدة ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ خلقاً وملكا لا البلدة وحدها ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ الثابتين على ملة الإسلام المنقادين لأوامره المخلصين له الدين ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ أداوم على تلاوته عليكم تلاوة الدعوة إلى الإيمان وطلب الاطلاع على حقائقه وكنوز أسراره أو أداوم على اتباعه كقوله « واتبع ما يوحى إليك » ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى ﴾ بعد البيان باتباعه إياى فى ذلك ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ﴾ فإن نفعه لايتجاوزه ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ عن الهدى بمخالفتى ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ المخوفين لا غير فلا علىّ من وبال ضلاله شىء إذ ما على الرسول إلا البلاغ وقد بلغت ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على ما خصك به من الرسالة ووفقك لأدائها وعلى جميع ما علمك ووفقك للعمل به ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ القاهرة فى الدنيا من القتل والأسر : تهديد لهم ، أو

آياته كخروج دابة الأرض أو فى الآخرة ﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أنها آياته لكونها من الخوارق التى لا يقدر عليها غيره حيث لا تنفعكم المعرفة ، أرام القتل يدر وغيره وجعلهم إلى النار ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بالخطاب لنافع وابن عامر وحفص وبالغيبة للباقين أى لا تحسبوا أن تأخير العذاب غفلة عن أعمالكم ، وفيه وعد لمن آمن وشكر ، ووعيد لمن تولى وكفر .

[تم تفسير سورة النمل]

سورة القصص

مكية إلا « إن الذى فرض .. الآية » نزلت بالجحفة وإلا « الذين آتيناهم الكتاب إلى لا نبتغى الجاهلين » وهى سبع أو ثمان وثمانون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ طسم ﴾ الله أعلم بمراده بذلك ﴿ تِلْكَ ﴾ هذه الآيات ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ الواضح الإعجاز أو المظهر الحق من الباطل ﴿ نَتْلُوا ﴾ نقص ﴿ عَلَيْكَ ﴾ بتلاوة جبريل ﴿ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ أى بعض خبرهما مفعول « نتلوا » ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ ملتبساً به أو محقين ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأجلهم لأنهم المنتفعون به يقوى به جأشهم ويعلموا أن العاقبة لهم ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا ﴾ تعظم ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر ، استئناف يبين النبأ وقيدنا بأرض مصر إذ لم يتجاوز حكمه منها ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ فرقاً يشايعونه فيما يريد ويطيعونه أو جعلهم أصنافاً فى خدمته وعين لكل طائفة ونوع عملا أو جعلهم أحزاباً بأن أغرى بينهم العداوة لئلا يتفقوا عليه ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾ وهم بنو إسرائيل حال من فاعل « جعل » أو صفة « شيعاً » أو كلام مستأنف ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ المولودين ﴿ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ يستبقيهن أحياء لقول بعض الكهنة إن مولوداً يولد فى بنى إسرائيل يكون سبباً لذهاب ملكك « يذبح » بدل من « يستضعف » ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ولذا كان يقتل الأطفال من أولاد الأنبياء بلا فائدة لأن الكاهن إن كان صادقاً لم يندفع بالقتل وإن كان كاذباً فما وجهه ؟ ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ حكاية حال ماضية عطف على « إن فرعون علا » داخل تحت المنبأ به ولا يجوز عطفه على « نتلوا » لاستلزامه خروجه عنه وهو معظمه وأهمه ﴿ أَنْ نَمُنَّ ﴾ نتفضل ﴿ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾

أرض مصر بإنقاذهم من بأسه ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ فى الدين يقتدى بهم فيه أو ولاة ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ ملك فرعون وقومه ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر والشام ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ ﴾ بضم النون ونصب فرعون وما بعده للجمهور وبالياء المفتوحة ورفع الثلاثة على الفاعلية لحمزة والكسائى ﴿ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ ﴾ من بنى إسرائيل ﴿ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ يخافون من ذهاب ملكهم بسبب المولود ﴿ وَأَوْحَيْنَا ﴾ بإلهام أو رؤيا ﴿ إِلَى أُمِّ مُوسَى ﴾ يوحانذ حين ولدته ولم يشعر بولادته غير أخته مريم ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ما أمكنك إخفاؤه ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ الاطلاع عليه ﴿ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ ﴾ نيل مصر ﴿ وَلَا تَخَافِى ﴾ عليه غرقاً ولا شدة والخوف المثبت أولا خوف القتل ﴿ وَلَا تَحْزَنِى ﴾ لفراقه ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ عن قريب تسلية لها ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ بشارة ، فى الآية من البلاغة فى إيجاز القصر أمران ونهيان وخبران وبشارتان فأرضعته ثلاثة أشهر لا يبكى وخافت عليه لما اجتهد العيون فى لحص المواليد فوضعته فى تابوت مطلى بالقار من داخل ممهد له فيه وأغلقته وألقته فى بحر النيل ليلا ﴿ فَالْتَقَطَهُ ﴾ فى التابوب صبيحة الليل ﴿ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ أعوانه واسم لاقطه طابوت فوضع بين يدى فرعون وفتح وأخرج موسى منه وهو يمص من إبهامه لبناً ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ ﴾ فى عاقبة الأمر واللام للعاقبة والعلة على الاستعارة التبعية الحرفية لأنهم التقطوه ليكون لهم قرة ولم يترتب على الالتقاط إلا العداوة والحزن فشبه ذلك بما يكون مقصوداً فاستعير له اللام تبعاً لاستعارة المعنى ﴿ عَدُوًّا ﴾ يقتل رجالهم ﴿ وَحَزَنًا ﴾ بفتحتين للجمهور وبضم الحاء وسكون الزاى لحمزة والكسائى لغتان أى يستعبد نساءهم والمصدر هنا بمعنى اسم الفاعل من حزنه كأحزنه ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ وزيره ﴿ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ فى كل شىء أى مستمرين على خلاف الصواب فيه من الخطأ أو كانوا عاصين من الخطيئة ولذا عاقبهم الله بتربية من يكون سبب هلاكهم فالكلام مستأنف للتعليل أو اعتراض لبيان الموجب لما ابتلوا به ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ آسية بنت مزاحم حين أخرج من التابوت وقد همّ فرعون وأعوانه بقتله : هو ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِى وَلَكَ ﴾ لما رأت منه من مخائل النجابة من نور وجهه ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ خطاب لفرعون بالجمع للتعظيم أو للموكلين بقتل الولدان ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ لما رأوا فيه من اليمن إذ كانت لفرعون بنت برصاء عجزت الأطباء عن علاجها وقالوا شفاؤها من ريق حيوان فى البحر يشبه الإنسان فلما أخرجوه لطخوها بريقه فبرأت على الفور مع مارأوه من ارتضاعه لبناً من إبهامه ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ فإنه أهل أن يكون من أولاد الملوك لما فى وجهه من الجمال الفائق ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بعاقبة أمرهم معه حال من آل فرعون وقوله إن فرعون إلى آخره اعتراض بين المعطوفين يؤكد خطأهم كما قدمنا ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى ﴾ لما علمت بالتقاطه ﴿ فَارِغًا ﴾ خالياً من العقل أو مما سوى ابنها لما دهمها من الخوف عليه بوقوعه فى يد فرعون أو فارغا من الهمّ لفرط وثوقها بوعد الله ﴿ إِنْ ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أى إنها ﴿ كَادَتْ

لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي بأنه ابنها أو بقصته لفرط الحزن أو الفرح ﴿ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ بالصبر أي سكناه وهو وسط الفؤاد وذكر الفؤاد أولا لأن فراغه يستلزم فراغ القلب ولم يكتف به في الربط مبالغة في سلب القلق عنها ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ المصدقين بوعد الله في الرد والحفظ ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ ﴾ مريم ﴿ قُصِّيهِ ﴾ اتبعي أثره تعلمي خبره ما يفعل به ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ ﴾ رأته ﴿ عَنْ جُنُبٍ ﴾ من مكان بعيد اختلاساً ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنه أخوها أو أنها تقص ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي قبل مجيئها أو رده إلى أمه أي منعناه من قبول ثدي مرضعة غير أمه فهو مجاز عن المنع فلم يقبل ثدي واحدة من المراضع المحضرة ﴿ فَقَالَتْ ﴾ أخته ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ لأجلكم ﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ لا يقصرون في إرضاعه وتربيته ولما سمعه هامان قال إنها لتعرفه وأهلها فخذوها حتى تخبر بحاله فقالت إنما أردت وهم للملك ناصحون فأمرها فرعون بأن تأتي بمن يكفله فأتت بأمه وهو يبكي على يد فرعون فلما وجد ريح أمه استأنس والتقم ثديها فقال لها فرعون من أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك فقالت إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي إلا قبلني فدفعه إليها وأجرى عليها نفقة فرجعت به إلى بيتها من يومها كما قال تعالى ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ بلقائه ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ بفراقه ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ برده إليها ﴿ حَقٌّ ﴾ علم مشاهدة تزول معه الشبهة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ أي الناس ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بهذا الوعد ولا بأن هذه أخته وهذه أمه فمكث عندها إلى أن فطمته وأجرى عليها أجرتها لكل يوم دينار وأخذتها لجواز ذلك في شريعة بني إسرائيل ولأنه مال حربي لأنه نقض الأمان بقتل أولادهم واستخدامهم فأتت به فرعون فربي عنده « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين » ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ مبلغه الذي لا يزيد عليه نماؤه وذلك من ثلاثين إلى أربعين سنة ﴿ وَاسْتَوَى ﴾ اعتدل جسمه وكمل عقله بتمام أربعين ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا ﴾ حكمة من علم الحكماء ﴿ وَعِلْمًا ﴾ بالدين أي بشرع إبراهيم عليه السلام ، قبل أن يبعث نبياً ، أو حكماً نبوة وعلماً بالشرائع وأحوال الأمم فيكون إجمالا للقصة ولا ينافي كون نبوته بعد الرجوع من مدين لكن الأول أوفق لنظم القصة ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ كما جزيناه ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ لأنفسهم ﴿ وَدَخَلَ ﴾ موسى ﴿ الْمَدِينَةَ ﴾ مدينة فرعون وهي منف بعد أن غاب عنه مدة وكان هاجرهم يعبد الله خالياً كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله بغار حراء لا يدخل إلا لضرورة مستخفياً ولذلك قال ﴿ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ وقت القيلولة أو بين العشاءين ، وقيل بل كان آتياً من قصر فرعون من الاسكندرية ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ يختصمان في الدين أو في حمل الحطب إلى مطبخ فرعون ﴿ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ سبطي اسمه السامري ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ قبطي اسمه فاتون ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ فدعاه موسى إلى الحق فلم يرعو أو قال له خل سبيل السبطي فقال أحملها إذاً عليك ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى ﴾ أي ضربه بجمع كفه إغاثة للإسرائيلي لأن نصر المظلوم فرض في الملل كلها وكان موسى

شديد القوة والبطش ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أى أتمه بمعنى قتله ولم يكن قصد قتله ودفنه فى الرمل ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ المهيج غضبي لأنه لم يؤمر بقتل الكفار أو لأنه كان مؤمناً فيهم لكن ذلك لا يقدح فى عصمته لأنه كان خطأ لم يقصد بوكزه القتل واستغفاره الآتى وعده ظلماً وعمل الشيطان وتسمية نفسه ضالاً كل ذلك على دأب المقربين فى عد المحقرات عظائم ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ ﴾ للإنسان ﴿ مُضِلٌّ ﴾ له ﴿ مُبِينٌ ﴾ بيّن الإضلال لا اشتباه فيه ﴿ قَالَ ﴾ نادماً ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ بقتله ﴿ فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ المتصف بهما أزلا وأبداً ﴿ قَالَ ﴾ موسى معاهداً لربه أو مستعطفاً له ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ من المغفرة وغيرها لأتوبن قسم محذوف الجواب أو بحق ما أنعمت علىّ اعصمنى ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ﴾ عوناً ﴿ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ لمن يؤدى عونه إلى الإجرام كظاهرة الإسرائيلى ، وقيل أراد مظاهرة فرعون فإنه كان قبل يركب معه ويكثر سواده وقال فى الجواهر : رب بسبب إحسانك وغفرانك فأنا ملتزم أن لا أكون معيناً للجرمين هذا أحسن ما تؤول به . وقال ابن عطية : احتج أهل العلم بهذه الآية فى منع خدمة أهل الجور ومعونتهم فى شىء من أمورهم ورأوا أنها تتناول ذلك . اهـ . ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ ينتظر ما يناله من جهة القتيل ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ يستغيث به على قبطى آخر يشاجره : مشتق من الصراخ ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ بيّن الغواية تسببت أمس فى هلاك رجل والآن تقاتل آخر ﴿ فَلَمَّا أَنْ ﴾ زائدة ﴿ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ﴾ لموسى والمستغيث به لأنه لم يكن على دينهما ولأن القبط أعداء بنى إسرائيل ﴿ قَالَ ﴾ المستنصر أو العدو ﴿ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ ﴾ ما ﴿ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ تقتل الناس على الغضب ولا تنظر العواقب لأنه لما سمع موسى سماه غوياً ظن أنه قاصد إليه فنمّ عليه ، أو القبطى لما سمع قول موسى للإسرائيلى إنك لغوى مبين وكان قتل القبطى قد اشتهر ولم يعلم قاتله فهم أن موسى هو القاتل فقال ذلك ، قاله فى غاية الأمانى ، وهو أظهر عنده ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ بين الناس إذ شأن المصلح الدفع بالأحسن لا قتل أحد الخصمين . ولما قال هذا انتشر الحديث وارتقى إلى فرعون وملئه وتشاوروا فى قتله وغلب على نفس فرعون أنه المشار إليه بفساد المملكة فأمر الذباحين بقتل موسى فأخذوا فى الطريق إليه ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ ﴾ هو مؤمن من آل فرعون ﴿ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ ﴾ آخرها ﴿ يَسْعَىٰ ﴾ يسرع فى مشيه من طريق أقرب من طريقهم ، صفة « رجل » أو حال منه إذا جعل « من أقصى المدينة » صفة له لأن تخصيصه يلحقه بالمعارف ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ ﴾ من قوم فرعون ﴿ يَأْتَمِرُونَ ﴾ يتشاورون ﴿ بِكَ ﴾ لأجلك لأن كلا من المتشاورين يأمر صاحبه بما يظهر له من الرأى ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ من المدينة ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ فى الأمر بالخروج ، واللام للبيان وليست صلة للناصحين لأن معمول الصلة لا يتقدم على الموصول ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ لحوق طالب أو غوث الله إياه

﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ خلصنى من شرهم . روى ابن أبي شيبة فى مصنفه : من خاف من أمير ظلماً فقال « رضيت بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وبالقرآن حكما وإماماً رب نجنى من القوم الظالمين » نجاه الله ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ ﴾ قصد بوجهه ﴿ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ جهتها وهى قرية شعيب لم تكن فى سلطان فرعون مسيرة ثمانية أيام من مصر سميت بمدين بن إبراهيم ولم يكن يعرف طريقها ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أى الطريق العدل الذى لا انحراف فيه فعنّ له ثلاث طرق فأخذ أوسطها فجاء الطلاب عقبه فأخذوا فى الآخرين فأرسل الله إلى موسى ملكا بيده عنزة فانطلق به إليها ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ بئر فيها أى وصل إليها ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ ﴾ على شفير بئره ﴿ أُمَّةً ﴾ جماعة ﴿ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ ﴾ أى سواهم أو مكان أسفل من مكانهم ﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ تمنعان أغنامهما عن الماء لئلا تختلط بأغنامهم وحذف المفعول لمجرد الاختصار أو لأن الفعل هو المقصود لأن الترحم إنما كان لكونهما على الذود ولا مدخل للذود فى ذلك وهذا إذا لم يلاحظ إضافة المفعول وأما إذا لوحظ فلا شك أن الترحم يكون لكونهما على ذود غنمهما والقوم على سقى مواشيهم حتى لو كان القوم على سقى غنمهما وهما على ذود مواشيهم لم يكن للترحم وجه ﴿ قَالَ ﴾ موسى لهما ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أمركما الموجب لمنعكما ولا بد أن يكون مهما ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ جمع راع من الإصدار الجمهور أى يصرفوا مواشيهم عن الماء ومن الثلاثى لأبى عمرو وابن عامر أى يرجعوا من سقيهم خوف الزحام فنسقى ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ السن لا يستطيع أن يخرج للسقى فيرسلنا اضطراراً فرأى موسى بئراً آخر على رأسه حجر لا يرفعه إلا عشرة أنفس فرفعه عن البئر ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ من ذلك البئر رحمة لهما وقيل زاحم السقاة فسقى لهما ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰ ﴾ انصرف ﴿ إِلَى الظِّلِّ ﴾ لسمرة أو غيرها من شدة حر الشمس وهو جائع ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ ﴾ قليل أو كثير طعام ﴿ فَقِيرٌ ﴾ محتاج سائل ولذا عدى باللام فرجعتا إلى أبيهما فى زمن أقل مما كانتا ترجعان فيه فسألهما عن ذلك فأخبرتاه بمن سقى لهما ، فقال لإحداهما : ادعيه لى . قال تعالى ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا ﴾ وهى الصغرى أو الكبرى وهى الصفوراء التى تزوجها موسى ﴿ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ مصوبة رأسها واضعة كم درعها على وجهها حياء منه كما هو دأب العواتق لا سيما بنات الأنبياء ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ ﴾ يكافئك ﴿ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ لم يكن أجراً حقيقة بل مكافأة على الإحسان فأجابها منكراً فى نفسه أخذ الأجر وكأنها قصدت المكافأة إن كان ممن يريدها فمشت بين يديه فجعلت الريح تضرب ثوبها فتكشف ساقها فقال لها امشى خلفى ودلينى على الطريق يميناً وشمالا ففعلت إلى أن جاءا أباها وهو شعيب عليه السلام وقيل غيره وعنده طعام فقال له تعش فقال لعله عوض من السقى وإنا أهل بيت لا نطلب على عمل خير عوضاً فقال : لا عادتى وعادة آبائى أن نقرى الضيف ونطعم الطعام فأكل وأخبره بحاله ، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ

عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ مصدر بمعنى المقصوص أى ماجرى من أمره ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ إذ لا سلطان لفرعون على مدين فإن حكمه لم يتجاوز قبطيا فى بلده ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا ﴾ وهى المرسلة الكبرى أو الصغرى ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ لرعى الغنم بدلنا ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ تعليل جار مجرى الدليل على استحقاق الاستئجار والبالغة جعل خير اسما وذكر الفعل بلفظ الماضى للدلالة أنه مجرب معروف ، روى أن شعيباً قال لها وما علمك بقوته وأمانته فذكرت له إقلال الحجر وتحرجه عن النظر إليها فرغب فى إنكاحه ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ أيتهما تريد وفى هذا استحباب عرض الولى وليته على الرجل الصالح ، قال ابن العربى وهى سنة قائمة وكذا عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح . اهـ . وفيه ابتداء الرجل قبل المرأة فى الإنكاح كا فى أن أنكحك إحدى ابنتىّ وقوله زوجنا كها كا يأتى ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ﴾ أى نفسك منى فى رعى غنمى ﴿ ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ سنين ونصب ثمانى على الظرفية ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا ﴾ أى رعى عشر سنين ﴿ فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ لى إكراماً لا من عندى عليك إلزاماً وكل هذا استدعاء عقد لا نفسه فلعل العقد جرى على معينة وبمهر آخر لا برعى الغنم فيكون طلب رعى الغنم أمراً زائداً لأمانته ولكن الأظهر أن المهر كان إجارة نفسه ولعل الشرائع فى ذلك مختلفة إذ فيه اجتماع إجارة ونكاح فى عقد والمشهور عن مالك وابن القاسم منعه والفسخ قبل وبعد وعن أشهب الجواز وصححه ابن العربى ولا يجوز النكاح على الإجارة كالخدمة وتعليم القرآن فى المشهور من مذهب مالك وفاقاً لأبى حنيفة وخلافا للشافعى وأحمد فعلى الجواز يجوز ذكر الخدمة مطلقة ويحمل على العرف خلافاً لأبى حنيفة والشافعى للجهل ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ باشتراط العشر أو بتكليف مايتعب وهذا شأن الأنبياء فى أمورهم ومعاملاتهم ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ للتبرك ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الوافين بالعهد ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذى شارطتنى عليه قائم ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ لا أخرج عنه أنا ولا تخرج أنت ﴿ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ ﴾ الثمان أو العشر وما زائدة أىّ رعيه ﴿ قَضَيْتُ ﴾ به أى فرغت ﴿ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ بطلب الزيادة عليه ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ ﴾ أنا وأنت ﴿ وَكِيلٌ ﴾ حفيظ أو شهيد فتم العقد بذلك . قال فى الأحكام واختلف هل دخل بامرأته حين العقد أو حين السفر والظاهر أنه دخل فى الحال . اهـ . روى أن شعيباً أمر ابنته أن تعطى موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه وكانت عصى الأنبياء عنده فوقع فى يدها عصا آدم من آس الجنة فأخذها موسى بعلم شعيب وأنه قال لموسى فى بعض الأعوام وهبت لك من نتاج غنمى هذا العام كل أدرع ودرعاء والدرَع محركة بياض فى صدر الشاة وسواد فى فخذها . فجاء النتاج كله على الصفة المذكورة فوفى له بالشرط فحصل لموسى غنم كثير ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ وهو أطول الأجلين ـ رواه البخارى ـ وعزم على الرجوع ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ بزوجته بإذن أبيها نحو مصر وبها أخوه هارون وأمه وأخته وسائر أقربائه قال ابن العربى دليل على أن للرجل أن يذهب بأهله حيث شاء إلا أن يلتزم لها أمراً فالمسلمون عند شروطهم . اهـ . ﴿ آنَسَ ﴾ أبصر من بعيد ﴿ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ ﴾ اسم جبل ﴿ نَارًا قَالَ

لِأَهْلِهِ آمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ عن الطريق وكان أخطأها ﴿أَوْ جِذْوَةٍ﴾ بكسر الجيم لنافع والجمهور وبفتحها لعاصم وبالضم لحمزة وهي لغات قطعة أو شعلة ﴿مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون والطاء بدل من تاء الافتعال ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ﴾ جانبه ﴿الْأَيْمَنِ﴾ لموسى ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ لموسى لسماعه كلام الله فيها حال من الشاطئ أو صلته نودى ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ بدل من شاطئ بإعادة الجار لنباتها فيه وهي شجرة عناب أو عليق أو عوسج ﴿أَنْ﴾ مفسرة لا مخففة ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا وإن خالف ما في طه والنمل في اللفظ فهو طبقه في المقصود ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها فصارت ثعباناً واهتزت ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ تضطرب ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ وهي الحية الصغيرة من سرعة حركتها ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ هارباً منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يرجع من شدة الخوف فنودى ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ إني لا يخاف لديّ المرسلون ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ من المخاوف ﴿اسْلُكْ﴾ أدخل ﴿يَدَكَ﴾ اليمنى بمعنى الكف ﴿فِي جَيْبِكَ﴾ طوق القميص وأخرجها ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ برص فأدخلها وأخرجها تضيء كشعاع الشمس يغشى البصر ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ بفتح الحرفين لنافع وابن كثير وأبي عمرو وبسكون الثاني مع فتح الأول لحفص ومع ضمه لابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة أي الخوف الحاصل من إضاءة اليد بأن تدخلها في جيبك فتعود إلى حالتها الأولى وعبر عنها بالجناح لأنها للإنسان كالجناح للطائر أو أمر بضم عضده وذراعه إلى جنبه ليخف بذلك فزعه إذ من شأن الخائف أن يقوى قلبه إن فعل ذلك أو هو مجاز عن التجلد مستعار من حال الطائر فإنه إذا خاف نشر جناحيه وإذا أمن ضمهما إليه ﴿فَذَانِكَ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن كثير وأبي عمرو والإشارة للعصا واليد ذكر المشار به إليهما المبتدأ لتذكير خبره ﴿بُرْهَانَانِ﴾ مرسلان ﴿مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فهم أحقاء بالإنذار ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ بفتح الدال بلا همز لنافع وبسكونها مع الهمز للباقين معيناً وفي الأصل ما يعان به كالدفء ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ بالجزم جواب الدعاء للجمهور وبالرفع صفة ردءاً لعاصم وحمزة أي بتخليص الحق وتقرير الحجة وتزييف الشبهة ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ في دعوى الرسالة لأن لساني لا يطاوعني عند المحاجة والتكذيب مجاز عن لازمه من عدم تلخيص الحجة كما أن تلخيصها هو المراد في طمع تصديق هرون ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ أي نقويك ﴿بِأَخِيكَ﴾ من باب الكناية لأن اليد تشد بالعضد لأنه قوامها والشخص يشتد باشتدادها بالعضد ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ غلبة وحجة واضحة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بسوء لا باستيلاء ولا حجاج . آذهبا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ متعلق بمحذوف كما قدرنا أو بنجعل أي نسلطكما بها أو بمعنى لا يصلون أي تمتنعون منهم ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ لهم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾ مختلق لم يفعل قبل مثله أو سحر نقلته ثم تفتريه على

الله ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ كائناً ﴿ فِي ﴾ أيام ﴿ آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ حال من هذا والمشار إليه إما النبوة على معنى إنكار أن يكون الرسول بشراً أو السحر والمراد بأنه لم يسمع مثله ولم ير ﴿ وَقَالَ ﴾ بواو للجمهور ودونها لابن كثير وعليه رسم المكى وعلى الأول سائر الرسوم ﴿ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ ﴾ عالم ﴿ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ فهو عالم أنى محق وأنتم مبطلون ﴿ وَمَنْ ﴾ عطف على من ﴿ تَكُونُ لَهُ ﴾ بالفوقانية للجمهور والتحتانية لحمزة والكسائى ﴿ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة وهو أنا فى الشقين ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ فى الدارين بل لهم خزى فى الحياة الدنيا بالقتل والأسر وضرب الجزية وفى الآخرة عذاب النار ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ جعل عدم علمه مستلزماً لعدمه أى لو كان لعلمه أو نفى علمه لا وجوده إذ لم يكن عنده ما يقتضى الجزم بعدمه ولذا قال ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ﴾ فاطبخ لى الآجر : نادى وزيره باسمه وأمره بالإيقاد على طريق الجبابرة ولم يقل اتخذ لى آجرًّا لكونه أول من صنعه ولذا لما دخل عمر الشام ورأى القصور المشيدة قال ما كنت أظن أن أحدا بنى بالآجر غير فرعون ﴿ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا ﴾ قصراً عالياً ﴿ لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ أقف عليه ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فى ادعائه إلها آخر وأنه رسوله ، وانظر جهله فى ظنه أن الإله جسم فى مكان ولو فرض كما ظن من أين يلزم أن يكون فى محاذاة قصره ؟ ولو سلم فمن أين له بلوغ السماء ؟ ولو سلم فأنى يجد طريقاً إليه ﴿ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ وجاوز طوره إلى الكبرياء الذى هو رداء الله ﴿ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ بلا استحقاق ذلك ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ ﴾ بالبناء للفاعل لنافع وحمزة والكسائى والمفعول للباقين أى بالنشور ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ أخذ عزيز مقتدر ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ ﴾ طرحناهم ﴿ فِي الْيَمِّ ﴾ البحر المالح كما ينبذ الشىء الحقير ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ الكاملين فى الظلم حين صاروا إلى الهلاك وسوف ترى عاقبة مكذبيك ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ أَئِمَّةً ﴾ قدوة للضلال بحملهم على الإضلال ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ بدعائهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصى ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ بدفع العذاب عنهم كما يدفع الأتباع عن القادة فى الدنيا ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ طرداً عن الرحمة أو لعن اللاعنين من الملائكة والناس ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ المطرودين المبعدين : من قبحه الله طرده ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ﴾ من قوم نوح إلى فرعون ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ حال من الكتاب جمع بصيرة وهى نور القلب أى أنوار القلوب لاشتماله على المعارف المنوّرة لها ﴿ وَهُدًى ﴾ إلى الشرائع التى هى طريق الجنة لمن عمل بها ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن به وعمل به لأنه يصل إلى رحمة الله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ليكونوا على حال يرجى منهم التذكر ﴿ وَمَا كُنْتَ ﴾ يا محمد ﴿ بِجَانِبِ ﴾ الجبل أو الوادى أو المكان ﴿ الْغَرْبِيِّ ﴾ من موسى حين المناجاة الذى نودى منه وهو الأيمن منه لحين ذكر سبحانه نداءه لموسى قال « وناديناه من جانب الطور الأيمن » وحين نفى عن محمد

كونه بذلك الجانب ذكره بالغربى وفى ذلك من حسن العبارة فى المقامين وبديع الفصاحة والبلاغة ما لا يخفى إذ لم يقل لمحمد وما كنت بالجانب الأيمن إشارة إلى أنه لم يزل بالأيمن منذ كان فى ظهر آدم عليه السلام ﴿ إِذْ قَضَيْنَا ﴾ أوحينا ﴿ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ الذى أردنا تعريفه بالوحى ومنه أمر محمد صلى الله عليه وسلم أى لم تحضر تلك الغيوب ولكنها صارت إليك بالوحى ﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ للوحى أو عليه وهم السبعون المختارون الميقات من الشهادة لا الشهود لأن الحضور قد علم من قوله «وما كنت بجانب الغربى» ومساق الآية للدلالة على أن إخباره بتلك الوقائع ليس إلا بإعلام الله كما قال ﴿ وَلَٰكِنَّا ﴾ أوحينا إليك خبر موسى وغيره لأنا ﴿ أَنشَأْنَا قُرُونًا ﴾ كثيرة من بعد موسى ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ عمرهم أو الزمان فحرفت الأخبار واندرست العلوم وانقطع الوحى فنسوا العهود وخفيت الشرائع فأرسلناك مجدداً حذف المستدرك وأقيم سببه مقامه كما رأيت ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا ﴾ مقيما ﴿ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ قوم شعيب المؤمنين به ﴿ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أى تتعلم منهم يقال تلوت على فلان إذا تعلمت منه فتعرف قصتهم فتخبر بها وهو خبر ثان، أو لم تكن أنت المرسل إليهم تتلو عليهم آياتنا بل كان المرسل إليهم شعيباً، فإخبارك بإعلام الله كما قال ﴿ وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ إليك بأخبار المتقدمين ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ ﴾ الجبل ﴿إِذْ﴾ حين ﴿نَادَيْنَا﴾ موسى ثانياً وأن خذ الكتاب بقوة ... وقربناه نجيا، والأول حين استنبأه لأنهما المذكوران فى القصة ومن المفسرين من عكس ﴿ وَلَٰكِن ﴾ علمناك ﴿ رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أعطاكها والتفت إلى الغيبة للدلالة لفظ الرب على التربية الملائمة للرحمة ولذلك عدل عن الظاهر الذى هو منا ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ وهم أهل مكة لوقوع الفترة بينك وبين عيسى وهى خمسمائة وخمسون سنة وقد روى البخارى عن سلمان أنها ستمائة سنة، قاله فى غاية الأمانى، أو بينك وبين إسماعيل، على أن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببنى إسرائيل وما حواليهم، واللام متعلق بالفعل المقدر ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ إذا تلوت عليهم تلك الوقائع فيعلمون أنك رسول من عند الله ﴿ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ ﴾ عقوبة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا﴾ أى لولا أنهم قائلون إذا عذبوا ﴿ لَوْلَا ﴾ هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ المرسل بها ﴿ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لما أرسلنا إليهم رسولا و«لولا» الأولى امتناعية حذف جوابها كما رأيت وما بعدها مبتدأ والمعنى لولا الإصابة المسبب عنها قولهم أو لولا قولهم المسبب عنها لما أرسلنا وكان الظاهر دخول حرف الامتناع على القول فدخل على سببه العقوبة والقول هو المسبب لإرسال الرسل و«لولا» الثانية تحضيضية ودخل الفاء فى جوابها تشبيهاً للتحضيض بالأمر لكونه باعثاً على الفعل كالأمر أى إنما أرسلناك قطعاً لعذرهم وإلزاماً للحجة عليهم ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ الرسول محمد ﴿ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ﴾ من الكتاب جملة، أو العصا واليد البيضاء تعنتاً، قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ حيث ﴿ قَالُوا ﴾ فيه وفى محمد ﴿ سَاحِرَانِ ﴾ وللكوفيين سحران أى التوراة والقرآن ﴿ تَظَاهَرَا ﴾ تعاونا بالاتفاق

على بعث الأموات أو معنى أو لم يكفروا أبناء جنسهم ومَن مذهبهم هو مذهبهم فى العناد من كفرة زمان موسى إذ كان فرعون وقومه من أولاد العمالقة وهم عرب من أبناء عاد جاءوا من فارس وملكوا القبط والمراد بقولهم « ساحران » موسى وهارون ﴿ وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ ﴾ كل واحد من الرسولين أو الكتابين أو بكل الأنبياء كقولهم « لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه » ﴿ كَافِرُونَ ۞ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا ﴾ من الكتابين وهذا يؤيد أن الساحرين موسى ومحمد والسحرين التوراة والقرآن ﴿ أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنا ساحران والإتيان منهم مستحيل وحرف الشك إرخاء للعنان تبكيتاً وتهكماً ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ دعاءك بالإتيان بالكتاب أى الكتاب الأهدى ﴿ فَاعْلَمْ ﴾ ازدد علماً أو دم على علمك ﴿ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فى كفرهم إذ لم يبق لهم شبهة فضلا عن حجة ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ أى لا أضل منه ﴿ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ فى موضع الحال للتوكيد لا للتقييد بناء على أن هوى النفس قد يوافق الحق كما قال البيضاوى لعدم الاعتداد بتلك الموافقة كما قال فى غاية الأمانى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ المجبولين على الظلم المنهمكين فيه باتباع الهوى . ثم أجاب عن قولهم « لولا أوتى مثل ما أوتى موسى » بقوله ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا ﴾ بيّنّا ﴿ لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ القرآن أو أتبعنا بعضه بعضاً فى الإنزال متواصلا وعداً ووعيدا أو قصصاً ونصائح ليتصل التذكير وتتقرر الدعوة بالحجة والمواعظ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فيؤمنون به ويطيعون الله ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ من قبل القرآن أو محمد عليه السلام ﴿ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ تقديم « هم » للاختصاص ، و « به » للاهتمام ، والآيات مدنيات فى سورة مكية كما قدمنا : أنزلت فى مؤمنى أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وأصحابه من أهل التوراة وكأربعين من أهل الإنجيل اثنان وثلاثون جاءوا من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب فى السفينة وثمانية قدموا من الشام أو الآيات مكيات أخبرت بما سيقع . وعن محمد بن إسحق : هؤلاء عشرون رجلا بعثهم النجاشى ورسول الله بمكة فقرأ عليهم القرآن فآمنوا . وعن سعيد بن جبير : هم سبعون . والله أعلم . والاختصاص الذى ذكرناه فى «هم» إضافى باعتبار كفار مكة والله أعلم ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ القرآن ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ بأنه كلام الله تعالى ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ﴾ استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم به ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ استئناف آخر للدلالة على إيمانهم به ليس مما أحدثوه حينئذ وإنما هو أمر تقادم عهده لما رأوا ذكره فى الكتب المتقدمة وكونهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن وتلاوته عليهم باعتقادهم صحته فى الجملة ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ بإيمانهم بالكتابين أى لهم ضعف أجر من آمن بمحمد من المشركين : روى البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة لهم أجران : رجل آمن بنبيه وآمن بمحمد ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ بصبرهم على العمل بهما وعلى أذى المشركين وأذى من هجرهم من أهل دينهم ﴿ وَيَدْرَءُونَ ﴾ يدفعون

﴿ بِالْحَسَنَةِ ﴾ الطاعة ﴿ السَّيِّئَةَ ﴾ المعصية منهم فحوها أو من غيرهم ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ في سبيل الخير ثقة بوعد الله بالثواب ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ ﴾ الشتم والأذى وكل باطل ومالا طائل تحته ﴿ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ تكرماً ﴿ وَقَالُوا ﴾ للاغين ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ سلام متاركة أي سلمتم منا عن المقابلة بالمثل أوهودعاء لهم بالسلامة عما هم فيه ﴿ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ لانرضى بالتخلق بأخلاقهم ولانطلب صحبتهم ولا جدالهم ولا تراجعهم قال ابن المبارك ما أضيف شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم . ونزل في حرصه صلى الله عليه وسلم على إيمان عمه أبي طالب ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ هدايته أي لا تقدر على إدخاله في الإسلام ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ بخلق الإيمان في قلبه ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ القابلين المستعدين له ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي قومه قريش ﴿ إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ ننتزع منها بسرعة وقائله الحارث بن عثمان بن نوفل فأسند إليهم لرضاهم به : أي إن اتبعناك وخالفنا العرب تخطفونا وهو تعلل بعلة باطلة ردها الله عليهم بقوله ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ ﴾ نجعل لهم مكاناً ﴿ حَرَمًا ﴾ بحرمة البيت الحرام ﴿ آمِنًا ﴾ ذا أمن ومأموناً فيه من إطلاق لفظة الفاعل على المفعول يأمنون فيه من الإغارات والقتل الواقعين في العرب حولهم ﴿ تُجْبَىٰ إِلَيْهِ ﴾ بالفوقية لنافع والتحتية للباقين أي تجلب إليه ﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مما يحتاجون إليه من كل أوب وإذا كان هذا حالهم وهم على الشرك فكيف لوضموا إلى حرمة البيت شرف الإيمان ﴿ رِزْقًا ﴾ لهم ﴿ مِنْ لَدُنَّا ﴾ من عندنا تفضلا من غير استحقاق منهم ورزقاً نصب على المصدر لأن تجبى بمعنى ترزق أو على المفعول له أو على الحال من الثمرات لتخصصه بالإضافة إن جعلته بمعنى المرزوق ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك مع ظهوره لكونهم مختوما على قلوبهم ، أو أكثرهم لا يعلمون أن التأمين والرزق من الله ثم بين لهم أن الأمر بالعكس على ماقالوا وأنهم أحقاء أن يخافوا من بأس الله حين بطروا نعمته بقوله ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ أي أهلكنا كثيراً من أهل القرى كان حالهم كحالهم في الأمن ولين العيش ﴿ بَطِرَتْ ﴾ أشرت وكفرت ﴿ مَعِيشَتَهَا ﴾ أي في عيشها فانتصب بنزع الخافض أوضمن بطرت معنى كفرت فهو مفعول به ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ خاوية ﴿ لَمْ تُسْكَنْ ﴾ من السكنى ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ للمارة يوماً أو بعضه للاستراحة أو لم يسكنها إلا الطيور والوحوش أو لم يسكن من سكنها إلا قليلا بشؤم معاصيهم لسرايته إلى كل ساكن ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ منهم بأن تركناها بلاقع لم يخلفهم أحد في ديارهم يتصرف تصرفهم ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾ منها ﴿ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا ﴾ أعظمها وأصلها التي هي أعمالها لأن أهلها يكونون أفطن وأنبل ﴿ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ إلزاماً للحجة وقطع المعذرة ويكون سائر القرى توابع ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ ﴾ في الزمان السابق ﴿ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ بتكذيب الرسل المبعوث إليهم وفيه تخويف لأهل مكة بأنهم بتلك الصفة فهم بصدد ذلك ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من أسباب الدنيا ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾ تتمتعون به وتتزينون به مدة حياتكم فيفنى

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ لأنه أبدى . وفى الحديث : لو كانت الدنيا من الذهب والآخرة من الخزف لاختارها العاقل فكيف والأمر بالعكس ولذا قال ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لأبى عمرو أى أن الباقى خير من الفانى وإيثار الفانى على الباقى ليس من أفعال العقلاء وقراءة الغيبة على الالتفات أشد ذماً ، والخطاب أبلغ موعظة وفى الكل مقتضى المقام ثم أوضح ما تقدم من تفاوت الفانى والباقى بقوله ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ وهو الوعد بالجنة فإن حسن الوعد بحسن الموعود ﴿ فَهُوَ لَاقِيهِ ﴾ مدركه لا محالة لامتناع الخلف فى وعده ولذا عطفه بالفاء المعطية معنى السببية ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الفانى المشوب بالآلام المكدر بالمتاعب أى لا يستوى إيتاء الآخرة والدنيا ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ إلى النار و « ثم » لبيان تراخى حال الإحضار عن حال التمتع لا للتراخى فى المدة وهذه الآية كالنتيجة للتى قبلها ولذا رتبت عليها بالفاء وفى لفظ الإحضار إشارة إلى السوق بالجبر ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ الله ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ بهم شركائى ، حذف المفعولان لدلالة الكلام عليهما ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ بثبوت مقتضاه عليهم وهو الخلود فى النار وهو قوله « لأملأن جهنم » ونحوه والذين حق عليهم هم رؤساء الضلالة ﴿ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا ﴾ هم مبتدأ وصفته والخبر ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ ﴾ فغووا ﴿ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ لم نكرههم على الغىّ وهو معنى التشبيه والكاف فى موضع المصدر ويجوز أن يكون « أغويناهم » استئنافاً والموصول قبل خبر المبتدأ ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ منهم وعما اختاروه من الكفر هوى منهم تقرير للجملة المتقدمة ولذلك خلت عن العاطف وكذا قوله ﴿ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ بل كانوا يتبعون أهواءهم و « ما » نافية وقدم المفعول للفاصلة ، وجعلها مصدرية تكلف ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ ﴾ لفرط الحيرة ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ دعاءهم لعجزهم عن الإجابة والنصرة ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أبصروه وتيقنوا أنهم صائرون إليه ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ فى الدنيا ما رأوه فى الآخرة أو « لو » للتمنى أى تمنوا أنهم كانوا مهتدين ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إليكم عطف على الظرف الأول سألهم أولا عن إشراكهم به ثم عن تكذيبهم الأنبياء توبيخاً وإزاحة للعلل ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ ﴾ الأخبار المنجية فى الجواب والأصل عموا عن الأنباء فعكس مبالغة كأن عماهم سرى إلى الأنباء فلم يجد إليهم سبيلا والمراد عمى القلب وتعدى الفعل بعلى لتضمنه معنى الخفاء ﴿ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عن الجواب لفرط الدهشة وتساويهم فى العمى ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ ﴾ من الشرك ﴿ وَآمَنَ ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ بعد الإيمان من الفرائض وغيرها ﴿ فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ الناجين بوعد الله ترغيب فى الإقلاع فكأنه قال ما ذكر حال المصرّ ، وأما التائب فمن الفائزين ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ ما يشاء من هداية أحد الفريقين وإضلال الآخر وغير ذلك والاختيار هو القصد إلى إيجاب ما تعلقت به الإرادة وترجيح أحد الطرفين بعد ملاحظة الآخر ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ﴾ للعباد

أو للمشركين ﴿ الْخِيَرَةُ ﴾ الاختيار فى شىء بيان لقوله ويختار ولذا لم يدخله العاطف نفى للاختيار عنهم رأسا والأمر كذلك عند التحقيق إذ اختيار العباد مخلوق باختيار الله منوط بدواع لا اختيار لهم فيها وقيل المراد ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه رد لقولهم لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وقيل ما موصولة مفعول يختار والراجع إليه محذوف، المعنى ويختار الذى لهم فيه الخيرة أى الخير والصلاح ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ تنزيها له أن ينازعه أحد فيما يشاء أو يزاحم اختياره اختيار ﴿ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ عن إشراكهم أو ما يشركون به ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ تستر من الكفر وعداوة الرسول والحقد ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ بألسنتهم كالطعن فيه ﴿ وَهُوَ اللَّهُ ﴾ المستحق للعبادة لا غيره ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا أحد يستحقها إلا هو تأكيد وتقرير للأول ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ ﴾ فى الدنيا ﴿ وَالْآخِرَةِ ﴾ لأنه مولى النعمة فى الدارين يحمده المؤمنون فى الآخرة تلذذاً وابتهاجاً كما يحمدونه فى الدنيا تعبدا، روى مسلم وأبو داود عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفيئون يلهمون التسبيح والتهليل كما يلهمنا التنفس» ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ القضاء النافذ فى كل شىء لا حاكم غيره ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالنشور للجازاة لا إلى غيره . ولما ذكر تفرده بالألوهية واستحقاقه الحمد فى الدارين أردفه بنعمتين لا يمكن الانتفاع بسائر النعم بدونهما ولا يشك أحد أنهما منه بقوله ﴿ قُلْ ﴾ لأهل مكة ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبرونى ﴿ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ دائماً من السرد المداومة على المشى والميم زائدة ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ بزعمكم ﴿ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾ نهار تطلبون فيه المعيشة قدم ذكر الليل لأن انكشافه عن النهار بالنير الأعظم أبلغ فى المنافع وأجلب للمصالح ولذا آثر ذكر الضياء على النهار مع كونه ظاهراً فى التقابل للدلالة على أنه المقصود من النهار والانتفاع بالنهار من روادفه وقال « من إله » بدل هل إله بناء على زعمهم أن معه آلهة وقرأ ابن كثير بضئاء بهمزتين ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ ذلك سماع تدبر فترجعون عن الإشراك ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا ﴾ بإسكان الشمس فى وسط السماء ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ بزعمكم ﴿ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ ﴾ تستريحون ﴿ فِيهِ ﴾ من التعب ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ما أنتم عليه من الخطأ فى الإشراك فترجعون عنه لم يقابل الضياء بالظلام لكونه غير مقصود ولنفرة النفس من سماعه فى معرض الامتنان وذكر السكون فى الليل ولم يقابل بالتصرف فى النهار لانحصار نفع الليل فيه دون النهار لم ينحصر نفعه فى التصرف لأن منافع الضوء أكثر مما يقابله ولذا فصل بأفلا تسمعون والليل بأفلا تبصرون لأن استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من البصر والتوبيخ بأفلا تسمعون أبلغ منه فى أفلا تبصرون والله أعلم ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ تعالى ﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ فى الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فى النهار بالكسب لف ونشر مرتب وهو من محسنات الكلام ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ النعمة فيهما ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ

يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ تفريع بعد تفريع للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك وليبنى عليه ﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ أخرجنا ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ وهو نبيهم يشهد عليهم بما كانوا عليه ﴿ فَقُلْنَا ﴾ بعد إحضار النبي ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على الشرك وتكذيب الرسل وهذا إعذار ومن هنا أخذ العلماء إعذار القاضي لمن يريد أن يحكم عليه بقوله أبقيت لك حجة ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ ﴾ فى الألوهية ﴿ لِلَّهِ ﴾ وحده لا يشاركه فيه أحد ﴿ وَضَلَّ ﴾ غاب ﴿ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ فى الدنيا من أن معه شريكا تعالى عن ذلك . ولما كان افتخار المشركين بما كان لهم من الأموال والبنين وما كان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قلة ذات اليد هددهم الله أولا بقوله «وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها» وأردفه بمن ضرب به المثل فى الثروة وما آل إليه أمره من الهلاك بقوله ﴿ إِنَّ قَارُونَ ﴾ بن يصهر بن قاهث بن لاوى ابن يعقوب عليه السلام ﴿ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ ابن عمه يصهر وابن خالته وآمن به ﴿ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ طلب الفضل عليهم بأن يكونوا تحت أمره كما كانوا قبل إرسال موسى إذ ملكه فرعون على بنى إسرائيل أو ظلمهم أو تكبر عليهم بكثرة الأموال والأولاد أو خرج عن أتباع موسى وهارون فقال لموسى لك الرسالة ولهارون الحبورة وأنا فى غير شيء إلى متى أصبر قاله موسى هذا صنع الله ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ الأموال المدخرة من الكنز وهو الجمع ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ مفاتح صناديقه جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به وقيل جمع مفتح بالفتح خزانة المال ﴿ لَتَنُوءُ ﴾ تثقل ﴿ بِالْعُصْبَةِ ﴾ الجماعة ﴿ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ تثقلهم فالباء للتعدية ناء به الحمل أثقله حتى أماله خبر إن والجملة صلة ما وهو ثانى مفعولى آتى والعصبة الجماعة الكثيرة من العصوبة الإحاطة وقد بولغ فى إظهار الكثرة حيث ذكر الكنوز والنوء والعصبة ذوو القوة قيل كان يحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلا وكان كل مفتاح لا يزيد على إصبع ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ المؤمنون من بنى إسرائيل وهو ظرف لتنوء ﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ بكثرة المال والفرح بالدنيا مذموم مطلقاً لأنه نتيجة حبها والرضى بها وذلك مانع من محبة الله كما قال ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ بزخارف الدنيا قال الغزالى فى الإحياء الفرح بالدنيا والتنعم بها سم قاتل يخرج من القلب الخوف وذكر الموت وأهوال القيامة وهذا هو موت القلب والعياذ بالله . اه . ﴿ وَابْتَغِ ﴾ اطلب ﴿ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ ﴾ من المال ﴿ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ بأن تنفقه فى طاعة الله فإن المقصود من المال الوصلة به إلى الدار الآخرة وفى الحديث نعم المال الصالح للرجل الصالح ﴿ وَلَا تَنسَ ﴾ تترك ﴿ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ بأن تحصل بها آخرتك أو تأخذ منها ما يكفيك وفى الحديث ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت به فأبقيت ﴿ وَأَحْسِن ﴾ للناس بالصدقة وبالشكر والطاعة ﴿ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ بالإنعام ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالبغى والظلم والمعاصى أى لا تطلبه فضلا عن الوقوع فيه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ والعاقل لا يدخل نفسه فى زمرتهم ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ ﴾ أى المال ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أى فى مقابلته وكان أعلم بنى إسرائيل بالتوراة بعد

موسى وهارون وقيل هو علم الكيمياء تعلمه من موسى وقيل علم التجارة والمكاسب وقيل العلم بكنوز يوسف ﴿عِنْدِي﴾ صفة لعلم وعلى علم فى موضع الحال أو عندى استئناف يقرر ما ذكره أى هكذا الأمر عندى وفى اعتقادى قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾ الأمم ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال أى هو عالم بذلك لأنه قرأه فى التوراة وسمعه من حفظ التواريخ كأخبار نمرود والضحاك فكيف يغتر بما هو فيه ولم يقس حاله على أولئك ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ سؤال استعلام لأنه تعالى مطلع عليها ولا معاتبة إذ ذلك يكون بين الأحبة بل يعذبون بها بغتة وفيه إشارة إلى إهلاك قارون بغتة ﴿فَخَرَجَ﴾ قارون ﴿عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ مفتخراً عليهم فى زيه المخصوص به وبأتباعه الكثيرين ركبانا متحلين بملابس الذهب والحرير على خيول وبغال متحلية ومعه أربعة آلاف على زيه قاله البيضاوى ، قال فى الجواهر أكثر الناس فى زينة قارون بما لا صحة له فتركته . اه . ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وهم عوام المؤمنين ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ فى الدنيا ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ﴾ نصيب ﴿عَظِيمٍ﴾ واف فيها ﴿وَقَالَ﴾ لهم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بما وعد الله فى الآخرة وسرعة زوال نعيم الدنيا ﴿وَيْلَكُمْ﴾ كلمة زجر أصلها الدعاء بالهلاك فاستعمل للزجر عما لا يرتضى وهى هنا للتعجب من ذهولهم وتمنيهم الفانى ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ فى الآخرة بالجنة ﴿خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ مما أوتى قارون فى الدنيا بل من الدنيا وما فيها ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا﴾ أى كلمة هؤلاء العلماء أو الجنة المرادة بالثواب ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ على الطاعات وعن المعاصى ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ﴾ بقارون ﴿وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ روى أنه كان يؤذى موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه لقرابته حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف على واحد فحسبه فاستكثره فجمع بنى إسرائيل وقال إن موسى يريد أخذ أموالكم فقالوا أنت سيدنا مرنا بما رأيت قال قد دبرت له فجعل لبغيّ من بغايا بنى إسرائيل ألف دينار لترميه بنفسها فلما كان يوم العيد قام موسى خطيباً فقال : من سرق قطعناه ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصناً رجمناه . فقال قارون : ولو أنت ؟ قال : ولو أنا . قال : إن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة . فأحضرت فناشدها موسى بالله أن تصدق فقالت : جعل لى قارون جعلا على أن أرميك بنفسى ، فخر موسى ساجداً يشكو قارون إلى ربه فأوحى الله إليه أن مُر الأرض بما شئت وقد اعتزل بنو إسرائيل عن قارون غير رجلين فقال موسى للأرض خذيهم فأخذتهم إلى الركبة ثم إلى أوساطهم ثم إلى أعناقهم وهم يناشدونه فى كل ذلك ويقول خذيهم فخسفت بهم ثم قالت بنو إسرائيل بعد ذلك إنما فعله ليرث ماله فدعا الله فخسف بداره وأمواله كما قال تعالى ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾ أعوان ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من غيره بأن يمنعوا عنه الهلاك ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ بغير الفئة من الأسباب ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أى من قريب بقولهم « ياليت لنا مثل ما أوتى قارون » ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ﴾ أى نعجب لأن الله ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ يضيق على من يشاء ، و « وَىْ » اسم فعل بمعنى أعجب أى أنا والكاف بمعنى اللام أو مركب من «وى» للتعجب و «كأن» للتشبيه والمعنى ماأشبه الأمر أن الله الخ ، وقيل أصله ويلك لحذف اللام تخفيفاً لكثرة الاستعمال ورسمت مركبة لتوقف المعنى عليه ﴿ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخُسِفَ بِنَا ﴾ بالبناء للمفعول للجمهور والفاعل لحفص أى حيث تمنينا أن نوتى مثل ما أوتى ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ لنعمة الله كقارون ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾ أى الجنة والإشارة للتعظيم أى التى بلغك خبرها وتيقنت بشأنها العجيب ، والدار الآخرة صفة والخبر ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ غلبة وقهرا بالبغى كما أراد فرعون ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ بعمل المعاصى كقارون ﴿ وَالْعَاقِبَةُ ﴾ المحمودة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ما لا يرضاه الله وهذا التذييل يدل على أن ملاك الأمر هو التقوى ولا يكفى فى النجاة عدم تلك الإرادة ومن تلك الإرادة كما قال عليه السلام : أن تريد أن يكون شراك نعلك أفضل من شراك نعل أخيك ومن الاتقاء المذكور الفرار عما يذكره الدنيا ولوكان حلالا . وفى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان لنا قرام ستر فيه تماثيل على بابى فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال آنزعيه فإنه يذكرنى الدنيا . وفيه إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتى المال قال الترمذى حسن صحيح ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ ذاتاً وقدراً ووصفاً أو ثواب بسببها وهو عشر أمثالها ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير تهجيناً لحالهم بتقرير إسناد السيئة إليهم ودلالة أن لا فرق بين من يرتكب سيئة أو سيئات ﴿إِلَّا﴾ جزاء ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أو إلا مثل ما كانوا يعملون : حذف المضاف مبالغة فى المماثلة كما بولغ فى جانب الحسنة بلفظ الخير الدال على الكثرة ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ﴾ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه ﴿ لَرَادُّكَ ﴾ بعد الموت أو الهجرة ﴿ إِلَى مَعَادٍ ﴾ أىّ معاد والتنكير للتعظيم أى ليس لغيرك من البشر مثله وهو المقام المحمود الذى وعدك أن يبعثك فيه ، وهذا تفسير الجمهور كما قال فى الجواهر . وقيل أراد مكة وتنكيره لأن فتح مكة كان له شأن . روى أنها نزلت فى مهاجره حين بلغ الجحفة واشتاق إلى مولده ومولد آبائه والآية تأكيد لقوله « والعاقبة للمتقين » بوعد المحسنين العاقبة الحسنى فى الدارين ووعيد المسيئين بضد ذلك فيهما ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر و « من » نصب بفعل يفسره « أعلم » ، وتقدم ما فيه ﴿ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وما استحقه من العذاب والإذلال يعنى به نفسه والمشركين وهو تقرير للوعد السابق وكذا قوله ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ لانك أمىّ ناشئ بين كفار لايقرأون فألقى إليك ولا يستبعد أن يردك إلى معادك ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ألقى إليك ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ ويجوز أن يكون استثناء محمولا على المعنى كأنه قال وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك لأن نفى الرجاء نفى للإلقاء على أبلغ وجه ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا ﴾ معيناً ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ فى أمر بمداراة أو إجابة إلى مطلوب فإنه إغراء لهم ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾

إلى أن الإيذاء فى الله حقيق بأن يحتمل ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ ﴾ للمؤمنين فتح وغنيمة ﴿ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ فى الدين فأشركونا فى الغنيمة ، قال البيضاوى والمراد المنافقون أو قوم ضعف إيمانهم فارتدوا من أذى المشركين . اه . وفى غاية الأمانى هو إخبار عما يكون فى المستقبل لأن الآية مكية ولم يكن بها نفاق ولا قتال ولا غنيمة . اه . وقال فى الجواهر السورة مكية إلا الصدر منها العشر الآيات فإنها مدنية نزلت فى شأن من كان من المسلمين بمكة المتخلفين عن الهجرة : هذا أصح ما قيل هنا . اه ﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ من الإيمان والنفاق : تكذيب لهم على أبلغ وجه أى لو كان فى صدورهم إيمان لعلمه ولركبوا كل هول إلى هجرتهم ودار نبيهم ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بقلوبهم ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ أى ليميزن بين الفريقين بحيث لا يشتبه بعضهم ببعض أو ليجازينهما واللام فى الفعلين لام قسم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ﴾ فى ديننا ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ فى اتباعنا إن كانت والأمر بمعنى الخبر عطف على أمرهم بالاتباع مبالغة فى تعليق الحمل بالاتباع والوعد بتخفيف الأوزار عنهم إن كانت تشجيعاً لهم عليه ولذا بالغ فى الرد عليهم بقوله ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من الأولى بيانية والثانية تبعيضية أى أدنى جزء منه وقيل زائدة أى وما هم بحاملين شيئاً من خطاياهم ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى ذلك والتكذيب راجع إلى الوعد بالضمان لأن الإنشاء لا يتصف بالكذب أو كاذبون عند أنفسهم أى يعلمون أن ذلك الوعد غير مطابق للواقع قاله فى غاية الأمانى قلت هذا تكلف إذ الإنشاء هنا بمعنى الخبر والله أعلم ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ أوزارهم التى اقترفتها أنفسهم ﴿ وَأَثْقَالًا ﴾ أخر ﴿ مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ بإضلال مقلديهم والحمل على المعاصى من غير أن ينقص شيئاً من أثقال من تبعهم ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ سؤال توبيخ ﴿ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من الأباطيل التى أضلوا بها واللام فى الفعلين لام قسم وحذف فاعلهما الواو ونون الرفع لنون التوكيد . ثم أتبع أقوال المشركين قصص الأنبياء تسلية لرسوله وابتدأ بنوح لما تقدم بقوله ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ وعمره أربعون سنة أو أكثر ﴿ فَلَبِثَ ﴾ بعد البعث ﴿ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله واختار لفظ الألف وما بعده على تسعمائة وخمسين لأنه أخص وأعذب وأشد إنباء على طول المدة الذى هو مقتضى المقام وللإشارة إلى أن المستثنى مخصب وما قبله مجدب لأن السنة هى العام المجدب والعام هو المخصب والله أعلم ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ أى طوفان الماء إذ الطوفان اسم لما طاف حول الشىء بكثرة من سيل أو ظلام أو نار أو موت ﴿ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ بالكفر ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾ أى نوحا ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ الذين كانوا معه فيها وعاش بعد الطوفان ستين عاماً ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ أى السفينة أو الحادثة ﴿ آيَةً ﴾ عبرة ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ بعدهم إن عصوا رسلهم . ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أو عطف على نوحاً ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ بدل اشتمال على الأول وظرف لأرسلنا على الثانى أى أرسلناه حين كمل نظره بحيث عرف الحق وأمر الناس به بقوله ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾

خافوا عقابه ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما أنتم عليه من عبادة الأصنام ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى تميزون الخير من غيره وإيثار «إن» للدلالة على ترجيح عدم العلم لأنها تستعمل فى نادر ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره ﴿ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ تكذبون كذباً فى تسميتها آلهة وادعاء شفاعتها عند الله تعالى أو تنحتونها للإفك وهو استدلال على شرارة ما هم عليه من حيث إنه زور وباطل وإفكا نصب على المصدر أو النعت لمحذوف أى خلقاً ذا إفك ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾ لا يقدرون أن يرزقوكم دليل ثان على شرارة ذلك و « رزقاً » يحتمل المصدر بمعنى لا يستطيعون أن يرزقوكم رزقاً وأن يراد به المرزوق والتنكير للتعميم أى شيئاً مما يطلق عليه اسم الرزق وهذا الدليل الثانى أبلغ من الأول لأن أقل درجات المعبود أن يكون له نفع فى الحال ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ كله فإنه المالك له ﴿ وَاعْبُدُوهُ ﴾ توسلا بالعبادة إلى مطلوبكم ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ على ما أولاكم قيداً له واستعداداً بهما للقائه فإنه ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وعد ووعيد ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا ﴾ نى ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾الرسل وما ضر الرسل تكذيبهم وإنما ضروا أنفسهم بالعذاب فكذا تكذيبكم ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ الواضح أو الموضح المزيح للشبهة ، وهذه الآية وما بعدها إلى قوله « فما كان جواب قومه » من قول إبراهيم لأمته أو ابتداء كلام من الله لقريش وسائر العرب تسلية لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم اعترض به فى أثناء قصة إبراهيم لأن مساقها التسلية والتنفيس عنه ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ بالتحتية للجمهور والفوقية لحمزة والكسائى وأبى بكر على تقدير القول أى ينظروا ﴿ كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ﴾ من مادة وغيرها ﴿ ثُمَّ ﴾ هو ﴿ يُعِيدُهُ ﴾ أى الخلق كما بدأه عطف على « أولم يروا » لا على « يبدئ » لأن الرؤية غير واقعة عليه ، ويجوز أن تؤول الإعادة بأن ينشئ فى كل سنة مثل ما كان فى السنة السابقة من النبات والثمار ونحوها أو يجعل الرؤية بمعنى العلم إذ يصح تعلقه بهما لأن العلم بالإبداء دليل على الإعادة ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الخلق الأول والثانى ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ إذ لا يفتقر فى فعله إلى شىء فكيف تنكرون الثانى ﴿ قُلْ ﴾ يا إبراهيم أو يا محمد لقومك ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ على اختلاف الأجناس والأحوال ليدلكم على سهولة أمر الإعادة عليه ، ولما كان دليل الأنفس أقرب من الآفاق آثر فى الأول الرؤية وفى الثانى النظر ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ قصراً للجمهور ومدًّا لأبى عمرو وابن كثير فى المواضع الثلاثة بعد النشأة الأولى التى هى الإبداء والتصريح باسم الله بعد إضماره فى « بدأ » للدلالة على أن المقصود بيان الإعادة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لاستواء نسبة القدرة إلى الكل دليل على المدعى ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ تعذيبه ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ رحمته ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ تردون فيجازى كلًّا على وفق إرادته ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ ربكم عن إدراككم إن فررتم من قضائه ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالتوارى فى مهاويها ﴿ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ التى هى أفسح منها وأبسط لو قدر صعودكم إليها بالتحصن فيها أى لا تفوتونه ﴿ وَمَا لَكُم مِّن

دُونِ اللهِ ﴾ أي غيره ﴿ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يمنعكم من بلائه إذا ظهر في الأرض ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ينصركم من عذابه إن نزل من السماء ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ دلائل وحدانيته أو بكتبه ﴿ وَلِقَائِهِ ﴾ بالبعث والجزاء ﴿أُولَـٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ﴾ أي ييأسون منها يوم القيامة فعبر عنه بالماضي للتحقق والمبالغة أو أيسوا في الدنيا لإنكار البعث والجزاء ، شبه توغلهم في الكفر باليأس على الاستعارة التبعية لأن من أنكر البعث لا يوصف باليأس لأنه شأن من يوصف بالرجاء والتفت إلى التكلم إشارة إلى قوله « ورحمتي وسعت كل شيء » ولذا لم يضف العذاب في قوله ﴿ وَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بكفرهم ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ أي قوم إبراهيم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ قابلوا نصحه بأبلغ مكروه وهو القتل أو الحرق وآثروا صيغة التفعيل الدال على التكثير والمبالغة ﴿ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ ﴾ التي قذفوه فيها بأن قال لها « كوني برداً وسلاماً » ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ في إنجائه منها ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ هي عدم تأثيرها فيه مع عظمها وإخمادها وإنشاء روض مكانها في زمن يسير ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بتوحيد الله وقدرته وأن العاقبة للمتقين ﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً ﴾ تعبدونها ، و«ما» كافة وثاني مفعولي «اتخذ» محذوف أي اتخذتموها آلهة ﴿ مَوَدَّةَ ﴾ بالنصب والتنوين لنافع وابن عامر وشعبة مفعول له ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ نصب على الظرف ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي اتخذتموها لتتوادوا وتتواصلوا بينكم باجتماعكم على عبادتها كما ترى اليوم أهل كل مذهب كذلك أو « مودة » هو المفعول الثاني بتقدير مضاف أي سبب مودة أو تأويلها بالمودودة وبنصب مودة مضافة لحمزة وعاصم وبرفعها مضافة أيضاً لابن كثير وأبي عمرو والكسائي على أنها خبر محذوف أي هي مودة بينكم والجملة صفة « أوثاناً » أو خبر إن و « ما » مصدرية أو موصولة ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ يتبرأ القادة من الأتباع وبالعكس أو العبدة والأصنام ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ يلعن الأتباع القادة ﴿ وَمَأْوَاكُمْ ﴾ مصيركم جميعاً ﴿ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ يخلصونكم منها ولم يذكر هذا مع ما تقدم قبل الجواب لأن ذلك نصح وإرشاد وهذا وعيد وتهديد وما يئول إليه أمرهم فلم يحسن نظامه مع ما تقدم ﴿ فَآمَنَ لَهُ ﴾ صدق بإبراهيم ﴿ لُوطٌ ﴾ ابن أخيه هاران هو أول من آمن به لما رأى النار لم تؤثر فيه ثم زوجته سارة ابنة عمه ﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم لأبيه وقومه ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ إلى حيث أمرني ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي يمنعني من أعدائي ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يأمر إلا بما فيه حكمة ولم يأمرني إلا بما فيه صلاح فسافر من سواد الكوفة من قرية يقال لها كوثى إلى حران بديار بكر ثم إلى الشام ومعه لوط وسارة امرأته فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم ثم سافر إلى مصر حتى أعطى ملكُ مصر زوجته سارة (هاجرَ) ثم رجع إلى الشام ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ بعد إسماعيل من هاجر ﴿ إِسْحَاقَ ﴾ من سارة ولداً بعد اليأس وسؤال الولد من العجوز العاقر ولذا لم يذكر إسماعيل ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ بعد إسحاق نافلة ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ ﴾ فكل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته ﴿ وَالْكِتَابَ ﴾ جنس الكتاب فيدخل تحته الأربعة التوراة والإنجيل والزبور

والقرآن ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ ﴾ على الهجرة وغيرها ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ بإعطاء الولد فى غير أوانه والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملل جميعاً إليه والثناء عليه آخر الدهر ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الكاملين فى الصلاح الجامعين لمحاسن الأفعال والأخلاق ﴿ وَلُوطًا ﴾ عطف على إبراهيم إن نصب باذكر وعلى ماعطف عليه إن كان معطوفاً على نوحاً ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ ﴾ بهمزة واحدة مكسورة على الخبر لنافع وابن كثير وابن عامر وحفص والباقون على الاستفهام ﴿ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ الفعلة البالغة فى القبح ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ الإنس والجن استئناف مقرر لزيادة القبح فيها حيث نفرت الطباع بأسرها عن ارتكابها فى سالف الدهر ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ اتفق السبعة هنا على أن الاستفهام للإنكار والتعجب ﴿ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ للمارة بالقتل وأخذ المال وفعل الفاحشة حتى انقطعت الطرق أو سبيل النسل بالإعراض عن موضع الحرث ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ﴾ متحدثكم الغاص بكم ﴿ الْمُنْكَرَ ﴾ من اللواط والضراط فى المجلس ورمى البنادق وحل الإزار ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى دعوى النبوة واستقباح فعلنا وأن العذاب نازل بفاعله ﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي ﴾ بإنزال العذاب ﴿ عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ بابتداع الفاحشة وسنها لمن بعدهم وصفهم بذلك توسلا إلى استعجال العذاب لهم فاستجاب الله دعاءه وأرسل إليهم رسلا لإهلاكهم فبدأوا بإبراهيم للتبشير ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ ﴾ بإسحاق ويعقوب بعده أو بإهلاك قوم لوط ﴿ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ قرية سدوم والإضافة لفظية لأن المعنى الاستقبال ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ بالكفر والمعاصى تعليل لإهلاكهم لإصرارهم على ظلمهم ، وفى المثل : أجْوَرُ من قاضى سدوم ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم لهم ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ بيان للمانع المعارض للوجب وسؤال عن كيفية الهلاك مع وجوده بين أظهرهم بريئاً من فعلهم منذراً لهم ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ﴾ تسليم لقوله مع مزيد العلم المسلى له على أبلغ وجه بأنهم أعلم بعدم استحقاقه العذاب ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لحمزة والكسائى ﴿ وَأَهْلَهُ ﴾ تخصيص لعموم أهل هذه القرية ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ ﴾ استثناء من أهله ﴿ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ الباقين فى العذاب لكونها كافرة مثلهم أو فى القرية ﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾ حزن بسببهم و « أن » صلة تفيد اتصال الفعلين كأنه قيل لما جاء الرسل أصابه المساءة من غير ريث خوفاً عليهم من قومه ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ طاقة أى ضاقت بشأنهم طاقته وهو كناية عن فقد القدرة على تدبيرهم وذلك أن طويل الذراع ينال ما لا ينال قصيرها وتقدم بيانه فى سورة هود ﴿ وَقَالُوا ﴾ لما رأوا أثر الخوف عليه ﴿لَا تَخَفْ﴾ شيئاً من جهتنا ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ على تمكنهم منا إنا رسل ربك ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ بالتشديد لنافع وابن عامر وأبى عمرو وحفص وبالتخفيف للباقين ﴿وَأَهْلَكَ﴾ بالنصب عطفاً على محل كاف منجوك باعتبار الأصل أو على إضمار فعل ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ فى عدادهم فى علم الله ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ﴾

بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر ﴿عَلَى أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عذاباً والرجز والرجس القلق والاضطراب أطلقا على العذاب لاضطراب المعذب ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ لاستمرار فسقهم ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا﴾ أى القرية ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ ظاهرة وهى آثار خرابها والحجارة الممطورة فإنها باقية بعدهم وكذا المياه المسودة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون متعلق بتركنا أو آية ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أى افعلوا ما ترجون به ثوابه فأقيم المسبب مقام السبب أو الرجاء الخوف ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لعاملها من عثى بكسر المثلثة أى أفسد ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة أو صيحة جبريل لأن القلوب ترجف منها ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ باركين على الركب ميتين أى أهلكناهم ﴿وَ﴾ أهلكنا ﴿عَادًا وَثَمُودَا﴾ بالصرف للجمهور وعدمه لحمزة وحفص بمعنى الحىّ والقبيلة ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ إهلاكهم ﴿مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ باليمن والحجر عند مروركم بها أو تبين لكم بعض مساكنهم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ السوىّ الذى بينته الرسل لهم ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ذوى بصائر لكن تغافلوا حتى هلكوا ﴿وَ﴾ أهلكنا ﴿قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ تقديم قارون لشرف نسبه وتأخيره فى سورة غافر نظراً إلى الوجود ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم﴾ من قبل ﴿مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج الظاهرات ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ فائتين عذابنا بل أدركهم أمر الله من سبق طالبه إذا فاته ﴿فَكُلًّا﴾ من المذكورين ﴿أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ ريحاً عاصفاً فيها حصباء كقوم لوط ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كثمود ومدين ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كقارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فيعذبهم بغير ذنب أى ليس ذلك من حكمته ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالتعريض للعذاب ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أصناما يرجون نفعها ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ﴾ يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والتاء فيه كتاء طاغوت يجمع على عناكيب وعناكب وعكاب وعكبة وأعكب ﴿اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ لنفسها فيما نسجته تأوى إليه ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ﴾ أضعف ﴿الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ لا يدفع عنها حراً ولا برداً كذلك الأصنام لا تنفع عابدها: شبه ما اتخذوه متكلا فى دينهم بما هو مثل عند الناس فى الوهن، والغرض من هذا التشبيه تقرير وهن دينهم وأنه بلغ الغاية التى لا غاية بعدها وهذا كتشبيه من لا يحصل من سعيه على طائل بالراقم على الماء من تشبيه المركب بالمركب ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لعلموا أن هذا مثلهم أو أن دينهم أوهن من ذلك. قل للكفار ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ﴾ بالفوقية للجمهور والتحتية لأبى عمرو وعاصم ﴿مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ ما نافية ومن زائدة أو استفهامية ومن بيان والعلم معلق توكيد للمثل وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئاً ويجوز أن تكون مصدرية أو موصولة والعائد محذوف مفعول ليعلم والكلام على الأولين تجهيل لهم وعلى

الأخيرين وعيد لهم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى لا يفعل شيئاً إلا وفيه حكم، وفى الوصفين رمز إلى غباوتهم حيث تركوا عبادة الموصوف بهما وعبدوا من لا يطلق عليه اسم الشيء بالإضافة إلى المتصف بهما إذ معبودهم باعتباره كالعدم ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ﴾ أى هذا المثل ونظائره ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ كشفاً للحجب عن وجوه محاسن الفوائد وتقريباً للمعانى الدقيقة إلى الأفهام ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ لا يفهم حسنها وفوائدها ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغى. وعنه عليه السلام أنه قرأ هذه الآية فقال العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه وفيها تعريض بالمشركين الطاعنين فى القرآن لاشتماله على ضرب المثل بالذباب والعنكبوت ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ محقاً أى خلقا ملتبساً به بمعنى خلقها لتكون مساكن عباده ودلائل قدرته وعلمه وعظم شأنه ومواضع خيراته ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المتأملين فيها ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ تقرباً إلى الله تعالى بتلاوته وتحفظاً لألفاظه وتكشفاً لمعانيه فإنه من أفضل الأعمال، وعنه صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه «من شغل لسانه تلاوة القرآن عن دعائى ومسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ بالمحافظة على شرائطها وأوقاتها وجميع حقوقها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ﴾ على تلك الهيئة ﴿تَنْهَىٰ﴾ صاحبها ﴿عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ شرعاً أى من شأنها ذلك ما دام المرء فيها لأنها معراج العبد فإذا واظب عليها وذاق حلاوة المناجاة ينسى سائر اللذات فلا يكون له همّ سوى مولاه بشرط أن يقبل عليها بقلبه ويطرح ما سوى الله وراء ظهره ومن لم تنهه صلاته عن المعاصى فهى صورة صلاة لا صلاة: روى أن رجلا من الأنصار نعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالإسراف فى المناكر فقال كيف صلاته قالوا هو يصلى الصلوات مع رسول الله فقال إن صلاته ستنهاه فتاب عن قريب ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ﴾ أى الصلاة ﴿أَكْبَرُ﴾ من سائر الطاعات عبر عنها بالذكر للتعليل فإن اشتمالها على ذكره هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات والذكر هو العمدة فى سائر العبادات وهو ملاحظة كبرياء الحق أو المراد ذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم بطاعته ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء منه فيجازيكم أحسن المجازاة وفى إيثار الصنع على العمل حث على الطاعة بالقلب والجوارح لإعلامه زيادة تعمل وكلف. ولما بلغ الغاية فى بيان طريق إرشاد المشركين شرع فى بيان مجادلة أهل الكتاب بقوله ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ جميعاً أو أهل الذمة منهم والعهد وفيه أن السورة مكية ﴿إِلَّا بِالَّتِي﴾ أى المجادلة التى ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالدعاء إلى الله بآياته وحججه مع مقابلته مخاشنتهم باللين والغضب بالكظم والسورة بالإنابة ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بالإفراط فى الاعتداء والعناد فخاشنوهم أو بنبذ العهد أو منع الجزية فجادلوهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ﴿وَقُولُوا﴾ لمن أمرتم بمجادلتهم بالتى هى أحسن إذا أخبروكم بشيء مما فى كتبهم ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ هو من جنس المجادلة بالتى هى أحسن: روى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

«ولا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله» ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون لا لغيره : تعريض بأهل الكتاب . قال فى الجواهر : هذه الآية مكية ولم يكن يومئذ قتال وكانت اليهود يومئذ بمكة وفيما جاورها فربما وقع بينهم وبين بعض المؤمنين جدال واحتجاج فى أمر الدين وتكذيب فأمر الله المؤمنين أن لا يجادلوهم إلا بالتى هى أحسن : دعاء إلى الله وملاينة . ثم استثنى من ظلم منهم المؤمنين وحصلت منه إذاية فإن هذه الصيغة استثنى لأهل الإسلام معارضتها بالتغيير عليها والخروج معها عن التى هى أحسن ثم نسخ هذا بعد بآية القتال وهذا قول قتادة وهو أحسن ما قيل فى تأويل الآية وقال عز الدين بن عبد السلام فى اختصاره لقواعد الأحكام : فائدة ـ لا يجوز الجدال والمناظرة إلا لإظهار الحق ونصرته ليعرف ويعمل به فمن جادل لذلك فقد أطاع ومن جادل لغرض آخر فقد عصى وخاب ولا خير فيمن يتحيل لنصرة مذهبه مع ضعفه وبعد أدلته من الصواب . اه . ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الإنزال للكتب الماضية ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن مصدقا لما بين يديه ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ كعبد الله بن سلام وأضرابه أو هم من تقدم عهدَ الرسول ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ العرب أو أهل مكة أو أهل الكتاب زمن الرسول على التأويل الثانى فى الموصول ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ فنالوا الصحابة ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ بعد ظهورها ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ المتوغلون فى الكفر الذى يمنعهم التأمل فيها بكونها معجزة للجائى بها الأمى كما قال ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ﴾ أى القرآن ﴿مِن كِتَابٍ﴾ حتى يقولوا تعلمه منه ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ حتى يقولوا التقطه منه فظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم على أمىّ لا يقرأ ولا يكتب دليل واضح على رسالته وذكر اليمين زيادة تصوير للنفى ونفى التجوُّز فى الإسناد ﴿إِذًا﴾ أى لو كنت ممن يخط ويقرأ ﴿لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فيك اليهود أو المشركون وقالوا الذى نجده فى التوراة أمى لا يقرأ ولا يكتب أو تعلمه أو التقطه من كتب الأقدمين أى لنالوا متعلقاً فى الارتياب وأما الارتياب مع وضوح هذه الحجة فظاهر فساده وليس المراد أنه لو لم يكن أمياً لم يكونوا مبطلين بل المعنى هؤلاء المبطلون فى كفرهم لو لم يكن أمياً لارتابوا أشد الريب لارتيابهم مع كونه أمياً ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ المؤمنين يحفظونه لا يقدر أحد على تحريفه بخلاف سائر الكتب ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ المتوغلون فى الظلم بالمكابرة بعد وضوح دلائل إعجازها لأن التكذيب بعد إزاحة الشبهة وضع شىء فى غير موضعه ﴿وَقَالُوا﴾ أى كفار مكة ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ على محمد ﴿آيَاتٌ﴾ بالجمع لنافع وابن عامر وأبى عمرو وحفص وبالإفراد للباقين ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ كناقة صالح وعصى موسى ومائدة عيسى ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ ينزلها كما يشاء ليست عندى ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى مقصور على الإنذار بما أعطيت من الآيات لا قدرة لى على إنزال ما تقترحونه ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ آية مغنية عما طلبوا ﴿أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ تدوم تلاوته عليهم شيئاً فشيئاً يتأملون

معانيه وسلاسة ألفاظه وهو آية مستمرة لاانقضاء لها بخلاف ماذكر من الآيات والاستفهام للتقرير ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الكتاب الموصوف ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ عظة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى همهم الإيمان لا التعنت . وقيل إن ناساً من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتب كتب فيها بعض ما يقول اليهود فقال : كفى بها ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم . فنزلت ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ بصدقى بالمعجزات أو بأنى بلغتكم وأديت الأمانة وكذبتم ﴿يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومنه حالى وحالكم برهان على كونه كافياً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ الأوثان ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ منكم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ بقولهم «متى هذا الوعد ... فأمطر علينا حجارة من السماء» ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ لكل عذاب أو قوم ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ إذ لا مانع سواه ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ فى الدنيا كوقعة بدر وفى الآخرة عند نزول الموت بهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت إتيانه ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ إنكاراً له ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ الآن لإحاطة أسبابها بهم أو ستحيط بهم يوم يأتيهم العذاب ، أعاد ذكر استعجالهم تعجيباً وآثر الظاهر للدلالة على موجب الإحاطة ﴿يَوْمَ﴾ ظرف « لمحيطة » ﴿يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أى من جميع الجوانب ﴿وَيَقُولُ﴾ الله ، بالياء لنافع والكوفيين وبالنون للباقين ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى جزاءه فلا تفوتوننا ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ فإذا لم يتيسر لكم إظهار الدين فى أرض فهاجروا إلى حيث يتيسر لكم ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ والفاء الأولى للتسبيب عن قوله « إن أرضى واسعة » كما تقول زيد أخوك فأكرمه وهو جواب شرط محذوف أى فإن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فأخلصوها لى فى غيرها والثانية فاء الجواب والآية نزلت فى ضعفاء مسلمى مكة كانوا فى ضيق من إظهار الإسلام بها والحكم عام فى غيرهم حيث وجدت العلة فالإقامة بين أعداء الله المانعين من عبادته لا وجه له مع اتساع بلاد الله . وعنه عليه السلام : من فر بدينه من أرض إلى أرض ولو كان شبراً استوجب الجنة وكان رفيق محمد وإبراهيم عليهما السلام ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ فعلى العاقل المبادرة إلى العمل قبل فوات الفرصة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بالتاء للجمهور والياء لأبى بكر للجزاء ومن علم هذا اجتهد للقاء ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ بالباء لننزلنهم للجمهور ولحمزة والكسائى بالمثلثة بعد النون من الثواء الإقامة ﴿مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ علالى ونصبه على القراءة الثانية على حذف الخافض أى فى أو تشبيه الظرف المختص بالمبهم ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ﴾ مقدرين الخلود ﴿فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ هذا الأجر : هم ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى المشركين والهجرة لإظهار الدين وغير ذلك من المشاق ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فى جميع الأمور فيرزقهم من حيث لا يحتسبون ويكفيهم جميع المهمات ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيق حمله لضعفها أو لا تدخر لتوكلها

على الله ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أيها المهاجرون وإن لم يكن معكم زاد ولا نفقة فلا تخافوا على معاشكم بالهجرة : نزلت لما قال بعض المسلمين كيف نهاجر إلى بلد ليس لنا معيشة فيها تشجيعاً لهم على هجرة الأحباب ومفارقة الأوطان وأن لا يهمهم أمر المعيشة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم هذا وغيره ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضمائركم وغيرها ﴿وَلَئِنْ﴾ لام قسم ﴿سَأَلْتَهُمْ﴾ أى الكفار ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أورد هذا لتوكيد ما تقدم فمن قدر على هذا يقدر على تيسير الرزق على الضعفاء من غير أسباب ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لما تقرر فى العقول لا يقدر أحد على إنكاره ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن توحيد الله وقدرته على رزق المهاجرين بعد إقرارهم ما تقدم تعجيب من حالهم ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ بوسعه ﴿لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ امتحاناً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيق ﴿لَهُ﴾ بعد البسط أو لمن يشاء ابتلاء. فكم من ساع لا يقدر على قوت يومه وكم من فارغ البال يأتيه الأرزاق من كل أوب، ويروى عن الشافعى:

وَمِن الدَّليلِ على القضاء وكَوْنِهِ • بُؤْسُ اللَّبيبِ وطيبُ عَيْشِ الأحمقِ

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومنه محل البسط والتضييق ووقت كل منهما ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فكيف يشركون به وقد اعترفوا أنه الموجد لكل الكائنات ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ثبوت الحجة عليهم وعصمته إياى عن مثل هذه الضلالة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ تناقضهم فى ذلك إضراب عن جهلهم الخاص إلى ما هو أبلغ وهو أنهم مسلوبو العقول لا يفطنون لتلك المناقضة وأحرى أن لا يفطنوا لمكان حدك ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ التى سلبت عقولهم وهى إشارة تحقير وهى ما زاد على الضرورى المعين على الطاعات فى المطاعم والمشارب والملابس والمنازل والمراكب والمناكح فالضرورى يستوى الغنى والفقير فيه كالتنفس وسد الجوع بأى شيء وستر العورة وتوقى الحر والبرد وما زاد على ذلك هو الدنيا وليس ذلك ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أى إلا كما يلهى ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه يبتهجون به ساعة ثم يتفرقون متعبين بلا فائدة وأما القرب فمن أمور الآخرة لظهور ثمرتها فيها ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أى الحياة الدائمة، وكما بالغ فى تحقير الدنيا بالغ فى تعظيم الآخرة بتأكيد الجملة بتصديرها بإن وبإدخال اللام وبإيثار المصدر الدال على أنها نفس الحياة ثم إيثار الحيوان على الحياة لما فى بناء فعلان من المبالغة بإعلام الحركة والاضطراب اللازمين للحياة وأصله حييان مصدر حي فقلبت الياء الثانية واواً ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لما آثروا الدنيا الخسيسة الفانية السريعة الزوال عليها لكنهم على ما وصفوا من الشرك ﴿فَإِذَا رَكِبُوا﴾ البحر ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ متصل بما قبله مما دل عليه شرح حالهم وهو نوع آخر من جهالاتهم ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى الدعاء أو كانوا فى صورة المؤمن المخلص لا يذكرون إلا الله لعلمهم أن لا قدرة لغيره ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ أى نجاهم من الغرق واصلين إلى البر ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجأوا الشرك من غير تلبث

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ من نعمة النجاة التي الواجب عليهم شكرها ، واللام فيه لام كي أي يشركون ليكونوا كافرين بشكرهم نعمة النجاة ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ باجتماعهم على عبادة الأصنام ، أو اللام لام الأمر على التهديد لقراءة ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون بإسكانها في « وليتمتعوا » ولام كي لا تسكن لحذف أن بعدها ويؤيد هذه القراءة قوله في سورة الروم « ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا » ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وخامة العاقبة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ لم يعلم أهل مكة ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا ﴾ بلدهم مكة ﴿ حَرَمًا ﴾ مصوناً ﴿ آمِناً ﴾ من النهب والتعدي أي قد رأوا وهو توبيخ ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ قتلا وسبياً دونهم إذ سائر العرب في تغاور وتناهب ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ ﴾ الصنم أو الشيطان ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ بعد وضوح هذه النعمة ، تعجيب من حالهم ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ ﴾ بإشراكهم ، وتقديم الصلتين للاهتمام أو للاختصاص على طريق المبالغة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ بزعمه أن له شريكا أي لا أحد أظلم منه ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ ﴾ الرسول أو الكتاب والتعبير عنه بالحق لدلالته على المدح ﴿ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ من غير تأمل وفي « لما » تسفيههم بالمسارعة إلى التكذيب أول ما سمعوه لأنها كإذا الفجائية والعقلاء لا يفعلون ذلك ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ تقرير لثوائهم والمعنى ألا يستوجبون الثواء فيها وقد افتروا على الله ؟ أو أعلموا أن جهنم مثواهم ومع ذلك اجترأوا على الافتراء ؟ فدار الأول على تبيين حالهم للغير واستحقاقهم والثاني على توبيخهم ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا ﴾ جهاد الأعادي الظاهرة والباطنة بأنواعه ولذا أطلق ﴿ فِينَا ﴾ في حقنا خاصة من غير إشراك ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ طرق السير إلينا وجمع سبيل الحق وإن كان واحداً باعتبار أنواع المجاهدة . وفي الحديث : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ المخلصين في عبادتهم بالعون والنصر تقوية لجأش المجاهد بأن الله معه .

[تم تفسير سورة العنكبوت]

سورة الروم

مكية - وهى ستون أو تسع وخمسون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الٓمٓ ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ هم بنو الأصفر أولاد روم ابن عيص بن إسحاق بن إبراهيم وهم فى ذلك الوقت نصارى على ملة عيسى ابن مريم غلبتها فارس وهو لقب لقبيلة ليس لأب ولا أم وإنما هم أخلاط من تغلب اصطلحوا على ذلك الاسم وكانوا فى ذلك الوقت مجوساً يعبدون النار والأوثان ملكوا العراق إلى آخر الشرق وكل من ملكوه يسمى كسرى ويسمى من ملك الروم قيصر وكانوا يقتتلون بينهم على ملك الشام غزاهم فارس فوجدوهم بأذرعات أو بالجزيرة وهو قوله ﴿ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ ﴾ أقرب أرض العرب منهم لأنها الأرض المعهودة وهى أذرعات وأدنى أرض الروم إلى عدوهم فارس وهى الجزيرة ، ففرح المشركون بالخبر لما بلغهم فقالوا للذين أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر إخواننا وكذلك نظهر عليكم إن قاتلتمونا فنزلت الآية بأخبار الغيب وهو ﴿ وَهُم ﴾ أى الروم ﴿ مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ بإضافة المصدر إلى المفعول أى غلبة فارس إياهم ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فارس ﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ هو ما بين الثلاث إلى التسع ففرح المسلمون وكثر التشاجر بينهم وبين المشركين حتى راهن أبو بكر رضى الله عنه أبىّ بن خلف على مائة قلوص إن لم يغلب الروم فارسَ فى تسع سنين . فلما دخلت السنة السابعة من الالتقاء الأول غلبت الروم ، وجاء الخبر بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وكان أبىّ قتل يوم أحد فأخذ أبو بكر القلائص من ورثته وكان ذلك قبل تحريم القمار لأن آية الميسر فى المائدة وهى من آخر القرآن نزولا ، وكان هذا من دلائل النبوة وباهر آياتها ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ أى من قبل غلب الروم ومن بعده ، المعنى : أن غلبة فارس أولا وغلبة الروم ثانياً بأمر الله أى إرادته إذ لا يكون شىء إلا بقضائه ﴿ وَيَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم تغلب الروم ﴿ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ الروم على فارس لما فيه من انقلاب التفاؤل وظهور صدق كتابهم وزيادة يقينهم أو بنصر الله إياهم على أعدائهم . إذ روى عن ابن عباس أن ذلك وافق يوم بدر سنة اثنين ، وعن قتادة والزهرى يوم الحديبية سنة ست من الهجرة وهذا أقرب لما روى أن هرقل كان قد نذر لئن نصره الله على الفرس ليزورنّ بيت المقدس راجلا فلما انتصر وذهب إلى بيت المقدس لقيه دحية بن خليفة الكلبى بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام وذلك سنة ست بلا خلاف ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ﴾ هؤلاء

تارة وهؤلاء أخرى ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب يذل من أراد بالخذلان ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ يعز من يشاء بالنصر ﴿ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ مصدر بدل من اللفظ بفعله وهو مؤكد لنفسه لأن ما قبله فى معنى الوعد ﴿ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ لاستحالة الكذب عليه ولدلالته على العجز وعدم العلم بعواقب الأمور تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وعده تعالى بنصرهم لجهلهم وعدم النظر الصحيح منهم ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بدل من « لا يعلمون » بدل الكل وهو أوفى بأداء المقصود لدلالته على أن العلم بظاهر الحياة كلاعلم لأن الغرض من الدنيا باطنها وهو كونها مزرعة الآخرة ونكر ظاهراً إشارة إلى كمال بلادتهم وأنهم لم يعلموا من ظاهرها إلا قليلا لأن من العلم بظاهرها علم حقائقها وصفاتها وهم بمعزل عن ذلك بل يعلمون من ظاهرها ما يشاهدون ويتمتعون به فيها فقط للمعاش والرياش من التجارة والزراعة والغرس والبناء ونحوها ، ولذا قسّم كسرى أيامه يوم الريح للنوم ويوم الغيم للصيد ويوم المطر للشرب واللهو ويوم الشمس للحوائج ﴿ وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ لا تخطر ببالهم و« هم » الثانية تأكيد للأولى أو مبتدأ و« غافلون » خبره والجملة خبر الأول وهو على الوجهين تحقيق لما تقدم . قال فى الجواهر : والمؤمن المنهمك فى أمور الدنيا التى هى أكبر همه يأخذ من هذه الآية بحظ . اه . لكن نبينا صلى الله عليه وسلم جزأ دنياه ثلاثة أجزاء : جزء لله تعالى وجزء لأهله وجزء لنفسه ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس فكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول بلغوا إلىّ حاجة من لا يستطيع بلاغى فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع أمّنه الله يوم الفزع الأكبر . نور الله قلوبنا بهداه وجعلنا ممن اتبع سنته وخالف هواه ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ﴾ توبيخ على عدم التفكر فيما يعود نفعه إليهم أى هلا أحدثوا التفكر فى أنفسهم الفارغة عنه والفكر لا يكون إلا فى النفس فذكرها لتصوير الحال كقولك أبصرته بعينى ويجوز أن يكون فى صلة « يتفكروا » كقولك تفكر فى المسألة أى فى أمر أنفسهم فإنها أقرب إليهم من غيرها ومرآة يجتلى فيها مايجتلى فى الممكنات بأسرها لاشتمالها على نظائر مافى العالم العلوى والسفلى فلِمَ لا يتفكرون فيها فيعلمون ﴿ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الذى هو الحكمة البالغة الابتلاء ليجازى المحسن والمسىء لا عبثاً تعالى الله عن ذلك ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ معين لذلك لا يتجاوزه ينتهى عند الساعة ، والباء فى « بالحق » مثل الباء فى اشتريت الفرس بلجامه دالة على المقارنة واللزوم ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ وهم الكفار ﴿ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿ لَكَافِرُونَ ﴾ جاحدون يحسبون أن الدنيا أبدية ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم كعاد وثمود وهى إهلاكهم بتكذيبهم رسلهم والاستفهام للتقرير أى قد وقع السير والنظر لكن مع عدم اعتبارهم ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ لأن كل قرن دون ما قبله وفى الحديث «خلق الله آدم طوله ستون ذراعا فلم يزل الناس يتناقصون إلى يومنا» ﴿ وَأَثَارُوا الْأَرْضَ ﴾ حرثوها وقلبوها

للبناء والزرع واستخراج المياه والمعادن وغير ذلك ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أى أهل مكة فإنهم أهل واد غير ذى زرع تهكم بهم من حيث أنهم مغترون بالدنيا وهم أضعف حالا فيها ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الحجج الظاهرات فلم يبق لهم عذر يعتذرون به ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بعد ذلك الإرسال وقطع الأعذار ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتعريضها لسخط الله ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ أى عاقبتهم وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على المقتضى برفع عاقبة لنافع وابن كثير وأبى عمرو اسم كان والخبر ﴿السُّوأَى﴾ مؤنث الأسوأ الأقبح أى العقوبة السوءى وهى جهنم وللباقين نصب عاقبة خبر والسوءى اسمها أو السوءى مصدر كالبشرى وصف به ، وإساءتهم ﴿أَنْ﴾ أى بأن ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ علة أو بدل أو عطف بيان للسوءى ويجوز أن تكون أن مفسرة للإساءة لأنها تكون قولية كما تكون فعلية ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ۝ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ ينشئهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أى الخلق بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالخطاب للجمهور للمبالغة فى المقصود وبالغيبة على الأصل لأبى عمرو وأبى بكر أى للجزاء ثوابا وعقابا فيه وعد ووعيد ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ﴾ ييأس ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ أو يسكتون لانقطاع حجتهم ومنه الإبلاس اليأس أو التحير ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ الذين أشركوهم بالله فى الألوهية ﴿شُفَعَاءُ﴾ كما كانوا يزعمون أنهم يجيرونهم من عذاب الله ﴿وَكَانُوا﴾ أى يكونون ﴿بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ متبرئين منهم حين يئسوا منهم ومجيئه بلفظ الماضى لتحقق وقوعه أو الباء للسببية أى كانوا كافرين فى الدنيا بسببهم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ﴾ تأكيد ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ أى المؤمنون والكافرون لقوله وامتازوا اليوم أيها المجرمون ولقوله ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ أرض ذات أزهار وأنهار وأشجار وثمار أى الجنة ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يسرون وينعمون من الحبرة وهى البهاء والحسن فى كل شىء ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ مدخلون لا يغيبون عنه وإنما لم يكتف بالكفر بل أضاف إليه التكذيب لكونه فى مقابلة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أى سبحوا الله بمعنى صلوا حين علمتم حال المعرضين عن عبادته والمقبلين إليه ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أى تدخلون فى المساء وفيه صلاتان المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ تدخلون فى الصباح وفيه صلاة الصبح ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو مستحق الحمد من أهلها ﴿وَعَشِيًّا﴾ عطف على حين وفيه صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ تدخلون فى الظهيرة وفيه صلاة الظهر ثم استأنف بما يدل على استحقاقه التسبيح والتحميد بقوله ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالإنسان من النطفة والطائر من البيضة ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ النطفة والبيضة ﴿مِنَ الْحَيِّ﴾ أو يعقب الحياة الموت وبالعكس ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى يبسها مع عدم التجانس بين النبات والأرض ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الإخراج ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من القبور بالبناء للمفعول للجمهور ، وللفاعل لحمزة والكسائى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أى بعضها الدالة على العلم والقدرة ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أى أصلكم وهو آدم أو كل واحد لما فى الحديث من أن النطفة التى يخلق منها الإنسان تعجن بالتراب الذى يدفن فيه إذا

مات ﴿ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ﴾ من دم ولحم أى ثم فاجأتكم وقت كونكم بشراً ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ فى الأرض لأسباب المعاش والأغراض ولا تنافى بين ثم وإذا ، الفجائية لأن ثم للدلالة على بعد هذه الكثرة من ذلك الأصل الواحد الكائن من تراب ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ بخلق حواء من ضلع آدم وسائر النساء من نطف الرجال والنساء أو المعنى من جنسكم لا من جنس آخر ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ لتميلوا إليها وتألفوها فالجنسية سبب التآلف والاختلاف سبب التنافر والتخالف والوحدة وحشة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً﴾ بسبب شهوة ركبها فى كل من الزوجين ﴿وَرَحْمَةً﴾ لرقة الجنسية التى تراحمون لأجلها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من العبر ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فى صنع الله وحكمه لأن الآيات لا يعظم موقعها إلا فى قلوب العارفين بالله ومن أكثر التفكر فى عجائب صنع الله حصلت له المعرفة بالله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ لغاتكم التى علمها الله آدم بإلهام من عربية وعجمية وغيرهما كعبرانية وسريانية ﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ من بياض وسواد وغيرهما وأنتم أولاد رجل واحد وامرأة واحدة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ بفتح اللام للجمهور الملك والإنس والجن وبكسرها لحفص أى ذوى العقول وأولى العلم كقوله « وما يعقلها إلا العالمون » ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بإرادته راحة لكم ﴿وَابْتِغَاؤُكُم﴾ بالنهار أو بهما ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾ أى تصرفكم فى طلب المعيشة بإرادته ولم يقل منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار على ظاهر اللف اهتماما بالظروف الذى تحصل به الآية وقدم المنام لكونه آية مستقلة مع قطع النظر عن الليل بخلاف الابتغاء ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ﴾ أى إراءتكم ﴿الْبَرْقَ﴾ نزل الفعل منزلة المصدر أو صفة لمحذوف تقديره آية يريكم بها البرق ﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقة أو من الإخلاف أو للمسافر ﴿وَطَمَعًا﴾ فى المطر أو للحاضر ونصبهما على العلة بتقدير مضاف أى إرادة خوفكم أو الخوف والطمع بمعنى الإخافة والإطماع أو على الحال مثل كلمته شفاها ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات مجاز حكمى ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها وذهاب نضارتها مجاز لغوى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ فى حيزهما ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بإرادته من غير عمد عبر بالأمر للمبالغة فى كمال القدرة والغنى عن الآلة ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ بنفخ إسرافيل فى الصور للبعث من القبور ومن متعلق بدعا كدعوته من المسجد ﴿إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ منها أحياء لخروجكم بدعوة من آياته وقوله « ثم إذا دعاكم ... إلى آخره » عطف على أن تقوم على تأويل مفرد كأنه قيل ومن آياته قيام السموات والأرض بأمره ثم خروجكم من القبور إذا دعاكم وثم لتراخى الزمان أو لعظم ما فيه وإذا الأولى شرطية والثانية فجائية داخلة على الجزاء قائمة مقام الفاء وذكر الدعوة إشارة إلى سرعة خروجهم وأنه لا يتوقف إلا على مجرد ما يطلق عليه اسم الدعاء ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقا وملكا ﴿كُلٌّ﴾ أى كل شىء ﴿لَّهُ﴾ أى لفعله ﴿قَانِتُونَ﴾ مطيعون لا يمتنعون بمعنى نافذ فيهم أمره طوعا أو كرها ﴿وَهُوَ

﴿الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد الهلاك ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ من البدء فى عرفكم وإن كان الكل تحت قدرته على السواء وفيه تسفيهٌ لهم حيث جهلوا هذا القياس الجلى وعن ابن عباس الاهون بمعنى الهين وقيل الضمير فى عليه للخلق ويرده الحديث القدسى فى البخارى ليس أول الخلق بأهون علىَّ من إعادته وضمير هو راجع إلى الإعادة ، ذكر لتذكير خبره أو لمعنى أن يعيد ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ﴾ الوصف العجيب ﴿الْأَعْلَىٰ﴾ الذى ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه وهو أنه لا إله إلا هو أوكل وصف له كالقدرة العامة والحكمة التامة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يصفه به ما فيهما دلالة ونطقا متعلق بخبر المبتدإ أو بالاعلى ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذى لا يعجز أبداً عن إبداء ممكن وإعادته ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى لا يفعل شيئا إلا لحكمة ولذلك ﴿ضَرَبَ لَكُمْ﴾ أيها الكفار ﴿مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أى منتزعا من أحوالها التى هى أقرب الأمور إليكم فإن للأمثال شأنا فى إبراز المعانى فى النفوس فى صورة المحسوس لا سيما إذا كان المثل حالا من أحوال الممثل له وهو ﴿هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد والإماء ﴿مِنْ شُرَكَاءَ﴾ لكم ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من الأموال وغيرها ﴿فَأَنْتُمْ﴾ وهم ﴿فِيهِ سَوَاءٌ﴾ تتصرفون فيه على السواء و « من » الأولى للابتداء والثانية للتبعيض والثالثة مزيدة لتأكيد النفى الذى هو معنى الاستفهام ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ فى التصرف والإرث ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أى أمثالكم من الاحرار إذ الحر يخاف شريكه الحر فى المال أن ينفرد بالمال دونه أو فى الميراث أن ينفرد به ولا يخاف ذلك من عبيده فإذا لم يكونوا شركاءكم فى المال مع أنهم بشر مثلكم فكيف تجعلون بعض مماليك الله شركاء له وهو رب الأرباب ومالك السادات والمماليك ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ مثل هذا التفصيل الجلى نفصل سائر الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون الأمثال ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالإشراك ﴿أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جاهلين لا يكفهم شىء فالعالم ربما ردعه علمه عن الهوى وأما الجاهل المتبع للهوى فلا يردعه شىء ولذا قال ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أى لا هادى لمن أراد الله ضلاله ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ مانعين من عذاب الله أى كما لا هادى لهم فى الدنيا لا ناصر لهم فى الآخرة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ بعد ما بلغت أى اصرف كالك ﴿لِلدِّينِ﴾ إلى طاعة الله ﴿حَنِيفًا﴾ مائلا عن غيره غير ملتفت إلى سواه ، أى أخلص يا محمد دينك لله أنت ومن تبعك والتعبير بالوجه لأن من اهتم بشىء قوّم وجهه مقبلا عليه فهو تمثيل للإقبال والاستقامة عليه والاهتمام به ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ خليقته نصب على الإغراء أى الزموا ما جبلتم عليه من القابلية للإيمان ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وهى دينه الإسلام لحديث أبى هريرة عنه عليه السلام : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه » رواه البخارى . وقيل هى العهد فى عالم الأرواح ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ لدينه أى لا تغيروا تلك الفطرة خبر بمعنى النهى أو لا يقدر أحد أن يغيره ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ المستقيم توحيداً لله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لإخلالهم بالنظر

الصحيح ﴿ مُنِيبِينَ ﴾ راجعين ﴿ إِلَيْهِ ﴾ تعالى مرة أخرى فيما أمر به ونهى عنه حال من الضمير فى ناصب « فطرة » لا من فاعل « أقم » وكون خطاب النبي خطاباً لأمته هو باعتبار شمول الحكم لا فى تجويز جمع ضميره . انظر غاية الأمانى ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ خافوه ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ والأفعال الثلاثةمعطوفات على الناصب المقدر ﴿ مِنَ الَّذِينَ ﴾ بدل بإعادة الجار ﴿ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه أو كل ذهب إلى رأى ، وقرأ حمزة والكسائى فارقوا بألف أى تركوا دينهم ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ فرقاً كل فرقة تشايع إمامها الذى أضلها ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ مبتدأ وخبر أى مسرورون بدينهم حقاً كان أو باطلا ظناً بأنه الحق ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ ﴾ شدة ﴿ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ راجعين إليه من دعاء غيره بالتوبة ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ خلاصاً من تلك الشدة كشفاء المرض ونيل المطر ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أى فاجأهم الإشراك بربهم الذى عافاهم ورحمهم وفى إيثار لفظ الرب زيادة توبيخ لهم والآية فى الكفار ولبعض المؤمنين فى ذلك حظ ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ اللام للعاقبة أو تعليل لما دل عليه اللام أى أفاض عليهم ليكفروا أو لام الأمر للتهديد كقوله اعملوا ما شئتم بدليل قوله ﴿ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وبال تمتعكم والتفت عن الغيبة البالغة ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ حجة وكتاباً إضراب إلى ماهو أبعد ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ تكلم دلالة ﴿ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ أى بإشراكهم وصحته أو بالأمر الذى يشركون به وألوهيته والتكلم مجاز عن الدلالة أو يقدر مضاف أى ذا سلطان أى ملكا معه برهان ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً ﴾ نعمة كصحة وسعة يريد بالناس بعضهم لقوله فى سورة هود «إلا الذين صبروا» ﴿ فَرِحُوا بِهَا ﴾ فرح بطر ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ شدة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بشؤم معاصيهم ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ ييأسون من الرحمة بخلاف المؤمنين الشاكرين فى السراء والضراء ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعلموا ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ يوسعه له امتحاناً ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ يضيقه لمن يشاء ابتلاء تتميم للإنكار على من بطر بالنعمة ويئس عند زوالها وقد علم أن القابض والباسط هو الله فهلا رجع إليه بالشكر والتوبة فى السراء والضراء ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بأن الكل من الله فيستدلون بذلك على قدرته وحكمته ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ ﴾ القرابة المحارم وغيرهم ﴿ حَقَّهُ ﴾ من سائر أنواع البر والصلة وحسن المعاشرة ولين القول . قال ابن عطية : ومعظم ماقصد أمر المعونة بالمال ﴿ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ المسافر ما وظف لهما من الزكاة والصدقة ، والخطاب للنبي وأمته تبع له فى ذلك يعنى إذا علمت أن البسط وضده من الله فإن الإحسان على هؤلاء يكون مجلبة لإحسان الله إليك ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ ﴾ بمعروفهم ﴿ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أى ثوابه خالصاً لا لجهة أخرى أو النظر إلى وجهه أى ذاته يوم القيامة ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون حيث حصلوا بما بسط لهم النعيم الدائم ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ ﴾ بالمد للجمهور من الإيتاء وبالقصر لابن كثير من الإتيان ﴿ مِنْ رِبًا ﴾ بأن يعطى شيئاً هبة أو هدية

أو زيادة محرمة فى المعاملة ﴿لِتُرْبُوا﴾ بضم التاء وإسكان الراء لنافع خطاب وبفتح الياء التحتية للباقين أى لتزيدوا فى أموالكم أو لتزدادوا أنتم على الاول أو ليزيد ﴿فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ المعطين هبة أو هدية للثواب أو ما أعطيتم آكلة الربا زيادة على حقهم ﴿فَلَا يَرْبُو﴾ لا يزكوا ذلك ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى لا ثواب فيه للمعطين ولا بركة فيما يعطى آكل الربا لكونه حراما وهبة الثواب وإن كانت جائزة فلا ثواب فيها عند الله بل إن نال الزيادة على ما أعطى فهى ، وإلا فإن كانت هبته قائمة لم تتغير أخذ ما شاء منها أو ما أعطى وإن فاتت فليس له إلا القيمة والهبة لا تنبغى أن تكون إلا لله أو لجلب المودة لحديث تهادوا تحابوا ﴿وَمَا آتَيْتُمْ﴾ بالمد للسبعة ﴿مِنْ زَكَاةٍ﴾ واجبة أو نافلة ﴿تُرِيدُونَ﴾ بها ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ خالصا ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ ثوابهم بما أرادوه وفيه التفات عن الخطاب للتعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص خلقه تعريفا لحالهم أو للتعميم كأنه قال فمن فعل ذلك فأولئك هم المضعفون ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ والخبر ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ هذه خواص الألوهية قد ثبتت له على الوفاق ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ من أشركتم بالله ﴿مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ نفى لها عن الشركاء مع تأكيد الإنكار بالبرهان والعيان ومن الاولى للتبعيض يفيد أن لا فاعل لذلك منهم قط والثانية أيضا كذلك تفيد أن بعضا من تلك الأفعال لا يتأتى من أحد من شركائهم فضلا عن الكل والثالثة مزيدة لتوكيد شمول النفى أى ما ينطلق عليه اسم الشىء ولما بين استحالة الشريك قدس ذاته بقوله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به أو عن إشراكهم ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بارتفاع البركات بقلة المنافع فى جميع أصناف الأموال ووقوع الرزايا وحدوث الفتن وتقلب العدو وانقطاع الصيد وكثرة الموتان والغرق والحرق ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ بشؤم معاصيهم أو بكسبهم إياه ، وقيل المراد بالبر القفار بقحط المطر وقلة النبات ونحو ذلك وبالبحر البلاد التى على الأنهار بقلة مائها وصيدها ونحو ذلك ﴿لِيُذِيقَهُمْ﴾ بالياء للجمهور وبالنون لقنبل ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ من الظلم والمعاصى أى عقوبته فى الدنيا وتمامه فى الآخرة ، واللام للعلة أو العاقبة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يتوبون عما هم عليه ويرجعون إلى العدل والطاعة . وعن الإمام أحمد بن حنبل : وجد فى زمن أبى زياد صرة فيها البر كل حبة مثل نوى التمر مكتوب على الصرة : هذا نبت فى زمن العدل ﴿قُلْ﴾ للكفار إذا قصر إدراككم عن المعقولات ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا﴾ بالابصار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ آثار الامم المكذبة وما حل بهم فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا لتشاهدوا مصداق ذلك ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ مثلكم فأهلكوا بإشراكهم والجملة استئناف لبيان علة سوء العاقبة وهو إشراك أكثرهم وعصيان غيرهم ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ البليغ الاستقامة ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ متعلق بيأتى وهو يوم القيامة لا يقدر على رده أحد ولا رجوع فيه لعمل ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ والاصل يتصدعون فأدغم التاء فى الصاد أى يتفرقون بعد الحساب إلى الجنة والنار ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ وبال كفره وهو النار ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ يوطئون منازلهم فى الجنة ويفرشونها كمن أراد

الرقاد فى مكان يسويه حتى لا يبقى فيه شىء يؤذى الراقد كناية عن كمال شفقتهم على أنفسهم وتقديم الظرف فى الموضعين للاختصاص ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى يثيبهم تفضلا لا أداء للواجب تعليل ليصدعون أو يمهدون دل بمنطوقه على اختصاصهم بالجزاء وبمفهومه على أنهم أهل المحبة واقتصر على جزائهم إشعارا بأنه المقصود بالذات واكتفى على جزاء الكافرين بفحوى قوله ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فدل صريحاً على أن عدم المحبة اقتضى حرمانهم وبمفهومه على محبة المؤمنين واقتضاء ذلك توفير جزائهم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ وقت المطر وهى الجنوب والشمال والصبا فهى رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب لحديث «اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا» وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بالإفراد على إرادة الجنس ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ بالمطر ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ﴾ بها ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ المطر والخصب والروح بهبوبها عطف على مبشرات كأنه قال ليبشركم وليذيقكم من رحمته ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ السفن بها ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بإردائه لا بمجرد الرياح أو من أموره الخاصة به التى لا يقدر عليها غيره ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ الرزق فى التجارة فى البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم فتوحدونه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج الواضحات على صدقهم ورسالتهم إليهم فكذبوهم ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بإهلاكهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على الكفار إشعار بأن الانتقام لهم إظهارا لكرامتهم وعنه صلى الله عليه وسلم «ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم» ثم تلا هذه الآية. قلت ومعنى «حقا» الوجوب النسبى أى بالنسبة أن العلم الإلهى تعلق بذلك أزلا فلا بد من وجوده من تلك الحيثية وقد أجمع أهل الله كلهم على أن الله له الرجوع عما أوجبه على نفسه فإن وفى به فهو فضل منه وإلا فلا اعتراض عليه، فافهم ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ بالجمع للجمهور وبالإفراد لابن كثير وحمزة والكسائى ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ تزعجه ﴿فَيَبْسُطُهُ﴾ متصلا تارة ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ فى سمتها ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من قلة وكثرة ورقة وكثافة سائرا أو واقفا مطبقا أو من جانب ﴿وَيَجْعَلُهُ﴾ تارة ﴿كِسَفًا﴾ بفتح السين للجمهور وبسكونها لابن عامر قطعا متفرقة ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ وسطه فى تلك الحالات ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ بالودق ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى بلادهم وأرضهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بمجىء المطر والخصب ﴿وَإِنْ﴾ قد ﴿كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ تأكيد ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ آيسين من إنزاله كرر لفظ «قبل» دلالة على أن إبلاسهم كان فى غاية الاستحكام فيكون الاستبشار الواقع بعده فى أقصى الدرجات ﴿فَانْظُرْ إِلَى أَثَرِ﴾ بالإفراد لنافع وابن كثير وأبى عمرو وشعبة وبالجمع للباقين ﴿رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ من النبات والأشجار وأنواع الثمار ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بيبسها بأن تنبت ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ المحيى للأرض ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ تحقيق للمعاد ببرهان المبدإ من إرسال الرياح وإنشاء السحاب والنبات ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إذ نسبة قدرته لجميع الممكنات على سواء وإحياء الموتى داخل فى هذه الكلية ﴿وَلَئِنْ﴾ لام قسم ﴿أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾

مضرة على نبات ﴿فَرَأَوْهُ﴾ أى الأثر الذى هو النبات أو السحاب لأنه إذا كان مصفرا لم يمطر ﴿مُصْفَرًّا لَظَلُّوا﴾ صاروا جواب القسم سد مسد الجزاء ولذلك يفسر بالاستقبال ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى بعد اصفراره ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يجحدون النعمة بالمطر لدم تفكرهم وحقهم التوكل على الله والالتجاء إليه بالاستغفار إذا احتبس المطر عنهم لا اليأس وعدم إفراط الاستبشار إذا أصابهم برحمته بل أن يكثروا الشكر حينئذ ويصبروا إذا اصفر زرعهم والكل ذم على ترك الاستدلال بالآيات وشكر الآلاء والصبر على البلاء ولذا شبههم بالموتى بقوله ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ بسد مشاعرهم عن الحق ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ قيد الحكم به ليكون أشد استحالة فإن الأصم المقبل وإن لم يسمع الكلام تفطن منه بواسطة الحركات شيئاً وقرأ ابن كثير يسمع بالياء المفتوحة ورفع الصم ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ وقرأ حمزة وحده وما أنت تهدى العمى عن ضلالتهم ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ القرآن فإن إيمانهم يدعوهم إلى تلقى اللفظ وتدبر المعنى أو المراد من أراد الله إيمانه ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون لأوامر الله . ولما لم ينجح فى الكفار آيات الآفاق تلا عليهم آيات الأنفس فى أطوارها من أول النشأة إلى الانتهاء فإنه أدل على الصانع القدير بقوله ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ ابتدأكم ضعفاء أو من أصل ضعيف وهو النطفة بضم الضاد فى الكلمات الثلاث للجمهور وبفتحها لعاصم وحمزة لغتان ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ للجنين أو الطفل ﴿قُوَّةً﴾ بالروح أو بالشباب ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ للكبر ﴿وَشَيْبَةً﴾ للهرم والتنكير مع التكرير لأن المتأخر ليس عين المتقدم ﴿يَخْلُقُ﴾ الله ﴿مَا يَشَاءُ﴾ من الضعف والقوة والشباب والشيب ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ كامل العلم بتدبير خلقه وغير ذلك ﴿الْقَدِيرُ﴾ كامل القدرة على ما يشاء ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ القيامة علم لها بالغلبة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرون ﴿مَا لَبِثُوا﴾ فى الدنيا أو فى القبور ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ لاستعظامهم عذاب الله والساعة الأولى القيامة والثانية ما يتعارفه الناس من الزمان وبينهما من أنواع البديع الجناس التام المماثل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الصرف عن الصدق والتحقيق ﴿كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق فى الدنيا ويبنون أمرهم على الباطل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فيما كتب فى سابق علمه وقضائه عبر بالكتاب دلالة على عدم التبدل كالشيء المكتوب ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الذى أنكرتموه ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه كائن لعدم تصديقكم الرسل والكتب أى فقد تبين بطلان إنكاركم ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ﴾ بالفوقية للجمهور والتحتية للكوفيين ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ اعتذارهم لفوات وقته ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يطلب منهم العتبى أى الرجوع إلى ما يرضى الله من قولهم استعتبنى فأعتبته استرضانى فأرضيته بمعنى طلب منى إزالة العتاب فأزلته ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ جعلنا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ وصفنا لهم فيه ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ كل نوع من أنواع الدلائل على التوحيد وكمال الصفات وصدق الرسل التى هى فى الغرابة والحسن كالأمثال تنبيهاً لهم على التوحيد والبعث وصدق

الرسول ﴿ وَلَئِنْ ﴾ لام قسم ﴿ جِئْتَهُمْ ﴾ يا محمد ﴿ بِآيَةٍ ﴾ من آيات القرآن دالة على شيء من تلك الأمثال أو آية مثل العصى واليد لموسى ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ منهم من فرط عنادهم ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ﴾ يعنون الرسول والمؤمنين ﴿ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ أصحاب أباطيل ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الطبع ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لا يطلبون العلم ويصرون على خرافات اعتقدوها فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب الحق ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بنصرك وإظهار دينك على الدين كله ﴿ حَقٌّ ﴾ لابد من إنجازه ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ لا يحملنك على الخفة والقلق بترك الصبر ﴿ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ بالبعث بتكذيبهم وإيذائهم وعده بالنصر فى أول السورة ووسطها وخاتمتها وأمره بالصبر إشارة إلى أن بين يدى ذلك شدائد يليق بمثله احتمالها ليوطن نفسه على تلقيها بصدر رحيب إذا وقعت . صلى الله عليه وسلم .

[تم تفسير سورة الروم]

سورة لقمان

مكية أو إلا « ولو أن ما فى الأرض » الآيتين أو الثلاث فمدنيات . وهى أربع وثلاثون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الم ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ تِلْكَ ﴾ هذه الآيات ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ القرآن ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ ذى الحكم أو المحكم آياته وسبق بيانه فى يونس ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ بالنصب للجمهور حال من الآيات والعامل فيها ما فى « تلك » من معنى الإشارة ، وبالرفع لحمزة خبر محذوف أو خبر بعد خبر ﴿ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ المخلصين فى الدين ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ بيان للمحسنين ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ وتكرير الضمير تأكيد وتقدم بيانه ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون لاستجماعهم العقد الحق والعمل الصالح ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ ما يلهى منه عما يعنى من غناء وخنا ونحو ذلك والإضافة بيانية وهو كل حديث منكر يصد عن ذكر الله كالأحاديث التى لا أصل لها والأساطير التى لا اعتبار فيها والمضاحيك وفضول الكلام أو الإضافة

تبعيضية إن أريد بالحديث الأعم من المنكر والمقصود تمييز اللهو القولى وتعجيب السامعين ممن يختار أباطيل الحديث على الآيات والحكم ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ بضم الياء للجمهور أى غيره وبفتحها لأبى عمرو وابن كثير ليثبت على ضلاله ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دين الإسلام كما كان يفعله النضر بن الحارث كان يأتى الحيرة يتجر فيشترى كتب أخبار الأعاجم ويحدث بها قريشاً ويقول إن كان محمد يحدثكم أحاديث عاد وثمود فأنا أحدثكم حديث فارس والروم ، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى بجهله عبر عنه بما ذكر دلالة على فقده أشرف الأشياء ﴿ وَيَتَّخِذَهَا ﴾ أى سبيل الله بالرفع للجمهور عطفاً على « يشترى » وبالنصب لحمزة والكسائى وحفص عطفاً على يضل ﴿ هُزُوًا ﴾ سخرية مهزوءاً بها ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ذو إهانة لإهانتهم الحق بإيثار الباطل عليه ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾ القرآن ﴿ وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ متكبراً لا يعبأ بها ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ مشابهاً : حاله حال من لم يسمعها حالٌ من المستكن فى « مستكبراً » لا فى « ولى » ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ ﴾ بسكون الذال لنافع وبضمها للباقين ﴿ وَقْرًا ﴾ ثقلا لا يقدر على السماع حال من المستكن فى « لم يسمعها » لا بدل من الحال الأولى لفوات المبالغة المقصودة وذلك أنه شبه المستكبر بمن لم يسمع ولما احتمل عدم السماع لعدم الالتفات سلب عنه القابلية بطغيان الآفة فى الآلة ﴿ فَبَشِّرْهُ ﴾ أعلمه ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مؤلم عبر عن الإعلام بالتبشير للتهكم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ كما أن لأضدادهم العذاب الأليم والأصل لهم نعيم جنات فعكس للمبالغة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال مقدرة أى مقدراً خلودهم فيها إذا دخلوها ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ أى وعدهم الله ذلك وحقه حقاً وهما مصدران مؤكدان الأول لنفسه لأن قوله « لهم جنات النعيم » وعد بلا احتمال والثانى لغيره إذ ليس كل وعد حقاً ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذى لا يغلبه شىء فيمنعه عن إنجاز وعده ووعيده ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذى لا يضع شيئاً إلا فى محله ومنه مجازاة الفريقين على وفق أعمالهم ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ احتجاج على من يشرك به ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ استئناف يؤكد إذ لا علم أجلى من المحسوس ويجوز أن يكون فى محل جر صفة « عمد » وهو صادق بأن لا عمد أصلا والأول أوجه لإبهام الثانى نفى المركب من حيث هو ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ جبالا شوامخ ثوابت كراهة ﴿ أَن تَمِيدَ ﴾ تميل ﴿ بِكُمْ ﴾ أو لئلا تتحرك بكم ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى التكلم لأن إنزال الماء أبدع وأغرب ﴿ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ حسن منظراً وجوهراً كثير المنافع وقوله « خلق السموات » إلى هنا دليل على عزته التى هى كمال القدرة وحكمته التى هى كمال العلم مهد به قاعدة التوحيد وقررها بقوله ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ مخلوقه ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ غيره أى آلهتكم حتى أشركتموها به تعالى و « ما » استفهام إنكار مبتدأ وذا بمعنى الذى بصلته خبره و « أرونى » معلق عن العمل فيه أو مابعده سد مسد المفعولين ﴿ بَلِ ﴾ إضراب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال بقوله

﴿ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ جلىّ لا يخفى على ناظر وآثر المظهر للدلالة على أن الإشراك بعد هذه الحجة كمال الظلم . ولما كان المشركون يرجعون إلى أهل الكتاب فى أمر رسول الله وقصة لقمان فى نهيه ولده عن الإشراك مشهورة عندهم حججهم بها بقوله ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ ﴾ بن باعورا من أولاد ازراء ابن أخت أيوب أو خالته عاش حتى أدرك داود وأخذ عنه العلم وكان يفتى قبل مبعث داود ﴿ الْحِكْمَةَ ﴾ منها العلم والديانة والإصابة فى القول وحِكمه كثيرة مأثورة وكان نوبياً أو حبشياً آتاه الله الحكمة ولم يكن نبياً عند الجمهور وترك الفتيا بعد بعث داود وقال ألا أكتفى إذا كفيت ، وقيل له : أى الناس شر ؟ قال: الذى لا يبالى إن رآه الناس مسيئاً . وقال فى القلب واللسان : هما أطيب مضغة فى الحيوان إن طابا وأخبثها إذا خبثا . وقال لابنه : قد استدبرت الدنيا مذ كنت واستقبلت الآخرة سائر بأنفاسك وإنّ داراً تسير إليها أقرب إليك من دار خرجت منها ، وفسر الله إيتاءه الحكمة بقوله «أن اشكر لله» على ماأعطاك بالاعتقاد بالجنان والعمل بالأركان والقول باللسان ، فنى إيتاء الحكمة معنى القول أى قلنا له ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأن نفعه لا يتخطاه وهو دوام النعمة واستحقاق المزيد ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ النعمة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ عن خلقه لا ينقص بذلك من ملكه شئ ﴿ حَمِيدٌ ﴾ حقيق بالحمد وإن لم يحمد أو محمود بلسان الحال حيث أفاض الوجود من الماهيات وأنار بضيائه الكائنات ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ﴾ واسمه أشكم أو أنعم أو ماثان أو باران ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيِّ ﴾ بكسر الياء مع حذف ياء المتكلم اكتفاء به فى الثلاث لنافع وأبى عمرو وابن عامر وحمزة والكسائى وأبى بكر وبفتحها فى الكل لحفص وإسكانها لابن كثير تصغير إشفاق ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ شيئاً فى ألوهيته ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يحاط بكنهه قبحاً فرجع إليه ابنه وأسلم ، وإنما كان ظلماً لأنه تسوية بين من لا نعمة له ومن لا نعمة إلا منه ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ أمرناه أن يبرهما والجملة اعتراض فى قصة لقمان للدلالة على أن شكر الوالدين مقرون بشكر الله ومع ذلك لايجوز ارتكاب الشرك لإرضائهما فكيف بالغير ، وقيل عطف على محذوف أى وقلنا له أن اشكر ووصينا الإنسان بوالديه ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ ﴾ فوهنت ﴿ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ﴾ أى ضعفت للحمل والطلق والولادة ، وقيل « وهناً » حال من « أمه » أى ذات وهن أى لم يزل يتضاعف وهنها منذ حملته إلى الوضع أو حال من الضمير المنصوب فى « حملته » أى ذا وهن نطفة ثم علقة إلى آخره ﴿ وَفِصَالُهُ ﴾ فطامه ﴿ فِي عَامَيْنِ ﴾ وكانت ترضعه فى تلك المدة وهى أقصر مدة الرضاع ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ تفسير للوصية أو بدل اشتمال من والديه أو علة لوصّينا ، وذكر الحمل والفصال اعتراض مؤكد للتوصية فى حقها خصوصاً ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم لمن قال له من أبر ؟ « أمك ثم أمك ثم أمك » ثم قال بعد ذلك « ثم أباك » رواه الشيخان ﴿ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ أى المرجع وعد ووعيد ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ باستحقاقه الإشراك تقليداً لهما أو أراد بنفى العلم به نفيه

﴿ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ فى ذلك إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق فلا تجوز طاعتهما فى كبيرة أو ترك فريضة وتلزم فى المباحات وتستحسن فى المندوبات ﴿وَصَاحِبْهُمَا﴾ عاشرهما ﴿فِى الدُّنْيَا﴾ صحاباً ﴿ مَعْرُوفاً ﴾ يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم والمروءة فى البر والصلة ﴿ وَاتَّبِعْ ﴾ فى الدين ﴿ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ بالتوحيد والإخلاص فى الطاعة ﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾أنت وهما للجزاء ﴿ فَأُنَبِّئُكُمْ ﴾ أجازيكم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ على وفق أعمالكم ﴿ يَا بُنَىَّ إِنَّهَا ﴾ أى القصة ﴿ إِنْ تَكُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ ﴾ برفع مثقال لنافع فاعل كان تامة وتأنيثها لإضافة المثقال إلى الحبة أولأن المراد به الحسنة أو السيئة وضمير «إنها» للقصة ، وبنصبه للباقين خبرها ناقصة واسمها ضمير يعود إلى ما عاد إليه ضمير إنها وهى الفعلة الحسنة أو السيئة ﴿ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ أى إن تك فى الصغر مثلا كحبة خردل ﴿ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ ﴾ فى أخفى مكان وأحرزه كجوف صخرة ﴿ أَوْ فِى السَّمٰوَاتِ ﴾ فى أعلى مكان كمحدب السموات ﴿ أَوْ فِى الْأَرْضِ ﴾ أو فى أسفل مكان كمقعد فى الأرض ﴿ يَأْتِ بِهَا اللّٰهُ ﴾ يحضرها فيحاسب عليها، وقيل المراد بالصخرة صخرة تحت الأرضين السبع عليها الماء وهى على الريح ﴿إِنَّ اللّٰهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه إلى كل خفى ﴿ خَبِيرٌ ﴾ عالم بكنهه ﴿ يَا بُنَىَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ تكميلا لنفسك فإنها عماد الدين دل هذا على أنها عبادة قديمة فى سائر الأمم ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ تكميلا لغيرك . روى الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليبعثن الله عليكم عذاباً من عنده» ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ بسبب الأمر والنهى من أذى الأشرار ﴿إِنَّ ذٰلِكَ﴾ المذكور ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أى من معزوماتها التى يعزم عليها لوجوبها أى مما عزمه الله أى قطعه قطع إيجاب مصدر بمعنى المفعول أو بمعنى الفاعل من عزم الأمر جد ﴿وَلَا تُصَاعِرْ﴾ بالمد لنافع وأبى عمرو وحمزة والكسائى وبالقصر للباقين ﴿ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ لا تمل وجهك عنهم تكبرا من الصعر وهو الصيد داء يعترى البعير فيلوى عنقه منه ﴿وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ وهو شدة الفرح غرورا أو الخيلاء حال أو مصدر أى تمرح مرحا أو للمرح وفى الحديث كان رجل يمشى وعليه برد فنظر فى عطفيه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿إِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ متبختر فى مشيه ﴿فَخُورٍ﴾ على الناس علة للنهى وتأخير الفخور وهو مقابل للمصعر خده والمختال للماشى مرحا لتوافق الفواصل ﴿وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ توسط فيه بين دبيب المتماوت وإسراع البهيمة وعليك السكينة والوقار إلا لضرورة تعرض فيهما وقول عائشة فى عمر رضى الله عنهما كان إذا مشى أسرع فالمراد مافوق دبيب المتماوت قاله البيضاوى قلت وذلك هو المراد فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم : كان إذا مشى كأنه ينزل من صبب ، والله أعلم ﴿وَاغْضُضْ﴾ اخفض ﴿مِنْ صَوْتِكَ﴾ خذ منه بقدر ما تحتاج إليه لا تتكلف رفعه فوق الحاجة لأنه يؤذيك ولذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لمؤذن لقد خشيت أن تنشق مريطؤك قلت هو تصغير مرطأ مابين السرة إلى العانة والمؤذن هو أبو محذورة سمرة بن معين والله أعلم وأشد ما يذمّ رفع الصوت فى الخصومة وكل باطل ويحمد رفعه فى الأذان

والتلبية والخطبة بلاغلو ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ﴾ أقبحها ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أوله زفير وآخره شهيق بالغ فى التحذير عن الإفراط فى رفع الصوت بإخراج الكلام مخرج الاستعارة للخفض بالغض، وإيثار لفظ الجمع لأن الصوت المنكر إذا توافقت عليه الحمر كان أنكر، هذا مع أن الحمار مثل فى الذم حتى أن أهل الأدب يكنون عنه بطويل الأذنين تحاشيا عن لفظه ولأن سائر الحيوان تصوت غالبا عند إصابة مكروه والحمار لا يصوت إلا بطرا ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ تعلموا يا مخاطبين ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم والسحاب أسبابا لمنافعكم ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ من الأشجار والأنهار والزروع والثمار لتنتفعوا بالكل بواسطة وغيرها ﴿وَأَسْبَغَ﴾ أوسع وأتم ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ بالجمع والإضافة لنافع وأبى عمرو وحفص وبالإفراد للباقين ﴿ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ محسوسة ومعقولة ما تعرفونه وما لا تعرفونه كحسن الصورة وتسوية الأعضاء ومحاسنها وكالمعرفة وما فى أعماق الأجسام من الأشياء التى لاشعور للإنسان بها ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ فى توحيده وصفاته ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ عقلى ﴿وَلَا هُدًى﴾ هداية من رسول ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أنزل من الله إرشادا بل بالتقليد كما قال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وهو منع صريح من التقليد فى الأصول قال تعالى ﴿أَ﴾ يتبعونه ﴿وَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أى موجباته؟ لا، وهو عطف على دخول الاستفهام توبيخا كما قدرنا والضمير المنصوب لهم أو لآبائهم ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ﴾ أى ذاته بالكلية ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ أى فوض أمره إليه وحيث عدى أسلم باللام فلإفادة الإخلاص كما فى قوله بلى من أسلم وجهه لله أى جعل نفسه خالصة لله لاشركة فيها لأحد وبإلى كما هنا لإفادة التفويض كما يسلم الرجل متاعه إلى غيره ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فى عمله كأنه يرى ربه ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ بالحبل الأوثق الذى لايخاف انقطاعه تمثيل لحال المتوكل بحال من أراد الارتقاء إلى شاهق فاستمسك بأوثق حبل مأمون الانقطاع ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ مرجعها إذ الكل صائر إليه فيجازيه بما يليق بكرمه ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ لأنه لا يضرك فى الدنيا والآخرة إذ ما عليك إلا البلاغ وقد وفيت ويحزنك بضم الياء وكسر الزاى لنافع وبفتح الياء وضم الزاى للباقين ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فى الدارين ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ نجازيهم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما فيها فجاز عليه كغيره آثر فى الالتفات لفظ الجلالة لأن الألوهية مستلزمة للإحاطة بالسر الأخفى ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ فى الدنيا تمتيعا أو زمانا ﴿قَلِيلًا﴾ أيام حياتهم فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ فى الآخرة ﴿إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يثقل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ وهو عذاب النار لايجدون عنه محيصا شبه إلزامهم العذاب باضطرار المضطر إلى الشىء الذى لا ينفك منه واستعير له الغلظ الذى هو من صفات الأجرام إشارة إلى شدته كأنه تجسد من عظمه ﴿وَلَئِن﴾ لام قسم ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لوضوحه لايقدر أحد على نسبة خلقهما إلى غيره ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظهور الحجة عليهم بالتوحيد واعترافهم بما

يوجب بطلان معتقدهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن ذلك يلزمهم إضراب إلى جهل أقوى من الأول إذ المعنى أن جهلهم انتهى إلى أنهم لا يعرفون أن قولك الحمد لله إنما هو لإلجامهم ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من الجزئيات الخارجة والأجزاء الداخلة ملكا وخلقا فلا يستحق العبادة فيهما غيره ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ الغنى المطلق ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ المستحق للحمد حمد أولم يحمد فهو محمود بلسان الحال لأن الكل خلقه وملكه ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ أى لو ثبت كون الأشجار أقلاما وتوحيد شجرة لأن المراد تفصيل الآحاد ﴿ وَالْبَحْرُ ﴾ بالرفع للجمهور عطفا على محل أنّ ومعمولها أى وثبت البحر أى كونه مدادا أو الواو للحال وبالنصب لأبى عمرو عطفا على اسم أن أو بفعل يفسره ﴿ يَمُدُّهُ ﴾ والمعنى لو أن أشجار الأرض أقلام والبحر المحيط بسعته مداد يمده ﴿ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ اغنى عن ذكر المداد يمده لأنه من مد الدواة وأمدها وكتبت بتلك الأقلام بذلك المداد كلمات الله المعبر بها عن معلوماته ﴿ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ ولنفدت تلك الأقلام وذلك المداد وإنما آثر جمع القلة إشارة إلى أن ذلك لا يفى بالقليل من تلك الكلمات فكيف بالكثير كذا قيل لكن إنما يستقيم إذا لم يحمل الجمع المضاف معرفا إذ عند ذلك لا تفاوت بين الجموع نبه على ذلك فى غاية الأمانى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يعجزه شىء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يخرج شىء عن علمه وحكمته والآية جواب لليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله وما أوتيتم من العلم إلا قليلا وقد أنزل عليهم التوراة وفيها علم كل شىء قال ابن عطية والآية بحر نظر وفكرة نور الله قلوبنا بهداه ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ خلقاً وبعثاً إذ لا يشغله شأن عن شأن لاستغنائه عن الأسباب والآلات إذ يكفى لوجود الكل تعلق إرادته وقدرته المراد بكلمة كن فيكون ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ يسمع جميع المسموعات فى آن واحد ﴿ بَصِيرٌ ﴾ يبصر كل المبصرات كذلك فكما لا يشغل سمعه وبصره شىء عن شىء فكذلك الخلق والبعث ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تعلم يا مخاطب ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ ﴾ يدخل ﴿ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ فيزيد كل منهما بما نقص من الآخر ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ ﴾ منهما ﴿ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ آخر السنة فى الشمس وآخر الشهر فى القمر أو هو يوم القيامة لانقطاع جريهما حينئذ وإيقاع « إلى » هنا صلة الجرى لأن معناه الانتهاء ومعنى اللام الاختصاص وهو أبلغ فكثر فى القرآن ولم يقع إلى إلا فى هذا الموضع ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يعلم بواطن أعمالكم ﴿ ذَلِكَ ﴾ المذكور من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص البارى بها ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ الثابت الألوهية التى من لوازمها الكمال المطلق فى كل وصف يليق بكبريائه ﴿ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ ﴾ بالخطاب لنافع وابن كثير وابن عامر وشعبة وبالغيبة للباقين أى تعبدون ﴿ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ الزائل الألوهية أو المعدوم فى ذاته وتصرفه إلا بجعله ، وترك ضمير الفصل هنا المؤكد به فى سورة الحج إذ الكلام هناك فى نصر المظلوم والمشركون يزعمون أن آلهتهم تنصرهم فلاق المكان هناك بالتأكيد بخلاف ما هنا والله أعلم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ

﴿ هُوَ الْعَلِيُّ ﴾ شأنه ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ سلطانه وما عداه حقير صغير تحت قهره ثم أشار إلى استشهاد آخر على باهر قدرته وكمال حكمته وشمول إنعامه بقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ ﴾ السفن ﴿ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ بإحسانه فى تهيئة أسبابه والباء للصلة أو الحال ﴿ لِيُرِيَكُمْ ﴾ يا مخاطبين ﴿ مِنْ آيَاتِهِ ﴾ من عجائب البحر كما أراكم بدائع البر من دلائل قدرته وحكمته ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ عبراً ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ مؤمن كثير الصبر على المشاق بالتفكر فى الآفاق والأنفس وعلى البلاء وعن المعاصى ﴿ شَكُورٍ ﴾ على النعماء كناية يراد بها الموصوف وفى إيثار الوصفين إشارة إلى أنهما عمدتا الإيمان لأن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ ﴾ أى علا الكفار ﴿ مَوْجٌ ﴾ أى أمواج متراكة عند هيجان البحر ﴿ كَالظُّلَلِ ﴾ جمع ظلة وهى كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من شدة الخوف ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ مقيم على طريق القصد الذى هو التوحيد أو متوسط بين الكفر والإيمان ومنهم باق على كفره وفى الكلام شائبة إنكار ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا ﴾ ومنها الإنجاء من الموج ﴿ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ غدار ينقض العهد الفطرى أو البحرى ﴿ كَفُورٍ ﴾ لنعم الله . ولما شيد أركان البراهين على الساعة حذر كافة الناس بأن لا يتكل أحد على أحد ولو كان ذا قربى كالوالد والولد بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ ولا تتكلوا على أحد ﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي ﴾ يغنى ﴿ وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ فيه شيئاً ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ ﴾ فيه ﴿ شَيْئًا ﴾ وإذا لم يقدر أحدهما على نفع الآخر فغيرهما أولى ، وغيّر النظم فى جانب الولد بالجملة الاسمية ولفظ المولود دون الولد مع التأكيد بضمير الفصل لأن المولود لا يقال إلا لمن ولد منك بخلاف الولد فإنه يطلق على الحافد وإذا لم ينفع من ولد منه فالأحفاد من باب أولى ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بالبعث والثواب والعقاب ﴿ حَقٌّ ﴾ لابد من وقوعه فاستعدوا له ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ بالاشتغال بزخارفها عن الإسلام ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ ﴾ بحلمه وإمهاله ورجاء مغفرته ﴿ الْغَرُورُ ﴾ الشيطان بأن يرجيكم التوبة والمغفرة فيجسركم على المعاصى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ متى تقوم لا عند غيره ﴿ وَيُنَزِّلُ ﴾ بالتشديد لنافع وابن عامر وعاصم وبالتخفيف للباقين ﴿ الْغَيْثَ ﴾ فى أوانه المقدر له والمحل المعين له فى علمه مسوق لإعلام الاختصاص به لا القدرة على الإنزال لعطفه على المختص به مع قرينة المقام وكذا ما بعد ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ من ذكر أو أنثى تام أو ناقص منفرد أو متعدد ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ من خير أو شر وربما عزمت على شىء وتفعل خلافه ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ولا أى وقت تموت وفى إيثار الدراية من جانب العبد إشارة إلى أنه لا يعلم ذلك وإن بذل مجهوده فى الحيل إذ فى درى معنى تحيل . روى أن الحارث بن عمرو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال متى قيام الساعة وإنى قد ألقيت حباتى فى الأرض فتى السماء تمطر ، وحمل امرأتى ذكر أو أنثى ، وما أعمل غداً وأين أموت ؟ فنزلت

﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ ﴾ بكل شيء ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بباطنه كظاهره . روى البخارى عن ابن عمر حديث « مفاتح الغيب خمسة : إن الله عنده علم الساعة ... » إلى آخر السورة .

[تم تفسير سورة لقمان]

سورة السجدة

مكية ـ ثلاثون آية

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ الٓمٓ ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ القرآن مبتدأ ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ خبر أول ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ خبر ثان أو حال من الضمير فى « فيه » لأن المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر أو هو الخبر و « لا ريب فيه » حال من الكتاب أو اعتراض والضمير فى فيه لمضمون الجملة ويؤيده قوله ﴿ أَمْ ﴾ بل ﴿ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ محمد فإنه إنكار لكونه من رب العالمين ذكر على إنكار الزاعم لذلك والتعجب منه بوجود نافى الشك فيحسن الاعتراض ثم أضرب عن ذلك إلى إثبات كونه هو الحق بعد إماطة الشبهة بقوله ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ واعلم أن الله أولا أشار إلى إعجازه ثم رتب عليه أن تنزيله من رب العالمين وقرر ذلك بنفى الريب عنه ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك إنكاراً له وتعجباً منه ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه الحق المنزل من الله وفى إضافة الرب إلى النبي بعد إضافته إلى العالمين تخلص إلى إثبات نبوته وإشارة إلى أنه العبد الذى جمع ما فرق فى العالمين وفى أسلوب الترقى إشارة إلى أن الكمال فيه تمّ بما فى كل العالم ثم بيّن المقصود من تنزيل الكتاب فقال ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا ﴾ نافية ﴿ أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ لأنهم أهل الفترة لم يباشرهم نذير فلا ينافيه « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وزعمهم أنهم على ملة إبراهيم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ بإنذارك أى راجياً أنت هدايتهم ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أولها الأحد وآخرها الجمعة ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ

عَلَى الْعَرْشِ ﴾ استواء يليق به دليل على استحقاقه العبودية دون غيره ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى غيره ﴿ مِنْ وَلِيّ ﴾ ناصر ينصركم إذا جاوزتم رضى الله ﴿ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ يدفع عذابه عنكم بل هو الذى يتولى مصالحكم وينصركم فى مواطن نصركم ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ بمواعظ الله ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ كله أى بحكمه أو أمر الدنيا بأسباب سماوية أو ينفذ القضاء أو المأمور به من الطاعات ضمن « يدبر » معنى ينزل ﴿ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ فى مدة الدنيا وقيل ينزل الوحى مع جبريل من السماء إلى الأرض ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ ﴾ يرجع الأمر والتدبير بعد فناء الدنيا وانقطاع أمر الأمراء ﴿ إِلَيْهِ ﴾ تعالى أو ثم يصعد إليه جبريل ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ هو يوم القيامة وفى سأل خمسين ألف سنة واختلاف ذلك باختلاف شدائده للكفار فمنهم من يكون له مقدار ألف سنة ومنهم من يكون له مقدار خمسين ألف سنة ، وأما المؤمنون فمنهم من يكون له كمقدار يوم وكما بين الظهر والعصر وكمقدار صلاة مكتوبة وعلى القول فى « يدبر الأمر » أى يظهره من اللوح ينزل به الملك إلى الأرض ثم يعرج إليه تعالى أو إلى مكانه الذى أمره الله بالنزول منه فمعناه فى زمان يوم من أيام الدنيا مقداره لو ساره واحد من بنى آدم نزولا وعروجاً مسافة ألف سنة فيقطعه الملك فى مقدار يوم لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام وخمسون ألف سنة مسافة من الارض إلى سدرة المنتهى والله أعلم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الخالق المدبر ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ فيدبر الأمر على وفق الحكمة ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده يراعى مصالحهم تفضلا ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ بفتح اللام فعلا ماضياً صفة كل شىء لنافع والكوفيين وبسكونها بدل اشتمال أى ما يليق به واقتضته حكمته ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ ﴾ هو آدم ﴿ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ ذريته لأنها تنسل عنه أى تنفصل ﴿ مِنْ سُلَالَةٍ ﴾ فعالة بمعنى مفعول أى علقة مسلولة ﴿ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ ضعيف أو ممتهن وهو النطفة لأنها مستقذرة أو نجسة ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ أى خلق آدم : قوّمه بتصوير الأعضاء فى أحسن تقويم ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ لجعله حياً إضافة تشريف إشعاراً بأنه خلق عظيم عجيب له شأن ومناسبة إلى حضرة الربوبية ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ﴾ أى لذريته ﴿ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ أى آلات الإدراك لتستنبطوا الكليات من المحسوسات والتفت إلى الخطاب مكالمة بقوله ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ زيد « ما » لتأكيد القلة أى شكراً قليلا تشكرون ﴿ وَقَالُوا ﴾ أى منكرو البعث ﴿ أَئِذَا ﴾ بالاستفهام للجمهور وبالخبر لابن عامر ﴿ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ غبنا فيها بأن صرنا تراباً مختلطاً بترابها ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بالخبر لنافع والكسائى وبالاستفهام للباقين والاستفهام فى الموضعين للتعجب وما دل عليه إنا لفى خلق جديد وهو نبعث أو نجدد خلقنا هو العامل فى الظرف المقدم ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ بالبعث وبما بعده ﴿كَافِرُونَ﴾ وهو إضراب إلى ما هو أعمّ من إنكار البعث وهو جميع ما يكون بعد الموت من الحشر والحساب والمجازاة ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ يستوفى نفوسكم لا يترك منها شيئاً ﴿ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾

بقبض أرواحكم وهو عزرائيل لا كما تزعمون «وما يهلكنا إلا الدهر» ولا ينافى هذا قوله توفاهم الملائكة لأنهم أعوانه ملائكة الرحمة والعذاب وجعلت له الأرض مثل طست يتناول منها حيث يشاء يتصفح أهل كل بيت فى كل يوم مرتين فمن انقضى أجله ضرب رأسه بحربته وقال الآن يزار بك عسكر الأموات فينزع أعوانه الروح إلى الحلقوم فإذا بلغته قبضه ملك الموت وهو التوفى أى أخذ الشىء بتمامه كالاستيفاء لأن التفعل والاستفعال يلتقيان كثيراً ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أحياء للجازاة ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ يا محمد أو يامن يتأتى منه الرؤية ﴿إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرون ﴿ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ ﴾ من الخجل والخزى لرأيت أمراً فظيعاً والمراد وجود الرؤية فلا يقدر له مفعول ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقولون ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا ﴾ ما أنكرنا من البعث أو ما وعدتنا ﴿ وَسَمِعْنَا ﴾ منك تصديق الرسل فيما كذبناهم فيه أو كنا عمياً وصماً فأبصرنا وسمعنا فلا يقدر مفعول ﴿ فَارْجِعْنَا ﴾ إلى الدنيا ﴿ نَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ ترضاه ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ الآن إذ لا علم أجلى من المشاهدة ولو وإذ وإن اختصا بالماضى إلا أن المترقب فى كلامه تعالى كالثابت قطعاً ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ما تهتدى به إلى الإيمان بخلق قدرة الطاعة فيها وهو التوفيق ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ ثبت قضائى وسبق وعيدى وهو ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ هذا لازم لذلك القضاء أو القول هو ﴿ فَذُوقُوا ﴾ العذاب ﴿ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ بترككم الإيمان به صفة يومكم أو مفعول ذوقوا أى ما أنتم فيه من الخزى ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ تركناكم من الرحمة أو فى العذاب ترك المنسى وفى الاستئناف وبناء الفعل على إن واسمها إشارة إلى شدة الانتقام ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والمعاصى كرر الأمر للتأكيد ولما نيط به من التصريح بمفعوله وعلله بأفعالهم من الكفر والمعاصى كما علله بتركهم تدبر أمر العاقبة دلالة على أن كلا منهما يقتضى ذلك ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ وعظوا ﴿بِهَا خَرُّوا﴾ من خوف عذاب الله ﴿سُجَّدًا﴾ لله وفى إيثار التذكير إشارة إلى أن الآيات واضحة لا تحتاج إلى تأمل وفى لفظ الخرور إشارة إلى أنهم لم يتمالكوا حين ذكروا ﴿وَسَبَّحُوا﴾ نزهوه عما لا يليق به كالعجز عن البعث ملتبسين ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ على الإسلام والهدى والتوفيق أو قائلين سبحان الله وبحمده ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان والطاعة تصريح بما علم وتعريض بالمشركين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ ترتفع وتبعد ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ مواضع النوم من الفرش وغيرها مستمرين على ذلك لصلاتهم بالليل تهجداً أو بين المغرب والعشاء أو لصلاة الصبح فى الجماعة والأول أوجه ومنه قول ابن رواحة فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم كما فى البخارى :

يَبِيتُ يُجَافِى جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ • إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً ﴾ من سخطه ﴿ وَطَمَعاً ﴾ فى رحمته ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ فى وجوه الخير جمعاً بين أنواع ما يتقرب به ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ لا ملك مقرب ولا نبى مرسل ﴿ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ ﴾ ماض مبنى للمفعول للجمهور وحمزة «ما أخفى» بسكون الياء مضارع أخفى ﴿ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ عما تقر به أعينهم

وأبهم الفاعل فى الأولى وهو الله لعدم ذهاب الوهم إلى الغير وما موصولة والعلم بمعنى المعرفة ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أى جوزوا بذلك جزاء أو أخفى لهم ذلك الجزاء لأنهم أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم لم يطلع عليه نبياً مرسلا ولا ملكا مقرباً . وفى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » قال أبو هريرة اقرؤا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم قال المفسرون للحديث وعين وقعت فى سياق النفى فأفاد الاستغراق أى ما رأت العيون كلها والحديث كالتفصيل الآية لأنها نفت العلم وهو نفى طرق حصوله ونفس نكرة فى سياق النفى فيعم جميع الأنفس ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقاً ﴾ خارجاً عن الدين ﴿ لا يستوون ﴾ فى الدنيا والآخرة رداً لما كانوا يزعمون أن لو كان بعث فنحن أحسن حالا من هؤلاء الصعاليك وقيل نزلت فى على بن أبى طالب وعقبة بن أبى معيط أو وليد بن عقبة والصواب أنها عامة وفيها دليل على أن المسلم لا يقتل بذمى إذ شرط القصاص المساواة خلافاً لأبى حنيفة فى تخصيصه نفى المساواة فى الآخرة إذ لا دليل على التخصيص وجمع الضمير فى لا يستوون نظراً إلى المعنى ﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى ﴾ الحقيقى لأنها دار الإقامة والدنيا منزل المسافر وقيل جنة المأوى جنة مخصوصة عن يمين العرش تأوى إليها أرواح الشهداء ﴿ نزلا ﴾ هو ما يعد للضيف ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ بسبب أعمالهم ﴿ وأما الذين فسقوا ﴾ خرجوا عن الدين بالكفر والمعاصى ﴿ فمأواهم النار ﴾ بدل جنة المأوى ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ عبارة عن خلودهم فيها ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾ يقال لهم ذلك زيادة فى العذاب والإهانة والغيظ ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ﴾ عذاب الدنيا كالجدب سنين والأمراض والقتل والسبى ﴿ دون ﴾ قبل ﴿ العذاب الأكبر ﴾ عذاب الآخرة ﴿ لعلهم ﴾ أى من بقى منهم ﴿ يرجعون ﴾ إلى الإيمان بالتوبة ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ﴾ القرآن ﴿ ثم أعرض عنها ﴾ ولم يتفكر فيها وثم لاستبعاد الإعراض مع فرط وضوحها وإرشادها إلى أسباب السعادة أى لا أحد أظلم منه ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ طرا فكيف بأظلمهم ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ كما آتيناك ﴿ فلا تكن فى مرية من لقائه ﴾ من لقاء الكتاب وأن ما أوتيته نظير ما أوتى موسى أو من لقاء موسى الكتاب أو من لقائك موسى يوم القيامة أو ليلة الإسراء. وعنه صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أسرى بى موسى رجلا آدم طوالا » قال فى غاية الأمانى : والأول أوجه لقوله « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » وجعل الأخير صاحب الجواهر هو الظاهر والله أعلم ﴿ وجعلناه ﴾ موسى أو الكتاب المنزل عليه ﴿ هدى ﴾ هادياً ﴿ لبنى إسرائيل وجعلنا منهم أئمة ﴾ قادة ﴿ يهدون ﴾ الناس إلى ما فيه من الحكم والأحكام ﴿ بأمرنا ﴾ إياهم بذلك أو بتوفيقنا ﴿ لما صبروا ﴾ على دينهم وعلى البلاء من عدوهم بفتح اللام وتشديد الميم الجمهور

ويكسرها وتخفيف الميم لحمزة والكسائي أي لصبرهم على الطاعة وعن الدنيا ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ لإمعانهم فيها النظر فكانوا أحقاء بالإمامة لكمال قوتهم العملية والنظرية وتقديم الأول لكونه المقصود من العلم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين أي يميز بين الحق والمبطل من سائر الأمم أو من بني إسرائيل ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ لم يتبين لكفار مكة عطف على منوى مثل ينتفي مما كان من جنس المعطوف وفاعل «يهد» ضمير مادل عليه ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ إهلاكنا كثيراً ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ الأمم بكفرهم ﴿ يَمْشُونَ ﴾ حال من ضمير لهم ﴿ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ في أسفارهم إلى الشام وغيرها فيعتبروا ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ دلالات على قدرتنا ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر واتعاظ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ التي انقطع نباتها لعدم المطر من جرز الشيء قطعه لا الأرض التي لاتنبت لقوله ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ المراد كل أرض هذه صفتها وعن ابن عباس هي أرض اليمن لأنها مربع أنعام أهل مكة ولذا قال ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ من التبن والأوراق ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ من الحب والثمر ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ هذا فيعلمون أنا نقدر على إعادتهم ويعلمون تفضلنا عليهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ ﴾ النصر أو الحكومة بيننا وبينكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في الوعد به ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ بإنزال العذاب بهم ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ يمهلون لتوبة أو معذرة ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ بعد ما بلغت الغاية القصوى في الإنذار ﴿وَانْتَظِرْ﴾ النصر الموعود ﴿ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ ما تمنيهم أنفسهم من العافية والغلبة وحوادث الموت بك فيستريحون منك ولا ينالون ذلك بل لك العاقبة .

[تم تفسير سورة السجدة]

سورة الأحزاب

مدنية ـ ثلاث وسبعون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ دم على تقواه : ناداه بالنبي إذ لم يناده إلا ملقباً له بما يدل على رفعة محله من الرسول والنبي ونحو ذلك بخلاف سائر الأنبياء من قوله ياموسى ويا آدم إجلالا له وحيث ذكر اسمه ك «محمد رسول الله» «وما محمد إلا رسول» فللحكم عليه بالرسالة وأمره بالتقوى تعظيما وتفخيما لشأن التقوى والمراد الأمر بالدوام عليها للازدياد منها إذ المسافة غير متناهية ولتكون مانعة عما نهى عنه بقوله ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ فيما يخالف شريعتك أو يوهنها ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بالمصالح والمفاسد ، قيل نزلت فى كفار مكة قدموا المدينة زمن المهادنة فنزلوا على ابن أبيّ المنافق وأصحابه وأمروا رسول الله أن يدع ذكر آلهتهم بالقبيح ويدّعوا له ربه ويعطوه أموالا أو فى منافق اليهود كان يتجاوز عنهم قبيح ما يأتيه عنهم ﴿ حَكِيمًا ﴾ لا يحكم إلا بما فيه حكمة ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ لا تعدل عنه تأكيد للنهى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالفوقية للجمهور والتحتية لأبى عمرو والضمير للكافرين والمنافقين ﴿ خَبِيرًا ﴾ فيوحى إليك ما تصلح به أعمالكم أنت وأمتك ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ فى جميع أمورك ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ حافظاً لك موكولا إليه الأمور وأمته تبع له فى ذلك كله ﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ لأن القلب منبع القوى كلها فلا يتعدد ولا يجتمع فيه الكفر والإيمان والضلال والهدى والإصرار والإنابة : أو ردّ على من يقول من الكفار إن له قلبين يعقل بكل منهما أفضل من عقل محمد ، وذكر الجوف زيادة تصوير وتقوية للإنكار ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي ﴾ بهمزة مكسورة مسهلة فى الوصل لورش ويقف بياء ساكنة وبها بلا تسهيل لقالون وقنبل وبياء بعدها ساكنة لابن عامر والكوفيين وبياء ساكنة أو مختلسة الكسر لأبى عمرو والبزى فى جميع المواضع الأربعة : أزواجكم اللاء ، واللاء ولدنهم ، واللاء يئسن ، واللاء لم يحضن ﴿ تَظَّهَّرُونَ ﴾ بفتح التاء والظاء والهاء مشددين بلا ألف لنافع وابن كثير وأبى عمرو ، وبفتح الأول وتشديد الظاء وألف بعدها وتخفيف الهاء المفتوحة لابن عامر ، وبضم الأول وتخفيف الظاء وألف بعدها وكسر الهاء لعاصم ، وبفتح الأول وتخفيف الثاء وألف بعدها وفتح الهاء وتخفيفها لحمزة والكسائى فى كل موضع إلا أن حمزة والكسائى شددا الظاء فى المجادلة كقراءة ابن عامر والله أعلم ﴿ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ أى ما جمع الله الزوجية والأمومية فى امرأة كما

لم يجمع فى جوف رجل قلبين ، وكان الظهار فى الجاهلية طلاقاً كقول الرجل مثلا لزوجته : أنتِ علىّ كظهر أمى فنفى الله كونها أمّاً لكن حرمها عليه إلى أداء الكفارة وستأتى فى سورة المجادلة إن شاء الله ولتضمن الظهار معنى التجنب عدى بمن ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ﴾ جمع دعيّ وهو الذى يدعى لغير أبيه ابناً له ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ حقيقة كزيد بن حارثة الذى تبناه الرسول قبل النبوة لأنه سبي واشتراه حكيم بن حزام فوهبه لعمته خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فوهبته له لجاء بعد أيام أبوه وعمه فطلباه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : نخيره فإن اختاركم فهو لكم وإن اختارنى دعوه . فقالا رضينا فاختار رسول الله وقال : إنى رأيت منه شيئاً لم يره أحد من أبويه ، فأخذ رسول الله يده ونادى : يا معشر قريش إن زيد بن حارثة ابنٌ لى . فلما تزوج زينب امرأة زيد كما يأتى قال اليهود والمنافقون كيف يتزوج زوجة ابنه وهو ينهى عن ذلك فأكذبهم الله بأن أدعياءكم ليسوا أبناءكم فى حكم الشرع ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ لا مستند له ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ فى ذلك وما سواه باطل ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ سبيل الحق تأكيد على تأكيد وتمهيد لما بعده من قوله ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ أى انسبوهم إليهم وهذا إلى آخر السورة تفصيل لقول الحق وهداية السبيل ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ تعليل له والضمير لمصدر ادعوا ، وأقسط : أفعل تفضيل قصد به الزيادة مطلقاً ومعناه البالغ فى الصدق ، وفى الآية دليل على أنه لا ينسب إلى الأم . وعن ابن عمر : ما كنا ندعو زيداً إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن يعنى فقلنا له زيد بن حارثة ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ فتنسبوهم إليهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فقولوا يا أخى ﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾ أولياؤكم فيه فقولوا يامولاى ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ فيما فعلتموه من ذلك مخطئين قبل النهى أو بعده على النسيان أو سبق اللسان ﴿وَلَٰكِن﴾ الجناح فى ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ فيه أو ولكن ماتعمدت فيه الجناح فما فى محل جر عطفاً على ما أخطأتم أو مبتدأ خبره محذوف كما قدرنا وعلى الوجهين فالجملة تأكيد لامتثال ما ندبوا إليه . قال السهيلى : ولما نزلت الآية وامتثلها زيد بقوله أنا زيد بن حارثة شرفه الله بتسميته فى القرآن ذكراً خلداً وتبيين أنه عن أنعم الله عليه بالإيمان وهذه أيضاً فضيلة هى منتهى أمنية الإنسان ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ للمخطئ ﴿رَّحِيمًا﴾ بقبول توبة العامد . وفى الحديث « من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام » ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فيما دعاهم إليه ودعتهم أنفسهم إلى خلافه فيجب عليهم وقايته بالأرواح وإيثار رضاه على رضاهم وأن يحبوه أكثر من أنفسهم . وفى الصحيح ولا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » أو المعنى أرأف بهم من أنفسهم لما رواه الأئمة واللفظ للبخارى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما من مؤمن إلا وأنا أولى به فى الدنيا والآخرة اقرأوا إن شئتم : النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم . فأى مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتنى فأنا مولاه » فذكر عليه السلام ما عليه وترك ماله لوضوحه

من الآية . قال ابن العربى فى أحكامه : فهذا الحديث هو تفسير الولاية فى هذه الآية ﴿ وَأَزْوَاجُهُ ﴾ اللاتى دخل بهن وقيل عام ﴿ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أى رجال المؤمنين فى الاحترام والتعظيم وحرمة النكاح وهو تشبيه مؤكد وقيل تدخل النساء والصحيح الأول لأن امرأة قالت لعائشة رضى الله عنها : يا أماه . فقالت : لست لك بأم إنما أنا أم رجالكم . قاله ابن العربى فى الاحكام . ويقال للرسول أبوهم وقيل لا لقوله « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » والصواب الأول قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ﴾ ذوو القرابات ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ فى الإرث ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ اللوح أو القرآن فى آية المواريث أو هذه ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ أى من الإرث بالإيمان والهجرة الذى كان أول الإسلام فنسخ و « من » صلة لـ « أولى » أو بيان لأولى الأرحام أو ابتدائية أو تبعيضية أى الذين هم هؤلاء أو الكائنين منهم أو هم بعضهم ﴿ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ براً وإحساناً ووصية استثناء من أعم ما تقدر فيه الأولوية من النفع أو منقطع أى لكن ذلك جائز ، والمراد بالأولياء المؤمنون والمهاجرون من إقامة المظهر مقام المضمر على تقدير الابتداء أو التبعيض دون البيان لأن الاجانب مدلول عليهم سياقاً إذ ذاك ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ ﴾ الذى ذكر فى الآيتين ثابتاً ﴿ فِي الْكِتَابِ ﴾ اللوح أو القرآن ﴿ مَسْطُورًا وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين القيم والنصيحة لقومهم ﴿ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ هم أولو العزم خصهم بالذكر تنبيهاً على عظم شأنهم فإنهم مشاهير أرباب الشرائع وقدم نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين إشارة إلى أنه المقدم رتبة وإن تأخر بعثاً . وعن الزجاج : هو أولهم خلقاً وآخرهم بعثاً ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ شديداً بالوفاء بما حملوه هو ذلك الميثاق أو هو العهد المؤكد باليمين وأخذ هذا الميثاق عليهم فى عالم الذر ﴿ لِيَسْأَلَ ﴾ الله ﴿ الصَّادِقِينَ ﴾ الانبياء يوم القيامة ﴿ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ فى تبليغ الرسالة أو عن تصديق الأمم إياهم تبكيتاً لهم ، وضع الظاهر موضع المضمر مدحاً للرسل بالصدق أو هم المؤمنون الذين صدقوا فى عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم « ألست بربكم » ليشهد لهم الانبياء بوفاء العهد وأداء الأمانة التى حملوها أو تصديقهم الرسل فإن تصديق الصادق صدق ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ مؤلماً عطف على أخذنا من النبيين معنى لأن التقدير أكد الله العهد على الانبياء فى أداء الرسالة لإثابة المؤمنين وأعد للكافرين أو على ما دل عليه « ليسأل الصادقين » كأنه قال فأثاب هؤلاء وأعد لهؤلاء لأن سؤال الصادقين عن صدقهم إثابة لهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ من الكفار متحزبون أيام حفر الخندق وتقدم ترتيب المغازى وأن الخندق فى السنة الخامسة فى شوال وهى غزوة الأحزاب وهم قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وغطفان وقائدهم عيينة بن حصن وبنو النضير من اليهود وهم الذين حزبوا الأحزاب وسيدهم حيى بن أخطب ونقضت بنو قريظة عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم وظاهروهم فكانوا زهاء اثنى عشر ألفاً وسبب تحزبهم أن رسول الله

أجلى بنى النضير من المدينة إلى خيبر كما يأتى إن شاء الله فذهب أشرافهم إلى مكة وحزبوا قريشاً ومن أطاعهم وفعلوا مثل ذلك فى غطفان فلما سمع النبى صلى الله عليه وسلم اجتماعهم عليه شاور أصحابه فأشار سلمان الفارسى إلى عمل الخندق فحفره حول المدينة وخرج فى ثلاثة آلاف وعسكر بسلع وأسند ظهره إلى ذلك الجبل وحصر الذرارى والنساء فى آطام المدينة وعسكر الكفار ثلاثة عساكر : غطفان من جهة الشرق وقريش من جهة الغرب وبنو النضير مع قريظة والخندق بين النبى وبينهم إذا جاءوا للحرب ومضى قريب من شهر يترامون كل يوم بالنبل والحجارة حتى بعث الله عليهم صبا بارداً فى ليلة باردة كما أخبر بقوله ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً ﴾ سفت التراب فى وجوههم وأطفأت نيرانهم وقلعت خيامهم وماجت الخيل بعضها فى بعض ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿جُنُودًا﴾ ملائكة ألفاً يكبرون حول عساكرهم وقطعوا أطناب خيامهم وألقوا قدورهم ولا يراهم الناس كما قال ﴿ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ فنادى سيد كل قبيلة : النجاء النجاء . فانهزموا ورجعوا إلى بلادهم خائبين « وكفى الله المؤمنين القتال » ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء للجمهور من حفر الخندق وغيره وبالياء لأبى عمرو أى الكفار من التحزب والمحاربة ﴿ بَصِيرًا ﴾ لا يخفى عليه شىء ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ ﴾ بدل من إذ جاءتكم ﴿ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ من أعلى الوادى من قبل المشرق أى غطفان ومن تابعهم من أهل نجد بذنب نقمى من جانب أحد الشرق ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أى أسفل الوادى من جهة المغرب أى قريش ومن شايعهم بمجتمع الأسيال من دومة والغابة ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ مالت عن مستوى نظرها حيرة أو مالت عن كل شىء وشخصت نحو العدو ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ جمع حنجرة وهى منتهى الحلقوم ، وهذا مثل فى اضطراب القلوب من شدة الخوف ، وقيل إذا خاف الإنسان أو غضب انتفخت رئته وارتفعت إلى الحنجرة وارتفع القلب بارتفاعها ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ المختلفة بالنصر من جهة المؤمنين المخلصين واليأس من جهة المنافقين يظنون أن الكفار يستأصلون النبى ومن معه وبخواطر الشك من جهة ضعفاء المؤمنين حتى قال بعضهم يا نبى الله بلغت القلوب الحناجر فهل من شىء نقوله ؟ قال : قولوا اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا ، فقالوها فهزم الله الكفار ، ذكره فى الجواهر . « والظنونا » بالألف وصلا ووقفاً لنافع وابن عامر وأبى بكر اتباعاً للرسم وبلا ألف فى الحالين لأبى عمرو وحمزة وبالقصر وصلا والمد وقفاً للباقين ﴿ هُنَالِكَ ﴾ فى ذلك الزمان وذلك المكان ﴿ ٱبْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فظهر المخلص من المنافق والثابت من المتزلزل ﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ من شدة الفزع . روى مسلم بإسناده إلى حذيفة بن اليمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يصلى تلك الليلة التى هزمت الأحزاب فيها ثم قال : من يأتينى بخبر القوم وتكون له الجنة حتى أعاد الكلام مراراً فلم يجبه أحد ثم قال يا حذيفة فلم أجد بدًّا من الجواب فقمت وبى من البرد والجوع ما لا يعلمه إلا الله فقال يا حذيفة ادخل فى القوم وانظر ما يفعلون ولا تحدث شيئاً قال فقمت ومشيت كأنما أمشى فى الحمام ولا أرى أثر الجوع فلما دخلت فيهم رأيت أبا سفيان

يصلي ظهره بالنار فوضعت سهما فى كبد القوس ثم ذكرت قول رسول الله « لا تحدث شيئا » فرجعت وأخبرته بخبرهم وأخذنى البرد الذى كان بى أولا فألبسنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل عباءة كان يصلى فيها فنمت حتى الصباح فقال لى رسول الله قم يانومان ﴿وَ﴾ آذكر ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ عداوة المؤمنين من عطف الصفات أى ضعف اعتقاد من المؤمنين ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ بالنصر على هذه الأحزاب وغيرها ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ باطلا لاحقيقة له لأنا ما حفرنا إلا للخوف ومحمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يقدر على مجاوزة رحله للغائط وقال بعض الضعفاء لو كان الله أراد نصرنا لما بلغ الأمر هذا المبلغ ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من المنافقين ابن أبيّ ومن وافقه ﴿يَٰأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ اسم المدينة فى الجاهلية وورد النهى عن تسميتها بذلك وسماها النبي صلى الله عليه وسلم طيبة وطابة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بفتح الميم للجمهور وضمها لعاصم لا موضع قيام أولا قيام ولا إقامة مكان أو مصدر ﴿فَارْجِعُوا﴾ من العسكر هاربين إلى منازلكم أولا مقام لكم على دين محمد فارجعوا إلى الشرك وأسلموه إلى العدو لتسلموا أولا مقام لكم بيثرب مؤمنين بمحمد فارجعوا كفارا ليمكن لكم المقام بها ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾ أوس بن قيظى وأتباعه ﴿النَّبِيَّ﴾ فى الرجوع إلى البيوت ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ خالية غير حصينة تخشى عليها العدو وأصل العورة كل عيب وخلل يستحي منه. وقرئ بكسر الواو أى قصيرة الجدار يسهل دخول السراق عليها فأكذبهم الله بقوله ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن﴾ ما ﴿يُرِيدُونَ﴾ شيئا ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ من القتال وخذلانا للمسلمين ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ للمدينة أو البيوت ﴿عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ نواحيها حذف الفاعل إيماء إلى أن دخول هؤلاء الأحزاب ودخول غيرهم سيان فى اقتضاء الحكم المرتب عليه ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ الردة ومقاتلة المسلمين ﴿لَأَتَوْهَا﴾ بالقصر لنافع وابن كثير أى لفعلوها وبالمد للباقين لأعطوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ بالفتنة أى بفعلها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ريثما يكون السؤال والجواب وقيل ما لبثوا بالمدينة بعد الارتداد إلا يسيرا ويقلع الله شأفتهم ﴿وَلَقَدْ كَانُوا﴾ يعنى المنافقين ﴿عَٰهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ حين نزل فى الفارين يوم أحد ما نزل ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَٰرَ﴾ ولا يعودون لمثل ما فعلوا ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ عن الوفاء به للمجازاة وعيد شديد وذم ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ إذ الموت لا بد منه إما حتف أنف أو قتلا فى وقت معين سبق به القضاء والقلم ﴿وَإِذًا﴾ إن فررتم أو إن نفعكم الفرار بالتأخير على ما ترون ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا﴾ تمتيعا أو زمانا ﴿قَلِيلًا﴾ بقية آجالكم وهذا لا ينبغى للعاقل الفرار لأجله ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم﴾ يجيركم ﴿مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ هلاكا ﴿أَوْ﴾ يصيبكم بسوء إن ﴿أَرَادَ﴾ الله ﴿بِكُمْ رَحْمَةً﴾ خيرا ويحتمل أن الثانى حمل على الأول لما فى العصمة من معنى المنع وعلى الوجهين فهو تقرير وتوكيد لعدم نفع الفرار ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ غيره ﴿وَلِيًّا﴾ ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع الضر عنهم فى حال من الأحوال ﴿قَدْ﴾ للتحقيق ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ﴾ المثبطين

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن القتال بالأقوال والأفعال ﴿مِنكُمْ﴾ وهم المنافقون والتفعيل لتكثير الفعل والمبالغة فيه من العوق وهو المنع ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ فى النسب ﴿هَلُمَّ﴾ تعالوا ﴿إِلَيْنَا﴾ قربوا أنفسكم منا وتمتعوا بظلال الأشجار وأكل الثمار ودعوا محمداً وأصحابه فإنا نخاف عليكم الهلاك . روى أن ابن أبيّ رأس المنافقين لما اشتد الأمر أقبل هو وأصحابه إلى المؤمنين من الأنصار يخوّفونهم بأبى سفيان وجنوده ويقولون لئن قدروا عليكم لن يستبقوا منكم أحدا وماترجون من محمد ؟ ماهو إلا أن يقتلنا ههنا هلم إلينا ننطلق إلى إخواننا اليهود ولم يزد ذلك المؤمنين إلا إيمانا فأبوا ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ القتال ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء وسمعة أى إلا إتياناً أو زماناً أو بأساً قليلا وقيل إنه من تتمة كلامهم ومعناه ولا يأتى أصحاب محمد حرب الأحزاب إلا قليلا لايقاومونهم ﴿أَشِحَّةً﴾ بخلاء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالمعاونة والإنفاق فى سبيل الله والغنيمة إن حيزت والشح البخل إذا قارنه الحرص ونصبه على الحال من فاعل يأتون أو المعوقين أو على الذم ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ فى أحداقهم لا تستقر فى مكانها من شدة الخوف ﴿كَالَّذِي﴾ كنظر أو كدوران عين الذى ﴿يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أى سكراته خوفا ولواذاً بك ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وحيزت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم﴾ ضربوكم وآذوكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ ذربة والسلق البسط بقهر باليد أو اللسان قاله البيضاوى أو رفع الصوت ومنه فى الحديث «لعن الله الحالقة والسالقة» قاله فى غاية الأمانى ، وفى البغوى عن ابن عباس تناولوكم بالنقص والغيبة ، وقال قتادة بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنائم يقال للخطيب الفصيح : سلاق اه . وفى الجواهر خاطبوكم مخاطبة بليغة يقال خطيب سلاق ومسلاق ولسان أيضا كذلك إذا كان فصيحا مقتدرا ﴿أَشِحَّةً﴾ حال من الضمير فى سلقوكم ﴿عَلَى الْخَيْرِ﴾ أى الغنيمة يطلبونها كأنها عين أموالهم يقولون لولا نحن لم تظفروا بشىء ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ قط إخلاصاً ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فأظهر بطلانها إذ لم تثبت لهم أعمال فتبطل أو أبطل ما أرادوا بالتعويق ونحوه ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ بإرادته وعدم المانع ﴿يَحْسَبُونَ﴾ أى المنافقون ﴿الْأَحْزَابَ﴾ من الكفار بعد انصرافهم ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ وذلك من غاية جبنهم يظنون أن انهزامهم كان مكيدة وخدعا وقد رأوا غباراً فانهزموا وفروا إلى داخل المدينة ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ كرة ثانية ﴿يَوَدُّوا﴾ يتمنوا ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾ اسم فاعل بدا أى خرج إلى البادية ﴿فِي الْأَعْرَابِ﴾ ساكنو البدو بين الأعراب لا يبالون بفراق المال والوطن ﴿يَسْأَلُونَ﴾ كل قادم من المدينة ﴿عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ أخباركم مع الكفار ما جرى بينكم ثم سلى سبحانه المؤمنين بقوله ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم﴾ فى جيشكم حاضرين فى هذه الكرة ﴿مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء وسمعة وخوفا من التعيير يقيمون به عذرهم ثم يفرون ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ﴾ بكسر الهمزة للجمهور وضمها لعاصم : خصلة ﴿حَسَنَةٌ﴾ من حقها أن يؤتسى بها كالثبات فى الحرب ومقاساة الشدائد أو هو نفسه قدوة إذ الأسوة ما يؤتسى به ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ يأمل ثوابه أو يخاف عقابه أو أيام

الله ﴿وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ خصوصاً ولمن كان صلة لحسنة أوصفة لها لا لأسوة لأن المصدر الموصوف لا يعمل أوبدل من لكم بدل بعض أى لمن كان يرجو الله منكم وامتناع الإبدال للظاهر من ضمير المتكلم أوالمخاطب إنما هو فى بدل الكل وأيضا هذا ليس من الضمير بل من الجار والمجرور معا ، آنظر غاية الأمانى ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ بخلاف من ليس كذلك ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ من الكفار ﴿قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ﴾ بقوله «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم» ﴿وَرَسُولُهُ﴾ من الآبتلاء والنصر حيث قال إن الأحزاب سائرون إليكم فى آخر تسع ليال أوعشر وقوله سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم فلما رأوهم وزلزلوا زلزالا شديداً أيقنوا بالنصر والعاقبة وقالوا ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فى الوعد أى ظهر صدقهما فيما وعدا وإيثار المظهر فى الآسمين للاستلذاذ والتعظيم ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك الذى رأوا ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله وبوعده ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأوامره ومقاديره ولما ذكر صدق وعده أردفه بذكر صدق العهد من عباده الذين تخلقوا بأخلاقه فقال ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ من الثبات مع الرسول بالمقاتلة لإعلاء الدين ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ نذره بأن قاتل حتى استشهد فى سبيل الله كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر أو مات على نية ذلك والنحب : النذر استعير للموت لأنه كنذر لازم فى رقبة كل حيوان ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ ذلك كأكثر الصحابة وقد آستشهد فى هذه الغزوة ستة ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ فى العهد وهم بخلاف حال المنافقين ، قال ابن عطية : فقضاء النحب ليس من شرطه الموت لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول فى طلحة « هذا من قضى نحبه » ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ﴾ بأن يميتهم على نفاقهم تعليل للمنطوق والمعرض به على طريق النشر ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بوفقهم للتوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لمن تاب ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى الأحزاب ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ ملتبسين به لم يفارقهم ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ مرادهم من الظفر بالمؤمنين أو لم ينالوا خيراً قط بوجه بيان لسبب الغيظ أو هما حالان متداخلان أو متعاقبان ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بالريح والملائكة كما تقدم زيادة آمتنان على المؤمنين حيث أنجاهم من تلك البلية العظمى من غير حول منهم ولا قتال ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا﴾ على ما أراد ﴿عَزِيزًا﴾ غالبا على أمره لا يغالب ثم أشار إلى قصة بنى قريظة بقوله ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ عاونوا الأحزاب ونقضوا العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم قريظة ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ حصونهم جمع صيصية هى ما يدفع به الشىء ويحصن به ولذا يطلق على قرون البقر والظبي وشوكة الديك ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الخوف ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ منهم وهم المقاتلة وكانوا ستمائة أو أكثر ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ منهم سبعمائة أوأكثر وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع عن مقاتلة الأحزاب مع أصحابه ووضع السلاح وشرع يغتسل أتاه جبريل معتجراً بعمامته فقال أوضعت السلاح

والملائكة لم تضع السلاح وهذا أوان رجوع من طلب القوم ! إن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة وأنا عامد إليهم ازلزلهم فأذن صلى الله عليه وسلم فى الناس ألا يصلوا العصر إلا فى بنى قريظة فقدم عليّ ابن ابى طالب برايته إليهم فحاصرهم بضعاً وعشرين أو أقل حتى جهدهم الحصار فطلبوا منه أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأرسل إليه النبيّ وهو بالمدينة يداوى من جرحه فحملوه فجيء به فحكم فيهم بقتل المقاتلة وسبي ذراريهم وقسم أموالهم بين المهاجرين فقط . فقال عليه السلام : حكمت بحكم الله ، فاستنزلوا فقتل منهم ستمائة أو أكثر كما قدمنا وأسر سبعمائة أو أكثر . وقال عليه السلام بعد إجلاء الأحزاب عنه : الآن نغزوهم ولا يغزونا ونحن نسير إليهم ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ﴾ مزارعهم ﴿ وَدِيَارَهُمْ ﴾ حصونهم ﴿ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ من الصامت والناطق فقسم عقارهم بين المهاجرين ﴿ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا ﴾ بعد كخيبر ومكة والشام والعراق ومصر وكل أرض تفتح إلى يوم القيامة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ فيقدر على ذلك . ولما كثرت الأموال بكثرة الفتوح سنة تسع اجتمع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عنده فطلبن منه السعة والتنعم فى الدنيا زيادة على النفقة فقلن نريد ما تريده النساء من الحلى والثياب المخلطة والسحولية والحلل اليمانية فغضب عليهن لطلب الدنيا وهجرهن شهراً فنزلت عليه آية التخيير وهى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ﴾ وهنّ إذ ذاك تسع : خمس من قريش عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة رملة بنت أبى سفيان وسودة بنت زمعة وأم سلمة هند بنت أبى أمية ، وأربع من غير قريش : زينب بنت جحش الأسدية وميمونة بنت الحارث الهلالية وصفية بنت حيي الإسرائيلية وجويرية بنت الحارث المصطلقية ﴿ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ السعة والتنعم فيها ﴿ وَزِينَتَهَا ﴾ زخارفها من الحلى والثياب وغير ذلك ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾ أعطيكن متعة الطلاق ﴿ وَأُسَرِّحْكُنَّ ﴾ أطلقكن ﴿ سَرَاحًا ﴾ طلاقاً ﴿ جَمِيلًا ﴾ من غير ضرار ولا بدعة وتقديم المتعة على التسريح المسبب عنه للاهتمام بما هو من محاسن الأخلاق ﴿ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ أى الجنة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ ﴾ بإرادة الآخرة ، و «من» للبيان لأنهن كلهنّ محسنات ، وإيثار المظهر موضع المضمر للدلالة على أن اختيارهنّ الله ورسوله إتيان بالحسن ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ لا يحاط به ولا نسبة بينه وبين زخارف الدنيا . ولما نزلت الآيتان بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة رضى الله عنها لفضلها فخيّرها فاختارت الله ورسوله ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكر لهن الله ذلك ، واعلم أن الله أمر نبيه بتخيير نسائه والأمر للوجوب عليه عند المالكية وهو المشهور عند غيرهم لكن لا ريب أن تبليغ ذلك واجب عليه ، ومعنى التخيير فى الآية تخييرهنّ فى المقام معه طلباً للآخرة أو مفارقته طلباً للدنيا لا التخيير الذى يوقعن فيه الثلاث كما ظنه قوم . قال أبو الحسن المالكى : وهو ظن سوء برسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخير فى إيقاع الثلاث . اه . قال اللخمى : فقوله أسرحكن يقتضى أنه لم يجعل الطلاق إلى زوجاته وإنما هو المطلق . اه . وقال القاضى إسماعيل فى كتابه الأحكام :

قد ظن قوم أنه عليه السلام خيّر نساءه فى الطلاق والكون معه وهذا ظن سوء برسول الله أن يخير فى الطلاق فيكون ثلاثاً وإنما خيّرهن بين الدنيا والآخرة فإن اخترن الدنيا ظهر من هذا طلاق السنة الذى عليه الله ألا ترى إلى قوله « أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا » . اه . وكذا قال ابن رشد وعياض وقال اللخمى وعياض : ما وقع فى المدونة أن بعض أزواجه اختارت الفراق ليس بصحيح . اه . وإنما أمره الله بتخييرهن لئلا يكون لأحد منهن منّة عليه فى الصبر على ما اختاره من خشونة العيش قاله القسطلانى فى شرح البخارى ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ كبيرة من كل معصية ﴿مُبَيِّنَةٍ﴾ بكسر الياء للجمهور وفتحها لابن كثير وأبى بكر ﴿يُضَاعَفْ﴾ بالياء والمد والتخفيف لنافع والكوفيين ﴿لَهَا الْعَذَابُ﴾ بالرفع وبالقصر والتشديد لأبى عمرو وبالنون والقصر وكسر العين والتشديد ونصب العذاب لابن كثير وابن عامر ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه إذ الذنب منهن أقبح كما أن ثوابهن يضعف فإن زيادة قبح الذنب تتبع زيادة فضل المذنب والنعمة عليه ولذا جعل حد الحر ضعفى حد العبد وعوتب الأنبياء بما لا يعاتب به غيرهم ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يمنعه عن التضعيف كونكن نساء النبى صلى الله عليه وسلم لأنكن إماء الله واحترامكن إنما هو لطاعة الله ورسوله فإذا خرجتن عن ذلك زال موجبه ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ﴾ يدم على الطاعة ﴿مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فيما أمر ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ من الأعمال بالفوقية للجمهور مراعاة لمعنى «من» بعد مراعاة لفظه فى « يقنت » وبالتحتانية لحمزة والكسائى مراعاة للفظ من ﴿نُؤْتِهَا﴾ بالنون للجمهور والياء لحمزة والكسائى والفاعل اسم الجلالة ﴿أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أى مثلى ثواب غيرهن من النساء مرة على فعل الطاعة ومرة لكونها فى شرف محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب رضاه ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ فى الجنة زائداً على ذلك الإيتاء تفضلا ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ﴾ كجماعة واحدة ﴿مِنَ﴾ جماعات ﴿النِّسَاءِ﴾ فى الفضل ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ مخالفة حكم الله ورضى رسوله . قال فى أنوار التنزيل : أصل أحد وحد بمعنى الواحد والكثير . اه . وقال فى غاية الأمانى : همزة أحد أصلية وهو اسم لمن يخاطب مفرداً كان أو أكثر مذكراً أو مؤنثاً والمعنى لستن كجماعة من النساء ليطابق المشبه به لأن الغرض تفضيلهن من حيث كونهن نساء النبى لا تفضيل كل واحدة . اه . وقال فى الجواهر: أى كأحد من نساء عصركن فما بعد وإنما خصصنا النساء لأن فيمن تقدم آسية ومريم فتأمله .اه. وفى القاموس فى فصل الهمزة : الأحد بمعنى الواحد ويوم من الأيام والجمع آحاد وأحدان أو ليس له جمع وقال فى فصل الواو : الواحد أول عدد الحساب وقد يثنى والجمع واحدون والمتقدم فى علم أو بأس والجمع وحدان وأحدان وبمعنى الأحد وَحُد ككرم وكرُم يحِد فيهما وحادة ووحودة ووحوداً ووحداً ووحدة وحِدَةً : بقى مفرداً كتوحد ووحده توحيداً جعله واحداً . اه . ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ لا ترخمن أصواتكن فى خطاب الأجانب كالمريبات ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ فجور وريبة ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ من

غير خضوع ولا لين يبعد عن الريبة ﴿ وَقَرْنَ ﴾ بفتح القاف لنافع وعاصم وكسرها للباقين من القرار فالأولى أمر من قَرِرَ في المكان يَقْرَرْ كفرح يفرح لغة من قرر يقرر كضرب يضرب ، والثانية أمر منه أو من وقر كوعد وقاراً أثبتن ﴿ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ ملازمات للطاعة فإنه أفضل وأستر . وفي الحديث : صلاة المرأة في خدرها خير من صلاتها في بيتها وصلاتها في بيتها خير من صلاتها في حجرتها . قال ابن العربي في الأحكام : هو إشارة إلى مايلزم المرأة من لزوم بيتها والانكفاف عن الخروج منه إلا لضرورة . اهـ يعني دينية كتعلم ما لزمها أو دنيوية كضرورات معاشها وصلة أرحامها لأنها مما ندب إليه الشرع ، وليس للزوج أن يمنع الزوجة من زيارة أبويها كدخولهما عليها اتفاقاً في المتجالة وعلى المشهور في الشابة المأمونة أعني في الخروج إلى زيارتهما لا في غير المأمونة ولا في الحج وسائر العبادات . قال مالك : أرى أن يقضى على الزوج إذا أبى شهودها جنازتهما وزيارتهما بالأمر الذي فيه الصلاح والصلة ، وسئل مالك عن المرأة يغيب عنها زوجها فيمرض أخوها أو أمها أو أختها فتريد أن تأتيهم تعودهم ولم يأذن لها زوجها حين خرج ، قال : لا بأس أن تأتيهم وإن لم يأذن لها حين خرج . وسمع ابن القاسم أنه ليس لمن سألته امرأته أن تسلم على أختها أو أبيها منعها من ذلك ما لم تكن الأمور التي يمنعها لها وجوه : ليس كل النساء سواء أما المتجالة فلا أرى له ذلك وأما غيرها فله ذلك فيها . ذكر هذا كله السنهوري في شرح المختصر . ثم قال ظاهر المذهب لو شرط أن يمنعها عن زيارة أهلها لم يلزم الشرط إذا لم يتعلق بيمين ويدخل في أهلها من النساء العمات والخالات وبناتهن وبنات الأخ وبنات الأخت ومن الرجال العم والخال وكذا من هي عند النساء من الأهل وإن لم تكن ذات محرم . قال مالك : من لا زوج لها منهن ومن لها زوج منهن لا تزورها إلا بإذن زوجها . قيل له : فما حد ما تزور فيه ؟ قال : كل شهر مرتان أما في كل يوم فذلك تبرج الجاهلية قبل ضرب الحجاب . قيل له : قال قوم في كل جمعة مرتان فأنكره . اهـ . ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ ﴾ بترك إحدى التاءين من أصله ﴿ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ أي ما قبل الإسلام من إظهار النساء محاسنهن للرجال والخروج في أي وقت شئن ، وإنما وصفت بالأولى إذ ليس لها صفة غيرها ، وقيل الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام لقوله عليه السلام لأبي ذر : إنك امرؤ فيك جاهلية . قال ابن عطية : والذي يظهر عندي أنه أشار إلى الجاهلية التي لحقتها فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفار وجعلها أولى بالإضافة إلى حالة الإسلام وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى . اهـ . ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في سائر ما أمركن به ونهاكن عنه ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ ﴾ الإثم المدنس لعرضكن تعليل لأمرهن ونهيهن على الاستئناف ولذا عمم الحكم ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ نصب على النداء أو المدح ، ولما استعار الرجس الذي هو النجس للإثم لأنه يدنس العرض رشحه بقوله ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ ﴾ عن المعاصي ﴿ تَطْهِيرًا ﴾ مبالغة في الترغيب والترهيب وهذا نص على أن نساءه

أهل بيته واتفق الكل على أنهن سبب النزول وقوله عليه السلام فى فاطمة ابنته وعلى والحسن والحسين وقد لف عليهم الكساء «اللهم هؤلاء أهل بيتى» لايقتضى الحصر والحق أن كل من حرمت عليه الصدقة من نسائه وآل على وآل جعفر وآل عقيل وآل عباس رضى الله عنهم كلهم داخلون فى أهل البيت على ما رواه زيد بن أرقم ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أى اشكرن هذه النعمة من الكتاب الجامع بين كونه معجزة دالة على النبوة وعلم الشرائع وأنتم يا أهل بيت الرسول فازون فى مهبطه بردد الوحىُ خلال منازلكم فمن أولى بالشكر منكم ومعنى ذكره التفكر فيه أو حفظه ولزوم تلاوته أو إفشاؤه للناس كما قال ابن العربى أمر الله أزواج رسوله أن يخبرن بما ينزل من القرآن فى بيوتهن وبما يرين من أفعاله وأقواله حتى يبلغ ذلك إلى الناس فيعملوا بما فيه ويقتدوا به . اه والحكمة على هذا هى السنة وبها فسرت فى المكل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ بأوليائه أو دقيق العلم ولذا جعل الكلام معجزا ﴿خَبِيرًا﴾ ببواطن الأمور ولذا جعله مع إعجازه مشتملا على الحكم والشرائع وخيركن ووعظكن وجعلكن ممن يصلح أن يكون أهل بيته ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لأمر الله فى القول والعمل المتوكلين عليه ومثله فى ﴿وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ﴾ المداومين على الطاعة والبعد عن المعصية ﴿وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ فى القول والعمل ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ على الطاعات ﴿وَالْخَاشِعِينَ﴾ المتواضعين لله ﴿وَالْخَاشِعَاتِ﴾ بالقلوب والجوارح ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ بما وجب فى الأموال وغيره ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ الصوم المفروض وغيره ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ عن الحرام ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ بالقلوب والألسنة وفى الصحيح سيروا فقد سبق المفردون فقالوا يارسول الله ما المفردون ؟ قال «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» رواه مسلم والترمذى قلت قال عياض والمفردون ضبطناه عن متقنى شيوخنا بفتح وكسر الراء ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ لما فرط منهم من الصغائر أو أعم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على الطاعات قيل لما نزلت الآيات قبل فى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم خاصة قالت نساء المسلمين : مانزل فينا شىء ! فنزلت هذه الآية المعممة وعطف الإناث على الذكور ضرورى لابد منه لاختلاف الجنسين وأما عطف الزوجين على الزوجين لتغاير الوصفين فليس بضرورى ولذلك ترك فى قوله مسلمات مؤمنات وفائدته الدلالة على أن الإعداد المعد لهم للجمع بين هذه الصفات ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ ماصح له شرعا ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ ذكر الله للتعظيم وللإشعار بأن قضاء الرسول قضاؤه لأن الآية نزلت فى زينب بنت جحش خطبها رسول الله لزيد بن حارثة فأبت هى وأخوها عبد الله ثم رضيا للآية أو فى أم كلثوم بنت عقبة وهبت نفسها للنبى عليه السلام فزوجها من زيد بعد فراق زينب فسخطت هى وأخوها سالم ثم رضيا للآية ﴿أَن تَكُونَ﴾ بالتأنيث لنافع وابن كثير وأبى عمرو وابن ذكوان وبالتذكير للباقين ﴿لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ الاختيار جمع الضمير نظراً إلى

المنفى لوقوع النكرة فى سياق النفى ﴿ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ خلاف أمر الله ورسوله قال ابن العربى وهذا نص على أنه لا يعتبر الكفاءة فى الأحساب وإنما يعتبر فى الأديان خلافا لمالك والشافعى وغيرهما . اه . قلت مجموع ما ذكره أصحابنا المالكية فى الكفاءة وفاقا وخلافا ستة أوصاف الدين والحرية والنسب واليسار والحرفة والخلو عن العيوب الأربعة واختلف فى الجميع إلا الإسلام ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ بينا لا يخفى على أحد ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ بالإسلام وصحبتك ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالإعتاق وهو زيد بن حارثة ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ زينب حين شاورك فى فراقها وقلت له هل رابك شىء منها ؟ فقال لا ولكن تفخر علىّ بشرفها ، فقلت له لا تفعل ﴿ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ فى أمر طلاقها فإن الطلاق من غير ضرورة أنكر المباحات إلى الله ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ وهو نكاحك زينب إن طلقها زيد لإخبار الله لك أنها ستصير زوجتك روى ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن الحسن ابن علىّ قال أعلم الله نبيه أن زيداً يطلق زينب وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها له فلما أتاه زيد يشكوها إليه وأعلمه أنه يريد طلاقها قال له النبى صلى الله عليه وسلم على طريق الأدب والوصية اتق الله وأمسك عليك زوجك وهو يعلم أنه سيفارقها وهذا هو الذى أخفى فى نفسه وخشى أن يقول الناس تزوج امرأة مولاه زيد فعاتبه الله على هذا القدر من خشية الناس فيما أباحه الله له بقوله ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ تعييرهم إياك به ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ فى كل شىء وزوجكها ولا عليك من قول الناس وهذا الذى ذكرنا من هذه القصة هو ما يعتمد عليه قال القاضى عياض وتأويل على بن الحسن أحسن التأويلات وأصحها ولذا قال القسطلانى بعد إيراده : وذكر ابن جرير وابن أبى حاتم هنا آثاراً لا ينبغى إيرادها وما ذكرته فيه مقنع . اه . وقال ابن العربى وأما قول من روى من المفسرين بأن النبى صلى الله عليه وسلم وقع بصره عليها بعد ما زوجها زيدا فوقع فى نفسه حبها فباطل حاشا ذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة فكيف يإنشاؤها وتنشأ معه ولم يقع حبه منها ثم يقع بعد ما كان لها زوج وقد كان قبل ذلك معها فى كل وقت ولم ينزل حينئذ حجاب إلى آخر ما قال ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا ﴾ حاجة الرجال من النساء فطلقها وانقضت عدتها ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ فدخل عليها النبى صلى الله عليه وسلم وأشبع المسلمين خبزاً ولحماً بعد أن فرض لها الصداق . وفى البخارى عن أنس أن زينب كانت تفخر على سائر أزواجه تقول زوجنى الله وزوجكن أهاليكن قال البغوى أعلم الله أنه يبدى ما خبأه الرسول ولم يظهر غير تزوجها منه فلو كان الذى أضمره الرسول محبتها أو إرادة طلاقها لأظهره إذ لا يخبر أنه يظهره ثم يكتمه فدل على أنه عاتبه على إخفاء ما أعلم من أنها ستكون زوجته فأبداه ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ علة للتزويج وهو دليل على أن حكم أمته حكمه إلا ما خصه الدليل ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ مقضيه ﴿ مَفْعُولًا ﴾ لا محالة ومنه ما أراده من تزويج زينب ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ ﴾ أى أحله ﴿ لَهُ ﴾ أو قسم له وقدر ومنه قولهم فرض له الإمام كذا فى الديوان وفروض العسكر لأرزاقهم ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ ﴾ سن ذلك

سنة أو كسنة الله نصب بنزع الخافض ﴿ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ من الأنبياء أن لاحرج عليهم فيما أباح لهم من النساء والسرارى ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ فعله أو إرادته إذا تعلقت بشيء ﴿ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ شيئا مقضيا أو حكما مبتوتا ﴿ الَّذِينَ ﴾ نعت للذين قبله أو بدل أومدح لهم منصوب أومرفوع ﴿ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ وحده وليس فيه تعريض بعد تصريح كما ظن بعض المفسرين لأنه لم يكن ما أضمره مما أمر بتبليغه ولذا قالت عائشة لوكتم رسول الله شيئا لكتم هذه الآية يعنى التى تقدمت كيف وقد قال عليه السلام أنا أخشى الناس وأتقاهم ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ حافظا لأعمال خلقه أو كافيا المخاوف أومحاسبا فينبغى أن لايخشى إلا منه ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ حقيقة فليس أبازيد فلا يحرم عليه التزوج بزوجته زينب وأما أولاده الذكور فلم يبلغوا مبلغ الرجال بل ماتوا صغارا وما قيل إنهم لو عاشوا لكانوا أنبياء لايساعده النقل والعقل ، نبه عليه فى غاية الأمانى ﴿ وَلَٰكِنْ ﴾ كان ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ وكل رسول أبو أمته من حيث أنه شفيق ناصح واجب التوقير والطاعة عليهم وزيدٌ منهم ليس بينه وبينه ولادة ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ بكسر التاء للجمهور آخرهم الذى ختمهم وبفتحها لعاصم كآلة الختم أى به ختموا وعيسى عليه السلام إن نزل بعده كان على دينه مع أن المراد أنه آخر من نبئ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ منه أن لانبى بعده ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ بالقلوب والألسن ﴿ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ بأنواعه من التسبيح والتحميد فى أغلب الأوقات ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أول النهار وآخره أى خصوصا فى هذين الوقتين الشريفين بهذا الذكر الذى هو التسبيح الذى هو أشرف الأذكار لكونه كالا يليق بكبريائه وقيل المراد بالتسبيح الصلوات الخمس فى أوقاتها ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ﴾ يرحمكم أو يعتنى بإصلاح أحوالكم ﴿ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ أى يستغفرون لكم ويهتمون بما يصلحكم والمراد بالصلاة المشترك وهو العناية بصلاح أمركم مستعار من الصلو أو المراد الترحم والانعطاف المعنوى مأخوذ من الصلاة المشتملة على الانعطاف الصورى الذى هو الركوع والسجود واستغفار الملائكة ودعاؤهم للمؤمنين ترحم عليهم وهو سبب للرحمة من حيث إنهم مجابو الدعوة ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ ﴾ ليديم إخراجه إياكم ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ من الكفر والمعصية إلى الإيمان والطاعة ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ حيث اعتنى بصلاح أمرهم واستعمل فى ذلك ملائكته المقربين ﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول أى يحيون ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ ﴾ بالموت أوبالخروج من القبور أو بدخول الجنة ﴿ سَلَامٌ ﴾ إخبار بالسلامة عن كل مكروه وآفة ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ هو الجنة وما فيها من النعيم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ﴾ على من أرسلت إليهم بتصديقهم وتكذيبهم حال مقدرة ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ من صدّقك بالجنة ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ منذرا من كذّبك بالنار ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى طاعته ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ بأمره وتيسيره قيّد به الدعوة إيذانا بأنه أمرصعب لا يتأتى إلا بمعونة من جناب قدسه ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ يستضاء به من ظلمات الجهالات وتقتبس من نوره

أنوار البصائر وكما يمد نور السراج الأبصار كذلك أمد الله بنور نبوته أنوار البصائر وإنما وصف السراج بالإنارة لأن من السرج ما لا يضيء كما إذا قل سليطه ودقت فتيلته وقيل السراج هو القرآن أى ذا سراج ويجوز أن يكون عطفا على كاف وأرسلناك أى أرسلناك والقرآن إما على سبيل التبعية وإما من باب متقلدا سيفا ورمحا أى وتاليا سراجا منيرا ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ عطف على محذوف أى فراقب أحوال أمتك وبشر المؤمنين منهم ﴿ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ على سائر الأمم أو على أجر أعمالهم ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ فيما يخالف شريعتك فاثبت على ما أنت عليه تهييج له على مخالفتهم ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ إيذاءهم إياك لا تحتفل به أو إيذاءك إياهم مجازاة لهم مصدر مضاف إلى الفاعل أو المفعول ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ فإن فيه كفاية ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ موكولا إليه الأمر فى الأحوال كلها وصف الله خير خلقه بصفات خمس ثم قابل كلا منها بما يناسبه قابل الشاهد بالمراقبة وحذف لأن ما بعده دال عليه مفصلا والمبشر بالأمر ببشارة المؤمنين والنذير بالنهى عن طاعة الكفار وعدم المبالاة بهم والداعى إلى الله بتيسيره بالأمر بالتوكل عليه والسراج المنير بالاكتفاء به لأن من جعله نورا أضاء الشرق والغرب جدير بأن يكتفى به ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ بفتح التاء وحذف الألف للجمهور وبضمها وإثبات الألف لحمزة والكسائى فى جميع القرآن أى تجامعوهن ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ تحصونها بالأقراء وغيرها وإسناد العدة إلى الرجال للدلالة على أن العدة حق الأزواج كما أشعر به فما لكم وأما إن ثبت المس أى الوطء أو سببه وهو الدخول والخلوة فلا بد من العدة وتخصيص المؤمنات والحكم عام للتنبيه على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخيرا للنطفة وفائدة ثم إزاحة ما عسى أن يتوهم من أن طول المدة يؤثر فى إيجاب العدة ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ أعطوهن ما يستمتعن به وتقدم فى البقرة أقوال الأئمة فيه ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ أى أخرجوهن من منازلكم إخراجا جميلا من غير ضرار ولا منع حق إذ ليس لكم عليهن عدة ولا يجوز تفسيره بالطلاق السنى لأنه مرتب على الطلاق والضمير لغير المدخول بهن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن الكائنات عندك من أى قبيلة كن والتقييد بإيتاء الأجر وإن صح النكاح بدونه إشارة إلى الواقع منه والأفضل اللائق به وبغيره كما فى قوله ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ من السرارى بغير تقييد بعدلك ولأمتك لكن بشرط أن تكون فى حقك ﴿ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ من الكفار بالسبى على وجه القهر إذ ما غنم بالسيف أحل وأطيب من المشتراة من الجلب شرط فى الأفضلية لا فى الحل ﴿ وَ ﴾ أحللنا لك زائداً على من آتيت أجورهن قراباتك ﴿ بَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ بخلاف من لم يهاجرن من القرابات كأم هانئ فلا تحل له وكذا غير القرابات من المهاجرات وقيل هو من قبيل الأول كما تقدم ويؤيد الأول ما روى عن ابن عباس قال :

كان النبي صلى الله عليه وسلم يتزوج فى أى الناس شاء فلما نزلت هذه الآية حرم عليه النساء إلا من سمى . اه .
وهذا الذى أحل له من القرابات توسط بين الإفراط والتفريط فإن اليهود ينكحون بنت الأخ وبنت الأخت والنصارى لا ينكحون من القرابات إلا ما تباعد إلى سبعة أجداد ، وإفراد العم والخال مع جمع العمة والخالة للتخفيف وأوثرا بذلك للشرف نظيره عن اليمين والشمائل على ما تقدم وقيل لأن العم والخال فى الإطلاق اسم جنس كالشاعر وليس كذلك العمة والخالة والآية نسخ لحكم ما يأتى فى قوله « لا يحل لك النساء من بعد » بإباحتهن لكن إباحة ليست مطلقة فى جملة المهاجرات والمؤمنات ، والكافرات أهل الكتاب لا سبيل إليهن له ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً ﴾ عطف على ما سبق ولا يمنعه التقييد بإن التى للاستقبال لأن المعنى أعلمناك بحل امرأة مؤمنة ﴿ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ لا تطلب مهراً أى إن اتفق ولذا نكرها ﴿ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنكِحَهَا ﴾ شرط للشرط الأول فى إثبات الحل فإن هبتها منه لا تحلها إلا بإرادته نكاحها فإن تلك الإرادة جارية مجرى القبول ، والعدول عن الخطاب إلى الغيبة للفظ النبي مكرراً إشارة إلى أن علة الإحلال هو شرف نبوته وأنه مما خص به لذلك ولذا رجع إلى الخطاب فى قوله ﴿ خَالِصَةً لَّكَ ﴾ مصدر مؤكد أى خلص إحلالها لك من غير مهر أو إحلال من أحللنا لك من غير عدد خلوصاً أو صفة لمصدر محذوف أى هبة خالصة لك ﴿ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فلا تحل لهم المرأة بالهبة إلا مع الصداق ويجوز عند المالكية عقد النكاح بلفظ الهبة مع ذكر الصداق خلافاً للشافعية القائلين بأن ذلك من خاصية النبي قلنا لهم لا تشريف فى التخصيص باللفظ بل خصص بإسقاط الصداق لأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم وفى سياق الآية قرينة التشريف باتفاق وخيّره الله فى القبول والرد توسعة ورداً لما يظن من أن مكارم الأخلاق قبول الهبة وردها مجنة وإذاية للواهب فأبطل الله ذلك الظن فى هبة المرأة إزالة للضرر ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى المؤمنين ﴿ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾ من الأحكام بأن لا يزيدوا على أربع نسوة ولا يتزوجوها إلا بولىّ وشهود ومهر ﴿ وَ ﴾ فى ﴿ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ من الإماء لا يملكون منها شيئاً إلا هبة أو إرثاً أو شراء مع كون الأمة ممن تحل لمالكها بأن تكون مسلمة لا كافرة وأن تستبرأ قبل الوطء ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ متعلق بخالصة وما بينهما اعتراض يؤكد معنى اختصاصه بما اختص به وأنه مما يليق بمنصبه ناشئاً عن علم تام بحال من فضل عليه من المؤمنين وعلى القول بأن « خالصة » مؤكد للإحلالات الأربع و « لكيلا » متعلق به فالمختص به منها هى أمر الواهبة وعدم الحصر فى أربع نسوة وأمته تساويه فيما عدا ذلك فليس الفرق حينئذ بينه وبين المؤمنين التوسيع عليه فقط بل التفريق بمعان تقتضى التوسيع عليه والتضييق عليهم تارة والعكس أخرى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ لما يعسر التحرز عنه ﴿ رَّحِيمًا ﴾ بالتوسعة فى مظان الحرج ﴿ تُرْجِى ﴾ بالياء لنافع وحمزة والكسائى وحفص وبالهمز للباقين أى تؤخر ﴿ مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ أى أزواجك عن نوبتها فلا تقسم لها أو تترك مضاجعتها ﴿ وَتُـْٔوِىٓ ﴾ تضم ﴿ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ منهن

فتأتيها أو تضاجعها أو المعنى تطلق من تشاء وتمسك من تشاء ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ طلبت رجعتها ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ طلقت ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ فى شىء من ذلك أى تراجع من تشاء من المطلقات أو ممن عزلت عن القسمة فلا جناح عليك فى طلبها بعد ذلك: خُيِّر فى ذلك بعد أن كان القسم عليه واجباً. قال ابن عطية: وعلى كل معنى فالآية معناها التوسعة على النبى صلى الله عليه وسلم. اه. وقيل هذه الآية نزلت فى الواهبات أنفسهن له صلى الله عليه وسلم أى تؤخر من تشاء منهن بالرد وتؤوى بالقبول ومن ابتغيت فعدت إليها بعد الرد فلا جناح عليك فى ذلك كله لكن أشهر الأقاويل أنها فى القسم بين اللاتى عنده ولم يدخل بواحدة ممن وهبت نفسها له وإن كان مباحاً له لأنه راجع إلى إرادته هذا هو الصحيح المحفوظ، وأما قول الشعبى دخل ببعض منهن وأرجى بعضاً منهن فشاذ لا يلتفت إليه قاله القسطلانى وغيره ﴿ذَٰلِكَ﴾ التفويض إليك ﴿أَدْنَىٰ﴾ أقرب إلى ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾ أى يقل حزنهن ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ مما ذكر المخير فيه ﴿كُلُّهُنَّ﴾ تأكيد لفاعل «يرضين» لأن ذلك حكم كلهن فيه سواء ثم إن سويت بينهن علمن أن ذلك تفعله تفضلا منك وإحساناً وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله فتطمئن نفوسهن ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من الميل إلى البعض دون البعض فاجتهدوا فى الإحسان. وقد روى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسم بين نسائه ثم يقول «اللهم هذا فعلى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك» ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالمصالح وبذات الصدور ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة وهو حقيق بأن يتقى ﴿لَّا يَحِلُّ﴾ بالياء للجمهور والتاء لأبى عمرو ﴿لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ بعد التسع اللاتى اخترنك، هذا قول ابن عباس رضى الله عنهما، أو من بعد ما أحللنا لك فى الآية المتقدمة قاله أبىّ بن كعب ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ بترك إحدى التاءين فى الأصل ﴿بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ بأن تطلقهن أو بعضهن وتنكح بدل من طلقت، وقيل حرم عليه غير الأجناس المذكورة من الأعرابيات بدل المهاجرات والغرائب بدل القرائب والكتابيات بدل المؤمنات، ونكاح الإماء بدل الاكتفاء بملك اليمين، وعن أبىّ بن كعب إنما نهى عن التبدل الذى كان فى الجاهلية كان أحدهم يقول للآخر: انزل عن زوجتك لى وأنزل عن زوجتى لك، وقد روى البزار بإسناده أن عيينة بن حصن دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة فقال له رسول الله: أين الاستئذان يا عيينة؟ فقال: ما استأذنت على أحد من مضر منذ أدركت يا رسول الله ثم نظر إلى عائشة فقال: ما هذه الجميلة إلى جنبك؟ فقال له: عائشة أم المؤمنين، فقال: انزل لى عنها وأنزل لك عن أحسن الخلق، فقال: إن الله حرم ذلك. فلما أدبر قالت عائشة: من هذا؟ قال أحمق مطاع فى قومه ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ حسن الأزواج المستبدلة وهو حال من فاعل «تبدل» أى مفروضاً إعجابك بهن ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ استثناء من النساء لأنه يتناول الأزواج والإماء، وقيل منقطع أى لكنها تحل لك وقد ملك بعدهن مارية وولدت له إبراهيم ومات فى حياته والآية على قول ابن عباس قبل

محكة وقيل منسوخة بما تقدم فى « إنا أحللنا لك » وفى « ترجى من تشاء » على أحد التأويلات لأنه وإن تقدمها قراءة فهو مسبوق بها نزولا ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ حفيظاً ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ إلا وقت الإذن لكم ، ورده أبو حيان بأن « أن » المصدرية لا يقع موقع الظرف بل هو فى موضع الحال أى إلا مصحوبين بالإذن فى الدخول بالدعاء ﴿ إِلَىٰ طَعَامٍ ﴾ فتدخلوا متعلق بيؤذن لأنه فى معنى يدعى ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ ﴾ منتظرين ﴿ إِنَاهُ ﴾ إدراكه أو وقته أو نضجه وفى القاموس : أنى الشيء حان وأدرك وبلغ هذا أناه وبكسر غايته أو نضجه أو إدراكه اهـ . و « غير » حال من ضمير « لكم » وقيل من ضمير « لاتدخلوا » والاستثناء وقع على الوقت أو الحال كأنه قيل لاتدخلوها إلا وقت الإذن أو إلا مصحوبين بالإذن غير ناظرين والأول أولى إذ فى تعدد الاستثناء المفرغ كلام قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا ﴾ تفرقوا ، والآية خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه مخصوصة بهم وبأمثالهم وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بالإذن لغير الطعام ولا اللبث بعد الطعام لهم ﴿ وَلَا ﴾ تمكثوا ﴿ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ من بعضكم لبعض أو حديث أهل البيت تسمعاً وتجسساً مجرور معطوف على « ناظرين » أو منصوب على الحال من مقدر كما قدرنا ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ ﴾ المكث ﴿ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ﴾ فيتحمله ولا يظهر لكم حيل من إخراجكم ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ وهو إخراجكم أى لا يترك بيانه ترك من يستحيي ، وقرئ « يستحى » بياء واحدة لغة ، وأكثر المفسرين أن الآية نزلت فى شأن وليمة زينب بنت جحش حين بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح شاة وأشبع الصحابة خبزاً ولحماً فخرج القوم بعد الطعام وتخلف ثلاثة يتحدثون فى بيته فثقل ذلك عليه واستحيي منهم فخرج لكى يخرجوا ثم عاد فوجدهم فى الحديث وزينب معهم فى البيت فشق ذلك عليه فأحسوا بذلك فخرجوا فدخل وأرخى الستر فنزلت ، وحرم النظر إلى النساء الأجانب وهى آية الحجاب وكان عمر بن الخطاب قبل ذلك يتمنى الحجاب ويقول : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فوافقته الآية بقوله ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ ﴾ أى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وكذا غيرهن من الأجنبيات ﴿ مَتَاعًا ﴾ حاجة ما : فتوى أو عارية أو شيئاً من المرافق ﴿ فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ ستر وهذا يدل على أن مكالمتهن من وراء الحجاب لا تجوز إلا فى حادثة تعرض أو مسألة يستفتى فيها ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ من الخواطر الشيطانية والهواجس النفسانية الجارية من الإنسان مجرى الدم ، قال فى الأحكام : وهذا يدل على أنه لا ينبغى لأحد أن يثق بنفسه فى الخلوة مع من لا تحل له فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله وأتم لعصمته ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ ﴾ ما صح لكم ﴿ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ بشيء كرهه فى وقت من الأوقات : توبيخ لهم على عدم احتياطهم والتوجه إلى مراقبة أحواله حتى يدركوا بالقرائن

مارضى ويبادروا إليه ﴿ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ ﴾ التى دخل بهن ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ بعد وفاته أو فراقه لأنهن أزواجه حيا وميتا ويجوز نكاح من لم يدخل بها على الأصح . قال ابن العربى فى أحكامه : وهذا من خصائصه عليه السلام لم يشاركه فيها أحد ولا ينزل فى هذه الحرمة أحد منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن غار وتأذى ﴿ أَبَدًا ﴾ ردّ لمن كان يريد نكاح بعضهن بعده ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ ﴾ أى إيذاءه ونكاح نسائه بعده ﴿ كَانَ عِندَ اللَّهِ ﴾ ذنبا ﴿ عَظِيمًا ﴾ وفيه تعظيم من الله لرسوله وإيجاب حرمته حيا وميتا ولذا بالغ فى الوعيد عليه بقوله ﴿ إِن تُبْدُوا شَيْئًا ﴾ فى نكاحهن بعده على ألسنتكم ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ فى صدوركم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ فيعلم ذلك ويجازيكم به وفى هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل ومبالغة فى الوعيد . ولما نزلت آية الحجاب وقال الآباء والأبناء والأقارب : يارسول الله ، ونحن لا نكلمهن إلا من وراء حجاب ؟ نزل ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ ﴾ فى رفع الحجاب ﴿ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ وإنما لم يذكروا العم والخال لأنهما بمنزلة الوالدين ﴿ وَلَا نِسَائِهِنَّ ﴾ أى المؤمنات ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ من الإماء والعبيد ، وعن سعيد بن المسيب : الإماء لا العبيد ، وقد تقدم فى سورة النور أى يجوز لمن ذكر أن يكلموهن من غير حجاب ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ﴾ فيما أمرتن به سرا وعلانية واتركن الاسترسال ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ حاضرا لا يخفى عليه شىء تخافوه فى السر كما تخافوه فى العلن . ولما شيد أركان شرف رسول الله بما اختصه به بين عباده المؤمنين من خصائص الأحكام بما عسى يذهب الوهم إلى أنه لامزيد على هذا فى الإكرام أشار إلى أنه بلغت كرامته إلى أنه تعالى وملائكته مستمرون على إظهار شرفه بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ ﴾ المقربين من الملإ الأعلى والكروبيين ﴿ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم يعتنون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ اعتنوا أنتم بذلك أيضا فإنكم أولى بذلك قولوا : « اللهم صلى على محمد وسلم » ، والآية تدل على وجوب الصلاة والسلام عليه فذلك واجب على كل مكلف مرة فى العمر وكذا عند ذكره وما بقى ففضيلة ، وقد روى البخارى بإسناده إلى كعب بن عجرة . قلنا يارسول الله قد علمنا السلام عليك فكيف نصلى ؟ قال : قولوا : « اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد » . اهـ . وفيه طرق يزيد فيها بعض الروايات على بعض . وروى أبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم من حديث أبى مسعود الأنصارى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا علىّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علىّ » ، وروى أبو داود عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من أحد يسلم علىّ إلا ردّ الله علىّ روحى حتى أرد عليه السلام » ، وعنه : « صلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » رواه أبو داود أيضا ، وعنه : « أولى الناس بى يوم

القيامة أكثرهم علىّ صلاة . رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه ، والحاصل أن الله أمر العالم العلوى والسفلى بالاشتغال بما فيه تبجيل رسوله كلا بما فى وسعه إشارة إلى أنه المقصود والنتيجة وهما المقدمتان اللتان رتبهما العالم الحكيم ولذا كان مقدما خلقا وإن تأخر بعثا ولفظ يصلون يدل على الاستمرار وأما الصلاة على غيره من الأنبياء فالأفضل أن يصلى عند جرى ذكرهم وأما غيرهم من الصحابة والتابعين فلا يجوز إلا تبعا لأنه صار شعار الرسل ، ولذا كره أن يقال محمد عز وجل وإن كان عزيزاً جليلا ولأن الصلاة على غير الرسل صار شعار الرافضة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ذكر الله توطئة إشعارا بأن إيذاء رسوله إيذاء له ، وقيل إيذاء الله نسبة مالا يليق بجلاله إليه ، وإيذاء رسوله بالقول كساحر شاعر وبالفعل ككسر رباعيته وشج رأسه إلى غير ذلك وفيه حمل اللفظ الواحد على حقيقته ومجازه والذين يؤذون هم الكفار ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أبعدهم عن رحمته ﴿ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ ذا إهانة وهو النار على إهانتهم رسوله قصدا ، وأما إيذاء المؤمنين فلم يكن كذلك بل عن غفلة ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ كالمنافقين وأهل الإفك والزناة ﴿ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ بغير جناية توجب ذلك قيده لأن إيذاء المؤمنين قد يكون حقا بخلاف إيذاء الله ورسوله ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً ﴾ تحملوا كذبا فى رمى البرىء ونحو ذلك ﴿ وَإِثْماً مُبِيناً ﴾ فى السب والغيبة والتعرض للعفائف إذا خرجن ، ولذا قال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ جمع جلباب وهو الثوب الذى يستر جميع البدن فوق الخمار والإزار أى يرخين بعضها على الوجوه إذا خرجن لحاجتهن وكانت بيوت المدينة لا كنف لها حين نزول الآية وكانت النساء يخرجن لقضاء حاجة الإنسان إلى المناصع إذا اختلط الظلام وكان الفساق يتعرضون لهن لاشتباههن بالإماء بعدم التلفع بالجلابيب فأمر الله رسوله أن يأمرهن بما ذكر لامتياز سماتهن عن سمات نساء الجاهلية والإماء ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَى ﴾ أقرب إلى ﴿ أَنْ يُعْرَفْنَ ﴾ بأنهن حرائر ﴿ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ بالتعرض لهن لظن أنهن إماء ولذا لما مر عمر بن الخطاب بامرأة قائمة بين أعلاج فى سوق المدينة ضربها فشكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعمر : ماحملك على جلد ابنة عمك فقال : أنكرتها إذ لم أرعليها جلبابا وظننتها وليدة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً ﴾ لما سلف منهن فى ترك الستر ﴿ رَحِيماً ﴾ بهن إذ سترهن رعيا لمصالح العباد حتى الجزئيات منها .

﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ ﴾ عن نفاقهم ﴿ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ ضعف إيمان أو فجور وحب الزنا ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ ﴾ المزلزلون قلوب المؤمنين بالأخبار السوء ﴿ فِى الْمَدِينَةِ ﴾ بقولهم قد أتاكم العدو وسراياكم قتلوا وهزموا وغير ذلك من الأخبار الكاذبة ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ لنسلطنك على قتلهم وإجلائهم من الغراء وهو ما يلصق به الشىء بالشىء ولذا عدى بالباء ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ ﴾ لا يساكنونك ﴿ فِيهَا ﴾ فى المدينة ﴿ إِلَّا ﴾ زماناً أو جواراً ﴿ قَلِيلاً ﴾ ثم يخرجون وهو عطف على « لنغرينك » الذى

هو جواب القسم وإيثار ثم للدلالة على أن جلاء الوطن أعظم المصائب عندهم وأحرى مفارقة جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مَلْعُونِينَ ﴾ منصوب بما دل عليه لايجاورونك أى يخرجون ملعونين أو على الحال والاستثناء شامل له أى لايجاورونك إلا ملعونين أى مبعدين عن رحمة الله ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ وجدوا ﴿ أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴾ أى الحكم فيهم هذا على جهة الأمر به وإنما لم نجعل ملعونين منصوباً بما بعده لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد أى سن الله ذلك سنة ﴿ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ من الامم الماضية فى قتل منافقيهم المرجفين المؤمنين ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ لأنه لايبدلها ولا يقدر أحد أن يبدلها ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ ﴾ أهل مكة استهزاء أو اليهود تعنتا ﴿ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ متى تكون ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ لم يطلع عليها نبيا مرسلا ولا ملكا مقربا ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ يعلمك ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ ﴾ توجد ﴿ قَرِيبًا ﴾ أى عن قريب وانتصابه على الظرف ويجوز أن يكون فى موضع الخبر أو هو خبر على حذف موصوف إن كانت ناقصة أى شيئاً قريباً ولعل معلق عن العمل كما يعلق التمنى. وفى الآية تهديد المستعجل وإسكات الممتحن ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ ناراً شديدة الإيقاد والهيجان واللهيب ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى ما لانهاية له ﴿ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ يتولى حفظهم ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ يدفعها عنهم ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ تصرف من جهة إلى أخرى كاللحم يشوى أو كما ترى البضع من اللحم فى القدر حال غليانها وذكر الوجوه لأنها أشرف الأعضاء ﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾ تمنيا وندما على مافات ﴿ وَقَالُوا ﴾ الاتباع منهم ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا ﴾ ولابن عامر ساداتنا بجمع الجمع ﴿ وَكُبَرَاءَنَا ﴾ أشرافنا ﴿ فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ طريق الهدى بما زينوا لنا وفى الرسولا والسبيلا ما تقدم فى الظنونا ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أى مثل عذابنا للضلال والإضلال ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا ﴾ عدده بالمثلثة للجمهور وبالموحدة لعاصم أى أشد اللعن وأعظمه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا ﴾ مع نبيكم ﴿ كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى ﴾ بتحريض امرأة على قذفه بنفسها فعصمه الله وبقولهم مايمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ بأن وضع ثوبه على حجر ليغتسل ففر الحجر به حتى وقف به بين ملإ من بنى إسرائيل فأدركه موسى فأخذ ثوبه واستتر به فرأوه لا أدرة به وهى نفخة فى الخصية. رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ ذاجاه جديراً بأن يبرأ مما يشينه، ومما أوذى به نبينا أنه قسم قسما فقال رجل هذه قسمة ماأريد بها وجه الله فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « يرحم الله موسى لقد أوذى أكثر من هذا فصبر » رواه البخارى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى كل الأمور لاسيما فيما يؤذى رسول الله ﴿ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ صوابا مستقيما لااعوجاج فيه ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ بقبولها وبجعلها فى المستقبل مرضية، وهذه الآية مقررة لما تقدمها مع اشتمالها على الوعد كاشتمال تلك على الوعيد فتقوى الصارف عن الأذى ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ يجعلها مكفرة باستقامتكم فى

القول والعمل ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ في الدارين يعيش حميداً ويدوم سعيداً . ولما علق الفوز العظيم بالطاعة عظم شأنها وعبر عنها بالأمانة إشارة إلى أنها لازمة الرعاية واجبة الأداء بقوله ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ الصلوات الخمس وغيرها مما في فعله ثواب وفي تركه عقاب ﴿ عَلَى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ حين خلقت وخلق فيها فهم الخطاب ونطق الجواب فعرض تعالى عليها الحمل للأوامر والنواهي ولها الثواب إن أحسنت والعقاب إن أساءت ﴿ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ ﴾ خفن ﴿ مِنْهَا ﴾ وقلن نحن مسخرات لما خلقتنا له لا نحتمل فريضة ولا نبتغي ثواباً ولا نرضى لأنفسنا عقاباً ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ آدم بعد عرضها عليه والتزم القيام بحقها مع ضعف بنيته ورخاوة قوته ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا ﴾ لنفسه بما حمله حيث لم يف ولم يراع حقها مع التمكن ﴿جَهُولًا﴾ شديد الجهل بوخامة العاقبة ، وفيه إشارة إلى عظم شأن الطاعة وعلى هذا التأويل للجمهور فالأمر على ظاهره ، وقيل المراد بالأمانة الطاعة حقيقة لكن الأمر مبنيٌّ على الفرض والتصوير بأن مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل حمله بما لو عرض على الأجرام العظام لما حملته واحتمله الإنسان ، وقيل الأمر في الجمادات بالأمانة بحسب ما يليق بها وهو كونها مسخرة لما أريد منها وفي الإنسان بالانقياد للأوامر والنواهي لحيث جرت تلك الأجرام على ما سخرت له ولم يف الإنسان بما كان في وسعه حكم عليه بالخيانة وعلى هذا الإباء والعرض والإشفاق مجازات متفرعة على تمثيل حال الجامد بالمأمور الذي إذا ورد عليه أمر سيده بادر بالامتثال وفيه تعريض بالإنسان وأنه كان أحق بذلك فالعرض مجاز عن نسبة الأمانة إليها وإباء الحمل عن عدم الاستعداد والقابلية وحمل الإنسان عن استعداده وكمال قابليته في أصل نشأته على ما أشير إليه بفطرة الله التي فطر الناس عليها وكان ظلوماً حيث أفسد تلك الفطرة جهولا بما يترتب على ذلك . والله أعلم ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴾ واللام للعاقبة متعلقة بـ « حملها » أو بـ « عرضنا » المترتب عليه حملها ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ المضيعين الأمانة ، والتعذيب نتيجة حمل الأمانة مجازاً ، كما أن التأديب نتيجة الضرب حقيقة والمعنى ليعذب الله الخائن الغادر ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ المؤدين الأمانة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ حيث تاب عليهم من فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعاتهم .

[تم تفسير سورة الأحزاب]

سورة سبأ

مكية أو إلا « ويرى الذين أوتوا العلم » الآية
وهي أربع أو خمس وخمسون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ما دخل فى قوامهما وما تكوّن فيهما واستقر فإن كل ذلك نعمة دنيوية يستحق بها الحمد فى الدنيا ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ على النعم كالدنيا يحمده أولياؤه إذا دخلوا الجنة فكأنه قال هو المحمود على نعم الدارين وكما دل على الاختصاص تقديم الصلة فى « وله الحمد » كذلك دل عليه اللام أيضاً فى « لله » و « له » ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ الذى أحكم أمور الدارين ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ ببواطن الأشياء وفى الوصفين إشارة إلى أن كل ذلك إنما هو على وجه الحكمة وعلم تام بموضع الاستحقاق ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ ﴾ يدخل ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ من الأمطار التى تنفذ فى مواضع وتخرج فى أخر ، والكنوز والدفائن والأموات وسائر ماله الأرض كفات ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من النبات والعيون والغازات وغير ذلك ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من الأمطار والثلوج والملائكة والكتب والأرزاق والمقادير والصواعق ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ يصعد كالملائكة والأبخرة والأدخنة وأعمال العباد وكل هذا تقرير لوصف الخبرة وتفصيل لما أجمله فى قوله ما فى السموات وما فى الأرض وتبصير لأنواع النعم الكلية ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ ﴾ المتفضل بإفاضتها لهم ﴿ الْغَفُورُ ﴾ لفرطاتهم وتقصيرهم فى شكرها وتقديم وصف الرحمة لأن الكلام فى الإنعام فذلك أوفق بالمقام ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ إنكار لمجيئها واستبطاء سخرية بالوعد به ﴿ قُلْ بَلَىٰ ﴾ ردّ لكلامهم وإثبات لما نفوه ﴿ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ تقرير لإيجابه مؤكدا بالقسم مقرراً لوصف المقسم به بصفة تقرر إمكانه وتنفى استبعاده وهى ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ ﴾ بالرفع خبر محذوف أومبتدأ خبره مابعده لنافع وابن عامر وبالجر للباقين صفة وحمزة والكسائى علام بالمبالغة ﴿ لَا يَعْزُبُ ﴾ لا يغيب ﴿ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ أصغر نملة ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ وهذا الوصف شاهد على وقوع المقسم عليه من غير ريب وأوثر من بين صفاته لأن العلم بالمغيبات شامل لوقت قيام الساعة ففيه رعاية أحسن الأقسام ، وقرأ الكسائى : « لا يعزب » بكسر الزاى ﴿ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ بين هو اللوح المحفوظ والجملة مؤكدة لنفى العزوب ورفع « أصغر » بالابتداء لا بالعطف على مثقال لأن الاستثناء يمنعه ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ فيها ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ علة لتأتينكم وبيان لما يقتضى إتيانها كأنه قيل له القدرة التامة والعلم الشامل والحكمة تقتضى جزاء المحسن والمسىء

فقدتم المقتضى وارتفع المانع ﴿أولَـٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ حسن فى الجنة لاتعب فيه ولا من عليه ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي﴾ إبطال ﴿ءَايَـٰتِنَا﴾ والصد عنها ﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾ بالمد هنا وفيما يأتى للجمهور مسابقين لنا ليفوتونا لظنهم ألا بعث ولاعقاب وبالقصر لابن كثير وأبى عمرو أى مقدرين عجزنا أو مثبطين عن الإيمان من أراده ﴿أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ﴾ من سيئ العذاب «ومن» للبيان ﴿أَلِيمٍ﴾ مؤلم بالجر للجمهور والرفع لابن كثير وحفص صفة لرجز على الأول «ولعذاب» على الثانى والجر أولى لعدم الفصل ولأنه أمكن معنى ﴿وَيَرَى﴾ يعلم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم الصحابة ومن بعدهم أو علماء أهل الكتاب الذين آمنوا وهو عطف على «وقال الذين كفروا» ﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ القرآن مفعول أول ﴿هُوَ﴾ للفصل ﴿الْحَقَّ﴾ مفعول ثان ليرى ويجوز عطف الجملة على ليجزى والمعنى وليعلم الذين أوتوا العلم إذا عاينوها علما لا مزيد عليه فى الإتقان فيحتجوا به على من أنكرها أو ليعلم من لم يؤمن بها من الأخبار فيزداد حسرة ﴿وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ هو دين الإسلام التوحيد والتقوى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى قال بعضهم على جهة التعجب لبعض ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمدا نكروه متجاهلين به كأنه غريب جاء بأمر بديع لا تقبله العقول ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يخبركم أنكم ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ قطعتم ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أى تمزيق على أنه مصدر أى صرتم ترابا أو طرحتم كل مطرح بأن ذهبت بكم السيول وأجواف الطيور وسفت بكم الريح على أنه مكان ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ومادل عليه هو العامل فى إذا وتقديمه للدلالة على البعد والمبالغة فيه وإنما قلنا عامل الظروف محذوف لأن ما قبله لم يقارنه وما بعده مضاف إليه . أو محجوب بينه وبينه بإنّ وجديد بمعنى فاعل من جد فهو جديد أو مفعول من جد النساج الثوب إذا قطعه ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ بفتح الهمزة للاستفهام واستغنى بها عن همزة الوصل ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فى ذلك ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنون يلقيه على لسانه حصروا خبره الكاذب فى الكذب قصدا أو غير قصد إذ لا اعتقادلهم فى صدقه والعدول عن الفعل الثانى إيماء إلى أنه الكائن الثابت عندهم إذ لم يجربوا عليه كذباً قبل النبوة وليس فى ذلك دلالة لمن يقول بالواسطة بين الصدق والكذب وهو كل خبر لا يكون المخبر فيه عن بصيرة بالمخبر عنه لما علمت من أن الافتراء أخص من الكذب . ثم أضرب عن حصرهم الباطل إلى ما هو الحق بقوله ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ المشتملة على البعث والعذاب ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ فيها ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ عن الصواب بحيث لا يرجى الخلاص منه ومن ماهو مؤداه من العذاب الذى قدم عليه فى اللفظ للمبالغة فى استحقاقهم له وتوفر أسبابه ووصف الضلال بالبعد وهو للضال إسناد مجازى . ثم ذكرهم بما يعاينونه محيطا بهم مما يدل على كمال القدرة على الإحياء بقوله ﴿أَ﴾ عموا ﴿فَلَمْ يَرَوْا﴾ ينظروا ولم يتفكروا ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما أحاط بجوانبهم فوقا وتحتا يمينا وشمالا سفراً وحضرا ﴿مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أم أشد خلقا أم هما ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسفنا بقارون ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ بسكون السين للجمهور

وفتحها لحفص قطعاً ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ والأفعال الثلاثة بالنون للجمهور والياء للآخرين حمزة والكسائي والمعنى أنهم علموا ماذكر فهلا استدلوا به على القدرة على الإعادة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ المرئي ﴿ لَآيَةً ﴾ دلالة ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ راجع إلى ربه بالتوبة كثير التأمل في أمره وآياته يستدل بها على قدرته على البعث وما يشاء ثم ذكر ما يرغب في الإنابة وما يتفضل الله به على المنيب بما أتبعه من قصة داود لاشتماله على إنابته وما ترتب عليها بقوله ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ على الناس بالجمع بين النبوة والملك والكتاب والصوت الحسن الخارق وقلنا ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي ﴾ رجّعي ﴿ مَعَهُ ﴾ في التسبيح لقوله «إنا سخرنا الجبال معه يسبحن» والترجيع هو الرجوع إلى الصوت الأول أو معناه سيري معه حيث سار لأن التأويب سير النهار كله وهو بدل من فضلا أو من آتينا بإضمار قولنا أو قلنا ﴿ وَالطَّيْرَ ﴾ بالنصب عطف على محل «ياجبال» يؤيده القراءة بالرفع عطفا على لفظها أو على فضلا أو معمول مقدر مثل «وسخرنا» أو مفعول معه ا. «أوّبي» وفيه دلالة على عظام سلطانه حيث جعل الجبال والطير كالعقلاء المنقادين لأمره تسبح معه ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ جعلنا في يده كالعجين والشمع يصرفه كما يشاء من غير نار وآلة طرق بإلانته أو بقوله وقلنا ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ دروعا كوامل يجرها لابسها على الأرض أو أمرناه بعملها ف «أن» مفسرة أو مصدرية ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ أي أنسج الدروع بأن تناسب بين الحلق أواعمل المسامير على قدر الحلق فلا تجعلها دقاقا فتقلق ولا غلاظا فتخرق لكن رد هذا بأن درعه لم تكن مسمرة ويؤيده قوله «وألنا له الحديد» ﴿ وَاعْمَلُوا ﴾ آل داود معه ﴿ صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فأجازيكم عليه. وعن وهب بن منبه أن داود كان يتنكر ويسأل الركبان عن حال داود وكانوا يثنون عليه فأرسل الله ملكا في صورة رجل فسأله فقال هو خير الناس لولا أنه يأكل هو وأهله من بيت المال فسأل الله أن يعلمه صنعة يأكل منها هو وأهله فعلمه الله صنعة الدروع فكانت سببا لمعاشه وآلة للجهاد فكان يفرغ من درع في يوم فيبيعه بأربعة آلاف ينفق على نفسه وأهله ثم يصرف الباقي إلى مصالح بني إسرائيل. ﴿ وَ ﴾ سخرنا ﴿ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ﴾ بالنصب للجمهور والرفع لشعبة بتقدير تسخير والريح ﴿ غُدُوُّهَا ﴾ من دمشق إلى الشام أي سيرها من الغداة بمعنى الصباح إلى الزوال ﴿ شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا ﴾ إلى بيت المقدس من الزوال إلى الغروب ﴿ شَهْرٌ ﴾ أي مسيرته ﴿ وَأَسَلْنَا ﴾ بمعنى أذبنا ﴿ لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ النحاس المذاب أجريت له من معدنه ثلاثة أيام بلياليها كجرى الماء. ولذا سماه عينا وإسالة وكان ذلك باليمن بصنعاء وعمل الناس إلى اليوم مما أعطى سليمان ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ مبتدأ وخبر أو من يعمل عطف على الريح ومن الجن حال قدمت اهتماما لأن كونه من الجن هو المستغرب ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ بإرادته أو أمره وتيسيره وفيه إشارة إلى أن تسخيرهم أمر في غاية البعد لولا تسهيله لما تيسر ﴿ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ ﴾ يعدل ﴿ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ له بطاعته ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ الحريق النار في الآخرة أو سوط نار في الدنيا يضربه به ملك ضربة تحرقه ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ ﴾

قصور مرتفعة حصينة وأماكن شريفة يصعد إليها بدرج . قال ابن العربي في الأحكام : شاهدت محراب داود الذي أتمه سليمان في بيت المقدس بناء عظيما في جواره بلدة طول الحجر خمسون ذراعا وعرضه ثلاثة عشر ذراعا وكلما قام بناؤه صغرت حجارته ﴿ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ جمع تمثال وهو كل شيء مثلته بشيء أي صورا للملائكة والأنبياء ليراها الناس على تلك الصور على ما اعتادوا من العبادات فيعبدوا نحو عبادتهم ولم يكن اتخاذ الصور حراما في شريعته وهو حرام في شريعتنا إن كان بصور الحيوان وماعداه مكروه ﴿ وَجِفَانٍ ﴾ جمع جفنة أي صحاف ﴿ كَٱلْجَوَابِ ﴾ جمع جابية وهي حوض كبير يجتمع على الجفنة ألف رجل يأكلون منها ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ ثابتات على الأثافي لها قوائم لاتتحرك عن أماكنها ولاتنزل من الأثافي لعظمها من الجبال بالمن يصعد إليها بالسلالم ، وقلنا ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ﴾ يا ﴿ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ لله على ماآتاكم بطاعته نصب على العلة أو على المصدر لأن اعملوا معناه اشكروا أو مفعول به أي اعملوا أنتم ما تشكرون به لأن الجن تعمل لكم ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه في أكثر أوقاته القائم به بقدر وسعه ، وعن ابن عباس الشكور من شكر في الأحوال كلها . وقد روى البخاري ومسلم بإسنادهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ﴾ على سليمان ﴿ ٱلْمَوْتَ ﴾ مكث قائما على عصاه حولا ميتا والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة على عادتها ومنها المسجد الذي في بيت المقدس الذي أسسه داود وأوصى سليمان بإتمامه فاستعمل فيه الشياطين فلما دنا موته ولم تكمل سأل ربه أن يعمي موته على الجن حتى يتموه فأمرهم فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب واتكأ على عصاه يصلي فقبض في الصلاة فأكلت الأرضة عصاه فخر على الأرض فعلموا أنه ميت ولذا قال ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ ﴾ أعاد المظهر لئلا يتوهم عود الضمير إلى سليمان ﴿ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ ﴾ مصدر أرضت الخشبة بالبناء للمفعول أكلتها الأرضة دابة تسمى سرفة والأرض فعلها ولذلك يقال لها الأرضة ﴿ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ بالألف بدل الهمزة لنافع وأبي عمرو وبالهمز المفتوح للباقين إلا أن ابن ذكوان سكنه عن ابن عامر أي عصاه لأنها يطرد بها من نسأت البعير إذا طردته ﴿ فَلَمَّا خَرَّ ﴾ ميتا ﴿ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ ﴾ علمت علما جليا بعد التباس الأمر عليهم ﴿ أَن ﴾ مخففة أي أنهم ﴿ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ ﴾ كما يزعمون ويوهمون الناس لعلموا موته وقت وقوعه لأنه من الغيب ولو علموه ﴿ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ العمل الشاق له حولا لظنهم حياته وعلم كونه حولا بحساب ما أكلته الأرضة من العصا بعد موته يوما وليلة مثلامات وعمره ثلاث وخمسون سنة وملك وهو ابن ثلاث عشرة وابتدأ عمارة بيت المقدس لأربع مضين من ملكه ذكره البيضاوي وغيره وفي الجواهر حكى الثعلبي أن الشياطين قالت للأرضة لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام والشراب ولكنا سننقل إليك الماء والطين فهم

ينقلون إليها ذلك حيث كانت شكرا لها . اهـ . ثم عقب الله بقصة سبأ الذين نعموا ولم يشكروا فانتقم منهم تنبيها لأولى الألباب بقوله ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ ﴾ بالصرف للجمهور وعدمه لابن كثير وأبى عمرو أى لأولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ﴿ فِى مَسْكَنِهِمْ ﴾ بالجمع على التوزيع للجمهور والإفراد مع فتح الكاف لحمزة وحفص وكسرها للكسائى لإرادة البلد أو مسكن كل واحد أى مواضع سكناهم باليمن يقال لها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة ﴿ ءَايَةٌ ﴾ دالة على قدرة الله عاضدة للبرهان السابق فى قصتى داود وسليمان عليهما السلام ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ بدل من آية أو خبر محذوف أى هى جنتان ﴿ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ لكل رجل بستانان أحدهما عن يمين مسكنه والآخر عن شماله ، أو كانت البساتين على جانبى الوادى متصلة متضامة كأنها جنتان وقيل لهم على لسان أنبيائهم وهم أحد عشر نبيا أو على لسان الحال ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ على مارزقكم من النعم طلبا للمزيد . ومحافظة على العتيد . بلدة سبأ التى فيها رزقهم ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ استئناف لبيان موجب الشكر كانت أخصب البلاد وأطيبها لم تكن فيها عاهة ولاهامة من عقرب أو حية أو برغوث ولاذباب ولابعوض ولاقمل ولاسباع يمر الغريب بها وفى ثيابه قمل فيموت لطيب هوائها ﴿ وَ ﴾ ربكم الذى رزقكم وطلب شكركم ﴿ رَبٌّ غَفُورٌ ﴾ فرطات من يشكره ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ عن الشكر وكفروا ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ أى الشىء الصعب من العرامة الصعوبة . قال ابن عطية : كأنه صفة للسيل أضيف الموصوف إلى الصفة مبالغة وقيل صفة للمطر الشديد الذى كان منه ذلك السيل أو جمع عرمة وهى كل مايمسك الماء من بناء وغيره إلى وقت حاجته أو هو اسم واديهم الذى يجىء السيل من قبله المسوك بما ذكر وذلك أنه كان فى اليمن واد عظيم بين جبلين ترجع إليه أوديتهم وكانوا قبل يقتتلون على مائه فسد ماؤه بالعرم بناه بالصخور والقار « حمير » أبو القبائل اليمنية كلها أو بنته « بلقيس بنت شراحيل » بين الجبلين عند مجتمع سيول الوادى وجعل له أبوابا ثلاثة بعضها فوق بعض تسد وبنى دونه بركة ضخمة جعل فيها اثنى عشر مخرجا على عدة أنهارهم يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء وإذا استغنوا سدوها فإذا جاء المطر اجتمع إلى العرم ماء أودية اليمن كلها فاحتبس السيول من ورائه ويصير بحراً عظيما يأخذ الماء جنبيه يرتفع إلى أعلى السد فيفتح الباب الأعلى يجرى ماؤه فى البركة يسقون منه ثم الأوسط ثم الأسفل فلا ينفد الماء من السنة إلى المقبلة وكانوا يقسمون على أنهارهم فبقوا على ذلك مدة فى أرغد عيش فطغوا وكفروا ففتح الله سدهم من تحت وهم لايدرون فسال الماء وفاض وأغرق جنتيهم وأموالهم وكثيراً منهم ممن لم يمكنهم الفرار ودفن بيوتهم بالرمل ومزقوا حتى صاروا مثلا عند العرب كما يأتى لجذلوا يقولون صار بنو فلان أيادى سبأ قال تعالى ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ ﴾ تثنية ذوات على الأصل ﴿ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ ثمر مر بشيع عطف بيان أو صفة على تنوين أكل للجمهور وعلى إضافته لأبى عمرو فالأكل بمعنى المأكول والخمط شجر الأراك وثمره البرير ﴿ وَأَثْلٍ ﴾ هو الطرفاء عطف على أكل لاعلى

خمط لأن الطرفاء لا ثمر له أونوع من الطرفاء أعظم منه وأجود عوداً له ثمر قليل الغناء ﴿ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ عطف على خمط وهو النبق وله ثمر حسن والحكمة فى إبقائه زيادة العذاب عليهم كلما رأوه تذكروا ما فاتهم ولذلك قلله وتسميةُ مابدلوا بجنتين تهكم أومشاكلة ﴿ذَٰلِكَ﴾ التبديل ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ لأجل كفرهم النعمة أو الرسل بالتكذيب وتقديم المفعول للتعظيم لا للتخصيص ﴿ وَهَلْ يُجَازَىٰ ﴾ بالياء للجمهور والنون لحمزة والكسائى وحفص مع نصب ﴿ إِلَّا الْكَفُورُ ﴾ أى لا يجازى بمثل ما فعلنا بهم إلا البليغ فى الكفران أو الكفر أو ما يناقش إلا هو وما يصيب المؤمن تمحيص لذنوبه والكافر هو المعاقب بجميع ما فعله من السوء ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ بين سبأ وهم باليمن وهذا وما بعده وصف لحالهم قبل السيل وهو أن الله مع ما كان منحهم من الجنتين والنعم الخاصة بهم أصلح لهم البلاد المتصلة وعمرها بينهم ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالماء والشجر وهى قرى الشام التى يسيرون إليها للتجارة ﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ يظهر بعضها لبعض أوظاهرة لأبناء السبيل لكونها على متن الطريق ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ بحيث يقيلون فى واحدة ويبيتون فى أخرى إلى أن يبلغوا الشام لايحتاجون إلى حمل زاد وماموهم أربابها كلها فى ذلك اوقت وقلنا لهم بلسان المقال أو الحال ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ فى ليل أو نهار لايختلف الأمن فسئموا العافية وبطروا النعمة وسألوا الله خراب تلك القرى بما حكى عنهم بقوله ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ﴾ بالمد وتخفيف العين للجمهور وبالقصر والتشديد لأبى عمرو وابن كثير وهشام ﴿ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ إلى الشام : اجعلها مفاوز ، سألوا ذلك ليتطاولوا على الفقراء بركوب الرواحل وحمل الزاد فأجابهم الله بتخريب القرى المتوسطة بينهم ﴿ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ حيث حلوها الشقاء بعد النعيم والرخاء ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ لمن بعدهم فى ذلك حتى كانوا إذا بالغوا فى وصف القوم بالتفرق قالوا ذهبوا أيدى سبأ ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ فرقناهم كل تفريق وهم عشرة قبائل أولاد رجل واحد هو سبأ تيامن منهم ستة وهم حمير وكندة والأشعريون والأزد ومذحج وأنمار ، وتشام منهم أربعة : غسان وعاملة ولخم وجذام . فلحق غسان بالشام وجذام بتهامة والأزد بعمان وأنمار بيثرب ، ومنهم الأوس والخزرج وهم بنو جفنة ابن عمرو قدم بهم إليها جدهم عمرو بن عامر وعمرو هذا هو مزيقياء وعامر هو ماء السماء بن حارثة بن امرئ القيس البهلول ابن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، يقال له أيضاً بالسين وكلهم ملوك متوّجون وهو من ولد كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان الملك لكهلان بعد حمير ثم عاد فى بنى حمير لأن ملك اليمن منحصر فى سبع قبائل وهى : حمير بن سبأ وهمدان وكندة ولخم ودوس وجفنة ومذحج ، وكان بيت الملك الأعظم فيهم حمير فنهم الملوك التبابعة منهم الحارث الرايش أول من أدخل الغنائم فى اليمن قد بشّر بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ومنهم ذو المنار أبرهة كان يمشى بالليل توقد له الجن النيران ، ومنهم ذو الإذعار غزا بلاد النسناس ورجع إلى اليمن بسبيهم وجوههم فى صدورهم ، فذعر الناس منهم ، ومنهم

الملائكة أو صوّروا صورهم وقالوا هذه صور الملائكة نعبدوهم ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أى الكفار ﴿ بِهِمْ ﴾ بالجن ﴿ مُؤْمِنُونَ ﴾ مصدقون فيما يقولون لهم . قال تعالى ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ أو بعض المعبودين لبعض ﴿ نَفْعًا ﴾ كشفاعة ﴿ وَلَا ضَرًّا ﴾ إذ الأمر فيه كله لله والدار دار جزاء وهو المجازى وحده وقدم النفع اهتماماً لأنه الغرض من العبادة ﴿ وَنَقُولُ ﴾ عطف على « لا يملك » مبين للغرض من تمهيده ﴿ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالكفر ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ من القرآن ﴿ بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا ﴾ أى محمد ﴿ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ من الأصنام ﴿ وَقَالُوا مَا هَٰذَا ﴾ القرآن ﴿ إِلَّا إِفْكٌ ﴾ كذب لا يطابق الواقع ﴿ مُّفْتَرًى ﴾ فى نسبته إلى الله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ ﴾ الذى جاء به الرسول من الإسلام أو القرآن ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ سموه إفكا باعتبار معناه وقالوا فيه باعتبار لفظه وإعجازه ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر سحريته ، وفى تكرير الفعل وإيثار المظهر موصولا بالكفر وفى «لما» من معنى المبادرة على التكذيب من غير تأمل إنكار شديد وتعجيب بليغ منه ، قال تعالى ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ ﴾ فيها دليل على صحة الإشراك ﴿ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ يدعوهم إليه وينذرهم على تركه ، فمن أين كذبوك ؟ هذا غاية فى تجهيلهم ولذا وعدهم بقوله ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كما كذبوا ﴿ وَمَا بَلَغُوا ﴾ أى هؤلاء ﴿ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ من القوة وطول العمر والمال ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ﴾ عطف للمقيد على المطلق وما بينهما اعتراض لحين كذبوهم جاءهم إنكارى بالتدمير ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ إنكارى عليهم بالعقوبة أى هو واقع موقعه فليحذر هؤلاء مثله : نزل الفعل منزلة القول ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم ﴾ أرشدكم وأنصح لكم ﴿ بِوَاحِدَةٍ ﴾ خصلة أو صفة هى ﴿ أَن تَقُومُوا ﴾ من المجلس أو المعنى تنهضوا بالرأى والهمة مخلصين ﴿ لِلَّهِ ﴾ لأجله من غير اتباع هوى ولا تقليد ﴿ مَثْنَىٰ ﴾ اثنين اثنين ﴿ وَفُرَادَىٰ ﴾ واحداً واحداً لأن الكثرة تشوّش الخواطر وتفرق البال والاثنان كل منهما يعرض رأيه على الآخر ، والواحد يؤامر نفسه ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ فى أمر صاحبكم وما جاء به فتعلموا حقيقته وهى ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم ﴾ محمد ﴿ مِّن جِنَّةٍ ﴾ جنون : لما عرفتم من رجاحة عقله وذلك لا يدعه أن يتصدى لادّعاء أمر خطير من غير تحقق ووثوق ببرهان فيفتضح على رءوس الأشهاد ويلقى نفسه إلى الهلاك و « ما » نافية ، وللاستفهام وجه حسن : أى أىّ شىء فيه من آثار الجنون ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ أى قدامه كما قال « بعثت فى نسيم الساعة » ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ مَا سَأَلْتُكُم ﴾ على الإنذار والتبليغ ﴿ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ تركته لكم والمراد نفى السؤال عنه أى لا أسألكم عليه أجراً ويجوز كون « ما » موصولة والذى سأله منهم هو المودة فى القربى ، وقوله « إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » ولا شك أنه لهم لا له . والحاصل أن هذا إثبات ثان لنفى التبدع لأنه إما لغرض أو لا والثانى جنون والأول لم يكن ﴿ إِنْ أَجْرِيَ ﴾ ما ثوابى ﴿ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ الذى أرسلنى

﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ مطلع يعلم صدق وضميرى ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴾ يلقيه على من يجتبيه من عباده أو يرمى به الباطل فيدمغه ، أو يرمى به إلى أقطار الآفاق فيكون وعداً بإظهار الإسلام وإفشائه ﴿ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ بضم الغين للجمهور وكسرها لحمزة وأبى بكر : ما غاب عن خلقه لا يخفى عليه شىء فهو يعلم من يستحق الاصطفاء وما هو جدير بالدمغ والإذهاب و « علام » صفة محمولة على محل إنّ واسمها أو بدل من المستكن فى « يقذف » أو خبر ثان أو خبر محذوف ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ الإسلام ﴿ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ ﴾ الكفر ﴿ وَمَا يُعِيدُ ﴾ أى زهق ولم يبق له أثر فهو كناية عن الهلاك كقولهم لا يأكل ولا يشرب كناية عن الميت ، أو الباطل ما عبد من دون الله لا يقدر على الإنشاء ولا على الإعادة اللذين هما من لوازم الألوهية . وعن الزجاج : أن « ما » استفهامية ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ ﴾ عن الحق ﴿ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى ﴾ أى إثم ضلالى عليها إذ هى الأمّارة بالسوء وبهذا الاعتبار قابل الشرطية بقوله ﴿ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبِّى ﴾ من القرآن والحكمة أو بهداية الله وتوفيقه . وهذا وإن كان خطاباً للنبى صلى الله عليه وسلم فقد دخل تحته كل مكلف ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ ﴾ الدعاء ﴿ قَرِيبٌ ﴾ يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله وإن أخفاه ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا ﴾ عند البعث أو عند الموت أو يوم بدر لرأيت أمراً عظيما ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ لهم منا أى لا يفوتوننا بهرب أو حصن ﴿ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من ظاهر الأرض إلى بطنها أو من القبور إلى النار أو من صحراء بدر إلى القليب « وأخذوا » عطف على « فزعوا » أو على « فلا فوت » على معنى فلم يفوتوا وأخذوا والأول أولى لأنه مقتض إعادة « فلا فوت » تقديراً فيفيد تأكيداً والأفعال الواقعة بعد « لو » و « إذ » وإن كانت للمضىّ فالمراد بها الاستقبال ، جاءت بلفظ الماضى لتحققها فهى كالواقع ﴿ وَقَالُوا ﴾ حين أخذوا ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ أى بمحمد وقد مرّ ذكره فى صاحبكم ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ ﴾ بالواو لنافع وابن كثير وابن عامر وحفص وبالهمزة بدلها للباقين : أى تناول الإيمان ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ عن محله إذ هم فى الآخرة ومحله فى الدنيا ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ ﴾ بمحمد أو بالعذاب ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ فى الدنيا أوان التكليف ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ يرجمون به عطف على « كفروا » والمضارع حكاية للحال أى يتكلمون بما لم يظهر لهم فى الرسول بالطعن وفى العذاب بالنفى ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ وذلك كقولهم فيه : ساحر ، شاعر ، كاهن وفى القرآن : شعر ، سحر ، كهانة . مثل حالهم بحال من يقذف شيئاً من بعيد لا يظنّ لحوقه ، أو هو قولهم إن كان بعثٌ نكن أحسن حالا من أصحاب محمد قياساً بلا جامع مع ظهور الفارق ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من قبول الإيمان فى ذلك الوقت أو كونهم أحسن حالا ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ ﴾ أشباههم فى الكفر ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى قبلهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ موقع فى الريب أو فى شك ذى ريب وكلاهما إسناد مجازى والوجه مختلف . قال أبو حيان : ومريب اسم فاعل من أراب أتى بريبة أو أربته أوقعته فى ريبة . اه وقال ابن عطية : والشك المريب أقوى ما يكون من الشك وأشده إظلاماً . اه

[تم تفسير سورة سبأ]

سورة فاطر

مكية ـ خمس أو ست وأربعون آية

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ مبدعهما والإضافة محضة ولذا وصف به المعرفة لأن الوصف بمعنى للماضى ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾ إلى الأنبياء والأولياء والصالحين بالوحى والإلهام والرؤيا الصالحة ، أو رسلا إلى خلقه يوصلون إليه آثار صنعه ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾ أى ذوى أجنحة وأولو جمع ذو من غير لفظه كالمخاض وهى حوامل النوق مفرده : خلفة . أى أجنحة متعددة متفاوتة بتفاوت مالهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون . وقوله ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ نصبها على الوصف غير منصرفة للعدل والوصف ولا دلالة فيه على عدم الزيادة ولذا أردفه بقوله ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ﴾ فى الملائكة وغيرهم ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ من الأجنحة وغيرها على ما اقتضته الحكمة وما يتناول كل ماقيل فى تفسير الزيادة كحسن الوجه والصوت والخط والعقل وغيرها من السجايا والمزايا ﴿ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فالموجب للتخصيص تعلق الإرادة ﴿ مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ ﴾ أى مايرسله إليهم من نعمة سماوية أو أرضية كمطر ورزق وأمن وصحة وعلم ونبوة : فعبر عن الإرسال بالفتح تجوّزمن السبب للسبب ﴿ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ لا يقدر أحد على منعها ﴿ وَمَا يُمْسِكْ ﴾ من ذلك ﴿ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى بعد إمساكه واختلاف الضميرين لأن الموصول الأول مفسر بالرحمة لحسن التأنيث لذلك وفى تفسيره بها إشارة إلى سبق رحمته ، والموصول الثانى مطلق ليتناولها والغضب أو لدلالة تفسير الأول عليه ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره يرسل ويمسك على وفق مشيئته ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ لا يفعل إلا بعلم وإتقان ، ثم أمر الناس بالشكر فقال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ بالقيام بشكرها وصرف القلب والجوارح إلى طاعة مولاها ثم أنكر أن يكون لغيره فى ذلك مدخل بقوله ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ ﴾ من زائدة للتأكيد وخالق مبتدأ أى خالق لتلك النعم وغيرها ﴿ غَيْرُ اللهِ ﴾ بالرفع للجمهور صفة خالق على المحل وبالجر لحمزة والكسائى على اللفظ والاستفهام بمعنى النفى والتبكيت ﴿ يَرْزُقُكُمْ ﴾ صفة لخالق أو استئناف مفسر له ﴿ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ بالمطر والنبات أى لا خالق رازق غيره ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ مستأنف ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فمن أى وجه تصرفون عن توحيده مع إقراركم بأنه الخالق الرازق ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ يا محمد فى التوحيد والبعث والحساب والعقاب فاصبر متأسياً للرسل ﴿ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ ﴾ كرام

﴿ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فى ذلك نصبروا فأنت أولى بالصبر لأنك سيدهم المقدم واستغنى بالسبب عن الجواب المسبب وتنكير «رسل» للتعظيم المقتضى زيادة التسلية والحث على المصابرة ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فيجازيك وإياهم على الصبر والتكذيب ، ولابن عامر وحمزة والكسائى فتح التاء وكسر الجيم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بالبعث وغيره ﴿ حَقٌّ ﴾ لا خلف فيه ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ التمتع بلذاتها عن طلب الآخرة ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ ﴾ بحلمه وإمهاله ﴿ الْغَرُورُ ﴾ الشيطان بأن يمنيكم المغفرة مع الإصرار على المعاصى ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ عداوة قديمة عامة ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ بطاعة الله والحذر عن مكايده فى عقائدكم وأفعالكم وجميع أحوالكم ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ ﴾ شيعته وأتباعه بالوسواس وتزيين المعاصى ﴿ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ الملازمين لها واللام للعاقبة وهو تقرير لعداوته وبيان لغرضه فى دعوته إلى اتباع الهوى والركون إلى الدنيا . قال ابن عطاء الله : ينبغى للعبد أن يقلل الدخول فى أسباب الدنيا لحديث : إن قليل الدنيا يلهى عن كثير الآخرة ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى . اهـ . ثم بيَّن الله بعد التحذير عن اتباع الشيطان حال حزبه وحزب الله ووصف العذاب والثواب ترهيباً وترغيباً بقوله ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وعيد لمن أجاب دعاءه ووعد لمن خالفه وقطع للأمانى الفارغة وبناء للأمر على الإيمان والعمل الصالح ثم قرر ذلك بقوله ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ بغلبة هواه على عقله حتى انتكس رأيه ﴿ فَرَآهُ ﴾ أى قبيح عمله الباطل ﴿حَسَنًا﴾ فضل به و «من» مبتدأ والخبر كمن هداه الله فرأى الأعمال على ما هى عليه حذف لدلالة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ عليه أو الخبر ذهبت نفسك عليهم حسرة لحذف لدلالة ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ إذا علمت أن الإضلال والهداية بيده تعالى فلا تتأسف على عدم اهتدائهم فلا تهلك نفسك عليهم للحسرات على غيهم وتفارقك والأولى جعل «حسرات» حالا كأن نفسه صارت عين الحسرات وأوثر الجمع للمبالغة كأن له حسرات بعدد كل شخص منهم أو بعدد كل سيئة منهم والجار والمجرور متعلق بتذهب أو بحسرات وتقديم معمول المصدر شائع قاله فى غاية الأمانى خلافاً للبيضاوى . والفاءات الثلاث للسببية غير أن الأوليين دخلتا على السبب والثالثة على المسبب ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ فيجازيهم عليه ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لابن كثير وحمزة والكسائى ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة ولبيان أحداثها بهذه الخاصية ولذا أسندت إليها ﴿ فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ بالتشديد لنافع وحمزة والكسائى وحفص وبالتخفيف للباقين أى الذى لا نبات لها والتفت إلى التكلم الذى هو أدخل فى الاختصاص لما فى هذا السوق والإحياء من مزيد الصنع ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ أى بالمطر النازل منه وذكر السحاب كذكره ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يبسها وذهاب نضارتها ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ البعث والإحياء ، والكاف فى محل الرفع أى

مثل إحياء الموات إحياء الأموات فى صحة المقدورية أو فى كيفية الإحياء . روى أن الله ينزل ماء من تحت العرش ينبت منه الموتى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ ﴾ الرفعة والشرف ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ فى الدارين فليطلبها منه فإن الشىء لا يطلب إلا من مالكه وعزة رسول الله والمؤمنين عزته بسبب طاعته ومن أرادها فليطعه كما بين ما تطلب به بقوله ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ وهو لا إله إلا الله وكل ذكر كسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله والقرآن أفضل من كل ذكر ومعنى صعوده إليه علمه وقبوله على المجاز أو صعود الكتبة بصحيفته، وكذا قوله ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ﴾ وهو الموافق للسنة فرضاً أو نفلا ﴿يَرْفَعُهُ﴾ الله أوالكلم يرفع العمل إذ لا يقبل الله إلا بالتوحيد أوالعمل يرفع الكلم إذ العمل هو الذى ينوّر الإيمان ويحققه ويقويه ، والأول أرجح التأويلات كما فى الجواهر ، وقال فى الفتوحات المكية : فإن قيل كيف صعود الأعمال مع أنها أعراض فالجواب أنها تتصور ثم تصعد على شاكلة فاعلها وعمله حُسناً وقبحاً فتخرج من الهيكل إلى محالها على مركبها الذى هو روح الحضور . اه . ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ المكرات ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ فى الرياء بالأعمال أو فى إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم ونصبه على المصدر لأن «مكر» لازم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ينسى عنده مكرهم.﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يهلك ولا ينفذ لأن الأمور مقدرة لا تتغير بمكرهم كما دل عليه بقوله ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ بخلق آدم منه ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ منىّ فى سائر ذريته ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ ذكراناً وإناثاً وهذا يدل على أن له الحول الكامل لا لغيره ثم أشار إلى العلم الشامل بقوله ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا﴾ ملتبسة ﴿بِعِلْمِهِ﴾ وحفظه ثم أشار إلى القضاء والقدر بقوله ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ﴾ مايمدّ فى عمر طويل العمر ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ أى ذلك المعمر أو معمر آخر ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ هو اللوح أو علم الله ، فعلى الأول التعمير والنقص راجعان إلى شخص واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت فى اللوح مثل أن يكون فيه عمر فلان أربعون إن لم يتصدق بكذا وستون إن تصدق به : لما روى أن الصدقة وصلة الأرحام يزيدان فى العمر أو نقص عمره مايمضى منه ، والكتاب كتاب الحفظة يكتب فيه مضى من عمره يوم ، مضى يومان ، وهكذا ، وعلى الثانى فالمعمر من طوّل عمُره ، والمنقوص مقابله وضمير «عمره» له وإن لم يذكر لدلالة مقابله عليه . وعن قتادة : المعمر من بلغ عمره ستين والمنقوص من مات دونه لكن هذا باعتبار غالب الأعمار . والله أعلم ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ هين والإشارة إلى الحفظ أو الزيد والنقصان ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ ﴾ حلو ﴿ فُرَاتٌ ﴾ كاسر العطش لشدة العذوبة ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ سهل انحداره ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ شديد الملوحة يحرق بملوحته مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر ، ثم استطرد فى وصف البحرين وما علق بهما من المنافع بقوله ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ هو السمك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ ﴾ من الملح أو منهما ﴿ حِلْيَةً ﴾ هى اللؤلؤ والمرجان ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ وقيل إن هذا ليس استطراداً بل هو من تتمة المثل لفضل المشبه به على المشبه لاشتماله

على فوائد لم توجد فى المشبه بعد دعوى الاشتراك فى الملح خاصة فلا ترشيح وقيل هو من تتمة التمثيل على معنى أن البحرين وإن اشتركا فى بعض الفوائد لكن خالط أحدهما ما أفسد فطرته الأصلية من الملوحة وكذلك المؤمن والكافر وإن اتفقا فى بعض الأخلاق والكلم تفاوتاً فيما هو الأصل لبقاء المؤمن على الفطرة دون الكافر ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ ﴾ السفن ﴿ فِيهِ ﴾ فى كل منهما ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ شواق تمخر الماء أى تشقه بجريها فيه مقبلة ومدبرة بريح واحدة وإنما قدم الجار هنا وأخره فى النحل لأن الكلام هناك فى تعداد النعم وكون الفلك ماخرة سبب قريب وهنا وقع استطرادا أو تتمة للغرض ﴿ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ تعالى بالسفر للتجارة ، واللام متعلقة بمواخر أو بما دل عليه الأفعال المذكورة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله على ذلك ، وحرف الترجى باعتبار ظاهر حالهم ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ ﴾ منهما ﴿ يَجْرِي ﴾ فى فلكه ﴿ لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ هو تمام دوره أو منتهاه وهو يوم القيامة ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الفاعل لهذه الأشياء ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ أخبار مترادفة أوجبها تلك الفاعلية ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ تعبدون ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى غيره وهم الأصنام ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ لفافة النواة وهذا دلالة على تفرد الله بالألوهية والربوبية ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ لأنهم جماد ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا ﴾ فرضاً إذ كانوا من جهلهم يعتقدون ذلك ﴿ مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ لعدم القدرة وهذا محسوس لا يكابرون فيه أو لتبرئهم من عبادتكم ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ بإشراككم يقرون يبطلانه ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ ﴾ بأمر الدارين مخبر ﴿ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ عليم به أخبرك وهو الله تعالى إذ هو الخبير به على الحقيقة دون غيره من المخبرين وفيه تحقيق ما أخبر به عن حال آلهتهم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ بكل حال فى ذواتكم وأعراضكم ، وتعريف الفقراء البالغة فى فقرهم كأنهم لشدة افتقارهم بضعفهم هم الفقراء وفقر غيرهم كلا فقر من باب « ذلك الكتاب » ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ عن كل خلقه على الإطلاق ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ المحمود المنعم على سائر الموجودات فاستحق عليهم الحمد ، ومقصود الكلام التنبيه على أن دعاءهم إلى التوحيد والعبادة لنفعهم لا لاحتياجه ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بدلكم بأن ينشئ عالماً آخر أو من يوحده ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ بمتعذر أو متعسر ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾ أى لا تحمل نفس آثمة ﴿ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ فلا يحمل الرسول وزركم وإنما دعاكم رحمة لكم ﴿ وَإِنْ تَدْعُ ﴾ نفس ﴿ مُثْقَلَةٌ ﴾ بالوزر ﴿ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ منه أحداً ليحمل بعضه ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ نفى أن يحمل عنها ذنبها كما نفى أن يحمل عليها ذنب غيرها فالأولى دلت على كمال العدل والثانية على شدة الهول ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ المدعو أو الداعى دل عليه « وإن تدع » ﴿ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ قرابة كالأب والابن لشدة الهول « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ غائبين عن عذابه أو عن الناس فى خلواتهم أو غائباً عنهم حال من الفاعل أو المفعول أى هؤلاء

المنتفعون بإنذارك لا غيرهم لانتفاء القابلية ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ أداموها لحسنوا ظواهرهم بالعبادات كما زينوا بواطنهم بالخشية والإيمان بالغيب والاكتفاء بالصلاة لشمولها سائر العبادات ثم حض على التزكى بالترجية عليه بقوله ﴿ وَمَنْ تَزَكَّىٰ ﴾ تطهر ظاهراً وباطناً ﴿ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ﴾ إذ نفعه لا يتخطاها فهو اعتراض يؤكد ما تقدم ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ المرجع للجزاء. وعد ووعيد ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ الكافر والمؤمن أو معبودهم العاجز والله القادر، فعلى الأول عطف على قوله « وما يستوى البحران » وعلى الثانى من تتمة قوله « ذلكم الله ربكم له الملك » والأول أولى، مثل أولا بالبحرين ثم فضل الملح على الكافر ثم بالأعمى والبصير ففيه ترق ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَاتُ﴾ شبهات الكفر ﴿ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ للإسلام ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ الجنة والنار، والحرور فعول من الحر غلب على السموم ريح النهار وقيل السموم ما يهب نهاراً والحرور ما يهب ليلا ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ تمثيل آخر المؤمن والكافر أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل، وقيل العلماء والجهلاء، وكلمة « لا » فى « ولا الظلمات، ولا الظل » مذكورة للنفى مؤكدة له كما فى « ولا الضالين ». وأما التى فى « ولا النور، ولا الحرور، ولا الأموات » فليست كذلك إذ لا يصح تقدير الفعل بعدها لأن الفاعل مجموع متقابلين فهى زائدة للتوكيد وقيل قصد بها نفى الاستواء من كل منهما ولم تعد فى البصير لأنه تمهيد للترقى إلى التشبيه بالأحياء والأموات ألا ترى كيف أعاد «وما يستوى» وما بينهما من التمثيلين مقصودان ذاتاً فلذا أعيدت فيهما. والله أعلم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَآءُ ﴾ هدايته فيوفقه لفهم آياته فيحييه بالإيمان ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ ترشيح لتشبيه المصرين على الكفر بالأموات مبالغة فى إقناطه عنهم ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ منذر وقد أنذرت وليس عليك الإسماع ولا حيلة لك إليه فى المطبوع على قلوبهم ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ محقين أو محقاً حال من الفاعل أو المفعول أو منهما أو صفة لمصدر أى إرسالا مصحوباً بالحق الهدى ويجوز أن يكون صلة لقوله ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ بالوعد الحق والوعيد الحق من أجاب إليه ومن لم يجب إليه ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ ﴾ أهل عصر ﴿إِلَّا خَلَا﴾ مضى ﴿ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ من نبىّ أو عالم ينذر عنه والاكتفاء بالنذير لأنه قرين البشارة غالباً يعلم منه ولم يعكس لأن الإنذار هو الأهم ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ المعجزات الشاهدة على نبوتهم ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصحف إبراهيم ﴿ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ كالتوراة والإنجيل فاصبر كما صبروا، ويحتمل كون الإسناد إلى الكل بمعنى شمول البعض للكل كالبينات واختصاص البعض كالتوراة ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالاستئصال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ إنكارى عليهم بالعقوبة تعجيب بما صنع بهم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا ﴾ فيه التفات عن الغيبة لما مر ﴿ بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾ أجناسها أو أصنافها أو الألوان المعروفة كأخضر وأحمر وأصفر وغيرها ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ جمع جدة طريق فى الجبل وغيره أو ذو جدد أى خطط من الجد وهو القطع لانقطاعها

من سائر الألوان ﴿ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ فى الشدة والضعف يقق وقان ودونهما ﴿ وَغَرَابِيبُ ﴾ عطف على جدد كأنه قيل الجبال ذوجدد مختلفة الألوان ومنها غرابيب متحدة الألوان وهو تأكيد موصوف مضمر فسره ﴿سُودٌ﴾ وغرابيب جمع غريب شديدة السواد ولا يجوز أن يكون سود تأكيداً له بل تفسيرا أو بدلا منه لأن الغريب تأكيد للأسود لا يتقدمه وفى مثل هذا التركيب مزيد تأكيد لما فيه من التكرير باعتبار الإضمار والإظهار ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ ﴾ كل ما يدب أو الخيل والبغال والحمير ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم من عطف الخاص على العام على الأول صنف ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾ كاختلاف الثمرات والجبال وهو نصب على المصدر أو رفع أى الأمر كذلك ولما خاطبه بألم تر وعدد عليه دلائل التوحيد بما ذكر من العالم العلوى والسفلى من البسائط والمركبات من الحيوان والنبات وسائر الهيئات من الألوان والصفات قال ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ مثلك أو من يدانيك فى المعرفة من الذين قدروا الله حق قدره لا الجهلاء ككفار مكة إذ شرط الخشية معرفة المخشى والعلم بصفاته وأفعاله فن كان أعلم به كان أخشى منه ولذا أتبعه بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته وتقديم المفعول لأن المقصود حصر الفاعل ولو أخر لانعكس الأمر . قاله البيضاوى . قال فى الجواهر : إنما فى هذه الآية تخصيص للعلماء فى الخشية لا للحصر . وقال الربيع بن أنس من لم يخش الله فليس بعالم ، وقال الشعبى : إنما العالم من يخشى الله ، وقال ابن عطاء الله : العلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك ، وقال فى التنوير : واعلم أن العلم حيث ما تكرر فى الكتاب والسنة إنما المراد به العلم النافع الذى تقارنه الخشية ، وحكاياتهم فى هذا لا تحصى . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ فى تعذيب من أصر على الطغيان ﴿ غَفُورٌ ﴾ للتائب علة لوجوب الخشية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ﴾ يقرءون أو يتبعون ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ فإن تلاوته من أفضل الأعمال وكذا العمل بما فيه وقيل أريد به جنس الكتب ثناء على المصدقين من الامم بعد اقتصاص حال المكذبين ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أداموها بشروطها ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أى فى الأوقات كلها ، وقيل السر فى التطوع والعلانية فى الفرض وآثر فى التلاوة المضارع دون التاليين إشارة إلى استغراقهم لما مضى والمستقبل فى الطاعات ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً ﴾ تحصيل ثواب بالطاعة وهو خبر « إن » ﴿ لَنْ تَبُورَ﴾ لن تكسد ولن تهلك بالخسران ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ علة لما دل عليه لن تبور أى نفقت عند الله ليوفيهم بها أجورهم ﴿ وَيَزِيدَهُمْ ﴾ على ما يقابل أعمالهم ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ بتضعيف الحسنات والنظر إلى وجهه تعالى والتشفع فى الإخوان ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ لفرطاتهم ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعاتهم : علة للتوفية والزيادة ﴿ وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعنى القرآن ، و « من » للتبيين أو الجنس أو للتبعيض ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ حال مؤكدة لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق أى أحقه مصدقا لما تقدمه من الكتب السماوية ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ عالم بالبواطن والظواهر فلو لم تكن أهلا لهذا الكتاب المعجز المهيمن على سائر الكتب

لما آثرك به وتقديم الخبير اهتماما لأن الاطلاع على الخفايا والسرائر هو المختص به تعالى وذكر البصير على طريق التتميم أو لأن العمدة فيما ذكر الأمور الروحانية عند أهل الحق ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ أعطينا ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم أمتك يا محمد ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالتقصير فى العمل به بترك الأعمال وارتكاب المحرمات يحاسب ما شاء الله ثم تلحقه الرحمة ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ متوسط خلط عملا صالحا وآخر سيئا لا يعمل به فى أغلب الأوقات فيحاسب حسابا يسيرا ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ بالإتيان بالطاعات وترك المنكرات فى كل الأوقات ويضم إلى العمل به التعليم والإرشاد إلى العمل وهذا يدخل الجنة بغير حساب ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بإرادته وتيسيره وهذا الذى عليه أكثر المفسرين من الصحابة ومن بعدهم ودل عليه التعظيم بالإيراث والاصطفاء، ألا ترى كيف أشار إلى القسم بعده بقوله والذين كفروا لهم نار جهنم ولما فى قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى إيراثهم واصطفاؤهم ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ • جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ مبتدأ والخبر ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أى الثلاثة بالبناء للفاعل للجمهور والمفعول لأبى عمرو. روى الترمذى بإسناده إلى أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تلا هذه الآية قال «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم من أهل الجنة» وقد وافقه رواة أخر يكاد أن يتواتر فلذا عدلنا عن أكثر التفاسير الواردة هنا وبلاغة الترتيب لا تخفى لأن الظالم أكثر والمقتصد كثير والسابق قليل ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ خبر ثان ﴿فِيهَا مِنْ﴾ بعض ﴿أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ من الأولى للتبعيض والثانية للبيان ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب لنافع وعاصم عطفا على محل من أى أساور وبالجر لغيرهما على لفظ ذهب والمعنى من ذهب مرصع باللؤلؤ أو من ذهب فى صفاء اللؤلؤ ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ على الدوام بخلاف الأسورة ربما تنزع كما هو المتعارف فى الدنيا ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ جميعه مما يشفق منه فى الدنيا والآخرة وعن ابن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى القبور ولا فى النشور وكأنى بهم ينفضون التراب ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن» ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ كثير الغفران للذنوب ﴿شَكُورٌ﴾ للطاعات ولو قلت ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ الإقامة ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ إذ لا يستحق العبد على مولاه أجرا لعمل ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب إذ لا تكليف ولا طلب رزق ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ كلال وهو فتور يعترى الإنسان من النصب وإنما نفاه صريحا مبالغة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لا يحكم عليهم بموت ثان ﴿فَيَمُوتُوا﴾ ويستريحوا نصب بإضمار أن ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ طرفة عين كمًّا أو كيفا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ مبالغ فى الكفر ونجزى بالنون للجمهور والياء لأبى عمرو مبنيا للمفعول ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون بشدة وعويل يفتعل من الصراخ وهو الصياح بجهد ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه وأنهم كانوا يحسبون أنه صالح

والآن تحقق لهم خلافه فيقال لهم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا﴾ وقتا ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ جواب منه تعالى على وجه التوبيخ والإقناط وما يتناول كل عمر تمكن المكلف فيه من التفكر قيل ما بين العشرين إلى الستين. وفى البخارى « من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه » ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ وهو الرسول الصادق وكذا العقل والشيب وموت الأقارب كل داخل فى النذير ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أى لكم والإظهار للإشارة إلى العلة ﴿مِنْ نَصِيرٍ﴾ يدفع عنهم العذاب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه شىء وقد علم أنهم أهل الطبع لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما فى القلوب فعلمه بغيرها أولى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ جمع خليفة وهو الذى استخلف على الشىء أى يخلف بعضكم بعضا تقرير لمعنى « أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر » ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ وباله ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ غضبا أو هو أشد البغض ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ فى الآخرة لازدياد العذاب بازدياد الآثام والتكرير لإفادة استقلال الكفر باقتضاء كل من الأمرين ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ﴾ أضافها إليهم لأنهم المثبتون لها ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أخبرونى عن حالها هل تستحق الشركة ﴿أَرُونِي﴾ أخبرونى ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أى جزء من أجزائها: بدل اشتمال من أرأيتم كأنه قال أخبرونى عن هؤلاء الشركاء أرونى أى جزء من الأرض خلقوه ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ مع الله فاستحقوا بذلك شركة فى الألوهية ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ ينطق أنا اتخذنا شركاء ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَاتٍ﴾ بالجمع لنافع وابن عامر وأبى بكر والكسائى وبالإفراد للباقين ﴿مِنْهُ﴾ من ذلك الكتاب بأن لهم شركة ﴿بَلْ﴾ إضراب عن تلك الأقسام إلى ما هو الواقع وهو ﴿إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ بقول الأسلاف للأخلاف والرؤساء للأتباع هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ يمنعهما من الزوال قبل أوانه دلالة على كمال قدرته بعد إثبات عجز الشركاء وفيه أن الممكن حال بقائه يحتاج إلى مُبْقٍ ﴿وَلَئِنْ﴾ لام قسم ﴿زَالَتَا إِنْ﴾ ما ﴿أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى سواه من الأولى زائدة والثانية ابتدائية والجملة سادة مسد الجوابين ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ حيث أمسكهما وكانتا جديرتين أن يهدا وفيه إيماء إلى أن دعوى الشريك له مما يزيل هذه الأجرام عن مقارها لولا حلمه ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب عن الشرك ما قد سلف ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ أى كفار مكة لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا لما يأتى ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ غاية اجتهادهم فيها ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ رسول ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ اليهود والنصارى وغيرهما أى أىّ واحدة منها لما سمعوا « قالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء » أو المراد بإحدى الأمم أفضلها كقولهم زيد واحد القوم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ مجيئه شيئا ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ بعدا عن الحق ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ عن الإيمان مفعول له أو بدل من « نفورا » ﴿وَمَكْرَ﴾ العمل

﴿ السَّيِّئِ ﴾ بتقدير مضاف حذراً من إضافة الموصوف إلى الصفة ، وقيل أصله : وإن مكروا المكر السيّئ لحذف الموصوف استغناء بوصفه ثم أبدل أن مع الفعل بالمصدر ثم أضيف : أى مكرهم بالنبي ومن آمن به وبادّعاء الشريك ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ ﴾ لا يحيط ﴿ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ وهو الماكر ، ومن أمثالهم : من حفر لأخيه قليباً وقع فيه قليباً ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴾ سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم رسلهم ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أى لا يبدل بالعذاب غيره ولا يحوّل إلى غير مستحقه فعذبوا ببدر وغيره ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أى قد ساروا وشاهدوا فى أسفارهم إلى العراق والشام واليمن آثار تلك الامم ولا يقين أعلى من المشاهدة فكان ينبغى أن يعتبروا ويعلموا بصدق مقالتك ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ ﴾ ليسبقه ويفوته ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا ﴾ كامل العلم ﴿ قَدِيرًا ﴾ كامل الاقتدار إشارة إلى أن إمهالهم بعد الإصرار مع كمال الاقتدار لما فى علمه الشامل من الحكم ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا ﴾ من المعاصى ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا ﴾ أى الارض ﴿ مِن دَابَّةٍ ﴾ تدب عليها من سائر الحيوانات بشؤم المعاصى ﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ آخر أعمارهم أو يوم القيامة ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ فيجازيهم بأعمالهم على حسب أحوالهم .

[تم تفسير سورة فاطر]

وبها تم الجزء الثالث من

ضياء التأويل فى معانى التنزيل

ويليه الجزء الرابع ، وأوله تفسير سورة يس

تفسير القرآن الكريم

المسمى

ضياء التأويل

في

معاني التنزيل

تأليف

العلامة أبي محمد عبد الله بن محمد بن عثمان

الملقب بفودي بن عثمان بن صالح

رحمه الله تعالى

الجزء الرابع

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر

الحاج محمد علي أغي

غانا نيزير ومكتو

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يس

مكية أو إلا قوله « وإذا قيل لهم أنفقوا » الآية
وهي ثلاث وثمانون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، يس ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ وَالْقُرْآنِ ﴾ أدغم نون يس في واو « والقرآن » ورش وابن عامر والكسائي وهي واو القسم أو العطف إن جعل « يس » مقسماً به ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ ذي الحكمة على معنى النسبة كلابن أو ناطق بالحكمة استعارة مكنية أو المحكم بعجيب النظام وبديع المعاني ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ والتأكيد بالقسم وإن وغير ذلك للرد على قول الكفار له « لست مرسلا » ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ ﴾ خبر ثان أو حال من المستكن في الجار والمجرور وهو متعلق بما قبله ﴿ مُسْتَقِيمٍ ﴾ طريق الأنبياء قبلك : التوحيد والهدى والقصد ، وصف الشرع بالاستقامة صريحاً وإن دل عليه « إنك لمن المرسلين » التزاماً وتنكير « صراط » لتعظيم منهاجه على طرق سائر الرسل لكونه حنيفاً ﴿ تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ ﴾ بالرفع خبر محذوف لنافع وابن كثير وأبي عمرو وأبي بكر والمصدر بمعنى المفعول وبالنصب للباقين على المصدر بمقدر أو على المدح ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ وقرئ بالجر على البدل ﴿ لِتُنْذِرَ ﴾ به ﴿ قَوْمًا ﴾ متعلق بتنزيل ﴿ مَا ﴾ نافية ﴿ أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ الأقربون في زمن الفترة فهي صفة مبينة لشدة حاجتهم إلى إرساله أو « ما » بمعنى الذي أنذر به أو شيئاً أنذر به آباؤهم الأبعدون من العذاب فيكون مفعولا ثانياً لـ « تنذر » أو مصدرية أي إنذار آبائهم ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ عن الرشد والإيمان متعلق بالنفي على الأول بمعنى أن سبب غفلتهم عدم إنذار آبائهم أو بقوله « إنك لمن المرسلين » على الوجوه الأخر أي أرسلناك إليهم لتنذرهم فإنهم غافلون ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ ﴾ وجب ﴿ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ ﴾ بالعذاب ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي الأكثر بل يموتون على الكفر نتيجة لذلك القول وفيه تسلية لرسول الله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ جمع غل قيد يجمع به الأيدي إلى الذقن ولذلك يقال له الجامعة ويكون ملتقى طرفيه تحت العنق فيه عمود يمنع المغلول من أن يطأطئ رأسه ﴿ فَهِيَ ﴾ أي الأغلال عريضة واصلة ﴿ إِلَى الْأَذْقَانِ ﴾ جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين

﴿ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ رافعون رءوسهم غاضون أبصارهم لا يستطيعون خفضها وكل هذا تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا تغنى عنهم الآيات بتمثيلهم بالمغلول الذى لا يقدر على النظر خلفه ولا قدامه ، ثم قرر ذلك وأكده بقوله ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدًّا ﴾ بضم السين للجمهور وفتحها لحمزة والكسائى وحفص فى الموضعين ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ شيئا تمثيل أيضاً لسد طرق الإيمان عليهم ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم أهل الطبع ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ ﴾ ينفع إنذارك ﴿ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ القرآن بالتأمل فيه والعمل به ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ خافه ولم يره ، وفى ذكر الرحمن مع الخشية إشارة إلى أن لا يغتر برحمانيته فإنه شديد العقاب ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ لا منّ فيه ولا تعب ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ للجزاء وعد ووعيد أو الجهال بالهدى ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ الحسنة كعلم علموه والسيئة كإشاعة باطل وتأسيس ظلم ، وقيل الآثار هى الخطا إلى المسجد لما روى جابر أن بنى سلمة أرادوا الانتقال إلى قرب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا بنى سلمة دياركم تكتب آثاركم » ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴾ نصبه بفعل يفسره ﴿ أَحْصَيْنَاهُ ﴾ ضبطناه ﴿ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ كتاب بيّن هو اللوح المحفوظ ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا ﴾ مثّل أو اجعل بمعنى اذكر لقومك قصة عجيبة قصة ﴿ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ وهى أنطاكية و « مثلا » مفعول أول والثانى « أصحاب » ﴿ إِذْ جَاءَهَا ﴾ إلى آخره بدل اشتمال من « أصحاب القرية » ﴿ الْمُرْسَلُونَ ﴾ رسل عيسى الحواريون بعد رفعه وقيل رسل من قِبل الله . قال ابن عطية : ويرجحه قول الكفرة « ما أنتم إلا بشر مثلنا » فهى محاورة لمن ادعى الرسالة . اهـ . وفى الجواهر: الصحة فى هذه القصة غير متيقنة واللازم من الآية أن الله بعث إلى القرية رسولين للدعاء إلى توحيد الله كما قال تعالى ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ إلى آخره بدل من « إذ » الأولى إلى آخره قيل هما يحيى ويونس ﴿ فَعَزَّزْنَا ﴾ بالتشديد للجمهور أى قوّيناهما والتخفيف لأبى بكر من عزه إذا غلبه وحذف المفعول لدلالة ماقبله عليه ولأن المقصود ذكر المعزز به ﴿ بِثَالِثٍ ﴾ هو شمعون ﴿ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾ وآية ذلك شفاء كل مريض وإبراء الأكمه وإحياء الموتى فشفى على أيديهم خلق ممن آمن بهم وكذبهم الأكثر ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من الوحى لا عليكم ولا على غيركم ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ فى دعوى الرسالة ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴾ استشهدوا بعلم الله وهو يجرى مجرى القسم وزيد التأكيد به وباللام على ماقبله لزيادة الإنكار فى ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ التبليغ البيّن الظاهر بالأدلة وقد حصل ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا ﴾ تشاءمنا ﴿ بِكُمْ ﴾ أى بما سمعنا منكم نخاف أن يسخط علينا إلهنا به أو بانقطاع المطر عنا واختلاف كلمتنا بسببكم ﴿ لَئِنْ ﴾ لام قسم ﴿ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ بالحجارة أو الشتم ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم ﴿ قَالُوا طَائِرُكُمْ ﴾ شؤمكم ﴿ مَعَكُمْ ﴾ بكفركم لا يفارقكم ﴿ أَئِنْ

ذُكِّرْتُم ﴾ همزة استفهام دخلت على إن الشرطية أى لئن وعظتم ، وجواب الشرط محذوف أى تطيرتم وتوعدتم بالرجم وهو محل الاستفهام التوبيخى أى أيكون التذكير الذى هو سبب السعادات كلها جالباً للشؤم ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ متجاوزون الحد فى العصيان ولذا جعلتم سبب السعادة من أسباب الشؤم والشقاء أو لذلك جاءكم الشؤم ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ ﴾ هو حبيب النجار أول من آمن بالرسل لما رأى المعجزات ومنزله بأقصى المدينة وقيل كان فى غار يعبد الله فلما بلغه أن القوم عزموا على قتل الرسل سعى إليهم وباح بإسلامه ليشتغلوا به عن الرسل ﴿ يَسْعَى ﴾ يشتد عدواً ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ أضاف القوم إلى نفسه وأطلق الرسل إظهاراً للنصح ﴿ اتَّبِعُوا ﴾ تأكيد للأول ﴿ مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ على النصح وتبليغ الرسالة ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ إلى عز الدارين فقيل له : أنت على دينهم ! فقال ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ خلقنى أى لا مانع لى من عبادته الموجود مقتضيها وأنتم كذلك ، أو المراد وما لكم فتلطف فى الإرشاد بإيراده فى معرض المناصحة لنفسه حتى يعلموا أنه أراد لهم ما أراد لنفسه ولذلك قال ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فى الآخرة فيجازيكم وفيه مبالغة فى التهديد ثم عاد إلى المساق الأول فقال ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى غيره ﴿ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾ بالنصر والمظاهرة صفة آلهة ﴿ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ لا يخفى على أحد ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذى خلقكم ورزقكم ﴿ فَاسْمَعُونِ ﴾ أى اسمعوا قولى وأطيعوا فقد أرشدتكم بما لا مزيد عليه ، وقيل خاطب الرسل لما قام قومه فى قتله ، أى اسمعوا كلامى واشهدوا لى عند الله ، فرجموه فمات ﴿ قِيلَ ﴾ له عند موته ﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ فلما أقر الله عينه بما رأى من الكرامات ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ بغفرانه لى ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ليكون باعثاً لهم إلى الإيمان . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « نصح قومه حيًّا وميتاً » ، وما مصدرية أو موصولة ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ أى حبيب ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ بعد موته ﴿ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى لم ننزل جنداً من السماء لإهلاكهم تحقير لأمرهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ ملائكة لإهلاك أحد إذ كفى صيحة جبريل بهم وإنزال الملائكة ببدر ونحوه إجلال لقدر رسول الله وبيان لرفعته ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ كَانَتْ ﴾ عقوبتهم ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ صاح بهم جبريل ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ كما تخمد النار استعارة تبعية أى ميتون ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ هؤلاء ونحوهم ممن كذبوا الرسل فأهلكوا وهى شدة التألم ونداؤها مجاز أى هذا أوانك فاحضرى أو نصب «حسرة» على المصدر والمنادى محذوف أى يا هؤلاء تحسروا حسرة ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ مسوق لبيان سبب التحسر لاشتماله على استهزائهم المؤدى إلى إهلاكهم المسبب عنه الحسرة ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ أى أهل مكة القائلون للنبى لست مرسلا والاستفهام للتقرير أى علموا ﴿ كَمْ ﴾ خبرية بمعنى كثيرا معمولة لما بعدها معلقة ما قبلها عن العمل لأن أصلها الاستفهام والمعنى أنا ﴿ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ﴾ كثيرا ﴿ مِنَ الْقُرُونِ ﴾

الأمم ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أى المهلكين ﴿ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ وأنهم إلى آخره بدل مما قبله برعاية المعنى المذكور أى أو لم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم وكونهم غير راجعين إليهم ﴿وَإِنْ﴾ مخففة أى ﴿كُلٌّ﴾ الخلائق مبتدأ ﴿لَمَّا جَمِيعٌ﴾ مجموعون ﴿ لَدَيْنَا ﴾ فى الموقف بعد بعثهم ﴿مُحْضَرُونَ﴾ للحساب وقوله لما جميع بتخفيف الميم خبر المبتدأ واللام هى الفارقة وما زائدة ومحضرون خبر ثان هذه قراءة الجمهور ولابن عامر وعاصم وحمزة لمّا بالتشديد بمعنى إلا فتكون إن نافية وجميع بمعنى كل مفعول ولدينا ظرف له أو لمحضرون وإنما جمع بين كل وجميع لإفادة كل معنى الإحاطة وجميع معنى الاجتماع ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ على البعث خبر مقدم والمبتدأ ﴿ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ ﴾ بالتشديد لنافع والتخفيف لغيره ﴿ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ صفة للأرض أو استئناف لبيان كونها آية ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾ أى جنسه الشامل لأنواع شتى ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدم الصلة للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ﴾ من أنواع النخل والعنب ولذا جمعها دون الحب ولم يذكر التمر مع الحب والأعناب لاختصاص شجر التمر بمزيد النفع وآثار الصنع ، وفى الحديث: أنه مثل المسلم ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ شيئا ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ أى بعضها أو من زائدة عند الأخفش ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ ثمر ماذكر من الجنات ومابعده بفتحتين للجمهور ، وبضمتين لحمزة والكسائى ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ لم تعمل الثمر ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ وما نافية ويؤيده قراءة الكوفيين غير حفص بحذف الضمير المتصل فى عملته أو موصولة أو موصوفة عطف على الثمر أى الذى أو شىء عملته أيديهم بالصنع كالعصير والدبس ونحوهما ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ نعمه تعالى عليهم هذا أبلغ من الأمر لأنه إنكار على الترك ثم نزه ذاته عن الشريك بقوله ﴿ سُبْحَـٰنَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ ﴾ الأصناف ﴿ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ الْأَرْضُ ﴾ من الحبوب والشجر وغيرها ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من الذكور والإناث ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ من الأزواج العجيبة الغريبة مما لم يطلعهم الله عليه ولم يجعل لهم طريقا إلى معرفته ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ على القدرة العظيمة ﴿ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ نزيله ونكشفه عن مكانه مستعار من سلخ الجلد والكلام فى إعرابه ماسبق ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ داخلون فى الظلام ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى ﴾ إلى آخره من جملة الآية لهم أو آية أخرى والقمر كذلك ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ ﴾ أى إلى مستقر زمانىّ أو مكانىّ ﴿ لَّهَا ﴾ وهو ما ينتهى إليه سيرها فى آخر السنة شبه بمستقر المسافر أو منتهى المشارق والمغارب وهو أقصى ما تنتهى إليه منها ثم ترجع أو لحد معين من مسيرها كل يوم أو الوقت الذى ينقطع فيه جريها عند خراب العالم والمكانى هو مستقرها تحت العرش كما فى البخارى عن أبى ذر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : «إن الشمس إذا غربت تذهب فتسجد تحت العرش فيقال لها اذهبى فاطلعى حيث كنت تطلعين ويوشك أن تستأذن فلا يؤذن لها ويقال ارجعى حيث جئت فتطلع من مغربها» ﴿ذَٰلِكَ ﴾ الجرى على هذا المثال ﴿ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ فى ملكه ﴿الْعَلِيمِ ﴾ المحيط علمه بكل معلوم ﴿وَالْقَمَرُ﴾ بالرفع لنافع وابن كثير وأبى عمرو على الابتداء وما بعده الخبر أو العطف على السابق فينتظم فى سلك الآيات كأنه قال : ومن آياته

الليل والشمس والقمر » وبالنصب للباقين بإضمار فعل يفسره ﴿ قَدَّرْنَاهُ ﴾ من حيث سيره ﴿ مَنَازِلَ ﴾ ثمانية وعشرين منزلا وتقدمت فى غير موضع ﴿حَتَّى عَادَ﴾ القمر فى آخر منازله فى رأى العين دقيقا مقوسا مصفرا ﴿ كَالْعُرْجُونِ ﴾ عود الشماريخ إذا عتق ﴿ الْقَدِيمِ ﴾ الذى تقادم عهده فإنه يدق وينقوس ويصفر فشبه به من ثلاثة أوجه ، والعرجون فعلون من الانعراج وهو الاعوجاج ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى ﴾ يسهل ﴿ لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ فتجتمع معه فى سلطانة الليل فتطمس نوره وتبطل ما نيط به من الفوائد ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ فلا يأتى قبل انقضائه والمراد بالليل آيته إذ الكلام فى ذلك يدل عليه السابق واللاحق وإنما أوثر طريق الكناية ليدمج فيه الإشارة إلى اختلاف الليل والنهار أيضا ولما ذكر فى الشمس الإدراك الدال على أنها طالبة للحاق أردفه بلا ينبغى أى لا يصح لها ذلك ولما نفى السبق فى القمر لأنه أسرع أكده بالجملة الاسمية فلم يبق لذكر الأبنعاء وجه . قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَكُلٌّ ﴾ تنوينه عوض من المضاف إليه من الشمس والقمر وما أشعر به من النجوم ﴿ فِى فَلَكٍ ﴾ مستدير ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ يسيرون سريعا نزلوا منزلة العقلاء. وهذا صريح فى أن الحركة للكواكب خلاف ما عليه أهل النجوم ﴿ وَءَايَةٌ لَهُمْ ﴾ على قدرتنا ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ بالجمع لنافع وابن عامر وبالإفراد للباقين أى أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم أو ذكر الذرية لضعفهم عن السفر فالنعمة فيهم أمكن ﴿ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ السفن المملوءة من شحن السفينة أوقرها وقيل المراد فلك نوح الذى حمل فيه آباءهم وفى أصلابهم ذرياتهم . والله أعلم ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ مثل الفلك ﴿ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ عليه من الإبل فإنها سفائن البر أو من مثل فلك نوح وهو ما عمل الناس على شكله من السفن والزوارق جمع زورقة : السفينة الصغيرة . بتعليم الله تعالى يركبون فيه ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ مع اتخاذ السفن ﴿ فَلَا صَرِيخَ ﴾ مغيث ﴿ لَهُمْ ﴾ من الغرق أو فلا إغاثة لهم إذ هو مصدر فى الأصل كالصراخ ﴿ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ ينجون من الموت لشىء ﴿ إِلَّا رَحْمَةً ﴾ إلا لرحمة ﴿ مِنَّا وَمَتَاعاً ﴾ أى وتمتيع بالحياة ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ إلى زمان قدر لآجالهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ ما تقدم وما تأخر من الذنوب أو نوائب السماء والأرض أو عذاب الدنيا والآخرة أو أمثال ما تقدم من عقوبات الأمم وما تأخر من عذاب الآخرة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لتكونوا راجين رحمة الله وجواب إذا محذوف أى أعرضوا دل عليه ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فدأبهم الإعراض فى كل آية اعتادوه وتمرنوا عليه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أى قال فقراء الصحابة لهم ﴿ أَنْفِقُوا ﴾ علينا وعلى المحاويج ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ من الأموال ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ استهزاء بهم ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ فى معتقدكم أو أرادوا لما كان الله قادرا أن يطعمهم ولم يطعمهم فنحن أحق بذلك ؟ وهذا من فرط جهالتهم ، ولما كان مدار الإيمان على تعظيم الله والشفقة على خلقه سلب الله عنهم الوصفين معا ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ﴾ فى قولكم لنا ذلك مع معتقدكم هذا ﴿ إِلَّا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ بيّن وهذا على

أنه من قول الكفار ، وقيل إنه جواب المؤمنين أى إن أنتم إلا فى ضلال حيث أمرتمونا بما يخالف مشيئة الله ، ويجوز أن يكون جوابا من الله لهم وللتصريح بكفرهم موقع عظيم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ بالبعث ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه قال تعالى ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ أى ماينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هى نفخة الفزع وهى الأولى وفى حديث أبى هريرة إن بعدها نفخة الصعق ثم نفخة الحشر وهى التى تدوم مالها من فواق وقيل نفخة الفزع والصعق واحدة وهى نفخة إسرافيل الأولى ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخَصِّمُونَ﴾ بفتح الخاء وتشديد الصاد لورش وابن كثير وهشام واختلس فتح الخاء قالون وأبو عمرو وبكسر الخاء وتشديد الصاد لعاصم والكسائى وابن ذكوان وبإسكان الخاء وتخفيف الصاد كيضربون لحمزة فذلك أربع قراءات أى يتخاصمون فى متاجرهم ومعاملاتهم غافلين لاتخطر ببالهم كقوله بل تأتيهم بغتة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أن يوصوا فى شىء من أمورهم ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ من أسواقهم وأشغالهم بل يموتون فيها حيث أخذتهم وقيل بعد نفخة الفزع تحيط بهم النار وتسوقهم أحياء إلى المحشر تبيت معهم حيث باتوا كما جاء فى الأحاديث الصحاح ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هو قرن النفخة الثانية للبعث وبين النفختين أربعون سنة ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أى المقبورون ﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ يخرجون بسرعة ﴿قَالُوا﴾ الكفار منهم ﴿يَا﴾ للتنبيه ﴿وَيْلَنَا﴾ هلاكنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ موضع نومنا لما شهدوا أهوال القيامة عدوا عذاب القبر راحة وفيه ترشيح ورمز وإشعار بأنهم لاختلاط عقولهم يظنون أنهم كانوا نياما وقيل يرفع الله العذاب عنهم بين النفختين فيهجعون هجعة لكنه غير صحيح . قاله ابن عطية . والله أعلم . ﴿هَٰذَا﴾ البعث ﴿مَا﴾ الذى ﴿وَعَدَ﴾ به ﴿الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ﴾ فيه ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ أقروا حين لا ينفعهم الإقرار وقيل يقال لهم ذلك من المؤمنين والملائكة جوابا عن سؤالهم معدولا عن سننه تنبيها لهم بأن الأهم السؤال عن البعث دون الباعث فكأنهم قالوا الباعث معلوم وليس ذلك بالبعث الذى تظنونه بل هو بعث آخر ذو الأهوال والأفزاع الذى جاءت به الرسل والكتب ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ النفخة الأخيرة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ نفخة إسرافيل الأخيرة ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بمجرد تلك الصيحة وفى كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر على الله إذ لايحتاج إلى أسباب فيقال لهم يومئذ ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جزاء ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تصوير لذلك الموعود فى صورة الحاضر تمكينا له فى النفس وترغيبا لطلبه ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ﴾ بسكون الغين لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبضمها للباقين أى شغل بالنعيم ﴿فَاكِهُونَ﴾ متنعمون متلذذون فى النعمة وفى تنكير شغل وإبهامه تعظيم لما هم فيه من البهجة والتلذذ وتنبيه على أنه أعلى من أن تحيط به الأفهام ويعرب عن كنهه الكلام ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ جمع ظل خبر أى لاتصيبهم الشمس إذ لا شمس ، ولحمزة والكسائى فى ظلل جمع ظلة وهى الساتر العالى ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة وهى السرير فى الحجلة أو الفرش فيها جملة مستأنفة أو خبر ثان لهم ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ خبر آخر متعلق على ﴿لَهُمْ

فِيهَا فَـٰكِهَةٌ ﴾ ما يتفكهون به تلذذا لأن الأكل هناك ليس لدفع الجوع ﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ يتمنون لأنفسهم من الملاذ ، و « ما » موصولة أو موصوفة ﴿ سَلَـٰمٌ ﴾ بدل من ما أى لهم سلام خالص لا شوب فيه ﴿ قَوْلًا ﴾ مصدر مؤكد أى يقال لهم قولا كائنا ﴿ مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ والمعنى أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تعظيما لهم وذلك مطلوبهم ومتمناهم ، ويحتمل نصب قولا على المدح وهو أحسن الوجوه . قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَ ﴾ يقول ﴿ امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ انفردوا عن المؤمنين وذلك حين يسار بهم إلى الجنة والإنشاء فى معنى الخبر كقوله « يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا .. الآية » وأوثر صورة الطلب لأنه أبلغ فى التهويل ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ﴾ آمركم ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ على لسان رسلى ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ لا تطيعوه ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة تعليل للنهى ﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي ﴾ عطف على أن لا تعبدوا أى وحدونى وأطيعونى ﴿ هَـٰذَا ﴾ الذى عهد إليكم ﴿ صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ والتنكير للتعظيم والجملة استئناف لبيان المقتضى للعهد ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا ﴾ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام لنافع وعاصم جمع جبلة بمعنى الخليقة وبضمهما والتخفيف لابن كثير وحمزة والكسائى جمع جبيل بمعنى مجبول كسبيل وسبل وبالضم والإسكان مخففاً لأبى عمرو وابن عامر بيان لمعاداة الشيطان بوضوح إضلاله ﴿ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ عداوته وإضلاله وما حل بمن أضلهم من العذاب فتؤمنون ، ويقال لهم فى الآخرة إذا برزت الجحيم للغاوين ﴿ هَـٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ بها ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أى ذوقوا حرها بكفركم فى الدنيا ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى الكفار نمنعها من الكلام ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ وغيرها ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ فكل عضو ينطق بما صدر منه ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ ﴾ لأعميناها طمساً ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ ابتدروا إليه ذاهبين كعادتهم والصراط نصب بنزع الخافض أو تضمين الاستباق معنى الابتدار أو على الظرف أى استبقوا فى الطريق أو مفعول به أى جاوزوه من قولهم استبق الصراط خلفه ﴿ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ حينئذ أى لا يبصرون يعنى أن الله سلب بصائرهم فضلوا عن طريق الآخرة ولو شاء لسلب أبصارهم فلم يقدروا على الاهتداء إلى مقاصدهم الدنيوية لكن لم يفعل ذلك لاقتضاء الحكمة إمهالهم ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ ﴾ بتغيير صورهم إلى أقبح منها كقردة وخنازير أو حجارة أو إبطال قواهم بجعلهم زمنى ﴿ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ مكانهم فيجمدون فيه ، وقرأ أبو بكر مكاناتهم أى فى منازلهم ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا ﴾ ذهاباً ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى ولا رجوعاً فوضع الفعل موضعه للفواصل ، وقرئ مِضيا بكسر الميم إتباعاً للضاد وإيثار المضارع للدلالة على الاستمرار ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ من نطل عمره نقلبه فيه ونرده من قوة الشباب إلى ضعف الهرم . وقرأ عاصم وحمزة ننكسه مضارع التفعيل إشارة إلى كثرة المراتب من الصبا إلى الشباب إلى الكهولة إلى الشيوخة إلى الهرم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالخطاب لنافع وابن ذكوان التفاتاً

وبالغيبة للباقين : أى من قدر على إنشاء هذه الأطوار قادر على الطمس والمسخ ولذلك عطف عليه عطف العلة على المعلول ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أى محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ الشِّعْرَ ﴾ الكلام الموزون المتوخى به التخييلات المرغبة والمنفرة ونحوهما لأن ما أتاه كلام مشتمل على أمر المبدإ والمعاد وأخبار القرون الخالية متضمن للمنافع الدينية والدنيوية على أسلوب ألحم كل شاعر منطيق فهو ردٌّ لقولهم أن ما أتى به شعر ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ لا يليق به الشعر لبعده عن مخائل الشبه ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أى ليس الذى أتى به ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ عظة ﴿ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ واضح إعجازه أو مظهر للأحكام وغيرها والعطف باعتبار الصفات أى هو ذكر لما فيه من الموعظة والإرشاد ، والقرآن كتاب سماوى متعبد بلفظه يتلى فى الصلوات وغيرها ويعمل بما فيه من الأحكام النظرية والعملية ﴿ لِتُنْذِرَ ﴾ بالخطاب لنافع وابن عامر وبالغيبة للباقين : أى لينذر القرآن ﴿ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ عاقلا ساعياً فى أمر الآخرة إذ الغافل المعرض كالميت أو من كان مؤمناً فى علم الله فإن الحياة الأبدية بالإيمان وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع به ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ ﴾ تجب كلمة العذاب ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ المصرين على الكفر فهم كالميتين لا يعقلون ما يخاطبون به ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعلموا والاستفهام للتقرير والواو الداخلة عليه للعطف ﴿ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ ﴾ فى جملة الناس ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ أى ما عملناه بلا شريك ولا معين وذكر الأيدى على طريق التمثيل وزيادة التصوير وفى جمعها إشارة إلى كمال الاقتدار ﴿ أَنْعَامًا ﴾ هى الإبل والبقر والغنم خصها بالذكر لكثرتها عندهم ولما فيها من بدائع الفطرة وكثرة المنافع ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ لا يزاحمهم فيها أحد ولهم فى ذلك عز وسرور أو متمكنون من ضبطها بتسخيرنا ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا ﴾ سخرناها ﴿ لَهُمْ ﴾ منقادة ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ مركوبهم تحمل أثقالهم ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أى ما يأكلون لحمه : تفريع على كونها مذللة ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أخر من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ من اللبن جمع مشرب بمعنى شرب أو موضعه أو ما يتخذ من جلودها من الروايا والقرب والمزاود ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ المنعم بها عليهم فيؤمنون أى ما فعلوا ذلك ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ غيره ﴿ آلِهَةً ﴾ أى لم يرضوا بترك الشكر على تلك النعم حتى أشركوا فى ألوهيته جمادات ﴿ لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ رجاء أن ينصروهم فيما حزبهم من الأمور والأمر بالعكس لأنهم ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أى آلهتهم نزلوا منزلة العقلاء ﴿ نَصْرَهُمْ وَهُمْ ﴾ أى المشركون فى الدنيا ﴿ لَهُمْ ﴾ أى لآلهتهم ﴿ جُنْدٌ ﴾ يخدمونهم ويذبون عنهم وهذا كمال السفاهة ، أو الآلهة جند وأتباع لهم يوم القيامة ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ فى النار معهم ليكونوا وقودها عليهم ﴿ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ لك لست مرسلا وغير ذلك ، بضم الياء لنافع وفتحها للباقين ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ من العقائد ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من الأقوال والأفعال فنجازيهم على ذلك وكفى بذلك أن تتسلى به وهو تعليل للنهى ثم سلاه ثانياً بقوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ ﴾ المنكر للبعث أبى أو أمية أو العاصى . قال فى الجواهر : والصحيح فى سبب نزول الآية : هو ما رواه وهب عن مالك أن

أبي بن خلف جاء بعظم رميم ففته فى وجه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : من يحيى هذا يا محمد ؟ قال تعالى « أولم ير الإنسان » ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ منيّ إلى أن صيرناه قويا ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ شديد الخصومة لنا ﴿مُبِينٌ﴾ بيّنها فى نفي البعث ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أمرا عجيبا فى ذلك بأن شبهنا بالمخلوقين حيث سلب القدرة عنا على الإعادة ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ من تلك النطفة التى لم تكن فيها حياة قط وخلقه أغرب من مثله ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ بالية والرميم اسم لما بلي من العظام وليس بصفة ولذا لم يؤنث وفيه دليل على أن فى العظم حياة فينجس بالموت لأن كل محل تحله الحياة ينجس بالموت خلافا للحنفي روى أن أبيًّا أخذ عظما رميما ففته وقال للنبي أترى يحيي الله هذا بعدما بلي ورمّ فقال صلى الله عليه وسلم : نعم ويدخلك النار ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإن نسبة القدرة لا تختلف ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ مخلوق ﴿عَلِيمٌ﴾ كامل العلم بأجزائه وصفاته مجملا ومفصلا قبل خلقه وبعده فيعلم أجزاء الأشخاص المتفتتة المتبددة أصولها وفصولها ومواقعها وطريق تمييزها وضم بعضها إلى بعض على النمط السابق وإعادة الأعراض والقوى التى فيها أو إحداث مثلها ، ثم انتقل من الدليل العقلى إلى المحسوس الذى لا يمارون فيه بقوله ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ﴾ فى جملة الناس ﴿مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾ المرخ والعفار ونحوهما ﴿نَارًا﴾ بأن يسحق المرخ على العفار وهما خضراوان يقطر منهما الماء فينقدح النار ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها كان أقدر على البعث ، ثم ترقى إلى دليل آخر أجلى وأظهر من كل جلي فقال ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ فى الصغر والحقارة بالإضافة إليهما أو مثلهم فى أصول الذات وصفاتها وهو المعاد ﴿بَلَى﴾ جواب من الله لتقرير ما بعد النفي مشعر بأنه لا جواب سواه ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ كثير المخلوقات والمعلومات أتى بالوصفين اللذين هما العمدة فى الإيجاد وهما الاقتدار الكامل والعلم الشامل ، ثم أشار إلى أن إيجاد الأشياء الذى يستبعدونه لا توقف له إلا على إرادته واقتضاء حكمته بقوله ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ شأنه ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ أى خلق شيء ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فهو يكون ، ولابن عامر بالنصب عطفا على يقول فكلمة كن مجاز عن سرعة التكوّن بعد تعلق الإرادة ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ﴾ أى ملك ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ والتاء للمبالغة فى الاستيلاء على ما يطلق عليه اسم الشيء فى العالم العلوى والسفلي فالكل تحت قهره وسلطانه آخذ بناصيته وهذا تنزيه وتعجيب عما قالوا من نفي قدرته على الإعادة مع هذه البراهين ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فى الآخرة للجزاء ، وعيد ليس فوقه وعيد ، ولذلك التفت إلى الخطاب مكافحا به .

[تم تفسير سورة يس]

سورة الصافات

مكية ـ مائة واثنتان وثمانون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ أقسم بالملائكة الصافين فى العبادة أو أجنحتها فى الهواء تنتظر ما تؤمر به ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾ الملائكة تزجر السحاب فى سوقه أو الناس عن المعاصى بإلهام الخير أو الشياطين عن التعرض لهم ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ آيات الله من كتبه المنزلة وغيرها يتلونه تعبداً أو تلذذاً ويتلونه على الأنبياء . أو أقسم بطوائف العلماء الصافين فى العبادات الزاجرين عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح . التالين آيات الله وشرائعه أو بطوائف الغزاة الصافين عند اللقاء الزاجرين الخيل فى الكر والفر التالين لذكره لا يشغلهم عنه مباراة العدو ، أو الصافات الطير والزاجرات كل من زجر عما نهى الله عنه ، والتاليات كل من تلا كتاب الله ، والعطف لاختلاف الصفات أو الذوات والفاء تفيد الترتيب فى الرتبة . الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة : أدغم أبو عمرو وحمزة التاءات فيما يليها لتقاربها فإنها من طرف اللسان وأصول الثنايا ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ جواب القسم والفائدة فيه تعظيم المقسم به وتأكيد المقسم عليه على ما هو المألوف من كلامهم ﴿ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ والمغارب للشمس لها كل يوم مشرق ومغرب ومشارقها حينئذ ثلثمائة وستون وبحسبها المغارب أو مشارق الكواكب ومغاربها وهو دليل على تحقيق المقسم عليه لأنهم مسلمون أنه المنفرد بخلق السموات والأرض وجميع المشارق ، واكتفى بالمشارق دون المغارب لأنه أبلغ فى النعمة وأكمل فى القدرة ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ﴾ القربى منكم ﴿ بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴾ بضوئها أو بها والإضافة للبيان وهى من إضافة المصدر إلى المفعول بأن زان الله الكواكب وحسنها فزينت السماء بحسنها أو إلى الفاعل بأن زانت الكواكب السماء وقرأ حمزة وحفص بزينةٍ الكواكبِ بالتنوين وجر الكواكب على أنه عطف بيان أو بدل والزينة على هذا اسم ما يزان به أو جعلت الكواكب نفس الزينة مبالغة ، وأبو بكر بالتنوين ونصب الكواكب على أنها مفعول المصدر أو على أن الزينة اسم والكواكب بدل على الموضع أو نصب بأعنى ، ولا يلزم أن تكون السماء الدنيا محل الكواكب لعدم توقف الزينة على ذلك ﴿ وَحِفْظًا ﴾ عطف على المحل أو مصدر لمقدر أى حفظناها بالشهب ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ ﴾ متعلق بالمقدر ﴿ مَارِدٍ ﴾ عات خارج عن الطاعة ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ ﴾ بسكون السين للجمهور ولحمزة والكسائى وحفص بتشديد الميم والسين أصله يتسمعون أدغمت التاء فى السين

أى الشياطين مستأنف وسماعهم هو فى معنى المحفوظ عنه أو صفة كل شيطان على معنى لا يمكنون من السماع مع الإصغاء ﴿ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ ﴾ الملائكة فى السماء وعدى السماع بإلى لتضمنه معنى الإصغاء ، سمى ملائكة السماء الدنيا فما فوقها بالملإ الأعلى لأن كلا منهم أعلا بالإضافة إلى الملإ الأرضى الذى هو أسفل ﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ بالشهب ﴿ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ من جوانب السماء إذا أرادوا صعوداً ﴿ دُحُورًا ﴾ مصدر دحره أى طرده وأبعده وهو مفعول له أو مصدر «يقذفون» كقعدت جلوساً أو حال بمعنى مدحورين ﴿ وَلَهُمْ ﴾ فى الآخرة ﴿ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ دائم من وصب الأمر دام أو شديد من الوصب وهو المرض ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ أى المرة استثناء من واو يسمعون ومن بدل منه والخطف الاختلاس والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقة ولذلك عرف الخطفة أى لا يسمع إلا شيطان اختلس كلمة من الملائكة استراقاً ﴿ فَأَتْبَعَهُ ﴾ لحقه ﴿ شِهَابٌ ﴾ كوكب ﴿ ثَاقِبٌ ﴾ مضىء يثقبه أو يحرقه أو يخبله ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ استخبر كفار مكة بعد ما تلوت عليهم هذه الآيات إنكاراً أو توبيخاً ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ أى أصعب إنشاء بعد الرفات ﴿ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ من الملائكة والسموات والأرض وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب الثواقب و « من » لتغليب العقلاء. وقيل من خلقنا من عاد وثمود وسائر الأمم الدارجة المهلكة للتكذيب كأنه قال لهم انتظروا الهلاك كمن كان قبلكم ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ لازج يلصق باليد فكيف ينكرون الإعادة وهى فى تلك الأجزاء المائية والأرضية والمقتدر الذى أنشأ أشد منهم هو المعيد ﴿ بَلْ ﴾ إضراب عن الاستفتاء لأنهم لا يجيئون بما هو الحق أى بل أنت ﴿ عَجِبْتَ ﴾ بفتح التاء للجمهور خطاباً للنبى صلى الله عليه وسلم من تكذيبهم إياك مع تلك الدلائل الدالة على كمال الاقتدار ، وبضمها على صيغة التكلم لحمزة والكسائى أى استعظمت إنكارهم قدرتى ﴿ وَ ﴾ هم ﴿ يَسْخَرُونَ ﴾ من تعجبك وتقريرك للبعث ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا ﴾ وعظوا بالقرآن وكل شىء ﴿ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ لا يتعظون لبلادتهم وقلة فكرهم ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ معجزة تدل على صدق القائل به ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ يبالغون فى السخرية ويقولون إنه سحر أو يستدعى بعضهم من بعض أن يسخر منها . قال فى الجواهر : نزلت هذه الآية فى ركانة ونظرائه كان من أشداء قريش قد صرع النبىُّ صلى الله عليه وسلم أباه فى الجاهلية فوجده النبى صلى الله عليه وسلم يرعى غنماً له فقال: ياركانة إن صرعتك أتؤمن؟ قال : نعم . فصرعه رسول الله ثلاثاً ثم عرض عليه آيات من دعاء شجرة وإقبالها ونحو ذلك مما اختلفت فيه ألفاظ الحديث ولم يؤمن وقال يا بنى هاشم إن صاحبكم أسحر أهل الأرض ﴿ وَقَالُوا ﴾ فى الآية ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ بيّن وإذا كان حالهم فى المحسوسات بالأبصار هكذا فلا يبعد منهم إنكار البعث كما قالوا ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ بطرح الهمزة الثانية لنافع والكسائى وطرح الأولى لابن عامر وإثباتهما على الأصول للباقين والأصل أنبعث إذا متنا؟ فبدلوا الفعلية بالاسمية وقدموا الظرف وكرروا الهمزة على قراءة الباقين مبالغة فى الإنكار وإشعاراً بأن

البعث مستنكر فى نفسه وفى هذه الحال أشد استنكاراً ﴿أَوَ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ بفتح الواو للجمهور والهمزة للاستفهام عطف على محل إن واسمها أو على المستكن فى «مبعوثون» والفاصل همزة الاستفهام وبسكون الواو لابن عامر وقالون عطف بأو على معنى الترديد ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تبعثون وللكسائى بكسر العين ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون أذلاء لما تزعمون إن كان بعث فنحن أحسن حالا من صعاليك المؤمنين ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ ضمير مبهم يفسره ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أى صيحة وهو جواب شرط مقدر أى إذا كان ذلك فإنما البعثة صيحة واحدة وهى النفخة الثانية ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ الخلائق أحياء ﴿يَنْظُرُونَ﴾ مايفعل بهم ﴿وَقَالُوا﴾ أى الكفار ﴿يَا﴾ للتنبيه ﴿وَيْلَنَا﴾ هلاكنا ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ الجزاء الذى أنكرناه وكذبنا فيه الرسل، وقيل تقول لهم الملائكة ذلك وكذا فى قوله ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين الخلائق ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ هو كلام بعضهم لبعض أو كلام الملائكة لهم، ويقال للملائكة ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالشرك ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أشباههم وأضرابهم وهم قرناؤهم من الشياطين ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان أى احشروهم من مقامهم إلى الموقف أو من الموقف إلى الجحيم كما قال ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ دلوهم وسوقوهم ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ طريق النار ليسلكوها ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ فى الموقف أو عند الصراط ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ عن جميع أقوالهم وأفعالهم ومعتقداتهم والواو لا توجب الترتيب وتقديم الحشر إلى النار فى الذكر لأنه أشق وأوحش على السمع من الوقوف للسؤال مع جواز أنها مواقف متعددة ويقال لهم توبيخاً ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ لاينصر بعضكم بعضاً كحالكم فى الدنيا تهكم بهم إذ كانوا فى الدنيا يقولون نحن جميع منتصر ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون أذلاء لعجزهم وانسداد أبواب الحيل عليهم ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يتلاومون ويتخاصمون ﴿قَالُوا﴾ أى الأتباع منهم للمتبوعين بيان للتساؤل الواقع بينهم وهو ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ عن أقوى الوجوه وأيمنه أو عن جهة الخير كأنكم تنفعوننا نفع السانح فتبعناكم وهلكنا، مستعار من يمين الإنس الذى هو أقوى الجانبين وأشرفه وأنفعه أو عن القوة والقهر فتقهروننا أو عن الحلف لأنهم كانوا يحلفون لهم أنهم على الحق ﴿قَالُوا﴾ المتبوعون لهم ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ إنما يصدق الإضلال منا أن لو كنتم مؤمنين فرجعتم عن الإيمان إلينا أى كنتم ضالين فى أنفسكم ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ قهر وإجبار على متابعتنا ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ متجاوزين عن الحق بعدم الاكتراث به مثلنا ﴿فَحَقَّ﴾ وجب ﴿عَلَيْنَا﴾ جميعاً ﴿قَوْلُ رَبِّنَا﴾ بالعذاب أى قوله «لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» ﴿إِنَّا﴾ جميعاً ﴿لَذَائِقُونَ﴾ العذاب بذلك القول، بينوا أن ضلالهم جميعاً ووقوعهم فى العذاب كان أمراً مقضياً لامحيص لهم عنه ونشأ عنه قولهم ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ دعوناكم إلى الغيّ المظلل بقولهم ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ قال تعالى ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ جميعاً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ لاشتراكهم فى الغواية ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ بكل

مجرم منهم ومن غيرهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإقرار بكلمة التوحيد بيان لإجرامهم ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ أى لأجل محمد قال تعالى ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ الأبلج ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الجائين بالتوحيد رد على قولهم إن ما جاء به شعر بأن ما جاء به من التوحيد حق قام به البرهان وتطابق عليه المرسلون ﴿إِنَّكُمْ﴾ فيه التفات ﴿لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ بالإشراك وتكذيب الرسول ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من إنكار الحق بعد ظهوره بالبرهان القاطع ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ المؤمنين استثناء منقطع أى لكن المخلصون من عباده بخلاف هؤلاء. فذكر جزاءهم بقوله ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ﴾ فى الجنة ﴿رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ بكرة وعشيا أو معلوم خصائصه من الدوام وكونه للتلذذ لا للتقوت ودفع ألم الجوع ﴿فَوَاكِهُ﴾ بدل أو بيان للرزق وهى ما يؤكل تلذذاً لا لحفظ صحة لأن أهل الجنة مستغنون عن حفظها بخلق أجسادهم للأبد ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ فى نيل ثواب الله يصل إليهم من غير تعب وسؤال ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ظرف مكرمون أو حال من مستكنه أو خبر لأولئك ثان ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ حال أو خبر ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض لتكمل لذتهم بالمشاهدة ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ على كل منهم ﴿بِكَأْسٍ﴾ هو الإناء بشرابه ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ من شراب جار أو ظاهر للعيون وهو صفة للماء من عان الماء إذا نبع وصف به خمر الجنة لأنها تجرى كالماء ﴿بَيْضَاءَ﴾ أشد بياضاً من اللبن ﴿لَذَّةٍ﴾ لذيذة ﴿لِلشَّارِبِينَ﴾ وهما صفتان لكأس ووصفها بلذة: إما للمبالغة، أو لأنها تأنيث لذ بمعنى لذيذ بخلاف خمر الدنيا فإنها كريهة عند الشرب ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ سلب عقل وصداع تقرير للذتها وتقديم الظرف للاختصاص أى لا كخمر الدنيا من غاله أفسده ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ بضم الياء وفتح الزاى يسكرون للجمهور من أنزفه الخمر أسكره وبكسر الزاى لحمزة والكسائى من أنزف الرجل سكر ونفد عقله وأصله النفاد بخلاف خمر الدنيا ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ حابسات الأعين على أزواجهن لا ينظرون إلى غيرهم لحسنهم عندهن ﴿عِينٌ﴾ نجل العيون أى ضخامها حسانها ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ فى اللون ﴿بَيْضٌ﴾ للنعام ﴿مَكْنُونٌ﴾ مصون فى الكن عن الغبار ونحوه ولونه وهو البياض فى صفرة أحسن ألوان النساء. ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ بعض أهل الجنة ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عما جرى لهم فى الدنيا وهو معطوف على يطاف عليهم أى يشربون فيتحادثون على الشراب كما هو عادة الندامى. قال الشاعر:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَّاتِ إِلَّا • أَحَادِيثُ الْكِرَامِ عَلَى الْمُدَامِ

والتعبير عنه بالماضى للتأكيد فيه فإنه ألذ تلك اللذات إلى العقل ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ فى مكالمتهم ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ جليس فى الدنيا ينكر البعث ﴿يَقُولُ﴾ لى تبكيتا ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ بالبعث منكرا علىّ ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ مجزيون محاسبون ﴿قَالَ﴾ ذلك القائل لإخوانه ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ معى إلى النار لأريكم ذلك القرين فننظر حاله وقيل القائل هو الله أو بعض الملائكة يقول

لهم هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين ﴿فَاطَّلَعَ﴾ ذلك القائل من بعض كوى الجنة ﴿فَرَءَاهُ﴾ رأى قرينه ﴿فِى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسط النار ﴿قَالَ﴾ له تشميتا ﴿تَاللَّهِ﴾ قسم فيه تعجب حيث نجا منه ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة ﴿كِدتَّ﴾ قاربت ﴿لَتُرْدِينِ﴾ لتهلكني بإغوائك ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾ عليَّ بالتوفيق والعصمة ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ معك فى النار، ويقول أهل الجنة ﴿أَ﴾ نحن مخلدون منعمون ﴿فَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ أى بمن شأنه الموت وهو عطف على محذوف كما قدرنا ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ التى فى الدنيا ونصبها على المصدر من اسم الفاعل وقيل على الاستثناء المنقطع ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ هو استفهام تلذذ وتحدث بنعمة الله من تأبيد الحياة وعدم التعذيب ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذى ذكر لأهل الجنة ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يحتمل أن يكون من كلام القائل أو الكل أو كلام الله تعالى وكذا قوله ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ أى لنيل مثل هذا يجب أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية المشوبة بالآلام السريعة الانصرام ﴿أَذَٰلِكَ﴾ الرزق المعلوم المعد نزلا لأهل الجنة ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ ما يعد للنازل ونصبه على التمييز أو الحال وهو أوجه لأن المفاضلة بين الرزقين فى هذه الحال لا بين الوصفين ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ التى ثمرها نزل أهل النار وفيه دلالة على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يقام للنازل ولهم من وراء ذلك ماتقصر عنه الأفهام وكذلك الزقوم لأهل النار وهو اسم شجرة صغيرة الورق دفرة مرة مسمومة لها لبن إن مس جسم أحد تورم ومات منه فى أغلب الأمر. وهى من أخبث الشجر المرتهامة ينبتها الله فى الجحيم ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً﴾ محنة ﴿لِّلظَّالِمِينَ﴾ عذابا لهم فى الآخرة وسبب ضلالهم فى الدنيا إذ قالوا النار تحرق الشجر فكيف تنبته ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها فى مقابلة طوبى لأهل الجنة ﴿طَلْعُهَا﴾ حملها مستعار من طلع التمر ثمر النخلة لمشاركته إياه فى الشكل أو الطلوع من الشجر أو استعير لها تخييلا على وجه التهكم ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ فى تناهى القبح ونهاية الكراهة لما تقرر فى النفوس أن الشيطان أقبح الأشياء. وهو من تشبيه محسوس بغير محسوس اعتمادا على العرف من اعتقاد الناس قبح صور الشياطين وإن لم يروها وقيل المراد بالشياطين حيات هائلة قبيحة المنظر ولذا سميت بها ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أى الكفار ﴿لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ من الشجرة أو من طلعها مع قبحها لشدة جوعهم أو لإجبارهم على ذلك ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش ﴿لَشَوْبًا﴾ شرابا من غساق أو صديد مشوبا بماء ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ حار بالغ غاية الحرارة يقطع أمعاءهم بعد ما اختلط بالمأكول وصار شوبا له أيضا ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ مصيرهم بعد الأكل والشرب ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ إلى دركاتها أو إلى نفسها لأن الزقوم والحميم نزل يقدم إليهم قبل الاستقرار فى دركاتها وقيل يخرجون إلى أكل الزقوم وشرب الحميم ثم يردون إلى الجحيم لأن عذابهم فى النار أنواع. والله أعلم ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ وجدوا ﴿ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۝ فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ يزعجون إلى اتباعهم فيسرعون إليه تعليل لاستحقاقهم

تلك الشدائد بتقليد الآباء فى الضلال والبناء للمفعول للمبالغة كأنهم يزعجون قهرا فلا التفات لهم بالتأمل والنظر ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ ﴾ أى قومك ﴿ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ من الامم الماضية ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ من الرسل ينذرونهم من العواقب ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ من العذاب تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتحذير لقومه فإنهم سمعوا أخبارهم وشاهدوا آثارهم ثم استثنى من الأولين قوله ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ بفتح اللام لنافع والكوفيين وبكسرها للباقين أى المؤمنين فإنهم نجوا من العذاب لأن الله أخلصهم أو لإخلاصهم فى العبادة . ثم شرع فى تفصيل القصص بعد إجمالها بقوله « ولقد أرسلنا فيهم منذرين » وأورد مشاهير الرسل مع المكذبين وبدأ بنوح لأنه أبو البشر ثانيا وأول رسول عذب قومه بقوله ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ بقوله « إنى مغلوب فانتصر » حين أيس من قومه فأجبناه أحسن الإجابة ﴿ فَلَنِعْمَ ﴾ أى فوالله لنعم ﴿ الْمُجِيبُونَ ﴾ له نحن حذف ماحذف لقيام مايدل عليه والفاء تدل على سرعة الإجابة فأهلكنا قومه بالغرق ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ الغرق وأذى قومه ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ لم يبق أحد ممن كان معه فى السفينة إلا بنوه الثلاثة وهم : سام : أبو العرب وفارس والروم ، وحام : أبو السودان ، ويافث : أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج وماهنالك ، إذ فنى من كان مع نوح من المؤمنين فى السفينة وبقى بنوه متناسلين إلى يوم القيامة ﴿ وَتَرَكْنَا ﴾ أبقينا ﴿ عَلَيْهِ ﴾ ثناء حسنا ﴿ فِي الْآخِرِينَ ﴾ من الأنبياء والامم إلى يوم القيامة يقولون ﴿ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ ﴾ أى يسلمون عليه تسليما أو هو سلام من الله عليه ﴿ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ متعلق بالجار والمجرور كأنه قيل ثبت الله السلام وأدامه عليه فى الملائكة والثقلين جميعاً ، روى أن من قال حين يمسى « سلام على نوح فى العالمين » لم تلدغه عقرب ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ ﴾ كما جزيناه ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل لإكرامه دلالة على أن موجب ذلك إحسانه ترغيبا فيه ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تعليل لإحسانه بالإيمان إظهارا لجلالة قدره وأصالة أمره ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ كفار قومه . ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ تابعه ممن شايعه فى الإيمان والإحسان وأصول الشريعة ﴿ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ وإن طال الزمان بينهما وهو ألفان وستمائة وأربعون سنة ، وقيل غير ذلك وكان بينهما هود وصالح ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ ﴾ متعلق بما فى الشيعة من معنى المشايعة ، أى تابعه وقت مجيئه ربه ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ من جميع آفات القلوب كالشرك والغل والحقد وغير ذلك ومن جميع العلائق خالصا لله ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ فى هذه الحالة المستمرة له ﴿ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ موبخا ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ وإذ بدل من الأول أو ظرف لجاء أو سليم ﴿ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ أى أتريدون آلهة دون الله إفكا ، وإفكا مفعول له قدم على المفعول به وولى همزة الإنكار لأن الغرض مكافحتهم بأنهم على الباطل ، وقدم المفعول به على الفعل للعناية ويجوز أن يكون « إفكا » مفعول به و « آلهة » بدل منه على أنها نفس الإفك مبالغة أو فى موضع الحال أى آفكين ﴿ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ المستحق للعبادة إذ عبدتم غيره أتظنون أنه يترككم بلا عقاب ؟ لا ، أو المعنى أى شىء ظننتم

حتى جوزتم أن تكون الأصنام له شريكا . وكانوا نجامين فخرجوا إلى عيد لهم وتركوا طعامهم عند أصنامهم زعموا أن تبرك عليه فإذا رجعوا أكلوه وقالوا لسيدنا إبراهيم اخرج معنا ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾ إيهاماً لهم أنه يعتمد عليها ليصدقوه ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ عليل أى سأسقم وكان غالب أسقامهم الطاعون وكانوا يخافون العدوى أو أراد إبراهيم أنه سقيم القلب لكفرهم ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ إلى عيدهم ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ مسرعين ﴿ فَرَاغَ ﴾ مال فى خفية ﴿ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ ﴾ وكانت ستا وسبعين صنما وعندها الطعام ﴿ فَقَالَ ﴾ استهزاء ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ فلم ينطقوا فقال ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ بجوابى فلم تجب ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ مال عليهم ، والتعدية بعلى للاستعلاء وأن الميل لمكروه ﴿ ضَرْبًا ﴾ مصدر لراغ لأنه فى معنى ضربهم أو لمضمر تقديره يضربهم ضرباً ﴿ بِالْيَمِينِ ﴾ بالقوة عبر باليمين لأنها أقوى الجارحتين وقوة الآلة تستلزم قوة الفعل أو اليمين هو الحلف أى بسببه وهو قوله « تالله لأكيدن أصنامكم » ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ يسرعون المشى من زفّ النعامة ، وحمزة يُزفون من أزف دخل فى الزفيف كأصبح ، فقالوا له نحن نعبدها وأنت تكسرها ﴿ قَالَ ﴾ لهم موبخاً ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ من الحجارة وغيرها أصناماً ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من نحتكم ومنحوتكم فاعبدوه وحده و « ما » مصدرية أو موصولة أو موصوفة ﴿ قَالُوا ﴾ بينهم ﴿ ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا ﴾ فاملئوه حطباً وأضرموه بالنار فإذا التهب ﴿ فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ أى جحيم ذلك البنيان و « أل » بدل الإضافة والجحيم كل نار عظيمة فى هوّات من الجحمة وهى شدة التأجج ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ﴾ بحرقه لما قهرهم بالحجة لئلا يظهر للعامة عجزهم ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ الأذلين بإبطال كيدهم وجعله برهاناً نيراً على علوّ شأنه حيث جعل النار عليه برداً وسلاماً فخرج منها سالماً ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ مهاجراً إليه من دار الكفر إلى حيث أمرنى وهو الشام أو حيث يتأتى لى عبادته ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ إلى ما فيه صلاح حالى إلى مقصدى وبت القول لسبق وعد الله له بذلك أو لفرط توكله أو لبنائه على عادته معه ولما وصل إلى الأرض المقدسة قال ﴿ رَبِّ هَبْ لِي ﴾ ولداً ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ يعيننى على الدعوة والطاعة ويؤنسنى فى الغربة ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ هو إسماعيل لأنه الذى وهب أثر الهجرة ولأن البشارة بإسحاق بعد معطوفة على البشارة بهذا الغلام بقوله عليه السلام «أنا ابن الذبيحين» فانطوت البشارة على ثلاث بشارات كون الموهوب له ذكراً وكونه يبلغ أوان الرجال فإن الصبى لا يوصف بالحلم وكونه حليما فيه سرّ من أبيه شاهد لطهارة أصله ولم يوصف من الأنبياء بالحلم غيره وغير أبيه وحالها المذكور بعده يكشف عنه الغطاء ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أن يسعى مع أبيه فى أشغاله وكونه معه أرفق به . قبل بلغ سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة و « مع » يتعلق بمحذوف دل عليه السعى لا به لأن صلة المصدر لا يتقدمه ولا يبلغ لأن بلوغهما لم يكن معاً والتقدير ولما بلغ السعى يسعى معه ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ ﴾ أى رأيت ﴿ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ ورؤيا الأنبياء حق وأفعالهم بأمر الله إذ ليس للشيطان عليهم سبيل يحتمل أنه رأى ذلك

وأنه رأى ما هو تعبيره ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ من الرأى ، شاوره مع أنه كان أمراً لازماً إمضاؤه ليأنس بالذبح وينقاد للأمر به ولتكون المشاورة سنّة بعده ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ به ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ على ذلك ، وذكر المضارع فى « تؤمر » لتكرر الرؤيا ، إذ روى أنه رآه ليلة الثامن من ذى الحجة فلما أصبح تروى فسمى يوم التروية فرآه فى التاسع فعرف أنه من الله فسمى عرفة فعزم فى العاشر على نحره فسمى يوم النحر . والله أعلم . ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ انقادا لأمر الله أو أسلم الذبيح نفسه وإبراهيم ابنه ﴿ وَتَلَّهُ ﴾ صرعه ﴿ لِلْجَبِينِ ﴾ أى عليه ولكل إنسان جبينان بينهما الجبهة وكان ذلك بمنى قبل أمَرّ السكين على حلقه فلم تعمل شيئاً لكن لم يصح به النقل والتحقيق نسخ الأمر بالذبح قبل الفعل بعد التهيؤ له هذا بصورة الذابح وهذا بصورة المذبوح فأعطى الذّبح فداء عن ذلك الأمر فى المنام . قاله ابن العربى فى الأحكام . وجواب « لما » محذوف أى كان من الأمر ما ينطق به الحال ولا يحيط به المقال من السرور أو الجواب هو قوله بزيادة الواو ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ بما أتيت به مما أمكنك من أمر الذبح أى يكفيك ذلك . قال ابن العربى : واعلم أن رؤيا الأنبياء وحى فما ألقى إليهم أو نفث به الملك فى روعهم وضرب المثل له عليهم فهو حق وقد بينا حقيقة الرؤيا وأن البارئ تعالى يضربها مثلا للناس فنها أسماء وكنى ومنها رؤيا تخرج بصفتها ومنها رؤيا تخرج بتأويل وهو كنيتها ، ولما استسلم إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام لقضاء الله أعطى إبراهيم ذبحاً فداء وقيل له هذا فداء ولدك فامتثل فيه ما رأيت فإنه حقيقة ما خاطبناك فيه وهو كناية لا اسم وجعله مصدقاً بمبادرة الامتثال . اه . ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ لأنفسهم بامتثال الأمر بإفراج الشدّة تعليل للإفراج واحتج بما تقدم من جوز النسخ قبل وقوع المأمور . قال أحمد بن نصر الداودى : إن نسخ الله المأمور قبل العمل يكون بعد اعتقاد قبوله والعزم عليه وهو عمل . اه ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ الذبح المأمور ﴿ لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ الاختبار الجلى الذى يتميز فيه المخلص من غيره ولذا قيل فى حق إبراهيم « الذى وفى » أو المحنة التى لا محنة أشد منها أو النعمة العظمى وهو نجاة الابن ﴿ وَفَدَيْنَاهُ ﴾ المأمور بذبحه وهو إسماعيل على الصحيح كما قدمنا لا إسحاق ﴿ بِذِبْحٍ ﴾ ما يذبح : كبش ﴿ عَظِيمٍ ﴾ من الجنة وهو الذى قرّبه هابيل جاء به جبريل عليه السلام فذبحه إبراهيم عليه السلام مكبراً وكان قرنا الكبش معلقين بالكعبة حتى احترقا معها فى أيام ابن الزبير ﴿ وَتَرَكْنَا ﴾ أبقينا ﴿ عَلَيْهِ ﴾ ثناء حسناً ﴿ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ ﴾ منا ﴿ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ سبق بيانه فى نوح ﴿ كَذَلِكَ ﴾ كما جزيناه ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ لأنفسهم ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾ دليل على أن الذبيح غيره ﴿ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى مقضياً بنبوته مقدراً كونه من الصالحين وبهذا الاعتبار وقعا حالين وفى ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه وإيماء بأنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الإطلاق ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ ﴾ على إبراهيم بتكثير ذريته ﴿ وَعَلَى إِسْحَاقَ ﴾ ولده

لجعلنا أكثر الأنبياء من نسله وأفضنا عليهما بركات الدين والدنيا ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿ مُبِينٌ ﴾ ظاهر ظلمه لأنه لم يجده في آبائه وفيه تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال وأن الظالم في أعقابهما لا يعود عليهما بعيب ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ تعذيب فرعون أو الغرق ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ ﴾ على القبط ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَٰلِبِينَ﴾ على عدوهم وهذا أبلغ في الامتنان من الإنجاء لأن في هلاك العدو حسم مادة الأوهام والأمن الكلي ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا الْكِتَٰبَ الْمُسْتَبِينَ﴾ البليغ في تبيانه الأحكام وهو التوراة أو الواضح الجلي ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا الصِّرَٰطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ دين الإسلام الموصل إلى الحق والصواب ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ ثناء حسنا ﴿سَلَٰمٌ﴾ منا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۞ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ بن ياسين من سبط هارون أخي موسى بعث بعده ﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وإلياس بهمزة أوله للجمهور اسم عجمي غير منصرف وبتركها لابن ذكوان بخلاف عنه على أن أصله ياس واللام للتعريف أرسل إلى قوم ببعلبك ونواحيها ﴿إِذْ﴾ مفعول لاذكر مقدرا ﴿ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الله ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ اسم لصنم لهم من ذهب وبه سمي البلد أيضا مضافا إلى بك أي أتعبدونه أو تطلبون منه الخير ﴿ وَتَذَرُونَ﴾ تتركون ﴿ أَحْسَنَ الْخَٰلِقِينَ ﴾ فلا تعبدونه ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ برفع الثلاثة على إضمار هو للجمهور وبنصبها لحمزة والكسائي وحفص على البدل أو البيان في الأول والنعت في الثاني والعطف في الثالث ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ ﴾ استثناء من واو كذبوا لا من المحضرين ﴿ الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام لنافع والكوفيين وكسرها للباقين على ما تقدم أي المؤمنين منهم فإنهم نجوا منها ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰ ءَالِ يَاسِينَ﴾ بمد آل أهله لنافع وابن عامر وبكسر الهمزة وحذف الألف وإسكان اللام للباقين ، هو إلياس المذكور لغة فيه ، وقيل جمع له مراد به هو وأتباعه كالمهلبين ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كما جزيناه ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ كفار قومه من الدمار : الهلاك ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ على منازلهم وآثارهم في أسفاركم إلى الشام ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح يعني النهار ﴿ وَبِاللَّيْلِ﴾ وتعيين الوقتين لأنهم كثيرا ما يكون سيرهم أول النهار وبالليل ويستريحون في أثناء النهار ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما حل بهم فتعتبرون ﴿وَإِنَّ يُونُسَ﴾ هو ابن متى ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال ابن العربي : «قصدت قبره مرارا لا أحصيها بقرية جيحون في سيري من المسجد الأقصى إلى قبر الخليل صلوات الله عليه وبت به وتقربت إلى الله بمحبته ودرسنا كثيرا من العلم عنده والله ينفعنا به» : ا هـ ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ هرب من قومه بغير إذن ربه ولذا حسن إطلاق الإباق عليه ﴿ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء أي أنه كان نزولا زمان إباقه إلى ذلك الفلك فركبه وأبعد في البحر

ثم ركد الفلك وغيره من السفن تجرى يمينا وشمالا وهم فى لجة البحر، فقال الملاحون: هنا عبد أبق من سيده تظهره القرعة ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ قارع أهل السفينة فخرجت القرعة عليه. فقال أنا الآبق، ورمى نفسه إلى الماء. ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ المغلوبين بالقرعة وأصله المزلق عن مقام الظفر ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ ﴾ ابتلعه فأرسل الله إلى الحوت إنا لم نجعل يونس لك رزقا وإنما جعلنا بطنك له حرزا ومسجدا ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ نفسه أوآت بما يلام عليه أوداخل فى الملامة منذهابه إلىالبحر وركوبه السفينة بلا إذن ربه، واعلم أن القرعة فى مثل هذا لا تجوز فى شرعنا وتجوز فى سفر العبادة مع بعض النساء وفى القسمة للأموال وفى العتق لمن أعتق فى مرضه أعبده جميعا ولا مال له غيرهم فيقرع فيما حمله الثلث. قال ابن العربى: والحق عندى أن تجرى فى كل مشكل ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ الذاكرين الله كثيرا بالتسبيح مدة عمره أو فى بطن الحوت بقوله « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين »، أو لولا كونه من المصلين، وفيه دلالة على أن العمل الصالح ينفع فىالمضائق، وقد دل عليه حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فى الغار. رواه البخارى ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ حيا أو ميتا فيصير بطن الحوت له قبرا وفيه حث على إكثار الذكر وتعظيم شأنه ومن أقبل عليه فى السراء أخذ بيده عند الضراء ﴿ فَنَبَذْنَاهُ ﴾ بأمر الحوت بلفظه ﴿ بِالْعَرَاءِ ﴾ بالمكان الخالى عما يغطيه من شجر أو نبت وذلك حين استجيبت دعوته، روى أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح حتى انتهوا إلى البر فلفظه من يومه أو بعد ثلاثة أيام أو سبعة أو عشرين أو أربعين يوما ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ مما ناله صار بدنه كالطفل يوم يولد وكالفرخ المُمَّعِط أى الذى تساقط شعره ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ من شجر ينبسط على وجه الأرض ولا يقوم على ساق يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به والأكثر على أنها القرع أى الدباء غطته بأوراقها عن الذباب لأنه لا يقع عليه ويدل عليه أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك لتحب القرع قال: وأجل هى شجرة أخى يونس» وقيل هى كل مالا يقوم على ساق من البقول مما يموت من عامه قيل كان القرع تظله بساق على خلاف العادة فيها معجزة له وسخر الله وعلا أو ظبيا تختلف إليه يشرب من لبنها حتى قوى، ويحكى أن المسك أول ما خلق فى تلك الظبية مكافأة لها ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ ﴾ بعد ذلك كقبله إلى قومه من بنى إسرائيل بنينوى من أرض الموصل، قال فى غاية الأمانى: وبها قبره يزار فى الموصل يقطع بينهما الشط. قلت: انظر هذا مع ما ذكر ابن العربى فيما تقدم وهو مخالف له. والله أعلم ﴿ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ ﴾ بل ﴿ يَزِيدُونَ ﴾ عشرين أو ثلاثين أو سبعين ألفا وهم قومه الذين هرب منهم وقيل غيرهم ﴿ فَآمَنُوا ﴾ عند معاينة علامة العذاب ﴿ فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ تنقضى آجالهم فيه ولم يسلم على لوط ويونس اختصارا وإشارة به إلى إتمام القصص واكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل فى آخر السورة ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ استخبر كفار مكة توبيخا لهم ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ ﴾ بزعمهم أن الملائكة بنات الله ﴿ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ فيختصون بالأسنى، وقوله «فاستفتهم» عطف على مثله أول

السورة ومابينهما آخذ بعضه بحُجْزَةِ بعض وذلك أنه استفتام أولا عن وجه إنكار البعث وساق الكلام في تقريره ذاكرا لما يلائمه من القصص موصولا بعضها ببعض ليعلم المشركين بأنه سيحل بهم ماحل بالمكذبين المنكرين ثم استفتام ثانياً عاطفاً على الأول عن وجه القسمة حيث جعلوا له البنات ولأنفسهم البنين مع تنزهه عن الولد مطلقا ثم إنهم أثبتوا له أخس النوعين وهو الأنثى الذى لا يرضى بها أدناهم «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً» وقد زادوا على الشرك أنواعا من الكفر: التجسيم: فإن الولد يستلزمه وتفضيل أنفسهم عليه ونسبة الملإ الأعلى إلى الأنوثة كما قال لهم ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا﴾ حيث أنشأناهم ﴿وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ خلقهم تهكم بهم بأن العلم بالأنوثة إما بإخبار رسول صادق ولم يصدقوا رسولا أو بالاستدلال بالعقل ولا سبيل لهم إليه أو بالمشاهدة ولا يشكون في انتفائها بل يجترءون على الإفك الذى تكاد السمٰوات يتفطرن منه ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ﴾ كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ﴾ بقولهم الملائكة بنات الله تقرير لسفاهتهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيه لعدم مايقتضيه وقيام ما ينفيه ﴿أَصْطَفَى﴾ بفتح الهمزة للاستفهام واستغنى بها عن همزة الوصل لورش فى رواية أبى يعقوب يوسف الأزرق وعبد الصمد وباقى القراء، وبوصل الهمزة وابتدائها بالكسر لإسماعيل الأنصارى عن نافع وورش أيضا فى رواية الأصبهانى أى اختار ﴿الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ إنكار واستبعاد ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الفاسد الذى لا يرتضيه عقل ولا نقل ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه منزه عن ذلك ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ برهان واضح ونصٌّ قاطع نزل عليكم من السماء أن الملائكة بناته ولا يمكنكم العدول عنه ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الذى أنزل عليكم فأرونى ذلك فيه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى قولكم ذلك ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ﴾ تعالى ﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ﴾ الملائكة لاجتنانهم أى استتارهم عن الأبصار ﴿نَسَبًا﴾ بقولهم الملائكة بنات الله أو الجن بقولهم إن الله صاهر الجن فخرجت الملائكة أو بقولهم الله والشيطان أخوان تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ أى قائلى ذلك أى الكفرة ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ فى العذاب: النار ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزيه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد والنسب ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ المؤمنين استثناء منقطع أى فإنهم منزهون الله عما يصفه به هؤلاء ثم عاد إلى خطابهم بقوله ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من الأصنام ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أى على معبودكم و «عليه» متعلق بقوله ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ أحداً بالإغواء تحقير لشأنهم أى أنتم ومعبودكم لا تصدون عن الله بالإغواء ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ الذى خلق للنار مثلكم من قولهم فتن على فلان امرأته: أفسدها. و «أنتم» ضمير للكفار وآلهتهم غلب فيه المخاطب على الغائب ويحتمل أن يكون قوله «سبحان الله» إلى هنا من كلام الملائكة بتقدير «قالوا» فيكونوا اكذبوا من نسبهم إلى الله واستثنوا من ذلك المخلصين ثم هوّنوا شأن الكفرة بأنهم لا يقدرون إلا على إغواء مثلهم ثم اعترفوا بأنهم عباد الله منقادون لأمره بقوله ﴿وَمَا مِنَّا﴾ معشر الملائكة أحد ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾

فى السموات يعبد الله فيه لا يتجاوزه : اعتراف منهم بالعبودية ورد على عبدتهم ، ويحتمل أن يكون هذا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل فاستفتهم وقل لهم « وما منا إلا له مقام معلوم » أى أخبرهم مثالبهم فى كفرهم واذكر لهم ما أنت وأصحابك متصف به من أضدادها وموقعه الاستطراد على هذا ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ أقدامنا فى الصلاة وأداء الطاعات ومنازل الخدمة فنا قائم وراكع وساجد أو صافون الأجنحة للخشوع والهيبة ، أو صافون حول العرش يستغفرون للذين آمنوا . وفى مسلم عنه عليه السلام : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة إلى أن قال : أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد وقال لأصحابه : ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ قالوا : كيف ذلك ؟ قال : يتمون الصف الأول فالأول ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ المنزهون الله عما لا يليق به فالأول إشارة إلى درجاتهم فى الطاعة وهذا فى المعارف وإن واللام وتوسيط الفصل للتأكيد والاختصاص بأنهم المواظبون على ذلك دائما من غير فترة دون غيرهم ﴿ وَإِنْ ﴾ مخففة إنهم ﴿ كَانُوا ﴾ أى كفار مكة ﴿ لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا ﴾ كتاباً ﴿ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ من الكتب التى نزلت عليهم ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ الممتثلين غير مخالفين أو لأخلصنا العبادة له . قال تعالى ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ ﴾ أى بالكتاب الذى جاءهم وهو القرآن الأشرف من تلك الكتب ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة كفرهم ، وفى الفاء دلالة على أنهم كفروا بغتة من غير روية ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا ﴾ بالنصر ﴿ لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهى « لأغلبن أنا ورسلى » أو هى قوله ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ ولا يقدح فى ذلك ما يقع من الانهزام فى بعض المواضع لأن الأمور بخواتيمها مع أنه لم يهزم نبى قط فى حرب ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا ﴾ أى المؤمنين ﴿ لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ للكفار غالباً سواء كان فيهم نبى أم لا ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ بعد ما أفرغت جهدك فى التبليغ ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ أى زمان قريب يؤذن لك فيه بالقتال أو هو وقت موتهم أو يوم القيامة ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ إذا نزل بهم العذاب والمراد بالأمر الدلالة على أن ذلك كائن قريب يجعل بهم قدام عينيه ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ما يكون لك من النصر والتأييد كما رأوه يوم بدر ومالك من الدرجات العلى فى الآخرة ، و « سوف » للوعيد لا للتبعيد وقالوا استهزاء : متى هذا العذاب . قال تعالى تهديداً لهم ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ الذى يحق أن يستعاذ منه ﴿ فَإِذَا نَزَلَ ﴾ العذاب ﴿ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ بفناء منازلهم شبهه بجيش هاجمهم فأناخ بفنائهم بغتة وقيل فاعل « نزل » هو الرسول ﴿ فَسَاءَ ﴾ بئس صباحاً ﴿ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ واللام للجنس والصباح من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب ، ولما كثرت الغارات فى الصباح سموا الغارة صباحاً وإن وقعت وقتاً آخر وفيه ترشيح الاستعارة ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ۝ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تسلية بعد تسلية وتأكيد بعد تأكيد وإطلاق الفعلين للدلالة أن ما يبصر ويبصرون من أنواع المسرة والمساءة مما يضيق عنه نطاق البيان ، وقيل الأول ما يبصرون فى الدنيا وهذا فى الآخرة ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾ الغلبة وإضافته إليها

لاختصاصها به إذ العزة له جميعاً يندرج تحتها جميع الصفات الثبوتية والسلبية مع الإشعار بالتوحيد وهى من الصفات الجامعة ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ به بما حكى فى السورة لأن الكلام من أولها إلى هنا مسوق لإثبات التوحيد وإزاحة شبه المشركين وإبطال ما نسبوه إلى الله مما تقدس عنه فنزه عن ذلك ذاته المقدسة بهذه الآية التى هى من الجوامع الكوامل فذلكة لذلك ثم أثنى على المرسلين بقوله ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ المبلغين عن الله التوحيد والشرائع تعميم للرسل بعد تخصيص بعضهم ثم ختم السورة بحمده الختام المسكى بقوله ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ على ما أفاض عليهم وعلى من اتبعهم من النعم وحسن العاقبة وهو إشارة إلى اختصاص المحامد كلها به وأن ثناءه عن الرسل بفضل منه فسبحان الذى يعطى ويثنى عليه .

[تم تفسير سورة الصافات]

سورة ص

مكية إجماعاً ـ ست وثمانون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ صٓ ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ وَالْقُرْآنِ ﴾ قسم ﴿ ذِى الذِّكْرِ ﴾ أى الشرف أو البيان أو الموعظة أو ذكر ما يحتاج فى الدنيا والدين من الشرائع والقصص والغيوب ، وجواب هذا القسم محذوف تقديره إنه لمعجز أو إنك لمن المرسلين أو ما الأمر كما قال الكفار من تعدد الآلهة ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ ﴾ تكبر عن الحق وحمية ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ خلاف لله ورسوله ولذا كفروا بالقرآن لا لخلل وجدوا فيه وأصل العزة الشدة كناية عن الكبر ونكر الاسمين مع إيراد «فى» الدالّ على الاستقرار إشارة إلى كمال اتصافهم بالوصفين واستغراقهم فيهما وإيماء إلى أن من لم يكن بهذه المثابة لا ينكر ذلك الأمر الجلى ﴿ كَمْ ﴾ أى كثيراً ﴿ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أمة من الأمم الماضية وعيد لهم على كفرهم استكباراً وشقاقاً ﴿ فَنَادَوْا ﴾ رفعوا أصواتهم بالاستغاثة حين نزول العذاب بهم ﴿ وَلَاتَ ﴾ الحين

﴿ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أى نجاة أى ليس الحين حين نجاة أو فرار والتاء زائدة على «لا» التى بمعنى ليس لتأكيد النفى والجملة حال من فاعل نادوا أى استغاثوا والحال أن لا منجى ولا مهرب وما اعتبر بهم كفار مكة ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ ﴾ رسول ﴿ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ من أنفسهم يعرفون صدقه وأمانته يخوّفهم بالنار بعد البعث وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ وضع فيه الظاهر موضع المضمر ذمّاً لهم وإشعاراً بأن كفرهم جسرهم على هذا القول ﴿ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ فيما يقول على الله ، ولما أسلم «عمر بن الخطاب» شق ذلك على قريش واجتمعوا عند أبى طالب فقالوا له : أنت كبيرنا وقد علمت ما فعل سفهاؤنا وإن ابنك يشتم آلهتنا فلو نهيته ، فبعث إلى النبى أبو طالب فحضر فقال : يا ابن أخى إن قومك يشكونك أنك تشتم آلهتهم ويطلبون منك رفض ذكر آلهتهم ويدعونك وإلٰهك . فقال : إنى أسألهم كلمة تدين لهم بها العرب ويؤدى الجزية إليهم العجم ! قالوا : نعطيك عشراً وما هى ؟ قال : «تقولوا لا إله إلا الله» فقاموا ينفضون ثيابهم يقولون ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾ كيف يسع الخلق كلهم إله واحد ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ بليغ العجب مخالفاً لما أطبق عليه آباؤنا الأولون ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ أى أشرافهم من مجلس اجتماعهم عند أبى طالب يقول بعضهم لبعض ﴿ أَنِ امْشُوا ﴾ و «أن» مفسرة لأن الانطلاق عن مجلس التقاول لا يخلو من القول ﴿ وَاصْبِرُوا ﴾ اثبتوا ﴿ عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ﴾ على عبادتها فلا تنفعكم مكالمته ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ التوحيد أو ما يطلب محمد من الترفع على كافة الخلق ﴿ لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ منا أو مراد كل واحد أو هذا من ريب الدهر الذى أريد بنا فلا بد من وقوعه فاصبروا ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ ملة عيسى إذ النصارى يثلثون أو الملة التى أدركنا عليها آباءنا ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ كذب مخترع لم يسبق له نظير ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ الوحى ﴿ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ وليس بأكبرنا ولا بأشرفنا ولا بأكثرنا مالا ، إنكار لاختصاصه بشرف النبوة مع كونه واحداً منهم وفيهم أكثر منه مالا وولداً وحشما فتبين أن مبدأ تكذيبهم لم يكن إلا الحسد وقصور النظر على الحطام الدنيوى ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ وحيي : القرآن ؛ لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن الدليل وليس فى عقدهم بتٌّ بكونه ساحراً كذاباً بل هو قولهم بأفواههم إذ الشاك لا بت فيه ثم أضرب عن حسدهم وشكهم متوعداً عليهم بقوله ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ بعد فإذا ذاقوه زال شكهم وحسدهم حيث لا ينفعهم والمعنى أنهم لا يصدقون به حتى يمسهم العذاب فيلجئهم إلى تصديقه ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ إضراب عن قولهم «أأنزل عليه الذكر من بيننا» ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ الغالب ﴿ الْوَهَّابِ ﴾ للنبوة وغيرها فيعطونها من شاءوا من بعض صناديدهم ؟ وفى وصفه بالعزة والغلبة إشارة إلى إبطال ترفعهم وتجبرهم على من خص بالنبوة لأنهم تحت غالب لا يغالب ، وبالوهاب إلى أن النبوة محض فضل وموهبة ربانية فلا وجه للشقاق وذكر الوهاب يناسب الخزائن وفيه إشارة إلى أن النبوة عطايا جمة لا عطية واحدة ثم رشح ما ذكر بقوله ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى ليس لهم مدخل فى أمر هذا العالم الجسمانى الذى هو جزء يسير من خزائنه فمن أين لهم أن يتصرفوا فى أمر النبوة الذى هو من العالم الروحانى الذى هو من خزائن رحمته التى لانهاية لها فإنزعموا أن لهم ملكها ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِى الْأَسْبَابِ ﴾ الموصلة إلى السماء أوالعرش فيأتوا بالوحى فيخصوا به من شاءوا ثم حقر شأنهم بقوله ﴿ جُنْدٌ مَا ﴾ أى هم جند حقير و « ما » مزيدة للتقليل ﴿ هُنَالِكَ ﴾ فى المحل الذى وضعوا أنفسهم فيه وهو ظرف لقوله ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ والإشارة إلى المحل والرتبة ﴿ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ أى هم جند قليل من الكفار المتحزبين على الرسل مهزوم عما قريب فمن أين لهم التدابير الإلهية والتصرف فى الأمور الربانية أو فلا تكترث بما يقولون وقيل الإشارة إلى يوم بدر أو يوم فتح مكة والاول أولى أى فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾ كان يتد لكل من يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه أو الأوتاد مجاز عن الجموع لأن بعضهم يشد بعضا أو إشارة إلى طول مدة ملكه وثباته كقول الأسود : ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ۞ فى ظل ملك ثابت الأوتاد

﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ﴾ على وزن ليلة لنافع وابن كثير وابن عامر اسم قرية أصحاب الحجر وللباقين الأيكة بمعنى الغيضة وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ لقوتهم بالأموال والأسباب وطول الأعمار لا جند مكة ﴿ إِنْ كُلٌّ ﴾ من الأحزاب ﴿ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوا جميعهم ؛ لأن دعوتهم واحدة وهى دعوة التوحيد بيان لما أسند إليهم من التكذيب على الابهام مشتمل على أنواع من التأكيد ليكون تسجيلا على استحقاقهم العذاب ولذا رتب عليه ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ أى وجب عليهم ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ ﴾ ما ينتظر كفار مكة ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ نفخة القيامة تحل بهم العذاب وقيل المراد بالصيحة العذاب المفاجئ كقولهم :

صاحَ الزمانُ بآلِ برمكَ صيحةً ۞ خرّوا لشدّتها على الأذقانِ

وتقدم مثل هذا ﴿ مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ بفتح الفاء للجمهور وضمها لحمزة والكسائى أى توقف أو رجوع مأخوذ من فواق الناقة وهو مابين الحلبتين إذ لا تدر دفعة بل تترك أدنى زمان فيرجع اللبن إلى الضرع ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا ﴾ نصيبنا من العذاب الموعود يريدون تكذيبه أو نصيبا من الجنة تؤمن به أو صحيفة أعمالنا ننظر فيها ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ استعجلوا ذلك استهزاء قال تعالى ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أى تحمل أذاهم ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ أى تذكر قصته أو اذكر لهم قصته ﴿ ذَا الْأَيْدِ ﴾ القوة فى العبادة كان يصوم يوما ويفطر يوما ويقوم نصف الليل وينام ثلثه ويقوم سدسه ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ رجاع إلى مرضاة الله تعليل للأيد ودليل على أن المراد به القوة فى الدين ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ بتسبيحه إثر صلاته ﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ وقت صلاة العشاء ﴿ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ وقت صلاة الضحى وهو أن تشرق الشمس ويتناهى ضوءها يقال شرقت الشمس شروقا طلعت وأشرقت أضاءت وصفا شعاعها وفى هذين الوقتين كانت

صلاة بنى إسرائيل ، وعن أم هانىء أنه صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الضحى وقال : هذه صلاة الإشراق ، وعن ابن عباس : ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية ، وقال ابن العربى : وفى صلاة الضحى أحاديث أصولها ثلاثة الأول حديث أبى ذر وغيره « من صلى الضحى ركعتين لم يكتب من الغافلين ومن صلى أربعا كتب من العابدين ومن صلى ستا لم يلحقه فى ذلك اليوم ذنب ومن صلى ثمانيا كتب من القانتين ومن صلى اثنتى عشرة ركعة بنى الله له بيتا فى الجنة » الثانى : حديث سهل بن معاذ عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من قعد فى مصلاه حين ينصرف من صلاة الصبح حتى يسبح ركعتى الضحى لا يقول إلا خيراً غفرت خطاياه وإن كانت أكثر من زبد البحر » ، الثالث : حديث أم هانىء : صلى يوم الفتح ثمانى ركعات . اهـ . ﴿و﴾ سخرنا ﴿الطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ مجموعة إليه تسبح معه جملة واحدة لأن ذلك أدلُّ على القدرة منه مدرجا ولذلك لم يراع المطابقة بين الحالين إذ معنى يسبحن يحدثنه شيئا فشيئا على التدريج ﴿كُلٌّ﴾ من الجبال والطير ﴿لَهُ أَوَّابٌ﴾ رجاع إلى طاعته بالتسبيح رجوعا بعد رجوع والمعنى كل معه يسبح على الدوام ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود والحرس كان يحرس محرابه كل ليلة ثلاثون أو أربعون ألف رجل من ذوى اللامة ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ الْحِكْمَةَ﴾ النبوة وعلم الشرع فكل كلمة وافقت الحق فهى حكمة ، وإتقان العمل ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ مفصوله أو فاصله مصدر بمعنى المفعول أو الفاعل أى البيان الشافى كل قصد المميز بين الحق والباطل ، وقال ابن عطية بمعنى أنه إذا خطب فى نازلة فصل المعنى وأوضحه لا يأخذه فى ذلك حصر ولا ضعف . اهـ . وفى البيضاوى : الكلام المخلص الذى يبين المقصود من غير التباس مراعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والإضمار والإظهار والحذف والتكرار ونحوه . اهـ . وقال ابن عباس : هو فصل القضاء بين الناس بالحق ﴿وَهَلْ﴾ معنى الاستفهام هنا التعجيب والتشويق إلى استماع مابعده ﴿أَتَاكَ﴾ يا محمد ﴿نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ تصعدوا سور الغرفة تفعلٌ من السور كتسنم من السنام والمراد بالسور هنا حائط مسجد داود ، والمحراب : الغرفة و « إذ » تتعلق بالنبأ لأنه وإن كان بمعنى القصة إلا أنه فى الأصل مصدر والظرف يكفيه رائحة من الفعل أو متعلق بمقدر أى تحاكم الخصم لا بأتى لأن إتيان النبأ رسولنا لم يكن حينئذ ، والخصم فى الأصل مصدر ولذا أطلق على الجمع وتسوروا : أى علوا سوره لما منعوا الدخول عليه من الباب لأنه فى يوم العبادة ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ﴾ ظرف تسوروا أو بدل من إذ والضمير للخصم ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لنزولهم من فوق بلا إذن فى يوم الاحتجاب والحرس على الباب لا يتركون من يدخل عليه لأنه قسم زمانه يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للوعظ ويوماً للاشتغال بحاجته فتسوّر عليه ملائكة على صور الإنس فى يوم الخلوة ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ نحن ﴿خَصْمَانِ﴾ فوجان بدليل تسوروا ودخلوا أو اثنان وجمعا قيل لأن مع كل واحد منهما جماعة . قال فى الجواهر : ولا خلاف بين أهل التأويل أنهم ملائكة بعثهم الله ضربَ مثلٍ لداود فاختصموا فى نازلة

وقعت لهم على الفرض قد وقع هو فى نحوها فأفتاهم بفتيا هى واقعة عليه وإنما فهم المراد خر راكعاً وأناب . وأما النازلة التى وقع فيها فقيها للقصاص تعاويل فلم نر سوق جميعها لعدم صحته . اهـ . وسنبين ما يعتمد عليه إن شاء الله ﴿ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ لا تجر ﴿ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ وسطه الحق الذى لا ميل فيه ﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي ﴾ أى على دينى ﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ هى الأنثى من الضأن ويكنى بها عن المرأة لضعف بنيتها وكثيراً مايطلق أهل مصر على الرجل الجبان نعجة ﴿ وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ اجعلنى كافلها أى مالكها أو اجعلها كفلى أى نصيبى ﴿ وَعَزَّنِي ﴾ غلبنى ﴿ فِي الْخِطَابِ ﴾ أى الجدال بأن جاء بحجاج لم أقدر على رده لأنه أوجه منى وكلامه أقوى من كلامى وقوته أعظم من قوتى وأقره الآخر على ذلك ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ ليضمها ﴿ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ﴾ والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى الإضافة ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ الشركاء ﴿ لَيَبْغِي ﴾ يتعدى ﴿ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ « ما » لتأكيد القلة وهذا الكلام منه على طريق الموعظة والترغيب فى الانسلاك فى ذلك القليل فقال الملكان صاعدين فى صورتيهما إلى السماء : قضى الرجل على نفسه ، فتنبه داود أنه ترك الأولى به ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ ﴾ أيقن ﴿ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ ابتليناه بذنبه أو بتلك الحكومة ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ لذنبه ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ ساجداً أو مصلياً ركعتى الاستغفار ﴿ وَأَنَابَ ﴾ رجع إلى الله تعالى بالتوبة ، واعلم أن الله لم يحك ما فعل داود مفصلا بل ستره عليه فنحن أولى أن لا نخوض فيه .إلا على أحسن المخارج . وجملته أنه ود أن يكون له ما لغيره وكان له أمثاله فنبهه الله بالقضية فاستغفر وأناب ؛ وما روى فى قصة المرأة غاية مايمكن منه فى حقه أنه رأى امرأة رجل فسأله أن ينزل له عنها وكان جارياً فى عادتهم يفعلونه فاستحيى منه فنزل وقيل لم يكن أنزله بل خطب على خطبته فعوتب فى ذلك وقيل له : ما كان لنبى مثلك أن يمد عينيه إلى متاع الدنيا مع ما خولناك من الملك وكثرة النساء . وهذا إذا صح عنه فليس بذنب لأنه مباح غايته أنه خلاف الأولى وحسنات الأبرار سيئات المقربين وما عدا هذا من قصص القصاص فأكاذيب لا يرضاها ذو دين . رزقنا الله السلامة فى الدارين ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ الذى استغفر عنه ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾ لقربة ومكانة بعد المغفرة وزيادة خير لم يحصل له بما فعل تنزلا ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ مرجع فى الجنة. وقلنا له ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ استخلفناك فيها بعد الأنبياء قبلك تدبر أمر الناس ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ الذى أمرناك به فى حكم الشرع ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ﴾ ما تهوى الأنفس ﴿ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ طريقه الموصل إليه من الدلائل التى نصبها على الحق ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ باتباع الهوى ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا ﴾ بنسيانهم ﴿ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ فإن تذكره يقتضى ملازمة الحق ومخالفة الهوى . قال ابن عطية : ولا يقال خليفة الله إلا لرسوله . وأما الخلفاء فكل واحد خليفة

للذى قبله ، وما يوجد فى الشعر من تسمية أحد خليفة الله فذلك غلوّ ، ألا ترى أن الصحابة رضى الله عنهم قالوا لأبى بكر رضى الله عنه : خليفة رسول الله ، فلما ولى عمر رضى الله عنه قالوا : خليفة خليفة رسول الله ، فرأوا أن الأمر فى المستقبل سيكون أكثر فسموه أمير المؤمنين وقصر هذا الاسم على الخلفاء . اه. يعنى وكل من جاء بعدهم فهو ملك والله أعلم . قال مادح النبى صلى الله عليه وسلم :

وَلَقَدْ أَقَامَ الدِّينَ مِنْ خُلَفَائِهِ • أَصْهَارُهُ كُلٌّ بِأَحْمَدَ مُقْتَدِ
وَأَتَاكَ بَعْدَهُمُ الْمُلُوكُ فَصْلِحٌ • يَضَعُ الأَمَانَةَ عِنْدَ آخَرَ مُفْسِدِ

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ أى عبثاً ، أى خلقاً باطلا لا حكمة فيه أو ذوى باطل بمعنى مبطلين عابثين أو الباطل الذى هو متابعة الهوى بل للحق الذى هو مقتضى الدليل من التوحيد والتدرع بالشرع ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ خلق ما ذكر باطلا ﴿ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ «من» بيانية أو ابتدائية بسبب هذا الظن ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ «أم» منقطعة والاستفهام فيها لإنكار التسوية بين الحزبين التى هى من لوازم خلقهما باطلا ليدل على نفيه وكذا التى فى قوله ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ ﴾ من المؤمنين ﴿ كَالْفُجَّارِ ﴾ الفساق منهم ، أنكر التسوية أولا بين المؤمنين والكافرين ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم ، ردٌّ لقول الكفار إنا نعطى فى الآخرة إن كانت حقاً مثل ما تعطون ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هذا كتاب ﴿ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ نفاع لإرشاده إلى البقاء فى النعيم الدائم ﴿ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ أصله يتدبروا أدغمت التاء فى الدال ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ ﴾ يتعظ به ﴿ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ العقول السليمة المبرءون عن العوائق المؤيدون بالتوفيق الناظرون بنور الله ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ﴾ ابنه ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ سليمان ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ رجاع فى التسبيح والذكر فى جميع الأوقات تعليل للمدح أردف قصة الوالد بقصة الولد لأنه فتن مثل ما فتن وأناب مثل ما أناب وعبر عن إعطائه بالهبة إشارة إلى جلالة قدره ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ ﴾ على سليمان ظرف لأواب أو لنعم ﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ بعد الظهر ﴿ الصَّافِنَاتُ ﴾ من الخيل جمع صافنة وصافن وهى القائمة على ثلاث وأقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل وهو من الصفات المحمودة فى الخيل الغالبة فى العراب الخلص ﴿ الْجِيَادُ ﴾ جمع جواد وهو السابق أو جَواد : سريع الجرى أو جيد عتيق أو المعنى أنها إن استوقفت سكنت وإن ركضت سبقت وكانت ألف فرس ذات أجنحة أخرجت له من البحر لم يرثها من أبيه لأن الأنبياء لا يورثون وليست غنيمة إذ لم تحل له عرضت عليه بعد أن صلى الظهر لإرادة الجهاد عليها فمند بلوغ العرض تسعمائة منها غربت الشمس ولم يكن صلى العصر فاغتم ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ ﴾ المال وهو الصافنات المذكورة والأصل أحببت الخير فأقحم الحب إشارة إلى فرط المحبة كأنه أحبها حتى أحب حبها ﴿ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ صلاة العصر و«عن» للمجاوزة من شىء إلى شىء ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ ﴾ الشمس ﴿ بِالْحِجَابِ ﴾

ما يحجبها عن الأبصار أى غربت وإضمارها من غير ذكر لدلالة العشى عليه وقيل عرضت عليه وهو فى الصلاة فأشار إلى إزالتها عنه حتى توارت فى إصطبلاتها فقال لما فرغ من صلاته إنى أحببت أى آثرت حب الخير أى ثواب الصلاة بسبب ذكر ربى فشغلنى عن الخيل حتى توارت ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ فردوها ﴿ فَطَفِقَ ﴾ يمسح ﴿ مَسْحًا ﴾ بالسيف أو بالكف ﴿ بِالسُّوقِ ﴾ جمع ساق ﴿ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ فعلى الأول بمعنى ذبحها وقطع أرجلها تقرباً إلى الله حيث اشتغل بها عن الصلاة وتصدق بلحمها فعوضه الله خيراً منها وأسرع وهى الريح تجرى بأمره كيف يشاء وعلى الثانى جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها حبًّا لها وتكرمة لها لأنها معدة للجهاد وهذا هو الراجح عند الفخر والجمهور على الأول ويوافق الثانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمسح أعراف الخيل ويقول «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة من أعزها أعزه الله» ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ بنسيان التعلق بالمشيئة فى حلفه لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله فقال له الملك : قل إن شاء الله فنسى فما حملت إلا واحدة أتت بشق ولد . الحديث كما قال تعالى ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ هو شق الولد ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ رجع إلى الله بالتوبة هذا ما جاء فى الصحيح ووراء هذا من القصص أكاذيب لا يرضاها ذو دين وأشبه ما ذكر فى تلك القصص وأقربه ما روى عن سعيد بن المسيب أن سليمان احتجب عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله إليه : احتجبت عن عبادى ولم تنظر فى أمورهم ولم تنصف مظلوماً من ظالم فسقط خاتمه من يده وكان فيه ملكه فأعاده مراراً وهو يسقط فعلم أنه فتن ففر إلى ربه وانفرد للعبادة إلى أن يتوب الله عليه وولى كاتبه « آصف » على ملكه وعياله فأخذ خاتمه ووضعه فى يده فثبت وأقام فى الملك يسير بسيرة سليمان الحسنة أربعة عشر يوماً إلى أن رجع سليمان إلى منزله وقد تاب الله عليه ورد عليه ملكه فجلس على كرسيه وأعطاه آصف خاتمه فأعاده وثبت وعاد إلى ملكه كما كان . اه . قال ابن العربى فى أحكامه : وما ذكره بعض المفسرين من أن الشيطان أخذ خاتمه وجلس بمجلسه يحكم للخلق فقول باطل قطعاً لأن الشيطان لا يتصوّر بصور الأنبياء ولا يمكن من ذلك حتى يظن الناس أنهم مع نبيهم فى حق وهم مع الشيطان فى باطل ولو شاء ربك لوهب من المعرفة والدين لمن قال هذا القول ما يزعه عن ذكره ويمنعه من سطره حتى يزل به غيره ولو شاء ربك ما قالوه فذرهم وما يسطرون وكن مع الحق على يقين . اه . ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ﴾ ليكون معجزة لى مناسبة لحالى أو لا ينبغى لأحد أن يسلبه منى بعد هذه السلبة وقيل قاله شفقة على إخوانه النبيين حيث رأى الدنيا غدارة . وقال ابن عطية : من المقطوع أن سليمان عليه السلام إنما قصد بذلك قصد بر لأن للإنسان أن يرغب من فضل الله فيما لا يناله أحد لا سيما بحسب المكانة والنبوة . اه ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ لا غيرك تعطى ما تشاء لمن تشاء ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ﴾ ذللناها لطاعته إجابة لدعوته ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً ﴾ لينة من الرخاء الخصب أو لطيفة كالفرس الذلول لا تخالف مراده ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أراد من قولهم

أصاب الصواب وأخطأ الجواب ﴿وَ﴾ سخرنا له ﴿الشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ﴾ يبنى الأبنية الوجيهة ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ فى البحار لاستخراج الدرر والجواهر وكل بدل من الشياطين ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ منهم ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مشدودين عطف على كل ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ جمع صفد القيد بجمع أيديهم إلى أعناقهم: قسم الشياطين إلى عملة من بناء وغواص ومردة قرن بعضهم مع بعض فى السلاسل ليكفوا عن الشر. وقلنا له ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ﴾ أعط منه من شئت ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ عن الإعطاء وامنع من شئت ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حال كونك غير محاسب بل الأمر مفوض إليك تتصرف كيف تشاء، وعنه صلى الله عليه وسلم: « خيرنى الله بين أن أكون عبداً نبيا أو نبيا ملكا فاخترت أن أكون عبدا نبيا» ولذلك كان مأمورا لم يطلق له التصرف ولذا قال « إنما أنا قاسم والله يعطى » ولما تواضع ولم يلتفت إلى ملك الدنيا عوضه الله المقام المحمود، رزقنا الله الاقتداء به ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا﴾ فى الآخرة ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ قربة ومنزل مع ماله من الملك العظيم فى الدنيا ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ هو الجنة ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ من نسل عيص بن إسحق لما ذكر أولى النعم والآلاء أردفهم بذكر ذوى العاهات والبلاء ليعلم أنهم كانوا مع الله فى السراء والضراء ولذا قال فى أيوب كما قال فى سليمان: « نعم العبد » ولذا افترق أهل الحق فى الغنى الشاكر والفقير الصابر أيهما أقرب إلى الله ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ بدل اشتمال ﴿أَنِّي﴾ بأنى ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ﴾ تعب وضرّ فى بدنى ﴿وَعَذَابٍ﴾ ألم فى القلب أو الأول فى البدن والثانى فى المال والأولاد وإنما نسبه إلى الشيطان وإن كان كل ذلك بخلق الله تعالى تأدبا معه أو لأن ما حصل له من النصب ترتب على وسوسته إذ أعجب بكثرة ماله أو استغاثه مظلوم فلم يغثه أو كانت مواشيه فى ناحية كافر فداهنه ولم يغزه أو لما روى أن الشيطان سأل الله أن يسلطه على بدنه فسلطه فنفخ فيه فحصل المرض بواسطته فقيل له ﴿ارْكُضْ﴾ اضرب ﴿بِرِجْلِكَ﴾ الأرض فضرب فنبعت عين ماء فقيل ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌ﴾ ماء تغتسل به ﴿بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ تشرب منه فاغتسل وشرب فذهب عنه كل داء كان بظاهره وباطنه وقدم البارد لأنه أهم للمريض المحرور إذ قيل نبعت له عينان حارة وباردة فاغتسل من الحارة وشرب من الباردة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أحيي الله له من مات من أولاده ورزقه مثلهم ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ عليه ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ تذكيرا ﴿لِأُولِي الْأَلْبَٰبِ﴾ لينتظروا الفرج بالصبر والالتجاء إلى الله والعلم بأن كل شيء له آخر والصبر نعم الناصر ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ عطف على اركض، والضغث: الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه ﴿فَاضْرِب بِّهِۦ﴾ زوجتك ليا بنت يعقوب وقيل رحمة بنت أفرائيم بن يوسف حلف ليضربنها مائة ضربة لإبطائها عليه أو حين لقيت شيطانا فى صورة إنسان طبيب فقالت له: هنا مبتلى هل لك أن تداويه، فقال: نعم على شرط إن شفيته يقول لى أنت شفيتنى لا أريد منه غير ذلك فأخبرت أيوب بذلك، فقال: ذلك شيطان، لله علىّ إن شفانى الله أن أجلدك مائة جلدة ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ بترك ضربها فأخذ مائة عود من الإذخر أو غيره فضربها ضربة وهذه الرخصة باقية فى الحدود عند الحنفية والشافعية خلافا للمالكية فمن

حلف أن يضرب عبده مائة سوط لجمعها ضغثا فضربه بها ضربة واحدة لم يبر قال فى الجواهر جمهور العلماء على قول مالك : بأن الحدود والبرّ فى الأيمان لا تقع إلا بتمام عدد الضربات . اهـ . ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ أيوب ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجاع إلى الله بالذكر والتوبة ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لابن كثير لقصد الجنس ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِى الْأَيْدِى﴾ أصحاب القوة فى الطاعة ﴿وَالْأَبْصَٰرِ﴾ البصائر فى الدين ، وعبر بالأيدى عن الأعمال لأن أكثرها بها ، وبالأبصار عن المعارف لأنها أقوى مبادئها وفيها تعريض بالبطلة الجهال بأنهم كالزمنى والعمى ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَٰهُم﴾ جعلناهم خالصين ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بخصلة خالصة لاشوب فيها هى ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ بإضافة خالصة إلى ذكرى بيانية لنافع وهشام وبتركها للباقين والدار الآخرة لأنها الدار حقيقة والدنيا معبر ، أى أن خلوصهم فى الطاعة سببها تذكرهم فى الآخرة دائما لأن مطمح نظرهم جوار الله والفوز بلقائه فنزع ذلك حب الدنيا من قلوبهم ولاهمّ لهم إلا فى الآخرة ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ المختارين ﴿الْأَخْيَارِ﴾ جمع خير بالتشديد أو التخفيف وأردف المصطفين به إذ المختار قد لا يكون خيرًا ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ هو ابن أخطوب استخلفه إلياس على بنى إسرائيل ، واللام فيه زائدة لازمة ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ ابن عم اليسع أو هو بشر بن أيوب واختلف فى نبوّته قيل لقب به لأنه كفل مائة نبىّ فروا إليه من القتل ﴿وَكُلٌّ﴾ أى كلهم ﴿مِّنَ الْأَخْيَارِ ۝ هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما تقدم من أمورهم ﴿ذِكْرٌ﴾ شرف لهم أو نوع من الذكر وهو القرآن ثم شرع فى بيان ما أعدلهم ولأمثالهم فقال ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الشاملين لهم ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مرجع فى الآخرة ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بدل أو عطف بيان لحسن مئاب وهو من الأعلام الغالبة ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَٰبُ﴾ منها حال من جنات عدن والعامل فيها ما فى المتقين من معنى الفعل . قاله البيضاوى . وقال فى غاية الأمانى بدل اشتمال بلا رابطة المعنى كقولك فى بدل البعض ضرب زيد اليد أو الرجل ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ على الأرائك ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ حالان مترادفان من ضمير لهم أو متداخلان وإيثار المضارع فى الثانية دون الأولى لتجدد الدعاء بها دون الاتكاء والاقتصار على الفاكهة والشراب لأن ما يتناول فى الجنة إنما هو للتلذذ لا لدفع ألم الجوع ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ﴾ حابسات الأعين على أزواجهن ﴿أَتْرَابٌ﴾ لدات أى متفقات فى السن لأن التحاب بين الأقران أثبت وهن بنات ثلاث وثلاثين سنة ﴿هَٰذَا﴾ المذكور ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ بالخطاب التفاتاً للجمهور وبالغيبة لابن كثير وأبى عمرو ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى لأجله فإن الحساب لأجل الوصول إلى الجزاء ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ انقطاع والجملة حال من « رزقنا » أو خبر ثان لـ « إن » أى دائماً أو دائم ﴿هَٰذَا﴾ خذ هذا المذكور للمؤمنين أو الأمر هذا أو هذا كما ذكر ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ مستأنف ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝ جَهَنَّمَ﴾ بدل أو بيان ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها حال من جهنم ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ مهادهم مستعار من فراش النائم ﴿هَٰذَا﴾ العذاب المفهوم ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾

أى ليذوقوا هذا فليذوقوه أو «هذا» مبتدأ خبره ﴿ حَمِيمٌ ﴾ ماء حار محرق ﴿ وَغَسَّاقٌ ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لحمزة والكسائى وحفص : ما يسيل من صديد أهل النار وعلى التأويل الثانى فقوله «فليذوقوه» اعتراض وعلى الأول لحميم خبر محذوف أى هو حميم وغساق عطف عليه وهو من غسق الدمع نطف ، وقيل هو شراب يحرق بالبرودة كما أن الحميم يحرق بفرط الحرارة . وعن الحسن : عذاب لا يعلمه إلا الله ﴿ وَآخَرُ ﴾ بالإفراد للجمهور أى ومذوق آخر أوعذاب آخر وبالجمع لأبى عمرو مبتدأ خبره «أزواج» ومن شكله صفته ﴿ مِنْ شَكْلِهِ ﴾ من مثل هذا المذوق أو العذاب فى الشدة والقبح ﴿ أَزْوَاجٌ ﴾ أصناف صفة للثلاثة على قراءة الجمهور أو لآخر فقط لأنه ضروب وأجناس ولا يخفى مافى إبهام آخر من التهويل ويقال لهم عند دخولهم النار بأتباعهم ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ ﴾ جمع ﴿ مُقْتَحِمٌ ﴾ داخل ﴿ مَعَكُمْ ﴾ النار بشدة وعنف كما اقتحموا معكم فى الضلال فيقول المتبعون الرؤساء ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ أى لا سعة عليهم دعاء أو صفة فوج أو حال أى مقولا فيهم لا مرحباً بهم ﴿ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴾ داخلوها بأعمالهم مثلنا ﴿ قَالُوا ﴾ أى الأتباع للرؤساء ﴿ بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ ﴾ أى الكفر ﴿ لَنَا ﴾ بالإغواء والإغراء فأنتم أحق بهذا الدعاء ﴿ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ لنا ولكم النار ﴿ قَالُوا ﴾ أيضاً ﴿ رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا ﴾ مضاعفاً أو ذا ضعف بأن تزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين للضلال والاضلال ﴿ فِي النَّارِ وَقَالُوا ﴾ أى الطاغون من كفار مكة وغيرهم وهم فى النار ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ ﴾ فى النار ﴿ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين كانوا يسترذلونهم ويسخرون بهم استفهام تعجب وتحسر ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ ﴾ بهمزة الاستفهام مغنية عن همزة الوصل لنافع وابن عامر وابن كثير وعاصم إنكار على أنفسهم وتأنيب كيف اتخذوا ﴿ سُخْرِيًّا ﴾ من كان أعلى شأناً منهم وبالإخبار للباقين صفة أخرى لرجالا «سخريا» بضم السين لنافع وحمزة والكسائى وكسرها للباقين ثم أضربوا إلى قولهم ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة أى بل ﴿ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾ فلا نراهم وهم فيها أو متصلة ومعادلها اتخذناهم على إنكار الأمرين جميعاً على قراءة الاستفهام كأنهم قالوا منكرين على أنفسهم أى الفعلين فعلنا بهم السخرية أو الازدراء والتحقير وفى إسناد الزيغ إلى الأبصار إشارة إلى شدة الازدراء بهم كأنهم لفرط كراهتهم تمجهم الأعين وتخصيص الضمير لصناديد قريش لا دليل له فالوجه التعميم فى كل طاغ . قاله فى غاية الأمانى وغيره ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الذى حكينا عنهم ﴿ لَحَقٌّ ﴾ كائن لا محالة وهو ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ كما تقدم وكان الظاهر إن ذلك التخاصم لحق فقدم «لحق» اهتماما ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لمشركى مكة ﴿ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ ﴾ أنذركم عذاب الله لا ساحر كذاب ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أى إنى مبعوث بهذين الأمرين الإنذار والدعوى إلى التوحيد أو المعنى إنما أنا منذر ليس لى علم بمقدار عذاب من هذا شأنه فالإنذار هو المبعوث به وهذا تحقيق له والأول هو الوجه لقوله ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ منه خلقها وإليه أمرها فالتعقيب بهذه الصفات دليل على كون الدعوة مقصورة

ولأن هذا ملخص ماتقدم فى جواب قولهم أجعل الآلهة إلها واحدا ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿الْغَفَّرُ﴾ لأوليائه وفيه وعد ووعيد للموحدين والمشركين ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿هُوَ﴾ أى ما أنبأتكم به من أنى نذير من عقوبة من هذه صفاته وأنه واحد فى ألوهيته ﴿نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ وقيل الضمير للقرآن أو يوم القيامة ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ مع قيام الأدلة عليه أما التوحيد فأدلته ما تقدم وأما النبوة فقوله ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ الملائكة أى بكلامهم فى ذلك الوقت ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فى قولهم «أتجعل فيها من يفسد فيها ... الخ» وإنما علمته بأخبار من الله فهذا دليل على رسالته وقيل اختصام الملائكة فى الكفارات وغفران الذنوب ونحو ذلك فإن العبد إذا فعل حسنة اختلف الملائكة فى قدر ثوابه حتى يقضى الله بما شاء. ويؤيده حديث أن النبي عليه السلام قال له ربه فى نومه أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى قلت لا قال اختصموا فى الكفارات والدرجات فأما الكفارات ففى إسباغ الوضوء فى الغداة الباردة ونقل الأقدام إلى الجماعات وانتظار الصلاة بعد الصلاة وأما الدرجات ففى إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام ... الحديث. قال ابن العربى فى أحكامه قد رواه الترمذى صحيحا وفيه قال: سل قل اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لى وترحمنى وإذا أردت فتنة فى قوم فتوفنى غير مفتون وأسألك حبك وحب من يحبك وعملا يقرب إلى حبك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها حق فادرسوها ثم تعلموها. اهـ. ويؤيد التأويل الأول قوله «إذ قال ربك» كما يأتى ﴿إِن﴾ ما ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا﴾ أى بأنى ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بيّن الإنذار أى لم أومر إلا بهذا الإنذار دون الهداية ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ هو آدم، وإذ: بدل من «إذ يختصمون» مبين له فإن القصة التى دخلت إذ عليها مشتملة على تقاول الملائكة وإبليس فى خلق آدم واستحقاقه الخلافة والسجود على ما مر فى البقرة غير أنها اختصرت اكتفاء بذلك واقتصارا على ماهو المقصود هنا من إنذار المشركين على استكبارهم على النبي صلى الله عليه وسلم بمثل ما حاق بإبليس على استكباره على آدم عليه السلام وإنما جاز أن يكون إذ قال بدلا من إذ يختصمون مع كونه ظرفا لكلام الملائكة وهذا كلام الله لأن ذلك الزمان ممتد وقع فيه الفعلان ووصف الملأ وهو اسم جمع بالمفرد نظراً إلى لفظه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ عدلت خلقه وأتممته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أى أحييته والإضافة للتكريم إشارة إلى شرفه وطهارته ﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ سجود تحية بالانحناء وتقدم ﴿فَسَجَدَ الْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فيه تأكيدان ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ تعظم ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ﴾ باستكباره عن أمر الله أو كان منهم فى علم الله ولم يذكر إباءه هنا لأن الاستكبار يستلزمه ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أى توليت خلقه وهو تشريف لآدم وذكر اليد تمثيل وتصوير وتثنيته للدلالة على كمال الاعتناء ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ ترفعت من غير استحقاق عن السجود استفهام توبيخ ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ممن علا واستحق التفوق وقيل استكبرت الآن أم لم تزل كنت

من المتكبرين ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ إبداء للمانع ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ دليل على المانع مردود عليه بأن للمالك المتصرف أن يأمر الأشرف بخدمة الأخس وإن الحسن ما حسّنه وقد تقدم بأبسط من هذا ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ من الجنة أو السماء ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مطرود من الرحمة ومحل الكرامة ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ الجزاء ذكر بعده عن جوار الله بعد الرجم إشارة إلى كمال خسرانه لبعده من الله وحرف الغاية ليس للانقطاع بل لأنه يرى بعدها من العذاب ما هو أعظم ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ • قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وقت النفخة الأولى ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ بصفة جلالك وسلطانك وقهرك ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ • إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ الذين أخلصتهم بالعصمة والطاعة وأخلصوا قلوبهم لله على اختلاف القراءتين على ما تقدم ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ بنصب الاسمين للجمهور على أن الأول مفعول مطلق أى أحق الحق أو على الإغراء أى الزموا الحق أو على حذف حرف القسم وإيصال الفعل ، والجواب « لأملأن » والجملة بينهما اعتراض والثانى نصب بأقول وبرفع الأول مبتدأ خبره « لأملأن » لحمزة وعاصم أو مبتدأ محذوف الخبر أى فالحق منى أو قسم وجواب القسم ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ ﴾ بذريتك ﴿ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ من الناس ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تأكيد للضمير المجرور فى « منهم » على معنى إنى لا أبالى بمن تبعك من الناس كائناً من كان ، وترك ذكر التابع من الشياطين اكتفاء إذ هم أولى بذلك من الناس أو تأكيد للضمير المجرور فى « من تبعك » يشمل الكل والأول أوجه لأن الكلام بينه تعالى وبين إبليس إنما هو فى شأن عباده الذين عادى أباهم ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على تبليغ الوحى ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ جُعْلٍ ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ المتقولين القرآن من تلقاء نفسى لا أتصنع بما لست من أهله على ماعرفتم من حالى وليس القصد إعلامهم بفائدة الخبر بل استشهاد بمعرفتهم حاله على صدق مقاله ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أى ما القرآن ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ عظة ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ العقلاء الإنس والجن وهو أبلغ من قوله « ذى الذكر » فى أول السورة فانتظمت الخاتمة مع الفاتحة ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ ﴾ ياكفار مكة ﴿ نَبَأَهُ ﴾ خبر صدقه فى وعده ووعيده بإتيان ذلك ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴾ بعد الموت أو القيامة أو ظهور الإسلام وفيه تهديد ووعيد شديد ، وعلم بمعنى عرف ، واللام قبلها لام قسم مقدر أى والله .

[تم تفسير سورة ص]

سورة الزمر

مكية إلا «قل ياعبادى الذين أسرفوا» الآية فمدنية
وهى خمس وسبعون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ القرآن مبتدأ خبره ﴿ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ أو «تنزيل» خبر محذوف أى هذا و «من الله» صلته أو خبر محذوف أو حال عمل فيه معنى الإشارة لأن المقدر كالملفوظ ، والكتاب على الأول القرآن لإطلاق اللفظ وفخامة المعنى وعلى الثانى السورة بقرينة الإشارة والأول أوجه لما ذكرنا من إطلاق اللفظ وفخامة المعنى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ يامحمد ﴿ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ ملتبساً به أو بسبب إظهاره ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ عن شوب الشرك أى موحداً له ﴿ أَلَا ﴾ تنبهوا أيها السامعون ﴿ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ لا يستحقه غيره لاتصافه بصفات الجمال والجلال والاطلاع على الأسرار ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ وهم كفار مكة مبتدأ والخبر «يقولون» مقدراً قبل قوله ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ قربى مصدر بمعنى يقربونا أو الخبر ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ وبين المسلمين والقول المقدر حال ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدين بإدخال المحق الجنة والمبطل النار ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي ﴾ لا يوفق ﴿ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ بنسبته الولد إلى الله ﴿ كَفَّارٌ ﴾ بعبادة غير الله والإتيان بالمظهر لتعليل الحكم وإيثار صيغة المبالغة فى الوصف الثانى لأنه منشأ الأول ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ كما قالوا «اتخذ الرحمن ولدا» ﴿ لَاصْطَفَىٰ ﴾ أى لرجع ذلك إلى الاصطفاء ﴿ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ إذ لا موجود سواه ألا وهو مخلوقه والمخلوق لا يماثل الخالق فيقوم مقام الولد له ثم قرر ذلك بقوله ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهاً له عن اتخاذ الولد ﴿ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ ﴾ لا غير فلو كان له ولد لكان شريكا له أو لكان جزءا منفصلا منه والواحد الحقيقى لا يعقل فيه ذلك ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ الذى لا يغالب وكل شىء تحت قهره وهذا ينافى الزوال المحوج إلى الولد الذى يقوم مقامه . قال فى الجواهر : قوله «لو أراد الله أن يتخذ ولداً» معنى اتخاذه التبنى وعلى هذا يستقيم قوله «لاصطفى مما يخلق» وأما الاتخاذ المعهود فى الشاهد فيستحيل أن يتوهم فى جهته ولا يستقيم عليه معنى قوله لاصطفى مما يخلق ما يشاء . اه . ثم استدل على ذلك بقوله ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بخلق ﴿ يُكَوِّرُ ﴾ يدخل ﴿ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ﴾ فيزيد ﴿ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ ﴾ يدخله ﴿ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ فيزيد ، والتكوير اللف من كار العمامة وكورها لفها على رأسه شبه إحاطة كل منهما بالآخر باللباس الملفوف على صاحبه أو لما كر كل منهما على الآخر كروراً متتابعاً

تتابع أكوار العمامة شبه به ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي ﴾ في فلكه ﴿ لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ منتهى دوره أو منقطع حركته كما قدمنا في سورة يس ﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره المنتقم من أعدائه ﴿ الْغَفَّارُ ﴾ لأوليائه لما كان الدليل الذي ساقه لحسم مادة توهم الولد بل الشركة مشتملا على كمال الاقتدار مدمجاً فيه معنى الرأفة بما أشار إليه من التكوير الذي هو مدار الرأفة والتكسب أردفه بالوصفين ترغيباً للمذنب في التوبة وترهيباً للمصر بالعقاب ولما قدم دليل الآفاق أردفه بدلائل الأنفس فقال ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ آدم ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ حواء و « ثم » عطف على محذوف صفة نفس أي خلقها ثم جعل منها زوجها وفيه ثلاث دلالات على كمال القدرة خلق آدم من غير أب وأم ثم خلق حواء منه ثم تشعيب ما لا يحصى من الخلق منهما وقيل العطف على ظاهره أي أخرجكم من ظهره كالذر قبل حواء ثم خلق منه حواء ، قال عبد الرحمن الثعالبي في الجواهر: وهذا يحتاج إلى سند قاطع ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ من كل زوجان ذكر وأنثى كما بيّن في سورة الأنعام ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ بيان لكيفية خلق ما ذكر : خص الإنسان لأنه المقصود ويعلم حال البواقي منه أو هو على طريق التغليب ﴿ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ بشراً سوياً من بعد عظام مكسوة لحماً من بعد مضغ من بعد علق من بعد نطف ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة ، أو الصلب والرحم والبطن ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الموصوف ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ مالككم والمستحق لعبادتكم ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ السلطان دون غيره ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إذ لا يشاركه في الخلق غيره ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ كيف يعدل بكم بعد هذا البيان إلى الشرك : تعجيب ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ﴾ عن إيمانكم ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ وإن أراده من بعضهم فالرضى إيثار الشيء مع الاستحسان فهو أخص من الإرادة يقابل السخط والإرادة الكراهة فهما غيران بالضرورة ثم في العدول من الخطاب إشارة إلى أن كونهم عبيداً له يقتضي أن لا يرضى لهم بذلك رحمة عليهم وأنهم إذا اتصفوا بالكفر خرجوا عن العبودية ثم أشار إلى مزيد الاختصاص بقوله ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا ﴾ الله فتؤمنوا ﴿ يَرْضَهُ ﴾ أي الشكر ﴿ لَكُمْ ﴾ لأنه سبب فلاحكم باختلاس ضمة الهاء لنافع وعاصم وحمزة وبإسكانه للسوسي وبهما لهشام وبهما مع صلة الضمة بواو للدوري وبالصلة فقط للباقين فهي خمس قراءات ﴿ وَلَا تَزِرُ ﴾ نفس ﴿ وَازِرَةٌ وِزْرَ ﴾ نفس ﴿ أُخْرَىٰ ﴾ أي لا تحمله ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالمحاسبة والمجازاة ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ بما في القلوب فلا تخفى عليه خافية من أعمالكم ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ ﴾ تضرع ﴿ مُنِيبًا ﴾ راجعاً ﴿ إِلَيْهِ ﴾ لزوال ضره فلا يخطر بباله غيره تعالى ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ ﴾ أعطاه ﴿ نِعْمَةً ﴾ كمال من الخول وهو العطاء الذي لا يقصد به عوض إذا كان له وقع لأن أصله التعاهد والحفظ يقال فلان خائل مال إذا أصلحه وقام بأمره ﴿ مِنْهُ ﴾ تعالى ﴿ نَسِيَ ﴾ ترك ﴿ مَا ﴾ أي الضر الذي ﴿ كَانَ يَدْعُو ﴾ الله ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى كشفه ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أو « ما » مصدرية : أي نسي

دعاءه إليه فى حال الضرورة ورجع إلى كفره ، أو بمعنى مَن أى نسى ربه الذى كان يتضرع إليه ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ شركاء ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ بضم الياء للجمهور وفتحها لابن كثير وأبى عمرو ﴿ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ دين الإسلام والضلال والإضلال لما كانا نتيجة « جعل » صح تعليله بهما وإن لم يكونا غرضين ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ﴾ بقية أجلك : أمر تهديد فيه إشعار بأن الكفر نوع تشهٍ لا سند له وإقناط للكافرين من التمتع فى الآخرة ، ولذا علله بقوله ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ على سبيل الاستئناف للمبالغة ﴿ أَمَنْ ﴾ بتخفيف الميم موصول دخلت عليه همزة الاستفهام لنافع وابن كثير وحمزة ، وبتشديدها بإدغام ميم «أم» فى «من» للباقين ﴿ هُوَ قَانِتٌ ﴾ قائم بوظائف الطاعات ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ ساعاته لأن القيام فيها أشق وأبعد من الرياء وأقرب إلى الإجابة ، وأم متصلة بمحذوف تقديره : الكافر خير أم من هو قانت ، أو منقطعة ، والمعنى : بل أمن هو قانت كمن هو ضده ، والمعنى على قراءة الجمهور : أمن هو قانت كمن هو عاصٍ ﴿ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ حالان من ضمير « قانت » والواو للجمع بين الصفتين ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ﴾ يخاف عذابها ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ جنته ، و « يحذر » فى موضع الحال أو استئناف للتعليل . قال فى الجواهر : قيل المراد بقوله «أمن هو قانت» عثمان بن عفان ؛ لأنه كان يحيى الليل ، والصحيح أنها عامة فى كل من اتصف بهذه الصفة . وفى هذه الآية تنبيه على فضل قيام الليل وروى عن ابن عباس أنه قال : من أحب أن يهوّن الله عليه الوقوف يوم القيامة فليره الله فى سواد الليل ساجداً وقائماً . وعن قبيصة بن سفيان قال : رأيت سفيان الثورى فى المنام بعد موته فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال :

نَظَرْتُ إلى ربى عِياناً فقال لِى • هنيئاً رضائى عنكَ يا ابنَ سعيدِ
لقد كنتَ قوّاماً إذا الليلُ قد دجَى • بعبرة مُشتاق وقلب عميدِ
فدونك فاختر أىَّ قصر تُريدُه • وزرنى فإنى منك غيرَ بعيدِ

ورأى اليزيدى شعبة بن الحجاج ومسعر بن كدام فى النوم بعد موتهما فقال لشعبة : ما فعل الله بك ؟ فقال : يا بنىّ احفظ ما أقول :

حبَانى إلهى فى الجنان بقُبّةٍ • لها ألفُ باب من لُجَيْن وجَوْهَرا
وقال لِىَ الجبارُ يا شعبةَ الذى • تبحر فى جَمْع العُلُوم وأكثَرَا
تمتَّع بِقُرْبى إننى عنك ذو رِضاً • وعن عبدِىَ القوّامِ فى الليل مِسعرَا
كفى مِسعراً عزًّا بأن سيزورنى • وأكشفُ عن وجهى ويدْنو لِيَنظُرَا
وهٰذِى فَعَالى بالذين تنسّكوا • ولم يألفُوا فى سالف الدّهر مُنكَرَا

وقال الجوزى : يا أخى ، امتطى القوم مطايا الدجى على مركب السهر ، فما ختلوا ولا خانوا رحالهم حتى السحر ، درسوا القرآن فغرسوا بأيدى الفكر أزكى الشجر ، ومالوا إلى النفوس باللوم فلا تسل عما شجر ،

رجعوا بنيل القبول ونجوا وما عندك خبر، فإذا جاء النهار فنعموا طعام الجوع وقالوا للنفس هذا ما حضر، هز الخوف أفنان قلوبهم فالقلب يخشع واللسان يضرع والعين تدمع كالنهر، أين أنت منهم يا نائم كيقظان، كم بينك وبينهم أين الشجاع من الجبان، ما للمواعظ فيك نجح فالقلب باللهو ملآن، يا أخي قف على باب النجاة ولكن وقوف لهفان، واركب سفن الصلاح فهذا الموت طوفان، فالليل والنهار مراحل، ومركب العمر قارب الساحل، فانتبه وازدجر يا غافل، فما أقرب ما ينتظر، وما أقل مكث ما يزول ويتغير. اهـ. وإنما أطلت فى هذا تنبيها لأمثالنا وهو من مقتضى الحال لنومنا ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى لا يستوى القانتون والعاصون كما لا يستوى العالمون والجاهلون ولا ارتياب لهم فى الثانى لأنه مركوز فى الطباع ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ بأمثال هذه البينات ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أى عذابه بأن تطيعوه، إذ قد علمتم أن الطائع ليس كالعاصى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أخلصوا الدين لله ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ مثوبة ﴿حَسَنَةٌ﴾ فى الآخرة هى الجنة أو وفى الدنيا بالنصر والعافية ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فمن تعسر عليه الإحسان والتوقى فى وطنه فليهاجر إلى حيث يتمكن منه فهاجروا من بين الكفار وأهل المنكرات والكل واجب دفعا لما عسى أن يتعلل به ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ على الطاعة وهجرة الأوطان وما يبتلون به ﴿أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير مكيال ولا ميزان أى لا يهتدى إليه حساب، وفى الحديث «تنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج فيوفون بها أجورهم ولا تنصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صبا حتى يتمنى أهل العافية أن أجسادهم تقرض بالمقاريض» ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ موحدا له ﴿وَأُمِرْتُ﴾ بذلك الإخلاص ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى مقدمهم فى الدنيا والآخرة حائزا قصب السبق أو اللام مزيدة، المعنى أمرت بأن أكون أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاما فيكون أول مسلم فى زمانه ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لعظم ما فيه ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ﴾ وحده ﴿مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ وليس فيه تكرار لأن الأول للإخبار بأنه مأمور بالإخلاص والثانى أمر بالإخبار باختصاصه تعالى به دون غيره ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ غيره تهديد وخذلان ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ الكاملين فى الخسران ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بتخليد الأنفس فى النار وبعدم وصولهم إلى الحور المعدة لهم فى الجنة لو آمنوا أو خسروا أهليهم بأن فارقوهم مفارقة لا التقاء بعدها إن كانوا من أهل النار وأهليهم من أهل الجنة ﴿أَلَا﴾ للتنبيه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ فيه مبالغات بالتصدير بحرف التنبيه وجعل المبتدأ اسم إشارة وتوسيط الفصل وتعريف الخسران ووصفه بالمبين ثم زاد عليه بقوله ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ طباق ﴿مِنَ النَّارِ﴾ شرح لخسرانهم ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ منها هى ظلل الآخرين لكن يرد عليه أهل الدرك الأسفل بل المعنى أنها محيطة بهم من جميع الجهات وإطلاق الظلل على الأطباق السفلى من إطلاق اسم الضد عليه أو المماثل لتساويهما فى الحرارة

(ذَٰلِكَ) العذاب هو الذى (يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ) المؤمنين ليتقوه دل عليه (يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ) لا تتعرضوا لما يوجب سخطى (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ) البالغ غاية الطغيان فلعوت منه بتقديم اللام على العين بنى للمبالغة فى المصدر كالرحموت ثم وصف به للمبالغة فى النعت وقلب لذلك إذ لا يصار إلى القلب إلا للمبالغة غالبا ولذا غلب فى الشيطان لأنه رأس الضلال ويطلق على غيره مجازا (أَن يَعْبُدُوهَا) بدل اشتمال منه (وَأَنَابُوا) أقبلوا (إِلَى اللَّهِ) بكليتهم عما سواه (لَهُمُ الْبُشْرَىٰ) بالجنة من الله على لسان الرسل أو على لسان الملائكة عند حضور الموت (فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) الأفضل فالأفضل أى فبشرهم وإيثار المظهر لبيان تعدد موجب الاستحقاق (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ) لدينه (وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) العقول الخالصة عن شوائب الوهم ثناء عليهم بأنهم لم يدنسوا الفطرة بالوهم والعادة (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ) أى لأملأن جهنم الآية جملة شرطية معطوفة على محذوف أى أأنت مالك أمرهم فمن حق عليه العذاب (أَفَأَنتَ تُنقِذُ) تخرج (مَن فِي النَّارِ) أى أفأنت تنقذه فكررت الهمزة فى الجزاء لتأكيد الإنكار والاستبعاد لأن الشرط والجزاء جملة واحدة والاستفهام إنما يتوجه إلى ما مضى من الجملة ووضع من فى النار موضع الضمير للاستبعاد والدلالة على أن من حكم عليه بالعذاب كالواقع فيه لامتناع الخلف ويجوز أن يكون « أفأنت تنقذ » جملة مستأنفة للدلالة على ذلك والإشعار بالجزاء والأصل : أفمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تخلصه أفأنت تنقذ من فى النار (لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ) بأن أطاعوا (لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ) أى قصور عالية بعضها فوق بعض مقابل لقوله « لهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل » (مَّبْنِيَّةٌ) محكمة لا كمنازل الدنيا التى تكون أضعف من الأسافل بل كلها بنيت بناء المنازل على الأرض (تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أى من تحت الغرف الفوقانية والتحتانية لأن الماء الجارى جالب للسرور (وَعْدَ اللَّهِ) مصدر مؤكد لأن قوله « لهم غرف » فى معنى الوعد منصوب بفعله المقدر (لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ) وعده لأنه كذب أو عجز ـ تعالى الله عن ذلك ثم أمر بالاعتبار بما ذكر فى قوله (أَلَمْ تَرَ) تعلم (أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) هو المطر أو سائر الماء لما روى أنه ينزل تحت الصخرة ثم يقسمه الله (فَسَلَكَهُ) أدخله (يَنَابِيعَ) أمكنة النبع (فِي الْأَرْضِ) فى أعماق الأرض حال كونه عيونا تجرى فى المجارى كالعروق فى الجسد نصب على الحال أو المصدر إذ الينبوع جاء للنابع والنبع (ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ) أى أصنافه من بر وشعير وسائر الحبوب أو أشكاله وهيئاته من السواد والبياض وغيرهما (ثُمَّ يَهِيجُ) ييبس إذا تم جفافه (فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا) من غاية اليبس (ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا) فتاتا أى يابسا متفتتا (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ) تذكيرا بأنه لابد لهذا من صانع حكيم دبره أو ذكرى للبعث من القبور وإحياء الموتى على قياس هذا المذكور أو ذكرى فى مثال الدنيا فى سرعة زوال نعيمها فيكون تنفيرا عنها بعد الترغيب فى الآخرة (لِأُولِي الْأَلْبَابِ) الذين يتذكرون به إذ غيرهم لا يتذكر به (أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) فاهتدى (فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ)

والنور الهداية وهو أشبه شيء بالضوء . قال عليه السلام « إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح . قلنا : يارسول الله وما علامة ذلك ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله » وخبر مَن محذوف أى كالقاسى القلب المعرض عن الإسلام دل عليه ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى عن قبول القرآن أو من أجل ذكر الله وهو أبلغ من أن يكون «عن» مكان «من» لأن القاسى من أجل الشيء أشد تأبياً عن قبوله من القاسى عنه بسبب آخر فى وإسناد شرح الصدر إليه تعالى والقسوة إلى قلوبهم إشارة إلى سبق رحمته ومبالغة فى وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بالامتناع ﴿ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ظاهر بأدنى تأمل ، والآية نزلت فى علىّ وحمزة وأبى لهب وولده . قال الفخر : اعلم أن ذكر الله سبب لحصول النور والهداية وزيادة الاطمئنان فى النفوس الطاهرة الروحانية وقد يوجب القسوة والبعد عن الحق فى النفوس الخبيثة الشيطانية وهو مرض لايرجى زواله فلذا قال «فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » . اه . ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ القرآن وفى الابتداء باسم الله وبناء « نزل » عليه تأكيد للإسناد إليه وتفخيم للمنزّل واستشهاد على حسنه ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ بدل من أحسن أو حال منه يشبه بعضه بعضاً فى النظم والإعجاز وصحة المعنى والدلالة على المنافع العامة ﴿ مَثَانِيَ ﴾ جمع مثنى مفعول من التثنى أو جمع مثنى من التثنية لأنه يثنى أى يكرر فيه الوعد والوعيد وغيرهما وقد مرّ فى الحجر ووصف به «كتاباً » باعتبار تفاصيله كقولك : القرآن سور وآيات والإنسان عظام وعروق وأعصاب ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ ﴾ ترتعد عند ذكر وعيده ﴿ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ وهو تصوير للخوف بذكر آثاره وتشبيه حالة بأخرى على طريقة التمثيل أو ذكر له بذكر لازمه أو هو تحقيق الواقع لأنهم إذا سمعوا القرآن تعتريهم تلك الحالة وهى انقباض الجلد وقفّ الشعر ﴿ ثُمَّ تَلِينُ ﴾ تطمئن ﴿ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ عند ذكر وعده أو إلى رحمته الواسعة وإنما لم تذكر لاستشهاره تعالى بسبق الرحمة فلا يسبق إلى خاطر من ذكر الله غيرها وقد دل عليها لين الجلود والقلوب أيضاً وإنما لم تذكر القلوب أوّلا لأن اقشعرار الجلد يدل عليها لأن منشأه خشية القلب وقدم الجلود ثانياً إشارة إلى فرط مسراتها بالرحمة والتعدية بإلى لتضمين معنى السكون والاطمئنان ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الكتاب أو الكائن من الخشية والرجاء ﴿ هُدَى اللَّهِ ﴾ نفس الهداية ﴿ يَهْدِي بِهِ ﴾ يوفق به ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ولم يقل يهديهم به فعبر بمن يشاء تفخيما لشأنهم كأنهم ممتازون من سائر العباد بكونهم مصب المشيئة ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ يخذله ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يخرجه من الضلال ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى أشده بأن يلقى فى النار منكوساً مغلولة يداه إلى عنقه فلا يقدر أن يتقى النار إلا بوجهه ، كمن أمن منه بدخول الجنة لحذف الخبر كما حذف فى نظائره ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى لهم وإيثار الظاهر للتسجيل عليهم بالظلم وإشعار الموجب لما يقال لهم ﴿ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أى وباله . ثم شرع فى تهديدهم بعد ضرب الأمثال وشرح مبانى الأحوال وما للكافر

من الويل والأهوال فقال ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم فى إتيان العذاب ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فاجأهم من جهة لا يتصورون مجيئه منها وذلك أفظع ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ الذل والهوان من المسخ والخسف والقتل والسبي والإجلاء وغير ذلك ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهلا يعتبر بهم هؤلاء. فإن لم تكن لهم قلوب يعقلون بها الأمثال فلا أقل من أن يدركوا المحسوس ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ لشدته ودوامه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ عذابها ما كذبوا أولو كانوا من أولى العلم لاعتبروا بهؤلاء ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ جعلنا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر فى أمر دينه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون به لأن المثل تجعل المعقول كالمحسوس وهذا تتميم لما تقدم من الأمثال وتمهيد لما سيضربه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حال مؤكدة لأن ذكر الموصوف للتمهيد كأنه قال عربيا محققا كقولك جاءنى زيد رجلا صالحاً فالمقصود الوصف ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أى لبس واختلاف لاعوج فيه بوجه قط لأنه فى سياق النفى وهو أبلغ من المستقيم وأخص بالمعانى ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصى علة أخرى مرتبة على الأولى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ المشرك والموحد ﴿رَجُلًا﴾ بدل من مثلا ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ متنازعون سيئة أخلاقهم ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ بفتحتين لنافع وابن عامر والكوفيين ﴿لِرَجُلٍ﴾ مصدر سلم له خلص وصف به مبالغة أو حذف منه ذا وبألف بعد السين للباقين اسم فاعل أى خالصا عن الشركة ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ تمييز ولذلك أفرده أى لا يستويان فالأول مثل المشرك على مايقتضيه مذهبه من أن يدعى كل واحد من معبوديه عبوديته ويتنازعوا فيه فهو كعبد تشارك فيه جمعٌ يتجاذبونه فى مهامهم المختلفة فهو فى تحيره وتوزع قلبه لايدرى على من يعتمد فهو دائما ضائع على أغم الحال مضطرب فهمه شعاع وقلبه أوزاع والثانى مثل الموحد فهو كعبد خالص لواحد فهو فارغ البال رضى الحال أحواله مضبوطة ومقاصده بالنجاح منوطة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وحده لأنه المنعم المالك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ اختصاصه بالحمد أو مايصيرون إليه من العذاب فيشركون ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ ستموت ويموتون فلا شماتة بالموت، نزلت لما استبطئوا موته صلى الله عليه وسلم وآثر الميت على المائت مع أن المعنى على الاستقبال لأن من كان الموت طوق عنقه لحياته عين موته وإن طال الأمد ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أنت وهم وفيه تغليب المخاطب على الغائب أو إنكم أيها الناس جميعا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج عليهم بالبرهان بأنك كنت على الحق فى التوحيد ويعتذرون بما لا طائل تحته كاتباع الآباء وإطاعة السادات والكبراء أو تختصمون أيها الناس فيما بينكم من المظالم وهو المنقول عن جل الصحابة والتابعين وروى الترمذى من حديث عبدالله بن الزبير لما نزلت «ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون» قال الزبير يارسول الله تكر علينا الخصومة بعد الذى كان بيننا فى الدنيا. قال: نعم. قال إن الأمر إذاً لشديد ﴿فَمَنْ﴾ أى لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ بنسبة الشريك والولد إليه ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم جعل نفس الصدق مبالغة ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ من غير تأمل بل عنادا ومكابرة ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾

وذلك يكفيهم بجازاة لأعمالهم واللام تحتمل العهد والجنس ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل المؤمنون بدلالة السياق فى قوله ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ الله كقوله «ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون» وقيل الجائى هو الرسول والمصدق به أبو بكر رضى الله عنه وذلك يقتضى إضمار الذى وهو غير جائز قاله البيضاوى ، وقيل يقدر قبل الموصول الفوج أو الفريق وأول التأويلات أحسن ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فى الجنة من أنواع الكرامة ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ على إحسانهم ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا ﴾ فإذا كفر فغيره أولى أو الأسوأ بمعنى السئ ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ يعطيهم ثوابهم ﴿ بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فيعد لهم محاسن أعمالهم بأحسنها فىزيادة الأجر وعظمه لفرط إخلاصهم فيها أو الأحسن بمعنى الحسن والإضافة فى الأسوأ والأحسن من إضافة الشئ إلى ما هو بعض منه كأعلم قريش والأشج أعدل بنى مروان من غير مشاركة المضاف إليه فى أصل المعنى مع قصد التفضيل أولا ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ محمداً صلى الله عليه وسلم ، بالإفراد للجمهور والجمع لحمزة والكسائى الأنبياء كلهم .و رسول الله والمؤمنين استفهام إنكار للنفى مبالغة فى الإثبات أى هو كاف أىّ كاف والإفراد أوفق بقوله ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ ﴾ إذ الخطاب للرسول ومثله إنا كفيناك وفى كفايته كفاية أمته والواو لقريش ﴿ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى الأصنام أن تقتلك أو تخبلك لأنهم قالوا إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا لعيبك إياها ، وقيل نزلت حين أرسل خالد بن الوليد لكسر العزى فقال له سادنها أحذركها يا خالد فنزل تخويف خالد منزلة تخويفه عليه السلام لأنه الآمر له بما خوف عليه ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ حتى غفل عن كفاية الله له وخوف النبى بما لا يضر ولا ينفع ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ إلى الرشاد ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾ إذ لاراد لفعله كما قال ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ﴾ غالب على أمره منيع ﴿ ذِى انْتِقَامٍ ﴾ من أعدائه ؟ بلى ؛ فمالهم يخوفونك بعد علمهم بهذا ، ثم استدل على ذلك بقوله ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لوضوح البرهان على تفرده بالخالقية ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ ﴾ تعبدون ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى الأصنام ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ لا ﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾ نفع ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ عنى ؟ لا ، بالإضافة فى كاشفات وممسكات للجمهور والتنوين ونصب ما بعده لأبى عمرو وإنما أنث الضمير بعد قوله « بالذين من دونه » تحقيراً وتبعيداً عن رتبة الضرر والنفع لأن الأنوثة تنبئ عن الرخاوة والعجز وقدم الضر لأن دفعه أهم وأهون . روى أنهم لما تلى هذا عليهم سكتوا فنزل ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أى كافىّ الله فى دفع الضر والإصابة بالخير ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ لعلمهم بأن الكل منه ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ حالتكم ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ على حالتى ، المكانة هى المكان استعير للحال استعارة محسوس لمعقول وقرأ أبو بكر بالجمع للتنويع وحذف من الثانى اختصاراً وإشارة إلى أن حاله لا تقف فإنه تعالى يزيده على مر الليالى والأيام قوة ونصراً ولذا توعدهم بكونه

منصوراً عليهم فى الدارين بقوله ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ فى الدنيا ، فخزى أعدائه دليل غلبته وقد أخزاهم الله يوم بدر ﴿ وَيَحِلُّ ﴾ ينزل ﴿ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ دائم فى الآخرة وهو عذاب النار ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ ﴾ لأجل نفعهم فى معاشهم ومعادهم ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بأنزل أى ملتبساً بالتوحيد والدين الثابت ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ﴾ اهتداؤه ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ فتجبرهم على الهدى و إنما أمرت بالإبلاغ وقد أبلغت ، ثم أشار إلى أن الإضلال والهداية كالإحياء والإماتة لايقدر عليها غيره بقوله ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ يقبضها عن الأبدان ويمنعها التصرف فيها ظاهراً باطناً ﴿ وَ ﴾ يتوفى ﴿ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ بمنع التصرف ظاهراً لا باطناً ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ الحقيقى ولا يردها إلى البدن ولحمزة والكسائى « قُضِىَ » على بناء المفعول ﴿ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ ﴾ أى النائمة إلى بدنها عند اليقظة ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ إلى وقت مضروب لموتها . عن ابن عباس : المرسلة نفس التمييز التى بها العقل تبقى بدونها نفس الحياة التى هى الروح بخلاف العكس فيتوفيان عند الموت ونفس التمييز فقط عند النوم وهى للروح كالشعاع للشمس هذا ما فى كتب التفسير ، لكن قال فى الجواهر : أكثرَ الناس فى هذه الآية فى الفرق بين النفس والروح ونفس التمييز ونفس الحياة إلى غير ذلك من الأقوال التى هى غلبة ظن وحقيقة الأمر فى هذا هى مما استأثر الله به وغيّبه عن عباده فقدنطقت الشريعة بقبض النفس فى هذه الآية وبقبض الروح فى حديث بلال الصحيح : « إن الله قبض أرواحنا حين شاء وردها علينا حين شاء » والظاهر أن الخوض فى هذا كله عناء . اهـ . والأولى هنا للإنسان أن يعتنى بأذكار من أراد النوم الواردة فى الصحيح كحديث جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أوى الرجل إلى فراشه ابتدره ملك وشيطان فيقول الملك اختم بخير ويقول الشيطان اختم بشرّ ، فإن ذكر الله ثم نام بات الملك يكلؤه فإن استيقظ قال الملك افتح بخير . وقال الشيطان افتح بشر ؛ فإن قال الحمد لله الذى ردّ إلىّ نفسى ولم يمتها فى منامها الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفوراً « الحمد لله الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم فإن وقع من سريره فمات دخل الجنة » . رواه النسائى والحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم وزاد آخره الحمد لله الذى يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير » وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يأوى إلى فراشه « لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر » رواه ابن حبان فى صحيحه وفى الترمذى عن أبى أمامة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أوى إلى فراشه طاهرا يذكر الله حتى يدركه النوم لم ينقلب ساعة من الليل يسأل الله شيئا من خير الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه » ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيعلمون أن القادر على ذلك قادر على البعث والكفار لا يتفكرون ﴿ أَمِ ﴾ بل ﴿ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ آلهة ﴿ شُفَعَاءَ ﴾ تشفع لهم عند الله بزعمهم

﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أ ﴾ يشفعون ﴿ وَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً ﴾ من الشفاعة وغيرها ﴿ وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ شيئا لأنهم جمادات لا تقدر ولا تعلم ﴿ قُلْ ﴾ ردًّا لما قالوا ﴿ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾ اختص بها لا يشفع أحد إلا بإذنه ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقرير لذلك الاختصاص ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فلا يدعى الملك فيه أحد ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ دون آلهتهم ﴿ اشْمَأَزَّتْ ﴾ نفرت وانقبضت من التوحيد من شمز همزته زائدة ﴿ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي الأصنام ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ فاجئوا الاستبشار وامتلأوا سروراً حتى تنبسط بشرة وجوههم لفرط افتتانهم بها ونسيانهم حق الله تعالى ، وقد بالغ في الأمرين حتى بين الغاية فيهما بذكر الاشمئزاز والاستبشار ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ ﴾ أي يا الله ﴿ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ مبدعهما ﴿ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ﴾ وحدك ﴿ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من التوحيد والشرك والحق والباطل أي لم يبق لك إلا الالتجاء إلى رب السماء بأن يحكم بينك وبينهم ، وفيه مبالغة في بذله المجهود وبيان أنهم لفرط عنادهم لا يحكم بينهم وبينه إلا رب السماء ذو الأوصاف الدالة على كمال الاقتدار وإحاطة العلم ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا ﴾ ظهر ﴿ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ يظنون مبالغة في الوعيد من العذاب الذي لم يخطر على قلب بشر ، وقيل من أعمال عملوها على أنها حسنات فإذا هي سيئات . قال الثوري : ويل لأهل الرياء من هذه الآية ، وفيه إقناط كلي ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ سيئات أعمالهم أو كسبهم حين عرضت الصحائف أو جزاؤها كقوله «وجزاء سيئة سيئة مثلها» ﴿ وَحَاقَ ﴾ نزل وأحاط ﴿ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي جزاؤه وهو العذاب ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ لكشفه إخبار عن الجنس بما يغلب فيه عطف على قوله « وإذا ذكر الله وحده . . . الآية » فكان بالفاء لتسبيه عما قبله لبيان مناقضتهم في التسبب كأنه قال : إذا ذكر الله وحده اشمأزوا فإذا مسهم ضر دعوا الله الذي كانوا يشمئزون من ذكر توحيده ونسوا ما كانوا يستبشرون بذكره وما بينهما اعتراض مؤكد لإنكار ذلك عليهم ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ ﴾ أعطيناه ﴿ نِعْمَةً ﴾ إنعاما تفضلا ﴿ مِنَّا ﴾ لأن التخويل عطاء بلا عوض ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ من الله بأني له أهل أو علم مني بوجوه كسبه أو بأني سأعطاه لما لي من استحقاقه وفيه عجب واغترار والضمير في أوتيته عائد على ما إن كانت موصولة وإلا فعلى النعمة والتذكير لإرادة شيء منها أو إرادة المال ﴿ بَلْ هِيَ ﴾ أي القولة أو النعمة ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ بلية يبتلى بها العبد ليمتاز الكافر من الشاكر ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن التخويل استدراج وامتحان ، فيه دليل على أن الإنسان للجنس ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم كقارون وقومه الراضين بها أو الذين قالوا نحن أكثر أموالا وأولادا ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من تلك الأموال ﴿ فَأَصَابَهُمْ ﴾ بعد المقالة عن قريب ﴿ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي جزاؤها ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالعتو

﴿مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أى قريش ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ كما أصاب أولئك وقد أصابهم ببدر ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين الله ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ امتحانا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه لمن يشاء ابتلاء حيث بسط لهم الرزق ثم حبس عنهم المطر سبع سنين فيعلموا أن الكل بالمشيئة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أن الحوادث كلها من الله بواسطة أو غيرها . ولما شدد فى الوعيد أردفه بما يدل على رحمته الواسعة كل شيء السابقة غضبه بقوله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ بالمعاصى والظلم حاملين عليها ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ لا تيأسوا من مغفرته أولا وتفضله ثانيا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لمن تاب من الشرك ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ بلا اشتراط توبة فيما عدا الشرك ولو بعد بعد وتقييد الغفران بالتوبة خلاف الظاهر ويدل على إطلاقه فيما عدا الشرك المخرج فى قوله : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » تعليله بقوله إنه بالضمير العائد إلى اسم الجلالة الدال على الألوهية المستلزمة للغنى المطلق وقوله هو الغفور الرحيم الدال على المبالغة والحصر والوعد بالرحمة بعد المغفرة وتقديم ما يستدعى عموم المغفرة بما فى عبادى الدال على الترحم والنهى عن القنوط مطلقا عن الرحمة فضلا عن المغفرة وإطلاقها والتأكيد بجميعا . والله أعلم ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ توبوا إلى الله ﴿وَأَسْلِمُوا﴾ أخلصوا العمل ﴿لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ بمنعه إن لم تتوبوا لأن مغفرته لغير التائب ليست بلازمة ولا موعودة بل مظنونة إن سبقت بها مشيئة والعاقل يفر من مظان الآفة ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هو القرآن لأنه أحسن الحديث أو ما هو أنجى وأسلم كالعزائم دون الرخص وكدوام الإنابة والمواظبة على الطاعة والانتهاء عن المعصية والعفو فى الأمور ومعنى من ربكم المربى لكم بالإرشاد إلى الكمال ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بوقته قبل إتيانه . بادروا قبل ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ أو كراهة أن تقول نفس والتنكير للتكثير ﴿يَا حَسْرَتَا﴾ أصله حسرتى أى ندامتى ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ﴾ قصرت ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ طاعته مستعار من الجارحة لما يلزم الشيء ﴿وَإِنْ﴾ مخففة من الثقيلة أى وإنى ﴿كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ كأنه قال فرطت وأنا ساخر والواو للحال ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ بالاهتداء إلى الحق ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ الشرك والمعاصى ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فى العقيدة والعمل و « أو » للدلالة على أنه لا يخلو من هذه الأقوال تحيرا وتعللا بما لا طائل تحته ووجه هذا الترتيب أن النفس إذا رأت أهوال يوم القيامة تتحسر على التوبة ثم تتعلل بأن التقصير لم يكن منها ثم تتأمل فتحقق التقصير منها فتأخذ فى تمنى الرجوع ، فإذا تأملت هذا الترتيب علمت أن « أو » هنا مثل « أو » فى « أو كصيب » دالة على أن كل واحد يكفى صارفاً عن الكفر وداعيا إلى اتباع أحسن ما أنزل ثم رد الله تعالى قوله لو أن الله هدانى بقوله ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ القرآن وهى سبب الهداية ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ تكبرت عن الإيمان

بها ﴿وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وتذكير الخطاب على معنى الشخص وقرئ بالتأنيث للنفس ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بنسبة الشريك والولد إليه ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما ينالهم من الشدة والجملة حال إذ الظاهر أن ترى من رؤية البصر واكتفى فيها بالضمير عن الواو ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مأوى ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان ولم يقل لهم إشعارا بالعلية والاستفهام للتقرير أى بلى ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾ من جهنم ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصى ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفلاحهم ونجاتهم أو مكان فوزهم من الجنة بأن يحلوا فيه ، والمفازة بالإفراد للجمهور والجمع للكوفيين غير حفص مفعلة من الفوز وتفسيرها بالنجاة تخصيصها بأهم أقسامه وبالسعادة والعمل الصالح إطلاق لها على السبب والباء للسببية صلة لينجى على جعل المفازة مصدرا ، وللظرفية على جعله مكانا ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ استئناف لبيان الفوز على الوجه الأول وحال على الثانى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خير وشر وإيمان وكفر رجوع إلى التوحيد بعد توفية مقام الوعد والوعيد حقه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ حافظ رقيب أو متصرف فيه كيف شاء ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مفاتيح خزائنهما من المطر والنبات وغيرهما وهى كناية عن قدرته وحفظه لها وفيها مزيد دلالة على الاختصاص لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها وهى جمع مقليد أو مقلاد من قلدته إذا لزمته ، وقيل جميع إقليد معرب إكليد على الشذوذ كمذاكير جمع ذكر . وعن عثمان رضى الله عنه أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن المقاليد فقال : « تفسيرها : لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير » والمعنى على هذا أن هذه الكلمات مفاتيح خير السموات والأرض من تكلم بها من المتقين أصابه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ دلائل قدرته ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المختصون بكمال الخسران لأن غيرهم له حظ من الرحمة والثواب وهذا متصل بقوله « وينجى الله الذين اتقوا ... الخ » وما بينهما اعتراض للدلالة على أنه مهيمن على العباد مطلع على أفعالهم مجازٍ عليها وتغيير النظم للإشعار بأن العمدة فى فلاح المؤمنين فضل الله وفى خسران الكافرين أنفسهم ، والتصريح بالوعد والتعريض بالوعيد قضية الكرم أو متصل بقوله « له مقاليد ... الخ » كأنه قال : والكافرون بما ذكرهم الخاسرون وهذا أحسن لقربه ﴿قُلْ أَ﴾ ترون هذه الدلائل ﴿فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ أى أن أعبد وغير منصوب بأعبد المعمول لتأمرونى بنون واحدة لنافع وبنونين للإعراب والوقاية مع الفك لابن عامر وبإدغام الأولى فى الثانية للباقين . ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ الأغبياء حيث قالوا للنبى استلم بعض آلهتنا نؤمن بإلهك ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ والله ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ كلام على سبيل الفرض فى الرسل لإقناط المؤمنين وإقناط الكافرين والإشعار بالحكم فى كل أمة واللام الأولى موطئة للقسم والثانية لجواب القسم الدال على جواب الشرط ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ عطف على ليحبطن عملك من عطف المسبب على السبب

﴿ بَلِ ٱللَّهَ ﴾ وحده ﴿ فَٱعْبُدْ ﴾ ردٌّ لما أمروه ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ إنعامه عليك وفيه إشارة إلى موجب الاختصاص ﴿ وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ ما عرفوه حق معرفته أو ماعظموه حق عظمته حين أشركوا به غيره وتقدم لهذا مزيد بيان فى سورة الأنعام ثم نبه على عظمته وكبريائه بقوله ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا ﴾ حال أى السبع أو جميع أبعاض الأرض البادية والغائرة ﴿ قَبْضَتُهُۥ ﴾ مقبوضة له فى ملكه وتصرفه والقبضة مرة من القبض ، أطلقت على المقبوض بالكف تسمية بالمصدر ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ ﴾ مجموعات ﴿ بِيَمِينِهِۦ ﴾ بقدرته وكل هذا تنبيه على كمال قدرته وعظمته ودلالة على أن تخريب العالم أهون شىء عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازا كقولهم شابت لمة الليل وطريق التمثيل هو أخذ زبدة الكلام من غير التفات إلى معانى المفردات الحقيقية ولا المجازية بالنظر إلى الموصوف المجرى عليه وهو الله تعالى شأنه هنا بأن يراد كمال اقتداره وتحقير الأفعال العظام بالنسبة إلى قدرته ولا يقدم هذا فى استعمال المفردات فى أحد المعنيين لكن لم نلتفت إليه أخذاً لزبدة الكلام تأمله ، وفى البخارى عن ابن مسعود أن حبرا من أحبار اليهود قال : يا محمد إن الله تعالى يحمل السمٰوات على أصبع والأرضين على أصبع والشجر على أصبع والماء على أصبع والخلائق على أصبع فيقول أنا الملك فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قرأ الآية ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ معه من الجمادات . ولما بين أدلة التوحيد بضرب الأمثال فى طرق شتى حتى وضح الصبح لذى العينين شرع فى القيامة وأهوالها بقوله ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ النفخة الأولى التى يموت فيها كل الخلائق أو هى نفخة الصعق على ما تقدم ﴿ فَصَعِقَ ﴾ مات أو غشى عليه ﴿ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وتقدم الكلام فيه ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ للبعث وتقدم الكلام فى الأخرى وعطف بثم لما روى أن بين النفختين أربعين يوما ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ أى جميع الخلائق الموتى ﴿ قِيَامٌ ﴾ قائمون من قبورهم أو واقفون ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ يقلبون أبصارهم كالمبهوتين أو ينتظرون ما يفعل بهم فأول من يحيى بعد الصعق إسرافيل ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ أضاءت ﴿ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ من العدل يومئذ استعير النور الذى هو الظاهر فى نفسه المظهر لغيره لأنه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما سمى الظلم ظلمة فى حديث : « الظلم ظلمات يوم القيامة » والعدل الذى يظهر كل حق ، ويدل على أن العدل هو المراد بالنور إضافته إلى اسمه الرب ثم إضافة اسمه إلى الأرض التى نشر العدل هو رونقها وعطف وضع الكتاب وما بعده عليه لأنها كلها تفاصيل العدل ملائمة له مع ختم الآية بنفى الظلم وقيل هو نور التجلى الجلالى والجمالى لفصل القضاء ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ ﴾ كتاب الأعمال للحساب واكتفى باسم الجنس عن الجمع ﴿ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ للأمم وعليهم من الملائكة والمؤمنين من أمة محمد يشهدون للرسل بالبلاغ أو من استشهد فى سبيل الله فإنهم كانوا حول العرش طائفين متقلدى السيوف يحضرون ذلك اليوم ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ العدل ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب على

ما جرى به الوعد ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ أى جزاءه تقرير لما تقدم لأن القضاء بالحق لا يكون إلا كذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا يحتاج إلى شاهد ولا يفوته شيء من أفعالهم. ثم فصل التوفية فقال ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعنف ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أفواجا متفرقة بعضها فى إثر بعض بعد فصل القضاء على تفاوت أقدامهم فى الضلالة والشرارة تسوقهم الملائكة بالعنف عطاشا عميا، وزمرا جمع زمرة من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ليدخلوها جواب إذا وحتى هى التى تحكى بعدها الجمل، وقرأ الكوفيون بتخفيف التاء فى فتحت ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ توبيخا ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من جنسكم: استفهام تقرير ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ القرآن وغيره ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أى لقاء ما فيه من الجزاء وهذا دليل على أن لا تكليف قبل بعث الرسل ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى علينا، وذكر المظهر للإشعار بالعلية والكلمة هى: لأملأن جهنم .. الآية ﴿قِيلَ﴾ لهم أبهم القائل لتهويل ما يقال لهم وهو ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾ مقدرين الخلود ﴿فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ مثوى جهنم، واللام للجنس لأن كل من ستر الحق وأنكره فهو متكبر وفى الحديث التكبر هو الترفع على وعظ الحق ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ بلطف على مراكبهم تسوقهم الملائكة إسراعا بهم ﴿إِلَى الْجَنَّةِ﴾ دار الكرامة ﴿زُمَرًا﴾ طوائف على تفاوت مراتبهم فى الشرف: إذ منهم النبيون والشهداء والعلماء والزهاد ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ وجدوا مالا يوصف ولذا حذف الجواب ﴿وَفُتِحَتْ﴾ بالتشديد والتخفيف كا مرّ ﴿أَبْوَابُهَا﴾ الواو للحال بتقدير «قد»، أى وجدوها مفتوحة الأبواب قبل مجيئهم إكراما وإجلالا ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يعتريكم بعده مكروه ﴿طِبْتُمْ﴾ طهرتم من دنس المعاصى: بالتوبة لبعض، وبالشفاعة لبعض، وبالتمحيص لبعض ويجوز أن يكون دعاء من الملائكة كما تقول لمن يكون مسرورا: طاب عيشك ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ مقدرين الخلود فيها ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على الجواب المقدر ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ بالبعث والجنة ﴿وَأَوْرَثَنَا﴾ ملكنا ﴿الْأَرْضَ﴾ أى أرض الجنة التى ترابها مسك ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ نتنزل ﴿مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ لغاية اتساعها ينزل كل منا فى أى مكان أراده ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ الجنة: من كلام الله، أو من كلامهم بعد الدخول ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ﴾ حال: محيطين ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ من كل جانب منه ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ حال من ضمير «حافين» ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ملتبسين به والمعنى ذاكرين فى طوافهم صفات جلاله وجماله ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ بين جميع الخلق ﴿بِالْحَقِّ﴾ بإدخال الكافرين النار والمؤمنين الجنة وبإقامة الملائكة فى مقاماتهم على حسب تفاضلهم ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على جزاء الكل بما يليق به، والقائل المؤمنون أو الملائكة.

[تم تفسير سورة الزمر]

سورة غافر
أو المؤمن

مكية ، إلا « الذين يجادلون ... » الآيتين ، خمس وثمانون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ حمٓ ﴾ أماله ورش وأبو عمرو بينَ بين ، وابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر صريحا ، وفخم الباقون . الله أعلم بمراده به ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ القرآن مبتدأ خبره ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ﴾ المنيع بسلطانه عن أن يتقوّل عليه متقوّل ﴿ ٱلْعَلِيمِ ﴾ بمن صدّق به وكذّب ، وفى الوصفين الإشارة إلى إعجاز الكتاب وشموله الحِكَمَ الدالة على القدرة والحكمة وأن من جـ جاهل مقهور ، وفيهما تهديد للكافرين وبشارة للمؤمنين ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ ساتره للمؤمنين ﴿ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ لهم إذا رجعوا إليه مصدر كالتوبة أو جمعها والإتيان بالواو للدلالة على جمع التائب بين غفران الذنوب وقبول التوبة ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ مشدده أو الشديد عقابه على المخالفين لحذف اللام للازدواج وأمن اللبس ، والثلاث صفات أخر لتحقيق ما فيه من الترغيب والترهيب والإضافة فيها حقيقية على أنه لم يرد بها زمان مخصوص بل المراد ثبوتها ودوامها أو إبدال وجعل الأخير وحده بدلا مشوش للنظم ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ الفضل الوافر على العارفين أو ذى الغنى عن الكل أو الإنعام بترك تعذيب المستحق وفى توحيد صفة العذاب مغمورا بصفات الرحمة دليل رجحانها لأنه وعيد بين وعدين ولن يغلب عُسْرٌ يسرين وعن أهل الإشارة غافر الذنب فضلا وقابل التوب وعدا شديد العقاب عدلا ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فيجب الإقبال الكلى على عبادته ﴿ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ المرجع للجزاء لا إلى غيره فلا يعبد غيره ، قال بعضهم غافر الذنب وقابل التوب فليرغب إليه ، شديد العقاب فليرهب ، ذى الطول فليشكر ، لا إله إلا هو فليقبل عليه ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ القرآن الذى هو تنزيل الله موصوف بالجلال والجمال بالطعن فيه وإدحاض الحق بالباطل ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وأما الجدال فيه لإيضاح مشكله وإزاحة الشبه وتكثير الفوائد فهو شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والراسخين فى العلم ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ للمعاش والرياش سالمين غانمين والفاء لسببية ما قبله أى إذا تبين أنهم كفار عند الله فلا ينبغى لأحد أن يلتفت إلى ما هم فيه من الدنيا فإنهم مأخوذون عما قريب أخذ من قبلهم كما قال ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ رسولهم كما كذبك هؤلاء ﴿ وَٱلْأَحْزَابُ ﴾ الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم العداوة ﴿ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ بعد قوم نوح كعاد وثمود وغيرهما ﴿ وَهَمَّتْ

﴿ كُلُّ أُمَّةٍ ﴾ من هؤلاء ﴿ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ قتلا أو أسرا أى ليتمكنوا منه فى ذلك ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ بما لا حقيقة له ﴿ لِيُدْحِضُوا ﴾ ليزيلوا ﴿ بِهِ الْحَقَّ ﴾ عن مقره وفى لفظ الحق إشارة إلى عدم إمكان إدحاضه ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ بالإهلاك جزاء لهمهم فلم ينالوا ما راموه بل تسبب ذلك لهم جزاء مشاكلا لما هموا بالرسل ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ لهم تقرير فيه معنى التعجب والتعظيم وليس باستفهام عن كيفية وقوع الأمر ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما ثبت لهم العذاب المستأصل فى الدنيا ﴿ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ وعيده لأملأن جهنم أو قضاؤه ﴿ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى عليهم والظاهر لبيان العلة ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ بدل من كلمة ربك بدل الكل أو الاشتمال على إرادة اللفظ أو المعنى ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ ﴾ مبتدأ وهم ثمانية يتجاوبون بصوت حسن فأربعة يقولون سبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك، وأربعة يقولون سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك ، أرجلهم فى الأرض السفلى ورءوسهم فى العرش خاشعين لا يرفعون طرفهم ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ عطف عليه وهم الكروبيون سادة الملائكة ، روى أن حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام يهللون ويكبرون ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ما منهم من أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر كما قال ﴿ يُسَبِّحُونَ ﴾ خبر المبتدأ أى يذكرون الله بجامع الثناء من صفات الجلال والإكرام ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ مع حمده أو ملابسين بالحمد يقولون سبحان الله وبحمده ، وجعل التسبيح أصلا والحمد حالا لأن الحمد مقتضى حالهم دون التسبيح ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ وبوحدانيته تعالى ذكر لإظهار شرف الإيمان وللدلالة على أن إيمانهم كإيمان غيرهم فى كونهما بالدليل والبرهان دون المشاهدة والعيان والمانع خارج عن الطريق السوى، قاله فى غاية الأمانى، يريد الرد على صاحب التقريب . والله أعلم ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ لأن حالهم كحالهم وفيه دليل على أن الاشتراك فى الإيمان يوجب النصيحة والشفقة وإن تباعدت الأماكن والأجناس وفيه بيان لإجمال قوله ويستغفرون لمن فى الأرض وتشريف المؤمنين وتعظيم الرجاء لهم بأن الملائكة الحاملين للعرش والذين حول العرش وهم أفضل الملائكة يستغفرون لهم قائلين ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ أى وسعت رحمتك وعلمك كل شىء وإنما أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق فى وصفه بالرحمة والعلم والمبالغة فى عمومهما وتقديم الرحمة لأنها المقصودة بالذات هنا توسلوا برحمته الواسعة وعلمه الشامل لما طلبوا بقولهم ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ منهم من ذنوبهم ولا وجه لذكر الشرك هنا لتقدم ذكر المؤمنين ولأن التوبة عند الإطلاق تنصرف إلى التوبة من الذنوب ﴿ وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ دين الإسلام أى الذين علمت ما ذكر منهم لأن رحمتك واسعة وعلمك محيط بما أخفوا وما أعلنوا وهما يقتضيان ذلك وفيه إشارة إلى طهارة المدعو لهم من كدر الرياء والهوى وفائدة الدعاء إظهار الشرف كما قدمنا ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾

تصريح بما علم ضمنا فإن المغفور له لا عذاب عليه للتأكيد والدلالة على شدة العذاب ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ﴾ إقامة ﴿ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ ﴾ إياها وأعادوا « ربنا » تلذذا بذكره وتذللا لعزته وتوسلا به إلى ماطلبوه ﴿ وَمَن صَلَحَ ﴾ آمن ﴿ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ و « مَنْ » عطف على « هم » الأول أى أدخلهم ومعهم هؤلاء ليتم سرورهم أو الثانى لبيان عموم الوعد ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ ﴾ الذى لا يمتنع عليه مقدور ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته ومن ذلك الوفاء بالوعد ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ لأنها أسباب الجحيم أو جزاء السيئات فهو تعميم بعد تخصيص لأن عذاب الجحيم من ذلك الجزاء وعلى الأول سؤال للسبب بعد سؤال المسبب ﴿ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ ﴾ فى الدنيا أو فى الآخرة ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ فى الآخرة ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ الذى ذكر من الوقاية والرحمة ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ لأنه ملك الأبد بعمل يسير ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ ﴾ يناديهم الملائكة خزنة النار يوم القيامة إذا دخلوا النار ومقتوا أنفسهم ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ ﴾ إياكم ﴿ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ الأمارات بالسوء والمقت أشد البغض ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ ﴾ فى الدنيا ﴿ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ وإذ ظرف للمقت الأول ولا يمنعه فصل الخبر للاتساع فى الظروف والمعنى أن مقت الله لكم فى الدنيا حين دعاكم الرسل فكفرتم بالله وكذبتم الرسل أشد من مقتكم أنفسكم الآن ، وإيثار المضارع للدلالة على استمرار الرسل على الدعوة واستمرارهم على الكفر أو مقت الله يوم القيامة أكبر من مقتكم فيه وإذ تدعون تعليل للثانى وقيل ظرف منصوب بفعل دل عليه المقت أى يمقتكم ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ إماتتين عند خلقنا قبل نفخ الروح وبعد انقضاء آجالنا المشار إليه بقوله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴿ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ بعد نفخ الروح وبعد البعث ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ التى سببها الاغترار بالدنيا وإنكارنا البعث ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ ﴾ من النار أى إلى نوع منه سريع أو بطىء ﴿ مِّن سَبِيلٍ ﴾ فنسلكه أم اليأس واقع دون ذلك وهو كلام لمن غلب عليه اليأس وتحير ولهذا أجيبوا بقوله ﴿ ذَٰلِكُم ﴾ العذاب الذى كنتم فيه ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ بسبب أنه فى الدنيا ﴿ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ متوحدا أو يُوَحَّدُ وحده لحذف الفعل وأقيم مقامه فى الحالية ﴿ كَفَرْتُمْ ﴾ بالتوحيد ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ بالإشراك مستمرين على ذلك الإيمان ﴿ فَالْحُكْمُ ﴾ اليوم فى تعذيبكم ﴿ لِلَّهِ ﴾ لا شريك له فيه وقد حكم عليكم بالعذاب السرمد ﴿ الْعَلِيِّ ﴾ عن أن يرد قضاؤه أو أن يشرك به ﴿ الْكَبِيرِ ﴾ سلطانه فلا يكون عذابه لمن كفر به إلا سرمدا لوقوع أفعاله على أتم الوجوه وهو اللائق بجبروته ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على التوحيد وسائر ما يجب أن يعلم تكميلا لنفوسكم أو آياته من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ أسباب رزق كالمطر الذى هو سبب معاشكم ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ يتعظ ويعتبر بالآيات ﴿ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ يرجع عن الإنكار بالإقبال عليها والتفكر فيها لا المعاند ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ ﴾ اعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ من الشرك والخطاب للمنيبين تقريبا لهم

وتنشيطا أو سبب عن قوله « هو الذى يريكم » فيعم المؤمن والكافر «وما يتذكر إلا من ينيب» اعتراض لإفادة اختصاصه بالانتفاع بالآيات ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ إخلاصكم وشق عليهم ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ﴾ رافع درجات الثواب لعباده فى الجنة أو رافع السموٰات بعضها فوق بعض من رفعه ضد وضعه أو عظيم الصفات من رفع ككرم علا وشرف رفعة بالكسر خبر ثان لهو يدل على علو صمديته أو خبر لمحذوف أى الله رفيع الصفات ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ مالكه خبر ثالث للدلالة على عظمته والخبران يدلان على تفرده بالألوهية فإن من ارتفعت درجاته وكان العرش الذى هو أصل العالم الجسمانى فى قبضة قدرته لايصح أن يشرك به وكذا قوله ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ ﴾ الوحى الذى به الحياة الأبدية أو جبريل برسله ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ أى قوله بيان للوحى فالأمر هو الحث على الخير كفًّا أو امتثالا لأن تلك الحياة إنما تكون بعد التخلى أو «من» للعلة أى من أجل أمره خبر رابع للدلالة على أن الروحانيات أيضا مسخرات لأمره والتمهيد للنبوة بعد تقرير التوحيد ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يختاره للنبوة ﴿لِيُنْذِرَ﴾ يخوف الله أو الملقى عليه الناس ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ بإثبات الياء وصلا لورش وابن كثير وقالون بخلاف عنه وحذفها للباقين : يوم القيامة لتلاق أهل السماء والأرض والعابد والمعبود والظالم والمظلوم فيه ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ﴾ بدل من الأول أى خارجون من قبورهم أو ظاهرون لا يسترهم شىء من جبل أو غيره حفاة عراة أو أعمالهم وسرائرهم لقوله «يوم تبلى السرائر» ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ من ذواتهم وصفاتهم وأعمالهم وأحوالهم وهو تقرير لقوله يوم هم بارزون ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ يقوله تعالى ثلاث مرات حين لا أحد يجيبه ثم يجيب نفسه بقوله ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ لخلقه بالموت أو هذا حكاية لما دل عليه ظاهر الحال فى ذلك اليوم من زوال الأسباب من أن حقيقتها ناطقة بذلك دائما وقيل ينادى مناد بذلك ويجيبه أهل المحشر بذلك والله أعلم وانتصب اليوم بما دل عليه الظرف أى لمن ثبت له الملك فى اليوم ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ إن خيراً فخيرا ، وإن شرا فشراً نتيجة لما سبق ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ لايشغله شأن عن شأن فيصل إليهم ما يستحقونه سريعا وكل هذا من نتائج تفرده بالملك فى ذلك اليوم والتقييد باليوم لانقطاع العلائق المجازية فيه ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ ﴾ يوم القيامة من أزف الرحيل قرب أو اللحظة الآزفة وهى حال مشارفتهم دخول النار كقوله « فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا » ويبدل منه ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ ﴾ ترتفع خوفا عن أماكنها فتصير ﴿لَدَى﴾ عند ﴿ الْحَنَاجِرِ ﴾ الحلوق فلا تعود فيتروحوا بالنفس ولا تخرج فيستريحوا ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ ممتلئين غما أو ممسكين أنفاسهم لئلا تخرج مع قلوبهم حال من أصحاب القلوب على المعنى أو منها وجمعت كذلك لأن الكظم من أفعال العقلاء فعوملت معاملة أصحابها ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿ مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريب أو محب مشفق ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ يشفع ، وضع الظاهر موضع الضمير دلالة على اختصاص ذلك بهم وأنه لظلمهم ولا مفهوم للوصف إذ لا شفيع لهم أصلا ﴿ يَعْلَمُ ﴾ الله ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ أى النظرة الخائنة كالثانية إلى غير

تحريم أو استراق النظر إليه أو خيانة الأعين فهى صفة للنظرة أو مصدر كالعافية وجعله صفة الأعين لا يلائم. على ما قاله فى غاية الأمانى خلافا لأبى حيان فى قوله من إضافة الصفة إلى الموصوف أى الأعين الخائنة . اه . قال فى الجواهر : وهذه الآية عبارة عن علم الله تعالى بجميع الخفيات فمن ذلك كسر الجفون والغمز بالعين والنظرة التى تفهم معنى . اه. ويستعان على حفظ البصر باستحضار العلم أن نظر الله إليه سابق على نظره إلى ما ينظر إليه ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ من الضمائر والجملة من يعلم خبر خامس للدلالة على أن كل خفى متعلق العلم والجزاء ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق فلا يقضى بشىء إلا وهو حقه ومع ذلك يجازى الحسنة بعشر والسيئة بمثلها وينصف المظلوم من الظالم إلى غير ذلك من أقضيته الحق والعدل ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ بالخطاب لنافع وهشام ، والغيبة للباقين أى يعبدون ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ وهم آلهتهم ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ فكيف يكونون شركاء الله : تهكم بهم ؛ لأن الجماد لا حراك له فضلا عن الحكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوالهم ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ بأفعالهم تقرير لعلمه بخيانة الأعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على مايقولون ويفعلون وتعريض بحال مايدعون من دونه أنه لا يسمع ولا يبصر وإشارة إلى أن شرط القاضى أن يكون سميعا بصيرا ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ حين كذبوا الرسل أى قد ساروا ونظروا فما بالهم لا يعتبرون بهم ﴿ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ ﴾ بالغيبة للجمهور والخطاب لابن عامر ﴿ قُوَّةً ﴾ قدرة بالإفساد والإعداد وتمكنا وهم فصل حقه أن يقع بين معرفتين إلا أن أفعل من شبيه المعرفة فى عدم دخول أل عليه فأجرى مجراه ﴿ وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ كالقلاع والمدائن الحصينة والقصور الرصينة أو المعنى أكثر آثاراً كقولك تقلدت سيفا ورمحا ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ فأهلكهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ من عذابه ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الأخذ ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ المعجزات الظاهرة والأحكام الواضحة ﴿ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ ﴾ متمكن مما يريده غاية التمكن ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لا يؤبه بعقاب دون عقابه وقد دل عليه تلك الآثار ، ولما ذكر أنه أهلك أشد منهم أردفه بأشهرهم عتواً وهو فرعون ، ودهاء وهو هامان ، ومالا وهو قارون فقال ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ التسع ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ برهان ظاهر عطف باعتبار الصفات وأريد أشهرها كاليد البيضاء والعصى أفرد تفخيما لشأنه ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا ﴾ موسى ﴿ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ جعلوا أفعاله سحرا وأقواله كذبا وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان لعاقبة من هو أشد وأقرب إليهم زمانا ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ بالصدق ﴿ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ أى أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلون بهم أولا من قتل الرجال أهل القوة وإبقاء النساء للخدمة والاسترقاق قالوه تخويفا لبنى إسرائيل عن مظاهرة موسى . وعن ابن عباس كان أمر أولا بالقتل خوفا من الولد الذى أخبر به الكهان فلما مضت تلك السنة رفع القتل ولما جاء موسى بالمعجزات أعاد القتل

تخويفا لبنى إسرائيل عن مظاهرته . اهـ . قاله فى غاية الأمانى ، وقال فى الجواهر : هذا القتل الأخير لم تتم لهم فيه عزمة ولا أعانهم الله تعالى على شىء منه . اهـ . قلت يدل عليه قوله ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ ضياع أى كيدهم وإيثار المظهر ليوسموا بالكفر ويقاس عليه كيد كل كافر فيعلم أن كيد قريش كذلك ، قال فى الجواهر : عبارة وجيزة تعطى أن الله لم يقدرهم على قتل أحد من بنى إسرائيل ولا نجحت لهم فيه سعاية . اهـ . لكن فى مدارك التنزيل للنسفى يعنى أنهم باشروا قتلهم أولا فما أغنى عنهم ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوا فما يغنى عنهم هذا القتل الثانى وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان ثم أعاده عليهم غيظا وظنا منه أنه يصد بنى إسرائيل عن مظاهرة موسى عليه السلام وما علم أن كيده ضائع عليهم فى الكرتين جميعا . اهـ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لملئه ﴿ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ كانوا يقولون لما رأوا خوفه من موسى ليس بالذى تخافه وما هو إلا ساحر وإذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة وتعلله بذلك مع أنه كان سفاكا للدماء فى أهون شىء فكيف بمن جاء يثل عرشه ويهدم ملكه دليل بأنه تيقن أن موسى رسول العزيز المقتدر وخاف أن لو هم بقتله أن يعاجله بالوبال ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ ليمنعه منى : تمويه منه بأنه لا يبالى بموسى وربه ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ﴾ إن لم أقتله ﴿ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ الذى شرعته لكم كان أمرهم باتخاذ أصنام وعبادتها ليتقربوا بها إليه وقال لهم أنا ربكم الأعلى ﴿ وَأَن يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ ما يفسد دنياكم من التهارج والتحارب وإبطال أسباب المعاش بالواو لنافع وابن كثير وابن عامر وأبى عمرو بقصد الجمع بين الأمرين وبأو للباقين على معنى الخوف من أحد الأمرين يعنى يظهر الفساد فى الأرض بالتقاتل الذى يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش فيهلك الناس قتلا وضياعا إن لم يقدر أن يبطل دينكم بالكلية وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بضم ياء يظهر وكسر الهاء ونصب الفساد والباقون بفتحهما ورفع الفساد ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ ﴾ لقومه وقد سمع ذلك ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ عن الإذعان للحق فرعون وغيره ﴿ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ صدر الكلام بإن تأكيدا وإشعارا بأن السبب فى دفع الشر هو العياذ أى اللجأ إلى الله وخص اسم الرب لأن المطلوب هو الحفظ والتربية والرب يراعى أحوال مربابه وإضافته إليه وإليهم حث لهم على موافقته ولم يسم فرعون وذكر وصفا يعمه وغيره لتعميم الاستعانة والدلالة على الحال الحامل له على ذلك القول وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى عذت فيه وفى الدخان بالإدغام ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ ﴾ اسمه سمعان أو حزقيل صاحب سر فرعون قبطى وقيل إسرائيلى ، والأول أظهر لقوله ﴿ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ من أقاربه ابن عمه وقيل من يتعلق بقوله ﴿ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ ﴾ لأن يقول أو وقت أن يقول ﴿ رَبِّىَ اللَّهُ ﴾ وحده فتقصدون قتله من غير روية وتأمل فى أمره ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَٰتِ ﴾ بالمعجزات الظاهرات على صدقه ﴿ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أى فلا وجه لإنكاركم أنه رسول ربكم ثم تنزل معهم

وقال ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ أي ضرر كذبه لا يجاوزه ولا يصيبكم منه شيء ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ به من العذاب عاجلا لأنه وعدهم عذاب الدنيا والآخرة إن لم يؤمنوا وهذا من طريق التقسيم أي أنه لا يخلو من أن يكون كاذبا فلا يضركم كذبه أو صادقا فيصيبكم ما قال وفيه مبالغة فى التحذير وإظهار الإنصاف وعدم التعصب ولذا قدم كونه كاذبا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ متجاوزٌ للحد ﴿ كَذَّابٌ ﴾ يحتمل أنه ترجيح لجانب صدقه بأنه لو كان مسرفا كذابا لما عضده الله بالبينات أو أراد أنه إن كان مسرفا كذابا فسيضمحل أمره عن قريب فلاحاجة لكم إلى قتله ويحتمل أنه أراد المعنى الأول وخيل إليهم الثانى ليلين شكيمتهم ، والشكيمة : الأنفة ، وعرض به لفرعون بأنه مسرف كذاب لا يهديه الله إلى الصواب والنجاة ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ ﴾ غالبين عالين ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر فلا تفسدوا أمركم بالتعرض لبأس الله بقتل رسوله ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ ﴾ عذابه ﴿ إِنْ جَاءَنَا ﴾ أدخل نفسه معهم إكالا للنصح ليريهم أنه معهم فيما ينصح لهم أي لا ناصر لنا منه إن جاءنا لأجل قتل أوليائه ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ ﴾ ما أشير عليكم ﴿ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ من استصواب قتل موسى أو ما أعلمكم إلا ما علمت من الصواب ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ طريق الصواب ﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ أي مثل أيام الأمم الماضية يعنى وقائعهم وأغنى عن جمع اليوم جمع الأحزاب مع تفسيرها فى قوله ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ مثل بدل من مثل قبله أي مثل جزاء عادتهم أي ما كانوا عليه دائبا من الكفر وإيذاء الرسل وسائر المعاصى ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ كقوم لوط من إهلاكهم فى الدنيا ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب ولا يزيد كلا على قدر ما استحقه ولا يخلى الظالم منهم بغير انتقام وهو أبلغ من قوله « وما ربك بظلام للعبيد » من حيث أن المنفى فيه نفى تعلق إرادته بالظلم وإذا لم يرده فأحرى فعله ، ولما خوفهم من عذاب الدنيا أردفه بتخويفهم من عذاب الآخرة بقوله ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِي ﴾ بإثبات الياء وحذفها على ما تقدم من القراءات فى التلاق وهو يوم القيامة يكثر فيه نداء أصحاب الجنة أصحاب النار و بالعكس والنداء بالسعادة لأهلها والشقاوة لأهلها وغير ذلك ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ ﴾ عن موقف الحساب ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ منصرفين إلى النار ﴿ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ من عذابه ﴿ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ مانع ودافع زيادة تهديد ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ مرشد تعريض بأنهم ختم على قلوبهم لما رآهم لا تلين قلوبهم بعد ذلك الإرشاد ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي قبل موسى وهو يوسف بن يعقوب عليهما السلام على الأصح على أن فرعون يوسف قد عاش إلى زمن موسى لأنه عمر أربعمائة سنة وأربعين سنة أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأبناء أو هو سبطه يوسف بن إبراهيم ابن يوسف ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالمعجزات الظاهرات ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ من الدين ﴿ حَتَّى

إذا هلك ﴾ مات ﴿ قُلْتُمْ ﴾ من غير برهان ﴿ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ ضما إلى تكذيب رسالته تكذيب رسالة من بعده أو قلتم بمعنى ظننتم أى أقمتم على كفركم وظننتم أنه لا يجدد عليكم إيجاب الحجة ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل إضلالكم ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ فى العصيان ﴿ مُّرْتَابٌ ﴾ فى المعجزات بغلبة الوهم والانهماك فى التقليد ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ بدل من من لأنه فى معنى كل مسرف ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ بغير برهان بل بمجرد تقليد واتباع هوى وشبهة داحضة ﴿ كَبُرَ ﴾ جدالهم ﴿ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ويجوز جعل الذين مبتدأ بتقدير مضاف أى جدال الذين والخبر كبر أو بغير سلطان والضمير فى كبر يرجع إلى الجدال المفهوم من يجادلون أو إلى من لأن الموصول بعده بدل منه وأفرد من إعادة للفظه ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل إضلالهم ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ ﴾ بالضلال ﴿ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ بإضافة قلب إلى متكبر للجمهور وبتنوينه لأبى عمرو وابن ذكوان وما بعده صفته محل الكبر لكن متى تكبر القلب ثم تكبر صاحبه وبالعكس وكل على القراءتين لعموم الضلال جميع أجزاء ذلك القلب ثم أردف وصفه بالتكبر أفعاله الدالة عليه بقوله ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ راجعا إلى المخرقة لما أعيته الحيل فى مقاومة موسى تمويها على قومه أو جهلا منه ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي ﴾ بناء ﴿ صَرْحًا ﴾ عاليا ظاهرا لا يخفى على أحد وإن بعد من صرح الشىء ظهر ﴿ لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ الطرق ﴿ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ ﴾ بيان لها وفى إبهامها ثم إيضاحها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع إلى معرفتها يعنى طرقها الموصلة إليها ﴿ فَأَطَّلِعُ ﴾ بالرفع للجمهور عطفا على أبلغ وبالنصب لحفص جوابا لـ «ابن» حملا للترجى على التمنى بجامع عدم التحقيق ﴿ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ أى أنظر إليه ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ ﴾ أى موسى ﴿ كَاذِبًا ﴾ فى أن له إلها غيرى ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل تزيين ما مر به ﴿ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ جميعا والمزين هو الله تخلية، أو الشيطان وسوسة ﴿ وَصَدَّ ﴾ فرعون الناس ﴿ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ طريق الهدى بالبناء للفاعل لنافع وابن كثير وابن عامر وأبى عمرو، والمفعول للباقين والأول أوفق بالمقام لأن الحديث عن فرعون والسوق لعد مثالبه ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ خسار ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ ﴾ من آل فرعون ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ ﴾ بحذف الياء للجمهور وإثباتها لابن كثير وأبى عمرو وقالون على أصولهم المعروفة ﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وفيه تعريض شبيه بالتصريح أن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغى أجمل أولا ثم فسر فلله دره ما أدراه بإيراد الحجج لما لم يرعو فرعون عن غوايته بالإجمال صرح له بمعارضته أنه الدال على سبيل الرشاد دونه ثم شرع فى ذم الدنيا وتحقير متاعها ومدح الآخرة بقوله ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ شىء يتمتع به يسيرا فيزول ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ لخلودها ثم ذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منها ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف بقوله ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ إن لم يعف عنها فلا مزيد على المثل عدلا من الله تعالى وفيه دليل على أن الجنايات تغرم بمثلها ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ لأنهما سيان فى جزاء الأعمال لا تفاضل

كما فى الدنيا (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) إذ لا عبرة لعمل دونه ﴿ فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور والمفعول لابن كثير وأبى عمرو وأبى بكر ﴿ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافا مضاعفة فضلا منه ورحمة ﴿وَيَـٰقَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَوٰةِ ﴾ الجنة أى إلى أسبابها ﴿ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ كرر نداءهم لما لاح له أنهم مستغرقون فى بحر الغفلة إيقاظا لهم واهتماما بالمنادى له ومبالغة فى توبيخهم على ما يقابلون به نصحه وأعاد الواو هنا دون قوله ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا . . إلى آخره لأنه بيان لما أجمل قبله لأن ذم الدنيا وتعظيم الآخرة هو عين الإرشاد وأما قوله «مالى أدعوكم» فموازنة بين دعوته التى ثمرتها الجنة ودعوتهم التى ثمرتها النار فليس من تفسير الإرشاد ولذا عطف ليقتضى التغاير. والله أعلم . ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ ﴾ بدل أو بيان من الاول فيه تعليل والدعاء كالهداية فى التعدية بإلى واللام ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ﴾ بربوبيته ﴿ عِلْمٌ ﴾ والمراد بنفى العلم نفى المعلوم كأنه قال ماليس بإله ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ ﴾ الغالب على أمره ﴿ الْغَفَّارِ ﴾ لمن تاب المستجمع لصفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة وما يتوقف عليه من العلم والإرادة والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران ﴿لَا جَرَمَ﴾ حق وثبت و«لا» نفى ورد لما دعوه إليه وجرم فعل وفاعله أن ومابعده فى قوله ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ لأعبده ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ إلى نفسه قط لأنه جماد أو ليس له استجابة دعوة ﴿ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا ﴾ مرجعنا ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ بالموت ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ بالإشراك والعصيان ﴿هُمْ أَصْحَـٰبُ النَّارِ ﴾ ملازموها ملازمة المالك ملكته ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ إذا عاينتم العذاب ﴿مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ من النصيحة ثم التجأ إلى الله فى دفع مكرهم لما بان لهم أنه على دين موسى بقوله ﴿ وَأُفَوِّضُ ﴾ أسلم ﴿ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ليعصمنى من كل سوء ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ فيحرسهم أو يجازى كلا على حسب حاله جواب لتوعدهم المفهوم من قوله ﴿فَوَقَـٰهُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا﴾ شدائد مكرهم قيل فر منهم فأمر فرعون بطلبه فوجدوه يصلى والوحوش حوله فهابوا ورجعوا وأخبروا فرعون فقتلهم وقيل أكل السباع بعضهم ورجع بعضهم هاربا فصلبهم فرعون ودخل المؤمن فى جماعة موسى وكان ممن نجا معه فى البحر ﴿ وَحَاقَ ﴾ نزل ﴿ بِآلِ فِرْعَوْنَ﴾ قومه معه ﴿سُوٓءُ الْعَذَابِ﴾ الغرق أو ﴿النَّارُ﴾ بدل منه أوخبر محذوف أو مبتدأ خبره ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ يحرقون بها من قولهم عرض الأسارى على السيف وذلك لأرواحهم كما روى ابن مسعود أن أرواحهم فى أجواف طير سود تعرض على النار ﴿غُدُوًّا﴾ غدوة ﴿وَعَشِيًّا﴾ وذكر الوقتين يحتمل التخصيص والتأبيد وفيه دليل على بقاء النفس وعذاب القبر هذا مادامت الدنيا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يقال ﴿أَدْخِلُوٓا﴾ بفتح الهمزة وكسر الخاء لنافع وحمزة والكسائى وحفص ﴿ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ أمر للملائكة بإدخالهم ﴿ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ النار وبضمهما للباقين وآل منادى حينئذ وعذاب جهنم أشد مما كانوا فيه ﴿ وَ ﴾ اذكر لقومك ﴿ إِذْ يَتَحَاجُّونَ ﴾ وقت تخاصم الكفار ﴿ فِي النَّارِ ﴾ لعلهم يرعوون ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَـٰٓؤُا ﴾ الاتباع تفصيل

للحجاج ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا ﴾ هم الرؤساء ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ﴾ جمع تابع كخدم وخادم أو ذوى تبع مصدر تبع بمعنى اتبع ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ ﴾ دافعون ﴿ عَنَّا نَصِيباً ﴾ جزءا ﴿ مِنَ النَّارِ ﴾ ونصيبا مفعول لما دل عليه مغنون أو له على التضمين ﴿ قَالَ الَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ نحن وأنتم سواء فكيف تستغيثون بنا ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ بإدخال أهل الجنة الجنة وأهل النار النار لا مبدل لحكمه ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ ﴾ كلهم التابع والمتبوع لما أيس الأتباع من نصرة الرؤساء وأيسوا من الخروج ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ الموكلين بها وضع الظاهر موضع المضمر للتهويل بلفظ جهنم ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً ﴾ قدر يوم أو شيئاً ﴿ مِنَ الْعَذَابِ . قَالُوا ﴾ أى الخزنة بعد مدة طويلة تهكما بهم وتوبيخا على إضاعة أوقات الدعاء ﴿ أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَـٰتِ ﴾ المعجزات الظاهرات الدالات على صدقهم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أتوا بها فكفرنا بهم ﴿ قَالُوا فَٱدْعُوا ﴾ أنتم فإنا لا نجترئ فيه إذ لا نقدر على الشفاعة إلا بشرط أن يكون المشفوع له مؤمنا ويؤذن لنا فى الشفاعة ﴿ وَمَا دُعَـٰٓؤُا الْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ ﴾ ضياع لا تأثير له وفيه إقناط لهم عن الإجابة ، ثم سلى رسوله ومن تبعه من المؤمنين بقوله ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ بالحجة والظفر من الكفار ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ يوم القيامة يعنى ينصرهم فى الدارين والأشهاد جمع شاهد من يقوم يوم القيامة للشهادة على الناس من الملائكة والأنبياء والمؤمنين ، والتعبير عن يوم القيامة بيوم يقوم فيه الأشهاد للتهويل ولذا أبدل عنه ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ ﴾ بالياء لنافع والكوفيين وبالتاء لغيرهم ﴿ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ عذرهم لو اعتذروا لكن لا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ الطرد عن رحمة الله ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴾ الآخرة أى شدة عذابها تقرير لعدم قبول المعذرة إذ من كان هذا حاله كيف يرجى قبول عذره ، ثم ذكر قصة موسى تسلية لرسولنا عليه السلام وتذكيراً للعرب بما كانت تسمع من أخبار موسى بقوله ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ ﴾ ما يهتدى به فى الدين من المعجزات والتوراة ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ من بعد موسى ﴿ الْكِتَـٰبَ ﴾ التوراة يتصرفون فيه تصرف الوارث فى مال مورثه وفى ذكر الكتاب إشارة إلى أن ما عداه ذهب بذهابه عليه السلام وأن الكتاب كاف لقوله ﴿ هُدًى ﴾ هداية أو هاديا ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾ تذكرة أو مذكرا ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَـٰبِ ﴾ وانتصاب هدى وذكرى على المفعول له أو الحال وفيه بيان نصر المؤمنين فى الدنيا بالحجة بعد ذهاب الأنبياء ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ على أذى المشركين ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بنصر أوليائه ﴿ حَقٌّ ﴾ وأنت ومن تبعك منهم واستشهد بحال موسى وفرعون ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ ما يقع من خلاف الأولى بحالك ليستن بك وأقبل على أمر دينك والاهتمام بأمر العدا بالاستغفار فإنه كافيك فى النصر وإظهار الأمر ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ صل ملتبسا ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ ﴾ هو من بعد الزوال ﴿ وَالْإِبْكَـٰرِ ﴾ أى الصلوات الخمس أو دم على التسبيح

والتحميد لربك فى جميع الأوقات وذكر الوقتين لشرفهما وما قيل كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وركعتين عشيا لا سند له مع أنه يوهم أن الخمس وجبت بالمدينة والإجماع أنها وجبت بمكة ليلة المعراج . قاله فى غاية الأمانى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِى ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ عامٌّ فى كل مجادل مبطل وإن نزلت فى قريش أو أهل الكتاب ﴿ إِن ﴾ ما ﴿ فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ تعظم وهو إرادة التقدم والرياسة وأن لا يكون أحد فوقهم فلذا عادوك ودفعوا آيات الله خيفة أن تتقدمهم ويكونوا تحت أمرك ونهيك لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة لأنهم يرون أن التقدم لا يكون إلا لهم يطامعون فى العلو عليك ﴿ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ أى ببالغى موجب ذلك الكبر وهو ما تعلقت به إرادتهم من الرياسة ودفع الآيات ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ من شرهم ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوالكم ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ بأفعالكم وأحوالكم ، ولما كانت مجادلتهم فى آيات الله مشتملة على إنكار البعث بل عليه مدارها استدل عليهم بقوله ﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ابتداء ﴿ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ مرة ثانية وهى الإعادة فمن قدر على خلقها قدر على إعادة الناس ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ أى الكفار ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك لفرط غفلتهم واتباعهم أهواءهم فهم كالأعمى ومن يعلمه كالبصير ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ الغافل والمتبصر ولا بد من ظهور تفاوتهم بعد البعث ﴿ وَ ﴾ لا ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وهو المحسن ﴿ وَلَا الْمُسِىٓءُ ﴾ لا زائدة وعطفا على الأعمى والبصير لتغاير الوصفين أو للدلالة بالصراحة بعد التمثيل ﴿ قَلِيلًا مَّا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ بالياء للجمهور والتاء للكوفيين والضمير للناس أو أكثرهم وهم الكفار أى تذكرا قليلا يتذكرون وقليلا صفة مصدر محذوف و « ما » زائدة لتأكيد القلة ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ فى مجيئها أى لا بد منه ليظهر تفاوت المحسن والمسىء ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بها لقصور نظرهم ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ﴾ عطف على الذين يجادلون عطف قصة على أخرى ﴿ ٱدْعُونِىٓ ﴾ اعبدونى ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أثبكم بقرينة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ ولما روى عن الثورى أنه قيل له : ادع الله فقال : إن ترك الذنوب هو الدعاء، وقيل الدعاء والاستجابة على أصلهما وقوله « عن عبادتى » معناه عن دعائى لأن الغرض من العبادة الخضوع ولا شك أن ذلك فى الدعاء أظهر ﴿ سَيَدْخُلُونَ ﴾ بفتح الياء وضم الخاء للجمهور وبالعكس لابن كثير وأبى بكر ﴿ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ صاغرين ، وفى الجواهر فى قوله : « ادعونى أستجب لكم » تفضل ونعمة ووعد لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بالإجابة عند الدعاء ، وفى الترمذى : ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم . اهـ . لكن الله ضمن الإجابة فيما يختار للعبد لا فيما يختار العبد لنفسه وفى الوقت الذى يريد لا فى الوقت الذى يريده العبد كما فى الحكم لابن عطاء الله ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ ﴾ باردا مظلما يؤدى إلى ضعف الحركات وهدوء الحواس ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ وتستريحوا ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ يبصر فيه أو به : أسند الإبصار إليه مجازا مبالغة ولذا عدل به

عن التعليل إلى الحال وأشير إلى العلة وهى ابتغاء الفضل رمزا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أى فضل لايوازيه فضل ولذا نكره وآثره على المفضل أو المتفضل ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ نعمة الله لجهلهم بالمنعم وإغفالهم مواقع النعم وتكرير الناس لإيقاع عدم الشكر على صريح اللفظ ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الموصوف بصفات الألوهية ﴿ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أخبار مترادفة تخصص اللاحقة السابقة وتقررها أو كل بدل من سابقه إن جوز البدل من البدل وإلا فالكل من الأول وقدم «خالق» هنا وأخره فى الأنعام لأن خالقية كل شىء دليل توحيده وقد قدم فى الأنعام قوله « خلق كل شىء وهو بكل شىء عليم » فكان نتيجة المقدمتين لا إله إلا هو ثم أردفه بقوله خالق كل شىء على سبيل التقرير والتوكيد وهنا لم يتقدم مثله فكان حقه أن يقدم لتكون كلمة التوحيد نتيجة له. والله أعلم بأسرار كتابه ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف تصرفون عن الإيمان مع قيام البرهان إنكار وتوبيخ ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما أفكوا ﴿ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ عنادا عن الحق ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ تستقرون فيها أحياء وأمواتا ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ سقفا استدلال ثان بأفعال أخر مخصوصة ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ بأن خلقكم منتصى القامة متناسبى الأعضاء ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ لذائذ الأنواع طعاما وشرابا وفاكهة ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وماسواه مربوب مفتقر بالذات معرض للزوال ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ ﴾ المنفرد بالحياة الذاتية ومن عداه ميت أو فى صدد الموت ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إذ لا موجود يساويه أو يدانيه فى ذاته وصفاته ولأن كل من يعتريه الموت لا يصلح للألوهية ﴿ فَٱدْعُوهُ ﴾ اعبدوه وحده كما انفرد باستحقاق العبادة ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ من الشرك والرياء قائلين ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ دلائل التوحيد النقلية والعقلية ﴿ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴾ أنقاد وأخلص دينى ﴿ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وكل هذا إشارة إلى أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه ثم أشار إلى بدء خلقهم بعد ما امتن عليهم بخلقهم فى أحسن الصور بقوله ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ الذى هو مادة أبيكم آدم أو مادة كل واحد منكم لما ورد أن النطفة تعجن بالتراب الذى يكون فيه مضجع الميت ثم أشار إلى الانقلابات البديعة الدالة على كمال الاقتدار بقوله ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ منى ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ دم غليظ ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ ﴾ أى كل واحد منكم ﴿ طِفْلًا ﴾ أو المراد به الجنس بمعنى أطفالا ﴿ ثُمَّ ﴾ يبقيكم ﴿ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ﴾ تكامل قوتكم من الثلاثين سنة إلى الأربعين ﴿ ثُمَّ ﴾ يبقيكم ﴿ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ﴾ بضم الشين لنافع وأبى عمرو وهشام وحفص وكسرها للباقين ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أى قبل الشيوخة أو الأشد، فعل ذلك بكم لتعيشوا ﴿ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى ﴾ وقتا محدوداً لموتكم ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ما فى ذلك من العبر ودلائل التوحيد والحكم ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أى القادر الذى ينقل النطفة من تلك الأطوار بعضها إلى بعض هو الذى شأنه الإحياء والإماتة، ثم هون شأن ذلك بقوله ﴿ فَإِذَا

قضى أمراً ﴾ أراد إيجاد شيء ﴿ فإنما يقول له كن فيكون ﴾ بلا احتياج إلى آلة تعمل ، بضم النون للجمهور وفتحها لابن عامر بأن يوجد عقب الإرادة التي هي معنى القول المذكور ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في ءايات الله ﴾ القرآن ﴿ أنى يصرفون ﴾ كيف يصرفون عن الإيمان كرر ذم المجادلة لتعدد المجادل أو المجادل فيه من التوحيد والرسالة والبعث بفنون مختلفة من الأدلة ولما استوفى تلك الفنون ولم تؤثر فيهم عجب السامع من حالهم ﴿الذين كذبوا بالكتاب ﴾ القرآن أو بجنس الكتب السماوية ﴿ وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ من التوحيد والبعث ﴿ فسوف يعلمون ﴾ جزاء تكذيبهم ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم ﴾ ظرف ليعلمون إذ المعنى على الاستقبال ، والتعبير بلفظ المضي لتيقنه ﴿والسلاسل ﴾ عطف على الأغلال فتكون في الأعناق أو مبتدأ خبره محذوف أي في أرجلهم أو خبره ﴿ يسحبون ﴾ يجرون بها وعلى الأول حال ﴿ في الحميم ﴾ الماء الشديد الحرارة ﴿ ثم في النار يسجرون ﴾ يوقدون ويحرقون من سجر التنور إذا ملأه بالوقود والمعنى ملئوا ناراً ظاهراً وباطناً ﴿ثم قيل لهم﴾ تبكيتا ﴿أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا ﴾ غابوا عنا وذلك قبل أن تقرن بهم آلهتهم أوضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع منهم ﴿ بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً﴾ لعدم غنائهم كأنهم ليسوا بشيء أو قالوه كذبا على أنفسهم كقولهم : والله ربنا ما كنا مشركين ثم أحضرت ﴿كذلك﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم ﴿يضل الله الكافرين﴾ في الدنيا عن طريق الحق ويقال لهم أيضا ﴿ذلكم ﴾ العذاب ﴿ بما كنتم تفرحون ﴾ فرح بطرو تكبر ﴿ في الأرض بغير الحق﴾ وهو الشرك والطغيان ﴿وبما كنتم تمرحون﴾ تتوسعون في الفرح بالنعم وفيه مع تفرحون الجناس اللاحق والعدول إلى الخطاب لكونه أبلغ في التقريع ﴿ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾ عن الحق جهنم ولم يقل مدخل المتكبرين للإعلام بالثواء أبدا ﴿ فاصبر ﴾ على أذاهم وجدالهم الباطل ﴿ إن وعد الله ﴾ بهلاك الكفار ونصرك ﴿ حق ﴾ كائن لا محالة ﴿ فإما نرينك ﴾ فيه إن شرطية مدغمة في ما الزائدة لتأكيد معنى الشرط أول الفعل والنون لتأكيد آخره ولذا لا تلحق النون مع إن وحدها ﴿بعض الذي نعدهم ﴾ به من العذاب في حياتك وجواب الشرط محذوف أي فذلك ﴿أو نتوفينك﴾ قبل تعذيبهم ﴿ فإلينا يرجعون ﴾ في الآخرة فنعذبهم أشد العذاب جواب أو نتوفينك ويجوز أن يكون جوابا له وما عطف عليه بمعنى إن نعذبهم في حياتك أو لم نعذبهم فإنا نعذبهم في الآخرة أشد العذاب لكن التأويل الأول أولى لأن مساق الكلام هنا لإنجاز الوعد بنصر النبي والمؤمنين فاقتضى تقدير الجزاء مستقلا تعجيلا للمسرة ولذا لما كان الكلام في الرعد في إيجاب تبليغه وأنه ليس عليه إلا ذاك كيف مادارت القضية لم يقدر للمعطوف والمعطوف عليه جزاء والله أعلم . ثم رد إنكارهم بعث الرسل بقوله ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك﴾ وهم خمسة وعشرون رسولا ﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾ إذ روى أبو ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن عدتهم فقال : بعث الله مائة وعشرين ألف نبي

الرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر وروى غير ذلك ثم أجاب عن اقتراحهم الآيات بقوله ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ منهم ﴿ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فالمعجزات عطايا قسمها الله بينهم على مااقتضت حكمته كسائر القسم ليس لهم اختيار فى إيثار بعضها والاستبداد بإتيان مقترحها ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ بالعذاب فى الدنيا أو فى الآخرة ﴿ قُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ بين الرسل ومكذبيها بإنجاء المحق وتعذيب المبطل ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ المعاندون باقتراح الآيات بعد ظهور ما يغنيهم عنها أى ظهر خسرانهم للناس وهم خاسرون فى كل وقت قبل ذلك ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا ﴾ من بعضها عما يصلح للركوب من الإبل والبقر وقيل البقر لا تركب ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ عما ذكر من جميعها ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أخر من الدر والنسل والوبر والصوف والجلود ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ هى حمل الأثقال إلى البلاد ﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ فى البر ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ ﴾ فى البحر ﴿ تُحْمَلُونَ ﴾ وإنما قال على الفلك دون فى الفلك للمزاوجة وتغيير النظم فى الجمل الأربع لأن الركوب وبلوغ الحاجة قد يكون فى مهم دينى واجب أو مندوب بخلاف الأكل وسائر الإبضاعات فكانا أولى بدخول اللام الدال على العلية وقيل فرقاً بين العين والمنفعة وإنما جعلا مكتنفين بما خلا عنه إشارة إلى قصوره عنهما ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته وفرط رحمته ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى أىّ آية من تلك الآيات ﴿ تُنْكِرُونَ ﴾ فإنها لظهورها لا تقبل الإنكار وهو ناصب أى وإنما لم يقل أية لأن التفرقة فى غير الصفات بالتاء نادر وفى أى لابهامه أندر والاستفهام للتوبيخ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ عدداً ﴿ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ بدناً ﴿ وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ ما بقى من القصور والمصانع أو آثار أقدامهم فى الأرض لعظمهم لكن هذا الاحتمال بعيد ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ «ما» الأولى نافية أو استفهامية منصوبة المحل بأغنى والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة على الفاعلية به أى مكسوبهم أو كسبهم ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالمعجزات أو الآيات الواضحات ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ واستحقروا علم الرسل علم الديانات والمراد بعلمهم العلم بأمور الدنيا وأسباب المعاش وشبههم الداحضة أو سمى جهلهم المفرط علماً تهكما أو المعنى فرح الكفار بما عند الرسل من العلم فرح ضحك واستهزاء ويدل عليه ﴿ وَحَاقَ ﴾ نزل ﴿ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى العذاب وقيل الفرح للرسل فإنهم لما رأوا تمادى الكفار على جهلهم فرحوا بما أوتوا من العلم شكراً لله عليه ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ شدة عذابنا ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ من الأصنام ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ لفوات وقته . الوجه فى ترتيب الفاءات أن قوله « فما أغنى » نتيجة ماكانوا فيه من التكاثر بالأموال والأولاد ، وقوله «فلما جاءتهم رسلهم» إلى قوله «وحاق بهم» إيضاح لذلك المجمل وكيف انقلب الحال بهم إلى عكس ما أملوه ، وقوله « فلما رأوا بأسنا » مرتب على قوله « فلما جاءتهم »

تابع له كأنه قال فلما جاءتهم رسلهم كفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا ، إلا أنه فصل ذلك الكفر المشتمل على سوء معاملة الرسل وكفران أعظم نعم الله وكذلك فلم يك ينفعهم مع الإيمان ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ ﴾ نصب على المصدر بفعل مقدر من لفظه ﴿ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ في الأمم أن العذاب نازل بمكذبي الرسل وأن لا ينفعهم الإيمان وقت نزول العذاب ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ تقدم مثله وهنالك اسم مكان استعير لزمان نزول العذاب ، والله أعلم .

[تم تفسير سورة غافر]

سورة فصلت أو السجدة
مكية ـ ثلاث أو أربع وخمسون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ حم ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ كِتَابٌ ﴾ لتخصيصه بالصفة وفيه دلالة على أنه مناط المصالح الدينية والدنيوية ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أي بينت بالأحكام والقصص والمواعظ أو جعلت تفاصيل في معان مختلفة من أحكام وأمثال ومواعظ ووعد ووعيد أو فصلت باختلاف الفواصل ولم ترجع إلى واحدة كالقوافي في الشعر والسجع . روى أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليرجعه عن مخالفة قومه فذكر له ما ذكر فلما فرغ قال له النبي صلى الله عليه وسلم : اسمع مني « بسم الله الرحمن الرحيم ۞ حم ۞ تنزيل من الرحمن الرحيم .. إلى قوله : فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فأرعد عتبة وناشد النبي بالرحم أن يمسك وقال حين رجع إلى قريش : والله لقد سمعت منه شيئاً ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي ، قالوا : سحرك أبا الوليد ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ حال من كتاب بصفته أو نصب على المدح وفي كونه عربياً امتنان بسهولة تلاوته وفهم معناه لأنه أفصح اللغات ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ العربية أو لأهل العلم والنظر وهو صفة أخرى لقرآناً أو صلة لتنزيل أو لفصلت والأول أولى لوقوعه بين

الصفات ﴿ بَشِيرًا ﴾ للعاملين به ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للمخالفين له ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ عن تدبره وقبوله فأنكروا إعجازه ولم يقبلوا بشائره ونذره ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تأمل وطاعة ولا يذعنون له مع العلم أنه الحق ﴿ وَقَالُوا ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ أغطية ﴿ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد ﴿ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ صمم وأصله الثقل جمعوا بين الإعراض وهذا القول مبالغة فى الإنكار ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ يمنع من التواصل وهو الخلاف فى الدين و « من » للدلالة على أن الحجاب مبتدأ منهم ومنه بحيث استوعب المسافة المتوسطة ولم يبق فراغ كن بينهم جبل ونحوه فلا تراءِيَ ولا تلاق تمثيلات لنبوّهم عما جاء به وامتناع موافقتهم له ﴿ فَاعْمَلْ ﴾ على دينك أو إبطال أمرنا ﴿ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ على ديننا أو فى إبطال أمرك ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ فكيف لا تفهمون كلامى ﴿ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا ﴾ على هذا التوحيد والإخلاص متوجهين ﴿ إِلَيْهِ ﴾ وهذا الذى دعوتكم إليه لا تنبو عنه العقول والأسماع فقد دل عليه العقل والنقل ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ عما أنتم عليه من سوء العقد والعمل من عبادة الجماد ثم هددهم على ذلك فقال ﴿ وَوَيْلٌ ﴾ كلمة عذاب ﴿ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ باستخفافهم حق الله ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ للشح وعدم الإشفاق على الخلق توكيد للأمر بالاستقامة وترغيب فيه وترهيب عن الشرك ، وتخصيص الزكاة من بين سائر الأعمال لأنها شقيقة الروح ومعيار على الإيمان المستكن فى القلب وقيل المراد ما يزكيهم من الطاعة والظاهر الأول ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ ﴾ تأكيد ﴿ كَافِرُونَ ﴾ حال مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة لاستغراقهم فى طلب الدنيا وإنكارهم الآخرة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ مقطوع أو لا يمن به عليهم ، وقيل نزلت الآية فى المرضى والزمنى والهرمى فإنه يكتب لهم من الأجر على قدر الطاعة حالة العافية ولا يقطع من ذلك شىء . ولما قرر أدلة التوحيد وأمر بالاستقامة أنكر على من يعلم منه هذه الصفات ثم يعدل إلى عبادة غيره بقوله ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ ﴾ بعد هذه الأدلة ﴿ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ الأحد والاثنين ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ شركاء ولا يصح أن يكون له ندّ واحد ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذى خلق الأرض فى يومين ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ كلها أى مالكها ومربيها ﴿ وَجَعَلَ ﴾ مستأنف غير معطوف على « خلق » للفصل بما هو خارج عن الصلة ﴿ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثوابت فى مقدار يوم الثلاثاء ﴿ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ مرتفعة عليها ليظهر للناظر ما فيها من وجوه الاستبصار وتكون منافعها معرضة للطلاب ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ أكثر خيرها بأن جعلها منابع المياه ومنابت الأشجار ومراتع الحيوان ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ أقوات أهلها بأن عين لكل نوع ما يعيش به أو خص كل قطر بنوع من الأقوات لجعل فى كل بلد وفى كل قطر ما ليس فى الآخر ليحتاج بعضهم إلى بعض تحسينا للنظام وكل هذا فى مقدار يوم الأربعاء ولذا قال ﴿ فِي ﴾ تمام ﴿ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ ولم يقل فى يومين للإشعار باتصالهما لليومين الأولين والتصريح على الفذلكة ﴿ سَوَاءً ﴾ منصوب على المصدر أى استوت الأربعة مع

ماخلق فيها استواء لايزيد ولا ينقص أو على الحال بمعنى كوامل مستوية ﴿ لِلسَّائِلِينَ ﴾ عن خلق الأرض بما فيها متعلق بمحذوف أى هذا الحصر أو بقدر فيها أقواتها ومعنى السائلين على هذا الطالبون لتلك الأقوات المحتاجون إليها من البشر فهم فى حكم من سألها الحاجة إليها ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ ﴾ قصد ﴿ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ إلى خلقها ﴿ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ أى مادتها بخار مرتفع من الماء الذى كان عليه العرش فركبت منه من قولهم استوى إلى مكان كذا توجه إليه توجها لا يلوى على غيره . وعن ابن عباس : أول ماخلق الله جوهرة أذابها بهيبته فصارت ماء فسلط الريح عليه فارتفع منه دخان واجتمع زبدة فوق الماء فجعل الزبدة أرضا والدخان سماء . اهـ . وثم لتفاوت مابين الخلقين لا لتراخ فى المدة لقوله : « والأرض بعد ذلك دحاها » ودحوها متقدم على خلق الجبال من فوقها والأقوات فيها وقيل ثم على بابها من التراخى زمانا وخلق السماء متأخر عن خلق الأرض ودحوها ، وقوله : «دحاها» ليس عاملا فى «بعد ذلك» بل هو جملة مستأنفة وهذا التأويل أولى . والله أعلم ﴿ فَقَالَ ﴾ فيه حذف أى فأوجدها وأكملها فقال ﴿ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا ﴾ أبرزا ماأودعتما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة أو لاحذف فالمعنى تكونا على أن معنى الخلق أولا التقدير والكلام على التمثيل مثل حالها فى سرعة التكون على وفق الإرادة ومقتضى الحكمة بحال المأمور المطيع المبادر إلى امتثال الأمر المطاع ﴿ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ فى موضع الحال أى طائعتين أو مكرهتين مثل لزوم تأثير قدرته فيهما وامتناع عدم حصول ما أريد منهما والمقصود تصوير كمال عظمته وكبريائه وعدم تخلف مراده فى شىء لا إثبات الطوع والكره منهما ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا ﴾ بمن فينا ﴿ طَائِعِينَ ﴾ منقادين بالذات فيه تغليب المذكر العاقل أو نزلتا لخطابهما منزلته ﴿ فَقَضَاهُنَّ ﴾ الضمير للسماء على المعنى أو لمبهم فسر بقوله ﴿ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ حال أو تمييز ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ الخميس خلق فيه السموات والجمعة خلق فيه الشمس والقمر والنجوم وفرغ من خلق العالم العلوى والسفلى فى آخر ساعة منه وفيها خلق آدم وفيها تقوم الساعة ، ولذلك لم يقل هناك سواء لعدم كمال اليومين وظهرت بذلك فائدة قوله فى أربعة أيام سواء . وفى ما هنا تفصيل ما أجمل فى آيات خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ الذى أمر به من فيها من الطاعة والعبادة ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ بنجوم ترى تلألأ عليها ﴿ وَحِفْظًا ﴾ منصوب بفعله المقدر أى حفظناها من الآفات أو من المسترقة حفظاً أو مفعول له كأنه قال وخصصنا السماء الدنيا بمصابيح زينة وحفظاً ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ صنع الله البالغ فى القدرة الغالب على كل شىء ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بكل شىء ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ أى كفار مكة عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ ﴾ خوفتكم ﴿ صَاعِقَةً ﴾ عذاباً شديد الوقع كأنه صاعقة وهى رعد مع نار ﴿ مِثْلَ صَاعِقَةِ ﴾ عذاب ﴿ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ تهلكون كما هلكوا ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ ﴾ حال من صاعقة عاد ولا يجوز جعله صفة لصاعقة أو ظرفا لأنذرتكم لفساد المعنى ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ من كل جانب واجتهدوا فى كل حيلة أو

بتحذير ما وقع فى الأمم الماضية وبعذاب الآخرة أو دعوهم إلى الإيمان بما جاء به من تقدم من الرسل ومن يأتى إذ أخبرهم هود وصالح أخبار المتقدمين والمتأخرين داعين إلى الإيمان بهم أجمعين ، ويحتمل أن يكون عبارة عن الكثرة كما فى قوله « يأتيها رزقها رغداً من كل مكان » ﴿ أَنْ ﴾ بأن ﴿ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا ﴾ إرسال الرسل ﴿ لَأَنْزَلَ ﴾ علينا ﴿ مَلَائِكَةً ﴾ برسالته ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ على زعمكم ﴿ كَافِرُونَ ﴾ إذ أنتم بشر لا فضل لكم علينا والخطاب لهود وصالح ولمن دعوهم إلى الإيمان به من سائر الرسل . ثم بيَّن ما ذكر من صاعقة عاد وثمود بقوله ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ تعظموا فيها على أهلها واستولوا عليها ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ بغيراستحقاق التعظم لأنهم تعظموا بالقوة وعظام الأجرام والاستيلاء على الأرض بغير استحقاق للولاية : ذكر أولا كفرهم ثم بين ما خصّ كل طائفة ﴿ وَقَالُوا ﴾ لما خوّفوا بالعذاب ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ أى لا أحد ، كان الواحد منهم يقلع الصخرة العظيمة من الجبل يجعلها حيث شاء فاغتروا بذلك ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعلموا ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ إذ هم لا يقدرون على خلق شىء والله قادر بالذات على ما لا يتناهى وهم قادرون على بعض الأشياء بإقداره ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ يعرفون أنها حق وينكرونها عناداً ، وهو عطف على « فاستكبروا » ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ باردة تهلك بشدة بردها من الصر وهو البرد الذى يصر أى يجمع ويقبض أو شديدة الصوت فى هبوبها من الصرير ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ ﴾ بسكون الحاء لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبكسرها للباقين أى مشئومات عليهم لا علينا فلا شؤم لنا فى كل يوم وهى الثمانية فى قوله تعالى « سبع ليال وثمانية أيام » وكانت آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء وما عذب قوم إلا فى يوم الأربعاء والناس يكرهون السفر يوم الأربعاء الذى لا يتكرر فى الشهر لذلك ، ويقولون من سافر فيه لا يرجع سالماً وهو كذبٌ منهم بل يوم الأربعاء يوم مبارك قاله ابن العربى ، ثم قال : وقد عين قوم أياماً من الأشهر الشمسية ادعوا فيها الكراهة ولا يحل لمسلم أن يشتغل بذلك والله حسيبهم . اه ﴿ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ ﴾ الذل : أضاف العذاب إليه على قصد وصفه به وهو فى الأصل صفة المعذب وصف به العذاب على الإسناد المجازى للمبالغة كأن الخزى سرى من المعذب إلى العذاب ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى ﴾ أشد ذلا لكونه أشد وأعم ﴿ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ بدفع العذاب عنهم ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ بينا لهم طريق الهدى بنصب الحجج وإرسال الرسل ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى ﴾ اختاروا الضلالة والكفر ﴿ عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ ﴾ من السماء فأهلكتهم وإضافتها للعذاب ووصفه بـ ﴿ الْهُونِ ﴾ للمبالغة أو الهون بدل منه والهون هو الهوان : المراد العذاب المهين ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر ﴿ وَنَجَّيْنَا ﴾ منها ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الله ، ثم بيَّن عذاب الكفار فى الآخرة بعد ذكر عذاب الدنيا بقوله ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ﴾ بالنون لنافع وبالياء مبنياً للمفعول للباقين ﴿ أَعْدَاءُ اللَّهِ ﴾ من الأولين والآخرين

﴿ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يحبس أولهم على آخرهم لئلا يتفرقوا وهى عبارة عن كثرة أهل النار ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾ إذا ماحضروها و « ما » مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وذلك حين يجحدون كفرهم وينكرون الشهداء عليهم ويقولون لا نقبل شاهداً إلا من أنفسنا فينطق الله أعضاءهم بما عملوا ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾ خاطبوا الجلود وحدها لشمولها سائر الأعضاء سؤال تعجب وتوبيخ ﴿ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أراد نطقه ولم يكن النطق باختيارنا ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء فلا عجب منه إذا أنطقنا ويحتمل أن يكون استئنافاً من كلام الله تعالى كالذى فى قوله ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ ﴾ أى ما كان استتاركم عند ارتكاب الفواحش خيفة من ﴿ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ لأنكم منكرون للبعث ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ ﴾ أى لكن كان استتاركم بالحجب عند ارتكاب الفواحش خوفاً من الفضيحة عند الناس لا عند الله لأنكم ظننتم ﴿ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من خفيات أموركم فلذلك اجترأتم على ما فعلتم ﴿ وَذَلِكُمْ ﴾ الظن مبتدأ ﴿ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ ﴾ خبر أو بدل من المبتدإ والخبر هو قوله ﴿ أَرْدَاكُمْ ﴾ أهلككم أى ما أهلككم إلا ذلك الظن الكاذب ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ داخلين فى زمرة الكاملين فى الخسران ، وعلى العاقل أن يكون فى خلواته أشد حياء من الله وأوفر تحفظاً لعلمه بأنه لم يزل عليه منه تعالى عين كالئة ورقيب مهيمن ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا ﴾ على العذاب ﴿ فَالنَّارُ مَثْوًى ﴾ منزل ﴿ لَهُمْ ﴾ يقاسون حرها وإحراقها لا خلاص لهم منها ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا ﴾ يسألوا العتبى أى الرضى عنهم والرجوع إلى ما يحبون ﴿ فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ المجابين إليها أى لايعطون الرضى والعدول إلى الاسمية مبالغة لإخراجهم عن زمرة المعتبين ﴿ وَقَيَّضْنَا ﴾ سببنا ﴿ لَهُمْ قُرَنَاءَ ﴾ من الشياطين يستولون عليهم استيلاء القيض على البيض وهو قشره وقيل أصل القيض : البدل ومنه المقايضة للمعاوضة قاله البيضاوى . وقال صاحب غاية الأمانى : أصل القيض المساواة يقال ثوبان قيضان إذا كانا متكافئين ومنه القيض لقشرة البيض لأنها بقدره وكذا المقايضة لتقدير تساوى الثمن فى البدلين . اهـ . ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمر الدنيا واتباع الشهوات ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من أمر الآخرة بقولهم لا بعث ولا حساب أو ما تقدم من قبائحهم وما هم عازمون عليه فى المستقبل ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ بالعذاب وهو « لأملأن جهنم .. الآية » ﴿ فِي ﴾ جملة ﴿ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ عملوا مثل أعمالهم ليكونوا فى العذاب قرناء كما كانوا على العصيان فى الدنيا أخلاء وأحباء ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ تعليل لاستحقاق العذاب وإشارة إلى أن ما تقدم نتيجة هذا الخسران والضمير لكفار مكة ومن تقدمهم من الأمم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ حين علموا فصاحة القرآن وحلاوته وأن من سمعه وتأمله أيقن أنه من عند الله فآمن ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ عارضوه بالخرافات وارفعوا أصواتكم لئلا يفهم

ولتشوشوا على القارئ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ قارئه على قراءته فيسكت عنها قال تعالى فيهم ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ وإيقاع الكفر صلة إشارة إلى علة العذاب فيعم هؤلاء اللاغين وغيرهم ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أقبح جزاء عملهم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى أسوإ الجزاء ﴿ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ عطف بيان لجزاء الخبر به عن ذلك أو خبر محذوف ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ الإقامة التى لا انتقال منها وفيه من أنواع البديع التجريد ﴿ جَزَاءً ﴾ منصوب على المصدر بفعله المقدر ﴿ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ يكذبون بها عناداً أو يلغون وذكر الجحود لأنه سبب اللغو ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فى النار ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ إبليس وقابيل سنّا الكفر والقتل ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ ندوسهما فى النار انتقاماً منهما كقوله « هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً » ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ ليكونا أشد عذاباً منا لكونهما أشد كفراً للضلال والإضلال ، وقيل المراد شيطانا النوعين الحاملان على الضلالة والعصيان لأن الشيطان جنى وإنسى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ اعترافاً بربوبيته وإقراراً بوحدانيته ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ على العمل حتى ماتوا ولم تزل لهم قدم عن طريق العبودية قلباً وجوارحاً وهذا هو المقام العزيز ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ عند الموت أو فى كل ما يعن لهم بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن أو عند الخروج من القبور ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ ما تقدمون عليه من الموت وغيره ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ على ما خلفتم من أهل وولد وغير ذلك فنحن نخلفكم فيه « وأن » مصدرية أو مخففة مقدرة بالباء أو مفسرة ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فى الدنيا على لسان الرسل : قيل تبشر الملائكة فى ثلاثة مواطن عند الموت وفى نزول القبر وعند البعث ، والظاهر أن ما فى الآية هو الأول لقولهم ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالحفظ من الشياطين وإلهام الخير بدل ما تفعل الشياطين بالكفار ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ بالشفاعة والتلقى بالإكرام فنكون معكم حتى تدخلوا الجنة فى مقابلة القرناء للكفار ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴾ من اللذائذ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ تطلبون وهو أعم من الأول ﴿ نُزُلًا ﴾ رزقاً مهيئاً لكم حال من الضمير فى « لكم » لأنه خبر « ما تدعون » أى المدعى كائن لكم حال كونه نزلا ، لا من المحذوف العائد إلى « ما » لأن الادعاء ليس فى حال كونه نزلا وفيه إشارة إلى أن لهم بعد النزل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ أى الله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ ﴾ أى لا أحد أحسن ﴿ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى توحيده وعبادته وهو النبى صلى الله عليه وسلم وكل من دعا إلى الله من الأنبياء والمؤمنين ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ فيما بينه وبين ربه فوافق قوله فعله ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ليصرح بالانقياد لله واتخاذ الإسلام ديناً ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ فى جزئياتهما لأن بعضها فوق بعض أو لا تستويان فى الجزاء وحسن العاقبة فلا الثانية على هذا التأويل مزيدة لتأكيد النفى والأول أولى لأن الحسنات تتفاوت إلى حسن وأحسن وكذلك السيئات إلى سيئ وأسوأ ﴿ ادْفَعْ ﴾ السيئ والاسوأ ﴿ بِالَّتِي ﴾

بالخصلة التى ﴿ هِىَ أَحْسَنُ ﴾ الحسنتين كما إذا قدرت على من أساء إليك فالحسنة أن تعفو عنه والإحسان أن تحسن إليه مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولدك فتفتدى ولده من يد عدوه ولم يقل : ادفع بالحسنة السيئة كالغضب بالصبر والجهل بالحلم لأن من دفع بالأحسن هان عليه الدفع بالحسن ﴿ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ ﴾ ذو قرابة ﴿ حَمِيمٌ ﴾ شفوق : فيصير عدوك كالصديق القريب فى محبته إذا فعلت ذلك « فالذى » مبتدأ « وكأنه » الخبر « وإذا » ظرف لمعنى التشبيه وهذه آية جمعت مكارم الأخلاق ومن عمل بها عصم من الشيطان وخضع له أعداؤه ومبدؤها السلام عند اللقاء ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ ما يعطى هذه السجية وهى مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ حبسوا أنفسهم على ما تكره ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ من الخير وكمال اليقين وقيل الحظ العظيم الجنة ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ ﴾ ينخسنك أو يصرفنك ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ نخس أريد به وسوسته وبعثه على الشر وهو الانتقام والدفع بالأسوإ أو أريد به نازغ وصفا للشيطان بالمصدر على طريق التجريد أى صارف عن الخير ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ من شره ولا تطعه جواب الشرط وجواب الأمر محذوف أى يدفعه عنك ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لاستعاذتك ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بقصدك وصلاحك وبنزغ الشيطان ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ﴾ فى تعاقبهما على حد معلوم وتناوبهما على قدر مقسوم ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ تدل على أن لا أحسن قولا ممن دعا إلى عبادة خالقها ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ لأنهما مخلوقان مأموران مثلكم كانوا فى الجاهلية يسجدون للكواكب على قصد التقرب إلى الله فنهوا عن ذلك ﴿ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ أى الآيات الأربع فإنه المستحق للعبادة وحده ولم يقل خلقها لأنها جماعة قلة لما لا يعقل لجمع ضميرها أفصح ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أى إن كنتم موحدين غير مشركين فإن السجود بعض العبادة وهذا موضع السجود عندنا المالكية ، وعند الشافعية لاقتران الأمر به وعند أبى حنيفة آخر التالية لأنه تمام المعنى ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الامتثال ﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ ملائكته المقربون ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى دائما لقوله ﴿ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ لايملون ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ ذليلة يابسة لا نبات فيها وأصل الخشوع الانخفاض فاستعير لحال الأرض عند قحطها ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ﴾ تحركت بالنبات ﴿ وَرَبَتْ ﴾ انتفخت وعلت وصارت كالمختال فى زينته بعدما كانت كالذليل فى أطمار رثة ﴿ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِى الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ كامل الاقتدار ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آيَاتِنَا ﴾ من ألحد للجمهور ولحد لحمزة : مال عن الاستقامة استعير لصرف الكلام عن وجهه كالطعن فى الآيات والتحريف والتأويل الباطل فيها ﴿ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ فنجازيهم على الحادم بالإلقاء فى النار ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِى النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِى آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ تمثيل للكافر والمؤمن ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ حين علمتم مالها ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ تهديد لهم شديد ووعيد بالمجازاة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ ﴾ القرآن ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ أول ما قرع سمعهم من غير

تدبر وهو بدل من إن الذين يلحدون إشارة إلى أن الحامل على الإلحاد مجرد الكفر أو مستأنف وخبر إن محذوف مثل هالكون أو معاندون أو نجازيهم وهو تمهيد للحديث عن كمال الكتاب بقوله ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ﴾ شريف جم المنافع أو منيع لا يتأتى إبطاله وتحريفه لقوله ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ لا يتطرق إليه التبديل والتناقض من جهة من الجهات أو بما فيه من الأخبار الماضية والأمور الآتية مَثَّل حاله بحال الشيء المحميّ من جميع الجوانب فلا يمكن للعدو الوصول إليه وفيه إشارة إلى أنه محفوظ من حين النزول إلى آخر الدهر وأن إلحاد الملحدين فيه كالرقم على الماء ﴿تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ﴾ أي حكيم ﴿حَمِيدٍ﴾ أفعاله وأقواله على وجه الإتقان والكمال فكيف يتطرق الباطل إلى وحيه ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ ما يقول لك كفار قومك ﴿إِلَّا﴾ مثل ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فاصبر كما صبروا وفيه إيجاز بليغ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأوليائه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائه وصف العقاب دون المغفرة لأن الكلام في الترهيب ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ﴾ أي الذكر ﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي لو فرض كذلك كما طلبوا ﴿لَقَالُوا﴾ تعنتا ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُ﴾ بينت بلسان نفهمه والمقصود الإعلام أن تعنتهم لا سبيل إلى دفعه ﴿أَ﴾ قرآن ﴿أَعْجَمِيٌّ وَ﴾ رسول أو مرسل إليه ﴿عَرَبِيٌّ﴾؟ استفهام إنكار منهم بإبدال الهمزة الثانية ألفا أو تسهيلها لورش عن نافع وبتسهيلها فقط لابن كثير وأبي عمرو وابن عامر في رواية ابن ذكوان وحفص وبتحقيق الهمزتين لحمزة والكسائي وأبي بكر وبإسقاط الأولى لهشام والأعجمي هو الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه سواء كان من العرب أو من العجم والعجمي المنسوب إلى العجم فصيحا كان أو غير فصيح وتقدم في الشعراء والمعنى أن آيات الله على أي طريقة جاءتهم تعنتوا بغيرها لأنهم غير طالبين للحق وإنما يتبعون أهواءهم ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى﴾ إلى الحق ﴿وَشِفَاءٌ﴾ من داء الجهل والشبه ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ خبره ﴿فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ صمم فلا يسمعونه ويقدر قبل الجار هو لقوله ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ ظلمة وشبهة لا يفهمونه لتصامهم وتعاميهم عما تريهم من الآيات ومن جوز العطف على عاملين مختلفين عطف الموصول على الموصول قبل: أي هو للذين آمنوا هدى وشفاء وللذين لا يؤمنون وقر وفي آذانهم بيان لمحل الوقر ﴿أُولَـٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ لا يمكن لحاق أصوات إليهم تمثيل لبعدهم عن الحق وقيل ينادون في القيامة من كل بعيد بأقبح الأسماء ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ بالتصديق والتكذيب كاختلاف قومك في كتابك ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة أو بتقدير الآجال ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المكذبين ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ المكذبين به ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ موجب للاضطراب ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ نفعه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرره ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فيعذب من غير جرم، وظلام بمعنى ذي ظلم لأنه لا يظلم مثقال ذرة ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إذا سئل عنها متى تكون؟ إرشاد للمؤمنين إلى الجواب إن سئل أحدهم عنها بأن يقول لا يعلمها إلا الله ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ﴾ بالجمع لنافع وابن عامر وحفص،

وبالإفراد للباقين ﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أوعيتها جمع كِمّ بكسر الكاف إلا بعلمه ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ﴾ حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ واقعا حسب تعلقه به، والاستثناء من الكل و« ما » الأولى مزيدة للاستغراق وكذا الثالثة ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ المشركين ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ فى زعمكم، وفيه تهكم وتقريع ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾ أعلمناك الآن ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ شاهد بأن لك شريكا تبرأنا من الشركاء، أو ما من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنا، وقيل هو كلام الشركاء أى ما منا من يشهد بما أضافوا إلينا من الشركة ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فى الدنيا من الاصنام، أى لا ينفعهم أو لا يرونه ﴿وَظَنُّوا﴾ أيقنوا ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ مهرب من العذاب، والنفى فى الموضعين معلق عن العمل، أو جملة النفى سدت مسد المفعولين ﴿لَا يَسْأَمُ﴾ لا يمل ﴿الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ لا يزال يسأل ربه المال والسعة والصحة والجاه وغير ذلك، أى من دعائه الخير حذف الفاعل وأضيف إلى المفعول ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ كالفقر والشدة فى بعض الأوقات ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ من فضل الله ورحمته وهذا وما بعده فى الكافر فاليأس فعل القلب والقنوط ظهور آثاره على الجوارح وقد بولغ فيه بناء وتنكيراً ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً﴾ صحة وسعة رزق وغنى ﴿مِنَّا﴾ من فضلنا ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ﴾ شدة وبلاء ﴿مَسَّتْهُ﴾ بما كسب ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ حق أستحقه بمالى من الفضل والعمل، أولى دائما لا يزال لا يتوقع زواله ولا يرى منه المنعم ولا يتلقاه بالشكر وعظم الرحمة بالتنكير والوصف وخص الضراء بلفظ المس إشارة إلى أن رحمته أوسع ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ تقوم، جلب له الاغترار بما ذاق من الرحمة سوء الاعتقاد فى المعاد ﴿وَلَئِنْ﴾ لام قسم ﴿رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي﴾ كما يقول المسلمون ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ أى الحالة الحسنى من الكرامة والجنة قاس أمر الآخرة على الدنيا لاعتقاده أن ما نال من نعم الدنيا كان مستحقاً به لا ينفك عنه ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ من الأعمال الموجبة للعذاب عكس ما اعتقدوا فيها ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ مفرط فى العظم موافق لجهلهم المفرط لا يمكنهم التفصى عنه واللام فى الفعلين لام قسم ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ الجنس ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر ﴿وَنَأَى﴾ بتقدم الهمزة على الألف للجمهور وتأخيرها لابن ذكوان مقلوب الأولى أى انحرف ﴿بِجَانِبِهِ﴾ وثنى عطفه متبختراً وتباعد عن دعاء الله أو ذهب بنفسه وتباعد عن الله تكبراً فالجانب مجاز عن النفس ويحتمل أن ناء على القراءة الثانية ماضى ينوء بمعنى نهض والقلب أولى لتوافق الأولى فى معنى البعد الزائد على الإعراض ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير دائم استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام كما استعير الغلظ لشدة العذاب، والعريض أبلغ من الطويل إذ الطول أطول الامتدادين فإذا كان عرضه على ما ذكر فما ظنك بطوله: ذمه الله أولا على شدة حرصه على الجمع وغاية جزعه على الفقر وثانياً بطيشه المتولد عن الاستكبار عند وجود النعمة والاستكانة سريعاً عند فقدها لا هو فى حالة السعة شاكر ولا فى حالة الفقر صابر مدمجاً فيه الإشارة إلى غاية حماقته فإن اليأس والقنوط ينافيان الدعاء العريض،

وأين ادعاؤه استحقاقه الحسنى عند الله من هذا بل هو كالمريض القفا فى المثل ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبرونى ﴿ إِنْ كَانَ ﴾ القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ من غير نظر واتباع دليل و « ثم » لبيان بعد الكفر بالقرآن ﴿ مَنْ ﴾ أى لا أحد ﴿ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ ﴾ خلاف ﴿ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق أوقع هذا موقع من أضل منكم بياناً لحالهم وتعليلا لمزيد ضلالهم أو رجوعاً إلى كلام المنصف حثاً على التأمل واستدراجا إلى الإقرار ثم تمم بقوله ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ عن قريب ﴿ ءَايَاتِنَا ﴾ الدالة على أن القرآن حق والجائى به محق فيما أخبر من الحوادث الآتية وظهور دينه شرقاً وغرباً على الأديان كلها ﴿ فِي الْآفَاقِ ﴾ بفتح البلاد شرقاً وغرباً للنبى صلى الله عليه وسلم ولخلفائه بعده ﴿ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ بما يحل فى ساحة العرب مكة وسائر الحجاز ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ﴾ أى القرآن أو الرسول ﴿ الْحَقُّ ﴾ لتحقق صدق ما أخبر به وقوة الإسلام ووهن الباطل وحزبه وبه يتميز أنه الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويحتمل أن مراد الآية سنريهم آياتنا الدالة على التوحيد وكمال القدرة فى الآفاق أى أقطار السموات والأرض من النيرات والنبات وفى أنفسهم من لطائف الصنع وبدائع الحكمة حتى يتبين لهم أن القرآن الجائى بالتوحيد والبعث والجزاء حق فيعاقبون على كفرهم به وبالجائى به ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ فاعل « يكف » والمفعول محذوف والباء صلة للتأكيد ولا تكاد تزاد فى الفاعل إلا مع كفى أى أو لم يكفهم أو يكفك ربك ﴿ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ بدل منه أى أولم يكفهم ردعاً شهادة ربك على كل شىء أو أولم يكفك شهادته على كل شىء فهو يشهد أمرك فإظهار الآيات الموعودة أو عليه الأشياء علماً شهودياً يستوى عنده كل غيب وشهادة ، فشهيد بمعنى مطلع وفى إضافة الرب إليه تشريف لا مدخل للعمل فيه بل هو محض عناية ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ ﴾ لبعدهم فى الشقاق ﴿ فِي مِرْيَةٍ ﴾ ظلمة شك ﴿ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ بالبعث والجزاء ﴿ أَلَا إِنَّهُ ﴾ تعالى ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ علماً وقدرة فيجازيهم بكفرهم .

[تم تفسير سورة فصلت]

سورة الشورى
مكية ـ ثلاث وخمسون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الإيحاء لما في هذه السورة من المعانى ﴿ يُوحِي إِلَيْكَ ﴾ بكسر الحاء للجمهور وفتحها لابن كثير أى أوحى فى سائر السور وإيثار المضارع لحكاية الحال الماضية للدلالة على استمرار الوحى، وأن إيحاء مثله عادته بقوله ﴿ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فى سائر الكتب امتناناً ، والمعنى أن الله كرر هذه المعانى فى القرآن وفى جميع الكتب السماوية لما فيها من التنبيه البليغ واللطف العظيم لما فى التكرير من التقرير والتذكير والدلالة على أنها أمور مهمة ﴿ اللَّهُ ﴾ فاعل الإيحاء على الأولى وعلى الثانية مرتفع بما دل عليه « يوحى » كأن قائلا قال مَن الموحى فقيل الله ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب فى ملكه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ المصيب فى صنعه صفتان لاسم الجلالة مقررتان لعلو شأن الموحى به وأنه غالب يختار من يشاء لرسالته حكيم فى أفعاله يوحى إلى رسله ما لعباده فيه خير الدارين ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكا ومُلكا ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ ﴾ شأنه ﴿ الْعَظِيمُ ﴾ سلطانه ﴿ يَكَادُ ﴾ بالتذكير لنافع والكسائى والتأنيث للباقين ﴿ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ بالتاء وتشديد الطاء للجمهور وبالنون وكسر الطاء مخففاً لأبى عمرو وشعبة ينشققن من عظمة الله أو ادعاء الولد له ويبدأ الانفطار ﴿ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ من جهتهن الفوقية بأن تنشق كل واحدة فوق التى تليها وقيل الضمير للأرض لأن المراد بها الجنس أى من فوق الأرضين ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ ﴾ مداومين على تقديسه وتمجيده ملابسين ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ على ما أولاهم أو يقدسونه من إضافة الولد إليه حامدين له على ما عصمهم من موجبات سخطه ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ من المؤمنين بالنطق أو بالسعى فيما يستدعى مغفرتهم من الشفاعة والإلهام وإعداد الأسباب المقربة إلى الطاعة أو بأن لا يعاجلهم الله بالعقاب عسى أن يتوبوا فحينئذ يعم من فى الأرض من الكفار ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ ﴾ لمن استغفره ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ به : فيه حث على الاستغفار وأن الناس أولى بذلك من الملائكة ولذا صدر الكلام بحرف التنبيه وفيه إعلام بأن عدم تعجيل العقاب لهم استغفار الملائكة وفرط غفرانه ورحمته ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ جعلوا له شركاء ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ ﴾ رقيب ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ موكول إليه أمرهم تحصل المطلوب منهم ا ماعليك إلا البلاغ وقد

بلغت ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الإيحاء ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ بلسانك تفهمه أو الإشارة إلى كونه رقيبا وحده وهذا المعنى مكرر في القرآن والكاف حينئذ مفعول به وقرآنا عربيا حال منه ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ أهل أم القرى وهي مكة لأن الأرض دحيت من تحتها فهي أصلها ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من العرب وغيرهم العذاب ﴿ وَتُنذِرَ ﴾ الناس ﴿ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ يوم القيامة لجمع الخلائق فيه أو الأرواح والأشباح أو العمال والأعمال أفرده بالذكر لعظم أهواله وليوقع فيه لفظ الإنذار صريحا وحذف ثاني مفعولي الأول وأول مفعولي الثاني للتهويل أو التعميم ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ اعتراض لا محل له ثم بعد الجمع والقضاء يتفرقون ﴿ فَرِيقٌ ﴾ منهم ﴿ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ ﴾ منهم ﴿ فِي السَّعِيرِ ﴾ النار والضمير للمجموعين ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ مهتدين أو ضالين ﴿ وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ بالهداية والتوفيق وهم المؤمنون ﴿ وَالظَّالِمُونَ ﴾ باتخاذ الشركاء وهم الكافرون ﴿ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يدفع عنهم العذاب ﴿ أَمِ ﴾ بل ﴿ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ كالأصنام إنكار لاتخاذهم أي ليس المتخذون أولياء ، إن أرادوا وليا بحق ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ أي الناصر للمؤمنين جواب شرط مقدر كما قررنا وهو إرشاد لمن يصلح بعد إنكار من لا يصلح وفيه شذ لعضد الإنكار ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تقرير لكونه حقيقا بالولاية ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ ﴾ أنتم والكفار ﴿ فِيهِ مِن شَيْءٍ ﴾ من أمر الدين والدنيا ﴿ فَحُكْمُهُ ﴾ مردود ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ في تمييز المحق من المبطل بالنصر أو بالإثابة والمعاقبة ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الحاكم بينكم ﴿ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في مجامع الأمور ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أرجع في المعضلات أو عليه توكلت في رد أعداء الدين وإليه أنيب في كفاية شرهم ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خبر آخر لذلكم أو مبتدأ خبره ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ من جنسكم نساء ﴿ وَ ﴾ خلق ﴿ مِنَ الْأَنْعَامِ ﴾ أي من جنسها ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ إناثا للتوالد والتناسل ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ يكثركم من الذرء البث كالذر يقال ذرأ الله الخلق : بثهم وكثرهم نسلا بعد نسل . قال في الجواهر لفظة ذرأ تزيد على خلق معنى آخر ليس في خلق وهو توالي طبقات الذرء على مر الزمان ﴿ فِيهِ ﴾ في هذا التدبير وهو جعل الناس والأنعام أزواجا يكون بينهم توالد فإنه كالمنبع والتكثير ولذا اختير فيه على به ، وفي ضمير يذرؤكم تغليب العقلاء في الخطاب ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ أي ليس مثله شيء يناسبه والمراد من مثله ذاته وهو نفي لما يماثله على طريق الكناية كقولهم مثلك لا يبخل أي أنت يريدون نفي البخل عن ذاته على الكناية مبالغة في نفيه عنه فإنه إذا نفي عمن يناسبه كان نفيه عنه أولى ونحوه «بل يداه مبسوطتان» فمعناه بل هو جواد من غير تصوير يد ولا بسط لأنه عبارة عن الجود ولذا يستعملونه فيمن لا يد له فلذلك يستعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل له وقيل ليس كصفته صفة وقيل الكاف زائدة والأول أولى ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لكل ما يسمع ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ لكل ما يبصر من الأقوال والأفعال وغيرهما وهو تقرير لنفي المماثل ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ ﴾ مفاتيح خزائن ﴿ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من المطر والنبات وغيرهما ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ ﴾ يوسعه ﴿ لِمَن يَشَاءُ ﴾ امتحانا ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ يضيقه لمن يشاء ابتلاء ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيفعله على ما ينبغي ، ثم فصّل

ماأوحى إليه وإلى الذين من قبله من الإلٰهيات التى لاتتبدل بقوله ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَاوَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ هو أول أنبياء الشريعة وآدم نبيّ إلا أنه لم تفرض له الفرائض ولا شرعت له المحارم . قاله ابن العربى فى الأحكام . وفى الصحيح : ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ﴿وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا آخر الأنبياء ، ثم أشار إلى من بينهما من أرباب الشرائع بقوله ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ ثم فسر المشروع الذى اشترك فيه أرباب الشرائع بقوله ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ بدل من مفعول « شرع » أواستئناف بيانى والدين الإيمان بما يجب تصديقه والطاعة فى أحكام الله إذ التوحيد وما لايفارقه من الصلاة والصيام ووفاء العهود وأداء الأمانات وصلة الأرحام وتحريم الكفر والقتل والزنا وإذاية الخلق وخرم المروءات كله مشروع دينا واحدا لم يختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت كيفيته ولذا قال ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ لا تختلفوا فى هذا الأصل أما فروع الشرائع فمختلفة . قال فى الجواهر : وهو نهى عن المهالك من تفرق الأنحاء والخير كله فى الألفة واجتماع الكلمة . قال علىّ رضى الله عنه : «الجماعة رحمة والفرقة عذاب» ﴿كَبُرَ﴾ عظم وشق ﴿عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ﴾ تعالى أى يصطفى ويجلب إليه والضمير لما أو للدين ﴿مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ﴾ بالإرشاد والتوفيق ﴿مَنْ يُنِيبُ﴾ يقبل إلى طاعته ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ أى أهل الأديان فى الدين بأن اتبعه بعض وخالفه بعض ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أن الفرقة ضلال وفساد أو العلم بالتوحيد أو أسباب العلم من الرسل والكتب وغيرهما فلم يلتفتوا إليها ﴿بَغْيًا﴾ عداوة وظلما ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لطلب الدنيا ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير الجزاء أو إمهالهم ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يوم القيامة أو آخر أعمارهم ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المبطل من حين افترقوا لعظم ما اقترفوا ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من اليهود والنصارى وهم أعقابهم الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم أو مشركو مكة أورثوا القرآن من بعدما أورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل ﴿لَفِى شَكٍّ مِنْهُ﴾ من محمد أو من كتابهم ضموا إلى التفرق الشك فى الكتاب الذى هو أصل دينهم ﴿مُرِيبٍ﴾ مقلق أو مدخل فى الريبة ﴿فَلِذَلِكَ﴾ التوحيد ﴿فَادْعُ﴾ يا محمد الناس أو لأجل تشعب الكفر فى الأمم فادع إلى الملة الحنيفية والاتفاق عليها أو لأجل ما أمرت مع الأنبياء من إقامة الدين والنهى عن التفرق فادع : فاللام بمعنى إلى للصلة أو بمعنى التعليل ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ على الدعوة ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ كما أمرك الله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ المختلفة الباطلة ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أىّ كتاب أنزله فإنهم آمنوا ببعض وكفروا ببعض ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ فى تبليغ الشرائع والحكومة إن تحاكمتم إلىّ : فالأول إشارة إلى القوّة النظرية وهذا إلى العملية ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لا إله غيره وهو متولى أمورنا جميعا ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ نجازى بها ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ تجازون فانظروا لأنفسكم ﴿لَا حُجَّةَ﴾ أى لا احتجاج بمعنى الخصومة ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ إذ الحق قد ظهر ولم يبق للمحاجة فائدة ولم يبق سوى العناد ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ فى المعاد لفصل القضاء ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ للكل لا إلى غيره ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللَّهِ﴾ أى فى إبطال دينه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾

بالدخول فى الإسلام ونصره وإظهاره على الدين كله ليردوا الناس إلى أمر الجاهلية ﴿حُجَّتُهُمْ﴾ شبهتهم ﴿دَاحِضَةٌ﴾ زائلة باطلة ساقطة وهم المشركون فى قولهم نحن ولاة البيت وإنا وجدنا آباءنا أو اليهود فى قولهم كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فنحن خير منكم وأولى بالحق ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فهم فى طلب ردة الناس كالراقم على الماء ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ من الله لعنادهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ملائم لشدة جهلهم وكفرهم ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ القرآن أو جنس الكتاب ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق أى ملتبسا به بعيداً من الباطل أو بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ الشرع الذى يوازن به الحقوق ويسوى بين الناس أو العدل بمعنى أمركم بالعدل بينكم أو آلة الوزن أنزله فى زمن نوح لتسوية الحقوق ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ يعلمك ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ إتيانها فاتبع الكتاب واعمل بالشرع وواظب على العدل قبل أن يفجأك اليوم الذى توزن فيه أعمالك وتوفى جزاءك ولعل معلق عن العمل أو ما بعده سد مسد المفعولين وتذكير قريب لأن الساعة فى تأويل البعث أو تقدير المجىء ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاء يقولون متى هذا الوعد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ﴾ خائفون ﴿مِنْهَا﴾ غاية الخوف مع اعتناء بالعمل لها لتوقع الثواب ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الكائن لا محالة تأكيد للإشفاق ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ﴾ يجادلون ﴿فِي السَّاعَةِ﴾ فى وقوعها من المرية أو المرى لأن كلا من المتجادلين يمرى أى يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق لتوافق النقل والعقل على وقوعها ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ﴾ بر ﴿بِعِبَادِهِ﴾ بصنوف من البر لا تبلغها الأفهام ولذا أخر العذاب عن منكرى الساعة واللطف إيصال نفع له موقع برفق ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من كل منهم مايشاء فيخص كلا من عباده بنوع من البر على ما اقتضته حكمته ، وفى الحديث « إن من عبادى المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو افتقر لأفسده ذلك وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك» ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ على مراده ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ولما شمل قوله يرزق رزق الدارين قال ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بعمله ﴿حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ ثوابها شبه بالحرث أى الزرع أو بذلك الملقى فى الأرض من حيث أنه فائدة تحصل بعمل الدنيا ولذا قيل : « الدنيا مزرعة الآخرة » ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ فى ثواب عمله الحسنة بعشر أمثالها إلى ما شاء الله ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ لاحرص له إلا فيها إذ لم يؤمن بالآخرة ﴿نُؤْتِهِ﴾ شيئا ﴿مِنْهَا﴾ وهو ما قسم له « ومن » للتبعيض إذ ليس كل مايتمناه يدركه ولم يذكر ما للمؤمن من الدنيا لحقارته وأنه ليس مرادا له بل وسيلة إلى المراد كائنا بالعرض ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ إذ لم يزرع لها والأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ﴿أَمْ﴾ بل أ ﴿لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ شياطينهم من الجن والإنس المغوين لهم لأنهم شركاء لهم فى الكفر ﴿شَرَعُوا﴾ أى الشركاء بالتزيين ﴿لَهُمْ﴾ للكفار الأتباع ﴿مِنَ الدِّينِ﴾ الفاسد والمراد به العوائد ﴿مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا وقيل شركاؤهم أوثانهم وإسناد الشرع إليها لأنها سبب ضلالتهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ القضاء السابق

بتأخير العذاب أو بأن الجزاء في يوم القيامة ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ وبين المؤمنين بالتعذيب لهم في الدنيا ﴿ وَإِنَّ الظَّـٰلِمِينَ ﴾ بالشرك ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم في الآخرة. ثم هول شأنه بقوله ﴿ تَرَى الظَّـٰلِمِينَ ﴾ في القيامة ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين ﴿ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ في الدنيا من السيئات بأن يجازوا عليها ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي وباله لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا إذ قد فات وقت التلافي ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ﴾ أي في أطيب بقاعها وأنزهها بالنسبة إلى من دونهم أو لأن روضة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي ما يشاءون ثابت لهم عند ربهم و «عند» نصب بالظرف لا بيشاءون لئلا تفوت المبالغة والمعنى أنهم إذا وفدوا ينزلون أولا في أنزه الأماكن وأشرفها ثم يقدم إليهم ما يشاءون من اللذائذ والتقريب من رب المنزل ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ الذي يصغر دونه كل فضل في الدنيا ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الثواب ﴿ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ ﴾ بالتشديد من التبشير لنافع وابن عامر وعاصم وبالتخفيف من بشره كنصره لابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي ﴿ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ به حذف الجار ثم العائد ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿ أَجْرًا ﴾ نفعاً منكم ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ ﴾ إلا أن تودوني ﴿ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ لقرابتي منكم إذ لم يكن في قريش بطن إلا كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة أو المعنى إلا أن تودوا قرابتي وقيل الاستثناء منقطع أي لا أسألكم أجراً لكن أسألكم المودة و «في القربى» حال منها أي ثابتة في حق القرابة، وإذا كان الحب في الله بين المؤمنين من الإيمان فكيف بحب قرابته صلى الله عليه وسلم فهي أحق بالحب والإيثار على الأرواح اللهم إني أحبهم وأحب من يحبهم أمتني على محبتهم واحشرني في زمرتهم، وإنما لم يقل إلا مودة القربى أو المودة للقربى لأنهم جعلوا مكاناً للمودة ومقرًّا لها وذلك أبلغ. وفي الجواهر: أي لا أسألكم غرامة ولا شيئاً إلا أن تودوني لقرابتي منكم وتكونوا أولى بي من غيركم. وعن ابن عباس: ما يقتضي أن الآية مدنية نزلت في الأنصار لما جمعوا لرسول الله مالا فرده عليهم. والله أعلم ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ ﴾ يكتسب ﴿ حَسَنَةً ﴾ طاعة سيما حب الرسول وبذل المال في إعانته كما فعل أبو بكر رضي الله عنه ﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا ﴾ في الجنة أو في الحسنة ﴿ حُسْنًا ﴾ بتضعيف الثواب أو بتضعيفها ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ للذنوب لمن تاب ﴿ شَكُورٌ ﴾ للقليل لمن أطاع فيضاعفه ثم يوفيه ثوابه ويتفضل عليه بالزيادة ثم أتى بإضراب أطم من الأول بقوله ﴿ أَمْ ﴾ بمعنى بل أ ﴿ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بنسبة القرآن إليه وادعاء الرسالة: فاتباع شرع الشركاء وإن كان شرا لكنه لا يبلغ خبثه رتبة الافتراء على الله فالاستفهام للتوبيخ كأنه قال أيقدرون على إجراء هذه الكلمة على أفواههم ولا يخافون أن تصيبهم قارعة من السماء ﴿ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ ﴾ خذلانك ﴿ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ فتكون مثلهم فتجترئ على الافتراء وهو استبعاد للافتراء عن مثله وإشارة إلى أنه إنما يجترئ عليه من ختم على قلبه وفيه تعريض بهم وقيل معنى يختم: يربط على قلبك بالصبر على أذاهم بهذا القول وغيره وقد فعل ذلك. قلت: ويؤيد التأويل الأول

إتيان إنْ الذى هو فى الغالب لما لا يقع عكس إذا ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ﴾ الذى قالوه وغيره وهو استئناف على التأويل الأول يؤكد نفى الافتراء بأنه لو كان مفترى لمحقه إذ من عادته تعالى محو الباطل وإثبات الحق كما قال ﴿ وَيُحِقُّ الْحَقَّ ﴾ يثبته ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ المنزلة على نبيه أو بقضائه ويجوز أن تكون جملة « ويمح الله الباطل » عِدَةً للرسول بالنصر ومحو باطلهم فهى اعتراض لتأكيد كونهم مبطلين ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ مضمراتها فيجازيهم على ما أضمروا من البغض والحسد فضلا عما أظهروا ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه والقبول يعدى إلى مفعول ثان بمن وعن لتضمنه معنى الأخذ وفيه دعاؤهم إلى التوبة وإشارة إلى أن جرمهم وإن عظم لا يمنع قبول توبتهم وفى إضافتهم إليه إيماء إلى أنهم لم يخرجوا بالذنب عن حوطته ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ لمن يشاء صغيرها وكبيرها إلا ما استثناه من الشرك ﴿ وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ بالياء للجمهور والتاء للكوفيين غير أبى بكر التفاتاً فيجازى ويتجاوز عن إيقان وحكمة ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ يجيبهم إلى ما يسألون أى يستجيب لهم لحذف الصلة واتصل الفعل أو دعاء الذين لحذف المضاف ﴿ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ على ما سألوا ﴿ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ بدل ما للمؤمنين من الثواب والتفضل ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ ﴾ جميعهم ﴿ لَبَغَوْا ﴾ لتكبروا وأفسدوا ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ بطراً أو لبغى بعضهم على بعض استيلاء واستعلاء بغياً يختل به نظام العالم جميعاً فلا يرد أن البغى كائن والحالة هذه ، وفى الصحيح : « والله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا فتنافسوا فيها كما تنافس من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم » أو كما قال ، وكفى بقارون عبرة ﴿ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن كثير وأبى عمرو ﴿ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ﴾ أى بتقديره ، يقال قدره كضربه ونصره قدْراً وقدَراً أى ما اقتضته مشيئته فيبسطه لبعض دون بعض ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ عالم بخفايا أمرهم وجلايا حالهم فيقدر لهم ما يناسب شأنهم ومع ذلك ما نرى من البسط أكثر لغلبة رحمته ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ ﴾ بالتشديد لنافع وابن عامر وعاصم والتخفيف للباقين ﴿ الْغَيْثَ ﴾ المطر الذى يغيثهم من الجدب ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ يئسوا من إنزاله لبعد العهد وعدم ظهور العلامات ﴿ وَيَنْشُرُ ﴾ يبسط ﴿ رَحْمَتَهُ ﴾ مطره وبركاته فى كل من السهل والجبل والنبات والحيوان ﴿ وَهُوَ الْوَلِىُّ ﴾ المحسن الذى يتولى عباده بإحسانه ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ المستحق للحمد على ذلك ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ ﴾ دلائله الدالة على أنه صانع حكيم ﴿ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ ﴾ خلق ﴿ مَا بَثَّ ﴾ فرق ونشر ﴿ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ ما يدب فيهما أو المراد الحى على إطلاق اسم المسبب للسبب و« ما » مرفوع أو مجرور عطف على « خلق » أو « السموات » ﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ ﴾ للحشر وفى تغليب العقلاء إشارة إلى كثرة الأنواع ﴿ إِذَا يَشَاءُ ﴾ أى وقت أراد ﴿ قَدِيرٌ ﴾ و« إذا » تدخل على المضارع دخولها على الماضى كقوله « والليل إذا يغشى » ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ غم وألم وكل مكروه ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ

أيديكم ﴾ أى كسبتم من المعاصى بحذف الفاء لنافع وابن عامر استغناء بما فى الباء من معنى السببية وبها للباقين لأن « ما » شرطية أو متضمنة معنى الشرط وحكمة المصيبة تكفير الخطايا للعصاة ورفع الدرجات لغيرهم أو لآبائهم بالصبر فى الأطفال ﴿ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ لا يؤاخذ به ﴿ وَمَا أَنْتُمْ ﴾ أيها المشركون أو الناس ﴿ بِمُعْجِزِينَ ﴾ الله هرباً أو بفائتين ما قضى عليكم من المصائب ﴿ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ غيره ﴿ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يتولى أمركم ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يدفع عنكم عذابه أو ما قضاه فلولا لطفه بكم لما عفا عن كثير ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على كمال اقتداره ﴿ الْجَوَارِ ﴾ السفن الجارية ﴿ فِي الْبَحْرِ ﴾ مسخرة تحت أمره ﴿ كَالْأَعْلَامِ ﴾ كالجبال فى العظم ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ ﴾ وقرئ الريح ﴿ فَيَظْلَلْنَ ﴾ يصرن ﴿ رَوَاكِدَ ﴾ ثوابت لا تجرى واقفات ﴿ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ﴾ البحر ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ التصرف ﴿ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ فى الشدة ﴿ شَكُورٍ ﴾ فى النعمة وهو المؤمن لأن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر فهما حالتاه فى الضراء والسراء ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ ﴾ عطف على يسكن أى يغرقهن بعصف الريح بأهلهن وإسناد الإيباق اليها إشارة إلى أن شؤم معاصيهم قد سرى إليها ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى أهلهن من الذنوب ﴿ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ منها ويخرجها سالمة وذكره فى مقام الانتقام إشارة إلى سبق رحمته ﴿ وَيَعْلَمُ ﴾ بالرفع لنافع وابن عامر مستأنف وبالنصب للباقين معطوف على تعليل مقدر أى يغرقهم لينتقم منهم ويعلم ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ﴾ إبطال ﴿ آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ مهرب من العذاب وجملة النفى سدت مسد مفعولى « يعلم » أو النفى معلق عن العمل ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ ﴾ خطاب للمؤمنين وغيرهم ﴿ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ تتمتعون به مدة حياتكم ثم يزول ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من الثواب ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أفضل وأدوم ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فى أمر الرزق وغيره كأبى بكر حين تصدق بماله كله ثم عطف عليهم ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ ﴾ للجمهور ولحمزة والكسائى كبير الإثم ﴿ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ ما اشتد قبحه كالزنى من عطف الخاص على العام ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا ﴾ لأمر دنيوى ﴿ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ يتجاوزون أى هم المخصوصون بالغفران فى حال الغضب وإتيان « هم » وإيقاعه مبتدأ وإسناد يغفرون إليه لهذه الفائدة ومثله هم ينتصرون ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ أجابوه إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة كالأنصار ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أداموها ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ ﴾ ذو شورى بمعنى التشاور ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ لا ينفردون فى رأى ولا يعجلون فيه حتى يجتمعوا عليه ولا ينفرد أحدهم برأى بل يتشاورون فيه حتى يجتمعوا عليه جميعاً وهو دليل على فرط تدبرهم وتثبتهم فى الأمور . وعن الحسن : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم وكان النبى صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه فى غير الأحكام لأنها منزلة من الله عليه وأما الصحابة بعده فيشاورون فى الأحكام وغيرها ويستنبطونها من الكتاب والسنة . قال بعض العقلاء : ما أخطأت قط فى أمرى لأنى إذا نزل بى أمر شاورت قومى وفعلت الذى يرون فإن كان صواباً فهم المصيبون أو خطأ فهم المخطئون ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

يُنفِقُونَ ﴾ فى طاعة الله ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ ﴾ الظلم ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ ينتقمون ممن ظلمهم بمثل ظلمه أى هم مخصوصون بالانتصار وهو الاقتصار على قدر الاستحقاق دون غيرهم فإنهم يعتدون وذلك وصف لهم بالشجاعة بعدوصفهم بسائر أمهات الفضائل ولايخالف وصفهم بالغفران لأنه مبنى على قدرة المعفو إذ الحلم عن العاجز محمود وعن المتغلب مذموم لأنه إجراء له وإغراء على البغى وعليه قوله ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ فى إساءتها بمن تنزل به سميت الثانية سيئة لمشابهتها الأولى فى الصورة فمن قال لك أخزاك الله فإنك تجيبه بقولك أخزاك الله وفيه إشارة إلى أن طريق الانتصار غيرمأمون العثار لأنه إنما يحمد فى محله بشرط رعاية الاحتياط وهى عسيرة ولذلك فرع عليه ﴿ فَمَنْ عَفَا ﴾ عن ظالمه ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ الود بينه وبينه بالعفو عنه ﴿ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ لا يقادر قدره ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البادئين بالظلم والمتجاوزين فى الانتقام فيرتب عليهم عقابه ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ ﴾ أى ظلم الظالم إياه ولم يتجاوز وإن كان الظالم محلا للعفو على مانبينه إن شاء الله ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ فى الأخذ بترك الأفضل لا حالا ولا مآلا لأن من آثر الحسن على الأحسن لا عتب عليه . قال ابن العربى فى أحكامه : قد مدح الله الانتصار ومدح العفو ولكلّ محل فإن كان الباغى معلنا بالفجور وقحا فى الجمهور مؤذيا للكبير والصغير فالانتقام أفضل وفى مثله قال إبراهيم النخعى لا ينبغى للمؤمنين أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفسّاق . وإن كان فتنته لا يتعدى أو يعترف بالذلة ويسأل العفو فالعفو هنا أفضل ، وفى مثله نزلت « وأن تعفوا أقرب للتقوى » ونحوها ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ ابتداء مستمرين على الإضرار وطلب مالا يستحقون تجبرا عليهم ﴿ وَيَبْغُونَ ﴾ يتكبرون ويفسدون ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ بالمعاصى ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم على ظلمهم ﴿ وَلَمَن صَبَرَ ﴾ فلم ينتصر ﴿ وَغَفَرَ ﴾ لمن ظلمه ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الصبر والغفران منه ﴿ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أى معزوماتها بمعنى المطلوبات شرعا وهذا إذا لم يزد طغيان الظالم بالعفو عنه . قاله فى غاية الأمانى . ويدل عليه حديث « دونك فانتصرى » ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ لا أحد يلى هدايته بعد إضلال الله إياه عطف على جملة أولئك كناية عن الظالم تسجيلا عليه بالضلال وما بينهما اعتراض تحذيرا عن الظلم ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ حين يرونه والماضى لتحقق وقوعه والخطاب عام ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ ﴾ إلى الدنيا ﴿ مِّن سَبِيلٍ ﴾ يسألون ربهم الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا به ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ على النار إذ العذاب يدل عليها ﴿ خَٰشِعِينَ ﴾ متضائلين متذللين ﴿ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ الذى لحقهم ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ إلى النار ﴿ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ﴾ ضعيف النظر مسارقة لا يقدرون على فتح الأجفان كالمصبور ينظر إلى السيف و « من » ابتدائية أو بمعنى الباء ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ فى الدنيا أو بمعنى يقولون يوم القيامة إذا رأوا الكفار على تلك الصفة ﴿ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ بالتعريض للعذاب المخلد أو بعدم وصولهم إلى الحور العين

المعدة لهم فى الجنة لو آمنوا والموصول خبر إن ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ متعلق بخسروا ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ دائم من تمام كلام المؤمنين أو تصديق من الله لهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره يدفع العذاب عنهم ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ إلى الهدى فى الدنيا وإلى الجنة فى الآخرة ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ ﴾ أجيبوه بالتوحيد والعبادة إذ لم يبق فى البيان اشتباه ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ هو يوم القيامة ﴿ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ صلة مرد أى بعد ما قضى به لا يرده أو متعلق بيأتى أى إذا أتى لا يقدر أحد على رده ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ ﴾ تلجئون إليه ﴿ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ إنكار لذنوبكم بعد شهادة جوارحكم عليكم ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ بعد الدعاء عن الاستجابة ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ تحفظ أعمالهم حتى تتهالك على هدايتهم ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ وقد بلغت ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ نعمة كالغنى والصحة والأمن ﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ فرح بطر لا شكر وأراد بالإنسان الجنس لقوله ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ ﴾ أى الأناس ﴿ سَيِّئَةٌ ﴾ آفة فى الأموال والأبدان ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى قدموه من المعاصى ﴿ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ ﴾ ولم يقل فإنه دلالة على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم ﴿ كَفُورٌ ﴾ بليغ الكفران ينسى النعمة رأساً ويذكر البلية ويعظمها ولا يتأمل سببها وتصدير الشرطية الأولى بإذا والثانية بإنْ لأن إذاقة النعمة محققة غالبة بخلاف البلية فنادرة بالنسبة للحسنة ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فله أن يقسم النعمة والبلية كيف شاء ويجب عند النعمة الاستكانة شكراً لموليها ويحرم البطر ، ويجب عند البلايا الرجوع بالتوبة إلى مبليها ويحرم الجزع ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ من غير لزوم ، ومجال اعتراض فى الآلاء والبلايا ثم بيّنه بأمر لا يمارون فيه بقوله ﴿ يَهَبُ ﴾ بدل من يخلق بدل البعض ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ من الأولاد ﴿ إِنَاثًا ﴾ بدأ بهن لكثرتهن لإرادة تكثير النسل ولأن مساق الآية الدلالة على تعلق الأمور بمشيئة الله لا مشيئة الإنسان فالغالب ما لا يهواه ولم يكن بلاء أعظم عند العرب من الإناث ﴿ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ عرف جبراً لما فاته من التصوير إشارة إلى أنه الحاضر فى خواطرهم أول كل حاضر إذا حملت نساؤهم ثم أعطى بعد انقضاء هذا الوطر كلا منهما حقه بقوله ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ﴾ يقرنهم ﴿ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ ولم يعد لفظ المشيئة لتركبه من الأولين وأعاده فى قوله ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ لا يلد ولا يولد له لأنه قسيمهما والخنثى عند الله ذكر أو أنثى وإن أشكل عندنا عند بعضهم أو ذكر أنثى فلم يخرج عن التقسيم ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بمصالح العباد ﴿ قَدِيرٌ ﴾ على تكوين ما يصلحهم على مقتضى الحكمة ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا ﴾ أن يوحى إليه ﴿ وَحْيًا ﴾ كلاماً خفياً يدرك بسرعة لأنه تمثيل بإلهام كأم موسى أو بالمنام كإبراهيم فى الذبح ﴿ أَوْ ﴾ إلا ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ بأن يسمعه كلامه ولا يراه كما وقع لموسى عليه السلام وليس المراد الحجاب المشاهد ﴿ أَوْ ﴾ إلا أن ﴿ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ ملكا كجبريل ﴿ فَيُوحِيَ ﴾ الرسول إلى المرسل إليه أى يكلمه ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أى الله ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ من الوحى كأكثر أحوال رسول الله صلى الله

عليه وسلم . قرأ نافع « أو يرسل » بالرفع خبر مبتدإ : أى هو يرسل وكذا « فيوحى » والباقون بالنصب عطفاً على وحياً وهما مصدران فى موضع الحال لأن « أو يرسل » فى معنى إرسالا و « من وراء حجاب » ظرف فى موضع الحال أيضاً ، والتقدير : وماصح أن يكلم أحداً إلا موحياً أو مسمعاً من وراء حجاب أو مرسلا رسولا ، والله أعلم . وحصر تكليمه لخواص عباده من البشر فى الأوجه الثلاثة على مقتضى المشيئة كما خص من شاء بما شاء من الإناث أو الذكور أو الجميع ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ ﴾ عن صفات المخلوقين فلذا كان كلامه على ما ذكر ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يضع كل شيء موضعه : فيكلم بواسطة وتارة بغيرها إما عياناً أو من وراء حجاب ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما أوحينا إلى الرسل قبلك أو كما أعلمناك مراتب الكلام ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ رُوحًا ﴾ هو القرآن به تحيى القلوب الميتة بداء الجهل ، أو المراد جبريل أرسلناه إليك بالوحى ﴿ مِنْ أَمْرِنَا ﴾ الذى نوحيه إليك واحد الأمور ، ويحتمل أن يكون الأمر بمعنى الكلام و « من » لابتداء الغاية . قاله فى الجواهر ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِى ﴾ قبل الوحى إليك ﴿ مَا الْكِتَابُ ﴾ القرآن ﴿ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ أى شرائعه مما لا طريق إليه إلا السمع لكن كان أكمل المؤمنين قبل النبوة فالمنفى العلم بحقيقة الإيمان لا وجوده ، والله أعلم ﴿ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ ﴾ أى الروح أو الكتاب ﴿ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ بالتوفيق للقبول والنظر فيه ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى ﴾ تدعو بالوحى إليك ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين الإسلام ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ بدل من الأول أى شرعه ﴿ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكا ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ ترجع .

[تم تفسير سورة الشورى]

سورة الزخرف

مكية إلا « واسئل من أرسلنا » الآية
وهي تسع وثمانون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ حمٓ ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ وَالْكِتَابِ ﴾ القرآن ﴿ الْمُبِينِ ﴾ المظهر طريق الهدى وما يحتاج إليه من الشريعة وصدق المرسل به لإعجازه أو الواضح لمن تدبره ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ ﴾ صيرناه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أقسم بالقرآن على أنه جعله قرآناً عربياً وهو من بدائع الإيمان لتناسب القسم والمقسم عليه والإشارة إلى أنه لا شيء أعلى منه يقسم به ولا أهم من وصفه فيقسم عليه مثله وجعل بمعنى صير معدى إلى مفعولين أو خلق إلى واحد و « قرآناً عربياً » حالان حينئذ والأول أوفق للمقام إذ الكلام في كونه على أسلوب كلامهم ليدركوا إعجازه لا في كونه مخلوقاً ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ لكي تفهموا معانيه ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ عطف على إنا ﴿ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ في اللوح المحفوظ أصل الكتب السماوية ، وقرأ حمزة والكسائي بكسر همزة « أم » واستعير لفظه للأصل لتمثيل ما ليس مرئياً بمرئي هي حتى يصير كرئي فينتقل السامع من السماع إلى العيان وذلك أبلغ في التبيان ﴿ لَدَيْنَا ﴾ بدل من أم أو حال من الكتاب أي عندنا ﴿ لَعَلِيٌّ ﴾ شأنه أي ذو شرف أو عالٍ على الكتب قبله لإعجازه أو عن طرق التحريف والفساد « وإنا له لحافظون » ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ذو حكمة بالغة أو محكم لا ينسخه غيره وهما خبران لإن و « في أم الكتاب » متعلق بعلي واللام لا تمنعه للاتساع في الظروف أو حال منه ، ويجوز أن يكون « في أم الكتاب » خبر إن متعلقاً بمحذوف أي مثبت في أم الكتاب ﴿ أَ ﴾ نهملكم ﴿ فَنَضْرِبُ ﴾ نذود ﴿ عَنكُمُ الذِّكْرَ ﴾ القرآن ﴿ صَفْحًا ﴾ إعراضاً وهو مصدر من غير لفظ فعله أو حال أي صافحين أو مفعول له أو ظرف بمعنى الجانب أي ننحيه عنكم جانباً وأصله أن تولي الشيء صفحة عنقك ﴿ إِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ بكسر « إن » شرطية لنافع وحمزة والكسائي إخراجا للمحقق مخرج المشكوك استجهالا لهم وما قبلها دليل الجواب وبفتح أن للباقين أي لأن كنتم ، وهو في الحقيقة علة مقتضية لترك الإعراض ، ومعنى « مسرفين » مفرطين في الجهالة ﴿ وَكَمْ ﴾ كثيراً ﴿ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾ من الأمم ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم ﴾ أتاهم ﴿ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ كاستهزاء قومك بك ، وهذا تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم ، وعبر بيأتيهم على حكاية الحال الماضية دلالة على استمرارهم على ذلك ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم ﴾ من قومك المسرفين : صرف الخطاب عنهم بعد الإنكار إلى الرسول مخبرا عنهم ﴿ بَطْشًا ﴾ قوة

﴿ وَمَضَىٰ ﴾ سبق فى آيات ﴿ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾ صفتهم فى الإهلاك الغريبة التى ينبغى أن تسير سير المثل وعاقبة قومك كذلك وعدٌ للرسول ووعيدٌ لهم ﴿ وَلَئِنْ ﴾ لام قسم ﴿ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ﴾ الله ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ ذو العزة ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بكل شىء. والوصفان وما بعدهما من الصفات من كلام الله تعالى وهو لازم لمقولهم فكأنهم قالوا الله فلزم أن يكون هو الذى اتصف بما بعده إذ خلقها لا يكون إلا من اتصف به ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴾ بالمد للجمهور والقصر للكوفيين : فراشا كالمهد للصبى ويجوز أن يكون هذا مستأنفا والوصفان قبل من كلامهم ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ تسلكونها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إلى مقاصدكم فى أسفاركم أو إلى حكمة الصانع بالنظر فى ذلك ﴿ وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ بمقدار واحد ينفع ولا يضر على مقتضى الحكمة ﴿ فَأَنْشَرْنَا ﴾ أحيينا ﴿ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ علاها اليبس وفارقها النضارة، وتذكير ميتا باعتبار المكان ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل هذا الإحياء ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ من قبوركم أحياء وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح التاء وضم الراء ﴿ وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ ﴾ أصناف المخلوقات ﴿ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ حذف العائد اختصارا وهو مجرور فى الأول أى فيه منصوب فى الثانى وحذف المنصوب هو القياس فيكون من تغليب المتعدى بنفسه على المتعدى بغيره أو المخلوق للركوب على المصنوع له أو الغالب على النادر ولذا قال ﴿ لِتَسْتَوُوا ﴾ لتستقروا ﴿ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ ذكر الضمير وجمع الظهر نظرا للفظ «ما» ومعناها ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا ﴾ بالقلب واللسان ﴿ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ ﴾ حامدين معترفين بها ﴿ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ ولا يفوت وقته بالتراخى لو ذهل عند الركوب ﴿ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ مطيقين من أقرن الشىء أطاقه كأنه جعله فى قرن وهو الحبل وشده به وأصله من القرن وهو الجمع ومنه الأقران لاجتماعهم فى الزمان وأتى النبى صلى الله عليه وسلم بدابة فقال لما أراد الركوب : بسم الله، ولما استوى عليها قال : الحمد لله الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين .. إلى قوله .. لمنقلبون . ثلاثا، وهلل ثلاثا . وقد أعلمنا الله فى هذه الآية مايقال عند ركوب الدابة كما علمنا فى أخرى مايقال فى ركوب السفينة فى قوله : بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ راجعون واتصاله بذلك لأن الركوب نقلة ليتذكر الراكب النقلة العظمى على الجنازة إلى الله ولأنه خطر ينبغى أن لا يغفل فيه للاستعداد للقاء الله لأنها حالة اغترار والنفس فى ذلك شموخ فيذكرها الموت والرجوع إلى الله عاريا لامركب له سوى العمل الصالح ﴿ وَجَعَلُوا ﴾ متصل بقوله « ولئن سألتهم » حال من فاعل ليقولن أى اعترفوا بما مر وقد جعلوا ﴿ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ بقولهم الملائكة بنات الله لأن الولد جزء الوالد والملائكة من عباده ﴿ إِنَّ الْإِنْسَٰنَ ﴾ القائل بذلك ﴿ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ ظاهر الكفر لأنه تحقير لأمر عظيم الشأن ﴿ أَمِ ﴾ بمعنى همزة الإنكار والقول مقدر أى أتقولون ﴿ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ ولم تقنعوا بجعلكم له جزءا حتى خصصتموه بجزء أخس من مخلوقاته عندكم وأبغض الأجزاء إليكم ﴿ وَأَصْفَٰكُمْ ﴾

أخلصكم ﴿ بِالْبَنِينَ ﴾ اللازم من قولكم السابق فهو من جملة المنكر وفيه تعجيب من فرط جهالتهم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ﴾ بالجنس الذى جعل ﴿لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ شبه بنسبة البنات إليه لأن الولد يشبه الوالد أو سمى مثلا لأنه بلغ فى الشناعة إلى حيث يكون جديراً بأن يسير به مسير الأمثال ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾ صار ﴿مُسْوَدًّا﴾ أسود فى الغاية لما يعتريه من الكآبة ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ممتلئ غما كاظم له فكيف ينسب البنات إليه ثم أشار إلى إنكار آخر أشد من الأول لشرحه حال ذلك الأخس بقوله ﴿أَ﴾ تحقرونه ﴿وَ﴾ تجعلون له ﴿مَنْ يُنَشَّأُ﴾ من تربى ﴿فِي الْحِلْيَةِ﴾ الزينة والثياب، والهمزة للإنكار والواو للعطف لجملة على جملة كما قدرنا ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ المجادلة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أى والحال أنه لا يقدر على إقامة البرهان عند الجدال فالأول إشارة إلى ضعف البنية والثانى إلى نقصان العقل: قلّ ماتصدت امرأة إلى محاجة إلا أتت بما هو عليها وقرأ حمزة والكسائى وحفص ينشأ بضم الياء وتشديد الشين يربى وفى الآية أن النشأ فى الزينة من المعايب فى الرجل لأنه من سمات النساء فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويتزين بلباس التقوى ولما كفروا بجهات ثلاث بسبب نسبة الولد إليه وجعله أخس النوعين وجعله من الملائكة المكرمين: بين الأول بقوله وجعلوا له من عباده جزءا والثانى بقوله أم اتخذ إلى آخره والثالث بقوله ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ﴾ منزلة وقربة وعند بنون ساكنة مع فتح الدال لنافع وابن كثير وابن عامر وللباقين عباد بباء موحدة مفتوحة وألف ورفع الدال جمع عبد أى الذين هم عباده المكرمون المقربون اعتقدوهم ﴿إِنَاثًا﴾ فزادوا كفراً على كفر ﴿أَأُشْهِدُوا﴾ بهمزة مضمومة مسهلة بعد المفتوحة وسكون الشين لنافع أى أأحضروا وللباقين بفتح الشين وترك المسهلة أى أحضروا ﴿خَلْقَهُمْ﴾ فشاهدوهم إناثا فإن ذلك مما يعلم مشاهدة وذلك لم يكن قط ولا دليل لهم عقلا ولا يساعدهم نقل فليس ذلك إلا افتراء. وفيه تجهيل لهم وتهكم ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ التى شهدوا بها على الملائكة بالأنوثة ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عنها فى الآخرة سؤال توبيخ وفيه وعيد ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أى الملائكة فعبادتنا إياهم بمشيئته فهو راض بها وهذا جهل منه بظن التلازم بين المشيئة والرضى والله تعالى شاء ذلك منهم لكنه لم يرضه ولذا قال ﴿مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ﴾ المقول من الرضى بعبادتها ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ إذ المشيئة وهى الإرادة ترجيح بعض الممكنات على بعض مأموراً كان أو منهيا ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون فيه ولما نفى عنهم العلم من طريق العقل أضرب عنه إلى إنكاره من النقل بقوله ﴿أَمْ﴾ بل ﴿آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أى القرآن بعبادة غير الله ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ لايقدرون على تركه أى لم يقع ذلك فهو إبطال الطريق النقل فى ذلك بعد إبطال الطريق العقل ولذا أضرب عنها إلى التقليد بقوله ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ علة ﴿وَإِنَّا﴾ ماشون ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ بهم وكانوا يعبدون غير الله أى لا حجة لهم عقلا ولا نقلا بل مبنى أمرهم على تقليد آبائهم الضالين، ثم أشار إلى أن هذا الضلال طريقة أمثالهم فى تكذيب الرسل تسلية لرسولنا بقوله ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ متنعموها مثل قول قومك

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ وفى تخصيص المترفين إشارة إلى أن التنعم يوجب البطالة وعدم النظر للعواقب ﴿ قُلْ أَ ﴾ تتبعونهم فى ذلك ﴿ وَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ ﴾ بدين أهدى ﴿ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ وهذا على زعمهم أن آباءهم على هدى إذ لاهداية فى ذلك والمخاطب بـ «قل» رسول الله صلى الله عليه وسلم أو حكاية أمر ماض أوحى إلى النذير ويؤيده قراءة ابن عامر وحفص : قال أولو جئتكم ﴿ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ ﴾ أنت ومن قبلك ﴿ كَافِرُونَ ﴾ ثابتون على دين آبائنا وإن جئتنا بما هو أهدى وهو إقناط للرسول من أن ينظروا أو يتفكروا فيه ، قال تعالى تخويفاً لهم ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ من المكذبين للرسل قبلك بالاستئصال ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ ولا تكترث بتكذيبهم فسترى مثله فيمن كذبك فاصبر ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ ﴾ برىء ﴿ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ من عبادتكم أو معبودكم ، أو اذكر ذلك لقومك ليروا كيف تبرأ أبوهم الأشرف عن التقليد وتمسك بالدليل وهم يفتخرون بالانتماء إليه فهلا اتبعوه إن كانوا لا يتركون تقليد الآباء فالأب الأفضل الأعلم أولى إن لم يكن لهم بدٌّ من التقليد ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ استثناء متصل لشمول المعبود الحق والباطل أو منقطع أى لكن الذى فطرنى ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ سيثبتنى على الهداية أو يزيدنى ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ أى كلمة التوحيد وفاعل جعل هو الله أو إبراهيم ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ومن يدعو إلى توحيد الله الحمد لله الذى جعلنا من ذريته على ما نسمع من نسابى سلفنا ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد . والترجى لإبراهيم ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ﴾ المعاصرين للرسول من ذرية إبراهيم وهم قريش ﴿ وَآبَاءَهُمْ ﴾ بطول العمر وبسط الرزق فاغتروا بذلك وانهمكوا فى الشهوات واشتغلوا بها عن التوحيد والنظر فى دلائله ﴿ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ القرآن ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ واضح الرسالة بالمعجزات أو مبين للتوحيد والأحكام الشرعية بالحجج والآيات ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ القرآن ﴿ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أى زادوا شرا فضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به بتسميته سحراً والكفر به واستحقار الرسول عليه السلام ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ من إحداهما مكة أو الطائف ﴿ عَظِيمٍ ﴾ بالجاه والمال كالوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة بمكة وكعروة بن مسعود الثقفى أو كنانة بن عبد ياليل بالطائف وكانوا ينكرون إرسال بشر ، ولما تكررت عليهم الحجج أخذوا فى التحكم والاعتراض على العلام الخبير فقاسوا أمر النبوة على حظوظ الدنيا ولم يعلموا أنها رتبة روحانية تستدعى الكمالات القدسية لا الزخارف الدنيوية ، قال تعالى ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ النبوة إنكار وتعجب من تحكمهم ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴾ ما يعيشون به ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وفضلنا فيها بعضهم على بعض أى لم نجعل قسمة الأدون الذى هو رزقهم إليهم فكيف النبوة ، أو كما فضلنا البعض على البعض فى الرزق فكذلك نخص بالنبوة من نشاء ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ فى المال

والجاه والقوة والضعف فنهم الأغنياء والفقراء والشرفاء والوضعاء والموالى والخدم ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ مسخراً بالعمل له بالأجرة وغيرها حتى يتم النظام وإذا كانوا عاجزين عن تدبير منزلهم فكيف بتدبير الدارين الذى نيط فى أمر النبوّة أى فى اختيار من يكون واسطة بين الله وعباده فى تدبير أمرهما والياء فى «سخريا» للنسب وقرئ بكسر السين ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ ﴾ النبوة والدين ﴿ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من الحطام الفانى فينبغى الزهد عنه أو القناعة فيه . روى ابن المبارك بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا أراد الله بعبد خيراً أرضاه بما قسم له وبارك له فيه وإذا لم يرد به خيراً لم يرضه بما قسم له ولم يبارك له فيه اهـ . ثم حقر شأن ماهم فيه من الدنيا وزخارفها بقوله ﴿ وَلَوْلَا ﴾ كراهة ﴿ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ فى الكفر إذا رأوا الكفار فى سعة وتنعم لحبهم الدنيا فيجتمعوا عليه ﴿ لَجَعَلْنَا ﴾ لحقارة الدنيا عندنا ﴿ لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ ﴾ بدل اشتمال من « لمن » ﴿ سُقُفًا ﴾ بضم السين والقاف للجمهور وبفتح السين وسكون القاف لابن كثير وأبى عمرو فالأول جمع والثانى مفرد لدلالة جمع البيوت على الجمع ﴿ مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ ﴾ من فضة جمع معرج وهى المصاعد وقرئ معاريج جمع معراج ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ يعلون إلى السطح ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ ﴾ بدل منه أيضاً أو علة كقولك وهبت له ثوباً لقميصه ﴿ أَبْوَابًا ﴾ من فضة ﴿ وَسُرُرًا ﴾ من فضة جمع سرير ﴿ عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴾ فى رفرفها ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ عطف على « سقفاً » أى زينة من الذهب فى كل شىء من الأوانى والآلات أو عطف على محل «من فضة» أى ذهباً أى بعضها ذهب والمقصود تحقير زهرة الدنيا وفى معناه قوله عليه السلام : لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة لما سقى كافراً منها شربة ماء . واستدل بقوله « لبيوتهم سقفاً » على أن السقف لصاحب السفل لأن البيت عبارة عن قاعة وجدار وسقف وباب ، فمن له البيت فله أركانه ولا خلاف أن العلو له إلى السماء واختلف فى السفل فقيل ليس له فى باطن الأرض شىء وقيل له وهو الصحيح ، قاله ابن العربى ﴿ وَإِنْ ﴾ مخففة من الثقيلة ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَا ﴾ بالتخفيف للجمهور فما زائدة وبالتشديد لحمزة وعاصم وهشام بخلاف عنه بمعنى إلا فإن نافية ﴿ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يتمتع به فيها ثم يزول . وروى الترمذى وصححه أنه عليه السلام قال : مالى وللدنيا ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل فى ظل شجرة ثم راح وتركها ﴿ وَالْآخِرَةُ ﴾ ثوابها ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ باقية فى حكمه ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الكفر والمعاصى المعرضين عن حب الدنيا المقبلين على حب المولى ﴿ وَمَنْ يَعْشُ ﴾ يتعامى ويعرض ﴿ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ ﴾ القرآن لفرط اشتغاله بالشهوات ، يقال عشا يعشو إذا تعاشى بلا آفة وعشى يعشى إذا كان فى بصره آفة وقرئ من يعشو على أن من موصولة ﴿ نُقَيِّضْ ﴾ نسبّب ﴿ لَهُ شَيْطَانًا ﴾ يزين له المعاصى ويوسوس إليه ﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ ملازم لا يفارقه فى الدنيا والآخرة ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أى الشياطين ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ أى العاشين ﴿ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ الموصل إلى الله وجمع الضمير لإرادة الجنس ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ أى العاشون ﴿ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ باتباع الشياطين ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَانَا ﴾ بالتثنية العاشى وقرينه لنافع وابن كثير وابن عامر

وأبي بكر وبالإفراد للباقين أى العاشي ويؤيده ﴿قَالَ﴾ لقرينه ﴿يَا﴾ للتنبيه ﴿لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ بعد مابين المشرق والمغرب وفيه تغليب الأشرف ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أنت لى، قال تعالى ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ﴾ ماأنتم عليه من التمنى ﴿الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ بدل من اليوم أى تبين ظلمكم فى الدنيا ﴿أَنَّكُمْ﴾ تعليل أى لأنكم مع قرنائكم ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كما اشتركتم فى سببه ويجوز أن يكون فاعل ينفعكم على معنى لا ينفعكم اشتراككم فى العذاب لأن كلا منكم قد حل مالا تبلغه طاقته أوليس لكم مايجده المكروب من الروح والتأسى إذا رأى من شاركه فى العذاب كقول الخنساء:

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا • وَأَذْكُرُهُ بِكُلِّ مَغِيبِ شَمْسِ

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي • عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَلَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ • أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

ولما شبههم بالعشو نظرا إلى البداية حكم عليهم بالصمم والعمى نظرا إلى النهاية بقوله ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ إنكار تعجيب من أن يكون هو الذى يقدر على هدايتهم بعد تمرنهم على الكفر حتى صار عشاهم عمى مقرونا بصمم ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ مستغرقا فيه لا يرجى خلاصه عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين وفيه إشارة إلى ذلك الاستغراق وهو علة العمى والصمم ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ بالموت قبل إهلاكهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ بعذاب فى الدنيا أو فى الآخرة لا محالة ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ فى حياتك العذاب ﴿الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ به ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ لأنهم تحت ملكنا لا يفوتوننا ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ من الآيات والشرائع سواء جعلنالك الظفر أو أخرنا فلا تضجر ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لاعوج له وهم على الباطل استئناف فى موضع التعليل ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى القرآن مع كونه هاديا إلى سبيل السعادة ﴿لَذِكْرٌ﴾ لشرف ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ فى الدنيا لنزوله بلغتهم ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ يوم القيامة عن القيام بحقه ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أى واسأل أممهم وعلماء دينهم ﴿أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ غيره ﴿آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ هل جاء ذلك فى ملة من مللهم وقيل سؤال الرسل على ظاهره بأن جمعوا له ليلة الإسراء ولم يسأل على واحد من التأويلين لأن المراد بالسؤال التقرير لمشركى قريش أنه لم يأت رسول من الله ولا كتاب بعبادة غيره ثم سلى رسوله على قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم بقصة موسى مع قومه بقوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ من القبط ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كما قلت فكذبوه كما كذبك قومك وافتخروا بما أوتوا من الدنيا كما افتخر به قومك دل على هذا المحذوف قوله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على رسالته ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أى فاجأوا وقت مجيئها الضحك منها استهزاء من غير تأمل وفعل المفاجأة المقدر هو عامل النصب فى محل إذا ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ من آيات العذاب كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم على ما تقدم ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ قرينتها التى قبلها بمعنى أنها بالغة أقصى الدرجات فى إفادة

المقصود بحيث يحسب الناظر فيها أنها أكبر كقول الحماسيّ :

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ • مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

أو مفضلة على غيرها بنوع اختصت به ﴿ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ الطوفان وما بعده أجله هنا لأنه بصدد بيان كفرهم لا بيانه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن كفرهم ﴿وَقَالُوا﴾ لموسى لما رأوا العذاب ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ العالم الكامل لأن السحر عندهم علم عظيم ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ من كشف العذاب عنا إن آمنا أو بعهده عندك بالنبوة أو من استجابة دعائك ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ لمؤمنون ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ بدعاء موسى ﴿عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ فاجأوا نكث عهدهم بلا اهتداء وأصرّوا على كفرهم ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ في مجمعهم بعد حشرهم لما كشف العذاب عنهم مخافة أن يؤمن بعضهم ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ من الإسكندرية إلى أسوان تفسير للنداء ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ أنهار النيل ومعظمها أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ تحت أمرى أو قصورى أو بين يديّ فى جنانى والواو إما عاطفة للأنهار على الملك فتجرى حال منها أو هذه الأنهار مبتدأ موصوف وتجرى هو الخبر ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ عظمتى ﴿أَمْ﴾ تبصرون فتعلمون ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ فأم متصلة وذلك لأنه لما ذكر أسباب التقدم عقبه بقوله أفلا تبصرون إشارة إلى أنه من الوضوح بحيث لا يخفى على ذى بصر ثم وضع أم أنا خير مكان أم تبصرون دلالة على أن هذا الشق هو الواقع كأنه يحكيه من لسانهم ﴿مِنْ هَٰذَا﴾ أى موسى ﴿ الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾حقير لم يستعد للرياسة ويحتمل أن أم للانقطاع والهمزة فيها للتقرير لما تقدم من أسباب فضله ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يظهر كلامه للثغته بالجمرة التى تناولها فى صغره ﴿فَلَوْلَا﴾ هلا ﴿أُلْقِيَ عَلَيْهِ﴾ إن كان صادقا ﴿ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ جمع سوار كأغربة وبه قرأ حفص وذلك كناية عن أسباب الملك وعلاماته كعادتهم فيمن يسودونه أن يلبسوه أسورة ذهب فى ذراعيه ويطوقوه طوق ذهب ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ متتابعين حافين له يمينونه ويصدقونه ويحمونه ﴿ فَاسْتَخَفَّ﴾ فرعون ﴿ قَوْمَهُ﴾ أحلامهم ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما يريد من تكذيب موسى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ولذا أطاعوا هذا الفاسق ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ﴾ أغضبونا بالإفراط فى العناد من أسف اشتد غضبه ﴿ انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أردنا إهلاكهم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ التابع والمتبوع ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ سابقين عبرة جمع سالف كخدم وخادم أو مصدر نعت به وقرأ حمزة والكسائى بضم السين واللام جمع سليف ﴿وَمَثَلًا﴾ حديثا عجيبا ﴿لِلْآخِرِينَ﴾ بعدهم، يضرب به المثل حتى أنهم يطلقون فرعون على كل جائر ومسرف ثم أشار إلى باب آخر من كفرهم فقال ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ﴾ جعل ﴿ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ حديثا عجيبا سائرا مسير المثل حين نزل قوله تعالى إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم قال ابن الزِّبَعْرَى من كفار قريش رضينا أن تكون آلهتنا مع عيسى لأنه عُبد من دون الله ﴿ إِذَا قَوْمُكَ ﴾ المشركون ﴿ مِنْهُ ﴾ من المثل أى لأجله ﴿يَصُدُّونَ﴾ عن الحق ويعرضون عنه بضم الصاد لنافع وابن عامر والكسائى وبكسرها للباقين أى

يضجون فرحا وضحكا ترتفع لهم جلبة لما ظنوا من إسكاتك وقيل هما لغتان ﴿وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أى عيسى فنرضى أن نكون معه ، أو محمد فنعبده وندع آلهتنا ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ أى المثل ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ خصومة بالباطل لا تمييز للحق من الباطل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ لك أى أشداء فى الخصام حراص عليه لعلمهم أن «ما» لغير العاقل فلا تتناول عيسى عليه السلام لكن التعصب يغطى على البصائر . وفى الصحيح قال عليه السلام ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم تلا هذه الآية ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالرسالة ردّ لما ادعته النصارى واليهود فيه على ما تقدم ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ بوجوده من غير أب ﴿مَثَلًا﴾ أمراً عجيباً كالمثل السائر ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يستدل به على قدرة الله على ما يشاء وهو كالجواب عن شبه اليهود والنصارى ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ بدلكم ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ كما يخلفكم أولادكم أو لجعلنا بمعنى ولّدنا من الإنس ملائكة كما ولّدنا عيسى من غير أب والكل تذييل للدلالة على كمال الاقتدار ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى عيسى أو محمدا أو القرآن ﴿لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ يعلم دنوها بنزوله أو بإرسال محمد لحديث «بعثت أنا والساعة كهاتين» يعنى السبابة والوسطى أو يعلم ثبوت مجيئها وأهوالها بالقرآن وفى البخارى مرفوعا «يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام» أو معنى كونه علم الساعة إحياؤه الموتى فإنه يدل على البعث والله أعلم ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ لا تشكوا جاحدين بها ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ على التوحيد ﴿هَذَا﴾ الذى آمركم به ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ عن المتابعة ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ بيّنُ العداوة من لدن آدم والبغض والحب يتوارثان ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى الحجج أو الشرائع ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ شرائع الإنجيل لأدعوكم إلى الله ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أحكام التوراة من أمر الدين لا غيره من أحكام الدنيا فإن الأنبياء لم تبعث لبيانه ولذا قال صلى الله عليه وسلم أنتم أعلم بأمر دنياكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ والإشارة إلى مجموع الأمرين التوحيد والتعبد بالشرائع اللذين هما البيان لما أمرهم بالطاعة فيه والإشارة من تتمة كلام عيسى أو استئناف من الله يدل على ما هو المقتضى للطاعة فى ذلك ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ بعد عيسى وهم الملكانية واليعاقبة والنسطورية ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من بين النصارى فى عيسى أهو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة أو بين المبعوث إليهم من اليهود والنصارى كما اختلف قريش فيك ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بما قالوه فى عيسى وفى غيره ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هو يوم القيامة وعيد للأحزاب بعد الجواب عن شبههم ثم هدد قريشا بقوله ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ لا ينتظرون شيئا سواها لقيام البراهين وانزياح الشبه ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بدل من الساعة ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهم غافلون فى اشتغالهم عنها بأمور الدنيا وإنكارها ﴿الْأَخِلَّاءُ﴾ الأحباء على المعصية فى الدنيا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة متعلق بقوله ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ تنقطع المحابة وتنقلب معاداة يلعن بعضهم بعضا ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

المتحابين فى الله على طاعته فإنهم أصدقاء تبقى صداقتهم أبد الآباد ويقال لهم ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ نعت لعباده ﴿ بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ مخلصين ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ ﴾ مبتدأ ﴿ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ نساؤكم المؤمنات ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ خبر المبتدأ أى تسرون سرورا يظهر حباره أى أثره على وجوهكم أو تزينون من الحبر وهو حسن الهيئة أو تكرمون إكراما يبالغ فيه من الحبرة المبالغة فيما وصف به الجميل ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ ﴾ أوانى المأكل جمع صحفة قصعة تشبع خمسة وهى الوسطى إذ أعظم القصاع الجفنة ثم الصحفة ثم المكيلة ثم القصعة ﴿ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ جمع كوب إناء لا عروة له ليشرب الشارب من حيث شاء ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ﴾ بإثبات العائد لنافع وابن عامر وحفص وحذفه للباقين ﴿ الْأَنفُسُ ﴾ تلذذا ﴿ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ بنظره وهذا تعميم بعد تخصيص مايعد من الزوائد فى التنعم والتلذذ ومدرك سائر المشاعر أدرج فى الأنفس ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فإن كل نعيم يزول ليس بنعيم :

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَادَامَتْ مُنَغَّصَةً ۞ لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ الْمَوْتِ وَالْهَرَمِ

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا ﴾ وتلك مبتدأ إشارة إلى الجنة المذكورة و «الجنة» خبرها و «التى أورثتموها» صفتها أو الخبر ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وعلى التأويل الثانى فالباء يتعلق بمحذوف لا بأورثتموها ، وفى التعبير بالإيراث مبالغة فى إعلام لزوم الملك ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أى بعضها تأكلون لكثرتها ودوام نوعها ومايؤكل يخلف بدله فى شجرها فهى مزينة بالثمار أبدا لاترى شجرة بلا ثمر ثم أردف الوعد بالوعيد على الدأب المستمر فقال ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الكاملين فى الإجرام وهم الكفار ﴿ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ خبر إن أو خالدون خبر والظرف متعلق به ﴿ لَا يُفَتَّرُ ﴾ لا يخفف العذاب ﴿ عَنْهُمْ ﴾ خبر آخر من فترت الحمى سكن حرها قليلا ومن قال يفتر عنهم فقد كذب القرآن ﴿ وَهُمْ فِيهِ ﴾ فى العذاب ﴿ مُبْلِسُونَ ﴾ ساكتون سكوت آيس من النجاة ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ ﴾ فصل ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ بالتعرض للسخط ﴿ وَنَادَوْا ﴾ قبل الإبلاس ﴿ يَا مَالِكُ ﴾ هو خازن النار ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ بالموت لنستريح ، ولا ينافى الإبلاس لاختلاف الأوقات ، قاله فى غاية الأمانى . أو الإبلاس اليأس من النجاة ولا ينافى الدعاء بالموت ﴿ قَالَ ﴾ لهم مالك بعد ألف سنة ﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ فى العذاب دائما لاخلاص لكم بموت ولا غيره أو القائل هو الله ويؤيده ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ ﴾ على لسان الرسل ، وعلى الأول فضمير جئنا للملائكة ومالك منهم إذ هم رسل الله فى إنزال الحق ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ لما فيه من ترك الترؤس والمألوف مع احتمال أعباء التكليف ومع الباطل الدعة ﴿ أَمْ ﴾ بل ﴿ أَبْرَمُوا ﴾ أحكموا ﴿ أَمْرًا ﴾ فى كيد النبى وإبطال الحق ولم يقتصروا على كراهته وهو تهكم بهم لأن ما هم فيه من أنواع المكر والحيل رقم على الماء ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ محكمون كيدنا فى إبطال أمرهم وإهلاكهم ومجازاتهم ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ﴾ ما فى أنفسهم قبل التكلم به ﴿ وَنَجْوَاهُم ﴾ تناجيهم فى شأن الرسول وغيره ﴿ بَلَىٰ ﴾ نسمع ذلك ﴿ وَرُسُلُنَا ﴾ الحفظة

مع ذلك ﴿ لَدَيْهِمْ ﴾ ملازمون ﴿ يَكْتُبُونَ ﴾ كل حركة وسكون « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ﴿ قُلْ ﴾ للقائلين اتخذ الرحمن ولداً ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ فرضاً ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ المعظمين لذلك الولد لأن النبي أولى بتعظيم ما يجب تعظيمه لا يسبق إليه لكن ثبت عقلا ونقلا أن لا ولد له فانتفت عبادته وهذا نفي للولد بأبلغ وجه كقول سعيد بن جبير للحجاج حين قال له والله لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك . ولحمزة والكسائي وُلْدٌ بالضم وفي الآية تأويلات غير هذا ثم نزه تعالى ذاته عن اتخاذ الولد بقوله ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ عن كونه ذا ولد لأن رب هذه الكائنات لا يكون جسما يولد منه آخر أو لأنها لما كانت أصولا تنزهت عن التوالد فكيف بمبدعها الذي ليس كمثله شيء ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا ﴾ في باطلهم ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ في دنياهم كالصبيان والبله الذين لا يجرى عليهم القلم إشارة إلى أنهم أهل الطبع ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ فيه بالعذاب وهو يوم القيامة ﴿ وَهُوَ الَّذِي ﴾ هو ﴿ فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ ﴾ معبود ﴿ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ وكل من الظرفين متعلق بما بعده لكونه بمعنى المعبود والعائد إلى الموصول محذوف لطول الصلة وزادها طولا أن المعطوف داخل في حيز الصلة ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ في صنعه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ كامل العلم بمصالحه والوصفان كالدليل على ما تقدم ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كالهواء ﴿وَعِنْدَهُ﴾ وحده ﴿ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ متى تقوم متصل بقوله حتى يلاقوا يومهم مسوق للوعيد ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالخطاب التفاتاً تهويلا لنافع وأبي عمرو وعاصم وابن عامر وبالغيبة للباقين ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ يعبدون ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي الله ﴿ الشَّفَاعَةَ ﴾ لأحد ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ التوحيد بأن قال لا إله إلا الله مخلصاً له في قلبه ولذا قال ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم ، استثناء متصل إن أريد بالموصول كل ما عبد من دون الله لشموله الملائكة وعيسى وعزير وهم المستثنون فإنهم يشفعون للمؤمنين ، ومنقطع إن أريد به الأصنام ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لتعذر المكابرة فيه من فرط ظهوره ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره بعد هذا الإقرار ﴿ وَقِيلَهُ ﴾ أي وقول الرسول بالنصب للجمهور عطفاً على سؤالهم أو على محل الساعة أو بإضمار فعله أي وقال قيله وبالجر لعاصم وحمزة عطفاً على لفظ الساعة وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال تعالى ﴿ فَاصْفَحْ ﴾ أعرض ﴿ عَنْهُمْ ﴾ آيساً من إيمانهم ﴿ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ متاركة لا تحية ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ بالفوقية لنافع وابن عامر وبالتحتية للباقين تهديد لهم .

[تم تفسير سورة الزخرف]

سورة الدخان

مكية ، أو إلا « إنا كاشفو العذاب ... الآية »
وهى ست أو سبع أو تسع وخمسون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * حم ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ القرآن ، والواو للعطف إن كان « حم » مقسما بها وإلا فللقسم والجواب قوله ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ هى ليلة القدر أنزل فيها جملة من اللوح إلى السماء الدنيا ثم أنزل على الرسول نجوما لقوله « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » وقوله « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » ، وكون ليلة القدر فى رمضان كاد أن يتواتر وكونها مباركة لكثرة منافع الدين والدنيا فيها كنزول الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة وقسمة النعمة وفصل الأقضية وكفى بإنزال القرآن فيها بركة ، وأما القول بأنها ليلة النصف من شعبان فباطل كما قال ابن العربى إذ نص القرآن على أن ميقات نزوله رمضان فمن زعم أنه فى غيره فقد أعظم الفرية وليس فى ليلة النصف من شعبان حديث يعوّل عليه ولا فى فضلها ولا فى نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليه ، انظره فى أحكامه ، وقال فى غاية الأمانى : ليس لذلك القول دليل سوى حديث مرسل ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ مخوفين استئناف لتعليل الإنزال ﴿ فِيهَا ﴾ أى فى ليلة القدر ﴿ يُفْرَقُ ﴾ يفصل ﴿ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ محكم من الأرزاق والآجال وغيرها التى تكون فى سنة إلى مثل تلك السنة كما قال فيها « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » وهو جواب عن تخصيص الإنزال بتلك الليلة كأنه قال : هى جديرة بذلك لأن الله تعالى آثرها بفصل كل أمر محكم لا يبدل من شئون الكائنات فتدفع نسخة الأرزاق وأسبابها إلى ميكائيل ونسخة الحروب وما يلائمها من الزلازل والصواعق إلى جبريل ونسخة الموت والمصائب إلى عزرائيل ملك الموت ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا ﴿ أَمْرًا ﴾ أى فرقا كائنا ﴿ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ على ما اقتضاه تدبيرنا نصب على المصدر ليفرق لأنه بمعنى يؤمر كأنه قال فيها يؤمر كل شأن على وجه الحكمة أمرا أو على الحال من فاعل أنزلناه أو مفعوله بمعنى آمرين أو مأمورا والأمر مقابل النهى ، ويجوز أن يكون بمعنى الشأن فيكون حالا من كل أو أمر أو ضميره المستكن فى حكيم لأنه موصوف ، وما فى « أمرا من عندنا » من التنكير والوصف والاختصاص يزيد فخامة « أمر حكيم » ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ بدل من « إنا كنا منذرين » أى إنا أنزلناه لأن عادتنا إرسال الرسل بالكتب ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ بالمرسل إليهم وضع الرب موضع الضمير للإشعار بأن الربوبية اقتضت ذلك فإنه أعظم أنواع التربية ورحمة وما قبله علة الإنزال ويجوز

أن يكون ما قبله علة أمرا ويكون هو مفعولا به أى صدور الأمر من عندنا لأن من شأننا أن نرسل رحمتنا فالأوامر الإلهية من باب الرحمة ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوال العباد ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوالهم وأفعالهم وهذا وما بعده تحقيق لربوبيته وأنها لا تحق إلا لمن هذه صفاته ﴿ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بالرفع لنافع وابن كثير وابن عامر وأبى عمرو خبر آخر أو استئناف وبالجر للباقين بدل من ربك ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ فى إقراركم أنه خالقها أو إن كنتم من أهل الإيقان فأيقنوا ذلك التوحيد الذى يقوله محمد أو علمتم أن الأمر كما قلنا ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إذ لا خالق سواه ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ كما تشاهدون ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ والإفضال على الأصل إفضال على الفرع ثم رد أن يكونوا موقنين بقوله ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ﴾ عما يقرون من أنه الخالق فإقرارهم لم يكن على علم ولذا أشركوا بالله وأنكروا البعث ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ فإقرارهم مخلوط بهزء ولعب ولما قابلوا نعمة المنزل بالكفران أوعدهم بقوله ﴿فَارْتَقِبْ﴾ انتظر لهم ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ من شدة الجوع والقحط لأن الهوى يظلم عام القحط لكثرة الغبار بقلة الأمطار والجائع يرى كهيئة الدخان من ضعف بصره وقد دعا عليه السلام على قريش فأصابهم الجهد حتى أكلوا جيف الكلاب وكان الرجل منهم يرى بين السماء والأرض دخانا ويحدث أخاه وهو يسمع صوته ولا يراه ويحتمل إرادة يوم ظهور الدخان المعدود فى أشراط الساعة الذى يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره والأول أشد ملاءمة للسياق ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يحيط بهم قائلين ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ وعد منهم بالإيمان إن كشف ، قال تعالى ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ بكشف العذاب أو كيف يتذكرون الإيمان بهذه الحالة ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ واضح البيان باهر البرهان أو يبين لهم ما هو أعظم من ذلك فى إيجاب الادكار من الآيات ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ أعرضوا ولم يكتفوا بالإعراض حتى عابوه بما حكى عنهم بقوله ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ ﴾ يعلمه القرآن غلام أعجمى وبعضهم لما رأى أن صدور مثله عن الأعجمى محال قال إنه ﴿ مَجْنُونٌ ﴾ قال تعالى ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ ﴾ أى الجوع عنكم زمنا ﴿ قَلِيلًا ﴾ فكشف عنهم ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إلى كفركم لأن وعدكم الإيمان كان لخوف العذاب فعادوا إلى كفرهم . قال تعالى ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ يوم بدر أو يوم القيامة ظرف لفعل دل عليه ﴿ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ لا له لأن إن حاجز ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ بتوسيع الأرزاق وبالإمهال ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ ﴾ هو موسى عليه السلام ﴿ كَرِيمٌ ﴾ على الله تعالى أو على المؤمنين أو فى نفسه لشرف نسبه وفضل حسبه ﴿ أَنْ ﴾ أى بأن ﴿ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ بنى إسرائيل أى أرسلوهم معى كقوله أن أرسل معنا بنى إسرائيل أو المعنى أدوا إلى حق الله من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ غير متهم على وحى الله لدلالة المعجزات على ذلك وهو علة الأمر ﴿ وَأَنْ

لَا تَعْلُوا ﴾ لا تتكبروا ﴿ عَلَى اللهِ ﴾ على شرعه باستهانة رسوله وترك طاعته ﴿ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ ﴾ برهان ﴿ مُبِينٍ ﴾ بين على رسالتي علة للنهي ولا يخفى حسن المراعاة في ذكر الأمين مع الأداء والسلطان مع العلاء فتوعدوه بالرجم فقال ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ بالحجارة أو الشتم ومعنى عذت التجأت إليه وتوكلت عليه وكونه من الحجارة أظهر لأنه الذي أعيذ منه ولم يعذ من الآخر وفيه أن من استعاذ بالله يجب إعاذته كما روى ابن عمر رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من استعاذكم بالله فأعيذوه ومن سألكم بالله فأعطوه ، ومن استجار بالله فأجيروه . ومن أتى إليكم بمعروف فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه » رواه أبو داود والنسائي والحاكم وابن حبان في صحاحهم ، وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ لا موالاة بيننا أو كفوا شركم عني إلى أن يحكم الله بيننا واتركوا أذاي ، فلم يتركوا ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ ﴾ أي بأنّ ﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ تعريض بالدعاء بذكر ما استوجبوه به ولذا سماه دعاء وقيل دعا ربه بقوله « ربنا اطمس . . . الآية » أو ربنا لا تجعلنا فتنة ، وقوله : إن هؤلاء من كلامه تعالى بيانا لما استوجبوا به الدعاء من موسى والاستجابة منه وأنه ما دعا إلا بعد اليأس . قال تعالى ﴿ فَأَسْرِ ﴾ بوصل الهمزة لنافع وابن كثير وقطعها للباقين ﴿ بِعِبَادِي ﴾ بني إسرائيل ﴿ لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ يتبعكم فرعون وقومه . قال ابن العربي : سير الليل يكون لخوف عدو أو مشقة الدواب والأبدان بحر أو عطش وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسري ويدلج ويرفق ويستعجل بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة والسرى سير الليل والإدلاج سير السحر ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ ﴾ إذا عبرت أنت وأصحابك ﴿ رَهْوًا ﴾ ساكنا على حاله حتى تدخله القبط أو مفتوحا من رها بين رجليه وسع ﴿ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴾ فاطمأن بذلك فأغرقوا . ﴿ كَمْ ﴾ كثيرا ﴿ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ ﴾ بساتين ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ تجري ﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ ﴾ مجلس ﴿ كَرِيمٍ ﴾ حسن أو منزل مزين ﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾ متعة وتنعم ﴿ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ ناعمين ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإخراج أخرجناهم والكاف في محل النصب أو مرفوعة خبر مبتدإ أي الأمر كذلك ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ عطف على الفعل المقدر أو تركوا أموالهم ﴿ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ أجانب لا قرابة بينهم وبينهم وهم بنو إسرائيل ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ أي أهلهما أي تمثيل على سبيل التهكم لعدم الاكتراث بهم أو حقيقة لما روى أبو يعلى عن أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مات العبد المؤمن بكت السماء والأرض عليه » . وعن ابن عباس « يبكي عليه أربعين صباحا مصلاه ومحل عبادته ومصعد عمله ومهبط رزقه ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ مؤخرين إلى وقت آخر طرفة عين ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ قتل الأبناء واستخدام النساء ﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴾ بدل « من العذاب المهين » بتقدير مضاف أي من عذابه أو جعل نفس العذاب لإفراطه ولذا علله بقوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا ﴾ متكبرا ﴿ مِنَ

﴿ الْمُسْرِفِينَ ﴾ المتجاوزين فى العتو وهو خبر ثان أو حال من الضمير فى « عالياً » وقرئ « مَن فرعون » بفتح الميم على الاستفهام للتقرير أى تعرفونه فى عتوه كيف كان ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ ﴾ أى بنى إسرائيل ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ منا بحالهم فإنهم أحقاء بذلك وأنهم يزيغون فى بعض الأحوال ﴿ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ عالمى زمانهم العقلاء لكثرة الأنبياء فيهم ﴿ وَءَاتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ ﴾ كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى ﴿ مَا فِيهِ بَلَاءٌ ﴾ إنعام ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر ، سمى بلاء لوقوع الاختبار به وحمله على المحنة لا يلائم لأنه فى مقام الامتنان ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ﴾ أى قريشاً الذين هم فى شك يلعبون إذ قصة موسى مستطردة فى الكلام فيهم دلالة على أن قوم موسى مثلهم فى الإصرار على الضلالة ﴿ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ ﴾ أى لا موت ﴿ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ ﴾ التى بعد الحياة الدنيا إنكاراً لموتة القبر وما بعدها لقولهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ بمبعوثين أحياء بعدها والأولى لا تقتضى أن يكون لها ثانية كقولك حج زيد الحجة الأولى ، وقتله بأولى ضربة وهذا هو الأظهر وقيل المعنى : ما الموتة التى بعدها الحياة إلا موتتنا الأولى ونحن نطف . والله أعلم . ﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا ﴾ الميتين أحياء كقصىّ لنسألهم ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنا نبعث بعد موتنا . قال تعالى ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ ﴾ فى القوة والمنعة ﴿ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ وهو تبع الأول الحميرى من ملوك اليمن اسمه وأسعد بن كرب » وكنيته « أبو كرب » أسلم واتبع دين موسى عليه السلام وأسلم قومه على يديه ثم بعده كفروا ولذا ذمهم الله دونه ، وهو الذى سار بالجيوش شرقاً وغرباً وعاش ملكا ثلثمائة سنة ، وهو أول من كسا الكعبة وحير الحِيَرَة وبنى سمرقند ، ولما رجع من الشرق أراد تخريب المدينة فأخبر أنها مهاجر نبىّ آخر الزمان اسمه أحمد فانصرف عنها وقال فى الإيمان بذلك الرسول شعرا أودعه عند أهلها حتى أدوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صح أنه عليه السلام قال : « لا تسبوا تبعا فإنه كان مسلما » ﴿ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كعاد وثمود ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ لكفرهم استئناف لتهديد قريش أو حال بإضمار قد أو خبر عن الموصول إن استؤنف به ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ بيان للموجب الجامع ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ بخلق ذلك من غير حكمة بل لابد من مجازاة ، ولاعبين حال ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا ﴾ وما بينهما ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ بسببه من الإيمان والطاعة والبعث والجزاء ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لقلة نظرهم ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ بين المحق والمبطل بالجزاء أو بين المرء وأحبابه ﴿ مِيقَاتُهُمْ ﴾ وقت موعدهم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ المتقدمين والمتأخرين ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي ﴾ بدل من يوم الفصل أو من ميقاتهم أو ظرف لما دل عليه الفصل لا له للفصل ﴿ مَوْلًى ﴾ من قرابة أو صداقة أو غيرهما أى لا يدفع ﴿ عَن مَّوْلًى ﴾ أى مولى كان ﴿ شَيْئًا ﴾ نزراً يسيرا من الإغناء ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ لو طلبوا النصر والضمير للمولى الأول والجمع باعتبار المعنى لأنه عام ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ﴾ بالعفو عنه وقبول الشفاعة من المؤمنين فبعضهم يشفع فى بعض بإذن الله ومحل « مَن » رفع على البدل من الواو أو نصب على الاستثناء ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب لا ينصر من خذله ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ لمن أراد أن يرحمه .

ولما ذكر الزقوم فى طعام أهل النار وكان أهل اليمن يسمون الزبد والتمر زقوماً دعا أبو جهل بزبد وتمر وقال لقريش هلموا إلى ما يخوفكم به محمد ، فنزلت ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ الكافر الكثير الآثام كأبى جهل وأصحابه ﴿كَالْمُهْلِ﴾ كالحديد أو النحاس الذى أمهل فى النار حتى ذاب أو هو دردى الزيت الأسود خبر ثان ﴿تَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ بتاء التأنيث خبر آخر للجمهور وبياء التذكير لابن كثير وحفص والضمير للطعام حال منه لامن المهل لفساد المعنى ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ الماء الحار الذى انتهى غليانه ﴿خُذُوهُ﴾ يقال للزبانية خذوا الأثيم ﴿فَاعْتُلُوهُ﴾ بضم التاء لنافع وابن كثير وابن عامر وبكسرها للباقين لغتان : جروه بغلظة وشدة ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسط النار أقبح أماكنها ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ الذى لا يفارقه العذاب فهو أبلغ مما فى آية «يصب من فوق رءوسهم الحميم» بجعل العذاب مصبوباً دون الحميم على طريق الاستعارة لأنه فى مقام الكبرياء وإظهار السخط العظيم وقولوا له ﴿ذُقْ﴾ العذاب ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ بزعمك أمر إهانة تهكماً به وإيفاء بحق الحاسة من العذاب لأن الآية نزلت فى أبى جهل حين قال للرسول لما زجره لقد علمت ما بين جبليها أعز وأكرم منى ، وقرأ الكسائى «أنك» بالفتح أى لأنك ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب الذى ترونه وتذوقونه ﴿مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ فيه تشكون ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ﴾ مكان أصله موضع القيام ثم اتسع فيه فاستعمل فى مطلق المكان وهو بضم الميم لنافع وابن عامر وبفتحها للباقين ﴿أَمِينٍ﴾ يأمن صاحبه من كل آفة وانتقال ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من «مقام» جىء به للدلالة على اشتماله على المآكل والمشارب التى بها قوام الملاذ ﴿يَلْبَسُونَ﴾ خبر ثان أو حال من الضمير فى الجار والمجرور أو استئناف ﴿مِن سُندُسٍ﴾ ما رق من الحرير ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غلظ منه وهما معربان ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ فى مجالسهم ليستأنس بعضهم ببعض ولا ينظر إلى قفا غيره لدوران الأسرة بهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمر ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ قرناهم ﴿بِحُورٍ﴾ بنساء بيض ﴿عِينٍ﴾ جمع عيناء أى واسعات الأعين حسانها من نساء الدنيا وغيرهن ﴿يَدْعُونَ﴾ يطلبون من الخدم ﴿فِيهَا﴾ فى الجنة أن يأتوا ﴿بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ من أى نوع أرادوا فى أى وقت كان ﴿آمِنِينَ﴾ من انقطاعها ومضرتها ومن كل مخوف حال ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ هذا رأس النعم كلها ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ التى فى الدنيا والاستثناء منقطع وقيل «إلا» بمعنى بعد ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى والحال أنهم حفظوا من عذاب النار ولا ينافى دخول بعض المؤمنين لأن الكلام فى المتقين ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أعطوا كل ذلك تفضلا منه مصدر بمعنى تفضلا منصوب بتفضل مقدراً ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنها نعم خالصة لا شوب فيها ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ سهلنا القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ بلغتك لتفهمه العرب. وهو فذلكة السورة تذكيراً لما سلف من إنزال الكتاب وما ترتب عليه وإجمال بعد تفصيل ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون فيؤمنون لكنهم لا يؤمنون ﴿فَارْتَقِبْ﴾ انتظر هلاكهم وعدٌ له ووعيد لهم ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ ما يحل بك .

[تم تفسير سورة الدخان]

سورة الجاثية

مكية . أو إلا (قل للذين آمنوا يغفروا) الآية
وهي ست أو سبع وثلاثون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ حمٓ ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ ﴾ القرآن مبتدأ خبره ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ﴾ فى ملكه ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فى صنعه ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أنفسهما أو فى ما خلق فيهما من الكواكب والجبال وسائر الكائنات ﴿ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دالات على قدرة الله ووحدانيته ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ ﴾ من نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى آخره ﴿ وَ ﴾ خلق ﴿ مَا يَبُثُّ ﴾ يفرق فى الأرض ﴿ مِن دَابَّةٍ ﴾ ما يدب عليها من الناس وغيرهم ﴿ ءَايَاتٌ ﴾ بالرفع للجمهور مبتدأ والمجرور قبل خبره، وبالنصب لحمزة والكسائى عطفاً على لفظ «لآيات» عطف الخاص على العام على التأويل الثانى فى السموات والأرض ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ بالبعث ﴿ وَ ﴾ فى ﴿ ٱخْتِلَافِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ ذهابهما ومجيئهما ﴿ وَمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ ﴾ مطر لأنه سبب الرزق ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لحمزة والكسائى أى تقليبها جنوباً وشمالا باردة وحارة ﴿ ءَايَاتٌ ﴾ فيه القراءتان ويلزمهما العطف على معمولى عاملين مختلفين «فى والابتداء» فى الرفع و «إن فى» فى النصب وقد منعه البصريون وأجازه الكوفيون والرفع والنصب عند الأولين على إضمار «فى» على الاختصاص أو يقدر فى لتقدمه فى الأولين ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الدليل فيؤمنون واختلاف الفواصل الثلاث لاختلاف الآيات فى الدقة والظهور على رعى الترقى فى الدليل والمدلول وذلك أن السموات والأرض أظهر الكائنات فجعلت دليلا على أصل الإيمان ثم نظرُ الإنسان فى حاله وحال سائر الحيوان لكثرته أدخل فى نفى الشك وأجلب لاطمئنان القلب فجعل دليلا على الإيقان الذى هو أعلى درجات الإيمان . ولما كان التأمل فى الاختلاف والتصريف وما بينهما أدل على استحكام اليقين لأنه يتجدد حيناً فحيناً ويتجدد فيه النظر والاعتبار جعل دليلا على التعقل الذى هو مدار الإيمان واليقين ﴿ تِلْكَ ﴾ الآيات المذكورات ﴿ ءَايَاتُ ٱللَّهِ ﴾ حججه الدالة على وحدانيته وكمال اقتداره ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ حال من الفاعل عاملها معنى الإشارة ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ متعلق بنتلو أى ملتبسين به أو ملتبسة به ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ أى حديثه وهو القرآن ﴿ وَءَايَاتِهِ ﴾ حججه التى فى القرآن أو تقديم الاسم الأعظم تعظيم لآيات الله كقولك أعجبنى زيد وعلمه وعلى التأويل الأول من تقدير المضاف فعطف الآيات على حديثه من عطف المفصل على المجمل ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالياء لنافع وابن كثير وأبى عمرو وحفص وبالتاء للباقين أى لا يؤمنون إذ لا بيان أزيد من بيان حديثه

وآياته بل هم مصرون على إفكهم ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة عذاب ﴿لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ لينتأملها ويؤمن بما فيها ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على كفره من أصر الحمار أذنيه على علفه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ متكبرا عن الإيمان، وثم لاستبعاد الإصرار بعد سماعها ويجوز أن يكون على أصله لأن إصراره يكون بعد تردده ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أى كأنه لحففت وحذف ضمير الشأن والجملة فى موضع الحال من فاعل مستكبرا أى يصر مثل غير السامع ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره والبشارة تهكم على الاستعارة ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ أى إذا بلغه شىء وعلم أنه منها ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ لذلك الإصرار من غير أن يرى فيها ما يناسب الهزء ولم يقل اتخذه إشارة إلى إفراطه فى طغيانه بأنه إذا علم شيئاً من الآيات خاض فى الكل ولم يقتصر على ما بلغه أو المعنى إذا علم أدنى شىء من المواضع التى يمكن التلبيس فيها كما فى قصة ابن الزبعرى زعم أن الكل من هذا القبيل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الأفاكون الموصوفون بما ذكر ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ذو إهانة لإهانتهم لآيات الله ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أمامهم لأنهم متوجهون إليها أو من خلفهم لأن ذلك بعد آجالهم، والوراء اسم لما يواريه الشخص من قدام أو خلف ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا﴾ من الأموال والأولاد ﴿شَيْـًٔا﴾ أى لا يدفع شيئاً من العذاب ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام ﴿أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يحاط بكنهه ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ حظ ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ موجع بجر الميم للجمهور صفة رجز ورفعها لابن كثير وحفص صفة عذاب ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ بخلقه على وجه يمكن الانتفاع به ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ بإذنه وتسهيله وأنتم راكبوها ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ تطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارة والغوص والصيد وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من شمس وقمر ونجم وماء وغير ذلك ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من دابة وشجر ونبات وأنهار وغيره أى خلق ذلك لمنافعكم ﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد ﴿مِّنْهُ﴾ حال أى سخرها كائنة منه تعالى أو خبر لمحذوف أى هى منه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها فيؤمنون أو يزدادون إيقانا ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ اغفروا ما وقع من أذى الكفار ﴿يَغْفِرُوا﴾ بالصفح ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ لا يخافون أو لا يتوقعون وقائعه بأعدائه أو الأوقات التى وقتها الله لنصر المؤمنين أو لجزائهم وهذا قبل الأمر بجهادهم وعليه فمنسوخ بآية القتال وقيل محكم. قال ابن عطية: الآية تتضمن الغفران عموما فينبغى أن يقال: إن الأمور العظام كالقتل والكفر مجاهرة قد نسخ غفرانه بآية السيف والجزية وما أحكمه الشرع لا محالة وأن الأمور الحقيرة كالجفاء فى القول ونحو ذلك يحتمل أن تبقى محكمة اهـ. قلت: معنى النسخ هنا التخصيص للعام تأمله ﴿لِيَجْزِىَ﴾ بالياء للأكثر والنون لابن عامر وحمزة والكسائى ﴿قَوْمًا﴾ يعنى المؤمنين ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الغفران للكفار أذاهم والصبر وهو علة للأمر وتنكير قوما للتعظيم أى قوما أى قوم ففى هذا التنكير كمال التعريف إيماء

إلى أنهم لا يخفون عرفوا أو نكروا مع العلم بأن المجزى لا يكون إلا الغافر ومن حمل قوما على الكفار أو على الشيوع فقد استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير . قاله فى غاية الأمانى معرضا للبيضاوى ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ تقدم مثله مرارا ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَٰءِيلَ الْكِتَـٰبَ﴾ التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ به بين الناس فى فصل الخصومات أو الحكمة النظرية ، العملية ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ اذ كثر فيهم الأنبياء ما لم يكثر فى غيرهم ﴿وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَـٰتِ﴾ مما أحل الله من اللذائذ كالمن والسلوى وسائر المآ كل والمشارب ﴿وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى الْعَـٰلَمِينَ﴾ حيث آتيناهم مالم نؤت أحدا غيرهم وهو اجتماع الملك والنبوة ولم يجتمعا فى غيرهم . قاله فى غاية الأمانى ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ﴾ أدلة ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أمر الدين ويندرج فيه المعجزات الدالة على حقية دينهم ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ فى ذلك الأمر ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بحقيقة الحال ﴿بَغْياً﴾ أى لبغى أى ظلم وحسد حدث ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فجعلوا ما هو سبب الألفة موجبا للاختلاف ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمؤاخذة والمجازاة للبطل والمحق ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ منهاج خاص والتنوين للتعظيم وأصل الشريعة مورد المياه استعير لها الدين لأن الناس يردونه ابتغاء رحمة الله ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أمر الدين واحد الأمور أو الأوامر ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ أثبت على سلوكها ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعنى آراء الرجال التابعة للشهوات كقول رؤساء قريش له ارجع إلى دين آبائك ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ﴾ لن يدفعوا عنك ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ من عذابه ﴿شَيْئاً﴾ إن خالفت أمره ﴿وَإِنَّ الظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إذ الجنسية علة الانضمام فلا توالهم باتباع أهوائهم ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يتولاهم وانت إمامهم فمليك بموالاته بالتقوى واتباع الشريعة ﴿هَـٰذَا﴾ القرآن أى ما فيه من المعارف والحكم ﴿بَصَـٰئِرُ لِلنَّاسِ﴾ لقلوبهم تبصرهم وجه الفلاح كما جعل روحا وحياة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من العذاب أونعمة من الله ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يطلبون اليقين ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى همزة الإنكار أ ﴿حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا﴾ اكتسبوا ﴿السَّيِّئَـٰتِ﴾ الكفر والمعاصى ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ نصيرهم مثلهم ﴿سَوَاءٌ﴾ بالرفع للجمهور خبر ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مبتدأ ومعطوف والجملة بدل من الكاف والضميران للكفار والمعنى أحسبوا أن نجعلهم فى الآخرة فى خير كالمؤمنين أى فى رغد من العيش مساو لعيشهم فى الدنيا حيث قالوا للمؤمنين: لئن بعثنا لنعطى من الخير مثل ما تعطون فهو إنكار أن تكون حياتهم ومماتهم سيين فى البهجة والرغد كما هو للمؤمنين ويدل عليه قراءة حمزة والكسائى وحفص سواء بالنصب على الحال من الضمير فى الكاف أو على المفعولية والكاف حال ويحتمل رجوع الضمير للمؤمنين على أن الجملة استئناف يبين المقتضى للإنكار ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا أى ليس الأمر كذلك فهم فى الآخرة فى العذاب على خلاف عيشهم فى الدنيا والمؤمنون فى الآخرة فى الثواب بعملهم الصالحات فى الدنيا ، وما ، تمييز أو فاعل ثم أردفه

بما هو كالدليل عليه بقوله ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ المقتضى للعدل الذى هو انتصار المظلوم من الظالم وعدم تساوى المسىء والمحسن فلم يقع فى المحيا فلا بد أن يكون بعد الممات ليظهر العدل ﴿ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ عطف على « بالحق » لأنه فى معنى العلة أو على علة محذوفة مثل ليدل بها على قدرته أو ليعدل ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب ولا يساوى الكافر المؤمن ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ أخبرنى ﴿ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ ما يهواه من حجر بعد حجر يراه أحسن وترك متابعة الهدى ، تعجب من حاله ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ منه تعالى بأنه استحق الإضلال لكونه مخلوقاً للنار أو بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ ﴾ فلا يبالى بالمواعظ ﴿ وَقَلْبِهِ ﴾ فلا يتفكر فى آيات الله ، وتقديم السمع على القلب عكس ما فى البقرة لأن الكلام هنا فى المعرض عن الهدى المتبع لما يهواه المستكبر عن الآيات كأن لم يسمعها وما فى البقرة ابتداء كلام منه تعالى إشارة إلى الجبلة ، والقلب هو الأصل فى ذلك ﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَٰوَةً ﴾ ظلمة لا يبصر الهدى ، وقرأ حمزة والكسائى هنا « غشوة » وهما لغتان والأولى أشهر ولذا اتفقوا عليها فى البقرة ويقدر هنا المفعول الثانى لأرأيت أى أيهتدى ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ بعد إضلاله إياه ، استفهام إنكار أى لا أحد ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أن الكل منه تعالى وفيه نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تهالكه على إيمانهم ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ ﴾ ما الحياة ﴿ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾ التى نحن بها ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ يموت بعضنا ويحيى بعضنا أو نكون نطفاً ونحيي بعد ذلك أو نموت نحن ونحيي بحياة أولادنا أو يصيبنا الأمران ، ليس وراء ذلك حياة ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ مرور الزمان كسائر الأشجار والنبات من دهره إذا غلب ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ ﴾ المقول ﴿ مِنْ عِلْمٍ إِنْ ﴾ ما ﴿ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ تقليداً لآبائهم بلا دليل عليه ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا ﴾ الدالة على عكس ما يظنونه لعلهم يرشدون ﴿ بَيِّنَٰتٍ ﴾ واضحات ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ ﴾ أحياء ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أنا نبعث أى ليس لهم حجة يعارضونها بها إلا هذا ، سماها حجة تهكما أو على زعمهم ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ حين كنتم نطفاً ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ ﴾ أحياء ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ للجزاء فيه لا قبله ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لأن من سلم قدرته على الابتداء والإماتة سلمها على الإعادة وإتيان الآباء ، وعدم إتيانهم فى الدنيا لأن الحكمة اقتضت الجمع للجزاء فيكون الإتيان والجمع يوم الجمع والجزاء ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ ﴾ وهم القائلون ما ذكر ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك لقصور نظرهم على ما يظنون ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ تعميم للقدرة بعد تخصيصها أى من كان خالقهما ومدبرهما فالإعادة منه أهون ما يكون ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ ويبدل منه ﴿ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ المنكرون لها سماهم مبطلين لأن إنكارها إبطال لحكمته تعالى أى يظهر لهم خسرانهم بأن يصيروا إلى النار ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ ﴾ أهل دين ﴿ جَاثِيَةً ﴾ باركة على الركب أو مجتمعة من شدة الخوف أو للخصومة ومنه قول على رضى الله عنه « أنا أول من يجثو بين يدى الله للخصومة

وبدل لمعنى الاجتماع ما روى ابن عمر أن الناس حثا كل أمة تتبع نبيها من الجثوة وهى الجماعة ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ كتاب أعمالها ويقال لهم ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جزاءه ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا﴾ ديوان الحفظة أضافه أولا إليهم لأنه صحيفة أعمالهم وثانيا إليه تعالى لأنه كتب بأمره ﴿يَنطِقُ﴾ يشهد ﴿عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ بما هو ثابت فى نفس الأمر من أعمالكم بلا زيادة ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ نستكتب الملائكة ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من نقير وقطمير تقرير لشهادته بالحق ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ التى من جملتها الجنة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ الجلى الذى لا يحتاج إلى تردد ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقال لهم توبيخا ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي﴾ القرآن ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أى ألم تأتكم رسلى فلم تكن آياتى حذف المعطوف عليها اكتفاء بالمقصود واستغناء بالقرينة ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ قوما عادتهم الإجرام إشارة إلى علة الاستكبار ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لكم أيها الكفار ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ كائن لا محالة ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ بالرفع للجمهور مبتدأ والنصب لحمزة عطفا على اسم «إن» ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أفردها بالذكر اهتماما بشأنها ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أى شىء هى استغرابا لها أى تجاهلتم كأنكم ما تعلمون معناها ﴿إِن﴾ ما ﴿نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أى ضعيفا قال المبرد أصله ونحن نظن ظنا فأدخل حرفا النفى والاستثناء لإثبات الظن ونفى ما عداه أى ما الثابت إلا ذلك الظن ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أنها آتية ولعل التردد لأنهم سمعوا من آبائهم نفيها ومن الآيات ما يدل عليها ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ فى الآخرة ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أى جزاؤها من إطلاق السبب على المسبب أو ما يسوؤهم والالتفات إلى الغيبة لحكاية حالهم بعد تمام التوبيخ ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أحاط بهم جزاء ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى العذاب ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ نترككم فى النار ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أى تركتم العمل للقائه وإضافة اللقاء إلى اليوم من إضافة المصدر إلى ظرفه إما إجراء له مجرى المفعول به أو مجرى الفاعل لأن ما لقيته فقد لقيك ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يدفعون عنكم العذاب ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ﴾ بالبناء للمفعول للجمهور والفاعل لحمزة والكسائى ﴿مِنْهَا﴾ من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يطلب منهم أن يرضوا ربهم بالتوبة والطاعة لأنها لا تنفع يومئذ، يقال أعتبه أرضاه بمعنى أزال عتباه التفت إلى الغيبة بعد تمام التقريع كأنه مخبر لغيرهم سوء جزائهم ليعتبروا ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ أى المحامد كلها نطقا وحالا سواء حمده الحامدون أولا إذ الكائنات كلها منه وبه بقاؤها كما قال ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و«رب» بدل ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ العظمة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إذ ظهر فيهما آثارها لا يشاركه فيها أحد ولا يليق إلا بجلال جبروته ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذى لا يغلب تقرير لكبريائه ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى أحكم وأتقن كل شىء فلا يحمد غيره إذ له الكمال المطلق فاحمدوه وكبروه وأطيعوه.

[تم تفسير سورة الجاثية]

سورة الأحقاف

مكية ، إلا (قل أرأيتم إن كان من عند الله) وإلا (فاصبر كما صبر أولو العزم) وإلا (ووصينا الإنسان بوالديه)
الثلاث آيات ، وهي أربع أو خمس وثلاثون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الذى تقتضيه الحكمة المقتضية لإثابة المحسن وعقاب المسىء ﴿ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى وبتقدير أجل مضروب ينتهى إليه الكل وهو يوم القيامة أو مضروب لكل واحد وهو آخر مدة بقائه والأول أنسب بالمقام ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا ﴾ به من القرآن أو هول ذلك اليوم أو عن الإنذار على أن « ما » مصدرية ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ لا يتفكرون فيه ولا يستعدون لحلوله أو لا يؤمنون به ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبرونى عن حال ﴿ مَا تَدْعُونَ ﴾ تعبدون ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى الأصنام مفعول أول ﴿ أَرُونِي ﴾ أخبرونى تأكيد ﴿ مَاذَا خَلَقُوا ﴾ مفعول ثان ﴿ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى من أجزائها أو عما ينشأ منها من النبات والحيوان فاستحقوا العبادة بذلك فيها أشيروا إليه فإنه بمرأى منكم ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ ﴾ مشاركة الله ﴿ فِي ﴾ خلق ﴿ السَّمَٰوَاتِ ﴾ فأين دليلكم عليه عقلا ﴿ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ ﴾ منزل ﴿ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا ﴾ القرآن شاهد على ما تقولون وهذا الكتاب ناطق بالتوحيد وكذا جميع الكتب المنزلة ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ ﴾ بقية ﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ يؤثر عن الأولين من الأنبياء وإن لم يكن مكتوباً يدل على استحقاقهم العبادة أو على الأمر بها وهذا استيفاء لأدلة الشرع عقليها وسمعيها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى دعواكم . ولما بكتهم نعى عليهم بقوله ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ استفهام بمعنى النفى أى لا أحد أضل ﴿ مِمَّنْ يَدْعُو ﴾ يعبد ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ غيره ﴿ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾ لا يقدر على الجواب لكونه جماداً فضلا عن كشف ملمة أو دفع بلية ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وهم الأصنام لا يجيبون عابديهم إلى شىء يسألونه أبداً ﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ ﴾ عبادتهم ﴿ غَافِلُونَ ﴾ لأنهم إما جمادات وإما عباد مسخرون مشتغلون بأحوالهم ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ فى الآخرة ﴿ كَانُوا ﴾ أى الآلهة ﴿ لَهُمْ ﴾ لعابديهم ﴿ أَعْدَاءً ﴾ يضرونهم ولا ينفعونهم أو العابدون

المعبودين بلعن بعضهم بعضاً ﴿ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ جاحدين قائلين كانوا يعبدون الجن أو العابدون يقولون والله ربنا ما كنا مشركين ، ثم أشار إلى نوع آخر من كفرهم بقوله ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا ﴾ القرآن ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات حال ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ منهم ﴿ لِلْحَقِّ ﴾ لأجله وفى شأنه والمراد به الآيات ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ من غير تأمل ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ظاهر بطلانه عناداً كما أن كفرهم الأول كان جهلا عبر عن القرآن أولا بالآيات وثانياً بالحق وأتى بالمظهر الدال على علة العناد و « لما » الدال على كفرهم حين جاء من غير تدبر دلالة على إغراقهم فى الكفر ﴿ أَمْ ﴾ بمعنى بل وهمزة الإنكار ﴿ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ أى القرآن إضراب عن ذكر تسميتهم القرآن سحراً إلى ما هو أشنع منه وإنكار له وتعجيب ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ ﴾ فرضاً ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ ﴾ من دفع عذابه ﴿ شَيْئاً ﴾ إن عاجلنى بالعقوبة فكيف أجترئ عليه وأعرض نفسى للعقوبة من غير توقع نفع ولا دفع ضر من قبلكم ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ تندفعون فيه من غير روية من القدح فى آياته ورسوله ﴿ كَفَىٰ بِهِ ﴾ تعالى ﴿ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ شهد لى بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والإنكار وهو وعيد بجزاء إفاضتهم ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ لمن تاب ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ به ترغيب لهم فى التوبة مع الإشعار بكمال حلمه عنهم مع عظيم جريمتهم ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً ﴾ بديعاً كخف وخفيف ﴿ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أى أول رسول حتى يشتبه عليكم شأنى بل تقدمنى رسل من البشر دعوى الكل واحدة ولا يقدر أحد منهم على إتيان آية إلا بإذن الله ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ فى الدنيا مفصلا لأنه غيب «ولا» لتأكيد النفى «وما» بعده موصولة منصوبة أو استفهامية مرفوعة ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ لا أتجاوزه وأبتدع من عندى شيئاً ولا قدرة لى على الإتيان بما تقترحون ﴿ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ من عقاب الله ﴿ مُبِينٌ ﴾ بيّن الإنذار بالشواهد المبينة والمعجزات المصدقة لاساحر ولا كذاب ، قيل لما استعجل المسلمون الخروج لأجل أذى المشركين أمر أن يقول لهم «ماأدرى مايفعل بى ولا بكم » ءأومر بالخروج معكم إلى أرض رفعت لى رأيتها فى منامى ذات نخيل وشجر أم لا ﴿ قُلْ ﴾ للكفار ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبرونى ما حالكم ﴿ إِنْ كَانَ ﴾ القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ جملة حالية أى وقد كفرتم به ويجوز أن تكون الواو عاطفة على الشرط وكذا الواو فى قوله ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ هو عبد الله بن سلام ولذا قيل إن الآية مدنية لأن إسلامه كان بالمدينة والراجح أن الآية مكية لكن نزل ما سيكون منزلة الواقع وتحقيقه أن مناط الإلزام إيمان شاهد من بنى إسرائيل أى لو وقع ذلك ألستم أضل الناس ثم آمن عبد الله بعد مدة فكان هو ذلك الشاهد وقيل الشاهد هو موسى عليه السلام وشهادته ما فى التوراة من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ عَلَىٰ مِثْلِهِ ﴾ مثل القرآن وهو ما فى التوراة من المعانى المطابقة لما فى القرآن من التوحيد والوعد والوعيد ﴿ فَآمَنَ ﴾ الشاهد ﴿ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن الإيمان وجواب الشرط بما عطف عليه ألستم ظالمين دل عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وفيه إشعار

بأن كفرهم به لضلالهم المسبب عن ظلمهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ من الفقراء أى لأجلهم وفى حقهم ﴿ لَوْ كَانَ ﴾ الإيمان بمحمد ﴿ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ وهم سقاط فقراء وموالى ورعاة قاله قريش لفقراء المسلمين كعمار وبلال وصهيب ، وقيل قاله غطفان وبنو عامر وأشجع وأسد طوائف من الأعراب لما أسلم غفار وأسلم ومزينة وجهينة ﴿ وَ ﴾ ظهر عنادهم ﴿ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ والظرف متعلق بنحو ما قدرنا ولا يجوز تعلقه بقوله ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ لتدافع دلالتى المضى والاستقبال وعدم الهداية محقق والسين مانع من تأويل يقولون بقالوا مع أنه مسبب عنه ﴿ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ كقولهم «أساطير الأولين» ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى القرآن وهو خبر لقوله ﴿ كِتَابُ مُوسَىٰ ﴾ ناصب لقوله ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ على الحال أى للمؤمنين به ﴿ وَهَٰذَا ﴾ القرآن ﴿ كِتَابٌ مُصَدِّقٌ ﴾ لكتاب موسى وغيره من الكتب ﴿ لِسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ حال من فاعل « مصدق » وفيه دلالة على أنه كما دل على صدق ما تقدمه من الكتب دل بإعجازه على أنه فى نفسه كلام الله ﴿ لِتُنْذِرَ ﴾ بالتاء لنافع وابن عامر وبالياء القرآن للباقين ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ علة مصدق ﴿ وَبُشْرَىٰ ﴾ عطف على محله أو التقدير هو بشرى ﴿ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ المؤمنين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ على العمل لجمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم والاستقامة التى هى منتهى العمل وثم للدلالة على تأخر رتبة العمل ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من لحوق مكروه فى الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بفوات محبوب عند الموت والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال من المستكن فى «أصحاب» ﴿ جَزَاءً ﴾ منصوب على المصدر بفعله المقدر أى جوزوا جزاء ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الفضائل العملية والعلمية ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ أى أمرناه فعلا ذا حسن وللكوفيين إحسانا أى أن يحسن إليهما إحسانا وأفرد الإحسان إليهما بالذكر بعد اندراجه تحت الاستقامة اهتماما لأن طاعتهما شقيقة طاعة الله . وفى مدارك التنزيل : أى وصيناه بوالديه أمرا ذا حسن أى بأمر ذى حسن فهو فى موضع البدل من قوله بوالديه بدل اشتمال ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا ﴾ بالفتح لنافع وابن كثير وأبى عمرو وهشام وبالضم للباقين أى على مشقة أى ذات كره أو حملا ذا كره وكذا قوله ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ ترجيح لجانبها فى البر على الأب ﴿ وَحَمْلُهُ ﴾ أى مدة حمله ﴿ وَفِصَالُهُ ﴾ من الرضاع كذلك ﴿ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ ستة أقل مدة الحمل والباقى أكثر مدة الرضاع وقيل إن حملت به ستة أو تسعة أرضعته الباقى وهذا كله بيان لمكابدة الأم المشقة إلى هذه المدة ولذا رجح حقها وتخصيص بيان أقل مدة الحمل وأكثر مدة الرضاع لانضباطهما وتحقق ارتباط حكم النسب والرضاع بهما ﴿ حَتَّىٰ ﴾ غاية لجملة مقدرة أى وعاش حتى ﴿ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أول كمال قوته وعقله ورأيه وهو على الأصح ثلاث وثلاثون سنة ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ أكثر الأشد أى غاية تمام العقل ، قيل ولذا لم يبعث نبى إلا بعد أربعين . وفى الحديث : إن الشيطان يجرى يده على وجه من زاد عن الأربعين ولم يتب فيقول بأبى وجه لا يفلح ﴿ قَالَ ﴾ إن كان من أهل الفلاح أى ينبغى أن يقول ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾

الهمنى وأصل الإيزاع الإغراء ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ﴾ بها ﴿عَلَيَّ﴾ بالتوفيق لدين الإسلام ﴿وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ كذلك لأن النعمة عليهما نعمة على الولد والأولى تعميم النعمة لنعمة الدين وغيره ﴿وَ﴾ الهمنى ﴿أَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ تقبله نكره للتعظيم أو أراد نوعاً من الجنس يستجلب رضا الله ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ اجعل الصلاح سارياً فيهم راسخاً فيهم ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من كل ذنب ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المخلصين لك. وما روى أن الآية نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه لايمنع العموم فى غيره قال عبد الرحمن فى جواهره: هذه الآية معناها: هكذا ينبغى للإنسان أن يكون، فهى وصية الله تعالى للإنسان فى كل الشرائع وقول من قال إنها فى أبى بكر وأبويه ضعيف لأن هذه الآية نزلت بمكة بلا خلاف وأبو قحافة أسلم عام الفتح. اه. ويؤيده قوله ﴿أُولَٰئِكَ﴾ القائلون هذا القول ﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ﴾ بمعنى حسن ﴿مَا عَمِلُوا﴾ جميع حسناتهم أو غير المباح فإنه حسن لاثواب عليه ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ذكره لأن قبول العمل لا يستلزم العفو عن الزلل، وقرأ حمزة والكسائى وحفص بالنون فى الفعلين ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ حال أى كائنين فى جملتهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ فى الدنيا ووعد مصدر مؤكد لنفسه لأن نتقبل ونتجاوز وعد ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ تقدم معناه والموصول مبتدأ والمراد به جنس العاق الذى هو ضد ذلك الصالح ويدل عليه إخباره بأولئك وما روى أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر قبل إسلامه فكذبٌ لأنه من كبار الصحابة وقد أخبر فى الآية أن هذا حق عليه العذاب ﴿أَتَعِدَانِنِي﴾ بالفك للجمهور والإدغام لهشام ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ من القبر ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ﴾ الأمم ﴿مِن قَبْلِي﴾ ولم يرجع أحد منهم ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ يسألانه الغوث له بالتوفيق للإيمان أولهما أن لا يصيبهما شره يقولان الغياث بالله منك ﴿وَيْلَكَ﴾ أى هلاكك بمعنى هلكت ﴿آمِنْ﴾ بالبعث وأصل الويل الدعاء بالهلاك يستعمل للحث على ما يخاف على تركه ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بقيام الساعة والجزاء على الأعمال ﴿حَقٌّ﴾ صدق ﴿فَيَقُولُ﴾ لهما ﴿مَا هَٰذَا﴾ القول ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أكاذيبهم التى يتوارثها الناس ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ﴾ وجب ﴿عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ بأنهم أهل النار ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ كقوله فى ضده فى أصحاب الجنة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ استئناف لتعليل الحكم ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الفريقين ﴿دَرَجَاتٌ﴾ مراتب ﴿مِّمَّا عَمِلُوا﴾ من جزاء ما عملوا من الخير والشر أو من أجل ما عملوا فدرجات المؤمنين فى الجنة عالية ودركات الكافرين فى النار سافلة سميت درجات على التغليب أو لكل مؤمن ويعلم حال المقابل منه بأن له دركات ﴿وَلِنُوَفِّيَهُمْ﴾ بالنون لنافع وحمزة والكسائى وابن ذكوان وبالياء أى الله للباقين ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ أى جزاءها ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب ولام «لنوفيهم» متعلق بمحذوف أى قدرنا جزاءهم على مقادير أعمالهم لنوفيهم ولما كان مبنى السورة على تهديد الكفار ومن يقابلهم يذكر اعتراضاً

شرح حالهم بقوله ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ أى يعذبون بها كعرضه على السيف قتله به وقيل تعرض النار عليهم بأن تكشف لهم ففيه قلب مبالغة كعرضت الناقة على الحوض ﴿ أَذْهَبْتُمْ ﴾ أى يقال لهم أذهبتم وهو ناصب الظرف وقرأ ابن كثير وابن عامر بالاستفهام أى استوفيتم ﴿ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ لذائذكم باشتغالكم بها ﴿ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ تمتع الأنعام . قال فى الجواهر : وهذه الآية وإن كانت فى الكفار فهى رادعة لأولى النهى من المؤمنين عن الشهوات واستعمال الطيبات ألا ترى إلى قول عمر ابن الخطاب : أتظنون أنا لا نعرف طيب الطعام ذاك لباب البُرّ بصغار الغنم لكنى رأيت الله تعالى نعى على قوم أنهم أذهبوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا . وقال جابر بن عبد الله : اشتريت لحماً بدرهم فرآنى عمر فقال أوكلما اشتهى أحدكم شيئاً اشتراه فأكله أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية « أذهبتم طيباتكم » . والآثار فى هذا المعنى كثيرة فمنها ما روى ابن المبارك من طريق الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خرج فى أصحابه إلى بقيع الغرقد فقال السلام عليكم يا أهل القبور لو تعلمون ما نجاكم الله منه مما هو كائن بعدكم ثم أقبل على أصحابه فقال هؤلاء خير منكم لأنهم خرجوا من الدنيا لم يأكلوا من أجورهم شيئاً وإنكم قد أكلتم من أجوركم وما أدرى ما تحدثون بعدى . وفى سنن أبى داود عن ثوبان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر كان آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة وأول من يدخل عليها فاطمة فقدم من غزاة وقد علقت ستراً على بابها وحلت الحسن والحسين بسوارين من فضة فلم يدخل فعلمت ذلك فهتكت الستر وفكت السوارين عنهما فانطلقت بهما إلى رسول الله يبكيان فأخذهما منهما وقال يا ثوبان اذهب بهما إلى آل فلان إن هؤلاء أهلى أكره أن يأكلوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا ياثوبان اشتر لفاطمة قلادة من عصب وسوارين من عاج . انتهى باختصار . وقال ابن العربى : الآية وإن كانت فى الكفار تتناول المسلم لأنها عتاب على التوسع ولأن من اعتاد الطيبات من الحلال واستمرت عليها عادته إذا فقدها استحصلها ولو بالشبهات حتى يقع على الحرام المحض لغلبة العادة ، والذى يضبط هذا الباب أن يكتفى بما وجد طيباً أم لا : فالنبى صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلواء والعسل ويأكل منهما ماتيسر ولا يجعله عادة . اه ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أى الهوان ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ إذ لم تكونوا أهلا لذلك فالكبرياء رداء الله ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ به أى بسبب الاستكبار بالباطل، والفسوق الخروج عن طاعة الله ﴿ وَاذْكُرْ ﴾ لقومك ﴿ أَخَا عَادٍ ﴾ هو هود عليه السلام أى حاله مع قومه فإن عتوهم وإغراقهم فى الكفر يشبه إغراق أولئك ﴿ إِذْ ﴾ إلى آخره بدل اشتمال ﴿ أَنْذَرَ قَوْمَهُ ﴾ خوفهم ﴿ بِالْأَحْقَافِ ﴾ جمع حقف : الرمل المستطيل الذى فيه انحناء من احقوقف الشىء : أعوج ، وكانوا يسكنون بين رمال مشرفة على البحر باليمن ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ ﴾ الرسل ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ إلى أقوامهم قبل هود وبعده والجملة اعتراض بين المفسّر والمفسّر وهو قوله ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أى لا تعبدوا أو بأن لا تعبدوا فإن النهى عن الشىء إنذار

عن مضرته . قال فى مدارك التنزيل : والمعنى اذكر إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم . وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إن عبدتم غير الله ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا ﴾ لتصرفنا ﴿ عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ عن عبادتها ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب على ذلك ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى وعدك ﴿ قَالَ ﴾ هود ﴿ إِنَّمَا الْعِلْمُ ﴾ بوقت مجىء العذاب ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ولا علم لى بذلك ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لأبى عمرو ﴿ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ من الإنذار ما لم يأت العذاب وكنت فيكم ﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ غارقين فى الجهل لا تجدى فيكم الآيات والنذر وهل أجهل ممن يطلب حلول بأس الله به سريعاً . ولما استمروا على التكذيب حبس الله المطر عنهم فاستسقوا عند الكعبة فظهر لهم سحاب ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ أى رأوا العذاب المذكور فى «ماتعدنا» أو الضمير مبهم يفسره ﴿ عَارِضًا ﴾ سحاباً عرض فى أفق السماء حال أو تمييز وهو أحسن للإجمال والتفصيل ﴿ مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ متوجهاً نحوها وفرحوا به والإضافة لفظية وكذا فى قوله ﴿ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ من إضافة الصفة إلى معمولها أى يأتينا بالمطر قال تعالى ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ﴾ من العذاب أو القائل هود عليه السلام وهو أولى لأن المناظرة كانت بينهم وبين هود وفى الأول فك الضمائر المؤدى إلى التنافر ﴿ رِيحٌ ﴾ بدل من ما أو خبر محذوف أى هى ريح ﴿ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم صفتها وكذا قوله ﴿ تُدَمِّرُ ﴾ تهلك ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أمرت به من نفوسهم وأموالهم وخص العام بالحس ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أى بإرادته أى كل شىء أراد إهلاكه بها بأن طارت بذلك بعد الدس فى الرمال سبع ليال وثمانية أيام بين السماء والأرض وقذفته فى البحر وبقى هود ومن معه ، وفى ذكر الأمر والرب وإضافته إلى الريح ما لايخفى من كونها تحت تصرفه وإرادته وطاعته ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا تُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ وقرأ حمزة وعاصم بالياء ورفع مساكنهم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما جزيناهم ﴿ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الكاملين فى الجرم غيرهم ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ ﴾ أى عاداً ﴿ فِيمَا ﴾ أى فى الذى ﴿ إِنْ ﴾ نافية وهى هنا أحسن من «ما» لأن «ما» لو وضعت هنا التكرر لفظها ولكراهة ذلك قلبت ألفها هاء فى مهما ﴿ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ من القوى والأموال أى لم نعطكم ما أعطينا أولئك من القوة والغنى ومع ذلك نالهم بسبب كفرهم هذا العذاب فأحرى أنتم وأما جعل « إن » شرطية مع تقدير حذف الجواب أى إن مكناكم فيه طغيتم أو كان بغيكم أكثر فتنطع فى التأويل البعيد والأول أظهر وأوفق لقوله كانوا أكثر منكم وأشد قوة وآثاراً ونحوه ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا ﴾ أسماعاً ﴿ وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ ليشكروا المنعم بها بطاعته ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أدنى شىء من الإغناء ومن زائدة ﴿ إِذْ ﴾ معمولة لأغنى مشربة معنى التعليل لأن مؤدى الظرف والتعليل واحد فى إذ وحيث من حيث أن الحكم مرتب على ما أضيفا إليه فقولك ضربته لإساءته أو إذ أو حيث أساء واحد خصا بذلك دون سائر الظروف ﴿ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ حججه البينة ﴿ وَحَاقَ ﴾ نزل وأحاط ﴿ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ من العذاب ﴿ وَلَقَدْ

﴿أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ﴾ ياأهل مكة ﴿مِنَ الْقُرَىٰ﴾ من أهلها عاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب باليمن والحجر ودوم ومدين تمرون على الكل فى أسفاركم ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ كررنا الحجج عليهم قبل الإهلاك ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم فلم يرجعوا فأهلكوا ﴿فَلَوْلَا﴾ هلا ﴿نَصَرَهُمُ﴾ بدفع الذاب عنهم كما يزعمون ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ هم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى غيره ﴿قُرْبَانًا﴾ متقربا بهم إلى الله كما قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿آلِهَةً﴾ معه وهم الأصنام ومفعول اتخذ الأول ضمير محذوف يعود على الموصول كما قدرناه أولا والمفعول الثانى آلهة وقربانا حال أو مفعول له وجعله مفعولا ثانيا وآلهة بدل منه غير سديد لأن المنكر هو اتخاذهم آلهة دون الله يتقربون بها لا اتخاذهم قربانا دون الله إذ ليس من شأن الله أن يكون قربانا حتى يكون التجاوز عنه منكراً قاله فى غاية الأمانى معرضا لما فى البيضاوى وغيره ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ غابوا عن نصرتهم وقت الاحتياج ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الاتخاذ ﴿إِفْكُهُمْ﴾ كذبهم فى أنها شركاء الله ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يكذبون أنها قربان إلى الله تشفع لهم أو المعنى وذلك الامتناع عن نصرهم أثر إفكهم وصرفهم عن الحق وهو الاتخاذ وأثر افترائهم أى ثمرته وما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف أى فيه ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا﴾ أملنا ﴿إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ أى اذكر لقومك وقت صرفنا إليك نفرا من الجن كيف لم يتوقفوا فى الإيمان لما سمعوا القرآن. روى الشيخان عن ابن عباس أنه لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيل بين الجن وبين خبر السماء فقالوا ما هذا إلا لأمر حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانصرف نفر منهم نحو تهامة فوافوا رسول الله بنخلة فى طائفة من أصحابه عامدين سوق عكاظ يصلى بهم الصبح فلما سمعوه قالوا هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء الحديث وعن ابن مسعود وفد على النبى صلى الله عليه وسلم نفر من الجن فقال إنى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعنى فاتبعته ولم يحضره ليلة الجن غيرى فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة فى شعب الحجون خط لى خطا وقال لا تخرج منه حتى أعود إليك ثم افتتح القرآن وسمعت لغطا شديداً فقال لى رسول الله هل رأيت شيئاً قلت نعم رجالا سوداً قال أولئك جن نصيبين وكانوا اثنى عشر ألفا والسورة التى قرأ عليهم «سبح اسم ربك، والرحمن».. الحديث، قال عبد الرحمن فى جواهره: اختلفت الرواة هنا هل هذا الجن هم الوفد أو المتجسسون، والتحرير فى هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم جاءه نفر من الجن دون أن يشعر بهم وهم المتجسسون المرادون بقوله: «قل أوحى إلىّ: الآيات» ثم بعد ذلك وفد عليه وفدهم حسب ماورد فى ذلك من الآثار. اهـ. قلت: فالمراد بالجن هنا على مقتضى قوله هم المتجسسون: إذ النفر يطلق فيما دون العشرة قيل كانوا سبعة أو تسعة مقدمهم «زوبعة» ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ استئناف أو حال أى مقدرين استماعهم ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أى القرآن أو الرسول أى كانوا منه بحيث يسمعون كلامه ﴿قَالُوا﴾ قال بعضهم لبعض ﴿أَنْصِتُوا﴾ اسكتوا مستمعين إذ الإنصات هو السكوت لقصد الاستماع وفيه تأدب مع العلم وتعليم كيف يتعلم ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ فرغ من قراءته ﴿وَلَّوْا﴾ رجعوا ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾

بما فهموا من كلام الله وتفرقوا على البلاد منذرين للجن ﴿ قَالُوا يَـٰقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا ﴾ هو القرآن ﴿ أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ لم يقولوا عيسى لكونهم يهودا أو لكون أكثر أحكام عيسى فى التوراة ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ تقدمه من الكتب السماوية ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ الثابت من العقائد التى لا تبدل ﴿ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لاعوج فيه من الشرائع ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم ﴾ الله ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ بعضها وهو ما يكون فى خالص حق الله فإن المظالم لا تغفر إلا برضا أربابها وهذا لا ينافى قوله : « إن ينتهوا يغفرلهم ما قد سلف » لأنها فى الحربى وهؤلاء كانوا مؤمنين بنبيهم ثم برسول الله والمؤمن لا يسقط عنه تبعات الناس إلا بالأداء أو الاستحلال مع أن غفران البعض لا ينافى غفران الكل فإنه مفهوم اللقب ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ استدل به من قال : إن الجن لا يدخلون الجنة إذ لم يذكر لهم إلا النجاة من العذاب ، ويروى عن الإمام أبى حنيفة . والحق هو ما عليه مالك وغيره من الأئمة : دخولهم لأنهم مكلفون بما كلف به الإنس ولقوله « ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » ولقوله « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانّ » ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إذ لا ينجى منه مهرب ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ ﴾ من لم يجب ﴿ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ من دون الله ﴿ أَوْلِيَآءُ ﴾ يمنعونه منه ﴿ أُولَـٰٓئِكَ ﴾ الذين لم يجيبوا ﴿ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ بيّن حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ لم يعلم منكرو البعث ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ ﴾ لم يتعب ولم يعجز ﴿ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ ﴾ خبر « أنّ » ، وزيدت الباء فيه لأن الكلام فى قوة أليس الله بقادر ﴿ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ والمقصود إثبات القدرة وإعجاب من عدم رؤيتهم ذلك ، ولذلك أجاب بقوله ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ هو جواب للنفى أى هو قادر على إحياء الموتى ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تقرير للقدرة ، صدر السورة بما حقق به المبدأ وختمها بما يحقق المعاد وقرر بينهما التوحيد والنبوة وهذه هى المقاصد فيها وما عداها فروع وتوابع ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ بأن يعذبوا بها والظرف منصوب بقول مضمر مقوله « هو » ﴿ أَلَيْسَ هَـٰذَا ﴾ أى يقال لهم أليس هذا العذاب ﴿ بِٱلْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ بكفركم ومعنى الأمر الإهانة بهم والتوبيخ لهم ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ على أذى قومك ﴿ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ ﴾ ذوو الثبات والجد فى الشدائد ﴿ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ قبلك فتكون ذا عزم « ومن » للبيان فكلهم ذو عزم ، وقيل : للتبعيض فيراد بهم أصحاب الشرائع لأنهم اجتهدوا فى تقريرها بعد تأسيسها وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاغين فيها وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام أو المعنى الصابرون على البلاء ، وكان نوح يضرب حتى يغشى عليه وإبراهيم ألقى فى النار وأمر بذبح ولده ، وموسى على طغيان فرعون ، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وعن عائشة صام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام مواصلا ثم قال : « ياعائشة ما تنبغى هذه الدنيا لمحمد ولا لآل محمد إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا الصبر وقد كلفنى ما كلفهم فقال :

«فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل» ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ لقومك بنزول العذاب فإنه نازل بهم لا محالة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب فى الآخرة لطوله ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ فى الدنيا فى ظنهم ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ من هول العذاب. قال فى الجواهر: وإذا علمت أيها الأخ أن الدنيا أضغاث أحلام كان الحزم اشتغالك الآن لتحصيل الزاد للمعاد بحفظ الحواس ومراعاة الأنفاس ومراقبة مولاك فاتخذه صاحبا وذر الناس جانبا. قال الغزالى: اعلم أن صاحبك الذى لا تفارقه فى حضرك وسفرك ونومك ويقظتك بل فى حياتك وموتك هو ربك ومولاك وسيدك وخالقك ومهما ذكرته فهو جليسك إذ قال «أنا جليس من ذكرنى» فلو عرفته حق معرفته لاتخذته صاحبا وتركت الناس جانباً فإن لم تقدر على ذلك فى جميع أوقاتك فإياك أن تخلى ليلك ونهارك عن وقت تخلو فيه بمولاك وتتلذذ بمناجاته مع آداب الصحبة معه، وهى: إطراق الطرف، وجمع الهم، ودوام الصمت، وسكون الجوارح، ومبادرة الأمر، واجتناب النهى، وقلة الاعتراض على القدر، ودوام الذكر، وملازمة الفكر، وإيثار الحق، واليأس من الخلق، والتوكل على الله. اهـ ﴿بَلَاغٌ﴾ أى هذا الذى وعظتم به أو هذه السورة كفاية فى الموعظة أو تبليغ من الرسول ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ أى لا يهلك عند مجىء العذاب ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن الطاعة بعد هذا البلاغ.

[تم تفسير سورة الأحقاف]

سورة القتال أو محمد

مدنية أو مكية والأول أصح
وهى ثمان أو تسع وثلاثون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ولا تخفى مناسبة آخر السورة الماضية لأول هذه وهو ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا ﴾ أعرضوا ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الإسلام أو صدوا غيرهم عنه من صد عنه صدوداً أعرض أو صده عن الأمر صداً منعه كالمطعمين فى السفر إلى بدر والمصرين من قريش وأهل الكتاب ﴿ أَضَلَّ ﴾ أحبط وأبطل ﴿ أَعْمَالَهُمْ ﴾ كإطعام الطعام وصلة الأرحام وعمارة المسجد الحرام وفك الأسارى فلا يرون لها فى الآخرة ثواباً أى جعلها ضالة أى ضائعة بالكفر أو مغمورة فيه كما يضل الماء فى اللبن أو جعلها ضلالا حيث لم يقصدوا بها وجه الله أو الأعمال كيدهم لرسول الله أبطلها بنصره وإظهار دينه على الدين كله ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ من قريش والأنصار وأهل الكتاب وغيرهم ﴿ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ وهو القرآن خصه تعظيما وإشعاراً بأن الإيمان لا يعتبر دونه وأنه الأصل ولذا أكده بقوله ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ الثابت الذى لا يعقبه نسخ ﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ من عنده ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ سترها بالإيمان والعمل الصالح ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ حالهم فى الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إضلال الأعمال وتكفير السيئات مبتدأ خبره ﴿ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَٰطِلَ ﴾ أى بسبب اتباع هؤلاء الباطل: الشيطان ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ ﴾ القرآن ﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ وهذا تصريح بما أشعر به ما قبلها وقيل الباطل كل ما لا ينتفع به والحق خلافه ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الضرب أو البيان ﴿ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ﴾ يبين ﴿ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ أحوالهم فالكافر يحبط عمله والمؤمن يغفر زلله؛ فاتباع الباطل مثل لعمل الكفار والإضلال مثل لخيبتهم، واتباع الحق مثلٌ لعمل المؤمنين وتكفير السيئات مثلٌ لفوزهم ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ أى بعد ما علمتم من ضرب المثل إذا حاربتم الكفار فاضربوا الرقاب ضرباً، حذف الفعل وقدم المصدر وأنيب منابه مضافاً إلى المفعول اختصاراً مع ما يفيده من التأكيد والمراد به القتل كيف كان، والتعبير به إشعاراً بأنه ينبغى أن يكون القتل بضرب الرقبة حيث أمكن إذ هو الغالب فى القتل مع ما فى اللفظ من الغلظة وتصوير القتل بأبشع صورة وهو إطارة الرأس الذى هو رئيس الأعضاء ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أكثرتم فيهم القتل وأغلظتموه من الثخين وهو الغليظ وأخذتم من بقى ﴿ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ ﴾ ما يوثق به الأسرى لتحفظوهم ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا

بَعْدُ﴾ مصدر بدل من اللفظ بفعله أي تمنون عليهم بإطلاقهم من غير شيء ﴿وَإِمَّا فِدَاءً﴾ أوهم يفدون فداء ويفكون رقابهم بمال أو أسرى مسلمين فالإمام بعد الأسر مخيرٌ في رجال الأسارى بين القتل والاسترقاق والمن والفداء يفعل ما هو الأصلح لما روى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث بعد الأسر ومنّ على ثمامة بن أثال ، وفادى رجلا من المسلمين برجلين من المشركين وأبو حنيفة لايجوّز الفداء بالمال اتفاقا ولا بالأسارى على المشهور من مذهبه لئلا يعودوا حربا علينا وادعى نسخ المن والفداء بآية براءة فاقتلوا المشركين أو أول المن بالاسترقاق ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ﴾ أي أهلها ﴿أَوْزَارَهَا﴾ أثقالها من السلاح والكراع بأن تنقضي الحرب ولم يبق إلا مسلم أو مسالم وهو غاية للضرب أو الشد والمن والفداء بمعنى هذه الأحكام جارية فيهم حتى لايكون حرب مع المشركين وذلك عند نزول عيسى لما في الحديث أن الجهاد ماض في أمتي حتى يقاتل آخرهم الدجال وقيل إلى يوم القيامة لحديث «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» ونزول عيسى إنما يفني الكافر من أهل الكتاب ويمكن أن يبقى غيرهم . قاله ابن العربي ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر فيهم ما ذكر أو افعلوا بهم ذلك إشارة إلى ضرب الرقاب وما بعده ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لانتقم منهم باستئصال من غير قتال ﴿وَلَٰكِنْ﴾ أمركم بما مرّ ﴿لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ منهم في القتال فيصير من قتل منكم إلى الجنة ومنهم إلى النار ﴿وَالَّذِينَ قَاتَلُوا﴾ بالمد للجمهور والقصر أي استشهدوا لأبي عمرو وحفص إذ روى أنها نزلت في قتلى أحد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي جاهدوا أو استشهدوا لإعلاء دينه ﴿فَلَنْ يُضِلَّ﴾ لن يحبط أو يضيع ﴿أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ﴾ في الدارين إلى ماينفعهم ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ حالهم فيهما وما في الدنيا لمن لم يقتل فغلب أو مع المقتول بإبدال ما أفسد من أعضائه أعضاء خيراً منها ، كما روى أن الله عوّض لجعفر بن أبي طالب عن يديه المقطوعتين في الحرب جناحين يطير بهما في الجنة ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي طيبها لهم أو بيّنها لهم فيهتدون إلى مساكنهم منها وأزواجهم وخدمهم من غير استدلال . وعنه عليه السلام : «والذي نفسي بيده إن أحدهم لأعرف بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا» وذلك لأنه يفتح له في قبره باب إلى منزله في الجنة فقد رأى منزله مدة متطاولة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾ أي دينه ورسوله ﴿يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في المعترك وفي القيام بحقوق الإسلام فلا يعتريكم شكوك وريب ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ﴾ أي عثوراً وسقوطاً في مقابلة التثبيت للمؤمنين نصب على المصدر بفعله الواجب الإضمار سماعاً والجملة خبر «الذين كفروا» وهي خبر أو دعاء من الله دال على استحقاقهم الهلاك وتحققه ويقال في عكسه والدعاء بالسلامة لعا . قال الأعشى : «فالتعسُ أولى لها مِنْ أن أقول لَعَا» . وقال آخر :

لَحَا اللَّهُ قَوماً لَمْ يَقُولُوا لِعَاثِرٍ • وَلَا لِابْنِ عَمٍّ نَالَهُ الدَّهْرُ لَعْ لَعَا

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ عطف على ناصب «تعساً» إما دعاء أو على تقدير قضى تعساً لهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ التعس

والإضلال ﴿ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ من القرآن المشتمل على التوحيد والتكاليف المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ كرره إشارة إلى شدة لزومه بالكفر بالقرآن لا ينفك عنه بحال ومبالغة فى التحذير ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى قد ساروا وشاهدوا فالهم لا يعتبرون ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أهلك واستأصل ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ أى لهم ﴿ أَمْثَالُهَا ﴾ أمثال تلك العاقبة جمعت للدلالة على أن لكل من هؤلاء أمثال عاقبة أولئك لغلظ جنايتهم لأن الكفر بمحمد والقرآن ليس كالكفر بسائر الأنبياء والكتب ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ نصر المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ناصرهم على أعدائهم ﴿ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ يدفع العذاب عنهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ تقرير لتوليه ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ﴾ بمتاع الدنيا أياماً قلائل ﴿ وَيَأْكُلُونَ ﴾ غافلين عن العاقبة ﴿ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم ولا يلتفتون إلى الآخرة كالأنعام فى معالفها ومسارحها تأكل غافلة عن النحر والذبح ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ منزل ومقام فى موضع الحال ﴿ وَكَأَيِّنْ ﴾ كم ﴿ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ أريد أهلها ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ ﴾ مكة : أى أهلها ﴿ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ بالتسبب روعى لفظ قرية ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ روعى معنى قرية الأولى لما كذبوا الرسل بأنواع العذاب التفت إلى النبى مسلياً بعد بيان ما للفريقين ، وقرأ ابن كثير : وكائن على وزن فاعل ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ يدفع عنهم العذاب وهو كالحال المحكية كأنه قيل فهم لا ينصرون ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ﴾ حجة وبرهان ﴿ مِنْ رَبِّهِ ﴾ وهو الرسول والبينة القرآن أو كل مؤمن والبينة عام فى القرآن والحجج العقلية ﴿ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ من الشرك والمعاصى وهم الكفار ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فى ذلك بلا شبهة فضلا عن حجة أى لا مماثلة بينهما ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ صفتها العجيبة الشأن ﴿ الَّتِي وُعِدَ ﴾ ها ﴿ الْمُتَّقُونَ ﴾ عن الشرك والمعاصى مبتدأ والخبر «كمن هو خالد» لأنه مرتب على الإنكار السابق فى أفمن كان والمعنى أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد لحذف ماحذف استغناء بجرى مثله ، وقوله ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ ﴾ داخل فى حكم الصلة كالتكرير لها وهو تفصيل الموعود ولذا لم يدخل العاطف أو حال مؤكدة أو هو الخبر وعليه فقوله «كمن هو خالد» خبر محذوف ﴿ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ بالمد للجمهور والقصر لابن كثير أى غير متغير بخلاف ماء الدنيا فيتغير لعارض يقال أسن الماء إذا تغير طعمه وريحه ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ بحموضة أو غيرها أى لم يصر قارصاً ولا حازراً بخلاف لبن الدنيا لخروجه من الضروع يتغير إلى ما ذكر ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ ﴾ لذيذة مؤنث لذّ أو مصدر وُصف به بتقدير ذات لذة ﴿ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أى لأجل لذة الشاربين أى ما هى إلا للتلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل ولا صداع ولا غول ولا آفة من آفات خمر الدنيا ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ من كل وسخ لأنه خلق كذلك لم يخالطه شمع ولا روائح نور كعسل الدنيا ، وهذا تمثيل

للأشربة وكذا أطعمتها مجردة عما ينقصها وينغصها موصوفة بما يوجب غزارتها كالأشربة ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا ﴾ أصناف ﴿ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ على هذا القياس ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ عطف على المبتدأ المقدر أو مبتدأ خبره محذوف أى لهم مغفرة وهى أجلّ من تلك النعم إذ لا يوازن رضى الله بشىء ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ ﴾ تقدم الكلام فى إعرابه وعلى جعله خبر محذوف فالتقدير : أمن هو فى هذا النعيم كمن هو خالد فى النار ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا ﴾ بالغاً فى الحرارة يشوى الوجوه مكان تلك الأشربة ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ مصارينهم تخرجت من أدبارهم جمع مِعًى بالقصر وألفه مبدلة من ياء لقولهم مِعَيان ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ من الكفار ﴿ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ فى مجلسك فى الخطبة والتذكير وهم المنافقون ﴿ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أى لعلماء الصحابة منهم ابن مسعود استهزاء وسخرية وإيذاناً بعدم الاكتراث بما تقول ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ بالمد للجمهور والقصر للبزى لغتان أى الساعة أو مبتدئا منصوب على الظرف أو الحال من الضمير فى «قال» . وفى الجواهر : آنفاً معناه مبتدياً كأنه قال : ما القول الذى ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه والمفسرون يقولون آنفاً معناه الساعة الماضية وهذا تفسير بالمعنى . اه . قال أبو حيان : آنفاً بالمد والقصر اسم فاعل والمستعمل من فعله ائتنفت ومعنى آنفاً مبتدئاً فهو منصوب على الحال وأعربه الزمخشرى ظرفاً أى الساعة ولا أعلم أحداً من النحاة عده من الظروف . اه . قلت : يؤيد قول الزمخشرى ما فى القاموس قال : آنفاً كصاحب وكتف وقرئ بهما أى مُذْ ساعة أى أول وقت يقرب منا . اه ، والله أعلم ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ فلا يمكنهم إدراك مقالتك ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ولذلك هاوَنُوا كلامك ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا ﴾ إلى الإيمان وإدراك المعارف والحكم ﴿ زَادَهُمْ ﴾ الله أو قول الرسول ﴿ هُدًى ﴾ بالتوفيق والإلهام والإيمان بما يتجدد من الوحى والأحكام ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ الخاص بهم وهو ربط السر على الله فكما أن المعاصى تؤدى إلى الطبع والرين فكذلك الطاعات تؤدى إلى الفناء عن غير الله أو جزاء تقواهم أو ألهمهم ما يتقون به النار ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ أى ما ينتظر الكفار ﴿ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ ﴾ بدل اشتمال من الساعة أى إلا إتيانها ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ جمع شرَط بفتح الراء بمعنى العلامة تعليل للانتظار كأنه قال لأن أشراطها قد جاءت ولا بد من مجىء الساعة بعدها ومنها بعث النبى صلى الله عليه وسلم لأنه قال «بعثت أنا والساعة كهاتين» مشيراً إلى أصبعيه الوسطى والتى تليها ومنها انشقاق القمر وكثرة الفتوح للمسلمين وكثرة السبايا وقطع الأرحام وقلة الكرام وكثرة اللئام ، والمعنى ينبغى الخوف منها والاستعداد لها قبل وقوعها ثم عجب من نفع التذكر بعد وقوعها بقوله ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ تذكرهم أى لا ينفعهم توبيخ على ترك التشمير لها قبل فوات الوقت ، ولما بيّن حال الفريقين أمر نبيه بالثبات على ما يوجب السعادة بقوله ﴿ فَاعْلَمْ ﴾ أى دم على العلم ﴿ أَنَّهُ ﴾ أى الشأن ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ لأجله أى إذا علمت ما مر فدُمْ على موجبات السعادة من

التوحيد وتكميل النفس بإصلاح أحوالها وأفعالها وهضمها بالاستغفار لذنبك وإن كنت معصوما ليستن بك أمتك وقد نقله عليه السلام قال « إني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة » ﴿وَ﴾ استغفر ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بالدعاء لهم والتحريض على ما يستدعى المغفرة لهم ، وفى إعادة الجار دلالة على أن ذنوبهم نوع آخر إذ لا يجوز فى حقه إلا ترك الأولى نادراً وفيه إكرام لهم بأمر نبيهم بالاستغفار لهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ بالنهار فى حوائجكم ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ مأواكم بالليل إلى مضاجعكم بمعنى عالم بجميع أحوالكم فاحذروه وراقبوه فى كلها ، أو متقلبكم فى الدنيا فإنها مراحل لا بد من قطعها ، ومثواكم فى العقبى فإنها دار الثواء فاتقوا الله واستغفروه وأعدوا لمعادكم أو متقلبكم فى أعمالكم ومثواكم فى الجنة فأخلصوا له العمل ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قبل الإذن فى القتال حين كانوا مأمورين بالصبر ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ فى أمر الجهاد ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ مبينة لا تشابه فيها ولا نسخ ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ الأمر به ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك وهم المنافقون ، أو ضعف فى الدين ﴿يَنْظُرُونَ﴾ يشخصون أبصارهم ﴿إِلَيْكَ﴾ جبنا وجزعا ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أى لخوفه وكراهيته فهم يخافون من القتال ويكرهونه ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ وعيد أى فويل لهم أفعل من الولى وهو القرب أو فعلى من آل ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم الهلاك أى أهلكهم الله إهلاكا أقرب من كل شىء أو أن يؤول إليه أمرهم وعلى هذا فقوله ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ استئناف أى أمرهم طاعة ، أو طاعة وقول معروف خير لهم ويحتمل رفع أولى بالابتداء وطاعة خبره . قال ابن عطية : وهذا هو المشهور من استعمال أولى وقيل غير هذا . اهـ . وفى الصحاح أولى تهديد ووعيد قال أبو حيان : والأكثر على أنه اسم مشتق من الولاء وهو القرب ، وقال الجرجانى : مأخوذ من الويل فقلب فوزنه أفلع . اهـ . قال فى الجواهر : المشهور من استعمال أولى أن تقول هذا أولى لك من هذا أى أحق وقد تستعمل العرب أولى لك فقط على جهة الاختصار . اهـ . ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أى جد ولزمهم الجهاد والعزم لصاحب الأمر وإسناده إلى الأمر مجاز وعامل الظرف محذوف أى تخلفوا وقيل ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ فيما زعموا من الإيمان أو الحرص على الجهاد ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ وجملة «لو» على الثانى جواب إذا ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أى يتوقع منكم فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب بضرب من التوبيخ ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن اتباع الرسول ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالعود إلى أمر الجاهلية من التغاور والتقاتل والتناهب ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ بمقاتلة بعض الأقارب بعضا وأن تفسدوا خبر عسى والشرط اعتراض أو المعنى إن توليتم أمور الناس وتأمرتم أن تفسدوا بالتشاجر على الولاية والتجاذب لها رد لقول المنافقين كيف نقاتل العرب وهم من جيرتنا أى لو فوض الأمر إليكم بلا منازع لا يتوقع منكم إلا الإفساد فى الأرض وقطع الرحم ثم كشف عن حالهم بما لا مزيد عليه بقوله ﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون هم ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ طردهم عن مظان رحمته ومهاب نسيم لطفه لإفسادهم وقطعهم أرحامهم

﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ عن طريق الهداية فلايبصرون الآيات المبثوثة فى الآفاق والأنفس فهذا التعرير يرشدك أن الكلام فى شأن الكاملين فى النفاق لافى ضعفاء المؤمنين لما فيه من الغضب الشديد على أن الالتفات لايقع موقعه إلا إذا كان الكلام مع المنافقين ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ ألفاظه الرائقة ومعانيه المونقة التى لو أنزلت على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله فيعرفون الحق حتى لايجسروا على ماهم عليه ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل والهمزة للتقرير ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ لهم ﴿أَقْفَالُهَا﴾ لايصل إليها ذكر وتنكيرها للتهويل وتفظيع شأنها بالقسوة كأنه لايمكن تعريفها ولايقادر قدرقسوتها أولأنها قلوب متميزة عن سائر القلوب وأضيفت الأقفال إليها إشعارا باختصاصها بها ولزومها لا يمكن رفعها أبدا ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ إلى ما كانوا عليه من الكفر وهم المنافقون ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ بالدلائل الواضحة والمعجزات الظاهرة ولم تبق لهم شبهة ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ زين ذلك وسهله لهم من سَوِل كفرح استرخى ﴿وَأَمْلَىٰ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور والمفعول لأبى عمرو أى مد ﴿لَهُمْ﴾ الشيطان فى الآمال بطول العمر ونيل الأمانى قال ابن عباس الآية نزلت فى بعض المنافقين كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم وفى الجواهر : والآية تعم كل من دخل فى ضمن لفظها غابر الدهر ، وسول معناه رجَّاهم سُؤْلَـهُمْ وأمانيهم ، ونقل أبو الفتح أنه بمعنى دلاَّهم من السُّوَل وهو الاسترخاء والتدلى وقال القرافى سَوَّلَ أى زين . اهـ . وقيل نزلت الآية فى اليهود كفروا بعدما تبين لهم نعت النبى فى كتابهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى إضلالهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وهم اليهود أو المشركون ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أى أمر المعاونة على عداوة النبى صلى الله عليه وسلم وتثبيط المؤمنين عن الجهاد معه قالوا ذلك سرًّا فأظهره الله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ﴾ بفتح الهمزة للجمهور جمع سِرّ وبكسرها لحمزة والكسائى وحفص مصدر ومن ذلك قولهم هذا ﴿فَكَيْفَ﴾ حالهم ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾ حال من الملائكة ﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أى كيف يعملون ويحتالون حينئذ والعرب تكتفى بكيف عن ذكر الفعل معها لكثرة دورها وهذا تصوير لتوفيتهم بما يخافون منه ويجبنون عن القتال له ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفى على الحال المذكور ﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ من الكفر وكتمان نعت الرسول وعصيان الأمر ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ العمل بما يرضيه ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ بذلك أى أسقطها عن درجة الاعتبار ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ يظهر أحقادهم على النبىّ والمؤمنين لهم أى بل أكان حسبانهم ذلك ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ لعرفناكهم بدلائل تعرفهم بها بأعيانهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ علامتهم التى أعلمناك واللام لام الجواب كررت فى المعطوفات ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ الواو لقسم محذوف وما بعدها جوابه ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ معناه إذا تكلموا عندك فى فلتات اللسان بتهجين أمر المسلمين وأصل اللحن إمالة الكلام من ظاهر إلى نحو من الأنحاء كما فى قول القائل :

وَلَقَدْ لَحَنْتُ لَكُمْ لِكَيْمَا تفهموا ﴿ واللحنُ يعرفهُ ذَوو الألبابِ

ومنه اللحن فى الإعراب لأنه عدول عن الصواب ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ خيرها وشرها ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأوامر والنواهى الدالة على التكاليف الشاقة كالجهاد ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ علم ظهور ﴿ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ فى الجهاد وغيره ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ من طاعتكم وعصيانكم فى الجهاد وغيره وقرأ أبو بكر فى الأفعال الثلاثة بالياء ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ ﴾ خالفوه ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ وهو معنى سبيل الله ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ لاينقص ذلك من ملكه شيئاً أو رسول الله فى نصره ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ من صدقة ونحوها فلا يرون لها فى الآخرة ثوابا نزلت فى المطعمين من أصحاب بدر أو فى قريظة والنضير ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ بالنفاق كما أبطلها هؤلاء أو بالرياء والمن والأذى والعجب بمعنى لا تفعلوا فيها ما يمنع الثواب عليها فعبر عنه بالإحباط مبالغة فى التحذير فلا دليل فيه لمن يقول إن الكبيرة تحبط العمل وشمل « لا تبطلوا أعمالكم » من افتتح نافلة من صلاة أو صوم لايجوز له تركها وإبطالها عند مالك وأبى حنيفة خلافاً للشافعى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ نزلت فى أصحاب القليب لكنها عامة فى كل من تناولته الصفة ومفهومه أنه قد يغفر لمن لم يمت على كفر سائر ذنوبه ﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ لا تضعفوا ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾ بفتح السين للجمهور وكسرها لأبى بكر وحمزة: الصلح وترك القتال خوراً وتذللا ﴿ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ والحال أنكم الغالبون فى الوقائع والحروب ويحتمل أنه إخبار بمغيب أبرزه إلى الوجود بعد ذلك ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ بالنصر والإعانة فلا وجه للوهن ﴿ وَلَنْ يَتِرَكُمْ ﴾ لن ينقصكم ﴿ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى ثوابها لأجل نصركم على الكفار بالقتل وإحراز الغنائم دفع لما يتوهم أن النصر إذا كان لا يكون لهم الأجر، يقال وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا قريباً كالولد والأخ فإنه أفردته عن قريب فشبه به الإفراد عن العمل فى عظم المصيبة ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » ولابد من تضمين معنى السلب ليتعدى إلى المفعول الثانى ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ الاشتغال فيها ﴿ لَعِبٌ ﴾ هو مايجلب السرور ﴿ وَلَهْوٌ ﴾ هو مايدفع الغموم والهموم أى تنقطع فى أسرع مدة مثلهما ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا ﴾ تدوموا على الإيمان ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ مخالفة أمره ونهيه ﴿ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ كاملة لأن ذلك من أمور الآخرة ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ جميعاً بل الزكاة المفروضة فيها من العُشر أو رُبعه عطف على الجزاء وفيه مقابلة حسنة بين إعطاء الأجور كلها وأخذ بعض المال ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ يجهدكم فى طلبها كلها والإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية فى كل شىء يقال: أحفاه فى المسألة إذا لم يترك له شيئاً من الإلحاح وأحفى شاربه استأصله ﴿تَبْخَلُوا﴾ بإعطاء جميع المال ﴿وَيُخْرِجْ﴾ البخل أو الله ﴿ أَضْغَانَكُمْ ﴾ لرسوله ودينه المذهب لأموالكم لأنه سبب الأضغان عند الامتناع وعند السؤال ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ ﴾ الموصوفون أى هذا شأنكم أيها المخاطبون ﴿ تُدْعَوْنَ ﴾ استئناف كأنهم قالوا

ما وصفنا؟ فقال تدعون، ويجوز أن يكون «هؤلاء» موصولا بمعنى الذين و«تدعون» صلته ﴿ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الجهاد وفى الفقراء يعمّ نفقة الغزو والزكاة وغيرهما ﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ﴾ بهذا القدر اليسير من الأموال دليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم بالأولى ﴿ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ إذ ضرره لا يتعداها والبخل لتضمنه المنع والتضييق يعدى بعن نظراً إلى التأويل الأول وبعلى نظراً إلى الثانى ثم قرر ذلك بقوله ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴾ دواماً ﴿ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ إليه دواماً، ومنه قول القائل:

فَالْفَقْرُ وَصْفٌ لِذَاتِي دَائِمٌ أَبَدًا ... كَمَا الْغِنَى أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي

فما يأمركم به فهو لاحتياجكم فإن امتثلتم فلكم وإن توليتم فعليكم ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا ﴾ عن طاعته عطف على «وإن تؤمنوا» ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يجعلهم بدلكم مكانكم ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ فى التولى بل أمثل منكم مطيعين له، وهم الفرس كما فى الحديث، أو الأنصار، أو أهل اليمن.

[تم تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم]

سورة الفتح

مدنية ـ وهى تسع وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ وعد بفتح مكة والتعبير عنه بالماضى لتحققه أو بما اتفق له فى تلك السنة وهى سنة الحديبية سنة ست كفتح خيبر وذلك بعد أو إخبار عن صلح الحديبية وسماه فتحاً لأنه سبب لفتوح كثيرة دخل فى الإسلام بسببه ما لا يحصى من العرب لاجتماع المؤمن والكافر حتى سمعوا القرآن وانتشر العلم والإيمان حتى تسبب لفتح مكة وسمى الظفر ببلاد الكفر فتحاً لأنها منغلقة عن المسلمين ما لم يظفر بها فإذا ظفر بها فقد فتحت، وقيل الفتح هنا بمعنى القضاء أى قضينا لك أن تدخل مكة من قابل لطواف العمرة آمناً ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ﴾ الذى يصح أن تعاقب عليه وهو خلاف الأولى بك ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ بسبب جهادك حتى نلت الفتح ترغيباً لأمتك فى

الجهاد ، واللام للعلة الغائية فدخولها مسبب لا سبب فالغفران مسبب عن جهاد الكفار وإعلاء الدين وتخليص الضعفاء من أيدى الظلمة ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ ﴾ بالإسلام ﴿ عَلَيْكَ ﴾ بإعلاء دينك وفتح البلاد على يديك ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ لا عوج فيه فى تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرياسة ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ قوياً منيعاً لا ذل بعده ﴿ هُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ الطمأنينة والثبات ﴿ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بعد القلق والاضطراب فى بعضهم بسبب الصلح لأنهم لما اصطلحوا أمرهم النبى صلى الله عليه وسلم بنحر الهدى فلم يتحرك أحد منهم حتى قام ونحر هداياه وحلق رأسه فاتبعوه فى ذلك وعلموا أنه الحق ونزل عليهم السكينة ، وقيل معناه أنزل السكون فى قلوبهم إلى ما جاء به من الشرائع ﴿ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَٰنًا ﴾ يقيناً بأن هذا الصلح بما أمر الله به نبيه لمصالح ﴿ مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ الراسخ بالتوحيد وأمور الآخرة وجميع مايجب إيمانه ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يدبر أمرهما على ماتقتضيه حكمته فلو أراد إهلاك أعدائه فى طرفة عين لفعل ولكن أجرى الامور على وفق حكمته ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ كامل العلم ﴿ حَكِيمًا ﴾ فى كل مادبر فاتبعوا أمره ودعوا آراءكم ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ ﴾ واللام متعلق بمحذوف أى دبر مادبر ليدخل أو بدل اشتمال من ليزدادوا ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ ﴾ الإدخال والتكفير ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ حال من المستكن فى ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ إذ هو غاية الغايات ﴿ وَيُعَذِّبَ ﴾ عطف على «يدخل» إلا إذا جعل بدلا فيكون عطفاً على المبدل منه ﴿ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ وتقديم المنافقين على المشركين لأن عز الإسلام كان أغيظ لهم ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ بفتح السين للجمهور وضمها لابن كثير وأبى عمرو فى المواضع الثلاثة أى ظن الأمر السوء وهو أن لاينصر رسوله والمؤمنين عليهم وأن لا يعلم كثيرا مما يعملون ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ الهلاك فى الدنيا أى ما يتربصونه بالمؤمنين دائر عليهم والدائرة ما أحاط بالشىء من جميع جهاته غلبت فى الشر كغلبة الدولة فى الخير فالإضافة للبيان كشمس النهار ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أراد الانتقام منهم ﴿ وَلَعَنَهُمْ ﴾ طردهم عن رحمته إذ الغضبُ ربما لا يؤدى إلى الطرد ثم أشار إلى مالهم فى الآخرة بقوله ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ﴾ ولم يعطف الأخيرين بالفاء مع أن كل واحد مسبب عن سابقه إشارة إلى استقلال الكل بالوعيد ﴿ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ مرجعا ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فلو شاء لانتقم منهم ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا ﴾ غالبا ﴿ حَكِيمًا ﴾ فى تأخير العذاب لما فيه من المصالح ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا ﴾ على أمتك يوم القيامة حال مقدرة ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ لهم فى الدنيا بالجنة على الطاعة ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ بالنار على المعصية ﴿ لِّتُؤْمِنُوا ﴾ بالتاء للجمهور خطاباً للأمة والياء لابن كثير وأبى عمرو فيه وفى الأفعال الثلاثة بعده ﴿ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أى تنصروا دينه ورسوله ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ تعظموه ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ بالغداة والعشى لأنها أشرف الاوقات أو بمعنى دائما والضمائر كلها لله ومن فرقها بجعل الأولين للنبىّ فقد أبعد لأنه يوجب التنافر النافى للفصاحة وتسبحوه من

التسبيح وعن ابن عباس يريد صلاة الصبح والظهر والعصر : من السبحة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ بيعة الرضوان بالحديبية وغيرها والمضارع لتصوير الماضى بصورة الحال ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ لأنه المقصود بالبيعة والرسول واسطة بينهم وبينه ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ التى بايعوا بها النبى صلى الله عليه وسلم حال أو استئناف مؤكد أى هو تعالى مطلع على مبايعتهم فيجازيهم عليها وسبب تلك البيعة أنه عليه السلام لما أرسل عثمان إلى قريش وهو بالحديبية ليخبرهم أنه إنما جاء زائرا للبيت لا يريد حربا وأرجف أنهم قتلوه دعا عليه السلام جميع من معه فبايعوه على الموت على قول سلمة بن الأكوع أو على ألا يفروا على قول جابر وهم ألف وثلثمائة أو أربعمائة وقال كلكم فى الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر قال جابر فابتدرنا إليه فقلنا له تعال بايع رسول الله فأبى ولما بايع الحاضرون رفع عليه السلام يده وقال هذه يد عثمان ووضعها على الأخرى ﴿ فَمَنْ نَكَثَ ﴾ البيعة ﴿ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ إذ لا يعود ضرره إلا إليه قال جابر لم ينكث أحد منا ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَنُؤْتِيهِ ﴾ بالنون لنافع وابن كثير وابن عامر والياء للباقين ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ لا يحاط به وهو الجنة ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ﴾ إذا رجعت من الحديبية ﴿ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ عن المسير معك ﴿ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ حول المدينة من بنى لحيان وغطفان والديل ، قيل ومن غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع لأنه عليه السلام حين أراد المسير عام الحديبية وتقدم فى سورة براءة أن ذلك فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة استنفر من حول المدينة من الأعراب ليخرجوا معه خوفاً من تعرض قريش له فتخلفوا واعتلوا بالشغل بأموالهم وأهليهم وقالوا فيما بينهم لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذه السفرة ففضحهم الله وأعلم نبيه بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم فلما وصل جاءوا إليه وقالوا ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ لم نجد من يقوم مقامنا فى إشغال ذلك ﴿ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ من الله على التخلف وترك الخروج معك قالوه نفاقاً فأكذبهم الله بقوله ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾ من طلب الاستغفار ومما قبله ﴿ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ فهم كاذبون فى الاعتذار والاستغفار ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ من يمنعكم من مشيئته وقضائه ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا ﴾ بفتح الضاد للجمهور وضمها لحمزة والكسائى لغتان : أى ما يضركم كقتل وخلل فى الأهل والمال وعقوبة على التخلف ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ ما يضاد ذلك وهو تعريض بالرد ولذا ترقى إلى التهديد بقوله ﴿ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أى بما كتمتم فى أنفسكم ثم كشف الغطاء عنه بقوله ﴿ بَلْ ﴾ فى الموضعين للانتقال من غرض إلى آخر ﴿ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ لظنكم أن المشركين يستأصلونهم ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ زينه الشيطان ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ من علو الكفر وظهور الفساد بسبب خذلان الإسلام ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ هالكين عند الله بهذا الظن وغيره جمع بائر أو مصدر وصف به مبالغة ﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى لهم ﴿ سَعِيرًا ﴾ ناراً شديدة وضع الظاهر موضع المضمر إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر وأنه

مستوجب للسعير بكفره وتنكير سعيراً للتهويل أو لأنها نار مخصوصة كنار تلظى ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يدبره كيف يشاء ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ إذ لا وجوب عليه وفيه ترغيب من نافق وتخلف فى التوبة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ لم يزل متصفاً بذلك فالغفران والرحمة من دأبه والتعذيب داخل تحت قضائه بالعرض ولذا جاء فى الحديث الإلهى « سبقت رحمتى غضبى » ثم إن الله أمر نبيه بعد رجوعه من الحديبية أن يغزو خيبر ووعده بفتحها وأعلمه أن المخلفين سيطلبون الكون معه رغبة فى الغنيمة فكان كذلك كما قال ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ المذكورون ﴿ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ أى مغانم خيبر إشارة إلى سهولة حصولها لوعد الله نبيه بذلك عوض ما فاتهم من غنائم قريش لخرج عليه السلام إليها فى المحرم سنة سبع ففتحها وغنم أموالا كثيرة لخصها بهم إلا أنه عليه السلام أعطى منها جعفر بن أبى طالب ومن قدم معه من الحبشة ووجدوا على رسول الله ثمة ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ لنأخذ منها ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ بذلك ﴿ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ولحمزة والكسائى «كلم الله» جمع كلمة أى مواعيده بغنائم خيبر لأهل الحديبية خاصة ﴿ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا ﴾ نفى فى معنى النهى ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل عودنا ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أن نشارككم فى الغنائم فقلتم ذلك ولم يأمركم الله به يكذبون بذلك كلام الله كما هو دأبهم ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ﴾ من كلام الله ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ منه أو لا يفهمون إلا فهماً قليلا مما كان فى أمور الدنيا فالإضراب الأول ردٌّ منهم أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد ، والثانى ردٌّ من الله لذلك وإثبات لجهلهم بأمور الدين ولذا نسبوا الحسد إلى من طلق الدنيا وزهرتها وما زاغ بصره إلى شىء دون جناب القدس وما طغى ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ كرر هذا الاسم لبشاعته تنفيراً للسامعين ﴿ سَتُدْعَوْنَ ﴾ اختباراً ﴿ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ هم هوازن وثقيف قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح أو بنو حنيفة أصحاب اليمامة قوم مسيلمة دعا إلى قتالهم أبو بكر فى خلافته فقاتلهم خالد بن الوليد ، وقيل فارس والروم وردّ بأن العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف وفارس والروم تقبل منهم الجزية ، وقد قال تعالى فى هؤلاء ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ ﴾ حال مقدرة هى المدعو إليها فى المعنى ﴿ أَوْ ﴾ هم ﴿ يُسْلِمُونَ ﴾ فلا يقاتلون ، ومن قال هم فارس والروم فسره بينقادون وهو صادق للإسلام أو الجزية . والله أعلم ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا ﴾ إلى قتالهم ﴿ يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ غنيمة فى الدنيا والجنة فى الآخرة ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ عن الحديبية ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ لتضاعف جرمكم . ولما أوعد على التخلف نفى الحرج عن المعذورين استثناء لهم عن الوعيد فقال ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ فى التخلف عن الجهاد وإن وجد المركب ﴿ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾ إذا لم يجد مركباً ﴿ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ فى ترك الجهاد ، ومع ارتفاع الحرج فجائز لهم الغزو وأجرهم فيه مضاعف وقد غزا ابن أم مكتوم وكان يمسك الراية فى بعض حروب القادسية وقد خرج النسائى هذا المعنى وقد يشير إليه

قوله ﴿ وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى الجهاد وغيره أيا كان ﴿ نُدْخِلْهُ ﴾ بالنون لنافع وابن عامر والياء للباقين ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ فصل الوعد وأجمل الوعيد مبالغة فى الوعد ثم ختم ذلك بالتكرير على سبيل التعميم فقال ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ نُعَذِّبْهُ ﴾ بالقراءتين ﴿ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ وإنما كرره لأن الترهيب هاهنا أنفع من الترغيب. والله أعلم بأسرار كتابه ﴿ لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾ بالحديبية ﴿ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ وهى سمرة أو سدرة وتقدم عددهم وقد خرجوا إلى مكة فى العام القابل ففتشوا عن الشجرة فلم يتفق اثنان عليها وكان ذلك حكمة من الله لئلا يضل بها أقوام ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدق والإخلاص والوفاء ﴿ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ الطمأنينة بالتشجيع أو السكون والأمن بالصلح ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أو الطمأنينة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عهد قريش برد من جاءه مسلماً إليهم حتى قال له عمر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال بلى، قال فلم نعطى الدنية فى ديننا، قال أنا رسول الله ولن يضيعنى الله فسكن قلبه ﴿ وَأَثَابَهُمْ ﴾ جازاهم ﴿ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ هو فتح خيبر بعد رجوعه إلى المدينة ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ من خيبر إذ كانت أرضاً ذات عقار ونخيل وزروع كثيرة نقسمها الرسول بينهم ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ فيما يحكم به لا يعارض لأنه يراعى مقتضى الحكمة لجازاكم بها حين علم إخلاصكم وحاجتكم ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ من الفتوحات زمن النبى إلى قيام الساعة وذكر الأخذ فى الموضعين للدلالة على سهولة الحصول ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ ﴾ غنيمة خيبر ﴿ وَكَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ فى عيالكم لما خرجتم وهمت بهم اليهود فقذف الله فى قلوبهم الرعب أو أيدى أهل خيبر وحلفائهم بنى أسد وغطفان أو أيدى قريش بالصلح لتشكروا على ذلك ﴿وَلِتَكُونَ﴾ الغنيمة المعجلة أو هذه الكفة عطف على علة مقدرة كاقدرنا ﴿آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فى صدق وعد الرسول لهم غنائم خيبر وفى نصرهم وبأنهم من الله بمكان أو عنوانا على فتح مكة ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ هو الثقة بفضل الله والتوكل عليه إذ وجدتم وعده صادقاً ﴿وَ﴾ مغانم ﴿أُخْرَى﴾ مبتدأ ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ بعدُ صفة لأخرى والخبر ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ استولى عليها وعلم أنها ستكون لكم وهى غنائم هوازن والروم وفارس ومابعد ذلك إلى قيام الساعة، ويحتمل نصب «أخرى» بفعل يفسره «أحاط» أى وقضى الله لكم أخرى قد أحاط بها وأما عطفه على قوله «هذه» فتكون من الغنيمة المعجلة ويراد بها غنائم هوازن ومابعدها ففيه بُعدٌ لكونها بعد فتح مكة وجعلها فتح مكة أبعد إذ لم يكن فيها غنيمة. والله أعلم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيراً﴾ أى لم يزل متصفاً بذلك ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالحديبية ولم يصالحوكم ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ﴾ لانهزموا ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً ﴾ يحرسهم ﴿وَلَا نَصِيراً﴾ بنصرهم ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة من هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين أى سن الله ذلك سنة ﴿ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ فى الأمم الماضية ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ تغييراً وقد قال « لأغلبن أنا ورسلى » ﴿ وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ بالحديبية لأنها

منسوبة إلى مكة فكفها بالصلح ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ أظهركم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لأن ثمانين منهم أو أربعين نزلوا من جبل التنعيم يوم الحديبية يريدون غرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذهم المسلمون وأتوابهم رسول الله فمن عليهم وأطلقهم فكان سبب الصلح . والقول بأن رسول الله بعث خالد بن الوليد إلى الثمانين فهزمهم فيه أن خالدا لم يكن أسلم يوم الحديبية بل كان طليعة للمشركين كما في البخارى وقيل كان هذا الكف والفتح يوم فتح مكة وهو ضعيف لأن السورة نزلت قبله ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالخطاب للجمهور والغيبة لأبى عمرو ﴿بَصِيراً﴾ لايخفى عليه ما تعملون من طاعة الرسول والجهاد ومحاسن الأخلاق وما يعملون من الكفر والصد فيجازى الكل ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عن الوصول إليه ﴿وَ﴾ صد ﴿الْهَدْيَ﴾ ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام وكان معه عليه السلام سبعون هديا وهو معطوف على كم ﴿مَعْكُوفاً﴾ محبوسا حال ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ عن بلوغه مكانه الذى يحل فيه نحره والمراد مكانه المعهود وهو منى وأما فى الحصار فيحل ذبحه فى محل الحصر عند غير الحنفية كما تقدم فى البقرة فنحره عليه السلام بالحديبية حيث حصر برد عليهم ، والله أعلم . ثم أشار إلى علة صرف المؤمنين عن مكة فى ذلك الوقت بقوله ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ موجودون بمكة مع الكفار ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تعرفوا أعيانهم بصفة الإيمان لاختلاطهم بالمشركين ﴿أَنْ تَطَئُوهُمْ﴾ تهلكوهم بالقتل مع الكفار لو أذن لكم فى الفتح بدل اشتمال من هم أو من رجال ونساء ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ﴾ إثم أو مشقة وكراهة كوجوب الدية بقتلهم والتأسف عليهم وتعيير الكفار بذلك والإثم بالتقصير فى البحث عنهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بأن تطئوهم على أنه حال من ضمير المخاطبين أى غير عالمين بهم ولا تكرار لأن عدم العلم فى الأول بالإيمان وفى الثانى بالإهلاك وجواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه أى لأذن لكم فى الفتح أو لما كف أيديكم عنهم وفى حذفه إشارة إلى شدة غضب الله أى لولا حق المؤمنين ومكانهم عند الله لوقع بمن صدكم عن بيته مالا يدخل تحت الوصف ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ﴾ علة لما دل عليه كف الأيدى أى كان ذلك الكف ليدخل الله ﴿فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ بأن يسلم المؤمنون من القتل ويدخل فى الإسلام من وفقه من المشركين ومن يلدونه ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ تميزوا عن الكفار ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ من أهل مكة حينئذ بأن يأذن لكم فى فتحها ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ مؤلما ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ متعلق بعذبنا أو صدوكم أى اعتقدوا ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة والتعصب ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ التعصب الباطل المانع من اتباع الحق ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ حين رأى بروك ناقته فقال أصحابه خلأت القصواء فقال والله ماخلأت وليس ذلك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل والله لا يسألنى قريش خطة يعظمون بها حرمات الله إلا أجبتهم فجاءوا للصلح على أن يرجع من عامه ويعود هو وأصحابه من قابل فتخلو له قريش عن البيت ثلاثة أيام وعلى وضع القتال سنتين أو أكثر على مامر فقال لعلى ابن أبى طالب اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ماصالح عليه رسول الله

أهل مكة فقالوا ما نعرف الرحمن اكتب باسمك اللهم ولوكنا نعرف أنك رسول الله ما صددناك عن البيت اكتب محمدبن عبدالله فقال لعلى امح رسول الله واكتب ماير يدون فقال والله لاأمحوه أبدا وهم المؤمنون أن يأبوا الصلح فأنزل الله السكينة عليهم فتحملوا فمحا رسول الله ذلك وكتب محمد بن عبدالله ولم يلحقه هو وأصحابه من الحمية ما لحق الكفار ﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾ أى المؤمنين ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ لا إله إلا الله محمد رسول الله وقيل بسم الله الرحمن الرحيم اختارها لهم وإن أباها المشركون وأضيفت إلى التقوى لأنها سببها وقيل الوفاء بالعهد ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ بالكلمة من الكفار ﴿وَأَهْلَهَا﴾ عطف تفسير ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ ومنه استحقاقهم لها ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ رأى صلى الله عليه وسلم فى النوم عام الحديبية قبل خروجه أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين يحلقون ويقصرون فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا فلما خرجوا معه وصدهم الكفار بالحديبية ورجعوا وشق عليهم ذلك وارتاب المنافقون نزلت، وقوله «بالحق» متعلق بصدق أو حال من الرؤيا وما بعده تفسير لها وهو ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ للتبرك وتعليم العباد الأدب فى العزم على المترقب ﴿آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ جميع شعورها ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ حالان مُقدرتان أى كما رآه رسول الله من غير تبديل ولاخلاف أن حلق الرأس فى الحج نسك مندوب إليه وفى غير الحج جائزلامثلة كما قال ابن عبد البر: أجمع العلماء على حسن تقصير الشعر وعلى إباحة حلقه قال القرطبى فى تفسيره وكفى بهذا حجة ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أبداً بعد ذلك حال مؤكدة أو استئناف ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من الحكمة فى تأخير ذلك إلى العام القابل ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ الدخول ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ هو فتح خيبر وتحققت الرؤيا فى العام القابل وقدم لكم هذا الفتح لتستروح إليه القلوب إلى أن يتيسر الموعود ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ ملتبسا به أو بسببه ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على جميع الأديان بنسخ ما كان حقا وإظهار فساد ما كان باطلا وتسليط المسلمين على أهل الأديان كلها وفيه تأكيد لما وعده من الفتح ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ على نبوة رسوله بالمعجزات وعلى أن ما وعده كائن بالفتوح ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ جملة من مبتدأ وخبر مبينة للمشهود به رادة على الكفار فى منع كتبه ويجوز أن يكون محمد خبر مبتدأ محذوف صرح باسمه العلم دفعا لتوهم غيره من لفظ الرسول أى ذلك الرسول الموصوف محمد ورسول الله عطف بيان منه ولا يكون تركيب أبلغ منه أو محمد مبتدأ ورسول الله نعت أو بيان وقوله ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ معطوف عليه وخبرهما ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ والذين معه هم جميع أصحابه عند الجمهور أو أهل الحديبية وهو جمع شديد أى يغلظون على من خالف دينهم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ خبر ثان للموصول على جعله مبتدأ أى متعاطفون متوادون بينهم كالوالد مع الولد وصف لهم بكمال الرجولية والحكمة حيث وضعوا كل شىء موضعه وفى الحديث «المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» وقال عليه السلام «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض

يرحمكم من فى السماء» وقال «لا تنزع الرحمة إلا من شقى» ومن التراحم أن تحب لكل مسلم ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك وتلقاه بوجه طلق مع بذل السلام وطيب الكلام وبذل المعروف وفى الآية إشارة إلى ماغلب من الصفات فى كل واحد من الخلفاء كالمعية مع النبى صلى الله عليه وسلم فى أبى بكر والشدة على الكفار فى عمر بن الخطاب وعلىّ بن أبى طالب والرحمة على المؤمنين فى عثمان بن عفان رضى الله عنهم وباقى الصفات الآتية غالبة فى جميع الصحابة والله أعلم ، وسيأتى إن شاء الله مثله فى مثالهم ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ فى غالب أوقاتهم أى مشتغلين بالصلاة ﴿يَبْتَغُونَ﴾ بأعمالهم ﴿فَضْلًا﴾ ثواباً ﴿مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ منه وهذا معاملتهم مع الله وما تقدم معاملتهم مع الناس ﴿سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم: مبتدأ ﴿فِي وُجُوهِهِمْ﴾ خبره وهى نور وبياض يعرفون به فى الآخرة أنهم سجدوا فى الدنيا ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ و«من» بيان أى التى هى أثر السجود ، وقيل هى السمة التى تحدث فى جباههم من كثرة السجود وهى تُملَى من ساهه أعله وهو متعلق بما تعلق به الخبر أى كائنة ، قال عليه السلام : الصلاة نور ، وقال شريك بن عبد الله : من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار ، وعن مجاهد : هو الخشوع والنور قد يُرَى فى وجه من هو أقسى قلباً من فرعون ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصف العجيب ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ عطف عليه أى ذلك مثلهم فى الكتابين ﴿كَزَرْعٍ﴾ أى هم كزرع تمثيل مستأنف أو تفسير أو خبر و «مثلهم» مبتدأ . قال فى الجواهر : وأبين التأويلات الأول وما عداه يفتقر إلى سند يقطع الشك ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ بسكون الطاء للجمهور وفتحها لابن كثير وابن عامر فى رواية ابن ذكوان : فراخه التى تنبت حول الأصل ﴿فَآزَرَهُ﴾ بالمد للجمهور والقصر لابن ذكوان قواه وأعانه ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ استحكم غاظلة بعد الرقة ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ قوى واستقام ﴿عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ قصبه جمع ساق ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أى زرّاعه لقوته وحسن منظره مثل الصحابة رضى الله عنهم بذلك لأنهم بدأوا فى قلة وضعف فكثروا وقووا على أحسن الوجوه . وحكى النقاش عن ابن عباس أنه قال : الزرع : النبى صلى الله عليه وسلم أشطأ بأبى بكر فآزره عمر فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلىّ رضى الله عنهم . قال فى الجواهر : وهذا لين الإسناد والمتن ، والله أعلم بصحته ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ تعليل بما دلّ عليه الكلام أى شبهوا بذلك ليكونوا شجى فى حلوق أعدائهم أو تعليل لقوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ من الصحابة ومن لبيان الجنس لا للتبعيض لأنهم كلهم بالصفة المذكورة ﴿مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنة وهما لمن بعدهم أيضاً فى آيات والكفار إذا سمعوا ما أعد الله لهم فى الآخرة بعد ما وعدهم به فى الدنيا غاظهم ذلك ، وهذه الآية شاملة لجميع الحروف فمن توجه إلى أمر وصلى ركعتين ثم قرأها مائة مرة فإنه يعان على ذلك الأمر بإذن الله قاله أحمد بن عبد القادر بن عقبة والله أعلم .

[تم تفسير سورة الفتح]

سورة الحجرات

مدنية – ثماني عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا ﴾ أمراً حذف المفعول لتذهب النفس كل مذهب أو جعل منسيا كيحيي ويميت لأن المقصود نفي التقديم رأساً أو بمعنى التقدم والأول أبلغ وأشهر أي لا تقدموا قولا ولا فعلا ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ المبلغ عنه مستعار مما بين الجهتين المسامتتين ليدى الإنسان تهجيناً لما نهوا عنه أو ذكر الله توطئة لأن الكلام مسوق لإجلال رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي ذلك من قوة الاختصاص والمكانة ما لا يخفى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في التقديم وجميع سوء الآداب ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأفعالكم والتقوى هي ملاك الأمر . قيل نزلت في مجادلة أبي بكر وعمر لما قدم وفد تميم فأسلموا فقال أبو بكر : أمر عليهم الأقرع بن حابس ، وقال عمر : القعقاع بن معبد أولى ، فقال له أبو بكر : ماأردت إلا خلافي . فقال : ماأردت خلافك . لكن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ على ما علم في الأصول . ونزل فيمن رفع صوته عند النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ﴾ كلامكم ﴿ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ كلامه وحرمة كلامه ميتاً كحرمته حيًا ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ فضلا عن رفع الصوت فوق صوته إذ من كان مقامه عند الله من القرب ما تقدم كان خفض الصوت والتخافت في الكلام بين يديه أدنى ما يجب له من الإجلال ولذلك أعاد النداء حثًا على الاستبصار وإيقاظاً عن سنة الغفلة . وفي البخاري : كاد الخيران أبو بكر وعمر أن يهلكا لرفعهما الأصوات عند رسول الله . وقال أبو بكر بعد الآية والله لا أكلمك بعد هذا إلا كأخي السرار وكان عمر إذا خاطبه لا يسمعه حتى يستفهمه ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ خشية أن تحبط بالرفع والجهر المذكورين لأن فيهما استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبط وذلك إذا انضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة . إذ روى أن ثابت بن قيس كان في أذنيه وقر وكان جهورياً فلما نزلت تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتفقده ودعاه فقال يارسول الله إني جهير الصوت أخاف أن يكون عملي قد حبط فقال عليه السلام « لست هناك إنك تعيش بخير وتموت بخير وإنك من أهل الجنة » وفي رواية « تعيش حميدا وتموت شهيدا » فاستشهد في اليمامة . ونزل فيمن كان يخفض صوته عند النبي بعد الآية كأبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أي يخفضونها

﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ﴾ اختبر ﴿قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ومرنها عليها أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها فإن الامتحان سبب العرفان واللام صلة محذوف، أوجزبها بأنواع المحن ليظهر تقواها أو أخلصها للتقوى من امتحن الذهب: أذابه وخلص إبريزه من خبثه ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هو الجنة والتنكير للتعظيم والجملة خبر ثان لإن أو استئناف لبيان ما هو جزاء الغاضين إحماداً لحالهم كما أخبر عنهم بجملة مؤلفة من معرفتين والمبتدأ اسم الإشارة المتضمن لما جعل عنواناً لهم والخبر الموصول بصلة دلت على بلوغهم أقصى الكمال مبالغة فى الاعتداد بغضهم والارتضاء لمن تأدب بهذه الآداب وسلك مع رسوله سبيل الإجلال وتعريضاً بشناعة الرفع والجهر ويكون مرتكبهما على خلاف ذلك، ونزل فى ناس من بنى تميم مقدمهم الأقرع بن حابس وهم سبعون جاءوا وقت الظهيرة والنبى صلى الله عليه وسلم فى منزله فنادوه باسمه يا محمد أخرج إلينا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ خلفها أو قدامها من خارجها الداخل فى حريمها أى حجرات نسائك جمع حجرة ما يحجر عليه من الأرض بحائط ونحوه كأن كل واحد منهم نادى وراء حجرة لأنهم لم يعلموه فى أيها أو لأنها لما كانت متصلة فالمنادى وراء إحداها مناد من وراء الكل ناداه الأقرع وعيينة بن حصن فأسند النداء إلى جميعهم لأنهم راضون بذلك ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فيما فعلوا بمحلك الرفيع وما يناسبه من التعظيم لكونهم من جفاة الأعراب ولفظ الأكثر بمعنى الكل أو فيهم من لم يرتض ذلك وفى لفظ الحجرات كناية عن موضع خلوته مع بعض نسائه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ أى لو ثبت صبرهم فأن فاعل فعل مقدر أو مبتدأ ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ بيان لغاية الصبر أن ينبغى أن يكون مُغَيًّا بخروجه وفى « إليهم » إشعار بأنه لوخرج لالأجلهم بل لأمر آخر لم يكن لهم أن يخاطبوه فضلا أن ينادوه حتى يفاتحهم بالكلام ويتوجه إليهم ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال بالنداء لكن الصبر مرٌّ لا يتجرعه إلا حرٌّ أى لكان خيراً لهم فى الإسعاف إذ وردوا شافعين فى أسارهم فأطلق لهم النصف وفادى النصف ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث اقتصر على النصح والتقريع لهؤلاء المسيئين الأدب التاركين تعظيم الرسول عليه السلام ولم يَضِقْ غفرانه ورحمته عنهم إن تابوا ترغيب لهم فى التوبة ولما شيد أركان إجلال الرسول بما لا مزيد عليه شرع فى بيان معاملة المؤمنين بعضهم مع بعض فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ أىّ فاسق ﴿بِنَبَإٍ﴾ أى نبأ فتنكيرهما للتعميم ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ صدقه من كذبه بالتوقف وطلب انكشاف حقيقة الأمر ولا تعتمدوا على قوله فإن من لا يتحامى جنس الفسق لا يتحامى عن الكذب الذى هو نوع منه ولا خلاف أن الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق مصدقاً وكان بينه وبينهم إحنة فى الجاهلية فلما سمعوا به استقبلوه بصدقاتهم فحسبهم مقاتليه فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة فهمّ بغزوهم فنزلت وجاءوا بعده منكرين ما قاله عنهم وقرأ حمزة والكسائى فتثبتوا من الثبات أى توقفوا حتى تبين لكم الحال

﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً﴾ مفعول له أى خشية أن تصيبوهم بمكروه وهم برآء من موجبه ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ حال من الفاعل أى جاهلين بحالهم ﴿فَتُصْبِحُوا﴾ تصيروا ﴿عَلَى مَا فَعَلْتُمْ﴾ من الخطإ بالقوم ﴿نَادِمِينَ﴾ مغتمين غما لازما وتركيب هذه الأحرف الثلاثة دائر مع الدوام ومنه النديم والدمنة والإدمان كدوران حروف الفسق على معنى الخروج كيفما ركبت قاله فى غاية الأمانى وفى الآية دليل على رد خبر الفاسق وقبول خبر العدل الواحد وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم بعد عودهم إلى بلادهم خالد بن الوليد فلم ير فيهم إلا الطاعة والخير فأخبر النبى بذلك ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فاتقوا الباطل: زجرٌ عن مثل مافعل الوليد ، وعن حث بعض المؤمنين رسول الله على تعجيل غزوهم أى فيكم من يأتيه الخبر من الله وأنتم تريدون أن يتبع آراءكم فى الحوادث ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ الذى تخبرون به على خلاف الواقع أو الأمر الذى تريدون فيه استتباع رأيكم ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ لوقعتم فى المشقة والإثم وهذا يدل على أن بعضهم أشار إلى غزو بنى المصطلق وتصديق الوليد وفى إيثار «لو» إشارة إلى أن ما بعده حقه أن يكون مفروضاً كالمستحيل وأيده بالمضارع تصويراً لاستهجان ما كانوا عليه من إرادة الاستمرار فيما حقه أن يكون مفروضاً وبالعنت الذى هو فى الأصل الكسر بعد الجبر إلى أشد المحذور مع الرمز إلى أنه ليس بأول بادرة منهم وتعميم الخطاب ليكون تعريضاً وهو أردع لمرتكبه وأزجر لغيره ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ﴾ الكبيرة ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ جميع ما أنكره الشرع استدراك ببيان عذرهم وهو أن فرط حبهم الإيمان وكراهتهم الكفر حملهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد ، أو بصفة من لم يفعل ذلك منهم إحماداً لفعالهم وتعريضاً بذم من فعل ويؤيده قوله ﴿أُولَئِكَ﴾ أى المستثنون ﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ المستقيمون على الحق بتصلب والتصلب الشدة من الرشادة وهى الصخرة ﴿فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ تعليل لكره أو حبب وما بينهما اعتراض أو مصدر لغير فعله وهو رشد المفهوم من الراشدين لأنه بمعناه إذ الرشد فضل من الله ونعمة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس ﴿حَكِيمٌ﴾ يتفضل وينعم على مقتضى حكمته ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ تقاتلوا والجمع باعتبار المعنى فإن كل طائفة جمع ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بالدعاء إلى حكم الله والنصح ثنى نظراً إلى اللفظ ﴿فَإِنْ بَغَتْ﴾ عدت ﴿إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ بالظلم وإباء الصلح ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ وفى هذا وجوب قتال الباغية لكن للعدل ﴿حَتَّى تَفِيءَ﴾ ترجع ﴿إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ المذكور فى كتابه من الصلح: أى إلى حكمه ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ إلى أمر الله ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ قيده بالعدل دون الأول لأن هذا مظنة الحيف لكونه بعد المقاتلة أو إشارة إلى أن الباغى بعد الفىء حكمه حكم العادل لاسيما إن كانت له شبهة ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ اعدلوا فى كل الأمور وفيه تأكيد للإصلاح بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ والآية نزلت فى الأوس والخزرج ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم حماراً يزور سعد بن عبادة فمر على مجلس فيه ابن أبى فأخذ بأنفه وقال لاتؤذينا بنتن حمارك ، فقال عبد الله بن رواحة: إن حماره أطيب ريحاً منك فوقع بين قومهما قتال فتضاربوا

بالأيدى والنعال والسعف والعصى فأصلح رسول الله بينهم فنزلت وهى العمدة فى حرب البغاة والخارجين عن الإمام بمنع الدخول فى طاعته أو منع حق وجب عليهم كالزكاة فيدعون إلى الحق أولا فإن أبوا حل سفك دمائهم للإمام العدل بخلاف غيره فإن انهزموا لم يتبعوا ولا يجهز على جريحهم إلا أن يخاف رجوعهم ولا تغنم أموالهم ولا تسبى حريمهم وإن أخذوا لم يقتلوا بل يؤدبون بالسجن حتى يتوبوا وما أتلفوه فى الفتنة من النفوس والأموال فإن كانوا خرجوا بتأويل فلا ضمان عليهم وإن خرجوا بغير تأويل فعليهم القصاص فى النفوس والغرم فى الأموال والآية تدل على أن الباغى مؤمن وأنه إذا قبض يده عن الحرب ترك وأنه يجب معاونة من بغى عليه بعد تقديم النصح والسعى فى المصالحة ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ لانتسابهم إلى شىء واحد وهو الدين وأتى بالحصر اهتماماً بشأن هذه الأخوة وإشارة إلى أنه زالت مع الإيمان الأجنبية وهى أشرف من أخوة النسب لانقطاع الأنساب يوم القيامة وأخوة الدين باقية أبداً صافية لا كدر فيها بخلاف أخوة النسب إذ قلّ ما تخلو عن كدورة ومجانبة ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ إذا تنازعوا وضع الظاهر موضع المضمر مضافاً إلى المأمورين للمبالغة فى التقرير والتخصيص وإيثار الاثنين لأنهما أقل من يقع الشقاق بينهما وقرئ بين إخوتكم وإذا وجب الإصلاح بين اثنين ففى الأكثر أوجب فإن كانوا يجتهدون فى دفع الشقاق بين إخوة النسب ففى الدين أحق ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى مخالفة حكمه أو إهماله وأحرى فى الإصلاح إذ كثيراً ما يتساهل فيه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ على تقواكم لأنها تحملكم على التواصل والائتلاف وذلك سبب لرجاء وصول رحمة الله إليكم فى الدارين لأن التواصل نوع من التوحيد إذ فيه ألفة القلوب واتحادها على شىء واحد والقطيعة افتراق وكثرة وهى ضد التوحيد فمن أجل ذلك قطع الله قاطع الرحم فإذا تجرد رحم الولادة عن الإيمان وجب البراءة منها . ولما شيد أركان الأخوة الدينية نهى عما يناقضها من الأخلاق الجاهلية كالسخرية واللمز والنبز بالألقاب وظن السوء بأخيه وغيبته والافتخار بالنسب فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ ﴾ رجال منكم ﴿ مِنْ قَوْمٍ ﴾ والسخرية الازدراء والاحتقار كما فعل وفد تميم ببعض فقراء المسلمين كعمار وصهيب ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونُوا ﴾ أى المسخورون ﴿ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ من الساخرين ﴿وَلَا﴾ يسخر ﴿نِسَاءٌ﴾ منكم ﴿مِنْ نِسَاءٍ﴾ كما فعل بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بزوجته صفية يقلن لها يا يهودية بنت يهودى ﴿ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ وتنكير قوم ونساء لإرادة البعض أو الشيوع ولم يقتصر على التوحيد لأن السخرية أكثر ما تكون فى المحافل والراضى بها كالساخر ولم يعطف «عسى» بالفاء لكونه استئنافاً لبيان علة النهى ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا ﴾ لا تعيبوا ﴿أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى لا يعب بعضكم بعضاً لأن المؤمنين كنفس واحدة أو لا تعيبوا فتعابوا أو لا تفعلوا ما تلمزون بسببه كقوله عليه السلام : لا يسبن أحدكم أباه . قالوا : وهل يسب أحد أباه ؟ قال : نعم يسب أبا أحد فيسب أباه . واللمز فى الأصل الإشارة بالعين وشاع فى الطعن باللسان كالهمز فى الفعل وقيل اللمز

قد يكون بالقول وبالإشارة ونحوه مما يفهمه آخر والهمز لايكون إلا باللسان وقيل اللمز ما كان فى المشهد والهمز ما كان فى المغيب وحكى عكس ذلك ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ أى لا يدعُ بعضكم بعضاً بلقب يكرهه لأن النبز مختص باللقب السوء. يكرهه المدعو لكونه ذماً أو تقصيراً، ومنه: يا كافر لمن أسلم أو يا فاسق لمن تاب، ويا رقيق لمن عتق ونحو ذلك. وفى الحديث: على المؤمن أن يدعو أخاه بأحب أسمائه إليه وقال عليه السلام « المسلم أخو المسلم لايخونه ولا يكذبه ولايخذله كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه » رواه الشيخان فاحذر من استهزاء من تراه رث الحال أو ذا عاهة فى بدنه فلعله ممن وقره الله. وعن ابن مسعود البلاء موكل بالقول لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلبا ﴿ بِئْسَ الِاسْمُ ﴾ المذكور من السخرية واللمز والتنابز ﴿ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ بدل من الاسم لإفادة أنه فسق لتكرره عادة والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح أو المراد بالاسم الذكر أى بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسق بعد دخولهم فى الإيمان واشتهارهم به والمراد تهجين نسبة الكفر والفسوق إلى المؤمنين ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ عما نهى عنه ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الكاملون فى الظلم لاستمرارهم على الباطل بعد العلم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ ﴾ كونوا فى جانب منه مطاوع جنبه الشر أبعده عنه فاجتنب هو ونكر كثيراً لئلا يجترئ على أىّ ظن إلا بعد التأمل والعلم بأنه من أىّ قبيل ولو عرفه لكان المنهى عنه الظن الموصوف بالكثرة ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ مؤثم أو منه الإثم أى هو حرام يوجب العقاب وهو كثير كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين ومنه قول عمر لاتظن بأخيك سوءا بكلمة تسمعها وأنت تجد لها محملا ومن ذلك اتباع الظن فى الإلهيات والنبوات حيث يخالفه قاطع ومن الظن مايجب اتباعه كالظن المجتهد حيث لاقاطع فيه من العمليات وحسن الظن بالله ومنه مايباح كظن أهل الفسق بنحو مايظهر منهم والظن فى الأمور المعاشية وإنّ ومعمولاه تعليل مستأنف للأمر ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ حذف منه إحدى التاءين لا تبحثوا عن عورات المسلمين من الجس وهو الاختبار باليد شاع فى الشر كالتحسس بالحاء فى الخير وبتداخلان وفى الحديث لاتتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو فى جوف بيته ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ لا يذكره بشىء فيه يكرهه حال غيبته وإن لم يكن فيه فبهتانٌ. وعن عائشة رضى الله عنها ذكرتُ صفية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصر قال « لقد قلت كلمة لو مزجت بالبحر مزجته » فعرض المؤمن كدمه إلا إذا كان المغتاب مجاهرا بالفسق أواحتيج إلى ذلك للجرح أواستشير فيه ومالم يبلغ المغتاب إذا تيب عنه سقط الإثم ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ بالتشديد لنافع والتخفيف للباقين أى لايحسن به تمثيل لما يناله المغتاب من عرض من اغتابه على أفحش وجه مع مبالغات الاستفهام المقرر وإسناد الفعل إلى أحد للتعميم وتعليق المحبة بما هو فى غاية الكراهة وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان الذى تنفر عنه الطباع وجعل المأكول أخاً وميتاً وتعقيب ذلك بقوله ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ والفاء فصيحة أى فاغتيابه

فى حياته كأ كل لحمه بعد مماته وقد عرض عليكم الثانى فكرهتموه فاكرهوا الأول وانتصاب ميتاً على الحال من اللحم أو الأخ لأن اللحم جزؤه وقد قال عليه الصلاة والسلام لرجلين اغتابا آخر ومَرّا مَعَ النبي صلى الله عليه وسلم على جيفة حمار فقال لهما كلا من هذا الحمار فقالا يغفر الله لك يارسول الله وهل يؤكل لحم هذا فقال مانلتما من عرض أخيكما أشد من هذا وقال لآخرين اغتابا سلمان: أرى خضرة اللحم فى أفواهكما فقالا ماأصبنا طعاما منذ كذا وكذا، قال: قد اغتبتما سلمان. وفى لفظ الخضرة زيادة تهجين لأنه من خواص لحم الجيفة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى عقابه فى الاغتياب وغيره بأن تتوبوا ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ شديد الاعتناء بقبول التوبة ﴿رَحِيمٌ﴾ وافر الرحمة بعد الإسراف دهراطويلا إذا تاب قبل الغرغرة بلحظة تبدل معاصيه طاعات ثم قرر الأخوة المانعة عن الاغتياب والتفاخر على الإخوان بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ من آدم وحواء أو خلقناكل واحد منكم من أب وأم فالكل سواء فى ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً﴾ جمع شعب بفتح الشين هوأعلى طبقات النسب فى اصطلاح العرب ﴿وَقَبَائِلَ﴾ هى دون الشعوب وبعدها العمائر ثم البطون ثم الأفخاذ ثم الفصائل آخرها مثاله فى النبى صلى الله عليه وسلم ونحوه فى النسب خزيمة شعب كنانة قبيلة قريش عمارة بكسر العين. وقصىّ بطن. هاشم فخذ. العباس فصيلة. وقيل الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ حذف إحدى التاءين ليعرف بعضكم بعضا فى قرب النسب فلا يعتزى إلى غيرآبائه ولايرثه غير أوليائه إن وجدوا ليسهل رعاية الأصول فى صلة الأرحام ومراعاة الأكفاء فى الأزواج وتحمل الديات لا للتفاخر بالآباء والتفاضل فى الأنساب ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ولا مدخل للأنساب فى نيل الفضل عند الله وإنما ذلك بالتقوى قال عليه السلام «لافضل . منه ... احد إلابالتقوى» وقال «من بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه» وسئل عن أكرم الناس فقال «أتقاهم» وكل هذه الأحاديث صحاح وفى صحيح مسلم قال عليه السلام «إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد» وفى الترمذى وأبى داود عنه عليه السلام «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم إنما هم لحم من جهنم أوليكونن أهون على الله من الجعل الذى يدهده الخرء بأنفه إن الله أذهب عنكم عُبّيّة الجاهلية وفخرها إنما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى كلكم بنو آدم وآدم من تراب» اهـ. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكم ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطنكم يعلم أهل التقوى تحذير عن شوب الرياء بعد حصر الكرامة فيها ولما ذكر أن ملاك الأمر هوالتقوى أشار إلى ما به قوامه وهو الإيمان الذى لا يعتد بعمل دونه مُدْمَجاً فيه توبيخ من زعم أنه اتصف به وهو عنه بمراحل بقوله ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ أى بعض سكان البوادى وهم بنو أسد قدموا المدينة لجدب أصابهم وأظهروا الشهادتين لإرادة الغنائم وقالوا للرسول ﴿آمَنَّا﴾ بك وأتيناك بالأثقال والعيال يريدون الصدقة ويمنون على الرسول بإيمانهم من غير قتال ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ وإلا لما مننتم على الرسول بذلك إذ الإيمان تصديق مع ثقة بالله وطمأنينة قاب

﴿ وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ انقدنا ظاهراً بترك المحاربة ولم يقل لاتقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا مع أنه مقتضى السياق احترازاً من النهى عن القول بالإيمان ولم يقل ولكن أسلمتم لئلا يجزم لهم بإسلام فقد شرط اعتباره شرعاً ولم يصرح بتكذيبهم تلطفاً بالجهال ولذا نفى إيمانهم بلمّا التى للتوقع فى قوله ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ إلى الآن ولكن يتوقع منكم وهو حال من واو قولوا أسلمنا أى قولوا ذلك والحال أن الإيمان لم يدخل محله فى ذلك الوقت ﴿ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بالإخلاص وترك النفاق ﴿ لَا يَلِتْكُم ﴾ من لاته للجمهور وهى لغة الحجاز ومن ألته لأبى عمرو وهى لغة غطفان بمعنى لاينقصكم ﴿ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ ﴾ أى ثوابها ﴿ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لمن تاب منكم ما فرط من الدعوى المجردة ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ حيث أرشدكم إلى طريق الصواب ثم أشار إلى حقيقة الإيمان بالحصر تعريضاً لهم بقوله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الصادقون فى الإيمان ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ ﴾ استمروا على ذلك و ﴿ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ لم يقع فى نفوسهم شك فيما آمنوا به ولا اتهام لمن صدقوه إلى الموت ولذا عطف على الإيمان بكلمة التراخى المشعرة باشتراط استقراره فى الأزمنة المتراخية المستقبلة وبأنهم على الترقى والازدياد فيه أبداً ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فى طاعته فبجهادهم يظهر صدق إيمانهم إذ هو فى الأنفس والأموال عبادات بدنيات وماليات ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ فى إيمانهم تعريض لتلك الأعراب أى لا من قالوا آمنا ولم يوجد منهم غير القول وفيه أن من تشهّد ولم يقف على دعائم الإسلام لم يصح إسلامه ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ قيل نزلت لما جاءوا بعد نزول الآية المتقدمة وحلفوا أنهم مؤمنون وهو توبيخ لهم على ذلك أى هب أن دعواكم تشتبه على الناس لأن الإيمان محله خفىّ فكيف شأنكم مع الله ، تعلمونه ما لا يعلم ؟ ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه خافية وفى إعادة لفظ الجلالة مبالغة فى إحاطة علمه لاقتضاء الألوهية ذلك ودلالة على أن فى خارج السموات والأرض أشياء لا يحيط بها إلا علمه ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ بإسلامهم من غير قتال أى يعدون ذلك عليك منة وهى النعمة التى لا يستثيب موليها ممن بذلها إليه ، من المن بمعنى القطع لأن المقصود بها قطع حاجته ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَامَكُم ﴾ أى بإسلامكم فنصب بنزع الخافض وفى إضافته إليهم إشارة إلى خساسته وأنه شىء يليق بأمثالهم ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى قولكم آمنا أى لو صح الإيمان فلله المنة عليكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ما غاب فيهما ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء للجمهور فى سركم وعلانيتكم والياء لابن كثير أى فكيف يخفى عليه إيمانهم ؟

[تم تفسير سورة الحجرات]

سورة ق

مكية ، وهي خمس وأربعون آية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . ق) الله أعلم به (وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) ذي الشرف على سائر الكتب والمجد : الشرف المتسع أو خاص بكرم الآباء من مجدت الإبل وقعت في مرعى كثير ، والجواب ما آمن كفار مكة بمحمد مع إتيانه بهذا القرآن المجيد جهلا منهم (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ) رسول من أنفسهم يخوفهم بالنار بعد البعث وهذا ليس بعجب لظهور أدلته عقلا ونقلا إذ العجب يكون من شيء خفي سببه فإذا ظهر السبب بطل العجب (فَقَالَ الْكَافِرُونَ) بسبب كفرهم (هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) والإشارة راجعة إلى الرجوع الدال عليه الإنذار وفي إضمار ذكرهم ثم إظهاره لإشعار صفتهم بهذا المقال ثم التسجيل على كفرهم بذلك وعطف تعجبهم من البعث على تعجبهم من البعثة ووضع الظاهر موضع المضمر مبالغات في إنكارهم وكذا ما في الإبهام ثم التفسير في قوله (أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا) نرجع ؟ دل عليه (ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) عن العادة أو الإمكان . قال تعالى ردًّا على استبعادهم الرجوع (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ) تأكل (مِنْهُمْ) من أجسادهم بعد موتهم والقدرة على الإنشاء مسلّمة عندهم فالإنكار لماذا ؟ (وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) ملىء ضابط للحوادث ما كان وما يكون وهو اللوح المحفوظ (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ) القرآن والنبي (لَمَّا جَاءَهُمْ) من غير تأمل فالتكذيب به أسوأ من التعجب عما مرّ والإضراب الثاني أبلغ ذمًّا لهم من الأول (فَهُمْ) في شأن النبي والقرآن (فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) مختلط مضطرب قالوا مرة ساحر سحر ومرة شاعر شعر ومرة كاهن كهانة إلى غير ذلك من خرافاتهم (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا) بعيونهم معتبرين بعقولهم حين أنكروا البعث (إِلَى السَّمَاءِ) كائنة (فَوْقَهُمْ) من غير سبق مثال فيدلهم على أن إعادة أمثالهم أهون منه (كَيْفَ بَنَيْنَاهَا) بلا عمد (وَزَيَّنَّاهَا) بالكواكب (وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) فتوق وشقوق تعيبها بأن خلقت ملساء متلاصقة الطباق (وَالْأَرْضَ) معطوف على موضع السماء (كَيْفَ مَدَدْنَاهَا) دحوناها وبسطناها على وجه الماء (وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ) جبالا تثبتها (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ) صنف (بَهِيجٍ) يبتهج به لحسنه (تَبْصِرَةً) مفعول له أي وفعلنا ذلك تبصيرًا منا (وَذِكْرَىٰ) تذكرة (لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) راجع إلى الله في التدبر في بدائع صنعه وهما علتان للأفعال المذكورة وإن انتصبتا عن الفعل الأخير فالأولى للراسخين والثانية للقاصرين (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا) كثير الخير والمنافع

﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّـٰتٍ ﴾ أشجاراً ذوات ثمار ﴿ وَحَبَّ ﴾ الزرع ﴿ الْحَصِيدِ ﴾ المحصود أى ما شأنه أن يحصد مما يقتات به كالبر والشعير وأخره لقلته عند العرب فإن أكثر معاشهم الماء والتمر ولذلك عقبه بقوله ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ ﴾ طوالا حال مقدرة أفردها بعد تناول الجنات لها لكثرتها عند العرب وكثرة منافعها ﴿ لَّهَا طَلْعٌ ﴾ ثمر أول ظهوره ﴿ نَّضِيدٌ ﴾ منضود بعضه فوق بعض لتراكمه أو كثرة ما فيه من الثمر ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ علة للإنبات أو مصدر بمعنى الإنبات لأن الإنبات رزق ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ جدباً يابساً ولم يؤنثه باعتبار المكان أو لاستواء المذكر والمؤنث فيه ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل هذا الإحياء ﴿ الْخُرُوجُ ﴾ من القبور فكيف تنكرونه ، والخروج مبتدأ والكاف خبره وقيل عكسه والأول أظهر والثانى أبلغ كأنه قال مثل هذا المحسوس الخروج الذى تستحيلونه والمشار إليه على هذا خروج النبات لا الإحياء ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ الرَّسِّ ﴾ قوم حنظلة أو غيرهم ﴿ وَثَمُودُ ﴾ قوم صالح ﴿ وَعَادٌ ﴾ قوم هود ﴿ وَفِرْعَوْنُ ﴾ وقومه وخص بالذكر لكونه سبب تكذيبهم «فاستخف قومه فأطاعوه» ﴿ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴾ قومه والاختلاف للتفنن والإعلام بأن بينه وبينهم نسبا ، وقيل هم أصهاره ﴿ وَأَصْحَـٰبُ الْأَيْكَةِ ﴾ الغيضة قوم شعيب ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ ملك اليمن سبق الكلام عليهم فى الحجر والدخان ﴿ كُلٌّ ﴾ من المذكورين ﴿ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ كقريش أى كل فرد أو كلهم وإفراد الضمير باعتبار اللفظ ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ وجب نزول العذاب على الجميع فلا يضق صدرك من كفر قريش بك تسلية له وتهديد لهم ﴿ أَفَعَيِينَا ﴾ عجزنا ﴿ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ أى لم نعى به فهم معترفون بالاقتدار عليه فلزم الاعتراف بالثانى وهو الإعادة ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ ﴾ شك وشبهة وحيرة ﴿ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وهو البعث أى لا ينكرون الأول بل إنكارهم فى خلق مستأنف لما فيه من مخالفة العادة ولذا نكره ثم أزال شبهتهم بقوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ ﴾ حال بتقدير نحن ﴿ مَا ﴾ موصولة أو مصدرية ﴿ تُوَسْوِسُ ﴾ تحدث ﴿ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ الباء زائدة أو معدية والضمير لـ «ما» على الأول والإنسان على الثانى فالإنسان حينئذ هو المحدث والوسوسة حديثه أى قائم به كقول لبيد . وأكذب النفس إذا حدثتها . ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ بالعلم ﴿ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ الإضافة للبيان والوريدان عرقان بصفحتى العنق متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه سميا بذلك لأن الروح ترده تمثيل لعلمه أو من إطلاق السبب وإرادة المسبب لأن القرب من الشىء سبب العلم به ﴿ إِذْ ﴾ ظرف لاذكر مقدرا أو لأقرب وإن كان أفعل التفضيل للاتساع فى الظرف أى نحن أعلم بحاله من كل قريب حين ﴿ يَتَلَقَّى ﴾ يأخذ ويكتب الحفيظان ﴿ الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ ما يعمله الإنسان فليس توكيلهما لاستفادة علم بل لزيادة زجر الإنسان إذا علم حفظهما له ﴿ عَنِ الْيَمِينِ ﴾ منه قعيد ﴿ وَعَنِ الشِّمَالِ ﴾ منه ﴿ قَعِيدٌ ﴾ مبتدأ وخبره ما قبله أى مقاعد كالجليس حذف من الأول لدلالة الثانى عليه أو بمعنى قاعدان إذ الفعيل يطلق للواحد والمتعدد ﴿ مَّا يَلْفِظُ ﴾ ما يرمى أى ما يتكلم ﴿ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ ﴾ حافظ ﴿ عَتِيدٌ ﴾ حاضر وكل منهما بمعنى المثنى وتخصيص القول

مع أن المراقبة عامة لأن السياق فى حديث الإنسان نفسه ولفظ «ما» مع زيادة من يدلان على كتابة كل شىء حتى أنينه فى مرضه ، وقال عكرمة : يكتبان الخير والشر فقط والاول أصوب لما فى أبى داود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «كل شىء يتكلم به ابن آدم فإنه مكتوب عليه» قاله فى الجواهر وصاحب اليمين أمير على صاحب اليسار فإذا عمل الإنسان حسنة كتبها عشرا وإذا عمل سيئة قال لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يستغفر وينبغى للمكلف أن يحفظ لسانه عن جميع مالم يضطر إليه بمصلحة له فيه فإن استوى الكلام وتركه فى المصلحة فالسنة الإمساك إذ قد يجر المباح إلى حرام أو مكروه وفى الصحيحين : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» وهو نصٌّ صريح فيما قلنا ، وفى الترمذى حديث «مِنْ حُسْن إسلام المرء تركه مالا يعنيه» ولما أزاح استبعادهم البعث للجزاء بتحقيق قدرته وعلمه أعلمهم بقرب لقاء ذلك بتعبيره بلفظ الماضى فى قوله ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ غمرته وشدته الذاهبة بالعقل ملتبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ حقيقة أمر الآخرة من السعادة والشقاوة أو الموعود الحق الذى بعثت الرسل لأجله فالباء للتعدية أو المعية ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموت ﴿مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ تميل وتنفر عنه وتهرب والخطاب للكافر لأن الكلام معه وفى أحواله أو للإنسان التفاتاً ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ للبعث ﴿ذَٰلِكَ﴾ النفخ أى وقته ﴿يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ يوم تحققه وإنجازه للكفار ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ﴾ فى محل النصب على الحال من «كل» لإضافته إلى ما هو فى حكم المعرفة لأنه فى معنى كل النفوس والسائق ملك يسوقها إلى المحشر ﴿وَشَهِيدٌ﴾ ملك يشهد عليها بعملها أو ملك جامع للوصفين وقيل السائق كاتب السيئات والشهيد كاتب الحسنات ، وقيل السائق قرينه والشهيد جوارحه أو أعماله ويقال للكافر ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ فى الدنيا ﴿فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا﴾ النازل بك اليوم ، وقيل الخطاب لكل نفس إذ ما من أحد إلا وله اشتغال ما عن الآخرة ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ عن أمور المعاد وهو الغفلة والانهماك فى الدنيا أزلنا الساتر بينك وبين أمور الآخرة ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ شديد الرؤية نافذ لزوال المانع تدرك به ما أنكرته فى الدنيا ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ الملك الموكل به ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ حاضر صفة «ما» إن كانت موصوفة وبدل إن كانت موصولة أو خبر بعد خبر أو خبر لمحذوف ثم خاطب تعالى السائق والشهيد بقوله ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ أو خطاب للملك ثنى على عادة كلام العرب فى تثنية لفظ المخاطب الواحد تنزيلا له منزلة تثنية الفعل وتكريره كأنه قال ألق ألق جهنم ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ معاند للحق ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ المال أى حقه كالزكاة أو الإسلام والوجه عموم الخير ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم متعد ﴿مُرِيبٍ﴾ شاك فى دين الله ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ بدل من كل كفار أو رفع أو نصب على الذم ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ كُرِّر للتوكيد أو من ذكر الخاص بعد العام أو الموصول مبتدأ خبره فألقياه ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ أى الشيطان المقيض له استؤنف لأنه جواب لمحذوف دل عليه ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أضللته كأن الكافر قال هذا أطغانى فقال ما أطغيته

﴿ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق حيث ترك الحق بعد ظهوره فأعنته عليه بو-و-ق والعطف في الأولى للدلالة على الجمع بين مجىء كل نفس وقول قرينه ﴿ قَالَ ﴾ تعالى ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ ﴾ أى في موقف الحساب فليس محلا للخصام لعدم الجدوى وهو استئناف كالأول ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم ﴾ أى والحال أنى قد قدمت إليكم فى الدنيا ﴿ بِٱلْوَعِيدِ ﴾ بالعذاب إن لم تؤمنوا ولا بد منه والباء مزيدة أو معدية على أن قدم بمعنى تقدم ﴿ مَا يُبَدَّلُ ﴾ ما يغير ﴿ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ فلا تطمعوا فى أن أغير وعيدى ﴿ وَمَآ أَنَا بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ فأعذبهم بغير جرم ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف متعلق بظلام أو باذكر مقدراً ﴿ يَقُولُ ﴾ بالياء لنافع وأبى بكر والنون الباقين ﴿ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ استفهام تحقيق لوعده بملئها ﴿ وَتَقُولُ ﴾ بصورة الاستفهام كالسؤال ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ زيادة أو مازاد مصدر أو اسم مفعول. وفى البخارى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: يلقى فى النار من يلقى وهى تقول هل من مزيد حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط بعزتك. وعلى هذا الاستفهامُ على أصله، وما روى عن ابن عباس «هل من مزيد» أى لم يبق فىّ موضع إبرة محمول على ما بعد وضع القدم ولا ضرورة تدعو إلى صرف السؤال والجواب عن الحقيقة إلى التخييل الذى يقصد به التصوير. قال ابن عطية: والذى يترجح فى قول جهنم هل من مزيد أنه حقيقة وأنها قالت ذلك وهى غير ملأى ومعنى القدم فى الحديث ما قدم لها من خلقه وجعلهم فى علمه ساكنيها. اه. قلت: وفيه ما فيه لما جاء فى آخر الحديث بعد قوله حتى يضع قدمه فيها فهنالك تمتلئ وينزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً وفيه أنه لا ينشئ للنار خلقاً لم يعصه إذ لا يظلم أحداً، والحديث من المتشابه الذى يفوض علمه إلى الله. والله أعلم ﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾ قربت ﴿ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ مكاناً ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ منهم نصب على الظرف ويجوز أن يكون حالا وتذكيره لأنه صفة محذوف أى شيئاً غير بعيد أو لأن الجنة بمعنى البستان وعلى كل تقدير هو توكيد لأزلفت معنى فيقال لهم وهم يرونها ﴿ هَـٰذَا ﴾ المرئى ﴿ مَا تُوعَدُونَ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لابن كثير ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ رجاع إلى طاعة الله بدل من المتقين والجملة بينهما اعتراض أو هذا مبتدأ و «ما توعدون» صفته و «لكل أواب» خبره ﴿ حَفِيظٍ ﴾ على حدوده ﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ ﴾ بدل بعد بدل وإيثار «الرحمن» من بين أسمائه تعالى وجعله مقروناً بالخشية للثناء على الخاشى بأنه يخشاه مع علمه بسعة رحمته ولم يغتر بذلك ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ حال من الفاعل أو المفعول أى خافه ولم يره زيادة فى الثناء ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ مقبل على طاعة الله وخص القلب لأن سائر الأعضاء تبع له ويقال للمتقين أيضاً ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ﴾ أى سالمين من زوال النعم وحلول النقم وكل مخوف أو مسلماً عليكم من الله وملائكته أو مع سلام أى سلموا وادخلوا ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ اليوم الذى حصل فيه الدخول ﴿ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ أى تقديره كقوله ادخلوها خالدين ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ زيادة على ماعملوا وطلبوا مما لا يخطر ببالهم «مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»

وفى مسلم هو النظر إلى وجهه تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ﴾ قبل قومك ﴿ مِنْ قَرْنٍ ﴾ كثير من الكفار ﴿ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ ﴾ من قومك ﴿ بَطْشًا ﴾ قوة كعاد وفرعون ﴿ فَنَقَّبُوا ﴾ فتشوا وخرقوا ﴿ فِى الْبِلَادِ ﴾ وتصرفوا فيها أو جابوا كل مجال فيها فالفاء على الأول للتسبب عن قوله « هم أشد » وعلى الثانى للتعقيب على أن المراد قريش فى أسفارهم فى بلاد القرون عقبهم ﴿ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ لهم أى ملجإ أو منجى من عقاب الله وهلاكه وعلى أن المراد قريش ، فالمعنى : هل رأوا للقرون محيصاً حتى يؤملوا مثله لأنفسهم ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من حال الأمم أو ما ذكر فى السورة ﴿ لَذِكْرَىٰ ﴾ موعظة واعتباراً ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ عقل أو قلب واع عن الله لأن من لا يعى قلبه فكأنه لا قلب له ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ استمع إلى من له ذلك الاستعداد مستفيداً منه ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ حاضر بذهنه يتفهم معانيه أو شاهد بصدقه والأول ألصق بالمقام لأن من لا يحضر بذهنه فكأنه غائب . قال المحاسبى : كل من استمع إلى كتاب الله أو إلى حكمة أو إلى علم أو إلى عظة لا يحدث نفسه بشىء غير ما يستمع إليه يريد الله به كان له فيه ذكرى لامحالة كما قال تعالى . اهـ . قال فى الجواهر : كلام المحاسبى هذا نفيس فحصله واعمل به ترشد ، وقد وجدناه كما قال ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ تعب : نزل ردًّا على قول اليهود إن الله استراح يوم السبت ، وانتفاء التعب عنه لتنزهه تعالى عن المماسة وجميع صفات المخلوقين « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أى المشركون فى إنكار البعث واليهود فى التشبيه فمن قدر على خلق ما ذكر قادر على بعثهم وتعذيبهم ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ نزّهه عن العجز والتشبيه أو صلّ حامداً ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ أى صلاة الصبح ﴿ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ أى صلاة الظهر والعصر ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أى صل العشاءين و « من » للتبعيض أى فى جزء منه ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ بكسر الهمزة لنافع وابن كثير وحمزة مصدر أدبر انقضى أى وقت انقضاء السجود وبفتحها للباقين جمع دبر أى بعد الصلوات الخمس صل النوافل المسنونة ، وقيل المراد حقيقة التسبيح فى هذه الأوقات ملابساً للحمد . وفى مسلم قال عليه السلام « من قال فى دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين تسبيحة وثلاثاً وثلاثين تحميدة وأربعاً وثلاثين تكبيرة غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر » ﴿ وَاسْتَمِعْ ﴾ يا مخاطباً بقولى وفيه تهويل وتعظيم للمخبر به ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب بما دل عليه يوم الخروج أى يخرجون من القبور يوم ﴿ يُنَادِ الْمُنَادِ ﴾ هو إسرافيل ينفخ فى الصور وينادى أو ينفخ إسرافيل وينادى جبريل ﴿ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من السماء وهى صخرة بيت المقدس أقرب موضع إلى السماء يقول أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء فيصل نداؤه إلى جميع الخلائق على السواء . وقيل يوم منصوب باستمع على تقدير مضاف أى استمع حديث يوم أو تضمين معنى انتظر أى كن منتظراً له فهو حينئذ مفعول به

﴿يَوْمَ﴾ بدل من يوم قبله ﴿يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ النفخة الثانية للبعث يحتمل أن تكون قبل ندائه أو بعده ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بالصيحة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى يوم النداء والسماع ﴿يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ من القبور وهو من أسماء القيامة ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ فى الدنيا ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أى مصير الخلائق للجزاء فى الآخرة، جزءه عن الدليل لما تقدم من الأدلة مستوفاة ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ﴾ بتشديد الشين بإدغام التاء الثانية فى الأصل فيها لنافع وابن كثير وابن عامر وبتخفيفها بحذف إحدى التاءين للباقين ﴿عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ مسرعين جمع سريع حال من المجرور ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ﴾ بعث وجمع ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ فقدم الظرف للاختصاص إذ لا يتيسر ذلك الأمر البديع إلا لمن أمره بين الكاف والنون ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ منك تسلية له، وتهديد لهم ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ بمسلط تجبرهم على الإيمان، وتفعل ما تريد « إنما أنت نذير » ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وهو المؤمن إذ لا ينتفع به غيره، فإن الدواء لا يجدى إلا إذا صادف محلا قابلا للشفاء.

[تم تفسير سورة قٓ]

سورة الذاريات

مكية ـ وهى ستون آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ وَالذَّارِيَاتِ﴾ الرياح تذرو التراب وغيره ﴿ذَرْوًا﴾ مصدر ويقال تذريه ذريا تهب به أدغم أبو عمرو وحمزة التاء فى الذال ﴿فَالْحَامِلَاتِ﴾ السحب تحمل الأمطار أو الرياح تحمل السحب ﴿وِقْرًا﴾ ثقلا مفعول الحاملات ﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾ السفن تجرى على وجه الماء ﴿يُسْرًا﴾ جريا ذا يسر أى سهولة مصدر فى موضع الحال أى ميسرة أو الرياح الجارية فى مهابها أو الكواكب فى منازلها ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة تقسم الأمور كل واحد موكل بشأن: جبريل بالوحى وإهلاك المكذبين، وميكائيل بالأرزاق وأسبابها وملك الموت بالأرواح، وإسرافيل بالنفخ وملك الجبال بالجبال، وملك البحار بالبحار، إلى غير ذلك مما لا يحيط به إلا علم الله الشامل، ويجوز أن تكون الصفات جميعاً

للرياح فالفاء على الأول لترتيب الأقسام بالذوات باعتبار ما بينها من التفاوت فى الدلالة على كمال القدرة فأقسم بالرياح فبالسحاب الذى تسوقه فبالسفن التى تجرى بهبوبها فبالملائكة ، وعلى الثانى لترتيب الأفعال إذ الريح تذرو التراب فتثير سحاباً فتحمله فتجرى به إلى حيث أمرت فتقسم المطر . والله أعلم . ثم استدل بهذه الأشياء العجيبة على القدرة على البعث بقوله ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ جواب القسم وما موصولة أو مصدرية والموعود البعث أبهمه ليهيبه ﴿ لَصَادِقٌ ﴾ مطابق للواقع ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ ﴾ الجزاء على الأعمال بعد الحساب ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ لا محالة ثم أقسم بمخلوق أدل على القدرة بقوله ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ جمع حبيكة كطريقة وطرق أى صاحبة الطرائق الحسنة فى الخلقة مثل ما يظهر على الماء والرمل من هبوب الريح : قال زهير يصف غديراً : مُكَلَّلٌ بِأُصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ • رِيحٌ خَرِيقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حُبُكُ

ويقال فى المنسوجات من الأكسية وغيرها وذلك لجودة خلقة السماء ولذا قال الحسن حبكها نجومها لأنها زينتها أو المعنى ذات طرق النجوم فى مسيرها ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة فى شأن النبى والقرآن ﴿ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ بقولكم شاعر شعر وساحر سحر وكاهن كهانة ، وقد روعى ملاءمة القسم للمقسم عليه أولا وثانياً فالبعث يلائم القسم بأدلة القدرة الماضية واختلافهم فيما لا يقبل الاختلاف يلائم اختلاف طرائق السموات فى تباعدها واختلاف غاياتها والله أعلم ﴿ يُؤْفَكُ ﴾ يصرف ﴿ عَنْهُ ﴾ عن النبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن ﴿ مَنْ أُفِكَ ﴾ صرف الذى لاصرف أشد منه وأعظم ولذا أطلق فكأنه لاصرف إلا هو أو من صرف فى علم الله فلا يمكن منه الارعواء فهو إشارة إلى الختم ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ لعن الكذابون أصحاب القول المختلف أصله الدعاء بالقتل ثم شاع فى اللعن لأنه فوق القتل ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ جهل عظيم يغمرهم أصله الماء الساتر ماتحته ﴿ سَاهُونَ ﴾ غافلون عن أمور الآخرة التى أمروا بها ﴿ يَسْأَلُونَ ﴾ مالم يؤمروا به فيقولون للنبى استهزاء ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ الجزاء أى متى مجيئه وجوابهم يجىء ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ يعذبون فيها وفتح يوم للإضافة إلى غير متمكن ويقال لهم حين التعذيب ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ تعذيبكم ﴿ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ فى الدنيا استهزاء ، ثم ذكر حال المؤمنين فقال ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ ﴾ بساتين ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ تجرى فيها ﴿ آخِذِينَ ﴾ حال من الضمير فى خبر إن أى قابلين راضين ﴿ مَا آتَاهُمْ ﴾ أعطاهم ﴿ رَبُّهُمْ ﴾ من الثواب ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ أى دخولهم الجنة ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ فى الدنيا تعليل لاستحقاقهم ذلك ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ينامون ويصلون أكثره بيان لإحسانهم وما مزيدة وقليلا صفة مصدر محذوف أى هجوعا قليلا ومن الليل صفته أى مبتدئا من الليل أولغو متعلق بيهجعون أى يهجعون فى طائفة من الليل أو مصدرية أو موصولة أى فى قليل من الليل هجوعهم أو ما يهجعون فيه ولا يجوز أن تكون نافية لأن ما بعدها لا يعمل فيما قبلها وفيه مبالغات لتقليل نومهم ذكر القليل والليل الذى هو وقت السبات والهجوع الذى هو القرار من النوم وزيادة ما قال فى الجواهر مدح الله

قوما كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ونحن قليلا من الليل ما نقوم فرحم الله أمرءا رقد حين نعس وأطاع ربه حين استيقظ ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ مع قلة هجوعهم كأنهم أسلفوا في ليلهم ذنبا نظرا إلى التقصير يقولون اللهم اغفرلنا وفي بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الأحقاء بالاستغفار دون غيرهم لكمال خشيتهم والسحر السدس الأخير من الليل ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ نصيب يوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله تعالى ورحمة على خلقه ﴿لِلسَّائِلِ﴾ لمن يسأل لحاجته ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ الذي لا يسأل للحياء أو لعدم القدرة عليه فيظن غنيا فيحرم الصدقة ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ عطف على «إن ما توعدون لصادق» أي في صفاتها وما عليها من النبات والحيوان والمعادن وأشكالها وألوانها وخواصها ﴿آيَاتٌ﴾ دلالات على قدرة الله تعالى ووحدانيته وفرط رحمته ﴿لِلْمُوقِنِينَ﴾ الموحدين المتبصرين كلما رأوا اعرفوا وجه التأمل فيه فازدادوا يقينا ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ آيات أيضا من مبدإ خلقكم إلى منتهاه وما في تركيب خلقكم من العجائب إذ ليس في العالم شيء إلا وفي الإنسان نظيره مع ما اختص به من الكمالات التي لا تحصى ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك على الاعتبار فتستدلون به على صانعه وقدرته والتعبير عن النظر بالإبصار إشارة إلى غاية الظهور ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أسبابه من الأمطار والثلوج والكواكب، وكان الحسن رضي الله عنه إذا رأى السحاب يقول لأصحابه فيه والله رزقكم ولكن تحرمونه بخطاياكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الجنة فإنها فوق السماء السابعة وسقفها عرش الرحمن أو ذلك مكتوب في السماء أو مستأنف خبره ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ﴾ أي ما توعدون أو كل ما تقدم من أول السورة ﴿لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ أي مثل نطقكم كما لا شك فيه لكم فلا تشكوا في ذلك وما زائدة بنصب مثل للجمهور على الحال من المستكن في «لحق» أو على الوصف لمصدر محذوف أي إنه لحق حقا مثل نطقكم وقيل إنه مبني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن محله رفع على الوصف لحق ويؤيده قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر بالرفع وعن الأصمعي أنه قال أقبلت من جامع البصرة فطلع لي أعرابي على قعود فقال ممن الرجل قلت من بني أصمع قال من أين أقبلت قلت من موضع يتلى فيه كلام الرحمن قال اتل علي فتلوت والذاريات فلما بلغت وفي السماء رزقكم قال حسبك فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر وعمد إلى قوسه فكسرها وولى فلما حججت مع الرشيد وطفقت أطوف فإذا أنا بالأعرابي قد نحل جسمه واصفر فسلم علي واستقرأني السورة فلما بلغت الآية صاح وقال قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ثم قال وهل غير هذا فقرأت فورب السماء والأرض إنه لحق فصاح وقال سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى حلف؟ قالها ثلاثا وخرجت معها روحه. ولما استوفى الله أدلة المعاد مهد إثبات نبوة رسوله مضمنا لذلك تسلية بقصة إبراهيم بقوله ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ فيه تفخيم لشأن الحديث وتنبيه على أنه لا يعرف إلا بالوحي والضيف في الأصل مصدر ولذا يطلق على الواحد والمتعدد ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ عند الله وعند إبراهيم حيث خدمهم بنفسه وأخدمهم

زوجته وعجل لهم القرى وهم الملائكة اثنا عشر أو ثلاثة منهم جبريل ﴿ إِذْ ﴾ ظرف للحديث أو للضيف أو المكرمين إن فسر بإكرام إبراهيم أي أكرمهم حين ﴿ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ أي نسلم سلاما ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ أي عليكم سلام وحمزة والكسائي سلم بكسر السين وسكون اللام كما تقدم في هود حياهم بأحسن من تحيتهم لما في الرفع من الدلالة على الدوام ، وهذا أيضاً من إكرامهم ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ أي أنتم قوم لا نعرفكم ، أي عرفوني من أنتم . أو قال ذلك في نفسه حين رآهم على غير أشكال المعهودين ﴿ فَرَاغَ ﴾ مال ﴿ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ سراً إذ ليس من الفتوة إعلام المضيف ضيفه أنه يسعى في قراه ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ حنيذ كما في هود وكان عامة ماله البقر وقيل لحمه خير اللحوم ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ بأن وضعه بين أيديهم ليأكلوا منه فلم يأكلوا ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي منه وهو مشعر بكونه حنيذاً والهمزة للعرض على دأب المضيف فلم يجيبوا ﴿ فَأَوْجَسَ ﴾ أضمر في نفسه ﴿ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ إنا رسل ربك فقام جبريل فمسح العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بالبقر فعرفهم وأمن منهم ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ كامل العلم إذا بلغ مبلغ الرجال وهو إسحاق كما في هود ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ ﴾ سارة ﴿ فِي صَرَّةٍ ﴾ صيحة من صر القلم والباب : حال ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ لطمته تعجباً أو حياء حين وجدت حرارة دم الحيض ﴿ وَقَالَتْ ﴾ أنا ﴿ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ لم تلد قط في أوان الولادة فكيف بأوان اليأس وقد مر ذكر سنها ﴿ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أي ليس هذا من عندنا ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ ﴾ المتقن في صنعه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بالأشياء وأوقاتها فلا وجه للاستبعاد . ولما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون مجتمعين إلا لأمر عظيم ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ أمركم العظيم الذي جئتم بسببه ﴿ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ أرسلتم بالبشارة خاصة أو مع أمر آخر ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ قوم لوط ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ طبخ حتى تحجر وهو السجيل ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ معلمة عليها اسم من يرمى بها أو مرسلة ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ بعدله وإذنه وفيه تهويل ﴿ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ المتجاوزين الحد بإتيان الذكور مع الكفر سماهم مجرمين ومسرفين تشويهاً وإشعاراً باستحقاقهم العذاب ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا ﴾ في قرى لوط أضمرها لعلها من ذكرهم ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من لوط ومن آمن به ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي أهل بيت وهم لوط وابنتاه وصفوا بالإيمان والإسلام أي مصدقون بقلوبهم عاملون بجوارحهم الطاعات وفي إيرادهما والإتيان بمن دلالة على استقلال كل بسبب نجاة الموصوف به كائناً من كان أين كان ومنه يعلم حسن تقديم الإيمان كأنه يقول نفذ أمرنا بإخراج كل مؤمن ولا يشترط فيه أن يكون عاملا بالطاعات بل التصديق بالله فقط ثم لما ذكر حال الموجودين وصفهم بالكمال وهو التصديق مع الأعمال ليكون إخراجهم أولى . والله أعلم ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً ﴾ علامة على إهلاكهم وهي تلك الأحجار أو ماء أسود منتن ﴿ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ لأن غيرهم لا يتدبر ولا يعتبر ﴿ وَفِي مُوسَىٰ ﴾ معطوف على فيها ، المعنى : وجعلنا في قصة موسى آية ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ برهان واضح كاليد والعصا

﴿ فتولى ﴾ أى أعرض عن الإيمان ﴿ بركنه ﴾ مع ما تقوّى به من جنوده فالباء للمصاحبة أو للتعدية كنأى بجانبه ﴿ وقال ﴾ لموسى هو ﴿ ساحر أو مجنون ﴾ أى مابه من الخوارق من الجن إما تعلماً أو إصابة من غير اختياره «أو» للتقسيم ولا حاجة لجعله بمعنى الواو ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم ﴾ طرحناهم ﴿ فى اليم ﴾ أى أغرقناهم فى البحر ﴿ وهو مليم ﴾ آت بما يلام عليه من تكذيب الرسول ودعوى الربوبية والجملة حال من ضمير أخذناه ﴿ وفى ﴾ إهلاك ﴿ عاد ﴾ آية ﴿ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ هى التى لا خير فيها لأنها لا تحمل المطر ولا تلقح الشجر وهى الدبور ﴿ ما تذر من شىء ﴾ نفس أو مال ﴿ أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ كالبالى المفتت أو كالرماد ﴿ وفى ﴾ إهلاك ﴿ ثمود ﴾ آية ﴿ إذ قيل لهم ﴾ بعد عقر الناقة ﴿ تمتعوا حتى حين ﴾ أى ثلاثة أيام كما تقدم ﴿ فعتوا ﴾ تكبروا ﴿ عن أمر ربهم ﴾ عن امتثاله مرتب على تمام القصة لا على « تمتعوا » لقوله « فعقروها » فقال تمتعوا ﴿ فأخذتهم الصاعقة ﴾ الصيحة المهلكة وقرأ الكسائى الصعقة «مقصوراً ساكن العين وهو الصوت الذى مع النار ﴿ وهم ينظرون ﴾ إليها بالنهار ولا يقدرون على دفعها ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ أى ماقدروا على النهوض حين نزول العذاب كقوله «فأصبحوا فى دارهم جاثمين» ومن زائدة أولم يقدروا على دفعه من قام بالأمر إذا كفاه ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ على من أهلكهم بوجه لامباشرة ولا معاونة ﴿ و ﴾ أهلكنا ﴿ قوم نوح ﴾ بنصب قوم للجمهور عطفا على مفعول «فأخذتهم» وبجره لأبى عمرو وحمزة والكسائى على تقدير الجار أى وفى قوم نوح أى فى إهلاكهم آية ﴿ من قبل ﴾ قبل إهلاك هؤلاء المذكورين ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ علة للإهلاك ﴿ والسماء بنيناها بأيد ﴾ بقوة وقدرة ﴿ وإنا لموسعون ﴾ لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة ، يقال : آد الرجل يئيد ، كباع يبيع . قوى وأوسع الرجل صار ذا سعة وقدرة أو لموسعون الرزق بالمطر أو لموسعون مابين السماء والأرض ﴿ والأرض فرشناها ﴾ مهدناها لتستقروا عليها ﴿ فنعم الماهدون ﴾ نحن ﴿ ومن كل شىء ﴾ من الأجناس متعلق بقوله ﴿ خلقنا زوجين ﴾ نوعين كالليل والنهار والظلام والضياء والبر والبحر والموت والحياة والسعادة والشقاوة والأرض والسماء وقيل من كل حيوان ذكراً أو أنثى ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ فتعلمون أن خالق الأزواج فرد ليس كمثله شىء وأن من قدر على هذا لا يعجز عن الإعادة ﴿ ففروا ﴾ أى قل لهم يامحمد بعد ما علمتم من كمال قدرة الله وما حل بالأمم ألجأوا فى طلب الخلاص من عقابه ﴿ إلى الله ﴾ أى إلى توحيده وطاعته ﴿ إنى لكم منه ﴾ أى من عذابه المعد لمن أشرك أو عصى ﴿ نذير مبين ﴾ بين الإنذار بالمعجزات أومبين ما يجب أن يحذر منه ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ﴾ إفراد لأعظم ما يجب أن يفر منه ﴿ إنى لكم منه نذير مبين ﴾ تكرير للتأكيد أو ليتصل الأول بالأمر والثانى بالنهى أو الأول إنذار بترك العمل والثانى بالتوحيد ﴿ كذلك ﴾ أى الأمر كذلك والإشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميتهم إياه ساحراً أو مجنوناً ثم بينه

بقوله ﴿ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من قبل هؤلاء ﴿ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا ﴾ هو ﴿ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾
فاختلفوا فيه كاختلاف قومك فيك ﴿ أَتَوَاصَوْا ﴾ كلهم ﴿ بِهِ ﴾ أى الاولون والآخرون أوصى بعضهم
بعضا بهذا القول حتى قالوه جميعاً والاستفهام بمعنى النفى ولذا أضرب عنه بقوله ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾
أى ليس الجامع التواصى بل الطغيان والعناد ﴿ فَتَوَلَّ ﴾ أعرض ﴿ عَنْهُمْ ﴾ لأن المناظرة لاتجدى مع
المكابرة ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ على الإعراض بعد مابذلت جهدك فى الإبلاغ ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ أى لاتدع
التذكير والموعظة بالقرآن ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من قدر الله إيمانه أو من آمن يزداد
بها بصيرة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أى إلا بحيث تتأتى منهم العبادة بسلامة
الأسباب والدلالة على أنها غاية كالية وراءها غاية الغايات وعدم وصول البعض لعائق لايقدح
وقيل ليقروا بعبادتى أى عظمتى ويتذللوا لقدرتى وذلك مركوز فيهم ألا تراهم عند القحوط والشدائد
لا يخضعون إلا إليه ، وأعلم أن أفعال الله تعالى منزهة عن الأغراض لا علة لها بل لما خلقهم على صورة
متوجهة إلى العبادة جعل خلقهم مغيًّا بها مبالغة فى ذلك أو لما أمروا بالعبادة بعد الخلق شبه تعقب العلة
الغائية على المعلول فاستعير لها فهى استعارة تبعية حرفية لأنه استعير لذلك أولا اسم العلة ثم استعير له اللام
التى هى للعلة فاستعارة اللام تابعة لاستعارة العلية على ما هو معروف فى علم البلاغة وتخصيص الآية
بالمؤمنين منهم لا حاجة إليه ويرده قوله ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾ لى ولأنفسهم ولغيرهم بل أن
يشتغلوا بما كانوا كالمخلوقين له وهو العبادة ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴾ كما هو شأن السادات مع الأرقاء
وفى تقديم الرزق وتنكيره وتأخير الإطعام وتخصيصه به تعالى ما لا يخفى من الترقى أى ما أريد منهم
تحصيل الرزق ولا تقديم الحاصل إلىّ كما هو دأب الملوك مع خواص خدمهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾
حقيقة وغيره أسباب وإعادة المظهر لدلالة لفظ الجلالة على الألوهية المستلزمة لذلك وفيه إشارة إلى
استغنائه عن الرزق ﴿ ذُو الْقُوَّةِ ﴾ القدرة التامة ﴿ الْمَتِينُ ﴾ الشديد القوة من المتانة وهى الصلابة تأكيد
بعد تأكيد ، وقرئ بالجر صفة للقوة على تأويل الاقتدار ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ رسول الله بالتكذيب
﴿ ذَنُوبًا ﴾ نصيباً من العذاب أصله الدلو العظيم المملوء الذى يتقاسمون به الماء ﴿ مِثْلَ ذَنُوبِ ﴾ نصيب
﴿ أَصْحَابِهِمْ ﴾ الهالكين قبلهم ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ بالعذاب بقولهم متى هذا الوعد ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ ﴾ فى ﴿ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ يوم القيامة أو يوم بدر ؛ فالموصول معهود .

[تم تفسير سورة الذاريات]

سورة الطور
مكية ـ وهي تسع وأربعون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . وَالطُّورِ ﴾ هو طور سينين ، جبل بمدين سمع موسى عليه الصلاة والسلام كلام الله عليه ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ مكتوب وهو القرآن أو التوراة أو اللوح أو كتاب ديوان الحفظة ﴿ فِي رَقٍّ ﴾ جلد يكتب فيه لأنه يرقق استعير لما كتب فيه الكتاب وتنكيرهما للتعظيم أو للإشعار بأنهما ليسا من المتعارف فيما بين الناس ﴿ مَّنشُورٍ ﴾ مفتوح لاختم عليه وهو خلاف المطوى ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ بالحجاج والعمار الكعبة أو بالملائكة وهو الضراح كان في السماء الثالثة أو السادسة أو السابعة بحيال الكعبة حتى لو وقع حجر منه لوقع على ظهر الكعبة يزوره كل يوم سبعون ألف ملك بالطواف والصلاة لا يعودون إليه ، وقيل هو قلب المؤمن ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ السماء أو العرش ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ المملوء وهو المحيط أو الموقد لأن البحار تجعل يوم القيامة ناراً ، والواو الأولى للقسم والبواقي للعطف وجواب القسم ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ ﴾ الذى أوعد به الكفار ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ لنازل بمستحقه لامحالة أقسم عليه بأمور كلها دالة على كال اقتداره مع إشارة إلى أن ذلك لإقامة العدل بضبط عمل العباد للجزاء بكونه مدوناً فى الكتاب كما تدون الحقوق ولذا لما قرئ على عمر بن الخطاب أول السورة قال : قسم حق ولما بلغ القارئ « إن عذاب ربك لواقع » غشى عليه رضى الله عنه ﴿ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ عن مستحقه ﴿ يَوْمَ ﴾ معمول « لواقع » ﴿ تَمُورُ السَّمَاءُ ﴾ تدور وتضطرب ﴿ مَوْرًا ﴾ والمور تردد فى الذهاب والمجىء ، وقيل تحرك فى تموج ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ سريعاً فتصير هباء منثوراً وهو يوم القيامة ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ شدة عذاب ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم وقوعه ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ الرسل ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ ﴾ فى الباطل ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ ويبدل من يومئذ ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ يدفعون بعنف ﴿ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ بأن يؤخذ بالنواصى والأقدام فيجمعا ويلقون فيها على وجوههم فيقال لهم توبيخاً ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ فى الدنيا وتقولون للوحى سحراً ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾ العذاب الذى نزل بكم ؟ وتقديم الخبر لأنه المقصود بالإنكار والتوبيخ ﴿ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ اليوم إذ تقولون أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾ أى ادخلوها على أى وجه شئتم من الصبر وعدمه فإنه لا محيص لكم عنها ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ الأمران : الصبر وعدمه لأن صبركم لا ينفعكم ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تعليل للاستواء فإن الجزاء لما كان واجب

الوقوع فالصبر وعدمه سيان ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ الشرك وجميع المناهي وكلما زادت الدرجة في التقوى قوى الحصول في المتقين ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ وأىّ جنات ﴿ وَنَعِيمٍ ﴾ أىّ نعيم ﴿ فَاكِهِينَ ﴾ ناعمين متلذذين ﴿ بِمَا ﴾ مصدرية أو موصولة ﴿ آتَاهُمْ ﴾ أعطاهم ﴿ رَبُّهُمْ ﴾ أى بإيتائه أو بالذى آتاهم ﴿ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ عطف على جنات أو آتاهم بتقدير العائد في المعطوف إن كانت «ما» موصولة أو حال بإضمار «قد» من المستكن في الظرف أو من فاعل آتى أو مفعوله أو منهما وأعاد المظهر دلالة على استقلال كل نعمة ﴿ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ ويقال لهم ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا ﴾ حال أى مهنئين أو صفة لمحذوف أى أكلا وشربا هنيئاً أو طعاماً وشراباً هنيئاً أو مصدر أى هنأكم هنيئاً وهو الذى لا تنغيص فيه ﴿ بِمَا كُنْتُمْ ﴾ الباء سببية ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ أو بدلية ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ حال من الضمير في كلوا واشربوا أو المستكن في قوله « فى جنات » ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ﴾ مصطفة بعضها موصول ببعض ليقع المواجهة مع الإخوان والأحباب ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ ﴾ عطف على « فى جنات » أى قرناهم ﴿ بِحُورٍ ﴾ بيض ﴿ عِينٍ ﴾ كحلى العيون ضخامها حسانها ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مبتدأ ﴿ وَاتَّبَعَتْهُمْ ﴾ بالتاء للجمهور ولأبى عمرو أتبعناهم ﴿ ذُرِّيَّتُهُمْ ﴾ ولابن عامر وأبى عمرو بالجمع ﴿ بِإِيمَانٍ ﴾ معطوف على « آمنوا » اعترض به بين المبتدأ والخبر لتعليل الحكم واتباع الكبار بالإيمان والصغار بالآباء قال ابن العربى فى الأحكام : أما اتباع الصغير لأبيه فى أحكام الإسلام فلا خلاف فيه وأما اتباعه لأمه فاختلف العلماء فيه والصحيح أنه يتبع فى الدين كل من أسلم معه وأما إن كانا كافرين وعقل الإسلام صغيراً وتلفظ به فاختلف فيه العلماء ومشهور المذهب أن يكون مؤمناً . اه . وخبر المبتدأ ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ المذكورين فى الجنة فيكونون فى درجاتهم وإن لم يعملوا بعملهم تكرمة للآباء باجتماع الأولاد إليهم وكذا الآباء يلحقون بالأبناء إذا قصرت رتبتهم عنهم بالأولى دلت على كل ذلك الأحاديث ، وقيل الإلحاق إنما يكون بالاجتماع مع الذرية فى الجنة كما كانوا فى الدنيا لا فى رفع الدرجات . قال فى الجواهر: وهو أحسن لأنه قد تقرر أن رفع الدرجات هى بأعمال العاملين والآيات والأحاديث مصرحة بذلك ولما يلزم على التأويل الأول أن يكون كل من دخل الجنة مع آدم عليه السلام فى درجة واحدة إذ كلهم ذريته وقد فتحت لك باباً للبحث فى هذا المعنى منعنى من إتمامه ما قصدته من الاختصار . اه . وقرأ ابن كثير والكوفيون ذريتهم بالإفراد ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ ﴾ بفتح اللام للجمهور وكسرها لابن كثير نقصناهم ﴿ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ شَيْءٍ ﴾ يزاد فى عمل الأولاد بل كان الإلحاق تفضلا وإكراماً لهم ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ ﴾ من عمل خير أو شر ﴿ رَهِينٌ ﴾ مرهون عند الله فإن عمل صالحاً فكّ نفسه وإلا أهلكها ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ ﴾ زدناهم وقتاً بعد وقت ﴿ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ ﴾ للطير ﴿ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ من أنواع التنعم وإن لم يصرحوا بطلبه ﴿ يَتَنَازَعُونَ ﴾ يتعاطون بينهم ﴿ فِيهَا ﴾ فى الجنة ﴿ كَأْسًا ﴾ خمراً سماها باسم محلها ولذا أنث الضمير فى قوله ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ بسبب شربها يقع بينهم ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ يلحقهم أى ما يورث إثماً برفع الاسمين

للجمهور وفتحهما بلا تنوين لابن كثير وأبي عمرو ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ للخدمة ﴿ غِلْمَانٌ لَهُمْ ﴾ سقاة مخصوصون بهم ومنهم أولادهم الذين سبقوهم ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ بياضاً وصفاء ﴿ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ مصون في الأصداف لأنه فيها أحسن منه في غيرها . قيل للرسول عليه السلام : إذا كان الغلمان الذين هم مماليك كاللؤلؤ المكنون فكيف المخدومون ؟ قال : هم كالقمر ليلة البدر . قال في الجواهر: وهذا تقريب للأفهام وإلا فجمال أهل الجنة أعظم من هذا ، يدل على ذلك أحاديث صحيحة . اه . ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عما جرى لهم في الدنيا وما وصلوا إليه تلذذاً واعترافاً بالنعمة ﴿ قَالُوا ﴾ إيماء إلى علة الوصول ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين من عذاب الله ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بالمغفرة وما نحن فيه من اللذة والسرور ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ النار النافذة في المسام نفوذ السموم وقالوا إيماء إلى ذلك أيضاً ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ ﴾ في الدنيا قبل لقاء الله ﴿ نَدْعُوهُ ﴾ نعبده موحدين أو نسأله الوقاية ﴿ أَنَّهُ ﴾ بالفتح لنافع والكسائي تعليلا لفظاً بتقدير اللام ، وبالكسر للباقين استئنافاً وإن كان تعليلا معنى ﴿ هُوَ الْبَرُّ ﴾ المحسن الصادق في وعده ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ العظيم الرحمة ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ دم على التذكير ولا تكترث بقول المشركين ﴿ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ بحمد الله وإنعامه عليك ﴿ بِكَاهِنٍ ﴾ خبر ما ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ معطوف عليه إذ حالك مباين للوصفين ﴿ أَمْ ﴾ بل ﴿ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾ «أم» منقطعة دلت على أن هذا هو الراجح عندهم ﴿ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ حوادث الدهر أو الموت فينقطع أمره كغيره من الشعراء . روى أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة فكثرت آراؤهم في النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال قائل منهم : تربصوا به ريب المنون ، فافترقوا على هذه المقالة فنزلت الآية ، والمنون فعول من منّه إذا قطعه ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا ﴾ هلاكي ﴿ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ هلاككم من باب مجازاة الخصم ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ ﴾ عقولهم ﴿ بِهَذَا ﴾ التناقض في الواحد شاعر ، كاهن ، مجنون . وفي الكلام تهكم بأهل مكة حيث تدعى من بين سائر العرب أولي الأحلام فتهاتر أقوالهم أي لا تأمر الأحلام بهذا ﴿ أَمْ ﴾ بل ﴿ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ بعنادهم أي مجاوزون طور العقل ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ اختلق القرآن ، لم يختلقه ﴿ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بشيء استكباراً ولذلك اضطربت أقوالهم فإن قالوا تقوّله ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ ﴾ مفترى ﴿ مِثْلِهِ ﴾ في البلاغة ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ أنه شاعر أو كاهن : جواب عن كل ما تقدم ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ خالق فلذلك لا يعبدون أحداً أو من غير عبادة ولا مجازاة بل خلقوا سدى من غير تكليف ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أنفسهم ولذلك لا يتبعون أحداً ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ولذا تكبروا عن عبادة خالقهما ﴿ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أنه خالقهما وإلا لآمنوا به وبنبيه ؛ وقولهم إن سئلوا من خلق السموات والأرض «الله» لم يكن عن يقين ، و «أم» في هذه الآيات منقطعة ومعنى الهمزة الإنكار ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ من النبوة والرزق وغيرهما فيخصوا من شاءوا بما شاءوا ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾ الأرباب الغالبون يفعلون ما يريدون ، قرأ الجمهور

بالصاد وابن كثير وابن عامر فى رواية هشام وقنبل بالسين على الأصل وحفص بالوجهين وحمزة فى رواية خلف بإشمام الصاد ، ولما أبطل مقالتهم بالدليل العقلى ولم يبق لهم إلا المشاهدة والعيان أشار إلى إبطاله على وجه التهكم بقوله ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ مرقى يصعدون به إلى السماء ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ماهو كائن ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ ﴾ مدعى الاستماع ﴿ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ دليل واضح على ذلك ، ولما شبه هذا الزعم بزعمهم أن الملائكة بنات الله قال تعالى ملتفتاً إليهم فى مقام السخط مكافحاً ضارباً فى وجوههم المسودة ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ وإنما التفت فى هذه الكلمة لكونها لا أشنع منها ولا محال أجلى منها ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ على ما جئتهم به من الدين فلذلك أعرضوا عنك ﴿ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ ﴾ من التزام غرم ذلك ﴿ مُثْقَلُونَ ﴾ محملون الثقل فلذلك زهدوا فى اتباعك ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ ﴾ خزائن علمه أو اللوح المحفوظ المثبت فيه المغيبات ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ منه حتى تمكنهم منازعة النبى فى البعث وأمر الآخرة ولما كان العلم أشمل مورداً أخر جرياً على سنن الترقى ثم أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عن حالهم بقوله ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ بك وبالمؤمنين بالإهلاك وإبطال الأمر ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يحتمل العموم والخصوص فيكون وضعه موضع المضمر للتسجيل على كفرهم والدلالة على أنه الموجب للحكم المذكور فى ﴿ هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ الذين يحيق بهم الكيد أى المصابون بوباله ثم حقق ذلك بقوله ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ يعينهم ويمنعهم من عذابه ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به أو عن إشراكهم والاستفهام بـ « أم » فى مواضعها الخمسة عشر للتقبيح والتوبيخ ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا ﴾ قطعة ﴿ مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ عليهم كما قالوا « فأسقط علينا كسفاً من السماء » أى تعذيباً لهم ﴿ يَقُولُوا ﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم هذا ﴿ سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ تراكم بعضه على بعض نرتوى به وليس ما سألناه ، المعنى : إن رأوا ماهو العذاب لا يؤمنون حتى يحل بهم ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ إذ لا مناظرة مع المكابرة ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور أى يموتون وللمفعول لابن عامر وهو عند النفخة الأولى أو يوم موتهم واحداً واحداً أو يوم بدر فيكون المراد بالصعق التعذيب ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي ﴾ بدل من يومهم ﴿ عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ من الأشياء ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ يمنعون من العذاب فى الآخرة بوجه آخر ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالكفر يحتمل العموم والخصوص كما تقدم ﴿ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أى فى الدنيا قبل موتهم بالجوع والقحط والقتل والأسر ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ، وقيد بالأكثر لأن بعضهم يعلم ذلك ولكن اختار النار على العار ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ بإمهالهم ولا يضيق صدرك أو اصبر مرتقباً لحكمه فإن وعده كائن ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ فى حفظنا بحيث نراك ونكلؤك ، وجمع العين لجمع الضمير مبالغة فى كثرة أسباب الحفظ لأن الكلام على التمثيل ألا ترى كيف أفرده فى قوله « ولتصنع على عينى » فى قصة موسى ليمتاز بذلك مقام الحبيب عن مقام الكليم ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ ملتبساً ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أى

قل سبحان الله وبحمده ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ من أى مكان تقوم منه أو من منامك لأنه شاغل ، وعلوّ مقامك يقتضى استيعاب الزمان بذكره ، أو إلى الصلاة ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أى فى بعضه لأن العبادة فيه أشق وأحلى وأبعد عن الرياء ، ولذا أفرده بالذكر وقدمه على الفعل ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ آخر الليل عند طلوع الفجر فإنه وقت شريف ولذا خص أيضاً ، وإدبار بكسر الهمزة للسبعة هنا مصدر ، والمراد بالتسبيح فى جميع ما تقدم حقيقته أو صلّ فى الأول المشاءين وفى الثانى الصبح .

[تم تفسير سورة الطور]

سورة النجم

مكية ـ وهى اثنان وستون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ولا تخفى مناسبة آخر السورة المتقدمة وأول هذه وهو ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ أى الثريا علم غالب فيه عند العرب، وفى أمثالهم «إذا طلع النجم عشاء طلب الراعى كساء» وقيل جنس النجوم لأنها زينة السماء ورجوم الشياطين ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ غاب أو انقض أو طلع يقال هوى هَوِيًّا بالفتح إذا سقط وغرب وهُوِيا بالضم إذا طلع وعلا والمراد بالنجم النبات إذا سقط على الأرض أو إذا نما وارتفع أو نجم القرآن لأنه نزل منجما وهو ألصق بقوله ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم عن الطريق المستقيم قط ﴿ وَمَا غَوَىٰ ﴾ ما اعتقد باطلا لأن الغىّ جهلٌ من اعتقاد فاسد ، والخطاب لقريش ، والمراد نفى ما ينسبون إليه من الضلال ضد الهدى ، والغواية ضد الرشد فى ترك دين آبائه وهما جواب القسم وفى لفظ الصاحب : وإضافته إليهم توبيخ لهم حيث عرفوا أمانته وصدق لهجته ثم نسبوه إلى الضلال والغى ﴿ وَمَا يَنطِقُ ﴾ فيما يأتيكم به ﴿ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ هوى نفسه فى أمر الدين وإتيان المضارع بعد الماضى إشارة إلى أنه إذا لم يكن له ضلال قبل النبوة فبعدها أحرى ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ ما الذى ينطق به ﴿ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾

إليه واحتج به من لم ير الاجتهاد له وأجيب عنه بأنه إذا أوحى إليه أن يجتهد كان اجتهاده بالوحى ﴿ عَلَّمَهُ ﴾ إياه ملك ﴿ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ فى خلقه والإضافة لفظية ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أى شدة فى عقله ورأيه هو جبريل ، وفى الوصفين نوع ترق وقيل ذو منظر حسن . سأله النبي صلى الله عليه وسلم أن يريه صورته التى جبل عليها ﴿ فَاسْتَوَىٰ ﴾ استقام على صورته الحقيقية ، قيل ما رآه أحد من الأنبياء فى صورته غير محمد صلى الله عليه وسلم مرتين مرة فى السماء ومرة فى الأرض ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴾ أفق السماء عند مطلع الشمس والضمير لجبريل وإنما ظهر للنبى فى تلك الصورة ليتيقن أنه هو إذا أتاه فى غيرها وكان النبى إذ ذاك بحراء فرآه وقد سد الأفق إلى المغرب فخر مغشياً عليه فنزل جبريل فى صورة الآدميين ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ قرب منه ﴿ فَتَدَلَّىٰ ﴾ زاد فى القرب حتى تعلق به ، وقيل تدلى من الأفق الأعلى فدنا من الرسول استرسال مع تعلق كتدلى الثمرة ﴿ فَكَانَ ﴾ جبريل منه فى القرب ﴿ قَابَ ﴾ قدر ﴿ قَوْسَيْنِ ﴾ عربيتين ﴿ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ من ذلك على تقديركم أى لو رآه أحدكم لقال مقداره قوسان أو أدنى . قال فى الجواهر : الصحيح أن جميع ما فى هذه الآيات من الأوصاف هو مع جبريل ، ودنا أعم من تدلى فبين تعالى بقوله «فتدلى» هيئة الدنو كيف كانت وقاب قوسين قال قتادة : من طرف العود إلى طرفه الآخرى ، وقال الحسن ومجاهد : من الوتر إلى العود فى وسط القوس عند المقبض . اهـ . والمقصود تمثيل شدة الاتصال وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بنفى البعد الملبس ﴿ فَأَوْحَىٰ ﴾ الله بواسطة جبريل ﴿ إِلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا أَوْحَىٰ ﴾ أبهم الموحى به تفخيما له كما فخم الموحى إليه بالإضافة ويحتمل فأوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى جبريل إلى النبي ويحتمل فأوحى جبريل إلى عبده أى عبد الله ما أوحى جبريل وقيل الضمائر فى الآيات كلها لله وهو المعنى بشديد القوى كما قال « هو الرزاق ذو القوة » ودنوه منه يرفع مكانته وتدليه جذبه إلى جناب القدس قال فى غاية الأمانى : ذلك خلاف الظاهر بعيد عن المساق ﴿ مَا كَذَبَ ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لهشام ما أنكره ﴿ الْفُؤَادُ ﴾ فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا رَأَىٰ ﴾ ببصره من جبريل أو الله . روى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ربه بفؤاده مرتين . قال فى غاية الأمانى : والحق أن ذلك ليس تفسيراً للآية وإن صح . اهـ . وفى الجواهر : روى عن ابن عباس أن محمداً رأى ربه بعينى رأسه وأنكرت ذلك عائشة وقالت أنا سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآيات فقال لى هو جبريل فيها كلها قال ابن عطية وهذا قول الجمهور ، وحديث عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم قاطع بكل تأويل فى اللفظ لأن قول غيرها إنما هو منتزع من ألفاظ القرآن ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ ﴾ تجادلونه ﴿ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ خطاب للمشركين المنكرين رؤية النبي جبريل وقرأ حمزة والكسائى تمرونه أى تغلبونه بالمراء من ماريته فريته ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ ﴾ على صورته ﴿ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ مرة أخرى لأنه فعلة من النزول ولذا نصبت على الظرف ﴿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴾ لما أسرى به فى السموات وهى شجرة نبق عن يمين العرش لا يتجاوزها أحد من

الملائكة وغيرهم ولا يعلم أحد ماوراءها وفى البخارى مرفوعا أنها فى السماء السابعة ثم عظم مكانها وشرفه بقوله ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ التى وعدها المتقون تأوى إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمتقين ﴿إِذْ﴾ معمول لرآه أى حين ﴿يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ تعظيم وتكثير لما يغشاها بحيث لا يكتنهها نعت ولا يحصيها عدّ. قال فى الجواهر ذكر المفسرون فى وصفها أقوالا هى تكلف فى الآية لأن الله أبهم ذلك وهم يريدون شرحه وقد قال عليه السلام غشيها ألوان لا أدرى ماهى ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ من النبى صلى الله عليه وسلم عن سنن الاستقامة عما رآه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ ماتجاوز مرئية المقصود له تلك الليلة بل أثبته إثباتاً صحيحاً وهو الحق سبحانه وهذا مخصوص به لم يتيسر لفرد من البشر، قاله فى غاية الأمانى ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ فيها ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ استئناف يؤكد ما تقدم أى رأى من عجائب الملكوت كبراها التى لا يمكن وصفها فالكبرى مفعول الرؤية وبهذا تمسك من أثبت الرؤية إذ لا أكبر منها ويحتمل أن تكون الكبرى صفة للآيات على أن المفعول محذوف أى شيئاً من آيات ربه الكبرى ولما ذكر الله مادل على عظمته وقدرته أوقف الكفار على حقارة أصنامهم وبعدها عن هذه القدرة والصفات العلية بقوله ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ﴾ صنم بالطائف لثقيف ﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾ بنخلة لقريش وغطفان ﴿وَمَنَوٰةَ﴾ كان بالساحل بالمشلل لهذيل وخزاعة حجر وهى بالألف للجمهور من منى أراق لإراقتهم الدماء عليها وبالهمز لابن كثير مفعلة من النوء لأنهم كانوا يستمطرون عندها بالأنواء والعزى تأنيث الأعز سمرة قطعها خالد بن الوليد فخرجت منها شيطانة فجزلها بالسيف واللات اسم رجل كان يلت السمن ويطعمه فاتخذوا مكانه صنماً من حجر ﴿ٱلثَّالِثَةَ﴾ للتين قبلها ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ المتأخرة عنها مرتبة صفتا ذم: أى لم يكتفوا بضلالهم فيهما إلى أن أضافوا الثالثة الأخرى وكانوا يعبدونها ويقولون استوطنها جنيات هن بنات الله أو هياكل الملائكة وهم بنات يشفعونهم ولذا قال منكرا عليهم ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ﴾ لحبهم أن يولدلهم الذكر ﴿وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أى لله، وهو المفعول الثانى لأرأيتم أى أخبرونى فى هذه الأصنام الحقيرة أتكون أولاداً له وشركاء، وقيل المفعول الثانى محذوف أى ألها قدرة على شىء مافتعبدونها من دون الله القادر على ماتقدم ذكره وحينئذ فقوله ألكم الذكر كلام مستأنف ﴿تِلْكَ﴾ القسمة ﴿إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ جائرة حيث جعلتم له ماتكرهون من ضازه حقه إذا ضامه وجار عليه وقرأ ابن كثير بالهمز من ضأزه ظلمه ﴿إِنْ هِىَ﴾ أى هذه الأصنام ما هى باعتبار الألوهية ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ لاحقيقة تحتها من معنى المسمى ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بهواكم أصناما تعبدونها ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ بعبادتها ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ برهان تتعلقون به على جواز إطلاق اسم الآلهة عليها ﴿إِن﴾ ما ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فى عبادتها ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ ظنهم الباطل الموهم لهم أنهم على شىء فى تقليد الآباء ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ ما تشتهيه أنفسهم وتزينه لهم أن الأصنام تشفع لهم عند الله ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الرسول والكتاب الذى هو مناط الإيقان فلم يتبعوه واتبعوا أمانيهم ﴿أَمْ﴾ بل أ ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ لكل إنسان منهم ﴿مَا تَمَنَّىٰ﴾ كطمع

هؤلاء شفاعة أصنامهم ليس الأمر كذلك وكقولهم «ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى» «لأوتين مالا وولدا» ونحو ذلك ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ الدنيا يعطى ماشاء فيهما لمن شاء وقدم الآخرة لأن الكلام فيها ﴿وَكَمْ﴾ كثير ﴿مِنْ مَلَكٍ﴾ كريم على الله فالتنكير للتعظيم ﴿فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ أدنى شيء مع قربهم عندالله فكيف تشفع هذه الجمادات التي هي أخس الكائنات ولم يشفع أشرف الكائنات ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ لهم فيها ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يشفع ويُشفع له ﴿وَيَرْضَى﴾ عنه بأن يراه أهلا لذلك لأن الإذن في الشفاعة لا يستلزم القبول ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى﴾ حيث قالوا هم بنات الله ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ﴾ بهذا القول ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ وقرئ «بها» أي بالملائكة أو التسمية ﴿إِنْ﴾ ما ﴿يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ الذي يخيلونه لما سمعوا من آبائهم ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ الذي هو حقيقة الشيء ﴿شَيْئًا﴾ أدنى شيء فيما المطلوب فيه العلم من الأصول الاعتقادية وإنما يعتبر في العمليات وما يكون وصلة إليها ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ القرآن لاتهتم بشأن من لم يتأمل ذكرنا وفي إضافته إلى نفسه إشارة إلى أنه حقيق بالإقبال إليه لكن من غفل عن الله ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ بانهماك فيها لا تزيده الدعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل ﴿ذَلِكَ﴾ طلب الدنيا ﴿مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ لا يتجاوزه علمهم ولذا آثروا الدنيا على الآخرة والجملة اعتراض يؤكد الأمر بالإعراض لأن السعي في الإرشاد إنما يجدى لمن له قابلية الترقي ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ تعليل للأمر بالإعراض ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ فيجازيهما فما عليك إلا البلاغ وقد بلغت، وفي إعادة العلم ثانية مبالغة دالة على كال تمايز الخبرين عنده ثم نفى ما يوهم قوله «فأعرض» من تركهم سدى بقوله ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقا وملكا فلا يهمل من فيها بل أضل من شاء وهدى من شاء ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ بجزاء أعمالهم ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ بالتوحيد والطاعات ﴿بِالْحُسْنَى﴾ بالمثوبة الحسنى وهي الجنة غير النظم للدلالة على أن جزاءهم ليس على قدر أعمالهم ويجوز أن يتعلق ليجزى بقوله «إن ربك هو أعلم» إلى آخر الآية وقوله «ولله» اعتراض يؤكد الجزاء بكونهم تحت ملكه ثم بين المحسنين بقوله ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ بجمع كبائر للجمهور والإفراد لحمزة والكسائي أي الكبائر من الإثم وهي ماتوعد عليه الشارع بخصوصه كالقتل والزنا ومايساوى ذلك قبحاً أو يزيد ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ ما اشتد قبحه من الكبائر من عطف الخاص على العام ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ ماقل قبحه كالنظر المحرم ومقدمات القتل والسرقة قبل الوقوع فإنه معفو عنه إذا اجتنبت الكبائر والاستثناء منقطع أي لكن صغارها تغفر باجتناب كبارها أو متصل أي إلا ما ألموا به من الكبائر فلتة بلا دوام ثم يتوبون منه، وعن ابن المسيب اللمم ماخطر على القلب يعني بذلك لمة الشيطان، قال ابن عطية وهذا التأويل يعني تأويل اللمة بالفلتة في المعاصي يقتضي الرفق بالناس في إدخالهم في الوعد بالحسنى إذ الغالب في المؤمنين مواقعة المعاصي وعلى هذا أنشدوا، وقد تمثل به النبي عليه السلام:

إن تغفر اللهم تغفر جمّا • وأى عبد لك لا ألمّا

ويؤيده قوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ بذلك وبقبول التوبة وله أن يغفر ماشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها ولعله عقبه لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته ، ونزل فيمن كان يقول صلاتنا صيامنا حجنا ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ منكم ﴿ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ علم أحوالكم حين ابتدأ خلقكم من التراب بخلق آدم منها ﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ جمع جنين ﴿ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ أى حينما صوركم فى الأرحام فعلمه بكم الآن وبما يصدر منكم أجلى وذكر الثانى وإن علم بالأولى لأن من علم بهم وقت الإنشاء من الأرض لا يخفى كونه أعلم بهم حال كونهم أجنة لدلالة أن علمه لا يتفاوت بجلاء المعلوم وخفائه كما هو شأن العلم الحادث والله أعلم ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ لاتمدحوها بزكاء العمل أو بالطهارة عن المعاصى والرذائل على سبيل الإعجاب أما على الاعتراف بالنعمة فحسن ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ منكم وغيره قبل أن يخرجكم من صلب آدم عليه السلام لأن محل التقوى القلب وهو العالم بأحواله ويجوز أن يراد مدح المؤمن أخاه لحديث قطعت عنق صاحبك والمنهى من ذلك مدحه للدنيا وأماليؤتم به أو ليتهمم الناس بالخير فجائز وفى البابين أحاديث صحيحة ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾ عن اتباع الحق والثبات عليه عن ابن عباس نزلت فيمن كفر بعد الإيمان والأكثر أنها نزلت فى الوليدبن المغيرة لما سمع قراءة النبى صلى الله عليه وسلم ووعظه فقرب من الإسلام فعاتبه وعيّره بعض المشركين بترك دين الأشياخ فقال أخشى عذاب الله فقال له ارجع إلى دين آبائك وأنا أتحمل لك بكل شىء تخافه فى الآخرة لكن على أن تعطينى كذا وكذا من المال فوافقه ورجع عما هم به من الإسلام ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا ﴾ من المال المسمى ﴿ وَأَكْدَى ﴾ منع الباقى منه أوالمعنى أعطى قليلا من الخير بلسانه ثم انقطع . قال ابن عطية : وهذا بين من اللفظ والآخر يحتاج إلى رواية . اهـ . وأكدى مأخوذ من الكدية أرض صلبة كالصخرة تمنع حافر البئر إذا وصل إليها من الحفر ﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ ﴾ اللوح المحفوظ ﴿ فَهُوَ يَرَى ﴾ يشاهد أويعلم ما فيه ويكتفى به عن اتباع الرسول ومن جملته أن غيره يتحمل عنه عذاب الآخرة لا وجلة «أعنده» المفعول الثانى لارأيت بمعنى أخبرنى ﴿ أَمْ ﴾ هو جاهل ﴿ لَمْ يُنَبَّأْ ﴾ لم يخبر ﴿ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴾ أسفار التوراة قدمهالأنها أشهرعندهم ﴿ وَ ﴾ صحف ﴿ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ وفّر وأتمّ ماأمر به : وخصّه به لتحمله مالم يتحمله أحدمن الصبر على الإلقاء فى النار على أنه عاهدالله أن لا يسأل غيره فقال له جبريل : ألك حاجة ؟ فقال أما إليك فلا ، وصبره على ذبح ولده وأنه كان يمشى كل يوم فرسخا يرتاد ضيفاً فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم وبيان ما ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ إلى آخره وأن مخففة من الثقيلة أى أنه لاتحمل نفس ذنب غيرها وأما قوله وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وحديث « من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » فإن ذلك من تسببه الذى هو وزره

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ من خير ، كما لا يؤاخذ بذنب الغير لا يثاب بفعله وما يصل إليه من ثواب دعاء المؤمنين له والصدقة له وحديث « من سن سنة حسنة » فكل ذلك من سعيه بالتسبب ونحوه كالنيابة عنه ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ يبصر فى ميزانه فى الآخرة « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ يجزى العبد سعيه يقال جزاه الله عمله وجزاه على عمله . قاله النسفى والمحلى ، وقال فى غاية الأمانى : نُصِب على نزع الخافض ﴿الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ الأكمل ولذا يرى عمله الحقير ، والجزاء نصب على المصدر ويجوز أن يكون بنزع الخافض الباء ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ انتهاء الخلائق ورجوعهم وهو من جملة ما فى الصحف ، وقرئ بكسر « إن » استئنافاً فلا يكون منه . قال فى الجواهر : وحق لعبد يعلم أنه إلى ربه منتهاه أن يرفض هواه ويزهد فى دنياه ويقبل بقلبه إلى مولاه ويقتدى بنبيٍّ فضله الله على خلقه وارتضاه ، وحسبك من زهده أنه توفى ودرعه مرهونة وهو يقول اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً ، وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام حتى مضى لسبيله ولم يبث شكوى إلى أحد وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى وكان يقول « مالى وللدنيا إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ماهو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدُنى أستحيي إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى غداً دونهم وما من شيء أحب إلىّ من اللحوق بإخوانى » . اهـ . مع بعض اختصار ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ﴾ من شاء أى فرحه ﴿وَأَبْكَىٰ﴾ من شاء أى أحزنه ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ لا يقدر على الإماتة والإحياء غيره وفى الكلام مراعاة النظير مع اللف والنشر ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ منيٍّ ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ تصب فى الرحم من منى وأمنى أو تقدر من منى المانى ، قدر وأكد فى الأولين بضمير الفصل لمظنة وهم الغير دون هذا إذ لا مجال للوهم فيه ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ﴾ بالقصر للجمهور والمد لابن كثير وأبى عمرو وكلاهما مصدر نشأه ﴿الْأُخْرَىٰ﴾ الخلقة الأخرى للبعث عليه ذلك وفاء بوعده ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ الناس بالكفاية من الأموال ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أعطى المال المتخذ قنية زيادة على قدر الحاجة وهى المال المحفوظ لا للتجارة أو معناه أرضى من القنى كإلى وهو الرضى بأنى من قنى يقال قناه الله يقنيه وأقناه أرضاه وقنى الغنم كغنى ما يتخذ منها لولد أو لبن واوى . وعن أبى زيد : تقول العرب : من أُعطى مائة من المعز فقد أعطى الغنى ومن أعطى مائة من الضأن فقد أعطى القِنا ومن أعطى مائة من الإبل فقد أعطى المنى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ كوكب مضىء خلف الجوزاء ، ويقال له مرزم الجوزاء تعبده خزاعة وأول من عبده ابن أبى كبشة أحد أجداد رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة أمه خالف قريشاً بذلك وكانوا يسمون النبى صلى الله عليه وسلم ابن أبى كبشة لما خالف دينهم فردهم الله بأنه خالقه فى عبادتها . وأعلم أن الله هو رب الشعرى وهى النكتة فى ذكرها والله أعلم ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ بإدغام تنوين « عاداً »

فى لام التعريف من « الأولى » بعد نقل حركة الهمزة إليها لنافع وأبى عمرو وبإسكان لام التعريف وكسر التنوين الذى فى عاداً لالتقاء الساكنين للباقين هم قوم هود والأخرى عاد إرم والكلام فى تأكيد الأولين بضمير الفصل وتركه فى الأخير كما تقدم آنفاً ﴿ وَ ﴾ أهلك ﴿ ثَمُودًا ﴾ بالصرف للجمهور وعدمه لعاصم وحمزة معطوف على عاداً ولا يعمل فيه قوله ﴿ فَمَا أَبْقَىٰ ﴾ لأن ما بعد « ما » النافية لا يعمل فيما قبلها ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل عاد وثمود أهلكناهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ من عاد وثمود لطول لبث نوح فيهم وشدة إيذائهم له بالضرب حتى يغشى عليه ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ ﴾ قرى قوم لوط التى انقلبت بأهلها ﴿ أَهْوَىٰ ﴾ أسقطها بعد رفعها إلى السماء مقلوبة إلى الأرض بأمره جبريل بذلك و « المؤتفكة » منصوب بـ « أهوى » ﴿ فَغَشَّاهَا ﴾ من الحجارة بعد ذلك ﴿ مَا غَشَّىٰ ﴾ أبهم تهويلا لما صب عليها من العذاب ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ ﴾ نعمه الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿ تَتَمَارَىٰ ﴾ تتشكك أيها الإنسان أو تكذب من المذكورات وبعضها وإن كان نقما فهو نعم فى العبرة والمواعظ والانتقام للأنبياء والمؤمنين . قال أبو الطيب :

بِذا حَكَمَ الأيامُ ما بينَ أهلِها . مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قومٍ فوائدُ

﴿ هَٰذَا ﴾ القرآن أو الرسول ﴿ نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴾ من جنس الكتب المنزلة المنذرة أو من جنس الرسل المنذرين فذلك لما عنده من الآى والأحكام التى اشتمل عليها الصحف ﴿ أَزِفَتِ ﴾ قربت الساعة ﴿ الْآزِفَةُ ﴾ أى الموصوفة بالقرب فى قوله «اقتربت الساعة» ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ نفس ﴿ كَاشِفَةٌ ﴾ أى لا يكشفها ويظهرها إلا هو أو لا يقدر عليها غيره أو ليس لها من غير الله كشف على أنها مصدر كالعافية ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ ﴾القرآن ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ إنكاراً ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ تحزناً على ما فرطتم مع سماع وعده ووعيده ﴿ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾ لاهون من سمد البعير فى سيره أو مستكبرون من سمد رفع رأسه تكبراً ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ الذى خلقكم ﴿ وَاعْبُدُوا ﴾ هُ ولا تسجدوا للأصنام ولا تعبدوها .

[تم تفسير سورة النجم]

سورة القمر

مكية ـ أو إلا « سيهزم الجمع . الآية »
وهى خمس وخمسون آية

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ قرب قيامها ﴿ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ نصفين وذلك من علامات اقترابها ، روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر فلقتين على أبى قبيس وقعيقعان حتى رأوا الحراء بينهما فقال « اشهدوا » ﴿ وإِنْ يَرَوْا ﴾ أى كفار قريش ﴿ ءايَةً ﴾ تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يُعْرِضُوا ﴾ عن تأملها والإيمان بها ﴿ وَيَقُولُوا ﴾ هذا ﴿ سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ قوى من المِرّة القوة أو دائم ليس هذا وحده من سحره وكم له من هذا أو مارّ لا بقاء له يُسَلُّون بذلك أنفسهم ﴿ وَكَذَّبُوا ﴾ الحق ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فى رد الحق بعد ظهوره ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ ﴾ من الخير والشر ﴿ مُسْتَقِرٌّ ﴾ إلى غاية أى كل أمر له نهاية يثبت فيها مستأنف جار مجرى المثل أو كل من أمره وأمرهم مستقر بأهله فى الجنة أو النار أو فى النصر أو الخذلان ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ﴾ فى القرآن ﴿ مِنَ الْأَنْبَاءِ ﴾ أخبار الأمم المكذبة وأخبار القيامة ﴿ مَا ﴾ موصولة أو موصوفة ﴿ فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ ازدجار عن الكفر والمعاصى اسم مصدر أو مكان والدال بدل من تاء الافتعال من زجرته نهيته بغلظة ﴿ حِكْمَةٌ ﴾ خبر مبتدإ محذوف أو بدل من « ما » أو مزدجر ﴿ بَالِغَةٌ ﴾ غايتها لا خلل فيها ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ ما تنفع فيهم بعدها نفى أو استفهام إنكار جمع نذير بمعنى منذر أى الأمور المنذرة لا تغنى شيئا بعد وصول الأمر إلى الغاية وعلى الاستفهام فما مفعول مقدم ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ بعد علمك أن الإنذار لا يغنى فيهم « و » فائدة ما قبله وبه تم الكلام ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ هو إسرافيل وناصب يوم يخرجون بعد أو اذكر أثبت الياء ورش وأبو عمرو وَصْلاً والبزى وصلا ووقفا وحذفها الباقون منها اكتفاء بالكسرة ﴿ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ﴾ بضم الكاف للجمهور وسكونها لابن كثير منكر تنكره النفوس لفظاعته لأنها لم تعهد مثله وهو الحساب يوم القيامة ﴿ خُشَّعاً ﴾ بضم الخاء وفتح الشين مشددا لنافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وبفتحها وكسر الشين المخففة بعد ألف للباقين ﴿ أَبْصَارُهُمْ ﴾ أى ذليلة حال من فاعل ﴿ يَخْرُجُونَ ﴾ أى الناس ﴿ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ القبور لهول ما رأوا ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ فى الكثرة والتموج والانتشار فى الأمكنة لا يدرون أين يذهبون من الخوف والحيرة والجملة حال من فاعل يخرجون وكذا قوله ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ مسرعين مادى أعناقهم أو ناظرين ﴿ إِلَى الدَّاعِ ﴾ وفى

الياء ما تقدم ﴿ يَقُولُ الْكَٰفِرُونَ ﴾ منهم ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعب على الكفار لما يرون من مخايل الشدة ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ قبل قريش ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ تسلية وترهيب ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ نوحا تفصيل بعد إجمال أو كذبوه تكذيبا إثر تكذيب كلما مضى قرن تبعه آخر أو كذبوا الرسل رأسا فكذبوه لأنه من جملتهم ﴿ وَقَالُوا ﴾ هو ﴿ مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ انتهر بالسب والضرب وغير ذلك عن التبليغ، وأوثر بناء المفعول تطهيراً للألسنة عن ذكرهم ودلالة على أن فعلهم أسوأ من قولهم ولتوافق الفواصل ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ بعد ما أيس منهم ومن أولادهم وأحفادهم ﴿ أَنِّي ﴾ بالفتح أى بأنى ﴿ مَغْلُوبٌ ﴾ غلبنى قومى ﴿ فَانْتَصِرْ ﴾ انتقم لى منهم ﴿ فَفَتَحْنَا ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر لكثرة الابواب ﴿ أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ منصب انصبابا شديدا لم ينقطع أربعين يوما ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ جعلنا الارض كلها كأنها عيون أصله فجرنا عيون الارض عدل إلى المنزل للمبالغة ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ ماء السماء وماء الارض ﴿ عَلَىٰ أَمْرٍ ﴾ حال ﴿ قَدْ قُدِرَ ﴾ قضى به فى الأزل وهو هلاكهم غرقا ﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ نوحا ﴿ عَلَىٰ ﴾ سفينة ﴿ ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ أخشاب عريضة ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ مسامير جمع دسار ككتاب ما تشد به الالواح أقيمت الصفة مقام الموصوف كناية كقولهم فى الإنسان مستقيم القامة وفيه فخامة ليست فى الأصل وإشارة إلى كمال الاقتدار لبعد حال الخشب والحديد عن دفع ذلك الطوفان العظيم ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منا أى محفوظة ﴿ جَزَاءً ﴾ علة للفتح وما بعده أى أغرقوا انتصارا ﴿ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ وهو نوح عليه السلام لأن كل نبى نعمة من الله ورحمة على أمته ، وقرئ «كَفَرَ» بالبناء للفاعل أى أغرقوا عقابا لهم ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا ﴾ أى السفينة أو هذه الفعلة أبقيناها ﴿ آيَةً ﴾ يعتبر بها إذ شاع خبرها واستمر وتواتر فى أقطار الارض فى الأعصار كلها إلى آخر الدهر . قال قتادة : أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أوائل هذه الأمة ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ معتبر متعظ وأصله مذتكر أبدلت التاء دالا مهملة وكذا المعجمة وأدغمت فيها ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ إنذارى أو جمع نذير استفهام تعجب وتهويل وكيف خبر كان وهى للسؤال عن الحال والمعنى حمل المخاطبين على الإقرار بوقوع عذابه تعالى بالمكذبين لنوح موقعه وتعجيبهم بذلك ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ ﴾ سهلناه ﴿ لِلذِّكْرِ ﴾ للحفظ أو هيأناه للتذكر لاشتماله على نبإ الأولين والآخرين وتسهيله للحفظ بحسن النظم وشرف المعانى فله حلاوة فى القلوب وامتزاج بالعقول السليمة لا تمله مع إنزاله على سبعة أحرف بحسب لغات القبائل الأصول تيسيرا على العرب ولكن كون المراد تيسير التذكر أوفق بالمقام ولذا أعاده مرارا ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ متعظ استدعاء وحض على أن تكون زواجره وعلومه حاضرة فى الأنفس أى احفظوه أو اتعظوا به وليس يحفظ من كتب الله عن ظهر القلب غيره ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ نبيهم هودا فعذبوا ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ إنذاراتى لهم بالعذاب قبل نزوله وبعده لمن بعدهم أى وقع موقعه وبين العذاب بقوله ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

ريحا صرصراً ﴾ شديد الصوت من الصرير أو البرد من الصّر بكسر الصاد ﴿ فى يوم نحس ﴾ شؤم ﴿ مستمر ﴾ دائم الشؤم عليهم حتى أهلكهم جميعاً أو شديد مرارته وإنما أفرد اليوم هنا مع جمعه فى فصلت والحاقة لإرادة الوقت واستمراره امتداده أياما فوافق ما هناك ﴿ تنزع الناس ﴾ بيان لشؤمه أى تقلعهم عن أماكنهم حيث كانوا مصطفين آخذين بأيدى بعض ومن الحفر التى حفروا واندسوا فيها ومن الشعاب التى دخلوها فتنزعهم منها وتقلع رءوسهم وتبقى الجثة ساقطة على الأرض ﴿ كأنهم ﴾ وحالهم ما ذكر ﴿ أعجاز ﴾ أصول ﴿ نخل منقعر ﴾ منقلع عن مغارسه ساقط على الأرض شبهوا به فى الطول وعدم الرءوس والانقلاع لأن المنقلع هو الذى ينزع من قعره شبه تلك الحفر بعد نزعهم بحفر أعجاز النخل المغروسة بعد قلعها وذكّر وصف النخل هنا وأنث فى الحاقة مراعاة للفظ والمعنى والفواصل فى الموضعين ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ كرره للتهويل ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر • كذبت ثمود بالنذر ﴾ بالإنذارات التى أنذرهم بها نبيهم صالح إن لم يؤمنوا أو بالآيات أو بالرسل المنذرة جمع نذير بمعنى منذر ﴿ فقالوا أبشراً ﴾ منصوب على الاشتغال والنصب هنا أولى من الرفع ﴿ منا ﴾ من جنسنا وجملتنا لا فضل له علينا ﴿ واحداً ﴾ صفتان لبشرا أى ليس من طائفة أخرى حتى تكون له المزية موصوفا بالوحدة لا تبعه له ﴿ نتبعه ﴾ مفسر للفعل الناصب له والاستفهام بمعنى النفى أى كيف نتبعه ونحن جماعة كثيرة وهو واحد منا ليس بملك ولا رئيس ﴿ إنا إذاً ﴾ إن اتبعناه ﴿ لفى ضلال ﴾ ذهاب عن الصواب ﴿ وسعر ﴾ جنون أو احتراق نفس حنقاً فهو جمع سعير حينئذ ﴿ أألقى الذكر ﴾ الوحى ﴿ عليه من بيننا ﴾ وفينا من هو أحق منه بذلك بكثرة المال والجاه أى لم يوح إليه ﴿ بل هو كذاب ﴾ فى قوله أوحى إليه ما ذكره ﴿ أشر ﴾ متكبر بطر حمله بطره على طلب الترفع علينا . قال تعالى ﴿ سيعلمون ﴾ بالياء للجمهور والتاء لابن عامر وحمزة على الالتفات أو حكاية ما أجابهم به صالح ﴿ غداً ﴾ فى الآخرة لأن الدنيا والآخرة يومان ﴿ من الكذاب الأشر ﴾ الذى حمله تكبره على رد الحق وطلب الباطل أصالح أم من كذبه ﴿ إنا مرسلو الناقة ﴾ مخرجوها من الصخرة كما سألوا ﴿ فتنة لهم ﴾ امتحانا مفعول له أو حال ﴿ فارتقبهم ﴾ يا صالح أى انتظر ما هم صانعون وما يصنع بهم ﴿ واصطبر ﴾ على أذاهم والطاء بدل من تاء الافتعال ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة ﴾ مقسوم ﴿ بينهم ﴾ وبين الناقة فيوم لها ويوم لهم فى الضمير تغليب العقلاء ﴿ كل شرب ﴾ نصيب من الماء ﴿ محتضر ﴾ يحضره صاحبه خاصة فالقوم يومهم والناقة يومها فتمادوا على ذلك ثم ملوه فهموا بقتل الناقة ﴿ فنادوا صاحبهم ﴾ قدار بن سالف أحيمر ثمود أشقى الناس . قال عليه السلام « أشقى الناس رجلان عاقر الناقة وقاتل علىّ رضى الله عنه » ﴿ فتعاطى ﴾ اجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث أو تعاطى السيف أو الناقة ﴿ فعقر ﴾ ها وقتلها ، والتعاطى تناول الشىء بتكلف ونسب إليهم فى فعقروا الناقة لرضاهم بفعله وإعانتهم له ﴿ فكيف كان

عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ إنذارى لهم بالعذاب قبل نزوله أى وقع موقعه وبينه بقوله ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ صاح بهم جبريل ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ الذى يجعل للغنم حظيرة من يابس الشجر والشوك يحفظهن فيها من السباع وما سقط من ذلك فداسته هو الهشيم أو هو الحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ۝ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ ريحاً ترميهم بالحصباء وهى صغار الحجارة الواحد دون ملء الكف فهلكوا ، جمع الله عليهم أنواعا من العذاب : قلب الأرض ، وإمطار الحجارة عليهم ، والرمى بالحصباء ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ وهم ابنتاه معه ومن آمن به ﴿ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ من الأسحار أى قرب وقت الصبح من يوم غير معين ولو أريد من يوم معين لمنع الصرف لأنه حينئذ معرفة معدول عن السحر لأن حقه أن يستعمل فى المعرفة بأل وهل أرسل الحاصب على آل لوط أو لا ؟ قولان . والسحر زمن قبيل الصبح ويطلق على ما بعد انصداع الفجر ولذا يقيد الأول بالأعلى ﴿ نِعْمَةً ﴾ علة لنجينا أى إنعاماً عليه وتفضلا ﴿ مِنْ عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ ﴾ خوفهم لوط ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ أخذتنا بالعذاب ﴿ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ كذبوا بها شاكين ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ قصدوا الفجور بهم ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ بصفق جبريل بأن سويناها بسائر الوجه ، وتقدمت القصص ﴿ فَذُوقُوا ﴾ أى فقلنا لهم ذوقوا ﴿ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ إنذارى أى ثمرته ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً ﴾ أول طلوع الفجر من يوم غير معين ﴿ عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ بهم لا يفارقهم حتى يسلمهم إلى النار ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ قيل لهم ذلك عند قلب الأرض عليهم والأول عند الطمس ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أعاده فى كل قصة تجديداً للاتعاظ وحثاً على الاستيقاظ لئلا تستولى على الناس الغفلة وهكذا شأن كل تكرير فى القرآن كـ «فبأى آلاء ربكما تكذبان» و «ويل يومئذ للمكذبين» ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ قومه معه ﴿ النُّذُرُ ﴾ الإنذارات على لسان موسى وهارون ولم يؤمنوا بها ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ التسع التى أوتيها موسى ﴿ كُلِّهَا ﴾ لم يعطف بالفاء اكتفاء بالاتصال معنى وإشارة إلى شدة كفرهم كأن تكذيبهم كان مع مجىء تلك الآيات ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ لا يغالب ﴿ مُقْتَدِرٍ ﴾ لا يعجزه شىء وترك ذكر التيسير والادكار هنا لأنه آخر القصص فاختصر ليدل الاختصار على الاقتصار وهذا من أسرار التنزيل كما قدمنا مثله فله دره ﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ يا قريش ﴿ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ ﴾ المذكورين من قوم نوح إلى فرعون المهلكين زينة وأموالا وقوة وأسباباً وشكيمة وعناداً أى ليس الأمر كذلك بل هؤلاء أقل فى ذلك أو المعنى : أكفاركم خير منهم مكانة عند الله ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ ﴾ من العذاب ﴿ فِي الزُّبُرِ ﴾ الكتب السماوية والاستفهام فى الموضعين بمعنى النفى أى ليس الأمر كذلك ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ ﴾ جماعة أمرنا مجتمع ﴿ مُنْتَصِرٌ ﴾ ممتنع لا يرام ، وأفرد الضمير باعتبار لفظ الجميع وعدل عن الخطاب كأنه

يحكي جهلهم لغيرهم كما يقول المولى بعد استيفاء عتاب عبده : أبه جنون ؟ ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ أى جمعهم ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ أى الأدبار ، أفرد لإرادة الجنس أو باعتبار كل واحد وقد هزموا ببدر ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم وهى من الآيات المخبرة عن الغيب ، وعن عمر رضى الله عنه لما نزلت : لم أعلم ما هم فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول « سيهزم الجمع » فعرفت تأويلها . قلت : وهذا يؤيد قول الجمهور أن الآية مكية وإنما جاء تأويلها يوم بدر وقيل لما قال أبو جهل يوم بدر : إنا جمع منتصر ، نزلت ، والأول أظهر ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ الأصلى بالعذاب وما يحيق بهم فى الدنيا فمن طلائعه ﴿ وَالسَّاعَةُ ﴾ أى عذابها ﴿ أَدْهَى ﴾ أشد بلية والداهية داء لا دواء لها ، وأعاد لفظ الساعة تهويلا ﴿ وَأَمَرُّ ﴾ أشد مرارة من عذاب الدنيا القتل والأسر ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ ﴾ عن الحق فى الدنيا ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ جنون أو نيران مسعرة بالتشديد أى مهيجة فى الآخرة ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ ظرف لسعر أو بدل اشتمال منه ويقال لهم ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ إصابة جهنم لكم وألمها فإن مسها سبب للتألم بها يلوح حارة ، و « سقر » علم لنار الآخرة ولذلك لم يصرف من سقرته إذا لوحته ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ ﴾ منصوب بفعل يفسره ﴿ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ أى ملتبساً بما سبق من التقدير فى الأزل وسطر فى اللوح فهو حال من « كل » ﴿ وَمَا أَمْرُنَا ﴾ لشىء نريد وجوده ﴿ إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ إلا فعلة واحدة بلا آلة وأسباب أو إلا كلمة واحدة وهو « كن » ﴿ كَلَمْحٍ ﴾ كخطف ﴿ بِالْبَصَرِ ﴾ فى السرعة واليسر ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أشباهكم فى الكفر من الأمم الماضية ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ متعظ منكم بقضية أولئك ا استفهام بمعنى الأمر أى اد؟ روا واتعظوا ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ ﴾ أى العباد مكتوب ﴿ فِي الزُّبُرِ ﴾ كتب الحفظة فيجازون عليه ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ من قول أو فعل أو اعتقاد ﴿ مُسْتَطَرٌ ﴾ مسطور فى اللوح ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ ﴾ بساتين ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ ضياء وسعة أو فى أنهار واكتفى باسم الجنس وقرئ بضم النون والهاء جمعاً كأسد وأُسُد ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم بدل من « جنات » سميت به لأنها منزل الصادقين أو لأنها مكان مرضى الخصال محمود الفعال وقرئ مقاعد صدق ﴿ عِنْدَ مَلِيكٍ ﴾ عزيز الملك واسعه حال من المستكن فى الخبر ﴿ مُقْتَدِرٍ ﴾ كامل القدرة الذى لا يعجزه شىء وهو الله تعالى ولا شىء ألذ للنفس من نيل القرب عند أهل الاقتدار ولذا يبذل الأموال والأرواح دونه مع ملوك الدنيا وينبغى للمؤمن أن يبذل نفسه فى طلب القرب من الله . رزقنا الله ذلك بمنه ورحمته الواسعة .

[تم تفسير سورة القمر]

سورة الرحمن

مكية أولا «يسأله من في السموات والأرض» فمدنية
ست وسبعون آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ﴾ من شاء ﴿الْقُرْآنَ﴾ لما كانت الصورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والأخروية التى لها شأن صدرها بالرحمن براعة للاستهلال وبدأ بأجل النعم الدينية التى هى أعلى النعم وهو القرآن وتعليمه فإنه الحاوى لأصول الدين وفروعه الموضح للسبيل المصدق لسائر الكتب والرسل ثم أتبعه خلق الإنسان الذى هو أشرف الحيوانات ليعلم أنه إنما خلقه للدين وبه كماله بقوله ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ الجنس الذى يصلح لتلقى الوحى ومعرفة الحق وتعلم الشرع وتعليمه ثم أردفه بما توقف عليه تعلم القرآن وتعليمه وبه يتميز عن سائر الحيوانات بقوله ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ المنطق الفصيح المعرب عما فى الضمير لإفهام الغير وإخلاء الجمل الثلاث التى هى أخبار مترادفة للرحمن عن العاطف لمجيئها على نهج التعديد إشارة إلى تقاعد الإنسان عن الوفاء بشكرها كما تقول زيد أغناك بعد فقر أعزك بعد ذل كثرك بعد قلّ فما تنكر بعد من إحسانه ، ثم بعد قضاء الوطر من هذا الأسلوب أفاض فى تعداد النعم واحدة إثر أخرى على النظم المعروف بحرف النسق مراعيا التقارب والتناسب بقوله ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ بجريان ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ حساب معلوم مقدر فى بروجهما أو منازلهما بلا اختلال لينضبط بذلك أحوال الكائنات السفليات ويتميز به الفصول والأوقات ﴿وَالنَّجْمُ﴾ ما لا ساق له من النبات ﴿وَالشَّجَرُ﴾ ما له ساق ﴿يَسْجُدَانِ﴾ ينقادان لله فيما يريد بهما طبعا انقياد الساجد من المكلفين طوعا وارتباط الجملتين بما تقدم معنوى وذلك أنه لما رمز إلى تقاعده فى الشكر أخذ فى تعداد نعم أخرى حثا له على ماطلب منه ولو عطف لم يفد هذا الغرض وفيهما إشارة إلى أن مافى العالم العلوى والسفلى قائم بما خلق له والإنسان مع كونه المقصود من الكون خسر بذلك وكان ظلوما جهولا ، قاله فى غاية الأمانى . قلت ولا يخفى ما فى عطف النجم على الشمس والقمر من إيهام النظير وما بين الشمس والقمر وبين النجم والشجر من مراعاة النظير ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ محلا ورتبة لأنها محل ملائكته ومنشأ أحكامه ومصدر أقضيته ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أثبت العدل الذى هو قانون الشرع الذى به النظام بين الأنام فى توفية كل ذى حق حقه قال عليه السلام بالعدل قامت السموات والأرض ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ لأجل أن لا تجوروا ﴿فِي الْمِيزَانِ﴾ الإنصاف بألا تتجاوزوه بالزيادة والنقصان فيورثكم الخسران ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ﴾ اجعلوا وزن

أعمالكم قويما لا عوج فيه ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل السوىّ وهو ما اقتضاه الشرع ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ لا تنقصوه فان من حقه أن يسوى أى لا تنقصوا ما وجب عليكم وتكريره مبالغة فى التوصية به ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾ خفضها مدحوة ﴿ لِلْأَنَامِ ﴾ الخلق أوكل ذى روح منه لئلا يشق عليهم التصرف والتردد فيها فى اكتساب المعاش والمعاد ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ ضروب مما يتفكه به ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ أوعية الثمر جمع كِمّ بالكسر وعاء الطلع أو أريد به كل ما يغطى من ليفه وسعفه وكُفُرّاه وبالجملة ليس فى النخل ما لا ينتفع به ﴿ وَالْحَبُّ ﴾ كالحنطة والشعير وسائر ما يتغذى به ﴿ ذُو الْعَصْفِ ﴾ التبن وهو ورق النبات اليابس ﴿ وَالرَّيْحَانُ ﴾ يعنى المشموم أو الرزق من قولهم خرجت أطلب ريحان الله أى رزقه وهو فيعلان من الروح قلبت واوه ياء وأدغم ثم خفف ، قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم برفع الثلاثة النخل وما بعدها عطفا على الاسمية وابن عامر بنصبها عطفا على الفعلين بتقدير خلق وحمزة والكسائى بجر الثالث ورفع الأولين أى ذو العصف والريحان وفى ذكرها على هذا الأسلوب ترقّ من الأدنى إلى ما هو أعلى فى الامتنان على وجه استوعب فيه أقسام ما يتناول فى الرفاهية لأنه إما للتلذذ وهو الفاكهة أو له وللتغذى وهو ثمر النخل أو للتغذى وحده وهو الحب والله أعلم ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله للأنام وقوله الآتى أيها الثقلان وذكرت إحدى وثلاثين مرة والاستفهام فيها للتقرير لما روى الحاكم عن جابر قال قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال مالى أراكم سكوتا لَلْجِنُّ كانوا أحسن مَرَدًّا منكم ما قرأت عليهم هذه الآية إلا قالوا : ولا بشىء من نعمائك ربنا نكذب فلك الحمد . انتهى وتكريرها للتأكيد وطرد الغفلة وقيل لما اختلفت النعم المذكورة كرر التوقيف مع كل واحدة منها قال ابن عطية وهذا أحسن ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ آدم ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ طين يابس يسمع له صلصلة أى صوت إذا نقر ﴿ كَالْفَخَّارِ ﴾ الخزف وهو ما طبخ من الطين بعد الصنعة ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ ﴾ الجن أو أبا الجن وهو إبليس ﴿ مِنْ مَارِجٍ ﴾ من لهب خالص من الدخان مضطرب أو مختلط من الدخان أصفر وأخضر وأحمر ﴿ مِنْ نَارٍ ﴾ من للبيان لمارج على الأول وللابتداء على الثانى ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا ﴾ مما أفاض عليكما فى خلقكما ﴿ تُكَذِّبَانِ ﴾ إذ نعمة الإيجاد أجل الإنعامات ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ مشرق الشتاء والصيف ﴿ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ مغربيهما ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مما فى ذلك من الفوائد التى لا تحصى كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل فيه إلى غير ذلك ولا تخفى مناسبة تثنية المشرق والمغرب فى هذه السورة لأن سياقها زوجان ﴿ مَرَجَ ﴾ أرسل ﴿ الْبَحْرَيْنِ ﴾ العذب والملح ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ فى رأى العين ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ حاجز من قدرته تعالى يمنع أحدهما من التعدى على الآخر كما قال ﴿ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ لا يبغى واحد منهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية وقيل المراد بهما بحر فارس والروم يلتقيان فى المحيط لأنهما خليجان يتشعبان منه وضمّه فى غاية

الأمانى قال ابن عطية والظاهر عندى أن المراد بهما نوعى الماء العذب والأجاج خلطهما الله فى الأرض وأرسلهما متداخلين فيها قريب بعضها من بعض ولا بغى انتهى . ﴿فَبِأَيِّ ءالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما فى ذلك من الدلائل الدالة على كال اقتداره الموصل إلى الإيمان الذى كل نعمة دونه ﴿يَخْرُجُ﴾ بالبناء للمفعول لنافع وأبى عمرو ، وللفاعل للباقين ﴿مِنْهُمَا﴾ من مجموعهما الصادق بأحدهما وهو الملح فى المواضع التى تقع فيها الأنهار والمياه العذبة فلذلك قال منهما ﴿اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ فالاول أبيض يَقَقٌ والثانى أحمر قانٍ وقيل هو صغار اللؤلؤ وقيل اللؤلؤ والمرجان يخرجان من الملح والعذب مما حكاه الاخفش عن قوم وقال ليس لمن رده حجة قاطعة ومن أثبت أولى ممن نفى قال أبو حيان وهذا هو الظاهر انتهى ، قلت الأول هو قول الجمهور ﴿فَبِأَيِّ ءالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من كونهما من فواخر النعم ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾ السفن الجارية فى البحر ﴿الْمُنْشَآتُ﴾ بفتح الشين للجمهور المحدثات أو المرفوعات الشرع ، وبكسرها لحمزة وأبى بكر أى رافعات الشرع أو الموج ﴿فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ كالجبال الطوال عظما وارتفاعاً ﴿فَبِأَيِّ ءالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من خلق السفن والإرشاد إلى ركوبها وإجرائها فى البحر لمنافع العباد ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أى الأرض من الثقلين أو الموجودات و « مَن » لتغليب العقلاء ﴿فَانٍ﴾ هالك ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ذاته ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ العظمة ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ للمؤمنين أو ذو الاستغناء المطلق والفضل العام وقدم صفة الفناء لأنه فى مقام الجلال وقهر الخلق بالفناء ﴿فَبِأَيِّ ءالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما أخبر من إبقاء مالايحصى مما هو على صدد الفناء رحمة وفضلا وما يترتب على إفناء الكل من الإعادة والحياة الدائمة والنعيم المقيم ﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بنطق أو حال مايحتاجون إليه من القوة على العبادة والرزق والمغفرة وغير ذلك لافتقار الكل إليه ابتداء وبقاء ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ وقت ﴿هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ أمر يظهره على وفق ما قدره فى الأزل من إحياء وإماتة وإعزاز وإذلال وإغناء وإعدام وإجابة داع وإعطاء سائل وغير ذلك ﴿فَبِأَيِّ ءالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من إسعاف سؤالكما وإخراجكما من العدم حيناً لحيناً وجلب نفع ودفع ضر فى الدنيا والدين ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ بالنون للجمهور والياء لحمزة والكسائى سنقصد لحسابكم وجزائكم وهو كناية عن توجه الإرادة إلى الانتقام ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ الإنس والجن لأن الأرض لهما كالحمولة أو لأنهما مثقلان بالتكليف ﴿فَبِأَيِّ ءالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من ترهيبكما بما ذكر والحث على الطاعة ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا﴾ تخرجوا ﴿مِنْ أَقْطَارِ﴾ نواحى ﴿السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ أمر تعجيز يقال لهم ذلك يوم القيامة حين حفتهم سبعة صفوف من الملائكة « يقول الإنسان يومئذ أين المفر » وقيل مخاطبة فى الدنيا أى إن استطعتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الموت ومن قضاء الله فاخرجوا . قال فى الجواهر : والصواب الأول . اه . وتقديم الجن لأنهم أعتى وأشد قوة ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ بقوة ولا قوة لكم على ذلك ﴿فَبِأَيِّ ءالَاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من التحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ ﴾ بضم الشين للجمهور وكسرها لابن كثير أى لهب ﴿ مِنْ نَارٍ ﴾ خالص من الدخان أو معه ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ صفر مذاب بالرفع للجمهور أى يرسل عليهما ، وبالجر لابن كثير وأبي عمرو عطفاً على المجرور أى من نار ومن نحاس أي دخان ، وأنشدوا : تُضِيءُ كَضَوْءِ السِّرَاجِ السَّلِيطِ • لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نُحَاسَا ﴿ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾ تمتنعان من ذلك بل يسوقكم إلى المحشر أو يحرقكم ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه التهديدات لأنها لطف بكبحها عنان العاصي وحثها الطائع على المزيد ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ لنزول الملائكة ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ أى حمراء كلون الورد ﴿ كَالدِّهَانِ ﴾ كالأديم الأحمر أو إذا انشقت وكانت حمراء مذابة من حر نار جهنم أو من شدة الهول كالدهان كالزيت المذاب الذى يدهن به كقوله « يوم تكون السماء كالمهل » والدهان اسم لما يدهن به كالحزام واللثام والختام وجواب «إذا» محذوف أى فما أعظم الهول أو الجواب فيومئذ الآية ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من التهديد بهذه الأهوال ومن حذر كمن بشر ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم والمراد باليوم الوقت أى وقت خروجهم من القبور والحشر إلى الموقف قبل فصل القضاء وبعد ذلك يسألون « فوربك لنسألنهم أجمعين » والجان هنا وفيما يأتي بمعنى الجنى والإنس بمعنى الإنسى ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مما أخبركما وما أنعم به على المؤمنين فى ذلك اليوم ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أى سواد الوجوه وزرقة العيون والحزن ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ تضم ناصية كل إلى قدميه من خلف أو قدام ويلقى فى النار ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذا التهديد ويقال لهم ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا ﴾ بين النار يحرقون بها ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ ﴾ ماء حار ﴿ آنٍ ﴾ بالغ نهاية الحرارة يسقونه ويصب على رءوسهم ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذا ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ قيامه بين يديه للحساب وترك معصيته ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ جنة للخائف الإنسى والأخرى للجنى أو لكل واحد جنة لعقيدته وأخرى لعمله أو لطاعته وترك معاصيه أو للثواب والتفضل أو روحانية وجثمانية وكذا ما جاء مثنى بعد ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه . قال فى غاية الأمانى : وجعلُ إحداهما للخائف من الإنس والأخرى للخائف من الجن بعيدٌ مخالف للأحاديث ﴿ ذَوَاتَا ﴾ تثنية ذوات على الأصل ولامها ياء ﴿ أَفْنَانٍ ﴾ أغصان جمع فنن كطلل خصها بالذكر لكثرة نفعها بالظلال والثمار وحسن المنظر بأوراقها أو جمع فن أى ذواتا أنواع من الأشجار والثمار ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مما أعد لكم من هذه وأنتم فى العدم ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ حيث شاءوا فى الأعالى والأسافل ، قيل إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مما وُصف ووصفهما بالجرى لتوفر حظ الباصرة فإن النظر إلى الماء الزلال الجارى أجلب شىء للسرور ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ ﴾ ما يؤكل تلذذاً ﴿ زَوْجَانِ ﴾ صنفان ما تعلمون وما لا تعلمون أو رطب ويابس لتلاءمل والمر منهما فى الدنيا كالحنظل حلو ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه وأى نعيم أفضل من هذا التنويع ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ حال عامله محذوف أى يتنعمون والضمير لمن خاف لأنه فى معنى الجمع ﴿ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ ما غلظ من الديباج والظهائر من سندس ، وروى من نور يتلألأ ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ ﴾ أى مجنيهما وهو ثمرهما ﴿ دَانٍ ﴾ قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ فِيهِنَّ ﴾ أى فى الجنات التى لكل واحد منها جنتان أو فى الجنتين وما اشتملتا عليه من الأماكن والقصور أو فى الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش . قلت : ورجوع الضمير إلى الفرش فقط هو الظاهر الأقرب وهو القول الذى بدأ به فى الجواهر ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ العين على أزواجهن المتكئين من الإنس والجن لا ينظرون إلى الغير ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ لم يمسهن وهن من الحور أو من نساء الدنيا المنشآت ﴿ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ فهن أبكار كما خلقن لم يمس الإنسيات إنسٌ ولا الجنيات جنٌّ وفيه دليل على أن الجن يطمثون ، وقرأ الكسائى بضم الميم هنا فى رواية الدورى وبكسرها فى الثانية وفى رواية الليث عنه بالعكس ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ ﴾ صفاء ﴿ وَالْمَرْجَانُ ﴾ اللؤلؤ الصغار بياضاً أو فى صفاء الياقوت وحمرة المرجان قال فى الجواهر : الياقوت والمرجان من الأشياء التى برع حسنها واستشعرت النفوس جلالتها فوقع التشبيه بها فالياقوت فى أملاسه وشفوفه لو أدخلت فيه سلكا لرأيته من ورائه ، وكذا المرأة من نساء الجنة يُرى مخ ساقها من وراء العظم ، والمرجان فى أملاسه وجمال منظره . اهـ ، قلت : وفى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لكل واحد من أهل الجنة زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم ، وفى رواية من وراء سبعين حلة ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ هَلْ ﴾ أى ما ﴿ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ ﴾ بالطاعة ﴿ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ بالنعيم ، قال فى الجواهر : الآية وعد وبسط لنفوس جميع المؤمنين لأنها عامة . وحكى النقاش أن النبى صلى الله عليه وسلم فسر هذه الآية : هل جزاء التوحيد إلا الجنة ، ولو صح هذا الحديث لوجب الوقوف عنده ولكن الشأن فى صحته . قال الفخر : فيها وجوه كثيرة حتى قيل إن فى القرآن ثلاث آيات فى كل واحدة منها مائة قول إحداها « فاذكرونى أذكركم » ، وثانيتها « وإن عدتم عدنا » وثالثتها « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» ، ولنذكر الأشهر منها والأقرب أما الأشهر فهو هل جزاء التوحيد إلا الجنة أو هل جزاء الإحسان فى الدنيا إلا الإحسان فى الآخرة وهل جزاء من أحسن إليكم بالنعم فى الدنيا إلا أن تحسنوا له العبادة والتقوى ، وأما الأقرب فهو التعميم أى لأن لفظ الآية عام . اهـ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا ﴾ أى دون الجنتين الأوليين فى الشرف لأنهما للخائفين المقربين ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ لمن دونهم من أصحاب اليمين . روى البخارى عن عبد الله بن قيس عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما » وفى اللفظ دلالة على المزية للأوليين وعليه الأكثر ، وروى عن ابن عباس أن المعنى أنهما دونهما فى القرب إلى المنعمين

وأنهما أفضل من الأولين واختاره الترمذى الحكيم وأطنب فى الاحتجاج له فى نوادر الأصول له . والله أعلم ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ سوداوان من شدة خضرتهما من الرىّ فى مقابلة « ذواتا أفنان » . قال البيضاوى : وفيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض وعلى الأولين الأشجار والفواكه دلالة على ما بينهما من التفاوت ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ فوّارتان بالماء لا ينقطعان فى مقابلة تجريان والنضخ أقل من الجرى ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ هما منها ذكرا لفضلهما وقيل غيرهما ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ ﴾ أخلاقاً والأصل خيّرات مشدداً لخفف ، لا جمع خير اسم التفضيل إذ ذاك لا يجمع هذا الجمع ﴿ حِسَانٌ ﴾ جميلات وجوها ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ حُورٌ ﴾ شديدات السواد سواد العيون وبياضها ﴿ مَقْصُورَاتٌ ﴾ مستورات مخدرات ﴿ فِى الْخِيَامِ ﴾ من درّ مجوف مضافة إلى القصور شبيهة بالخدور لا يخرجن منها ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ ﴾ قبل أزواجهن ﴿ وَلَا جَانٌّ ﴾ كما تقدم ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ أى أزواجهن وإعرابه كما تقدم ﴿ عَلَىٰ رَفْرَفٍ ﴾ جمع رفرفة أى بسط من حرير تدلى من الأسرة ﴿ خُضْرٍ ﴾ ويطلق الرفرف على كل ثوب عريض ، وكونه أخضر لأنه لون مفرح ﴿ وَعَبْقَرِىٍّ ﴾ جمع عبقرية أى جنسها أى طنافس وهى بسط فيها صور تنسب إلى عبقر تزعم العرب أنه اسم بلد للجن ينسبون إليه كل شىء عجيب ﴿ حِسَانٍ ﴾ صفة عبقرى لأنه بمعنى الجنس ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ تعالى اسمه وكثر خيره أراد بالاسم لفظ « الرحمن » الذى عقبه هذه النعم أو كل اسم له فإنه لا يبدأ به شىء إلا صار ذا بركة ﴿ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ بالجر للجمهور والرفع لابن عامر صفة للاسم وفيه مبالغة حسنة وقيل لفظ اسم مقحم ، والله أعلم .

[تم تفسير سورة الرحمن]

سورة الواقعة

مكية أو إلا أفبهذا الحديث الآية وثلة من الأولين وهى ست أو سبع أو تسع وتسعون آية
من داوم على قراءتها لم يفتقر كما فى الحديث

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ القيامة أو نفختها سميت واقعة لتحقق وقوعها وانتصاب إذا بمحذوف أى كان كيت وكيت أو بقوله ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا ﴾ أى وقت وقوعها ﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ نفس تكذب فى نفيها كما تكذب الآن واللام للوقت مثلها فى قدمت لحياتى أو ليس لها حينئذ نفس تحدث صاحبها بإطاقة شدتها واحتمالها من قولهم كذبت فلان نفسه فى الخطب العظيم إذ سولت له أن يطيقه أو مصدر كالعافية ﴿ خَافِضَةٌ ﴾ لأقوام ﴿ رَافِعَةٌ ﴾ لآخرين لقوم ويل ولقوم نيل تقرير لعظمتها فإن الوقائع العظام كذلك أو بيان لإزالة الأجرام حينئذ عن مقارها بنثر الكواكب وتسيير الجبال فى الجو ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴾ حركت حركة شديدة بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل والظرف متعلق بخافضة أو بدل من إذا وقعت ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ ﴾ فتت ﴿ بَسًّا ﴾ من بسّ السويق أو سيرت من بسّ الغنم إذا ساقها وفى الحديث إذا فتحت العراق يأتى قوم يبسون بأهليهم ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً ﴾ غبارا ﴿ مُنْبَثًّا ﴾ منتشرا والهباء ما يتطاير من الأجزاء الدقيقة ولا يكاد يرى إلا فى الشمس إذا دخلت من كوة ، قاله ابن عباس ﴿ وَكُنْتُمْ ﴾ فى القيامة ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ أصنافا ﴿ ثَلَاثَةً ﴾ وكل صنف يكون أو يذكر مع صنف آخر زوج قال قتادة هذه منازل الناس يوم القيامة ﴿ فَأَصْحَابُ ﴾ الجهة ﴿ الْمَيْمَنَةِ ﴾ أى اليمين وهم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم أو يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة أى يمين العرش مبتدأ خبره ﴿ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ تعظيم لشأنهم أى هل تدرى ما صفتهم وما هم فيه وأقام الظاهر مقام المضمر لما فيه من الفخامة ﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أى الشمال بأن يؤتى كل منهم كتابه بشماله أو يؤخذ بهم ذات الشمال ﴿ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ تحقير لشأنهم أو المراد أصحاب المنزلة السنية وأصحاب الدنية من اليمن أى البركة والشؤم ضده ومعنى الاستفهام التعجيب من حال الفريقين ﴿ وَالسَّابِقُونَ ﴾ إلى الخير من الإيمان وجميع الفضائل والكمالات مبتدأ والخبر ﴿ السَّابِقُونَ ﴾ أى هم هم فى رفعة الشأن كقوله • أنا أبو النجم وشعرى شعرى • أو السابقون إلى الجنات وهم الأنبياء وسابقو أممهم ، قال فى غاية الأمانى وتخصيصهم بالأنبياء مما لا وجه له انتهى ، ويحتمل

أن يكون الثانى تأكيدا لتعظيم شأنهم والخبر ﴿ أُولَٰٓئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى الموصوفون بالسبق هم الذين قربت درجاتهم من الله ﴿ فِى جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴾ والقربة أعلى منازل البشر فى الآخرة . هم ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ جماعة كثيرة من الثل وهو الصب وهو خبر محذوف كما قدرناه ﴿ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ الأمم السالفة من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ أمة محمد وهم سابقوها ولا ينافى كونها أكثر أهل الجنة لأن الكلام فى السابقين فالسابقون من أولئك أكثر من سابقى هذه الأمة ، قال فى غاية الأمانى : روى هذا عن الحسن وهو قول لا سند له بل السابقون واللاحقون من هذه الأمة والأولون هم أوائل هذه الأمة الذين أشار إليهم النبى بأنهم خير القرون السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ا ه. وروى عن عائشة أن الفرقتين فى أمة كل نبىّ . والله أعلم بما أراد ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ ﴾ خبر آخر للضمير المحذوف ﴿ مَّوْضُونَةٍ ﴾ منسوجة بقضبان الذهب والجواهر داخلا بعضها فى بعض كحلق الدرع من الوضن وهو نسج الدرع ومنه الوضين حزام الناقة ، أو متدانية أدنى بعضها من بعض ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴾ حالان من الضمير فى « على سرر » ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ للخدمة ﴿ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ على شكل الأولاد لا يهرمون قيل هم أولاد الكفار أو أولاد المسلمين الذين ماتوا من غير عمل ﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ متعلق بيطوف جمع كوب إناء لا عروة له ولا خرطوم ﴿ وَأَبَارِيقَ ﴾ لها عرى وخراطيم ﴿ وَكَأْسٍ ﴾ إناء شرب الخمر وهى فيها ﴿ مِّن مَّعِينٍ ﴾ من عين جارية من منبع لا ينقطع أبدا ليست كخمر الدنيا التى توخت فى الدن ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ ﴾ لا يحصل لهم صداع ﴿ عَنْهَا ﴾ بشربها ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ بفتح الزاى مبنيا للمفعول للجمهور وبكسرها للفاعل من أنزف الكوفيين لا يسكرون ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ يختارون ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ يستلذون به ﴿ وَ ﴾ لهم للاستمتاع ﴿ حُورٌ ﴾ بيض وهو بالرفع للجمهور مبتدأ محذوف الخبر كما قدرناه أو عطف على ولدان ، وبالجر لحمزة والكسائى عطف على جنات أى فى جنات النعيم ومعاشرة حور ﴿ عِينٌ ﴾ نجل العيون أى شديدات سوادها وبياضها مع سعة وهى جمع عيناء كحمراء وحمر كسرت عينه بدل ضمها لمجانسة الياء ﴿ كَأَمْثَٰلِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ المصون فى الصدف فى الصفاء والطراوة أو المخزون لشرفه وبهائه ﴿ جَزَآءًۢ ﴾ مفعول له أى جعلنا لهم ذلك للجزاء أو مصدر أى جزيناهم به جزاء ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى إن هذه الرتب والنعم لهم بحسب أعمالهم لأنه روى أن المنازل فى الجنة على قدر الأعمال ونفس دخول الجنة بفضل الله ورحمته كما فى الصحيح ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ أى فى الجنة ﴿ لَغْوًا ﴾ باطلا أو فاحشا من الكلام ﴿ وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ ما يؤثم لو كان فى الدنيا أو لا يقال لهم : أثمتم ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ قِيلًا ﴾ قولا ﴿ سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ بدل من « قيلا » فإنهم يسمعونه ، والتكرير للدلالة على فشوّ السلام بينهم أى سلاما إثر سلام « تحيتهم فيها سلام » ﴿ وَأَصْحَٰبُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ الْيَمِينِ ﴾ أى لهم شأن وأىّ شأن ثم شرع يفصله بقوله ﴿ فِى سِدْرٍ ﴾ شجر النبق ﴿ مَّخْضُودٍ ﴾ لا شوك فيه كأنه خضد ، أى :

قطع أو مثنيّ أغصانه من كثرة حمله من خضد الغصن ثناه وأماله ﴿ وَطَلْحٍ ﴾ شجر الموز أو أم غيلان وله أنوار كثيرة طيبة الرائحة ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ نضد بالثمر من أسفله إلى أعلاه وإنما خصا بالذكر لكثرتهما فى أرض العرب ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ منبسط لا يتقلص ولا يتفاوت ولا فرج فيه كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ لهم على الدوام أين شاءوا وكيف شاءوا أو مصبوب سائل ولما شبه حال السابقين فى التنعم بأعلى ما يتصور لأهل المدن ، شبه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يتمناه أهل البوادى إشعاراً بالتفاوت بين الحالين بقوله ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أنواعها ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ ﴾ فى وقت كفاكهة الدنيا ﴿ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ لمتناولها بوجه ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ على السرر ارتفاعها كما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام أو كناية عن الحور المرتفعة على الأرائك ويدل عليه قوله ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ جديداً وهن الحور أو نساء الدنيا ، والضمير للفرُش إن كانت كناية عن النساء أو لما دل عليه ذكر الفرش وإن لم يسبق له ذكر ، وعن أم سلمة : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله « إنا أنشأناهن » فقال : «هن اللاتى كن فى الدنيا شمطاً رمصاً عجائز» ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن عذارى ولا وجع ﴿ عُرُبًا ﴾ بضم الراء للجمهور وسكونها لحمزة وأبى بكر جمع عروب وهى المتحببة إلى زوجها عشقاً له وهى الغنجة عند أهل المدينة والشكلة عند أهل العراق . قاله البخارى ﴿ أَتْرَابًا ﴾ جمع ترب : مستويات فى السن والقد والشكل هن والأزواج فى طول آدم ستين ذراعا فى عرض سبعة أذرع ﴿ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ صلة : أنشأناهن أو جعلناهن ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ خبر محذوف أى هم جماعة كثيرة ﴿ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ وفيه الوجوه المتقدمة ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ فى سوء الحال ﴿ فِي سَمُومٍ ﴾ نار تنفذ فى المسام ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ ماء متناه فى شدة الحرارة ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ دخان شديد السواد يفعول من الحمة وهى السواد ﴿ لَّا بَارِدٍ ﴾ كغيره من الظلال ﴿ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ حسن المنظر : أثبت لهم الظل ثم نفى برده وروحه تهكما وتعريضاً بأن ذلك إنما يستحقه أضدادهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ فى الدنيا ﴿ مُتْرَفِينَ ﴾ منعمين منهمكين فى الشهوات أذهبوا طيباتهم فى الحياة الدنيا ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ ﴾ الذنب ﴿ الْعَظِيمِ ﴾ الكفر بالله ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ منكرين ذلك مكذبين للرسل نافين لقدرة المقتدر فيه وكررت الهمزة فى قراءة غير نافع والكسائى للدلالة على إنكار البعث مطلقا وخصوصاً فى هذه الحالة ﴿ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ بفتح الواو للعطف على المستكن فى «لمبعوثون» حسنه الفصل بهمزة الاستفهام للجمهور وهو فى ذلك وفى ماقبله للاستبعاد ، وبسكون الواو لابن عامر وقالون عطفاً بأو على محل اسم إن والعامل فى الظرف ما دل عليه مبعوثون لا هو للفصل بإن والهمزة ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ ﴾ لوقت ﴿ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ والميقات ما يوقت به الشىء أى يحد ومنه ميقات الإحرام أى إلى ما وقتت به الدنيا وحدت من يوم معين عند الله معلوم له وهو يوم القيامة

والإضافة بمعنى من ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ بالبعث قدم الضلال لأنه منشأ التكذيب ﴿ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴾ من الاولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا ﴾ من الشجر ﴿ الْبُطُونَ ﴾ لشدة الجوع ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ ﴾ الزقوم المأكول ﴿ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ لشدة العطش ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ الإبل العطاش التى لا تروى لداء يقال له الهيام بالضم جمع هيمان للذكر وهيمى للأنثى كعطشان وعطشى وقيل الرمال جمع هيام بالفتح وهو الرمل الذى لا يروى من الماء جمع على هيم كسحب ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أبيض وكل من المعطوف والمعطوف عليه أخص من الآخر من وجه فلا اتحاد ، وشرب الحميم لدفع العطش غريب كما أن شربهم شرب الهيم عجيب وهو بضم الشين لنافع وعاصم وحمزة وفتحها للباقين ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ ﴾ ما أعد لهم ضيافة ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ فما بعد النزل أطم وفى تسميته نزلا تهكم بهم لأنه ما يعد للنازل كرامة له ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أوجدناكم من عدم لا تشكون فى ذلك ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ بالإعادة فإنها أهون من الابتداء ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ تلقون فى الأرحام من النطف ﴿ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ بشرا سويا ﴿ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ أى هب أنكم لا تعلمون خلق أنفسكم ألستم تشاهدون ما يولد منكم ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن كثير ﴿ بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ قضينا بذلك وقسمناه عليكم كل بوقت معين ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ مغلوبين عاجزين يقال سبقته على كذا غلبته عليه ومنه قول الفقهاء سبق حدث أى لا يسبقنا أحد إن هرب من الموت ﴿ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ ﴾ مكانكم ﴿ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أشباهكم أو نغير صفاتكم وعلى صلة لمسبوقين على تفسيره الأول وحال أو علة لقدرنا على الثانى وعلى بمعنى اللام وما نحن بمسبوقين اعتراض ﴿ وَنُنْشِئَكُمْ ﴾ نخلقكم ﴿ فِي مَا ﴾ أى خلق أو وصف ﴿ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ما هو وما عهدتم مثله ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ ﴾ بسكون الشين والقصر للجمهور وفتحها والمد لابن كثير وأبى عمرو كما قدمنا فى العنكبوت ﴿ الْأُولَىٰ ﴾ خلق أبيكم آدم من التراب أو خلقكم ولم تكونوا شيئا ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أن من قدر عليها قدر على النشأة الاخرى وهى الإعادة فإن هذا فى غاية الظهور لا يحتاج إلى ترتيب مقدمات وفيه دليل على صحة القياس لأنه سبحانه علمهم الاستدلال بالنشأة الأولى على الأخرى ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ تبذرون حبه بعد شق الارض ﴿ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ تنبتونه وتوصلونه إلى الكمال ﴿ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ المنبتون ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ هشيما يابسا لا حب فيه ﴿ فَظَلْتُمْ ﴾ أصله ظللتم بكسر اللام حذفت تخفيفا أى أقمتم نهارا ﴿ تَفَكَّهُونَ ﴾ بحذف إحدى التاءين تعجبون من ذلك أو تندمون على تعبكم فيه وتقولون ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ مهلكون لهلاك رزقنا أو ملزمون غرامة ما أنفقنا فيه وقرأ أبو بكر بالاستفهام تعجبا ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ممنوعون رزقنا بعد قربه منا والمحروم ضد المرزوق ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ عذبا فراتا ﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ السحاب الأبيض إذ ماؤه أعذب ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ بقدرتنا ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾

مرًا يحرق الفم زعاقا لا يساغ ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ بالامتثال هذه النعم الجليلة الضرورية وإنما حذف اللام لتقدمها قريبا مع اشتهار لو بها ولأن المشروب تبع للمأكول ليدل على أن فقده أهم والاهتمام به أتم ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ تقدحون بالزند والزندة من الشجر الأخضر ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ﴾ التى منها الزناد كالمرخ والعفار ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ قال فى الجواهر والزناد يكون من حجر وحديدة ومن شجر لا سيما فى بلاد العرب ولكون عادتهم فى أزنادهم من الشجر قال تعالى أأنتم أنشأتم شجرتها انتهى ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا ﴾ أى نارُ الزِّناد ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ لنار جهنم أو على قدرتنا على البعث كما فى سورة يس ﴿ وَمَتَاعًا ﴾ منفعة ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ المسافرين النازلين فى القواء بالمد والقصر وهى القفر الذى لا نبات فيه ولا ماء يقال أقوى القوم صاروا فيه وخصهم بالذكر لفرط احتياجهم إليها فيه أو الذين خلت بطونهم من الطعام من أقوى المكان خلا من ساكنيه فيعم المسافر والمقيم ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ نزهه عما لا يليق به بذكر اسمه العظيم شكرا لنعمه أو اذكره باسمه العظيم تعجبا ممن يرى هذه النعم ثم يكفر والباء للاستعانة أو الملابسة والعظيم صفة للاسم أو الرب ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ لا مزيدة ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ بجمع المواقع للجمهور وإفرادها لحمزة والكسائى على إرادة الجنس أى بمساقطها لغروبها وخص المغارب لما فى غروبها من زوال أثرها والدلالة على مؤثر لا يزول أو بمنازلها ومجاريها وقيل النجوم نجوم القرآن ومواقعها أوقات نزولها وقيل لا نافية لما يقوله الكفار مما يخالف المقسم عليه ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى القسم بها ﴿ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ لما فى المقسم به من الدلالة على كمال القدرة والرحمة ولو تعلمون اعتراض بين الموصوف والصفة فى اعتراض بين القسم والمقسم عليه وهو ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ عند الله كثير النفع لعباده لاشتماله على العلوم فى إصلاح المعاش والمعاد وهذه السورة صدرت بأمر المعاد ثم بأمر المعاش واستوفى فيها الأدلة فيه على وجه تحار فيه الألباب ولا يبقى معه الارتياب ﴿ فِي كِتَابٍ ﴾ مكتوب ﴿ مَّكْنُونٍ ﴾ مصون وهو اللوح أو المصحف أى صحفه التى كانت بأيدى المسلمين التى فيها ما يليه النبى صلى الله عليه وسلم على كتبته ﴿ لَّا يَمَسُّهُ ﴾ أى اللوح أو القرآن ﴿ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ من الكدورات الملائكة أو من الأحداث فيكون النفى بمعنى النهى وهو ما رواه مالك وأبو داود ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ منزل ﴿ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ مصدر نعت به مبالغة صفة أخرى للقرآن ﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ ﴾ القرآن ﴿ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ متساهلون تهاونا من الدهن فإن المتداهن يلين جانبه ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ من المطر أى شكره ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ بمانحه وتنسبون المطر إلى الأنواء ﴿ فَلَوْلَا ﴾ أى هلا ترجعون النفس إلى البدن ﴿ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ وقت النزع وهو مجرى الطعام ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ نظر المحتاج العاجز والخطاب لمن حول المحتضر والواو للحال ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ بالعلم ﴿ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ ذلك من البصيرة أى لا تعلمون كنه ما يجرى عليه ﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ مجزيين أو مملوكين مقهورين من دانه أذله

واستعبده (تَرْجِعُونَهَا) أى النفس إلى مقرها وهو عامل الظرف والمحضض عليه بلولا الأولى والثانية تكرير للتوكيدوهى بما فى حيزها دليل جواب الشرط والمعنى إن كنتم غير مملوكين غير مجزيين يوم القيامة كما دل عليه جحدكم أفعال الله وتكذيبكم بآياته فهلا ترجعونها (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فى نفى الجزاء لينتفى بانتفاء الموت ، ثم استطرد بذكر الأزواج التى صدر بها السورة زيادة فى الترغيب والترهيب وليتجاوب طرفاها رداً للعجز على الصدر فقال (فَأَمَّا إِنْ كَانَ) الميت (مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ) أى فله راحة (وَرَيْحَانٌ) رزق حسن أو طيب (وَجَنَّةُ نَعِيمٍ) أى مقام كريم ، قدم الأهم فالأهم ، وهل الجواب لأمّا أو لإن أو لهما؟ أقوال (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ) أى لأجلك يا محمد ، أو سلام لك يا صاحب اليمين (مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ) أى من إخوانك يسلمون عليك ف « من » ابتدائية ، وقيل مسلم لأنك منهم وليس فى أمرهم إلا السلام والنجاة من العذاب . قال ابن عطية : الكاف فى « لك » للنبى صلى الله عليه وسلم على الأظهر ، أو لمن يخاطب من أصحاب اليمين (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ) أى من أصحاب الشمال عبر عنهم بالوصف دلالة على أن ذلك الوصف أورثهم الشقاء زجراً عنه (فَنُزُلٌ) له (مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ) معناه ذلك ما يجده فى القبر من سموم النار ، وفى ذكر النزل تهكم (إِنَّ هَٰذَا) الذى ذكر فى السورة أو فى شأن الأزواج (لَهُوَ حَقُّ) الخبر (الْيَقِينِ) لا يقين فوقه ، أو من إضافة الصفة إلى الموصوف (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) تقدم مثله .

[تم تفسير سورة الواقعة]

سورة الحديد

مدنية على الأشهر ، وقيل مكية ، تسع وعشرون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى نزهه كل شىء ، وعدى باللام ليشعر بإيقاع الفعل لله خالصا لوجهه ، وجىء بلفظ الماضى فى مواضع والمضارع فى أخرى دلالة على أن شأن من أسند إليه الفعل الاستمرار به فى جميع الأزمان ، ولم يُعَدِ الجاز لكون هذه السورة أطول ماصدرت بالتسبيح وجىء : « ما » تغليبا للأكثر ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ المتقن فى صنعه فهو حقيق بالتسبيح ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إيجاداً وتصرفاً ﴿ يُحْيِي ﴾ بالإنشاء ﴿ وَيُمِيتُ ﴾ بعده ، استئناف مقرر لما تقدم ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الإحياء والإماتة وغيرهما ﴿ قَدِيرٌ ﴾ كامل القدرة ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ ﴾ قبل كل شىء بلا بداية ﴿ وَٱلْآخِرُ ﴾ الباقى بعد فناء كل شىء ، أو الأول الذى تبتدئ منه الأسباب والآخر الذى تنتهى إليه المسببات ، أو الأول بالأزلية والآخر بالأبدية ، قاله الوزاق ، وهو بمعنى الأول ﴿ وَٱلظَّاهِرُ ﴾ وجوده بالأدلة ﴿ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ كنه ذاته لا يحيط به شىء علما . وتفسير البطون بعدم إدراك الحواس قصور ، بل بطونه عدم إدراك كنهه أزلا وأبداً حسا وعقلا ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ـ قاله فى غاية الأمانى ، والواو الأولى والأخيرة للجمع بين الوصفين من عطف المفرد على المفرد ، والوسطى للجمع بين المجموعين من عطف المركب على المركب . ولما أوهم بطونه على الأشياء بطونها عنه كما فى الشاهد رفعه بقوله ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يستوى عنده الظاهر والباطن ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ لتدبير الكائنات : تمثيل ، وقد تقدم أمثاله ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ ﴾ يدخل ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ كالمياه والبذور والأموات ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ كالنبات والمعادن ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ ﴾ كالأمطار والأقدار والأحكام ﴿ وَمَا يَعْرُجُ ﴾ يصعد ﴿ فِيهَا ﴾ كالملائكة والأرواح والأعمال ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ بعلمه ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ لاينفك عنكم علمه وقدرته بحال ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ شاهد لايخفى عليه شىء من الإخلاص والرياء وغيرهما فيجازيكم عليه ، ولعل تقديم الخلق على العلم لأنه دليل عليه ، وإعادة الجلالة دلالة على أن ذلك من لوازم الألوهية ﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أعاده ليقر به أمر المعاد كما قرن به المبدأ لأنه كالمقدمة لهما ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ فيجازى كلا على حسبه ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ بمكنوناتها من الاسرار والمعتقدات

﴿ ءامِنُوا ﴾ داوموا على الإيمان ﴿ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ إذ لم يبق لكم شبهة ﴿ وَأَنْفِقُوا ﴾ فى سبيل الله ﴿ مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ ﴾ فى التصرف ﴿ فِيهِ ﴾ من مال من تقدمكم فهو له لا لكم وأنتم بمنزلة الوكلاء والخزان ولا أخس ممن شح بمال الغير وسيخلفكم فيه من بعدكم ، وفيه حث على الإنفاق وتهوين له على النفس ، نزل فى غزوة العسرة : غزوة تبوك ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا ﴾ كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ لا يحاط به ترغيب ووعد فيه مبالغات جعل الجملة اسمية مع كونها موصولة وإعادة الإيمان والإنفاق وتنكير الأجر والوصف بالكبر وبناء الحكم على الضمير ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ خطاب لمن لم يؤمن ومن آمن ولم ينفق أى ماتصنعون غير مؤمنين أى أىّ عذر لكم فى ترك الإيمان ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ ﴾ له بالحجج والآيات ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ الواو واو الحال من ضمير « لا تؤمنون » وهو أيضا حال من ضمير تصنعون المقدر وهما حالان متداخلان ﴿ وَقَدْ أَخَذَ ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور ، والمفعول لأبى عمرو ﴿ مِيثَاقَكُمْ ﴾ عليه فى عالم الذر أو بنصب الأدلة والتمكين من النظر والواو للحال من مفعول « يدعوكم » ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ لموجب فهذا موجب لا مزيد عليه أو إن دمتم على إيمانكم ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ آيات القرآن ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ ﴾ أى الله أو عبده الرسول والأول أولى ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ الكفر ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ للإيمان ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث بين لكم وأوضح ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فيما يكون قربة إليه من الجهاد والصدقة على المحاويج ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يرث كل شىء فيهما فيصل إليه أموالكم من غير أجر الإنفاق فأى فائدة فى الإمساك هلا يقدم العاقل ماله بين يديه ويشترى بالفانى الباقى ! وعنه صلى الله عليه وسلم « يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت به فأبقيت » اهـ.

ثم أشار إلى تفاوت المنفقين باختلاف الأحوال فى السبق واليقين وتحرى الحاجات بقوله ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ ﴾ لمكة ﴿ وَقَاتَلَ ﴾ حال الشدة وضعف الإسلام وقلة أهله ، ومن أنفق بعد الفتح الذى عز الإسلام به وكثر أهله وقلت الحاجة إلى المقاتلة والإنفاق ، ذكر القتال للاستطراد ﴿ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ ﴾ بعد الفتح ﴿ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا ﴾ من الفريقين بالنصب للجمهور مفعول لما بعده ، والرفع لابن عامر مبتدأ خبره ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ الجنة بحذف العائد على الرفع ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ عالم بباطنه كظاهره يعلم نية المنفق إخلاصاً ورياء ، قيل نزلت فى الصديق كان أول من آمن ثم أنفق ماله فى سبيل الله مراراً حتى تخلل يوما لذلك بعباءة فجاء جبريل فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى لأبى بكر : هل هو راضٍ عنى فى فقره وسلام عليه منى . قال ابن العربى فى الأحكام : قال مالك : ينبغى لهذه الآية تقديم أهل الفضل والقدم فى أحكام الدين والدنيا فلا يصل بالناس إلا أفضلهم ولا يلِ أمرهم إلا أسبقهم لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أن ينزل الناس منازلهم

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ ﴾ بإنفاقه مالا فى سبيل الله ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بالإخلاص وتحرى أكرم المال وأفضل الجهات له ﴿ فَيُضَاعِفَهُ ﴾ بالرفع للجمهور، والنصب لعاصم على جواب الاستفهام معنى، ولابن كثير «يضعفه» بالتشديد والرفع ولابن عامر بالنصب ﴿ لَهُ ﴾ أى يعطيه أجره أضعافاً لا يعلمها غيره ﴿ وَلَهُ ﴾ مع المضاعفة ﴿ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ شريف مقترن به رضى وإقبال بخلاف سائر الأجور ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف لقوله «وله» أو «فيضاعفه» أو لأذكر ﴿ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ ﴾ يسرع ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أمامهم ﴿ وَ ﴾ يكون ﴿ بِأَيْمَانِهِمْ ﴾ أى والشمائل لكن غلب الأيمان، والنور عند الجمهور على حقيقته وفى ذلك آثار وهو على قدر سيرهم إذ منهم من سيره كالبرق ومنهم كالريح ومنهم كأجاويد الخيل وأسرع الرجال والزاحف والمكب على وجهه وكذا أنوارهم منهم من نوره يضىء كما بين مكة وصنعاء وكالنخلة السحوق ومن لا يجاوز نوره قدميه ومنهم بالانطفاء مرة وبين أخرى على قدر أعمالهم، وقيل معنى النور ما يوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة وتخصيص الجهتين لأنهم يؤتون صحائف أعمالهم منهما والله أعلم ويقول لهم من يتلقاهم من الملائكة ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ ﴾ دخولها ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ﴾ النور والبشرى ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ يَوْمَ ﴾ بدل من يوم ترى ﴿ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا ﴾ بهمز الوصل للجمهور، أى أبصرونا لأنهم إن نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنور بين أيديهم، وبهمز قطع لحمزة أى أمهلونا وهذا يكون بعد القضاء بين العباد وأخذ الكفار الخاص إلى النار وبالمؤمنين إلى الجنة ويتبعهم المنافقون يعدون أنفسهم منهم ويعطون نوراً لخداعهم فاذا توسطوا الصراط انطفأ نورهم فينادون المؤمنين: انظرونا ﴿ نَقْتَبِسْ ﴾ أى نأخذ قبساً أى شعلة ﴿ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ كما يفعله الأصحاب فى الدنيا إذا انطفأ مصباح أحدهم ﴿ قِيلَ ﴾ لهم من الملائكة أو المؤمنين استهزاء بهم ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ﴾ إلى الدنيا ﴿ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ آخر لأنها محل الأعمال التى صارت اليوم أنواراً أو إلى حيث شئتم لا سبيل لكم إلى هذا النور ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ ﴾ وبين المؤمنين ﴿ بِسُورٍ ﴾ هو الأعراف حائط الجنة ﴿ لَهُ بَابٌ ﴾ يدخل منه المؤمنون الجنة ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ لأنه يلى الجنة والضمير للباب أو للسور والجملة صفة لأحدهما ﴿ وَظَاهِرُهُ ﴾ من جهة المنافقين ﴿ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ النار وتغيير الأسلوب للدلالة على أن داخله كله نعيم بخلاف ظاهره لبعد النار عنه ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ على الدين فى الدنيا ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ كنتم معنا ظاهراً ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ بالنفاق باطنا والحب للعاجل ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالمؤمنين الدوائر وقلتم الإسلام يهب ساعة ثم يسكن ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ شككتم فى دين الإسلام أو فى الساعة: إن نظن إلا ظنا ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ الكاذبة الأطماع فى طول العمر وخراب الدين وأن لو كان بعث سيغفر لكم ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ الموت أو الساعة أو أمره بدخول النار ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ الشيطان بوعده الكاذب أو الدنيا بزخرفها ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ ﴾ بالتحتية للجمهور والفوقية لابن عامر ﴿ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ فداء أن لو كان لكم ما تفتدون به ﴿ وَلَا مِنَ

الذين كفروا ﴾ ظاهراً وباطناً ﴿ مأواكم ﴾ مقامكم ﴿ النار هي مولاكم ﴾ أولى بكم أو ناصركم: تهكم ﴿ وبئس المصير ﴾ هي ﴿ ألم يأن ﴾ يحن ﴿ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ لأجل ذكره أو وحيه أو تذكيره إياهم نزلت في شأن الصحابة كانوا مجدبين حين كانوا بمكة فلما هاجروا وأصابوا الرزق والنعمة فتروا عما كانوا عليه وأكثروا المزاح ﴿ وما نزل ﴾ بالتخفيف لنافع وحفص والتشديد للباقين ﴿ من الحق ﴾ القرآن عطف عام على خاص أو عطف باعتبار الصفة، والخشوع: الإخبات والتطامن وهو هيئة تظهر في الجوارح متى كان الخشوع في القلب قال عليه السلام « أول ما يرفع من الناس الخشوع » ﴿ ولا يكونوا ﴾ عطف على تخشع ﴿ كالذين أوتوا الكتاب من قبل ﴾ هم اليهود والنصارى والمراد النهي عن مماثلتهم فيما حكى عنهم بقوله ﴿ فطال عليهم الأمد ﴾ الزمان بطول أعمارهم أو آمالهم أو ما بينهم وبين أنبيائهم ﴿ فقست قلوبهم ﴾ لم تلن لذكر الله لتراكم الذنوب وظلماتها فأحدثوا التحريف والبدع ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ خارجون بالكلية عن دينهم لفرط قسوة قلوبهم، ثم خاطب المؤمنين المذكورين بأن لا يستبعدوا رجوع قلوبهم إلى الخشوع إن تابوا بقوله ﴿ اعلموا أن الله يحيي الأرض ﴾ بالنبات ﴿ بعد موتها ﴾ فكذلك يحيي القلوب القاسية بالذكر والتلاوة تمثيل لحال القلوب النابية عن الخشوع ثم تأثرها من ذكر الله والقرآن بحال أرض غلب عليها اليبس ثم أصابها الغيث فاخضرت، وفيه ترغيب في الخشوع وزجر عن القسوة ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ الدالة على قدرتنا بهذا وغيره ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ وفي تصدير الكلام باعلموا وختمه بلعلكم تعقلون نوع عتاب لا يخفى ﴿ إن المصدقين والمصدقات ﴾ بالتشديد للجمهور من التصدق والتخفيف لابن كثير وأبي بكر من التصديق أدغمت التاء في الصاد في قراءة الجمهور أي الذين تصدقوا واللاتي تصدقن ﴿ وأقرضوا الله ﴾ راجع إلى الذكور والإناث بالتغليب، وعطف الفعل على الاسم في صلة « ال » لأنه فيها حل محل الفعل وذكر القرض بوصفه بعد التصدق تقييد له وهو ﴿ قرضاً حسناً ﴾ بالإخلاص وكونه من مالهم الطيب ﴿ يضاعف ﴾ بالمد وتخفيف العين للجمهور، وبالقصر والتشديد لابن كثير. وابن عامر أي قرضهم ﴿ لهم ولهم أجر كريم ﴾ تقدم معناه آنفاً ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾ البالغون في التصديق أو بمنزلة الصديقين ﴿ والشهداء عند ربهم ﴾ على الأمم يوم القيامة أو بمنزلة الشهداء في سبيل الله ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ الموعودان لهم على الأول، أو مثل أجر أولئك ونورهم لكنه من غير اعتبار التضعيف ليحصل التفاوت إذ هو فضل الله يؤتيه من يشاء كيف شاء. ويجوز أن يكون « والشهداء » مبتدأ و « لهم أجرهم » خبره وليس بقوي، قاله في غاية الأماني ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ الذين لا يفارقونها، فيه دليل على أن الخلود في النار مخصوص بهم لإفادة الكلام الحصر. ثم بين صفة منزلة الدنيا بقوله ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ﴾ يتعب الناس إتعاب الصبيان في اللعب بلا فائدة

﴿ وَلَهْوٌ ﴾ يلهيهم عما يهمّ ، واللعب ما يجلب السرور ، واللهو ما يدفع الهمّ ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ بالأموال والبنين كالملابس الحسنة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ بالأنساب : أنا ابن فلان ﴿ وَتَكَاثُرٌ ﴾ بالعدد ﴿ فِي الْأَمْوَالِ ﴾ : أنا لى كذا مالا وأنت لا تملك ما أملك ﴿ وَالْأَوْلَادِ ﴾ بالعدد : لى كذا ولداً : أى ما الحياة الدنيا المذمومة إلا الاشتغال بها ، وأما الطاعات وما يعين عليها فمن أمور الآخرة ، ثم مثل الدنيا فى سرعة الزوال بعد الكمال بالنبات فقال مَثَلُها ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ مطر ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ ﴾ الزرّاع ﴿ نَبَاتُهُ ﴾ الناشئ عنه ، أو الكفار بالله لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا لقصور نظرهم فيها ، والمؤمن إذا رآه علم أن ما عند الله هو الباقى وأن هذا عن قريب زائل ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ ييبس بعد نضارة ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ فتاتا يضمحلّ بالرياح ، وكذا الإنسان يشبّ فى النعمة يغشاه الناس ثم يشيب ويضعف ويسقم وتصيبه النوائب فى ماله وولده ثم يموت ويضمحل أمره وتصير أمواله لغيره. ثم عظم أمور الآخرة فقال ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لمن شغلته الدنيا عن الآخرة وفيه تنفير عن الانهماك فيها ، وحثّ على مايوجب كرامة فى الآخرة ، ثم أكد ذلك بقوله ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ لمن آثر الآخرة عليها وذكر العذاب أولا تهمما به دلالة على أن ما ينبغى للإنسان أولا الحذر ثم الطمع فى المغفرة والرضوان ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ ما التمتع فيها ﴿ إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ إلا شيء يسير قليل النفع يُغترّ به . قال عليه السلام « لكل أمة فتنة وفتنة أمتى المال » ﴿سَابِقُوا﴾ سارعوا مسارعة المسابقين فى المضمار ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إلى موجباتها ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لو وصلت إحداهما بالأخرى ، والعرض السعة : ذكر لأنه أقصر من الطول وإذا كان كذلك فما ظنك بالطول ، والمراد جنس السماء لقوله عرضها السموات والأرض وهو أبلغ لحذف أداة التشبيه والتصريح بما يدل على العدد خُصّ به لأنه المتأخر فى النزول ، فلو عُكس لم يبق فائدة فى ذكره والله أعلم ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ فلا يبعد منه التفضل بذلك وإن عظم قدره ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالجدب والعاهة والزلازل ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ كالمرض والآفة والموتان وفقدان الولدان ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ إلا مكتوبة فى اللوح مثبتة فى علم الله ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ نخلقها ، والضمير للأرض أو للمصيبة أو للأنفس ، والأول أوجه لما روى مسلم « إن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام وكان عرشه على الماء » ولفظ المصيبة يتناول الخير ، لكن خصه العرف بالشرّ ، ويقال فى النعمة كذلك ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ أى إثباته فى كتاب ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه عن العدة والمدة ، ثم أشار إلى الحكمة فى ذلك بقوله ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ تحزنوا حزنا يمنع التسليم لأمر الله ﴿ عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ من نعم الدنيا فإن من علم أن ما أصابه من الضرّ كان مقدراً عليه لم يشتد حزنه إذ قد وطّن نفسه على ذلك ﴿وَلَا تَفْرَحُوا ﴾ فرحَ بطر بل فرح شكر على النعمة ﴿ بِمَا

ءاتَـٰكُمْ ﴾ بالمد للجمهور : أعطاكم ، والقصر لأبي عمرو : جاءكم منه ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ متكبر بما أوتى ﴿ فَخُورٍ ﴾ به على الناس ، واكتفى بأحد الشقين لدلالته على الآخر ، وآثر الثانى لأنه أشد نكراً. وعن ابن عباس : من أصابته مصيبة فليجعلها صبراً ، ومن أصابه خيرٌ فليجعله شكراً . وفى صحيح مسلم : قال عليه السلام « ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهمّ يهمه إلا كفّر به من سيئاته ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ بما يجب عليهم بدل من كل مختال لأنه يضن بالمال غالبا ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ به دلالة على عزّ المال عندهم وأن حبه بلغ بهم حدّاً يشحون بمال الغير وهو أوفى فى الدلالة على البخل من الأول . وقرأ حمزة والكسائى بفتح الباء والخاء . ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ يعرض عن الإنفاق ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ عنه وعن إنفاقه بحذف ضمير الفصل لنافع وابن عامر وإثباته للباقين ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ فى ذاته لا يضرّه الإعراض تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾ الملائكة إلى الأنبياء ﴿ بِالْبَيِّنَـٰتِ ﴾ بالحجج القواطع ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَـٰبَ ﴾ يعنى الكتب ليبين الحق ويميز صواب العمل ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ لتسوّى به الحقوق فيحصل العدل وأول من أنزل عليه نوح عليه السلام ، أو المراد قانون الشرع الذى يشمل الميزان وكل ما يُعرف به الإنصاف من أمور المعاش والمعاد ولذا علّله بقوله ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ ﴾ فى التعامل ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل ، ويجوز أن يراد بالميزان : العدل لتقام به السياسة ويدفع به الأعداء ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ على آدم عليه السلام أو خلقناه فى المعادن ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يقاتل به من عندّ عن العدل ، وفيه إشارة إلى أن أمر الشرع لا يستقيم بدون السيف والسنان لأن الظلم من شيم النفوس :

الظُّلْمُ تَحتَ جَناحِ النّاسِ كُلِّهِمِ   فَالعِزُّ يُظْهِرُهُ وَالذُّلُّ يُخْفِيهِ

قال عليه السلام « جعل رزقى تحت ظل رمحى » ﴿ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ إذ ما من صنعة إلا والحديد آلتها ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ بنصر دينه بآلات الحرب من الحديد وغيره عطف على « ليقوم الناس » أو على محذوف دلّ عليه السياق أى لينفعهم وليعلم الله ، وفى الحذف إشارة إلى أن الثانى هو المطلوب بالذات ﴿ وَرُسُلَهُ ﴾ باتباعهم فى ذلك ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ حال من المستكن فى ينصره أى غائبا عنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ ﴾ على إهلاك من أراد ﴿ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا حاجة له إلى النصرة لكنها تنفع من يأتى بها ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَـٰبَ ﴾ يعنى الكتب الأربعة التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، فإنها فى ذرّية إبراهيم ﴿ فَمِنْهُم ﴾ من الذرّية أو من المرسل إليهم دلّ عليه « أرسلنا » ﴿ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ خارجون عن الطاعة غيّر الأسلوب للدلالة على أن الغلبة لأهل الضلالة ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَـٰرِهِم ﴾ والضمير لنوح وإبراهيم ومن أرسلا إليه ﴿ بِرُسُلِنَا ﴾ رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى عليه السلام ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ هم ﴿ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ

اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ شدة خوف الله برفض النساء واتخاذ الصوامع والمبالغة فى العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس ولا يجمد فى شرعنا إلا عند فساد الزمان ﴿ ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ من قبل أنفسهم ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ ما فرضناها أو ما أمرناهم بها ﴿ إِلَّا ﴾ لكن فعلوها ﴿ ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ إذ تركها كثير منهم وكفروا بدين عيسى ودخلوا فى دين ملكهم لأنهم بعد رفع عيسى افترقوا اثنتين وسبعين فرقة ثلاث فرق على الحق والباقون على الضلال لحاربهم الملوك وقاتلوهم فنصر الله المؤمنين ثم بعد ذلك غيروا وعجزوا عما تحملوا ورجعوا إلى ملوكهم وبقى على دين عيسى بعضهم فآمنوا بنبينا ، وفى الآية إشارة إلى أن الإفراط والتعمق فى العبادة فوق ما سنه الله ورسوله مذموم ، وقد روى البخارى عنه صلى الله عليه وسلم « إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ؛ فإن بنى إسرائيل شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم فى الصوامع » ﴿ فَآتَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ حين وفوا بما نذروا ومن ذلك الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ خارجون عن حال الأتباع ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بالرسل المتقدمة ﴿ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ فى أوامره ونواهيه ﴿ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ نصيبين ﴿ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ لإيمانكم بمحمد بعد الإيمان بمن قبله قال عليه السلام : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل آمن بنبيه وآمن بمحمد ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل له أمة فأدبها ثم أعتقها فتزوجها ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ على الصراط أو هو الهدى ينقذكم به من ظلمات الجهل ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ما سلف ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ • لِئَلَّا يَعْلَمَ ﴾ لا زائدة أى أعلمكم بذلك ليعلم ﴿ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ أَن ﴾ مخففة أى أن الشأن ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ خلاف ما فى زعمهم أنهم أحباء الله وأهل رضوانه ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ فآتى المؤمنين منهم أجرهم مرتين ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وجعل لا غير مزيدة على معنى لئلا يعتقد أهل الكتاب أن النبى والمؤمنين لا يقدرون على شىء من فضل الله ولا ينالونه فيكون « أن الفضل » عطفا على « لئلا يعلم » لا يخفى بعده . والله أعلم ؟

[تم تفسير سورة الحديد]

سورة المجادلة

مدنية ـ ثنتان وعشرون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ ﴾ تراجعك أيها النبي وهى خولة بنت ثعلبة ﴿ فِى زَوْجِهَا ﴾ المظاهر منها وهو أوس بن الصامت وكان ولاج الخوالف وبه حدة فدعاها إلى الفراش فأبت فظاهر منها واستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حرمت عليه على ماهو المعهود عندهم من أن الظهار موجب فرقة مؤبدة ﴿ وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ بقولها : « اللهم إليك أشكو حالى وانفرادى وفقرى اللهم إن لى منه صبية إن ضممتهم إليه ضاعوا أو إلىّ جاعوا » ﴿ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾ تراجعكما فى الكلام ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ ﴾ للأقوال ﴿ بَصِيرٌ ﴾ عالم بالأحوال ثم أشار إلى ذم الظهار بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ يَظَّٰهَرُونَ ﴾ أصله يتظاهرون أدغمت التاء فى الظاء وتقدمت القراءات فى سورة الأحزاب ﴿ مِنكُم ﴾ دخل العبد وخرج الذمىّ ، وفيه توبيخ وعلم أنه ليس على النساء ظهار ﴿ مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ دخل فيهن أمة يصح وطؤها عند المالكية خلافا لغيرهم وهو أن يقول الرجل لزوجته أنت علىّ كظهر أمى أو كرأسها أو كجسدها وسائر المحارم كالأم وإن قال كأمى نُوِى فى الطلاق والظهار فإن لم تكن له نية كان ظهاراً عند المالكية وعند غيرهم لم يكن شيئا فإن شبهها بأجنبية فإن ذكر الظهر كان ظهاراً وإلا قيل ظهار وقيل طلاق عند المالكية وعند غيرهم لا يكون شيئاً . انظر الأحكام لابن العربى ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ﴾ حقيقة ﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى ﴾ تقدمت قراءاته فى الأحزاب ﴿ وَلَدْنَهُمْ ﴾ فلا تُشَبَّهُ بهن فى الحرمة إلا من ألحقها الله بهن كالمرضعات وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ بالظهار ﴿ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ إذ الشرع أنكره لكنه إذا وقع لزم ﴿ وَزُورًا ﴾ كذباً لأن الزوجة لاتشبه الأم ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ لما سلف منه مطلقا أو إذا تيب عنه أو بالكفارة . ثم أشار إلى حكم الظهار بقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ ﴾ أى إلى قولهم بنقض مايقتضيه بالعزم على الوطء أو الإمساك عند مالك وبالإمساك زمانا يمكنه أن يفارقها عند الشافعى وباستباحة الاستمتاع بها ولو بالنظر بالشهوة عند أبى حنيفة وبالعود إلى الجماع عند أحمد وإلى لفظ الظهار فيكرره عند الظاهرى ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أى إعتاقها عليه مؤمنة خلافا لأبى حنيفة فإنه لم يشترط الإيمان ؛ سليمة من العيوب عند الجمهور ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ بالوطء أى يحرم عليه الجماع إلى أن يكفر اتفاقا وكذا الاستمتاع بما دون ذلك خلافا للشافعى والفاء للسببية تدل على تكرر الكفارة بتكرر

الظهار وأنه لاتجب إلا بالعود وإن ظاهر من أربع نسوة بكلمة واحدة لزمته كفارة واحدة وقال الشافعي: أربع كفارات . وإن ظاهر من الأجنبية بشرط الزواج ، لزمه عندنا لاعند الشافعية لأنه لوطلقها كذلك لزمها الطلاق إذا تزوجها لأنها من نسائه حين شرط نكاحها . قاله ابن العربي فى الأحكام ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ التكفير على هذا الوجه ﴿ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ لتنزجروا عن الظهار ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه شىء حث على الإتيان بذلك على الوجه الأكمل ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ رقبة ومن ماله غائب واجد فلا يعدل عن العتق ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ فإن قطع التتابع ولو فى اليوم الآخر وجب الاستئناف إن كان لغير عذر وإلا لم يبطل على المشهور ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ فإن وطىء قبل الكفارة فعل حراما لكن لاتتعدد عليه وإن وطئها ليلا انقطع التتابع عندنا وعند الحنفية خلافا للشافعية ﴿ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ﴾ الصيام لهرم أومرض مزمن أوشبق مفرط ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ عليه أى من قبل أن يتماسا حملا للمطلق على المقيد خلافا لأبى حنيفة لكل مسكين مد من غالب قوت البلد أوقوت المكفر ويشترط عدد المساكين فلو أطعم ثلاثين طعام ستين لم يجزه عندنا ﴿ذَٰلِكَ﴾ التخفيف فى الكفارة أوذلك البيان للأحكام ، ومحل الإشارة نصب بفعل معلل بقوله : ﴿لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى فرض ذلك لتصدقوا بالله ورسوله فى قبول شرائعه ورفض ما كنتم عليه فى جاهليتكم ﴿ وَتِلْكَ ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ فلا تجاوزوها ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ بها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ﴾ يخالفون ﴿ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى حدودهما ﴿ كُبِتُوا ﴾ أذلوا ﴿ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ فى مخالفتهم رسلهم وأصل الكبت الكب ، كبت الرجل إذا بقى خزيان يبصر ما يكره ولايقدر على دفعه ، نزلت فى المنافقين ، وقيل فى بنى قريظة كبتوا بعد الخندق بقتلهم وسبى ذراريهم كما فعل بالمشركين يوم بدر ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ لا لبس بها فى الدلالة على صدق الرسول ﴿وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ بها ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يذهب عزهم وتكبرهم إذ تكبروا عن الإيمان ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ نصب الظرف بمهين أو باذكر ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ على رءوس الأشهاد تكميلا للخزى والإهانة ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴿ أَحْصَاهُ ٱللَّهُ ﴾ علمه مفصلا ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ لكثرته وتهاونهم به ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ حاضر يعلمه عيانا ، ثم أقام البرهان عليه بقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ من الأجزاء والجزئيات ، والخطاب عام ﴿ مَا يَكُونُ ﴾ من شىء ﴿ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ ﴾ فنجوى مضاف إلى ثلاثة أو موصوف بها أى من أهل نجوى فحذف أهل وجعلوا نفس النجوى مبالغة ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ فى الاطلاع عليها ﴿وَلَا خَمْسَةٍ ﴾ ولا نجوى خمسة ﴿ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ وتخصيص العددين لخصوص الواقعة لأن الآية نزلت فى نجوى المنافقين كذلك أو الكفار كذلك أو لأن الله وتر يحب الوتر والثلاثة أول الأوتار وذكر معه الخمسة ليناسب الوترين ثم أشار إلى الطرفين بقوله ﴿ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ يعلم ما يجرى بينهم ﴿ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾

إذ علمه بالأشياء لا يتفاوت ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ يجازيهم عليه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ عام باق على عمومه ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تنظر ﴿ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ تعجيب للسامع من وقاحتهم﴿وَيَتَنَاجَوْنَ ﴾ ولحمزة ينتجون ﴿ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ بيان عن حال نجواهم بما يؤكد ذمهم إذ لو كان تناجيهم بما فيه خير لكان أمر الرسول موجباً للانتهاء والامتثال وهم اليهود والمنافقون كانوا يتناجون بينهم ويتغامزون ناظرين إلى المؤمنين ليوقعوا فى قلوبهم الريبة فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عادوا لمثل فعلهم ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ ﴾ أيها النبي ﴿ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ وهو قولهم السام عليك أى الموت أو أنعم صباحاً تحية الجاهلية والله يقول: « وسلام على عباده الذين اصطفى » ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ من التحية لو كان محمد نبيًّا ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها ﴿ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ جهنم والفاء سببية مبالغة فى استحقاقهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ صرح بما علم ضمناً ليرتب عليه قوله﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ ﴾ بما فيه ثواب مما يتضمن خيراً للمؤمنين﴿ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ عن معصية الرسول وهذه وصية من الله لجميع عباده إلى يوم القيامة قاله فى الجواهر ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فى مجامع أموركم فإنه يجازيكم ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ ﴾ بالإثم والعدوان ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ بغروره ﴿ لِيُحْزِنَ ﴾ بضم الياء وكسر الزاى لنافع وبفتح الياء وضم الزاى للباقين ، ليحزن الشيطان أو النجوى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بتوهيمهم أن النجوى فى نكبة أصابتهم ﴿وَلَيْسَ ﴾ هو ﴿ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بإرادته فعلى المؤمن إذا رأى شيئاً من ذلك ألا يحزن﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ لعلمهم أن لا ضار ولا نافع غيره ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا ﴾ توسعوا ﴿ فِي الْمَجَالِسِ ﴾ المراد به الجنس ولعاصم فى المجالس وقيل مجلس النبي صلى الله عليه وسلم حتى يجلس من جاءكم ﴿ فَافْسَحُوا ﴾ ليفسح بعضكم عن بعض ، نزلت فى تضايقهم فى مجلس النبي وكان قوم إذا أخذوا مقاعدهم شحوا على الداخل ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ المجلس والصدور والرزق وغيرها وفى الجنة ، قيل لم يضق المكان قط عمن جاء بعد التفسح ببركة الامتثال لكن لا يقام أحد لأحد . قال عليه السلام « لا يُقِمْ أحدكم أخاه ثم يجلس مكانه ولكن تفسحوا » رواه الشيخان ، وفى الجواهر : قال جمهور العلماء سبب نزول الآية مجلس النبي عليه السلام ثم الحكم مطرد فى سائر المجالس التى هى للطاعات ، قال مالك : الحكم يطرد فى مجالس العلم ونحوها غابر الدهر ، وقال ابن عطية : فالسنّة المندوب إليها هى التفسح ، والقيام منهى عنه . اهـ لكن لا يحل للرجل أن يفرق بين اثنين أو يجلس بينهما إلا بإذنهما . رواه أبو داود والترمذى ، وعن حذيفة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من جلس وسط الحلقة . رواه أبو داود ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا ﴾ بضم الشين لنافع وابن عامر وعاصم وبكسرها للباقين أى انهضوا إلى الخيرات كالصلاة والجهاد وغيرهما

﴿ فَانْشُزُوا ﴾ بالقراءتين ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ﴾ بالطاعة والامتثال بالنصر وحسن الذكر فى الدنيا وبغرف الجنات فى الآخرة ﴿ وَ ﴾ يرفع ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ على غيرهم للجمع بين العلم والعمل، وفى الصحيح : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الامتثال وغيره ﴿ خَبِيرٌ ﴾ فليكن ذلك عن الإخلاص وصفاء القلب ، وفيه تهديد لمن لم يمتثل الأمر أو لم يخلصه . ولما أكثروا مناجاة النبى لحاجة ولغيرها وكان المنافقون وأجلاف البوادى والإماء والعبيد يبرمونه بما لا طائل تحته نزل ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ أردتم مناجاته ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ ﴾ قبلها ﴿ صَدَقَةً ﴾ على الفقراء . وفى هذا الأمر تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ونفع الفقراء والنهى عن الإفراط واختلف فى أنه للندب أو للوجوب لكنه نسخ بقوله « ءأشفقتم » وصح عن على أنه قال : « ما عمل بها أحد غيرى كان لى دينار فصرفته فناجيته » . وعلى الوجوب لا يقدح ذلك فى غيره إذ لم تطل مدته إذ روى أن الأمر بقى على ذلك عشرة أيام وقيل ساعة وهو الأشبه ثم نسخ بما بعد الآية . والله أعلم . ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ التصدق ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من الإمساك ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ لذنوبكم وهذا يشعر بالندبية لكن قوله ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا ﴾ ما تتصدقون به ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لمناجاتكم بلا صدقة ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بكم فى ذلك يدلّ على الوجوب ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ ﴾ أخفتم من الفقر أو من العجز عن المتصدق به ﴿ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ جمعت لجمع المخاطبين أو لكثرة التناجى ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ الصدقات ﴿ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ رجع بكم إلى الرخصة أن لا تفعلوا ، وفيه إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ﴾ لا تفرطوا فى أدائهما كما قصرتم فى الصدقة وفيه نوع تعيير لهم ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى جميع الأوامر وإن كانت شاقة عليكم فإن القيام بها كالجابر للتفريط فى ذلك ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ظاهراً وباطنا فيجازيكم على حسب ذلك ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا ﴾ وهم المنافقون ﴿ قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ وهم اليهود ﴿ مَّا هُم ﴾ المنافقون ﴿ مِّنكُمْ ﴾ من المؤمنين ﴿ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ من اليهود بل هم مذبذبون ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ ﴾ ادّعاء الإسلام ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم كاذبون فيه وهى اليمين الغموس ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ نوعا منه متفاقما ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فى الأزمنة المتطاولة حتى تمرنوا على سوء العمل وأصروا عليه ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ سترا على أنفسهم وأموالهم ﴿ فَصَدُّوا ﴾ بها المؤمنين ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى الجهاد فيهم بقتلهم وأخذ أموالهم ، أوصدوا الذين يريدون الإسلام بأيمانهم يوهنون أمر الإسلام وأنه لا بقاء له ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ لكفرهم وصدهم وقيل الأول عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة . ﴿ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَا أَوْلَٰدُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ من عذابه ﴿ شَيْئًا ﴾ من الإغناء ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أبدا ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ ﴾ أنهم مؤمنون ﴿ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ من نفع حلفهم فى الآخرة كالدنيا ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ

﴿ الْكَٰذِبُونَ ﴾ البالغون الغاية فى الكذب حيث يكذبون مع عالم الغيب والشهادة ويحلفون له ﴿ اسْتَحْوَذَ ﴾ استولى ﴿ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ﴾ بيان لسبب ذلك الكذب من حُذتُ الإبل إذا استوليت عليها وهو مما جاء على الأصل المرفوض ﴿ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ بالقلوب والألسنة والتأمل فى صفاته ليتميز لهم ما يليق بكبريائه ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ ﴾ جنوده وأتباعه ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الكاملون فى الخسران بفوات جنة النعيم والخلود فى الجحيم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ ﴾ يخالفون ﴿ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أعاده ليفصل أحوالهم المجملة فى كبتوا ويقرن بها أحوال أضدادهم المؤمنين حزب الرحمن ﴿ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ فى زمرة أذل الخلق ﴿ كَتَبَ اللَّهُ ﴾ فى اللوح أو قضى ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ بالحجة أو السيف بفتح ياء رسلى لنافع وابن عامر وسكونها للباقين ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ على نصر أوليائه ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب قاهر لا يغلب عليه فى مراده ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لأنه جمع بين الضدين والمعنى لا ينبغى الوجدان وإنما عبر عنه بالوجدان مبالغة فإن الواقع عدم الانبغاء لا الوجدان. قاله فى غاية الأمانى ومثله فى البيضاوى ، وقال فى الجواهر: هذه الآية نفت أن يوجد من يؤمن بالله حق الإيمان ويلتزم شُعَبهُ على الكمال يواد كافراً ﴿ وَلَوْ كَانُوا ﴾ أى المحادون ﴿ آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ بل يقصدونهم بالسوء ويقاتلونهم على الإيمان كما وقع لجماعة من الصحابة منهم أبو عبيدة بن الجراح قتل أباه يوم بدر وكان أسيراً ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يليق به فضرب عنقه ، ومصعب بن عمير قتل أخاه يوم بدر ، وقال عمر بن الخطاب فى أسارى بدر لرسول الله : مكِّنِّى من فلان لقريب له ومكِّن عليًّا من عقيل ليعلم المشركون ما فى قلوبنا ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الذين لا يوادونهم الذين ﴿ كَتَبَ ﴾ ألزم وأثبت ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ إلزام المكتوب فى الرق ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ قوة من عنده أو نور الإيمان فإنه حياة للقلوب وفيه دليل على أن الإيمان فعل القلب ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ بطاعتهم ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ بثوابه ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ المتبعون أمره المجتنبون نهيه ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بخير الدارين بالغلبة فى الدنيا والجنة فى العقبى .

[تم تفسير سورة المجادلة]

سورة الحشر
مدنية ـ وهي أربع وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ سبق الكلام عليه ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ لا أنتم وهم بنو النضير من اليهود من ذرية هارون عليه السلام نزلوا المدينة فى فتن بنى إسرائيل فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم المدينة دعاهم إلى الإيمان فأبوا وعاهدهم أن لايكونوا له ولا عليه فلما كان شأن أحد نقضوا العهد وداخلوا قريشاً ذهب إليهم كعب بن الأشرف رئيس بنى النضير فى أربعين راكباً لحالف أبا سفيان فلما رجع أمر النبي بقتله فقتل غيلة ثم سار إليهم وكانوا فى حصون منيعة لحاصرهم ، وقيل كان النقض قبل أحد بهمهم بقتل النبي صلى الله عليه وسلم غدراً حين ذهب إليهم يستعين بهم فى دية لجاءه خبر السماء بكيدهم فقام ورجع إلى المدينة من غير علم أحد ثم جاء إليهم لحاصرهم وأخرجهم ﴿ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ بالمدينة ﴿ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ اللام للتوقيت أى فى أول حشرهم من جزيرة العرب إلى الشام وما والاه كخيبر ، وآخره أن جلاهم عمر فى خلافته من خيبر إلى الشام أو آخره حشرهم إلى القيامة والحشر إخراج جمع من مكان إلى آخر ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ لكثرة عَددهم وعُددهم وشدة بأسهم ومنعتهم ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ ﴾ خبر إن ﴿ حُصُونُهُمْ ﴾ فاعل « مانعتهم » به تم الخبر أو « حصونهم » مبتدأ وما قبله خبره والجملة خبر إن ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ من عذابه وتغيير النظم لأن الظاهر وظنوا أن لايخرجوا وتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بأنفسهم وحصونهم وأن ظنهم كاليقين عندهم لا كظن المؤمنين ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ بأسه ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ لاعتمادهم على شدة بأسهم وحصانة حصونهم حين اتقوا بها ولم يتقوا بالله ، أو الضمير للمؤمنين أى أتاهم نصر الله ، والأول أوفق بقوله ﴿ وَقَذَفَ ﴾ ألقى بقوة ﴿ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ الخوف الذى يملأها وأكده بلفظ القذف الدال على القوة ﴿ يُخْرِبُونَ ﴾ بالتخفيف للجمهور من أخرب والتشديد لأبى عمرو من خرب ﴿ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ليصلحوا ما يهدمه المسلمون من سورهم أو لئلا تبقى للمسلمين جنة ضنا بها عليهم وإخراجاً لما استحسنوا من آلاتهم حين هموا بالجلاء ﴿ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالتسبب أو لأنهم يخربون خارجها والكفار داخلها . قال فى الجواهر : والحاصل أنهم خربوا بيوتهم حسّاً ومعنى أما حسا فواضح وأما معنى فبسوء رأيهم وغدرهم ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ فلا تعتصموا

بالحصون دون الله فاتعظوا بحالهم ولا تخالفوا أمر الله ورسوله ولا تعتمدوا على قوتكم واتكلوا على الله فى أموركم ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ ٱللَّهُ ﴾ قضى ﴿ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَاءَ ﴾ الخروج من الوطن الذى هو أشق على النفوس ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ بالقتل والسبى كما فعل بقريظة من اليهود بعدهم ﴿ وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ الذى القتل والجلاء عنده أهون شىء أى إن نجوا من عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الغضب الذى أورثهم عذاب الدارين ﴿ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ﴾ خالفوا ﴿ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بإنكار الإسلام ومعاداة الرسول ﴿ وَمَنْ يُشَاقِّ ٱللَّهَ ﴾ اكتفى به دلالة على أن مشاقة رسوله مشاقته ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ له وفيه تهديد لغيرهم ﴿ مَا قَطَعْتُمْ ﴾ أيها المسلمون ﴿ مِنْ لِينَةٍ ﴾ نخلة كريمة أو هى ما عدا العجوة والبرنية من اللون لاشتمالها على الألوان قلبت الواو ياء للكسرة والجمع لِيانٌ ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بأمره أى خيركم فى ذلك ﴿ وَلِيُخْزِىَ ﴾ بالإذن فى القطع ﴿ ٱلْفَاسِقِينَ ﴾ اليهود إذا شاهدوا ذلك لأنه عليه السلام لما أمر بقطع نخيلهم قالوا يا محمد كنت تنهى عن الفساد فى الأرض فما بال تحريق النخل وقطعها فوقع فى قلوب بعض المسلمين وسوسة لذلك فنزلت ، وقيل أرسلت قريظة إليه بذلك القول . وفى حرق نخيلهم وهى البويرة يقول حسان :

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِى لُؤَىٍّ • حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

واستدل بذلك على جواز هدم ديار الكفار وقطع أشجارهم زيادة لغيظهم ﴿ وَمَا أَفَاءَ ٱللَّهُ ﴾ أعاده ﴿ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ من بنى النضير ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ ﴾ أسرعتم يا مسلمين ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أى ما أجريتم على تحصيله ﴿ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ إبل يسار عليها أى لم تقاسوا فيه مشقة لقرب حصونهم لأنها على ميلين من المدينة ولم يقع فيهم كبير قتال ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بقذف الرعب فى قلوبهم ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيفعل ما يريد تارة بالوسائط وتارة بغيرها ﴿ مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ لم يدخل العاطف لأنه بيان للأول شامل لمال بنى النضير ولسائر أموال الفىء إلى يوم القيامة كما أشار إليه بقوله ﴿ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ التى فتحت من غير إيجاف كالصفراء والينبوع ووادى القرى وفدك ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ قرابة النبى من بنى هاشم وبنى المطلب ﴿ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ المنقطع فى سفره من المسلمين : هذه مصارف أموال الفىء وهى مصارف خُمس الغنيمة لا حق للغزاة فيها وكان النبى صلى الله عليه وسلم يأخذ منها قوت سنة لأهله ويصرف الباقى فى هذه المصارف وقد قسم أموال بنى النضير فى المهاجرين دون الأنصار لاستغنائهم إلا أبا دجانة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة أعطاهم لفقرهم وتقدمت أحكام الفىء والغنيمة فى الأنفال ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ ﴾ الفىء الذى حقه أن يكون للفقراء ﴿ دُولَةً ﴾ حظا دائلا أى دائرا أو متداولا ﴿ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ يتكاثرون به أو يتداولونه كحال الجاهلية كان أهل الشوكة يختصون بها ويقولون «من عزّ بزّ» فعلة بمعنى الفاعل على الأول أو المفعول على الثانى و «كيلا» علة

لبيان مصارف الفىء ﴿ وَمَا ءاتَاكُمُ الرَّسُولُ ﴾ من الفىء وغيره أو من الأمر ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ لأنه حلال لكم أو تمسكوا به لأنه واجب الطاعة ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ عن أخذه أو عن إتيانه ﴿ فَانْتَهُوا ﴾ عنه ولا تخالفوه فى شىء ولا تتهموا فى أفعاله وأقواله غير الحق ، روى أن قوماً من الأنصار تكلموا فى هذه الأموال فنزلت فرضوا بذلك ثم اطرد بعد معنى الآية فى أوامر النبي صلى الله عليه وسلم ونواهيه . قاله فى الجواهر ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بطاعة رسوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لمن خالفه ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ بيان للساكين أعادهم ليصفهم بالصفة التى توجب الشفقة عليهم وهى ﴿ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ أوطانهم وقومهم لله وللرسول ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ أخرجهم كفار مكة واستولوا على أموالهم ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ ﴾ جنة منه ﴿ وَرِضْوَانًا ﴾ رضاه والجملة حال مقيدة لإخراجهم بما يوجب تفخيم شأنهم ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ دينهما بأنفسهم وأموالهم ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ فى الإيمان لظهوره بالبرهان ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ ﴾ أى لزموا المدينة ﴿ وَالْإِيمَانَ ﴾ وتمكنوا فيهما وهم الأنصار عطف على « المهاجرين » أو تبوءوا دار الهجرة ودار الإيمان فحذف المضاف من الثانى والمضاف إليه من الأول وعوض عنه اللام أو تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان كقوله علفتها تبناً وماء بارداً . وسمى المدينة دار الإيمان لأنها مظهره ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من قبل هجرة المهاجرين إليهم ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ ولا يثقل عليهم حتى كانوا يقرعون فيهم أيهم يأخذ المهاجرى ويؤثرونهم على أنفسهم حتى قال المهاجرون للنبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله ما رأينا قوماً أبذل للكثير ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم لقد كفونا المؤنة وأشركونا فى المهنإ حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال « أما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم » رواه الترمذى وقال حسن صحيح ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ ﴾ نفوسهم ﴿ حَاجَةً ﴾ أى ما تحمل عليه من الطلب والحسد والغيظ ﴿ مِمَّا أُوتُوا ﴾ أى مما أعطى المهاجرون من الفىء وغيره وقد بالغ فى مدحهم حيث نكر الحاجة وذكر الصدور والوجدان أى لم يخطر فيها ما يسمى حاجة فضلا عن توجه النفس إلى طلبها ولذا أوثر الوجدان دون العلم ﴿ وَيُؤْثِرُونَ ﴾ المهاجرين المحتاجين بأموالهم ﴿ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ حتى إن من كان عنده امرأتان نزل عن واحدة وزوجها من أحدهم ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ حاجة إلى ما يؤثرون به من خصاص البناء وهى فرجه وخصاص الأثافى الفرج بين أحجارها . روى البخارى عن أبى هريرة : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أصابه الجهد فأرسل إلى نسائه ولم يجد شيئاً فقال ألا رجل يضيف هذا فقام رجل من الأنصار فقال أنا يا رسول الله فذهب به فقالت امرأته ماأجد إلا قوت الصبية قال نومى الصبية وقدمى الطعام ثم قومى كأنك تصلحين السراج فأطفئيه ليأكل وحده فإنه ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعلت فلما أصبح جاء إلى رسول الله فقال « لقد عجب الله منك » فنزلت ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ حرصها على المال أضافه إليها لأنه غريزتها أى من يتحفظ عن هذه الرذيلة ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بالثناء العاجل والثواب الآجل ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ من بعد الفريقين وهم الذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين وقيل الذين هاجروا بعد السابقين حال كونهم ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا ﴾ حقداً وغشا ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ من الغلل وهو الماء بين الأشجار ، وعن مالك أن سابَّ السلف لا يستحق من الفيء شيئاً لعدم اتصافه بما في الآية ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ حقيق بإجابة دعائنا ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ عبد الله بن أُبيّ ورفاعة بن التابوت في قوم من المنافقين بعثوا إلى بني النضير : اثبتوا في معاقلكم فإنا معكم كيفما تقلبت أحوالكم كما قال تعالى ﴿ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ﴾ إخوة كفر وموالاة وصداقة ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ بني النضير ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ من دياركم في قتالكم ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ إذ لا عيش لنا بدونكم ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ ﴾ في قتالكم أو خذلانكم ﴿ أَحَدًا ﴾ محمداً أو غيره ﴿ أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ لا محالة ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك كما قال تعالى ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا ﴾ من المدينة ﴿ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ وكان كذلك لأنهم بعد ما راسلوهم ذلك أخلفوهم وفيه دليل على صحة النبوة وإعجاز القرآن ﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ ﴾ جاءوا لنصرهم فرضاً ﴿ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ﴾ انهزاماً واستغنى بجواب القسم المقدر عن جواب الشرط في المواضع الخمسة ﴿ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ بل يقتلون ﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ خوفاً ، مصدر للفعل المبني للمفعول والمعنى يخافونكم سرا ﴿ فِي صُدُورِهِمْ ﴾ المنافقين ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ لتأخر عذابه أو لأن رهبتكم سبب لإظهارهم رهبة الله ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يعلمون عظمة الله حتى يخشونه ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ اليهود والمنافقون ﴿ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين متفقين ﴿ إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ ﴾ بالدراب والخنادق لضعف قلوبهم واستيلاء الجبن عليها فلا يبرزون لحربكم ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ جمع جدار للجمهور كحمر وحمار، ولابن كثير وأبي عمرو بالإفراد لقصد الجنس أو إرادة السور الجامع والجمع أوفق بالقرى ﴿ بَأْسُهُمْ ﴾ حربهم ﴿ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ إذا تقاتلوا وإن حاربوا الله ورسوله فهم أجبن من صافر لقذف الرعب في قلوبهم لأن كل شجاع وعزيز إذا حارب الله ورسوله يجبن ويذل ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين متفقين لما ترى منهم ظاهراً ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ جمع شتيت متفرقة خلاف الحسبان لاختلاف عقائدهم ومقاصدهم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ التشتت ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ما فيه صلاحهم وأن التشتت يوهن قواهم مثلهم في محاربة النبي ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ﴾ أي في زمان قريب وانتصابه على الحال أي وجد مثلهم مثل وجود مثل أولئك قريباً لم ينطمس أثره فينبغي الاعتبار بهم وهم أهل بدر من المشركين أو بني قينقاع أو المهلكين من الأمم الماضية ﴿ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ سوء عاقبة كفرهم في الدنيا وهو بيان للمشبه به يقرره وفيه زيادة تجهيل اليهود ، والوبال من قولهم مرعى وبيل وخيم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة . مَثَل المنافقين في إغراء اليهود على القتال وخذلانهم بعدُ

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ مع الإنسان يغويه ثم يتبرأ منه كما قال ﴿ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ كذب منه ورياء، والمراد بالإنسان الجنس أو أبو جهل إذ جاءه الشيطان يوم بدر على صورة سراقة وقال لقريش: إني جار لكم فلما ترامت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني برىء منكم، وقيل راهب حمله الشيطان على الفجور بامرأة وله قصة أسندها القاضي إسماعيل وغيره من طريق سفيان عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر بن عبيد الزرقى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن راهباً كان في بني إسرائيل سيقت إليه امرأة جميلة ليشفيها بدعائه من الجنون فسول له الشيطان الوقوع عليها فحملت منه فخشي الفضيحة فسوّل له قتلها ودفنها ففعل ثم شهره فاستخرجت وصلب فجاءه الشيطان فقال له اسجد لي سجدة وأنا أخلصك فسجد له فقال: إني برىء منك فقتل ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا ﴾ الغاوى والمغوى ﴿ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ﴾ نصب على الحال وقرئ عاقبتهما بالرفع اسم كان و « أنهما » الخبر ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ كل كامل في الظلم وهو الكافر ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ﴾ لما قدر أو كل واحدة ﴿ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ يوم القيامة سماه غداً لقربه أو لأن الدنيا كيوم والآخرة غده وتنكيره للتعظيم أى أىّ غد، وكذا تنكير نفس أو ذاك للوحدة لاستقلال الأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ كرر للتوكيد أو الأول في أداء الواجبات لأنه مقرون بالأعمال والثاني في ترك المحارم لاقترانه بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وفي مجيئهما مطلقين من الفخامة ما لا يخفى ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ﴾ تركوا طاعته ﴿ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ أن يقدموا لها خيراً ويفعلوا ما يخلصها ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الكاملون في الفسق ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ والناس لاستيلاء الغفلة عليهم لم يفرقوا بين الفريقين فاحتاجوا إلى الإعلام ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ بما لم يخطر على قلب بشر من النعيم المقيم ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ الشامل للزواجر ﴿ عَلَى جَبَلٍ ﴾ وجعل فيه تمييز كالإنسان ﴿ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا ﴾ متذللا ﴿ مُتَصَدِّعًا ﴾ متشققاً متفرقاً أجزاؤه ﴿ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ فالإنسان لحقارته وضعفه أولى بذلك وهو تمثيل كما مرّ في قوله « إنا عرضنا الأمانة » ولذا عقبه بقوله ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ ﴾ هذا ونظائره ﴿ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيخشون الله، والمراد توبيخ الإنسان على عدم خشوعه عند تلاوة القرآن لقسوة قلبه وقلة تدبره ولما أثنى على القرآن بأنه يورث الخشية أشار إلى أوصاف توجبها وأن القرآن كلام من هي صفاته بقوله ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ ما غاب عن الحس وما شوهد أو المعدوم والموجود أو الدنيا والآخرة أو السر والعلن وتقديم الغيب لتقدمه في الوجود وتعلق العلم القديم به ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۞ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ ﴾ البالغ في النزاهة عن النقص والزوال وجميع ما لا يليق به ﴿ السَّلَامُ ﴾ ذو السلامة عن الآفات، مصدر وصف به مبالغة كأنه عينها ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ واهب الأمن أو المصدق رسله

بالمعجزات ﴿ الْمُهَيْمِنُ ﴾ الرقيب الحافظ لكل شيء ، من الأمن إلا أنه أبلغ منه مفيعل منه قلبت همزته هاء ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب ﴿ الْجَبَّارُ ﴾ الذى جبر الخلق على ما أراده أو جبر حالهم بمعنى أصلحه ﴿ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ البليغ الكبرياء عن كل ما يوجب حاجة أو نقصاً الذى كلت العقول عن إدراك ذاته ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ نزه نفسه ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به إذ لا شريك له فى شيء من ذلك ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ ﴾ المقدر للأشياء على وفق حكمته ﴿ الْبَارِئُ ﴾ الموجد لها بريئة عما لا يريده بل جاءت على ما أراد ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ الموجد لصورها وكيفياتها على ما أراد ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ الدالة على صفات الجلال والجمال والكمال وهذه نبذة منها . وعن أبى هريرة « إن لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة وهى : الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصوّر ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعزّ ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » . روى الحديث الترمذى ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من الأجزاء والجزئيات « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ المتقن فى صنعه ، فذلكة للسورة ورمز إلى إجلاء اليهود وإيراث أموالهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

[تم تفسير سورة الحشر]

سورة الممتحنة

مدنية ـ وهى ثلاث عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى ﴾ ككفار قريش ﴿ وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة مهاجرىّ حليف لعثمان رضى الله عنهما لما أعلم رسول الله بغزو أهل مكة بنقضهم عهد الحديبية كتب حاطب إليهم إن رسول الله يريدكم فخذوا حذركم فأرسل كتابه مع سارة مولاة بنى المطلب ، فنزل جبريل فأعلم رسول الله فبعث عليًّا والزبير ومقداداً وأبا مرثد وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب حاطب خذوه منها ، فأدركوها هناك فقالت ليس معى كتاب فسل علىّ لها السيف فأخرجته من عقيصتها فاستحضر رسول الله حاطباً وقال : ماحملك عليه ؟ فقال : يارسول الله لا تعجل علىّ فوالله منذ أسلمت ما كفرت وما فعلت ذلك ارتداداً ولكنى كنت أمرءاً ملصقاً فى قريش ليس لى فيهم من يحمى أهلى فأردت أن أتخذ عندهم يداً . فصدّقه النبى صلى الله عليه وسلم وقال : لا تقولوا لحاطب إلا خيراً . قلت : وفيه دلالة على أن مطلق إعانة الكفار على المسلمين من غير قصد ارتداد لايكون كفراً ، تأمله منصفاً . والعدو فعول من عداه جاوزه ولكونه على زنة المصدر كالقبول يطلق على الجمع وفى تقديم «عدوى» إشارة إلى أنه المهم ينبغى أن لا يتخذ ولياً لذلك وإن لم يكن عدواً للمسلمين ﴿ تُلْقُونَ ﴾ توصلون ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ قصد النبى صلى الله عليه وسلم غزوهم الذى أسره إليكم ووزى بغيره ﴿ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ بسبب المودة التى بينكم وبينهم فالباء سببية أو مزيدة للتأكيد أى تلقون إليهم المودة أى سببها وهو الكتاب ، والجملة حال من فاعل « لا تتخذوا » أو صفة لـ « أولياء » جرت على غير من هى له فلا حاجة فيها إلى إبراز الضمير لأنه مشروط فى الاسم دون الفعل ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ دين الإسلام أو القرآن حال من فاعل تلقون أو لا تتخذوا ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ من مكة بتضييقهم عليكم ، حال من « كفروا » أو استئناف لتفسيره كأنه قيل : بم كفروا ؟ فقيل بإخراج الرسول والمؤمنين لإيمانهم بالله لا لغرض آخر وهذا أكثر فائدة من الأول ﴿ أَنْ تُؤْمِنُوا ﴾ أى لأجل أن آمنتم ﴿ بِاللهِ رَبِّكُمْ ﴾ وفيه تغليب المخاطب والالتفات من التكلم إلى الغيبة للدلالة على ما يوجبه الإيمان ﴿ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا ﴾ للجهاد ﴿ فِى سَبِيلِى وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِى ﴾ علة للخروج حذف جواب الشرط لدلالة ما قبله عليه أى فلا تتخذوهم أولياء ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ بدل من تلقون ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ

وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾ منكم وأطلع رسولى عليه فأى فائدة فى الإسرار بعد علمكم بهذا وإيمانكم به ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ ﴾ أى إسرار خبر النبي إليهم ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أخطأ طريق الهدى ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ ﴾ يظفروا بكم ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ﴾ يظهر لكم منهم نتيجة العداوة من الإضرار ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ بالقتل والضرب ﴿ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ ﴾ بالسب جار مجرى تفسير العداوة ﴿ وَوَدُّوا ﴾ تمنوا ﴿ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ يردونكم كفاراً ومجىء « ودوا » وحده بلفظ الماضى للإشعار بأنهم ودوا ذلك قبل كل شىء ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ ﴾ قراباتكم المشركون ﴿ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ﴾ الذين لأجلهم أسررتم الخبر وواليتم الكفار خطأهم أولا فى موالاة من هو خالص العداوة لهم ثم فيمن يوالون لأجله وبين وجه الخطإ بقوله ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ ﴾ بضم الياء وسكون الفاء وفتح الصاد لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة لحمزة والكسائى وبفتحها مشدداً لابن عامر وبفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد مخففاً لعاصم ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ وبينهم فتكونون فى الجنة وهم فى جملة الكفار فى النار فأى فائدة فى موالاة من لا بقاء ولا نفع لوده ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ مشاهد له فيجازيكم عليه ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ ﴾ بكسر الهمزة للجمهور وضمها لعاصم فى جميع القرآن وهو ثلاثة مواضع أى قدوة ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ اسم لما يؤتسى به ﴿ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى به قولا وفعلا ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ من المؤمنين به ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ ﴾ ظرف لخبر كان وهو فى إبراهيم وما معه ولكم لغو ﴿ إِنَّا بُرَآءُ ﴾ جمع برىء كظرفاء جمع ظريف ﴿ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أنكرناكم وكذبناكم فى عبادة الأصنام فلا نعتد بشأنكم أو كفرنا بدينكم أو بمعبودكم والكلام على المشاكلة والتهكم إذ الكفر إنما يكون بالحق وما أتى به الرسول ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ فتنقلب العداوة ألفة والموالاة والبغضاء محبة ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ مستثنى من « أسوة حسنة » لأنها عبارة عن قولهم « إنا برآء منكم » إلى آخره فليس لكم التأسى به فى ذلك بأن تستغفروا للكفار لأنه كان قبل النهى وقوله ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ ﴾ من عذابه وثوابه ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ كنى به إبراهيم عن أنه لا يملك غير الاستغفار فهو من تمام قوله المستثنى ولا يلزم من استثناء المجموع استثناء جميع أجزائه فهو مستثنى من حيث المراد منه لأنه جعله تابعاً للاستغفار وإن كان من حيث ظاهره مما يتأسى فيه ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ فى كفاية شرهم وغيره متصل بما قبل الاستثناء أو أمر من الله للمؤمنين بأن يقولوه تتميما لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ مرجع الجميع ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ﴾ محل فتنة أى إضلال ﴿ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بأن تسلطهم علينا فيفسدوا علينا ديننا أى فيظنوا أنهم على الحق فيفتتنوا أى تذهب عقولهم بنا ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ ما فرط ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فى ملكك وصنعك حقيق بإجابة الدعاء وتحقيق الرجاء ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾ يا أمة محمد جواب قسم مقدر ﴿ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

كرره مبالغة فى الحث على التأسى بإبراهيم ولذلك صدره بالقسم ﴿ لِمَنْ كَانَ ﴾ بدل اشتمال من لكم ﴿ يَرْجُو ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ يخافهما أو يرجو الثواب ويخاف العقاب ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ عن تأسى إبراهيم ووالى الكفار ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ فلا يضره توليه بل يضر نفسه . ولما نزل أول السورة إلى هنا وعادى المؤمنون أقاربهم المشركين وتبرءوا عنهم وعدهم الله بالتوادد والتواصل معهم بقوله ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُمْ ﴾ فى الله ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من أقاربكم الكفار ﴿ مَوَدَّةً ﴾ بأن يهديهم الله للإيمان فيصيروا لكم أولياء ﴿ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ﴾ على ذلك وقد أنجزه بعد فتح مكة فأسلم أكثرهم وصاروا أولياء ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لهم أو لكم لما فرط فى موالاتهم من قبل ولما بقى فى قلوبكم من ميل الرحم ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بكم وبهم بعد التوبة أو رحيم بجمعكم على الإيمان عن قريب ﴿ لَا يَنْهَـٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ﴾ مبرة ﴿ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ ﴾ من الكفار ﴿ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَـٰرِكُمْ ﴾ كالنساء والصبيان أو الذين عاهدوكم كخزاعة أو من لم يقاتل ولا أخرج مطلقا ويؤيد الأول ما روى أن الآية نزلت لما قدمت قتيلة بنت عبد العزى مشركة على بنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها فى الدخول حتى سألت عن ذلك ، وفى البخارى ومسلم عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : يارسول الله إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها. قال « نعم صلى أمك » ﴿ أَنْ تَبَرُّوهُمْ ﴾ بدل اشتمال من الذين بتقدير مضاف كما قدرنا ﴿ وَتُقْسِطُوٓا إِلَيْهِمْ ﴾ تعاملوهم بالعدل فيما بينكم من الحقوق ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ العادلين ﴿ إِنَّمَا يَنْهَـٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ﴾ ولاية ﴿ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا ﴾ بعضكم أى عاونوهم ﴿ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ ﴾ كمشركى مكة سعى بعضهم فى إخراج المؤمنين وبعضهم أعان المخرجين ﴿ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴾ بدل اشتمال من الذين أى تتخذوهم أولياء ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ ﴾ بعد هذا النهى ﴿ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ الكاملون فى الظلم لوضعهم الولاية فى غير محلها وعدم عذرهم بعد هذا البيان . ولما شرط عليه السلام للكفار فى صلح الحديبية أن من جاء إليه مسلما يرده إليهم فجاءت نساء منهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وسبيعة بنت الحارث الأسلمية إليه فجاء أولياؤهن إليه فقال لهم الشرط فى الرجال لا النساء نزل تصديقا له ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ ﴾ بألسنتهن ﴿ مُهَـٰجِرَٰتٍ ﴾ من الكفار ﴿ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ بما يغلب على ظنكم موافقة ألسنتهن لقلوبهن فى الإيمان عن ابن عباس كان الامتحان أن تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله بالله ما خرجت من بغض زوج ولا عشقا لغيره ولا رغبة فى أرض عن أرض بل حبا لله ولرسوله ، وكان الذى يتولى الامتحان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ﴾ حقيقة لأنه المطلع على قلوبهن وإنما أمركم بالامتحان لإجراء الأحكام على الظن الغالب ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ ﴾ ظننتموهن بالحلف ﴿ مُؤْمِنَـٰتٍ ﴾ وإطلاق العلم على الظن شائع إيذانا بأنه كالعلم فى وجوب العمل به وإفادته بالإمعان فى الامتحان ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ أى أزواجهن الكفار ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾

أى الحل مرتفع من الجانبين بإسلامها لا بهجرتها والتكرير للطابقة والمبالغة أو الأولى لحصول الفرقة والثانية للنع عن الاستئناف . قاله البيضاوى ﴿ وَءَاتُوهُم ﴾ أى أزواجهن الكفار ﴿ مَا أَنفَقُوا ﴾ دفعوا إليهن من المهور وكان ذلك مخصوصا بتلك الواقعة فى المهاجرات . قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ بعد العدة ﴿ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن نبه على ذلك إعلاما بأن ما أعطى أزواجهن لا يقوم مقام المهر ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لأبى عمرو ﴿ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ زوجاتكم اللاتى تخلفن فى دار الكفر لقطع إسلامكم لها أو اللاحقات بالمشركين مرتدات لقطع ارتدادهن نكاحكم وهى جمع عصمة النكاح أو أسبابه وأصلها الحبال وكل ما أمسك شيئا فقد عصمه ﴿ وَاسْأَلُوا ﴾ اطلبوا ﴿ مَا أَنفَقْتُمْ ﴾ من مهور المرتدات ﴿ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ﴾ من مهور المهاجرات أعاده توكيدا ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ﴾ أى ما ذكر ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ مستأنف أو حال ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال العباد ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما شرع ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ ﴾ نكره استهانة أو تعميا ﴿ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ واحدة فأكثر منهن أو شىء من مهورهن بالذهاب ﴿ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ مرتدات لأن قريشا لما بلغهم هذا الحكم قالوا لا نرضى به ولا نلتزمه ولا ندفع لأحد صداقا فنزلت ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ فغزوتم وغنمتم ﴿ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم﴾ من الغنيمة ﴿مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ لفواته عليهم من جهة الكفار أو معنى عاقبتم جاءت عقبتكم أى نوبتكم فى أداء المهر شبّه أداء هؤلاء وهؤلاء بأمر يتعاقبون فيه تعاقب الراكبين على الدابة يركب هذا عقبةً وهذا عقبةً فأعطوا زوج المرتدة ما كان يعطى زوج المهاجرة حين لم يرض الكفار الحكم قاله الزهرى والأول قول ابن عباس وهو الأوجه وقد فعل المؤمنون ما أمروا به من الإيتاء للكفار والمؤمنين ثم ارتفع الحكم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ فإن الإيمان به يقتضى التقوى منه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ من الأشياء ﴿ وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ كما كان الوائدات يفعلن ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ بولد لقيط ينسبنه إلى الزوج وصف بصفة الولد الحقيقى لأن الأم إذا ولدته سقط بين يديها ورجليها أو ذلك كناية عن البطن والفرج ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ تأمرهن به كترك النياحة وتمزيق الثياب وجز الشعر وشق الجيب ، والتقييد بالمعروف مع أن الرسول لا يأمر إلا به تنبيه على أنه لا تجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق ولو فرض أن يكون أنت ﴿ فَبَايِعْهُنَّ ﴾ على هذه الشرائط ، وقد فعل صلى الله عليه وسلم ذلك يوم الفتح لما فرغ من بيعة الرجال أخذ فى بيعة النساء بالقول ولم يصافح واحدة منهن . وفى البخارى عن أم عطية : قرأ علينا الآية فى ثانى يوم فتح مكة . قال فى الجواهر : وكلام ابن عطية يوهم أن الآية نزلت فى بيعة النساء يوم الفتح وليس كذلك وإنما أعلو الآية على من لم يبايعه من أهل مكة لقرب عهدهم بالإسلام والله أعلم . اهـ . وقال ابن عطية فى إتيان البهتان قال : أكثر المفسرين أن تنسب إلى زوجها ولدا ليس منه

قالوا اللفظ أعم من هذا التخصيص . اهـ والمعروف يعم جميع أوامر الشرع فرضاً وندباً ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ من سالف ذنوبهن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولما كان بعض فقراء المؤمنين يوالون اليهود لعل أن يصيبوا منهم بعض ثمارهم نزل ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هم اليهود ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾ من ثوابها مع إيقانهم بها لعنادهم النبي صلى الله عليه وسلم مع علمهم بصدقه ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقُبُورِ﴾ «من» بيان أي كما يئس من مات على الكفر من رحمة الله أو كما يئس الكفار من بعث الموتى لعدم اعتقادهم الحشر .

[تم تفسير سورة الممتحنة]

سورة الصف

مدنية أو مكية، والأول أصح، وهي أربع عشرة آية

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ سبق تفسيره ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، نزلت الآية لما قالوا لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فنزل «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا» فولوا يوم أحد فعاتبهم بهذه الآية واستدل بها مالك على أن الوعد يلزم وحمل ذلك غيره على أمر الآخرة قال ابن عطية : كل من يقول ما لا يفعل فهو ممقوت ﴿كَبُرَ﴾ عظم ﴿مَقْتاً﴾ تمييز وهو أشد البغض ﴿عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا﴾ فاعل «كبر» ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ في الجهاد وغيره وفيه مبالغة في تهجينه لما في «كبر» من معنى التعجب المراد منه تعظيم الجناية وإسناده إلى القول أولا ثم تمييزه بالمقت وتقديمه وجعله عند الله . قال قتادة : دخل فيه من يتحدث عن نفسه في الغزو بما لم يفعل . قال ابن عطية : قول المرء ما لا يفعل موجب مقت الله . ولذا ترك كثير من العلماء عن الوعظ وآثر السكوت . اهـ . قال في الجواهر : وهذا إن وجد من يكفيه عن الوعظ وإلا فلا يسعه السكوت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ﴾ ينصر ويكرم ﴿ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي

سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ حال أى صافين ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ ملزق بعضه إلى بعض ثابت . قال عليه السلام « من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة فقد وجبت له الجنة ومن سأل الله القتل من نفسه صادقاً ثم مات أو قتل فإن له أجر شهيد » رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، قال الترمذى حديث صحيح ﴿ وَ ﴾ اذكر للمؤمنين ليحذروا ما وقع فيه من قبلهم من العصيان ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ أى ذلك الوقت ﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ بالعصيان والرمى بالأدرة ﴿ وَقَدْ ﴾ للتحقيق ﴿ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ بما جئتكم به من المعجزات والرسول يحترم ، والجملة حال والذنب مع العلم أشد ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا ﴾ عن الحق بإيذائه ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ صرفها عن الاهتداء ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ لا يوفقهم لأنهم خلقوا للنار ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ لم يقل ياقوم تذكيراً لهم بأنهم أولاد إسرائيل الذى وصى بنيه ألا يعبدوا إلا الله لا لأنهم ليسوا من قومه لدخوله فى ذرية إسرائيل كما تقدم فى الأنعام ومريم ولقوله « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ ﴾ قبلى ﴿ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ﴾ ومصدقاً ومبشراً : حالان والعامل معنى الرسالة الذى فى رسول الله لا الجار لأنه لغوٌ إذ هو صلة للرسول فلا يعمل إذ ليس فيه معنى الفعل﴿ اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ أفعل تفضيل من الحمد لم يسم به أحدٌ قبله ، قال تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ جاء أحمد الكفار أو عيسى بنى إسرائيل ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الآيات الواضحات فى القرآن أو مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿ قَالُوا هَٰذَا ﴾ أى ما جاء به أو الجائى ﴿ سِحْرٌ ﴾ ولحمزة والكسائى : ساحر ﴿ مُبِينٌ ﴾ بيّن ﴿ وَمَنْ ﴾ أى لا أحد ﴿ أَظْلَمُ ﴾ أشد ظلماً ﴿ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ بوصف آياته أو رسله بالسحر ﴿ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ المؤدى إلى خير الدارين فلا جناية فوق جناية هذا لزوال الاشتباه وعدم العذر ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الكاملين فى الظلم وهم المشركون واليهود ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا ﴾ منصوب بأن مقدرة واللام مزيدة لتأكيد الإرادة لما فى اللام من معناها أو يريدون الافتراء ليطفئوا ﴿ نُورَ اللَّهِ ﴾ شرعه أو نعت محمد ﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أقوالهم إنه سحر وشعر أو بتحريف الكلم عن مواضعه مَثَّلَ حالهم بمن يريد إطفاء نور الشمس بنفخ فى الهواء ﴿ وَاللَّهُ مُتِمٌّ نُورَهُ ﴾ بالتنوين ونصب ما بعده لنافع وأبى عمرو وابن عامر وأبى بكر ، وبالإضافة للباقين أى يبلغ شرعه غايته بنشره وإعلائه على الدين كله ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ ذلك الساترون نعمة الله إرغاماً لهم ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ ﴾ بالقرآن المعجز ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ الذى لا يطرقه نسخ ولا تبديل ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ يعليه ﴿ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ جميع الأديان المخالفة له ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ عباد الأوثان واليهود القائلون « عزير ابن الله » والنصارى المثلثون ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر ﴿ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مؤلم فكأنهم قالوا : نعم ، فقال ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ تدومون على الإيمان ﴿ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ

اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ ولم يقل آمنوا مبالغة فى الحث عليه كأنهم امتثلوا فهو يخبر عنهم إيذاناً بأن ذلك مما لا يترك ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أى ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى من ذوى العلم أو إن علمتم أنه خير فابذلوا فى تحصيله الأموال والأنفس ﴿ يَغْفِرْ ﴾ جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر أو لشرط مقدر أى إن تفعلوه يغفر ﴿ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذى لا يحيط به الوصف ﴿ وَ ﴾ لكم نعمة ﴿ أُخْرَىٰ ﴾ دَنِيَّةٌ بالنسبة إلى الأولى ومع ذلك ﴿ تُحِبُّونَهَا ﴾ وفيه تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل وقيل أخرى منصوبة بإضمار يعطكم أو تحبون أو مبتدأ خبره ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ بدل أو بيان على الأول وعلى الثانى خبر محذوف ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ فتح مكة أو فارس والروم ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يا محمد بما وعدتهم على التجارة آجلا وعاجلا من الجنات والنصر والفتح ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارًا لِلَّهِ ﴾ لدينه ، بالتنوين واللام لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبالإضافة للباقين ﴿ كَمَا ﴾ كان الحواريون الدال عليه ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي ﴾ من جندى الكائنون معى متوجهاً ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى نصر دينه ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ أصفياء عيسى أول من آمن به وكانوا اثنى عشر رجلا وتقدم فى آل عمران ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ أنصار دينه ﴿ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ بعيسى ﴿ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ منهم به فاقتتلت الطائفتان بعد رفع عيسى ﴿ فَأَيَّدْنَا ﴾ قوينا ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ من الطائفتين ﴿ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ الطائفة الكافرة ، وإيثار لفظ العدو لإشعاره بالتشنيع ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ غالبين بالسيف والحجة .

[تم تفسير سورة الصف]

سورة الجمعة
مدنية ــ وهي إحدى عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ﴾ البليغ التنزه عن وصمة النقص والشين ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ الغالب ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ البالغ حكمته توطئة لقوله ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ ﴾ العرب لأن أكثرهم لا يكتب ولا يقرأ ﴿ رَسُولًا ﴾ لفرط احتياجهم إليه ﴿ مِنْهُمْ ﴾ يعرفون صدقه وأمانته لكونه أشفق بهم وأرفق وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ القرآن مع كونه أمياً مثلهم معجزة له ولو لم تكن له معجزة سواه لكفاه ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يطهرهم من خبائث الأعمال كالشرك ورذائل الأخلاق ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ مافيه من الأحكام ومعالم الدين المنقولة والمعقولة ﴿ وَإِنْ ﴾ مخففة أى وإنهم ﴿ كَانُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل مجيئه ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ظاهر من عبادة الحجر وأكل الجيف والطواف عراة ، وهو بيان لشدّة احتياجهم إلى نبيّ يرشدهم وإزاحة لما يتوهم أن الرسول تعلم ذلك من معلم ﴿ وَآخَرِينَ ﴾ عطف على الأميين أو المنصوب فى « يعلمهم » ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من الأميين نسباً أو جنساً وهم الذين جاءوا بعد الصحابة إلى يوم الدين . وفى البخارى : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هم ؟ فوضع يده على سلمان وقال : هم قوم هذا . يعنى فارس . قال فى غاية الأمانى : وليس فيه منع الغير فيتناول كل من يأتى بعد الصحابة إلى آخر الدهر ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ فى السابقة والفضل أو لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون لما فى « لما » من معنى التوقع ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فى تمكينه من هذا الأمر الخارق للعادة ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى اختياره وتعليمه وفى هذا بيان فضل الصحابة على من عداهم ممن بعث إليهم النبي وآمنوا به من الإنس والجن إلى يوم القيامة لأن كل قرن خير ممن يليه ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ ﴾ أى كونه رسولا للأولين والآخرين وفى إضافة الفضل إلى اسم الجلالة إشارة إلى أن كل فضل دونه ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ تفضلا منه ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الذى لا يحاط به ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ﴾ كلفوا العمل بها ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ لم يعملوا بها ولا حلوها على محاملها حين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم والتوراة تنطق بنبوّته وحرّفوا نعته ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ كتباً فى عدم انتفاعه بها و « يحمل » حال والعامل فيه معنى المثل أو صفة إذ لم يرد بالحمار معين وهو تشبيه مرسل مركب الوجه وهو الحرمان من الانتفاع بأبلغ نافع مع الكد والتعب واتصاله بما قبله أنهم علموا فى التوراة نعت المبعوث

فى الأميين رسولا وكتموه ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ الدالة على نبوة محمد هذا المثل ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى اليهود الذين لم يحملوا التوراة ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا ﴾ تهوّدوا ﴿ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ بقولكم « نحن أبناء الله وأحباؤه » ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾ من الله أن ينقلكم من دار البلية إلى دار كرامته ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى زعمكم لأن من علم أن مآله جنة عدن تمنى الخلاص من دار الفناء ، وأتى بإن مع الزعم إشارة إلى أن الأولى بحال من على طريقتهم الشك والدعوى الباطلة ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بسبب ما قدموا من الكفر والمعاصى ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ظاهراً وباطناً فيجازيهم على أعمالهم ، وجعل الله هذه الآية معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأعلمه أنه إن تمنى أحد منهم الموت فارق الدنيا فقال لهم تمنوه على جهة التعجيز فما تمناه أحد منهم ثقة بصدقه عليه السلام ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ وتخافون تمنيه ﴿ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾ لا تفوتونه ، والفاء لتضمن الموت معنى الشرط باعتبار الوصف وكأن فرارهم يسرعهم إليه ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ السر والعلانية ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ به فيجازيكم به ولما نفى الله عن اليهود ما يمنون به أنفسهم من الأمانى الباطلة أمر المؤمنين بالسعى إلى ما فات اليهود من فضيلة يوم الجمعة بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ ﴾ أذن ﴿ لِلصَّلَاةِ ﴾ النداء الذى بين يدى الخطبة وهو الثانى لأن الأول أحدثه عثمان رضى الله عنه عند كثرة الناس ﴿ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ سمى به لاجتماع الناس فيه للصلاة وكانت العرب تسميه العروبة وأول جمعة جمعها رسول الله أنه لما قدم المدينة نزل قباء وأقام بها إلى الجمعة ثم دخل المدينة وصلى الجمعة فى دار لبنى سالم بن عوف ﴿ فَاسْعَوْا ﴾ امضوا ﴿ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الخطبة أو الصلاة والمراد بالسعى القصد والاهتمام لا الإسراع لورود النهى عنه ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ اتركوا عقده لأنه حرام وكذا الشراء وسائر المعاملات اتفاقاً من جلوس الخطيب إلى انقضاء الصلاة والأمر فى « فاسعوا » دليل على وجوبها على الحر المقيم الصحيح القريب من موضعها بثلاثة أميال فأقل ولا تفتقر إقامتها إلى إذن الإمام ولا بد فيها من مسجد وإمام وجماعة وخطبة ولا يجوز السفر بعد الزوال يومها قبل الصلاة ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من المعاملات فإن نفع الآخرة خير وأبقى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه خير ، وفى التعبير بإن إشارة إلى العتاب بعدم العلم لمن خرج وترك النبى قائماً كما يأتى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾ أديت وفرغ منها ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ من رزقه جبراً لما فاتكم ، والأمر للإباحة لوروده بعد النهى ودخل فى فضل الله طاعته بعيادة المرضى وتشييع الجنائز وزيارة الإخوان فى الله وطلب العلم . قال العلماء : ينبغى أن يطلب العلم إثر الجمعة ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ بالقلب واللسان ذكراً ﴿ كَثِيرًا ﴾ فى جميع الأحوال إذ ما من شىء أنجى من عذاب الله من ذكر الله . رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم فى المستدرك وقال صحيح الإسناد ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تفوزون برضاته . كان صلى الله عليه وسلم

يخطب يوم الجمعة فقدمت عير لدحية قبل إسلامه ومعها طبل نضرب بقدومها على عادتهم قبل الإسلام فخرج الناس إليها من المسجد وتركوا النبي قائماً غير اثنى عشر رجلا فنزل ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ﴾ وهو الطبل إذ منهم من خرج لمجرد سماعه ﴿ انْفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ إلى التجارة لأنها مطلوب الأكثر دون اللهو ولأن الانفضاض إليها إذا كان مذموماً فإلى اللهو أولى ﴿ وَتَرَكُوكَ ﴾ فى الخطبة ﴿ قَائِمًا ﴾ على المنبر فيه دليل على أن الإمام يخطب قائماً ، وفيه غاية التعيير إذ لو لم يكن إلا تركه قائماً دون أن يكون خطيباً لكان شنيعاً ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من الثواب ﴿ خَيْرٌ ﴾ للذين آمنوا ﴿ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ﴾ لكونه باقياً صفواً بلا كدر ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ فتوكلوا عليه وتوجهوا إليه فى طلب الرزق .

تم تفسير سورة الجمعة

سورة المنافقين
مدنية ـ وهى إحدى عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا ﴾ بألسنتهم على خلاف ما فى قلوبهم ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ إنشاء جار مجرى القسم ولذا أكد بإن واللام يتضمن ادعاء المواطأة بين القلب واللسان ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ وأن ما قالوه كلام مطابق للواقع قطعاً ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ ﴾ يعلم ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى ادعاء المواطأة أو كاذبون فى أنفسهم لا يعتقدون صدق مقالهم واعترض بقوله « والله يعلم إنك لرسوله » ليحيط رجوع التكذيب إلى قولهم ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ وقاية عن القتل والسبى استئناف لبيان فائدة تلك الشهادة التى هى بمثابة اليمين ﴿ فَصَدُّوا ﴾ بها ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الجهاد فيهم أو اتخذوا كلام مستقل لعد قبائحهم وصدوا بمعنى أعرضوا أو منعوا غيرهم عن سلوك السبيل ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من النفاق إنشاء كأنه قيل ما أسوأ ما ارتكبوه ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى سوء عملهم أو تفضيحهم وتوبيخهم ﴿ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ﴾ ظاهراً باللسان ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ بالقلب أى استمروا على كفرهم باطنا ﴿ فَطُبِعَ ﴾ ختم ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ منع دخول نور الحق فيها ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ شيئاً من الحق إنما قال « آمنوا ثم كفروا »

مع أنهم لم يؤمنوا طرفة عين لأنهم نطقوا بالشهادة ثم ظهر كفرهم أو نطقوا بها عند المؤمنين ثم كفروا عند شياطينهم والحمل على أهل الردة بعيد ناب عنه المقام ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ لجمالها ونعومتها أو المراد وجوههم فقط مجازاً لغويا ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ لفصاحته وحلاوته لأن ابن أبيّ وأتباعه الذين نزلت فيهم السورة كانوا ضخاماً وساماً فصاحا والخطاب فى « رأيتهم » للرسول أو عام والأول أوجه لتقدم « إذا جاءك » ولأنه إذا أعجبنه فغيره أولى ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ ﴾ بضم الشين للجمهور وسكونها لأبى عمرو والكسائى وقنبل ﴿ مُسَنَّدَةٌ ﴾ ممالة إلى الحائط فى كونهم أشباحا خالية عن العلم والنظار وناهيك بسفالة النفاق تشبيه أهله بجماد وتشبيه الكفار بالأنعام و« كأنهم » حال من الضمير المجرور فى « لقولهم » ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ ﴾ تصاح كنداء فى العسكر وإنشاد ضالة واقعة ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ لما فى قلوبهم من الرعب أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم ويظهر أسرارهم ويبيح دماءهم ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾ لاغير لأن أعدى العدو من تلقاك بوجه الصديق لوقوفه على أسرارك وتمكنه من إشاعة أخبارك ﴿ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ خذ حذرك منهم ولا تغتر بظاهرهم فإنهم يفشون سرك لأعدائك ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ أهلكهم ولعنهم دعاء منه تعالى ينبئ عن فرط السخط أو تعليم للمؤمنين الدعاء عليهم ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ كيف يصرفون عن الإيمان بعد قيام البرهان تعجيب من العدول مع موجب القبول ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا ﴾ معتذرين ﴿ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَوْا ﴾ بالتخفيف لنافع والتشديد للباقين أمالوا وعطفوا ﴿ رُءُوسَهُمْ ﴾ إعراضاً ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ يعرضون عن ذلك فضلا عن الاستماع ﴿ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الاستغفار، اتفق الثقاة على أنها نزلت فى عبد الله بن أبيّ وأصحابه لما قالوا « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » فسألهم رسول الله عن ذلك لحلفوا له ماقالوا فنزلت الآية وبينت أنهم قالوا ذلك فأرسل إليهم الرسول ليستغفر لهم فلووا رءوسهم واستكبروا فنزل ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ ﴾ استغنى بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل ﴿ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ لرسوخهم فى الكفر وعدم اعتدادهم باستغفار ولعله بأنهم أهل الدرك الأسفل ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الخارجين عن مظنة الاستصلاح لانهماكهم فى الكفر والنفاق ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ لأصحابهم من الأنصار ﴿ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ من فقراء المهاجرين ﴿ حَتَّى يَنْفَضُّوا ﴾ يتفرقوا عنه قاله عبد الله بن أبيّ المنافق قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ بيده الأرزاق والقسم قادر على إغناء محمد وأصحابه عن إنفاق أحد ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ذلك لجهلهم بالله ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا ﴾ من غزوة بنى المصطلق ﴿ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا ﴾ عنوا به أنفسهم ﴿ الْأَذَلَّ ﴾ عنوا به رسول الله والمؤمنين قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ ﴾ الغلبة والقوة ﴿ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأن عزتهم عزة الله ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ أعاد المظهر لئلا يفارقهم هذا الوصف ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك من فرط جهلهم وغرورهم نصلها بالعلم لأن هذا الأمر جلىّ

وما قبلها بالفقه لأن فى أمر الرزق نوع خفاء لابتنائه على نوع تعمل ثم نهى الله المؤمنين عن الاغترار بما غر المنافقين من الاشتغال بالأموال وأمرهم بإنفاقها فى سبيل الله بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ﴾ تشغلكم ﴿ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى دين الله كله كالصلوات الخمس وسائر العبادات أى لا يشغلكم تدبيرها والاهتمام بها عنه ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ لأنهم باعوا العظيم الباقى بالحقير الفانى ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أى بعضه ادخاراً للآخرة ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أماراته ومخائله ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا ﴾ بمعنى هلا أو «لا» زائدة و«لو» للتمنى ﴿ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ بالإمهال ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ بإدغام التاء فى الأصل فى الصاد أتصدق بالزكاة وغيرها ﴿ وَأَكُنْ ﴾ بالجزم عطفاً على محل « فأصدق » للجمهور وبالنصب لأبى عمرو عطفاً على لفظه وهو الأظهر لاحتياج الجزم إلى التقدير أى إن أخرتنى أصدق وأكن ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ بالتدارك .

فعلى العاقل المبادرة إلى التصدق إذ هو فى كل لحة بصدد الموت ولا يغتر بالصحة قال ابن عباس : ماقصر أحد فى الزكاة والحج إلا سأل الرجعة عند الموت ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ ﴾ لا يمهل ﴿ نَفْسًا ﴾ لحة ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ انتهاء عمرها ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لأبى بكر فاختاروا لأنفسكم ما شئتم فهو يجازيكم عليه .

[تم تفسير سورة المنافقين]

سورة التغابن

مدنية على الأصح ـ ثمانى عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ قدم الظرفان لتأكيد الاختصاص وإزاحة الشبهة رأساً وأما حمد غيره فلجريان نعمة الله على يده فهو حمد لله حقيقة ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ كامل القدرة لا تقاومها قدرة ولا تشاركها فى التأثير دليل على الاختصاص ثم شرع فى تقرير ما ادعاه فقال ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ ﴾ فى أصل الخلقة مقدر كفره موجه إليه ما يحمله عليه ﴿ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ مقدر إيمانه موفق لما يدعوه إليه أو فمنكم كافر بهذه النعمة لجهله بالله ومنكم مؤمن بالله شكراً لتلك النعمة ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ مشاهد فيجازى عليه

﴿ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ بالحكمة البالغة مرتباً أسباب معاشكم فيها ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ إذ جعل شكل الآدمى أحسن الأشكال وخصه بأوصاف الكمال وجعله نموذج عالم الملك والملكوت ومهبط أسرار الجلال والجمال ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ يسألكم عن النقير والقطمير فأحسنوا سرائركم حتى لا يمسخ بالعذاب ظواهركم ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ بمضمراتها فضلا عن السر والعلن فاستعملوا بالعبادة ظواهركم وطهروا سرائركم وأخلصوا ضمائركم لتحمدوا عواقبكم قدم تقرير القدرة على العلم لأن دلالة المخلوقات على قدرته ثابتة أولا بالذات وعلى علمه ثابتة بما فيها من الإتقان والاختصاص ببعض الأنحاء ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ يا كفار مكة ﴿ نَبَأُ ﴾ خبر ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ كقوم نوح وهود وصالح المعنى بل أتاكم ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ ضرر كفرهم ووخامته فى الدنيا بالاستئصال وأصله الثقل ﴿ وَلَهُمْ ﴾ فى الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من عذاب الدارين ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ بأن الشأن ﴿ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ المعجزات الظاهرات على الإيمان ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ إنكار مع تعجب والبشر أريد به الجنس ، أو لأنه يطلق على الواحد والجمع ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ بالرسل ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ أعرضوا عن الإيمان ﴿ وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ عن إيمانهم لأنه الغنى عن كل شىء ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ فى ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ حَمِيدٌ ﴾ ذاتا وصفة وفعلا دلت على ذلك ذرات الكون ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ ﴾ أى أنهم ﴿ لَنْ يُبْعَثُوا ﴾ وأن مع ما فى حيزها قائم مقام المفعولين ﴿ قُلْ بَلَىٰ ﴾ تبعثون ﴿ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ قسم أكد به الجواب ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ بالمحاسبة والمجازاة ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لغناه عن الآلات ودورانه بين الكاف والنون ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ إليكم محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَالنُّورِ ﴾ القرآن ﴿ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ لأنه بإعجازه ظاهر بنفسه مظهر لغيره مما فيه بيانه ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه منه شىء فجاز عليه ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ ظرف لأذكر مقدرا أو لخبير أو « لتنبؤن » وقوله « وذلك على الله يسير » وقوله « فآمنوا » اعتراض الأول يؤكد القدرة والثانى يؤكد ما سبق له الكلام من الحث على الإيمان به وبالقرآن وبمن جاء به و « بما تعملون خبير » من تتمة الثانى ﴿ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ للملائكة والثقلين واللام للعلة أى لأجل ما فيه من الحساب والجزاء ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ يغبن المؤمنون الكافرين بأخذهم منازلهم وأهليهم فى الجنة لو آمنوا مستعار من تغابن التجار وأل فيه للدلالة على أن التغابن الحقيقى هو التغابن فى أمور الآخرة لعظمها ودوامها فكأنه لا تغابن إلا ذلك فلذلك أطلق لكونه غلطًا له وأما التغابن فى البيع والشراء فما لا يمكن الاحتراز منه فاض إذ لو حكمنا بالرد به ما نفذ بيع أبدا وأما الذى يمكن الاحتراز منه وهو الكثير الذى زاد على الثلث فيثبت به الرد . والله أعلم ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ ﴾ عملا ﴿ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ ﴾ بالنون فى الفعلين لنافع وابن عامر التفاتا وبالياء للباقين ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ ﴾ الإشارة إلى مجموع الأمرين ﴿ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ لأنه جامع للمصالح من دفع المضار وجلب المنافع ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ كأنها والآية المتقدمة بيان للتغابن وتفصيل له ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بتقديره وإرادته ودخل فيها كفر الكافرين أولا إذ لا مصيبة أعظم منها ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ ﴾ أى بأن المصيبة بقضائه ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ يثبته : إن ابتلاه صبر وإن أعطاه شكر وإن ظلمه أحد غفر ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يعلم من هو أهل للهداية ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ لأن عصيانهما أعظم المصائب ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أعرضتم ﴿ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ الواضح وقد بلغ ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ لأن إيمانهم بأن الكل منه يقتضى ذلك وفيه حث لرسول الله والمؤمنين على الصبر لما يصيبهم من أذى الكفار ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ يشغلكم عن طاعة الله ويخاصمكم فى أمر الدين والدنيا ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ خذوا حذركم ولا تأمنوا غوائلهم كمنع الخير كالجهاد والهجرة إذ روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى أناس أرادوا الهجرة فمنعتهم نساؤهم وأولادهم فلما هاجروا بعد زمان وجدوا السابقين فقهوا فى الدين فهمُّوا بالانتقام بمانعيهم فنزل ﴿ وَإِن تَعْفُوا ﴾ عنهم بترك المعاقبة فى تثبيطهم إياكم عن ذلك الخير معتلين بمشقة فراقكم ﴿ وَتَصْفَحُوا ﴾ بترك التثريب عليه ﴿ وَتَغْفِرُوا ﴾ بإخفائه وتمهيد عذرهم فيه وجمع بين الثلاثة لأن الصبر على أذى من أحسنت إليه أشق ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعاملكم مثل ما عملتم ويتفضل عليكم ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ابتلاء لكم من الله لينظر هل تؤثرون محبتهم على طاعة الله وتشغلكم الأموال عن أمور الآخرة وفى الجواهر الأموال والأولاد تشغل المرء عن مراشده وتحمله من الرغبة فى الدنيا على ما لا يحمده فى آخرته ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « الولد مجبنة مبخلة » اهـ . أى سبب الجبن والبخل ، وقد جاء الحسن والحسين رضى الله عنهما والنبى على المنبر يخطب وهما يعثران فى قميصهما ويقومان فنزل عن المنبر حتى أخذهما وصعد بهما ثم قرأ « إنما أموالكم وأولادكم فتنة . . الآية » وقال : « إنى رأيت هذين فلم أصبر ثم أخذ فى خطبته » أخرجه أبو داود . قال ابن عطية : وهذه ونحوها هى فتنة الفضلاء . فأما فتنة الجهال والفسقة فمؤدية إلى كل فعل مهلك ، وعن أبى ذر رضى الله عنه : « انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : هم الأخسرون ورب الكعبة ، فقلت : من هم . قال : الأكثرون مالا إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا ـ وأشار ابن شهاب بين يديه وعن يمينه وعن شماله ـ وقليل ما هم » أخرجه البخارى ومسلم ﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لمن آثر محبة الله وطاعته على محبة الأموال والأولاد والسعى لهم وهو حث على إيثار طاعته ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ غاية جهدكم إذ لا تكليف فوق ذلك تفسير لقوله « اتقوا الله حق تقاته » لا ناسخ له ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ مواعظه ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ أوامره أو اسمعوا لأولى الأمر منكم وأطيعوا

أوامرهم ما لم تكن معصية إذ « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ﴿ وَأَنْفِقُوا ﴾ فى وجوه الخير فرضا ونفلا خالصا لوجهه ﴿ خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ خبر يكن مقدرة جواب الأمر تأكيد للحث على الامتثال ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف أى إنفاقا خيرا لأنفسكم ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ ﴾ بتصريف المال فيما أمر ﴿ قَرْضاً حَسَناً ﴾ عن طيب نفس خالصا لله وفى التعبير عن الصدقة بلفظ القرض تلطف فى الطلب بها ﴿ يُضَاعِفْهُ ﴾ ولابن كثير وابن عامر يضعفه بالتشديد ﴿لَكُمْ﴾ بالواحدة عشرة إلى سبعمائة وأكثر ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما فرط ببركة الإنفاق لأن الحسنات يذهبن السيئات ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ ﴾ مجاز على الطاعة يعطى الجزيل بالقليل ﴿ حَلِيمٌ ﴾ فى العقاب على المعصية لايعاجل به ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ على سواء حث على الإخلاص ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب لا مانع لسطانه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى كل ما دبر .

[تم تفسير سورة التغابن]

سورة الطلاق

مدنية ـ ثلاث عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ۝ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ خصه بالنداء إجلالا ولأن أمته تابعون له ولذا عم الخطاب بالحكم أى إن أردتم تطليقهن ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أى وقتها وهو الطهر الذى لم تمس المرأة فيه واحدة بلا عوض ، هذا طلاق السنة كما فسره عليه السلام بذلك . رواه الشيخان . ويجوز طلاق الحامل فى أى وقت إذا استبان حملها فاللام للتوقيت ومن عد العدة بالحيض وهو الحنفى علق اللام بمحذوف مثل مستقبلات وظاهر الآية يدل أن العدة بالطهر وأن طلاق المعتدة بالأقراء ينبغى أن يكون فى الطهر وأنه يحرم فى الحيض من حيث أن الأمر بالشىء يستلزم النهى عن ضده لكن لا يستلزم فساده للدليل الدال على لزومه وهو ما صح أن ابن عمر لما طلق امرأته حائضا أمره النبى

صلى الله عليه وسلم بالمراجعة وهو سبب النزول فقال: «فليراجعها فإذا طهرت ثم حاضت ثم طهرت فليطلقها إن شاء». قلت: إنما كرر الطهر فى الحديث لئلا يكون الرجوع للطلاق ولأن طول المدة عسى يؤثر فى تبدل الحال والطلاق أنكر المباحات فاحتيط لذلك والله أعلم. ثم أمر بإحصاء العدة لما يلحق ذلك من أحكام المراجعة والسكنى والميراث وغير ذلك بقوله ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ احفظوها لتراجعوا قبل فراغها وهى أربعة أنواع ثلاثة أقراء، وثلاثة أشهر، ووضع الحمل، وسنة بيضاء لمن تأخر حيضها لمرض ونحوه ما لم ترتب بحمل فإن ارتابت أقامت أربعة أعوام أو خمسة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ فى أمره ونهيه ومنه إضرار النساء ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ وقت الطلاق ﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ مساكنهن إلى انقضاء العدة ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ استقلالا وإن أذن الأزواج لأن ذلك حق للشارع ليس لأحد إسقاطه حفظاً للأنساب وسنة ذلك أن لا تبيت إلا فى بيتها ولا تغيب عنه نهارًا إلا فى ضرورة وما لا خطب له من جائز التصرف ولا تنتقل إلا لضرورة خوف توحش أو حاجة معاش فتنتقل بحسبها ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ﴾ زنى أو نشوز أو بذاء وإيذاء زوج ﴿مُبَيِّنَةٍ﴾ بكسر الياء للجمهور وفتحها لابن كثير وشعبة فيخرجن لإقامة الحد عليهن وكذا إن طلقن وهن ناشزات لأن النشوز يسقط الحق حال الوفاق فأحرى حال الفراق فالاستثناء راجع إلى الأمرين فى الزنى والنشوز وإلى الأول فقط فى إيذاء الزوج والبذاء ﴿وَتِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بتعريضها لسخط الله ﴿لَا تَدْرِي﴾ أى النفس أو أنت أيها المطلق ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الطلاق ﴿أَمْرًا﴾ من الندم على فراق المرأة والرغبة فى الرجعة أو الاستئناف فيما إذا طلق واحدة أو اثنتين ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ قاربن انقضاء عدتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ راجعوهن بقول أو فعل كالوطء خلافاً للشافعى، ولا بد من نية الارتجاع فيهما خلافاً لأبى حنيفة ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بحسن عشرة وإنفاق مناسب لئلا يؤدى إلى فراق آخر ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾ اتركوهن حتى تنقضى عدتهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بإيفاء الحق واتقاء الضرار ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ على الرجعة والفراق ندباً فى المشهور وفاقاً لأبى حنيفة، وقيل وجوباً فى الرجعة وفاقاً للشافعى ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ﴾ خوف لله باتقاء الكبائر دائماً والصغائر غالباً وخرج الفاسقان والمرأتان ﴿مِنْكُمْ﴾ خرج الكافران والإشهاد لنفى الريبة وقطع النزاع ولها أن تمنع الزوج من نفسها حتى يشهد على الرجعة ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أيها الشهود عند الحاجة أى أدوها من غير تثاقل ﴿لِلَّهِ﴾ لا للمشهود عليه أو له ﴿ذَلِكُمْ﴾ الذى ذكر فى الآية من إيقاع الطلاق على وجه السنة وإحصاء العدة والكف عن الإخراج وإقامة الشهادة ﴿يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لأنه المنتفع به ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ فيما ذكر وغيره ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ من كرب الدارين ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ خير الدارين ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ لا يخطر بباله وجملة الشرط وما بعده اعتراض مؤكد لما سبق بالوعد على الاتقاء عما نهى عنه صريحاً أو ضمناً بالخلاص من مضار الدارين والفوز بخيرهما أو استطراد

عند ذكر المؤمنين دلالة على أن التقوى ملاك الأمر، وعنه صلى الله عليه وسلم «إنى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم «ومن يتق الله .... » فما زال يقرؤها ويعيدها، وروى أن سالم بن عوف بن مالك الأشجعى أسره العدو فشكا أبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: اتق الله وأكثر من قول لاحول ولا قوة إلا بالله ففعل فبينما هو فى بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل ساقها من العدو، فنزلت. وقال عليه السلام لابن مسعود: لا يكثر همك ماقدر يكون وما ترزق يأتيك ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فى أموره ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ كافيه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ مراده لا يفوته، وقرأ حفص بالإضافة ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ كرخاء وشدة ﴿ قَدْرًا ﴾ توقيتاً لا يتقدمه ولا يتجاوزه وهو بيان لوجوب التوكل وتقرير لما تقدم من توقيت الطلاق بزمان العدة والأمر بإحصائها وتمهيد لما يأتى من مقاديرها فى قوله ﴿ وَٱللَّائِى ﴾ تقدم اختلاف القراءات فيه بمعنى اللاتى ﴿ يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ ﴾ بمعنى الحيض ﴿ مِنْ نِسَائِكُمْ ﴾ لكبرهن ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ جهلتم وشككتم فى عدتهن ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَٱللَّائِى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ بعدُ لصغرهن وإن كبرن كذلك فعدتهن ثلاثة أشهر، فإذا رأت الدم فى زمن احتماله انتقلت إلى الدم كما أن المسنة إذا اعتدت بالدم ثم انقطع عادت إلى الأشهر والمسألتان فى غير المتوفى عنهن أزواجهن أما هن فعدتهن أربعة أشهر وعشراً كما تقدم ﴿ وَأُولَاتُ ٱلْأَحْمَالِ ﴾ طلقن أو توفى أزواجهن عنهن ﴿ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ولو علقة أو مضغة. وفى الصحيحين أن سُبَيْعَةَ بنت الحارث الأسلمية توفى عنها سعيد بن خولة وهى حامل فوضعت بعده بأربعين يوماً فقال لها عليه السلام: «قد حللت فتزوجى» ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ يسهل عليه أمره فى الدارين ويوفقه للخير ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور فى العدة ﴿ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ حكمه ﴿ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ لتعملوا بموجبه ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ فى أحكامه فيراعى حقوقها ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ فإن الحسنات يذهبن السيئات ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ يوم الجزاء بالمضاعفة، ولقد بالغ فى أمر النساء بالحث على التقوى فى أمرهن مراراً وذلك لضعفهن ونقصان عقولهن وما يبدو منهن مما يوجب الغضب ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ ﴾ أى المطلقات ولو المبتوتات عند مالك وإن لم تكن لهن نفقة ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ ﴾ أى بعض مساكنكم ﴿ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ من وسعكم أى ما تقدرون عليه بيان أو بدل مما قبله بإعادة الجار وتقدير مضاف أى أمكنة سعتكم لا ما دونها ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ ﴾ فى السكنى والنفقة ﴿ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ المساكن فيحتجن إلى الخروج أو النفقة فيفتدين منكم، لكن لا نفقة للاتى قد بِنّ من أزواجهن بغير حمل ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ واكسوهن بِنّ أو لا لحق الحمل ﴿ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ فيخرجن من العدة، ونفقة الحامل المتوفى عنها زوجها قبل من التركة، والمشهور لا نفقة لها ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أولادكم منهن ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ على الإرضاع ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ ﴾ وبينهن فى الإرضاع والأجر ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بجميل فى حق الأولاد بالتوافق على أجر معلوم للإرضاع من غير مشاحة

﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ ﴾ تضايقتم فى الإرضاع فامتنع الأب من الأجرة والأم من فعله ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ ﴾ للأب امرأة ﴿ أُخْرَىٰ ﴾ ولا تكره الأم على إرضاعه لكن فيه معاتبتها على المعاسرة والحث على المساهلة ﴿ لِيُنْفِقْ ﴾ على المطلقات والمرضعات ﴿ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ بقدر حاله ﴿ وَمَنْ قُدِرَ ﴾ ضيق ﴿ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ أى على قدر ما أعطاه وهذا يفيد أن النفقة ليست مقدرة شرعاً وإنما تقدر عادة بحسب المنفق والمنفق عليه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ من المال وفيه تطييب لقلب المعسر ولذا وعده باليسر بقوله ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ وعدٌ للفقراء بالفتح وحث على الإنفاق بقدر الطاقة ثم بعد بيان جمل من الأحكام أشار إلى أنّ أهل قرية كثيرة عاندوا عن الامتثال فحل بهم بأس الله فخذوا حذركم بقوله ﴿ وَكَأَيِّنْ ﴾ هى كاف الجر دخلت على أى ولابن كثير كائنْ على وزن فاع ٍ هما بمعنى كم ﴿ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ ﴾ عصت يعنى أهلها ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا﴾ أهلكناها لحديث من نوقش فى الحساب هلك ﴿حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ منكراً كالخسف والغرق ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ وخامة الأمر الذى خالفته ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ لاربح فيه ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ مع ذلك فى الآخرة ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ بالنار وقيل الحساب والعذاب يوم القيامة والتعبير بالماضى لتحقق وقوعه . وعذاباً شديداً تكرير للوعيد توكيداً وبياناً لما يوجب التقوى المأمور به فى قوله ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بعد هذا البيان ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ نعت للمنادى أو بيان له ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ هو القرآن ﴿ رَسُولًا ﴾ منصوب بفعل مقدر أى وأرسل رسولا ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ وهذا الذى فسرنا به ذكراً وقدرنا فى رسولا هو الأبين فى الأقوال كما قال عبد الرحمن فى الجواهر وغيره ﴿ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ بفتح الياء للجمهور وكسرها لابن عامر وحمزة والكسائى وحفص فى جميع القرآن ﴿ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ بعد مجىء الذكر والرسول أى ليخرجكم والإتيان بالظاهر للإشارة إلى فائدة الإرسال ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ الكفر والمعاصى ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ الإيمان والصالحات ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا نُدْخِلْهُ ﴾ بالنون لنافع وابن عامر وبالياء للباقين ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ أى رزق هو رزق الجنة التى لا ينقطع نعيمها ، فيه تعجيب الرزق وتعظيمه ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ سبع أرضين . وفى البخارى : من غصب شبراً طُوِّقه من سبع أرضين . وحملها على الأقاليم باطل ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ ﴾ أى أمر الله وقضاؤه ينفذ ﴿ بَيْنَهُنَّ ﴾ أو الأمر الوحى ينزل به جبريل من السماء السابعة إلى الأرض السابعة ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ علة لخلق أو ليتنزل أو بمقدر أى أعلمكم به لتعلموا فإن كل واحد يدل على كمال القدرة والعلم .

[تم تفسير سورة الطلاق]

سورة التحريم

مدنية ـ وهى ثنتا عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ من عسل تشربه عند زينب بنت جحش فلم تزل بنبي الله عليه السلام عائشة وحفصة حتى حرمه على نفسه أو من أمتك مارية القبطية ما زالتا به حتى حرمها على نفسه إرضاء لحفصة حين شق عليها وقاع مارية فى بيتها على فراشها . والصحيح أنها نزلت فى تحريم العسل . أخرجه الشيخان ، والأكثر أنها نزلت فى تحريم مارية ورجحه فى فتح البارى لأحاديث ﴿ تَبْتَغِي ﴾ بتحريم ذلك ﴿ مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ أى رضاهن والجملة حال من فاعل «تحرم» لزيادة التهجين أو استئناف لبيان الداعى إليه ، فالمنكر هو الباعث لا مجرد التحريم لأن إسرائيل حرم على نفسه ما حرم ولم يعتب به ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ غفر لك هذا التحريم قال فى فتوح الغيب : أردفه بهذا جبراً لما فى صولة الخطاب على أنه عليه السلام ما ارتكب إلا ترك الأولى به وإنما شدد رفعاً لمحله ، ألا ترى كيف صدر الخطاب بذكر « النبى » الدال على رفع رتبته وقرن بيا التى للبعيد وها التنبيه أى تنبه لجلالة شأنك فلا تبتغ مرضاة أزواجك فيما أبيح لك ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ ﴾ شرع ﴿ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ تحليلها وهو حل ما عقدته بالكفارة التى تقدمت فى المائدة أو بالاستثناء فيها بالمشيئة حتى لا يحنث من قولهم حلل فى يمينه إذا استثنى والأول أظهر لأنه عليه السلام قال : حلفت فلا أعود إليه ، كما فى البخارى قيل كفر عليه السلام بعتق رقبة وقيل لا لأنه مغفور له ﴿ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ ناصركم بتولى أموركم ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوالكم ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ المتقن فى أحكامه فبادروا إلى ما أمركم ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ ﴾ وهى حفصة على الأصح ﴿ حَدِيثًا ﴾ هو تحريم العسل أو مارية بأن قال لها لا تفشيه ثم إن حفصة قرعت الجدار الذى بينها وبين عائشة فأخبرتها السر واستكتمتها فأوحى الله إلى نبيه ذلك كما حكاه بقوله ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ عائشة ظناً منها ألا حرج فى ذلك أو لأنها لم تملك نفسها حتى أخبرت بذلك فرحاً ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ ﴾ أطلعه ﴿ عَلَيْهِ ﴾ على إفشائها الحديث على لسان جبريل عليه السلام ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ ﴾ عرّف الرسول حفصة بعض ما فعلت ، وللكسائى عرف بالتخفيف أى جازاها على البعض نحو «وما تفعلوا من خير يعلمه الله» ﴿ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ تكرماً وحياء وحسن عشرة كما هو عادة الكرام قال الحسن : ما استقصى كريم قط ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ﴾ بما أفشته وقال لها ألم أقل لك اكتمى علىّ ﴿ قَالَتْ

من أنبأك هذا ﴾ تعجبا ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ بظواهر الأشياء وبواطنها أى الله ، فقالت والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى فرحاً ، وأصل نبأ وأنبأ وأخبر أن يتعدى إلى اثنين بنفسه أو إلى الثانى بالحرف وقد يحذف الأول للدلالة عليه وقد جاءت الاستعمالات الثلاثة فى هذه الآيات ففى « من أنبأك هذا » ذكرهما بلا حرف ، وفى « نبأها به » تعدى إلى الثانى بالحرف ، وفى «نبأت به» حذف أولهما ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ ﴾ خطاب لحفصة وعائشة على الالتفات للمبالغة فى المعاتبة وجواب الشرط حق لكما دل عليه ﴿ فَقَدْ صَغَتْ ﴾ مالت ﴿ قُلُوبُكُمَا ﴾ عن الواجب الذى هو حب ما يحبه الرسول وكراهة ما يكرهه حيث مالت إلى تحريم مارية أو العسل أى سرّهما ذلك مع كراهة النبى له وذلك ذنب عظيم وأطلق الجمع على التثنية استثقالا للجمع بين تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة ﴿ وَإِنْ تَظَّاهَرَا ﴾ بالإدغام للجمهور وبالتخفيف للكوفيين تتعاونا ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أى النبى فيما يكرهه أى إن عدتما إلى ذلك مرة أخرى ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ ﴾ فصل ﴿ مَوْلَاهُ ﴾ ناصره وفى زيادة ضمير الفصل إيذان بأنه يتولى ذلك بذاته ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ أيضاً وليه ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى جميع الصالحين أو الصحابة أو أبو بكر وعمر وهو مفرد أريد به الجنس أو جمع حذف منه الواو والعطف على محل اسم إن أى لم يعدم ناصراً من ناصره الله ورئيس الملائكة جبريل وكل من صلح من المؤمنين ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ بعد نصر الله والمذكورين ثوب ﴿ ظَهِيرٌ ﴾ ناصر أو ظهراء أى أعوان له عليكما وقوله « بعد ذلك » تعظيم لمظاهرة الملائكة وفيهم جبريل أفرد بالذكر أولا لعلو شأنه ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ ﴾ بالتشديد لنافع وأبى عمرو والتخفيف للباقين ﴿ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ خبر « عسى » والجملة جواب الشرط ولم يقع التبديل لعدم وقوع الشرط وتعليق حفصة لا ينافيه لأن الشرط فى طلاق الكل ﴿ مُسْلِمَاتٍ ﴾ مقرات بالإسلام أو منقادات ﴿ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ مخلصات أو مصدقات ﴿ قَانِتَاتٍ ﴾ طائعات دواماً ﴿ تَائِبَاتٍ ﴾ من الذنوب ﴿ عَابِدَاتٍ ﴾ لله أو مذللات الأخلاق ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ صائمات أو مهاجرات ﴿ ثَيِّبَاتٍ ﴾ متزوجات قبل ﴿ وَأَبْكَارًا ﴾ عذارى دخل العاطف هنا دون سائر الصفات لأنهما متنافيان وليست الواو واو الثمانية إذ تلك صالحة للسقوط بخلاف هذه إذ لا تجتمع الثيوبة والبكارة وبدأ بالثيبات لأنهن أكثر أزواجه عليه السلام لم يتزوج بكراً إلا عائشة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ بترك المعاصى وفعل الطاعات ﴿ وَأَهْلِيكُمْ ﴾ بالنصح والتأديب فى الحمل على طاعة الله لحديث « كلكم راع ومسئول عن رعيته » ﴿ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ ﴾ تلى أمرها هم الزبانية ﴿ غِلَاظٌ ﴾ فى الأخلاق والأقوال ﴿ شِدَادٌ ﴾ فى الخلق والأفعال لا تأخذهم فى تعذيب أعداء الله رأفة ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ بدل من الجلالة أى لا يعصون أمر الله فيما مضى ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ فيما يستقبل أو لا يمتنعون عن التزام الأوامر ويؤدون ما يؤمرون أو تأكيد ، وفى الآية تخويف ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ﴾ يقال لهم ذلك حين يساقون إلى

النار إذ لا عذر لهم ولا يقبل اعتذارهم ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ جزاءه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ بفتح النون للجمهور : بالغة فى الخلوص والصدق ، وبضمها لأبى بكر : مصدر بمعنى ذات خلوص من النصح بضم النون الخلوص أو بفتحها إصلاح الثوب بعد الخرق بأن لا يعاد إلى الذنب ولا يراد العود ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ تفضلا منه لا وجوباً ولذا ذكره بعسى ﴿ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ ﴾ بإدخال النار ، فيه تعريض للكفار ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ والظرف متعلق بيدخلكم ومعنى المعية الاجتماع فى الإيمان لا فى الزمان عطف على « النبى » أو مبتدأ خبره ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أمامهم ﴿ وَ ﴾ يكون ﴿ بِأَيْمَانِهِمْ ﴾ أى على الصراط ﴿ يَقُولُونَ ﴾ إذا طفئ نور المنافقين ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ إلى الجنة يقولون ذلك على وجه التقرب والتلذذ كسائر الأذكار فى الجنة أو يقوله مَن يكون نوره ضعيفاً يسأل إتمامه تفضلا ويؤيد الأول قولهم ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ إذ إعطاء النور إنما يكون بعد الغفران ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ بالسيف ﴿ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ بالحجة ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ بالانتهار والمقت إذ لم يجد فيهم الرفق ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ جهنم ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فى عدم الانتفاع بما لهم مع الأنبياء والمؤمنين من العلائق صهراً ونسباً ﴿ امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ أى بحالها ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ فى الدين بالنفاق وإفشاء أسرارهما وكانت امرأة نوح تقول لقومها إنه مجنون وامرأة لوط تدل قومها على أضيافه إذا نزلوا ليلا بإيقاد النار ونهاراً بالتدخين ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا ﴾ أى نوح ولوط ﴿ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ ﴾ من عذابه ﴿ شَيْئًا وَقِيلَ ﴾ لهما ﴿ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء ، وفيه تهديد للتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإشارة إلى أن شرف صحبته إنما يفيد من نصح لله ولرسوله ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فى عدم تضررهم بقرابة الكفار بمثل ﴿ امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ آمنت بموسى واسمها آسية بنت مزاحم فعذبها فرعون بأن أوتد يديها ورجليها وألقى على صدرها رحى عظيمة واستقبل بها الشمس فكانت إذا تفرق عنها من وكل بها ظللتها الملائكة ﴿ إِذْ قَالَتْ ﴾ وهى تعذب ، ظرف للمثل المحذوف ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ ﴾ عند رحمتك أو فى أعلى درجات المقربين ﴿ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ فكشف لها فرأته فسهل عليها التعذيب ﴿ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ من نفسه الخبيثة وعمله السوء ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ القبط التابعين له فى الظلم فقبض الله روحها : قيل ردّت إليها فرفعت إلى الجنة حية فهى تأكل وتشرب ﴿ وَمَرْيَمَ ﴾ عطف على امرأة فرعون تسلية للأرامل وحثًا لهن على تحصين الفروج ﴿ ابْنَتَ عِمْرَانَ ﴾ بن ماثان ﴿ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ حفظته من الرجال ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ ﴾ أى فى فرجها بمعنى فرج درعها : هو نفخ جبريل ، والإسناد إليه للتشريف أى نفخنا فيه مخلوقاً ﴿ مِنْ رُوحِنَا ﴾ أى روح خلقناه بلا توسط أصل أو الروح جبريل حيث نفخ فى جيب

درعها لخلق الله فدله الواصل إليها لحملت بعيسى ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ شرائعه التى أوحى بها إلى إلى الأنبياء ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ بالإفراد للجمهور والجمع لأبى عمرو وحفص أى الإنجيل أو الكتب المنزلة أو اللوح ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ﴾ القوم ﴿ الْقَانِتِينَ ﴾ المطيعين أى من جملتهم غلب المذكر إشارة إلى أن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال الكمل، ويجوز أن تكون « من » ابتدائية لأنها من ذرية هارون عليه السلام فيكون مدحاً لها بشرف النسب بعد مدحها بكرم الحسب. روى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. وفيه دليل ظاهر على أن عائشة أفضل النساء على الإطلاق وعلى أن الرفعة وعلو الشأن إنما هو بالعلم ولم يدانها كثير من الرجال فيه فضلا عن النساء، والله أعلم.

[تم تفسير سورة التحريم]

سورة الملك

مكية ـ وهى ثلاثون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ تَبَارَكَ ﴾ تعالى وكثر خير ﴿ الَّذِي بِيَدِهِ ﴾ فى تصرفه ﴿ الْمُلْكُ ﴾ المطلق وذكر اليد مجاز مثل لاستغنائه عن الكل وافتقار الكل إليه ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ دليل على إحاطة ملكه ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ قدرهما أو أوجد الحياة وأعدمها، والحياة مابه الإحساس والموت عدمها على الأول أو ضدها على الثانى: قولان، قدم الموت لأنه أقوى شىء دعاء إلى العمل. وفى الحديث « كفى بالموت واعظاً » وفيه أكثروا ذكر هاذم اللذات ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ ليختبركم فى الحياة للتكليف ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أردع عن محارمه وأسرع فى طاعته والجملة فى محل النصب مفعول ثان ليبلو المتضمن معنى يعلم ولا تعلق لأنه مشروط بإيقاع الجملة موقع المفعولين وقد تقدم المفعول الأول الاستفهام فانتفى

الشرط ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب الذى لا يعجزه من أساء العمل ﴿ الْغَفُورُ ﴾ لمن تاب وأحسن العمل ترهيب وترغيب للعاصى فى التوبة ﴿الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض من غير مماسة ، مصدر : طابق النعل خصف بعضها فوق بعض أو جمع طبق كجبل وجبال . قال فى الجواهر : وما ذكره بعض المفسرين فى السموات من أن بعضها من ذهب وفضة وياقوتة ونحو هذا ضعيف لم يثبت بذلك حديث ﴿مَا تَرَى﴾ يا محمد أو يا مخاطب ﴿فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ﴾ لهن ولا لغيرهن ﴿ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ وحمزة والكسائى « تفوت » تباين وعدم تناسب ، والجملة صفة ثانية للسبع وضع فيها « خلق الرحمن » موضع خلقهن للتعظيم والدلالة عن أن سبب سلامتها صدورها من الموصوف بنهاية الرحمة وكمال الاقتدار وأن تحت خلقها من جلائل النعم مالا يحصى ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ ﴾ أعده فى السماء متأملا لتعاين ما أخبرت به لأن النظرة الاولى حمقاء ﴿ هَلْ تَرَى ﴾ فيها ﴿ مِنْ فُطُورٍ ﴾ صدوع وشقوق جمع فطر كبدر وبدور ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ ﴾ بعد الثانية ﴿ كَرَّتَيْنِ ﴾ كرة بعد كرة فى طلب الخلل والمراد بالتثنية التكرير كلبيك ولذا أجاب الأمر بقوله ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً ﴾ بعيدا كالمطرود عن وجدان الخلل ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة بلا إدراك خلل ثم أشار إلى ما هو أدل على كمال الاقتدار بقوله ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ﴾ القربى إلى الأرض ﴿ بِمَصَابِيحَ ﴾ بنجوم مضيئة ليلا كالسرج والتنكير للتعظيم والظاهر كونها فى السماء الدنيا لكن لايمنع كون بعضها فى سموات فوقها إذ التزيين بإظهارها فيها ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً﴾ مراجم ﴿ لِلشَّيَاطِينِ ﴾ إذا استرقوا السمع بأن ينفصل شهاب عن الكوكب كالقبس يؤخذ من النار فيقتل الجنى أو يخبله لأن الكوكب لا يزول عن مكانه وهذه فائدة أخرى فيها وهى رجم أعدائكم الشياطين بها وقيل المعنى جعلناها ظنونا لشياطين الإنس يرمون بها الغيب ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ فى الآخرة بعد الإحراق بالشهب فى الدنيا ﴿ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ النار الموقدة وفيه حسن تخلص إلى عذاب الكفار فى قوله ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ من الشياطين وغيرهم بعد هذه الدلائل ﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ هى أو عذابها ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً ﴾ صوتاً كصوت الحمير إمامنها أو ممن تقدمهم والأول أظهر ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ تغلى بهم غليان المرجل بما فيها ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ تتفرق لشدة الاضطراب ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ غيظاً عليهم وقيل تمثيل لشدة اشتعالها بهم وعلى الأول ظواهر النصوص بأن يخلق الله فيها إدراكا ﴿ كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ جماعة منهم ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ سؤال توبيخ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ينذركم عذاب الله ﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ، فَكَذَّبْنَا ﴾ هم ﴿ وَقُلْنَا ﴾ إفراطاً فى التكذيب ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَىْءٍ ﴾ أى بالغنا فى التكذيب حتى نفينا الإنزال والإرسال رأسا ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ من كلام الكفار أى أفرطنا حتى نسبنا الرسل إلى الضلال أو من كلام الملائكة للكفار حين أخبروا بالتكذيب والضلال حينئذ الهلاك والنذير بمعنى الجمع لأنه فعيل أو مصدر وصف به الجمع مبالغة فى إنذارهم كرجل

عدل ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ كلام الرسل سماع تفهم ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ تتفكر تفكر المستبصرين فى آيات الآفاق والأنفس فنعلم أن الإنسان لم يخلق سدى ﴿ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ فى جلتهم ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ ﴾ الكفر حيث لا ينفع الاعتراف ﴿ فَسُحْقًا ﴾ بسكون الحاء للجمهور وضمها للكسائى بعدا ﴿ لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى أسحقهم الله إسحاقا عن رحمته حذف منه الزائد كأنبت نباتاً وهذا حال من لم يحسن العمل ثم أشار إلى حال من أحسنه بقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ غائبا عنهم أو غائبين عنه أو عن أعين الناس أو بالغائب الخفى وهو قلوبهم ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ لما فرط منهم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ لا يسعه تصورهم تصغر دونه لذائذ الدنيا ﴿ وَأَسِرُّوا ﴾ أيها الناس أو الكفار ﴿ قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ بما فيها قبل أن يعبر عنها سرا أو جهراً فكيف بما نطقتم حث للخاشى على الاستدامة والترقى إلى غاية الخشية وللغافل على الإنابة والخطاب عام كما فى قوله ليبلوكم أو التفات إلى أصحاب السعير إذ روى أنها نزلت فى قولهم أسروا قولكم لا يسمعكم إله محمد فيخبره ﴿ أَلَا يَعْلَمُ ﴾ السر والجهر ﴿ مَنْ خَلَقَ ﴾ الأشياء كلها أى ينبغى علمه بذلك وحذف المفعول للتعميم ويجوز أن يكون «مَن» مفعولا وفى يعلم ضمير الرب أى ألا يعلم الله مخلوقه والأول أوجه ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ ﴾ فى علمه ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ ببواطن الأشياء كظواهرها ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ لينة ليسهل عليكم سلوكها ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ جوانبها مثل فى فرط التذلل فإن منكب البعير ينبو عن أن يطأه الراكب بقدمه ولا يتذلل له فإذا جعل الأرض فى التذلل بحيث يمشى فى مناكبها بلغ التذلل غايته وقيل مناكبها جبالها فالاستعارة فى لفظ المنكب. قال فى فتوح الغيب: استعارة تمثيلية أو تحقيقية لأن مناكب الأرض إما نواحيها أو جبالها ... الذلول إليها ترشيح ونسبة المشى تجريد ﴿ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ الذى أخرج منها أقواتا وثمارا لأجلكم ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ المرجع من القبور للجزاء فاجتهدوا فى الشكر فإنه يسألكم عن ذلك ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ سلطانه وقدرته أو من فى السماء على زعم جهالكم وقيل الملك الموكل بالعذاب وليس بمرضى ﴿ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ ﴾ كما خسف بقارون مقابل لقوله فامشوا بدل اشتمال من مَن ﴿ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ تضطرب فى ذهاب ومجىء وترتفع فوقكم من شدة غضب الله ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ ﴾ بدل من مَن ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ ريحا ﴿ حَاصِبًا ﴾ تمطر عليكم حصباء كقوم لوط مقابل لقوله وكلوا من رزقه ولقوله وفى السماء رزقكم ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ إنذارى إذا شاهدتم المنذر به أى ستعلمون أنه حق ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ قبل قريش من الأمم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ إنكارى عليهم بالانتقام وقد شاهدوا آثاره وتواتر عندهم أخباره تهديد لهم وتسلية للرسول ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ ينظروا ﴿ إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ ﴾ فى الهواء ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ باسطات أجنحتهن عند طيرانها فإنها إذا بسطتها صففن قوادمها ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أجنحتهن يضممنها إذا ضربن بها جنوبهن وقتا بعد وقت ولذا عدل به إلى صيغة الفعل الدال على التجدد إذ الأصل فى الطيران المد تفرقة

بين الأصيل والطارئ عليه وهما حالتان للطائر يستريح من إحداهما إلى الأخرى ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ عن الوقوع في حال البسط والقبض ﴿ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ﴾ بليغ الرحمة الذى وسعت رحمته كل شيء بأن خلقهن على أشكال وخصائص هيأهن للجرى فى الهواء بأن جعل لها القوادم تشق بها الريح والخوافى تشدها والأذناب تقيمها كما فى السفن ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ عليم عيانا لا يخفى عليه شيء إشارة إلى أن من هذا شأنه فخسفهم وإرسال الحاصب عليهم أهون شيء عنده وإيماء إلى أن دافع العذاب عن هؤلاء مع موجباته إنما هو تلك الرحمة البالغة التى أمسكت الطير فى الهواء ﴿ أَمَّنْ ﴾ الذى يشار إليه ويقال ﴿ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ ﴾ عون ﴿ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ﴾ أى غيره يدفع عنكم عذابه وأم عديل لقوله أأمنتم من فى السماء وقوله ولقد كذب الذين من قبلهم اعتراض لتأكيد التحذير وكذا قوله أولم يروا لتصوير قدرته الباهرة والاستفهام للتهكم والمشار إليه إما فوج مقدر أو أصنامهم ومن مبتدأ وهذا خبره والموصول بصلته بدل من هذا أو نعته وينصركم صفة جند محمول على لفظه المعنى أأمنتم الخسف والحصباء أم لكم جند ينصركم من دون الله ﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ لا معتمد لهم بل غرهم الشيطان بأن العذاب لا ينزل بهم فاستغرقوا فى الغفلة ﴿ أَمَّنْ ﴾ الذى يقال فيه ﴿ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ ﴾ الرحمن ﴿ رِزْقَهُ ﴾ بإمساك المطر وسائر الأسباب المحصلة والموصلة له إليكم متعلق معنى بإرسال الحاصب ﴿ بَل لَّجُّوا ﴾ تمادوا ﴿ فِي عُتُوٍّ ﴾ عناد وتكبر ﴿ وَنُفُورٍ ﴾ تباعد عن الحق لنفرة طباعهم عنه وهذا أدل على إغراقهم فى الكفر من قوله إلا فى غرور كما أن توهم الرزق من الأصنام أو من فوج مقدر أبعد من تخيل النصر منها ﴿ أَفَمَن يَمْشِي ﴾ متعسفا عن الطريق ﴿ مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ لكونه يعثر كل وقت يخر على وجهه لكونه أعمى يمشى فى غير الطريق يقع فى كل وقت ويقوم ﴿ أَهْدَىٰ ﴾ أرشد ﴿ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا ﴾ معتدلا لكونه بصيراً ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ مستوى الأجزاء لا عثار فيه تمثيل للكافر الذى فى ظلمات الشبه والشكوك بالأعمى الذى لا يرى جهة قصده وسلك مكانا وعرا فهو بين قيام وسقوط والمؤمن الذى فى نور الإيمان ببصير يرى مواطن قدميه وسلك جادة سهلة وتمثيل أيضاً للدينين بالمسلكين وقيل من يمشى مكبا هو الذى يحشر على وجهه إلى النار ومن يمشى سوياً هو الذى يحشر على قدميه إلى الجنة ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ ﴾ من تراب ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ ﴾ لتسمعوا مواعظه ﴿ وَالْأَبْصَارَ ﴾ لتبصروا صنائعه ﴿ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ لتتفكروا عظمته وآلات الإدراك هذه بعيدة من التراب ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ بصرفها لما خلقت له فلا سمعتم سماع تفهم ولا نظرتم نظر اعتبار ولا تدبرتم فى دلائل الآفاق والأنفس بما أورثكم الخشية وما مزيدة لتأكيد القلة والجملة مستأنفة مخبرة بقلة شكرهم جداً على هذه النعم ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ ﴾ خلقكم وبثكم ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ متمكنين من أى تصرف شئتم ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ للجزاء فشمروا له ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ للمؤمنين ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴾ للحشر أو الخسف والحاصب ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيه ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ ﴾ علم وقته ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾

لا يطلع عليه غيره ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ والانذار يكفى له العلم بل الظان بوقوع المحذور منه ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أى الموعود بعد الحشر عبر عنه بالماضى لتحقق وقوعه : المعنى فإذا رأوه ﴿زُلْفَةً﴾ قريبا أى ذا زلفة أى قرب منهم ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سائها رؤية العذاب وغشيتها القترة ﴿وَقِيلَ﴾ أى قال الخزنة لهم ﴿هَٰذَا﴾ العذاب ﴿الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ تطلبون تفتعلون من الدعاء والباء صلة أو تدعون أن لا بعث من الدعوى فالباء سببية ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ﴾ أماتنى كما تقولون نتربص به ريب المنون ﴿وَمَنْ مَعِيَ﴾ من المؤمنين أى أهلكنا بعذابه كما تقصدون ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير الآجال أو بترك العذاب ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لا مجير لهم منه أى إذا كنا ونحن مؤمنون به بين الخوف والرجاء فما حالكم أنتم مع كفركم به والمظهر لبيان سبب عدم الإجارة ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ﴾ مولى النعم كلها ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ للعلم بذلك فيجيرنا من عذابه إذ لم نكفر كما كفرتم ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ وثوقاً بأن غيره لا يضر ولا ينفع وتقديم الصلة للتخصيص أى لا على العَدد والعُدد مثلكم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ بالفوقية للجمهور والتحتية للكسائى عند معاينة العذاب ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ بيّن أنحن أم أنتم من كلام المنصف ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائراً فى الأرض لا تناله الدلاء ، مصدر وصف به ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ جار أو ظاهر سهل المأخذ أى لا يأتى به إلا الله فكيف تنكرون أن يبعثكم أو إن لم تعبدوه للحياة الباقية فاعبدوه للفانية ، ويستحب للقارئ عقب « معين » أن يقول « الله رب العالمين » كما ورد فى الحديث ، وتليت هذه الآية عند بعض المتجبرين فقال : يأتى به الفئوس والمعاول فذهب ماء عينيه وعمى . نعوذ بالله من الجرأة على الله وعلى آياته .

[تم تفسير سورة الملك]

سورة نٓ

مكية ـ وهي ثنتان وخمسون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ نٓ ﴾ أحد حروف الهجاء الله أعلم بمراده به قيل هو الدواة أو الحوت والمراد به الجنس أو البهموت الذى عليه الأرض قال ابن العربى فى الأحكام روى الوليد بن مسلم عن مالك عن سمى عن أبى صالح عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أول ماخلق الله القلم ثم خلق النون وهى الدواة وذلك قوله ن والقلم ، ثم قال له اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة انتهى . قال عبد الرحمن فى الجواهر وهذا الحديث هو الذى يعول عليه فى تفسير الآية لصحته انتهى وقال فى غاية الأمانى : أقرب الوجوه أن يكون اسما للدواة التى كتب منها القلم الكائنات وسكونه إجراء للوصل مجرى الوقف انتهى ، أخفى ابن عامر والكسائى النون فى الواو فى قوله ﴿وَالْقَلَمِ﴾ الذى كتب به الكائنات فى اللوح المحفوظ أو الذى يخط به الناس أقسم به الله تعالى لكثرة فوائده ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أى الملائكة من الخير والشر أو الناس من المعارف وما مصدرية أو موصولة ﴿ مَا أَنتَ ﴾ يا محمد ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ جواب القسم أى انتفى الجنون عنك بسبب إنعام ربك عليك بالنبوة مع حصافة العقل ورزانة الرأى أو الجار والمجرور حال من المستكن فى بمجنون وهو العامل والباء فيه زائدة فلا يمنع العمل فيما قبله أى ما أنت بمجنون منعما عليك بما أنعم ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا ﴾ عظيما على احتمال أذاهم والإبلاغ ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ مقطوع أو خاليا عن المنة من الناس لأنه من عطاء ربك ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ استوجبت به تلك الرتبة العظمى ، وسأل قتادة عائشة رضى الله عنها عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت خُلقه القرآن تشير إلى قوله تعالى خذ العفو الآية وقوله قد أفلح المؤمنون الآيات ونحو ذلك : روى البخارى عن عبدالله ابن عمرو بن العاصى أن نعته فى التوراة محمد عبدى سميته المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا يجازى السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر . وعن على رضى الله عنه كان أجود الناس صدرا وأصدقهم لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة من رآه بديهة هابه ومن خالطه أحبه انتهى قلت وأخلاقه عليه السلام مدونة فى كتب السير والحديث بإيطالعها من أحب الاقتداء به ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ عن قريب ﴿ وَيُبْصِرُونَ بِأَييِّكُمُ ﴾ أى فى أى فريق منكم ﴿الْمَفْتُونُ﴾ المجنون أفى فريقك أو فى فريقهم والباء بمعنى فى وقيل زائدة أى أيكم الذى فتن بالجنون ، أو المفتون مصدر كالمعقول أى بأيكم الجنون أبك أم بهم وأول الأوجه أولى لاشتماله على التعريض مع سلامته عن

استعمال النادر ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ بالمجانين الذين هم على الحقيقة ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ العقلاء الذين هم أنت وأصحابك أو أعلم بجزاء الفريقين فهو وعد ووعيد ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ فيما يدعونك إليه تهييج للتصميم على معاصاتهم ﴿ وَدُّوا ﴾ تمنوا ﴿ لَوْ ﴾ مصدرية ﴿ تُدْهِنُ ﴾ تلين لهم بترك نهيهم عما يفعلون ﴿ فَيُدْهِنُونَ ﴾ يلينون لك بترك الطعن فيما تفعل والموافقة والفاء للعطف على تدهن أى ودوا إدهانك فيدهنون بعد إدهانك أو للسببية أى فهم مدهنون حينئذ أو الآن يدهنون طمعا فيه وإن جعل جواب التمنى المفهوم من «ودوا» قدر قبله بعد الفاء «هم» قال فى الجواهر : الإدهان الملاينة فيما لا يحل والمداراة الملاينة فيما يحل وقال ابن العربى فى الأحكام : حقيقة المداهنة إظهار المقاربة مع الاعتقاد للعداوة فإن كانت المقاربة بالدين فهو مداهنة وإن كانت مع سلامة الدين فداراة أى مدافعة ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ كثير الحلف فى الحق والباطل وفى جعله فاتحة المثالب وإمام القبائح دلالة على أنه شر الخصال لدلالته على عدم تعظيم الله ﴿ مَهِينٍ ﴾ حقير الرأى ﴿ هَمَّازٍ ﴾ عياب مغتاب وعن ابن عباس هو الذى يلوى شدقيه فى أقفية الناس ﴿ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ مصدر كالنميمة وهو نقل مايسمع مما يسوء لإيقاع الفتنة وإفساد ذات البين قال عليه السلام «شراركم المشاؤن بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون لأهل البر العثرات» وقال عليه الصلاة والسلام «لا يدخل الجنة قتات» وهو النمام انتهى فعلى كل مسلم ألا يصدقه لأنه فاسق وأن ينهاه وأن يبغضه لله وألا يظن بالمنقول عنه السوء وألا يتجسس وألا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه بألا يحكى نميمته ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ للمال عن الحقوق أو لكل عمل صالح كما كان الوليد بن المغيرة يفعل يقول لبنيه من أسلم منكم منعته رفدى ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ متجاوز فى الظلم ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الآثام ﴿ عُتُلٍّ ﴾ غليظ جاف قال فى الجواهر الغليظ الأعضاء القاسى القلب البعيد الفهم الأكول الشروب الذى هو بالليل جيفة وبالنهار حمار وكل ما عبر به المفسرون عنه فمن هذا الذى ذكرت تصدر وهذه الصفات كثيرة التلازم ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ الذى عد من مثالبه ﴿ زَنِيمٍ ﴾ ملصق أو دعيّ لا نسب له أو لئيم قبيح الأفعال وهذا كما إذا عددت مثالب إنسان ثم تقول وبعد ذلك لايحب أبا بكر وعمر ، والزنيم شاة لها زنمة وهى مايقطع من أذنها من غير فصل فيتدلى ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الأوصاف أجناس لم يرد بها رجل بعينه قال ابن عطية وظاهر اللفظ عموم من اتصف بهذه الأوصاف والمخاطبة بهذا المعنى مستمرة باقى الزمان لاسيما لولاة الأمور انتهى . وقالت طائفة نزلت فى معين واختلفوا فيه قال بعضهم هو الأخنس بن شريق إذ كانت له هنة فى حلقه كزنمة الشاة ولأنه من ثقيف ملصق فى قريش ويرده أنه أسلم وهو معدود من الصحابة وقيل نزلت فى الوليد بن المغيرة ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة وقيل بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية فسأل الوليد أمه عن ذلك فقالت دعوت راعيا إلى نفسى فأنت من ذلك الراعى ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ أى لأن كان وهو متعلق بقوله ولا تطع أى لا تطعه مع هذه المثالب لأن كان ذا مال أى يسار وحظ من الدنيا مغرورا بالبنين إذ له عشرة من البنين

لهم مجالس وله مال وافر ويجوز أن يتعلق بما دل عليه ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾ القرآن ﴿ قَالَ ﴾ هي ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى كذب بها لإنعامنا عليه بما ذكر وقلنا بما دل عليه لأن حرف الشرط لا يعمل مابعده فيما قبله وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر بهمزتين مفتوحتين الأولى للاستفهام إنكارا لطاعته لكونه ذا مال ﴿ سَنَسِمُهُ ﴾ نجعل له علامة بالكى ﴿ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ الأنف والكى على الأنف إهانة وإذلال يجوز أن يكون حقيقة أوكناية عن الإذلال كقولهم جدع أنفه وأرغم والتعبير عنه بالخرطوم زيادة تشويه لأنه لا يستعمل إلا فى الفيل أو الخنزير وماقيل إن الوليد خطم يوم بدر فبقى سمة على خرطومه سهوٌ لأن الوليد مات قبل بدر كاله فى غاية الأمانى ، وقيل معناه نجعل له يوم القيامة سمة على أنفه وهى السواد فى الوجوه وهو أقرب ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ امتحنا أهل مكة بالقحط والجوع حين كذبوا محمدا بدعائه ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ البستان : أهل ذروان أوصروان قرية من قرى صنعاء على فرسخين من صنعاء وكانوا مسلمين من أتباع عيسى بعد رفعه وكان أبوهم صالحا يأخذ من جنته قوت سنة ويتصدق بالباقى على الفقراء والمحاويج فقال بنوه إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن ذوو عيال فحلفوا ليصرمنها خفية ويمنعون الفقراء كما قال تعالى ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ يقطعن ثمرتها ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ وقت الصباح خفية عن المساكين كيلا يعطوهم ما كان يعطيهم أبوهم منها ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ فى أيمانهم لا يقولون إن شاء الله بل يبتون القول وسمى الشرط استثناء لأنه يؤدى مؤداه فى الإخراج والجملة مستأنفة أى وشأنهم ذلك وقيل المعنى لا يستثنون حصة المساكين ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا ﴾ على الجنة بلاء ﴿ طَائِفٌ ﴾ أرسل ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ نار أحرقتها ليلا ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ لا علم لهم بذلك ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ كالليل الشديد الظلمة أى سوداء لاحتراقها أوكالصبح أى أرضا بيضاء لاشىء فيها أوكالمصرومة لهلاك ثمرها ﴿ فَتَنَادَوْا ﴾ نادى بعضهم بعضا ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ عند الصباح ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ ﴾ أخرجوا إليه غدوة وأن مفسرة أو مصدرية وعدى بعلى لتضمنه معنى الإقبال أو لأن الغدو للصرام استيلاء ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ﴾ على الوجه الذى عزمتم عليه ﴿ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾ يتسارون الحديث ﴿ أَلَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ﴾ تفسير لما قبله أو أن مصدرية أى بأن والمراد به المبالغة فى النهى عن تمكين المساكين من الدخول ﴿ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ ﴾ منع للفقراء أى عازمين عليه حال كونهم ﴿ قَادِرِينَ ﴾ على المنع أومضيقين على الفقراء أو الحرد السرعة أى ذهبوا على وجه السرعة لئلا يدركهم المساكين أو الحرد القصد أى قاصدين الصرام قادرين على ذلك من عند أنفسهم وقيل الحرد اسم بستانهم ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ سوداء محترقة ﴿ قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ عنها أى ليست هذه ثم قالوا لما علموها ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ثمرتها لمنعنا الفقراء منها ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ خيرهم رأيا أوسنا ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا ﴾ هلا ﴿ تُسَبِّحُونَ ﴾ الله تائبين من خبث نيتكم وكان نصحهم فلم يطيعوه أومعنى تسبحون تذكرون الله وتتوبون عما نويتم أوتستثنون لاتحاد الاستثناء والتسبيح فى التعظيم فاستعمل مكانه ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا ﴾

عن الظلم وأن يجرى فى ملكه ما لا يريد ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ بمنع الفقراء حقهم : أقروا على أنفسهم حيث الإقرار غير نافع واتسع الخرق على الراقع ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ يلوم بعضهم بعضاً يقول أنت السبب إذ بعضهم أشار بذلك واستصوبه بعضهم وسكت بعضهم راضياً ومنهم من أنكر كالأوسط فلم يطيعوه فاتبعهم ﴿ قَالُوا يَا ﴾ للتنبيه ﴿ وَيْلَنَا ﴾ هلاكنا ﴿ إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ متجاوزين حدود الله تعالى فلذلك أصابنا البلاء. ثم انصرفوا إلى رجاء الله وانتظار الفضل منه كما حكى عنهم بقوله ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا ﴾ ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة كما هو شأنهم مع التائبين ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ ليقبل توبتنا ويرد علينا خيراً منها . روى أنهم أبدلوا خيراً منها ، قال فى غاية الأمانى : والظاهر أن الله قبل توبتهم لوقوعها فى أوانها . اه . وعن ابن مسعود أن القوم لما أخلصوا وعلم الله صدقهم أبدلهم جنة يقال لها الحيوان فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً واحداً ، وعن أبى خالد اليمانى : رأيت تلك الجنة ورأيت عنقوداً منها كالرجل الأسود القائم . اه . قال فى الجواهر : وقدرة الله أعظم فلا يستغرب هذا إن صح سنده ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل العذاب لهؤلاء ﴿ الْعَذَابُ ﴾ لمن خالف أمرنا من كفار مكة وغيرهم أو مثل الذى بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة العذاب فى الدنيا ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أعظم منه ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ عذابها لاحترزوا عما يؤديهم إليه أو لو كانوا من أهل العلم لعلموا ذلك ونزل لما قالوا إن بعثنا نعطى أفضل منكم ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فى الآخرة أو فى جوار قدسه ﴿ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أى جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص تعريض بجنات الدنيا فإن الغالب فيها التعب ، وحسن موقعه بعد ذكر أصحاب الجنة المذكورة وذكر حالها ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ فى العطاء ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ هذا الحكم الفاسد ، التفات فيه تعجب من حكمهم وإشعار بأنه صار من اختلال فكر واعوجاج رأى هل فوض إليكم الحكم حتى تحكموا فيه بما شئتم ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ ﴾ منزل من السماء ﴿ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ تقرءون ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ تختارونه وأصل إن الفتح لأنه المدروس لكن كسر لدخول اللام فى خبره ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ ﴾ عهود ﴿ عَلَيْنَا ﴾ يقال : لفلان علىّ يمين إذا حلفت به على أمر تضمنه له ﴿ بَالِغَةٌ ﴾ متناهية فى التأكيد واثقة ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ غاية لثبوت المقدر فى « لكم » أى ثابتة لكم علينا إلى ذلك اليوم كالأجل للدين فإذا وفينا بالمقسم عليه خرجنا من عهدتها ويجوز أن يتعلق « إلى » ببالغة أى تبلغ ذلك اليوم وافرة لم يبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه وهو ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ به لأنفسكم وهو جواب القسم لأن معنى « أم لكم أيمان علينا » أم أقسمنا لكم ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَٰلِكَ ﴾ الحكم ﴿ زَعِيمٌ ﴾ كفيل لهم بإثباته يدعيه ويصححه ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ موافقون لهم فى هذا القول يكفلون لهم به فإن كان كذلك ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ فى دعواهم ليرى هل هم بحال من يضر وينفع أم لا ، ومعلوم أنه لا يوافقهم عاقل فقد انحسم مادة الشبهة عقلا ونقلا . وقيل المعنى : فليأتوا بهم يوم القيامة

﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب باذكر على التأويل الاول وبقوله « فليأتوا » على الثانى ﴿ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ أى يوم يشتد الأمر وكشف الساق كناية عنه للحساب والجزاء . يقال كشفت الحرب عن ساق إذا اشتد الأمر فيها وهو معنى حديث البخارى : يكشف ربنا عن ساقه وفى رواية عن ساق وهى أوفق للقرآن فيسجد كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان فى الدنيا يسجد رياء فيذهب يسجد فيعود ظهره طبقاً وهذا معنى قوله ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ ﴾ امتحاناً لإيمانهم ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ تصير ظهورهم طبقاً واحداً ، وفى مدارك التنزيل : الجمهور على أن الكشف عن الساق عبارة عن شدة الأمر ، وأما من شبه فلضيق عطنه فى علم البيان ولو كان الأمر كما زعم لكان من حق الساق أن يعرف لأنها ساق معهودة عنده . اه . ﴿ خَاشِعَةً ﴾ حال من ضمير «يدعون» أى ذليلة ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ لا يرفعونها ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تغشاهم ﴿ ذِلَّةٌ ﴾ صغار ﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ ﴾ فى الدنيا ﴿ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ من العوائق فلا يأتون به بأن لا يصلوا ﴿ فَذَرْنِى ﴾ دعنى ﴿ وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ﴾ القرآن أى كِله إلىّ فأنا أكفيكه ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ سنستدنيهم للعذاب درجة درجة ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنه استدراج بأن نفيض عليهم الرزق والعافية فيحسبونه إيثاراً لهم وتفضيلا على المؤمنين فيتمادون فى الضلال ، والاستدراج استنزال الشخص درجة بعد درجة حتى يتورط فى الهلاك ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ أمهلهم ﴿ إِنَّ كَيْدِى ﴾ بالإنعام استدراجاً ﴿ مَتِينٌ ﴾ قوى سمى كيداً لأنه فى صورته ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ تَسْأَلُهُمْ ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ ﴾ غرامة ﴿ مُثْقَلُونَ ﴾ مما يعطونكه فيعرضون عنك ، وقيل « أم تسألهم » متصل بقوله « أم لهم شركاء » وما بينهما اعتراض لترغيب السامعين فى البدار قبل الفوات ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ ﴾ اللوح الذى هو خزانة المغيبات ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ منه ما يقولون ويحكمون به ويستغنون به عن علمك ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ فيهم وهو إمهالهم إلى وقت معلوم لأنهم وإن أُمهلوا لم يهملوا ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ يونس عليه السلام فى الضجر والعجلة فتبتلى ببلائه ، وفى التعبير بصاحب الحوت هنا فى معرض العتب وبذى النون فى سورة الأنبياء فى معرض المدح مناسبة لا تخفى على أديب إذ لفظ ذى لذى الشرف لكونه لا يضاف إلا لتابعه فيكون متبوعاً بخلاف صاحب يضاف لمتبوعه فيكون تابعاً ، تقول : أبو هريرة صاحب رسول الله ، ولا تقول رسول الله صاحب أبى هريرة . وكذا النون اسم للحوت العظيم ، والله أعلم بأسرار كتابه ﴿إِذْ نَادَىٰ ﴾ فى بطن الحوت « ألا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ مملوء غمًّا وندماً أو مملوء غيظاً على عدم إيمان قومه والظرف متعلق باذكر لا بما تقدمه إذ النداء طاعة لا ينهى عنه ، والمعنى لا تكن مثله فى العجلة فتبتلى ببلائه اذكر إذ نادى وهو مكظوم غما وندماً على العجلة والله أعلم ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ ﴾ أدركه ﴿ نِعْمَةٌ ﴾ رحمة ﴿ مِنْ رَبِّهِ ﴾ بالتوفيق للتوبة وقبولها ،وحسّن تذكير الفعل الفصل ﴿ لَنُبِذَ ﴾ من بطن الحوت ﴿ بِالْعَرَاءِ ﴾ بالفضاء الذى لا ساتر له ﴿ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ لكنه رحم فنبذ غير

مذموم، وجملة «وهو مذموم» حال يعتمد عليها الجواب لأنها المنفية دون النبذ ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ بعد الإنابة ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من عداد الأنبياء الكاملين فى الصلاح، وقيل اجتباه بالنبوة وهو خطأ لأنه نبى قبل ذلك لقوله «وإن يونس لمن المرسلين. إذ أبق» ﴿وَإِنْ﴾ مخففة أى إنه ﴿يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ﴾ بفتح الياء لنافع وضمها للباقين لغتان: يزيلونك عن مكانك أو يهلكونك ﴿بِأَبْصَارِهِمْ﴾ من شدة نظرهم إليك شزراً بعيون العداوة: وصفٌ لهم بالعداوة كأنها مرّت من القلب والجوارح إلى البصر فصار يعمل عملها أو المعنى كادوا يصيبونك بالعين، إذ روى أنه نزل فى بنى أسد وكان فيهم عيانون يتجوع رجل منهم ثلاثة أيام فلا يمر به شىء يقول لم أر كاليوم مثله إلا عانه وأهلكه فأرادوا فعله برسول الله فوقاه الله بعنايته، والأخبار فى حقيقة العين متواترة المعنى. وعن الحسن: أن هذه الآية رقية العين من خاف من إصابة العين فليقرأها ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ القرآن الذى هو شرفهم ينبعث عند سماعه حسدهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ تنفيراً عنه ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ بسبب القرآن الذى جاء به ولذلك خالف أسلوبه أساليب كلام العرب ﴿وَمَا هُوَ﴾ أى القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ لكل ذى عقل من الملائكة والثقلين أو شرف لمن حفظه وعمل بما فيه كائناً من كان، فكيف يحدث بسببه جنون أو لما سمعوا ذكر محمد وما هو إلا شرف للعالمين فكيف ينسب إليه الجنون.

[تم تفسير سورة ن]

سورة الحاقة

مكية ـ وهى إحدى أو اثنتان وخمسون آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. الْحَاقَّةُ﴾ أى الساعة الثابتة التى لا ريب فى وقوعها أو التى يحق فيها ما أنكر من الأمور كالبعث والحساب والجزاء أو المظهرة لذلك على الإسناد المجازى فيهما وهى مبتدأ خبره جملة ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ ما حقيقتها والأصل ما هى تعظيم وتهويل لها وفى وضع المظهر مقام المضمر زيادة مبالغة وأكد ذلك بقوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أعلمك ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ أى لم تحط علماً بكنهها وكل ما قدرته فى نفسك فهى أفظع من ذلك و«ما» الأولى استفهامية رفع بالابتداء بمعنى أىّ شىء وأدراك الخبر والجملة بعده

فى محل المفعول الثانى لأدرى ولما هوّل أمرها بما لا مزيد عليه أردفه بذكر المكذبين لها وما حل بهم وادخر لهم فى الآخرة تحذيرا للسامعين من مثله بقوله ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾ القيامة اسم لها كالحاقة لأنها تقرع الناس بأهوالها بالإفزاع والجبال بالدك والأرض بالزلزال والسماء بالانفطار وهذا تهويل آخر حيث لم يعبر عنها بالضمير ولا بالمظهر المذكور ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ بالواقعة المجاوزة للحد فى الشدة وهى الصاعقة التى معها الصيحة والرجفة وقيل مصدر كالعافية ولا يلائم قوله ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ شديدة الصوت لها صرصرة فى هبوبها أو من الصر وهو البرد كأنها التى كرر فيها البرد وإنما قلنا المصدرية ليلائم ما بعده لأن الآيات من قبيل الجمع والتفريق ، والحدث لا يلائم العين ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ قوية شديدة على عاد مع قوتهم لم يقدروا على دفعها أو عتت على خزانها فخرجت بغير حساب كما روى عن على رضى الله عنه ﴿ سَخَّرَهَا ﴾ أرسلها بالقهر وسلطها ﴿ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ﴾ أولها من صبح يوم الأربعاء لثمان بقين من شوال فى عجز الشتاء وجملة سخرها استئناف لبيان الكمية بعد الكيف ﴿ حُسُومًا ﴾ حاسمات أى قاطعات كل خير أو دابرهم جمع حاسم والحسم إزالة أثر الشىء ومنه الحسم للكىّ للداء أو متتابعات ويجوز أن يكون مصدر الحسم مقدرا أى تفرق بينهم تفريقا شديدا لا اجتماع بعده لكمال النحوسة ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ ﴾ لو كنت حاضرهم ﴿ فِيهَا ﴾ فى مهبها ﴿ صَرْعَى ﴾ ملقين على الأرض ميتين كالأخشاب اليابسة جمع صريع ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ ﴾ أصول ﴿ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ ساقطة أو فارغة الأجواف ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ بقية أو نفس باقية أو بقاء ؟ لا ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴾ بفتح القاف للجمهور أى قبل فرعون وبكسرها لأبى عمرو والكسائى أى أتباعه الذين من عنده ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ ﴾ قرى قوم لوط والإسناد مجازى أى أهلها ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ بالفعلة ذات الخطأ أو بالخطأ أو بالأفعال الخاطئة مجاز فى الحكم ﴿ فَعَصَوْا ﴾ أى قوم لوط أو عصى كل منهم ﴿ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ إليهم ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ زائدة فى الشدة على غيرها لزيادة جرمهم من ربا الشىء زاد ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ ﴾ جاوز حده المعتاد وعلا فوق كل شىء من الجبال وغيرها أو طغى على الخزان ﴿ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ يعنى حملنا آباءكم وأنتم فى أصلابهم فى السفينة الجارية بقدرة الله من غير نوتىّ ولذا سماها بالجارية إذ لم يكن بها مُجْرٍ فنجا نوح ومن معه فيها وغرق الباقون ﴿ لِنَجْعَلَهَا ﴾ أى تلك الفعلة من إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ﴿ لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ عظة ﴿ وَتَعِيَهَا ﴾ وتحفظها وسكن العين ابن كثير ﴿ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ حافظة لما تسمع يقال وعيْته إذا حفظته فى نفسك وأوعيته إذا جعلته فى وعاء آخر والتنكير للدلالة على قلة الأذن الموصوفة وأن واحدة منها إذا وجدت كانت بمثابة السواد الأعظم ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ وهى الأولى نفخة الفزع أو الثانية نفخة الصعق أو الثالثة نفخة القيامة فالأولى ابتداء خراب العالم والثانية انتهاؤه والثالثة الإعادة ﴿ وَحُمِلَتِ ﴾ رفعت ﴿ الْأَرْضُ

وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ كسرتا بضرب إحداهما على الأخرى بالقدرة الكاملة فصارتا كثيبا مهيلا كما تضرب إحدى البيضتين على الأخرى ، أو بسطتا بسطة واحدة فصارتا أرضا لاعوج فيها ولا أمتا لأن الدك سبب للتسوية ولذا يقال ناقة دكاء للتى لا سنام لها ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ لحينئذ ﴿ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ قامت القيامة ﴿ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ لنزول الملائكة ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ مسترخية ضعيفة القوة بعد ما كانت محكمة ﴿ وَالْمَلَكُ ﴾ أى جنس الملك ﴿ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ أطرافها جمع رجى مقصور لأنها إذا انشقت يكون على أطرافها ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ ﴾ الملائكة المذكورين ﴿ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ منهم واليوم يحمله أربعة وعن الضحاك ثمانية صفوف أو أصناف لا يعلم عددهم إلا الله وقيل تمثيل لعظمته بما يشاهد من أحوال السلاطين يوم خروجهم على الناس للقضاء العام لكن إذا نطق القرآن بأمر ممكن ووافقه الأحاديث فلا وجه للتأويل والعدول عن الظاهر فقد روى أبو داود فى سننه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أذن لى أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه سبعمائة عام» وقال الغزالى هم ثمانية أملاك قدمُ الملك منهم مسيرة عشرين ألف سنة ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ للسؤال والحساب . روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات عرضتان جدال ومعاذير والثالثة تطير فيها الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله . انتهى . قال الغزالى يجب على كل مسلم أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب بتوبة نصوح وتدارك ما فرط فيه أو قصر من فرائض الله ورد المظالم حبة حبة والاستحلال من كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه وتطييب قلوب المؤمنين حتى يموت ولم يبق عليه فريضة ولا مظلمة فيدخل الجنة بغير حساب . انتهى . والمراد بالعرض إظهار العدل وإخزاء الجاحد على رءوس الأشهاد ﴿ لَا تَخْفَى ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة والكسائى ﴿ مِنْكُمْ ﴾ سريرة أو حالة ﴿ خَافِيَةٌ ﴾ تخفى على الناس فى الدنيا لكونه يوم تبلى السرائر ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ تفصيل للعرض ﴿ فَيَقُولُ ﴾ لكل جمع رآه فرحا به ﴿ هَاؤُمُ ﴾ خذوا ﴿ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ تنازع فيه هاؤم واقرءوا فأعمل الثانى لقربه ولو أعمل الأول لقيل اقرءوه والهاء فيه وفيما بعده للسكت ثبتت وصلا ووقفا اتباعا للمصحف ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ ﴾ تيقنت ﴿ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ أى معاين له وهذا ظن لما لم يقع بعد ولا خرج إلى الحس وهو الظن الذى يوقعونه موقع اليقين كما تقدم التنبيه عليه عن ابن عطية ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ مرضية أو ذات رضا كلابن لأن النسبة كما تكون بالحرف تكون بالصيغة أو راضية صاحبها على المجاز فى الإسناد ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ فى المكان لأنها فوق السماء السابعة سقفها عرش الرحمن عالية القصور والأشجار وفى جنة بدل من عيشة أو خبر بعد خبر ﴿ قُطُوفُهَا ﴾ جمع قطف بالكسر ما يجتنى بسرعة وهو ثمارها ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ قريبة يتناولها القاعد والمضطجع فيقال لهم ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ جمع الضمير للمعنى ﴿ هَنِيئًا ﴾ حال كونهم مهنئين أو أكلا وشربا هنيئا لا مكروه فيه ولا أذى أو هنئتم هنيئا نصب على المصدر ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ﴾ قدمتم من

الأعمال الصالحة ﴿ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ الماضية فى الدنيا ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ ﴾ لما يرى فيه من الفضائح وسوء العاقبة ﴿ يَا ﴾ للتنبيه ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝ يَا لَيْتَهَا ﴾ أى الموتة فى الدنيا ﴿ كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ القاطعة لحياتى بأن لا أبعث أو يا ليت هذه الحالة كانت الموتة القاضية علىّ بأن تدوم لما رأى من الشدة التى تعدُّ مرارة الموت حلاوة عندها ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴾ شيئاً من الأشياء أو أى شيء أغنى عنى على جعل ما استفهامية إنكارا ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ ملكى وتسلطى على الأموال والخدم أو قوتى وحجتى قرأ حمزة فى الوصل بدون الهاء فى الموضعين : يقول الله تعالى لخزنة النار ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ اجمعوا يديه إلى عنقه فى الغل ﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ ﴾ وهى النار العظمى ﴿ صَلُّوهُ ﴾ أدخلوه لا غيرها يقال صليته أدخلته إياها ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا ﴾ طولها ﴿ سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ بذراع الملك ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ أى لا تسلكوه إلا فى السلسلة الموصوفة ومعنى سلكه فيها أن تلف عليه مع ذلك الطول المفرط مبالغة فى التضييق عليه وثم فى الموضعين لتفاوت ما بين ما دخله وما تقدمه وتقديم السلسلة كتقديم الجحيم للاختصاص والاهتمام بذكر أنواع ما يعذبون به ولم تمنع الفاء من تعلق الفعل بالظرف المتقدم ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ تعليل على طريقة الاستئناف وذكر العظيم للإشعار بأنه هو المستحق للعظمة فمن تعظم عليه استوجب ذلك العذاب العظيم ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ أى لا يحض غيره على إطعامه فضلا عن أن يطعم وفيه مبالغتان ذكره قرين الكفر وذكر ترك الحض دون منع الطعام ليعلم من باب الأولى وفيه إشارة إلى أن شر الخصال بعد الكفر البخل ولذا كان أبو الدرداء يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ويقول خلعنا نصف السلسلة بالإيمان فنخلع نصفها بهذا ، وهذه الآية ناطقة بأن المؤمنين يرحمون جميعاً وأن الكافرين لا يرحمون لقسم الخلق صنفين أهل الإيمان وأهل الشمائل الذين وصفهم بالكفر فى قوله إنه كان لا يؤمن بالله فدل أن المؤمن المعاقب يؤتى كتابه بيمينه دلالة أنه يصير إلى النجاة والله أعلم وفى البخارى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يدنى الله المؤمن يوم القيامة فيقرره بذنوبه حتى إذا رأى أنه قد هلك يقول له سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته بيمينه وأما الكافر فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴾ قريب يحميه وقد فر كل امرئ من أخيه وأبيه ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ صديد أهل النار فعلين من الغسل ﴿ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ العامدون للإثم من الخطإ بالكسر العمد لا بالفتح ﴿ فَلَا ﴾ زائدة ﴿ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ من المخلوقات ﴿ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ منها أى بكل مخلوق أو غير مزيدة أى لا أقسم بها لظهور الأمر ﴿ إِنَّهُ ﴾ القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ يبلغه عن الله لا يقول عن نفسه ﴿ كَرِيمٍ ﴾ على الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ كما تزعمون تارة ﴿ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ بما ظهر لكم صدقه تصديقاً قليلا أفرط

عنادكم ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ كما تدعون أخرى ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ بالتاء فى الفعلين للجمهور والياء لابن كثير وهشام أى تذكرون تذكراً قليلا فلذلك يلتبس الأمر عليكم والمعنى أنهم آمنوا بأشياء يسيرة فتذكروها مما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم من الخير والصلة والعفاف فلم تغن عنهم شيئاً أو القلة بمعنى العدم وذكر الإيمان مع نفى الشعر والتذكر مع نفى الكهانة لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بيّن لا ينكره إلا معاند بخلاف الكهانة فنفيها يتوقف على تذكر أحوال الرسول ومعانى القرآن المخالفة لطريقة الكهنة ومعانى أقوالهم ﴿ تَنْزِيلٌ ﴾ أى بل هو تنزيل ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ على لسان جبريل رفعٌ لأن يكون كلام الرسول حقيقة لإسناد القول إليه والمراد بالرسول محمد لا جبريل إذ لم ينسبوا إليه شعراً ولا كهانة ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ النبي تكلف الافتراء ﴿ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴾ بأن نسب إلينا قولا لم نقله وتسمى الأقوال المنقولة أقاويل تحقيراً كالأضاحيك كأنها جمع أفعولة ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ أى بيمينه ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ نياط قلبه بضرب عنقه وهو تصوير لإهلاكه بأشنع صورة وهو أن يأخذ الجلاد بيمين المصبور ليرى السيف فى يده بخلاف ما إذا أخذ بيساره ، وفى ذكر الوتين إشارة إلى محل الجناية فإن اللسان ترجمان المؤاخذ عليه ، وقيل اليمين بمعنى القوة أى لعاقبناه بالقوة ، والوتين عرق متصل بالقلب هو نياطه إذا انقطع مات صاحبه ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ ﴾ عن القتل أو المقتول المنقول ﴿ حَاجِزِينَ ﴾ دافعين ، خبر « ما » وجمع لأن « أحداً » فى سياق النفى بمعنى الجمع والخطاب للناس كلهم ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ القرآن ﴿ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ لأنهم المنتفعون به ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ مُكَذِّبِينَ ﴾ بالقرآن ومصدقين فنجازيهم ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى القرآن أو التكذيب ﴿ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ إذا رأوا ثواب المصدقين وعقاب المكذبين له ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ القرآن ﴿ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أى لليقين حق اليقين الذى لا ريب فيه ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ سبح الله بذكر اسمه العظيم تنزيهاً له عن الرضى بالتقوّل عليه وشكراً على ما أوحى به .

[تم تفسير سورة الحاقة]

سورة المعارج

مكية أربع وأربعون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، سَالَ﴾ بالألف لنافع وابن عامر وبالهمز للباقين ﴿سَائِلٌ﴾ أى دعا داع ﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ أى استعجله ولذا عدى سأل بالباء. والسائل هو النضر بن الحارث قال اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية ؛ فألف سأل على القراءة الأولى مبدلة من الهمزة تخفيفا . قال حسان :

سَالَتْ هُذَيْلُ رَسُولَ اللَّهِ فَاحِشَةً   ضَلَّتْ هُذَيْلٌ بِمَا سَالَتْ وَلَمْ تُصِبِ

أو أجوف واوى كخاف يخاف . قال أبو زيد سمعت من يقول هما يتساولان أو يائى كباع يبيع أى جرى واد ذو سيل بعذاب واقع أى كائن لا محالة ﴿ لِلْكَافِرِينَ﴾ صفة أخرى لعذاب أو صلة لواقع أى نازل لأجلهم أو متعلق بسأل ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ رادٌّ ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ متصل بواقع أى من عنده جملة مؤكدة الأولى أو صفة أخرى لعذاب أو بدافع أى ليس له دافع لامنه ولامن غيره إذا جاء ﴿ذِى الْمَعَارِجِ﴾ مصاعد السماء للملائكة أو للأعمال الصالحة أو الأرواح أو ذى الفواضل أو الصفات الحميدة على سبيل الاستعارة فى الرتب لأنه فى اللغة الدرج فى الأجرام ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ استئناف لبيان تلك المعارج وبعد مداها بالتاء للجمهور والياء للكسائى ﴿ وَالرُّوحُ ﴾ أى جبريل خصه بالذكر بعد العموم لفضله أو خلق آخر موكلون بالملائكة كالملائكة بنا أو اسم جنس لأرواح المؤمنين عند الموت ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى عرشه أو مهبط أمره من السماء ﴿ فِى يَوْمٍ ﴾ صلة تعرج ﴿ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ من أسفل العالم إلى العرش أى لو صعد فيه غير الملك لكان مقداره كذلك أو صلة واقع أى يقع العذاب فى يوم طويل مقداره كذلك وهو يوم القيامة فإما أن يكون استطالته كذلك لشدته على الكفار أو لأنه على الحقيقة كذلك على ما قيل إن فيه خمسين موطنا يقف الخلق فى كل موطن ألف سنة ويؤيد الأول مارواه ابن حنبل عن أبى سعيد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والذى نفسى بيده إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة والثانى هو الظاهر والله أعلم وتفسير اليوم بيوم القيامة هو الأوجه المناسب للسياق من التهويل ﴿فَاصْبِرْ﴾ على استهزائهم فى استعجال العذاب والتكذيب ﴿ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ لا قلق معه ولا شكوى بعد علمك بوقوع العذاب على أعدائك ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ ﴾ أى العذاب أو يوم القيامة ﴿ بَعِيدًا ﴾ عن إمكان الوقوع ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ منه أو من الوقوع ﴿ يَوْمَ

تَكُونُ السَّماءُ ﴾ ظرف لقريبا أو لما دل عليه واقع أو يقع أو بدل من محل « فى يوم » إن علق بواقع ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ كدردى الزيت أو ذائب الفضة ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ كالصوف المصبوغ ألوانا لاختلاف ألوان الجبال بيض وحمر وغرابيب سود فإذا طارت فى الهواء اختلطت ألوانها كالعهن المنفوش إذا طيرته الريح ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ ﴾ قريب ﴿ حَمِيمًا ﴾ قريبه كيف حالك لاشتغال كل بحاله « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أى يبصر بعض الأحماء بعضاً ويعرفه ولا يتكلم والجملة استئناف جواب : لِمَ لا يسأل هل لا يراه ؟ أو حال تدل على أن المانع عن السؤال هو الشاغل دون الخفاء. وجمع الضمير لعموم الحميم والأصل يبصرون بهم تضمن معنى التعريف أو حذفت الصلة وأوصل الفعل ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ ﴾ الكافر استئناف يدل على أن الأمر أعظم من الاشتغال بالسؤال عن حال أحد بل يتمنى ﴿ لَوْ ﴾ بمعنى أن ﴿ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمَئِذٍ ﴾ بفتح الميم لنافع والكسائى وكسرها للباقين ﴿ بِبَنِيهِ ﴾ الذين هم أعز عليه من الروح ﴿ وَصَاحِبَتِهِ ﴾ زوجته التى يختار ذهاب مهجته دونها غيرة ﴿ وَأَخِيهِ ﴾ الذى هو شقيقه ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ عشيرته الذى فصل منهم ﴿ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾ تضمه فى النسب وعند الشدائد ﴿ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ كائناً من كان ﴿ ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴾ ذلك الافتداء عطف على يفتدى ﴿ كَلَّا ﴾ ردع للمجرم عما يوده وتنبيه أنه لا ينجيه من العذاب ﴿ إِنَّهَا ﴾ أى النار المدلول عليها بالعذاب أو القصة أو مبهم فسره ﴿ لَظَىٰ ﴾ لهب خالص أو علم للنار منقول منه لأنها تتلظى أى تتلهب على الكفار ﴿ نَزَّاعَةً ﴾ خبر بعد خبر لإن ، أو خبر « لظى » إن كان الضمير للقصة ، ويجوز أن يكون صفة إن أريد بلظى اللهب لأن علم الجنس كالمعرف بلامه فى إجرائه مجرى النكرة وإن لم يجعل علم الجنس فحذف التنوين لإجراء الوصل مجرى الوقف ، وقرأ حفص نزاعة بالنصب على الحال المؤكدة ﴿ لِلشَّوَىٰ ﴾ أطراف الإنسان كاليدين والرجلين أو هى جلدة الرأس جمع شواة ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ ﴾ عن الحق ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ عن الطاعة بلسان المقال بأسمائهم : يا كافر يا فاسق ، إلىَّ . إلىَّ ﴿ وَجَمَعَ ﴾ المال ﴿ فَأَوْعَىٰ ﴾ أمسكه فى وعائه ولم يؤد حق الله منه حرصا وتأميلا ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ ﴾ أريد به الجنس ليصح استثناء المصلين منه ﴿ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ حال مقدرة تفسيره ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ وقت مس الشر ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ ﴾ السعة ﴿ مَنُوعًا ﴾ وقت مس الخير أى المال ولم يؤد حق الله منه والوصفان مما جبل عليه الإنسان و « إذا » الأولى ظرف لجزوعاً والأخرى لمنوعاً ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ الاستثناء متصل أى هم خلوا الهلع عن أعناقهم أو منقطع لما وصف من أدبر وتولى بالهلع قال لكن المؤمنون المصلون الموصوفون بالصفات الآتية فى مقابلة أولئك ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ لا يتركونها إلا فى أوقات الأعذار والضرورات أو لا يشغلهم عنها شاغل . قال الغزالى : فينبغى لك أن تفهم ما تقرأه فى صلاتك ولا تغفل فى قراءتك عن أمره سبحانه ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر منته وإحسانه فلكل واحد حق فالرجاء حق الوعد والخوف حق الوعيد والعزم حق الأمر والنهى والاتعاظ حق الموعظة

والشكر حق المنة والاعتبار حق أخبار الأنبياء ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ هم ﴿ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ هو الزكاة وما يوظف الرجل على نفسه من الصدقة يؤديه فى أوقات معلومة ﴿ لِلسَّائِلِ ﴾ الذى يسأل ﴿ وَالْمَحْرُومِ ﴾ المتعفف عن السؤال فيحرم فيعتنون بحاله ويفتشون عليه اواساته ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ الجزاء بالعمل له ولذلك ذكره بيوم الدين ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون على أنفسهم ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ نزوله اعتراض دل على أنه لا ينبغى لأحد أن يأمن وإن كان على قدم راسخ فى الطاعة ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ • إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ من الإماء وتقدم ما فى الاستثناء فى سورة المؤمنين ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ دل على أن المباح لا يمدح عليه إلا بنية ﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ المتجاوزون الحلال إلى الحرام ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ حافظون قرأ ابن كثير أمانتهم على الإفراد لإرادة الجنس وتقدم معنى الأمانة والعهد ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ ﴾ بالإفراد للجمهور والجمع لحفص ﴿ قَائِمُونَ ﴾ إحياء للحقوق وهى من الأمانات أفردها دلالة على زيادة فضلها ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ على شرائطها وأركانها وواجباتها وسننها وآدابها وكفاها شرفا الابتداء بها فى عد المحاسن والختم بها ﴿ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴾ عند الله بأنواع الإكرام ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ ﴾ نحوك معمول ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ حال مسرعين مادى أعناقهم مديمى النظر ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ ﴾ منك ﴿ عِزِينَ ﴾ حال: فرقا شتى جمع عزة وأصلها عزوة قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ثم حذفت الياء وعوض عنها التاء من العزو لأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى كان المشركون يحلقون حول النبى صلى الله عليه وسلم حلقا حلقا يستمعون ويستهزئون بكلامه يقولون إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم فنزل ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ بلا إيمان ﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن طمعهم فى الجنة ورد له ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ من نطف قذرة ولذا أبهم إشعارا بأنه مما يستحيى من ذكره والقذارة لا تناسب الجنة فمن لم يتطهر بالإيمان والطاعات الزاكية لا يستحقها أو خلقناهم مما يعلمون أى من أجله وهو الكمال بالعلم والعمل فمن لم يكمل بهما لم يدخلها ﴿ فَلَا ﴾ زائدة ﴿ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ للشمس والقمر والنجوم ﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ • عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ بأن نهلكهم ونأتى بدلهم أو نعطى محمدا بدلهم خيرا منهم وهم الأنصار الأوس والخزرج ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ مغلوبين عن إرادتنا أو عاجزين ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ اترك المكذبين ﴿ يَخُوضُوا ﴾ فى باطلهم ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ فى دنياهم كالصبيان ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ فيه العذاب وإضافة «يوم» إليهم لمزيد الاختصاص ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ القبور ﴿ سِرَاعًا ﴾ إلى الداعى إلى الحشر ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ ﴾ حجر منصوب للعبادة وذبح النسائك ولابن عامر وحفص بضم النون والصاد جمعه كسقف وسقف ﴿ يُوفِضُونَ ﴾ يسرعون كإسراعهم إلى أنصابهم كانوا يبتدرون إليها

عند طلوع الشمس لا يلوى أحدهم على آخر وسراعا وكأنهم حالان من فاعل يخرجون وكذا ﴿ خَاشِعَةً ﴾ ذليلة ﴿ أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ﴾ تغشاهم ﴿ ذِلَّةٌ ﴾ هوان ﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ ﴾ الموصوف ﴿ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ فى الدنيا على ألسنة الرسل .

[تم تفسير سورة المعارج]

سورة نوح

مكية : ثمان أو تسع وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ ﴾ أى بأن أو أى فأن مصدرية أو مفسرة لاشتمال الإرسال على معنى القول ﴿ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إن لم يؤمنوا فى الدنيا بالطوفان وفى الآخرة بالنار وبئس المصير ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ﴾ أضافهم إليه إظهاراً للشفقة ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ بيّن الإنذار لاقتران قولى بالمعجزة أو أبين رسالات ربى بلغة تعرفونها ﴿ أَنِ ﴾ مصدرية أو تفسيرية ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ • يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ما كان لكم من الذنوب أو بعضها وهى التى تقدمت إسلامكم لأنه يَجُبُّ ماقبله أو المخرَج حقوق العباد ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ ﴾ بلا عذاب ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أجل الموت ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ ﴾ الذى قدره بالقضاء المبرم ﴿ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ فبادروا فى أوقات الإمهال والتأخير وأما القضاء المعلق فيؤخر بأن يعلق على إن آمنوا عاشوا كذا وإن لم يؤمنوا فكذا وفيه زيادة العمر بالصدقة والصلة وغير ذلك مما جاء فى الأحاديث وما فى علمه تعالى لا يبدل ﴿ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك لبادرتم إلى الإيمان لكنكم جاهلون لعدم الجرى على موجب العلم ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أى دائما متصلا بلا فتور ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ عن الإيمان وإسناد الزيادة إلى الدعاء إسناد إلى السبب ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ إلى الإيمان ﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ أى ليؤمنوا فتغفر لهم فاكتفى بذكر المسبب الذى هو حظهم ليكون أدل على قبح إعراضهم ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ ﴾ أناملهم ﴿ فِي آذَانِهِمْ ﴾ لئلا يسمعوا كلامى وبالغ بإطلاق الأصابع على الأنامل مجازا لشدة نفورهم ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ تغطوا بها لئلا يرونى كراهة منهم لرؤيتى أو لئلا أعرفهم فأدعوهم إلى الإيمان والإتيان بالسين الدال على

الطلب للمبالغة كأنهم طلبوا من الثياب أن تغشاهم ﴿وَأَصَرُّوا﴾ على كفرهم من أصر الحمار على الأتان أذنيه يطردها للسفاد وكنى بهذا التشبيه مزجرة ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ تكبروا عن الإيمان ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ مفرطا ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ مصدر فى موضع الحال أى مجاهرا فى المحافل أو مصدر دعوتهم مبين لنوعه كقعدت القرفصاء ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ﴾ صوتى ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ الكلام ﴿إِسْرَارًا﴾ أى دعوتهم مرة بعد أخرى وكرّة بعد أولى على أى وجه أمكننى وثم لتفاوت الوجوه فإن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع أغلظ من الإفراد أو لتراخى بعضها عن بعض وهذا دأب الناصح الشفوق ينصح سرا وإن لم ينجع يعلن لكى يساعده من له وعى ثم يبالغ بالجمع بين السر والجهر ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الشرك تفسير لدعائه ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ للتائبين وكأنهم قالوا إن كنا على حق فلا نتركه وإن كنا على باطل فكيف يقبلنا من عصيناه فأمرهم بما يَجُبُّ معاصيهم ويجلب المنح لهم ولذا وعدهم بقوله ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ المطر ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وكانوا قد منعوه أربعين سنة وأعقم أرحام نسائهم وعبر عن إرسال المطر بإرسال السماء دلالة على كثرته ﴿مِدْرَارًا﴾ كثير الدرور مفعال يستوى فيه المذكر والمؤنث ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ جارية لمزارعكم جمع لهم فى الوعد منافع الدارين. روى أن رجلا اشتكى إلى الحسن الجدب فأمره بالاستغفار والآخر الفقر فأمره به والآخر قلة ريع أرضه وآخر قلة النسل فقال استغفروا فقال له الربيع بن صبيح شكوا إليك أبوابا والجواب واحد فتلا عليه الآية. ولما استسقى عمر فى خلافته لم يزد على الاستغفار، وقال عليه السلام «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب» رواه أبو داود وابن ماجه والنسائى ﴿مَا لَكُمْ﴾ ما حصل لكم من الصارف حتى ﴿لَا تَرْجُونَ﴾ لا تأملون أو لا تخافون ﴿لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أى توقيرا وتعظيما له ممن عبده وأطاعه وقه بيان للوقر بكسر القاف أو لا تخافون عظمة له أو حلما لأن الوقور معظم فى القلوب والحلم لا يفارقه ثم نبههم على النظر فى أنفسهم لأنها أقرب إلى المنظور فيه بقوله ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ جمع طور وهو الحال فطورا نطفة وطورا علقة إلى تمام الخلق أطوارا فى الطول والقصر والسواد والبياض والعلم والجهل والإيمان والكفر والطاعة والعصيان فهذه الأطوار تدل على الخالق الحكيم ثم أتبع ذلك النظر فى الآفاق على وجه التعجيب من تغافلهم بقوله ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ تنظروا ﴿كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض ولا يقتضى الطباق المماسة ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أى فى مجموعهن الصادق بالسماء الدنيا أو نسب للكل للملابسة بينها ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ كالسراج فى إزاحة ظلمة الليل وعن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم أن الشمس والقمر وجوههما مما يلى السموات وظهورهما مما يلى الأرض فيكون نور القمر محيطا بجميع السموات لأنها لطيفة لا تحجب نوره وأجمعوا على

أن الشمس فى السماء الرابعة ، قاله فى مدارك التنزيل ﴿ وَٱللَّهُ أَنبَتَكُم ﴾ أنشأكم ﴿ مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ أى فنبتم نباتاً واستعار الإنبات للإنشاء لأنه أدل على الحدوث والتكوّن من الأرض ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ مقبورين ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ ﴾ للحشر ﴿ إِخْرَاجًا ﴾ لا محالة ولذا أكده بالمصدر كالأول إشارة إلى اتحاد الرتبة وكونهما فى قرن ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ مبسوطة تتقلبون عليها تقلب الرجل على فراشه ﴿ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا ﴾ طرقاً ﴿ فِجَاجًا ﴾ واسعة ومن لتضمن الفعل معنى الاتخاذ ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى ﴾ فيما أمرتهم به من الإيمان والاستغفار بعد ما تلوت عليهم آيات الأنفس والآفاق وصرح باسم نوح لطول الفصل ولم يعطفه لأنه تفصيل لقوله « فلم يزدهم دعائى إلا فراراً » ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ ﴾ أى السفلة والفقراء ﴿ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ ﴾ بفتح الواو واللام لنافع وابن عامر وعاصم وبضم الواو وسكون اللام للباقين جمعه كأَسَد وأُسْد وقيل بمعناه كبَخَل وبُخْل أى رؤساءهم المنعم عليهم بما ذكر المغترين به فلم يزدهم ﴿ إِلَّا خَسَارًا ﴾ فى الآخرة إشارة إلى أنه وإن كان سبباً للتقدم فى الظاهر ليس فى الحقيقة إلا سبباً للبوار ﴿ وَمَكَرُوا۟ ﴾ عطف على من لم يزده والجمع باعتبار معنى من ﴿ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ غاية فى الكبر بأنواع الأذى وتسليط السفهاء على نوح والكبّار أبلغ من الكبار بالتخفيف وهو من الكبير أبلغ ﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ للسفلة ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ جميعها أى عبادتها ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا ﴾ بضم الواو لنافع وبفتحها للباقين صنم لهم على صورة رجل ﴿ وَلَا سُوَاعًا ﴾ على صورة امرأة ﴿ وَلَا يَغُوثَ ﴾ على صورة أسد ﴿ وَيَعُوقَ ﴾ على صورة فرس ﴿ وَنَسْرًا ﴾ على صورة نسر أفردها بالذكر لأنها كبار آلهتهم قيل هى أسماء رجال صالحين من صلب آدم فلما ماتوا وسوس الشيطان إلى قومهم أن صوّروا صورهم حتى تتبركوا بها وتبقى تذكرة فلما انقرض أولئك وسوس إلى أولادهم إن آباءكم كانوا يعبدونها فعبدوها من دون الله وعلى هذا فكلها على صور الآدميين . روى البخارى عن ابن عباس أن هذه الأوثان التى كانت فى قوم نوح عليه السلام انتقلت إلى العرب « ودّ » بدومة الجندل لكلب و « سواع » لهذيل بقرب مكة و « يغوث » لمراد بالثنين و « يعوق » لهمدان و « نسر » لحمير لآل كلاع ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ ﴾ بها أى الرؤساء ﴿ كَثِيرًا ﴾ من الناس بأن أمروهم بعبادتها أو الضمير للأصنام كقوله « إنهن أضللن كثيراً من الناس » ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ عطف على « قد أضلوا » واللام للعهد وهم الذين أيس من إيمانهم ﴿ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴾ ضياعاً وتباراً دعاء عليهم بالهلاك لما أوحى إليه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن وقد دعا عليه السلام على الأحزاب بالهزيمة فكان هذا أصلا فى الدعاء على الكفار فى الجملة فأما كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يدعى عليه ودعاء النبى صلى الله عليه وسلم على عتبة وأصحابه لعلمه بحالهم من الموت على الكفر والله أعلم ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ ﴾ بالهمز جمع قلة للجمهور ولأبى عمرو خطاياهم جمع كثرة أى لأجلها و « ما » مزيدة للتوكيد ﴿ أُغْرِقُوا۟ ﴾ بالطوفان ﴿ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ عظيمة أى عوقبوا بها عقب الإغراق تحت الماء والفاء يؤذن

بالاتصال فيكون دليلا على عذاب القبر لأنه روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار والتنكير للتعظيم أو النوع وكفى بهذا زجراً لمرتكبي الخطايا ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ غيره ﴿ أَنْصَارًا ﴾ يمنعون عنهم العذاب ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أحداً يدور فى الديار وهو من الألفاظ المستعملة فى النفى العام يقال مابها ديار فيعال من الدور أو الدار قلبت واوه ياء وأدغمت فى الأولى ولو كان فعالا لكان دواراً ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ يدعوهم إلى الضلال ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ من يكفر ويفجر قال ذلك لما أوحى إليه « لن يؤمن ... الآية » ولأنه جربهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وكانوا يتواصون بعدم الإيمان ويقولون لذريتهم إياكم وهذا الشيخ ، ومضى على ذلك جيل بعد جيل والفاجر والكفار المولود باعتبار المآل ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ وكانا مؤمنين أبوه لامك بن متوشلخ وأمه شمخاء بنت أنوش ﴿ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ ﴾ منزلى أو مسجدى أو سفينتى ﴿ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى يوم القيامة ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ هلاكا . والله أعلم .

[تم تفسير سورة نوح]

سورة الجن

مكية ـ ثمان وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • قُلْ ﴾ يا محمد لأمتك ﴿ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ أى أخبرت بالوحى من الله ﴿ أَنَّهُ ﴾ أى الشأن ﴿ اسْتَمَعَ ﴾ لقراءتى ﴿ نَفَرٌ ﴾ جماعة من الثلاثة إلى العشرة ﴿ مِنَ الْجِنِّ ﴾ جن نصيبين وتقدمت قصتهم فى الأحقاف . بُعث نبينا إلى الجن كما بعث إلى الإنس فدعاهم إلى الله فنهم من آمن ومنهم من كفر والقول بأنهم أرواح مجردة أو نفوس بشرية مفارقة أبدانها لايجوز تفسير كلام الله به ولم يذهب إليه أحد من أهل الحق وهو مخالف للنصوص ، قاله فى غاية الأمانى ﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم لما رجعوا إليهم ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ يتعجب منه فى فصاحته وغزارة معانيه وغير ذلك و « عجباً » مصدر وصف به مبالغة وهو ما يكون خارجاً عن العادة ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ الحق والصواب وهو الإيمان ﴿ فَآمَنَّا بِهِ ﴾

بالقرآن ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ ولا دلالة فيه على أنهم كانوا مشركين بل كانوا يهوداً لقولهم « إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى » ﴿وَأَنَّهُ﴾ أى الشأن ﴿تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ تنزهت عظمته عما نسب إليه . من جدّ فلان عظم ثم بين ذلك بقوله ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ كما يقول كفار الإنس والجن ، فأنّ المسبوقة بالواو هنا وما بعده فى اثنى عشر موضعاً بالكسر لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبالفتح للباقين ووافقهم فى فتح «وأنه لما قام عبدالله» ابن كثير وأبو عمرو واتفق الكل على فتح «وأن المساجد لله» ، والوجه فى الكسر الاستئناف أو العطف على «إنا سمعنا» وفى الفتح العطف على الهاء فى «آمنا به» أو على محل الجار والمجرور أو إضمار الجار ﴿وَأَنَّهُ﴾ أى الشأن ﴿كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ جاهلنا إبليس ومن تبعه منا ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ قولا ذا شطط تجاوز الحد فى الكذب بوصفه بالصاحبة والولد ، نعت لمصدر محذوف وصف به مبالغة ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ﴾ مخففة أى أنه ﴿لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بوصفه بذلك حتى تبينا كذبهم بذلك و «كذبا» نصب على المصدر لأنه نوع من القول ولا دلالة فيه على أنهم إلى حين سماع القرآن كانوا مشركين ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ حين ينزلون فى أسفارهم بمخوف يصرخ النازل منهم بأعلى صوته : أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه يعتقد بذلك أنه يحميه ويمنعه ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ زاد الإنس الجن بعوذهم بهم ﴿رَهَقًا﴾ طغياناً وتكبراً فقالوا سدنا الجن والإنس أو زاد الجن الإنس إثماً لاستعاذتهم بهم والرهق غشيان المحظور وإطلاق الرجال على الجن للمشاكلة ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أى الإنس ﴿ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ أيها الجن لأن السياق فى حكاية كلام الجن بعضهم لبعض وقيل الضمير فى « أنهم » للجن فالآية والتى قبلها من كلام الله جار مجرى الاعتراض لتأكيد ما حدث عنهم من تماديهم فى الكفر . ومَن فتح أن فيهما جعلهما من الموحى به ﴿أَنْ﴾ مخففة ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ بعد موته ويؤيد الأول قوله ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ طلبنا استراق السمع منها على ما كنا نفعله قديماً ، أطلق اللمس على الطلب مجازاً لأن اللامس طالب متعرف ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ من الملائكة اسم جمع كخدم ﴿شَدِيدًا﴾ أقوياء أفرد باعتبار اللفظ ﴿وَشُهُبًا﴾ جمع شهاب وهو الشعلة من النار وذلك لما بعث النبى صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ أى قبل مبعثه ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ من السماء ﴿مَقَاعِدَ﴾ خالية من الحرس أو صالحة ﴿لِلسَّمْعِ﴾ للاستماع صلة «نقعد» أو صفة «مقاعد» ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ أى راصداً له أى لأجله ليرمى به فيمنع به عن الاستماع صفة للشهاب أو اسم جمع كحرس أى ذوى شهاب راصدين للرجم وهم الملائكة وفى لفظ ملئت ومقاعد إشارة إلى أن ذلك كان موجوداً فى الجاهلية لكنه قليل وأما الآن فلا مجال ويؤيده ما روى عن ابن عباس قال : كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمى بنجم فاستنار فقال : ما كنتم تقولون فى هذا فى الجاهلية ؟ قلنا : كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم الحديث ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ بحراسة السماء ومنع الاستراق ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ

رَبِّهِمْ رَشَدًا ﴾ أمرًا ذا رشد : خير ورحمة ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ ﴾ الأبرار المتقون ﴿ وَمِنَّا ﴾ قوم ﴿ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ وهم المقتصدون فى الصلاح غير الكاملين فيه أو أرادوا غير الصالحين ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ ﴾ أى ذوى طرائق أى مذاهب أو مثل طرائق فى اختلاف الأحوال ﴿ قِدَدًا ﴾ متفرقة مختلفة جمع قِدّة من قده قطعه وعن الأعمش : قلت لجنىّ : فيكم الأهواء التى فينا ؟ قال نعم قلت كيف حال الرافضة ؟ قال هم شرنا ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا ﴾ علمنا ﴿ أَنْ ﴾ أى أنه ﴿ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أينما كنا فيها لن نفوته ﴿ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ مصدر فى موضع الحال أى هاربين منها إلى السماء ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ﴾ القرآن يدل على أنهم كاملو المعرفة حيث جعلوا القرآن نفس الهدى ﴿ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ ﴾ بتقدير هو بعد الفاء مبتدأ وخبرا آثره على لا يخف لإفادة التقوى والاختصاص كأنه قيل فهو ناج لا محالة ومختص بذلك ﴿ بَخْسًا ﴾ نقصاً من ثوابه ﴿ وَلَا رَهَقًا ﴾ ظلماً وذلة وأصل الرهق القرب من الشىء ومنه المراهق ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ ﴾ المتبعون للحق ﴿ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ الكافرون الجائرون عن طريق الحق ، قسط : جار ، وأقسط : عدل ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا ﴾ قصدوا ﴿ رَشَدًا ﴾ عظيما يبلغهم إلى الجنة ورضوان الله ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ وقوداً توقد بهم كما توقد بكفار الإنس ﴿ وَأَنْ ﴾ معطوف على أنه استمع أى وأن الشأن ﴿ لَوِ اسْتَقَامُوا ﴾ أى القاسطون من الإنس والجن فهذا من كلام الله ﴿ عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ طريقة الإسلام ﴿ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ كثيراً والمعنى لوسعنا عليهم الرزق وتخصيص الماء لأنه أصل المعاش والسعة ولعزة وجوده فى أرض العرب ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ ﴾ لنختبرهم ﴿ فِيهِ ﴾ فى ذلك التوسيع أيشكرون أم يكفرون . وقيل معنى «لو استقاموا» لو داموا على ما كانوا عليه ولم يؤمنوا لوسعنا عليهم الرزق استدراجاً . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : حيث يكون الماء ثم المال وحيث المال ثم الفتنة . وقال الحسن : كانت الصحابة رضى الله عنهم سامعين مطيعين فلما فتحت كنوز كسرى وقيصر على الناس ثارت الفتن . ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ عبادته لأن الغرض منها ذكر المعبود أو موعظته أو وحيه ﴿ نَسْلُكْهُ ﴾ بالنون لنافع وابن عامر وابن كثير وأبى عمرو وبالياء للباقين ندخله ﴿ عَذَابًا ﴾ أى فيه ﴿ صَعَدًا ﴾ شاقا يعلو المعذب ويغلبه مصدر صعد وصف به مبالغة ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ ﴾ مواضع الصلاة ﴿ لِلَّهِ ﴾ مختصة به ﴿ فَلَا تَدْعُوا ﴾ فيها ﴿ مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ ولا ينبغى أن يتحدث فيها بأمور الدنيا ولا يجعل فيها لغير الله نصيب ، وعن الحسن : المساجد كل موضع يسجد فيه إذ الأرض كلها جعلت مسجداً لهذه الأمة . اهـ . ويدل عليه ما روى أن الآية نزلت لما تغلبت قريش على الكعبة فقيل للنبى والمؤمنين المواضع كلها لله فاعبدوه حيث كنتم ، وقيل أعضاء السجود الرجلان واليدان والركبتان والجبهة والأنف ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ يعبده ببطن نخلة وسمع الجن تلاوته ﴿ كَادُوا ﴾ أى الجن المستمعون لقراءته ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ بكسر اللام للجمهور جمع لبدة وضمها لابن عامر فى رواية هشام بخلاف عنه : جمع

لبدة لغة فيه أى كاللبد فى ركوب بعضهم بعضاً ازدحاماً حرصاً على سماع القرآن واللبدة كل شىء تلبد بعضه فوق بعض أو كادت العرب تلبد عليه لإبطال أمره لما قال لا إله إلا الله ، أو القاسطون من الجن والإنس يكونون لبداً على إطفاء نوره ، وسماه عبد الله إشعاراً بتواضعه المقتضى لقيامه وفيه حث للسامعين على الاقتداء به ﴿ قَالَ ﴾ مجيباً للكفار ولحمزة وعاصم قل ﴿ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى ﴾ فما للإنكار وجه على من يعبد ربه فليس ببدع ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ فى العبادة ﴿ قُلْ إِنِّى لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا ﴾ مضرة أو غيا ﴿ وَلَا رَشَدًا ﴾ نفعاً ، المعنى : لا أستطيع أن أضركم ولا أن أنفعكم لأن الضار والنافع هو الله وعبر عن الأول باسمه وعن الآخر باسم سببه إشعاراً بالمعنيين ﴿ قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى ﴾ لن يدفع عنى ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ من عذابه إن عصيته ﴿ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى غيره ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ ملتجأ وملاذاً من اللحد وهو الميل ﴿ إِلَّا بَلَاغًا ﴾ كائناً ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ استثناء من لا أملك أى لا أملك لكم ضرا ولا رشداً إلا بلاغا من الله و « قل إنى لن يجيرنى » اعتراض لتأكيد نفى الاستطاعة عن نفسه أو من ملتحداً أى لن أجد منجى إلا أن أبلغ عنه ما أرسلنى ﴿ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ عطف على « بلاغا » بتقدير مضاف أى بلاغ رسالاته والأصل إلا بلاغ رسالاته والعدول إلى المنزل لذكر البلاغ مرتين مبالغة لأن كونه من الله وكونه بلاغ رسالاته مما يقتضى التشمير له ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى الأمر بالتوحيد إذ الكلام فيه ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ لا محالة ﴿ خَالِدِينَ ﴾ حال من ضمير « من » جمعه رعاية لمعناها ﴿ فِيهَا أَبَدًا حَتَّى إِذَا رَأَوْا ﴾ حتى ابتدائية فيها معنى الغاية لمقدر دل عليه ما قبلها أى لا يزالون على كفرهم إلى أن يروا ﴿ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ عند حلوله بهم ﴿ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ أهو أم هم فقال بعضهم متى هذا الوعد فنزل ﴿ قُلْ إِنْ ﴾ ما ﴿ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾ من العذاب ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَدًا ﴾ بعيداً أى غاية وأجلا لا يعلمه إلا هو ولكنه نازل بكم قطعاً ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ ما غاب عن العباد ﴿ فَلَا يُظْهِرُ ﴾ لا يطلع ﴿ عَلَى غَيْبِهِ ﴾ المختص به وهو ما يتعلق بذاته وصفاته وأفعاله قاله فى غاية الأمانى ﴿ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ ملكى أو بشرى فإنه يطلعه على ما يشاء من ذلك ليكون له معجزة ولا يجوز حمل الغيب على العموم إذ الرسول لا يعلم جميع المغيبات بل المراد بعض الغيب المخصوص بطريق الوحى فلا يمنع كرامات الأولياء بإطلاعهم على غيب غيره وكذا إطلاع غيرهم على بعض المغيبات كالكهان والمنجمين للعلم بأسبابها على أن كرامة الولى معجزة للرسول والمنجمون وقفوا على علم جاء من رسول انقطع أثره وبقى علمه فى الخلق ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ فإن الله مع إطلاعه على ما شاء ﴿ يَسْلُكُ ﴾ يدخل أى يجعل ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أى الرسول ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ ملائكة حفظة يحفظونه من تخاليط الشياطين حتى يبلغ الوحى ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ الله علم ظهور علة لقوله يسلك الخ ﴿ أَنْ ﴾ أى أنه ﴿ قَدْ أَبْلَغُوا ﴾ أى الرسل ﴿ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أو ليعلم النبىّ الموحى إليه أن قد أبلغ جبريل والملائكة النازلون بالوحى روعى بجمع الضمير معنى من

﴿وَأَحَاطَ﴾ الله ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ لدى الرسل من الشرائع والأحكام ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أى أحصى عدد كل شيء دخل فى الوجود من أى عالم كان فكيف لا يحيط بما لدى الرسل، و «عدداً» تمييز محوّل عن المفعول.

[تم تفسير سورة الجن]

سورة المزمل

مكية أو «إلا إن ربك يعلم ... الخ» تسع عشرة آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ المتلفف فى ثيابه حين مجيء الوحى له هيبة منه أو حزناً حين قال الكفار له شاعر ساحر فدخل فى بيته وتزمل فى ثيابه حزيناً فنزل عليه جبريل بأمر القيام إلى عبادة ربه أو تزمّل ثيابه لينام فنزل عليه الأمر بالقيام وأصله المتزمل أدغمت التاء فى الزاى ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ أى صلّ ﴿إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ﴾ بدل من قليلا وقلته بالنظر إلى الكل والاستثناء من الليل ﴿أَوِ انْقُصْ مِنْهُ﴾ من النصف ﴿قَلِيلًا﴾ إلى الثلث ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ إلى الثلثين و «أو» للتخيير بين قيام النصف أو الناقص عنه أو الزائد عليه أو نصفه بدل من الليل والاستثناء من النصف والضمير فى منه وعليه للأقل من النصف كالثلث فيكون التخيير بينه وبين الأقل منه كالربع والأكثر منه كالنصف أو الضمير للنصف والتخيير بين أقل منه على البت وبين أحد أمرين الأقل والأكثر وهذا الأمر عند الجمهور للندب وقيل للفرض وقت نزول الآية أو فرض على النبىّ خاصة ويؤيد الثانى حديث مسلم عن عائشة: إن قيام الليل كان فرضاً بأول هذه السورة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم فنسخه آخر السورة فصار تطوعا. اه. وقيل نسخ عن الأمة فقط. قال السهيلى: إنما خاطبه الله بالمزمل للملاطفة فى العتاب فالعرب إذا قصدت الملاطفة فى العتاب سموا المخاطب باسم مشتق من حالته كقوله عليه السلام لعلىّ: قم أبا تراب. وللتنبيه لكل متزمل راقد ليله لينتبه إلى قيام الليل ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ﴾

اقرأه على مهل ﴿ تَرْتِيلًا ﴾ بحروفه بحيث يتمكن السامع من عدها للتأمل والتدبر فى دقائقه وحكمه فيكون قيامك فى الليل الذى هو أشرف الأوقات على أكمل الأحوال ، شبه القراءة المفصلة بالثغر المرتل وهو المفلج الشبيه بالأقحوان وفى تأكيده بالمصدر دليل على إيجابه وأنه لا بد منه للقارئ ، قاله النسفى . وفى الصحيح أن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بينة مرتلة لو شاء أحد أن يعد الحروف لعدها . قال الغزالى : الترتيل أقرب إلى الاحترام والتأثير فى القلب من الهذرمة . اه . وقد قام عليه السلام ليلة بآية من القرآن يكررها ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ﴾ قرآناً ﴿ ثَقِيلًا ﴾ مهيباً أو راجحاً فى الميزان برزانة لفظه ومتانة معناه أو شاقاً بالتكاليف وهو اعتراض للدلالة على أن قيام الليل من التكاليف الشاقة التى ورد بها القرآن لأن الليل محل الراحة فإحياؤه بالعبادة مضاد للطبع وفيه إيقاظ له على التشمير وتوطين النفس على ذلك ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ قيامه بعد النوم مصدر نشأ قام بالحبشية أو مؤنث ناشئ أى قائم أى النفس التى تنشأ عن المضجع أو ساعات الليل لأنها تحدث واحدة بعد أخرى ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ موافقة السمع للقلب على تفهم القرآن لعدم الشاغل أو أثبت قياماً أو أكثر كلفة ﴿ وَأَقْوَمُ ﴾ أبين ﴿ قِيلًا ﴾ قولا لحضور القلب وهدوء الأصوات وعدم الخواطر والالتفات ولابن عامر وأبى عمرو وطاء بالمد أى مواطأة القلب واللسان لها أو فيها ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا ﴾ فراغاً أو تقلباً وتصرفاً فى أشغالك ﴿ طَوِيلًا ﴾ فعليك بعبادة ربك ليلا ، مستعار من سبح الفرس وهو مد اليدين فى الجرى ، والطول ترشيح ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ أى قل بسم الله الرحمن الرحيم فى ابتداء قراءتك أو دم على ذكره من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم ليلا ونهاراً ﴿ وَتَبَتَّلْ ﴾ انقطع عن الدنيا ﴿ إِلَيْهِ ﴾ فى العبادة ﴿ تَبْتِيلًا ﴾ تجريدًا لنفسك عما سواه ولهذه الرمزة ومراعاة الفواصل وضعه موضع تبتلا ، هو ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ خبر محذوف أو مبتدأ خبره ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقرأ ابن عامر والكوفيون غير حفص بالجر على البدل من ربك ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ موكولا له أمورك فإنه ينصرك ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ فيك وفيما أنزل إليك من الخرافات ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ بأن تجانبهم بقلبك وتخالفهم مع ترك المكافأة بتوكيل أمرهم إلى الله فإنه يكفيكهم كما قال ﴿وَذَرْنِي﴾ اتركنى ﴿ وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾ مفعول معه أى كل أمرهم إلىّ فأنا كافيكهم ﴿أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ التنعم يريد صناديد قريش المفتخرين بالحطام المانعين أتباعهم عن الدخول فى الإسلام والنعمة بالفتح التنعم وبالكسر الإنعام وبالضم المسرة ﴿ وَمَهِّلْهُمْ ﴾ زمانا أو إمهالا ﴿ قَلِيلًا ﴾ إلى يوم بدر أو إلى يوم القيامة ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا ﴾ قيودا ثقالا للكافرين فى الآخرة جمع نِكل بكسر النون تعليل للأمر ﴿ وَجَحِيمًا ﴾ نارا شديدة الحر والإيقاد ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ بشبيع ينشب فى الحلق كالضريع والزقوم لا ينساغ ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ مؤلما نوعا آخر لا يعرف كنهه إلا الله ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ﴾ تضطرب وتزلزل ﴿الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ والظرف منصوب بما فى ولدينا» من معنى الفعل أى استقر ذلك يوم ترجف الأرض

والجبال ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً ﴾ رملا مجتمعا من كثب الشيء إذا جمعه فعيل بمعنى مفعول ﴿ مَهِيلًا ﴾ منثورا بعد اجتماعه من هاله هيلا نثره وأصله مهيول استثقلت الضمة على الياء فنقلت إلى الهاء وحذفت الواو ثانى الساكنين لزيادتها وقلبت الضمة كسرة لمجانسة الياء ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾ يا أهل مكة المكذبين خاطبهم عن الالتفات ﴿ رَسُولًا ﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ يوم القيامة بعصيانكم ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ هو موسى عليه السلام ولم يسمه لأن المقصود لم يتعلق به بل بقوله ﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾ أى عصيتم رسولكم كما عصى فرعون رسوله ﴿ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ شديدا ثقيلا أصله الوخامة يقال مرعى وبيل وطعام وبيل لا يستمرأ لثقله ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ يَوْمًا ﴾ مفعول تتقون أى عذاب يوم أو ظرف أى فكيف لكم التقوى فى الآخرة إن كفرتم فى الدنيا أو مفعول كفرتم على تأويله لجحدتم أى فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوما ﴿ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ جمع أشيب لشدة هوله وذلك حين يقال لآدم عليه السلام قم فابعث بعث النار من ذريتك ، وقيل كناية عن شدته إذ عند تفاقم المصائب يسرع الشيب أو عن طوله والجملة صفة يوما ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ ﴾ منشق والتذكير باعتبار السقف ﴿ بِهِ ﴾ بذلك اليوم لشدته والباء للآلة فإذا كانت السماء مع عظمها وإحكامها تنشق به فما ظنك بغيرها ﴿ كَانَ وَعْدُهُ ﴾ تعالى بمجيء ذلك اليوم أو الضمير لليوم على إضافة المصدر إلى المفعول ﴿ مَفْعُولًا ﴾ كائنا لا محالة ﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ الآيات الموعدة ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ عظة للخلق لجلائها ﴿ فَمَنْ شَاءَ ﴾ أن يتعظ ﴿ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ موصلا إليه بالإيمان والطاعة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى ﴾ أقل ﴿ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ ﴾ بجرهما لنافع وابن عامر وأبى عمرو عطفا على ثلثى ونصبهما للباقين عطفاً على أدنى واستعار الأدنى للأقل لأن الأقرب إلى الشيء أقل بعدا منه ، وأسكن هشام لام ثلثه تخفيفاً وقيامه عليه السلام كذلك نحو ما أمر به أول السورة ﴿ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ عطف على ضمير تقوم وجاز من غير تأكيد للفصل وقيام طائفة من أصحابه كذلك للتأسى به ومنهم من كان لا يدرى كم صلى من الليل وكم بقى منه فكان يقوم الليل كله احتياطا فقاموا حتى انتفخت أقدامهم سنة أو أكثر فخفف الله عنهم بقوله ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ ﴾ يحصى ﴿ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى لا أنتم ﴿ عَلِمَ أَنْ ﴾ أى أن الشأن ﴿ لَنْ تُحْصُوهُ ﴾ أى الليل لتقوموا فيما يجب القيام فيه إلا بقيام جميعه وذلك يشق عليكم ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ رجع بكم إلى التخفيف برفع ما كان تركه معصية من قيام الليل ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ فى الصلاة بأن تصلوا ما تيسر وعن أبى هريرة : من قرأ مائة آية فى ليلة لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ مائتى آية كتب من القانتين . وقوله فاقرأوا أى فى صلاة الليل وأى وقت كان أمر ندب ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى ﴾ استئناف يبين حكمة أخرى مقتضية للترخيص والتخفيف ولذلك كرر الحكم مرتبا عليه بقوله ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يسافرون ﴿ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ من رزقه بالتجارة وغيرها ﴿ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

إخبار عما يكون مستقبلا بالإعجاز على القول بأن الآية مكية وتسويته بين الضارب للتجارة والمجاهد فى سبيل الله دلت على أن طلب الرزق إذا قرن بالنية الصالحة له مكان عند الله كيف وقد قدمه على المجاهدة ولذا قال عبد الله بن عمر : ما من موتة أحب إلىّ بعد القتل فى سبيل الله من أن أموت بين شعبتى رحل أضرب فى الأرض ابتغاء فضل الله وكل من الفرق الثلاث يشق عليهم ما ذكر فى قيام الليل ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ كما تقدم وهو أيضاً أمر ندب فى قول الجمهور وقال بعضهم هو فرض لابد منه ولو خمسين آية وقال الحسن وابن سيرين قيام الليل فرض ولو قدر حلب شاة قال بعضهم والركعتان بعد العشاء مع الوتر كافيتان فى امتثال هذا الأمر ومن زاد زاده الله ثوابا قال فى الجواهر ينبغى للعاقل المبادرة إلى تحصيل الخيرات قبل هجوم صولة الممات ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ المفروضة ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ الواجبة ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ ﴾ بأن تنفقوا ماسوى الواجب من المال فى سبل الخير ﴿ قَرْضاً حَسَناً ﴾ عن طيب قلب وإخلاص ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ مما خلفتم من متاع الدنيا أو مما تؤخرونه إلى الوصية عند الموت ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾ لما فرط منكم فى جميع أحوالكم لأن الاستقامة متعسرة أو متعذرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ للذنوب ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بالمؤمنين المستغفرين يجعل مكان الذنوب الحسنات

[تم تفسير سورة المزمل]

سورة المدثر

مكية ـ خمس وخمسون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ الملتف بالدثار وهو الثوب الذى فوق الشعار والشعار ما يلى الجسد والدثار ما فوقه أصله المتدثر فأدغم وأول هذه السورة أول مانزل بعد فترة الوحى وأول اقرأ أول مانزل مطلقاً لكنه نبوّة وهذا رسالة وفى البخارى ومسلم عن جابر أنه سمع رسول الله يحدث عن فترة الوحى قال : فبينا أنا أمشى سمعت صوتا فرفعت بصرى قبل السماء فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعدا على كرسىّ بين السماء والأرض فجئثت أى خفت ورعبت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت أهلى فقلت دثرونى فأنزل الله يأيها المدثر ﴿ قُمْ ﴾ من مضجعك أوقم قيام عزم وجد ﴿ فَأَنْذِرْ ﴾ قومك أو فافعل الإنذار من غير

تخصيص له بأحد على حذف المفعول للعلم به أو للتعميم وهو أبلغ أى ألق بالدثار واشتغل بالإنذار ﴿وربك فكبر﴾ صفه بالكبرياء ووحده وعظمه عن إشراك المشركين ، روى أنه لما نزل كبّر رسول الله فكبرت خديجة وأيقنت أنه وحى إذ الشيطان لا يأمر بالتكبير أى لا يكبر فى عينك غيره والفاء فيه وفيما بعده لإفادة معنى الشرط وكأنه قال ومهما يكن من شىء فكبر ربك ﴿وثيابك فطهر﴾ من النجاسة بغسلها منها وحفظها عنها بتقصيرها مخافة جر الذيول فى النجاسة لأن الصلاة لا تصح إلا بها طاهرة وهو أول ما أمر به من رفض العادات المذمومة ومخالفة قومه فإنهم كانوا يجرون الثياب على الأرض خيلاء فربما أصابتها نجاسة وقيل طهر أخلاقك عما يدنسها ﴿والرجز﴾ العذاب أى ما يؤدى إليه وهو عبادة الأوثان كما فسره النبى بذلك ﴿فاهجر﴾ دم على هجرانها وقرأ حفص بضم الراء فى الرجز لغة ﴿ولا تمنن﴾ لا تعط شيئاً حال كونك ﴿تستكثر﴾ تعده على الله أو على الناس كثيراً لاحتقار متاع الدنيا وإن جل أو لا تعط طامعاً أن تعوض أكثر مما أعطيت وهو هبة الثواب حرم عليه صلى الله عليه وسلم خاصة لأنه مأمور بأجمل الأخلاق وأشرف الآداب وهو جائز لغيره والموهوب له مخير بين قبوله بقيمته أو رده ولا يلزم الواهب قبول مادونه ولا الموهوب له الزيادة على قيمته ﴿ولربك فاصبر﴾ أى لوجهه أو لأمره ونهيه وعلى الأول أمر بالصبر على أذى الكفار فى التبليغ ﴿فإذا نقر﴾ نفخ ﴿فى الناقور﴾ الصور النفخة الثانية سمى ناقوراً لما روى أن فيه بعدد كل روح نقرة : فاعول من النقر القرع الذى هو سبب الصوت وهو بناء مبالغة كالكابوس والفاء للسببية أى اصبر على أذاهم فبين أيديهم زمان صعب تلقى فيه عاقبة صبرك و « إذا » ظرف لما دل عليه قوله ﴿فذلك﴾ أى وقت النقر ﴿يومئذ﴾ بدل مما قبله المبتدأ والخبر ﴿يوم عسير على الكافرين﴾ و « يومئذ » ظرف لهذا الخبر على تقدير فذلك الوقت وقت وقوع يوم عسير فلم يقع الزمان مظروف الزمان أى عسر الأمر على الكفار إذا نقر فى الناقور ﴿غير يسير﴾ أبداً تأكيد يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه دون وجه ويشعر بيسره على المؤمنين ﴿ذرنى ومن خلقت﴾ حال كونه ﴿وحيداً﴾ منفرداً بلا أهل ولا مال حال من مَن أو من ضميره المحذوف واتفقوا على أن المراد هنا الوليد بن المغيرة المخزومى وكان يلقب فى قومه بالوحيد فذمه الله به بأن خلقه منفرداً ثم أنعم عليه بقوله ﴿وجعلت له مالاً ممدوداً﴾ مبسوطاً واسعاً نامياً متصلا من كل نوع من الزروع والضروع والتجارات كان له مائة ألف ألف دينار وبستان بالطائف لا ينقطع ثماره صيفاً وشتاء ﴿وبنين﴾ عشرة أو أكثر ﴿شهوداً﴾ معه المجالس والمحافل يتمتع بهم ليلا ونهاراً لا يفارقونه لعدم ترددهم إلى الأسفار وأسباب المعاش استغناء بالخدم وتكبراً بالجاه أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام وعمارة ﴿ومهدت له﴾ الجاه والرياسة بتكثير أسبابهما ﴿تمهيداً﴾ كاملا بطول العمر ﴿ثم﴾ مع ذلك ﴿يطمع أن أزيد﴾ له فوق ما هو فيه فى الدنيا ويقول إن كان محمد صادقاً فالجنة لى استبعاد لطمعه وحرصه مع عدم الشكر

﴿ كَلَّا ﴾ ردع له عن الطمع وعلله بقوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا ﴾ القرآن ﴿ عَنِيدًا ﴾ معانداً مكابراً من غير شبهة وذلك موجب لزوال النعم فكيف يجعل سبباً للزيادة ، قيل ما زال بعد نزول هذه الآية فى نقصان ماله حتى هلك ﴿ سَأُرْهِقُهُ ﴾ أكلفه ﴿ صَعُودًا ﴾ عقبة شاقة المصعد مثل لما يستقبل من العذاب الشديد ، وفى الحديث الصعود جبل فى النار طوله سبعون خريفاً يصعد فيه ثم يهوى أبداً إذا وضع يده عليه ذابت وإذا رفع عادت ﴿ إِنَّهُ ﴾ تعليل للوعيد أو بيان للعناد ﴿ فَكَّرَ ﴾ فيما يقول فى القرآن الذى سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم وهو حم السجدة فقال لقريش : سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس والجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه . فقالوا : صبأ الوليد . فجاء إليه ابن أخيه أبو جهل وكلمه فى ذلك فقال له الوليد : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق وتقولون كاهن فهل رأيتموه يتكهن وتقولون شاعر فهل رأيتموه يتعاطى الشعر ؟ فقالوا لا فما تقول فيه أنت؟ ففكر وقال : ما هو إلا ساحر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ففرحوا بقوله وتفرقوا معجبين منه وهو معنى إنه فكر ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ فى نفسه ذلك وهيأه ﴿ فَقُتِلَ ﴾ لعن وعذب ﴿ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ ما لا يصح تقديره أو على أى حال تقدير وعلى الأول تعجيب من فساد تقديره كقوله قاتلهم الله أنى يؤفكون أو حكاية لما قالوه لما سمعوا كلمته كما يقولون قاتله الله ما أشجعه يريدون الثناء ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ كرر للتأكيد وثم يشعر بأن الدعاء الثانى أبلغ من الأول لأنه صدر عن روية بخلاف الأول فإنه نشأ عن النظرة الأولى وهى حمقاء وفى هذا الترقى غاية تهكم به وبمن اغتر بما تفوه به ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ فى وجوه قومه او فيما يقدح به فى القرآن أو الرسول ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ قطب وجهه لما لم يجد طعنا شافيا ﴿ وَبَسَرَ ﴾ كلح وزاد فى القبض ضيقا بما يقول وهو من توابع «عبس» أو من بسر الرجل طلب الحاجة فى غير موضعها حيرة ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ عن الإيمان ﴿ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ عن اتباع النبى والقرآن ﴿ فَقَالَ ﴾ فيه ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ ينقل من السحرة والفاء للدلالة على أنه لما خطرت هذه الكلمة بباله لم يتمالك أن تفوه بها من غير تثبت ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ كما قالوا إنما يعلمه بشر وهى كالتأكيد للجملة الأولى ولذا لم تعطف ﴿ سَأُصْلِيهِ ﴾ أدخله ﴿ سَقَرَ ﴾ جهنم بدل من سأرهقه صعودا ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ تهويل لشأنها ﴿ لَا تُبْقِي ﴾ لحماً ولا عصباً ﴿ وَلَا تَذَرُ ﴾ عظما أو لا تبقى شيئاً بل تهلك كل رطب ويابس ثم يعود كما كان ﴿ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾ محرقة لظاهر الجلد فتغيره من لوحته الشمس إذا غيرته ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ ملكا أو صنفاً من الملائكة خزنتها أو صفا أو نقيباً منهم قال أبو جهل لما سمع ذلك ثكلتكم أمهاتكم أيعجز كل عشرة منكم أن تبطش بواحد منهم فقال أبو الأشد كلدة بن خلف أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفونى أنتم اثنين وكان بلغ من قوته أنه يقف على جلد البقر ويجذبه عشرة فينخرق الجلد تحت رجليه ولا يقدرون على إخراجه ، دعا رسول الله إلى المصارعة وقال إن صرعتنى آمنت بك فصرعه النبى صلى الله عليه وسلم

مراراً فلم يؤمن قال تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ أى فلا يطاقون كما يتوهمون يسوق أحدهم أمة إلى النار على عاتقه جبل فإذا ألقاهم فى النار ألقى الجبل وراءهم ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ ﴾ ذلك ﴿ إِلَّا فِتْنَةً ﴾ إضلالا أو ابتلاء ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إذ يستهزئون به ويقولون لم كانوا تسعة عشر ؟ ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ صدق النبى فى كونهم تسعة عشر الموافق لما فى كتابهم ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ به إذا صدقوا به ورأوا تسليم أهل الكتاب لهذا العدد ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ من غيرهم فى عدد الملائكة تصريح بما علم ضمنا توكيدا ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ شك أو نفاق فيكون إخبارا بمكة عما سيكون فى المدينة بعد الهجرة لأن السورة مكية والنفاق إنما نجم بالمدينة ﴿ وَالْكَافِرُونَ ﴾ الجازمون بالتكذيب من كفار قريش وغيرهم ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا ﴾ العدد ﴿ مَثَلًا ﴾ سموه مثلا لغرابته عندهم تمييز أو حال إذ قيل لما استبعدوه حسبوه أنه مثل مضروب ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى مثل إضلال منكرى هذا العدد وهدى مصدقيه والكاف فى محل النصب ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ من الكافرين ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ من المؤمنين ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ ﴾ الملائكة فى قوتهم وأعوانهم أو جموع خلقه على ماهم عليه ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ لفرط الكثرة فتخصيص الخزنة بهذا العدد لحكمة لا تعلمونها كعدد السموات والأرضين وحملة العرش ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أى سقر متصل بها وما بينهما اعتراض يؤكد بعضه بعضاً ﴿ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ تذكرة لهم وفيه زيادة تهويلها أو الضمير للآيات التى ذكرت فيها ﴿ كَلَّا ﴾ ردعٌ لمن أنكرها أو إنكارٌ لأن يتذكروا بها ﴿ وَالْقَمَرِ ﴾ أقسم به لكثرة منافعه ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ بسكون الذال بعدها همزة قطع لنافع وحمزة وحفص أى مضى وبفتح الذال بعدها ألف للباقين أى أقبل وجاء بعد النهار ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أضاء وجواب القسم ﴿ إِنَّهَا ﴾ أى سقر ﴿ لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ البلايا العظام التى لا يوجد لها نظير ﴿ نَذِيرًا ﴾ حال من إحدى وذكر لأنها بمعنى العذاب أو تمييز من النسبة أى إحدى الكبر إنذارا كقولك هى إحدى النساء عفافا ﴿ لِلْبَشَرِ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ ﴾ بدل من البشر ﴿ أَنْ يَتَقَدَّمَ ﴾ إلى الخير أو الجنة بالإيمان مفعول شاء ﴿ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ إلى الشر أو النار بالكفر ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ رهن مصدر بمعنى المفعول ولو كانت صفة لجردت عن التاء أى مأخوذة بعملها فى النار غير مفكوكة ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ فإنهم فكوا رقابهم بالأعمال الصالحة وقيل أطفال المسلمين لأنهم لا يرهنون بأعمالهم ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ حال من أصحاب اليمين والتنكير للتعظيم ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ بينهم ﴿ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وحالهم يسأل بعضهم بعضا أو يسألون غيرهم ويقولون للمجرمين بعد إخراج الموحدين من النار ﴿ مَا سَلَكَكُمْ ﴾ أدخلكم ﴿ فِي سَقَرَ ﴾ والسؤال للتوبيخ ومن فسر أصحاب اليمين بالأطفال أيده بهذا السؤال لأن الأطفال لا يعلمون موجب ذلك ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ الداخلين فى عدادهم ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ المحتاج ما يجب له دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ ﴾ فى الباطل ﴿ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ القائلين الباطل فى الآيات

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ البعث والجزاء ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ الموت ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ من الملائكة والأنبياء والصالحين إذ لا شفاعة لهم لأنها للمؤمنين دليل لثبوت الشفاعة للمؤمنين وفى الحديث « إن من أمتى من يدخل الجنة بشفاعته أكثر من ربيعة ومضر » رزقنا الله شفاعته ﴿فَمَا﴾ مبتدأ ﴿لَهُمْ﴾ خبره متعلق بمحذوف انتقل ضميره إليه ﴿عَنِ التَّذْكِرَةِ﴾ الاتعاظ بالقرآن ﴿مُعْرِضِينَ﴾ حال من المجرور المعنى أى شىء حصل لهم فى إعراضهم عن الاتعاظ ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ فى إعراضهم ونفارهم عن الذكر ﴿حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ وحشية نافرة ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ أسد أى هربت منه أشد الهرب فعولة من القسر وهو القهر قرأ نافع وابن عامر مستنفَرة بفتح الفاء والباقون بكسرها ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ قراطيس تنشر وتقرأ كقوله « لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه » ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عما أرادوه ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ أى عذابها فلذا أعرضوا عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن الإعراض أو بمعنى حقا ﴿إِنَّهُ﴾ القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ قرأه واتعظ به ﴿وَمَا تَذْكُرُونَ﴾ بالتاء لنافع التفاتاً وبالياء للباقين ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ذكركم ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ حقيق بأن يتقى عقابه ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ لعباده سيما لمن اتقاه .

[تم تفسير سورة المدثر]

سورة القيامة

مكية - وهى أربعون آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . لَا أُقْسِمُ﴾ « لا » صلة فى الموضعين لتأكيد القسم فى قراءة الجمهور ولابن كثير لأقسم بلام الابتداء أى لأنا أقسم ﴿بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ التى تلوم صاحبها على التقصير فى التقوى وإن اجتهد فى الإحسان وجواب القسم محذوف أى لتبعثن دل عليه ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ الكافر ﴿أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ للبعث والإحياء بعد تفرقها . قيل نزلت فى عدى بن ربيعة ختن الأخنس بن شريق سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البعث فأخبره به فقال لو عاينت ذلك لم أو من بك ﴿بَلَىٰ﴾ نجمعها ﴿قَادِرِينَ﴾ مع جمعها ﴿عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ أصابعه نعيدها كما كانت مع صغرها ولطافتها فكيف بالعظام الكبار وفى تصدير الكلام بالقسم بيوم البعث وبالمبعوث فيه على تحقق البعث ثم إيثار الحسبان وهمزة الإنكار مسنداً إلى الإنسان والإتيان بحرف الإيجاب وإيقاع

« قادرين » حالا بعده من المبالغات فى تحقيق المطلوب وتهجين حال المعرض عنه مايبهر عجائبه فى البلاغة ثم زاده رونقا بقوله ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ يدوم على فجوره فيما يستقبل عطف على « أيحسب » للترقى فى الإنكار لدلالته على أن الحسبان لمجرد إرادة الفجور أو إضراب عن الإنكار عن حاله بما هو أدخل فى اللوم كأنه قال أنى يردع بالإنكار وهو يريد الدوام على الفجور . قال البخارى : ليفجر أمامه يقول سوف أتوب سوف أعمل يعنى حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوإ أعماله أو المعنى يكذب بما هو أمامه من البعث والحساب دل عليه ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ ﴾ متى ﴿ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ سؤال استهزاء وتكذيب ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ بفتح الراء لنافع : لمع ، وكسرها للباقين : دهش وتحير ، كأنه نظر البرق لما رأى مما كان يكذب به وقيل هما لغتان بمعنى ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ ذهب ضوءه أو غاب ولأبى حيوة ضم الراء . قال ابن أبى أويس : الخسوف ذهاب جميع الضوء والكسوف ذهاب بعضه ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ فى الطلوع من المغرب أو فى النار يوم القيامة وذكر الفعل لتقدمه أو تغليب المعطوف ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ أى الفرار من النار ، وقرئ بكسر الفاء اسم مكان ﴿ كَلَّا ﴾ زجر عن طلب الفرار ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ لا ملجأ يتحصن به وأصله الجبل لأنه يلجأ إليه فى الغارات واشتقاقه من الوزر : الثقل ﴿ إِلَى رَبِّكَ﴾ خاصة ﴿يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ للخلائق لا ملجأ غيره أو إلى حكمه ترجع أمورهم أو إلى مشيئته استقرار فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ ﴾ يخبر ﴿ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ بأول عمله وآخره أو بما تصدق من ماله وما خلفه أو بما عمل ومالم يعمل ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ حجة واضحة لايحتاج معها إلى أن يسأل لأنه الذى ينبئ نفسه بما قدم وأخر حين تنطق جوارحه أوشاهده ، والهاء للمبالغة فلابد من جزائه ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ اسم جمع أوجمع معذار أومعذرة على غير قياس أى ولوأتى بكل معذرة لاتقبل لأن الشاهد من نفسه لايقبل الجرح . ولما كان عليه السلام يتعجل فى تلقى القرآن من جبريل بتحريك شفتيه به قبل فراغ جبريل نزل ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ ﴾ بالقرآن عند أخذه من جبريل ﴿لِسَانَكَ﴾ قبل فراغه ﴿ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ بحفظه مخافة أن ينفلت منك ثم علل النهى عن العجلة بقوله ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ فى صدرك ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ قراءتك إياه أى جريانه على لسانك ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ عليك بقراءة جبريل ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ استمع قراءته فكان صلى الله عليه وسلم يستمع ثم يقرأه ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ بتفهيمك ما أشكل والمناسبة بين هذه الآية والتى قبلها أن تلك تضمنت الإعراض عن آيات الله بتعجيل شهوات الدنيا وهذه تضمنت المبادرة إليها لتعجيل حفظها فإذا ذُمَّتْ العجلة فى أهم الأمور وأصل الدين فما بالك فى غيره ولذا زجر عن تعجيل حظوظ الدنيا بقوله ﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن العجلة ثم بين أن بنى آدم خلقوا من عجل فى كل شىء فأضرب عن الردع إلى بيان ذلك بقوله ﴿ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ الدنيا ﴿ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ فلا تعملون لها لتأخرها بالتاء فى الفعلين لنافع والكوفيين والياء للباقين وهو تعميم إشعارا بطباع بنى آدم ورمز

لطيف لائق بشأنه صلى الله عليه وسلم لأن ذلك الطبع إنما حصل له فى حقوق ربه كقول موسى « وعجلت إليك رب لترضى » وحصل الردع فى الجبلي لأنه يقبل العلاج كسائر الملكات الرديه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ بهية مضيئة عليها أثر السرور ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فقط لا إلى غيره كالطالب رؤية الهلال بلا كيفية ولا جهة يرونه سبحانه فى الآخرة ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ كالحة أى شديدة العبوسة ﴿تَظُنُّ﴾ توقن ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ داهية عظيمة تكسر فقار الظهر وعبر بالظن لأنها متوهمة كما مر التنبيه عليه ﴿كَلَّا﴾ ردع عن حب العاجلة وإيثارها على الآخرة بذكر ماهو أوعظ شىء للإنسان وهو الموت بقوله ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ الروح ﴿التَّرَاقِيَ﴾ عظام الحلق أضمرت وإن لم يتقدم لها ذكر لأن قرينتها أظهر من نار على علم ﴿وَقِيلَ﴾ قال من حضر حوله من الأحباب بعضهم لبعض ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ يرقيه ليشفى أو قالت ملائكة الموت من يرقى بروحه : ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ؟ ﴿وَظَنَّ﴾ أيقن من بلغت نفسه ذلك أو الحاضر ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ الحقيقى للدنيا المحبوبة ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ إحدى ساقيه بالأخرى عند الموت لايقدر على تحريكها أو التفت شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة . جزع بعض المشايخ جزعا شديدا عند الموت فقال له بعض أصحابه : علام هذا الجزع ؟ قال باب أدقه سبعين سنة الآن يفتح ولا أدرى ما وراءه ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ السوق لا إلى غيره وهو عليم بذات الصدور ، وهذا يدل على العامل فى إذا ، المعنى إذا بلغت الحلقوم تساق إلى حكم ربها إلى الجنة أو النار ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ بقلبه أو بماله يعنى الإنسان الحاسب أن لن نجمع عظامه ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ لم يأت بالعبادات التى أشير إليها بالصلاة لأنها رئيسها ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ بالقرآن ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ يتبختر افتخارا بذلك يعتقد أن أشنع المثالب أرفع المناقب ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ فيه التفات عن الغيبة والكلمة اسم فعل واللام للتبيين أى وليك ماتكره ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ أى فأولاك مرة بعد أخرى أو فهو أولى بك من غيره ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ تأكيد أو المعنى ويل لك يوم الموت فويل لك فى القبر ثم ويل لك فى البعث فويل لك فى النار ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ مهملا لا يكلف ولا يجازى أى لا يكون ما حسب لأن فيه بطلان الحكمة ﴿أَلَمْ يَكُ﴾ أى كان ﴿نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ تُمْنَىٰ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحفص والضمير للنى أى تصب فى الرحم ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ المنى ﴿عَلَقَةً فَخَلَقَ﴾ الله منها الإنسان ﴿فَسَوَّىٰ﴾ عدل أعضاءه ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ﴾ النوعين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ يجتمعان تارة وينفرد كل منهما عن الآخر تارة ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ الفعال لهذه الأشياء ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ كان عليه السلام إذا قرأها يقول « سبحانك بلى » رواه أبو داود .

[تم تفسير سورة القيامة]

سورة الإنسان

مكية ـ أومدنية ـ إحدى وثلاثون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • هَلْ ﴾ قد ﴿ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ ﴾ أى جنسه بمعنى كل إنسان أو آدم عليه السلام ﴿ حِينٌ ﴾ طائفة محدودة ﴿ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ الزمان الممتد الغير المحدود وهذا الحين أربعون سنة على الثانى ومدة الحمل على الأول ﴿ لَمْ يَكُن ﴾ فيه ﴿ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ كان غير مذكور بالإنسانية والجملة حال من الإنسان أو وصف لحين بحذف الراجع كما قدرناه والاستفهام للتقرير والتقريب ولذا فسرهل بقد وأكثر المتأولين على أن الإنسان اسم جنس قال فى الجواهر وهو القوى إذ الآية جعلت عبرة لكل أحد من الناس ليعلم أن الخالق له قادر على إعادته انتهى ويؤيده قوله ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إذ لاخلاف هنا فى إرادة الجنس والمعرفة إن تكررت هى عين الأولى وفى إيثار المظهر فضل تقرير ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ أخلاط أى من ماء الرجل وماء المرأة المختلطين أو ألوان أو أطوار جمع مشيج من مشج الشىء خلطه وجمع لان المراد به مجموع ماء الرجل والمرأة والكل مختلف الأجزاء والخواص وقيل لفظه جمع ومعناه مفرد كبرمة أعشار ولذا وقع نعتا لنطفة أو بدلا منه ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ نختبره بالتكليف استئناف أو حال مقدرة أى مريدين ابتلاءه حين تأهله أو معناه ناقلين له من حال إلى حال فاستعير له الابتلاء لأن كل طور يظهر ظهوراً آخر كظهور الممتحن ﴿ فَجَعَلْنَاهُ ﴾ بسبب ذلك ﴿ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ ليتمكن من استماع الآيات وشهود الدلائل والمعجزات مسبب عما قبله ولذا عطف بالفاء ورتب عليه قوله ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ بينا له طريق الهدى بإنزال الآيات ونصب الأدلة ﴿ إِمَّا شَاكِرًا ﴾ أى مؤمنا ﴿ وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ حالان من المفعول أى بينا له فى حالة شكره وكفره المقدرة و«إما» لتفصيل الأحوال أى هديناه فى حالتيه جميعا أو للتقسيم أى مقسوما إليهما بعضهم شاكر وبعضهم كفور وفى مقابلة الشاكر بالكفور إشارة إلى غلبة الكفران فى الإنسان ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ هيأنا ﴿ لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا ﴾ بها يقادون ويسحبون فى النار ﴿ وَأَغْلَالًا ﴾ فى أعناقهم تشد فيها السلاسل ﴿ وَسَعِيرًا ﴾ نارا مسعرة أى مهيجة يحرقون بها وسلاسلا بالتنوين لنافع والكسائى وهشام وشعبة وتركه للباقين، وتقديم الوعيد وقد تأخر الكفور لأن الإنذار أهم وأنفع، وتصدير الكلام وختمه بالمؤمنين أحسن وأوقع ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ ﴾ جمع برّ أو بارّ وهم المطيعون وعن الحسن هم الذين لا يؤذون الذر ولا يرضون الشر ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ خمر تسمية للحال باسم المحل ومن للتبعيض ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ ما تمزج به ﴿ كَافُورًا ﴾

أى ماء كافور وهو عين فى الجنة وقيل تخلق فيها رائحة الكافور وبرده وقيل تمزج خمرهم بالكافور ﴿عَيْنًا﴾ بدل من كافورا على الأول وعلى الأخيرين من محل «من كأس» على تقدير مضاف أى خمرعين ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ يلتذ بها أو يشرب منها أو يمزجون الخمر بمائها كما تقول شربت الماء بالعسل ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ يقودونها حيث شاؤا من منازلهم ﴿تَفْجِيرًا﴾ كثيرا سهلا بلا تعب ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ فى طاعة الله استئناف لبيان مارزقوا لأجله وفيه مبالغة فى الوفاء لمن أوفى بما أوجب على نفسه لله كان أوفى بما أوجبه الله عليه ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ﴾ شدائده ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ منتشرا غاية الانتشار وهو أبلغ من طار: من استطار الفجر أو الحريق ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أى الطعام وشهوتهم له وقيل على حب الله وفى قوله «لوجه الله» غنية عن هذا ﴿مِسْكِينًا﴾ فقيرا عاجزا عن الاكتساب ﴿وَيَتِيمًا﴾ صغيرا لا أب له ولا مال ﴿وَأَسِيرًا﴾ مسلما أو كافرا ويدخل فيه المحبوس بحق وهو الغريم والمملوك وفى الحديث «غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك» وكان يؤتى بالأسير إلى الرسول الله صلى الله عليه وسلم فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول «أحسن إليه» مدح لهم على اختيار مواضع الصدقة فإنها كالبذر لا ينبت إلا فى أرض طيبة وعنه عليه الصلاة والسلام «لكل شىء مفتاح ومفتاح الجنة حب المساكين» وقال لعائشة «لاتردى المسكين ولو بشق تمرة أحبى المساكين وقربيهم فإن الله يقربك يوم القيامة» أخرجه الترمذى ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ شكرا فيه دفع للمن وتوقع المكافأة المنقصة للأجر، وهل تكلموا بذلك أو علمه الله منهم فأثنى عليهم به؟ قولان والأشبه الثانى والجملة الثانية تأكيد للأولى وكانت عائشة رضى الله تعالى عنها تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل من بعثته ما قالوا فإن ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند الله وقال عليه السلام «طعامكم فى بطون الرجال خير من عبادتكم فى قرون الجبال» ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾ فلذلك نحسن إليكم ولا نطلب المكافأة منكم ﴿يَوْمًا﴾ أى عذابه ﴿عَبُوسًا﴾ تعبس فيه الوجوه أو كريه المنظر لشدته ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ شديد العبوس كالذى يجمع ما بين عينيه من القطر والميم مزيدة يقال جمع فلان قطرته إذا اشتد تغيظه مغضبا ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ بسبب خوفهم وتحفظهم عنه ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ أعطاهم بدل عبوسة الكفار ﴿نَضْرَةً﴾ بهجة فى وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾ فى قلوبهم بدل حزن الكفار ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على أداء الواجبات وترك المحرمات والإيثار بالأموال ﴿جَنَّةً﴾ أدخلوها ﴿وَحَرِيرًا﴾ ألبسوه ليأكلوا المنى ويلبسوا البهى ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من «هم» فى وجزاهم ﴿فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ السرر فى الحجال ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ لا يجدون حال ثانية ﴿فِيهَا شَمْسًا﴾ حرا ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ بردا لاعتدال الهواء أو الزمهرير القمر والمعنى لا احتياج إلى الشمس والقمر لضياء الأضواء وفى الحديث: «هواء الجنة سجسج لا حر ولا برد» ﴿وَدَانِيَةً﴾ قريبة عطف على محل «لا يرون» أى غير رائين لأن الجملة الحالية فى تأويل المفرد والواو للدلالة على اجتماع الأمرين لهم كأنه قيل جامعين فى الجنة بين

البعد عن الحر والقر ودنوّ الظلال أو عطف على جنة على أنهم وعدوا جنتين كقوله «ولمن خاف مقام ربه جنتان» أى وجزاهم جنة أخرى دانية (عَلَيْهِمْ) منها (ظِلَالُهَا) ظلال أشجارها (وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا) أدنيت ثمارها (تَذْلِيلًا) ينالها القائم والقاعد والمضطجع والجملة عطف على ماقبلها أو حال من ضميره وإيثار الفعلية لقصد التجدد لأن الانعطاف بحسب الحاجة (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ) فيها (بِآنِيَةٍ) كؤوس الشراب (مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ) أقداح بلا عرى (كَانَتْ قَوَارِيرًا) فى الصفاء والشفيف (قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ) والمعنى أنها من فضة صافية شفافة يرى باطنها من ظاهرها كالزجاج قال ابن عباس قوارير كل أرض من تربتها وأرض الجنة فضة وقواريرًا وقواريرا بتنوينهما والوقف عليهما بألف بعد الراء لنافع والكسائى وشعبة وبتنوين الأول والوقف عليه بألف بعد الراء وترك تنوين الثانى والوقف عليه بإسكان الراء من غير ألف لابن كثير وبترك تنوينهما والوقف على الأول بألف بعد الراء وعلى الثانى بإسكان الراء من غير ألف لأبى عمرو وابن ذكوان وحفص وبترك تنوينهما والوقف عليهما بألف بعد الراء لهشام وبترك تنوينهما والوقف عليهما بسكون الراء من غير ألف لحمزة فهى خمسة أوجه (قَدَّرُوهَا) الطائفون (تَقْدِيرًا) على قدر ريّ الشاربين من غير زيادة ولا نقص وذلك ألذ الشراب أو قدرها الشاربون فجاءت على ما تمنوه أو قدروها بأعمالهم الصالحة فجاءت على حسبها (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا) خمراً (كَانَ مِزَاجُهَا) ما تمزج به (زَنْجَبِيلًا) والعرب يحبون الشراب الممزوج به وهو عروق تسرى فى الأرض ونباته كالقصب له قوة مسخنة يسيراً وإن خلط برطوبة كبد المعز وجفف وسحق واكتحل به أزال الغشاوة وظلمة البصر قاله فى القاموس (عَيْنًا) بدل من زنجبيلا (فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا) يعنى أن ماءها كالزنجبيل الذى تستلذ به العرب لكنه سهل المساغ فى الحلق يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل سهل الانحدار ولذا حكم بزيادة الباء والمراد به أن ينفى عنها لذع الزنجبيل وعن قتادة تمزج لهم تارة بالكافور البارد وأخرى بالزنجبيل الحار ليعتدل الأمر (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ) بصفة الولدان لا يشيبون ينشئهم الله تعالى لخدمة المؤمنين أو ولدان الكفرة يجعلهم الله خدماً لأهل الجنة (إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ) لحسنهم وانتشارهم فى الخدمة (لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا) من سلكه أو صدفه وهو أحسن منه فى غيره (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ) أى وجدت الرؤية منك فى الجنة لا يقدر له مفعول لعمومه أى أينما وقع بصرك منها (رَأَيْتَ) جواب إذا (نَعِيمًا) لا يوصف (وَمُلْكًا كَبِيرًا) واسعاً لا غاية له وفى الحديث إن أدنى أهل الجنة لمن ينظر فى ملكه ألفى سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه. وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن آخر أهل الجنة دخولا له مثل الدنيا عشر مرات (عَالِيَهُمْ) بسكون الياء لنافع وحمزة مبتدأ خبره ما بعده وبالنصب للباقين على الحال من الضمير فى عاليهم أو حسبتهم أو جزاهم أو على الظرف أى عاليا عليهم أو فوقهم (ثِيَابُ سُنْدُسٍ) رقيق الحرير (خُضْرٌ) بالرفع لنافع وأبى عمرو وابن عامر وحفص صفة ثياب وبالجر للباقين صفة سندس (وَإِسْتَبْرَقٌ) غليظ الحرير بالرفع

لنافع وابن كثير وعاصم عطفا على ثياب وبالجر للباقين عطفا على سندس ﴿وَحُلُّوا﴾ عطف على ويطوف ﴿أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ وفى موضع آخر من ذهب ولؤلؤ للإيذان أنهم يحلون بالجميع معا ومفرقا وعن ابن المسيب لا أحد من أهل الجنة إلا وفى يديه ثلاثة أسورة واحد من فضة وآخر من ذهب وآخر من لؤلؤ ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ مبالغة فى طهارته ونظافته طهر به باطنهم عن الغل والحسد كما زين ظاهرهم بالثياب والحلى وقيل هذا الشراب نوع آخر يفوق على النوعين المتقدمين ولذلك أسند سقيه إلى الله تعالى ووصفه بالطهورية فإنه يطهر شاربه عن الميل إلى اللذات الحسية والركون إلى ماسوى الحق فيتجرد لمطالعة جماله متلذذا بلقائه باقيا ببقائه وهى منتهى درجات الصديقين ولذلك ختم به ثواب الأبرار ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ النعيم ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ لأعمالكم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ محمودا مرضيا عندنا حيث قلتم للمسكين واليتيم والأسير لانريد منكم جزاء ولاشكورا ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ تأكيد اسم إنّ أو فصل ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ خبر إنّ أى فصلناه منجما لحكمة وتكرير الضمير وتأكيده بإنّ وإيثار التنزيل الدال على التفريق الذى هو مقتضى الحكمة ليدل على أن تأخير نصره لحكمة بالغة ولذا قال له ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير النصر أو بتبليغ الرسالة و حمل الأذى ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ أى الكفار ﴿آثِمًا﴾ مرتكب الإثم يدعوك إليه ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ متوغلا فى الكفر يدعوك إليه أى لاتطع كل واحد منهما ولذلك آثر «أو» لئلا يتوهم وإن كانوا كلهم أئمة كفرة إلا أن منهم من يدعوه إلى الإثم ومنهم من يدعوه إلى الكفر قيل الآثم عتبة ابن ربيعة والكفور الوليد بن المغيرة والظاهر أن المراد كل آثم وكافر قال فى الجواهر واللفظ أيضاً يقتضى نهى الإمام عن طاعة كل آثم من العصاة أو كفور بالله ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ فى الصلاة أوصل له ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ طرفى النهار لتنال به حلاوة تذهب عنك مرارة الصبر وخصهما لشرفهما وقيل دم على صلاة الفجر والظهر والعصر فإن الأصيل يتناولهما ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ أى بعضه ﴿فَاسْجُدْ لَهُ﴾ للاقتراب إليه أوصل المغرب والعشاء وتقديم الظرف لما فى صلاة الليل من مزيد الكلفة والخلوص اهتماما به ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ صل التطوع ﴿لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أو نزهه فيه ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ الذين يدعونك إلى الكفر والإثم ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ الدنيا وهو رأس كل خطيئة وفى الحديث «ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾ قدام ظهورهم أو أمامهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ شديداً لايعملون له هو يوم القيامة والآية كالتعليل لما أمر به ونهى عنه ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا﴾ قوينا ﴿أَسْرَهُمْ﴾ ربط مفاصلهم بالأعصاب والأسر الربط الوثيق بالإسار ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ بأن نهلكهم ونجعل بدلهم فى الخلقة مكانهم أو أهلكناهم وأنشأناهم نشأة أخرى فالتبديل فى الصفات ويدل عليه التعبير بإذا التى لما يقع أوجعلت موضع إن على الأول كقوله إن يشأ يذهبكم ﴿إِنَّ هَٰذِهِ﴾ السورة أو الآيات القريبة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظة للخلق ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ بالطاعة موصلا إليه ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ بالخطاب لنافع والكوفيين

والغيبة لغيرهم أى اتخاذ السبيل إلى الله ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ مشيئتكم وفى إثبات المشيئتين بطلان الجبر والقدر ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بكنه الأشياء يعلم مايستأهل كل أحد ﴿ حَكِيمًا ﴾ فى فعله لايشاء إلا مااقتضته الحكمة ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ وهم المؤمنون ﴿ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ جنته بالهداية والتوفيق ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ ناصبه فعل مقدرأى أعد يفسره ﴿أَعَدَّلَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لأنهم وضعوا العبادة فى غير موضعها.

[تم تفسير سورة الانسان]

سورة المرسلات

مكية ـ خمسون آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ الملائكة المرسلة بأوامر الله أو الآيات المرسلة أو الرياح ﴿عُرْفًا﴾ متتابعة كعرف الفرس يتلو بعضه بعضا ونصبه على الحال أو عرفا ضد النكر فى الآيات أى المرسلة بكل عرف شرعا مفعول له ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ شديدات الهبوب فى المبادرة إلى امتثال أمر الله فى الملائكة أو العاصفات لباقى الشرائع بالنسخ فى الآيات أو فى إهلاك الكفار فى رياح العذاب ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ الملائكة تنشر الشرائع فى الأرض أو الآيات تنشر الهدى والحكم شرقا وغربا أورياح الرحمة تنشر المطر ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ الملائكة أوالآيات تفرق بين الحق والباطل أوالرياح المفرقة للسحاب ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ الملائكة تنزل بالوحى إلى الأنبياء وهم إلى الأمم أو الآيات تلقى الحق بين الحاكين أو الرياح تسبين للعاقل ذكر الله تعالى إذا هبت ﴿عُذْرًا﴾ إعذاراً للمحقين وهو مصدر عذره ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ بضم الذال لنافع وابن كثير وابن عامر وشعبة وبسكونه للباقين وهو اسم مصدر وهو الإنذار أو مصدر نذر بمعنى أنذر أو جمع نذير بمعنى الإنذار أو المنذر وانتصابهما على العلية وأو للتنويع لا للترديد ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ لامحالة وهو قيام الساعة وهو جواب القسم ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ محيت وأعدمت أو أذهب نورها ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ فتحت فكانت أبوابا ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ نسف الحب والرمل فكانت

كثيبا مهيلا وأصل النسف القلع بسرعة ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ بالهمز للجمهور والواو لأبى عمرو والواو الأصل والهمز بدل منه أى عين لها وقتها الذى تحضر فيه للشهادة على الأمم ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ ﴾ أى ليوم عظيم ﴿ أُجِّلَتْ ﴾ الرسل أى أمهلت للشهادة على أممهم بالتبليغ والتأجيل من الأجل كالتوقيت من الوقت ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ بين الخلائق بيان ليوم التأجيل ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ من أين تعلم كنهه ولم تر مثله بالغ فى تهويله بإبهامه أولا ثم بيانه بأنه يوم الحكم والقضاء ثم هول شأنه بأنك لم تحط بكنه ذلك ويؤخذ من قوله « ليوم الفصل » جواب إذا أى وقع الفصل بين الخلائق ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بذلك والويل الهلاك وأصله النصب على المصدر لغير فعله لعدم استعماله والعدول إلى الرفع لكونه أبلغ فى الدعاء لدلالته على الدوام ويومئذ ظرفه أو صفته ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ بتكذيبهم أى أهلكناهم ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ ممن كذبوا ككفار مكة فنهلكهم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل فعلنا بهم ﴿ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ بكل من أجرم فيما يستقبل فى كل عصر فنهلكهم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم إهلاكهم ﴿ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بذلك فليس فيه تكرار لأن الأول لعذاب الآخرة وهذا لعذاب الدنيا مع أن التكرير للتهويل له موقع حسن فى التأكيد ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ نطفة مذرة ذليلة ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ حريز هو الرحم تفصيل لكيفية الخلق ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ له تعالى وهو وقت الولادة ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ شقياً أو سعيداً بالتشديد لنافع والكسائى والتخفيف للباقين أى على ذلك ﴿ فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ نحن ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ اسم لما يكفت أى يجمع كالضمام اسم لما يضم أو مصدر نعت به لا جمع كافتة لإسناده إلى ضمير الأرض أى ضامة ﴿ أَحْيَاءً ﴾ على ظهرها ﴿ وَأَمْوَاتًا ﴾ فى بطنها فتنصبان على المفعولية وتنكيرهما للتفخيم الدال على كثرة لا تحصى أو على الحالية من مفعوله المحذوف للعلم به وهو الإنسان ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثوابت ﴿ شَامِخَاتٍ ﴾ طوالا مرتفعات والتنكير للتعظيم أو للتبعيض لكون بعض الجبال فى السماء لقوله من جبال فيها من برد ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ عذباً وأى عذب صافياً أى صفاء بخلق الأنهار والمنابع فيها ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بأمثال هذه النعم ويقال للمكذبين يوم القيامة ﴿ انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ من العذاب ﴿ انْطَلِقُوا ﴾ تكرير للتوكيد ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ لدخان جهنم ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ فرق إذا ارتفع لعظمته محيط بهم من فوقهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم كما ترى الدخان العظيم يتفرق ذوائب وقيل هى اللهب والشرر والدخان وخصوصية الثلاث لأن المؤدى إلى العذاب إما الوهم الذى فى الدماغ أو الغضب الذى فى يمين القلب أو الشهوة التى فى يساره ولذا قيل شعبة تقف فوق الكافر وشعبة عن يمينه وشعبة عن يساره ﴿ لَا ظَلِيلٍ ﴾ نعت ظل تهكما بهم ورداً لما أوهم لفظ الظل لا يكنّ من حر ذلك اليوم ﴿ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ النار ﴿ إِنَّهَا ﴾ أى النار ﴿ تَرْمِي بِشَرَرٍ ﴾ وهو ما تطاير منها كل شرارة ﴿ كَالْقَصْرِ ﴾ من البناء فى العظم أو الشجر الغليظ واحدها

قصرة ﴿ كَأَنَّهُ ﴾ أى الشرر حين الانتشار ﴿ جِمَالَاتٌ ﴾ جمع جمالة جمع جمل ولحمزة والكسائى وحفص جمالة ﴿ صُفْرٌ ﴾ فى هيئتها ولونها فالتشبيه الأول فى العظم والارتفاع والثانى فى اللون والكثرة والتتابع والاختلاط وسرعة الحركات فى الجهات وقيل صفر سود لحديث شرر النار أسود كالقير ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بذلك اليوم ﴿ هَٰذَا ﴾ أى يوم القيامة ﴿ يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ فيه بشىء لفرط الحيرة فى بعض مواقفه أو بما ينفع لأن غيره كلا نطق ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ ﴾ فى العذر ﴿ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ عطف على يؤذن من غير تسبب عنه فهو داخل فى حيز النفى أى لا إذن فلا اعتذار ولو جعل جواباً لدل على أن عدم الاعتذار لعدم الإذن فيوهم أن لهم عذراً لو يؤذن لهم وليس كذلك ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بهذا ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ ﴾ أيها المكذبون من هذه الأمة ﴿ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ من المكذبين قبلكم للحكم بين المحق والمبطل بيان للفصل ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ ﴾ حيلة فى دفع العذاب عنكم ﴿ فَكِيدُونِ ﴾ فاحتالوا علىّ بتخليص أنفسكم من العذاب توبيخ لهم على ما كانوا يكيدون به المؤمنين وإظهار لعجزهم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بهذا ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ من الشرك لأنه فى مقابلة المكذبين ﴿ فِي ظِلَالٍ ﴾ أى تكاثف أشجار ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ جارية ﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ كثيرة الأنواع والمعنى أنهم مستغرقون فى أنواع الترفه مقولا لهم ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فى الدنيا ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ ﴾ كما جزينا المتقين ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ المخلصين فأحسنوا تجزوا بهذا ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ به ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا ﴾ حال من المكذبين أى الويل ثابت لهم فى حال ما يقال لهم ذلك فى الدنيا تحسيراً لهم بإيثار الحقير على الخطير أو كلام مستأنف على وجه التهديد ﴿ إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ وعاقبة المجرم الهلاك الدائم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالمنعم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا ﴾ تواضعوا لله بقبول وحيه واتباع دينه أو صلوا ﴿ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ لا يتواضعون بذلك أو لا يصلون متصل بقوله «المكذبين» كأنه قيل ويل يومئذ للذين كذبوا والذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون أو بالمجرمين كأنه قيل هم أحقاء بأن يقال لهم كلوا وتمتعوا قليلا لكونهم مجرمين ولكونهم إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالأمر والنهى ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ ﴾ بعد القرآن ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذا لم يؤمنوا به وهو معجز فى ذاته مشتمل على الحجج الواضحة والمعانى الشريفة فلا حديث يدانيه فضلا عن أن يساويه وفى الحديث «من قرأ : فبأى حديث بعده يؤمنون ، فليقل آمنت بالله وبما أنزل» .

[تم تفسير سورة المرسلات]

سورة النبأ

مكية - أربعون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ عَمَّ ﴾ عن أى شىء أصله « عن ما » فاتصلت فى الخط وحذف الألف فرقا بينه وبين الخبرية وقرأ ابن كثير عمه بهاء السكت فى الوقف ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ يسأل بعض قريش بعضاً أو رسول الله والمؤمنين استهزاء استفهام تفخيم لشأن المسؤول عنه ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ بيان للشأن المفخم أو صلة يتساءلون وعم متعلق بمضمر مفسر به والنبأ العظيم هو القرآن المشتمل على البعث وجميع الشرع ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ فالمؤمنون يثبتونه والكافرون ينكرونه أو الاختلاف بين الكفار فنهم من يشك فى البعث ومنهم من يقطع بإنكاره وعلى الأول فضمير يتساءلون شامل للمسلمين والكافرين فالمسلمون للاستعداد والكافرون للعناد ﴿ كَلَّا ﴾ ردع للمتسائلين هزؤا وعناداً ﴿ سَيَعْلَمُونَ ﴾ ما يحل بهم على إنكارهم له أو سيعلمون أن ما يتساءلون عنه حق ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ تكرير للمبالغة و « ثم » للإشعار بأن الوعيد الثانى أشد وقيل الأول عند النزع والثانى فى القيامة أو الأول للبعث والثانى للجزاء ثم أومأ تعالى إلى القدرة على البعث فقال ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ فراشاً فرشناها لكم حتى سكنتموها ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ تثبت بها الأرض كما يثبت الخباء بالأوتاد والاستفهام للتقرير أى أنتم لا تنكرون شيئاً من ذلك فإنكار البعث لماذا ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ ذكوراً وإناثاً ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ قطعاً عن الإحساس راحة لأبدانكم ، والسبت القطع ومنه المسبوت للميت ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ غطاء ساتراً بظلامه من أراد الاختفاء من طالب أو مطلوب ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ وقت معاشكم استدل بخلقهم ذكراً وأنثى واستوفى أحوالهم مفترقين ومقترنين ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا ﴾ سبع سموات ﴿ شِدَادًا ﴾ جمع شديدة أى قوية محكمة لا يؤثر فيها مرور الزمان ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا ﴾ منيرا وهو الشمس ﴿ وَهَّاجًا ﴾ وقاداً متلألئاً من وهجت النار أضاءت أو بالغاً فى الحرارة من الوهج وهو الحر ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ السحابات التى شارفت أن تعصرها الرياح للمطر كالمعصر الجارية التى دنت من الحيض ﴿ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ صباباً بكثرة يقال ثجه وثج بنفسه ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا ﴾ يقتات به الإنس كالحنطة ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ للدواب كالتبن والحشيش ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ بساتين ﴿ أَلْفَافًا ﴾ ملتفة جمع لفيف كشريف وأشراف أو جمع لف كخف وأخفاف ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ بين الخلائق ﴿ كَانَ ﴾ فى علم الله أو فى حكمه ﴿ مِيقَاتًا ﴾ وقتاً للثواب والعقاب ﴿ يَوْمَ

﴿يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ القرن بدل أو بيان من يوم الفصل والنافخ إسرافيل ﴿فَتَأْتُونَ﴾ من قبوركم إلى الموقف ﴿أَفْوَاجًا﴾ جماعات مختلفة والحديث المروى أن أمته عليه السلام تحشر عشرة أصناف موضوع قاله فى غاية الأمانى ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف للكوفيين شققت لنزول الملائكة عطف على «فتأتون» وإيثار الماضى لتحقق الوقوع أو حال أى فتأتون والحال أنها قد فتحت والتشديد لكثرة الطرق والشقوق ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ ذات أبواب وفيه مبالغة فى كثرة الشقوق حتى كأن الكل أبواب ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ ذُهب بها عن أماكنها فى الهواء ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ هباء أى مثله فى خفة السير، قيل تصير أولا كثيباً مهيلا ثم كالعهن المنفوش ثم تمر مر السحاب ثم تصير هباء منثوراً ثم كالسراب لا حقيقة لها لتفتت أجزائها ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ مكان رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار كالمضمار المكان الذى تضمر فيه الخيل أو مجدة فى ترصد الكفار لئلا يشذ منهم واحد كالمطعان أى مرصدة أو راصدة ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ الكافرين فلا يتجاوزونها ﴿مَآبًا﴾ مرجعاً لهم فيدخلونها ﴿لَابِثِينَ﴾ حال مقدرة أى مقدراً لبثهم ﴿فِيهَا أَحْقَابًا﴾ دهوراً لا نهاية لها جمع حقب بضم أوله وقرأ حمزة لبثين مقصوراً وهو أبلغ والحقب المدة الطويلة غير محدودة وقد أكثر الناس فى معناها قيل ثلاثون ألف سنة وقيل ثمانون ألف سنة. قال الحسن: ليس للأحقاب حد إلا الخلود فى النار ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ الهواء يروحهم وينفس حر النار أو نوماً لأنه يبرد ثورة العطش ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ يلتذ به ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ ماء حاراً غاية الحرارة ﴿وَغَسَّاقًا﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لحمزة والكسائى وحفص ما يسيل من صديد أهل النار ويحتمل أن يكون قوله «لا يذوقون» حالا من المستكن فى «لابثين» و«أحقابا» منصوب بـ «لا يذوقون» أى يلبثون فيها غير ذائقين إلا حميما وغساقا أحقاباً يبدلون جنساً آخر من العذاب وعلى كون الأحقاب لا نهاية لها فلا يذوقون استئناف ﴿جَزَاءً﴾ أى جوزوا جزاء ﴿وِفَاقًا﴾ موافقاً لأعمالهم فلا ذنب أعظم من الكفر ولا عذاب أشد من النار ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ لإنكارهم البعث بيان لموافقة الجزاء ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ القرآن ﴿كِذَّابًا﴾ تكذيباً أى مبالغين فيه أى تكذيبا مفرطا ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأعمال ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ ضبطناه ﴿كِتَابًا﴾ كتباً مصدر أحصيناه معنوى أى كتبناه فى اللوح أو صحف الحفظة لنجازى عليه ومن ذلك تكذيبهم للقرآن أو منصوب بفعله المقدر أو حال بمعنى مكتوباً والجملة اعتراض ﴿فَذُوقُوا﴾ أى فيقال لهم فى الآخرة عند وقوع العذاب عليهم ذوقوا جزاءكم والتفت إليهم فى مقام السخط زيادة فى العذاب ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ فوق عذابكم استثناء من الأعم أى شيئاً من الأشياء وفى الحديث «هذه أشد ما فى القرآن على أهل النار» ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ فوزاً أو موضع فوز ﴿حَدَائِقَ﴾ بساتين بدل من مفازاً بدل اشتمال أو بعض أو بيان جمع حديقة روضة محوطة ذات أشجار مثمرة ﴿وَأَعْنَابًا﴾ أفردها لقلة وجودها فى أرض العرب أو عطف على مفازا ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع كاعب جوارى تكعبت

ثديهن ﴿ أَتْرَابًا ﴾ لدات ﴿ وَكَأْسًا ﴾ خمرا ﴿ دِهَاقًا ﴾ مالئة محالها ، دهق الحوض وأدهقه : ملأه أو أفرغه ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ فى الجنة عند شرب الخمر وغيره من الأحوال ﴿ لَغْوًا ﴾ باطلا من القول يتأذى به ﴿ وَلَا كِذَّابًا ﴾ بالتشديد للجمهور أى تكذيباً وبالتخفيف للكسائى مصدر كذب ككتب كتابا أو مكاذبة لا يكذب بعضهم بعضاً ﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى جازاهم الله ذلك جزاء ﴿ عَطَاءً ﴾ بدل من جزاء أو مفعول به له أو لناصبه المحذوف ﴿ حِسَابًا ﴾ كافياً من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال حسبي أو كثيراً ، من قولهم أعطانى فأحسبنى أى أكثر علىّ حتى قلت حسبى ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بالرفع لنافع وابن كثير وأبى عمرو مبتدأ خبره ﴿ الرَّحْمَٰنِ ﴾ وبالجر للباقين بدل من ربك وجر ابن عامر وعاصم الرحمن على أنه بدل من «رب» ورفعه حمزة والكسائى على أنه خبر محذوف أو مبتدأ خبره ﴿ لَا يَمْلِكُونَ ﴾ أى الخلق ﴿ مِنْهُ ﴾ تعالى ﴿ خِطَابًا ﴾ أى لا يملكون من عنده شيئاً من الخطاب لأن المملوك لا يملك شيئاً على مالكه وهذا لا ينافى الشفاعة بعد الإذن ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف للايملكون أو لما بعده ﴿ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ جبريل أفرده لشرفه أو نوع آخر من المخلوقات أعظم من الملائكة أو ملك لم يخلق الله بعد العرش أعظم منه موكل على الأرواح ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ﴾ حال أى مصطفين ﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ أى الخلق ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ ﴾ بالكلام من الأنبياء والملائكة والأولياء والصالحين بشرط الإذن تقرير وتوكيد لقوله « لا يملكون منه خطابا » ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ حقاً فى الدنيا وعمل به كما فى البخارى ﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ الكائن لا محالة ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ ﴾ إلى ثوابه ﴿ مَآبًا ﴾ مرجعاً ومنزلا بالإيمان والعمل الصالح ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ عذاب الآخرة فكل آت قريب ولأن مبدأه الموت ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف لعذاباً بصفته ﴿ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ﴾ كل امرئ ﴿ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ من خير أو شر ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا ﴾ حرف تنبيه ﴿ لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ فى الدنيا أى لم أخلق أو فى هذا اليوم لما يرى سائر الحيوانات تصير تراباً بعد الاقتصاص من بعضها لبعض كما جاء فى حديث . لكن قال فى الجواهر : لم أقف على حديث صحيح فى عودها تراباً . وقد نقل الشيخ أبو العباس القسطلانى عن الشيخ أبى الحكم بن أبى الرجال : إنكار هذا القول ؛ وقال : ما نفخ روح الحياة فى شيء فنفى بعد وجوده ونقل الفخر هنا عن قوم بقاءها والمعولُ عليه فى هذا النقلُ ، فإن صح فيه شيء عن النبى صلى الله عليه وسلم وجب اعتقاده وصير إليه وإلا فلا مدخل للعقل هنا . والله اعلم . اه .

[تم تفسير سورة النبأ]

سورة والنازعات
مكية : ست وأربعون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • وَٱلنَّازِعَاتِ ﴾ ملائكة الموت ينزعون أرواح الكفار من أبدانهم أو النجوم تنزع من الشرق إلى الغرب أو خيول الغزاة تنزع فى أعنتها أو نفوس السالكين تنزع عن الشهوات رأساً ﴿ غَرْقًا ﴾ نزعاً بشدة للنفوس أو الفلك أو الأعنة أو الشهوات ﴿ وَٱلنَّاشِطَاتِ ﴾ المخرجات لأرواح المؤمنين برفق أو الخارجات من برج إلى آخر أو من بلاد الإسلام إلى دار الكفر أو من عالم الملك إلى عالم الملكوت ﴿ نَشْطًا ﴾ من نشط الدلو أخرجها من البئر أو نشط الحبل حلها ﴿ وَٱلسَّابِحَاتِ ﴾ المسرعات فيما أمروا به فى السموات أو فى الفلك أو فى الميادين أو فى بحار المعارف ﴿ سَبْحًا ﴾ كسبح الغواص الذى يخرج الشىء من أعماق البحر ﴿ فَٱلسَّابِقَاتِ ﴾ بالأرواح إلى الجنة أو النار أو بقطع الفلك أو بالمسابقة إلى الغايات الحسية أو المعنوية ﴿سَبْقًا • فَٱلْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ بأمر ثواب الأرواح وعقابها أو بما نيط بها من المصالح فى العالم السفلى مجازاً أو بأمر الظفر مجازاً أو بأمر الرشد والتكميل وجواب هذه الأقسام محذوف أى لتبعثن يا كفار مكة دل عليه معموله وهو ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾ وهى النفخة الأولى وصفت بما يحدث بحدوثها من رجف الأرض والجبال مبالغة ﴿ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ النفخة الثانية وبينهما أربعون سنة والجملة حال من الراجفة فاليوم واسع للنفختين وغيرهما فصح ظرفيته للبعث الواقع عقب الثانية وقيل الراجفة الأرض والجبال والرادفة السماء والكواكب وصف لأجرام رجفانها أمر عظيم ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ شديدة الاضطراب والقلق لشدة الخوف والوجيف والوجيب بمعنى ﴿ أَبْصَارُهَا ﴾ أبصار أصحابها ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ ذليلة لهول ما ترى والجملة خبر « قلوب » لأنها نكرة موصوفة بما بعده أو خبر بعد خبر لأن تنكير التنويع قائم مقام الوصف ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أرباب القلوب والأبصار استهزاء وإنكاراً للبعث ﴿أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ فى الحالة الأولى يعنون الحياة بعد الموت من قولهم رجع فلان فى حافرته إذا رجع من حيث جاء أى طريقته التى حفرها أى أثر فيها بالمشى والأصل فى المحفورة فأسند الحفر إليها مجازاً كعيشة راضية وقيل الحافرة بمعنى المحفورة أى القبور أى لمردودون فى قبورنا أحياء ﴿ إِذَا كُنَّا ﴾ بالخبر لنافع وابن عامر والكسائى وبالاستفهام للباقين ﴿ عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ بالقصر للجمهور والمد لحمزة والكسائى وشعبة بالية تنخر فيها الريح أى تصوت ؟ نحيا ﴿ قَالُوا تِلْكَ ﴾ أى رجعتنا إلى الحياة

﴿ إِذَنْ ﴾ إن صحت ﴿ كَرَّةٌ ﴾ رجعة ﴿ خَاسِرَةٌ ﴾ ذات خسران أو خاسر أصحابها قالوه استهزاء . قال تعالى ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ ﴾ أى الرادفة التى يعقبها البعث ﴿ زَجْرَةٌ ﴾ صيحة ﴿ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ ﴾ أحياء ﴿ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ بوجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً يبطنها والساهرة الأرض الخالية لأن الخائف لاينام فيها فأسند السهر إليها مجازاً ﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ أى أليس قد أتاك يا محمد ﴿ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ المشتمل على نصره وقهر عدوه ففيه ما يسليك ثم فصله بقوله ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ ظرف لحديث ﴿ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ بالوحى وقد مرّ بيانه فى سورة طه ﴿ طُوًى ﴾ عطف بيان أو بدل نونه الكوفيون وابن عامر بتأويل المكان فقال ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ تجاوز الحد فى الكفر ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ ﴾ ميل ورغبة ﴿ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ﴾ بالتشديد لنافع وابن كثير والتخفيف للباقين تتطهر من الكفر والطغيان بأن تشهد أن لا إله إلا الله ﴿ وَأَهْدِيَكَ ﴾ أدلك ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ إلى معرفته بالبرهان ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴾ بأداء الواجبات وترك المحرمات إذ الخشية إنما تكون بعد المعرفة وهذا كالتفصيل لقوله «فقولا له قولا ليناً» ﴿ فَأَرَاهُ ﴾ أى فذهب وبلغ فأراه ﴿ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ من آياته التسع وهى العصا واليد ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ فرعون موسى ﴿ وَعَصَىٰ ﴾ الله تعالى ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ عن الطاعة أو هارباً من العصا لما انقلبت أو أقبل ﴿ يَسْعَىٰ ﴾ فى الأرض بالفساد فى دفع أمر موسى بالمكايد عبر عنه بالإدبار إشارة إلى أن ذلك الإقبال كان إدباراً وعليه دماراً ﴿ فَحَشَرَ ﴾ جمع السحرة أو جنوده ﴿ فَنَادَىٰ ﴾ فى المجمع بنفسه أو بمن أمره به على أنه إسناد إلى السبب ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ لا رب فوق يلى أمركم ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ ﴾ أهلكه بالغرق ﴿ نَكَالَ ﴾ عقوبة ﴿ الْآخِرَةِ ﴾ بالإحراق ﴿ وَ ﴾ نكال ﴿ الْأُولَىٰ ﴾ أى الدنيا بالإغراق أو نكال كلمته الآخرة أنا ربكم الأعلى والأولى ماعلمت لكم من إله غيرى وكان بينهما أربعون سنة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الذى حكى عنه وعن مآله ﴿ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ ﴾ لمن كان شأنه الخشية ﴿ أَأَنْتُمْ ﴾ الخطاب لمنكرى البعث ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ أصعب خلقا ﴿ أَمِ السَّمَاءُ ﴾ ولا شك أن الثانى أصعب ثم شرع يبين كيفية إيجادها من غير آلة ومعين ليدل به على أن إنكار البعث إما عناد أو تعامٍ أو تصامٌ فقال ﴿ بَنَاهَا ﴾ خلقها على صورة القبة المبنية ثم بيّن البناء فقال ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ جعل سمتها فى جهة العلوّ رفيعاً وقيل سمكها سقفها ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ جعلها مستوية بلا عيب ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أظلمه أضافه إليها لأنه يحدث بحركتها ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أبرز ضوء شمسها والإضافة لما مرّ لأن الليل ظلها فى المرأى وإن كان ظل الأرض حقيقة والشمس سراجها ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾ بسطها وقد مرّ الكلام فى سبق خلقها بما لا مزيد عليه ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا ﴾ بتفجير عيونها ﴿ وَمَرْعَاهَا ﴾ ما يرعاه من عليها من الأقوات والثمار والشجر والعشب ، وإطلاق المرعى على بعضه استعارة وهو تفسير للدحو بما لابد لتأتى السكنى منه من المأكل والمشرب ودل بالماء والمرعى على كل ما يرتفق به من أمر المعاش وهى من الآيات البالغات فى الإعجاز ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ أثبتها على وجه الأرض كالأوتاد لتستقر الأرض ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ ﴾

مفعول له لمقدر أى فعل ذلك منفعة أو تمتيعاً لكم ﴿ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ مواشيكم ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ ﴾ الداهية التى تطم أى تعلو على سائر الدواهى ﴿ الْكُبْرَىٰ ﴾ التى هى أكبر الطامات وهى النفخة الثانية أو الساعة التى يساق فيها الفريقان إلى دار الخلود ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ ﴾ بدل من إذا أى يتذكر إذا رأى الكتاب منشوراً ﴿ مَا سَعَىٰ ﴾ فى الدنيا من خير وشر وكان قد نسيه من فرط غفلته وطول المدة و « ما » موصولة أو مصدرية ﴿ وَبُرِّزَتِ ﴾ أظهرت ﴿ الْجَحِيمُ ﴾ النار المحرقة ﴿ لِمَن يَرَىٰ ﴾ لكل راء لا تخفى على أحد وجواب فإذا جاءت دل عليه يوم يتذكر أو ما بعده من التفصيل فى قوله ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ حتى كفر ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ فانهمك فى الشهوات ولم يستعد للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ مأواه و « هى » فصل أو مبتدأ وتقدير الجواب فالطاغى مأواه الجحيم ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ قيامه بين يديه للحساب لعلمه بالمبدإ والمعاد ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ ﴾ الأمارة ﴿ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ اتباع الشهوات لعلمه بأنه مُرْدٍ ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ مأواه لا غير ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ متى إرساؤها أى إقامتها ووقوعها من أرسيت الشىء أثبته أو منتهاها ومستقرها من مرسى السفينة ﴿ فِيمَ ﴾ فى أى شىء ﴿ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ ذكر وقتها لهم أى ليس عندك علمها حتى تذكرها لأنها من أمهات الغيوب لا ينفذ فيها إلا علمه تعالى وقيل « فيم » إنكار لسؤالهم و « أنت » ابتداء كلام ، المعنى : فى أى شىء هم من سؤال الساعة أنت من علاماتها فإنك بعثت أمارة لها واسمك نبى آخر الزمان فقد دنت وقيل إنه متصل بسؤالهم والجواب ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ منتهى علمها لا يعلمها غيره ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ من يخاف هولها لأنه المنتفع بالإنذار وعن أبى عمرو منذر بالتنوين ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ فى الدنيا والقبور ﴿ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أى عشية يوم أو ضحاه وأضافه إلى ضمير العشية لما بينهما من الملابسة إيذاناً بأنهما من يوم واحد ، وزادها حسناً وقوع الكلمة فاصلة .

[تم تفسير سورة النازعات]

سورة عبس

مكية ـ إحدى، أواثنتان وأربعون آية

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ لما جاء ابن أم مكتوم واسمه عمرو بن قيس أو عبدالله بن عمرو واسم أمه عاتكة بنت عبدالله المخزومية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده من يرجو إسلامه من صناديد قريش يدعوه إلى الله باهتمام وهو عتبة بن ربيعة أو الوليد بن المغيرة أو أمية بن خلف فقطع ابن أم مكتوم على الرسول كلامه وكرر عليه بقوله : علمنى مما علمك الله ، ولم يعلم تشاغله فكره النبي عليه السلام قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه نزل عتابا له فى ذلك ﴿ عَبَسَ ﴾ النبي صلى الله عليه وسلم تغير وجهه لأجل ما كره ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أعرض لأجل ﴿ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ عبد الله أو عمرو وكان النبي عليه السلام بعد ذلك يقول له إذا جاء مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى ويبسط له رداءه تنازع الفعلان فى أن جاءه وفى الوصف بالأعمى دون اسمه أو وصف آخر إشعار لعذره فى الإقدام على قطع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ودلالة على أنه يناسب الرأفة والرفق لا الإعراض وإيماء إلى أن كل ضعيف داخل فى معناه ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ يعلمك ﴿ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴾ بإدغام التاء فى الأصل فى الزاى يتطهر من الذنوب بما يسمع منك لا مَن تطمع فى تزكيه والرجاء إما راجع إلى الأعمى أو إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وفيه إيماء بأن إعراضه عنه كان لطمع فى تزكية غيره ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ بالإدغام يتعظ ﴿ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ العظة المسموعة منك وقرأ عاصم بالنصب جوابا اه لعل ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴾ بالمال وهو الكافر الذى قدمنا قال ابن العربى فى الأحكام قول المفسرين هو أمية أو عتبة أو الوليد باطل من جهل المفسرين لأن هؤلاء كانوا بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة ماحضر معهما ولا حضرا معه انتهى قلت : هذا لا يليق بمنصب ابن العربى كيف ينكر حضور ابن أم مكتوم مكة وهو مكى من مهاجريها والسورة مكية اتفاقا ، وقال فى غاية الأمانى : اتفق العلماء أنها نزلت فى ابن أم مكتوم والصواب مع المفسرين إن شاء الله ، والله أعلم ﴿ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴾ بتشديد الصاد للإدغام لنافع وابن كثير وبتخفيفه للباقين بحذف إحدى التاءين تقبل وتتعرض له ﴿ وَمَا عَلَيْكَ ﴾ عتب ﴿ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ بالإسلام إن عليك إلا البلاغ وهذا وأمثاله وإن كان عتابا فى الظاهر ففيه كمال مدح له باشتغاله بشأن ما أرسل به وبذل جهده فيه ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴾ حال من فاعل جاء أى يسرع إلى تعلم شرائع الإسلام ﴿ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ الله أو إذاية الكفار فى إتيانك أو كبوة الطريق لأنه أعمى لا قائد له ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ بحذف إحدى

التاء في الأصل تتشاغل وقدم الضمير في الموضعين للتقوّى لا لتخصيص إنكار التصدى والتلهى به إذ غيره كذلك ، قال في الجواهر : وهذه الآية السبب فيها هذا ثم هي بعد تتناول كل من اتصف بهذه الأوصاف لحملة الشرع والعلم مخاطبون بتقريب الضعيف من أهل الخير وتقديمه على الشريف العارى من الخير بمثل ما خوطب به النبي عليه السلام في هذه السورة اه قلت قد قلّ من يعمل بهذا والله المستعان . قال عياض وليس في قوله عبس وتولى ما يقتضى إثبات ذنب للنبي عليه السلام وإنما في الآية الإعلام بحال الرجلين وتوهين أمر الكافر والإشارة إلى الإعراض عنه اه قال السهيلي وانظر نزلت الآية بلفظ الإخبار عن الغائب ولم يقابله بالعتاب بقوله عبست وتوليت ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب في «وما يدريك» علما منه أنه لم يقصد بالإعراض عن الأعمى إلا الرغبة في الخير من دخول المشرك في الإسلام تأنيسا له اه ﴿ كَلَّا ﴾ لا تفعل مثل ذلك ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي السورة أو الآيات أو القرآن والتأنيث لتأنيث خبره وهو ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ عظة للخلق ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ حفظه واتعظ به ذكره لاعتبار المعنى وهو القرآن ﴿ فِي صُحُفٍ ﴾ خبر ثان لأنها وماقبله اعتراض أو صفة لتذكرة أو خبر محذوف ﴿ مُكَرَّمَةٍ ﴾ عند الله لأنها أوعية كلامه ﴿ مَرْفُوعَةٍ ﴾ قدراً ﴿ مُطَهَّرَةٍ ﴾ عن مس الشياطين ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ كتبة ينسخونها من اللوح المحفوظ أو يسفرون بالوحي بين الله ورسله أو الأمة أي يكشفونه جمع سافر من السفارة أو السفر بمعنى الكشف ﴿ كِرَامٍ﴾ عند الله ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ أتقياء مطيعين لله وهم الملائكة ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ﴾ الكافر دعاء عليه بأشنع الدعوات وفيه تعجب من إفراطه في الكفر في قوله ﴿ مَا أَكْفَرَهُ﴾ لأن القتل أعظم ما يخافه الإنسان ودعاء الله عليه يدل على سخط عظيم وذم بليغ قال مجاهد معناه لعن وقال ابن عطية هذا تحكم قال في الجواهر ليس بتحكم فقد نقل عن غير واحد ومعنى ما أكفره يحتمل التعجب والاستفهام التوبيخي اه ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ بيان لما أنعم به عليه من مبدإ حدوثه والاستفهام للتحقير ولذا أجاب عنه بقوله ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ ولا أقذر منها ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ هيأه لما يصلح له من الأعضاء والأشكال إلى أن تمّ خلقه ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ﴾ إلى الخروج من بطن أمه ﴿يَسَّرَهُ﴾ بأن فتح له فم الرحم وألهمه بأن يتنكس فإنه في البطن جالس ووجهه إلى ظهر أمه فإذا حان وقت خروجه قدم رأسه وأخر رجليه على صفة الغواص ، أوذلل له سبيل الخير ولم يكلفه ما لا طاقة له به وفي هذا إشارة إلى أن الدنيا طريق الآخرة كسبيل المارة ونصب السبيل بما يفسره الظاهر للمبالغة في التيسير وتعريفه باللام دون الإضافة إشعار بأنه سبيل عام ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ جعله في قبر يستره : عدهما من النعم لأن الموت وسيلة إلى النعيم الأبدي والأمر بالقبر تكرمة ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ أحياه للبعث والجزاء وفيه إشعار بأن وقت النشور موكول إلى مشيئته لم يتعين في نفسه ﴿كَلَّا ﴾ ردع للإنسان عما هو عليه ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ به ربه أي لم يفعله جميعا إذ لم يخل أحد من نوع تفريط والضمير عائد إلى مطلق الإنسان المذكور في ضمن المقيد ولذا أعاد ذكر الإنسان في قوله ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ ﴾ نظر اعتبار ﴿ إِلَى طَعَامِهِ ﴾

كيف قدر ودبر له اتباع للنعم الذاتية بالنعم الخارجية ﴿ إِنَّا ﴾ بالكسر الجمهور استئناف لبيان كيفية إحداث الطعام و بالفتح على البدل منه بدل اشتمال الكوفيين ﴿صَبَبْنَا الْمَاءَ﴾ من السحاب ﴿صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿شَقًّا ۝ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير ﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ وهو القتّ الرطب سمى بمصدر قضبه إذا قطعه لأنه يقطع مرة بعد أخرى فى العام وعن الحسن : كل علف يقطع ، قال فى الجواهر تفسيره بالفصفصة عندى ضعيف لأنها للبهائم داخلة فى الأبّ والذى أقول به أن القضب هنا هو كل ما يقضب ليأكله ابن آدم غضًّا من النبات كالبقول والهليون ونحوه فإنه من المطعوم جزء عظيم ولا ذكر له فى الآية إلا فى هذه اللفظة . اه . ﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ ﴾ بساتين أحدقت بالجدار ونحوه ﴿ غُلْبًا ﴾ غلاظاً متكاثفة الأوراق مستعار من وصف الرقاب لكثرة أشجارها ﴿ وَفَاكِهَةً ﴾ للناس ﴿وَأَبًّا﴾ مرعى للدواب أو هو للدواب كالفاكهة للإنسان وقيل التبن والحاصل أنه بجمل ﴿ مَتَاعًا ﴾ منفعة أو تمتيعاً ﴿ لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ النفخة الثانية التى تصخ الآذان أى تصمها ﴿ يَوْمَ ﴾ بدل من إذا ﴿ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ ﴾ زوجته ﴿ وَبَنِيهِ ﴾ لاشتغاله بشأنه وعلمه بأنهم لا ينفعونه أو لخوف مطالبتهم إياه بما قصر من حقوقهم وتأخير الأحب فالأحب للترقى كأنه قيل يفر من أخيه بل من أبويه بل من زوجته بل من بنيه وجواب إذا دل عليه ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾ حال ﴿يُغْنِيهِ﴾ يشغله عن شأن غيره أى اشتغل كل واحد بنفسه ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴾ مضيئة لسرور القلوب وقيل لصلاة الليل أو من آثار الوضوء أو من طول ما اغبرت فى سبيل الله ﴿ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ بما نالت من الربح والفوز برحمة الله ورضوانه وهم المؤمنون ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ غبار وكدورة ﴿ تَرْهَقُهَا ﴾ تغشاها ﴿ قَتَرَةٌ ﴾ سواد كالدخان ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أهل هذه الحالة ﴿ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ أى الجامعون بين الكفر والفجور ؛ فالجزاء على وفق العمل .

[تم تفسير سورة عبس]

سورة التكوير
مكية – تسع وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ أدرت ولففت من كورت العمامة إذا أدرتها ولففتها بمعنى أذهب ضوءها أو عينها لأن الثوب إذا أريد إذهابه لف وارتفاع الشمس بفعل يفسره كورت وكذا ما بعده ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ انقضت وانتثرت على الأرض وقيل أظلمت، من كدرت الماء فانكدر وهو تفسير باللازم ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ عن وجه الأرض أو فى الجو فصارت هباء أو تمر مر السحاب ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾ النوق الحوامل جمع عشراء: التى أتى على حملها عشرة أشهر ويبق هذا الاسم بعد حملها أيضاً وهى أنفس ما عند العرب ﴿ عُطِّلَتْ ﴾ تركت بلا راع وبلا حلب لما دهم من الأمر ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ جمعت بعد البعث من كل حدب كما يحشر الإنس والجن ليقتص لبعضها من بعض ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن كثير وأبى عمرو أوقدت فصارت ناراً أو ملئت بأن يفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قرنت بأجسادها أو بأشكالها الأنبياء ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الأمثل فالأمثل، أو بأعمالها أو نفوس المؤمنين بالحور ونفوس الكافرين بالشياطين . قال فى الجواهر : وفى الآية حضٌّ على خليل الخير يعنى على ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن معناها : يزوج كل شكل مع شكله، وقد قال صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب، وقال : فلينظر أحدكم من يخالل . وعبارة الثعلبى : زوجت الأضراب كل رجل مع قوم يعملون عمله ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ﴾ المثقل عليها بالتراب حية وهى الجارية المدفونة حية خوف العار والحاجة ﴿سُئِلَتْ﴾ تبكيتاً لوائدها ﴿ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ على الإخبار وقرئ قتلت على الحكاية وجوابها أن تقول: قتلت بلا ذنب، وليس فى الآية دليل على أنها فى الجنة لكن دلت الأحاديث على أن أطفال المشركين فى الجنة فهى من باب أولى، قاله فى غاية الأمانى ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ﴾ صحف الأعمال التى طويت عند الموت وقيل صحف غيرها تطير من تحت العرش فتقع على أيمان المؤمنين وشمائل الكفار ﴿ نُشِرَتْ ﴾ بالتخفيف لنافع وابن عامر وعاصم والتشديد للباقين للحساب أو للفرق بين أصحابها ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ أزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ﴾ النار ﴿سُعِّرَتْ﴾ بالتشديد لنافع وابن ذكوان وحفص وبالتخفيف للباقين: أججت أى أوقدت إيقادا شديداً ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قربت لأهلها ليدخلوها وجواب إذا أول السورة وما عطف عليها ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أى كل نفس وقت هذه المذكورات وهى اثنتا عشرة

خصلة : ستٌ منها فى مبادئ قيام الساعه قبل فناء الدنيا وستٌ بعده ﴿ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ من خير وشر والمراد بوقتها زمان متسع شامل لكلها ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ تقدم الكلام عليه ﴿ بِالْخُنَّسِ ﴾ بالكواكب الرواجع الدرارى من خنس إذا تأخر وهى ما سوى النيرين من السيارات ولذا وصفها بقوله ﴿ الْجَوَارِ ﴾ أى السيارات ﴿ الْكُنَّسِ ﴾ المختفية تحت ضوء الشمس من كنس الوحش دخل كناسه وهى زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد : تخنس أى ترجع فى مجراها وراءها بينا ترى النجم فى آخر البرج إذ كرّ راجعاً إلى أوله وتكنس أى تدخل فى كناسها وتغيب فيها ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أقبل بظلامه فى أوله أو أدبر فى آخره وعسعس من الأضداد وكلا المعنيين حسن ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ بانكشاف الليل عنه قليلا قليلا حتى آمتد ضوءه وصار نهارا بينا إذ النهار يصير كالمكروب لغشيان الليل لجعل تخلصه منه كتنفس المكروب بعد زوال الكرب أو جعل نسيم الصباح لاشتماله له على الروح كالتنفس المفرج عن الكرب ﴿إِنَّهُ ﴾ أى القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ على الله تعالى وهو جبريل على الأصح وقيل النبى عليه السلام أضيف إلى الرسول لنزوله به ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أى شديد القوى ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أى الله تعالى ﴿مَكِينٍ﴾ أى ذى مكانة متعلق به عند ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾ بين الملإ الأعلى والكروبيين ﴿ أَمِينٍ ﴾ على الوحى وتنفيذ الأوامر وثم يحتمل آتصاله بما قبله ومابعده ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ محمد صلى الله عليه وآله وسلم عطف على إنه إلى آخره المقسم عليه ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ كما زعمتم وليس الكلام مسوقا لمفاضلة جبريل والنبى عليهما السلام حتى تدل صفات جبريل على فضله عليه بل المقصود حقية المنزل على النبى وتكذيب الكفار والحث على آتباعه وما فى الكشاف من إفهام تفضيل جبريل عليه خلاف الإجماع ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ ﴾ أى رأى محمد جبريل على صورته عليهما السلام ﴿ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ البين بمطلع الشمس الأعلى ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ أى ما محمد عليه السلام ﴿ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ على ما يخبر به من المغيبات ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضاد لنافع وابن عامر وعاصم وحمزة أى ليس يبخيل فى تبليغه وبالظاء للباقين أى بمتهم فيه بنقص أو زيادة ﴿وَمَا هُوَ ﴾ أى القرآن ﴿ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ ﴾ مسترق للسمع ﴿ رَجِيمٍ ﴾ مطرد تصريح بما علم ضمنا ونفى الكهانة والتنجيم المقابل برسول كريم ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ فى إنكار القرآن : تضليل لهم فيما يسلكونه فى ترك أمر الرسول والقرآن : شبه عدولهم عن الحق بالعدول عن الجادة إلى المهالك فى الفيافى كما تقول لتارك الجادة : أين تذهب ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ الإنس والجن ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ ﴾ بدل من العالمين بإعادة الجار ﴿أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ باتباع الحق وإبداله من العالمين لأنه المنتفع بالذكر ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ ﴾ الاستقامة على الحق ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ مشيئتكم ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ مالكهم والمتصرف فيهم فلا يكون شىء إلا بإرادته ومقتضى مشيئته . قال عليه السلام «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ إذا الشمس كورت وإذا السماء آنفطرت وإذا السماء آنشقت» رواه الترمذى وقال حسن .

(تم تفسير سورة التكوير)

سورة الانفطار

مكية ـ تسع عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ انشقت ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ تساقطت متفرقة ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فتح بعضها إلى بعض فصار الكل بحرا واحدا واختلط العذب بالملح ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ قلب ترابها وبعث موتاها وجواب إذا وما عطف عليها ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ كل نفس وقت هذه المذكورات ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ من الأعمال ﴿وَ﴾ ما ﴿أَخَّرَتْ﴾ منها فلم تعمله أو ماقدمت ماعملت وما أخرت ماسنت من سنة حسنة أو سيئة ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴾ الكافر ﴿ مَا غَرَّكَ ﴾ أىّ شىء جرأك على العصيان ﴿ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ذكره مبالغة فى المنع عن الاغترار وإشارة إلى أن الباعث على ذلك تسويل الشيطان بأن ربك كريم يعفو ويغفر والإنسان خاص بالكافر لقوله بل تكذبون أو عام لقوله إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ صفة ثانية مقررة للربوبية مبينة للكرم أى خلقك ولم تكن شيئا ﴿ فَسَوَّاكَ ﴾ جعلك سويا تام الأعضاء سالما ﴿ فَعَدَّلَكَ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف للكوفيين جعلك معتدل الخلق ليست يد أو رجل أطول من الاخرى ولا عين أوسع من أختها وكذا سائر الأطراف ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا ﴾ زائدة ﴿شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ وأى للصفة ولما أريد التعميم حذف موصوفها ويجوز تعلقه بـ«عدلك» أى عدلك فى صورة أى صورة حذف الموصوف لزيادة التفخيم والتعجيب ثم قال «ماشاء ركبك» أى تركيبا بديعا ﴿كَلَّا ﴾ ردع عن الاغترار بكرمه ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ الجزاء على الأعمال إضراب إلى ما هو السبب الأصلى فى الاغترار على أن الإنسان هو الكافر وعلى التعميم خوطب الكل بما وجد بينهم ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ من الملائكة لأعمالكم جملة حالية أى إنكم تكذبون بالجزاء والحال أن شأنه أمر خطير مع علمه الشامل قد وكل بكم من يحفظ عليكم النقير والقطمير ثم أثنى على الحافظين إشارة إلى عظم أمر الجزاء بقوله ﴿كِرَامًا ﴾ على الله ﴿كَاتِبِينَ ﴾ وفيه ردٌّ لما يتوقعون من التسامح والإهمال ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ جميعه ثم أشار إلى بيان ما يكتبون لأجله بقوله ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ جنة وهم الصادقون فى الإيمان ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ ﴾ الكفار وأل للعهد أى الذين يكذبون بيوم الدين ﴿ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ نار محرقة ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يقاسون حرها ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ الجزاء ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ بمخرجين صريح فى سرمدية العذاب ثم فخم شأن الجزاء بتفخيم يومه بقوله ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ أعلمك ﴿ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ

مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أبهم أمره وخاطب أعلم الخلق بأنه لم يحط بكنه ذلك اليوم وكرر ذلك وآثر «ثم» للتراخى رتبة إشارة إلى أنه مهما ترقى فى العلم لم يبلغ ذلك ثم أجمل بقوله ﴿ يَوْمَ ﴾ بالفتح للجمهور والرفع لابن كثير وأبى عمرو أى هو يوم ﴿ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ لا أمر لغيره فيه تقرير لشدة هوله وفخامة أمره .

[تم تفسير سورة الانفطار]

سورة التطفيف

مكية أو مدنية ـ ست وثلاثون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . وَيْلٌ ﴾ كلمة عذاب أو واد فى جهنم ﴿ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ناقصى الكيل والوزن قدم عليه السلام المدينة وهم أبخس الناس كيلا فنزلت فأحسنوا الكيل رواه النسائى وابن ماجه عن ابن عباس ثم بيَّنهم بقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا ﴾ لأنفسهم مالهم ﴿ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ يأخذونه كاملا وقيل «على» بمعنى «من» ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ أى كالوا لهم ﴿ أَوْ وَزَنُوهُمْ ﴾ أى وزنوا لهم ﴿ يُخْسِرُونَ ﴾ ينقصون الكيل والوزن وقيل الضمير المنفصل راجع إلى المطففين وليس كذلك لأن المقصود بيان اختلاف حالهم فى الأخذ والدفع لا بيان المباشرة وعدمها ولم يذكر الاتزان مع الاكتيال اكتفاء به أو لاحتمال السرقة فيه عند الأخذ بأن تزعزع الكيل بخلاف الميزان فإنه لا يقبل ذلك ﴿ أَلَا ﴾ استفهام توبيخ ﴿ يَظُنُّ ﴾ يتيقن ﴿ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى فيه وهو يوم القيامة صدر الكلام بحرف التنبيه إيقاظاً وذكر الظن دلالة على أن الظن كاف فى الكف عن التطفيف كيف والفاعل قاطع متيقن ووصف اليوم بالعظم لعظم ما يقع فيه واسم الإشارة للشتم نحو ذلك اللعين وكل هذه التشديدات ليس من حيث التطفيف بل لأن الميزان قانون العدل الذى به قامت السموات والأرض ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ ﴾ على أقدامهم أو من قبورهم ﴿ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لحكمه وحسابه وجزائه نصب الظرف بمبعوثون

روى البخارى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يوم يقوم الناس لرب العالمين يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه يعنى لدنو الشمس منهم مقدار ميل . حكى ابن العربى أن كل أحد يقوم عرقه معه وهو خلاف المعتاد فى الدنيا (كَلَّا) ردع عن التطفيف والغفلة عن البعث والحساب (إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ) أى كتاب أعمال الكفرة عقبه ذكر التطفيف تنفيراً عنه (لَفِي سِجِّينٍ) فعيل من السجن وهو الضيق سمى به الكتاب الجامع لأعمال الفجرة لأنه سبب للتضييق أو لأنه مطروح فى مكان مظلم تحت الأرض السابعة فيقدر مضاف أى موضع كتاب (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ • كِتَابٌ مَرْقُومٌ) مسطور بيّن الكتابة أو معلم بالختم يعلم من رآه أنه لا خير فيه وإن كان اسم موضع فالتقدير ما كتاب السجين أو محل كتاب مرقوم حذف منه المضاف (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) بالحق أو بذلك (الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) الجزاء بدل أو بيان للمكذبين أو وصف مؤكد أو ذامّ لأن اللام فى المكذبين للعهد (وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ) متجاوز عن الحد فى تقليد من لا يصح تقليده وقطع النظر عن الآيات والنذر (أَثِيمٍ) صفة مبالغة أى كثير الإثم بالانهماك فى الشهوات (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) من فرط جهله وعدم تأمله فلا تنفعه شواهد النقل كما لا تنفعه دلائل العقل (كَلَّا) زجر عن هذا القول (بَلْ رَانَ) غلب (عَلَى قُلُوبِهِمْ) فغشيها (مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) من المعاصى فهو كالصدإ على قلوبهم فلا يميزون الحق من الباطل . روى النسائى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا أذنب العبد ذنباً نكت نكتة سوداء فى قلبه فإن هو نزع واستغفر صقل قلبه وإن عاد ازدادت حتى تعلو القلب فهو الرين الذى قال الله تعالى « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (كَلَّا) ردع عن كسب الرين (إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) لا يرونه بخلاف المؤمنين ، تمثيل لحالهم فى الإهانة بحال من استأذن على ملك فلم يأذن له (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ) لداخلو النار المحرقة (ثُمَّ يُقَالُ) لهم (هَذَا) العذاب (الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ • كَلَّا) ردع عن التكذيب (إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ) قيل كتاب جامع لأعمال الخير من الملائكة ومؤمنى الثقلين وقيل هو مكان فى السماء السابعة (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ • كِتَابٌ مَرْقُومٌ) علم كتاب الأبرار أو موضع يكون فيه الكتاب جمع علىّ فى الأصل سمى به لأنه سبب العلو والارتفاع فى الجنة أو لأنه مرفوع إلى السماء السابعة (يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ) من الملائكة ليحفظوا منه المعارف أو ليشهدوا على مافيه يوم القيامة (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ • عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ) إلى ماشاءوا مما تستلذه الأعين من النعيم المقيم (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) بهجة التنعم ورونقه (يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ) شراب خالص من كل دنس (مَخْتُومٍ) أوانيه بالمسك مكان الطين لا يفك ختمه غيرهم (خِتَامُهُ مِسْكٌ) مكان الطينة فى أباريق الدنيا وهذا غاية الإكرام وقرأ الكسائى خاتمه بفتح التاء وهو ما يختم به كالأول ، وقيل معنى الأول أن المسك سرى إلى آخره يفوح منه رائحة المسك (وَفِي ذَٰلِكَ)

الرحيق أو النعيم ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ فليرتغب المرتغبون بالمبادرة إلى طاعة الله ﴿ وَمِزَاجُهُ ﴾ أى ما يمزج به ﴿ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ اسم عين وهو فى الأصل مصدر سنمه إذا رفعه إما لأنها أرفع شراب فى الجنة أو لأنها تجرى فى الهواء متسنمة فتنصب فى أوانيهم ثم فسره بقوله ﴿ عَيْنًا ﴾ نصب بأمدح مقترا أو على الحال من تسنيم ﴿ يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى منها أو ضمن يشرب معنى يلتذ فالمقربون يشربونها صرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ كأبى جهل ونحوه من رؤساء الكفر ﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ كعمار وبلال ونحوهما من فقراء المسلمين ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء بهم ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ ﴾ بالمؤمنين ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴾ يشير بعضهم إلى بعض بالجفن والحاجب استحقاراً ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا ﴾ رجعوا ﴿ إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَاكِهِينَ ﴾ مستلذين بما هم فيه من الحطام أو بالسخرية للمؤمنين وقرأ حفص فكهين بالقصر وعليه الرسم أى معجبين بذكرهم المؤمنين ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ رأوا المؤمنين ﴿ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ طريق الرشاد فى اتباع محمد وترك دين الأشياخ قال تعالى ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ ﴾ على المؤمنين ﴿ حَافِظِينَ ﴾ لهم أو لأعمالهم حتى يردوهم إلى مصالحهم رد منه تعالى عليهم ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ أى يوم القيامة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ حين يرونهم أذلاء مغلولين فى النار بدل ما كانوا يضحكون منهم فى الدنيا ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ فى الجنة ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ إلى الكفار حال من يضحكون ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ﴾ جوزى ﴿ الْكُفَّارُ ﴾ بـ ﴿ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ؟ نعم ، والتثويب الإثابة استعمل فى العذاب تهكما والمخاطب هم المؤمنون زيادة فى سرورهم .

[تم تفسير سورة التطفيف]

سورة الانشقاق

مكية ـ ثلاث أو خمس وعشرون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ بالغمام تنزل فيه ملائكة العذاب ﴿وَأَذِنَتْ﴾ سمعت وأطاعت فى الانشقاق ﴿لِرَبِّهَا﴾ أو استمعت له بمعنى انقادت لتأثير قدرته فيها حين أراد انشقاقها انقياد المطواع إذا ورد عليه أمر من الآمر المطاع ﴿وَحُقَّتْ﴾ جعلت حقيقة جديرة بالانقياد يقال حق بكذا فهو محقوق وحقيق ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ بسطت أو مدالأديم بأن تزال جبالها وآكامها حتى لم يبق عليها بناء ولاجبل ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ من الموتى والكنوز إلى ظاهرها ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ عنه غاية الخلو لدلالة التفعل على التكلف كأنها تكلفت أن تبلغ فى ذلك غاية الجهد ﴿وَأَذِنَتْ﴾ سمعت وأطاعت كالسماء ﴿لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ولا تكرار لأن الأول فى السماء وهذا فى الأرض وجواب إذا وماعطف عليها محذوف دل عليه مابعد تقديره: لقى الإنسان عمله ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ جاهد فى عملك ﴿إِلَىٰ﴾ لقاء ﴿رَبِّكَ﴾ وهو الموت ﴿كَدْحًا﴾ جهدا يؤثر ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ ملاق ربك لامفر لك عنه أو عملك من خير أو شر يوم القيامة أى جزاءه كما فى الحديث إنما هى أعمالكم ترد إليكم ثم فصل ذلك بقوله ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ كتاب عمله ﴿بِيَمِينِهِ﴾ هو المؤمن ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ سهلا من غير مناقشة بل يعرض عمله عليه كما فسر فى حديث الصحيحين وفيه «من نوقش الحساب هلك» وبعدالعرض يتجاوزعنه ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ عشيرته أو المؤمنين أو إلى أهله فى الجنة من الحور والولدان ﴿مَسْرُورًا﴾ بذلك ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ بشماله هو الكافر تغل يمناه إلى عنقه ويجعل يسراه وراء ظهره فيأخذ بها كتابه ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو﴾ عند رؤية ما فيه ﴿ثُبُورًا﴾ ينادى هلاكه ياثبوراه يتمناه ﴿وَيَصْلَىٰ﴾ بضم الياء وفتح الصاد المشددة للجمهور وبفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام لأبى عمرو وحمزة وعاصم يدخل ﴿سَعِيرًا﴾ نارا ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ﴾ فى الدنيا ﴿مَسْرُورًا﴾ بطرا بالمال والجاه واتباع الهوى نابذا للآخرة ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ﴾ أى أنه ﴿لَنْ يَحُورَ﴾ يرجع إلى ربه تعليل لذلك السرور ﴿بَلَىٰ﴾ يرجع إليه لا محالة ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ عالما برجوعه إليه فيجازيه على أعماله ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ هو الحمرة فى الأفق بعد غروب الشمس ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ جمع ما دخل عليه من الدواب وغيرها ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ اجتمع وتم نوره وذلك فى الليالى البيض ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أيها الناس ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ حالا بعد حال مطابقة لأختها

فى الشدة أو مراتب من الشدة بعد المراتب كل مرتبة تجاوزت عن الأخرى فى الشدة وهى الموت وما بعده من الأهوال على أن الطبق جمع طبقة وعلى الأول هو ما يطابق غيره وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى «لتركبن» بفتح الباء خطاب للإنسان ﴿ فَمَا لَهُمْ ﴾ أى الكفار ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بالبعث بعد ظهور دلائله ﴿ وَ ﴾ مالهم ﴿ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ لايخضعون إكراماً له لدلالة إعجازه على أنه كلام الله واستدل به أبو حنيفة على وجوب السجود لأن الذم لا يكون إلا على ترك الواجب ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ القرآن والدليل إنما ينفع المسترشد ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ يضمرونه من الكفر والرذائل أو يجمعونه فى صحائف أعمالهم ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ تهكم بهم ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ غير مقطوع ولا يمن به عليهم.

[تم تفسير سورة الانشقاق]

سورة البروج

مكية ـ ثنتان وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ للكواكب المشهورة شبهت بالقصور لأنها ينزلها السيارات ويكون فيها الثوابت وتقدمت فى الفرقان أقسم بها لما نيط بها من المصالح ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ يوم القيامة ﴿ وَشَاهِدٍ ﴾ يوم الجمعة ﴿ وَمَشْهُودٍ ﴾ يوم عرفة كذا فسرت الثلاثة فى الحديث فالأول موعود به والثانى شاهد بالعمل فيه والثالث يشهده الناس والملائكة وفيها اختلاف ولوصح الحديث لوجب الوقوف عنده لكن روى عن ابن عباس أن الشاهد محمد وأمته والمشهود يوم القيامة أو كل شاهد ومشهود وجواب القسم محذوف صدره أى لقد ﴿ قُتِلَ ﴾ لعن ﴿ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ والأظهر أنه دليل جواب محذوف أى إن الكفار لملعونون كما لعن أصحاب الأخدود وهو الشق فى الأرض قيل كان طوله أربعون ذراعاً فى عرض اثنى عشر وصاحب الأخدود حديثه فى مسلم مطول وهو ملك دعا المؤمنين بالله إلى الرجوع عن دينهم إلى دينه وخد لهم أخدوداً أضرم فيه النار وجعل يطرح فيها من لم يرجع عن دينه حتى جاءت امرأة معها صبى فتقاعست فقال يا أمه اصبرى فإنك على الحق فاقتحمت فى النار ﴿ النَّارِ ﴾

بدل اشتمال من الأخدود ﴿ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ مايوقد فيها صفة لها بالعظمة وكثرة الوقود من الحطب والناس واللام للجنس ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ أى حولها على جانب الأخدود وعلى الكراسى ﴿قُعُودٌ﴾ ظرف لقتل أى لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين حولها ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله من تعذيبهم بالإلقاء فى النار إن لم يرجعوا عن إيمانهم ﴿شُهُودٌ﴾ حضور أو يشهد بعضهم لبعض عند الملك أنه سعى فى إحراقهم ولم يقصر أو يشهدون ذلك على أنفسهم يوم القيامة. روى أن الله أنجى المؤمنين الملقين فى النار بقبض أرواحهم قبل وقوعهم فيها وخرجت النار إلى من ثم فأحرقتهم ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ماعابوا منهم إلا الإيمان لمن هذه صفاته من كونه غالباً على كل شىء منعيا محموداً على نعمه ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أعاد المظهر للدلالة على أن شمول العلم شأن الألوهية ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بلوهم بالأذى من أصحاب الأخدود وغيرهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ لكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ العذاب الزائد فى الإحراق لفتنتهم المؤمنين والمؤمنات ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ الذى يستحقر ملك الدنيا دونه ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ بالكفار ﴿لَشَدِيدٌ﴾ مضاعف عنفه ثم قرر ذلك بقوله ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ فى الخلق فلا يعجزه ما يريد ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ للذنوب ﴿الْوَدُودُ﴾ لمن تاب ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ خالقه ومالكه ﴿الْمَجِيدُ﴾ بالرفع للجمهور صفة رابعة له وبجده عظمته وكبرياؤه، وبالجر حمزة والكسائى: صفة للعرش والمراد عظمة جرمه واتساع الملك دلالة على كمال الاقتدار ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ لايعجزه شىء خبر مبتدإ محذوف لدلالته على تحقق الوصفين البطش بالأعداء والمغفرة والود للأولياء ولو جعل خبر «هو» المذكور فاتت الدلالة ولا يخفى مافى التنكير وزيادة اللام من الفخامة ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ يامحمد ﴿حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ بدل من الجنود واستغنى بذكر فرعون عن أتباعه أى قد عرفت تكذيبهم وما حاق بهم فاصبر على أذى قومك وحذرهم مثل ما حاق بهم ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ فى الإضراب دلالة على أن حال هؤلاء أعجب من أولئك فإنهم سمعوا بأخبارهم وشهدوا آثارهم وهم مستغرقون فى التكذيب لا يرعوون عنه ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ علماً وقدرة لا عاصم لهم منه ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ شريف وحيد فى النظم إشارة إلى أن تكذيبه أعظم جرماً من تكذيب سائر الأدلة ﴿فِي لَوْحٍ﴾ هو فى الهواء فوق السماء السابعة ﴿مَّحْفُوظٌ﴾ بالرفع لنافع من التحريف وبالجر للباقين أى من الشياطين ومن تغيير شىء منه طوله ما بين السماء والأرض وعرضه مابين المشرق والمغرب وهو من درة بيضاء، قاله ابن عباس.

[تم تفسير سورة البروج]

سورة الطارق
مكية ـ سبع عشرة آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ أصله كل آت ليلا ، من الطرق وهو القرع لأنه يحتاج إلى قرع الباب ومنه النجوم لطلوعها ليلا ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴾ تعظيم لشأنه ﴿ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ المضىء كأنه يثقب الظلام بضوئه والمراد به الجنس أو الثريا أو زحل ، وجواب القسم ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أى إن الشأن كل نفس لعليها حافظ و « ما » مزيدة ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة لمّا بتشديد الميم بمعنى إلا على أنْ إنْ نافية والحافظ من الملائكة يحفظ عملها من خير أو شر ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ نظر اعتبار ﴿ مِمَّ خُلِقَ ﴾ من أى شىء ليعلم صحة إعادته فلا يُملى على حافظه إلا مايسره فى عاقبته وجواب الاستفهام ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ ذى دفق وهو صب فيه دفع والمراد الممتزج من الماءين فى رحم المرأة ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ ﴾ للرجل ﴿ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ للمرأة وهى عظام الصدر ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ تعالى ﴿ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ ﴾ رد الإنسان حيا بعد موته ﴿ لَقَادِرٌ ﴾ فإذا اعتبر أصله علم ذلك ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب برجعه والفاصل ليس بأجنبى لأنه متعلق الجار ﴿ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ أى تكشف وتظهر ضمائر القلوب فى العقائد والنيات ، وروى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم أن السرائر التى يبتليها الله من العباد التوحيد والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة . قال قتادة : الوجه فى الآية العموم فى جميع السرائر . اهـ . قال الهروى جمع سريرة وهى الأعمال التى أسرها العباد ﴿ فَمَا لَهُۥ ﴾ للإنسان ﴿ مِن قُوَّةٍ ﴾ يمتنع بها بنفسه من العذاب ﴿ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ يدفعه عنه ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴾ المطر سمى به تفاؤلا من عوده كل حين ، أو ذات الرجع فى كل دورة إلى الموضع الذى تتحرك عنه ويجوز على الأول أن يراد بالسماء السحاب ﴿ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ الشق عن النبات والعيون ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ أى القرآن ﴿ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ فاصل بين الحق والباطل ﴿ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ فإنه جدّ كله ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أى كفار مكة ﴿ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ فى إبطاله وإطفاء نوره ﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ أستدرجهم بإفاضة النعم عليهم والعافية فى مقابلة ذلك ليزدادوا إثماً فأنتقم منهم من حيث لا يحتسبون ﴿ فَمَهِّلِ ﴾ يا محمد ﴿ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ إلى الوقت المضروب عليهم فى علمه تعالى ولا تستعجل بإهلاكهم ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ تأكيد حسنه مخالفة اللفظ أى أنظرهم ﴿ رُوَيْدًۢا ﴾ إمهالا يسيراً وهو مصدر مؤكد لمعنى العامل مصغر رَوْد أو إرواد على الترخيم وقد أخذهم الله ببدر والحمد لله .

[تم تفسير سورة الانسان]

سورة الأعلى

مكية - تسع عشرة آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ الخطاب عام أو لنبينا وأمته تبع أى كما يجب أن تنزه ذاته عما لا يليق من الأوصاف فكذلك الأسماء الدالة عليه تحمل على معانى الكمال والجلال وتصان عن التأويلات الزائفة تأدبا بآداب الله وقه الأسماء الحسنى وقيل «اسم» زائد ﴿الْأَعْلَى﴾ صفة للاسم أو للرب وفى الحديث لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال عليه الصلاة والسلام اجعلوها فى ركوعكم فلما نزل سبح اسم ربك الأعلى قال اجعلوها فى سجودكم وكان يقول سبحان ربى الأعلى ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ كل شىء ﴿فَسَوَّىٰ﴾ خلقه بأن جعله متناسب الأجزاء بحيث يتأتى كماله به ويتم معاشه ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ الأشياء أجناسا وأنواعا وأشخاصا وصفات وأفعالا وآجالا ﴿فَهَدَىٰ﴾ كل شىء إلى ماقدره له من خير وشر من الأفعال طبعا أو اختيارا بالإلهام والدلائل والآيات خفف الكسائى قدر ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾ أنبت مايرعاه الدواب ﴿فَجَعَلَهُ﴾ بعد خضرته ﴿غُثَاءً﴾ يابسا هشيما ﴿أَحْوَىٰ﴾ أسود لإصابة الأمطار والتعفن وقيل حال من المرعى أى أخرجه أحوى من شدة الخضرة فجعله بعد ذلك غثاء مايحمله السيل ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ القرآن على لسان جبريل ﴿فَلَا تَنسَىٰ﴾ ما تقرأه، لما أمره بتنزيه اسمه خاف النسيان فبشره بأن كل قوته الحافظة بأن لا ينسى شيئا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن تنساه بنسخ تلاوته وحكمه وكان يجهر بالقراءة فيتعبه فقال له ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾ من القول والفعل ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ منهما فلا تتعب نفسك بالجهر بالقراءة ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾ نوفقك ولذا لم يقل نيسر لك ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ للشريعة السهلة وهى الإسلام الذى لا إصر فيه ولا أغلال كما قال عليه السلام «جئتكم بالحنيفية السمحاء، لوكان ابن عمران حيا لما وسعه إلا اتباعى» وهو عطف على سنقرئك وما بينهما اعتراض ﴿فَذَكِّرْ﴾ عظ بالقرآن بعد أن استتب لك الأمر ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ من تذكره اعتراض بين الكلامين للإشارة إلى توبيخ قريش بحصول اليأس من تذكرهم والإشعار بأنه إنما يجب إذا ظن نفعه وألا يتلهف على أهل الطبع وأنه ينفع المؤمنين المذكورين فى قوله ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ بها ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ الله لأنه يتفكر فى الآيات ويتعظ بالمواعظ ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ يتركها جانبا لا يلتفت إليها ﴿الْأَشْقَى﴾ الكافر الكامل فى الشقاء أو أفعل للزيادة المطلقة لدخول الفاسق فى السعداء فى قوله «فمنهم شقى وسعيد» أو الأشقى من الكفرة المتوغل فى الكفر ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ هى نار

الآخرة والصغرى نار الدنيا أو جهنم نار الفساق أو الكبرى الدرك الأسفل ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فيستريح ﴿ وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ حياة طيبة وثم للدلالة على أن كونه لاميتا ولا حيا أفظع من دخول النار روى مسلم عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل النار الذين لا يريد الله إخراجهم لايموتون فيها ولايحيون والذين يريد إخراجهم يميتهم فيها إماتة ثم يخرجون فيلقون فى أنهار الجنة. ذكره فى غاية الأمانى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ فاز ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهر بالإيمان من أوضار الشرك والمعاصى أو تطهر للصلاة أو أدى الزكاة والرواية عن على ـ أن المراد زكاة الفطر ـ لاتصح ، قاله فى غاية الأمانى ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ بقلبه ولسانه ﴿ فَصَلَّىٰ ﴾ الصلوات الخمس ولا دلالة فيه على تكبيرة الافتتاح وهذا طريق الفلاح فى الآخرة لكنكم غافلون عنها ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ﴾ بالخطاب للجمهور والغيبة لأبى عمرو والخطاب عام أو خاص بالأشقين على الالتفات ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ على الآخرة فلا تعملون مابه فلاحكم فيها قال ابن مسعود عجلت لنا الدنيا فآثرناها وفى الآية إشارة إلى قلة النفوس الكمل ﴿ وَالْآخِرَةُ ﴾ المشتملة على الجنة ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ إذ نعم الدنيا لا تخاص من الغوائل مع سرعة الزوال ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذى ذكر فى هذه السورة أو فى قد أفلح من تزكى أوماهو خير وأبقى والأول أعم وأصح ﴿ لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ فهو جامع لخلاصة ما فيها ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ وهى عشر صحف لإبراهيم والتوراة لموسى ، روى النسائى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كلها صحف إبراهيم وموسى وفى حديث أبى ذر المشهور قلت يارسول الله ما كانت صحف إبراهيم قال كانت أمثالا كلها منها أيها الملك المغرور إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، وعلى العاقل أن تكون له ساعة يناجى فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفكر فى صنع الله وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب وأن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه حافظا لسانه اهـ.

[تم تفسير سورة الأعلى]

سورة الغاشية

مكية ـ ست وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ هَلْ ﴾ قد ﴿أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ القيامة لأنها تغشى الخلائق بأهوالها أو النار من قوله وتغشى وجوههم النار ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ عبر بها عن الذوات فى الموضعين ﴿ خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة ﴿ عَامِلَةٌ ﴾ فى الدنيا ﴿ نَاصِبَةٌ ﴾ تاعبة بلا نفع أو عاملة فى النار بجر السلاسل والأغلال ناصبة فى الصعود والهبوط فى جبال النار وأوديتها وقيل هؤلاء نساك اليهود والنصارى كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴿تَصْلَىٰ﴾ بفتح التاء للجمهور وضمها لأبى عمرو وأبى بكر : تدخل ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ متناهية فى الحر ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ متناهية الحر ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ يابس الشبرق وهو شوك ترعاه الإبل مادام رطباً والرطب هو الشبرق وإذا يبس تحامته وهو سم قاتل ولا ينافيه «إلا من غسلين» لاختلاف طبقات الأكلة لبعضهم الغسلين ولبعضهم الضريع ولبعضهم الزقوم أو بحسب الأوقات ﴿ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ والمقصود من الطعام هو أحد الأمرين والجملة فى محل جر صفة ضريع ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ حسنة ذات بهجة ورونق ﴿ لِّسَعْيِهَا ﴾ فى الدنيا بالطاعة ﴿ رَاضِيَةٌ ﴾ فى الآخرة لما رأت ثوابه ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ علا وقدرا ﴿ لَّا تُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ نفس أو كلمة ذات لغو أو لغو على أنه مصدر بضم تاء التأنيث فى تسمع ورفع لاغية لنافع وبضم ياء التذكير ورفع لاغية لابن كثير وأبى عمرو وبفتح تاء التأنيث أو الخطاب ونصب لاغية للباقين ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ بالماء بمعنى عيون والتنكير للتعظيم أو التكثير ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ ذاتاً وقدراً وعلا ﴿ وَأَكْوَابٌ ﴾ أقداح لا عرى لها ﴿ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ بين أيديهم لا يحتاجون إلى الطلب أو على حافات العيون معدة لشربهم لأنها ألذ منظراً ﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ وسائد ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ بعضها بجنب بعض ليجلس حيث اختار ويستند إلى ما شاء لا يحتاج إلى النقل وهى على السرر والسرر فى الهواء إذا أراد ولى الله أن يجلس عليها تطامنت له فاذا استوى عليها ارتفعت إلى حيث شاء الله ليرى جميع ما أعطاه الله فى الجنة من النعيم والملك ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ بسط طنافس لها خمل جمع زربية ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ مبسوطة أو مفرقة فى المجالس . ثم رجع إلى ما افتتح به السورة من ذكر القيامة بعد ما استطرد بما استطرد به وبدأ فى الاستدلال عليها بخلق الإبل التى لا تفارق خيال العرب بقوله ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ أى الكفار نظر اعتبار ﴿ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ خلقاً دالًّا على كمال قدرة الله

وحسن تدبيره كيف خلقها لحمل الأثقال إلى البلاد النائية منقادة لمن قادها ، طوال الأعناق لرعى البعيد وتحمل العطاش إلى عشر فصاعداً ليتأتى لها قطع البرارى والمفاوز مع ما لها من منافع أخر وهى من أعجب الحيوانات ولذا خصها بالذكر مع كون الكلام مع العرب المعتنين بها لا تزال خيالاتهم فيها ثم فى المياه والمرعى ومأواها فى الجبال والبعد فى الأراضى لتلقى الغيث وعلى خيالاتهم ترتيب هذه الآيات فى قوله تعالى ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ بلا عمد ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ راسخة لا تميل بتطاول الأزمان ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ بسطت حتى صارت مهاداً سهلة التقلب عليها ، المعنى أفلا ينظرون إلى هذه الأنواع الدالة على القدرة فيتركون إنكار البعث وأمور المعاد ولذا رتب عليها الأمر بالتذكير بقوله ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ هم نعم الله ودلائل توحيده ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ فلا عليك جناح إن لم ينظروا ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ بمتسلط : بالصاد للجمهور والسين لهشام وبإشمام الصاد زاياً لحمزة ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ مَنْ تَوَلَّى ﴾ أعرض ﴿ وَكَفَرَ ﴾ بالقرآن ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ عذاب الآخرة والأصغر عذاب الدنيا بالقتل فالاستثناء منقطع وقيل متصل من « فذكر » أى إلا الكافر المعرض فإنك مسلط عليهم بالجهاد فبعد ذلك يعذب الله كلا منهم العذاب الأكبر ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ رجوعهم بعد الموت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ جزاءهم لا نتركه أبداً وتقديم الخبر للتخصيص وفيه تسلية وتهديد لهم بالغ .

[تم تفسير سورة الغاشية]

سورة الفجر
مكية - أو مدنية - تسع وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ وَالْفَجْرِ ﴾ هو الصبح أى فجر كل يوم أو يوم النحر أو عرفة أقسم به أو بصلاة الصبح ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ عشر ذى الحجة أو رمضان وفى البخارى عن ابن عباس مرفوعا « ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من عشر ذى الحجة » والتنكير للتعظيم ﴿ وَالشَّفْعِ ﴾ الزوج ﴿ وَالْوَتْرِ ﴾ الفرد بفتح الواو للجمهور وكسرها لحمزة والكسائى أى الأشياء كلها شفعها ووترها أو شفع الصلوات ووترها روى مرفوعا ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ يمضى مدبرا كقوله والليل إذا أدبر بإثبات الياء فى الوصل فقط لنافع وأبى

عمرو وفى الوصل والوقف لابن كثير وبحذفها فى الحالين للباقين ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾ القسم والمقسم به ﴿قَسَمٌ﴾ عظيم فيه مقنع ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾ عقل والاستفهام للتقرير وجواب القسم محذوف أى لتعذبن يا كفار مكة دل عليه ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا مخاطباً والخطاب عامٌ أو يامحمد ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ أى أولاده وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح: قوم هود سموا باسم أبيهم ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيان لعاد على تقدير مضاف أى سبط إرم وهم عاد الأولى أو أهل إرم على أن إرم اسم بلدتهم وعلى الوجهين منع الصرف للعلمية والتأنيث وفى الجواهر قال ابن إسحاق إرم هو أبو عاد كلها وقال الجمهور إرم مدينة لهم عظيمة كانت على وجه البحر باليمن. اهـ. ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ الطول كان الطويل منهم أربعمائة ذراع أو ذات البناء الرفيع على أنها قرية. قال فى غاية الأمانى والظاهر أن إرم اسم بلدة وذات العماد صفتها لما تواتر وكثر فى الأخبار أن عادا كان له ابنان شداد وشديد ملكا الأرض وقهرا الملوك ثم مات شديد وخاص الملك لشداد فملك جميع المعمورة بلا منازع وسمع ذكر الجنة وعمره إذ ذاك ست مائة سنة فبنى مدينة عظيمة من الذهب والفضة والياقوت والزبرجد فى مدة ثلاثمائة سنة وأجرى جميع الأنهار التى سمع عنها فى الجنة فيها وغرس الأشجار وكانت بأرض عدن فلما تم بناؤها سار إليها بجميع من معه ليتمتع بتلك القصور والأنهار فلما كان بينه وبين المدينة مسيرة يوم صاح بهم ملك فهلكوا عن آخرهم فأعمى الله الأبصار عنها وحكى أن عبد الله بن قلابة خرج فى طلب إبل له فكشفت له فدخلها وحمل ماقدر عليه من لبنات الذهب وغيرها وأتى به معاوية فى خلافته وأخبره الخبر والله أعلم ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ فى بطشهم وقوتهم أو فيما بنى بها صفة أخرى لإرم تؤيد أنها اسم البلدة ولو كان اسم القبيلة لكان المناسب لم يخلق مثلها فى العباد ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا﴾ قطعوا ﴿الصَّخْرَ﴾ أى الصخور واتخذوا فيها بيوتا ﴿بِالْوَادِ﴾ وادى القرى قيل نحتوا من الجبال ألفا وسبعمائة مدينة فى ذلك الوادى ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ سمى به لكثرة جنوده لأن الجنود كالأوتاد للأمير أو لكثرة خيامهم التى يتدونها إذا نزلوا أو لأنه كان يعذب بأوتاد أربعة يشد بها رجلى ويدى من يعذبه وهذا أشهر ﴿الَّذِينَ طَغَوْا﴾ تجبروا ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ صفة للمذكورين من عاد وثمود وفرعون مرفوع أو منصوب بالقطع ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ بالكفر والظلم والقتل وغيره تفسير لطغيانهم ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ أى أدام عليهم ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أليم على أن الصب كناية عن الدوام والسوط عن الألم وفيه إشعار بأن هذا باعتبار ما أعدلهم فى الآخرة من العذاب كالسوط إذا قيس بالسيف ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ المكان الذى يرقب فيه الرصد كناية عن عدم الفوت أى لا يفوت العصاة عذابه ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ متصل بالمرصاد أى إنه بالمرصاد للإنسان فى الآخرة فأما الإنسان فلا يهمه إلا الدنيا ولذاتها ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ اختبره ﴿رَبُّهُ﴾ بالغنى ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ بالجاه والولد ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ بالمال ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ فضلنى بما أعطانى مفتخرا بذلك وهو خبر المبتدأ والفاء لما فى «أما» من معنى الشرط والظرف المتوسط فى تقدير

التأخير كأنه قيل فأما الإنسان فقائل ربى اكرمنى وقت ابتلائه بالإنعام ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ بالفقر ﴿فَقَدَرَ﴾ ضيق ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ وشدد «قدر» ابن عامر ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ لقصور نظره إلى الحطام ولم يدر أن الدنيا لاتساوى عند الله جناح بعوضة وأن التضييق قد يؤدى إلى كرامة الدارين ولذا زواها عن أكثر أصفيائه أثبت الياء نافع فى الوصل والبزى فى الحالين ولأبى عمرو الوجهان وحذفها الباقون فيهما فى الموضعين ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن قوله أى ليس الإكرام بالغنى والإهانة بالفقر وإنما هما بالطاعة والمعصية والكفار لا يتنبهون لذلك بل ركبوا ماهو شر من هذا القول كما قال ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ﴾ بالخطاب فيه وفى الثلاثة بعد للجمهور والغيبة لأبى عمرو ﴿الْيَتِيمَ﴾ بالإحسان إليه مع الغنى أولا تعطونه حقه فى الميراث ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ﴾ أنفسكم ولا غيركم ﴿عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ إطعامه لغاية الشح وقلة الشفقة وقرأ الكوفيون تحاضون تفاعل حذف منه إحدى التاءين أى لا يحث بعضكم بعضا على ذلك ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ الميراث أصله الوراث قلبت الواو تاء ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أى ذا لم أى جمع بين الحلال والحرام بعدم توريث الإناث أو تأكلون ماجمعه الموروث من الحلال والحرام لا تميزون بينهما أو تسرفون فى أنواع المآكل والفواكه فيما ورثتم لعدم التعب فى تحصيله ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ كثيرا مع الشره ومنع الحقوق قال فى الجواهر هذا التوبيخ لجنس الإنسان إذ يقع بعض المؤمنين فى شىء من هذا المنزع ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن ذلك وما بعده وعيد عليه ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ﴾ زلزلت حتى ينهدم كل بناء عليها ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ دكا بعد دك حتى تصير هباء منبثا ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أى أمره ﴿وَالْمَلَكُ﴾ أى الملائكة ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ حال أى مصطفين بحسب منازلهم ومراتبهم تمثيل لظهور آثار قدرته وتوجه إرادته إلى الانتقام من المجرمين بحال ملك اعتنى بقهر أعدائه فلم يكتف بالعساكر بل باشر بنفسه على الاستعارة التخييلية ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ لها زفير وتغيظ . روى مسلم والترمذى عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «يؤتى بجهنم لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك» ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من إذا وجوابها العامل فيهما ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ﴾ مافرط منه أو يتعظ بأن يعلم قبح عمله فيندم عليه ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ استفهام بمعنى النفى أى لاينفعه تذكره ذلك لفوات الوقت بانقطاع التكليف ﴿يَقُولُ﴾ مع تذكره ﴿يَا﴾ للتنبيه ﴿لَيْتَنِي قَدَّمْتُ﴾ صالحاً فى الدنيا ﴿لِحَيَاتِي﴾ هذه أى حياة الآخرة أو وقت حياتى فى الدنيا وهذا من تمنى المحال ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ﴾ أى الله ﴿أَحَدٌ﴾ أى لا يكله إلى غيره ﴿وَ﴾ كذا ﴿لَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ أى لايتولى عذابه للكافر ووثاقه له أحد ففيه تهويل، نعوذ بالله من غضب الحليم أو الضمير للإنسان بإضافة المصدر إلى المفعول أى لا يعذب أحد من الزبانية أحداً من خلق الله مثل تعذيب هذا الإنسان وقرأ الكسائى بالبناء للمفعول فى «يعذب» و«يوثق» ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ فى الدنيا إلى ذكر الله أى المؤمنة أو الآمنة من الخوف والحزن أى يقال لها عند الموت أو البعث من القبور أو

دخول الجنة ﴿ ٱرْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ إلى أمره وموعده ﴿ رَاضِيَةً ﴾ بما أوتيت من الثواب ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ عند الله بعملك أى جامعة بين الوصفين وهما حالان ﴿ فَٱدْخُلِى فِى ﴾ زمرة ﴿ عِبَـٰدِى ﴾ الصالحين ﴿ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ معهم .

[تم تفسير سورة الفجر]

سورة البلد
مكية - عشرون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ • لَآ ﴾ زائدة ﴿ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ مكة : أقسم تعالى بالبلد الحرام الذى هو أشرف الأماكن على أن الإنسان مخلوق فى كبد مستغرق فى الشدائد واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ ﴾ أى حالّ ﴿ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ قيد القسم بالبلد بحلول الرسول فيه إظهاراً لمزيد فضله فإن شرف المكان لشرف أهله أو معنى حلّ استحل عرضك فيه دلالة على أن من الكبد الآتى كون مثلك مستحلا حرمته فى مثل هذا البلد الذى لا يجوز فيه التعرض لنباتها فضلا عن صيدها وفيه تسكين له بأن فعل الكفار بلغ الغاية فلا بد من إهلاكهم أو بمعنى حلال لك أن تفعل فيه ما تريد ساعة من نهار فيكون وعداً له بفتح مكة تسلية له بأن ما يقاسيه من الأذى عاقبته الظفر وحل البلد الذى لم يحل لأحد قبله ولا بعده وفيه إجلال قدره ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ آدم وذريته أو إبراهيم مؤسس البلد وذريته الطاهرة أوعام يدخل فيه جميع الحيوان والعدول إلى «ما» للدلالة على الوصفية فيفيد فخامة على الأولين أو لتغليب غير العاقل على الثالث ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ أى الجناس ﴿ فِى كَبَدٍ ﴾ شدة لأن أول أحواله ضيق الرحم وآخره الموت وضيق القبر ومابعده فهو فى شدائد الدنيا مستقبلا شدائد الآخرة وهذا تسلية للرسول عليه السلام بما كان يكابده من الكفار ﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ الإنسان الذى يكابد النبى منه الأذى أكثر من غيره لاغتراره بقوته إذ الآية نزلت فى أبى الأشد ابن كلدة قوىّ قريش كان يبسط تحت قدميه أديم ويجذبه عشرة فينقطع ويبقى ما تحت قدميه لا يزيله أحد ﴿ أَن ﴾ أى أنه ﴿ لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ على إعادته والانتقام منه ﴿ أَحَدٌ ﴾ والله قادر عليه . قال السهيلى وهذه الآية وإن نزلت فى أبى الأشد فإن

الألف واللام للجنس فيشترك معه فى الخطاب كل من ظن مثل ظنه وعمل مثل عمله . اه . ﴿ يَقُولُ ﴾ الإنسان مفتخرا ﴿ أَهْلَكْتُ ﴾ أنفقت ﴿ مَالًا لُبَدًا ﴾ كثيرا بعضه على بعض يريد ما ينفقه رياء وسمعة فى الجاهلية أو فى معاداة النبى عليه السلام ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ ﴾ أى أنه ﴿ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ حين ينفق يعلم قدر ما أنفق رياء وفخرا والله عالم بقدره وأنه ليس مما يتكثر به ويجازيه على فعله السيئ ثم بين أن ما فعله ليس بشىء فى مقابلة نعم الله عليه بقوله ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ ﴾ استفهام تقرير أى جعلنا له ﴿ عَيْنَيْنِ ﴾ يبصر بهما ﴿ وَلِسَانًا ﴾ يعرب به عن مقاصده ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ زينة واستعانة بهما على النطق والأكل والشرب وستر الفم عن المضار ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ بينا له طريق الخير والشر وأصل النجد ما ارتفع ففيه إشارة إلى غاية الإيضاح والبيان أو هما الثديان لأن البطن لهما كالغور ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ ﴾ أى ما دخل أو جاوز ﴿ الْعَقَبَةَ ﴾ الطريق الشديد فى الجبل : المعنى فلم يشكر تلك الأيادى باقتحام العقبة المستعارة للعمل الشاق على النفس مما يفسره بعد . قال فى الجواهر « فلا » عند الجمهور تحضيض بمعنى ألا اه . قلت وبه فسره الجلال المحلى فى المكمل ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ التى يقتحمها تعظيم لشأنها أبهمها على وجه الاعتراض ثم فسرها بقوله ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ من الرق بإعتاقها ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ مجاعة ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ قرابة ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ افتقار كأنه التصق بالتراب قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة فكٌّ وإطعام مصدرين مرفوعين على الخبرية أضيف الأول إلى مفعوله ونون الثانى فيقدر قبل العقبة اقتحام والباقون قرأوهما فعلين بدلا من اقتحم و « لا » مكررة تقديرا أى ولا فكٌّ ولا أطعم على أن تكريرها غير لازم والمعنى أن الإنفاق عند الله هو هذا لا ما افتخر به ذلك المرائى وقدم فك الرقبة لأنه أقرب القربات . روى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أعتق رقبة مسلمة كانت له فكاكا من النار عضوا بعضو وقال عليه السلام « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه وعن علمه فيما عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه » أخرجه مسلم والترمذى وقال حسن صحيح . قال سفيان فى « ذا متربة » هو المطروح على ظهر الطريق قاعداً على التراب لا بيت له . وقال ابن عباس من يرجع إلى بيته مستيقناً أنه ليس فيه إلى التراب ثم بيّن الله القرابة المذكورة بقوله ﴿ ثُمَّ كَانَ ﴾ عطف على « اقتحم » أى ثم كان وقت الاقتحام ﴿ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وعطفه للشرف لا لخروجه وبثم للدلالة على إنافة محله ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ وصى بعضهم بعضاً ﴿ بِالصَّبْرِ ﴾ على الطاعة وعن المعصية ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ الرحمة على الخلق أو موجبات رحمة الله ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ اليمين أو اليمن ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ الشمال أو الشؤم ولتكرير المؤمنين باسم الإشارة والكافرين بالضمير شأن لا يخفى ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴾ بالواو للجمهور والهمزة لأبى عمرو وحمزة وحفص مطبقة عليهم من أوصدت الباب وآصدته : أغلقته .

(تم تفسير سورة البلد)

سورة والشمس
مكية – خمس عشرة آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ضوئها: أقسم بهما لأن كلا منهما من بدائع صنعه والضحوة وقت ارتفاع النهار والضحى فوق ذلك قليلا والضحاء بالفتح والمد فوقه إلى قرب الزوال ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ تلا طلوعه طلوع الشمس أول الشهر أو غروبها ليلة البدر أو تلاها فى النور والكمال ليلة البدر تكون كوقت الضحى ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أى الشمس أو الظلمة أو الدنيا أو الأرض وإن لم يجر ذكرها للعلم بها ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يغشى الشمس بظلمته أو الآفاق أو الأرض، و «إذا» فى الثلاثة لمجرد الظرفية والعامل فيها فعل القسم قاله المحلى، والحق أن الظرف ليس متعلقاً بفعل القسم لأن التقييد بالزمان غير مراد لا حالا ولا استقبالا، بل المعنى وعظمة الليل وقت غشيانه لأن الإقسام بالشىء إعظام له، قاله فى غاية الأمانى ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ «ما» ليست مصدرية لقوله «فألهمها» بل موصولة أوثرت على مَن لإرادة الوصف فيفيد فخامة كأنه قال والسماء والقادر العظيم الذى بناها وكذا يقدر ما يناسب فى غيرها من قوله ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ بسطها ﴿وَنَفْسٍ﴾ بمعنى نفوس ﴿وَمَا سَوَّاهَا﴾ فى الخلقة فى أحسن تقويم بتعديل الأعضاء وإفاضة الروح والقوى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أى بيّن لها طريق الخير والشر وجعل لها قوة يصح معها اكتسابهما بعد كمال التسوية بالبلوغ الذى منه تكامل القوى فلذا عطف بفاء التعقيب وقدم الفجور دلالة على غلبته عليها ورعاية لرءوس الآى وجواب القسم ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ حذف منه اللام لطول الكلام ﴿مَنْ زَكَّاهَا﴾ طهرها من الذنوب والأخلاق الذميمة بالأعمال السيئة ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خسر ﴿مَنْ دَسَّاهَا﴾ أخفاها وأطفأ نور الفطرة بظلمات المعاصى أصله دسّس أبدلت الثانية ياء كأمليت تخفيفاً قبل قوله «قد أفلح» مستطرد لذكر بعض أحوال النفس والجواب محذوف تقديره ليدمدمن الله قريشاً بالتكذيب كما دمدم على ثمود دل عليه ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ صالحاً ﴿بِطَغْوَاهَا﴾ بسبب طغيانها وهو اسم بمعنى الطغيان ولذا قلبت ياؤه واواً فرقاً بينه وبين الصفة ﴿إِذِ انْبَعَثَ﴾ أسرع ظرف لكذبت أو طغواها ﴿أَشْقَاهَا﴾ أشقى ثمود وهو قدار بن سالف إلى عقر الناقة برضاهم ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ صالح ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ نصب بالتحذير والإضافة فيها وفى الرسول للتشريف وزاد تشريف صالح باسم الرسول لأنه أولى بالإجلال ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ أى احذروا عقرها

واحذروا ذودها عن سقياها ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فيما حذرهم به من نزول العذاب ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ قتلوها ليسلم لهم ما تشربه ﴿ فَدَمْدَمَ ﴾ أطبق ﴿ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ العذاب وعمهم به ﴿ بِذَنْبِهِمْ ﴾ بسببه ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أى الدمدمة عمهم بها فلم يفلت منهم صغير ولا كبير ، أو ثمود بالأرض ﴿ فَلَا يَخَافُ ﴾ بالفاء للعطف لنافع وابن عامر والواو للحال للباقين ﴿ عُقْبَاهَا ﴾ عقبى الدمدمة أو التسوية : أى تبعتها .

[تم تفسير سورة والشمس]

سورة والليل

مكية إحدى وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ بظلمته كل ما بين السماء والأرض ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ تبين وانكشف بانسلاخ الليل عنه وإذا هنا كما تقدم ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ أى والقادر الذى خلق الزوجين من كل نوع أو آدم وحواء، ويجوز هنا أن تكون ما مصدرية وقرئ والذكر والأنثى وجواب القسم ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ جمع شتيت أى مساعيكم مختلفة الأغراض فعامل للجنة بالطاعة وعامل للنار بالمعصية كما فصله بقوله ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ ﴾ حق الله ﴿ وَاتَّقَىٰ ﴾ معصيته ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ بالكلمة الحسنى لا إله إلا الله أو المثوبة الحسنى الجنة ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ للجنة أو للخلة التى تؤدى إلى اليسر والراحة ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ ﴾ بحق الله تعالى ﴿ وَاسْتَغْنَىٰ ﴾ عن ثوابه بالحطام الفانى ﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ بمدلول كلمة التوحيد أو بالمثوبة الحسنى وهى الجنة ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ ﴾ نهيئه ﴿ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ نخذله على الطريقة التى اختارها المؤدية إلى النار أو للنار ﴿ وَمَا ﴾ نافية ﴿ يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ سقط فى القبر أو النار أو هلك تفعل من الردى ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ للدلالة والإرشاد إلى طريق الصواب بتشريع الأحكام وبيان الحلال والحرام ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾ الدنيا نعطى فيهما ما نشاء لمن نشاء فمن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ ﴾ خوفتكم يا أهل مكة ﴿ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ بحذف إحدى التاءين تتلهب ﴿ لَا يَصْلَاهَا ﴾ لا يدخلها ويقاسى شدائدها ﴿ إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ بمعنى الشقى وتقدم ما فيه فى سورة الأعلى ﴿ الَّذِي كَذَّبَ ﴾ النبى ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ عن الإيمان دليل على أن المراد بالصلى المؤبد ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ يبعد عنها ﴿ الْأَتْقَى ﴾ بمعنى

التقى أبى بكر رضى الله عنه إذ فيه نزلت كما نزل ما قبلها فى أمية بن خلف حين اشترى منه بلالا ببردة وعشر أواق فأعتقه لله كما قال تعالى ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ ﴾ فى مصارف الخير ﴿ يَتَزَكَّىٰ ﴾ يطلب أن يكون زكياً عند الله لا رياء بدل من يؤتى داخل فى حكم الصلة أو حال من فاعله ولما قال الكفار إنما اشترى بلالا وأعتقه ليد كانت له عنده نزل رداً عليهم ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ ﴾ عند أبى بكر ﴿ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴾ يقصد مجازاتها ﴿ إِلَّا ﴾ لكن فعل ذلك ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴾ أى طلب ثواب الله ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ بما يعطى من الثواب فى الجنة ، والآية تشمل كل من فعل مثل فعله فيبعد عن النار ويثاب وهو وعد جميل فى إبهامه ما لا يخفى .

[تم تفسير سورة والليل]

سورة والضحى
مكية إحدى عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ وَالضُّحَىٰ ﴾ أول النهار إذ فيه يظهر سلطانه أو كله ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ غطى بظلامه متعد أو سكن من سجى البحر سكنت أمواجه وتقديم الليل فى السورة المتقدمة باعتبار الأصل وتقديم النهار هنا باعتبار الشرف ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ ما تركك يا محمد ترك المودع ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ما أبغضك : نزل هذا لما قال الكفار عند تأخر الوحى عنه خمسة عشر يوماً إن ربه ودعه وقلاه ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ أى الأوقات المستقبلة خير لك من الأيام الماضية فإنه يعلو شأنك فيها ويظهر دينك على سائر الأديان أو الدار الآخرة لبقائها خالصة من الشوائب خير مما تعطى فى الدنيا ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ ﴾ فى الدارين غاية المنى ﴿ فَتَرْضَىٰ ﴾ بحيث لا يبقى لك طلب بعد تلك المعطية حذف المفعول لإرادة العموم فيدخل فيه مقام الشفاعة وسائر المزايا الخاصة به واللام للابتداء دخل الخبر بعد حذف المبتدإ والتقدير ولأنت سوف يعطيك لا للقسم لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون وجمع مع سوف للدلالة على أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر لحكمة . قال عليه السلام لما نزلت : إذاً لا أرضى وواحد من أمتى فى النار . . الحديث ، إلى هنا تم جواب القسم بمثبتين بعد منفيين ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ ﴾ يعلمك

استفهام تقرير أى علمك ﴿ يَتِيمًا ﴾ بفقد أبيك قبل ولادتك أو بعدها بقليل ﴿ فَآوَىٰ ﴾ بأن ضمك إلى جدك عبد المطلب ثم بعده إلى عمك أبى طالب ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا ﴾ عما أنت عليه الآن من علم الشرائع المتوقف على الوحى ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ هداك بأن علمك ذلك بالوحى ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا ﴾ عديم المال ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾ أغناك أولا بمال خديجة ثم بما قنعك به من الغنائم التى أحلها لك وغيرها . وفى الحديث : ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس . وكل هذا تقرير لقوله وللآخرة خير لك من الأولى على أول الوجوه ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ بأخذ ماله وتعطّف عليه واذكر حالك فى اليتم ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ تزجره لفقره دخل فى الفقير المسترشد فى دينه ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ عليك بالنبوة وغيرها ﴿ فَحَدِّثْ ﴾ فإن التحدث بها شكر لما من الله عليه بثلاث خلال أرشده وحثه على ثلاث فى مقابلتها ليكون متخلقاً بأخلاق الله ويقتدى به فى ذلك أمته ، ولما نزلت « والضحى » كبّر صلى الله عليه وسلم فسن التكبير آخرها وروعى الأمر به خاتمها وخاتمة كل سورة بعدها وهو : الله أكبر ولا إله إلا الله والله أكبر . وعلى ذلك قراءة ابن كثير دون غيره من القراء .

[تم تفسير سورة والضحى]

سورة ألم نشرح
مكية ـ ثمان آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ استفهام تقرير أى شرحنا ﴿ لَكَ ﴾ يا محمد ﴿ صَدْرَكَ ﴾ نورناه بنور النبوة حتى وسع علم الأولين والآخرين وصلح لمناجاة الحق ودعوة الخلق فكان غائباً حاضراً وحديث شق صدره وامتلائه حكمة فى البخارى وغيره ﴿ وَوَضَعْنَا ﴾ حططنا ﴿ عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ ثقلك من عدم العلم بالأحكام أو ماتلقى من برحاء الوحى خوفاً من فوت شىء منه فضمنا لك ذلك حتى سكن روعك ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ﴾ أثقل ﴿ ظَهْرَكَ ﴾ كناية عن غاية الشدة ، من النقيض صوت الرحل من ثقل الحمل وقيل هو كقوله « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك » وقد مرّ بيانه ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ فى الدارين فإنك سيد المرسلين واسمك مقرون باسم رب العالمين فى الأذان والإقامة والتشهد والخطبة وغيرها فإذا كنت

بهذه الرتبة عندنا فلا تبال بأذى المشركين فيك وفى أصحابك فإن ذلك زائل عن قريب ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ ﴾ الشدة ﴿ يُسْرًا ﴾ أىّ يسر ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ والنبي صلى الله عليه وسلم قاسى شدة ثم حصل له اليسر بنصره عليهم تكرير للتأكيد أو استئناف لأن اليسر الثانى غير الأول على قانون النكرة المعادة ولترجيح التأسيس على التأكيد ولما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لن يغلب عسر يسرين » ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ من عبادة كالصلاة ﴿ فَانْصَبْ ﴾ فى أخرى كالدعاء ليكون شكرك على وفق النعم وأشار بلفظ النصَب وهو التعب إلى الترقى كما أشار إليه فى جانب النعم بقوله «وللآخرة خير لك من الأولى» قال عليه السلام حين رجع من الغزو : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ فى كل ما تطلب لا إلى غيره لعلمك تفرده بالتأثير فالكل منه وبه وإليه وتوكل عليه .

[تم تفسير سورة ألم نشرح]

سورة والتين
مكية ـ ثمان آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ جبلين ببيت المقدس ينبتان المأكولين ويدل عليه ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ الجبل الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام فيه ، ومعنى سينين البركة أو الحسن بالأشجار المثمرة اسم الموضع الذى فيه الجبل ﴿ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ مكة لأمن الناس فيها جاهلية وإسلاماً وكأنه قال فى القسم بجبال الأرض المقدسة والأرض المباركة ديناً ودنيا والبلد الذى من دخله كان آمناً فى الدارين وفيه نهج الترقى إذ لا مطمح وراء أمن الدارين ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ الجنس ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ تعديل شكلا وصورة بانتصاب القامة وملاحة الصورة واستجماع خواص الكائنات ونظائر سائر الممكنات ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ ﴾ فى بعض أفراده ﴿ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ بتقوس الظهر وبياض الشعر وكلال السمع والبصر وتناقص القوى والعقل حتى يأنفه من كان يحبه ، أو رددنا الكافر فى الآخرة إلى أقبح صورة سِيئُهُ مثل أحد يجر شفتيه على الأرض والوجه أسود مظلم عافانا الله ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من الهرمى ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ مقطوع بل يجرى عليهم ثواب الأعمال

التى كانوا يعملونها وهم أقوياء استثناء منقطع على التأويل الأول فى أسفل سافلين وأما على الثانى فتصل ظاهر الاتصال. وفى الحديث: إن المؤمن إذا رُدّ إلى أرذل العمر كتب له خير ما كان يعمل فى قوته. ثم وبخ الله الإنسان الكافر على التكذيب بقوله ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ أيها الكافر التفاتاً أى ما الذى يحملك على الكذب فإن مكذب الحق كاذب ﴿ بَعْدُ ﴾ بعد هذه الدلائل من خلق الإنسان ورده إلى أرذل العمر الدالة على القدرة على البعث ﴿ بِالدِّينِ ﴾ بالجزاء المسبوق بالبعث والباء للسببية أو ما يجعلك مكذباً بذلك ولا جاعل له، ويحتمل الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أى أىّ شىء كذبك يا محمد دلالة ونطقاً بعد هذه الدلائل ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ صنعاً وتدبيراً ومن كان كذلك كان قادراً على الإعادة والجزاء وهو تحقيق لما سبق. وفى الحديث: من قرأ بالتين إلى آخرها فليقل بلىٰ وأنا على ذلك من الشاهدين. أخرجه الترمذى لكنه ضعيف قاله ابن العربى.

[تم تفسير سورة والتين]

سورة اقرأ

مكية ـ تسع عشرة آية

[صدرها إلى مالم يعلم أول ما نزل من القرآن وذلك بغار حراء رواه البخارى]

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ اقْرَأْ ﴾ أوجد القراءة مبتدئاً ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أو مستعيناً به ﴿الَّذِى خَلَقَ﴾ كل شىء ثم أفرد ماهو أشرف وأدل على وجوب العبادة المقصود من القراءة بقوله ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ الجنس ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ جمع علقة لأن الإنسان فى معنى الجمع لجمعت باعتبار الأفراد ولما كان أول الواجبات معرفة الله بالبرهان نزل أولا مايدل على وجوده وكمال قدرته وحكمته ﴿ اقْرَأْ ﴾ تأكيد للأول أو الأول لنفسه والثانى للتبليغ أو الأول خارج الصلاة والثانى فيها ﴿ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ الذى لايوازيه كريم لأنه ينعم بلاعوض: حال من ضمير اقرأ ﴿ الَّذِى عَلَّمَ ﴾ الخط ﴿ بِالْقَلَمِ ﴾ لتقييد العلوم وإعلام البعيد دليل على أكرميته لأن كل عطية دون العلم كنقطة من المحيط «وقل رب زدنى علماً» وفيه رمز إلى فضل الكتابة لأنها آلة التعليم وضابطة الحكم وأول من خط بالقلم إدريس عليه السلام ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ ﴾ الجنس ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ قبل تعليمه من

الهدى والكتابة والصناعة وغيرها ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان الذى قابل هذه النعم بالكفر والطغيان ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ ليتجاوز عن حده ﴿أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ لأن رأى نفسه غنيا أى علم و«استغنى» مفعوله الثانى ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يا إنسان ﴿الرُّجْعَىٰ﴾ الرجوع التفت إليه تهديدا وتحذيرا من عاقبة الطغيان والآيات نزلت فى أبى جهل لما قال لورأيت محمداً ساجداً لوطئت عنقه فجاءه ثم نكص على عقبيه فقيل له مالك قال إن بينى وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة قال تعالى فيه ﴿أَرَأَيْتَ﴾ فى مواضعها الثلاثة للتعجيب ﴿الَّذِي يَنْهَىٰ﴾ هو أبو جهل ﴿عَبْدًا﴾ هو النبى صلى الله عليه وسلم ﴿إِذَا صَلَّىٰ﴾ ولفظ العبد وتنكيره للمبالغة فى تقبيح النهى والدلالة على كمال عبودية المنهى ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ﴾ المنهى ﴿عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ﴾ للتقسيم ﴿أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ وأرأيت تكرير للأول والشرط مفعول ثان حذف منه الجواب لدلالة قوله «ألم يعلم» عليه وحذف المفعول الأول لظهوره وكذا قوله ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ﴾ الناهى النبى صلى الله عليه وسلم ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ يشاهد ماصدر منه فيجازيه عليه والمعنى أخبرنى عن حال من ينهى عبداً يصلى والمنهى على الهدى آمر بالتقوى والناهى مكذب متول : فما أعجب من ذا ﴿كَلَّا﴾ ردع للناهى ﴿لَئِنْ﴾ لام قسم ﴿لَمْ يَنْتَهِ﴾ عما هو عليه من الكفر ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ لنأخذن بناصيته ولنجرنه إلى النار والسفع القبض على الشىء وجره بعنف وكتب نون لنسفعا بالألف فى المصحف على حكم الوقف ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدل نكرة من معرفة حسنه الوصف بقوله ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ إذ هذا الوصف أوفى بالمقصود أى الدلالة على علة السفع وإسناد الكذب والخطأ إلى الناصية مجاز حكمى وتخصيصها لأنها أشرف الأعضاء ولما قال أبو جهل للنبى صلى الله عليه وسلم لما انتهره حيث نهاه عن الصلاة تهددنى يا محمد وقد علمت ما بالوادى رجل أكثر ناديا منى لأملأن عليك هذا الوادى إن شئت خيلا جردا ورجالا مردا ، قال تعالى ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أهل ناديه ليعينوه وهو المجلس ينتدى أى يتحدث فيه القوم ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ جمع زابن أى دافع بعنف وهم الملائكة الغلاظ الشداد سندعوهم عن قريب لتجره إلى النار ، وفى الحديث لودعا ناديه لأخذته الزبانية عيانا ﴿كَلَّا﴾ ردع أيضا للناهى ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ يا محمد دم على عصيانه واثبت على طاعتك ﴿وَاسْجُدْ﴾ لربك ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ منه بطاعته وأحرى بالسجود .

روى مسلم عن أبى هريرة أنه عليه السلام قال «أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد» .

[تم تفسير سورة اقرأ]

سورة القدر
مكية أو مدنية – خمس أو ست آيات

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أى القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا فكتبه السفرة ثم نزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ سميت بذلك لشرفها أولتقدير الآجال والأرزاق وحوادث العام كلها فيها ويرفع إلى الملائكة لتمتثله : فخّم شأن القرآن بأن خص إنزاله فيها وأسنده إليه وأضمر إشارة إلى أنه العلم الذى لايذهب الوهم إلى غيره ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أعلمك يا محمد ﴿مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ تعظيم لشأنها وتعجيب منه ثم بينه بقوله ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أى القيام بالعبادة فيها خير من القيام بالعبادة فى ألف شهر خالية عنها وهى ثلاث وثمانون عاماً وثلث عام وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفرله ماتقدم من ذنبه» والأكثر على أنها فى أوتار العشرة الأخيرة من رمضان ومن علامتها أن ليلتها ساكنة لاحرولابرد ولا يرى فيها بكوكب صافية كأنها قمر وتطلع الشمس فى صبيحتها ليس لها شعاع ثم بين مافضلت به على ألف شهر بقوله ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ جميعا ﴿وَالرُّوحُ﴾ أى جبريل خص للتشريف أوخلق لاتراهم الملائكة إلا تلك الليلة ﴿فِيهَا﴾ فى الليلة إلى الأرض أو إلى السماء الدنيا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بأمره ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ لأجل كل أمر قضاه الله فيها بتلك السنة إلى قابل وإنما تنزل تعظيما لها ونشراً لخيرها وبركتها ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ خبر مقدم ومبتدأ أى ما هى إلا سلامة نحو تميمى أنا أى لا يقضى فيها إلا السلامة والخير لا يستطيع الشيطان فيها عمل سوء وقيل سميت سلاماً لكثرة سلام الملائكة فيها على المؤمنين والمؤمنات ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ بفتح اللام للجمهور وكسرها للكسائى : طلوعه أو وقته غاية للسلامة أو السلام .

[تم تفسير سورة القدر]

سورة لم يكن

مكية أو مدنية ـ تسع آيات

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ ﴾ للبيان ﴿ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ ﴾ اليهود والنصارى ﴿ وَٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ عبدة الأصنام ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ خبر « يكن » أى زائلين عما هم عليه من دينهم أو الوعد باتباع الحق إذا جاءهم الرسول الموعود ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ﴾ أى أتتهم ﴿ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ الحجة الواضحة ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ بدل من البينة وهو النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ من الباطل ﴿ فِيهَا كُتُبٌ ﴾ أحكام مكتوبة ﴿ قَيِّمَةٌ ﴾ مستقيمة أى يتلو مضمون ذلك وهو القرآن فمنهم من آمن به ومنهم من كفر فانفكوا وافترقوا بعد ذلك فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، ويحتمل أن المراد لم يكن هؤلاء منفكين من أمر الله ونظره لهم حتى بعث إليهم رسولا تقوم عليهم به الحجة وتتم على من آمن به النعمة فكأنه قال ما كانوا ليتركوا سدى ذكره فى الجواهر ثم ذم أهل الكتاب لأنهم لم يتفرقوا فى أمر محمد إلا بعد ما علموا صحة نبوته بالآيات بقوله ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ ﴾ فى الإيمان به صلى الله عليه وسلم ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ حسداً منهم توبيخ لهم بجعل ما يعدونه سبب الوفاق سبب الافتراق كقوله « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » وأفرد هنا أهل الكتاب لأنهم إذا تفرقوا مع علمهم فالمشركون أولى بذلك ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا ﴾ فى التوراة والإنجيل ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ لا يشركون به ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ مائلين عن الباطل أو مستقيمين على ملة إبراهيم ودين محمد إذا جاء فكيف كفروا به ﴿ وَيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ﴾ الملة ﴿ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ المستقيمة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ ﴾ يوم القيامة أو فى الحال لملابستهم ما يوجب ذلك ﴿ أُولَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ بهمز لنافع وابن ذكوان والياء للباقين فى الموضعين أى الخليقة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ • جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ استئناف بما يكون لهم زيادة على جزائهم وهو رضى الله وهو فوق ذلك الجزاء ورضوان من الله أكبر ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ بما منحهم مما لا مزيد عليه ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ وامتثل أوامره : قال يونس : خالف أهل مكة العرب فهمزوا البريئة والنبىء وكذا عن سيبويه .

[تم تفسير سورة لم يكن]

سورة الزلزلة

مكية أو مدنية ـ تسع آيات

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ﴾ حركت لقيام الساعة ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ تحريكها الشديد المناسب لعظمها ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ جمع ثقل متاع البيت أى ما فى بطنها من الموتى والكنوز ﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ ﴾ الكافر بالبعث ﴿ مَا لَهَا ﴾ إنكاراً لتلك الحالة أو جميع الناس تعجباً من ذلك ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدل من إذا وجوابها ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ ما لأجله زلزالها وإخراجها أو بكل ما عمل عليها من خير وشر ﴿ بِأَنَّ ﴾ بسبب أن ﴿ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أمرها بذلك . قال عليه السلام : تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل علىّ يوم كذا كذا فهذه أخبارها . رواه الترمذى وقال حسن صحيح ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ ﴾ ينصرفون من قبورهم إلى الموقف أو من موقف الحساب إلى الجزاء ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ متفرقين فآخذ ذات اليمين إلى الجنة وآخذ ذات الشمال إلى النار كل مع إمامهم ﴿ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ فى كتبهم أو جزاءها من الجنة والنار ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ زنة نملة صغيرة ﴿ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ير ثوابه ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ تفصيل لقوله « أشتاتاً » .

[تم تفسير سورة الزلزلة]

سورة العاديات

مكية أو مدنية ـ إحدى عشرة آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • وَالْعَادِيَاتِ ﴾ فى الكر والفر خيل الغزاة تضبح ﴿ ضَبْحًا ﴾ صوت أنفاسها أو أجوافها إذا عدت : نصب على المصدر من فعله المقدر أو بالعاديات لأنه يلازم العدو أو على الحال ﴿ فَالْمُورِيَاتِ ﴾ قادحات النار بحوافرها ﴿ قَدْحًا ﴾ إذا عدت فى أرض ذات حجارة ليلا يقال قدح الزند فأورى و « قدحاً » مصدر مؤكد لأن المورى هو القادح قاله أبو البقاء ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ ﴾ على العدو ﴿ صُبْحًا ﴾

وقت الصباح بإغارة أصحابها ﴿ فَأَثَرْنَ ﴾ هيجن ﴿ بِهِ ﴾ بمكان عدوهن أو بذلك الوقت ﴿ نَقْعًا ﴾ غباراً بشدة حركتهن أو صياحاً من الذين أغير عليهم ويدل على الأول قوله :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُءوسِنَا • وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ ﴾ بالنقع ﴿ جَمْعًا ﴾ من جموع الأعداء . أى صرن وسطه . روى أنه عليه السلام بعث خيلا فمضت شهراً لم يأته منهم خبر فنزلت ويحتمل أن يكون القسم بالنفوس العاديات فى طلب الكمال المتأوهات على الفرطات الموريات بإقداح الأفكار من صخور المسالك إلى أنوار المعارف المغيرات على جيش الهوى بالاستغفار فى الأسحار فأثرن به غبار الشوق فوسطن به جمعاً من جموع الملإ الأعلى ، وعطف الفعل على الاسم لأنه من تأويل الفعل أى واللاتى عدون فأورين فأغرن فأثرن ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ كفور جحود لنعمه تعالى بذكر المصائب وينسى النعم . وعنه عليه الصلاة والسلام : هو من يأكل وحده ويضرب عبده ويمنع رفده . قال فى الجواهر : قد يكون هذا فى المؤمنين ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ﴾ أى كنوده ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾ يشهد على نفسه بصنعه . وعن الثورى : الضمير لله وفيه التنافر بين الضمائر فى قوله ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ ﴾ أى المال ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ أى شديد لحب المال الكثير لو كان له واديان من ذهب لابتغى ثالثاً ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ ﴾ بعث وأخرج ﴿ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ من الموتى وفى زيادة الراء مبالغة كبحث مع بحثر ﴿ وَحُصِّلَ ﴾ بين وأبرز ﴿ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ من الكفر أو الإيمان والسرائر ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾ لعالم فيجازيهم ،آثر «ما» أولا ثم قال «بهم» لأنهم حال البعث تراب ورفاة والجملة دلت على مفعول «يعلم» أى إنا نجازيهم وقت ما ذكر وتعلق خبير بيومئذ وهو تعالى خبير دائماً لأنه يوم المجازاة .

[تم تفسير سورة والعاديات]

سورة القارعة

مكية ـ ثمان أو عشر آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْقَارِعَةُ ﴾ القيامة التي تقرع القلوب بأهوالها وهي أبلغ من الحاقة ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ سبق بيان إعرابه وما فيه في سورة الحاقة ﴿ يَوْمَ ﴾ نصب بما دل عليه القارعة أي تقرع يوم ﴿ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ ﴾ كغوغاء الجراد ﴿ الْمَبْثُوثِ ﴾ المنتشر في كثرتهم وانتشارهم واضطرابهم ودخول بعضهم في بعض للحيرة إلى أن يدعوا للحساب ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ الصوف ذي الألوان ﴿ الْمَنفُوشِ ﴾ المندوف لتفرق أجزائها وتطايرها في الجو منها بيض وحمر وسود حتى تستوي مع الأرض ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ذات رضا أو مرضية وهي الجنة ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بترك كلمة الإخلاص فيها فرجحت سيئاته على حسناته ﴿ فَأُمُّهُ ﴾ مسكنه ﴿ هَاوِيَةٌ ﴾ من أسماء النار لأنها تهوى بالداخل فيها سبعين خريفاً، وسميت أمًّا له على التشبيه لأن الأم مأوى الولد ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ أي ما هاوية : تعظيم لشأنها ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ شديدة الحرارة، وهاء « هيه » للسكت تثبت وصلا ووقفاً.

(تم تفسير سورة القارعة)

سورة التكاثر

مكية ـ ثمان آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلْهَاكُمُ ﴾ شغلكم عن طاعة الله ﴿ التَّكَاثُرُ ﴾ التفاخر بالأموال والأولاد والرجال ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ بأن متم فدفنتم فيها أي إلى حين الموت لم ترجعوا أو حتى عددتم الموتى تكاثراً ﴿ كَلَّا ﴾ ردع لهم عن مثله إذ لا يخلص من التفاخر إلا المتقون ، قاله الفخر : فالألف واللام في التكاثر للمعهود في الذهن وهو التكاثر في الدنيا ولذاتها وعلائقها المانعة عن طاعة الله فالآية

دالة على أن التكاثر فى ذلك مذموم ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ سوء عاقبة تكاثركم عند النزع ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ سوء فى القبر وفى « ثم » دلالة على أن الثانى أبلغ ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أى علماً يقيناً عاقبة التفاخر ما اشتغلتم به والتكرير للتنبيه . قال عليه السلام : لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾ بفتح التاء للجمهور وضمها لابن عامر والكسائى ﴿ الْجَحِيمَ ﴾ النار تأكيد للوعيد المتقدم وإيضاح لما أبهم منه تفخيما ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ تكرير للتأكيد أو الأولى من بعيد والثانية من قريب إذا دخلوها ﴿ عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ مصدر لأن رأى وعاين بمعنى واحد أى رؤية هى نفس اليقين لأن علم المشاهدة أعلى مراتب اليقين ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ الذى ألهاكم أو الذى كنتم فيه من الصحة والفراغ والأمن والمطعم والمشرب وغير ذلك هل شكرتم أم لا ؟ وفى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر دخلوا حديقة أبى الهيثم أيام الرطب فذبح شاة وأطعمهم من الرطب والبسر وسقاهم ماء بارداً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا من النعيم الذى تسألون عنه يوم القيامة . رزقنا الله شكر هذه النعم التى نحن فيها .

[تم تفسير سورة التكاثر]

سورة العصر

مكية أو مدنية ـ ثلاث آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ● وَالْعَصْرِ ﴾ الدهر أو ما بعد الزوال إلى الغروب أو صلاة العصر ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ ﴾ الجنس ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ فى تجارته أىّ خسر والتنكير للتعظيم ، أى خسر فى أعماله لأن رأس مال الإنسان عمره وهو شىء لا أعز منه يشترى به النعيم المقيم فإذا ضيعه لا يكون أخسر منه ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فليسوا فى خسران بل ربحوا ما لا عين رأت فى جوار رب العالمين ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ وصى بعضهم بعضاً بالدين الثابت مرشداً له تكميلا كما كمل فى نفسه ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ عن المعاصى أو على الحق أو على البلايا من عطف الخاص على العام للمبالغة .

[تم تفسير سورة العصر]

سورة الهمزة

مكية أو مدنية ـ تسع آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ كثير الغيبة والطعن فى أعراض الناس قولا وفعلا صريحاً وإشارة وتقدم التفصيل فى الهمز واللمز فى سورة الحجرات ، نزلت فى أمية بن خلف والوليد بن المغيرة ونحوهما ممن شأنه غيبة النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والحكم عام بدليل لفظ كل ﴿ الَّذِي جَمَعَ ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر وحمزة والكسائى بدل من كل ﴿ مَالًا ﴾ كثيراً أو مذموماً يعذب به يوم القيامة ﴿ وَعَدَّدَهُ ﴾ أحصاه بعده وضبطه مرة بعد أخرى كما هو شأن البخلاء أو جعله عدة وذخيرة لحوادث الدهر . قال الأخفش لموسر : ماتفعل بألوف المال ؟ قال أجعله عدة لجفوة السلطان ونوائب الزمان . قال : إذاً تدعه لمن لا يحمدك وترد على من لا يعذرك ﴿ يَحْسَبُ ﴾ لجهله ﴿ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ جعله خالداً لا يموت أبداً ، إذ حب المال أغفله عن الموت أو طوّل أمله حتى كان يعمل عمل من لا يظن الموت من تشديد الأركان وتشييد البنيان ﴿ كَلَّا ﴾ ردع له عن حسبانه ﴿ لَيُنْبَذَنَّ ﴾ جواب قسم محذوف أى ليطرحن ﴿ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ من أسماء النار أى التى تحطم أى تكسر كل ما ألقى فيها جزاء له على ذم أعراض الناس ، واستعير له النبذ الدال على غاية الحقارة ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴾ ما النار التى لها هذه الخاصية ﴿ نَارُ اللَّهِ ﴾ تفسير لها والإضافة للتعظيم والتهويل ﴿ الْمُوقَدَةُ ﴾ التى أوقدها للانتقام وما أوقده لا يفتر ﴿ الَّتِي تَطَّلِعُ ﴾ تشرف ﴿ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ القلوب تستولى عليها بالإحراق وألمها أشد من ألم غيرها للطفها ، ولذا خصها بالذكر ولأنها معادن الذنوب ومصادرها ليكون العذاب على قدر ماتولد منها ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ ﴾ جمع الضمير رعاية لمعنى كل ﴿ مُوصَدَةٌ ﴾ بالواو والهمزة على مافى سورة البلد أى مطبقة ﴿ فِي عَمَدٍ ﴾ بفتح الحرفين للجمهور وضمها لحمزة والكسائى وشعبة أى موثقين فى أعمدة ﴿ مُمَدَّدَةٍ ﴾ ممدودة حال من المجرور أى تغلق عليهم الأبواب حال كونهم مسلسلين فى العمد كاللصوص فى المقاطر لأنهم سرّاق الأعراض ، أو حال من ضمير «موصدة» والمعنى يغلق عليهم أبواب النار وتوثق بالأعمدة توكيداً ليأسهم من الخروج وعلى هذا تكون النار داخل العمد والله أعلم . قلت : المقاطر جمع مقطر خشبة فيها خروق على قدر سعة أرجل المحبوسين .

[تم تفسير سورة الهمزة]

سورة الفيل

مكية - خمس آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ أَلَمْ تَرَ ﴾ استفهام تعجيب أى اعجب ﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ أبرهة الأشرم والى اليمن من قبل النجاشى وجنوده ، بنى بصنعاء اليمن كنيسة ليصرف إليها الحاج عن مكة فغضب رجل من كنانة ولطخ قبلتها بالعذرات ليلا احتقاراً لها فحلف أبرهة ليهدمن الكعبة : فأقبل إليها بجيوشه على أفيال مقدمها اسمه محمود فعارضه ذو نفر مع جيش من قومه بنى قحطان فلم يقدروا عليه فأسره ولما بلغ أرض خثعم قاتله نفيل بن حبيب الخثعمى فأسره أيضاً ولم يقتله ولما بلغ المغمس - هو موضع قرب مكة - فرت قريش إلى الجبال فأغار على إبلهم فأتاه عبد المطلب وكان وسيما فأكرمه أبرهة وسأله عن حاجته فقال إن جيشك أخذ لى مائتى بعير ، فقال أبرهة : إنى جئت لتخريب بيت هو شرفك وشرف آبائك فلم تذكره وتذكر الإبل ؟ فقال عبد المطلب : إنى رجل مضياف لا أقدر على الضيافة إلا بالإبل والبيت له صاحب ! أنت وذلك . فرد إبله ، فلما أصبحوا هيأوا الفيلة وكان أكبرها يسمى محموداً فقدموه فبرك فضربوه بالمعاول فلم يتحرك فوجهوه نحو اليمن فهرول ثم نحو مكة فبرك فذهب عبدالمطلب وأخذ بحلقة الكعبة وهو يقول:

لَا هُمَّ إِنَّ الْمَرْءَ يَمْـ ـنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ رِحَالَكْ

جَحَدُوا حِمَاكَ بِكَيْدِهِمْ جَهْلًا وَمَا رَقَبُوا جَلَالَكْ

فى أبيات ، فلم يتم كلامه إلا والطير قد أقبلت فأرسل الله عليهم ما قصه فى قوله ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ ﴾ فى هدم الكعبة ﴿ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ خسارة وهلاك وخاطب الرسول بألم تر وإن لم يشاهد الواقعة لأنها وقعت فى السنة التى ولد فيها لأنه شاهد آثارها وتواتر عنده أخبارها فكأنه رآها وعبر بكيف دون «ما» لأن المراد تذكير ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله وقدرته وعزة بيته وشرف رسله لأنها من الإرهاصات له ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ جماعات قيل لا واحد له وهو الأصح وقيل واحده إبول أو إبال أو إبيل كعجول ومفتاح وسكين ، والإبال الحُزَم شبهت بها الجماعات ﴿ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ ﴾ كل حجر أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة يخرق البيضة والرجل والفيل ويصل إلى الأرض ﴿ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ طين مطبوخ وتقدم ﴿ فَجَعَلَهُمْ ﴾ الله ﴿ كَعَصْفٍ ﴾ ورق زرع يابس ﴿ مَأْكُولٍ ﴾ أكلته الدواب وداسته وفتته

فأهلكتهم من عند آخرهم . وفى الجواهر : بلغنا من غير واحد من الصالحين أن من قرأ فى ركعتى الفجر فى الأولى الفاتحة وألم نشرح وفى الثانية الفاتحة وألم تر كيف قصرت يد كل عدو عنه ولم يجعل الله لهم إليه سبيلا . قال الإمام أبو حامد الغزالى : وهذا صحيح لا شك فيه .

[تم تفسير سورة الفيل]

سورة قريش
مكية أو مدنية ـ أربع آيات

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ متعلق بجعلهم أو بقوله « فليعبدوا » والفاء جواب شرط أى إن لم يعبدوا الله لكل نعمة فليعبدوه لأجل ﴿ إِيلَافِهِمْ ﴾ تأكيد مصدر آلف بالمد ﴿ رِحْلَةَ ٱلشِّتَاءِ ﴾ إلى اليمن ﴿ وَ ﴾ رحلة ﴿ ٱلصَّيْفِ ﴾ إلى الشام فى كل عام يمتارون ويتجرون لا يتعرض لهم أحد وقرأ ابن عامر لإلاف بغير ياء بعد الهمز مصدر ألف وهذا الإيلاف هو العهد من ملوك البلاد أخذه لهم هاشم ، وقريش هم أولاد الفهر بن مالك بن النضر سموا باسم القرش دابة عظيمة فى البحر تعبس بالسفن لا تدفع إلا بالنار لشجاعتهم والتصغير للتعظيم وكانوا قبل سكان الحرم إذا أصابهم مجاعة خرجوا إلى البادية متفرقين فقام هاشم فيهم خطيباً وحضهم على التجارة وهيأ لهم الرحلتين لحسن حالهم وأثروا قبل كان هاشم يؤلف إلى الشام وعبد شمس إلى الحبشة والمطلب إلى اليمن ونوفل إلى فارس وهم إخوة فكان تجار قريش يختلفون إلى هذه البلاد بحبال هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم أحد وكان كل أخ أخذ حبلا من ملك ناحية سفره والله أعلم ﴿ فَلْيَعْبُدُوا ﴾ بسبب ما ذكر ﴿ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ بالرحلتين أى من أجله ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ أى من أجله ، وكان الجوع يصيبهم بمكة لعدم الزرع وخافوا جيش الفيل فأمنوا بعد ذلك لا يتعرض لهم أحد .

[تم تفسير سورة قريش]

سورة الماعون
مكية أو مدنية ـ ست أو سبع آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ● أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ الجزاء أى هل عرفته استفهام تعجب وقرأ الكسائى بحذف الهمزة إلحاقاً له بالمضارع ، ولما كان فى التعجيب تشويق إلى تعرف حاله رتب عليه قوله ﴿ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ يدفعه بعنف عن حقه وأحرى عن إطعامه والإحسان إليه إشارة إلى أن من كذب بالجزاء لاينفك عن هذه الرذائل ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ غيره ﴿عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ لا يفعل الخير ولا يأمر به ، قيل نزلت فى أبى جهل أو الوليد بن العاص والحكم عام ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ غافلون يؤخرونها عن وقتها ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ فى الصلاة وغيرها ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ كالزكاة فاعول من المعن وهو الهين اليسير والماعون هو المعروف وكل هين يسير يستعان به من فأس وقدوم وقدر وإبرة وقصعة ونحوها ، وفى الكلام ترق ولذلك زاد لفظ الويل أى إذا كان دع اليتيم وترك الإطعام من سمات المكذبين فالويل لمن ترك عماد الدين وهى الصلاة وقنطرة الإسلام وهى الزكاة وتلبس بالرياء الذى هو الشرك الخفى ليبعد كل مؤمن عن هذه الخصال بمراحل وكذا ما يخل بالمروءات من منع الماعونات .

[تم تفسير سورة الماعون]

سورة الكوثر
مكية أو مدنية ـ ثلاث آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ● إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ﴾ يا محمد ﴿ الْكَوْثَرَ ﴾ الخير الكثير فى الدارين ، فوعل من الكثرة ومنه النهر أو هو المراد هنا لحديث البخارى ومسلم عنه عليه السلام : أتيت ليلة أسرى بى على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ فقلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر . ولما فى مسلم أنه قرأ إنا أعطيناك

الكوثر إلى آخرها ثم قال أتدرون ما الكوثر قلنا الله ورسوله أعلم قال فإنه نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير الحديث ، وفي ابن ماجه : أول من يرد على الحوض فقراء المهاجرين الدنس ثياباً الشعث رءوساً الذين لا ينكحون المنعمات ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ لا كالمرائين ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ له القرابين البدن التي هي خير أموال العرب شكراً لإنعامه عليك وصدقة على المحاويج خلافاً لمن يدعهم ويمنعهم الماعون فالسورة كالمقابلة للمتقدمة ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ مبغضك ﴿ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ المنقطع عن كل خير أو المنقطع العقب . نزلت في العاص ابن وائل سمى النبي صلى الله عليه وسلم أبتر عند موت ابنه القاسم لأن الأبتر عندهم من ينقطع ذكره بموته لعدم النسل فرد الله عليه بأن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوع الذكر على المنابر وغيرها إلى آخر الدهر والشانئ يدخل النار فينقطع ذكره .

[تم تفسير سورة الكوثر]

سورة الكافرون

مكية أو مدنية ــ ست آيات

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ الخطاب لرهط من قريش علم الله أنهم يموتون على الكفر دعوا النبي إلى عبادة أوثانهم ليعبدوا إلهه ﴿ لَآ أَعْبُدُ ﴾ فيما يستقبل ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ من الأصنام لأن «لا» لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الاستقبال كما أن «ما» لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أي فيما يستقبل لأنه في قران لا أعبد ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ أي في الحال أو فيما سلف ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أي ما عبدت وأنا مستمر على عبادته ولذا لم يقابل الماضي بمثله ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ الشرك ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ الإسلام لا أتركه . وليس فيه إذن في الكفر ولا منع عن الجهاد حتى يكون منسوخاً كما ظنه بعضهم ، وحذف ياء الإضافة السبعة وصلا ووقفاً وأثبتها يعقوب في الحالتين .

[تم تفسير سورة الكافرون]

سورة النصر
مدنية ، ثلاث آيات

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ نبيه على أعدائه ﴿ وَٱلْفَتْحُ ﴾ فتح مكة أو نصر الله المؤمنين وفتح البلاد لهم ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ جماعات بعد ما كانوا يدخلون واحداً واحداً ، وذلك بعد فتح مكة جاءه صلى الله عليه وسلم وفود العرب من أقطار الأرض طائعين لما رأوه فتح مكة ولم يصبه ما أصاب أصحاب الفيل وأعتق أهلها منّا منه ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أى ملتبساً بحمده ﴿ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ هضما لنفسك وليستن بك ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ لمن استغفره . وكان صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة يكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه ، وعلم بها أنه قد اقترب أجله . قال ابن عمر : نزلت هذه السورة بمنى فى أوسط أيام التشريق فى حجة الوداع وعاش بعدها صلى الله عليه وسلم ثمانين يوماً أو نحوها .

[تم تفسير سورة النصر]

سورة تبت
مكية ـ خمس آيات

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لما دعا صلى الله عليه وسلم قومه على الصفا وقال إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال عمه أبو لهب تبّاً لك ألهذا دعوتنا : نزل ﴿ تَبَّتْ ﴾ خسرت ﴿ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ أى جملته وعبر عنها باليدين مجازاً لأنه رمى نحو النبي عليه السلام حجراً بين يديه ولأنهما كالجناحين للطائر فمن عدمتا منه فهو والهالك سواء ﴿ وَتَبَّ ﴾ هلك والتباب الهلاك أى حصل ذلك لأن الأول دعاء والثانى

خبر كقولهم أهلكه الله وقد هلك ، ولما خوفه النبي بالعذاب فقال : إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفتدي منه بمالي وولدي نزل ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ وكسبه أي ولده و « أغنى » بمعنى يغني ﴿ سيصلى نارا ذات لهب ﴾ تلهب وتوقد فهو تصوير للهلاك بما يظهر معه عدم إغناء المال والولد وجمع بين طريق التأكيد الماضي في تب لتحقق وقوعه والسين في « سيصلى » لتأكيد الوعيد ﴿ وامرأته ﴾ عطف على ضمير يصلى سوغه الفصل بالمفعول وصفته ، وهي أم جميل واسمها أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان بن حرب عدل عن كنيتها لاتصافها بالضد ﴿ حمالة ﴾ بالرفع للجمهور نعت والنصب على الذم لعاصم ﴿ الحطب ﴾ الشوك تلقيه ليلا في طريق النبي صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ﴿ في جيدها ﴾ عنقها ﴿ حبل من مسد ﴾ أي ليف تربط به الشوك الذي تحمله إلى طريق النبي صلى الله عليه وسلم وفي ذلك تحقير لها في تصويرها بصورة حطابة لم تجد حمولة فرجعت والحبل في عنقها الذي هو أشرف الأعضاء هذا وهي من الثروة وشرف النسب بمكان ولذا لما سمعته أخذت فهراً وجاءت أبا بكر وهو جالس مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد فأخذ الله ببصرها وقالت يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هجاني ولو وجدته لضربت فاه بهذا الفهر وإني لشاعرة قد قلت فيه مذمماً قلينا ودينه أبينا فرجعت فقال النبي صلى الله عليه وسلم حجبتني عنها ملائكة الله . ولله در البوصيري حيث قال في ذلك : ومن أين ترى الشمس مقلة عمياء !

[تم تفسير سورة تبت]

سورة الإخلاص

مكية أو مدنية ـ أربع أو خمس آيات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه فنزل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فضمير « هو » إن كان لما سألوا مبتدأ والله خبره و « أحد » بدل منه أو خبر ثان وإن كان للشأن فالجملة الخبر ولا تحتاج إلى رابط لأنها نفسه ﴿ الله الصمد ﴾ مبتدأ وخبر أي المقصود في الحوائج على الدوام يستغني عن غيره مطلقاً وكل ما عداه محتاج إليه في جميع جهاته ، وتعريفه لعلمهم بصمديته بخلاف أحديته وتكرير لفظ الله للإشعار بأن من لم يتصف به لم يستحق الألوهية ولم تعطف الجملة لأنها نتيجة الأولى إذ من كان أحديّ الذات والصفات لا يكون إلا غنيًّا مطلقاً ﴿ لم يلد ﴾ لانتفاء مجانسه وعدم افتقاره إلى غيره

﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ لانتفاء الحدوث عنه والمماثل ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ من صاحبة أو ولد أو غيرهما فـ « له » متعلق بـ « كفواً » وقدم عليه لأنه محط القصد بالنفى وأخر « أحد » وهو اسم يكن عن خبرها رعاية للفاصلة .

[تم تفسير سورة الإخلاص]

سورة الفلق

مكية أو مدنية ـ خمس آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ نزلت هذه السورة والتى بعدها لما سحر لبيد اليهودى النبى صلى الله عليه وسلم فى وتر به إحدى عشرة عقدة فأعلمه الله بذلك وبمحله فأحضر بين يديه وأمر بالتعوذ بالسورتين فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد خفة حتى انحلت العقد كلها وقام كأنما أنشط من عقال ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ الصبح فعل بمعنى مفعول من فلق شق يعم كل ما فلق من ظلمة العدم لكن خصه العرف بالصبح للاشعار بأن من قدر أن يزيل بالصبح ظلمة الليل قادر أن يزيل عن العالم ما يخافه ، ولفظ الرب هنا أوقع من سائر الأسماء لأن الإعاذة من المضار تربية ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ من حيوان مكلف وغير مكلف وجماد كالسم وغير ذلك فهو يعم شر الدارين فى العالم العلوى والسفلى ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ ﴾ ليل عظيم ظلامه ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ إذا أظلم أو القمر إذا غاب وتخصيصه لأن المضار فيه تكثر ويعسر الدفع ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ ﴾ السواحر تنفث ﴿ فِي الْعُقَدِ ﴾ التى تعقدها فى الخيط تنفخ فيها بشىء تقوله من غير ريق أو معه كبنات لبيد المذكور . قال ابن عطية : وهذا الشأن فى زماننا موجود شائع فى صحراء المغرب وحدثنى ثقة أنه رأى عند بعضهم خيطاً أحمر قد عقدت فيه عقد على فُصلان فمنعت بذلك من رضاع أمهاتها فكان إذا حل عقدة جرى ذلك الفصيل إلى أمه فى الحين فرضع أعاذنا الله من شر السحر والسحرة . اه . ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ إذا تم حسده وعمل بمقتضاه وذكر الثلاثة الشامل لها ما خلق بعده لشدة شرها .

[تم تفسير سورة الفلق]

سورة الناس
مكية أو مدنية ـ ست آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ خالقهم ومالكهم خصهم هنا لأن الاستعاذة في هذه السورة إنما هي من المضار البشرية ، وفي السورة المتقدمة من المضار الكونية التي تعم الإنسان وغيره ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ عطف بيان على سبيل الترقي لأن الرب أعم من الملك كما هو أعم من الإله ﴿ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴾ وأظهر المضاف فيهما زيادة للبيان ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ أي الشيطان سمي بالحدث لكثرة ملابسته له ﴿ الْخَنَّاسِ ﴾ الذي يخنس أي يتأخر عن القلب كلما ذكر الله وكأنه قال أعوذ من شر الوسواس إلى الناس بربهم الذي يملك أمورهم ويستحق عبادتهم ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ قلوبهم إذا غفلوا عن ذكر الله ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ بيان للشيطان الموسوس أنه جني وإنسي أو من متعلق بيوسوس والناس يوسوسون بمعنى يليق بهم في الظاهر ثم تصل وسوستهم إلى القلب أعاذنا الله من شر الجن والإنس ووفقنا الله لما يحبه ويرضاه . وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته والحمد لله رب العالمين .

[تم تفسير سورة الناس]

قال المؤلف رحمه الله تعالى : قد يسر الله إتمام هذا التفسير يوم الثلاثاء بعد الظهر
في شعبان لثلاث عشرة خلت منه سنة إحدى وثلاثين ومائتين بعد ألف
من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام آمين

فهرس

الجزء الرابع

من ضياء التأويل فى معانى التنزيل

الصفحة	السورة
٢	سورة يس
١١	« الصافات
٢٣	« ص
٣٥	« الزمر
٤٩	« غافر
٦٣	« فصلت
٧٣	« الشورى
٨٣	« الزخرف
٩٣	« الدخان
٩٨	« الجاثية
١٠٣	« الأحقاف
١١٢	« محمد ﷺ
١١٩	« الفتح
١٢٧	« الحجرات
١٣٤	« ق
١٣٩	« الذاريات
١٤٥	« الطور
١٤٩	« النجم
١٥٦	« القمر
١٦١	« الرحمن
١٦٧	« الواقعة
١٧٣	« الحديد
١٨٠	« المجادلة
١٨٥	« الحشر
١٩١	« الممتحنة
١٩٥	« الصف
١٩٨	سورة الجمعة
٢٠٠	« المنافقين
٢٠٢	« التغابن
٢٠٥	« الطلاق
١٠٩	« التحريم
٢١٢	« تبارك
٢١٧	« ن
٢٢٢	« الحاقة
٢٢٧	« المعارج
٢٣٠	« نوح عليه السلام
٢٣٣	« الجن
٢٣٧	« المزمل
٢٤٠	« المدثر
٢٤٤	« القيامة
٢٤٧	« الإنسان
٢٥١	« المرسلات
٢٥٤	« النبأ
٢٥٧	« النازعات
٢٦٠	« عبس
٢٦٣	« التكوير
٢٦٥	« الانفطار
٢٦٦	« التطفيف
٢٦٩	« الانشقاق
٢٧٠	« البروج
٢٧٢	« الطارق
٢٧٣	« الأعلى
٢٧٥	سورة الغاشية
٢٧٦	« الفجر
٢٧٩	« البلد
٢٨١	« والشمس
٢٨٢	« الليل
٢٨٣	« الضحى
٢٨٤	« الانشراح
٢٨٥	« التين
٢٨٦	« اقرأ
٢٨٨	« القدر
٢٨٩	« لم يكن
٢٩٠	« الزلزلة
٢٩٠	« العاديات
٢٩٢	« القارعة
٢٩٢	« التكاثر
٢٩٣	« العصر
٢٩٤	« الهمزة
٢٩٥	« الفيل
٢٩٦	« قريش
٢٩٧	« الماعون
٢٩٧	« الكوثر
٢٩٨	« الكافرون
٢٩٩	« النصر
٢٩٩	« تبت
٣٠٠	« الإخلاص
٣٠١	« الفلق
٣٠٢	« الناس

خاتمـــة الطبـع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيَّد بباهر المعجزات وعلى آله وأصحابه الكرام البرَرَة وكل من تبعه بإحسان من المؤمنين الخِيَرَة .

أما بعد فقد تم طبع هذا التفسير الجليل . المسمى « ضياء التأويل : فى معانى التنزيل » للإمام العلامة السيد أبى محمد عبد الله بن محمد بن عثمان الملقب بفودى بن عثمان بن صالح رحمه الله تعالى بمطبعة الاستقامة بجاه بحمد الله وعونه للصحة علامة ؛ فقد بذلنا فى مراجعته وتصحيحه كبير المجهود على النسخة الخطية التى قدمها لنا السيدان (أحمد أحمد أبو السعود ، عثمان الطيب) الناشران لهذا الكتاب . وقد وفقنا الله تعالى للاستعانة بمراجعة نصوصه على جملة من التفاسير المعتبرة فزالت عنه ربقة التحريف ، وتحرر من أسر التصحيف . فلله الحمد على توفيقه وله الشكر على نعمته .

ومن الجدير بالذكر أننا أثناء السير فى طبع الكتاب وفى تصحيحه ومراجعته كان التوفيق والتيسير حليفنا ، وما أظن ذلك إلا ببركة إخلاص المؤلف الذى ظهرت كراماته لنا واضحة ، فإننا ما توقفنا فيه فى أى مسألة إلا وجدنا لها حلاً فى حينه . ذلك فضلا عن تحرى المؤلف ، فما تجد فيه من الخرافات التى اشتملت عليها بعض التفاسير شيئاً ولا من دس اليهود والمغرضين أى كلمة ، وقد دافع المؤلف عن هذه الأشياء فى مواضعها حتى جاء نادرة فى التفاسير (جزى الله المؤلف خيراً) وأثاب كل من كان سبباً فى إظهار هذا الكتاب على هذه الصورة ورضى عن كل من حمله وقرأه وجعله عدة له ومرجعاً إنه جوّاد كريم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين ؟